عرائس البيان في حقائق القرآن

تأليف

الشيخ العارف بالله تعالى

أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي

المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

المحتوى:

أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة الأنفال

HELSINGIN YLIOPISTON
HUMANISTISEN TIEDEKUNNAN
KIRJASTO
TOPELIA

دار الكتب العلمية
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

Title : 'Arā'is al-Bayān fī Ḥaqā'iq al-Qur'ān
classification: *Exegesis of the Qur'an*
Author : Rūzbahān al-Baqlī
Editor : Aḥmad Farīd al-Mizyadī
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages : 1664 (3 volumes)
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب: عرائس البيان في حقائق القرآن
التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : الشيخ العارف بالله روزبهان البقلي
المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلميـة - بيروت
عدد الصفحات: 1664 (3 أجزاء)
سنة الطباعة : 2008
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى (لونان)

ISBN 2-7451-5743-4 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5743-X (13 dig)
9 782745 157430 90000

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon
No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban
Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م - ١٤٢٩ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Solh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الحمد الله المنعم المحسن الدَّيان، الملك القدوس العزيز الرحمن، المحمود بكل لسان، في كل حالٍ وسائر الزمان، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ورزقه قلبًا مدركًا للأشياء بالحجة والبرهان، ثم كرمه بمواهب فضله من الخلافة والعرفان، وفضله بعرائس العقائد الحقة من محجة الإسلام والإيمان، التي لم يطمثهن قبل أصناف الملائكة ولا طوائف الجان، وأوضح الحق بكتابه المجيد، وخطابه الحميد الفرقان كلامًا يحق الباطل بين يديه ويزهق منه الشيطان، وله في كشف الحقائق والتبيان شأن لا تكتنهه الأفكار والأذهان حيث لا توازيه الزبر، ولا تساويه الكتب في الفصاحة والبيان.

ومهَّد للطائعين من عباده المتقين بالجنان الجنان، ويبشرهم بأكبر من ذلك وأجل الأكوان الرضوان، وهدد المعاندين الطاغين بالقهر والنيران، لجهة الكفر والكفران، وهيَّأ لهم أنواع النكبة من المذلة وسوء الخسران، وحين حدثت في الشوارع والطرائق صعاب المزالق والمضايق، وخلطت الشرائع بأوهام مموهة وكلام زاهق، بعث الرسول ﷺ إلى أهل المغارب والمشارق بالآيات البينة، والخوارق النيرة التي تضيء الآن كالبدر، ولم تكسف مع تراكم ليالي العوائق من الحوائج والطوارق.

فبيَّن لهم جهارًا أسرار الحقائق، وصدع بكشف القناع عن وجوه الدقائق، من دون أن يفرق بين المخالف والموافق، ويخصص المؤمن الصادق من الكافر والمنافق، صلى الله البارئ الخالق عليه، وعلى آله وصحبه المنتسبين إليه بخير العلائق، ما أظلم الظلام، وأشرقت المشارق، ويميز الجيد من الزائف، والردى من الرائق، وما ابتسمت الأزهار بالرياح في الحدائق، وتنسمت الرياحين والشقائق على عوالي الأعلام والشواهق.

وبَعْد .. فلما كان علم التفسير أحسن العلوم الإلهية كلها، وأعز من سائر الفنون وأجلها إذ هو للعقائد الدينية أقدم الأصول وأهمها، ولإدراك المسائل الفقيهة رأس المباني وأمها، ولاستنباط الأحكام الظاهرة الشرعية بناء وأساس، ولاكتساب المعارف الباطنة من الطريقة والحقيقة، والمعرفة مصباح ونبراس، وإلى الأول منهما قد التفت أكثر الناس قديمًا وحديثًا، وتوجهوا نحو التفسير على وجه الشريعة تصنيفًا وتأليفًا، ولم يتعرضوا للثاني إلا قليلًا، فإنه مسلك أدق وخطب جليل، إذ هو بحر لا يدرك ساحله، وصراط قلَّ من أن يسلم سالكه، ولا يعبّره إلا من أتى الله بقلب سليم أو وفق من الله العظيم، لهذا الأمر الجسيم.

كان كتاب «عرائس البيان في حقائق القرآن» أجلُّ ما صنف في هذا الباب، من مؤلفات نخبة أولي الألباب، المستغرق في بحار الأنوار، المشاهد للستر وسر الأسرار، الباقي بربه والفاني عن نفسه، العارف بالرمز الخفي والجلي ، الشيخ «أبو نصر بن روزبهان البقلي الشيرازي» -قدس الله سره- من فاز بالجاه المتكاثر والمناقب والمفاخر، وأوتي مناصب الدنيا بحسن الأخلاق، وخير المآثر، المستجمع لأصناف الفرح والسرور، المستغني عن التعرض بالاسم والرسم لغاية الظهور، أدام الله فيضه على مر الدهور والشهور.

فإليك أيها المحب الصوفي المتعطش لنهر الحقائق المتدفق بمعاني الوجد الرائق، فتنتهل من درر الأسرار والأنوار الفوائق.

قد قمت بتحقيقه وتخريجه والتعليق عليه، من معين المحقيقين المتحقيقين بأسرار الذكر الحكيم، وتلك خصوصية الغارقين الذي في بحر الشهود غارقين، هائمين.

كتبه

العبد الفقير الحقير إلى الله السميع البصير

الرَّاجي عفو الله العلي الكبير

بجاه سيدنا البشير النذير ﷺ

تراب أقدام أصحاب الوراثة النبوية

أحمد فريد المزيدي

ترجمة الشيخ المصنف

هو الشيخ الإمام العلامة المتكلم المفسر الفقيه الصوفي المحقق، شطّاح فارس: أبو محمد روزبهان بن أبى نصر البقلي، الفسوي، الشيرازي المصري؛ المتوفى سنة ٦٠٦ هجرية.

أصله من «شيراز» زار مصر، فقضى في القاهرة والإسكندرية زمنًا، حتى عرف باسم «روزبهان المصري» ثم عاد إلى شيراز، واستمر بالوعظ والتذكير خمسين سنة في الجامع العتيق بمدينة شيراز، واشتهر في هذه السنوات الخمسين الأخيرة بلقب شطاح فارس.

ويعد روزبهان من أعظم صوفية الإسلام، واعتبره الفرس من مفاخر إقليم فارس، ومن مقدسات شيراز!

وقد ترك الشيخ روزبهان العديد من المؤلفات، منها:

- تفسير القرءان بعنوان «عرائس البيان في حقائق القرآن»، (كتابنا هذا).
- منطق الأسرار في بيان الأنوار وهو «شرح الشطحيات» بالعربية والفارسية.
- شرح كتاب «الطواسين» للحلاج، بالعربية والفارسية.
- الأنوار في كشف الأسرار.
- سير الأرواح -المصباح لمكاشفة الأرواح- مشرب الأرواح.
- كتاب القدسية.
- مكنون الحديث.
- حقائق الأخبار.
- تقسيم الخواطر (بتحقيقنا).
- الموشح في المذاهب الأربعة وترجيح قول الشافعي بالدليل.
- كتاب العقائد.
- عبر العاشقين.
- رباعيات من الشعر الفارسي.

ويقول الشيخ في الفصل الحادي والثلاثين من «عبر العاشقين»: بعنوان كمال

المعشوق ما نصه: إن الله سبحانه وتعالى ذاته القديمة موصوفة أزلاً وأبدًا بصفاته القديمة، ومن جملة صفات الحق: (الأول، العشق) وقد عشق ذاته بذاته، فهو العشق والعاشق والمعشوق، فصار العشق واحد، صفة له قائمة به لا تغير فيها؛ بل هو عاشق بنفسه لا يجوز له التغير الحدثاني وأعرف محبة الحق في أن يكون علمه لم يزل محبًا بنفسه لنفسه؛ كمال المحبة، فالمحبة صفة الحق، فلا تخطئ في الاسم، فإن العشق والمحبة أمر! إنه لم يزل علماً بنفسه وناظرًا إلى نفسه بنفسه، لا يوجد انقسام في أحديته، ولما أراد - تعالى - أن يفتح كنز الذات بمفتاح الصفات، تجلى على أرواح العارفين بجمال العشق، وظهر لهم بصفات خاصة، وأنهم حصلوا في كل صفة لباسًا، فمن العلم علمًا، ومن القدرة قدرة، ومن السمع سمعًا، ومن البصر بصرًا، ومن الكلام كلامًا، ومن الإرادة إرادة، ومن الحياة حياةً، ومن الجمال جمالاً، ومن العظمة عظمةً، ومن البقاء بقاءً، ومن المحبة محبةً ومن العشق عشقاً؛ كانت كل هذه (هو) فيهم، وأثرت الصفات فيهم، والصفة قائمة بالذات، فأصبحت صفتهم قائمة من أثر ذلك؛ لا يوجد من (الحلول) شيء في العالم: العبدُ عبدٌ والربُّ ربٌّ.

فأصل العشق قديم، وعشاق الحق قدماء! عشقهم بالروح، والعشق لألباب الأرض القديمة الذي التف حول شجرة روح العاشق، والعشق سيف يقطع رأس الحدوث من العاشق، وهو ذروة قاعدة الصفات، فما وصلتها روح العاشق إلا واستسلمت للعشق، وكل من صار معشوقًا للحق، وعاشقًا للحق، لا يستطيع النزول من تلك الذروة، ويصير في العشق متحدا بالعشق؛ ولما اتحد العاشق والمعشوق صار العاشق والمعشوق بلونٍ واحد، وعندئذٍ يصبح العاشق حاكمًا في إقليم الحق، فعندما غلب عليه الحق، أصبح قالب صورته جنانيًّا، ونفسه روحانية، وروحه ربانية.

العشق كمال من كمال الحق، فإذا اتصل بالعاشق، تحول من الحدوث المحض إلى الجلال الإلهي، ويصبح باطنه ربانيًا ويطلب معدن الأصل، ولا يتغير من حوادث الدهور وصروف الزمان وتأثير المكان؛ فإذا بلغ عين الكمال، تزول ستائر الربوبية! والعاشق الرباني يذهب بالمعدن الأصلي، وليس في العشق مقصود، فالعشق مع المقصود ليس بموجود:

العشـــق والمقصـــود كفـــر   و العاشـق بريء من روحـــه

وليس للصورة مكان في العالم العشق؛ لأن العقل والنفس ليسا معًا في طريق

العشق، فالعشق هو الطائر الطاهر للروح – والعشق والروح، كالحمام والصقر:

العــشق لا يقــبل الــنفس الحــية و الــصقر لا يــصطاد الفــأرة الميتة

الأمر والنهي منسوخان في طريق العشق!

والكفر والدين حجبا عن سراي العشق!

والآفاق محترقة بإشراق العشق!

والكون مضمحل تحت حافر فرس العشق!

عــند مــن كــان العــشق مرشــده يكــون الكفــر والدين ستار بابه

وجوهرة العشق عجنت من الأزل، ولم يكن في ذلك العالم للروح والعقل من طريق؛ كل من ظهر له طريق العشق، يخطف جوهر أوصافه من هذه التربة:

أم كان في الكائنات من جزء وكل هــي أطــواق قناطــر العــشق

العــشق أرقــى مــن العقل والروح «لي مــع الله» هــو وقت الرجال

وليس في العشق مجوسية ولا كفر، ولا شراسة ولا بلاهة، وصفة العشاق كمال الحيرة.. والخضوع صفة المتيمن.

يجعــل حِمْلَ العشق الطفلَ شيخًا ويجعل العشق البَاشِق صَيَّادَ البَعُوضة

و الجنة مأوى الزاهدين، والحضرة مأوى العاشقين! ليس في العشق فجاجة، وليس في طريقه عجز ولا ضعف.

وكل ما قلناه ليس من صفة العشق العاشق .. ونهاية العشق بداية المعرفة.. والعشق في المعرفة مبني على الكمال؛ وإذا اتحد العاشق بالمعشوق، بلغ مقام التوحيد. وإذا تحير في المعرفة، فقد أحرز مقام المعرفة.. ونهاية العشق إلى هذين المقامين؛ فإذا صار عارفًا، تبدو صفات الحق من صفاته.

ذاك الذي تكلم بالشطحيات، إنما أراد أن يقول الحديث السبحاني (ما في الجبة) وسر (أنا الحق) وإذا لم تعرف ذلك، فاستمع إلى قول أسد مرج التوحيد وفارس ميدان التجريد أبي بكر الشبلي –رحمه الله– فإنه وجد رمز ذلك الحديث ذات يوم في مجلس الموحدين، وحيث إنهم بلغوا ذلك العالم؛ صار قلبهم ربانيًّا، وقولهم أزليًا وأبديًا.. كما قال أبو سعيد الخراز– رحمه الله تعالى–: للعارفين خزائن أودعوها علومًا غريبة، وأنباءً عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويختبرون عنها بعبارات الأزلية.

من مصادر الترجمة:

- شذ الإزار المعروف بهزار مزار للشيرازي (٢٤٣، ٢٤٧).
- تاريخ التصوف لقاسم غانم (ص٥٦٧).
- مقدمة فوائح الجمال، يوسف زيدان (ص٤٩).
- معجم المؤلفين لكحالة (٤/ ١٧٥).

***

نماذج من صور المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم رب وفق للاتمام

الحمد لله الذي كان في ازل الآزال موجوداً بوجوده وذاته كنوز صفاته وصفاته معادن جوده تقدس ذاته
بذاته عن الاضداد وتنزه صفاته بصفاته عن الانداد تقدمه متعال عن الكون والفساد وازله سرمد
الى ابد الآباد تفرد بوحدانيته عن الاماكن والاكوان وتوحد بجلاله عن المشابهة بالحدثان علم في القدم
ما يبين بارادته من العدم واجرى بمقادير القلم على اللوح المحفوظ ما شاء وحتم لم يزل متكلما بكلامه
القديم وعالما بعلمه الازلي الكريم فاوجد جوهر النبوة بقوته القدمية وكلماته الازلية في فضاء القدرة وابدع
منه فطرة الخليقة واخرج من اديان التذكر المقدورات بصنع الالوهية ولباس العبودية واصطفى من تلك الجوهرة
وطبيعة الازلية فطرة آدم على جميع العالم وعلمه الاسماء كلها وجعله من جميع البرية اصلها واخرج من عنصره الارواح
والاشباح واختار منها صفوة الانبياء والرسل والاولياء بالرسالة والولاية وخاطبهم بخطاب الازلي وكلامه الابدي
ليدعوا به عباده الى خدمته وشوقهم الى مشاهدته واجتبى من بينهم في الازل روح المصطفى صلوات الله عليه وآله
بافضل الدرجات واكرم المدانات واصطفاه المقام المحمود وكمال الكرم والجود وخاطبه باشرف كلامه واكرم فرقانه
وقرآنه الذي فيه بيان مكنون اسرار خطابه والوان صفاته وعجائب علومه الغيبية وغرائب آياته الازلية وارسله
الى الكافة البرية ليهديهم به الى الحق والحقيقة ثم اعطى ائمته الظاهرة الى يد اهل الظاهر من العلماء والحكماء حتى
شرعوا في احكامها وحدود رسومها وشرائعها واوجد لخالصة اهل صفوته غيبة اسرار خطابه ولطائف
مكنون آياته وتجلى من كلامه بنعت الكشف والعيان والبيان لقلوبهم وارواحهم وعقولهم واسرارهم واعلمهم علوم
حقائقه ونوادر دقائقه وصفى بروح عقولهم بكشوف انوار جماله وقدس قلوبهم بسناء جلاله وجعلها مواضع ودائع خفي رموز
خطابه فما اودع في كتابه من غوامض اسراره ولطيف اشاراته من علوم المتشابهات ومشكلات الآيات وترنم معاني ما اخفاه

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

والمريدين والمؤمنين في تبيين العزة منقلبة بين إصابع الصفة التي هي أنوار الأزال وآباد الآباد
طالبة بوصل الوصل وعرفان العرفان محترقة الدهشة كالفراش حول الشمع كالشموع بها الاحتراق بنيران [illegible]
كذلك قلوبهم محترقة هنالك بنيران الكبرياء فانية في سطوات الجلال باقية بسبحات الجمال مصونة
عن خلل الحجاب محروسة عن طيران [illegible] كيف تخالها أقدام الوسواس [illegible] الناس
سبحان من صفاهم بصفاته عن كل كدورة وبراهم بقدسه عن كل علة الوسواس في الصدور والقلوب
في الحضور والنور والسرور وكيف يصل حركات الانسانية الى من استغرق في بحار الوحدانية لا بأس بأن
يطوي على الصدور وسواس وهواجس من محل الامتحان فان الارواح في يمين الرحمن والقلوب بين إصبعين
من أصابع الرحمن والحمد لله الذي رد أمره إلى الموسوسة الذي كيف شكى عنه خواص الصحابة الى
حبيب الله وصفيه صلوات الله وسلامه عليه فقالوا إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن نتكلم به
فقال وقد وجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان وقال بعضهم [illegible]
عشرة أشياء أولها الحرص فقابله بالتوكل والقناعة والثانية الأمل فاكسره بمفاجأة الأجل والثالثة
التمتع بشهوات الدنيا فقابله بزوال النعمة وطول الحساب والرابعة الحسد فاكسره برؤية العدل والخامسة
البلاء فاكسره برؤية المنة والعوافي والسادسة الكبر فاكسره بالتواضع والسابعة الاستخفاف بحرمة
المؤمنين فاكسره بتعظيم حرمتهم والثامنة [illegible] الناس فاكسره بالإخلاص والتاسعة
طلب العلو والرفعة فاكسره بالخشوع والعاشرة [illegible] والحمد لله [illegible]
[illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

مقدمة المصنف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي كان في أزل الآزال، موجودًا بوجوده، وذاته كنوز صفاته، وصفاته معادن جوده ، تقدَّست ذاته بذاته عن الأضداد، وتنـزَّهت صفاته بصفاته عن الأنداد، قدمه متعالٍ عن الكون والفساد، وأزله مسرمد إلى أبد الآباد، تفرَّد بوحدانيته عن الأماكن والأكوان، وتوحد بجلاله عن المشابهة بالحدثان، علم في القدم ما يبيِّن بإرادته من العدم، وأجرى بمقاديره القلم، ورقَّم على اللوح المحفوظ ما قضى وقسم، لم يزل متكلِّمًا بكلامه القديم، وعالمًا بعلمه الأزلي الكريم، فأوجد جوهر البسيط بقوته القدمية، وكلماته الأزلية في فضاء القدرة، وأبدع منه فطرة الخليقة، وأخرج من أديان القدر المقدورات بصنع الألوهية، ولباس العبودية، واصطفى من تلك الجوهرة، وطبيعة الأولية فطرة آدم ﷺ على جميع العالم، وعلَّمه الأسماء كلَّها، وجعله من جميع البريّة أصلها، وأخرج من عنصر الأرواح والأشباح، واختار منها صفوة الأنبياء والرسل والأولياء بالرسالة والولاية، وخاطبهم بخطابه الأزلي، وكلامه الأبدي؛ ليدعو به عباده إلى خدمته، وشوَّقهم إلى مشاهدته، واجتبى من بينهم في الأزل روح المصطفى ﷺ بأفضل الدرجات، وأكرم المداناة، واصطفاه المقام المحمود، وكمال الكرم والجود، وخاطبه بأشرف كلامه، وأكرم فرقانه وقرآنه، الذي فيه بيان مكنون أسرار ذاته، وألوان صفاته، وعجائب علومه الغيبية، وغرائب آياته الأزلية، وأرسله إلى كافة البريّة؛ ليهديهم به إلى الحق والحقيقة.

ثم أعطى أزمته الظاهرة إلى يد أهل الظاهر من العلماء والحكماء؛ حتى شرعوا في أحكامها وحدودها ورسومها وشرائعها، وجعل خالصة أهل صفوته غيبة أسرار خطابه، ولطائف مكنون آياته، وتجلّي من كلامه، بنعت الكشف والعيان والبيان لقلوبهم وأرواحهم وعقولهم وأسرارهم، وأعلمهم علوم حقائقه، ونوادر دقائقه، وصفَّى دروج عقولهم بكشوف أنوار جماله، وقدَّس فهومهم لسناء جلاله، وجعلها مواضع ودائع خفي رموز خطابه، وما أودع كتابه من غوامض أسراره، ولطيف إشاراته من علوم المتشابهات ومشكلات الآيات، وعرَّفهم معاني ما أخفاه في القرآن بنفسه حتى عرفوا بتعريفه إياهم، وكحَّلهم بنور قربه ووصاله، وأطلعهم على غيبيات عرائس الحكم والمعارف والكواشف، ومعاني فهم الفهم، وسر السر الذي ظاهره في القرآن حكم، وفي باطنه إشارةٌ وكشفٌ، الذي استأثره الحقّ

لأصفيائه، وأكابر أوليائه، وغرباء أحبائه من الصدِّيقين والمقرَّبين، وستر هذه الأسرار والعجائب على غيرهم من علماء الظاهر، وأهل الرسوم الذين هم في حظٍّ وافرٍ من الناسخ والمنسوخ والفقه والعلم، ومعرفة الحلال والحرام، والحدود والأحكام.

وتلك الصفوة الصادقة الذين فتح الله على قلوبهم من لطائف دقائق كتابه، وما كتم على أسرار غيرهم من سنيٍّ فضائل مكاشفاته، نطقوا على حسب مقاماتهم بين يدي جبروته، وقدَّر سيرانهم في ميادين ملكوته بإشارات شافية، وعبارات كافية من قلوب صافية، وعقول راسخة، وأرواح عاشقة، وأسرار مقدسة، وهم في إدراك إشارات القرآن بالتفاوت، كتفاوتهم في درجات المعاينات، والمكاشفات، والحالات، والمداناة، ورؤية المغيَّبات، وما لاح لأسرارهم من أنوار الأزليات والأبديات، وما بلغوا فيها نطقوا، وأخبروا قعر بحار القرآن؛ لأنه صفات الرحمن ، ولا يدرك جميع حقائقه أهل الحدثان.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ ﷺ السفير الأعلى، وسيد أهل الآخرة والأولى، وشفيع الورى الذي سافر بيداء الآزال والآباد، ودنا من القدم حتى لم يبق بينه وبين الحق؛ إلا قاب قوسين أو أدنى، عليه التحية الأسنى والبركات الأنمى، وعلى آله نجوم الهدى، وأصحابه مصابيح الدُّجى.

أما بعد ...

فإن أطيار أسراري لمّا فرغت من الطيران في المقامات والحالات، وارْتفعَت من ميادين المجاهدات والمراقبات، ووصلت إلى بساتين المكاشفات والمشاهدات، وجلست على أغصان ورد المداناة، وشربت شراب الوصال، وسكرت برؤية الجمال، وولهت في أنوار الجلال، وصحت من مقام القدس بذوق الأنس، وتلقفت من فلق الغيب شقائق دقائق القرآن، ولطائف حقائق العرفان، نطارت بأجنحة العرفان، وترنَّمت بألحان الجنان في أحسن البيان بهذا اللسان في رموز الحق التي أخفاها على فهوم أهل الرسوم.

وما تَصدَّيْتُ لهذا الأمر إلا بعد خاطري بالمعرفة والحكمة الربانية، واقتديت بالصدر الأول من المشايخ الكرام في تفسير حقائق الكلام، ولمّا وجدت أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد من خلق الله إلى كماله، وغاية معانيه؛ لأن تحت كل حرفٍ من حروفه بحرًا من بحار الأسرار؛ ونهرًا من أنهار الأنوار؛ لأنه وصف القِدم.

وكما لا نهاية لذاته، لا نهاية لصفاته، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:

١٩].

وعن أبي جُحيفة، قال: سألت عليًّا ﷺ وكرَّم الله وجهه: هل عندكم من رسول الله ﷺ شيءٌ من الوحي سوى القرآن! قال: لا فالذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبدًا فهمًا في كتابه[١].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن القرآن سبعة أحرفٍ لكلِّ آيةٍ منها ظهر وبطن، ولكلِّ حرفٍ حَدٌّ ومَطلع»[٢].

وقال جعفر بن محمد: كتاب الله على أربعة أشياء: العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق؛ فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء.

وقال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه: ما من آية إلا ولها أربعة معانٍ: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع؛ فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحدُّ: هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو: مراد الله من العبد بها.

قيل: القرآن عبارةٌ، وإشارةٌ، ولطائفٌ، وحقائق، فالعبارة للسمع، والإشارة للعقل، واللطائف للمشاهدة، والحقائق للاستسلام.

وقال الجنيد: كلام الله على أربعة معانٍ: ظاهر، وباطن، وحق، وحقيقة.

وقال جعفر الصادق: يقرأ القرآن على تسعة أوجهٍ: الحق، والحقيقة، والتحقُّق، والحقائق، والعقود، والعهود، والحدود، وقطع العلائق، وإجلال المعبود.

وقال الجريري: كلام الله متصل بعبده، والعبد متوقع المزيد من ربه في كل حال.

وقال جعفر الصادق: أنزل القرآن على سبعة أنواع: على التعريف، والتكليف، والتعطيف، والتشريف، والتأليف، والتخويف، والتكفيف، ثم نزَّل أمرًا ونهيًا، ووعدًا ووعيدًا، ورخصًا وتأسيسًا، وتمحيصًا، ثم نزَّل داعيًا، وراعيًا، وشاهدًا، وحافظًا، وشافيًا، ودافعًا، ونافعًا، فتعرَّضتُ أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات الأبديات التي تقصر عنها أفهام العلماء، وعقول الحكماء، اقتداءً بالأولياء، وأسوةً بالخلفاء، وسنةً للأصفياء، وصنَّفتُ في حقائق القرآن كتابًا موجزًا مخففًا لا إطالة فيه ولا إملال، وذكرت ما سنح لي من حقيقة القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن في القرآن بألفاظ لطيفة، وعبارة شريفة، وربّما ذكرتُ تفسير آيةٍ لم يفسرها المشايخ، ثم أردفتُ بعد قولي

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٧١)، والنسائي (١٤/ ٣٧٣)، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ١١٠).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٢٧٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ٣٥٨)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٣٦).

أقوال مشايخي مما عبارتها ألطف، وإشارتها أظرف ببركاتهم، وتركتُ كثيرًا منها؛ ليكون كتابي أخفَّ محملاً، وأحسن تفصيلاً، واستخرتُ الله تعالى في ذلك، واستعنتُ به؛ ليكون موافقًا لمراده، ومواظبًا لسنة رسوله ﷺ وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسبي وحسب كل ضعيفٍ، وسمَّيتها: بـ«عرائس البيان في حقائق القرآن».

وما أصبتُ ذلك؛ فهو بتأييد الله ونصرته، وما أخطأت فيه؛ فهو لازم لي، وأنا أستغفر الله تعالى من ذلك، إنه غفورٌ حليمٌ، جوَّادٌ كريمٌ، رءوفٌ رحيمٌ.

سورة فاتحة الكتاب

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾

سُمِّيت الفاتحة فاتحةً؛ لأنها مفتاح أبواب خزائن أسرار الكتاب؛ ولأنها مفتاح كنوز لطائف الخطاب، بانجلائها ينكشف جميع القرآن لأهل البيان؛ لأن من عرف معانيها يفتح بها أقفال المتشابهات، ويقتبس بسنائها أنوار الآيات.

﴿بِسْمِ﴾: «الباء»: كشف البقاء لأهل الفناء، و«السين»: كشف سناء القدس لأهل الأنس، و«الميم»: كشف الملكوت لأهل النعوت، و«الباء»: بِرُّه للعموم، و«السين»: سرُّه للخصوص، و«الميم»: محبته لخصوص الخصوص، و«الباء»: بدء العبودية، و«السين»: سرُّ الربوبية، و«الميم»: منةٌ في أزليته على أهل الصفوة.

و«الباء» من بسم أي: ببهائي بقاء أرواح العارفين في بحار العظمة.

و«السين» من بسم أي: بسنائي سمت أسرار السابقين في هواء الهوية.

و«الميم» من بسم أي: بمجدي وردت المواجيد قلوب الواجدين من أنوار المشاهدة.

وروي عن النبي ﷺ: «إن الباء بهاؤه، والسين سناؤه، والميم مجده»[1].

وقيل في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾: بالله ظهرت الأشياء، وبه فنيت، وبتجلّيه حَسُنت المحاسن، وباستتاره قُبحت المفاتح.

وحكي عن الجنيد أنه قال: إن أهل المعرفة نفوا عن قلوبهم كلّ شيءٍ سوى الله، فقال: لهم قولوا: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بي فتسمّوا، ودَعوا انتسابكم إلى آدم ﷺ.

وقيل: إن « بِسْمِ» يبقى به كل الخلق، فلو افتتح كتابه باسمه؛ لذابت تحته حقيقة الخلائق، إلا مَنْ كان محفوظًا من نبيٍّ، أو وليٍّ.

وروى علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر بن محمد قال: «بسم»: «الباء» بقاؤه، و«السين» أسماؤه، و«الميم» مُلكه، فإيمان المؤمن ذكره ببقائه، وخدمة المريد ذكره بأسمائه، والعارف فناؤه عن المملكة بالمالك لها.

وأما «ٱلله»: فإنه اسم الجمع لا ينكشف إلا لأهل الجمع، وكل اسم يتعلق بصفة من صفاته إلا الله؛ فإنه يتعلق بذاته وجميع صفاته لأجل ذلك، وهو اسم الجمع أخبر الحق عن

---

(١) رواه الطبري في التفسير (١/ ٨٨).

نفسه باسمه الله، فما يعرفه إلا هو، ولا يسمعه إلا هو، ولا يتكلم به إلا هو؛ لأن الألف إشارة إلى الأنانية والوحدانية، ولا سبيل للخلق إلى معرفتها إلا الحق تعالى.

وفي اسمه «ألله» لامان: الأولى: إشارة إلى الجمال، والثانية: إشارة إلى الجلال، والصفتان لا يعرفها إلا صاحب الصفات، و«الهاء»: إشارة إلى هويته، وهويته لا يعرفها إلا هو، والخلق معزولون عن حقائقه، فيحتجبون بحروفه عن معرفته «بالألف»: تجلِّي الحق من أنانيته لقلوب الموحدين، فتوحدوا به، و«باللام الأولى»: تجلِّي الحق من أزليته لأرواح العارفين، فانفردوا بانفراده، و«باللام الثانية»: تجلِّي الحق من جمال مشاهدته لأسرار المحبين، فغابوا في بحار حبِّه، و«بالهاء»: تجلِّي الحق من هويته لفؤاد المقرَّبين، فتاهوا في بيداء التحيُّر من سطوات عظمته.

قال الشبليُّ: ما قال الله أحدٌ سوى الله، فإن كان من قاله بحظٍّ، وأنَّى يدرك الحقائق بالحظوظ.

وقال الشبليُّ: الله، فقيل له: لِمَ لا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: لا أُبقي به ضدًّا.

وقيل في قوله: «ألله»: هو المانع الذي يمنع الوصول إليه، كما امتنع هذا الاسم عن الوصول إليه حقيقةً، كأن الذات أشد امتناعًا، عجزهم في إظهار اسمه لهم؛ ليعلموا بذلك عجزهم عن درك ذاته.

وقيل في قوله: ﴿ألله﴾: «الألف»: إشارةٌ إلى الوحدانية، و«اللام الأولى»: إشارةٌ إلى محو الإشارات، و«اللام الثاني»: إشارةٌ إلى محو المحو في كشف الهاء.

وقيل: الإشارة في «الألف» هي قيام الحق بنفسه، وانفصاله عن جميع خَلْقه، فلا اتصال له بشيءٍ من خَلقه؛ كامتناع «الألف» أن تتصل بشيءٍ من الحروف ابتداءً، بل تتصل الحروف بها على حدِّ الاحتياج إليها، واستغنائها عنهم.

وقيل: ليس من أسماء الله اسمٌ يبقى على إسقاط كل حرفٍ منه إلا الله، فإنه الله، فإذا أسقطت منه «الألف» يكون «لله»، فإذا أسقطت أحد لاميه يكون «له»، فإذا أسقطت اللامين بقيت الهاء، وهو غاية الإشارة.

وقال بعضهم: «الباء»: باب خزانة الله، و«السين»: سين الرسالة، و«الميم»: مُلك الولاية.

وقال بعضهم: بالله سَلِمَت قلوب أولياء الله من عذاب الله، وبشفقته تطرَّقت أسرار أصفياء الله إلى حضرته، وبرحمته تفرَّدت أفئدة خواص عباده معه.

وقال بعضهم: بالله تحيَّرت قلوب العارفين في علم ذات الله، وبشفقته توصلت علوم

العالمين في صفات الله، وبرحمته أدركت عقول المؤمنين شواهد ما أشهدهم الله من بيان الله.

وقيل بإلهيته تفرَّدت قلوب عباد الله، وبتعطُّفِه صَفت أرواح محبيه، وبرحمته ذُكرت نفوس عابديه.

وقيل: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾: ترياق أُعطِي للمؤمنين، يدفع الله به عنهم سمَّ الدنيا وضررها.

وقال جعفر الصادق: «بسم»: للعامة، و«الله»: لخاص الخاص.

وقال سهل: «الله»: هو اسم الله الأعظم الذي حوى الأسماء والأسامي كلها، وبين الألف واللام منه حرفٌ مكنّي غيبٌ من غيب إلى غيبه، وسرٌّ من سرٍّ إلى سرِّه، وحقيقةٌ من حقيقةٍ إلى حقيقته، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قوامًا لضرورة الإيمان.

وقيل: من قال بالحروف، فإنه لم يقل الله؛ لأنه خارجٌ عن الحروف والحسوس، والأوهام، والأفهام، ولكن رضي منَّا بذلك؛ لأنه لا سبيل إلى توحيده من حيث لا حال ولا قال.

وحُكي أن أبا الحسن النوري بقي في منزله سبعة أيام لم يأكل، ولم يشرب، ولم ينم، ويقول في ولهٍ ودهشةٍ: الله الله، وهو قائمٌ يدور؛ فأخبر الجُنيد، قال: انظروا محفوظًا عليه أوقاته، فقيل: إنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان له سبيلاً، ثم قال: قوموا حتى نزوره إما أن نستفيد منه، أو نفيده، فدخل عليه وهو في وَلَهٍ، فقال: يا أبا الحسن، ما الذي ولهك؟ قال: أقول: الله، الله، زيدوا عليَّ؛ فقال له الجنيد: انظر هل قولك الله الله، أم قولك: إن كان كنت القائل الله الله، فلست القائل له، وإن كنت تقوله بنفسك، وأنت مع نفسك، فما معنى الوَلَه؟ قال: نعم المؤدب كنت، وسكن من وهله.

أما قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ رَحِم على أوليائه باسمه الرحمن، بتعريف نفسه لهم؛ حتى عرفوا به أسماءه، وصفاته، وجلاله، وجماله، وبه خرجت جميع الكرامات للأبدال والصدِّيقين، وبه تهيأت أسرار المقامات للأصفياء والمقرَّبين، وبه تجلَّت أنوار المعارف للأتقياء والعارفين؛ لأن اسم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ مخبرٌ عن خلق الخلق، وكرمه على جميع الخلق، وفي اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ترويحُ أرواح الموحدين، ومزيد أفراح العارفين، وتربية أشباح العالمين، وفيه نزهة المحبين، وبهجة الشائقين، وفرحة العاشقين، وأمان المذنبين، ورجاء الخائفين.

وقال بعضهم: اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ حلاوةُ المنَّةِ، ومشاهدةُ القربةِ، ومحافظةُ الحرمةِ.

وقال ابن عطاء: في اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عونه ونصرته.

وقوله ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾: موهبة الخاص لأهل الخاص، وهو مستندٌ لذوي العثرات،

ومسرةٌ لأهل القربات.

و﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾: مطيّة السالكين، تسير بهم إلى معدن العناية، و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ : حبل الحق للمجذوبين تجذبهم به إلى حجال الوصلة.

باسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أمِنَهم من العقاب، وباسمه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أتاهم من نفائس الثواب؛ الأول: مفتاح المكاشفة، والآخر: مرقاة المشاهدة.

باسمه ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾: فتحَ لهم الغيوب، وباسمه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾: غفرَ لهم الذنوب.

وقال ابن عطاء: في اسمه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ مودةٌ ومحبةٌ.

وعن جعفر بن محمد في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إنه قال: هو واقعٌ على المريدين والمرادين؛ فاسم ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾: للمرادين؛ لاستغراقهم في أنوار الحقائق، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: للمريدين؛ لبقائهم مع أنفسهم، واشتغالهم بالظاهر.

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١) شكرَ نفسه للعباد؛ لأنه عَلِمَ عجزهم عن شكره، وأيضًا: أدّب الخلق بتقدم حمده امتنانه عليهم على حمدهم نفسه.

ولسان الحمد ثلاثةٌ: لسانُ الإنسانيّ، ولسانُ الروحانيّ، ولسانُ الربانيّ، أما «اللسانُ الإنسانيُّ»: فهو للعوام، وشُكره بالتحدث بإنعام الله وإكرامه، مع تصديق القلب بأداء الشكر.

---

(١) لم يقل تعالى: الحمد لرب العالمين الله؛ لكون الربوبية تلو الأُلوهية دون العكس؛ فإن الأُلوهية كالسلطنة، والربوبية كالوزارة، فالسلطان مُظهر الاسم الله؛ لكمال جمعيته، والوزير مُظهر الاسم الرب؛ لكونه في مقام التربية للعالمين؛ كالروح والعقل، فإن القوى والأعضاء إنما تقومان بهما، وبهما كمال ترتيبهما، فكما أن تعيُّن الروح قبل تعيُّن ما دونه؛ فكذا تعيُّن الأُلوهية، ونظير ذلك الشمس مع القمر، فإن الشمس أقدم في الوجود؛ كتقدُّم الأب على الابن.

والحاصل: إن الأُلوهية باطن الربوبية، فالأولى مظهر الاسم الباطن، والثانية مظهر الاسم الظاهر، وكذا الحق باطن الخلق، والشمس باطن القمر، والأب باطن الابن، والروح باطن الجسم، فالظاهر مرآة الباطن في كل ذلك؛ وإنما جعلوا الرب الاسم الأعظم أيضًا، وفي مرتبة الجلال من حيث جمعيته؛ لأن الأُلوهية والربوبية لا تختصان بألوهية بعض دون بعض، وبربوبية بعض دون بعض، وباسم دون اسم، ويلطف دون قهر وبالعكس، فللسلطان الجمال والجلال، وللوزير التربية بكل من اللطف والقهر، فجمعية السلطان إنما تظهر في المراتب التي دون السلطنة فاعرف ذلك.

وأما «اللسانُ الروحانيُّ»: فهو للخواص، وهو ذِكر القلب لطائف اصطناع الحق في تربية الأحوال، وتزكية الأفعال.

وأما «اللسان الربانيُّ»: فهو للعارفين، وهو حركة السرِّ، يصدق شكر الحق جلَّ جلاله بعد إدراك لطائف المعارف، وغرائب الكواشف بنعت المشاهدة والغيبة في قربه، واجتناء ثمرة الأنس، وخوض الروح في بحر القدس، وذوق الأسرار مع مباينة الأنوار.

والحامدون في حمدهم لله، بتفاوت لسانهم في مقاماتهم ومقاصدهم، وأهل الإرادة حمدوه بما نالوا من صفاء المعاملات، مقرونًا بنور القرب، وأهل المحبة حمدوه بما نالوا من أنوار المكاشفات، مقرونةً بنور صرف الصفات، وأهل المعرفة حمدوه بما نالوا من جمال المشاهدات، ممزوجًا بعلم الربوبية، وأهل التوحيد حمدوه بما نالوا من سناء خصائص الصفات، وجلال قِدم الذات، مَشوبًا بنعت البقاء، وأهل شهود الأزل بنعت الأنس حمدوه بما لاح في قلوبهم من نور القدس، وقدس القدس، وبما أودع الله أرواحهم من أسرار علوم القدم، وما أفرد مواطن أسرارهم من غصن الأبصار في تعرض الحدثان عند حقائقها، وما خصها بكشف الكشاف، فحمدهم بالبسط والرجاء والانبساط شَطحٌ، وحَمْده في الاصطلام والمحو خرسٌ.

كما قال ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك»[1] في قبضه عن تحصيل شكر رؤية القِدم، فلسان التحميد لأهل التفرقة، ولسان الحمد في رؤية المحمود صفات أهل الجمع.

وقيل: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾: ما قضى وقدَّر بإدراكٍ، على ما هدى وحفظ، وعلى ما أرشدوا، وعلى ما اختاروا.

وقال أبو الوزير الركبي في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾: عن الله، قال: لو عرَّفت ذلك عبدي، لما شكرت غيري.

وقال أبو بكر بن أبي طاهر: ما خلقَ الله شيئًا من خلقه؛ إلا وألهمه الحمد، ثم جعل فاتحة كتابه، وفرضها عليهم في صلاته.

وقال ابن عطاء: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» معناها الشكر لله إذا كان منه الامتنان على تعليمنا إيّاه حتى حمدنا.

وقيل: معنى «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» أي: أنت المحمود جميع صفاتك وأفعالك.

وقيل: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» أي: لا حامد لله إلا الله.

وذُكر عن جعفر الصادق في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، قال: من حمده، فقال: من حمد

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

بصفاته كما وصف نفسه فقد حمده؛ لأن الحمد حاء، وميم، ودال؛ «فالحاء» من الوحدانية، و«الميم» من الملك، و«الدال» من الديمومية، فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والمُلك؛ فقد عرفه.

وقال رجل بين يدي الجنيد: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ»، فقال له: أتمها كما قال الله، قل: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فقال له الرجل: ومَن العالمون حتى يذكروا مع الحق؟! فقال: قُله يا أخي، فإن الحادث إذا قارن بالقديم لا يبقى له أثرٌ.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنه أظهر نفسه عليهم حتى نالوا من بركاتهم ما هداهم إلى معرفته، فربَّاهم بها على قدر مذاقهم، فربَّى المريدين بشعشعة أنواره، ولوائح أسراره، وربَّى المحبين بحلاوة مناجاته، ولذة خطابه، وربَّى المشتاقين بحسن وصاله، وربَّى العاشقين بكشف جماله، وربَّى العارفين بمشاهدة بقائه، ودوام أنسه، وحقائق انبساطه، وربَّى الموحدين برؤية الوحدانية والأنانية في عين الجمع، وجمع الجمع.

وقيل: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مُنطقهم بحمده.

وذُكر عن ابن عطاء: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مُربي أنفس العارفين بنور التوفيق، وقلوب المؤمنين بالصبر والإخلاص، وقلوب المريدين بالصدق والوفاء، وقلوب العارفين بالفكرة والعِبرة.

وقال محمد بن عليّ الترمذي: عَلِمَ الله تواتر نعمه على عباده، وغفلتهم عن القيام بشكره، فأوجب عليهم في العبادة التي تكرر عليهم في اليوم والليلة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فيكون ذلك قيامًا لشكره، وألا يغفلوا عنه، فأبوا ذلك.

وقال بعضهم: ذَكَرَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أعلم أن منه المبتدأ، وإليه المنتهى.

وقال الحارث المحاسبي: إنَّ الله بدأ بحمد نفسه، فأوجب للمؤمنين تقديم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في أول كل كتاب، وكل خطبة، وكل قولٍ حسن، وهو أحسن ما ابتدأ به المبتدئ، وافتتح مقالته.

وقال بعضهم: من قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فقد قام بحق العبودية، وشكر النعمة.

وقال بعضهم: ظهر فَضلُ آدم على الكلِّ، بقوله حين عَطس: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقال الأستاذ: مُربّي الأشباح بوجود النعم، ومُربّي الأرواح بشهود الكرم.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾: «بالرحمن»: سبقَت رحمتُه غضبَه، و«بالرحيم»: حجبَ كرمُه سخطَه، و﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: اسم القدم، و«الرحيم»: اسم البقاء، و﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: اسم الحقيقة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: اسم الصفة.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بالإشراف على أسرار أوليائه، والتجلّي لأرواح أنبيائه.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: خاص الاسم خاص الفعل، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: عام الاسم عام الفعل.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بالنعمة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالعصمة.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بالتجلّي، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالتدلّي.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بكشف الأنوار، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بحفظ ودائع الأسرار.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بذاته[1]، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بنعوته وصفاته.

وقال سهل: بنسيم روح الله اخترع من ملكه ما شاء رحمة؛ لأنه رحمنٌ رحيمٌ.

وقال الواسطي: الرحمانية تشوق الروح شوقًا، والإلهية تذوق الحق ذوقًا.

وقال إبراهيم الخواص: من عَرفَه بأنه الرحمن الرحيم، لَزِمَه معرفته له بالرحمة، الثقة به في حياته ومماته، والعطف بالرحمة على الخلائق أجمع في الدنيا بالعوافي والأرزاق، وفي الآخرة بالمغفرة والرحمة والغفران.

قال جعفر الصادق: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: العاطف على خلقه لسابق المقدور عليهم المراقب لهم، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: المتعطِّف لهم في أمر المعاش والعوافي.

وقال الجنيد في قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾: الرحمة على وجهين: رحمة لطفه، ورحمة عطفه، فإشارة باسمه الرحمن إلى لطفه، وإشارة باسمه الرحيم إلى عطفه.

وقال الأستاذ: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: خاص الاسم، عام المعنى، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: عام الاسم، خاص المعنى[2].

---

(١) ﴿الرَّحۡمـٰنِ﴾ في الظاهر، فيعمُّ رحمته الكافر، والأعضاء والآفاق، فإن كل ذلك داخل تحت حيطة الاسم الظاهر.

(٢) ﴿الرَّحِيمِ﴾ في الباطن، فيعمُّ رحمته المؤمن والقوى والأنفس، كما يعمّهم الرحمة الرحمانية، فللكافر ظاهر دون باطن؛ لأن لا آخرة له، فإن العاقبة للمتقين، وللمؤمن ظاهر وباطن جميعًا فالظاهر مع الباطن أقوى من الظاهر بلا باطن؛ لأن الظاهر بلا باطن محصور كالدنيا؛ لانتهائها دون الظاهر مع الباطن؛ كالآخرة لعدم نهايتها، وإنما أدخلنا الآخرة في الباطن؛ لأنها قلب الدنيا؛ والقلب باطن بالنسبة إلى

فالرحمن: بما روَّح، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما لوَّح، فالترويح للمباد، والتلويح بالأنوار.

و ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بكشف تجلّيه، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بلطف تولّيه.

و ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بما أولى من الإيمان، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما أسرى من العرفان.

و ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بما أعطى من العرفان، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما تولّى من الغفران.

و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما مَنَّ به من الرضوان، و ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بما يكرم به من الرضوان.

و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما يكرِّم به من الرؤية والعيان، فالرحمن بما يوفِّق، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما يحقِّق، فالتوفيق للمعاملات، والتحقيق للمواصلات، فالمعاملات للقاصدين والمواصلات للواجدين.

و ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بما يصنع لهم، والرحيم بما يدفع عنهم، والصُنع يجمع العناية،والدَّفع بحسن الرعاية، إلى هاهنا كلام الأستاذ .

أمّا من اختراعي أن: اسم ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: محل طلوع أنوار العناية، و«الرحيم»: محل إشراق شمس الكفاية، فبالعناية يُهدى أهل العرفان إلى مشاهدة القدم، وبالكفاية تُحفظ حقائق إيمانهم أبدًا لوجه بقاء الديموميَّة، فبالرحمن تأيّدهم، وبالرحيم ترقيهم وتحفظهم، فالأول: للعناية، والآخر: للكفاية، تَغمُّدَهم بنور الأزلية بين الصفتين؛ حتى يصيروا بالرحمن مشتاقين، وبالرحيم والهين .

وقال حميد: هل يكون من الرحمن لأهل الإيمان، إلا الأمن والأمان، والرؤيَة والعيان.

وقال سهل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: على عباده بالمغفرة والرضوان، و«الرحيم»: عليهم بالعوافي والأرزاق.

قوله تعالى: ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾: في اسم المالك رجاء المُقْبِلين، وتخويف المُهْلكين، يجازي مقاساة ألم فراق العاشقين بمشاهدته، ونفائس كرامته، ويجازي عموم المحبّين بكشف جماله وجلاله، ويجازي المعاملة الصادقين، بإدخالهم في جنانه، وإسكانهم في جواره .

وقال ابن عطاء: يجازى يوم الحساب كل صنفٍ بمقصودهم وهمّتهم،ويجازي العارفين

=

القلب، فكما ينتهي حكم الدنيا، ويظهر الآخرة على صورتها؛ فيكون الدنيا باطنة، والآخرة ظاهر؛ فكذا يظهر القلب في الآخرة على صورة القالب، فيكون القالب باطنًا، والقلب ظاهرًا، وبه يصحُّ رؤية الله تعالى كما يصحُّ ذلك في الدنيا بالبصيرة، فانظر إلى هذا، وكن على بصيرة من الأمر، فإن الأمر ليس كما يزعمه المنكرون من المعتزلة وغيرهم، والله رقيب شهيد.

بالقرب منه، والنظر إلى وجهه الكريم، ويجازي أرباب المعاملات بالحسنات.

وقيل: مالكِ يوم الكشف والأشهاد؛ ليجازي كل نفس بما تسعى.

وقال الأستاذ: مالك نفوس العابدين، نصرّفها في خدمته، ومالك قلوب العارفين، فشرّفها، ومالك نفوس القاصدين، فيتّمها، ومالك قلوب الواجدين، فهيّمها، ومالك أشباح مَن عَبَدَه، فلاطفها بنواله وأفضاله، ومالك أرواح من أحبَّه، فكاشفها بنعت جلاله ووصف جماله، ومالك زمام أرباب التوحيد، فصرّفهم حيث شاء كما شاء، ووفّقهم حيث شاء كما شاء على ما يشاء كما شاء لم تَكِلْهم إليهم لحظة، ولا مَلكهم من أمرهم سيئةً، ولا خطرة أفناهم له عنهم[1].

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي: بمعونتك نعبدك، لا بحولنا وقوّتنا، وإيّاك نستعين بتمام عبوديتك، ودوام سترك علينا حتى نرى فضلك، ولا ننظر إلى أعمالنا.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: إيّاك نعبد لا برؤية المعاملات، وطلب المكافآت، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نستعينك بمزيد العنايات، بنعت العصمة عن القطيعة.

وأيضًا: إيّاك نعبد بالمراقبة، وإيّاك نستعين بكشف المشاهدة.

وأيضًا: إيّاك نعبد بعلم اليقين، وإيّاك نستعين بحق اليقين.

وأيضًا: وإيّاك نعبد بالغيبة، وإيّاك نستعين بالرؤية.

وقيل: إيّاك نعبد بقطع العلائق والأغراض، وإيّاك نستعين على ثبات هذا الحال بك ولا بنا.

وقيل: إيّاك نعبد بالعلم، وإيّاك نستعين بالمعرفة.

وقيل: إيّاك نعبد بأمرك، وإيّاك نستعين علينا بفضلك.

قال سهل: إيّاك نعبد بهدايتك، وإيّاك نستعين بكلاءتك على عبادك.

قال الأنطاكي: إنما يُعبد الله على أربع: على الرغبة، والرهبة، والحياء، والمحبّة فأفضلها

---

(١) وفيه إشارة إلى أن الدنيا والآخرة ملك لله تعالى ليس لغيره في ذلك الملك يد إلا بطريق الخلافة والعارية، فإن الدين المجازاة، وهو جارية في الدّارين، فهو تعالى مالك يوم الدنيا، ويوم الآخرة، ومالك المجازاة فيها، فظهر إن قيامة العارفين دائمة؛ لكونهم مع الله تعالى في كل نَفس من الأنفاس، ومحاسبون أنفسهم في كل لحظة من لحظات، فهم مملوكون لله تعالى؛ لأنهم أحرار عمّا سواه تعالى، وقائمون لربهم بالخدمة في كل حين.

المحبة التي تليها الحياء، ثم الرهبة، ثم الرغبة.

وقال الأستاذ: العبادة بستان القاصدين، ومستروح المريدين، ومرتع الأنس للمحبّين، ومرتع البهجة للعارفين، بها قوة أعينهم، وفيها مسرّة قلوبهم، ومنها راحة أبدانهم[1].

قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: اهدنا مرادك منا؛ لأن الطريق المستقيم ما أراد الحق من الخلق، من الصدق والإخلاص في عبوديته.

وأيضًا أرشدنا إلى ما أنت عليه.

وأيضًا اهدنا إنابتك حتى نتّصف بصفاتك.

وأيضًا اهدنا إلى معرفتك، حتى نستريح من معاملتنا بنسيم أنسك، وحقائق حسنك.

وقيل: معنى اهدنا أي: مِل بقلوبنا إليك، وأقِم بهمّنا بين يديك، وكن دليلنا منك إليك حتى لا تقطع عمّا لك بك.

وقيل أي: أرشدنا طريق المعرفة؛ حتى نستقيم معك بخدمتك .

وقيل أي: أرِنا طريق الشكر فنفرح، ونطرب بقربك.

وقيل: اهدنا بفناء أوصاف الطريق إلى أوصافك التي لم تزل ولا تزال.

وقيل: اهدنا هدى العيان بعد البيان؛ لنستقيم لك على حسب إرادتك.

وقيل: اهدنا هدى من يكون منك مبدأه؛ حتى يكون إليك منتهاه.

وقيل: اهدنا الصراط المستقيم على الصراط بالغيوبة؛ لئلا يكون مربوطًا بالصراط .

قال الجنيد: إن القوم لمّا سألوا الهداية عن الحيرة التي وردت عليهم عن إشهاد صفاته الأزلية، فسألوا الهداية إلى أوصاف العبودية؛ كيلا يستغرقوا في رؤية صفات الأزلية.

قال بعضهم: إليك قصدنا، فقوِّمنا .

وقيل: اهدنا بالقوة والتمكين .

وقال الحسين أي: اهدنا طريق المحبّة لك، والسعي إليك.

قال الشبلي: اهدنا صراط الأولياء والأصفياء .

وقال بعضهم: أرشدنا الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام.

وقيل: أرشدنا في الدنيا إلى الطاعات، وبلّغنا في الآخرة الدرجات .

---

(١) أراد بالعبادة المبنية على التوحيد، فإن العبادة بلا توحيد عبادة المشركين، فلا تعود إلى الله، وإنما تعود إلى الآلهة الذين اتّخذوها معبودين من دون الله، دلَّ على هذا تقديم المعمول الدال على القصر، فإذا كانت العبادة مخصوصة به تعالى؛ كانت الاستعانة أيضًا كذلك، إذ لا يستعين المرء إلا بمعبوده.

وقال الأستاذ(١): أي أزِل عنا ظلمات أحوالنا؛ لنستضيء بأنوار قدسك عن التفيؤ لظلال طلبنا، وارفع عنا ظل جهدنا؛ لنستبصر بنجوم جودك، فنجدك بك.

قال الحسين: اهدنا إلى طاعتك، كما أرشدتنا إلى علم توحيدك.

قال علي بن أبي طالب- كرّم الله وجهه- اهدنا أي: ثبّتنا على الطريق المستقيم، والمنهج القويم.

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: منازل الذين أنعمت عليهم بالمعرفة، وحسن الأدب في الخدمة.

وأيضًا «أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ»: باليقين التام، والصدق على الدوام، وإطلاعِهم على مكائد النفس والشيطان، وكشف غرائب الصفات وعجائب أنوار الذات، والاستقامة في جميع الأحوال، وبسعادة الهداية إلى القربة بعناية الأزلية، وهم الأنبياء والأولياء والصدّيقين، والمقرّبون والعارفون، والأمناء والنجباء.

قال أبو عثمان: «أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ»: بأن عرّفتهم مهالك الصراط، ومكائد الشيطان، وجناية النفس.

وقال بعضهم: أنعمت عليهم في سابق الأزل بالسعادة.

وقال جعفر بن محمد: أنعمت عليهم بالعلم بك، والفهم منك.

وقيل: أنعمت عليهم بمشاهدة المنعم دون النعمة.

وقال بعضهم: أنعمت عليهم بالرضا بقضائك، وقدرك.

وقيل: أنعمت عليهم بمخالفة النفس والهوى، والإقبال عليك بدوام الوفاء.

وقال حميد: فيما قضيْته من المضار والمسار.

وقال بعضهم: أنعمت عليهم بالإقبال عليك، والفهم عنك.

ويقال: طريق من أفنيتهم عنهم طاقتهم بك؛ حتى لم يقفوا في الطريق، ولم [.....] عنك خفايا المكر.

وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ حتى يُحرسوا من مكائد الشيطان، ومغاليط النفوس، ومخاييل الظنون.

ويقال: من طَهّرتَهم من آثارهم؛ حتى وصلوا إليك بك.

(١) في تفسيره (١/ ٧).

ويقال: صراط من أنعمت عليهم بالنظر إليك، والاستعانة بك، والتبرِّي من الحول والقوة، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار والعلم، بتوحدك فيما قضيته من المسار والمضار.

ويقال: أنعمتَ عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة، واستشعار نعت الهيبة.

وقيل: صراط من أنعمت عليهم، من تأدَّبوا بالخُلْوة عند غليات بوادي الحقائق؛ حتى لم يخرجوا عن حد العلم، ولم يخلوا بشيءٍ من أمرِ الهيبة، ولم يصنعوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ بل حفظتَ عليهم آداب الشريعة وأحكامها الشرع.

وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم ؛حتى لم تطفيء شموس معارفهم، أنوار وَرَعِهم، ولم يضيفوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة .

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: المطرودين عن باب العبودية.

وقال أبو عثمان: الذين غضبتَ عليهم وخذَلْتَهم، ولم تحفَظ قلوبهم؛ حتى تهوَّدوا وتنصَّروا.

وقال الأستاذ: الذين صدَمَتْهم هوازم الخذلان، وأدركَتْهم مصائب الحرمان.

قال أبو العباس الدينوري: وكَّلْتهم إلى حولهم وقوتهم، وعرَّيْتهم من حولك وقوتك.

وقيل: هم الذين لحقهم ذل الهوان، وأصابهم سوء الخسران، وشُغلوا في الحلال، باجتلاب الحظوظ، وهو في التحقيق مكرٌ، ويحسبون أنهم على شيءٍ، وللحق في شقاوتهم سرٌّ ، ولا الضَّالين عن شهود سابق الاختيار، وجريان تصاريف الأقدار.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني: المفلسين عن نفائس المعرفة.

وأيضًا غير المغضوب عليهم بالمكر والاستدراج، ولا الضَّالين عن أنوار السبل والمنهاج.

وأيضًا غير المغضوب عليهم بالحجاب، ولا الضَّالين عن رؤية المآب.

وأيضًا غير المغضوب عليهم بالانفصال، ولا الضَّالين عن الوصال .

وقال ابن عطاء: غير المخذولين والمطرودين والمهانين، الذين ضلُّوا عن الطريق الحق .

وقيل: غير المغضوب عليهم في طريق الهلكى، ولا الضالين عن طريق الهدى لاتباع الهوى[1].

---

(١) هم الذين استعانوا بغير الله، ولَمَّا كان أثر الغضب أشدَّ من أثر الضلال؛ قدَّمه عليه، وفيه إشارة إلى أن غاية الأمر بالنسبة إلى المستعين بغير الله هو الحيرة؛ إذ لا يتم ولو قاسى كل الشدائد، وإنما يتم منه إذا لم =

وأما في قوله: ﴿آمين﴾ أي: استدعاء العارفين مزيد القربة مع استقامة المعرفة من رب العالمين، والافتقار إلى الله بنعت الأنظار؛ لاقتباس الأنوار.

وأيضًا قاصدين إلى الله بمراتب النوعية والرهبة.

وقال ابن عطاء أي: كذلك فافعل، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

وقال جعفر: «آمين»: قاصدين نحوك، وأنت أعزُّ من أن تخيِّب قاصدًا.

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿الٓمٓ﴾ [1] معناه: أن «الألف»: إشارةٌ إلى وحدانية الذات، و«اللام»: إشارة إلى أزلية الصفات، و«الميم»: إشارة إلى ملكه في إظهار الآيات.

«بالألف»: أخبر عن فردانية الذات، و«باللام»: أخبر عن سرمدية الصفات،

= يكن ذلك الغير غير الحسب لشهوده الحق في كل مظهر من المظاهر.

(١) أشار بالألف إلى المبدأ الذي هو الإنسان؛ فإنه خرج من مخرج الشأن الذاتي الغيبي الذي كان تعيُّن الذات الأحدية في تلك المرتبة بالنسبة إلى سائر التعينات؛ كتعيُّن الحروف بالنسبة إلى التركيبات اللفظية، ثم لمَّا خرج بالحركة المعنوية، والنفس الرحماني من تلك المرتبة؛ مرَّ بمرتبة الأرواح التي هي مرتبة اللام التي تعيَّن مخرجها من الوسط، فإن الأرواح متوسطة بين عالم العلم وعالم العين؛ ثم مرَّ بمرتبة الأجسام التي هي مرتبة الميم التي تعيَّن مخرجها من الفم الذي هو آخر المخارج، ولم يتعرَّض لمرتبة المثال، وإن كانت من الحضرات الخمس؛ لكونها ممتزجة بالطرفين؛ فلها وجه إلى مرتبة الأرواح، ووجه إلى مرتبة الأجسام، فإذًا المخارج الكلية ثلاثة: المبدأ الألفي، والوسط اللامي، والآخر الميمي، وما عداها فمخارج جزئية.

و«بالميم»: أخبر عن سلطانيته في إظهار الآيات.

و«الألف»: سرُّ الذات، و«اللام»: سرّ الصفات، و«الميم»: سرّ القِدم في ظهور الآيات. أما «سرُّ الذات»: فلا ينكشف إلا بوحدانيَّة الذات، و«سر الصفات»: لا ينكشف إلا لمن اتخذ صفاته بالصفات، و«سرُّ القِدم»: لا ينكشف إلا لمن خرج من الآيات.

تجلَّى بالألف لأرواح الأنبياء من سرِّ ذاته، فأفناها عن البشريات، وكساها من أنوار الذات، فخصائصهم في ذلك إظهار المعجزات، وتجلَّي باللّام لقلوب العارفين عن سرّ صفاته، فأفناها عن الكدورات، وألبسها من سناء الصفات، فكرامتهم في ذلك، إظهار الشطحيات، وتجلَّي بالميم لعقول الأولياء من سرّ قدمه، فأفناها عن الشهوات، وأنوارها صفاء القدرة بوسائط الآيات، فشرفهم في ذلك، إظهار الكرامات.

وقال جعفر الصادق: ﴿الٓمٓ﴾: رمزٌ وإشارةٌ بينه، وبين حبيبه ﷺ أراد ألا يطَّلع عليه أحدٌ سواهما ، أخرجه بحروف بعيدة عن درك الأغيار، وفَهْم السرّ بينهما لا غير .

وقال بعضهم: إن الله خصَّ حبيبه ﷺ بهذه الأحرف ، والمتّقي الذي وصفه الله تعالى: هو الذي عُزل عن الأكوان والحدثان؛ تَورُّعا عن إغواء الشيطان، وتَخلُّقًا بخُلق الرحمن.

وقال أبو يزيد: المتّقي من إذا قال، قال: الله، وإذا عمل، عمل الله.

وقال الداراني: الذين نُزع من قلوبهم حب الشهوات.

وقيل: المتّقي من اتّقى رؤية تقواه، ولم يستند إلى تقواه، ولم ير نجاته؛ إلا بفضل مولاه.

وقال سهل: إذا كان هو الهادي، فمَن يضلُّ في ذلك الطريق؛ إلا من سلكه على التجارب لا على العارف، فيصُدَّه عن مقصده بشؤم تدبيره، ويُهلكه ولو في آخر القدم .

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ : ما غاب عن الأبصار، منكشفًا بنعت الأنوار لعيون الأسرار.

و«الإيمان بالغيب»: هو تفرُّس الروح بنور اليقين مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، و«الإيمان

بالغيب»: شوقُ القلبِ إلى لقاء الرب .

وأيضًا «الإيمان»: تصديق السر ما أبصرَت الروح من مكنون حقائق الغيب بنعت مباشرة حلاوة انكشاف نور الحق في صميم سرّ السرّ، واتصاله بروقة بطنان القلب، وتعريفه أوصاف صفات الحق عقل الكلّ.

وأيضًا «الإيمان»: تصديق القلب بوجدان الروح رؤية الرب جل وعلا، و«المؤمنون»: هم الذين صدقوا مواعيد الغيوب بعد إدراكهم مواجيد قلوبهم من رؤيتها، ومواجيد قلوبهم

لا تكون إلا من رؤية أبصار بصائرهم أنوار غيب الغيب، وترائي الغيب لا يكون للروح الناطقة؛ إلا بعد أن يؤيدها الحق بتبيين البراهين، واستكشافه حقائق الاستدلال، بشهود الحال رؤية المدلول، واستحكام أنوار البصيرة، فإذا كملت هذه الأوصاف للروح، أبصرت صفاء صحارى الغيب، وتمكّنت تحت ركوم أنوار اليقين، وسناء قدس الحق، بنعت بروزه في لباس حقِّ اليقين، وحقيقةُ حق اليقين لا تحصل بالتحقيق؛ إلا بعد انسلاخ السرّ عن الاستشهاد والاستدلال.

فإذا فَرغَ منها أوصله التأييد إلى مراتب الكشوف، وإيضاح الفرقان، وأورده لصدق تحقيق رؤية الغيب، ساحات استبصار عيون النفوس، واستغنائه بها أنس من عجائب جلال المشهود من سيرانه في عالم الشواهد.

وإذا عاين مكشوفات الغيب ببصر العرفان، دخل في جوف إيواء عزّ الحق، وإغناء الحق بلوائح البيان عن طلب المشاهدة، بالفكر في الحدثان.

ونَطلَع له شموس أسرار أنوار القِدم، وتُخلِّصه بجمالها عن اقتباس مصابيح البراهين.

وإذا برق السرُّ بهذه المعاني، أشرق له حق الغيب بأوصافه، فصار السرّ والغيب متّحدين، ويكون السرّ غيبًا بعينه، والغيبُ سرًّا بعينه، فَيُغَيَّبُ السرّ في الغيب، والغيب في السرّ.

وتحصيل هذا العلم أن: الغيب يصير أهلًا للسرّ، لا يحوي فوءه عنه أبدًا، وصاحبه في كل حال شاهد المشاهدة يرى في جميع الأنفاس عالم الملكوت، وعالم الجبروت، وهذه صفة قلب محمدٍ ﷺ.

وقال الشبليُّ: لمّا صفَت أرواحهم، وأشرفت هومهم، أشرفوا على أسرار الغيب بعظَمِ أمانيهم.

وقال بعضهم: الذين تُصَدِّق نفوسهم أرواحهم؛ بما أدّت إليهم من خير ما شاهدته قلوبهم، بما غُيِّب عن نفوسهم.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت

تِجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

وقال أبو بكر بن طاهر: أشار الحقُّ إلى إخلاص عباده المخلصين؛ بأنهم بذلوا لمحبوبهم قلوبهم بالإيمان بالغيب، وبذلوا له نفوسهم بالخدمة والعبودية، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، وبذلوا له ما ملَّكهم، فلم يبخلوا عليه بشيءٍ من ذلك، عِلمًا بأنها عِوارٌ في أيديهم، وهو تعالى المالك لها ولهم على الحقيقة، بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

بأنها أسباب الوصول الحق كلاَّ ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: رعونة تَشغُلها قبول الحق، وتُلهِّيها بقبول الخلق.

وأيضًا أي: غَفَلة عن ذكر العقبي، وهِمّةٌ مشغولة بحب الدنيا ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ بتبعيدهم من قربه، وتشغيلهم عن ذِكره.

وقيل: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ : بخلُوِّها من العصمة والتوفيق والرعاية.

وقال بعضهم: بميلهم إلى نفوسهم، وتعظيم طاعتهم عندهم؛ ومن مال إلى شيءٍ عَمِي عن غيبه، فزادهم الله مرضًا؛ بأن حسَّن عندهم قبائحهم، فافتخروا بها.

وقال سهل: «المرض»: الرياء والعجب وقلة الإخلاص، وذلك مرضٌ لا يُداوى إلا بالجوع والتَقطُّع.

وقال أيضًا: «مرضٌ»: بقلة المعرفة بنعم الله تعالى، والقعود عن القيام بشكرها، والغَفْلة عنها، وهذا مرض القلب الذي ربما يتعدّى.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: لا تُنكروا أولياء الله، ولا تُشوِّشوا قلوب المريدين، بغيبة شيوخهم عندهم، ولا تُلقوهم إلى تهلكة الفراق، وقنطرة النفاق.

وأيضًا لا تخرِّبوا مزارع الإيمان في قلوبكم: بالركون إلى الدنيا ولذَّاتها.

أما قولهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ : فأوقعهم الله في شرِّ الاستدراج، وحَجَبَهم عن إصلاح المنهاج، فرأوا مساوءهم المحاسِنَ: فاحتجبوا عن المعنى، وخرجوا بالدعوى، ويَحسَبون أنهم يُحسنون صنعًا في ترك نصيحة العلماء، ومصادقة الأولياء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقيل: ﴿ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ : بعصيان الناصحين لهم، ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ؛ لأنهم محجوبون عن طرق الإنابة والهداية.

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أي: يتركهم على ما هم عليه، ولا يَهديهم إليه.

وأيضًا يُريهم الأعمال، ويُحرِّم عليهم الأحوال.

وقيل: يُحسِّن في أعينهم قبائح أفعالهم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾: لما احتجبوا عن رؤية حقيقة مشاهدة الأحوال، ولم ينالوا عزة معاني القربة، آثروا حظوظهم على ما أوتوا من الكرامات الظاهرة حين باعوها بلذائذ الشهوة، وهذه صفة إبليس وبلعام وبرصيصا، وأمثالهم من أهل الخداع.

وقال ابن عطاء: القناعة بالحرص، والإقبال على الله تعالى بالميل إلى الدنيا.

﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾: ما ربح مَن يُبدِّل بي سواي.

﴿ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾: في سابق علمي فلأجل ذلك مالوا عني.

﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا ﴾: هذا مَثَلُ من دخل طريق الأولياء بالتقليد لا بالتحقيق، يعمل عملَ الظاهر، وما وجد حلاوة الباطن، فترك الأعمال بعد فقدان الأحوال.

وأيضًا مَثَلُ مَن استوقد نيران الدعوى، وليس معه حقيقة الغنى، فأضاءت ظواهره بالصيت والقبول، فأفشى الله نِفاقَه بين الخلق؛ حتى يبدوه في أخسِّ السخرية، ولا يجد مناصًا من فضاحة الدنيا والآخرة.

وقال أبو الحسن الورّاق: هذا مَثَلٌ ضربه الله لمن لم تَصِحّ له أحوال الإرادة، فارتقى من تلك الأحوال بالدعاء إلى أحوال الأكابر، فكان يُضيء عليه الأحوال الإرادية لو صَحَّحها بملازمة آدابها، فلمّا مزجها بالدعاوى، أذهب الله عنه تلك الأنوار، وبَقِي في ظلمات دعاويه، لا يُبصر طريق الخروج منها.

وقال الواسطي: آمنوا بالغيب، ولما عاينوا الحق في القيامة، علموا حقيقة أن ما آمنوا به بعيدٌ مما شاهدوا.

وقال بعضهم: الله غيب، وهو مغيّب الغيب، والقلب غيب، فإذا آمن الغيب بالغيب، رُفع الحجاب عن الغيب، فوجد في غيب الغيب صاحب الغيب، وذلك قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ .

قال بعضهم: الذين يؤمنون بالغيب في الغيب للغيب .

وقال الأستاذ: حقيقة الإيمان التصديق، ثم التحقيق، ومُوجب الأمرين التوفيق، فالتصديق بالعقد، والتحقيق ببذل الجهد في حفظ العهد.

وفرسان أهل الغيب خمس طوائف: النفوس، والأرواح، والعقول، والقلوب، والأسرار، ومشاربهم متفاوتة: فمشربٌ صِرفٌ بلا مزاج، ومشربٌ عذْبٌ بلا أجاج، ومشربٌ ملحٌ، ومشربٌ ريِّقٌ، ومشربٌ سائغٌ، ومشربُ زنجبيل المحبّة، ومشرب سلسبيل المعرفة،

ومشرب تسنيم المشاهدة، ومشرب عين المكاشفة، وقائدُ التوفيق يقود طائفة السعادة إلى مناهل القربة، وسائق الخذلان يسوق طائفة الشقاوة إلى موارد الشهود، وموارد النفوس التي تَرُدّها هي أسنّ المنى، وأحسن الهوى، ومناهل الشهوات، سواحل نهر الغفلات، ومشارب الأرواح التي تَرُدّها هي سواقي المشاهدات والمكاشفات، وعيون القلوب التي تَرُدّها هي صفاء المعاملات، وأنوار المناجاة، والأنهار التي تردّها العقول هي مشاهدة الربوبية، وإدراك نور القربة من مرآة الآيات، والينابيع التي تردّها الأسرار هي عجائب كشوف جمال القدم، وشهودها مشهد التوحيد، وحقائق حق الربوبية، ومطالع شموس الصفات، ومشارق أقمار أنوار الذات، فالزهاد أصحاب العقول، ومشرَبهم الطاعات والعبادات، والمحبوبون هم أصحاب القلوب، ومشرَبهم الوجود والحالات، والعارفون هم أصحاب الأرواح، ومشربهم المراقبات والأنس والخَلْوات، والموحدون هم أصحاب الأسرار، ومشرَبهم التفرُّد عن الأكوان، والتجرُّد عن الحدثان، والبطّالون هم أصحاب النفوس، ومشرَبهم الدعاوى والأباطيل، والترهات والمزخرفات.

وقيل: «الغيب»: هو الله تعالى.

وقال بعض العارفين: «الغيب»: هو مشاهدة الكلّ بعين الحق.

وقال أبو يزيد: لا يؤمن بالغيب، من لم يكن معه سراجٌ من الغيب.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: يراقبون أوقات الصلاة؛ لاستنشاق نفحات الصفات، وإقامة الصلاة حِفْظ آداب العبودية في جناب الربوبيّة، بنعت الافتقار إلى مشاهدة الملك الجبّار؛ لأن في الصلاة قرّة عيون العارفين، ومناجاة المحبّين، ومشاهدة الحق للشائقين.

وقال ابن عطاء: إقامة الصلاة حِفْظ حدودها، مع حِفْظ السرّ مع الله ألا يختلج بسرّه سواه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يطلبون قُرب الرزّاق بخروجهم عن الأرزاق.

وأيضًا يتقرّبون إليه بما نالوا منه.

وأيضًا يتخلّقون بخُلقه في الإكرام والإعطاء.

وأيضًا يتحدّثون بما وجدوا من أنوار الكواشف، وكرائم المعارف عند السالكين الصادقين.

وقيل: في الإمساك لذّة، وفي الإنفاق لذّة، وكلّ ما يُلتذّ به فهو بعيدٌ من عين الحق.

وقيل: يُنفقون مما خصصناهم به من أنوار المعرفة، يفيضون بركاتها ونورها على من تَبِعهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ أي: أولئك على حقيقة يقينٍ، متّصلة بأنوار المعرفة، أن الله تعالى بلا معارضة النفس، وريب الشيطان، مفلِحون من مكائدهما ووساوسها.

وأيضًا مفلِحون من الله بالله.

وقيل: أولئك الذين لزموا طريق المفاصلة بالانفصال عما سوى الحق ما فلحوا فانقطع الحجب عن قلوبهم فشاهدوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ أي: إن الذين احتجبوا عنا بحظوظ البشريات سواء عندهم إنذارك بقطيعتنا عنهم، وتخويفك بعقوبتنا عليهم؛ لأنهم في مهمة الغفلة عن مباشرة المعرفة، لا يقرون باللقاء والمشاهدة؛ لاستغراقهم في بحار الشهوة.

وقيل: إن الذين ضلُّوا عن رؤية منني عليهم في الشبق سواء عندهم من شاهد الأعواض في خدمتي، ومَن شاهد المعوّض لا تخلص سرائرهم، ولا يثبت لهم الإيمان الغيبيّ، وإنما إيمانهم على العبادة.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ما نظر إليها منذ خلقها، فحرّم عليها أنوار ذكره، ومواصلة إلهامه.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: على سمعهم وقْر الضلال، فلم يسمعوا حقائق الخطاب، ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ أي: على أبصارهم غطاءُ القصر، فلم يبصروا بها طراوة صفة الصانع في الصنع، ولم يتفرّسوا بالبصائر ما كشف الله لأهل الإيمان من ملكوت السماوات والأرض.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ : عذابهم بعدهم عن قرب مولاهم حتى لم يدركوا بركات كراماته.

وقيل: أهل البصر نظروا من الله إلى الأشياء، فشاهدوها في أسرار القدرة، وأهل النظر استدلوا بالأشياء على الله، فحجبهم عقولهم، واستدلالاتهم عن بلوغ كنه المعرفة بالله.

قال عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: «طبعَ الله على قلوبهم برؤية أفعالهم بمعاونة النفوس، حتى كفروا سرًّا، وآمنوا علانيةً».

قال جعفر الصادق: الختمُ على وجوهٍ: منهم من ختمَ على قلبه برؤية فعله، ومنهم من ختمَ على قلبه برؤية الأعواض، ومنهم من ختم قلبه بالإسلام، ومنهم من ختم قلبه بالإيمان، ومنهم من ختم قلبه بالمعرفة: ومنهم من ختم قلبه بالتوحيد، فكلٌّ واقفٌ مع ذلك الختم.

وقال سهل: أسبلَ عليهم ستر شقاوةٍ، فصمُّوا عن سماع الحق، وعموا عن ذكره[1].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝﴾: هؤلاء أهل الدعاوى الذين يزيِّنون ظواهرهم بشعار المخلصين، ويخرِّبون بواطنهم بسوء أخلاق المنافقين، كلامَهم كلام الصدِّيقين، وأفعالهم أفعال المكذِّبين.

وقيل: إن الناس اسم جنس، واسم الجنس لا تخاطب به الأولياء.

وقال بعضهم: ليس الإيمان ما يتزيَّن العبيد قولًا وفعلًا، لكن الإيمان جرْي السعادة في سابق الأزل، وأمّا ظهورها على الهياكل، فربما يكون عوارض، وربما يكون حقائق.

﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يخادعون أولياء الله من حيث إقرار الإيمان بالقلوب، وإخفاء التداهن في النفوس، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ حين لا يعلمون تفرُّس أهل الولاية، فيُفتضحون عندهم، وأما خَدْعهم مع أهل الإيمان، من حيث الظواهر قولًا وفعلًا، ودسائسهم في البواطن حقدًا وبُعدًا.

وأيضًا يخادعون الله بالفرار، والذين آمنوا بالإقرار.

وقال بعض العراقيين: الخداع والمكر تنبيهٌ من جهة شهود انسعايات، والالتفات إلى الطاعات؛ كي لا يُعتقد فيها بأنها أسباب الوصول الحقّ كلٌّ.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: رعونةٌ تشغلها بقبول الحق، وتلهيها بقبول الخلق.

وأيضًا أي: غَفْلةٌ عن ذكر العُقبى، وهمَّةٌ مشغولةٌ بحب الدنيا، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ بتبعيدهم من قربه، وتشغيلهم عن ذكره.

وقيل: في قلوبهم مرضٌ، بخلُوِّها من العصمة والتوفيق والرعاية.

وقال بعضهم: بميلهم إلى نفوسهم، وتعظيم طاعتهم عندهم، ومن مال إلى شيءٍ، عَمِي عن غيبه، فزادهم الله مرضًا؛ بأن حسَّن عندهم قبائحهم، فافتخروا بها.

وقال سهل: «المرضُ»: الرياء والعجب وقلة الإخلاص، وذلك مرضٌ لا يداوى إلا

---

(١) وفسر ابن عطية الختم بثلاثة أوجه: الأول: أنه حسي حقيقة، فإن القلب على هيئة الكف ينقبض مع زيادة الضلال كما ينقبض الكف إصبعا، إصبعا.

الثاني: أنه مجاز عبارة عن خلق الضّلال في قلوبهم وأنّ ما خلق الله في قلوبهم من الكفر والضلال والإعراض عن الإيمان سمّاه ختما.

الثالث: إنّه مجاز في الإسناد كما يقال: أهلك المال فلانا وإنّما أهلكه سوء تصرفه فيه.

قال ابن عرفة: وسكت ابن عطية عن هذا الثالث وهو إنما يناسب مذهب المعتزلة ولما جاءت الآية مصادمة لمذهبهم تأولها الزمخشري وأطال وقال: إنه مجاز واستعارة.

بالجوع والتقطُّع .

وقال أيضًا «مرضٌ»: بقلة المعرفة بنعم الله تعالى، والقعود عن القيام بشكرها، والغفلة عنها وهذا مرض القلب الذي ربما يتعدَّى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تنكروا أولياء الله، ولا تُشوِّشوا قلوب المريدين بغيبة شيوخهم عندهم، ولا تلقوهم إلى تهلكة الفراق، وقنطرة النفاق.

وأيضًا لا تخرِّبوا مزارع الإيمان في قلوبكم، بالركون إلى الدنيا ولذَّاتها.

أمَّا قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: فأوقعهم الله في شرِّ الاستدراج، وحَجَبهم عن إصلاح المنهاج، فرأوا مساوئهم المحاسن، فاحتجبوا عن المعنى، وخرجوا بالدعوى، ويَحسَبون أنهم يُحسِنون صُنعًا في ترك نصيحة العلماء، ومصادقة الأولياء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

وقيل: هم المفسدون بعصيان الناصحين لهم، ولكن لا يشعرون؛ لأنهم محجوبون عن طريق الإنابة والهداية.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يتركهم على ما هم عليه، ولا يَهديهم إليه، وأيضًا يُريهم الأعمال، ويُحرِّم عليهم الأحوال، وقيل: يُحسِّن في أعينهم قبائح أفعالهم.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾: لما احتجبوا عن رؤية حقيقة مشاهدة الأحوال، ولم ينالوا عزّة معاني القربة، آثروا حظوظهم على ما أوتوا من الكرامات الظاهرة، حين باعوها بلذائذ الشهوة، وهذه صفة إبليس، وبلعام، وبرصيصا وأمثالهم من أهل الخداع.

وقال ابن عطاء: القناعةُ بالحرص، والإقبال على الله تعالى بالميل إلى الدنيا.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾: ما ربح من يُبدِّل بي سواي .

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: في سابق علمي ، فلأجل ذلك مالوا عني.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: هذا مَثَلُ من دخل طريق الأولياء بالتقليد لا بالتحقيق، يعمل عمل الظاهر، وما وجد حلاوة الباطن، فترك الأعمال بعد فقدان الأحوال.

وأيضًا مَثَلُ من استوقد نيران الدعوى، وليس معه حقيقة الغنى، فأضاءت ظواهره بالصيت والقبول، فأفشى الله نفاقه بين الخلق حتى يَبدوه في أخسِّ السخرية، ولا يجد مناصًا من فضاحة الدنيا والآخرة.

وقال أبو الحسن الورَّاق: هذا مَثَلُ ضربة الله لمن لم تصح له أحوال الإرادة، فارتقى من تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر، فكان يُضيء عليه الأحوال الإرادية، لو صحَّحها

بملازمة آدابها، فلما مزجها بالدعاوى، أذهب الله عنه تلك الأنوار، وبَقِي في ظلمات دعاويه لا يُبصر طريق الخروج منها .

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: صَمَّت أسماع أرواحهم عن أصوات الوصلة، وحقائق إلهام القُربة التي يُعرِّف بها الحق عن صفاته لأوليائه، بَكُمٌ عن تعريف علل بواطنهم عند أطبَّاء القلوب عجبًا ونفاقًا، عُمْيٌ عن رؤية خاتمتهم التي ختم لهم الحرمان والشقاء، وأيضًا عُمْيٌ عن رؤية أنوار جمال الحق في سماء أوليائه، وحسن أفعاله في آياته.

وقال بعضهم: «صُمٌّ»: لا يسمعون القرآن، «بُكْمٌ»: لا يتكلمون بالإيمان، عُمْيٌ لا يرون دلائل الرحمن.

وقيل: صمَّت آذان قلوبهم، وخَرِست ألسنتهم عن الذكر، وعَميت أعين صدورهم عن الاعتبار.

وقال الجنيد: صمُّوا عن فَهم ما سمعوا، وبكموا عن عبادة ما عرفوا، وعموا عن البصيرة فيما إليه دعواهم.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي: إذا وجدوا من طاعتهم

حلاوة وعوضًا عاجلًا، فشرعوا فيها، وإذا أُحتبس عليهم طريق الكرامات، فتركوا جميع الطاعات.

قال الحسين: إذا أضاءهم مرادهم من الدنيا والدين ألفوه، وإذا أظلم عليهم من خلافٍ بعقولهم قاموا مجهولين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: شَرِّفوا أنفسكم بعبادة ربكم.

وأيضًا اشكروا نعمة معرفتي بعبادتي، وقيل: وَحِّدوا ربكم.

وقال جعفر الصادق: بَيِّنوا ربوبيته، ثم اعبدوه على حد الهيبة والإجلال، وعاينوا أوّل تربيَّتكم؛ لتعلموا خصوصيته إيّاكم من بين سائر خلقه.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾: أشار بهذا إلى ترك المرتع والمنظر، ما دامت الأرض لغرماء الحق، ولعمّار السماء غطاءً.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾: بَيَّن للعباد أمر رزقهم، أنه ليس من عند غير الله، حتى يشتغلوا عن عبادة ربّه باهتمام الرزق.

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ أي: فلا تجعلوا لله شريكًا في طلب رزقكم منه بعبادة ربكم، ولا تبيعوا عبادة الله بمال الدنيا.

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: إن الله تعالى رازقكم وخالقكم، أي: لا تكونوا مُرائين، وللطاعة بائعين، وللدنيا وقبولها مُشترين.

قال سهل أي: لا تجعلوا لله أضدادًا، وأكبر الأضداد النفس الأمّارة بالسوء.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: إن لأهل المعرفة جِنان جنّة العبودية، وجنة الربوبية، وجنة المعرفة، وجنة المحبّة، وجنة القُربة، وجنة المشاهدة، وجنة المداناة، وجنة الوصلة، وجنة التوحيد، وجنة البقاء، وجنة البسط، وجنة الرجاء، وجنة الانبساط، وجنة السُكر، وجنة الصحو، وجنة الملكوت، وجنة المكاشفة، وجنة الحقيقة، وجنة العلم، ولكل جنةٍ منها نهرٌ تجري من تحتها، فجنة العبودية الكرامات، ونهرها حقائق الحكمة، وجنة الربوبية مشاهدة صرف القدرة، ونهرها رؤية تجلّي الحق في مرآة الآيات، وجنة المعرفة إدراك نوادر الألوهية، ونهرها صفاء الإخلاص، وجنة المحبّة مشاهدة الآلاء، ونهرها الرضا بمراد المحبوب، وجنة القربة مباشرة أنوار الصفة، ونهرها خاصية المحبّة، وجنة المشاهدة الدهشة في جمال الحق، ونهرها لطائف الإشارة، وجنّة المداناة، والاستئناس برؤية الوصال، والتَبرِّي من الحدثان، ونهرها كشف

غرائب تجلّي الصفات، وجنة الوصلة اللّذة في العشق، ونهرها المحبّة، وجنة التوحيد التلبُّس باللباس الربّانيّ، ونهرها الانسلاخ عن اللباس الإنسانيّ، وجنة البقاء التمكين، ونهرها السكينة، وجنة البسط الفرج بالمشاهدة، ونهرها الطمأنينة، وجنة الرجاء الشوق ونهرها الأُنس، وجنة الانبساط الاتّحاد، ونهرها الفريدة والحكم في الحضرة، وجنة السكر حلاوة الفناء، ونهرها صفاء عيش الروح في المشاهدة، وجنة الصحو المعجزات وتقلُّب الأعيان، ونهرها العلم اللّدني، وجنة الملكوت رؤية تصاوير أشخاص الأرواح ، ونهرها مزيد اليقين، وجنة المكاشفة المراقبة بنعت وجدان صفاء المعرفة، ونهرها أسرار الفِراسات، وجنة الحقيقة وجدان الروح في مقام الجمع والتفرقة، ونهرها التلوين والتمكين، وجنة علم المجهول الراحة في الشطحيات، ونهرها غوصُ الروحِ في بحر الحقيقة(١).

﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾: أهل جنان الوَصْلة إذا كُشفت لهم أسرار الغيب، رأوا مشاهدات أنوار الصفات في مقامات الأرواح، جميعها يَدُلّ بعضهم بعضًا، ويحصل لهم من نور الكبرياء، ما يحصل لهم من نور العظمة، ومن نور القِدم ما يحصل من نور البقاء، هكذا جميع الصفات.

وأيضًا إذا تمكّن أهل المشاهدة في الجنة غذاءً، ورأوا ربهم تعالى، وجدوه على الصفة التي أظهر نفسه جلّ وعزّ لأهل المكاشفة في دار الدنيا يقولون: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما نحن كنّا فيه من مشاهدته في العاجل، يجدها بتلك الصفات في الآجل؛ لأن وجوده يتغيّر بتغيُّر الزمان في المكان، أوّله في الربوبية آخره في الألوهية، وآخره في الصمدية أوّله في الأزلية.

وقال السري في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أخلصَ سرَّه، وعبادته لي.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى﴾ أي: نورٌ في أسرارهم وقلوبهم، في الدنيا يستريحون إليه للتوكل والاكتفاء، ونورٌ في الآخرة، بدخولهم الجِنان، ومجاورتهم الرحمن.

---

(١) وقال سيدي إسماعيل حقي: أي يحصل لهم جنات القربة معجلة من بذر الإيمان الحقيقي وأعمالهم القلبية الصالحة والروحية والسرية بالتوحيد والتجريد والتفريد من أشجار التوكل واليقين والزهد والورع والتقوى والصدق والإخلاص والهدى والقناعة والعفة والمروءة والفتوة والمجاهدة والمكابدة والشوق والذوق والرغبة والرهبة والخوف والخشية والرجاء والصفاء والوفاء والطلب والإرادة والمحبة والحياء والكرم و السخاوة والشجاعة والعلم والمعرفة والعزة والرفعة والقدرة والحلم والعفو والرحمة والهمة العالية وغيرها من المقامات والأخلاق تجرى من تحتها مياه العناية والتوفيق والرأفة والعطفة والفضل.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ أما الذين شاهدوا بنعت الاصطفاء في مشاهد الأزل، ورأوا جمال مشاهدة الحق، وسَمِعوا كلامه، فيعلمون أن القرآن حقٌّ من ربهم؛ لأنهم صادقوا حقيقة مقام التصديق بنعت الأرواح قبل كون صورتهم، وبعد كونها قابلوا الآخر بالأول، والأول بالآخر، وجَدُّوا صِرفًا صِدقًا، فاستقاموا في الصدق والإخلاص حين سمعوا خطاب الحق.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: الذين لم يبلغوا مقام المشاهدة، وقفوا في بحر الأشكال، ولم يهتدوا بضرب الأمثال.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ ﴾: القرآنُ بحر عجائب الربوبية، وأخبار غرائب أسرار صفة القدسية، فمن كحَّله الله بكحل نور الحقيقة، يرى بعين السرِّ عرائس مشاهدات الصفات ويعشق بها، ويَبقى في طلب مزيد حقيقة علومها، ويندرج بمهجته تحت أحكامها برسم العبودية، ومتابعة المخاطبة، ومن أعمى الله قلبه عن مشاهدة تجلّي كتابه، يضل في طريق النُّكرة، ويغرق في بحر الضلالة.

وقيل: بين العبد وبين الله بحران: بحر الهلاك وبحر النجاة، وقد يهلك في بحر النجاة خلقٌ كثيرٌ، كما قال: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: الإشارة فيه إلى حال أهل الفترة الذين سلكوا طريق أهل القصد، ثم رجعوا إلى ما عليه عادة العوامِ من الرّخص والتأويل، فمَن هذا شأنه، فقد زاغ عن محجَّةِ المشاهدة، وتحيَّر في أودية الغَفْلة ، وتَهيَّم في سراب الفقدان محجوبًا عن مشاهدة الرحمن.

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ﴾ أي: كنتم أمواتًا في قبور العدم، فأحياكم بأنوار القِدم.

وأيضًا كنتم أمواتًا في غطاء الغَفْلة، فأحياكم بروح المعرفة.

وقال الشبلي: وكنتم أمواتًا عنه، فأحياكم به .

وقال ابن عطاء: كنتم أمواتًا بالظاهر، فأحياكم بمكاشفة الأسرار، ثم يُميتكم عن أوصاف العبودية، ثم يُحييكم بأوصاف الربوبية، ثم إليه تُرجَعون عند تحيُّركم عن إدراكه صرف الذّات والصفات عن شواهد المعرفة في طلب الحقيقة .

قال فارس: كنتم أمواتًا بشواهدكم، فأحياكم بشواهده ، ثم يُميتكم عن مشاهدكم، ثم يُحييكم بقيام الحق عنه، ثم إليه تُرجَعون عن جميع ما لكم وكنتم له .

وقال الواسطيُّ: وَبَّخَهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه في شيء، فإنما النزاع من الهياكل الروحانية .

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ : لاعتباركم وامتحانكم، حتى يُميِّز بين الصادق بتركها لوصوله إلى خالقها، وبين المدَّعي بسكونه إليها عن مدبِّرها.

وأيضًا خلق لكم ما في الأرض جميعًا؛ لتطلبوا في الأشياء خالق الأشياء؛ لأنه أظهر نفسه في مرآة الكون للعارفين والمحبِّين .

قال ابن عطاء: ليكون الكون كلُّه لك، وتكون لله، فلا تشتغل بها لك عمن أنت له.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقال بعض البغداديين في قوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم ﴾ : أنعمَ عليكم بها، فإن الخَلْقَ عَبَدة النعم؛ لاستيلاء النعمة عليهم، فمن ظهر للحضرة أسقط عنه بالمُنعم رؤية النعم.

وقال أبو الحسين النوريّ: أعلى مقامات أهل الحقائق، الانقطاع عن العلائق.

وقال ابن عطاء: أحكم التدبير فيهن ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كما زيَّن ملكوت الأرض بأنوار القدرة للمؤمنين، قصد إلى تزيين ملكوت السماء بهاء العزّة للعارفين.

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [1]: لما لم يعرفوا الله تعالى بحقّ المعرفة، وعجزوا عن

---

(١) جعل آدم خليفة، وأعطاه حكم الخلافة، والخليفة لفظة مؤنثة؛ لأنها محل التكوين، وبها ظهر الكون، وهي زبدة مخضة الطبيعة التي ظهرت بتحريك الأفلاك وهي روح اللبن، فإذا خرج من العالم، فالعالم يكون كالنفل لا عبرة به، فافهم.

إدراك الحقيقة، وانصرفوا عن باب الربوبيّة من هجوم إجلال سَطْوات العزّة عليهم، فأحالهم الحق جلّ وعزّ إلى آدم باقتباس العلم والأدب في الخدمة؛ حتى يُوصِّلهم بعلم الصفات إلى ما لم ينالوا بالعبادات؛ لأنهم عبدوا الله بالجهل، ولم يعرفوه حق معرفته، وهو عَرِف الله بحقيقة العلم الذي علّمه من العلوم اللدنية، لا جرم أنه أستاذهم في علم المعرفة، وإن سبقوا منه بالعبادة.

وأيضًا لم يرى في الكون محبًّا صافيًا كما يريد، فجعل آدم؛ لأجل المحبّة؛ لأنه خلق الملائكة؛ لأجل العبادة، فعرفهم عند المشورة مع الملائكة خلّوهم من المحبّة؛ بشغلهم عنه بالعبادة.

وأيضًا أراد الملائكة أن يَروا الله تعالى، فعلِم الحق ضعفهم عن النظر إليه، فجعل آدم لهم حتى يَرونه؛ لأن الله تعالى خلقه بيده، وصوَّره بصورته، ووضع فيه مرآة روحه، إذا نظروا فيها تجلّى لهم الحق تعالى.

وأيضًا ليس في العالم شاهدٌ جميل يُحبّه الحق، فخُلق بيده، وألبسه صفةً من صفاته، وأحبّه بصفاته؛ لأجل صفاته.

وأيضًا أراد الحق أن يُظهر لهم نفسه في حقائق الصنع، فانصرفوا من الحق إلى الخَلق.

وقيل: عَصوا الله تعالى باعتراض الحق في مذمّة آدم، ومَدْح أنفسهم لمّا قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ لأن الله تعالى سمَّى آدم خليفةً في بدأ الخطاب، والخليفة لا يحيف ولا يجور، فجَهَلُوا مَن وصفه الله تعالى بخلافته؛ وعلَّمه بخصائص محبته، ومدَحه بالخلافة، وهم عيَّرُوه بالفسق والجهالة من سوء الظن، وقلّة الأدب، فكشف الله تعالى نقاب القدس عن وجه آدم، وأنورَّ بجماله العالم، فخجلوا من دعواهم، واعترفوا بجهلهم، فقالوا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: تحرّكوا من حيث الأعمال، وشأن آدم من حيث الأحوال برؤية الفعل عن مشاهدة الاصطفائية التي سبقت بنعت الحسن لآدم.

وأيضًا تعرَّضوا بنعت المعبودية عند سرادق العظمة منه على الربوبية، فأسقطهم الله عن مقام حقيقة المعرفة، وأحوجهم باقتباس علم أحوالهم عن آدم.

قال بعضهم: لما شاهدوا أفعالهم وافتخروا بها، ردَّ الله تعالى وجوههم عنه إلى آدم، وأمرهم بالسجود له؛ إعلامًا أن العبادة لا تَزِن عنده شيئًا.

وقال بعضهم: من استكبر بعلمه، واستكبر بطاعته كان الجهل وطنه؛ ألا تراهم لما قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ألجأهم إلى أن قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

قال الواسطي: من قال أنا، فقد نازع القدرة.

قالت الملائكة: ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وذلك لبُعدهم من المعارف، وهم أرباب الافتخار والاعتراض على الربوبيّة، بقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

وقال ابن عطاء: أن الملائكة جعلوا دعاويهم وسيلةً إلى الله، فأمر الله النارَ، فأحرق منهم في ساعة واحدة ألوفًا، فأقرُّوا بالعجز وقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

وقال جعفر: لما باهوا بأعمالهم، وتسبيحهم وتقديسهم، ضربهم كلهم بالجهل حتى قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

وقال بعض العراقيين: شروط الخلافة رؤية بداية الأشياء فصلًا ووصلًا، إذ لا نصل، ولا وصل لم ينفصل منه شيء، وأي وصل للحدث والقِدم.

وقال بعضهم: عَيَّروا آدم واستصغروه: ولم يعرفوا خصائص الصنع به، وأظهر عليه صفات القِدم، فصار الخضوع له قربةً إلى الحق، والاستكبار عليه بعدًا من الحق.

وقال أبو عثمان المغربي: ما بلاء الخلق إلا بالدعاوى.

ألا ترى الملائكة لما قالوا: ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كيف رُدوا إلى الجهل حتى قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾: علّمه أسماء الصفات الخاصة التي عرف بها حقائق جميع الصفات، واهتدى بأنوارها طرائق معارف الذات.

وأيضًا علّمه أسماء المقامات التي هي مدارج الحالات.

وقال الجريري: علّمه اسمًا من أسمائه المخزونة، فعلّم به جميع والأسامي.

وقال ابن عطاء: لو لم يَكشف لآدم عِلْم تلك والأسامي؛ لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ

﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ
وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقيل: غلب علمه على علم الملائكة؛ لقوة مشاهدة الخطاب من غير واسطة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾(١).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: ألبس الملائكة لباس العبودية، فأُعجبوا بعبادتهم، وألبس آدم لباس الرؤية، ورقَّمَ عليه طراز صفاته، وعَرَضه على الملائكة، فرأوه ملتبسًا بلباس الحق، فخجلوا عن تعجّبهم بعبادتهم، فأمرهم الله بسجود آدم تغييرًا لهم، وتعليمًا أن عبادتهم لا تزيد بالربوبية، ولا تنقص عن الألوهية.

وأيضًا لما خلَّقه بخُلقه، وصوَّره بصورته، وألبسه أنواره، ونفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأجلسه على سرير مملكته، فأسجد له ملائكته؛ حتى أكمل له في العبودية صفات الربوبية، فلما سجد الملائكة لآدم، فأبى إبليس عن السجود؛ لأن الملائكة رأوا فيه سرّ الله تعالى، وعليه لباس الله مصبوغًا بصبغ الله، ولم يرَ إبليس ما كُشف لهم، فأبى واستكبر من غضب الله عليه، وكان من الكافرين، أي: في سابق علمه من المطرودين.

وقال ابن عطاء: لما استعظموا تسبيحهم وتقديسهم، أمرهم بالسجود لغيرهم، يريهم به استغناؤه عنهم وعن عبادتهم.

قال الحسن بن منصور: لمّا قيل لإبليس اسجد لآدم خاطب الحق فقال: ارفع شرف السجود عن سرّي إلا لك في السجود، حتى أسجد له إن كنت أمرتني فقد نهيتني، فقال له:

---

(١) قوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: الصور التي تجلّى فيها الحق إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾،كأنه قال لهم: وهل سبَّحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجليات التي أنجلاُّها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ونقدِّس ذواتنا عن الجهل بك، فهل قدَّستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجلّيات وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبِّحوني بها؟ فقامت عليهم الحجة في ادِّعائهم الإلهيَّة، فقالت بعد العلم: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾، واعترفت بالكمال الذي غاب عنها هذا، وقد قال تعالى لها: إنه خليفة، فكيف بها لو لم يقل لها ذلك، فلم يكن ذلك إلا لبطونه على الملائكة.

فإني أعذبك عذاب الأبد ، فقال: أولست تراني في عذابك لي ، قال: بلى، فقال: فرؤيتك لي تحملني على رؤية العذاب، افعل بي ما شئت ، فقال: أجعلك رجيمًا، قال إبليس: أوليس لم يحامد سوى غيرك، افعل بي ما شئت .

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: اسكن في جواري من قطيعتي، وإن تصيبك خطيئة، فإن في عصيانك في دار العصمة عذر عصاة أولادك من أهل التوحيد في دار المحنة، واشتياقك إلى نعيمي بعد هجرانك من جواري، وبلوغك بعد فنائك في القدم إلى لقائي.

وأيضًا أوصاه بالتمكين عند خداع إبليس ومكره؛ حتى لا يزول قدمه عن مقام التمكين بمقالة العين.

وأيضًا أراد الله أن يعصيا فوكَّلهما إلى أنفسهما، وعزلهما عن القُربة بإدخالهما في الجنة؛ لأن آدم وحوّاء طفلا الزمان، لا يستقران في جبروت الرحمن، فألجأهما إلى أكل ثمار أشجار الجنان لإفراد القديم عن الحدثان؛ ألا ترى إلى قوله تعالى:﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ .

وقال القاسم: السكون في الجنة وَحْشَةٌ من الحق، وأنه ردّ المخلوق إلى المخلوق، وهو رَدُّ النقص إلى النقص؛ لامتناع الأزل عن الحوادث.

وقال بعضهم: ردَّهما في السكون إلى أنفسهما ووكَّلهما إليها، فقال: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وفي دعاء المخلوق إلى المخلوق، إظهار العلل بمعونات الطبع.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ : أخفى الله تعالى في الشجر أسرار الربوبية لآدم وحواء، ومنعهما عن قُربها؛ حتى لا يُشوِّش عليهما عيش الإنسانية، ولكن هيَّجهما بمنعهما عن قرب الشجرة إلى طلب تناولها، فلمّا قَرِبا الشجرة ، كسا الشجرة أنوار القدس، وتجلّى الحق سبحانه لهما من الشجرة، كما تجلّى من شجرة موسى لموسى، فعشقا الشجرة ووقعا فيها، ونسيا ذكر النهي عن قُربها.

قال ابن عطاء: نهى عن جنس الشجرة، فظنّ آدم أن النهي عن المشار إليه، فتناول على حد النسيان، وترك المحافظة لا على التعمُّد والمخالفة[1].

---

(١) قال الشيخ نجم الدين -قدس سره-: إن آدم خاطبه مولاه خطاب الابتلاء والامتحان والنهى نهى تعزز ودلال كأنه قال يا آدم أبحت لك الجنة وما فيها إلا هذه الشجرة فإن الإنسان حريص على ما منع فسكنت نفس آدم على حواء وإلى الجنة وما فيها إلا إلى الشجرة المنهي عنها لأنها كانت مشتهى القلب، وكان للنفس فيها حظ ولا يزال يزداد توقانه إليها فيقصدها حتى تناول منها فطر سر الخلافة والمحبة والمحنة والتحقق بمظاهر الجمال والجلال كالتواب والغفور والعفو والقهار والستار. والحاصل أنه لما =

قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ .

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من المجاورين عن حد العقل إلى حد العشق.

وقال بعضهم: معناه أنه نهاهما عن قرب الشجرة، وقضى عليهما ما قضى؛ لنُريهما عجزهما، وإنّ العصمة هي التي تقومهما، لا جَهدهما وطاقتهما.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ : الإشارة فيه أن المُريد لا يجوز أن يعتدي بكل أحدٍ، وربما يقع بكلام أهل الخِداع في هاوية الهلاك، والمُريد قد غلب عليه الإرادة، وحلاوة المعاملة، وكلّ من يدعوه إلى شيءٍ من المعاملة يسمع كلامه، وإن كان مدّعيًا؛ لأنه لا يعرف كيفية الأحوال، فيسقط عن درجة الإرادة بشؤم صحبة الأضداد.

وأيضًا من سلك طريق الشهوة، احتجب عن مشاهدة القُربة؛ لأن سوء الأدب يوجب سقوط المُريد عن درجة الحُرمة.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: مشهدُ إسباحكم في ملكوت الأرض، ومستقرُّ أرواحكم في ملكوت الحضرة.

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ :«متاعهم»: أنوار تجلّي الحق يترادف على قلوبهم؛ ليعيشوا به تسليًا عن فقدان المشاهدة.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ : «الكلمات»: ما اعتذر الله آدم من إنفاذ قضائه وقدره عليه، فتلقّى آدم من ربه تلك الكلمات، فاعتذر بها من الله لخطيئته.

وقيل: هي ربنا ظلمنا أنفسنا.

وقال جعفر بن محمد: قال آدم يا ربِّ ما خدعت إلا بك.

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ﴾ أي: اذكروا معونتي في طاعتكم وهدايتي قبل مجاهدتكم، وما كُشف لكم من أسرار معرفتي؛ حتى لا تغترُّوا بمعاملتكم.

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ .

وقال بعضهم: ربطَ بني إسرائيل بذكر النعمة، وأسقط عن أمة محمد ﷺ ذلك، فدعاهم

=

علم الله تعالى أنه يأكل من الشجرة نهاه ليكون أكله عصيانًا يوجب توبة ومحبة وطهارة من تلوث الذنب كما قال تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) فأورثه ذلك النهي عن أكل الشجرة عصيانًا بسبب النسيان ثم توبة بسبب العصيان ثم محبة بسبب التوبة ثم طهارة بسبب المحبة. تفسير حقي (١/ ١٢٨).

إلى ذكره، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾؛ ليكون نظر الأمة من النعمة إلى المُنعم، ونظرت أمة محمد ﷺ من المُنعم إلى النعمة .

وقال سهل بن عبد الله: أراد الله أن يخصَّ أمة محمد ﷺ بزيادةٍ على الأمم، كما خصَّ نبيّهم ﷺ بزيادةٍ على الأنبياء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾

فقال للخليل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وقطع سرَّ محمّدٍ ﷺ، ورؤيته عما سواه.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٢ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣﴾.

ألم تر إلى ربك قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أي: أوفوا بما نقشتُ في قلوبكم من حقائق إلهامي وخطابي في جميع الأحوال بامتثال أمري، أوفِ بكشف جمالي لكم حين احتجبتم عن وصالي وقُربي.

وأيضًا أوفوا بما أُعطيكم من استعداد معرفتي وعمارة موقع نظري، أوفِ بأن أُطْلعكم على خزائن ستري، وحقائق علمي في سواتر غيبي .

وقال بعض البغداديين: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ ، الذي عهدتم يعني: في الميثاق الأوّل

بلفظ بلى، فلا ترجعوا في طلب الشيء إلى غيري.

وقيل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى﴾: أحفظوا ودائعي عندكم لا تظهروها إلا عند أهلها، أوفِ بعهدكم، وأبيح لكم مفاتيح خزائن برِّي، وأنزلكم منازل الأصفياء.

وقال أبو عثمان: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِىٓ ﴾: في التوكُّل، أوفِ بعهدكم بكفاية مهمّاتكم.

وقال أبو سعيد القرشي: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِىٓ﴾ في حفظ آداب الظاهر، أوفِ بعهدكم بتزيين سرائركم.

وقال بعض العراقيين: أوفوا بعهدي في العبادات، أوفِ بعهدكم، وأوصلكم إلى منازل الرعايات.

وسُئل أبو عمرو البيكنديّ عن قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى﴾، فقال وفاء العهد الأمانة، وهو: ألّا يخالف سريرتك علانيتك؛ لأنّ القلب أمانة، والوفاء بالأمانة الإخلاص في العمل، فمَن لم يخلص لا نُقيم له يوم القيامة وزنًا.

﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾: هذا خطابُ الخاص من الخاص إلى الخاص، أمرهم بإجلال نفسه بخصائص التعظيم مع لبِّ اليقين، خوفًا منه به لا عنه، فإنه جلّ وعزّ خوَّفهم بنفسه لا عن نفسه. وقال سهل بن عبد الله: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾: موضع اليقين ومعرفته، ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ موضع العلم السابق، وموضع المكرُ والاستدراج.

قوله: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: بي اتّقوا منِّي، وبداية التّقوى التبرِّي من الناسوت للّاهوت، ومن الكون للمكوِّن؛ حتى بلغ حقيقة التقوى، فاتّقى منه به له فرجا الله، وخاف منه.

وقال بعضهم: التقوى على أربعة أوجهٍ: «العامة»: تقوى الشرك، و«للخاص»: ترك المعاصي، و«للعارفين»: تقوى التوسُّل، و«لأهل الصفوة»: تقواهم منه وإليه.

وقال أبو عبد الرحمن السلميّ: التقوى النظر إلى الكون بعين النقص.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ أي: تخلِطوا الكشف بالخيال، والفهم بالوهم، والفراسة بالحسِّ، والإلهام بالوسواس، واليقين بالشك ،والعبودية بالربوبية، والحقيقة بالرسم، والإخلاص بالرياء، والكرامات بالمكر.

وقال سهل: لا تخلِطوا أمر الدنيا، بأمر الآخرة.

﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: استعينوا بالصبر في طلب المقامات، والصلاة في طلب المشاهدات، أيضًا استعينوا بالصبر في تزكية الأشباح، وبالصلاة في تربية الأرواح.

وقال ابن عطاء: استعينوا على البلوغ إلى دَرْك الحقائق .

وقال أبو عثمان: استعينوا بهم على رعاية أوقاتكم.

وقال بعض العراقيين: استعينوا بالصبر عن دون الله، والصلاة بالوقوف بحسن الأدب مع الله.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾: لأنّ في صوم الرجال إمساكٌ عمّا سوى الله، وفي صلاة أهل الكمال عذوبة القلب من طلب مناجاة الربّ، ولا يستعملها إلا من خشع نفسه في العبودية، وعشق قلبه بالربوبية.

وأيضًا أمَرَهم بالعبودية، وأرشدَهم إلى جميع العبادة، وهي الصوم والصلاة، وأضاف تساهلها إلى أهل الخشوع؛ لأنها الكبيرة على العاشقين.

وقال أبو عثمان: لَمن خَشِع قلبه وروحه، وستره بوارد الهيبة، وطوالع الإجلال.

وقال بعضهم: لَمن أيِّد في الأزلي تخصيص الاجتباء.

وقال ابن عطاء : إنها لكبيرة إلا على من تحقَّق إيمانه، وخَشِع سرَّه لعظمتي، واحترقت أحشاؤه خوفًا من قطيعتي .

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾: وصفهم بالظنّ؛ لأنهم ليسوا من أهل المكاشفة الذين رأوا ربّهم بقلوبهم في غيبه، فتوافقت بدايتهم نهايتهم.

وقيل: من وحَّد الله بأفعاله وطاعته، كان توحيده على الظنّ؛ ألا تراه يقول: ﴿ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

وقال أبو عبد الرحمن السلميّ: لو حقَّقوا التوحيد، كانت صلواتهم وخشوعهم عليهم زَيْنًا، فلما ركنوا إلى أفعالهم، كان توحيدهم ظنًّا، وطاعتهم عليهم شينًا.

قال بعضهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾:يتيقنون، وإنّما أقام الظنَّ مقام اليقين؛لأن في الظن طرفًا من اليقين، وإنما ذَكر الظن إبقاءً على المذنبين، وسترًا على العاصين الذين ليس لهم صفاء اليقين، ولو ذَكر اليقين صَرفًا، لخرجوا من الجملة.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: أراد الله تعالى أن يقدِّس موسى من العادة والطبيعة ورسم البشرية، بصفاء الخَلْوة، ونيران الجوع؛ ليتهيّأ له استعداد تحمل أنوار المشاهدة والخِطاب، فصار سنّةً لأوليائه من طلّاب المعرفة والمشاهدة، تلك الأربعين.

وأيضًا أراد أن يربِّيه في كَنَف قُربه؛ حتى يقدر أن يسمع كلامه القديم؛ لأن تحمُّل الحقائق لا يكون لأحدٍ، حتى يستقيم في الواردات والصادرات من التجلّي والتدلّي.

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾(١) أي: آثرتم تمثال الشيطان على مشاهدة الرحمن.

وأيضًا جَهِلتُم صنع الخالق مِن صُنع المخلوق.

وقيل: فيه عجل كل إنسان نفسه، فمن أسقطه وخالف مراده هواه، فقد بَرِيَ من ظلمه.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: فارجعوا عن رؤية مواهبه إلى معرفة نفسه، واقتلوا أنفسكم بسيوف هومكم؛ حتى لا يزاحمكم في قُربه بربكم.

وأيضًا توبوا من رؤية توبتكم عليكم، واقتلوا أنفسكم بمعرفتكم برؤية توبة ربكم عليها، حتى توصِّلكم معرفتها ومخالفتها إلى معرفة ربكم.

«التوبة» هاهنا: محو أصول الخيال عند مبادئ المكاشفات، وقتْلُ النفس عند وجدان المشاهدات، قربانًا من البَرِّيات لصفات الأزليّات.

وأيضًا فاقتلوا أنفسكم بالمجاهدات بعد معرفة النفوس بعين النكرة على حقيقة المعرفة، حتى توصّلكم إلى عين الجمع، وصرف الاتّحاد بلا رسومات البشرية.

وقيل: فاقتلوا أنفسكم في طاعته، ثم توبوا إليه من أفعالكم وأقوالكم وطاعتكم .

قال ابن منصور: «التوبة»: محو البشرية بإثبات الإلهية، وقتْلُ النفس عمّا دون الله تعالى، وعن الله حتى ترجع إلى أصل القديم، ويبقى الحق كما لم يزل.

وقيل: إذا كان أول قدم في العبودية التوبة، وهو إتلاف النفس وقتلها، بترك الشهوات وقطعها عن الملاذ ، فكيف الوصول إلى شيءٍ من منازل الصدِّيقين، وفي أول قدم منها، تَلَف المُهج.

وقيل: توبوا إلى بارئكم أي: ارجعوا إليه بأسراركم وقلوبكم، واقتلوا أنفسكم بالتبري منها؛ فإنها لا تصلح لبساط الأُنس.

وقال ابن منصور : ما شرعَ الحقّ إليه طريقًا؛ إلا وأوائله التّلف.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ

---

(١) إشارة إلى القوى النفسانية والطبيعية العاصية، كما دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ [طه:٩٠]: أي بعبادة عجل الطبيعة الذي اتخذه سامري الهوى، مع أنه لا بدّ من ذبحه كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]؛ وهي أمانات الأمر والنهي، وأهلها القلب والقوى الروحانية، وبوصولها إليها والحركة بالعمل بمقتضياتها؛ ينكسر سورة النفس والطبيعة، وتموت القوى الفاسدة الحاملة لموت القلب، وحياة النفس.

إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: فما دام يَصحبك تميّزٌ وعقل، فأنت في عين الجهل؛ حتى يضل عقلك ، ويذهب خاطرك ، وتفقد نسبتك إذ ذاك عسى ولعلّ.

وقال الواسطي: كانت توبةُ بني إسرائيل إفناء أنفسهم، ولهذه الأمة أشدّ، وهو إفناء نفوسهم عن مرادها مع بقاء رسوم الهياكل .

وقال الفارسي: «التوبة»: محو البشرية؛ لإثبات الإلهية .

قال الله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ .

وقيل: ألقوا عن أنفسكم كل شيءٍ، لا يقرِّبكم إلى الله تعالى .

أي: طلبتم رؤيتي ومطالعتي؛ بتقليد موسى، وليس لكم مقام المشاهدة، فلمّا برز لكم ذرة من أنوار ذاتي، فنيتم فيها واحترقتم؛ لأنكم في البداية ،وموسى في النهاية.

وأيضًا أفنيتكم في سطوات عظمتي، وأبقيتكم بأنوار جمالي وجلالي، بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ .

وقال بعض البغداديين : مَن طالع الذات بغير الحُرمة انمحق، ومن طالعها بالحرمة أولى عليه صفات الجبروت والعظمة؛ ليستغيث من ذلك بلسان العجز ، سبحانك تُبت إليك.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: ظلّلهم بغيم القدرة،

وأنزل منها على قلوبهم وابل المعرفة، وأطعمة الحكمة.

وأيضًا لما فرَّقهم في تيه الغربة، حلَّلهم بأردية الكرامة، وأنزل عليهم مائدة الحضرة بلا كُلفة الاكتساب، وكدّ المعاملات.

وقال الأستاذ: لما طوَّحهم في شابه الغربة، لم يرض إلا بأن ظلّلهم، وبلبسة الكفايات جلّلهم، وعن تكلّف التكسّب أغناهم، وبجميل صُنعه فيما احتاجوا إليه تولّاهم(١).

قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: لأرواح الخاص مشارب المعارف في بحار الذات والصفات، يعرف كل واحدٍ منها موردها من الحقّ سبحانه تعالى، ومشربها بالتفاوت، فبعضها في مقام الحيرة، وبعضها في مقام المنّة، وبعضها في مقام الوصلة، وبعضها في مقام الفناء، وبعضها في مقام البقاء، وبعضها في مقام الجلال والجمال، وبعضها في صَرف الجبروت، وبعضها في عالم الملكوت، وبعضها في مشاهدة القدس، وبعضها في رياض الأنس على حد مقاماتها، وتفاوت سيرها.

﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[الإنسان:٢١].

وقيل فيه: شَرِب كلُّ أحدٍ حيث أنزله رائده، فمن كان رائده نفسه، فمشربه الدنيا، ومن كان رائده قلبه، فمشربه الآخرة، ومن كان رائده سرّه، فمشربه في الحضرة على المشاهدة، حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ طهَّرهم به عن كلِّ ما سواه.

وأيضًا أبلاهم الله بالنعمة، كما أبلاهم بالنِّقمة.

وأيضًا لما عصوا الله تعالى، أخذ عنهم لذّة ذلك الطعام، ولم يصبروا على فقد اللذّة.

وأيضًا مَن لم يشكر الله في نعمائه غيرها عليه؛ حتى لم يصبر على بلائه.

وقيل: الناس فيه رجلان: رجلٌ أُزيل عنه تدبيره، فهو مستريح في ميادين الرضا راضٍ بأحكام القضاء فيه ساء أو سُرَّ، فهو في الزيادة أبدًا، وآخر رُدَّ إلى تدبيره واختياره، فلا يزال يتخبَّط في تدبيره واختياره إلى أن يُهلَك.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ

---

(١) وقال أيضًا: وأنزلنا عليهم المنَّ والسَّلوى مما نفى عنهم تعبَ الجوعِ والجهد والسعي والكد، وفجَّرنا لهم العيونَ عند النزول حتى كانوا يشاهدونهم عياناً، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين؛ ولكن ليست العِبْرةُ بأفعال الخَلْقِ ولا بأعمالهم إنما المدارُ على مشيئة الحق، سبحانه وتعالى فيما يُمضِي عليهم من فنون أحوالهم.

ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ
أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ
وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ
وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ
ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (٦٥) فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟
بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٦٧) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا
تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ
فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ (٦٩) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى
ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ (٧١)
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ
كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا
لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ (٧٤) ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا
خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا
يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ

بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ : لم يصبروا على كل طعام الروحانيين؛ لأنهم أهل الطباع.

قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: أتستبدلون طعام أهل القُربة؛ بطعام أهل الشهوة.

وقيل معناه: أتعارضون حسن اختياري لكم في الأزل، بمخالفة السؤال والدعاء، وما يبدَّل القول لديّ.

وقال الواسطي: في هذه الآية ما يتولّاه من المَنِ والسلوى من غير كلفةٍ لهم، فتبع القوم شهوة نفوسهم، وما يَليق بطباعهم، لمّا رجع إلى الغناء والضرّ عند ذكرهم.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ : ضرب الله عليهم ذِلّة الطغيان قبل وجود الأكوان، وقهَرَهم بلطمة المسكنة في تعبُّد الشيطان.

وأيضًا ألبس الله قلوبهم حبّ الدنيا فقرًا وسُخطًا، وألبس سرائرهم بُغض الآخرة خوفًا ومقتًا. وقيل: الذِلّة والشحّ والمسكنة والحِرص.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ : «البقرة» هي: النفس الطاغية الأمّارة بالسوء المهيّجة السجيّة المذمومة التي تنبُت الطباع في مزارع الهوى، أمرَهم بقتلها عن الحياة الفانية؛ حتى وصلوا إلى الحياة الباقية، وأدركوا بمخالفتها درجة إحياء الموتى، ومطالعة الغيوب، وتفرُّس القلوب.

﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نفسٌ ليست بذات صَبْوة في الفتور،

ولا بذات عزّةٍ في النفور، ولكنها ذات شَوْكةٍ وصَوْلةٍ في شباب الغفلة والشهوة.

﴿صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي: تَخرُج بزيِّ المعبودية رياءً وسمعةً، وهو لباسٌ واحد ظاهره سلامة، وباطنه خيانة، خدعت به الناظرين من الجاهلين، وبلسان الواجدين ألبست كسوة القهر بنعت الجمع،فإذا ظهرت من عين الجمع، تجلَّى الحقّ منها، وجوَّده بصفة الخاص التي لا يدخل فيها رسم الربوبية من القهريات واللطفيات، فأبصرت عيون الناظرين من أهل الجمع تلك الصفة، فسرَّت أسرارهم، وتهيَّجت أنوارهم، فبين الأسرار والأنوار فنوا من النظر إلى الأغيار.

﴿لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ أي: ليست بمذلَّلةٍ في عبوديتي، ولا عامرة أرض القلب التي هي مزرعة محبّتي ، ولا ساقية بذر المحبّة في شريعة العقل، وهي محلُّ قرار قُربتي ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ أي: فارغةٌ عن العبادات، وهي عنها بمعزلٍ أبديةٍ عن الحكومات، لا رغبة لها في مناجدتي، ولا رهبة لها عن معاقبتي؛لأنها خُلقت من الضلالة وهي آيسة من الهداية.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لا سمة عليها لأحدٍ؛ لأنها لا تألف الحقّ أبدًا.

وقال بعضهم: لا يَصلح لكرامتي، وإظهار ولايتي عليه؛ إلا من يذْلِل نفسه بالسكون إلى شيءٍ من الأكوان، ولم يسعَ في طلب الحوادث بحالٍ مسلمةٍ من فنون عوارض الخِلاف لا شيةَ فيها، لا أثر عليه لأحدٍ بالسكون إليه والاعتماد عليه، فهو القائم بي والناظر إليَّ، والمعتمد عليَّ أظهرت عليه آيات قدرتي، وجعلته أحدَ شواهد عزّتي، فمَن شاهد استغرق في مشاهدته؛ لأنه قد أُلبس رداء العزّ وأنشد على إثره:

هذه إذاً فانظري الدنيا بعيني واسمعي ... بــــإذني فــــيها وانطقــــي بلــــساني

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا﴾: فهم من الآية أن الله تعالى أعلمهم أنّ في قتل النفس إحياء القلب، وفي حياة القلب حياة الروح، وإذا صفَت الروح بصفاء حياة القلب عن كدورات النفس، تُحيي جميع الأموات بأنفاسها وآثارها ،كما أحيى عيسى عليه السلام الموتى؛ لأنه صافٍ بصفاتها من صفات النفس، فظهرت منه الآيات والمعجزات.

وقيل فيه: إن الله أمر بقتل حيٍّ ليُحيي ميّتهم، أعلَمك بذلك إنه لا يَحيي قلبك لأنوار المعرفة؛ ولا لفهم الخطاب، إلا بعد أن تقتل نفسك بالاجتهاد والرياضات، فيبقى جسمك هيكلًا لا صفة له من صفاته، ولا يؤثر عليك بقاء صورتك فيَحيي قلبك، وتكون نفسك رسمًا لا حقيقة لها، وقلبك حقيقةً ليس عليه شيءٌ من المرسومات.

قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي: من عبدني لأجل الجزاء والعِوض، وسكن بالعطاء عن المُعطي، وأحاطت به رؤية أفعاله وأعواضه، أولئك أصحاب البُعد، لم ينالوا قرب وصالي، وحقيقة جمالي.

وقيل: بلى مَن كسب سيئةً برؤية أفعاله، وأحاطت به خطيئته بظنّه أن أفعاله وأعماله تنجّيه وتقرّبه، فَهُم المُبْعَدون عني بما تقرَّبوا به إليَّ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الذين شاهدوا الله برسم الأرواح في فضاء الأزليات، وخرجوا من الكائنات تهذيبًا للأشباح؛ حتى دخلوا حِجال الأبديات، أولئك أصحاب القُرْبات، ومشاهدات الصفات، وسَبَحات جمال الذات.

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وقيل: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: أيقنوا أن النجاة في سعادة الأزل، وأنه ليس في الطاعات إلا إتباع الأمر، وأَنِفوا من صالح أعمالهم لعِلْمِهم بقصورها عن حقيقة تعبُّده، أولئك هم الواصلون إلى الرضوان الأكبر.

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾ أي: أن يأتوكم أسارى الشوق، وسكارى العشق ترحّمتموهم بأصواتٍ شجيّة، وأقوال مرفقة، تفادوهم برؤية الصفات، وتشغلونهم عن رؤية الآيات.

وأيضًا إن يأتوكم أسارى تنكره «تفادوهم» بشواهد المعرفة.

وأيضًا إن يأتوكم من غيبوبات القلوب، تفادوهم برؤية أنوار الغيوب.

وقال أبو عثمان: وإن يأتوكم غَرْقى في بحر الذنوب، تُدِلُّوهم على طريق التوبة.

وقال الواسطيُّ: إن غرَّتهم رؤية أفعالهم، تُنقِذوهم من ذلك برؤية المِنَن.

وقال الجنيد: وإن يأتوكم أساري في أسباب الدنيا، تُنقِذوهم إلى قطع العلائق والأسباب، فإنّ الحقَّ أبى أن يتجلّى بقلبٍ متعلقٍ بسببٍ.

وقال بعض البغداديين: وإن يأتوكم أسارى في صفاتهم ونعوتهم تفادوهم أي: تُحِلُّوا عنهم وثاق صفاتهم بصفات الحق ونعوته، قوله تعالى حاكيًا عنهم، قالوا: قلوبنا غُلفٌ أي:

مسدودةٌ بعوارض البشريات، محجوبةٌ عن فَهم الآيات والمعجزات.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

وأيضًا قلوبنا في فَرَج أصابع القهريات، محجوبةٌ عن لطائف الأزليات.

وقيل: حُرِم قسم السعادة بها في الأزل.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾؛ لأنهم محجوبون عن مشاهدة الآخرة، ومكاشفة الحضرة لغطاء الغَفْلة والشهوة.

وقال محمد بن الفضل: لعِلْمِهم بما قدّموا من الآثام والخلاف، وهذا حالُ الكفّارِ، فوجب على المؤمن أن يكون حاله ضد هذا مشتاقًا إلى الموت؛ بمكاشفة الغيوب، ورفع حجاب الوَحْشة، والوصول إلى محلِّ الأنس؛ ألا ترى أن النبي ﷺ يقول: « من أحبَّ لقاء الله

أحب الله لقاءه »[1]. وإن بلالًا لمّا حضر قالت امرأته: واحزناه، فقال: بل واطرباه بلقاء الأحبّة.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ .

وقال الواسطيُّ: جعل الموت يقظةً للعالم، فمن حَجَبها به حُجب عن المميت ،ومتى يكون في قلبك هيبة المميت، إذا هبّت طوارق الموت .

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: ما نسخت من صفاتك شيئًا عن ديوان معناي، وهو قليلٌ إلا رقمت فيه من صفاتي، وما رأيتك شيئًا من عجائب علمي، إلا أراك ما هو أشرَف منه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥).

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾[النجم:٨]. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم:١٠].

وقيل: ما نُقلِّبك من حالةٍ إلّا نُوصلك إلى مقامٍ أشرف منها وأعلى، إلى أن تنتهي بك الأحوال إلى محلّ التداني والخطاب من غير واسطةٍ، بقوله : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: من بذل مُهجته لله إلا لِما من الله، وهو محسنٌ بلا رؤية المعاملة، ولا بجريان العارضة، بل رؤية الحقّ بنعت فناء الحقّ، فله مجالسةُ البقاء عند ربّه، بزوال خوف الفراق، وحزن الحجاب.

وقيل: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ، أي: خَلُصَت وجوه أعماله من الرياء، والشرك الخفيّ.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾.

وقيل في قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ [النساء:١٢٥] أي: أعتقَ وجهه عن عبودية غيره ، وهو محسنٌ آداب العبودية، فله أجره عند ربّه، دوام المعونة إليه من رضاه، ولا خوف عليهم من فوت حظّهم من الحق ولا هم يحزنون؛ بأن يشغلهم عنه بالجنّة.

قال ابن عطاء : من جعل طريقه ووجهه ومراده وقصده وتدبيره لله، فلا يبقي له وجهٌ إلّا إليه، ولا يكون إلا عليه، وهو محسنٌ.

قال: يَري الحقّ بسرّه، ويشاهده بحقائق معرفته، ويطالعه بمعاني إخلاصه.

قال عبد العزيز المكيّ : في هذه الآية حالٌ مخلصٌ في عمله، هائبٌ عن ربّه.

وقال أيضًا: من أخلص قلبه لله محبّة، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: كاملٌ في محبّته، وبالغٌ في مودّته.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي: فأينما تولُّوا بعيون الأسرار، فثمَّ مكاشفة الأنوار.

وأيضًا أشار بهذه الآية إلى مشاهدة المشهود في الشواهد، كما كشف خليله حيث قال: هذا ربّي، إذا نظر في دائرة الكون، وفَهم هذه الآية، أنه مَن نظر بعين العقل فقبلته الآيات، ومن نظر بعين الروح فقبلته الصفات.

وقال ابن منصور: وَجْهُه حيث توجَّهت، وفَقْدُه أين فُقِدت.

فقال بعضهم: القصدُ إليه توجُّهك، والطريقة إليه استقامتك منك بفَهمك، وعنك بعِلمك، ارتبط كلُّ شيءٍ بضده، وانفرد بنفسه.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلق السماوات والأرض، وألبسهما من لباس سنا عِزّه؛ حتى تسكن قلوب أحبائه، بالنظر إلى مشاهدة الصانع في المصنوعات .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

وقال بعضهم: علّة لكلِّ صُنعٍ صنعه، ولا علّة لكلِّ صنعٍ صنعه، ولا علة لصنعه، وليس لكأنه كان؛ لأنه قبل الكون والكان، وأوجد الأكوان، بقوله: ﴿كُن﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ : لم يسمعوا كلام الله من داخل قلوبهم، فثقُلت أسماعهم من وقر الضلال.

وأيضًا ظنّوا أنهم من أهل المخاطبة، وجَهِلوا مقام المشاهدة، وقد أخطئوا فيما ظنّوا؛ لأنهم لا يُطيقون رؤية الوسائط، أعنى معجزات النبيّ ﷺ، ولا فَهم خطابه، فإذا كان الأمر كذلك كيف يسمعون صرف الخطاب من حضرة الكمال.

قال الواسطي: كلّمتهم حيث أنزلت عليهم خطابي فلم يفهموا، وأي آية أشرف من محمّدٍ ﷺ، وقد أظهر لهم ذلك قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾: «الكلمات»: ما خاطبه الله تعالى مع روحه في سرادق الأزل بنعت السرور، فتهيّج بها سرّه حتى التهب بنار محبّته، فيطلب حبيبه بعد بلوغه إلى الكون بصرف الصفات، فابتلاه الله تعالى بمقام الالتباس، حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام:٧٥].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُولَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:٧٩].

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ بتجرُّده عن اللباس برؤية الصرف، كما قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ وأيضًا ابتلاه بشغل النبوّة، بعد ما أسكره برحيق الخلّة.

وقال بعضهم: أشدُّ ما ابتلى الله به إبراهيم، أن حمّله أثقال الخلّة، ثم طالبه بتصحيح شرائطها، وتصحيح شرائط خلّة التجلّي مما سرّاه ظاهرًا أو باطنًا، ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. وأيضًا إنّي جاعلك في الخَلْق إمامًا في مقام التمكين؛ لأنه صار بالنبوّة متمكّنًا، بعد أن كان في الخلّة مُتلوّنًا. وأيضًا ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في المقامات؛ لأني صاحبهم في الحالات بيني.

وقيل: إنّي جاعلك سفيرًا بيني وبين الخَلْق؛ لتهذيبهم؛ لاستصلاح الحضرة، وهذه هي الإمامة.

وقال أبو عثمان: «الإمام»: هو الذي يباشر على الظاهر، ولا يؤثّر ذلك فيما بينه وبين

ربّه لسببٍ، كالنبيّ ﷺ قائمًا مع الخَلْق على حدّ الإبلاغ، وقائمًا مع الله على حدّ المشاهدة[١].

قوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: قطعَ الأنساب والأسباب عن مواهبه للأنبياء والأولياء؛ لأنه اصطفاهم بالآيات والمعجزات قبل وقوع العلامات، وأيضًا من اشتغل بنفسه عن نفسه، اعتزل بنفسه عن نفسه.

وقيل: قطعٌ لن يصل إليه أحدٌ بسببٍ أو نسبٍ؛ إلا برضا الأزل، وسبق العناية.

وقال الصادق: لا ينال محبّتي، ومشاهدة رؤيتي من سكن إلى أحدٍ سواي.

وقال بعضهم: لا ينال قُربي من بعد يسره عنّي.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

وقال بعضهم: من رسمته بسمة المعرضين عنّي، لا يقدر الرجوع إليّ.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي: مستأنسًا للراجين، وآمناً للخائفين؛ لأن فيه أثر الله تعالى، وهو يتجلّى منه للخائفين بلطائف الكرم، فأسكنهم من هيجان الخوف، وتجلّى منه للراجين لطوائف حسن العدم، فأسكنهم من غليان الشوق.

وقيل أي: مفزعًا للمذنبين وآمنًا أي: من دخله من المؤمنين حافظًا لحدود الله فيه، أَمِن من نار جهنم.

وروي عن الشيخ أبي عبد الرحمن السلميّ- رحمه الله- أنه قال: سمعت منصور بن عبد الله

---

(١) أي: قدوة بك في بك في التوحيد ، أو في الأصول والفروع ، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته، ومأمور باتباعه.البحر المديد (١/ ١٠٠).

يقول: سمعت أبا القاسم الإسكندرانيّ يقول: سمعت أبا جعفر المالطيّ، يذكر عن علي بن موسى الرضا، عن أبيه عن جعفر الصادق ﷺ قال: البيت هاهنا محمد ﷺ، من آمن به وصدّق برسالته، دخل في ميادين الأمن والأمانة.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ أي: أن طهّرا قلبكما؛ لأنه موضع نظري، ومحل زيارتي.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي: للسفرة الأنوار. ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ أي: للسكّان الأسرار.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: لعرائس الغيب؛ لأن القلب قِبْلة الله يزور به أهل الغيب.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: أفتنا لبقائك في جمال صفاتك.

وقال الجنيد: ظاهر علم الاستسلام، سقوط المسافات، والمدة من البعد، ولا يجدون في إشارتهم كلفة، ولا في ذِكرهم الذي به يتقرّبون مؤنة؛ لأنه استولى عليهم من قربه واكتنافه لهم، والتحنّن عليهم، والبرّ بهم؛ لأنه قد أزاح عنهم أسباب الطالب.

وقال فارس في قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: أرجنا عن أسباب الطلب بالحيل، ومطالعة الخير بالعرض. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: تواضع لجبروتي، وأخلص قلبك عن ملكوتي. ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ أي: تعرّضت لك لما تريد مني في جميع الأحوال.

وقيل أي: أخلص سرّك، فإنه موضع الاطّلاع منك، «قال أسلمت» أي: أسلمت إليك سرّي، فأخلصه لي، فإنّك أولى بي مني. وقيل: استأثر، فإنّ قتلك لا يُمهل الطوارق بحر الحوادث، بل يَجذِب إلى الاستغراق في بلاد القدم، فيقول: أسلمت استأثرت، ومازلت كنت في أسْر جبروتك، وقهر عزّك.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت النصر آبادي يقول: سمعت الروذباري يقول: سلامة النفس في التسليم، وبلاؤها في التدبير.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أوصاهم بقطع العلائق والعوائق، والتعرُّض لنفحات الصفات، والعذوبة في المناجاة، والانقياد لمراد الحقّ، والشفقة على الخَلْق، ومقاومة النفس، ومراعاة النفس، والمصادقة لله مع الإخوان فيه، والإنصاف معهم، وترك معارضتها

أحدًا، وأخذ الإنصاف منهم.

وقيل: أوصاهم بالمحاربة إلى الاستسلام الذي أمر به، فصحَّ من إبراهيم التسليم، فلمّا أُبتلي بذبح ابنه لم ينظر إليه؛ لأنه كان أسلم، وصحَّ له التسليم، فمضى فيه من غير نظرٍ إلى الولد، حتى فُدِيَ، ولمّا لم يصح ليعقوب من التسليم ما صحَّ للخليل، رجع إلى حد الجزع حين فقد ابنه فقال: يا أسفى على يوسف، لكني أعتذر ليعقوب ﷺ في هذه المسألة، وهو أنه يرى في حُسن يوسف جمال الحقّ، وقد عشقه، ومع ذلك في أوّل العشق، وقد بقي في محلّ الالتباس، والخليل -صلوات الله عليه- قد انفرد بحب الحقّ للحقّ: وهذا نهاية مقام العشق؛ لأنه في محلّ التمكين، وابنه يعقوب في محلّ التلوين، فلأجل ذلك قال: يا أسفى على يوسف.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾: صبغة الخاصية التي خَلق آدم على تلك الصفة.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:٧٥]، وذلك قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء:٧٠].

وقال صدر الصوفية، ورئيس البَرِيَّة ﷺ : خَلق الله آدم ﷺ على صورته، وهذا صبغ الظاهر الذي ألبسه صورة آدم، وأمّا صبغ الباطن، هو الذي كسا الله تعالى قلب آدم، ولهذا سجدت الملائكة بين يديه، وأورث الله تلك الصفتين اللتين خصَّ بها آدم أرواح ذرّيته من الأنبياء والأولياء، وذلك إذ خلق الله تعالى الأرواح، فحشرها في سرادق حضرته، وكشف لها عن وجهه حجاب العزّ، وأراها جماله وكماله، وألهمها خصائص علوم الربوبية، ونوَّرها بأنوار الوصلة، وكساها لباس الفردانية، وجلَّلها برداء الكبرياء، وسقاها من شراب الزلفة

بكأس المِنّة، وطابت بوجهه، وطارت في ملكوته، وعشقت بجمال جبروته، فاكتسبت سناء المحبّة، واستنارت بنور المعرفة، وخاضت في بحر الربوبية، وخرجت منها على أسرار الوحدانية، وتلوّنت بصبغ الصفات، وانصبغت بصبغ نور الذّات، فهذه حقيقة صبغ الله تعالى الذي ذكر في كتابه؛ ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ (١).

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ﴾: صرَفهم بمكر القِدم في رؤية حِيَل الفعل؛ مقرونة بالإرادة عن مشاهدة الأمر في الأمر، وانقيادهم بحظّ التسليم عند كون الامتحان؛ حتى تظهر أسباب علم القِدم، وما سبق من علمه في تماديهم بنعت الكفر في ميادين الضلال.

وقيل: بيّن الخطاب على مقادير العقول ، ألا ترى كيف بيَّن علّته في آخر الآية ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، إحكامًا منه في صنعه، وما جرى من ضبطه.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قد نرى تقلُّب عين سرّك في سماء الهُويّة؛

---

(١) آكد المكرمين منهم بكرامات أكبر منها درجة وأرفع منها منزلة وذلك لأنهم لما خلقوا محتاجين إلى ما لا تحتاج إليه الملائكة أكرموا بالكرامتين اللتين لم تكرم بهما الملائكة، فأحدهما الرجوع إلى الله مضطرين فيما يحتاجون إليه، فأكرموا بكرامة الدعاء ووعدهم عليه الاستجابة. تفسير حقي (٨/ ٢٥٧).

لطلب عيان المشاهدة، وقِبْلة القُربة، وتزول الصفة في الصفة، ووقوع خطاب الخالص في سمع الخاص؛ حتى تصير لك عين الجمع من جميع الوجوه.

وقيل: فيه أعلَمه أولًا أنه بمرأى من الحق؛ ليكون متأدبًا بآداب الحقّ، ومن حُسن أدبه، أنه نظر إلى نحو السماء، ولم يَسأل، وأُجيب على نظره إلى مراده.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي: نطيِّبك، ونكشف لك قِبْلة عين وجودي، ترضى بها وتؤنسها، ولا يكون لك بعد ذلك طريقًا منها إلى نفسك، ولا جهة منها إلى الكون؛ لأن مرادك مرادي، ومرادي مرادك.

وأيضًا إنّي قبلْتك حيث توجهت، حتى تكون بلا جهة في الكون في طلب وجودي، وقد أدّبه الله بهذا عليه؛ حتى لا يكون له سواه في جميع مُناه.

وقيل: أخبره بعد أن جاء إلى مراده، إن مرادك لم يخالف من مرادنا؛ لأن إرادتنا فيك تقلُّبك إلى الكعبة، وإثباتك عليها، وجعلنا قِبْلةً لك، ولأمتك قبلة؛ لتعلم أن رضاك لا يخالف رضانا أبدًا. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: فولِّ وجهك نحو المراقبة إلى صدرك؛ لأنه مسجد أنوار الحقائق، وهو ممتنع عن الوسواس، وغبار العلائق، وفيه القلب، وهو كعبة الأنس، وفي تلك الكعبة آيات بيّنات مقامي، وفي الآيات آثاري، وفي الآثار آثار صفاتي.

وأيضًا فَوَّل وجهك الظاهر نحو الكعبة؛ حتى تراني ملبسًا بلباس الآيات، فعينك الظاهر للآيات، وعينك الباطن للصفات.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وقال بعض العراقيين: ترسم معهم برسم الظاهر نحو الكعبة في استقبال الكعبة ببدنك، ولا تقطع قلبك عن مشاهدتنا؛ فإنّا جعلنا الكعبة قِبْلة بدنك، ونحن قِبْلة قلبك.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي: لا تقولوا، ولا تظنّوا لمن يُقتل في سبيل العشق بسيف الشوق أموات؛ بل أحياء بعد فنائه عن حياة الإنسانية بحياة الربّانيّة، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأنكم محبوسون بين الوجود والعدم، وهم مخلَّدون في بقاء القِدم.

ومَن ذبح نفسه من أربعة مواضع قطع رأس حرصها من الدنيا في مذبح التفرُّد، وقطع رأس أملها من إرادة حياتها ووجودها في مصرع التجريد، وقطع رأس رياستها من الخلق في منجز التوحيد، وقطع رأس ميلها إلى الآخرة في مقتل التحقيق ، ألبس الله تعالى روحه أربعة لباس في أربعة مقام: ألبسها لباس سناء المعرفة في مقام المكاشفة، وألبسها لباس صفاء المحبّة في مقَام المشاهدة، وألبسها ضياء الوصلة في مقام القُربة، وألبسها لباس أنوار الأنانية بنعت البسط والسلطنة في مقام المخاطبة، وإذا كان بهذه الصفة، فقد فاز من سكرات المات، وصار حيًّا ببقاء الصفات.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقيل: لأنهم مقتولون في الحق، ومن كان مقتولًا فيه كان حيًّا به، ولكن لا تشعرون أي: لا يَعلمه من نظر إلى الجهاد بعين التدبير، ولم ينظر إليه بعين الرضا.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: ولكلّ روح منهاجٌ وقبلةٌ ومعراجٌ في وجود الذّات، وحقيقة الصفات، فعين العيان قِبْلة الأرواح القدسيّة، وصرف الصفات هو قِبلة الأرواح الجلالية، وعين القِدم هو قِبلة الأرواح العزّة، وعين الأبد هو قِبلة الأرواح البقائية، وأنوار المشاهدة هي قبلة الأرواح الشائقة، وحسن الصفات هو قِبلة أرواح المؤانسة، ونفحات بساتين الغيب هي قبلة الأرواح الروحاني، هو موليها أي: تلك الروح الرحمانية هي قاصدة إيّاها بجناح الشوق، مجذوبة

بحبال العشق إلى معدن الألوهية والصمدية، ولكلّ واحدةٍ منها مطلع ومنبع، فبعضها والهات، وبعضها عاشقات، وبعضها مؤنسات، وبعضها فانيات، وبعضها باقيات، وبعضها صاحيات، وبعضها ساكرات من هول المقامات، وكشف المشاهدات، وبروز المعاينات، وإدراك المغيّبات، فاستبقوا الخيرات، خاطب بهذا أهل الاستقامة أي: سارعوا صرف الأنانية، فإنه أعلى الدرجات؛ لأنهن أعني أرواح أهل الوسائط في جلّي الإرادات، وأنتم أهل النهايات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً أي: أرواح خواص أهل المعرفة، والأرواح السائرة في ميادين الأزلية، يأتي بهنّ الله جميعًا؛ بعد محو الإرادات، واضمحلال الرسومات في سرادق البقاء، ويُسقي كل روحٍ من الأرواح بكأس الصفاء شراب الوصال، ويكشف لها جمال الحقّ؛ حتى يكونوا هنالك جميعًا في عموم العطاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قادرٌ على أن ينشق أرواح السابقين والمتصدين روائح عبهر الأنانية، ونسيم ورد الوحدانية في مقام الاستقامة، ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي: فاذكروني بلسان الأسرار أذكركم بكشف الأنوار، واشكروا بخالص العبودية، ولا تكفروني بإدراك المعرفة، وأيضًا فاذكروني بالإعراض عن الكون أذكركم بارتفاع البون، واشكر لي ببذل الأشباح، ولا تكفروني بتعذيب الأرواح، وأيضًا فاذكروني في زمان الغفلة أذكركم بإنزال الرحمة، واشكروا لي بقصد القربة، ولا تكفروني بمساوئ البشرية، وأيضًا فاذكروني برؤية ذكري لكم في الأزل قبل ذكركم لي، أذكر نفسي لكم كما ينبغي لي؛ لأنكم لا تطيقون أن تذكروني بحقيقة الذات والصفات، وكيف يذكر الحدث صفات القدم، والألسنة عن وصف ثنائه خرسة، والعيون عن إدراك جماله منطمسة، والأسرار عن البلوغ إلى كنه عظمته فانية، واشكر لي بتعريف العجز عن أداء الشكر، ولا تكفروني برؤية ذكركم لي؛ لأن ذكركم لي واجب خفي كفركم.

وقال الواسطي: حقيقة الذكر الإعراض عن الذكر ونسيانه والقيام بالمذكور.

وقال بعض العراقيين في قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: سريع الحق يحتمل به الموارد، وهو ذكره إياك، ولولا ذكره إياك ما ذكرته.

وقيل: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ بجهدكم وطاقتكم لأقرن ذكركم بذكري، فيتحقق لكم الذكر، يسمّون حقيقة الذكر أن ينسى كل شيء سوى مذكوره، لاستغراقه فيه فتكون أوقاته كلها ذكرًا. وأنشد:

لا لِأَني أَنْســـاكَ أُكثِــــر ذِكْـــــرا ... كَ وَلَكـــن بِـــذاكَ يَجْــري لِســـاني

وقال بعض البغداديين: الذكر عقوبة؛ لأنّه طرد الغفلة، وما لم تكن غفلة فما معنى

الذكر.

وقال بعض المتأخرين من أهل خراسان: كيف يذكر الحق بعقول مصنوعة أوهام مطبوعة؟ وكيف يذكر بالزمان مَنْ كان قبل الزمان على ما هو به؟ إذ الحق سبق كل مذكور.

وقيل: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ على الدوام ليطمئن قلوبكم بي؛ لأنه يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وقال بعضهم: أتم الذكر أن تشهد ذكر المذكور لك بدوام ذكرك، قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾.

قال ابن عطاء: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ من حيث أنا، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ من حيث أنا، ولا تذكروني من حيث أنتم فينقطع دوني ذكركم. وقال بعضهم: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بتوحيدي، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بلقائي، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بطاعتي ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالدرجات، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالتوبة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمحبة، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالنعمة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمزيد عندكم، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ في أفراحكم، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ في همومكم.

وقال بعضهم: إن الذاكرين على مراتب، قوم ذكروا الله بألسنة ناطقة، وقلوب عارفة حتى وجدوا حلاوة الذكر، وقوم ذكروا الله بأفعال مخلصة، وطاعات مرضية حتى نسوا أنفسهم لوصولهم إلى ما طارت إليه قلوبهم، وقوم ذكروا الله بحالاتهم حتى وقفوا في بحار الحياء؛ لأنهم نظروا إلى ذكر المولى إياهم في الأزل، وبقاء ذكره عليهم إلى الأبد، فوجدوا ذكرهم بين ذكرين عظيمين، فذابوا حياءً، فصار الذكر عندهم هباء[1].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

والخوف هاهنا على سبعة أقسام: خوف من النفس، وخوف من الشطيان، وخوف من الكفار، وخوف من النار، وخوف من الفراق والقطيعة، وخوف الحجاب، وخوف التعظيم والإجلال لي، فهي ثمرات أشجار المقامات، والحالات السنية، والكرامات العالية، وهذه

---

(١) قال الشيخ حقي: (أذكركم) بالثواب واللطف والإحسان وإفاضة الخير وفتح أبواب السعادات وأطلق على هذا المعنى الذكر الذي هو إدراك مسبوق بالنسيان والله تعالى منزه عن النسيان بطريق المجاز والمشاكلة لوقوعه في صحبة ذكر العبد، (واشكروا لي) على ما أنعمت عليكم من النعم والذكر بالطاعة هو الشكر.

كلها بليات أولياء الله في سير أسرارهم في ميادين الوحدانية، وبيداء الأزلية، امتحنهم بهذه الصفات ليظهر صدق إرادتهم في طلب مشاهدة الحق ﷻ، وينفخ بهذه نيران أشواقهم، ويرياح الجذبة، ونسيم الوصلة حتى يحترقوا بها في طب مبتغاهم بنعت الفناء؛ لأن من شرط حقيقة القربة احتراق أرواح السابقين والمقتصدين في أنوار جلال المشاهدة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بحصول مقصودهم من بعد خروجهم عن امتحاني، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ﴾ من هذه المصيبات فروا من قهري إلى حجر لطفي، وسلموا أنفسهم إليَّ حتى أفعل بهم ما أشاء، وهذا قوله تعالى حاكيًا عن خواص عباده: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

قال الشافعي ﷺ: الخوف خوف العدو، والجوع شهر رمضان، ونقص الأموال الزكاة، والأنفس الأمراض، والثمرات الصدقات، وبشر الصابرين على أدائها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ عليهم بركات أنوار مشاهدة الحق تعالى، و﴿رَحۡمَةٞ﴾ يعني رفع الامتحان عنهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ إلى مقام الأمن بعد غيبوبتهم في صرف نور القدس، وصفاء حجال الأنس.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ الصفا والمروة مخصوصان بأنوار التجلي لقوله ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلى من ساعير، وأشرف من جبال فاران»[1]، وهما ملتبسان بصفاء إشراق شمس العزّة، ومَنْ صعد إليهما فينبغي أن يري فيهما ضياء لباس القدرة مستغرقًا في نور المشاهدة، وتقدس بنظره إليهما عن كدورات البشرية، ويظهر فيه الأخلاق المحمودة بنعت صفاء المعرفة، وأيضًا ذكر الصفا والمروة إشارة إلى سرادق الملكوت والجبروت؛ لأن الصفا والمروة حجابان لمكة، ومكة حجاب الحرم، والحرم حجاب البيت،

---

١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٣/ ١٥٩).

هكذا سرادق الحضرة، وأيضًا جبل الصفا مصعد العارفين لأجل تصفية الأرواح بنور المعرفة طلبًا المشاهدة، وجبل المروة مدرج الزاهدين لتزكية الأشباح بمدامع الندم، سعيًا في طلب معاملة الآخرة، وطمعًا للجزاء والمثوبة، وأيضًا الصفا إشارة إلى الأزل، والمروة إشارة إلى الأبد؛ لأنهما من شعائر الله تعالى، وأيضًا الصفا هو الروح، والمروة هي القلب.

وقيل: إن مَنْ صعد الصفا، ولم يصف سره لله لم يتبيَّن عليه من شعائر الحج شيء، ومَنْ صعد المروة، ولم يتراءى له حقائق المغيبات لم يظهر له من شعائر الحق شيء.

وقيل: إن الصفا موضع المصافاة مع الحق، مَنْ لم يجرد لمصافاة الحق معه؛ فليعلم تضييع أيامه، وسعيه في حجه.

وروى الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي -رحمه الله- أنه قال: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت أبا القاسم يقول: سمعت أبا جعفر يقول: عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: الصفا الروح لصفائها عن درن المخالفات، والمروة النفس لاستعمالها المروة في القيام بخدمة سيدها، وقال: الصفا صفا المعرفة، والمروة مروة العارف.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

أي: إن في إبداع السماوات والأرض كشوف نور الصفات في نور الأفعال، فظهور نور الأفعال في مسرح الآيات، وأيضًا السماء إشارة إلى الرأس، والأرض إشارة إلى الصورة، وأيضًا السماء إشارة إلى الروح، والأرض إشارة إلى القلب، وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: في نقصانها وزيادتها وذهابها ومجيئها اعتبار بطلوع شمس المعرفة من مشرق القربة، وغروبها في مغرب النكرة في وقت الغيبة عن المشاهدة، وظهور ظلم ليالي الهجر في ذهاب نور الوصل، وزوالها بإشراق أنوار تجلِّي الحق في قلوب أهل المحبة، وأيضًا أي: اعتبروا بها في مواجيد الأحوال، واستقرارها فيكم، وفقدانها في وقت انقباضكم عن رؤية البسط والانبساط.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: العارفين في جريان القلب في بحار القدم والأبد، وموج بحر الصفات لطلب دار المعرفة من قعر بحر الذات بمنافع المريدين رؤية الصفات الجبروتية في الآيات الملكوتية.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، ولهم أيضًا في تفكر إنزال الله تعالى من سماء القربة مزن رشاش المشاهدة، وإحيائه القلب الميت من فقد نيل القربة، ورؤية خصائص المنة.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ وأيضًا لهم في إدراك التفرق وشتات سيارات عالم الملكوت في قلوبهم لطائف الخطاب.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لهم في رؤية تصريف الرياح، وتسخير السحاب بين السماء والأرض وجدان تصريف رياح المنَّة، وتسخير سحاب الشفقة بين نور الروح ونار القلب، إذا كان الرياح تحرك السحاب وتعصرها حتى تمطر قطرات مياه الخطاب على نيران القلب ليسكن بها ساعة عن الإحراق بالتهاب نار الوجد، ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لأولي النهي علامات صفات القدرة بإدراك بصائرهم الحكمة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

الأنداد تقع على كل شيء بمنع العبد عن خدمة سيده، من جملتها النفس والهوى، كما قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤٣]، ومنها الخلق لأجل الرئاسة، ومنها الدنيا والشيطان.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ لأنهم لا يذوقون طعم معرفة الله، ولذة محبته، ولا يرون نور مشاهدته وحقائق وصله وقربه، ومع ذلك محبتهم للخلق محبة معلولة، لأنهم لو لم يجدوا منهم أموالهم يفرون منهم فرار الزحف.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأن أهل الإيمان والتوحيد سمعوا خطاب قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، بالسمع الخاص في سابق الدهر، ورأوا مشاهدة جلاله قبل وقوع البلايا، فيبقى في قلوبهم لذة المشاهدة والخطاب، فيجدون مرارة بلائه، وغصص امتحانه، يقبلون منه ببذل نفوسهم، وترك حظوظهم، والوفاء بصدق عقودهم في أمر محبوبهم.

وقال القاسم: وممَّنْ أخرجناهم من جملة الخطاب الخاص مخاطبة الإيمان أقوام يتخذون أهواءهم آلهة يعبدونها ويحبونها، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ منهم لأهوائهم؛ لأنهم يرون البلاء من الله نعمة، ولا يحجزهم عن محبتهم لربهم ترادف المحن عليهم، بل يزيدهم بذلك محبة له؛ فلذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

وقال الشبلي: مَنْ ادَّعى محبة الله تعالى، ونسي ذكره طرفة عين، فهو المستهزئ والمفتري على الله، ويصنع به ما يصنع بالمفتري.

وقال جعفر الصادق في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ قال: يباهي الله على خلقه بمحبته للمؤمنين له، ويشير أن المحبة أخصُّ ما يتعبد له المتعبدون.

وقال ابن عطاء: أحبوا الله بحب الله، وحب الله حب باقٍ، فصار حبهم باقيًا ببقاء حب الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

الطيبات ما قسم لأهل الإيمان في سابق علم الأزل بنعت الرضا من معاشهم الذي لا يذم تناولها نفس العلم بحال، وهو ما يتفرسه المؤمن بنور الإيمان قبل وقوعه في أوان الحاجة، وأيضًا الطيبات التي تهيج المؤمن إلى ما يرضاه الله من المعاملات السنية، والأخلاق المحمودة، وترك مألوفات النفس، ومتابعة الشهوة، وأيضًا الطيبات ما يحصل من الغيب بلا تصنيع الآدميين؛ لأن ما فيه تصنيع البشر لا يخلوا من المعاملات، وأيضًا الطيبات ما لم تؤكل بالشهوة وثورته الحكمة والعبادة، والطيبات أيضًا ما يؤكل بالسنة، ولا يؤكل بالبدعة، وأيضًا الطيبات إشارة إلى ذكر الحق إذا لم يشب بذكر الخلق، وهو رؤية المذكور بنعت طيران الأرواح بقوة المواجيد في بساتين الصفات.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: طيبات الرزق هو التناول في أوقات الاضطرار مقدار استبقاء المهجة لأداء الفرائض، وهو الذي لا تبعة في أكله بحال.

﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾أي: اشكروا الله بمعرفتكم على المشكور إن كنتم تعبدونه بشرط المعرفة؛ لأن العبودية لا تصح إلا بالمعرفة، وهو إغراء من الله تعالى، وتنبيه للمعاندين ليعرفوا أن الشكر لا ينبغي إلا لِمَنْ خلق ورزق وأمات وأحيا، وقرن هاهنا العبادة بشكر النعمة لتعريف المُنعَم عليه أن يشكر نعمته أداء عبادته على شرط معرفته.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾أي: مَنْ سار في بيداء الحقيقة بنعت سباحة الروح الناطقة في بحار الأزلية عند بدو إرادة المعرفة، واحترق جسم نفسه الأمَّارة في نيران المحبة، ويخاف أن يتلاشى في سطوات بسط العظمة، فيجوز له بعد اضطراره، وهذه الصفة في مهمة الوحدانية أن يتناول من حطام الدنيوية لبقاء الصورة، لا جرم على العارف ما دام في مقام العبودية، وعجز البشرية أن يستأنس بمستحسنات المحدثات ملتفتًا بنعت اقتباس أنوار الألوهية من عالم الشواهد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ساتر تهمة الحدثية بنور الأزلية لأهل المعرفة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم بأن يخرجهم من ظلمات الإنسانية إلى نور الصمدية.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا﴾ أي: الموفون بعهد الأزل بترك المعارضة في

العبودية، والإعراض عما سوى الحق في مقام المعرفة.

وقال بعضهم: الوفاء بالعهد لزوم الحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ أي: الصابرين في دفع صولة صدمات النفوس عند معارضتها كشوف الحقائق، وخزها عند إلقاء الخطرات في ديوان المكاشفات بنعت ترغيبها وترهيبها، وعند تطرق طوارقات القهر أبواب خزائن القلب لتشددها بحثالة عوارض البشرية، والسكون في دفع الخطرات صبرًا، خُصَّ به الصادقون في طلب مرضاة الحق عند نزول حجار البليات من منجنيق الامتحان.

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾(١) أي: لكم في قتل النفوس بعد خروجها على القلوب اقتصاصًا حياة أرواح المقدسة، فإذا شرعتم في أخذ ديات جنايات النفوس تفوزون من مهلكات القهر.

قال الجنيد: للصابرين ثلاث علامات تعرف في نفسه، الأول: ضبط نفسه عند وجود النفس حظها، والثاني: الدخول في الطاعات عند مطالبة النفس بالتخلف والكسل، والثالث: سكون القلب عند نزول الحكم.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ

---

(١) أي في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة لأنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة كما قتل مهلهل بن ربيعة بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع فيما بينهم التشاجر والمرج والمرج وارتفاع الأمن فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه أي حياة لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل إذا قتل لا يقدم على القتل وإذا قتل فقتل ارتدع غيره فكان القصاص سبب حياة نفسين أو أكثر وهو كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده فإن ضدية شيء لآخر تستلزم أن يكون تحقق أحدهما رافعا للآخر والقصاص لاستلزامه ارتفاع الحياة ضد لها وقد جعل ظرفا لها تشبيها له بالظرف الحقيقي من حيث إن المظروف إذا حواه الظرف لا يصيبه ما يخل به ويفسده ولا هو يتفرق ويتلاشى بنفسه كذلك القصاص يحمى الحياة من الآفات فكان من هذا الوجه بمنزلة الظرف لها ولا شك فيه إذ جعل الضد حاميا لضده اعتبار لطيف في غاية الحسن والغرابة التى هي من نكات البلاغة وطرقها (يا أولي الألباب) أي ذي العقول الخالصة من شوب الأوهام ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس.

عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

هذا نداء لأصحاب القلوب، وخطاب مع طلاب هلال المشاهدة في أقطار سماوات الغيوب، أي: يا أهل اليقين فرض عليكم الإمساك عن الكون أصلاً؛ لأنكم في طلب المشاهدة، فواجب أن تصوموا عن مألوفات الطبيعة في مقام العبودية، كما كتب على المرسلين والنبيين والعارفين والمحبين من قبلكم لكي تتخلصوا من رجس البشرية، وتصلوا مقام الأمن والقربة.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وهي أيام زمان الدنيا، يغري بهذا الخطاب أولياءه بترك المطايبة والمناكحة والمباشرة والمؤانسة والملاعبة، ولذائذ العيش في أكل ألوان الشهوات، وشرب مياه البارادت، ولبس الناعمات، أي: اصبروا يا أوليائي عن شهوات الدنيا، فإنها أيام ستنقرض عن قريب حتى تفطروا بلقائي القديم، وتعيشوا في جواري الكريم.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: مَنْ يكون من المنقطعين مريضًا من فرقتي أو في سفر الوحشة عن وصلتي، فعليه تدارك أيام القدرة بعد إدراكه مقام القبة والمشاهدة.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ أي: وعلى الذين يطيقونه الإمساك عن الكون بنعت الزهد عن الدنيا أيام حياته، ولم يعمل عمل أهل الطاعة لقلّة توفيقه وهدايته فدية، وهو خدمة أولياء الله ببذل النفس والمال مِنْ الذين تركوا الدنيا لأهلها، وذلك قوله تعالى: ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ والمساكين الذين صادقوا التلوين، ولم يبلغوا مقام التمكين.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ أي: فمَنْ تعدى لعجزه عن حقيقة المعاملة زيادة على الواجب الذي عليه من الموجود بعد مقاساته في المفقود؛ فهو خيرٌ له من طلب الرخص.

﴿وَأَن تَصُومُوا۟﴾ أي: أن تمسكوا عما يشتغل به أهل الدنيا، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في ثبات حالكم، وقوة إرادتكم.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعرفون ما للصائمين من الفرح فرحة في الدنيا بالمكاشفة، وفرحة في الآخرة بصرف المشاهدة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ

عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

شهر فيه احتراق أكباد أهل العيان من شوق مشاهدة الرحمن، لذلك أُنزل فيه القرآن لرقة قلوب المخاطبين من نيران المجاهدات، وكشف أنوار المشاهدة.

قيل: أُنزل لفضله وتخصيصه من بين الشهور، وافتراض الصوم فيه، واستنان القيام في لياليه بالقرآن.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: مَنْ حضر فيه مقام الطلب؛ فليفطم نفسه عن رضاع الطبيعة لمقام الطرب، وأيضًا ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ عن الشراب والطعام، ومَنْ شهدني؛ فليصمه عن المخالفات والآثام.

قال الواسطي: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ومَنْ شهدني وشاهد أمري؛ فليصم أوقاته كلها عن المخالفات، ومَنْ شهد الشهر على رؤية التعظيم؛ فليمسك فيه عن اللغو واللهو، ومَنْ شهد على رؤية فعله وصومه؛ فليس لله حاجة في ترك طعامه وشرابه، وهو كما أخبر النبي ﷺ: «رب صائم حظه من الصيام الجوع»[1].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ أي: إذا سألك أهل محبتي وتوحيدي عن دنوي منهم؛ فإني قريب منهم إليهم، وأنا مباشر أسرار حبهم فؤادهم بصفة الخاص، فانجلي بنفسي من نفوسهم لنفوسهم؛ لأن ظهوري للعموم، وإن لم يروني إلا أهل الخصوص، وفي ضمن الآية إشارة إلى تنزيه الحق عن البينية والأبنية؛ لأنهم أشاروا إلى قرب البين، وبعد الأين؛ فقال تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ من عبادي بلا أين، وبلا بين.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٧٣)، وابن ماجه (١/ ٥٣٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٣٩).

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي: إني أجيب دعوة المخلصين إذا دعوني من قعر قلوبهم بلسان أسرارهم، وإن لم يعلموا إجابتي لهم.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ إذا أدعوهم بأصوات الوصلة عند خطرات كلماتي في قلوبهم إلى مائدة مشاهدتي في زوايا صدورهم بنعت إعراضهم عن غيري.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ أي: ليوقنوا فيما كشف لهم من أسرار ملكوتي، وأنوار جبروتي، ولا يسمعوا حديث العدد.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ إلى مقام طمأنينة وحقائق التمكين بشرط المعرفة.

قال الشبلي: إذا وجد الحق للعبد لذاذة قربه ارتضاه لنفسه، وتولى سياسة لنفسه، وأدَّبه بأخلاقه، وأعطاه ثلاثة من أوصاف ذاته: حياة لا موت فيها، وقدرة لا يزول بعجز، وملكًا في جوار الملك، فذلك قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ﴾.

وقال ابن عطاء في هذه الآية: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ قال: أضاف عباده إليه إضافة خصوصية لا إضافة ملك، كأنه يريد إذا سألك الخواص من عبادي عني فأخبرهم بأني قريب.

وقال بعضهم: إذا سألك المشتاقون من عبادي عني، فأخبرهم إني أقرب إليهم من كل قريب، وأنا عند ظنونهم بي.

وقال رويم: القرب إزالة كل معترض.

وقال الجنيد، وسُئِلَ عن قرب الله من العبد؛ فقال: هو قريبٌ لا بالاجتماع، بعيد لا بالافتراق، وقال: القرب يورث الحياء.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بترك مجاهدتها، وتعليمها أسرار الأدب، والوقوف على مرادها، واستماع كلامها على شرط التقبل منها، والصبر على انطلاقها عن رق العبودية، واقتحامها في نيران الشهوة.

وقال ابن عطاء: خيانة النفس الوقوف معها حيث ما وقعت.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي: إذا عكفتم في مساجد القربة لطلب المشاهدة، فلا تميلوا إلى حظوظ البشرية، وهذا من أحسن الأدب، ورد من الله تعالى أدب به أولياءه في مجالستهم حضرته، وأيضًا الاعتكاف وقوف الأرواح على بساط الفردانية لاشتغالها عن الحدوثية بنعت فنائها في أنوار الأزلية.

وقال الواسطي: الاعتكاف حبس النفس، وذم الجوارح، ومراعاة الوقت، ثم أينما كنت، وأنت معتكف.

وقال بعضهم: أهل الصفوة معتكفون بأسرارهم عند الحي لا يؤثر عليهم من جريان الحوادث شيء لاستغراقهم في المشاهدة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: فلا تقربوا حدود الحقائق إلا بشرط آدابها بنعت المعرفة، وحسن حقيقة الأدب، وأيضًا رشح الحق أحكام الربوبية حدود في مقام العبودية، ليحجز العباد بها عن هتك أستار القربة؛ لأن في بداية الحدود أسرار العبودية، وفي نهايتها أسرار الربوبية، منع الخلق بها عن الاطلاع على أسرار الأزلية لبقاء الأحكام والشرعية ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أظهر سر القدم بوصف الجبروت في النعوت والآيات، لعل عباده يبصرون بسط سطوات عظمته، ويخافون من عقوبته، ويتركون أوصاف البشرية في ديوان الحقيقة.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

أي: يسألونك طور أطيار بساتين الغيب عن نقصان هلال المشاهدة عند الفترة، وزيادتها عند الكشوف بنعت تجلّي الأسرار؛ لأنهم إذا غابوا في أوصاف أحكام العبودية احتجبوا بها عن رؤية مشهود الغيب، وإذا خرجوا من وطنات أزمة الابتلاء، رأوا في سماء اليقين نواد أنوار أقمار الصفات، فتاهوا عند ذهاب عقولهم في مجلس الخاص تحت حضيض سوانح الكبراء، وطاشوا في لهوب البليات من تراكم سحاب الوجد عند تدريها مزن الشوق، فتحيروا بين المنزلين، واستفتوا من أشرف خلق الله حسام حكم الله رئيس البرية محمد ﷺ عن مرسوم هذه الأوصاف كي يخلصوا عن أركان الشواهد بعد جمع الجمع في قلوبهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ وقال: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ أي: لهذه الأحوال المتشتتة في كشوف عز السرمدية وذات الأبدية عيانًا وغيبًا لمواقيت الأرواح في طيرانها إلى أعلى المقامات على ترتيبها، وظهور أوقات المواجيد، وقصورها إلى عالم الصفات، لشق الله تعالى كشف القربة على قدر شوق الشائقين حتى علموا أحكام العبودية في الربوبية، والربوبية في العبودية على قدر بدء الأحوال، وكشف الصفات؛ لأن العارف محتاج إلى حقيقة علم الأحوال والآداب فيها ليستعملها بقدر وجدان أنوار القربة، وصفات المشاهدة.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ

أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

أمر الله تعالى أهل عرفان الحقيقة بقتال النفس على السرمدية، وقطع بنية دواعي البشرية لسلامة صدورهم عند اجتماع همومهم بين يديه، وترك تجاوز الحد بإهمالها، والوقوف على حظوظها.

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[1] أي: حاربوا أنفسكم على دوام الرعاية لأوقاتكم بنعت تصفية أحوالكم عن دنس الطبيعة، وخبث الجبلة، وإزالة أوصاف البشرية حتى لا يكون وقوع خطرات العدو في ديوان الأسرار يعني صدور الصافية، وقلوب النقية المنورة بنور الأحدية، ويكون بعد جمع الهم أسراركم وطنات مكاشفات القربة، وحقائق الإيمان تستولي على بواطن حقيقة النفوس بنعت انفراد الأسرار بين يدي العزيز الغفار.

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الإنفاق على ثلاثة أحوال: نفقة الزاهدين، ونفقة المحبين، ونفقة العارفين، أما نفقة الزاهدين بترك جميع الدنيا مع لذاتها لأهلها حتى استمتع بها الأنام، وبذل نفوسهم لله في أيام الله، وأما نفقة المحبين فإعطاء ما نالوا من الحق لأهل الحق، وأما نفقه العارفين فبذل الأرواح في مقام الفناء من وجدان غيرة الحق في أسرارهم، أمرهم الله تعالى بالإعراض عن الكون مع استطابة أحوالهم بلذائذ المحبة، والدخول في مقام الإحسان؛ لأن الإحسان أعلى المراتب من رتبة أهل المشاهدة؛ أعلمهم الله تعالى ألا ينالوا حقيقة المشاهدة إلا ببذل حياتهم لأهل خالصة الحق، وأخبر أن مقام الإحسان مقرون بالمحبة، لأجل ذلك قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ومَنْ فاته الإحسان احتجب عن المشاهدة، وهلك في قبضة بطش النفس متحيرًا في هاوية هواها مصروعًا في ورطة هوساتها.

---

(١) أي: حتى لا يوجد منهم شرك، فهو كقوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إله إلاَّ الله». (ويكون الدين كلُّه لله) بحيث تضمحل الأديان الباطلة ويظهر الدين الحق.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾.

أوجب الحق سبحانه على قدر أهل الحقيقة إتمام مقاصدهم إلى بساط القربة بأن يتجردوا عن الكائنات في توجههم إلى مزار القدم، وأن يخرجوا من الحوادث بنعت التفريد والتجريد طلبًا بفنائهم بقاءه في تحقيق التوحيد، وأن يغتسلوا من شوائب البشرية، وأوساخ الطبيعة في أنهار المعرفة، وأن يلبسوا إحرام العبودية لقصدهم عرفان الربوبية، ويتموا إجابة الحق بأدائهم ما افترض عليهم من بذل النفوس في العبودية والأرواح في سلطة الربوبية، لتقترن إجابة الظاهر بإجابة الباطن؛ لأنهم أجابوا الحق في بدء أمرهم؛ إذ قالوا: بلى، فيستدعي الله عنهم إتمام ميثاق الأول، ويذكرهم عهد الأول من تعريف نفسه إليهم ليتأهبوا في أمر الظاهر إتمام حقيقة الإجابة، بأن يقولوا: لبيك، فالحج لأهل التمكين، والعمرة لأهل التلوين، وإتمام الحج البلوغ إلى رؤية الربوبية، وإتمام العمرة الوصول إلى حقيقة العبودية. قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أي: اصبروا في إتمامها لله حتى تجدوا مأمولكم في الله.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: إن منعتم أوصاف البشرية عن الطيران في هواء الحقيقة، وحبستكم حجب الابتلاء في أشجار الطبيعة، فلا تميلوا عن حقيقة الطريقة، والشروع في طلب المشاهدة، وابذلوا أنفسكم هديًا لله ليرشدكم لشفقته عليكم إلى أوطان المشاهدات، ويبلغكم حقيقة القربات، وأيضًا فإن حبستكم غيرة الحق عن الوصول إليه لسبب ما، فتحللوا من قتل

نفوسكم حيث أوقفكم، واشتغلوا بالعبودية عن الربوبية؛ لأن في غيرة الحق إشارات تمنع أولياء الله عن السير في قُربة الحق، وذلك بأن القلوب إذا مرضت وسقمت عن الجهد في طلب الحقيقة، وسكنت بحظوظ البشرية، فأثابها الله بالإحصار في وطنات الطبيعة.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾(١) بيَّن الله تعالى مواقيت العبادة لئلا يسأموا عباده عن خدمته، ويقعوا بفتورهم في مقته، وأيضًا حتى يسكن أهل المعرفة عن أثقال العبودية في بسطهم برؤية الربوبية، وانتقالهم بمشاهدة الرحمن عن زحمة الامتحان، ووقت الحق لأهل خالصة في سلوكهم، وإتيانهم نُبساط القربة أحانين الصفاء والوفاء والطمأنينة واليقين، وجمع لهم ليعرفوا أن القصد لا يتهيأ إلى بساطه إلا في هذه الأوقات المعلومة.

قال النصرآبادي: وقَّت الله العبادات بأوقات ليتأهب للعبد لها قبل أوانها بأدائه الطهارة، ولم يوقت المعرفة لئلا يتخلى العبد عن مراقبة المشاهدة بحال.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: اجتنبوا على الالتفات إلى غيري في استقبالكم إليَّ فإني زادكم في جميع الأحوال، ولا تحتاجون أحداً سواي، وأيضًا إذا أردتم أن تقطعوا أقفار الديمومية وفلوات الأزلية، فتزودوا على مراكب القلوب نور الأنانية لأرواح العاشقة في سير النيوب، وخافوا عن فقدي، فإن خير الزاد في طلب وصلي الافتقار إليَّ مخافة فقدان قربى، ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ لأنكم أهل الخصوص بأنوار العقول فمَنْ يعقلني بنعت العظمة لا تسكن روعته في دار امتحاني .

وقيل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هو خطاب للخاص؛ لأنه لا زاد للعارف سوى معروفة، ولا للمحب سوى محبوبه.

وأنشدوا:

إذا نحـــن أدلجـــنا فأنـــت أمامـــنا ... كفـــي بمطايانـــا بلقـــياك هاديًـــا

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قال الواسطي: عاقبهم لأنه أحبهم.

وقيل: أقبلوا عليَّ يا أصحاب الفهوم السليمة، وأعقلوا عني.

وقال أيضًا: هم من الخصوص، ولم تجعل للعموم فيهم طريقًا.

---

(١) كما أن الحج بالنفوس أَشْهُرٌ معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها، ولا يجوز فعل الحج في جميع السَّنَةِ إلا في وقت مخصوص، من فاته ذلك الوقت فاته الحج - فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها، وهي أيام الشباب؛ فمن لم تكن له إرادة في حال شبابه فليست له وصلة في حال مشيبه، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصلح إلا للعبادة التي آخرها الجنة، فأما الإرادة التي آخرها الوصلة. تفسير القشيري (١/ ١٨٩).

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: اذكروه بلسان عرفان نعمة تعريف نفسه لكم، كما هداكم إلى معرفته وخصائص قربته، ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: إذا بلغتم مقام مشاهدة المذكور بعد احتراقكم بأنوار ذكره، اشتغلوا بما يشتغل العوام من رسم العبادات؛ لكي لا تفنوا في بحار الوجد ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ﴾ من فترتكم عن الأحوال واشتغالكم بالأعمال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ تقصيركم فيما وجب عليكم حق معرفته ﴿رَّحِيمٌ﴾ عليكم بأن يردكم إلى حالاتكم ومقاماتكم.

قال ابن عطاء: إذا عمرتم بواطنكم بذكري، واستفرغتم الوسع فيه؛ فارجعوا إلى ما رجع إليه العوام من القيام برسوم العبودية، واستغفروا عن اشتغالكم بغيره، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمطيعين تقصيرهم في طاعاتهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالعاصين أن يردهم برحمته إلى بابه.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: الإشارة فيه أن لا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك في الظاهر لا بلبسه ولا بخرقة وصبغة؛ بل يكون كواحدٍ من الناس، وإذا خطر ببالك أنّك فعلت شيئًا أو بك أو لك أو منك شيء فاستغفر الله عز وجل، وجدد إيمانك فإنّه شِرَك خفي خامر قلبك.

﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: فاذكروني ذكر مَنْ يعلم في جميع الأحيان أنه ولده أحد؛ لأنه ذكر لا يسقط عن الإنسان أبدًا في حياته، فهكذا ينبغي ذكر خالق الآباء والأمهات، وأيضًا فاذكروني كذكر الطفل أباه في جميع ما أراد؛ لأنه يأوي إليه في جميع مراده، وأنه يعلم أن ليس له ملجأ إلا أبيه، فأدب الله بهذه الآية شرائط المعبودية بنعت الذكر، وأيضًا وبخ الله عباده بذكرهم غير ربهم، وهذا المعنى مبهم على أكثر المفهوم.

وقيل: معناه أنك تذكر إحسان أبيك إليك، فتذكره بذلك أبدء وإحساني إليك أقدم وأكثر، فاذكرني كما تذكر أباك.

وقال بعضهم: اذكروني بالنعماء يرد عليك زوائد الآلاء.

وقال الواسطي: ذكر عارضي، ودعاء عادني، كيف يرجي بركاته أو نماؤه أو زيادته.

سُئل أبو يعقوب المكي كيف نذكر الحق كذكر الأب فقال: أعلم أنه إذا ضربك، فإنه أدبك لحبه لك، وإذا سلبك فأعلم أنه أعطاك بقربه منك، وليس يسعك سوء الظن به نشفقته عليك.

وقال ابن عطاء: يومًا لأصحابه اذكروا الله بألسنتكم حتى لا تتحرك لغيره، واذكروه بقلوبكم حتى لا تتفكروا لغيره، واذكروه بأسراركم حتى تحيى به، واذكروه بأرواحكم حتى

تتعلق روحكم بأنواره.

قال الشبلي: بذكر الله طلع الأكياس عن بساتين الأنس، وبذكر الله فاز الأولياء بجوائز الرحمن، وبذكره هامت قلوب العارفين شوقًا إليه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (٢٠١) أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٢٠٢) ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

حسنة الدنيا معرفة الله وطلب مرضاته بترك الاشتغال في الدنيا، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ وحسنة الآخرة مشاهدة الله تعالى والاشتغال به عن نعيم الآخرة، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: وقنا عذاب الحجاب باحتراقنا في نيران شهوات نعيم الآخرة، وأيضًا حسنة الدنيا اليقين، وحسنة الآخرة الكشف، وأيضًا بحسنة الدنيا المواجيد السرمدية، وحسنة الآخرة الشكر بمشاهدة الحق جل جلاله، وأيضًا حسنة الدنيا الذكر الصافي في خاطر صافٍ على دوام المراقبة بلا غبار الكدورة، وحسنة الآخرة الغيبة عن الذكر بمشاهدة المذكور.

وقيل: حسنة الدنيا الإغراض عنها، وحسنة الآخرة ترك الاشتغال بها، وقنا نيران شهواتها فإن ما شغل عندك نهو مشئوم.

وقال الواسطي: في الدنيا حسنة الغيبة عن كل متظلم من الحق، وفي الآخرة حسنة الغيبة عن رفع الأفعال والرجوع إلى الفضل والرحمة.

وقال ابن عطاء: القناعة بالرزق والرضا بالقضاء.

وقيل: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ محبة، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربة، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ نيران القطيعة والفرقة، ولا ينالون من نار جهنم.

وقيل: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ذكرك، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربك، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أن تحرمنا ذكرك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٢٠٧)﴾.

أي: ومن المدَّعين مَنْ يعجبك طاماته ومزخرفاته، وما كان بخلاف خاطره، وأخبر تعالى نبيه ﷺ أن قومًا يأتونك ويتكلفون في دقائق الكلام، ويظهرون خصائص الأحوال والكرامات التي كانوا يسمعونها من أهل المعرفة، ويتوقون في الإشارات والغوامض من العلوم، وهم بمعزل عن حقائقها، هؤلاء فراعنة الضلالة، لسانهم لسان الأنبياء، وقلوبهم قلوب الذباب؛ لأن الله تعالى سلب نور الإيمان عن قلوبهم، وألبس بسط الكلام ألسنتهم، ليس لهم في مقامات الأصفياء نصيب، ولا لهم في أغصان أشجار معارفهم وكواشفهم نصيب، ولا على قولهم اعتماد، ولا على عهدهم اتكال، صرف الله وجوههم عن قبلة الحقيقة، ومنعهم عن ملاحظة حق الشريعة، وأقفل أبواب قلوبهم بختم الضلالة، وحجبهم عن إدراك أنوار البصيرة حتى ليس في جرابهم من معنى الحقيقة معنى، ولهم في كل محفل من الأباطيل دعوى، فالواجب على السالكين الإعراض عن مجالستهم؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء أوليائه حتى سلموا من شؤم مذهبهم، وقبح مقالتهم، وهؤلاء أهل البدع والأهواء، يفتنون هذه الأمة، ويحجزهم عن طريق الحق، وينكرون أهل الإصابة، ويغرون أهل الإرادة، ويصدونهم عن الطريقة، والله يشهد أنهم لكاذبون في دعواهم، يتلذذون في محاوراتهم مع الصديقين بأسوأ المخاطبات، يغري الخلق رونق لباسهم، وزينة هيئتهم، ويجذبون قلوب الناس بحلو كلامهم، واصفرار وجوههم، واقصرار أكمامهم، وانتفاخ أقدامهم، ليضعوا أقدامهم على أعناق الأنام، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: الإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم يساعدهم أنوار البصيرة، فهم مربوطون بأحكام الظاهر، لا لعبرة بهذا الحديث إيمان، ولا لهذه الجملة استبصاره، فالواجب صون الأسرار عنهم.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾ فأخبر سبحانه أن هؤلاء القوم إذا خرجوا بزينة الأبرار والأتقياء، لصرف وجوه الناس إليهم، شدوا أوساطهم في جذب الأموال، وجر المنافع حتى فاقوا على الناس كلهم، فإذا خلوا إلى أهل العزة والفتنة، ألقوا بذر الكفر والنفاق والأهواء المختلفة في قلوبهم، وحصدوا زرع الإيمان عن صدور ضعفاء المريدين، وقطعوا وسيلة الأُلف من بين السالكين في الله، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ الإشارة فيه أي إذا كان لا يحب الفساد لا ينصر أهله ويخذلهم في كل مواطن حتى لا يطيقوا أن يطفئوا نور الله بأفواه الضلالة عن سرج قلوب المؤمنين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المفسدين المدعين اتقوا الله ولا تظهر خلاف ما تضمرون عن أمر ربهم، واستكبروا وتجبروا وأكثروا فسادهم؛

لأنهم عموا عن رؤية قبائحهم وسواء أفعالهم وهم يظنون أنهم أشرف خلق الله، لذلك لا يقبلون النصيحة، ولا يلتفتون إلى أهل الحقيقة، وإذا أمرهم بمعروف فلا ينتهون لجهلهم على أنفسهم ويحسبون أنهم مهتدون، استولت عليهم حميّة الجاهلية، واغترتهم شقوق الضلالة، ودمرهم كبرهم في مهالك الشقاوة، أعاذنا الله من صحبتهم ورؤيتهم.

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: حسبهم نيران الغفلات، وظلمة الجهليات؛ لأن مَنْ احتجب بسوء عمله من الله ومن صحبة أوليائه فهو في عذاب الأكبر، حيث لا يرى طرق الرشاد وهو في أقبح المهاد يعني سهاد الكفر التي ترضعه فيها نفس الأمَّارة ألبان الشهوة من ثدي الضلالة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾.

أي: أدخلوا في قباب اعتصام الحق بنعت الاستعاذة حتى تصيروا ساكنين تحت مجاري الأقدار، راضين في حقيقة الاختيار، معرضين عن الكائنات، مصرين غيوبات الملكوت، شاهدين بأنوار الجبروت، منقادين لأحكامه، متأهبين لذبح النفوس طالبًا لمرضاته وشوقًا إلى لقائه.

وقيل: السلم هو الرضا بالقضاء.

قال الجنيد - رحمه الله تعالى - قال ابن عطاء: اتباع الأوامر والنواهي.

وقال أبو عثمان: السلم هو الخمود تحت مجاري القدرة لك وعليك.

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ الإشارة فيه أن مَنْ عرف الحق بنعت الألوهية، ورجع من قربه إلى وطنات نفسه، فقد أشرك وعقوبته أن عجبه الحق عن وصله ومشاهدته، ولم يؤمنه غيرة الحق على أسراره ما عاش وإن كان في العبودية طاش.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾[1] أي: هل ينظرون أهل الغيرة في المحبة إلا إقبال جمال الحق إليهم في لباس المجهول، فإدخالهم في قباب العصمة، وغيبتهم في جلال العصمة، حين أسبل الحق عليهم نقاب الكبرياء حتى يتجلَّى بمشاهدة الخاص؛ لأنهم أهل الغيرة، فسترهم بغيم النكرة، وشوّق لهم بنور الصمدية وجلال الأبدية، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: قضي ما سبق لهم من العناية الخاصة، والمنن الأزلية.

وقال جعفر: هل ينظرون إلا إقبال الله عليهم بالعصمة والتوفيق، فيكشف عنهم أستار الغفلة، فيشهدون برَّه ولطفه؛ بل يشاهدون البار اللطيف، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾.

قيل: وصلوا إلى ما سبق لهم في الأزل من إحدى المنزلتين.

وقال جعفر: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ وكشف عن حقيقة الأمر ومغيبه.

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖ﴾ وبخ الله تعالى قومًا من المستدرجين الذين لم يشكروا الله تعالى فيما نالوا منه من خصائص المقامات والكرامات ورؤية حقائق الآيات بأداء الصدق والإنصاف مع أهل القصة من الأنبياء والأولياء من استشارهم رئاسة الخلق على مرافقة الحق، وإنكارهم على أوليائه، وتغيرهم أمانة الله تعالى التي خصَّ الله بها خواص عباده، باعوا اليقين بالوهم، والعزيمة بالوهن، فمسخ الله قلوبهم طمسًا بذهاب نورها حتى بقوا في ظلمة الحجاب وهو أشد العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وخوَّف بهذا التوبيخ أهل معرفته ومحبته لئلا يلتقوا إلى الدنيا وأهلها، ويشكروا نعمة عرفان قربه ببذل الأرواح في وجدان نور الربوبية، وتحول الأشباح بشرط الخشوع في حق العبودية.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: زيَّن للذين اغتروا بعاجل الكرامات،

---

(١) قيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. البحر المديد (٤/ ٢٨٨).

وقبولهم بين الخلق بإظهارهم الفراسات، وحجبهم بها عن درجات المشاهدات، ورؤية ما سبق للأولياء من الرعايات والعنايات، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يتهاونون أهل المواجيد الذين سبقوا بنور العصمة، وغابوا في مشاهدة مولاهم عن المكر والخديعة.

وقال جعفر: زُيِّن للذين جحدوا التوكل زينة الحياة الدنيا حتى جمعوها، وافتخروا بها، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من الذين توكلوا على الله في جميع أمورهم، ونبذوا تدابيرهم وراء ظهورهم، فأعرضوا عنها وهم الفقراء الصُّبر الراضون.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني في ميثاق الأول حين خاطبهم الحق سبحانه وتعالى جل سلطانه بتعريف نفسه لهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، كانوا أمة واحدة في إقرارهم برؤية خالقهم، وإلزام عبوديته على أنفسهم لمّا رأوا من عظم برهانه، وشواهد سلطانه، وما سمعوا من عجائب كلامه، وما أدركوا من أنوار قربه وصفاته وذلك الجمعية قبل أن يبتليهم الله بالعبودية، فلمّا اختبرهم ببلايا العبودية إلى الدنيا، فتفرقوا جميعًا، فأهل الصفوة ساعدهم التوفيق، فبقوا على المشاهدة والقربة، وإدراك أنوار الصفوة، ثابتين في دفع حطام الدنيا عن مجالس أسرارهم مع سيدهم، مستقيمين في خدمته بلا طلب الأعواض من الكرامات، مقتصدين في سلوك المعرفة والمحبة، فأنزل الله سكينته في قلوبهم، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، فلا جرم ما زاغوا عن طريق الاستقامة، وما زاغوا عن مشاهدة الحبيب إلى حضرة الدنيا وشهوتها، وما باعوا كرامة الحق بالدنيا الدنية، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وأما أهل الخذلان فأوبقهم الحق في ظلمه هواء نفوسهم حتى استأثروا الدنيا على الآخرة، ونسوا عهد الله، ونزلوا على مراد الهوى، وتركوا نعيم الرضا، ومالوا عن طريق الهدى إلى مضلة الضلال ودول الجهال، وأيضًا كانوا بعد كونهم من العدم جملة في غيبة من الحق قبل خطاب الحق معهم، وكشف قربه لهم فإذا كشف الله عنهم حجب الإنسانية، وأراهم مشاهدة القربة، فتفرقوا جميعًا في شعب المعارف والكواشف، فبعضهم صادقوا حقائق المقامات فوقفوا بها على شرط العبودية، وبعضهم صادقوا لطائف الحالات فبقوا فيها متنعمين بمشاهدة الربوبية، وبعضهم نالوا خصائص الكرامات والمعجزات فشاهدوها بشرط أداء الأمانة، وبعضهم أدركوا صرف المشاهدة من الحق جل كبرياؤه فتاهوا في وادي العظمة، وطاروا في هواء اهوية، وساروا في فقار الديمومية، وأما أهل الحرمان فصادقوا في أول نهوضهم من زمرة الوحدة مهالك القهريات، فغابوا في شعاب الضلالات، فبعضهم تهودوا، وبعضهم تنصروا، وبعضهم تزندقوا، وبهذا جف القلم إلى يوم ليس لهم في الإيمان

والخذلان اكتساب؛ لأنه اختيار الله الذي قد سبق لهم في العدم، وختم به القضاء المبرم: ومن هاهنا تفرقت القلوب وانشقاقها عن الموبقات؛ لأن الأرواح جنود مجندة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: حسبتم أن تدخلوا جنان المشاهدة، ومجالس الأنس بنور المكاشفة قبل ممارستكم مقاساة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، وأيضًا أحسبتم يا أوليائي أن تدخلوا جنة الوصلة والقربة كأنبيائه الذين سبق لهم منا مقام النبوة بلا مؤن المجاهدة وليس هذه المنزلة لغير الأنبياء ولهم خاصة كرامة لهم تشريفًا وتوقيرًا وتفضيلاً على جميع الخلق.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أخبر سبحانه أن مقاومة النفس ومخالفتها صعب على صاحبها؛ لكن في درب كل خلقٍ دنا في نيران المجاهدة انفتاح كنز من كنوز الحقائق من الفِراسات والكرامات والمناجاة والمكاشفات والمشاهدات؛ لأن النفس الحجاب الكلي يحجب القلب عن مشاهدة الملكوت، ورؤية أنوار الجبروت، وسنة الله قد مضت بأن من خالف نفسه وهواه فقد استنَّ محجة المثلى وأدرك ممالك العليا، ورقي مدارج المكاشفات، وبلغ معارج المشاهدات؛ لأن مخالفة النفس هي موافقة للقلب، ومَنْ وافق قلبه أنس سعادة الكبرى، ونال منزلة الأعلى؛ لأن مَنْ باشر أنوار القلب فقد باشر أمر الحق، ومَنْ أدرك الحق بوصف الإلهام باشر سره نور الحكمة، ومَنْ أدرك نور الحكمة فقد أبصر نور معرفته، ومَنْ أبصر نور معرفته عاين حقيقة الكل بالكل، وقد استمسك بالعروة الوثقى، وهي مشاهدة مولاه، فأين هذه المنزلة والمرتبة في هوا حسن حظوظ البشرية، وحصول النفس عند توقانها نفائس الشهوة؛ بل الأمر المعظم في قتال النفس، وقمع شهواتها، وقلع صفاتها عنها حتى تصير مطمئنة ساكنة تحت قضاء الحق، وبقي القلب فارغًا عن وساوسها، وسرَّ عالم الملكوت بنور البصيرة، كما قال ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا

إلى ملكوت السماء»[1].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: أفل أحانين إقبال الحق على العبادة بنعت بسط آلاء مشاهدة القربة، وازدياد المعرفة على أهل الصفوة، مقرونة بظهور أنوار جماله، مسابقة لهم بشرط الإرادة القديمة في أكناف طلاب المشاهدة في إزالة مرسومها، متفاوتة بتفاوت بروز سناء تجلي الجلال والجمال في تقليب دهور الحوادث، فأشجار بساتين الأسحار الأطيار أرواح الأخيار، وأنوار النهار المبرز بنور القدس لأشباح الأبرار، ولكل وقت من أوقات انكشاف نور الحضرة حرمة بقدر وقوع وقائع أهل القصة والخطرات فيها من النفوس الأمّارة أعظم وهواجسها أكبر؛ لأن الأجرام في مواطن قربه أسخن حجابًا، والحروب في بواطن الأنس أسرع عقابًا.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ الحساد لا يزالون يمكرون بأولياء الله لكي يوبقهم بأعين الحسادة، وأنفس الأمّارة؛ لأنهم لا يطيقون أن يروا نعم الله على أحبائه وأوليائه، ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ وأحسد الخلق بأصفيائه هو الشيطان الذي كل وقت يترصد فأتهم، فالإشارة فيه من الله تعالى لأوليائه أنه يحذرهم من غرة العدو؛ لأنه يحسد بهم نفاسة عليهم بوجدان مشاهدة حضرته، ونوال قربته؛ لأن من نكص على عقب النفس بعد إدراك معرفة الحق فقد هلك مع الهالكين، وسقط عن درجة السالكين العارفين، وبقي في حجاب الغفلة، وظلمات الجهل مع الجاهلين، نعوذ بالله من الخذلان بعد وجدان الإيمان والعرفان.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٥٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٣٣٥).

ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الخمر حب ما سوى الله؛ لأن زيغ بصر السر عن مشاهدة الحضرة إلى الكون بنعت استحسانه حجاب العقل الكل إذا خامر النفس سر القلب باشره الغفلة، وسكرت بإدراك هواها وحظوظها، وسقطت عن مباشرة العبودية، وبتأثيرها احتجبت الروح عن معاينة الآخرة، وبقيت في حجاب النفس عن الوصال، والمقام والمشاهدة، ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ حبل الشيطان والنفس مع القلب، فإذا مال القلب إلى شهوة النفس فقد قامرها وصار مقمورًا مسلوب الإيمان والعرفان، ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أن ظلمة الخمر تطفي نور العقل، ويقوي طرب النفس الأمّارة فإذا خمد نور العقل، وارتفعت ظلمة الجهل تفسد النفس مقام الإيمان، وتخربه وهو القلب، وإذا كان القلب خرابًا ومنبع الإيمان مضمحلاً، فهو قريب من الكفر، والكفر آخر الإثم واللعب بالنرد، وأمثال ذلك، كأنه يعبد الأوثان؛ لأن في الأشغال به اشتباه نور الإيمان تمثال النرد والشطرنج، وتخيل الفهم صور الخيال، وهذا أول أسباب الشرك لأنهما أما جميع الخبائث، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: معرفة أفاتها وسوء عاقبة مَنْ يشغل بها، وأيضًا في زوالها منافع للناس.

وقيل: فيها في تناولها منافع للناس في تركهما، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ العفو عند العارفين ما سوى الحق من الكونين، يعني اتركوا إلى ما شغلكم عني وإن كان لكم فيها خصاصة حتى يكون لكم ذخرًا في جميع أنفاسكم عوضًا لمَا تركتم، فالخواص ينفقون ما يحبون طالبًا لمرضاته وتركًا لمرادهم؛ لأن الحق سبحانه لا يزيد أوليائه شهوة

الكونين والعالمين غيرة على أحوالهم وصونا لأسرارهم، والعوام ينفقوا زوائد أموالهم حصنًا لها وحرصًا بها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لعلكم تقطعون بواديها بأجنحة الأفكار ليخلص قلوبكم عن وجودهما أنوار أفعال الحق وحسن صنعته القديم، وبه تبصرون فيهما نور صفاته لتبلغوا به مشاهدة حسن جلال ذاته، وأيضًا لعلكم تبصرون بعين التفكر على صورة الدنيا لباس قهره، خدع أعدائه ليحتجبوا بزهرة الدنيا عن معرفته، وعلى صورة الآخرة لباس لطفه ابتلاء به أوليائه، وليختبرهم بلذة الآخرة حتى يظهر صدق دعواهم في محبته عن رعونات بشريتهم.

وقيل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة أي أنهما، والاشتغال بهما مما يقطعان عن الحق.

وقيل: أنهما على مكر وخديعة.

ألا ترى أن طاوسا لما قرأ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾[يس:٥٥]، فقال لو علموا عمَّا نهاهم ما اشتغلوا به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: يحب التوابين عن وقوفهم في المقامات، ويحب المتطهرين بنور المعرفة عن غبار الكائنات، وأيضًا التوابين عن طلبهم إدراك بطنان القدم بالعقول الناقصة والعلوم المحدثة، والمطهرين عن رؤية مقدارهم عن صدمة قهر الكبرياء وسلطان العظمة.

وقال بعضهم: راجعين إليه في كل خطرة من قلبه، وكل حركة من جوارحه.

وقيل: يحب التوابين من الزلّة ،ويحب المتطهرين من التوهم.

وقيل: يحب التوابين من الذنوب، والمتطهرين من العيوب.

وقال ابن عطاء: يحب التوابين من أفعالهم، والمتطهرين من أحوالهم، وهم قائمون مع الله بلا علاقة ولا سبب.

قال جعفر: يحب التوابين من [خواطرهم] والمتطهرين من إرادتهم.

وقال محمد بن علي: التوابين من توبتهم، والمتطهرين من إرادتهم، وقال أيضًا: التوابين من توبتهم، والمتطهرين من طهارتهم.

وقال أبو يزيد: التوبة من الذنب واحد، ومن الطاعة ألف.

وقال النصر آبادي: أن الله أثنى عليك، وجعل لك قيمة حين قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وقال الجنيد: دخلت على السري وعليه هَمٌ فقال: دخل على فتى من البغداديين، فسألني عن شرح التوبة، فأجبته، فقال لي: وما حقيقتها، فقلت: أن لا تنسى ما من أجله تبت، فقال الغلام: ليس هو هكذا، قال الجنيد فقلت: صدق الفتى، فقال: وكيف هذا؟ قال الجنيد: إذا كنت في حال الجفاء، فينقلني إلى حال الصفاء، فذكرى الجفاء عند الصفا وحشه.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ.. الآية﴾(١) علم الله عباده أدب المباشرة بشرط التقوى، وصدق بالنية في شروعه في مطالبة النفس حتى لا ينسوه في جميع أحوالهم، ويكون صحبتهم لله إلا بإجراء الشهوة.

وقال الواسطي: قدموا نيّة صادقة في جماعكم، وعفة فيها حرم عليكم، فإن ركوب الشهوة من غير نيّة صادقة غفلة عظيمة.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ ۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ ۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعۡتَدُواْ ۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ ۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ

---

(١) أي: مواضع حرثكم، شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام أرض لها. البحر المديد (١/ ١٨٢).

عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾[1] أحدهما طلاق النفس وشهواتها والدنيا وما فيها، والثاني طلاق الآخرة وما فيها، فينبغي للعارف أن يطلقها؛ لأن عروس مشاهدة الحق غاز على قلوب المحبين والعاشقين والمشتاقين أن يكون لهم شيء دون الله.

وقيل: ندب إلى تفريق الطلاق لئلا يتسارع إلى إتمام الفراق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصف الله تعالى أهل العناية الذين صدقوا فيها عاينوا في علم الأزل من مشاهدة القدم، وفيها سمعوا من خطاب الحسن بنعت تعريفه لهم جلاله وجماله وعظمته وصمديته وكبريائه وقدرته وحكمته: ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ من الحدثان إلى مشاهدة الرحمن، ﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾ في العبودية للزوم حق الربوبية عليهم، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ما بين مقاديره بنعت الرضا في مراده، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وصاله وقربه، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ تقصيره في تزكية الأشباح، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم في تربية الأرواح.

---

(١) فإمساكٌ لها بمعروف بأن يواسي بها من يحتاج إليها، أو تسريح لها من يده بإحسان من الله إليه، حتى يدخله في مقام الإحسان، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبداً حتى يأخذها من يد الله بالله، بعد أن كان بنفسه، فكأنه أخذها بعصمة جديدة، فإن تمكن من الفناء والبقاء، فلا جُناح عليه أن يرجع إليها غنياً بالله عنها، والله تعالى أعلم. البحر المديد - (١/ ١٨٨).

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ المحافظة شهود السر مقام الغيب، وخمود النفس عن دواعي الرب، ومراقبة القلب أنوار الكشف، ورعاية الروح مشاهدة الوصل، ومراعاة الأدب ظاهرًا وباطنًا، فأما الظاهر بإقامة الحدود في أركانها، وأما الباطن فبدفع الخواطر المذمومة الشاغلة عن رؤية الآخرة، ثم الغيبة عن الأركان والرسوم برؤية الحق جل جلاله في صلاته، ثم الفناء في حقائق المشاهدة عن ملاحظة وجوده لغلبة سكر الوجد، ومن هذا حاله فهو غائب في سرِّ الاصطلام، ولا يعلم كيفية صلاته لغلبة الوقت ولا غيب عليه؛ لأنه قد بلغ مقام المشاهدة، وهذا مقصود الصلاة، وهو إشارة النبي ﷺ لقوله: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»[1]، لكن صورة الأحكام تجري على العارف، ويحفظها عليه، وإن لم يعلم شأنه فيها، فهؤلاء القوم يغيبون عن الظاهر لشغل الباطن، والعامة يغيبون عن الباطن شغلاً بالظاهر، فشتان ما بين الطائفتين، فالعوام طاحوا في أودية الغفلات، فيزينون أحكام الظاهر، وأهل المعرفة طاروا في عالم المشاهدات في غيبة عن رسوم الأحكام استغراقًا في بحر أنوار مشاهدات ذو الجلال والإكرام، وأبهم صلاة الوسطى لمراعاة جميع الأوقات، ومراقبة أحانين المكاشفات.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٩).

قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ جعل لهن المتاع تسلية لقلوبهن لأنهن كابدن مقاساة الفراق لئلا يتضاعف لهن البلايا بلاء الهجران وبلاء الحرمان.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض الحسن بذل الوجود مع الحياء، والخجل معرفة على تقصيره، وفناء أطماع الأعواض، والفرح بمخاطبة الحق معه، وأيضًا استقرض من عباده ما أعطاهم لتربية هم، ويزيد فضله على فضله.

وقيل: مال القرض لتربة الفقراء.

وقيل: القرض الحسن ما لا يطالع عليه الجزاء، ولا يطلب بسببه العوض.

وقال بعضهم: ملكك ثم اشترى منك ليثبت لك معه نسبة، ثم استقرض منك مما اشتراه، ثم وعدك عليه العوض أضعفًا، بيّن فيه أن عطاياه ونعمه بعيدتان أن تكون مشوبًا بالعلل.

﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ يقبض أرواح الموحدين بقبضة الجبروتية في نور الأزلية، ويبسط أسرار العارفين من قبضة الكبرياء، وينشرها في مشاهدة سناء الأبدية، وأيضًا يقبض المشتاقين في رفاق التوحيد، فيتجلّى لهم مشاهدة العظمة، ويبسط العشقين في حجال الأُنس، فيتجلّى لهم مشاهدة الجمال، وصرف القربة.

ويقال: القبض سره، والبسط كشفه.

ويقال: القبض للمريدين، والبسط للمرادين.

ويقال: القبض للمشتاقين، والبسط للعارفين.

ويقال: القبض لَمِنْ تولى عن الحق، والبسط لَمِنْ تجلى له الحق.

ويقال: يقبضك إياه، ويبسطك إياه.

قال الواسطي: يقبضك عما لك، ويبسطك فيما عليه.

وقال البغداديون: يقبض أي يوحش أهل صفوته من رؤية الكرامات ليصغرهم، يبسطهم بالنظر إلى الكرم.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعد ما مكننا بنور المعرفة، وذوق المحبة، ومصاحبة المرسلين، وآيات النبوة، وإدراك مقام الشهادة، وأيضًا أي بعد معرفتنا أن الله تعالى مع أوليائه براية النصر والظفر، وأن من أوصاف أهل المحبة المحاربة مع أعدائه.

وقال فارس: لا يتجرد للحق مَنْ هو قائم مع الحق بسبب أو علاقة أو سكون أو مسكن.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ...﴾ الآية امتحنهم بمجاهدة نفوسهم قبل محاربة عدوهم، لينظر كيف يكون خلوصهم من جهاد الأكبر قبل شروعهم في جهاد الأصغر؛ لأن مَنْ يعجز عن مجاهدة نفسه لا يصلح لمحاربة غيره، وتصديق ذلك قوله تعالى في حق المبتلين الذين تجاوزوا عن الحد الذي سنن لهم وشربوا من النهر أكثر ما أمرهم ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ والذين أخرجوا عن محاربة نفوسهم، وصرعوها في ميادين الذل والإهانة، فيصلحون لجهاد الكفار، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ وهذا مثل ضربه الله للدنيا ومَنْ يطلبها؛ لأن الدنيا نهر الشهوات، أجرى الله تعالى بين الخلائق لامتحان العباد ليضل بها قومًا ويهدي بها قومًا، مَنْ شرب منها بقدر الضرورة لقوة العبادة يعبرها بشرط الانفراد، فإنه من أهل الإيقان والعرفان، ويهدي إلى مشاهدة

الرحمن، ومَنْ شرب منها بفرط الحرص لإبغاء الغفلة قوة للمعصية، يضل عن سبيل الرشاد، ولا يمْلأ جوفه منه أبدًا حتى يدخل إلى النيران، وضرب الله تعالى أيضًا هذا المثل في قصتهم لينظر الناظر فيه بعين الاعتبار ولاقتباس الأنوار﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ الطالوت هنا الروح، وهي ملك الباطن، ومثل داوود نبي الله ﷺ العقل وجنوده القلب وملك الهام والعلم والفهم والإدراك والخواص، ومثل جالوت عدو الله الشيطان وجنده خيل الخيال وأعوان الشهوات، فأمر الله تعالى الروح بالمحاربة معه اختبارًا للنفس الأمَّارة، فلمَّا فصلت الروح بجنودها،﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ يعني نهر الشهوة الذي تشرب منه النفس بكأس الغفلة، وأضافت إليهم الشرب؛ لأن الروح مقدسة عن رجس البشرية،﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ أي: ليس من عالم الروحانيات، وليس من أهل المكاشفة الصفات،﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ أي: من نور القدس وعالم الأنس،﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [1] أي: القلب والحواس والنفس يغترفون بقدر الترفة حتى لم يحترفوا في جوار الروح بنيران المحبة والمواجيد التي يحصل منه نور المعرفة، ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ﴾ يعني النفس وأعوانها؛ لأنهم من ملكوت الأرض، لأجل ذلك مالوا إلى طعمة الطبيعية، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: العقل والملك؛ لأنهما من ملكوت السماء وليس لها إلا لذة التربية، أما شرب القلب قدر الكفاية؛ لأنه ممزوج بخلاصة الجسم، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: الروح والعقل والملك والقلب والحواس، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أي: بقول أعيان الروح الذين يوقنون كشف العيان بعد مجاهدة الشيطان، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كم من فئة قليلة بالعدد معها نور اليقين، ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾ التي ليس معها النصر من عند الله، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين وقفوا على مراد الحق بنعت الرضا والتسليم ورؤية كرمه القديم وتسليمهم من مباشرتهم حظ مشاهدة الحق.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي: برز الروح وجندها للشيطان وجنده، ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الذي عاينوا بنور الإيمان جمال المشاهدة، ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي:

---

(١) الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخَلْق بصحبة الخَلْق وبالدنيا وبالنَّفس، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدِّ الاضطرار بمقدار القوام، وما لا بد منه نجا وسَلِمَ، ومن جاوز حد الاضطرار وانبسط في صحبته مع شيء من ذلك من الدنيا والنفس والخَلْق بموجب الشهادة والاختيار - فليس من الله في شيء إنْ كان ارتكاب محظور ، وليس من هذه الطريق في شيء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدٌّ.

احبسنا بلذة المحبة حتى يقف في بساط الحرمة، ويشرب مرارة المحنة بجمال المشاهدة، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في صدمة القهر، ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ على الشيطان وجنده، ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ يعني جند الله، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بالله الشيطان وجنده، ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ يعني العقل الشيطان، ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ يعني سلطنته وولاية القلب على جميع الجنود النفس وأعوانها، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني المعرفة على أحكام المحبة والقربة والمشاهدة والمكاشفة.

قال عبد العزيز: يُقال أن داود ﷺ رمى بثلاثة أحجار، وفي الإشارة إنه رمى بالنفس، وطلق الدنيا، وخلف الهوى، فهزم الله جالوت الشيطان وقتل.

﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي: من علوم الغيب حتى صارت منفردة بالرؤية مشاهدة الغيب وعجائبه، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: دفعه بجنود الملكوتية جنود الإنسانية، ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني منظر نور الإيمان والمعرفة في صدر طلاب المشاهدة والقربة، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني يتجلّى العالم الأرواح فيغلبن على النفوس الأمّارة والشياطين المردة، وأيضًا يتجلّى بمشاهدة القهر لعالم النفوس والشياطين حتى يسرفوا بمطامعهم بعض حقائق القلوب من عالم الأرواح، وتجربوا ديوان الناقل في ديوان الغيب.

قال أبو عثمان: أن هذا مثل ضربه الله للدنيا وأهلها، يعني النهر أن مَنْ أطمأن إليها وأكثر منها فليس من الله في شيء، ومَنْ أعرض عنها ومقتها فهو الذي هيأه الله لقربة، إلا مَنْ تناول منها مقدار ما يقيم صلبه للطاعة.

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني أي: فاطمأن إليها إلا قليلاً منهم، وهم الذين حفظهم الله من وساوس الشيطان؛ لأن ﴿عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال النصرآبادي: مَنْ مد يده إلى الحلال بحرص وشره أداه ذلك إلى الشبه، ومَنْ لم يبالِ من الشبه جره ذلك إلى الحرام النص.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ

شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فضل أنبياء بعضهم على بعض تطيب لقلوب أوليائه؛ لأنهم أهل غيرة الحق، وأيضًا حتى لا يسكنوا عن طلب زيادة المقامات والدرجات، وأيضًا حتى لا يركن بعضهم إلى بعض في حقائق المعرفة والمحبة.

وقال أبو بكر الفارسي الصوفي: ما خلق الله شيئًا إلا متفاضلاً متفاوتًا أقدارهم حتى الرسل.

قال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ ليعلم بذلك نقص الخلق، وكماله تعالى ﷻ.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قطع بها أبدء من وصف أُلوهيته عن قلوب عباده أسباب العبودية؛ لأن العبودية تكون عرفان الربوبية، لأجل ذلك ذكر نفسه في أول إظهار وجوده، وأيضًا كشف عن نفسه بوصفه لعباده حتى أثبتهم ببروز سلطنته في قلوبهم عند خطرات الهجران عند قوله، وأيضًا دعا الخلق بنفسه إلى نفسه قبل ذكر الأسباب حتى حيرهم به فيه، وأيضًا رسخ أشجار المحبة في سواقي أسرار أهل المعرفة بذكره أُلوهيته قبل كل شيء، ثم ذكر ليحيرهم في سراب العدم، ثم كشف لهم عن جمال القدم، وأيضًا أفرد قدمه عن العدم، وأيضًا ضرب سرادق التنزيه على سواحل بحر التوحيد قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أزال العلل عن قدس الأزل، وكشف بالأزل عن الأزل.

سُئل ابن منصور رحمة الله عليه عن هذه الآية؛ فقال: لا إله إلا الله يقتضي شيئين: إزالة العلة عن الربوبية، وتنزيه الحق عن الدرك.

وقال ابن عطاء: صدق قبول لا إله إلا الله الصبر، وبه ثبت على إيمانه والصدق، وبه اجتهد في الطاعات لربه في سره وإعلانه وإنفاق من ماله مبتغيًا به رضاه حتى لا يبقى لنفسه مدخرًا غير خالقه، والخلوة بربه في الأسحار وإظهار الافتقار بلسان الاستغفار نادمًا على عصيانه خائفًا من هجرانه.

وقال أيضًا: يحتاج مع قائل لا إله إلا الله ثلاثة أنوار نور الهداية، ونور الكفاية، ونور العناية، فمتى منَّ الله عليه بنور الهداية فهو من خواصه، ومتى منَّ عليه بأنوار الكفاية فهو معصوم من الكبائر والفواحش، ومتى منَّ عليه بأنوار العناية فهو محفوظ من الخطرات الفاسدة.

وقال بعضهم: يحتاج قائل لا إله إلا الله إلى أربع خصال: تصديق، وتعظيم، وحلاوة، وحرمة، فمَنْ لم يكن له تصديق فهو منافق، ومَنْ لم يكن له تعظيم فهو مبتدع، ومَنْ لم يكن له حلاوة فهو مرائي، ومَنْ لم يكن له حرمة فهو فاسق.

قيل لأبي الحسن النوري: لَمَا لا تقول لا إله إلا الله، قال: بل أقول الله، ولا أبقى به ضدًا.

وقال بعضهم: مَنْ قالها وفي قلبه رغبة أو رهبة أو طمع أو سؤال فهو مشرك.

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الحي الذي قامت به الأحياء، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي يحيي بقيوميته الأموات، وأيضًا ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الذي تتهمهم به الأنفاس، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي تقوم بكفاية الأشخاص، والحياة من صفاته الخاصة في العدم وعامة فيها أوجد الخلق من العدم، والقيومية صفته التي لم يزل كان موصوفًا بها، ويحصلها أنه استقبل بنفسه في أزليته وأبديته، و﴿ٱلْحَىُّ﴾ الذي ليس حياته أسرار الموحدين فتوحدوا به له، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي يربي بتجلّي الصفات وكشف الذات أرواح العارفين، ففنوا في ذاته، واحترقوا بنور كبريائه.

وقيل في قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أجعله مراقبًا في قيوميته عليك وعلى جميع العالم.

قيل: أنه قيوم بحفظ أذكاره على أسرار أهل صفوته.

وقال سهل: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ قائم على خلقه بكل شيء، وآجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم.

وقال الخواص: مَنْ عرفه بأنه ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ألزمه معرفته له طلب كل شيء منه، وترك القيام بشيء من أموره لقيامٍ بها.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ يخوّف بهذه الإشارة خواص المراقبين حتى لا يشتغلوا بغيره طرفة عين، وأيضًا أخبر عن تنزيه إزالة التشبيه عن قلوب المريدين، وأيضًا بنفي السِنة عن نفسه، نزه نفسه عن الغفلة، وبنفي النوم نفسه عن الغيرة، وأيضًا هذه إعلام منه جلّ وعلا أنه ينتقم عن الظالمين للمظلومين، وأيضًا علم الخلق تنزيه قدم صفاته وقدس عظيم ذاته، أي أنا مبدع العلّات، وأنا منزه عن صفات المحدثات.

وقال بغداديون: أنّى تأخذه السِنة من كان، ولا سِنة ولوجد السِنة قهر العبادة ونقصًا

ارتبط الأشياء بأضدادها، وانفرد هو عن الأحوال لأنه محولها.

﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أذل حلاوة زهرة الكونين والعالمين عن قلوب أهل الصفوة بقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: الحوادث التي استأصلها عن مزار وحدانيتي، ألا وهي الأسرار الموحدين رغبهم بفنائهم عن الأسباب والعلامات، ووبخ من التفت سره عنه إلى ماله؛ لأن الالتفات من المُنعِم إلى النعماء شرك بالمُنعِم، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أغرق الشافع والمستشفع في بحار منه إذ لا يفرض كلاءة عباده إلا إلى نفسه، وأيضًا قطع أسباب حيل الوسيلة عن عناية الأزلية، وأيضًا أدب الخلق بهذه الآية حتى لا ينبسط إليه إلا مَنْ غلبه السُكر والانبساط، والأذن مقام الهيبة عند سرادق العظمة، والحكم حال الانبساط في بساط الأُلفة، والخائفون مراقبون الإذن، والعاشقون يريدون ويقتحمون في الحكم؛ لأن صاحب الحكم في هيجانه ملتبس بسناء التوحيد، معتزل عن الأشباح بنعت التفريد، أسكرته مشاهدة الحسن، واضطرته مكاشفة القدس إلى البسط والانبساط، وهذين الوصفين يكونان في العارف من الأنبياء والأولياء، فالأول نعت تبت: والآخر نعت أزلي.

وقيل: جذب به قلوب عباده إليه في العاجل والآجل.

قال الواسطي: لو جعل إلى نفسه وسيلة غير نفسه كان معلولاً، ومَنْ تزيّن بإخلاصه ومحبته ورضاه توسل بصفاته إلى من لا وسيلة له إلا به قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

قال منصور: فأي الشفيع إلى مَنْ لا يسعه غيره، ولا يحجبه سواه.

وقال الواسطي: مَنْ ذا الذي يدعوني حتى أذن له في الدعاء، ومَنْ ذا الذي يؤمن به حتى أهديه، ومَنْ ذا الذي يطيعني حتى أوفقه، ومَنْ ذا الذي ينتهي عن المعاصي حتى أعصمه[1].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما بين أيديهم من الخطرات، وما خلفهم من العثرات، وأيضًا يعلم ما بين أيديهم من المقامات، وما خلفهم من الحالات، وأيضًا يعلم منهم قبل إيجادهم ما ابتلاهم به من أسرار الأفعال المقرونة بالإرادة، ويعلم منهم بعد كونهم من درك المعاينات في مقام العبودية من أسرار علم الأزليات.

وقال أبو القاسم: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لأنه لا يخرج عن علمه

---

(١) وقال ابن عجيبة: هذا بيان لكبرياء شأنه، وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريده بشفاعة واستكانة، فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة. البحر المديد (١/ ٢١٢).

معلوم، ولا يلتبس عليه وجود ولا معدوم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ حجب علم القدم عن إدراك مَنْ أوجد من العدم، إلا ما كاشف لأهل القلوب من معانات الغيوب، وأيضًا أي ولا يحيطون بشيء مما علمه الله من نفسه من علم الأزل إلا بما شاء، أي إلا به لأنه لا وسيلة إلى علمه سواه.

وقيل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ يعني من معلوماته وإذا تقاصرت العلوم من الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه فأي طمع لها في الإحاطة بذاته قالها أبو القاسم القشيري.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كرسيه قلب العارف، وهو واسع من السموات والأرض؛ لأنه معدن علوم الألوهية وعلم اللدني، الذي لا نهاية له ولا حد له، وأيضًا ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ عالم الملكوت وهو مطاف أرواح العارفين لجلال الجبروت، وأيضًا ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ وعرشه قبلتان لأهل الحدثان ولا جهة للرحمن، ولا يعرفه بنعت التنزيه عن التباس الكون والتصاقه إلا أهل كشف العيان.

وقيل: العرش والكرسي إظهار للقدرة لا محلاً للذات.

وقال أبو القاسم: خاطبهم على قدر فهم، وإلا فإن خطر الأكوان عند صفاته وحلال قدرته عن التعزز بعرش أو كرسي، أو التجمل بجنبي أو أنسى قبل علمه.

وقيل: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ في السموات والأرض هي منه كدرة.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: لا يعجزه حفظه ذلك على سعته وكبره، وأيضًا لا يوازيان في عظمته خردلة؛ لأنهما في ملكه وسلطانه أقل من ذرة، وأيضًا قامت السموات والأرض به ولا علّة في صنعه ولا آلة في فعله منه ظهرت وبه قامت.

وقيل: وصف نفسه بالامتناع عن اعتراض القواطع والعلل.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ تبيّن ما استتر عن الكون في الكون في علم الأزل من السعادة والشقاء، فظهرت سمة السعادة والشقاوة من المقبولين والمطرودين؛ لأن في جباه السعداء مصابيح أنوار المعرفة تلوح، وفي جباه الأشقياء كدورات ظلمات الغي تبوح.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ الطاغوت رؤية الطاعات، والطمع في المكافآت، فمَنْ يكفر بها فهو من أهل المشاهدات، والطاغوت يقع على كل شيء سوى الله تعالى من الدنيا والنفس والشيطان. وقيل: طاغوت كل امرئ نفسه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن رحمه الله: مَنْ لم يتبرأ من الكلي لا يصح له الإيمان بالله.

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: مَنْ أقبل من نفسه وحوله وقوته إلى خالقه فقد وجده بنعت الحفظ والكلاية، ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ هي ذات الحق سبحانه وجل عن التشبيه، وأيضًا هي المحبة والمشاهدة، وأيضًا هي العصمة القديمة التي سبقت بنعت العناية الأزلية لأهل المعرفة.

وقيل: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ التوفيق في السبق والسعادة في الختم.

وقيل: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ محمد ﷺ. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: هي السنة.

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾[1] ترجيه من الله لأهل المعرفة، أي مَنْ تمسك بحبلي فاز في الدارين، وسعد في المنزلين، ولا يدخل في حجال عصمته خلل الحوادث؛ لأنه في كنف العناية محروسًا بالكفاية: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لوجدهم من ظلمات العدم إلى كشف أنوار القدم، وأيضًا يخرجهم من ظلمات الامتحان إلى مشاهدة البيان، وأيضًا يخرجهم من ظلمات العبودية إلى جمال الربوبية، وأيضًا يخرجهم من الفرح بما وجدوا من المقامات والدرجات إلى نور مشاهدة الذات والصفات، وأيضًا يقدسهم ويخرجهم من ظلمات البشرية بمياه الشفقة لنور الأبدية، وأيضًا يزيلهم عن أوصافهم المحدثة ويقربهم إلى بساط الجزية، ويلبسهم صفات الأزلية وسناء الصمدية.

وقال ابن عطاء: يغنيهم عن صفاتهم بصفته، فيندرج صفاتهم تحت صفاته، كما

---

(١) أي: لا انقطاع وهو استئناف لبيان قوة دلائل الحق بحيث لا يعتريها شيء من الشبه والشكوك، فإن العروة الوثقى استعارة المحسوس للمعقول لأن من أراد إمساك هذا الدين تعلق بالدلائل الدالة عليه، ولما كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها وصفها الله بأنها العروة الوثقى. تفسير حقي (٢/ ٥٩).

اندرجت أكوانهم تحت كونه، وحقوقه عند ذكر حقه فيصير قائمًا بالحق مع الحق للحق.

وقال أيضًا: بذل النفس لله على حكم الإيمان من علامة الهدى والقيام بأداء ما استدعى منها من علامة التوفيق والانتهاء عما زجر عنه من علامة العصمة، فذاك لنفي الظلمات عنه بها، نوّره الله تعالى أنوار من الإيمان، وذلك الذي يوجب له الولاية، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية.

وقال الواسطي: يخرجهم من ظلمات نفوسهم، صدقها ورضاها وتقواها إلى نور صفاته وما سبق لهم من منابعه.

وقال أيضًا: يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلى أنوار ما جرى لهم في السبق عن الرضا، والصدق والمحبة وغيرها.

وقال النوري: يخرجهم من ظلمات العلم إلى نور المشاهدة؛ لأنه ليس المعاين كالمخبر.

قال الجنيد: يخرجهم من الظلمات أوصافهم إلى أنوار صفاته.

قال أبو عثمان: يخرجهم من رؤية الأفعال إلى رؤية المنن والأفضال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي: الذين ستروا ما قد عاينوا من نفوسهم أنوار فعله وقدرته وما بدت في قلوبهم من لوائح العقول بالشروع في لذائذ الشهوة وغطاء الغفلة، أولياءهم الطاغوت ومتوليهم في اعتزاء التماثيل الباطلة المتخيلة، الشيطان يخرجونهم من أنوار العقول إلى ظلمات الجهل والعنادة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أصحاب الهجران عن مشاهدة الرحمن، ﴿هُمْ فِيهَا﴾ في القطيعة والابتلاء، ﴿خَٰلِدُونَ﴾ ليس لهم مساغ في الوصول أبد الآبدين.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وقع ﷺ في طلب مشاهدة القدرة صرفًا ليرى بنورها مشاهدة القادر في المقدور، وأيضًا تعجبه في القدرة ليس بشك؛ ولكنه تلون الخاطر ونقله من مقام الإيمان إلى مقام مشاهدة الحال في ظهور البرهان، وأيضًا خاض في بحر التفكر لطلب درِّ المعرفة، والفرق بين سؤال إبراهيم وعزير -عليهما الصلاة والسلام- أن إبراهيم ﷺ كان في محل التمكين فأراه الله تعالى مشاهدة القدرة في غيره، وكان عزير ﷺ في محل التلوين فأراه الله مشاهدة القدرة في نفسه حتى يباشر قلبه نور الصفات، فيشاهد حقيقة فعل القديم، ويصير محكمًا في محل التمكين، وأيضًا مقام الخليل ﷺ مقام الانبساط، ومقام عزير ﷺ مقام التحير، فانبسط الخليل ﷺ وسأل مشاهدة الصفات في لباس الآيات، فأراه ما سأله في غيره؛ لأنه مملوء من أنوار القدرة، فيطلب مزيدًا على حاله، وتعجب عزير ﷺ نبي الله من غاية تحيره في أسرار الربوبية، فأراه الله الآيات في نفسه تأديبًا له؛ لأن أهل الانبساط ليس بمؤاخذين كخليل الله ﷺ، وأيضًا سؤال الخليل ﷺ في طلب المشاهدة وتعجب عزير ﷺ تحير في كمال القدرة بطلب الآيات تثبيتًا للوحدانية، وأيضًا مقام الخليل ﷺ مقام اتحاد تجلّي الصفات، ومقام عزير ﷺ مقام اتحاد تجلّي الأفعال فتجلّي الصفات باشر قلب الخليل ﷺ لقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وتجلّي الأفعال باشر صورة عزير ﷺ ليكون له تحصيل العلم بقدرة القادر لقوله: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأيضًا خصَّ الخليل ﷺ بتجلّي الصرف بلا آيات في نفسه، فلا يحتاج إلى أن يميته ثم يحييه؛ لأن الحق يتجلى له في نفسه بلا واسطة الآيات، ولكن يحتاج أن يرى الحق في غيره فيختص بالمنزلتين الصرف والالتباس، ولم يكن لعزير ﷺ مشاهدة الخاص، فيحتاج أن يراه في نفسه بواسطة موته وحياته، وفي غيره يعني في الحمار واللبن والثمار، ليكون له مقامات وإن لم يكن صرفًا كمشاهدة إبراهيم ﷺ وهو بعد ما رأى من نفسه ما رأي فقيل له: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ وهو مشاهدة الله في غيره، وأيضًا بلغ الخليل ﷺ مقام كشف المعاينات في الحياة، وكشف له ملكوت الأشياء لأجل اقتباسه نور مشاهدة الحق في الآيات، ولم يضطر إلى أن يغيب روحه من الحواس حتى يرى صرف العين؛ لأنه في حال الصحو، ولم يبلغ عزير في ذلك الزمان مقام العيان، فأنجاه الله إلى غيبته عن الصورة بنعت الغشيان ليرى في حال غيبته مشاهدة الحق؛ لأنه في حال السُكر، فلما انتبه رأى في صحوه ما رأى في سُكره، لكن ما رأى في السُكر وحال الغيبة مشاهدة الروح، وما رأى في الصحو مشاهدة العيان.

وقيل: أُري إبراهيم ﷺ إحياء الموتى في غيره، وأُري عزير ﷺ في نفسه؛ لأن الخليل ﷺ

تلطف في السؤال فقال: ﴿أَرِنِي﴾ فأري في الغير وتعجب عزير ﷺ في القدرة؛ ألا ترى أنه ختم قصته بالإيمان ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وختم قصة الخليل ﷺ بالعزة والحكمة فقال: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأن الخليل ﷺ سأل إظهار الحكمة ومشاهدة العزة، وعزير ﷺ تعجب من القدرة، فأجيب كل من حيث سأل.

وقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يجوز أن الله تعالى امتحن الخليل ﷺ بأنواع البلايا في ظاهره وباطنه، أما ما في ظاهره؛ فهو الذي أخبر الله تعالى في كتابه أنه ألقى في النار وعذبه بأيدي الكفار، وأيضًا ابتلاه بذبح الولد وما أشبهه.

وأما الذي في باطنه فهو ما أخبر الله من اضطراب قلبه في تحصيل إدراك محض الربوبية، وكان يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مرة، ويقول: ﴿أَرِنِي﴾ مرة؛ لأنه كان يطلب من خاطره إثبات محض اليقين، فأخبر الله تعالى عن جميع امتحانه مع خليله ﷺ في آية من كتابه قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، ومقصود الحق سبحانه وتعالى في ذلك أن بديع بواطن أنبيائه وأوليائه بخطرات نفوسهم حتى يحترقوا بفقدان الحبيب وتتقدس عن شوائب البشرية وإلقاء الشيطانية، وأكثر ابتلاء الخواص هكذا كإبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعزير ﷺ، محمد ﷺ.

وذكر الله تعالى أحوالهم جميعًا في كتابه، أما لموسى ﷺ ما رُوِيَ عنه أنه كان يقول في مناجاته: «أي ربِّ، من متى أنت!».

وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[1].

هكذا ابتلاء خواص الأنبياء والأولياء لا بأس؛ لأن الرب رب والعبد عبد، وأيضًا اسأل الخليل ﷺ مشاهدة الحق في لباس الخلق، وأيضًا أراد في سؤاله زيادة المعرفة في وسائط الآية لا من الاضطراب في الشك والتهمة.

وأيضًا قال: ﴿أَرِنِي﴾ حقيقة بطنان الألوهية والربوبية، وهذا من الخليل ﷺ غاية استغراقه في الاشتياق وغوصه في سر حبيبه وأوصاف قدرته؛ لأن المحب أراد أن يحيط بحقيقة ذات المحبوب من جميع الوجوه وذلك من شرط الاتحاد.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٦٠)، وأبو داود (٢/ ٨٤).

وتحصيل ذلك زوائد اليقين وحقائق مقام التمكين، وأن الله تعالى منزه عن أن يدركه أحد من خلقه؛ لأن ذاته تقدس وتعالى امتنع بعزة هويته عن مطالعة المخلوقات، فأجاب الله تبارك وتعالى خليله وقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ إنك لم تدركني بشرائط سر القدم، وأنت مخلوق أسير بنعوت الحدث، قال: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بعد رؤية جنابي في عز عظمتك وبقاء ربوبيتك؛ لأن قلبي لا يسكن عن طلب مشاهدة جمال ربوبيتك، وأراد ﷺ في سؤاله حيلة كي يخرج من عجز العبودية ويلتبس بصفاء الربوبية، وهذا السؤال أعظم من سؤال موسى ﷺ بأن موسى ﷺ سأل كشف المشاهدة، والخليل ﷺ سأل حقيقة علم صاحب المشاهدة وصرف ربوبيته، فإذا علم الحق سبحانه من الخليل ﷺ أنه أراد علوم الربوبية وحقائق صفات القدمية وكنه ذات السرمدية.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أشار إلى طيور الباطن، التي في نقص الجسم، وهي أربعة من أطيار الغيب، الأول :هو العقل، والثاني: القلب، والثالث: النفس، والرابع: الروح، أي: اذبح طير العقل بسكين المحبة على باب الملكوت، واذبح طير القلب بسكين الشوق على جناب الجبروت، واذبح طير النفس بسكين العشق في ميادين الفردانية، واذبح طير الروح بسكين العجز في تيه عزة أسرار الوحدانية.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: اجعل العقل على جبل العظمة حتى يتراكم عليه أنوار سلطنة الربوبية فيصير موصوفًا بها ليدركني بي بعد فنائه فيَّ، واجعل القلب على جبل الكبرياء حتى ألبسه سناء قدسي فيتيه في بيداء التفكر منعوتًا بصرف نور المحبة، واجعل النفس على جبل العزة حتى ألبسها نور العظمة لتصير مطمئنة عند جريان ربوبيتي عليها، لا تنازعني في العبودية ولا تطلب أوصاف الربوبية، واجعل الروح على جبل جمال الأزل حتى ألبسها نور النور وعز العز وقدس القدس، لتكون منبسطة في السكر مطمئنة في الصحو عاشقة في الانبساط راسخة في الإيجاد، فإذا كانوا ملتبسين بصفاتي يطيرون بأجنحة الربوبية في هواء الهوية، ويرونني بلباس الديمومية والأزلية،﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ بصوت سر العشق، وزمزمة الشوق، وجرس المحبة من بساتين القربة إلى عالم المعرفة، ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ بسرعة جناح سلطان الربوبية إلى معدن العبودية بجمال الأحدية، وتراني بعد جمعهن في مربع صدرك بعيون اللاهوتية ونور الملكوتية، ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بعزك عرفان هذه المعاني واطلاعك على صفاته القديمة حكيم في ظهوره بغرائب التجلي لأسرار باطنك.

وقال بعضهم: أراد أن يصير له علم اليقين، وعين اليقين فعل الدوام يؤمن، والإيمان

غيبي في علم اليقين وعين اليقين، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ولكن أسأل مشاهدة الغيب.

وقال بعضهم: هذا السؤال على شرط الأدب، كأنه يقول: أقدرني على إحياء الموتى،يدل عليه قوله: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾والطمأنينة لا تكون ضد الشك، قوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ على هذه الشهوة والمنية.

وقيل: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ القلوب الميتة عنك بإحيائها بك.

قيل: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: لست كنت لتستدل علينا بالشمس والقمر وأفعالنا، فأسقطنا عنك علة الاستدلال، وكنا دليلك علينا.

وقال بعضهم: اعلم أن الخليل مع خليله مختال في أموره حتى يجد قربًا إلى خليله، أو سماعًا لكلامه حتى أن بعضهم قال:

وإنّي لأستنعسُ ومَا بِي نعسةٌ   لعلَّ خيالاً منك يلقى خيالِيا

وقال جعفر الصادق: شكَّ في الكيفية، وما شكَّ في غيره، قال النبي ﷺ: «أنا أولى بالشك من إبراهيم»[1]. وعن جعفر في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: قلب أصحابي.

وقال ابن عطاء: أي إني إذا سألتك أجبني، وإذا ذكرتك ذكرتني، فإن بذكرك تطمئن القلوب.

وقال سهل بن عبد الله: سأل كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين يقينًا وتمكنًا في حاله، ألا تراه كيف أجاب عن لفظ الشك ببلى.

وقال بعضهم: إذا سكن العبد إلى ربه واطمأن إليه أظهر الله عليه من الكرامات ما أقلها إحياء الموتى، قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾.

وقيل: إنه طلب رؤية الحق سبحانه نكن بالرمز والإشارة فمنع منها بالإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وأن موسى إنما سأل الرؤية جهرًا، فقال: ﴿أَرِنِي﴾ فرد بالجهر صريحًا فقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾.

وقيل: إنما طلب حياة قلبه، فأشير عليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور الأربع، ومنها الإشارة في الطيور الأربع الطاوس، فالإشارة إلى ذبحه هي زينة الدنيا وزهرتها، والغراب بحرصه، والديك بشقه، والبط لطلب رزقه.

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (١٥١).

وقيل: لما قال إبراهيم ﷺ: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ قيل له: أرنا كيف تذبح الأحياء يعني إسماعيل ﷺ يطالبه بها طالبه، فلما رأى ما طلب منه وافى الحق سبحانه بحكم ما طلب.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ المن: تعزز البشرية على الخيرية واستكبار الحدث على الكبرياء القديم، ﴿وَالْأَذَىٰ﴾ ازدراء السر عند العطاء المسئول.

وأيضًا ﴿بِالْمَنِّ﴾: تذكر الحدث ونسيان العدم؛ لأن المنان إذا منَّ على أحد فقد نسي الله عند تذكر نفسه وهذا نوع من الشرك، ﴿وَالْأَذَىٰ﴾: بالبذل بنعت البخل، والرمي بالعين إلى الفقراء على جهة تعظيم نفسه ورؤية شرفه عليهم.

وأيضًا ﴿بِالْمَنِّ﴾: شهود الأفعال، ﴿وَالْأَذَىٰ﴾ التماس الأعواض.

قال السري: مَنْ تزيّن بعمله كانت حسناته سيئات، فكيف مَنْ رأى لها قيمة، أو طلب لها عوضًا؟

ويقال: ينفقون ما ينفقون، ثم لا يشهدون أفعالهم ولا أعمالهم.

وقيل: كيف تمنون بشيء تستقدرونه وتستحقرونه؟

وقال الجنيد: أعلمنا أن الذي يخلص له ثواب صدقته، وينجز له ما وعده فيستحق الثواب على عمله، مَنْ لا يمن بصدقة، ولا يؤذي مَنْ تصدق عليه.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ﴾ القول المعروف: الإنصاف لأخيك عند رؤية مكروه منه، الذي يهيجك بالغضب، والمغفرة عفوك له عند قدرتك عليه خير من أن تعطيه شيئًا وتؤذيه، وأيضًا: ردك السائل بقول جميل وسترك عليه، مما ترى منه من قبيح خير من إعطائك بالمن أو وعدك مع المطل.

ويقال: إقرار منك مع الله لعجزك وجرمك، وغفران الله تعالى على تلك المقالة خير من صدقة بالمن مشوبة، بالأذى مصحوبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: أنفقوا لأرواحكم ما كسبتم بأشباحكم من المعاملات المقدسة عن شوائب الرياء والسمعة ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: مما أخرجنا بمزن المعرفة عن سحاب المكاشفة، ومزارع قلوبكم من الحكمة والعلم اللدني، والصدق والإخلاص والرضا واليقين على المريدين لتخلصوا بذلك من مكائد الشيطان، أي: أنفقوها لنجاة صوركم بهذه المعاني التي تخرج من بساتين صفاء أسراركم، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: يعدكم إلى قطع الرجاء عن الله تعالى في إتيان نواله منه.

وأيضًا: يعدكم إلى قلة الطمأنينة، وكثرة الشك فيما وعد الله تعالى لعباده من نفائس الألطاف وجميع الأقسام التي هي سبب حياة العباد في الدنيا والآخرة .

وأيضًا: يعدكم إلى ظنون شتى في الله تعالى، وهذا من قلة عرفان الحق والجهل بسلطانه؛ لأن لقاء العدو يهيج سر العبد إلى الشك في الله، وفيما وعد لعباده، ويلجئه إلى التحير حتى يظن أن الحق سبحانه وتعالى عاجز فقير، كما قال اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وهذا من وسوسة العدو، وليس لهم بإحراز العلوم والخوف من المعدوم والجمع والمنع وكثرة التهمة، ودفع الصدقة والفرار من القناعة ومن الغنى بالكفاية، وغرهم بالشروع

في طلب الزيادة ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1] أي: البخل وسوء الظن في الله وحب الدنيا وبغض الموت، وعمارة الضياع والعقار، وطلب الزيادة وبغض الفقر والفقراء ومنع الزكاة، وما أوجب الله تعالى عليهم من الحج والجهاد.

وزيَّن لهم حب الرئاسة، وطلب نسوان المسلمين لأجل الزنا، وشرب الخمور وسماع المعازف، والتكبر والتجبر على الضعفاء والمساكين والجور والظلم والعناد، وقلة الإنصاف واتخاذ الأرباب لحفظ الأموال وأشباه ذلك من الأمور الرديئة الفاحشة

﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ معرفته تطهر قلوب الأسخياء من أوساخ الشح والفاحشة، وتحفظها عن الميل إلى حب الدنيا وما فيها وفضله مشاهدته وقربته ومعرفته وتوحيده وكشف أسراره لهؤلاء العباد الذين اصطفاهم لمحبته وخصائص مناجاته وخطابه وخدمته.

وأيضًا المغفرة: طمأنينة النفس بكشف اليقين، والفضل: الرضا بحكم الأزل.

وأيضًا المغفرة: عن الكون، والفضل: الوصول بلا وحشة البون .

وقيل: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ بنسيان ما تعود به من فضله.

وقيل: إنه يعدكم الفقر في طلب فوق الكفاية فيكون عبده، ومشتغلاً به فيردك عن غنى الكفاية إلى طلب الزيادة؛ وهو الفقر الحاضر.

وقيل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: الحرص، والله يأمركم بالقناعة.

وقال أبو عثمان: الشيطان يعدكم الفقر على ترك الدنيا والإعراض عنها، والله يعدكم على ذلك مغفرة منه وفضلاً.

قال محمد بن علي: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ لفقره، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو عمارة داره، ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ وهو جزاء عمارة المآب، وفضله وهو استغناؤه عن كل ما سواه.

قال بعضهم: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ تحذيرًا للموحدين لا تفريقًا للكافرين؛ لأن الشيطان لا يدعو أحدًا إلى معصيته ولا يزينها له حتى يعده الفقر فإذا خاف العبد الفقر دعاه إلى المعصية، فإذا استحل المعصية دعاه إلى النفاق، فإذا استحل النفاق دعاه إلى الكفر، ولا يخاف الفقر إلا من نسي القسمة ولا ينسى القسمة من عرف الله الذي قسم لعباده ما أراد بمشيئته، وأصل المعاصي إيقاد الشهوات وأصل النفاق التزيين للخلق، وأصل الكفر منازعة

---

(١) قال التستري (١/ ٥٩): قال : هو أن يأخذوا الشيء من غير حله، ويضعوه في غير محله.

القدرة.

وقال سهل: الفقر أن تأخذ شيئًا من غير وجهه، وتضعه في غير حقه: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ الحكمة: إدراك أنوار بواطن القلوب أسرار عجائب بواطن الغيوب، والحكمة ما حفظته الأرواح من ألواح الملكوت، تلقف العقول إلهام الأحكام من علم الجبروت، والحكمة أدب الرباني لتهذيب خلق الإنساني، وأيضًا الحكمة معرفة الأخلاق، وإطلاع لغيوب النفس ودقائق الشيطان والعلم بفرق حديث النفس والعدو ولمسة الملك وإرشاد العقل، وبصيرة القلب دفعه إلهام الحق ونطق الروح، ورمز السر وأنواع خطاب الحق ومعرفة أقدار الخلق، ومداواة معرض الباطن، ودفع الوسوسة والمعرفة بأحوال الخلق والمقامات، ووقائع المكاشفات وأنوار المشاهدات وإدراك منازل المعرفة ودرجات التوحيد وما يليق بهذه الحقائق مثل معرفة دقائق الرياء، وشك النفس، والخطرات المذمومة، والبلوغ إلى علم اللدني والكرامات والفراسات الخاصة، ورؤية الغيب، والمحادثة والمخاطبة والمكالمة مع الحق جل اسمه في أسرار الخلوات وأنوار المناجاة. ومَنْ يؤت هذه الدرجات فقد أوتي خلافة الأنبياء والرسل ودرجة الملائكة الكرام، وهذه منزلة الأعلى من منازل الأولياء ومرتبة العليا من مقامات الأصفياء، وهو خير الدنيا والآخرة، وأيضًا: صرف الحكمة إدراك مراد الحق من رموز خطابه، وامتثال ما أدركه، والحكمة زم الجوارح ودفع الخواطر والسكون في الطوارق وفي الجملة الحكمة ما تلتفت الروح الناطقة من الحق سبحانه من خصائص الكلام والإشارات الإلهية.

والحكمة: المعرفة بأفعاله في المصنوعات والآيات، وأيضًا: شهود السر على أسرار شواهد الملكوت ورؤية غرائبها.

وأيضًا: الحكمة عند العارفين ولوح السر قباب الغيب واطلاعه على خزائن الملكوت برؤية العيان إلا بالدلائل والبرهان وتحصيله علوم الربوبية بلا واسطة الشواهد، وانشراحه باقتباس أنوار القرب وانفساخه بإدراك خطاب الخاص، واندراجه في طرقات الصفات، وبسطه في مشاهدة الذات، وإذا بلغ السر مدارج الربوبية عرف مراد الحق عز وجل في مجاري أحكامه، ورأى في الشواهد صرف الألوهية بنعت جريان القدرة؛ لأن الحكمة في هذه المواطن من بلوغ الروح سر عين الجمع، وهو صفة الاتحاد وأفهم الحكمة من صفة الحق سبحانه الخاصة الذاتية القدمية، ولا تدركها إلا بشرط الاتحاد، وإذا أراد الله تعالى أن يهدي عبدًا من عباده إلى مقام الحكمة ألبس روحه تلك الصفة حتى تصير ربانية صمدية مطلعة على جميع الأشياء ظاهرًا وباطنًا، وتفرست المغيبات وتدرك حقائق الأشياء بتلك الصفة الخاصة، وهذه

كلها مستفادة من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وقال تعالى في بعض أخباره التي أخبر نبيه ﷺ: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى كنت سمعه الذي يسمع بي، وبصره الذي يبصر بي، ولسانه الذي ينطق بي، وقلبه الذي يعقل بي»[١].

فإذا كان جميع وجوده مستغرقًا في رؤية خالقه فكيف لا يطلع على مكنونات الغيب ومطلعه بنعت صفة الخاص هو الله تعالى.

وقيل: الحكمة إشارة لا علة فيها، وقيل: الحكمة إشهاد الحق على جميع الأحوال، وقيل: الحكمة تجريد السر بورود الإلهام.

وقال أبو عثمان: الحكمة هي النور المفرق بين الإلهام والوسواس.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الكتاني يقول: إن الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه، وأنزل الكتاب لتنبيه قلوبهم وإنزال الحكمة لتسكن أرواحهم بها، والرسول داع إلى أمره، والكتاب داع إلى أحكامه والحكمة مشيرة إلى فضله.

وقال القاسم: الحكمة أن يحكم عليك خاطر الحق، ولا يحكم عليك شهوتك.

وقال الجنيد: أحيا الله قومًا بالحكمة ومدحهم عليها فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢].

وقال عبد الله بن المبارك: الحكمة الخشية.

وقيل: الحكمة إصابة القول مع صحة الفعل بالإخلاص.

وقال بعضهم: متى أثر فيك الحكمة؟ قال: منذ بدأت أحقر نفسي.

قال بعضهم: الحكمة كنز الله، والحكماء فيها ذمة الله، أمرهم ربهم أن ينفقوا كنز الله على عباد الله.

وقال بعضهم: الحكمة نور الفطنة.

وقال معروف الكرخي: مَنْ حسن علمه نزلت الحكمة في قلبه.

وقال سهل: الحكمة هي مجمع العلوم وأصلها السنة .

قال الله تعالى ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] والآيات الفرض والحكمة السنة.

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٢/ ٥٨) بنحوه.

(٢) فثبت أن الحكمة من المواهب لا من المكاسب؛ لأنها الأقوال لا من المقامات والمعقولات التى سمتها الحكماء حكمة ليست بحكمة فإنها من نتائج الفكر السليم. تفسير حقي (١٠/ ٤٠٤).

وروى سهل عن شيوخه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن حكمة الله بين عباده»[1]، فمَنْ تعلم القرآن، وعمل به فكأنما استدرجت النبوة بين كتفيه لا الوحي، يحاسب حساب الأنبياء إلا بتبليغ الرسالة.

وروى أيضًا عن شيوخه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن حكمة من تعلم القرآن في شبيته خلط القرآن بلحمه ودمه، ألا وإن النار لا تمس قلبًا داعي القرآن ولا جسدًا اجتنب محارمه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وآمن بمحكمه، ووقف عند متشابهه، ولم يبتدع فيه»[2].

وقال بعضهم: الحكمة أربعة أشياء العلم والحلم والعقل والمعرفة.

قال أبو بكر الوراق: الإفاقة مع الحكمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ يبشر أولياءه بعظيم المجازاة وجزيل المكافأة، ويهيجهم إلى بذل الموجود والمجهود، وأدبهم ليستعملوا خواطر الإلهام من عقد القلب وتلفظ باللسان، ويحذر أولياءه باطلاعه على ضمائرهم وسرائرهم، وأنه لا يقبل إلا من وجه الإخلاص، وأعلم أنه يجازي كلا الفريقين المحسن بإحسانه والمسيء بسيئاته.

وقال الواسطي: أشار به إلى قوم لا يضرهم ولا ينفعهم مال ولا بنون، أي: إن الله بعلمه يعلم من يختم له بخير.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ إن كان الإعطاء من مقام اليقين بنعت التمكين، وإن كان محقًا عن مطالعة النفس بنعت خصائص الإخلاص، وأيضًا أن أعلنت الإنفاق لتسبي بها قلوب المريدين وتهيج أسرارهم إلى بذل الأرواح في شرائط محبتنا ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾،

(١) ذكره التستري في تفسيره (١/ ٦٠).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٥٥٣)، و«السنن الصغرى» (١/ ٥٤٣).

لأن المعاملة من الممكن تصير قدوة لطلاب المعرفة، وإن أخفيت ما عملت من نفسك والتفات المخلوقات وارتفاع الطبع في الأعواض ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ لأن قدس الباطن عن رؤية الأفعال وطمع الأعواض يكون واقعًا لخطرات المشوبة بالرياء، ويتولد منه صرف النفس في جميع الأحوال ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ قطع أسباب البداية من المعاملات والشفاعات عن قلوب أهل الولايات، وأضاف كلاءتهم إلى نفسه بأنه هاديهم ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: لأنفسكم جزاء ما علمتم من مقامات المجاهدات بصوركم، ومن أعمال قلوبكم من ألم الفراق واحتراقها بنيران الأشواق، كما قال ﷺ حاكيًا عن الله ﷻ: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجازي به»[1].

وأيضًا: أي لأنفسكم جزاء معاملتكم، وإلى التفضل كله بالفضل به عليكم لا بأعمالكم وأفعالكم؛ لأن خاصية الفضل لي، لا يدخل فيه على العبودية.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذين حبسوا أنفسهم عن

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢٩٥)، والطبراني في «الأوسط» (٥/ ١٣١).

الميل إلى غير الله في مجلس مراقبة الله، ناظرين من الله إلى الله وراضين بقضاء الله في مراد الله، صابرين في بلاء الله محتسبين لله في مجاهدة أنفسهم، لا ينقضون عهود ميثاق الأزل إلى الأجل، أي:الذين وصفهم الله تعالى بإحضار نفوسهم عن التعرض إلى غير ذلك بالرمز والإشارة، وسؤال غيره على أحوالهم وصونًا لأسرارهم ومراعاة لحقيقة فقرهم، وعفة في مجاهدتهم خدمة أهل الدنيا ببذل المال والأنفس ليلاً ونهارًا ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: لا يتفرقون عن مجالستهم ومراقبتهم من قوة الحال، وغلبة الذكر عليهم واشتغالهم بمشاهدة سيدهم وشدة محبتهم وكثرة عشقهم وحقيقة يقينهم بربهم لطلب معاشهم وحوائجهم؛ لأنه قد غلب عليهم صحة التوكل وحسن الرضا وحقيقة التسليم وهم كانوا يفوضون جميع أمورهم إلى الله، ويسكنون بوعده؛ لأنه منَّان بأوليائه، وأهل طاعته أهل الثناء والمغفرة بحفظ أوقاتهم عن الخطرات والزلات ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ لأنهم لا يتملقون عند أبناء الدنيا بكلام اللين وإظهار التقشف، ولا يظهرون أحوالهم لأجل الرياء والسمعة شفقة بأحوالهم مع شدة افتقارهم إلى الله.

وصف الجاهل بقلة المعرفة بأحوالهم؛ لأن العالم يعرفهم بنور العلم والإيمان ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بشارة مشاهدة الحق في وجوههم، وبهجة نور المعرفة في قلوبهم؛ لأن الله تعالى أسبل على وجوههم نقاب سناء الصفات، وألبس جباههم نور جمال الذات أي: تعرفهم بهذه الصفات؛ لأنهم الأتقياء الأخفياء الذين لا يركنون إلى الخلق بسبب الدنيا وزينتها ولذتها، وأنهم من أهل المحبة الذين يبتلون بأنواع البلايا هم صابرون محتسبون لله وفي الله، ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ لا ينبسطون إلى أهل الدنيا ولا يبتغون حظوظ أنفسهم من الخلق، ولكن ينبسطون إلى الإخوان في الله تلطفًا بهم وتعطفًا عن الميل إلى مألوفات الطبع والهوى.

وأيضًا: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وصف الله تبارك وتعالى أهل حقائق المعرفة، ونعتهم بالفقر أي أنهم حبسوا في صحاري التوحيد، وتيه التقديس بأصفار التحير، وألزموهم تراكم لطمات بحار الوحدانية، وأغرقوهم في سر العظمة مفتقرين من عين التلوين إلى عين التمكين، لا يستطيعون من ثقل أحمالهم مسيرًا من الحيرة إلى رؤية المنة وكشف القربة في أرض الديمومية؛ والطيران عن أشكال الحدوثية في أسرار الهوية القدمية.

وأن الله تعالى كشف لهم عن بساط العظمة، وأراهم نقوش صور غيب الغيب التي التبس الحق بها بنعت الرضا عن العشاق فيتحيرون بين الرسم والصرف تحيرًا استأصل لباس الحدوثية عن نفس أرواحهم، فإذا برزوا بهذه السمات من بطنان عجائب الغيب يحسبهم

صبيان الملكوت أنهم في جمال بسط الديمومية، ولا يعرفون شأن قبضهم؛ لأنهم في طيب مزمار الإحسان يحتجبون به عن إدراك أحوال المحترقين بنيران الكبرياء، لكن يعرف من غيب وراء الوراء وقطع حجب رسوم العبودية والربوبية أنهم مفتقرون إلى مشاهدة حسن الحسن، ومكاشفة قدم القدم والجمع بنعت الاتحاد، لا يظهرون مع عجزهم أحوال تحيرهم واحتياجهم لأهل التمكين غيرة على أهل الانبساط لكن يحترقون في الباطن ويستبشرون في الظاهر، هؤلاء مرضى المحبة وأسرار المعرفة ينعتهم الله مقام التفرقة بنعت الجمع، وقيل: ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين وقفوا مع الله بهممهم فلم يرجعوا منه إلى غيره، وقيل: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾[1] أي: لا يتحركون لطلب الأرزاق.

وقال محمد بن الفضل في هذه الآية: يمنعهم علو همتهم عن رفع حوائجهم إلى مولاهم.

وقال ابن عطاء: يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء في الظاهر، وهم أشد الناس افتقارًا إلى الله تعالى في الظاهر، فاستغناؤه في الباطن.

وقيل في ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾: أي في تطييب قلوبهم وحسن حالهم وبشاشة وجوههم ونور أسرارهم وجولان أرواحهم في ملكوت ربهم.

وقال سهل: إن الله ﷻ وصف الفقراء بصفة القدم من حال سؤال الافتقار واللجوء إليه ووصفهم بالرضا والقنوع لا استطاعة لهم إلا به ومنه، ولا قوة لهم من حولهم وقوتهم.

قد نزع الله منهم ركون قلوبهم إلى غيره: والمساكين راجعون إلى الأسباب كما وصفهم الله مساكين يعملون في البحر فردَّهم إلى حال السكون إلى الأسباب.

لذلك قال بعضهم: الفقر عز والمسكنة ذل.

وقال عمرو المكي: مَنْ أحب شيئًا كان به ضنينًا، مَنْ حب شيئًا كان به أنيسًا، ومَنْ أحب شيئًا كان له أسيرًا.

وقال النصر آبادي: الفقير ينبغي أن يكون له قناعة وعفة، ويعتبر بالقناعة ويرتدي بالعفة؛ لأن النبي ﷺ وسلم قال: «القناعة مال لا ينفد»[2]، فإذا كان الفقر بهذه الصفة دخل في

---

(١) أي: ذهاباً في الأرض للتجارة أو للأسباب، بل شغلهم الجهاد والتبتل للعبادة عن الأسباب، وهم أهل الصُّفَّة، كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين، يسكنون صفة المسجد، يستغرقون أوقاتهم في العلم والذكر والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ. البحر المديد (١/ ٢٣٢).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٨٤)، والديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (٣/ ٢٣٦).

جملة حديث النبي ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»[1].

وقال الثوري: تعرفهم بسيماهم يفرحون بفقرهم، واستقامة أحوالهم عند موارد البلاء عليهم.

وقال أبو عثمان: تعرفهم بسيماهم بإيثار ما يملكون مع الحاجة إليه.

وقال الجنيد: كلَّت ألسنتهم عن سؤال من يملك الملك، فكيف مَنْ لا يملكها.

قال الجنيد: سُئل عن الفقير الصادق متى يكون مستوجبًا لدخول الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؟ قال: إذا كان هذا الفقير معاملاً لله بقلبه، موافقًا له في جميع أحوانه منعًا وعطاء بعد الفقر من الله نعمة عليه يخاف على زوالها، كما يخاف الغني على زوال غناه، وكان صابرًا محتسبًا مسرورًا باختيار الله له الفقر صائنًا لدينه كاتمًا لفقره يظهره الإياس من اليأس، مستغنيًا بربه في فقره، كما قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فإذا كان الفقير بهذه الصفة دخل الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام: ويُكفى يوم القيامة مؤنة الموقف.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ﴾: أي أخذ عليهم سلطان الحقيقة كل طريق لهم فلا لهم في الشرق مذهب، ولا لهم في الغرب مشرب، كيفما نظروا رأوا سرَّ ذوقات التوحيد محدقة بهم:

كَأَنَّ فجاجَ الأرضِ ضَاقَتْ برحبِهَا عَلَيَّ فَمَا تَزدادُ طُولاً وعَرضَا

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مَنْ بلغ رؤية جمال مشاهدة الحق عشقه، ومن شرط العشق أن يبذل العاشق وجوده وماله في جميع الأوقات دفعًا للخطرات وخوفًا أن يسقط عن درجات المشاهدات.

قال ابن عطاء: الوقت وقتان، والحال حالان، فالوقت ليل ونهار، والحال سر وعلانية فإذا أنفق في الليل والنهار والسر والعلانية فقد قضى ما عليه إذ المحب لا يدخر عن حبيبه شيئًا، لا يفتر عن رضاه بحال.

قال عبد العزيز المكي في هذه الآية: أي: في ظلمة الليل حذرًا من خجلة الأخذ والنهار بواسطة تجعل بينه وبين الأخذ وحذرًا عن حياته منه سر صفاته، وإخلاصًا وعلانية أسوة واقتداء.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٨)، والدارمي (٢/ ٤٣٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٠).

تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾ أدَّب قومًا بتأديبه في كرمه ورحمته على المعسرين من الطاعة والمكثرين من المعصية، وهذا إخبار عن غاية شفقته على عباده إذ أمر بعضهم أن يمهل بعضًا في واجب حقوقهم، أشار بهذا إلى حقيقة الحقوق له يهب بفضله ما قصروا في واجب أمره تقدس وتعالى، وأيضًا: رمز لأصحاب المعاني في هذه الآية أي: إذا كان أهل المعرفة في عسر من المشاهدة وكشف القربة، فلا تطالبوهم بأثقال المعاملات والتماس الكرامات إلى ميسرة الكشوف، وبروز أنوار الحضرة في قلوبهم لأن للعارف مقامين: الأول: هو القبض، والثاني: هو البسط، فإذا كان في القبض فهو في هبوط الهجران وهو عسر ظاهر لا يؤدي في ذلك المقام حق الحقيقة، وإذا كان في مقام حق الحقيقة في مقام البسط وهو في رخاء التوحيد ويطيق أن يؤدي ما وجب عليه من حق الطريقة؛ لأنه في ذلك الحال ملتبس بأنوار الربوبية ويتهيأ له ما يريد كما وصف الله تعالى أنبياءه وأولياءه في حال انبساطهم وبسطهم مثل عيسى ﷺ حيث قال: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: خافوا يوم الفصل من الوقوف مقام الحياء والخجلة بين يدي ملك يمنع المندرجين عن مشاهدته، ويعاقب أولياءه بالخطرات والإشارات.

قال الواسطي: هذا ترهيب للعام وأما للخواص بقوله: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

قال بعضهم: مَنْ لم يتعظ بمواعظ القرآن فليس له سواه سقط، وأي موعظة أعظم مما أخبر الله به عباده من الرجوع إليه، فمَنْ لم يحزن؛ لذلك الموقف ولم يبك لذلك المشهد فبأي موعظة يتعظ؟ والذي يمضي فيه غير موثوق والذي يبقى غير مأمون.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي: لا تكتموا ما أشهدكم الله من مقام أهل الولاية بأن تحملوا ذكرهم حسدًا عليهم ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ يعني: ما خصهم الله به ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي: جزاء كتمانه قسوة قلبه، وإثم قلبه الحسد بأهل الولاية، وجزاء الحسد الطبع والختم، نعوذ بالله من ذلك.

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لله خزائن ملكوت الكونين وأسرار غيب العالمين، لا يكشفها إلا لخواص أحبته.

قال ابن عطاء: الكونان هو مبديهما من غير شيء فمَنْ اشتغل بهما قطعاه عن الله، ومَنْ أقبل على الله وتركهما ملكهما الله تعالى إياه ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: إن تظهروا ما في قلوبكم من حقائق المكاشفات والمخاطبات ليقتدي به أهل الإرادة، وتخفوه عجائب الغيب التي ترى عيون الأرواح القدسية تورعًا لئلا تفتتن بها أقوام من شفعاء المؤمنين لقلة فهمهم يرينكم الله تمكين المظاهر بما أظهرتم، حتى لا تفتتنوا بدقائق الرياء والسمعة، ويبقين الباطن بما أخفيتم من الخلق إخلاصًا وصدقًا لتذوقوا حلاوة صفاء الإخلاص في كتمان الأسرار، وأيضًا: أن تبدوا في الظاهر من شره الإحساس متابعة الوسواس ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ ما تحدث به أنفسكم في باطنكم من أطباء القلوب وحراس الغيوب يجازيكم بفتنة النفس والشيطان والغفلة والشهوة ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ لمَنْ يدفع خطرات الباطن ترغيبًا، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لمَنْ يتبع هواه بدخوله في الزلات تهذيبًا.

وقال جعفر: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الإسلام، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: الإيمان.

وقال الواسطي: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من إرادة الكونين والمكنون، ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: بإرادتكم فيغفر لِمَنْ يشاء لمن أراد الجنة ونعيمها، ويعذب من يشاء من أثر الدنيا على الآخرة.

وقال علي بن سهل: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الأعمال، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من الأحوال، ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ العارف على أحواله والزاهد على أفعاله.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ بأن الله تعالى قدس باطن رسوله ﷺ من شوائب النفسانية وخطرات الشيطانية، وكحَّل عين سره بنور الملكوت، حتى قيل: بالصدق والإخلاص ما كشف له من عجائب الجبروت، ورأى بمصابيح القرآن أسرار الأزل والأبد ما جرى في بطنان الغيب وغيب الغيب رؤية عيان، وآمن بها إيمان المشاهدة والعرفان، كما قال الله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١] ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ المؤمنون على قسمين منهم العارفون والصادقون والمشاهدون والمقربون، والمكاشفون والمخلصون والمحسنون والراضون والمتوكلون والمحبون والمريدون والمرادون، كلٌّ شاهدوا بعضًا مما شاهد الرسول ﷺ ولولا ذلك لم يشرعوا في بذل الأرواح ومجاهدة الأشباح؛ لكن للنبي ﷺ مشاهدة الصرف خاصة له بلا زحمة الخطرات، ولهم مشاهدة اليقين بوسائط الالتباس ممتحنين بالوسواس.

والقسم الثاني من المؤمنين هم الذين آمنوا إيمان الفطرة بإرشاد العلم والعقل والبيان والبرهان، وأصل لهذا الإشكال إلهام وفروعها أسباب.

وأيضًا استقام النبي الأمي ﷺ عند صدمة سلطان الألوهية، وتمكن فيها عاين من جلال ذات القديم -جل جلاله- بنعت صرف المشاهدة واليقين، والمؤمنون يريهم الله بعض أنوار غيبه فآمنوا بما أدركوا به.

قال الأستاذ: آمن الرسول ﷺ من حيث البرهان.

ويقال: آمن الخلق بالوسائط، وآمن محمد ﷺ بغير واسطة.

ويقال: هذا خطاب الحق سبحانه وتعالى معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القدر، فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ ولم يقل آمنت كما يقول العظيم الشأن من الناس.

قال الشيخ: وأنت تريد قلته.

وقال ابن عطاء: إن النبي ﷺ معدن سر الحق أظهره للعام أوقفه على شريطة قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾، وإذ أخفاه أخبر عنه بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وهو مستغرق أوقاته في انتظار ما يظهر عليه الحق من الزيادات على روحه وسره وفؤاده وقلبه وشخصه؛ ألا تراه كيف نعته عن صفاته، وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ عن صفاتك لحيانك بنا وبإظهار صفاتنا عليك ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] عاجزون عن بلوغ درك صفاتك، وإيمان رسول الله ﷺ إيمان مكاشفة ومشاهدة، وإيمان المؤمنين إيمان بالوسائط والعلائق.

وقيل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ : حكمًا وتسمية، ولا المؤمن موجود ولا الإيمان ظاهر.

وقال فارس: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ قال: إيمان حقيقة ومشاهدة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إيمان حكم ومتابعة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ أي: لو أظهر من جمال عز الأزل صفة من صفاتي لا يطيق الخلق أن يستقيموا عند كشف ذرة منها، لكن أواسيهم بلوائح التجلي بنعت الالتباس؛ لكي لا يفنوا مثل تجلي موسى وعيسى ومحمد ﷺ، وأيضًا: تسربلت الأرواح بأنوار الكبرياء، فاستقلوا بأنفسهم عند نهوضهم بأثقال المعرفة، وما أدركت من عجائب الربوبية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وأيضًا: لا يكلف الله حق عبوديته نفوس أوليائه إلا قدر ما يطيقون من جهة التقصير والضعف عند تحمل حقيقة العبودية؛ لأن من حق الربوبية أن تذوب الأرواح والأشباح في أول تكبيره كبروا تعظيمًا وإجلالاً، وأن الله تعالى ما أظهر للخلق من معرفته إلا مقدار ما يعيشون به من جهلهم بربوبية ربهم، ولو أيقنوا أنهم في معزل من حقيقة العبودية وإدراك صرف الربوبية ماتوا حسرة على ما فاتوا، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما كسبت أرواحهم من مقاساة الهجران في دار الامتحان، ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ ما اكتسبت النفوس من جرائم الخطرات عند مكاشفة الغيب للأسرار فيجازي الله النفوس في الدنيا بالذوب في المجاهدات، ويجازي الأرواح في الآخرة بصرف المشاهدات، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ أي: لا

تحجبنا بنا عليك إن نسيناك، ﴿أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ بالتفاتنا إلى غيرك، ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ أي: اعف عنا قلة المعرفة بك، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ التقصير في عبادتك، ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ بمواصلتك ومشاهدتك.

وقال ابن عطاء: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾ عند المصيبة واستر علينا في القيامة ولا تفضحنا بها على رءوس الأشهاد ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذا نجوى أهل الامتحان من المكاشفين والمشاهدين أي: نحن أسراء معرفتك وضعفاء محبتك، فارحمنا بتجلي العظمة حتى نقوى منك بك في محل العبودية وكشف الربوبية ﴿فَٱنصُرۡنَا﴾ بمعونة المعرفة وجند حقائق الإلهام عن مشاعر الألوهية: ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: على أوباش الطبيعة حتى يهزموا عن ميادين معارفك بتأييد معرفتك وتشريح من تشويشهم في صرف عبوديتك وطلب مشاهدة حضرتك.

سورة آل عمران

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الألف إشارة إلى قدس فردانيته وامتناعه عن التصاق الحدث بقدمه، واللام إشارة إلى لطائف غيبه، والميم إشارة إلى غرائب ملكوته مما أخفى عن أعين الخلائق من قوة عيون أوليائه وأنبيائه، وأيضًا الألف إشارة إلى أوليته، واللام إشارة إلى جلاله وجماله، والميم إشارة إلى محبته لأوليائه في القدم، وقد جرت العادة بين الأحباب التخاطب بالحروف المفردات سترًا على الأحوال، وكتمًا للأسرار لئلا يطلع عليها أجنبي من هذه المعاني لغير هذه المباني.

كما قال: قلت لها قفي، قالت لي: قاف لكي لا يقف العاذلون على الأسرار، ونطقوا بهذه الإشارة حذرًا من استشراف المترقين، هكذا سنة الإلهية خاطب خواص محبيه بالرموز والإشارات مثل الحروف المقطعة هي رموز من الحق لسادة أنبيائه وأوليائه تشريفًا لهم وتعظيمًا على سائر الخلق، ومَنْ قرب من الله تعالى فالإشارة معه أدق والرمز معه أرق.

ألا ترى أنه تعالى أسمع كليمه كلامه أحسن العبارات، وأسمع حبيبه خطابه بأجمل الإشارات، قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم، واختصر الكلام اختصارًا»(١).

وقيل: العبارات للعموم والإشارات للخصوص.

وقيل: الإشارة في قوله: «ألف» أراد قيامه بكفايتك على عموم أحوالك، والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفي السر، والإشارة من الميم موافقة جريان التقدير لمتعلقات الطلب من الأولياء، ولا يتحرك في العالم شيء، ولا يظهر ذرة إلا وهو محل الرضا منهم.

وإذا قرعت هذه الألفاظ أسماع المحبين تفهم حقائقها أسرارهم، وتقرأ معانيها من ألواح الإلهام أرواحهم القدسية، وكل حرف منها إشارة إلى اسم، والاسم إشارة إلى فعل والفعل إشارة إلى الصفة والصفة إشارة إلى الذات، فإذا لقيت هذه الرموز في قلوب العارفين رقوا مدارج الأسماء والأفعال والصفات حتى يبلغوا سرادق الكبرياء، فيكشف لهم معلومات السرمدية من الحق للحق فيفطنون علوم المجهولة التي ليست في ديوان الملكوت.

وقيل: الألف من الأحدية، واللام من اللطف، والميم من الملك.

وقال ابن عطاء: إن الله جعل الأحرف سببًا متصلاً بالحلق، وجعل المشكل لها سببًا متصلاً منه لها وهو سر الله، يعني المشكل لا يعلمه إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الحي الذي لا تقاس حياته ببعد الأوهام، ولا تدرك سرمدية ذاته بغوص فطن الأنام، وأيضًا ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الذي حياته قام به العالم واستنارت بنورها روح آدم ﷺ، و﴿ٱلْقَيُّوم﴾ الذي يبقى ببقائه أهل الفناء ويفنى بقهر قيوميته أهل البقاء، وأيضًا ﴿ٱلْقَيُّوم﴾ هو المقدس عن العلائق وقيامه لخلقه بنعت حفظهم ورحمته عليهم روح الخلائق.

وقال الأستاذ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي لا يلهو فيشغل عنك، ولا يسهو فيبقى عنه فهو على عموم أحوالك رقيب سرك إن خلوت فهو رقيبك، وإن توسطت الخلق فهو قريبك.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٣١٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٦٠).

وقيل: ﴿ٱلْحَيُّ﴾ الذي لا أول لحياته، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي لا أمد لبقائه.

وقال الكتاني في حقيقة ﴿ٱلْحَىِّ﴾: الذي به حياة كل حي، ومَنْ لم يحي به فهو ميت.

وقيل: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ مَنْ هو مزيل العلل عن ذاته بالزوال، أو بالعبارة عنه وبالإشارة فلا يبلغ أحد شيئًا من كنه معرفته؛ لأنه لا يعلم أحد ما هو إلا هو.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن الذين حجبوا عن مشاهدة الحق بنعت اليقين في رؤية شواهد الربوبية، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لهم حرمان وجدان وصول مقامات أهل الهدايات.

وقال أبو سعيد الخرّاز: كفروا بإظهار كرامات الله على أوليائه، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ نفي الحق عن ذلك، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يعز أولياءه بولايته وإظهار الكرامات على مَنْ يشاء من عباده، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من يجحد ذلك، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعز أولياءه بعز التوحيد، وينتقم من أعدائه إنكارهم على أمنائه بألا يهديهم إلى ما آتاهم من أنواع فضله وكرمه.

قال الواسطي: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ عن أن يخالف إرادته أحد، بل ينتقم بما يجري عليه أن يكون عقوبته مقابلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يخفي عليه شيء ما في صدور أوليائه في الأرض من لهب الاشتياق، ولا مما في قلوب أصفياء ملائكته تحت العرش من أزيز نيران الخوف، وهذا التسلية من الله تعالى لأوليائه أنه يعلم أحوالهم في شوقه، وإنه يجازيهم بمقاساتهم وممارستهم ابتلاءه، وأيضًا: كيف يخفى عليه شيء مما فطره من محدثات الكونين، لكن هذا تخويف من الله لأعدائه أنذرهم بأنه علم ما في ضمائرهم من دنس الكفر، وإنه يجازيهم بسوء أعمالهم.

وقال جعفر: لا يطلعن عليك، فيرى في قلبك سواه فيمقتك.

وقيل فيه: لا يخفي عليه شيء، فطالعوا هومكم أن تكون خالية عن الأهواء والشبهات، فإنه لا يخفى عليه شيء.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [1] أي: الذي يلبسكم في الأرحام نور جمال القدرة، ويزينكم بحسن مكث المشاهدة ليسر الناظر إذا نظر إلى وجوهكم بإدراك حسن إبداعه وإظهار جلال ربوبيته في وجوهكم، كما قال تعالى لكليمه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

---

(١) هذا فيما لا يزال من حيث الخلقة، وهو الذي قدَّر أحوالكم في الأزل كيف شاء، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسمة، تفسير القشيري (١ / ٢٧٨).

مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه:٣٩]، وأيضًا ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ على استعداد الولاية والهداية، وأيضًا يصوركم ربانيين في علوم المعارف، أو مطمئنين في كشف نور الحقائق أو المخبتين تحت أثقال المعاملات أو المحسنين في شرف المقامات، كما كان في علم أزليته.

وقيل: يصوركم عالمًا به وعالمًا بصفاته وعالمًا بأوامره وجاهدًا له، فمَنْ لم يصحبه حزن ما قدر عليه في وقت تصويره من السعادة والشقاوة فهو الجاهل به والآمن من مكره.

وقال محمد بن علي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من الأنوار والظلمات.

قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة، وألقى عليهم من نوره؛ فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ»[1].

وقال الحسين: خصوصية تصويره إياك أنه قوَّمك فسواك وعدلك، وأنزلك منزلة المخاطبين ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ﴾ المحكمات: التي لا تتبدل مما كانت في الأزل، وهي آيات لا بدَّ للمؤمنين من استعمال أوامرها؛ لأنها في إصلاح الخلق وتثبيت إيمانهم بمنزلة الدواء للمرضى.

قال أبو عثمان: هي فاتحة الكتاب التي لا تجزي الصلاة إلا بها.

وقال محمد بن الفضل: هو سورة الإخلاص؛ لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط، ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: مدار أوامر الكتاب، وموئل أصول المعاملات، ومنبت أشجار الإيمان في قلوب أهل المداناة بنعت المزيد، ويهيج الأرواح في اقتباس المخاطبات، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ هي أوصاف التباس الصفات وظهور الذات في مزار الشواهد والآيات ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أهل التقليد يخوضون في المتشابهات طلبًا للتوحيد، وهم بمعزل عن شهوده؛ لأنهم أصحاب الوهم، وصاحب الوهم لا يعرف حقيقة الأشياء المحدثة، فكيف يعرف وجود الحق برسم الوهم، وإذا كان يطلب العلوم المتشابهة لم يبلغ حقيقتها ويقع في الفتنة، ولهذا قال ﷺ: «تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في ذات الله»[2].

ومَنْ لا يعبر بحار حقائق اليقين ولم ينظر في مرآة التحقيق، ورسم في المتشابهات يسقط عن رسوم إيمانه، ولا يبلغ معاني المتشابهات؛ لأنه مقام أهل العشق الذي يرون الحق في كل

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ١٩٨).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٣٦).

شيء.

كما قال بعض أهل المعاني: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه.

هذا وصف ظهور التجلي في قراءة الكون لا أن الحق تعالى حل في الأشياء؛ لأنه منزه عن أشكال الحلول، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ خصَّ نفسه بحقيقة علم تشابه أسرار التباس هيئات الجبروت في الملكوت بنعت ظهور تجليه لأهل حقيقة التوحيد والتفرد، وأضاف إلى أوليائه من أهل العشق خاصة طرفًا من علم المشاهدة بنعت الالتباس في حقيقة المكاشفة، ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ إيمان مشاهدة وحقيقة علم وعرفان مكاشفة، والراسخون هم الذين كشف لهم أسرار العلوم اللدنية، وعجائب معلومات الآخرة الخارجة من أنصار الطاهرة، وأيضًا الراسخ الرباني الذي تخلق بخلق الحق جلت عظمته أن يكون له كفوًا.

وقال الواسطي: هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب في سر السر فعرفهم وخاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات ما كشف لهم من مدخور الخزائن تحت كل حرف منه من الفهم وعجائب الخطاب فنطقوا بالحكم.

وقال سهل: الرسوخ في العلم زيادة بيان ونور من الله، كما قال: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال: الراسخ في العلم من علوم المكاشفة رباني نوراني وذاتي، وأحكام العلوم أربعة: الوحي والتجلي والعندي واللدني.

وقال بعضهم: الراسخ في العلم مَنْ طولع على محل المراد من الخطاب.

وصف الأستاذ -رحمه الله- أهل اليقين وأهل الزيغ، قال: أما الذين أيدوا بأنوار البصائر، فمستضيئون شعاع شموس الفهم، وأما الذين أسبلوا غطاء الريب، وحرموا لطائف التحقيق فتنقسم بهم الأحوال، وترتجم لهم الظنون، ويطيحون في أودية التلبيس فلا يزدادون إلا جحدًا على جحد، ونفورًا على شك.

قال: ومَنْ وجد علم التأويل من الله عز وجل فيكون إيمانهم بلا احتمال لجولان خواطر التجريد، بل عن صريحات الظهور وصافيات اليقين.

قال: وأصحاب العقول هم في صحة التذكير لوجود البراهين وستر أحكام التحصيل، وأيضًا الراسخون في العلم المشاهدون بنعت الأرواح قبل الأشباح في ديوان الأزل، قد عاينوا مكنونات أسرار خصائص العلوم القدمية، وفهموا منها عواقب شأنهم في مدارج البقاء فرسخوا في بحر عين اليقين، ولم يتزلزلوا في ظهور الحكومات بنعت التصاريف والتحويل،

والمكر والخديعة فلم ينهزموا عن صولات القهر وتخويفه، وثبتوا صدمات الله، وفي الله فيما ظهر من الله من رسم المحو والطمس، وعلموا أن جميعها ابتلاء، وامتحان فسكنوا في العبودية رسمًا، ورسخوا في مشاهدة الربوبية حقيقة وصرفًا.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تزغ قلوبنا بفقدان الطمأنينة بذكرك، وأيضًا: لا تزغ قلوبنا عن قربك ومحبتك بعد إذ هديتنا إلى معرفتك ومحبتك ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ علمًا خاصًا ومعرفة تامة ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ وهب ما لا يحصى شكره.

وقال سهل: رجع قوم للتضرع إليه والمسكنة بين يديه، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تمل بقلوبنا وأسرارنا عن الإيمان بك إذ مننت علينا به.

وقال جعفر: لا تزغ قلوبنا عنك بعد إذ هديتنا إليك من لدنك رحمة لزومًا لخدمتك، على شرط السنة ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ المعطي بفضله عباده ما لا يستحقونه من نعمة.

وقال الأستاذ: ما ازدادوا قربًا إلا ازدادوا أدبًا، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب.

وقيل: حين صدقوا في حسن الاستعانة أيدوا بأنوار الكفاية، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ إنك جامع أهل الحقيقة على بساط القربة على بساط الكرامة، والموقنون على بساط المشاهدة والمحبون على بساط الوصل، والعارفون على محل الأنس، وكل طائفة تبلغ عندك بطي منتهى مقاصدهم التي كانوا في الدنيا من رسم المقامات والحالات والمكاشفات والمشاهدات.

وقال الأستاذ: اليوم جمع الأحباب على بساط الاقتراب وغدًا جمع الكافة لمحل الثواب والعقاب اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال، وغدًا جمع الأستار لشهود الأهوال ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ لا يخلف ما وعد لأنبيائه وأوليائه من وصولهم إلى مشاهدته بعدما خاطبهم حين أبدع أرواحهم قبل وجود الكونين تعريف نفسه لهم بلا كلفة العذاب ومشقة الحساب، وأيضًا لا سبيل لتغير الحدثان إلى قدم علم الرحماني؛ لأنه تعالى منزه عن أن يفعل شيئًا بعلم يحدث في نفسه.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: الميعاد الذي وعد من السعادة والشقاوة في أزلي علمه لا يخلف ميعادًا لزهد زاهد، ولا لفسق فاسق.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ قال: في إنزال كل واحد ما كان من الأعواض إيصال الخواص إلى محل الخاص من اللقاء والقرب، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يؤيد حتى يجاهد نفسه على شرائط السنة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من خواص عباده، وأيضًا ألبس أولياءه أنوار هيبته ليفرق الشيطان بها عن أسرار مراقباتهم.

وقيل: يوفق مَنْ يشاء من عباده للزوم السنة، وترك البدعة.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ابتلاهم حتى يظهروا الصادق بترك هذه الشهوات من الكاذب بالشروع في طلبها.

قيل: مَنْ اشتغل بهذه الأشياء قطعه عن طريق الحق، ومَنْ استصغرها، وأعرض عنها عوض عنها السلامة منها، وفتح له الطريق إلى الحقائق.

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ﴾ أي: لمَنْ اتقى الله عما سوى الله جنات المقامات في المداناة فإن تبقى المتقي من الدنيا وشهواتها فله جنه اليقين، وإن تبقي المتقي من الآخرة فله جنة المكاشفة، وإن تبقى من النفس فله جنة المشاهدة بنعت الرضا كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

وقيل: مَنْ عمل رجاء الجنة فإن غاية بلوغه إلى غاية رجائه من دخول الجنة، ومن كانت معاملته على رؤية الرضا فإن له الرضوان، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1] بصير بالعباد في تقلب أرواحهم في عالم الملكوت محترقات من سطوات أنوار الجبروت حبًّا لجواره وشوقًا إلى لقائه، يجازيهم بقدر همومها في صرف طلب وجه الأزلي وجمال الأبدي.

وقيل: عالم بهمم العاملين وإرادتهم.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ الصابرين عن جميع حظوظهم لله، والصادقين في معاملة الله، والقانتين بنعت الرضا عن الله، والمنفقين نفوسهم لله وبالله، والمستغفرين عن التفاتهم إلى غير الله بالأسحار حين أشرقت أنوار المشاهدة لأهل المكاشفة.

وأيضًا: الصابرين عن الله بالله، وبالله لله، ولله في الله، ولله مع الله، والصادقين في دعوى محبة الله بنعت كشف مشاهدة الله، والقانتين بشرط الإخلاص في عبودية الله، والمنفقين حياتهم في رضا الله، والمستغفرين عن الخطرات في أوقات المناجاة.

وقيل: الصابرين على صدق المقصود، والصادقين في العهود، والقانتين لحفظ الحدود، والمستغفرين عن أعمالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد.

وقيل: الصابرين الذين صبروا على الطلب، ولم يتعللوا بالهرب، ولم يحتشموا من التعب، وهجروا كل راحة وطرب يصبرون على البلوى، ورفضوا الشكوى حتى وصلوا إلى المولى، ولم يقطعهم شيء من الدنيا والعقبى.

والصادقين: الذين صدقوا في الطلب فقصدوا، ثم وردوا ثم صدقوا حين شهدوا، ثم صدقوا حتى وجدوا، ثم صدقوا حتى فقدوا تزينهم قصودًا، ثم ورودًا، ثم شهودتهم وجودًا، ثم خمودًا.

---

(١) أي: بنياتهم ومقادير ما يستحقونه بها على حسب إخلاصها، وبغير ذلك من أعمالهم وأقوالهم وسائر أحوالهم. نظم الدرر (٢ / ٥).

والقانتين: الذين لازموا الباب، وداوموا على تجرع الاكتساب، وترك المحاب، وبغض الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب.

والمنفقين: الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال، ثم جادوا بميسورهم من الأموال، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال، ثم جادوا بترك كل حظ لهم في العاجل والآجل استهلاكًا عن القرب في الوصال بما لقوا به من الاصطلاح والاستيصال.

والمستغفرين :عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الأسحار يعني: ظهور الأسفار، وهو فجر القلوب لا فجر يظهر في الأقطار.

وقال أبو عمرو المكي: ليس الصبر ترك الاختيار على الله، ولكن الصبر هو الثبات فيه، وتلقي بلاءه بالرحب والرغبة.

وقال عمرو: من صبر على رؤية المنة يكون تلذذه بالبلاء كتلذذه بالمنن إذ هما من عين واحدة.

وقال جعفر: الصبر ما كتب فيه محفوظًا، والتصبر فيه ما رددت فيه إلى حالك وعجزك.

وقال ابن عطاء: الصابرون هم الذين صبروا بالله في طاعة الله مع الله، والصادقون هم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه عن صدق قويم، واعتماد صحيح وسر لا يشوبه شيء، والقانتون هم الذين أطاعوا في سرهم وعلانيتهم، والمستغفرون بالأسحار الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

وقال بعضهم: الصابرون مع الله على موارد قضائه، والصادقون في توحيدهم ومحبتهم والقانتون الراجعون إليه في السراء والضراء، والمنفقون ما سواه، والمستغفرون بالأسحار من أفعالهم وأقوالهم.

وقال ابن عطاء: الصابرون الذين صبروا على ما أمروا به، والصادقون الذين صدقوا ما أقروا به من الميثاق الأول والقانتون القائمون لفنون العبادات، والمنفقون الذين ينفقون أنفسهم وأرواحهم في رضا مولاهم، والمستغفرون بالأسحار الذين لا يفترون عن خدمته بحال.

وقال أيضًا: الصابرون الذين حبسوا أنفسهم على مطالعة المكاشفات، والصادقون الذين صدقوا في محبته، والقانتون الذين ربطوا أنفسهم بخدمته، والمستغفرون بالأسحار لزموا الباب إلى أن يؤذن لهم.

وقال أيضًا: الصبر مقام المحبين، والصدق مقام العارفين، والقنوت مقام العابدين، والإنفاق مقام المريدين، والاستغفار مقام المذنبين.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ إن الله تبارك وتعالى وتقدس كان بداية وصفاته عالمًا وعارفًا كما ينبغي منه لنفسه فشهد بنفسه لنفسه قبل القبل، وكون البعد وكون الكون؛ فليس مقابل علمه بنفسه جهل، وليس مقابل معرفته بنفسه نكرة، وليس مقابل شهادته بنفسه عجز ووحشة، بل وصف نفسه بنفسه، وشكر نفسه بنفسه، إذ ليس للخلق إلى معرفته، والعلم بنفسه سبيل فأثنى بنفسه على نفسه لعلمه بعجز خلقه عن معرفة وجوده، فمراده من شهادته بنفسه قبل وجود العالم تعليمًا لعباده تلطفًا منه عليهم، وإلا هو منزه عن وجود الخلق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:٦]، فشهادته لنفسه حقيقة، وشهادة الخلق له رسم، والحقيقة بدت من الحقيقة، وتعود إلى الحقيقة، والرسم بدء من الرسم، ويعود إلى الرسم؛ لأن القدم مفرد عن الحدث من جميع الوجوه علمًا ورسمًا وحقيقةً.

ثم خلق الملائكة وكشف لهم ذرة من نور قدرته فاقتبسوا من نوره نورًا فأبصروا به آثار أفعاله القديمة فشهدوا به وبوحدانيته وأزليته وسرمديته، رامتهم في العبودية لا حقيقة منهم في الربوبية، فرضي الله تعالى به عنهم أمرًا ورسمًا لا حقيقة ووصفًا، ثم خلق الأنبياء والأولياء، وأبرز لهم أنوار جماله ذاته في مصابيح أرواحهم قبل الأجساد بألفي ألف عام، فنظروا بنوره إلى جمال جلاله وتحيروا في كنه عظمته وكبرياء جبروته، وعجزوا عن ثنائه ووصفه وشكره لنفسه.

خاطبهم الحق جل سلطانه بنعت تعريف نفسه لهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢]؛ فشهدوا بعد إقرارهم في محل الخطاب، فشهادتهم رسم التعليم لا من حقيقة رسم القديم، والفرق بين شهادة الملائكة، وبني آدم من أهل العلم أن الملائكة شهدوا من حيث اليقين، وأولوا العلم من حيث المشاهدة وأيضًا شهادة الملائكة من رؤية الأفعال، وشهادة العلماء من رؤية الصفات.

وأيضًا شهادة الملائكة من رؤية العظمة وشهادة العلماء من رؤية الجمال، لأجل ذلك يتولد من رؤيتهم الخوف، ومن رؤية العلماء الرجاء.

وشهادة العلماء بالتفاوت فشهادة بعضهم من المقامات، وشهادة بعضهم من الحالات، وشهادة بعضهم من المكاشفات، وشهادة بعضهم من المشاهدات، وخواص أهل العلم يشهدون به له بنعت إدراك القدم، وبروز نور التوحيد من جمال الوحدانية، فشهادتهم مستغرقة في شهادة الحق؛ لأنهم في محل المحو من رؤية القدم، وسئل سهل بن عبد الله عن هذه الآية فقال: شهد بنفسه ومشاهدة ذاته، واستشهد من استشهد من خلقه قبل خلقه لهم

فكان في ذلك تنبيهًا أنه عالم بما يكون قبل كونه لا يتجاوز أحد من حكمه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾[1]: دلنا من نفسه على نفسه بأسماء، وفيه بيان ربوبيته وصفاته فجعل لنا في كلامه وأسمائه شاهدًا ودليلاً، وإنما فعل ذلك لأن الله وحد نفسه ولم يكن معه غيره، وكان الشاهد عليه توحيده ولا يستحق أن يشهد عليه من حيث الحقيقة سواه، إذ هو الشاهد فلا شاهد معه،ثم دعا الخلق إلى شهادته فمن وافق شهادته شهادته فقد أصاب حظه من حقيقة التوحيد، ومن حُرم ضَلَّ.

وقال ابن عطاء: إن الله شهد لنفسه بالفردانية والصمدية والأبدية، ثم خلق الخلق فشغلهم بعبادة هذه الكلمة فلا يطيقون حقيقة عبادتها؛ لأن شهادته لنفسه حق وشهادتهم بذلك رسم وأنى يستوي الحق مع الرسم.

وقال أبو عبد الله القرشي في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ فقال: هو تعليم منه ولطف وإرشاد لعباده إلى أن شهدوا له بذلك، ولو لم يعلمهم ذلك لم يرشدهم لهلكوا كما هلك إبليس عند المعارضة.

وقال بعضهم: شهادة الله لنفسه بما شهد به شهادة صدق، ولا يقبل الشهادة إلا من الصادقين نظهر بهذا أنه لا يصلح التوحيد إلا للصادقين دون غيرهم من الخلق.

وقال أبو يزيد -رحمة الله عليه- يومًا لأصحابه: بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول: لا إله إلا الله، فما قدرت عليه.

قيل: ولم؟ قال: ذكرت كلمة قلتها في صباي جاءتني وحشة تلك الكلمة فمنعتني عن ذلك، وأعجب ممن يذكر الله وهو متصف بشيء من صفاته.

وقال الشبلي: ما قلت قط الله إلا واستغفرت من ذلك؛ لأن الله يقول: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ فمَنْ يشهد بذلك له من الأكوان إلا عن أمر أو غفلة.

وقال ابن عطاء: أول ما خلقوا في حقائق البقاء مع الله فنوا عن كل شيء دون الله حتى

---

(١) قال الحرالي: فأعاد بالإضمار ليكون الشاهد والمشهود له (لا إله إلا هو) فأعاد بالهوية لمعنى الوحدانية في الشهادة ولم يقل: إلا الله، لما يشعر به تكرار الاسم في محل الإضمار من التنزل العلي انتهى. والمعنى أنه سبحانه وتعالى فعل فعل الشاهد في إخباره عما يعلم حقيقته بلفظ الشهادة جرياً على عادة الكبراء إذا رأوا تقاعس أتباعهم عما يأمرون به من المهمات في تعاغطيهم له بأنفسهم تنبيهاً على أن الخطب قد فدح والأمر قد تفاقم، فيتساقط حينئذٍ إليه الأتباع، ولو أن فيه الهلاك تساقط الذباب في أحلى الشراب. نظم الدرر للبقاعي (٢/ ٩).

ثبتوا مع الله.

وقال الشبلي: شهادة أن لا إله إلا الله عشرة أحرف ستة في الظاهر، وأربعة في الباطن، فأما التي في الظاهر فذكر الله بلا رياء، والثاني: أداء الأمر بلا عيب ولا تقصير، والثالث: كف النفس عن المحارم، والرابع: النصيحة للمؤمنين، والخامس: الفرار من الآثام، والسادس: معاداة النفس، وأما اللواتي في البواطن فإيمان ومعرفة بالقلب ونية وخشوع وفكرة واستقامة مع رؤية التوفيق فمن فعل هذا كله فقد شهد الله بالحقيقة.

وقيل للشبلي: لم تقول: الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟

قال: القول شمس تغالب فقدها بثبوتها، فإذا استحال الفقد ماذا يغلب، ثم قال: وهل يُنفى إلا ما يستحيل كونه؟ وهل يثبت إلا ما يجوز فقده؟

وقال المزني- رحمه الله: دخل ابن منصور مكة، فسُئل عن شهادة الزور للحق بالوحدانية، وعن التوحيد فتكلم فيه حتى نسينا التوحيد، فقلنا :هذا يليق بالحق به من حيث رضي به نعتًا وأمرًا، ولا يليق به وصفًا ولا حقيقة، كما رضي بشكرنا لنعمه، وأنى يليق شكرنا بنعمه.

وقال: ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بإفنائها عنك فلا يبقى مشير ولا إشارة.

وقال أبو سليمان الداراني: تطلب رضا ربك، وتبخل بمالك وتعجز عن طاعتك كلا فالشاهد لله بالحقيقة من لا يخل بروحه ونفسه وقلبه في رضا مولاه.

وقال بعضهم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ علم الله لأنه معلوم نفسه بكمال العلم والشهادة إخبار عن العلم والإسلام أصول وفروع وكلها تتشعب من أصل واحد وهو الوحدانية.

وقيل في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ أن العلماء ثلاثة: عالم بأمر الله وأحكامه فهم علماء الشريعة، وعالم بصفاته ونعوته فهم علماء السنة، وعالم به وبأسمائه فهم العلماء الربانيين.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز أن يمتنع كنه قدمه من مطالعة المخلوقين، وأيضًا العزيز الذي لا يصفه أحد إلا برسم وصفه نفسه الحكيم، هو الذي حكم حقيقة الشهادة لنفسه ورسمها بعباده.

والحكيم أيضًا الذي حجب الخلق عن نفسه أن يروه بما حصل لهم من رسم توحيده في قلوبهم: أن ما حصل من رسوم التوحيد للعباد مشوب بطيف الخيال، وما يبرز من حقيقة التوحيد من جلال عظمته يخالف ما خطر في قلوبهم.

وقيل: العزيز الممتنع عن أن يلحقه توحيد موحد أو وصفة واصف إلا على الأمر

به،الحكيم فيما يشهد به لنفسه.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1] وقّف الإسلام الرضا بمراد الحق وإمضاء قضائه وقدره بنعت استقامة السر في الباطن، وقلة الاضطراب في الظاهر، ووجدان لذة المحبة وقت نزول البلاء في المحنة.

قال أبو عثمان: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ ما سلم لك من البدع والضلالة والأهواء، وسلمت فيه مِن الرياء، والشهوة الخفية، ورؤية الخلق،وتعظيم الطاعة.

وقيل :إنَّ المتدين بالإسلام من سلِم من رؤية الخلق،وسَلِم قلبه من شهوات نفسه، وسلِم روحه من خطرات قلبه؛ وسلم سره من طيران روحه، فهو في حال الاستقامة مع الله.

وقال بعضهم: أركان الإسلام أربعة: التواضع، والألفة، وكظم الغيظ، والصبر، إذا تمَّ هذه الأربعة وجد منه أربعة أخرى: من التواضع التوكل، ومن الألفة التسليم، ومن كظم الغيظ التفويض، ومن الصبر الرضا.

---

(١) الدِّينُ الذي يرتضيه، والذي حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويعليه، وبالفضل يُلَقّيه- هو الإسلام، والإسلام هو الإخلاص والاستسلام، وما سواه فمردود، وطريق النجاة على صاحبه مسدود. تفسير القشيري (١/ ٢٩١).

قال جعفر الصادق :إذا لم يكن إسلام العبد على معرفة النعم من الله، والتوكل عليه، والتسليم لأمره؛ فهو على اسم الإسلام، لا على حقيقته.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ خصَّ الله تعالى نفسه، ومدحه بملك الربوبية، وأنّه ذو الملك والملكوت والجبروت وملكه قديم، وهو موصوف به في الأزل، ويبقى له إلى أبد الأبد، وهو مفرد به؛ ثم خصّ بملكه الذي هو صفاته من يشاء من أنبيائه وأوليائه، فالملك الذي خصَّ الأنبياء هو الاصطفاء، والاجتباء، والخلافة، والخلة، والمحبة، والتكليم ،والآيات، والمعجزات، والمعراج، والمنهاج، والرسالة، والنبوة.

وخصَّ بها ذكرت مِن بين الأنبياء صلوات الله عليهم آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، ويونس ولوط، وشعيب، وحزقيل، وخضر، وموسى، وهارون، ويوشع، وكالب، وأيوب، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد سيد الرسل خاتم الأنبياء- صلوات الله عليهم أجمعين.

فكسا الله تعالى سفرة الأنبياء والرسل عليهم السلام كسوة الربوبية والسلطنة؛ فظهرت منهم الآيات والمعجزات وقهروا بعز ملك النبوة والرسالة جبابرة الأرض،وهذا موهبة خالصة أزلية سبقت لهم بعناية الله تعالى في أزل علمه، وحرّمها على أهل الخذلان في سابق علمه وهو معنى قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾، وما قال تعالى لخليله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وأمّا الملك الذي خصَّ به أولياءه فعلى أربعة أقسام: قسم منها الكرامات والآيات مثل: تقلب الأعيان، وطي الأرض، واستجاب الدعوة؛ وهو لأهل المعاملات، وقسم منها وهو أشرف من الأول وهو المقامات مثل: الزهد، والورع، والتقوى، والصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، والتسليم، والتفويض، والتقويم، والصدق، والإخلاص، والإحسان، والاستقامة، والطمأنينة؛ وهو لأهل الدرجات، وقسم منها وهو أشرف من الثاني هو الوجد، والنجوى، والمراقبة، والحياء، والخوف، والرجاء، والمحبة، والشّوق، والعشق، والسُكر، والصحو؛ وهو لأهل الحالات، وقسم منها وهو أشرف من الثالث هو الكشف والمشاهدة والمعرفة والتوحيد والتفريد والفناء والبقاء وهو لأهل المعاينات، فهذه الأحوال التي ذكرناها أصل ملك الولاية، فمَنْ خُصَّ بها فقد بلغ ذروة ملك الأزل والأبد، ومَن حُرم منها فقد

سقط عن حظ الدنيا والآخرة، يَعزُّ بها سادة أوليائه فهلكوا جميع القلوب بفراسة نور الغيب، ويذل بإنزاعها عن أعدائه حتى لا ينالوا عهد كرامته في الدنيا والآخرة، وأيضًا ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ يعني: صرف المحبة بحلية الكرامة،ونعت الطّهارة عن الأكوان، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ ملك العبودية وعرفان الربوبية ﴿مِمَّن تَشَآءُ﴾، أي: مَن ليس له استعداد المعرفة،﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالأنس، والشوق، والعشق، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالخذلان، والحرمان، وفقد حقائق القرآن.

قال أبو عثمان: ﴿ ٱلْمُلْكِ﴾ الإيمان وهذا دليل على أنّ الإيمان لا يتحقق على شخص إلا بعد الكشف والسلامة له في الانقلاب إلى ربّه، وربّما يكون عارية، وربّما يكون عطاء، قال الله تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فهو مترسِّم برسم الملوك، وقد نزع منه ملكه .

وقال بعضهم: ملك الدين، والشريعة، وفرضها، وسنتها، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ الهداية والتوفيق،﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بولايتك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بإهانتك، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ إنّك القادر على مَن تشاء، كيف تشاء.

وقال محمد بن على: الملك المعرفة، تعطي معرفتك مَنْ تشاء من عبادك، وتنزعها عمّن تشاء، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ باصطفائك واجتبائك، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالإعراض عنه، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي: منك الاصطفاء والاجتباء، قبل إظهار عبادة العابدين.

وقال الحسين: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ نتشغله به، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي: ممّنْ اصطفيته لك فلا يؤثر فيه أسباب الملك لأنّه في أسرار الملك، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بإظهار عزّتك عليه، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[1] بإنصافه برسوم الهياكل.

وقال الواسطي: طوبى لمَنْ ملكه قلبه وجوارحه، كي يسلم من شرورهما.

وقال الشبلي: ﴿ ٱلْمُلْكَ﴾ الاستغناء بالمكون عن الكونين.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ

(١) بخذلانك، وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحدك، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك وتعزٌّ من تشاء بيُمْنِ إقبالك، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك، و تعزٌّ من تشاء بأن تؤنسه بك، وتذل من تشاء بأن توحشه عنك، وتعز من تشاء بأن تشغله بك، وتذل من تشاء بأن تشغله عنك، وتعز من تشاء بسقوط أحكام نفسه، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه، وتعز من تشاء بطرالع أُنسه وتذل من تشاء بطوارق نفسه، وتعز من تشاء ببسطه بك، وتذل من تشاء بقبضه عنك.

ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ تولج دخان البشرية في سلطان صفاء التوحيد، وأيضًا تلاشي ظلمة النفوس في أنوار الأرواح، وأيضًا أفنى ظلمة الطبائع في صفاء القلوب، وأيضًا تحرق سجوف ليالي الهجران بطلوع شموس العرفان، وأيضًا تحرق حُجب الحدوثية عند ظهور سناء قُدس الصمدية، وأيضًا ترفع قوام الملكوت حين تبرز أنوار جمال الجبروت.

﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: تفني أنوار الأسرار في أطباق ظلمات الطباع، وأيضًا أي: تسبل حجاب الفناء على وجوه أهل البقاء، وأيضًا: ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ حين كسفت شمس المعرفة في منازل النكرة، وغلبت ظلمة الفترة على نور المعاملة.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: تخرج أشجار أنوار المعرفة بكشف جمال المشاهدة من القلوب الميتة بتواتر الفترة.

وأيضًا: تخرج أرواح القدسية بأصوات جرس الوصلة عند غلبات الوجود من الأشباح المضمحلة، تحت أثقال سلطان كشف توحيد الوحدانية إلى فضاء السرمدية لتجول في سرادق الكبرياء، وخيام الملكوت، طلبًا لمشاهدة جمال الجبروت.

وأيضًا: يخرج العارف العاشق من العامي الغافل، وأيضًا أي: مياه دموع العارفين بنيران الوجد من قلوبهم الخالية عن آثار المشاهدة ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: العامي من الولي الحي بالمعرفة ورؤية مشاهدة خالق الخلق جل وعز.

وأيضًا: إذا يبست عيون المعرفة في قلوب العارفين من حرارة امتحان القهر يخرج منها حنظل الشرك مكان سكر التوحيد، وعصاه الشك مكان نرجس اليقين، وأورقت فيها أشجار الغفلة بأوراق هموم المذمومة، ويبست رياحينها بانقطاع عنها مياه صفاء المعاملة ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من هذه المقامات المختلفة بغير رؤية ولا تدبير الإنسانية.

وأيضًا: ترزق العارفين مقام المشاهدات وترزق المشتاقين مقام المكاشفات، وترزق المحبين مقام المداناة وترزق الموحدين مقام البقاء، والفناء، والصحو، والسكر، والاتحاد،

وترزق العاشقين مقام الجمع والتفرقة، وترزق الأحرار مقام التلوين والتمكين بغير حساب أكثر من أن يحصى عدد أسرارها ويعد حقائق أنوارها ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا يصحب العارف الجاهل ولا المخلص المرائي، ولا الصادق الكذاب، ولا المؤمن المبتدع المنكر، ولا المريد الصادق الفاتر المدعي، ولا يحب أهل الحق أهل الباطل حتى ينالوا ببعضهم مقام حقيقة العبودية.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: لا ينال من الله تعالى درجة أهل محبته وقربته ومعرفته، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ حذر أصفياءه بالفراق عن وصله بسبب محبة أعدائه، وبهذا التخويف يربي خواص أحبته في قباب الشفقة وأسبل بهذا عليهم نقاب الغيرة حتى لا يراهم أحد سواه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ مشفق بأوليائه وأهل طاعته بأن يسترهم عن أبصار الغفلة والجهلة وأكرمهم بصحبة أهل التوحيد والمعرفة، وبسط لهم بساط الشريعة والحقيقة حتى يردوا موارد الأنبياء والرسل، وشربوا من مناهل المقربين شراب الصفاء، ولبسوا من نسج الكروبيين أثواب الوفاء.

وسُئل أبو عثمان عن قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ فقال: لا ينبسط شيءٌ إلى مبتدع؛ لفضل عشيرة، ولا لقرابة نسب، ولا نلقاه إلا ووجهه له كاره، فإنْ فعل شيئًا من ذلك فقد أحب مَنْ أبغضه الله، وليس بولي الله من لا يوالي أولياء الله، ولا يعادي أعداءه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ : إنَّما يحذر نفسه من يعرفه، فأمَّا مَنْ لا يعرفه؛ فإن هذا الخطاب زائل عنه.

وقال الواسطي: يحذركم الله نفسه في دعوى إتيان شيءٍ من الطاعات؛ إذ فيه جذب الربوبية.

وقال أيضًا: ذلك ألا يأمن أحدٌ أن يفعل به ما فعل بإبليس زينة بأنوار عصمته، وهو عنده في حقائق لعنته، وسبق عليه ما سبق منه إليه حين غاضبه فجأة بإظهار علته.

وقال أيضًا: إنه لا يحذر نفسه مَنْ لا يعرفه، وهذا خطاب الأكابر، وأما الأصاغر فخطابهم: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال جعفر: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ هذا الخطاب للأكابر ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ خطاب للأصاغر.

وقال ابن عطاء: احذر سطوته ونقمته؛ فإنَّه عزيز قهار، وابذل روحك له، واعلم أنك

مقصر مع هذا كله، وأنشد:

لا تَعــــرِضْ بـــــنا فَهـــــذا بَـــنَان   قـــدْ خَـــضَبنَاهُ بِـــدمِ العُـــشَاقِ

وقال الواسطي: يحذركم أنْ تثبتوا نفسه بنفوسكم وصفة القديمة عليكم بأحوالكم الخديعة، وأنْ تنسوا الأزلية بالآخرية، والربوبية بالعبودية، فإنَّ الأصل أتم من الفرج، وإنَّ العبودية إنما ظهرت بالربوبية.

وقال إبراهيم الخوَّاص: علامة الحذر في القلب دوام المراقبة، وعلامة المراقبة التفقد للأحوال النازلة.

وقال جعفر: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أنْ تشهد لنفسك بالصلاح؛ لأنَّ مَنْ كانت له سابقة ظهرت سابقته في خاتمته.

قال الأستاذ: الإشارة من قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ للعارفين، ومن قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ للمشتاقين، فهؤلاء أصحاب العنف والفتوة، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة.

وقيل: إغناؤهم بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ثم أحياهم فأبقاهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

وقال ابن عطاء -رحمه الله: العبادة أجمع مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، وخصَّ رحمة الرسول ﷺ موقوفة على المؤمنين دون مَنْ سواهم، وهذا كقول إبراهيم ﷺ حين قال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] فإنَّه لا رازق في السماوات والأرضين غيره، وسن في ربوبيته تعالى أنْ يحذر أولياءه وأعداءه، فحذر أعداءه بما صدر من أفعاله القديمة من نكال الجحيم والحطمة؛ لأنَّها قهر بالواسطة بين الأفعال والصفات، وحذَّر أولياءه والمؤمنين خاصة صفاته وذاته، فتحذير المؤمنين بالصفات كالحرمات والهجران عن نواله وكرامته، وتحذير أوليائه بعزة نفسه، وهم على طبقاتٍ شتى، وجمعهم في وصول التوحيد، وفرَّقهم في منازل المقامات، فحذَّر التائبين بالسلطنة، وحذَّر الخائفين الوجلين بسطوات العظمة.

وحذَّر المحبين والمشتاقين والعاشقين بالعزة والجبرية، وحذَّر العارفين والموحدين بصدمة الكبرياء والظلمات بحر الديمومية، وبهذه الصفات يحذر أهل انبساط والبسط والرجاء لسقوط سوء الأدب عنهم في مدارج التوحيد والكرامة.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: قل إن ادَّعيتم محبة الله وأنتم صادقون فيما ادعيتم فاتبعوني فإنِّي سيد المحبين، ورئيس الصدِّيقين، ومقدم المرسلين، وقدوة المريدين حتى أريكم مغيبات المهلكات، وغوامض طريق المنجيات، ودقائق أحكام المشاهدات، وأسرار لمعات المداناة، وأرشدكم إلى أحسن المعاملات، وأفضل الطاعات، وأعملكم حسن الآداب، ونفائس الأخلاق، زادٌ إلى المآب؛ لأنَّ قد كوشفت بأسرار المحبة، وأنوار القربة، وإن متابعتي حقيقة شكر محبة المحبوب، وإذا شكرتم الله بمتابعتي زادكم الله محبته ومعرفته، قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

وحقيقة المحبة عند العارفين والمحبين احتراق القلب بنيران الشوق، وروح الروح بلذة العشق، واستغراق الحواس في بحر الأنس، وطهارة النفس بمياه القدس، ورؤية الحبيب بعين الكل، وغمض عين الكل عن الكونين، وطيران السر في غيب، وتخلُّق المحب بخلق المحبوب، وهذا أصل المحبة.

أما فرع المحبة فهو موافقة المحبوب في جميع ما يرضاه، وتقبل بلائه بنعت الرضا، والتسليم في قضائه وقدره بشرط الوفاء ومتابعة سنة المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه- وأما آداب أهل المحبة الانقطاع عن الشهوات واللذات، والمسارعة في الخيرات، والسكون في الخلوات والمراقبات، واستنشاق نفخات الصفات، والتواضع في المناجات، والشروع في النوافل والعبادات، حتى صاروا متصفين بصفات الحق، ومنقادين بنوره بين الخلق.

قال الله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى كنت له سمعًا، وبصرًا، ولسانًا، ويدًا»(١).

وصرف المحبة لا يكون إلا بعد أن يرى الروح الناطقة بعين السر مشاهدة الحق بنعت الجمال وحسن القدم لا بنعت الآلاء والنعمة؛ لأنَّ المحبة إذا كانت من تولد رؤية النعماء تكون محبة معلولة، وحقيقة المحبة ما لا علة فيها من المحب، والحبيب شيءٌ دون المحبوب.

وقال أبو عمرو بن عثمان: محبة الله هي معرفته، ودوام خشيته، ودوام اشتغال القلب

---

(١) سبق تخريجه.

به، ودوام انتصاب القلب بذكره، ودوام الأنس به.

وقال محمد بن حنيف رحمه الله: المحبة: الموافقة لله في التماس مرضاته.

وقال بعضهم: المحبة هي موافقة القلوب عند بروز لطائف الجمال.

وقال أبو يزيد: أحببت الله حتى أبغضت نفسي، وأبغضت الدنيا حتى أحببت طاعة الله، وتركت ما دون الله حتى وصلت إلى الله، واخترت الخالق فاشتغل بخدمتي كل مخلوق.

وقيل: المحبة هي اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله وآدابه إلا ما خُصَّ به؛ لأنَّ الله قَرَن محبتاه باتباعه.

وسُئل الأنطاكي: ما علامة المحبة؟ قال: أن يكون قليل العبادة، دائم التفكر، كثير الخلوة، ظاهر الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يحزن إذا أصيب، ولا يفرح إذا أصاب، ولا يخشى أحدًا، ولا يرجوه.

وسُئل يحيى بن معاذ عن حقيقة المحبة، قال: الذي لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفوة.

وقال جعفر في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ قيد أسرار الصدِّيقين بمتابعة نبيه ﷺ لكي تعلموا أنهم وإن علمت أحوالهم وارتفعت مراتبهم لا يقدرون مجاوزته ولا اللحاق به.

وقال ابن عطاء: في هذه الآية أمر بطلب نور الأدنى من عَمِيَ عن نور الأعلى، وأقول: لا وصول النور الأعلى من لم يستدل عليه بالنور الأدنى، ومن لم يجعل السبيل إلى النور الأعلى والتمسك بآداب صاحب نور الأدنى ومتابعته فقد عمي عن نورين جميعًا، وألبس ثواب الاعتزاز.

قال أبو يعقوب السوسي: حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من ربه، وينسى حوائجه إليه.

قال الواسطي: لا تصح المحبة والإعراض على سره أثر والشواهد في قلبه خطر بل صحة المحبة نسيان الكل في استغراق مشاهدة المحبوب وفناؤه به عنه.

وقال ابن منصور: حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك، والاتصاف باتصافه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت النصر آبادي يقول: محبة توجب حقن الدم، ومحبة توجب سفكه بأسياف الحب، وهو الأجل.

وروى أبو الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾: «على البر والتقوى والتواضع، وذلة النفس»[1].

وسُئل عمرو بن عثمان المكي عن المحبة! قال: المحبة في نفسها أصلها التواضع في القلوب من لطف المعاني التي يعاينها من المحبوب على شرط ما تعلقت به.

وسُئل سهل بن عبد الله: ما علامة المحبوب؟ فقال: ألا يزال لسانه ذاكرًا لحبيبه مشغوفًا به، مستأنسًا مسرورًا به، حامدًا شاكرًا له، وجوارحه مشغولة بمرضاة حبيبه، فهو المحب له، والمرضي عنه.

وقال الأستاذ: المحبة تشير إلى صفاء الأحوال، والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب بالسر، ويقال: أحب البعير إذا استناخ، فلا يبرح بالضرب: وللحب حرفان حاء وباء، والإشارة بالحاء إلى الروح، والإشارة من الباء إلى البدن، والمحب لا يدخر عن محبوبه لا قلبه ولا بدنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ الآية اصطفى آدم بعلم الصفات، وكشف جمال الذات قبل خلق الخلق في أزل الأزل، فإذا أراد خلق روحه نظر بجماله إلى جلاله، ونظر بجلاله إلى جماله فظهر بين النظرين روح آدم فخلقها بصفة الخاص، ونفخ في روحه روحًا، وهو علم الصفات بفعل الخاص الذي يتعلق بالذات، وخلق أيضًا صورته بصفة الخاص، ونفخ فيها روح الأول وروح الثاني؛ فوصف روحه فقال: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] ووصف صورته فقال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥] فسبق بهذه الصفات من الملائكة الكرام البررة، وألبسه خلعة خلافته، وأسجد له ملائكته لأجل هذا التخصيص كرامةً له وتشريفًا وتفضيلاً على مشايخ الملكوت، وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة:٣٠]، وقال: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة:٣٤] لا تؤثر في نعوت الأزل طوارقات الحدوث ما دام الاصطفاء بهذه الصفة سابق له، وأيضًا اصطفاهم لنفسه عن خلقه لموقع الخطاب، وكشف النقاب لاستعدادهم تحمل أثقال أمانته، والتعمق في بحار أزليته، والسيران في ميادين وحدانيته، والطيران في هواء فوقانيته لطلب كشف أحديته، وجمال سرمديته، والإشارة في نوح ﷺ وآل إبراهيم ﷺ أنَّ الاصطفاء من سبب المحبة الأزلية لا من جهة الأنساب الحديثة، كما قال الأستاذ رحمة الله عليه: اتفق آدم وذريته في الطبقة وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذي هو من قبله لا بالنسب والسبب.

وقال الفارس: اصطفاهم على الناس لنبوته: واستخلصهم لرسالته، فهم المبعوثون إلى

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٣٦).

خلقه رحمة على أوليائه، وحجة على أعدائه، فهم الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة، مبشرين عباده جزيل الثواب، ومنذرين أليم العقاب، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] إذ لو شاء لهداهم أجمعين.

قال الواسطي: اصطفاهم للولاية، وقال أيضًا: واصطفاهم في أزليته، وصفاهم لقربه، وصافاهم لمودته.

وقال أيضًا: اصطفاء في الأزل قبل كونه، أعلم بهذا خلقه أن عصيان آدم لا يؤثر في اصطفائيته له؛ لأنه سبق العصيان مع علم الحق بما يكون منه.

وقال أيضًا: اصطفى الأنبياء للمشاهدة والتقريب، واصطفى المؤمنين للمطالعة والتهذيب، واصطفى العالم للمخاطبة والترتيب.

وقال النصر آبادي: إذا نظرت إلى آدم ﷺ بصفته لقيته، بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ وإذا لقيته بصفة الحق لقيته، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ وماذا يؤثر العصيان في الاصطفاء.

وقال الواسطي: الاصطفائية قائم بالحق، والمعصية إظهار البشرية وتوبة أعجب لأنه من نفسه إلى نفسه رجع.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ أي: حرًا عن رق النفس، مقدسًا عن مس الشيطان، صافيًا لك عما سواك، مخلصًا في مودتك، صادقًا في طاعتك، موافقًا لخدمة أوليائك، وأيضًا حرًا في مقام مشاهدتك عن الاشتغال بخدمتك ليكون لك خالصًا في حظ الربوبية، وأيضًا حرًّا في مقام عبوديتك بنعت محبتك، منفردًا عن الاشتغال بالجنة والنار حتى يكون في عبادتك لك مفردًا عن الالتفات إلى شيء غيرك، وأيضًا أيقنت أسرار باطنها وقوع الأنثى، وإن لم يعلمها بنص العقل، فقالت: أحررت لك؛ لأنها موقع كلمتك يعني عيسى ﷺ

ولا ينبغي لمن حمل حرًّا إلا أن يكون هو أيضًا حرًّا.

قال الأستاذ: المحرر الذي ليس في رق شيء من المخلوقات، حرره الحق في سابق حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجود والأحوال.

قال جعفر: ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: عتيقًا من رق الدنيا وأهلها.

وقال محمد بن علي في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: يكون لك عبدًا مخلصًا، ومن كان خالصًا لك كان حرًّا مما سواك.

وسُئل سهل بن عبد الله عن المحرر فقال: هو المعتق من إرادة نفسه، ومتابعة هواه.

وقال النوري: أي: خادما لأهل صفوتك.

قال أبو عثمان: ﴿مُحَرَّرًا﴾ عن شغلي به، وتدبيري له فيكون مسلم إلى تدبيرك فيه حسن اختيارك له.

وقال محمد بن الفضل: ﴿مُحَرَّرًا﴾ عن الاشتغال بالمكاسب.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قبول الحق لها أنه أخلصها لعبادته، وجعلها محل آيته وكرامته، ورباها في حجر صفوة أنبيائه وأوليائه، وكشف لها من عظيم آياته ما لا يقوم بإزائها أكثر أهل زمانها الأنبياء، وأرسل إليها في الظاهر روح القدس حتى يعلمها حسن الأدب، ونفخ فيها روح الخاص الذي هو طير الأنس، حتى يكون لها ذخيرة المآب.

وقال جعفر: يقبلها حتى يعجب الأنبياء مع علو أقدارهم في عظم شأنها عند الله.

ألا يرى أن زكريا قال لها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: مِن عند مَن تقبلني.

وقال الواسطي: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ محفوظ قوله تعالى: ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أنبتها شجرة الربوبية وسقاها من مياه القدرة حتى أثمرها ثمرة النبوة؛ لتكون الثمرة حياة الخلق؛ لأنها هي روح الحق يعني عيسى، وقيل: أضاف الإحسان إليها في الشريعة وفي الحقيقة حفظها وأنبتها.

وقال ابن عطاء: أحسن النبات ما كان ثمرته مثل عيسى ﷺ روح الله.

وقال الأستاذ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ حيث بلغها فوق ما تمنت أمها، وقيل: القبول الحسن إن رباها على نعت العصمة، حتى كانت بقول: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٨].

وقال أيضًا: من إشارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب ﴿وَكَفَّلَهَا

زَكَرِيَّا﴾؛لأن خدمة الأولياء لا تحصل إلا من الأولياء، وأيضا أنه يوافقها في جميع أحوالها من الخلوة والمراقبة والسر والنجوى والمشاهدة والمكاشفة ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ يرزقها الله تعالى زرق الجنة في الخلوة مكافأة للخدمة والعفة كرامة لها حتى لا يشغلها تولاه المخلوق، ويكون في حقيقة التوكل ما فيه من الالتفات إلى غير الحق، وإن كان نبيًّا مرسلاً.

وقال الأستاذ: إذا دخل عليها زكريا بطعام وجد عندها رزقًا ليعلم العالمون أن الله سبحانه لا يلقي شغل أوليائه إلى غيره.

وقال: من خدم وليًّا من أوليائه كان هو في رفق الولي لا أنه يكون عليه مشقة لأجل أوليائه.

وقال: في هذه إشارة لمن يخدم الفقراء لا أن الفقراء تحت خلقه ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾ أي: بأي عمل أوجدت هذا ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: خالصًا وجدته لا يكلفه العمل، وعلة الكسب.

وأيضًا خاف عليها أن تلك المنزلة من حيل الشيطان ففتش أحوالها حتى يعلم حقيقة صدقها، فقال: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾[1] قالت: ليس كما خطر ببالك إنه من خصائص كرامات الله التي وهبها لي ليس فيها شيء من مخيلات الشيطان.

وقال الأستاذ: لم يكن يعتقد فيها زكريا استحقاق تلك المنزلة، وكان يخاف أن غيره لعلة انتهز فرصة تعهدها وسعة بكفاية شغلها ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ إذا دخل زكريا على مريم وجد عندها من فواكه الألوان علم أنها من نفائس كرامات الله تعالى فتحرك فيه غيرة النبوة، وسكن هناك في الخلوة، وطلب من الله تعالى ولدًا فأعطاه الله ما سأله.

وأيضًا نظر بنور النبوة في مريم فأبصر فيها نور عيسى صلوات الله عليهم أجمعين يتشعشع في مريم، ورأى كرامته عند الله فتمنى عليه ولدًا مثل عيسى فناجى ربه بلسان الاضطرار، وسأل عنه يحيى ﷺ مشكاة الأنوار؛ فاستجاب الله تعالى دعوة شيخ الأنبياء شفقة

---

(١) مِنْ إمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبَّدُ فيه وهناك يوجد المحراب - فذلك عَبْدٌ عزيز، ويقال مِنَ القبول الحسن أنه لم يطرح أمرَها كُلَّه وشُغْلَها على زكريا عليه السلام: فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدها بطعام وَجَدَ عندها رزقاً لِيَعْلَمَ العاملون أن الله - سبحانه - لا يُلْقِي شُغْلَ أوليائه على غير، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إنه تكون عليه مشقة لأجل الأولياء، وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء. تفسير القشيري (١/ ٣٠٧).

على غيرته، وإظهارًا لكرامته، وهذا حسن الأدب للأولياء، وأهل المعرفة إذا كانوا يحتاجون إلى الله تعالى بشيء من مرادهم خلوا عن الخلق، ودخلوا في زوايا الصدق حتى يناولوا بالاعتزال عن الخلق والاشتغال بالدنيا والإخلاص في النجوى حقيقة مقام استجابة الدعوة، لأن من لزم سيده في الخلوات والمراقبات يكشف له المقامات السنية والأحوال الشريفة من أسرار الآخرة وأنوار المعرفة ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ سأل من الله مَن يعينه في طاعة الله، ويكون له خليفة في أداء الرسالة والنصيحة للأمة، وأيضًا يكون له مشاورات السير في عالم الربوبية والعبودية، ومؤنسًا من الله في الكشف والحقيقة والعشق والمحبة، ﴿طَيِّبَةً﴾ يعني مطهرًا من أشغال الكونين منفردًا عن إرادته مقدسًا من شهواته، فإذا علم الحق سبحانه صدق نيته أعطاه مأموله على الفور ليكون له معجزة وكرامة، والإشارة فيه أن من طلب من الله شيئًا بعينه في طاعته وسببًا لمرضاته فيحصل له استجابة الدعوة في الساعة.

﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ محل مناجات الحق الصلاة لأنها فيه عصمة الحق فيها نزول الوحي من دخل فيها بشرط التفريد، وخلوص النية ألهمه الحق خصائص الخطاب، وأخبره بما يكون قبل أن يكون، و﴿ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ محل لزوم المراقبين فيه لأجل تعرض السر نفحات أسرار الحق، وبروز نور التوحيد، وكشف جمال مشاهدة الحضرة، و﴿ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ محل الأنس، وتصفية السر، وذم الجوارح، وإشراق اليقين، وسبب الزلفة، ووجدان حلاوة العبادة، واسترواح الروح من أداء صحبة الخلق بوجدان صحبة الحق، و﴿ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ فقر العباد، وملجأ الزهاد، ومعصم المتوكلين، ومجلس المشتاقين، ومسند الراضين، وبستان المحبين، وسرور المريدين، ورياض العاشقين، وكعبة المستأنسين، وحرم المؤمنين، وفوز التائبين، وقيد الموحدين، وستر الشطّاحين إذا أراد الله أن يستر أحدًا من خاصة معرفته ألجاه إليه ليكون له مقويًا في مقاصده من الله.

وقال ابن عطاء: ما فتح الله على عبد من عبيده حالة سنية إلا بأتباع الأوامر وإخلاص

الطاعات، ولزوم المحاريب.

وقال الواسطي: هو قائم بربه يصلي سره بمحاربة نفسه وهواه.

وقال أبو عثمان: ﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾ باب كل بر، وموضع الإجابة، واستفتاح الطريق الانبساط، والمناجاة والإعراض عن المحراب سبب إغلاق الباب دونك.

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ وقيل: ملازمة الخدمة يورثك آداب الخدمة، وآداب الخدمة يورثك منازل القربة، ومنازل القربة تورثكم حلاوة الأنس ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ يسمى يحيى؛ لأنَّ من نظر إليه يرى مشاهدة الحق في جمال نبوته، فيحيي قلبه من موت الفترة.

وقيل: إنه حيا به عقر أمه.

وقيل: إنه سبب حياة من آمن بقلبه ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ السيد الذي قد غلب عليه نور هيبة عزة الحق جل وعلا، والحصور الذي عصم عن جميع الشهوات بعصمة الأزلية، وأيضًا السيد الذي خلعه نور الأنانية، وكساه لباس الفردانية، وتوجه بتيجان البهاء حتى يستحق أن يستحيي منه جميع الخلق، ويضعوا تحت أمره ونهيه أعناق الجبرية، والحصور المقدس عن شوائب التقليد، وعن الالتفات إلى الكونين، وقيل: ﴿وَسَيِّدًا﴾؛ لأنه لم يطلب لنفسه مقاما ولا شاهدا لنفسه قدرًا.

وقال جعفر بن محمد: السيد الذي عرف ربه وأنكر ما دونه، والحصور الذي يملك ولا يملك، والسيد الذي يألف ولا يؤلف، والحصور الذي لا يعرف سوى الله.

وقال: السيد الذي ساد أهل زمانه بأخلاقه، والحصور الذي حصر ماءه عن النساء وسمي يحيى حصورًا؛ لأنه قرع في قلبه تلك العظمة، فخذ فيه ماء الشهوات، وصار حصورًا ومحصورًا.

وقال ابن عطاء: السيد المتحقق بحقيقة الحق، والحصور المنزه عن الأكوان وما فيها.

وقال جعفر: السيد المباثن عن الخلق وصفًا وحالًا وخلقًا.

وقال النصر آبادي: السيد من صحح نسبته مع الحق، فاستوجب به ميراث نسبته.

وقال الجنيد: السيد الذي جاد بالكونين عوضًا عن ربه.

وقال محمد بن علي: السيد من استوت أحواله عند المنع والعطاء.

وقال ابن منصور: السيد من خلى من أوصاف البشرية، وأظهر بنعوت الربوبية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ لما وعد الله تعالى نبيه ﷺ يحيى طلب من الله تعالى علامة وقت ظهوره، ولا يشك في وعد الله لكن غرضه طمأنينة قلبه ليتهيأ أسباب

الأدب لزمان ظهور موهبة الله استقبالاً إلى الله بشكر نعمته ليدوم عليه مواهب الإلهية ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ حصر لسان نبيه ﷺ عن المكالمة والمحادثة مع غير الله ليتجرد سره وحاله عن ازدحام الخلق وذكرهم، والأدب فيه أن من يطلب من الله تعالى شيئًا من معاني الغيب ورؤية معجزته وكرامته لا يتحرك لسانه بالفضولات، وقلبه لا يخطر به من طوارقات الوسواس حتى يكون ظاهره وباطنه مشغولاً بالحق لأن التفرق إذا وقع في الظاهر يتشوش به الباطن، وأجاز له الرمز ليدفع به ضيق قلبه، ومن دخل عليه من أهله، والرمز من الأنبياء للأولياء، والرمز من الأولياء الخاصة المريدين، وحقيقة الرمز من تمريض السر إلى السر وإظهار التفرس إلى التفرس وإعلام الخاطر إلى الخاطر بنعت تحريك سلسلة المواصلة بين المخاطب والمخاطب ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ الذكر الكثير هاهنا تخليص النية عن الخطرات وجمع الهموم بنعت تصفية السر في المناجاة، وتحير الروح في المشاهدات، أدَّب الله أهل محبته وإرادته بما أخبر عن معجزة زكريا واستجابة دعوته حتى إذا أرادوا كشف الغيب واستجابة الدعوة اعتزلوا عن الخلق، وعن محادثتهم وتركوا ما لا يعينهم وقطعوا لسانهم بمقاريض الصمت، وجعلوه رطبًا بذكر الله في أيام مناجاتهم التي أرادوا فيها كشف المقصودة .

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ
أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا
كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ
ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ
ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ
فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى

حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ بإلقاء كلمته فيك، وأيضًا أصطفيك برؤية الملائكة والخطاب معهم.

وأيضًا أصطفيك بالكرامات والآيات حتى يأتي الملائكة يرزقك من الجنة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: من لمس البشر وأيضًا من دنس الخليقة.

وأيضًا أي: طهر سرك عن الالتفات من الله إلى كفالة زكريا ﷺ ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ اصطفاء الأول: رفع المنزلة، واصطفاء الثاني: حقيقة العصمة بإشارته على نساء العالمين.

قال الأستاذ: فائدة تكرار الاصطفاء، الأول: أصطفيك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة، والثاني: أصطفيك؛ لأنك حملت بعيسى ﷺ من غير أب ﴿يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ أي: استقيمي في طاعة مولاك ﴿وَٱسْجُدِى﴾ أي: كوني في السجود خالصة عن غيري ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: تقربي إليّ بتواضعك مع المتواضعين من أوليائي وأنبيائي وخواص أهل محبتي لتنال بركات الجمع؛ لأن صحبة الأولياء استحكام في العبودية، وتخليص عن رق البشرية ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ بشرها حتى رسخت في تحمل إيذاء اللائمين، وعرفت منزلتها حتى لا يسقط عن درجة اليقين بحديث العالمين ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في الدنيا ملتبسًا بأنوار الربوبية، وفي الآخرة ملتبسًا بجمال المشاهدة ألبسه الله خلعة الهيبة، ليكون عظيمًا في أعين الناظرين من الفريقين المؤمنين والكافرين ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ تكلم الناس في المهد ليكون شاهدًا على نبوته ورسالته وطهارة أمه، وكهلاً عن انبساطه، وحالة اتحاده، فالأولى من النبوة، والآخر من الأنانية، وفعله شاهد قوله بأحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، في بدايته كان ملتبسًا بلسان العبودية، في نهايته كان ملتبسًا بصفات الربوبية.

وقيل: يكلم الناس في المهد معجزة له، وكهلاً داعيًا ربه.

وقيل: يكلم الناس في المهد صبيًا، وعند نزوله من السماء كهلاً؛ ليكون على طرفي كلامه معجزة.

قال الواسطي: يكلم الناس في المهد ردًا لقول المخالفين إنه نطق في حال يعجز من كان مثله عن ذلك، وإذا كان كهلاً ليس فيه بطش الشباب لا ضعف الشيوخ ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ انسلخ من أوصاف الحدوثية، واتصف بصفات الربوبية فأظهر منه الحق جل عن الأهل والولد والحلول والمكان والجمعية والاختلاط مع الخليقة حقائق القدرة ليس لي في هذه الآية كلام أجل من ذلك مع أن أهل المعرفة قد سبقوني في هذا المعنى، ولا بدّ لي من أن أتكلم فيه بشيء من عبارتي ما دام شرعت في تفسير القرآن.

وقيل: من اشتد عليه الصفات الربوبية، وغاب عن أوصاف الحدث حتى بنفسه وأحيى به كل شيء، وأبطل بهذه الآية دعاوي من ادعى إظهار معجزة عليه به دون ربه، والله قادر على الإعجاز في جميع الأوقات يظهرها على من يشاء، فالإعجاز الله والسبب مظهر عليهم ذلك في الهياكل والصور ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عاينوا بأبصار القلوب حقائق الغيوب، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾.

قال ابن عطاء: ﴿ءَامَنَّا﴾ بما نورت به قلوب أصفياك من علوم غيبك، ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ فيما أظهر من سنن أوامرك، ونواهيك رجاءً أن يوصلنا اتباعه إلى محبتك ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مع من يشهدك ولا يشهد معك سواك ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ سقطوا عن مشاهدة سابق الحق فاحتالوا مع أهل الولاية بتدبير النفس فكان مكرهم مكر الحق عليهم، وهم لا يعلمون أنهم مخدعون.

قال محمد بن علي: مكروا أنفسهم فحسن مكر الله عندهم، وكان في الحقيقة الماكر بهم لتزيينه ذلك عندهم ألا تراه يقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨].

سُئل بعض أهل الحقيقة: كيف تنسب المكر إلى الله؟ فصاح وقال: لا علة لصنعه وأنشد:

ويقبح من سواك الفعل عندي ... وتفعله فيحسن منك ذاك
فديتك قد جبلت على هواكا ... فنفسي لا تنازعني سواك
أحبك لا ببعضي بل بكلي ... وإن لم يبق حبك لي حراكا

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾ إن الله تعالى نفخ في صورة عيسى روحًا قدسيًا ورباها فيها بأنوار النبوة والعبودية، وتجلي المشاهدة، فإذا كمل في مقامات المصطفى من صفوة أنبيائه وأوليائه، قال: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ على عن رسم الحدوثية ﴿وَرَافِعُكَ﴾ إليّ بنعت الربوبية، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ عن شوائب البشرية.

قال الواسطي: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ عنك، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ من إرادتك وهواك: وذلك لإظهار نعوت الأزلية عليه(١).

---

(١) قال التستري (١/ ٤٥٥): فإنه إذا مات فينزع عنه لطيف نفس الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيف الذي به يعقل الأشياء ويرى الرؤيا في الملكوت، وإذا نام نزع عنه لطيف نفس الطبع الكثيف لا لطيف نفس الروح النوري ، فيستفيق النائم نفساً لطيفاً، وهو من لطيف نفس الروح الذي إذا زايله لم تكن له حركة، وكان ميتاً. ولنفس طبع الكثيف لطيفة، ولنفس الروح لطيفة، فحياة لطيف نفس الطبع بنور لطيف نفس الروح ، وحياة روح لطيف نفس الروح بالذكر ، كما قال: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] أي يرزقون الذكر بما نالوا من لطيف نفس النوري، وحياة الطبع الكثيف بالأكل والشرب والتمتع، فمن لم يحسن الإصلاح بين هذين الضدين، أعني نفس الطبع ونفس الروح حتى يكون عيشهما جميعاً بالذكر والسعي بالذكر ، فليس بعارف في الحقيقة. وقال عمر بن واصل: وكان المبرد النحوي يقول: الروح والنفس شيئان متصلان لا يقوم أحدهما بدون الآخر. قال: فذكرت ذلك لسهل ، فقال: أخطأ، إن الروح يقوم بلطفه في ذاته بغير نفس الطبع الكثيف، ألا ترى أن الله تعالى خاطب الكل من الذر بنفس روح وفهم عقل وفطنة قلب وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف.

قال بعضهم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ عن حظوظك، ورافع شخصك إليّ، ومطهر سرك من مطالعة الأغيار والأعواض بالكلية، ومما سمح لي في هذه بالبديهة بعد ذكر المشايخ رضوان الله عليهم، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ غيرةً حتى لا ينظر إليك بنعت المحبة غيري، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ بنعت العشق، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ من التفاتك إلى الملكوت؛ لأن من شرط اتحاد الحبيب بالمحبوب ألا يدخل بينهما من الحدثان، فإذا كان العارف بلغ مقام صرف التوحيد يتشعشع نور جمال الحق من وجوده فسجد له الكون، ومن فيه بالظاهر طوعًا وكرهًا؛ لأن من رأى حسن جلال الحق بالواسطة، ولم يبلغ حقيقة تحقيق المعرفة يصير مشبهيًّا بوقوعه في الوسائط لأجل ذلك رفع روحه إليه حتى يستقيم نظام الشريعة ولم ينسخ أحكام السنة ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ خلق الله الأرواح القدسية من معادن الربوبية، وجللها بنور المشاهدة فصارت تلك الجواهر من أصل واحد، وإن كان تتفاوت في المقامات وصورة البشريات فروح آدم من الملكوت خلق، وجميع ذريته من الأنبياء والصديقين معها، فذكر الله تعالى ما صنع بروح آدم من تخصيصها بالقربة والكرامة والمشاهدة والعلم والمكاشفة والتفريد والتوحيد فذكر أن روح عيسى في منازل القربات مثل روح آدم بما ذكر من تخصيصها، فقال لآدم ﷺ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢] ومثل هذا قال لعيسى ﷺ لكن شرف آدم ﷺ بإضافة خلق صورته إلى نفسه فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وأنه أسجد له ملائكته تخصيصًا أو تشريفًا من جميع الخلق لهذه المنزلة، وقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ دفعًا لتهمة الجهلة حتى لا يظنون قدحًا في الربوبية.

قال الأستاذ: حضهما بتطهر الروح عن التناسخ في الأصلاب، وأفرد آدم بصنعة اليد وعيسى بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز، وهما وإن كانا كبيري الشأن فنقض الحدثان والمخلوقية لازم لهما، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ طيب الله تعالى هذا قلب نبيه ﷺ أي: كما كنت قادرًا بخلق آدم وعيسى بكلمتي وقوة سلطاني فأعطيتك بما وعدتك من كمال دينك وشريعتك وتمام نعمة المعرفة عليك وعلى متبعيك فلا تكن ملهوفًا من خطرات نفسك.

قال بعضهم: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ألا يظهر شيئًا من المكونات إلا من تحت ذل ﴿كُن﴾ فلا تَشُكَّنَّ فإنه منفرد بأسمائه وصفاته لا ينازعه في صفاته أحد من عبيده وخلقه.

وقال الأستاذ: الحق من ربك يا محمد فلا تَشُكَّنَّ في أنه لا يماثله في الإيجاد واحد، ولا على إثبات سببه لمخلوق قدرة فالموجودات التي حقت بوجودها عن كتم العدم من الله عز

وجل بدؤها وإليه عودها.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من آذاك بالحجة الباطلة من المدعين الكاذبين فادع عليهم دعوة الحلم والانبساط ليهلكوا جميعًا بدعوتك لأني خصصتك من بين الأنبياء بمقام المحمود واستجابة الدعوة في السجود.

قال جعفر الصادق: هذه إشارة في إظهار المدعين لأهل الحقائق لتفتضحوا في دعواهم عند أنوار التحقيق وبطلان ظلمات الدعاوي الكاذبة.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هو إفراد القدم من الحدوث وإظهار الحق بنعت العبودية، والخروج من رسم دعاوي البشرية، ودفع النفس عن الالتفات إلى الأكوان والتجلي بمحبة الرحمن.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي: لا نتبع الهوى والدنيا وشهوتها، ولا نلتفت بنعت الرياء والسمعة إلى غير الحق.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لا يفرح بالمدح والتزكية والعطاء والخدمة والرئاسة التي يتوقع بعضنا من بعض، والإشارة فيه أنه أعلم الحق عباده بتجرد قلوبهم عما سواه.

وقال الواسطي في قوله: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ قال: هو إظهار العبودية عند ملاحظة الصمدية.

وقال ابن عطاء: هو تحقيق التوحيد.

وقال أبو عثمان: في قوله ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ قال: أعلمك طريق التعبد في هذه الآية، وهو ألا تطالع بسرك عند اشتغالك بالعبادة سوى معبودك، ولا تفرغ في أمر من أمورك إلى غيره فتتخذ بذلك ربًّا.

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ ما كان الخليل ﷺ متعلقًا بالتشبيه مثل اليهود، ولا بالثنوية مثل النصارى، ولكن كان حنيفًا مائلاً عن الكون برؤية المكون، مسلمًا منقادًا عند جريان قضائه وقدره لإرادته.

وقال الأستاذ: الحنيف: المستقيم على الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أن أولى الناس بالخليل ﷺ للذين اتبعوه بشرط التجرد عن الكونين والعالمين ومنع النفوس عن حظوظ أشكال الملكوت؛ لأن الخليل إذا بلغ مبلغ رجال القدس زاغ بصره عن عرائس الملكوت، فقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[الأنعام:٧٨،٧٩] وهذا النبي يعني محمد ﷺ أولى بمتابعة أبيه خليل الله؛ لأنه زبدة مخاض محبته، وخلاصة حقيقة فطرته، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أيقنوا وشاهدوا معاينات الآخرة، ومنازل الأبرار السفرة، والله ولي المؤمنين حافظهم عن آفات القهريات، وأدخلهم في قباب العصمة والكرامات.

قال جعفر الصادق: الذين اتبعوه في شرائعهم ومناسكهم، وهذا النبي لقرب حال إبراهيم من حال النبي ﷺ وشريعته من شريعته، دون سائر الأنبياء وسائر الشرائع، والذين آمنوا لقرب حالهم من حال إبراهيم ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في تشريفهم إلى بلوغ مقام الخليل ﷺ إذ القرب منه في درجة المحبة بقوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤].

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ

عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لا تصبحوا إلا أهاليكم من العارفين والربانيين الذين لا يظهرون أحوالهم عند أهل الدنيا بالرياء والسمعة ولا يغالطون الناس في معاني أهل الحقيقة فيقعون فيهم بالوقيعة والإنكار ويقصدون سفك دمائهم.

وقال بعضهم: لا تعاشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم.

وقال المرتعش: لا تفشوا أسرار الحق إلا إلى أهله.

وقال أبو بكر بن طاهر: لا تصدقوا ظهور كرامات الله على ما لم تتبينوا ولايته ورياضته ومحافظته على ظاهر الشريعة.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ الرحمة هاهنا: النبوة والولاية يختص بها من يشاء من صفوة خلقه؛ لأن سبق عنايته قبل وجود المجاهد والمجاهدة والشواهد والبراهين والكون والعلل فمن أشرقه نور المشاهدة وملأ سمع سره من خصائص الخطاب، وسكرت روحه من شراب الوصلة، فأنى له النظر إلى نفسه ومعاملته ومجاهدته؛ لأن من النقص صار مرادًا وإن ذل، ومحبوبًا وإن اعتد، والاختصاص الأصلي يقع على ثلاثة أحوال: الأول: هو مكاشفة غيب الملكوت، والثاني: يقع على مشاهدة الجبروت، والثالث: يقع على مدارج المعرفة والتوحيد، وهو أعلى وأجل؛ لأن فيهما السكر والبسط والصحو والانبساط والإيجاب والأنانية والفردانية والحرية والاتصاف بالربوبية، ولهذه أصل حقائق التمكين وتحقيق التوحيد.

وقال أبو عثمان: أمهل القول ليبقى معه رجاء الراجي وخوف الخائف.

وقال بعضهم: أزال العلل في العطايا والنفوس عن ملاحظات المجاهدات فاقطعهم عن الشواهد والموارد.

وقال سهل: مَن نال الهداية والقربة نالها بربه لا بنفسه.

وقال الواسطي: ارتفعت العلل في العطايا وفيها أظهر من النعوت والخفايا، وفتر النفوس عن مطالعات المجاهدات، وكيف يتوسل المتوحد بالوسائل من أعمال البر بعد قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [1] وأيقن بأن ليس إليه طريق بالشواهد والموارد والعوائق.

---

(١) يقال خصه بالشيء واختصه به إذا أفرده به دون غيره ومفعول من يشاء محذوف، والرحمة النبوة والوحي والحكمة والنصرة. والمعنى يفرد برحمته من يشاء إنراده بها ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتي =

وقال ابن عطاء: أنبأ ألا طريق إليه بالعوائد والفوائد.

وقال الواسطي: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أن يكون بحيث كنت بلا أنت، ويكون القائم هو لك بذاته ونعته.

وقال أيضًا: من تجلى له بأحوال ليس كمن تجلى له بحالة واحدة كذلك ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

وقال أيضًا: لما أن شاهدوا البرهان وعاينوا الفرقان، فزعوا من صفاتهم إلى صفاته ومن فعلهم إلى فعله، فسكنوا إلى ما سبق حسناه؛ حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء:١١].

وقال أبو سعيد الخرَّاز: إن الرحمة هاهنا فهم معاني السماع بالسمع الحقيقي، وهو الذي خص به الحق خواص السادة من عباده.

وقال الفارس: هو الهداية والخدمة والمشاهدة والولاية والنبوة والرسالة، ولولا أنه خصهم بما خصهم به ما ظهر عليهم من آثار الموافقة شيء.

قال أبو سعيد الخرَّاز: اختص الله من عباده خواصًا جعلهم أهل ولايته، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فطُوبَى لهذا العبد الضعيف، ما حباه به سيده من هذه الدرجة العظيمة.

وسُئل ابن عطاء: ما الذي فتر العابدين عن عبادتهم؟ قال قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

وقال بعضهم: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بمعرفة نِعَمِه عليه، والقيام بشكرها.

وقال الأستاذ: أي: بنعمته من يشاء، فقوم اختصهم بنعمة الأرزاق، وقوم اختصهم بنعمة الأخلاق، وقوم اختصهم بنعمة العبادة، وآخرين بنعمة الإرادة، وآخرين بتوفيق الظاهر، وآخرين بتحقيق السرائر، وآخرين بعطاء الإيثار، وآخرين بلقاء الأسرار.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤].

=

الفائض عليه بحسب إرادته عز وجل لا تتعداه إلى غيره لا يجب عليه شيء وليس لأحد عليه حق وما وقع في عبارة مشايخنا في حق بعض الأشياء أنه واجب في الحكمة يعنون به أنه ثابت متحقق لا محالة في الوجود لا يتصور ألا يكون لا أنه يجب ذلك بإيجاب موجب.

وقيل: لما سمعوا قوله سبحانه: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ علموا أن الوسائل ليس بها شيء، وأن الأمر بالابتداء والمشيئة.

وقيل: يختص برحمته من يشاء بالفهم عنه فيما يكاشفه به من الأسرار، ويلقيه من فنون التعريفات.

﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ العهد ثلاثة: عهد الأزل بنعت الكشف للأرواح في أحانين بقلب القلب في سره في أوصاف الربوبية مع الأسرار، وهو إلقاء مخاطبة الحق بها وافق توفيق المعارف في خصائص العبودية، وعهد الله بعد تمكين العارف وكونه عارفًا بالله مع عقله بوسائط الكتاب والسنة لكون الأدب منه في جميع عمره فمن وافى روحه عهد الأزل فاز من دركات الشرك، وبلغ سر التوحيد، ومن وافى قلبه إلهام الخاص بإلقاء سمع الخاص وسكونه في جريان الحكم فقد بلغ عين حقيقة الرضا وخلص من درك الفناء، ومن وافى عقله أوامر الحق بالوسائل في ظاهره وباطنه فقد بلغ حسن الأدب في مقام العبودية ويكون مرشد للمريدين، وقائد للعارفين قوله: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: من اتقى خطرات النفوس وطوارق الشهوات فإن الله يبلغه مقام حقيقة المحبة.

قال الأستاذ: صاحب الوفاء للوصلة مستوجب، وللتكريم أهل، وللرحمة مستحق، وصاحب الخطأ ممقوت وللهوان أهل، وللخجلة معترض، والوفاء بالعهد الكون معه بقطع ما سواه.

قال جعفر: من أوفى بالعهد الجاري عليه في الميثاق الأول، وأبقى وطهر ذلك العهد وذلك الميثاق من تدنسه بباطل، لذلك قال النبي ﷺ: « أصدق كلمة تكلمت بها العرب كلمة

لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1].

ومن وافى بالعهد سُمي محبًا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من مال إلى حضرة الدنيا وأثرها على رؤية مشاهدة حضرة الحق، وزين ظاهره بعبادة المقربين، ويبيعها بحظ الرياسة، فقد سقط عن رؤية اللقاء مخاطبة الحق في الدنيا والآخرة.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي: ليس من يختص بقربة الحق وكشف مشاهدته أن يلتفت سره إلى رياسة الخلق وحرمتهم له، وأن يرى لنفسه قيمة عند إجلال عظمة الحق؛ لأن من بلغ تحقيق التوحيد لا يرى لنفسه وزنًا عندما يبدو من تجلي عظمة الحق، ويكون خجلاً على الدوام بين يدي الرحمن من وجوده عند وجود الحق، ويريد فناء وجوده استحياءً من ربه تعالى، ولكن ما رأى نعم الله تعالى من كشف جماله وقرب وصاله، وتعرفه بالجلال والعز والكبرياء والعظمة والقهر واللطف أشفق على الخلق، ويدعوهم إلى عبادته وطالب مرضاته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾، ومعنى كونوا ربانيين أمر من الحق تعالى لأنبيائه وأوليائه أي: كونوا موصوفين بصفته كما قال رسول الله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الرحمن»[2]، وهذا وصف من كساه الله سنا قدس جمال الأزلي، وجلال الأبدي قبل كون طينة البشر، فكان منورًا بنور صبح القدم، إذ الأشباح والأجسام في العدم، فإذا سكن الأرواح في ظلم الهياكل خاطبهم الانبساط، فقال: لا تنسبوا إلى الماء والطين، ولكن انتسبوا إلى الحق بنعت المحبة والمكاشفة والمشاهدة والاتصاف بصفقاته، والتربية في حجر وصاله، وكونهم بأفعاله الخاصة بالذاتية القدمية، وليس هؤلاء كمن كان كونه بالأمر؛ لأن الأمر للعوام، والفعل للخواص، مع أن الحق جلَّ من الأشكال والأشباه، والخيال والأوهام والأفهام، والجزء والكل، والتبعيض والصور، والأزمان والمكان، تعالى كبرياؤه وجلَّت صفاته، قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: لكم خاصة علم اللدني، وعلم الكتاب والسنة والشريعة، بها يلزم عليكم الخروج عن رسم الإنسانية ،وأوصاف البشرية.

وقال جعفر الصادق: في قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ قال: مستمعين بسمع القلوب، وناظرين بأعين الغيوب.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٨)، ومسلم (٢٢٥٦).

(٢) ذكره المناوي في «التعاريف» (١/ ٥٦٤).

وقيل: ﴿كُونُوا رَبَّنِيِّـنَ﴾ علمًا والله حلمًا عن عباده.

وقال ابن عطاء: عاينوا أول تربيتكم تتخلصوا من هذه الآفات كلها، وقال أيضا: أخرجهم بهذا الخطاب عمَّا خاطبهم به من العبودية.

قال الواسطي: عاينوا أوقات تربيتكم وتقديركم قبل آدم ﷺ، ومحمد ﷺ، فالانتساب إلى آدم ﷺ، والافتخار بمحمد ﷺ ليس بالافتخار ممن قدَّسك في الأزل.

وقال أيضا: قال :كونوا كأبي بكر إذا أورد عليه قوادح الأمور لا يؤثر على سره حين قال النبي ﷺ يوم بدر: «دع بعض مناشدتك ربك؛ فإنه ينجز لك ما وعدك»[1].

وقال أيضًا: في هذه الآية أمر إبراهيم ﷺ بالاستسلام، وأمر محمد ﷺ بالعلم: فقال: فاعلم والاستسلام إظهار العبودية، والعلم به التوسل إلى الأزلية والأبدية، لذلك خاطبهم فقال: ﴿كُونُوا رَبَّنِيِّـنَ﴾، وأيضًا قال: ﴿كُونُوا رَبَّنِيِّـنَ﴾ جذبهم بهذا من الافتخار بالطين إلى الافتخار بالحق.

قال الجنيد: أخرجهم من الكون جملة، وجذبهم إلى الحق إشارة، فإذا أردت أن تعرف مقامات الخلق، وبواطنهم في الحقيقة، فانظر إلى تصرف أخلاقهم تجد كل واحد قائمًا في أشخاصه، استقطعه ما وافق سريرته، فانظر بما ربطت القلوب، فيشهد سرائرهم؛ لأنهم أخذوا من المصادر الأول، فمَنْ لم يستقطعه إلا إسبال أنواره والحياء فيما ورد عليه، أيقن كيفية باطنه على الحقيقة تنازعه في ربوبيته، وتمر عليه في عبودية وأنت لا تشعر، وقال بعض العرافين: أخرجهم من آدم ﷺ وتراهم منه كي ينسوا العبودية والافتخار بالماء والطين.

وقال الشبلي: أخرجهم عما خاطبهم به من العبودية، فمن استحق العلم به استحق علم الربانية، والرباني الذي لا يأخذ العلوم إلا من الرب، ولا يرجع في بيانه إلا إلى الرب جلَّ وعلا.

وقال الواسطي في هذه الآية: ﴿كُونُوا رَبَّنِيِّـنَ﴾؛ لأن تكون ابن الأزل والأبد خير لك وأحسن بك من أن تكون ابن الماء والطين والأفعال والإحصاء والعدد.

وقال سهل: الرباني هو العالم بالله والعالم بأمر الله، والمكاشف له من العلوم اللدني ما غاب عن غيره، وقال أيضًا: الرباني الذي لا يختار على ربه حالا.

وقال الجريري : ﴿كُونُوا رَبَّنِيِّـنَ﴾ أي: سامعين من الله ناطقين بالله.

وقال فضل بن العباس الشكلي: قال كونوا كأبي بكر الصديق؛ فإنه لما مات محمد ﷺ

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٣٨٤)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٠)، والترمذي (٥/ ٢٦٩).

اضطربت الأسرار كلها لموته، ولم يؤثر ذلك في سر أبي بكر، فقال: «من كان منكم يعبد محمدًا؛ فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإنَّ الله حي لا يموت»[(١)].

وقال القاسم: كونوا ربانيين متخلقين بأخلاق الحق علماء وحلماء.

وقال بعضهم: الرباني بحقه من نسي نفسه في نسيانه، فنسي أوقاته بأوقاته، ونسي أجاله وأرزاقه بصفاته، فصفاته جذبته إلى ذاته، وذاته ملكه عن صفاته.

وقيل: الرباني من ارتفع عنه ظل نفسه، وعاش في كون ظله.

وقيل: الرباني الذي هو محق في وجوده، ومحو عن شهوده، فالقائم عنه غيره، والمحوي لما عليه سواه.

وقيل: الرباني الذي لا يؤثر فيه تصاريف الأقدام على اختلافها.

وقيل: الرباني الذي لا تستقره محنة ولا يهزه نعمة فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق.

وقيل: الرباني الذي لا يتأثر بورود وارد عليه، فمَنْ استعطفه رقة قلب أو استمالة هجوم أمرًا، وتفاوت عنده أخطار حادث فليس برباني.

وقيل: الرباني الذي لا يبالي بشيء من الحوادث بقوله وسره، وإن كان لا يقصر في شيء من الشرع بفعله.

وقيل: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ من توالي إحساني إليكم، وتضاعف نعمتي لديكم.

وقيل: بما كنتم تعلمون الكتب وبما كنتم تدرسون من آلائي ونعمائي، وما توليتم من أموركم.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ ولا يمنّون عليكم بتعليمهم إياكم أن تزكُّوهم وتطردوهم، ولا تلتفتون بأسرارهم إلى تمكينهم ودرجاتهم، ويعلمون أنهم في ديوان الألوهية والربوبية كل شيء في كل شيء، ولا ترون الكون مع ما فيه ومن فيه في جنب عظمة الله تعالى، إلا كذَرة في السموات والأرض، ولا تتعرضون بأمور أنفسهم في أمر الله تعالى، ويعلمون أن أمر الحق غالب على جميع الأمور، فإنهم مأمورون كجميع الخلائق: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: لا يأتون على الخلق إلا لتهذيب أسرارهم عن الأكوان والحَدثان في خالص عبودية الرحمن، ويخبرونهم عن أسرار الحقيقة، وأنوار الشريعة، وعن وحدانية الله وقدس طبقاته وعز بقاء وجهه وجماله، ويأمركم التمسك بحبل

---

(١) رواه البخاري (١١٨٥)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٥٨٩).

الله المتين، وصرف الإيمان بنعت اليقين.

وقال ابن عطاء موضعًا للملاحظات: وليس بأيديهم من النفع والضر شيء فكيف لمن دونهم.

وقال الواسطي: في هذه الآية لا تخطرون بأسراركم تغطيهم ولا الكفر في معانيهم واعلموا إنما هي ربوبية تولدت عبودية.

وقال ابن عطاء: إياك أن تلاحظ مخلوقًا وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا، قال الله تعالى ولا يأمركم الآية.

وقال الواسطي: في هذه الآية محلًا للمخاطبات، وموضعا للمعاملات، أيأمركم بالكفر بعد إذ انتم مسلمون أيأمركم بالاحتجاب عن الحق بعد معاينة الحق، أو بالانقطاع عن الحق بمواصلة غيره.

وقيل: يأمركم بالتوسل إلى من لا وسيلة له إلا بالحق.

وقيل: أيأمركم بمطالعة الأشكال ونسبة الحدثان إلى الأمثال، بعد أن لاح في أسراركم أنوار التوحيد، وطلعت في قلوبكم شموس التفريد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أخذ الله ميثاق خصائص خطاب علم المجهول الذي بنا عن حقائق أسرار الربوبية مع النبيين والصديقين بواسطة إلهام الملك، وغير واسطة منفردًا عن نطق المخلوقات، بل الحق منفرد بإنزاله، وإظهار أنواره في عيون أرواحهم، ليصدقوا به ويعرفون أنه من عند الله وينصرونه باليقين والمعاملة؛ وهذا من رموز الكتاب، وأما ظاهر الكتاب، فإنَّ الله تعالى أراد أن يري الأنبياء والأصفياء من الأولين والآخرين شرائف مقامات حبيبه، تخصيص على جمهورهم ليؤمنوا به ويعرفونه؛ لأنَّ مَنْ عرفه فقد عرف الحق، ومن أمن به ودخل في دائرة المحبة وحقيقة القربة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقال ﷺ: «من

عرفني؛ فقد عرف الحق[1]؛ لأن عليه كسوة الربوبية، ويبرز من جمال وجهه نور جمال مشاهدة الحق، والإشارة في ميثاق الحق مع الأنبياء الحبيبة، لئلا يغيروه؛ لأن العشاق يغير بعضهم بعضًا، والغيرة من لوازم العشق، وأنها من صفة الحق سبحانه من تهمة البشر، وانظر شأن موسى عليه السلام وغيرته على سيد الأنبياء محمد ﷺ، ومقصود الحق من الميثاق صون أسرار أنبيائه عن صفات البشرية ﴿فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يحذرهم من اطلاعه عليهم في نصرة حبيبه والإيمان به، وهذا غاية تشريف نبينا ﷺ من بين سائر الأنبياء - عليهم السلام.

ثم بيَّن أن من حمد سره عن محبته، وزاغ قلبه عن نور سنته، ومال ظاهره عن طريقته وشريعته بعد ظهور معجزته وظهور كراماته سقط عن مقامات المرسلين والنبيين، وتشمر عن شوق التهديد لهم بهذا، فقال: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وقال فارس: أخذ عهد حبيبه ﷺ على من كان قبله من الأنبياء بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ﴾ فأي شرف أشرف من أخذ الله عهده على من كان قبله، ثم أمرهم بالشهادة له بالعهد، وضمن أن يكون هو مع الشاهدين معهم، والشاهدين عليهم، وإنَّما فعل ذلك لئلا يبقي أحدًا ممن تقدم وتأخر إلا، وعليه حجة من الله في إرساله رسوله محمد ﷺ والإيمان به، ولا يبقي لأحد بعد ذلك حجة في مخالفته.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أي: أن أصل جميع المراد في طاعتي، فمن أين يطلبون صفاء العيش، وفي أكناف قربي لذائذ أنس العارفين، وفي ألطاف وصلي حلاوة مشاهدة القدس للموحدين، وفي أطراف سبل عنايتي نجاح الكرامات للصدِّيقين، ومَنْ تمسك بحبال أمال نفسه فهو عن عين عبوديتي منحرف، ومن زاغ عن عبادتي فهو عن مشاهدة وحدانيتي وفردانيتي منعزل، ومن عزل عن مشاهدة العبودية ورؤية الربوبية فهو من جملة المبطلين المستدعين الذين تصرفون في غيابات جب الهوى، ويهيمون في أودية العنا والجفا

---

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٥/ ١٠٠).

ومن طالع غير حقائق الإلوهية والأزلية، فقد وقع في سراب الضلال، ويتردد في أغلوطات الشياطين، فإذا نزل، نزل في فقر العناء، وإذا سار، سار في مغاليط النفس وغباء غبار البلاء.

وقال الواسطي: من تمسَّك بغير الوحدانية بل بغير الواحد، فهو بعيد من عين الحقيقة.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إذا أظهر نفسه عن كبريائه في مرآة الكون بنعت الجبروت انقاد له جميع الأنام قهرًا وجبرًا؛ لأنه يقتضي ظهور سلطان الوحدانية، ووقوع الهيبة والإجلال في وجوه الخلائق بالأفعال ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أسلم له العارفون ببذل الأرواح ﴿طَوْعًا﴾ لما عاينوه بحسن جمال القدم وأسلم الجاهلون له ببذل النفوس ﴿وَكَرْهًا﴾ لما رأوا من عظم قهره في إظهار سلطنته وقهاريته، وأيضًا سخَّر بعضهم بكشف جماله، فأسلموا من مشقهم على مشاهدته طوعا، وأعجز بعضهم برؤيتهم عظمته في لباس فعله وصنعه، فأسلموا من هيبته عند انكشاف نور كبريائه عن الآفاق كرهًا، فأكرم قومًا بإسبال أنوار التجلي على أسرارهم، حتى يكونوا في جريان قضائه وقدره بالطوع منقادين وأذَّل قومًا بإرسال هيبة القهر على ظاهرهم فيكونون عند بروز سطوة جباريته بالكره مذللين.

وقال الحسين: أحدهم عن شهود مثواهم بخصائص الاطلاع عليهم، فمن طالع الذات أسلم طوعًا، ومن طالع الهيبة أسلم كرهًا.

قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: صدَّقنا بعد أن رأيناه بعيون الأسرار وحقائق الأنوار، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: «لم أعبد ربًا لم أراه»[1]، وأيضًا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه آمنًا بالله لا بجهدنا وسعينا.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ...﴾ الآية إن من شرط المحبة قبول ما جاء به رسل الحبيب من عند الحبيب، ولا فرق عنده بين المبشرين والمنذرين، إذا كان المحب صادقًا في حبه.

وافهم إن من غلب عليه محبة الله تعالى عاين بأبصار سره عالم الملكوت، ويرى غيب الحق من الجنة والنار والملائكة والأنبياء والأولياء والعرش والكرسي واللوح والقلم وأنوار الحضرة، فإذا انكشف هذه المغيبات له؛ فكيف لا يؤمن بها بعد رؤيتها، إذا أخبر الله أسرارها بلسان أنبيائه وأوليائه عليه، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ لحارثة، قال: «يا حارثة، لكلِّ حق حقيقة؛ فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون، وأهل النار في

---

(١) حديث ذكره بعض الصوفية في كتبهم.

النار يتعاوذون، فقال ﷺ: «عرفت فالزم»[1].

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: صدقنا وأقمنا على طريق الصدق معه؛ لأنه الذي كتب علينا الإيمان، وخصَّنا في علمه قبل أن أوجدنا، فنحن مؤمنون به بسابق فضله علينا.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي: من يروم مشاهدة الربوبية بغير العبودية لم يكشف له مقامات الصِّديقين والمقربين، وأيضا أصل جميع الحقائق ينوط بالإسلام والانقياد عند مراد الحق، والإشارة فيه أنَّ من لا يصبر في بلاء الحق، ويجزع عند نزول المصائب إلى غير الله لم يقبل منه شيء من المعاملات والمجاهدات.

وقيل: من توسل إليه من شيء دون الاعتصام، فخسرانه أكثر من ربحه.

وقال القاسم: من يأخذ غير الانقياد طريقا في القيد لم يصل إلى شيء من حقيقة العبودية.

وقال مجاهد: من لم يقيد أفعاله بالسنة لا يقبل منه عمل.

وقال سهل: في قوله ومَنْ يبتغ غير الإسلام دينًا أنه التفويض، ومن لم يفوض إلى مولاه جميع أموره لم يقبل منه شيء من أعماله ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ الآية أي: من فطراه الله على غير استعداد المعرفة وحكم عليه بالكفر في سابق الأزل لم يهده إلى مشاهدة الإيمان واليقين؛ لأنَّ الاستعداد من لوازم المعرفة، ومن لم يكن له استعداد الطريقة لم يقع في قلبه أنوار التجلي، ومَنْ خاض في بحر القهر، ولزم في قهر بعد البعد لم يكن له سبيل إلى حال

---

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٥/ ١٠٠).

قرب القرب.

قال الأستاذ: من عبده عن استحقاق الوصلة في سابق حكمه متى يقربه من بساط الخدمة بفضله في وقته.

وقيل: مَنْ أقصاه حكم الأزل، متى أدناه صدق العمل، والله غالب على أمره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ابتدأهم في حجاب المكر، وختم أحوالهم بالاستدراج: وهذا غاية انطرد والإبعاد عن بساط الوصال سوي أولهم وأخرهم، وردَّهم بعد كونهم في المعاملات إلى ما حكم عليهم في سابق علوم الأزليات، خالدين فيها لا سبيل لهم إلى معرفة وجود جلاله وكمال قدرته، فيزداد غيهم على غيهم، ولا يخرجون من طبقات الهجران والحرمان إلى مشاهدة الرحمن ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾هم الذين سبق لهم حسن الإيمان بمشيئة الأزل، ووقفوا بامتحانه في بحار الفتنة والشهوة، فأدركتهم أنوار عناية الأزلية، وأخلصتهم من أسجان النفوس، وأصفاد الشياطين، ونور عيون أسرارهم بكحل سناء العناية، حتى يروا خبائث أعمالهم، فتابوا منها وتركوها استحياءً من ربهم؛ حيث يروا منه السابقة التي سبقت لهم بنعت العناية والرعاية والكفاية والهداية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي: من كوشف له من مقامات الأول شيء وصدَّق به، وآمن بأحوالهم وكراماتهم، ثم كذَّبهم عن إيمانه بهم بسبب أو علة أو فراد من مجاهداتهم واجتهادهم وضيق رسومهم، ثم ازدادوا كفرًا بإقامتهم على إنكارهم، وشروعهم في إيذاء الأولياء والمريدين وأهل الرغائب، والإشارة فيه أنَّ هؤلاء الذين وقعوا في عاهة الإنكار وبلية الجحود بعد شهودهم آثار الغيب في مشاهدة البيان، وأنسوا به وألفوه ثمَّ عميت أبصار قلوبهم عن مشاهدة الآخرة، وصمت أذان أسرارهم عن خطاب الحق في بواطن الغيب، وصدَّت عقولهم بدين الجهالة، وعصيت نفوسهم خالق الخلق بهجومها في غلطات الكبر والرعونة، وخبثت أخلاقهم من شوائب الشهوات، وكدرت أرواحهم من اقتحامهم في العجب والرياء والكبر، وأبغضت الأولياء، وساءت آدابهم بين يدي الله، لم يقبل الله تعالى توبتهم؛ لأنهم ذاقوا حلاوة الرياء والسمعة، وأثروا حظوظ الدنيا على صحبة أهل المعرفة، وركنوا إلى صحبة الأضداد، ومالوا عن بساط الحرمة إلى عرصة المخالفة، ومَنْ هذه أحواله فتوبته لا تستقيم، وأوبته لا تدوم لغلبة الشهوة على قلبه، وكثرة الفترة على بدنه، لا يلصق به نصيحة، ولا آثرت فيه شفقة، ولا ينتظم شمله، بطرت نفوس هؤلاء بالشهوات، واسودت قلوبهم من الشبهات، جازاهم الله تعالى بإبعادهم عن حضرة الوصال ومشهد الجمال، وهو قوله تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ

تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ ضالون عن طريق الحقائق والمعارف والكواشف، وأسبل الله على قلوبهم غطاء القهر حتى لا يرون أنوار عجائب كرامات أوليائه، ولا يقومون عند الله يوم القيامة وزنًا، وإنْ كثرت صلواتهم وصيامهم وصدقاتهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾[1].

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أهل هذه الصفة في إنفاقهم على أربع طبقات: طبقة منهم أهل المعاملات؛ وهم على عشرة أقسام: قسم منهم التائبون وإنفاقهم ثلثه ترك الدنيا، وترك الرياسة، وترك النفس لله، وفي الله، وقسم منهم المتورعون، وإنفاقهم ثلثه الاجتناب من المعاصي، وترك ما سوي البلغة من الحلال، وفطام النفس عن الشهوات، وقسم منهم الزاهدون، وإنفاقهم ثلثه مجاهدة النفس، وتزكية الأعمال، وذم الجوارح: وقسم منه الفقراء وإنفاقهم ثلثه حفظ الأوقات، وصيانة الفقر، والتعفف في جميع الأمور، وقسم منهم الأغنياء من هذه الطائفة، وإنفاقهم ثلثه بذل الأموال بغير المنّة، والإبداء والتواضع عند الفقراء، وطلب الإخلاص في أنفسهم عند خطرات الرياء قسم منهم الصابرون، وإنفاقهم ثلثه الخروج من الجزع عند الفاقة، ونشاط القلب عند نزول البلاء، وإيثار البلاء على الراحة، وقسم منهم الشاكرون، وإنفاقهم ثلثه قصر ألسنتهم عن الثناء مع عرفانهم نعم ربهم استحياءً منه، وحيرة في قلوبهم عن معرفة حقيقة المنعم والخروج من رسم الأعواض في بذل الأرواح، وقسم منهم المتوكلون، وإنفاقهم ثلثه استرسال النفوس لله عند نزول بلائه، وبذل المهجة له طلبًا لرضاه، وضبط الخاطر من الخطرات عند جريان قضائه، وقسم منهم الراضون، وإنفاقهم ثلثه ترك اختيارهم في اختياره، وترك تدبيرهم في مراده، وصون أسرارهم عما دونه، وقسم منهم الصادقون، وإنفاقهم ثلثه إخلاص العبودية عن رؤية الخلق، وإخلاص السر عن رعونة النفس، وإخلاص التوحيد عن رسم الحدوثية، وطبقة

---

(١) أي: بملء الأرض ذهبا، فإن قيل نفى قبول الافتداء يوهم أن الكافر يملك يوم القيامة من الذهب ما يفتدى به وهو لا يملك فيه نقيرا ولا قطميرًا فضلا عن أن يملك ملء الأرض ذهبا، قلنا الكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير فالذهب كناية من أعز الأشياء وكونه ملء الأرض كناية عن كونه في غاية الكثرة والتقدير لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء بالغًا إلى غاية الكثرة وقدر على بذله لنيل أعز المطالب لا يقدر على أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله تعالى المقصود بيان أنهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب. تفسير حقي (٢/ ٢٣٤).

منهم أهل الحالات، وهم على عشرة أقسام، قسم منهم المراقبون وإنفاقهم ثلثه دفع الخطرات، وإخفاء المناجاة، وحفظ الحرمة في الخلوات، وقسم منهم الخائفون، وإنفاقهم ثلثه قلة النوم وقلة الأكل وقلة الكلام، وقسم منهم الراجعون وإنفاقهم ثلثه ترك الطبع في الدارين، والارتقاء من هذين المنزلين وتخلية السر عن ذكر العالمين، وقسم منهم المجنون، وإنفاقهم ثلثه الاتقاء عن معرض الكرامات، وترك الالتفات إلى الطاعات، وتصفية القلب من الدرجات، لوصولهم إلى مقام المشاهدات، وقسم منهم المشتاقون، وإنفاقهم ثلثه احتراق القلوب بنيران الحزن، واحتراق النفوس بنيران الجوع، واحتراق الأرواح بنيران الخوف والإجلال، وقسم منهم العاشقون، وإنفاقهم ثلثه ترك طلب الولاية، وترك حظ المحبة، والتزام السر في منزل الرعاية، وقسم منهم الموقنون، وإنفاقهم ثلثه ترك الشفقة على النفوس، ودوام رعاية القلوب، والشروع في تزكية الأرواح عن ذكر الحدثان، وقسم منهم المستأنسون، وإنفاقهم ثلثه الأعراض عن الخلق، وإلقاء الخاطر إلى مشهد طلوع صبح أنوار المشاهدة، وطهارة السر عن معارضة العدو، وقسم منهم المطمئنون، وإنفاقهم ثلثه التمكن في البلاء والصبر في العناء، والشكر في النعماء، وقسم منهم المحسنون، وإنفاقهم ثلثه صحة العبودية، بنعت رؤية المشاهدة، وبذل الروح لله بلا رغبة في ثواب الجنة، ومطالعة أنوار الكناية، وطبقة منهم أهل المعرفة، وهم على عشرة أقسام، قسم منهم الذاكرون، وإنفاقهم ثلثه دفع الوسواس، وطرد الغفلة من القلب بين النس، والخروج من رسوم الأشخاص، ومنهم المتفكرون، وإنفاقهم ثلثه إرسال الأرواح إلى مشاهدة الغيوب لترائي هلال جلال القدم، وإمهال العقول إلى ميادين الملكوت لمشاهدة الجبروت، وإدلاء القلوب إلى بساط القربة لطلب الوصلة بنعت الهيبة، وركاب السر في جولانه في أنوار البقاء والأزل، وقسم منهم الحكماء، وإنفاقهم ثلثه التكلم للمريدين، ونشر العلم للطالبين، وإرشاد الصواب للعالمين، قسم منهم أهل الحياء، وإنفاقهم ثلثه الفرق بالسر من مقام المكر، وتقديس شهوة الخفية عن مشهد الذكر، ودفع دقائق الرياء في مجاري الخطرات، وقسم منهم أهل التلوين، وإنفاقهم ثلثه التفكر في الربوبية بالعقل لتحصيل المعرفة، والنظر إلى قديم إنعامه بالقلب لتحصيل المحبة، والسر بالروح في عالم الملكوت لتحصيل أنوار المشاهدة، وهذه صفة من يباشر قلبه نور الأحادية على الأوقات السرمدية، فهؤلاء متنورون بكنوز أنوار التوحيد، معرفون من بحار الامتنان، حقائق أسرار الهوية بنعت التجريد، ناطقون عما في الضمائر، وكاشفون مكنون السرائر، وقسم منهم أهل التمكين، وإنفاقهم ثلثه حفظ جناح العبودية على وصيد الربوبية، ودفع تهمة البشرية عن مصدر كشف المشاهدة، ورسوخ السر في طوالع سلطان الهيبة، فأهل التمكين مترбون عن إدراك حقيقة جمال القدم، مقدمون عن اتحاد البقاء بإعدام مشاهد صرف سلطان الوحدانية،

فيحرسون أسرارهم عن شوائب الحوادث، ويحفظون أنوارهم عن إطلاع الخلائق، ويصونون ما أوحى الله إليهم من أسرار الإلهام عن تحريفات الشياطين وأباطيلهم، وقسم منهم أهل الحقيقة، وإنفاقهم ثلثه الدعاء على العصاة، وتحلم إيذاءهم على طيب النفس، وترك الطمع في مجازاتهم، فهؤلاء رحمة الله على عباده، فالخلق مصرمون عن المصارف، وهم مكثرون بالكواشف، فيَّضهم الله لبقاء العباد والبلاد، ليلتجئ إليهم مرتابون الأحوال، وأهل رغائب الآلاء، وقسم منهم أهل السر وإنفاقهم ثلثه كتمان الأسرار من خوف غيره الحق عليهم وخروجهم مرادهم لمراد الحق وتفقد جمال غيب غيبه في صدورهم غيبه عن الخلق وقسم منهم العارفون وإنفاقهم ثلثه يتركون الدنيا لأهلها ويتركون الآخرة ولذتها، ويجلسون على باب مولاهم منصرمين عما سواه، مفلحين إليه بنعت رغائب المحبة، مفتقرين إلى مشاهدته بصفاء العبودية، يحسموا عن المكونات، وانقطعوا إليه عن المخلوقات، وطبقة منهم أهل التوحيد، وهم على عشرة أقسام، قسم منهم أهل القبض، وإنفاقهم ثلثه عد أنفاس المراقبات في مقام الحزن وصب الدماء في حين العشق والتأوه من صميم القلب في مقام الشوق، وقسم منهم أهل البسط، وإنفاقهم ثلثه الفرح بوجنتي الحبيب، والزفرة من مخاطبة الرقيب، والتقرب بكثرة النوافل إلى القريب، وقسم منهم أهل السكر، وإنفاقهم ثلثه الشروع في السماع وطلب الوصل بالنغمات، واستنشاق نفحات القرب بالمراقبات، وقسم منهم أهل الصحو، وإنفاقهم ثلثه السكون في مرارة الهجران والحنين، من شوق الرحمن والتحنن على خلقه شفقة على أحوالهم، والتمكين في محاربة الشيطان، وقسم منهم أهل الفناء، وإنفاقهم ثلثه تزكية الأسرار بالذكر، وتربية الأحوال بالفكر، وذم الأشباح بزمان المجاهدة، وقسم منهم أهل البقاء، وإنفاقهم ثلثه ذكر المشاهدات، ونشر الكرامات والتخلص من المجاهدات بتحصيل المكاشفات، وقسم منهم أهل الانبساط، وإنفاقهم ثلثه الاستغفار بعد الشطح، وحفظ الآداب في حال السكر والأخبار عن المقامات لأهل الإرادات، وقسم منهم أهل حقائق التوحيد، وإنفاقهم ثلثه الاستقامة في الامتحان بنعت إخلاص الإيمان، وترك حظوظهم في مقام المحبة لوجدان جمال القدم؛ لأن المحبة حظ العارف، ورؤية القدم نصيب الحق جلَّ وعزَّ، ورعاية الأسرار بترك رسوم المقامات، وقسم منهم أهل الوله، وإنفاقهم ثلثه الرمزة في العبرات والفوز في الأزليات، وبذل المهجة للأبديات، وقسم منهم أهل الاتحاد، وإنفاقهم ثلثه قمع شهوات العشق عن مغارس أشجار التوحيد، وسير السير في قدم القدم بنعت التجريد، وطيران الروح في بقاء البقاء بأجنحة التفريد، هذا وصف إنفاق رجال الصدق، وهم بالتفاوت فيما نالوا من ثواب الإنفاق في هذه المقامات من جزيل الكرامات،

وهو ما ذكر الله تعالى في كتابه ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا﴾؛ فالبر جزاؤهم منه، ولكل طائفة منه بر من هؤلاء الذين ذكرنا أحوالهم في إنفاقهم على قصد إرادتهم، وصدق نياتهم، فبر التائبين هو محبة الله لهم بعد إيابهم منهم إليه، وهذا إشارة الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وأما بِرُّ المتورعين؛ فهو استجابة الدعوة مقرونة بالتقوى، وأما بِرُّ الزاهدين؛ فهو الحكمة من الله تعالى، وهو إشارة النبي ﷺ قال: «مَنْ زهد في الدنيا أربعين صباحًا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»(١).

فأمَّا بِرُّ الفقراء فهو السكينة من الله تعالى ظهرت في قلوبهم، وأمَّا بِرُّ الأغنياء فهو درجة الكرامات، وأمَّا بر الصابرين فهو درجة الولايات، وأمَّا بر الشاكرين فهو زيادة القربة.

قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وأمَّا بر المتوكلين وهو الكفاية في جميع المراد، ووجدان لطائف محبة الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وأمَّا بر الراضين؛ فهو رضوان الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقال ﷺ: «الرضوان الأكبر هو تجلي الخاص، ومن بلغ مقام الرضا؛ فقد وجد رضوان الأكبر»(٢).

وأما بِرُّ الصادقين؛ فهو المحمدة في الدنيا والآخرة، وحقيقة الطمأنينة والكرامة على رءوس الخلائق يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحزاب:٢٤] هذا درجة أهل المعاملات في مجازات الله إياهم ببره وكرامته.

وأمَّا بِرُّ المراقبين؛ فهو وجدان نور الفراسة وحلاوة الذكر، وأمَّا بِرُّ الخائفين؛ فهو ذوق المحبة ومعرفة إجلال الحق تعالى، وأمَّا بِرُّ الراجين؛ فهو صفاء اليقين، ونور البسط والانبساط، وأمَّا بِرُّ المحبين؛ فهو المكاشفة وأنوار القربة والمشاهدة، وأمَّا بِرُّ المشتاقين؛ فهو الأنس بالله في جميع المعاني، وأمَّا بِرُّ العاشقين؛ فهو بهجة سناء الجمال في عين الأرواح، وأمَّا بِرُّ الموقنين؛ فهو مشاهدة الآلاء والنعماء والطمأنينة في رسوم الربوبية، وأمَّا بِرُّ المستأنسين؛ فهو حلاوة حسن القدم في قلوبهم، وتفرد خواطرهم عن وجل خطرات الشياطين في أسواق

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٧١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٨٠)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ٣٥٩).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٠/ ٢٥٥) بنحوه.

الشهوات، وأمَّا برُّ المطمئنين فهو حصول الكرامات من تقليب الأعيان، وأنواع عجائب الآيات، وأن يذوق العارف طعم حلاوة الذكر، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وأمَّا برُّ المحسنين؛ فهو مشاهدة الحق في لباس الملكوت، هذا وصف بر أهل الأحوال، وأمَّا بر الذاكرين؛ فهو رؤية المذكور في حقائق نفس الإيمان، وأمَّا بر المتفكرين؛ فهو رؤية آثار تجلي الصفات في لباس الآيات، وأمَّا بر الحكماء؛ فهو خصائص الخطاب بنعت الإلهام.

وأمَّا بر أهل الحياء فهو رؤية مشاهدة العظمة والكبرياء، وأمَّا بر أهل التلوين فهو رؤية عين جميع الأفعال بنعت جمال الصفات، وأمَّا بر أهل التمكين فهو رؤية عين جميع الصفات بلا رسم الأفعال، وأمَّا بر أهل الحقيقة فهو رؤية عين القدم بنعت الفناء ومحق البشرية ومحو رسوم الخيال، وأمَّا بر أهل السر فهو رؤية كنز علم الأزلي بعين الروح في مدارج المعرفة، وأمَّا بر العارفين فهو تجلي صرف الوحدانية والسرمدية، ورؤية قرب القرب وهذا صفة بر العارفين، وأمَّا بر أهل القبض فهو رؤية العزة، وأمَّا بر أهل البسط فهو رؤية جلال الصفات بنعت الحلاوة ببروز نور القربة، وأمَّا بر أهل السكر فهو ظهور الحق لهم في لباس حالاتهم بالبغتة.

وأمَّا بر أهل الصحو فهو رؤية الحق بنعت الحسن والجمال، وأمَّا بر أهل الفناء فهو رؤية القيومية بنعت الفردانية، وأمَّا بر أهل البقاء فهو رؤية ديمومية الحق جل وعز، وأمَّا بر أهل الانبساط فهو رؤية بسط الحق لهم في وجدان مرادهم منه، وأمَّا بر أهل حقائق التوحيد فهو رؤية أنوار الذات والصفات، وأمَّا بر أهل الوله فهو رؤية انبساط الحق في أنفسهم لذلك هاموا، وأمَّا بر أهل الاتحاد فهو رؤية كسوة جمال القدم بوصف الصفات على أسرار أرواحهم وتسخير الكون لهم بالحكم لا بالتضرع والدعاء.

وهذا وصف بر أهل حقائق التوحيد ذكرت في هذا الفصل ما أتحف الحق إلى أوليائه من أنواع المقامات والكرامات بر أمنه لهم، وجزاء عظيم الله أجرهم، إذ كافأهم بمشاهدته وقربه وعطف عليهم بما هو أجدر منه من منته القديمة وعنايته الأزلية.

وقال الأستاذ: منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء والعوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والمحن ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه .

قال قائلهم:

ويهتز للمعروف في طلب العلا ليذكر يومًا عند سلمى شمائله

وقيل: إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البار وكنت تؤثر

عليه حظوظك.

وقال جعفر الصادق: لن تنالوا خدمتي إلا بمعرفتي،ولن تبالوا معرفتي إلا برضائي ولن تنالوا رضائي إلا بمشاهدتي، ولن تنالوا مشاهدتي إلا بعصمتي، ولن تناولوا عصمتي إلا بتعظيم ربوبيتي، ولن تنالوا تعظيم ربوبيتي إلا بالانقطاع عما سواي.

وقال بعضهم: أول البر الهداية ثم المجاهدة ثم المشاهدة، معناه: لن تنالوا هذه الخصال إلا بأن تنفقوا مما تحبون.

قال ابن عطاء: لن تصلوا إلى القربة وأنتم متعلقون بحظوظ أنفسكم.

وقال جعفر الصادق: بإنفاق المهج يصل العبيد إلى بر حبيبه وقرب مولاه، قال الله تعالى:﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾

وقال أبو عثمان: لن يصل إلى مقامات الخواص من بقي عليه شيء من آداب النفوس ورياضتها.

وقال الواسطي: الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحابّ والوصول إلى البار بالتجلي من الكونين وما فيهما.

وقال النصر آبادي: أفردك له باشتقاقه المحابّ منك ليكون خالصًا في محبته لا تنتفت منه إلى شيء سواه.

قال ابن عطاء: لن تنالوا وصلتي وفي أسراركم موافقة أو محبة بسواي.

وقال النصر آبادي: قال بعض المفسرين: البر أنه الجنة، وعندي أن البر صفة البار فكأنه قال: لن تنالوا قربتي إلا بقطع العلائق.

وقال جعفر الصادق: لن تناولوا الحق حتى تنفصلوا عما دونه.

قال ابن عطاء: لن تنالوا معرفتي وقربتي، حتى تخرجوا من أنفسكم وهمومكم بالكلية.

وقال العلوي: أحب الأشياء إليك روحك، فاجعل حياتك نفقة عليك؛ لكي تنال بري بك.

وقال أبو بكر الوراق: دلهم بهذه الآية على الفتوة، وقال: لن تنالوا بري بكم إلا ببركم إخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم، وما تحبونه من أملاككم، فإذا فعلتم ذلك نالكم بري وعطفي، وأنه أعلم بنياتكم في اتفاقكم وبركم، ما كان منه لي خالصًا قابلته ببري وهو أعلى وما كان من ذلك للرياء والسمعة، فأنا أغني الشركاء عن الشرك، كما روي عن المصطفى ﷺ.

قال الجنيد: قال: لن تنالوا محبة الله حتى نسخوا بأنفسكم في الله[1].

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ الإشارة فيه أن أهل هذه القصة يجوز لهم أن يتركوا شيئًا من المأكولات من جهة المجاهدة لا من جهة التحريم، ثم حثَّهم الله تعالى بأعلامهم شأن أنبيائه صلوات الله عليهم في المجاهدات؛ ليقتدوا بهم.

وأيضًا فيه إشارة إلى ترك اللحوم على الدوام لما فيها ضراوة كضراوة الخمر من جهة المجاهدة لا من جهة التحريم.

وأيضًا: حرم على نفسه نبي الله يعقوب ﷺ أشهى طعام فالإخبار عنه تعليم الله تعالى أهل محبته؛ ليتركوا ما أحب إليهم من الأطعمة الشهية، وما تشتهي أنفسهم من زهرة الدنيا ولذتها.

وأيضًا: فيه إشارة إلى أهل الدعوى الباطلة من السالوسين والناموسين ألا يحرموا ما أحل الله لهم من الطيبات، ولا يحلوا ما حرم الله عليهم من المنكرات والخبيثات، وهؤلاء أهل الإباحة الذين ظهروا في هذا الزمان استأصلهم الله في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ملة إبراهيم الشوق والعشق والمحبة والخلة والفتوة والمروءة والشجاعة والسخاوة والحلم والأمانة والديانة والكرامة وإكرام الضيف والصبر في البلاء والشكر في النعماء والهجرة ،والخروج عما سوى الله بالكلية والعبرة والتأوه والصدق والإخلاص والتوحيد والتجريد والتفريد والسماع والوجد والاتصاف بصفات الحق من حيث رسوم البشرية بهذه الخصال صار إمامًا للعارفين والعالمين

أمر الله تعالى أحب عباده متابعته وموافقته في جميع أحواله، ومن زاغ عن طريقه ولو ذرة فتكون النفس له صنمًا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٨٩).

﴿نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لا يميل من الحق إلى جبريل حيث عرض عليه اللياذة عليه قال: ألك لي حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، ولا يداهن في دينه المحبة أبويه قال:﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨].

وقال:﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات:٩٩] وكسر أصنام الكفرة بفأس الحمية، وطهّر موضع نظر الحق عن الخيال والتمثال، فشكر الله عنه، وقال:﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء:٥٨] وبذل في محبته الأموال والأولاد، ولا يخاف في الله لومه لائم لأجل ذلك قال:﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ وأيضًا نفى عنه خاطر الشك حيث قال:﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] بقوله:﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ العرش قبلة الملائكة، والكرسي قبلة سكارى الحضرة، والبيت المعمور قبلة السفرة، والكعبة قبلة الناس عامًّا وخاصًّا، أحال الطائفين إلى الوسائط وحجبهم بها عن مشاهدة جماله غيره على نفسه عن أن يرى أحد إليه سبيلاً؛ لأنه وضع بيته قبل آدم وذريته ابتلاء وامتحانًا لتحجبوا بالبيت عن صاحب البيت.

ومن أعرض سره عن الجهة في توجهه إلى الله صار الحق قبلة له، فيكون هو قبلة الجميع كآدم كان قبلة الملائكة؛ لأنه وسيلة الحق بينه وبين ملائكته لما عليه كسوة جلاله وجماله كما قال ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»[1] يعني ألقي عليه حسن صفاته ونور مشاهدته، كما قال تعالى في حق موسى ﷺ:﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ [طه:٣٩]، والمحبة خاصة صفاته الأزلية، ومن أعرض من أهل العبودية عن آدم فمثله كمثل إبليس من الملائكة؛ لأن من شرط المعرفة العبور بالوسائط في عالم العبودية.

فإذا كان محققًا في المشاهدة فإلى أي جهة توجه فثمّ وجه الله، كما قال تعالى:﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ لأنّه في محل عين الجمع، وكما قال بعض العارفين: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه.

وأيضًا: وضع بيته وكساه بكسوة آياته الكبرى، وهي نور القدرة ليجذب قلوب عباده إليه بوسيلته؛ لأجل ذلك قال بيتي لتخصيص الإضافة، ولأنه منور بنور آياته الخاصة.

﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ سميت البكة لالتصاق أرواح العشاق به شوقًا إلى لقاء حبيبهم وهيام

---

(١) رواه البخاري (٥٨٧٣)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٤).

العارفين إليه بالمبادرة والمسارعة ببذل المهج.

ويقال: لا تعلق قلبك بأول بيت وضع لك، ولكن أفرد سرك لأول حبيب أنزله.

وقيل: شتان بين عبد اعتكف عند أول بيت وضع له وبين عبد لازم حضرته عزيز كان له.

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مقدسًا من أن يلتصق به ريب الشاكين أو تهمة المرائين أو أن يرى وجه عروس الآيات إلى غير المخلصين، وأيضا تعظمًا بما كسا الله عليه من أنوار قربة وحضرة وبركاته أن يسكن به قلوب المريدين ويكون مروحة لقواد المشتاقين، وروضة لأرواح الصادقين، وريحانة لمشام العاشقين، وهدي هاديًا بانكشاف نوره للعالمين من المؤمنين، وأيضا: هدي للمريدين إلى رؤية الآيات، وهدي للعارفين إلى رؤية صاحب الآيات، وهدي للخائفين إلى مقامات الأمن، وهدي للمنقطعين إلى شهود الأنس، وراشد للمحسنين إلى مشاهدة الرب تبارك وتعالى.

وقال الأستاذ: بركاته اتصال المطاف والكشوفات هناك لمن قصده بهممه، ونزل عليه بقصد هداه إلى طريق رشده.

وقال الحسين: إن الحق تعالى أورد تكليفه على ضربين تكليفا عن وسائط وتكليفه بالحقائق فتكليف الحقائق بدت معارفه منه وعادت إليه وتكليف الوسائط بدت معارفه عمن دونه ولم يتصل به إلا بعد الترقي منها إلى الفناء عنها، فمن تكليف الوسائط إظهار البيت والكعبة، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ فما دمت مشتغلًا به كنت منفصلًا عنه فإذا انفصلت عنه حقيقة وصلت إلى مظهره وواصفه وكنت مترسما بالبيت متحققا براضعه[1].

قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ البيت مرآة العارفين يتجلى الحق لهم بوسائط الآيات أبهم الحق سر ظهوره فيه؛ لئلا يطلع عليه كل أجنبي من هذه القصة، وشأن البيت وشجرة موسى سواه تجلى منها لموسى وتجلى منه لأمة محمد ﷺ، وأشار بالآيات البينات إلى نفسه تعالى وتقدس عن الحلول والنزول وبنعت الانتقال.

---

(١) يقال: إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوينى دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات؟!

ويقال: لا تُعلِّق قلبك بأول بيتٍ وضع لَكَ ولكن أَفْرِدْ سِرَّكَ لأول حبيبٍ آثرك، ويقال: شتَّان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له، ويقال: ازدحام الفقراء بهممهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بِقَدَمِهم ، فالأغنياء يزورون البيت، ويطوفون بِقَدَمِهم، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهممهم. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٥٧).

قال الأستاذ: فيه آيات ولكن لا يدرك تلك الآيات بأبصار الرؤوس؛ ولكن ببصائر القلوب.

وقال محمد بن الفضل: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ علامات ظاهرة يستدل بها العارفون على معروفهم.

قوله: ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الرضا والتسليم والانبساط واليقين رضاه حين ألقي في النار وتسليمه في ذبح ولده وانبساطه قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [البقرة:٢٦٠] ويقينه قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ وزيادته مقام المكاشفة، فالمشاهدة والخلة والفتوة فمن وافق سره سر هذه المقامات، فقد أدى حق مقام إبراهيم ﷺ وأيضًا للخليل مقام المعرفة والتوحيد والفناء والبقاء والسكر والصحو فمن ذاق طعم السكر، وتمكن في الصحو وفني عن أوصاف نفسه، وبقي على أوصاف الحق بنعت الخلق عليه والتنور بأنوار المعرفة، والتلبس بلباس التوحيد، وطار روحه في سنا القدم، وطاش قلبه في جلال الأبدية وسار سره في الملك الأعلى، وهام عقله في وادي العظمة والكبرياء، واطمأنت نفسه في أحكام الربوبية بلا جزع وفزع، فقد فار برؤية مقام إبراهيم ﷺ؛ لأنه محل التمكين.

قال الأستاذ: مقام إبراهيم ﷺ في الظاهر ما باشر بقدمه وهو في الإشارة بما وافق ﷺ الخليل بهممه.

وقيل: إنَّ شرف مقام إبراهيم، لأنَّه آثر الخليل ﷺ وآثار الخليل عند الخليل أثر، وخطر عظيم.

وقال الشبلي: مقام إبراهيم ﷺ هو الخلة فمن شاهد فيه مقام إبراهيم الخليل ﷺ فهو شريف ومن شاهد في مقام الحق فهو أشرف.

قال محمد بن علي الترمذي: مقام إبراهيم ﷺ هو بذل النفس والولد والمال في رضا خليله فمن نظر إلى المقام ولم يتجل مما تجلى منه إبراهيم من النفس والمال والولد ولم يسلم فقد بطل سفره وخابت رحلته.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾ من دخل مقام الإنابة اعتصم بنور الكفاية عن تواتر المعصية ومن دخل مقام الزهد، فقد استراح من هواجس الوسوسة، ومن دخل مقام

التوكل قلت من ضيق الاشتغال بالمكاسب، ومن دخل مقام الرضا فقد فاز من الفناء ومن دخل مقام الوفاء فقد ذاق طعم الصفاء.

ومن دخل مقام الاستقامة فإنه من تلوين الخاطر، ومن دخل مقام الإخلاص أمن من آفات الرياء والسمعة.

ومن دخل مقام الصدق أمن من رعونات النفس، ومن دخل مقام التسليم مثل الخليل فقد خرج من تنازع النفس وتدبيرها وإرادتها، ولم يبق له اختيار وسكن في اختيار الحق ومراده منه، وأمن من خوف فوت المراد؛ لأن جميع الخوف من جهة فوت المراد فإذا لم يبق له مراد زال الخوف بأسره منه ولم يبق للخوف مساغ في وصفه، ولا محالة أن دخول البيت لا يكون مستحسنًا إلا بتسليم الأمور إلى رب البيت، فإن من لم يكن بالتسليم موقوفًا في ترك مراده فهو معارض للتقدير في جميع الأمور، وحسن الأدب في دخول البيت التسليم بنعت الرضا دون المعارضة ونزاع البشرية.

ومن دخل مقام المراقبة من بعد الاستقامة من الخطرات الرديئة، ومن دخل مقام الأنس فاءت عنه الوحشة، وغربت عنه شره الفترة، ومن دخل مقام الخوف أمات الله عنه خوف زوال المحبة ووقر بنور الهيبة عند جميع الخلق، ومن دخل مقام الرجاء شعشعت عنه دارات الامتحان وترح عن افتنانها بحلاوة الدنيا وزهرتها لأن من دخل قلبه سلطان حقائق الرجاء أمن من نوازع البشرية وهواجس الطبيعة وقوارع النفسانية، لأنَّ نور الرجاء من بحر الأنس ونور الأنس من بحر القدس والقدس من صفاته علا كبريا وه وجلَّت عظمته، ومن التجأ إلى ظل سلطان الوحدانية أمن من غارات الشيطان؛ لأنه دخل في قباب عصمته، ومن كان في مقام كنف ستر جبروته فأنى يلحقه أيدي الشياطين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وأخبر عن عدوهم: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] ومن دخل مقام المحبة أمن من الإبعاد والطرد والغضب، ومن دخل مقام الشوق أمنت روحه من ارتباطها في عالم الحدثان، ومن دخل مقام العشق صار متصفًا بصفات الحق وخرج من أوصفات النفس، ومن دخل مقام المعرفة أمن من عين النكرة، ومن دخل مقام اليقين أمن من غبار الشك والريب، ومن دخل سرادقات التوحيد جنحت عنه خواطر الشرك؛ لأن حقيقة التوحيد الخروج عن عرضة النفس وسجن الوسواس وعلائق المعاهدات البشرية وقطع عوائق الإنسانية عن أوطان الذكر، ومن دخل مقام الذكر اطمأن برؤية المذكور، وخلص من ذكر ما سوى الحق، وإذا خرج العبد عن نفسه وشهواته بلغ مقام صفاء العبودية وإذا بلغ

صفاء العبودية بلغ صفاء الحرية ومن بلغ صفاء الحرية بلغ صفاء الذكر ومن بلغ صفاء الذكر دخل في مشاهدة المذكور وأمن من عذاب القبور.

ومن دخل مقام التفكر غاصت روحه في بحار أنوار الملكوت، وترى في أصداف الغيوب جواهر الجبروت، وسلمت من ربق النفس وطوارق الشيطان ومن دخل مقام الحياء تصدعت عن مزاد قلبه أزجل الشياطين، وتقدَّس سره من نفخ الوسواس ومن دخل جمال عين الجمع سكن في وجد الحق تعالى بلذة الانبساط ونور البسط، وألبسه الله خلعة الأنانية، وأمن من صفات الإنسانية وسكر من تكاليف حياة الدنيوية، ومَنْ دخل قلبه أنوار القربة سكنت روحه بالمشاهدة وعقله بالمكاشفة، وسره بالمعاينة ونفسه في العبادة ومن دخلت روحه في أنوار العظمة تاه قلبه في وادي الهيبة وعقله سكن بنور المعرفة وسره بنور الوصلة ونفسه بلذة الطمأنينة في أمور الربوبية ومن دخل سره في جنان الأنس مسكن قلبه في ظهور أنوار القدس وروحه في بروز نور القدم وعقله في كشوف نور القدرة.

ومَنْ دخل عقله في نور الشواهد سكن سره ببقاء المشهود وروحه في رؤية عين الحقيقة، وقلبه في محبة الأزلية ونفسه في رسوم المخاطبة، ومن دخلت نفسه في مراد الحق وخرجت عن مرائيات الخلق سكن قلبه بنور الإخلاص وروحه بنور الصدق وعقله في صفاء العبودية، وأيضًا من دخل نور اليقين قلبه أمن سره من اضطراب الشك، وعقله من رحمة النفس، وروحه من هموم التدبير، ونفسه من نفاد الشهود الخفية، ومَنْ دخل نور الإيمان عقله رأى قلبه حقائق البراهين، وروحه عالم الملكوت، وسره نور الجبروت، ونفسه أحست أصوات خطاب الخاص من حضرة الحق جلّت عظمته، ومن دخل نور التوحيد روحه فتق عين سره بنور الوحدانية، وعين قلبه بكحل الفردانية، ورسخت نفسه في إخلاص العبودية، ومَنْ دخل نور الإسلام نفسه أمن روحه من خطراتها، وأمن سره من لخطاتها، وأمن قلبه من وسواسها، وأمن عقله من نزاعاتها، ومَنْ دخل بهذه الصفات التي ذكرنا بيت ربه تعالى أمن من عذاب هجرانه في الدنيا والآخرة.

وقال الأستاذ: جعلنا الإشارة من البيت إلى القلب، ومن دخل قلبه سلطان الحقيقة أمن من نوازع البشرية، وهواجس عاهدت النفس.

وقيل: أن الكناية بقوله سبحانه: ﴿وَمَن دَخَلَهُ﴾ راجعة إلى البيت، ومَنْ دخله يشبه على الحقيقة كان آمنًا.

وقيل: لا يكون دخول البيت على الحقيقة إلا بخروجك عنك، إذا خرجت عنك صح دخولك في البيت، وإذا خرجت عنك أمنت.

قال جعفر بن محمد في قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ أي: من عرف الله لم يأنس بشيء سواه.

وقال النوري: من دخل قلبه سلطان الاطلاع كان آمنًا من هواجس نفسه، ووسواس الشيطان.

قال الواسطي: من دخله على شرائط الحقيقة كان آمنًا من رعونات نفسه.

قال ابن عطاء: مَنْ دخله كان آمنًا من عقابه، ولله في الدنيا ثواب وعقاب، فثوابه العافية، وعقابه البلاء، فالعافية أن يتولى عليك أمرك، والبلاء أن يكلك إلى نفسك.

وقال جعفر: مَنْ دخل الإيمان قلبه كان آمنًا من الكفر.

وقال الواسطي في موضع آخر: مَنْ جاوز قلبه الإيمان كان آمنًا في رعونات نفسه.

وقال جعفر الصادق: مَنْ دخله على الصفة التي دخلها الأنبياء والأولياء والأصفياء صار آمنًا من عذابه، كما آمنوا[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وأضاف الحد إلى نفسه لمَا فيه آثار الربوبية وحقائق العبودية، وأيضًا ألزم حق العبودية على عباده لإيتاء شكر الربوبية، وأيضًا أرشدهم إلى رؤية المقصود في الآيات والعلامات بوسيلة القصد إلى بيته، وأيضًا فرض حج البيت على الجمهور لحضور الخواص زائرين رب البيت، وأيضًا أراد أن يرى عباده عظمته وكبرياءه في رؤيتهم ذل العبودية، والتواضع، والتضرع على أعناقهم.

وأيضًا أي: واجب الوجوب على عبادي القصد إلى مشاهدتي ببذل الأموال والنفوس والأرواح، وترك الراحات، والشهوات، والأولاد، والأرواح بنعت التجريد عن المكونات في قصدهم إلى بيته، ويختص البيت لقصدهم رسمًا وحكمًا عن المشاهدة؛ لأنه تعالى وتقدس، منزَّه عن الحلول والتشبيه، يتجلى منه القاصدين إليه في لباس الملك، والآيات لأنه تعالى قال: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أخبر عن الآيات في نفس البيت، وأشار إلى تجلي الصفات في نفس الآيات، كما قال ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»[2]، يعني جبال مكة، وعنى بالجبال -والله أعلم- ببيت الله الحرام؛ لأنه أحجار اصطفاها الله تعالى في الأزل

---

(١) فكان في الجاهلية كل من فعل جريمةً، ثم لجأ إليه لا يُهاج ولا يعاقب ما دام به، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص، وقال أبو حنيفة: الحكم باق، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج، ولكن يُضيَّق عليه، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج. انظر: البحر المديد (١/ ٣١٠).

(٢) سبق تخريجه.

قبلةً لعباده، ومرآة الكشوف لخواصه، والاستطاعة في سبيله معرفته، وقربه ورؤية ألطافه في سائر الأوقات، واليقين في وعده، والتوكل عليه في جميع الأمور والمراقبة، ودوام الرعاية، ومعرفة حفظه، وكلايته جميع عباده ،ومحبته الصافية عن رعونة النفس، وصدق القصد إليه بصفاء النية وطهارة القلب عما سواه، زادهم دوام الذكر والفكر في الآية، ونعمائه وقدرته الكاملة ورحمته الكافية ضدًا، وأمثال هذه المقامات استطاعة القاصدين إلى بيته انقطاع عن سبيل الرشاد، وهلك في مهلكه العناد.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أضاف الحج في أول الآية إلى نفسه، ونزه نفسه في آخرها، ليعلم أهل خبرة العبودية له شفقته على عباده؛ لأن العبادة ترجع إليه بالثواب، وهو منزه عن الأسباب.

والقاصدون إلى بيت الله تعالى على ثلاثة أقسام :

قسم منهم قاصدون إلى البيت بأموالهم، وأنفسهم لطلب الثواب، وقسم منهم القاصدون إلى البيت بقلوبهم الصافية عن الدنيا وما فيها، لامتثال الأمر ولطلب مرضاة الرب.

ومنهم القاصدون إلى مشاهدة رب البيت بأرواحهم العاشقة لطلب حقائق المعرفة، والقربة، وصفاء الوصلة وزيادة مشهد التجلي والتدلي.

فأهل الظاهر يحرمون عن المحظورات، ويحلون عن إحرامهم عند قضاء نسكهم وأداء فرضه، وأهل الباطن يحرمون عن الكائنات والنظر إلى البريات، ولا يحلون ما داموا في الدنيا إلى مشاهدة الذات، وكشف الصفات، فشتان بين مَنْ يحرم من المعهودات، وبين مَنْ يحرم من المسكنات، وشهود المكونات، لكن بلاياه لا يحملها إلا مطاياه، ألا ذهبوا وذهبت معهم البركات، وغربت بغروبهم في مغارب الأبد شموس الكرامات، وأقمار الآيات، ذاع خبرهم في الآفاق، وخفي أثرهم عن الآماق، رحمة الله عليهم حياة ومماتًا، من الإشارة في قصور حجاج كعبة الحقيقة، إذا أرادوا استقبال قلوبهم إلى نحو المقصود أعني بيت الله الحرام، عقدوا بالحقيقة مع الله بنعت المحبة عقد المعرفة، وفسخوا جميع العقود التي عقدوا في غير طريق الحق، من إيثار سواه عليه، وعهود النفس التي أخذت للرياء والسمعة، وطلب العلو والشرف، أعدوا السبل مواطن المشاهدة، زاد الصدق في التوكل والإخلاص واليقين والزهد في تجارة الله، وراحلة الصبر قوائمها الحمد، ورأسها الحلم، وبطنها الورع، وسرجها التمكين، وحزامها الاستقامة، وزمامها التسليم، وسوطها الأدب، وأرضها الرضا، وسماؤها اليقين، وماؤها الفكر، وعلفها الذكر، ورياضها المكاشفة، ومرعاها المشاهدة، وتوجهها على شهود

القدم.

وإذا خرجوا من أوطانهم بهذه الراحلة هجروا من الدنيا وما فيها، واستعدوا أهبة الموت من جميع الخلائق من المعاشرين المتقاربين، وأسرعوا في طريق الرياضة، وألزموا أنفسهم كدح الجادين المجدين، وتوجهوا بنعت الإخلاص إلى الله؛ ولم يلتفتوا إلى غيره في طريقه من أهل الدثر والدبر والبتر، وعزموا أن لا يجوزوا عن قصد السبيل إلى سبل دواعي الهوى والشياطين.

وإذا ركبوا مراكبهم يكون قائدهم الهدى، وسائقهم التقوى، ومنهجهم الصفا، ورفيقهم المولى، وعديلهم العلم، وصحبهم الحلم، الشوق يسوقهم في وادي العشق، مؤنسهم الحنين، ومطربهم الأنين، بدر وقتهم الحبيب، وإذا قربوا من وادي المحرم ساروا مسرعين من الشوق، وقطعوها نادمين من الذنب، وخرقوها سادمين إلى مشاهدة الرب، متحسرين من فوت الأوقات، هائمين في طلب الدرجات، باكين دماء الحزن بالزفرات، نائحين على أنفسهم بنعت العبرات.

وإذا أبلغوا رأس الوادي خلعوا ثوب الراحات، وتجرَّدوا عن جميع الشهوات، ولبسوا إحرامهم التفريد، واغتسلوا في بحر التجريد، وتطهروا عن جمع شوائب العلل، وإذا لبُّوا سمعوا أصوات الرضا بنعت الوصلة والقربة، ونداء الحق قبل كونهم في الأزل، وإذا بلغوا عرفات صاروا متبطئين في قيود السُكر، لا فكاك لهم عنها إلا بستر الصحو، فبين السُكر والصحو هائمون، وبين الهيبة والبسط حائرون، يعرف لهم الحق جلَّت عظمته حقائق المشاهدة، وصفات المكاشفة، وأظهر لهم مكنونات الغيوب، ومضمرات القلوب، وإذا وقفوا، وقفوا راجين إلى لقاء الرحمن، خائفين من القطيعة والهجران، شاهدين مقام الحياء، حاضرين مقام الفناء في رؤية البقاء، وإذا وصلوا إلى مشعر الحرام ذكروا الله بنعمة رؤيته، وذكرهم هناك غي اللسان وخجلة الجنان في قدم الرحمن، مقشورين بين يديه، مطرقين من التقصير، منحنين من التفريط، وإذا بلغوا المنى ذبحوا أنفسهم عن اللذات، والشهوات، وإذا رموا الجمرات رموا مجاهدتهم ورياضتهم وعبادتهم إلى كتم العدم، لوصولهم مشاهدة القدم، وإذا كسروا الحجارة كسروا معها شهوات بواطنهم، وإرادات أنفسهم عن ممكنات أسرارهم، وإذا حلقوا حلقوا عن باطنهم فضولات الوسواس، وحب محمدة الناس، وإذا دخلوا أرض الحرم علموا أنهم عند سرادق العظمة وأبواب الحضرة، خاضعين من الإجلال، ذائبين في نيران الكبرياء، محرمين عما دون الله، متأهبين للقائه، لا يحل عليهم شيء من الأكوان قبل وصولهم إليه؛ لأنهم في معادن الصمدية، وصولة الصمدية تمنعهم عن علات الحدوثية، وإذا دخلوا مكة أيقنوا أنهم في جواره؛ لأن مكة بمنزلة الجنة، ومَنْ دخلها أمن من عقابه في جواره

لوعده تعالى ،وإذا دخلوا المسجد دخلوا هائمين من رؤية عظمته، وذكروا هيبته وإجلاله، وإذا رأوا البيت رأوا قبل رؤية البيت رب البيت، ومشاهدته، وعلموا أنهم في حضرته القديمة، ومشاهدته الكريمة، وإذا طافوا حول البيت رأوا ملائكته مطيفين حول العرش والكرسي، وأيقنوا أنهم عند الله تعالى بمنزلتهم، وإذا استلموا علموا أنهم بايعوا الله ببيعة الأزل بنعت الخروج عن المخالفة بعد تلك المبايعة، ولا يمدون أيديهم إلى المألوفات والشهوات، وإذا صلوا خلف المقام علموا أنهم في مقام الوصلة والقربة والمناجاة، ومحل الوافين بعهد الله، وإذا تعلَّقوا بأستار الكعبة أيقنوا أنهم معتصمون بحبل الاعتصام، لائذون بحقيقة عصمته، ملتجئون إلى كنف قربته، منفردون عن اللياذة، واجدون الحق بعد ذلك، وإذا دخلوا بيت تعالى، أيقنوا أنهم في حفظ عنايته وكنف كلايته، مستغرقين في وجود قدمه وبقائه، وإذا صعدوا الصفا والمروة خرجوا من كدورات النفسانية، ورأوا أنهم في مقام الاصطفاء والاجتباء، ومن نه بصيرة المعرفة علم وتحقق أنَّ الله تعالى رسم هذه المناسك والمشاعر مثالاً لحضرة جلاله، وبنى الكعبة مثالاً للعرش والمسجد الحرام مثالاً لحظيرة القدس، وجعل البلد مثالاً للجنة، والصفا والمروة وجبال مكة مثالاً لحجاب الملكوت، والحرم كله سواتر الجبروت، والمِنَى مقام الأمن، والمشعر مقام الخوف والتعظيم، والمعرفة أرض المحشر، والمحرم مقام القيامة، والبادية الدنيا، والخروج من الوطن الموت، والقصد إلى زيارة البيت التأهب للقاء الرب تبارك وتعالى، فإذا أبصر حقائق هذه الأمثال صار حجه قربة ومشاهدة سعيه مبرورًا، وعمله مشكورًا.

ذكرت حج العارفين من الموقنين والمشاهدين، وأيضًا هذه أمثلة مشاعر الباطن: فالكعبة هي القلب، والحجر الصدر، والبلد الصورة، والصفا العقل، والمروة العلم، والمنى الحلم، والمشعر الذكر، والعرفات صفاء العبودية والمعرفة، والمحرم المقامات والحالات، والبادية النفس والهوى، والحاج الروح المقدس.

وأما أسرار العاشقين أيضًا: إذا حجت نكعبتها ذات القدمية جلَّت عظمته، وعزَّ كبرياؤه، ومناسكها مراتب السر في الصفات، فإذا تجرَّدت الأسرار في بيداء الأزل عن الأماكن والأزمان والحدثان، استقبلت إلى عروس البقاء والسرمدية، تحولها مطاف حظائر القربة على بساط الحشمة والانبساط، فكل نفس منها لَّما نظره وشاهده وكاشفه فحجها منه إليه، وعنه به، وبه عنه، ومنه له، فشأنها عجيب، ووجدها غريب.

وقيل: لم يخاطب عباده في شيء من العبادات بأن الله عليهم إلا الحج، وفيه فوائد: أحدها أنه ليس من العبادات عبادة يشترك فيها المال والنفس إلا الحج، فأخرجه بهذا الاسم.

وقيل: ما كانت فيه إشارات القيامة من تجريد ووقوف.

قال الله: عليك ذلك لتهيئ باطنك للموقف الأكبر كما هيأت ظاهرك لهذا الموقف.

وقيل: إن رجلاً جاء إلى الشبلي، فقال له: إلى أين؟ قال: إلى الحج، قال: هات جرابين، فأملأهما رحمة، واكتسبهما وجيء بهما؛ ليكون حظنا من الحج بعرضها على من حضر، ونحيى بها من يراه، قال: فخرجت من عنده، فلما رجعت قال لي: أحججت؟ قلت: نعم، قال لي: إيش عملت؟ قلت: اغتسلت وأحرمت وصليت ركعتين ولبَّيت، فقال لي: عقدت به الحج، قلت: نعم، قال: فنسخت بعقدك كل عقد عقدت منه، خلفت مما يضاد هذا العقد، قلت: لا، قال: فما عقدت، قال: ثم نزعت ثيابك، قلت: نعم، قال: تجردت من كل فعل فعلت؟

قلت: لا، قال: ما نزعت، قال: ثم تطهرت، قلت: نعم، قال: أزلت عنك كل علة يطهرك؟ قلت: لا، قال: فما طهرك، قال: ثم لبيت، قلت: نعم، قال: وجدت جواب التلبية مثلاً بمثل، قلت: لا، قال: ما لبيت، قال: ثم دخلت الحرم، قلت: نعم، قال: اعتقدت بدخولك ترك كل محرم، قلت: لا، قال: ما دخلت الحرم، قال: ثم أشرفت على مكة، قلت: نعم، قال: أشرف عليك من الله حال بإشرافك على مكة؟

قلت: لا، قال: ما أشرفت على مكة، قال: دخلت المسجد الحرام؟ قلت: نعم، قال: دخلت في قربه من حيث علمته، قلت: لا ، قال: ما دخلت المسجد، قال: رأيت الكعبة؟ قلت: نعم، قال رأيت ما قصدت له، قلت: لا، قال: ما رأيت الكعبة، قال: رملت ثلاثًا مشيت أربعًا، قلت: نعم، قال: هربت من الدنيا هربًا علمت أنك به قد فاصلتها وانقطعت عنها، ووجدت بمشيتك الأربع أمنًا مما هربت منه، فازددت الله شكرًا لذلك ، قلت: لا ، قال: فما طفت، قال: صافحت الحجر؟

قلت: نعم، قال: ويلك، قيل: مَنْ صافح الحجر فقد صافح الحق، ومَنْ صافحه فهو في محل الأمن، أظهر عليك أثر الأمن؟ قلت: لا، قال ما صافحت الحجر، قال: أصليت ركعتين بعدها؟ قلت: نعم، قال: وقفت الوقفة بين يدي الله ووقفت على مكانك من ذلك، وأريته قصدك؟

قلت: لا، قال: ما صليت، قال: خرجت إلى الصفا، ووقفت بها؟ قلت: نعم، قال إيش عملت؟ قلت كبرت عليها، قال: هل صفا سرك بصعودك إلى الصفا، وصغر في عينك الأكوان بتكبيرك ربك؟ قلت: لا ، قال: ما صعدت ولا كبَّرت، قال: هرولت في سعيك؟ قلت: نعم، قال: هربت منه إليه؟ قلت: لا ، قال: ما هرولت وما سعيت، قال: وقفت على المروة، قلت: نعم، قال: رأيت نزول السكينة عليك وأنت على المروة؟

قلت: لا ، قال: لم تقف على المروة، قال: خرجت إلى منى؟ قلت: نعم، قال: أعطيت ما تمنيت، قلت: لا ، قال: ما خرجت إلى منى، قال: دخلت مسجد الخيف؟ قلت: نعم، قال: هل

تجدد عليك خوف بدخولك مسجد الخيف؟ قلت: لا، قال: ما دخلته، قال: مضيت إلى عرفات، قال: نفرت إلى المشعر الحرام، قلت: نعم، قال: ذكرت الله فيه ذكرًا أنساك فيه ذكر ما سواه، قلت: لا، قال: ما نفرت، قال: هل شعرت بماذا أجبت أو بماذا خوطبت؟ قلت:لا، قال: ما نفرت إلى المشعر قال: ذبحت؟

قلت: نعم، قال: أفنيت شهواتك وإرادتك في رضا الحق؟ قلت:لا، قال: ما ذبحت، قال: رميت قلت: نعم، قال: رميت جهلك منك بزيادة علم ظهر عليك، قلت:لا، قال:ما رميت قال: زرت؟، قلت: نعم، قال: كوشفت عن شيء من الحقائق أو رأيت زيادة الكرامات عليك للزيارة؛ فإن النبي ﷺ قال: «الحاج والعمار زوار الله، وحق المزور أن يكرم زائره»[(1)]، قلت: لا، قال: ما زرت ، قال: أحللت ؟ قلت: نعم، قال: عزمت على أكل الحلال؟ قلت: لا، قال: ما أحللت، قال: ودعت، قلت: نعم، قال: خرجت من نفسك وروحك بالكلية؟ قلت: لا، قال: ما ودعت ولا حججت وعليك العود إذا أحببت، وإذا أحججت فاجتهد أن يكون كما وصفته لك.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: لما دخلت على الشيخ الحصري- قدَّس الله روحه- ببغداد، قال لي: أحاج أنت؟ قلت: أن مع القوم، فقال لي: أليس فرائض الحج أربع، الإحرام والدخول فيه بلفظ التلبية؟ قلت: بلى، قال: والتلبية إجابة؟ قلت: بلى، قال: والإجابة من غير دعوة سوء أدب؟ قلت: بلى، قال: فتحققت للدعوة حتى تجيب، ثم الإحرام التجريد من الكل، ولا يكون التجريد إلا بالتفريد، قلت: بلى، ثم الوقوف، قلت: نعم، قال: فاجتهد فيه فإنه محل المباهات، انظر كيف يكون في الطواف وهو محل القربة من الحق، فيكون قربك منه بحسن الأدب، ثم السعي، وهو محل الفرار إليه بالتبري مما سواه، فإياك أن تتعلق بعد سعيك بعلاقة من الدارين وما فيهما.

وقال الشيخ: سمعت محمد بن الحسن البغدادي يقول: سمعت محمد بن أحمد بن سهل يقول: سمعت سعد بن عثمان يقول: سمعت عبد الباري يقول: سُئل ذو النون لم صير الموقف بالمشعر الحرام ولم يصير بالحرم؟ قال ذو النون: لأن الكعبة بيت الله، والحرم حجابه، والمشعر بابه، فلما أن قصده الوافدون أوقفهم بالباب الأول يتضرعون إليه حتى أذن لهم بالدخول، أوقفهم بالحجاب الثاني، وهو المزدلفة، فلمَّا أن نظر إلى تضرعهم أمرهم بتقريب قرابينهم، فلما قرَّبوا قربانهم، وقضوا تفثهم طهروا من الذنوب التي كانت لهم حجابًا من دونه، فأذن لهم بالزيارة على الطهارة.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٨٩) بنحوه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

ويبخهم بالكفر بعد شهودهم مشاهد الآيات بأمر الظاهر، واستدرجهم بها أورثهم من الشهوات بقضاء الباطن، وحذَّرهم لشهوده على أسرارهم ليطردهم عن قربه ووصاله[1].

وقال الأستاذ: الخطاب بهذه الآية تأكيد الحجة عليهم، فمن حيث الشرع تؤكد الحجة عليهم، ومن حيث الحقيقة والقهر سد الحجة عليهم، فهم مذعورون شرعًا وأمرًا، مطرودون حكمًا وقهرًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

نهاهم الله عن الصد والصد لا يكون إلا من الحسد، والحسد مذهب المبغضين الذين لا يطيقون أن يروا على المريد أثر كرامة الله، وهم في الحقيقة مصدودون، والمصدود مطرود يضل ويُضل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومَنْ اعتصم به منه اهتدى به إليه؛ لأنه في محل المعرفة، ومن عرفه يستعيذ برضاه من سُخطه، وبمعافاته من عقوبته، وبه منه، وهذا حال سيد الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليه- حيث قال في سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[2].

وكان ﷺ في ذلك الوقت في مشاهدة الجلال والجمال والكمال، والقدم والبقاء والجبروت والكبرياء بنعت المعرفة على وجود الحق، مستغرقًا في بحار علوم القضاء والقدر، ورأى ما رأى من عجائب قدرته، واطَّلع على بعض أسرارهم إرادته فخاف به منه إليه، وأيضًا مَنْ اعتصم بالله هداه الله إلى معرفة عيوب النفس، ودقائق الشيطان، وأخلاق القلب، وشمائل الروح، وأوصاف العقل، وأمور المعاملات، وحقيقة الحالات، وطلب المكاشفات، والاطلاع على المشاهدات، ولمة الملائكة، وعلوم الإلهام، والفِراسات، ويكون بهذه الخصال

---

(١) ومن حيث الحقيقة والقهر يَسُدُّ الحجة عليهم، فهم مدعون - شرعًا وأمرًا، مطرودون - حُكْمًا وقهرًا. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٠).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦)، وأحمد في مسنده (١/ ٩٦)، والترمذي (٥/ ٥٢٤)، وابن ماجه (١/ ٣٧٣).

في مقام التمكين، وهو أمثل طرق المستقيم[١].

وأيضًا: الاعتصام انجزام القلب عن الأسباب والأرباب، والتبري إلى الله تعالى من الحول والقوة، ومن قطع حبل الطلب عن الخلق ارتفع قتام البين بينه وبين الحق، والاعتصام قبل المعرفة محال، والمعرفة قبل المشاهدة محال، ومَنْ شاهد الله تعالى بنعت المعرفة يعتصم به في جميع مراده.

وقال ابن عطاء: مَنْ افتقر إلى الله من جميع ما سوى الله فقد فتح له الطريق إلى الحج، وهو قوام الطرق إلى الحج، وهو قوام الطرق.

وقال جعفر في هذه الآية: مَنْ عرفه استغنى به عن جميع الأنام.

قال الواسطي: مَنْ يعتصم بالله للأئمة وللعامة اعتصموا بحبل الله، وقال أيضًا: الاعتصام به منه، ومَنْ زعم أنه يعتصم به من غيره فهو وهن في الربوبية.

وقال أيضاً في قوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾: هل شاهدت مشاهدتك شيئًا تفرغ منك إليه، وهل فرغت إلا إلى نفسك، الاعتصام ترى نفسك في ظله وكنفه وحسن قيام نظره لك في يده، فإنَّ الحقيق قسم الاعتصام والتصديق يوجب الاعتصام، وقبل الاعتصام واللجاء بطرح الحول والقوة والسكون للأمر والهدوء، وتحت مراد الله[٢].

وقيل: الاعتصام للمحجوبين ولأهل الحقائق رفع الاعتصام؛ لأنهم في القبضة.

قل أبو بكر الورَّاق: علامة الاعتصام ثلاث: قطع القلب عن معونة المخلوقين، وصرفه بالكلية إلى رب العالمين، وانتظار الفرج من الله.

وقال جعفر: مَنْ افتقر إلى الله عن جميع ما سواه وليس في سره سوى الله، فقد هدى إلى صراط مستقيم.

قال أبو سعيد الخرَّاز: مَنْ أمن به لا يهان، ومن اعتصم به لا يهزم.

وقال: لا يمكن رد النفس إلى الصلاح إلا بالحكمة والعلم، والجهد والتضرع، وأصله الاعتصام بالله.

وقال الأستاذ: بها اعتصم بالله مَنْ وجد العصمة من الله تعالى، فأمَّا مَنْ لم يهده الله

---

(١) فلا ينبغي لمن أشرقت في قلبه شموسُ العرفان أن يوقع الكفرُ عليه ظِلَّه، فإنه إذا أقبل النهارُ من هاهنا أدبر الليل من هاهنا. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٣).

(٢) ولِمَنْ رجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله، أو فكرته واستدلاله، أو معارفه وأشكاله، والتجأ إلى ظل تدبيره، واستضاء بنور عقله وتفكيره - فمرفوع عنه ظل العناية، وموكول إلى سوء حاله. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٥).

فمتى يعتصم بالله عز وجل؟ والهداية منه في البداية توجب الاعتصام به في النهاية، لا الاعتصام منك يوجب الهداية.

وأهل الاعتصام أربعة: المحب والعاشق والعارف والموحد، أما اعتصام المحب فطرح نفسه على باب الحبيب، عجزًا وتضرعًا لطلب الوصول إليه، وهذا نعت العاجز في متعب الفراق المحترق في نيران الأشواق، فإذا اعتصم بالحق على وصف غليان الحب، والهيمان في الشوق، فهداه الله إلى مشاهدة جماله، وحسن عطفه وأفضاله، كما قال ﷺ: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه»[1].

وأما اعتصام العاشق، فهو قطع العلائق من قلبه، وإيثار المشاهدة على ما سواه، فإذا تحقق في استغراقه في بحار العشق أرشده الله إلى مقام الأنس حتى سكن في أكناف ألطافه، فهو بالحقيقة مكفوف من الاستدراج بعظمة الأزلية.

وأما اعتصام العارف، فهو بمعرفته بمعروفه فإذا عرفه تحير فيه، واعتصم بمعرفته عن النكرة تارة، وبالنكرة عن المعرفة تارة، والنكرة هاهنا العجز عن درك الإدراك إدراك، وإذا تحير العارف في مهمة العظمة فأصفده الحق عطاء من علوم المجهول من لدنه، فيرى بها مشاهدة الأسرار من حقائق غيب الغيب.

وأما اعتصام الموحد، فاللياذة من الجهل على مشاهدة القدم بالعرفان على مشاهدة البقاء، ومن الجهل على مشاهدة البقاء بالعرفان على مشاهدة القدم، وإذا وجده الحق مضمحلاً في ضباب عظمته وأنوار كبريائه هداه إلى طرف من حقائق الوحدانية، ليسكن به جهلًا لا علمًا، وعلمًا لا جهلًا، وأمرًا لا حكمًا، وحكمًا لا أمرًا.

هذا صفة المعتصمين من أهل الحق الذي نبذوا بطلق الوجوه جميع رسوم الحدثان من الدنيا والآخرة، راجين إليه خائفين منه، حيارى سكارى، لا تلتفتون منه إلى غيره من غلبة اليقين على قلوبهم، ولا يرضون بشيء سوى محبوبهم، فهم معصومون عن الخطرات في البواطن، محصونون على العثرات في الظواهر .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٢)، ومسلم (٢٦٨٣).

وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حق التقوى الفناء تحت سلطان الهيبة والتحير بنعت الحياء في مقام المعرفة، وذوبان القلب في رؤية العظمة من سطوة جلال المشاهدة.

وأيضًا حق التقوى: صون المعهود وحفظ الحدود والخمود تحت جريان القضاء بنعت الرضا.

وأيضًا حق التقوى: ترك الأكوان والحدثان لمشاهدة الرحمن، وأيضًا نية الأصفياء بركضة تعريفه حقيقة عين القدم بهم؛ ليعرفوا حق الربوبية بأداء حقيقة المعبودية، وألزمهم الاستقامة عليها، أي: اعرفوني بحق المعرفة، ولا تأتوني إلا بشرط الاستقامة، أي: لا يصادفكم الوفاة إلا وأنت بشرط الوفاء وهو معنى قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وقال سهل: أمروا أن يعبدوه بالتوكل عليه، والتفويض إليه، أي: لا يعرجون في الدارين على من سواه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ تلف النفس في مواجبه.

وقال القاسم: بذل المجهود، واستعمال الطاعة، وترك الرجوع إلى الراحة، ولا سبيل إليه؛ لأنَّ أوابل طرف الوصول التلف.

وقال الواسطي: هو إتلاف النفس في مواجبه.

وقال ابن عطاء: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هو صدق قول لا إله إلا الله، وليس في قلبك شيء سواه.

وقال بعضهم: إرادته أن يعرفنا مواضع نضله فيما رغمنا فيه من استعمال مواجبه؛ لأن واجب الحق لا يتناهى، والعمل لا يتناهى.

وأيضًا قال ابن عطاء: حقيقة التقوى في الظاهر محافظة الحدود، وباطنه النية والإخلاص[1].

---

(١) وقيل: وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان، وصون العهود، وحفظ الحدود، وشهود الإلهية، والانسلاخ عن أحكام البشرية، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْم وظلم، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه، والتحقق بأنه لا يَقْبل أحدًا بعِلَّة ولا يَرُدُّ أحدًا بعلة. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٤).

وروي عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن هذه الآية؛ فقال: «أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»[1].

قال أبو يزيد: التقوى كل التقوى مَنْ إذا قال قال لله، وإذا عمل عمل لله، وإذا نوى نوى لله، ويكون بالله ولله.

وقيل أيضًا: مَنْ تورع عن جميع الشبهات.

وقال النصرآبادي: حق تقاته أن يتقي كل ما سواه.

وقال جعفر: التقوى ألا يرى في قلبك شيئًا سواه.

وقال الواسطي: الأكوان كلها أقدار في ميدان الحق، وميدان الحق لا يطؤه إلا من اتقى سواه، قال الله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ من حبل الله: الهداية والكفاية، والرعاية والعبودية، والمعرفة، والمحبة، والخدمة والأدب، والحرمة والحشمة، والنبي ﷺ والكتاب والسنة أوجب على الجهود والاعتصام بهذه الوثائق حتى وصلوا إليه ولا تفرَّقوا عنه؛ لأن مَنْ رجع عنه إلى رأيه وتدبيره، وعقله ومعاملته ومجاهدته، وحيلته وفكرته واستدلاله فهو بمعزل عن ظل العناية، وكنف الكفاية، والاعتصام بالله، وبحبل الله من باب المعرفة.

أرشد طائفة إلى نفسه بلا وسائط، وأغرقهم في بحار وجوده حتى يلتجئوا من قعر بحر الذات إلى سفن الصفات لينقذهم من ظلمات النكرة بأنوار المعرفة، وهذا حال خاص الخاص، وأشهد طائفة على مراتب المقامات والحالات حتى وصلوا إليه بأنوار كراماته، وألطاف نواله، وهذا حال أهل الخاص، والأمر بالاعتصام شفقة على عجز العارفين في معرفته، وإدراك حقيقة عظمته، وفي مشهد التوحيد الاعتصام للمحبين جهل بعلم القدم، وللعارفين مكر وحجاب برسوم المعرفة عن حقائق الأسرار، وللموحدين كفر؛ لأن حق التوحيد حالان، خمود السر عن الإرادة عند إرادات الحق، وفناء الموحد عن الموحد في رؤية الموحد؛ لأن مَنْ التفت عنه بعد شهوده من القدم إلى رسم الربوبية والعبودية، فهو مشرك في حقيقة، لهذا من غرائب شطحياتي.

وأيضًا: عرَّفهم مفر الأرواح، وهو محل الكواشف والمعارف لكي ينطقوا عن المخاصمة في الأخوة؛ لأنَّ مَنْ بلغ محل مشاهدة الحق بنعت رؤية الوحدانية أسقط الواسطات

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٠٦)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٨).

وسلم من العداوات، هناك حبال الاعتصام التي انعقدت بها رهن المؤاخاة، وتعارفت أرواح العاشقات؛ لأن وحشة التفرقة يكون في الغيبة، وحقيقة الجمعية يكون في مشهد المشاهدة.

قال سهل: تمسَّكوا بعهده، وعهده التوحيد.

وقال أبو يزيد: ما لم تفقد نفسك ولا تعتصم بخالقك لا يستجاب لك، ومتى كنت وسط الأمور فالمخلوق لا يهتدي إلى الخالق، فإذا طرحت عنك كنت معتصمًا به.

وقيل: الاعتصام إليه هو ميل القلب بالوفاء، وأداء الفرائض بغير تقصير.

قال ابن عطاء: حبل الله متَّصل بعبده يترقع منه المزيد والفوائد في كل وقت، وحبله عهده وكناية فمَنْ اعتصم به وصل.

سُئل الجنيد عن قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾قال: قالت المتصوفة: هو خصوص وعموم، أمَّا قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾معناه: اعتصموا بالله عن الاعتصام بحبل الله، وقيل: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾اجتمعوا على موافقة الرسول ﷺ أنه الحبل الأوثق ولا تفرقوا عنه ظاهرًا وباطنًا ، سرًا وعلانية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بأن هداكم إلى نفسه بنعت المعرفة والمحبة ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: إذ كنتم من مشاهدة التوحيد في حجاب النكرة تحت غمام البشرية عن رؤية القرب والمشاهدة، وحين كنت تحت ذل الكفر، بتضييعكم حق الله وحق الأخوة، وطلبكم حظوظ أنفسكم بترك حظوظ الإخوان، وسبب كون العداوة بينهم عزلهم عن لباس المعرفة، فإذا كسى الله أسرارهم خلع أنوار قربه، وباشرت قلوبهم حقائق الوصلة، رأى بعضهم على بعض أثر جمال الحق عشقت أرواحهم بعضها على بعض، كما قال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات:٧] وما شرحت فهو معنى قوله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾

وأيضًا فألَّف بين قلوبكم بنور عصمته، وكشف جمال حضرته، حتى وصلوا بأجمعهم حقائق مكاشفات الوصال، فذاقوا من كأس المنَّة شراب الألفة، وطابوا بجمال الحبيب، وارتفعت عن بواطن قلوبهم غشاوة الوحشة، فصار عيشهم عيشًا واحدًا، ومذهبهم مذهبًا واحدًا، وحظهم حظًا واحدًا.

وجمعهم الله على عيون الإخلاص حتى يطهروا فيها من دنس الأخلاق، وأوساخ الطبائع، ولبسوا منها أثواب التالف، وإخلاصهم تخلصهم عن أسرار المكونات، ورفع عن أسرارهم أخطار التفرقة، فجمعهم في عين الجمع كنفس واحدة، فأحوالهم أورثهم الوفاء،

وإخلاصهم ألبس أسرارهم الصفاء، فبين الوفاء والصفاء صاروا في الأخوة صادقين، وفي المحبة مخلصين، وفي الصحبة منصفين، وفي المصادقة موقنين، وفي الجملة الألفة بين قلوب الأصفياء بالتفاوت على مرسوم المقامات، ومراتب الحالات(١).

وانهم أن الله تعالى إذا جمع الأرواح في مشاهدة قربة بعد إنشائها، فأكرمها بعضًا بإدراك مقام التوحيد، وبعضًا بمقام المعرفة، وبعضًا بمقام المحبة، وبعضًا بمقام المكاشفة، وبعضًا بمقام المشاهدة، وبعضًا بمقام الأنس والوجد والحالات، والألفة بينهم على قدر قران مقاماتهم بعضها بعضًا، وجعل الجميع بعضهم على بعض رحمة وهداية وعصمة، كما قال ﷺ: «المرء كبير بأخيه»(٢).

وقال ﷺ: «المؤمنون كالبنيان تشد بعضهم بعضًا»(٣).

فمَنْ وافق في مشهد الأزل على مدارج جميع المقامات صار بين الأقران محبوبًا ومعشوقًا وإمامًا بما وجد أصول حقائق القوم وإدراك حقيقة مقاماتهم، ومَنْ لم يبلغ جميع المقامات صار حاله بخلاف ذلك، فالتآلف أوصاف الأولين، والتناكر نعوت الآخرين؛ لأنَّ أرواحهم احتجبت بعضهم بعضًا، كما قال صفير الصفات، وسفير مشاهد أسرار الذات، سيد البريات، وقائم قوائم مهاد الأزليات، صلوات الرحمن عليه: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»(٤).

قيل: كنتم أعداء بملازمة حظوظ أنفسكم، فألَّف بين قلوبكم، وأزال عنكم حظوظ النفس وردكم منها إلى حظ الحق فيكم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: كنتم في قعر بحار غضب الأزل امتحانًا لا حقيقة، فأنقذكم منها عصمة رضا القدم المنعوت بعناية شرفكم، واصطفاء نيتكم بالمعارف والكواشف، وذاك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»(٥).

وأيضًا أي: كنتم محجوبين بعوارض بشريتكم، محترقين بنيران شهواتكم، فأنقذكم منها أنوار المعرفة، وسنا الأزلية، رضياء القربة، وأذاقكم طعم شراب وصلته، حتى صرتم في طلب مزيد الوصال إخوان كل عاشق محب صادق في طلب رضاه.

---

(١) بالخلاص من أسْرِ المكونات، ودَفْعَ الأخطار عن أسرارهم، فصار مقصودُهم جميعاً واحداً؛ فلو ألَّفَ ألفَ شخص في لبِ واحدٍ – فهم في الحقيقة واحد. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٥).

(٢) ذكره ابن حجر في «لسان الميزان» (٧/ ١١٥).

(٣) رواه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) رواه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٦٣٨).

(٥) رواه البخاري (٧١١٤)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٢).

وقيل: في قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: برؤية النجاة بأعمالكم، فأنقذكم منها برؤية الفضل.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (١٠٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: تبيض وجوه الصادقين في دعوى المحبة بنور المشاهدة، حيث طلعت شمس مشرق الأزل من مطالع القدم، فأنورت بتجلي الجمال وجوهًا، مغفرة بتراب جناب الحضرة عشقًا وشوقًا، وألبستها نورًا من نورها حتى رأت بنور القدم جمال القدم، وهي مشرفة بجلال ربها، مسفرة ببيضاء قربه، مستبشرة في رؤية وصاله، ناضرة بتبسم أفواه الرضوان الأكبر فيها، ناظرة من ربها إلى ربها.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، واليوم تلك الأنوار ظاهرة في وجوه من تكون هذه النعوت والأوصاف لهم غدًا، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣]، تلك سمات وجوه الأولياء الذين إذا رأيتهم رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا؛ لأنهم مرآة الحق يتجلى منهم بجلاله للخلق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه المدَّعين مقامات الأولياء بإظهار التقشف بين الخلق وخروجهم بزي الصادقين، وطلبهم به استحسان الخلق، وصرف وجوههم إليهم وعداوتهم، أمناء الله في الأرض حين تخرج رجال الله من حضرة الله ركبانًا على بجانب النور، وعلى رءوسهم تيجان الوقار في ميادين السرور، وغاراتهم عصاة أمة محمد ﷺ من أسواق القيامة، ويدخلون بهم الجنان بلا إذن الرضوان، تسود وجوه السالوسين المدَّعين عند تلك الوجوه على رءوس الأشهاد باحتجابهم عن مشاهدة الله، وصحبة أهل الحضرة، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

قال محمد بن علي: تبيض وجوه بنظرهم إلى مولاهم، وتسود وجوه باحتجابهم منه.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا

يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مدحهم بالخيرية، ثم شرح الخيرية بأمر المعروف، ونهي المنكر، وذلك رتبة؛ لأنهم آخر درجات القوم، وهو محل التمكين، وتقديس النفس عن الخطرات، ولم يكن ذلك إلا بعد التباسه بلباس العظمة والكبرياء، مثل الأنبياء- عليهم السلام- وخيريتهم بخيرية نبيهم ﷺ واستعدادهم صحبته وموافقته، وخيريتهم مقرونة بخيريته، وهو خير الأنبياء، وقومه خير الأمم، وأمر المعروف دعاء المريدين بلسان المحبة مع مدح المشاهدة، والنهي عن المنكر نهيهم وردهم منهم إليه.

قال يحيي بن معاذ: هذه مدحة لهم، ولم يكن ليمدح قومًا ثم يعذبهم.

قال جعفر الصادق: المعروف موافقة الكتاب والسنة[١].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰٓا أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: مَنْ كان ذلته عند كشوف أنوار الكبرياء والعظمة يصير عظيمًا في عيون الخلق، منصورًا بتأييد الأزلية على كل منكر؛ لأن عليه كسوة جلال الله، نفرق منه من تعزز بنفسه.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ موصوفًا به لقوله ﷺ: «إن الشيطان يفر من ظل عمر»[٢].

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾: لضعفكم، وصحة توكلكم على ربكم، وانقطاعكم عن حولكم وقوتكم، وردكم الأمر بالكلية إليه.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أراد السيد ﷺ تقديس حضرة الجلال عن أنفاس المجرمين في قولهم بما لا يليق بجلال الله من الشرك والكفر، لئلا يبقى في ساحة الكبرياء مَنْ في قلبه غير الله غيرة على جمال وجهه تعالى، ومَنْ سوغه حبه وشدة إرادته، لم يطالع أمر القدم الذي جرى بالعناية في حق المستورين من بينهم بأستار عوارض الامتحان، فغايته الحق أين أنت من مشاهدة سبق عنايتي لهم، أنعم نظرك في ديوان الأزل ، وليس لك في هذه الغيرة من أمر القدم ومشيئة الأزل في وقتك حين احتجبت بغيرتك على أمرهم شيء، وإن صرفت منك إلى رأيت أمر المشيئة، وتستغني من الدعاء عليهم، وتصديق ذلك قوله

---

(١) وشرط الآمر بالمعروف أن يكون متصفًا بالمعروف، وحقُّ النَّاهي عن المنكر أن يكون منصرفًا عن المنكر. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٧٠).

(٢) ذكره حقي في تفسيره (٤/ ٤٤١).

تعالى: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾.

ثم إنَّ الله سبحانه أدب نبيه ﷺ هاهنا بأحسن الأدب بشيئين: أحدهما، أنه أهل الكرم والرحمة من العرش إلى الثرى؛ حيث وصفه الله بكمال الرحمة بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: أرحم من حيث أنت على أمتك، ولا تدع عليهم.

والثاني: ألبسه خلقه تعالى؛ لأن من صفته وخلقه الرحمة على الجمهور، وأعلمه الأسوة بالأنبياء والمرسلين خصَّ منهم إبراهيم ﷺ وعيسى ﷺ بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وقال النوري في قوله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾: ولكن الأمر كله إليك، فإن لك الأمر فالأمر كله إليك، وليس لك منه شيء، جلَّ قدرتك أن تلاحظ غير الحق فيما بعدي وتعيد.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الآية إشارة عجيبة لطيفة، وأنها وضوح عيان الحق سبحانه، حقائق الآية أنَّ النار لَم تعد للمؤمنين: ولم تخلق لهم، لقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فإذا كانت للكافرين لم تخلق للمؤمنين، لكن خوف المؤمنين بها زجرًا وعظة، كالأب البار المشفق على ولده الذي خوف ولده بالأسد أو بالسيف وإنْ لم يضربه بالسيف، ولا يلقيه عند الأسد، فبقي الأمران لهذه الآية تلطف وشفقة على عبادة المؤمنين الصادقين، وأعجب من ذلك أنَّه تعالى خوفهم بالنار، والنار للغير، ومقصوده تجلي القهر من عظمته للنار، وعظم النار من تجلي عظمته، أي: اتقوني في النار؛ لأني أحرق النار وأعذبها بي، وهذا سر عين الجمع.

وقال ابن عطاء: أمر العام بإلقاء النار لخوفهم منها، وتركهم المعاصي من أجلها، وأمر

الخاص بأن يتقوه وينظروا إليه دون غيره ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[البقرة:١٩٧] أي: يا أهل الخصوص.

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ علم الحق سبحانه على الخلق، وميلهم عن النفوس، فدعاهم بطاعته إلى العلتين، المغفرة والجنة، ودعا الخواص إلى نفسه، قال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠].

ثم أعلم بالكل في درك امتحان الجرم، وأثبت بالآية ذنب الكل؛ لأنهم وإن كانوا معصومين من الزلل فذنبهم قلة معرفتهم على أقدار الحق، كما قال ﷺ: «لو أن الله عذب الملائكة لحق منه»(١).

فقيل: إنهم معصومون، فقال: من قلة معرفتهم بربهم، ولذلك دعاهم إلى مغفرته، وأيضًا خاطب العارفين بلسان الالتباس، ودعاهم إلى الجمع ليتجلى لهم بالوسائط، لبقائهم في المعرفة وفي الحقيقة مغفرته قربته، وجنته مشاهدته.

قيل: طلب المغفرة هو طلب حظ النفس، وفي آخر الآية إشارة إلى تضييق صدر الزهاد في استعظامهم ما تركوا، فقال لهم: جنتي أجر ما تركتم، وذكر عرض الجنة وسعتها لبخلهم، وخسة طبعهم، وهم الذين اتقوا الدنيا لأجل الجنة، وفيها يصلي العارفين من صداع سوء جوار المنكرين، فقال: جنتي واسعة اسكنوا حيث شئتم في جوار الكريم المقدس من سوء جوار المنكرين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ هذه الآية إشارة إلى قوم أخطئوا في السماع، ومجالستهم مع حظوظ أنفسهم وبقايا صفات البشرية، فهم حيث جلسوا بغير حضور ولا شهود، ولا مراقبة ولا تقديس الأسرار في طلب الأنوار الفاحشة منهم، سماع القول وإظهار الوجد مع حظوظ النفس وحظ البشرية، والظلم منهم دعوى المعاملات والولايات، وهم يعلمون أنهم ليسوا على التحقيق في السماع وإظهار الوجد، فأدركهم الله بفيض رحمته؛ حيث عرفهم فضائح نفسهم عنده، ويلقيهم في رؤية التعبير والعتاب.

ويضيق صدورهم بتلك الفاحشة والظلم، فيذكرون الله بشرط الندم، ورؤية التقصير والخجل بين يديه، وسقوطهم عن عيون المشايخ، فيستغفرون الله من كذب دعواهم بنية الصدق في التبرئ عن دعوى ما ليس لهم، وإذا كان الأمر كذلك، ولم يصروا على ما فعلوه،

---

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (١/ ٣٣٦).

يغفر الله ما سبق منهم بإيوائهم إلى قربه، فإنه مولاهم وصاحبهم لا غير[1].

وذلك قوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأيضًا فيها إشارة إلى عشاق الله الذين استغرقوا في بحار العشق والشوق، واحترقوا بلوائح نيران الكبرياء، وبغتة سطوات العظمة، فيطلبون روح الأنس بالاستراحة في مشاهدة المستحسنات، ويرتادون مشاهدة عروس القدم في مقام الالتباس، وعين الجمع الذي فيه رؤية الحق في مرآة الخلق، وذلك الالتباس فاحشة منهم؛ لأنه في طلب القدم مع رؤية الحدث، وليس لهذا الشرط تجريد حقيقة العشق، وإذا كانوا محترقين بنيران التوحيد والتفريد في رؤية الأزل والأبد والقدم والبقاء يطلبون النزول من مقام التوحيد إلى مقام العشق، وهذا ظلم منهم علي أنفسهم؛ لأنهم نقصوا حظ التوحيد بفرارهم من الفناء في التوحيد إلى بقائهم في العشق، وقوله: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: إذا كانوا مدركين أنفسهم في مقام المكر والاستدراج، وفقدانهم أسرار مقام الفناء ودرجاته، يفزعون بالكلية إلى كلية الحق، جلَّ عن الخواطر والضمائر؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ لم يقل ذكروا اسمه أو نعته أو صفته منه أو فعلاً منه بل ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فنوا في الفرار منه إليه في صرف الألوهية برؤية الذات والصفات، يدركهم الحق بانكشاف ما استأثر من نفسه لنفسه، أو لأهل دنو دنوه الذين بقوا في الفناء وفنوا في البقاء، لهم خاصية واصطفائية، وأيضًا فيها إشارة إلى أصحاب المواجيد والوقائع والمكاشفات الذين عادتهم السلوك في المعاملات من الطاعات والرياضات، فإذا ورد عليهم وارد وتضييق وقت وظائفهم، يرجعون إلى أداء الورد، وهذا سوء أدب.

كما سُئل الجريري في ذلك قال: هذا سوء أدب، وهذا فاحشة منهم النزول من الربوبية إلى المعبودية، والظلم تركهم مقام الوصال، واختيارهم وسائط الأحوال، ذكروا الله بعد تغير

---

(١) قيل: أهل مقام الإحسان عملهم قلبي، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ، وأهل اليمين عملهم بدني، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم، وإذا زلّوا نقص رجاؤهم، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة، أهل مقام الإحسان محبوبون، وأهل اليمين مُحِبُّون، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسول والأشكال، وبقي في نظرهم وجود الكبير المتعال، وأهل اليمين: الأكوان عندهم موجودة، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة، أهل مقام الإحسان يعبدون الله على نعت الشهود والعيان، وأهل اليمين يعبدون الله من وراء حجاب الدليل والبرهان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان. انظر: البحر المديد (١/ ٣٣٧).

الله إياهم بخلوهم عن الوسيلة، ورجوعهم إلى المشاهدة والقربة.

قال الواسطي: الطاعات فواحش، وما ذكره الواسطي تفسير بلسان الشطح.

وسُئل أبو عبد الله بن جلا عن الظلم فقال: متابعة النفس على ما تشتهيها.

وسُئل محمد بن علي عن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ قال: النظر إلى الأفعال ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ برؤية النجاة بأعمالهم ذكروا الله لحقهم التوفيق من الله، وأدركهم العصمة منه، فاستغفروا لذنوبهم من أفعالهم وأقوالهم، ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ علموا ألا وصول إلى الله إلا به.

وقال الأستاذ: يقال فاحشة كل أحد على حسب حاله ومقامه، وكذلك ظلمهم، وإنَّ خطورة المخالفات ببال الأكابر كفعلها عن الأغيار.

قال قائلهم:

أنتَ عَينِي وَليسَ مِن حَقِّ عَينِي ... غَمضُ أَجْفَانِهَا عَن الأَقذَاءِ

وَليسَ الجرمُ علَى البسَاطِ كَالذّنبِ عَلَى البَابِ

وقال الباب: قال إنَّ رؤية الأحوال والأقوال كظلمات عند ظهور الحقائق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ مَنْ خرج من درك الامتحان بشرط الوفاء والتقديس عن أخلاق النفس والهوى ودخل بشرط رؤية التقصير بنعت الحياء والخجل في ميادين الصدق والإخلاص في المحبة والمعرفة وبذل المهجة غرامة للمخالفة والاستغفار بعد الندم، يجزيه الله برده إلى فوق مقام الأول بوصوله إلى مشاهدة قدسية جلالته، ويفتح له كنوز

مدخرات الغيب ويستأنس بجنات المشاهدة والمداناة، التي هي عيون صفات الذات، تجري منها أنهار الأوصاف الأزلية، تسقيه من مروقات سواقي الجلال والجمال، خالدين فيها بلا مكث، ولا قطع، ولا خطر الزمان، ولا حجت المكان، ولا تغير بعد ذلك نعم هذه النعمة من المُنعم الكريم الوهَّاب للعالمين، أي: الواقفين بشرط الوفاء في العشق على الحضرة القديمة بلا نقض في العهود، ولا سهو في الشهود.

قال الأستاذ في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: بردِّهم إلى شهود الربوبية وما سبق بهم عين الحسنى في سابق القسمة، وجنات تجري من تحتها الأنهار مؤجلاً في الفراديس، ومعجلاً في روح المناجاة وتمام الأنس.

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ وإنَّ كلام الحق سبحانه صفته الأزلية، مبين حقائق أمور الكونين، لِمَنْ له أهليته وأهل القرآن مَنْ كان روحه جلالية، وقلبه جماليًّا، ونفسه مطمئنة، وسره قابل كل إشارة من الحق، ولهذه الجنود اصطفائية بالمعارف والكواشف، وإذا كان الأمر كذلك، يتجلى الحق في كلامه لأهل القرآن بنوريين له مراد الله من خطابه يهديه إلى كل صواب؛ لأنَّه مفتاح كنز القدم، من وافقه يخرج له عروس الصفة القديمة من حجاب الحروف بكل مراد وصول به[1].

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب- كرم الله وجهه-: إنَّ الله تعالى يتجلى لعباده في القرآن ومن له أهلية الصفة بإدراك بيانها، وله أهلية الذات بكشف جلاله تعالى.

قال النبي ﷺ: «أهل القرآن أهل الله وخاصته»[2].

بقدر ترقي المقامات عنهم سر الخطاب من كتاب الله، قوم يسمعون بأسماع العقول أمرًا واعتبارًا، وقوم يسمعون بأسماع القلوب شوقًا وحلاوة، وقوم يسمعون بأسماع الأرواح محبةً ومعرفةً وعشاقًا وأُنسًا، وقوم يسمعون بأسماع الأسرار بملاحظة الأنوار كشفًا وبيانًا، ولم ينكشف هذه الأسرار والوقائع إلا للناس، ومَنْ لم يكن إنسانًا متخلقًا بخلق آدم ﷺ وما بقي من ميراثه من علم الأسماء والصفات يكون من النسناس لمن يلاحظ مشاهدة القرآن وأسراره، فإنَّ الله تبارك وتعالى أعلمنا أنه بيان للناس لا للنسناس، والناس من له وصف ما ذكرنا، ويبقى بالله مما دون الله بما صرح الله في بيانه قال: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ

---

(١) وقيل: بيان لقوم من حيث أدلة العقول، والآخرين من حيث مكاشفات القلوب، والآخرين من حيث تجلِّي الحق في الأسرار. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٩١).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٢٤٢)، وابن ماجه (١/ ٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٤٠).

لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

قال جعفر: أظهر البيان للناس، ولكن لا يتنبه إلا مَنْ أُيِّد منه بنور اليقين وطهارة السر، ألا يراه يقول: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إلا أن هذا الاهتداء بهذا البيان والاتعاظ للمتقين الذين اتقوا كل شيء سواه.

وقال الأستاذ: بيان لقوم من حيث أدلة العقول، والآخرين من حيث مكاشفة القلوب، والآخرين من حيث تجلي الحق في الإسرار.

أعلمهم الله حقائق الإيمان، وهو اليقين، واليقين سكون القلب بوعد الرب تعالى، وبيَّن إذا كنتم في معارج الإيمان والتصديق يجزى في نصركم وعلوكم على عدوكم، فما معنى الحزن والضعف، فإنَّ مَنْ عاين حقيقة الأمر قوى يقينه، وذهب عنه جميع الأحزان، وينبغي أن حزن العارف ضيق صدره من ركوب القبض عند غيبته عن المشاهدة، وفرحه ببسطه وروحه من كشف ملكوت ربه.

قال محمد بن موسى: ما بال الإنسان يحزن مرة ويفرح أخرى؟ قال: لأنَّ غذاء الأرواح وتهذيبها في الاستتار والتجلي يطرب عند التجلي، ويحزن عند الاستتار، فمتى حجب حزن، ومتى طالعه بعين البر واللطف فرح، وإنْ طالعه عين السخط خاف وقلق.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إنَّ الله تعالى عانت الكل بهذه الآية، أي: لمَّا أخبرتكم ربوبيتي بلسان نبيي، وأوجبت العبودية عليكم برسالته، وعرفتكم بصفات الألوهية بغير واسطة، فلم تتزلزل بذهابه عن البين، واضطربتم عن حقائق الإيمان وإخلاص العبودية عند الفترة والامتحان، فلو كنتم مشاهدين جلالي ما اضطربتم

بموته أو برفع الوسائط بيني وبينكم؛ لأنَّ مَنْ شاهد الحق وعاينه تكون محبته وعبوديته بغير واسطة الربوبية، قائمة بذاته، أبدًا ليس للأولياء والأنبياء إلا الإخبار والأنباء عند أمر الله، وكشفه مراده لهم، وخصَّ من بينهم الصدِّيق وأقرانه -رضي الله عنهم أجمعين.

ألا ترى حين قبض رسول الله ﷺ قال: «من كان يعبد محمدًا؛ فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فالله حي لا يموت»[1]، وهذا الوصف ظاهر في آخر الآية ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ في الصديق ونظرائه رضوان الرحمن عليهم بقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ يعني: أبا بكر، ومَنْ كان قلبه مثل قلبه في الإيمان والإيقان شكرهم استقامتهم في الرب والولاية، وجزاء شكرهم نصر الله وظفره لهم بانهزام المروة عن ساحة الشريعة.

قال الواسطي: غضت البصائر عند وفاة النبي ﷺ إلا لرجل واحد، وهو فضل عليهم، وهو الداعي إلى الله على بصيرة، وهو أبو بكر، فكأن هذه الآية خُصَّ هو بها، وعجزت الأمة عن ذلك لضعف نحائرها، ووهن بصائرها، وبأن نضيلة أبي بكر بذلك، وهو قول: «من كان يعبد محمدًا؛ فإن محمد قد مات».

وقال الحسين: ليس للرسول إلا ما أمر به أو كشف له، ألا تراه لما سُئِلَ: «فيم يختصم الملا الأعلى»[2]، يعني: لم يسمع حسًّا ولا نطقًا، فلما غيب عنه شاهده فوقع الصفة عليه شاهدهم بشهود الحق، وذهب عنه صفة آدميته فتكلم بالعلوم كلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ بيَّن الله سبحانه أن من قدرته إماتة حي أعظم من إيجاد حي وأعجب من إبقائه؛ لأنَّ في الموجود قدرة وليس في المعدوم قدرة، وأيضًا إشارة إلى أهل الرياضة، أي أن النفس الأمَّارة لا تزول بالرياضة والمجاهدة أنها تطمئن بإذن الله وبحلاوة ذكره ومناجاته.

قال الواسطي: ليس نفس تملك الفناء والبقاء، بل كان ذلك الآجال مضروبة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ثواب الدنيا المعرفة، وثواب الآخرة المشاهدة، وأيضًا ثواب الدنيا محبته، وثواب الآخرة قربته، وأيضًا أي: مَنْ وقع في محل الإرادة وأرادني فقد أتجلى له بالآيات ومن الآيات

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٦٦).

وفي الآيات، التباسًا ومَنْ وقع في المعرفة وأرادني صرفًا أتجلى له بلا علة؛ لأن الإرادة محل الغيبة، والمعرفة محل الحضور، وأيضًا ثواب الدنيا صحبة الأولياء، وثواب الآخرة صحبة الحق.

قيل: ثواب الدنيا العافية.

وقيل: إلهام شكر النعمة، وثواب الآخرة: الجنة ونعيمها

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: محبكم بمحبة الأزلية، وحافظكم عن شر أنفسكم، وكل خاطر يشير إلى غيره، وناصركم عند تحملكم مشاق العبودية عن إباء نفوسكم عن تحملها.

قال ابن عطاء: معينكم على ما حملكم من أوامره ونواهيه.

قال جعفر: متولي أموركم بدار عاقبته.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾: خير الناصرين لكم على أنفسكم وهواكم[1].

قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: منكم مَنْ وقع في بحر غنى القدم واتصف به، ويخرج منه بنعت التمكين، ورؤية النعم في شكر المُنعم كسليمان ﷺ، ومنكم مَنْ وقع في بحر التنزيه وتقديس الأزلية، فغلب عليه القدس والطهارة، فيخرج بنعت الفقر بتجريد التوحيد، وإفراد قدمه من الحدوث، كمحمد ﷺ حيث قال:

---

(١) ويقال: كل من استنصرت به احتجتَ إلى أن تُعطِيَه شيئًا من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك، فإذا استنصرته - سبحانه - يعطيك كلَّ لطيفة، ولا يرضى بألا ينصرك. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٠٢).

«الفقر فخري»[1].

وأيضًا: منكم مَنْ يريد الدنيا للفناء، ومنكم مَنْ يريد الآخرة للبقاء، وأيضًا منكم مَنْ يريد مشاهدة الله في الدنيا كموسى ﷺ، ومنكم مَنْ يريد مشاهدة الله على نعت السرمد، ولا يكون إلا في الآخرة وعده.

قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ربُّ الدنيا كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] أي: أهل القرية.

قال أبو سعيد الخرَّاز: مادمتم بكم، وأوصافكم كانت هتكم الحوادث والدارين، وإذا توليتكم وأخليتكم من صفاتكم وأكوانكم، وعلوت بهممكم إليَّ فأفنيتكم من النظر إلى الأكوان وإرادتها، وأفنيتكم بالحق مع الحق، وقال: متى ما طالعهم بأسرارهم بحقهم عن آثارهم ودهشتهم في مبادئهم.

قال النوري: العامة في قميص العبودية، والخاصة في قميص الربوبية، فلا يلاحظون العبودية، وأهل الصفوة جذبهم الحق ومحاهم عن نفوسهم.

قال الشبلي: منكم مَنْ يريد الدنيا للقناعة، ومنكم مَنْ يريد الآخرة للجنة، وأين مريد الله؟ ومريد الله مَنْ إذا قال، قال: الله، وإذا سكت فليس سوى الله.

وقال سهل بن عبد الله: دنياك نفسك، فإذا أفنيتها فلا دنيا لك.

قيل: قُرئت هذه الآية بين يدي الشبلي، فقال: أوه، من قطع طريق الخلق إليه وردَّ الأشباح إلى قيمتها.

قال محمد بن علي: منكم مَنْ يريد الدنيا للآخرة، ومنكم مَنْ يريد الآخرة لله.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١١٣).

كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أي: من رسم طريق المعرفة تجلي القهر واللطف، القهر من العظمة والغيرة، واللطف من الحسن والجمال، وفي عين الحقيقة هما واحد الأول: تربية، والثاني: رفاهية، وسنَّة الله جرت على مباشرتها على التسرمد، فما باشر للقهر وجود العارف إلا ويأتي بعده نور تجلي اللطف والبسط والروح والكشف والأنس، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦]، فلمّا ذاقوا ألم الامتحان أنسوا برؤية الرحمن، الأول خوف؛ لأنهم في العبودية، والآخر أمن لأنهم في رؤية الربوبية، وذلك يقتضي الأمن والنعاس محل الكشف، كاشفهم الله هموم المجاهدة بنور المشاهدة.

قال ابن عطاء: مَنْ صدق إرادته واجتهاده ورياضته ردَّ إلى محل الأنس.

صدق ابن عطاء، هذا وصف من وصفهم الله بالتمكين والاستقامة من الصحابة المباركة ﷺ بالصبر في البلاء كأنصار الأنبياء، وصفهم الله بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والربيون الربانيون الذين هم مربون في قرب الرب ومشاهدته.

قال الجريري: منقطعون إلى الرب فانية منهم أوصافهم وإرادتهم، متطلعون لإرادة الله فيهم.

قال بعضهم: ﴿رِبِّيُّونَ﴾ وزراء الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ عليهم روع أنوار عظمة الله، ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ لأنهم مقوون بقوة الله، ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾؛ لأنهم مؤيدون بتأييد الله ومع جلالتهم وضعوا أقدامهم على أعناق نفوسهم الخيانة الأمَّارة هواها فخرجوا من داعية هواهم إلى مراد الله، لا جرم ألبسهم الله لباس وصفه الذي وصف نفسه بالصبر، ثم أحبهم لوصفه عليهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قال الواسطي: أي كونوا كأبي بكر لما كانت لنسبته إلى الحق أتم لم يؤثر عليه فقدان السبب ولما ضعف نسبتهم أثّر عليهم، فعمر بن الخطاب قال: «من قال مات محمد ضربت عنقه»، وأبو بكر نظر إلى ما دلّ عليه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ إنَّ الله سبحانه خلق قلوب هذه الأمة وقت إيجادها في رؤية جمال القدم، ونورها بالحسن والرجاء، وأخرج أرواحها من العدم إلى عالم البسط والسرور، وسنا المشاهدة والسماع والحور، وألبسها خُلق اللطف، فصارت مستعدة لرؤية الألطاف قابلة نور الأُنس، ومن كمال حكمة الله ولطفه علينا خلق نبينا ﷺ على خلق البسط وروح الإنس، فوافقت المرافقة، وحصلت في البين أهلية، ودانت الأرواح وقربت الأشباح، فبقيت الحشمة وفنيت الغلظة، وصار رحمة تامة لهذه الأمة المرحومة، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ تبيّن من الخطاب لطف الجانبين نسب الفعل إلى النبي ﷺ وإنْ كان غير متكلف في التليين؛ لأنَّه كان مخلوقًا باللطف والكرم من الله، وفيها الإشارة إلى تأديب الصحابة، أي لو كان النبي ﷺ يدقق عليهم أحكام الحقائق لضاقت صدورهم، ولم يتحملوا أثقال حقيقة الآداب في الطريق، ولكن سامحهم بالشريعة والرخص بحقائق ما أوجبه الله عليهم، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فالعفو والاستغفار من مسامحة الله لهم، فاعف عنهم تقصيرهم قلّة عرفانهم أقدارك، واستغفر لهم ما يجري في صدورهم من الخطرات التي لا تليق بالمعرفة، وما يجري على صورهم من الحركات التي لا تليق بصحبتك ومجالستك؛ لأنك مستغرق في الربوبية، وهم يطلبونك في مقام العبودية، وهم في وصف المحبة والإرادة، فأنت في محل التوحيد مشاهد مطالع شموس الآزال وأقمار الآباد[1].

قال الواسطي في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾: جميع أوصافك وما يخرج من أنفاسك رحمة مني عليك وعلى من اتبعك.

وقال ابن عطاء: لما علا خلقه جميع الأخلاق عظمت المؤنة عليه، فأمر بالغض والعفو والاستغفار.

---

(١) جرَّده عن أوصاف البشرية، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولي، لا من آثار الوفاق والتبري، ولولا أنه استخلقه بما ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة؟! انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٠٩).

قال الحارث المحاسبي في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾: نسب ما كان منه في ذلك من اللين والمداراة إلى نفسه بقوله : برحمتي لنت لهم ، وما كان الله يقول لنبيه ﷺ: إنك لنت لولا إنه لينه بمعرفته ووفّقه للمداراة.

قال الفارسي: انظر كيف وصف الله تعالى نبيه ﷺ باللين والشفقة، ثم عرّاه عن أوصافه فقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ وذاك حق قيامك بنا وهجرانك الخلق أجمع.

قال الأستاذ: يقال: إن من خصائص رحمته سبحانه عليه أن قواه حتى صحبهم، وصبر على تبليغ الرسالة مع الذي كان يقاسيه من أخلاقهم مع سلطان ما كان مستغرقًا له، ولجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه، فلولا قوة الإلهية استأثره الحق بها، وإلا متى أطاق صحبتهم، ألا ترى إلى موسى ﷺ لما كان قريب العهد بسماع كلامه، كيف له يصير على مخاطبة أخيه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾[الأعراف:١٥٠].

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ لو سقيتهم صرف شراب التوحيد غير ممزوج بما فيه لهم حظ، لتفرقوا هائمين على وجوههم غير مطيقين الوقوف معك لحظة .

وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ إذا كان في محل العبودية وأمور الشريعة وعالم العقل أمر لله بحسن معاشرته معهم واستبشارهم في وقائع مستقبلات القدر، كيف يقبلونها بالعقول والقلوب بنعت التفكر والصبر في أحكامه؛ لأنهم كانوا يشربون من سواقي بحاره، ولأنهم في مقام الولاية، وهو في مقام الرسالة والنبوة وهما واحد في عين الجمع، يرون الغيب بنور الفِراسة، وهو يراه بأنوار النبوة والرسالة، وكان ﷺ يحتاج في محل العبودية إلى نصرة الصحابة له في الدين.

وإذا كان في مشاهدة الربوبية، وخرج من التفرقة إلى الجميع، أمره الله سبحانه بإفراد القدم عن الحدث؛ حيث تجرد في سيره عما لله إلى الله بقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه حسبك فيما يريد منه.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ نصر الله سكينته وقعت من نور تجلي الحق سبحانه في قلوب العارفين؛ حيث توجهت من الحدثان إلى جلاله بنعت التضرع في عظمته وكبريائه، فلما تلبَّست أنوار الغيب مع نور البسط والرجاء، فقويت بها الأشباح فأيدت لهم بحلول الأزل وقوته، فحينئذ انحسرت جنود القهر بسطوة الهيبة عن معارك عساكر اللطف.

وذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»[١]، وحقائقه مشروحة في ترقي مقامات دنو النبي ﷺ وذلك إشارته في سجوده بقوله: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك»[٢].

نصر الله في المريدين توفيقهم في قمع الشهوات، ونصره في المحبين نور اليقين من تبسم فلق صبح الأزل بنعت المداناة، ونصره في العارفين انفتاح كنوز أسرار علوم المجهولة بمفاتيح كشف المشاهدات.

قال بعضهم: إنَّما يدرك نصر الله مَنْ تبرأ من حوله وقوته واعتصم بربه في جميع أسبابه؛ لأن مَنْ اعتمد على حوله وقوته ورأى الأشياء منه، فإنه مردود إلى حول الله وقوته وعلمه.

قال الأستاذ: نصرته بالتوفيق بلا أشباح، ثم بالتحقيق للأرواح.

ويقال: ينصركم بتأييد الظاهر، وتسديد السرائر.

ويقال: النصرة إنما يكون على العدو، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، النصر على تهزم دواعي فتنتها بعواصم رحمته حتى تنقص جنود الشهوات بهجوم وقود المنازلات، فتبقى الولاية خالصة عن شبهات الدواعي التي هي أوصاف البشرية، وشهوات النفوس وأمانيها التي هي آثار الحجبة وموانع القربة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ مقدَّس أسراره عن دنس الخطرات، ووصفه بالأمانة عند إخباره عن أنباء الغيب لم يجر على قلبه عند بيان الشريعة والطريقة، مداهنة لرؤية شريف ووضيع، ولم يخف حق الله ﷻ عن عباده وأعطى علم الحق لأهل الحق، وبيَّن المحجوبين آية الحق ببرهان الحق، ولم يخط في طريق الحق خطوة بحظ نفسه.

قال بعض المشايخ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أن تستأثر بالوحي والشريعة بعض متبعيه على بعض.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

قال يحيى العلوي: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أن تضيع أسراره إلا عند الأمناء من أمته.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ كان النبي ﷺ مرآة الحق يتجلى بجلاله وجماله للأمناء والصدِّيقين منه، يرون الله برؤيته لقوله ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق»[1]، مَنَّ على عباده بوجوده، ولو يتجلى لهم صرفًا لاحترقوا بأول سطوات عظمته، جعله برحمته واسطة تجليه وذلك بمحل الالتباس من ظهور نفسه لذوي الأبصار، وإشارة قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: حال أمته من حيث حاله، وشربهم من حيث شربه، وأي مِنّة أعظم على المؤمنين من النبي ﷺ وهو منظر جمال الحق للخلق، ومعرفهم أسماءه وصفاته ونعوته، ومهالك المهلكات، ومنازل السجيات.

قال بعض المشايخ: أكثر مِنّة على الخلق وسائط الأنبياء إليهم ليصلوا بهم إليه؛ لأنه لو أظهر عليهم من صفاته ذرة لأحرقهم جميعًا، ولضلُّوا فيه عن الطريق إلا المعصومون.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ نبَّه الخلق أن مَنْ قُتِلَ في سبيل العشق بسيوف العشق انسلخ من الحدث إلى القدم، والتبس بنور الأزل من الأزل، فلما بلغ نعت الأولية واتصف بصفة الأزلية، يصير منعوتًا بنعت الأخروية موصوفًا بوصف الأبدية؛ لأن صفات الحق جلَّ سلطانه واحدة في الوحدانية خارجة عن الجمع والتفرقة، فيضها في الأفعال تفرقة مع الأسماء، ونورها في العينية جمع لأهل الوحدة، وعل أن وصل

---

(١) سبق تخريجه.

نور الصفة فيكون خارجًا عن الصفة الأولية صفة، والأخروية صفة، والآخر أول في النعت، فمَنْ كان نعته أولية فيكون نعته أخروية، وإذا خرج من الحدثان إلى جمال الرحمن لم يجر عليه صفات الحدث بعده عن صفة الموت والفناء، بل يصير حيًا باتصافه بحياة الحق، وحياة الحق أبدي، لم يجر عليه علل حياة الإنساني وموت الإنساني، وهذا من فيض نور مشاهدته وعنديته؛ لأن مقتول السيف التجلي يحيا بقبض القربة والعندية، ومَنْ يكون في العندية كيف يفنى ويموت وهو مشاهد في شهود الحق إياه ورزقه فيض مزيد مشاهدة الحق، وزيادة اتصافه ببقاء الحق، وفرحه بنيل بقائه من بقاء الحق[1].

ومَنْ قُتِلَ بسيف الإرادة فهو باقٍ بنور القربة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المحبة فهو باقٍ في سنا المشاهدة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المعرفة فهو باقٍ في أنس الوصلة، ومَنْ قُتِلَ بسيف التوحيد فهو باقٍ بالوحدة في الوحدة، وحياة هؤلاء من تجلي الأزلية وشهادة هؤلاء بغيرة العزة، غار عليهم فأفناهم، وأحبهم فأبقاهم.

قال ابن عطاء: المقتول على المشاهدة باقٍ برؤية شاهده، والميت مَنْ عاش على رؤية نفسه ومتابعة هواه.

قال أبو سعيد القرشي في هذه الآية: لا تظنن الهالكين في طريق الإرادة طلبًا لوصله مردودين إلى مقاماتهم، بل قد بلغ بهم غاية ما قصدوا من القرب والوصلة إحياءً بقرب الحق عند ربهم في مجلس المشاهدة، يرزقون زيادة الفوائد من أنوار الاطلاع فرحين بالغين أقصى رضاه.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ نعمة الله معرفة الله ومحبته وفضله مشاهدته، فاستبشار القوم برؤية الله وجلاله وقدمه وبقائه لا بشيء من الحدثان، كانوا إذا نظروا إلى قدمه استبشروا بنعمة بقائه، وإذا نظروا إلى بقائه فرحوا بمشاهدة قدمه .

---

(١) ويقال: إن الذي وارثُه الحي الذي لم يزل فليس بميت. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤١٧).

قال ابن عطاء: لو نظروا إلى المُنعِم لتنقص عليهم الاستبشار بنعمه وفضله، وكان استبشارهم بالمُنعِم المتفضل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ استجابوا الله بحب شاهدته، والاشتياق إلى جماله ولطائف قربه، ولذائذ صحبته، وللرسول ﷺ لما عليه من آثار أنوار صفاته، وفيه إشارة إلى مقام الاتحاد حيث الأمر واحد، وإنّ الله سبحانه وتعالى وصفهم بحسن الإرادة في محبته، وطلب جماله ببذل أرواحهم بعد احتمال آلام الامتحان على أبدانهم بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾.

قال الواسطي: استجابوا لله بالوحدانية، وأجابوا الرسول باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وقبول الشريعة منه على الرأس والعين.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: للذين بلغوا مقام الإحسان وهو رؤية الله في مقام الامتحان، ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ جميع الحجاب بينهم وبينه إحسانهم إلقاء نفوسهم وهواجسها عند قبولهم مراد الحق بعد خروجهم عن مرادهم، و﴿أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ الذي وصفه الله بإعداده لهم، هو إيصالهم إليه بغير الهجران والعتاب، والحساب والحجاب[1].

وقيل: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ في إجابة المصطفى ﷺ، ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ مخالفته سرًّا وعلنًا، ﴿أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ هو البلوغ إلى المحل العظيم من مجاورة الحق ومشاهدته.

قال الأستاذ: في هذه الآية استجابة الحق بالتحقيق بوجوده، واستجابة الرسول بالتخلق بما شرع من حدوده، واستجابة الحق بالصفاء في حق الربوبية، واستجابة الرسول بالوفاء في إقامة العبودية، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ في ابتداء مقاماتهم قبل ظهور أنوار التجلي على قلوبهم، وابتسام الحقائق في أسرارهم، ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وهو المشاهدة، ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ «فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك»[2]، وهو المراقبة في حال المجاهدة أجر عظيم لأهل البداية، مؤجلاً ولأهل النهاية معجلاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ قدّس الحق سبحانه حضرة

---

(١) كذا سُنّة الحق – سبحانه – مع مَنْ صَدَق في التجائه إليه أن يمهد مقيله في ظل كفايته؛ فلا البلاء يمسه، ولا العناء يصيبه، ولا النَّصَبُ يُظِلُّه. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٢١).

(٢) سبق تخريجه.

الكبرياء عن تهمة الأغيار، ونفي الأنداد عن ساحة الجلال، قال: ﴿وَخَافُونِ﴾ في التفاتكم بالأسرار بنعت الخوف من الأغيار، رفع ما استحق له عمَّن ليس له استحقاق، وخوف العباد منه حقوق ربوبيته، وليس في هذا الخوف من الغير نصيب، قرن الخوف والإيمان محل البرهان عند وقوع الامتحان، فإذا وقع نور المشاهدة تظهر أنوار الهيبة، وتذهب علّة الخوف، خوفهم بنفسه لا من عذابه، أي: من نظر إلى غيري بنعت إجلاله احتجب عني به، وأنا أبقيه في الخوف من غيري، وهو محل الشرك به، أي: مَنْ خافني فهو في محل الإيمان، ومَنْ خالف غيري فهو في محل الشرك، وهذا الشرك شرك خفي.

قال الواسطي: الخوف من شرط الإيمان، والخشية من شرط العلم، وإشارته في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال ابن عطاء: ما دمتم متمسكين بالطريقة فخافوني، فمَنْ ترك الخوف فقد ترك الطريقة المستقيمة.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ امتحن النبي ﷺ بعزائم الأمر في التوكل والرضا؛ حيث أحزنه بحث الكفار وتخويفهم إياه، ثم أمره بفتح عين سره في جلال قدمه، الذي سبب ذهاب جميع الأحزان من غيره عن قلبه، فإنَّ مَنْ استحكم في معرفته فلا يجري أحكام التلوين على قلبه.

قال الواسطي: الحزن في الأحوال كلها، وفي الحقيقة تعريف لهم وتنبيه، وهذه الآية من خيار الحقائق التي جرت أنهم لن يضروا الله شيئاً؛ لأنهم جحدوا ما يليق بطبائعهم.

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أخبر عن كمال اهتمام النبي ﷺ وشفقته على شريعة الله ونظام دينه، حيث أخبر بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ﴾؛ لأن حزنه من أجله، أي: فلا تحزن فإن ساحة الكبرياء مقدسة عن هجوم ضلال الضُّلَّال، وفيه أيضًا إشارة الاتحاد بقوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: كيدهم بك لا يضرك، أخبر به عنه، وأقام نفسه حيث تخلق الحبيب بالحبيب، وتوحد الحبيب بالحبيب.

وقيل في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: لأنه الذي تولاهم وفي البلية القاهم.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ إنَّ لله غيوبًا، غيب الظاهر، وغيب الباطن، وغيب الغيب، وسر الغيب، وغيب السر.

أمّا غيب الظاهر: فما أخبر الله تعالى عن أمر الآخرة ولا يطّلع عليها إلا مَنْ بلغ مقام اليقين، وصاحبه خارج عن شواغل النفوس، وخطرات الشياطين، لكن لم يكن على حد الاستقامة، فرؤية الآخرة له تارة؛ لأن اليقين خطرات، وهذا الخطاب بهذا المعنى خطاب الأضداد.

وأما غيب الباطن فغيب للمقدورات المكتومة عن قلوب الأغيار، وذلك الخطاب خطاب أهل الإيمان.

وأما غيب الغيب فهو سر الصفات في الأفعال، وفي هذا المعنى خطاب المريدين.

وأما سر الغيب فهو نور الذات في الصفة، وهذا الخطاب للمحبين.

وأما غيب السر، فهو عينية القدم التي لا يطّلع عليها أسرار الخليقة أبدًا(١).

وإذا كان هذا الغيب المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾

---

(١) وقيل: إنَّ أسرار الغيب لا تظهر للمتلوثين بأدناس البشرية، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلَّ وقلَّ، فيخنص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسراره. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٢٦).

فخطابه مع جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والأصفياء الصديقين العارفين الموحدين؛ لأن الأزلية منزَّهة عن إدراك الخلائق أجمعين، وخاصية نبينا ﷺ في هذا المعنى رؤية هذه المعاني بنعت الكشف له، وابتسام إصباح الأزل في وجهه، لا بنعت الإحاطة وإدراك الكلية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ مثل محمد ﷺ وعيسى وموسى وإبراهيم وآدم صلوات الله عليهم أجمعين، وذلك مشروح في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

قيل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ وأنتم تلاحظون أشباحكم وأفعالكم وأحوالكم، وإنَّما يطلع على الغيب مَنْ كان أمين السر والعلانية موثوق الظاهر والباطن، ثم يفتح له من طريق الغيب بقدر أمانته ووثاقته، ألا تراه يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، هو الفاني من أوصافه، المتَّصف بأوصاف الحق.

وبيَّن أن بعض الغيب مظهر للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني محمدًا ﷺ، وذلك حكمه بالغيب، وحكمه على الغيب بقوله: «عشرة من قريش في الجنة»[1].

ومثل ما أخبر عن الله سبحانه وعن أمر الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إن الله تعالى زجر الستارين هاهنا بكتمان المكاشفات، وحقائق الواردات، ووقائع المغيبات عن الطالبين؛ لأن أصل السخاء تخليص المتحيرين عن درك الامتحان، وإرشادهم إلى طريق العرفان، وأي سخاء أعظم من إظهار مواهب الله على المريدين لاستزاد محبتهم وجه الله سبحانه، واستكبار شوقهم إلى جماله، وتحبيبهم أعمالهم وعبوديته، وتصديق ذلك قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

ومَنْ كان يطيق ما ذكرنا من إرادة الخير على طلاب الله كيف لا يطيق بذل نفسه وماله وروحه في طريق الحق فداءً لأولياء الله، لأنهم معدن السخاء، والسخاء منهم ينشعب، والسخاء بالمال وصف المريدين، وبالنفس وصف المحبين، وبالروح وصف العارفين، والبخل بجميع الأشياء أعمى النفس الأمَّارة عن رؤية منن بحار القدم، والسخاء انفتاح عين القلب على ذخائر القدرة، وكنوز الألوهية المملوءة من الآلاء والنعماء ومباشرة تجلي الوهابية

(١) رواه البزار في مسنده (٤/ ٩٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٦٠)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٣٥١).

الأزلية السرمدية قلوب الصدِّيقين العاشقين، وتلك الجبلة جبلة الأولياء ليس للأعداء فيها نصيب.

كما رُوِيَ عن النبي ﷺ: «ما جبل ولي الله إلا على السخاء»[1].

والذي نبأنا الله من أخبار اليهود دليل على ما ذكرنا أنهم سرقوا نعت النبي ﷺ الذي وصف الله به نبيه في التوراة والإنجيل، وهذا الكتمان أصل البخل، فمَنْ كان في الدنيا محجوبًا بالمال عن مقام السخاء والتخلق بوصف الله سبحانه من الغنى والعطاء، بقي فيه ذلك حجاب إلى الأبد، ويكون مفتضحًا في الدنيا والآخرة، مشهورًا بعلامة اللؤم وسمة البعد، وذلك قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وبَّخ المفلسين؛ حيث وصف نفسه ببقائه مع ملكه القديم بعد فناء خلقه وانقطاعهم عن مأمولهم، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنا صاحب المواهب السنية، أجازي بها المنفقين وجودهم في طريقي، وأعطيهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين.

قال ابن عطاء: السلوك في طريق الحق على السخاء واجتناب البخل، وهو بذل النفس والمال والسر والروح والكل، ومَنْ بخل بشيء في طريق الحق حجب به، وبقي معه، ومَنْ نظر في طريق الحق إلى الغير، حرم فوائد الحق وسواطع أنوار القرب.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ النفس صنم زينها الحق بكسوة الربوبية، وملأها من القهر واللطف، وكسي زينة ملكه أموال الدنيا امتحانًا للعاشقين، فمَنْ نظر إلى نفسه بغير زينة الحق صار فرعونًا نطق لسان القهر منه بـ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وذلك مكر القدم واستدراجه.

ومَنْ نظر إلى ربوبية وفنيت نفسه فيها نطق لسان الربوبية منه كالحلاج - قدَّس الله

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٤١)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٥٩).

روحه العزيز- بقوله: أنا الحق، ومثاله في ذلك مثال شجرة موسى ﷺ؛ حيث نطق الحق سبحانه منها بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، نطق بصفته عن فعله.

ومَنْ نظر إلى زينة الأموال التي هي زينة الملك صار حاله حال سليمان- صلوات الله عليه - لأنه كان ينظر إلى شرف جلاله بإعطاء الملك إياه، ومَنْ نظر إلى خضرة الدنيا وتابع شهواتها صار كالبلعام، فمثله كمثل الكلب، وأي الابتلاء أعظم من رؤية الملك ورؤية الربوبية في الكون؛ لأنه محل الالتباس، فمَنْ كان محتجبًا بهذين الوسيلتين عن رؤية الفردانية، بقي في تهمة العشق خارجًا عن نعوت الفردانية والوحدانية.

قال ابن زانيار: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أموالكم بجمعها ومنعها، والتقصير في حقوق الله فيها، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ باتباع شهواتها وترك رياضتها، وملازمة أسباب الدنيا، وخلوها عن النظر في أمور المعاد.

وقيل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالاشتغال بها أخذًا وإعطاءً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ إنَّ الله تعالى أمر الصادقين الذين هم أصحاب إلهام الخاصة والمحدثين والمكلمين من المقربين، بأن يظهروا بعض مقاماتهم التي بينهم وبين الله سبحانه، وما يليق بفهم الطالبين، ويعرفوا سنيات أحوال أهل الولاية في زمانهم للخلق ليتركوا بهم ويصلوا إلى الله ببركاتهم، ولا يغار عليهم، وذلك صفة أهل الكمال من علماء المعرفة، ولا يكونوا مداهنين في كتمان مناقب الصدِّيقين.

قيل: أخذ الله المواثيق على عامة أولياء الله به ألا تخفوا كرامات الله عندهم، فمَنْ لا يفتتن بذلك، ولا يتخذه دعوى، وإن يعلموا من قصدهم من المريدين الطريق إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذا لمَنْ لم يبلغ مقام الواصلين، ولو وصل ما باعه بالحدثان، وكيف يطيق ممَنْ رآه أن يشتغل بسواه، ولم يصلوا مقاصد القوم، وبقوا في أول الطريق برهة من الدهر، ولم يجدوا حلاوة الوصال، فادَّعوا عند الخلق بالبلاغة والكمال، وهم علموا أنهم لم يشاهدوا مواهب الله وكراماته، فباعوا ما ليس لهم، ووقفوا في تغير الله، وخجلوا بين يدي أولياء الله؛ لأنهم عرفوا خيانتهم[1].

---

(١) أخبر أنهم أبرموا عهودهم ألا يزولوا عن وفائه، ولكنهم نقضوا أسباب الذِّمام بما صاروا إليه من الكفران، ثم تبيَّن أنَّ ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبارَكْ لهم فيه. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٣٣).

قيل: ادعوا ذلك لأنفسهم ليفتتنوا به الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ هذا وصف الكذّابين في دعوى المعاملات قبل شروعهم فيها في إظهارهم سمات أهل المعاملة بظاهر التقشف وزي أهل الناموس لصرف وجوه الناس إليهم بمجرد الدعوى، وأهل الرياء علوا على رؤية الخلق، وجب محمدتهم، وذلك القوم أضل من المرائين؛ لأنهم يطلبون المحمدة والجاه بغير عمل، وهم أقبح طائفة من المرائين الكذابين، وإن الله تعالى بيَّن بما ذكرنا في قوله: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ وأخبر أنهم لم يخرجوا من حجب النفسانية، وبقوا في حجاب الهجران وهو أشد عذاب.

قال حاتم الأصم: حذَّر الله بهذه سلوك طريق المرائين والمتقربين والمتزهدين والمتوسلين بسمات الصالحين، وهم من ذلك أحوال.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ إنَّ ذلك الظاهر ينجيهم من العذاب، كلا بل لهم عذاب أليم، وهو أن يحجبهم عن رؤيته ويمنعهم لذيذ خطابه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في هذه الآية إشارة لطيفة، وذلك أن الله سبحانه وصف الربانيين بإدراك أنوار صفة الأزل وذات القدم في ظهور قدرته في فعله، أي: لهم برهان منه إليه لا من الخلق؛ لأن في إيجاده غلقة يدركه نظّار المعارف وحذّاق الكواشف لا في رؤية الخلق؛ لأن الحدث حجاب عن رؤية القدم، وهذا مقام الخليل صلوات الله عليه أحسن الأدب، وعلل في السؤال برؤية الخلق مراده إدراك الربوبية المحضة، وذلك السؤال أعظم من سؤال موسى ﷺ؛ لأن موسى سأل رؤية الله تعالى قط بغير الواسطة، وهذا عام، وما سأل الخليل ﷺ بالواسطة أدق؛ لأنه سأل سر التقدير والقدرة من كمال شوقه من معرفته إلى نكرته، ومن نكرته إلى معرفته، وأيضًا خصَّ السماء بظهور الآيات منها؛ لأنها مزينة بنور جلاله، ملتبسة بسنا جماله؛ لأنها مرآة كواشف الصدِّيقين وطرق معارج المرسلين.

ألا ترى إلى قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، وقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:٧٥]، وكشف جلاله للخليل ﷺ بواسطة الشمس والقمر والنجم، حتى قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦]، وخاصية الأرض لموقع أقدام الصدِّيقين والأنبياء والمرسلين، وإشراق نوره للمراقبين والمشاهدين؛ لأنها مقبوضة بطش الحق بقبضة العزة، قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

وأخبر النبي ﷺ في معالم القدرة عن ظهور جلال الأزل من مواقف المقدسية بقوله: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»[1].

وخصَّ الليل؛ لأنها محل مناجاة العارفين وكشوف عظمته، فهو الأزل بنعت الهيبة للموحدين، وخصَّ النهار؛ لأنه سبب فرحة المحبين، وموضع بسط المشتاقين، ورؤية جلاله للمبصرين، الذين يرون الله في مرآة الكون بنور القدرة وسنا المعرفة، وقفوا باب المعارف على هذه الشواهد، ورأوا الشاهد قبل المشاهد.

كما قال بعضهم: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه، أرى الباء الحقيقة أنور فعله في السماوات والأرض والليل والنهار، ثم أراهم فيها أنوار القدرة الخاصة الصفاتية، وأرى ذاته تعالى في أنوار الصفة، فعلل الحقائق بلفظ المجهول، وأبهم على الأغيار أسرار معاني الخطاب، بقوله الآيات وعني بالآيات ما ذكرنا.

أنشد بعضهم:

إنَّ المــودةَ لم تَــزَلْ مَوْصُــولةً ... قــررَ بِــلادِي وأَكثــرَ وِدَادِي
وَاحْــذَر عِــدَاةَ الحَــيِّ أَنْ يَلقُــوكَ ... وَلْــيَظُنَّ العِــدَاةُ أَنَّــكَ حَــادِي

هذا محل الالتباس، وشبيه ذلك ما أخبر تعالى لِمَنْ حق فهم ظهور جلال عظمته في لباس القهر، وفعل المجهول من المقصرين في نعوت الإرادة؛ حيث قال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة:٢١٠]، ومع هذا لو كنوا هؤلاء شاهدين على نعت رؤية الفردانية لم تخلهم إلى رؤية الصفة في الآيات؛ لأنها وسائط تليق بمقام المحبة وإفراد القدم عن الحدوث، مقام أهل التوحيد؛ حيث يرونه به لا بغيره.

ألا ترى كيف خاطب الحق مَنْ انسلخ عن نعوت الحدث إلى نعوت الأزل ﷺ حيث قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان:٤٥]، ولولا أنهم حجبوا بالعقول ما رفعهم إلى رؤية الحوادث بأن الله سبحانه خلق العقول لجولانها في الآيات بنعت التفكر والتذكر، وخلق

(١) سبق تخريجه.

الأرواح لتنسم نفحات تجلي القدس من بساتين الأنس، وأيضًا مَنْ احتاج في معرفة الله سبحانه إلى رؤية الآيات ليثبت بها وجود الحق سبحانه، فهو عامي حيث يعرف القديم بالمحدث، وأن الأكوان تلاشت في أول بادٍ بدأ من نور العظمة والكبرياء القديم.

قال الجنيد: كل مَنْ أثبته بعلّة فقد أثبت غيره، لأن العلّة لا تصحب إلا معلولاً جل الحق عن ذلك.

وقال الواسطي في هذه الآية: هو فرّق ما بين معرفة العامة ومعرفة المحققين؛ لأن العامة اعتقد به بما يليق بطبعها، والخواص اعتقدوا به بما يليق به، وكل حال أثبته العموم جحدته الخصوص، فهو عند الخاص منزّه عن كل ما وصفه به العامة؛ لأن العام اعتقدوه من حيث العبودية، والخاص اعتقدوه من حيث الربوبية.

وقال بعضهم: إنَّ الخواص لم ينظروا إلى الكون، والحوادث إلا لمشاهدة الآيات، وما شاهدوا الآيات إلا لمشاهدة الحق فيها، ومَنْ شاهد الحق لم يمازج سريرته طعم الحدث.

وقال النصرآبادي: مَنْ لم يكن من أولي الألباب، لم يكن له في النظر إلى السماوات والأرض اعتبار، وأولو الألباب هم الناظرون إلى الخلق بعين الحق.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إنَّ الله سبحانه لمَّا خلق أرواح أهل المعارف أوجدها على كشف جماله، فوقعت كينونة الأرواح على سواطع نور المشاهدة، فباشرت أنوارها صميم الأرواح، فعشقت بالله جماله وجلاله، فلمَّا اشترت بالأشباح بقي الذكر والعشق والمحبة معها عوض المشاهدة، ففي كل نفس لا يخلو عن ذكر معاهد الأول ومشاهدة القديم بنعت الشوق والمحبة والعشق، وذلك بغير اختيارها ذاكرة للمذكور، متفكرة للغيبة والحضور، شائقة عاشقة بنعت الهيجان والهيمان على جميع الأحوال، مجذوبة بسلسلة الوصلة إلى جمال القدم، مستغرقة في بحار المواجيد وأنوار الكواشف، لأجل ذلك وصفها الله بدوام الذكر والفكر على نعت التسرمد، وأخبر على قدر عقول الخلق عن أحوالهم بلفظ الذكر والفكر، وذلك نعت قلوبهم وعقولهم وأبدانهم، وأخفى شهود أرواحهم مشاهد القدس والأنس لطفًا وإبقاءً ومحبةً وغيرة، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ قيامهم مقرون بذكر العظمة والكبرياء، وقعودهم مقرون بذكر الجمال وحسن الأفضال، واضطجاعهم مقرون بذكر البسط والانبساط، والرفاهية في الشوق والمحبة، فذكرهم على قدر كشوف الصفات، فكشف العظمة هيجهم إلى ذكر الفناء إلى التوحيد، وكشف الكبرياء هيجهم إلى ذكر الاضمحلال في التواضع والتفريد، وكشف البهاء هيجهم إلى ذكر الخمود في الشهود، وكشف القدرة هيجهم إلى ذكر العجز في العبودية عن إدراك

الربوبية، وكشف الجمال هيجهم إلى الغيبة في ذكر الآباد، وعلى ذلك كل صفة لها تجلي، ولذلك التجلي مباشرة في قلوب الذاكرين، ولكل ذكر له عمل في المقامات، وله حقيقة وجد في الحالات[1].

ذكر الرضا من رضا الحق والتوكل من حب الله، وذكر القهر من جبروت الله، وذكر الأفضال من ملكوت الله، وذكر الآلاء من ملك الله، وعلى قدر ظهور الصفات لهم تسرمد الذكر الذي وافق الكشف من الأسماء والصفات والنعوت والذات.

سبحان مَنْ خصَّ الأولياء بكشوف صفاته، سبق ذكره لهم بهذه الفضائل والقربات قبل ذكرهم إياه إلى الآزال، فذكره جعلهم ذاكرين، ورحمته جعلتهم متفكرين في جلاله وعظمته، ومَنْ عاش منهم عن حقيقة القدم، صار متصفًا بعد الذكر بصفة المذكور، وخرج من مقام الذكر لغيبته عن الذكر في رؤية الأزل والأبد، فعند ذلك الذاكر والذكر والمذكور في باب الاتحاد واحد في شرط الفردانية، والموحد الذاكر يفنى ويبقى الموحد لا غير، كما لم يزل في الأزل.

قال جعفر: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا﴾ في مشاهدات الربوبية، و﴿وَقُعُودًا﴾ في إقامة الخدمة﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ في رؤية الزلف.

وقال الواسطي: كل ذاكر على قدر مطالعة قلبه بذكره، فمَنْ طالع ملك الجلال ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك رحمته ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك معرفته ذكره على ذلك، ومَنْ طالع ملك سخطه وغضبه كان ذكره أهيب، ومَنْ طالع المذكور أغلق عليه باب الذكر.

قال النصرآبادي: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا﴾ بقيوميته، أفمَنْ هو قائم على كل نفس، ﴿وَقُعُودًا﴾ بمجالسة، «أنا جليس مَنْ ذكرني»[2]،﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ على إشادة ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾.

قال بعضهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا﴾ يذكرونه قائمون باتباع أوامره، ﴿وَقُعُودًا﴾ أي: قعودًا عن زواجره ونواهيه، ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: وعلى اجتنابهم مطالعات المخالفات بحال.

---

(١) استغرق الذكرُ جميعَ أوقاتهم؛ فإن قاموا فبذكره، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكة في حقائق الذكر، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره، ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٣٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ١٠٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤٥١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، التفكر في خلق السماوات والأرض على معنيين:

الأول: طلب غيبة القلوب في الغيوب التي هي كنوز أنوار الصفات التي تبرز منها مقادير الخلق، يتفكرون في محض الربوبية، وإرادتهم إدراك أنوار القدرة التي تبلغ الشاهد إلى المشهود بحقيقة رؤية الوصف.

والثاني: جولان القلوب بنعت التفكر في إبداع المَلك في المُلك، طلب مشاهدة المالك في المُلك، الأول منزل التوحيد، والآخر منزل الجمع.

قال بعضهم: هو رؤية الله قبل التفكر في الأشياء، وواسطة التفكر أن ترى الأشياء قائمة بالله، وفساد التفكر أن ترى الأشياء فيستدل بها على الله، وقبل ذلك بالتفكر في صفات الحق لا في المحدثات، ولو كان ذلك على المحدثات لقال: ويتفكرون في السماوات.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ تطرقوا من مقام الذكر إلى مقام التفكر في خلق الكون، استرواحًا من الاحتراق بنور الذكر بمروحة صفاء الفعل، لكيلا يفنوا في مشاهدة المذكور، وذلك غلبة المريدين في طلب الرفاهية، وركوب الرخص، ألا ترى كيف احتجبوا بالفعل عن الفاعل.

وأيضًا: لَمَّا استحلوا رؤية الفاعل في الفعل، ووجدوا حكم الأزلية بنعت التجلي في مرآة الفعل، قالوا: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أرادوا وجود الكون مرآة التجلِّي المكون في مقام التفكر بعد إرادتهم زواله في صفاء الذكر، غيرة على الغير، وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ﴾، وعلة ذلك أن الله سبحانه عرف مكان ضعف الخلق عن حمل مشاهدته، صرفًا فأظهر الكون ليتطرقوا بالوسيلة إليه، كيلا يحترقوا في أول بوادي ظهور العظمة، وسطوات الكبرياء رحمة وشفقة.

قال فارس: الحكمة في إظهار الكون إظهار حقائق حكمته بالفعل الحكيمي.

قال الخواص: أمرهم بالتفكر في خلق السماوات والأرض، ثم قطعهم عن ذلك بقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ دلَّهم عليها، ثم حثَّهم على الرجوع إليه؛ لكيلا يقفوا معها، وينقطعوا عن مشاهدته، والإقبال عليه.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ لَمَّا نزل القوم من مقام الذكر الخالص بغير الوسائط إلى مقام التفكر في الأفعال والآيات، ووقعوا في رؤية الخلق أدركوا ما فاتهم من خوالص الذكر بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: أنت منزَّه عن كل ذكر وفكر، وكل خاطر وإشارة

وعبارة، وأنت أعظم من أن يُدركك أحد بوسيلة الكون، حيث لم يدركك بكل ذكر خالص، ولا يدركك إلا بك كل عارف، سبحانك عمَّا وصفناك بلسان الحدث، أنت كما أثنيت على نفسك بقولك: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، و﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: عن طلبنا بنا لا بك، وعذاب النار عذاب البعد، وذلك نيران الفراق وهو حرق من نار الظاهر.

قال النصرآبادي: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: نزهت نفسك في نفسك بمعناك في معناك بما لا، ومنك بك لك.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ أخبر الله سبحانه بهذه الآية عن أحكام توحيد القائمين في معهد الأزل بنعت المشاهدة والفناء في القدم، بعد رجوعهم من الأرواح إلى الأشباح؛ حيث سمعوا مناداة الحق وخطابه من لسان منادي الحق، بشرط الوسائط بعد سماعهم خطابه صرفًا، أي: إننا سمعنا مناداتك بلسان الوسيلة، فآمنا بشرط المشاهدة قبل مناداة الرسل؛ حيث قلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، في المشاهدة والحضور بلا حجاب، وأيضًا ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ بأرواحنا وأسرارنا منك، فآمنَّا بك بغير علة، فاتبعنا ظاهرًا وباطنًا مناديك، وصدقناه بها وجدنا حلاوة اليقين في قلوبنا، ومعنى الإيمان تصديق الكل برؤية الكل، وسابقة نظر الأسرار إلى الأنوار، وقبول الظاهر بيقين الباطن، والشروع في العبودية بعد كشف الربوبية، ومعاينة الغيب بالغيب.

قال القاسم: الإيمان أنوار الحق إذا اشتملت على السريرة، وهو أن يغيب العبد تحت أنواره، ويبدو له نجم الاحتراق فيغيبه عن وساوس الافتراق، فيكون مصحوب الحق في أوقاته، لا يشعر بتسخيره، ولا يعلم بحجابه، وإنما حجب الكل بالكل، وحجب كلاً بكليته، وقمع كلاً بحده، لئلا يستوي علم أحد مع علمه: فهذا هو صريح الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: اغفر قصور معرفتنا بك فإنه أعظم الذنوب؛ حيث نطلب معرفة القدم بالحدث، وكيف يكون مقارنة القديم بالمحدث، ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: تجاوز بكرمك عن كل خاطر يشير إلى غيرك بعد ما وجدنا حلاوة وصلتك، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: توفنا مع الذين أنعمت عليهم بكشف مشاهدتك لهم، وإيقاع محبتك في قلوبهم، واستشواقك من صميم أسرارهم إلى جمالك، واكتسابهم بكسوة رضا القديم، حتى وقفوا معك بشرك الرضا في كل بلائك وامتحانك.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: مع مَنْ رضيت ظاهرهم للخلق، وباطنهم لك.

وقيل:﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ : هم القائمون على حد التفريد والتوحيد.

وقال سهل: الأبرار هم المتمسكون بالسنَّة.

وقال بعضهم : هم الناظرون إلى الخلق بعين الحق.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: نحن احترقنا بنيران محبتك، فأرونا بحسن مشاهدتك التي وعدت رسولك بقولك:﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وأيضًا ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ بلسان رسلك، إنَّ مَنْ اتبعهم تعطيه محبتك وسنيات آياتك وكراماتك؛ حيث قلت: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: لا تحجبنا بنعمتك عنك؛ حيث يشتغل أهل الفريقين بأنفسهم، وهذا الدعاء من المعرفة تنزيه الأزلية عن الحدوثية، واستغناء الربوبية عن العبودية، حتى لو يحرق جميع الأنبياء والمرسلين، لا يبالي بهم، ولا تنقص من ملك جلاله ذرة لك، عرفوا ما سبق لهم من حسن العناية، فستزادوا تواتر الأنعام؛ حيث تسلى الحق سبحانه قلوب الخائفين القانتين في رؤية العظمة، بقوله: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: أي: لا تجازنا بأعمالنا، وعد علينا بفضلك ورحمتك، إنك لا تخلف الميعاد، بقولك: «سبقت رحمتي غضبي».

وتفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ عندي نفي علة الحدث عن ساحة الكبرياء؛ لأن نقض العهد من شواغل أهل العلة، أي: أنت منزَّه عن خلف الوعد، ونحن في محل الأمن من ذلك، فإنَّ أوصاف الحدثان لا تجري على عزة كبريائك.

قال الأستاذ في هذه الآية: أي حقق لنا ما وعدتنا على ألسنة الوسائط من كمال النعمة، وتكفير السيئات، وغفران كل ما سبق من متابعات الهوى.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ في هذه الآية إشارة إلى تنزيه الأرواح من الخطرات، وتقديس الأشباح من الشهوات، هاجروا من غير الله إلى الله، ثم إنَّ الله تعالى حثَّ الأعداء بإخراجهم عن ديارهم لحبِّ عزته العاشقين الصادقين، كيلا يركنوا بالطبع والحب إلى الإخوان والأوطان(١).

قيل في تفسيرها: تركوا الشرور، وفارقوا أقرباء السوء.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ إنَّ القوم إذا لم يذوقوا مرارة إيذاء المنكرين لم يبلغوا حقائق الالتجاء إلى الله، والفرار إليه، فإيذاء الأضداد يهيج للأولياء إلى مقام القبض، وضيق الصدور، ذلك محل الامتحان من الله سبحانه؛ لكظمهم غصص غيظ المنكرين، لتفتح بعد ذلك أبواب الخطاب، وصفاء البسط، وسرور المنَّة.

قال الجنيد: جزى الله إخواننا عنَّا خيرًا، ردونا بحقائقهم إلى الله، وهذا سنة الله التي قد جرت على أهل سلوك المعارف والكواشف، قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢].

قيل: غير القوم بصحبة الفقراء ومجالستهم، والتزيي بزيهم؛ لأن الفقر هو طريق الحق، ألا ترى المصطفى -صلوات الله عليه- لمَّا جلس معهم، كيف قال: «المحيا محياكم، والممات مماتكم»(٢).

---

(١) المظلومُ منصورٌ، ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلومُ حميدُ العقبى، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:٥٢]، وقد يجري من النَّفْسِ وهواجِسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ، وأهل القصةِ - ظُلْمٌ، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاءٌ، وتستولي غَاغَةُ النَّفْس، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من طوارق الحقائق، وشوارق الأحوال [تفسير القشيري (٥/ ٢٠٠)].

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٤٠١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١١٧).

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: لا يعجبنك طوف المنكرين في البلدان لطلب الفصاحة البلاغة، والتكلف في الآداب والزينة، طلبًا لصرف وجوه الناس والربانية والحيل بأولياء الله، فإنَّ أحوالهم مزخرفات فانية، يريدون بها إسقاط جاه الصدِّيقين عند الخلق، وأنا بجلالي في كل نفس أرفع درجاتهم، وأزيد في ملك ولايتهم رغمًا للمنكرين، وإرغامًا لأنوف المبطلين.

وأيضًا: لا يغرنك، ولا يفتتنك صحة أبدانهم، وأين عيشهم في العالم، وتيسير إقبال الدنيا إليهم في البلاد بجاههم عند العامة؛ فإنهم يحاربونني بإهانتهم أوليائي، ومبارزتهم معي بعداوة إحمائي، فإن أيامهم قليلة، وحسراتهم كثيرة عند طلوع أنواري من شرق العناية على وجوه أوليائي؛ حيث قلت: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، أفتضحهم عند وضوح الكتاب، وحضور الأنبياء والشهداء، وهذا وعيد شديد لأهل أزماننا من السالوسيين الناموسيين.

قال يوسف في تفسير هذه الآية: لا تفتتنك الدنيا بوقوع الجهال عليها، والاغترار بها فيها، والتكثر بنعيمها؛ فإنها زادهم إلى النار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ بيَّن الله تعالى رفعة منازل المتقين في الجنان، ثم أبهم لطائف العندية لهم، بقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي: ما عنده من نعم المشاهدة ولطائف القربة وحلاوة الوصلة، خير مما هم فيه من النعيم في الجنة، وأيضًا صرح في بيان مراتب الولاية أنه ذكر المتَّقين، والتقوى تقديس الباطن عن لوث الطبيعة، وتنزيه الأخلاق عن دنس المخالفات، وذلك درجة الأول من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، وبيَّن أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة.

وأيضًا: أعجبوا الأبرار بما وجدوا من أنوار نيران المكاشفات، ولطائف المناجاة، وحقائق المشاهدات بنعت الوجد والحالات، فأخبرهم أن ما هم فيه بالإضافة إلى ما عنده لهم في الآخرة كلا شيء في ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾، وأيضًا لا يتعجبوا صورة أحكام أهل الدنيا في طراوتهم، وحسن هيئاتهم، أيها المريدون؛ فإن شدائد مجاهداتك تورث سليم العيش في رؤيتي وقربتي ومشاهدتي.

قيل: ما عنده لهم خير ما يطلبونه بأفعالهم.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] أعلم الحق سبحانه حقيقة لهيب نيران فؤاد المشتاقين، وتسلاهم بخطابه، وبها أمرهم بالصبر في لوعة الفراق، أي: اصبروا أيها المشتاقون في ركوب عظائم آلام المحبة والشوق على قلوبكم، بتذكيركم بلوغ وصالي، فإذا اشتد الأمر عليكم بالصبر في بلائي، صابروا على الصبر لكيلا يجزع صبركم في عناء الفرقة، والاحتراق في المحبة، اصبروا بمشاهدتي، وصابروا في طلبكم حقائق معرفتي، اصبروا بأسراركم، وصابروا بأسراري، ولا تكشفوها عند الأغيار، ورابطوا قلوبكم بكتمانها، واتقوا الله في إفشاء السر، كيلا تحتجبوا عنه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتظفرون بنعمة جمالي، وحسن وصالي، وتفوزون من أليم عذاب فراقي.

وأنشد أبو حمزة الصوفي:

نَهَانِي حَيَائِي مِنكَ أَنْ أَكْتُمَ الهَوَى ... وَأَغْنَيْتَنِي بِالفَهْمِ عَنكَ مِنَ الكَشْفِ
تَلَطَفْتُ فِي أَمْرِي فَإِنْ أَكُ شَاهِدًا ... إِلَى غَايَتِي فَاللطْفُ يُدْرَكُ بِاللُّطْفِ

وأنشد أبو بكر أحمد بن إبراهيم المؤدِّب لإبراهيم الخواص:

صَبَرْتُ عَلَى بَعضِ الأَذَى خَوفَ كُلِّهِ ... ودَافَعْتُ عَنْ نَفسِي لِنَفْسِي فَعَزَّتِ
وجَرَّعْتُهَا المَكْرُوهَ حَتَّى تَدرَّبَتْ ... وَلَو جُمْلَةً جَرَّعتُهَا لاشْمَأَزَّتِ
أَلا رُبَّ ذُلٍّ سَاقَ لِلنَّفْسِ عِزَّةً ... وَيَا رُبَّ نَفسٍ بِالتَّعَزُّزِ ذَلَّتِ
إِذَا مَا مَدَدْتُ الكَفَّ التَمِسُ الغِنَى ... إِلَى غَيرِ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشُلَّتِ
سَأَصْبِرُ نَفسِي إِنَّ فِي الصَّبْرِ عِزَّةً ... وأَرْضَى بِدُنْيَايَ وَإِنْ هِيَ قَلَّتِ

وأنشد الشبلي في حقائق الصبر:

عَبَرَاتٌ خَطَطْنَ فِي الخَدِّ سَطْرًا ... فَقَرَآهُ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ يَقْرَا
صَابَرَ الصَّبْرُ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْرُ ... فَصَاحَ المحِبُّ بِالصَّبْرِ صَبْرًا

---

(١) المصابرة نوع خاص من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصًا لشدته، وصعوبته وكونه أكمل، وأفضل من الصبر على ما سواه، والصبر هو حبس النفس عما لا يرضاه الله، وأوله التصبر، وهو التكلف لذلك ثم المصابرة، وهي معارضة ما يمنعه عن ذلك ثم الاصطبار، والاعتبار، والالتزام، ثم الصبر، وهو كماله، وحصوله من غير كلفة [تفسير حقي (٢/ ٣٩٣)].

قال الجنيد: إنَّ الله تعالى ذكر الصبر وشرفه وعظم شأن الصابرين لديه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ أمرهم بالصبر على الصبر، ثم قال: ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ وهو ارتباط السر مع الله سرًّا، والوقوف مع البلاء جهرًا، قال النبي ﷺ: «الصبر عند الصدمة الأولى»[1].

قال الحارث: الصبر التهدف لسهام البلاء.

وقال الجريري: الصبر إسبال التولي قبل وقوع البلوى، فإذا صارف البلوى تلقاه بالتولي ولم يجزع.

وقال بعضهم: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ تحت حكمي، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ في الحلاوة مع أعدائي، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ قلوبهم بموافقتي ورضائي.

وقال جعفر: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ عن المعاصي، و﴿وَصَابِرُوا۟﴾ على الطاعات، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ الأرواح بالمشاهدة، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اجتنبوا الانبساط مع الحق، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تبلغون مواقف أهل الصدق، فإنَّه محل الفلاح.

وقال بعضهم: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ بجوارحكم على الطاعات، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ بقلوبكم مع الله، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ بأسراركم بالحقائق سبل الشوق والمحبة.

وقال بعضهم: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ بالله، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ مع الله، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أسراركم بالحقائق لعلكم تجردون عن هومكم وخطراتكم.

قال ابن عطاء: الصبر للمطيعين، والمصابرة للمحبين، والمرابطة للعارفين، وقال: الصبر لله، والمصابرة بالله، والمرابطة مع الله.

وقال الأستاذ: الصبر فيها يتفرد به العبد، والمصابرة مع العدو، والرباط نوع صبر، ولكن على وجه مخصوص.

ويقال: أول الصبر التصبُّر، ثم الصبر ثم المصابرة، ثم الاصطبار وهو نهايته.

ويقال: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على الطاعات وعن المخالفات، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ في ترك الهوى والشهوات، وقطع المنى والعلاقات، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ بالاستقامة في الصحبة في عموم الحالات.

ويقال: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على ملاحظة الثواب، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ على ابتغاء القربى، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ في محل الدنو أو الزلفة على شهود الجمال والعزة.

---

(١) رواه البخاري (١٢٠٣)، ومسلم (١٥٣٤).

وقد وقع لي قول بعد أقوال أشياخ المعرفة زيادة على قولي في الآية قبل أقوالهم، أنَّ الله سبحانه أعلمنا في هذه الآية بيان أربع مراتب من عظائم مقامات أهل الكمال في التوحيد:

الأول: مقام المعرفة، والثاني: مقام النكرة، والثالث: مقام الفناء، والرابع: مقام البقاء.

وأضاف الصبر إلى المعرفة، والمصابرة إلى النكرة، المرابطة[1] إلى الفناء، والفلاح إلى البقاء، أي: اصبروا في معرفتي حيث أعرفكم نفسي بنفسي، فإن في عرفاني مباشرة السر بالسر، وتخلق الصفة بالصفة، واتحاد الذات بالذات.

أي: إذا كنتم في مقام الاتحاد بإدراك ربوبيتي، اصبروا بكتمان دعوى الربوبية فإنكم في مقام المكر: وأنتم لا تعلمون، وإذا وقعتهم في بحار أُلوهيتي، واختلط بكم بحار السرمدية والأزلية، ولا تعرفون طرق معرفتي بعد وقوعكم في نكرتي، ونكرني جهلكم بي بعد معرفتكم بي؛ حيث امتزج ظلام القهريات بأنوار اللطفيات.

صابروا هناك لكي تدركونني فتربحون بكم ذوق وصالي، وسُكر مشاهدتي، وصحو صحبتي من غمرات النكرات، فإنكم في النكرة على محل غيرتي عليَّ لكم، وإذا انكشف لكم سطوات عظمة قدمي، وبرزت أنوار أزليتي، وأنتم في محل الاضمحلال والفناء عنكم، ورابطوا أسراركم في أنواري؛ كيلا تتلاشوا بي عني فيفوتكم إدراك لطائف الغيبية، ووضوح أسرار الأزلية، فإذا استفهم في الفناء عنكم، ولقيتم بي عليَّ تفلحون بإسبال بقائي عليكم حتى تخرجون من بحار الفناء بشرط البقاء، فإذا صرتم باقين ببقائي، فزتم عن ورطة الفناء بعد ذلك، ولا تجري عليكم أحكام التلوين بعد الاستقامة والتمكين.

سورة النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم

---

(١) قال ابن عجيبة: المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، إرصادًا لمن حاربهم، ثم أُطلق على كل مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه، وإن لم يكن له مركب، إذا كان بنية الدفع عن المسلمين كان بأهله أو وحده، المدار على خلوص النية [البحر المديد (١/ ٣٨٦)].

مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: أيها الناسي عهد الأزل وميثاق القدم بشرط وفاء العبودية بعد خطابي ومعرفتي وتعريفي نفسي لكم، حيث قلت: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فأجبتم بقولكم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

وأيضًا: أيها الناسي جمال مشاهدتي؛ حيث أخرجت أرواحكم من العدم بتجلي أنوار القدم، فبصرتها بمشاهدتي، وأسمعتها خطاب أزليتي باشتغالكم على حظوظ البشرية ومأمول الطبيعة.

وأيضًا: أيها المستأنس بالمستحسنات من الأكوان والحدثان طلبًا لمشاهدتي اعلم أنها أعظم الحجاب؛ لأنها وسيلةٌ حدثيةٌ وإيصالٌ إلى أحدٍ إلا بي، ورؤية الأشياء في رؤيتي مكرٌ.

وأيضًا: أيها المستأنس في المستوحش من غيري فلا تغرنَّ بي؛ فإنك لي لا لك.

وأيضًا: أي: أيها الناسي أنفسكم التي هي مخلوقةٌ من الجهل بي، فلا تخافون حيث ادَّعيتم معرفتي، ومعرفتي للقدم لا للحدث.

وأيضًا: هذا خطابٌ لبني آدم، أي: أيها الذين انتسبتم إلى ابن الماء والطين الذي اشتغل عني بأكل حبة حنطة حتى بكى عليها مائتي سنة إيش تفعلون بعده في مواقف القربة، وتنزل المشاهدة بعد المعرفة، فإن عذاب الفراق أليمٌ، لو تعرفون أنفسكم لا تشتغلون بالحدثان، فإني اصطفيتكم بمشاهدتي وخطابي من بين البريات، أما سمعتم قولي: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، وهذا الخطاب خطاب العتاب للمفارقين أوطان المآب؛ ألا ترى إذا غضب عظيم على خادمه لم يسم باسمه، ويقول: يا إنسان. ولا يقول: يا حسن، يا أحمد، أي أنت على محل الجهل بمرادي منك.

والإشارة فيه: إن الله سبحانه عرف أمر المعرفة عباده حيث اشتغلوا بسواه، كأنه نبههم عن رمدة الغفلات بزواجر هذا الخطاب، ويقول: أيها الناقضون عهد المعرفة والعشق، أما تستحيون مني باشتغالكم بغيري، اتقوا من فراقي وعتابي.

قال بعضهم: يا بني النسيان والجهل.

وقال ابن عطاء: أي كونوا من الناس الذين هم الناس، وهم الذين أنسوا به، واستوحشوا مما سواه.

وقال جعفر: أي: كونوا من الناس الذين هم الناس، ولا تغفلوا عن الله مَمَّنْ عرفه، إنه من الإنسان الذي خصَّ خلقته بما خصَّ به، كبرت همته عن طلب المنازل، وسمت به الرفعة حتى يكون الحق نهايته، ثم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، وسمو همته مما خصَّ به من الاختصاص من التعريف والإلهام.

وقال بعضهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب العام، و﴿يَـٰعِبَادِيَ﴾ خطاب الخاص، وخطاب خاص الخاص، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾(١) أي: كونوا على تقديس الأسرار عند كشف الأنوار، وعلى شرط الانفراد في محبتي عن الأغيار، ولا تبغوا آثار الأشرار لتكونوا في منازل الصدق من الأبرار، حذَّرهم من نفسه.

والإشارة فيه: إن مَنْ مال سرُّه في سيره إليه امتنع بعزته عن مطالعة جلاله، كقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وحقيقة التقوى قدس السر عما سواه بنعت الخوف من فراقه في متابعة هواه.

قال بعضهم: التقوى ترك المخالفات أجمع.

وقال بعضهم: تقوى الله هو الاجتناب من كل شيء سواه.

وقال الواسطي: التقوى على أربع وجوه: للعامة تقوى الشرك، وللخاص تقوى المعاصي، وللخاص من الأولياء تقوى التوسل بالأفعال، وللأنبياء تقويهم منه إليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾(٢)، إن الله سبحانه ذكر جميع أوصاف قدمه وأمره ومشيئته ونعته وأفعاله في هذه الآية رمزًا وإيماءً؛ لأنه تعالى لَمَّا أراد إبداع الخليقة لعرفانها حقوق الألوهية، وانتشار أنوار المحبة الأزلية في فضاء القلوب وأماكن الأرواح تجلى ذاته لصفاته، وتجلت صفاته لأفعاله، وجمع علمه وحكمته وقدرته في نعتٍ واحدٍ وهو الأمر، فقرنت الإرادة بالأمر، فنظر في الأمر بنعت الكاف والنون إلى العدم من القدم، فأظهر جوهر البسيط المجموع فيه الأجسام والأرواح والجوهر والأعراض.

---

(١) التقوى ترك كل شيء تقع عليه؛ فهو في الآداب مكارم الأخلاق، وفي الترغيب ألا يظهر ما في سره، وفي الترهيب ألا يقف مع الجهل، ولا تصح التقوى إلا بالمقتدي بالنبي ﷺ وبالصحابة -رضي الله عنهم. [تفسير التستري (١/ ١٨٦)].

(٢) أخرج النَّسَمة من نَفْسٍ واحدة وأخلاقهم مختلفة، وهممهم متباينة، كما أن الشخص من نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاءه مختلفة؛ فَمَنْ قَدِرَ على تنويع النطفة المتشاكلة أجزاؤها، فهو القادر على تنويع أخلاق الخَلْق الذين أخرجه من نَفْس واحدة [تفسير القشيري (٢/ ٤٧٩)].

ثم نظر إليه بنظر الهيبة والعظمة والجود، فأنشر منه ما سبق علمه في الأزل به من العرش إلى الثرى على صور وهيئة كانت منقوشة بنقوش خواتيم أفعاله، وذلك المبدع هو أحمد -صلوات الله عليه- حيث قال: «أوَّلُ ما خلق الله نوري، فكنتُ كذا وكذا»[1]، حتى ذكر أن من العرش إلى الثرى خلق من نوره وهو آدم ﷺ الأول الذي قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ ، ثم جمع الأرواح والأشباح والأنوار والأسرار في قبضة عزته، وخمرها بطينة آدم ﷺ في أربعين ألف صباح من صبح الآزال والآباد، حتى خلقه بخلقه، وأنشأه بروحه، فقال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢]، فباشرت فيه يد الأزل والأبد، وظهر فيه قدس القدم بجميع الأسماء والصفات والنعوت والأفعال، فصوره بصورة الملك، فتتشعب منه أماكن أسرار القديم من خلق الأولين والآخرين، وهو صورة عين الجمع التي أظهر الحق منها أوصاف قدمه، ألا ترى إلى قول سيد البشر- صلوات الله عليه- كيف قال في المتشابهات: «إن الله خلق آدم على صورته»[2]، وهو آدم الثاني.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ ، أخبر عن مقام الجمع بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ ، ثم أخبر عن التفرقة بقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ .

وبيَّن بعض ما أشرنا أستاذ الأستاذين شيخ التمكين عمرو بن عثمان المكي - رحمة الله عليه وقدس روحه - وقال: إنَّ الله خلق العالم، وهيأه باتساق نظمٍ واحدٍ من أطرافه وأكنافه، وأوله وآخره، وبدؤه ومنتهاه، من أسفله إلى أعلاه، وجعله بحيث لا خلل فيه ولا تفاوت ولا فطور، أحكم بناءه باتصال تدبيره، وحبسه على حدود تقديره وإن اختلفت أجزاؤه في التفرقة والأجسام والهيئات والتخطيط والتصوير، وفرَّقه بتفرقة الأماكن، وحققه بائتلاف المصالح، فهو مربوط بحدود تقديره، ومتتابع باتصال تدبيره، وبث فيه الأجناس بينهما من شواهد الزينة، فأظهر القدرة بإيجاد آدم ﷺ، ثم بث أولاده في البسيط إلى تصاريف التدبير لهم والمشيئة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأعراف:١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ ، أكَّد التحذير، وبيَّن القدرة والتقدير أي: احذروا عمَّنْ هو قادرٌ لإيجاد الخلق من لا شيء ومن شيء ترك مخالفته؛

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣١١).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٠١٧).

فإنه قادرٌ أن يعدمكم، حتى لم تكونوا أبدًا كما لم تزالوا معدومًا، والمعدوم محجوب عن ديوان النبوة والولاية.

﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي: اتقوا من فراق الذي تسألون منه به مشاهدته ووصاله، وخوَّفهم بالأرحام، أي: اجتنبوا من مخالفة أوليائي رحم الصحبة، قال: صحبتي موصولة بصحبتهم، ومن فارق منهم فارق مني.

قال الأستاذ: أي فاتقوا الأرحام أن تقطعوها، فمَنْ قطع الرحم قطع، ومَنْ وصلها وصل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ذكر التقوى وأكَّد التقديس الأسرار، وليقع نظرات تجليه على مواقع القلوب، وصميم الأرواح بلا علة وجود الغير فيها؛ لأنه منزَّهٌ لا يصل إليه إلا منزَّهٌ عن غيره، وهو ناظرٌ إلى مواطن القلوب من الغيوب، وترفرف أنوار قربه عليها، فإذا يرى فيها ذكر الغير يرتحل مطايا أنواره منها إلى معادن الألوهية والربوبية، وذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

وأيضًا: مقام الهيبة ووقوع نور العظمة على القلب الصافي بنعت حفظه عن خطرات الحوادث، والقلب العارف المنقلب في معارج الصفات، وهو تعالى استأثر حفظه بنفسه لا يكل حفظه إلى غيره، وبيان ذلك قوله ﷺ: «القلوبُ بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلِّبُها كيف يشاءُ»[1]، وإذا راقب العبد ربه في البداية راقبه الله في النهاية، كقوله ﷺ لابن عباس: «يا غلام احفظِ الله يحفظْك»[2]، والمراقبة منه الحفظ والكلاءة، وفيه بيان تسلية الله سبحانه قلوب المحزونين المشتاقين إلى جلاله، أي: أنا ناظرٌ إلى أسراركم، وأعلم حرقتكم وهيجانكم؛ إني أجازيكم بوصلي، وأواسيكم بجمالي.

وأيضًا: أخبر الله تعالى عن شوق قدمه قبل الحوادث إلى وجوه أصفيائه، أي: كنت مراقبًا بنفسي بغير علة التغاير بخروجكم من العدم إلى شواهد القدم، ومن شواهد القدم إلى نور العدم، كما قال: «وإنِّي إليهم أشدُّ شوقًا»[3]، وكان إخبار عن الأزلية في الأزلية.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ قال: عالمًا بما تضمر من سرِّك، وما تخفيه من خواطرك، فراقب مَنْ هو الرقيب عليك.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٤٨)، وأحمد (٣/ ١١٢).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٧)، وأحمد (١/ ٢٩٣).

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٤٥٤).

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ المال هاهنا حقائق المعرفة التي لا يعرفها إلا الربانيون، أي: لا تظهروها للمبتدئين؛ لئلا تفسد عقائدهم.

وأيضًا: لا تعطوا المال إلى غير مَنْ يبلغ درجة التمكين؛ فإنه يهلك في تصرفه.

قيل: أولادكم الذين يمنعونكم عن الصدقة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ الرشد هاهنا والله أعلم: معرفة الله ومحبته وسلوك سبيله على موافقة السنة.

وقيل: أصحابه الحق، وقيل: القيام في العبادات على شرط السنة.

قال ابن عطاء: الرشيد مَنْ يفرق بين الإلهام والوسوسة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ هذه التسلية للمشتاقين أي: كفى بكم عدي أنفاسكم التي تنفستم بها في غلبة شوقكم إلى لقائي، فأجازيكم بكل نفس بوصل بلا فصل، وأنا حسبكم، ومشاهدتي حسبكم؛ لأنه بلا نهاية ولا حجاب، وتخوف به أهل المراقبة، لئلا يخطر على قلوبهم خاطرٌ دونه.

قيل: الحسيب الكريم أن يوفيك ما لك، ولا يناقشك فيما عليك.

قال ابن عطاء: الحسيب الذي لا يضيع عنده عملٌ.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ۚ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ

وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم﴾ أمر الله سبحانه أولي النهايات من العارفين إذا انفتحت لهم خزائن جود المشاهدة، وانكشف لهم حقائق علوم الربوبية أن يقسمها على تلامذتهم من المريدين الصادقين على قدر مراتبهم، ومذاق حالاتهم.

و﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أصحاب الصحبة، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الساقطين عن الدرجة.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ أهل السلوك من المجاهدين أي: حدثوا عن نوالي عند هؤلاء لتزداد محبتهم فيَّ، وشوقهم إليَّ، لأزيد عليكم نعمتي، فإن كشفكم لطائفي عندهم شكر نعمتي.

و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]؛ فارزقوهم من موائد القربة وخوان العناية لقيات الحقائق، وإن هذا يحدث من نعمتي، ولذلك أمر صفي المملكة ورئيس القربة أن يذكر لطيف صنعي به على أمته، لزيادة محبتهم جماله وجلاله بنعت بذل مهجتهم له، بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

قال محمد بن الفضل: دلت هذه الآية على كرم الله تعالى مع عباده؛ لأنه أمر إذا حضر مَنْ لا نصيب له في الميراث أن يرزقهم منه، دل بهذا أنه إذا حضر عباده يوم القيامة في المشهد العظيم أنه يتفضل بعطائه على مَنْ لم يكن مستحقًّا لعطائه بمخالفته بإيصال رحمته إليه بفضله(١) وسعة رحمته، وبلوغه إلى منازل أولي الأعمال؛ لأنه قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، من أفعالكم وطاعاتكم التي اعتمدتم عليها، واعتمدوا فضلي وسعتي ورحمتي.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ

---

(١) قال ابن عجيبة: فضل الله: أنوار الإسلام والإيمان، ورحمته: أنوار الإحسان، أو فضل الله: أحكام الشريعة، ورحمته: الطريقة والحقيقة، أو فضل الله: حلاوة المعاملة، ورحمته: حلاوة المشاهدة، أو فضل الله: استقامة الظواهر، ورحمته: استقامة البواطن، أو فضل الله: محبته، ورحمته: معرفته، إلى غير ذلك مما لا ينحصر، ولم يقل: فبذلك فلتفرح يا محمد؛ لأن فرحه ﷺ بالله، لا بشيء دونه. [البحر المديد (٢/٤٩٩)].

فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ ندب الله سبحانه عباده عند مفارقتهم الدنيا إلى أن يوصوا أولادهم بتقوى الله وتوحيده، وتحبيبهم له، وحثهم بالشوق إلى لقائه، والقول المعروف وصف الله، وذكر أفضاله وإنعامهن وأمرهم بتقوى الله في ذلك ألا يداهنوهم فيما يروا منهم من الميل إلى غير الله، وأن يعطيهم تقواهم بالميراث، فإذا كانوا متفقين، فإن الله خلفهم في أولادهم، وهكذا شأن المشايخ عند مفارقتهم من المريدين إلى دار الآخرة، حتى لا يخفوا عنهم أسرار المقامات والحالات، ويكلوهم إلى الله بعزائم التوكل وتحقيق اليقين؛ فإنه لا سبيل للشيطان إليهم بعدهم.

قيل: استعينوا على كثرة العيال، وقلة ذات اليد بالتقوى، فإنه الذي يجبر الكسير ويغني الفقير.

وقال جعفر بن محمد: الصدق والتقوى يزيدان في الرزق، ويوسعان المعيشة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾.

وقال الأستاذ في هذه الآية: إن الذي ينبغي للمسلم أن يدَّخر لعياله التقوى والصلاح لا المال؛ لأنَّه لم يقل: فليجمعوا المال، وليكثروا لهم العقار والأسباب، ويخلفوا العقل والأثاث، بل قال: ﴿فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ﴾؛ فإنه يتولى الصالحين، وقد وقع لي قول آخر، وهو أنَّ المرء يطلب في طول عمره الأموال الكثيرة، ويدَّخرها لأولاده حتى يموت، وهم يعيشون بها، فإنَّ الله سبحانه علم نيته، أنَّه يكل أولاده إلى المال والميراث، فحذَّره من ذلك، وأمره بتقوى الله، فإن نيته في ذلك منازعة قدره؛ فإنَّه تعالى يفعل بهم ما يشاء، من يتوكل على الله فهو حسبه، وهو خلفه بعده.

قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أشكل الأمرين من هاتين الطائفتين أنهما يبلغان إلى درجة الولاية والمعرفة الموجبة مشاهدة الله وقربه، التي لو وقعت ذرةٌ منها لأحدٍ من هذه الأمة ينجو بشفاعته من النار سبعون ألفًا بغير حساب، أي اخدموا آباءكم، وارحموا أولادكم، فربما يخرج منهم صاحب الولاية يشفع لكم عند الله سبحانه، وحكمة الإيهام هاهنا تشمل الرحمة والشفقة على الجمهور؛ لتوقع ذلك الولي الصادق.

قال ابن عباس في قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾: أطوعكم لله ﷻ من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة: لأنَّ الله سبحانه وتعالى يُشفِّع المؤمنين بعضهم في بعض، فإنْ كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله والديه إلى درجته، لتقرَّ بذلك عينه، وإنْ كان الوالد أرفع درجة من ولده رفع الله الولد إلى درجتهم لتقرَّ بذلك أعينهم.

قيل: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ﴾ برُّهم، ﴿وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ بالشفقة عليهم، والتأديب لهم هما بمحل النفع.

﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ حسم الله سبحانه أبواب حكمته في أمر فرائضه في كميتها وكيفيتها على الخليقة، لوضع رقابهم على باب الربوبية عجزًا وتواضعًا في عظمته وكبريائه، واستأثر نفسه بعلم ذلك، لئلا تجاوز حدوده أحدًا من خلقه، ولكل صادر وارد معارفه وكواشفه حدٌّ يمنعه من مطالعة صمديته وأحديته، وحدود الله برزخ بين بحر الحدث وبحر القدم، لا يختلطان؛ لأنَّ القدم منزَّهٌ عن مباشرة الحدثان.

قال محمد بن الفضل: حدود الله أوامره ونواهيه، فمن تخطَّاها فقد ضلَّ في سبيل الرشد.

قيل: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: أي الإظهار من الأحوال للمريدين على حسب طاقتهم لها، فإنَّ التعدي فيها يهلكهم.

وقال أبو عثمان: ما هلك امرؤٌ لزم حده، ولم يتعد طوره.

وقال بعض البغداديين: العبد ينقلب في جميع الأوقات على الحدود، دخل في هتك الحرمات، قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]؛ لأنَّ المرتع إلى

جانب الحمى ربما يخالط الحمى.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ ظاهر الآية في ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ على بمعنى من أي: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ على لسان القوم.

الإشارة فيه: أن من وقع في المعصية وقع في الظلمة والحيرة، ولا يرى سبيل الرشد، ولم يكن في وسع البشر أن يهدي نفسه إلى طريق الحق، فإنه هو الهادي، والهداية متعلقة بأوصاف قدمه، ويستحيل أن يكون الحادث على وصف القديم، فإذًا على الله نعته ووصف نفسه بالهدى لأنَّه الهادي أن يرجع إلى عبده المتحير الذي زلَّ قدمه في شهوات طبعه، فإنه لا يقدر أن يخلِّص نفسه من قهر الله، إنَّما تخليصه شرط كرمه الفياض، الذي وصف به نفسه تعالى للمذنبين الذين يقصدون حظوظ البشرية بغير الاختيار.

قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] فبقى ﴿عَلَىٰ﴾ بشرط الظاهر بقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ﴾ إنَّما الرجوع منه إلى العبد شرط الرحمة الواسعة، التي بها، قال: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

هذه سنة الله على أبينا آدم صلوات الله عليه بعد أكل الحنطة بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

وقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، وخصَّ توبته ورجوعه للذين يعملون السوء بجهالة، إخبارًا عن عطفه ولطفه بأقوام امتحنهم الله في بدو الإرادة في بعض حظوظ أنفسهم لإيقاع نيران الندم والخوف والحياء والإجلال في قلوبهم؛ لئلا يرفعوا أعناقهم بعد اتصافهم بنعوت الكبرياء وبلوغهم حقائق الانبساط ومقامات الاتحاد، فيسقطون عن رؤية الأزلية ومشاهدة الأبدية في فنائهم عن الحدوث وتخلقهم بخلق القدم، وإضافة السوء إليهم ونسبتهم إلى الجهل.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٥).

أي: الذين يعملون سنيات الطاعات على رؤية الأعواض جهلاً بمكره، وقلة عرفانهم بعزته وتنزيه جلاله عن طاعة المطيعين ومعصية العاصين، يعملون الطاعات، ويرونها أنها هي شيء ويتقربون بعلل الحدث إلى جناب القدم، فإذا صاروا مبصرين جمال مشاهدته استحيوا من ظنونهم بطاعاتهم في جلال عظمته، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، عليمًا بشوقهم إلى لقائه، حكيمًا بتربيتهم في معرفته.

وقيل في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾: الذين يتقربون بالطاعات إلى من لا يتقرب إليه.

وقال محمد بن الفضل: ضمن الله التوبة لمن يصدر منه الذنب من غير قصدٍ لا صحَّ إلى من يضمره، ويتأسف على فوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ

ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: كونوا في معاشرتهم في مقام الأنس وروح المحبة وفرح العشق حين أنتم مخصوصون بالتمكين والاستقامة في الولاية، فإنَّ معاشرة النساء لا تليق إلا بالمستأنس بالله كالنبي ﷺ وجميع المستأنسين من الأولياء والأبدال؛ حيث أخبر ﷺ عن كمال مقام أنسه بالله وروحه بجمال مشاهدته، فقال: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاثٌ: الطيب، والنساء، وجُعلتْ قرَّةُ عيني في الصلاة»[1].

وهكذا حال يوسف ﷺ حين همَّ فيها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤].

وقال ذو النون: المستأنس بالله يستأنس بكل شيءٍ مليحٍ، ووجهٍ صبيحٍ، وبكل صوتٍ طيبٍ، وبكل رائحةٍ طيبةٍ.

وأيضًا: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ بطلب ولد صالح منهن.

وأيضًا: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ أي: باشروهن حين رغبتكم في مرادكم منهن، فإنَّ المعروف لا يقع إلا على استواء من كلا الجانبين على نعتٍ واحدٍ.

وأيضًا، أي: عرِّفوهن صفات الله وأسماءه، ورغِّبوهن في طاعته بنعت العلم، وشوِّقوهن إلى جماله وجلاله. قيل: علِّموهن السنن والفرائض.

قال عبد الله بن مبارك: العشرة الصحيحة ما لا تورثك الندم عاجلاً وآجلاً.

قال أبو حفص: المعاشرة بالمعروف حسن الخلق مع العيال فيما ساءك وما كرهت صحبتها.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٠٧).

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ كل أمر من الله سبحانه جاء على مخالفة النفوس امتحانًا واختبارًا، والنفس كارهةٌ في العبودية، فإذا ألزمت عليها حقوق الله بنعت المجاهدة والرياضة، واستقامت في عبودية الله أوّل ما يطلع على قلبك أنوار جنان القرب والمشاهدة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠]، وفي أجواف ظلام المجاهدات للعارفين شموس المشاهدات وأقمار المكاشفات.

قيل في تفسير الخير هاهنا: الولد الصالح.

قيل: غيب عنك العواقب؛ لئلا تسكن إلى المألوف، ولا تنفر من مكروه.

قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ أي: أن يصرح لكم ما أُشكل على قلوبكم من علوم الغيبة وأحكام الإلهامية وحقائق الشرعية ليقتدي بكم المريدون، ويستفيد منكم الصادقون.

قيل: أي أنه ليس إليكم من أموركم شيءٌ.

وقال الأستاذ: أي يكاشفكم بأسراره، ليظهر لكم ما أخفي على غيركم.

قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[1] يعني: طرق معارف الأنبياء وكواشف الأصفياء وسبل مقاماتهم وحالاتهم ورياضتهم.

قيل: سنن الأنبياء والصدّيقين التفويض والتسليم والرضا بالمقدور ساء أم سرَّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ إرادته قديمةٌ، وزلتنا محدثةٌ، ومراده تعالى من ذنبنا رجوعه إلينا بنعت استقباله علينا، وهذا من كماله محبة عبادة في الأزل.

قال النصرآبادي: أراد لك التوبة فتاب عليك، ولو أردته لنفسك لعلك كنت تحرم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾ أي: أن يخفف عنكم من ثقل أوزار المعصية إذا باشرتم أمره بمراده، وإذا استقبل العبد إلى الله سبحانه في قبول أمره ثقلت عليه النفس، فإذا صبر في العبودية رفع الله أثقال النفس عنه حتى صار مخففًا في عبادته، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا

---

(١) إنما يتزل المريد إلى العلوم الرسمية، أو الأعمال الحسية، إذا خشي الانمحاق أو الاصطلام في بحر الحقائق، وإن صبر وتماسك، حتى يتقوى على حمل أعبائها، فهو خير له، لأن الرجوع إلى الحس، لا يؤمن من الحبس، والله غفور لمن تنزل لعلة ما تقدم، رحيم حين جعل له الرخصة، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ سلوك الطريق إلى عين التحقيق، ويهديكم طرق الوصول، كما هدى مَنْ قبلكم، ويتوب فيما خطر ببالكم، من الفترة أو الوقفة، والله يريد أن يتعطف عليكم، لترجعوا إليه بكليتكم. [البحر المديد (٤١٦/١)].

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].

ثم إنَّ لطاعته وأمره وقوله ثقل الربوبية بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥] فيرفع الله عن عارفه في مقام المشاهدة ثقل الربوبية والعبودية، ويسهل أمرهما عليه، ويحمل عنه له، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل:٢٠]، وقال: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١، ٢].

وتصديق ذلك قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

قيل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أثقال العبودية؛ لعلمه بضعفكم وجهلكم.

وقيل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ ما جهلتموه بجهلكم من عظيم الأمانة.

يقال: يخفف عنكم أتعاب الطلب بروح الرضوان.

ويقال: يخفف عنكم كلفة الأمانة بحملها عنكم.

ويقال: يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يفتح بقلوبكم من أنوار المشاهدات.

قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي: عن حمل واردات الغيب وسطوات المشاهدة وكشوف الصفة وضعف هيجانه وهيمانه وزعقاته وشهقاته ودورانه وسيرانه.

قيل: ضعيف الرأي وضعيف العقل إلا من أُيِّد بنور اليقين، فقوته باليقين لا بنفسه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ هذا خطاب أهل الرفاهية والأنس والروح والبسط، أي: لا تقتلوا أنفسكم المطمئنة بالمجاهدات والرياضات، ولا تحملوا مشقة الجهل في العبودية قلوبكم الروحانية، ولا تؤذوا أرواحكم القدسية بشروعكم فيما لا يليق بالبداية؛ فإنَّ هذه الأشياء تمنع الأرواح العاشقة من طيرانها في عالم المشاهدات، وتغم عليها أنوار المكاشفات.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: كان في الأزل رحيمًا بأوليائه في وضع أثقال العبودية الشاقة عنهم في مقام مشاهدتهم روح قلوبهم بالله.

ألا ترى كيف سهَّل على سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه أمر العبودية بقوله:

﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، وبيّن أن قربته ووصله تتعلق برحمته السابقة لا بأمانة النفوس وكثرة المجاهدات.

وأيضًا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الروحانية الملكوتية بمتابعة هوى النفوس الأمارة الشيطانية؛ فإنَّ النفس الروحانية في جوار النفس الأمارة، وإذا علت بهواها على النفس الروحانية أظلمتها بغيم المعصية.

قال بعضهم: لا تهلكوا أنفسكم بارتكاب المخالفات واستكثار الطاعات.

قال محمد بن الفضل: باتباع هواها، قال: نقيل: لا تغفلوا عن حظ أنفسكم، فمن غفل عن حظ نفسه فكأنه قتلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ .

ويقال: بنظركم إليها، وملاحظتكم إياها.

وقال علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر -رضي الله عنهم: معناه لا تغفلوا عن أنفسكم؛ فإنَّ من غفل عن نفسه غفل عنه ربه، ومَنْ غفل عن ربه قتل نفسه.

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1] الكبائر هاهنا في الإشارة رؤية العبودية في مشهد الربوبية، ورؤية الأعواض في الخدمة، وميل النفس إلى غير الله من العرش إلى الثرى، والسكون والوقفة في مقام الكرامات، وإظهار المقامات قبل بلوغها برسوم الرسومات والخطرات السارقة الجارية بخفيات ضمائر الرضا في بطنان ضمائر الأسرار، وهذه المحن حجبات المعارف من بقي فيها تقاعد عن سلوك المعرفة، واحتجب بنفسه عن نور المشاهدة، وأنَّه تعالى نبَّهنا أن من حجب عنها، وإنْ باشرها يعينه ويؤيده بتخليصه عنها وبرفع الوحشة والكدورة التي بقيت منها في قلبه عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ومن خرج عن هذه الظلمات أدرك ما فاته من المقامات، وزاد قربه في المشاهدات بقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ والمدخل الكريم: وصال جماله وإدراك لطائف نواله.

قال أبو تراب: أمر الله باجتناب الكبائر، وهي الدعاوى الفاسدة، والإشارات الباطلة، وإطلاق اللفظ بغير الحقيقة.

---

(١) الكبائر -على لسان العلم- هاهنا: الشِّرْكُ بالله، وعلى بيان الإشارة أيضًا الشِّرْكُ الخَفِيّ، ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق، واستجلاء قبولهم، والتودد إليهم، والإغماض على حق الله بسببهم، ويقال: إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة الحد؛ فهو بعيد عن التكفير، ويقال: أكبر الكبائر إثباتك نَفْسَك، فإذا شاهدت نَفْيَها تخلَّصْتَ من أسر المحن [تفسير القشيري (٢١/ ٤٧٢)].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ التمني هاهنا وصف النفس الأمَّارة التي رأت الأشياء بعين الجهل، وقصورها عن حقائقَ المقادير الأزلية التي سبقت في الجمهور على قدر مراد الله والاستعداد، وذلك التمني وهمها على غير قصد الحق من رؤية هواها، ولو كان طلب القلب سني المقامات من الحق سبحانه بنعت التواضع وصدق الافتقار لكان مما يوجب البلوغ إليه، وذلك قوله: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

وأيضًا: زجرًا للضعفاء عن جمال أحكام المجاهدات، ومقام أهل المشاهدات.

وقال بعضهم: لا تتمنوا منازل السادات والأكابر أن تبلغوها، ولم تهذبوا أنفسكم في ابتداء إرادتكم برياضات السنن، ولا إسراركم بالتطهير عن الهمم الفاسدة، ولا قلوبكم عن الاشتغال بالفانية، فإنَّ الله قد فضَّل بهذه الأحوال أولئك، فلا تقربوا إلى الدرجات الأعلى، وقد ضيقتم الحقوق الأدنى.

قال أبو العباس ابن عطاء: لا تتمنوا؛ فإنكم لا تدرون ما تحت تمنيكم، فإن تحت أنوار نعمه نيران محنه، وتحت نيران محنه أنوار نعمه.

قال الواسطي في هذه الآية: إن تمنى ما قدر له، فقد أساء الظن بالحق، وإن تمنى ما لم يقدر له، فقد أساء الثناء على الله بأن ينقص قسمته من أجل تمني عبده.

قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أمر بالسؤال، ونهى عن التمني؛ لأن السؤال افتقارٌ، والتمني اختبارٌ، والسؤال استرداد النعمة، والتمني الاقتحام في المحنة.

وعرف تعالى طلابه عظم فسحة سرادق كبريائه وجلاله ووسع عطايا أزليته أي: أنتم يا دنيات الهمم لا تنظروا إلى فقيرات الفيض، فإنِّي واسع الفضل والعطاء، لو أعطي ألف جنان في طرفة عين إلى عبدٍ واحدٍ لم ينقص من ملكي ذرةٌ، أين وقعتم من رؤية جلال قدمي وبحار منني، انظروا مني إليَّ، واسألوا زيادة فضلي، فإنِّي وهَّابٌ كريمٌ.

وافهم أنَّ للسؤال مقاماتٌ، ولتلك المقامات آدابٌ ينبغي أن يعرفها العبد، فإنَّ مَنْ ترك السؤال في مقام الانبساط، وسأل في مقام الهيبة استعمل سوء الأدب، ويسقط من عين الله.

ووبَّخ الله سبحانه بهذه الآية أهل دناءة الهمة، والمقصرين في طلب مشاهدته؛ حيث

خاطبهم ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ حجبهم جميعًا بالفضل عن رؤية جماله، ولو كان على محل التحقيق من معرفته ومحبته لم يحملهم إلى الفضل، بل يردهم إلى نفسه، كما وصف صفيه ﷺ؛ حيث عرض إليه الأكوان والحدثان في مقام المشاهدة، ما زاغ سره إليها، بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم:١٧].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: فإنَّ عنده أنوار كرمه.

قال الواسطي: لو لم يعط إلا على السؤال لكان الكرام ما هو أمر المعروف بالكرم من يبتدئ بالعطاء قبل السؤال.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ فالصالحات العارفات بالله، وبحقوق الله، وبأمر الله، وبعفو الله وبعقوبته، وبما وجب عليهن من حقوق أزواجهن في حسن معاشرتهن معهم، والنصيحة في أمرهم، والقانتات قائمات على باب الله بخلوص نيتهن في عبوديته، والشوق إلى لقائه والتواضع في خدمته.

﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي: ساترات على ما كوشف لهن من أحكام الغيب، وأنوار القرب حتى لا يطّلع عليهن أحدٌ؛ حياءً من الله، وسترًا على حالهن؛ لئلا يخرجن من حدة الوجد وصفاء الود، ومتابعة قول الله سبحانه بما أمرهن، قال: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب:٣٣].

ولما رقَّت زجاجات قلوبهن بنيران الخوف ونور الرجاء ولطف المراقبة وسناء الشهود ورقة الملازمة في البيوت وشوقهن إلى عالم الآخرة علم النبي ﷺ ذلك منهن، وأمر الحادي

بالسكوت عن إنشاد الشعر فقال: «يا فلان إياك والقوارير»[(١)].

ولا يكون ذلك إلا بما حفظن الله من الغلبات، والخروج من الحجرات، فتولى حفظهن بنفسه، يعني حفظهن أنفسهن بحفظي إياهن، كما أخبر من لطفه تعالى على أم موسى عند غلبات شوقها إلى موسى، فقال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

وأيضًا: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: ما رأين من أزواجهن من الكرامات وأسرار الله التي انكشفت لهم فلا يقلن عند أحدٍ.

وأيضًا: بما رأين من فقرهم ومجاهدتهم وعبادتهم؛ لئلا يفتتنوا برياء الخلق، ولا يقعن في الشكاية عنهم، وأيضًا: حافظات لفروجهن وعوراتهن من خوف الله؛ فإن خوف الله يمنعهن من هتك الأستار.

قال بعضهم: بحفظ الله لهن صرن حافظاتٍ للغيب، ولو وكلهن إلى أنفسهن لهتكت ستورهن.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ اختلفت طينة الأشباح في التداني والتباعد، وهكذا جوهر الأرواح وقت إيجادها، فوقعت بينها منازعةٌ؛ لتفاوت الأخلاق والحالات والمقامات.

قال ﷺ: «الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[(٢)].

من هنا وقع النشوز والخلاف بين الأزواج؛ لتفاوت السجيات، فإذا جعل بالممارسة والمجاهدة والرياضة صوره طاعة، طاعة الرجال فلا ينبغي أن يطلبوا منهن مرافقة الطباع ومجانسة الأشباح والأرواح؛ فإن ذلك منازعة القدر، وهذا معنى قوله ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: لا تكلفوهن بما لا يكون لهن من تبديل الخلق، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وقيل: لا تبغوا فيهن المحبة وخلوص النية معكم؛ فإن قلوبهن بيد الله؛ ولذلك قال ﷺ: «اللَّهُمَّ هذا قَسْمِي فيما أملك، فلا تؤاخذني بما تملك ولا أملك»[(٣)].

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٥٠)، والديلمي في الفردوس (٥/ ٣٩١).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٢١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣١).

(٣) رواه أبو داود (٢/ ٢٤٢) بلفظ: «فلا تلمني» بدلاً من «فلا تؤاخذني».

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾(١) أمر بشيئين: العبودية والإخلاص في العبودية، ولا تكون العبادة مع الشرك، ولا يكون الإخلاص والتوحيد بغير العبادة، فطلب التوحيد بنعت إفراد القدم عن الحدوث، ونفي الأنداد والأضداد، وطلب العبادة المقرونة بهذا التوحيد؛ لتكون العبادة موافقةً للتوحيد، ويكون التوحيد موافقًا لتنزيه القدم.

خلق النفس مع حظها، وأمر العباد بتقديس حظ اليقين عن اليقين، وكيف يكون تبديل الخلق وطبع النفس أن يكون مائلاً إلى غير الله- تعالى- أي: اطلبوا مني تقديس الأسرار في كشوف الأنوار؛ فإني قادرٌ على أن أزمَّها بأزمَّة الوحدانية، وأسيرها خاضعةً لفردانيتي.

وأيضًا: اعبدوا الله لله، لا على رؤية العوض والعبادة؛ فإنها شرك العارفين، واعبدوه على رؤية التقصير؛ فإنها عبادة الموحدين، وأيضًا: شغلهم منه به، ولو أحبهم بالحب البالغ أسكرهم بشراب القرب والمشاهدة، وأوقعهم في بحار القدم بعد خروجهم من العدم، وهذا آخر الأمر في المحبة والمعرفة؛ ألا ترى كيف وقع بالامتحان من أهل الجنة، وأخبر عنهم بما وجدوا من راحة القرب والمشاهدة بغير نصب الامتحان ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر:٣٥].

قال أبو يزيد: إن الله سبحانه نظر في العالم فلم ير أهلاً لمعرفته، فشغلهم بعبادته.

قال أبو عثمان: حقيقة العبودية قطع العلائق والشركاء عن الشرك.

وقال الواسطي: الشرك رؤية التقصير والعزة من نفسه والملامة عليها، يقال له: ألزمت الملامة من تولى إقامتها ومن قضي عليها الشره.

وقال بعضهم: العبودية فناؤك عن مشاهدتك في مشاهدة من تعبده.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ الوالدان: مشايخ المعرفة، وإحسان المريدين إليهم بوضع أعناقهم عند ساحاتهم بنعت ترك مخالفاتهم في جميع الأنفاس مع نشر فضائلهم عند الخلق والدعاء لهم بمزيد القرب.

قال الجنيد : أمرني أبي أمرًا، وأمرني السري أمرًا، فقدَّمت أمر السري على أمر أبي، وكل ما وجدت فهو من بركاته.

قوله: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: إخوان المحبة من أهل قربة الله.

---

(١) العبادة موافقة الأمر، وهي استفراغ الطاقة في مطالبات تحقيق الغيب، ويدخل فيه التوحيد بالقلب، والتجريد بالسر، والتفريد بلقصد، والخضوع بالنفس، والاستسلام للحكم، ويقال: اعبدوه بالتجرد عن المحظورات، والتجلد في أداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتجافي عن التعريج في منازل الكسل والاستهانة [تفسير القشيري (١/ ٢٨)].

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ أهل فرقة الله الذين وقعوا في الفترة وآفة الشهوة، واحتجبوا بها عن المشاهدة، فإحسانهم ترغيبهم إلى طاعة مولاهم، وتشويقهم إلى مشاهدة سيدهم مع التلطف والظرافة في دعائهم الله، ومن مات أستاذه قبل بلوغه إلى درجة القوم فهو يتيم المعرفة، والإحسان إليه تربيته بآداب القوم؛ لئلا ينقطع عن الطريق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ أراد به السالكين غير المكذوبين؛ فإن المساكين سلكوا طريق المقامات بالمجاهدات، وإحسانهم كشف أسرار المشاهدات عندهم لتقع آثار المحبة في قلوبهم، فيسكنوا عن المجاهدات الظاهرة، ويطلبوا الحق بالقلوب الحاضرة والأسرار الظاهرة؛ ليصلوا بطرفة عين إلى مقام لا يصلون إليه بألف سنة بالمجاهدة والرياضة.

وأيضًا: المساكين الذين وقفوا على باب العظمة، وتاهوا في أودية الصفة، وتحيروا في بيداء القدم، ولم يجدوا سبيلاً إلى مرادهم الكلي لظهور النكرة في المعرفة، والمعرفة في النكرة، فأمر الله سبحانه أن يواسيهم بما يفرج عنهم أثقال العظمة بروح القلوب، وذلك المجالسة بالسماع مع صوت طيب ورائحة طيبة بين كرام المعارف وأشراف الكواشف؛ ليستأنسوا بسماع ساعة كي لا يحترقوا بنيران الكبرياء.

قال ﷺ: «رَوِّحُوا قلوبَكم ساعةً فساعة»[1].

أمرهم بالنشاط بالله على الله؛ لعلمه باحتراق أهل الإجلال والعظمة؛ فأشفق عليهم، وأمرهم بالتوسع ، وفتح عليهم باب الرخص زيادة تشوقهم ومحبتهم جماله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أحسنوا إلى من كان مقامه موافقًا لمقاماتكم؛ لأنه في طريق المعرفة جار قربة الله، وهو قرابتكم في محبة الله.

وأيضًا: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو الروح الناطقة العارفة العاشقة الملكوتية، التي خرجت من العدم بتجلي القدم، وانقدحت من زنود الأزل، وهي أقرب كل شيءٍ منك، وهي جار الله، وهي مصبوغةٌ بصبغ الله، وهي في يمين الله، قال ﷺ: «الأرواح في يمين الله»[2]، ومعدنها من قلبك منظر نور التجلي، ومسكن نور سنا التدلي، وإحسانها أن تطيرها بجناح المعرفة والشوق والمحبة إلى عالم المشاهدة، بعد أن تطلقها من قيد الطبيعة، وتقدس سكنها من حظوظ البشرية، وهي أقرب القرابة منك؛ لأنها أصل قيامك، وأنت قائمٌ بها.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ هو المُريد المبتدئ، فإحسانك إليه أن ترغِّبه إلى سلوك مدارج

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٢٥٣).

(٢) ذكره المصنف في مشرب الأرواح (ص٧٨)..

الصدِّيقين العارفين، وتنشر له مطويات أسرار المحبين وفضائل أحوال المشتاقين.

وأيضًا: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صورتك التي هي حاملةٌ الروح، والإحسان إليها أن تفطم جوارحها من حظوظ المعاصي والشهوات.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ يعني رفيقك في سفر الغيب، الذي هيَّجه حب الله إليه، وشوقه معرفة الله إلى معرفة الله؛ فأنفاسه أنفاسك، وسرُّه سرُّك، ومقامه مقامك، وهو قرينك في غربة الأزل، وأسفار الأبد، وإحسانك إليه؛ إذ كاد ينقطع بلذة المحبة من المحبوب، لن تخوفه من مكره، وترغبه إلى طلب الفناء فيه.

وأيضًا: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ هو قلبك، وإحسانك إليه أن تفرده من الحدثان، وتشوقه إلى جمال الرحمن.

وأيضًا: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ هي النفس الأمَّارة بالسوء، التي قال سيد المرسلين وإمام العالمين محمد ﷺ: «أعدى عدوِّك نفسُك التي بين جنبيك»[1]، وإحسانك إليها أن تحبسها في سجن العبودية، وتمنعها عن الشهوة، وتحرقها بنيران المحبة، وتزر ترابها برياح المعرفة، حتى لا يبقى في جار الله غير الله.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: غريب الله في بلاد الله؛ حيث لا يعرفه سوى الله، الذي يتطرق إليه من نور الأفعال إلى نور الصفات، ومن نور الصفات إلى نور الذات، وهو في غربة الآزال والآباد لا يذكر روعته ولا يطفئ حرقته، ويزيد تحيره وتغربه، لا يعرفه أحدٌ يواسيه، قال ﷺ: «إنْ حضروا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا»[2].

وزاد في وصفهم: لا يفتح لهم السدد، ولا يروحهم المنعمات، أنوار قلوبهم أنور بنور الشمس، والإحسان إليهم بدر المهجة بين أيديهم، وزيادة الاستطابة في أوقاتهم، ودفع الأغيار عن صحبتهم، حتى لا يطَّلع عليه أحدٌ يمنعهم من أحوالهم ساعة.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أي: مريدوكم الذين هم أرقَّاء الإرادة، والإحسان إليهم تربيتهم في طريق الله بآداب الله، ونشر كرامة الله عندهم، ودعاؤهم إلى طريق الرجاء؛ لأن الراجي طيارٌ، والخائف سيارٌ. وتعليمهم طريق المشاهدة بلزوم المراقبة.

وذكر سهل بن عبد الله في تفسير هذه الآية قال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو القلب، و﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ هو النفس، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ العقل الذي ظهر على اقتضاء

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٥٧).

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٤/ ٢٥٠).

السُّنَّة والشرع، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والجوارح المطيعة لله.

وقال الأستاذ في قوله ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ من جيرانك ملكان، فلا تؤذيهما بعصيانك، وراعِ حقهما بما يصل إليهما من إحسانك.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ من عرف الله وشاهد صفاته وبدا له حقائق المحبة، ولم يطق أن يبذل نفسه لله وفي الله، فهو بخيلٌ، ولم يذق حلاوة المحبة بحقائقها، ومن كشف الله له أحكام الملكوت، ولا يذكرها عند المشتاقين إلى لقائه، فهو بخيلٌ، ومنع الأساتذة والمشايخ عن بيان حقائق طريق الله عن المريدين، فهو معاتبٌ بهذه الآية، وتصديق ما ذكرناه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فضله: معرفته ومحبته، ورؤية نوال قربه ولطف بره.

قيل: الذين يمنون بالعطاء، ويطلبون من الناس الثناء عليهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: من البراهين الصادقة.

وقال بعضهم: لا يشكرون نعمة العافية عليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أخبر عن تنزيه جلاله وتنزيه نواله عن النقص على المحسنين، وبشَّر في تضعيف الآية الذين يظنون أعمالهم الصالحة لا تقع موقع القبول، ولا يجدون ثوابها بأنه تعالى يثيبهم على ذلك بأحسن ما يحبون منه؛ لأن علمه تعالى محيطٌ بما كان وما سيكون، لا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ من العرش إلى الثرى، لا ينقص ثواب الصادقين، وإن كان أقلَّ من ذرةٍ؛ لأنه خالقُ ذلك، وكيف يخفى عليه ذلك، وهذا إخبارٌ عن كمال علمه وقدرته جميع المخلوقات، وفيه إذا كان المرء مسيئًا فتاب هو تعالى يبدِّل سيئته حسنةً، فكيف إن كان محسنًا؟ فهو يقبل الحسنة منه، ويثيبه بها بعشرات أمثالها، وأن يعطيه جميع درجات الجنان بلا حسنةٍ، فهو أهلٌ له؛ لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

والحسنة ههنا توحيد الله، وإذا كان صادقًا مخلصًا في ذلك فدرجاته مضاعفةٌ على درجات غيره من العامة، ثم أخبر أنه تعالى يتفضَّل على عبده الصادق بلا سبب من عند كرمه

وجلاله ما لا يحصي عدده من نوال قربه، ومشاهدته بقوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأجر العظيم: مشاهدته.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ أخبر تعالى عن مقام جلاله ﷺ في مشاهدته تعالى حيث شاهده جمهور الأنبياء والصديقين، وبيَّن عن عظيم خوفه في قلوب الجميع، ووضع هاهنا الرغبة والرهبة معًا؛ لأن العارف إذا قرب من البساط يغلب عليه التعظيم والإجلال والرغبة والرجاء؛ لأن شهود أنوار قربه يقتضي هاتين الحالتين، أي: كيف حالك في رؤية القدم، وأنت لا أنت، وكيف حال هؤلاء عند بروز سطوات عظمته، وهم في حد الفناء في رؤية كبريائي؟ وكيف حال الأنبياء والصديقين قبلك وقبل أمتك في ميادين عزتي وجلالي، إذا كان حالك وحال أمتك بهذه الصفة؟ أي: فكيف تشهد الشهداء والمشهودين عليهم حين أبرزت وجهي الكريم؟ كيف تشهدون على الأمة في وجهي وكشف جمالي؟ وكيف تبقي الأمة عند فناء الأنبياء؟ أما مقام الرهبة فيها فإن الله سبحانه لما كشف بعد حواشي سرادق كبريائه من الأنبياء والصديقين وقع عليهم البهتة والتحير والفناء من عظمته وسطوة عزته، فلا يبقى أحدٌ منهم إلا أن يكون مضمحلاً في نفسه، فخاطب على وجه التعجب، أي: كيف يقومون بإيذاء كشف جمالي بنعت

الرضا، وأنتم على شبه السكارى حيارى من حلاوة لذة جمالي؟.

وفي الحديث المروي: إن النبي ﷺ أمر ابن مسعود ببعض قراءة القرآن عنده، فقال: يا رسول الله أُنزل عليك القرآن، وأنا أقرأ عندك، فقال ﷺ: «أنا أحبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ فوضع النبي ﷺ يده على ابن مسعود وقال: إلى ههنا، وبكى بكاءً شديدًا حتى اضطربت لحياه»[1].

وفي رواية أنه ﷺ صاح صيحة عند سماع هذه الآية، وبيَّن في وجده ﷺ هاتين المنزلتين.

وأيضًا: بيَّن شرف نبينا ﷺ وأمته وشرف الأنبياء وأممهم، وألا يخفى عليه شيءٌ من العرش ليستره.

قال بعضهم: ﴿وَجِئْنَا﴾ من كل أمة بوليٍّ وصديقٍ، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ مصدقًا لولايتهم أو مكذبًا لها، قال الله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ هذا خطابٌ لأهل العشق والمحبة والشوق الذين أسكرتهم أنوار القدوسية، وسبحات السبوحية وسطوات العظمة، وشربات بحار الأزلية، ولطائف كشوفات القدمية، وهم حيارى سكارى، تائهون في مشاهد الجلال والجمال، فغالب أحوالهم العبرات والغلبات والزعقات والشهقات، والهيجان والهيمان، لا يعرفون الأوقات، ولا يعلمون الليل من النهار، ولا النهار من الليل، لا يقدرون في حال سكرهم أي: ماتوا على شرائط الصلاة من القيام والقراءة والركوع والسجود، كهشام بن عبدان، وبهلول، وسعدون، وجميع عقلاء المجانين.

أي: أيها العارفون بذاتي وصفاتي وأسمائي ونعوتي السكارى من شراب محبتي وسلسبيل أنسي وتسنيم قِدمي وزنجبيل قربي وخمور عشقي وعقار مشاهدتي إذا كشفت لكم جمالي وأوقعتكم في مقام ربوبيتي فلا تكلفوا أنفسكم أمر صورة الظاهر؛ لأنكم في جنان مشاهدتي، وليس في جنة جلالي تعبُّدٌ، حتى سكنتم من سكركم، وصرتم صاحين على نعت التمكين، فإن جنون العشق يرفع قلم التكليف عن مجنون محبتي، فإذًا تصلون وتقربون مقام البدايات على حدِّ الصحو، وإن كنتم مضطربين من خمار ذلك السكر، لأنَّ السكران

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٦٧٣)، ومسلم (١/ ٥٥١).

والصاحي يذهبان عن صورة العقل إلى عالم العشق، عند طلوع جلال عظمتي، من مطالع قدمي في عيون أبصار أسرارهم، فعند ذلك يستوي حالها:

إِذَا طلـــعَ الـــصباحُ لـــنجمِ رَاحَ   تَـــساوَى فـــيهِ سَـــكرَان وَصَـــاحِي

وكشف غمة إبهام المبطلين، الذين يطعنون إشاراتنا لقلة أفهامهم بها؛ حيث قال:﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ ذكر القربة، وما قال: لا تصلوا، وشرط فيها السكر، والسكر خطراتٌ، والصحو وطناتٌ، وإذا أبقى العقل الإلهي في إشراق أنوار سلطان المشاهدة ذرة فينبغي أن يصلي، ويؤدي حق الأوقات، فإنَّ بعض مشايخنا لما حان عليهم وقت الصلاة وهم في وجد وحالة قاموا إلى الصلاة، ومريدوهم عدوا ركعاتهم وسجداتهم وركوعاتهم فإذا سهوا عن شيء ذكَّروهم ذلك، وهذا من كمال ظرافتهم في المعرفة.

وأيضًا: خاطب أهل الغفلة وسكارى الجهل من شراب الهوى والشهوة ألا يأتوا إلى مقام مناجاته وقربه ومشاهدته حتى يخرجوا منها؛ فإن الغافل لا يؤدي فرائضه على شرائط السنة.

قال الواسطي : لا تقرب إلى مواصلتي إلا وأنت منفصلٌ عن جميع الأكوان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ .

قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مكان الآية مكان الخوف والرجاء، أخبر أنه غفر عن العام جميع المعاصي الصغائر والكبائر دون الشرك الجلي الذي يستوجبون به النار، ولم يشترط التوبة هاهنا، ولم يبين مكان الغفران، وفيه رجاءٌ، وهم بعدم الشرطين؛ لأنَّه يغفر ذنوبهم في الدنيا، ولم يذكرها عندهم في الآخرة؛ لطفًا وكرمًا إن لم تصادف المعصية الشرك، وشدَّد الأمر على الخواص بمؤاخذته إياهم؛ حيث تفحَّص أمر الخطرات المخفية من رؤية الطاعة وأعواضها، وحب الجاه والمحمدة والرياء والسمعة، بيَّن أن ما دون هذه الأشياء منهم مغفورٌ من العثرات والزلات، فإنها غير نقض عهد المحبة والمعرفة، وإنهم مأخوذون بالشرك الخفي، فهو خطرات الرياء والشك في الطريق،

وأراد تعالى بذلك أنهم محاسبون به في جميع الأنفاس، فإن بقوا في ذلك لمحة عاقبهم الله بذلك الحجاب، وهذا إذا كانوا غافلين عن تلك الخطرات، أما إذا استدركوها بعد جريانها ولم يغفلوا عنها برد الخاطر ورد وسوسة العدو بذكر الله ونشر صفاته والتفكر في آلائه ونعمائه بفسح قلوبهم بأنوار ذكره حتى تداركوها بالخجل ورؤية تقصيرهم بالمراقبة والحضور، فبعد ذلك تنتشر أسرار الألوهية وأنوار الربوبية في صدورهم، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، فبتلك الأنوار والأسرار عمروا طرق المعارف والكواشف.

قال بعضهم في الآية : أن يطالع سره شيءٌ سوى الله.

وقال بعضهم : إن رؤية العمل ورؤية النفس وطلب المدح عليه كلها من أنواع الشرك الذي أخبر الله أنه لا يغفره، قال رسول الله ﷺ حاكيًا عن ربِّه: «مَنْ عَمِلَ عملًا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريءٌ»[1].

قال الأستاذ : العوام طولبوا بترك الشرك الجلي، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفي.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ شكا سبحانه عن أهل الدعاوى الباطلة، الذين يراءون الناس، ولا يذكرون الله، سمعوا كلام الأولياء، وباعوا على سوق السالوسيين، وأضافوا حقائق الصديقين إلى أنفسهم، وأشاروا إلى مقام الرياضات والمجاهدات بغير علم، ولم يشموا رائحة الصدق، ومع هذه العيوب يرون أنفسهم عنها، فرَّد الله عليهم بقوله: ﴿يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ أي: يلبس أنوار تنزيه أولياءه وأصفياءه، فيقدِّسهم به عن كل سوءٍ، وعن كل خاطرٍ غير سبيل الحق.

قال بعضهم: ليست الأنفس بمحل التزكية، فمن استحسن من نفسه شيئًا، فقد أسقط من باطنه أنوار اليقين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ وبَّخ الله تعالى أهل ظاهر العلم، الذين اختاروا الرئاسة، وأنكروا على أهل الولاية، وآثروا صحبة المخالفين، يقبلون هواجس نفوسهم التي هي الجبت، ويخطون آثار الطاغوت التي هي إبليس.

قال سهل بن عبد الله: رأس الطواغيت نفسك الأمَّارة بالسوء إذا خلا العبد معها عن العصمة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٥)، وأحمد (٢/ ٤٣٥).

وقال ابن عطاء: أُعطوا الكتاب حجة عليهم لا كرامة لهم.

قال بعضهم: الجبت مرادك، والطاغوت هيكلك.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أخبر عن حسدة الأولياء، الذين يرون الناس الهيبة والوقار على الصديقين، وهم معظمون به في عيون الخلق، وهم يحسدون بهم وبكراماتهم وولايتهم، فإذا ذكر الخلق أوصافهم يدفعونه بإنكار عليهم، وفضل الله معرفة الله وكراماته.

قال بعضهم: الفضل هاهنا الكرامات والولايات والمشاهدات، يكذبون صاحبها ولا يعظمونه.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ الملك العظيم: النبوة والولاية، التي تشتمل على فنون الحقائق من الفراسات والكرامات، ورؤية الغيب وكشف الأسرار.

قيل: إشرافًا على الأسرار.

وقيل: فراسة صادقة.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ وصف المقبلين والمدبرين مقبلين بنعت الإرادة في حق الأولياء، ومدبرين بوصف الإنكار عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: في مشاهدة صفات الأزلية ورؤية جلال ذاته سبحانه.

وأيضًا: الظل الظليل: عنايته الأزلية، وكفايته الأبدية، ورعايته السرمدية.

قال بعضهم: التفويض، وهو محل الراحة والأمن في الدارين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (١) الأمانة: عهد الله الأزلي، الذي عاهد به أرواح أهل القرب في مشاهدة جماله؛ حيث قبلت الأرواح من الربوبية سمات العبودية، ومن المشاهدة لطائف المحبة، ووجدت أسرار الملك والملكوت عند سرادق الجبروت، فكتمتها عن الأغيار، فلما تلبست بالأشباح كادت تفشيها من الضعف عن حملها، فأمرهم الله بكتمانها عن الخلق حتى يؤدونها إلى الحق سبحانه عند كشف جماله في الآخرة؛ لأنه تعالى أهل تلك الأمانة، وذلك قوله: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢] لأنه أيضًا أمرهم بإظهار ما كوشف لهم من أحكام الغيب عند العارفين وكتمانها عن الجاهلين.

قال الجريري: أفضل الأمانات أمانة الأسرار، فلا يظهرها ولا يكشفها إلا لأهلها؛ لأنهم أهل الأمانة العظمى.

قال بعضهم : الأمانة أسرار الله، وأهل الأمانة هم العارفون بالله والعالمون بأسراره، وهم الناظرون إلى القلوب بأنوار الغيوب، فيحكمون عليها، حقق الله أحكامهم، وهو الذي قال الله: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ۝٦١﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ جعل الله تعالى الطاعة على ثلاث مراتب، وهي في الأصل واحدٌ؛ لأنّه مرجع الكل، وكل طاعة منها مخصوصةٌ بمقامٍ من مقام الولاية، فإذا كان أهلًا لبساط القربة وفهم خطاب الحق بلا واسطة

---

(١) ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم، ويقال لله سبحانه وتعالى أماناتٌ وَضَعَها عِنْدَك؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله سبحانه سالمةً مِنْ خيانتِكَ فيها؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك فيها، والخيانة في أمانة السِّرِّ ملاحظتك إياها، والحُكْمُ بين الناس بالعدل تسويةُ القريب، والبعيد في العطاء والبذل، وألا تحملك مخامرةُ حقدٍ على انتقام لنفسٍ [تفسير القشيري (١/ ٤٩١)].

أطاعه بمراده بلا واسطة، وإذا لم يبلغ إلى تلك الدرجة ولم يفهم حقائق رمز الله يرجع إلى بيان نبيه ﷺ؛ لأنه بيّن غوائص خطاب الله، وأطاعه فيما أمر، وذلك طاعة الله بواسطة نبيه، وإن لم يبلغ إلى فهم خطاب النبي ﷺ واستنباطه إشارته يرجع إلى بيان أكابر علماء أمته من أصحابه وغيرهم من الأولياء والصديقين والعارفين؛ لأنهم بيّنوا خطاب رسول الله ﷺ.

وأيضًا: هذا طاعة الله بوسيلة أولي الأمر والأنبياء والملوك في الدنيا مساقط ظل الله، ومن أراد أن يرى بهاء الله وآثار عظمته فلينظر إليهم، قال ﷺ: «السلطانُ ظلّ الله في الأرضِ»(١)، وقال: «الملكُ والنبوةُ توأمان»، ومن التبس بظل الله صار أمره أمر الله، وهاهنا أشار عين الجمع.

وفي الآية إشارةٌ: أي: إذا بلغتم مقام خطاب الخاص من العلوم المجهولة المشكلة اسلكوا مسلكها بغير الواسطة، كالخضر كان متابعًا للعلم اللدني في الخارج عن أمر الظاهر، مثل قتل الغلام، وكسر الألواح، وهذا خاصٌّ لمن وقع له سهم الغيب، ومن بلغ مقام التوحيد ومرتبة الاستقامة لسلك مسلك الأنبياء في مباشرة التوسع والرخص كالأنبياء، مثل سليمان وداود ﷺ ويوسف ﷺ ومحمد ﷺ، وهذا منزل الاقتداء، ولا يصلح هذا للمتكلفين، ومن فتح له باب بيان علم الحقائق يتكلم بإصلاح علماء الله، فإن سلوك مسالكهم لمن له فهم الغيب طاعةٌ معروفةٌ وأسوةٌ حقيقيةٌ، وكل ما ذُكر فهو تفسير قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

وعن جعفر بن محمد قال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالرضا بحكمه، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في المجاهدة في الوفاء بأمره والسر مع الله والظاهر مع رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن علي: أطع الله، فإن تملك ذلك، وإلا فاستعن بطاعة الرسول ﷺ على طاعة الله، فإن وصلت إلى ذلك، وإلا فاستعن بطاعة الأئمة والمشايخ على طاعة رسول الله، ولا تسقط عن هذه الدرجة فتهلك.

قال الجنيد في تفسير هذه الآية: العبد مبتلى بالأمر والنهي، ولله في قلبه أسرارٌ تخطر دائمًا، فكلما خطر خاطرٌ عرضه على الكتاب فهو طاعة الله، فإن وجد له شفاءٌ، وإلا عرضه على السنة، وهو طاعة الرسول، فإن وجد له شفاءٌ، وإلا عرضه على سر السلف الصالحين، وهو طاعة أولي الأمر.

قال أبو سعيد الخرّاز: العبودية ثلاثةٌ: الوفاء لله بالحقيقة، ومتابعة الرسول في الشريعة،

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٦/ ١٦).

والنصيحة لجماعة الأمة.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: إذا وقع عليكم حكمٌ من أحكام الغيب المتشابه وتظهر في أسراركم معارضات الامتحان فارجعوا إلى خطاب الله ورسوله؛ فإن فيها بحار علوم الحقائق، فكل خاطرٍ لا يوافق خطاب الله ورسوله فهو مردودٌ ولا تعتبر به، وإذا أشكل عليكم خطاب الله ورسوله من علم الإشارة فقيسوه بظاهر الكتاب والسنة، فإن في الظاهر إعلام الباطن.

قيل: فإن أُشكل عليكم شيءٌ من أحوال الكبراء والسادة واختلفتم فيها فاعرضوا ذلك على أحوال الرسول، وردوه إليه، فإن لم يتبين لكم فردوه إلى الكتاب المنزّل من ربِّ العالمين.

قال النصرآبادي: إن علمنا لا يصلح إلا لمن له علم الكتاب والسنة، وله معاملةٌ واردةٌ، ومع ذلك يكون له ظرفٌ ونظافةٌ.

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ المصيبة التي أصابتهم هي جزاء إنكارهم على النبي وأصحابه، ومصيبتهم احتجابهم بأنفسهم عن بلوغهم إلى مقام الولاية والمعرفة، وأعظم المصائب عند القوم الانقطاع عن الله، والتحير عن وجدان السبيل إليه.

قيل : أعظم المصائب اشتغالك عن الله، وأعظم الغنائم اشتغالك بالله.

قال أبو الحسين الوراق: أعظم المصائب سقوط الحرمة من قلبك، ونزع الحياء من وجهك، وثقل السنن على جوارحك.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ يسلّي قلب نبيه ﷺ بقوله: ﴿يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: لا تهتم، فأنا أجازيهم بما في صدورهم، فأحجبهم عن كل مرادهم في الدنيا والآخرة، فأعرض عنهم أي: اترك صحبتهم وصحبة كل

جاهلٍ غافلٍ، وعظهم على قدر فهومهم، فإن موعظتك لهم عقوبةٌ، حيث لم يعرفوها، ولم يتبعوها حق الاتباع.

قال الواسطي: أعرض عن الجهّال، وعظ الأوساط، وأخبر بعيوب الأشراف، وخاطب كلًا على قدر طاقته.

وقيل: أعرض عنهم بقولك، وعظهم بفعلك.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: صفني بالعظمة والكبرياء واستغنائي عن كفرهم وإيمانهم، وبعدهم الأبدي عني حين احتجبوا عني بحب الرئاسة، والإنكار على الأنبياء والصديقين.

قال الجنيد: كلّمهم على مقادير العقول ومحتمل الطاقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أخبر الله سبحانه عن قومٍ نقصوا حظ أنفسهم منه باشتغالهم بحظ أنفسهم من الكون، وعن مرارة قلوبهم بمر البعد، لو يخرجون من ظلماتها وحجابها إلى أنوار رؤية النبي ﷺ يبصرون في وجهه طلعة جلالي وجمالي، فيخرجون في رؤيته عن اشتغالهم بالكون، فيرجعون من أنفسهم بنعت الخجل والحياء إلى ساحة كرمه، ويقفون على باب عظمته مرهونين باستغفار النبي ﷺ؛ لأن عليهم بقايا الذنوب من ترك الحرمة في ديوان النبوة، التي لا ترفع عنهم إلا بشفاعته ﷺ، فإذا كانوا كذلك يجدون الله بنعت الإقبال عليهم، وقبولهم وإرشادهم بنفسه إلى نفسه.

قال ابن عطاء في هذه الآية: أي لو جعلوك الوسيلة إليَّ لوصلوا إليَّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ بيّن الله سبحانه أنه ﷺ سبب إيمان الكل، والإيمان به يكون بمحل الإيمان بالله، وقد أشار ههنا إلى مقام الاتحاد وعين الجمع، وأقسم بنفسه تعالى على ذلك؛ إعلامًا بأن الحبيب والمحبوب واحدٌ في المحبة، وبيّن أن حقائق الحكم ودقائق الدين لا تظهر إلا عنده؛ لأنه لسان بيان الحق في العالم، ونفى الحكم عن غيره من الجبت والطاغوت، الذين قرأوا الكتب ولم يظفروا بحقائقها.

وصرح في بيان الآية أن من أسلم وسلم الحكم إليه لم يبلغ حقائق الإيمان إلا بسلامة الصدر وسكونه عند قبوله أمره؛ لأن الطمأنينة هي موضع اليقين، وحقيقة الإيمان هو اليقين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

قال أبو حفص: رضي الله تعالى من عباده لنفسه بظاهر القول، ولم يرض لنبيه ﷺ إلا

بإخلاص القلب، والرضا بحكمه ساء أم سرَّ، ومن لم يكن للنبي ﷺ مستقيمًا ظاهرًا وباطنًا وسرًّا وعلنًا وحقيقة ورسمًا كان بعيدًا عن حقيقة الإسلام ومراتب المسلمين.

قال عبد العزيز المكي: أقسم الحبيب للحبيب بالحبيب أنهم لا يؤمنون حتى يحكموك، فيا لها من شرفٍ، ويا لها من كرامةٍ حارت فيه أوهام الخلائق، وجعل نفسه لنفسه، وجعل الرضا بحكمه كالرضا بحكمه ما وجب على خلقه الرضا، والتسليم بحكم نبيه ﷺ، كما أوجب عليهم الرضا والتسليم بحكمه، فهكذا إنسان المتحابين.

قال بعضهم في هذه الآية: أظهر الحق على حبيبه خلعةً من خلع الربوبية، فجعل الرضا بحكمه ساء أم سرَّ سبيلًا لإيمان المؤمنين، كما جعل الرضا بقضائه لإيقان الموقنين، فأسقط عنه اسم الواسطة؛ لأنه متصفٌ بأوصاف الحق متخلقٌ بأخلاقه؛ ألا ترى كيف قال حسان: «فذُو العَرْشِ محمودٌ وَهَذَا مُحمدُ»(1).

قال الأستاذ: سدَّ الطريق إلى نفسه على الكافّة إلا بعد الإيمان بمحمد ﷺ، فمن لم يمشِ تحت رايته فليس من الله في نفسٍ.

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضة بالكلية بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، فلا بدَّ لك من ملقي المهالك بوجه ضاحك.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ

---

(1) رواه البخاري في التاريخ الصغير (1/ 13).

ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ شكا الله سبحانه عن أحبائه بهذه الآية، وتقصيرهم من بذل نفوسهم لرضائه إعلامًا منه للمحبين أنهم لن يصلوا إليه إلا بإيثار مراده على مرادهم، وهذه الشكاية لا تكون من محل إيمانهم؛ لأنهم بحمد الله على الصدق والإخلاص والإيمان واليقين وصلوا إليه، لكن أخبر عن معارضة نفوسهم عند نزول البأس إلا الأقوياء والمستقيمين في المحبة بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

ثم أخبر أن قتلهم النفوس بالرياضات والمجاهدات والهجرة من الخطايا والذنوب، وهجران السوء من أمارات محبة الله.

قال محمد بن الفضل: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بمخالفة هواها، أو ﴿ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم﴾ أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم، ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ في العدد، كثيرٌ في المعنى، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة، وقرن سبحانه مقام المجاهدة بمقام المشاهدة، وبيّن أن من قصَّر في واجب حقوقه لم يبلغ إلى معالي الدرجات.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: بقاؤهم في مشاهدة الله خيرٌ من بقائهم في الدنيا مع نفوسهم، ورهن الوصول بقتل النفوس بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟﴾، وزاد الوضوح بالآية الثانية في شرح ما ذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الأجر العظيم مشاهدته الأزلية وكشفه الأبدي.

﴿وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: الإرشاد إلى معارف طرق الصفات، والفناء في بقاء الذات، تعالى الله عن كل إشارةٍ وإيماءٍ، والصراط المستقيم المعرفة بعد المعرفة بعد النكرة، وإفراد القدم عن كل العلة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ إنَّ طاعة الله لا تحصل بحقائقها إلا بعد مشاهدة الله؛ لأن حقيقة الطاعة لا تكون إلا من المحبة، ولا تكون المحبة إلا بعد الرؤية، والمشاهدة أي:

من أطاع الله محبة الله في رؤية الله، لقوله ﷺ: «تعبدَ الله كأنّك تراه»[1]، وطاعة الرسول بمعرفة الرسول من معرفة الله، أي: بلغ طاعته إلى هذه المراتب، فهو أهل الله، وهو شبيه أنبيائه وشهدائه ورسله وأوليائه، ويكون في الدنيا والآخرة رفيقهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إنعام الله على النبيين مداناتهم ومشاهداتهم وعلومهم بذاته وصفاته تعالى، واستشرافهم على خزائن ملكه وملكوته، وإنعامه على الصديقين إعطاؤهم سني الكرامات، وفتح أبصارهم بأنوار الصفات، وإنعامه على الشهداء كشف جماله لهم دية لدمائهم، وإنعامه على الصالحين إبراز لطائف بره لهم ليألفوه بها، ويستقيموا في الحضرة بالخدمة.

قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ معناه حسن مرافقتهم مع المطيع لله، وحسن مرافقة الله مطيع الله لهم؛ لقرب منازلهم ودنو مقاماتهم بعضهم بعضًا؛ لأن المرافقة لا تحسن إلا بموافقة المقامات، والأنبياء هم الذين سمعوا أنباء الله بسمع الخاص، والصدِّيقون هم الذين مع الله بحسن الرضا، ومشاهدة نور البقاء، والشهداء المقتولون بسيوف محبته في معارك سطوات عظمته، والصالحون هم الذين خرجوا من محن الامتحان، وظفروا بنعمة الجنان، والروح والريحان، ويتراءون هلال جمال الرحمن، ولم يذكر المرسلين؛ لأنهم في الغيب غائبون وعن غيب الغيب غائبون، آواهم الله في ستره، لا يطّلع عليهم أحدٌ من خلقه إلا عند بروزهم من الحضرة.

قال فارس: أدنى منازل الأنبياء أعلى مراتب الصديقين، وأدنى منازل الصديقين أعلى مراتب الشهداء، وأدنى منازل الشهداء أعلى مراتب الصالحين، والصالحون في ميدان الشهداء، والشهداء في ميدان الصديقين، والصديقون في ميدان الأنبياء، والأنبياء في ميدان المرسلين.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٩٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ كما أن في الآية تخويفًا لمحب الدنيا، وترغيبًا لطالب العقبى الذي هو مطيع الله بنعت التقوى.

وأيضًا: فيها إشارةٌ إلى أن العارف أخذ التوسع، وألف الرخص بعد احتراقه في المجاهدة والرياضة بنيران المحبة؛ لأنه لا ينكر عليه أحدٌ لم يبلغ إلى درجته، فإن الدنيا بأسرها لو كانت ذهبًا وجواهر ومسكًا وعنبرًا وورودًا وريحانًا ونساءً ومركبًا وثيابًا حسنة ومجالس رفيعة قليلة في جنب ما يحتاجه إليه؛ لأنه يريد أن يسلّي قلبه في فراق محبوبه بشيءٍ مستحسنٍ من الحدثان، ولا يكفيه جميع المستحسنات من العرش إلى الثرى، فكيف بشيء قليل من قليل، وإن الله سبحانه يسلي فؤاده بقوله: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: لمن يصبر في مجاهدته وشوقه إليّ من الاستئناس بهذه المستحسنات القليلة؛ لأن في الآخرة كشف جمالي له، الذي هو راحةٌ لا راحة فوقها، كما قال ﷺ: «لا راحةَ للمؤمن دون لقاء الله»[(١)].

قال الواسطي: هوَّن الدنيا في أعينهم؛ لئلا يشق عليهم تركها.

قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ظاهره تخويفٌ للمخالفين، وباطنه توجيهٌ للمشتاقين، أي: لا تخافوا أيها المشتاقون إلى لقائي؛ فإني آتيكم بأحسن ما تظنون بي، فأريحكم من سجن الدنيا، وأوصلكم إلى مجلس وصلتي أينما كنتم، فأنا معكم، فإذا حان وقت القربة أسلبكم من أيدي المنايا، وموتكم خروج أرواحكم بظهور مشاهدي كحجر المغناطيس حيث يظهر بجذب الحديد إليه.

وفيه إشارةٌ: أي: لو طرتم بجناح الروحانية فوق الملكوت لتكون أجسامكم كأرواحكم يدرككم سطوات عظمتي منزل أرواحكم من أجسامكم؛ لأن الأجسام الترابية لا تقوم بإزاء كشف عظمتي إلا بترتيبي إياها في مواقف العرض الأكبر، ومثل هذا الموت يكون فرح المؤمن العارف به، وهو بشارة الحبيب له، يبشره بوصله وقربته، و«مَنْ أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءَه»[(٢)].

بَشِّرْ أَحبَّائِي أَنَّ المـوتَ رَاحـتُهم والمـوتَ وصـلُهُمُ والمـوتَ تقـريبُ

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وبَّخ الله المفلسين الذين سقطوا من عينه وحفظه وكلاءته حتى إذا أتت إليهم راحة أقبلوا إلى الله من فرح النفوس ولذة الشهوات، لا بنعت المعرفة والمحبة، وإذا أتتهم محنةٌ أضافوها إلى غيره، ورجعوا إلى الأسباب، وخاصموا، وظهر

(١) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (١/ ١٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥).

منهم أن إقبالهم إليه من رأس النفس ليس من حقيقة إيمانهم بالله، فأمر صفيه أن قل لهم: إنما تجدون من الأسباب من العرش إلى الثرى لا يكون إلا من عند الله السبب والمسبب؛ لأنه سبب الأسباب والمسبب، ولو كنتم على رؤية التحقيق ترون الأكوان قائمة بالله وزاد في توبيخهم بقوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: ليس بهم في قلة إدراكهم أنبائي وقلة معرفتهم بوحدانيتي حيث يكونون ثنويين إلا إدراك خذلاني إياهم.

قال النصر آبادي : الكل منه ومن عنده، ولكن لا تطيب ما منه وما عنده إلا بما به وبما له.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ الحسنة الطاعة، والحسنة المحبة، والحسنة المعرفة، فأشار إلى هذه الحسنات أنها تفضل منه لا من كسب العبد؛ لأنه تعالى واهب هذه المراتب بلا علة ولا شفاعة ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهو أهل الفضل والعطاء، والسيئة معصية الله، وذلك صفة النفس الأمارة، نزَّه نفسه تعالى من مباشرة المستقبحات، أي: كل حسنة ترجع إلى مشاهدتي، وأنا حسنة أوليائي، فمن مشاهدتي تصدر حسنات تجلياتي، وكل سيئة ومعصية فتصدر من النفس الأمارة التي خلقتها وما فيها؛ لأني مباشرها وأنا خالقها أنا منزَّهٌ عن مباشرة شيء بذاتي.

قال محمد بن علي : أجل الحسنات والنعم عليك في أن عرفك نفسه ووفَّقك لتشكر نعمه، وألهمك ذكره.

وقيل في قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ باتباع هواها، وتركها رضا مولاها، وهي من النفس الأمَّارة بالسوء.

واستدل القدرية بهذه الآية على مذهبهم؛ حيث أضافوا القدرة إلى النفس، قال عليه

الصلاة والسلام: «القدرية مجوس هذه الأمة»[1]؛ لأنهم قالوا باليزدان والأهرمن[2]، ولم تفهم الكفرة والفرقة الضالة أن من لم يقدر أن يخلق ذاتًا فكيف يقدر بأن يخلق صفاتًا، أو لم يفهموا سر القرآن وخطاب الله؛ فإن الله سبحانه نسب إتيان السيئة إلى غيره لا إلى النفس، فقال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾ والإصابة فعل الغير لا فعل النفس، وتبين من فحوى خطابه أن السيئة عني بها البلاء الذي هو جزاء معصية النفس، وإصابة البلاء من الله جزاءٌ لكسب المعصية، كما قال: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٌ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٌ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فهذه السيئات هي من الأسباب لا من الاكتساب.

قال الأستاذ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فضلاً ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ كسبًا، وكلاهما من الله سبحانه خلقًا.

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ ظاهر هذه الآية تدل على الوسيلة، والوسيلة من الله هو الرسول، أي: من أطاع الرسول فقد أطاع الله بوسيلة الرسول، وهذا مقام الأمر والعبودية في النبي ﷺ، وباطن الآية إشارةٌ إلى عين الجمع؛ حيث تندرج صفاته تحت صفات القدم، ويغني خلقه في خلق الأزل، ويخرج من تحت الفناء بصفة البقاء، ويكون مرآة الحق تجلى منها للخلق، فإذا كان كذلك أمره وطاعته مع أمر الله وطاعته واحدٌ لموضع اتصافه واتحاده.

قال جعفر بن محمد: من عرفك بالرسالة والنبوة فقد عرفني بالربوبية والإلهية.

قال أبو عثمان: من صحح الاقتداء بالنبي ﷺ وألزم نفسه طاعته أوصله الله إلى مقامات الأنبياء والصديقين والشهداء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.

قال بعضهم: المتحققون في طاعة الرسول مع الأنبياء، والمقتصدون مع الشهداء، والظالمون مع الصالحين.

وقيل: طاعة الرسول طاعة الحق لفنائه عن أوصافه، وقيامه على أوصاف الحق، وفنائه عن رسومه، وبقائه بالحق ظاهرًا وباطنًا، فطاعته طاعته، وذكره ذكره، وبه يصل العبد إلى الحق، وبمخالفته ينقطع عنه.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٢٢).

(٢) وَجهُ الشَّبهِ في الحديث: أَنَّ المَجُوسَ يَنْسُبُونَ الكَوَائِنَ إلى إلَهَيْنِ يَزْدَانُ فَاعِلُ الخَيْرِ وَأَهْرِمَنْ فَاعِلُ الشَّرِّ.

﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لقرآن صفات القدم، وهو موصوفٌ به؛ لأنَّ كلامه الأزلي والقرآن صفةٌ خاصةٌ ذاتيةٌ من جملة صفاته، وهو واحدٌ من جميع الصفات: لكنه مجمع الصفات كلها، فيه الأسماء والنعوت وخبر الصفات، وإعلام تقديس الذات، وهو قائمٌ بذات الله بغير علة الأصوات والحركات والحروف، ولو وقع لـلخلق التفكر والتدبر فيه بنعت المشاهدة والكشف لعلموا أنه خارجٌ من صفة الحوادث؛ لأنه نعت الأزلية، ووقعوا في بحار أسراره، وفنوا في أنواره، وخرجوا منها جواهر حكم القدمية ورموز السرمدية وحقائق الأبدية التي هو خبر جلال الذات وعيون الصفات وأسرار الأفعال من العرش إلى الثرى، صفته تجلت في حروف الوحدانية، وتجلت حروف الوحدانية في حروف القرآن، وكل حرفٍ مملوءٌ من بحار نكت الإلهية، من وقف على أسرارها يدهش في تجليها، ويعرف أنها خرجت من القدم، وأنها ليست من أوصاف أهل العدم، لأن وصف الله منزَّهٌ عن الخلل والتضاد والخلاف، وأوصاف الخلق متضادةٌ متباينةٌ متغيرةٌ، وذلك المعنى موجودٌ فيما بقي من الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ كلهم مرضى في دار الدنيا، يحتاجون إلى مفرج القرآن، ولو تدبروا لوجدوا كل حرف منه شفاءً لعلةٍ، فإذا وصل دواؤه داء الخليقة يذهب آلامه، ويبقى شفاء القرآن، ويكون صحيحًا بجماله غير سقيم باحتجابه، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وفي إنباء استفهامه شكايةٌ عن العباد أي: أفلا تأتون طلاب عرائس جمال الأزل إلى حجاب القرآن لأن تحت كل حرفٍ حجلةٌ من نور البهاء، وفيها عروسٌ من عرائس جمال الأزل يتلو بلسان السر بنعت الترنم حقائق خطاب الحق.

قال بعضهم: لا يتعظون بكريم مواعظه، ويتبعون محاسن أوامره.

قال أبو عثمان المغربي: تدبرك في الخلق تدبر عبرةٍ، وتدبرك في نفسك تدبر موعظةٍ، وتدبرك في القرآن تدبر حقيقةٍ ومكاشفةٍ، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ جزاك به على تلاوة خطابه، ولولا ذلك لكلت الألسن عن تلاوته.

قال السري: أفهم الناس من فهم أسرار القرآن وتدبر فيه.

وقال سهل: تدبر القرآن تفهمه، ولا يكون التدبر فيه إلا لمن عرف المقاصد فيه، ونطق بمعنى الحق.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أعلم الحق سبحانه وتعالى أن المتكلفين برسوم العلم يظهرون من أنفسهم بالزِّي والمقالة الظاهرة أنهم بلغوا مقام الربانيين، والذين هم مخاطبون من الله بأسرار القرآن، المكاشفون بأنوار عجائبه، ولطف حقائقه، حين تعرضوا بالأرواح الربانية والأسرار القدوسية، واستنباط جواهر الأسرار من بحار القرآن، أي: لو تركوا التكلف، وألقوا زمام الأمر إلى ملوك المعارف، وهم أولو الأمر في الملك والملكوت لسمعوا منهم حقائق مفهوم الخطاب، ولنجوا من مهالك آرائهم الباطلة.

قال ابن عطاء: لو أخذوا طريق السنة وطرق الأكابر في إرادتهم لأوصلهم ذلك إلى المقامات الجليلة من مقامات الإيمان التي هي محل الاستنباط وطرق المكاشفات.

قال الحسين: استنباط القرآن على مقدار تقوى العبد في ظاهره وباطنه وتمام معرفته، وهو أجلُّ مقامات الإيمان.

قال أبو سعيد الخرَّاز: إن لله عبادًا يدخل عليهم الخلل، ولولا ذلك لفسدوا وتعطلوا، وذلك أنهم بلغوا من العلم غايةً صاروا إلى علم المجهول، الذي لم ينصَّه كتابٌ، ولا جاء به خبرٌ، لكن العقلاء العارفين يحتجبون له من الكتاب والسنة بحسن استنباطهم ومعرفتهم، قال الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

---

(١) أي: يستخرجون تدبيره بتجاربهم وأنظارهم الصحيحة ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر أول ما تحفر يقال أنبط الحفار إذا بلغ الماء وسمى القوم الذين ينزلون بالبطائح بين العراقيين نبطا لاستنباطهم الماء من الأرض، وقيل: كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف واستشعار فيذيعونه فينشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلمه الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون منه فالمراد =

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فضل الله معرفته، ورحمته حفظه وكلاءته عبده عن متابعة الشيطان، وهذا عامٌ في المريدين خاصٌ في العارفين، والفضل والرحمة منه للعموم، ومحبته للخصوص الذين هم المستثنون بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال ابن عطاء: لولا فضله عليكم في قبول طاعاتكم لخسرتم ما ضمن لكم في آخرتكم، لكن برحمته نجّاكم من حسراتكم، وتفضّل عليكم بما نجّاكم.

قال الأستاذ: لولا فضل الله مع أوليائه لهاموا في كل وادٍ من التفرقة كإسكانهم في الوقت.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

=

بالمستنبطين منهم على كلا الوجهين الرسول وأولوا الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إذا خرج عارفٌ بكسرة الربوبية من الغيب، وظهرت سلطنته في العالم هاج نيران حسد الحساد عليه، وخافوا كسر شوق سالوسهم، وافتضاحهم بين الخلق، ويحتالون به كسحرة موسى بموسى ﷺ من حسد فرعون، لكي يوقعوه في بعض مخائيل الشيطان ومكائيل النفسانية بتربيتهم الرئاسة والدنيا وجاهها في عينه؛ ليكون مخدوعًا مفتضحًا مثلهم، وأن الله سبحانه حافظ أوليائه وناصر أحبائه، يحفظهم بكلاءته الأزلية ورعايته الأبدية.

قال بعض المشايخ: ودَّ أهل الدعاوى الفاسدة أن يكون المتحققون في أحوالهم أمثالهم، فلا تظهر عليهم فضائح دعاويهم، فحذَّر أولياءه ألا يجالسوا المخالفين؛ لئلا يقع عليهم شؤم حسدهم بقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠) وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا

حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: إذا سلكتم مسالك المقامات بين يدي الله تعالى لطلب مشاهدة الله، وسرتم بأسراركم في أسرار صفاته وأنوار ذاته تبينوا حقائق كل مقامٍ بعرفانٍ وبرهانٍ وذوقٍ وإيقانٍ، وتثبَّتوا، واستقيموا في ظهور جلال الله؛ لئلا تقعوا في تفرقة التلوين، ولا تقعوا في التشبيه في معارك مكريات الالتباس؛ لأن هناك ظهور الذات في لباس الصفات، وظهور الصفات في لباس الأفعال.

قيل: إذا سافرتم اطلبوا أولياء الله، وتثبتوا ألا يفوتكم مشاهدتهم؛ فإن الفوائد في الأسفار وموضع التثبت والاستقامة.

قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

﴿الْمُجَاهِدِينَ﴾: الذين بدلوا بهجتهم في طلب مشاهدة الله بوصف المراقبة.

و﴿الْقَاعِدِينَ﴾ أهل الفترة قعدوا عن طلب جماله تعالى بحظوظ البشرية.

و«الأجر العظيم»: مشاهدة الله، ووصول قربته.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ القائمين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ﴿عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ عنه ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ وصف قومًا أقعدهم نور الشهود عن السير في المجاهدات، وأفناهم عن طلب الخروج من نيران الكبرياء، وطمس طرق الرجوع من مشاهدة الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الأسماء، ومن الأسماء إلى الأفعال، ومن الأفعال إلى الخلق في عيونهم، وحيرهم في قفار الأزليات والأبديات حتى لو يريدون روح الفترة لحظة لم يظفروا به؛ لأنهم مردودون من بحار الصفات إلى بحار الذات، ومن بحار الذات إلى بحار الصفات، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ الرجوع إلى البشرية، ﴿وَلَا

---

(١) قال القاضي أبو محمد -رحمه الله: لأنهم مع المؤمنين بنياتهم كما قال النبي ﷺ في غزوة تبوك «إن بالمدينة رجالاً ما قطعنا واديًا ولا سلكنا جبلاً ولا طريقًا إلا وهم معنا حبسهم العذر».

قال ابن جريج: والتفضيل «بالأجر العظيم والدرجات» هو على القاعدين من غير أهل العذر، المحرر الوجيز (٢/ ١٧٩).

﴿يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الكون والعلة؛ لأنهم مستضعفون في قبضة الألوهية، مستغرقون في قاموس القدمية.

قال أبو سعيد الخرَّاز: الذين أسرهم البلاء، واستولى عليهم حتى صار البلاء لهم وطنًا بعدما كان الحول لهم وطنًا، ثم أفنى عنهم شاهد البلاء علم البلاء، وردَّ عليهم على الإنسانية بإثبات علم الحق، وذلك حين ردت إليهم صفاتهم بعد محو آثارهم فإذ ذاك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي: من هاجر من أوطان نفسه إلى فضاء ولاية التفريد، وأتلف مهجته في طريق محبة الله، ولم يبق له مسكنٌ يسكن قلبه فيه من العرش إلى الثرى، ويجد في الأرض المشرقة بنور وجه الله سبحانه مواطن الأنس، ومواقف القدس وسعة أنوار قربته وسنا وصلته يستغني به عن كل موطنٍ ومرقدٍ، وعن كل مألوفٍ سوى الله، وفي أرض القدم وفضاء الأزل للعارفين المهاجرين منهم إليه مراغم وطنات الصفات، ومشارب سواقي الجلال والجمال في بحار الذات وسعة كنوز أزل الآزال ومشاهدة أبد الآباد.

وأيضًا: من هاجر لله في سبيل الله، وصار غريب الله في بلاد الله مستوحشًا مما دون الله، يجد في أكناف أطراف الأرض مراغم صحبة أولياء الله التي هناك سعة أنوار مشاهدة الله.

قال الأستاذ: من هاجر في الله بما سوى الله، وصحح قصده إلى الله وجد فسحة في عقوق الكرم ومقيلًا في ذوي القبول ورحبًا وسعة في كنف القرب.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: من يخرج من طبيعته وهوى نفسه وحوله وقوته وإشاراته وعباراته وعلمه ورسمه إلى الله في طلب مشاهدته وإلى الرسول في متابعته بنعت المحبة، ويدركه في تضاعيف السير بعض الامتحان، ويقع في منزل الفترة بعد المجاهدة، وقد وقع أجر الوصلة له؛ لأن الله تعالى يجازيه بصدق مقدم الأول قبل أن يهاجر عما دون الله تعالى، وقبل أن يخرج عن جميع مراداته وهواه متبعًا لأوامر الله وما يوصله إلى رضوانه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ هذه رخصةٌ لأهل المشاهدة، الذين استغرقوا في بحار المعرفة والمحبة، فإذا غلب عليهم سلطان الوجد وحان وقت الخدمة سهل عليهم أحكام الفريضة بترخيص الله إياهم، وهم إنس الله الذين يجوز لهم التوسع والرخص، وعلى صورة الظاهر الضعفاء رخصةٌ من عجزهم في ديوان الإنسانية عن حمل وارد الشرع بهيئاته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بيَّن الله سبحانه أن واجبات العبودية لا تسقط عن العبد ما دام فيه الرمق، إما في الخوف وإما في الأمن، ومن تاه في الوجد وهام في الغلبة فهو مجنون العشق، خارجٌ عن مراتب التمكين، وذلك علة له؛ حيث ضعف في الوجد عن حمل وارد الشرع؛ لأن سلطان الشرع حقُّ الله، وسلطان الوجد حظُّ العبد، وسلطان الله غالبٌ على ما دونه؛ لذلك أمر سيد الرسل والأنبياء والأولياء بإقامة الصلاة في مقام الاضطراب والتلوين والامتحان، وهو سائح بحر المشاهدة، وأصحابه فرسان ميادين المحبة، وسادات أهل الولاية، ولو سقطت العبودية عن أهل الوجد لما أمر لسيد الواجدين بأداء الفريضة في مقام الخوف.

والإشارة فيه: أي: إذا كنت بينهم فتكون الصلاة على وفق مراد الله من العباد.

وأيضًا: إذا كنت فيهم فالصلاة ترجع إليهم، وإذا غبت عنهم فالصلاة ترجع إلينا؛ لأنهم في البداية في رؤية الوسيلة، وفي النهاية في إسقاط الوسيلة.

وأيضًا: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ اشتغلت بتأديبهم، وإذا غبت عنهم اشتغلت بنا، فالشرع خفي على العباد، وخفي لك حجاب لحق مشاهدة الشرع في مواطن القرب، بقوله ﷺ: «إنّه ليُغانُ على قلبي»[1] أي: شغلي بكم حين يمنعني قلبي من حظ مشاهدتي من الله.

وأيضًا: أي: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأنك تدري أن ساحة كبريائي مقدسةٌ عن وقوف المصلين، وشريعة بحار قدمي منزهةٌ عن ورد الواردين، فالعبودية ترجع إلى العباد، والربوبية ترجع إلى عظمتي وكبريائي.

وأيضًا: إذا كنت مشغولًا بمشاهدة جمالي، وتسبح في بحار عظمتي فتضيف عالم الخدمة إليهم، فإنك غائبٌ بسترك في عيني وغيب غيبي وجلال مشاهدة أزلي، وسقط عنك ما أوجبت على الغير، وهذا موضعٌ خاصٌ له عليه الصلاة والسلام، الذي قال ﷺ: «لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ»[2].

قال الحسين بن منصور: ليس لله مقامٌ ولا شهودٌ في نادٍ، ولا استهلاكٌ في حيرةٍ، ولا ذهولٌ في عظمته يقطع عن الآداب الشرعية، ولا له مقامٌ أوقف فيه الموحدين، أشهدهم الشريعة أن جريانها عليهم علمٌ للغير لا لهم.

ومما يصح هذا قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فجعل إقامته للصلاة

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥)، وأبو داود (٢/ ٨٤).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/ ٦).

أدبًا لهم، وهو في الحقيقة في عين الحصول لا يرجع إلى غير الحق في منصرفاته، ولا يشهد سواه في سعاياته.

وقال بعضهم: ما دمت فيهم فإن الصلاة تكون قائمةً، وإذا غبت فالصلاة آتيةٌ إليها، كما قال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

الإشارة فيه: أي: إذا أخرجتم من مقام الصلاة فينبغي أن تكونوا في جميع الأحيان كأنكم في الصلاة؛ لأن الصلاة هي الذكر بعينه، وصورة الصلاة شاغلةٌ عن الذكر الحقيقي، الذي هو نور وجه المذكور، أي: إذا تخلصتم عن آلة الصلاة وعلة الأمر فاذكروني بنعت المراقبة في جميع أنفاسكم؛ لأنكم في مشهد مشاهدتي، واسترحتم بالذكر عن أسباب الذكر، فذكركم في القيام حيرةٌ في وجود جلالي ومشاهدة عظمتي، وذكركم في قعودكم سقوطكم في الوجد عن صدمات سطوات كبريائي بالبديهة، وذكركم في جنوبكم اضمحلالكم في رؤية قدمي وبقائي، فإذا كنتم في حالة التمكين وامتلأتم في أنوار ذكري فينبغي أن تخرجوا من أبواب الرخص، والاستراحة في ساعة الروح، وترجعوا إلى مقام الصلاة، فإن آخر سيركم في ربوبيتي أول بدايتكم في عبوديتي.

ثم إنَّ الله سبحانه وقَّتَ لأيام الخدمة وقتًا، وهو كشوف أبواب العظمة والكبرياء الذي تجليه يزعج العباد إلى الفناء في بوادي عظمته وجلاله، ولو كان دائمًا لاحترقت الخلائق فيها، وفني العباد بأسرها، وكيف يوازي الحدث جلال القدم، ومَنْ يجرؤ أن يتعرض بالسرمدية لساحات عظمة الله تعالى، أوقعهم في الفترة؛ غيرةً على المعرفة، ولم يوقِّت للذكر وقتًا؛ لأن ذكره شعاع تلك الشموس وضوء تلك الأقمار، وهو قطرات مزن الغيب، يحيى بشريانها فؤاد المحبين والموحدين، وهاهنا مقام الضعفاء والإسراء، والله أعلم وأحكم.

قال أبو عثمان: وقّت الله العبادات كلها بالمواقيت إلا الذكر؛ فإنه أمرك به على كل حالٍ وفي كل أوانٍ.

وقال الأستاذ في هذه الآية: الوظائف الظاهرة مؤقتةٌ، وحضور القلب بالذكر مسرمدٌ، غير منقطعٍ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ تفضّل على الناس بإنزال كتابه على نبيه، وإعطائه فهم خطابه، وكشف لآرائه العلية ﷺ حقائق حكمته الأزلية السابقة بمراده من عبودية عباده، ووقوع صلاحهم من بيانه ﷺ، موافقًا لرضا الله، أراد من العباد عبوديته في الأزل، وعلم جهلهم بها، فكاشف عليها على لسان نبيه ﷺ، وهذا معنى قوله: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ أسرار، وفي قلبه ﷺ من الله أنوار يعرف خطاب الله، فيحكم بها بين الخلق، ليتبين الرشد من الغي، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦] كتاب الظاهر الشاهد على ما أراد الله من مشاهدات الغيب، وما قدر الله لعباده من أحكام العبودية وعرفان الربوبية، قال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[1].

قال سهل: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: بما علمك الله من الحكمة في القرآن والشريعة.

قال بعضهم: بما كشف لك من بواطنهم، وأظهره لك لا على ما يظهرونه، فإن رؤيتك لهم رؤية كشفٍ وعيانٍ.

قال ابن عطاء: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ فإنك بنا ترى، وعنا تنطق، وأنت بمرأىً منا ومسمعٍ.

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾﴾.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بيَّن الله سبحانه في هذه الآية أن أمر النبوة ليس من طبائع الخلق والخليقة، ولا للاكتساب فيه مدخلٌ؛ إنما يتعلق باصطفائية أزليته واجتبائية أبديته، وبيَّن موضع السهو والنسيان الإنساني، وبيَّن أن التنزيه عن الغلط والسهو لا يكون إلا لله تعالى، عجز الخليقة عن إدراك قدس الأزلية والخروج عن علة البشرية بالكلية، وأدَّبه ليلقى أزمة الأمر إلى مراد الله ولا يزيد إلا ما يريد، قال: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ﴾ أي: ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم وحظوظها على مراد الله ومحبته وخيانتهم مع أنفسهم أنهم عاهدوا الله أن يبذلوا نفوسهم إليه ليفعل بها ما يشاء، ليربيها بحسن قربته وحلاوة وصلته، فلما أعطوا حظوظها نقضوا عهد الأول، وألقوا أنفسهم في ظلمات هواها حتى بقيت في الحجاب عن الوصول إلى العهد الأول، وهذا غاية الخيانة مع النفس.

قال بعضهم: خيانة النفس اتباع مرادها وترك نصيحتها.

قال الحسن بن علي الدامغاني: من خان الله في السر هتك سرَّه في العلانية.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: يسترون من الناس معايبهم، وخيانتهم تعميهم عن رؤية عجز الناس وقلة قدرتهم بدفع المضرة وإعطاء المنفعة؛ لأنهم عاجزون في قبضة التقدير، وعظم الخلق في قلوبهم من قلة عرفانهم عظمة الله وجلاله وإحاطته بكل ذرةٍ من العرش إلى الثرى، ولا يسترون من الله؛ لأنهم ليس لهم استعداد عرفانه الذي ثمرته الخوف والحياء من الله سبحانه، قال ﷺ: «أنا أعرفُكم بالله، وأخوفُكم منه»[1]، بيَّن أن زيادة الخوف من زيادة العرفان.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: لا يسترون من الله في مباشرة القبائح، وهو محيطٌ بظاهرهم وضمائرهم وإراداتهم، لا يعرفونه بنعت الإحاطة، وأنهم لا يقدرون بالاستتار عنه، وهذا نفي فائدته بيان عجزهم عن الاستتار عنه، ومعناه أنهم يستحيون من الخلق ولا يستحيون من الخالق.

قال محمد بن الفضل: من لم يكن أعظم شيءٍ في قلبه ربه كان جاهلًا به ومبعدًا عنه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٣١).

بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي: أنزل عليك الكتاب شاهدًا على ما كوشف لك قبل نزول الكتاب من أحكام المشاهدة والمعرفة، وما استأثرك من علوم الغيبية لتثبيت فؤادك بها وجدت منا قبل نزول الكتاب كقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[هود: ١٢٠]، والحكمة إحكام الطريقة وآداب القربة ونوادر علوم الإلهية، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي: علوم عواقب الخلق، وعلم ما كان وما سيكون.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ بمسابقتك على الأنبياء بكشف جمالي ورؤية ذاتي وصفاتي ودنوك مني حيث قلت: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٨،٩]، وعني بالفضل العظيم استغراقه في بحار قدمه وبقاءه بنعت المعارف والكواشف.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾: عرَّفك قدر نفسك.

قال سهل: العلماء ثلاثة: عالمٌ بالله لا عالم بأمر الله ولا بأيام الله، وهم المؤمنون، وعالمٌ بالله عالمٌ بأمر الله لا عالم بأيام الله، وهم العلماء ، وعالمٌ بالله وعالمٌ بأمر الله وعالمٌ بأيام الله، فهم النبيون والصديقون.

وقيل : علمتك من مكنون أسراري ما لم تكن تعلمه إلا بي.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾: إنما عظَّمه بالمباشرة، فاحتمل الذات بعدما احتمل الصفات، وموسى احتمل الصفات، ولم يحتمل الذات.

قال بعضهم: فضلت في الأزل بفضائل، وقد تعثر في المشاهد العثرة، كما قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣]، فتعاتب، ثم ترد إلى الفضل الذي جرى لك في الأزل.

قيل في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾: من علو رتبتك على الكافة[(١)].

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ وبَّخ الله سبحانه قومًا ليس مجالستهم ونجواهم لله فكل مجالسةٍ على غير ابتغاء وجه الله، والشيطان يغريهم إلى الغيبة والبهتان والنميمة والترهات، أي: لا خير في كثيرٍ من هؤلاء في نجواهم يعني [...][(٢)] وقومه.

ثم استدرك ووصف أهل المجالسة لله الذين جلسوا لمحبته، وقاموا لشوقه، واجتمعوا لعشقه، وتفرقوا لطلب زيادة معرفته والمساكنة في مجالس أنسه بالخلوات في الفلوات.

ثم وصفهم بأحسن الوصف؛ حيث آواهم إلى كنف قربه وحجال أنسه بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

ثم وصفهم على لسان نبيه، وزاد شرفهم؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام فيما روى عن الله ﷻ: «وجبتْ محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، والمتزاورين فيَّ والمتجالسين فيَّ، والمتباذلين فيَّ»[(٣)].

سبق في الأزل محبته لهم، فأوقعتهم تلك المحبة الأزلية في بحار محبته، حتى استغرقوا فيها إلى الآباد لا مخرج منها لهم بالنظر إلى سواه، قال تعالى في وصفهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] نجواهم جريان أسراره وجولان أنفاسهم في ميادين أنواره، فساعة تاهوا، وساعة تحيروا، روحهم بمروحة أنسه، وأدخلهم في قباب قدسه، وسقاهم من شراب لطفه،

---

(١) قال حقي: احسبوا أن علم الروح مما لم يكن يعلمه ألم يخبر أن الله علمه ما لم يكن يعلم فأما سكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظار للوحي حين سألته اليهود فقد كان لغموض في معنى الجواب ودقة لا تفهمها اليهود لبلادة طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، فإنه وما يعقلها إلا العالمون وهم أرباب السلوك والسائرون إلى الله فإنهم لما عبروا عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب ولما عبروا بالسر عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا بعلم السر القلب وإذا عبروا عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر. وإذا عبروا عن عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفى عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا عن منزلة الخفى ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار صفات مشاهدات الجميل الخفى، وإذا فنوا بسطوات تجلى صفات الجلال عن أنائية الوجود ووصلوا إلى الجنة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى وإذا استغرقوا في بحر الهوية وابقوا ببقاء الإلهية عرفوا الله بالله، فإذا كان هذا حال الولي فكيف حال من يقول علمت ما كان وما سيكون. [روح البيان٧/ ٢٨٠].

(٢) بالأصل (طعمة) وهي غير واضحة.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٣٣).

وأسكرهم بجمال وجهه، وحثهم إلى مسامرته وذوق فهم طعم لطف مناجاته، فإذا سكنوا من سطوات مشاهدة جلاله، وأفاقوا من سكر جماله لحظة احتالوا لزيادة محبته في أخذهم طريق بذل المهجة لمحبته، ورجعوا إلى سنن المجاهدات وحقائق العبادات، أمر بعضهم بعضًا ببذل الأرواح والأشباح؛ لشوقهم إلى عالم الأفراح، وأمروا بالمعروف بحكمهم على النفوس الأمارة بإذابتها في المجاهدة بنيران الرياضة، ويراعي بعضهم بعضًا بحسن النصيحة وآداب الطريقة، ويسألون الله صلاح هذه الأمة من كمال شفقتهم على عباد الله وبلاد الله، وهم المستثنون من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، وبيّن أن ذلك لزيادة رغبتهم في مشاهدة الله، وشوقهم إلى جماله، وهو تعالى وعدهم بتضعيف زيادة كراماته ودرجاتهم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قيل في تفسيره: ﴿لَّا خَيْرَ﴾ في الاجتماعات إلا ما يعود نفعه عليك أو على أهل مجلسك.

وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ تصدّق بنفسه بمنعه عن أذى المسلمين، وارتكاب المحارم.

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ قيل: المعروف حثُّ النفس على سبيل الرشاد.

﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، لما التصق رغام الإياس في أنف إبليس من إغواء الأولياء والمخلصين حيث يئس في سماع خطاب الحق جل سلطانه في وصف إحسانه من جميع العباد بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، رأى بعد ذلك في حواشي ساحات قلوبهم مجاري ضيقة تجري فيها للنفس الأمارة وهواجسها، قال: لما يئست من انقطاع المريدين عنه ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، يعني: ألتقط قطيعات من هواهم ونفوسهم نصيب وسواسي أو سوسهم من وراء القاف؛ لأني لو دنوت منهم بالمباشرة

أحترق بنيران محبتهم، وذلك النصيب لما سلبه سارق القهر من حومة مراقبتهم تداركوه بالندم ورموه بسهام الذكر من قوس الفكر، فخرجوه حومة التلاوة، ونشاب الاستعاذة، ثم رأوه بعد ذلك أسيرًا في سجن جوعهم ومجاهدتهم.

صحة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] أبصروه خائبًا خاسرًا محترقًا، وهم بعد ذلك ينزلون أعالي منازل القرب، وزادوهم دنو الدنو، قال ﷺ: «أيسَ الشيطانُ أنْ يعبدَه المصلون، وقال في موضع: «ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبدَ في بلادكم هذا أبدًا، ولكن ستكون له طاعةٌ فيما تحتقرون من أعمالكم فسيرضى به»[1]. في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[2]

ألا ترى كيف دار حول آدم صفي الله -صلوات الله عليه- فاحترق بنيران لعنة الأبدية، وكانت وسوسته لآدم سبب زيادة زلفته، وقربته، واجتبائيته، واصطفائيته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، وهذا إعلامٌ من الله سبحانه للخلق، هكذا يكون شأن من يؤذي وليه وحبيبه من أحبائه وأصفيائه.

قال الواسطي: فقال له: إن كان إليك شيءٌ من القدرة والقوة فَاغْوِ أحدًا سوى ما جعل له من النصيب المفروض، عند ذلك يظهر عجزه وضعفه.

وقال بعضهم في هذه الآية: لترَ في أعينهم طاعتهم، وأغلق دونهم أبواب الإنابة ورؤية الفضل.

وقد وقع لي شيءٌ أخف: أن ذلك النصيب التفات العاشق في طلب جمال الحق إلى عالم المستحسنات؛ لأن فيها ما يليق بالنفس الأمّارة حين تلطف في جوار الروح الناطقة العاشقة، فأخذت الروح من الوجوه الحسان لطف معدن الحسن، وبقى للنفس الأمارة حظٌّ من حظوظ الشهوات.

قال أبو سعيد الخرّاز: رأيت إبليس في منامي، فقلت له: هل لك يدٌ على الصوفية؟ فقال: لا. ومضى، ثم التفت، وقال: لي عندهم لطيفةٌ، وهي نظرهم إلى وجوه الأحداث.

وأيضًا: نصيب الملعون منهم فرحهم بحالهم، ووقوفهم بلذات مواعيدهم، وإلقاء مخاييله في مكاشفتهم، وذلك النصيب يقع على أكثر من مقاماتهم منها أي: يعدهم إلى بلوغ مقام الكرامات بغير استعمال آداب الطريق، ومتابعة المشايخ، وموافقة الأسوة والسنة، وهذا

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٦١).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٨٤).

له في المريدين.

ومنها: أن يمنيهم بطول العمر، ونيل الدرجات في شيخوختهم بأن تقاعدوا عن استعمال رسوم المعرفة، وكل هذا غرور الملعون، ولا يشتري غرور إلا من فرَّ من أمانة النفس في طريق الله، وكل هذا معنى قوله تعالى في وصفه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، والغرور ولهٌ للمريدين أنك قد بلغت منتهى المقامات، وآخر الدرجات فاسكن من مجاهدتك ورياضتك، واجلس في مجلس الشيوخ، وتكلَّم بكلامهم، أنت أعظم منهم، حتى يدور حولك المريدون، وأراد بذلك الغرور أن يوقعه إلى حب الجاه والرئاسة، فيهلك فيها كهؤلاء المطرودين في زماننا، طهَّر الله وجه الأرض منهم، ومن أمثالهم.

قال بعضهم: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ طوال العمر، والموت غايتهم، ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾[1] الغنى والفقر سبيلهم، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ما يقربهم من الدنيا، ويبعدهم عن الآخرة.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ حقيقة هذه الآية قطع أسباب الحدث عن جناب القدم، وإفراد الأزل عن الحوادث، وأن الخليقة للعبودية لا للربوبية، أي: ما دمتم في رِقِّ العبودية يجازيكم بأعمالكم، ليس كما يجري على خواص الأولياء، أنا ما دام بيني وبينهم نسبة المحبة لا أجازيهم باشتغالهم بغيري، ولا أحاسبهم بالعثرات والزلات؛ فإني منزَّهٌ عن أن يدركني أحدٌ بنعت الحقوق منه عليَّ، فحقوقي قائمةٌ على عبادي أبدًا، وهذا معنى قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ لأنه وإن كان عزيزًا عليَّ لم يخرج من رقِّ العبودية، وأنا أجازيه بالسيئة بعد أن أوقعته فيها تربيةً لا حرمانًا، وإذا مال خاطر العبد العارف إلى مراد نفساني فذلك الخاطر في حساب المعرفة سوءٌ، فيجازيه باستعماله، وهذا إشارة قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، فذلك أسوأ جزاء سوء الخاطر، وسوء الخاطر امتحانه لتربيته، ومن لم يعرفه فوجوده

---

(١) ما لا ينالون نحو ألا بعث، ولا حساب، ولا جزاء أو نيل المثوبات الأخروية من غير عمل. تفسير حقي (٣/ ٩٨).

كله سوءٌ، فمن عرفه غيره فالكل قد وقفوا فيه العالم والجاهل في مدارك عرفانه في عين النكرة، والنكرة لا تتناهى، والعبد في جميع الأنفاس في جزاء النكرة بعد النكرة، وهذا معنى قول النبي ﷺ حيث قال: «لو أن الله تعالى عذَّب جميع الملائكة لكان حقًّا له، قيل: إنهم معصومون، قال: من قلة معرفتهم بربِّهم»(١).

وهذا الامتحان في دار الدنيا؛ لتقديس أسرارهم عما دون الله، وتخفيف مطايا قلوبهم عن غبار الأوزار في تلك المرائي، التي هي مجالس الأنس ومحافل الطرب، حيث هرب الهرب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ أنه وصف من يحمل بسربال جلاله الذي يتلألأ منه حسن وجهه القديم، وطار بجناح المحبة والشوق في هواء هويته، فيجد طريقًا من الأزل إلى الأزل، فيسير من الله إلى الله إلى أبد الأبد، فتلك المسالك دينه، أي: دين أحسن من هذا، وهو بجلاله وعظمته دليله منه إليه، لم ينطمس مسلك الآزال والآباد ما دام بعزته ومجده أمام مطايا أسراره وعلم رواحل أنواره:

إذا نحنُ أدلجنا وأنتَ أمامنا كفى لمطايانا بريَّاكِ هاديا

بانت سمات الحسن منه حين أسلم وجهه لله إلى جمال الله، يتجلى من وجهه تعالى لوجه قاصده، فيبرز نور وجه القدم من وجهه، أفنى وجوده لإدراك وجوده، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: عارفٌ وعالمٌ بما يطلب ويطلبه، ومقصده مشاهدة الباقي بنعت الفناء فيها، فسهَّل عليه اضمحلاله بالله في الله.

قال ابن أدهم: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، فنعته في الفناء فيه اتصافه برضاه، فيرضى عنه فيما يريد منه، ومثل هذا الدين دين الحنيفية الحبيبية الجليلية المسايلة عن الحدثان في مشادة الرحمن، ألا ترى كيف وصف حبيبه بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] حين رآه لم يلتفت إلى الحدثان، وكيف وصف خليله حين برزت أنوار جلاله من مطالع القدر ببراءته عن الحدث بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وبيَّن تعالى أن تمام حسنه لم يكن إلا بمتابعة خليله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ وملته كسر أصنام الطبيعة بفأس الحقيقة في بداية المحبة، وإذهاب عرائس الملكوت من

(١) لم أقف عليه.

خاطره بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ بعد قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٧]، حين انكشف في عينه جمال الجبروت الأول مقام الإيقان، والآخر مقام العرفان وطريق تسليم نفسه لله في محل الامتحان بنعت سلامة القلب عما دون الرب، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٩].

وزاد في وصفه بقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] امتحن تسليمه بذبح الولد، فمرر السكين على حلقه سبعين مرةً، وامتحن بنفسه بإلقائه في النار، فعرض عليه جبريل ﷺ المعاونة، فقال: «ألك لي حاجةٌ؟ فقال: أما إليك فلا»[1].

وبيَّن سبحانه إذا كان الخليل بهذه الصفة في عبوديته وعرفان ربوبيته اتخذه، كان في الأزل خليل الله بلا علة ولا تهمة، اصطفاه بالخلة في الأزل، ولو كانت خلته بعوض ما كان فضلا؛ لأن اصطفائيته بالخلة وصف الأزل، والأزل قديمٌ قبل وجود الحوادث، حيث أقبلت صفته تعالى وهى المحبة إلى الذات، وأقبل الذات إلى الصفة، وتجلى الذات للصفات، ثم تجلى الذات والصفات للفعل، وتجلى الفعل إلى القدم، فظهر الخليل بوصف الخليل، ويرى الخليل الخليل بعين الجليل، فصار خليلاً للجليل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، وهذا الذي بعينه للحبيب، والحبيب أفضل من الخليل؛ لأن المحبة لبُّ الخلة، ثم صرَّح بالإشارة أن المحسن الراضي إذا تابع الحبيب والخليل فيما ذكرنا صار حبيب الله وخليل الله.

قال بعضهم في هذه الآية: أي من أحسن حالاً ممن رضي بمجاري الأقدار عليه في العسر واليسر، وأسلم قلبه إلى ربه، وأخلص وجهه له وهو محسنٌ، أي: متبعٌ لسنة المصطفى ﷺ.

وقال أبو بكر: مَنْ ظاهر واتبع ملّة إبراهيم ﷺ حنيفًا، أي: يخرج من الكونين إقبالاً منه على الحق.

وقال الواسطي: حنيفًا أي: مطهَّرًا من أدناس الكون، خالصًا للحق ممَّا يبدو له وعليه.

قال ابن عطاء: اتخذه خليلاً، ولم نخالك سرائره شيئًا غيره، فذلك حقيقة الخلّة.

وأنشد:

قد تخللتَ مسلكَ الروح مني ... وبذا سُمِّي الخليلُ خليلاً
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... وإذا ما غشتُ كنتُ عليلاً

قال الحسين: اتخذه خليلاً، ولا صنع لإبراهيم ﷺ فيه، وذلك موضع المنّة، ثم أثنى

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٩).

عليه بالخلّة، وذلك فعل الكرام.

وقال الواسطي: تخللته أنوار بره، فسماه خليلاً.

وعن جعفر بن محمد قال: أظهر اسم الخلّة إبراهيم ﷺ؛ لأن الخليل ظاهرٌ في المعنى، وأخفى اسم المحبة لمحمد ﷺ لتمام حاله؛ إذ لا يحب الحبيب إظهار حال حبيبه، بل يحب إخفاءه، ويستره؛ لئلا يطّلع عليه سواه، ولا يدخل أحدٌ فيما بينهما.

وقال ابن عطاء في تفسير قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: قصده وتدبيره لربه وهو محسنٌ، أي: يرى الحق بسره، فأسلم له ذلك كله مفوضًا إليه ومسلمًا تدبيره إليه.

قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ كان الله تعالى ألزم النفوس سمات النكرة، وفتح أبصارها عليها حتى لا ترى إلا وجودها، فعشقت على وجودها، وعُميت عن رؤية خالقها، فتكون كل وقتٍ في طلب حظها من العالم، فإذا حركها الله بواجب العبودية تأبى عن ترك حظوظها؛ لقلّة عرفانها حظ الأكبر، وهو مشاهدة خالقها، التي هي رأس كل دولة في الكونين، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾.

قال النوري: ألزمت الأشباح مخالفة الحق في جميع الأحوال، وشحها ما يضرها من طلب الدنيا.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ

وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ العدل صفة الحق، فمَنْ اتصف بصفته يكون عادلاً في جميع الأحيان، لكن ما كان العدل مستعارًا في التخلق يرجع إلى معدنه عند الامتحان، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟﴾، وهاهنا أجدر أن ينصرف العدل إلى معدنه؛ لأن ميلان الأرواح والأشباح بعضها بعضًا علّة الفطرة، وحبُّ النساء من أحكام العشق الروحاني طبعًا وطلبًا لمعدن حسن الأزل، فكيف تكون الاستطاعة من النفس بالعدل بينهن والروح في طلب زيادة الحسن أبدًا! ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي: أرموا النفوس بأزمة المجاهدة والرياضة والمراقبة عند امتناعها من الخضوع عند أمر خالقها.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: فكيف تستطيعون العدل بينكم وبين الحق وليس من العدل أن تحب ما يشغلك عن حبيبك، وليس من العدل أن تفتر عن طاعة مَنْ لا يفتر عن ترك.

وقال الواسطي في قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ الجوارح تبعٌ للقلب؛ لأنه أمير أمرك أنْ تخالفه إذا خالف الحق.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ التقوى حقيقة العبودية، ولا يستقيم أمرها إلا بأداء حقوق التقوى، وهي الاجتناب مما منعه الله من النفس والهوى، ومعنى ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أنظروا بأبصار القلوب إلى عالم الغيوب ترون سبحات عظمتي وجلال عزتي الذي ينبغي للعباد أن يدونوا تحت تجليه.

قال بعضهم: أمر الكل بالتقوى، وأوصل النفس إلى التقوى، مَنْ جرى له في السبق عنايةٌ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ﴾ أمر سبحانه العباد بالإنصاف والقسط والعدل في الشهادة؛ لئلا يتنوع الحكم حين تميل النفس إلى غير الله، أي: راقبوني في أمري، ولا تراقبوا غيري؛ فإن الشاهد العادل إذا كان مراقبًا لي يرى شهودي على كل ذرة، فيفرغ بي شهادته من شهودي.

قال الجنيد: لن يصل إلى قلبك روح التوحيد، وله عندك حقٌّ لم تقضه أو لم تؤده.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا بلسان الحقيقة خاطب المريدين الذين آمنوا بالمقامات والكرامات والمكاشفات والمشاهدات في بدو الإرادة مطلقًا بغير المباشرة، فإذا وقعوا في مسلك الحقائق رأوا أحكام الغيب، وسمعوا أصوات الإلهام من هواتف الملكوت، واضطربوا عند معارضة النفوس، أي: أيها المدَّعون في بدايتكم بالإيمان على حقائق الطريقة اثبتوا بنعت الإيقان في محل الامتحان عند كشوف أسرار الغيب، وأيقنوا أن ما سمعتم من خطاب الأسرار فهو كلامي على لسان تلك الهواتف.

وأيضًا: هذا خطاب الأكابر، أي: أيها العارفون اعرفوني؛ فإن ما وصلكم من معرفتي فهو يؤولكم إلى النكرة، ومَنْ ظن منكم أنه بلغ إلى حقيقة المعرفة أخطأ الطريق، فإني ممتنعٌ بعزتي وجلالي عن مطالعة الخليقة وجود قدمي، وارجعوا من تفردكم عند إفرادكم القدم عن الحدوث إلى الوسائط، يعني الإيمان بالرسول؛ فإنه حادثٌ يكون محل الحوادث، وساحة الكبرياء منـزَّهةٌ عن الإيمان والكفر.

سُئل فارس: ما معنى هذه الآية وليس في ظاهرها التجريد؟ قال: التجريد إنما يقع بلسان السرِّ من جهة هواتف الحق، ومعنى الآية: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ يريد تكرار الإيمان.

وقيل: أي: أيها المدعون تجريد الإيمان بي من غير واسطةٍ، لا سبيل لكم إلى الوصول إلى عين التجريد إلا بقبول الوسائط.

قال الأستاذ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن يؤمنوا من حيث الكشف والعيان.

ويقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا تحتم بعفوه الوصول، واستمكنت منكم حيرة البديهة، وغلبات الذهول، ثم أفقتم من تلك الغيبة، فآمنوا أن الذي كان غالبًا عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات، فإن الصمدية ممتنعةٌ مقدسةٌ عن كل قربٍ وبعدٍ ووصلٍ وفصلٍ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ يصف أهل التردد في سلوك سبيل أولياء الله والإيمان بهم وبأحوالهم حين هاجت رغبتهم إلى رئاسة القوم أشرفهم عند الخاص والعام، وآمنوا رسمًا لا استعدادًا، فلما جنَّت عليهم ظلمات المجاهدات لم يحتملوا، وأنكروا عليهم، ورجعوا إلى حظوظ أنفسهم، فإذا سمعوا أفكار الخلق على ترددهم ورأوا مهابة الأكابر

عندهم آمنوا بعد ذلك رسمًا لا حقيقةً، فلمّا لم يصلوا إلى شيءٍ من مقامات القوم وكراماتهم ارتدوا، وصاروا منكرين على القوم وعلى مقاماتهم، وزاد إنكارهم على الإنكار حين رجعوا إلى اللذات والشهوات، واختاروا الدنيا على الآخرة، ويقولون عند الخلق إن هؤلاء ليسوا على الحق، ويطعنونهم، يقعون في تمزيقهم وغيبتهم حتى تضيق صدور القوم عليهم، وأن الله سبحانه ينتقم منهم بأن يشغلهم بجمع المال والرئاسة، ولا يرشدهم بعد ذلك إلى سبيل الرشاد، وتبقى على وجوههم سمات الخسران، ويحترقون غدًا عندهم في وسط النيران، وهذا وصف أهل زماننا من المنكرين الذين كان عندهم بالإرادة الإيمان بنا وبأحوالنا.

قال الأستاذ: إنّ الذين تبدلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم تغشوا وعثروا ثم ختم بالسوء أحوالهم أولئك الذين قصمتهم سطوات العزّة حكمًا، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمةً وحالاً، الحق تعالى لا يهديهم لقصدٍ ولا يدلهم على رشدٍ.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَـٰكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أعلم الحق سبحانه أن

جهلة النفوس طلبوا العزَّ من موضع الذل وأخطأوا الطريق، فان العزَّة بصفة الأزلية، ومَنْ لم يكن متصفًا بعزَّة الأزلية لم يكن عزيزًا بين الأعزَّاء، ويكون ذليلاً بين الأذلَّاء، قال على وجه الاستفهام والتعجب ونفي العزِّ عن غيره، وأضاف العزَّة إلى جلاله وعظمته، أي: افهم أنهم لو يريدون العزَّة فينبغي أن يطلبوا العزَّة إلى جلاله وعظمته، أي: افهم أنهم لو يريدون العزَّة فينبغي أن يطلبوا العزَّة من عند مَنْ كان عزيزًا، يعني النبي ﷺ وأصحابه وأولياءه؛ لأن عليهم رداء عزَّة العزيز، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

قال محمد بن الفضل: كيف تبتغي العزَّة ممَنْ عزُّه بغيره، فاطلب العزَّة من مظانه ومكانه، قال الله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فمَنْ اعتزَّ بالعزيز أعزَّه، ومَنْ اعتزَّ بغيره أذله.

قال رسول ﷺ: «مَنْ اعتزَّ بالعبد أذلَّه الله»(١)، فابتغِ من عند ربِّ العزَّة يعزُّك في الدنيا والآخرة.

قال أبو سعيد الخرَّاز: العارف بالله لا يرى عزَّةً إلا منه.

قال الواسطي: ما مالت سريرةٌ إلى حبِّ العزِّ إلا ظهر خسوفها، وما مالت النحيرة إلى حبِّ الدنيا إلا ظهرت ظلمتها عليه، فصارت محجوبةً، وعن [المآب(٢)] مصروفةً.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيَّن أن من خالف الطريق، وظهرت منه الخيانة لم يصل إلى مقام الأول إلا بالعبور على هذه الشرائط المخصوصة، منها التوبة وهى الخروج من النفس والهوى، والرجوع إلى الله بمراد الله، والإصلاح وهو إصلاح السريرة بنعت تقديسها عن النظر إلى غير الله، والاعتصام بالله الالتجاء إليه في جريان القضاء، والقدر عليه الإخلاص في الدين تجريد الأسرار عن النظر إلى الأغيار، فإذا غير على هذه القناطر فتكون في السلوك مع العارفين، ولكن لم يكن معهم في مشاهدة رب العالمين لا صحبة المخالف لم تكن مستعدة لما نال أهل المعارف والكواشف، وبيان ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وما قال «من المؤمنين» أي: ليس هؤلاء منهم وإن اجتهدوا في الطريق؛ لأن الجاهد وإن اشتد جهده لم يكن عارفًا، لأن المعرفة موهبة الأزلية، وهبها الواهب لمحبيه بغير علَّة، وهذا إخبارٌ عن قوم محرومين من الوصول إلى هذه المقامات، وظهر في نحوي الخطاب أن هذا الخبر منهم أنهم لم يفعلوا ذلك.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٤).

(٢) غير واضحة بالأصل.

قال ابن عطاء: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقل «من المؤمنين»؛ ليعلم أن الاجتهادات لا تؤثر في سبق الأزل.

قال أبو عثمان: التوبة الرجوع من أبواب الخلاف إلى أبواب الائتلاف.

وقال محمد بن الفضل: الاعتصام هو التشبث بالسنة وطرق السلف.

وقال سهل: تابوا من التوبة.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بيّن سبحانه شفقته على العباد، حيث لا يرضى بشناعة الغير عليهم ظاهرًا، فكيف يرضى من نفسه أن يهتك سترهم، اعلم أنه غيورٌ؛ حيث لا يحب الجهر بالسوء من القول.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ لأن حديث المظلوم هفوةٌ وانبساطٌ بين يديه، وليس قول السوء فحشًا، إنما هو الدعاء على ظالمه، وهو سميعٌ لدعاء المظلوم على الظالم، وهذا كقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١]، وهذا تسليةٌ وشفاءٌ لعلّة المظلوم.

قال الواسطي: لا يرضى الله من عباده باستماع الجفاء إلا مثاله إلا مَنْ جحد نعم الله عنده في البينات والبراهين.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم

مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أراد بالسلطان المبين سطوع نور التجلِّي من وجهه حتى لا يرى أحدٌ وجهه إلا حارت عيناه من غلبة بهاء الله وعظمته على وجهه، وأخبر سبحانه عن ذلك النور؛ لقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾[1] [طه:٣٩].

قيل في تفسير الظاهر: ملاحة في عينيه لا يراه أحدٌ إلا أحبه، وذلك النور أيضًا من نور تجلِّي الحق الذي ظهر من الشجرة حين سمع خطاب الحق منها، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه:١٠]، وكان موسى ﷺ من فوقه إلى قدمه برهان الله للعالمين، وهكذا كل نبيٍّ ووليٍّ.

ألا ترى إلى اليد البيضاء والعصا وأعظم البرهان في وجهه عكس التجلِّي من جبل الطور على وجهه حتى احتاج بعد ذلك أن يستر وجهه بالبرقع، والسلطان المبين أيضًا إخباره عن الله بكلام الله.

قال بعضهم: قوةٌ عظيمةٌ على سماع المخاطبة من كلام الحق.

وقيل: أعطى سلطانًا على نفسه في مخالفتها وهو المبين الظاهر للخلق.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ

---

(١) أظهر الله عليه ميراث علمه قبل العمل، فأورثه محبة في قلوب عباده؛ لأن من القلوب قلوبًا تثاب قبل الفعل، وتعاقب قبل الرأي، كما يجد الإنسان في نفسه فرحًا لا يعرف سببه، وغمًّا لا يعرف سببه [تفسير التستري (١/ ٣٢١)].

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ كان روحًا روحانيًا إلهيًا يحيي الأموات به، حيث يبرز نور الألوهية منه لها؛ لأنه من الله سبحانه بالقدرة، فلمّا أراد الله أن يرفعه إلى جواره رفع الحجاب عن روحه، فظهر روحه لبعض خاصته، فصار منقوشًا بنقشه؛ لأن صورة عيسى ﷺ منقوشةٌ بنقش روحه، وهذا منه قوةٌ إلهيةٌ، وهو كان بها مؤيدًا بقلب الأعيان، ولا تكون هذا إلا من فعل الله المنزَّه عن مزج لاهوتية ناسوتية الإنسان.

وأدقُّ الإشارة فيه: أن الله سبحانه عرف طباع اليهود والنصارى بميلها إلى التشبيه، وتنفرها من القدس والتنزيه؛ لأنهم أصحاب المخائيل.

ألا ترى إلى عبدة العجل كيف كان حبهم لها، وقول النصارى أن الله هو المسيح، فشبه لهم صورة عيسى ﷺ بنعت الالتباس من تجلّي نور اللاهوت من الناسوت لقلّة عرفانهم قدس الأزل عن نعوت الحدث، فغلظ بعضهم وقالوا بإلهية عيسى وعزير عليهما السلام، فغرقهم عيسى مكان المكر في الالتباس، وفات خطهم من رؤيته، قصدوه بالقتل، فألقى الله سبحانه عكس ذلك الشبه على أحدٍ استدراجًا ومكرًا، فقتلوه؛ لأنهم ما وجدوا فيه ما وجدوا في عيسى ﷺ من حلاوة الحب ولذّة العشق، وهذا الفقدان من رفعه إلى السماء بقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

قيل في تفسير: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ كساه الريش، وألبسه النور، وقطع لذّة المطعم والمشرب، وطار مع الملائكة حول العرش ،فكان إنسيًّا ملكيًّا سماويًّا أرضيًّا.

قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ المستقيمون في سماع خطاب الخاص من الله سبحانه بغير معارضة النفوس واضطراب الأسرار؛ لأنهم عالمون إلهام الحق من وسوسة الشيطان، وهم مفرِّقون بين لَمَّة الشيطان ولَمَّة الملك، ويعرفون خطاب العقل والقلب والنفس والروح والملك والسرِّ والشيطان بنور خطاب الله، ويعرف به مكان كل خطاب، علمهم لدنيٌّ، ولسانهم إلهيٌّ، وقلبهم عرشيٌّ، وروحهم ملكوتيةٌ، وأسرارهم مشحونةٌ بالعلوم المجهولة، والأنباء العجيبة الغيبية، ويزنونها في جميع الأنفاس بميزان القرآن والسنة وكلام الأولياء.

قيل: هم العلماء بالله، والعلماء بأمر الله، والمتبعون سنة رسول الله ﷺ.

قيل: هم الواقفون مع حدود العلم وشرائطه، لا يجاوزونه بالرخص والتأويلات.

ويقال: الراسخ في العلم مَنْ يرتقي عن حدِّ تأمل البرهان، ويصل إلى حقائق البيان.

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ ذكر الأنبياء عند ذكره تسليةً في الامتحان، وتثبيتًا للكشف والخطاب والبيان بالغيرة لزيادة المحبة والقربة، وذكر نوح عليه السلام ثاني ذكره؛ لأنه هو نواح الحضرة من الشوق إلى المشاهدة، ولأن بينهما مشاركةً في احتمال الجفاء من الأغيار، ألا ترى كيف قرَّبه الله في أخذ الميثاق بقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ [الأحزاب:٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ بيَّن تخصيص موسى عليه السلام بمقام الخطاب الخاص بلا واسطة، بادر موسى عليه السلام من بين الأنبياء بسؤال الرؤية، فأوقفه الحق في مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفًا، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال الشوق بمطايا أسراره، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرًا بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ورؤيته بالظاهر والباطن بعين الرأس وبعين القلب، ثم أسمع كلامه بلا واسطة ولا حجاب، قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١٠، ١١]، وأن الله سبحانه إذا أراد أن يسمع كلامه أحدٌ من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعًا من أسماعه، فيسمع بها كلامه، كما

حكى ﷺ عنه تعالى: «فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به»(١)، أسمعه كلامه، وليس هناك الحروف والأصوات، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية الذي منزَّهٌ عن همهمة الأنفاس، وخطرات الوسواس، وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيءٌ، هناك السامع والمسمع واحدٌ من حيث المحبة لا من حيث الجمع والتفرقة.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ كان رسول الله إلى عباد الله بأمانة الله، وهي نور جلاله الذي برز من وجهه لهم؛ ألا ترى كيف توجَّهوا إليه وصاروا عاشقين به كما عشقت ملائكة الله لوجه آدم ﷺ، ولذلك سجدوا لآدم ﷺ، وذلك من تجلِّي كلمته الأزلية التي كظهر نورها في مريم، وكان في ظاهره رباطنه روحًا صدر من زند نعوت الأزل حين انقدحت لظهوره من العدم، وأدنى عيسى ﷺ خاصية فرده أفضل من خاصية آدم ﷺ؛ لأن هناك قال: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]، خصَّه بالروح منه فيه، ولهٰهنا قال: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ يعني ظاهر صورته وروحه بمجموعها، ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ العالم بأسرها صورة وروح تلك الصورة هي الأنبياء والأولياء، قال ﷺ: «بهم يمطر، وبهم ينبت، وبهم يدفع البلايا»(٢).

قوله تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ لماذا اتصف بأوصاف الحق حين برزت أنوارها له، وباشرت أسرار لطائفها قلبه وروحه

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٩).

وعقله، وامتلأ من سنا الألوهية أسراره حين انعقد عقد وجوده، كاد الحال أن يسلبه من رؤية العبودية، فأدركه تأييد الحق حتى رأى الحدث محوًا في القدم، فلَمْ يدَّعِ الربوبية، ونطق في المهد بالعبودية بقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠]، لم يكن كابن الحلاج - رحمة الله عليه - حين ادَّعى بالأنانية من سكر العشق والمحبة، وفنائه في الأزلية، واتصافه بالأبدية؛ لأنه كان في منزل التلوين، بل حاله كان كحال سيد البشر ﷺ حين عاين الحق بالحق، فخرج من بحار الذات بنعت الاتصاف بالصفات، ورأى اضمحلال الحدثان في جمال الرحمن، فنطق بالعبودية وقال: «أنا العبدُ لا إله إلا الله»[1]، وهكذا أهل القدس في الملكوت تلاشوا في سبحات عزَّته، وقالوا: «ما عبدناك حقَّ عبادتك، وما عرفناك حقَّ معرفتك»[2]، وكيف لا يكون ذلك وقهر الجبروت استولى على كل ذرةٍ من العرش إلى الثرى، وجرها بأزمة العظمة والكبرياء في تراب ساحات عزَّته، راغمة في جناب جبروته والألفة من عبادة صانعها مستجبلة! لأن كونها وتكوينها محض عبادته، لأنها تكون بداعية القدم من العدم، خصَّ ذكر عيسى عليه السلام والملائكة لأنهما موضع إشارة الكفرة نسبتهم إلى الألوهية ذكر عيسى عليه السلام بالأول وأتم ذكر الملائكة.

وبين ظاهر الآية تخصيص الملائكة على عيسى عليه السلام، والمراد من ذلك أنهم سماويون نجباء الحضرة وأشياخ القدرة؛ لأنهم أفضل من عيسى عليه السلام، وأشار بوفق رسوم خواطر الكفرة، وإلا كيف يكون هم أفضل من الأنبياء، والأنبياء جلاليون قدسيون، والملائكة روحانيون ملكوتيون قبل، لا يأنف أحدٌ من القيام بالعبودية، فكيف يأنف منه وبه يتقرب إلى مولاه.

وقيل: كيف يأنف أحدٌ من عبودية مَنْ يظهر على العبيد آثار صنائع الربوبية كما أظهر على عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وغيره.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٢/ ٤٥٣).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٨٤).

وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ برهانه ظهوره في كل ذرة، ولمعان سنا قدرته في جميع الفطرة، وبرهانه طوف أسراره أسماع قلوب الخلائق يكون وجوده وأنباء عجائب صفاته والنور المبين خطابه الظاهر في الظاهر ونوره في الباطن.

قال ذو النون: استقرت منار الدجى، وأقامت حجة الله على خلقه، فأخذ بحظه ومضيع لنفسه.

وقيل في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ خطابًا من القرآن فيه محل الشفاء لأسرار العارفين.

وقال الأستاذ: البرهان ما لاح في سرائرهم من شواهد الحق.

سورة المائدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ لله الأسماء الحسنى، والنعوت الأعلى، من جملتها المؤمن، فألبس نور هذا الاسم خواصه، وزيَّن أسرارهم به، فخاطبهم بخاصية اتصافهم باسمه وصفته، وهم بنوره، ويرونه، فساروا بمراكب اسمه ونعته في ميادين الصفات حتى بلغوا أسرار الذات، فشاهدوه بوصف اليقين والسكون، أي: أيها الشاهدون مشاهدتي.

قال ابن عطاء: أي: أيها الذين أعطيتهم قلوبًا لا تغفل عني، ولا تحجب دوني طرفة عين.

وقال شيخنا وسيدنا أبو عبد الله محمد بن حنيف: الإيمان تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيب.

قال بعضهم: يا غيبٌ، وأي سرٌّ، وها تنبيهٌ وإخراجٌ، وآمنوا وصف المحبين.

قال أبو الحسين الفارسي في قوله: ﴿أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾ أمر الله عباده بحفظ السياسية في المعاملات، والرياضات في المحاسبات، والحراسة في الخطرات، والرعاية في المشاهدات، فليس للعبد من هذه الأسباب مهربٌ، ولا له عنه محيصٌ.

وقال بعضهم: ﴿أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾ عقد القلب بالمعرفة، وعقد اللسان بالثناء، وعقد الجوارح بالخضوع.

وقال جعفر بن محمد في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾: أربع خصالٍ: نداء، وكناية، وإشارة وشهادة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ نداء وأي: خصوص النداء، وها كناية، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ إشارةٌ، و﴿ءَامَنُوٓا﴾[1] شهادةٌ، أشار ﷺ وما فسَّر، وأراد -والله أعلم- أن الياء نداء الأزل، تقاضى بها وصول المشتاقين إلى الأزل بالأزل، فخرجت الأرواح العاشق بنداء القدم من العدم، وأي خطاب بسط لأهل الخصوص من أهل الانبساط، والهاء للغائبين في جلاله، والغائبين في سطوات عظمته وكبريائه، المتحيرين في دائرة هويته، كنَّاهم بوصف الهوية، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى الواقفين بطلب هلال جماله في سموات عظمته، ﴿ءَامَنُوٓا﴾ وصف قبولهم أمانته الأزلية، وهي المعرفة القائمة بالأزلية التي عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها.

وقوله: ﴿أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾ هذا كناية عتابٍ؛ حيث طلب منهم الوفاء بعهد الأزل حين قبلوا أمانة المعرفة، وأقرُّوا بالربوبية في معاينة المشاهدة، عقد مع الأرواح العارفة في الأزل بظهور صفاته تعالى لهم، ففي كل كشفِ صفةٌ لها عقد وعهد لاتصافه بها، فطارت بوصف الصفات ونورها في الأشباح بطلب الحق سبحانه الأرواح والأشباح بفوائد التخلق والاتصاف بالصفات في الأزل؛ ولذلك قال: ﴿أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾؛ لأن العقود جمع عقدٍ وعهد أخذها الأرواح.

قيل: الأشباح في فضاء الأزل.

قيل: أول عقد عليك عقد إجابتك له بالربوبية، فلا تخالفه بالرجوع إلى سواه، والعقد الثاني عقد تحمُّل الأمانة فلا تُخفِرَنَّها.

---

(١) الإيمانُ صنفان: أحدهما يشير إلى عين الجود، والثاني إلى بذل المجهود؛ فَبَذْلُ المجهودِ خِدمَتُك، وعين الجود قِسْمَتُه؛ فبخدمتك عناءُ الأشباح، وبقسمته ضياءُ الأرواح، وحقيقة الإيمان تحقق القلب بما أخبر من الغيب [تفسير القشيري (٢/ ٨٣)].

قال الواسطي: العقود إذا لم تشهد القصود تلوّن عليها المقصود.

قال الجريري: الوفاء متصلٌ بالصفاء.

قال الأستاذ: ناداهم.

قيل: أن أبدلهم وسماهم قبل أن رآهم أهلهم في آزاله لمّا أوصلهم إليه في آباده شرفهم بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، وكلفهم بقوله: ﴿أَوْفُوا۟﴾(١) لمّا علم أن التكليف يوجب المشقة، قدَّم التشريف بالثناء على التكليف الموجب للفناء.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ المحرم الذي ذكره الله هو مَنْ اكتسى في إحرام أنوار عزّته في حرمِ مشاهد قربه، قد منعه ألا يصيد في بيداء العبودية صيود الحظوظ؛ لأن صيده هو بنفسه تعالى لا غير، ومَنْ كان هو صيدة حرم عليه سواه.

قال الأستاذ: المُحْرِمُ متجردٌ عن نصيب نفسه بقصده إليه، فالأليق بصفاته كفُّ الأذى عن كل حيوانٍ، وقد هتفت هواتف خاطري بأن العاشق إذا أُلبس إحرام العشق حُرِّمَ عليه ما فيه آثار صنع معشوقه وأنوار خصائصه.

ألا ترى إلى مجنون بن عامر لما اصطاد ظبيًا خلاه عن القيد، وأطلقه، وأنشد:

وعيناك عيناها وجيدُك جيدُها ... سوى أن عظم الساق منك رقيقُ

وأنشد أيضاً:

أيا شبه ليلى لا تذاع فإنني ... لك اليوم من وحشية تصديقُ

أقول وقد أطلقتُها من وِثاقها ... ألست لليلى أن شكرت طليقُ

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ قطع أطماع النفوس دخرها في شهوات اختراع مرادها، وحسم حبال أمنية الخلق عن دفع سابق المشيئة بالمجاهدات، وأفرد نفسه بالحكم الأزلي بنعت نقض عزائم الخليقة، يحكم أولياءه بنزول بلائه عليهم بعد إسقائهم شراب وداده

---

(١) الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدتموها على نفوسكم في حال سيركم إلى حضرة ربكم، من مجاهدة ومُكابَدة، فمَن عقد عقدة مع ربّه فلا يحلّها، فإن النفس إذا استأنست بحلّ العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التي عقدتموها مع أشياخكمْ بالاستماع والاتّباع إلى مماتكم، وأوفوا بالعقود التي عقدها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتم بذلك، فقد أُحِلّت لكم الأشياء كلها تتصرّفون فيها بهمّتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المُكوِّن كانت الأكوان معكم، إلا ما يُتلَى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار، «فإن سوابق الهِمَم لا تخرق أسوار الأقدار»، غير مُتَعَرِّضين لشهود السّوى، وأنتم في حرم حضرة المولى، والله تعالى أعلم. [البحر المديد (٢/ ٢٨)].

من بحار جماله.

قال جعفر ﷺ: حكم بما أراد، وأمضى إرادته ومشيئته، ومَنْ رضي بحكمه استراح وهدي لسبيل رشده، ومَنْ سخطه فإن حكمه ما مضى، وله فيه السخط والهوان.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ خاطب العارفين عند أخذ ميثاق التوحيد في مقام قرب المشاهدة بألا يباشروا محارم منازل أسفار الأرواح من القدم إلى البقاء، وهي شعائره للنفوس؛ حيث سارت في حرمات الشهوات حتى لا يوافقوها في طلب حظوظها: وهذا معنى قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، ثم وقَّت لهم في سير الأسرار إلى مشاهدته في زمان ظهور تجلِّي الخاص أن يتجردوا غيره، ويمنعوا أنفسهم في زمان انجذابهم من عالم الحدثان إلى جناب الرحمن عن الدخول في حمى الرفض الذي هو ينزل أهل الانبساط، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، وإذا رأوا طلاب المريدين الذين ذهبوا أنفسهم إلى الله هديًا في سلوك المقامات، ورأوا المجذوبين والمقلدين بسلسلة المحبة في مزار الحالات، ورأوا السالكين القاصدين إلى كعبة المشاهدة الذين يبتغون وصلته وبقاءه بألا يغيروهم عليهم بغيرة المعرفة؛ إرادة لقطع طريقهم ليلاً، يروا غير نفوسهم في باب الأزل، كما فعل موسى ﷺ ببلعام، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

ثم رخَّص المحرمين ممَّا دونه إذا بلغتم إلى مقام المشاهدة ووجدتم عيد الأكبر، وخرجتم من إحرام المجاهدة اصطاد، وفي منزل البسط والانبساط زيادة روح القربة والتنفس في الأنس من ترنم ألحان بلابل بساتين الربيع، وسماع أصوات الطيبات، ومشاهدة المستحسنات.

ألا ترى إلى قوله ﷺ لنساك الغيب، حين تضايقت الأكوان عليهم في مقام القبض كيف قال: «روِّحوا قلوبكم بساعةٍ فساعةٍ»[1]، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾، وإذا كنتم في زمان الامتحان ويتعرضكم أهل ظاهر السبيل والعلم ويمنعكم عن الجلوس بالسماع والرقص والهيجان والوجد والهيمان وعن دخولكم مراد الله من المواقف القدسية لا تخاصموهم، ولا تقتلوهم بأنفاسكم القاتلة؛ حتى لا يكون عليكم رقم الاضطراب في الطريقة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ

---

(١) تقدم تخريجه.

عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾، وإذا تحيَّر المريدون في بيداء الشوق وهاموا في وادي العشق وفنوا في قفار التوحيد زيدوا عليهم وصف مشاهدتي ولذَّة وصالي قدس عظمتي، يزيد حرقتهم ورغبتهم ومحبتهم لقائي، ويزيد سرعتهم في سيرة العشق والشوق إليَّ، وإذا وقع في طريقهم حظٌّ من حظوظ أنفسهم من أبواب الرخص والتأويلات فامنعوهم منه، واتقوا من احتجابي عنكم حين احتجبوا مني، فإن عذابِ الفراق مني أشدُّ العذاب، وما ذكرنا فهو معني قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قيل: البرُّ ما وافق عليه العلم من غير خلافٍ، والتقوى مخالفة الهوى، والإثم طلب الرخص، والعدوان التخطي إلى الشبهات.

قيل: البرُّ ما اطمأن إليه قلبك من غير أن ينكره بجهةٍ ولا سببٍ.

قال بعضهم: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهو طاعة الأكابر من السادات والمشايخ، ولا تضيعوا حظوظكم منهم ومن معاونتهم وخدمتهم، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، وهو الاشتغال بالدنيا، والعدوان موافقة النفس على مرادها وهواها.

وقال سهل: البرُّ الإيمان، والتقوى السنة، والإثم الكفر، والعدوان البدعة.

وعن جعفر ﷺ قال: البرُّ الإيمان، والتقوى الإخلاص، والإثم الكفر، والعدوان المعاصي.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ إذا خرجتم عن أسر حقوقنا فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم، فأما ما دمتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم؛ لأنكم لنا، وقد وقع لي في البرِّ: معنى البرِّ المحبة، والتقوى المعرفة، والإثم طلب حظ المشاهدة من المشاهدة، والعدوان دعوى الأنائية في الاتحاد؛ لأنه احتجب بحظ الربوبية عن الربوبية في العبودية.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ

فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ خشية الله هاهنا حوالة إلى رؤية سبق العارفين في الأزل، أي: إذا وقع أمر الامتحان عليكم بواسطة الخلق أقبلوا إليَّ بنعت معرفتي ومحبتي، ولا تفزعوا منهم؛ فإنهم مكان امتحاني، فإذا عرفتموني عرفتم مكان الامتحان، فلا تبقى إذا الخوف من غيري، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، فإذا استحكم عقد الخشية منهم فيظهر للعالم بالله سرُّ إفراد القدم عن الحدوث.

قيل: فيه قطعك عن الكل قطعًا، وجذبك إليه جذبًا بهذه الآية: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

قال ابن عطاء: لا تجعل لهم من قلبك نصيبًا، وأفرد قلبك لأن تجدني بصفة الفردانية مقبلاً عليك.

وقال سهل: أعجز الناس مَنْ خشي مِنْ مَنْ لا ينفعه ولا يضره، والذي بيده النفع والضرّ يخاطب بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أراد في الأزل وأزل الأزل بلا علَّة العمياء، والأزل منزَّهٌ عن دهر الدهار والأزمنة الفرارة أن يظهر كنوز صفاته وخزائن جود ذاته محبة منه ومعرفة لعباده، كما قال تعالى: «كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحببتُ أنْ أُعرفَ»[1]، فيتجلَّى للعدم من القدم، فظهر العباد، وألزمهم سمة العبودية، وكشف أنوار أفعاله لهم، فعبدوه برؤية نور أفعاله وصنائعه، ثم كشف لهم أنوار الصفات، فأحبوه برؤية نور الصفات، فلمَّا حان وقت خروج سيد الأولين والآخرين وأصحابه وأمنه من العدم بسط بساط العطايا لهم حتى وقفوا على بساط لطفه وكرمه، وربَّاهم بحسن عنايته، ثم تجلَّى لهم بنور الأسماء والصفات، وربَّاهم بها إلى أن بلغوا حدَّ الاستقامة في المحبة والشوق، فكشف لهم جلال ذاته، فعرفوه بنور الأسماء والنعوت والأفعال والصفات، فلمَّا عرفوه بمعرفة الذات كَمُلَت أحوالهم للكشف والمشاهدة والمعرفة والتوحيد، ولم يحتجبوا عنه ببركة مشاهدة النبي ﷺ، وتواصلت الكشوف والتجلِّي بالتجلِّي، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، حيث ما أكملت لأحدٍ من خلقي ما أكملت لكم.

وما ذكرنا بمجموعه قد أشار ﷺ إليه بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - «جاءَ اللهُ

---

(١) تقدم تخريجه.

من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران(١)»، والدين هو الطريق منه إليه بنعت عرفان طرق الصفات إلى الصفات، وسبل الصفات إلى الذات، والنعمة منه لهم كشف جماله بلا حجابٍ، والعفو بلا عتابٍ، والوصول بلا عذابٍ، وإتمامها وقايتهم من الاشتغال بغيره، وظهوره من جمال نبيه لهم، ووصول نبيهم إلى درجة مقام المحمود لشفاعتهم وارتضاء الإسلام لهم دينًا، أسأل أستار العظمة عليهم حتى انقادت نفوسهم الأمَّارة الفرَّارة من الحق لسبحات عظمته، ومباشرة قهر سلطان كبريائه، ولا يحتجبون عن الحق بها أبدًا.

قال أبو حفص: كمال الدين في شيئين: في معرفة الله، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال جعفر بن محمد عليهما السلام: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ إشارةٌ إلى يوم بعث محمدٍ - صلى الله عليه وآله وسلم - ويوم رسالته.

وقيل: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ إشارةٌ إلى الأذل، والإتمام إشارةٌ إلى الوقت، والرضا إشارةٌ إلى الأبد.

وقيل: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(٢) أن خصصتكم من بين عبادي بمشاهدة المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - يخاطب به الصحابة، وجعلتكم حجةً لمَنْ بعدكم من الأمة إلى يوم القيامة.

قيل: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالمعرفة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الدنيا ميتة الأولياء، والاجتناب منها واجبٌ عليهم في تجريد التوحيد، فإذا وقعوا في السير في بحر الأنس، وغلب عليهم البسط والانبساط، وصاروا منعوتين بوصف العشق والمحبة، وطابت نفوسهم في روح القلوب الملكوتية، واحتاجوا إلى مباشرة الرخص والسعادة، فهم في حدِّ الاضطرار من جهة نفوسهم الساكنة بروح الأنس؛ لأنها تطلب من مستحسنات الكون

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/ ١٥٩).

(٢) إكمالُه الدين -وقد أضافه إلى نفسه: صَوْنُه العقيدة عن النقصان؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أمَّلها بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَه من غير تقصيرٍ، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور، ويقال: إكمالُ الدِّين تحقيقُ القَبُولِ في المآلِ، كما أن ابتداءَ الدِّين توفيقُ الحصول في الحال: فلولا توفيقه لم يكن للدين حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول، ويقال: إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق سبحانه من أوصافه، وقد علَّمك، ويقال: إكمال الدين أن ما تقصر عنه عقلك من تعيين صفاته -على التفصيل- أكرمك بأن عرَّفك ذلك من جهة الإخبار. [تفسير القشيري (٢/ ٨٦)].

ما يليق بزيادة هيجان القلوب، وزيادة شوق الأرواح، فإذا باشروا طيبات الدنيا على حدٍّ ترويح الخواطر، وتسكينها من الحرق والهيجان، فهي مباحٌ لهم ما داموا في سير المعارف، فإذا بلغوا منتهى المقامات، ولم تجاوز النفوس من تلك المباحات إلى استدامة الحظوظ فهي غير متجانفةٍ إلى الفترة، فإن الله سبحانه يتجاوز عن مؤاخذتها بالحجاب، ويعينها في طلب المآب، فإنه غفورٌ لخطرات أوليائه، رحيمٌ بنعت الوصلة باصطفائه.

قال الأستاذ: يحتمل أن معناه مَنْ نزل عن مطالبات الحقائق إلى رخص العلم لضعف وجده في الحال فرعًا، يجري معه مساهلةً إذا لم يفسخ عقد الإرادة.

ونعم ما قال الأستاذ في وصف السالكين في باب الرخص، فإن الله سبحانه صدق ما ذكرنا في الآية بثانيها من الآي بقوله لنبيه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾، وفي حقيقة التفسير التي أغرب مما مضى ذكره أن الطيبات في الدنيا والآخرة للمحبين مشاهدة الله سبحانه وما سواها، فهو محرمٌ عليهم من الدنيا والآخرة؛ لأنهم يسألون عن الحلال، والحلال مشاهدة جماله وما سواه، فهو غير حلالٍ في الحقيقة.

وتصديق ذلك قوله – صلى الله عليه وآله وسلم –: «الدنيا مُحَرَّمةٌ على أهل الآخرةِ، والآخرة مُحَرَّمةٌ على أهلِ الله»[1].

سُئل أبو الحسين النوري عن القوت؟ فقال: القوت هو الله.

قال أبو علي الروذباري: أطيب أرزاق العارفين المقوتات.

وقال يوسف بن الحسين: الطيب من الرزق ما يبدو لك من غير تكلفٍ، ولا إشراف نفسٍ، ولي مسألةٌ غير مائةٍ كرت وذلك: أن أصل الطيبات الحلالات ما وقع للعارف في مقام التوكل من الغيب بنعت الرضا.

وأيضًا: الطيبات السماع ورؤية المستحسنات التي تطيب قلوب المحبين بسنائها حتى تفرِّغها إلى طلب معادن الحسن في الأزل.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى

---

(١) لم أقف عليه.

ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الإيمان هاهنا المعرفة، أي: مَنْ وقع في بحر النكرة بعد المعرفة ولم يخرج منها إلى ساحل التوحيد الذي هو مفتاح كنوز الذات والصفات وهو محجوب عن الله بالله، ولم تنعقد له عقود المحبة والمعرفة، وما وجد من الطريق ذهب عنه بقوله: ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾.

وأدقُّ من هذا أن مَنْ عرف الله ووصل إليه بمعرفته وسُكِرَ بأنوار توحيده، وادَّعى في شكره الأنانية التي هي صفة المعدم، فهو محجوبٌ بالوجد من الموجود؛ لأنه كفر الربوبية بأنانيته التي صدرت إليه من رؤية الربوبية، هذا معنى قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وكل عملٍ من أعمال المعرفة له باطلٌ لخروجه من العبودية إلى الربوبية؛ فإذا رجع إلى العبودية، وعرف إفراد القدم عن الحدوث يستأنف العمل؛ لأنه ما مضى منه قد حبط بدعواه.

وأيضًا: مَنْ ظنَّ أن أعماله في الإيمان الذي هو موهبة الله الخاصة بلا علَّة أداء حقوقه فقد كفر بالإيمان، وحبط عمله؛ لأن الإيمان كشوف ذاته وصفاته، وأعمال العبد معلولةٌ محدثةٌ، وكيف يوازي صفة القدم بعلَّة الحدث.

قيل: مَنْ لم يشكر الله على ما وهب له من المعرفة واليقين، فقد كفر بمعالي درجة الإيمان، وفيه إحباط ما سواه من الاجتهادات والرياضات.

وقيل: مَنْ لم يرَ سوابق المنن في خصائص الإيمان، فقد عمي عن محل الشكر.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ بدأ بغسل الوجه؛ لأنه منبت أنوار تجلِّي الحق التي برزت من الوحدانية للأرواح، فعكست لطائفها على الوجوه.

وأيضاً: خصَّ الوجه بالغسل ابتداءً؛ لأنه تعالى خلقه بنفسه، ونفسه بنقش خاتم ملك الصفات، وسبب حكمة غسله بالماء أنه مغيرٌ بغبار الشهوات، منعوتٌ بنعت الحدث، وخاصية جوهر الماء أنه تعالى خلقه من جوهر أول الفطرة؛ حيث تجلَّى له من نور قدسه وسنا عظمته، فإذا وصل إلى الوجه صار طهورًا من دنس توجهه إلى غير القدم ببركة نوره وقدسه،

الذي أصل جوهر الماء، كذلك جميع الأعضاء، فإذا كان العبد بهذه الصفة في الطهور أجدر أن يكون مقبلاً إلى الله بوجهه.

قال ﷺ: «مَنْ توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»(١).

والإشارة في الآية إلى تطهير الأسرار من الالتفات إلى الأغيار لاقتباس الأنوار بمياه الحزن التي تجري من عيون قلب المجروح بالمحبة على سواقي العين، فإذا كان مطهرًا من غير الحق فصلواته مواصلةٌ، وحركاته قربةٌ، وقراءته زُلفةٌ، وقيامه محبةٌ، وركوعه خشيةٌ، وسجوده شهودٌ، وتحياته انبساطٌ، ودعواته مستجابةٌ، أي: إذا قمتم عنكم إلى وصلتي ومشاهدتي طهِّروا أنفسكم من الحدوثية في بحار الربوبية حتى تصلوا إليَّ بي؛ لأن الحدث لا يقوم بإزاء القدم.

قال أبو عثمان: شرائط الطهارة معروفةٌ، وحقيقتها لا ينالها إلا الموفقون من طهارة السرِّ، وأكل الحلال، وإسقاط الوسواس عن القلب، وترك الظنون، والإقبال على الأمر بحسب الطاقة.

وقال سهل: أفضل الطهارات أن يظهر العبد من رؤية طهارته.

قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾(٢) تواتر العزائم بغير الرخص حرجٌ ثقيلٌ على المستأنسين بالله بما سوى الله، مانعةٌ لأهل المجاهدة بقيودها عن الاقتحام إلى عالم الشهوات، فرفع الحرج عن المحبين، وبسط الكرم للمشتاقين، وسهَّل أحكام العبودية على العارفين بوضع الرخص؛ زيادة لاستشواقهم إلى مشاهدته، وتقديسًا لأسرارهم بنور مشاهدته، وهذا معنى ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾، أي: أنه لا يريد نصب المجاهدة على أهل المشاهدة؛ لأنه تعالى أضاف تطهير أسرارهم إلى نفسه لا إليهم، قال: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾، وما قال: «لتتطهروا»، أي: يطهِّركم عنكم بنور مشاهدته.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢١٦).

(٢) يعني: يطهركم من أحوالكم وأخلاقكم وأفعالكم، لترجعوا إليه بحقيقة الفقر من غير تعلق بسبب من الأسباب، والطهارة على سبعة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية، وطهارة اليقين من الشك، وطهارة العقل من الحمق، وطهارة الظن من النميمة، وطهارة الإيمان مما دونه، ولكل عقوبة طهارة، إلا عقوبة القلب؛ فإنها قسوة. [تفسير التستري (١/ ٢٤)].

قال بعضهم: يريد أن يطهِّركم من أفعالكم، وأحوالكم، وأخلاقكم، ويقينكم عنها لترجعوا إليه بحقيقة الفقر من غير تعلقٍ، ولا علاقةٍ بسببٍ من الأسباب.

قال الأستاذ: يلوح من هذه الآية إشارةٌ إلى أنه إذا نفى المريد عن أحكام الإرادة، فليحط رحله بساحات العبادة، وإذا عُدم اللطائف في سرائره فيستدم الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقق بأحكام العبودية، فلا يخلون من آداب الشرعية، وإذا لم يخرج عن الفضلة، فلا يدنس تصرفه بالحرام والشبهة.

وقال في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾: أي: يطهِّر ظواهركم عن الذلَّة بعصمته، ويطهِّر قلوبكم عن الغفلة برحمته.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إتمام النعمة هاهنا بيان العبودية للعباد، وتعليمهم آداب المعاد؛ لينالوا بها رؤية المُنعم بنعت الخجل عن أداء واجب حقوقه بنعت ما يليق بجلاله، وهذا هو الشكر المطلوب من عباده بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قال الأستاذ: إتمام النعمة لقومٍ نجاة نفوسهم، وعلى آخرين نجاتهم عن أنفسهم، فشتَّان بين قومٍ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ نعمة الله هداية الله السابقة في الأزل لأهل سعادة المعرفة منهم إلى نفسه بنعت المشاهدة والشوق إلى لقائه، والميثاق الذي واثق به عباده ألا ينشغلوا عنه بغيره إلى الأبد، وإن كان الجنة وما فيها.

قال أبو عثمان: النعمة كثيرةٌ، وأجلُّ النعم المعرفة، والمواثيق كثيرةٌ، وأجلُّ المواثيق الإيمان.

قال الواسطي: أنعم الله على خلقه لكي يشهدوا المُنعم بالنعم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ

وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: كونوا مستقيمين في محبتي ومعرفتي، قائمين على باب ربوبيتي، ولا تفروا عني بنزول بلائي عليكم، وكونوا حاضرين في حضرتي لشهودكم على مشاهدتي بنعت الصدق والإخلاص والاستواء في جميع الأحوال، ولا تخافوا في عبوديتي من ملامة اللائمين عند إظهاركم حقوقي على حقي.

قال بعضهم: أي: كونوا أعوانًا لأوليائه على أعدائه.

وقيل: كونوا خصماء الله على أنفسكم، ولا تكونوا خصماء لأنفسكم على الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ إن الله سبحانه لَمَّا أراد أمرًا عظيمًا من أمور الربوبية بين عباده وبلاده وضعه على أوليائه؛ ليقوموا به على وفق مراده؛ معذرةً لضعف الخلق، ونيابةً من تقصيرهم، فإذا خرجوا من ذلك بنعت الرضا في العبودية سهَّل الله ذلك بعده على العامة؛ لأن العامة خُلِقُوا بنعوت الضعف، وخَلَقَ أولياءه بنعوت القوة، وفي كل أمة خلق الله أقوامًا من أئمة المعارف والكواشف لواقع نظره وتحمل بلائه وهم النقباء، والبدلاء، والنجباء، والأولياء، والأصفياء، والأتقياء، والمقربون، والعارفون، والموحدون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، والأخيار، والأبرار، رئيسهم الغوث، وأئمتهم المختارون، وعرفاؤهم السياحون السبعة، ونقباؤهم العشرة، ونجباؤهم الأربعون، وخلفاؤهم السبعون، وأمناؤهم الثلاثمائة، كل واحدٍ منهم خُلِقَ على صورة نبيٍّ، وسيرة رسولٍ، وقلب ملكٍ؛ لا يعرفهم إلا مثلهم، وهم لا يعرفون إلا الله حقيقةً، قال تعالى: «أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم سواي»(١).

رُوي عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى في الأرض ثلاثمائة، قلوبهم على قلب آدم ﵇، وله أربعون قلوبهم على قلب موسى ﵇، وله سبعةٌ قلوبهم على قلب إبراهيم ﵇، وله خمسةٌ قلوبهم على قلب جبريل ﵇، وله ثلاثةٌ قلوبهم على قلب ميكائيل ﵇، وله واحدٌ قلبه على قلب إسرائيل، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه

---

(١) ذكره المناوي في التعاريف (١/ ٦٧٦).

من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة بهم يحيي ويميت، قال: لأنهم يسألون إكثار الأمة، فيكثرون، ويدعون على الجبابرة، فيقصمون، ويستسقون فيسقون، ويسألون فينبت لهم الأرض، ويسألون فيدفع عنه أنواع البلاء»[1].

قال أبو بكر الوراق: لم يزل في الأمم أخيار وبدلاء وأوتاد على المراتب، كما قال تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، وهم الذين كانوا مرجوعين إليهم عند الضرورات والفاقات والمصائب.

كما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «يكون في هذه الأمة أربعون على خلق إبراهيم ﷺ، وسبعة على خلق موسى ﷺ، وثلاثة على خلق عيسى ﷺ، وواحد على خلق محمد ﷺ، فهم على مراتبهم سادات الخلق»[2].

قال أبو عثمان المغربي: البدلاء أربعون، والأمناء سبعةٌ، والخلفاء من الأئمة ثلاثةٌ، والواحد هو القطب، والقطب عارفٌ بهم جميعًا ومشرفٌ عليهم، ولا يعرفه أحدٌ ولا يشرف عليه، وهو إمام الأولياء، والثلاثة هم الخلفاء من الأئمة، يعرفون السبعة، ويعرفون الأربعين، ولا يعرفهم أولئك السبعة، والسبعة الذين هم الأمناء يعرفون الأربعين الذين هم البدلاء، ولا يعرفهم البدلاء، والأربعون يعرفون سائر الأولياء من الأئمة، ولا يعرفهم من الأولياء أحدٌ، فإذا نقص من الأربعين واحدٌ أبدل الله مكانه واحدًا من أولياء الأمة، وإذا نقص من السبعة واحدٌ جعل مكانه واحدًا من الأربعين، وإذا نقص من الثلاثة واحدٌ جعل مكانه واحدًا من السبعة، فإذا مضى القطب الذي هو واحدٌ في العدد وبه قوام أعداد الخلق جعل بدله واحدًا من الثلاثة، هكذا إلى أن يأذن الله لقيام الساعة.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٩).

(٢) لم أقف عليه.

عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ إذا أراد الله طرد الغافلين عنه هيَّج نفوسهم إلى مباشرة أحكام القهر الذي يوجب لهم البعد، فبعد ذلك تقع مخالفة الأمر ونقض العهد الذي هو أصل الإيمان.

قال يوسف بن الحسين: ترك حفظ العهود الصحيحة ونقض المواثيق يوجب اللعن، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾.

قيل: نقض العهد مع الحق السكون إلى سواه.

وقال الأستاذ: جعل جزاء العصيان الخذلان للزيادة في العصيان.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[1] أراد نور المعرفة بلا واسطةٍ ولا تصنُّعٍ.

وأيضًا: نوره الذي يتجلَّى به من وجود الأنبياء والأولياء لأبصار الناظرين، وشاهد ذلك النور ما جاء في كتابه من بيان مقامات الصديقين، قد جاء النور منه جمعًا، وجاء الكتاب تفرقةً ظاهرةً في شهادته على مَنْ له من الله نورٌ، والنور والكتاب صفتان من صفات الأزل ظهر لجذب السالكين إلى الله.

قيل: كشف عن أسراركم غطاء الوحشة، وألبسكم لباس الأنس.

قال بعضهم: بعناية الأزل وصلتم إلى نور الكتاب المبين ونور التوحيد.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ذكر واحدًا منهما من النور والكتاب؛ لأنهما في عين الجمع واحدٌ، أعني معدن الصفات.

والإشارة بقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: يهدي بصفته إلى طرق معرفة ذاته، ويهدي

(١) أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغني عند فقد البصيرة، فمن استخلصه بقديم العناية أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحى عن سِرِّه شواهد الأغيار، وذلك نعت كل من وقف على الحجة المثلى [تفسير القشيري (٢/ ٩٨)].

بذاته إلى سبل معرفة صفاته ورضوانه ما رضي للأنبياء والأولياء في الأزل من إصابة أبصارهم إلى محل الرضوان الأكبر، وهو غاية رعاية حسن تجليه بنعت العيش في مراده، ولا تحصل المتابعة إلا لَمنْ سبق في الأزل رضاه له.

وأيضًا: يهدي بالقرآن مَنْ اتبع محمد ﷺ إلى سبل السلامة التي توصِّل المؤمن بالتوحيد إلى كشف جماله وحسن وصاله بالعوافي.

قيل فيه: يهدي الله لأسلم المسالك في سبيل إرادته مَنْ خصَّه برضوانه.

قيل: إيجاده ليوصله الرضوان إلى محل الرضا والتسليم.

قوله تعالى: ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: مَنْ أوصله إلى سبيل الهدى يطهِّر أسراره عن خطوات الشك والريب والاعتراضات النفسانية والخطوات الشيطانية، فإذا كان مقدسًا من هذه الشوائب يكشف له أنوار الأزليات والأبديات، وليس كل مَنْ وصل إلى هذه المراتب وصل إلى محل الاستقامة في المعرفة والتوحيد، فيختصُّ به من يشاء مَنْ سبق له عناية الأزل بوصوله إلى محل التمكين الذي لا تجري فيه بعد ذلك أحكام التردد والامتحانات الظاهرة.

قال ابن عطاء: يهدي لنوره مَنْ رضي عنه في الأزل، وخصَّه بكرامات الولاية، وخرجه من ظلمات الاعتراض إلى نور الرضا والتسليم.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٨ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وسمع كفرة اليهود والنصارى ذكر سباق الحقيقة أنهم وصلوا إلى ساحات الكبرياء بكشف مشاهدة البقاء، وسُكِرُوا بوجه القدم، وصاروا بنعت الانبساط في مجالس الأنس، فمن سُكْرِ المحبة ادَّعوا القربة، ومن سُكْرِ الأنس وحلاوة الانبساط ادَّعوا نبوة الأسرار من الأنوار؛ حيث ظهرت أنوار صفات الأزل، وسقطت من زنودها أنوار أسرار الأرواح، كما قال الواسطي: أنا أمن الأزل والأبد، وغلطوا في الطريق، ولم يعرفوا حقائق قول المتقدمين من جهالتهم بمقامات الأولياء والصديقين، فردَّ الله دعواهم إلى أعناقهم المنكسرة حين ألزم الحجة عليهم

بلسان نبيه ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، أنبأنا الله سبحانه أن مَنْ بلغ نبوة سبل الأزل بنعت المعرفة والمحبة خرج من محل الامتحان حيث الأشباح.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي: أنتم أيها المدَّعون الكاذبون ليس كما تزعمون ما بلغتم تلك المنازل، بل بقيتم في مقام البشرية والنفوسية، وهذا مقام مَنْ تقدَّس، وتقدَّس الله عمَّا سوى الله.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يوصل إلى تلك المواقف المقدسة من أهل الولاية من أمة محمد ﷺ مَنْ يشاء، ولا يبالي بتقصيره، ولا يشم رائحتها مَنْ يشاء من الأعداء، لا يبالي بطاعته، فإن طاعته على غير موافقة السنة.

قيل: يغفر لمَنْ يشاء فضلاً، ويعذِّب مَنْ يشاء عدلاً.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[1] أي: ملوكًا بالولاية والكرامات، ومعرفة الصفات، والتنور بأنوار كشوف الذات.

وأيضًا: جعلكم ملوكًا بسلطنة الوجد، قوة الحال، وعزَّة علم المعرفة.

وأيضًا: أي: جعلكم ربَّانيين مالكين أنفسكم بمنعها عن غير طاعتي.

وأيضًا: أي: ملتبسين بأنوار أنانيتي.

وأيضًا: معافين من ضرر الامتحان، محررين من رقِّ الحدثان.

---

(١) قال ابن عجيبة: جعل منكم ملوكًا، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء، فكان كل نبي معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ردار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضًا في النبوة والمُلك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهموا بقتل عيسى، فنزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان، وقيل: لمَّا كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، وجعلهم مالكين لأنفسهم، سماهم ملوكًا [البحر المديد (٢/٤٩)].

قال القرشي: ملككم سياسة أنفسكم.

قال سهل: مالكين لأنفسكن، ولا يملككم نفوسكم.

قال الحسين: أي أحرارًا من رقِّ الكون وما فيه.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: كشف مشاهدتي وحلاوة مخاطبتي سنا آياتي ومعجزاتي، وما يظهر لكم من وجه موسى ﷺ من نور تجلياتي.

قال ابن عطاء: قلوبًا سليمةً من الغلِّ والغشِّ.

وقيل: سياسة النبوة، وآداب الملك.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: ادخلوا بنعت المعرفة والنظر الفائق مساكن القلوب؛ لتجدوا منها أنوار الغيب.

وأيضًا: اطلبوا في مواقف المقدسة رجال المعرفة؛ لتصلوا ببركة أنفاسهم قدس جلالي.

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ يخافون من الله فراقه، وتذوبون بي جلاله وعظمته وميثاقه ﴿ٱلَّذِين أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بألا يخافا غير الله، ويتوكلا على الله، وزيادة النعمة عليهما أن الله تعالى عصمهما من جريان الخواطر المذمومة على قلوبهما، وأنه تعالى أدخلهما في باب عظمته وأنوار هيبته.

قال سهل: أنعم الله عليهما بالعصمة والمراقبة.

قال الأستاذ: أنعم الله عليهما بأنوار العرفان، فلم يحتشما من المخلوقين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١) أي: كونوا على رجائي في وقت إياسكم، وثقوا بمحبتي لكم، ولا تفزعوا من امتحاني إياكم؛ لأني لا أقطع حبل الوصال عنكم، ولا أنزع ثياب عصمتي عنكم، أي: إن كنتم عارفين بي تصدقون قولي توكَّلوا عليَّ عند مباشرة قهري إياكم، فأنا اللطيف بأوليائي الرحيم بأصفيائي.

---

(١) أي: ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله ، فإن قُدِّرَ أن واحدًا منهم لا يتوكل، فلا يخرج به ذلك عن الإيمان، كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر؛ فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة، ويقال: بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءٌ فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصِر ولا يطيع تلك الخواطر، ويقال: بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن كان - وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها، ويقال: الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النَّفْس، ويقال: الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الحظوظ، ويقال: الفحشاء الأعمال، والمنكر حسبانُ النجاة بها، وقيل: ملاحظتُه الأعواض عليها، والسرور والفرح بمدح الناس لها، ويقال: الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العِوض عليها [تفسير القشيري (٦/ ١٠٣)].

قال شقيق: التوكل طمأنينة القلب بموعود الله.

قال سهل: التوكل طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية.

قال الواسطي: مَنْ توكَّل على الله لعلَّةٍ غير الله فليس بمتوكِّلٍ على الله، جعله سببًا إلى مقصوده، وفي ذلك قلَّة المعرفة بربِّه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ مَنْ بلغ عين التمكين ملك نفسه، وملك نفوس المريدين؛ لأنه عرفها بمعرفة الله ومعها مِن الله سلطانٌ سائسٌ قاهرٌ، مَنْ نظر إليه يفزع من الله، لا يطيق عصيانه ظاهرًا وباطنًا، فأخبر ﷺ عن محل تمكينه وقدرته على نفسه ونفس أخيه، وأعلمنا أن بينهما اتحاداً، بحيث أنه إذا حكم على نفسه صارت نفس أخيه مطمئنةٌ طائعةٌ لله بالانفعال، قال ﷺ: «المؤمنون كنفسٍ واحدةٍ»[1]، ويمكن أنه ﷺ كان مخبرًا عن مقام القدرة التي اتصف بها من الله سبحانه، وفيه بيان لطف استعداد لهارون ﷺ بقبول تلك القدرة الإلهية.

قال سهل في قوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾: أي: في مخالفة هواها.

قيل: في بذلها لله واستعمالها في طاعته.

قال الأستاذ: لمَّا ادَّعى أنه يملك نفسه عرف عجزه عن ملكه لنفسه؛ حيث أخذ برأس أخيه يجره إليه، تقدَّس شأن موسى ﷺ من كل خاطرٍ، إشارته إلى أنه لا يعرفه مكان عجزه من النفع والضرِّ في ذرةٍ؛ لأنه عرف أن سلطان قهر الله غالبٌ على كل شيءٍ، وأن الحدث له قدرٌ في الربوبية عند ساحة الكبرياء.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ مَنْ لم يسبق له في الأزل عناية الله صار إحسانه إساءةً، وطاعته تؤول إلى المعصية.

كما قيل: مَنْ لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوبٌ، قرَّب هابيل بقربان نفسه لله، وقرَّب قابيل لحظ نفسه بغيًا وحسدًا على أمرٍ كان مشرفًا بتأيد الله، فلا جرم حاله كان يئول إلى

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

الظلم الأكبر بقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

قال ممشاد الدنيوري: كانت معصية آدم ﷺ من الحرص، ومعصية إبليس من الكبر، ومعصية ابن آدم من الحسد، والحرص يوجب الحرمان، والكبر يوجب الإهانة، والحسد يوجب الخذلان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عرفه مكان سبق العناية وسبق الخذلان، أي: إنَّما يتقبل الله القربان ممَّنْ اتقى الله في الأزل ممّا سواه، أي: إنَّما يتقبل الله من الذين يخافون عظمته بعد إخلاصهم في طاعته، هل يقبل أم لا، والمتقي هو المتجرد في التوحيد بالموحد من غير الموحد.

قال سهل: التقوى والإخلاص محل القبول لأعمال الجوارح.

وقال ابن عطاء: المخلصين فيما يقولون ويعلمون.

قال السلامي: القرابين مختلفةٌ، وأقرب القرابين ما وعد الله تعالى بقبوله، ووعد الصدق، وهو الذكر في السجود؛ لأنه محل القربة، قال الله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر عليهم السلام قال: التقوى في الأحوال، والأحوال في الأفعال كالروح في الأبدان، والأفعال إذا فارقتها الأحوال فهي جيفة ميتة، والتقوى على أربعة أوجهٍ: من الرياء والعجب ورؤية النفس، وأن يخطر بعده غير الله ﷻ.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إن الله سبحانه أسبل ستر الغيرة على وجه القدم حتى لا ينظر إلى أنوار عظمته مَنْ لم يكن أهله، وكشف ذلك الستر لأبصار العارفين؛ لينظروا إلى عظيم جلاله، ويكونوا في رعايته من حيث أن عظمته تعالى محيطةٌ على أسرارهم بنعت مباشرة نورها، فالطائفة الأولى بقوا في أسر عصيانه، والأخرى بقوا في نور سلطانه، فهدَّد قابيل أخاه بالقتل، وأجابه هابيل بسطوة التوحيد وخوَّفه من جلال الحق؛ حيث قال: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومن شعار أهل الخوف ألا يقاتل أحدًا

لإسقاطهم الوسيلة بينهم وبين رؤية القدر السابق.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فيه إشارةٌ لطيفةٌ من الحق سبحانه: إن النيّة إذا وقعت من قبل النفس الأمّارة في شرٍّ وباشرته فكأنها باشرت جميع عصيان الله؛ لأنها لو قدرت على جميعها لفعلت؛ لأنها أمّارةٌ بالسوء، ومن السوء خُلقت، فالجزاء يتعلق بالنيّة، وكذلك إذا وقعت النيّة من قلب القلب الروحاني في خيرٍ وباشره، فكأنه باشر جميع الخيرات، لأنه لو قدر الفعل، قال ﷺ: «نيّةُ المؤمن أبلغُ من عمله»[1].

وفيه إشارةٌ أخرى: إن الله سبحانه خلق النفوس من قبضةٍ واحدةٍ مجتمعةٍ بعضها من بعضٍ، وفرقها مختلفةٌ، وتعلّق بعضها ببعضٍ من جهة الاستعداد والخليقة، فمَنْ قتل واحدًا منها أثّر قتلها في جميع النفوس عالمة به أو جاهلة، ومَنْ أحيا نفس مؤمن بذكر الله وتوحيده ووصف جماله وجلاله حتى تحب خالقها وتحيى بمعرفته وجمال مشاهدته، فأثّرت حياتها وبركتها في جميع النفوس، فكأنما أحيا جميع النفوس، وفي الآية تهديد الله لأئمة الضلالة ووعدٌ وشرفٌ وثناءٌ حسن لأئمة الهدى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٤٣).

ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: اتقوا الله في النظر إلى غيره، وابتغوا إليه الوسيلة بنعت التقوى، ولا يكون عندكم الوسيلة إليه شيئًا دونه؛ لأنه هو الوسيلة إليه.

ألا ترى إلى قول الشاعر:

أيا جود معنٍ ناج معنى بحاجتي ... فليس إلى معنٍ سواه شفيعُ

وسيلته محبته ومعرفته والاستعانة به عنه.

قال جعفر ﷺ: اطلبوا منه القربة.

قال الواسطي: لو كشف لهم ما عاملهم به لفسدت أوقاتهم، وأوقاته من يفتدي بهم.

وقال: ما يتوسل به إليكم؛ لقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقال الأستاذ: ابتغاء الوسيلة التبرؤ عن الحول والقوة، والتحقق بشهود الطول والمنّة.

ويقال: ابتغاء الوسيلة التقرب إليه بما سبق إليك من إحسانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ قطع حبال أطماع الخليقة عن إضافة القدرة القديمة إليهم؛ حيث أراد الفتنة بالمفتتن، وفتنته بأن يشغل الطالب بنفسه، ويوقعه في يد نفسه، ويغريها إلى الشهوات المحبة القاطعة طريق الحق، ويغرس أشجار الهوى في قلبه، ويسقيها من مياه الغفلة حتى حيزت حومان القلب بظلمة الشهوات،

بحيث لا يدخل فيه نور البرهان والعرفان.

ثم زاد في وصفهم، وعلَّق الجميع بإرادته، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾.

قال الخواص في قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾: مَنْ يرد الله افتراق أوقاته لم يملك جمعها له.

وقال ابن عطاء: مَنْ يحجبه الله عن فوائد أوقاته لن يقدر أحدٌ إيصاله إليه.

قال أبو عثمان: أي بالمراقبة والمراعاة.

وقال أبو بكر الوراق: طهارة القلب في شيئين: في إخراج الحسد والغشِّ منه، وحسن الظنِّ بجماعة المسلمين.

قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ﴾ وصف الله سبحانه أهل السالوس الذين في هذا الزمان يجلسون في الزوايا، ويظهرون التزهد والتقشف، ويطرحون على أعناقهم الطيالسة، يسمعون مديح أهل الدنيا لهم، مثلما قالوا: ليس في الدنيا مثلك يا شيخ، وأنت كذا وكذا، وهو يشتري غرورهم وأقاويلهم الباطلة، وهم يمدحونه لأهل الشفاعة عند الأتراك، ويجعلونه وسيلة إلى السلطان، ويعطونه رشوةً؛ لاستجلاب مرادهم، فهو يسمع الكذب، ويأكل السحت، طهَّر الله وجه الأرض منهم، ووقانا من صحبتهم وسوء أفعالهم، فإنهم مرقوا من الدين، وأكلوا الدنيا بالدين.

قال بعضهم: سمَّاعون الدعوى الباطلة، أكَّالون للسحت يعنى أكَّالون بدينهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾[1] الربَّاني الذي نُسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب والاستقامة في شهوده جلاله وجماله صار متصفًا بصفات الله، حاملاً أنوار ذاته، فإذا فني عن نفسه بقي بربه صار ربانيًا، مثله مثل الحديد في النار؛ فإذا لم يكن في النار كان مستعدًا لقبول النار ولم تكن نارًا، فإذا وصل إلى النار واحمرَّ صار نارًا، هكذا شأن العارف، فإذا كان منورًا بتجلِّي الرب صار ربانيًا روحانيًا نورانيًا ملكوتيًّا جبروتيًّا، كلامه من الرب إلى الرب مع الرب، فالربانيون عشَّاق الله وأحباؤه، الحاضرون من بين يديه، المكاشفون وجه الله سبحانه، والأحبار الذين يسمعون كلام الله من الله بواسطة المفرقون بين الحق والباطل بنور الله.

قيل: الربانيون الراجعون إلى الرب في جميع أحوالهم، والأحبار العلماء بالله وبآياته.

وقيل: الربانيون العلماء بالله، والأحبار العلماء بأحكام الله.

وقال ابن طاهر: الربانيون هم الصحابة الذين أخذوا كلام الرب عن السفير الأعلى، والواسطة الأدنى، والأحبار علماء الأمة العاملون بعلمهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ العارف مخاطبٌ من الله في جميع أنفاسه وحركاته، يتنزل على قلبه من الله وحي الإلهام، وربما يخاطبه بنفسه، ويكلمه بكلامه، ويحدثه بحديثه كقوله ﷺ: «إن في أمتي محدَّثين ومكلَّمين، وإن عمرَ منهم»[2]، فإذا لم يحكم بنفسه بما أنزل الله على قلبه بأن يخرجها من الشك إلى اليقين، ومن الظلمة إلى النور، ومن المخالفة إلى المتابعة، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الظلم إلى العدل، ومن العصيان إلى الطاعة، يكون موصوفًا بأواخر هذه الآيات الثلاثة، كفر أنعام الله الذي هو مقام الخطاب، وظلم بأنه لم يضيع علمه على علمه، وفسق عن مراد الله إلى مراد نفسه.

قال بعضهم: مَنْ لم يحكم للناس بحكمه على نفسه قد كفر نعم الله عنده، وجحد سني مواهبه لديه؛ فظلم نفسه بذلك.

---

(١) الربانيُّ من كان لله وبالله؛ لم تبق منه بقية لغير الله، ويقال: الربّانيُّ الذي ارتقى عن الحدود، والربانيُّ مَنْ توقَّى الآفات ثم ترقَّى إلى الساحات، ثم تلقَّى ما كوشِفَ به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصفا عن وصفه، وقام لِرَبِّه وبربِّه، وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين، فهم خلفاءٌ ينهون الخلْقَ بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يُؤمِنُون إليه، وتحقق ما علقوا هممهم به [تفسير القشيري (٢/ ١٤٤)].

(٢) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/ ١٧٤).

وقيل: مَنْ لم يحكم خواطر الحق على قلبه كان محجوبًا من المبعدين.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ إن الله تعالى جعل في بحار القدم والبقاء السواقي لورود الأرواح القدسية، ومشارب للقلوب العارفة به، وسواقي العقول الصادرة من نوره، ولكل واحدٍ منها شريعةٌ من تلك البحار، فلبعضٍ شرعة العلم، ولبعضٍ شرعة القدرة، ولبعضٍ شرعة الصمدية، ولبعضٍ شرعة الحكمة، ولبعضٍ شرعة الكلام والخطاب، ولبعضٍ شرعة المحبة والمعرفة، ولبعضٍ شرعة العظمة والكبرياء، ثم جعل لها منهاجًا من الصفات إلى الذات، ومن الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الصفات، ومن الذات إلى الذات، ومن الأسماء إلى النعوت، ومن النعوت إلى الأسماء، ومن الأسماء إلى الأفعال، ليعرفه كل واحدٍ بقدر ذوقه وشربه وطريقه، وجعل بينهم تباعدًا وتقاربًا، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠]؛ فمَنْ وافق شربه شرب صاحبه لم يقع بينهما الخلاف في الشرعة والمنهج، ومَنْ لم يكن شربه موافقًا لشرب صاحبه لم يعرف أحدهما مكان الآخر ويكون بينهما نزاعٌ، وذلك من غيرة الله عليهم، وعلى نفسه؛ لئلا يركن بعضهم بعضًا، ولا يطّلع عليه سواه.

ألا ترى كيف وصف مزاج الأبرار من مزاج المقربين، وفرّق بينهم بالمشارب

والسواقي، وكيف خصَّ بعضًا بالرحيق المختوم بقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين:٢٥، ٢٦]، وذلك رحمةٌ منه على الجمهور، ولتفاوت فوائد استنباط علوم الغيبية من مراد الله، قال ﷺ: «اختلاف العلماء رحمةٌ»[1]، ولاختيارهم في طريقهم بحقائق العبودية وعرفان الربوبية، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني شيوخًا وأكابر بغير المريدين والسالكين، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من المقامات الشريفة والأحوال السنية، كيف تخرجون من دعواكم بحقيقة عبوديته؟ وتخرجون جواهر العلوم من كتابي وحكمتي.

ثم خاطبهم جميعًا بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ عرَّفهم مكان تقصيرهم، أي: ما أدركتم مني في جنب ما عندي لكم كقطرةٍ في بحرٍ، سارعوا إلى خيرات مشاهدتي، وجميل عطاياتي.

ثم أفردهم ممَّا وجدوا إلى عين جلاله بقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إليه مرجع افتقاركم من مقاماتكم إليه، لزيادة القُربة والمعرفة، وهناك يظهر تفاضل درجاتكم، وما غاب عنكم من حقائق أسراري، ونوادر لطائفي، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قال بعضهم في قول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ كلٌّ قد فُتح له طريقٌ إلى الله، فمَنْ استقام على الطريقة وصل إلى الله، ومَنْ زاغ وقع في سبيل الشيطان، وضلَّ عن سواء السبيل.

وقال أبو يزيد البسطامي: الطريق إلى الله بعدد الخلق، ولكن السعيد مَنْ هدي إلى طريقٍ من تلك الطرق.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ولو شاء الله لسوَّى مراتبكم، ولكن غاير بينكم ابتلاءً، وفضَّل بعضكم على بعضٍ امتحانًا.

وقال في قوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: مسارعة كل واحدٍ على ما يليق بوقته؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد، والعارفون بهممهم من حيث المواجيد.

ويقال: استباق الزاهدين برفع الدنيا، واستباق العابدين بقطع الهوى، واستباق العارفين بنفي المنى، واستباق الموحدين بترك الورى، ولسان الدنيا والعقبة.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ إن الله تعالى وبَّخ المفلسين من أهل الرِّدة بأن ليس لهم في محبة الله نصيبٌ بارتدادهم عن الإسلام، وأخبر أنه يجيء بقوم إن الله تعالى قد أحبهم في الأزل وهم بمحبته يحبونه، وهم يوافقون النبي – صلى الله عليه وآله وأصحابه – بشرط المحبة؛ لأن من شرط المحبة الموافقة والطاعة، وبيَّن أن مَنْ لم يكن مطيعًا لم يكن مُحبًّا، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، وفي الآية ذكر شرف الصحابة والتابعين من بعدهم، وبيَّن تعالى أن المحبة من خواص صفته الأزلية؛ لأنه كان بذاته يحب أحباءه، وكان ذاته موصوفًا بالمحبة الأزلية، وكما أنه تعالى يحب الأولياء بذاته وصفاته فهم يحبون الله بذاتهم وصفاتهم من جميع الوجوه؛ لأن مصدر المحبة القدم، وليس هناك فعلٌ، ومحبة العباد مصدرها قلوبهم، وليس هناك فعلٌ، وأصل المحبة وقع بغير العلَّة من الآلاء والنعماء والأفعال والحركات؛ كأن سبحانه أحبهم بعلمه في الأزل قبل إيجادهم باصطفائية، فكأنه قد أحب نفسه، لأن كونهم لم يكن إلا بكون وجوده، ووجوده سبب وجودهم: وهو تعالى أحب فعله ومرجع الفعل صفته، فكأنه أحب صفته، ومرجع صفته ذاته، فكأنه أحب ذاته، لم يكن الغير في البين، فكان هو المُحِب وهو المحبوب وصفته المحبة، وهم يحبونه بتجلي الصفة في قلوبهم، وهو مباشرة نور محبته في فؤادهم، فلمَّا تكحلت أرواحهم بنور محبته فطاب مصدر أصل الصفة، فوجدت مشاهدة الأزل عيانًا بلا حجاب، فأحبتها بالمحبة الأصلية التي لا تتحول من مصرف الأصل أبدًا، فإذا كان كذلك فالمُحب والمحبوب والمحبة في عين الجمع واحدٌ، وهذه إشارةٌ قوله سبحانه بلسان نبيه – صلى الله عليه وآله وسلم – حيث أخبر عن المُحب المتحد المتصف بصفاته، قال في أثناء الحديث: «فإذا أحببته كنتُ له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»[1].

وفي هذا المعنى أنشد الحسين بن منصور فقال:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنًا

فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

قال الواسطي في هذه الآية: كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته؛ لأن الهاء راجعةٌ إلى

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٩).

الذات دون النعوت والصفات.

قال السلامي: بفضل حبه لهم أحبوه، كذلك ذكرهم بفضل ذكره لهم ذكروه.

وقال: الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة، فإذا لم يكن ذلك لم يكن فيه حقيقة.

وقال يوسف بن الحسين: المحبة الإيثار.

وأنشد في معناه الحسين بن أحمد الرازي، قال: أنشد أبو علي الروذباري لنفسه:

سامرت صفو صبابتي أشجانها ... حرق الهوى وغليلة نيرانها
وسألت عن فرط الصبابة قيل لي ... إيثار حبك قلت خذ بعنانها
كلٌ له وبه ومنه، فأين لي ... وصفٌ؟ فأوثره فطاح لسانها

قيل: المحبة ارتياح الذات بمشاهدة الذات.

وقيل: المحبة هي أن تصير ذات المُحب صفة المحبوب.

قال الواسطي: بطل حبهم بذكر حبه لهم بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وأن تقع صفات المعلولة من الصفات الأزلي الأبدي، وقد وقعت إلى إشارةٌ: أن محبة الله وقعت في الأزل، ولم يكن هناك وجود الأحباء؛ لأنه تعالى لم يكن محتاجًا إلى رؤيتهم محبته إياهم، ولكن لم تكن محبة الأحباء له إلا بعد أن رأوا مشاهدتهم، فثبتت المشاهدة قبل المحبة، وثبتت المحبة بعد المشاهدة، والمحبة بعد المشاهدة من قبل المحبين لم تكن محبة حقيقية، لأن محبة الآلاء والنعماء وقعت معلولة، ولذلك لم يرتدوا عن دينهم الذي هو المحبة؛ لأن مَنْ رأى عشقه فكيف يرجع عنه مَنْ كان مسلوب القلب بعشقه وجماله!

ثم زاد الله في وصفهم بذكره تواضعهم لأحبائه وغلبتهم على أعدائه بقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وذكر بذل وجودهم في طريق محبته، بنعت جهدهم أعدائه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلّة مبالاتهم في الله إلى ملامة اللائمين بقوله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، وعلّق جميل أوصافهم بفضله وسعة رحمته، كما أنه علّق محبتهم بمحبته بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال أبو بكر الوراق: الجهاد ثلاثة: جهادٌ مع نفسك، وجهادٌ مع عدوك، وجهادٌ مع قلبك، والجهاد في سبيل الله هو مجاهدة القلب بألا تتمكن منه الغفلة بحال، وجهاد النفس ألا تفتر عن الطاعة بحال، وجهاد الشيطان ألا يجد منك فرصة فيأخذ بحظه منك.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ

رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: مُحِبُّكم الله بصدق العناية، ومحبة الرسول تأديبهم بالشريعة، ومحبة المؤمنين الإيثار للنفس والمال إليهم بالأخوة.

قال سهل: أما ولاية الله فهو الاختيار لِمَنْ استولاه، وولاية الرسول ﷺ إعلام الله ورسوله أنه وليٌّ، فيجب على الرسول أن يوالي مَنْ والى الله.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي: مَنْ وقعت له تولية الله بمحبته ورؤية مشاهدته ووقعت التولية من رسول الله بموافقته لطاعة الله، وتوليه المؤمنين من جهة استعداد الفطرة ورؤية أنوار الغيب في وجوههم، فإنه محبوب الله، ومحبوب رسوله، ومحبوب المؤمنين، ويكون طالبًا على نفسه وشيطانه بالنصرة الإلهية.

قال القاسم: موالاة الله مشتقةٌ من موالاة رسول الله، ومولاة رسول الله مشتقةٌ من موالاة السادة والأكابر من عباده، وهم المؤمنون، ومَنْ لم يعظم الكبراء السادة لا يبلغ إلى شيء من مقام الموالاة مع الله ورسوله.

قال ﷺ: «من تعظيم جلال الله إكرامُ ذي الشيب المسلم»[(١)].

قال في قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ قال: لأهوائهم وإرادتهم ومقاصدهم.

وقال بعضهم: حزب الله أهل خاصته القائمين معه على شرائط الاستقامة.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٩).

لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ مناداة الحق لا يسمعها إلا أهل الحق، مَنْ سمع نداء الأزل وأجاب بالتلبية بنعت المحبة يُسمع نداءه بالواسطة بشرط إصغاء سمعه الخاص في السماع إلى قول الغيب، ومَنْ لم تكن روحه مستروحة بمروحة الصفاء لم يكن سرُّه مُنَوَّرًا بنور البقاء، ولم يكن قلبه مشتاقًا إلى جمال مشاهدة الله بنعت الحرق والهجان، ولم يكن من أهل السماع، ولم يُجِب داعي الغيب.

قال الأستاذ في هذه الآية: الأذان دعاءٌ إلى محل النجوى، فمَنْ تحقق بعلوِّ المحل فسماع الأذان يوجب له روح القلب واسترواح الروح، ومَنْ كان محجوبًا عن حقيقة الحال لاحظ ذلك بعين اللعب، وأدركوا بسمع الاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ في الآية تحذير الربانيين العارفين بالله وبحقوق الله، والأحبار العلماء بالله، وبعذاب الله لمَنْ عصاه، وبثواب الله لمَنْ أطاعه؛ لئلا يسكنوا عن زجر المبطلين والمغالطين المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس، وبيَّن تعالى أن مَنْ داهن في دينه عذَّبه وإن كان ربانيًّا.

قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ رجلٍ يجاورُ قومًا يعملُ بالمعاصي بين ظهرانيهم، فلا يأخذون على يديه إلا أوشكَ الله أن يعمَّهم منه بعقابٍ»**[1].

قال الواسطي: الربانيون العارفون مقادير الخلق من جهة الحق، والأحبار الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر.

قال أبو عثمان: الربانيون هم أهل حقيقة الحق، وهم أهل المحبة لله بالصدق.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٣٣٢).

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أشار الله سبحانه عن التمثيل والتصوير إلى يد القدم ويد البقاء، يد القدم اصطفائية الأولياء والصديقين بمعرفته ومحبته، وذلك كقضاء الإرادة القديمة من القدرة القائمة بالذات إيجاد الصفوة، فتجلّت القدرة بالمشيئة الأزلية للعدم، فظهرت من العدم بنور القدم أرواح أهل الولاية، فقبضتها القدرة، وأنفقت عليها أنوار المشاهدة، وربتها برزق القدرة والوصلة حتى أدخلتها الأشباح وأوصلتها إلى يد البقاء، قربتها يد البقاء بقربات الأبدية، ومداناة السرمدية، ففي كل لحظة يتجلّى لها القدم ألف ألف مرة بتجلّي البقاء لهم في كل لمحةٍ ألف ألف مرةٍ بغير نعت الفترة والانقطاع؛ لأنه تعالى لا نهاية لجلال قدمه وجمال بقائه.

وأيضًا: يد لطفه مبسوطةٌ بالرحمة الواسعة الأزلية لأهل العناية والسعادة، ويد قهره مبسوطةٌ بالعذاب لأهل الشقاوة ترفع قومًا بميزان اللطف، وتضع آخر من ميزان القهر.

قال ﷺ: «**يدُ الله ملأى، تغيضها نفقةٌ سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السموات والأرض، فإنه لمْ يغض ما في يديه، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان، يخفضُ ويرفعُ**»[1].

قال الأستاذ: بل قدرته بالغةٌ، ومشيئته نافذةٌ، ونعمته سابغةٌ، وإرادته ماضيةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أشار سبحانه إلى أن لو استقاموا في عملهم بخطاب الله ولم يترسموا برسم أهل الحظوظ لكُوشفت لهم أنوار الملكوت في قيامهم لقوة قلوبهم وقوة أبدانهم، وكُوشفت لهم أنوار الجبروت في سجودهم لقوة أرواحهم وقوة عقولهم، وبيّن أن فيهم أمةً مستعدةً لقبول هذه الأحوال، ومع ذلك أخرج الله سبحانه قومًا من مقام التوكل؛ حيث شرط معهم العمل بالكتاب كما شرط على أهل التقوى بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢،٣]، ولو كانوا على محل التحقيق في المعرفة لأكلوا رزق الله بالله من خوان غيبه، كأصحاب المنّ والسلوى والمائدة من السماء، ويفتح لهم كنوز الأرض، وهم على ذلك بإسقاط رؤية الوسائط.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٢٤).

وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إن الله سبحانه وتعالى خوَّف نبيه ﷺ من نفسه حتى لا يبقى فيه غير الله، ويُسقط عن عينه الخلق، ولا يفزع منهم في وصف عليهم ومداواة معايبهم، وحثه على تبليغ ما أخبر الله إليهم، فإن الله تعالى أراه ما لهم بين يديه بقوله: ﴿ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، ومع ذلك أمره بإبلاغ ما أُنزِل إليه من الذي يتعلق بأحكام العبودية، ولَمْ يأمره بأنه يعرِّفهم أسرار ما بينه وبين الله، وما بين الله وبين أوليائه، فإن ذرةً من أسرارها لم تحتملها السموات والأرضون، ولا الحدثان بأسرها؛ لأنها وصف خاصية الصفات وكشوف أنوار الذات، ومحل الأنس والجمال بنعت الانبساط والاتصاف والاتحاد، ودعوى الأنائية والأزلية والسرمدية، وذلك ما أبهم الله على قلوب الخلائق من العرش إلى الثرى، من السرِّ ما بينه وما بين قلب نبيه في محل الدنوِّ، ودنوِّ الدنوِّ، لقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم:٨-١١]، لا يطيق أهل الكون أن يحتمل ذرة من ذلك الوحي، وكيف يحتمل الحدثان كشف قدم الرحمن، كان ﷺ حمله به لا بنفسه؛ لأن الحدث متلاشٍ في الأزل، ويبقى أنه في عصمته من كيد نفوسهم وشرِّ معاصيهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يعصمك من أن يوقعك أحدٌ في التمويه والغلط والخيال في طريقك إليَّ، وهذا لكونه مختارًا بالرسالة، وحقائق الرسالة في الرسول ظهور أنوار الربوبية في قلبه وبيان أحكام العبودية في سرِّه.

قال الواسطي: حقائق الرسالة لو وُضِعَت على الجبال لذابت، إلا أنه يظهر العالم على مقادير طاقتهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، ولم يقل ما تعرفنا به إليك.

قال بعضهم: معناه بلِّغ ما أُنزل، ودعْ ما تعرفنا إليك، الأول الشريعة، والثاني ما أُنزل من الأنوار على سرِّ محمدٍ ﷺ لا يطيقها بشرٌ.

قال بعضهم: بلِّغ ما أُنزل إليك، ولا تبلغ ما خصصناك به من محل الكشف والمشاهدة، فإنهم لا يطيقون سماع ما أطقت حمله من مشاهدة الذات والتجلِّي بالصفات.

قال بعضهم: الرسول هو المبتدى، والنبي هو المُقتدى، قال الله في صفة الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

قيل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] أي: يعصمك منهم أن يكون منك إليهم التفاتٌ، أو يكون لك بهم اشتغالٌ.

قيل: يعصمك من أن ترى لنفسك فيهم شيئًا، بل ترى الكل منه وبه.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: أي: بيِّن للكافة أنك سيد ولد آدم، وأن آدم من دون لوائك.

ويقال: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إني أغفر للعصاة ولا أبالي، وأرد المطيعين مَنْ شئت ولا أبالي.

ويقال في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: حتى لا يغرق في بحر التوهم بل تشاهدهم كما هم وجودًا بين طرفي العدم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ إن خطاب الله سبحانه ذو صفتين: صفة القهر، وصفة اللطف، فمَنْ تجلَّى القرآن بقلبه بصفة اللطف يزيد نور بصارته بلطائف حكمته، وحقائق أسراره، ودقائق بيانه، ويزيد بذلك نور إيمانه وتوحيده، ويعرف بذلك ظاهر الخطاب وباطنه، ومَنْ يتجلَّى لقلبه بصفة القهر يزيد ظلمة طغيانه، وقلَّة عرفانه بحيث لا يدرك فهم اخطاب، ويزيد لحظة بعد لحظة ظلمة قلبه؛ لأن القرآن صفة الله وصفته لا نهاية لها، إما برؤية اللطف أو برؤية القهر، قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦].

قال الواسطي: هم الذين تولى الله إضلالهم وصرف قلوبهم عن درك دقائق الحكمة.

---

(١) أي: يحفظ ظاهرك من أن يَمَسَّكَ أذاهم، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدوٌّ، أو يصون سِرَّك عنهم حتى لا يقع احتشامٌ منهم، ويقال: يعصمك من الناس حتى لا تغرق في بحر التوهم؛ بل تشاهدهم كما هُمْ؛ وجودًا بين طرفي العَدَم [تفسير القشيري (٢/ ١٤٨)].

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝٧١ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٤ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٧٦ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ وصف الله قومًا بعميهم عن رؤية الحق، وإدراك فهم الخطاب بما على عيونهم من غشاوة الغيرة، وبما في آذانهم من وقر الضلالة، فلَمْ يعرفوا محض الاستدراج والامتحان في إمهال الله إياهم في ظلمة العصيان، وحسبوا أنهم يحسنون فيما بينهم وبين الله، ولم يعرفوا سقوطهم عن الدرجات إلى الدركات، ولمَّا فتح الله باب الرحمة عليهم عرفوا تقصيرهم، ثم جاء إعلام القهر وسد باب العصمة والتوفيق عليهم فرجعوا إلى الضلالة وعمى الباطن؛ لأنهم ليسوا بأهل الله وخاصته، ولو أدركوه بشرط العناية لَمْ يرجعوا عنه أبدًا.

قال بعضهم: ظنوا ألا يفتتنوا في آذانهم وأهوائهم؛ فعموا عن رؤية الحق، وصموا عن استماعه: إلا مَنْ أدركته رحمة الله وفضله فتاب عليه وفتح عينه لرشده.

قيل: ظنوا أنهم لن يقعوا في الفتنة، وهم طالبون الدنيا، معتمدين على الخلق، عميت أبصار قلوبهم، وصُمَّت آذان أسرارهم، إلا مَنْ يتداركه الله بكشف الغطاء، ويحله محل التائبين.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ لمَّا ظهرت آيات الله في عيسى عليه السلام وأمه برزت من الآيات أنوار الصفات؛ فوقع أكابر العشاق في مقام الالتباس، وخضعوا عند رؤية الربوبية في رؤية الصفات في الآيات، فغلط المقلدون بما رأوا عليهم شرائط العشق وبراهين عين الجمع، فكفروا بتفريقهم الأُلوهية في محل تفرقة الحدثان، وذلك ما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي: عموا عن رؤية حقائق رؤية وحدانية الله التي هي منزَّهةٌ عن الاجتماع والافتراق والامتزاج بالناسوت، والحلول في الحدثان عند ظهوره لأبصار العشاق والعارفين من لطائف الآيات وبراهين المعجزات.

تصديق ذلك قوله تعالى في نفي الأضداد والأشباه والأنداد والأوهام والجبال عن ساحة جلاله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ثم وصف بعد وصف تنزيه المسيح ومريم بأنهما موضع آياته، وبرهان صفاته، وصفهم بالعجز في الإنسانية والضعف في البشرية عن حمل امتحانه تعالى بقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: هو من عالم الجلال أرسلته إلى عشاقي وعرفاني، وأول من صدقه أمه؛ لأنها شقائقه في مباشرة الآيات ورؤية الصفات، ثم أحوجهما إلى علل الأبشار بوصفهما بأنهما كانا يأكلان الطعام، هذا كنايةٌ وعبارةٌ عن الحدث بذلك أبرأ عنهما الأُلوهية، وكيف يليق بعزَّة القدم تغاير الحدثان.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ بيَّن الله سبحانه ميلان الجنس إلى الجنس في الكفر والإيمان من تجانس الفطرة الأولية، وأظهر بغضه لموالاة الأعداء بعضهم بعضًا، ومحبته لموالاة الأولياء بعضهم بعضًا، وبيَّن أن موالاة الكفار توجب سخط الله عليهم أبدًا، وبقاءهم في عذابه أبدًا، ولا تظن في رضاه وسخطه أنهما صفتان متغايرتان من جهة تأثير

أفعال الحدث في القدم، فإنَّ صفات القدم منزَّهةٌ عن أن تكون محلاً لنزول الحدثان فيها، فإنَّ رضاه سبق عنايته للمقبولين، وإنَّ غضبه إرادة وضوح وسم البعد على المطرودين.

قال الواسطي: ما أظهر من الوسم المكروه على خلقه، جعل ذلك مضافًا إلى غضبه وسخطه من غير أن يؤثر عليه شيءٌ، ألا ترى إلى قول الحكيم كيف يؤثر عليه ما هو أجراه أم كيف يغضبه ما هو أبداه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ وقع اليهود في سخطه الأكبر؛ حيث اختاروا مَنْ يلههم العجل بالإلهية بقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ [النساء:١٥٣]، وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة:٩٣]، ثم نزلوا من رتبة الحيوان إلى رتبة الجماد بقولهم لموسى ﷺ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ﴾ [الأعراف:١٣٨]، ومن علامة همتهم أشار إلى رتبة الإنسان بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، فلمّا قطع الله نسبة القدم عن الحدث اشتد غضبهم على أهل التوحيد وذلك قوله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾، ووقع النصارى في سخطه الأصغر، حيث ارتفعوا بهمتهم في طلب الإلهية إلى عيسى ﷺ؛ لأنه مجمع آيات الله وقعوا في الخيال عند بروز الصفة عن الآية؛ لقلّة إدراكهم الوحدانية، لكن بسبب استعدادهم قبول ظهور الآية صاروا أقرب من اليهود إلى قبول الإسلام، والذي وصفهم الله هاهنا بقوله: ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أنهم بقوا في النصرانية في طلب الحق، فلمّا لاح الحق لهم خرجوا ممّا دون الحق إلى الحق، وكانوا صديقين في تجريدهم في طريق الله؛ حيث وصفهم الله بالقسيسية والرهبانية، وإذا كانوا في طلب الله أدركهم الله بنور الإسلام والتوحيد، وما أبقاهم في الشكوك والآراء المختلفة.

ثم زاد في وصفهم بالخضوع والإذعان عند بروز البرهان تصديقًا وتعريفًا بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

قال بعضهم: جزيات الخدمة أثبت عليهم وإن كانوا على طريق المخالفة، لكنهم لمّا أظهروا لزوم الباب بدت عليهم آثارها في قبول الجزية وتحليل المناكحات والانتساب إلى التزهد والرهبانية.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

﴿وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وصف الله سبحانه أهل خالصة الإيمان بحسن الإصغاء عند سماع الذكر والخطاب؛ حيث شاهد عقولهم بشواهد الكتاب بنعت الانبساط، وشاهد قلوبهم حلاوة الخطاب، وشاهد أرواحهم مشاهد جمال الأنبياء، وشاهد أسرارهم أنوار الصفات بوصف إدراك لطائفها ورؤية نوادر عجائبها، فوردت سواقي بحار علومها، وشربت مفرحات عجائب مكنونها، ورأت غرائب تجلِّي عرائسِ غيبها، وهاجت إلى طلب معادنها بنعوت شوقها إلى جمال المخاطب، فلمّا أدركته عرّفته بالألوهية، وعلمته بالوحدانية، وعشقته بما رأت من لطيف خطاب معهم وعرفان أسراره فيهم، فأثرت ما أدركت في الأشباح حتى اضطربت وأدمعت عيونها بدمع الشوق، واحترقت قلوبها بنيران العشق في مجالس الذكر والسماع، نعرف الله صدق عرفانهم ومواجيد قلوبهم بالعلامة الصحيحة، وهي سيلان قطرات الدموع الأسحان بوصف الهيجان على حدود أهل العرفان بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: إذا وجدوا في سماع الخطاب ما فاتوا من لطائف حقائق أسراره وعرفوا حق قدر المُخَاطِب والمُخَاطَب استبشروا بالوجدان، وحزنوا من ضرر الفقدان، وهيج فرحهم وحزنهم إلى الشوق والبكاء، وذلك البكاء من إصابة عيونهم قلوبهم إلى معارف الغيب ومصادفة أرواحهم شواهد القرب، ورُبَّ قتيلٍ قتله سماع القرآن من غمرات المعرفة وغشيان النور على قلوبهم.

رُوي عن جنيد قال: كنت قائمًا أصلي فقرأت هذه الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، فرددتها مرارًا، فنادى منادٍ من ناحية البيت كم تردد هذه الآية، فلقد قتلت بها أربعة نفر من الجن لم يرفعوا رؤوسهم إلى السماء حتى ماتوا من ترديدك هذه الآية.

وكان الصديق ﷺ عنه لا يتمالك بكاءه عند سماع القرآن.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى مؤمني أهل الإنجيل بزيادة التصديق بما ذكره في كتابه من قولهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: صدقناك بما عرفتنا قدر رسولك وأصحابه؛ فإنهم شاهدون قربك ووصالك.

قال ابن عطاء في تفسير قوله : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾: كادت جوارحهم وقلوبهم أن تنطق بقبول الوحي قبل سماعه في مشاهدة المصطفى ﷺ، ولمَّا سمعوا منه لم يطيقوا حمله إلا ببكاء فرحٍ، أو بكاء حسرةٍ، أو بكاء دهشةٍ، أو بكاء حرقةٍ، أو بكاء معرفةٍ، كما قال الله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا

مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

قال الأستاذ: إذا قرع سمعهم دعوة الحق بقسم البصيرة في قلوبهم فسكنوا إلى المسموع لما وجدوا من التحقيق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ هذا خطاب أهل المشاهدة، أي: إذا وصلتم مقام المشاهدة فلا تميتوا قلوبكم بالمجاهدة، فإن المجاهدة للنفوس، والمشاهدة للقلوب، وإذا ظهرت المشاهدة للقلوب فلا يبقى فيها للنفوس أثرٌ، وأعلم بذلك تعالى أهل قربه الذين بلغوا مقام الأُنس والبسطان ما يجري في قلوبهم من ذكر بدايتهم في ترك الطيبات من القوت واللباس، لا يجوز في هذه المقامات الرجوع إلى البدايات، فإن هاهنا لا يليق مجاهدة النفس بهم؛ لأنهم يذوبون في روح الأُنس ونور البقاء، وهم في ذلك عرائس الله يبيح لهم ما لا يبيح للمريدين من أكل الطيبات ولبس الناعمات لبقائهم في الدنيا ولا يحترقون بواردات الوجد.

ألا ترى أن سبب نزول هذه الآية اجتماع أخيار الصحابة مثل: عثمان بن مظعون، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبي ذر الغفاري، وسالم مولى حذيفة، والمقداد بن أسود، وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن على ترك النساء والطيب واللحم، واختاروا صوم الدهر، وقيام الليل، والسياحة في الأرض والرهبانية، ولبس المنسوج، ورفض الدنيا كلها، فنهاهم الله ورسوله عن ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا﴾.

وقال لهم رسول الله ﷺ: «إن لأنفسكم عليكم حقًّا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإنّي أقومُ وأنامُ، وأصومُ وأفطرُ، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، ومَنْ رَغِبَ عن سنَّتي فليس منِّي»(١)، بيّن ذلك ألا يجوز لأهل الحقائق والمشاهدات أن يرجعوا إلى مقام البدايات.

وتصديق هذه المعاني الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الحلال ما وصل إلى المعارف من خوان الغيب بلا كلفةٍ إنسانيةٍ، والطيب ما يقوّي قلبه في شوق الله وذكر جلاله بالتسرمد.

قال سهل في قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾: هو الرفق بالأسباب من غير طلب، ولا إشراف نفس، وقد يبدأ الرفق بالسبب لأهل المعرفة على الظاهر وهم يأخذونهم من المسبب بالحقيقة.

قال بعضهم: رزقه الذي رزقك ما هو من غير حركةٍ منك ولا استشرافٍ، وهو الطلب الحلال يحلك محل الدعة ويطيب قلبك يتناوله.

وقال الأستاذ: ممَّا أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة، وتحريم ذلك أن تستبدل تلك الحال بالخلطة دون العزلة، والعشرة دون الخلوة، وذلك هو العدوان العظيم، والخسران المبين ذكره في تفسير قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ﴾.

وقال في قوله: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾: الحلال الصافي أن يأكل ما يأكل على شهوده، فإن نزلت الحالة عن هذا فعلى ذكره، فإن الأكل على الغفلة حرام في شريعة الإرادة، ولي في الحلال والحرام لطيفةٌ، وهي أن الحلال الذي يراه العارف في خزانة القدرة، فيأخذ منها بوصف الرضا والتسليم، والحرام ما قدر بغيره وهو يجتهد في طلبه لنفسه لقلَّة عرفانه بالمحذر في المقدر، وهذا العلم غير موازنٍ في العقول، وما لم يكن مرضيًّا في الشريعة لم يكن مرضيًّا في المعرفة، ولمّا قوي العباد بنسائم لطفه وغذّاهم من موائد قربه، ورماهم بشهيات نعمه، دعاهم بعد ذلك إلى طاعته وطاعة رسوله؛ لئلا يسقط عليهم آداب الحضرة وعلامات العبودية وظرافة الخدمة، وحذَّرهم في كتابه من مخالفته طرفة عين بقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ طاعة الله تكون في رؤية هيبته، وطاعة الرسول تكون بحلاوة محبته، والحذر إخراج الحدث عن وصف العدم، وحبس الأرواح في منازل الإجلال، أي: استقيموا في المعاملات، واحذروا عن رؤيتها ورؤية أعواضها حتى لا تحتجبوا

(١) رواه الطبري في التفسير (٧/ ٩) بنحوه.

بها عن مشاهدة المعطي.

وأيضًا: أي: احذروا في طاعتي من ضمائر الرياء، وفي طاعة رسوله عن ضمائر الشك، واحذروا من كراهة نفوسهم في الطاعة حتى تصلوا إلى مقام الحرقة عن دعوى الأنائية، فإن طاعتي بالإخلاص والمحبة تصير المطيع بصفة الربوبية، وهناك موضع الخطر قال ﷺ: «المخلصون على خطرٍ عظيمٍ»[1]؛ ولأن هناك يفنى الحدث في العدم ويظن الفاني أن ضرغام مكر الأزل نائمًا، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

قال الواسطي في هذا الآية: الحذر لا يزول عن العبد وإن كان مدرجًا تحت الصفات، ولولا ذلك لبسط العلم إلى شرط الجود وقلَّة المبالاة بالأفعال، ولكن الآداب في إقامة الموافقات كلما ازدادت السرائر به علمًا ازدادت له خشيةً.

وأيضًا قال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾: ألا تلاحظوا طاعتكم وتسقطوا عن درجة الكمال.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ لمَّا كان الله سبحانه يتجلَّى بوصف اللطف بشيء فيه محل ابتلاء العباد كان مباحًا لهم وهم غير مأخوذين بتناوله ما داموا مبصرين لطائف الحق فيه، وإذا رفع عنهم نور تجلِّي اللطف حرَّم ذلك عليهم.

وهذه إشارةٌ لطيفةٌ لمَنْ له فهم رجعنا إلى شغلنا بالتفسير: أن العاشق العارف مادام في

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٤٥).

سيره إلى الله على نعت التجريد مما سواه وهو في منظر من الله بالمراقبة والإجلال لم تضره أوقات الرفاهية والدخول في الرخص والبسط في السعادة مادام يشبه بشرط العلم.

قال سهل: إذا طلب الحلال ولم يأخذ فوق الكفاية وآثر مما حمله رواسي.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ ألبس الله الكعبة سناء قدس آياته ونورها بصبح مشارق صفاته من مطالع ذاته، وصيرها مرآة حسنه وجماله لنظر نظار معارفه، وأبصار عشاق كواشف رداء عظمته وكبريائه؛ لقيامهم على مشاهد قربه ومواقف قدسه، ليطلبوا منها رؤية براهين هلال صفته ومشارق صنع جلال قدمه، وحرَّم تلك المنازل على الأغيار دون الأخيار، ومنع الأخيار عن الدخول فيها مع بقاء نفوسيتهم؛ ليعلموا أنها ممنوعةٌ من تناول الكل لهم، ليعرفوا عين القدم أنه منزَّهٌ عن خطرة كل حادثٍ، جعل الكعبة بيته، وجعل بيته قلب العالم، ويظهر بجلاله منه لعيون العارفين، كما ظهر لموسى ﷺ من طور سيناء، وظهر لعيسى ﷺ من طور المصيصة، وظهر لمحمد ﷺ وأمته من الكعبة، كقوله ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»[1]، هكذا جعل قلب العارف كعبة مشاهدته في حرم صورته، وسد بابه عن كل طائفٍ غير نظره، فيظهر آثار جلاله من صورهم.

قال الشبلي: الكعبة أمام أعين الناس، والحق أمام قلوب أوليائه.

وقيل: البيت الحرام حرامٌ في مجاورته ارتكاب المخلفات بمحالٍ.

وقيل: حرامٌ على من يراه أن يرى وصفه دون واصفه.

وقيل: ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: مَنْ ذلَّ عن قيامه فاعوجَّ بالتدنس بمعصية، فأتاه فتعلق به، أقامه ببركة آثار الأنبياء عليهم السلام والسادة فيه وردَّه إلى حالة الاستقامة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا

---

(١) تقدم تخريجه.

حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ أي: إذا لم تكونوا برؤية الغيب محرمين للغيب، ولا تكونوا بالغيب إلى معالي درجات أهل المعارف والكواشف، ﴿لَا تَسْـَٔلُوا﴾ عن حقائقها؛ فإنه إذا بيَّن المستقيم لكم دقائقها بعبارة أهل الأسرار لا تطيقون أن تدركوها، فيسوؤكم حرمانكم عنها، وربما ينكروا على بعضها فتهلكوا، وإن الله سبحانه غيورٌ على هتك ستر الغيب للأغيار.

أنشد الحسين بن منصور -قدَّس الله روحه-:

مَـنْ لم يـضيق قـدر مـا أولاه سـادته ... لم يأمـنوه عـلى الأسرار مـا عاشـا

وعاقـبوه عـلى مـا كـان مـن زلـلٍ ... وأبدلـوه مكـان الأنـس إيحاشـا

لا تقـبلوه مـذيقًا بعـض سرِّهـم ... حاشـا ودادهـم مـن ذكـر حاشـا

وفيه تحذير المريدين عن كثرة سؤالهم في البداية عن حالات المشايخ.

قال بعضهم: لا تسألوا عن مقامات الصديقين ودرجات الأولياء؛ فإنه إن بدا لكم شيءٌ منه فأنكرتم ذلك هلكتم.

قال سهل: سؤاله حجابٌ، ودعاؤه قسوةٌ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ

أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ ليس ظاهر الآية يوجب إسقاط أمر المعروف والنهي عن المنكر، لكن فيه لطيفةٌ أي: عليكم أن تعرفوا أسرار نفوسكم الأمّارة التي لو تدعونها لتدّعي الربوبية، كما كان يدعي فرعون بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وإذا عرفتم مكائدها عرفتم سرَّ قهر الأزل، فإن قهري يعلمها مخاتيل الضلال.

لذلك قال ﷺ: «مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه، ومَنْ عرفني فقد استقام في طاعتي، وصار موضع نظري لا يعوجه كيد كافر، ولا مكر ماكرٍ؛ لأنه محفوظٌ بي، بل مَنْ ينظر إليه صار ضرُّه نفعًا، وفسادُه صلاحًا ببركته»[1].

قال سهل بن عبد الله: للنفس سرٌّ، ما ظهر ذلك السر على أحدٍ من خلقه إلا على فرعون، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ولها سبع حجب سماوية، وسبع حجب أرضيةٌ، وكلما يدفن العبد نفسه أرضًا أرضًا سما قلبه سماء سماء، وإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش.

قال محمد بن علي: عليًا لنفسك أن كفيت الناس شرَّها، فقد أدَّيت أكثر حقها.

ودخل خادم الحسين بن منصور - رحمة الله عليه - الليلة التي وعد من الغد لقتله فقال له: أوصيني، فقال: عليك نفسك، إن لم تشغلها شغلتك.

وسُئل أبو عثمان عن هذه الآية؟ فقال: عليك نفسك إن اشتغلت بإصلاح فسادها وستر عوراتها شغلك ذلك عن النظر إلى الخلق والاشتغال بهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ إن لله سبحانه أيامًا وساعات لظهور جبروته، وكشف ملكوته، وبروز أنوار عزّة قدمه، وشروق بروق لمعات وحدانية أبديته، وخصّ لها خطاب العظمة، وسياسة السلطنة، وأظهرها لقواطب أهل جلاله، ورؤية عظائم قدرته، وإجراء مشيئته، وهناك تفوح مجامر عطر صفاته، وتذيع نفحة مسك سبحات ذاته.

قال سيد أهل البيت ﷺ: «إنَّ لربِّكم في أيام دهركم لنفحاتٌ، ألا فتعرضوا لها»[2].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠٨) بأوله فقط.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٣٣) بنحوه، وذكره الزرقاني في شرحه (١/ ٣١٦).

فلما أراد كشف الكلى وإجراء خطاب الأزلي يجمع أكابر أهل القرب من المرسلين والنبيين والملائكة المقربين، وذلك يوم القيامة يوم العرض الأكبر، حيث يتمتع العارفون بجمال الحق وجلاله وقربه ووصاله، والقيامة بلد أحياء الله هناك يستأنسون به أبدًا، ويجولون على مراكب النور في ميادين السرور، هناك مقاماتٌ، ففي مقامٍ لهم بقاءٌ، وذلك من بسط الله بساط عطايا المشاهدة، وفى مقامٍ لهم فناءٌ، وذلك من تراكم عساكر سطوات العظمة: حيث يظهر رداء الكبرياء وإزار العظمة، وفى ذلك المقام يضمحل الحدثان وما فيها في عزَّة القدم، فيفنيهم ساعةً بالجلال، ويبقيهم ساعةً بالجمال، ويخاطبهم ساعةً باللطف، وساعةً بالقهر، ليعرفهم طرائق كشوف الألوهية بنعت المباشرة، ومن ذلك الخطاب قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

وأيضًا قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ عرفهم بخطابه معهم عجز العبودية في الربوبية، وفناء الحدث في القدم عيانًا بعد الخبر، خاطبهم بعد إحاطته بجميع ذرَّات الكون وبعد علمه الشامل بجريان الحدثان من الأزل إلى الأبد، ومقصوده تعالى منهم إظهار ما أخبره بما جرى على الخلق في كتابه، كيف توافق الخبر بالمعاينة، وهو تعالى منزَّهٌ عن الجهل بشيءٍ من العرش إلى الثرى، ومعنى قول سيد المرسلين: لا علم لنا بما تريد منا وبما تريد منهم، ولا علم لنا بما أجريت في الأزل علينا، ولا علم لنا بما في أنفسنا فضلاً بما في نفسك، ولا علم لنا إلا علمًا مخلوقًا مستفادًا من علمك وتعليمك إيانا، وإذا بهتوا وتاهوا وتحيروا وتلاشوا في كشف عظمته طاشت أشباحهم وطابت أرواحهم، ولم يطيقوا أن يتكلموا بما في ضمائرهم من صولة الخطاب.

وأيضًا: استحيوا من إظهار ما أجابهم قومهم عند جلاله وعظمته.

وأيضًا: أي: لا علم لنا فيما وضعت في أسرارهم؛ فإنك تعلم الغيب، وذلك قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

قال الواسطي: أظهر ما منه إليهم كلهم من تولية، فقالوا: كيف يقول فعلت الأمم أو فعلنا! عندها كلت الألسن إلا عند العبادة عن الحقيقة.

وقال: خاطبهم لعلمه بأنهم يحملون ثقل الخطاب، وأشد ما ورد على الأنبياء في ثبوتهم حمل الخطاب على المشاهدة، لذلك لم يظهروا الجواب، ولم ينطقوا بالجواب إلا على لسان العجز: لا علم لنا مع ما كشفت لنا من جبروتك.

وقال الجنيد: رفق بهم فلَمْ يفقهوا، ولو فقهوا وعلموا لماتوا هيبة، لورود جواب الخطاب.

قال ابن عطاء: لا علم لنا بسؤالك، ولا جواب لنا عنه.

قال بعضهم: لمَّا ظهر عليهم الحق بعلمه وسبقه ثم سألهم جحدوا علومهم، ونسوها في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ وذلك من إقامة الأدب لا جهلاً بما أجابوا.

قال محمد بن فضل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ أي: لا علم لنا بجواب ما يصلح لهذا السؤال.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أي: اذكر لخواص أحبائي والمريدين ما أنعمت عليك من كشف جمالي لك، وإظهار علومي عليك، وتجلياتي منك للعالمين، وإلقاء كلمتي إلى أمك؛ إذ برزت منها أنوارها تظهرك ملتبسًا بلباس نور الألوهية، وذلك حين ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: بروح المعرفة التي أشرقت من صبح الأزل، وذلك النفخ الأول الذي نفخت في آدم ﷺ من روح تجلِّي جلالي، وظهور جمالي.

ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران:٥٩] كشف عن قدسه لصورة عيسى ﷺ، فصار حيًا بكشفه، ومقدسًا بروح قدسه عن تهمة مزج اللاهوتية بالناسوتية، فصار جميع وجوده روحًا قدسيًا.

ألا ترى كيف كان يُحيي الموتى بإذن الله أي: بتأييد الله وجلال نور وروح قدسه.

وأيضًا: أيدتك بجبرائيل ﷺ ليعرفك مكان العبودية والشريعة، ويلزمك في مهد البشرية؛ فإنك صدرت من نور الربوبية، لولا ذلك ما سكنت في الكون.

قال بعضهم: منهم مَنْ ألقى إليه روح النبوة، ومنهم مَنْ ألقى إليه روح الصدقين، ومنهم مَنْ ألقى إليهم روح المشاهدة، ومنهم مَنْ ألقى إليه روح الصلاح والحرمة، وأسر إليهم ممَّا لا يترجم ولا يغير علم رباني غاب وصفه وبقي حقه.

وقال الواسطي: لا تصح الصحبة مع الله إلا بصحبة الروح في صحبة القدم، قال الله:

﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾(١) إلا بالعقل، فمَنْ صحت صحبة روحه في القدم صحت صحبته مع الله.

وقال في قوله: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: ذكر الروح في هذا الموضع لطفًا لقربه من المسترات.

قال بعضهم: قدست روحك أن تمازج شيئًا من هيكلك وطبعك، بل ظهرته لئلا ترى غيري، ولا تشاهد سواي، وأسكنته قالب جرمك سكون عارية كإسكان آدم ﷺ الجنة، لأطهِّر به جسدك عن أدناس الكون حتى أقدسها جميعًا وأخرجها إلى محل القدس، ومن تمام نعمة الله عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهد على مثابة بالقوة الإلهية بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله وربوبيته، وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه في كهولته حتى عرف عباد الله تنزيه الله، وقدس صفات الله، وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

وزاد في وصفه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تجلى بقدرته ليده حتى تخط بغير تعلم، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: حكمة معارف العشق، وطريق كواشف الملكوت، وبطون الأفعاليات بنعت ماهيتها، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ علمه ما علَّم موسى ﷺ بنعت تجليه له من نور التوراة، ليعلم شرائع المعرفة، وحكم الربوبية، ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ عرَّفه أناجيل القدمية بظهور صفات الأبدية.

وزاد وصفه على وصف باتصافه بالقدرة القائمة، والقوة الإلهية في خلق الطير حين نفخها من نفخ روح القدس التي فيه، وذلك أمارة ظهور ربوبية الله منه، ولذلك كان قادرًا على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والاستشراف على مكنون الغيب بقوله بما وصف في موضع آخر: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩].

قال أبو علي الروذباري في قوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ غاية الربوبية في غاية العبودية، لَمَّا استقام على بساط العبودية أظهر عليه أشياء من أوصاف الربوبية بقضائه

---

(١) قال الورتجبي: من تمام نعمة الله تعالى عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهد على شبابه بالقوة الإلهية، بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله، وربوبيته وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه إلى كهولته، حتى عرّف عباد الله تنزيه الله وقدس صفات الله وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، وزاد في وصفه بقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، تجلى بقدرته بيده حتى يخط بغير تعلم [البحر المديد (٢/ ١٥٥)].

وقدره.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وحي الله إلى المرسلين يكون خاصًّا ويكون عامًّا، الخاص بغير واسطةٍ، والعام بواسطة جبريل عليه السلام، وللوحي الخاص مراتب: وحي بالفعل، ووحي بالصفة، ووحي بالذات، وحي الذات يكون في مقام التوحيد عند رؤية العظمة والكبرياء، وهناك محل الفناء، ووحي الصفات يكون في مقام المعرفة عند تجلِّي الجلال، وهناك محل البقاء، ووحي الفعل يكون في مقام العشق والمحبة، وهناك منازل الأنس والانبساط، وهاهنا للأنبياء والأولياء نصيبٌ، وليس لهم في الوحي برسالة المُلك نصيبٌ، وحي منزل التوحيد بالكلام، ووحي منزل المعرفة الحديث، ووحي منزل العشق الإلهام، ومقام الإلهام منقسمٌ على الإلهام الذاتي والصفاتي والفعلي، وربما يكون الإلهام الفعلي بواسطة الملك والروح والقلب والعقل والسر وحركة الفطرة، وربما يرد على السمع قرع هواتف الغيب ظاهرًا، وربما يكون بلسان الخلق حركات الأكوان، ولا يعرف هذه المقامات إلا ذو منصبٍ في معرفة الخواطر وحقائق علومها، وهاهنا وحي الصفاتي الذي يتولد منه الإيمان والمعرفة.

ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى﴾ أي: اعرفوني وصدقوني فيما كشفت لكم من أنوار الغيب في قلوبكم وبرسولي فيما أرسلت إليه من أنباء الغيب وبيان شرائط الشرع في نعوت العبودية.

قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِى﴾ مقام الجمع، و﴿وَبِرَسُولِى﴾ مقام التفرقة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تفحص القوم مكانتهم من عند الله سبحانه بتأييد الظاهر ومشاهدة المعجزة جهرًا؛ لأنهم موقنون مشاهدون بالقلوب والأرواح والأسرار حقائق الغيب، ورأوا منازلهم في محل القرب والخطاب عند كشف رؤية الحق لإبصار قلوبهم، لكن القوم ليسوا بمتمكنين في شهود الغيب، تجري عليهم أحكام أهل التلوين من معارضة النفس والعدو في رؤية الغيب، وطلبوا آيات الله؛ لدفع المعارضة وطمأنينة القلوب.

ألا ترى إلى الخليل في بداية أمره كيف قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فأجابه الله قال: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، فأحوجه إلى رؤية القدرة في الفعل بقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة:٢٦٠]، ولبس في الوصفين شكٌّ من جانب النبوة ومن جانب الولاية، فلمّا سمع عيسى ﷺ منهم اشتد عليه أمرهم وعجب منهم ذلك بعد إيقانهم، وأجابهم بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: خافوا الله فيما يجري عليكم من معارضة النفس، أي: ألزموا اشتغالكم بدفع الخطرات؛ كي لا تحتجبوا عنه بغيره، وإن من وصل إليه بنعت المعرفة ورؤية الغيب لا يستحسن منه طلب الآيات لتصديق الباطن، فإنه صفة أهل البداية، فأظهر القوم عجزهم عن إدراك مقامات أهل التمكين بقوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي: نريد أن تربّي أبداننا بمأكول الجنة، كما تربّي قلوبنا وأرواحنا بموائد المشاهدة، ويزيد في قلوبنا تصديقك ومحبتك حتى لا تبقى فينا معارضة الطبيعة، ونكون من شهداء رؤية المعجزة، الصادقين بآثارنا عند المريدين المقتدين، ولأنك قلت لنا: أنتم أصفياء الله وأولياؤه، وإذا حصل مرادنا تحصل طمأنينة قلوبنا في صدق الله وصدقك وصدق ولايتنا، فسأل ﷺ مرادهم بقوله تعالى: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ سأل من السماء لا من الأرض لما فيها من الروحانية والحنانية والملكوتية غير ممزوجة بعناصر الدهر الذي يتولد منه عصيان الله.

وأيضًا: يسأل من السماء خصوصية في المعجزات.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي: اجعلها عيدًا ولا تجعلها وعيدًا لجمهور، واجعلها سببًا لعودنا من رؤية الآيات إلى رؤية الصفات، عيدًا لأولنا من المريدين وآخرنا من العارفين، ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ دليلاً منك إليك، فأجابهم الله سبحانه بما سألوا وهداهم من كفران نعمته بقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مَنْ عاين رؤية صفاتي في رؤية آياتي ثم يرجع إلى الفترة وحظوظ النفس واختيار شهوة الدنيا علينا فإنا نحجبه عنا حتى لا تصل إلى قلبه نسم عبير صفاتي وورد جلال مشاهدتي، ولا يشرق عقنه صبح وصالي، ولا تنكشف لروحه أنوار

حسني وجمالي، وإن هذا العذاب عذاب الفراق، وهو أشد العذاب للطالبين.

قال الشيخ أبو عبد الله: كنت نائمًا في بدايتي، فرأيت في منامي رسول الله ﷺ يحركني، قال: قم يا أبا عبد الله، فإن من عرفه وآثر غيره عليه فإنه يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غيَّر الله سبحانه المنتسبين إلى الشرك بقولهم إن الله ثالث ثلاثة فأظهر الله تنزيه عيسى ﷺ ممَّا زعموا.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾.

وأيضًا: ألف الله سبحانه أن يخاطب الكفرة بما كذبوا وزاغوا عن التوحيد والحق، وخاطب مع صفيه وروحه إعلامًا للكافرين بتغيرهم؛ لأن السلطان إذا أراد أن يخاطب قومًا خاطب كبيرًا من كبرائهم، وأراد بذلك قومه، وفيه أن الله سبحانه أراد أن يجر روحه ﷺ إلى مقام سطوات العظمة وخطاب الكبرياء، ليفيه به عنه حتى لا يبقى للحدث في القدم أثرٌ، ولولا فضل الله عليه لا يكون بعده أبدًا من عزَّة الخطاب وعظمة القول.

قال عبد العزيز المكي: لولا إثبات الله إياه لذاب على مكانه، وصار ماءً بين حياء الله وخجلته، ولو خُيِّر عيسى ﷺ بين النار وبين هذا العتاب لاختار النار، ولو أحرق بنار الأبد كان أحب إليه من أن ينسب الربوبية إليه.

وفرق ابن عطاء بين السؤالين: بين سؤال الأنبياء حين قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وسؤاله عن عيسى ﷺ ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ﴾، وقال سأل عيسى ﷺ عن قصته وحاله ولم يسعه السكوت عنه، وسأل الأنبياء عن أحوال الأمم فدهشوا، وذلك أنَّ سؤال الرسل إظهار العظمة، وسؤال عيسى ﷺ براءةٌ وتنزيهٌ عما قيل فيه.

وقد سنح لي قول آخر: وهو أن الأنبياء حين سُئلوا كانوا في مقام الهيبة ومشاهدة

العظمة، لذلك بهتوا وتحيروا وسكتوا، وعيسى ﷺ هناك أيضًا معهم بقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، وهو من الرسل، فلمّا أفرده الحق للخطاب كان في مقام البسط والانبساط ومشاهدة الجمال، لذلك تكلم وأجاب ولم يسكت.

قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ أي: تعلم ما في نفسي من توحيدك ومعرفتك وتنزيهك وتقديسك وتعظيمك وإجلالك الذي ينفي الأضداد والأشباه والأنداد، ولا يليق بجلالك ممّا تخاطبني بقولك: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولا أعلم ما في نفسك من علوم الغيب، وغيب الغيب ومكر القدم، وما يعلم ما في نفسك بأنك لو تريد أن تحرق جميع الأنبياء والصديقين لا يبالي بها.

وأيضًا: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ من كنه القدم ووجود الأزل.

قال الواسطي: يعلم ما في نفسي لك، ولا أعلم ما في نفسك لي.

وقال الحسين: تعلم ما في نفسي لأنك أوجدتها، ولا أعلم ما في نفسك لبعد الذات عن الإدراك.

قال الجنيد: تعلم ما أنا لك عليه وما لك عندي، ولا أعلم مالي عندك إلا ما أطلعتني عليه أو أخبرتني به.

وقال سهل: تعلم ما في نفسي ممّا أودعته نفسي ممّا لا تظهره عليّ، ولا أعلم ما في غيبك لي.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر عليهم السلام قال: تعلم كيفيتي، ولا أعلم كيفيتك ولا كيفيته لك.

قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ أي: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أي: ما قلت لهم إلا بإفراد قدمك عن الحدوث، وإسقاط الغير عن البين، وهو قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أظهر عبوديته في عبوديتهم فردًا للموحد المنزَّه عن الأنداد والأشباه.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: في الدنيا في طاعتهم وعصيانهم وما كشفت لي من بعض سرائرهم.

وأيضًا: أي كنت عليهم شهيداً، ﴿مَّا دُمْتُ﴾ في مقام الرسالة وإبلاغ الوحي إليهم، أما إذا أفنيت عن الأكوان من صولة مشاهدتك فغابت عني أخبار أهل الكون.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كيف

نخفي عليك ما خلقت ظاهره وباطنه، وأنت قديمٌ محيطٌ بكل ذرةٍ من العرش إلى الثرى، فالعجز عن ذلك صفة مَنْ يتلاشى فيك، كما أنا حين توفيتني عني إليك.

قيل في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾: أنى لي لسان القول إلا بعد الإذن بقولك: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقيل في قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لمّا أسقطت عني ثقل الإبلاغ كنت مراقبًا لهم بما أجريت عليهم من مختوم قضائك.

قال أبو بكر الفارسي في هذه الآية: الموحد ذاهبٌ عن حاله ووصفه وعن ماله وعليه، وإنما هو ناظرٌ بما يرد ويصدر ليس بينه وبين الحق حجابٌ، إن نطق نعته وإن سكت فيه، حيثما نظر كان الحق منظوره، وإن أدخله النار لم يلتمس فرجًا لأن رؤية الحق وطنه ونجاته وهلاكه من عينٍ واحدةٍ، لم يبق حجابٌ إلا طمسه برؤية التفريد، وكان المُخَاطِب والمُخَاطَب واحدًا، وإنما كان يخاطب الحق نفسه بنفسه لنفسه، قد تاهت العقول ودرست الرسوم وبطل ما كانوا يعملون.

قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ اتفق أهل التفسير أن الله لا يغفر للمشركين الذين ماتوا على شركهم، ذلك مذهب المسلمين جميعًا، وقد أرى هاهنا لطيفةً، وهي أن الله تعالى أجرى على لسان عيسى ﷺ سرًّا مكتومًا مبهمًا على قلوب جميع الخلائق، إلا مَنْ كان مِنْ أهل خالصة سرِّه، ومحال أن خفي على عيسى ﷺ أن مَنْ مات على الشرك وهو غير مغفور في ظاهر العلم ووارد الشرع وإنما نطق بذلك من عالم السر المكتوم في الغيب، ومفهوم أصل خطاب في ذلك كأنه أشار إلى ما أشار ابن عباس وابن مسعود -رضي الله عنهم- في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود:١٨]، قالا: يأمر النار أن تأكلهم وتفنيهم، ثم تجدد خلقهم.

قال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمانٌ تخفق أبوابها ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا.

قال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرانًا وأسرعها خرابًا، ألا ترى صورة اللفظ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ يعني بكفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فهو حقٌّ لإطلاق الملك لك، وإن تغفر لهم ما هم فيه في الدنيا اليوم مَنْ يمنعك عن ذلك وأنت العزيز الواحد بالوحدانية في مُلكك لست بجاهل في غفرانهم، فإنك حكيمٌ في أمرك ومرادك وإمضاء مشيئتك، ونحن لا نقول أكثر من هذا، فإنه موضع الأسرار.

وأيضًا: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ بدعوى المعرفة بأن توقعهم في درك الحيرة والفناء في عظمتك، و﴿وَإِن تَغۡفِرۡ﴾ بأن تدخلهم في مقام الالتباس حتى لا يدركوك بنعوت الوحدانية، وبقوا في حجاب حظوظهم عنك بك.

قال الوراق: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ بتقصيرهم في طاعتك، فإنهم عبادك مقرِّين لك بالتقصير، ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ ذنوبهم فأنت أهل العزَّة والكرم، فلَمْ يبدلها إلا لَمَنْ خلقه لها ومَنْ هو حق بها وأهلها.

قال بعضهم: ترك عيسى ﷺ الانبساط في السؤال للأمة، وترك المحاكمة مع الحق في أفعاله ونبينا – صلى الله عليه وآله وسلم – لا يزال يشفع ويقول: أمتي ... أمتي!! حتى يجاب في الكل من أمته، وهذا هو المقام المحمود الذي خُصَّ به، ويغبطه عليه الأولون والآخرون، حيث يراجع الحق منبسطًا ويجاب بقوله: «قلْ تسمعْ واشفعْ تشفَّعْ»(١).

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ وقع صدقهم على رؤية فناء الحدث في القدم، حيث ما أدركوا الحق إلا بالعجز عن إدراكه، فلمّا لم يدركوه قبل العجز وبعد العجز إلا به أقروا بالجهل عن معرفته، وهذا من كمال معرفتهم بربهم، وهذا هو الصدق الذي ذكره الله لهم فلا جرم ينفعهم، هذا العجز عند بروز طوارق مشاهدة عظمته وكشوف سطوات عزته بأن يدركهم في محل فنائهم، ويلبسهم صفة بقائه حتى بقوا مع الحق آبدًا بلا حجابٍ ولا عتابٍ.

قال الحسين في هذه الآية: إذا قابل ربه بصدقه، وجهل أمر ربه، وطالب ربه بحظه ووعده، يطالبه ربه بصدق صدقه، فأفلسه عن رتبته، وأبعده عمّا قصده، وينفع صدقه من لقيه بالإفلاس، وأيقن أنه كان مستعملاً تحت حكمه وقضيته.

قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ أي: جنات المشاهدات الذاتية التي تجري تحتها عيون الصفات بنعت تجليها لهم لحظة فلحظة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ باقين بالاتصاف بها، ﴿أَبَدٗاۖ﴾ بلا

(١) رواه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٠).

انقطاع، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾(١) حيث وجدهم متحيرين عن إدراك كنه القدم بعد فنائهم فيه، ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بما وجدوا منه من لذَّة مشاهدته، وحلاوة خطابه، وهذا الرضا انسداد أبواب كشوف القدم عليهم، وإبقاؤهم فيما هم فيه، ولو عرفوا قلَّة حفظهم عن القدم لماتوا جميعًا في الحيرة، وكيف رضي عنه من عرفه، وكيف سكن عنه، وإن كان في مشاهدته عن إدراكه بنعت التوحيد، ولولا فضله ورحمته لفنوا في قهر سلطان كبريائه، ولم يبقوا بعد، فبقاؤهم وتخليصهم من فنائهم فيه، فبفوز عظيم وظفر كريم ليتمتعوا لوصاله أبدًا، ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خصَّ ملك الإيجاد والإبداع، وزال عمَّنْ سواه مُلكه.

سورة الأنعام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ جعل حمده في الأزل طريقًا للعباد إلى حمد جلاله، وثناء جماله، علم في القدم نفسه، وأوجب الحمد قطعًا قبل كون الكون مقابل عين الذات والصفات، فلم ير بحمل حمده، فحمل بنفسه حمد نفسه، ورفع الحمد عن الحدث علمًا بأن الحدث يكون مثلاً شيئًا في أوائل حمده؛ لأن حمده لا يكون إلا بمعرفة المحمود حقيقة بجميع ذاته وصفاته، وذلك مستحيلٌ؛ لأن حقيقة ذاته وصفاته غير متناهيةٍ، وكيف يدرك المتناهي صفات الذي هو غير متناهٍ.

وأيضًا: قطع الحمد عن غير نفسه، وبيَّن ألا يستحق للحمد الحقيقي إلا وجوده بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾(٢) أي: لله لا لغير الله.

---

(١) رضاءُ الحق سبحانه: إثباتُ مَحَلّ لهم، وثناؤه عليهم ومدحُه لهم، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله، ورضاؤهم عن الحق سبحانه في الآخرة وصولهم إلى مناهم؛ فهو الفوز العظيم، والنجاة الكبرى [تفسير القشيري (٢/ ١٩٣)].

(٢) حقيقة الحمد الثناء على المحمود، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، واللام هاهنا للجنس، ومقتضاها الاستغراق؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمَّا وصفًا وإمَّا خلقًا، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر =

وأيضًا: أي: حمد الله؛ لأنه مادحٌ نفسه بالحقيقة لا غير.

وأيضًا: أي: الحمد القديم يرجع إلى القديم، وليس للحدث فيه نصيبٌ، لأن حمده أزليٌّ، والحمد الأزلي لا يليق إلا بالأزلي.

قيل: حمد نفسه بنفسه حين علم عجز الخلق عن بلوغ حمده.

قال الجنيد: الحمد صفة الله؛ لأنه حمد نفسه بتمام الصفة، ولو حمد الخلائق كلهم لم يقدروا الإقامة ذرة من صفته، وبيان قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: هذا الحمد بالحقيقة لِمَنْ هذا صنعه وقدرته، وما دام لم تقدروا معرفة نعمته في صنعه وفعله لم تقدروا على حمده وثنائه، له سمواتٌ، وأخصُّ سماواته الروح المقدسة، وله أرضون، وأخصُّها القلب السليم الصافي بوضوح الفطرة الصافية فيه الروح سماء القلب؛ لأن منها تتنزل عليه قطرات الإلهام، ويقع عليه منها أنوار الرحمن والقلب أرضها، لأنه ينبت أزهار الحكمة وأنوار المعرفة.

قيل: السموات المعرفة، والأرض الخدمة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي: الذي خلق الروح والقلب جعل في الروح نور العقل لعرفان الآيات والشواهد، وجعل في القلب ظلمة النفس الأمَّارة لظهور العبودية في محل الامتحان.

وأيضًا: أسرج في القلب نور الإيمان من سراج الغيب، وأنشأ في النفس ظلمة الشهوات من عالم الريب.

وأيضًا: نوَّر الروح بنور المشاهدة، وأدخل القلب في ظلمة المجاهدة.

قال بعضهم: أبدى الظلمات في الهياكل، والنور في الأرواح.

وقال بعضهم: جعل الظلمات أعمال البدن، ونوَّر أحوال القلوب.

=

لوفور إحسانه، والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْله، وحمد الخَلْق له على إنعامه وطَوْلِه، وجلاله وجماله استحقاقه لصفات العلو، واستيجابه لنعوت العز والسمو، فله الوجود «قدرة» القديم، وله الجود الكريم، وله الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطوْل، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمده، وحقه يقينه، وثبرته عينه، ودوامه بقاؤه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونهيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد في ملكوته، تبارك الله سبحانه!! فسبحانه ما أعظم شأنه!! [تفسير القشيري (١/ ٢)].

وسُئل الواسطي: الحكمة في إظهار الكون وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟ قال: لا حاجة له إلى الكون؛ لأن فقد الكون ظهوره، وظهوره فقده عنده، فإن قيل إظهارًا للربوبية. قيل: ربوبيته كانت ظاهرةً، ولم تظهر ربوبيته لغيره.

قيل: لأنه لا طاقة لأحدٍ في ظهور ربوبيته؛ بل أظهر الكون، وحجب الكون بالكون لئلا تظهر لأحدٍ الربوبية فتطمس؛ لأن الحق في الحكمة لا يحتمله إلا الحق.

وسُئِلَ بعضهم ما الحكمة في إظهار الكون؟ قال: ارتفاع العلَّة، فإذا ارتفعت العلَّة ظهرت الحكمة بإظهار الكون، إن الله سبحانه كان موصوفًا بالعلم الأزلي، وكان في علمه كون الكون كما هي، فأظهر الكون بسابق علمه في ذاته، وإرادته السابقة في الأزل بوجود الكون، وكيف لا يظهر الكون والعلم والإرادة سابقان في الأزل بإيجاده، فإذًا بقاء الكون في العدم مستحيلٌ.

وأيضًا: ذاته تعالى معدن صفاته، وصفاته معدن فعله، فظهرت فوائد الذات في الصفات، وظهرت فوائد الصفات في الفعل، كانت قدرته المنزَّهة حاملةً الأفعال، فوضعتها بالإرادة القديمة في أخصِّ زمان؛ لقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة:٣٦].

وأيضًا: كان في الأزل عاشقًا مشتاقًا إلى المشتاقين إليه؛ ليظهر كنوز جلال الذات، وجمال الصفات بنعت التعريف لأحبائه؛ لقوله سبحانه: «كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحببتُ أن أعرفَ»[1]، فسبب إظهار الكون شرفه إلى جمال المشتاقين ومحبته السابقة للمحبين.

قال الأستاذ في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿ٱلَّذِى﴾ إشارةٌ و﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ عبارةٌ، فاشتغلت الأسرار بسماع الذي تحققها بوجوده، ودوامها بشهوده، واحتاجت القلوب عند سماع ﴿ٱلَّذِى﴾ إلى سماع الصلة؛ لأن ﴿ٱلَّذِى﴾ من الأسماء الموصولة لكون القلوب تحت ستر الغيب، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وبانت لي إشارةٌ: أن قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ظاهر الألوهية لأهل العبودية، وقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾ باطن المشاهدة لأهل المحبة؛ لأن المحبة والمشاهدة من لطائف الأسرار، فأشار إليها بلفظ الغيبة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ السموات جسدٌ، وقلب ذلك الجسد الأرض، وأن الله سبحانه خصَّ قلب السموات بإشراق جلاله فيه بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، ومن تلك الخاصية خلق صورة آدم ﷺ من قلب العالم فكان قلبيًا

---

(١) تقدم تخريجه.

لا جسديًا؛ لأنه تعالى أودع الأرض ودائع حكمته ولطائف فطرته من الأرواح القدسية والأشباح الملكوتية، وجعل لفظ الطين نكرةً غير معينةٍ، أي: من طين الجنة خلق أجسام المؤمنين، ومن طين الحضرة أي القربة أجساد الموقنين، ومن طين المحبة أشباح المحبين والمشتاقين، كما أخبر سبحانه لداود ﷺ: «خلقتُ قلوبَ المشتاقين من نوري، ورقمتها ونعمتها بجمالي، وخلقتُ طينة أحبائي من طينة إبراهيم ﷺ خليلي، وموسى ﷺ كليمي، وعيسى ﷺ روحي، ويحيى ﷺ صفيي، ومحمد ﷺ حبيبي».

وقال الحسين: ردهم إلى قيمتهم في أصل الخلقة، ثم أوقع عليهم نور إليه وخاصية الخلقة، فتميزوا بذلك عن جملة الحيوانات بالمعرفة والعلم واليقين.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي: يعلم لهيب نيران الاشتياق إلى جماله في صميم أسراركم، وما يتعرض إلى سبل عساكر تجلِّي القدم بنعت طلب الوصول إليها في ضمائركم، ويعلم حركات أشباحكم بطيران أرواحكم في الولد والهيمان والوجد والهيجان، ويرى قطرات عبرات الشوق على خدودكم في سجودكم بين يديه بوصف التضرع في جبروته وتقلب القلوب في ملكوته.

وأيضًا: يعلم جولان أرواحكم في السماء لطلب معادن الأفراح، ويعلم تقلب أشباحكم في الأرض لطلب الوسيلة إلى مشاهدته.

ألا ترى كيف أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يريكم في السموات مشاهدة الجبروت، وفي الأرض مشاهدة الملكوت.

قال بعضهم: يعلم ما تُضمِرون في سرائركم، وما تجهرون به من دعواتكم.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ مَنْ عمي

قلبه عن مشاهدة الله كيف يراها في آثار الله؟! وآياته في السماوات والأرض، وفي وجوه أنبيائه وأوليائه، حيث أشرقت بحسن وقوع تجليها وظهور سناها بما فيها، ويزيد على عمائه عمى؛ لأنه موسوم بسمة البعد في الأزل، غير مقبول إلى الأبد.

قال النصرآبادي: آياته في خلقه أولياؤه، وأهل صفوته.

قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ طلبوا رؤية الملائكة عيانًا، وليسوا هم أهل ذلك، ولو كانوا أهل الحقيقة لرأوا في وجه رسول الله ﷺ ما لمْ يكن في وجوه أهل الملكوت من سنا إشراق صفات نور الأزل؛ لأنّه كان مشكاة نور الذات والصفات؛ لقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، ولكن كيف يرون ذلك، وهم عيانٌ في ظلمات ظلال القهريات؟ قال تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أن المريدين لم يروا أهل الملكوت إلا بالمثال الحسي؛ لأنهم في ضعف عن رؤية ماهيتها، ولو يرون الملك لمْ يروه إلا في صورة الآدمي الذي هو موقع الالتباس.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1] معناه: أريناهم رؤية أهل الغيب في اللباس الإنساني بغير وقوفهم على صفات الروحاني؛ لأنّهم أهل التلبيس في المعاملات؛ حيث وقعوا في ورطة الفترة، ويدعون مقام أهل الاستقامة.

وأصل البيان في ذلك أي: خلطنا عليهم ما يخلطون، حتى لا يعلموا سبيل خداعهم كما يريدون، ويرجع كيدهم على أعناقهم، ويسيروا في ظلمات التردد، ولا يعلموا نكاية كيدهم عند الأولياء والصديقين.

---

(١) قال ابن عجيبة: أي: لخلَطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم في ذلك فعلاً مُلبسًا يطرق لهم إلى أن يُلبِسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله في إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مَصُونًا، فمن سبقت له العناية خلق الله في قلبه التصديق بها، حتى علمها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها.
وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لا تظهر إلاَّ لأهل الصدق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلاَّ من سبق له الوصول إلى عين التحقيق: «سبحان من لم يجعل الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يُوصَل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضِي البعد عنهم، وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضي القرب منهم والمحبة فيهم، والله تعالى أعلم [البحر المديد (٢/١٢٦)].

وفي إشارة أهل الحقيقة أنّ مقام الخداع والمكر في العشق والمحبة يكون من شركهم في العشق، حيث يطلبون المراد بنعت الاستراحة، وهو سبحانه يجازيهم بظهور صفاته في نعوت أفعاله لهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

قال الواسطي: يلتبس على أهل ولايته بحضرته، كما أنزل في بعض الكتب، يعني ما يتحمل المتحملون من أجلي وطلب مرضاتي، أتراني أنسى لهم ذلك؟! كيف وأنا الجواد الكريم، أقبل على مَنْ تولى عني، فكيف بمَنْ أقبل عليّ؟

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنبي ﷺ، أخبر عن الجهلة لمّا لمْ يعرفوا أهل مشاهدته، وخواص حضرته، ولم يروا آثار جلاله فيهم، استهزأوا بهم بإعراضهم عنهم، وإنكارهم عليهم.

قال القاسم: لمّا لمْ يعرفوا حقوق الرسل، ولمْ يكرّموهم، ولمْ ينظروا إليهم بعين الحق؛ فعموا عن الأنوار والمشاهدات والرفع من المعاملات.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ أي: لمَنْ ما في السماوات والأرض إيجاد، ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أي: إفناء الأول: إشارة إلى الإرادة القديمة، والثاني: إشارة إلى المحبة الباقية.

وأيضًا: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالعبودية، ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أي: في الربوبية.

قال يوسف بن الحسين: الأول عبارةٌ، والثاني عبادةٌ.

وقيل: الأول هيبةٌ، والثاني توحيدٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الإشارة في هذه الآية إلى قلوب المنقبضين بصولة العظمة، وقلوب المنبسطين ببسط نور جمال المشاهدة، سكنت قلوب أهل القبض في الليالي بنعت الإذابة في سرادق كبريائه، والسكون في مقام التواضع عند بروز سطوات عزة ذاته، حيث تخلصت عن ازدحام أهل الغفلة، وسكنت قلوب أهل البسط برؤية أنوار جماله

في مناظر آياته في النهار، ولطائف صنع صفاته، حيث تخلصت من رؤية أعلام عظمته وكبريائه، أي: له هذه القلوب العاشقة، والأفئدة المتحيرة لا لغيره من الحدثان، خصَّها لنفسه، والنظر إلى مشاهدته.

ومعنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع أنينها في شوقه، ويعلم ضمائرها المحزونة نداء جماله.

قال محمد بن علي الكناني: اختصَّ الحق بقلوب العارفين لسكونها إليه؛ فقال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كيف لا يسكن إلى الحق، ولدغات الحقيقة بقصده، وهو موضع النظر؟.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كيف أتخذ أحدًا بالمحبة دونه، وليس له صفة القدم التي أغارت قلوب أوليائه بحسن تجليها؟! وكيف أتخذ بالولاية محدثًا لا يقدر على أن يمنع عني علّة الحجاب بيني وبينه، حيث الكل حاجز في أمر مشيئته وملك جلاله؟!

ألا ترى إشارته تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الكل ملكه، فكيف ألجأ من ملكه إلى ملكه، وعلّة الملك في المالك متلاشٍ بقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

قال الجوزجاني: أأبغي سواه ملجأ، وقد سهَّل إليَّ السبيل إليه؟!

وقال غيره: أسواه أستكفي، وهو الذي يكفيني الهم في الدارين؟!

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: أمرني حين كنت جوهر فطرة الكون، حيث لم يكن غيري في الحضرة أن أكون أول الخلق له في المحبة والعشق والمعشوق، وأول الخلق له منقادًا بنعت محبتي له، راضيًا بربوبيته، غير منازع لأمر معيشته.

قال بعضهم: أكون أول مَنْ انقاد للحق إذا ظهر.

وقال ابن عطاء: إن أكون من الخاضعين لما يبدو من مبادئ القدرة.

وقال جعفر ﷺ: من الراضين بموارد القضاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي: إن يمسسك بضرّ الحجاب، فلا كاشف لضرّه إلا ظهور مشاهدة جماله لك.

قال الجنيد: معبودك أول خاطر يخطر لك عند نزول خيرٍ، أو ظهور بلاءٍ، إن رجعت فيه إلى الله فهو معبودك، وهو الذي يكفيك، فإن رجعت إلى غيره تركك وما رجعت إليه.

قال الأستاذ: إنّما ينجيك من البلاء مَنْ يلقيك في الفناء؛ إذ المتفرد بالإبداع واحدٌ، فالأغيار كلهم أفعالٌ، والإيجاد لا يصلح من الأفعال.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: قدمه جارٍ في غير قهره ولطفه، بلطف مشاهدة جماله، وكشف جلاله للمحبين حتى ذابوا في حلاوة شهود مشاهدته، وقهر بسلطان كبريائه أهل التوحيد والمعرفة حتى فنوا في سبحات عظمته وعزّة أزليته.

وأيضًا: أي كان قاهرًا في الأزل قدمه، علا عن العدم حين تجلّى قدمه للعدم، وأجار به العباد عن العدم، وكان المقدور في العدم تحت القدم، وبقي القدم بوصفه إلى الأبد، وبقي المقدور بوصفه كما خرج من العدم إلى الأبد.

وقال الحسين ﷺ: القاهرية تمحو كل موجود.

وقال بعضهم: قهرهم على الإيجاد والإظهار، كما قهرهم على الموت والفناء.

قال ابن طاهر: القاهر الذي إذا شهد سوى العبد أفناه عما سواه.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي: أي شيءٍ أعظم من شهود الله بوصف ظهور تجلّي جلاله وجماله من كل ذرة على كل شيء من العرش إلى الثرى، وذلك شهادته الأزلية التي سبقت منه على وحدانيته، حيث لم يكن وجود الحدث في القدم.

وتصديق ذلك جواب الأمر بالأمر بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، لمّا عمي القوم عن رؤية شهود الله، وصموا عن شهادة على نفسه، أنكروا على أشرف موقع شهادة، وهو النبي ﷺ لغباوتهم وجهلهم بما ظهر من وجهه من أنوار جلال الله، أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم بعد قوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بأن يظهر أنوار صفاته متى شاء للعالمين.

وتصديق ذلك سهولة المعجزات، أي: مَنْ لم ير الشهادة العظمى في وجهي؛ فإنه يحتاج

إلى رؤية الشهادة الصغرى وتلك معجزتي، ومَنْ يكون أعمى عن رؤية الشهادة الكبرى، فأيضًا يكون أعمى عن رؤية الشهادة الصغرى.

قال الحسين ﷺ: لا شهادة أصدق من شهادة الحق لنفسه بما شهد به في الأزل بقوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ بيّن الله سبحانه أن اليهود كانوا يعرفون النبي ﷺ بالعلامات الصحيحة، التي وجدوها في التوراة، من نعته وصفته، وصدق معجزته، لكن لم يعرفوه بنور معرفة الله، ورؤية مشاهدة الله في وجهه، كانوا مقلدين في معرفته؛ لذلك خالفوه، ولو عرفوه بمعرفة الله لكانوا كالصحابة المباركة، حيث كانوا تراب قدمه -صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المتحابين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كانت قلوبهم محجوبةً بعوارض البشرية، وظلمات النفس الأمّارة عن رؤية أنوار الغيب، وفهم خطاب الحق، كانت قلوبهم في أغطية الغيرة؛ لأنهم ليسوا مطبوعين باستعداد قبول خطاب الله، ورؤية عرائس الملكوت، وفي آذان أسرارهم وقر الضلالة، ولم يسمعوا بها ما لَمْ يسمع بسمع الخاص، وعلى عيون ظاهرهم

وباطنهم غشاوة العجب والجهل، حتى لم يروا براهين الحق في وجوه الصديقين.

قال ابن عطاء: لأنه لم يجعل لهم سمع الفهم، وإنما جعل لهم سمع الخطاب.

وقال الواسطي: منهم مَنْ يستمع إليك بنفسه؛ فهو في ظلمات نفسه يتردد، ومنهم مَنْ يستمع منك بنا؛ فهو في أنوار العارف يتقلب.

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ القوم لم يعرفوا حقائق الكفر في الدنيا، ولو عرفوه لكانوا موحدين، فيظهر لهم يوم القيامة حقيقة الكفر، ولا ينفع لهم ذلك لفوتهم السير في النكرات، التي معرفتها توجب المعارف، وذلك المقام في أماكن صدورهم، وهم كانوا يخفونه بمتابعة صورة الكفر، وشهوة العصيان بغير اختيارهم؛ لقلة عرفانهم به، ولا يكون قلب من العرش إلى الثرى إلا ويطرقه هواتف الغيب بإلهام الله الذي يعرف به طرق رضا الحق، وصاحبه يعلم ذلك، ويسمع ويخفيه في قلبه؛ لأنه أدق من الشعرة، وحركته أخفى من دبيب النمل، ومع ذلك يعرفه من نفسه، ولكن مَنْ غلبت شهوات نفسه عليه لا يتبع خطاب الله بالسرّ، فأبدى الله لهم ما كانوا يخفونه، تعبيرًا لهم، وحجة عليهم.

قيل: ظهر لهم من غيوب أسرارهم ما كان يخفيه عنهم قلة علمهم.

وقال أبو العباس الدينوري -رحمه الله: أبدى لهم الحق فساد دعاويهم التي كانوا يخفونها، ويظهرون للناس خلافها من التقشف والتقوى في الدنيا، فبدا لهم قبح بواطنهم عند صدور العارفين، وأكابر الموحدين، ويقولون: لسنا على شيء، والصدق معكم، وذلك عند غلبة هيبة وجوههم عليهم، فإذا رجعوا إلى أوطانهم عادوا إلى الرزق والناموس من قلّة معرفتهم بربهم، وقلّة معرفتهم بافتضاحهم عند مشايخ القوم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم

بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ أظهر لطفه وكرمه العميم على خلقه في هذه الآية حين وقف القوم على حضرة جلاله لسماع خطابه؛ ليسهل عليهم دخول النار، ولولا ذلك لكان عذابهم أضعافًا.

والآية تعجبٌ أي: ولو ترى إذ وقفوا في حضرة الجبروت، وخوطبوا بخطاب الهيبة كيف يتنعمون بخطابه، وإشراق أنوار سلطان كبريائه، وإن كانوا في منازل الهيبة! والله هيبته مستلذةٌ، كما أن لطفه مسألةٌ، وجميع العذاب عند خطابه يكون نعمةٌ.

وأنشدوا:

يَكُونُ أُجَاجًا دُونَكُم فَإِذَا انْتَهَى ... إِلَيكُمْ تَلَقَّى طِيبَكُمْ فَيَطِيبُ

وَمَا ذَاكَ إِلَّا حِينَ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ ... يَمُرُّ بِوَادٍ أَنْتِ مِنْهُ قَرِيبُ

قال ابن عطاء: وقفوا وقوف قهر، ولو وقفوا وقوف اشتياقٍ لرأوا من أنوار كراماته ما تعجبوا منها.

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ السماع سماعان: سماع فهم، وسماع عشق ومحبة، مَنْ سمع سماع فهم لم يكن من أهل النطق في جريان حكم المعارف؛ لأنه في مقام البداية، ولم يكن له تصرفٌ إلا تصرف ظاهر العلم، ومَنْ سمع سماع العشق بسمع المعرفة على حدِّ الكمال يكون له لسان بيان المعرفة والتصرف في الإشارات والعبارات.

ألا ترى إلى النبي ﷺ وموسى ﵇ لما كان النبي ﷺ كاملاً مستقيمًا قال: «بُعثتُ بجوامع الكلم»[1]، و«أنا أفصحُ العرب والعجم»[2].

ولما كان موسى ﵇ في محل الإرادة أخبر الله سبحانه عنه بقوله بعد سؤاله بشرح الصدر الموجب فصاحة اللسان في المعرفة، قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾، وبيَّن أن على قدر السماع يكون الجواب، ونفى السماع عن غير الأحياء بالمعرفة والمشاهدة.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٠٨٧)، ومسلم (١/ ٣٧١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٦٤).

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٥٦٢).

قال النوري: مَنْ فتح سمعه بالسماع أجرى لسانه بالجواب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ (١).

وقال ابن عطاء: أخبر الله أن أهلِ السماع هم الأحياء، وهم أهل الخطاب والجواب، وأخبر أن الآخرين هم الأموات بقوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ إن الله سبحانه خلق غير الآدمي والملائكة والجن من الحيوانات والطيور والسباع والحشرات على فطرة التوحيد، وجبلة المعرفة، وإن الله سبحانه خاطبها لوضوح طرق معارفه، والإيقان والإيمان جعل لها طرقًا من خواطرها، منورة بأنوار العقل إلى حضرته القديمة الأزلية وأسرارها، ينظرون بنور الأفعال ولطائف الصنعة، وسناء الخطاب إليها على السرمدية، وإنها تعيش وتتحرك وتطير بقوة من قوى الحضرة: وهذا الصفير والألحان والزفرات والشهقات منها من حلاوة تصل إلى قلوبها من روح عالم الملكوت، ووضوح أنوار الجبروت، ولها على قدر حالها في المعرفة والتوحيد شوقٌ إلى الله، وذوقٌ من بحار رحمة الله.

سمعت أن سمنون المحب كان إذا تكلم في المحبة تَنْشَقُّ القناديل، ويسقط الطير من الهواء: حتى سمعت أن يومًا ما كان يتكلم في المحيط فسقط طير بين يديه، وغرز منقاره في الأرض، وقطر الدم من منقاره، ومات بين يديه.

وأمثال هذه الحكاية كثيرةٌ في الآثار والأخبار، من جميع الحيوان والسباع والطيور والحشرات، ألا ترى كيف تكلم الضب مع النبي ﷺ، وكيف مدحه بقوله: «ألا يا رسول الله: إنَّك صادقٌ، فبوركت مهديًّا وبوركت هاديًّا» إلى قوله: «فبوركت في الأحوال حيًّا وميتًا، وبوركت مولودًا، وبوركت ناشئًا» (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في طلب الحق، وإفراد قدمه عن الحد والاعتبار في صنائعه اللطيفة، التي تبرز منها أنوار الصفات في العالم ومثيلتها، إنها خلقت من عالم الملك والشهادة والأفعال والآدمي والملائكة خلقت أجسامها من عالم الأفعال، وأرواحها من نور

---

(١) إنما يستجيب لدعوة الخصوصية، ويُجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا اللهُ قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويترَقَّون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صُحبة أهل الله فَتَهُبُّ عليهم نفحات الهداية؛ لِما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يُرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صدقٍ عند الملك الودود [البحر المديد (٢/ ١٤١)].

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة (١/ ٥٢٣) بنحوه.

الملكوت؛ لذلك فضلت الملائكة والآدمي على غيرهما، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ... ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي جناحيه: جناح التوكل والرضا، وجناح الخوف والرجاء، وجناح الفناء والبقاء، وجناح الإيمان والتقى، وجناح النعمة والبلاء، وجناح الهمة والصفات، وجناح العبودية والربوبية، وجناح المعرفة والمحبة، يطيرون بها هربًا وطربًا وشوقًا وطلبًا، وإشارة الظاهر في المثلية أن جبلة الأمم من العناصر الأربع خلقت، ومن طبيعة الحيوانية والروحانية أنشئت، وتساوت في الأكل والشرب والحركة والاجتماع، وصفات النفسانية ونعوت الذاتية من الحرص والغضب والشره والبطر، وحقائقها في التساوي رجوعها إلى معدن الفطرة، الذي أنشأها الله منه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

ومن أئمة التفسير الظاهر قول ابن عطاء قال: أمثالكم في التوحيد والمعرفة.

وقيل: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ في التصوير ﴿أَمْثَالُكُم﴾ في التسخير، وأقوام جميع الحيوان والملائكة والجن والإنس والجمادات من العرش إلى الثرى بالقدرة القادرية الأزلية، ولهم مشارب وسواقٍ من بحر خطاب الله، وكلماته الأزلية المبيّنة طرق توحيد الملائكة، ومعرفة الناس وفطرة الحيوانات والطيور والحشرات والسباع الممزوجة طباعها بالعلم بصانعها وخالقها، إلى ظهور صفاته وذاته لهم بيانًا غير مشكل عليهم، ولا ناقص عن تمام مرادهم.

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: كل ما يحتاج الخلق في العبودية وعرفان الربوبية بيّناه في كتابنا، ليس مقام ولا حال ولا وجد ولا إدراك ولا معرفة ولا رؤية إلا وبيّن طريقه في كلامه تعالى صفته الخاصة المبينة، عرفان جميع الصفات، وطرق الصفات إلى الذات، أخبر تعالى به عن أسرار الأولين والآخرين من العرش إلى الثرى.

قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: ما أخرنا في الكتاب ذكر أحد من الخلق، ولكن لا يبصر ذكره في الكتاب إلا المؤيدون بأنوار المعرفة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ

﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وصف سبحانه أهل الامتحان الذين تهتف هواتف الإلهام بالخطاب لقلوبهم من الغيب فيستقبلونها بمعارضة نفوسهم، ويكذبون خواطر الحق بخاطر الباطل حين لم يعرفوا الإلهام من الوسواس، وذلك من وقر الضلالة في آذانهم؛ حيث لم يلقوا أسماعهم في مقام الشهود إلى الله، ولم تذكر اسم الله ألسنة أسرارهم بوصف الهيبة والمحبة، وذلك من بقايا نفوسهم في ظلمات هواها.

ومعناه: أي من كذب خواطر الحق الواردة من عندنا حين ألهمنا بخالص الإيمان بكرامات أوليائنا ومعجزات أنبيائنا تغطى آذان أسراره، وأبصار بصائره بغشاوة الضلالة؛ حتى لا يسمع كلامنا في الغيب ولا يرانا في الملكوت، ويبقيه في ظلمات نفسه الأمّارة وشيطانه الكافر، ولا يقدر أن يتكلم بذكرنا ومعرفتنا.

قيل: لم تصدقوا إظهار كراماتنا على المقربين من عبادنا عموا وصموا عن أنوار الملاحظات، وبقوا مع ظلمات النفوس، وهواجس الهياكل.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المشيئة تقع على المقبولين والمطرودين على الإبعاد والقبول والرضا والسخط، بما جرى عليهم في الأزل من السعادة والشقاوة، فمَنْ لم يكن صادقًا في بدء إرادته يغويه الحق في ظلمات قهره غيرة على وصله؛ حتى لا يصل إليه غير صادق في محبته، ومَنْ كان صادقًا في بدء إرادته ولم ينقص عقد بدايته بمتابعة نفسه والفترة عن طاعة يهديه الحق بنفسه إلى نفسه، ويجعله مستقيمًا في طريق معرفته وطاعته، والطريق المستقيم طرق أفعاله للعقول بنعت الفكرة، وطرق صفاته للقلوب بنعت المحبة، وطرق ذاته للأرواح بنعت المعرفة.

قيل: مَنْ يرد الله به الشرّ يتركه في سوء تدبيره ليبقى في ضلالته، ومَنْ يرد الله به الخير يجره إلى حسن اختياره، فيبقى على أسلم الطرق، وهو الرضا بمجاري القدرة، وهو الصراط المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، ﴿غَيْرَ اللَّهِ﴾: الجاهلين ربوبيته عند امتحانهم ببلائه، يرجعون إلى غيره من الخلق؛ لطلب المعاونة بدفع البلاء عنهم، أي: إن كنتم صادقين في دعوى معرفتي لِمَ تتكلمون إلى غيري عند نزول البلاء؟ فإنكم تدعونني حين تدعون غيري، فإن الدعاء لَمْ يقع على غيري؛ إذ فنيت الحوادث في سطوات عظمتي، لكن لا تعلمون أنكم تدعونني حين تدعون غيري من جهلكم بفناء الحدث في القدم.

وأيضًا: وبَّخهم بانصرافهم عن بابه تعالى في دعة العيش من قلّة وجدانهم حلاوة قربه ووصاله إلى طلب زيادة حظوظ أنفسهم، والسكون إلى غير الله، ثم يرجعون إلى بابه حين امتحنهم بالبلايا، ويدعونه لكشف الضر عنهم لا لطلب مشاهدته وقربه، يدعونه، وهذه عادة المفلسين المعرضين عنه إلى غيره.

قيل: على غيره تتكلون، وإلى سواه ترجعون، وهو الذي وفقكم لمعرفته، وأقامكم مقام الصادقين من عباده.

قال الجريري: يرجع العارفين إلى الحق في أوائل البدايات، ويرجع العوام إليه بعد اليأس من الخلق.

قال الله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ بل الصادق مَنْ إليه يرجع، وإياه يدعو.

قال الجنيد: مَنْ دعا الحق فبإياه لإياه يدعو، من غير حظٍّ فيه ولا حضورٍ من نفسه، قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾.

قال بعضهم: بل إليه المرجع لمَنْ غفل عنه خطابه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ هذا وصف قوم لم يذوقوا طعم وصل المشاهدة، حيث أرجعهم الحق إليه بسوط قهره، ولو كانوا على محل المعرفة والمحبة والشوق إلى المشاهدة لم ينصرفوا عنه طرفة عين.

وأيضًا: إذا أراد سبحانه كلاءة قوم من محبته إياهم ألزم عليهم حراس بلياته، وضرب عليهم سرادق حفظه؛ لئلا يشتغلوا بغيره لحظة.

وأيضًا: أي لما اشتغلوا بحظوظ ما وجدوا من قُربنا أوقعناهم في أودية الفترة حتى لمْ يجدوا آنئذٍ المواجيد وحقائق الواردات، ومسسناهم ببأساء الفراق وضراء الأشواق؛ لكي يصلوا إليَّ من نفوسهم وحظوظهم، ويروني بنعت تجريد التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث.

قال ابن عطاء: أخذنا عليهم الطرق عليها ليرجعوا إلينا.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ وصف قومًا تركوا نصائح المشايخ من

إعجابهم برأيهم، ولم يتيقظوا بدقائق إلهام الله الذي نزل على قلوبهم حين زجرهم طوارق الغيب عن سكونهم بما وجدوا من أنفسهم نبذة من الحكم ولمعًا من الفراسة، وهذا معنى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾.

ولما سكنوا إلى أنفسهم لما وجدوا من لطائف الكرامات فتح الله عليهم أبواب الرئاسة والجاه عند الخلق، حتى إذا فرحوا بتمكينهم عند العوام يرد الله قلوب الخلق عنهم ويفضحهم عندهم، ويعرف الخلائق خيانتهم ومكرهم وسقوطهم عن درجة القوم؛ حتى لا ينظر إليهم أحدٌ من خلقه بالشفقة والرحمة، ويموتوا على حسراتهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من نيل كرامات الله بعد ذلك؛ لأنهم خانوا في طريقه، وهو لا يهدي كيد الخائنين.

فلمّا قدَّس الله بساط الولاية عنهم ودفع إيذاءهم عن خواص حضرته أثنى على نفسه، وحمد جلاله المنزّه عن الاستبشار بوجودهم والاستيحاش عن عدمهم نيابةً عن أحبائه، الذين عجزوا عن حمده وثنائه بقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ الإشارة في ذلك إلى أهل مقام ذهاب الذهاب، أي: إن أخذ الله أسماع أسراركم بصواعق العظمة، وطمس بطون بصائركم بأنوار العزة، وختم على قلوبكم بخواتم الملكوت والجبروت بعد امتلائها من أنوار الكبرياء، وفنائها في سنا البقاء حين غلبت سطوات القدم على الحدث بنعت تلاشي الحدث، فيبقى القدم ولا يبقى العدم مَنْ يكون بعد عدمه في القدم ممّنْ يدعي الأنانية، ويخرج نفسه بعد فنائها من تحت أذيال الأحدية بوصف سمع الأزلي، وبصر الأبدي، وقلب الصمدي، لا يكون للفاني في الباقي أثرٌ؛ فإنه- تعالى- قادرٌ به بذلك، منزّهٌ عن النظير والعديل.

قال الترمذي: إن أخذ الله سمعكم عن فهم خطابه، وأبصاركم عن الاعتبار بصنائع قدرته، وختم على قلوبكم سلبكم معرفته، هل أحدٌ يقدر على فتح باب من هذه الأبواب

سواه؟ كلا بل هو المبدي النعمة تفضلاً، ومتممها في الانتهاء تكرمًا.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: مَنْ أيقن مني أني أعطي ولايتي لمَنْ أطاعني، وشاهد بقلبه حضرتي بعد تصديقه إلهامي في قلبه حين دعوته منه إليَّ، وأصلح مزاري وموضع تجليَّ من قلبه وسره، ما خرب من سابق هواجسات نفسه، وركضات شيطانه بذكري وثنائي والاستعاذة مني إليَّ، فلا خوف عليه من احتجابي عنه، ولا له حزنٌ من انقطاعه عني.

قال بعضهم: مَنْ أخلص باطنه، وأصلح ظاهره، ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ خوف القنوط، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حزن القطيعة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: هل يستوي الأعمى عن النظر إلى غير الذي لم يبق له عين من نفسه إلا من عيوني، والبصير بنور ملكي وملكوتي، أفلا تتفكرون بين الفاني والباقي عليَّ، وفيه شرف المصطفى ﷺ حين تجرّد في العبودية، وتفريد التوحيد بنفي الأنانية عن نفسه، وإسقاط الحدث عن ساحة القدم حين أمر: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، ونزّه نبوته عن التكلف في اقتباس علم الغيب بالجد والسعد بقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾، وتواضع حين أقام نفسه مقام الإنسانية بعد أن كان أشرف خلق الله من العرش إلى الثرى، وأظهر من المكروبين والروحانيين على باب الله سبحانه خضوعًا لجبروته، وخشوعًا في أبواب ملكوته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾، وليس لي اختيار في نبوتي، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ﴾ هل يكون من هذا وصفه بعد كونه بصيرًا بنور الله ورآه به، كالذي أعمي عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى؟! أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيرًا بنور القدم ليس كمَنْ ولد من العدم أعمى عن رؤية عظمته وجلاله!

قال بعضهم: الأعمى مَنْ عمي عن طريق رشده، والقائم مع عبادته، والبصير الناظر إلى منن الحق عليه، وحسن توليته له، أفلا يتفكرون في اختلاف السبيلين وتباين المذهبين.

قال الأستاذ: هل يتشاكل الضوء والظلام؟ وهل يتماثل الجحد والتوحيد؟ كلا أن

يكون كذلك.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أدق طريق معارفه؛ حيث أسبل نقاب العظمة على وجه جلال القدم، وضرب سرادق العزة على ساحات الكبرياء؛ حتى لا يصل إلى إدراك كنه قدمه وبقاء ديموميته.

وبيّن ذلك في كلامه القديم، أي: خوف بما وصفت نفسي بامتناعي عن مطالعة الخليقة وإدراكها سر حقيقة وجودي في كتابي وخطابي: الذين يخافون من قطيعتي، ويعلمون تنزيه جلالي عن أن يصل أحدٌ إليّ بطاعته حين أحشر إليّ بعلل الإنسانية وسمات النفوسية، إن الأمر هناك أجلّ من أن تخطر بخواطرهم، وأدقُّ من أن يفهم أحدٌ، فإن مكري قديمٌ، وصفتي تنزيهٌ، لو أحرق جميع المخلصين بنيران البعد بعد أن يكونوا من أهل القرب، فلا أبالي فإن كيدي متينٌ، ولو يأتونني بملء السماوات والأرض إخلاصًا، وأريد أن أرفق عليهم بإخلاص الإخلاص لا يخلصهم إخلاصهم من دقائق حسابي.

وما أطلع عليهم من خطرات ضمائرهم المسيرة إلى غيري، ولو أمنعهم مني مَنْ يتولى أمرهم بإرجاعهم إلى غيري، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعلهم يتقدسون من نفوسهم بقدس تذكرتي وذكري لهم، ويخافون مني بقلة خوفهم عني.

قال أبو عثمان: أهل المعاملات وأرباب الصدق في ذلك خائفون ممّا يبدو لهم من الإيمان والتوكل واليقين وأنواع العبادات، وعرض ذلك على ربهم يشغلهم خوف ذلك من رؤية أفعالهم والتلذذ والاعتماد عليها، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ... الآية﴾.

وقال أبو سعيد الخرّاز في الآية: ﴿أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أن يجعلوا إليَّ وسيلة أو شفيعًا إلى نفسي سواي.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت الأستاذ أبا سهل محمد بن سليمان يقول: لسنا مخاطبين بحقائق القرآن، إنما المخاطب بحقيقته هم الذين وصفهم الله، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ... ﴾ الآية، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

وقال الواسطي في قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: مَنْ استقطعته المملكة عن الملك لا يصلح لخدمة الملك.

وقال: لا تلاحظ أحدًا، وأنت تجدُّ إلى ملاحظة الحق.

وقال في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أن يجعلوا إليَّ وسيلة غيري.

وقيل في هذه الآية: إنما تعطى الأطماع بمقاربة صرف الكريم دون السعاية بضياء الهداية.

ويقال: الخوف هاهنا العلم، وإنما يخاف مَنْ عَلِمَ، فأما القلوب التي غطاها الجهل، فلا تباشرها طوارق الخوف.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ بيَّن الله سبحانه في هذه الآية تخصيص الولاية بعد تخصيصه النبوة والرسالة، وصرَّح في بيانه أن الولاية اصطفائيةٌ محضةٌ كما أن النبوة والرسالة اصطفائية محضةٌ، لا يتعلقان بسببٍ من الأسباب من العرش إلى الثرى.

وكما أنه- تعالى- أحبَّ الأنبياء والرسل كذلك أحبَّ الأولياء والأصفياء محبةً بلا علَّةٍ، وكما أن الله سبحانه خصَّ نبينا محمدًا ﷺ بالرسالة بغير علَّةٍ، وجميع الخلائق من الجن والإنس والملك كذلك خصَّ أصحابه بشرف الولاية بغير سببٍ من جهته، ولا جهدٍ من جهده، وصحة ذلك قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، بل كما سبق في الأزل العناية له بالرسالة، كذلك سبقت لهم في الأزل الولاية، كذلك وقعت لهم الصُّحبة والموافقة من جهة تلك الأهلية، اتبعوه وقبلوا أمره، ووضعوا رقابهم تحت قدمه، ولولا تلك العناية الأزلية كان حالهم كحال هؤلاء الأعداء، لكن إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فمنَّ الله على نبيِّه ﷺ بتأييده ونصر أصحابه له بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢]، ولما بلغ شرفهم إلى هذه المرتبة وصَّى الله نبيه ﷺ بمراعاتهم، ورعاية حالهم، وتربيتهم، وعاتبه في الآية لأجلهم بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم... ﴾ الآية، أي: لا تمنع هؤلاء من صحبتك، ولو كان لحظة لأجل حرصك بإسلام البطالين، فإن هدايتهم عندي، و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من أقربائك، ﴿وَلَٰكِنَّ

﴿ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ من هؤلاء الفقراء مثل بلال، وصهيب، وسلمان، وعمار، وحذيفة، والمقداد، ونظرائهم من أصحاب الصفة، الذين يدعون الله لوصولهم إليه عند كل صباح ومساء؛ لشوقهم إلى جماله ومحبتهم اللحوق منه، وهذا معنى قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾[1]، وخصَّ الغداة والعشي بالدعاء؛ لانجلاء أذيال الظلام من النهار بالغداة، وانجلاء أذيال الضياء من الظلام بالعشي، ولأن هناك ظهور تجلي القدرة وجلال العظمة، وهناك تكون ساعة تستجاب الدعوة فيها.

وأيضًا: يدعون الله بنعت الفناء في شوق جماله عند طلوع كل صبح من أنوار تجلي صفاته في قلوبهم عند كل نفس؛ لأن عند تنفس كل نفس من العارف يكون صبحًا من ظهور بركة مشاهدته هناك، ويدعون ويستزيدون محبته وشوقه وقرب مشاهدته هناك، ويدعون عند كل وارد غشيان الأحوال على قلوبهم بنعت الحيرة في عظمته؛ لأن ظهور تراكم سحائب العظمة وضباب الكبرياء، وبعد كل نفس بنفس العارف يكون عشي الحال، وليالي الوصال كانوا يدعون الله في جميع أنفاسهم لقاءه لإرادتهم احتراقهم في أنوار وجهه تعالى، وعلَّق الدعاء بالوقتين؛ لأنهم هناك سكنوا من علية الواردات وطوارق الحالات، فلمّا سكنوا في تلك الساعات ضاقت صدورهم، ودعوا الله بإرجاعهم إلى السكر بعد الصحو، وإلى حضورهم بعد الغيبة.

ألا ترى إلى قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ وصفهم بالإرادة مع كمالهم في المعرفة؛ لأن الكامل يرجع عند كل نفس من مقام النهاية إلى مقام البداية؛ لأن هناك منزل النكرة من ظهور أنوار آفاق القدم، وبروز سنا بطون الآزال، وكشف غيوب الآباد فرُّوا من سطوات الذات إلى نور الصفات؛ لأن هناك مقام المعرفة، ورؤية الذات مقام النكرة، ففرارهم من النكرة إلى المعرفة، ومن النهاية إلى البداية.

ألا ترى إلى قول الصديق ﷺ كيف قال: «سبحان مَنْ لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته»[2].

وسُئل بعض العارفين: ما النهايات؟ قال: الرجوع إلى البدايات.

وخصَّ الله سبحانه إرادتهم وجهه؛ لأن الوجه صفة أزلية من خواص صفاته المتشابهة،

---

(١) أي: يريدون وجه الله ورضاه، ولا يغيبون عنه ساعة، ثم قال: أزهد الناس أصفاهم مطعمًا، وأعبد الناس أشدهم اجتهادًا في القيام بالأمر والنهي، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه [تفسير التستري (١/ ١٣٥)].

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٥٤).

وهو معدن جلاله وجماله، يتجلى بنور وجهه لقلوب العاشقين والمشتاقين والمحبين، وذكر الوجه خاصة؛ لأن القوم في مقام العشق والمحبة والشوق، ولذلك علقهم بمقام المتشابه لوقوع الأحوال والمكاشفات على مقام الالتباس، لما كان حالهم العشق في وصفهم بالإرادة، وعلقهم بصفة من صفاته؛ لأن العاشقين في جنب العارفين، والموحدين كقطرات في البحار، ولو كانوا على محل النهايات ما وصفهم بالإرادة، ولا علقهم بصفة واحدة من جميع صفاته؛ لأن العارف خرج من مقام الإرادة التي توجب العبودية إلى مقام الحقيقة التي توجب الربوبية، ولو كانوا على حدِّ الكمال وصفهم بطلب جمع الذات والصفات، وما وصفهم بطلب صفة واحدة من جميع صفاته.

وقال في موضع قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: يريدون الله؛ لأن اسم الله عين الكل، وعين الجمع.

وأيضًا: وصفهم بإرادة وجهه، ووجهه سبحانه عن إشارة التشبيه والتعطيل مندرج تحته جميع الصفات من السمع والبصر والكلام، ويتعلق به جميع الصفات، وأراد بالوجه عين الكل، و﴿وَجْهَهُۥ﴾ أي: ذاته وصفاته.

ألا ترى إلى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] أي: إلا نفسه.

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ذاته وصفاته.

وكذا قال أهل التفسير الظاهر: فإذا كان كذلك كان القوم يريدون الله بجميع ذاته وصفاته بوصف المحبة والشوق، كانوا يريدونه لأنه- تعالى- يعرّفهم نفسه بنعت مباشرة تجلية قلوبهم، وهذا مقام قد استأثره الله لنفسه لا لأحد غيره؛ لأنه- تعالى- عرف نفسه لا سواه، غلب عليهم لذّة قربه وخطابه، فأرادوا كشف كنه القدم، كما غلب على موسى ﷺ حين سأل هذا المقام بعد ذوقه لذّة كلامه تعالى بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لمّا رآه بالوسائط، وخرَّ من سطوات القدم، وأفاق بنور البقاء، فلم ير للحدثان في جنات القدم أثرًا تاب عن سؤاله، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ألا أعرفك كما أنت، وهذا مقام النبي ﷺ بعد أن رآه صرفًا؛ حيث قال: «لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

فلمّا علم سبحانه ذلك منهم أمرهم بالاستغفار وطلب العفو: كما أخبر عنهم بقوله:

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

سُئل أبو يعقوب النهرجوري عن المريد؟ فقال: صفته ذكرها الله في كتابه: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، وهو دوام ذكرٍ وإخلاص عملٍ، أوصى بهذه الآية أكابرهم في التعطف عليهم والصفح عن زللهم.

قال بعضهم: يدعونه شوقًا واعتمادًا عليه لم يشغلهم شاغلٌ، ولم يصدهم عن خدمته صادٌّ، قائمون على بابه من الخدمة والعبودية، منتظرون زوائد بركاته عليهم.

ولي إشارةٌ أخرى: أن الله تعالى وصف حضورهم بالغداة والعشي أي: حضروا في الحضرة بالغداة بعزم خدمته إلى العشي، وحضروا بالعشي بعزم خدمته إلى الغداة حتى تكون أوقاتهم مسرمدة بغير فترة.

الإشارة فيه: لمّا وصفهم بالحضور نفى عنهم بدليل الخطاب جميع أشغال الدنيا، أي: كانوا رجال المراقبة والحضور والمشاهدة، لا يشغلهم عن الله شاغلٌ طرفة عينٍ، كما وصفهم في موضع آخر بقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧].

وأيضًا فيه لطيفةٌ: وصفهم بالحضور بالغداة والعشي على تسرمد الأحوال لترويحهم سويعات بالأحكام الظاهرة، هذه شفقةٌ من الله؛ لكيلا تحرقهم نيران محبتهم، وتزيلهم حدة إرادتهم.

يُقال: أصبحوا، ولا سؤال لهم من دنياهم، ولا مطالبة من عقباهم، ولا همة سوى حديث مولاهم، فلمّا تجردوا لله تمحضت عناية الحق لهم فتولى حديثهم.

وقال: ولا تطردهم يا محمد، ثم قال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]، الفقير خفيف الحال لا يكون على أحدٍ منه كثير مؤنةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: الفقير الصادق إذا امتنَّ الله عليه بمعرفته، وكشف مشاهدته، وكساه رداء هيبته يتجلّى عند جميع الخلائق لبروز نور جلال الله من وجهه بحيث يجيء بقوم العالم عنده لصولة حاله، وغلبة وجده، ولطائف كلامه، ويكون سالب قلوب الخلق بما يجري عليه من أحكام ربوبية الله، فيظهر للحق منه سنا كرامات الله، ولطيف آيات الله، فيحسده عليه أهل الدنيا من المغرورين بمزخرفاتها، الواقعين في ورطاتها، ويقولون عند العامة: أهذا الذي له كرامات وآيات؟! هذا طراز سالوس، وأرادوا بذلك صرف وجوه الناس عنه إليهم.

قال الله سبحانه في وصف الحساد عند حسدهم على أوليائه: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ

عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ استهزاء، فأجابهم الله رغمًا لأنوفهم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: هو تعالى يعلم صدقهم وإخلاصهم وبذل وجودهم شكرًا لإنعامه، وحمدًا لما مَنَّ عليهم من الدرجات الرفيعة، والحالات الشريفة، ويعلم غيظ أعدائهم.

وفي الآية نكاتٌ: أن فتنة الفقر طمعه إلى الغنى، وفتنة الغني بغضه للفقير؛ لئلا يؤديه حقه.

وأيضًا: في الحقيقة مقام الفقر مقام التجريد والتوحيد والتنزيه، وإفراد القدم عن الحدوث، وفناء النفس في الحق، وإذا كان الفقير بهذه الأوصاف يستظل بظلال الربوبية، ومقام الغنى مقام الاتصاف بصفات غنى القدم والاكتساء بكسوة الربوبية، فإذا كان الغني بهذه الأوصاف يكون نائب الحق في العالم؛ فإذا رأى فقيرًا بوصف ما ذكرنا يصول عليه بقوة مقامه، فيكونان في حجاب حالهما ومقامهما ورؤية غير الله، وهذا من غيرة الله عليهما؛ لئلا يسكن أحدهما الآخر، فيسقطان من درجة السكون إلى الحق، ومن غيرته تعالى على نفسه لشغل بعضهم بعضًا؛ لئلا يطَّلع عليه غيره.

وما ذكرنا بمجموعه فهو معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، وما يليق بذلك من تفسير.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: بالذين منهم من لا ينظر في طريقه إلى نفسه وإلى غيره طرفة عين.

قال الحسين ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: قطع الخلق بالخلق عن الحق.

وقال محمد بن حامد: فتنة الفقراء بالأغنياء، وفتنة الأغنياء بالفقراء، ففتنة الفقير في المعنى رؤية فضله، وبسخطه لما يمنعه ما في يده، ويراه المعطي والمانع دون الله، وفتنة الغني في الفقير ازدراؤه الفقراء، وتحقيره إياهم، ومنعهم ما أوجب الله عليه لهم مما في يده، وامتنانه عليهم بإيصالهم إلى حقوقهم وإيصال الحقوق إليهم، والذي يسقط عن الفقير فتنة فقره رؤية دخل الأغنياء، والذي يسقط عن الغني فتنة غناه رؤية دخل الفقراء.

قيل: في الشكر، والشاكرون: الراجعون إلى الله في جميع أحوالهم.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ

ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾: تطييب لقلوب المريدين، الذين يطلبون الله بوسائط الآيات، وتسلية لقلوب النادمين على ما فات عنهم من أوقات المراقبات بمباشرة الجنايات، فأحالهم الحق إلى سلام نبيه ﷺ؛ لأنهم في مقام الوسيلة، ولو بلغوا إلى درجة أهل المشاهدة لأحالهم إلى سلامه بقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨].

انظر كيف أحب الرجوع للمذنبين؛ حيث أمره ﷺ بالسلام عليه بقوله: ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأنعام: ٥٤]؛ لأنهم قاسوا مقاساة امتحانه في بيداء قهره، لما رآهم مقبلين إليه بعد تحملهم بلاياه، سلّم عليهم بلسان نبيه، ثم رفع درجتهم من ذلك، وواساهم بنفسه، وروّح فؤادهم بمروحة رحمته السابقة عليهم في الأزل بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ أي: كان في الأزل اصطفاهم برحمته، وإن علم منهم العصيان، رحمته الأزلية أصلٌ ثابتٌ، والمعصية عارضةٌ من طوفان قهره في طريق الإقبال إليه والمسارعة في السير إلى وصاله، فإذا وصلوا إلى معادهم بقيت الأصول، وفنيت العوارض، إذا أحبهم بمحبته الأزلية توجب محبته أن يوصلهم إلى مشاهدته التي هي رحمته الكبرى، وأن يخلصهم من غبار الطبيعة، ويطهّرهم من أدناس النفسانية بمياه رحمته الكافية بقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا﴾ نظر إلى غيره ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ بقلّة علم على ذوق وصالي ولطف جمالي، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ رجع من نفسه إليّ، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ مزار تجلياتي من قلبه، بأن قدسه من شوائب شهواته.

﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ﴾ لما سلف من تقصير في أداء حقوقي؛ بحيث لا أعيرهم بذلك أجرًا.

﴿رَّحِيمٞ﴾ بأن قوّاهم بقوة أزلية؛ ليحملوا أثقال مشاهداتي بها، ولولا ذلك لفني وجودهم في أول رؤية سطوات عظمتي وجلال كبريائي.

قيل في قوله: ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾: سلّم أنت على الذين يؤمنون بآياتنا، فإنا نسلم على الذين آمنوا بنا بلا واسطة، وذلك قوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨].

قال إبراهيم بن المولد: والله إن الحق هو الذي يسلّم على الفقراء، والنبي ﷺ في ذلك واسطةٌ.

وقال الواسطي في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾: برحمته وصلوا إلى

عبادته، لا بعبادتهم وصلوا إلى رحمته، وبرحمته نالوا ما عنده لا بأفعالهم؛ لأن النبي ﷺ يقول: «... ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»[1].

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾: كل من عصى الله عصاه بجهل له، وكل مَنْ أطاعه أطاعه بعلم، فإن العبد إذا لم يعظم قدر معرفة الله في قلبه ركب كل نوع من البلاء.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: بادرهم بالسلام قبل أن يسلموا؛ إكرامًا لهم، وإظهارًا لقدرهم.

قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: في الأبد لمَنْ نظر إليه في الأزل بعين الرحمة.

قال أبو عثمان: أوجب على نفسه عفو المقصرين من عباده؛ لذلك قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

وقال بعضهم في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: في الصفات الجارية عليهم ولهم، الذي أعتقهم من رقِّ الكون، وأظهرهم من خفايا المخزونات المصونات المكنونة بأعجب أعجوبة، ثم أشهدهم السلام، فكانوا سالمين منه في إظهار ربوبيته، سالمين منه في آخريته، استحقوا اسم السلام بذلك.

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على يقين ومشاهدة ورؤية غيب وسلطان براهين، وسطوع نور الأزل من وجهي، فإنه أعظم البينات في العالم، من رآه رأى الحق؛ لقوله ﷺ: «مَنْ عَرَفني فقد عَرَف الحقَّ»[2]، و«مَنْ رآني فقد رأى الحقَّ»[3].

قال أبو عثمان المغربي: الأنبياء على بيناتٍ، والأكابر من الأولياء على بيناتٍ، وبينات الأنبياء وحي يقينٍ، وبينات الأولياء الفراسات الصادقة، والإخبار على الغيب كما كان ليوشع ﷺ وللصديق الأكبر ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٧٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩)، وأحمد في مسنده (٣/ ٢٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦).

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ غيبة ذاته القدمي، وهو خزانة أسرار الآزال والآباد، ومفاتيحها صفاته الأزلية، لا يعلم صفاته وذاته بالحقيقة إلا هو تعالى بنفسه، فنفى الغير عن البين؛ حيث لا حيث ولا بين، فمن إشارة الأحدية المفتاح والخزانة واحدٌ؛ لأنه منفردٌ بصفاته وذاته عن الجمع والتفرقة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، قال: علمه مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

قال السدي من كبار المفسرين: ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائن الغيب.

وأيضًا: مفاتح الغيب عنده أنوار عنايته الأزلية التي سبقت منه بنعت الكرم والفضل لأنبيائه وأوليائه وملائكته، وغيبة ذاته وصفاته تعالى؛ لأنه كنزه القديم الباقي، ألا ترى إلى قوله: «كنتُ كنزًا مخفيًا فأحببتُ أن أعرفَ»[1].

فيفتح بلطفه بتلك الأنوار الأزلية التي سماها المفاتيح لهم أبواب خزائن صفاته وذاته؛ ليعرفوا كنز القدم بأنوار القدم، وهو تعالى يظهر مكنون أسراره من ذاته وصفاته لهم، وهم يستخرجون من بحار الذات والصفات جواهر علومه الأزلية والأبدية؛ ليوضحوا بأنوارها طرق العبودية لعباده، ويبينوا مدارك المعاملات ومراقي الحالات لهم.

وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ أي: لا يعلم الأولون والآخرون قبل إظهاره تعالى ذلك لهم، ولا يعلم حقائق أقدارها إلا هو؛ لأنه تعالى عرف قدره بالحقيقة لا غير.

وأيضًا: لا يعرف طريق وجدانها والوسيلة إليها إلا هو، هو بذاته تعالى عرَّف طرقها لأهلها، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وأيضًا: له مفاتيح الغيب، ومن تلك المفاتيح التي يعطي قاصديه وطالبيه في بدء شأنهم ما داموا صادقين، هي المعاملات السنية، والمقامات الشريفة التي يستفتح بها لهم خزائن الملكوت والجبروت، ويستخرج منها أنوار المحبة والشوق والعشق والمعرفة ودرجاتها،

---

(١) ذكره المناوي في «التعاريف» (١/ ٥٦٨)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٧٣) بنحوه.

والتوحيد ومكاشفاته وعلومه، فيصلون بها إلى وصاله الأبدي وقربه الجلالي.

وأيضًا: له مفاتيح اللطيفات والقهريات، يفتح بها أبواب أنوار المعرفة للأولياء، ويفتح بها أبواب ظلمات الطبيعة للأعداء.

وأيضًا: عنده مفاتح غيب الدرجات، يفتح للقلوب خزائن المشاهدات، وللأرواح خزائن المكاشفات، وللعقول خزائن المعارف، وللأسرار خزائن علوم الذات والصفات، وللأشباح خزائن المعاملات، يفتح للأنبياء بها خزائن المعجزات، ويفتح للأولياء خزائن الكرامات، ويفتح للمريدين خزائن الفراسات.

قال الجريري: لا يعلمها إلا هو، ومَنْ يطلعه عليها من صفي وخليل وحبيب وولي.

وقال ابن عطاء: هذه الآية تفتح لأهل الخير المحبة والرحمة، ولأهل الشر الفتنة والمهانة، ولأهل الولاية الكرامة، ولأهل السرائر السر، ولأهل التمكين جذبًا.

وقال ابن عطاء: الفتح في القلوب الهداية، وفي الهموم الرعاية، وفي الجوارح البشارة.

وقال أيضًا: يفتح للأنبياء المكاشفات، وللأولياء المعاينات، وللصالحين الطاعات، وللعامة الهدايات.

وقال أبو سعيد الخرَّاز في هذه الآية: أبدى ذلك لنبيه وحبيبه، فتح عليه أولاً أسباب التأديب، أدَّبه بالأمر والنهي، ثم فتح عليه أسباب التهذيب، وهو المشيئة والقدرة، ثم أسباب التذويب، وهو قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾، ثم أسباب التغييب، وهو قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨]، فهذه مفاتح الغيب التي فتحها لنبيه ﷺ.

وقال جعفر ﷺ: يفتح من القلوب الهداية، ومن الهموم الرعاية، ومن اللسان الرواية، ومن الجوارح السياسة والدلالة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يعلم عجائب بحر غيب لطفه الأزلي للأنبياء والأولياء، ويعلم عجائب بحر غيب قهره للأعداء.

وأيضًا: يعلم في بحار الغيوب وبراري القلوب.

وأيضًا: يعلم ما في بحار القلوب من عجائب الحكم وجواهر الكرم، وأصداف المعارف وألطاف الكواشف، ويعلم ما في براري النفوس وبناتها من ألوان الشهوات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٥٩]: لا تسقط ورقة من أوراق أشجار الغيوب إلى فضاء القلوب من سطوة صرصر رياح القهر واللطف التي هي حكمة من حكم علوم الأزلي الأبدي.

وأيضًا: ما تسقط ورقة من أوراق تجلي الجمال والجلال من شجر القدم على قلوب

المحبين والمشتاقين والعارفين إلا بعلمه على خاصيتهم واصطفائيتهم بذلك، ولا يكون حبة المحبة في غيوبات قلوب المحبين إلا هو تعالى يربِّيها بمياه لطفه ورياح كرمه، وبياض نهار مشاهدته، وسبل إسبال ستر رعايته حتى رسخت أصلها في أرض القلب، وأثمرت فرعها في سماء اليقين.

قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أخبر سبحانه بإحاطة علمه على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وعن شمول أنوار سلطان كبريائه بنعت الغلبة على جميع الحدثان ظاهرًا وباطنًا ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[سبأ:٣]، وهدد به العباد؛ ليفرغوا منه إليه عند كل خاطرٍ يخطر على قلوبهم يشير إلى غيره، فإنه يعلم السرَّ وأخفى، وبيَّن أن جميع المقدورات من العرش إلى الثرى في كونيتها من العدم إلى الوجود، ومن الوجود إلى العدم يكون بسابق مشيئته الأزلية، وإرادته القديمة، وأن جميعها مكتوبٌ على ألواح الصمدية بأقلام أقداره، الغربة محفوظةٌ من تغير الحدثان في تلون الزمان والمكان.

وصحة ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩] رطوبتها من أثر نسيم شمال ربيع لطف مشاهدته، وخضرتها من نضارة ظهور عرائس قدرته، وصفرتها من تأثير رياح خريف قهره، وسقوطها من حدة صولة نظر عظمته، وبدوها خضوعًا لربوبيته، وزوالها من تقديس جلاله عن علة الكون والوجود والعدم.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾: متى علمها حين لا متى؟

قيل: نضرتها وخضرتها وذهابها حتى لا يوجد منها شيءٌ، فما ستر من صفاته، وما أظهر واحدٌ، ذلك على قدر الكون، إنّما يتكلم بأقدارنا، ويشير بأخطارنا، ولو كان قدره كان الهلاك.

وقيل في قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾: فالاضطرار في أن يقدم ما أخَّر أو يؤخر ما قدَّم منازعة لربوبيته وخروجًا عن عبديته.

قال أبو سعيد القرشي في هذه الآية: ما من دابة إلا ولها ورقةٌ خضراءُ معلقةٌ من تحت العرش، فإذا يبست الورقة وقعت بين يدي ملك الموت، مكتوبٌ عليها اسمه واسم أبيه، يعلم ملك الموت قد أمر به بقبض روحه فيقبض روحه.

وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ قال: «ما من زرعٍ على الأرض ولا ثمارٍ على الأشجار

إلا عليها مكتوبٌ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ هذا رزق فلان بن فلان»[1]، وذلك قوله في محكم كتابه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾: توفيتهم في الليل لطيران أرواحهم في الملكوت، وسيرانها في أنوار الجبروت، ليزيد شوقها إلى معادنها، وتعرف ما يجازي به بأعمال الأشباح التي كسبتها، وبالنهار من الثواب والعقاب، وتعلم قدرة الله بالإماتة والإحياء مباشرة ومعاينة؛ ليجيء عليها وقت انقطاعها من الحدثان إلى مشاهدة الرحمن، أشار إلى هذا بتمام الآية: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وشاهد الآية ومعناها: قوله تعالى بعد ذكر قهر سلطانه بوصف الإحاطة على العبد ومحافظته بالملائكة وإرجاعه إلى كنفه القديم وقربه الكريم: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ من شرفه وكرامته لا يبقيه في سجن الدنيا وبليتها، وأبدى الملائكة الكاتبين عليه أعماله غيره على وليه؛ لئلا يطَّلع عليه غيره، وفي الآية رجاء المذنبين، وذلك تلطفه بهم حيث قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، لو قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، ولَمْ يقل: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ لذابوا من عظمته وقهر كبريائه، ولكن تعطف على عباده بإضافة مولويته إليهم، ولو قال: «هم موالي» لكان عظيمًا، خصَّ أن قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي: حبيبهم وناصرهم الحق أذهب الأمر من مقام الهيبة إلى مقام الزلفى من قوله: ﴿رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤/ ٥٣).

(٢) قال ابن عجيبة: من علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسي بينه وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيى من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رءوس الأشهاد [البحر المديد (٢/ ١٥٦)].

قال بعضهم: هي أرجى آية في كتاب الله؛ لأنه لا مردَّ للعبد أعزُّ من أن يكون مردُّه إلى مولاه.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝٦٦﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ الإشارة فيه إلى مَنْ غُمَّ عليه غيم القبض، وتراكم عليه كرب الفراق؛ ليخلصه الله منها بكشف جماله له، وقربه إلى وصاله، فيخطر على سرِّه وارد الامتحان، فيميل من حظ رؤية الصفة إلى حظ رؤية الفعل عند رؤية مستحسنات الكون، أي: كاشفت كرب البعد عن قلوبكم، بكشف قرب مشاهدتي لها، فنظرتم إلى المستحسنات التي رؤيتها ممزوجةٌ بلذة شهوات نفوسكم، فتشركون إذا سكنت قلوبكم إلى غيري؛ وإن كان محل لطفي، لكان هناك منازلة مكر القدم.

قال بعضهم يقول الله: «أنا كاشفُ الكروب، ومَنْ قصدني عند كرباته وحاجاته كشفت عنه كروبه، ومن قصد غيري أسقطت عنه وجاهته»[1].

لما ذكر امتنانه بكشف الكربة وعاتبهم لشركهم وسكونهم إلى غيره خوَّفهم بقدرته الأزلية، وإرجاعهم إلى ظلمات الكربة، وعذاب الفرقة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: بأن أحجبكم من النظر إلى ملكوتي، وأقطع موارد تجلي مشاهدتي عن قلوبكم، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي: لا أسهِّل عليكم القيام على باب ربوبيتي بنعت الخدمة، وطلب الوصلة، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ إنكارًا على أوليائي وأهل مجالستي، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ مخالفة المريدين للمشايخ، ومفارقة المشايخ من المريدين.

قال القاسم في قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾: اللهو والنظر إلى المحرمات، والنطق بالفحش، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ المشي إلى الملاهي، وأبواب السلاطين، وهتك أستار المحرمات، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ برفع ما بينكم من الألفة، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بكفر أهل الهوى بعضهم بعضًا.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا

(١) لم أقف عليه.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: كل خطابٍ من خطابنا معدنٌ من ذاتنا؛ لأن خطابنا كلامنا، وكلامنا صفتنا قائمة بذاتنا، وذاتنا معدن صفاتنا، فإذا ورد أمر كان وارد خبر الغيب، وخبر الغيب وارد الخطاب، ووارد الخطاب وارد الكلام الذي هو صفة الأزل التي سطع نورها من ذات القديم، وورد على أشكال الأمر والفعل، فيكون على قدر عقول الخلق، ولو خرج صرفًا لم يحتمل الحدثان، ويضمحل فيه الزمان والأكوان؛ لأن نعوت الأزلية لا تحملها إلا صفة الأزلية.

وأيضًا: لكل خبر على صورة المدركة مرادٌ من الله سبحانه الذي يوافق خبر الغيب، ولا يفهمه إلا رباني الصفة.

وأيضًا: لكل خطابٍ من الله سبحانه من قلوب العارفين مستقرٌّ لا تنزل إلا في مستقره، هناك لا يضطرب الخبر؛ لأن هناك مسقط تجلّي الأزل، وخبر الأزل في موضع تجلّي الأزل يستقر؛ لأنه أهله.

قال ﷺ: «أهلُ القرآنِ أهلُ الله وخاصَّتُه»[1].

وأيضًا: لكل نبأ بيانٌ يدل ذلك إلى مقام من مقامات الصديقين، مثلما ذكر في القرآن أوصافهم، ونعوتهم من المحبة، والخوف، والرجاء، والصدق، والإخلاص، والمعرفة، والتوحيد، والإيمان، والإيقان، والمشاهدة، والمكاشفة، والحضور، وإلقاء السمع، وأمثال ما ذكرنا يوجب الخبر، وصف فوائد تلك المقامات لأهلها، ولا يستلذه، الحمد لله الذي خصَّ أولياءه بهذه المقامات.

وأيضًا: لكل نبأ من أوقات العارفين وقتٌ، ينـزل على قلوبهم على قدر الوقت نيدل على معالي درجات الغيب.

قال الحسين: لكل دعوى كشفٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وصف رعايته تعالى أهل حضرته الذين خرجوا بنعت التجريد من أنفسهم، ومن الأكوان جميعًا، ألا يطرأ عليهم من طوارق القهر التي استأصلت أعداء الله بمماسة قهرها، أي: لا يرجع شرُّ الأعداء إلى الأولياء في الدنيا والآخرة؛ لأنهم مصونون بكلاءة الله وحفظه إياهم، ووصفهم بتمام الآية

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٧٨)، وأحمد (٣/ ٢٤٢).

بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: إذا كنتم مصونين بحفظي عن شر الأشرار ذكرهم أوصاف عظمتي وجلالي؛ كي يتقوا من عذابي، ويرجعوا إلي بابي نادمين من زلاتهم؛ لأن الوعظ والتذكير من شأن أهل التمكين والاستقامة في المعرفة، والطريقة؛ فإنهم ثواب الأولياء والرسل.

قيل: ما على التاركين الاعتماد على الوسائط، والأخذ من الحق حظوظهم حساب.

قال سهل: أخذ الله تعالى على أوليائه بالتذكير لعباده، كما أخذ التبليغ على أنبيائه، فعلى أوليائه أن يُذكروا به، وأن يدلوا عليه؛ إذ أخذ الله ﷻ ذلك عليهم، ومتى قعدوا عن ذلك كانوا مقصرين.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: اترك البطَّالين الذين شُغلوا عنا بحظوظ الكونين؛ حتى لا يزاحموا مجالس الصديقين؛ فإنهم محجوبون بحظوظهم عن لذة خطابنا، وحقائق خبرنا، ولذة صحبة أوليائنا.

قال الحسين ﷺ: ألا تلاحظ من شغلهم خلقنا عنَّا، وأنسوا بحياتهم في دنياهم، وهي في الحقيقة موتٌ، والحي مَنْ يكون حيًّا.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إن هدى الله الذي بسط شرائعه وحقائقه وطرائقه للأنبياء والأولياء والصديقين والمقربين، وذلك طريق عرفانه، والوصول إلى جنان مشاهدته، وذلك الطريق لأهل معرفته يدل الأولياء على الرضا بقضائه، والصبر في بلائه والتسليم لمراده، بحيث لا يكون منهم معارضة، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال القاسم: الطريق إلى الله هو الأصح، والقاصد عرصته هو المعان، قال الله: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

قال أبو عثمان: أمر العبد بالتعليم، والتسليم ترك التدبير والرضا بمجاري القضاء، ولما بيَّن طرائق الهدى ووصفهم بالإذعان له في مراده منه أمرهم بالصلاة، وخوَّفهم فيها من نفسه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ إقامة الصلاة ظهور الربوبية في العبودية، وترائي هلال المشاهدة في الخدمة؛ لقوله ﷺ: «تعبدَ الله كأنَّك تراه»(١)، والتقوى هنا معناها: اتقوني في الصلاة؛ فإنها مقام الهيبة والإجلال والمناجاة من أن يخطر على قلوبكم شيء دوني، فأحتجب عنكم بامتناعي عن مطالعتكم بعيون مسدودة بعوارض الخطرات.

قال ابن عطاء: إقامة الصلاة حفظ حدودها مع الله، وحفظ الأسرار فيها مع الله ألا يختلج في سره سواه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ لمّا أراد تعالى أن يخرج الكون من العدم تجلى من ذاته بصفاته، ومن صفاته لأمره، ومن أمره للكاف والنون، فيقدح أحدهما بالآخر، فيخرج من بين نورهما الأكوان والحدثان؛ لاتصال نور الذات بالصفات، واتصال نور الصفات بالأمر والفعل والكاف والنون، فيحقق ذلك مراده في الأزل بذلك.

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: قوله يحقق ما في علمه بنعت إخراجه من العدم إلى الوجود، بحيث لا يكون في ذرة منه خللٌ، يوافق فعله أمره، وأمره إرادته؛ لأن له الملك والقدرة الأزلية القائمة بذاته القديم الباقي بوصف الأزل إلى الأبد.

قال الحسين: هو الحق، ولا يظهر من الحق إلا الحق، قال الله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كما خصصنا الخليل في الأزل بالخلة، أريناه ملكوت السماوات والأرض ما يظهر من أنوار صفات الأزلية، وذات السرمدية من مرائي ملكوت السماوات التباسًا لثبوت خلته واستقامة

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٩٣).

محبته، وزيادة شوقه إلى جمال القدم؛ وليكون من المشاهدين لقاءنا في مقام اليقين بواسطة الملك والملكوت.

قال أبو سعيد الخرّاز: أراه ذلك ليطيق الهجوم على عظمته ذكر في مقام الواصلين.

وقال فارس في تفسير الآية: بدايات أعلام الغيوب التي لا تبقي على النفوس غير الله، وهو دلائل أهل التوحيد عندهم.

وقال بعضهم: أرى الخليل الملكوت لئلا يشتغل بها، ويرجع إلى مالكها.

وقال بعضهم: أرى الخليل الملكوت، فاشتغل بالاستدلال على الحق، فلمّا كشف له عن الحقيقة يتراءى الكل، فقال: «أما إليك فلا»[1].

وقيل: ليكون من الموقنين بعد معرفة اليقين.

وقال النصرآبادي في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: ولم يقل: أُري إبراهيم، ولا يمكن رؤية الفروع بالفروع، إنما رأى الفرع من الملكوت بالأصول.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ إن الله سبحانه امتحن خليله ﷺ بالبلايا، ومن جملتها امتحانه برؤية الملكوت؛ ليشتغل بحلاوة رؤيتها عن مشاهدة القدم، وكذلك امتحنه في بدايته بمقام الالتباس عند ظهور كوكب تجلّي نور الفعل الخاص في صورة الشعرى، فنظر إليه حين جنَّ عليه ليل الامتحان، فرأى بعين الإرادة نور فعله الخاص الذي مشربه أنوار الصفة، فقال بلسان التعجب: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، فدار عليه دور الإرادة، وربَّاه بنور القربة، وبلغه إلى مقام الفلة، فلمّا جنَّ عليه ليل الفرقة من مقام الأول برز نور الصفة من معدن الذات، وظهر من نور الفعل الخاص في القمر له، فنظر إليه ورأى مشاهدة الصفة في الفعل، فقال بلسان الشوق: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، فدار عليه دور الخلّة، وربَّاه بنور الوصلة، وبلغه إلى مقام العشق وذوَّقه طعم حقيقة طرب سره، وهاج شوقه إلى طلب الزيادة، فظهرت أنوار الذات في الصفات، وظهرت أنوار الصفات والذات في الأفعال الخاصة.

ثم ظهرت أنوارها في الشمس، فلمّا صفا وقته واندرجت ظلمة ليلة الفراق طلعت

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٤٥).

عليها الشمس، فنظر إليها، فرأى مشاهدة جلال القدم في مرآة الشمس، فقال بلسان العشق: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فوصل إليه غيرة القدم، وجرَّده عن رؤية الوسائط في رؤية القدم عند رؤيته أفول الآيات بنعت فنائها في عظمة أنوار القدم، وانكشف له عين القدم صرفًا، ففرَّ منه إليه، وتوحَّد بوحدانيته، وقال للنفس المطالبة حظَّها من رؤية الكون المشيرة إلى كوكب الفعل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ أي: الساقطين في مهوات المحو عند بروز سطوات عظمة الله.

وقال للعقل المطالب حظ رؤية القدرة في رؤية القمر، الذي هو مرآة نور الصفة: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين بقوا في مقام الالتباس عن رؤية صرف الصفات، أي: لئن لم يهدني به إليه لبقيت به عنه.

وقال للقلب المطالب حظه من مقام العشق ورغبته في لذة المحبة في رؤية الوسائط، وفراره من الاحتراق في نيران الكبرياء: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ يفرون إليه من غيره، وإن كان وسيلة إليه، فإني أراه بلا واسطة رأيته به لا غير، برئت من حظي في الوسائط.

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: إني متوجِّهٌ بعد تبرئي من الحدث بنعت تجريدي في التوحيد إلى شرف القدم الذي بدا من أنوار فعله كل وسيلة.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَنِيفٗا﴾ مسلمًا حنيفًا قائدًا عمّا دونه، مسلمًا منقادًا بنعت الرضا عنده.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الذين يسيرون إلى الوسائط، فإني ذاهبٌ إلى ربي سيهديني منه إليه، حتى أبقى بنعت الفناء فيه قبل، كمَنْ فيه كواكب الوحدانية وشموسها وأقمارها، فغلب بها الشكوك في رؤية الأقمار والنجوم والشموس.

قال الواسطي في قوله: ﴿رَءَا كَوۡكَبٗا﴾: قال: إنه كان يطالع الحق بسيره لا الكوكب، وكذلك الشمس والقمر بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ عند رجوعه إلى أوصافه بارتفاع

المعنى البادي عليه، أي: لا أحب زوال ما استوفاني من لذة المشاهدة، فأذهلني، وأحضرني فيه.

وقال بعضهم: لمّا أظلم عليه الكون، وعمي عن الاختيار، وألجأه الاضطرار إلى نفس الاضطرار، ورد على قلبه من أنوار الربوبية، فقال:﴿هَـٰذَا رَبِّي﴾ .

ثم كوشف له عن أنوار الهيبة، فازداد نورًا، فصاح، ثم أُفني بنور الإلهية عن معنى البشرية، فقال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ، ثم أُبقي ببقاء الباقي، فقال:﴿يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

قال الواسطي في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ : لئن لم يقمني ربي على الهداية التي شاهدتها بإعلام بواديه لأكونن من الضالين في نظري إلى نفسي، وبقائي في صفاتي.

قيل في قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الاستدلال بالمخلوقات على الخالق بعلمي، إنه لا دليل على الله سواه.

قال الواسطي في قوله تعالى:﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: مني الدعوة ومن الله الهداية.

وقال جعفر ﷺ في قوله:﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾ يعني: أسلمت قلبي للذي خلقه، وانقطعت إليه من كل شاغلٍ، وشغل بالذي فطر السماوات والأرض، فإن الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، وأظهر فيها بدائع صنعه قادر على حفظ قلبي من الخواطر المذمومة والوساوس التي لا تليق بالحق.

قال بعضهم: كان لإبراهيم خليل الرحمن ﷺ مقاماتٌ: الأول: مقام الفاقة، والثاني: مقام النعمة، والثالث: مقام المعذرة، والرابع: مقام المحبة، والخامس: مقام المعرفة، والسادس: مقام الهيبة، فتكلم في مقام الفاقة بلسان الدعوة فقال:﴿ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم:٤٠]، وفي مقام النعمة بلسان الشكر، وقال: ﴿ٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء:٧٩]، وفي مقام الاعتذار بقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وفي مقام المحبة بلسان المودة: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، وفي مقام المعرفة بلسان الانبساط:﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وفي مقام الهيبة بالسكون لمّا قال له جبريل ﷺ: هل لك من حاجةٍ؟ قال :أما

إليك فلا»[1].

وقال الأستاذ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ يعني: أحاط جوف الطلب، ولم يخيل له صباح الوجود، فطلع له نجم العقول، فشاهد الحق بسرِّه بنور البرهان، فقال: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾، ثم زيد في ضيائه، فطلع له قمر العلم، فطالعه بشرط البيان، فقال: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾، ثم أسفر الصبح، وطلع النهار، فطلعت شموس العرفان عن برج شرقها، فلم يبق للطلب مكانٌ، ولا للتجويز حكمٌ، ولا للتهمة قرارٌ؛ فقال: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾؛ إذ ليس بعد الغيب ريبٌ، ولا عقب الظهور سرٌّ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: الذين شاهدوا الله بوصف المعرفة والتوحيد لا برسم الاستدلال بالأكوان والحدثان، ولم يتجاوزوا في مقام المشاهدة عن مقام العبودية إلى مقام الأنانية من مباشرة أحكام الربوبية وحسن تجليها، فإن العارف إذا بقي عند المشاهدة في مقام العبودية فنعته صحوٌ وتمكينٌ، وهو في غاية المعرفة، وهو مقام النبي ﷺ عند قوله: «أنا العبدُ لا إله إلا الله»[2]، فإذا تجاوز منه بذوق إدراك نور الربوبية إلى الأنانية؛ فنعته السكر والتلوين، وهو في مقام الاضطراب غير بالغ في المعرفة، كمَنْ ادَّعى الأنانية بقوله: أنا الحق وسبحاني، فإن دعوى الأنانية هاهنا ظلمٌ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، فمَنْ بقي بوصف العبودية في المشاهدة وقاه الله بوقاية التوحيد، والمعرفة الخاصة أن يسلبه غمرات السكر التي توقع السكران إلى هتك الأسرار ودعوى الأنانية.

وهذا معنى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ به إليه.

وأيضًا: إشارة الآية إلى مَنْ لا يرجع في مشاهدة الله إلى الحدثان، كما وصف نبيه ﷺ بمقام الدنو والتمكين في دنو الدنو بنعت الاستقامة في مشهد القرب؛ حيث ما زاغ سره إلى غيره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾؛ لأن مَنْ التفت منه إلى غيره، وإن كان الجنة نقد أشرك في حقائق التوحيد ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾، مقام الأمن لا يحصل لأحدٍ ما دام بوصف الحدثية، وكيف يكون أمنًا منه وهو في رِقِّ العبودية، ويعرف نفسه بها، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ فإذا رأى الله سبحانه بوصف المحبة والعشق والشوق، وذاق طعم الدنو، واتصف بصفات الحق بدا له أوائل الأمن؛ لأن في صفة القدم لا يكون علّة الخوف والرجاء؛ لأن هناك جنة القرب والوصال، وهم فيها آمنون من طوارق القهر، وهم مهتدون ما داموا متصفين بصفاته، وإن كانوا في تسامح من مناقشة الله بدقائق خفايا مكره.

قال ابن طاهر في قوله: ﴿لَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم﴾: لم يرجعوا في النوائب والمهمات إلى غير الله، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ الكفايات، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ راجعون إلى مَنْ إليه المرجع.

وقال الأستاذ: أي الذين أشاروا إلى الله، ثم لم يرجعوا إلى غير الله.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[1] الدرجات: المقامات الشريفة في المعرفة، والحالات الرفيعة في المحبة، والكرامات الزكية في المعاملة، وهي بذاتها طريقٌ إلى الله، فإذا وصل إليه وفني فيه وبقي معه لم يبق هناك درجات ولا دركات، إنما هناك سباحةٌ في بحار الآزال والآباد للعارفين والموحدين، أي: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ مَنْ المريدين، ونوصل مَنْ نشاء إلينا بلا قطع المقامات، والسير في الدرجات من العارفين.

وأيضًا: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ درجات العشق والمحبة والشوق، وهي مراقي القرب، رقّاهم الله بها إليه أبد الآبدين.

---

(١) قال ابن عجيبة: رفعُ الدرجات في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين، والترقي في شهود رب العالمين، وذلك بحسب التبتل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأنس، والله تعالى أعلم [البحر المديد (٢/ ١٦٩)].

قيل: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: بصفاء السر، وصحة الهمة.

وقيل: بخلق السنا والهمة الزكية.

وقيل: بالكون مع الله والفهم عنه.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: اجتبيناهم في الأزل بمعرفتنا قبل إيجادهم، وهديناهم إلى مشاهدتنا بعد إيجادهم؛ لأن هُناك استقامة كل عارف، ولا يدخل فيهم اعوجاج الخطرات واضطراب البشريات.

قال الجنيد: أخلصناهم لنا، وأدَّبناهم لحضرتنا، ودللناهم على الاكتفاء بنا عمّا سوانا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ أمر حبيبه ﷺ بالاقتداء بالأنبياء والرسل قبله في آداب الشريعة والطريقة؛ لأن هناك منازل الوسائط، فإذا أوصله بالكلية إليه وكحل عيون أسراره بكحل الربوبية، وجعله مستقلاً بذاته مستقيمًا بحاله، وخرج من حدِّ الإرادة إلى حدِّ المعرفة والاستقامة، أمره بإسقاط الوسائط بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ [الأعراف:٢٠٣].

ألا ترى كيف زجر ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ حين جاء إليه بورقٍ من التوراة ليستأذن منه ﷺ بقراءته والعمل به، فقال: «أمتهوكون أنتم كما تهوَّكت اليهود والنصارى، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي»(١).

وأيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ﴾ أي: عرفهم ذاته لصفاته، وعلمهم حقائق آدابه، وأمر صفيه ﷺ بأن يأمر أُمته بالاقتداء بشريعته التي هي شريعة الأنبياء.

ألا ترى كيف قال الله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

وقال الواسطي في هذه الآية: هداهم بذاته، وقدَّسهم بصفاته، فأسقط عنهم الشواهد والأعراض، ومطالبات الأعواض، ملأ لهم إشارة في سرائرهم والعبارة عن أماكنهم.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٢٠٠).

قيل في هذه الآية: لا تصح الإرادة إلا بالأخذ من الأئمة وبركات نظرهم، ألا ترى كيف أثر نظر المصطفى ﷺ في أصحابه، فقال: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»[1]، فلا يصح الاقتداء إلا بمَنْ صحت بدايته، وسلك سلوك السادات، وأثرت فيه بركات شواهدهم.

ألا ترى المصطفى ﷺ يقول: «طُوبى لمَنْ رآني»[2] أي: فاز من أثَّرت فيه رؤيتي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قطع الله بهذه الآية أطماع الحدثان عن إدراك كنه قدمه وغرة أزليته؛ لأن الحدثان لا يبقى أثرها في جمال سطواته عزة الرحمن، كيف يعرف قدره مَنْ لا يعرفه؟ وكيف يعرفه مَنْ لا يعرف نفسه؟ وكيف يعرف نفسه مَنْ لا يكون خالق نفسه؟ وكيف يكون خالق نفسه، والأزلية منزّهة عن الأضداد والأنداد؟! لأن سطوات عظمته لا تبقي للحدثان أثرًا في ساحة كبريائه، عرف قدره بنفسه لا غيره عرف قدره، بطنان الألوهية لا يدرك؛ لأنها غير متناهية في العقول، غير محدودة في القلوب، غير معروفة بالحلول في الأماكن والأزمنة.

قال الحسين: كيف يعرف أحدٌ حق قدره وهو يقدره، يريد أن يقدر قدره وأوصاف الحدثان أثر يقع من أوصاف القدم.

وقال بعضهم: ما عرفوا حق قدره، لو عرفوا ذلك لذابت أرواحهم عند كل واردٍ يرد عليه من صنعه.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ أي: إذا وقعت أسرار الواصلين في أودية الألوهية، وتحيرت أرواحهم في هواء الهوية، وفنيت عقولهم في سطوات القدرة، وذابت أشباحهم في طوارق تجلّي المشاهدة، وما عرفوا مسالك ما يرد عليهم من واردات موارد تجلّي الجمال والجلال، ويسألونك بنعت الدهش والهيمان، إيش بنا؟ وأين وقعنا؟ قل بلسان داء المحبة: الله، أي: ما وقعتم فيه فهو بحر آزال الله، وقعتم بالله في الله، وإذا سألك أهل وقائع ظلمات القهر التي حيرتهم في وادي الضلال، من أين هذا وقع علينا؟ فقل: الله أوقعكم فيها، ليست الولاية بالمجاهدة، وليست الضلالة بالعلّة، ثم ذرهم طائفتين واشتغل بي، فإن ممازجة الحدثان لا يليق بقلب فيه محبة الرحمن.

وأيضًا: قل بلسانك الله، ولا تقل بلسان سرك؛ فإن الاشتغال بالذكر عن المذكور حجابٌ.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٦٠٩)، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٨٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٧١).

وأيضًا: إذا فرغت من تبليغ الرسالة توجه إلى الله ممّا سوى الله، وقل: الله؛ حيث لم يكن غير الله، ثم ذر الأكوان والحدثان بعد قولك الله؛ ليوافق لسان الظاهر سريرة الباطن في المحبة.

قال بعضهم: دعا خواصه بهذه الآية إلى الانقطاع من كشف ما له إلى الكشف عمّا به.

وقيل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى جريان السر، ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ في سرك، وذر ما في لسانك.

حُكِيَ أن رجلاً سأل الشبلي، وقال: يا أبا بكر، لِمَ تقول الله، ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال الشبلي: لا أنفي به ضدًّا، فقال: زد عليَّ من ذلك يا أبا بكر، فقال الشبلي: لا يجري لساني بكلمة الجحود، فقال: زد عليَّ من ذلك، فقال: أخشى الله أن أؤخذ في وحشة الجحد، فقال: زد عليَّ من ذلك، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] فزعق الرجل وخرجت روحه، فتعلق أولياء الرجل بالشبلي، وادَّعوا عليه دمه، فحملوه إلى الخليفة، فخرجت الرسالة إلى الشبلي من عند الخليفة يسأله عن دعواه، فقال الشبلي: روح حنت فدنت، فدعيت فأجابت؛ فما ذنبي؟! فصاح الخليفة من وراء الحجاب: خلوه، لا ذنب له.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مقدس من تهمة الأوهام، غير مدرك بحقائقه عند الأنام.

وأيضًا: مبارك عليك، وعلى أمتك الصادقين الذين يتبعونه بالشوق والمحبة، ويفهمونه بالذكر والهيبة، فيصلون به إلى رؤية خزائن صفات القدم؛ لأنه صفة تدل كلماته إلى جميع الصفات وعرفانها ونيل خزائنها؛ لأنه مفتاح كنوز الصفات والذات، وهو ميمون علا كل عارفيه، وعلا كل متابعيه بالتدبر فيه، واقتباس أنواره كما ذكر في موضع آخر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وأيضًا: مباركٌ؛ لأنه كتاب الحبيب إلى الحبيب، فيه أسرار القرب والوصال والتشويق إلى الحسن والجمال، والتحذير من البعد والفراق؛ وهو مسامرة النجوى لأهل النور والتقى، ومشحونٌ بإشارات العارفين، ومعجونٌ بمفرحات فؤاد الموحدين، مكنوناته مصونةٌ عن عيون الأغيار، ولطائفها محروسةٌ عن مطالعة أهل الاغترار، وهو يوافق جميع الكتب في تعريف الله بصفاته وذاته وعبوديته؛ لأنها جميعًا من مصدر واحد وصفة واحدة غير متغيرة.

قيل: مبارك على مَنْ اتبعه وآمن به.

وقيل: مبارك على مَنْ صدقه وعمل بما فيه.

وقيل: مبارك على مَنْ فهم عن الله أمره ونهيه.

وقيل: مبارك على مَنْ قرأه بالتدبر وعلى مَنْ سمعه بالحضور.

وقال الأستاذ: كتاب الأحباب عزيز الخطر، جليل الأثر، فيه سلوةٌ عند غلبات الوجد، ومن بقي عن الوصول بذلك الرسول.

وقيل:

وَكُتبُك حَوْلِي لَا تُفَارِقُ مِضْجَعِي وفيهَا شفاءٌ للذِي أنا كَاتِمُ

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ إن الله سبحانه بيَّن في كتابه شأن الغالطين والمفترين والناحلين الكذب والزور، المترسمين بالتكلف رسوم العارفين، وألزمهم سمة الظلم، وذكر أنهم ظالمون بدعواهم الكذب، وإشارتهم إلى مقام الأمناء من المحدثين المكلمين بغير وصولهم إلى ذرة منه؛ تغريرًا بالعوام، وطلبًا لجاههم، وهم خائنون في ذلك، ولا يرجع مكرهم إلى منقصتهم في الدنيا والآخرة، وإسقاط جاههم عند الله وعباده، وسقوطهم عن قلوب رجال الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾؛ لأنهم متشبعون ولم يعطوا، فضحهم الله بكشف غطائهم عند الخلق، وإظهار كذبهم عند عجزهم عن الإخبار من مقامات القوم بالحقيقة حين يمتحنهم أهل المعرفة بالله.

قال ﷺ: «المتشبعُ بما لم يعطِ كلابس ثوبي زورًا»(١).

وأنشد بعضهم في ذلك:

إذا انسكبت دُموعٌ في خُدودٍ تَبَيَّنَ مَن بَكى مِمَّن تَباكى

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٠٠١)، ومسلم (٣/ ١٦٨١).

وقال آخر:

أمّـــا الخـــيامُ فإنّهـــا كَخـــيامهمُ وأرىَ نـــساءَ الحـــيِّ غـــيرَ نِـــسَائهَا

فمَنْ ذكر الله سبحانه ورأى لذكره موقعًا فهو مفترٍ ولا يعلم؛ لأنه تعالى وصف نفسه قبل وصف الخلق نفسه، وكل وصفٍ بعد وصفه صفة الحدوثية، وكيف يصفه أحدٌ وهو لا يعرفه كما هو يعرف نفسه، تعالى الله عن أذكار الغافلين.

قال بعضهم: إن ما لا يليق بجلالة قدره، وحقيقة شأنه قربه، وإن كان مأذونًا فيه؛ لأن ذلك على أقدار خلقه وطاقتهم لذلك.

وقال سهل بن عبد الله: مَنْ ذكر فقد افترى، قال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [الصف:٧] لأذكار الغفلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بيّن أن أعمال جميع الخلائق من العرش إلى الثرى مضمحلة عند كشف جلال عظمته، ونوال جماله لما يبدو لهم أنوار الأزلية، يتبرأون من جميع أعمالهم؛ لأنهم يرونها لا تليق بجلال قدره، ولا يكون موازيًا بما يعطيهم الله من سنيات كراماته، ولطائف برِّه، وحسن مواساته، وعند رؤية القدم كما كانوا خارجين من العدم.

قال بعضهم: أجل مقام العبد إفلاسه، والرجوع إليه خاليًا من جميع طاعته.

قيل: لأنه [حفص][1] بماذا تقدم على الله.

قال: وما للفقير أن يقدم به على الغني سوى فقره.

قال الله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ خالين من أعمالكم وأحوالكم وطاعاتكم.

ولي هاهنا لطيفة أخرى: أي: لقد جئتمونا موحِّدين بوحدانيتي، شاهدين مشاهدتي بوصف الكشف والخطاب، كما جئتمونا من العدم في بدء الأمر حين عرّفتكم نفسي بقولي: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، قلتم: بلى، بلا إشارة التشبيه وغلط التعطيل، كما وصفهم نبيه ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة»[2] يعني: على فطرة الأزل، يلزم سمة العبودية بلا عِلّة الاكتساب عند سبق الإرادة، وزاد تعالى وضوحًا في أثناء الآية بقوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

---

(١) هكذا بالأصل.

(٢) رواه البخاري (١/ ٤٦٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧).

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ فلق حبة محبته الأزلية في قلوب المحبين والصديقين، وفلق نوى شجر أنوار الأزل في فؤاد العارفين، فتثمران أثمارهما بالأعمال الزكية والمقامات الشريفة، والحالات الرفيعة، قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

قال ابن عطاء: مظهر ما في حبة القلب من الإخلاص والرياء.

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ فالق إصباح مشاهدته من مطالع قلوب أحبائه حين انتشر نورها من بشرة الربانيين من أوليائه وأصفيائه، وجاعل الليل سكنًا للمستأنسين بحلاوة خطابه ولذائذ كشف جماله.

قال بعضهم: فالق القلوب بشرح أنوار الغيوب.

وقال بعضهم: منور الأسرار بنور المعرفة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ نوَّر نجوم العقول لتعرفوا بها حقائق الآيات، ونوَّر نجوم القلوب لتعرفوا بها أنوار الصفات، ونوَّر نجوم الأرواح لتعرفوا بها لطائف سبحات الذات، جعل نجوم الأفعال لعرفان الصفات، وجعل نجوم الصفات لعرفان الذات، أسرج مصباح قلوبكم من أنوار نجم تجلي الجلال والجمال لتهتدوا، وتعرفوا، وتسبحوا بها في ظلمات بحار القهر، وظلمات براريه لتبلغوا إلى رؤية أقمار الصفات وشموس الذات، وتنالوا جواهر المعارف من أصداف الكواشف.

قال أبو علي الجوزجاني: جعل الله الليل مطيةً ودليلاً، فالمطية تركبها في طلب الزلف، والدليل تستدل به إلى أبواب الرضا، قال الله: ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ إلى طريق الجنة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى

ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ﴾ ذكرت في موضع آخر تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أنشأ الكل من جواهر الفطرة، وجوهر الفطرة منشأ نور فعل الخاص، ومنشأ نور فعل الخاص ظهور الصفة، وظهور الصفة وظهور الذات تجلّي القدم، فأخرج الكل من العدم تخصيص لطائف الخطاب بالإشارة إلى نفس واحدة، أي: بظهور نفس وحدانية أزلية أبدية منزّهة عن الاجتماع والافتراق، فبعض القلوب مستقرها الملكوت، ومستودعها عالم الجبروت، وبعض العقول مستقرها الملكوت، ومستودعها عالم الجبروت، وبعض العقول مستقرها الآيات ومستودعها الصفات، وبعض الأرواح مستقرها الصفات ومستودعها الذات بنعت البقاء في الصفات والفناء في الذات؛ لأنّ القدم منزّهٌ أن يحل فيه الحدث.

وأيضًا: مستقر القلوب المقامات ومستودعها الحالات، ومستقر العقول العبادات ومستودعها الكرامات، ومستقر الأرواح أنوار المعرفة من تجلّي الصفات ومستودعها أنوار التوحيد من تجلّي الذات.

قال ابن عطاء: خلق أهل المعرفة على جهة ومنزلة واحدة، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فمستقر في حال معرفة مكشوف عنه، ومكشوف في حال معرفته مستقر عليه.

وقال بعضهم: مستقر لطاعته وعبادته مع الإيمان به، ومستودع لذلك زائل عنه بعد موته.

وقال الواسطي: مستقر أنوار الذات على الأبد، ومستودع لا يعود إليه إذا فارقه.

قال محمد بن عيسى الهاشمي: لم يزل عالمًا بخلقه شائيًا كما أراد، أودع اللوح ما استقر في كلامه، ثم أودع إلى اللوح المقادير ما استقر فيه، ثم كذلك حالاً بعد حال حتى بلغه إلى درجة السعادة والشقاوة، وذلك قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ مخرجها بصورة العلم الأزلي على نعت اختراعه بالقدرة القادرية، والحكمة الحكيمية، فلا أخذ من مأخذ المشاكلة والمشابهة؛ فإنه تعالى ناظرهما بما كان في علمه من منقوش الحكمة، وسنا القدرة، وجلال العزّة، كساهما أنوار فواتح قدرته، وضياء بهجته لطائف علمها؛ ليجعلهما أسباب عبادة عباده، ومعاش جميع

خلقه.

قيل: هو المبدع للأشياء والمبدي لها.

وقال بعضهم: فاق الأشياء جمالاً وكمالاً.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ لمّا وصف تعالى نفسه بالقدرة الكاملة في خلق الكون، وعرّفهم نفسه بإظهار الآيات، ونفى عن نفسه علّة الحدثان، وعرّفهم بتنزيه صفاته، وإفراد ذاته وصفاته من بين الأضداد والأنداد، ووصف جلاله بالوحدانية الأزلية، وعرّفهم قدس ذاته وصفاته بخطابه معهم بوصف تلك النعوت، ألزمهم بعد ذلك العبودية صِرفًا بقوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: اعبدوا من هذا وصفه، ولا تتكلموا إلى غيره، فإن الكون وما فيه خاضعٌ لعظمته بعد أن كان في قبض عزته، لا يضرّ ولا ينفع إلا بمشيئته الأزلية، وإرادته القديمة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: أنا ملجأ الكل، ومفزع ذوي الحاجات، ومناص صواحب العاهات.

قال الأستاذ في الآية: تعرَّف عليهم بآياته، ثم تعرَّف إليهم بصفاته، ثم كاشفهم بحقائق ذاته بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعريف السادة والأكابر، وقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تعريف العوام والأصاغر.

ثم وصف نفسه عقيب الآية بالتنزيه عن إحاطة أبصار الحدثان به، وعجزهم في حواشي ساحات كبريائه عن درك مكنون أسرار قدمه، وإحاطة علمه، وقدرته بجميع زلات الوجود.

قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لا تدركه الأبصار إلا بالإبصار، مستفادة من أبصار جلاله، وكيف يدركه الحدثان ووجود الكون عند ظهور سطوات عظمته عدم؟!

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ببصره القديم المنزّه عن المشابهة بالحدثان، بأن يكسوها أنوار صفاته لتراه لا بنفسها؛ لأنه بلطف ذاته ممتنعق عن مطالعة خلقه مع علو شأن علمه وإحاطته بجميعهم وجودًا وعدمًا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ من لطف جماله انجذاب القلوب بنعت العشق إلى ضياء وجهه الكريم عجزًا واضطرارًا، من لطفه غرقت الأرواح في بحار محبته، وفنيت الأسرار في فضاء هويته، ودهشت القلوب في معارك أشواقه،

واضمحلت العقول في بيداء أنوهيته من إدراك غوامض علمه.

قال أبو يزيد في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾: إن الله احتجب عن القلوب، كما احتجب عن الأبصار، فإن أوقع تجليًا فالبصر والفؤاد واحدٌ.

وقيل: معناه أن الله يطَّلع على الأبصار بالتجلي لها؛ لأن الأبصار تسمو إليه.

قال الحسين في قوله: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾[1] قال: لطف عن الكنه فأنَّى له الوصف؟! ومن لطفه ذكره لعبده في الدهور الخالية؛ إذ السماء مبنيةٌ والأرض مدحيةٌ.

قيل: سبق الوقت وإظهار الكونين وما فيها، فهذا معنىً لطيفٌ.

وقال القاسم: اللطيف الذي لم يدع أحدًا يقف على ماهية سره، فكيف الوقوف على وصفه؟!

قال ابن عطاء: لا تدركه الفهوم، وأحاط بكل شيءٍ علمًا.

وروى أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾: «لو أن الجنَّ والإنسَ والشياطينَ والملائكةَ منذ خلقوا إلى أن فنوا صُفوا صفًا واحدًا ما أحاطوا بالله أبدًا»[2].

وقال الجنيد: اللطيف مَنْ نوَّر قلبك بالهدى، وربَّى جسمك بالغذاء، وجعل لك الولاية في البلوى، ويحرسك وأنت في اللظى، ويُدخلك جنة المأوى.

وقيل: اللطيف الذي إن دعوته لبَّاك، وإن قصدته آواك، وإن أحببته أدناك، وإن أطعته كفاك، وإن عصيته عافاك، وإن أعرضت عنه دعاك، وإن أقبلت إليه هداك.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ

---

(١) اللطيفُ مَنْ يعطي قَدْرَ الكفاية، وفوق ما يحتاج العبدُ إليه، ويقال: منْ لُطفِه بالعبد عِلْمُه بأنه لطيف، ولولا لُطفُه لَما عَرَفَ أنه لطيف، ويقال: مِنْ لُطفِه أنه أعطاه فوق الكفاية، وكَلَّفَه دون الطاقة، ويقال: مِنْ لُطفِه بالعبد إبهام عاقبته عليه؛ لأنه لو علم سعادتَه لاتَّكَلَ عليه، وأقَلَّ عملَه ولو عَلِمَ شقاوتَه لأيِسَ ولَتَرَكَ عَمَله؛ فأراده أن يستكثرَ في الوقت من الطاعة، ويقال: من لطفه بالعبد إخفاءُ أجلِه عنه؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه، ويقال: من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيَه ما عمله في الدنيا من الزلّة؛ لئلا يتنغَّص عليه العَيْشُ في الجنة، ويقال: اللطيفُ مَنْ نَوَّر الأسرارَ، وحفظ على عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار [تفسير القشيري (٧/ ١٧٧)].

(٢) رواه العقيلي في الضعفاء (١/ ١٤٠).

ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ مَنَّ الله سبحانه على عباده بمجيء بصائر آياته التي تبرز نعوت الأزلية منها، وكلماته التامات التي تتجلى لذوي الحقائق منها، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه: «إنَّ الله تعالى يتجلى لعباده في القرآن»، وبتلك البصائر كحَّل الله أبصار العارفين كحل أنوار صفاته وسنا سبحات ذاته، فمَنْ كان له استعداد النظر إليها بنعت البصيرة وجد طريق الرشد لنفسه، ومَنْ ليس له استعداد النظر والبصيرة صار محتجبًا من رؤية صفائح القدس في الآيات، وصحائف الأنس في الكلمات.

قال الخواص: أنزل الله البصائر، فطُوبَى لَمَنْ رزق بصيرةً منها، وأدنى البصائر أن يبصر الإنسان رشده.

قوله تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ صرف الله فهم خطابه عن قلوب الأعداء، وفسح لطائفها وحقائقها للأولياء؛ لأن خطاب الحبيب لا يعرفه إلا الحبيب يلطف بأهله؛ حيث وهبهم فهم كلامه، حتى أدركوا بمواهبه السنية التي أودعت قلوبهم أنوار الغيوب والعلم بإدراك مكنون خطابه؛ لذلك مَنَّ على الموصوفين بهذه الصفة بقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لقومٍ يعرفون قدرتي ويفهمون خطابي، لا لَمَنْ لا يعرف مكان خطابي ومرادي من كلامي.

قال ابن عطاء: القوم يعلمون حقيقة البيان، وهو الوقوف معه حيثما وقف، والجري معه حيثما جرى، لا يتقدمه بغلبة ولا يتخلف عنه لعجز.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ لمَّا ذكر تعالى بيانه لعموم أهل العلم لمتابعتهم أمره خصَّ ﷺ بما بينهما من أسرار الربوبية ولطائف المحبة وحقائق الانبساط في المقامات والحالات، وأفرده بها عن جميع الخلق؛ حيث لا طاقة للخلق لمطالعة تلك الأسرار، ولا قوة لهم لحمل واردات تلك الأحوال غير النبي ﷺ؛ لأنه مؤيدٌ بالقوة الأزلية والنصرة الأبدية.

قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ أي: استعد لحمل واردات سطوات الألوهية، وجذبات أنوار نعوته الأبدية، وإنها خاصةٌ لك، ألا ترى كيف وصف نفسه له في وسط الآية بالفردانية والتنزيه عن أشكال الخليقة بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: هو بوصفه تجلى لك بنعته ووصفه حيث كنت، خلقت بنعت استعداد تحمل ظهور الأزلية، وإذا كنت كذلك أنت لا تليق بالمشيرين إلى غيره، فأنت أعزُّ وأفضل من أن يكون معك في هذا المقام

أحدٌ من المغيرين بحالهم، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وكان ﷺ له مقاماتٌ في الوحي، كان له وحيٌ خاص الخاص له لا لغيره، وذلك موضع سر السر في دنو الدنو، حيث خصَّه الله بذلك بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وله وحيٌ خاصٌ له ولخواصه وإخوانه من الأنبياء والأولياء بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣]، وله وحيٌ عامٌ، وهو قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٦].

قال بعضهم: الوحي سرٌّ عن غير واسطة، والرسالة والإنزال ظاهرٌ وبواسطة؛ لذلك قال: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لأن الوحي كان خاصًا له مستورًا؛ لقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب:٢]، والإشارة للأولياء في ذلك تأديبًا لهم، حيث يتعارض إلقاء العدو ووحي الله، أي: دعوا ما سوى الوحي من الهواجس والوسواس، واتبعوا ما يجل في قلوبكم من الخطاب الذي وصفه قدس القلوب، من الخواطر والعوارض، ألا ترى إلى قوله ﷺ لوابصة: «دعْ ما يُريبك إلى ما لا يُريبك»[1]، و«استفتِ قلبَك، ولو أفتاك المفتون»[2].

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٨)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٣٩).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٩٤).

ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ إن الله سبحانه ابتلى العموم بالدنيا وأعمالها في نفع الجاه والمال، وابتلى الخصوص برؤية المعاملات الأخروية ورؤية أعواضها، فمَنْ كان غير أهله أبقاهم فيها، وحجبهم بها عن لذَّة قربه ووصانه، ومَنْ كان أهلاً له من العارفين والمتحققين رفعها عن عينه حتى لا يرى وزنًا، ولا يزنها مقدار عند رؤية امتنانه بما سبق لهم من اصطفائيته وخاصيته بالولاية والمعرفة، زيَّن للبطالين شرور أعمالهم النفسانية حتى يروها مستحسنة، ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤].

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، وزيَّن للمجاهدين أعمالهم في العبادة حتى يزيد رغبتهم فيها.

قال الواسطي: زينت الأعمال عند أربابها؛ فأسقطوا بها عن درجة المتحققين إلا من عصم بنور المشاهدة، فشاهد المنّة في التوفيق بل شاهد المنان.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ أضاف الحق سبحانه تقليب القلوب والأبصار إلى نفسه، فكل موضع قلب القلوب إلى رؤية صفاته وذاته بنعت المحبة والشوق والمعرفة اتبعتها الأبصار بمطالعتها أنوار القدرة والعزَّة في الآيات، فوافقت الأبصار القلوب بتصحيح المعاملات وتقديس الأسرار وصفاء الحالات، وكل موضع صرف القلوب عن الإقبال إليه انصرفت الأبصار عن مطالعة المشاهد في الشواهد؛ لذلك استعاذ النبي ﷺ بقوله: «يا مقلّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي»[1].

قال النصرآبادي: النفوس في التنقيل، والقلوب في التقليب؛ لذلك قال النبي ﷺ: «يا

---

(١) رواه الترمذي (٤/٤٤٨).

مقلّبَ القلوبِ»(١).

وقال أبو حمزة: أقبل الله على قلوب فأقبلت عليه، وأعرض عن قلوب فأعرضت عنه.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أخبر تعالى عن سابق كلماته الصفاتية الأزلية يكلم بها بنفسه مع نفسه في نفسه؛ لاختصاص أهل ولايته واصطفائيته بخالصة محبته، واجتبائه صفوة أهل معرفته وتوحيده بغير علّة اكتسابهم خيرًا وشرًّا ولا نقضًا لإبرام قضيته، ولا ناقضًا لميثاق مشيئته، سبقت منه العناية لهم بوصف استجلاب أرواحهم إلى معادن قدسه، واجتذاب قلوبهم إلى مجالس أنسه، تمت كلمته بحسن قبولهم، حيثما اشترط علّة العبودية، وتمام كلماته صدق مواعيده بلطف عنايته بلا مكافأة منهم لها، وهو تعالى بذلك عادلٌ؛ حيث اصطفاهم بوضع خزائن معرفته في قلوبهم، وهو لها أهلٌ، ولهم من عنايته استعدادٌ لقبول أمانته بشرط الرعاية، واصطفاء أسماع قلوبهم بحياطتها حتى لا تشوبها أذكار الحدثان وخطرات الطغيان، لا مبدل لكلماته، لا يدخل في ديوان سبق رحمته لأهل عنايته طوارق قهره من علّة ما طرأ عليهم من وارد امتحانه، كما قال تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»(٢).

قيل في تفسير قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: صدقًا للأولياء تفضلاً عليهم، وعلى الأعداء أخذهم بميزان العدل.

قال مقاتل: صدقًا فيما وعد، وعدلاً فيما حكم.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وصف الله سبحانه أئمة الضلالة أنهم سقطوا من طريق الصواب، فلمّا رأوا فضاحة أنفسهم أرادوا أن يكون أهل الإرادة من الصديقين مثلهم، فيزينون لهم طريق الشهوات، قال تعالى: ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وذلك من جهلهم الله، ويعلمه الذي شامل على كل موجودٍ.

---

(١) تقدم في سابقه.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٥)، ومسلم (٤/ ٢١٠٨).

قال القرشي في تفسيره قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يتبعون مرادهم، ويتركون أوامر الكتاب والسنة.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ ظاهر الإثم ما ذمَّه الكتاب والسنة، وباطن الإثم ما ذمَّه باطن علم الكتاب والسنة.

وأيضًا: ظاهر الإثم ما لمْ يوافقه العقول، وباطن الإثم ما لمْ توافقه القلوب.

وأيضًا: ظاهر الإثم ما يعوج الجوارح عن طريق السنة، وباطن الإثم ما يشوش القلوب عند رؤيته المشاهدة.

وأيضًا: ظاهر الإثم حبُّ الدنيا، وباطن الإثم حبُّ الجاه.

وأيضًا: ظاهر الإثم ما يغرك برؤوسها من الأعمال، وباطن الإثم ما يسكن إليه قلبك من الأحوال.

قال بعضهم: ظاهر الإثم رؤية الأفعال، وباطنه الركون إليها في السرِّ باطنًا.

قال سهل: اتركوا المعاصي بالجوارح، وحبها بالقلوب.

قال الشبلي: ظاهر الغفلة، وباطنه لسان المطالعة عن السوابق.

وقيل: باطن الإثم خفي العقائد، ومسترقات الألحاظ.

﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ بيّن الله سبحانه من الناس خلق على طبع الشياطين بقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، وهم أهل السالوس، والناموس، والمتقشفين بزي الظاهر، المدّعين مقامات أولياء الله، يأخذون مزخرفات

الشياطين بقلوبهم، ويترفعون بألفاظ الطامات، ويغزون بها مَنْ لا يعرف الحق من الباطل.

قال أبو عثمان المغربي في هذه الآية: يلقون على ألسنة المدعين ما يقطعون به الطريق على المتحققين، ولمّا ذمَّ الله المدعين الذين ماتت قلوبهم في ظلمات الطغيان واحتجبت بها عن أنوار العرفان وصف بعد ذلك إحياء المعارف بأنوار الكواشف بعد أن كانوا محجوبين بالعدم عن نور القدم بقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: أو مَنْ كان ميتًا بالعدم فأحيينا ه بنور القدم.

وأيضًا: أو مَنْ كان ميتًا بالمجاهدات فأحييناه بروح المجاهدات.

وأيضًا: أو مَنْ كان ميتًا بشهوات النفس فأحييناه بصفاء القلب، ومَنْ كان ميتًا بالخليقة فأحييناه برؤية الحقيقة.

وأيضًا: مَنْ كان متمنيًا برؤية الثواب، فأحييناه برؤية المآب إلى الوهاب.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أعطيناه نور الفراسة يحكم باستشراق قلبه على الهموم بنور الفراسات في قلوب الناس.

وأيضًا: ألبسناه أنوار الغيب فيكون سراجًا بين الناس لهداية الناس بإنقاذهم من وثائق الوسواس.

وأيضًا: كسينا روحه نور مشاهدتنا، وعقله نور آياتنا، وقلبه نور صفاتنا، وسره نور ذاتنا، وصورته نور حضرتنا، وجعلنا جميع وجوده نورًا بين الخلائق؛ ليهتدي به كل ضالٍ من سبيل الرشاد هذا كالذي في ظلمات طبيعته ونفسه، وهاوية هواه متحيِّر لا يهتدي إلى طريق الحق؛ لأنه في حجاب القهر أبدًا، وصف امتنانه على المريدين الصادقين، وتفضله على المقبلين، وقهره على المفلسين، وأضاف الهداية والضلالة إلى عنايته الأزلية وكفايته الأبدية وقهره السابق في المشيئة، وسمي المريد الصادق ميتًا قبل وجدان نوره وروح حياته قربه؛ لأنه كان من المقصرين، وإن كان بعد ذلك من المتوفرين؛ لأن أكابر المعرفة كانوا أحياء في بساتين لطف مشاهدته تحت أذيال ألطاف قربه أحياء من الأزل إلى الأبد.

قال جعفر ﷺ في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بنا، وجعلناه إمامًا يهتدي بنور الأجانب ويرجع إليه الضُّلال ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ كمَنْ يرى شهوته وهواه، فلم يؤيد بروائح القرب ومؤانسة الحضرة.

قال ابن عطاء: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بحياة نفسه وموت قلبه، ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بإماتة نفسه وحياة قلبه، سهّلنا عليه سبل التوفيق، وكحّلناه بأنوار القرب، فلا يرى غيرنا، ولا يلتفت إلى سوانا.

قال الجريري: إذا أحيى عبدًا بأنواره لا يموت أبدًا، وإذا أماته بخذلانه لا يحيى أبدًا.

وقال جعفر ﷺ: أو مَنْ كان ميتًا بابتعاده عن الطاعات ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ﴾ نور التضرع والاعتذار.

وقال بعضهم: ﴿مَيْتًا﴾ برؤية الأفعال ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ برؤية الافتقار.

قال القاسم: أحيا أولياءه بنور الانتباه كما أحيى الأجساد بالأرواح.

وقال سهل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بالجهل ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالعلم.

وقال ابن عطاء: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بالانقطاع عنا ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالاتصال بنا ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أيضًا، لا كمَنْ تركناه في ظلمة الانقطاع.

وقال الأستاذ: الإيمان عند هؤلاء القوم حياة القلب بالله، وأهل الغفلة إذ أُلهموا الذكر، فقد صاروا أحياء بعدما كانوا أمواتًا، وأرباب الذكر لو اعتراهم نسيان، فقد ماتوا بعد الحياة، والذي هو في أنوار القرب، وتحت شعاع العرفان، وفي روح الاستبصار لا بدَّ أنه من هو في أسرار الظلمات، ولا يساويه مَنْ هو رهين الآفات.

وقد وجد خاطري خاصية لطيفة في حقيقة تفسير الآية: إن المراد بالميت: الفاني في عالم نكرة التوحيد؛ حيث بدت له صواعق سطوات الكبرياء والعظمة، فأحياه بروح بقائه ومشاهدة أبديته، حيث ينتعش من بيداء النكرة بأنوار المعرفة، يمشي بالأسرار والأرواح في أنوار البقاء، لا يحتجب عن أنوار جمال وجهه أبدًا، فيحيي به كل قلبٍ ميتٍ، وتطمئن برؤيته كل نفسٍ مفترةٍ عن طاعة ربها، مفتونة بظلمات شهواتها، ولمّا استأثر إحياء ميته وإعطاء نوره لنفسه ومدحه بذلك وبيَّن مزيته على المدبرين حصَّن نفسه بالعلم الإلهي بوضع ولايته ورسالته في الأماكن المستعدة بقبول نوره وهدايته بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، بيَّن أنه يعلم من بطنان صميم الفؤاد والأرواح والأسرار، وخزائن مواهبه السنية من النبوة الولاية والرسالة والمحبة والمعرفة، ونبَّهنا بأنه أراد في الأزل وضع ودائع أسراره في ملكوت القلوب، فنظر من نفسه إلى نفسه، فأشرق نور صفاته وذاته، وسطع ضياء مشاهدته، ثم عكس ذلك إلى غيب غيبه، فأظهر منه أرواح القدسية الملكوتية اللاهوتية، فوضع في نفوسها أنوار الولاية والرسالة والنبوة، وأفردها بتلك الخاصية عن جميع الخلائق تفضلاً وكرمًا، ما اعترته في ذلك عِلَّة الحوائج، لكن جعلهم سبل الخلق والمناهج؛ بهم يهتدون إلى عبودية خالقهم وعرفان ربوبية سيدهم، ومَنْ خصَّه الله بذلك لا يضرُّه حسد الحاسدين ولا كيد الكائدين، بل يزيد شرفه أبد الآبدين، والحمد لله الذي خصَّ نبينا ﷺ بذلك صلى الله عليه وآله وسلم، إرغامًا لأنوف عواديه، وانتصارًا لمواليه.

وقال النصرآبادي: الله تعالى يعلم الأوعية التي تصلح لسره ومنازلاته ومكاشفاته، فيرنيها بخواص الأنوار، ويلطفها بلطائف الاطلاع.

قال أبو بكر الوراق: كما أن الملوك يعلمون مواضع جواهرهم وخزائنهم، ويجعلونها في أشرف الأماكن وأروحها وأخصها، فالله يعلم حيث يجعل ويضع نبوته ورسالته وولايته، ثم إن الله سبحانه إذا أراد أن يضع جوهر معرفته في وعاء قلب عبده يفسحه نور تجليه، ويكسيه لباس نور كسوة ربوبيته؛ ليطيق حمل أثقال أمانته من المعرفة والمحبة والولاية؛ ليسهل عليه حمل عظيم ودائع أسراره، وفوائد طوارق أنواره، بقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ أي: مَنْ يرد الله أن يهديه إلى نفسه ويعرفه صفاته، ويريه جلال ذاته، يوسع صدره بلطيف أنوار قربه وحلاوة خطابه حتى يعرّفه به لا بسواه، ويراه بنوره لا بنفسه.

قال النهرجوري: صفة المراد خلوةٌ ممّا له وقبوله ممّا عليه، وسعة صدره بمراد الحق عليه، قال الله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾.

يُقال في هذه الآية: نورٌ في البداية هو نور العقل، ونورٌ في الوسائط هو نور العلم، ونورٌ في النهاية هو نور العرفان، فصاحب العقل مع البرهان، وصاحب العلم مع البيان، وصاحب المعرفة في حكم العيان.

وفي تفسير هذه الآية أخبر نبينا ﷺ من كيفيته وأماراته فيما روي ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾، قالوا: يا رسول الله ما هذا الشرح؟ قال: نورٌ يُقذف في القلب، فيفسح له القلب. فقيل: هل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: نعم. قيل: وما هي؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل النزول»[1].

بيَّن ﷻ بوقوع نور التجلي في القلب فسحته بانتشار سناه فيه بعدما خلا بالله من بوادي أسراره، وإلباسه ضياء قربه ووصاله، وذلك محض الجذب بنعت العناية إلى مشاهدته، فنعته في ذلك التسارع في عبوديته، وسرعة القيادة لظهور ربوبيته، وغلبة شوق جماله عليه عند تجافيه عن كل مألوفٍ ومحبوبٍ، وهذا أحسن الصراط إلى الله، المستقيم عن الاضطراب من جهة النفس والاعوجاج، بإلقاء العدو بقوله: ﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ الصراط المستقيم بالحقيقة طريق الصفات إلى الذات بنعت المعارف والكواشف.

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ١٧٥).

والإشارة: في قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ دليلٌ قوليٌّ؛ لأن هذا إشارةٌ إلى القرآن، والقرآن صفته القديم، وهو طريق إلى ذلك القديم بنعت مباشرة التجلّي ووجدانه بوصف المحبة والمعرفة.

قال ابن مسعود ﷺ: صراط ربك هو القرآن؛ لذلك ارتضى لنفسه؛ لأنه صفته وهو صراط ممهدٌ لسير الأرواح من معادن الأشباح إلى عالم الأفراح، مستقيمٌ لقوامه بذاته القديم، لا ينقطع المعتصم بحبله والمقتدي بأسوته.

وأيضًا فيه نكتةٌ شريفةٌ وهي: أن قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ خصَّه لنفسه، أي: هو يأتي بنعت تجلّيه وظهور الصفات والذات بهذا الطريق إلى أصفيائه وأوليائه وأحبائه، لم يقل: هذا صراطكم إليّ، بل قال: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ الذي أكشف فيه نقاب الحشمة عن جمال وجهي، حتى ينظر إليَّ مَنْ يتمسك بحبلي، والمقبل إليّ بصراطي.

قال أبو عثمان: أهدى الطرق وأقومها طريق المتابعة، وأهدى السبل وأضلها طرق الدعاوى بالمخالفة.

قال سهل: التوحيد والإسلام صراط ربك مستقيمًا، ولمّا هداهم إلى صراطه المستقيم، ومنهجه القويم الذي ينكشف جلاله وجماله لسالكه، الذي لم يكن لإقباله إدبار، ولم يكن لهفواته إصرار، وصفهم بالسلامة في دار رضوانه ومربع غفرانه، وجعل لهم هناك منازل الرفاهية، وفتح فيها عليهم روازن العافية، التي هي مشاهدته بلا حجابٍ بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾.

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُم دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ دار السلام: ساحة جلاله

وحظائر قدس صفاته، ومساقط وقوع أنوار الجلال، التي هي منزَّهةٌ عن خطر الحجاب وعلّة العتاب وظرفان العذاب، حاشا منها عند الكريم الوهاب، الذي هو وليهم بنعت رعايتهم، وكشف جماله لهم بالعوافي الأبدية والسلامة السرمدية.

وأيضًا: ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ هو الله سبحانه الذي وصف نفسه بالسلام؛ لئلا يفرق منه قلوب العارفين، ولا يفزع من جماله أرواح المحبين، ولا يخاف من جلاله أسرار الواصلين؛ لأنه معدن سلامة المقبلين إليه بنعت المحبة، وداره قلوب عشاقه التي هي محل كنوز أسراره ومواهب أنواره، ومعدن أنبائه العجيبة، ولطائفه الغريبة، وفواتح لوامع سبحاته الأزلية، وهي بتقلبه في أنوار الصفات والذات بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ولقول صفيه ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبُها كيف يشاءُ»(١)، وهو وليُّهم تعالى بحفظها ورعايتها؛ حتى لا يدخلها هواجس النفسانية، وغمرات وساوس الشيطانية، ما أحسن مناظرها! وما ألطف مطالعها! وما أكرم لطائفها! وما أنعم بهجتها! وما أطيب حلاوة محبتها!.

وأيضًا: علّقهم بالدار الكرامة الجار، ولو علّقهم بالجار لم يبق في البين؛ لحديث الدار، لكن بقي في القوم بعض إزاغة أبصارهم بنعت الالتفات عند الامتحان إلى غير وجه الرحمن من النعيم والجنان، فعلّقهم بها لوقوع علّة الحدثان، لكن بفضله ما خلاهم فيها حين قال: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ يعني: يرفعهم عن رؤية الغير في البين، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: كل حادثٍ مُضْمَحِلٌّ عند انكشاف وجه القدم.

وإذا كان تعالى بنفسه دعاهم فإن جميع المنازل طابت، إما في الدنيا، وإما في الآخرة؛ لأن بحفظه طابت الأكوان، وبحسن جواره تلذذت الحدثان، وأنشد في معناه:

سَلامٌ علَى سَلمَى وإنْ شَطَّ دَارُهَا ... سلامٌ علَى الأرضِ قديمٌ بهَا العهدُ
سَلامٌ علَى جَارَاتِهَا لجوارِهَا ... سلامٌ حزينٌ وامِقٌ شفَّهُ الصَّدُّ
إذَا نَزلَتْ سَلمَى بِوادٍ فَمَاؤهَا ... زُلالٌ وسلسالٌ وتِيجَانهَا وَردُ
يا عارفُ لو تراه في وسط النار بردًا وسلامًا ... وتكون جمراتها وردًا وريحانًا

ألا ترى إلى قوله سبحانه في وصف خليله ﷺ حين أدخله في دار سلامته، ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩].

انظر إلى شأن البدوي العاشق كيف يقول في حال حبيبه:

يكونُ أُجَاجًا دونكُمْ فإذَا انتهَى ... إليكمْ تلقَّى طِيبكمْ فيَطيبُ

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٠١).

وَمَــا ذاكَ إِلَّا حَــيثُ أَيقَــنتُ أَنَّــهُ ... يَمُــرُّ بِــوادٍ أَنــتِ مِــنهُ قَــريبُ

وأيضًا:

أهــوَى هَــواهَا لمــنْ كَــانَ سَــاكنهَا ... ولــيسَ بالــدَّارِ لِي هَــمٌّ ولاَ حظَــرُ

وأيضًا:

إنِّي لأحــسدُ جَــارَكمْ بجــوَارِكمُ ... طُوبَــى لمــنْ أضْــحَى لــدارِكِ جَــارَا

يَــا لــيتَ جَــارَكَ بَاعنِــي مِــنْ دَارهِ ... شِــبرًا فَأعطــيهِ بِــشبرهِ دَارَا

قال سهل: دار السلام هو الذي يسلم فيه من هواجس نفسه ووساوس عدوه.

قال بعضهم: دار السلام هو محل السلامة من القطيعة.

قال بعضهم: دار السلام هو الذي يكرمهم الله فيه بالسلام عليهم، وهو قوله ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد:٢٤].

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ﴾ أخبر تعالى عن الصفتين القديمتين الصادرتين من الأزل للعموم والخصوص من الحدثان، بفنائه استغنى عن طاعة المطيعين، وبرحمته رحم كل العاصين، حين لا ينفعه طاعة المطيعين، ولا يضره عصيان العاصين، ملابسة أقطار الحدثان من لطائف الإنعام من بحار رحمته مطر لطفه على الأنعام، غناه أغنى العارفين عن الكونين، ورحمته شملت كل العالمين، فقال: سماع غناه يوجب محوهم، وسماع رحمته يوجب صحوهم.

وقال الأستاذ: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ يشير إلى غيره، والرحمة تشير إلى لطفه، أخبرهم بقوله: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ عن جلاله، وبقوله: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ﴾ عن أفضاله، فبجلاله يكاشفهم فيفنيهم، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾ إن الله سبحانه في قلوب العارفين جنان ورد المشاهدات وعبر المكاشفات، وزهر الجمال، ونور الوصال وياسمين المودة، ورياحين الزلفى، فبعضها معروشاتٌ بكرم حقائق معاملاتها وحالاتها، بحيث تلاصق ثمراتها إلى حضرة القديم، وأنوار معارفها تسطع إلى سماء اليقين؛ لقوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وذلك من جذب الله صميمها وأغصان أنوارها إلى قربه بقوة أزلية في إرفاعها إليه، ويضع ثمراتها غير معروشة لبقائها على أشجار الهموم والفهوم؛ ليتناولها كل طالبٍ وكل مريدٍ صادقٍ، نخلها هو الإيمان الثابت في أرض القلب، وفرعها في عالم الملكوت، قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وزروعها تُنبت فيها من بذر المحبة، وهي مختلفة ثمراتها، فمنها الأنس، ومنها القدس، ومنها الشوق، ومنها العشق، ومنها الخوف، ومنها الرجاء، ومنها العصمة، ومنها المعرفة، ومنها التوحيد، ومنها التجريد، وزيتونها إخلاصها، تُنبت من أنس الوصال بدهن نور الجمال، وصبغ صبح الجلال متشابهًا في لباس الالتباس، منبتها في منظر نور التجلي.

قال تعالى في وصفها: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ﴾ [النور: ٥٣]، ووصفها أيضًا بقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ومن هاهنا خاطب كليمه بقوله: ﴿نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، ورمانها شجرة الإلهام الذي ثمره

حكمة الحقائق ولطائف الدقائق.

﴿مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ مقاماتها بعضها متدانيةٌ من بعضها، وبعضها متباعدةٌ من بعضها؛ لأن بعضها معاملاتٌ وبعضها حالات وارداتٍ، وبعضها مكاشفاتٌ، وبعضها أسرارٌ، وبعضها أنوارٌ، فخاطبهم رب هذه البساتين بأن يستمتعوا بثمراتها ومنافعها لزيادة قوة الإيقان ونور الإيمان بقوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾.

ثم أمرهم بأن يعطوا زكاة هذه النعم المتواترة إلى المريدين الطالبين بإخراج لطائفها بنعت البيان على لسان العلم، ونشر فضائل المقامات والحالات بقوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ أي: يوم أكملت الأحوال، واستقيمت الأعمال بنعت التمكين والاستقامة.

ثم أمرهم بألا يبخلوا، ولا يكتموا عن أهلها هذه النعم الغيبية المستفادة من لطف الله العزيز بقوله: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ فإن كتمانهم عن أهلها ظلم وإسراف ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[1] يعني: من كتمانها يكون محتجبًا بعدها، ما هذه البساتين، ما أطيب ثمراتها! وما ألطف زهراتها! وما أعذب أنهارها! وما أشرق شموسها! وما أنور أقمارها! وما أزهر خضرتها! وما أكرم نضرتها! وما أحلى أصوات ألحان بلابل أشجارها حين ترنّمت بسبحاني: وأنا الحق.

قال الأستاذ في تفسير هذه الآية: بساتين القلوب أتمُّ من جنان الظاهر، فأزهار القلوب مونقةٌ، وشموس الأسرار مشرقةٌ، وأنهار المعرفة زاخرةٌ.

وقال: أما إخراج البعض فبيانه على لسان العلم وشهود المُنعم في عين النعمة أتمُّ من الشكر على وجود النعمة.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ

---

(١) الإسراف: ما تناولته لَكَ، ولو بقدر سمسمة، ويقال: الإسراف هوالتعدي عن حدّ الاضطرار فيما يتضمن نصيبًا لك أو حظًا بأي وجهٍ كان [تفسير القشيري (٢/ ٣٦٣)].

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمًا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرۡشًا﴾ أي: من قوى الإنسانية ما لا يحمل أثقال المجاهدات، ومنها ما يحمل أثقال وقار الامتحانات، فما يحمل الإنسانية يضعف تحت امتحان الله، وما يحمل بقوى الربانية يكون مطية حمل أمانة المعرفة، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب:٧٢]، ألا ترى قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه-: «والله ما قلعتُ بابَ خيبرَ بقوةٍ جسمانيةٍ، وإنما قلعتُها بقوةٍ ربانيةٍ».

وقوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ للأشباح رزقٌ، وللأرواح رزقٌ، وللقلوب رزقٌ، وللعقول رزقٌ، وللأسرار رزقٌ، وأما رزق الأشباح فما استطابته من عالم الفعل بما وافقه العلم، وأما رزق الأرواح فمشاهدة تجلي الصفات، وأما رزق القلوب فما ينكشف لها من أنوار الغيوب، وأما رزق العقول فما يلوح لها من سنا الآيات، وأما رزق الأسرار فما تجلّى فيها من مكنون علوم الخاص في رؤية الذات.

قال الأستاذ: الرزق ما يحصل به الانتفاع، وينقسم إلى رزق الظواهر والسرائر، فهذا وجود النعم، وذاك شهود الكرم، بل الجمود في وجود العدم، وللقلب رزقٌ، وهو التحقيق من حيث العرفان، وللروح رزقٌ، وهو المحبة بصدق التجرد عن الأكوان، وللسر رزقٌ، وهو الشهود، والذي قرينه العيان.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ فيه تسليةٌ لقلب نبيه ﷺ وأطماعه من الله سبحانه في إرجاع من سبق له في الأزل حسن عنايته إلى باب كرمه وعفوه وإن كان في صورة الامتحان، أي: هو واسع الرحمة على الأكوان وأهلها، يتحمل جفاء المدبرين ويواسيهم بما يصلح لأبدانهم من المعاش، ويقبل على المقبلين، فيربِّي قلوبهم بلطائف خطابه وأنوار جماله.

وأيضًا: رغَّب الجمهور مع ما هم فيه إلى سواحل بحار لطفه، وساحة جلال كرمه؛ شوقًا منه إلى وصول مصنوعاته من الأرواح والأشباح إليه، وفيه مواساة قلب النبي ﷺ، أي: فإن جفوك فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ بتخليصي وتخليص أوليائه عن جواركم إلى جواره الكريم.

قال سهل: قيل للنبي ﷺ: مَنْ أعرض عنك فرغِّبه فيَّ، فإنه من رغب فينا ففيك رغب لا غير، قال الله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ أطمعهم في الرحمة، ولا تقطع قلبك عنهم.

قال الأستاذ: الإشارة فيه بيان تخصيصه الأولياء بالرحمة، وتخصيص الأعداء بالطرد واللعنة، فالصورة الإنسانية جامعةٌ لهم، والقسمة الأزلية فاصلةٌ بينهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ بيّن سبحانه أن ألسنة الإسرار وإن كانت فصيحةً ناطقةً بحجج الحكمة المستفادة المتلقفة من فلق إلهام الغيب عند مسامرتها مع الحق في الشهود، فخرس عند بوادي حجج العدم، ومناقشته عند لطائف العتاب، أي: له حجةٌ كاملةٌ قاطعةٌ ألسنة الخواطر عند وضوح بيان إشاراته في الإسرار، وهذا المعنى لا يعرفه إلا أصحاب مسامرة ومحاضرة، الذي خرج من نعوت الإنسانية عند شهود الغيب.

قال النصراباذي: الخلق كلهم منعتهم شدة الحاجة عن معاني رؤية الحجة، ولو أسقط عنهم الحاجات لكشف لهم براهين الحجة.

قال الحسين: لكل حجةٍ حكمٌ وأمرٌ ونهيٌ، وبيانٌ وسرٌّ، وعلمٌ ومعرفةٌ ومشيئةٌ، فاعرفوا الله في كل مقام يتعرف إليكم في كل ساعةٍ.

وقال الجنيد: آثار مشيئة الهداية تنبيهٌ عند أهل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أضاف علم البيان وهداية العرفان إلى مشيئته الأزلية، يختص بعلم الإلهام والحجة والبرهان مَنْ يشاء من أهل الإيقان، ومَنْ لم يكن له استعداد رؤيته ومحبته وصلته لم يكن له حجج في أجوبته أهل الحقائق عند مجازاة الدقائق ونشر علوم الغيبة، تظهر لأجنانه حجته ويُبْهِم حجته، ويُبْهِم على قلوب المتكلفين إلهامه

وبيانه.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾، ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ عرائس الدنيا، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ زينتها وخضرتها، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ حب الرياسة والجاه.

قال المحاسبي: الفواحش ما أريد بها غير الله.

قال بعضهم: ما ظهر من الفواحش في الأفعال هو الوفاء، وما بطن منها الدعاوي الكاذبة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ إذا ادَّعيتم مقام الولاية فاصدقوا بإلقاء نفوسكم إلى قناطر البلايا؛ فإن الولاية مقرونةٌ بالبلية.

وأيضًا: إذا أخبرتم مني باللسان فكونوا حاضرين عندي بالجنان، وإذا ذكرتموني بالظاهر فكونوا شاهدين مشاهدتي في الباطن، وإذا شهدتم على معائب عبادي حين تعرفهم شأنها إياهم، لا تفرغوا في الأمر بالمعروف، ولا تخافوا عن لومة اللائمين بالنهي عن المنكر، وكونوا عادلين فيه، ولا تجاوزوا عن الحدود التي رسمتها في شرائعي.

قال أبو سليمان في هذه الآية: إذا تكلَّمتم فتكلَّموا بذكره.

وقال محمد بن حامد: العدل من الكلام ما لا يكون على صاحبه في ذلك بلغة، عاجلاً وآجلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ الوفاء بالعهد إقبال القلب إلى الله بلا إدبارٍ بنعت المحبة والشوق حتى يصل إليه، ولا يحتجب بشيء دونه، ولا يختار عليه غيره.

قال الجوزجاني: العهود كثيرةٌ، وأحق العهود بالوفاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تأمر نفسك بالمعروف، فإن قبلت منك وإلا رضِّها بالجوع والسهر وكثرة الذكر ومجالسة الصالحين؛ لترغِّب في المعروف غيرك، وتنهي نفسك عن المنكر، فإن قبلت وإلا فأدبها بالسياحة والتقطع والعزلة وقلّة الكلام وملازمته لتنتهي، فإذا انتهيت فانهِ الناس عن المنكر.

لما شرع الله سبحانه شوارع الحقيقة ونصَّب في سبيل معرفته الربوبية وصى عباده باللزوم فيها بنعت الصبر والرضا عند تحمل العناء والسياحة في بحر البلاء للوجدان والتزّين بلباس البقاء، وكذا عقد الحقيقة عليهم، وحجَّ عليهم؛ تمهيدًا للعبودية؛ وعرفانًا للربوبية بقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ صراطه المستقيم متابعة إلهامه وكلامه والشروع في عبوديته لغفرانه وطلب مشاهداته عند تقديس الخاطر عن غيره.

قال جعفر بن محمد: السلام طريقٌ من القلب إلى الله بالإعراض عما سواه، وأراد بالسبل هاهنا سبل الخطرات المذمومة والهوام النفسانية والوساوس الشيطانية؛ فإنها مظلمةٌ مفاوزها قاطعةٌ لطريق المريدين، وسبيله سبيل الهدى وضوح شموس الصفات في جلال الآيات للعقول الصافية عن أكدار الخليفة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: أعطى موسى ما خصَّ به في المناجاة؛ حيث يزيد كلامه القديم الذي بيَّن له طريق معارف القدم

وكواشف الذات والصفات حين تجلّى له، ثم أعطى النور للعموم شريعة وبيانًا بالمناهج العبودية؛ لأنهم عند مشاهدة الجلال وسمع الخاص عند كلام الخاص بمعزلٍ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ وصف المفترين والمائلين عن الطريقة حقها على المريدين بذل النفوس وأماتتها بالمجاهدات والرياضات بأنهم لمّا فارقوا سبيل الحق وقعوا في أودية الباطل، فصاروا فرق الدعاوى الهالكة، فبعضهم زراقون، وبعضهم طرارون، وبعضهم متشابهةٌ بزي الرجال، وبعضهم متلبسون بقول الإبطال.

قال فارس: لم يستقيموا لله على وتيرةٍ واحدةٍ.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ مَنْ بقي على رؤية الأعمال فأجره بحسابٍ؛ لأن أجره من عالم الحدثان من نعيم الجنان، ومَنْ رفع بصره عن أعماله بنعت الخجل عند رؤية الرحمن أجره بغير حسابٍ؛ لأنه لطائف العرفان وموائد الإيقان، وأصل الحسنة إخلاص العبودية عند ظهور الربوبية، لذلك قال ﷺ «الإحسانُ أنْ تعبدَ الله كأنّك تراه»[1]، هذا إحسان العارفين الذين أجرهم مشاهدة الله بلا نهاية.

قال بعضهم: مَنْ لاحظها من نفسه فعشر أمثالها، ومَنْ لاحظها من مواصلة الحق فهو الذي يصلي عليكم وملائكته والله يضاعف لمَنْ يشاء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ الصراط المستقيم هاهنا أغرب طريقٍ في المعارف والكواشف، هداه به نبيه إلى نفسه؛ لأنه خاصٌّ بذلك من جميع الخلائق.

ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾ كيف خصَّ هداية نفسه بالرب، وذلك وقوع الأسرار في منازل الأنوار وطيران روحه في الملكوت والجبروت حين شاهده نور دنو الدنو بوصف الرؤية الكبرى وسامرات الأعلى بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ

---

(١) تقدم تخريجه.

أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝﴾ [النجم: ٨، ٩، ١٠، ١١] ما رأى ما جاز عن سبيل القدم بعلّة الحدث؛ لأنه كان محفوظًا برعاية الأزلية وعناية الأبدية، بلغ إلى أقوام الطرق في مشاعر الصفات ومشاعر الذات.

ألا ترى إلى قوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ مستقيمًا له منزَّهًا عن اعوجاج البشرية وطوارق التلوين؛ لأنه بحجة المحبة وصراط النِحْلَة التي سبلها جذبات الأزل ومكاشفات الأبد؛ لقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني طريق محبة ملّة إبراهيم ﷺ في خلته، وإن كان هو مخصوصًا بأغرب طريق المعارف من جميع الخلائق، وصفه بالحنيفية المائلة في طريق المحبة عن غير الحبيب من تلك سبيله وصل إلى حبيبه؛ لأنه مقدَّسٌ من شوك الشرك وغبار القطيعة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ طريق المحبة والخلة واحدٌ في نفس الاقتداء؛ لأن معدنها عين القدم المنزَّه عن كل علّةٍ.

قال أبو عثمان: الصراط المستقيم الاقتداء والاتباع، وترك الهوى والابتداع، ألا تراه يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝﴾ [النجم:٣].

وقيل في قوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: سليمًا من الاعوجاج وهواجس النفس، ووجود لذّة المراد فيه، ولمّا وصفه ﷺ باهتداء إلى جلاله وجمال وصفه بتنزيهه عن رؤية جميع الخلائق في عبادة خالقه، أمره بتعريف حاله، وقدس سنائه عن الإذاعة في الحدثان بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صلواته وصلةٌ، وسجوده قربةٌ، وشهوده مشاهدةٌ، وركوعه وجدٌ، وقيامه حيرةٌ؛ لذلك قال ﷺ: «قرّةُ عيني في الصلاة»[1]؛ لأن قرة عينه ظهور مشاهدة الله في صلواته، ولذلك أزه واردات تجلّي الجلال والجمال، حتى قيل: كان يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، أي: هذه الصلاة لله لأنها مقدسةٌ من رؤية غير الله فيها، ومن مثابتها كانت لله خاصةٌ لخصوصية صاحبها وشرفها على جميع الخلائق، ولأن الصلاة عبادة، والجهود كانت بالعرض إلا هذه الصلاة؛ لأنها كانت فناء الحدث في القدم، وقربان منهم روح الأول على باب الأزل بسيف المحبة والعشق شوقًا إلى معدنه، وهذا معنى قوله: ﴿نُسُكِى﴾ فإذا جعل وجوده قربان الأزل حيى بحياة القديم، ثم فني في ظهور سطرات العزّة به، كانت حياته ومماته ومثل هذه الحياة والممات والنسك والصلاة أن يكون لله رب العالمين لقدسها عن علة حظ الحدثان، وخطرات علة النسيان.

(١) رواه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٨٠).

قال الواسطي: بيان هذه الآية في قوله سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٣١]، فمَنْ لاحظها من نفسه قصمته، ومَنْ تبرَّأ منها عصمته، كيف يجوز الوجدان بلا حظٍّ فضلاً.

قيل: مَنْ علم أنه بالله علم أن لله، فإن علم نفس لم يبق فيه نصيبٌ لغير الله، فهو مستسلمٌ لحكم الله غير معترضٍ على تقدير الله، ولمّا كان ﷺ بوصف ما ذكر حيث انفرد بفردانية الله أفرد نفسه لله بحيث لا يرى غير الله بقوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أي: لا رؤية للغير في البين في ظهور شمس جلاله من مطلع القلب.

قوله تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: هو يستحق لإفراد قدمه عن الحدوث، ولا يستحق ذلك لغيره، وما دام شأنه ذلك خصَّ الله جوهره بأول الفطرة التي انقادت لعزته عند ظهور تجلي هيبته الأزلية لها.

قال سبحانه عقيب قوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى تقدم روحه وجوهره على جميع الكون وأهله في الحضرة حين خاطبه بالرسالة والولاية والمحبة والخلة، فانقاد في أول الأول الأزلي الأبدي، تعالى الله عما يقولون الظالمون علوًّا كبيرًا.

وأشار إلى ما ذكرنا قوله ﷺ: «**كنتُ نبيًّا وآدم بين الماء والطين**»[1]، وقوله ﷺ: «**أول ما خلق الله نوري**»[2].

وقيل في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أسلمت لتصاريف قدرته متبرئًا من حولي وقوتي، مع أن التسليم في الحقيقة علَّةٌ، ولمّا كان سابقًا على جميع الخلائق في حضرة العزّة بنعت الانقياد بعز ربوبيته، ومعرفته بجلال ديموميته، أمره تعالى بأن يعرِّف نفسه الشريفة المبرَّأة عن علّة الحدثان لجميع الخلائق؛ ليعرفه كل صادقٍ، ويطيعه كل محبٍّ موافقٍ بقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ أي: أنا في مشاهدة قدم الله أبغي ستائر على مشاهدته سواه، حاشا من عظم شأنه أن يكون عوضًا لجماله من العرش إلى الثرى.

قال الجوزجاني: أسواه أطلب حافظًا وراعيًا ووكيلاً، وهو الذي كفاني الهم وألهمني الرشد!

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٥٤).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣١١).

جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي: ما عملت النفوس إلا ما ألزمت عليها في الأزل، فإذا عملت ترجع إليها؛ لأن خالقها منزَّهٌ عنها.

قال بعضهم: لا تكسب من خيرٍ وشرٍّ كل نفس إلا عليها، أما الشرُّ فهو مأخوذٌ به، وأما الخير فهو مطلوبٌ منه صحة قصده، وخلوه من الرياء والعجب، ورؤيته من نفسه والتزين به، والافتخار به، والاعتماد عليه، والإحسان فيه، فإذا حصلته وجدته عليه، لا إله إلا أن يعفو الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلتكم خزائن جودي من المعرفة والمحبة والولاية، خلفاء العالم بعد مضي دهر الدهار، وتقلب الفلك الدوار، والقرون الماضية ممَّنْ قسم له الرسالة والنبوة والملك والشرف، وما كان لهم في السبق السابق، وأول الأول، ويكون لكم يا خلفاء الأنبياء والصديقين، هو الذي جعلكم خلفاء في أرضه كآدم ﷺ، ونوح ﷺ، وإبراهيم ﷺ، وموسى ﷺ، وعيسى ﷺ، وزاد شرفكم بشرف نبيكم على الجمهور، وقال ﷺ: «نحن الآخرون السابقون»[١].

وبيّن تعالى هذه الآية أن النجباء والأولياء والأصفياء والأتقياء والأخيار والأوتاد والخلفاء يختلف بعضهم بعضًا، كما وصف ﷺ الأبدال والأولياء في حديثٍ مرويٍّ بقوله: «إذا مات واحدٌ منهم أبدل الله مكانه واحدًا»[٢]، وصرَّح بخطابه أن درجاتهم متفاوتة بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ لاقتداء البعض بالبعض، وبقية أمانته وأمانه وحجته وبرهانه في العالمين للعاملين درجة بعضهم المعاملات، ودرجة بعضهم الحالات، ودرجة بعضهم المقامات، ودرجة بعضهم المكاشفات، ودرجة بعضهم المشاهدات، ودرجة بعضهم الفراسات، ودرجة بعضهم الكرامات، ودرجة بعضهم المواجيد والواردات، ودرجة بعضهم الحكميات، ودرجة بعضهم الدنيات، ودرجة بعضهم المعرفة، ودرجة بعضهم التوحيد، ودرجة بعضهم التلوين، ودرجة بعضهم التمكين، ودرجة بعضهم اليقين، ودرجة بعضهم الفناء، ودرجة بعضهم البقاء، ودرجة بعضهم الحيرة، ودرجة بعضهم الوله والغيبة، ودرجة بعضهم السكر، ودرجة بعضهم الصحو، ودرجة بعضهم الاتصاف، ودرجة بعضهم الاتحاد،

---

(١) رواه البخاري (١/ ٩٤)، ومسلم (٢/ ٥٨٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ١١٢).

ودرجة بعضهم الربوبية، ودرجة بعضهم المعبودية، وعلم العام وعلم الخاص، وعلم العلم، ومعرفة العلم والسر، ومعرفة السرِّ والخير، ومعرفة الخير والعلم المجهول، وما فوق ذلك إلا رسومٌ مندرسةٌ وطرقٌ منطمسةٌ؛ لأن هناك ظهور كنه القدم، ولا يبقى مع القدم إلا القدم، ابتلاهم بهذه المقامات لفناء علَّة الحدث في القدم، ومَنْ خرج بنعوت الربوبية منها ويدعي بها يضرب ويصلب ويقتل ويحرق، كما فعل بحسين بن منصور -قدَّس الله روحه- ومن خرج منها بنعت العبودية وبقي بنعت الاستقامة كالنبي ﷺ، حيث قال: «أنا العبد، لا إله إلا الله»(١) عُصم من فورة السكر، وغفر له خطراتها في أثناء الطريق، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال بعضهم: مخلف الولي وليٌّ، والصديق صديقٌ، ويرفع درجات البعض على البعض، ودرجات البعض بالبعض؛ لئلا تخلو الأرض من حجة الله وأمانه.

قال بعضهم: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾(٢): ليقتدي الأدنى بالأعلى، ويتبع المريد درجة المراد؛ ليصل إليه، والله أعلم.

سورة الأعراف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال ابن عجيبة: من شرف هذا الآدمي أن جعله خليفة عنه في ملكه، يتصرف فيه بنيابته عنه، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف في هذا الوجود، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملّكهم الله من الأملاك الحسية، والخواص يتصرفون بالهمة في الوجود بأسره، وخواص الخواص يتصرفُون بالله، أمْرُهم بأمر الله، إن قالوا لشيء: كن يكون بإذن الله، مع إرادة الله وسابق علمه وقدره، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار.

والحاصل: إن من بقي مع الأكوان شهودًا وافتقارًا، كان محبوسًا معها، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه، يتصرف فيها بإذن الله، خليفة عنه فيها، وهم متفاوتون في ذلك [البحر المديد (٢/ ٢٢٩)].

﴿ الٓمٓصٓ ﴾ كان الله سبحانه إذا أرد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء؛ وما جرى عليهم في الدهور والإعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، وتحيّره ممّا كان وما يكون إشارة إلى هذه الأشياء له بحروف التهجي، وأعلم سر ذلك محض الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه ﷺ يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق ونبأ طارق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه وخواص أمته، ربما يطلع على سر بعضها كالصحابة والتابعين والمتقدمين من الأولياء والعلماء.

كانت حروف المقطعات رموز معاني سور القرآن لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأحبار من الصديقين، فهذا الألف إشارة إلى آدم ﷺ، ألا ترى أن أول اسم آدم ﷺ ألف إشارة، الألف إلى حاله وقصته وبدو أمره وخلقته، وعرضه على الملائكة ودخوله الجنة وخروجه منها، وكان هو أصل الفطرة، ومَنْ تشعب منه فهو تابع له في الذكر، وإشارة الألف إلى علم الأسماء بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ التي فيها أنباء جميع الذات والصفات والنعوت والأفعال، وعلم ما كان وما سيكون عرَّف نبيه محمد ﷺ ما عرف آدم ﷺ بجميع الأسماء بحروف الألف؛ لأنه كان ﷺ ألطف الأولين والآخرين وأكرمهم على الله، وعلى قدر قربه إشارة ألطف وأخفى وأخبر باللام، هاهنا تعالى حبيبه قصة تجلاه لموسى ﷺ والجبل، وعرف بها تلك الأحوال الماضية.

ألا ترى إلى حرف اللام في التجلّي، وعرَّف بحروف الميم شأن موسى ﷺ وقصته من أوله إلى آخره، ألا ترى إلى حرف الميم مراسم موسى ﷺ، وعرف بحرف صاد هاهنا قصص نوح وهود ﷺ وصالح ﷺ وشعيب ﷺ ولوط ﷺ وجميع ما جرى عليهم من بدئهم إلى آخر أعمارهم، وأخبر بحرف صاد صبرهم، وتحملهم في بلائه وصدق محبتهم بالوفاء والصدق بالأعمال والأقوال، وتصديق ذلك وهو أن تحت الحروف جميع الكتب مندرجة ما روي في الحديث عن قول النبي ﷺ: «إن الله سبحانه أعطى آدم ﷺ حروف التهجي، وكان كل حروف كتابًا من الله تعالى إليه»(١).

وأيضًا أخبر سبحانه بحرف الألف نبيه ﷺ عن عين القدم ووحدانية نفسه المنـزَّه عن الاجتماع والافتراق، وإصدار جميع المخلوقات منه؛ لأنه تعالى مصدر جميع الوجود، كما أن الألف مصدر جميع الحروف، وأخبر بالألف سر الأسرار وصرف الأنوار، وما كان في جميع الحروف من علم الأولين والآخرين، وهذا أدق إشاراته إلى نبيه ﷺ ثم زاد وضوحه بحرف

(١) ذكره ابن طاهر في «تذكرة الموضوعات» (ص١٦٨).

اللام لترقيه خاطره وزيادة إدراكه، ثم صرح الخطاب بحرف الميم وبيّن له بحرف الصاد ما كان في الأحرف الخاص؛ لأن بحرف الصاد صفا جميع علومها له، ثم عمّ العبارة للخلق بالسورة لقلة إدراكهم لعزّ الأسرار ولطائف ضمائر الإضمار، وأيضًا أخبره بلام ألف سر أوليَّته، وما في بحار أزليته.

ألا ترى كيف شقّ الألف من اللام لإخفاء الإشارة حتى لمْ يبق حديث العدم في القدم، وكيف يكون لها من لام وألف ومعناها العدم، فشقَّ أحدهما عن الآخر حتى لا يكون حديث النفي؛ لأن النفي علَّة يقع على الحدثين، وليس ذكر الحدثان في القدم أخبر بالألف عن أحدية الأولية، وباللام عن الأزلية السرمدية، وبالميم عن محبته القدمية، وبالصاد عن صفاتهِ القائمة بذاته الأبدي، أخبر بالألف عن الذات؛ لأنها عين الواحد، ثم أخبر باللام والميم والصاد عن شمول صفاته القديمة، الألف من الذات، واللام من صفة الأزل، والميم من صفة المحبة، والصاد خير جميع الصفات.

قال محمد بن عيسى الهاشمي: سمعت من ابن عطاء أنه قال: لمّا خلق الله الأحرف جعل لها سرًّا، فلمّا خلق آدم ﷺ بث فيه ذلك السر ولم يبثه في الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم ﷺ بفنون الجريان وفنون اللغات جعله الله صوره لها.

وقال الحسين: الألف ألف المألوف، واللام لام الآلاء، والميم ميم الملك، والصياد صاد الصدق.

وقال: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام تلك في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في غيب الهُو، وغيبه الهو ليس كمثله شيء.

وقال أبو محمد الجريري: أن لكل لفظ وحرف من الحروف مشرب فهم غير الأخر.

ومن شرَّاح ذلك حين سمعه يقول: ﴿الٓمٓصٓ﴾ للألف عندهم فهم، وللفهم في محضرهم استماع إلى حسن مخرج وطعم عذب موجود نظر إلى المتكلم، وكذلك اللام حسن استماع ومخرج غير الألف وطعم فهم موجود، وكذلك للميم حسن استماع من مخرج غير اللام وطعم فهم موجود، والصاد حسن استماع إلى حسن مخرج وطعم فهم موجود غير الميم فممزوج ذلك كله بالملاحظة للمتكلم.

وقال الحسين: الألف ألف الأزل، واللام لام الأبد، والميم ما بينهما، والصاد اتصال مَنْ اتصل به، وانفصال مَنْ انفصل عنه، وفي الحقيقة الاتصال والانفصال، وهذه ألفاظ تجري

على حسب العبارات ومعادن الحق مصونة عن الألفاظ والعبارات.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ ذكرت إن حروف الأسرار كتاب وتصديق ذلك قوله تعالى بعد قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: هذه الحروف ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتاب الأسرار أنزل إليك، ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ أي: لا يكون في صدرك حرج نكرتها وقلّة إدراكها، أي: فلا تخف أنك لا تعرف إشارتنا فيها؛ فإنك مخصوص بعلم لطائفها، وحقائقها وصدرك محل البسط بفسخه نور تجلّي جمالي، فلا يكون فيه خرج القبض[1]، وتصديق ذلك قوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: هذه الأسرار لا يحتمل غيرك أنها لك وأن لك استعداد فهمها، فلا يكون في صدرك همّ لأجلها، فإنها تسهل فهمها عليك.

قال ابن عطاء في ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾: عهد خُصصت به من بين الأنبياء أنك خاتم الرسل وعهدك خاتم العهود؛ لتشرح به صدرك، وتقربه عينًا.

وقال الجنيد: فلا يكن في صدرك حرج منه لا يضيقن قلبك بحمله وثقله، فإن حمل الصفات ثقيلة إلا على مَنْ يؤيد بقول المشاهدة.

وقال النوري: إن أنوار الحقائق إذا وردت على السر ضاق عن حملها كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها.

قال القرشي: لمّا قصّ الله في هذه السورة قصة الكليم علم أن قلب النبي ﷺ يتحرك، لذلك قال: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ لأنه كُلّم على الطور وكُلّمت وراء الصور، ومنع المشاهدة ورُزِقْتَها.

وقال الأستاذ: كتاب الأحباب تحفة الوقت وشفاء عمّا يقاسيه من ألم البعد.

وقال في قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾: إشارة إلى حفظ قلبه عن كل قبض، وقال: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ ولم يقل قلبك فإن قلبه ﷺ في تجلّي الشهود ولذلك قال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، ولم يقل قلبك، ولذلك قال موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه:٢٥]، وقال له: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح:١]، فإن القلب في محل الشهود، وهو أبدًا بدوم الأنس والقرب،

---

(١) أي: ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يُكذب به، مخافة أن تكذّب فيه، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه، أو بحقوقه، وتوجيه النهي إلى الحرج للمبالغة. البحر المديد (٢/ ٢٣١).

قال ﷺ: «تنام عيناي ولا ينام قلبي»(١)، وقال: «أسألك لذَّة النظر»(٢).

وصاحب اللذَّة لا يكون له حرج.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: يسأل عن الأمة فهم الخطاب وقبوله بشرط الحرمة واستعماله بوصف المتابعة، ونسأل الرسل أداء الرسالة في صورة كلام على قدر عقول الخلق شفقة على الأمة.

قال أبو حفص: لنسألن الذين أُرسل عليهم سؤال تعنيف وتعذيب ولنسألنَّ المرسلين سؤال الشريف وتقريب قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾(٣) أي: لتخبرنهم حال المشتاقين إلى لقائنا، وشأن المدبرين عن ساحة كبريائنا.

وأيضًا: لتخبرنهم ما جرى عليهم، وهم كانوا لا يعرفون حقائقه من آثار القهريات واللطفيات والموجودات والمعدومات.

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن شهود المشتاقين، وزفرات العارفين، وعبرات العاشقين، وجفاء المتكبرين، فإنا قد علمنا في القدم ما كان في العدم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾: أي في حال عدمهم ووجودهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ للحق سبحانه وتعالى موازين يزن بها الأحوال والأعمال، يزن بميزان الإخلاص المعاملات، ويزن بميزان الصدق الحالات، فكل عَمَلٍ عُمِلَ برؤية الأعواض ورؤية العمل والالتفاف فيه إلى غير الله، فهو ساقط عن محل القبول، وكل حالة صاحبها موجب بها فهي ساقطة عن درجة الوصول، فالنيات موازين المعاملات والصدق ميزان الحالات، فمَنْ هاهنا يزن نفسه بميزان الرياضات والمجاهدات، ويزن قلبه بميزان المراقبات، ويزن عقله بميزان الاعتبارات، ويزن روحه بميزان المقامات، ويزن سرَّه بميزان المحاضرات ومطالعه الغيبيات، ويزن صوره بميزان المعاملات، الذي كفتاه الحقيقة

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٠٨).

(٢) رواه النسائي (٣/ ٥٤).

(٣) أي: عنهم في حال من الأحوال فيخفى علينا شيء من أعمالهم وأحوالهم.

والطريقة ولسانه الشريعة وعموده العدل والإنصاف يوزن نفسه يوم القيامة بميزان الشرف، ويوزن قلبه بميزان اللطف، ويوزن عقله بميزان النور، ويوزن روحه بميزان السرور، ويوزن سره بميزان الوصول، ويوزن صورته بميزان القبول، فإذا ثَقُلَت موازينه بما ذكرنا فجزاء نفسه الأمن من الفراق، وجزاء قلبه مشاهدة مشوق في الأشواق، وجزاء عقله مطالعات الصفات، وجزاء روحه كشف أنور الذات، وجزاء سره إدراك أسرار القدميات، وجزاء صورته الجلوس في مجالس وصال الأبديات.

وأيضًا هاهنا لأهل الحق موازين، ميزان الإرادة، وميزان المحبة، وميزان الشوق، وميزان العشق، وميزان المعرفة، وميزان اليقين، وميزان التوحيد، فهذه سبعة موازين فينبغي أن يزن المريد نفسه في كل نفس بميزان الإرادة، ويزن المُحب قلبه في كل نفس بميزان المحبة، ويزن المشتاقين عقله في كل نفس بميزان الشوق، ويزن العاشق روحه في كل نفس بميزان العشق، ويزان العارف سره في كل نفس بميزان المعرفة، ويزن الموقن أنفاسه في كل نفس بميزان اليقين، ويزن الموجد جميع وجوده بميزان التوحيد، فيستوفي المريد بميزان إرادته عن نفسه انقيادها للحق عند جريان القضاء والقدر عليها، ويستوفي المُحب بميزان محبته عن قلبه شهوده في الحضرة بلا خطرات المذمومة، والالتفاتات المشوبة بنعت النيات الصافية، ويستوفي المشتاق بميزان شوقه من عقله جولانه في الشواهدات لطلب عرفان المشاهدات بلا فترة ولا رعونة، ويستوفي العاشق بميزان عشقه من روحه طيرانها في الملكوت لطلب الجبروت، ويستوفي العارف بميزان معرفته من سره إصغاء بنعت الشهود؛ لكشوف أنوار الغيب، وغوصه في بحر الهموم لطلب جوهر الإلهام، ويستوفي الموقن بميزان اليقين من أنفاسه صعودها عند تنفسها إلى معارف القرب بلا هواجس اليقين وغبار الوسواس، ويستوفي الموحد بميزان توحيده من جميع وجوده اضمحلاله في أنوار كبريائه القديم، وفنائه في سبحات الأبد، فمَنْ ثقلت هذه الموازين أفلح عن حجبة الامتحانات، وتُثَقّل موازين الحضرة غدًا بفيض أنوار صفات الحق، ولطائف ذاته وكرامات قربته له، فيفلح هناك بالله عن غير الله ويصير أهلاً لله؛ لأنه خرج عن موازين صفاته وأنوار ذاته بنعت المعرفة والتوحيد والمحبة، فطُوْبَى لهذا المحاسب طُوْبَى له وحسن مآب.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير هذه الآية: ومَنْ وزن نفسه بميزان العدل كان من المحبين، ومَنْ وزن خطراته وأنفاسه بميزان الحق اكتفى بمشاهدته، والموازين مختلفة، ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسرّ، فميزان النفس والروح الأمر والنهي وكفتاه الكتاب والسُّنة، وميزان القلب والعقل والثواب والعقاب وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان المعرفة والسرّ الرضا والسخط وكفتاه الهرب والطلب.

وقال الأستاذ: يوزن أعمالهم بميزان الإخلاص وأحوالهم بميزان الصدق، فمَنْ كانت أعماله بالرياء مصحوبة لم يقبل أعماله، ومَنْ كانت أحواله بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحواله، وافهم يا صاحبي أن حكمة وزن الأعمال يوم القيامة للعباد أن الله يبيّن لهم ما كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ قبل الخلق مما يجري عليهم من القضاء والقدر، والرضا والسخط، والشقاوة والسعادة، مقابلة بما جرى عليهم في الدنيا الذي في أوراق الحساب التي في أيدي الملائكة ليزيدهم برهانًا وعيانًا وعلمًا بعلمه المحيط على كل شيء، وليكون حجة عليهم، خرّج أعمالهم على وفق ما كان مكتوبًا عليهم، وافهم يا صاحبي أن الأعمال أعراض كيف تكون موزونة ليس هذا في علم الخلق أن ميزانه الحقيقي رده وقبوله، وهو قادر أن يخرج الأعراض بصور الجواهر فيزن بميزانه الذي يظهره لهم يوم القيامة، وذلك على لسان الشرع يوجب الإيمان به.

قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن يؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان وهو الحق فيثقل حسناته على سيئاته، فيوضع عمله في الجنة، فيعرفها بعمله.

فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، وهم أعرف بمنازلهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان وهي الباطل؛ فيخُف وزنه حتى تضع في النار، ثم يقال للكافر: الحق بعملك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مَنَّ الله على عباده بتمكينهم في الأرض بنعت لتسهيل عبادته، حيث يسّر لهم عبوديته بقدرة خلقها فيهم بعد أن كلفهم ذلك، وجعل فيها لأبدانهم معايش الغذاء،

ولقلوبهم معايش الذكر، ولعقولهم معايش التفكر، ولأرواحهم معايش روح رؤية ظهور جلاله في ملكوت الأرض من كل زهرة وحضرة؛ لعرفان المنعم القديم بنعت عجزهم في شكره، ثم زاد امتنانه عليهم بأنه تعالى أجادهم بأظرف الخلق وألطفه وأحسن الصور وأكرمها، بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا أشباحكم جمعًا في آدم ﷺ ثم صورناكم في حواء، وأيضًا خلقنكم هياكل وصورناكم أرواحًا، وأيضًا خلقناكم بالأفعال وصورناكم بالصفات، وأيضًا خلقناكم خلقكم بالأمر، ثم صورناكم بظهور تجلي الصفات لكم، نوقع الخلق بوقوع الأمر وترتيب الصور بوقوع تجلي بروز الصفات، فتكونت الصور بنعوت الصفات، وتكونت الهياكل بنعوت الأفعال، وتكونت الأرواح من تجلّي الذات، فيكون الجميع صادرة من العدم بنعت القدم.

ألا ترى كيف أشار ﷺ فيه إلى سر المتشابهات حيث قال: «خلق الله آدم على صورته»[1]، فجعل للأشباح طريق العبودية، وجعل للأرواح طريق عرفان الربوبية، وجعل للعقول طريق الملكوت، وجعل للقلوب طريق الجبروت، وجعل للأسرار طريق القدم والبقاء.

قال بعضهم: أبدع الله الهياكل وأظهرها على أخلاق شتى، وصور مختلفة، وجعل لكل شيء منها عيشًا، فعيش القلوب في الشهود، وعيش النفوس في الوجود، وعيش العبد معبوده، وعيش الحواس الإخلاص، وعيش الآخرة العلم، وعيش الدنيا الجهل والإمارة والاغترار بها.

ولمّا صور الجميع في آدم ﷺ بصورة آدم ﷺ وصور آدم ﷺ بصورة الصفات المنزّهة عن المشابهة بالحدثين هاهنا علمًا لا رسمًا، وهاهنا عشقًا لأشباهها أحدية وتوحيد وجمعًا، وتفرقة لا تشبيهًا ولا تعطيلاً، زينة بنور الصفات ونعت الأفعال، ثم كساه أنوار الذات، ثم قال للملائكة: اسجدوا له، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾؛ لأنه قبلة تجلّي الصفات والذات، وهو مصور بصورة الملك في الملكوت قبل موضع استواء أنوار الذات، وصورته موضع استواء أنوار الصفات، وهيكله موضع استواء أنوار الأفعال، وروحه موضع استواء أنوار المحبة، وسره موضع استواء أنوار العلم والمعرفة.

﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ فإنه لكم واسطة في العبودية لا معرفة الربوبية واسطة في العبادة، فإنه يليق بكم، فإن في عبادتي لا يليق الكون ومن فيه، وما فيه أظهر استغناؤه عن عبودية

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (١/ ١٩٩).

الخلـق، لكن أدخل عشاق الملائكة في مقام المحبة والعشق فتجلّى لهم بنور جماله من مرآة وجه آدم ﷺ؛ ليفتر قلوبهم بلذّة المحبة والعشق، ولو أبرز لهم أنوار صفاته وذاته صرفًا احترقوا في أول ما بدا من نور الألوهية، ولمْ يسجد إبليس لأنه كان محجوبًا من ذلك الجلال والجمال بنظرة إلى نفسه وقياسه بجهله، وكذا من نظر من الحق إلى النفس احتجب بها عن رب النفس.

قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: لم يكن من أهل شهود الصفات ورؤية جلال الذات.

قال أبو حفص: عرف الملائكة استغناءه عن عبادتهم، قال: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، ولو كان سجودهم يزن عنده مثقال ذرة لِمَا أمرهم بذلك ولا صرف وجوههم إلى آدم ﷺ، قال: سجود الملائكة وجميع خلقه لا يزيد في ملكه؛ لأنه عزيز قبل أن خلقهم، وعزيز بعد أن يفنيهم، وعزيز حين يبعثهم، ثم غيّر إبليس بامتناعه عن السجود لآدم ﷺ وقلّة عرفانه، شرفه بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ أي: أي شيء يمنعك من متابعة أمري، ولمْ يبق في البين غيري، أي: يمنعك من ذلك قهر سابق مني عليك، وخذلان وارد في المشيئة عليك، وإلا فمن الحدثان بامتناعها عن متابعة أمري، وليس لها قدرة ولا مشيئة، وكلها عاجزة في قبضة قهري، ومَنْ سبق له الشفاء لا يسبق بالمراد، وإن كان جميع عبادة الثقلين مصحوبًا معه في استباقه إلى الحضرة.

قال الواسطي: مَنْ استصحب كل نسك في الدنيا والآخرة والجهل فطنه، والاعتراض عرضه، والبعد من الله سببه، لا يقرب منه؛ لأن العبادات تقطع عن الرعايات ورؤية النسك رؤية الأفعال والنفوس، ولا متوثب على الله أشد ممّنْ طالع نفسه بعين الرضا، فلمّا كلم الله إبليس بكلام التعبير وقهر السلطنة ألبسه من خطابه قدرة في الجواب، ولولا إلباس الحق إياه لكان مبهوتًا عند وارد قهر الخطاب عليه، ولمْ ينطق بجواب الأمر ولكن أجابه إجبارًا لا اختيارًا، وذلك قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾. لما رأى المعلون لباس قهر خطاب الحق عليه قال بقوته: ﴿أَنَا۠﴾، ولولا ذلك لما قال: ﴿أَنَا۠﴾، وأين أنائيته وكان هباء في أنائية الحق، نظر المعلون إلى جوهر النار الصادر من قهر العدم فانتسب إلى قهر القدم، قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، ولم ينظر بنظر المعرفة إلى الطين الذي صدر من لطف القدم ورحمة الأزلية، النار من غضبه، والطين من رحمته، والرحمة سابقة على الغضب؛ لقوله سبحانه: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

---

(١) أي: يد تنزيه وتشبيه، وإن شئت قلت يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا.

نظر إلى صفة واحدة ولم ينظر إلى صفة أخرى؛ فاحتجب بالصفة عن الصفة فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ولو رأى مصدر جميع الصفات لذاب تحت رؤية الكبرياء وأنوار العظمة، ولم يكن بعد فنائه أبدًا؛ لأن مَنْ عرف وصف القدم صار عدمًا في القدم، ولو رأى الملعون من وجه آدم ﷺ ما رأى الملائكة ما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ كان جاهلاً به والملائكة كانوا عاشقين به، غلط في قياسه ورؤيته إلى نفسه، وأين النار من الطين الذي يقبض قبض ألطاف العزّة ومخلوق يد الصفة الخاصة بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥][1]، وسقط الأرواح التي صدرت من تجلّي القدس بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، وذلك محل التواضع والعبودية الخالصة ومَنْبِتُ أجسام الأنبياء والرسل والأولياء والصديقين، ومَنْبِتُ أغذية الخلائق ومرجع الكل، وهو بريقة الأجسام والأرواح في العالم ليخرج منه سبائك القدس لمجالس الأنس، والنار عذاب قهره مجازٍ بها من خلقه ناريًا كإبليس وجنوده، قوته من أصله الذي كان منه، كان من نار اللعنة فعداه باللعنة، قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ [الحجر: ٣٥]، كل شيء يرجع إلى أصله، كان جاهلاً بظاهر العلم بعد أن كان جاهلاً بباطن العلم ولولا ذلك لم يسلك طريق القياس عند وقوع النص، والنص غالب على القياس من جميع الجهات.

قال بعضهم: لمّا نظر إلى الجوهر والعبادة توهم المسكين أنه خير، فسبب فساد النفوس من رؤية الطاعة.

وقيل: توهم أن الجواهر من الكون على مثله وشكله في الخلقة فضل من جهة الخلقة والجوهرية، ولمْ يعلم ولم يتيقن أن الفضل من المتفضل دون الجوهرية.

وقال الواسطي: من لبس قميص النسك خامره أنا لذلك، قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص: ٧٦]، ولو لَمْ يقل خير منه لأهلكه قوله في المقابلة أنا.

قال ابن عطاء: حجب إبليس برؤية الفخر بنفسه عن التعظيم، ولو رأى تعظيم الحق لمْ يعظم غيره؛ لأن الحق إذا استولى على سرّ قهره فلمْ يترك فيه فضلاً لغيره، ولمّا رأى الملعون فضل آدم ﷺ وذريته بالعلم الأسمائي وعرفان الصفاتي، والمسابقة على الكل بعنايته الأزلية حسد عليهم وخرج على عدواتهم بعد طرده من باب الرحمة، وتجاسر بجهله في مقابلة الحضرة بالمخاطبة بقوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هاهنا قسم، أي:

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٤٢).

بإرادتك السابقة في غوائك، أي: لأقعدن لهم صراطك المستقيم كما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢]، أي: بما ألبستني لباس قهرك في الأزل أقدر أن أقعد في طريقهم المستقيم، وإلا فلا أقدر أن آمر بهم في وراء العالم بقوة قهرك في الأزل، أوسوس في صدورهم التي هي طريقك المستقيم الذي يسألك فيه عساكر أنوار تجلاك.

في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ نكتة عجيبة، أي: لأقعدن لهم لا عليهم، فإن وسوستي لهم تزيد شرًّا فهم عند إحساني عن صدورهم بنعت إياسي عن الظفر بهم، ويتمازج هناك إيمانهم وإيقانهم عن نعوت الاضطراب وطوارق الوسواس وغبار الشك.

ألا ترى إلى قوله ﷺ حين شكاه أصحابه عمّا وجدوا في صدورهم من الوسوسة، فأشار ﷺ بقوله: «ذاك صريح الإيمان»[1].

قال محمد بن عيسى الهاشمي: لو نجا إبليس بشيء لنجا برؤيته القدرة عليه والإقرار على نفسه بقوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، ثم زاد الجرأة بقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: من بين أيديهم من جهة النفس والهوى، ومن خلفهم من جهة الشهوة والمنى، وعن أيمانهم من طريق الدعوى، وعن شمائلهم من طريق إظهارهم الشكوى في البلوى.

وأيضًا: من بين أيديهم من طريق الطاعات، ومن خلفهم من طريق رؤية الأعواض، وعن أيمانهم من طريق العلم، وعن شمائلهم من طريق الجهل.

وأيضًا: من بين أيديهم من طريق القلب، ومن خلفهم من طريق العقل، وعن أيمانهم من طريق الروح، وعن شمائلهم من طريق الصورة والنفس.

وأيضًا: من بين أيديهم من طريق الإسلام، ومن خلفهم من طريق الإيمان، وعن أيمانهم من طريق العرفان، وعن شمائلهم من طريق الإيقان، ولمْ يذكر الفوق والتحت؛ لأن التحت موضع الفناء في العبودية عند السجود الذي يوجب القربة، وذلك السجود شهود والشهود محل رعاية الحق، ولا يقدر أن تمر على باب رعايته أحد دونه، والفرق محل الكشف، والمشاهدة وارد التجلي وظهور سبحات وجه القدم، ولو دنا منه جميع الشياطين من العرش إلى الثرى بقدر رأس إبرة لاحترقوا في أقل لمحة.

قال أبو عثمان المغربي: إن الشيطان يأتي الإنسان عن يمين الطاعات من بين يدي الأماني والكرامات، ومن خلفه بالضلالات والبدع، ومن يساره بالشرك، فإذا جرى بعبد

---

(١) رواه مسلم (١/ ١١٩).

سعادة قبل منهم ما يأمرونه من الطاعات، فإذا أراد أن يهلكوه بطاعته رد إلى السعادة التي جرت له؛ فيكون ذلك ربحًا وزيادة، ألا تراه بقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآية.

قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧]، فالأكثر من هلك بطاعته والأقل من أدركته السعادة فنجا.

قال الشبلي: لم يقل من فوقهم ولا من تحتهم؛ لأن الفَوق موضع نظر الملك إلى قلوب العارفين، والتحت مواضع الساجدين، وموضع نظره وموضع عبادتهم، لا يكون للشيطان هناك موضع ولا فيه طريق.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ جعل الله سكونها إلى الجنة وشغلها بأكل ثمارها، ووعد العيش فيها، وأخفى في عيشهما كدر الامتحان بأكل الشجرة وجعلها فتنة لهما، ولو جعل سكونهما بجماله وحسن وصاله لم يدخل فيهما قهر الامتحان؛ لأن حضرته تعالى مقدسة عن رحمة الحدثان.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ دلالة إشارة، والإجرار إلى الفتنة بنعت الخدعة، وكيف لم يقرباها وهو تعالى تجلّى فيهما لهما بنعت الجمال ليعشقهما بجماله، فخامرهما سرّ الأسرار من لطائف الأقدار فاشتاقا إليها عشق نظر، فلمّا قربا منها غلب شهوة العشق على حقيقة العشق؛ فأكلا منها وباشراها فعلما علم سر الأسرار وعلم لطيف الأقدار، فامتلأ ولم يحتملها الجنة لثقل أنوار الأسرار، ورزانة قوة الربوبية لذلك قال: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بدخلوكما في حمى الربوبية واقتباسكما أسرار الألوهية، ولولا أن الله حبس لسانهما عن كشف الأسرار لملأ الأقطار من علم الأقدار.

ولذلك قال بعض المسرفين: إن تلك الشجرة شجرة علم القضاء والقدر، ومن علم، علم ما كتم الله فيها وصل إلى عزّ المُلك والخلد بوصف الربوبية والحرية.

ولذلك حكى الله عن الملعون بقوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، علم الملعون أنها شجرة الخلد والمُلك وحرم عنهما، فأراد مباشرتها لينازع الربوبية بقوتها، ولم يقدر بأن ليس له استعداد ذلك؛ فتحسّر في نفسه ورأى كنوز الغيب مملوءة

فيها مثمرة، فدلَّ آدم ﷺ إليها ليكون بتلك النعمة متمتعًا أحد من خلقة، لكن مزج بالإرادة الحسد على آدم ﷺ فأوقعه فيها؛ لأنه علم أنها موضع خطر فعصمها الله من ذلك الخطر، فلمّا أكلا وجد ذلك في نفسها فزمّ الله وجهها وقلبها زمام قهر سلطنته فلمّا رأى أنفسها ساقطين عن محل الربوبية عرفا عجزها وضعفها وعبوديتها فقالا: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وأراد الملعون أنها لمّا أكلا من الشجرة أن يظهرا تلك الأسرار التي لو عرفها أحد يكون عيارًا سكرانًا، والهامد هوسًا خارجًا من قبول أحكام الشرائع في العبودية، ولا يكون في العالم حجة الله، فقصدهما بذلك لسقوطها عن درجة الرسالة والنبوة والولاية التي هناك ظهور العبودية لمّا يبدو لهما من عورات الأسرار المكنونة والأقدار المختومة بقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾[1] إذا أراد سبحانه أن يظهر لعبده سرًا من أسراره أعزى إبليس بوسوسة سبب ينكشف به تلك الأسرار له، فيرتفع بعلمها درجاته، فيرجع ضررها إلى إبليس، ورجع منفعتها إلى عبده العارف كحال آدم ﷺ وعدوه، أراد العدو أن يسقطه من درجته فزاد شرفه على شرفه وقد سقط هو من رتبته بالحسد عليه وصار مطرود الأبد وصار آدم ﷺ مقبول الأزل والأبد لقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال تعالى في حق آدم ﷺ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وقال في حق داود ﷺ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥]، ولمّا بدا لهما تلك الأسرار كتماها في نفسها باستعداداتها إلى أشجار الرعاية بقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

قال أبو سليمان الداراني: وسوس لهما الشيطان لإرادة الشر بهما فكان ذلك سببًا لعلو آدم ﷺ وبلوغه إلى أعلى الرتب، وذاك أن آدم ﷺ ما عمل عملاً قط أتمّ له من الخطيئة التي هي أدبته وأقامته مقام الحقائق، وأسقط عنه ما لعله خامر سرّه من سجود الملائكة له، ورده إلى بركة الأولى من التخصيص في الخلقة باليد حتى رجع إلى ربه بقوله: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ مادام مآل أمر آدم ﷺ يئول

---

(١) قال التستري (١/ ١٥٤): الوسوسة ذكر الطبع، ثم النفس، ثم الهم والتدبير، ووسواس العدو على ثلاث مقامات: فالأول يدعوه ويوسوس له، والثاني يأمن إذا علم أنه يقبل، والثالث ليس له إلاّ الانتظار والطمع، وهو للصديقين.

إلى زيادة الزلفة كأنه صدق الملعون في حلفه؛ لأنه رأى تلك الزيادة له بسبب أكل الشجرة، لكن لم تكن نصيحته بالإخلاص؛ لأنه خامر الحسد بالنصيحة فصار من الخائنين، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢].

قال أبو بكر الوراق: لا تقبل النصيحة إلا ممَّنْ تعتمد دينه وأمانته، ولا تكن له حظًا في نصيحته إياك، فإن العدو أظهر لآدم ﷺ النصيحة وأضمر الخيانة، قال الله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾(١) خادعهما حين أخبرهما أن في الشجرة أسرار الربوبية فدلهما إلى غرور الاطلاع على أسرار القدم؛ ليكونا أقرب من المقربين الذين هم سفر الملكوت، وخزان خزائن الجبروت، وغرور ذلك أوقعهما في بلاء أسفار القدم والبقاء التي تأتي لهما لكل لحظة ببلايا لا تقوم بها السماوات، وهكذا شأن العشاق من شوقهم إلى وجه معشوقهم يسمعون حديث كل بر وفاجر لعلهم يصلون إلى شيء من قريب حبيبهم.

أُذَلُّ لِآلِ لَيلى في هَواهَا ... وَأَقبلُ لِلأكابِرِ وَالصِغارِ

قيل: غرَّهما بالله ولولا ذاك ما اغترَّا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ذكرت سر بدو السوءة، وهاهنا لطيفة إشارته إلى أن تلك السوءة التي هي أسرار القدم لم تبد لغيرهما بدت لهما خاصة من جميع الكروبيين والروحانيين، والحمد لله الذي عصم سوأتهما عن نظر الأغيار؛ لأنهما محلا الكرامة والأمانة والرسالة والنبوة والولاية، جردهما الحق عن الجنة وما فيها لكونهما في تجريد التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، فأين الجنة في طريق العارفين إلى الله أفردهما عن الجنة

(١) أي: بسبب تغريره إياهما باليمين بالله كاذبا وكان اللعين أول من حلف بالله كاذبًا، وظن آدم أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا فاغتربه، فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله لتمكن عظمة اسم الله تعالى في قلبه، تفسير حقي (٤/ ١٢١).

لعظمها في المعرفة ولقدسها عن حظوظ البشرية؛ لأن حظ البشرية في المشاهدة، فلمّا ذاقا ذوق شجر العشق انفرد عن الكل بالكل، فصار عورة الحق في العالم فكشف عنهما غرائب علم الأقدار بخروج جميع الأشباح والأرواح منها.

وسُئل الواسطي: ما بال الأنبياء العقوبة إليهم أسرع؟ إن إبليس وآدم ﷺ في مخالفة واحدة، قيل: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾.

قال: سوء الأدب في القرب ليس كسوء الأدب في البعد.

قيل: يطالب الأنبياء بمثاقيل الذَّر، ولا يطالب العامة بذلك؛ لبعدهم عن مصادر السرِّ.

وقال بعضهم: بدت لهما سوأتهما ولم تبد لغيرهما هتك عنهما سر العصمة، ولم يبد ذلك لغيرهما.

قال الواسطي: سلبه ما ألبسه وكساه كسوة الذل حتى عرفه أراذل قدرة فانيته نفسه عن نفسه بنفسه، فأيقن أنه لا ينال شيئًا من ربه إلا بربه، وانقطع به إليه مغيبًا عن حضوره، ومأخوذًا بحظه عن حظ غيره، فلمّا بلغا إلى رأس كنوز علم الغيب، وصارا متحيرين في مهمهة الامتحان من رؤية عن النكرات لاطفهما الحق بمناداته وخطابه وعتابه ليجرهما من فقار الديمومية إلى مهد طريق الشريعة بقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ النداء نداء المآب، والقول قول العقاب، ذكر لهما تلك الشجرة المنهية لموقعها في شوق تلك الأسرار؛ لأنهما في البعد من تلك المزار.

قال القرشي: قيل لآدم ﷺ أدخل الجنة ولا تأكل من الشجرة، فلمّا أكلا نادهما ربهما والقول على معنى القرب والنداء على حد البعد، فلمّا أعلمنا أنهما أخطآ حين باشرا الشجرة من جهد شهوة العشق، والحق هناك رؤية ما ظهر في الشجرة من حسن تجلّي الحق، وليس استيفاء خط البشرية بمباشرة الشجرة من حق المقام أضافا الظلم إلى أنفسهما بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الظلم هاهنا الجهل بحقائق المقام وطلب حظ النفس في مقام مشاهدة الحق أقرا بالجهل، وكانا في ذلك الوقت في مقام التلوين ولو كانا في محل تجريد التوحيد لم يذكر النفس ولم يلوما أنفسهما؛ لأن رؤية النفس وقدرتها في شيء في مقام التوحيد شرك؛ ألا ترى إلى قول الأستاذ حين قال: مَنْ لام نفسه فقد أشرك.

قال الحسين: الظلم هو الاشتغال بغيره عنه.

وقال ابن عطاء: ظلمنا أنفسنا باشتغالنا بالجنة وطيبها عنك.

قال الشبلي: ذنوب الأنبياء تؤديهم إلى الكرامات والرتب، كما أن ذنب آدم ﷺ أدى إلى

الاجتباء والاصطفاء، وذنوب الأولياء تؤديهم إلى الكفارة، وذنوب العامة تؤديهم إلى الإهانة.

قال الواسطي: لم تكن له في حال طينته خواطر غير الحق، فلمّا أحضره في حضوره غاب عن حضوره فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ما ورد عليه من ربه عن غيره، وهل لا قطعه باتصاله في اتصاله عن اتصاله، وهل لا عيّنه ما عليه في نفسه عن نفسه، فزاد الله حرقته وهيجانه حين أردف شوقه داء الفراق من مقام الميثاق ليستوعب حقائق البلاء في سفر العشق بقوله سبحانه: ﴿ٱهْبِطُوا﴾ أرسله من مقام البهجة إلى عالم المحنة بين أهل العداوة ومقاساة الفرقة بعد ذوق الوصلة؛ لأن في مقام العشق الوصال والفراق تؤمان كان في عيش الوصال مع الحبيب صافي الحال بلا كدورة الجفاء ولا رحمة الفراق؛ ففتح عساكر الامتحان عليه أيدي الفرقة من ممكن الغيرة وكدرت له مشرب الوصال في أيام الصفاء كقول القائل:

وكانَ لي مَشربٌ يَصفُو برُؤيَتكمْ ... فَكدَّرتهُ يَدُ الأيامِ حِينَ صَفَا

وأنشد بعض المتأخرين:

وَبِتنَا عَلى رُغمِ الحَسُودِ وَبَينَنا ... حَديثٌ كَريحِ المِسكِ شيبَ بِهِ الخَمرُ
حَديثٌ لَوَ أنَّ المَيتَ يَحيا بِبَعضِهِ ... لَأَصبَحَ حَيًّا بَعدَ مَا ضَمَّهُ القَبرُ
فَوَسَّدتُهُ كَفي وَبِتُّ ضَجيعَهُ ... وَقُلتُ لِلَيلي طُل فَقَد رَقَدَ البَدرُ
فَلَمّا أَضاءَ الصُّبحُ فَرَّقَ بَينَنا ... وَأَيُّ نَعيمٍ لاَ يُكَدِّرُهُ الدَهرُ

لم يكن آدم عليه السلام وحواء في قيد الجنة إنما طمعًا في الخلد ببقائهما مع الحبيب أبدًا لكن صال عليهما عسكر غيرة القدم، وأخرجهما من ساحة الكبرياء حتى لا يكون مع الله غير الله، أصابتهما عن غيرة الأزل في معناه، قال الشاعر:

إنْ تكُنْ عينٌ أصابَتك فلَا ... زَالتْ العينُ تصيبُ الحسْنَا

لم يهبطا من الدرجات الكرامات وإن أخرجا من بقاع الجنات قيل: لم يخرج آدم عليه السلام عن رتبة الفضيلة، وإن أخرج عن دار الكرامة، فلذلك قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢]؛ ولّما حجبهما عن مقام الوصال وأدخلهما دار الفراق أخبرهما أنهما يحيان في الأرض بروح المعرفة ورزق المشاهدة ويموتان في حجر الشفقة عن صولة الحال والمكاشفة فيخرجان منها بنعت التوحيد والمحبة.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا

لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا
ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ
أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ
رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا
بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ
لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ فيها تحيون بالله وتموتون في الله ويخرجون بنعت الله.

قال بعضهم: فيها تحيون بالمعرفة، وفيها تموتون بالجهل، ومنها تخرجون مما أنتم فيه من التقدير والتدبير إلى سوابق القدر عليكم وجرى الأحكام فيكم.

ولما أعزى آدم ﷺ وحواء من لباس الجنة غوّص بنوه بذلك ألبسة شتي من حضرته الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ لكل طائفة لباس للعارفين لباس المعرفة، وللمحبين لباس المحبة، وللمشتاقين لباس الشوق، وللموحدين لباس التوحيد، وللزاهدين لباس الزهد، وللمتقين لباس التقوى، وللأولياء لباس الولية، وللأنبياء لباس النبوة، وللمرسلين لباس الرسالة، ولكل واحد منها ظاهر وباطن زينة الباطن لنظر الحق وزينة الظاهر لموقع الشريعة وتلك الزينة ما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ وتلك الزينة أنوار القرب مرخص بها صار بين الخلق مهينًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لأن كل لباس فيه حظ العباد وليس في لباس التقوى حظ النفس، وهذه الملابس هي كثرة العموم ولباس الله لمَنْ فنيَّ في الله واتصف بصفات الله، فكل لباس يفني في لباس الله من خرج بلباس الله صار قبلة الله للعالمين، مَنْ نظر إليه يرى الله، ولهذا أشار ﷺ إلى مقام اتصافه بصفات الله واكتسائه بكسوة أنوار الله بقوله: «مَنْ رآني فقد رأى الحق»[1].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٧٧٥)، والترمذي (٤/ ٣٥٣).

وقوله تعالى: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ أي: كلكم عريان من أنوار القدم بادي سوءة الحدث؛ فينبغي أن تستروا بلباس القدم سوءة الحدث، وبلباس العلم سوءة الجهل، وبلباس الربوبية سوءة العبودية.

قال الواسطي: السوءة الجهل، وأزين الزينة أن يزين العبد بالتقوى، ولباس التقوى وقاية لا يخرقها كيد حاسد، والتقوى لباس القلب علامتها الورع، والتقوى الأدب مع الله، وهو ألا يرى مع الله غير الله فانظر، أي: القميص لبس قميص الصدق أو قميص الفسق أو قميص النسك.

وقال النصر آبادي: للباس كلها ملك الحق ولباس التقوى لباس الحق قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ واللباس الذي يواري السوءة لباس الكرامة، ولباس التقوى لباس الإيمان وهو أشرف.

وقال بعضهم: لباس الهداية للعوام، ولباس التقوى للخواص، ولباس الهيبة للعارفين، ولباس الزينة لأهل الدنيا، ولباس اللقاء والمشاهدة للأولياء، ولباس الحضرة للأنبياء.

وقال الأستاذ: للقلب لباس التقوى وهو صدق القصد بنفي الطمع، وللروح لباس أمن التقديس وهو ترك العلائق وحذف العوائق، وللسر لباس من التقوى وهو نفي المساكنات والتصاون من الملاحظات[1].

ثم إن الله سبحانه حذر بني آدم بما حذر آدم ﷺ من متابعة الشهوات وطلب المألوفات بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي بطول الأمل والطمع في البلوغ إلى كبر السن ورغد العيش في المال والجاه.

كما طمع آدم ﷺ في الخلد والإقامة في الجنة؛ لأنها تخرج العبد من مقام القدس والأنس إلى عالم الكدورة والوحشة، كما كان حال آدم ﷺ، وأن هذه الأشياء ينزع كسوة الأنوار عن سرِّه وتصيره عريانًا من لباس التقوى الذي ذكره الله.

هاهنا ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ إذا كان العبد متابعًا للهوى نفسه وهوى شيطانه لشهوته، وطلب حظه ينزع عنه لباس صفاء العبادة ويجرّد من نور الحضرة، ويبدو له علل الإنسانية بنعت غلبتها عليه فإنها طوارق ليلة الهجران فيرى فيها تلك السوءة أضاف نزع لباسهما وإخراجهما من الجنة إلى العدو وفي الحقيقة هو واسطة القهر إذا يرى

(١) انظر: تفسير القشيري (٢/ ٣٥٩).

طـوارق القهـر في ليلي امتحان العبد يتبعها بوسوسة وإلقاء مزخرفاته إليه، والأفاني له القدرة على إغواء العباد وليس إليه الضلال وفي كل موضع يرى أنوار العناية ونيران المحبة نحسًا من هناك خوفًا من احتراقه في تلك النيران والأنوار.

سُئل بعضهم: ما الذي قطع الخلق عن الحق بعد إذ عرفوه؟ فقال: الذي أخرج إياهم من الجنة اتباع النفس والهوى والشيطان.

قال ابن عطاء: خروج آدم ﷺ من الجنة وكثرة بكائه وافتقاره، وخروج الأنبياء من صلبه خير له من الجنة والتنعيم والتلذذ بنعيمهما.

وقيل في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾: هو أنوار القرب ولعان العزة.

قال أبو سعيد الخراز: هو النور الذي شملهما في القرب.

قال النصر آبادي: أحسن اللبسة ما ألبس الصفي في الحضرة فلمّا بدت منه لمخالفة نزع عنه.

لذلك قال بعض السلف: مَنْ تهاون سر الله عليه أنطقه الله بعيوب نفسه.

قال الأستاذ(١): مَنْ أطغى على وسواس نفسه بإسراع الهوى وحد الشكلية بين وساوس الشيطان وهواجس النفس، فيتناصر الوسواس والهواجس وتصير خواطر القلب، وزواجر العلم معمورة مقهورة، فعن قريب تشتمل تلك الوساوس صاحبها وينخرط من سلك موافقة الهوى فيسقط في مهواة الزلة، فإذا لم يحصل تدارك يوشك التوبة صارت الحالة قسوة والقلب إذا قسا فارقته الحياة وتم له البلاء.

وزاد تعـالى تحذيـره مـن الـشيطان، وبـيّن أنه يسترق من حيث لا يراه الإنسان بعقيب بقـوله الآيـة: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أراد أن الشياطين ينظرون إلى العـبد من حيث يأتي عليه مقادير المشيئة بنعت الامتحان، فإذا يرون قضاء عليه يتبعونه بقصد الإغـواء والعـبد لا يرى ذلك ما دام وراء حجب شهوته، ولا يرى الشياطين ما دام في ظلمات طـبعه؛ فـيفعل بـه مـا كان من صنيعهم فإذا خرج من ظلمة النفس والهوى إلى ساحة الحضرة وينظـر إلى أسـماء الغـيب ويلتجئ إلى قرب مولاه من شر نفسه وشياطينه يبصره الله الشياطين ومكائـدهم فيلقـي إلـيهم مـن قـارورة الاستعاذة ميزان المحنة؛ فيحرقهم جميعًا بتأييد الله قال تعـالى في ذلـك مـن نـيرات كـتابه آيتـين واضـحتين الأولى في وصـف رؤيتهم مواقع حيلهم وأشـكالهم، الأولى قـوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ

(١) في تفسيره (٢/ ٣٥٠).

تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، والأخرى قوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

قال ذو النون المصري: إن كان هو يراك من حيث لا يراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه، فإن كيد الشيطان كان ضعيفًا وبكرمه وفضله صرف الشيطان عن أوليائه وجعلهم أحباء أعدائه وحث الأولياء بعداوتهم جميعًا بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أضاف الكل إلى نفسه جعل ألفة الأولياء في قلوب المؤمنين وجعل ألفة الفساق في قلوب المفسدين فلا تضر عداوتهم أولياءه؛ لأنهم في عين رعاية الأزل من شرهم.

قال ابن عطاء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ فالحقيقة منها ما أضاف إلى نفسه والمعارف ما أضاف إليهم، كذلك خطابه في جمع القرآن ولمّا انصرف القوم عن طريق العدل والإحسان ومتابعة الحق في طلب الغفران وتابعوا سلاك الضلال، أمر الله صفيه عليه ﷺ أن يظهر لهم ما يليق بحضرته تعالى من العدل والإخلاص والتوحيد والتوجه من كل شيء دونه بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ [1] القسط استواء السرّ بنعت التجريد، والتقديس عن الحدث في رؤية القدم بحيث لا يكون في البين من حظ النفس شيء؛ لأن هناك حظ النفس وجد أن حلاوة برد المشاهدة وحظ الله هناك احتراق النفس في نيران التوحيد حين أبرز الحق للسرّ أنوار عزّة الأزل فيستوي بنعت الاستقامة على وصف صفات الأزلية.

ألا ترى كيف فتح أبواب الإحلال في كشف الجلال لأهل شهود الغيب ودعاهم إليها بنعت الانقطاع عن الالتفات إلى الحدثين بقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: حيث يبرز لكم أنوار القدرة وسنا المشاهدة ضعوا وجوهكم على تراب فناء العزّة على وصف رفع الأغيار من ساحة الأنوار عند التضرع والدعاء؛ فإن الدعاء شوق القلب إلى لقاء الرب بحيث لا يرى في البين غير الرب بإشارته، ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ صافين عن كدورة الحدث والنظر إلى الغير، فإذا تم هذه الصفات تم حقائق العبودية التي سماها الله

---

(١) القِسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق نفسك: فالعدلُ في حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير في المأمور بِهِ أو إقدام على المنهيِّ عنه، ثم ألا تدخر عنه شيئاً مما خوَّلك، ثم لا تُؤثِرَ عليه شيئاً فيما أحلَّ لك، وأمّا العدل معَ الخَلْق - فعلى لسان العلم - بذلُ الإنصاف، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف. وأمّا العدل في حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نَفَس. تفسير القشيري (٢/ ٢٦٢).

الدين أي مثل هذه الطريقة له.

قال الجنيد: في هذه الآية أمر بحفظ السر وعلو الهمة وأن يرضى بالله عوضًا مما سواه.

وقال رويم: خلاص الدعاء أن ترفع رؤيتك عن أفعالك.

وقال حارث المحاسبي: وإخلاص الدعاء إخراج الخلق من معاملة الله.

وقال أبو عثمان: الإخلاص لسان رؤية الخلق لدوام النظر إلى الخالق.

وقال بعضهم: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: الإشارة منه إلى استدامة شهوده في كل حالة وألا ينساه لحظة في كل ما يأتيه فنذره ويقدمه ويؤخره.

ولما أمر الكل بالعبودية الخاصة وخاطبهم بالوسائط بعد خروجهم من كتم العدم إلى ساحة الوجود على سمات القضاء والقدرة والشقاوة والسعادة والهداية والضلالة، فأحالهم على سابق المشيئة.

أي: ليس كل مَنْ أقبل إلى العبودية فهو من أهل الوصال، وليس كل مَنْ فرّ من مقام العبودية وأماته النفس في الطاعة إلى كدورة حظوظ البشرية فهو من أهل الفراق.

فإن الطاعة والمعصية خاصّان في البين، ومن كانت فطرته فطرة المقبولين يكون مقبولاً بأي صفة كان، ومَنْ كانت فطرته فطرة المطرودين يكون من المطرودين بأي صفة كان بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بدأ الكل بسمتين سمة اللطف وسمة القهر، فمَنْ صحبة سمة لطفه لا يضره تصاريف التلوين، ومَنْ صحبة قهره لا ينفعه ظاهرة التمكين، فيكونان بعد خروجهما من محل الامتحان على نعت فطرة الأزل فريقًا في أنوار المعرفة وفريقًا في ظلمة الطبيعة.

قال النوري: يجري عليكم في الأبد ما قضينا عليكم في الأزل.

وقال الحسين: لا تغتروا بما أجرى عليه من الأعمال؛ لأن الأعمال قد توافق الخلقة وتخالف.

قال بعضهم: يعودون منه إليه أفقدهم لذّة الأشياء لوجوده، وأخلصهم بعلمه عن علم من سواه، وأعتقهم بإرادته عن إرادة الأغيار.

ولي هاهنا نكتة كما بدأكم بعضًا في رؤية الجمال وقعوا في المعرفة، وبعضًا في رؤية الجلال وقعوا في النكرة، أبواب عين نفس القدم، وهناك تقصير الأفهام عن الإدراك بقيت في ضلال النكرة، فريق بقي في نكرة النكرة أبدًا، وفريق بقي في معرفة المعرفة أبدًا، ولما ذكر سبحانه إقامة الوجوه بنعت العبودية في مساجد الشهود أمرهم بأخذ زينتها في مواقف

المراقبات بقوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ زينة العبد لباس العبودية الذي طرازها التواضع، وسداه الاستقامة، ولحمته الإخلاص قطع ذيله من الحدثين، وقصر كمه من الأكوان، وجيبه خشوع وعطفه خضوع وصاحبه منور بنور المآب مشرف بحسن الثواب، فزينة التائبين الحُرقة والبكاء، وزينة الورعين التضرع والثناء، وزينة الزاهدين سمات نور السجود على وجوههم، وزينة العابدين سطوع نور الغيب من عيونهم، وزينة المحبين الوله والهيجان، وزينة المشتاقين الزفرة والهيمان، وزينة العاشقين الوجد والغليان، وزينة المستأنسين السكينة والوقار، وزينة العارفين الهيبة والإجلال، وزينة الموحدين الحيرة والفناء، دانيهم في العبودية وعاليهم في الربوبية، مَنْ أتى بالعبودية فلباسه لباس الأفعال، ومَنْ أتى بالربوبية فلباسه لباس الصفات، ومَنْ أتى بنعت القناعة مقبلاً إلى قبلته القدم، فلباسه لباس الذات فشتان بين الأحوال، وشتان بين اللباس، وشتان بين العباد

تَزَيَّنَ النَّاسُ يومَ العيدِ للعيدِ ... وقَدْ لبستُ ثيابَ الزرقِ والسودِ

أصبحتُ في تَرحٍ والناسُ في فَرحٍ ... شَتَّانَ بيني وبينَ الناسِ فِي العيدِ

قال الواسطي: ﴿يَٰبَنِي ءَادَمَ﴾ تغيّر كأنه يقول: يا بني النقص والعيب، يرد ذلك عليهم حتى لا ينظروا إلى أنفسهم، ولا يلتفتوا إليها.

وقال الأستاذ: على موجب الإشارة زينة العبد بحضور الحضرة ولزوم السدة والاستدامة لشهود الحقيقة.

ويقال: زينة نفوس العابدين آثار السجود، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود، فالعابد على الباب بنعت العبودية، والعارف على البساط بحكم الحرمة، فشتان بين عبدٍ وبين عبدٍ.

وقال: زينة النفوس مدار الخدمة، وزينة القلوب حفظ الحرمة، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة.

ويقال: زينة اللسان الذكر، وزينة القلب الفكر.

ويقال: زينة الظاهر السجود، وزينة الباطن الشهود.

ويقال: زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات، وزينة القلوب دوام المواصلات من حيث المشاهدات، وأذكر هذه الزينة التي هي آثار قربة على أهل محبته الذين يلبسون لباس أهل البسط والأنس والانبساط من لبن الحب الذي لا يليق إلا بعشاق الله وعرائس بساط الله، ويأكل أكل الحنانيين من أطيب المباحات في مقام الرفاهية غير بعد ذلك أهل إنكارهم الذين ينكرون أولياء الله بلبس الفاخرات، وأكل الطيبات في مقام المشاهدات

التي هي أعياد العارفين والموحدين بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1] الخطاب يحتلم الغضب على الأعداء والتفضل على الأولياء مَنْ اجترئ أن ينكر على أحبائي الذين هم ملوك حظائر قدسي وعرائس مجالس أنسي باكتسائهم بزينة العاشقين، ويتناولهم من طعام المستأنسين، وأعلم أنها خارجة عن كسب الخلق حيث أضاف إخراجها إلى نفسه، بقوله: ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: هي زينة أخرجها لقاصديه وعاشقيه، أخرجها مَنْ تكلف الخلق حين أخص نفسه بإخراجها لهم، وهي التي ما جرت عليها حيل الخلائق بقدسه عن غبار العلائق حلالاً على أهل الحق، حيث لا يدخل فيها خيانة الخائنين، ولا كسب البطالين مباحًا لأهل الأنس بحيث جاءت من عنده بلا علّة ولا كلفة، يأكلونها بالتوكل ويلبسونها بالرضا والمحبة على عادية على الأعداء باقية على الأولياء بقوله: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. وأيضًا: في الحقيقة نور جماله وجلاله الذي ظهر من بشرة العارفين والطيبات من الرزق، هي موائد الأنس على خوان القدس، وإثمار التجلي من أشجار التدلي.

قال بعضهم: الزينة التي أخرج الله لعباده هي المباحات في البوادي، والكسب الحلال في الحضر، والطيبات من الرزق هي الغنائم.

وقال أبو عمرو الدمشقي: مَنْ حرَّم التزين بما يبدو على الأولياء من المعونات والكرامات التي أخرجها لعباده المخلصين والطيبات من الرزق كسر الفقراء الذين يأخذونها عن ضرورة وفاقة.

وقال الأستاذ: الطيبات من الرزق أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى.

ويقال: أرزاق المعبدين إلهام ذكر الله، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله.

ولما ذكر تفضله تعالى على الموقنين العارفين بأن رزقهم من مذخور ما عنده في خزائن جوده من الزينة والطيبات التي قويت بها أبدان الصديقين، وحرمت عن لذتها أجساد المفلسين الذين يتركونها رياءً وسمعةً وتزهدًا وتقشفًا وسالوسًا وناموسًا، ويقولون إنها محرمة على أولياء الله جهلاً بالشريعة وإنكارًا على أهل الحقيقة، بيَّن أن ما حرم الله ليس هي إنما حرَّم سمعة الظاهر ورياء الباطن وأمر نبيه ﷺ بجواب الراجعين عن طريق الحق بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا

(١) عطف على زينة الله أي من حرم أيضًا المستلذات من المآكل والمشارب كاللحوم والدسوم والألبان، تفسير حقي (٤/ ١٣٦).

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (١) فحش الظاهر مباشرة ما يشغله عن العبادة الخالصة، وما بطن ما يجري على القلب من الوسواس الذي يكون حجابًا بينه وبين مشاهدة الحق، وأيضًا ما ظهر منها من الفواحش، هو ما يجرى في صورة الفعل بالمعصية، وما بطن فيها ما يبقى في النفس من حلاوة مباشرتها، وزاد ذكر ما أنكره تعالى بقوله: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ﴾ الاسم ظاهرًا الإنكار على الأولياء، والبغي الحسد في الباطن عليهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي: امتنع بجلاله وعلو كبريائه في القدم من أن يكون معه في الألوهية ضد الشرك رؤية الغير في البين، ثم ألقى الرغام على أنوف المدعين الذين يدعون علوم اللّدنيات بقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال سهل: أن يكلم عن الله بغير إذن على غير سبيل الحرمة وحفظ الأدب، فقد هتك ستره وغدا طوره، وقد حذر الله تعالى أن يقول أحد عليه ما لا يعلم ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: ما تريد لغير الله من الطاعات.

وقال بعضهم: ما ظهر من الفواحش هو الكذب والغيبة والبهتان، وما بطن الغل والغش والحقد والحسد.

وقال الأستاذ: ما ظهر منها الذلّة، وما بطن الغفلة.

ويقال: فاحشة الأحباب الصبر عن المحبوب.

﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

---

(١) «ما أحدٌ أغيرَ مِنَ الله، ولذلكَ حرَّم الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنهَا وما بَطَنَ، وما أحدٌ أحبُّ إليهِ المدحُ من الله، ولذلكَ مدَحَ نفسَهُ، وما أحَدٌ أحبَّ إليهِ العذرُ مِنَ الله تعالى، ولذلِكَ أرسَلَ الرّسلِ وأنزَلَ الكُتبَ». البحر المديد (٢/ ٢٠).

بِـَٔايَـٰتِهِۦٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ
مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا
دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا
هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ
وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ
وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ
ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ
فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾».

قوله تعالى: «فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ» أي: مَنْ تقدس عن ما دون الله في رؤية إجلال الله وعظمته، وأصلح ما بينه وبين الله من أنفاس بنفسها في غير الشوق إلى الله، وغير ملاحظة جماله وجلاله؛ لأن كل نفس يخرج من العبد بغير هذه الأوصاف فاسد وإصلاحه على العبد واجب بالمراقبة والرعاية والمحافظة عن جميع الخواطر، ومَنْ كان بهذه الصفة لم يبق عليه من جنايات النفس شيء فلا خوف عليه من فوت المقامات، ولا له حزن من احتجابه عن المشاهدات بقوله سبحانه: «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

قال بعضهم: مَنْ اتقى في ظاهرة عن تناول الشبهات، وأصلح باطنه بدوام مراقبة الله تعالى: «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» في الدنيا ولا حزن عليهم في الآخرة، ثم إن الله سبحانه وصف هؤلاء المقدسين بقدس خواطرهم من علل الإنسانية وغل الشيطانية، ووصفهم بصدق الآخرة، وجلوسهم على أسرار العناية في الحضرة بنعت الألفة والزلفة في مشاهدته، حيث

رفع الله الحجب وسقاهم من تسنيم شراب الوصال في كشوف الجمال بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

أثبت سبحانه وبيّن أن صدروًا أهل الولاية، وأهل بساط القرب مع إنها مكان نور الإسلام واليقين فائضًا فيها أماكن علل الإنسانية من الغلّ والغشّ، ولا يخرج الأولياء من هذه العلل، وعن حد البشرية حتى لا يظن ظانّ أنهم خلقوا مقدسين، وإذا كان كما توهموا فأين محل الامتنان عليهم بإضافة تقديس صدورهم بتفضله، ونزعه عن أسرارهم كل خاطر لا يليق بحضرته وتصديق ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- قال: «فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]»[1].

وأيضًا: يحتمل أن هذا النزع إشارة إلى أن قلوبهم خُلقت مقدسة عن هذه الشوائب؛ لأنها محل نظر الله، وفي هذه العلّة تجري على صدورهم الخارجة عن القلوب؛ لأنها موضع وسوسة الشيطان بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥] والعلّة إذا لم تدخل القلب فهي طارئة لا يثبت أثرها، فعلّة الأولياء في الصدور، وعلّة العموم في القلوب.

قيل: هو التحاسد والتباغض والتدابر الذي نهى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عنها.

وقال بعضهم: مَنْ تحظّى بساط القرب سقط عنه رعونات النفس وحظوظ الشيطان، قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وعندي والله أعلم ألا يبلغ أحد إلى درجة الولاية.

وقيل: ذلك قدّس الله صدره عن جميع العلّة وتصديق ذلك قول النبي ﷺ حيث وصفهم بسلامة صدورهم والنصيحة للأمة: وذلك حين وصفهم عند أصحابه بسني الدرجات ورفيع الكرامات، فقيل: يا رسول الله، بم نالوا؟ قال: «بسلامة صدورهم والنصيحة للأمة»[2].

ثم أثنى الله عليهم عقب الآية بأنهم عرفوا فضل الله عليهم في قديم إحسانه ولطيف إنعامه الذي لا تدخل فيه علّة الاكتساب، ولا رحمة الاجتهاد بقوله حكاية عنهم حين تجدون

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٢/ ٤٥٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٧/ ٤٣٠).

المُنعم مفضلاً عليهم بكشف النقاب ورفع الحجاب: ﴿وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: هدانا بنفسه إلى نفسه بسبق عنايته لنا في أزلة.

قيل: فيه دلّنا على توحيده، وجعلنا في سابق علمه من خواص عباده، واختار لنا أعز الأديان، ولو وكلنا إلى اختيارنا لضللنا في أول لحظة.

وقال بعضهم في هذه الآية: رؤية الهيبة توقع قبضًا في الأحوال وربما تورث بسطًا والعبد متردد فيما بينهما من قبض وبسط، وحال البسط أورث قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾.

وقال ابن عطاء: لمّا نظروا إلى هداية الحق إياهم نسوا أفعالهم وطاعاتهم وعرفوا المنّة عليهم فقاموا مقام الشكر.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ إن لله عبادًا في الدنيا قلوبهم تطير في الملكوت، وأرواحهم تطير في أنوار الجبروت، وعقولهم تستشرق على الأسرار، وأسرارهم تطلع على الأنوار، فيرون بنور الله بالله من العرش إلى الثرى، ويعرفون جميع الخلائق بسمات البعد والقرب التي تظهر من وجوههم، وهي منقوش خاتم السعادة والشقاوة الذي لا يقرأه إلا عارف رباني، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[1].

وهؤلاء على أعراف ذروة شرفات الحضرة يوم القيامة، مطلعون على أحوال الدارين

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٩٨).

ينظر إليهم أهل الجحيم فيحتملون برؤيتهم أثقال العذاب، وينظر إليهم أهل الجنة فيستزيدون من وجوههم سرور العيش، وهم يشفعون على كل مقصر، وينعمون على كل متوفر والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام منهم عليهم زيادة قربه أهل الجنة وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ يعني أهل الأعراف من أعظم شأنهم عند الله في حضرته وقفوا شفاعة الخلق، وهم يطمعون أن يدخلوا الجنة، ويعيشون مع عوام الجنة كالملوك يجلسون مع أهل الدناءة، لتطييب قلوبهم، والفرح بملكهم.

روى أبو الحسن الفارسي عن سهل بن عبد الله يقول: أهل المعرفة هم أصحاب الأعراف قال الله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾[1] أقاموهم لإشرافهم على الدارين وأهلها، يعرفهم الملكين كما أشرفهم على أسرار العباد في الدنيا وأحوالهم.

ويقال: عرفوهم غدًا بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم، فأقوم موسومين بأنوار القرب وآخرون موسومون بآثار الرد والحجب.

وقال الأستاذ: هؤلاء أصحاب الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم، وأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم، وأشرفوا غدًا على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إن من لطف الله وكرمه على خلقه أن رفع الحجاب من الجنة لأهل النار حتى يحتملوا آلام العذاب برؤية الجنان وأهلها، وهذا من ألطافه الخفية.

ألا ترى إلى عاشق ينظر إلى وجه معشوقه، وهو في وسط الثلج والزمهر فلا يجد آلامه لما وجد من حلاوة مشاهدة معشوقه، اذكر شأن صويحبات يوسف ﷺ كيف قطعن أيديهن في مشاهدة يوسف ﷺ، وما شعرن في مشاهدته آلام القطع سمعت أن بعضًا من المشايخ مضي إلى مسجده بقرب داره بين المغرب والعشاء، وكان ينزل الثلج فرأى شابًا تحت منظر يتكلم مع معشوقه على المنظر، وهما غائبان في حديثهما عن رؤية الشيخ حتى صلى ورجع، فلما حان وقت الصبح ومضى إلى قربهما فرآهما واقفين بين الثلج، والثلج بلغ إلى وسطهما ومع شيخ سراج، فقالت المعشوقة لعاشقها: مر يا حبيبي، فإن الشيخ يمضي إلى صلاة العتمة

---

(١) يعنى أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة والنار بما يتوسمون في سيماهم من آثار نور القلب وظلمته وسميت الأعراف أعرافًا لأنها مواطن أهل المعرفة، وإنما سمى الله أهل المعرفة رجالا لأنهم بالرجولية يتصرفون فيما سوى الله تصرف الرجال في النساء ولا يتصرف فيهم شيء منه: تفسير حقي (٤/ ١٥٥).

وأنشد في هذا المعنى:

شـــهورٌ يَنْقَــضِين ومَــا شَـــعَرْنَا بأنـــــصَافٍ لهـــــنَّ ولا سِرَارِي

فصاح الشيخ صيحة وخرّ مغشيًا عليه، ثم قام بعد ذلك وتأوه ومزق قميصه، وقال: واويلاه أن آدميين لم يعلما في عشقهما ومشاهدتهما العتمة من الصباح، ولم يشعر آلام الثلج في البرد، وأنا أدعي حب خالق الخلق، وأكون بهذه الصفة غافلاً، أنشد الحلاج في بلائه حين رؤية مبليه.

وحــــرمه الـــود الــــذي لم يكـــن يطمــــــع في إفـــــساده الدهــــــر

مـــا نالنـــي عـــند نـــزول الـــبلاء بـــؤس ولا مـــــسني الـــضر

وقولهم: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ لأن الماء ضد النار، أي: يا أهل القدرة في الحضرة أفيضوا علينا من مياه الشفقة، وما رزقكم الله من مقام الشفاعة.

قال بعضهم: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: ماء الرحمة أو ممّا رزقكم الله من القربة.

وقال الأستاذ: لا يسقيهم قطرة مع استغنائه عن تعذيبهم وقدرته على أن يعطيهم ما يريدون، ولكن قهر الربوبية وعزّ الأحدية وأنه فعّال لما يريد لم يرزقهم اليوم من عرفانه ذرة لا يستقيم غدًا في تلك الأحوال قطرة، في معناه أنشدوا:

وأقـــسمن لا يـــسقينا أمـــر شربـــه ولـــو زخـــرت مـــن أرضـــهن بحـــور

وقال: إنما يطلبون الماء ليبكوا به لأنه نفذت دموعهم كما قال لهم:

يـــا نازحـــا نـــزحت دمعي قطيعته هب لي من الدمع ما أبكي عليك به

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

ذكر سبحانه امتنانه على المؤمنين بما خاطبهم بمجموع كلامه القديم الذي أبنا ما عنده لهم من مذخور السعادات، وسني الكرامات، وعظيم الدرجات، ودعاهم به إلى أعمال ذكية، وأحوال شريفة، ومقامات عزيزة، وعرّفهم به بأسمائه ونعوته وصفاته وذاته تعالى وأفعاله في انتظام صنائعه، وإعلام قدرته وبدّلهم به إلى المعرفة كل صفة من صفاته القديمة التي معرفتها معرفة ذاته تعالى، عرّف نفسه به للعارفين، وفتح بمفاتيحه كنوز غيبه للروحنيين، وكشف قناع الجهل بأنواره عن قلوب الغافلين والعالمين، وجذب بلطائفه قلوب المحبين والمشتاقين والعاشقين إلى مشاهدته ووصاله، ورتّب فيه مقامات العبودية ومعارف الربوبية، وذلك صدر منه بسابق علمه وقديم حكمه، ويهدي به إلى نفسه قلوب المؤمنين به، وذلك منه رحمة كافية للعموم والخصوص، وكان رحمته سبقت في الأزل لَمِنْ خاطبه سبحانه بنعمة هدايته به إليه، وأي نعمة أعظم من إنزاله كلامه إلينا الذي يعتقنا من رق النفوسية، ويخلصنا من شهوات الشيطانية، ويهدينا بنور إلى أنوار الربانية، والحمد لله الذي أمنن علينا بفواتح أنعامه ولطائف إكرامه واصطفانا بخطابه، وجعل استماعنا محل استماع كلامه وقلوبنا أوطان بيانه وأسرارنا أوعية أنوار سلطانه وأرواحنا خزائن عرفانه، وعقولنا مشاهد برهانه وأبداننا مساقط شرائعه من قرآنه.

قال بعضهم: أنزل الله كتابًا فيه هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب، وفرقانًا بين العدو والولي، لا يعلم معانيها إلا المؤمنين بمتشابهه والعاملون بأحكامه والتالون به أناء الليل والنهار فيه الفلاح لَمَنْ طلب الفلاح، والنجاة لَمَنْ رام النجاة، لا يهلك عليه إلا هالك ولا ينجو به إلا ناجي، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾[1] ولمّا عرّف نفسه بخطابه للعارفين، عرّف نفسه أيضًا لهم بأفعاله النورية، وبرهانه القدرتية، وآياته الصفاتية، وأعلامه الذاتية، بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

فقد نبّه عن عين الألوهية صريحًا حين قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ خاطبهم بالتربية؛ لجذب قلوبهم بالمحبة ثم أشار إليهم بالألوهية لفناء الحدث في القدم ثم صرفهم من المحو إلى الصمود، ومن الحضور إلى الغيبة، بقوله الذي أشارة ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ عبارة الأولى للبسط، والثاني للقبض، ثم صرفهم من الصفات إلى الأفعال كما صرفهم من الذات إلى الصفات كي

---

(١) أي: بيَّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ، مفصلةً (على علم) أي: عالمين بوجه تفصيله حتى جاء في غاية الإتقان. البحر المديد (٢/ ٢٥٤).

لا تحرقوا في نور الألوهية، الأول خطاب القلب، والثاني خطاب الروح، والثالث خطاب العقل الأول وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾ ثم أنزلهم من الشهود إلى الشواهد، وخاطبهم على قدر عقولهم حيث أحالهم من القدم إلى الحدث لعلمه لضعفهم عن حمل بوادي طارقات سطوات الوحدانية، قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جعل الآيات مرآة الصفات لأهل المشاهدات خلقها في ستة أيام، أيام الله قضاء الله وقدره، احضرها بأيام مخصوصة وهي الستة، وكل يوم من أيامه ظهور صفة من صفاته، من مطلع القدم طلعت للعدم لكون الحدث، وهذه الأيام الستة ظهور ست صفات من صفاته، أولها العلم، والثاني القدرة، والثالث السمع، والرابع البصر، والخامس الكلام، والسادس الإرادة، كَمُلَت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة، ولما أتمها صارت الحدثان كجسد آدم بلا روح من صفاته السابعة، وهي حياته القديمة الأزلية الباقية المنزّهة عن همهمة الأنفاس، والمشابهة والقياس، فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته، ويكون الأبد لحياتها بروح حياته المقدسة عن الاتصال والانفصال، وفي أدق الإشارة السماوات الرواح، والأرض الأشباح، والعرش القلوب.

بدأ بكشف الصفات للأرواح، وبدأ بكشف الأفعال الأشباح، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب؛ لأن مناظر القلوب محل الغيوب، والغيوب من القلوب محل تجلّي استواء القدم استويً قهر القدم بنعت الظهور للعدم، ثم استويً تجلّي الصفات على الأفعال، واستويً تجلّي الذات على الصفات، فاستويً بنفسه لنفسه على نفسه المنزّهة عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان وبالأكوان، الاستواء صفة ذاتية خارجة عن مطالعة الخليفة خصَّ السماوات والأرض بتجلّي الصفات، وخصَّ العرش بتجلّي الذات السموات والأرض، جسّد العالم والعرش قلب العالم والكرسي دماغ العالم، خصَّ الجميع بالأفعال والصفات، وخصَّ العرش بظهور الذات لأنه قلب الكل، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته، رأيته في المكاشفة أنوار شعشعانية بلا جسم ولا مكان ولا صورة يتلألأ، فسألت عن ذلك، فقيل لي: هذا عالم يسمى عرشًا.

قيل في التفسير: عرشه علمه، كقول ابن عباس في تفسير قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: وسع علمه، ثم رجع إلى ذكر الأفعال لبقاء الأرواح والأشباح بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بدأ بذكر الليل لأنه ستر الأولياء، وحجال الأصفياء، وملجأ النقباء، وخيام عرائس أهل المناجاة بلبس القبض البسط؛ لأنها ضدان ويقبض ويبسط الليل قبض العارفين، والنهار بسط المشاهدين

يكون أحدهما طالب الأخر لأن وصفه الحضور والغيبة من خفاء التجلّي، ويبدأ به الليل النفس، والنهار القلب، والشمس الروح، والقمر العقل، والنجوم المعلوم مسخرات في أسماء الملكوت، وهو الجبروت بأمره بقدرته الكاملة وعزّته الشاملة ومحبته القديمة التي تؤلف أرواح القدسية إلى مشاهد الأزلية، ثم أن الله سبحانه أضاف الكل إلى أمر مشيئته ونفاذ قدرته وأخرج الجميع من تكلف الحدثان وعلمه الأكوان بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الخلق فعله، والأمر صفته الخلق في الأشباح، والأمر في الأرواح بنور الخلق سبب العقول وحيرها من أدرك كنه الآيات، ويتجلّى الأمر جذب القلوب إلى عالم الصفات وعشقها بجمال الذات، ثم أثنى على نفسه حيث تقتصر الإفهام عن وصف صفاته، وتقصر الألسن عن البلوغ إلى مدح ذاته بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: تقدس عن كل ما يجري على خواطر خلقه رب العالمين رب الجميع بظهور صفته في خلقه، ورب العارفين بظهور ذاته في صفته.

قال الأستاذ: في هذه الآية تعرف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهي أفعاله وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التي هي أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخاص بنعوته الذاتية التي هي جماله وجلاله، فشتان بين قوم وبين قوم.

قال الواسطي في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾: والأمر إذا كان له فمنه وبه وإليه؛ لأن الأمر صفة الأمر، ولما عرفهم إعلام الربوبية أمرهم بخالص العبودية، وأدبهم فيها بأحسن التأديب بقولها: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فإذا عرفتم نعوت الكبرياء وجلال العظمة وعزّ القدم والبقاء، كونوا في رؤية هذه الصفات عند احتياجكم إلينا بنعت الفناء بحيث لا طلع على أسراركم نفوسكم، فإن دعوة المضطر تقع على سامع الغيوب حين هاجت بوصف اللطف من لسان القلوب، وأن أصفى الوقت في التضرع ودعوة الخفية وذكر الخفي الذي وصفه ﷺ بالخيرية، حيث قال: «خير الذكر الخفي»[1].

وقال أبو عثمان: التضرع في الدعاء أن لا تقدم إليه أفعالك وصلواتك وصيامك وقراءاتك، ثم تدعو على أثره إنما التضرع أن تقدم افتقارك وعجزك وضرورتك وفاقتك وقلّة حيلتك ثم تدعو بلا علّة ولا سبب فترفع دعاءك.

وقال الواسطي: تضرعًا بذل العبودية وخلع الاستطالة خفية، أي: أخف ذكرى صيانة عن غيري، ألا تراه يقول: «خير الذكر الخفي»[2].

---

(١) رواه ابن حبان (٣/ ٩١).

(٢) تقدم في سابقه.

وأنهم أن الدعاء مقامات، فبعضهم يدعوه بلسان الظاهر، وبعضهم يدعوه بلسان الباطن، وبعضهم يدعوه بإشارة العقل، وبعضهم يدعوه بإشارة القلب، وبعضهم يدعوه بإشارة الروح، وبعضهم يدعوه بإشارة السر، نعت أهل الظاهر التضرع، ونعت أهل الباطن الافتقار والتخشع، ونعت أهل العقل الفكر، ونعت أهل القلب الذكر، ونعت أهل الروح الشوق، ونعت أهل السرِّ الفناء، يدعونه بالإذن ولا يكون الإذن في الدعاء إلا في مقامين مقام القبض ومقام البسط، الدعاء في مقام القبض بنعت العبودية، والدعاء في مقام البسط الحكم والانبساط من إدراك مباشرة صولة الربوبية، ولا بدّ للعارفين من هذين المقامين، والدعاء على أحوال شيء، دعاء أهل البلاء لكشف الهموم، ودعاء أهل النعمة لكشف الوجود، ودعاء المحبين لتسلّي القلوب، ودعاء المشتاقين للبلوغ إلى الوصول، ودعاء العاشقين لنيل المأمول، ودعاء العارفين لوجدان البقاء، ودعاء الموحدين لمحوهم في الفناء: وفيه أنس المستأنسين وتضرع العارفين وبهاء المحبين وزيادة قرة عيون الموحدين، ما أطيب ألحانهم في السجود لكشف مشاهدة الموجود، وما أحلى روح طيب مناجاتهم بالعبرات وحركات ضمائرهم بالزفرات.

قال الأستاذ: ما أخلص عبد في دعائه إلا روح الله سبحانه في الوقت قلبه، ثم حذرهم عن الرجوع من الأعلى إلى الأدنى، ومن متابعة الحق إلى متابعة النفس من تخريب أرض القلب بمسحاة الهوى بعد إصلاحها بصفاء المراقبة والحضور والمشاهدة بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

قال الأستاذ: إهمال النفس عن المجاهدات والرجوع إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق، فساد الأرض بعد إصلاحها فيه، ثم زاد سبحانه في آداب الدعاء وقرن بالتواضع والإخلاص فيه مقام الخوف والرجاء بقوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: أدعوه بوصف الإجلال في رؤية جلاله، وبنعت البسط في رؤية جماله فإن حقيقة الدعاء في الشهود الرجل في العبودية لمعرفة الربوبية، والسرور من رجاء الوصول إلى المقصود.

وأيضًا: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا﴾ من إطلاعه على جريان كل مأمول سواه في القلب، أي خافوا من طيران ذكر الحدث في رؤية القدم، ﴿وَطَمَعًا﴾ معناه الطمع في مقام من قربه أشرف من مقام الدعاء؛ لأن الدعاء وسيلة؛ فإذا حصل الوصول انقطع الوسيلة، وأيضًا خوفًا من رد الدعاء، وطمعًا في استجابة الدعاء، وبيّن تعالى أن مَنْ كان هذا وصفه يكون من المحسنين

الذين يقربون منه بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

قيل في قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه.

وقيل: خوفًا من بعده وطمعًا في قربه.

وقيل: خوفًا من أعراضه وطمعًا في إقباله.

وقيل: خوفًا منه وطمعًا فيه.

قيل: المحسن مَنْ كان حاضر بقلبه غير لاهٍ عن ربه ولا ناس لحقه.

ثم وصف الله نفسه بإنشاء مبشرات قربه من بطنان غيبة لوصول النسائم ورد مشاهدته إلى مشام أرواح عاشقيه، وأفئدة مشتاقيه، وأسرار وصليه، وقلوب محبيه، والباب مريديه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ يُرسل نسيم وصاله في أسحار أصباح طلوع جلاله إلى مشام المستأنسين بشهوده في سجودهم لزيادة عطش شوقهم إلى وابل بحر مشاهدته من سحائب قربته وزلفته قدام ظهور سحاب صفاته التي تتجلى من بحر ذاته للأرواح العاشقة، وتسقيها من بروق الوداد ما لا يستقر بشربها الأرواح في الأكوان والحدثان، بل تطير في فضاء البقاء وهواء القدم بأجنحة الآزال والآباد أظهر بلطفه ومحبته رياح تجلّي الصفات قبل ظهور تجلّي الذات؛ لإعلام قوانيط القبض ببروز

(١) مصدران في موقع الحال أي خائفين من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطامعين في إجابته تفضلا وإحسانا لفرط رحمته. تفسير حقي (٤/ ١٦٩).

سحاب تجلي الذات لأحياء بلادة قلوبهم الميتة بجذب كشف القدم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لا يستقل حمل أثقال تجلّي الذات إلا رياح تجلّي الصفات، ولا يقدر سوق أنوار القدم إلا القدم، ولا يقدر سقي زلال بحر الآزال إلى عطاش شراب الحيرة إلا الأزل، ولا يقدر أن يخرج من بلاد القلوب ثمار أشجار الغيوب إلا علام الغيوب بقوله: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثمرات المقامات والحالات والمكاشفات والمشاهدات.

أَلَا يَـا صَـبَا نَجـدٍ متَـى هِجتَ مِنْ نَجْدِ　　لقـدْ زَادنِي مَـسرَاكَ وَجـدًا علَىٰ وَجـدِ

قال بعضهم: كل ريح تنسم نوعًا من الرحمة؛ فريح التوبة تنشر على القلب رحمة المحبة، وريح الخوف تنشر رحمة الهيبة، وريح الرجاء تنشر رحمته الأنس، وريح القرب تنشر برحمته الشوق، وريح الشوق تنشر نيران القلق والوله، قال الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾.

قال الأستاذ: تباشر التقرب بتقديم فينادي نسيمه إلى مشام الأسرار.

قال قائلهم:

ولَقَــدْ تَنَــسمتُ الــرياحَ لحاجَتِــي　　فــإذَا لَهَــا مِــنْ رَاحتــيكِ نَــسيمُ

وقال الأستاذ في قوله حتى إذا قُلت: ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ الإشارة تحصل لمهجور تمادى به الصد وبرح به الوجد وأنحل جسمه، بل أبطل كله البعد فيأتيه بشير القرب فيعود عودًا ووصله بعد الذبول طريًا وبصيرًا وأرس حاله عقب السقوط قويًا كما قال قائلهم:

كـــنَّا كَمَـــنْ أُلـــبسَ أكفانَـــهُ　　وَقـــرب الـــنَّعش مـــنَ الملحـــدِ

فحـــالَ مـــاءُ الـــروحِ فِي جـــسمهِ　　فـــردَّهُ الأصـــلُ إلىَ المـــوْلدِ

تبارك الله سبحانه ماكرهم هو بالسرمد، وذكر سبحانه القلب الذي هو بلد الله الذي مطر عليه من بحر امتنانه، ويخرج منه نبات ألوان الحالات والمقامات، ويذكر ما هو بخلافه الذي فيه سجة الشهوات وشوك حظوظ البشريات بقوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ إلا يا أخي أرض القلوب تُنبت أزهار المواجيد ورياحين المواريد بقدر كشوف أنوار الصفات والذات، فكل قلب بذرة المحبة فنباته المشاهدة، وكل قلب بذرة الشوق فنباته الأنس والوصال، وكل قلب بذرة العشق ونباته كشوف الجلال والجمال، وكل قلب بذرة الهوى فنباته الشهوات؛ فالقلب المنور يظهر على الجوارح آثار المحبة وهي الموافقة، وكل قلب مظلم يظهر بالظاهر آثاره وهي المخالفة.

ثـم أشـار تعـالى إلى تـبديل الأخلاق ونشر الأفضال وثبوت المقامات وطيران الأحوال بـالإرادة الـسابقة والمشيئة الأزلية المنزّهة عن التغاير في التدبير، بل هو موصوف بأصل التقدير بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لقوم يعرفون المشكور قبل وجود الآلاء والنعماء، يجدونه شاكر أنعامه بنفسه فيخجلون عن شكره بعرفانهم بعجزهم عن محل شكره.

قال أبو عثمان: أسعد الطيب مثل قلب المؤمن التقي يخرج نباته بإذن ربه يظهر على الجوارح أنوار الطاعات والزينة بالإخلاص والذي خبث قلب الكافر لا يظهر منه إلا النكد والشؤم والظلمات على الجوارح من إظهار المخالفات.

وقال الواسطي: البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه أي بتوليه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا حجب عن التجلّي والخطاب كذلك نصرف الآيات، كذلك تحرق الشمس طوائف من النبات وتنبتها وتغذي طوائف من النبات وتطيبها، وذلك على قدر جوهرها، كما أن بإرادة واحدة ظهرت المخالفات والموافقات.

قال بعضهم: البلد الطيب الذي طيبها بدوام الأمن وعدل السلطان.

ويقال: النسيم الساطع يدل إلى الجوهر اللازم، إن خبث الجوهر لم يطلب ما لم يحل منه وإن طاب العنصر، فالحر يحاكي أصله، والأسرة تدل على السريرة، فمَنْ صفا ساكن قلبه زكي ظاهر فعله، ومَنْ كان بالعكس فحاله بالصد.

وقال الأستاذ: وإذا زكى الأصل بهاء الفرع.

قال بعضهم: هو قلب المؤمن الذي طهره الله وطيبه طهر الله الروح بهاء القربة، وطيبه بطيب الكرامة، وطهر القلب بهاء العلم، وطيب السرَّ بنور المعرفة، وطهر اللسان بالصدق والذكر، وطهر الجوارح بهاء العظمة وطيبتها بنور التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أعرّفكم طريق عرفان ربكم وأرشدكم إلى مشاهدة ربكم وتعطفه ولعلمه على عباده.

واعلم من الله من لطائف بره وجميل عطفه وكشوف صفاته وجمال ذاته وحلاوة مشاهدته، ولذيذ خطابه ما لا تعرفونها، ما وصل إليه يكون في ملك لا يبلى وسعادة لا تفنى، ومَنْ حرم من الوصول إليه يكون في بلاء وحجاب وضلال، لا ينقضي محبها أبدًا.

قال بعضهم: أنصح لكم أدلكم على طريق رشدكم، واعلم من الله ما لا تعلمون من سعة رحمته قبول التوبة لمَنْ رجع إليه بالإخلاص.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾[1] أي: محجوبين عن مشاهدة الله ومبعدين عن ذوق محبة الله غير مبصرين ببصائر الأسرار أنوار صفات الله وذاته التي يظهر من كل ذرة سطوعها.

قال ابن عطاء: ضالين عن طريق الحق.

وقال بعضهم: متثاقلين في القيام إلى الطاعات.

وقال بعضهم: عُميت أبصارهم عن النظر إلى الكون برؤية الاعتبار ونظرهم نظر مراد وشهوة.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٞ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٖ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةٗۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٖ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرْسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ

---

(١) أصله عمين جمع عم، وأصله عمي على وزن خضر فأعل كإعلال قاض. قال أهل اللغة: يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر والمعنى عمين قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد غير مستبصرين وهذا انعمى مانع عن رؤية الآيات ومشاهدة البينات. تفسير حقي (٤/ ١٧٩).

قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا
تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ
﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا
تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ
أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ
قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن
قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ
ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ
جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ
ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ
وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ
ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ
أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي
مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ
وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ
خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ
عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ
قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: فاذكر نعم الله في اصطناعه في حسن تصويركم وإلباسكم جمال فعله حتى تكونوا في أحسن خلق وأظرف نعت وظهره لكم بأوضح الآيات وأنوار علاماته الدالة إلى وجوده لعلكم تفوزون من بعده، وتظفرون بقربه وأفهم أن رؤية النعمة يوجب الشكر، ورؤية الآلاء توجب الذكر، ورؤية المذكور والمُنعم توجب المحبة.

قال الواسطي: العامة تحبه على النعماء ذلك في قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١١]، والخاصة تحبه على الآلاء، وذلك في قوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والأكابر تحبه على الإيثار والربوبية، ولكل علامة فعلامة الأولى دوام الذكر له والفرح به، والثانية الاستئناس به لرؤية ما أبعده منه، والثالثة الاشتغال به أن كل قاطع يقطع عنه.

وقال ابن عطاء: إذا ذكرت آلائه ونعمائه أحببته، وإذا أحببته قصدته، وإذا قصدته وجدته، وإذا وجدته انقطعت إليه، ونقول عند المشايخ لو أن القوم من أهل خالصة محبته ما أحالهم إلى رؤية الآلاء بل خاطبهم برؤية الذات والصفات.

ألا ترى كيف خصَّ خواص المحبين بخطاب رؤيته وإصرافه إلى مشاهدته بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان:٤٥] لأن محبة الآلائية والنعمائية محبة معلولة كونية، إذ كونها بسبب حدثي وخالص المحبة ما تصدر من مشاهدة جلاله وجماله، وكيف يصل إليه من كان سبب حاله ومعرفته ومحبته رؤية الآلاء والنعماء أوقعهم في بداية الذكر.

قال: فأذكر وأجعل لقاءهم منتهى وهو درجة النجاة من العذاب، ولو كانوا محققين ما خاطبهم بذكر غيره وصفه أفعاله.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [1]أي: أنا بعد أن خرجت من حظوظ نفسي وخصني الله برسالة، وطهرني من شوائب الطبيعة، وعرفني طريق محبته وخدمته، وأعرفكم تلك الطريق المباركة شفقة ونصيحة وأنا أمين فيها؛ حيث لا سبيل للشيطان في نصيحتي بالتهمة

---

(١) قال سهل: ومن لم ينصح الله في نفسه ولم ينصحه في خلقه هلك ، ونصيحة الخلق أشد من النفس ، وأدنى نصيحة النفس الشكر ، وهو ألا يعصى الله تعالى بنعمه . وقال أيضًا: النصيحة ألا تدخل في شيء لا تملك صلاحه . تفسير التستري (١/ ١٦٢).

التي هي من صفات مَنْ يميل قلبه إلى غير الله.

قال أبو حفص: الناصح الأمين الذي لا يكون له في نصيحته حظ لنفسه ولا طلب جاهه وإنما يكون مراده منه قبول النصيحة والنجاة بها.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولو أنهم شاهدوا ملكوتي واتقوا سوى جبروتي لتفتح على أرض قلوبهم أنوار مشاهدة صفاتي وذاتي حتى يروني في ملكوت الأرض والسماء بصفة اللطف والجمال، وتنبت في صحاري قلوبهم رياحين الزلفة والقربة والشوق والعشق والمحبة واليقين والتجريد والمعرفة.

قيل: معناه لو أنهم صدقوا وعدي واتقوا مخالفتي؛ لنورت قلوبهم بمشاهدتي وهي بركة السماء، وزينت جوارحهم بخدمتي وهي بركة الأرض وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لله بكل قوم مكر، فمكره بالعموم ممزوج بالقهر، وهو أن يعطيهم أسباب العبودية، ولم يوفقهم بها ويعطيهم لسان الشكر، ولا يعرفهم حقائق استدراجه بسلب النعمة عنهم وأخلاهم بلا نعمة ولا شكر، ومكره بالخصوص أن يلذّذ ما وجدوا منه في قلوبهم، ويحجبهم بتلك الحلاوة عن إدراك ما فوق مقاماتهم من مكاشفة الغيوب في القلوب، ومكره بالمحبين والعاشقين ظهور الصفات في الآيات وهو مقام الالتباس، ومكره بالعارفين والموحدين أن يريهم نفسه على قدر قوة المعرفة والتوحيد، ولا

يعرفهم مكان المكر هناك بأن يعملوا أن ما وجدوا منه عندما لم يجدوا منه كقطرة في بحار، وذلك من حلاوة مباشرة أنوار القدم والبقاء في أسرار أرواحهم وقلوبهم وعقولهم، ولو أطلعوا على حقائق مكره، حيث حجبهم به عنه لذابوا من الحياء تحت أنوار سلطان كبريائه وعظمته، ومكره بأهل الاتحاد أن يريهم جلاله وجماله في مرآة قلوبهم، فيرونه بحسن الأزل وجمال الأبد بنعت فنائهم فيه، فيبقيهم به من حد الفناء، فيرون أنفسهم كأنهم هو من حدة مباشرة الصفة بالفعل، فيتحجب عليهم ويبقيهم في حلاوة تأثير أنوار الصفات فيرون أنفسهم في محل الربوبية فيدعون هناك بالأنائية (كالحسين بن منصور) و(أبي يزيد) -قدس الله روحهما- فهناك أخفى المكر وألطف الاستدراج، ولولا فضله وكرامته عليهم لأبقاهم فيما هم فيه ولكن بلطفه الخفي وإنعامه الجلي أخرجهم من ذلك، وأغرقهم في بحار عظمته حتى أقروا بأنهم ليسوا على شيء منه، وأنهم في أول درجة من عبوديته.

ألا ترى إلى قول أبي يزيد في آخر عمره حيث قال: ما ذكرتك إلا عن غفلة، ولا عبدتك إلا عن فترة.

وإلى قول حسين بن منصور في وقت قتله قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وهذا لطف الله نبينا ﷺ حيث حرسه من هذا المكر الخفي في مقام رؤية الأعلى وشهود قاب قوسين وأدنى بقوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(١)، ذوّقه طعم الربوبية وأوقفه في مقام العبودية، حتى افتخر بعبوديته بعد وجدان ربوبيته بقوله: «أنا العبد لا إله إلا الله»(٢)، وكل صنيع منه لطيف بأوليائه أن مكر بهم وأن لم يمكر بهم، ومَنْ نجا من مكره والكل في قبضة العزّة متحيرون، وكيف يأمن به منه مَنْ يعرفه بالربوبية ويعرف نفسه بالعبودية.

حُكِي أن رجلاً سأل الشبلي عن معنى مكر الله، فأنشد الشبلي بقوله:

أحـــبُّكَ لَا ببعـــضِي بَـــلْ بِكُـــلِّي ... وإنْ لَمْ يُـــبقِ حـــبُّكَ بي حِـــرَاكَا

ويـــسمجُ مـــنْ ســـوَاكَ الـــشيءُ عـــندِي ... فـــتفعلهُ فيحـــسنُ مِـــنْكَ ذَاكَـــا

فقال سائل: أسأل عن آيات من كتاب الله، وتجيبني ببيت شعر فعلم الشبلي إنه لم يفطن ما قال.

فقال: يا هذا مكره بهم تركه إياهم على ما هم فيه.

قال الحسين: لا يأمن من المكر إلا مَنْ هو غريق في المكر، فلا يرى المكر به مكرًا، وأما

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٨).

(٢) تقدم تخريجه.

أهل اليقظة فإنهم يخافون المكر في جميع الأحوال إذ السوابق جارية والعواقب خفية.

وقال أيضًا: مَنْ لا يرى الكل تلبيسًا كان المكر منه قريبًا.

قال أبو الخير الديلمي: كنت يومًا عند الجنيد فارتعدت فرائصه، وتغير لونه وبكى، وقال: ما أخوفني أن يأخذني الله، قال له بعض أصحابنا: نتكلم في درجات الراضين وأحوال المشتاقين، قال: يا بني إياك أن تأمن مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

قال سهل: المكر تدبير الله بسابق العلم فلا ينبغي لأحد أن يأمن مكره، وذلك أن مَنْ يأمن مكر الله بدفع القدرة، ولا يجوز أن يخرج نفسه من قدرة الله عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ كأن هذه الآية أُنزلت في شأننا مع هؤلاء البطالين الذين سلكوا الطريقة وأخطأوا بها وجدوا فيها من الجاه والمال، ونقضوا عهد الإرادة واشتغلوا بالرياسة وخانوا في الطريقة وأنكروا على المشايخ، أعمى الله قلوبهم ما أشد إنكارهم على أهل الحق وما أشد خروجهم عن طريق الحق، جمعهم الله في الاستدراج وطردتهم عن أنوار المنهاج كأنه تعالى عاتب الجمهور حيث لم يفوا عهد الأزل، حيث وقف الكل على ما وجدوا، وهكذا شأن ما ألتفت في مشاهدة المحبوب إلى غير المحبوب، ولكن هم معذورون لأن الحدثان لا يستقل أثقال محامل الكبرياء ومطايا القدم، والبقاء في أودية الفناء.

قال الجنيد: أحسن العباد حالاً مَنْ وقف مع الله على حفظ الحدود، والوفاء بالعهود. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾(١).

قال الأستاذ: نجم في العذر طارقهم، وأفل من سماء الوفاء شارقهم فعدم أكثرهم رعاية العهد وحق لهم من الحق قسمة الرد والصد.

ويقال: شكا عن أكثرهم إلى أقلهم، فالأكثرون من رده القسمة، والأقلون من قبلتهم الوصلة.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

---

(١) وذكر في أول التي تليها تنازعهم في الأنفال تحذيرًا لهم من أن يكونوا من الأكثر المذمومين في هذه، هذا بخلاف المقصود من سياق قصص بني إسرائيل في البقرة، فإنه هناك للاستجلاب للإيمان بالتذكير بالنعم، لأن ذلك في سياق خطابة سبحانه لجميع الناس بقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وما شاكله من الاستعطاف بتعداد النعم ودفع النقم والله أعلم. نظم الدرر (٣/ ٢٦٥).

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ لما تعاين معجزته وثبت سلطانه تكلم بالانبساط وتلفظ بالهيبة وادعى بالحقيقة؛ لأنه كان في مشهد القرب والمشاهدة، وأخبر أنه ينطق بالحق للحق في الحق مع الحق؛ لأن الحق كان ينطق بلسانه وما نطق إلا بما يليق بالحق، ومَنْ بلغ مقام الحقيقة فيظهر الحق منه، للحق فجميع حركاته وسكونه ونطقه وسكوته قام بالحق بوصف المشاهدة لا بوصف الغيبة.

قال ابن عطاء: مَنْ تحقق بالحق؛ فإنه لا يقول على الحق إلا بما يليق بالحق.

وقال الخراز: سبيل الواصلين إلى الله لا يتكلم إلا عن الحق، ولا يسمع إلا من الحق ولا ينطق إلا بحق، فإن حقائق الحق إذا استولت على أسرار المتحققين أسقطت عنهم سوى الحق ولا يبلغ أحد من هذه الدرجات شيئًا حتى يستوفي الحق أوقاته عليه ومنه فيبقى ولا وقت له ولا حال حينئذٍ، والله أعلم.

وقال الأستاذ: مَنْ إذا لم يصح له أن يقول على الحق إلا الحق والخلق محو فيما هو الموجود الأزلي، فأي سلطان لآثار التفرقة في حقائق الجميع.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ ظهر سبحانه بصفات الفعلي عن العصا وألبسها بعد قلبها لباس فعل العظمة لتخويف الكفرة، وهرب السحرة، وأكل المخابيل، وظهر بنور الصفة من يد موسى ﷺ لفتح أبصار الإيقان والإيمان بأنوار صفاته في إظهار البرهان؛ لأن الجماد محل تصرف فعل العام من طريق الأمر القائم به، والحيوان محل تصرف فعل الخاص القائم بالصفة لأنه معدان أرواح الطباعية، والإنسان محل تصرف الصفة القائمة بذاته الأزلي؛ لأنه أشرف المواضع من العرش إلى الثرى لمحله من العقل القدسي، والقلب الملكوتي، والروح القدسية، ظهر بالفعل عن العصا للعموم وظهر بالصفة عن موسى ﷺ للخصوص، وعرف موسى ﷺ عجزه في قدرته، حيث انقلب عصاه بغير اختياره، وخرجت يده نورانية بغير اختياره، وكان ذلك أعظم في صدق معجزته حيث لا اختيار له فيه.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ

ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إن الله سبحانه ألبس أولياءه لباس أعدائه امتحانًا لهم ولغيرهم، فأرشدهم بقهره إلى لطفه؛ إذ الأصل فيهم سبق اصطفائيتهم في الأزل، كانوا ممتحنين محجوبين من رؤية اللطف بحجاب القهر، فلمّا أتوا بالسحرية آلوا التقرب من فرعون من رأس الطبيعة وجرى في الأزل قربهم من رؤية الحق سبحانه، فنطق الله على لسان عدوه إخبارًا عن سابق العناية للسحرة بقوله: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ المنطق بالخبر هو الله سبحانه وإن لم يعرفوا مكان الخطاب، ولكن جرى على وفق العناية خبر الغيب علمهم، وفرعون في البين واسطة، وحقيقة الخطاب من الله سبحانه.

قال بعضهم: دعا فرعون السحرة إلى القرب منه، وجرى لهم في الأزل مقام القرب من الحق.

قال فرعون: إنكم لَمِن المقربين إلى منازل الأبرار وبعد وأمن قرب الأشقياء.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ السحر الحقيقي من عالم الفعل بواسطة الكسب البشري، والمعجزة من عالم القدرة القديمة، ولمّا ظهرت الصفة تلاشت معالم الاكتساب وغابت تواثير الفعلية.

قال السوسي: أظهر الحق لطيفة من صنعه في خشية عجز السحرة عنها، وجعلها سببًا لنجاتهم، فقال: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ بإظهار القدر في جماد وبطل ما كانوا يعملون من الأباطيل، ولمّا ظهر قهر القدم بلباس العظمة من عصا موسى ﷺ، وانهزموا من سطوات العظمة ويا ليتهم لو ثبتوا ورأوا مشاهدة جلاله من لباس عظمته الذي تجلّى من العصا يكون حالهم كحال السحرة، لكن غابوا في بحر ضلال الأزل ولم يوفقوا بها وفق السحرة عندما كوشف لهم وجه جلال القدم، فرأوه بلا حجاب فألقوا أنفسهم بنعت الإذعان له عشقًا ومحبة وشوقًا إلى تلك المشاهدة بها أخبر الله عن شأنهم بقوله: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ وَأُلْقِىَ

﴿ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾[1] أي: صدقنا ما أخبر لنا بلسان موسى ﷺ وهارون ﷺ، وشاهدنا مشاهدته عيانًا، بحيث لم يبق فينا معارضة الإنسانية، وخطرات الشيطانية.

قال الواسطي: أدركهم سابق ما جرى لهم في الأزل من السعادة، فأظهر منهم السجود.

وقال جعفر: وجدوا نسيم رياح العناية القديمة بهم فالتجاء وإلى السجود شكر وقالوا آمنا برب العالمين.

وقال أبو سعيد القرشي: نازع موسى ﷺ مع فرعون طول عمره وقد قال الله إنه ليس من أهل الإسلام، ولكن منازعة موسى ﷺ مع فرعون كانت سبب نجاة السحرة حتى قالوا آمنا برب العالمين رب موسى ﷺ وهارون ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هددهم فرعون بالبلاء ولم يعلم أنهم غرقوا في بحار رؤية المُبلي متحملين بلاياه برؤية جماله ولولا ذلك ما قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ.

قال سمنون: يحمل الهياكل من البلايا على المشاهدة ما لا يحمله في حال الغيبة، ألا ترى كيف لم يبال سحرة فرعون بما هددكم به من قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ

---

(١) أي: فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقياً ألقاهم بغير اختيارهم من قوة إسراعهم، علماً منهم بأن هذا من عند الله، فأمسوا أتقياء بررة، بعد ما جاؤوا في صبح ذلك اليوم سحرة. نظم الدرر للبقاعي (٦/ ٦٣).

سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أجابوا فرعون بعد تهديده لهم بالبلاء بهذه الآية، أي نحن ذاهبون بنعت الشوق والمحبة إلى مشاهدة ربنا، ولا نخاف من جميع البلاء لأن من عانيته لا يوثر فيه آلام البلاء ولا يحجبه عن رؤية المُبلي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ﴾ انظر إلى أدب موسى ﷺ كيف علّم قومه معاملة طريق الله أمرهم بالالتجاء إليه والاستعاذة به والاستغاثة به في تحمل مشقة الصبر ووجدان حسن الرضا في البلاء، وأخبرهم أن مَنْ كان بالله صبر يكون مظفرًا على جميع المراد ويكون خليفة الله في أرضه.

قال أبو عثمان: مَنْ استعان بالله في أموره، وصبر على ما يلحقه في مسالك الاستعانة، أتاه الفرج من الله، قال الله استعينوا بالله واصبروا.

قال سهل: أُمروا أن يستغيثوا بالله على أمر الله، وأن يصبروا على أدب الله، ولمّا أمرهم بالاستعانة والصبر شكوا عن عقوبة الأعداء لهم بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، فأجابهم بقوله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: لو يصبرون على مخالفة نفوسكم ودفع شهواتكم وترك حظوظكم الدنيا وبه يذهب الله عن ساح قلوبكم التي هي مواضع المشاهدة غبار الهواجس النفسانية، ويجعلكم خلفاء الله في أرضه وبلاده.

قال بعضهم: أعدى عدوك نفسك عسى الله أن يمكنك من قيامها، ويفني عنها أهواءها ومراداتها الباطلة، ويجعلك خليفة على جوارحك وقلبك أميرًا عليك، فتقهر النفس بما فيها وتستولي عليها وعلى مخالفتها، فينظر كيف يعملون كيف معرفتك بشكر ما أنعم عليك.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ

كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا﴾ أخبر الله سبحانه عن نقض عهد المفسدين بعد رؤيتهم وضوح الآيات، وظهور المعجزات، ونيرات الكرامات، وذوقهم طعم العذاب في البليات جحودًا وإنكارًا بعد علمهم بصدق الرسالة والنبوة والولاية، لمّا وقعوا في ورطة الهلاك التجئوا إلى نبي الله ﷺ بعد جفائهم به، فلم ينفع التجاؤهم وتوبتهم لمّا سبق لهم في قديم العلم من الشقاوة، ولأنفذ فيهم سهام الهمة النبوية، وهكذا شأن مَنْ جفا المشايخ برعوناتهم وسوء آدابهم لا ينفعهم استعانتهم بالقوم.

قال القاسم: مَنْ لا يراع أسرار الأولياء في الأوقات لا ينفعه اللجوء إليهم في أوقات البلاء، ألا ترى كيف لم يوثر على أصحاب فرعون اللجوء إلى موسى ﷺ في اعتقاد المخالفة.

قال الله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ معنى الآية في وارد الحكم أن الكلمة صفته الأزلية، وهي ذكر الله إياهم في سابق العلم بالتوفيق في عبوديته الخالصة، وقبولهم امتحانه وبلاه بنعت الصبر والرضا، وذلك عطاء محض، حيث تمت تلك النعمة منه تعالى في الأزل لهم.

قيل: وقوع الفعل والجزاء والصبر والرضا فإن من تمام النعمة أن سبقت كلمة الله بنعت إتمام الدرجات لهم قبل وجودهم؛ فالكلمة تمت بإعطائهم المعرفة والتوفيق في الطاعة، ليس عناية الله الأزلية متعلقة بصبرهم واحتمالهم الجفاء، فإنها ميراث كلمة الحسنى التي سبقت بالعناية لهم ولولا ذلك لما صبروا؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، أي: بالله تصبر وقوله:﴿وَتَمَّتْ﴾، أي: تمت العناية بلا علّة الاكتساب

وصفاته الأزلية لا تحتاج إلى علّة الحدث، فإن اصطفائية الله منزّهة عن خلل الحدثان وأفعالها.

قال الجنيد: طالبوا تمام الكلمات بوجود النعمة والمواظبة على الصبر فاستشعروا التثبت بحبائل الوفاء عند مَنْ أبلاهم، ليتم عليهم كلمة الحسنى بجميل الثناء على الصبر الذي ضمن لهم إتمامها بالوفاء.

قال أبو سعيد الخراز: طالبوا تمام النعمة بالمواظبة على الصبر واستشعروا وعده الذي ضمن لهم إنما يكون عند القيام بما ألزمهم من شرائط الصبر؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بصبرهم في بلائه وإعطائهم مواريث الأرض من الملكين، ملك الدنيا وملك العقبى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ردَّ الله بلسان نبيه ﷺ قول الجهل عند قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وعرّفهم مكان العقل في الإنسانية وتفضيل الآدمية على الحيوانية، واختيار الله إياهم التوحيد والشريعة، أي تطلبون غيره وهو بكرمه ورحمته أعطاكم العقل الذي لا يقبل في العبودية غير الله؛ لأنه يفرد القدم من الحدوث يعلم من الله معه، وصوركم بأحسن الصورة التي لو اعتبرتم بها يعرفون أن صانعها الله لا شريك له في ملكه ولا ضد له في سلطانه، فضلكم على العالمين بإرسالي إليكم، فإني أتم نعمت الله عليكم.

قال أبو عثمان: أتطلب غيره وهو فضلك على ما سواك من جميع ذوات الأرواح والجماد فتذل وتخضع لغيره، وهو فضلك عليه ذلّ لمَنْ يذلّ له لتستوي معه فتنال معه به العزَّ الأوفر.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟

سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي: من سنة الله سبحانه إذا أراد أن يشرف عبدًا من عباده بمقام لم يكن له ذلك وقربه منه وناجاه وأظهر عليه عجائب ملكه وملكوته، يصفيه عن كل كدورة، ويخلصه عن كل همه، ويروضه بأنواع مجاهدة، ويخلي بطنه عن الطعام والشراب إلا ما يقوى به صلبه ليحرق بنيران الجوع غواشي قلبه، وتقدس من قلبه مكان نظره، ويغسل بمياه المجاهدة جوارحه، ويزويه في الخلوات، ويشوقه بلطائف المناجاة إلى المشاهدات وله أوقات وساعات لفتح أذان قلوب أوليائه وأبصار أرواح أصفيائه؛ ليسمعها كلامه ويبصرها جماله وجلاله، وتلك أوقات تضوع عطر مشاهدته لأهل خلواته ومناجاته لا يستنشق تلك الروائح إلا المعترضون لها في المراقبات والرعايات، وأخبر من تلك الأسرار سيد أهل الأنوار ﷺ بقوله: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لنفحات الله»[1]، ومن تلك الأربعين صارت الأربعين سنة لأولياء الله في بداية أمرهم في الخلوة والرياضة بخلوص نياتهم مع الله سبحانه؛ لوجدان حكمته الأزلية وأبنائه العجيبة، ومكاشفته البديعة؛ لأنها عرائس الله لا تنكشف إلا المتفرد عن غير الله، وأخبر بشرائف ذلك النبي ﷺ بقوله: «مَنْ أخلص الله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قبله على لسانه»[2]، ما طاب زمان الوصال ومواعيد كشف الجمال لمّا طاب وقت كليم الله في مناجاته حبيبه بعد تمام ثلثين ليلة لم يستوف وطره من لذيذ خطابه ولطف جماله؛ فعلل بالسؤال ليستزيد المقام في شهود العين، فعلم تعالى حرق شوقه ولهيب حزنه وزيادة عشقه ومحبته، فزاد على أوقات الوصال بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ﴾، وقال: ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ومراده بالأربعين تواتر الحالات والاستقامة في الواردات؛ ليحتمل بعد ذلك بها أوقات بديهات الكشوف وبروز أنوار القدم ذكر الليالي لخلو الأسرار عن نظر الأغيار وصفاء المواصلة عن غبار المخالفة، فيالها من سماع ما أطيبه ومن خطاب ما ألذّه من جمال ما أشهاه ومن قرب ما ألطفه.

فكَــــانَ بالعــــراق لـــــنا لَــــيالٍ ... سَـــلبناهُنَّ مِـــنْ ريـــبِ الـــزمَانِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١١).

(٢) رواه هناد في الزهد (٦٧٠) بتحقيقنا.

جعلناهنَّ تاريخَ الليالي وعنوانَ المسرَّةِ والأمانِ

وعده وجعل الأيام الخطاب ميقاتًا لمزيد شوقه وزيادة خوفه وهيجاته.

قيل لأبي بكر بن طاهر: ما بال موسى ﷺ لم يجع حين أراد أن يكلم ربه وجاع في نصف يوم حين أراد أن يلقي الخضر، فقال: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف:٦٢]، فقال لأنه في الأول أنساه هيبة الموقف الذي ينتظره الطعام والشراب، والثاني كان سفر التأديب، فزد البلاد على البلاء حتى جاع في أقل من نصف يوم، والأول كان أوقات الكرامة ولمّا أراد المسير إلى الله والذهاب إلى مواعد قربه ومناجاته جعل أتيته هارون ﷺ خليفته في قومه غيره على وقته وعلى محبوبه لئلا يكون معه غيره في سماع أسرار الأزل والأبد بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾.

استخلف لهارون ﷺ بالشريعة وانفرد عنه في مقام الحقيقة؛ لأن الحقيقة لا تقبل الغير في البين ولا يكون العشق بالشركة؛ لأن العشق يغير عن العاشق دون معشوقه، وكان لهارون ﷺ علم غيرة أخيه فاستقبل الخلافة ولم يعارضه، وإن كان ميل قلبه بصاحبته في الحضرة، ولكن تحمل من حلمه أثقال الفراق لصحة المؤاخاة، وصدق الإرادة.

وقال الأستاذ: لما كان المرور إلى فرعون استصحب موسى ﷺ هارون ﷺ، فقال الله سبحانه: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه:٣٢]، ولمّا كان المرور إلى سماع الخطاب أفرده عن نفسه، فقال: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وهذا غاية الحلم من هارون ﷺ ونهاية الرضا، وهذه من شديدات بلاء الأحباب وفي قريب منه أنشد قال لي مراحب:

والبين قد جد ودمعي موافق الشهيقي ما ترى في الطريق تصنع بعدي

قلت أبكي عليك طوال الطريق

وفي الآية دليل أن للأولياء خلفاء ونجباء ونقباء يستنون بسنتهم ويقتدون بأسوتهم ويبلغون الى درجاتهم بصدق إرادتهم.

قال محمد بن حامد: لم يزل الأنبياء والأولياء خلفاء يخلفهم في مَنْ بعدهم من أمتهم وأصحابهم ويكون هداهم على هداهم، يحفظون على أمتهم ما يضيعونه من سنتهم وأن أبا بكر كان هو القائم بهذا المقام بعد النبي ﷺ، ولو لم يقم لهؤلاء يثبت سنين منها محاربة أهل الردّة وغير ذلك، ولما خرج من أوطان البشرية وترك علّة الرفقة واستقام في الشوق إلى المشاهدة، وهرب إلى الخالق من الخليفة، أخبر الله سبحانه عن ذهاب كليمه إليه وإلى ميقات قربه وصاله بوعده بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ كيف له ميقات وليس عنده مساء

ولا صباح أزله أبده وأبده أزله، أراد انفراده عن كل مراده وبلوغه إلى كمال تربيته ليقوي أن يقف على مسيل قلزم القدم وعلى مصب طوفان الأزل وعلى مهب صرصر العظمة.

ولولا أنه تعالى أكساه أنوار قربه لذاب في ميقات ربه وقته وقتاله معينًا النيل مراده وذلك علّة البقاء البشرية وإلا لكل نفسه له فيه وقت وكشف وخطاب جاء لميقاتنا واحتجب عنا بالميقات، ولو جاء لنا صرفًا ما احتجت عنا أسرى حبيبة إلى الملكوت بالبديهة إلا بالميقات وسرى به، إليه ولم يبق في همته ذكر الزمان والمكان من استغراقه في بحر هموم طلبه رؤية القدم بلا سؤال ولا حركة ولا إشارة ولا عبارة ولا جرم، لم يبق بينه وبين الله وقت ولا زمان ولا مكان، وأراه بعين وهيها له منه وأسمع كلامه بسمع أعطاه إياه منه خص في الأزل كليمه بسماع كلامه.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لمّا لم يجد في مسامع أسراره مسامع حديث النفس والوسواس، ألبس سمعه لباسًا من سمعه، فأسمع كلامه بسمعه، ولولا ذلك كيف يسمع كلام القديم بسمع المحدث؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ إشارة إلى تفضله لموسى ﷺ لما جاء بنعت الشوق والهيمان والعشق والهيجان بخطرات الوالهين إلى موعد رب العالمين، وصار موسى ﷺ فانيًا عن موسى ﷺ ولم يبق في موسى ﷺ إرادة موسى ﷺ بنعت التحيّر في موقف الفناء على جناب القدم والبقاء، ولم يعلم من تحيره أين هو؟ وأين يطلب؟ وأين يفرّ؟ حيث لا حيث علم سبحانه أنه في ذهاب الذهاب، فكلمه بالبداهة فطار سرَّ موسى ﷺ في هواء الهوية، وطار روح موسى ﷺ في سماء الديمومية، وطار عقل موسى ﷺ في فقار الأحدية، وطار قلبه في أنوار الوحدانية، وكان كلا شيء الأول كلام التعظيم والهيبة والآخرة كلام اللطف والبسط ففنا في الأول وبقي في الثاني، ولولا لطفه وكرمه بكليمه كان يتلاشى في أول خطاب، ولكن من عطفه ورحمته أسمع عجائب كلامه كليمه؛ ليعرفه بكلامه لأن كلامه مفاتيح لكنوز الصفات والذات.

ولولا اصطفائيته الأزلية لموسى ﷺ واختياره بالتكليم معه، وأنه لم يخل في طول عمره عن كلامه ووحيه وإلهامه في كل نفس لم يبق في الميقات عند بداهة خطابه أثره وبصفه لذة كلامه وحلاوة خطابه يا ليتني لو أن لي لسانا أزليًا من ألسنة القدم، لأصف به تلك الحلاوة؛ لكن لا يفهم مَنْ لَمْ يذق طعمه، ولمّا طاب ذقته من لذيذ خطابه سكر من شراب بحر وصاله، هاج شوقه إلى طلب مزيد القربة وكشف المشاهدة؛ فأطلق لسان البسط وخطا خطوات الانبساط رهتك ستر الحياء عن وجه المحبة، وغاص في بحر الجرأة، حتى كان حاله ما أخبر

الله سبحانه عند بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

غلب عليه مواجيد الوصالية فخرج من مشيمة الأمر وأُسقط في مقام العشق والسكر رسوم الأدب فسكره استنطقه بطلب دنو الدنو وشهوده عين العين؛ لأن نسيم برد المشاهدة يحويه بلطائف الوصلة، فلمْ يبق له قرار ولم يجد من ساكن السكر مفرًا، وكيف يكون السكون للعاشق عن طلب مشاهدة المعشوق في فنائه؟ حيث دنا الشائق من المشوق وأنشد في معناه:

وأبرحُ مَا يكونُ الشوقُ يَوْمًا ... إذَا دَنَتِ الخيامُ مِنَ الخيامِ

والله لولا موسى ﷺ أي جمال الحق في كشوفات الغيبية بفنون ألوان قمص الصفاتية وبروز سبحات الذاتية، ولولا أن رآه في مقام الالتباس في رؤية كل ذرة من العقل إلى الثرى من مرآة الوجود لم يجد إلى طلب مشاهدة الصرف سبيله؛ لذلك وجبت الرؤية ولولا أن الرؤية حق الإبصار، نظر المعرفة ما سأل كليم الله ما خفي عن الخليقة، فلولا رجاء الوصل ما عشت ساعة، ولولا مكان الطيف لما تهجع لم يذق الله طعم وصاله، مَنْ له منية غير لقائه.

مُنَايَ مِنَ الدنْيَا لقَاؤكَ مَرةً ... فَإنْ نُلتهَا استوفَيت كُل مُنَايَا

سَلبتَ فؤادِي كَيْ تَكونَ مَكَانه ... فكوني أوْ فَارددْ عَليَّ فؤَادِيا

قال جعفر الصادق: أسمع الحق عبده موسى ﷺ كلامه بلسان الرحمة والعطف أولاً؛ لأنه مردود بنفسه إلى الله، ثم أسمعه بلسان جوده وكرمه ثانيًا، وهو أيضًا مردود إلى نفسه.

قال أبو سعيد الخراز: من غيرة الله تعالى أنه لم يكلم موسى ﷺ إلا جوف الليل وغيبه عن كل ذي حس حتى لم يحضر كلامه معه سواه وكذلك محادثته مع الأنبياء.

وقال القرشي: إنما كلم الله موسى ﷺ بإياه، ولو كلم على حد العظمة لذاب وصار لا شيء.

قال جعفر: سمع كلامه خارجًا عن بشريته وأضاف الكلام إليه وكلمه من نفسية موسى ﷺ وعبوديته فغاب موسى ﷺ عن نفسه وفنيّ عن صفاته وكلمه ربه من حقائق معانيه فسمع موسى ﷺ صفة موسى ﷺ من ربه ومحمد ﷺ سمع من ربه صفة ربه، فكان أحمد المحمودين عند ربه ومن هذا كان مقام محمد المنتهي، ومقام موسى ﷺ الطور ومُذ كلم الله موسى ﷺ على الطور أفنى صفتها، فلم يظهر فيها الثبات ولا تمكين لأحد عليها.

قال الحسين: في هذه الآية قال أزال عنه التوقيف والترتيب، وجاء إلى الله لله على ما دعاه إليه وأراده له واجده عليه وأوجده منه وأظهره عليه، ببذل الجهد والطاقات وركوب الصعب والمشقات، فلمّا لَمْ يبق عليه باقية بها يمتنع أقيم مقام المواجهة والمخاطبة، وأطلق مضغة لسان المراجعة والمطالبة، أما سمعت قونه قبل هذا الحال طالبًا منه لمّا طولع بحال

الربوبية، وكوشف بمقام الأُلوهية سائلاً حل عقدة من لسانه؛ ليكون إذا كان ذلك مالكًا لنطقه وبيانه.

وقيل: لَّا سأل ملكيه شرح صدره، ثم نظر إلى أليق الأحوال به، فإذا هو تيسر أمره فسأل ذلك على التمام ليترقى به حاله إلى أرفع المقام وهي المجيء إلى الله بالله، لَّا علم أن مَنْ وصل إليه لم يعرض عليه عارضة، حينئذ صلح المجيء إلى الله وحده بلا شريك ولا نظير، وكان مَمَنْ وفيَّ المواقيت حقها غابت عنه الأحوال فلم يرها وذهبت عن غيبه ظهوره وما عداها إلا ما كان للحق منه ومعه، حتى تحقق بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦]، ولقد مننا عليك مرة أخرى فهذا حال لمجيء، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾، وقوله:﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، أنه انفرد بكلامه لأنه كان قبل ذلك مُكلمًا بالسرّ والسفراء والوسائط.

فلمّا أتى الله تعالى به إلى المقام الأجل وحققه بالحال الأعظم الأرفع خاطبه مكلمًا على الكشف وغيبته عن كل عين رائية ومرئية، وكل صورة مكونة ومنشأة إلا ما كان من الكليم والمكلم، وأفرد الله عنده بالشرف الأعظم فسمع خطابًا لا كالمخاطبات فاهتاج منه وله عند ذلك طالبًا لا كالمطالبات واقتضى من الله ما لم يكن قبل يقتضيه، فلذلك سأل النظر إليه إذا رجع إلى حقيقة، فرأى الله في كل منظور له ومنصور، فلمّا تحققت له هذه الأحوال، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فإن في كل مرئي أرجع إليك، أي أرني ما شئت فلست أرى غيرك مقابلي إذا تحققت بما حققتني به، إنك غير مسائلي، ألم يدلك على ذلك خطابه ورجعته إليه إذ ذاك جوابه أرني فإليك أنظر وأحضراني ما شئت فلست غيرك أحضر بعد أن تحققت منك بحال يوجب لي منك ذاك، وحق لَمَنْ تحقق بهذا أوتمكن فيه أن ينفرد بسؤال لا يشارك فيه بالحقيقة.

ويقال: صار موسى ﷺ عند سماع الخطاب بعين السكر، فنطق بما نطق والسكران لا يؤخذ بقوله، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف.

ويقال: أخذته عزة السماع فخرج لسانه عن طاعته جريًا على مقتضى ما صحبه من الأريحية وبسط الوصلة.

ويقال في القصص: إنه كان يحتمل في الوعد كلمات الخلق.

ويقول: لمعارفه لكم كلام معه، ولكم حاجة إلى الله فإني أريد أن أمضي إلى مناجاته، ثم أنه لَّا جاء وسمع الخطاب لم يذكر ما دبره في نفسه، وتحمله من قومه وجمعه في قلبه سينا ولا حرفًا، بل أنطق بما صار في الوقت غالب قلبه، فقال: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وفي معناه

أنشدوا:

فباللـيلِ كَـمْ مِـنْ حَاجـةٍ لِي مُهمَـة إذَا جِئـتكمْ لمْ أَدرِ باللـيلِ مَاهِـيَا

ويقال: أشد الخلق شوقًا إلى الحبيب أقربهم من الحبيب، لهذا موسى ﷺ كان غريق الوصلة واقفًا في محل المناجاة محدقًا به التولي غالبًا له بذهاب الوجود في عين ذلك، كان يقول: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ كأنه غائب عن الحقيقة لا ولكن ما إذا أزداد القوم شربًا إلا ازدادوا عطشًا ولا ازدادوا قربا إلا ازدادوا أشوقًا؛ لأنه لا سبيل إلى الوصال بالكمال والحق سبحانه لقبول أسرار أصفياه عن مداخل الملال.

ويقال: فمال موسى ﷺ بلسان الافتقار فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ فلا أقل من نظرة، والعبد قتيل هذه القصة هو بل بالرد، وقال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ فكذا قهر الأحباب.

ولذلك قال قائلهم:

جـورُ الهـوَى أحسـنُ مِـنْ عَدلِـهِ وبُخلـهُ أظـرفُ مِـنْ بَذلِـهِ

ويقال: لمّا سمعت همته إذا أسنى الطلبات، وهي الرؤية قوبل بلن، فلمّا رجع إلى الخلق قال: للخضر هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدًا.

قال الخضر له: لن تستطيع معي صبرًا قبله بلن، فصار الرد موقوفًا على موسى ﷺ من الحق ومن الخلق، ليكون موسى ﷺ بلا موسى ﷺ صافيًا عذوبًا عن كل نصيب لموسى ﷺ من موسى ﷺ، وفي قريب منه أنشدوا:

أننـي أبِيـنَا نحـنُ أهـلُ مَـنازلٍ أبـدًا غُـرابُ البـينِ فِـيهَا يَـنعقُ

ويقال: طلب موسى ﷺ الرؤية وهو بوصف التفرق، فقال:

﴿أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾[1]، فأجيب بـ ﴿لَن﴾ عين الجمع أتم من عين التفرقة فزع موسى ﷺ حتى خرّ صعقًا، والجبل يصير دكًا، ثم الروح بعد وقوع الصعقة على القالب يكاشف بما هو حقائق الأحدية، وكون الحق لموسى ﷺ بعد إمحاء معالم موسى ﷺ، خير لموسى ﷺ من بقاء موسى ﷺ لموسى ﷺ فإن على التحقيق شهود الحق بالحق أتم من بقاء الخلق بالخلق؛ لذا قال قائلهم لوجهها من وجهها قمر، ولعينها من عينها كحل.

---

(١) إشارة لها أرق من هذه ، وعلى التوفية في الأمور كلها؛ لأن الصوفي من أهل الصفاء والوفاء، وعلى الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال. وعلى الوفاء بالعهد، وأعظمها عهد الشيوخ المُربين، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهي ما عينه الشيوخ للمريدين، فلا يتعدى نظرهم ولو خطة. وبالله التوفيق، البحر المديد (٢/ ٢٢١).

ولي هنا لطيفة في قوله: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أضاف رؤيته إلى الله لا إلى نفسه حيث قال: ﴿أَرِنِي﴾، إذا ترني جمالك أطيق أن أنظر إليك وإلا فلا فإنه كان لي عالمًا بعين حديثه لا تحصل رؤية القدم، فسأل منه تعالى عينًا من عيونه يراه بها، وبها يرى عين العين وكنه الكنه، وقدم القدم، وسرّ الذات، وحقيقة الحقيقة؛ لأنه لم يره؛ لأن جميع ذرات موسى ﷺ يرى الله، فلمّا غلب سكره وزاد شوقه سقط عنه رسوم العلم وبقي معه صرف العشق فتحرك لسان البسط بطلب الإطلاع على الحقيقة، فأجابه الحق سبحانه فقال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: لن تدركني كما أنا، فإن معك في البين واسطة الحدث وإن كان معك مني عيون الأزلية وأبصار الأبدية، فأحاله إلى واسطة بقوله: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾.

وأيضًا: ليس قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ نفي الرؤية عن موسى ﷺ وغيره من المؤمنين؛ لأن قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: لن تراني بإياك ولكن تراني بإياي، وصدق الله بهذا الخطاب وكيف يراه بين محجوبة بعوارض البشرية رآه به لا بالغير، فإذا رآه به رأى الحق لموسى ﷺ، ورؤية الله مشاهدته، وجلاله لموسى ﷺ أعظم من رؤية موسى ﷺ لموسى ﷺ.

وأيضًا: لن تراني من حيث أنت إذا أنت لن تراني بوصف القدم والبقاء وسطوات العظمة والكبرياء ما دام أنت أنت، انظر إلى مثلك في الحدوثية وهو الجبل، انظر إلى الجبل فإن فيك علّة الحدث ولا تريني إلا بواسطة الحدث، فجعل الجبل مرآة من فعله فتجلّى من صفته لفعله الخاص ثم للجبل، فرأى موسى ﷺ جمال القدم في مرآة الجبل فخرَّ؛ لأنه وصل إلى مقصوده على قدر حاله، ولو تجلّى لموسى ﷺ صرفًا لصار موسى ﷺ هباءً، ولو تجلّى للجبل صرفًا لاحترق الجبل إلى الأرض السابعة؛ لأنه تعالى تجلّى للجبل من عين العظمة وسبحات الأزلية.

ولذلك قال ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(١).

وقال ﷺ: «إذا تجلى الحق بشيء خضع له»(٢).

قال تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾، قال: وهب أمر الله أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة، قال: أروه، فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة الرب، ورفعت ملائكة السماوات أصواتهم جميعًا فارتج الجبل واندك، وكل شجرة كانت فيه، وخرَّ العبد

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٦١).

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ١٠٥).

الضعيف موسى ﷺ صعقًا على وجهه، ليس معه روحه، فقلب الله الحجر الذي كان عليه موسى ﷺ وجعله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى ﷺ؛ ولذلك قال له سبحانه في تعريفه عظمته وجلاله وغلبته قهر سلطان كبريائه على كل شيء، قال: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ أي: أنا أتجلّى من نور عظمتي للجبل لك، ولاستقر الجبل لتجلائي مع عظيم أجزائه وصلابة وجوده، فكيف تحمل صورتك الضعيفة أثقال عزتي؟! لو تريد أن تراني انظر إليَّ بعين روحك وقلبك، فإني أتجلّى لهما بحسن جمالي ولطف جلالي، وقلبك يسع ذلك التجلّي، لأنه خلق من نور ملكوتي، ورقمته بنور جبروتي، وفي ذلك نطق على لسان نبيه ﷺ حيث حكى عنه تعالى بقوله: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»(١).

وأيضًا: طلب موسى ﷺ رؤية الحق بعين الظاهر، وهناك عينه محجوبة عن فؤاده، فاحتجب عن رؤيته، وكان فؤاد محمد ﷺ في عينه حين شاهد جمال الحق سبحانه، فرآه بالفؤاد وبالعين.

قال تعالى في وصفه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١]، قيل: ما كذب فؤاده ما رأت عينه، تصديق ذلك قوله ﷺ في مراتب معراجه: «رأيت ربي بعيني وبقلبي»(٢).

ومَنْ دخل فؤاده الملكوتي في عينه وقت تجلّي الجلال وكشف الجمال يراه كفاحًا بلا حجاب، فإن لله عبادًا كسا نور جماله أفئدتهم، وكمل أبصار أسرارهم بكمل الملكوت والجبروت، فتدخل القلوب بنور الغيوب في عيونهم فلا يرون شيئًا من العرش إلى الثرى إلا ويرون جلال الله تعالى فيها.

كما قال بعض العاشقين: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه، كان موسى ﷺ غائبًا في بحر صفات الحق ومستغرقًا فيها ولم يعلم أين هو، ظن أنه غائب من دوام شهوده مشاهدته عنه، فسأل الرؤية فقيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ كأنه استفهم، أين أنت حيث أنا أنت وأنت أنا، وأنشد في معناه بعض الشعراء:

كَبُرَ العيانُ عليَّ حتى أنَّهُ ... صَارَ اليقينُ منَ العيَانِ تَوهُّمَا

فلما رآه غائبًا أراد أن يعرف مكانه فأحاله إلى الواسطة؛ ليعرف قدر الوصل في البين، وتعرف مكانه من المشاهدة.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾ عرف الجبل أن التجلي له عارية، وبينه وبين التجلّي حجاب امتناع

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سبقت الإشارة إليه، وهو من الأحاديث التي ذكرها المصنف بكتبه.

الأحدية عن مباشرة الخليقة، اندك من حسرة فوت التجلِّي، فلمَّا رأى موسى ﷺ تجلِّي الحق بالواسطة عرف أنه سقط من مقام الاتحاد وغيبوبته في الصفات، وارتهن بعلَّة بسؤاله بالواسطة، فخرَّ صعقًا من حسرة فوت المقام.

أنشد الحسين في هذاالمعنى:

مَـا لِي جُفِـيتُ وَكُـنتُ لاَ أُجفَـى ودلائـلُ الهجـرَانِ لاَ تَخفَـى

وأراكَ تَمزجُنِـي وتـشربُنِي ولقَـدْ عَهـدتُكَ شَـارِبي صِرفـا

هذا معنى قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فأدركه لطف الباري سبحانه وأحياه بروح المشاهدة، فلمَّا أفاق علم أنه مقصر من معرفة المقام وما كان فيه فاعتذر، وقال: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأيضًا: كان في بحر الصفات على محل شهود نعوت الأزلية فتقاضى سره إدراك حقائق الذات بعد فنائه في الصفات، فأسقط عن مقامه غير ذات الأزلي حتى صيرته بنعت البشرية وردته إلى مقام البداية، فعلم في الصحوة ما أخطأ في السكر من طلب الاطلاع على كنه القدم، فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ من إدراك الحدث قدمك وجلال أزليتك.

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ ممَّا طلبت فأنا أول المقربين بأن لا أثبت أقدام الحدثان على صفوان الأزل، ولا تستقر حثالة الخليقة عند هبوب عواصف القدمية عنها، لَّما رجع صار في مقام «لا أحصى عليك»[1].

علم السيد ﷺ هذا المقام في أول شهوده عين الكل، فقال: «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[2].

قيل: علَّة الفناء والامتحان، وعلم موسى ﷺ هذا المقام بعد الامتحان والفناء، ولو علم في الأول إدراك ما أدرك النبي ﷺ تاب موسى ﷺ مرة من هذا المقام، وتاب الحبيب ﷺ من هذا المقام في كل يوم سبعين مرة.

قال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[3].

كان عينه نكرة القدم فتاب من تقصيره عن معرفة حقائقه، فرعاه الحق برعاية الكرم وعفاه عن إدراكه كنه القدم بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم كسابقه.

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).

[الفتح: ٢] أي: من تقصير إدراكك كنه القدم، وما تقصر إدراكك كنه القدم، وما تقصر إدراك كنه أبد الأبد.

وأيضًا: تاب كليم الله من تلوينه في مقام العشق والشوق إلى جمال القدم حيث أحاله بعد سؤاله كشف جماله إلى رؤية الوسائط بقوله: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ أي: تبت من دعوى عشقك والشوق إلى جمالك بالحقيقة، فلو كنت متحققًا في جبل لم ألتفت إلى غيرك بسؤاله في مقام السكر، لذلك نطق بلسان السكارى.

فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فلمّا سمع ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ صار صاحبًا لم ينطق بلسان البسط بعد ذلك، فصرفه بالنظر إلى الجبل فتابع أمر قوله: ﴿ٱنظُرْ﴾ فأمتثل الأمر، وما كان في محل السكر ما نظر إلى الغير ولمْ يكن مأخوذًا بجرأته وانبساطه، فلمّا رجع من السكر إلى الصحو، ورجع من الحقيقة إلى الشريعة احتمل الجنايات، واعترف بتقصيره بنظره إلى غيره، قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

وأيضًا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: من أن يكون لك في مواهبك له علّة الاكتساب، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من قولي: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ بعد قولي: ﴿أَرِنِىٓ﴾ ولو اكتفيت بـ﴿أَرِنِىٓ﴾ ما احتجت إلى التوبة ولكن لمّا ذكرت فعل عيني بقولي: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، فأين الحدث من استجلاب القدم إليه وأدق الإشارة.

أي: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من إشارتي إلى نفسي في سؤالي بقولي: ﴿أَرِنِىٓ﴾، ومن أنا حتى ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، الآن ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ لأراك بك لا بي، بعد أن فنيت فيك

فترى عينك جمالك لي لا بي بيني وبينك أن ينازعني

فارفع بأنك أنني من البين؛ ولذلك غار عليه ملائكة الملكوت حين صُعق.

روي في بعض الكتب: «إن ملائكة السماوات أتوا موسى ﷺ وهو مغشي عليه، فجعلوا يركلونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض، أطمعت في رؤية رب العزة؟»[1].

كان الملائكة معذورين فإنهم ممنوعون من قوام القرب بمقرعة خوف العظمة: ولمْ يعلموا أن هذه القصة وقعت على العاشقين الذين اصطفاهم الله في الأزل بمحبته وعشقهم في أزله بعشقه وشوقه عشقهم به، وشوقهم إلى جماله، وبانبساطه معهم كما جعلهم منبسطين إليه حتى سألوا ما لمْ يطمع فيه الكروبيون والروحانيون، ولمْ يعلموا أن موسى ﷺ رأى مُناه

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٧٦).

كما أراد في زمان الصحو عند سؤاله وجوابه، ووجده في غيبته وسكره، وحال صعقته لمّا غاب وسكر استغراق في بحار الأزل والآباد، وانكشف له سرّ الأسرار، فالملائكة عدوًا من وراء حجاب الفعل في مقام الشريعة، وكان موسى ﷺ في حجر الوصلة غائبًا عن الخليقة، ولو شاهدت الملائكة ذرة من حاله لصعقوا واحترقوا جميعًا، والحمد لله الذي خصَّ بديع فطرته وذريته بهذه المثابة دون غيرهم.

وأيضًا: لي نكتة عجيبة، لمّا وجد حلاوة خطاب الأزل واستحلاه طمع في الرؤية لزيادة حلاوته، ووجدان لذته، فأصعقته غيرة الأزل من سكوته عنه به وعمًا وجد من برد نسيم وصلته فلمَّا أفاق بعد انقطاعه من حلاوته واحتراقه بنيران غيرة توحيده ووحدانيته قال: ﴿سُبۡحَـٰنَكَ﴾ من أن يطلبك أحد بحظه ولحظه، ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ ألا أسالك إلا لك فرد بفرد فإن حلاوة المشاهدة حجاب المشاهدة، ألا ترى إلى قول بعض الموحدين في وصف موحده حيث وصفه فقال سبحانه: «من حسنة حجاب حسنه»[1].

قال بعضهم في قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ فهو أشد منك جسدًا، وأعظم منك خلقًا، وأهيب منك منظرًا، فإن ثبت لرؤيتي تثبت، ولا يحملني ولا يصبر على مشاهدتي شيء إلا قلوب العارفين التي زيّنتها بمعرفتي، وأيدتها بأنواع كراماتي، وقدستها بنظري، ونورتها بنوري، فإن حملني شيء فصير لمشاهدتي في تلك القلوب دون غيرها؛ لذلك قال المصطفى ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيءٍ أدركه بصره»[2].

ثم إذا حملني فتلك القلوب وصبرت لمشاهدتي وأنا حاملي لا غير إذ بي حملني وبإياي صبر لمشاهدتي، فلا مشاهد للحق سواه، جلّ ربنا وتعالى.

وقال ابن عطاء: شغله بالجبل ثم تجلّى، ولو لم يشغله بالجبل لمات وقت التجلّي.

وقال الحسين في قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ لو ترك على ذلك ليقطع شوقًا ولكن سكنه بقوله: ﴿وَلَـٰكِنِ﴾.

وقال ابن عطاء: انبسط إلى ربه في معاني الرؤية لمّا ظهر عليه عن الكلام ولمْ ينطق بإياه، ألا تراه أنه لما رجع إلى وصفه رجع إلى أوائل المقامات، فقال: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾.

قال النصرآبادي: ما قطع موسى ﷺ عن الرؤية إلى نظره إلى الجبل، ولو تحقق بسؤال الرؤية لمّا كان يرجع منه إلى شيءٍ سواه.

---

(١) هكذا في الأصل، ولم أجد له أثر فيمن خرجه.

(٢) تقدم تخريجه.

قال الواسطي: ﴿لَن﴾ إلى وقتٍ ولا على الأبد.

قال جعفر: شغله بالجبل ثم تجلَّى، ولولا ما كان من اشتغاله بالجبل لمات موسى عليه السلام صعقًا.

وقال الواسطي في قوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ صار الجبل كأن لم يكن قط، ولا عجب لهيبة ما ورد عليه.

قال أبو سعيد القرشي: الجمال والكرم يبقيان، والهيبة والإجلال يفنيان، كمّا أن الله كلم موسى عليه السلام بصفة الهيبة وتجلّى للجبل، فصار الجبل دكًا وخرَّ موسى عليه السلام صعقًا، وكان آخر عهده بالنساء، ولم يتهيأ لأحد أن ينظر في وجهه.

قال الواسطي: وصل إلى الخلق من صفاته ونعوته على مقاديرهم لا بكلية الصفات، كما أن التجلِّي لَمْ يكن بكلية الذات.

وقال أيضًا: قالوا إليَّ نقيت التجلِّي، والله يقول: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، وقال النبي ﷺ: «إن الله إذا تجلى لشيءٍ خشع له»[1].

قلت: ذلك على التعارف ومقادير الطاقات، أليس بمستحيل أن يقال: تجلّى الهواء لذرة واحدة، ولو احتجب لساوتها، ولو تجلّى لقاء ربها، وهو أجل من أن يخفى ويستر وأعزّ من أن يرى ويتجلّى إلى وقت الميعاد، تنزّه عن أن يقع عليه إلا للحظ بمعانيها، أو تقع تحت الألسنة بأماليها.

قال: وقُرِئَ بين يدي الجنيد ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فصاح، وقال: بالجهل صار دكًا لا بالتجلّي؛ إذ لو وقع عليه آثار التجلي أفناه بكيف التجلّي.

وقال شيخنا وسيدنا محمد بن خفيف -قدس الله روحه- في قوله: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمّا قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من ألا أصدقك بكل ما ورد منك وأطالبك بالعلامات، وذلك لمّا قال: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ لمْ يكفه حتى نظر إلى الجبل، فلمّا لمْ يقل موسى عليه السلام كفاني قولك: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ حتى نظر إلى الجبل، فالتوبة من هذا.

وقال بعضهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أن أسالك خطابي؛ إذ لا يحيط بك أحد ولا يشهدك غيرك.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال الواسطي: لمْ يزال المقصود ممتنعًا من الاستغراق، ألا ترى إلى قول موسى ﷺ ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ قيل معناه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ بالسؤال والدعاء، وإنما تراني بالنوال والعطاء؛ لأنه لو أعطاه إياه بسؤاله لكانت الرؤية مكافأة السؤال، ويجوز أن يكون فعله مكافأة فعل عبده، ولا يجوز أن يكون هو مكافأة فعل عبده.

قال بعضهم: برق برقة من النور فصاحت الجبال وانقطعت وغارت البحار، وانخمدت النيران، وانكشفت الشمس؛ فصعق موسى ﷺ، فكيف كان يطيق موسى ﷺ ويثبت لمّا لمْ يثبت لها الجبال الرواسي، وإنما كانت برقة.

روى أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية فقال: «هكذا، ووضع الإبهام على مفصل الأعلى من الخنصر فصاح الجبل»[1].

قال أبو سعيد الخراز: إن الله لا يتجلَّى بالكشف فمَنْ يقوم له؛ لذلك تقطع الجبل حين تجلَّى له، وخرَّ موسى ﷺ صعقًا، فإنما نظر إلى أوليائه بالخصوصية من وراء الحجاب إذ أقبل عليهم بالرحمة والمحبة، فهناك يصل إليهم العلم الكثير والفوائد.

قال علي عن أبيه عن جعفر قال: لمّا سمع الكليم الكلام، واستولى على ذلك المقام سمع كلام الملك العلام، قال بلسان الدلال على بساط الوصال تحت ظلال الجلال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ فإني بين يديك، فأجابه ربه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ الآن في غير الوقت، بل تراني ببرهاني وشواهدي فإنك الآن لا تحتمل نور جلالي وسلطاني.

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ لترى عجائب قدرتي، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ فصار بأربع قطع، وتبددت في أربع مواطن، فتقطع قلب موسى ﷺ بأربع قطع، قطعة سقطت في بحر الهيبة، وقطعه سقطت في روضة المحبة، وقطعة سقطت في بساتين رؤية المنَّة، وقطعة سقطت في أودية القدرة.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ خرج عن الشدة وصاح إليه بالتعظيم، بلسان الحياء ﴿تُبۡتُ﴾ أن أسألك سؤال المحال في غير الوقت.

وقال ابن عطاء: علم الله تعالى منه عجزه عن إقامة حق إرادته وما طلبه، فقال سبحانه: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ فلمّا رأى الجبل قد صار دكًا صُعق، ولو صحت منه تلك الإرادة، وذلك السؤال لما كان تردعه عن ذلك ألف صعقة، بل كان يقوم على مراده وسؤاله وطلبته.

---

(١) لم أقف عليه.

سُئل الحسين بن منصور: لمَ طبع موسى ﷺ في الرؤية وسألها قال: لأنه انفرد للحق فانفرد الحق في جميع معانيه وصار الحق مواجهه في كل منظور إليه ومقابلة دون كل محظور لديه على الكشف الظاهر إليه لا على التغيب، فذلك الذي حمله على سؤال الرؤية لا غير.

قال أبو عثمان المغربي: لمّا قال موسى ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، قال الله: يا موسى ﷺ اضرب بعصاك الجبل، فضرب عصاه الجبل فظهر سبعون ألف بحر، في كل بحر سبعون ألف جبل، على كل جبل ألف موسى ﷺ عليهم الكساء وبأيديهم العصا، يقولون كلهم: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، فلمّا رأى ذلك ﴿خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أيطمع في ليي، وتعلم أنها تقطع أعناق الرجال المطامع.

ثم إن الله سبحانه لمّا أبقى موسى ﷺ في درك حيرة رؤية الأزل، واستغراقه في بحار الشوق إلى وجهه، تلطف عليه وتسلّى قلبه بتعريف منّته الشاملة عليه ليكون شاكرًا لأنعامه، ومتسليًا بتدارك قلبه بإكرامه، فقال: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: سبقت لك في الأزل اصطفائيتك المقدسة عن علّة الحدث برسالتك مني إلى أحبائي، وتلك الرسالة شاملة لجميع ما يتوقع فيه الأولون والآخرون من الدنو ودنو الدنو، والقرب، وقرب القرب، والوصال وكشف الجمال؛ لأنها محل الاستقامة ووجدان جميع المنية.

وأيضًا: سبقت لك الاصطفائية بأن تسمع مني كلامي بلا واسطة، وتعلم منه أسرار ملكي وملكوتي، ألبستك من فعلي لباس الرسالة، ومن أنوار كلامي وصفتي لباس الربوبية؛ فصرت موصوفًا بصفتي حين اصطفيتك، فوقعت في نور فعلي، ثم وقعت في نور صفتي، حتى صرت في معنى الإنصاف مشاهدًا لذاتي، ولا تخلو شعرة من جسدك إلا ولها عين من عيوني فتراني بتلك العيون، فإيش تطلب مني، بقولك: ﴿أَرِنِيٓ﴾ كنْ من الشاكرين فيما أعطيناك من هذه المنازل السنية والمراتب الرفيعة، ولا تكن مهتمًا من قلّة إدراكك غوامض بطون قدمي وأزلي.

وقال بعضهم: الاصطفائية أورثت التكليم والكلام لا التكليم أورث الاصطفائية.

وقيل في قوله: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ من عطائي، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لا مَنْ المدعين المختارين، فما سبق مني إليك أكثر ممّا اخترته لنفسك.

وقال بعضهم: لمّا قال: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾[1] أورث الاصطناع والاصطفائية،

---

(١) أي ربيتك بصنائع المعروف تربية من يتكلف تكوين المربى على طريقة من الطرائق (النفسي) أي لتفعل =

وكنت مصطفًا على الخلق لا بسابقة سبقت لك إليَّ، بل بسابقة مني إليك.

وأيضًا: كنْ مَنْ العارفين بمشكورك، فإن المعرفة بالمشكور هو الشكر لا غير.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إشارة لطيفة، قال: لا تكن منْ الشاكين ولا ممَّنْ يشكو، يعني: أن منعتك عن سؤالك، ولم أعطك مطلوبك، لا تشتكي إذا انصرفت، وأنشد في معناه:

إن أعرضوا فهم الذين تعطفوا كم   قد وفّوا فأصبر لهم إن خلفوا

ثم إن الله ذكر زيادة نعمه عليه بأن عرفه مواضع حقائق علومه الغيبية وأسراره العجيبة، وأنبائه الغريبة الأزلية بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ﴾ إشارة عجيبة، أي: كتبنا أسرارنا له لأنه أهلها، عارف بها وغيره مقلده؛ لأن أسرار الخطاب إشارات الأزلية إلى حكم الأبدية ولا يعرفها إلا مَنْ كان مصطفى ومصطنعًا لها؛ ولذلك قال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ و﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ إشارة إلى ألواح الصفات والذات، كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ التي خصصناه بها في علومنا الأزلية في الأزل.

وأيضًا: أي كتبنا في ألواح أنوار قلبه من نقوش حروف أسرار الوحدانية، ومن كل شيء إشارة إلى علوم الذات والصفات والأفعال؛ لأنه تعالى شيء الأشياء، أي: علمناه علم ما كان وما سيكون من العرش إلى الثرى، موعظة بلسانه للعارفين والعاشقين والمشتاقين الذين يتعرفون طرق وصالنا.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: مبيِّن غوامض بطون الأشياء، ومفسر إشارات السرمدية الأزلية، فلمَّا أعظم أقدار كلامه في قلبه وعينه، وعرَّفهما مكان شكره فيه أمره أن يقبل إليه به لا بنفسه؛ ليعرف به لا بنفسه، ويعمل به لا بنفسه بقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: هذه أثقال الربوبية ومرجى أمر الأزلية.

=

من مرضاتي في تمهيد شرائعي وإنفاذ أوامري ما يفعله من يصنع للنفس من غير مشارك، فهو تمثيل لما حوله من منزلة التقريب والتكريم، نظم الدرر (٥/ ٢٤٢).

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ من قواي حين تفرّ من نفسك ومن غيري إليَّ بالاستعانة بي، واقتباسك قوة ونصرة مني، فخذها بتلك القوة الإلهية لا بقوة نفسك، فإن قوة نفسك حدثية، ولا تحمل أثقال الربوبية إلا بقوة الإلهية، فإذا صرت مطيتها وحملت تلك الأمانة من قومك.

﴿ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي: بأسهلها عليهم من الأوامر والنواهي؛ لأن حقائقها لا تليق إلا بك وبمثلك.

وأيضًا: يأخذوا بأبينها لهم، وهي المحكمات التي توجب العبودية ويأخذون متشابهها، التي هي وصف الصفات بحسن الاعتقاد والتسليم فيها؛ لأن علومها وحقائقها لا تنكشف إلا للربانيين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال بعضهم في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ سر الله عند عباده ولأهل خصوصيته لا يحمله منهم إلا الأقوياء بأبدانهم وقلوبهم، ألا ترى الله يقول لكليمه ﷺ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ والقوة هو الثقة بالله والاعتماد على الله؛ ولذلك قال بعضهم: عطاياه لا يحمل إلا مطاياه.

وقيل في قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذها بي ولا تأخذها بنفسك، فالقوي مَنْ لا حول له ولا قوة، ويكون حوله وقوته بالقوي.

قال الأستاذ: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فرق بين ما أمر به موسى ﷺ من الأخذ، وبين ما أمر أن يأمر به قومه من الأخذ، أخذ موسى ﷺ أخذًا من الحق على وجه تحقيق الزلفة وتأكيد الوصلة، وأخذهم أخذ قبول من حيث التزام الطاعة، وشتان ما بينهما.

ثم إن الله سبحانه ذكر أن عرائس خطابه ولطائف كلامه لا تتكشف لمَنْ رأى قيمة نفسه في جنات الأزلية وميادين الربوبية بقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما منع المدعين المعجبين بشأنهم ومزخرفاتهم بمجازاتهم كلام الدعاوي الباطلة.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عن إدراك حقائق خطابي، وفهم لطائف معاني كلامهم؛ لأنهم منكرو كرامات أوليائي وآيات أصفيائي، بوصفه حالهم في تضاعيف الآيات بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ ثم زاد مباعدتهم من باب التوفيق ووجدان رشد الطريق بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

لو تبيّن ألف طريق من طرق الأولياء إلى الله لا يتبعوها لحرمانهم عن مصادقة الحق، وإن ظهر لهم طريق الدعاوي في متابعة الشهوات، اتبعوه وجعلوه سبيل الحق، لأن سجيتهم سجية الضلال، والمتكبر لو عرف التكبر الذي هو كبرياء القدم ما تكبر فإن جميع تكبر الحدثان من جهلهم بكبرياء الحق، وفي كل موضع تبدو سطوات كبريائه، يتلاشى فيها كل شيء، وكل تكبر غير تكبر الله تعالى باطل، إلا مَنْ تكبر بكبريائه حين اتصف بكبريائه، وذلك من إلباس الله إياه نور عظمته وهيبته وكبريائه، فينطق بالحق ويفعل بالحق، ويظهر منه الحق بوصف الكبرياء، علامته أن يخضع له كل شيء سوى الله، وهذا معنى قوله ﷺ: «من خضع لله خضع له كل شيء»[1].

قال بعضهم: التكبر تكبران: تكبر بحق، وتكبر بغير حق؛ فالتكبر بالحق تكبر الفقراء على الأغنياء استغناء بالله مما في أيديهم، والتكبر بغير حق تكبر الأغنياء على الفقراء ازدراء لما هم فيه من فقرهم.

قال الواسطي: التكبر بالحق هو التكبر على الأغنياء والفسقة وعلى الكفار وأهل البدع؛ لأنه روي في الأثر: «القوا أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»[2].

وقال سهل في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: هو أن يحرمهم فهم القرآن والاقتداء بالرسول ﷺ.

قال ابن عطاء: سأمنع قلوبهم وأسرارهم وأرواحهم عن الجولان في ملكوت القدس.

وقال ذو النون: أبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ كان

---

(١) رواه القضاعي في الشهاب (١/ ٢٦٥).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٥٦).

القوم في طلب الحق غلب عليهم رعونات الطبيعة من جهة ما شموا بعض روائح القرب، فصار في قلوبهم حلاوة فباشرت تلك الحلاوة قلوبهم، ولم يكن غالبًا يفني صفات الإنسانية منها، فاختلط ذلك الحظ بحظوظ البشرية، فلمّا هاجت حلاوة البشرية غابت حلاوة القرب، وعشقه في عشق الإنسانية وحظ البشرية، فطلبت القلوب المطلوب بعد ذلك في كل منظور من الحدثان على صورة المخاييل، لأن حظوظ بشريتهم أورثت في قلوبهم الخيالات المختلفة فسقطوا عن رؤية التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، وبقوا في طلب الخيال وبحثه عن كل شيء، فكل متحرك يتحرك لهم قبلوه بالمعبود من قصورهم عن كمال العشق وحقائق التوحيد، فكسا الحق سبحانه العجل كسوة من قهر ربوبيته امتحانًا للقوم، فوقعوا في حسن اللباس واحتشموه، واحتجبوا من رؤية القهر والامتحان، ولو خرجوا من أوائل الالتباس لأحرقوه كما أحرقه موسى ﷺ، وكذا حال مَنْ لم يبلغ إلى درجة التوحيد، وبقي في رعونة العشق حتى يؤول حلاله إلى حد غار عليه التوحيد والجاه إلى القتل؛ لأنه بقي في رؤية غير الله، والمشرك في التوحيد وجب قتله في طريق المعرفة، ألا ترى أن الله سبحانه أمرهم بقتل أنفسهم بقوله: ﴿فَتُوبُوٓا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾.

قال سهل: عجل كل إنسان ما أقبل عليه وأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد فناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا من بعد قتلهم أنفسهم.

وقال الأستاذ: لم يظهر قلوبهم في ابتداء أحوالهم عن توهم الظنون، ولم يتحققوا بخصائص القدم وشروط الحدوث، فعثروا عن أقدام ذكرهم في وهاد المغاليط.

ويقال: إن أقوامًا رضوا بالعجل أن يكون معبودهم، شمت أسرارهم نسيم التوحيد، هيهات لا ولا من لاحظ جبرائيل أو ميكائيل أو العرش والثرى أو الخلق والورى.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ وصل إلى كليم الله المضرب قهر ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ورجع غضبانًا منه عليه، من غلبة انبساطه وشربه كأس سم أفاعي الفراق، أسفًا مما فات من وصول الوصول، ورجع إلى قومه مع شريعة العبودية في تلك الحالة، ورأى عبدة العجل صار كأسود الجياع مع قومه وأخيه، فإن الكليم رجع من باب الأزل الذي كان الحدثان هناك بأسرها أقل من ذرة، فرأى دناءة همم القوم حين اختاروا مصنوعهم بالإلهية، وأين العقل والفهم والعلم والإنسانية هناك؟

والعقل لا يقبل من وصفه التغير والأصوات والخوار، والمشابهة، والجسدية والمماثلة بالإلوهية المنزَّهة عن المتشابه بأشكال الحدثان.

ألا ترى أن الله ﷻ وصف العجل بالعرض والجوهر حيث قال: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ ووصفه بأنه لا يكلمهم من عجزة عن إبداع الكلام، ولا يهديهم إلى سبيل نجاتهم من قهر ربوبية الأزل، وليس مَنْ يقدر بالكلام فهو إله إرادته، لا يكلمهم مثل كلام الأزلي الذي يكلمهم الله الذي من وصفه أنه صفة الأزل المنزَّه عن الخوار والأصوات والهمهمة والأنفاس والحروف والقياس.

قيل: ﴿أَسِفًا﴾ على ما فاته من مخاطبة الحق إلى مخاطبة مَنْ لا أوزان لهم، فرده من شوقه إلى مشاهده؛ لئلا يقطعه، وحال شوقه ومن بقية سكره وغضبه من فوت مكالمة الحق، وأسفه على فوت مشاهدته.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ إن الله سبحانه علم شوق موسى ﷺ إلى جماله وعشقه بوجهه فأراه كل وقت ما أغاره عليه؛ لزيادة حرقه، وهيجانه أغضبه؛ لأن الله أحب غضب كليمه، وهكذا عادة الأحباب فأبرز من أول اللوح نعوت نبينا ﷺ فلمّا رأى بينه وبين حبيبه مَنْ أقرب منه إليه غضب من غيرة العشق، وهكذا شأن العاشقين.

وأيضًا: ذكر أيام الوصال وطيب المناجاة بغير واسطة الألواح، فإلجاء فوت تلك المقامات إلى كسر الألواح فألقى الألواح؛ لأنها عارضة بينه وبين خطاب محبوبه صرفًا بلا واسطة، وجرَّ أخيه إليه؛ لأنه رآه في مقام الشريعة مشغولاً عن تلك المواقف القدسية التي خرج منها.

قال أبو سعيد القرشي: مَنْ تحرك غيرة للحق فإن الحق يحفظ عليه حدوده لئلا تخرجه الحركة إلى شيء مذموم كموسى ﷺ لمّا ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره، لمّا رأى قومه يعبدون العجل، فلمْ يعاتبه الله على ذلك، ولو باشر أحد من الكسر والأخذ ما باشر موسى ﷺ كان ملومًا، ولكن حركة موسى ﷺ كانت ملاحظ لموسى ﷺ فيه، بل قام غيرة لله وانتقاله، فلمْ يزدد بذلك من الله إلا قربًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا

وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ لمّا أخطاؤا طريق طلب الحق واقتدوا بمَنْ لا يعرف الله أبقاهم الله في شره شرب حب العجل، وصاروا بين الموحدين والعارفين أذلاء، وكذا حال كل مخطئ في الطريق ومبطل في الاقتداء، بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ الذين يدعون ما لم يجدوا من المقامات والأحوال، لكن من فضله ورحمته عرفهم موقع الخطأ حين قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ ندموا على تقصيرهم رؤية الحقيقة.

﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ عن طريق المعرفة، ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا﴾ بأن تقبلنا بشركنا في التوحيد حتى نجدك بدرجة الشهادة، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بأن تخرجنا من رؤية غيرك إليك، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين فارقوا حظ مشاهدتك بغيرك.

قال أبو عثمان: مَنْ أقبل على الله فلينتظر الراحة والزلفة والقبول، ومَنْ أعرض عنه فلينتظر الذل والسخط والبغضة مع غضب الله في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ الآية.

قال الحسين بن الفضل: لا ترى مبتدعًا إلا ذليلاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ اختار موسى عليه السلام من شربه في الولاية شربه في النبوة من أولياء أمته؛ ألا ترى قولهم لمّا سمعوا خطاب الحق بلا

واسطة واستلذوه، وسكروا بطيب الخطاب كيف قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وكيف أحرقتهم الصعقة؛ لأنهم ضعفاء في الحقائق، اختار منهم سبعين؛ لأن في كل أمة سبعين من البدلاء والأولياء والنجباء، وكذا في أمة محمد ﷺ.

قال بعضهم: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ﴾ على عدد الأولياء في الأمم السالفة وفي أمته، وهم السبعون الذين إليهم يفرغ الخلق وبهم يحفظون، ثم لمّا وصل إلى القوم ما وصل إلى موسى ﷺ صعقوا وفنوا تحت الصعقة؛ لضعف قلوبهم عمَّنْ حمل سطوات العظمة، اشتد على كليم الله وهاج سره بالانبساط لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ أهلكتهم بنظرهم إلى العجل بين بني إسرائيل وإياي في صعقتي.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ تؤاخذنا بتقصير عبدة العجل، وهذا عادة الملوك إذا جنوا أخذوا أعيانهم، ويمكن أن قوله: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إشارة إلى الغائبين في سكرهم بلذَّة خطاب الحق حين سمعوه وقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهم ضعفاء الحالات، أي: تهلكنا بقول السكارى.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أطلق لسان الانبساط، وخرج من سجف الاحتشام من بقايا خمار تلك الشربات في وقت التجلي، أي: ما هي الصعقة إلا امتحانك لعشاقك من عشقك لهم في الأزل، وهذا من صنيعك بمحبتك ألا ترفع محبك عن المشتاقين إليك.

إلىَ مَتَــى تَحْــتَجب مِــنَّا ... أَمَــا آنَ للهجــرانِ أَنْ يَنــصَرِمَا
والغــصنُ غُــصنُ الــبَانِ أَنْ يَتَبَــسَمَا ... والعاشِــقُ الــصبُّ الــذِي ذابَ وانحَنــى

وفي هذا المعنى أنشد حسين بن منصور حين أرادوا قتله كان يتبختر ويقول:

نَديمِــي غَــيرُ منــسوبٍ ... إلىَ شيءٍ مِــنَ الحَــيفِ
سَــقَاني مِــثلَ مَــا شربَ ... فعــلَ الــضيفِ بالــضيفِ
فلــمَّا دَارَتِ الكَــأسُ ... دَعَــا بالــنطعِ والــسيفِ
كــذَا مَــنْ يَــشربُ الــرَّاحَ ... مــعَ التنــينِ في الــصيفِ

فلمّا سكن موسى من حدة الانبساط رجع إلى مقام التوحيد وقطع الأسباب في العبودية وقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: تضل وتحجب بامتحانك واختيارك، ﴿مَن تَشَآءُ﴾ مشاهدتك، ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ إلى وصالك، فمنًا مَنْ بقي في الصعقة عن المشاهدة، ومنًا مَنْ وصل بك إليك في الصعقة، وذلك فرق بين مراتب النبوة والولاية، ثم نظر إلى كلائه

أنبيائه وأوليائه في مقام امتحانه فقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أنت حافظنا منك فيك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ جناية انبساطنا في مقام رؤية هيبتك ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ بكشف مشاهدتك لنا بلا امتحان ولا واسطة الحيل، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ لأنك قديم ومغفرتك صفتك شاملة على جميع الجنايات منزّهة عن خلل الحدثان.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ اجعل نصيبًا منك في الدنيا مشاهدتك، ومعرفتك بالعافية عن قهرك وامتحانك، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بغير واسطة الجنة وما فيها، ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ رجعنا مِنا إليك، وفررنا منك إليك.

قال ابن عطاء: أقبلنا بالكلية عليك.

ويقال: إن موسى ﷺ جاهر الحق بنعت التحقيق وفارق الحشمة، فقال صريحًا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[1]، ثم وكل الحكم إليه فقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾، ثم عقبة ببيان التضرع فقال: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

قال الأستاذ في قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ﴾ مِلنا إلى دينك وصرنا لك بالكلية من غير أن نترك لأنفسنا بقية، فلمّا سأل موسى ﷺ وقاية الحق من الحق لئلا تدخل في مربع الأنس واللطف زحمة القهر واستوفى منه حظ مشاهدته بلا كدورة الحجاب، فرارًا من قهره إلى لطفه ومنه إليه إجابة الحق، أن لطف القديم مع قهر القديم بظهور فوقية قهر القدم على الحدث، وإدخال إعتاق الخليفة تحت إقدام الهيبة بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ أي: عذاب فراقي وامتناعي من مطالعة أرواح القلوب على نعت السرمدية، وأوصل إلى من شاء من العارفين والمحبين، تربية وامتحانًا لهم في العبودية، وصل عذابه بالمشيئة، وهو موضع رجاء وخوف لأهل الإيمان، ثم عمَّ الكل برحمته الواسعة الأزلية الشاملة على كل ذرة بقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جميع الخلائق مستغرقون في بحار رحمته؛ لأن إيجاد الحق إياهم على أي وصف كانوا عين رحمته، حيث جعلوا تحت نظره وسلطانه وربوبيته ومباشرة قدرته فيهم، ثم إن الخلق بالتفاوت في الرحمة، فالجمادات مستغرقة في نور فعله وهي الرحمة الفعلية

---

(١) أي: محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يثبتوا فطمعوا في الرؤية.

يقول الفقير: هذا يدل على أنهم سمعوا كلامه تعالى على وجه الامتحان والابتلاء لا على وجه التكرمة والإجلال وذلك لا يقدح في كون موسى ﷺ مصطفى بالرسالة والكلام مع أنه فرق كثير بين سماعهم وسماعه ﷺ والله أعلم. تفسير حقي (٤/ ٢٨٧).

والحيوانات مستغرقة في نور صفته، وهي الرحمة الصفاتية والعقلاء من الجن والأنس والملائكة مستغرقون في فوز ذاته وهي الرحمة الذاتية القديمة من جهة تعريفهم وربوبيته ووحدانيته، وهم من جهة الأجسام وما يجري عليها في الرحمة العامة، ومن جهة الأرواح وما يجرى عليها في الرحمة الخاصة وهم فيها بالتفاوت، فبعضهم في رؤية العظمة ذابوا، وبعضهم في رؤية القدم والبقاء تاهوا، وبعضهم في رؤية الجلال والجمال عشقوا فطاشوا، ومَنْ خرج من مقام الرحمة إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى أصل الذات استغرق في الراحم وفني عن الرحمة فصار رحمته للعالمين، وهذا وصف نبينا محمد ﷺ، لأنه وصل بالكل إلى الكل، فوصفه برحمة الكل بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ثم خصَّ رحمة الخاص الصفاتية بعد أن عمَّ الكل برحمته العامة للمتفردين بالله عن غير الله، الفانين بعظمته في عظمته؛ الذين بدلوا وجودهم لحق ربوبيته عليهم بقوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: يتقون في محبة مشاهدته عن كل مألوف ومحظوظ دونه، ويؤتون الزكاة، يتقربون إليه بذبح نفوسهم لديه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يشاهدون مشاهدًا في رؤية آياتنا.

قال الواسطي في قوله: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ ذلك في نفس العارف ما عرفه أحد إلا تكدر عيشه، وأرباب الحقائق ألا يعذبون في الدنيا إلا بتواتر نعم الله عليهم والتقرب، حتى يرد عليه ما منه بغيب من الصفات والنعوت، فيرتفع عنه سوء الأدب في السير.

وقال الكتاني رحمه الله: تسمع كل شيء، لكن خصَّ بها الأتقياء، قال الله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

وقال أبو عثمان: لا أعلم في القرآن أنه يقنط من قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ والناس يرونها أرجى آية، وذلك أن الله يقول: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ومَنْ يمكنه بصحيح التقوى فتكون بشرط الآية.

وقال بعضهم: وصف العذاب بصفة الخصوص مقرونًا بالمشيئة، وعمَّ الرحمة أنها تسع كل شيء، ثم وصف الله هؤلاء المتقين بالأسوة والقدوة والاقتداء في تقواهم بالنبي ﷺ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾.

وصف الله نبيه ﷺ بالأمية، كان ﷺ أميًا بأنه كان قبل الكون في بحر الوصلة ومهد القربة، شرب ألبان النبوة والرسالة والاصطفائية من ثدي مرضعة خاصة الأزل، كان أميًّا

كالولد العزيز في حِجْرِ أمه لا يجري عليه ما يؤذيه، كان في حِجْرِ الأزل رباه الله بلطفه وغذاء مشاهدته، وصيَّره مقدسًا في وقاية كرمه عن المكر والقهر.

ألا ترى كيف قال ﷺ: «اللهم واقية الواقية»[1].

الوليد وصفه، تقدس رسالته، ولطف نبوته عن جميع علَّة الاكتشاف، تلقف من فلق شرف العناية كلمات الأزلية بلا واسطة الحدث، لا يلتفت إلى علم المكتسب من الحدثان لاستغراقه في بحار علوم الرحمن.

قال ابن عطاء: الأمي هو الأعجمي، قال:يكون أعجميًا عمَّا دوننا، عالمًا بنا وبما نزل عليه من كلامنا وحقائقنا.

وقال: الأمي مَنْ لَمْ يعلم من الدنيا شيئًا، ولا من الآخرة إلا ما علمه ربه، حالته مع الله حالة واحدة وهي الطهارة بالافتقار إليه، والاستغفار عمَّا سواه، وزاد الله في وصفه ﷺ في وضع أثقال الشرك والضلال وأغلال المخالفات عنهم في متابعته والاقتداء بسنته بقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

كان القوم بقوا في أسر المجاهدات بلا مشاهدات، وأغلال الرياضات بلا مكاشفات، فلمَّا اتبعوه خرجوا من حدِّ الجهالة بطريق المعرفة واستنار لهم سبل الحقيقة ببركة السنة، فوجدوا بدائع ألطاف الغيبة بنعت الجذب والمواجيد البديهية، فيخفف عنهم ما عليهم من أثقال الرهبانية، وانحلَّ عن أسرارهم أغلال الشيطانية النفسية، وأيضًا لَمَّا رآهم ﷺ تحت قهر البعد وأغلال فقدان المعروف، حيث إنهم كانوا مطايا أثقال القهريات المسرورات بأسر الغضب القديم، فأبرز لهم أنوار النبوة من مصباح الرسالة ودعاهم من طريق الهوى والمنى إلى محجة التقوى، وسبيل الرضا ومشاهدة المولى؛ فأجابوا بنعت الاقتداء؛ فترفهوا من علَّة البدعة بروح السنة.

قال جعفر ﷺ : يضع عنهم أثقال المشرك وذل المخالفات وغل الإهمال.

وقال الأستاذ: لا شيء أثقل من كد التدبير، فمَنْ نقل عن كد التدبير إلى روح شهود التقدير فقد وضع عنه المعرفة، واستنار لهم سبل الحقيقة ببركة السنة؛ فوجدوا بدائع ألطاف الغيبية بنعت الجذب والمواجيد البديهية، فيخفف عنهم ما عليهم من أثقال الرهبانية، وانحل عن أسرارهم أغلال الشيطانية النفسانية.

وأيضًا لما رآهم ﷺ تحت قهر البُعد، وأغلال فقدان المعروف حيث إنهم كانوا مطايا أثقال القهريات المأسورات بأسر الغضب القديم، فأبرز لهم أنوار النبوة من مصباح الرسالة،

---

(١) رواه القضاعي في الشهاب (٢/ ٣٣٩)، بنحوه.

ودعاهم من طريق الهوى والمنى إلى محجة التقوى، وسبيل الرضا، ومشاهدة المولى فأجابوا بنعت الاقتداء فترفهوا من علة البدعة بروح السنة.

قال جعفر ﷺ: يضع عنهم أثقال الشرك، وذل المخالفات، وغل الإهمال.

وقال الأستاذ: لا شيء أثقل من كد التدبير، فمن ثقل عن كد التدبير إلى روح شهود التقدير فقد وضع عنه كل إصر، وكُفِي كل وزر وأمر، والأغلال التي كانت عليهم ما ابتدعوه من قبل أنفسهم باختيارهم في التزام طاعات الله، لم يفرض عليهم.

ثم وصف هؤلاء بالإيمان والإيقان، وإعانة رسوله ونصرته ﷺ ومتابعة القرآن بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: شاهدوا مقامات النبوة بنعت الولاية، وبذلوا مهجتهم في نصرته على أعداء الله، وسلكوا بنور القرآن طريق العرفان.

ثم وصفهم بالفوز والنجاة من أيدي الشياطين، وهواجس النفوس بنور القرآن والسنة، وظفروا بمشاهدة الحق وحلاوة محبته.

قيل: اتّبعوا سنّته؛ ليوصلهم اتّباع السنن إلى مبادئ الأحوال السنِّيَّة.

قال بعضهم: صدَّقوا ما جاء به، وبذلوا المُهج بين يديه، ثم أمر نبيَّه ﷺ بإظهار ما أعطاه الله من رفيع درجاته، وسني معجزاته، ولطيف كراماته لمن له استعداد الإنسانية، وقبول الحقِّ للعقل حجَّةً للعالمين، وانفتاح أبصار الصدِّيقين بأنوار جماله وسنا جلاله، بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مخبركم عن شوق الله في وجوه العارفين، وطبيب أمراض الخليقة، ودليلهم إلى طريق الحقيقة، ومنقذ العالمين من البدعة بأنوار الشريعة، وأمره بوصف جلاله وملكه على انتظام السماوات والأرض، وإيجاد الخلق وإفنائهم بالحقِّ، بقوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: نفى الأنداد والأضداد من ساحة الكبرياء، ووصفه بإحاطته على ملك السماوات والأرض بالعزِّ والبقاء، وبأنه يُحيي قلوب العارفين بمشاهدته، ويُميت قلوب أعدائه بقهره.

ثُم أمره بأن يأمرهم بالإيمان به وبرسوله بنعت معرفته، وشهودهم مشاهدة نبوة نبيِّه.

ثم وصف رسوله بالأميَّة عمَّا دونه، وشهوده مشاهدة قدم به لا بنفسه، ورؤية ما أخبر عن أسرار ذاته وصفاته في كلامه، بقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: يؤمن بالله بنعت الرضا عنه فيما يجري عليه من قضائه وقدره، ووصف حضور قلبه بنعت الكشف بين يديه، ويوقن ما أخبر له من أسرار الآزال والآباد.

فلمَّا كمل في ثنائه، ووصفه بأحسن الوصف، أمرَ الجمهور بمتابعته؛ ليجدوا بنوره مناهج معرفته، بقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: جعل متابعة نبيِّه مفاتيح فواتح خزائن كنوز معارف ذاته وصفاته، أي: اتبعوه بنعت المحبّة، ووصف الاقتداء بالسنَّة بغير المخالفة، لعلَّكم ترشدون مشاهد أنوار الذات في الصفات، ومساقط تجلِّي الصفات في الأفعال، وهذا وصف مَن تجانس له فطرة الولاية، فطرة النبوة والرسالة.

فإذا وصل نور الرسالة إلى نور الولاية، ظهرت طرق المعرفة لأهل الخالصة من المشاهدة ليس علَّة المعرفة المتابعة، ولكن علَّة المتابعة المعرفة؛ لأنَّ منها ينشعب جميع المعاملات السنيَّة، والحالات الشريفة، فالمتابعة تكليف، والمعرفة تشريف، التكليف للأشباح، والتشريف للأرواح.

قال الحسين بن منصور: إنَّ الحقَّ أورد تكليفه على ضربين: تكليفًا عن وسائط، وتكليفًا بحقائق، فتكليف الحقيقة بدت معارفه منه، وعادت إليه، وتكليف الوسائط بدت معارفه عمَّا دونه، فلم يصل إليه، فتناهى من معرفهم إلى نهايات معرفة أهل الوسائط، ولم يتناه معارف من أحدٍ معارفه عن شهود الحقِّ، كلُّ ذلك رفقًا من الحقِّ بالخلق؛ لعلمه بأنَّه لا يوصل إليه إلا بما منه.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ
عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ
وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ
ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ
قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى
ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ
مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾: وصف الله قومًا من أمة كليمه ﷺ، الذين وصل إليهم ما مَنَّ الله على موسى بكشف الأنوار لأرواحهم، وفتح آذان قلوبهم لسماع خطابه، هم وجدوا الله بالله، واتّصفوا بصفاته، فأخبر الحقُّ عن اتّصافهم بصفاته، حيث قال: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾: والهداية صفته، أي: يهدون بنور الله عباد الله إلى الله لا بهم، وهُم على الحقّ لا بصورة العماء والغلط والظنون والحظوظ، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: بعدله وباتّصافهم بعدله، يعدلون بين الحقِّ للحقِّ، لا لأنفسهم يتّصفون بالله لله، لا يخافون لومة لائم: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

قيل: يدلون الخلق على طريق الحق، وإيّاه يسلكون، ثم وصف الله قوم موسى بأنهم على اثني عشر طريقًا من طرق المعارف، بقوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾[1].

وجعل ضرب موسى الحجر مثلًا لانفتاح قلوبهم مشارب الألوهية، بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: ضرب يد الأحدية بعصا العناية صفوان الأزل، فظهر من عيون القِدم، وبحار الأولية لأرواح الموحّدين، وقلوب العارفين، وعقول العاشقين، وأسرار الشائقين، وهمم المحبّين، وأفئدة الموقنين، وخواطر المكاشفين، وصدور المشاهدين، وعلوم السالكين، ونيّات الصادقين، ومزار نور الراضين، ووجود المريدين ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: من عيون الصفات الخاصة لعرفان أهل العيان.

منها: عين القدم، وهى مشرب أرواح الموحِّدين.

ومنها: عين البقاء، وهي مورد قلوب العارفين.

---

(١) قال ابن عجيبة: (أسباطًا): بدل لا تمييز؛ لأن تميز العدد يكون مفردًا، والتمييز محذوف، أي: فرقة أسباطًا. وقال الزمخشري: يصح تمييزًا؛ لأن كل قبيلة أسباطٌ لا سبط، فكأنه قال: وقطعناهم اثنتي عشر سبطًا سبطا. والسبط في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب، و(أممًا): بدل بعد بدل على الأول، وعلى الثاني بدل من أسباط. يقول الحقّ جلّ جلاله: (وقطّعناهم) أي: بني إسرائيل: فرقناهم (اثنتي عشر أسباطًا)؛ اثني عشر سبطًا، (أممًا): متميزة، كل سبط أمة مستقلة. البحر المديد (٢/ ٣٠١).

ومنها: عين الجمال، وهي مورد عقول العاشقين.

ومنها: عين تجلِّي الوجه الذي هو صفته الخاصة، وهي مشرب همم المحبِّين.

ومنها: عين القدرة، وهي مشرب أفئدة الموقنين.

ومنها: عين العلوم، وهي مشرب خواطر المكاشفين.

ومنها: عين صفة السمع، وهي مشرب صدور المشاهدين.

ومنها: عين صفة البصر، وهي مشرب علوم السالكين.

ومنها: عين الكلام الأزلي، وهي مشرب نيَّات الصادقين.

ومنها: عين الإرادة القديمة، وهي مشرب من أنوار الراضين.

ومنها: عين الحياة القديمة، وهي مشرب وجود المريدين.

أما انفجار عين القدم لأرواح الموحدين؛ لأن القدم أصل الأصل، وماهية عين الكل.

ومنها: انفتح أنوار التوحيد للموحِّدين، والموحِّد لم يبلغ إلى درجة حقائق التوحيد إلا بعد شربه زلال الحقيقة من بحار القِدم.

وذلك الشرب يكون للأرواح الطائرة بأجنحة القدم في القدم، وتلك الأرواح لاتبرح من تلك البحار؛ لأنها تعيش بها أبدًا، ولا ترجع منها إلى غيرها من الصفات إلا ما شاء الله.

وأما انفتاح عين البقاء لقلوب العارفين؛ لأنّها مصارف جميع الصفات، وهي أصلٌ ثانٍ.

ومنها: تنبت كشوف الصفات، وشهود أنوار الذَّات.

والعارف لا يبلغ إلى درجة المعرفة، إلَّا بعد أن يشرب منها شراب وصال البقاء بنعت السكر والصحو، ومن زاد سكره للبقاء زاد صحوه؛ لأن البقاء يوجب التمكين، وهم لا يلتفتون من ذلك المقام إلى مقامٍ آخر؛ لأنَّ قلوبهم استغرقت في ذلك البحر.

وبحر البقاء باقٍ لها، ليس له ساحل، وهي لزيادة العطش.

وأما انبجاس عين الجمال لعقول العاشقين؛ لأن الجمال يوجب العشق للعاشقين، ولا يكون العاشق عاشقًا إلا بعد رؤيته جمال الحقِّ سبحانه، وتلك العقول هائمة في ذلك لا تسكن عنها أبدًا، ولا ترجع إلى مقام آخر من استلذاذها حلاوة الجمال.

وأما انفتاح عين تجلِّي الوجه لأسرار الشائقين؛ لأنها سبب سكر العشاق، سكرت تلك الأسرار برؤية تلك الأنوار، وهي هائمة أبدًا، لا يرجع منها إلى غيرها من المقامات والحالات؛ لأنَّ الشوق ألذُّ الأحوال، ولا يبلغ الشائق إلى درجة الشوق إلا بعد كشف تجلِّي الوجه له.

وأما انفتاح عين الجلال لهمم المحبِّين؛ لأن الجلال مشرب تلك الهمم يوقعها إلى

البحرين بحر الهيبة، وبحر الإجلال، والإجلال يورِّث لها الخوف، والهيبة تورث لها الحياء وهما أخصُّ صفات المحبِّين، وصفة الجلال شاملة لصفة الجمال، والجمال يظهرها في الجلال؛ لذلك استروحت تلك الهمم في أوقات عن برحاء الجلال، وكلُّ محبٍّ لم يبلغ مشاهدة الجلال لم يبلغ إلى درجة المحبّة بالكمال.

وتلك الهمة تنصرف بذاتها عن ذلك المقام تارة إلى محلِّ الجمال؛ لاقتباس نور الشوق والعشق؛ لأن الجلال والجمال مصدرهما عين واحد، وإن كان تأثيرهما في التجلِّي والمباشرة مختلفًا.

وأما انفتاح عين القدرة لأفئدة الموقنين، وهي بكشوفها تزيد أنوار الإيقان للموقنين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

ومشربها تجري على سوابق الآيات، والأفعال في حدود الالتباس، ونحلت نفس الصفة صرفًا بغير رؤية الآيات إذا كان صرفًا، فهي توجب العرفان، وإذا لم تكن صرفًا توجب الإيقان، وكيف يكون الموقن موقنًا، ولم يشرب فؤاده من هذين السقيين، وأفئدة الموقنين هامت من سكرها من شرب سلسبيل عين القدرة، ولا يرجع منها إلا بعد الاستيفاء منها إلى أعلى المقامات من شهود العين، ورؤية جميع الصفات، فهي على نعت الترقِّي؛ لأنّ تأثير القدرة في الأشياء على نعوت التغاير، وإن كانت عينها مقدسة من علّة التلوين.

وأما انفتاح عين العلوم الأزلية اللدنية لخواطر المكاشفين، وذلك أن عرائس الغيوب بلباس المعلوم تنكشف لخواطر المكاشفين، وهي تورِّث لعيونها مشاهدة الصفات والذات، وتورث من فوائد وجدان نضارتها وبهجة سناها علوم المعارف الإلهية، كلُّ كشفٍ بغير علمٍ لا يكون على حد الكمال والعلم إلا تفارق الكشف؛ لأن الكشف محلّ الخطاب، والخطاب يوجب العلم، لكن ربما تلوح بوادي الكشوف لضعفاء الطريق بالبديهة، ولا يفهمون عنها أنباء العجيبة الإلهية.

وكلُّ خاطرٍ لم يشرف على هذين المنزلين، فهو ناقص عن محلِّ الربانيّة، وتلك الخواطر معادنها علوم الأزلية، مستلذة دقائق العلوم من حيث حلاوة الكشف، وحلاوة الخطاب.

وأما انفتاح عين السمع لصدور المشاهدين يوجب لها أسماع الإلهية التي تسمع لها أصوات جريان أقلام القضاء والقدر من العرش إلى الثرى، وتسمع من الحقّ بسمع الحق ما يقول الحق، قال تعالى: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق:٣٧].

وتلك الصدور حاضرة الغيب، لا تُحس لهواجس النفوس، واصطكاك غيوم ظلام

الشياطين.

ومَن لم يبلغ إلى وجدان تلك الصفة في صدوره، لم يكن من السامعين أصوات جرس الوصلة.

وأما انفتاح عين البصر لعلوم السالكين، وذلك أن أنوارها تُبيِّن لعلومهم طرائق الغيب، وأحكام المتشابهات، ومغيِّبات الحكم، ومَن لم يبلغ إلى ذلك المقام، ولم يشرب من شربه لم يكن من المتفرِّسين في القلوب، ولم يكن من المشاهدين في الغيوب.

وأما انفتاح عين الكلام الأزلي لنيَّات الصادقين، وذلك المشرب مخبر مشارب جميع الصفات؛ لأنه من كلِّ صفةٍ فراج، فكلُّ صادقٍ يتكلم الحق معه بكلام القديم، يصير بنوره مطلقًا على جميع الصفات، عالمًا بأسمائها ونعوتها، مشاهدًا للذات مع جميع الصفات وتكون نيَّته معلَّقة بجريان خطاب الأزل، يجري بجريانه حيث يجري، ويدور حيث يدور، ولذلك هي محفوظة من خطرات الشك والريب، مرقومة بنور الإخلاص، ومَن لم يذق طعم ذلك المشرب ليس بصادقٍ في المعرفة؛ لأنه لم يكن معه مفاتيح كنوز الذات والصفات من الكلام.

وأما انفتاح عين الإرادة القديمة لمراد نور الراضين، وذلك أن الرضا بالإرادة يكون من نور الإرادة، مُزيلًا كلّ إرادة غير إرادة الله، فإذا زالت الإرادات عن قرار نور أهل الرضا بقيت إرادة الله فيه، فتكسبه سناها حتى تصير إرادة الراضي إرادة الحق، فإذا كانت الإرادة إرادة فردة، ولم يبق غيرها، أورثت له حُسن الرضا، وذلك الرضا من رضوان الله، نصارا متَّصفين، يورثان من معدن الأصل الرضا للراضي، فحينئذٍ إرادة الله، ورضي برضا الله، قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩].

وكل ذلك جرى له في سابق الحكم والعلم، فباشر حين وقع تجلِّيه على قلب الراضي بغير علة اكتسابه، ولا بحوله وقوته.

وأما انفتاح عين الحياة الأزلية لوجود المريدين، وذلك أن المريد ميِّت عن حياتها لمعرفةٍ، فيحييه الله بشربات ماء حياته، فلا يموت بعد ذلك أبدًا.

قيل: العرفاء لا يموتون، فإذا شرب المريد من عين حياة الأزلية يستقيم بها في رؤية جميع الصفات؛ لأن الحياة أصل جميع الصفات، وجميع الصفات كأنه قائمة بها، ومن لم يشرب من ذلك المشرب شربة الحياة لم يقدر أن يسبح بهمّيته في بحار الملكوت والجبروت، ولم يرَ جواهر الصفات، ولآلئ الحكم والعلم في بحر البقاء والأزل، وهؤلاء الطيَّارين في هواء الهويب، والسيَّارين على مراكب الجود في ميادين الأحدية طيرانًا وسيرًا بقوة الشرب من مشارب الغيب، والترقِّي في المقامات والدرجات إلى أعلى معالي درجاتهم من القرب

والوصال.

وكل طائفة منهم عرفوا مشاربهم، قال الله تعالى في تمام الآية: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[البقرة: ٦٠] .

لكلٍّ واحدٍ منهم أعلام طريقة إلى الله من سلب المواجيد، وحركات الجذب، وظهور الصفة، وإلقاء السمع، واستماع الخطاب، ويعرف منتهاه، ويعلم مقصده، وزيادة طلبه من قرب الحق ووصاله.

حكي عن الرضا عن أبيه، عن جعفر بن محمد في هذه الآية قال: ﴿فَانۢبَجَسَتْ﴾ من المعرفة: ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ يشرب كل أهل مرتبة في مقام من عين من تلك العيون، على قدرها[1]، «فأول عين» منها: عين التوحيد.

و«الثانية»: عين العبودية، والسرور بها.

و«الثالثة»: عين الإخلاص.

و«الرابعة»: عين الصدق.

و«الخامسة»: عين التواضع.

و«السادسة»: عين الرضا، والتفويض.

و«السابعة»: عين السكينة، والوقار.

و«الثامنة»: عين السخاء، والثقة بالله.

و«التاسعة»: عين اليقين.

و«العاشرة»: عين الفعل.

و«الحادية عشرة»: عين المحبّة.

و«الثانية عشرة»: عين الأنس والخلوة، وهي عين المعرفة بنفسها.

ومنها تنفجر هذه العيون، من شرب من عينٍ منها يجد طلاوتها، ويطمع في العين التي هي أرفع منها، من عين إلى عين حتى يصل إلى الأصل، فإذا وصل إلى الأصل تحقق بالحق.

وقال بعضهم في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: ظهر لكل سالك سلوكه، وآثار برهانه، وبركات سعيه، وأنوار حقائقه.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

---

(١) قال الحدادي: الانبجاس خروج الماء قليلا والانفجار خروجه واسعا وإنما قال فانبجست لأن الماء كان يخرج من الحجر في الابتداء قليلاً بتسع فاجتمع فيه صفة الانبجاس والانفجار.

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تتابع الاستتار والتجلّي في أقلّ لمحة، أحدهما يتابع الآخر لبدا قهر القديم، ولطف القديم، وخفائهما من معدن الأصل توجبان القبض والبسط، والكشف والحجاب.

قال بعضهم: ما كان في القرآن من قوله: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾: فإنها عقوبة الحجاب عنه.

قوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾: فوق الأولياء والأعداء في الأرض؛ ليعيش كل طائفة بما خلق لها من الطاعة والمعصية. ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ :خلفاء الأنبياء.

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: المستبدّين بآرائهم غير مقتدين بالأولياء والصدّيقين.

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ : جعلناهم جميعًا في درك الامتحان؛ لأن المولى مقهور القهر، ومعطوف اللطف، فقهره يورث المعصية والحجاب، ولطفه يورث الطاعة والكشف، ففي العقوبة مطالبون بالصبر، وفي النعمة مطالبون بالشكر، فالصبر منهم محال إلا بمعرفة الله، والشكر منهم محال إلا بكشف جمال الله لهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ : من البلاء إلى مُبليهم.

قيل: اختبرناهم بالنعم طلبًا للشكر، واختبرناهم بالمحن طلبًا للصبر، فأبى الجميع، فلا هُم عند النعم شاكرون، ولا هم عن المحن صابرون.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ : لما ادّعوا قرب الله، والانبساط بين يديه، وأنه تعالى لا يؤاخذهم بما كسبوا فضحهم الله بإظهاره

كذبهم بما قالوا على الله ما لم يعرفوا منه.

وكذا حال المدَّعين إلى يوم القيامة، وثق الحق سبحانه في كلامه على الصدِّيقين، ألا يقولوا على الله إلَّا ما وصف به نفسه من التنزيه والتقديس من أوصاف الحدثان، وأن من العرش إلى الثرى تجري على مقاديره السابقة، ومشيئته القديمة.

قيل: ألم يبيِّن لهم على لسان الوسائط، وفي الكتب المنزلة ألا يصفوا الحق إلا بنفاذ المشيئة وعلو القدرة، ثم بيَّن سبحانه أنهم علموا بميثاق الله في كتاب الله، وتركوا ما ندبوا إليه من سني المعاملات، ورفيع المقامات، بقوله: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾[1]: درسوا، وما عرفوا حقائقه، ولو ذاقوا طعم الخطاب تابعوه ببذل المهجة.

قال سهل: تركوا العمل به.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾.

أخبر سبحانه عن سرِّ تقدير الأزل الذي في نفسه في أول الأول، قبل كل قبل، بلا تغاير الزمان وتواتر الملوان، وذلك إرادة سابقة أزلية ذاتية صفاتية أحدية، تكون بوجود إيجاده بظهور وجوده تعالى له، فتقاضت الإرادة من العلم، والعلم من القدرة، والقدرة من جميع الصفات، والصفات من الذات بغير تفرقةٍ، ولا جمع بل الوحدانية، فأجابت الصفات للذات، والذات للصفات من غير حاجة، ولا وحشة، ولا أنس بالحدثان، بل الموجود أهل العرفان، فمضت أدهار الأزلية بلا زمان ولا مكان، بل قدم في القدم، وأزل في ا لأزل أخبر عن علم القديم، لا من الوقت ألا ترى قوله: ﴿وَإِذْ﴾، وليس عنده صباح ومساء لما تم أدهار الأولية، التي هي دهر الدهار المنزَّهة عن المكان والزمان، وتمامها وقت إيجاد الأكوان والحدثان، وإبراز أهل العرفان من معدن العيان تجلَّت أنوار الذات لأنوار الصفات، وتجلَّت

---

(١) يعني تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان؛ يعني التعرضُ لنفحات فضله - سبحانه - خيرٌ لمن أمَّلَ جودَه من مقاساة التعب ممن بَذَلَ - في تحصيل هواه - مجهودَه، تفسير القشيري (٢/ ٤٦١).

أنوار الصفات لأنوار الذات، ثم تجلّت الذات بجميعها للإرادة والمحبَّة، ثم تجلت الإرادة والمحبة لفعل الخاص، ثم تجلى فعل الخاص لفعل العام، ثم تجلى الفعل للعدم، وأخرج من مكمن الغيب الأرواح بنعت إيجادها فأجادها برؤية تجلي الفعل العام، ثم كساها نور فعل الخاص، ثم أحضرها مشارب المحبّة والإرادة، فسقاها من عين المحبة شراب العشق، ومن عين الإرادة شراب التوحيد، فاشتاقت من شراب المحبة، وسكرت من هذا العشق، وبهجت إلى معدن الصفة، وطارت بأجنحة التوحيد في أنوار الصفات، ثم طارت بنور الصفات في أنوار الذات، ففنيت في القدم برؤية القدم، وبقيت في البقاء برؤية البقاء، فترفرفت كل واحدة على مورد من موارد الصفات، وسكنت في العيون الصفات الأرواح، فبعضها في عين العظمة، وبعضها في عين الجلال، وبعضها في عين الجمال، وبعضها في عين الكبرياء، وبعضها في عين القدم، وبعضها في عين البقاء، وبعضها في عين البهاء، وبعضها في عين الحسن، وبعضها في عين القدس، وبعضها في نور الأنس، وبعضها في سناه، وبعضها في نور الأسماء والنعوت، وبعضها في عين الحياة، وبعضها في نور السمع، وبعضها في نور البصر، وبعضها في نور الكلام، وبعضها في نور الوجه، وبعضها في نور القدرة، وبعضها في نور العلم، وبعضها في نور المشيئة والإرادة، وبعضها في صفات الخاصة من الاستواء وغيره من الصفات، وبعضها في نور العطاء، وبعضها في نور اللطف، وبعضها في عين القهر، وكل واحدة منها قويت لسجية موردها، وقوة شربها.

وكل واحدة اشتاقت فيها إلى معدنها؛ لذلك طباعها مختلفة في المقامات والحالات والمكاشفات والمشاهدات، فوقعت أهل الألطاف في عيون المعرفة، فبقيت في المعرفة أبدًا، ووقعت أهل القهريات في النكرة، فبقيت في النكرة أبدًا.

ألا ترى إلى مناهجها من الكفر والإيمان، فلمّا أراد سبحانه عبوديتها أخرجها من الغيب إلى صورة البشرية بنعت الامتحان والعبودية، وكساها لباس الصلصالية، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أخرجهم جميعًا بظهور وجوده لهم، فخرجوا جميعًا بنور ظهوره: وتجلّي صفاته وذاته، أخذهم بمباشرة الصفة في الفعل، فوصل بركة أخذه إلى أهل معرفته؛ لأن أخذه لهم أخذ لطف ووصل، وقهر أخذه إلى أهل النكرة؛ لأنهم أهل قهر، فَمن خرج بلباس اللطف شاهد الحق مشاهدة عيان، ومَن خرج بنعت القهر، شاهد قهر الحق مشاهدة امتناع وحجاب؛ لذلك بعضهم جحدوه، أشهدهم على أنفسهم ليغيبوا عن مشاهدته، ولو أشهدهم مشاهدته ما احتاجوا إلى تعريف الخطاب، بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: كانوا في الأول شاهدين، ثم كانوا غائبين، فلمّا صاروا غائبين عرَّفهم تلك

الموارد والمشارب في زمان الأول حين خرجوا من العدم بنور القدم.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: خطاب تعريف وتذكير معاهد الأولية، وأنشد في معناه:

سقيًا لعهدكِ الذي لو لم يكن ... ما كانَ قَلْبي للصبابةِ معهدَا
سقَى اللهُ أيامًا لنَا وليالِيَ مَضَتْ ... فَجرتْ مِنْ ذكرهنَّ دمُوعُ
فيَا هَلْ لَهَا يومًا مِنَ الدهرِ أوبةٌ ... وهلْ لِي إلَى أرضِ الحبيبِ رجوعُ
سلامٌ علَى سَلمىَ وإنْ شَطَّ دارُهَا ... سلامٌ علَى أرضٍ قديمٌ بهَا العهدُ

في الأول كانوا غائبين عنه، فأدركهم نور محبّته، فأولهم قبل ظهورهم في لباس آدم، فلمّا عرّفهم تلك الحلاوة ذكروا ما وجدوا، وأنشدوا:

أتاني هوَاهَا قبلَ أنْ أعرفَ الهوَى ... فصَادفَ صَبًّا فَارِغًا فتمكَّنَا

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: لأهل اللطف خطاب تعطف، ولأهل القهر خطاب تعظم، خاطب العارفين بتعريف المشاهدات، وخاطب الجاهلين بالقهر والامتحانات، فاعترفوا جميعًا بوحدانيته طوعًا وكرهًا، طوعًا لأهل العرفان، وكرهًا لأهل العماء والطغيان.

ولولا خطابه وإنطاقه بالقدرة الأزلية ما قالوا جميعهم بني إلا أهل شهود جماله، فلما خاطبهم فرح أهل محبته، فطاروا بأجنحة توحيده في هواء وحدانيته فرحًا وسرورًا بجماله، وتحيّر أهل الحجاب، فبهتوا وتاهوا في أودية قهره، ثم عظّم ميثاقه تعالى معهم بشهوده إيّاهم بقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾: أخبر عن كشف نقاب الأزلية عن وجه السرمدية لأهل المعرفة؛ لئلا ينسوه طرفة عين إلى أبد الآبدين، وإن كانوا في حجب الامتحان؛ لأن العاشق يرى معشوقه في رؤية جميع البلاء، وكيف يحتجب المحبّ عن محبوبه، ومحبته محيطة بجميع وجوده:

أريدُ لأنسىَ ذكرَهَا فكَأنّمَا ... تمثَّلُ لِي ليلَى بكلِّ سبيلِ

قال أبو سعيد الخرّاز في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾: ترائيًا لأهل الإيمان بالسكون، فعرفوه، وسكنوا واطمأنوا، وترائيًا لأهل الكفر بالتعظيم، فطاشت عقولهم، فتفرقوا عنه.

وقال يوسف: قد أخبر أنه خاطبهم ربهم، وهم غير موجودين إلّا بإيجاده لهم إذا كانوا واجدين الحق من غير وجودهم لأنفسهم، كان الحق بالحق في ذلك موجودًا بالمعنى الذي لا يعلمه غيره، ولا يجده سواه.

قال بعضهم في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا: بلى من غير مشاهدة، ثم كوشفوا، فشهدوا ما خوطبوا به، قالوا شهدنا أي: شهدنا حقائق حقك.

وقال الحسين: الحق أنطق الذر بالإيمان طوعًا وكرهًا، أنطقهم بركة الأخذ أخذهم عنهم وأنطقهم لا بهم، بل أخذهم عنهم، ثم أشهدهم حقيقة، فأنطقت عنهم القدرة من غير شركة كانت لهم فيه.

قال النصرآبادي: في هذه الآيات موئل الأكبر، وما ألف الأعظم معافون من السلالة والطين، وما بعده من النطف والمضغ، فأنتم في جملة أخذ الأول أو مردودون إلى معتاد الأخذ في السلالات والنطف، فإن أخذ الأول أول بأول الأول، وهو بأول الأول أول.

قال النصر آبادي: أخذ ربك تلطّفًا وتكرّمًا، بل أخذه إجلالاً وعظمة، بل أخذه عز واستغناء.

وقال أيضًا: أخذ لا للحاجة بل للحجة، فمنع الخلق حاجتهم أن يروا ذرة من معاني الحجة.

وقال: أخذ ربك من معدن إلى معدن، ومن معدن لمعدن.

قال الجريري في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [1]قال: تعرّف إلى كلّ طائفةٍ من الطوائف، وبما منحها من معرفته، فقالت: بلى وكلٌ أقر بما منح، ثم أخرجهم من صلب آدم، فقال الله: ﴿كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

وقال لنبيّه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال بعضهم: خاطب منصوب القدرة في عين القِدم.

وسُئل عبد الرحيم عن قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ قال: كانوا موجودين في القدرة، مغيّبين في شهود الوجود.

وقال الواسطي في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قال: هو تقرير في صورة السؤال.

وقال بعضهم: القدرة أجابت عن القدرة.

وقيل في قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾:سمعوا كلامه أن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وخلق حياتهم من ذلك النور، وجعل قوام جميعهم بتلك الكلمة، وأنشد:

---

(١) سُئل شخصٌ مِن العارفين، كأنّه ذو النون قُدّس سرُّه عن علم الميثاق قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فقال: كأنّه في أذني الآن.

وآخر قال حين سُئل عنه: سمعت سبعًا من المواثيق.

وآخر قال: إنّه صدق في كليات المواثيق أنّها سبعة، وأما جزئياتها فغير متناهية، فأنا مؤمن بذلك كله.

لــوْ يــسمَعونَ كــمَا ســمعتُ كلامَهَــا   خَــرُّوا لعَــزَّةِ رُكَّعًــا وسُــجُودَا

قال ابن بنان: خالصة من خَلقه انتخبهم للولاية، واستخلصهم للكرامة، وأفردهم به، فجعل أجسادهم دنياوية، وأرواحهم نورانية، وأذهانهم روحانية، وأوطان أرواحهم غيبية، وجعلهم فسوحًا في غوامض غيوب الملكوت للذين أوجدهم لديه في كون الأزل، ثم دعاهم فأجابوا سراعًا، أجاب تركيبهم حين أوجدهم بعد الدعوة منه، وعرَّفهم نفسه حين لم يكونوا في صورة الأنسية، ثم أخرجهم بمشيئته خلقًا، فأودعهم صلب آدم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: فأخبر أنه خاطبهم، وهم غير موجودين إلا بإيجاده لهم، إذ كانوا واجدين للحق في عين وجودهم لأنفسهم، وكان الحق بالحق في ذلك موجودًا.

قال الأستاذ: أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق عقده، وتأكيده ودّه بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

ســقْيا للــيلَى واللــيَالِي التِــي   كُــنَّا بلــيلَى نلتقِــى فــيهَا
أفــديكِ في أيــامِ دهــرِي كلِّهَــا   يفــدينَ أيامًــا عــرفتُكِ فــيهَا

ويقال: جمعهم في الخطاب، لكنه فرَّقهم في الحال، فطائفة خاطبهم بوصف القربة، فعرَّفهم نفس ما خاطبهم، وفرقة أبقاهم في أوطان الغيبة، فأقصاهم عن نعت العرفان، وحجبهم.

ويقال: أقوام لاطفهم في عين ما كاشفهم، فأقرُّوا بنعت التوحيد، وآخرون أبعدهم في نفس ما أشهدهم، فأقرّوا عن ناس الجمود.

ويقال: تجلَّى لقلوب قومٍ، فتولى تعريفهم، فقالوا: بلى عن حاصل اليقين، وتعزز على الآخرين، فأثبتهم في أوطان الحجة، فقالوا: بلى عن ظنٍّ وتخمين.

ويقال: جمع المؤمنين في السماع، ولكن غاير بينهم في الرتب، فجذب قلوب قوم إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المبار، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان، كاشفهم به من الأسرار.

ويقال: فرقة ردَّهم إلى الهيبة فهاموا، وفرقة لاطفهم بالقُربة فاستقاموا.

ويقال: كاشف قومًا في حال الخطاب بجماله، فطوَّحهم في هيجان حبِّه، فأسكنت محابهم في كوامن أسرارهم، فإذا سمعوا اليوم سماعًا، تجدَّدت لهم تلك الأحوال، والانزعاج الذي يظهر فيهم، لتذكر ما سلف لهم من العهد المتقدم.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ

كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[1].

خوّف الله أهل ولايته من ضربة مقرعة قهر الأزل بنعت الغيرة على أعناق مَن رأى قيمة نفسه في جلال عظمة القِدم من حيث صنيعه ببلعام؛ ليمتنع المسرورون بها وجدوا من سني الكرامات، ورفيع الآيات من النظر إلى مقاماتهم ومعاملاتهم، فإنه تعالى شغل عنه من نظر إلى غيره بغيره ونفسه، فإنّ مكره قديم.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: ذكر أنه تعالى أتاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهداته ما سلخ منه؛ لأنّ من رآه أحبّه، ومَنْ أحبّه اشتاق إليه، ومَنْ اشتاق إليه عشقه، ومَنْ عشقه استأنس به، واستوحش مما سواه.

فمن ذلك تبيّن أنه كان مستدرجًا بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه، وعداوة كليمه، بقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

ولو ذاق طعم حبّه لم يلتفت إلى غيره مكر به في الأزل، فكان مكره مستندًا منه إلى الأبد، فالكرامات الظاهرة له عارضة الامتحان بين الأزل والأبد، وعند الأصل القديم لا يعتبر بالعارض الطارئ.

قال ابن عطاء: سوابق الأزل تؤثّر على انتهاء الأبد، قال الله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾.

---

(١) ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحب استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجًا بوجدان آياته ، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه ، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه. البحر المديد (٢/ ٣١٢).

قال الأستاذ: يظهر الأعداء في صدِّ الخلّة، ثم بردِّهم إلى سوابق القسمة، ويبرز الأولياء بنعت الخلاف والزلّة، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة.

ويقال: أقامه في حجال القُربة، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدّ له من سابق التقدير، فأصبح والكل دون رتبته، وأمسى والكلب فوقه مع خساسته، وفي معناه أنشدوا:

فبتنا بخيرٍ والدُّنا مطمئنّةٌ وأصبحتُ يومًا والزمانُ تقلّبا

ثُمّ إنّ الله سبحانه علّق ضلالته بالقسمة السابقة، والمشيئة الأزلية التي لا تتأثر بتأثير الاكتساب بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾.

أي: ولو شئنا في الأزل اصطفائيته لولايتنا لم يؤثر فيها مخالفة الظاهر؛ لأنّ قسمة الأزل تقصم تواترات الطبيعة، وتتّصل بالعناية الأبدية، والرعاية السرمدية، وليس تقاعده عن طاعة مولاه علّة المشيئة، بل المشيئة علة عصيانه.

قال ابن عطاء: ولو جرى له في حكم الأزل السعادة، لأثر ذلك عليه في عواقب سعيه وكدحه في أواخر أحواله.

وقال الأستاذ: لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تلحقه الشقاوة الأبدية، ولكن من قصمته السوابق لم تسعفه اللواحق، وصدق سبحانه بآية أخرى ما ذكرنا في الآية، بقوله:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: من اجتباه الله بقُربه ومعرفته في الأزل، فجميع أمره على نظام تلك الاجتبائية.

قال بعضهم: ليس الناجي من سعى، وأحسن السعي، إنما الناجي من سبقت له الهداية من الهادي.

قال الله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾، ثم وصف الخاسرين بأنهم محجوبون عن ساحة كبريائه، ورؤية جلاله، بقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ أي: قلوبهم محجوبة عن مشاهدة الغيوب، ولو أدركت تلك المشاهد لذاقت طعم الوصال، وفهمت حقائق معالي النوال، وعيونهم في غواشي الشهوات، ولو خرجت منها لأبصرت أنوار الصفات، وما التفتت منها إلى جميع المرادات، وآذانهم في أثقال الغفلات، ولو خرجت من تحتها لسمعت أصوات الوصلة، وألحان هواتف بلابل القربة، وطابت بسماعها وصاعت من جميع الملاهي.

قيل: لهم قلوب لا يفقهون بها شواهد الحق، ولهم أعين لا يبصرون بها دلائل الحق، ولهم آذان لا يسمعون بها دعوة الحق، ثم وصفهم بأنهم أغفل من البهائم في الضلالة؛ لأن للبهائم استعداد قبول التأديب فيقبلون التأديب، ولهم أيضًا استعداد قبول التأديب، ولا

يقبلون التأديب.

قيل: الأنعام والبهائم لا يحسّون بالاستتار والتجلّي، والأرواح نعيمها في التجلّي، وعذابها في الاستتار، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ﴾(١).

قال ابن عطاء: لهم قلوب لا يفقهون بها معاني الخطاب، ولهم آذان لا يسمعون بها حلاوة الخطاب، ولهم أعين لا يبصرون بها شواهد الحق.

وقال الأستاذ: لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهمه المحدثون، وليس لهم تمييز بين خواطر القلب، وهواجس النفس، ووساوس الشيطان، ولهم أعين لا يبصرون بها شواهد التوحيد وعلامات اليقين، ولا ينظرون إلا من حيث العقل، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا من سلك ركوب الشهوة، ثم وصف نفسه تعالى بأن له الأسماء الذاتية والأسماء الصفاتية، والأسماء الفعلية، والأسماء الخاصة المنبّئة لقلوب العارفين عن عجائب صفاته الأزلية، والتي مصدرها ذاته القديم تعالى بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾: خبّر الخلق في طلب تلك الأسماء العظام، ولا ينالونها إلا بكشوفها، ولا تنكشف لهم تلك الأسماء إلا بكشوف صفات الخاصة، التي تلك الأسماء مفاتيح خزانتها، ولا تنكشف تلك الصفات ألا بكشف الذات، فمن خُصَّ بهذه المكاشفات يهتدي إلى اسمه الأعظم، ويهتدي بنوره إلى معاني الصفات وأنوار الذات، إذا دعا به أجيب، ويكون قوله في مراده: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فكل اسم مخبر عن صفة، والصفة مخبرة عن الذات.

ولكلّ اسم للعارفين فيه مقام، وهُم في الأسماء على مراتبها في معرفة الصفات، ومشاهدة الذات في بعضهم، كل اسم من أسمائه يبلغك مرتبة من المراتب، واسمه الله يبلغك إلى الوله في حبّه، والرحمن الرحيم يبلغانك إلى رحمته، كذلك جميع أسمائه إذا دعوته عن خلوص ضمير، وصفاء عقيدة.

قال بعضهم: إنّ وراء الأسماء والصفات صفات لا تخرقها الأفهام؛ لأنّ الحقّ نار

(١) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهى الإبل والشاة أو خاص بالإبل كذا في القاموس (بل هم أضل) بل للإضراب وليس إبطالا بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقا فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهى بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

يتضرم لا سبيل إليه، ولا بدّ من الاقتحام فيه.

وقال بعضهم: أبدى أسماءه للدعاء لا يطلب الموقوف عليها: وأنّى يقف على صفاته أحد.

وقيل: فادعوه بها أي: قفوا معها عن إدراك حقيقتها، حكي الإسناد عن بعضهم أن الله سبحانه وقف الخلق بأسمائه، فهم يذكرونها.

قال: وتعزّز بذاته، فالعقول وإن صفت لا تهجم على حقائق الإشراف؛ إذ الإدراك لا يجوز على الحق، فالعقول عند بوادىء الحقائق منقبة بنقاب الحيرة عن التعرض للإحاطة، والمعارف تائهة عند قصد الإشراف على حقيقة الذات، والإبصار حيرة عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية، والحقّ سبحانه عزيز باستحقاق نعوت التعالي منفردًا، ومثل هذا ذكره الأستاذ.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من كاشفنا له أحكام القدرة الغيبية المخبرة عن حوادث المقدرة، التي تنكشف بعد الواقعة ظاهرة في مرآة قلبه، فكذّبها بمعارضة النفس، وشك الطبيعة مشتركة في ذلك، ولا نكشف له بعد ذلك أسرار الملك والملكوت.

وهو بما استبدأ من صنيعه في العبادات الظاهرة يفرح، ولا يعرف احتجابه عن رؤية الغيب، وأيضًا من الكذب آيات أوليائي، وهو يترسّم سلوك طريقهم، وهو معجب بذلك لا يبلغه إلى درجة القوم، وتركه في عزّته وغروره ومحاله.

وأيضًا من أنعم عليه بتيسير الطاعات، ويقف معها ولا يطلب ما وراءها من القربات نحجبه بها عنا، وهو لا يعلم، ومثل ما ذكرنا صورة من لم يسبق في مقاديره السابقة العناية له بالاصطفائية في البلوغ إلى درجة الولاية.

ومَن خُصّ بتلك العناية، كيف يلحقه الاستدراج، وهو محفوظ بعين رعاية الأزل؟

قال سهل: يمدُّهم بالنعم، وينسيهم الشكر عليها، فإذا تمكَّنوا إلى النعمة، وحُجبوا عن المُنعم أُخذوا.

قال: الاستدراج أن يلقي في أوهامهم أنهم من أهل الوصلة والحقيقة، السابق لهم من القسمة حقائق الفرقة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾: مَن لم يكن من نظَّار الحقائق، والمكاشفين أسرار الجبروت في الملكوت من أهل الدقائق، كيف ينظر إلى مرآة الصفات، التي تبرز فيها أنوار الذات، نَدَبَهم الحق إلى طلب مشاهدته وقربه، وإلى النظر من القلوب إلى الغيوب؛ ليدركوا بصفاء العقول، وأبصار الأرواح، وعيون الفؤاد، ما لم يدركوا بجميع العبادات؛ لأنَّ النظر يورِّث الفكرة، والفكرة تورِّث الذكر، والذكر يورث المعرفة، والمعرفة تورث الحكمة، والحكمة تورث المحبّة، والمحبة تورث الشوق، والشوق تورث العشق، والعشق يورث الأنس، والأنس يورث الانفراد، والانفراد يورث التوحيد، والتوحيد يورث الفناء، والفناء يورث البقاء، والبقاء يورث رؤية الأزل، ورؤية الأزل تورث رؤية الأبد، والعبد هناك يطير بهذه الأجنحة من الآزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال.

ولو كان القوم أهل مناهج كبرى من المشاهدات أحالهم الحق بالنظر إليه، لا إلى الملك والملكوت، فإن النظر منه إلى غيره شرك في التوحيد، وهؤلاء ضعفاء مسالك المعرفة.

قال بعضهم: النظر في الملكوت يورث الاعتبار، والنظر إلى المالك يسقط منك الاشتغال بسواه.

وقال بعضهم: النظر إلى الملكوت على مراتب ثلاث:

«أولها»: النظر بعين العبرة لا بعين الشهرة، و«الثانية»: النظر بعين اليقين إلى قدر القادر، و«الثالثة»: النظر بعين المعرفة من المُلك إلى المالك.

فأمَّا الناظر بعين العبرة، فإنه يجد حقيقة التوحيد، والناظر بعين اليقين يجد حقيقة الإخلاص، والناظر بعين المعرفة يجد حقيقة المعرفة.

قال الأستاذ: أطلع الله سبحانه أقمار الآيات، وأماط بضيائها سحاب الشبهات، فمَن استضاء بها ترقَّى إلى شهود القدرة.

ويقال: ألاح الله لقلوب الناظرين بعيون الفكر حقائق التحصيل، فمَنْ لم يعرج في أوطان التقصير أنزلته مراكب السير بمباحات التحقيق.

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: لمّا أفرد ساحة الكبرياء من تكلّف الاكتساب، وألحق المشيئة والقدرة بالأفعال إلى الأزل.

أي: لا أملك لنفسي قرب الله ولا بعده، إنّما القرب والبعد منه، ولو علمت سرّ المقادير الغيبية، لكنت قادرًا بوصف الربوبيّة على نفع نفسي ودفع الضر، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

قال أبو عثمان: عجز الخلق عن إيصال النفع إلى نفسه، أو دفعه عنها عاجلاً، فكيف يثق بإيمانه، وكيف يعتمد بطاعته؟

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وقال بعضهم: لو كنت أملك الغيب، أو أقدر عليه، لما مسّني السوء، ولكن طويت الغيوب عنا، وألزمت الملامة علينا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ لم يجد آدم في الجنّة إلا سنا تجلّي الحق، فكاد يضمحل بنور التجلي لتراكمه عليه، فعلم الله سبحانه أنه لا يحتمل أثقال التجلي، وعرف أنه يذوب في حسنه، وكلّ ما في الجنة مستغرق في ذلك النور، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت، فخلق منه حواء ليسكن إليها، ويستوحش بها سويعات عن سطوات

التجلي، لذلك قال ﷺ لعائشة - رضي الله عنها-: «كلميني يا حميراء»(١).

وفي أدنى العبارة هي كانت امتحانه، لشغل بها عن الحق، ليقع في فخّ البلاء بها.

قال بعضهم: خلقها ليسكن آدم إليها، فلمّا سكن إليها، غفل عن مخاطبات الحقيقة بسكونه إليها، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة.

قال الواسطي: أكبر محنة آدم ﷺ خلق حواء من بدنه، قطعه بها عن نفسه، بقوله: ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾، والسكون إلى غير الله محنة.

﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أثبت محبّة الأزلية، ورعاية الأبدية لحبيبه ﷺ في هذه الآية تولاه بعين الأزل، ورعاه بكفاية الأبدية، ونزل عليه من بحار خطابه قطرات وابل جواهر كلامه الأبديّ الأزليّ، وبيَّن أنه تعالى كما ألحق إلى نفسه تولية حبيبه، فأيضًا ألحق إلى نفسه تولية الصدِّيقين، ومحافظته للعارفين، يتولى الأنبياء بنقاب أنوار الذات، ويتولى الأولياء بسجوف أنوار الصفات، ويتولى العالمين بقوام أنوار الأفعال.

فالعموم في نور الآيات معصومون عن الزلّات، والخصوص في نور الصفات معصومون عن الخطرات، وخصوص الخصوص في أنوار الذات معصومون عن المكر والقهريات.

قال بعضهم: لاحظَ الأولياء بعين اللطف، ولاحظ العباد بعين البر، ولاحظ الأنبياء بعين التولي.

قيل في قوله: ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: عن دعوته البشرية توليًا،وأصلح الخواص بصحة المقصود، والإفراد بالإخلاص للمعبود، وأصلح العوام بصحة الأوقات.

وسُئل جعفر عن الحكمة في قوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ونحن نعلم أنه يتولى العالمين.

فقال: التولية على وجهين: تولية إقامة أبدًا، وتولية عناية ورعاية الإقامة الحق.

وقال الواسطي: يتولى الصالحين بالكفاية، ويتولى الفاسقين بالغواية.

---

(١) ذكره حقي في تفسيره (٦/ ٣٨).

وقال أيضًا: أصلح الأئمة بإصلاح سرائرهم عن دعوة البشرية توليًا، وأصلح الخاصة بصحة المقصود، وأصلح العامة بالإثبات.

وقال الأستاذ: مَنْ قام بحق الله تولى الله أموره على وجه الكفاية، فلا يحوجه إلى أمثاله، ولا يدع شيئًا من أحواله إلا أجراه على ما يريد بحسن أفضاله، فإنْ لم يفضّل ما يريده، جعل العبد راضيًا بما يفعله، وروح الرضاء على الأسرار، أتمّ من راحة العطاء على القلوب.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾: نفى الله سبحانه سمع الخاص، ونظر الخاص عن أهل الغفلة، إذ أسماعهم وعيونهم محجوبة بعوارض الضلالة وغواشي الغفلة، لا يسمعون بآذان قلوبهم نداء الغيب، ولا يبصرون بأبصار قلوبهم مشاهدة الحق في الشواهد، وذلك من ردّ الله إيّاهم عن شهودهم بنعت إلقاء سماعهم في محاضر المراقبات، وترائيهم بعيون قلوبهم أهلّة الجلال في سماوات اليقين، ولو شاء لأسمعهم وأراهم جلاله، ولكن منعهم قهرالأزلية وخذلان الأبدية.

كان ﷺ مصبوغًا بصبغ الألوهية في مجامع شريعة بحار القدس، مزيّنًا بزينة نور المشاهدة، مخبّرًا بسنا لباس القدرة، موشّحًا بوشاح الرسالة، متوّجًا بتيجان الملكوت، راكبًا على مركب النبوة في ميادين الجبروت، وكان مرآة مشاهدة الله بين عباد الله، يتجلى الحق منه للعالمين، ولكن ما أبصره إلا من له منه بصر بصيرة، لذلك قال ﷺ في بعض إشارته في الحقيقة والاتصال قال: «من رآني فقد رأى الحق»[1].

فلمّا رأى الناظر إليه بنظر الحقيقة إلى أين بلغ من رتبة القربة، قال: «طوبى لمن رآني وطوبى لمن رأى من رآني»[2].

لأنّ من تزوّد من جماله نورًا وبهاء، يفيض ذلك النور في جميع وجوده، ويتلألأ منه لعيون الناظرين:

أدِرْ كأسَ السرورِ على أُناسٍ لقاؤكَ عندَهمُ كُلُّ الأماني
إذَا اكتَحلوُا بوجهكَ لمْ يَزالُوا مِنَ الخيرَاتِ في نعمٍ حِسَانِ

قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْ﴾: كيف يسمع الدعاء من أصمّه الداعي عن الدعوة إليه؟ ولا يسمع نداء الحق إلا من أسمعه الحق، وبإسماعه يسمع لا بسمعه، ولا باستماعه.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦).

(٢) رواه ابن حبان (١٦/ ٢١٥).

وقيل في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨]: بأنفسهم ينظرون إليك، ولا يبصرون خصائص ما أودعناه فيك، وبركات ما أجريناه في الخليقة بك.

وكذا من نظر بنفسه إلى الرسول ﷺ، حُجب عن إدراك معانيه حتى ينظر ببركة الرسول ﷺ إلى الرسول، بل هو أيضًا قاصر البصر حتى ينظر بالحق إليه، ومن الحق إذ ذلك يتبيّن له شرف ما خصّ به.

وقال سهل: هي القلوب التي لم تزيّنها أنوار القُرب، فهي عمياء عن درك الحقائق، ورؤية الأكابر.

وقال أيضًا: ينظرون إليك بأعين لم تكحل بنور التوفيق، فلا يعرفون حقك، وينظرون إليك بالقلوب التي لم يثبتها بنور هدايته شيئًا.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

ويقال: رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب، وذلك على مقادير الاحترام، وحصول الإيمان، ولما عظم شأنه ﷺ، وعزّ عن إدراك ناظريه، وعن أن يطّلع على ما في جلاله وجماله من أنوار الصفات، وبرجاء سنا الذات، وعَلِم الحقّ سبحانه عجز الخلق عن أداء حقه واحترامه بحد حقيقة أمره ﷺ بالعفو والكرم عند قصورهم عن رؤية ما كان من سطوع أنوار الرسالة والنبوّة من وجهه، بقوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: فاعف عنهم من قلّة عرفانهم حقك.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بلطف عليهم في أمرك ونهيك بهم؛ فإنهم ضعفاء عن حمل وارد أحكام شرائعك وحقائقك.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الذين ليس لهم استعداد النظر إليك، ولا يعرفون حقوقك، فإن منكر كرامات أوليائي، ومعجزات أنبيائي لا يبلغ إلى درجة القوم.

قال بعض المشايخ حين ذكر أهل الظاهر قال: دع ذكر هؤلاء الثقلاء، ثمّ إنه سبحانه ألبس حبيبه ﷺ أخلاق القِدم بالتجلّي، والكشف والمباشرة بالفعل، ثُمّ أراد أن يلبسه خلقه بالأمر القديم، والكلام الكريم؛ ليكون متّصفًا بجميع معانيه بجميع صفاته، متخلّقًا بجميع

أخلاقه حتى عظم الأمر عنده في ذلك، وأفاض لطفه على الجمهور، فأمر أمته بما أمر الله بقوله: «تخلقوا بأخلاق الله»[١].

قال بعضهم: أمر النبي ﷺ بمكارم الأخلاق ظاهرًا وباطنًا، وهو الصفح عن زلّات الخلائق، والأمر بمكارم الأخلاق.

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي: أعرض عن المعرضين عنّا، فهم الجهّال.

روي أن النبي ﷺ سأل جبريل صلوات الله عليه عن تفسير هذه الآية، فقال:

«تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتحسن إلى من أساء إليك»[٢].

قال ابن عطاء: خذ ما صفا، ودع ما كدر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

الشيطان كلب قهر القدم، فإذا نبح وراء ساحة القلب في جانب النفس، ففر من قهرنا إلى لطفنا، ومننا إليك؛ لذلك قال: «أعوذ بك منك»[٣].

فإذا كانت ساحة القلب مستضاءة بنور التجلّي يفر الشيطان من نواحيه؛ لأنه لو يدنوا منه بقدر رأس إبرة تحترق.

قال الجريري: من أعقل السلاح، أسره الشيطان في أول لحظة.

وقال الأستاذ: إن سنح في باطنك من الوسواس أثر، فاستعذ بالله يدركك بحسن التوفيق، وإن هجس في صدرك من الحظوظ، فاستعذ بالله يدركك بإدامة التأييد، وإن اعتراك في الترقّي أن محل الوصول وقفه، فاستعذ بالله يدركك بإدامة التحقيق، وإن تقاصر عنك في خصائص القرب صيانة لك عن شهود المحلّ، فاستعذ بالله تثبتك له به لا لك بك.

ثم وصف سبحانه أهل التقوى من أهل الولاية أنهم ممتحنون بهواجس النفوس، ووساوس الشياطين، واستغاثتهم بالله، وذكره عن شرّهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾.

حسدة الشياطين يراقبون من البعد أولياء الله؛ ليرموهم بنيران الوسواس من قوارير الحسد حين تقاصروا عن مشاهدة الذكر والمذكور، وغفلوا لحظة عن مراقبتهم، ولو استقاموا على شريطة حضور مشاهدة الملكوت، لم يقدروا أن يمسّهم من ألف فرسخ.

---

(١) ذكره الشيخ حقي في تفسيره (٤/ ٣٣٠).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٧٨).

(٣) رواه النسائي في الكبرى (١/ ٤٥٢).

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠].

قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: فإذا وصل إليهم نار الوسواس، وأوجسوا في أنفسهم غبار سنابك، خيول الشيطان التجأوا بتراكب الذكر إلى جناب الأزل، فإذا هم يرون ما أفسد الشيطان من محافل الأنس، ومجالس القدس في قلوبهم، ويرون طيف الشيطان أيضًا بنور العرفان، فيرمونهم بسهام الذكر، ونيران المحبّة من قارورة الشوق فتحرقهم.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

رأى الجنيد في المنام إبليس، فقال: هل تقدر أن تمرّ على مجالس أهل الذكر؟ فقال: كما أن أحدًا منّا يمر على أحد منكم، ويمسّه، ويصير مجنونًا ومصروعًا، فمنا من يمر على مجلس الذكر يصير مصروعًا، ونسمّيه بيننا مأنوسًا، كما تقولون مصروعًا منكم مجنون.

قال بعضهم: من حان سرّه في ميادين الأنس والقربة، وحجر نفسه عن طوارق الفتنة وطوائف الشيطان، هم الذين قال الله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ندب الحق سبحانه الجميع أن يسمعوا القرآن بقلوب حاضرة، ونيّات صادقة، وأسرار ظاهرة عند سكونهم عن الفضولات لوقار القرآن، فإذا رآهم الحق في منازل مقال الخطاب وحرمات الأمر، يتفضّل عليهم بكشف أسراره لقلوبهم، ويذوق طعم خطابه أسرارهم، ويعرفهم نكات إشاراته اللطيفة، وأنبائه العجيبة، والحكمة الغريبة، فمَن يرى مواقع أسراره بأنواره، ويسمع بالله كلام الله صار القرآن بصائره، يرى به جميع الصفات ومشاهدة الذات قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾(١). فلعلّ ههنا توجيهًا للمستمعين، كلامه بالأدب والسكون أي: إذا كنتم كذلك؛ لعلّكم تكاشفون بأسراره وأنواره ومواجيده.

قيل فيه: استمعوا له بآذانكم؛ لعلّكم تسمعون بقلوبكم، وتفهمون مراد مخاطبة الحقّ

---

(١) أي: براهين توحيده، ودلائل معرفته، حاصلةً من ربكم، تنفتح بها البصائر، وتبصر بها أنوار قدسه. البحر المديد (٢ / ١٨٦).

إيّاكم، وتتأدبون بلطائف مواعظه،فيوصلكم حُسن أدب الاستماع، وبركة الخطاب إلى رحمته، وهو أن يرزقكم آداب خدمته،كما رزقكم سنن شريعته، وأجلّ رحمة، رحم الله بها عباده آداب العبودية التي خصّ بها الأكابر من الأصفياء، والسادات من الأولياء.

قال الأستاذ: الإنصات في الظاهر من آداب أهل الباب، والإنصات بالسرائر من آداب أهل البساط، ثُمّ أمر نبيّه ﷺ بأن يذكره بجلاله وعظمته في نفسه، بقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ حتى تفنى نفسك في نفسي، ولا يبقي فيك إلا نفسي، لإذعانك بنعت العبودية في ساحة كبريائي، وبنعت رؤية جلالي، حيث لا ترى غيري، هذا معنى قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

وأيضًا واذكر ربك بأوصافه في نفسك، كأنّها تحمل أثقال أسرار قِدمي، لا غيرها من النفوس.

وأيضًا أوصل الذكر بالنفس؛ لأن القلب موضع المذكور.

وقال الحسين في هذه الآية: لا تظهر ذكرك لنفسك، فتطلب به عوضًا، وأشرف الذكر ما لا يشرف عليه إلا الحقّ، وما خفي من الأذكار أشرف مما ظهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ أي: لا تكن مشغولًا بنا عنا، ولا عمّن بقي في رؤية العطاء عن المُعطي.

أمر تعالى نبيّه ﷺ بحفظ الأنفاس عن خطرات الوسواس، وجمع الهمّة عن طارق الغفلة، أي: اذكرني بي، لا بك، فإنّ من ذكرني بنفسه غفل عني، ومن ذكرني بي آخذه من الذكر والفكر، وأكشف جمالي له حتى يصل بي إليّ.

قال سهل: ما من أحد ذهب منه نفس واحد بغير ذكر، إلّا وهو غافل.

وقيل: «الغافل»: من غفل عن مراد الله فيه.

وقيل: «الغافل»: الذي غفل عن درك حقائق الأمور.

قال الأستاذ في معنى التضرّع والخيفة: «التضرع»: إذا كوشف بوصف الكمال في أواني البسط.

و«الخيفة»: إذا كوشف بنعت الجلال في أحوال الهيبة، وهذا للأكابر، فأمّا من دونهم فتتنوع أحوالهم من حيث الخوف والرجاء بالرغبة والرهبة، ومن فوق الجمع فأصحاب البقاء والفناء والصحو والمحو، ووراءهم أرباب الحقائق مثبتون في أوطان التمكين، فلا تُلوّن لهم، ولا تخنس لقيامهم بالحق، وامتحانهم عن شواهدهم.

ثم وصف الله كرام العارفين من الكروبيين، والمقرّبين أنهم في محلّ العندية مقدّسون

عن شوائب نعوت الزائغين، وصفات المتكبّرين، بل هم موسومون بسيماء العبودية في محاضر الربوبيّة، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾: هم في نعوت العبودية عند بروز سطوات العظمة والفناء، بشرط التنزيه في ظهور قدس القِدم يتملّقون بنعت البهتة في كشوف جماله الأزليّ، سبحان الذي حجبهم به عنهم، ولولا ذلك؛ لاحترقوا به فيه.

سورة الأنفال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾: لكلّ طائفة في طريق المجاهدة والقتال مع النفس فتح وغنيمة، فغنيمة المريدين صفاء المعاملات، وغنيمة المحبّين ذوق الحالات، وغنيمة العارفين كشف المشاهدات، والسؤال عن ذلك اقتباس نور الشريعة من مشكاة النبوّة، واستعلام الأدب في طريق المعرفة لله، هذه الكرامة لا بالاكتساب يؤتيه من يشاء.

﴿وَٱلرَّسُولِ﴾:الحكم فيه لجهة تربية الأمّة، وأن الله تعالى مستغنٍ عن الخليقة، ورسوله يظهر في أداء رسالته عن حظوظ نفسه.

ثم حذّرهم بنفسه عن نفسه في طريقه، ومواساة عباده، بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله في طلبه، ولا تلتفتوا إلى غيره، وأسوا قلوب إخوانكم يُبذّل مُهجتكم إليهم في مؤاخاتكم، ومصادقتكم لله وفي الله.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ في الحقيقة، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في الشريعة.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعوى المحبّة.

قال سهل: «التقوى»: ترك كلّ شيءٍ يقع عليه الذمّ.

وقال الأستاذ: «التقوى»: إيثار رضا الحق على مراد النفس، ثم وصف المؤمنين بالعلامات الصحيحة الدَّالة على صدقهم التي إذا رأيتها لا تشك في إيمانهم، وذلك تأثير وارد أنوار الغيب التي تَرِد على قلوبهم، فتظهر علاماتها في وجوههم، بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وصف السامعين من أهل الإيمان والإيقان عند جريان ذكره، وسماع خطابه، وتلاوة كتابه بالوجل، الذي يكون عند سماع الذكر من رؤية جلال الله وعظمته: تجلّاها يزيد لإيمانهم نور الغيب، ولإيقانهم سنا القرب، ولحسن رضاهم في طاعته روح الأنس، حتى يصيروا خائفين من عظمته، عارفين بربوبيّته، متوكّلين بكفايته[1].

قال شيخنا وسيدنا أبو عبد الله بن خفيف- قدَّس الله روحه- في ذكر الوجل في هذه الآية قال: واعلم أن أحكام الوجل إنّما تصح للوجلين عند تكشُّف أستار ألوان، وذهاب حجب الغفلات من القلوب، فيشهد بقوة علمه، وصفاء يقينه سطوات الخوف، فداخله لطيف الوجل برقّة الإشفاق، وذلك مما جلى عن القلوب بعزّ جنابه وتعظيمه وترهيبه كلّ ساترٍ.

قال أبو سعيد الخرَّاز: هل رأيت ذلك الوَجَل عند سماع الذكر، أو عند سماع كتابه وخطابه، هل أخرسك سماع ذلك الذكر حتى لم تنطق إلا به؟ وهل أصمَّك حتى لم تسمع إلّا به منه، هيهات.

وقال سهل في قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: هاجت من خشية الفراق، فخشعت الجوارح لله بالخدمة.

---

(١) الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لهم إنها لله مِلْكًا، ولرسوله ﷺ الحُكمُ فيها بما يقضى به أمرًا وشرعًا. قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيبوا لأمر الله، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحكمَ بمقتضى أحوالهم، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقّ على مراد النَّفس، وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفس، وإيثار حقِّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظِّ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد.

وقال الواسطي: الوجل على مقدار المطالعة، ربما يريه مواضع السطوة، وربما يريه مواضع المودّة والمحبّة، وربما يريه التقريب والتبعيد.

وقال الجنيد: وجِلَت قلوبهم من فوات الحقّ.

وقال بعضهم: الوجل على مقدار المطالعات، فإن طالع السطوة هاب به، وإن طالع ودّه وجِلَ عليه مخافة فوته، ومن جملة ذلك من طالع التقريب بالتأديب وجَلَ،ومن طالع التهديد بالتبعيد وجَل، ومن طالعه مغيّبًا عن شاهده، قائمًا بسرمده، خاليًا من أزله وأبده، فلا وَجَلَ حينئذ ولا اضطراب، ولا تباعد، ولا اقتراب، فإنّه محقق بالذات، ونسي الصفات، وفني عن الذات بالذات، كما هرب رسول الله ﷺ من الصفات إلى الذات، فقال: «أعوذ بك منك»[1].

قال الجنيد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: إنَّ لا وصول إلى الله إلا بالله.

قال الأستاذ: يُخرجهم الوجل من أوطان الغفلة، ويُزعجهم عن مساكن الغيبة، وإذا انفصلوا عن أودية التفرقة، وجاءوا إلى مشاهدة الذكر، نالوا السكون إلى الله، فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقًا على تصديق، وتحقيقًا على تحقيق إذا طالعوا جلال قدره، وأيقنوا قصورهم عن إدراكه، توكّلوا عليه في إمدادهم برعايته في نهايتهم، كما استخلصهم بعنايته في بدايتهم.

ويقال: سنّة الحق سبحانه مع أهل العرفان، أن يودّهم بين كشف جلاله ولطف جماله، فإذا كاشفهم بجلاله، وجِلت قلوبهم، وإذا لاطفهم بجماله، سكنت قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٢٨].

ويقال: وجِلت قلوبهم لخوف فراقه، ثم تطمئن وتسكن أرواحهم بروح وصاله، فذكر الفراق يُفنيهم، وذكر الوصال يصحبهم ويُحييهم.

ثُمّ إن الله سبحانه زاد في وصفهم بالعبودية، وبذل المهجة في الطريق، بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ثم وصفهم باستكمال إيمانهم، بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: فشرط حقيقة الإيمان بهذه الخصال التي ذكرها في الآيتين اللتين في صدر السورة، كان من لم يتحلّ بهذه الخصال المذكورة لم يتحقّق في إيمانه، وهي التقوى والإصلاح بين المؤمنين، وذلك محل صحبتهم، وهو نوع من التمكين والانقياد

(١) تقدم تخريجه.

عند أمر الله ورسوله، بالإخلاص ووجَل القلب عند سماع الذكر والقرآن ومزيد اليقين، وترك التدبير في استقبال التقدير، ومقام المناجاة من الصلاة، والانقطاع عن الاشتغال بالدنيا، وإيثار حقوق الإخوان على نفسه، فإذا استكمل هذه الخِلال، وتمّ اسم تحقيق الإيمان عليه، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

ويستحقّ بعد هذا الثناء ما وعده الله المتحقّقين في إيمانه من المغفرة التامة، حيث لم يلتفت بفضله إلى خطراتهم، ويشرفهم إلى علي الدرجات، ويسقيهم شراب الوصال عند كشوف المشاهدات، بقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: بيّن أن حقيقة الإيمان مكاشفة الغيب، وظهور ما وعد الله لهم، وتصديق ذلك سؤال النبي ﷺ عن الحارثة فقال: «يا حارثة، لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعاوذون، فقال ﷺ: عرفت فالزم»[1].

فصحّ في الآية والحديث أن حقيقة الإيمان رؤية الغيب بالغيب، وثمرتها ما ذكره الله في الآية من المعاملات السنيَّة، والحالات الشريفة.

قيل: اجتمعت فيه أشياء حقَّق بها إيمانهم؛ لتعظيم الذكر والوجل عند سماعه، وإظهار الزيادة عليهم عند تلاوة الذكر وسماعه، وحقيقة التوكُّل على الله، والقيام بشروط العبودية على حدّ الوفاء، وأكملت أوصافهم في حقيقة الحقائق، فصاروا محقّقين بالإيمان.

قال الجنيد: حقًّا إنه سبقت لهم من الله السعادة.

قال أبو بكر بن طاهر: حقيقة الإيمان بخمسة أشياء: باليقين، والإخلاص، والخوف، والرجاء، والمحبّة، فباليقين يخرج من الشك، وبالإخلاص يخرج من الرياء، وبالخوف يخرج من المكر، وبالرجاء يخرج من القنوط، وبالمحبّة يخرج من الوحشة والحيرة.

وقال الأستاذ في قوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: أنّ الحقّ سبحانه يُسِرُّ مثالب العاصين، ولا يفضحهم؛ لئلا يحجبوا عن مأمول أفضالهم، ويستر مناقب العارفين عليهم لئلا يعجبوا بأعمالهم وأحوالهم، والرزق للأسرار مما يكون استقلالها من المكاشفات، ثم بيَّن تعالى أنّ لأهل حقائق الإيمان بعض طباع البشرية، وحركات الأنفس الأمّارة عند وقوع أمر الله، ولا ينقلب ذلك بمنقصتهم، بل بفضله ورحمته اصطفاهم بهذه الكرامات قبل وجودهم في الأزل بخاصية اجتبائه بغير علّة اكتسابهم، وبيّن أن الوليَّ الصادق وإن بلغ درجة الولاية لم

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (ص١٠٦).

يخلُ من بعض خطرات النفس، ولم يكن ذلك لنقصانه، بل بيان اختصاصه باختصاصه القديم في سابق حكمه لهم، حتى لا يظن الظَّان أن الوليّ لم يبلغ درجة الولاية إلا بأداء جميع حقوق العبودية، فإنّ محل النبوّة لا يخلو من الخطرات، فكيف بمحل الولاية، وجملة ذلك قوله سبحانه لنبيّه ﷺ : ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

ثم زاد في وصف طباعهم النفسانية، بقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

سبحانه من خصّ هؤلاء بهذه الصفات بحقائق الإيمان ودرجاتها وأنوارها ومكاشفاتها، ولم ينل بتلك الصفات؛ ليُعلم الخلق أن فضله سابق عليهم، وعنايته لهم قديمة.

ومعنى الآية أن وضع قسمة الغنائم بقسمة الأزل، كما أرادت نفوسهم ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ من بيتك لقتال العدو، وهم في ذلك كارهون، أي: كراهتهم في القتال لكراهتهم في قسمة الغنائم، وتلك الكراهة من قبل النفس، وطبع البشرية لا من قبل الإنكار في قلوبهم لأمر الله ورسوله؛ فإنهم موقنون بقول الله ورسوله.

وكذا حال جميع السالكين لم تفر نفوسهم من أوطان قلوبهم في جميع الأنفاس، إلا عند كشوف مشاهدة الحق سبحانه، فهناك لا يبقى على وجه أرض القلوب إلا إشراق أنوار الغيوب.

قيل: أن النفس لا تألف الحق أبدًا، جدالهم مع النبي ﷺ من جهة، لانبساطهم أطفال حجر الوصلة، وجدالهم كجدال الخليل ﷺ من رأس الخلّة والانبساط.

قال تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] والفرار ليلًا قبل وقوع المشاهدة، فإذا وقع الحق، ورفع الحجاب لم يبق من آثار النفوس ذرّة، فالقوم كانوا في ذلك الوقت في مقام الغيبة، فلمّا انكشف لهم مأمولهم، بذلوا مهجتهم بطيب نفوسهم، حيث اختاروا الشهادة في الأحد، وإن من سنّة الله لأهل السلوك إخراجه إياهم من أوطانهم؛ ليذوقوا مرارة الفرقة في الغربة، ولا يبقي عليهم مألوفات البشرية؛ لذلك قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾. فالحقيقة في ذلك خروج الرجال من أوطان النفوس إلى فضاء المشاهدة، حتى لا يبقى معك غيره.

قال أبو يزيد- قدّس الله روحه-: سألت الوصلة، فقال لي: دَع نفسك وتعالَ.

قال ابن عطاء: أخرجك من بلدتك؛ ليُحيي بك قلوبًا عمياء عن الحقّ.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾: مفارقة أوطانهم، ولا تتم لعبدٍ حقيقة الصحبة والنصيحة، إلّا بعد هجران أقاربه ومفارقة أوطانه، أخرجهم من تلك البلدة حتى ألفوا غيرها من البلاد، ولم يبقَ عليهم مطالبة لها، فردَّهم إليها؛ لئلا يملكنهم سوى الحق شيء.

وقال بعضهم في هذه الآية: أفناك عن أوصافك، ومواضع سكونك واعتمادك، وما كان يميل إليه قلبك؛ لئلّا تلاحظ محلًّا، ولا تسكن إلى مألوف، فأخرجك من المألوفات؛ ليكون بالحق قيامك، وعليه اعتمادك.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾:ظاهر روحك ومفارقتك أوطانك، ولا يعلمون أن خروجك منها الخروج عن جميع الرسوم المألوفة، والطبائع المعهودة، وأنك بمفارقة هذا الوطن المعتاد، يصير الحق وطنك.

ثم زاد سبحانه في وصف القوم في طلب ماهيتهم، بقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[1]: سنّة الله التي قد جرت في الأزل أن عند كلّ مشاهدة مجاهدة، وأن عند كل نعمة بلا ظهور فضل الربوبيّة، وإذعان الخليقة لأمر القدم بنعت العبودية.

قال بعضهم: مَن ظنّ أنه يصل إلى الحقّ بالجهد فمتعن، ومَن ظن أنه يصل إليه بغير الجهد فهن.

قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾: تعيّن بلطفه، وإبراز كرمه، وظهور جلاله لأهله، وبيّن الصادق في محبّته، والمدّعي بكراماته.

وأيضًا ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾:الإيمان والصدق ببذل مهجتهم لله مما يجري على أوصافهم من خطور النفسانية.

وأيضًا: ﴿لِيُحِق ٱلْحَقَّ﴾:حق المشاهدة المحبّة في قلوبهم، ويُبطل الهواجس في نفوسهم.

قال بعضهم:﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالإقبال عليه و﴿يُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ بالإعراض عنه.

---

(١) أي: ذات الحرب (تكونُ لكم) وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُددهم، ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي: يظهر الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة، (بكلماته) أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالأمداد، أو بنفود كلماته الصادقة بهلاكهم، ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم. البحر المديد (٢/ ٣٣٦).

وقال الواسطي: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بتجليه، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ باستتاره.

وقال بعضهم: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالكشف، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ بالستر.

وقال بعضهم: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالرضا، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ بالسخط.

وقيل: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ للأولياء و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ للأعداء.

وقيل: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالخدمة، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ بالصرف.

وقيل: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالبراهين، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ بالدعاوى.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾: الاستغاثة مقام الشكوى والتواضع في الانبساط والفناء في رؤية البقاء، فمَن تعرّض له حال الاستغاثة، فيفر منه إليه ويطلب هو منه يغيثه به لا منه، فإنّ القوم طلبوا منه بالاستغاثة المعونة على مأمولهم من النصر، ونيل الغنيمة، فأغاثهم بإمداد الملائكة، ثم صرفهم عن رؤية الغير.

بقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: إجابتهم بالسرعة من صدق لجوئهم إليه، وكمال الإجابة، استغراقهم في بحار شهود سنا جماله، وأنوار جلاله.

قال بعضهم: من صدق اللجوء والاستغاثة، أجيب في الوقت.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

قال النصرآبادي: استغاثة منه، واستغاثة إليه، الاستغاثة منه لا يجاب صاحبها بجواب، بل يكون أبدًا معلّقًا بتلك الاستغاثة، والاستغاثة إليه، فذلك الذي يجاب إليه الأنبياء والأولياء والأصفياء.

قال أيضًا: النفس تستغيث بطلب حظّها من البقاء، ودوام العافية فيها، والقلب يستغيث من خوف التقليب، قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»(١).

والروح تستغيث بطلب الرواح، والسرّ يستغيث لإطّلاعه على الخفيّات، قال تعالى:

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

قال الأستاذ: الاستغاثة على حسب شهود الفاقة، وعدم المنّة والطاقة، والتحقُّق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشكاية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ إمداد الملائكة بشارة لصدق مواعيده، ولطمأنة قلوب عباده بأنوار بقائه، وصورة البرهان يكون لضعف الإيقان، ولو كان الإيقان على حد الاستكمال بالعرفان، لم تتعلّق الطمأنينة بالبرهان.

فلما عَزّ في جلاله وكبريائه، صَرَف عيون القوم عن الوسائط إلى عِزّ جلاله، بقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: «النصرة»: كشف أنوار مشاهدته للأرواح السكرى بشراب شوقه، يظفرها بوصله؛ لانهزام جنود قهرياته من ساحات لطفه.

قيل: بَيَّن الله آثار النصرة، وبدو السلامة، فمن لم يطلب النصرة والسلامة بالذلّة والافتقار إليه لا ينالها؛ لأن طلب النصرة بالقوة والقدرة منازعة للربوبيّة، ومن نازع المولى قهره.

ثم تعزَّز بعزته في نصرة أوليائه عند تبرّيهم من حولهم وقوتهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ :«عزيز»: بامتناعه عن مطالعة خلقه جلاله وجماله بعلّة من العلل، «حكيم»: باختصاصه مقام مشاهدته، وكشف قربه لهم.

قال الواسطي: «العزيز»: الذي لا يدركه طالبوه، ولو أدركوه لذلّ.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾: فالطالب واجد، لكن بعطائه، والراغب واصل، ولكن إلى مباره، والسبيل سهل، ولكن إلى وجدان لطفه.

فأما الحقّ سبحانه، فهو عزيز وراء كل وصل وفصل، وقرب وبعد، ما وصل إلى نصيبه، وما بقي أحدٌ إلا عن حظٍّ، وأنشد:

وقلوبُنَا نحنُ الأهلّةَ إنَّما ... تُضِيءُ لمنْ يَسرِي بليلٍ ولاَ نقرَى
فلَا بذلَ إلَّا مَا تزَوَّد نَاظِري ... ولاَ وصلَ إلَّا بالخيالِ الذِي سَرَى

ثم وصف سبحانه زيادة امتنانه عليهم بعد نصرهم ونيْلهم مرادهم، بعد أن أراح أبدانهم من وجع الآلام، وقلوبهم عن كدّ القبض بإنزاله عليهم النعاس، بقوله تعالى: ﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.

«النعاس»: ارتفاع بخار الدم من حرقة القلب إلى الدماغ في أصل الحكمة؛ لاستراحة أعصاب الدماغ وقت استرخائها من حدّة مشاغل تنفُّس أنفاس الدموية المختلطة برطوبات

صفاء البلغمية، وليس ذلك يقوى.

فإذا هاج ذلك الدم من أصل الكبد والقلب، ومشرعه المعدة، وارتفع إلى الدماغ يختلط هناك برطوبات الدماغ، فيصير ثقيلًا، فيسقط ثقله إلى القلب، ويصير الدماغ والقلب ثقيلين، ويجري ذلك الثقل في جميع العروق، فتصير جميع الأعضاء مسترخية من غشيان ذلك الدم، ويغلب على العقل والحواس، فيسمى ذلك بعينه النوم وهذه الصفات صفات حيوانية إنسانية، نفى الله تلك الصفة عن جلال ذاته، حيث وصف نفسه بالتنزيه والتقديس عن علّة الحدثان، بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ومن فضلة وكرمه على أوليائه إذا أراد أن يروِّح أبدان الصدِّيقين من ثِقَل العبادات يغشي دماغهم بغفوة النعاس؛ ليستريحوا من عناء القبض، ويسكنوا بروح البسط.

ثم النعاس موضع ظهور أوائل أشكال المكاشفات، واشتمال هواتف الغيبية من عالم الملكوت، يرون بقلوبهم بين النعاس والنوم واليقظة، أشياءً بديهية غيبية، تورث السكينة والطمأنينة والأمن، بقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: أمنًا منه من زيادة الامتحان، وغلبة النفس والشيطان.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان»، وكان النبي ﷺ نومه نعاسًا، لذلك قال ﷺ: «تنام عيناي ولا ينام قلبي»[1]؛لأنّ القلب إذا نام لم يرَ من عالم الملكوت شيئًا، وهكذا حال الأولياء قلوبهم في جميع الأوقات يقظى، ونومهم ليس بكثير، وكلّ قلب يرى في نومه شيئًا من الغيب لم يكن في ذلك الوقت إلا نعاس.

قال سهل: «النعاس»: ينزل من الدماغ والقلب، والنوم محلٌّ بالقلب من الظاهر، وهو حكم النوم، وحكم النعاس حكم الروح، وفائدة النعاس هاهنا إعلام الله إيّاهم أن فيض كرمه ليس باكتسابهم، أفناهم عن نفسه، ثم أظهر فضله عليهم بأن يهزم عدوّهم بإلقائه عساكر الرعب في قلوبهم، قال ﷺ: «نصرت بالرعب»[2].

وإذا بَرِء العبد من حوله وقوته، يجيء نصر الله له، فيظفر بجميع مراده، ثم مَنَّ الله عليهم بإنزاله رحمته من السماء عليه، بقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ الماء الطاهر يطهر الأشباح، وماء المعرفة يطهر الأرواح، ويعرفها مكان كل حقيقة من عين الفعل والصفة، فإذا عُرفت الأفعال والصفات عُرفت الذات، فمثالها مثال الأصداف في

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٠٨).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٢٨)، ومسلم (١/ ٣٧٢).

البحار.

فالأرواح أصداف، بحار الأفعال تتلقف قطرات عرفان الصفات من بحار الذّات، كما تتلقف الأصداف في البحار من قطر الأمطار، فتصير القطرة في أجوافها دُرًّا، فكذلك قطرة المعرفة في جوف الأرواح، تصير دُرَّة الحقيقة، والحكمة الإلهية الأزلية.

قال بعضهم: ماء اليقين إذا نزل على الأسرار، أسقط عنها الاختلاج والشكّ.

قال الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ مِن كل ما تدنّستم به من أنواع المخالفات، ثم وصف ذلك الماء الحقيقي بأنه يربط به قلوبهم في معرفة العبودية والربوبية، وهو ماء اليقين الذي يقوّي القلوب في معرفة الله، ويثبّتها بوصف التمكين والاستقامة في سيرها في المقامات، بقوله:

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾: نفّس عن قلوبهم وَحْشة الفُرقة، وأثبتها في رؤية الوصلة، وتجلّي القُربة بربط أبدانهم بالطاعات، وربط عقولهم بالآيات، وربط قلوبهم بأنوار الصفات، وربط أرواحهم في سطوات الذات، وربط أسرارهم بعلوم الآزال والآباد.

ثم أخذ أيديهم عن استغراقهم فيه بنعت الفناء، وثبّتهم به في مقام البقاء، ولولا تثبيته إيّاهم، لفنوا في أول بادٍ بدا من ربوبيته، وأول ظهور سطوة من سطوات عظمته كانوا يحتملون به، ومشاهدته قهر سلطان عزّته.

قال بعضهم: ربط على قلوب أوليائه، لتّلقي البلاء بالمحبّة والصبر، وربط على قلوب العارفين، لثبات الأسرار في مشاهدة ما يبدو لهم من الغيوب، ويثبّت أقدام أهل الاستقامة، فاستقاموا له على جميع الأحوال، ولم يزالوا.

قال بعضهم: القلوب ثلاثة: قلبٌ مربوطٌ بالأكوان، وقلب مربوط بالأسماء والصفات، وقلب مربوط بالحق.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ : افهم أن في هذه الآية للعارفين موضع الاتّحاد، ولهم في الاتحاد مقامات اتّحادٍ بالأفعال، واتحاد بالصفات، واتحاد بالذات، وهاهنا إشارة اتحاد الأفعال، واتحاد الصفات، فإضافة فعل القوم إلى نفسه بالقتل اتحاد الفعل.

وذلك مقام جمع وتفرقة، ولهم تفرقة في الجمع، إذ ذكر ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، نفي فعلًا بعد إثباته لهم، فإذا باشروا القتل كانوا في محلّ تفرقةٍ، وإذا أضاف القتل إلى نفسه كانوا في محل جمعٍ، فالتفرقة عالم الصورة ورسم الخليقة، إذ كانوا في الخليقة معارفين من مصدر خاصية فعله تعالى، ومِن حيث إنهم قائمون في جميع الذرّات بفعله الخاص المتعلّق بالقدرة، كانت عينهم عين الفعل، خاصةً أنه تعالى تجلّى من فعله الخاص لهم بنعت القهر للمقتولين، فهُم مع فعله عين أخذ، فإذا كان كذلك، والإضافة إلى نفسه إضافة حقيقة، إذ لا يبقى في البيْن غير فعله من جميع الوجوه، وهكذا أحكام الخلق من العرش إلى الثرى في جميع الأوقات من جهة الفعلية والخلقية.

لكن إذا لم يكن وقت المباشرة تجلّي الفعل إلى الفعل، لم يكن هناك خاصية اتّحاد الأفعال، كانوا كسيفٍ على يد ضاربٍ، بل السيف واليد واحد بالمراتب والترقّي، وإذا كان المصدر مصدرًا واحدًا، لم يكن في البيْن من العرش إلى الثرى غير الله.

وللنبي ﷺ ههنا خاصيّة اتّحاد الصفة، حيث اتّصف بصفته حين عاينه بنعت كشف تجلّي صفته تعالى في قلبه وروحه وعقله، وسرّه وظاهره وباطنه وصورته، فيصير جميع وجوده مستغرقًا في نور الصفة، فعله أضاف إلى صفته لا إلى فعله؛ لأن القوم كانوا في رؤية أنوار آياته، وكان ﷺ في رؤية أنوار صفاته، وخاصية اتّحاد الذات بعد مروره بالآيات، وسباحته في بحر الصفات، وقع بعد مباشرة المقامين، واتّصافه بالصفتين صفة الفعل، وصفة الخاص إدراكه جلال الذات، وفناؤه فيه، وبقاؤه به معه، واستغراقه في آزاله وآباده، وخروجه من بحر الأوّلية والآخرية بنعت الصفة، وسنا الذات، حتى صار مرآةً للذات والصفات والفعل، فأبرزه الله للعالمين؛ لتعريف نفسه به إيّاهم، كإخراجه خليفته آدم ﷺ بعرفان الملائكة، وكان متّصفًا بالصفة، متّحدًا بها، والنبي ﷺ كان متّحدًا بنور الذات بعد اتحاده بنور الذات والصفات، بعد اتحاده بنور الصفات، وكان فوق آدم باتحاد أنوار الذات، فلمّا كمل في اتّحاده عرف الله مكانه في تمام الخلق، بقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] لم

يبقَ في تجلي علمه وصفته وذاته من وصف الحدوثية شيءٌ.

لذلك قال ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني فقد عرف الحق»[(١)]

كأن تفرقته في عين الفعل جمعًا، وجمعه في الصفة جمع الجمع في عين الذات، وفي عين الذات من حيث الألوهية جمع بغير تفرقة، ومن حيث الخليقة تفرقة وجمع.

ذكرت نبذة من مقام الاتّحاد والاتّصاف بالجمع، والتفرقة في هذه الآية لا يَعرف معناها إلا صاحب رجاء العشق، وبسط المحبّة، وروح الشوق، وأنس المشاهدة، وانبساط المعرفة، وفناء المعرفة والتوحيد، والبقاء والاتصاف، وإدراك علم الله في المجهول عند علوم العلماء، وفهوم الفقهاء.

وما ذكر المشايخ في الآية قول فارس: ما كنت راميًا إلا بنا، ولا مُصيبًا إلا بمعونتنا، وإمدادنا إيّاك بالقوة.

قال بعضهم: ما رميت، ولكن رُميت بسهام الجمع، فغيبك عنك، فرميت، وكنّا رامين عنك؛ لأنّ المباشرة لك، والحقيقة كنّا إذ لم يفترق.

وقال الأستاذ: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فرقًا، ولكن الله رمى جمعًا، والفرق صفة العبودية، والجمع نعت الربوبيّة، ثُمّ عرّف موضع نعمته برميه بنفسه، وصرف قهره عنهم، بقوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ كما باشر بأنوار صفته قلب نبيّه ﷺ في الرمي وأسرارهم في القتل، باشر بها قلوبهم بحسن تجلّيها؛ ليعرفوا بها نفسه، واتجاه إيّاهم من مكره وقهره، والبلاء الحَسن وقوع محبّته في قلوب أوليائه، وكشف جماله لأصفيائه، وإسماع خطابه لنجبائه.

سُئل الجنيد عن قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

قال: «البلاءُ الحَسن»: أن يثبته عند الأمر، ويحفظه عند الأمر، ويفرده به عند مشاهدة الفر.

قال رويم: «البلاء الحسن»: أن تكون رؤية الحقّ أسبق إليه من نزول البلاء، فيمر به البلاء، وهو لا يشعر؛ لاستغراقه في رؤية الحق.

وقال أبو عثمان: «البلاء الحسن»: ما يورِّثك الصبر عليه، والرضا به.

وقال علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر بن محمد قال: أن يُفنيهم عن نفوسهم، فإذا أفناهم عن نفوسهم، كان هو عوضًا لهم عن نفوسهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال الأستاذ: «البلاء الحسن»: توفيق الشكر في المنحة، وتحقيق الصبر في المحنة.

ويقال: «البلاء الحسن»: أن يشهد المبلى في عين البلاء، ثُمّ روح قلوب المحتملين بلاء محبّته، وأثقال شوقه، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ :

﴿سَمِيعٌ﴾ : أنين أهل الشكوى في شوقه، ﴿عَلِيمٌ﴾ : ألم فقدانه في قلوب أهل محبّته.

قال الأستاذ: تنفيسٌ لقومٍ، وتهديدٌ لقومٍ، أصحاب الرفق يقول لهم: إن الله سميع لأنينكم، فيتروّح عليهم بهذا وقتهم، ويحمل عنهم بلاءهم، وأنشد في هذا المعنى:

إذَا مَـا تمنّـى الـناسُ روحًـا وراحـةً   تمنـيـتُ أنْ أشـكُو إلـيهِ فيـسمعُ

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ : حذّر الله الصادقين عن الدعاوى الباطلة، التي لم يكن معها المعنى، فإنّ سماع الظاهر بغير فَهمٍ، ومتابعة أمر، فهو سماع غفلة.

ثم وصف هؤلاء المدّعين بأنهم أغفل من الحيوان، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ : «الصمُّ»: عن استماع هواتف الغيب، و«البكم»: عن نشر فضائل المعرفة، ووصف المعروف بنشاط المعرفة ورؤية المشاهدة، وذلك ميراث جهالتهم بأنفسهم، ومعرفة صانعهم عن طريق العقل والعلم في كلّ موضع.

العقل هناك أمير البدن، لا يقبل عن صاحبه إلا النظر إلى الحقّ، والسماع من الحق، والقول بالحق.

قال بعضهم: من سمع، ولم يؤثر عليه فوائد السماع وزوائده في أحواله، فهو غير مستمع، ولا سامع، والمستمع على الحقيقة من يرجع من حال السماع بزيادة فائدة، أو بزيادة حالٍ، ومن حضر مجالس السماع، ولم يرجع بزيادة، فإنما يرجع بنقصان.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وقال بعضهم: «الصمُّ»: عن سماع الذكر، وفَهم معانيه، و«البكم»: عن مداومة تلاوة الذكر وطلب الزيادة منه، الذين لا يعقلون ما خوطبوا به، وما خُلقوا له، وما هم صائرون إليه في المآب.

وقال الأستاذ: مَن صمَّ عن إدراك ما خوطب به وبسرِّه، وعمي عن شهود ما كوشف به قلبه، وخرس عن إجابة ما أرشد إليه من حجة فهمه وعقله، فدون رتبة البهائم قدره، وفوق كلّ خسيسٍ من حكم الله ذّله وصغّره، ثم أنّ الله سبحانه أضاف حرمانهم من فهم الخطاب، وإدراكه حقائقه، ومتابعة أمره إلى قسمة أزله، ومشيئة سابق حكمه[1]، بقوله:

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لو علمَ الله في قلوبهم خير اصطفائيته الأزليّة، لأسمعهم حقيقة خطابه، وعرّفهم مكان مراده فيه، ولكن ماداموا لم يكونوا مصطفين في أزل الخيرية الاصطفائية، ما أسمعهم لطائف كلامه، وما عرّفهم مواضع أنبائه العجيبة، وحقائق حكمه الغريبة، وبيَّن أنه تعالى لو أسمعهم خطابه بنعت ما وصفنا لم يدركوه، وهم معرضون عن متابعة أمره؛ لأنهم محرومون في الأزل من رؤية حُسن حضرته، وإدراك اجتبائه.

قال يحيى بن معاذ: إنّ هذا العلم الذي تسمعونه، إنّما تسمعون ألفاظه من العلماء، ومعانيها من الله بآذان قلوبكم، فاعملوا وتعقّلوا ما تسمعون، فإنْ لم تعلموا كان ضره أقرب إليكم من نفعه.

قال بعضهم: علامة الخير في السماع لمن سمعه فناء أوصافه ونعوته وسمعه بحقٍّ من حق.

وقال الأستاذ: من أقصته سوابق القسمة لم يدنه لواحق الخدمة، ولها وصف حرمان الزائغين عن الحق وعي، فإن الخطاب خطاب أهل إرادة المحبّة، ودعاهم إلى مشاهدته وقربه، وطلب منهم إجابة دعوته بنعت متابعته، ومتابعة رسوله، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

طيّب أرواحهم بنسيم روائح قدس ندائه، وفتح آذان قلوبهم لحلاوة دعائه، وشوق أسرارهم بلذيذ خطابه، وجعلهم مستبشرين بلطيف حكمه، وعلى وجدانهم أنوار قربه.

ألا ترى كيف قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾: دعاءه

---

(١) انظر: تفسير القشيري (٣/ ١٢).

لا لأنفسكم وحظوظكم، وطلب أعواض أعمالكم.

﴿ٱسْتَجِيبُوا﴾ : ببذل أرواحكم وأشباحكم لداعية الأزل، حيث دعاكم منه إليه قبل وقوع حدّ وثبتكم، دعاكم بوصف السرمدية من محبّته لكم، وشوقه إليكم، فأحبّوه واشتاقوا إليه بمحبّته وشوقه، واستجيبوا للرسول بمتابعة أمره، فإنه روح الصغرى من عالم الملكوت أدرك من روح الكبرى، وهي نعوت الجبروت حياة القِدم.

﴿يُحْيِيكُمْ﴾ : بروح الصغرى والكبرى.

وأيضًا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: مشاهدة الأزليّة، وقربته الأبدية، ومحبّته الصفاتية، ومعرفته الذاتية.

قال الجنيد في هذه الآية: قرعَ أسماعهم، فيُسمعهم حلاوة الدعوة، فيتنسموا روح ما أدّته إليهم الفهوم الطاهرة من الأدناس.

فأسرعوا إلى حذف العلائق المشغِلة قلوب الموافقين ومَنْعها، وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر، وتجرّعوا مرارة المكابدة، وصدَقوا الله في المعاملة، وحُسن الأدب فيما توجهوا إليه، وهانت عليهم المصيبات، وعرفوا قدر ما يطلبون، واغتنموا سلامة الأوقات، وسجنوا همومهم عن التقلّب إلى مذكورٍ سوى وليّهم، فحيوا حياة الأبد بالحي الذي لم يزل ولا يزال، فهذا معنى قوله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ .

وقال الواسطي في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ :حياة تصفيتها من كلّ معلولٍ لفظًا وفعلًا.

وقال جعفر: أجيبوه إلى الطاعة؛ ليُحيي بها قلوبكم.

وقال أيضًا: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ : «الحياة»: هي الحياة بالله، وهي المعرفة، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

وقال بعضهم: استجيبوا لله بسرائركم، وللرسول بظواهركم إذا دعاكم إلى ما يُحييكم.

فحياة النفوس بمتابعة الرسول، وحياة القلب بمشاهدة الغيوب، وهو الحياء من الله برؤية التقصير.

وقال جعفر الصادق: حياة القلوب في المعاشرة، وحياة الأرواح في المحبّة، وحياة النفوس في المتابعة، ولما دعاهم إلى مشاهدته بنعت الشوق، عرّفهم أن قلوبهم مسلوبة منهم بكشف جماله، وإلقاء محبّته ومعرفته فيها، بقوله:

﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: قلوبكم معي فاتّبعوا أثرها،

واطلبوها منّي حتى أطهّرها لكم، متقلبات في بحر الصفات والذات، حائرات في المشاهدات، ساكرات بشراب القربات، دانيات منّي، فانيات فيَّ، باقيات معي، لو تعرفونها تعرفوني، لذاك قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1]؛ لأنه نفس النفس، وقلب القلب، وروح الروح، وعقل العقل، وحياة الحياة.

ثُمّ وصف ﷺ تقلّبها في عيون الصفات بنعت البقاء، وسباحتها في بحار الذات بنعت الفناء، بقوله ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»[2].

قيل: أنّ الله أشار إلى قلوب أحبابه بأنه يأخذها منهم، ويجمعها ويقلبها بصفاته، كما قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[3]، فيختمها بخاتم المعرفة، ويطبعها بطبائع الشوق.

وقيل: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: عقله وفهمه عن الله خطابه.

وقيل: يحول بين المؤمن والإيمان، وبين الكافر والكفر، ويردّهما إلى الذي سبق لهم منه في الأزل.

ويقال: حال بينهم وبين قلوبهم؛ لئلا يكون لهم رجوع إلا إلى الله.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾: حذّر الله أهل القصة من الدعاوى الكاذبة، وهي التي لم يبلغ صاحبها إلى ما تدّعي من المقامات، فيفتتن بها هو وغيره من المريدين، فإنّ من أظهر شيئًا من نفسه، ولم يكن أهل ذلك، فهو يحتجب به عن كلّ مقصودٍ.

ويُضل من يقتدي به ممن لا يعرف الحقّ من الباطل، قال ﷺ: «المتبع بما لم يعط كلابس ثوبي زورًا»[4].

قال أبو عثمان: اكتساب المال من الحرام من الفتن التي تصيب بغير مباشرة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه ابن حبان (١٣/ ٤٩).

وقال الأستاذ: الإشارة إذا باشر زلّة بنفسه، عاد إلى القلب منه الفتنة، وهي القسوة المعجد: وتصيب النفس من الفتنة العقوبة، والقلب إذا حصل منه زلّة، وهو فيما لا يجوز يتأدى فتنته إلى السرّ، وهي الحُجبة.

ويقال: أنّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا ما فوق الكفاية، وإن كان من وجه الحلال تعدى فتنته إلى مَن تخرج به من المبتدئين، فيحمله على ما رأى منه على الرغبة في الدنيا وترك التقلُّل، فتؤدّيه إلى الانهماك في أودية الغفْلة من الانشغال بالدنيا عن ربّه.

والعابد إذا جنح إلى ترك الأوراد، تعدّى في ذلك إلى من كان يبسط في المجاهدة، فيستوطن الكسل، ثُمّ يحمله الفراغ، وترك المجاهدة على اتّباع الشهوات فيصير كما قيل: أن الفراغ والشباب والحدّة مفسدة للمرء، أي مفسدة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : مَنَّ الله على أوليائه بأنه وإن كان عددهم قليلًا، فهو عند الله عظيم، فأكثرهم بالإخوان من العارفين حين كانوا عند الأعداء خائفين من شرّهم، ومِن شرّ معصيتهم وقلّة احترامهم، بقوله: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ؛لأنهم في منادى الأحوال، فلمّا آواهم الله إلى مقام مشاهدته، وألبسهم لباس أنوار هيبته، وسقاهم شراب وصلته، غلبوا بنصرة الله على أعداء الله، وصاروا صاغرين عند هؤلاء الأولياء،وذلك قوله تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ : آواهم من قهره إلى لطفه، ووسَّمهم بسمات قدرته، وأطعمهم من موائد قُربته.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ : تعرفون مشكوركم حين تعجزون عن أداء شكر معرفته.

قال الأستاذ: رزق الأشباح من طيّبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء، فلمّا وفّقهم بعوالي تلك الدرجات، حذّرهم الله عن الخيانة في الطريق، بقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : إذ عرّفكم الله معالم الربوبيّة، وحقائق العبوديّة، وأعلمكم علوم حكم المعرفة لا تكتموها عن أهلها من المريدين الصادقين، وما وجدتم من ذلك من شرائع رسولي، وعلمه المأثور منه لا تمنعوا منه مَن يقتبس منكم، قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[1]

وإذا عرفتم ذلك اعملوا به، ولا تخونوا في تلك الأمانة التي أودعها الله قلوبكم بترك رعايتها بنعت العمل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك قوله: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ ،

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٧٥).

وأنتم تعلمون أنكم خائنون في تضييعكم، ومَنَّ الله عليكم من علمه الذي علّمكم.

وأيضًا من عرف الله والتفت سرّه إلى شيءٍ غير الله، فقد خان الله في محبّته وأمانته، وودائع معرفته في صدور عباده التي توجب انفراد خواطرهم من كلّ العوارض النفسانية والشيطانية.

قال أبو عثمان: من خان الله في السرّ، هتك ستره في العلانية.

وقال بعضهم: خيانة الله في الأسرار من حبّ الدنيا، وحب الرئاسة، والإظهار خلاف الإضمار، وخيانة الرسول في آداب الشريعة، وترك السنن والتهاون بها، وخيانات الأمانات في المعاملات والأخلاق، ومعاشرة المؤمنين في ترك النصيحة لهم.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: بيّن سبحانه أن من اتّكل إلى المال في معيشته، وتولّى إلى أولاده في طلب نصرته، فقد افتتن في طريق الله بغير الله.

قال بعضهم: «أموالكم»: فتنةٌ إن جمعها وأمسكها، ونعمةٌ إذا أنفقتم، وبذلتم في وجوه الخيرات.

وقال بعضهم: «المال»: فتنة لمن طلب الفتنة، ونعمة لمن كان خازنًا لله فيه يأخذه بأمره، ويخرجه بأمره إلى أربابه.

وقال أبو الحسين الورّاق: ما اعتمدت سوى الله من الدنيا والآخرة، فهو فتنة حتى تعرض عن الجميع، وتُقبل على مولاك، وتعتمد عليه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾: بيّن سبحانه مَن مُخرج بسرّه من جبّ شيءٍ سوى الله من المال والولد والدنيا والآخرة، يسرج الله في قلبه في مسرجة التقوى مصباح أنوار الغيب، تُضيء الأبصار أسراره ما في خزائن ملك الملكوت، ويفرّق بسناها بين المكاشفات والمخاييل.

قال سهل: نورًا يفرق به بين الحق والباطل.

وقال الجنيد: إذا اتّقى العبد ربه جعل له تبيانًا يتبيّن به الحقّ من الباطل، وهذه نتيجة التقوى.

فقيل له: أليست التقوى فرقانًا؟ قال: بلى، الأول: بداية من الله، والثاني: اكتساب، فإذا اتقى الله، اكتسب بتقواه معرفة التفرقة بين الحق والباطل، فيتبيّن هذا من هذا.

وقال الأستاذ: «الفرقان»: ما يفرّقون به بين الحق والباطل، مِن علمٍ وافر، وإلهامٍ قاهر، فالعلماء فرقانهم محبوب برهانهم، والعارفون فرقانهم موهوب عرفانهم، فهؤلاء مع مجهود نفسهم، وهؤلاء لمقتضى جود ربهم، فالعرفان تعريف من الله، والتكفير تخفيف من الله، والغفران تشريف للعبد من الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ وصف تعالى نفسه بالمكر، ومكره منزّهٌ عن الحيل والمخاييل والأباطيل.

«مكره»: سخطه السابق، الذي ظهر سماته للعبد على وجوه المطرودين، وسوابق المشيئة الأزليّة، وامتناع جماله بعزّته عن مطالعة غير العاشقين به، فأخرجهم بصورة المقبولين، وكانوا في الأزل من المطرودين، فما عرّفهم مكان قهره.

ومكره بهم وعليهم، فأبرز لهم أنوار السعادة، وأزّمهم في ورطات قهرياته بأزمة الشقاوة، فما رأوا على أنفسهم حلي الطاعات، وغفلوا عن ظلمات بواطنهم؛ لأنهم مطموسون بطمس مكر الأزل.

قال تعالى في وصفهم: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، هذا وصف مكر البعد منه، فالمكر في الأولياء مكر انبساط وقرب، وهو من علم المجهول، وذلك مقام الالتباس حيث ظهر عين الصفة في عين الفعل على حدّ الجمع والتفرقة، وتلك لطائف مشاهدة المتشابهات من الاستواء والنزول، وغيرهما من الصفات، وما ذكرنا بمجموعه، فيكون في إشارته ﷺ حين عاين العدم في مرآة الحدث، بقوله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة»(١).

وهذا محلّ العشق والبسط والانبساط، والأنس والشوق.

قال الشبْليّ: المكر في النعم الباطنة، والاستدراج في النعم الظاهرة.

وقيل: «المكر» مكران: مكر تلبيس، ومكر هلاك.

---

(١) رواه الترمذي (٣/ ٥٦٥).

وقال الأستاذ: من جملة مكره اغترار قوم بما يرزقهم من الطيّبات الجميلة، وأجرّ كثير الطاعات عليهم، مع شرب لهم من قبول الناس إيّاهم، ثم أسرارهم تكون بالأغيار منوّطة، وهم عند الله غافلون، وعند الناس أنهم عند الله مكرّمون، وفي معناه قيل:

وقد حسدوني قُربَ داري منهمُ   فكَمْ مِنْ قريبِ الدَّارِ وهوَ بَعيدُ

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1]: كان ﷺ رحمةً تامة للجمهور حياة ومماتًا، صرف الله عذابه المستأصل عمّن كان على رأس المخالفة، ونبيّه ﷺ بين أظهرهم؛ لأنّ كلّ عينٍ نظرته، واقتبست نوره، لم يكن مستأصلًا من أصلها، وإن كانت محجوبة عن رؤية مراتبه، وشرف منازله؛ لأن مكثه وظله ﷺ كنف رحمة الله، ومن يدرك في نفسه قارعة لتنبهه من غفلته، وتخلصه من عذاب الله.

وأيضًا ما كان الله ليعذِّب قومك بعذاب البُعد، وأنت قريبٌ منهم، فإن من رآك رآني، لا يحتجب منا ما دام ينظر إليك[2].

---

(١) المراد بالتعذيب الأول هو: التعذيب الدنيوي؛ لأن وجود النبي ﷺ أمان للمذنبين، وعبارة الخطاب له ﷺ، وإشارة لاصطفاء أمته؛ فيكون كقوله: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك»؛ فإن المراد به: لولاك ولولا ما هو شعبة من شعب أنوارك لما خلقت العالم من العرش، والكرسي وغيرهما.

(٢) فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ إلخ، كيف جُعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سببًا لارتفاع العذاب، وباعثًا على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن كان دونه؛ فكذا القلب بمنزلة الوجود المحمّدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله =

قال أبو بكر الورَّاق: ما كان الله ليُظهر فيهم البدع، وأنت فيهم، وما كان الله ليأخذهم بذنوبهم، وهم يستغفرون.

قال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم، ما عاش وما دامت سنّته باقية فهو باقٍ، وإذا أميتت سنّته، فلينتظروا البلاء والفتن.

وقال الأستاذ: وما كان الله ليعذّب أسلافهم، وأنت في أصلابهم، وليس يعذبهم اليوم، وأنت فيما بينهم إجلالًا لقدرك، وإكرامًا لمحلّك، وإذا خرجت من بينهم، فلا يعذّبهم وفيهم خدمك، الذين يستغفرون.

ويقال للجوّاد: حرمت فجاد الكرام في ظلّ أنعامهم، والكفار إن تمتعوا بقرب الرسول ﷺ، فقد اندفع العذاب بمجاورته عليهم، وأنشد في هذا المعنى:

وأحـــبُّهَا وأُحـــبُّ منـــزلَهَا الـــذِي حلَّـــتْ بـــهِ وأحـــبُّ أهـــلَ المنـــزلِ

ثُم إن الله سبحانه ذكر أنه يُعذّب من يعادي نبيّه ﷺ في الدنيا بالسيف، ولا يعذّبهم عذاب الاستئصال إلا في الآخرة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾: لحرمة نبيّه ﷺ وإن المؤمن الصادق في إيمانه لا يعذبه الله في الآخرة؛ لأن نبيّه يكون فيهم يوم القيامة، وبشّرنا سبحانه أنه لا يعذب أمته ما دام هو فيهم، فيكون في الآخرة هو فيما بين المؤمنين، فيدخل المؤمن النار؛ لتحلة قسمه، وبأن يُطفئ بنوره ناره، وذلك قوله ﷺ: «جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك ناري»[1] .

يدخل المؤمن والكافر في النار، فيبقي الكفار في النار، والمؤمنون يمرون على الصراط كالبرق الخاطف.

فإن وصلت النار إلى المجرمين من أمّته، لا تصل إليهم لجهة الخلود، بل لجهة الخلوص، وفي هذا المعني قيل:

إذَا سَـــلِمَ العهـــدُ الـــذِي كَـــانَ بينـــنَا فـــوُدِّي وإنْ شَـــطَّ المـــزَارِ ســـليمُ

وهكذا قال الأستاذ- رحمةُ الله عليه- ثم بيَّن سبب إيصال العذاب إلى الكافرين، بقوله تعالى: ﴿أن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا

=

تعالى، والتبتُّل إليه، فإذا بالإنسان الكامل وبظاهره يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

(١) هو من الأحاديث التي تفرد بذكرها المصنف في كتبه.

ٱلْمُتَّقُونَ﴾: كانوا يعملون شيئًا ليس لهم، فإنهم ليسوا من أهل الحرم مع جهلهم بالله، وهم لا يعلمون أن ليس لهم صد المؤمنين عنه، فإن أحبّاء الكعبة، هم الذين قدّسوا أعينهم من النظر إلى ما سوى الله غير الكعبة، التي هي مرآة تجلّي صفاته، بقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

إنّ الله سبحانه أراد بحشر الخلق يوم القيامة أن يزيد أشواق المحبّين والعارفين والمشتاقين، بكشف جماله، وحسن جلاله، وتمييزهم من المدّعين الكاذبين، الذين يدّعون في الدنيا معرفته ومحبّته وولايته؛ وليريح أصفياءه من صحبة هؤلاء الكَفرة الضالين، الذين صرفوا وجوههم من الحقّ إلى الخلق بالرياء والسمعة، وطلب الجاه والمنزلة.

وأيضًا يُخلِّص أحباءه من مناهضة هواجس النفس الأمّارة، وخطرات الشيطانية، ويُقدّس قلوبهم وأرواحهم وعقولهم من هجوم طوارق القهريات، التي يأتي عليها بالابتلاء والامتحان.

قيل: المخلص مِن المرائي، والمؤمن من الكافر، والمطيع من العاصي.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾: الإشارة إلى كفرة النفوس الأمّارة بسوء أي: جاهدوها، وأميتوها حتى تتقدّس مزارع أنوار اليقين،

ومرا بع سنا الإسلام والدين، ويتفرد القلب بنور الموحّد والتوحيد من كلّ خاطرٍ غير خاطر الحقّ، ويكون القلب كلّه مستغرقًا في بحار محبّته، والروح هائمة في أودية هويته، والعقل تائهًا في صحاري أزله وأبده، ولا يكون منها جميعًا نظرٌ إلى غيره.

فإن النفس حجاب القهر بينها وبين بارئها، الذي هو منعم عليها بإلقاء محبّة وجهه فيها، ونصرها على نفوسها وهواها، وفي ذلك مدح نفسه تعالى، بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: نِعم المولى لأوليائه، ونعم النصير لعمّاله، أنعم بسبق ولايته ومحبّته على المحبين في أزله، وعلى المجاهدين له هواهم ونفوسهم، بنصرته لهم إلى أبد أبده.

قال بعضهم: نعم المولى لمن والاه، ونعم النصير لمن استنصره.

وقيل: نعم المولى لأهل الولاية، ونعم النصير لأهل الإرادة.

يقال: نعم المولى بالتعريف.

وقيل التكليف، ونعم الناصر لك بالتخفيف والتضعيف يضعف الحسنات، ويخفّف عنكم السيئات، فأنشد:

هَـوَاكَ أولُ مَـا عَـرفتُ مِـنَ الهَـوَى   والقلـبُ لاَ ينـسَى الحبـيبَ الأَوّلَا

قوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: نفي التدبير عن ساحة التقدير، ويُخرج ما في المشيئة الأزلية على لباس الأمر بنقض العقود والعزائم التي اجتمعت عموم الخلق عليها.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: عرفتُ الله بنقض العزائم، وفسخ الهمم.

قال جعفر: ما قضى في الأزل يظهره في الحين والوقت بعد الوقت.

وقال بعضهم: ليكشف عن سوابق علمه في غيبه، باتّصال كلّ من الفريقين إلى ما سبق له منه في أزله، ثم صرف الخلق من ديمومة المشيئة، إلى صورة الأحكام، لعلمه بقلّة إدراكهم سوابق القسمة في الأزل، بقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾: قدّر في الأول، ونصب أعلام القهر واللطف في الطريقة في الآخر، فيرجع الآخر بما يبدو منه إلى مصدر تقدير الأول، وبيّن أنه منزّهٌ عن الجهل والظلم، نصب الأدلّة لبيان حكمته، وإثبات حجته.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾: أمره السابق، وإرادته القائمة.

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾: بتلك البيّنات.

﴿مَنْ هَلَكَ﴾: بهواه ما هلك إلا بإهلاكه إيّاه في الأزل.

و﴿مَنْ حَيَّ﴾: بمناه من مشاهدته ومعرفته، ما حيا إلا بإحيائه في الأزل إظهار الشريعة، وإبراز الأدلّة حكم في محلّ الامتحان، وقضية الأزل غالبة على صورة الأمر.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

قال بعضهم: أظهر للخلق الآيات، ونصب لهم الأعلام، وفتح أعين القوم لرؤيتها، وأعمى قومًا دونها، وبعث إليهم الوسائط بالبراهين الصادقة، والأنوار النيّرة، ولكن ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وقدّم هذه المقدمة: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

قال بعضهم: لا خير إلّا لمن حيا بذكره وأنس بقُربه، والخلق كلّهم متحركون في أسبابهم، والحيّ منهم مَن تكون حياته، بالحيّ الذي لا يموت.

قال الأستاذ: الهالك من عمي في أودية التفرقة، والحيّ من حيا بنور التعريف.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أول الصبر التصبرُّ، وهو مقام التكليف، والبصر مقام التشريف، الأول: مجاهدة، والآخر: مشاهدة، أي: اصبر بأنّي في لوعَات شوقكم، إنّي أشتاق إليكم، واصبر كما يصبرون، فهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وأيضًا اصبروا في بلاء محبّتي، وانظروا إلى مقام البلاء حتى تروني، فإنّ التجلّي للصابرين في مكان صبرهم في.

وأيضًا اصبروا لي، فإن الصبر معي يوجب مراد الصابرين في نُصرتهم على عدوّهم من النفوس والشياطين.

سُئل محمد بن موسى الواسطيّ عن ماهية الصبر، وحقيقة الذي قال الله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال: هو سؤال التولّي قبل مخامرة المحنة، وإذا صادقت المحبّة التولّي حملها بلا كلفة، هذا صفة من كان الله معه في صبره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: حذرًا وإباءة عن المشابهة بهؤلاء المرائين، الذين يخرجون من دورهم، وزواياهم الخبيثة بألوان زى السالوسيين، ويتبخترون فيها من فرحهم بالجاه عند الظالمين، الذين لا يعرفون الهر من البر، وهم كالأنعام بل هم أضلّ، ويتّبعون أهل الإرادة من صحبة الأولياء؛ لتسعير أسواقهم وترويج نفاقهم، حتى يجتمعوا عليهم، ويجلُّوهم في أعين الخلق، أهلكهم الله في أودية قهره.

ثم وصفهم بأن الشياطين تزيّن قبائح أعمالهم في أعينهم، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: يُريهم أعمالهم الفاسدة بصورةٍ حسنة، وهم بها يغترّون.

قال بعضهم: عظّم طاعاتهم في أعينهم، وصغّر نعم الله عندهم.

وقال الأستاذ: الشيطان إذا زيّن للإنسان يوسوسه أمرًا، والنفس إذا استولت له شيئًا عميت بصائر أرباب الغفلة عن شهود صواب الرشد، فينخرّ الغافل معه في قياد وسواسه، ثم يمحقه هو بهم التقدير وكوامن المكر من حيث لا يرتقب، فلا الشيطان يفي له بما يعده ولا النفس شيئًا مما يتمنّاه تجده، وهو كما قال القائل:

وسَاءلتكَ الليالِي فاغترِرتَ بهَا وعندَ صفوِ الليالِي يحدثُ الكدرُ

وذكر الله سبحانه فعل ذلك الشيطان بعد تزيينه مخاييله لهم بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾: بيّن تعالى أن الشيطان زيّن للمريدين شيئًا من الأمل، ويدليه بخيال المنية في ورطة الغفلة؛ ليغويه عن طريق قُربة الله، ويحجبه عن مشاهدته، ويعده بالكرامات ووجدان الآيات، فلما أيّده الله بجذبه، ووارد وجده نكص العدو على عقبيه، واحترز من احتراقه بنيران مواجيده، ويبقى المريد بلا خيال في مشاهدة الجمال، فتقول نفسه لشيطانه: أين أنت من الوسوسة؟

فيقول: إني أرى ما لا يرون من عجائب مكاشفة الملكوت له، وأخاف الله أن يجعلني في جنس مجاهدته أسيرًا بأسر هيبته، وأيضًا يوسوس نفس الولي بأنها تغلب بشهواتها عليه بإعانته.

فلمّا رأى صوْلة جَدِّه، واستعانته بربه، ورميه إليها بأنفاس محبّته يَفر منه، ويترك النفس أسيرة في يده، ويقول: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون أي: أخاف الله.

بيّن الله سبحانه أن الشيطان يرى ما لا يرى الآدمي من أحكام الملكوت بعد ظهورها في هذا العالم، وذلك أنه رأى قبل هذا العالم عجائب الملكوت، ويُريه الله أنوار المؤمنين بتفريقه عنهم، وقوله:﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي: إني أخاف عذاب الله، وذلك بعد رؤية البأس، ولا ينفع ذلك، ولو كان متحققًا في خوفه ما عصى الله طرفة عين.

قال الواسطيّ: ترْك الذنوب على ضروب، منهم من تركها حياءً من نعمه كيوسف ﷺ، ومنهم من تركها خوفًا كإبليس، حين قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[(١)].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

أخبر سبحانه عن مقام امتحان القوم حيث أراهم مقامات رفيعة، وبلّغهم إلى بعضها، ولم يعرّفهم حقائقها، ولم يوفّقهم لأداء حقوقها، وشكر مراتبها، وأبقاهم في ذلك برهة من الدهر، ثم حجبهم عنها قليلًا بنعت الاستدراج، فبقوا مغيَّبين عن ملابس أنوار الملكوت،

(١) أي: إلى عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباءً منثورًا.

وآثار الجبروت، وهذا إذا كانوا غير مصطفين في الأزل بالولاية السابقة في مشيئة الحكم، بل هم مخذولون بحرمانهم الأزليّ عن كمال البلوغ إلى معالي درجات المعرفة مثل بلعام وبرصيصا وإبليس، وحاشا من كرم الله العميم، وأفضاله القديمة أنه سلب أولياءه أنوار الولاية، الذين سبقت لهم اصطفائيته، بحسن عنايته في أزله، وكنايته إلى أبده.

قال جعفر: ما دام العبد يعرف نعم الله عنده، فإنّ الله لا ينزع عنه نعمه، حتى إذا جهل النعمة، ولم يشكر الله عليها إذ ذاك جُزِي بأن تُنزع منه.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: أعلم الله المؤمنين والعارفين الاستعداد لقتال أعداء الله، وسمّى آلة القتال القوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا ينالها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يُلبسه الله لباسًا من الله بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته، ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطًا، حتى يقول في همّته وسرّه: إلهي خذهم، فيأخذهم بلحظة، ويُسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلّي قلب وليّه، ويريحه من شرور معارضيه ومنكريه، وذلك سهمٌ رُمي بقوس الهمّة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكريه، حين قال: «شاهت الوجوه»[1].

وهذا الوحي من الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

سمعت أن ذا النون كان في غزوٍ، وغلب المشركون على المؤمنين، فقيل له: لو دعوت

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٤٠٢).

الله، فنزله عن دابته وسجد، فهُزم الكفار في لحظة، وأُخذوا جميعًا، وأُسروا وقُتلوا.

وأيضًا اقتبسوا من الله قوة عن قوى صفاته لنفوسكم؛ حتى تقوّيكم في محاربتها وجهادها.

قال أبو علي الروذباري: «القوة»: هي الثقة بالله.

قيل: ظاهر الآية أنه الرمي بسهام القسي، وفي الحقيقة رمي سهام الليالي في الغيب بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحقّ، معتمدًا عليه، راجعًا عمّا سواه.

ثم بيّن أن المعول على الله ونصرته، لا على السلاح والآلات، بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: قوّاك بقوته الأزليّة، ونصرك بنصرته الأبدية، ووفق المؤمنين بإعانتك على عدوك.

قال الواسطيّ: قوّاك به، وقوّى المؤمنين بك، بل أيدك به، وأيّد المؤمنين بنصرك، ثم بيّن سبحانه أن نصرة المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم، وجمعها على محبّة الله، ومحبّة رسوله بعد تباينها بتفرقة الهموم في أودية الامتحان، بقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمع أرواحها في بدء الأمر على موارد شريعة المشاهدة، ومشارع الحقيقة، فائتلفت بعضها بعضًا في الحضرة القديمة عند مشاهدة الجليل جلّ جلاله، فارتفعت من بينهم المناكرة، وبقيت بينهم المصادقة والمحبّة والموافقة.

ثم تأكّد ذلك الائتلاف بأنه لا يكون من صنيع الخلق، ويكلّف الاكتساب، بل من إلقائه نور الإسلام في قلوبهم، وجمعه إيّاهم على متابعة نبيّه بنظره ولطفه، بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾: ألّف بين الأشكال بالتجانس والاستئناس؛ لأنّها من مصدر فطرته.

قوله:﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥] وألّف بين الأرواح بالتجانس والاستئناس من جهة الفطرة الخاصة من قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص:٧٢]، وألّف بين القلوب بمعاينة الصفة لها بإشارة قوله ﷺ :«القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»[(١)].

وألّف بين العقول بتجانسها، وأصل فطرتها التي قيل فيها: العقل أوّل ما صدر من الباري، وذلك قوله ﷺ: «أول ما خلق الله العقل»[(٢)]

انصرف من مصدر الأزليّة، وألّف بين الأسرار بمطالعتها الأنوار، واتّصال الأنوار بها

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٣).

من الغيب، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة:٣].

قيل: أي يشاهدون أنوار الغيب، فموافقة الأشباح من حيث تجانس مقاماتها في الطاعات، ورؤية الآيات، والظفر بالكرامات، وموافقة الأرواح بابتلائها من مجانسة مقاماتها في المشاهدات، وسلوكها في مسالك المراقبات والمحاضرات، وموافقة القلوب من تجانس سيْرها في الصفات.

فمَنْ شاهد القدرة يأتلف بمن شاهد بقاءه في القدرة، وكذلك مقام رؤية جميع الصفات؛ لأن سيرها في أنوار الصفات، وموافقتها العقول من تجانس إدراك أنوار الأفعال، وتحصيلها سنا الحكميات من أصول الآيات، وتدبّرها وتذكّرها فيها بأنوار الهدايات، وموافقة الأسرار من تجانس مشاربها من مشاهدة القِدم، ومطالعة الأبد، وكلّ سرّ يردُّ مشرب المعرفة، أو المحبّة والشوق، أو التوحيد، أو الفناء، أو السكر، أو الصحو يستأنس بمن يكون شربه من مقامه من الأسرار، فسبحان الذي ألّف بين كلّ جنسٍ مع جنس، رحمةً منه وتلطُّفًا.

قال ﷺ في بيان ما شرحنا من ائتلاف هذه المؤتلفات، واستئناس هذه المستأنسات في مقام القُربات قال: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف»[1]، فائتلاف المريدين في الإرادة، وائتلاف المحبّين في المحبّة، وائتلاف المشتاقين في الشوق، وائتلاف العاشقين في العشق، وائتلاف المستأنسين في الأنس، وائتلاف العارفين في المعرفة، وائتلاف الموحدين في التوحيد، وائتلاف المكاشفين في الكشف، وائتلاف المشاهدين في المشاهدة، وائتلاف المخاطبين في سماع الخطاب، وائتلاف الواجدين في الوجد، وائتلاف المتفرّسين في الفِراسة، وائتلاف المتعبّدين في العبودية، وائتلاف الأولياء في الولاية، وائتلاف الأنبياء في النبوّة، وائتلاف المرسلين في الرسالة، فكل جنس يستأنس بجنسه، ويلحق بمن يليه في مقامه.

قال بعضهم: ألّف بين قلوب المرسلين بالرسالة، وقلوب الأنبياء بالنبوة، وقلوب الصدّيقين بالصدق، وقلوب الشهداء بالمشاهدة، وقلوب الصالحين بالخدمة، وقلوب عامة المؤمنين بالهداية، فجعل المرسلين رحمةً على الأنبياء، وجعل الأنبياء رحمة على الصدّيقين، وجعل الصدّيقين رحمةً على الشهداء، وجعل الشهداء رحمةً على الصالحين،وجعل الصالحين رحمة على عامة عباده المؤمنين، وجعل المؤمنين رحمة على الكافرين.

وقال أبو سعيد الخرّاز: ألّف بين الأشكال، وغيّر الرسوم لمقامٍ آخر، فكلٌّ مربوطٌ بمنحته، ومستأنسٌ في أهل نحلته.

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣١).

وهذا معنى قول النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة»[1].

ثم أنَّ الله سبحانه امتنَّ على نبيّه بأنه حسبه في كلّ مرادٍ له منه، وحسب المؤمنين بما يريدون منه، وأفرد النبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين؛ لتبرّيهم من حولهم وقوتهم، حيث ضمن دفع العدوان عنهم بنصرته وأزليته، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾.

أولها مننتُ عليك بائتلاف قلوب المؤمنين في نصرتك، فلا تلتفت إليهم في محلّ التوحيد، فإنّي حسبك وحدي بغير معاونة الخَلق، فينبغي أن تفرد القِدم عن الحدوث في سيرك مني إليّ، وأنا حسب المؤمنين عن كلّ ما دوني، وإن كان ملكًا مقرّبًا، أو نبيًّا مرسلاً، ولا ينبغي في حقيقة التوحيد النظر إلى غيري، وإن كان مني، وفي هذه الإشارة قد أشار بقوله سبحانه في وصف كبرياء مجالسه من المقرّبين، بقوله: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:٥٢].

قال الواسطي: حسبك بالله وليًّا وحافظًا وناصرًا، ومن اتبعك من المؤمنين، فالله حسبهم.

﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗا﴾: كلّ مسامحةٍ من الله في المجاهدة تكون من كشف المشاهدة.

فالمستأنس بالله يكون خفيف القلب، خفيف البدن، خفيف الحِل، شريف الهمّة، لا يحتمل مع أنوار مشاهدته كثرة أثقال العبودية، فيخفّف الله بأوليائه رحمةً عليهم، وتلطّفًا منه عليهم؛ ليزيد روح قلوبهم من المراقبة والاستئناس من المحاضرة، ولذلك أكرم نبيّه ﷺ بأن رفع مشقة كثرة العبودية عنه حين تورمت قدماه من كثرة العبادة، بقوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:١،٢]، بعد أن كان في البداية قد أقامه في أجواف الليالي لخدمته، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:١،٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

ثم مَنَّ على أصحابه حين بلغوا هذه الرتبة، بقوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ أي: ما تفعلون بقوّتكم في المجاهدات والجهاد، فأنصُركم بقوّتي، وأريحكم بكشف مشاهداتي عن مشقّة المجاهدة، وما أفعل لكم خير مما تفعلون لأنفسكم.

قال ابن عطاء: ما في السماء لا يوجد إلا بالافتقار، وما في الأرض لا يوجد إلا بالاضطرار.

وقال النصرآبادي: هذا التخفيف كان للأمّة دون الرسول ﷺ، ومن لا تثقله حمل أمانة النبوّة كيف يخاطب بتخفيف اللقاء للامتداد، وكيف يخاطب به الرسول ﷺ، وهو الذي يقول: «بك أصول وبك أجول»[1].

ومَن كان به كيف يخفّف عنه، أو يثقل عليه؟

قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

أخبرَ سبحانه عن سرّ فطرة النفس الأمّارة التي من حيلة ما إن تميل في أكثر الأوقات إلى شهواتها، وذلك ميلان النفس، لا ميلان القلب.

أخبر عن الخطرات دون الوطنات، وحاشا أنهم يريدون عرض الدنيا، ولا يريدون مشاهدة الحقّ، ولقاء الآخرة لكن ما مسامحهم الله في حرمان تلك الخواطر لقدس أسرارهم، وطهارة نيّاتهم في معرفته وخدمته، ألا ترى كيف حذّر نبيّه ﷺ مع جلالته عن النظر إلى عرض الدنيا، بقوله: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾ [طه:١٣١] أي: تريدون الرفاهية في المجاهدة من قبيل خاطر النفس، وأنا أريد بكم كشف مشاهدة الآخرة، ووصولكم إلى مقام القربة والمشاهدة.

قال جعفر: ما يريد الله لكم خير مما تريدون لأنفسكم.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ

(١) ذكره القشيري (٣/ ٥٣).

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾: أمرَ الله سبحانه بأكل الحلال الطيب، الذي يتولّد من كشف الحلال مثل الجهاد، وذلك أن لقمة الحلال معجونة بنظر لطفه، تقوّي أبدان الصدّيقين، وقلوب المقرّبين، وأرواح المحبّين، ولا يتولد منه الأمان فيها معجونًا، وهو لطف الباري سبحانه، ويهيجه إلى طهارة القلب من الوسواس؛ لأن الحرام ميراث الشيطان، وهم يتبعون ميراثهم، ويطلبون عوضه حال الصادق وإيمانه.

قال جعفر: «الحلال»: ما لا يُعصى الله فيه، و«الطيّب»: ما لا يُنسى الله فيه.

وقال بعضهم: «الحلال»: ما أخذته عن ضرورة، و«الطيّب»: من الحلال ما أثرت به مع الحاجة والفاقة.

وقال بعضهم: «الحلال»: ما يظهر لك من غير سبب، و«الطيّب»: ما يبدو لك من السبب، وما أرى من الفرق بين الحلال والطيّب أن الحلال ما تأكل في المجاهدة، والطيب ما تأكل في المشاهدة، وأيضًا الحلال ما لم يحك الصدر، والطيب ما يروح القلب.

قال ﷺ في هذه الإشارة: «دع ما يريبك إلى مالا يريبك، واستفت قلبك ولو أفتاك المفتون»[1].

وقال ﷺ: «الإثم ما حاك صدرك»[2]

وأيضًا «الحلال»: ما يتعرّض لك من الغيب بمراقبتك وانتظارك، و«الطيّب»: ما يبدو لك من الغيب بغير مراقبتك، واستشراف نفسك.

وقال الأستاذ: «الحلال»: ما كان مأذونًا فيه، و«الحلال الطيّب»: أن تعلم أن ذلك من قِبَل الله فضل لك من قِبَله، لا استحقاق.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٨).
(٢) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٠).

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الذين شاهدوا بأرواحهم مشاهدة الأزل، حين عرّف سبحانه نفسه لها بتحقيق الخطاب، بقوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الأعراف:١٧٢].

قالوا: بلى، فصحبتها أنوار مشاهدته من الأزل إلى الأبد بنعت المعاينة، وحلاوة السماع، ومواجيد وارادت القُرب، مع اتّصال نور الغيب على السرمدية، وهاجروا عن حظوظ طباعها من الأكوان والحدثان، وجاهدوا في مكابدتها في محلّ الامتحان مع النفس، والشيطان لرضا الرحمن، وخوف الهجران، فلما اتّصفوا بهذه الأوصاف حصل لهم حقائق الإيمان والعرفان، وسمّاهم محقّقين في الإيقان، بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

ثم ذكر امتنانه عليهم بغفرانه حركات ضمائرهم في وقت الامتحان، وتقصيرهم في حقيقة العرفان، وكشف جماله لهم في مرآة البرهان، بقوله: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾: سترهم عن عين القهر، حتى لا تصل إليهم ضرب عين القهريات، ورزقهم رزق قُربه بكشف المواصلات.

قال أبو يزيد: جهاد النفس في هجرانها نزعها عن المألوفات، وإجراؤها على سبيل الله بإسقاط العلائق عن المال والأهل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهَٰجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾.

وقال بعضهم: أي: فارقوا قرناء السوء، والأعمال القبيحة، والدعاوى الباطلة.

قال بعضهم: آمنوا ببذل القلوب لله، وهاجروا ببذل الأملاك لله، وجاهدوا، وابذلوا الروح لله في سبيل الله، فمن بذل قلبه لمحبّته، وبذل ملكه لرضاه، وبذل نفسه وروحه لإعزاز دينه كان محبًّا حقيقة، ومن كان محبًّا حقيقة كان مؤمنًا حقًّا.

قال أبو بكر الوراق: فضّل أصحاب النبي ﷺ بشيئين: بصُحبتهم مع النبي ﷺ والمجاهدة معه، وهجرانهم إلى الله بالسرائر، وغُربتهم مع أنفسهم.

ألا ترى الله تعالى يقول: الذين أمِنوا من طوارق الخذلان، وهاجروا بقلوبهم في ملكوت الغيوب، وجاهدوا أنفسهم على طاعة رسوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾، حقيقة إيمانهم ما قدم من الثناء عليهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾.

بيّن سبحانه أن ميراث الأولياء والصدِّيقين من العلوم الغيبيّة، والحِكَم الغريبة،

والأنباء العجيبة، وبيان المكاشفات والمشاهدات، وأسرار الجذبات، وأحكام المواجيد والواردات، ولطائف المقامات، والسير في المجاهدات لا يصل إلا إلى المريدين الصادقين، والطالبين الموفّقين، والقاصدين المودين، والمحبّين، والمستغرقين في أنوار الأذكار، والطيّارين من المشتاقين بأجنحة الأفكار؛ لأنهم في محاضر الولايات خرجوا برسم الأرواح جميعًا من معادن الأفراح، وأظهروا من أرحام العدم بتجلّي القِدم، ومَن لم يكن عنهم من أهل الدعاوي والمترسّمين، لم يصل إليه ميراث بلابل بساتين الملكوت، وعنادل رياض الجبروت.

ولا يعرف ألحان تلك الأطيار إلا طير يطير بجناح الرسالة والمحبّة، والنبوّة، والولاية الأذى كيف وصف الله سبحانه خليفة ملكه سليمان صلوات الله عليه، حيث نشر فضائل ما مَنَّ الله عليه، بقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[النمل:١٦].

نُسب إليهم بطريق من هذه الطرق، فهو نسبهم في الولاية، وله منهم ميراث علوم الحقيقة، وأنّ الله سبحانه بيَّن في كتاب الأزل، بقوله في كتاب الله قُسّمت أرباب هذه المواريث.

قال ﷺ في هذه الإشارة: «العلماء ورثة الأنبياء»[1]، ورثوا علومهم بقدر حواصلهم وفهومهم وأحوالهم، وسرعة سيرهم في الملكوت، واقتباسهم أنوار الجبروت، أولئك هم إلهيون، ورثوا نعيم مشاهدته، وهم فيها خالدون، ثم أثنى على نفسه أنه كان عالمًا في الأزل باختياره هؤلاء الصدِّيقين بهذه الكرامات، محيطًا بعلمه على اصطلاحهم بعد إيجاده إيّاهم بوصف قبولهم هذه الكرامات، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان:٣٢]، وبقوله في تمام السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: «عليم»: بما أبدى لهم من الاصطفائية الأزليّة، وما يبدو منهم من سنيّات طاعته، والزفرات في شوقهم إلى لقائه إلى الأبد، والله أعلم.

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني، وأوّله:

سورة التوبة

❁❁❁

---

(١) رواه الترمذي (/ ٢٤٠).

فهرس المحتويات

التقديم ٣

ترجمة الشيخ المصنف ٥

نماذج من صور المخطوط ٩

مقدمة المصنف ١١

سورة فاتحة الكتاب ١٥

سورة البقرة ٢٧

سورة آل عمران ١٢٣

سورة النساء ٢٢٧

سورة المائدة ٢٩٢

سورة الأنعام ٣٤٣

سورة الأعراف ٤١١

سورة الأنفال ٥٠٨

فهرس المحتويات ٥٤٢

ʿARĀʾIS AL-BAYĀN FĪ ḤAQĀʾIQ AL-QURʾĀN

By

Rūzbahān al-Baqli

Edited by

Aḥmad Farīd al-Mizyadi

VOLUME I

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
Est. by Mohammad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

عرائس البيان
في
حقائق القرآن

تأليف

الشيخ العارف بالله تعالى

أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي

المتوفى ٦٠٦هـ

تحقيق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني

المحتوى:

أول سورة التوبة - إلى آخر سورة "المؤمنون"

HELSINGIN YLIOPISTON
HUMANISTISEN TIEDEKUNNAN
KIRJASTO
TOPELIA

دار الكتب العلمية
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

Title: 'Arā'is al-Bayān fī Ḥaqā'iq al-Qur'ān
classification: *Exegesis of the Qur'an*
Author : Rūzbahān al-Baqli
Editor : Aḥmad Farīd al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages : 1664 (3 volumes)
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب: عرائس البيان في حقائق القرآن
التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : الشيخ العارف بالله روزبهان البقلي
المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلميـة - بيروت
عدد الصفحات: 1664 (3 أجزاء)
سنة الطباعة : 2008
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى (لونان)

ISBN 2-7451-5743-4 (10 digi
ISBN 978-2-7451-5743-X (13 digi
9 782745 157430 90000

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon
No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban
Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م - ١٤٢٩ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,	عرمون ، القبة
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.	مبنى دار الكتب العلمية
Tel : +961 5 804 810/11/12	هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
Fax:+961 5 804813	فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon	ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت لبنان
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290	رياض الصلح بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

سورة التوبة

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ
شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ
حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ
لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ
فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

افهم أن الوفاء بالعقود، وعهود المعرفة والمحبّة والعبودية، لا يأتي إلا ممن شاهد الربوبيّة حين خرج من العدم بنور القِدم، ومن خلا من المحبّة، وعشق القديم فليس له عهد، والوفاء بالعقد.

وكيف يكون منهم الوفاء وهم عن ساحة الكبرياء مطرودون إلى الأبد هم من وصال الحقّ غير مقبولين، قد بَرِء الحق من أهل الرعونات الذين يعبدون أنفسهم وهواها، والدنيا وزينتها وجاهها، وقبولها ألزمهم سمات الفراق؛ لخروجهم من عهد الأزل والميثاق، ياليتهم لو أعلموا أداء الفرقة لفنوا من آلام البعد، وأي داء أشدّ من داء الفراق، وأنشد في هذا المعنى:

وكـــلُّ مُـــصيبَاتِ الـــزمانِ رأيـــتُهَا ... سِـوَىَ فُـرقةِ الأحـبَابِ هيـنةَ الخَطْـبِ

تقبَّل الله ورسوله كلّ عذرٍ سوى الشرك؛ لأنّ الشرك ظلم عظيم، حيث ساوى الحدث بالقِدم، ووقعت الفُرقة بالبداهة بعد العهود.

وما أشد ذلك لاسيّما إذا كانت بغتة على غير رقبة في أزمنة السليمة:

فتنــبّا بخــيرٍ والــدُّنا مطمَئــنّةٌ وأصــبحتُ يــومًا والــزمانُ تقلُّــبَا

كانوا في زمان العهود على رجاء الوصول، فجازتهم طوارق الغيرة، وأسقطتهم عن نيل المنية، وكأن سراج الوصل أزهر بيننا، فبهت به ريح من البين فانطفأ.

ثم أنّ الله سبحانه رأى نقض عهودهم بعد أن أمهلهم في زمان يمكن تدارك ما أفاقوا، وذلك ما قال: ﴿فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[1].

وأشفع عليهم بنقض العهد بين جمهور الخلائق، بقوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾: عرف عباده يوم عيد الأكبر يعني: يوم كانت الأرض والسماء واحدًا، بل العرش والكرسي والأرض سواءً لكشوف جلاله لنبيّه وأوليائه.

قال ﷺ: «إذا كان يوم عرفة إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة...»[2].

بأنه تعالى بريءٌ من المشركين المحجوبين بهواهم عن الله ورسوله، بريءٌ منهم؛ لأنّ الحبيب يوافق حبيبه في كل مراده، وهكذا يقتضي غيرة التوحيد.

قال ابن عطاء: كلّ من أشرك مع الله فيما لله غير الله فهو منه بريء، ثم من كرمه ورحمته ما أخرجهم عن مربع الرجاء بالكلّية، وما قطع حبال الوصال بالجملة حين استتابهم بقوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: إن رجعتم من حظوظ أنفسكم من الدنيا إلى حظوظ قلوبكم من مشاهدتي، فهو خير لكم، فإنّ الخير كلّ الخير في وصالي وقربتي.

و«التوبة» عند أهل الإشارة: ذهاب الحدثان على الجنان عند مشاهدة قِدم الرحمن.

قال أبو عثمان: التوبة مفتاح كلّ خير﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ

(١) إشارة إلى أن للنفوس في أرض البشرية سيرًا وسياحة لتكميل الأوصاف الأربعة من النباتية والحيوانية والشيطانية والإنسانية التي تتولد بازدواج الروح العلوى الروحاني المفرد والقالب السفلي المركب من العناصر الأربعة. فالنباتية تولد الماء. والحيوانية تولد الريح. والشيطانية تولد النار. والإنسانية تولد التراب فلتكتمل هذه الصفات أرخيت أزمة النفوس في مراتع الدنيا ونعيمها إلى البلاغة. تفسير حقي (٤/ ٤٨١).

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٢٦٣).

ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾: وصف الله سبحانه المخالفين بأنّ ليس لهم رعاية أهل الجنّة، ولا يحترمون أهل المعرفة؛ لقلّة معرفتهم بحرمات أهل الحضرة، وما مَنَّ الله عليهم من الكرامات السَّنيّة.

قال محمد بن الفضل: حرمة المؤمن أفضل الحرمات، وتعظيمه أجلّ الطاعات، قال الله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: بيّن الله تعالى أن من يخشى غير الله، فلا وزن له في المعرفة، صغّر الأعداء في عيون الأولياء؛ لئلا يفزعوا منهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وملأ قلوبهم من أنوار هيبته وإجلاله، وحذّرهم من المداهنة في الدين، وعرّفهم عجز الخلق بعد تعريفهم عزّته وجلاله، أي: تخشونهم، وهُم هباءٌ في بطش قهر ربوبيّتي، فأنا أهل أن تخشوا مني، فإنّي بوصف الجبروت قهّار قهر كلّ من يبارزني في محاربة أوليائي، وأضاف خشيتهم إلى نفسه بلفظ الجمع على معنى الذات والصفات، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾: اسم الله: اسم عين الجمع، وهو عين الذات والصفات.

قال بعضهم: الخشية للذات، والخوف للصفات.

قال الله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾.

وقال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

قوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ : خاطب المدّعين الذين يظنّون أن الحقيقة تحصل بمجرّد الدعوى دون التحقّق بالمعنى بالتفريع عند حسابهم وتخاييلهم، وعرّفهم أن من لم يكن باذلًا لوجوده لله، مخلصًا في معرفته بنعت زوال عوارض البشرية، والصدق في صحبته أهل الولاية، فهو على غلط من حسبانه، وفي سهو من حسابه، وذلك تمام الآية بقوله: ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ (١)، ثم حذّرهم عن دعوى المحال، وما في ضمائرهم من غبار الخيال، بقوله:﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ : جمع الله سبحانه جملًا من الخصال الحميدة من الفرائض والسنن، والإيمان والمعرفة، والثقة بوجوده فيمن يجوز له عبارة مجالس أُنس العارفين والمحبّين والعابدين والمطمئنين والمراقبين.

وتلك العمارة تكون بخلوّ قلبه عمّا دون الله عند دخوله في مساجد الله، وطهارة سرّه عن شواغل الطبيعة، وغبار الوسوسة.

قال بعضهم: عمارة المسجد بعمارة القلب عند دخوله بصدق النيّة، وحسن الطوية وطهارة الباطن لله، كما طهرت ظاهرك بأمر الله، ودخول المسجد بالخروج عن جميع الأشغال والموانع، فذلك من عمارة المساجد.

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

---

(١) بطانة، أي: جاهدوا وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي أصحاب سرٍ يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم. البحر المديد (٢/ ٣٨٨).

ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾: أنَّ الله سبحانه وصف المهاجرين في الآية المتقدّمة، بخروجهم مما دون الله لوجدان رضوانه، وبشارته بلقائه وغفرانه، وهو تعالى لمّا وجدهم أسارى سلب مشاهدته، ومقيَّدين بأسر محبَّته، ولم يرَ في قلوبهم من العرش إلى الثرى غير أنوار الإيقان والعرفان، بشّرهم بنفسه بلا واسطة، وإذا كان المُبشِّر واسطة بين الأحباب والحبيب، فهو عظيم كما قيل:

لَـــولاَ تمـــتّعُ مُقلتِـــي بلقائِـــهِ ... لوَهبـــتُهَا لمُبـــشّرِي بإيَابـــهِ

لاسيما والحبيب هو مُبشّرهم بنفسه، وبشارته خطاب مع كشف المشاهدة، ومَن يُطيق أن يسمع بشارته بوصاله مع كشف جماله أن يَبقى عند حُسن شهوده، ولذّة خطابه، وهذا كما أنشد:

تـــراءيتَ لِي بالغـــيبِ حتَّـــى كَـــأنَّما ... تُبَـــشرنِي بالغـــيبِ أنَّـــكَ بالكَـــفِّ
أراكَ وبِي مِـــنْ هَيبَتِـــي لـــكَ وَحـــشةٌ ... فتؤنِـــسُني باللطـــفِ مـــنكَ
وتحيَـــي محـــبًّا أنـــتَ فِي الحـــبِّ حـــتفهُ ... وذا أعجـــبُ كـــونُ الحـــياةِ مـــعَ الحـــتفِ

بشّرهم برحمته، ورحمته كشفت جماله بلا حجاب، وهو أول درجة العارفين، ثم بشّرهم بالرضوان، وهو الوصال بنعت المؤانسة بلا كدورة الهجران، ثم بشرهم بدخولهم في جنات قربات الصفات والذات، بنعت تحصيل علوم الأزال والآباد من رؤيتها، والبقاء في نعيمها بنعت الدواء، وأي نعيم، وأي جنّة أشرف من تجلّي جلاله، وجماله لعرفانه.

بشّر المؤمنين بالرحمة، وبشر المطيعين بالجنّة، وبشر العارفين بالرضوان والوصلة، وأيضًا بشر التائبين بالرحمة، وبشر الصادقين بالمشاهدة، وبشر المحبّين بالمجاورة.

قال أبو عثمان: هو الذي يستجلب رضوانه، ورضوانه يوجب مجاورته،ومجاورته توجب النعيم الدائم.

قال الله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾.

ويقال: إن القلوب مجبولة على حب من يُبشّر بالخير، فأراد الحق سبحانه أن تكون محبّة العبد

له سبحانه على الخصوص، فتولّى بشارته بعزيز خطابه من غير واسطة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾: أخبر سبحانه أن الأولياء والأصفياء لا تخلو قلوبهم من قوارع خطرات الامتحانية، مع شرفهم بالولاية، واصطفائيتهم بالكرامة؛ ليعلم الحقّ أن ولايتهم غير مكتسبة بالأعمال، وهذا تعريفه تعالى مواضع نعمه لهم، واختياره لهم المنازل الرفيعة في الأزل، ومعنى الآية أي: حيث تبرأتم من حولكم وقوّتكم، وافتقرتم إليّ، وفررتم مني إليّ، ونصرتكم على عدوّكم بحولي وقوّتي حين شاهدتم عزّة أزليتي، وجلال أبديتي، وحين نظرتم إلى حولكم وقوتكم، واحتجبتم بها عن مشاهدة قدرتي تركتكم مع أنفسكم.

قال جعفر: استجلاب النصر في شيءٍ واحد، وهو الذلّ والافتقار والعجز، لقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾: لم تقوموا فيها بأنفسكم، ولم تشهدوا قوّتكم وكثرتكم، وعلمتم أن النصر لا يوجد بالقوة، وأن الله هو الناصر المُعين، ومتى علم العبد حقيقة ضعفه نصره الله، وحلول الخذلان بشيءٍ واحد، وهو العجب.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾، فلما عاينوا القدر من أنفسهم دون الله، رماهم الله بالهزيمة، وضيّق الأرض عليهم.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾: موكولين إلى حولكم وقوّتكم وكثرتكم، فلما رأى تقصيرهم بصرف عيونهم عن مشاهدة الله إلى أنفسهم طرفة عين، وندموا على ذلك، ورجعوا بعد الامتحان إلى ساحة الرحمن ألبسهم الله أنوار قربه، وكساهم سنا قدرته وهيبته، ولذّت قلوبهم بحُسن عنايته حتى قويت بها في احتمالها أثقال عبوديته[1]، وبيّن ذلك بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: والإشارة فيه إلى أن قلب نبيّه ﷺ كان لم يخلُ أيضًا من شواهد امتحانه؛ لأنّ الحق حق، والخلق خلق؛ ولذلك قال: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

كان عليه الصلاة والسلام في مثل ذلك يقول: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[2].

﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: زيادة أنوار كشف مشاهدة الله له حين خاف من مكر الأزل، فأراه الله اصطفائيته الأزلية، وأمِنه من مكره لا أنه ينظر من الحقّ إلى نفسه طرفة عين، لكن إذا غاب في بحار القِدم لم ير للحدث أثرًا، ورأى الحدثان متلاشية في قبض بطش العظمة، ففزع منه به، فآواه الله منه إليه حتى سكن به عنه سكينته بالدنو، حيث قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]، وثباته بدنوّ الدنو، بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٩]، فلمّا وصفه بالمرتبة الأعلى، والمشاهدة الأدنى، وسكينة قربه الأصفى، زاد في وصفه حين لم يرَ في مشاهدة القِدم ما خرج من العدم، بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] سكينته كانت من رؤية الذّات، وسكينة المؤمنين من رؤية الصفات.

قال بعضهم: السكينة التي أنزلها الله على رسوله ﷺ هي التي أظهر عليها ليل المسرى عند سدرة المنتهى، فما زاغ، وما طغى، بل السكينة إقامة مقام الدنوّ، بحُسن الأدب ناظرًا إلى الحقّ، مستمعًا منه، مثنيًا به عليه، بقوله: «التحيات لله»[3].

والسكينة التي نزلت على المؤمنين، هي سكون قلوبهم إلى ما يأتيهم به المصطفى ﷺ من

---

(١) قال القشيري: يعني نَصَرَكم يومَ حُنَيْن حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب، وافترت أنياب الكَرَّةِ عن نِقاب القَهر فاضطربت القلوبُ، وخانت القوى أصحابَها، ولم تُغنِ عنكم كَثرتُكم، فاستخلص اللهُ أسرارَكم - عند صدق الرجوع إليه - بِحُسْنِ السكينةِ النازلة عليكم ، فَقَلَبَ اللهُ الأمرَ على الأعداء، وخَفَقَتْ راياتُ النصرة، ووقعت الدائرةُ على الكفار ، وارتدَّتْ الهزيمةُ عليهم فرجعوا صاغرين.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (١/ ٢٨٦)، ومسلم (١/ ٣٠١).

وعد ووعيد، وبشارة وحكم.

وقيل: السكينة المقام مع الله بفناء الحظوظ.

قال الأستاذ: السكينة استحكام القلب عند جريان حكم الرب بنعت الطمأنينة، وبخمود آثار البشريّة بالكلّية، والرضا بالبادي من الغيب من غير معارضةٍ واختيار.

ويقال: السكينة الفرار على بسط الشهود بشواهد التأديب، بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقّة، ولا تحرك عرق بمعارضة حكم، وذكر تمام نعمه بإنزال الملائكة عليهم بقوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

وفي لطيف الإشارة «الجنود»: روادف آثار قوّة تجلّي الحقّ بغير الاحتجاب، ونعت الانقطاع.

قال الأستاذ: الجنود ههنا وفود اليقين، وزوائد الاستبصار، ثم إن الله سبحانه وصف من كان مجبولًا في الأزل بسِمة السعادة، وبقي في حجاب النكرة، يخرجه بأنوار سوابق حكمه من ظلمات قهره، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: كشف لهم ما غاب عنهم من أنوار معدن الغيب، وهداهم بها إلى محلّ شهود الحضرة، ومَنَّ عليهم بكشف المشاهدة، وأوصلهم إليه بالرحمة، وسترهم بوصله عن غير الفرقة، وذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ما أكرم مولانا تعالى سبقت رحمته ومغفرته لعباده في الأزل، مع علمه بما يبدو منهم من العصيان، ولم يكن عليهم غضبًا، ولم يسلب منهم غفرانه، سبحانه ما ألطفه سبحانه.

قال الأستاذ: ردَّهم من الجهل إلى حقائق العلم، ثم نقلهم من تلك المنازل إلى مشاهد اليقين.

ثم إن الله أعلمنا بفضله أن مَنْ لم يكن خاطره مطهرًا بمياه التوحيد من بحر التفريد من أدناس الوساوس، ورياء الناس لا يصلح لمقام القُرب والاستئناس، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾: بيّن أن من بقي في قلبه في عبودية خالقه نظر إلى غيره، أو إلى نفسه لا يجوز أن يدنو من مجالس أوليائه، فإنّ صحبته تشوّش خواطرهم، وتنجّس بنَفَسه أنفاسهم، وحذّر العارفين أيضًا من صحبة المخالفين؛ لأنهم غرائس الله، ولا يجوز أن ينظر إليهم.

قال الجنيد: الصوفية أهل بيت لا يدخل فيهم غيرهم، والإشارة فيه أيضًا أن من عكس فيه آثار قهر القِدم، أوقعه في بحر رؤية النفس، وتلك الرؤية نجاسة بقيت في قلبه، ولا يقرب بها من مواقف القدسية من عالم الملكوت والجبروت.

قال أبو صالح حمدون: المُشرك في عمله، مَن يحسّن ظاهره لملاقاة الناس، ومجاورتهم

ويُظهر للخلق أحسن ما عنده، ويَنظر إلى نفسه بعين الرضا عنها، بما أظهر عليها من زينة العبادات، وينجُس باطنه بمخالفة ما أظهره من الرياء والشهوات، وسائر المخالفات، فذاك المشرك في عبادته، النجس باطنه، ولا يصلح لبساط القدس إلا المقدّس ظاهرًا وباطنًا، سرًّا وعلنًا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ومن كان نجسًا، فإن الأمكنة لا تطهّره، وستر الظاهر عليه لا ينظّفه.

وقال الأستاذ: فقدوا طهارة الإسرار بماء التوحيد، وبقوا في قذرات الظنون والأوهام، فمنعوا قربان المساجد التي هي مشاهد القُرب.

ثم إنَّ الله سبحانه وعد العارفين بأن يكسوهم كسوة غنى بقائه؛ حتى لا يحتاجوا للنظر إلى سواه بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾(١): إذا أخرجتم أهل الدنيا من بين سفير الأعلى من المقرّبين الذين نعوتهم الفقر، وسماتهم التصوُّف والعبادة، ويخطر على قلوبكم انقطاع مواساتهم لكم، فأنا أغنيكم عمّا سواي، وأرزقكم من غير وسيلة تحتجبون بها عني.

قال الأستاذ: توقُّع الإرفاق من الأسباب، من قضايا انغلاق باب التوحيد، ومَن لم يفرد معبوده بالقسمة يبقى في فقر سرمدي.

ويقال: من أفلح بعفو وكرم مولاه، واستمطر سحاب جوده غناه عن كلّ سببٍ، وكفاه كلّ تعب، وقضى له كلّ سؤلٍ وأربٍ، وأعطاه من غير طلب.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أي: فقراً بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام ، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من عطائه وتفضله بوجه آخر. وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكّة، ثم فتح عليهم البلاد ، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن، وقيده بالمشيئة؛ لتنقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام. البحر المديد (٢ / ٣٩٤).

يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾: عبر مَن بقي في رؤية المقتدى عن رؤية الحقّ، وإن كان وسيلة منه، فكان في إفراد القِدم من الحدوث إلى النظر إلى الوسائط شرك، وتصديق ذلك تمام الآية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾: غيرة الوحدانية ما أبقت في البيْن غير أمن الشواهد والآيات، وجميع الخلق.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١]، ولما رأى ﷺ غيرة القِدم على شأن استهلاك الغير، زجر من مدحه، وتجاوز في المدح، فقال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح»[1]، وتحرّك في تفريد سرّه من رفع الحدثان، حين تكلّم في الصحو بعد السكر، وأخبر عن فناء الكل في الكل، وقطع مسالك الصورة عن إفراد القِدم، بقوله ﷺ: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»[2]، بعد أن كان مأمورًا بمتابعة الخليل عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٣٢].

قال أبو يزيد في «مقالة التوحيد»: إيّاك أن تلاحظ الحبيب والكليم والخليل، وتجد عند الله سبيلًا.

وسُئل الشبْليّ عن وصف جبرائيل عليه السلام، فقال: والله ما خطر على قلبي منذ شهر أنّ الله خلق جبرائيل، وأخبر عن فناء شهوده في شهود الله.

قال بعضهم في هذه الآية: سكنوا إلى أمثالهم، فطلبوا الحقّ من غير مكانه، وطرق الحقّ واضحة لمَن كمل بنور التوفيق، وأبصر سبل التحقيق، ومن عمي عن ذلك كان مردودًا عن طريق الحقّ إلى طرق الضالين من الخَلق.

وقد وقع أنهم معيّرون وموبّخون بقلّة عرفانهم أهل الحقائق، وركونهم إلى أهل التقليد، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد في التفريد، وهكذا شأن من اقتدى بالزرّاقين من أهل السالوس المتزيّنين بزيّ المشايخ والعارفين المتحققين، وتخلّف خلف الجامعين للدنيا، الذين يقولون: نحن أبناء المشايخ، ونحن رؤساء الطريقة، يضحك الله الدهر ملجأهم حيث علموا أن الولاية بالنسب، حاشا أن مَن لم يذق طعم وصال الله، وقلبه معلّق بغير الله يكون

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٧١).

(٢) تقدم تخريجه.

من أولياء الله.

قال الجنيد: إذا أراد الله بالمُريد خيرًا، هداه إلى صُحبة الصوفية، ووقاه من صحبة القراء، ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم، ولم يتعرضوا لأولياء الله، ولم يقصدوا إسقاط جاههم يكفيهم شقاوتهم، لاسيما ويطعنون الصدّيقين والعارفين، قال الله تعالى في شأنهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾: كيف يُطفئون نيّرات حسناتهم، وأنوار شموس الصفات، التي تبرز من جباه وجوههم، ولآلِيء خدودهم، وأصلها ثابت في أفلاك الوحدانية، وسماوات القيّوميّة، ويزيد نورهم على نور؛ لأنه تعالى بلا نهاية، ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: إنّ الله سبحانه سنّ سنّة أزليّة، ألّا يجد أحدٌ سبيله إلّا يفيض له أستاذًا عارفًا بالله وبعبوديته وربوبيته، فيدلّه إلى منهاج عبوديته، ومعارج روحه وقلبه إلى مشاهدة ربوبيته، ويكون هو واسطة بينه وبين الله، وإن كان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، بغير علّة، ولا سبب جعله واسطة للتأديب، لا للتقريب، وصيره شفيعًا للجنايات، لا شريكًا في البدايات، هُداه نور القرآن، ودينه حقيقة البيان مع إظهار البرهان.

قيل: جعل الله الوسائط طريقًا لعباده إليه، وبعثهم أعلامًا على الطرق، ونورًا يهتدون به، وعَمَّر بهم سبيل الحقّ، وحقيقة الدين، قال الله تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: وَبَّخ الله البخلاء بقلّة الإنفاق، وخروجهم عن سبيل الوِفاق، ولا يكون ذلك إلّا من مواريث النفاق، وتأثير الفراق.

قال بعضهم: من بخل بالقليل من ملكه، فقد سدّ على نفسه باب نجاته، وفتح على نفسه طريق هلاكه.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا

يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾: جعل الله أيام الفراق ممدودة، وجعل أيام الوصال بلا حساب، ولا انقطاع، وجعلها على التأبيد.

قال الله تعالى: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة:٣٣]، وجعل لأيام العبادة منقطَعًا، وجزاؤها بمشاهدته لهم لم يجعل له منقطعًا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠]: حثّ بهذه الآية المشتاقين إلى الفرح بوصاله، وزيادة شوقهم إلى كشف جماله، حيث جعل أيام التفرقة القليل، وحُسن وصالهم الخليل:

دنَـــا وصـــالُ الحبـــيبِ واقـــتربَا   وطـــربًا للوصـــالِ وأطـــربَا

كان في الكتاب الأزلي لأيام العبودية حصر؛ لأنها زمان الامتحان، وهي مِن أوصاف الحدثان، فإذا خرجت من أماكن الكونين لا يبقى إلا أنوار جمال الرحمن المنزّهة عن تغاير الملوان، وعن الانقلاب والدوران، وحدود المكان، ومضيّ الزمان، لا يكون هناك إلا كشف جمال الأزل بجلال الأبد، وكشف جلال الأبد بجمال الأزل ليس عنده مساءُ غروبٍ بالفناء، ولا صباح علل البداء.

وقت العارف في كشف جمال وجهه ليس وقت الأزمنة، بل تسرمد استغراقه في بحار القدمية، وطيرانه بأجنحة البقاء في هواء الأبديّة، ولا يجري عليهم طوارق الزمان، ولا علّة الحدثان، ما أطيب أيام الوصال للمشاهدين كشف الجمال، وطوبى لأعين قوم أنت بينهم فهن من نعمة من وجهك الحسن .

والإشارة في قوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كشفَ أوقات السرمدية بنعت تجلّي الأزليّة لوقت مرور القضاء والقدَر، اليوم عبارة عن طلوع الشمس وغروبها، وليس في جلال القِدم مشرق الحدث، ومغربة المشارق هناك آزال، وآزال الآزال، والمغارب آباد وآباد الآباد، الدهر الدهار، والفلك الدوّار فانيان في قدم الرحمن، أوجد من العدم وقتاً بقدر يومٍ، فخلقَ الخَلق في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[١] وجعل بكرمه ورحمته منها شهور القربات، وزيادةً للمدانات، ومناسكًا للعبادات، وشرّفها لكشف المشاهدات، ومنعهم فيها عن التمتُّع والتنعُّم، وأمرهم فيها بالتعطُّف؛ وأمهل فيها الخارجين من السنّة؛ لتأهُّبهم أهبّة الأولية والأبرار إلى جوار الرحمة، وما سواهما من الأيّام والشهور، رفاهيةً لأهل الأنس، ومطايبة لأهل البسط، وكذلك تلك الحرمات على أهل القُربات، وقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ إلى الطريق المستقيم إلى الله، وشهادة وصال الله، وكشف مشاهدة الله، وحذّرهم فيها عن مخالفة الله، بقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، بمنعها عن المجاهدات، وطلب المشاهدات، وإعطائكم حظها من الشهوات.

قال بعضهم: ظلم نفسه من أطلق عناقها في طرق الأماني من اتّباع الشهوات، وارتكاب السيئات، والتخطّي إلى المحارم.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ ذمَّ الله قومًا عموا عن رؤية ما بدا لهم من نفوسهم من المخاييل الشيطانية التي هيجتهم إلى الاستبداد بآرائهم الفاسدة في استبداعهم طهي الباطل، وهم رأوها من أنفسهم مستحسنة، من قلة عرفانهم بطريق السنة الإلهية.

قال الواسطي: خيرهم على ما فيه هلاكهم، ولم يعذبهم، بقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.

وسُئل جعفر الصادق عن قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.

قال: هو الرياء، ثم حث المؤمنين بترك الدنيا ولذّتها؛ لأجل مشاهدته، وحسن رضاه بقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: اخترتم موضع الكرامات، وظهور الآيات عن كشف المشاهدات.

قال يحيى بن معاذ: الناس من مخافة النصيحة في الدنيا وقعوا في فضحية الآخرة.

قال الله: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾،ثم وصف الدنيا بالقلة والدناءة، ووصف الآخرة بالشرف والمنزلة، بقوله:

﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما وجد العارف الصادق في الدنيا من القربة والمعرفة، والوجه والحالة والفضل والكرامة في جنب ما تجده من الحضرة بعد

---

(١) لَمّا عَلِم أنهم لا يُداوِمُون على مُلازَمَةِ القُرْبِ أَفْرَدَ بعضَ الشهور بالتفضيل، ليخُصُّوها باستكثار الطاعة فيها. فأمّا الخواصُ مِنْ عبادِه فجميعُ الشهورِ لهم شعبانُ ورمضانُ، وكذلك جميع الأيام لهم جمعة، وجميع البقاع لهم مسجد، تفسير القشيري (٣/ ٩٥).

وصوله إليها، وما يرى من وصال الحق، وكشف جماله أقل من قطرة في البحار.

قال النهرجوريّ: الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب واحد، وهو التقوى، والناس سفر.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾: مَنْ كان مصطفى بتأييد الأزل لا يحتاج إلى نصرة أحد غير الله، ومن أعزه الله بعزته، جعله ناصرًا له، وهو مستغن عن نصرته، وناصره تشرف نصرته، أو نصرة الخلق قائم بنصرة الحق، ومن انقطع إلى الله من الخلق، أعانه الله على كل همّه، ويصل إلى كل نعمة.

وصف تعالى نصرته لنبيه ﷺ حين أوى إليه في دخوله مع صاحبه في الغار، بكشف جماله، وإبراز نور منه لصاحبه، أي: من كان قادرًا بنصرة من كان مخفيًا وراء نسج العنكبوت على أعدائه بلا مددكم ولا عددكم، وأيضًا هو ينصره، ويجعله غالبًا على كافة الخلائق مما أعطاهم من راية نصرة الأزلية، وأعلام دولة الرسالة والنبوة.

قيل: نصره الله حيث أغناه عن نصرتكم، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة:٦٧]، ومن كان في ميدان العصمة، كان مستغنيًا عن نصرة المخلوقين، ألا تراه لما اشتد الأمر كيف قال: بك أصول فإنك الناصر والمُعين.

ومعنى قوله: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾(١) إشارة إلى خاصية الصدّيق لصحبته الحبيب، إذ كان مشرب من مشارب بحار نبوته، وسواقي أنهار رسالته التي جرت

---

(١) رُوي أن المشركين طلعوا فوق الغار يطلبون رسول الله ﷺ حين فقدوه من مكة، فأشفق أبو بكر ﷺ على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «ما ظَنُّكَ باثنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهما» فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت نسجت عليه. البحر المديد (٢/ ٤٠٤).

من قلزم القدم.

ولولا تلك الأهلية لما كان فردًا في الصحبة، وكان الصدّيق في منزل ما كان محمد، وكان الله ولم يكن معه شيء من شقائق قدسه، وبرق من بروق أنوار أنسه، خرجا من تلك الأنوار ودخلا بها في الغار، وعرّف الحبيب الصدّيق خصائص المعيّة معه حين ورد عليه طوارق الامتحان، وأخرجته من رؤية الحدثان، بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: لا يحزن بتغير الاصطفائية، وانكسار حصون العصمة، فهو معناه بمعنى القدرة والعلم الأزلي، وعناية الأبدية، وظهور مشاهدته من حيث القلب والروح والعقل، بوصف المناجاة والمداناة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾.

قال: في محل ا القرب في كهف الأنوار في الأزل.

وقال في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾: ليس من حكم من كان الله معه أن يحزن.

وقال الشبليّ: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾: تشخصه مع صاحبه، ووحّد الواحد بقلبه مع سيّده.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ معناه: إن الله معنا في الأزل حيث وصل بينًا، ووصل الصحبة، ولم يتفضل.

قيل في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾: كان حزن أبي بكر ﷺ؛ إشفاقًا على النبي ﷺ.

وقيل: شفقة على الإسلام أن يقع فيه وهن.

وقال فارس: إنما نهى عن الحزن؛ لأن الحزن عنه، وإنما هو تعريف أن الحزن لا يحل بمثله؛ لأنه في محل القُربة.

وقيل: أخرجتهما الغيرة إلى الغار عليهما الحق، فسترهما عن أعين الخلق؛ لأنهم كانا في مشاهدته يشهدهم ويشهدونه، ألا ترى كيف يقول ﷺ لأبي بكر ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1] مشاهدًا لهما، وعونًا وناصرًا.

ويقال في قوله: ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ من تلك النصرة أبقاه إياه فيها أبقه به من كشوفاته في تلك الحالة، ولولا نصرته لتلاشى تحت سطوات كشفه.

ويقال: صحيح ما قالوا للبقاع دون ما خطر ببال أحد، أنّ ذلك الغار يصير مثوى ذلك السيد ﷺ؛ ولكن يختص بقسميه ما يشاء، كما يختص برحمته من يشاء.

ويقال: عُلقت قلوب قوم بالعرش، فطلبوا الحق منه.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٣٧)، ومسلم (٤/ ١٨٤٥).

وهو تعالى يقول: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أنه سبحانه تقدس عن كل مكان، ولكن هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد، وينشد:

يَـا طالـبَ اللهَ فِي العـرشِ الـرفيعِ بـهِ لاَ تَطلُـبِ العـرشَ إن الحـبَّ فـارهُ

لي نكتة عجيبة في قوله تعالى: ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ في قوله ﷺ لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ هذا نفى الاتحاد بالوحدانية، كما نفى عن عيسى وأمه حين زعموا النصارى أن الله ثالث ثلاثة: فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[المائدة:٧٣] نفى الإلوهية عن الروح والصدّيقية، كما نفى هاهنا عن سيد المرسلين، وسيد الصدّيقين حتى لا يظن ظان أن من العرش إلى الثرى لم يكن في ساحة الكبرياء والأزلية أثر؛ لأن الألوهية القديمة ممتنعة عن الانقسام والافتراق والاجتماع، وتحقيق ذلك قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ وتلويح ذلك نفي الاتحاد، وإظهار الانبساط، ودليل الإشارة بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أثبت الحزن في طلب أبي بكر ﷺ، وذلك الحزن حزن فوت الحال، والوقت في زمان البأس والابتلاء، وعرف ﷺ أن الوقت والحال لا يفوت عنا، فهو تعالى معنًا بالكشف والوقت والحال، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، ثم زاد في حدث الكشف والوصال حيث حزن صاحبه لأجلها بقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ إشارة أن سكينته نزلت من عند الله على قلب محمّد ﷺ، وتلك زيادة وضوح الكشف والمداناة، النبي ﷺ كان مستقيًا في الأحوال كلها، وما حزن لأجل الفوت، ولكن أنزلت السكينة عليه؛ لأجل زيادة استقامة قلب الصدّيق، وذهاب الحزن عنه؛ ليستضيء نورها من جمال النبي ﷺ، ولو أنزلت على الصدّيق بغير واسطة النبي ﷺ؛ لذاب تحت إشراق سلطان أنوار القِدم؛ لأن تلك البرهاء في تلك الأوقات لا يحتملها إلا المرسلون من أولي العزم، كما قال: أنزل سكينة أبي بكر على محمد، وإن كان البهاء راجعًا إلى الله سبحانه، ويحتمل أن السكينة نزلت على أبي بكر، فأما النبي ﷺ فكانت السكينة عليه، قيل ذلك.

قال بعضهم: السكينة لأبي بكر ما ظهر له على لسان المصطفى صلوات الله عليه من قوله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1].

قال بعضهم: السكينة سكون القلب إلى ما يبدو من مجاري الأقدار.

وقال ابن عطاء: يحتمل أن أبا بكر لم يكن محزونًا، ولكن النبي ﷺ لشفقته عليه، حذر ما

---

(١) تقدم تخريجه.

يجوز أن يكون في ذلك الحال، فقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: دعا الرسول ﷺ بأخص أسمائه وأرفعها، وقدّم اسمه على صفتها.

وقال موسى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء:٦٢]: فدعاه باسم التربية، وهو من عموم الأسماء، وقدّم اسمه على اسم ربه، فقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾: فلذلك عصم أمة محمد ﷺ عن الشرك، وابتلى أمة موسى ﷺ بعبادة العجل.

وههنا أن موسى ﷺ كان غيورًا، فلم يرَ في البين أحدًا من غيره على جّه، فكان النبي ﷺ خرج من حد الغيرة هاهنا؛ لأنه كان غنيًّا بالمشاهدة، وكان موسى في محل الافتقار إلى المشاهدة.

وقال الكليم: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾.

قال الحبيب ﷺ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، فوقع موسى في رؤية الصفات، حيث سمى بالرب، ووقع النبي ﷺ في رؤية الذات بما سماه باسم الجمع، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وزاد عليه نعمته بقوله:

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هذه الجنود جنود عساكر تجلّي جمال الأزل، أُنزلت على أسراره؛ لأنها تطيق حملها، فإن في الكون لم يكن لتلك الجنود محل قبولها.

وقال جعفر في قوله: ﴿بِجُنُودٍ﴾ اليقين والثقة بالله، والتوكّل عليه.

ويقال: كان الرسول ﷺ ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ بظاهر شبحه، ولكن كان مستهلك الشاهد في الواحد بسره،ثم وصف منّته سبحانه على الكل، بإذهابه ظلمة الطبائع، وإخراجه أنوار الشرائع، بقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ جعل الدعاوى الباطلة فانية تحت أنوار التوحيد، والحقيقة كلمة انفراده بفردانيته، وعلوّه بنعت التنزيه والتقدير عن ظنون خلقه، بأنه عزيز بعز الكبرياء، وحكيم في اختصاص أوليائه بكشف البقاء، ثم إن الله سبحانه حث الجميع على التسارع ببذل القلوب والأرواح والأشباح إلى ميادين الوحدانية والفردانية؛ لرؤية جماله، وكشف جلاله، وإدراك وصاله، بقوله:

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا إلى أبواب الأزل خفافًا بالعقول القدسية، وثقالًا بالقلوب الملكوتية، وأيضًا خفافًا بالأرواح الروحانية، وثقالًا بالقلوب السماوية، وأيضًا خفافًا بالإرادات الصادقة، وثقالًا بالمحبة المفرطة، وأيضًا خفافًا بالإيمان، وثقالًا بالإيقان، وأيضًا خفافًا بالأنس، وثقالًا بالقدس، وأيضًا خفافًا بأنوار المودة، وثقالًا بأمانات المعرفة،

وأيضًا خفافًا بالتجريد عن الحدثان، وثقالًا بأنوار التوحيد إلى جمال الرحمن.

وأيضًا خفافًا بنعوت الافتقار، وثقالًا بكسوة غنى العزيز الغفار، وأيضًا خفافًا بالقناعة، وثقالًا بالتوكّل، وأيضًا خفافًا بالبسط، وثقالًا بالقبض.

قال ابن عطاء: خفافًا بقلوبكم، وثقالًا بأبدانكم.

وقال أبو عثمان: خفافًا وثقالًا في وقت النشاط والكراهية، فإن البيعة على هذا وقعت. كما روي عن جرير بن عبد الله قال: بايعنا رسول الله ﷺ على المنشط والمكره.

وقال بعضهم: خفافًا إلى الطاعات، وثقالًا إلى المخالفات، وجاهدوا بأموالكم للفقراء ألا تمنعوهم حقوقهم، وجاهدوا بأنفسكم الشياطين؛ كيلا تستولي عليكم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إن من سنّة الله سبحانه إذا أراد أن يفتح كنزًا من كنوز غرائب علمه، ونوال قربه، ولطائف وصلته على أحد من أحبائه وأصفيائه وأنبيائه، أوقعهم في محل الامتحان، وأجرى عليه زلة من زلل الحدثان؛ حتى يضيق صدره بالغيبة، ويذوق قلبه مرارة الفُرقة، وتذوق روحه من الندامة، ويطيح عقله من حشمة العتاب، ويزول شبحه من دار الاحتجاب، فيطلع الله شمس عزة جلاله من مطلع قلبه، ويتنسم صبح الوصال من مشرق روحه، وتبدو أنوار الصفات من روازن أسراره ، وتشرق سبحات الذات في أرض فؤاده، وتتنور مجامع عقله بظهور سنا أفعاله، فيرى العبد في البسط بعد القبض مشاهدة بديهية، ووصلة أبدية، وخطابًا سرمديًا يطير بأنوارها في الآزال والآباد، وتصير ذلته زلفى، وذنبه كشف وصلة، ويقابل الله من ذنبه لجميع حسنات العالمين؛ لأنه مصطفى في الأزل بمحبته، ومجتبى بنوال قربه في القِدم، وتكون سيئاته حسنات، وزلّاته زلفات؛ لأنه مختار الله في أرضه، وعروسه بين عباده، جميع حركاته تقع حسنة؛ وأفعاله تكون عند الله مستحسنة، وهكذا شأن الأحباب، المحب يعتذر لزلة حبيبه، ويعشق على غيرة معشوقه؛ لأن من كان حسنًا، فما يبدو منه أيضًا يكون حسنًا:

فإنْ نطقتْ جَاءتْ بكلِّ ملاحةٍ ... وإنْ سكتتْ جَاءتْ بكلِّ جميلِ

ملاحته، وحسن وجهه يعتذر لذنبه في وجه شافع يمحو إساءته عن القلوب بالمعاذير:

وإذَا الحبيبُ أتَى بذنبٍ واحدٍ ... جَاءتْ محاسنهُ بألفِ شفيعِ

مَا حطَّكَ الواشونَ عنْ رتبةٍ ... عندِي ومَا ضَرَّكَ مغتابُ

كأنهمُ أثنُوا ولمْ يعلمُوا ... عليكَ عندِي بالذِي عابُوا

ولما سبقت الاصطفائية له قبل وقوع المعاملات، سبق منه العفو له قبل الزلّات. كان ﷺ من عظمته في المعرفة إذا جرى عليه حكم له موقع العتاب، خاطبه الله قبله بعفو وتلطف حتى لا يفني وجوده في رؤية جلاله وهيبته من حدة الحياء والاحتشام، ولا يكون إلا لمن كان معرفته كاملة، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه»[1].

قيل: إن الله إذا عاتب أنبياءه وأولياءه، عاتبهم ببر قبلها، أو بعدها ألا تراه يقول: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾.

وقال الحسين بن منصور- قدّس الله روحه-: الأنبياء مبسوطون على مقاديرهم واختلاف مقاماتهم، وكلٌ يطيع حظه باستعمال الأدب بين يدي الحق، وكلٌ أُدّب على ترك الاستعمال، فمنهم من أنس قبل التأديب، ومنهم من أنس بعد التأديب، على اختلاف مقاماتهم، فأما محمد ﷺ، فإنه أنس قبل التأديب، إذ لو أنس بعد التأديب لتفطّر لقربه من الحق، وذلك أن الحق تعالى أمره بقوله: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور:٦٢]، ثم قال مؤدبًا له على ذلك ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ لذاب، وهذا غاية القرب.

وقال تعالى حاكيًا عن نوح ﷺ: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود:٤٥]، مؤدبًا له، وأنسه بعد التأديب ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦] إلى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ولو لم يؤنسه بعد التأديب لتفطّر، وهذا مقام نوح ﷺ، وليس المفضول بمقصّر، إذ كل منهم له رتبة من الحق، ولي نكتة من عجيب الخطاب أن لفظ المسامحة والأنس، جرى على فعل الماضي لا على فعل المستقبل، وكلامه تعالى أزلي أي: عفا الله عنك في الأزل، قبل وجود العمل ففرح فؤاده بعفوه السابق له، ثم استعمل الانبساط معه بموضع الاستفهام من الأمر، بوصف الاستئناس والبسط، ولو قال: إن الله يعفو عنك، لكان مستوحشًا في موقع الخطاب؛ لأن المرجو ليس كالمدرك.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (ص٢٩٤).

فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾:وصف الله الولاية والنبوة أنهما شقيقان، وما وقع الأمر من الغيب، إلا والولي والنبي يقبلانه بالإيقان والعرفان، وكيف يكون الولي مخالفًا للنبي، وهو مخاطب بسر الإلهام وبمتابعته.

قال الواسطي: كيف يستأذن من هو مأذون له الإذن، وإنْ قام بإذن، وإن قعد قعد بإذن، فجريان الحركات منه تظهر سوابق المأذون له فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾: بيَّن الله سبحانه أن إرادة العباد لا تقع إلا بإرادته، حيث يقول: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾: نفى عنهم صدق الإرادة، ولو كانوا صادقين في الإرادة؛ لاستجابوا لبذل الوسع والطاقة، ولكن سقمت إرادتهم، فحصلت دون الخروج بإرادتهم، كذلك لو صح منك الهوى أرشدت للحيل.

قال جعفر: لو عرفوا الله؛ لاستحوا منه؛ ولخرجوا له عن أنفسهم وأزواجهم وأموالهم؛ بذلًا لأمر واحد من أوامره.

وقال بعضهم: لو طلبوا التوكل؛ لسلكوا سبيل الثقة بالله؛ فإنها الطريق إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾: وصف أهل النفاق الذين لدغتهم أفاعي القرب بنعت عدم الترياق من مفرح الوفاق، دعاهم بلسان الأمر إلى العبودية، وأجرى شقاوتهم في سابق أحكامه الأزلية، كانوا مخاطبين بالعبودية، غير مكاشفين بجمال الربوبية، امتحنهم بالأمر، وردّهم عن ساحة الكبرياء بالحكم، طالبهم بالأعمال، ومنعهم عن الأحوال.

قال جعفر: طالب عباده بالحق، ولم يجعلهم لذلك أهلًا، ثم لم يعذرهم ولامهم على ذلك ألا تراه يقول: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾[1].

قال ابن الفرحيّ: إنما هو نعت واحد، كالماء الواحد يسقى به ألوان الشجر، فيختلف ثمارها، ولو سُقي الورد بالبول ما وجد منه إلا ريح الورد، ولو سقي الحنظل بماء الورد لما خرج إلا الحنظل وريحه، إنما هي اللطيفة التي جرى بها الخذلان والتوفيق.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ

---

(١) قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً لهم. قال ابن جزي: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر. البحر المديد (٢ / ٤٣١).

وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾: وصف المنافقين بأن من غاية حسدهم، وقلة معرفتهم باصطفائية أهل الولاية يطلبون أن تمنعهم عن الله: وعن طريقه، فإذا رأوا ما كشف الله للأنبياء والأولياء يجمدون في ظلمات كفرهم وحسدهم.

قال السوسي: حملوك على طلب الدنيا والركون إليها، حتى أظهر الحق سرّك من الركون إلى شيء سواه، وظهر أمر الله.

قال: فتح لك من خزائن الأرض، وعرّفها عليك، وأبيت أن تسكن إليها، وتقبل منها، وهم كارهون ما أنت عليه من الإعراض، عما أقبلوا عليه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ ما كتب للأنبياء وللأولياء في الأزل إلا سعادة الولاية، وشرف النبوة، وحقيقة الوصلة، ولطائف علوم المشاهدة، وما كتب من البليّات لهم فتلك زيادة أحوالهم؛ لأن الله تعالى جعل قلوبهم بنور رضاه، فيقبلون كلًّا منه بسابق الرضا والاصطفائية، فيزيد في حالهم شرف القربة من كل مكروه ومحبوب، وهم في ذلك بنصره الله محفوظون، وعليه بفضله متوكلون، وعما يبدو منه بفضله عنه راضون، لقوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال بعضهم: العارف بالله: مَنْ سكن إلى ما يبدو له في الوقت بعد الوقت من تصاريف القضاء، ومجاري القدرة، ولا يسخط وارد من ذلك.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أنفسهم وهم كافرون ﴿٥٥﴾ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴿٥٦﴾ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴿٥٧﴾ ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ وصف الله الجاهلين بجلاله، المحجوبين عن مشاهدة جماله، الذين لم يذوقوا من عبودية خالقهم طعم وصاله، ولو كانوا أهل الذوق من مناجاة الله في الصلاة، وإدراك قرة العيون منها، لكان حالهم كمال ما أخبر ﷺ عن المصلّي الصادق بقوله: «المصلي يناجي ربه»[1].

وما أخبر عن حال نفسه ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[2].

ولكن خصّ الله هذه المراتب الشريفة بالخاشعين في جبروته، والمتواضعين في الملكوت بقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، ووصفه إياهم بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢].

قال محمد بن الفضل: من لم يعرف الأمر، قام إلى الأمر على حد الكسل، ومن عرف الأمر قام إليه على حد الاستغناء والاسترواح.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ إن الله سبحانه حذّر المؤمنين بما خاطب نبيه ﷺ عما مع أهل الدنيا من الأموال والزينة أن يستحسنوها، فيحتجبون بها عن عمل الآخرة ورؤيتها، فإن الناظر إلى الدنيا بنعت استحسانها من حيث الشهوة والنفس والهوى، يسقط في الساعة عن مشاهدة ملك الملكوت، وأنوار الجبروت.

وبيّن سبحانه أن أموال الدنيا سبب احتجابهم عن الله، وإيصال العذاب إليهم؛ لأن الدنيا إذا كثرت لم تخلُ من الحرام والشبهات، ومن باشر الحرام، وأكل الشبهات صار معذّبًا بحجاب الباطن، وعمي عن مكاشفة الآخرة، وعذاب الظاهر بالغرامة في الدنيا والعذاب في الآخرة قال ﷺ: «حلالها حسنات، وحرامها عذاب»[3].

قال بعضهم: لا يعجبك ما يتزينون به من صنوف الأموال والعبيد والخدم، ويستكثرون به من أولاد.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٩٨).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٢٨).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٥/ ٢٨٣)، وفيه (نجاسة) بدل (حسنات).

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

قال: يعذبهم لجمعها، ويعذبهم بحفظها، ويعذبهم لحبها، ويعذبهم بالبخل بها، والحزن عليها، والخصومة فيها كل هذا عذاب لأن يوردهم عذاب النار.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦١ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٣ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: وصف الله قومًا ليسوا من أهل مقام الرضا، بأنهم كانوا محرومين عن معرفة الله ورسوله، ومعرفة حقائق الدين، ولو كانوا من أهل المعرفة، لرضوا فيما ابتلاهم الله، فإن الرضا مقرون بالمعرفة، ونعت الراضي المنشاط بما استقبله من الله، ويستلذ باشر قلبه من البلاء؛ لأنه يحتمل البلاء برؤية المبلي، ويسكن في جريان المقادير عليه مما يرد على قلبه من روح أنوار المقدر، والراضي موصوف بصفة الرضا من الله، والمتصف بصفاته يرضى برضا الله في امتحانه، ورضا الله مقدس عن التغيير بوارد الحدثان.

وبيّن الله سبحانه أن الراضي عن الله، فالله خلفه عن كل فوت، وحياته عن كل موت بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: من كان هو حسبه، فأجره مشاهدة حسيبه.

قال الله: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: من قُربه ومشاهدته.

﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾: يظهر لنا من فوائد الغيب المكشوفة له، ويؤدبنا بما استأثره الله من حقائق الأدب. ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾: بنعت الشوق إلى جماله لا إلى غيره من العرش إلى الثرى،

علم الله تعالى أدب الرضا، والسؤال في هذه الآية الصادقين والعارفين والمريدين.

قال إبراهيم بن أدهم: من رضي بالمقادير لم يغتم.

وقال فضيل الراضي: لا يتمنى فوق منزلته.

ثم إن الله تعالى لما دس رغام الحرمان في أفواه المدّعين بمقام الإيمان والمعرفة، الذين طلبوا من النبي ﷺ ما خص الله به الروحانيين والربانيين، مما ألزم على أعناق أهل الدنيا الذين يجمعونها من سهم الزكاة ذكر أنّه استأثره لأهل المراقبات والمشاهدات، وغيرهم من أهل المقامات بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ : إن الله سبحانه قسّم هذه الجوائز من فضله ولطفه على أهل معرفته، رحمة منه عليهم بعلمه أنهم غائبون في أودية فردانيته، المستغرقون في بحار وحدانيته، والهون من حبه هائمون، ومن شوقه لا يطيقون أن يشتغلوا بها لا بدّ لهم من كثيرات حريقات؛ ليأخذوا كلهم على قدر مراتبهم من سهام ما رزقهم الله حلالًا طيبًا مما أوجبه على طلاب الدنيا، وحذّر أهل الدنيا من عذابه الأليم، إذ يقصرون في إعطاء الزكاة إلى هؤلاء السادة يطيب نفوسهم، ونشاط قلوبهم وبين عدد أهلها.

وقسمهم ثمانية أقسام، وجعل أولهم الفقراء، وحسم أطماع غيرهم عن هذه السهام.

وقال:﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ : ومن بعدهم من أصناف الثمانية، ودليل الخطاب أن هذه لهم لا لغيرهم بدأ بالفقراء، وهم: المتجردون بقلوبهم وأبدانهم عن الكونين والعالمين، المنعوتون بنعت التنزيه حيث وقعوا في قدس القِدم، فاتصفوا بقدسيته ،وتنزهوا بتنزهيه، وانفردوا بفردانيته يفتقرون إلى وصال الأبد.

• ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ : هم الذين سكنوا في حجاب الأنس بنور القدس، حاضرين في العبودية بنفوسهم، غائبين في أنوار الربوبية بقلوبهم؛ لذلك اختار المسكنة سيد فرسان العالمين محمد ﷺ بقوله: «اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا وأحشرني في زمرة المساكين »، وأنشد:

مساكينُ أهلِ الأرضِ شاقتْ قلوبُهم   فهُم أنفسٌ عاشُوا بغيرِ قلوبِ

﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ : أهل التمكين من العارفين، وأهل الاستقامة من الموجدين الذين وقعوا في نور البقاء، فأورثتهم البسط والانبساط، فيأخذون منه ويعطون له، وهم خزائن خزائن جوده، المشفقون على أوليائه، قلوبهم معلقة بالله لا بغيره من العرش إلى الثرى.

﴿ وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ : هم المريدون الذين سلكوا طريق محبته برقة قلوبهم، وصفاء نيّاتهم، وبذلوا مهجتهم في عساكر ميادين شوقه ومحبته وعشقه، وهم عند الأقوياء ضعفاء الأحوال، يخفهم الله هذه التحفة في مواساة حظوظهم، واستجلاب نشاط نفوسهم في

طاعات مولاهم، وحاشا أنهم بذلوا أنفسهم لنيل ثواب، ولرؤية مقام أو تطلُّع حال، بل فناء لله عما سوي الله، كما أنشد بعضهم:

مَنْ لمْ يكنْ بكَ فانيًا عنْ حظِّه ... وعنْ الهوَى والأنسِ بالأحبابِ
أوْ تيّمتهُ صبابةٌ جمعتْ لهُ ... ما كانَ مفترقًا منَ الأسبابِ
فلأنهُ بينَ المراتبِ واقفٌ ... لمنالِ حظٍ أوْ لحسنِ مآبِ

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: هم الذين رهنت قلوبهم بلذة محبة الله وبقيت نفوسهم في المجاهدة في طريق الله لم يبلغوا بالكلية إلى شهود كشف مشاهدة الله فتارة يغربهم سلبات القهر، وتارة يفينهم أنوار اللطف، فلحظة هم في الحج بحار الإرادات ،ولحظة هم في سواحل بحر القربة ما أشد جبرتهم في فقر الولاية، وما أعظم رغبتهم في فقر المحبة لا يصلون إلى الحقيقة ما دام عليهم بقية المجاهدة.

قالﷺ: «المكاتب عبد ما بقي عليه درهم»[1].

وأُنشد في ذلك:

تمنّى علَى الزمانِ محالًا ... أنْ ترَي مقلتَاي طلعتهُ حرٌّ

﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾: هم الذين ما قضوا حقوق معارفهم في العبودية، وما أدركوا في إيقانهم حقائق الربوبية، وهم بقوا أبدًا في تلك الغرامة؛ لأن الفقدان بلا نهاية والموحدان بلا نهاية، ومن نودي ما فات عنه في الفقدان من بذل الوجود بنعت الصبر، ومن يؤدي حقوق الوجدان بنعت الشكر هذا قبل المعرفة غريم لا يقضي دينه.

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هم المحاربون مع نفوسهم بالمجاهدات والمرابطون قلوبهم في شهود الغيب لكشف المشاهدات.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هم المسافرون بقلوبهم في بوادي الأزل ومسافرون بأرواحهم في فقار الأبد وبعقولهم في طرق الآيات وبنفوسهم في طلب أهل الولايات.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: واجبة منه على أهل زمام الإيمان، يواسوا بهذه القسمة أهل الإيقان والعرفان.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾: بأحوال هؤلاء المقرّبين في غيبتهم عن الدنيا، ﴿حَكِيمٌ﴾: حيث أوجب مواساتهم على أهل الآخرة والعقبى.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٠)، والترمذي (٣/ ٥٦٠).

قال بعضهم: الفقراء ثلاثة:

فقيرٌ لا يسأل، ولا يتعرض، وإن أعطي لا يقبل، فذاك كالروحانيين.

وفقيرٌ لا يسأل، ولا يتعرض، وإن أعطي قبل مقدار حاجته، فذلك لا حساب عليه.

وفقير يسأل مقدار قوته، وإن استغنى كفّ، فذلك في حظيرة القدس.

وقال إبراهيم الخوَّاص: نعت الفقير السكون عند العدم، والإيثار والبذل عند الوجود، والمسكين من يُرى عليه أثر العدم.

وقال الأستاذ: الفقير الصادق عندهم، مَن لا سماء تظله، ولا أرض تقله، ولا سمة في أوان العبودية تتناوله، ولا معلوم يشغله، فهو عبد بالله لله يرد إلى التمييز في غير هذا الوقت، مصطلم عن شواهد واقف بربه، متشعب عن حماسته.

وقال الأستاذ: ابن السبيل عند القوم، إذا تقرّب العبد من مألوفات أوطانه، فهو في قرى الحق، فالجوع طعامه، والخلوة مجلسه، والمحبة شرابه، والأنس سوره، والحق تعالى مشهوده.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١] للقوم وعد في الجنة، والآخرين نقد في الوقت، وهو شراب المحاب وغذاء شراب الثواب، وأنشد:

ومقعدُ قومٍ مشَى مِنْ شرابنَا ... وأعمَى سقيناهُ ثلاثًا فأبصرَا

أخرسُ لمْ ينطقْ ثلاثينَ حجةً ... أدرنَا عليهِ الكأسَ يومًا فأخبرَا

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا ۚ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ وصف الله نبيّه ﷺ بأخصّ صفة، وهو الخُلق العظيم الذي مَنَّ الله سبحانه، بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وهكذا وصف الحساد، يرى الحسن من غيره قبيحًا، ويرى القبيح من نفسه حسنًا، وعين الرضا تري القبيح حسنًا من الجميع، كما قيل:

وعينُ الرضَا عنْ كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنَّ عينَ السوءِ تبدِي المساوئَ

وقيل:

عينُ العداوةِ بالمساوئِ موكلةٌ ... وعينُ الرضَا عنْ المعايبِ كليلةٌ

قال الأستاذ: بسطوا لسان الملامة في الرسول ﷺ، فعابوه بما هو أمارة كرمه، ودلالة فضله، قال ﷺ: «المؤمن غرٌّ كريم والمنافق خبٌّ لئيم»[1].

وقيل: من العاقل، قالوا: الفطن المتعاقد.

ولولَا الكريمُ أتيتَه بخديعةٍ ... فرأيتَه فيمَا تروم يسارعُ

واعلمْ بأنكَ لمْ تخادعْ جاهلًا ... إنّ الكريمَ بفضلِهِ متخادعُ

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: أخبر سبحانه أن طينة النفاق في وقت مباشرة قهره فيها بعضها من بعض، وما يتولد من قطرة نفاقهم يستحسنه بعضهم من بعض، ويأمرون بعضهم مخالفة الله، ومخالفة رسوله في إيذاء أولياء الله.

قال أبو بكر الورّاق: المنافق ستر المنافق يستر عليه عوراتهن، والمؤمن مرآة المؤمن يبصر عيوبه، ويدله على سبيل نجاته.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾: وصف الله بخل المنافقين، وقلة نصرهم للمؤمنين، وإقباض أيديهم برفعها إلى الدعاء، وغيظهم للمؤمنين حين يقبضون أيديهم من الغضب في نفوسهم، وخلواتهم وراء الستور بالوكزات لأهل الحق.

وهذه صفة المبغضين إذا جلس واحد منهم يعض أنامله، ويقبض يده، ويهيج قلبه حسدًا وعداوة على أولياء الله.

قال الله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٥٠)، والترمذي (٤/ ٣٤٤).

[آل عمران:١١٩] ثم بيّن أن هذا الغيظ من تولد نسيانهم قهر الله في بطش جبروته، وبروز عظائم أنوار ملكوته، لم يكونوا من أهل الذكر، فطرأ عليهم طرآن النسيان، لم يذوقوا حقائق الذكر، تركوا أمر الله لجهلهم بجلال الله، فتركهم الله في ظلمات قهره يعمهون، لا يرون سبيل الرشد أبدًا، وهكذا وصف من ادعى معرفة الله، ولم يذق طعم محبة الله، ولا يستقيم في دعواه، ونفر من الطريق إلى جمع الدنيا من قلة صبرهم مع أولياء الله، فيجمعون الدنيا: ويحتجبون بها عن ذكر الله، فتركهم الله في حبها وحب جاهها، ولا ينفقون منها في طريق الله.

قال الله:﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ .

قال بعضهم: يقبضون أيديهم عن رفعها إلى مولاها في الدعوة والحوائج، كما روي عن النبي ﷺ أنه رأى كأنه في الموقف، ويده على صدره كاستطعام المسكين.

هَا أنَا مددتُ يديَّ إليكَ   فردَّها بالوصلِ لاستماتةِ الحسادِ

وقيل: يقبضون أيديهم عن الصدقة.

وقيل: يقبضون أيديهم عن معونة المسكين.

وقال سهل: في قوله:﴿نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ : نسوا أنعم الله عندهم، فأنساهم الله شكر النعم.

وصف المؤمنين والمؤمنات بالموافقات في جميع الخيرات بقوله:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ؛ لأن أرواحهم كانت مستغرقة في أنوار القدم، وهو تعالى ألّف هناك بين الأرواح، بأنها من جواهر أنوار الملكوت ألفت بعضها بعضًا بألف الله سبحانه في مشاهدة جماله، حين إذا قربا طعم وصال، فأحبّ المؤمنون بعضهم بعضًا بمحبة الله في قلوبهم، ويتعاونون بعضهم بعضًا في عبادة الله، ونصرة أنبياء الله وأوليائه.

وقال أبو عثمان: المؤمنون أنصار يتعاونون على العبادة، ويتبادرون إليها، وكل واحد منهم يشد ظهر صاحب، ويعينه على سبيل نجاته، ألا ترى النبي ﷺ يقول:"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا"[(١)]. وقال ﷺ: "المؤمنون كالجسد الواحد"[(٢)].

قال الله:﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ .

وقال أبو بكر الورّاق: المؤمن تولى المؤمن طبعًا وسجيةً.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

(١) رواه البخاري (١/ ١٨٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩).

(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣٤).

وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ
وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُوا۟
يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي
ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ
لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ
وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾
ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟
لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾: إن الله سبحانه وعد أعلى شهود الغيب من الموقنين الصادقين في رؤية الآخرة واللحوق بالله، وهذا الوصف منه تعالى وصول نفذ؛ لأن الخبر منه معاينة؛ حيث يهيب روائح قدسه لأهل الأنس، وتنشقها مع طيبها أرواحهم وقلوبهم؛ لأجل ذلك هاموا في شوقه، وغابوا في حبِّه، وطاروا من الفرح بوصاله.

وما قرن هذا الوعد بشرطٍ من شروط العبودية، في نفس الآية يدل عنه فضلٌ بلا علَّة، ووصول أهلها إلى معادنها؛ لأن تراب أهل العرفان من معدن الرضوان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]: اصطفاهم الله في الأزل لحضرته، وسمَّاهم المؤمنين أي: الصادقين فيما رأوا بقلوبهم أنوار الغيب، والمؤمن إذا كان صادقًا، فهو صالحٌ وشهيد؛ لأنه اتبع ببذل نفسه وروحه، بمن استنشق من الغيب من نسيم الوصال، وهو مقبول لحبِّه بمشاهدة الجمال، ولا يبالي الله بما

جرى على صورته من الزلّات، فإن المؤمن إذا باشر معصية ندم، وغص بتلك المعصية له، وصار مرامًا منغّصًا بندامته، ويذوب قلبه رجاء ربه، وكانت معصيته طاعة، وعدهم بالجنّات، وقلوبهم في جنّات المشاهدة، فكيف يلتفتون إلى الجنّة؟

ووعدهم بالمساكن الطيبة، وهم ساكنون بأرواحهم في مشاهدة جماله وقربه ووصاله، ويجري عليهم واردات لذّة خطابه، ولذيذ لطائف نوره، وطابت نفوسهم في مساكن طاعاته، باستروا حهم بنسيم مروجه رجاءَ وصاله، وطابت عقولهم بدورانها في أنوار آياته، وطابت قلوبهم بشهودها على مشارب صفاته، فتشرب منها شربات المحبَّة، وتسكر برؤيتها بنعت الحيرة.

وطابت أرواحهم بطيرانها في سبحات ذاته، بأجنحة رضوانه، فهي تُعلّق أبدًا إلى مساكن كشف قِدمه، وجلال سرمدية رضوانه الأكبر، بتنسُّم صبح الصفات في وجوهِ الهائمين في محبّة مشاهدة الذات.

يا أخي هؤلاء في الدنيا في طيب مساكن الوصلة، وجنّات عدن القُربة، وما داموا هاهنا في هذه الغربة، وجدوا ما يعاين لأهل الوعد، فلا يُبالون بالغد، فإنّ قلب جميع المساكن لا يكون إلا برؤيته وجماله، ومن أدرك ذلك كيف يلتفت إلى حُسن النظر، وطيب المسكن؟، وإن كان في موضع وحشٍ، وأنشد:

تمنَّيتُ من حبِّي بثينةَ أننا ... على مدمّتٍ في البحرِ ليسَ لنَا
وفي كلِّ موضعٍ لمْ يكنْ مما وصفَنا بهِ أثرٌ ... فهوَ خرابٌ مستوحشٌ وإنْ كانَ الجنةَ
أجيرانُنا مَا أوحشَ الدارِ بعدكُم ... إذَا غبتُم عنهَا ونحنُ حضورَ
وإنِّي لأهوَى الدارِ ولَا يستقرُّني ... بهَا الردُّ إلَّا أنهَا منْ ديارِكَا

ويقال:

قومٌ يطيبُ مسكنَه بوجودِ عطائِه ... وقومٌ يطيبُ مسكنَه بشهودِ لقائِه

وقال الأستاذ: أمارة هذا الرضوان، وجدان طعمه فقدًا، فهو في روح الأنس، وروح الأنس لا تتقاصر عن راحة دار القدس، بل هو أتمُّ وأعظم، ثم حثّ نبيّه ﷺ، بجهادٍ من حاله يخالف حال هؤلاء، حتى يطهر وجه الأرض من الأغيار، وذلك من غيرة الجبار على أهل تلك الدار.

بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾[1].

---

(١) قال التستري (١/ ٢٠٥): جاهد نفسك بسيف المخالفة وحملها حولات الندم، وسيرها في مفاوز =

﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ : النفوس الأمّارة، وجهادها إماتة شهواتها، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ : هم إبليس وجنوده، وجهادهم [مجاهدة] طريق الوسواس بالجوع الدائم، والحزن القائم، والزجر الغليظ عليهم يكون من القلب الروحاني المملوء من النور الربّانيّ، وفيه رخصة زجر المدّعين، فيجوز الصادق أن يزجرهم، ويُعرض عنهم.

قال محمد بن علي: جاهد الكفّار بالسيف، والمنافقين باللسان.

وقال سهل: النفس كافرةٌ، فجاهدها بسيف المخالفة، وأحمِلها جولات الندم، وسيِّرها في مفاوز الخوف، لعلّك تَردُّها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا لمتحيّرٍ في أمره، مبهوت في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

قال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ .

ثُمّ وصف الله أهل النفاق بنقض العهود، وفسخ العقود، وشُحّ النفوس، بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ : هذا وصف المغرورين الذين ما ذاقوا لهم محبّة الله، ولو وجدوا لذّة منها بقدر رأسِ إبرةٍ، ليدلوا وجودهم لشوق جماله.

قال النصر آبادي: الفضلُ في رؤية الإحسان، رأوا من أنفسهم إحسانًا لم يعملوه بعد، وصدقة لم يتصدّقوا بها، وصحّحوا لأنفسهم أفعالًا، بقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ، فنقضوا العهد لمّا ظهر لهم ما سألوه، فتولّد لهم من ذلك البُخل الذي قال عنه النبي ﷺ : «أي داء أدوى من البخل»[1].

والتولي عن سبيل الرشد، والإعراض عن مناهج الحق، وذلك أنهم أخلفوا وعدهم في السخاء، فلَزِم عليهم الخيانة والبُخل والكذب، بقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ .

ثُمّ إنّ الله سبحانه وصفهم بتمام الحرمان عن السعادة والسخاوة، بقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ ، زاد نِفاقَهم جزاءً لبخلهم.

قيل: هو ميراث البُخل، وهو الكذب والخلف والخيانة.

=

الخوف، لعلك تردها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا من متحير في أمره، مبهوت في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص١١١).

سُئل أبو حفص :ما البخل؟ قال: ترك الإيثار عند الحاجة إليهم، ثُمّ أنّ الله سبحانه أعلم أنه مُطَّلع على عقودهم الفاسدة، وعهودهم الكاذبة في قلوبهم، لمعرفته لسجيَّتهم المجبولة بالبخل والنفاق، بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾.

أعلمنا وصف علمه المحيط بالسرائر والضمائر، وخوفنا من عظيم مراقبته، وارتصاده بمراصد الملكوت والجبروت، وعرَّفنا مكان الحياء منه، وإجلاله والخوف من عظمته، حيث أنّه علّام على خطرات قلوبنا، وحركات أسرارنا، ذكر السرّ والنجوى، و«السرّ»: ما هو يُعلم من نفسك، ولا تعلم ذلك من نفسك، و«النجوى»: ما هو يُعلم من نفسك، ولا يتمّ ذلك من نفسك أيضًا، ولا يعلم منك أحد غير الله.

النجوى: سرٌّ، وسرُّ غير النجوى سرُّ السرِّ.

قيل: «السرّ»: ما لا يطَّلع عليه إلا أعلم الأسرار، و«النجوى»: ما يطَّلع عليه الحفظ.

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى:﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ أي: فليضحكوا فيها ما شاء، وإذا أبغضوها وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبدًا.

وقال أبو يزيد: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ : لئلا تغرَّنَّهم الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ : شوقًا إلى مولاهم.

قال طاهر المقدسيّ: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾: فإنّهم في دار الخدمة، وليس من أوصاف الخَدَم الضحك الكثير.

﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾: فإنّهم في ميادين الحزن والغمّ، ولذلك اختار سبحانه وتعالى تقليل الضحك، والضحك إذا كان من غيبة الأُنس، ووضوح صبح نور الجمال، فالضحك والبكاء هناك واحدٌ.

و«البكاء الكثير»: ما يكون قبل المشاهدة في الشوق، وبعد كشف المشاهدة من الفرح، والأنس بالوصال، فهذا البكاء هو بكاء المريدين، وذلك من الأشجان والأحزان، والمحبِّين من الفوت والفراق.

وصف الله حال الأولين بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة:٨٣]: وذلك بديهة الغيب عند ظهورها من الغيب، فيفرح لصورتها ويجهل بحقائقها، وهو معذورٌ ما دام مغلوبًا، لذلك نهي النبي ﷺ الضحك من غير عُجب،وما يجوز للمقتضين من ركوب التوحيد، وأحزان المحبَّة، أن يكون ضحكهم ترفيه فؤادهم من برحاء الحزن، لا يجوز أكثر من ذلك.

قال في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾(١): عينٌ فاضت دمعها بأخبارٍ، وعين فاضت دمعها على قلَّة الوقار، وعين فاضت دمعها على الإخلاص والصفاء.

قال الحريري: العيون الباكية على ضروبٍ: فعينٌ تبكي عبادةً ورسمًا، وعين تبكي خشيةً وحزنًا، وعين تبكي هيبةً ووجلًا، وعين تبكي خصوصيّةً وحقيقةً.

ثُمَّ مدح الله رسوله وأصحابه بعد ذَمِّهِ المنافقين، بقوله:﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

جاهدَ الرسول ﷺ باحتمال أثقال أمانة الرسالة، وأدائها بغير حظوظِ البشرية، وجاهد العارفون، بإفناء وجودهم لمشاهدة الله، ونَيْل وصاله، ثُمّ وصف المؤمنين بالمَعيَّة معه بالأرواح في مشارب بحار المشاهدة، وسواقي الرسالة، فالولاية حين أشهدها الله مشاهدته في أبد الأزل حين عَرَّف نفسه لهم، بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

ولولا تلك المعيَّة والتعريف، لمَا وافقوا في بذل مُهَجِهم معه في معارك مشهد العشَّاق

---

(١) أي: تملأ بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب من الامتلاء مبالغة، ومن الدمع متعلق بتفيض ومن لابتداء الغاية، والمعنى تفيض من كثرة الدمع والرؤية بصرية وتفيض حال من المفعول. تفسير حقي (٣/ ٣١٧).

المقتولين بشوق المحبّة من أهل الأشواق، ثُمّ عمَّهم الله مع نبيّه ﷺ بنيْل جزيل ألطافه، ولذائذ ألفاظه، واعتطافه من كشوف أنوار جماله، وسناء جلاله، بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾.

يعني المشاهدة والمكاشفات والوصلات والقُرْبات، ثُمّ زاد في وصفهم، بأنهم نجوا بهذه النعم، وسابقة سعادتهم، من نكايات قهره، ونكال بطشه، بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

الفائزون من كل فرقة، والظافرون بكل بغية، وتصديق ذلك قوله سبحانه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

جناية قرباته، ومشاهدات صفاته التي تُجري أنهار علوم الأزليات في أنوارها من بحار الذات، ومن فاز بشربةٍ منها، يصير متَّصفًا بتلك الصفات، ويكون باقيًا في مشاهدة الذات، وذلك الفوز، النجاة من الحدثان، والبلوغ إلى مشاهدة الرحمن.

قال بعضهم: اجتهد الرسول في أداء الرسالة، أبلغ العناية، وجاهد المسلمون بأنفسهم في قبول ما جاء به من الشرع، ما كان منه حظّ النفس بالنفس، وما كان منه حظّ المال بالمال.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

﴿مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾: وصف الله زُمرة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهائمين في المشاهدات، والمستغرقين في بحار الأزليات الذين أنحلوا جسومهم بالمجاهدات، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر وجولانها في الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية، بأن رفع عنهم بفضله حرج الامتحان، وأبقاهم في مجالس الأُنس، ورياض الإيقان.

وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ يعني: الذين أضعفهم حِمل أوقار المحبّة.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾: الذين أمرضهم مرارة الصبابات.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾: الذين يتجرَّدون عن الأكوان بتجريد التوحيد، وحقائق التفريد.

﴿حَرَجٌ﴾: عتابٌ من جهة العبودية والمجاهدة؛ لأنّهم مقتولون بسيف المحبّة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحبِّ، وفقرهم من حُسن الرضا، ثُمّ زاد في وصفهم بالشفقة على دين الله، وعلى سُنَّة رسوله، بقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. إذا عرفوا عباد الله طريق الله، والأُسْوة بسُنَّة رسول الله ﷺ، ثُمَّ وصفهم بترائي قلوبهم هلال جلاله بنعت بذل أرواحهم ونفوسهم لله في الخَلَوات، وبيَّن أنهم فائزون من نكايات المكر والامتحان، وجميع البَلِيَّات والعقوبات، بقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ما على المشاهدين جلاله وجماله سبيل الحجاب، وقارعة العتاب؛ لأنّه كان في الأزل اختارهم برحمته السابقة، وغفر في القِدم تقصيرهم في المعرفة، بأنّه علم أن الخلق يعجزون عن حمل بوادي عظمته، وأوائل كشف سلطان كبريائه، قال الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾: مَن لم يكن من القدرة، فقد رفع عنه الحَرَج.

قال ابن طاهر: لو لم يكن في الفقر والقلَّة إسقاطُ الحرج عن صاحبه، لكان ذلك عظيمًا. قال الله:﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

وقال القاسم: في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾: من يرى الإحسان كلَّه من الله، فلا يكون لأحدٍ عليه سبيل، وقد وقع لي في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ما على من أصفاه الله في سابق إحسانه عليه تغيير الاصطفائية قطّ، وإحسانه لله

إحسان الله فيه، وشهوده عليه، وشهود العبد مشاهدته بشرط ألَّا يرى لغير الله وزنًا من نفسه، وجميع الأكوان حتى لا يجد عليه أحدٌ سبيل المنَّة.

ثُمَّ وصف هؤلاء المحسنين بالفقر والظرافة فيه، بنعت بَذْل الوجود، وصدق اللقاء المحمود، بقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: لترفعهم عن رؤية غير الله؛ حتى رؤية ما وجدوا من الله من حظوظ حلاوة مشاهدته إلى الفناء فيه؛ حتى لا يبقى فيهم غير حظِّ الله منهم.

أيضًا أي: لتحمِلَهم بالله؛ حتى يكونوا معك في مشاهدة الله أبدًا، ولا ينقطعوا عنك طرفة عين، ثُمَّ بيَّن الله سبحانه وصف القوم برغبتهم في بَذْل وجودهم لله، وسرعة مسارعتهم إلى الله، وشدَّة شوقهم إليه، وكثرة حزنهم بما فاتوا عنهم من حقوق الطريقة بتمام الآية، مما أجابهم رسول الله ﷺ: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لا أجد من العرش إلى الثرى شيئًا يحملكم غير الله، ثمّ قال الله: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾: بيّن أن البكاء من الحزن، وهو بكاء المريدين؛ لأن بكاء العارفين والمحبّين من الفرح بالله.

قال النصرآبادي في قوله: ﴿إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: يحملهم على الإقبال علينا، والثقة بنا والرجوع.

وقال أيضا: يحملهم أي: فتحمِل عنهم أثقال المخالفات، ثُمَّ بيَّن أن العتاب على من سكن إلى الدنيا، وفرح بها، بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾: وصف المتقاعدين عن الحقّ، وعن السير إلى معارك شهداء العشق الذين قُتلوا بسيوف المحبّة، باشتغالهم بنفوسهم الأمّارة، وهواها القاطع سبيل طلعة الله سبيل العار والشنار عليهم؛ لأنهم تركوا حظ الأكبر بالحظ الأصغر.

قال النصر آبادي: ألزم الله الندم الأغنياء؛ لأنهم اعتمدوا أملاكهم وأموالهم، واستغنوا بها، ولو اعتمدوا على الله، واستغنوا به لَمَا ألزموا المَذمَّة.

ثم وصف تكلُّف أهل الدنيا، في إنفاقهم بالنفاق والرياء والسمعة، ثم رأوا ذلك أيضًا غرامة؛ لأنهم لم يعرفوا ما يطلبون، ومن عَرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ

ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾: هكذا شأن مَن لم يذق ذوق السخاء في المعرفة.

قيل: مَن يري المُلك لنفسه، كان يُنفقه غرامة عنده، ومَن يري الأشياء لله عاريةً في يده، رأى ما يُنفقه عنها إلّا غرمًا.

ثم استثني من هؤلاء من تصديق الله ورسوله والدار الآخرة، بنورٍ قذفه الله في قلوبهم، وشرح به صدورهم، فيُنفقون على رجاء قُربة الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: مشاهدات، وكشف حجابٍ، ورجاء وصالٍ.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾: بأنْ يَدْعوا لهم، ويستزيد لهم مَزيد قُربة الله.

ثم قال تعالى على وجه استحسان ما أنفقوا له على أوليائه: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: إنها وسيلةٌ إلى قُربة الله، بل من قربة الله منهم، وفَّقهم ببذل وجودهم له[1].

ثم وصفهم بأنهم سيدخلون في حضرته وقربته، وحجاب مملكته، ويرونه بلا حجاب، ولا عتاب، بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: رحمة مشاهدته، أن يسترهم بكنفه عن غيره.

قال بعضهم: من طلب القُربة إلى الله هان عليه ما يبذله في جنب ذلك، وكيف ينال القُربة إلى الله مَن لا يزال يتقرَّب إلى ما يُبعده من الله، وهي الدنيا.

ثم وصف الله أهل سعادة الكبرى من سوابق زُمرة الأعلى، الذائقون طعم مجالس دناني،وكان قاب قوسين أو أدنى، بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي :السابقون بالأرواح قبل الكون إلى مشاهدة الأزل، بنعت المحبّة والمعرفة والشوق حين أوجدها الحقّ من مكمن الغيب، وأحضرها لديه على جزائر النور، ومجالس

---

(١) وقال ابن عجيبة: تقربهم إلى حضرة ربهم، وهذا شهادة من الله لصحة معتقدهم وكمال إخلاصهم. البحر المديد (٢/ ٤٣٩).

السرور، فلا يزال طائرات بأجنحة الرضا في قضاء البقاء بنعت الفرح بالمُنى.

فإذا تلبَّست بأشباحها، طلبت أماكنها ومعادنها، فأبصرت بنورها مراد تجلِّي القِدم، فسبقت إليها، وسكنت بسبيل الاستقامة في طريق المعرفة بطلب زيادة الزُلفات، وحقائق الوصلات.

قال ابن عطاء: «السابق»: من سبق له في الأزل حُسن عنايته، فيظهر عليه في وقت إيجاده أنوار تلك السابقة، فإنه ما وصل إليه أحد، إلا بعد أن سبق له في الأول منه لطفٌ وعناية.

وقال الواسطي: السبَّاق قولًا وفعلًا، وحذَّر النفس حسرة المسبوق، ثم وصف السابقين لهم، فقال:﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: أدركوهم، وأدركوا ما هم فيه من لطائف الكرامات، وأنوار المشاهدات.

وقوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: بإحسان الله عليهم في الأزل، حيث أرشدهم طريق المعارف، فأحسنوا بإحسان الله، وإحسانهم شهودهم حضرة الله، بنعت استضاء نور الإيقان والإيمان والعرفان.

ثم بيَّن تعالى أن هذه الكرامة لهم من حُسن الرضا عنهم في الأزل، بقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾: رِضَاه عنهم سابقة الاصطفائية منه لهم في الأزل، فجعلهم راضين عنه بعد كشف لقائهم، فقد اختاروا مشاهدة الله على ما سواها إلى الأبد .

قال جعفر ﷺ: بما كان سَبَق لهم من الله من عنايته وتوفيقه، ورضوا عنه بما مَنَّ عليهم، بمتابعتهم لرسوله ﷺ، وقبول ما جاء به، وإنفاقهم الأموال، وبَذْلِهم المُهج.

وقال النصر آبادي: ما رضوا عنه، حتى رضي عنهم بفضل رضاه عنهم، رضوا عنه.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: وصف الله قومًا عرفوا معايب أنفسهم لمعرفة الله وتعريفه إياهم نفسه، فعرفوا نفوسهم بمعرفة الله، فندموا عمّا جرى عليهم من أعلام المخالفات من الخجل والحياء بين يد الله.

وهم قومٌ ألحقتهم أنوار العناية تارة إلى المباشرة، وسائر القُربة، ونشَّقهم نسائم

الوصلة، ثُمّ مسَّهم طوارق الفرقة، امتحانًا من اللطف والقهر؛ كي يعرفوا الحقّ بمعرفة قهره ولطفه، وذلك معني قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، فإذا بلغوا إلى محلّ الاستقامة، رُفعت عنهم نوائب الامتحان، وسكنوا في مشاهدة الرحمن، وهذا قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

قال بعضهم: صفة النادمين والمعرضين عن الذنوب، والناوين للتوبة هي: الاعتراف بما سبق منهم، وكثرة الندم على ذلك، والاستغفار فيه، ونسيان الطاعات، وذكر المعاصي على الدوام، والابتهال إلى الله بصحَّة الافتقار؛ لعل الله يفتح له باب التوبة، ويجعله من أهلها.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾: بَيَّن سبحانه أن يده في أخذ الصدقة، يد الله بقوله ﷺ: «الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل».

قال تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: خُذ ما يتعلق بحظوظ أنفسهم، حتى لم يبق بينهم وبين الله حظّ النفس.

وأيضًا أي: باشر أموالهم بأخذ الصدقات للفقراء؛ حتى تصل بركة يدك إلى أموالهم، وتطهر بلطف يدك نفوسهم من المعاصي وجميع العذاب، وتطهر قلوبهم من حبّ ما سوى الله.

﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: تُقدِّسهم من البخل، وسوء الخُلق.

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ادع لهم بقبول الله إيّاهم لوصاله، وقبوله منهم ما مَنَّ عليهم من نواله.

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾: سكينة قلوب المؤمنين، فإنَّ دُعاءك لهم، مقرونٌ بالإجابة، وهم موقنون بذلك.

قال رويم: تُطهِّر سرائرهم، وتُزكِّي نفوسهم.

قال الواسطي: تُطهِّر أبدانهم من دَنَس الانشغال بها والانقطاع إليها، وتُزكِّيهم عن دنس الافتخار بها، والمكاثرة بجمعها، وليس على الأنبياء زكاة؛ لأنه ليس على سرائرهم خطر الأموال.

وقال أيضًا: تُطهِّر قلوبهم من أنجاس الذنوب، وتُزكِّي بواطنهم وسرائرهم من أنجاس العيوب، فأنجاس ذنوب الظاهر المنع، وأنجاس عيوب الباطن الأذىّ.

وقيل في قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[1] أي: ادع لهم، فإنَّ دعاءك لهم يكون سكونًا إلى الآخرة، وانقطاعًا عن الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إنّ الله سبحانه عرَّف الخلق كرمه القديم، وفضله العميم يُعطي الكثير، ويقبل القليل، ويرى من عبده كثير السيّئات، ويبدِّلها له بالحسنات.

أي: يقبل توبة الآسف على ما فاته من قُربةٍ في زمان الطاعة، ويأخذ صدقة الموقِن بجزائه بكشف المشاهدة.

قال النصرآبادي: فرقٌ بين القبول والأخذ؛ لأنّه قد يَقبل ثم يأخذ، ولا يأخذ إلا عن قبول، فالأخذ أتمّ وأعمّ.

وقال أيضًا: أخذ الصدقة أجلُّ من قبول التوبة؛ لذلك تقع فيه التربية، قال النبي ﷺ: «إن الله يأخذها فيربها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيلة..»[2] الحديث.

وعند عبده وخادمه- والله أعلم- أن القبول أتمُّ من الأخذ؛ لأنه ربما يأخذ، ولا يليق بنفسه وتعطى إلى غيره، ولا يقبل بطيب نفسه منه، بل يأخذ بطيب قلب المُعطي، فإذا قبل لطيب نفسه يأخذ لنفسه، ولا يعطي إلى غيره.

وأيضًا: يرى أن قبول التوبة أعظم من قَبول الصدقة؛ لأنَّ الصدقة شيءٌ لا يتعلّق بوجود التائب، وما جرى على التائب من المعصية كراهية عند الله، لأجل منازعته ومخالفته وذلك يتعلّق بالجبروت، فإذا ندم وخضع وخجل بين يدي الله، يصير خارجًا من صورة المنازعة، وخاضعًا للربوبيّة، فما كان في نفسه من الإيمان واليقين والندم والخجل، أعظم من جميع الكون عند الله.

إن كان صدقة منه، فإنّه يُعظِّم الله ويَصْدُقه، وينزِّهه بفنائه في عظمته، وهذا عمل القلب والصدقة وما سواهما عمل الجوارح، وأين عمل الجوارح عند عمل القلب؟

وذِكر الله أعظم من جميع الصدقات وجميع المعاملات، فإنّه ذَكَر ذاته وصفاته، قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، قال النبي ﷺ «حمد الحامد أعظم مما أعطي له من النعمة».

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ

---

(١) قال القشيري (٣/ ١٦٢): إنْ تُعاشِرْهم بِهِمَّتِكَ معهم أثمنُ لهم من استقلالهم بأموالهم.

(٢) رواه البخاري (٢/ ٥١١)، ومسلم (٢/ ٧٠٢).

ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بيّن سبحانه مراتب علوم الإلهية على ثلاثة أقسام: استأثر قسمًا لنفسه، وقسمًا لرسوله، وقسمًا لأوليائه، فما استأثر لنفسه، فهو العلم القديم، وإحاطة نظره القديم على كلّ محدثٍ، ولا تُخفى عليه الضمائر، وما يجري في السرائر علمًا ورؤية بغير علّة الاكتساب.

ثم استأثر الأنبياء بنورٍ منه يرون به، فترى قلوبهم به أعمال الخلائق عيانًا وبيانًا، وذلك نور الذات، واستأثر أولياءه بسنا منه، فيرى به أعمال الخلائق في الخَلْوات، وما في قلوبهم من المغيَّبات بالفراسات الصادقة، ذلك نور الصفات، وفيه تخويف المخلصين والصادقين الذين يتعرض لقلوبهم النعوس، والشياطين بالهواجس والوساوس في أوقات الفِترة؛ حتى يراقبوا أسرارهم، ويراعوا أوقاتهم بتقديس القلوب من الخطرات.

قال أبو حفص أو أبو عثمان: اعمل، وأصلح العمل، وأخلص النيّة، فإنّ الله يرى سرّك وضميرك، والرسول يراه رؤية مشاهدة، والمؤمنون يرونه رؤية فِراسة وتوسم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥].

قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾: بيّن الله سبحانه أنّ تأسيس كلّ عبادةٍ لا يكون إلا بالتقوى، والتقوى بظهور الأسرار عن النظر إلى الأغيار، وكلّ موضع يتضرَّر فيه، ونيران التقوى تُحرِق جميع الأوصاف النفسانية والشيطانية من الشرك والشك والرياء والنفاق والسمعة، ولا يبقى هناك إلا صفاء السرّ وطهارة الضمير، وخلوص النيّة، وصفاء القلب، وتجريد ذِكْر الله عن ذكر مخلوق.

وإذا كان كذلك تكون العبادة والإرادة، تبلغ الإيمان والإيقان إلى درجة العرفان،

والعرفان يبلغ هذه المراتب إلى درجة التوحيد، والتوحيد يبلغ الجميع إلى مشاهدة المُوحَّد، حتى صارت كلّ غيبةٍ عيانًا، وكلّ نكرةٍ عرفانًا وكلّ إبهامٍ بيانًا، قال الله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

وفي هذه الآية عرَّفنا الله سبحانه أنّ الشرَّ قديمٌ، وفي كلّ زمانٍ، لكلِّ صادقٍ قيَّض الله له بذاته ملعونًا سالوسًا يؤذيه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، ومن جملة من كان يؤذى نبيّنا ﷺ: أبو عامر الفاسق، وكان راهبًا أمرَ المنافقين ليبنوا مسجدًا ضد مسجد قِباء، أو مسجد النبيّ ﷺ رياء وسمعة ونفاقًا، وصدَّ الخَلْق عن الدخول في الإسلام.

كذلك في زماننا هذا لبسوا الصوف، وأظهروا الزهد، وبنوا بِقاع السوء، وجلسوا فيه بالأربعين، ويرسلون الشياطين إلى أبوابه، لا تراك العوانين حتى يقولوا أن فلانًا في الأربعين، ينبغي أن تزوروه، فإنّه من أولياء الله، ويريدون بذلك جرَّ المنفعة إليهم، وصَرْف وجوه الناس إليهم مع مضادات أولياء الله، فإذا دخل عليهم أحدٌ من العوام، يقعون في ذكر مساوئ أولياء الله، وعيبهم وقُبح المقال فيهم؛ ليصدوا الناس عن التبرُّك بهم، والاعتقاد فيهم يخونون الله، ويخونون أولياء الله، والله لا يهدي كيد الخائنين، طهَّر الله وجه الأرض من مثْلِهم.

قال أبو بكر الوراق في قوله: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ من صحَّح إرادته بدءًا، ولم يعارضه شكٌّ أو ريبةٌ، فإنَّ أحواله تجري على الاستقامة، وتصحيح الإرادة، هو الخلع عن مراده أجمع، والرجوع إلى مراد الله فيه.

قال الله: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾.

قال أبو عثمان: أرض الفتنة لا يَنْبُتُ فيها إلا الفتنة، وأرض الرحمة تُصيب الإنسان رحمة، ولو بعد حين[1].

ثُمَّ إنّ الله سبحانه وصف أهل القباء بتقديس أسرارهم، وعلوِّ مراتبهم، وقبولهم في أزل محبته لهم، بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾: وصفهم بحبِّ الطهارة، ووصف نفسه تعالى بحبِّ المُطَهَّرين.

و«الطهارة»: طهارة الأسرار من الخطرات، وطهارة الأرواح من الغفلات، وطهارة القلوب من الشهوات، وطهارة العقول من الجهلات، وطهارة النفوس من الكفريّات،

(١) (أحقّ أن تقوم فيه) أي: أولى بأن تصلى فيه، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ في أيام مُقامه بقباء، حين هاجر من مكة، من الإثنين إلى الجمعة، وهذا أوفق للقصة. البحر المديد (٢/ ٤٤٧).

وطهارة الأبدان من الزلّات، ومَن أحبَّه الله في الأزل، يُطهِّره في الدنيا مما يشغله عن الله طرفة عين، فإن المحبَّ لا يترك حبيبه في شيءٍ يُضرُّ به.

قال سهل: الطهارة على ثلاثة أوجهٍ: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذِكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية.

وقال بعضهم: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ أي: يُطهِّروا أسرارهم عن دنس الأكوان، ثُمَّ وصف سبحانه لهؤلاء الرجال، وتأسيسهم بناء الطاعات على موافقة الله ورسوله، وطلب رضوانه، بقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾: لله بُنيانٌ، وهو قلوب الصدِّيقين، وفيها مناظر القدس، ومحافل الأُنس، تحفوها أنوار تجلّي الحقّ سبحانه، فمَن أسَّس بُنيانَ قلبه بعد تطهيره عن دنس الأخلاق، وتنويره بنور الخلّاق؛ لذكر جلاله، وتعظيم عظمته، وحبّ لقائه، وشوقه إلى جماله، ومعرفته وتوحيده، وإفراد قِدمه عن الحوادث بنعت فنائه في احتشام الله، وخوفه وإجلاله، وخشيته من كبريائه، ومراقبته خطابه وأسراره، وطلب رضوانه ووصاله، يصل بهذه الأوصاف إلى أن يكون قلبه موضع أسرار الله، ولطائف رضوان الله، وظرف محبّة الله، ومحلّ زيارة الله، كما حُكي للنبي ﷺ عن الله سبحانه، بأنّ له تعالى ظروف أسراره في الأرض، قال: «إن لله أواني ألا وهي القلوب»[1].

قال أبو تراب النخشبي: مَن كان إبقاء إرادته على الصحة والسلامة من هواجس نفسه إلى الرضوان الأكبر، والمقام الأرفع.

قال الله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

قال الواسطي: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾: لا من نفسه يكون الله أصل تلك التقوى.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ

(١) رواه الحكيم الترمذي (٣/ ١٨٨).

ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ تقتضي همّة المعرفة أنه أغار على نفسه في الأزل بعد أن وصف نفسه بمحبّتهم، فمنَّهم عن نفسه، وشغلهم بغيره مكرًا بهم واستدراجًا، اشترى نفسه منهم؛ لأنّه بذاته نفس الكلّ، حيث قام الوجود بنفسه، ولولا قيامه على شيءٍ تلاشت الأشياء، ما قلّ من لمحة عرض نفسه الحدثان، ولم يرها أهلًا لنفسه، فاشترى نفسه من نفسه؛ لعلمه بضعف الخَلْق عن حَمْل وارد تجلّي عظمة نفسه، وكيف يقوم الحدث جلال القِدم، وهو تعالى قيمة نفسه لا غير، اشترى شفقة عليهم: كيلا يتلاشوا في سبحات عزّته، ثُمّ اشترى أموالهم، وهي كشوف نعوته الأزلية، وتمتُّعهم بمشاهدتها؛ حتى لا يبقى سرّ العدم إلا في القِدم.

فلمّا قطعهم عن رؤية سبحات القِدم بالحقيقة، شَغَلهم بما يليق بهم، وهي الجنّة، وأيضًا لم يرَ للنفوس والأموال نفاسة حيث اشتراها بالجنّة، ولو كان لها موقع لاشتراها بنفسه لا بشيءٍ محدث، وأيضًا اشترى النفوس؛ لأنها حجاب القلب من الربّ، وكذلك المال؛ حتى لم يبق بينه وبين الربّ حجاب، وأيضًا اشترى منهم النفوس التي تحت سلطانهم بالمجاهدات، وما اشترى قلوبهم؛ لأن قلوبهم لم تدخل تحت أملاكهم، فإنه مستغرقٌ في رؤية الصفات.

وقال ابن عطاء: نفسك موضع كلّ شهوةٍ وبليّة، ومالك محلّ كلّ إثمٍ ومعصية، فأراد أن يزيل مُلكك عمّا نصرك، ويُعوِّضك عليه ما ينفعك عاجلًا أو آجلًا.

قال سهل: لا نفس للمؤمن؛ لأنها دخلت في البيع مع الله، فمَن لم يبع من الله حياته الفانية، كيف يعيش مع الله، ويحيى حياةً طيبة.

قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾.

قال جعفر: مكر بهم على لسان الحقيقة ولسان المعاملة، واشترى منهم الأجساد لمواضع وقوع المحبَّة في قلوبهم، فأحياهم بالوصلة.

وقال الحسين: نفوسُ المؤمنين نفوسٌ أبِيَّة اشتراها الحقّ، فلا يملكها سواه.

وقال النصر آبادي: سُئل الجنيد: متى اشترى؟ قال: حين لا متى أزال عنهم العلل، بزوال مُلكهم عن أنفسهم وأموالهم؛ ليَصلحوا لمجاورة الحقّ ومخاطبته.

وقال النصر آبادي: اشترى منك ما هو صفتك، والقلب تحت صفته لم يقع عليه

المبايعة، قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»(١)

فقال: النفسُ محلُّ الغيب، والكريم يرغب في شراء ما يزهد فيه غيره، وما سنح لي بعد قولهم، وما ذكرتُ في مقدم قولهم: أنه تعالى ألبس النفوس حين أوجدها لباس قهر الربوبيّة، فأسخطت من مباشرته وصف الكبرياء، فلما اتّصف بقهره تعالى نازعته، فعلم الحقّ تعالى لو تركها مع المؤمنين أغوتهم، كما أغوت فرعون، بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وكما قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢]، فهلكها بقهره؛ حتى لا يبقى في المؤمن غير العبودية.

ثُمّ أن الله سبحانه فرّح فؤاد العارفين بوفائه معهم، وخطابه بأخباره عن صدقه بوفائه؛ ليكونوا في بذل وجودهم وقتل نفوسهم، والجهاد مع عدوّهم على حسن الظنّ في الله، وحُسن الرضا إلى وعد الله وفائه لعهده، بقوله:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: كلُّ حادثٍ ناقصٍ في أمر المستقبل والقديم، منزّه عن نقائص الحدثان، فيفعل بموجب الأخبار على موافقة الحكم، ويعطي للعبد ما وعد به وأكثر، إظهارًا لربوبيّته، ومَنًّا على عباده.

قال الحسين: عهد الحقّ في الأزل إلى خواصه باختصاص خاصية خصّهم من بين تكوينه، فأظهر آثار أنوار ذلك عليهم عند استخراج الذرّ، فرأى آدم ﷺ الأنوار تتلألأ، فقال: مَن هؤلاء؟، ثم أظهر سمات ذلك حين أوجدهم، وهى أثار ذلك العهد الذي عهد إليهم فوفّى لهم بعهودهم ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

ثمّ إنّ الله سبحانه بشّر المؤمنين باشترائه نفوسهم منهم، وبما يجازيهم بها من لطفه وكرمه وفضله ومشاهدته، بقوله:

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾، وأضاف اشتراء النفوس إلى نفسه، اشتراها في الأزل ،وأضاف بيعها إلى المؤمنين، وأين المؤمنون في الأزل؟

وأقام نفسه مقام المؤمنين؛ لإشارة مقام الاتّصاف والاتّحاد، كما أشار إلى النبي ﷺ، بقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:١٧]، والآية من قبيل عين الجمع بشّرهم نبيّهم،والغرض من ذلك المشتري أي: بشّروا بمتابعتكم معي حيث اصطفيتكم بخطابي وشرائي، الذي يُنبّئكم عن كريم نطفي بكم، بأنّي أعطيكم ما وعدتكم بلا

---

(١) تقدم تخريجه.

عذاب ولا حساب، وأكشف عن وجهي قناع الجبروت، وأريكم جمالي وجلالي، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قال النصر آبادي: البُشرى في هذا البيع، أنه يُوفي بما وعد، بأن لهم الجنّة، ويزيد لمن يشاء فضلًا منه وكرمًا بالرؤية والمشاهدة.

ثُمّ وصف أهل ذلك البيع والشراء، بأوصاف المقامات مفصّلًا ومقسّمًا، بعد أن جعل جميع الأوصاف في اسم العلم الذي هو المؤمن، وذلك الاسم اسم جامع لمعانٍ كثيرة، وهي ما وصفهم الله بهذا في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ بيّن تسعة مقامات، وذكر في أوّلها ذكر الإيمان، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان أصل جميع المعاملات والحالات والدرجات والمنازلات، وهو أصل جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، وهو تعريف الله نفسه لعبده بعد أن جعله عاقلًا مستعدًّا لمعرفته، فاهمًا لخطابه.

ومن الإيمان تتشعب هذه الخصال، وهذه المقامات، فصارت قسمة المقامات عشرة مع الإيمان، والإيمان أوّله.

والمؤمن ممتَحنٌ ببلايا المعرفة من الله، فيذوق مرارة الفُرقة بعد ذوق الوصلة، فيقع بتوفيق الله السابق في الأزل، فيوقظه من نوم الغفلة، وينبِّهه من قدرة الفرقة حتى يتنبه ويفتح عين قلبه، فيعرف ما أفسدت النفس والشيطان في مصارع قلبه بذئاب الشهوات، وسباع الشُبهات، ويرى خيول الهوى في محلّ الروح الناطقة، فيهيِّج سرّه نور الإيمان إلى إخراجها من منظر نظر الله، فيقدِّس أسراره من النظر إلى الأغيار، ويُخرج نفسه من منازل الاغترار، ويندم على ما فاته من أوقات الطاعات، ويرجع بالحياء والخجل إلى أبواب المداناة، ويستأنف عمل الإرادات، حتى تستحق له مرتبة التوبة، فيتوب الله عليه بعطف وصاله وكشف جماله.

فالتائبون: قومٌ رجعوا من غير الله إلى الله، واستقاموا بالله مع الله، ولا يرجعون من الله إلى غير الله أبدًا.

ثم يوجب هذه الأوصاف للتائب الصادق، العبادات والمجاهدات والرياضات، حتى يذوق طعم العبودية، وذلك بعد الحريّة عمّا سوى الله، حتى يكون عبدًا لله لا لغير الله، ويرى مشاهدة الله في عبادة الله بعين الإحسان ونور العرفان، كما قال سيد فرسان العالمين في ميادين

المعرفة محمّدٌ رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»(١).

فالعابدون: هم القائمون بالله في الله عن غير الله، فإذا تمّت هذه النعم لهذا العابد يقتضي حاله حَمْد المُنعم القديم بإحسانه السابق للعابد في الأزل بإنعامه، فيحمده بوصل الخجل، وخرس ألسنة أسراره عن البلوغ إلى ثنائه، فيحمده بلسان حمده بنعت نسيان غيره في حمده، فيحمد مُنعمه بنعمة تعريف نفسه له، فيستعف لسان الحمد من صفته، فيصفه بصفته لا بوصفه؛ لأن الحادث كيف يطيق أن يحمد القديم؟

ألا ترى كيف رأى النبي ﷺ نفسه عن حمده في رؤية جلاله مقصِّرة عن البلوغ إلى حقيقة حمده وثنائه، بقوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٢).

فالحامدون: الذاكرون الله لجميع الوجود ظاهرًا وباطنًا، سرًّا وعلانية، حتى لا تخلو شعرة منهم إلا ولها لسان من الله بحمد الله به في جميع الأنفاس، المستغرقون في بحار امتنان مشاهدته.

ثم يقتضي حمده للحامد حبس النفس عن مألوفاتها حين عاين هلال جماله في سماء الإيقان، ألا ترى كيف قال ﷺ: «صوموا لرؤيته»، ولا يكون فطوره إلا حلاوة مشاهدته؛ لقوله ﷺ: «وأفطروا لرؤيته»(٣).

فالسائحون: السيَّارون بقلوبهم في الملكوت، الطائرون بأجنحة المحبّة في هواء الجبروت، ثم السباحة في أقطار الغيب، يقتضي المشايخ الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة والكبرياء في مراكع الكشوف، فيركع بنعت السكر لجبروته في كلّ موطنٍ من العالم شوقًا إلى جود جماله، وحُسن وصاله.

فالراكعون: العاشقون المنحنيون من ثِقل أوقار المعرفة على باب العظمة من رؤية الهيبة، ثمّ يقتضي ركوع هذا الراكع شهود أسراره في منازل الأنوار؛ لطلب جمال المَلك الغفَّار جلّ جلاله وعزّ كبريائه، فيسجد عند كلّ كشف في كلّ موضع وحش، حتى يصير مدهوشًا في دهشة بديهة كشف جماله من كلّ قِبلة في العالم، فيسجد لجميع الجهات لغيبه في معاينات الصفات.

وهكذا كان هشام بن عبدان الشيرازيّ- رحمة الله عليه- في سكره؛ ومات بهذه الصفة بارك الله في حياته ومماته، وجعَلَنا مثله في عرصات المقبولين بسيف محبّته، وكشف مشاهدته

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٢/ ٦٧٤)، ومسلم (٢/ ٧٥٩).

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

فالساجدون: الشاهدون مشاهدة الغيب بعد كشف الغيب حرقةً وهيجانًا وشوقًا وهيمانًا، أنشد:

لـوْ يـسمعونَ كـما سـمعتُ كلامَهَـا   خَـرُّوا لعـزَّةَ رُكَّعًـا وسُـجودَا

وهذا السجود يقتضي التوبة، والقربة تقتضي المشاهدة ،والمشاهدة تَصير شاهدًا متّصفًا بصفاتها ،فمن وقع في نور أسماء الله وصفاته، صار متّصفًا بوصف الربوبية، متمكّنًا في العبودية، فيحكم بحكم الله بهذه النعوت.

وقال: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الدّاعون الخلق إلى الحقّ بلسان الظرافة ، ومباشرة المعاملة، الباذلون أنفسهم في الله، دفعَ المضرَّة عنهم، وأخرجهم عن معصية الله بتأييد الله، وبما كساهم الله من أنوار هيبته، وكسوة سنا عظمته، فيكونون محتشمين باحتشامه بين الخلائق، فنهاهم عن متابعة الشهوات بعد أن منعتهم نفوسهم عن جميع المخالفات.

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الناهون نفوسهم عن الهواجس، وشياطينهم عن الوساوس، وقلوبهم عن طلب الآخرة، وأرواحهم عن وقوفها في مقام المحبّة؛ لأن الأزلية بلا نهاية، والوقوف على منزلٍ واحدٍ حرام على كلّ عاشق، وهذا مجالٌ يقتضي رتبةً أعلى، وهي حفظ حدود الله ،وتابعوا سنَّة الله ورسوله في شريعته، وأمروا على أنفسهم وعلى خلقه أمر الله ورسوله، ولا يتجاوزون عن حدود الله التي أعلامها معروفة في خطابه، فالحافظون لحدود الله، القائمون في مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبيّة لهم، فلا يتجاوزون عن حد العبودية، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبيّة، وبعد أن اتّصفوا بصفاته، وعاينوا جمال ذاته، لا يدَّعون الربوبيّة كفعل سكارى المحبّة؛ لأنّهم في محلِّ التمكين على أُسوة مراتب النبي ﷺ مع كماله، قال: «أنا العبد لا إله إلا الله»[١].

ثُمّ جمع هذه الأوصاف الشريفة، والمراتب الرفيعة في ا سم واحد، وهو اسم المؤمن، وبشَّرهم بجزيل المقامات في الدنوّ والمداناة، بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: العارفين الذين هذه الأوصاف صفتهم، وهم في أعلى الدرجات من التوحيد أي: بَشّرهم أنا لهم وهم لي، حجاب بيني وبينهم أبدًا، وإذا خرجوا من هذه المفاوز الوعرة لا يبقى بيني وبينهم امتحان بعد ذلك، فإنَّ هناك لهيب الوصال بلا علّة الفُرقة، وكشف الجمال بلا حجاب الوحشة، قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

---

(١) تقدم تخريجه.

ولي أيضًا لطيفة في حقِّ المؤمنين، أنَّ الله سبحانه ذكر أوصاف هؤلاء الكبراء من أهل المقامات والدرجات، وما ذكر ذكر البِشارة هناك، كأنّ ذلك يقتضي حزن المؤمنين الذين هم في أدنى الدرجات من درجاتهم، فبشّرهم بالبِشارة، وعاملهم بالبيع والشراء.

قال في الأول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾، وقال في آخر الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اشتريت منهم نفوسهم بثمنٍ كريمٍ.

قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: بأنَّ ذلك الثمن الكريم جنّة مشاهدتي، التي بسَّامة بنعت الرضا في وجوههم حين تطلع لعيونهم، وأن ليس لهم هذه المقامات، فأنا مشتري المفلسين، وأنا مُبشِّر المحزونين، أي: الدرجات لهؤلاء، وأنا للمؤمنين خاصة بلا علَّة المعاملة، ولا شُبهة الجهد والجاهدة، وأيضًا: بشِّر المؤمنين بهذه المقامات، فإنّها أيضًا من أهل المقام بإيمانهم بهؤلاء الأصفياء.

ألَا ترى إلى قول رويم – قدَّس الله روحه – حيث قال: من آمن بكلامنا هذا من وراء سبعين حجابًا، فهو من أهله.

قال سهل في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾: ليس في الدنيا شيءٌ من الحقوق، أوجب على الخَلق من التوبة، إلا بالحمد على ما وقفت به عليه من طلب طريق التوبة، ولا تَصحّ التوبة إلا بمداومة السياحة والرياضة، ولا تدرك هذه المقامات، إلا بمداومة الركوع والسجود، ولا يَصحّ هذا كلّه، إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصحّ مما تقدّم، إلا بحفظ الحدود ظاهرًا وباطنًا.

والمؤمن من تكون هذه صفته؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هم بهذه الصفة .

قيل في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الراجعون إلى الله بالكلّية عن جميع ما لهم من صفاتهم وأحوالهم، العابدون القائمون معه على حقيقة شرائط الخدمة، الحامدون العارفون نعم الله عليهم في كلّ خطرةٍ وطرفة عين.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم عن مرادها؛ طلبًا للرضا.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ الخاضعون له على الدوام.

﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ الطالبون قُربه.

﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الآمرون بسنَّة النبيّ ﷺ.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن ارتكاب مخالفات السنن.

﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ المراعون أوامر الله عليهم في خوارجهم، وقلوبهم، وأسرارهم، وأرواحهم، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ القائمين بحفظ هذه الحرمات.

وقال أبو يزيد: السياحة راحة، من سَاح استراح.

وقال أبو سعيد الخرَّاز في قوله: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾،قال: هم الذين أصغوا إلى الله بآذان فهومهم الواعية، وقلوبهم الطاهرة، ولم يتخلَّفوا عن ندائه بحال.

وعن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر قال: لا تَصحّ العبادة إلا بالتوبة، فلذلك قدَّم التوبة على العبادة، ولا تتم التوبة إلا بملازمة العبادة، فجعلها تاليةً.

قال ابن عطاء:﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ الراجعون إلى الله من كلِّ ما سواه من الأغيار. و﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ الواقفون على بابه يطلبون الإذن عليه شوقًا منهم إليه.

و﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ هم الذين يشكرونه على السرّاء والضرّاء، إذ كلٌّ منه، وما كان منه، فهو مقبولٌ بالسمع والطاعة.

و﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ التاركون شهواتهم، ومراداتهم لمراد الحقّ فيهم.

و﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ الخاضعون لعظمة الله. و ﴿ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾: المتقرّبون إلى الله بخدمته، و﴿ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ القائمون بأوامر الله بحسب الطاقة. ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ التاركون مخالفة الحقّ أجمع، وهم الذين يوالون أولياء الله، ويعادون أعداءه.

قال الأستاذ في قوله: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ الراجعون إلى الله، فمَن راجع، يرجع عن زلّته إلى طاعته، ومَن راجع، يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه، ومَن راجع، يرجع من شهود نفسه إلى شهود لُطفه، ومَن راجع، يرجع عن الإحسان بنفسه وأبناء جنسه إلى الاستقرار في حقائق حقّه.

وقال في قوله:﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ هم الخاضعون بكلِّ وجهٍ، الذين لا تسترقّهم كرائم الدنيا، ولا تستعبدهم عظائم العُقبى، و﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ الشاكرون له على وجود أفضاله المُثنون عليه عند شهود جماله وجلاله، و﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الممتنعون عن خدمة غير الله، المُكتفون من الله بالله، و﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ الخاضعون لله في جميع الأحوال تحت سلطان التجلّي، و﴿ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ في الظاهر بنفوسهم على بساط العبودية، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبيّة.

﴿ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ هم الذين يَدعون الخَلْق إلى الله،

ويحذِّرونهم عن غير الله، يتواصون بالإقبال على الله، وترك الانشغال بغير الله. و﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ يحفظون الله مع الله أنفاسهم.

قيل في قوله: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار؛ طلبًا للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها، بالتفكُّر في جوانبها ومساكنها، والاستدلال بتغيُّرها على مُنشئها، والتحقُّق بحكمة خالقها، كلما يرون من الآيات التي فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت، فيجدون روح الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس، والتحقُّق بشهود الحقّ.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ إنّ الله سبحانه إذا أذاق طعم وصاله، ولذائذ حلو خطابه أرواح الصدِّيقين والعارفين، وأراهم جماله وجلاله، فجعلهم عاشقين بوجهه، شائقين إلى جماله، وهم بهذه النعوت لا يَبْرحون عن بابه، ولا يفرحون إلا بوصاله، ولا يلتفُّون بقلوبهم ونيَّاتهم إلى غيره، فلمّا اصطفاهم بهذه الصفات في الأزل بنفسه، كيف يحجبهم عن نفسه، وهو بذاته كان مُحبًّا بحبِّهم، وعاشقًا بعشقهم، وشائقًا إلى شوقه،حاشا التغيير في أهل الصفات، ولا تبديل الكلمات التامات التي سبقت باصطفائيتهم في الآزال، وآزال الآزال، وهُم بحمد الله في كنف الله، محروسون بعين لطفه عن عين قهره إلى الآباد وآباد الآباد، ولا اعتبار بما يجري عليهم من أحكام الابتلاء والامتحان، فإنّ سيئاتهم تُوجب الحسنات، وحسناتهم تُوجب القُربات، وهم غير مأخوذين بالجنايات، لسبق العنايات.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ لا يمنع تغيير ما ذكرنا، فإنّ الضلال هاهنا ظهور النكرة في محلِّ الامتحان من القهر والغيرة، وخفاء الحال، والغرض في ذلك انفتاح عين المعرفة في النكرة، حتى يعرفوا الحقّ بطريق القهر واللطف، وتأويل الظاهر.

قال بعضهم: مَن جرى له في الأزل من السعادة والعناية نصيبٌ، فإنّ الجنايات لا تؤثِّر عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ في الأبد، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ في الأزل.

وقيل: لا يُضلُّهم بعد إذ هداهم إليه.

وقال الأستاذ: الإشارة فيه أنه لا سلب لعطائه، إلّا بترك الأدب منكم.

ويقال: من أهله لبساط الوصلة ما مُنِيَ بعده بعذاب الفُرقة، إلّا لَمن سلب منه ترك الحرمة.

ثُمّ وصف نفسه بأنه مالك المُلك من العرش إلى الثرى؛ إعلامًا بأن الحكم له في الضلالة والهداية والحياة بالوصلة، والموت بالفرقة: بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

إشارة القهر أن مُلك الكون لا خطر في قلب العارف عند رؤية المُكوِّن؛ لأن من عاين المُكوِّن غاب عن الكون، والكون له؛ لأن العارف والمعروف بشرط الانبساط واحدٌ، له ملك الولاية في الأرض، ومُلك الملكية في السماء، مَن قصده لهاتين المنزلتين يكون مرهونًا للدرجات عن المشاهدات، التي تُحيي قلوب العشاق بجمالها، وتميت المشغولين بغيره، بفراقها، وتُحيي قلوب العارفين بالبسط والأُنس، وتميت نفوسهم بالقبض والهيبة.

قال ابن عطاء: من طلب من الملك غير المالك: فقد أخطأ الطريق.

وقال جعفر: الأكوان كلُّها له، فلا يشغلك ما له عنه.

قال الأستاذ: يُحيي من يشاء بعرفانه وتوحيده ،ويُميت من يشاء بكفرانه وإلحاده. ويقال :يُحيي قلوب العارفين بأنوار المواصلة، ويُميت نفوس العابدين بآثار المنازلة.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾(١) التوبة توبتان: توبة العبد: وهى الرجوع من الزلّات إلى الطاعات.

وتوبة الله: رجوعه إلى الله بنعت الوصال، وفتح باب المآب، وكشف النقاب عن الاحتجاب، وطلب العتاب:

إذا مرضتُم أتيناكُم نعودُكُم ... وتدينونَ فنأتيكُم فنعذرُ

انظر لطف الله بنبيّه وأصحابه، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم، رجع إليهم قبل رجوعهم إليه؛ ليسهّل عليهم طريق الرجوع إليه، فرجوعه إلى نبيّه بكشف المشاهدة، ورجوعه إليهم بكشف القُربة، فتوبة النبيّ ﷺ من غيبته عن المشاهدة باشتغاله بأداء الرسالة، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة؛ فلمّا ذاقوا طعم الجنايات، واحتجبوا عن المشاهدات، أدركهم فيض الوصال، وانكشف لهم أنوار الجمال، وهكذا سنّة الله مع الأنبياء والأولياء إذا دانوا في مقام الامتحان، وبقوا في الحجاب عن مشاهدة الرحمن، يُمطر عليهم وابل سحاب الكرم، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرق القِدم، فيؤنسهم بعد إياسهم، ويوصلهم بعد قنوطهم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى:٢٨]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]، وأنشد في معناه:

كنَّا كَمَنْ أُلبِسَ أكفَانَهُ ... وقربَ النعشَ منَ الملحدِ
فحالَ ماءُ الروحِ في جسمهِ ... فردَّهُ أملٌ إلىَ المولدِ
تباركَ اللهُ سبحانه ... مَا كلَّ هوَ بالسرمَدِ

قال بعضهم: توبة النبيّ ﷺ، هي مقدمة توبة الأمة؛ لتصح بالمقدمة التوابع من توبة التائبين.

وقال بعضهم: توبة الأنبياء لمشاهدة الخلق في وقت الإبلاغ، إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون في مواضع الغيبة؛ لأنهم في عين الجمع أبدًا، ثُمّ خصَّ الثلاثة الذين غرقوا في بحار الامتحان، برجوعه عليهم بقبول توبتهم، بقوله:

---

(١) أي نبي الروح بمنزلة النبي يأخذ بإلهام الحق حقائق الدين ويبلغها إلى أمته من القلب والنفس والجوارح والأعضاء. فالمعنى: أفاض الله على نبي الروح ومهاجري صفاته الذين هاجروا معه من مكة الروحانية إلى المدينة الجسدانية والأنصار من القلب والنفس وصفاتها وهم ساكنوا مدينة الجسد فيوضات الرحمة. تفسير حقي (٥/ ١٨٧).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: انبسطت عرصات قلوبهم لتراكم غيوم القبض، وتتابعت على أسرارهم أنوار العظمة، فأبرزت الأرض من عظائم برحاء مواجيدهم، وتراكم حقائق همومهم، فلا يبقى ذرة من الأرض إلا واستغرقت في بحار أنفاسهم الملكوتية، واحترقت بنيران أفئدتهم الجبروتية، وما رأوا على وجه الأرض ما يستأنسون به غير الله.

ثُمّ وصف نفوسهم بفنائها في آثار قلوبهم، بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ضاقت نفوسهم من حمل وارد الغيب عليهم، وعن أثقال أرواحهم، التي هي مطايا أسرار الألوهية، ولطائف كنوز الربوبيّة، وفنوا تحت سلطان كبريائه، ودخلوا تحت أكناف لطفه من عزائم قهره.

بقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ عرفوا موضع الفرار منه إليه، فقطعوا الوسائط، وخاضوا في بحار القهر بسفن اللطف، فلمّا رآهم منفردين من دونه، أقبل إليهم بنوادر لطفه؛ ليقلبهم من الكون إلى وجهه، بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا﴾ رفع حجاب الحشمة من البيْن؛ ليدخلوا الحضرة بوصف الأنس، اشتاق إليهم، فشوّقهم إليه، ثم وصف نفسه بأنه قابِل التوبة في الأزل، رحيمٌ على من رجع إليه، بأن أمنه بعد خوفه، وقرَّبه بعد بُعده.

قال أبو عثمان: مَن رجع إلى الله، وإلى سبيله، فلتكن صفته هذه الآية، تَضيق عليه الأرض حتى لا يجد فيها لقَدَمه موضع قرار، إلّا وهو خائف أنّ الله ينتقم منه فيها، وتضيق عليه أحوال نفسه، فينتظر الهلاك مع كلِّ نَفَسٍ، هذه أوائل دلائل التوبة النصوح، ولا يكون له ملجأ ولا معاد ولا رجوع؛ إلّا إلى الله بانقطاع قلبه عن كلّ سببٍ.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾.

وقيل في قوله: ﴿وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ لن يعتمدوا حبيبًا، ولا خليلًا، ولا كليمًا، بل قلوبهم منقطعة عن الخَلْق أجمع، وعن الأكوان كلِّها.

لذلك قيل: المُعارف ألّا تلاحظ حبيبًا ولا خليلًا ولا كليمًا، وأنت تجد إلى ملاحظة الحقّ سبيلًا.

وقال أحمد بن خضرويه، لأبي يزيد: بماذا أصل إلى التوبة النصوح؟

قال: بالله وبتوفيقه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا﴾.

قال بعضهم: عطف عليهم بنوال عطفه ونعمه وفضله، فألِفوا إحسانه، ورجعوا إليه،

فكأن هو الذي أخذهم إلى نفسه، لا هُم بأنفسهم رجعوا إليه.

قال الأستاذ: إذا أشرفوا على العطب، وقاربوا من التلف، واستمكن اليأس من قلوبهم من النصر، وظنّوا نفوسهم على أن يذوقوا إليهم اليأس، أمطر عليهم سحاب الجود بالإجابة، فيعود عُود الحياة بعد يبسه طريًّا، ويَرد وِرد الأُنس عقب ذُبوله غضًّا جليًّا.

وقال في وصف الثلاثة لّما صدق منهم الملجأ: سبق إليهم الشفاء، وسقط عنهم البلاء، وكذلك الحقّ يكون نهار اليسر على ليالي العُسر، ويطلع شموس المنَّة على فخوس الفتنة، ويله من تلك السعادة، فيمحق تأثير طوارق النكادة سنَّة منه سبحانه، لا يُبدِّلها عادة في الكرم يجريها، ولا يحولها، ثم حثَّ هؤلاء المخاطبين بالتوبة والمغفرة، ونظر أنهم من المؤمنين، بطلب زيادة المقامات والدرجات، وحذَّرهم من نفسه، وطالَبهم بالصدق في وفاء المعرفة، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جعل الطريق على ثلاثة أقسام: الإيمان، والتقوى، والصدق، وهي من أعمال القلوب؛ لأنها تُثبت حقائقها بكشف أنوار الغيوب، ومن خُصَّ بالإيمان والتقوى والصدق، يُدرِك بالإيمان مشاهدة أنوار حقائق الآيات، ويدرك بالتقوى مشاهدة أنوار الصفات ،ويدرك بنور الصدق مشاهدة أنوار الذات، سمَّاهم مؤمنين، ودعاهم من مقام الإيمان إلى مقام التقوى، وهو رؤية إجلاله، والتبرِّي من غيره ، ودعاهم من التقوى إلى مقام الصدق، وهو مقام الاستقامة مع الله، حيث لا يفر الصادق منه ببلائه، وبيّن أن المؤمن مستعدٌ لإدراك نور التقوى ،وإدراك نور الصدق ،ولولا ذلك ما حثَّهم على طلبها، وخوَّف المؤمنين عن مخالفة الصادقين ،أي اقبلوا يا أهل الإيمان ما يصدر من الصادقين من أحكام علوم المجهول الغريبة، والبراهين العجيبة؛ حتى تكونوا بالإيمان به معهم في مقام المشاهدة؛ لذلك قالﷺ «من أحبَّ قومًا فهو معهم»[1].

وقال بعضهم: ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مع المقيمين على منهاج الحقّ

قال بعضهم ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الذين لم يُخلفوا الميثاق الأول، فأنها صدق الكلمة .

قال أبو بكر بن طاهر: مع مَن ضاقت نيّتهم عن طاعته، وخَلُصت سرائرهم لمودة ما يَرِد عليهم.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢).

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ اختار الله سبحانه قومًا خاصًا لمجالسة نبيّه ﷺ على الدوام، وخصَّهم لإلقاء الأسماع الخاصة، لتلقف خطاب الحقّ من فلق الغيب، وجعل الآخرين للأسفار والمجاهدات والرياضات؛ ليبلغهم إلى مقام المشاهدة والصحبة، فالأولون أهل الحضور وشهود الغيب، والمؤانسة بالصحبة، وفهم الخطاب.

قال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: ليفهموا حقائق أحكام المعرفة،والطريقة والحقيقة، والشريعة، والآخرون إذا تمكّنوا في العبودية، وأدركوا مقام أهل المؤانسة، وفهموا مراد الله من خطابه، وإذا الكلّ على سعادةٍ من الأزل وحيث لحق بعضهم بعضًا؛ لأنّ شموس العناية إذا أشرقت يجاري الكلّ أنوارها، إذا طلع الصباح لنجمٍ راحٍ تساوى فيه سكران وصاحٍ.

قال سهل: أفضل الرحلة رحلةٌ من الهوى إلى العقل ،ومن الجهل إلى العلم ،ومن الدنيا إلى الآخرة ،ومن الاستطاعة إلى التبرّي من الحول والقوة ،ومن النفس إلى التقوى ،ومن الأرض إلى السماء ،ومن الخَلْق إلى الله .

قال المرتعش: السياحة والأسفار على ضربين: سياحةٌ؛ لتعلُّم أحكام الدين وأساس الشريعة، وسياحة لآداب العبودية ورياضة الأنفس، فمَن رجع من سياحة الأحكام، قام بلسانه يدعو الخَلْق إلى ربه، ومَن رجع من سياحة الآداب والرياضة، قام في الخلق يؤدِّبهم بأخلاقه وشمائله، وسياحة هي سياحة الحقّ، وهي رؤية أهل الحقّ والتأدُّب بآدابهم، فهذا بركته تضم العباد والبلاد. قال الله: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ .

قال سهل في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ليفهموا في الدين مراد خطابه، ويقوموا باستعمال ما أُمِروا به مخلصين له الدين، ثُمّ حثّهم بقتال نفوسهم، ومجاهدة هواهم، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ الكفّار: النفوس الآبدة التي هي مجمع الهوى والبلاء والحجاب، مَنْ عرفها قاتلها وأماتها بفنون الرياضات، حتى لا يبقي في عرصات قلبه من عروق أشجار الشهوات أثر، فينبت فيها بعد ذلك أشجار المعارف، والكواشف ونور الحكمة، ورياحين المودّة ،وورود الشوق، وياسمين العشق، ويكون بهذه الأنوار مزار جنود الأسرار، ومنازل نزول الأنوار.

قال سهل: النفسُ كافرة، فقاتلها بمخالفة هواها، واحملها على طاعة الله، والمجاهدة في سبيله، وأكل الحلال، وقول الصدق، وما أمرت به من مخالفة الطبيعة.

وعن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر معناه: مجاهدة النفس وشرورها، فإنّه أقرب شيء يليك صدق الصادق، حيث وافق قول سيّد الصادقين ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وصف الله أهل الإيمان بفتح آذان قلوبهم بسماع خطابه، وفَهم بيانه، واستبشار قلوبهم بروح الخطاب، وزيادة إيقانهم في السماع.

قال ابن عطاء: أمّا الذين حكموا الربوبيّة، وتمسّكوا بعهد العبودية، زادتهم معرفةً في قلوبهم، ونظرًا أسقط عنهم النظر إلى ما سواه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ جهّلهم على جهلهم عند معاينة البرهان؛ لأنهم ليسوا من أهل العيان.

قال سهل: أي زاد أهل الأهواء والبدع المضلة جهلًا إلى جهلهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أخبر الله سبحانه عن أهل الفتنة والعزّة، لا يعرفون طريق الحقّ بعد امتحانهم بالبلايا المتواترة، ولا يهتدون سبيل الرشاد بعد إظهار البرهان لهم، وكيف لا يكونون هكذا، وهم في الأزل محجوبون عن عناية السرمديّة.

قال أبو عثمان المغربي: ليس الرجوع في أيّام الفتنة، إلّا إلى الملجأ والاستغاثة، وطلب

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٥٧).

الأمان، وقصد التوبة، فمَن رجع إلى غير هذه الأسباب لم يَسلم من فتنة نفسه، وإن سَلم من فتنة العوام.

قال الله: ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ أي: لا يرجعون إلى الله بقلوبهم، والراجع إلى الله سالمٌ من الفتن والآفات والهَمّ.

﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يشكرون نعمى السالفة عندهم، وهم يعلمون رِفقي بهم في الفتنة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أخبر سبحانه عن كريم ميلاده ﷺ، وعظيم ميعاده ومراده، وشرَّف بها أمّته، حيث اختاره منها باصطفائية رسالته، وعظَّم شأنه، والحمد لله الذي جعل طينته من طينتنا، وشرَّف طينتنا حيث جعلها من طينته، وخَصَّ جوهر روحه من أرواحنا، وشرَّف أرواحنا حيث كانت مع روحه في أول بديهة الأمر من الله سبحانه، وأي كرامةٍ أعظم كرامةً مِن أن الله سبحانه جعل نبيّنا من أنفسنا، وأرسل إلينا بالرأفة والرحمة، وأكرم خلقه حيث جعله رحمةً للعالمين، قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

قال الخرَّاز: أثبت لنفسك خطرًا، حين قال: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

قال الحسين: مِن أجلِّكم نفسًا، وأعلاكم همّةً، جاد بالكونين عوضًا عن الحقّ، ما نظر إلى الملكوت، ولا إلى السدرة، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم:١٧] قلبه عن موافقته.

قال ابن عطاء: نفسه موافقةٌ لأنفس الخَلق، خلقه ومباينه لها حقيقة، فإنها نفس مقدَّسة بأنوار النبوّة، مؤيَّدة بمشاهدة الحقائق، ثابتة في المحلّ الأدنى، والمقام الأعلى ما زاغ، وما طغي، ثم زاد في وصفه، بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ اشتدّت عليه مخالفتنا مع الحقّ، ومتابعتنا هوانا، واحتجابنا عن الحقّ.

قال بعضهم: شَقَّ عليه ركوبكم مراكب الخلاف.

قال سهل: شديدٌ عليه غفلتكم عن الله، ولو طرفة عين، ثم زاد في وصفه، بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حريصٌ على محبّتكم بمشاهدة الله، ومعرفة صفاته وذاته، وعلى متابعتكم أمر الله، رءوفٌ برأفة الله بالمؤمنين، ورحيمٌ برحمة الله على الصادقين، رءوف بأهل الجنايات من المذنبين، ورحيم على أهل الطاعات من المقصِّرين، فيها تَشْفع لأهل الجنايات، وتدعو لأهل الطاعات، وهذا من اتِّصافه بصفة الله، حيث ألبسه أنوار عنايته، وزيَّنه بلطفه وشفقته.

قال بعضهم في قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم لو كانت الهداية إليه، مُشفق على من اتّبعه أن يأتيه نزغةَ من نزغات الشيطان، رحيمٌ يستجلب برحمته له رحمة الله إيّاه.

وقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: أن تبلغوا محل أهل المعرفة.

قال جعفر الصادق: علم الله عجزَ خَلْقه عن طاعته، فعرَّفهم ذلك؛ لكي يعلموا أنّهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينه وبينهم مخلوقًا من جنسهم في الصورة، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، فألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيرًا صادقًا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، ثم أفرده ﷺ لنفسه خاصة بعد أن كان من جنسهم بالصورة، فآواه إلى نفسه بشهوده عليه في جميع أنفاسه، وسلَّى قلبه بإعراضهم عن متابعته، بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في أمر النبوّة، وشرف الرسالة وجماله،حسبي عن الجملة، وقُرْبه ووصاله يكفيني عن جميع مراتب الثقلين؛ لأنه بوحدانيته منـزَّهٌ عن الأضداد، فنـزَّهني عن صُحبة الأغيار بمشاهدة الأنوار بوصفه لنفسه: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا غير في البيْن من العرش إلى الثرى.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على نفسي وغيري، فإنه عماد المتوكّلين، وبه ثَبتت قلوب الصادقين.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ حيث ألبسَ العرش أنوار عظمته بعظمته، ولولا ذلك لذاب العرش في سبحات وجهه بأقلّ لمحةٍ.

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿الر﴾: الألف عين الوحدانية، واللام عين الأزلية، والراء عين الربوبية من عين الوحدانية، تجلَّى بالألف لقلوب الموحدين والمنفردين من الحدثان، ليفنوا في سبحات الألوهية، وتجلَّى من عين الأزلية باللام لأرواح العارفين لتطيره بأجنحة أنوار القدم في القدم، وتجلَّى من عين الربوبية بالراء؛ لأسرار المحبين ليستأنسوا بحسن الصفات، ويشتاقوا إلى مشاهدات الذات، سقى الموحدين رحيق الأنائية بأقداح الألف من بحار الوحدانية، فخرجوا بنعت الاتحاد، وسقى العارفين عقار العشق بأقداح اللام من أنهار الجمال، فخرجوا بنعت الاتصاف والهين، وسقى المحبين عروق الوداد بأقداح الراء من عيون أنوار الربوبية، فخرجوا بنعت الحيرة هائمين.

وأيضًا: الألف آلاؤه للصادقين، واللام ألطافه للمقربين، والراء رحمته على التائبين.

قال الحسين: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وقد وقع لي إنما يكون في سورة يونس من الغرائب والعجائب والقصص والأمثال جمعها في ثلاثة أحرف في الألف واللام والراء، ونبَّه بها قلب نبيه ﷺ، بإشارة الأحرف الثلاثة فكفى له ذلك؛ لأن بينه وبين الله رموزًا وإشارات، لا يطَّلع عليها جميع الخلائق، فلذلك يحتاجون إلى نزول سورة كاملة.

وأيضًا: خاطبه بأحسن الأسماء مواساة وتربية، أشار بالألف: يا آدم الثاني ؛ لأن الألف أول الحروف من آدم، وأشار باللام: يا لطيف، وأشار بالراء: يا رحيم، كما قال: يا ﴿طه ۝﴾، يا ﴿يس ۝﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝﴾ أي: هذه الأبناء آيات صفاتية أزلية التي كنت حكيمًا، وعالمًا بها في القدم والأزل، أيضًا أي: تلك علامات ما ألهمنا روحك في الأزل، فنعرفك بها مكان خطاب الأول، إن القرآن محكم بحكم الأزلية، وحججه البالغة بأمر الربوبية، والدعاء إلى العبودية من فهمه صار حكيمًا بحكمته.

وقيل: أي فيه علامات قبول الحكماء لهذا الخطاب.

وقيل: الكتاب الحكيم العهد الناطق عليك بأحكام الظاهر والباطن.

قال الأستاذ: إن هذا الكتاب هو الموعود لكم يوم الميثاق، والإشارة فيه أن الصفر نسيج الشعر وغيره.

والعناج: الخيط الذي يشد من أسفل الدلو، حققنا لكم الميعاد وصفرنا لكم عناج الوداد، وانقضى زمان البعاد، فالعصاة ملقاة، والأيام بالسرور متلقاة، فبادروا إلى شرب كاسات المحاب، واستقيموا على نصيح الأحباب: خلقه لم يعرفوا موقع عناية الله وفضله واختياره لنبيه نبوته ورسالته بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

وأخبر أن هذه الخاصية من الله سبحانه له؛ بأن ينبه النوامين عن مشاهدة عظمته بعظيم بطشه وجلال قدره بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، ويبشر الصادقين في إيمانهم؛ بأن وصاله لهم بنعت السرمدية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أخبر عن أوائل كرمه وسوابق نعمه الصادقين في إرادتهم، والمخلصين في مقاصدهم أن لهم وصالاً بغير حجاب، وكشف جمال بغير عتاب.

وأيضًا أي: بشِّر العارفين أن لأرواحهم في مقام قدس جلالي وأزلي قدم المحبة وصدق اليقين بمشاهدة، حين كشف جمال وجهي لها في ميثاق الأول، وصدق تلك الأقدام بوصف المحبة أنها لا تزول عن محل الاستقامة في العبودية، وعرفان الربوبية.

وأيضًا: ما وصفت قدم الربوبية في إيجاد الكونين إلا بصدق محبتي لهم في الأزل.

وأيضًا: معنى الآية أولها تخويف بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: خوف من نسيني طرفة عين بفوت حظ مشاهدتي وفراقي ووله وصالي، ثم بشر بلسان نبيه ﷺ من كان جميع قلبه مملوءًا من حبه وصفاء ذكره.

وأيضًا أي: بشر المريدين الذين أيقنوا قربتي لهم وعنايتي لهم أنهم وإن أخطأوا بمباشرة هوى نفوسهم في زمان فترتهم ألا يقنطوا من فضلي ولطفي القديم بهم في سابق حكمي، فإن لهم عندي قدم صدق الإرادة في البداية، ولا يحذر من كرمي أن أهدم صدق أقدامهم في الإرادات بل آويهم بعناياتي إلى قربي ووصالي، وأراعي عواقب أمورهم؛ حتى تكون أقدام الأواخر مستويات بأقدام الأوائل.

قال أبو سعيد الخراز: تفرق الطالبون عند قوله: «من طلبني وجدني»[1] على سبيل شيء، أولهم أهل الإشارات طلبوه على ما سبق من قوة الإشارة، وهم أهل قدم الصدق عند ربهم، فبالقدم أشار إليهم، فهم أهل الطوالع والإشارات، حظهم منه ذلك.

وقال سهل: سابقة رحمة أودعها في محمد ﷺ.

وقال الترمذي: قدم صدق هو إمام الصادقين والصديقين، وهو الشفيع المطاع وسائل المجاب محمد ﷺ.

وقيل في قوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: مما يذهل قلوب الصادقين المنتبهين.

وقال النصر آبادي في قوله: ﴿ بَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾: القدم الصدق لم يبق له مقام إلا وقد سلكه بحسن الأدب، لذلك إن قدم الصدق هو موضع

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٩٣).

الشفاعة للنبي ﷺ.

وقال الأستاذ: قدم صدق ما قدموه لأنفسهم من طاعات أخلصوا فيها، وفنون عبادات صدقوا في القيام بنقصها[1].

ويقال: هو ما قدم الحق سبحانه لهم يوم القيامة من مقتضى عنايته بشأنهم، وما حكم لهم من فنون إحسانه وصنوف ما أفردهم به من امتنانه، ثم وصف نفسه تعالى بالربوبية والألوهية؛ تنزيهًا لتربية أسرار العارفين، وتقديسًا لقلوب الموحدين بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، ثم بيَّن أعلام الألوهية لترفيه فؤاد الموقنين بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أخبر عن ترضيته الملكوت بأنوار الجبروت لاستبصار العاقلين، وجعل أيام بقائهما معدودة لإطفاء نيران عجلة الإنسان، وإلا هو مقتدر بقوة القدم، أن يوجد ألف ألف سماء وألف ألف أرض بأقل من لمحة، ثم جعل العرش مرآة قدسه، ومأوى أرواح أحبابه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، خامر أنوار عظمة العرش، وجعله مأوى أنفاس الصديقين، ومنتهى مسالك المريدين.

ثم أخبر أنه تعالى يستهل طريقه إليه لطالبيه بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: يقدس للأرواح العاشقة الصادقة طرق مشاهدته ووصاله من علة الحدثان، ويصطفي قلوب العارفين بكشوف عجائب صفاته وأنوار ذاته، ثم بيَّن أنه مختارٌ لولاية الأولياء بنفسه لانتقاص من جهة الخلق، وعلة الخليفة بقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾: من يعطيه لسان الانبساط يسأل ويشفع بعد انبساطه إليه، وإلا كيف يكون للحادث عند القديم وزن؟!

ثم عرف نفسه بما وصف به نفسه لفهماء المعرفة والمربين بأنوار المحبة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

ثم دعاهم إلى عبادته بعد معرفته بقوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: أي: اعبدوه بالمعرفة؛ لأنه خلق الخلق لعرفانه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ

---

(١) أي أعمالاً حقة ثابتة قدموها لأنفسهم صدقوا فيها وأخلصوا فيما يسّروا له لأنهم خلقوا له وكان مما يسعى إليه بالأقدام، وزاد في البشارة بقوله: (عند ربهم) ففي إضافة القدم تنبيه على أنه يجب أن يخلص له الطاعة كإخلاص الصدق من شوائب الكذب، وفي التعبير بصفة الإحسان إشارة إلى المضاعفة. نظم الدرر (٤/ ٤٢).

وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

قال: «كنتُ كنزًا مخفيًا، وأحببتُ أنْ أُعرفَ»[1].

ثم حثَّهم بالتفكر والتذكر بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: أفلا تخوضون في بحار الأفكار لتدركوا حقائق الأذكار، وتبصروا بها حقائق الأنوار، وتنكشف لكم لطائف الأسرار.

قال بعضهم في قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: يختار العبد ما هو خيرٌ له من اختياره لنفسه.

ثم بيَّن سبحانه أن نفسه تعالى مرجع كل غريق فيه، ومنجى كل خائف منه، ومأوى كل هائم له، ومآب كل أواب إليه، ومقصد كل قاصد إليه، ومطلب كل طالب له، ومنتهى همة كل سيَّار في أسفار آزاله وآباده بقلبه وروحه وسره إليه بقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، كل صفة منه تعالى مراد كل مجذوب بنورها إليه من القدم إلى الأبد، فمرجع العاشقين جماله، ومرجع العارفين جلاله، ومرجع الموحدين كبرياؤه، ومرجع الخائفين عظمته، ومرجع المشتاقين وصاله، ومرجع المحبين دنوه، ومرجع أهل الفناء ذاته، أنوار ذاته أوطان أرواح القدسية، وأنوار صفاته مزار قلوب الوالهة، وأنوار أفعاله مقرُّ عقول الهائمة، تعالى جلاله عن علة الحدثان والأكوان، والحدثان يرجع إلى مصرف وجود القدم؛ لأنها بدت منه، وإليه تعود، هو مقدَّسٌ بعظمته عن أن يكون محلاً للحادث، وتصديق ذلك بيانه في آخر الآية: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: أبدأهم من العدم بتجلي القدم.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٧٣).

ثم يفنيهم بقهر سلطان غيرته، ومرجعهم إلى معدن الأول، ثم يعيدهم رحمة وشفقة ليجازي العارفين بكشف جماله بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ : أي: يجزي الذين شاهدوا بقلوبهم مشاهد الملكوت بكشف جمال الجبروت، ويجازي الذين أصلحوا سرائرهم لنزول أنواره يجازيهم بمداناة وصاله.

يا أخي من رجع من سفر البعاد إلى قرب محبوبه يفرح المحبوب بمقدمه، ويعطي نفسه لمريده وزائره؛ فإنه سبحانه يكشف نقاب الغيرة عن جمال مشاهدته لكل أواب إليه.

أيَـا قَادِمًـا مِـنْ سَـفرةِ الهجـرِ مَـرحبًا ... أيَـا ذَاكَ لاَ أنسَـاكَ مَـا هَـبَّتِ الـصَّبَا

قال الجنيد: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ : منه الابتداء وإليه الانتهاء، وما بين ذلك مراتع فضله وتواتر نعمه، فمن سبق له في الابتداء سعادة أظهر عليه في مراتعه وثقلته في نعمه بإظهار لسان الشكر وحال الرضا ومشاهدة المنعم: ومن لم يجر له سعادة الابتداء أبطل أيامه في سياسة نفسه، وجمع الحطام الفانية ليرده إلى ما سبق له في الابتداء من الشقاوة.

قال الله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ : فالراجع بالحقيقة إليه هو الراجع مما سواه إليه، فيكون متحققًا في الرجوع إليه.

قال الأستاذ: الرجوع يقتضي ابتداء الأرواح قبل حصولها في الأشباح كان لها في مواطن التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند محبيه وذويه.

ويقال: المطيع إذا رجع إلى ربه فله الحسنى والثواب والزلفى، والعاصي إذا رجع إلى ربه بنعت الإخلاص وخسران الطريق فيلقى لباس الغفران، وحلة الصفح والأمان ورحمة مولاه خيرٌ له من نسكه وتقواه.

قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ : فموعود المطيع الفراديس الأعلى، وموعود العاصي الرحمة والرضا والجنة لطف الحق، والرحمة وصف الحق، فاللطف فعلٌ لم يكن ثم حصل، والوصل نعتٌ لم يزل.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ : من كان له في جميع عمره نفس على وصف ما ابتدأ الحق به ففي الإشارة يكون له إعادة.

ولقد أنشد قائلهم:

كُـلُّ نهـرٍ فـيهِ مـاءٌ قـدْ جَـرَى ... فإلـيهِ المـاءُ يَـومًا سـيعودُ

ثم وصف الله تعالى نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة القائمة بتنوير العالم بنوره.

ومنَّ بذلك على عباده بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: جعل شمس الذات ضياءً للأرواح العارفة، فبصرت بها عيون الآزال والآباد، وجعل قمر الصفات نورًا للقلوب العاشقة، فنظرت به شمائل أخلاق الجمال والجلال، فالأرواح فنيت بصولة الذات في عين الذات، والقلوب بقيت المشاهدة الصفات في عين الصفات، فشمس الذات غير محجوبة في جميع الأوقات عن بصائر الأرواح؛ لذلك عاينتها، ولا غابت عنها؛ لأنها مقام التوحيد والمعرفة، إن الشمس النهار تغرب بالليل، وشمس القلوب ليست تغيب، وقمر الصفات يبدو للقلوب في أوقات بسطها، ويخفى في أوقات قبضها، ولذلك صارت القلوب في التقلب في أنوار الصفات، فكما خفي القمر في شعاع الشمس ويزيد وينقص كذلك حالات القلوب في خفايا الصفات وظهورها، فلقمر الصفات في قلوب المحبين منازل من المداناة؛ لظهور المواجيد والحالات، ولبيان أعداد الأنفاس التي لا ينبغي لها أن تجري إلا باجتماع همم المعرفة، وصفاء المحبة والإحاطة بأوقات الواردات العينية، وهذا معنى إشارة قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[1].

قال بعضهم: الشموس مختلفةٌ؛ فشمس المعرفة يظهر ضياؤها على الجوارح، فتزينها بآداب الخدمة، وأقمار الأنس تقدس الأسرار بنور الوحدانية والفردانية، فتدخلها في مقامات التوحيد والتفريد.

وقال بعضهم: جعل الله شمس التوفيق ضياء الطاعات للعباد، وقمر التوحيد نورًا في أسرارهم، فهم ينقلبون في ضياء التوفيق، ونور التوحيد إلى منازل الصديقين، ثم زاد سبحانه ذكر أعلام شواهد ملكوته، وأنوار جبروته للمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، جعل الليل مأوى أنس العارفين، وجعل النهار مواضع نزهة الصديقين، أظهر في لباس الليل أنوار العظمة، وأبرز من مرآة النهار أنوار مشاهدة الجمال والجلال، وجميع ما خلق من العرش إلى الثرى مرائي لطغيانه، تبرز منها لأهل الهيبة والوجل أنوار صفاته، ليله قبض قلوب العارفين، ونهاره بسط فؤاد المحبين، وما بينهما بين سماء الأرواح وأرض القلوب أشكال الأحوال من المكاشفات، ولا يراها إلا المتقي عما دونه من الحدثان.

(١) أي: حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي والساعات لصلاح معاشكم ودينكم من فرض الحج والصوم والفطر والصلاة وغيرها من الفروض، تفسير حقي (٥/ ٢٢٩).

قال الأستاذ: النهار وقت حضور أهل الغفلة في أوطان كسبهم، والليل وقت أرباب الوصلة بانفرادهم شهود ربهم.

قال قائلهم:

هيَ الشمسُ إلاَّ أنَّ للشمسِ غيبةٌ ... وهذا الذي تعنيهِ ليسَ بغيبُ

وقال: الليل لأحد شخصين: إما للمحبين فوقت النجوى، وإما للعاصين فلبث الشكوى.

ثم وصف الله من لا نصيب له مما ذكرنا من رؤية شواهد الغيب، ولاحظ له من رؤية الآيات بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: لا يخافون فراقنا، ولا يرجون وصالنا.

ثم ذكر علة قلة رجائهم وخوفهم بقوله: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾: أي: لإيثارهم يوم الفانية على حياة الباقية، ثم ذكر سبب ذلك؛ لأنهم غفلوا عن رؤية أنوار الصفات في مرآة الآيات بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾.

قيل: لا تخافون الموقف الأعظم يوم تبلى السرائر، وتظهر الخفايا، ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ركنوا إلى مذموم عيشهم، ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ نسوا مفاجآت الموت، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾، تقليب القلوب وعقوبات الجوارح.

ثم وصف أهل خالصته من الصادقين الذين سبقت لهم منه الحسنى في الأزل بالعناية إلى الأبد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾: أي: الذين عاينوا الحق في عهد الأول بعيون المحبة، وكنسوا غبار الحوادث من طريق المعرفة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ بذاته إلى صفاته، وبأنوار صفاته إلى جلال ذاته بإيمانهم، يعني: بما سبق لهم في الأزل من هداية الله في علم الله، ثم بيَّن أنهم في جوار جماله ومعاينة لقائه، حيث أفاض عنهم بركات شهودهم إلى أهل القربات بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، هم في جنات المشاهدات تجري من تحت عيون أرواحهم أنهار المعارف وأسرار الكواشف.

قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾.

تظهر عليهم بركات اقتدارهم عند إيجاد الذر بقولهم: بل فمن بركاتها لزوم الفرائض واتباع السنن وتحقيق الإيمان وتصحيح الأعمال.

ثم إن الله سبحانه وصف المشاهدين جماله أنهم إذا رأوه هيَّجتهم نعم المشاهدة، وراحة الوصلة وثناء جلاله، فأغارهم أنوار سطوات العزة وسبحات العظمة، ولا يتهيأ لهم في ثنائه إلا العجز عن ثنائه، فيؤول حالهم في الثناء إلى أنهم جمعوا خصائص صفاته في نعت التنزيه بقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ﴾، وهذا حال سيد المرسلين صلوات الله عليه حين عاين الحق، وقال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

ثم عرفهم مكاره نعمه عليهم من تعريف نفسه فيقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أي: أنت إلهنا وبك عرفناك ونزهناك سبحانك اللهم.

ثم وصف تحيتهم بأنهم يبدأون باسم السلام بقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾: بأن سلموا من خوف حجابه وأليم فراقه، يبرئ بعضهم بعضًا من وصمات النفسانية والشيطانية، بتبري الحق وتنزيهه عن الحوادث بأنه تعالى سمى نفسه بالسلام، والسلام المبرئ من الحوادث، فتحيتهم هناك تنزيهه، فلما عرفوا حقائق نعمه التي أدركوها بغير علة الاكتساب أثنوا على ربهم ومدحوه به لا بهم بقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: آخر ذكرهم مدحه تعالى؛ حيث صرحوا أن ما نالوا منه نالوا بفضله الأزلي واصطفائيته القديمة.

قال ذو النون في قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾: مقام المحققين من العارفين التنزيه والتبري من جميع ما لهم من أنواع الأقوال والأفعال وغير ذلك، والرجوع إلى الحق على حد التنزيه له أن يقصده أحدٌ بسبب أو يتحبب إليه بطاعة أو يعمل كلا إلا لإظهار سعادة الأزل على السعداء، وسمات الشقاوات على الأشقياء.

وقال الشبلي في قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: لو ألهموا حمد الحق في أوائل الأنفاس لسقطت عنهم الدعاوى، لكنهم لم يزالوا يركضون في ميادين الجهل إلى أن فتح لهم طريق الحمد، فلما فتح لهم طريق الحمد سقطت عنهم الدعاوى، فرجعوا إلى رؤية المنة، فكانت آخر دعواهم أن قالوا: الحمد لله رب العالمين فرضُّوا الكل به، ورجعوا بالكلية، فأنطقهم لما أنطقهم به من المنطق المحمود.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وقد وقع لي بعد قول شاه العارفين -رحمة الله عليه، وقدَّس الله روحه: إن القوم لما خرجوا من رؤية علل الحوادث، وغرقوا في بحار الذات والصفات أرادوا أن يثنوا عليه بما رأوا منه من عجائب أنوار الصفات، وأسرار الذات، فما وجدوا ثناءه عليه إلا من تعريفه إليهم، فوجدوه المنعم عليهم في جميع ما وصفوه به، فلا يكون لهم موضع من ثنائه إلا الحمد لتأييده لهم؛ فإن منتهى قول الوصافين صفاته العجز عن البلوغ إلى حقائق ثنائه، ولا يتعرض لهم بعد ذلك إلا الحمد، ثم العجز عن الحمد عن الخجل في المحمود القديم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾: إن الله تعالى وصف المتحيرين بين القضاء والقدر والإرادة والمشيئة، فإذا أظلم عليهم سجوف ليالي البليات، وأذهب عنهم مباشرة القهر أثر الراحات حرك يد اللطف الأزلي سلاسل عقود قلوبهم إلى إقبال الحضرة، وأضاء تنفس صباح لوائح الغيب في أسرارهم، فصرفهم بنعت الاضطرار إلى باب الربوبية، فرأوا هنالك أعلام قهر الجبروت، وخرجت عقولهم من مكمن جنس الامتحان، وحثهم إلى التضرع في ميادين السلطنة، فخلصوا من ورطة الامتحان بدعائهم على باب الرحمن، فما سكنوا عن تواتر البلاء، فاشتهت عقولهم بقاءهم في الاستقامة،

فتصول عليهم عساكر القصريات، وأغرقتهم في بحار الشهوات، وأعمتهم أنظار المشاهدات، ويفعلون قبائح الأعمال، وينسون عهود الأفضال، وأيام النوال:

عن كأنَّ الفتىَ لمْ يُعربُوا مَاذَا اكتَسى ولمْ يَـكُ صُعلوكًا إذَا مَا تحولَا

يا ليتهم لو كانوا صادقين في اللجوء إليه، والتضرع بين يديه، فإن من بلغ إلى مقام الدعاء وعرف مقاماته؛ فهو في منزل الانبساط، والمنبسط شاهد رضوانه، وموضع نظره وإحسانه، ومن وصف هذا الداعي أن يكون مستأنسًا بربه، ويدعوه في جميع حالاته، وإذا دعاه بنية صادقة وعقيدة صافية فدعاه في زمان البلاء الصبر، وفي زمان النعمة الشكر.

قال أبو حفص: الدعاء باب الله الأعظم، وهو سلاح المؤمن عند النوائب.

وقال أيضًا: يرجع العبد إلى ربه بالحقيقة عند الفاقات، ونزول المصائب بالرضا،ولكنه لما لم يكن له في أوقات الرفاهية رجوع إليه رد في حال المصائب، والضروريات إلى الدعاء واللجوء.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت جدي يقول: الدعاء على العادة جنايةٌ، وعلى اليقين نجاةٌ وعبادةٌ كما قال النبي ﷺ: «الدعاءُ هو العبادة »[1].

ولكن للدعاء أوقات وآداب وشروط، فمن لم يطالب نفسه بأوقات الدعاء وآدابه وشروطه كان محرومًا، وآداب الدعاء وشروطه ما روي عن النبيﷺ أنه قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاه »[2].

ثم زاد في وصف هؤلاء الذين لم يدركوا حقائق العبودية في مشاهد الربوبية، بأنهم هلكوا بانصرافهم عن باب الله، ومحل الإخلاص إلى متابعة الشهوات والاقتداء بالوسواس بقوله:﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ : الظلم هاهنا الإنكار بعد الاعتراف والإعجاب بالرأي بعد ترك السنة، والأسوة لما عتوا على أسماء الله بعد علمهم بصدق كراماته، أهلكهم الله بأن تركهم في حجاب الشهوة والنفس، ولم يعرفهم طريق الخطأ، ولم يشدهم إلى طريق أهل قربه ووصاله.

قال ابن عطاء في قوله:﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ لما اعتمدوا سوانا.

وقال أبو عثمان: لما ظلموا لما لم يعرفوا حقوق أكابرهم، ولما يتأدبوا بآدابهم، ثم خوف الله سبحانه خلفاء الأنبياء من الصديقين والمقربين لا يلتفتوا في طريق الله إلى شيء غير الله،

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢١١)، وأبو داود (٢/ ٧٦).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥١٧).

ولن يروا عزًّا من طريق السنن إلى سبيل أهل اليقين بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: خلفاء الأرض نواب الأنبياء وورثة الرسل، وهم أهل الاستقامة والتمكين والجمعية، الذين يخاطبهم الله في كل نفس بلسان الولاية، ويورثهم خطابه الآداب السنية، والأعمال الزكية والأخلاق الكرامية، والأسوة الحسنة، ثم يورثهم هذه الأحكام بالأنس بالذكر، والخوض في الفكر، والسير بالقلوب في أنوار الغيوب، والطيران بالأرواح في عالم الأفراح، وإيواء الأسرار إلى سرادق المجد، فيرون بعد ذلك في حضرة القدس مجالس الأنس، ويشربون من بحار محبته، ويشتاقون إلى لقائه، ويعشقون بوجهه، ويرونه لظهور الصفات وكشوف الذات كفحًا، ويسمعون منه تعالى كلامًا صرفًا، فيرجعون بعد ذلك إلى دعوة الخلق إلى الله بألسنة الموعظة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حدود الله عليهم.

قال بعضهم: لم يزل الأنبياء لهم خلفاء، والأولياء لهم خلفاء، أبدلهم الله مكانهم؛ ليروا السباقين سنتهم، ويمسكوا على طريقتهم، قال الله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: ذكر الله سبحانه عجائب أحوال العارفين في هذه الآية، أي: يسير نفوسكم في بر المجاهدات، ويسير قلوبكم في بحر المشاهدات.

وأيضًا: يسير عقولكم في بر الآيات، ويسير قلوبكم وأرواحكم في بحر الصفات والذات، ثم وصف سير القلوب والأرواح في بحار الذات والصفات بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ : أي : في كنف الرعاية الأزلية، ولولا ذلك الفلك كيف يجري الحدث في أنوار بحار القدم جرت القلوب في بحار الصفات بعناية الذات لا بها؛ إذ هي في قبضة ملكة وملكوته، وأصابع أنوار جبروته يقلبها بسفن قبضه في أنوار صفته، وذلك قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: ريح الكرم والعناية لسيرها بريح لطفه في بحار الآزال والآباد، وما أطيب مهب صبا وصاله في قلوب العاشقين والوامقين، فأنشد:

ألا يا نسيمَ الريحِ مالكَ كلما تقربت منَّا زاد نشرك طَيبنا

أظـنُّ سُـليمى خـبرت بـسقامنا فأعطـتك رياهـا فجـئت طبيبـنا

ففرحت القلوب بسيرها في الوصال بطيب ريح الجمال، وذلك قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾: نشطوا بالله على الله، فلما سكنوا في مجالس الوصال وتمتعوا بحسن الجمال عادت عليهم غيرة القدم، وأرادت أن يخرجها من ساحة القدم وبساطين الكرم إلى معادنها من العدم، وهكذا عادة العشق يذيق العاشق من الفراق بعد ذوق الوصال، وذلك قوله: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، فتذروها عواصفات قهر الأزل، وتحيطها أمواج بحار الأبد، وفارقها طيب ريح الوصال وحسن لطائف الجمال، وبقيت في أمواج عظمة الكمال.

قال قائلهم:

وبتـنَا عـلَى رَغـمِ الحـسودِ وبينـنَا حـديثٌ كـريحِ المسكِ شيبَ بـهِ الخمرُ
فوسَّـدتهُ كفِّـي وبـتُّ ضَـجيعهُ وقلـتُ لليـليَ طُـلْ فَقـدْ رَقـدَ البـدرُ
فلـمَّا أضـاءَ الـصبحُ فـرَّقَ بينـنَا وأيُّ نعـيمٍ لاَ يكـدرهُ الدهـرُ

وأنشد أيضًا:

أقمـنَا زمانًـا والعـيونُ قَريـرَةٌ وأصـبحتُ يـومًا والجفـونُ سـواكبُ

فلما وصلت القلوب إلى قاموس الكبرياء وكادت تفنى بأمواج البهاء فرَّت منه إليه، واستعاذت من قهره بلطفه بقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ : دعوا الله بعد استماع مناداة الله بعد التبري من غير الله، وبذل الموجود لله: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: أي: لئن تخلصنا من قهر غيرتك والغرق في بحار ألوهيتك لأننا نحن الحدث والحدث لا يوازي القدم فوفقنا برؤية جمال بقائك لنبقى ببقائك معك في بقائك، ونشكرك بك لا بنا، فلو أردت فناءنا كيف نبقى معك؟!

فإذا وجب علينا شكر البقاء مع بقائك وشكرنا معرفة عجزنا عن حمل شكرك؛ حيث شكرت نفسك بشكرك القديم المنزه عن شكر الشاكرين.

قيل: يسيركم في بوادي الشوق، وبحار القربة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾: يعني في القبضة والأسر وهبت رياح الكرم على المريدين الذين هم في الطريق وفرحوا بما يلحقهم من العناية والرعاية جاءتها ريح عاصف أتت عليهم من موارد القدرة ما أفناهم عن صفاتهم، وحيرهم في طريقهم، وجاءتهم أمواج القهر، وقهرهم عملهم.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾: توهموا أنهم من الهالكين في أمواج، وهم المطهرين الأخيار عن الله، مخلصين له الدين، تركوا ما لهم وبهم وعليهم من الاختيار والتدبير، ورجعوا إلى حل التفويض والتسليم فنجوا.

وقال بعضهم: سير العباد والزهَّاد بالأنفس في البر، وهو الدرجات والمنازل، وسير العارفين بالقلوب في البحر، وفيها الأمواج والأخطار، ولكن سير شهر في يوم:

كدَارجـــةِ البـــيوتِ لهـــنَّ رِيـــشٌ ولكـــنْ لَا يطِـــرنَ مَـــعَ الحمامـــةِ

وقال بعضهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ﴾ هو الصفات، ﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ استغراقًا في الذات[1].

وقال بعضهم: ﴿يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ﴾ الاستدلالات بالوسائط، ﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ غلبات الحق بلا واسطة.

وقال النوري في قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: المخلص في دعائه من لا يصحبه من نفسه شيء سوى رؤية من يدعوه.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

ثم وصف الله سبحانه أهل بحار السكر الذين دعوا بالسكر بعد نجاتهم منه به؛ لأنهم رجعوا إلى ما لم يكن لهم من كشف الأسرار، وهتك الأستار بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾: فلما نجوا من طوفان الفناء في سطوات الأزل بقوا بنعت السكر في مقام البقاء، ادعوا الأنائية، تجاوزوا عن حد العبودية بسكرهم في جمال الربوبية، ثم خوفهم سبحانه عن ملازمة إحاطة أنوار عظمته عليهم بعد رجوعهم من السكر إلى الظلمة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ أي: يرجع إليكم ما ادعيتم لا إلى القديم؛ فإنه منزَّهٌ عن النظر، والاتحاد بالخليقة، وكل ما ذكرتهم من ذكري ودعواكم بقربي في أتم معانيه، فهو مردود عليكم؛ فإن ساحة الكبرياء مقدسةٌ عن إدراك الفهوم جلال قدر الأزل، تعالى الله مما خطر على قلب بشر.

---

(١) فيه إشارة إلى أن المسير في الحقيقة هو الله تعالى لا الريح فإن الريح لا يتحرك بنفسه بل له محرك إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا يتحرك هو في نفسه أيضا بل هو منزه عن ذلك وعما يضاهيه سبحانه وتعالى ومن عرف ذلك وقطع الاعتماد على الريح في استواء السفينة وسيرها تحقق بحقائق توحيد الأفعال وإلا بقي في الشرك الخفي، تفسير حقي (٥/ ٢٥٠).

قال الواسطي: البغي يحدث عن ملاحظة النفس ورؤية ما خدع به.

كما قيل لذي النون: ما أخفى ما يخدع به العبد؟ قال: الألطاف والكرامات، ورؤية الآيات.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾: حتى إذا ركبوا مراكب المعرفة، وجرت بهم رياح العناية، وطابت نفوسهم وقلوبهم بذلك، ﴿وَفَرِحُواْ﴾ بقصدهم إلى مقصودهم ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: أفنتهم عن أحوالهم وإراداتهم، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾، فزالت عنهم أخطار سعيهم، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾: تيقنوا أنهم مأخوذون عنهم، ولم يبق لهم ولا عليهم صفة يرجعون إليها، وأن الحق خصهم من بين عباده بأن سلبهم عن إياهم؛ ولأنه لا شيء لهم ولا صفة، دعوا الله مخلصين له الدين، صفّى الحق أسرارهم له حتى أخلصوا الدعاء، وخلصوا له سرًّا وعلنًا، فلما نجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۢ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

فلما ردهم إلى أوصافهم وأشباحهم رجعوا إلى ما عليه عوام الخلق من طلب ما يصلح للنفوس، ثم إن الله ضرب مثلًا لمن سلك الطريق بالجهل، وغير الاقتداء بأهل المعرفة أن جميع سعيه يكون هباءً منثورًا بقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أول رغبة السالك مثل الماء الذي وصل إلى البذر في الأرض عند شروعه في المجاهدات والرياضات؛ لقوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، فكثرت عليه الأعمال الوافرة المتنوعة من تصفية القلب ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾، ورياضة النفس مما يأكل الأنعام، فتمكن في العبادات وصفاء الأوقات، وفرح بما تسهل إليه من شمائل ألطافه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: بهجة العبادات وزينة الطاعات، وظنَّ أنها تجري بمراده إلى المآل، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ فيخرج عليه عساكر القهريات من مكمن الآفات مع مفاداته، والعجب والرياء منه، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، فلما تعجب بنفسه ورأى أعماله تجيء عليه النفس والشيطان ويغريانه بالعجب والرياء والسمعة، فجاء قهر الله بفصاحته من عند ليالي قبائحه أو نهار طاعاته، فجعلها هباء منثورًا كقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾، وهذا المثل لا يعرفه إلا من له نظر الاعتبار ونور الاستبصار؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، نعوذ بالله من قهر الله، ما أطيب زمان الإرادة والرقة والصفاء، يا ليت لو يبقى المريد في شأنه، لكن يغرقه قهر الغيرة في بحر الوساوس والمخائيل والرياء والسمعة حتى لا يجد من زمان الصفاء في قلبه ذرة:

فَقَدناهُ لَمّا تَمَّ واعتَمَّ بالعُلا ... كَذاكَ خُسوفُ البَدرِ عِندَ تَمامِهِ

ويقال: كما أن الربيع تتورد أشجاره، وتظهر أزهاره، وتخضر رباعه، وتتزين بالنبات ألوانه وطلاعه، ثم لا يؤمن أن تصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بها لم يكن في حساب كذلك من الناس من يكون أحواله صافية وأعماله بشرط الجلوس زاكية، وغصون أنسه متدلية ورياض قربه مونقة، ثم تصيبه عين فيذبل عود وصاله، وينسد أبواب عقائد إقباله كما قيل:

عينٌ أصابتكَ إنَّ العينَ صائبةٌ ... والعينُ تسرعُ أحيانًا إلى الحسنِ

قال رجل لأبي محمد الجريري -رحمة الله عليه: كنت على بساط الأنس، وفتح لي طريق إلى البسط فزللت زلة، وحجبت عن مقامي فكيف السبيل إليه، دلني على الوصول إلى ما كنت عليه؟ فبكى أبو محمد، وقال: يا أخي الكل في قهر هذه اللحظة، لكني أنشدك أبياتًا لبعضهم.

فأنشد يقول:

قِفْ بالديارِ فهذهِ آثارهمُ ... تبكِي الأحبةَ حسرةً وتشوُّقَا

كم قدْ وقفتُ بها أسائلُ ... مُخبرًا عنْ أهلِها أوْ صادقًا أوْ مُشفقَا

فَأجابَنِـي داعِـي الهـوَى فِي رَسْـمِهَا فَارقْـتَ مَـنْ تَهْـوىَ فَعـزَّ المُلْتقَـى

ثم إن الله سبحانه يدعو العباد من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية؛ لئلا يفتتنوا بزخرفها وغرورها، ويصلوا إلى جواره ونعيم مشاهدته بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ السالكين إلى الجنة، ويهدي المجذوبين إلى المشاهدة.

وأيضًا: يدعو الجميع إلى داره، ويهدي خواص العارفين إلى وصاله، والجوار للعموم من الفرقة، والفوز والوصال للخصوص، داره في الدنيا قلوب العارفين؛ لأن فيها سلامة القربة وأنوار المشاهدة، وفيها صراط الله المستقيم الذي تسري فيه عساكر تجلي جماله إلى قلوب العارفين، وتسري هممهم فيه إلى مصاعد قرب رب العالمين، ولكن لا يهدي إليها إلا من يشاء من خواص المريدين والصادقين.

والإشارة في الدعاء إلى دار السلام أن السلام هو الله المنزه عن علل الحدثان، يدعو إلى جواره المتبرئ من الأكوان، المتصف بصفة الرحمن، وأهل هذه الدعوة على ثلاث مراتب: أهل الدار، وأهل المشاهدة، وأهل الوصال الدار لأهل الإيمان، والمشاهدة لأهل الإيقان، والوصال لأهل العرفان، يدعو أهل الإيمان إلى داره، وينادي أهل الإيقان بتقربهم من مشاهدته، ويهدي أهل معرفته بعد إدراكهم وصاله إلى معرفة شمائل صفاته ولطائف أنوار ذاته؛ لأن هناك الطريق المستقيم حيث عرف نفسه لعارفيه.

قال أبو سعيد القرشي: خرجت هداية المريد من الاجتهاد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝﴾، وخرجت هداية المراد من المشيئة، وهو قوله: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، وهو الفرق بين المريد والمراد.

وقال القاسم: الدعوة عامة، والهداية خاصة، بل الهداية عامة، والصحبة خاصة، بل الصحبة خاصة، والاتصال خاص.

وقال بعضهم: لات الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية.

وقال جعفر: عملت الدعوة في السر فتجللت بها وركنت إليها.

وقال أيضًا: ما طلبت الجنة إلا بالسلام، وإنما اختارك بهذه الخصائص لكيلا تختار عليه أحدًا.

وقال بعضهم: يدعو إلى دار السلام بالآداب، ويهدي من يشاء للحقائق والمعارف.

وقال بعضهم: الدعوة لله، والهدى من الله.

وقال الأستاذ: الدعاء تكليفٌ، والهداية تعريفٌ، فالتكليف على العموم، والتعريف على الخصوص.

ويقال: الصراط المستقيم طريق المسلمين، وهذا للعوام بشرط اليقين، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين، ثم طريق المحسنين، وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين، فهؤلاء ذوو العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان، وهم الذين قال ﷺ فيهم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»(١).

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم زاد الله في وصف هؤلاء بالقربة الرفيعة والدرجة السنية، ومشاهدته الكريمة بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: حسانهم شهود قلوبهم مشاهد قربه تعالى في مراقباتهم وخلواتهم بنعت بذل وجودهم، والأكوان كلها لأول بوادي حسن تجلي الحق سبحانه، وما ذكر الله سبحانه من جزائهم بهذه النعوت الحسنى، وهي إدراكهم إياه كشف نور جماله؛ لأنهم لو أدركوه بنعوت العظمة هلكوا، إحسانهم من حسن جمال أرواحهم الناطقة بالكلمات القدوسية، وحسن الحق من حسن جماله القديم، يجازيهم بكشف حسنه وجماله، ثم ذكر زيادة النعم عليهم بقوله: وزيادة الحسنى مشاهدته، والزيادة وصاله والبقاء معه في مشاهدته.

وأيضًا: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ النظر إلى جماله، والزيادة: الاتصاف بصفاته.

وأيضًا: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ محبته، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ معرفته.

قال الواسطي: معاملة الله على مشاهدة الحسنى الالتذاذ في معاملاتهم، والزيادة هو النظر إلى الله.

قال الأستاذ: يحتمل أن يكون الحسنى الرؤية، والزيادة دوامها، ويحتمل أن يكون الحسنى اللقاء، والزيادة البقاء في حال اللقاء.

ثم زاد الله ذكر شرفهم بأن غبار البعد لا يلحق جمال وجوههم بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾: لا يغشى وجوههم قتر الخجالة، ولا يلحق وجوههم ذل الفرقة.

وأيضًا: لا يرهق وجوههم قتر الفراق، ولا ينكشف في وجوههم شموس الوفاق.

ثم زاد في وصف عيشهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: باقون في أنواع القربات في مشاهدة الذات والصفات.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٩٣).

قال بعضهم: كيف تذل وجوه بلقائها الحق منه بالحسنى والإحسان، وكيف تذل شواهد من شاهد الحق على الدوام، بل هي على زيادة الأوقات تزيد نورًا وضياء وعزًّا.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

وقال الأستاذ: لا يقع عليها غبار الحجاب وبعكسه حديث الكفار، حيث قال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ فالذلة التي لا تصيبهم هي أنهم لا يردون من عز شهوده إلى رؤية غير.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾: أخبر الله سبحانه عن مواطن امتحانه وتمييزه بغيرته القديمة بين الصادق في دعوى محبته وبين الكاذب؛ لأن الصادق في محبته هناك لا يفرغ من النيران، ولا يطمع في الجنان؛ لغلبة شوقه إلى جمال الرحمن، والكاذب تبدو سرائر ضلاله، وتنكشف فساد ضمائره بين جميع الخلائق، فيرد الصادق إلى لطف مولاهم، ويرد الكاذبون إلى قهر جبارهم بقوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، فيبقى للصادقين خصوصية درجاتهم في المحبة والوصال مع حقائق معناهم، ويضل سعي المرائين الذين يراءون الناس بأعمال الصادقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وأيضًا: يمتحن نفوس الحدثان عند بوادي سطوات سبحات جلال الرحمن، حيث يضمحل الحادث في القديم، ويبقى القدم للقدم، ويكون الحدث مقدمًا في القدم، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قيل: يطالب كل مدَّع بحقيقة ما أدعاه.

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: بيَّن سبحانه أن ما يبدو من نور شهوده هو وصف رؤيته وإعلام صفته، وكشف ذاته بلا شك ولا شبهة، وذلك قوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: هو الحق بلا شبه ولا تشبيه ولا تعطيل.

ثم بيَّن أن من لم يعرف الأشياء والشواهد بهذه المثابة فهو ضالٌّ من طريق مشاهدته، وطريقه عمياء لا يكون الرشد فيها؛ لأن من احتجب بالكون عن المكون فهو يغيبه في مهمة

القهر، ولا يهتدي من كان مرهونًا بالأشياء عن خالق الأشياء، وهذا معنى قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

ثم بيَّن أن البعد لا يقتضي إلا البعد، وليس للعبد حدٌّ، فأين يذهب البعيد في البعد، ولا يجد في البعد إليه سبيلاً.

قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: أي: إلى من ترجعون إذا فات وصاله عنكم.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وليس للحدثان مصرف الفرار، فأنى أين وإنهم؟! إن هذه الآية إشارة سابق قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: من يرزق الأرواح من الملكوت غذاء قربه ووصاله، ومن يرزق القلوب من ملكوت الأرض صفاء عبوديته، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: من يملك إسماع العارفين بلذيذ جلاله، ومن يملك أبصار الصديقين بكشف جماله والنظر إلى جلاله؟ ومن يخرج الحي من الميت؟ أي: من يخرج الأرواح العارفة الأحياء بحياته ومعرفة ذاته وصفاته من العدم بنور القدم، ويخرج الميت من الحي، من يخرج الأنفاس الفانية في عظمته الباقية من القلوب الحاضرة في مشاهد القربة، ومن يدبر الأمر، من يسهل قطع صفات مفاوز النكرات للعارفين، ومن يعرف أمور العبودية والربوبية قلوب الموحدين؟!

ثمَّ بيَّن أن من شاهد هذه المراتب يعترف بها صدقًا وعدلاً بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، فإذا اعترفوا بذلك، وصاروا شاهدين معاني شهوده لا خوَّفهم من نفسه إلا أن يلتفتوا إلى سواه في طريق بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: فلا تخافوا من فراقه، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: هو منعم هذه النعماء، يربيكم بهذه السعادات لا غير، فأين تصرفون منه إلى غيره؟

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾: أخصّ الإشارة فيه أي: إذا وقعتهم في أنوار معرفتي بعد كشوف صفاتي وذاتي لا تطلبوا كنه القدم؛ فإنه معادن الملكوت ونكراتها بلا نهاية؛ لأن القدم ممتنعٌ عن إحاطة القلوب به، وعن إدراك الأرواح والبصائر حقائقه

والكنهية.

قال الحسين: الحق هو المقصود بالعبادات والمصمود إليه بالطاعات، لا يشهد بغيره ولا يدرك بسواه.

وقال الواسطي: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾: لا يجوزنا موحد أن يشهد بشاهد التوحيد؛ لأنه وصف الأشياء بالضلال، فلم تتهيأ لضال أن يقف، ولا لعاجز أن يصف.

وقال الحسين: الحق هو الذي لا يستقبح قبيحًا، ولا يستحسن حسنًا، فكيف يعود إليه ما منه بدا، ويؤثر عليه ما هو أنشأه؟!

قال بعضهم: قلوب أهل الحق مع الحق على مراتب: فقلبٌ في قبضة الحق مأسورٌ بكشف الوجد مسرورٌ، وقلبٌ طار إليه بالشوق وروح برياح القدوم بالقدوم عليه، وقلبٌ اعتقد فيه الآمال فهو عليه ثقل الأعمال، وقلبٌ انقطع إليه بالكلية من كل البرية، وقلبٌ شديد الاحتراق لشدة الاشتياق.

وقال بعضهم: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ طريق العلماء، والحقيقة طريق الحكماء، والتحقيق طريق الأولياء، والحقائق طريق الأنبياء.

وقيل في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ من الحق إلى سواه[1].

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: من يبدئ أمره ويعيده ويدبر في أوقاته السائرة، فإذا قال: من يدبر الأمر أزال الأملاك فكيف يجوز لقائل أن يقول: فعلي وعملي!.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ

---

(١) استفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع واستبعاده والتعجب أي كيف تصرفون من التوحيد وعبادة الله تعالى إلى الإشراك وعبادة الأصنام الذي هو ضلال عن الطريق الواضح.

تُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: أثبت الحجة على أن الحدثان معلولة لا تزاحم القدم المنزه عن العلل، وكيف يكون من العاجز القدرة على إيجاد الموجود، وهو كان معدومًا، وفي وجوده عند قدم جلالة بالحقيقة معدوم حيث لا يقوم بنفسه بل يقوم بالقديم، هذا ردٌّ على من أقبل إلى غير الله.

ثم وصف نفسه تعالى الشريك بأنه يبدئ الأشياء ويعيدها أبدًا، يكون بشهود قدمه على العدم بوصف كشوف جميع الصفات، ثم يسلط أنوار العظمة والهيبة، فتضمحل الحوادث تحت أذيال سرادق العزة، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بكشف جمال البقاء، فيبقيها ببقائها في بقائه، فينقلب في مدارك تصريفه بنعت المشيئة والإرادة القديمة، يبدئ أنوار القيومية في قلوب العارفين، فيبدئ بلطائفها حقائق المعرفة، ثم يغشيها بسطوات الجلال حتى لا يبقى في ظهور المعروف سوى المعروف، ثم يعيدها بكشف قناع الجمال، وحسن البهاء فتبقى لشاهد حسنه.

قال ابن عطاء: يبدئ بإظهار القدرة فيوجد المعدوم، ثم يعيدها بإظهار الهيبة نفس الموجود.

وقيل: يبدئ بكشف الأولياء، فيمحو منها كل خاطر سواه، ثم يعيده، فتبقى بإبقائه، فلذلك عظم حال العارف، فلما قدس عليه الخليفة عن راحة الأزلية عرف مكان العلة المخاطبين بقوله: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهِدِّىٓ ﴾، صدق هذه الآية ما ذكر في الآية الأولى، وهي مصداقها بأن الهادي لا يكون إلا المكون القديم، والمنـزه الأزلي كما أن وصفه القدرة القديمة، فأيضًا وصفه الهداية الأبدية، هو تعالى يهدي بنفسه وكشف العارف وجوده للحق الذي على أوليائه وأصفيائه، وهو حقائق العبودية والتأدب بآداب الشريعة.

وأيضًا: الله هو الحق يهدي أهله إلى نفسه بنفسه؛ لأنه كان غيبًا لا علة في الأزل، فتحقق حق غيبيته على أهل محبته.

ثم عرف حقوقه لحقه لأهل حقيقته، بأن يزيلوا علة النظر إلى غيره، وأن يتبعوا المحبة

والشوق ما يوجب رضاه بوصف الأسوة والاقتداء بالكتاب والسنة، وذلك قوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾.

سئل الحسين: من هذا الحق الذي يشيرون إليه؟ قال: معلل الأنام ولا يصل إليه إلا هو.

سئل الواسطي: ما حقيقة الحق؟ قال: حقيقته لا يقف عليه إلا الحق.

قال الحسين: الحق من الحق ومن أجل الحق، وهو قائم الحق مع الحق، وليس وراء ذلك إلا رؤية الحق.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ﴾.

ثم إن الله سبحانه أخبر عن حال الكل فهم عن إدراك حقيقة القدم وعظمة البقاء في توهم النفوس، وتمام الظنون بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: ظاهر الآية وصف أهل البعاد، وللقوم إشاراتٌ فيها، أن العقول محجوبةٌ بالآيات، والقلوب محجوبةٌ بالذات، والأرواح محجوبةٌ بالراحات، والنفوس محجوبةٌ بالشهوات، والأسرار محجوبةٌ بالخطرات، وما وجدت الكل من ساحة الكبرياء إلا رسوم الأفعال، وما وقع عليها إلا ظلال الملكوت وتصرفات الجبروت، وأين الحدث عن إدراك كنه القدم، والأصل ممتنعٌ بذاته عن أن يطّلع على حقيقة وجوده خاطرٌ من الخواطر وسرٌّ من الأسرار، ولبٌّ من الألباب، حاشا أنهم في مخائيل الظنون عن إثبات الوحدانية بل مستبصرون بنور الحق، وهم على بصيرة معرفته وتوحيده.

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾: بل هم مستغرقون بنور الحق في بحار الأزلية والسرمدية، وما هم مبتلون بقطرة من وصول حقائقها، يشربون من لججها أنهارًا، وهم عطاشى، كما قال قائلهم:

وأَقِفُ فِي المَاءِ عَطْشَانا ولكِنْ لَيسَ يُسقِي

وهكذا دأبهم أبد الآبدين كيف يصل الحدثان إلى قدم الرحمن، وهو منزّهٌ عن الاتصال والانفصال.

قال الجنيد في هذه الآية: مر عليَّ بذي أرباب التوحيد حتى أبو يزيد ما خرجوا من الدنيا إلا على التوهم.

وهكذا قال الواسطي: إلا ظنًا أنهم قد وصلوا، وهم في محل الانفصال لا وصل ولا فصل على الحقيقة ذات ممتنع عن الاتصال، كما هو ممتنع عن الانفصال.

وسُئل أبو حفص عن حقيقة التوكل؟ فقال: كيف يجوز لنا أن نتكلم في حقائق

الأحوال والله يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

سُئل أبو عثمان عن الظن؟ قال: هواجس النفس في طلب مرادها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾: بيّن الله سبحانه عجز خواطر الجهل عن إدراك العلوم المجهولة عند أكثر الخلق المعروفة عند أهل المعرفة، تنطق بها ألسنة الروحانيين والملكوتيين، وهي من أسرار الملك والملكوت، وعين الصفات والذات، فلمّا لم يكونوا من أهل الخطاب كذبوا حقائق الخطاب الذي جرى على لسان الأولياء والصديقين والأنبياء والمقربين، وهكذا عادة المفلسين والمنكرين كرامات أهل المشاهدات، وفراسات أهل المكاشفات لجهلهم وغرورهم وقياساتهم الفاسدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾: يسمعون حقائق كلمات القوم، التي هي مخبر عن حقائق أسرار الغيب، ويسمونها ظلمات، يا ليتهم لو يشمون من ألف فرسخ رائحتها لطاروا من الفرح بوجدانها، لكن ما خلقوا لقبول الخلائق.

قال بعضهم: كذبوا أولياء الله في براهينهم لما حرموا ما خصَّ القوم به، والمحروم من حُرم حظه من قبولهم وتصديقهم الإيمان بما يظهر الله عليهم من أنواع الكرامات.

قال أبو تراب النخشبي: إذا بعدت القلوب عن الله مقتت القائمين بحقوق الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه-: «الناس أعداءٌ لما جهلوا»(١).

ثم بيّن سبحانه أنهم يحرمون من سماع الخطاب الخاصة، وعن رؤية جمال القديم بالبصائر الصافية عن كدورات عوارض البشرية بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾.

هذه الآية مصدق الأول لما لم يسمعوا بأسماع العقول والأفهام خطاب الغيب، كذَّبوا حقائق الإلهام، ولما لم يبصروا مشاهدة الحق بعيون القلوب كذَّبوا ما أخبرهم أولياء الله مما

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٤٢).

رأوا من أنوار الغيوب، صرح الحق سبحانه أنهم مسلوبون في الأزل أسماع خصوصية العقول القدسية الملكوتية، وأبصار الأرواح الجبروتية لا جرم لم يكن لهم استعداد قبول الحقائق وعلم الدقائق، وقد تبين أن المعرفة بحقائق العلوم اللدنية والنظر إلى عالم الملكوت لم يكن مكتسبًا، بل هما موهبتان خاصتان من مواهب الله الخاصة الأزلية، خصَّ بهما في سابق علمه وأوائل حكمه أهل خالصة وده بغير اعتدال اكتسابهم، ولو كان مكتسبًا لكان النبي ﷺ قادرًا على أن يسمعهم ويبصرهم، بل فضل الله يؤتيه من يشاء من خواص عباده خالصة عرفانه، والحمد لله الذي خصَّ نجباءه بسمع الخاصة من أسماء صفاته، والحمد لله الذي اصطفى أولياءه البصر الخاص من أبصار صفاته، ولم يبق بين ذلك السمع والإسماع والخطاب حجاب، ولم يبق بين ذلك البصر والإبصار ورؤية جماله نقاب.

قال الحسين: من استمع إليك بإيَّاه فإنك لا تسمعه، إنما تسمع من أسمعناه في الأزل فيسمع منك: وأما من لم تسمعه فما إلا صم، والسماع وإن سمع لم يعقل فكأنه لم يسمع.

قال الله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: إلا من أجرينا عليه حكم السعادة في الأزل.

قال بعضهم: إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجب داعي الله؟!

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

وقال الواسطي: ليس من ينظر إليك بنفسه يراك، إنما يراك من ينظر إليك بنا، فأما من ينظر إليك بنفسه أو به فإنه لا يراك، ولا يراك إلا من يعمر أوقاته في رؤيتك، ويستغرق هو فيها، قال الله: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، وقال ﷺ: «طوبى لمن رآني ومن رأى من رآني»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٦).

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن ما يجري في الأكوان من الأمر والقضاء والطاعة والمعصية والكفر والإسلام هو ما جرى في الأزل بأقلام الأقدار على ألواح الأحكام السابقة بمشيئة الله وإرادته القائمة بذاته، وفيما قسم في الأزل لخلقه كان حكمًا عليمًا حكيمًا لم يظلم في ذلك؛ حيث اختار قومًا بالولاية والنبوة، وألزم قومًا الكفر والضلالة؛ لأنه مالك الملك يتصرف في ملكه كما يشاء بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾: لا يظلم على الكافر والمطرود إذا عاقبهم؛ فإنهم مخلوقون في الأزل لقهره لا للطفه، ولا يظلم على أهل لطفه؛ حيث يريهم بلطائف مشاهدته بأقدار حواصلهم، ثم أعلمنا أن تلك الطائفتين السعداء والأشقياء يظلمون بأنفسهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ظلم سعداء المعرفة والمحبة على أنفسهم أنهم يريدون أن يدركوا الحق بحقيقة أزليته، وهم إلى إدراك كنهه، وهو تعالى عالمٌ بعجز الحدث عن حمل وارد القدم كما هو، فيريهم ما يطيقون من نفسه، ولو يريهم من حقائقه ذرة يهلكون في أول بوادي سطواتها، وظلم استغناء الكفر طلب الربوبية من أهل العبودية.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قال الواسطي في هذه الآية: لا يتجلى لهم بحقه؛ فإن ذلك ظلمٌ؛ لأن الخلق لا يحتملونه، بل فيه ذهابهم، ويستحيل أن يكون لهم من القوة ما يطيقون بحقه؛ إذ في ذلك مساواة ومقارنة[1].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أخبر عن عين

---

(١) قال شيخنا البوزيدي ﷺ: زينة الله التي أظهر لعباده هي لباس المعرفة، وهو نور التجلي، والطيبات من الرزق هي حلاوة الشهود. وهي لمن كمل إيمانه وصدقه في الحياة الدنيا، وتصفو له إلى يوم القيامة، فهي حلال على أهل التجريد؛ يتمتعون بها في الدارين، وإنما حرّم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن، وسوء الأدب مع الله، والتعرض لعباد الله ، والشرك بالله؛ بأن يشهدوا معه سواه، وأن يقولوا على الله ما يوهم نقصًا أو خللاً في أنوار جماله وسناه. البحر المديد (٢/ ٢٤٥).

التوحيد وزوال الحدث في القدم، وجعل المشيئة مشيئةً واحدةً، وهي المشيئة التي لا مدخل فيها لمشيئة الحدثان صرف عن سوابق القضاء والقدر علة اكتساب الخلق.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قال بعضهم: نفى السيد الأخص أن يكون له من نفسه شيء، أو يعتمد لها حالًا بل أظهر أن الكل منه، ولمن له الكل من لا يملك الأصل، فكيف يملك فروعه من لم يملك نفسه كيف يملك ضرها ونفعها؟ ومن صحت له هذه الحالة، فقد سلم من مدح الخلق، وذمهم بالطمع فيهم والتوسل بهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أخبر سبحانه عن عمى الجاهلين الذين لم يروا أنوار جلاله وعظمته في مرائي كل ذرة ؛ لأنهم في غواشي طباعهم محجوبون عن شهود الحق على كل شيء ظهور نفسه.

ومصداق ذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣] ، ثم أخبر عن وصفهم وشكوك بواطنهم.

وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾، ومن كان محجوبًا عن لقائه فأيضًا يكون محجوبًا إذ أن أسرارهم عن حقائق الخطاب، وعن فهم معانيه، وإن كان لهم بصيرة صافية يرون بها المخبر عنه في الخبر، ولا يحتاجون إلى الاستخبار منه؛ لأن وراء كل خبر أثر.

قال بعضهم: أنوار الحق مشرقة، وآثاره ظاهرة لا يشك فيها إلا معاند، ولا يعمى عنها إلا ضال، فالمتحققون بحقائق الحق هم سالكون مسالك أنوار الحق في مقاصدهم ومواردهم ومصادرهم، والراجعون منها إلى الأغيار هم الضالون عن سنن الحق.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ اشتد غوائم القدم بأن الأكوان، والحدثان صادرات من فيض فعله سحرت في بطش عزته محتاجات إلى مزيد رحمته حسم أطماع عبيده عنها، وصرف وجوههم منها إلى نفسه إذ لا ذرة من الكون جارية إلا بمشيئته فما دام الكل له، فابذل كلك لكليته حتى يكون كله لك لا غير،

فإن وعد الله في ذلك حق لا يخيب رجاء الصادقين، ولا يخلف مواعيد المقربين.

قال بعضهم: المغيرون من يرجع إلى غيرته في سؤاله ومهماته وطلباته، وله ما في السماوات وما في الأرض، فالكل له، فمن طلب بعض الكل من غيره فقد أخطأ الطريق.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أن يحرم سائل غيره، ويبعد عليه وجه طلبته، ولا يخيب سائله، ويبلغه إلى أقصى أمانيه.

ثم بيَّن الحق أن من أقبل إليه يحييه بأنوار حياته حتى يبقى مع الحق بوصف شهوده على معاينة ذاته وصفاته، ويميت نفسه حتى لا تزاحم بظلمة هواجسها أنوار أسراره في قلبه بقوله: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يحيى قلوب العارفين بمعرفته ومشاهدته، ويميت نفوس الزاهدين بأنوار هيبته ومراقبته، فمعاد العارفين مشاهدة جماله وجلاله، ومعاد الزاهدين آلاءه ونعماءه، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال بعضهم: هو يحيي القلوب بإماتة النفوس بحياة القلوب، وهذا لمن كان إليه رجوعه في جميع أحواله.

وقيل: يحيي الأسرار بأنوار العزة، ويميت النفوس بنزع الشهوات عنها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قال النصر آبادي: يحيي الأرواح في المشاهدة والتجلي، ويميت الهياكل في الاستتار.

ثم ذكر سبحانه سبب هذه الحياة الباقية التي هي شفاء أرواح الصديقين، وقوة أبدان المريدين، ومنور أسرار العارفين، وشفاء ألم فراق المشتاقين، وخبر دوام الوصال للمستأنسين والمحبين، وهو كلامه القديم الذي هو بناء القدم والبقاء، وحلاوة الجمال والجلال وأحكام الربوبية والعبودية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: خاطب أهل ودِّه وسماهم بالناس؛ لأن غيرهم ليسوا بالناس في الحقيقة؛ حيث لم يعرفوا حقوق الأزلية؛ لذلك وصفهم بأجهل الجهل بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، والناس من نسي نفسه، وما دون الله في الله أي: قد جاء من عند الله موعظة أحكام العبودية، ﴿وَشِفَآءٌ﴾ أي: أنوار الربوبية، ﴿وَهُدًى﴾: تعريف

نفسه بظهور أنوار صفته، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: فتح أبواب المشاهدة، فالموعظة للمريدين، والشفاء للمحبين، والهدى للعارفين، والرحمة للمستأنسين المشتاقين.

وأيضًا: الموعظة للنفوس، والشفاء للقلوب، والهدى للأرواح، والرحمة للأشباح.

وأيضًا: الموعظة مقام الهيبة، والشفاء مقام الوصلة، والهدى مقام المعرفة، والرحمة مقام المخاطبة، والموعظة صدرت من العظمة، والشفاء صدر من حسن الجمال، والهدى صدر من عيان القدم والبقاء والرحمة، للعموم صدر من الأفعال، وللخصوص صدر من الصفات، ولخصوص الخصوص صدر من الذات.

وأيضًا: الموعظة للآبقين، والشفاء لمرضى المحبين، والهدى للمريدين، والرحمة للواصلين، بدأ بالموعظة لمريض حبه؛ لأنها أدوية إسهال شهواته بمعجونات موعظته تقديسًا لأسراره عن عوارض بشرياته، فإذا كان مقدسًا بسقيه من أشربه مراهم ألطافه شفاء لذلك السقم؛ ولأنه تعالى يشفي بخطابه صدور مرضى أهل شوقه، بمقدمك المبارك زال سقمي، وفي لقياك عجل لي شفائي، فإذا شفي يعذبه بهدايته إلى نفسه، فلما كل في صحته يطهره بمياه رحمته عن أوساخ المرض والاستحسان.

قال ابن عطاء :الموعظة للنفوس، والشفاء للقلوب، والهدى للأسرار، والرحمة لمن هذه صفته.

قال جعفر: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: راحة لما في السرائر.

وقال جعفر: لبعضهم شفاء المعرفة والصفاء، ولبعضهم شفاء التسليم والرضا، ولبعضهم شفاء التوبة والوفاء، ولبعضهم شفاء المشاهدة واللقاء.

وقال الأستاذ: الموعظة للكافة، ولكنها لا تنجع في أقوام آخرين، فمن أصغى بسمع سره اتضح نور اليقين في قلبه، ومن استمع إليه بنعت غيبته ما اتصف إلا بدوام حجبته.

ويقال: الموعظة لأرباب الغيبة ليبوء الشفاء للخواص، والهدى لخاص الخاص، والرحمة لجميعهم، وبرحمته وصلوا إلى ذلك.

ويقال: شفاء كل أحدٍ على حسب ذاته، فشفاء المذنبين بوجود الرحمة، وشفاء المطيعين بوجود النعمة، وشفاء العارفين بوجود القربة، وشفاء الواجدين بوجود الحقيقة.

ويقال: شفاء العاصين بوجود النجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات، وشفاء العارفين بالقرب والمناجاة.

ثم زاد تمام نعمته على عباده؛ حيث أنعم عليهم بتذكير الموعظة والشفاء عن العلة والهداية إلى القربة، وإدخالهم في زمرة الرحمة والمشاهدة، ودعائهم إلى رؤية فضله السابق،

ورحمة الكاملة عن رؤية الاكتساب وعلى الاجتهاد وفرح فؤادهم بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ : حكم في الأزل باختصاص أهل وده أن يختارهم لولايته، ويصطفيهم بالنظر إلى مشاهدته، وسماع خطابه بلا واسطة، فالمشاهدة فضله، والخطاب معهم والوصلة لا نهاية لهما؛ حيث لا يقع لديهما لهم موانع من علل الحدوثية، وعوارضات البشرية للرؤية واللقاء.

قيل: فضل الله دوام التوفيق، ورحمته تمام التحقيق.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قيل: فضل الله الرؤية، ورحمته أبقاهم في حال الرؤية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾: أخبر عن عظيم اطلاعه على أسرار الخواطر وما يجري في الضمائر، وكيف لا يطَّلع وهو مبدؤها ومنشؤها.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ : خوَّف أشرف خلقه من اطلاعه؛ حيث قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ أي: ما تكون في طلب وسيلة منك إلى التوصل بها إليَّ وما تتلو منه أي: من قرآن من خطابي التبليغ على عبادي لتخبت قلوبهم بلذة خطابي إلا وأنا منتظر قدوم أسرارك عليَّ، وأراعي خطرات قلبك حتى لا يجري ذكر غيري من العرش إلى الثرى، فتح بهذا الخطاب لحبيبه أبواب أنوار عظمته؛ ليكون عظيم الشأن في عيون العالمين، ثم خاطب الجميع بهذا الخطاب بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ : من عبوديتي وطلب مشاهدة ربوبيتي: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ : مطَّلعًا على جريان هممكم على أسراركم بنعت كشف جلالي وعظمتي وإلقاء سطوة كبريائي على قلوبكم حتى لا تكونوا إلا مشاهدي عظائم جبروتي، وشرائف ملكوتي، ومعنى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ : عند عزائمكم في بذل وجودكم إليَّ، وكل حركة غيبية تجري عليكم.

ثم أخبر عن سلطان إحاطته على كل ذرة من العرش إلى الثرى بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

مُبِينٍ﴾[1]: بيّن أن ما صدر من العدم بنور القدم يكون بين علمه القديم وقدرته القائمة بذاته، ونظره الشامل على وجود جميع الأشياء على حد صغرها وكبرها، وأنها بجميعها معروفةٌ في علمه عند بصره، وكلها قائمةٌ بذاته وصفاته، وفي جميع الأوقات ينظر إلى كل ذرة بنظر الحفظ والرعاية، ولولا كمال عزة قدرته وإحاطته بعلمه القديم لتفتت ما بين عرصات الملكوت والجبروت، وبهذه الآية يكمل خوف المراقبين وحذر الواجدين وإجلال العارفين وخشية الموحدين ورعاية الصادقين ومؤانسة الصديقين ومطالبة المريدين.

قال الشقيق: على العبد أن يلزم قلبه دوام نظر الله إليه وقربه منه، وقدرته عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

وقال بعضهم: من شهد شهود الحق إياه قطعه ذلك عن مشاهدة الأغيار أجمع.

قال النصرآبادي: شتَّان بين من عمل على رؤية الثواب، وبين من عمل على اتباع الأمر، وبين من عمل على سبيل المشاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

وقد وقع لي إشارةٌ لطيفةٌ أن الله سبحانه بيّن التفاوت بين الأرواح والأشباح، وبين أجرام الأكوان تفاوتًا شريفًا، حيث أخبر تعالى أنه مع الأرواح والأشباح بأنوار شهوده وكشف وجوده واستغراقها في علمه بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: خطاب الأرواح والأشباح وأجرام الأكوان معها بالعلم والقدرة والإحاطة بعلمه عليها، فالله سبحانه مع العبد العارف بنعت القربة والمشاهدة، والكون مستغرق في علمه بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، وما أنت العارف لو شاهد مشهوده ليغيب عن الخوض في الأعمال، بل يطير إليه بأجنحة الأحوال إذا انكشف جماله لمحبه لم يبق بين المحب والمحبوب واسطة الأعمال، وإذا كان كذلك يسقط عنه أحزان الفوات، وخوف الآفات؛ إذ هو في مشاهد الوصال ورؤية الجمال؛ لقوله سبحانه في وصف المشاهدين جماله المستأنسين وصاله الخارجين عن مكائد القهريات ونوائب العقوبات: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: العارف الصادق

---

(١) هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم، وهي على ثلاثة أقسام: مراقبة الظواهر، ومراقبة القلوب، ومراقبة السرائر، فالأولى للعوام، والثانية للخواص، والثالثة لخواص الخواص، فأما مراقبة الظواهر: فهي اعتقاد العبد أن الله يراه، ومطلع عليه في كل مكان، فينتجُ له الحياء من الله، فيستحيي أن يسيء الأدب معه وهو بين يديه. البحر المديد (٣/ ١).

إذا كوشفت له أنوار جمال الذات استأنس بها، وفرح بمواصلتها على الدوام، ثم دخل في نور البسط، وغلبت عليه الطمأنينة والرجاء.

ثم يدخل في سماع الانبساط من روح الوصال، فيغلب عليه النشاط والاستبشار، وذلك مقام لا يدخل فيه وجل القلوب من سطوات العظمة، ولا اضطراب الأرواح من أنوار الهيبة، ولا فناء الأسرار من قهر سلطان الأولية، ولا اضمحلال الوجود من قوارع العزة؛ لأن الولي العارف إذا كان في رؤية هذه الصفات تكون أسرار، في أسفار الآزال والآباد، ويكون هناك على خطر الفناء من غيرة القهريات، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «المخلصون على خطرٍ عظيم»[1]، فإذا سكنت أسرار عن تلك الأصغار وكملت الحق في الحق وتمكنت بالله في الله وتوطّأت في مواطن أنوار الجمال لا يجري بعد ذلك عليه طوارقات الامتحان، ألا ترىٰ إلى المؤمن في الجنان لا يجري عليه آفات العذاب وصور الخوف والحزن؛ لأنه في جنان الظاهر وموضع الروح والريحان، فالعارف الولي أيضًا إذا بلغ إلى جنان جمال مشاهدة الله يكون محروسًا برعاية لطفه عن طوارق قهره أمنًا به عنه؛ لذلك قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فقوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكر السابق في الأزل؛ فإنهم أصحاب العنايات في سوابق علم القدم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من مستقبل عارض القهر؛ لأنهم أصحاب الكفايات إلى الأبد، وكيف يخاف من ينظر إلى جماله، وكيف يحزن من يكون في سنا جلاله، ولا تتم الولاية إلا بأربعة: المقام الأول: مقام المحبة، والثاني: مقام الشوق، والثالث: مقام العشق، والرابع: مقام المعرفة، لا تكون المحبة إلا بكشف الجمال، ولا يكون الشوق إلا باستنشاق نسيم الوصال، ولا يكون العشق إلا بدنو الدنو، ولا تكون المعرفة إلا بالصحبة، وأصل الصحبة وكشف الألوهية القديمة مع ظهور أنوار الصفات جميعًا، فإذا رأى أنوار الصفات وصرف النعوت والأسماء ومشارب الصفات وعرف بها الذات سبحانه ويخرج من درك الفناء فيها بنعت البقاء فيكون وليًّا، فيورث محبته الطاعة، ويورث شوقه الحالة، ويورث عشقه بذل الوجود، ويورث معرفته الخلو مما سواه، فيتورث بطاعة الفراسات، وتورث الحالة اللطافة والظرافة، ويورث بذل الوجود الكرامات، ويورث الخلو مما سواه الهيبة والوقار، فإذا كان كذلك بما وصفنا تكون الآية لله في بلاد الله شمائله البشارة والسخاوة وأخلاقه الصحبة والنصيحة، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحفظ حدود الله على عباد الله، طوبى لمن رآه، طوبى لمن صحبه، وآثر خدمته.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٤٥).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۢ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

وتصديق ما ذكرنا وصف الله إياهم عقب هذه الآية بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: آمنوا عاينوا الله بنور الله، وشاهدوا الله بشهود الله إياهم، وعرفوا الله بالله؛ حيث لا سبب لمعرفتهم إلا كشف جمال الله لهم، ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ مما سواه من نفوسهم وغيرها من العرش إلى الثرى؛ فإيمانهم يوجب الكرامات، وتقواهم توجب المشاهدات، ثم أفرح فؤادهم بنيل وصاله وإدراك مشاهدته بنعت الرضا عنهم في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لهم في الدنيا مشاهدة البيان، وفي الآخرة مشاهدة العيان، لهم في الدنيا مكاشفات، وفي الآخرة مشاهدات، لهم في الدنيا التجلي، وفي الآخرة مقام التدلي، لهم في الدنيا رؤية الله في المنامات، وفي الآخرة عيان المشاهدات.

ثم بيّن أن تلك الاصطفائية الأزلية لا تتغير أبدًا بقوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تبديل لما سبق لهم في الأزل من حسن عنايته لهم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ حيث نجوا من قهره وظفروا بوصاله ومشاهدته، وأي فوزٍ أعظم من ذلك.

قال الواسطي: حظوظ الأولياء من أربعة أسماء، وقيام كل فريق منهم باسم منها، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فمن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، ومن كان

حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره، ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله ما سبق، ومن لاحظ اسمه الآخر كان مربوطًا بما يستقبله، وكلٌ كوشف على قدر طبعه وطاقته، إلا من تولاه الحق ببره وقام عنه بنفسه.

وقال بعضهم: قلوب أهل الولاية مصانةٌ عن كل معنىً؛ لأنها موارد الحق.

سُئل بعضهم: ما علامة الأولياء؟ قال: همومهم مع الله، وشغلهم بالله، وفرارهم إلى الله.

قال أبو سعيد الخراز: الأولياء في الدنيا يطيرون بقلوبهم، يرتادون ألوان الفوائد والحكمة، ويشربون من عين المعرفة، فهم يفرون من فضول الدنيا: ويأنسون بالمولى، ويستوحشون من نفوسهم إلى وقت موافاة رسول الرحيل.

وقال أيضًا: نفوس الأولياء جملة قلوبهم، وقلوب الأعداء تحمل أثقال نفوسهم من الشرك طمعًا في راحة نفوسهم.

وقال أبو يزيد: أولياء الله عرائس الله، ولا يرى العرائس إلا من يكون محرومًا منهم، وهم مخدرون عند الله في حجال الأنس لا يراهم أحدٌ.

قال أبو علي الجوزجاني: الولي هو الفاني في حاله، الباقي في مشاهدة الحق وذاته، تولى الله اصطفاءه، فتوالت عليه أنوار الولي، لم يكن له عن نفسه إخبارٌ، ولا مع أحدٍ غير الله قرارٌ.

وسُئل أبو حفص عن الولي؟ قال: الولي من أُيِّد بالكرامات وغُيِّب عنها.

وقال محمد بن علي الترمذي: الولي بشرى كأنه على روحه في منامه، وعلى قلبه من تلطفه، فروحه تسري إلى تحت العرش، فتسجد فيه، وقلبه يسري إلى فوق العرش فيلاحظ المجالس ويناجي ويبشر[1].

---

(١) قال الإمام القشيري -رحمه الله تعالى: اختلف أهل الحق في الولي، هل يجوز ألا يعلم أنه ولي أم لا؟ فكان الإمام أبو بكر بن فورك يقول: لا يجوز ذلك؛ لأنه يسلبه الخوف ويوجب له الأمن، وكان الأستاذ أبو علي الدقاق يقول بجوازه. وقال القشيري: وهو الذي نريده ونقول به.

قال: وليس ذلك بواجب في جميع الأولياء، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم أنه ولي، وكانت معرفة تلك كرامة له انفرد بها، وليس كل كرامة لولي يجب أن تكون تلك بعينها لجميع الأولياء بخلاف الأنبياء ﷺ؛ لأنه يجب أن يكون لهم معجزة؛ لأن النبي مبعوث إلى الخلق، فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه، ولا يعلم ذلك إلا بالمعجزة، وبعكس ذلك قال الولي؛ لأنه ليس بواجب على الخلق ولا على الولي أيضًا ليعلم بأنه ولي، والعشرة من الصحابة -رضي الله عنهم- صدقوا الرسول ﷺ فيما أخبرهم أنهم من أهل الجنة. وقول من قال: لا يجوز ذلك، لا يخرجه من الخوف، فلا بأس أن يخافوا بغير العافية، والذي يجدونه في قلوبهم من الهيبة والتعظيم والإجلال للحق سبحانه وتعالى يزيد ويربو على كثير من الخوف.

=

قال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ : هم به وله، موقوفون بين يديه، غير أن الحق ممتع لهم بما له، أراهم من عظيم الفوائد وجزيل الذخائر مما لا يقع لهم علم به، ولا علم عليه قبل حين وروده حتى يكون الحق مطالعًا لهم على ما يريد من ذلك على حسب ما قسمه لهم، فهم في ذلك على أحوال شتى، فذلك قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ : جعل سكون العشاق والمشتاقين والمحبين في الليل المناجاة معه، ونيل الوصال منه، وخفض جناح القهر تحت أقدام الهمة الجامعة، ينظر عين الجمع إليها، ما أطيب أنس العارفين في الليالي حين أمطروا من عيونهم الباكية من شوق الله الدرر واللآلئ.

وأنشد:

أقــضِي نَهــارِي بالحــديثِ وبالمنَــى ويجمعُنِــي باللــيلِ والهــمُّ جَامــعُ

وجعل النهار سريان أنوار القدرة، تطلع من جبتها كل لحظة شمس الصفات، وأنوار الذات، فصار مرآة نظر العارفين، وتجلى الحق فيها لهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ
قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا
لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى

=

واعلم أنه ليس للولي مساكنة إلى الكرامة التي تظهر عليه، ولا له ملاحظة لها، وربما تكون لهم في ظهور جنسها قوة يقين وزيادة بصيرة لتحققهم أن ذلك فضل الله تعالى مستدلين على صحة ما هم عليه من العقائد.

ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾.

قال بعضهم: جعل سكون الليل إلى الخلوة والمناجاة والنهار مبصرًا ليبصروا فيه عجائب القدرة والاعتبار بالكون.

قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: يعني المسلمين في إسلام نبيه نوح ﷺ انقياد نفسه المتصفة بصفات الله عند قدم جلاله وجبروت ملكوته وعظم كبريائه؛ حيث نازعت نفوس المتصفين بصفاته بنعت الأنانية من حدة سكرهم في بحار التوحيد وقفار التجريد، ومهمة التفريد؛ لأنه من أولي العزم، وصار صاحيًا بعد السكر، وليس لأهل الصحو إلا هدوء الأسرار تحت أذيال الأنوار.

وأيضًا: أن أكون من القائلين بالقلوب الربانية سهام امتحان قهر غيرة الأزل.

قال بعضهم: ممن تسلم: سري من قلبي، وقلبي من نفسي، ونفسي من لساني، ولساني الكذب والغيبة والبهتان.

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: سبق الحق باصطفائه أهل حقيقته بالحق الذي للحق مع أهله، فيظهر تلك الاصطفائية للخلق بالآيات الواضحة والكرامات المشرقة، التي لا تكون إلا بكلمات الأزلية التي يتكلم بها مع نفسه لسياق محبيه وعارفيه على كل مبطل، ودافع عن طريق الحق.

قال بعضهم: الحق على ثلاثة أوجه: حق أحق، وهو قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: كون الكون بكلماته، وحق أحقه حق، وهي: الصفات؛ لأنها قائمةٌ بالموصوف، والموصوف قائمٌ بالصفات، والحق المطلق هو الله، قال الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾.

قال الحسين: حقَّ الحق بكلماته أي: بإظهار ما أوجد تحت الـ ﴿كُن﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: إن كنتم عرفتم الله، وكنتم منقادين لربوبيته العبودية فعليه توكلوا، فإن المعرفة والانقياد والعبودية توجب تسليم الوجود لتصرف خالقه بنعت استلذاذ مرارة الامتحان.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

سُئل إبراهيم الخواص عن قوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾؟ قال: تناولوا السبب من الله بلا واسطة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾: عرف الله سبحانه لهما مكان الدعاء حتى يعرفا مكان الإجابة والسؤال؛ لأن مكان الدعاء مكان الإجابة، ومن لم يعرف مكان الإجابة لا يستحسن منه الدعاء والسؤال، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ في معرفتكما مكان السؤال مني بشرط معرفتكما مني مكان الإجابة، وذلك مكان الرضوان والبسط والانبساط.

وأيضًا: هذا تهديدٌ لهما أي: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ لضعفكما من تحمل وارد امتحاني، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ بعد ذلك في تحمل بلائي والصبر فيه؛ فإن استقامة المعرفة تقتضي الرضا بالقضاء والسكون في البلاء.

قال ذو النون: الاستقامة في الدعاء ألا تقنط لتأخير الإجابة، ولا تسكن إلى تعجيل الإجابة، ولا تسأل سؤال خصوص.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

قيل: ﴿أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ استقيما على مناهج الصدق.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: كان ﷺ مصطفى في الأزل بشرط الرسالة والنبوة، والمقام المحمود الذي خُصَّ به عن جميع خلقه، فلما جاء عليه أوائل الاصطفائية ودلائل الرسالة وحقائق أنوار الوصلة بغتة ولم يحصل له تسرمد الحاصل البداية تردد حاله وعارضه وسره، وخاف من فوت الحال، فسلَّى الحق قلبه بخطابه، وأحاله إلى رؤساء أخبار كتبه المنزلة ليعرفوا من هناك نشر فضائله واختصاصه في الأزل برسالته بما وجدوا في كتبهم، ألا ترى كيف أراد أن تلقى نفسه من حبل جرى شوقًا إلى جبريل ﷺ ورسالة الله سبحانه، حتى جاء جبريل وأخذه وتسلاه بسلام الله ووحيه.

ألا ترى إلى قوله: «زمِّلوني زمِّلوني»[1]، ولا تعجب عن خواطر التردد عن البشر، وإن كان رفيعًا، فإن شاهد القدم لو بقلب سربال الربوبية يبلغ قلوب الصديقين، ويفني أرواح المقربين من يتخلص من معارضة النفس بعد المكاشفة، وتلك المعارضة تصدر من الحق امتحانًا وعبرة، حتى تطلع على الطالب شمس العناية، وقمر السعادة، فيرى الحق بالحق ويستقيم به له.

ألا ترى كيف قال ﷺ: «إنه ليُغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[2]، وكيف قال: «نحن أولى بالشكِّ من إبراهيم»[3]، ليس هذا شكًّا في وعد الله إنه رفع المعارضة والخطرات، ألا ترى إذا استقام وزال الامتحان من مقام العرفان والإيقان، كيف قال: «لا أشكُّ لا أشكُّ»[4]، لا تعجب مما ذكرنا؛ فإن الحق حقٌّ، والخلق خلقٌ، حاشا أنه كان في شك، إنما كان في رؤية جلال القديم، يرى نفسه غريبًا عجيبًا، ويتعجب مما يرى من غرائب وضوح الرؤية، كان كمن لم ير، فتحير في أمر الأزلية وأحكام الربوبية، قد اضمحل الحدث في القدم، ويرى القدم، ولم ير أنه يرى القدم بالحدث، فدهش بين رؤيتين يسمع خطاب

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤)، ومسلم (١/ ١٤١).

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٢٣٣)، ومسلم (١/ ١٣٣).

(٤) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١٢٥).

الأزل، فيرى الحدث متكلفًا بين أنوار القدم:

أنـــا مبـــصرٌ وأظـــنُّ أنّي نـــائمٌ ... ويجمعُنِـــي بالليـــلِ والهـــمُّ جَامـــعُ
كَـــبُرَ العِـــيانُ عَـــليَّ حَتَّـــى أنَّ ... صَـــارَ اليقـــينُ مِـــنَ العِـــيانِ تَـــوهُّما

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: مما فضلناك وشرفناك، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، وهم الأعداء كيف وجدوا وصفك في كتبهم، وكيف رأوا فيها نشر فضائلك يدل عليه قوله ﷺ حين أنزلت هذه الآية: «لا أشكُّ لا أشكُّ»[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾: تقاضى سر الأزل من الأزل لقهره ولطفه أهلاً يكونون من مصرفها صادرين، وإليها راجعين بنعوتها، فأجاب الحق سبحانه سره بكلماته الأزلية بسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، فلزم سمات لطفه الأزلية على وجوه المقبولين، وألزم سمات قهره على أعناق المطرودين، فبقي أهل اللطف من الأزل إلى الأبد في لطفه، ويقبلون منه ما يصدر من إرادته ومشيئته وأمره، وبقي أهل قهره من الأزل إلى الأبد في ظلمات قهره، فلا يرون واضحات مواهبه على أنبيائه وأوليائه إلا وينكرون عليها؛ لأنهم يرونها بعيون مظلمة وأبصار مطموسة.

قال الواسطي: من لم يلحقه نور الأزل لا يتبين عليه صفاء الوقت؛ فإن صفاء الأوقات نتائج أنوار الأزل، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾: أعلم الحق سبحانه أن شأن مشيئته لا يكون على سنن العقول وإدراك الفهوم لما رفع مسنون المعهود الذي جرى عادته في رسم المواجدة أن يأخذ بعد معاينة العذاب، ولا يقبل التضرع والتواضع فحول ذلك، وقبل تضرع المتضرعين عند معاينة البأس؛ لئلا يظن ظانٌّ أن أمره على مقادير العقول، تعالى الله أن يكون في حين الدركات، التجأوا منه إليه، فانكشف لهم صبح الوصال من مطالع الجمال بعد ذهاب دجى الضلال، فعاينوه بعد التجائهم، فعكس أنوار طلوع شمس الألوهية عليهم،

---

(١) تقدم تخريجه.

فجازهم من سطوات القهر؛ لأن رحمته سبقت على غضبه، ولولا كشف جماله لهم لبقوا في حجاب النكرة واحترقوا.

وأيضًا: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ أي: عرفوا صفات الحق بعد بروز أنوارها في قلوبهم ارتفع عنهم عذاب البعد والفراق، ثم بيَّن اختصاص المختصين واصطفائية المصطفين أنها بمشيئة الأزلية ولا بعلة الاكتساب يكون الولي وليًّا، بل بفواتح كرمه وسوابق نعمه قومًا من العارفين وبقهر قدمه يضع آخرين.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

وصرح الحق أن لو شاء لخلقهم جميعًا مستعدين للولاية بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، ولكن جعل قومًا غذاء رحمته السابقة، وجعل قومًا غذاء قهره الأول؛ لتكون الصفتان على قوام حظهما من البرية، وتبين خاصية أحبائه وطرد أعدائه، وفيه إياس الطامعين في إيمان من ليس له أهليه لمعرفته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: كل نفس ليس لها استعداد معرفته وقبول محبته، وليس بها من الله سابقة حسن عنايته في الأزل بنعت اصطفائيتها بالولاية كيف تعرفه، ومعرفته نتائج أنوار طوالع صفاته في قلوب العارفين.

---

(١) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إشارة بالاسم الرَّب إلى أن ما بعده من قبيل القرينة، إمَّا بالنسبة إليه ﷺ فبالعلم، وإمَّا بالنسبة إلى قومه فبإبقاء بعضهم على حاله من الجهل والمعصية، وعبارة الخطاب له ﷺ وإشارته لكل مَن هو بصدد التبليغ من الورثة.

قوله ﷺ: ﴿لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ أراد بمَن في الأرض: الأنس والجن، كما دلت عليه كلمة مَن، فإنهم هم المكلَّفون: منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون.

وأمَّا مَن في السماء، وما في الأرض من الملائكة، وما عدا الإنس والجن؛ فهم مؤمنون مسبِّحون، باقون على فطرته الأصلية، لا يحتاجون إلى الدعوة والتبليغ.

قوله ﷺ: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين في الإيمان؛ كاجتماع الملائكة في سَجدة آدم، واجتماع بعض القبائل والطوائف على الإيمان، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر:٢]؛ فإن بعض الناس إذا دخلوا في دين الله مجتمعين بمشيئة الله تعالى؛ فكلهم مَن شأنهم الدخول فيه كذلك؛ لكن الله لم يشأ ذلك لحكمة تقتضيه؛ وهي كون الموطن موطن الجمال والجلال، وظهور آثار الأسماء الإلهية مطلقًا، فلو آمن كلهم؛ لبقى بعض الأسماء بحيث لا حكم له في العين، وذلك ينافي جمعية نشأة الإنسان.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قال بعضهم: لا يظهر الإيمان على أحدٍ إلا لسعادة سابقة له في الأزل ونور متقدم، ثم زيَّن السماوات والأرضين بأنوار ملكوته وجبروته، وأظهر منها سبحات جلاله وشهود عظمته لنظار المعارف وألباء الكواشف، ودعاء الأحباء والأعداء إلى النظر إليهما بقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما يبرز من نوره من جبين الشمس وسناه من عارض القمر وضيائه من مرآة الكواكب، الذي انكشف لخليله، وسلبه من الحدثان إلى رؤية القدم بالنظر إلى هذه الوسائل، حين قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ثم أخبر عن خروجه منها إلى أنوار السرمدية والفردانية بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾: أي: لو أن لكم بصائر الصفاتية وأبصار الذاتية انظروا؛ فإن جمال القدم ظاهرٌ للعاشقين، عيانٌ للمشتاقين، وبيانٌ للمحبين، ثم بيَّن أن من لم يكن له عين من تلك العيون، ونور من تلك الأنوار، ألا ترى جماله وجلاله تعالى يقول: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: كيف يفعل الآيات بمن خلق محرومًا عن الإيمان بمكون الآيات.

قال بعضهم: لا تصل العقول الخالية عن التوفيق إلى سبيل النجاة ولما يفنى ضياء العقل مع ظلمة الخذلان، إنما ينفع أنوار العقل من كان مؤيدًا بأنوار التوفيق وعناية الأزل، وإلا فإنه متخبطٌ في هلاكه بعقله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: إن الرسل وأتباعهم من المؤمنين محفوظون بنور عنايته عن اقتحام قهره عليهم، نجّا الأنبياء والمرسلين من حجاب الخطرات، ونجّا العارفين من حجاب الشهوات، ونجّا المؤمنين من غارات إبليس وسلب الشياطين إيمانهم برعايته القديمة المقرونة بمحبته الأزلية إياهم؛ لأن من أحبَّ أحدًا حفظه عن مهالك البعد منه.

﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ منا، وننجي المؤمنين من قهرنا الأنبياء في عين الجمع، وهم في عين التفرقة، هم في الذات، وهم في الصفات، وكان ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ نجاة العارفين؛ لأنا

اصطفيناهم في الأزل بالكرامات والولايات، ومن اصطفيناه حقًّا علينا الوفاء بما أخبرنا عن نفسنا في حقه.

قال بعضهم: ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ من مراد النفس، وغلبة الشهوة، وغفلة الوقت وسطوات العدو وشتات السر، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرسل نجريهم على مناهج الرسل، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ نجاة من صدق في عبوديته.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، ﴿لِلدِّينِ﴾ هاهنا: محبة الله والشوق إلى لقائه، ومعرفة صفاته أي: أقبل بوجهك إلى هذه الصفات الحنيفة الخليلة المبرأة عن محبة كل مخلوق سوانا، ثم أقبل بهذه الصفات جميعًا وجهك الاستقامة إلى مشاهدة وجهنا الأزلي المنزه عن المخاييل والتصاوير حتى تراني بي، وتصل إليك أنوار وجهي الذي لو أشاط ذرة منها على جميع الأكوان والحدثان من العرش إلى الثرى يضمحل جميعًا تحت أنوار سلطان بهائي وجلالي، قال ﷺ: «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1]: أي: يستقيم لي في ذلك المقام حتى تطيق أن تحمل أثقال أنوار مشاهدتي، ثم خوَّفه من الالتفات إلى غيره في إقباله عليه بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: من الطالبين من غيري، والآسرين على حبال مشاهدتي ما لا يليق به من الحدثان .

قال ابن عطاء: صحح معرفتك، ولا تكونن من الناظرين إلى شيء سوى الحق، فيمقتك الله، وإقامة الملة الحنيفية، هو تصحيح المعرفة.

ثم زاد تأكيد الإقبال عليه والإعراض عما سواه بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾: شدد أمر التوكل والاعتماد عليه بقطعه طريق الإعراض عما سوى وصاله، وبيَّن أن من نظر إلى غيره عند امتحان الله بالسراء

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٦١).

والضراء يكون مغلوب قهره، متروك حظه، محرومًا من مراده، محجوبًا عن الله بغير الله، باقيًا في فوات المراد، ومن كان بهذه الصفة فهو ظالم؛ حيث وضع الربوبية عند من لا يستقيم في العبودية.

قال شقيق: الظالم من طلب نفعه ممن لا يملك نفع نفسه الضر ممن لا يملك الدفاع عن نفسه، ومن عجز عن إقامة نفسه كيف يقيم غيره! قال الله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم زاد تأكيدًا إليه في رجوع عباده بالكلية وإعراضهم عما سواه بقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾: عرَّف حبيبه أن كل حركة من العرش إلى الثرى فهو تعالى محركها، وكل روح وجسد وقلب ونفس وهمة وعقل وكفاية مستغرقة في بحار مقاديره لا يجري عليهم إلا موارد القضاء والقدر، وكل مشيئة في الامتحان بالضر وإيصال النفع تصدر من حكمة السابق، فينبغي ألا يرى الغير في البين، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الحجاب ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ لذلك ﴿إلا﴾ ظهور أنوار وصاله، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ كشف جماله، ﴿فَلَا رَآدَّ﴾ لفضل وصاله من سبب، وعلة من الألوان والأعمال، فإن المختص في الأزل بوصالنا لا يحتجب بشيء من الأشياء؛ لأنه في الفضل السابق مصون عن جريان القهر.

ثم علق ذلك بمشيئته السابقة، وأخرجه عن اكتساب البشر بقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ من عرفانه؛ لأنه ساتر الأولياء في قباب عصمته عن طوفان قهره رحيم بهم؛ حيث ربَّاهم بجماله، وآواهم إلى وصاله.

قال ابن عطاء: قطع الحق على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه بإعلامه أنه الضار النافع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: الحق هو القرآن في ظاهر التفسير وحقائقه وتجلي ذاته في صفاته، وصفاته في فعله، فوصل بركة تجليه إلى كل مبارك، وانصرف نوره عن كل محروم، ثم بيَّن سبحانه أن عروس القدم قد انكشف لأهل العدم، فمن رآه، رآه بحظه الوافر، ومن أخطأه أخطأ طريق النجاة بقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: أي: من عرفني فمعرفته راجعةٌ إليه، ومن جهلني فجهله راجعٌ عليه، فإن ساحة الكبرياء منزَّهةٌ عن معرفة العارفين وجهل الجاهلين؛ حيث ما استوحش حين جهلوه، وما استأنس حين عرفوه، ثم بيَّن أن المتولي تعالى

هو بنفسه في الهداية والضلالة بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾.

قال الواسطي: لو وقع التفاضل بالنعوت والصفات كان الذات معلولاً ما أظهر، فإنما أظهره لك إن أجرى الإحسان عليكم فلكم بقوله: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾، إن أجرى الاهتداء فلكم بقوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾، وإن أجرى الشكر فلكم بقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾.

ثم إن الله سبحانه أمر نبيه بمتابعة مراده، واستقامته في العبودية، والصبر في بلائه، والرضا بقضائه بقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي: اتبع ما يحل في قلبك من خطاب الأزل، وطيب روحك بطيبه، واصبر إذا شممت رائحة وصلتي، ولا تضطرب؛ فإنك في امتحان الرسالة، حتى يحكم الله برفع الحجاب عن مشاهدته، ويريح العارفين والمحبين والمشتاقين عن بلية الحجاب أبدًا، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ بأن يفرِّق بين أوليائه وأعدائه، ويُخلِّص أهل العرفان من أذية أهل الحرمان، والله أعلم.

قال سهل: أجرى الله في الخلق أحكامه، وأيَّدهم على اتباعها بقدرته وفضله، ودلهم على رشدهم بقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ﴾، والصبر على الاتباع، وترك تدبير النفس فيه النجاة عاجلاً من رعونات النفس، وآجلاً من حياء المخالفة، والله أعلم.

***

سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾.

﴿الٓر﴾: الألف إشارة جميع التأويلات التي جرت في سوابق الأزل الألوهية، واللام إشارة جميع لوازمات العبودية التي وجبت أحكامها في الأزل على أهل العبودية، والراء إشارةٌ إلى راحات مشاهدة الذات، والصفات للأرواح والأشباح.

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: مخبرات الكتاب من عيون الصفات، والذات نزهت عن تغاير الحدثان؛لأن أصلها صفة القدم، وليس في القدم تبديل وتغيير،

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: أي: بينت للأرواح العارفة والقلوب الشائقة مصارفها وحقائقها، وتلك الآيات معرفة الصفات والذات لأهل المشاهدات والمكاشفات تعرف لهم أحكام الربوبية والعبودية؛ ليشهدوا بأنوارها شهود أنوار الحق، ويعلموا ما يجري من أحكام الغيب القدري على الخلق.

قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: هو من كلام أزلي حكيم؛ إذ حكم باصطفائية عرفانه بمعرفته ﴿خَبِيرٍ﴾ باستعدادهم وقبولهم بوصف محبة عبوديته.

قال بعضهم: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في قلوب العارفين، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أحكامه على أبدان العاملين.

قيل: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالكرامات وفصلت بالبينات.

قال الأستاذ في قوله: ﴿أُحْكِمَتْ﴾: حفظت عن التغيير التبديل، ثم فصلت تبيان نعوت الحق فيما يتصف به من جلال الصمدية، وما يعبد به الخلق من أحكام العبودية.

ثم بيَّن سبب نزول الكتب بهذه الأوصاف؛ ألا يكون العباد إلا لمولاهم، لما كان بينهم من مواصلة المحبة ووجوب الربوبية والعبودية بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لا يلتفتوا إلى ما الله في عباده الله، ثم بيَّن أنه ﷺ نذيرٌ بعظائم قهره وبشيرٌ بلطائف وصله.

قال الأستاذ: نذيرٌ من الله بالفرقة، بشيرٌ بدوام الوصلة.

ثم أمرهم بالافتقار إلى مشاهدته والافتخار بوصاله والاستغفار عن ملاحظة غيره في طلبه إدراك جماله، والرجوع من قهره إلى لطفه، ومن النفوس وحظها وهواها إلى مراده ومتابعة أمره بقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾: استغفروا من جنايات الأسرار، وتوبوا إليه لطنب الأنوار ترك النظر إلى الأغيار قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار تقديسٌ، والتوبة تخليصٌ، الاستغفار من الزلل، والتوبة من الغفل.

سُئل سهل بن عبد الله عن الاستغفار؟ فقال: هو الإجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، ثم الاستغفار، والاستغفار بالظاهر، والإنابة بالقلب، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها.

وقال بعضهم: استغفروا ربكم عن الدعاوى، وتوبوا إليه من الخطرات المذمومة.

وقال يوسف: استغفار العام من الذنوب، واستغفار الخاص من رؤية الأفعال دون رؤية المنة والفضل، واستغفار الأكابر من رؤية كل شيء سوى الحق لما بلغت في ذكر التفسير، إلى هاهنا سألني بعض أهل الصحبة عن حقائق استغفار العارفين؟ فقلت: استغفارهم عن

كون وجودهم مع كون الحق، وعن تقصيرهم في المعرفة عن إدراك حقائق صفات معروفهم، وعن دعوى الأنانية في السكر في مقام صحوهم، وعن غاشية عين العبودية في مشاهدة الربوبية.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إنه ليغانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[1]، ومن جملة استغفاره ﷺ في هذا المقام استغفار من رؤية وجوده الحق، وعن رؤية مشاهدة الالتباس في رؤية مشاهدة صرف الوحدانية، وعن خواطر الأنانية.

ثم بيَّنَ أنه تعالى يجازيهم بعد رجوعهم مما سوى الحق إلى الحق بالتمتع بلقائه ووصاله والفرح بجماله أبد الآبدين بقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: المتاع الحسن أنوار المواجيد على الدوام، وصفاء الأحوال على السرمدية، وسنا الأذكار وحلاوة الأفكار، ونزول حقائق الكواشف، وظهور لطائف المعارف، والفرح برضوان الله، ولين العيش في مشاهدة الله، ما أحسن هذا المتاع منا في منِّ الدنيا لقاؤك مرة! فإن نلتها استوفيت كل منائيًا.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾: يؤتي فضل مشاهدته لمن له فضل المعرفة، ويؤتي فضل وصاله لمن له فضل الشوق إلى جماله، ويؤتي فضل الكرامات لمن له فضل العبادات، ويؤتي فضل التحقيق لمن له فضل التوفيق، ويؤتي فضل كفاية الأبد لمن له فضل عناية الأزل، ويؤتي كل ذي فضل الندامة على ما سلف من ذنوبه، والاستغفار من الله والرجوع من نفسه إلى خالقه فضل طمأنينة القلب بالذكر، وفضل رؤية منه الحق بنعت نسيان الخلق، ووصل المؤانسة بروح الوصال، ولذة نور الجمال.

قال الواسطي في قوله: ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: طيب النفس، وسعة الرزق، والرضا بالمقدور.

وقال سهل: هو ترك الخلق والإقبال على الحق.

قال أبو الحسن الوراق: يرزقكم صحبة الفقراء الصادقين.

وقال الجنيد: لا شيء أحسن على العبيد من ملازمة الحقيقة، وحفظ السر مع الله، وهو تفسير قوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾.

قال الحسين: ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: الرضا بالميسور، والصبر على كرمه المقدور.

وقال الواسطي: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾: ذو الفضل من رزق بعد الاستغفار، والتوبة حسن الإنابة والإخبات مع دوام الخشوع.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال النصرآبادي: رؤية الفصل يقطع عن المنفصل، كما أن رؤية المنة يحجب عن المنان.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

قال بعضهم: يوصل كل متحقق إلى ما يستحقه من مجالس القربة وسمو المنزلة.

قال الجوزجاني: من ندر عليه الفضل في السبق يوصله إلى ذلك عند إيجاده.

سُئل أبو عثمان عن قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾؟ قال: يحقق أماني من أحسن ظنه به.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الخطرات، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من النظرات، يعلم ما يسرون من أذكار القلوب، وما يعلنون من الإخبار عن الغيوب، يعلم ما يسرون من الحالات، وما يعلنون من المعاملات، وهو تعالى كسا أنوار جلاله فؤاد الصديقين، فيرون بأبصار قلوبهم ما يجري في صدور الخلائق من المضمرات والخطرات، كما يرون الظواهرات بعيون الظاهرة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾، وقال ﷺ: «اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظرُ بنور الله»[1].

قال قائلهم:

أبعَيْنِـــــــي أرَاكَ أمْ بفُـــــؤادِي ... كُـــلُّ مَـــا فِي الفُـــؤادِ بالعـــينِ بَـــادِ

قال فارس: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من أحوالكم، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من أفعالكم، وهو عالم بكم قبل أن خلقكم وأبدعكم.

وقال أيضًا: الحركات على الجوارح، والمشاهدة على الأسرار.

وقال بعضهم: ما يسرون من الإخلاص، وما يعلنون من العبادات.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾: دعا الجمهور بلسان التوحيد إلى منازل التفريد؛ ليدخلوا إلى مرابع الرضا، ويجلسوا على مساند الصفا، وينظروا في مرآة الأقدار مباصر الأنوار، لتطمئن أسرارهم في جريان التقدير، بما رأوا من سوابق القسمة، وأوائل الحكمة لكل دابة رزق عليه بقدر حوصلتها، فرزق الظاهر للأشباح، ورزق المشاهدة للأرواح، ورزق الوصلة للأسرار، ورزق الرهبة للنفوس، ورزق الرغبة للعقول، ورزق القربة للقلوب، ورزق الملائكة الخوف والذكر، ورزق الجن الزجر والوعيد، ورزق الحيوان روح العنصر، ورزق الحشرات خطرات التسبيح، ورزق السباع اقتحام ظلام عظمة الأفعال، ورزق الطيور الفرح والتهليل، ورزق الإنسان الذي تعيش به هو فيض الفعل وروح الفعل، ونور الصفة وشهود سنا الذات على الأسرار، وهو تعالى بلطفه يعلم مصارف الجميع من أفعاله وصفاته وذاته لمَّا قال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: مستقر الأرواح أنوار ذاته، ومستقر القلوب أنوار صفاته، ومستقر العقول أنوار أفعاله، مستودع العقول العبادات، ومستودع القلوب المشاهدات، ومستودع الأرواح المكاشفات، ومستقر الأشباح أكناف الآيات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قبور المجاهدات، ومستقر العقول الأذكار ومستودعها الأفكار، ومستقر القلوب المحبة، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المعرفة، ومستقر الأرواح التوحيد، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الفناء في الموحد مستقر الجميع أصلاب العدم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أنوار القدم.

قيل: قرأ يوسف بن الحسين هذه الآية، ثم قال: ندب الله عباده جميعًا إلى التوكل والاعتماد، فأبوا بأجمعهم إلا اعتماد على عواري ما ملكوا إلا فقراء المهاجرين، ثم جرت تلك البركة في الفقراء الصادقين إلى من ترسم بهم من الصوفية، فالخلق أبوا الاعتماد على الأسباب، وأبت هذه الطائفة أن تعتمد على غير المسبب، وهو من أشد المناهج.

قيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ظاهر إسلامه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ باطن إيمانه.

وقيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ من الخلق، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ من الحق.

وقيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الطاعات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأحوال.

يقال: مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد.

ويقال: النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قِبَل الله.

قيل: القلوب مستودع المعرفة، والمعرفة وديعةٌ فيها، والأرواح مستودع المحبة، فالمحاب ودائعٌ فيها، والأسرار مستودع المشاهدات، فالمشاهدات ودائع الله(١).

---

(١) قال ابن عجيبة: أي: يعلم مستقرها في العلم، ومستودعها في العمل، أو مستقرها في الحال، ومستودعها =

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾: إنَّ الله سبحانه وصف الممتحن الذي ذاق من طعم أحوال العارفين والمحبين والمريدين، واقتحم في حظوظ النفس وظلمات هواها، واحتجب بها عن مذاق مراتب الذاكرين والصالحين، ولم يتدارك ما فاته من عمارة الأوقات، وحراسة الأنفاس بقي في حجابه، وألبس عن مدارك إخوانه، وزاد خوضه في متابعة النفس، ويكون هالكًا مع الهالكين، وكم من طائفة هلكوا في هذه الورطة، ولم ينتعشوا.

قال قائلهم:

وكَـانَ لِي مَـشربٌ يَـصفُوا بِـرُؤيتِكُم ... فَكَدَّرَتـــهُ الأيـــامُ حِـــينَ صَـــفَا

قال أبو سعيد الخراز: من أذيق حلاوة الذكر وصفاء السر ثم نزع منه من سنا المقامات والأحوال فليحكم لقلبه بالموت، ولسره بالعمى عن طريق الهدي؛ لذلك قال الله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا﴾، وهو محل القربة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾، وهو حجاب النعمة.

ثم ذكر سبحانه وصف المتخلص من محن الفراق والناقة من مرض سم أفاعي القهر بمفرح الترياق إذا أدرك ما فاته، وطلع عليه شمس العناية مشرق الكفاية، وأقبل عليه أيام السعادة بعد ذهاب أيام الشقاوة بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

=

في المقام، أو مستقرها في للفناء، ومستودعها في البقاء، أو مستقرها في التلوين ومستودعها في التمكين، أو مستقرها في عالم الأشباح، ومستودعها في عالم الأرواح.

ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾: أذقناه نعماء الوصال بعد ضراء الفراق، أذقناه من شراب الوداد بعد رجوعه إلى المراد، يطربه المواجيد، فيسكره أنوار شراب الوصلة، فيهيج نفسه بهيجان قلبه، ويضطرب ويفرح بذهاب ظلمة الهجران عنه، ويظن أن الأوقات باقيات عليه، فيدَّعى بدعاوي البشرية بالمقامات والأحوال عند الخلق، وذلك غلطٌ عظيمٌ يفرح بغلطه، ولا يعلم مزلة قدمه فيكون بعد ذهاب الوقت كما كان، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

ثم استثنى الله سبحانه أهل الاستقامة والثبات في موازات تجلي أنوار قدمه بنعت الخنوع والفناء حتى يجري عليهم بديهة المكاشفة وصولات الوقت بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: أي: صبروا فيما وجدوا من أعلى الزلفى، وأرفع القربة، ولا يفشون تلك الأسرار عند الخلق بنعت الدعوى.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: استقامتهم على تدارك الأوقات بوصف وضع أقدام الصدق على هواهم؛ حيث يراعون أنفاسهم، ويقدِّسونها عن شربها مع الخطرات، ثم وعد الله لهم بصبرهم واستقامتهم، وتدارك أحوالهم غفران ما مضى من الفترة والغفلة، وأنه تعالى يسترهم عن نفوسهم، وهواجسها، وشياطينهم، ووساوسها بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: المغفرة: إقبال الله عليهم بوصف قبولهم، والأجر الكبير دوام الأوقات على السرمدية وتواتر المواجيد، وبلوغهم إلى انبساطات الأول بوصف رفع الاحتشام، وتذكير ما سلف من الفرقة.

وقال الأستاذ في تفسير قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾: من استمسك بعروة التضرع، واعتكف بقوة التذلل، وتحسا كاسات الحسرة، علا بعد نهل طالعه الحق بنعت الرحمة، وجدد له ما اندرس من أحوال القربة، وأطلع عليه شمس الإقبال بعد الأفول والغيبة، كما قيل:

تقشَّعَ غَيمُ الهَجْرِ عَنْ قَمرِ الحبِّ ... وأشرقَ نورُ الصبحِ في ظُلمةِ الغيبِ

وليس لأحوال الدنيوية كبير خطر في التحقيق، ولا بعد نوالها وتكدُّرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل؛ لكن المحبة الكبرى، والوزنة العظمى تذبل غصن الوصال، وتكدُّر مشرب القرب، وأفول شوارق الأنس، ومد بصائر أرباب الشهود، فعند ذلك تقوم قيامتهم،

وهنالك تسلب العبرات، وهي أرواح، فتقطر من العيون بتصاعدها، فإذا نعق في ساحات هؤلاء غراب البين ارتفع إلى السماء نواح أسرارها بالويل.

ومن جملة ما قالوا في ذلك:

قُولَا لِمَنْ سَلَبَ الفُؤادَ فِراقُهُ ... ولقد عهدنَا والمناح عناقهُ

تفد الغراء فبالذي هو بيننا ... إلا وثبت لزدنا إزهاقه

عهدي لمنْ جَحدَ الهوَى أرمان ما ... نور الصبابةِ لاَ يضيقُ نطاقهُ

فالآن مدخل الزمان يوصلنا ... ضاق البسيط فشأنه فعراقه

هَلْ ترتَجي مِنْ وَصلِ عَزةَ رَجعَةً ... تخفوا عَلى قَمرٍ يَدومُ محاقهُ

إنْ كانَ ذاكَ كَما تُريد فخازمًا ... فجر المسرَّةِ أَنْ يرَى إِشرَاقهُ

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: أخبر الله سبحانه أهل الرياء والسمعة الذين لا يريدون من أعمالهم إلا الترفع والجاه والزينة والمال، وهم عن الآخرة بها محجوبون، ولو ذاقوا طعم رؤية الآخرة وجاء أهل المعرفة التفتوا إلى حظوظ أنفسهم، ومع ذلك أعطاهم الله ما يحجبهم عنه في الدنيا والآخرة، ولا تظن يا أخي أن العارف المتمكن إذا باشر الدنيا وزينتها هو من جملتهم، إنه يريد الله برغبة المعرفة والشوق، ويريد الدنيا للكفاف، والعقاب يرزقه الله حياة حسنة طيبة بأنه يجعل الدنيا خادمة له، فيجله في عين الخلق، ويرفع هيبته في قلوب الناس، قال الله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

وقال ﷺ: «من أحسن فقد وقع أجره على الله في عاجل الدنيا وآجل الآخرة»[1]، وليس كالمرائين الذين جعلهم الله محرومين من شرف الآخرة بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟﴾.

---

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

قال أبو بكر الوراق: الحياة الدنيا هي ارتكاب الأماني، واتباع الشهوات والجولان في ميادين الآمال والغفلة عن بغتة الآجال، وجمع ما فيها من الأموال من وجوه الحرام والحلال في زينة الدنيا هي ما أظهر الله فيها من أنواع العلائق التي أخبر الله عنها بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۝﴾.

وتصديق ما ذكرنا من وصف العارفين والمرائين قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾، تقدير الآية على وجه الاستفهام، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كمن هو في الضلالة والجهالة، أفمن كان معرفة من ربه وولاية وعلامة من كراماته وكل عارف إذا شهد الحق سبحانه بقلبه وروحه عقله وسره، وأدرك فيض أنوار جماله وقربه يؤثر ذلك في هياكله، حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر، قال تعالى: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾: فالبينة بصيرة المعرفة، والشاهد بروز نور المشاهدة منه.

وأيضًا: البينة كلام المعرفة وشاهده الكتاب والسنة، ومن كان بهذه المثابة يرى بعين الحق مكنون الغيوب وأسرار القلوب، ومشاهدته غالبةٌ على يقينه، ويقينه غالبٌ على بصيرته، وبصيرته غالبةٌ على عقله، وعقله غالبٌ على نفسه بحيث لا يزاحم هواجسها على مناطق الغيب، وظلمتها لا تغشى أنوار القرب، بل هي فانية بحياتها تحت وارد الحق من الكشف والعيان والبيان، ويبين ما قلنا ويصدقه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: كل وارد من الحق فهو الحق حين زالت عنده معارضة النفس، فإن خطر معارضة في أول نزول الوارد فهي امتحان الحق فيرد عليها واردات حقيقة فتزيلها أصلاً، قال الله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ حين بقيت الواردات وزالت المعارضات.

قال أبو عثمان: من كان على البينة لا يخفى عليه سرٌّ.

وقال رويم: البينة هي الإشراف على القلوب، والحكم على الغيوب.

قال الجنيد: البينة حقيقةٌ يؤيدها ظاهر العلم.

قال أبو بكر بن طاهر: من كان من ربه على بينة كانت جوارحه وقف على الطاعات والموافقات، ولسانه مزمورًا بالذكر ونشر الآلاء والنعماء، وقلبه منورًا بأنوار التوفيق وضياء التحقيق، وسره وروحه مشاهد للحق في جميع الأوقات، عالمًا بما يبدو من مكنون الغيوب ومستورها، ورؤيته للأشياء رؤية يقين لا شكَّ فيه: وحكمه على الخلق كحكم الحق، لا ينطق

إلا بحقٍّ، ولا يرى إلا بحق؛ لأنه مستغرقٌ في الحق، فأنى له مرجعٌ إلا إلى الحق، ولا إخبارٌ له إلا عنه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولما وصف الله البينة وصدق الشاهد وصف المغالطين ومدعين مقامات أهل الولاية افتراء وزورًا وبهتانًا قال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: ظالم أشد ظلمًا ممن يدَّعي الولاية، وكان في سابق الحكم كذَّابٌ، كأنه يريد نقض إبراهيم حكم الأزل الذي سبق بكفره وزوره وبهتانه، وسبق بعنايته الأولياء والصديقين، فظلمه من جهة كذبه على الله بإخراج نفسه على دعوى الولاية، وهو كاذب، وغرض هؤلاء المفسدين صرف وجوه الناس إليهم رياءً وسمعةً وجاهًا، فيعرفهم الله لجميع الخلائق حين يعرضون على ربهم؛ ليفضحهم ويكشف قبائحهم عند الخلق، يوبخهم على رءوس الأشهاد بدعاويهم الباطلة، فيشهد على كذبهم كل صادق في الحضرة، ثم تبعدهم عن القرب والوصال إلى النار والوبال.

قال بعضهم: المفتري على الله من اتخذ أحوال السادات بدعوات لنفسه حالاً، وأظهر من نفسه مشاهده ما لا يشهده أولئك الذين يفضحهم الله في الدنيا بكذبهم، فيطلع عليهم الذين يشهدون حقائق الأشياء، فيقولون: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم؛ لأنهم أظهروا من الأحوال ما ليس لهم، وتزينوا بالعواري من لباس السادة، فهذه فضائحهم في مجالس أهل الحقيقة إلى أن يرجعوا إلى الفضيحة في مشهد الحق.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾: لا يسمعون خطاب الحق بأسماع القلوب، ولا يرون مشاهدة الحق بأبصار الأرواح، وكيف يسمعون وما سبقت لهم في الأزل العناية، وكيف يبصرون وليس لهم حظٌّ عن أنوار القربة، وما تطلع من وجوه الصديقين والعارفين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قال بعضهم: كيف يستطيع السمع من لم يفتح مسامعه لسماع الحق، وكيف يبصر من لم يكتحل بنور التوفيق؛ إذ لا سماع إلا عن إسماع، ولا بصر إلا عن إبصار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي: أيقنوا مواعيد الغيب بنعت رؤيتها، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بذلوا مهجهم للوصول إلى قرب الحق، وزكوا سرائرهم بصفاء الذكر وجولان الفكر، ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: فنوا تحت أنوار سلطان كبريائه حين عاينوها بأبصار أسرارهم، أولئك أصحاب مشاهدة صفات البقاء بعد إفنائهم في أنوار صفات القدم، باقون في البقاء؛ لأنهم لا يزالون بعد ذلك إلا أصحاب الصحو بعد المحو.

قال شاه الكرماني- رحمة الله عليه: الإخبات ثلاثة: غم الإياس مع التوبة لكثرة العود إلى الذنوب، وخوف الاستدراج في إسبال الستر، وتوقع العقوبة في كل وقت حذر، أو إشفاقًا من العدل.

قال الأستاذ: الإخبات التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار، ومن علامات المخبتين الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستعانة بالسر، ثم أن الله سبحانه فرَّق بين المقبولة في الأزل بنعت اصطفائيتهم بالولاية، وبين المطرودين في القدم باحتجابهم عن الوصلة والمشاهدة بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾(١): مثل المحق والمدعي كمثل السميع والبصير والأعلى السميع يسمع بسمع الحق من الحق كلمات الحق التي يفرق بها بين لمات الملكوتية، والهواجس النفسانية، ويبصر ببصر الحق جمال الحق الذي ينور بصائر العارفين، وأبصار المحبين بحيث يرون بها ضمائر القلوب، وحقائق الغيوب فهذه

---

(١) فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثالين، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصامه عن استماع كلام الله، وتأبيه عن تدبره معانيه. أو تشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالضد ، فيكون كل منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة. البحر المديد (٣/ ٤٠).

الأوصاف وصف المتحققين.

وقال القائل في هذا المعنى:

لَـيلي مِـنْ وَجهـكِ شـمسُ الـضُحَى وأنـس الـصدفة فِي الجُـودِ
الـناسُ فِي الظُلمـةِ مِـنْ لَـيلهمُ ونحـنُ مِـنْ وَجهـكِ فِي الـضوءِ

والجاهل الغاوي لا يسمع هواتف الإلهام؛ بأن ليس له سمعٌ الخاص، ولا يبصر أنوار المعرفة بعوارضات البشرية، ما أبين مثل الحق! حيث بيَّن صريحًا نعوت العارفين، وجهل الجاهلين، ثم استفهم عن أهل العقول استواء أهل الهمم أي: لا يستويان، وكيف يستوي حال العارف بالله والجاهل بالله.

قال بعضهم: البصير من عاين ما يراد به، وما يجري له، وعليه في جميع أوقاته، والسميع من يسمع ما يخاطب به من تقريعٍ وتأديبٍ وحثٍّ وندبٍ لا يغفل عن الخطاب في حال من الأحوال.

وقيل: الأعمى الذي عمي رؤية الاعتبار، والأصم الذي منع لطائف الخطاب، والبصير الناظر إلى الأشياء بعين الحق فلا ينكر شيئًا، ولا يتعجب من شيء.

وقيل: السميع من يسمع من الحق، فميز بذلك الإلهام من الوسواس.

وقال الجنيد: الأعمى هو الذي عمي عن درك الحقائق.

وقال الأستاذ: الأعمى من عمي أبصار رشده، والأصم الذي طرش سمع قلبه، فلا بالاستدلالات يشهد سر تقدير في أفعاله، ولا بنور فراسته يتوهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه.

وقال: البصير هو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين، ويشهد صفاته بعين اليقين، ويشهد ذاته بحق اليقين، فالغائبات له حضورٌ، والمستورات له كشفٌ، والذي يسمع بصفته لا يسمع هواجس النفس، ولا وساوس الشيطان، فيسمع من دواعي العلم شرعًا، ثم خواطر التعريف قدرًا، ثم مكاشف الخطاب من الحق سرًّا، فهؤلاء لا يستويان، ولا في الطريق يلتقيان، وانظر ما قال الأستاذ.

وأنشد:

أيهَـا المـنكحُ الثُـريَّا سُـهَيلاً عَمـرَكَ اللهُ كَـيفَ يَلتقـيَانِ
هِـيَ شـاميةٌ إذَا مَـا اسـتقلَّت وسـهيلٌ إذَا اسـتقلَّ يَـمَانِ

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ

﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾: هذه عادة السفلة وأهل الجهل والغباوة الذين قاسوا بآرائهم الفاسدة حال الأنبياء والصديقين، ولو شاهدوا ذرة من حالهم لماتوا حسرة من شوقها، لكن سبق لهم الشقاء الأزلي يحجبهم عن جمال أحوالهم وأنوار أسرارهم، وبقوا بظنونهم المختلفة، وقياساتهم الفاسدة في الأشكال والهياكل، واحتجبوا عن رؤية الأرواح وطيرانها في الملكوت والجبروت، وتكبروا على أولياء الله من قلة معرفتهم بنفوسهم، ومن قلة إدراكهم حقائق القوم.

قال ابن الفرحي: لم يشهد مخالف الأنبياء والرسل منهم إلا الهياكل البشرية، وعموا عن درك حقائقهم في ميادين الربوبية، واختصامهم بما خصوا به من فناء حظوظهم فيهم، وبقاء أشباحهم وهياكلهم رحمة للخلق، فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: أكلاً وطعمًا وشربًا، ولو لاحظوا مقامهم من الحق وقربهم منه لأخر سهم مشاهدتهم عن مثل هذا الجواب؛ لأنهم في مشاهد القدس.

﴿وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾: بيَّن سبحانه من قول نبيه نوح عليه السلام أنه قال: ما أنا بطارد قوم اختارهم الله بالنظر إلى جماله والجلوس على صفائح قدسه ومجالس أنسه وسماع كلامه، والمعرفة بصفاته وذاته وقربه وقرب قربه في الأزل وسابق العلم.

تصديق ذلك قوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ أي: ليس على قبولهم ولمرادهم من اختارني

بالرسالة، فقد اختارهم بالولاية، يختص برحمته من يشاء لا ينظروا إلى انكسارهم في الطريقة، وإعراضهم عن دنيا الدنية ورثاثة ثيابهم، وصفرة ألوانهم وقصر أكمامهم، فإنهم حمائم أبراج الملكوت وبزاة معارج الجبروت.

قال أبو عثمان في هذه الآية: ما أنا بمعرض عمن أقبل على الله، فإن من أقبل على الله بالحقيقة أقبل الله عليه، ومن أعرض عمن أقبل على الله فقدره أعرض عن الله.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي: كيف تنفع نصيحتي لكم ولم يخلقكم الله على استعداد قبول، وذلك من شقاء الأزل، والنصيحة لا تنفع إلا لمن كان في قلبه زاجر من ربه يمنعه من المعصية ويحثه على استماع النصيحة.

قال حمدون القصار: لا تنفع النصيحة لمن لم ينصح نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: في هذه الكلمة إشارة عين، وذلك استعارة عين الربوبية من عيون الأزلية، ليبصر بها حقائق الصنوع في علم الله، فيصنع الفلك بمنقوشه على نقش ختم علم ملك الأزل أي: اصنع الفلك بعيني كما كنت أردت وجود السفينة في الأزل، وذكر الأعين، وهذا إشارة إلى عيون الصفات التي معادن أنوارها حقائق الذات أي: لتصف عينك في صناعة الفلك بأعين الصفاتية لترى بها ما أردنا من هيئتها وتركيبها، وذلك موجودٌ في كلامه على لسان نبيه ﷺ، حيث حكى عن الله سبحانه بقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).

وأيضًا: فيه تقاضا جريان العبودية في مشاهدة الربوبية كقوله ﷺ: «أنْ تعبدَ الله كأنّك تراه»[١].

وأيضًا أي: كن في عيون رعايتنا وحفظنا، ولا تكن في رؤية عملك والاعتماد؛ فإن من نظر إلى غيري احتجب بغيري عني.

قال بعضهم: أسقط عن نفسك تدبيرك، واصنع ما أنت صانع من أفعالك على مشاهدتنا دون مشاهدة نفسك، ومشاهدة أحد من الخلق.

وقال بعضهم: اصنع الفلك، ولا تعتمد عليه؛ فإنك بأعيننا رعاية وكلاءة، فإن اعتمدت على الفلك وكلت إليه وسقطت عن أعيننا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾: إن الله سبحانه أدَّب نبيه نوحًا ﷺ هاهنا عرفه سابق العلم في غرقهم وهلاكهم؛ ليعرف طريق الدعاء ومكانه، وعرف أنه سبق بالدعاء عليهم.

وقيل: ذلك ولم يقبل هاهنا؛ لأن دعاء الأول موافق القدر، والعارف المجاب إذا دعا على أحدٍ بعد ذلك.

ألا ترى إلى قول ذي النون ﷺ حيث دعا على أهل سعايته كيف كانوا يفرقون، فقال بعد ذلك: إلهي تبت، ألا أدعو على أحد من عبادك بعد ذلك، وفيه وصف رقة قلب نبيه ﷺ عليهم بعد احتمال جنونهم وأذيتهم، وهكذا يكون شأن الصادقين.

قال ذو النون: إن كنت قد أيدت في الأزل بشيء من العناية فقد نجوت، وإلا فإن النداء والدعاء لا ينقذ الغرقى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾: هذه الآية وافقت قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم﴾؛ لأن سوابق السعادة والشقاوة لا تتغير بصنائع الحدثان، ولا يزال هما على وصفهما إلى الأبد، كما كانا في الأزل.

قال بعضهم: بالسبق قيد العواقب، فمن أجري له في السبق السعادة كانت عاقبته

---

(١) تقدم تخريجه.

السعادة، ومن أجري له في السبق الشقاوة كتب له بالشقاوة: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾، وألسنة الأنبياء والأولياء قاصرة عن سؤال مخالفة ما جرى في الأزل؛ لأنه حكم القاهرية سلطان الجبارية.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾: البحر بحر القدم والأبد، والسفينة قلب العارف يجري بشمائل العناية بروح الناطقة الربانية، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا﴾ في قلزم الصفات، ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ في قاموس الذات.

ثم أخبر سبحانه عن كمال كرمه؛ حيث لم يسد عليها الجري في الصفات مع حدوثيتها، ولم يفنها في الذات مع ضعفها بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وأيضًا أي: بسط الله إياها بأنوار جمال مشاهدته جريها في الصفات، ويقبض الله بسطوات العظمة سكونها وثبوتها.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: لا عاصم عند صولة تلاطم بحر القهريات إلا عواصم أنوار اللطيفات من التجأ إليه منه نادبه عنه.

قال الأنطاكي: لا اعتصام لأحدٍ من خلق الله إلا بالله.

وقيل: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: إلا من دلَّه على الاعتصام به، وذلك الذي يعصمه الله من أمره.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: لما غاصت سفينة القلوب في بحار غيوب القدم ودارت في لجج عظمتها كادت أن تغرق بطوفان غيرتها، فسبقت لها عناية الأزلية، وما أبقتها في بحار الفناء؛ لئلا يفني العبودية في سطوات الربوبية، فنادت ألسنة الوصال إلى سماء كمال الذات وأرض الصفات: ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾، فامتنعت الذات والصفات عن دركها، وتلطفت الصفات

والذات عليها بإرجاعها إلى مشاهد الأفعال والآيات، واندرس عليها مسالك الآزال والآباد، وهذا معنى قوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾: جرى عليها أحكام معارف الذات والصفات، وغرق منها ما دون الذات والصفات في الذات، والصفات من النفوس، وهواجسها والشياطين ووساوسها، والعقول ومراتب مقاماتها، والكونين والعالمين، واستوائها بنعت التمكين على جودي الطريق، والحقيقة أن تكون ساكنة بعد الاضطراب في المواجيد، وصاحية بعد السكر بأشربة بحار المقادير، وهذه برمتها مشروحة في قوله النبي ﷺ حيث دنا من الوصال وتدلى إلى مشاهدة الجمال، وكان بين قاب قوسي الأزل والأبد بقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، واستعاد في دنو الدنو من الغرق في بحار الأزل والفناء في ميادين الأبد من قهر طوفان قلزم الكبرياء والعظمة، بما سبق له من حسن عناية القدم بنعت الرضا بقوله: «أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذُ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[(١)]، كان ﷺ في مدارك الصفات، ومرائي أنوار الذات سابحًا في بحر حقائق الأزلية، فخاف من فنائه في قهر النكرات، ففرَّ تارة من الصفة إلى الصفة، وتارة من الفعل إلى الفعل، ومن الذات إلى الذات تارة، فقال:أعوذ برضوان عنايتك، ومن سخط غيرتك عليك، أن يعرفك أحد غيرك، وأيضًا أي: أعوذ برضوان جمالك من سطوات جلالك حتى لا أفنى بك فيك، وأعوذ برضا بقائك من صولة عساكر قدمك.

فلما دار في الصفة وخاف من الزوال فرَّ منها إلى أنوال الأفعال؛ ليروح فؤاده الغائب في الألوهية عن أثقال رجاء العزة، فقال: «أعوذ بمعافاتك من عقوبتك»[(٢)]: بمعافاة دعائك الأزلي من عقوبة هجرانك الأبدي، فلما استروح من أثقال السير في الصفات بلطائف الأفعال رجع إلى مشاهدة الذات، فقال: «أعوذ بك منك»[(٣)]: أعوذ بفردانيتك من حلاوة جمال مشاهدتك، التي تصير العاشق بك بنعت وحدانيتك، حتى يخرج بدعوى الأنائية في مشهد تنزيلها، أعوذ بك من هذا المكر حتى أكون لا أكون أنت تكون، وأزول كما لم أزل أزول، وتكون كما لم تزل تكون، فلما فني عن رسوم العبودية وعن مشاهد الربوبية من الأفعال والصفات وبقي بإزاء أنوار الألوهية بنعت استقامة التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، واستعار من الحق لسان الأزلي، وأثنى به عليه، فقال: «لا أُحصي ثناءً عليك»[(٤)]، ثم أخرج

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

الثناء والنفس والعبودية والتكليف والكينونة والقرب والبعد والتصاريف والعلل من ساحة وجود صاحب الجود الأزلي بقوله: «أنت كما أثنيت على نفسك»[(١)].

جئنا إلى ظاهر الآية: إن نبي الله نوحًا ﷺ كان في مضيق القبض من أذى قومه، فاشتهى وصلة بلا فرقة، وبسط بلا قبض، وأنسًا بلا وحشة، فدعا ربه حتى يخلصه من ذلك، فأغرق قومه وناجى ربه، وانفرد به عن كلٍّ، فتغاضت بشريته ابنه، فجاء الموج وأغرق الكل حتى لا يبقى في قلبه غير الله.

وقال الأستاذ: لما غرق ابن نوح ﷺ سكن الموج ونضب الماء وأقلعت السماء، فكأنه كان المقصود من الطوفان أن يغرق ابن نوح.

فكان كما قيل:

عجبتُ لِسَعي الدهرِ بيني وبينها ... فلمَّا انقضَى مَا بَينَنَا سَكنَ الدَّهرُ

ثم أخبر سبحانه عن انبساط نبيه نوح ﷺ بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: تحرك سر بشريته في موضع أحسن الحق حيث من حقه تقديس الأسرار عن النظر إلى الأغيار، وبذل الموجود والمجهول بينه وبين الخليل ﷺ في منزل الامتحان فرقٌ حين أُلقي إلى النار، ولم يلتفت إلى إعانة المخلوق، حين قال: «أما إليك فلا»[(٢)] وسلم نفسه، ولم يتعرض لقلبه معارضة برئ من حوله، وقوله من نفسه والكون جميعًا، وههنا قد التفت إلى غرق ابنه، وأين ذكر الابن في منازل التوحيد والتسليم، والرضا شرط المعرفة والتوحيد فنادى، وقد طاب في مناداته مع ربه سبحانه وسأل ابنه، وحكم بأنه أهله وليس هو من أهله قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

وأيضًا: تعرض داء علقة البشرية بينه وبين رؤية القدر السابق، ولولا ذلك بإرسال الله بالمناداة في منازل الانبساط، وأسرار المناجات لطائف الخطاب، وحقائق المكاشفات، وكل انبساط في مقام الامتحان ليس على مقارنة رؤية حكم السابق، فهو ساقطٌ عن محل البلوغ وإدراك المراد.

قال الحسين: لم يوزن لأحد في الانبساط على بساط الحق محال؛ لأن بساط الحق عزيز حواشيه قهر وجبروت، فمن انبسط عليه رد كنوح ﷺ لما قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ قيل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

ثم إن الله سبحانه عرف نبيه نوحًا ﷺ بعد ارتفاع الأهلية بينه وبين ابنه بارتفاع أهلية

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) رواه الطبري في التفسير (١٧/ ٤٥).

المعرفة والمحبة بين روحه وروحه في منازل الأول عند عبد الله، وذلك أن في الأزلية لم يؤت الله ابنه أهلية عرفانه وإتقانه، فقال: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾: ليس له ما أعطاك الله من المعرفة والرسالة والقربة: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أدّبه بألا تسأل إلا ما وافق القدر، وكل دعاء لم يوافق مراد الله في سابق علمه لم يؤثر في مراد الداعي.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: ليس عمله على موافقة السنة، ثم وعظ وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: الجاهل من جهل قدر الله وقدر أهله أي: أنزهك عن سوء الأدب في السؤال على غير قاعدة مرادي، وفيه تهديدٌ لخواص العارفين ليكونوا على بساط الحق، مجردين لخواطرهم عن الالتفات إلى غير الله، وأنْ يكونوا في محل احتشام الله مستسلمين لمراده.

قال القاسم: الأهل على الوجهين: أهل قرابة، وأهل ملة، فنفى الله عنه أهلية الملة لا أهلية القرابة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أما علمت أنّي قد أمضيت حال الشقاء والسعادة في الأزل، ولا راد لحكمي وقضائي، إنِّي أعظك أن تجهل تلك الأحكام.

قال بعضهم في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾: لما اشرف نوح ﷺ ابنه على الغرق قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، قال خصصت غلبك للدعاء دون سائر عبادي وابنك واحد منهم، ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: في أن يقضي حقك على خصوص، ويمهل حقوق عباده بأجمعهم، ثم رجع ﷺ إلى ساحة الكبرياء بسره المتضرع الحق، ورجوعه من نفسه إليه بوصف الخنوع.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: إنَّ السؤال لا يستحسن إلا بالعلم بالمسئول، ولمَّا علم موضع الخطأ تواضع بجبروته وخاضع ملكوته، أي: إن لم تغفر لي ترك الأدب وترحمني بتسهيل أمر الربوبية في العبودية عليَّ أكن من الذين فقدوا حقائق المعرفة في العبودية.

قال أبو سعيد الخرَّاز: إن نوحًا ﷺ وهو من أهل الصفوة وأولي العزم من الرسل هج وكدح لربه ألف سنة إلا خمسين عامًا.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾، فعوتب عليه، فأبكاه ذلك سنة حتى قال: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾، فكان دهره بطلب المغفرة من هذه الكلمة، ونسي ما كدح وعني واجتهد لما رجع إلى الله، وتواضع للكبرياء، ألبس الله عليه لباس العافية والأمن من أنوار قربه وحضرته بقوله: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: اهبط بوصف التخلق والاتصاف بصفتنا من سفينة الحقيقة بسلامة منا، بأنك بعد ذلك لا تفنى في سطوات عظمتنا إذا اتصفت بصفتنا؛ لأن بركة وصلتنا معك تنجيك بركة مني، وبركتك مع قومك تنجيهم من عذاب فرقتي، ثم هو تعالى شرَّف نبينا ﷺ بكشف أنباء الغيب بقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَ﴾ الكشف والأنباء على مرتبتين، الأولى: للأرواح قبل الأشباح في ديوان الغيب حتى رأت بنور الغيب أسرار المكتوم، والأخرى: بعد كونها في الأشباح، فترى ويسمع، وسمعت في الغيب قبل دخولها في الأشباح تحديد المكاشفة، وتذكير العقود المشاهدة، وما قال سبحانه: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾ أي: قبل كون روحك، وأمّا بعد كَوْن روحك علمت ما كان وما سيكون، وهاهنا تسلية قلبه ﷺ في احتمال البلوى عن أهل الجفاء ابتداءً بأهل الوفاء من أولي العزم من الرسل.

وتصديقه قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: اركب مركب الصبر معي في ظهور حقائق وجودي ولطائف بلائي في ميادين التقوى من غيري، من العرش إلى الثرى، بالهمة الرفيعة فوق العلا، فإنَّ عاقبة المتقين المتبرئين من غيري بي وصالي والنظر إلى جلالي وجمالي.

قال الجنيد: كشف الله لكل نبيٍّ ظرفًا من الغيب، وكشف لنبينا ﷺ أنباء الغيب، وهو الغاية في الكشف، فكان مكشوفًا له من الغيب ما لا يجوز أن يكون مكشوفًا لأحد من المخلوقين، وذلك لعظم أمانته وجلال قدره؛ إذ الأسرار لا تُكشف إلا للأمناء، فمن كان أعظم أمانة كان أعظم كشفًا.

قال النصرآبادي: نجاة العاقبة لمن رسم في الأزل رسم التقوى، وحلي به، قال الله: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾(١) أي: استغفروا من النظر إلى غيري، وتوبوا إليَّ من

---

(١) يضاعف قوتكم، ويزدكم فيها وإنما دعاهم إلى الله، ووعدهم بكثرة المطر، وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة؛ فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بالأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. قاله البيضاوي.

نفوسكم ورؤية طاعتكم، راعوا عنها يرسل سماء القدم على قلوبكم مدرار أنوار تجليها، ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ أي: يزد قوة أرواحكم في طيرانها، ولبساتين قدسي ورياض أنسي، وتلك القوة من سقيي إياها شراب الديمومية من بحار السرمدية والأزلية، ومشاهدة الذات والصفات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: غصت في بحار جلالي الأزل، وهو شاهدي وأنا بريء مما تشيرون إليه من دونه، بريء من حولي وقوتي، وانظر إليكم ما بكم تقدرون في ملكه بذرة، فاحتالوا لي جميعًا إن كنتم تقدرون بالحيلة، ولا ينظرون لا بحيلولتي، فإني على ثقة من ربي في ثبوتي ورسالتي، وبيان براهينه، وعلى سلطان كبريائه دلّ كل شيء، وهو حسبي وحسب كل صادق في بلائه، وذلك قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، مشاهدته بشهوده على ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾: ربي يربيني بأنوار مشاهدته ولطائف وصلته، وربكم بإيجادكم وتربيتكم بأغذية الظاهر.

ثم وصف جلال قدره وإحاطته على كل ذرة بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾: آخذ ناصية كل مخلوق بأيدي القدم، وأخرجها بجبروته من أماكن العدم، ويجذب كل دابة من العرش إلى الثرى إلي ميادين ملكوته، ويغذي كل واحدة منها من موائد تجلي صفاته وذاته وآياته وأفعاله للأرواح غذاء مشاهدة الذات، وللقلوب غذاء مشاهدة الصفات، وللعقول غذاء مشاهدة أنوار الأفعال، وللنفوس غذاء الطبائع من عناصر الكون: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾: على طريق الربوبية التي مناديها صحاري الآزال والآباد، وهكذا على طريقة كل رباني صُمداني يسيروني في طريق الذي هو السير في عالم الذات والصفات، وذلك الطريق مستقيم؛ حيث هو تعالى بجلاله يظهر نفسه في جميع الأحوال لقلوب أوليائه، وأولياءه يسيرون إليه بطريقة، وجذب ظهوره.

إذا نحـــن أدلجـــنا وأنـــت أمامـــنا   كفـــى لمطايانـــا تلقـــاك هاديًـــا

﴿صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾: إذ هو مقدَّسٌ عن اعوجاج الحدثاني وتغاير النفساني، لا تسدُّه علة، ولا تعوجه زلة.

قال الواسطي في قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: غلب على هود ﷺ في ذلك الوقت حال الوصلة والقربة مما يأتي بشيء ولا أحسن به؛ إذ هو في محل الحضور، ومجلس القربة.

وقال في قصة لوط ﷺ: قال لو أن لي بكم قوة كان نطقه نطقًا طبيعيًا، شاهد في ذلك حال ووقته واشتغاله بهم، وقال هود ﷺ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: نطق عن مشاهدة لا يرى سواه.

وقال بعضهم: أي: كيد يلحق من هو في قبضة الحق وسرادق العزّ، وجلابيب الهيبة، والكيد لا يلحق إلا من هو سائر في طرق المخالفة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾: كيف يكون لك محلٌ، وأنت بغيرك قيامك وبقاءك؛ لذلك قيل: من قال أنا فقد نازع القبضة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾: بشارة الرسل للخليل ﷺ من الله سبحانه بدوام وصاله، وكشف جماله بلا حجاب ولا عتاب، وإنْ خلته تولدت من سابق خلته الأزلية والاصطفائية الأبدية، وبأن النبوة باقيةٌ في أولاده، وبشروا أنه تعالى مشتاقٌ إلى أحبائه وأخلائه، وبشروا له بقدوم أخص أولاده، وأخص خلق الله من العرش إلى الثرى محمد ﷺ، وبشارتهم بأولاده من المرسلين نظام الرسالة، ودوام الشريعة، ونشر الحقيقة والسلام، منهم أخيار عن أهليتهم لخليله ورفع النكرة، وتعريف العهد الأولية بنعت زوال الخطرات والمعارضة، وسلامهم ممزوجٌ بسلام الحبيب، وبديهة دنوه من خليله، وسلام الخليل إظهار السرور بالضيف وإكرامهم، وإظهاره الأهلية منه، عرف سره سرهم، موافق سلامه سلامهم، أي: هاهنا بيت كرامة وسلامة من العيوب، وما أطيب سلام الحبيب على الحبيب! وما ألذّ رسالة الحبيب إلى الحبيب! وما أشهى بشارة الحبيب للحبيب! وإن كان بالوسائط:

سلامٌ على سلمى وإن شطَّ دارها ... سلامٌ على أرض قديم بها العهدْ
سلامٌ على جاراتها بجوارها ... سلامٌ حزينٌ رامق شقة الصدّ
سلامٌ عليها دائمًا متواترٌ ... سلامٌ على أرض إليها لها قصدْ
إذا نزلت سلمى بواد فمائها ... زال وسلسال وشيحانها وردْ

قال بعضهم: بشروا لإبراهيم بأن نسبة الخلة ثابتة فإنها لا تنقطع.

وقال بعضهم: بشّروه بإخراج محمد ﷺ من صلبه، وأنه خاتم الأنبياء، وصاحب لواء

الحمد.

وقال بعضهم: رسول الخليل إذا ورد فهو بشارةٌ، فإذا أدَّى الرسالة قد تمت به البشرى خصوصًا إذا أدى من الخليل سلامًا، ألا تراه كيف ذكر: ﴿قَالُوا سَلَـٰمًا﴾ من الخليل، فقال: سلام من الخليل، تم به المراد.

قال ابن عطاء في قوله:﴿سَلَـٰمًا﴾: قال: سلام سلم لك رتبة الخلة من الزلل، قال: سلام أي: هذه السلامة التي توجب لي السلام من السلام.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾: أخبر عن فتوته وإكرام ضيفه، ولكن فيه ما فيه من إشارة إلى قلبه المذبوح، وروحه المجروح، ونفسه المبذولة بين يدي سلطان جبروته، وأنوار ملكوته، وسناء جماله، وسر جلاله، وتلك مجموعة نيران المحبة، ولهب الشوق، وحرقة العشق، ليسلبها بياسمين القرب، وورد الأنس، ونسيم صباء الوصلة.

وأيضًا: تعريف أحوال الملائكة هل جاءوا بالبأس أم ذلك من لطيف صنيع الأبناء، وفيه إظهار المعارضة والخفية؛ ليعرف شأن الحال، وإن كان خلقه السخاء والكرم.

قال بعضهم: من آداب الفتوة إذا ورد الضيف أن تبدأ بالكرامة في الإنزال، ثم ثنيه بالطعام، ثم بالكلام.

ألا ترى الخليل كيف بدأ بالطعام بعد السلام، قال: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، وهو تعجيل ما حضروا بتكلف التكلم بعد ذلك لمن أحب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾: أنكر على تركهم استعمال الخلق، ولكن ما عرف شأن الحال الذي فيه إشارة عجيبة، أي: لا تذبح عندنا عجلاً فإنَّا لا نحتاج إلى العجل، وليس للعجل مكان المحبة، ولكن اذبح لنا إسماعيل، فإن المحبة والعشق مقتضيان قربان الوجود بين يدي المعشوق.

حُكي عن أبي الحسن البوشنجي أنه قال: من دخل هذه الدويرة، ولم يبسط معنا في كسيرة أو فيها حضر، فقد جفاني غاية الجفاء.

وقال ابن جعفر: مَنْ امتنع عن تناول طعام الفقراء والفتيان فقد أظهر كبره.

وقيل في قوله: ﴿نَكِرَهُمْ﴾: نكر أخلافهم، مع ما تفرَّس فيهم من الخير.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: خيفة إبراهيم من الملائكة ليس من جهل بهم إنما رأى آثار بأس قوم لوط من شمائلهم، وهناك متوقع الإنذار؛ لأن ربما جاء الرسول بالإنذار:

لعلَّك غضبانُ ولستَ بعالمٍ   سلامٌ على الدارين إن كنت راضيًا

وأيضًا خاف على أخيه لوط ﷺ ومؤمني قومه: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ رفعوا الحجاب وتبينوا العتاب.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: رحمة الله وقربة الله وبركات الله أنوار مشاهدة الله.

وأيضًا: رحمة الله نبوة الله وولايته، وبركات الله رسالة الله وخلافته، وبقي ذلك في أولاده حتى خصَّ باستجابة دعوته محمد ﷺ وعلى آله وأهل بيته وأولاده.

وأيضًا: رحمة الله محبة الله، وبركاته معرفته وتوحيده.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

قال بعضهم: بركات أهل البيت من دعوات الخليل، ودعوات الملائكة، وأمر النبي ﷺ بالدعاء به في الصلوات في قوله: كما باركت على إبراهيم، فبارك علينا، فأنا من أهل بيته وأولاده: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: محمود بحمده القديم؛ حيث حدَّ نفسه مجيد عظيم الشأن لا يناله عوض الفطن، ولا يدركه بعد الهمم، فلما وصلت بركات الله إليه وانفتحت له أبواب المكاشفة وأدركه فيض البشارة خرج قلبه من غبار الامتحان، وانبسط مع الرحمن بقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾: ذهب عنه خوف البعد، وجاءته بشرى القرب، وذاق طعم الودِّ وسكر الخليل بوجه الخليل، وانبسط الخليل إلى الخليل، وهكذا عادة السكارى إذا شربوا شراب الوصلة وسمعوا صلوات القربة يخرجون بنعت السكارى على بساط الانبساط، وفي ذلك يحمل عنهم ما لا يحمل من غيرهم من أهل الهيبة والإجلال، وانبساطه إليه من مواليد انبساطه إليهم.

ألا ترى كيف قال: ﴿جَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، ثم قال: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾؛ فالبشارة انبساط الله، فانبسط بانبساط الله، لكن انبساط الخليل لا يكون إلا رحمة وشفقة على خلقه وأوليائه، ألا ترى كيف قال: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾: كان يسترحم لهم، ويسأل نجاة لوط وأهل بيته، لما فيه من الظرافة والسخاوة والفتوة والمودة والحلم بما وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ

مُّنِيبٌ﴾: «حليمٌ» بأنه كان لا يدعو على قومه، بل قالوا: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وتأوهه زفرة قلبه مع غيرة عينه من الشوق إلى جمال ربه، وهكذا وصف العاشقين: التأوه والزفرات، والشهقة، والغلبات، والصيحة والعبرات، «مُّنِيبٌ» حيث أناب إلى كنف قدمه، وقوام خطاب قدسه ومجالس أنسه من رؤية شواهد ملكوته؛ حيث قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾، ومجادلته كمال الانبساط لم تكن جهلاً، ولكن كان مشفقًا بارًّا كريمًا، رأى مكانة نفسه في محل الخلة واصطفائية القديمة وهو تعالى يحب غضب العارفين، وتغير المحبِّين، ومجادلة الصديقين، وانبساط العاشقين؛ حتى يحثهم على ذلك، وفي الحديث المروي من النبي ﷺ أنه قال: «لما أسري بي رأيتُ رجلا في الحضرة يتذمر. فقلت لجبريل ﷺ: من هذا؟ فقال: أخوك موسى يتذمر على ربه تعالى. فقلت: وهل له ذلك؟ فقال: يعرفه فيحتمل عنه»[1]، ألا ترى كيف وصف الله انبساط كليمه بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، ولا يجوز الانبساط إلا لمن كان على وصفهم.

قال بعضهم: ذهب روع ما يجده في نفسه من تنزههم عن طعامه، وعلم أنهم الملائكة، وجاءته البشرى السلام من الله لمَّا فزع من قضاء حق الضيف، ولقي البشرى رجع إلى حد الشفقة على الخلق، والمجادلة عنهم، ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ للرحمة التي جبله الله عليه، ثمَّ إنَّ الله سبحانه ذكر وصف خليله بأنه لم يعرف الملائكة في أول مقدمهم، ثم وصف نبيه لوطًا ﷺ بما وصف خليله من ضيق صدره، والخيفة منهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: حزن لأجلهم، وضاق صدره شفقة عليهم من فتنة قومه، ثم وصف بأنه مشفقٌ حزينٌ كريمٌ على الأضياف بقوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾، وحكمة إنشاد باب الفراسة على إبراهيم ولوط أنهما كانا في محل البسط وحسن الرجاء من الله سبحانه، ولا يتوقفان البأس والعذاب على القوم، فلمَّا رأيا ملائكة الله لم يعرفاهم باشتغالهم بمعهود حال البسط، ولطائف الرجاء والقربة، وإن كان سرهما لا يغيبان عن معرفتهم، ولكن عارضهما التقدير لإمضاء حكم الله على قوم.

قيل: إن إبراهيم كان صاحب النبوة والخلة والرسالة، ولا بدّ أن تكون فراسته أصدق من فراسة كل أحدٍ، ولكنه في هذا الحالة لم يعرف الملائكة ليعلم أن الحق سبحانه إذا أراد إمضاء حكم سدَّ على من أراد عيون الفراسة كما سد فراسة النبي ﷺ في قصة الإفك إلى الوقت الذي أنزل به الوحي، والتبس الحال على لوط ﷺ إلى أن ينزله الأمر، ولما أخذ تلاطم بحر

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣/ ٤٣١)، وذكره ابن عجيبة في البحر المديد (٣/ ٦٢).

الامتحان لوطًا ﷺ طلب قوةً وركنًا شديدًا ليدفع بها قوم من ارتكاب المعصية.

قال سبحانه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: رأى نفسه في منازل الابتلاء والامتحان، ورأى أبواب المكاشفات والواردات والمشاهدات مسدودة، ولم ير نفسه إلا في محل الخوف، ورؤية المكر وخشية العظمة، قال: لو أن لي في هذه الساعة اتصافًا بصفة القدرة والقدر الأزلية كما كان حالي قبل هذا الامتحان لرفعتكم عن الكفر والمعصية.

﴿أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: لو كشف لي حاشية من حواشي قوام العدم آوي إلى هناك، وأسترع من رؤيتكم أو آتي من عالم الملكوت بيأسكم أو أدعو لكم، أو كان لي لسان الرباني الرحماني ليهتدوا إلى مواقع بالرشد، وتعرفوا حقوق الله عليكم.

قال ابن عطاء: لو أن المعرفة بيدي لأوصلتها إليكم.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

قال بعضهم: لو أن لي جرأة على الدعاء عليكم لدعوت، أو آوي إلى ركن شديد من علم الغيب بما أنتم صائرون إليه من سعادة أو شقاوة، فلمّا تم الأمر وعرف الحال، كشف الملائكة له حال القوم، ووعدوا هلاك القوم وقت الصبح بقوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، كأنه تسارع إلى مكان التخلص من بين الضلال، وأراد أن يرجع إلى قرب الله ومشاهدته وتسريح من رؤية الأضداد؛ لأن رؤية الأضداد حمى الروح، كأنه قال: لو أن بكم قوة أزلية أهلكتُكُم، وآوي إلى ركن شديد إلى حضرة الملكوت مجالس الجبروت،

وأستريح من صحبتكم، ورؤية معصيتكم، فأنتظر بعد ذلك ما وعدوه، قيل له: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[(١)].

ما أشد على العارفين انتظار واردات الغيب، وطلوع صبح المشاهدة، وانفلاق شرق العناية، وإشراق شمس المكاشفة! دنا وصال الحبيب، واقتربا واطَّربا للوصال وأطربا.

حُكي عن السري أنه قال: قلوب الأبرار لا تحتمل الانتظار.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: إذا طاب عيش العارفين بجمال معروفهم، وسكنوا بمواساة لطائف قربه، واستأنسوا بنرجس مودته، وورد وصلته وياسمين نور صحبته، واطمأنوا في مكانات كشوف غرائب الملك والملكوت، وأمنوا من بليات الامتحان، هاج غيرة القدم عليهم، وأقلعهم طوارقات القهر، وألقتهم إلى منازل الامتحان، وجعلت أعالي قلوبهم وأحوالهم أسافل نفوسهم وشهواتها، حتى يعرفوا أن ساحة الكبرياء منزَّهةٌ عن الأنس والوحشة والوجود والعدم، والمريدون إذا استكبروا على المشايخ يقلب الله مواجيدهم بطر النفوس ومجاهدتهم اتباع شهواتهم، الويل لمن كان هكذا المسلم عليهم أحجار البعد، نعوذ بالله منها، وسماتها تواتر العصيان، والخروج على أطيار بساتين الرحمان، وهذا جزاء من خرج على سادته ومشايخه، قال الله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: ما هذا الحجاب والبعد من التاركين السنة والمتابعة ببعيد.

قال بعضهم: لما أدركهم الحكم السابق الجاري في الأزل عليهم قلبنا عليهم أرضهم كما حكمنا عليهم بتقليب قلوبهم، وصرفهم عن طريق الحق وسبل الرشاد.

وقال محمد بن الفضل: ما أصاب قوم لوط ما أصابهم إلا بالتهاون بالأمر، وقلة المبالاة، وارتكاب المحارم بالتأويلات.

قال الله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: ما له بعذاب ممن حلوا ما علموا من تخطي الشرع، والتهاون بالأمر، وارتكاب المناهي بالتأويلات ببعيد[(٢)].

---

(١) إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ حلول العذاب حينئذ أفظع ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين.

(٢) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ دلالة على أن القضاء المبرْم لا يُردُّ؛ وهو القضاء الغير المعلَّق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ
=

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾: أراد خير الدنيا الذي هو محل الاستدراج والامتحان، وإنْ رأى خير الآخرة ما خاف عليهم وأهل المعرفة، إذ رأوا أنفسهم في أعالي الدرجات والمقامات والاستقامة، زاد لهم خوفًا؛ لأنهم عرفوا الله بغيرة القدم، ولا يستقيم بإزاء غيرته الحدثان، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه»[1].

قال بعضهم: أقرب حال إلى الاستدراج أيام الأمن والدعة، وتواتر النعم عليك، وترادف الخيرات عندك.

ألا ترى الله حاكيًا عن بعض أنبيائه لأمته: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

وقال بعضهم في: ﴿أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: بنعمة من الله، ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾: تقصيركم في شكر النعمة.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: بقية الله وقربته ووصاله وما ادَّخر لأوليائه من الكرامات السنية والدرجات الرفيعة.

قال بعضهم: ما ادَّخر الله لكم من كراماته خيرٌ مما تسألونه فيه.

=

ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة:٢١٧]؛ فإن مفهومه أنهم لا يستطيعون أن يُردُّوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، مَتْن كل صعب وذلول، لِمَا إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغيَّر بحال من الأحوال، وأمَّا القضاء المعلَّق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاً من السعادة والشقاوة؛ إمَّا أصلية أو عارضة، فالأصلية لا يُعارضها عارض، وإن عارضها، فالمال إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد، فالمؤمن الأصلي لا يضرُّه الكفر العارضي فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ فإن بطن الأم ناظرة إلى علم الله، فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ: إنه كافر لا يضرَّه؛ لأنه لوح المحو والإثبات.

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (١/ ٢٩٤).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾: ليس للصادقين مع الخلق معاداة بسبب من أسباب الدنيا، إنّما أبغضهم وخالفهم حين يتركون متابعة السنة وما يعطونهم، إلا بعد تركهم هوى نفوسهم، ولا ينصحهم إلا شفقة عليهم.

قال أبو عثمان: ليس بواعظٍ من كان واعظًا بلسانه دون عمله.

وتصديق الآية قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ أي: ما كان في عقلي ونيتي من قوة الله أريد بها إصلاحكم، ولكن الهداية والتوفيق ليست معي، ولا أطيق أن أنقذكم مما جرى عليكم في الأزل: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: اصطفائيتي بالنبوة والولاية باختيار الله في الأزل: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾: أسكن به لا لغيره، واثق به فيما وعد لي، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾: أرجع إليه بنعت شوقي إلى لقائه.

قيل في قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ أي: مرادي صلاحكم أن يساعدكم التوفيق، ولا أستطيع أنا ذلك لكم إلا بمؤنتي من الله لي عليه.

قال النهرجوري: التوفيق حسن عنايته من الحق سبق إلى العبد ليس له فيه سببٌ، ولا منه له طلبٌ.

قال الجنيد: التوكل ألا يظهر فيك انزعاجٌ إلى الأسباب مع شدة الفاقة، ولا يزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ أي: استغفروا مما جرى على قلوبكم من أنكم قدرتم بشيء من الطاعة والعصيان، فإنَّ الطاعة والعصيان لا يتعلقان إلا بالسعادة والشقاوة الأزليتين، والرضا والسخط.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: تبرءوا من حولكم وقوتكم، فإذا تيقنتم ذلك وخرجتم من رؤية وجودكم يلبسكم ربي لباس معرفته؛ لأنه رحيمٌ بعارفيه، ويلقي حلاوة ؛ فإنه ودودٌ لأهل وده.

وقال محمد بن فضل: من لم يكن ميراث استغفاره بصحيح توبته كان كاذبًا في

استغفاره، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ومَنْ لم يكن ميراث توبته بصحيح محبته كان مبتلاً في توبته؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾.

وقال أبو عثمان: الودود الذي توَدَّد إليك بالنعم قديمًا وجديدًا من غير استحقاقٍ ولا وجوبٍ.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: مستوحشًا مما نحن فيه، مستأنسًا بما أنت فيه، وأيضًا: ضعيفًا فيما تدَّعى من الرسالة والمعجزة، وما تدَّعى من القربة والمشاهدة، فإنك أضعف الضعفاء، كيف تقدر أن تخبر عما لم يعرفه، وما لا يليق بعقول الخلائق.

قال الترمذي: مهجورٌ فيما بيننا، لا تعاشر، ولا تعاسر.

قال بعضهم: قليل العقل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ

يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ۝١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾: الآيات قدرته على الإخبار عما وجد من أنوار جلاله، وحقائق حضرته، ونشر فضائل معارفه وكواشفه، والسلطان المبين ما ظهر من وجهه من سطوع نور الأزلية، وأثار المحبة التي قال: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾.

قال ابن عطاء: الآيات هي القوة عند مخاطبة الحق، وسماع كلامه، والسلطان هو الانبساط في سؤال الرؤية.

قال جعفر: الآيات هي التواضع عند أولياء الله، والسلطان التكبر على أعداء الله.

وقال بعضهم: الآيات محبةٌ في قلوب خلقه، والسلطان هيبتهم له محبة في هيبة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾: تهديدٌ لأهل الغفلة في النعمة الذين شغلتهم النعمة عن رؤية المنعم.

قال أبو بكر الورّاق: إذا سخط الله على قوم أكثر عليهم نعمة، وأنساهم شكره، ونزع عن قلوبهم التوفيق، وتراهم سدىً حتى أغمروا في المعاصي، واستوجبوا أخذه، أخذهم على غرة.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾: ذلك اليوم يجمع العارفون لموقف رؤية الجلال، وشهودهم مشاهد الكبرياء والعظمة، ويجمع المحبون ما قامت مشاهدة الجمال، وشهودهم لقاء البقاء، ويجمع الموجدون لرؤية القدم وشهود الأزل، وهم صبّار لا يزالون عن طوارق القدرة وسطوة العظمة؛ لأنهم في الدنيا أهل جمعٍ وأهل شهودٍ.

قال أبو سعيد الخرّاز: من عاشق في حقيقة عين الجمع لم يهوله ما جمعوا له من ذلك المقام، ومن كان في كشف المشاهدة لم يتعجب من شهود ذلك اليوم؛ لأنه كان مكشوفًا له عن ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: الأيام منها يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موجود، ويوم محدود، فاليوم المفقود: أمسك؛ فإنك على ما فرطت فيه، واليوم المشهود يومك فتزوَّد منه ما استطعت، واليوم المورود: لا تدري هو لك أم أنت له لعلّه ليس من أيامك،

وهو غدك فلا تشغل به ولا تهتم له، واليوم الموعود: فاجعله من بالك، واذكره على كل أحوالك، واعمل له فإنه آخر أيامك، ويوم ممدود: يوم يقوم الناس لرب العالمين، فانظر لنفسك لوقوف ذلك.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وجواب السؤال قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، ويرجى من كرم الله ولطفه أنَّ الكفار إذا حشروا يدخلهم النار بلا حساب، ثم يحشر المؤمنون إلى عند الميزان، وتبدَّل الأرض، ويقلع السماء من البين، ويحاسب المؤمنون حسابًا يسيرًا، وهو قادرٌ أن يحاسبهم بلحظة، فإذا أراد أن يدخلهم الجنة يخرج الكفار من النار، ويلقهم في بحر الحيوان، ويدخلهم مع المؤمنون في الجنان؛ لأنه تعالى وعد أنَّهم في النار ما دامت السماوات والأرض، فإذا زالت السماء والأرض كملت الحجة، وهذا شيءٌ مرجوٌّ، ليس بمعتقد أهل السنة.

ومعنى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ إلا من آمن بقلبه قبل معانية الآخرة بلهفة، ولم يطَّلع عليه أحدٌ غير الله، فإن دخله وورد على الصراط كالمؤمن يكون كذلك إن شاء الله؛ فإنه تعالى مستغنٍ عن عذاب الكافرين، كما يستغني عن إيمان المؤمنين وطاعتهم، وإيش يضر به أن يدخل الكفَّار في الجنة وساحة كبريائه منزَّهةٌ عن خلل الحدثان، وإذا أنشر بساط الكرم يدخل الأولون والآخرون والمؤمنون والكافرون في حاشية من حواشي بساط رحمته، وهو صادقٌ فيما وعد وأعدوا، وإنما العلم عند الله.

وتأكيد ما ذكرنا قول أبي مجلز: هو جزاؤهم إلا أن يشاء ربك يتجاوز عنهم فلا يدخلهم النار.

وقال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمان تحقق أبوابها ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا.

وقال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرانًا أسرعهما خرابًا.

وتصديق هذه الأقوال قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وإن هذا مما يؤيد إن شاء الله.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾: الذين سبقت لهم في الأزل العبادة الكبرى، وهي التوحيد والمعرفة على قواصير النور على رفارف الجنان تحت سرادق العرش.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: سماء الجنة وأرضها، سماؤها العرش، وأرضها الدر ومكة البيضاء من مسك أذفر.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾: وقع المشيئة على العارفين والمحبين والمشتاقين؛ فإنهم يجتازون على الجنان، ويدخلون في أنوار حبال الرحمن أبد الآبدين.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].

وقال أيضًا: في فاكهة أهل الجنة في أهل الجنة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

وقال ابن عطاء: إلّا ما شاء ربك من الزوائد لأهل الجنة من الثواب، ومن الزوائد لأهل النار من العقاب.

---

(١) الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب، وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، واليقين والاطمئنان في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. البحر المديد (٣/ ٧٥).

وقال الجنيد: الشقي من حُرِم الرحمة، والسعيد من رُزِقها.

وقال إبراهيم الخوَّاص: الشقي من اعتمد تدبيره وقوته، والسعيد من فوَّض أمره إلى ربه، والسعيد الذي ساعده التوفيق الأزلي في كل ما يريد من المقامات، وتسهيل الطاعات، والشقي ميت القلب عن مورد تجلي رؤية الرب.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ : أمر الله سبحانه نبيه ﷺ في معهد الأزل أنْ يقوم بتحمل أمانة علوم كنوز القدم، وما يتعلق بها من كشوف أنوار صفاته وذاته إلى الأبد، وذلك بعد أن كساه كسوة الربوبية وقدرة الأزلية، فذكره عهده الأول بعد كونه متحليًا بأنوار التأييد والعناية، وقيامه بأداء حقوق الرسالة والنبوة، فآن الآن أوان الامتحان؛ حيث زَينتُ الدنيا بأحسن زينتها لك، وأجريت الطبيعة فيك، وأن يستقيم أصحابك وأمتك في حمل ما تخبرهم من أحوالك معي، وأحوالهم وكراماتهم بين يديَّ؛ فإني بجلالي وقدري أكشف أسراري لك ولأمتك من أهل الحقائق ما لا يطيق بإزائها السماوات والأرض، فاستقم بما يليق برسالتك.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ من أمتك بما يليق بولايتهم، وليس للاستقامة حدٌّ؛ لأنها مقاماتٌ وحالاتٌ ومعارفُ وكواشفُ وتوحيدٌ ويقينٌ وصدقٌ وإخلاصٌ وآدابٌ وخطابٌ، وفي كل مقام استقامة من يستقيم فيها جميعًا، وفيما يرد عليه من واردات المواجيد من اللطفيات، وما يرد عليه من الامتحان والبليات، صار موصوفًا بالاستقامة، ومن يطيق أن يقوم بإزائها مستقيمًا، ولا يثبت على صفوان القدم آثار أهل العدم من جعله الله مستقيمًا بتأييده صار مستقيمًا، المخصوص في ذلك محمد ﷺ، لذلك قال ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا»[1]، ولما ثقلت عليه أثقال الاستقامة على تتابع كشوف الأزليات وأسرار الأبديات قال: «شيَّبتني هود»[2].

وقال ابن عطاء: إنما ينال الاستقامة على حسب ما أكرم به من نور السر.

وقال بعضهم: من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أُيِّد من المشاهدات القوية، والأنوار البينة، والآثار الصادقة.

ثم عصم بالتثبيت، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾، ثم حُفظ في وقت المشاهدة، ومشافهة الخطاب، وهو المزين بمقام القرب والمخاطب في بساط الأنس محمد ﷺ، بعد ذلك خوطب بقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ : ولولا هذه المقدمات لانفسخ دون هذا الخطاب.

ألا تراه كيف يقول للأمة: «استقيموا ولن تحصوا»[3] أي: لا تطيقوا الاستقامة التي

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ١٠١)، وأحمد (٥/ ٢٧٦).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٤٠٢).

(٣) تقدم تخريجه.

أُمرت بها.

وقال جعفر الصادق في قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾: افتقر إلى الله بصحة العزم.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت أبا عليٍّ الشوني يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت له: روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود»[1]، فقال: نعم، فقلت له: ما الذي شيبك منه قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال: لا، ولكن قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

وقال جعفر الصادق: منهم من استقام على توحيده، ومنهم من استقام على إيمانه، ومنهم من استقام على إسلامه، ومنهم من استقام على معرفته، ومنهم من استقام على عظمته، ومنهم من استقام على الحمد والثناء، ومنهم من استقام على الكرم والوفاء، ومنهم من استقام على الخوف والرجاء، ومنهم من استقام بالله لا شيء سواه.

وقال بعضهم: من استقام بالحق لا يعوج، ومن استقام بباطلٍ فهو غير مستقيم؛ لأن الاستقامة لا تكون إلا بالحقيقة.

وقال بعضهم: الاستقامة لا تكون إلا باتباع السنة.

وقال الجريري: الاستقامة في النعمة للعوام، والاستقامة في البلاء استقامة للخواص.

وقال الجنيد: الاستقامة مع الخوف والرجاء حال العابدين، والاستقامة مع الهيبة والحياء حال المقربين، والاستقامة مع الغيبة عن رؤية الاستقامة حال العارفين.

وقال الأستاذ: يحتمل أن تكون السنن في الاستقامة سنن الطلب، أي: سل من الله الإقامة على الحق.

ويُقال المستقيم: من لا ينصرف عن طريق الله ما لم يصل إلى الله يصل سيره بسراه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: لا تقتدوا بالمُرائين والجاهلين وقرناء السوء، فتمسكم نيران البعد، وحب الجاه والرياسة، وتلحقكم نار البدعة والضلالة.

وأيضًا: لا تسكنوا إلى نفوسكم المظلمة بجهلها حقوق الله سبحانه.

قال الكِتَّاني: من لم يتأدب لحكيم أو إمام يكون بطّالاً أبدًا، قال الله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

وقال سهل: لا تعتمدوا في دينكم إلا السني.

وقال حمدون القصَّار: لا تصاحب الأشرار؛ فإن ذلك يحرمكم الأخيار.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: لا تركنوا إلى نفوسكم؛ فإنها ظلمة.

وقال سهل: لا تجالسوا أهل البدع.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾: إن الله سبحانه حفظ الأوقات على أهل المشاهدات والمحاضرات، ووسمها بوظائف الطاعات لهم ليصلوا بالمجالسات والمحاضرات والمراقبات والطاعات إلى معالي الدرجات والقربات؛ لأنَّ من حضر بقلبه وروحه وعقله مجالس الذكر والمراقبة يصل سره إلى رؤية المشاهدة أحد طرفي النهار؛ لأن كثرة الفترة والزلة والغفلة يكون بالنهار حتى يكونا ذاهبين بما جرى بينهما من الغفلات بما فيها من صفاء الأذكار وجولان الأفكار، وأخذ طرفًا من الليل، وهو أولها لبقاء صفاء الوقت، وحلاوة الذكر والطاعة، وحرقة الوجد، ولهب القلب، ولذة الأنس إلى النهار، ولا يترك صاحبها عاقلاً، وإنْ كان نائمًا، فإذا وصل أوقات الليل بأوقات النهار ووصل أوقات النهار بأوقات الليل بنعت عد الأنفاس، ونفي خواطر الوساوس، تذهب أنوارها غبار الخطرات، وظلمة المعارضات، وهيجان الطبيعيات البشريات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: إنَّ حسنات أنوار المشاهدات تذهب سيئات المعارضات، وتذهب حسنات كشف الجمال سيئات الخيال، وتذهب حسنات التوحيد والمعرفة والفهم سيئات الظن والوهم، ولا يعرف ما وصفنا إلا أهل الذكر من المريدين، وأهل المراقبة من المحبِّين، وأهل الرعاية من العارفين، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

قال أبو عثمان: الأوقات والساعات جُعلت علامات الأذكار أوقاتًا للتيقظ والاعتبار، فمن مرت عليه أحواله وأوقاته وساعاته في غفلة، فليتيقن بموت القلب؛ لأنه مطالبٌ في كل وقت من أوقاته، إما بفريضة أو سنة أو أدب.

قال الواسطي: أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي.

قال بعضهم: رؤية الفضل تسقط عن العبد رؤية العمل.

قال أبو عثمان: حسن الظن بالخلق يذهب بالآمنة والغيبة، ويورث الشفقة والنصيحة والرحمة،وذلك موعظةٌ لمن يوفق له ويؤهل.

وقال يحيى بن معاذ: إنَّ الله لم يرض للمؤمن بالذنب حتى ستر، ولم يرض بالستر حتى غفر، ولم يرض بالغفران حتى بدل، ولم يرض بالتبدل حتى أجره عليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾.

يقال: حسنات التوبة تذهب سيئات الزلة.

ويقال: حسنات العرفان يذهبن سيئات العصيان.

ويُقال: حسنات العناية تذهب سيئات الجناية، ولمَّا عظم شأن حفظ الأوقات، وأشكل رعاياتها على أهل المشاهدات والمجاهدات أمر بالصبر عليها بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ في دفع الخطرات المذمومة عن مزار المجاهدة وأنوار المكاشفة.

وأيضًا: واصبر تحت رجاء تجلِّي الكبرياء، فإني أجازي بإحسانك بذل وجودك بنعت طلب رؤيتي بكشف جمال بقائي حتى لا تفنى بنور كبريائي، وتبقى معي بنور بقائي.

قيل: اصبر على أداء الطاعات، وعن ارتكاب الجنايات، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن في آداب العبودية.

وقيل: اصبر على الذكر؛ فإن من ذكر الله على الحقيقة ذكره، كما قال ﷺ: «يقول الله: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي... » الحديث [1]، وأي أجر أعظم وأجل وأبقى من ذكر باق يكون ثواب ذكر باقٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾: القرى قلوب العارفين، وأهلها الأرواح القدسية الملكوتية، فإذا كانت الأرواح مخالفة لنفوسها الأمارات بألَّا تجليها في حواشي الأذكار والأفكار ينزل عليها عساكر أنوار تجلي القدس، وتكون قلوبها رياض الأنس، وإنَّ الله سبحانه لا يجليها على أيدي الخطرات والنفوس الأمَّارات، ولا يجري عليها أحكام القهريات، وينورها بأنوار المشاهدات والقربات.

وأيضًا: لا يهلك قلوب العارفين والمؤمنين والموقنين والمحبين ونفوسها مطمئنة بذكره.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾: فإنْ خطر عليها خاطرٌ من قبل الهواجس والوسواس لا يحجب الحق أسرارها من جماله ومشاهدته بما خطر عليها من بعض الخواطر، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] أي: بقليل ظلم أهل القرية، أي: بقليل من هواجس النفوس.

وأيضًا أي: بظلم منه تعالى على القلوب؛ فإنَّه منزَّهٌ عن الظلم، وكيف يكون منه الظلم على المقبلين وهو تعالى اصطفاهم في الأزل بصلاحية قبول معرفته؛ حيث عرفهم ذاته بكشف

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٩٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١).

صفاته إياهم، فبقيت تلك الصلاحية.

قال بعضهم: ما أخذ أحدًا إلا بجريرته، ومَنْ لزم الصلاح والطاعة وقاه الله الآفات ومكاره الدارين؛ لذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾.

قال أبو سعيد القرشي: الصلاح هو الرجوع إلى الله في كل نفس بالابتهال والتضرع.

قيل: في تفسير الطاهر وأهلها ينصف بعضهم بعضًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: أي: على سبيل واحد من توحيده ومعرفته وقربته ومشاهدته، ولكن حكمته الأزلية وعلومه القدمية تفرّقهم في طرق المعارف، وأعطي كل واحد منهم سبيلاً يسلك فيه من معرفة ذاته وصفاته جميعًا، فيسيرون إليه بسبيل الصفات وطريق الذات على حسب مذاقهم ومشاربهم، فبعضٌ في المعرفة، وبعضٌ في التوحيد، وبعضٌ في العشق، وبعضٌ في الشوق، وبعضٌ في الإرادة،، وبعضٌ في الحالات وبعضٌ في المعاملات، ولا يشبه حال المريدين حال المتوسطين، ولا حال المتوسطين حال العارفين، وحال العارفين حال الأنبياء والمرسلين، وتقدر علومهم ومعرفتهم، ولم يرتفع الاختلاف بينهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي: مختلفين في الأحوال والمقامات والأفعال والأقوال، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ويبلغه إلى مقام الغيبة عنه من ولهه في أنوار القدم، وفنائه في سطوات الأزل، وأيضًا: إلا من يبلغه مقام الصحو والتمكين حتى يطلع على الكل، فلا تخالفهم فيما هم فيه؛ لأنه في مقام الاتصاف ونعت التمكين خارجًا عن التلوين.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: طباعهم مجبولةٌ باختلاف ترقي المقامات ودرجات الحالات، وهذه سنة الله جرت في الجميع، قال تعالى: ﴿كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، ويمكن أن الجميع خلقهم للمخالفة في البدايات، وللموافقة في النهايات في هذه المقامات وهذه الدرجات، ويمكن أن الجميع خُلقوا للرحمة، وهي الموافقة في النهاية بعد عبورهم على بحار الأحوال والأعمال، إذا وصلوا إلى بحار المشاهدة، فيغرقون فيها، ولا يُعرف هناك في تلك الساعة الوضيع من الشريف؛ لأنَّها منازل الشرفات وحقائق المدانات، وهو بجميعهم رءوفٌ رحيمٌ.

إذا طلـــعَ الـــصباحُ لـــنجمِ راح تـــساوى فـــيه ســـكرانُ وصـــاحي

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ

وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الجنيد: خلقهم للاختلاف، ولو خلقهم للموافقة لما رجعوا عنه إلى سواه، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ منهم فأيَّدهم بأنوار الموافقة، فلزموا الشدَّة، ولا يلتفتوا إلى الأغيار.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: أنَّهم رزقهم الله فَهْمَ خطابه، فإنَّ الصادق العارف إذا وقع في بحر الأزل يرى عجائب كشوف الصفات وأنوار الذات سبحانه تعجَّب بشأنه، وظنَّ أن واقعته لم تقع على أحدٍ غيره، خاصةً في بداية حاله وبديع كشفه، فظنَّ أنه فريدٌ في حاله، فعرف الله سبحانه أحوال ما مضى على أوليائه ليعلم أن حاله لم يكن غريبًا، بل يكون معروفًا عند العارفين، ومعلومًا عند الصدِّيقين، ومشروحًا عند المرسلين؛ ليفرح بسنة الله التي جرت باصطفائية أوليائه في أوليائه في الأزل، ولا يغيرها طوارق الحدثان.

قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾، والشيء إذا كان معروفًا عند العلماء والأولياء لا مدخل فيه للمعارضات والشبهات.

قال أبو بكر الكتَّاني: سألت الجنيد عن مجارات الحكايات؟ قال: هي جنود من جنود الله في أرضه يقوي بها أحوال المريدين؛ فقلت: أله أصلٌ في الكتاب؟ قال: قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الكشف لك في هذه الخطابات على أثر كل خطاب جمال الحق سبحانه، وكشوف صفاتك على وفاق الخطاب، فحيث يخبر الخطاب عن الكبرياء ينكشف لك الكبرياء، وكذلك العظمة والجلال والعزة والقدم والبقاء، وإنْ أخبر عن الذات يكشف لك الذات صرفًا، فإذا كان ﷺ في منازل الابتداء يقويه الحق بذكر

(١) سكَّنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباء المرسلين، وعرَّفه أنه لم يُرَقِّ أحداً إلى المحلِّ الذي رقَّاه إليه، ولم يُنْعِمْ على أحد بمثل ما أنعم عليه، ويقال قَصَّ عليه قِصَصَ الجميع، ولم يذكر قصَّته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً. ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه، وفَرْقٌ بين من يعقل بما يسمع وبين مَنْ يَستقل بِمَنْ منه يسمع. تفسير القشيري (٣/ ٣٨٨).

أحوال من الأنبياء ليطيق أن يحمل بدائع الواردات العجيبات له، فإذا قوي بها يثبّته بكشف جماله وجلاله حتى يطيق أن يعبر على بحار نكرات القدم، ولا يتغير بطوارق المكربات والامتحانات.

ثم إنَّ الله سبحانه يقوي قلوب تابعيه من الأولياء والمؤمنين بما جرى عليه من أحكام الغيب وأنباء الأزلية، ليطيقوا أن يحملوا أثقال ما أوحي إليه، فثبَّت قلب النبي ﷺ بقصة الرسل، وما كشف لهم، وثبَّت قلوبهم الأمة بقصته وحاله، فما أشرف هذه الأمة، حيث هو ﷺ سبب تثبيت قلوبهم.

وتصديق ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: صورة القرآن موعظةٌ لأهل المعاملات وحقائقه بنصره لأهل المعاينات، يعرف الكل من بحار القرآن ما يوافق حاله وفهمه وإدراكه، فالعموم متعلقون بظاهره، والخصوص متعلقون بباطنه، وخصوص الخصوص في تجلي الحق فيه، وحقيقة القرآن هو الصفة الأزلية، فإذا انكشف القرآن بأصله فقد انكشف الحق فيه لمن خص بخصوصية الصفة، وأخبر بذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- فقال: إنَّ الله يتجلى لعباده في القرآن.

قال أبو زيد: فوائد القرآن على حسب ما يؤهل له مستمعه، فمَنْ سمعه من أمثاله ففائدته فيه علم أحكامه، ومن سمعه كأنما سمعه من النبي ﷺ يقرأ على أمّته موعظته منه بيان معجزته، وانشراح صدره بلطائف خطابه، ومن سمعه من جبريل ﷺ كأنّما يقرأ إلى النبي ﷺ؛ فمشاهدته في ذلك مطالعات الغيوب والنظر إلى ما فيه من الموعود، ومن سمع الخطاب فيه من الحق فني تحته، ومحقت صفاته، وصار موصوفًا بصفات التحقيق يعني عن علم اليقين وعين اليقين، ويحصل في درجات حق اليقين.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: غيب السماوات الأرواح، وغيب الأرض القلوب، يعلم ما أودع الأرواح من علوم كنوز الذات، ويعلم ما أودع بابه عن أسرار الصفات.

وأيضًا: غيب السماوات ما في قلوب الملائكة من علوم المقادير التي تجري بنعوت القضاء والقدر على أفعال العباد، وغيب الأرض علوم معرفة ذاته وصفاته في قلوب الأنبياء والمرسلين والعارفين والصادقين.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾، ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ هو الأرواح ترجع إليه على قدر مشاربها من عيون الصفات وأنوار الذات، ثم رغبة إلى عبوديته التي تورث الحرية، والحرية تورث التوحيد، والتوحيد يورث التجريد، والتجريد يورث التفريد، والتفريد يورث المحو في

الذات، والصحو في الصفات، فإذا قرر هذه المقامات يؤمنه من زوال الشرف، ومحو المحو عنه به، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو حسبُك، ارجع من قهره إلى لطفه، ومنه إليه؛ ولذلك قال ﷺ: «أعوذُ بك منك» [1].

قال النهرجوري في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: لا يعملها إلا هو، ولا يطَّلع عليه إلا الأمناء من عباده، وهم الذين يصلحون للقرب، والمجالسة، وحفظ الأسرار، والنظر إلى المغيبات، وهم الذين لم يبق عليهم منهم حظٌّ، ولا لهم فيهم مطالبةٌ، وكانوا بلا كون، وشهدوا بلا شهود، بل يكونون بالتكوين، ويشهدون بالأشهاد، فلا هم هم، ولا هم لا هم، فهم من حيث الوجود لا هم، من حيث الاتحاد هؤلاء أهل الغيب الذين غيبوا عنهم، فلا لهم في أنفسهم حظٌّ، ولا للخلق إليهم سبيلٌ؛ لأنهم أخرجوا عن حدود التفرقة إلى عين الجمع، فلا ثَمَّ كلامٌ، ولا عنه عبارةٌ بحال.

وقيل في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾: مرجع الكل؛ لأنَّ منه مبدأ الكل.

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾: أسقط عنك حظوظ نفسك، وقفْ مع الأمر بشرط الأدب والسنة، وتوكل عليه لا تهتم بما قد كفيته، واهتم بما نُدِبْتَ إليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، كيف يغفل عنك من قدر عليك عملك، وما أنت لاقيه إلى آخر أنفاسك، والله أعلم.

❀❀❀

سورة يوسف عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: الألف إشارةٌ إلى أنانية التوحيد، واللام إشارةٌ إلى نكرة أهل التجريد، والراء إشارةٌ إلى ربانية أهل التفريد.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: مظنات الإشارات في الأحرف

---

(١) تقدم تخريجه.

الثلاث علامات المعارف، المعرفة في الصفات القديمة المبينة أنوارها في قلوب الصديقين، وآثارها في شواهد الملك والملكوت، وما ذكر في القرآن.

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: أوصاف ونعوت وأسماء وصفات مبينة أسرار الخطاب لأهل المكاشفات والمشاهدات من العارفين والمقربين، والحكمة في الخطاب بالحروف كتمان الأسرار عن الأغيار، وهي سنة الأحباب في رفع النقاب في الحجاب.

أبكي إلى الشرق إن كانت منازلكم ... من جانب الغرب خوف القيل والقالِ

أقولُ بالخدِّ خال حين أذكره ... خوف الرقيب وما بالخد من خالِ

هذا سر الحبيب مع الحبيب، ولا يطَّلع عليه إلا من له شُرْبٌ من بحره، وسقي من نهره، وطلوعٌ من شرقه، وأفول في غربة؛ لأن بهذه الطائفة رموزٌ وإشاراتٌ لا يقف عليها إلا طيَّارٌ في الملكوت وسيَّارٌ في الجبروت.

قال الأستاذ: في إنزال هذه الحروف المقطعة إشارةٌ، وهو أنَّ من كان بعين الفضل والصحو استنبط من اللفظة اليسيرة كثيرًا من المعاني، ومن كان يشاهد الغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير.

وقال أيضًا: الإشارة من الكتاب المبين هاهنا إلى حكمة السابق له بأن برقية إلى الرتبة التي لم يبلغها غيره.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: إنَّ الله سبحانه لما أراد أن يوقع عنقاء همَّته إتعاب قوسيينية إلى شبكة عشق زينب، وسقاها من مشارب سواقي الالتباس زلال بحر تجلي صفة الجمال بأقداح الأفعال، رأى قدس همته عن علل الإنسانية في ذلك، وغيرته على معهد مشاهدة الأزل تسلَّى قلبه بهذه القصة التي هي مطية رواحل أسرار العاشقين والوامقين، وهو تعالى بجوده واختياره له سيادة الكونين ورسالة العالمين يواسيه لئلا يضيق صدره في محل الامتحان؛ لأنَّ امتحان بالعشق الإنساني مراقي مشاهدة جمال الآزال والآباد ليسير في ميادين القدم والأبد بمراكب العشق، فإنَّ بالعشق بلغوا إلى العشق، وحسن القصة بيان عشق الإنساني في مراتب الأرواح العاشقة، وطيرانها من هذه المقامة إلى عشق الألوهية، ومشاهدة الأزلية.

بيَّن تعالى أن قصة العاشق والمعشوق أحسن القصص لما فيها من الأمثال والعبر، والذوق والشوق، والفراق والوصال، والبلاء والعناء، وشأن يوسف ﷺ كله عَشِقَ به أبوه، وهكذا كل من رآه؛ لأن حسن جمال القديم ألبس وجهه، وكان مرآة الله في بلاد الله تجلَّى الحق منها للعباد.

وكيف لا يكون أحسن القصص؟! وهذه القصة قديمة أزلية، وكل حسن في العالم هي معدٌّ بها، ومنها صدر كل الحسن والمستحسن، ومن كمال حسنها أنّه تعالى أخرجها من تحت التكليف، ولم يذكر في قصة العاشق والمعشوق الأمر والنهي، كأنها خير الوصال وأثر الجمال، ومثل لعشاقه معه، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قال بعضهم: أعجب القصص، وفيه تعزيةٌ وسلوةٌ للنبي ﷺ لِمَا لقي من أهل بيته أنَّ يوسف لقي من إخوته أكثر مما لقي هو من أهل بيته، فلم يخرج عليهم بنفسه منتقمًا، بل رأى ذلك كله من موارد القضاء ومواجب القدر، فلما رجعوا إليه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، كيف يكون عليكم فيه غيبٌ وكنتم المجبورين عليه؛ وكبت المقصود به من حيث القضاء والقدر.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: اشتغل العوام لسماع القصص، واشتغل الخواص بالاعتبار فيه؛ لقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقال بعضهم: هذا يدل على صدق أحوال المؤمنين، ومعاني صفة المتقين، وإلى حقائق صحبة المحبين، وصفاء سر العارفين، تنبيهًا على حسن عواقب الصابرين، وحثًّا على سلوك الصادقين، وبعثًا على سبيل المتوكلين، والاقتداء بزهد الزاهدين، ودلالة على الانقطاع إلى الله، والاعتماد عليه عند نزول الشدائد، وكشفًا عن أحوال الخائبين، وقُبح طريق الكاذبين، وابتلاء الخواص بأنواع المحن والفتن، وكشف تلك المحن وعواقبها عن الإعزاز والإكرام، وتبديل تلك الشدة بالراحة، والبؤس بالنعمة، والعبودية بالملك، وفيه ما يدل على سياسة الملوك في ممالكهم وحفظ رعاياتهم وغير ذلك.

وقال الأستاذ: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾؛ لأنَّا نحن نقص عليك أحسن القصص، لخلوه عن الأمر والنهي الذي سماعه يوجب إشغال القلب.

وقيل: أحسن القصص؛ لأنه غير مخلوق.

وقيل: لا فيها ذكر الحبيب والمحبوب.

ولما كان يوسف عليه السلام بتلك المثابة التي ذكرتها، وأنه كان مرآة حسن الحق، وأن حسنه تأثير معادن حسن الأزل، يخضع له الحدثان لما عليه من كسوة جمال الرحمن، أخبر عن رؤياه، وما رأى فيها بقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾[1]: جمع الله في اسم يوسف عليه السلام أربعة حرف: الياء، والواو،

(١) فائدة: والرؤيا تختص بالنوم، والرؤية ، بالتاء بالبصر. قال البيضاوي: وهي انطباع الصورة المنحدرة من =

والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف ﷺ سمي يوسف ﷺ، وأيضًا كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية.

قال بعضهم: سُمِّيَ يوسف بيوسف ﷺ؛ لأن الأسيف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن.

جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال الكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفًا، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثَّل عالم الملكوت بما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار.

وأيضًا: مثَّل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأييده نبذة مما كوشف ليوسف ﷺ: كان يوسف ﷺ آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وهاهنا سجد له أشراف الأنبياء، وهم خيرٌ من الملائكة، وكيف لا يسجدون لهما، ومن وجهها تتلألأ الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية:

لو يسمعون كما سمعت حديثها خرُّوا لعزِّه رُكَّعًا وسُجَّدَا

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ: أن الخليل ﷺ رأى ذلك المعنى من جبين الشمس، وعارض القمر، ونور الكواكب، فقال: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾، وهذا عذرٌ للملائكة والأنبياء في سجودهم لآدم ﷺ ويوسف ﷺ؛ لأن هناك يتجلى الحق سبحانه من أجرام الفلك التي معادنها الأفعال، وهنا يتجلى الحق منها وهما من خصائص تجلي الصفات صادران، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: ألبس أنوار الهيبة على أجرام الفلك، فهاجت إليها سرائرهم، كما ألبس على طور أنوار الهيبة فهيج الله سرَّ موسى إليها، وألبس أنوار الجمال آدم ﷺ ويوسف ﷺ، فهاجرت إليه أسرار الملائكة والأنبياء، فيا ليت لو رأى الخليل يوسف ﷺ وآدم ﷺ لرأى فيها أكثر مما رأى في أجرام الفلك:

=

أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، المصادفة منها إنها يكون باتصال النفس بالملكوت؛ لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ. البحر المديد (٣/ ٨٨).

خليلي وعد أحسن الناس كلهم ويحسدها من حسن شمس والبدرُ

فيا ليت الجميع لو رأوا جمال سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه لهاموا في البوادي والقفار، وغرقوا في الفيافي والبحار، وتطير الملائكة من السماء؛ لأن نوره أنور، وشمسه أزهر، وبدره أشرق، نوره كان من معادن جمال القدم، وسراجه أسرج من سمة الكرم، وفيه نكتة عجيبة من حقائق التوحيد: أن مشار الخليل ما قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ سجدت لبعض نبيه بيانًا لتنزيه جلال الكبرياء، وتنزيه ساحة العزة والبقاء عن الأضداد والأنداد، رأى الخليل ﷺ هذا المعنى بنور النبوة، فقال: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وفيه أدب المريد أن المكاشفة تذكر عند أستاذه ليفرق بين الكشف والخيال.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾.

قال بعضهم: أعجبه حسن رؤياه حتى قصَّها على أبيه، فكأنه فيه أول بلية ومحنة إلى أن بلغ إلى تحقيق ما رأى، فلمّا رأى يعقوب أسرار الرؤيا وتأويلها خاف على ابنه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾، وهكذا شأن أهل قصة المعرفة، لا يجوز للمريد أن يفتق سر المكاشفة إلا عند أستاذه، والأنفع في بحر الحجاب، ومحن الدعاوى، ويكون مرتهنًا بعيون الغيرة، كان يعقوب ﷺ في ذلك الوقت في رؤية العلم من رؤية ما جرى في الأزل فدبَّر وقاية ابنه بحسن التدبير قوة من صورة التدبير إلى عين التقدير.

قال بعضهم: إنَّ يعقوب ﷺ دبَّر ليوسف ﷺ في ذلك الوقت خوفًا عليه أن يقع من إخوته في شيء، فوكل إلى تدبيره، ووقع به ما وقع، ولو ترك التدبير ورجع إلى التسليم لحفظ، ولما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ولما قال: ﴿أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾: أراه الله فيه ما كان يخافه عليه؛ لذلك قيل: إن التفويض والتسليم خيرٌ من ملازمة التدبير، ولَمَّا وصاه وقال: لا تقصص الرؤيا عرَّفه اختصاصه في الرسالة والنبوة والحسن والجمال والخلق والخُلق بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: اجتباه بأن كساه من نوره نور الجمال، وربَّاه بمفرح الكمال، ورزقه الرسالة والكشف وعلوم المدينة الإلهية التي قال:

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، وتمام نعمته عليه أن بلغ إلى مقام التمكين، ورؤية التحقيق، وفاز من التلوين، وذاق طعم الاستقامة، وبلغ أشده إلى ما بلغ الذبيح والخليل، وخروجه من درك امتحان العشق بنعت القدس والجارة، كما كان وصف الأنبياء والصديقين.

قال ابن هند: اجتباه ما منحه به من حسن الخلق، ولطيف الصحبة مع أوليائه وأعدائه، وترك الانتقام لنفسه بحال.

وقال بعضهم: اجتباك ربك فصرف عنك كيدهن، ولولا اجتباه لورد عليك منهن ما ورد.

قال يحيي بن معاذ: من تمام نعمة الله على يوسف أن جعله منعمًا على إخوانه، واضطرهم إلى الخضوع له والتذلل بين يديه بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾.

وقال سهل: ويتم نعمته عليك بتصديق الرؤيا التي رأيتها لك.

وقال بعضهم: ويتم نعمته عليك في أن عصمك عن ارتكاب ما لا يليق بك ولآبائك.

وقال الأستاذ: من إتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة، ومن إتمام النعمة أن يصونك عن شهود النعمة برؤية المنعم، فلما أعظم شأن يوسف في حسنه وجماله، وقدسه وطهارته وظرافته مع إخوانه في احتمال البلاء منهم، وترك الانتقام منهم لنفسه عظم الله ذلك.

وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: آيات يوسف سواطع نور الحق من وجهه، وظهور علوم الغيب في قلبه، ومعرفته بذات الله وصفاته، وكريم الآية ونعمائه ولطيف أفعاله وصنائعه، وما وضع الله في النفس الأمارة من عظيم قهر شهواتها، واستيلاء هواها، وفترتها وشرتها، ودقائق خدعتها، ولطيفة ما بينها وبين طبائع الشياطين، وحسن عاقبته: وبلوغه إلى أهل التمكين، وما بدا من إخوته من الغيرة والفرقة، وهذه البراهين تذكرة وتبصرة للمريدين والمحبين العارفين.

قال حمدون القصَّار: للخلق في يوسف ﷺ آيات، وله في نفسه آية، وهو أعظم الآيات، وهو معرفته بمكر النفس وغدرها، قال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

وقال بعضهم: إنَّ من الآيات التي في يوسف أنه حجةٌ على كل من حسَّن الله خلقه ونعوته ألا يدنسه بمعصية.

قال ابن عطاء: آياته ألا يسمع قصته محزون إلا استراح إليه، وأخرج منه ما فيه راحة لما هو فيه.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

﴿٩﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا
صَٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ
ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١١﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ
﴿١٢﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ
وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ
عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا
وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٨﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ
أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾: بيَّن الله سبحانه محل امتحانه بأن لم ينجو منه أحدٌ حتى الأنبياء لئلا يأمن من مكره فإنَّ كيده متين، وهم في ذلك ما بلغوا مقام النبوة، ولكن عجبت من شأن قهر الله سبحانه، كيف غيَّر فطرة المعروفين في ديوان الأزل بالولاية والرسالة حتى يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، وذلك منه تعالى عذرٌ للمذنبين جميعًا، وبيَّن أن مكان الصدق يخطر عليه آفاق النفس والحسد والخدعة، بقوله: ﴿لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾، وهم كانوا يعرفون موضع الخطأ في نفوسهم من إضمار إيذاء يوسف عليه السلام، سبحان من حجبهم من نفسه وكدَّر عليهم مشارب الصفاء والمودة، وحجبهم عن العلم بفراسة أبيهم؛ حيث عرَّفه الله مكائد نفوسهم!.

قال بعضهم: لم يكن يأمنهم عليه؛ لما كان يرى من فراسة النبوة في شواهدهم من إضمار الحسد والبغضاء.

قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[1]: إمهال يعقوب بنيه، وتركه دفع لعبهم، بأنه رأى لطافة خاطر يوسف عليه السلام ومواصلة حزن النبوة في قلبه، وتأثير برحاء القبض

---

(١) أي: يتسع في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرتع هو الاتساع في الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل ونحوهما مما يكون الغرض منه تعلم المحاربة مع الكفار وإنما سموه لعبا لأنه في صورته وأيضا لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد من اللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر، تفسير حقي (٦/ ٥٣).

في صدره، فأذن لهم بذلك؛ ليخرج يوسف ﷺ لحظة من تحت أثقال هموم المعرفة، وتواتر تراكم حزن المحبة، ومواجيد القربة، ويستروح ساعة برؤية الآلاء والنعماء، فسامحهم بذلك، ليس أنه غافل عن تأديبهم، وزجرهم عن اللهو واللعب، ورأى ما في ضمائرهم من لطيف المكر، وعلم أنه موضع البلاء، فجعل المعول عليهم وسبق التقدير على التدبير، وحجب غيرة الله بينه وبين يوسف ﷺ.

قال محمد بن علي الترمذي: لما لم يزجرهم عن اللعب وسكت عنهم جاء من ذلك اللعب ما اتصل عليه به الحزن.

قال ابن عطاء : لو أرسله معهم وسلمه إلى القضاء لحفظ، لكنه اعتمد على حفظهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾، فخانوه، لو ترك تدبيره عليه وحفظهم له لكان محفوظًا كما حفظ الآخرين، قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾.

قال بعضهم: رجع يعقوب إلى نفسه في ثلاث مواطن فابتلي فيها: قال ليوسف ﷺ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ فكادوا له، ولما قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فقالوا: أكله الذئب، ولمَّا قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾، أصابهم في ذلك ما حذر عليهم منه.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾: صدق يعقوب خاف من ذئب حسدهم؛ وبرؤيته في ذلك حقيقة، وكل ما رأى يعقوب من هذه الواقعات فقوله فيها وقوع نظر سره على سابق التقدير، وكل ما قال لبنيه من الزجر والنصيحة في حق يوسف ﷺ مما رأى بنور النبوة ما يقع في المستقبلات من الواقعات، وذلك غير مناقض لحقيقة التوحيد، وكيف يكون استعمال معاملات العقل وعادة البشرية حجاب الأنبياء والصدِّيقين من رؤيتهم حقائق التقدير، وهم يعلمون أن من العرش إلى الثرى من الحريات والسكنات عاجزة بين حرفي الكاف والنون.

وأيضًا: أخاف من ذئب التقدير أن يفرِّق بيني وبين ابني وأنتم عما أراه غافلون، رأى غيرة الحق عليه حتى لا ينظر إلى الوسائط في شهود حقيقته، وتصديق ذلك أن الذئب لم يأكل يوسف، فعلمنا أن الذئب ذئب الحسد، وكيف كانت فراسة خطأ، ورأى بنور فراسة ما كان يجري على يوسف إلى آخر عمره ووفق في متابعة مراد الله؛ لأنه أراد أن يفرق بينه وبين يوسف ﷺ أريد وصالي ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد.

قال أبو علي الجوزجاني: خاف الذئب فسلط عليه، ولو خاف الله لمنع عنه كيد الإخوة.

وقال الجنيد: ما أوقعهم في الحسد إلا ما أظهر من شفقته عليه بهذا القول.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: لمَّا رأى يعقوب أن حبال التقدير لا تضر وأن تواتر البلاء لا ينقطع وأنَّ عساكر الغيرة لا تمتنع أرسله معهم، وذهب مع سيول بحر القهريات مريد المرادة، وكيف تدفع تقدير الأزل قوة العصبة وعلة التدبير، وربما نفي نظر التوحيد في بعض الوسائط في بعض الأوقات، فقطع الله ذلك حتى لا يستمسك غريق بحر المعرفة من قبلهم، فالقوة في الجُب، ثم لما أرسل بنيامين قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾: حفظه وردَّه إلى يوسف ﷺ، وردَّهم جميعًا إلى يعقوب، كذا حان من اعتمد على ربِّه، ومن اعتمد على غيره.

ولما وقع يوسف ﷺ في بحر الامتحان، وعجز في أيدي الأخوان، وذاق طعم جفائهم، رفع عروس الغيب رأسه عن بحر البلاء لتسلية قلب يوسف ﷺ بالولاء بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: لتنبئنَّهم بأنباء الأزلية، ومناطق الربوبية بلسان النبوة ما غاب عنهم، وما علموا وفعلوا وصنعوا حين نبلغك إلى رتبة الأعلى من النبوة والرسالة والتمكين والاستقامة، وهكذا كمال تسلية الله سبحانه صديقه في ابتلائه.

وقال الأستاذ: الإشارة فيه أنه لما حلَّت به البلوى عجَّلنا له تعريف ما ذكر من البشرى ليكون محمولاً بالتعريف في عين ما هو محتمل له من البلاء العنيف.

ويُقال: إنْ انقطع عن يوسف ﷺ مراعاة أبيه إياه حصل له الوحي من قبل مولاه.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: سرُّ هذه الآية أن طبيعة البشر إذا ظفرت بمرادها رقَّت، فإذا دُعيت بالبكاء أجابت، ولكن لا يكون بكاءها إلا من فرح الخداع وحب الجاه والرياسة، وإنَّ ذلك البكاء أكثره تباكيًا، بكوا بغير عبرة ولا بفلق وحزن من أسف، ولا بزفرة جاءوا عشاءً حتى لا يتبين تباكيهم من بكائهم، وليرتفع من بينهم وبين أبيهم سجون الاحتشام:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود   تبيَّن من بكى ممن تباكى

قيل: أخروا المجيء إلى وقت العشاء الآخرة ليدلسوا على أبيهم.

وقيل: ليكونوا إجراء في الظلمة على الاعتذار، وترويح ما مكروا.

قوله: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: فتح الله سبحانه ثوب رزق الرازقين في هذه الآية، الذين زينوه بالرزق والسود، وادَّعوا صدق المقامات والكرامات، وإنَّ دم الكذب إشارةٌ إلى من يدعي جراحة المحبة على

قلبه، ودم القلب من ذبح الله إياه بسيف محبته، وليس كذلك، فإنَّ دم المقتولين بسيف المحبة دم صدق بصدق صاحبه في عيون الصادقين.

قال ﷺ: «المتشبِّعُ بما لم يعطِ كلابس ثوبي زُورٍ، ومَنْ كذب وقع كذبُه في قلوب العوام»[1].

والعجب أن ما يطَّلع عليه العوام كيف لا تطَّلع عليه قلوب الأنبياء والصدِّيقين، هاجت طبيعتهم بسر الحسد، فيتولد منه الكذبات والجنايات؛ لأن مثل الحسد كالنار المخفية في الزبد، فإذا خرجت يحترق العالم بها.

قال الحسين بن الفضل: لما كذبوا في إجداء الأمر بقولهم: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ رجعوا في آخر الحال عند الاعتذار إلى الكذب حين قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ بيَّن الله سبحانه بقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ فراسة يعقوب ﷺ، واطلاعه على أسرارهم في المكر، وعرفهم سر مكائد نفوسهم ولم يعرفوها، والأنفس هاهنا أسرار تقدير قهر الأزل؛ أي أنتم مخدوعون بخداعكم، وأنا لا أرى في البين غير سابق التقدير، فألبس سربال الصبر الجميل في مراد الجليل، والصبر الجميل ما يصبر به صاحبه بالله لا بنفسه بنعت شهود سره مشاهدة المقدر والمبتلى في بلائه تقديره.

قال تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وتحقيق هذا الصبر سكون القلب بما يجري عليه الرب سبحانه بنعت ذوقه صفاء الذكر، وإدراك رؤية المذكور، وتحقيق ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: استعانتي في بلائه وصبري به لا بغيره.

وأنشد الشبلي في حقائق الصبر:

عبراتٌ خططنَ في الخدِّ سطرًا ... فقراء من لم يحسن يقرأ صابر الصبرَ
فاستغاث به الصبر ... فصاح المحبُّ بالصبر صبرًا

قال الحسين: الصبر الجميل السكون إلى موارد القضاء سرًّا وعلنًا.

وقال أيضًا: الصبر الجميل تلقي المحنة بمشاهدة المنَّة.

قال الحكيم الترمذي: انصبر الجميل أن يلقي العبد عنانه إلى مولاه ويسلِّم إليه نفسه مع حقيقة المعرفة، فإذا جاءه حكمٌ من أحكامه ثبت له مسلِّمًا بوارد الحكم، ولا يظهر بورود حكمه جزعًا بحال.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٠٠١)، ومسلم (٣/ ١٦٨١).

قال يحيى بن معاذ: الصبر الجميل أن يتلقى البلاء بقلبٍ رحيبٍ ووجهٍ مستبشرٍ.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾: فلما خرجت الأرواح من أماكن العدم وطارت في هواء القدرة وطلبت أنوار موارد القدم فوجدت قاموس الكبرياء، فأدلت دلاء الهمم فيها، فانكشف لها من مطالع الأزل شموس المشاهدة وأقمار العزة، فلما ظفرت بموارد الحقيقة صاحت بصياح العشق وقالت: يا بشرى، هذا شاهد القدم وعروس الأزل، فوجدت شاهدها، وفرحت بمشاهدته، وطارت سكرانة في هواء آزاله وآباده من الفرح ببقاء؛ لأنها وجدت بضاعة المعارف وريح الكواشف.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾: جعلت أنوار جلاله في صميم أسرارها، وسترها عن الأغيار، وجعلها بضاعة التوحيد والمعرفة والمحبة؛ ليربح بها مداناة الوصال والاستئناس بالجمال، يا ليت لسيادة يوسف ﷺ لو عرفت ما في وجه يوسف ﷺ من تلألؤ أنوار حسن الأزل لسجدت له، كما سجدت الملائكة لأنه كالعبودية، ولكن للعشق والمحبة؛ لأنه شاهد الله في شاهد الله.

قال جعفر: كان لله تعالى في يوسف ﷺ سرٌّ، فغطى عليهم موضع سرِّه، ولو كشف لهم عن حقيقة ما أودع فيه لماتوا، ألا تراهم كيف قالوا: ﴿هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾، ولو علموا آثار القدرة فيه لقالوا: هذا نبيٌّ وصدِّيقٌ[1].

ولما كشف للنسوة بعض الأمر: ﴿وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، ولما لم يعرفوه بخاصية النبوة والولاية، ولم يروا عليه آثار جمال الله سبحانه باعوه بثمن بخس؛ لجهلهم به وبما فيه من ودائع كنوز القدرة وأنوار المشاهدة، والعلوم اللدنية الغيبية بقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.

ولو كان فيهم ما كان في يعقوب ﷺ من عشق الله ومحبته، وما رأى في مرآة وجهه من أنوار قدرة الباري سبحانه، ما باعوه بالكونين والعالمين؛ لأن ما في وجه يوسف ﷺ من جمال الظاهر لم يكن في الكونين إلا في أمثاله من الأنبياء والصدِّيقين، وجمال ظاهره كان من جمال

---

(١) نادى البشرى، بشارة لنفسه ، أو لقومه ، كأنه قال: تعالَ هذا أوانك. وقيل: اسم لصاحبه، ناداه ليعينه على إخراجه فأخرجوه. البحر المديد - (٣ / ٩٧).

باطنه، ولو اطَّلعوا على جمال باطنه لوقعوا بين يديه صرعى من سكر محبته، ولرأوا عجائب الملكوت والجبروت في ظاهره وباطنه.

قال جعفر: باعوا بالبخس من الثمن؛ لجهلهم بما أودع الله فيه من لطائف العلوم وبدائع الآيات.

قال ابن عطاء: ليس ما باع إخوة يوسف ﷺ من نفس لا تقع عليها البيع بأعجب من بيعك نفسك بأدنى شهوة، بعد أن بعتها من ربك بأوفر الثمن، قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، فبيع ما قد تقدَّم بيعه باطل، وإنَّما باع يوسف أعداؤه الذين كانوا يعادونه، وأنت تبيع نفسك من أعدائك، وهي شهواتك وهواك، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك.

وقال الجنيد: إنَّما باعوه بذلك الثمن؛ حيث لم يتفرسوا فيه ما كان به؛ لأنه لم يكن وضع لهم في جنبه حظٌّ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ألا ترى إلى الذي اشتراه لمَّا كان له في يوسف ﷺ حظٌّ كيف قال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، فصدقت فيه فراسته، ونال به الهداية.

وقال ابن عطاء: لو جعلوا ثمنه الكونين لكان بخسًا في مشاهدته، وما خُصَّ به.

قال الجنيد: كل ما وقع تحت العدد والإحصاء فهو بخسٌ، ولو كان الكونين فلا يكن حظك البخس، وهو كل شيء دونه، ولمَّا لم يعرفوا مكانته، وباعوه اشتراه من رآه بعين الحقيقة وأعد مبوأ جلاله وقدره في أخص موضع في العالم، وهو مكان المحبة والعشق بقوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ اشتراه بالدنيا للآخرة معرفةً بجلالة وجماله، وقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾: أي: لا تنظري إليه بنظر الشهوة، فإن وجهه مرآة تجلي الحق في العالم، وأين طور سيناء في مكانته من وجه يوسف ﷺ، وتجلِّي الحق من طور سيناء المولى، وتجلِّي الحق من وجه آدم للملائكة، وتجلِّي الحق من وجه يوسف ﷺ لأجرام الملكوت، وسلاطين معارف الجبروت، وليعقوب ﷺ وأمثاله من أنظار الغيب.

ألا ترى كيف قال: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾، وأيضًا: أكرمي تقواه بتقواك، وأيضًا: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾؛ فإنَّه بهديه أمر

الفعل في مجمع عين الجمع، لا تنظري إليه بعين العبودية، ولكن انظري إليه بنظر المعرفة؛ لتري فيه أنوار الربوبية، وأيضًا: ﴿أَكْرِمِى﴾: اجعلي محبته في قلبك لا في نفسك، فإن القلب موضع المعرفة والطاعة، والنفس موضع الفتنة والشهوة.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾: أن يعرِّفنا منازل الصدِّيقين، ومراتب الروحانيين، ويبلِّغنا بركة صحبته إلى مشاهدة رب العالمين.

قال بعضهم في قوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾: أحسني صحبته في الدنيا؛ لعله أن يكون لنا شفيعًا في الآخرة.

قال الجنيد في قوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾: لما نظر إلى يوسف ﷺ، وركزَّ بقلبه إليه صار يوسف ﷺ محنة عليه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

قالت له امرأته: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾.

ثم إنَّ الله سبحانه وصف ما وهب إلى يوسف ﷺ من أحكام الغيب، ورؤية كشوفات الملكوت، وتمكينه في المعرفة والنبوة والرسالة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾: مكنَّاه صبرًا عظيمًا في تمكين المعرفة، وحمل وارد مشاهدة

الغيب، وسكناه من فوران الأحوال، وتغاير التلوين، وبلَّغناه حقائق الصحو؛ ليكون كهفًا لغرباء المعرفة، والمسترشدين من أهل المحبة، وليعرفه بعد تمكينه حقائق المكاشفات، وتأويل لطائف المنامات، وما يبرز من الملكوت في اللبس المجهولة من تصرف الملائكة، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾: إنْ كان إنهاء راجعه إلى يوسف ﷺ، هو تعالى المتولي على أمر يوسف ﷺ؛ بأن خلَّصه من مكان الامتحان، وبلَّغه إلى درجة الرضوان، وبأن نجاه من فتنة الطغيان، وورطة الحرمان؛ بأن كشف له البرهان والسلطان حين مكر به الشيطان، خلصه من كيد الحساد، وجعله قبلة الأوتاد، والله غالب على أمره حين دبَّر يعقوب ﷺ في حقه ما دبَّر؛ ليعرفه غلبة سلطان قهره واستيلاء تقديره على تدبيره غالب على أمر يوسف ﷺ؛ حين برَّأه من آفة شهوة زليخا حين همَّت به وهمَّ بها، قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

وأيضًا: والله غالب على أمره على أمر عشقه، وعشق زليخا؛ لأنَّ مكان العشق ممزوجٌ بطباع الإنسانية، وإن كان صرف العشق من زند نعوت عشق الأزل، فكشف له سلطنة الكبرياء، وخلَّصه بالكبرياء من مقام العشق الممزوج بطبع البشر؛ كأنه غلَّب الصفة على الصفة، وإن كان الهاء راجعًا إلى الله سبحانه.

فيه إشارةٌ لطيفةٌ: إنَّ أمره من عالم الفعل، والأحكام والرسوم الشريعة والطريقة، والعقول مكلفة به، أمر رسمًا وغلب قهرًا أمر بالشريعة، وغلب مقادير الأزلية أمرًا أمرًا، وغلب على أمره بنسخه وتبديله أمر يوسف ﷺ بالتبرؤ من الأغيار، وبألا يلتفت إلى الحدثان في مكان العرفان، لكن غلب جلال قدره، وانكشف ليوسف ﷺ في وجه زليخا، فأظهر القدس، وجرَّه بالقدس إلى الهمة؛ ليذيقه حلاوة عشق الإنسان؛ ليفوز به عشق الرباني، ومن هناك رقاه إلى مدارج ملك الآزال والآباد، ومن لم تكن بدايته عشقًا كان من المجاهدين لا من العارفين، لا بأن العشاق طاروا إلى جناب مشاهدة الحق، وإنَّ العشق مركب عشقه، والعشق من عشقه صدر؛ لأنه كان عاشقًا في الأزل، وعشقه معادن جميع عشق العشاق.

قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]: كما أنَّ حسن يوسف وزليخا وجميع الحسن في العالم انشعب من حسنه وجلاله وجماله، كأنَّ عشقه غلب على أمر العبودية؛ لأن العشق صفة الربوبية، ولم يكن عجبًا غلبة الربوبية على العبودية.

وأيضًا: ما دام الأمر خارجًا عن أماكن الأفعال وصار صرف الصفات فهو غالبٌ على جميع الحدثان، وتدبير أهل العرفان؛ لأنّه واحدٌ في ملكه، أحدٌ في ملكوته، والكائنات خاضعةٌ فانيةٌ لجبروته.

وما ذكرنا من هذه المعاني الغريبة والتفاسير العجيبة من حقائق أمر الإلوهية لا يعرفها إلا أبناء المعرفة ونظَّار المشاهدة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعلمون مواضع تقدير الأزلية؛ حيث دبَّر أمور الحدثان من العرش إلى الثرى، وكيف يطَّلع الحدثان على قدم الرحمن.

قال ابن عطاء: غالبٌ على أمر نفسه، أجراه على ما شاء إلى مَنْ شاء، وصرفه عمَّن شاء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه الغالب في أمره الذي أمر عباده من طاعتهم، إنْ شاء يسَّر لهم من طاعته، وإن شاء أعجزهم فيها.

قال الواسطي: يصرفهم في تدبيره ويدبِّرهم في تصريفهم، ويجد منهم المفقود، ويفقد منهم الموجود، فالإضافات ضربٌ من الإشراك.

ثم وصف الله سبحانه بلوغ يوسف أشد النبوة والولاية والتأييد الأزلية، وما وهبه من أنوار العلوم والحكمة بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾: تمكينه واستقامته في المعاملات والحالات ومراتب الآداب في العبودية كشف له تصرفات الربوبية في معادن المكاشفة.

﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: حكمًا بالعبودية، وعلمًا بالربوبية، حكمًا بالطريقة، وعلمًا بالحقيقة، حكمًا بممالك الدنيا، وعلمًا بممالك الآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: نجازي المحسنين الذين راقبوا الله سرًّا وعلانية، وبذلوا مهجتهم بالله وفي الله إلى الأبد.

قال النصرآبادي في هذه الآية: لما عقل عن الله أوامره ونواهيه والاستقامة معه على شروط الأدب أعطيناه حكمًا على الغيب في تعبير الرؤيا، وعلمًا بنفسه في مخالفة هواها.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: كانت مستغرقة في العشق الروحاني فغلبت عليها شهوة العشق، فراودته، وذلك أن رعونة سر الطبيعة صارت منجذبة برقة عشق الروحاني إلى معدنه فغلظت وصارت محجوبة بالطبيعة من الحقيقة.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾: لَّما كان عشق يوسف ﷺ في قلبها، وصورته مصورة في خيالها لا يحتاج إلى غلق الأبواب، فإن قيد همتها حكمة همَّت يوسف حين همَّت به وهمَّ بها أغلقت أبواب أسرار عشقها على يوسف، فصارت فاشية بأن العشق لا يُبْقِي الكتمان:

أَلا فَاسقِني خَمرًا وَقُل لي هِيَ الخَمرُ   وَلا تَسقِني سِرًّا إِذا أَمكَنَ الجَهرُ

فَبُحْ بِاسمِ مَن تَهوى وَدَعْني مِنَ الكُنى فَلا خَيرَ في اللَّذّاتِ مِن دونِها سِترُ

وأيضًا: غارت على يوسف حتى لا يرى أحدٌ أسرارهما، فغلقت الأبواب، كذا ينبغي للعاشق.

قال الشبلي في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾[1]: قطعت الأسباب وجمعت الهمَّة عليه، ثم غلب على يوسف ﷺ قدس النبوة فامتنع من مراودتها بقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أي: ربي سبحانه وتعالى أحسن مثواي في الاصطفائية الأزلية، واختارني بالرسالة والنبوة، وعلمني من تأويل الأحاديث، وألبَسني لباس حاله الذي هو يوجب أن ينظر إليها بنعت الهيبة والإجلال، هذا سيد السادات، وسيد الظاهر، أحسن مثواي؛ بأن اختارني لآخرته لا لدنياه، وأحسن مثواه في قلبك بنعت محبة الله، فلا ينبغي لك أن تنظر إلا بمحبة الله.

قيل: لما نظر في ترك المعصية إلى صاحبه وولي نعمته الأدنى، ولم ينظر إلى ربه وولي نعمته الأعلى، عوقب بالهم حتى قال: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾.

وقال بعضهم: برؤية الهمة امتنع من الفتنة.

قال الأستاذ: إنه أكرمني مولاي تعالى؛ حيث خلقني من الحب، وجعل في قلب العزيز لي محلاً، فقال لي: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، فقال: لا ينبغي أن أقدِم على عصيانه، وقد أفردني بجميل إحسانه.

ثم أخبر سبحانه عن جذب مغناطيس الهم بعضها بعضًا من سر حقيقة العشق الإلهي والروحاني والإنساني والطبيعي والفطري والجوهري، التي معادنها من عالم الربوبية أفعالاً وصفاتًا وذاتًا بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾، خالص الحقيقة في هذا المعنى في تلك الهمتين، إن همَّة زليخا سبقت على همَّة يوسف ﷺ، وحسن يوسف ﷺ سبق بجذب قلب زليخا وهمَّتها إلى معدنه؛ لأنَّ عشق زليخا وحسن يوسف صفتان صادرتان من المعدنين الأزليين، وهما صفة جمال القدم ومحبة الأزل، فلمَّا هاجت همَّة زليخا بعد انجذاب قلبها إلى معدن عشق يوسف ﷺ هاجت أيضًا همة يوسف ﷺ إلى أهلية عشقها وحسنها وهمتها، فصارت الهمتان بعضها من بعض، فهاجت همة الجوهر إلى الجوهر، والفطرة إلى الفطرة،

---

(١) هي أبواب أركان الشريعة يعنى إذا فتحت الدنيا على القلب أبواب شهواتها وحظوظها غلقت عليه أبواب الشريعة التى تدخل منها أنوار الرحمة والهداية ونفحات الألطاف والعناية، تفسير حقي (٦/ ص ٧٨).

والطبيعة إلى الطبيعة، والإنسانية إلى الإنسانية، والروحاني إلى الروحاني، والإلهي إلى الإلهي، فصارت جميعها بوصف الهمتين متحيرة، حتى صار شخصهما، وسوادهما، وخيالهما، وعقلهما، وقلبهما، وروحهما، وسرهما واحدًا في واحدٍ.

كما قال الشاعر:

والعــينِ كالغُــصنينِ شــقَّهُما الهــوَى   فــرُوحَاهُما روحٌ وقلــبَاهُما قَلْــبُ

فكيف نتهم الهمتين، وأصل الجوهر نور الإرادة، وأصل الفطرة فعل الإرادة، وأصل الطبيعة مباشرة القدرة؛ لكن الصورة وأصل الإنسان وجود معجون القهر الروحاني مباشرة اللطف، وإلهي تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، فترقى الهمة من أصل الجوهر إلى نور الإرادة، ومن أصل الفطرة إلى فعل الإرادة، ومن أصل الطبيعة مباشرة القدرة، ومن أصل الإنساني إلى وجود معجون القهر، وذلك سر النفس الأمارة، ومن أصل الروحاني إلى مباشرة اللطف، ومن أصل إلهي إلى تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، ففي عين الجمع أصل العشقين، والهمتين من معنى تجلي الذات والصفات والأفعال، فإذا علمت ذلك فترى شخصهما شخصًا، وروحهما روحًا، وقلبهما قلبًا، وهمتهما همة، وسرهما سرًّا، وكلهما كلاً، وذلك الكل صدر من الكل، وذلك الكل علة العلل، ومعلل الأشياء ومكون الكون أصل الأصول، فمن يدم وغرائب حقيقة قدس المعرفة في الإشارة، إشارة منه بدأت، وإليه تعود بيني وبينك، أينازعني، فأدفع بلطفك أنني من البين يا صاحب الهمة ، إذا تجلى من فِعله لفِعله بوصف الفعل صار العشق مع الشهوة، وإذا تجلت الصفة بالصفة بوصف الصفة صار العشق مع شهوة الروحاني بلا شهوة الإنساني، وإذا تجلى الذات للذات بوصف الذات صار العشق بوصف العشق الأزلي المقدَّس عن حركات أسرار جميع الشهوات؛ لأن عشقه أزلي بلا علة، فأول همة حركة الفعل إلى الفعل، وهناك موضع الامتحان والفتنة المخالفة الأمر، وأوسط الهمة تجلي الصفة إلى الصفة، فهناك مقام الالتباس، ونهايتها تجلي الذات للذات، وهناك مقام القدس والطهارة من الامتحان، فإذا كان يوسف ﷺ في بدايتها ووسطها كان في محل العتاب، فإذا تجلت الذات للذات سلبه أنوار الذات من المقامين، ولولا ذلك لبقي في بحر الامتحان وعتاب الرحمن.

تصديق ذلك قوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾، ظهور البرهان ليوسف ﷺ ظهور صرف ذات القديم المنزه عن علة الحلول، ومباشرة الحدوث، وذلك الظهور يوجب إفراد القدم عن الحدوث، وصرف التجريد والتوحيد والتفريد والخروج من محل الالتباس.

وقوله كذلك: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: إن وضع سمات الفحش والسوء على أسرار تآلف الأرواح والأشباح وحركات بعضها إلى بعض بنعت المحبة والألفة والمودة والهوى والشهوة، إنما عالم الامتحان والأمر والتكليف والعبودية ومخالفة الأمر سوء وفحشاء من حيث العلم والعقل، وفي الحقيقة ليس هناك علة الفحش والسوء؛ لأنها مواضع المقادير الأزلية.

وأيضًا: إذا بقي العارف في الترقي والوسائط والالتباس عن توحيد الصرف بقي في الحجاب عن رؤية كنه القدم وقدس الأزل، وذلك الاحتجاب سوءٌ وفحشاءُ، وأي سوءٍ وفُحشٍ أعظم من الوقفة في بعض الطريق والانقطاع عن الوصول إلى الكل وأصل الأصل، وإذا كانت معالي هيبته العلية علت على جميع المقامات وبلغت إلى رؤية الذات والصفات بنعت الفناء والبقاء، ذكر سبحانه امتنانه عليه بعد وصفه بتقديس إخلاصه.

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: من أهل الكمال من الموحدين والنبيين والمرسلين.

قال ابن عطاء: همَّت به همَّ شهوةٍ، وهمَّ بها همَّ موعظةٍ بزجرها عما همَّت به، وقال: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، قال: واعظًا من قلبه، وهو واعظًا الله في قنب كل عبدٍ.

وقال أيضا: همَّت به وهمَّ بها، احتالت زليخا أن تري نفسها ليوسف، فحجب الله نفسها عن يوسف بالبرهان العالي والحق الظاهر، حتى لم يشهد في وقت ذلك غير الحق، وقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، أي: نظر إليها لولا ما صدَّه عن ذلك من حجاب البرهان.

وقال الجنيد: يحرك طبع البشرية من يوسف ﷺ، ولم يعاونه طبع العادة، والعبد في تحريك الخلقة فيه غير مذموم، وفي هيجان الشهوة مذمومٌ، وفي مقاربة المعصية ملومٌ، وذكر الله تعالى عن يوسف ﷺ همه على طريق المحمدة لا على طريق المذمة.

وقال ابن عطاء: قالت زليخا ليوسف ﷺ: اصبر عليَّ ساعة حتى أعود إليك، فقال: ما تفعلي؟ فقالت: أغطي وجه الصنم؛ فإني أستحيي منه، فتذكَّر يوسف عند ذلك اطِّلاع ربه عليه، فهرب منها، فذلك البرهان.

قال أيضًا: السوء الخواطر الرؤية، والفحشاء بالأركان.

قال محمد بن الفضل: السوء بالتفكر، والفحشاء بالمباشرة.

قال أبو عثمان: لنصرف عنه سوء الهم وفحشاء المواقعة.

قال الجنيد: أول ما يبدأ من الإخلاص في أحوال الأولياء خلو من سرائرهم وهممهم وإرادتهم، ثم خلوص أفعالهم، فمن لم يخلص سره لا ينال الصفاء في فعله، فلما رأى ما رأى

يوسف ﷺ لم يبق في نفسه من شهوة الإنساني أثرٌ من استيلاء أنوار التوحيد، وفرَّ من موضع الخطر.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾: لما بدأ ليوسف أوائل سطوات الأزل وأنوار كشف تجلي الأبد لم يحتمل أوائلها: وعجَّل سرَّه في أول بديهة التوحيد، فرَّ من أماكن الخطر، ولو صبر حتى غاص في بحر الوحدانية لم يحتج إلى الفرار إلى الباب، وإن تمكن في رؤية الحق وبرهانه وسكن ونظر إلى زليخا بنظر التوحيد لتذوب زليخا بنظره إليها، والتقديس من شهواتها؛ لأن حقيقة التوحيد إذا غلبت نادت إلى فناء ما دون الله، وتأثر في كل ناظر إلى صاحبها بألَّا يبقى فيه أثر للشهوة الإنسانية، ولمَّا لم يكن كذلك ما أثَّر في زليخا حتى عدت خلفه إلى الباب وقدَّت قميصه، ولو كان يوسف مستغرقًا في أواخر التوحيد لاحترقت زليخا، وما قدرت أن تعدو خلفه، وتمزَّق قميصه، كان يوسف في أوائل التوحيد، وزليخا في أواخر العشق، فلم يؤثر التوحيد في العشق، وتخريقها ثوب يوسف من غلبة عشق الإنساني على عشق الروحاني، ولمَّا خرقت قميصه من عشق الإنساني، صار تخريق القميص برهانًا ليوسف ﷺ شاهدًا على صدقه.

قال بعضهم: لو فرَّ إلى الله والتجأ إليه لكفى، لكنه لما هرب منها وفرَّ بنفسه أكمل نفسه محل التهمة حتى قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، فلما نصَّب الله البرهان وطرد الشيطان ندخل عليها زوج زليخا ورأى حالها العيان.

قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾: أضاف اسم السيد إلى زليخا؛ لأن الله سيد يوسف ﷺ حقيقةً؛ لأنَّه كان حرًّا بالتوحيد وحرًّا بالتفريد، وكذا على ظاهر الشريعة، وما أطيب العشق إلى أن يؤول إلى الشفاعة! فإن عيش العاشق في الملامة أطيب.

قيل في قوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾: لم تقل: سيدهما؛ لأن يوسف ﷺ كان في الحقيقة حرًّا، ولم يكن العزيز له سيدًا، فلمَّا أفشى سر العشق بينهما وأطلع زوجها على سرها نفت عن نفسها الحرام؛ لأنها علمت أن لو بيَّن جرمها عند زوجها لقتلها وأوقعت من حلاوة ومحبة يوسف والنظر إلى وجهه، كذلك أوقعت ا لحرام على يوسف ﷺ:

لحــبِّك أحبــبتُ الــبقاءَ لمهجتـــي ... فـإن طـال أن أعرضت عني بقاؤها

ولعلمها بـأن يوسف ﷺ لم يبق في الضر والبؤس والمؤاخذة، ولا يقدر أحدٌ أن يؤذيه، ومنْ يقدر أن يضره ووجهه سالب القلوب وجالب الأرواح، أغاب العالم بعينيه، سبى الأرواح والأشباح بحسنه وجماله. وتسبي العالمين بمقلتيها

لهـــا في طـــرفها لحظـــاتُ ســـحرٍ ... تُمـــيت بهـــا وتُحيـــى مَـــنْ تـــريدُ

وتسبـــي العـــالمين بمقلـتيهـا

وتعلّلت في كلامها حيث قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[1]، ذكرت حديث السجن، ثم ذكرت العذاب الأليم نفيًا للتهمة عن نفسها؛ حتى لا يعرف زوجها شأنها وعلتها وحيلتها.

وأيضًا ذكر السجن والتأديب والتعذيب لئلا يبادر بشيء آخر أو يوهم بقتل يوسف ﵇، كانت زليخا متمكنةً في عشق يوسف ﵇، فتصرفت في حالها بنعت الاستقامة، ولو كانت في فوز عشقها ما أوقعت الجرم على يوسف ﵇؛ لأن المهتدي لم يعرف في بدايته ما للأشياء ولم يبال بها، فحكم بحكم الوقت، ولم يبال بقتل نفسه وقوف معشوقه عنه، حتى أن لو كان الجرم لمعشوقه لأوقع على نفسه.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٤ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ۝٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ

(١) قال ابن عجيبة: قالته إيهامًا أنها فرت منه؛ تبرئة لساحتها عند زوجها، وإغراء له عليه؛ انتقامًا لنفسها لما امتنع منها.

رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ
أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ
قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾
قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ
قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ *
وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ
ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾
قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ
يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قال ابن عطاء: لم تستغرق هي في محبتها بعد، فلم تخبر بالصدق، وآثرت نفسه على نفسها، فلمّا استغرقت هي في المحبة وهامت، أخبرت بالحق وقالت الصدق، وآثرت نفسه على نفسها، فقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾، ولما وضعت زليخا الجرم على يوسف عليه السلام ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، كان الكرم والرضا يقتضيان السكوت عن جوابها حتى لا يفتضحان، ويكون إلى التسليم وترك التدبير أقرب في التوحيد أفضل، حيث أهل الطرق يرون الأشياء على رؤية مقادير الأزلية؛ لكن أعلمهم مكان طهارة النبوة وقدس الرسالة وبيان الحجة؛ لذلك نطق الصبي في المهد، وتشهد بصدقه إظهارًا لمعجزته وطهارته عما لا يليق بالأنبياء، ولطيف الإشارة فيه أنها ادَّعت محبة يوسف عليه السلام، وتبرَّأت منها عند نزول

البلاء، فأراد يوسف ﷺ أن يلزم عليها ملامة المحبة، فإنَّ الملامة شعار المحبين، فمن لم يكن ملومًا في العشق لم يكن متحققًا في العشق، أراد يوسف ﷺ كونه عاشقًا جلدًا ليزيد عشقًا على عشقها؛ لأنَّ الملامة للعاشق زيادة ذكر المعشوق، فإذا استقامت تزيد حرقة العشاق والهيجان، همّ إلى رؤية المعشوق والخروج من موضع التهمة، ودفعها دأب المعشوقين أيضًا لزيادة عشق العاشقين، فلما بان جرمها بالبرهان الواضح قال زوجها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، أراد بالكيد هاهنا التجشم والغنج والدلال وتقليب طرفهن، وكشف ذوائبهن، وخضاب أطراف بنانهن، ولطافة حركاتهن، وإلقائهن التفاح والسفرجل إلى معشوقهن، وتزيين لباسهن، ولطافة كلامهن، وحيث يحتكنَّ بهذه الرعونات على من له لطافة وظرافة ورقة طبع، وأهلية للعشق، فأين إبليس منهن؟ وهو هناك أجيرهن، عظَّم الله كيدهنَّ، وأضعف كيد الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾: سبب ضعف كيد الشيطان هاهنا أنه قبيح الصورة، شنيع المنظر، لا يقدر على الرجال إلا بالوسوسة، وهناك بحسنهن حوليات الشهوات يجرون بها الجبال.

وقال ﷺ: «ما تركتُ من بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»[1].

وقوله ﷺ: «النساءُ حبائلُ الشيطان»[2] أي: أعظم معاملة إبليس النساء بالرجال، أطلق حبال ذكرهن من ألف فرسخ يقيد بها أعناق الرجال، ولولاهن نجساء المعلون من وساوس الخلق، فإنَّ أعظم الفتنة في العالم النساء.

أيضًا: سُمِّيَ كيدهن عظيمًا، وذلك الكيد قيدهن الرجال بلطائف ما ذكرنا من شمائلهن، وذلك من أصل وهوان حسنهن وجمالهن وظرافتهن من حُسن فعل الله في وجوههن، وذلك الفعل مرآة تجلي حسن الأزل؛ لذلك سماه عظيمًا، وهذا إشارةٌ لا يعرفها إلا صاحب واقعة، وأين الأبله والغبي والبليد من فهم هذا المعنى؟!

قال بعض الحكماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾.

وقال الشبلي: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾: على من لم يصحبه من ربه توفيق الرعاية، فأمَّا من كان بعين الحق كيف يلحقه كيد كائدٍ، فلما فشي الخبر وكثرت الملامة، وسمعت نساء البلد هاجت سرهن؛ لأنَّ أزواجهن كانت متآلفة بروح زليخا، وهن جميعًا مع روح يوسف ﷺ،

---

(١) رواه البخاري (٥/ ١٩٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٠٦).

فتقاضى سرهن حقائق الخبر، وتفتيش الأمر ليذقن ما ذاقت زليخا فاحتلن، وقلن ذكر ملامتها بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ ذكرهن لملامة اشتهائهن رؤية يوسف ﷺ، وحكمن بحكم الفراسة أنَّ حب يوسف ﷺ بلغ حبة قلبها وصورة شغاف القلب سجف لطيف رفيق، وبراءة عالم الكشافة، وبعده عالم اللطافة الأول مقام النفس والهوى والوسواس، والآخر مقام العقل والروح والملك، ومقام الكشافة مقام شهوة الإنساني، ومقام اللطافة مقام شهوة الروحاني، وليس في الروحاني علة الهوى والنفس والشيطان، فإذا وصل الحب إلى منظر الروح واتصل بروح الروح بلغ إلى عالم الرحماني، فإذا تمكنَّ الحب هناك تخلص من الوسائط، وصار حب الله، فكل محبة وصلت إلى هنا فقد وصلت شغاف القلب، واتصلَّت بمحبة الله، كأنهن أردن محبة يوسف ﷺ، وصلت في قلبها إلى محبة الله، وهناك استغراق الحب؛ حيث بقيت الأشباح في سورة الوسائط بمحبتها، وبقيت الأرواح في مشاهدة الحق لا للأرواح قرارٌ، ولا للأشباح قرارٌ، وهذا وصفهن زليخا بهذه الصفة بقوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في غيوبة من استغراق الحب، وتمكين العشق بحيث لا تخاف من الملامة، ولا تلتفت إلى السلامة، ويمكن أن إشارتهن إلى ضلالها إلى أنها أرادت من يوسف ﷺ وحبه أن يكون يوسف من غاية حبها صورة وروحًا اتحادًا، فهن في منزل العقل والعلم يقين من مباشرة الجهال، وعلموا أن ذلك مستحيلٌ من حيث العقل، لا من حيث العشق ومباشرة الحال.

قال الجنيد: وسُئِلَ: ما علامة المحبة؟ قال: ذكر الله في كتابه: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾. قال: ألَّا يرى جفاء الحبيب له جفاء، بل يرى جفاء الحبيب له وفاء.

قال سمنون: الشغاف في المحبة امتلاء القلب منه حتى لا يكون لشيء غيره فيه مكان.

قال الشبلي: الشغاف نهاية العشق.

وقال بعضهم: الشغاف في المحبة حال الخمود؛ حيث لا عبارة عما به ولا إخبار، كما قال الله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾.

وقال السري: أذهلها حبه حتى لم تكن تعرف سواه، ولم يكن للملامة عليه من الغير أثرٌ، وذلك صدق المحبة.

وقال جعفر: الشغاف مثل الغيم أظلم قلبه عن التفكر في غيره، والانشغال بسواه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي في وجدٍ ظاهرٍ، ومحبةٍ بينةٍ، وشوقٍ مزعجٍ.

سُئل جعفر بن محمد عن العشق؟ فقال: ضلال. ثم قرأ: ﴿لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قال: معناه في عشق ظاهر.

وقال بعضهم: في غلبة من العشق ضلَّ فيه عقلها وبصيرتها، فلم يبق عليها محل الكتمان من غلبة الشوق، فلما وصلها خبر ملامة النسوة، واحتيالهن في طلبهن رؤية معشوقها بلطف المكر، أرادت أن تلقيهن في بحر البلاء الذي لا ينجو منه أحدٌ.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: دعتهن إلى بيتها، فاجتمع في بيتها أعيان نساء مصر اللواتي صويحبات الجمال وزينة، وكشفن وجوههن وزينتهن ليغلبن على زليخا ويسلبن يوسف ﷺ منها، فعلمت زليخا ضعفهن عن حمل أوائل رؤية يوسف ﷺ وحسنه، وجماله، ولطفه، ومنظره، واحتالت في إلقائهن في المحبة بقوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾: أجلستهن في أطيب المجالس، وأشرف المناظر، على خوان[1] فيه ألوان الطعام والفواكه، وأعطت كل واحدة أترجًا وسكينًا، وقالت: كلن وقطعن الأترج، وأرادت بذلك الحيلة عليهن، حتى شغلن بالطعام والكلام عن رؤية يوسف ﷺ ليخرج عليهن بالبديهة عن غير موعد ولا استئذان، حتى يستغرقن في بحر الهيبة والبهتة عند رؤيته.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾: ألبست يوسف ﷺ قميصًا منظومًا بالدر واليواقيت، ووضعت على رأسها تاجًا مكللاً باللآلئ، وألبست ساقيه وذراعيه سوارًا أو خلخالاً، ووضعت على يده صفحتين حتى لا يستر وجهه؛ لأنه كان إذا رأى امرأة يغطي وجهه، فعلمت شأنه بذلك فخرج عليهن بديهة فصرن هائمات، تائهات، حائرات، مفتونات من رؤية يوسف ﷺ، ذاهبات في حسنة وجماله وعشقه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: عظمته بعظمة الله، وهبنا منه لما رأين في وجهه نور هيبة الله، فذهلن في وجه يوسف ﷺ، فسقطنْ عن التمكين والعقل، وفعلن أفعالاً مجهولة، بقوله سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وذلك من استغراقهن في عظمة الله وجلاله، وإنَّ الله سبحانه ما أراهنَّ من وجه يوسف ما أراه لزليخا، فأوقعهن في نور العظمة والكبرياء، وجلال تجليه منه لهن، وأرى نور حسنه وجماله لزليخا من وجه يوسف ﷺ فبقيت في العشق، ورعونته، ونظافته، وبقين في العظمة والجلال، لذلك قطعن أيديهن، ولم يشعرن بذلك، ولو رأت زليخا ما رأين ما استقامت في حالها وما راودته عن نفسه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: رأينه على صفة الملائكة المقدسين

---

(١) كلمة فارسية بمعنى: مائدة.

عن أن يوهم أحدًا لهم بالشهوة، أي: ليس هذا من أن يوهم أحدًا بالشهوة؛ فإنه مقدَّسٌ من عالمنا؛ لأنَّ عليه كسوة الملائكة من سواطع النور والبرهان الإلهي.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مررتُ ليلةَ أُسري بي إلى السماء، فرأيتُ يوسف ﷺ، فقلت: يا جبريل ﷺ مَنْ هذا؟ قال: هذا يوسف ﷺ، قالوا: وكيف رأيته يا رسول الله؟ قال: كالقمر ليلة البدر»**[1] .

وعن أبي فروة قال: كان يوسف ﷺ إذا سار في أزقة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران، كما يُرى نور الشمس والماء على الجدران.

قال وهب: بلغني أن تسعًا من الأربعين متن في ذلك المجلس وجدًا من يوسف ﷺ.

يا صاحب العقل افهم؛ إن صويحبات يوسف ﷺ لما رأينَ يوسف رأينَ كسوة الربوبية على محل العبودية، فوقعنَ من رؤيته فيما وقعت الملائكة من رؤية آدم حين سجدت له.

ولذلك قرئ في بعض القراءات: «ما هذا إلا مَلَك كريم»، وهاهنا مقام التباس العارفين ومشاهدة المحبين، ولا قدح فيه؛ لأنهم مقدسون عن علة التشبه والحلول، تعالى الله عن المشابهة بالأرواح والأشباح.

وليس ما قال حسين بن منصور في هذا المقام إشارة إلى التشبيه؛ لأنه فني في التوحيد، أنشد وقال:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب، ثم بدا لخلقة ظاهرًا في صورة الآكل والشارب، ثم بدا لخلقه من خلقه بأنوار برهان قدرته وسنا شواهد لطفه صبغه، ويمكن أن زليخا كانت محل التمكين، وهنَّ في محل التلوين؛ لذلك استقامت في رؤيته، ولم يحل أيضًا مما رأين من يوسف ﷺ من النور والعظمة، لكن غلب عليها مقام مشاهدة الحسن والجمال، لبقائها في مكان الابتلاء ارتفعت عنهن في رؤية يوسف ﷺ الشهوة والبشرية؛ لغلبة أنوار العظمة والهيبة، فلا جرم ما شعرن آلام قطع أيديهن، ولو قرض نملة زليخا لشعرت بذلك؛ لأنها في لطافة العشق؛ وما أطاقت من لطف حالها أن تحمل ألمًا غير ألم العشق، وهذا كمال في أنس المعشوق، ولا يعلم ذلك إلا ذو عشق كامل.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾: أجلستهن مجالس وطئه ليكون أبين لحركتهن في مشاهدة يوسف ﷺ، وأسقط للملامة والتغيير عنها، وأظهر لما يبدو عليهن من لقاء يوسف ﷺ.

وقال بعضهم في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: شاهدن حسنًا خاليًا عن مواضع

---

(١) رواه الطبري في التفسير (١٥/ ١٣).

الشهوة، مؤيدًا بعصمة النبوة فأكبرنه.

وقال جعفر: سر هيبة النبوة عليهن مواضع إرادتهن منه، فأكبرنه.

قال أبو سعيد الخرَّاز: المأخوذ في حال المشاهدة غائبًا عن حسنه، بائنًا عن نفسه، لا يحس بما جرى عليه.

قال الله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ .

قال ابن عطاء: دهشن في يوسف ﷺ، وتحيرن حتى قطعن أيديهن، فهذه غلبة مشاهدة مخلوق لمخلوق، فكيف بمن يأخذه مشاهدة من الحق، فلم ينكر عليه تغير صفاته عليه، أو ينطق في الوقت على حد الغلبة بمرأى كغيرة.

وقيل في قوله: ﴿ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ : لأنه كان مؤيدًا بالعصمة، فشغلتهن هيبة العصمة، فلم تنظر إحداهن إليه نظر شهوة.

وقال سهل: ما هذا إلا ملكًا في أخلاقه، بشرًا في صورته.

قال محمد بن على: ما هذا باطلاً أن يدَّعى إلى المباشرة بل مثله يُكرَّم، ويُنزَّه عن مواضع الشبهة والاعتراضات لكرم أخلاقه، ولطف شمائله.

قيل: إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء؛ إلا النظر إلى وجه يوسف، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشبعوا، ويزول عنهم الجوع، فلما رأت شأن النسوة وفناءهن عن عقولهن، صبرت حتى مر يوسف عليهن وأفقن، وشمتت بهن: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ : أرادت أن يذقن ما ذاقت من حب يوسف ﷺ، ويخرجن من ملامتها؛ لأن من لم يعرف طعم المحبة عزل أهلها:

فانظــــري واقطنــــي لي تـــــري   حــرقًا مــن لم يــزد طــرفا مــنها فقــد

وإلا نظر أهل الملامة نظر سرك، حيث كانوا محجوبين عن رؤية سبق المقادير، وإنَّ العشق خارج عن حدود الاكتساب.

خلـــيلي إني قلـــت بالعـــذل مـــرةً   ومـــنذ عـــلاني الحـــب مذهبـــي الجـــبر

وأنشد الحسين:

مـــا لامنـــي فـــيك أحـــبابي وأعدائـــي   إلا بجهلهـــم مـــن عظـــم بلوائـــي

تـــركتُ للـــناس دنـــياهم وديـــنهم   شـــغلي بحـــبك يـــا دينـــي ودنيائـــي

أشـــعلتَ في كـــبدي نـــارين: واحـــدةً   بـــين الـــضلوع وأخـــرى بـــين أحـــشائي

ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ إلا رأيتُ خيالاً منك في المائي
النار أبردُ من ثلجٍ على كبدي والسيف ألين بي من هَجر مولائي

قال النصرآبادي: طلب العذر في العشق من نقصان العشق، وإنَّما العشق الحقيقي ما غلب على صاحبه وألهاه عن الاشتغال إلا بمحبوبه.

وقال بعضهم: لمتنني فيه بغيتني لصرعتن.

وأنشد:

وكنتُ إذا ما حدَّث الناس بالهوى ضحكتُ وهم يبكون من حَسراتِ
فصرتُ إلى ما قيل هذا مُتَيَّمُ تلقيتهم بالنَّوحِ والعَبَرَاتِ

فلما رأت زليخا عذر النسوة أرادت أن تعرفهن طهارة يوسف ﷺ فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: هو مقدَّسٌ عن جميع التهم، وباطنه أحسن من ظاهره؛ لأنَّ باطنه مطهر عن دنس الشهوة، وعلة البشرية، ومراودة النسوة والفحشاء، معصوم بأنوار النبوة والرسالة، وأرادت بذلك أن يرينه أكبر مما يرينه، ثم قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: خوف يوسف ﷺ من البلاء، وكيف يخاف من يكون في رؤية المبلي، مؤيدًا بعناية أزلية، معصومًا عن معصية، وتوهها في ذلك من استغراقها في الحب والعشق.

وقال بعضهم: ما كان يلحق يوسف ﷺ من السجن والمحبة، إنَّما كان من ترادف البلاء على زليخا، وهيجان المحبة به.

فربَّما كان نصيب يوسف ﷺ من أطراف بلائه شيئًا بالسجن والهم، وغير ذلك وهذا من تمام المحبة وشدة البلاء:

وأنشدت ليلى صاحبة مجنون أن أشاركَ المحبوب محبة في بلائه
إلا وقد كنت كما كانا لم يكن المجنون في حاله
وإنني قد قدمتُ كتمانًا لكنه باح بسر الهَوى

فلما رأى يوسف ﷺ تملقهن ومكرهن واحتيالهن في دعائهن يوسف ﷺ إلى طاعة زليخا التجأ إلى الله، وتضرع بين يديه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: يا رب البلاء أحبُّ إليَّ من لذة الوقت، وشهوة النفس التي تحتجبني عنك، وعن شهوة الروحاني، ورؤية آثار الربوبية.

وأيضًا: السجن أحبُّ إليَّ؛ لأن في السجن مقام الأنس، والخلوة، والمناجات، والمداناة،

والمشاهدات، والمواصلات، وإنِّي أختار رضاك وأوثر مرادك على حظ نفسي.

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ: أي: السجن أحبُّ إليَّ إذا كنت محبوسًا لزليخا حتى يزيد عشقها على عشقها، ويكون عشقها عشقًا روحانيًا، وعشقًا رحمانيًا، وتحترق بنيران عشقها علل الإنسانية، وشهوة البشرية، وإلا تصرف عني بعصمتك القديمة كيدهن في إظهار حسنهن أو جمالهن، وزينتهن عليَّ، وتميل نفسي إليهن، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1]: من المؤثرين حظوظ أنفسهم على حظ مشاهدتك وقربتك.

وأيضًا: من الجاهلين بأنفسهم.

وأيضًا: من الجاهلين بقدرتك على عقوبة الأسرار وضرب الحجاب بينها وبين الأنوار.

قال الواسطي: منعك إياي عنهن بنزع القدرة عنى أحبُّ إلى مما يدعونني إليه من طلب الحظوظ.

قال بعضهم: توهم يوسف ﷺ أن السجن ينجيه من الفتنة، فأوقعه في الفتنة الكبرى، حتى قال لصاحب السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

قال ابن عطاء: السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني من الزنا، فالاختيار أفسد عليه أمره لعلمه لو ترك الاختيار لكان معصومًا من غير امتحان بالسجن، كما كان معصومًا في وقت المراودة.

وقال الجنيد: لَمَّا جاء بالافتقار لا بالمسألة في صرف كيد الباغين عنه، وأشفق من دخول الصبوة عليه التي لا مدفع إلا بتأييد العصمة، فأسعده الإجابة، ومنع كيد الشيطان وتسلطه، وأخرجه من البلاء بقبول حسن ما تقدم من الوعيد.

قيل: إن يدخل فيه وبمثل هذا يتعزى أهل المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أي: ممَّن يعفو عمَّن ظلمه.

وأيضًا: أي: من المشاهدين الملكوت، والمكاشفين لهم أنوار الجبروت.

وأيضًا: أي: من العالمين بحل مشكلات الغيوب، وعجائبات القلوب.

وأيضًا: من العارفين بدقائق الأحوال، وحقائق الإجمال.

قال ابن عطاء: من المائلين إلى الفقراء بالإحسان إليهم، والقعود معهم والأنس بهم.

وقال أبو بكر بن طاهر: إنا نراك من المحسنين، لا ترد عذر معتذر.

وقال بعضهم: إنا نراك من المحسنين إلى من أساء إليك، وهو من شرائط الإيمان.

---

(١) أي: من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه، فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم جهال، وكلامه هذا: تضرع إلى الله تعالى، واستغاثة به. البحر المديد (٣/ ١٠٦).

وقال بعضهم: أي: العالمين بعلم الرؤيا.

وقال أبو بكر الورَّاق: الراجعين إلى الله في النوائب والمحن.

وقال يوسف بن الحسين: التاركين حظك لحظوظ إخوانك.

وقال الجنيد: العارفين حقائق الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: أخبر سبحانه عن كمال التوحيد يوسف ﷺ، وتمكينه أسوة بآبائه من الأنبياء والرسل.

ومعنى قوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ أي: أسألك طريق ما سلكوا إلى الله شوقًا إلى وصاله، وعشقًا لجماله بأسرار نورانيه، وأرواح ملكوتية، وقلوب ربانية، ونيات صادقة، وأنفاس مقدسة، ونفوس طاهرة، وحقول عالة بأحكام إلهامه، وأسرار خطابه، وأعلام ربوبيته، وآثار عبوديته.

انظر كيف أحسن الأدب؛ حيث ذكر الخليل ﷺ أولاً، وذكر إسحق ﷺ ثانيًا، ثم ذكر يعقوب ﷺ؛ احترامًا وإكرامًا لهم: أي: اتبعت الخليل ﷺ في الخلة، والمحبة، والحلم، والسخاء، وإكرام الضيف، والرضا بالمقدور، والتسليم في الأمر، والحرقة، والهيجان والبكاء، والتلوة، وإفراد القدم عن الحدوث، حيث قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨]، والصدق واليقين، وطلب مشاهدة الحق في الآيات، وهو مقلم الالتباس، بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]، والإسلام، والانقياد، والحنيفة السهلة، واتبعت ملة إسحاق ﷺ؛ حيث ألقى نفسه لأمر الله، وذبحه على باب ربوبيته، وقربان النفس عند سرادق مجده، والانقياد عند أمر أبيه؛ حيث فعل بأمر الله ما فعل، واتبعت ملة يعقوب ﷺ بالصبر الجميل، والحزن الطويل، والبكاء على الدوام، وتحمل البلاء على التسرمد.

وافهم أن المتابعة وصف الخاصين من المريدين، ومَنْ لم يتأدب بآداب أهل الطريقة والحقيقة لم يبلغ إلى درجات القوم.

ثم بيَّن سبحانه قول يوسف ﷺ أن ملة آبائه إفراد القدم عن الحدوث، وتجريد التوحيد، وتطهير الإدراك عن الإشراك بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: أي: لا ألتفت في طريق محبته إلى غيره.

ثم بين أن ذلك خارج عن اكتساب البشر، بل متعلق بسابق اختيار الله لهم واصطفائيته لهم في الأزل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾: أي: ما ذكرت من شمائلهم، وما وهبني الله من علم الغيب والحسن، والجمال من فضل الله عليَّ وعلى آبائي، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي:

نحن فضل الله على الناس؛ حيث أظهر شمائل جلاله منا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾: لا يشكرون الله فيما أظهر لهم منّا من دين الحقيقية، وأنوار الأزلية، وحسنه الأبدي.

قال أبو عثمان: إصلاح القلب والسر بمتابعة الصالحين، واعتقاد تعظيم الأبرار من جميع العباد.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

قال أبو عثمان المغربي: أسلم الطرق من الاغترار طريق الاقتداء والتقليد؛ لأنها طريق الأئمة الصالحين.

قال الله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

وقال الواسطي: رؤية الفضل حسن، ورؤية المفضل أحسن، ورؤية المفضل حسن، والفناء عن رؤيته أحسن.

وقال أبو علي الجوزجاني: أحسن الناس حالاً من رأى نفسه تحت ظل الفضل والمنَّة والنعمة، لا تحت ظل عمله وسعيه.

ثم إنَّ يوسف ﷺ عرَّف أهل السجن مكانته في التوحيد والرسالة، ودعاهم إلى ملة آبائه بقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أعلمهم أن العدد والانقسام صفة الحدثان؛ لا صفة الرحمن، وإنَّ الرحمن واحدٌ منزَّهٌ عن الانقسام، وإذا كان منزَّهًا عن العلة، يكون وصفه في ربوبيته القهر على عباده وخلقه؛ بأنه جعلهم تحت إمرته وعبادته، عاجزين عن العناد عن خدمته.

ثم بيَّن أن معرفة الواحد القهار وعبادته، والإعراض عن الأغيار دينه المستقيم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعرفون أن الحادث لا يكون قديمًا، وأن القديم لا شريك له في عبودية عباده وربوبية أزليته في نصب أعلام آياته وشواهد مملكته.

قال أبو عثمان المغربي: قد يكشف للإنسان حال غيره، ويستر عليه حال نفسه.

ألا ترى إلى يوسف ﷺ قال لصاحب السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾، ثم قال في ثاني الحال: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

وحكي: أن رجلاً قال للفضيل بن عياض: عظني، فقال: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟

قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾: إنَّ الله سبحانه وصف مكان امتحان صديقه يوسف ﷺ؛ حيث أغان قلبه عين قهر نكرته حتى وقع في بحر النكرة، وامتنع عنه بوصف المعرفة، فلمَّا احتجب عن مطالعة جلال القدم بامتناع القدم بقي في رسم الطبيعة، وعالم الصورة فسلك سبيل الأسباب، وكان ذلك أقل من لمحة، فلمَّا طلعت على قلبه أنوار القدم، وأدركه فيض الكرم على مكان الامتحان، وعرف كيد الشيطان، فرجع عن ذكر الإنسان إلى ساحة الرحمن: وإذا أراد الله بالعبد العارف زيادة معرفته وقربته أوقعه لحظة في الغفلة عن الذكر، ثم بدا لقلبه نور التجلي، فيندم عن نسيانه ويسرع قلبه في طلب مزيد عرفانه، فيكون أقوى في طلب الحق من الأول، كانت غفلته عن الذكر تورث زيادة الذكر، ومن كان أقرب إلى الله فهو أخذته في زلته أسرع، وبلاؤه أوفر.

ألا ترى كيف جازاه بغفلة لحظة لبثه في السجن بضع سنين، ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾، وإنَّ الله سبحانه أراد من نبث يوسف ﷺ في السجن كمال تربيته في الخلوة، وبلوغه إلى أخص درجة الأنس بالله، وزيادة القوة في الوجد، وتمكينه في الصحو، ألا ترى إلى النبي ﷺ كيف تحنث في غار حراء، وآنسه في الخلوة في أوائل النبوة.

ويحتمل أن قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عرفني له طريقي مع الله حتى يعرفني أنِّي رسول الله، ويطيعني في طاعة الله، وينجو بذلك من عذابه، ويصل إلى ثوابه، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويوحد الله سبحانه، ويخلص من كيد الشيطان، ومن تابعه من الإنسان.

وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾: إنَّ يوسف ﷺ لم يعلم وقت إيمان الملك، ولم يأت وقت دخوله في الإسلام: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ في سابق حكمه على تقدير وقت إيمان الملك، فلبث في السجن إلى وقت إيمان الملك، فنسيان يوسف ﷺ احتجابه عن النظر إلى مقادير السابق، والله أعلم وأحكم.

قال الواسطي: احذروا أصول النفوس؛ لئلا يكشف لكم عن مواضع العجز، ألا ترى يوسف ﷺ كيف قال: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[1].

---

(١) قال التستري (١/ ٢٣٥): حكي أن جبريل ﷺ دخل على يوسف في السجن، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، إن الله تعالى أكرمني بك وبآبائك، وهو يقول لك: يا يوسف، أما استحييت مني حيث استشفعت إلى غيري، فوعزتي لألبثنك بضع سنين قال: يا جبريل، هو عني راض؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي.

وقال بعضهم: اذكرني عند ربك ليعلم أنه ليس إليه من الضر والنفع شيءٌ، وإنه مدبرٌ، وإن الأمور كلها إلى الله؛ لئلا يعتمد على غير الله، ولا يسكن إلى أحد سواه، يدل عليه قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، حين قال لصاحبه: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

وقال النصرآبادي: قدّم على ذكره ذكر الذي ذكر عنده، فأنساه الشيطان ذكر ربه حين قال لصاحبه في السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

وقال بعضهم: أخذ الأنبياء بمثاقيل الذر لمكانتهم عنده، وتجاوز عن سائر الخلق لقلة مبالاته بهم في إضعاف ما أتوا به من سوء الأدب.

ألا تراه كيف يقول ليوسف ﷺ بقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، وجرى على سري أن الشيطان أنساه ذكر ربه؛ لا ربه أنساه الذكر، ولا أنساه المذكور، وكيف أنساه المذكور وشره مشاهد وجوده في جميع أنفاسه، فذكره هاهنا محل التوكل والرضا، وليس من سقط عن درجة التوكل، سقط عن رؤية الله، فإنَّ التوكل من أسباب المقامات، والعارف يسري في الحالات، وليس أنه محجوبٌ عن حقيقة التوكل؛ فإنَّ حقيقة التوكل العلم بوحدانية الله، وغلبة قهره على كل ذرة، وحاشا الأنبياء محجوبون عن ذلك أبدًا.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾: سماه الصدِّيق في دعواه علم الغيب، ومكاشفته، وعلم بأنبائه العجيبة، صادق في مكاشفة الذي استقام الصديقية فيه، وذلك تتابع أنوار الإيقان والعرفان بعد كشف أنوار التجلِّي في قلبه، ووصف هذا استواء الحال، واستقامة الإعمال.

قال أبو حفص: الصدِّيق الذي لا يتغير عليه باطن أمره من ظاهره.

قال بعضهم: الصدِّيق هو الصادق قولاً وفعلاً وعزمًا وزينةً وعقدًا.

وقال بعضهم: الصدِّيق الذي لا يخالف قوله نعله، ولا حاله عمله.

قال ابن الفرحي: الصدِّيق كأبي بكر ﷺ الذي يبذل الكونين في رؤية الحق؛ لمَّا قال النبي ﷺ: «ما أبقيت لنفسك؟ قال الله ورسوله»[1].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾: أخبر الله سبحانه أن يوسف ﷺ لما دُعِي من السجن لم يبادر سريعًا إلى الخروج حتى يفحص شأن النسوة، وزليخا حين قالت لسيدها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ بقوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٦).

انظر كيف كان أدبه ﷺ حيث لم يذكر زليخا، وذكر النسوة، وغرضه في ذلك زليخا، ولكن أخرج نفسه من محل التهمة باللطف والرمز فيه، كأنَّه قال للرسول: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ في وجهي، واستغراقهن في حبي، كأنه تكلم من ألم سره من آلام سرهن، وفيه ما فيه من لطائف الإشارات، وغرضه من تفحص إثبات الحجة على قومه، وبيان طهارته من علة الزنا حتى لا يشوش اعتقادهم في شأن نبوته ورسالته؛ لأنَّه ينظر إلى الخلق وجاههم، فإنَّه كان في محل التمكين من التوكل والرضا؛ فقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: مظنة هذه المعاني لم أخنه في غيبته بنظر السوء إلى أهله.

وأيضًا: لم أخنه في غيب خاطري بميل سري إلى غير الله، وكيف أحزن، وهو تعالى لا يهدي الخائن إلى مراده؛ لأنَّ من خان لا يظفر بما يريد، ولا يهدي من طبعه الخيانة إلى محبته ومعرفته ومشاهدته.

قال ابن عطاء: لم أخونه فيما يتمني من الأهل والمال.

وقال سهل: لم أنقص له عهدًا ولم أكشف له سرًّا.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: بيان الشكر لما عصمت الله، ولما قال: إنِّي لم أخنه بالغيب عارضه لسان الحق في السر فيما همَّ بقوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾.

وقال أهل التفسير: لما قال يوسف ﷺ هذه المقالة قال له جبريل ﷺ: ولا حين همت بها؛ فلمَّا سمع يوسف ﷺ أصوات الغيب بتغيير سره أدرك ما فاته من غيبته عن مراعاته النفس، ولزم لسانها بالدعاوي واعتذر بقوله: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾، مقالة الأولى من يوسف ﷺ خبرٌ عن بدايته في وقوعه في البلاء، وهناك جبلة النبوة المقدسة عن التهمة، وما جرت في البين هو لطيفة الله من قهره وامتحانه، وغلبه قدره السابق على رسوم الأمر، وما ذكر في العذر خبرٌ من تلك اللطيفة.

وافهم: إن سرَّ قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، إن هذه النفس ليست لشيطانٍ، ولا قلبٍ، ولا ملكٍ، ولا عقلٍ، ولا لشيءٍ له أعينٌ يتبين لأحدٍ، فبعضهم يسمي النفس الهوى، وبعضهم يسمي النفس الطبيعة والبشرية، وميلها إلى الشهوة يسمي النفس، وهذه الأقوال هي صورة رسوم العلم وحقيقتها، والله أعلم.

إنَّما هي وجود قهر القدم يظهر فغلبته في الفعل، ويحرك طباع الإنسانية المستعدة المخلوقة لقبول ما يصدر من القهريات مما يؤول أواخره إلى سخط الله، وامتحانه، وحجابه،

فالقوم حكموا بما صدر من القهر أنه نفس، وأنا أرجع إلى الأصل؛ لأنَّ القهر صفةٌ دائمةٌ أزليةٌ محركةٌ طباع البشر إلى طلب الشهوات، ولا يطيق أحدٌ أن يخرج من تحته إلا بلطف الله بقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾؛ لأنَّه صفةٌ غالبةٌ على جميع الذرات، وهو صفة الله سبحانه، وهو نفس النفس؛ لأنَّ ذاته تعالى موصوفٌ بصفة القهر، وإنَّ قهره حار جميع الحدثان تحت غلبته، ومن يدَّعي أن يبعد نفسه من سلطان قهره بقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾: أي: ما أبرئ نفسي من غلبه قهر الله عليها، وأنها مقهورة بين يديه.

وأيضًا: ما أبرئ نفس النفس عن القهر والغلبة، فإن نفس النفس أمَّارةٌ إلى ما يقتضي القهر، وما يقتضي القهر يقتضي الامتحان، وما يقتضي الامتحان يقتضي الملامة في رسوم العلم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾: أي: إلا من عصمه الحق بلطفه عن قهره، وأشار بهذا إلى وجوده حين عصمت بلطفه عن قهره.

وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾: إثبات ما جرى من الهمة: أي: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ من الهمة التي همت بها، وهذا محل من عرف سرَّ القهر، وسرَّ الخطاب، وسرَّ الامتحان، وسرَّ النفس، وغلبة الربوبية بقوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نفسَه فقد عَرَفَ ربَّه» (١).

ولما عرف حقائق النفس ﷺ استعاذ منها إلى الأصل، وقال: «أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذُ بمعافاتك من عقوبتك» (٢)، وأعلمنا ﷺ أنه تعالى نفس النفوس بقوله: «أعوذُ بك منك» (٣).

ومن أراد أن تبرأ نفسه فقد نازع الربوبية، فإنَّ النفس أصل القدر السابق على ما جرى من البلاء والامتحان.

ألا ترى إلى قول الواسطي كيف قال: من لام نفسه؛ فقد أشرك.

وقال أيضًا: رؤية التقصير من النفس شركٌ؛ لأن من لاحظ نفسًا من نفسه؛ فقد جحد الأزلية للحق، ومن لام نفسه في شيء من أموره فقد أشرك؛ لأنَّه أضاف إلى نفسه ما لم يكن منه قط.

قال ابن عطاء: وما أبرئ نفسي بنفسي إنما أبرئ نفسي بربي.

قال أبو حفص: مَنْ لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

يجرها إلى مكروهها ومخالفتها في سائر أيامه كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل رضي نفسه، والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾: تحملك على الطاعة وتضمر فيها شرًّا.

وقال سهل: خلق الله النفس وجعل طبعها الجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء منها، وجعل الهوى الباب الذي منه هلاك الخلق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾: هي نفس الروح، والروح هو نفس الجسد.

وقال سهل: النفس الأمارة هي الشهوة، والنفس المطمئنة هي نفس المعرفة.

وقال أبو حفص: النفس ظلمةٌ كلها، وسراجها سرها، ونور سراجها التوفيق، فمن لم يصحبه توفيقٌ في سرِّه من ربه كانت ظلمةً كلها.

وقال سهل: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ موضع الطبع، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ موضع العصمة.

وقال الواسطي: النفس ظلمةٌ، وسراجها سرها، فمَنْ يكن له فهم في ظلمة أبدًا.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾: بيان العذر لما قصَّر في أمر الله، فاستوجب واستحق بعذره العفو والغفران، فلما ثبت الحجة والسلطان، وظهر قدسه وطهارته من علل الشيطان طمع الملك في أن يراه ويعظمه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أستخلصه لموعظة نفسي ليعرِّفني طريق نجاة نفسي من عذاب الله.

وأيضًا: أستخلصه بخالص محبتي له ليعرف خالص محبة الله، وخصائص صفة ربوبيته.

وأيضًا: أستخلصه لنفسي حتى أفش عنده ما في نفسي من أسراري.

قال ابن عطاء: كيف يستخلصه لنفسه وقد استخلصه الحق من قبل فهو لديه من المخلصين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾: أخبره عما في ضمائره من أسرار الغيب، وما في غيب الغيب، وما يتعلق، وما في حياة القلوب، وما كان من وصف الله وصف الطريق إليه بلسان فصيح، ووجه صبيح الذي يبرز نور الحق منه للعالمين: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أي: أنت بما تخبر من الحق وأسراره متمكن أمين فيما أودع الله في سرِّك من النبوة والرسالة

والولاية؛ حيث يشهد بصدقك جمالك وجلالك، فإنَّ معنى الباطن يظهر من ظاهرك، أنت عندنا ذا مكانة وذا أمانة، فاحكم بنا ما شئت، فإنِّي لا أوثر على أمرك شيئًا.

قال بعضهم: أي شاهد صدق يخبر عن صدق، فغلبه عز الصدق، ورؤية صديقه، فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وقال الشبلي: فلمَّا كلمه أخبر يوسف ﷺ عما في قلبه من كوامن سره، فقال: إنك متمكن في نفسك أمين؛ حيث اطلعت على الأسرار، فلمَّا رأى الملك آيات الله في بلاد الله وعباده آمن بيوسف ﷺ أجله وأكرمه وأعزه، واختاره على جميع الخلق، فعلم يوسف ﷺ أن ما عرف الملك في جنب ما لم يعرفه منه أقل القليل، فأظهر ما وهبه الله له من علمه بالله وبطريقه، وحفظ حدوده في شريعته وشفقته على خلقه، فقال: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: أخبر الله يوسف ﷺ الملك أيضًا عن مقام تمكينه، وقدرته بالتصرف في الملك الدنيا؛ بألا يتحجب في تصرفها عن مشاهدة الله وملك الآخرة، وليس كل من ينصرف في الدنيا متمكن إلا من كان على وصف يوسف ﷺ، ووصف يوسف ﷺ حفظ الأنفاس بالذكر، وحفظ القلب بالفكر، حفظ أنفاسه عن الوسواس، وحفظ قلبه وفكره عن ذكر غير الله، عليم بذات الله وصفاته وآياته وعبادته.

وأيضًا: إني حفيظ بنور تفرس نبوتي ما يقع من أمور المقادير عليهم بعلم الله ما يجري في القلوب من الغيوب، وخزائن الأرض في الإشارة قلوب الرياضين من الأولياء والصدِّيقين.

قال الواسطي: مدح النفس قبيح في الشاهد إلا في وقت الإذن فيه، وله حينٌ وأوانٌ، ألا ترى يوسف ﷺ كيف قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقال بعضهم: خزائن الأرض رجالها.

فقال: اجعلني عليهم أمينًا، فإنِّي حفيظ لما يظهرونه، مكشوف لي ما يضمرونه، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: إن لله عبادًا يدخل عليهم الخلل، ولولا ذاك فسدوا وتعطلوا، وذاك أنهم بلغوا من العلم غاية صاروا إلى علم المجهول الذي لم ينصَّه كتاب، ولا جاء به خبرٌ، لكن العقلاء العارفون يحتجبون له من الكتاب والسنة، وذلك بحسن استنباطهم،

---

(١) لأن الحفظ والعلم كان محتاجا إليهما إما الحفظ، فلأجل ما في خزانة الملك وإما العلم فلمعرفة ضبط الدخل والخرج، تفسير حقي (١٠/ ١٣٩).

وفهومهم، وهو كقول يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ثم بيَّن سبحانه تمكين يوسف ﷺ ومكانته واستقلاله بنفسه في مقام الرسالة والنبوة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: الإشارة فيه ملك بحسنه وجماله ولطفه وكماله أرض قلوب الخلق محبةً وهيبةً، تجلس محبته حيث شاءت في صميم فؤاد الناس، بقوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾، أضاف مكانة يوسف ﷺ إلى نفسه، لا إلى سبب من أسباب الحدثان، وذلك إشارة إلى سبق العناية له بالرسالة، وكسائه كسوة جماله وجلاله.

ثم بيَّن أن ذلك رحمته الأزلية التي خصَّ بها من يشاء من عباده: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾: رحمته كشف مشاهدته للأنبياء الأولياء، وتعريف نفسه بكشف الصفات لهم إياهم حتى عرفوه به، وسهَّل عليهم طريق عرفانه حيث رفع بينه وبينهم علل المجاهدات والرياضات.

وذلك منَّةٌ عظيمةٌ، ورحمةٌ كافيةٌ إذ كشف عِزَّةَ السَّرْمَدِيَّةِ للآدميين، وما مال بأنهم لا يستحقون شهودهم مشاهدته، وأنى لهم مع حدوثيتهم البقاء مع القديم الأزلي الأبدي، ويتلاشى الأكوان والحدثان في الأول بديهة سطوات عزته وظهور مجد جلاله، ولكن تجاوز عنهم وعن حدوثيتهم برحمته، وأراهم ما لم يكن لغيرهم من المكروبين والروحانيين؛ لأنه تعالى اختارهم في الأزل لنفسه ولوصاله، وكشف جماله، ووضع أسراره في قلوبهم، أي: بلوغ يوسف ﷺ إلى هذه المراتب السنية الرفيعة، ﴿بِرَحۡمَتِنَا﴾ بعنايتنا وكرمنا.

هذا مكان العناية التي انقطع عندها الأسباب، ثم بيَّن أنه مع جلاله ولطفه لا يضيع أجر العاملين الذين سلكوا سبيل الأعمال؛ فيصلوا إلى درجة الأحوال بقوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أجر أهل الإحسان كشف الجمال مشاهدة الرحمن، وإحسانهم طلب طلوع صبح الأزل من مشارق الأبد بعيون الأرواح، ودوران بصائر الأسرار.

ألا ترى إلى قوله ﷺ في جوابه السائل عن الإحسان، قال: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك»**[(١)].

فإحسان يوسف ﷺ مراقبة الله في بلائه، وذلك الإحسان والمراقبة من عصمة الله ورحمته؛ لأن العصمة مقرونة بالاصطفائية، وكيف كان معصومًا من لم يسبق له الاصطفائية في الأزل، وأيضًا إحسان يوسف ﷺ العفو والكرم للخاطئين، وتعريف الله بوصفه وصفاته إلى عباده ليحبوه ويطيعوه، وأيضًا إحسان يوسف ﷺ كشف جماله لأهل البلاء والقحط حتى

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٤)، ومسلم (٩).

عاشوا بالنظر إلى وجهه.

قال الواسطي في قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾: مَنْ لم يفصل بين أول هذه الآية وآخرها التبست عليه آيات القرآن، وأشكلت أوله للعلماء وآخره للجهال به.

ألا ترى إلى قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فبرحمته استوجب اسم الإحسان، وبرحمته عرف الهداية والبيان، وبرحمته أشار إلى غوامض القرآن، قال الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

وقال ابن عطاء: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ بفضلنا يهدي من يشاء إلى سبيل المعرفة.

وقال بعضهم: المحسن من يرى جميع ما يجري عليه من الإحسان منه من الحق عليه.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ نكرة الإخوة كانت في رؤية يوسف عليه السلام من سبب اختفاء تجلي الحق عن عيونهم في وجه يوسف؛ فلا يرونه ولا يرون ذلك النور والتجلي، كما رأوه قبل الجناية، فغطّى الله عيونهم بنكرة الجفاء عن رؤية تلك الأنوار، فلما لم يروا ذلك جهلوه.

قال بعضهم: جهلوه لما تقدم من جفوتهم له؛ فأحوجهم الله إليه.

وقال الأستاذ: يقال: لما جفوه صار جفاؤهم حجابًا بينهم وبين معرفتهم إياه، كذلك المعاصي بخطابه وزلته يقع غيره على وجه معرفته.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: يوسف عليه السلام في قلب يعقوب عليه السلام بعض التفاته إلى الوسائط، وأراد أن يصل الشيخ إلى إفراد القدم عن الحدوث بشرط تجريد سره عن الحدثان في جمال الرحمن من شفقته على يعقوب عليه السلام لتخرجه بالتلطف عن الكون حتى لا يبقى في ساحة الكبرياء خيار الحدوث؛ فتلطف في سلب بنيامين عنه.

وذلك من علمه بغيرة الله سبحانه على يعقوب عليه السلام حيث رفع محبوبه من بينه؛ فخاف

عليه أن يهلك بنيامين بين يديه ويزيد داؤه على دائه، ولولا ذلك لما قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ بأن ليس من دأب الفتيان طلب العرض بالإحسان، والإشارة فيه أن من لم يأت في طريق محبة الله بالوفاء على عهد المعرفة ضاقت عليه طرق وصاله.

قال بعضهم: من خالف مراد سيده فيه ضيق الله عليه رزقه وحرمه مقام القربة بحال وأصل ذلك قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾ الآية.

وقال الأستاذ: المحبة لما كان غيور ليعقوب ﷺ ليسلي عن يوسف ﷺ برؤية بنيامين أبت المحبة إلا أن يظهر سلطانها بالكمال؛ فغارت على بنيامين أن ينظر إليه يعقوب ﷺ بعين يوسف ﷺ.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ رأى يعقوب ﷺ في مرآة البلاء أن بنيامين يعتزل عنه بغير اختياره؛ فرجع من الأسباب إلى مسبب الأسباب، وطلب منه الحفظ والعناية والرعاية لا من الخلق، والإشارة في قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي: من حفظه أن يرد عليه يوسف ﷺ من بنيامين، أي: هو تعالى يحفظهما جميعًا، وذلك قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾، ومعنى قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ برحمته أن يشفني ريح يوسف ﷺ، ويقر عيني بالنظر إلى وجهه، ثم بعد ذلك يتجاوز عن التفاني في محبته إلى غيره ويريني جماله وجلاله تعالى.

قال بعضهم: قال يعقوب ﷺ: جربت حفظكم في واحد حين قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ اعتمدت عليكم في يوسف ﷺ، ولم أرجع فيه وفي حفظه إلى الله؛ فلقيت فيه ما لقيت، وإني في هذا أرجع إلى ربي ألا أعتمد حفظكم له ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ لما استحفظه ربه رد عليه الأول والثاني.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ قيل: متاعهم ظاهر الكرم، ورد إليهم باطنًا لئلا يشق عليهم أثقال المنة ما وجدوا ليوسف ﷺ لمتاعهم في خزائنه موضعًا لا يليق إلا بالفقراء والمساكين؛ فرد إليهم لئلا يزاحم بغناه على الفقراء

بالمؤاكلة معهم، وأنى يفعل الغني بهال الفقراء لم ير نفسه أهلاً في ملكه أن يأكل طعام الفقراء، وفيه ما فيه من الإشارة إلى أن ما وجد الأولون والآخرون من معرفة الله وتوحيده ومحبته وعبوديته في جنب ما يجدون منه يوم الكشف الأعظم أقل من كل شيء؛ فيرد بكبريائه ما يليق بالحدثان على الحدثان، لأنه تعالى بقدمه وجلاله منزه عن أن يدركه أحد من خلقه، وأن يطلع على أسرار ذاته وصفاته أحد من عباده يرد متاع العبودية على الخلق؛ لأنها لا يليق بربوبيته فيغنيهم بها له عما لهم.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «لن ينج أحد منكم عمله»، قالوا: يا رسول الله، ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل»[1].

قال بعضهم: إن أعمال الخلق كلها مردودة عليهم؛ فإنهم إنما عملوها بأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ وأن الذي يلحقهم من الكرامات من جهة التفضل لا من جهة الجزاء.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ رأى يعقوب ﷺ نية بنيه صادقة في شأن بنيامين بأنهم يتحفظونه، ويأتون به إلى يعقوب ﷺ، ورأى يعقوب ﷺ بنور النبوة ما يقع في المستقبل؛ فتعرف عجزهم عن دفع القدر؛ فقال الله: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: ليس على مرادي ومرادكم بل يفعل كما يريد، وهو قادر بحفظه وإرجاعه إليَّ.

قال بعضهم: ما اعتمد منهم الميثاق لما سبق منهم إليه قبل ذلك؛ فعلم أنَّ مواثيقهم وحفظهم معلولة فقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾، وقال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هو الذي يحفظ قلوبكم، ولا يحلكم إلى آراءكم وأهوائكم، ثم عرفهم أسباب العلم والعقل، واستعمالها لتوقعه أن تتجاوز الأقدار عنهم بناقص من الحق، من قدر سبق الأقدار.

(١) رواه البخاري (٢٨١٦)، ومسلم (٥٣٤٩).

ألا ترى إلى قوله: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ يراقب من إثبات القدر ومحوه؛ فقال الله تعالى: ﴿يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ خاف من عين غيرة القدم على مقدور القدم؛ فينتظر عليه سبق الرضا على السخط بقوله سبحانه: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

فاستدرك بعد استعمال العلم صرف التوحيد؛ فقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: تدبيري وعلمي وعقلي وحذري لا تدفع سابق القدر؛ فأرضى بما هو كائن منه تصديق ذلك قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما يريد يكون كما أراد، ثم برئ من حوله وقوته بقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وحقيقة التوكل رفع التدبير عند رؤية التقدير.

وفي الآية إشارة كان سر يعقوب ﷺ أشار إلى بنيه أي: إذا عزمتم بقلوبكم وأرواحكم وعقولكم وأسراركم سلوك سبيل الحق لا تدخلوا فيه بسبيل واحد بل ادخلوا عليه بسبيل الصفات لتعرفوا حقائقها وتعرفوا بحقائقها عين الذات؛ فإن من عرفه بصفة واحدة لم يعرفه بما استحقه من أوصاف القدم وصفات الأزل.

قال جعفر في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾: نسي يعقوب ﷺ اعتماده على العصبة والقوة، وأن القضاء يغلب التدبير بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾، ثم استدرك عن قريب وساعده التوفيق، وقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

قال ابن عطاء: كيف يرد عن غيره من لا يرد عن نفسه، وكيف يقوم بكفاية الغير من هو عاجز عن سياسته.

وقال الحسين: صدق التوكل استعمال السبب مع ترك الاختيار قال الله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ...﴾ الآية.

وقال الواسطي: التوكل الصبر بطوارق المحن.

قال الأستاذ في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ يحتمل أن يكون أراد بتفريقهم في الدخول لعل واحدًا منهم يقع بصره على يوسف ﷺ إن لم يره الآخر قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ بيّن الله سبحانه أن ما أوصى يعقوب ﷺ لبنيه قهر نظر نوري أبصر به كينونة القدر؛ فاستقبله به لا بنفسه، وكان عالمًا بما رأى بأمور استعمال الشريعة والغفل

(١) سبق تخريجه.

واسترسال نفسه إلى الحق بنعت الافتقاد والعجز في قدراته وتقديره، وصفه بأنه ذو علم وأن علمه غير مكتسب ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ كان علمه لدنيا بلا واسطة علمه بنفسه كما وصف الخضر ﷺ بقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

والعلم اللدني على نوعين الأول: ظاهر الغيب، والثاني: باطن الغيب؛ فظاهر الغيب علم دقائق المعاملات والمقامات والحالات والكرامات والفراسات، وهاهنا للعقل والقلب مجال وباطن الغيب على أربعة أقسام:

الأول: علم باطن الأفعال وذلك حكمة المعرفة.

والثاني: علم الصفات وذلك المعرفة الخاصة.

والثالث: علم الذات وذلك التوحيد والتجريد والتفريد.

والرابع: علم أسرار القدم وذلك علم الفناء والبقاء.

وهناك تبرز أنوار الأقدار للأسرار فعند علم بطون الأفعال، وكشف الصفات للروح مجال، وعند علم الذات للسر مجال، وعند علم أسرار القدم لسر السر مجال، أما تولد علم دقائق المعاملات؛ فالصفاء والرقة، وأما ما تولد علم المقامات؛ فصحة الإرادة ولذة المحبة، وأما تولد علم الحالات؛ فالشوق والعشق، وأما تولد علم الكرامات والفراسات؛ فطمأنينة النفس الأمّارة بالذكر وسكون القلب بنور اليقين، وأما تولد علم بطون الأفعال؛ فالحيرة في القدر ومباشرة لطائف الألفة، وأما تولد علم الصفات؛ فالإنس والجن بالجمال والوله في الجلال، وأما تولد علم الذات؛ فالمحو في الأزل والصحو في الأبد، وأما تولد علم أسرار القدم؛ فالوقوف على العلم المجهول والحكمة المجهولة، ويقتضيان ذلك حالتين حالة السكر، وحالة الصحو؛ فالسكر يقتضي لذلك العالم إفشاء السر بلسان العلم المجهول، وذلك غلبة نطق الأزلية والصحو يقتضي الخرس والكتمان عن إفشاء السر، وجميع ما ذكرنا يتعلق بشيئين بالمكاشفة والمشاهدة؛ فإذا بدا للعالم العارف لوائح أوائل الكشوف ولوامع الشهود في المشهود يقف سره على موارد الصفات، وسر سره على موارد الذات؛ فيعرف السر من كل صفة طريقًا خاصًا من الحق إلى الحق، ويذوق طعمًا منها غير طعم صفة أخرى في رؤيتها، ويعرف سر السر من رؤية الذات طرقًا من الذات إلى الذات ،وذوقًا خاصًا خارجًا عن ذوق الصفات؛ فبقي العالم العارف مع معلومه ومعروفه بخلق الربوبية حتى صار ربانيًا صمدانيًا جلاليًا جماليًا أبديًا، قال الله: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾

قال بعضهم: العلوم خمسة علم يصلح لكسب الدنيا، وعلم يصلح لخدمة السلاطين، وعلم يصلح لكسبه الرياء والزينة، وعلم يصلح للعبادة والمجاهدة، وعلم يصلح لكسب

الحرية والانقطاع، وهو أجل العلوم.

وقال يوسف بن الحسين: أجلّ العلوم ما أخذها العبد من الحق بغير واسطة لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ لكن فيها اغترارات وأخطار.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ خاف يوسف ﷺ بنيامين من معرفته على قلقه وشوقه إلى يوسف ﷺ لو أن يعرف يوسف ﷺ بغتة لهلك؛ فآواه إليه ليعرفه الحال بالتدريج حتى يحتمل أثقال السرور برؤية يوسف ﷺ، وأيضًا رأى وحشة حيث بقي وحيدًا بلا يوسف ﷺ بين الإخوة فآنسه بقربه؛ وذلك من احتمال بنيامين عذاب الفراق وألم البعد، ولو كانوا كبنيامين لآواهم إليه جميعًا، ولكن الكشف والمشاهدة على قدر ألم المحبة والشوق.

قال الأستاذ: حديث المحبة أقسام اشتاق يعقوب ﷺ إلى لقاء يوسف ﷺ؛ فبقي في الأحزان سنين كثيرة، واشتاق يوسف ﷺ إلى بنيامين؛ فرزق رؤيته في أوجز مدة، هكذا الأمر، فمنهم مرفوق به، ومنهم صاحب بلاء.

ويقال: لئن سجنت عين يعقوب بمفارقة بنيامين، فلقد قرَّ عين يوسف بلقائه؛ كذا الأمر لا يغرب الشمس عن قوم إلا تطلع على آخرين؛ فلما ذاق يوسف وبنيامين طعم الوصال بدوام الوصال، وتلطف في أمر بقائه عنده بما حكي الله سبحانه عنه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ إن الله سبحانه بفضله ولطفه أجرى على يوسف بعض ما أجرى على إخوته في أخذ بنيامين، ونسب السرقة إليهم جميعًا ليتخفف على الإخوة أثقال الجفوة السالفة منهم على يوسف مادام نسبهم إلى السرقة.

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل يوسف شريكًا مع إخوته في إبلائهم إياهم، حيث أخذ بنيامين عنه، ونسبه إلى السرقة ليكونوا جميعًا في الجرم سواء، ويحتمل أن من كرمه فعل ذلك

لئلا يخجلوا فيه بين يديه حيث جعل نفسه معهم شريكًا فيما جرى عليهم وطاب قلب بنيامين برؤية يوسف ووصاله؛ فاحتمل الملامة، وكيف لا يحتمل ذلك وبلاء العالم محمودة بملامة رؤية المعشوق، وكيف يؤثر الملامة؛ فيمن كان في وصال محبوبه.

أَجِدُ المَلامَةَ في هَواكِ لَذيذَةً حُبًّا لِذِكرِكِ فَلْيَلُمني اللُّوَّمُ

وفي الآية إشارة لذيذة أن من اصطفاه الله في الأزل بمحبته ومعرفته ومشاهدته، حيث خاطب الأرواح والأشباح، وضع في محمله ضاع ملامة الثقلين.

ألا ترى إلى ما فعل آدم صفيه ﷺ اصطفاه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ ثم عرض الملامة؛ فحمله بقوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ثم هيَّج شهوته إلى حبة الحنطة حتى أكلها، ونادى عليه بلسان الأزلي: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ ذلك من غاية حبه له حتى صرفه عن الكون وما فيه ومن فيه إليه، ولولا أن كشف جماله لا يحتمل بلاء الملامة كما فعل يوسف ﷺ ببنيامين آواه إليه وكشف جماله له وخاطبه، ثم نادى عليه بالسرقة ليبقيه معه، والإشارة في قوله تعالى: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أي: سرقتم أمانة المعرفة، وحقائق الأخوة بيني وبينكم حين فعلتم ما فعلتم بأبيكم وأخيكم.

قال جعفر في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أضمر يوسف في أمره مناديه إياهم بالسرقة ما كان منهم في قصته مع أبيهم أن فعلكم الذي فعلتم مع أبيكم يشبه فعل السراق.

وقيل: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ لعاقون لأبيكم في أمر أخيكم؛ حيث أخذتموه منه وختنموه فيه.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: من سرق قلبه عن ربه، نودي يوم القيامة: ويا سارق، وكل سارق عليه القطع، ومن لم يكن للوصال أهلاً؛ فكل إحسانه ذنوب.

قال الأستاذ: احتمل بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعد ما بقي مع يوسف.

ويقال: ما نسب إليه من سوء الأفعال هان غلبه في جنب ما وجد من الوصال.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ إن الله سبحانه إذا خصَّ نبيًّا أو وليًّا ألبسه

صفاته بتدريج الحال، ففي كل حالة له كساه نورًا من صفته، فمن جملة صفته كيد الأزل ومكر الأبد؛ فكيدي علم كيده قلب يوسف حتى كاد برؤية كيد الله الأزلي؛ فعرفه تعالى أسرار لطيف صنائعه وعظيم حقائق أفعاله وقدرته؛ فمعنى كدنا ليوسف ﷺ عرفناه مصالح أمور النبوة والولاية بتأثير كشف الذات والصفات.

قال ابن عطاء: أبليناه بأنواع البلاء حتى أوصلناه إلى محل العز والشرف.

وقال جعفر: أظهرنا عليه بركات آباء الصادقين بما عصمناه به في وقت الهم.

وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ بيَّن سبحانه أن ما لم يوسف ﷺ وفعل من الألوهية ورؤية كشف مشاهدة الأزل يختص بدرجة كشف جماله أهل محبته وشوقه، ويرفع درجات عارفيه وموحديه بحيث عرفهم ذاته وصفاته يرفع درجة الموحدين والعارفين من مقام العبودية إلى مقام الربوبية، بأن يكسيهم أنوار جوده ووجوده؛ ليعلموا من رؤية كل صفة علمًا فوق علم، ومن رؤية الذات علمًا فوق علم الصفات، كما أن ذاته وصفاته لا نهاية لها، فأيضًا علومهما لا نهاية لها؛ فيشرب أطيار أرواح القدسية من بحر قدس قدمه زلال حيوته وعلومه الأزلية الأبدية على مقادير حواصلها؛ فيأتي كل واحد منها من تلك البحار بغريب علم صفاته وجواهر حكم بحار ذاته.

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فعلم المريد فوق علم المبتدئ، وعلم المحب فوق علم المريد، وعلم العارف فوق علم المحب، وعلم الموحد فوق علم العارف، ووراء علومهم علم المجهول لا يأتي به إلا الفاني في ذاته الباقي في صفاته.

قيل في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم والاستقامة، وقيل: بالمكاشفة والمشاهدة، وقيل: بالفِراسة الصادقة، وقيل: بالمعرفة والتوحيد، وقيل: بإجابة الدعاء، وقيل: بمعرفة مكائد النفس، وقيل: بالعصمة والتوفيق.

وقال الجنيد: بإسقاط الكونين عنه، ورفعه عن الالتفات إلى المقام والأحوال ليكون خالصًا بالعلة.

وقال الحسين: فضيلة أرباب الحقائق إسقاط العظيمتين، ومحو الملكوت في الحالتين، وإبطال الخيرين، ونفي الشركة في الوقتين الأزل والأبد، والتفرد بالحق بنفي ما سواه، ورؤية الحق والسماع منه، وذلك قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوق كل ذي معرفة عارف إلى أن ينتهي المعرفة إلى المعروف؛ فيسقط الأوصاف ويبقى حقًا محضًا.

وقيل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ لأن علوم الخلق محدودات معلومات إلى أن

يبلغ العلم إلى عالم السر والخفيات.

وقال ابن الفرجي: العلوم تتقارب على مقدار الطبائع والتعليم إلى أن ترى مَنْ يتلقف العلم من الحق ورزق العلم اللدني؛ فذلك الذي لا عالم فوقه من الخلق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ فنسبوا السرقة إلى يوسف ﷺ لكن فرق بين السرقة والسراق؛ فسرق بعضهم قماشة الظاهر ويوسف ﷺ سرق بنرجس عينه المخمور به وورد خده المصبوغ بصبغ الله قلوب العالمين، لكن شتان بين سارق وسارق صدقوا في نسبة يوسف ﷺ إلى السرقة، ولكن لم يعرفوا مسروقه لباب الفؤاد بالمحبة وصميم الأسرار بالشوق والعشق والألفة.

أنشد الشبلي:

لَهَا في طَرفِها لَحَظاتُ سحرٍ ... تُميتُ بِهَا وتُحيي مَنْ تريدُ

وتَسبي العالمين بمقلتيها ... كأنَّ العالمين لَهَا عبيدُ

مفهوم خطاب الآية بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ من قبل أن بقايا النفوس باقية في قلوبهم في حقد الطبيعة بما بدت من أفواههم ظاهر، وانظر إلى تمكن يوسف ﷺ وأناته، حيث لا يجازيهم، ولا يظهر عليهم الجواب مع علمه بأنه مأخوذ بجزاء قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾، وهكذا شأن المعصومين عن الجرائم يؤذيهم الله عند كل فلتة من ألسنتهم، ومن حكمة الله سبحانه أنه أعزا يوسف ﷺ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ حتى يكون شريكًا لهم فيما بدا منهم له.

وقال الأستاذ: كان بنيامين بريء مما رمي به من السرقة؛ فأنطقهم الله حتى رموا يوسف ﷺ بالسرقة واحدًا بواحد ليعلم العالمون أن الجزاء واجب.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ إشارة الآية من الحق سبحانه بألا نتخذ بمحبته واصطفائيته ومعرفته وخلته وعشقه وشوقه، إلا من أودع

روحه في بدء الأمر أمانته من ودائع أسرار ملكوته وجبروته في غيب الأزل، وأيضًا أي نحن لا نفشي أسرارنا إلا لمن كان في قلبه استعداد قبول معرفتنا، وأيضًا لا يختار لكشف جمالي إلا من كان قلبه في شوق إلى وصالي.

قال بعض الخراسانيين: الإشارة فيه: إنا لا نأخذ من عبادنا أشد أخذًا ممن ادعى فينا أو اخبر عنا بما لم يكن له الإخبار عنه، إلا من مدَّ يده إلى ما لنا وادعاه لنفسه.

وقال أبو عثمان: لا نتخذ من عبادنا وليًّا إلا من ائتمناه على ودائعنا؛ فحفظها ولم يخن فيها، ولطيفة الواقعة مثل الحبيب إلى الحبيب، ومكر الحبيب للحبيب حتى لا مفارق الحبيب عن الحبيب يتعلل بكل علة حتى يسلب حبيبه، وهيهات من مفارق بين الحبيبين في محل الوصال فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أن تأخذ مكان حبيبي بديلاً، فليس في مذهب المحبة أخذ بديل الحبيب، وفي معناه أنشدوا:

أبى القلبُ إلا حُبَّ ليلى ... وبغضت إليَّ نساءٌ ما لهنَّ ذُنوبُ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ انظر كيف فعل بإسرائيل ﷺ سلب منه فاكهتي قلبه، ثم نادى عليهما بالبيع والسرقة والفرقة والعزلة ليزيد عليه بلاؤه في محبته قالوا: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ نسبوه إلى سرقة الصاع، ونادى لسان القدر على أن بنيامين سرق يوسف ﷺ من بينهم وهموا فيما نسبوا إليه، وسبب ذلك أنهم كانوا في زمان البلاء، ومَنْ كان في زمان بلائه يعرف طريق المخرج، وكل الفعل يكون عليه لا له.

قال جعفر: كيف يجوز هذه اللفظة على نبي ابن نبي، وهذا من مشكلات القرآن، ومثله في قضية داود ﷺ ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا﴾، وما كان خصمين وما بغيا، صدق الصادق جعفر ﷺ: إن في القرآن كثيرًا من هذه المتشابهات والمشكلات، ولا يعلم تأويلها إلا الله، والراسخون في العلم، ومما علموا من هاهنا أن الله سبحانه تكلم بالحقيقة والأمثال والعبر والمجاز والخبر والقصص على وفق الواقعة؛ فأخبر من حيث الظاهر عن قصتهم بما قالوا وفعلوا وفي الحقيقة حق ما قال؛ لأن الواقعة لا تخلو من إشارة إلى شيء حقيقي كسرقة يوسف ﷺ بملاحة وجهه قلوب الخلق، وقولهم في ذلك صدق.

وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ حقيقة؛ لأنهم سرقوا الأمانة والعهد من بينهم وبين أبيهم، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ صدق أسرار يوسف ﷺ الذي سمع منه في الخلوة والوصال عنهم، حيث ما أخبرهم ذلك السر ووضع الصاع في متاعه كان بتقريره؛ فكلام الله صدق أخبر عن حقيقة وظاهرها مجاز وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾

بالظاهر ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: عما بين ابنيك من الأسرار التي جرت بينهما في الخلوة والوصال، وتصديق الجميع جواب يعقوب ﷺ بقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أخبر يعقوب ﷺ عن حقيقة الأمر بالرضا والإشارة، أي ليس كما يظنون ليس السرقة سرقة الصاع، وما هذا فعل الأنبياء، ولكن سرق ما سرق من أسرار يوسف ﷺ عنكم، وخبره من رؤيته مكامن الغيب بنور النبوة في القلب، وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إشارة إلى أنه قال: أنا أرى يوسف ﷺ وبنيامين في مجالس الأنس، وأنا أصبر حتى أوصلها الله إلي، ومعنى الصبر الجميل هاهنا ترك إفشاء السر، وابتلاع هيجان الفرح حتى لا ينكشف سر القدر، ولا ينهتك ستر الربوبية، وهذا من وصف تمكين الأنبياء علم إن بدا هذا الأمر خبرًا، وأن الوصال ورجوع الأحبة إلى الأحباء، وانقطاع زمان البلاء دنا وصال الحبيب، واقتربا واطربا للوصال وأطربا وتصديق ما ذكرنا.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢) ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ هذه الترجية من رؤية الوصال بعين اليقين قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ معناه أي: علم ما علمت، وحكم بحكمته على فرقتي حتى يمضي بقية الفراق، وأيضًا الصبر الجميل، هاهنا احتمال البلاء على البلاء برؤية المبقي بوصف إسقاط معارضة السر والشكوى، وأيضًا الصبر الجميل الجلادة في تجرع مرارة

كئوس شراب البلاء على وصف التداني حتى لا يغلب عليه بحر البلية؛ فيغرقه ويلقيه إلى بحر الشكوى، صبرت على بعض الأذى خوف كله، ودافعت عن نفسي؛ فغرت وجرعتها المكروه حتى تدربت، ولو جملة جرعتها لاشمأزت، وأيضًا الصبر الجميل ما يكون بالله قاله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

قال الجنيد: الصبر الجميل أن يُجعل ابتداؤه وانتهاؤه لا يبتدئ فيه بتحير، ولا يقطعه بدعوى بل يمضي في جميع أوقاته على رؤية من إكرامه الصبر.

قال بعضهم: الصبر الجميل الذي ليس فيه إظهار الشكوى، ولا إحساس بلوى، ولما ثقل عليه أوقات البلاء ضاق صدره من معاشرة الخلق، وأقبل على الله، وشكا منه عليه بقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أسفه كان على رب يوسف ﷺ لأنه رأى من يوسف ﷺ جمال رب يوسف ﷺ بواسطة يوسف ﷺ؛ فلما غاب عنه وفقده تغلل كتمانا على الحقيقة، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، وهذا كحال الخليل ﷺ حين اشتاق إلى ربه فتعلل بقوله: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وأراد بذلك رؤية المحيي، ومثل هذا احتيال العاشقين تولى عنهم إذ لم يرى ما يرى في يوسف ﷺ عنهم، وقال: يا أسفى على مرآة الله في بلاد الله تذكر أيام بالوصال، وظهور أنوار الجمال، وتأسف بالفراق والانفصال بعد الاتصال.

سَقَى اللهُ أيامًا لنا ولياليًا ... مضت فجرت مِنْ ذكرهن دموعُ
فيا هَل لَهَا مِن الدهرِ أوبة ... وَهَلْ لِي إلى أرضِ الحبيبِ رجوعُ

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ علق ذهاب البصر إلى الحزن، وذهابه كان من فقدان ذلك الجمال بكى حتى ذهب بصره بألا يرى غير حبيبه.

لما تيقنتُ أني لست أبصركم ... غمضتُ عيني فَلَم أنظر إلى أَحَدِ

ولما رأى سبحانه دعوى يعقوب بالصبر الجميل زاد حمل بلائه على بلائه حتى ضاق صدره عن حمل وارد قهر القدم، وخرج بعجز البشرية، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ لأنه تعالى غيور ولا يذر أحدًا من التمكين إلا ناقصًا عن موازات طوارق أقدار الأزل.

ألا ترى إلى قول من قال: من صبر اجتوى، ومن شكر ابتدى، ومن ذكر افترى، ما أعجز الحدثان في ظل نور عظمة الرحمن.

قال الجنيد: في قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم لما لم يجد من عندهم الفرح ولم يوفيهم مشتكي لشكواه، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فلم يترك في هذا النفس الوجد له نفسًا حتى أوحي إليه أتأسي على غيرنا، أين ذلك الصبر الجميل الذي وعدتنا من نفسك،

أتأسى وقد أخذنا منك واحدًا، وأبقينا لك عشرًا، فأنت مع هذا تظهر الشكوى، وتقول صبر جميل.

وقال ابن عطاء: بكاء يعقوب ﷺ وتأسفه لفقد الألفة، وذلك أنه لما لقي يوسف ﷺ زاد في البكاء، فقال: يا أبت، تبكي عند الفراق، وعند التلاقي، قال: ذلك بكاء حرقة الفراق، وهذا بكاء الدهشة.

وقال أبو سعيد القرشي: أوحى الله إلى يعقوب ﷺ: يا يعقوب تتأسف على غيري، وعزتي لآخذن عينيك، ولا أردهما عليك حتى تنساه.

وقال: التأسف على الغاية تضييع وقت ثان.

ثم وصف يعقوب ﷺ بشدة حزنه وذهاب بصره، فقال: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الحكمة في ذهاب بصر يعقوب ﷺ وبقاء بصر آدم ﷺ وداود ﷺ أن بكاء يعقوب ﷺ بكاء الحزن معجون بألم الفراق، وذلك من واقعة فقدان تجلي جمال الحق من مرآة وجه يوسف ﷺ.

وكان يعقوب ﷺ في خصائص العشق من الله سبحانه، وكان يغذيه من مقام العشق لطائف الالتباس، فلما فقد ذلك الواسطة فقد مطالعة جمال الحق بعظم شأن الفراق، وبعد يوم التلاق، وذهب نور البصر مع المبصر حتى لا ينظر به إلى شيء دونه.

وبكاء آدم ﷺ وداود ﷺ بكاء الندم من مقام البداية والتوبة، ومقام الندم لم يكن قويا حزنه وحرقته، ولو كانا في مقام العشق كما كان يعقوب ﷺ لذاب وجودهما، وأنى مقام التوبة والندم من مقام العشق والالتباس الذي من عوالي درجات المعرفة، وشأنهما شأن أقواء المعرفة أعني العشق والالتباس، ألا ترى إلى يونس ﷺ وشعيب ﷺ كيف ذهب بصرهما في شوق الله، وكانا لا يبكيان من الندم، بل يبكيان من الشوق إلى جمال الله؛ فذهب بصرهما لذلك.

وفي الحديث المروي: «إنَّ شعيبًا كان بكى حتى عمي، فردَّ الله بصره عليه، ثم بكى حتى عمي فرد الله بصره عليه، فأوحى الله إليه: إن كان هذا البكاء لأجل الجنة؛ فقد أبحتها لك، وإن كان لأجل النار؛ فقد أجرتك عنها، فقال: لا، بل شوقًا إليك فأوحى الله إليه لأجل ذلك أخدمتك نبيي وكليمي عشر سنين»[1].

وهكذا حال يونس ﷺ في الشوق؛ فعرض الجنة عليه، وأمنه من النار، فقال: بعزتك لو كان بيني وبينك بحر من النار أخوض فيها حتى أصل إليك، وأيضًا كل بكاء يكون من الحزن والغم والخوف يضر بعين صاحبه، وكل بكاء يكون من الشوق والمحبة لا يضر بعين

---

(١) ذكره القشيري في «الرسالة القشيرية» (١/ ١٤٩).

صاحبه بل يزيد نورها، ويمكن أن ذهاب بصره غيرة الله عليه حين بكى لغيره، وإن كان واسطة بينه وبينه.

وقال سبحانه: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ وما قال: عُميت عيناه حجب عيني يعقوب عليه السلام عن النظر إلى العالم حتى لا ينظر إلى غير الله؛ فرجع نور بصره إلى بصيرته؛ فيرى بذلك جمال الله سبحانه، لأجل ذلك قال: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾.

وتصديق ذلك ما قاله الشيخ أبو علي الدقاق -رحمة الله عليه: لم يكن في الحقيقة عمى، وإنما كان ذلك حجابًا عن رؤية غير يوسف عليه السلام.

سُئل أبو سعيد القرشي: لِمَ لَمْ تذهب عين آدم عليه السلام وداود عليه السلام من طول بكائهما، وذهبت عين يعقوب عليه السلام؟ قال: لأن بكاءهما كان من خوف الله، وبكاء يعقوب عليه السلام كان من فقد ولده، فحفظا وعوقب.

وقال أيضًا: بكاء الأحزان يعمي، وبكاء الشوق يجلي البصر، قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾، وقال أيضًا: الكظيم الممتلئ من الغم.

وقال ابن عطاء: أراد أن يبكي على يوسف عليه السلام فتغرغرت عيناه؛ فأراد أن يرسلها فوجد لذة البكاء؛ فكظمها وردها في عينيه فابيضتا.

ولي لطيفة تجربة وذلك أن كل نظير من جهة عشق الإنساني؛ فداؤه وتعذيبه أشد من داء محبة الله وتعذيبه؛ لأن في محبة الإنسان كثافة وشدة؛ لأنه منزل الابتلاء والعذاب، وفي محبة الله وعشقه لطفًا وحلاوة ربانية لا يكون بإزائها راحة الجنان، ولذلك هناك البلاء أطيب، والمحبة أعذب، فلما كان يعقوب عليه السلام في أشد المحبة وعظم المحبة تجلد في كظمها، ولذا قال: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾؛ لأن هناك مكان الشكوى وشناعة، ولولا أن كظم لفشى حاله أكثر مما فشي في العالم، وصفه بالتمكين في تحمل البلاء، ومن كثرة كظمه الحزن والتأوه احترق مسلك نور الباصرة من مكان الروح الناطقة؛ لأن نور الباصرة تجري من نور روح الناطقة في أضيق طريق من شريان الدماغ، فلما احترق السبيل انسد باب الباصرة، وابيضت عيناه من احتجابها عن أنوار الروح، فلما رأوه حين جدد عليه ذكر يوسف عليه السلام والأسف عليه وهم محجوبون من نور الفراسة في ذلك الوقت من استنشاق ريح يوسف عليه السلام أنكروا على أبيه في ذكر يوسف عليه السلام بقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ لم تعلموا أن العاشق لا يزال ذاكرًا لمعشوقه، وكيف يسكن المحب عن ذكر محبوبه، وهو مستغرق بجميع وجوده في ذكر محبوبه.

فَإِن تَمْنَعوا لَيلى وَحُسنَ حَديثِها ... فَلَم تَمنَعوا عَنّي البُكا وَالقَوافِيا

خوّفوه بالهلاك والحرص، وكيف يفزع العاشق من هلاكه في عشق محبوبه وهلاكه وحياته؟!

قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وكيف كان يسكن عن ذكر يوسف ﷺ، وفي بصر سرِّه ينظر إلى شاهد خيال يوسف؟!

غـــابَ وفي قلبِـــي لـــه شـــاهدٌ ... يولــــعُ إضـــماري بذكـــراه

مـــثلت الفكـــرةُ لي وَجهَـــه ... حتـــــى كـــأني أراه

قال أبو سعيد القرشي: لا تزال تذكر يوسف ﷺ، فمتى تذكر رب يوسف ﷺ؟

وقال أيضًا: كل مشتاق لا يزال يذكر أنيسه وحبيبه حتى يغيره الناس على ذلك، فإما يموت، وإما يصل إلى قربة.

فلذلك قوله: ﴿تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ قيل: أطيب الأشياء في الهوى الهلاك في حكم الهوى، فكيف يخوف بالهلاك من كان أحب الأشياء إليه الهلاك، فما سمع ملامتهم ولم يرهم أهلًا لدائه وحمل موارد الحق عليه أعرض عنهم.

وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أن ما أجد من امتحان الله عليَّ وعظيم بلائه، وما أرى فيها من لطائف صنعه وكشوف غرائب وجوده وأنوار وجوده لا البسط إلا في بساط الحق، ولا أحمل ذلك إلا على الحق؛ فإنه يحمل هذه الأثقال التي لو تُحمل على السماوات والأرضين والجبال والبحار لتضمحل وجودها تحت سلطان قهرها، وكيف أذكرها لكم وأنتم محجوبون عن ذلك، وتصديق ذلك ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كان بث يعقوب ﷺ وحزنه من الله، وكذا شكواه؛ فقال: أشكو منه إليه، وأفرق حزني بين يديه؛ لأن ما منه لا يرجع إلا إليه، ما أطيب شكوى المحب إلى حبيبه؛ لأن الحبيب يعلم مداواة حبيبه لا غير، إلى الله أشكو ما لقيت من الهجر وكثرة البلوى، ومن قلة الصبر، ومن حرق بين الجوانح والحشا كحجم العضا، لا بل أحرّ من الجمر.

قال سهل بن عبد الله: لم يكن حزن يعقوب ﷺ على يوسف ﷺ إنما كان مكاشفًا لما وجد من قلبه شدة الوجد على مفارقة يوسف ﷺ، قال: كيف يكون وجد فراق الحق على مفارقة يوسف ﷺ، قال: كيف يكون وجد فراق الحق وقد عمل بي مفارقة يوسف ﷺ كل هذا فشكا وبث وحزن وما وقع لي من قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنا لا أشكو إلى غيره، فإني أعلم غيرته على أحبائه وأهل معرفته، إذا شكا إلى أحد إلى غيره يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، وأنتم لا تعلمون ذلك، وأيضًا أعلم من الله أن من صبر في

بلائه يجازيه بلقائه الذي لا حجاب فيه، ولا عذاب ولا حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وأيضًا أعلم من الله حقائق المكاشفات والمشاهدات والقربات ودقائق علومه الغيبية، ومن كان بهذه الصفة لا يضع حمل مطاياه إلا في فناء عطاياه حتى يفعل ما يشاء.

قيل في المثل: عطاياه لا تحمل إلا مطاياه.

وأنشد ذو النون في هذا المعنى:

إذا ارتحـــل الكـــرامُ إلـــيك يـــومًا	ليلتمـــسوك حـــالاً بعـــد حـــالِ
فـــإن رحالـــنا خطـــت رضـــاه	بحكمـــك عـــن حلـــول وارتحـــالِ
فـــشئنا كـــيف شـــئت ولا تكلـــنا	إلى تدبـــيرنا ذي المعـــالي

ويمكن أنه كان ﷺ بشيرًا إلى الله سبحانه يوصل إليه يوسف ﷺ، وبنيامين عن قريب فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وتصديق ذلك ما قاله سبحانه عقيب الآية بقوله: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ معناه علمي بالله علم حقيقة، وعلمكم به علم استدلال، وقال أيضًا: أعلم من الله إجابة دعوات المضطرين.

وقال بعضهم: أعلم من رحمته على عباده ما لا تعلمون.

قيل: لما شكا إلى الله وجد السلوة من الله.

ويقال: كان يعقوب ﷺ متحملاً بنفسه وقلبه مستريحًا محمولاً بسره وروحه؛ لأنه علم من الله سبحانه صدق حاله فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في معناه والشك اليقين إذا ما تمنى الناس روحًا وراحة تمنيت أن أشكو إليه فيسمع.

ومعنى قوله: ﴿فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أنه كان يرى بعين سره، وقدم صفائح قدس الغيب، منقوشًا بذكر الوصال ورؤية ذلك الجمال، ووصل إلى مقام روحه روح نسيم يوسف ﷺ؛ فحكم حكمًا كاملاً فقال: تحسسوا من يوسف ﷺ بخواطركم الربانية والإحساس والروحانية حتى تجدونه، وأيضًا تحسسوا بجميع وجودكم وقلوبكم لا بنفوسكم الأمّارة، وأيضًا انقطعوا من جميع الأشياء في طلبه، فإن متفرق الهمة لا يظفر بمأموله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ لا تقنطوا من كرمه ورحمته في إرجاع يوسف ﷺ وبنيامين إليَّ، وأيضًا تحسسوا من يوسف ﷺ، ولا تيأسوا من روح الله؛ فإنه لا يبقيكم في

الخجالة بين يديه؛ فإنه يعفو عنكم، وفيه إشارة تعليم عزة قدرته أي: لا تيأسوا من قدرة الله؛ فإنه قادر بأن يوصل يوسف ﷺ إلينا بأقل من طرفة عين، ولو كان فانيًا، وإن مَنْ لم يؤمن بذلك مبعدة من الله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وإنهم إن الإياس في مقام الإيمان من صفات النفس الأمّارة، والإياس في صفات المعرفة من صفات القلب، وذلك قنوطه من وصوله إلى مطالعة حقائق القدم، وذلك من غلبة التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، وتحت ذلك الإياس بحار من حسن الرجاء بالوصال: والبقاء في البقاء، وبعد الفناء في الفناء، وعن رؤية سرمدية القدر.

وقال الجنيد: يحقق رجاء الراجين عند تواتر المحن، وترادف المصائب؛ لأن الله يقول: ﴿لَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، والنبي ﷺ يقول: «أفضل العبادة انتظار الفرج»[1].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أما قوله: يا أيها العزيز أي: أيها المتلبس بأنوار الربوبية التي كسبت في الأزل ظاهرًا وباطنًا، أيها الممتنع من أن يراك أحد بالشهوة، وأيها الغالب على سلب قلوب الخلائق بالجمال والجلال مسنا وأهلنا ضر فراقك: وبعد وصالك نحن في ضر جنايتنا محجوبون عن جمالك وأبوك وأهاليك في ضر البعاد عن رؤيتك ووصالك، وأنشد:

كفى حزنًا بالوالهِ الصَّبِّ أن يرى منازلَ مَنْ يهوى معطلةً قفرا

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ من تضير الله إيانا في حقك وعتابه فيما فعلنا، وأيضًا مسَّنا ضُر الخجالة بين يديك، قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ بعذر من جنايتنا ما لا يليق بها فعلنا بك بكيل عفوك، وتصدق علينا بالتجاوز عما فعلنا؛ فإن الله يجزي المتصدقين بأنه يعافيك عما هممت به، وبأن يكرمك أحسن الإكرام من لطيف الإنعام، وما أحسن افتقار الفقراء أو المبتدئين عند أكابر القوم، وتواضعهم بين أيديهم، وتسميتهم بأسماء التعظيم، كما فعل بنو إسرائيل عند يوسف ﷺ باءوا بذكر المقاسات والفقر حين رأوا بساطًا بسيطًا عن ملكه وسلطانه.

ثم ذكروا قلة بضاعتهم حين شاهدوا هيبة يوسف ﷺ ومهابته وجلال قدره، فلما انبسط إليهم انبسطوا إليه، وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فلما طالعوا أن بضاعتهم لا يليق بمثل بساطه تبسطوا، وقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾؛ فإن ما معنى لا يليق بعرض بيعك

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥٦٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/ ٢٣٠).

وشراك؛ فإن جزاؤك عليه بلا علة وحديث البضاعة والفقر علة طلب الوصال ورؤية الجمال والغرض الكلي: ذلك لأنهم مأمورون بطلب يوسف ﷺ، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ﴾ عرضهم رؤيته ومشاهدته.

وأنشد في معناه:

وما الفقرُ مِنْ أرضِ العَشيرةِ ساقَنا ... ولكننا جئنا بلقياك نسعدُ

هذا يكون من قبل المخلوق، فكيف يكون إذا دخلوا عشاق جمال القدم في بساط الكرم؟ أي: قالوا ما قال إخوة يوسف ﷺ: مسَّنا وأهلنا الضر، مسَّنا من ضر فراقك، والبعد من وصالك ما لا يحتملها الصنم الصلاب.

خليلي ما ألقاه في الحبِ عن ندم ... على صخرة يتعلق بها الصحن

ويقولون: جئنا ببضاعة مزجاة من أعمال مغلولة، وأفعال مغشوشة نفسانية حدثانية، ومعرفة قليلة عاجزة عن إدراك ذرة من أنوار عظمتك، وكل هذا لا يليق بعزتك وجلال صمديتك، ﴿فَأَوْفِ لَنَا﴾ كيل قربك ووصالك من بحار فضلك وجودك، وتصدق علينا أعطنا من نعم مشاهدتك التي لا تعطيها أحدًا إلا بتفضلك بغير الأعواض بقولك: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

قيل في هذه الآية: تعليم آداب الدعاء، والرجوع إلى الأكابر، ومخاطبة السادات؛ فمَنْ لم يرجع إلى باب سيده بالذلة والافتقار وتذليل النفس وتصغير ما يبدو منها، ويرى أن ما من بيده إليه على طريق الصدقة والفضل لا على طريق الاستحقاق كان مبتعدًا مطرودًا.

قال أبو سعيد القرشي في قوله: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾: أي: مسَّنا الضر في ارتكاب المعاصي، وبما اجتمع علينا من الجنايات والمخالفات، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ بأنفس قاصرة عن الخلاصة، وأعمال لا تصلح لبساط المشاهدة والنشر، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: نوف علينا بما لم نزل بعد فيه من فضلك وإحسانك، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ اجعلنا منك بمحل الفقراء إليك الذين يستوجبون الصدقة منك تفضلًا، وإن لم يكن منهم فألحقنا بهم.

وقال سهل في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾: أي: أيها المغلوب في نفسه كما قال: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني.

ويقال: استلطفوا بقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم، ويقال: لما طالعوا فقرهم نطقوا بقدرهم فقالوا: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾، ولما شاهدوا قدر

يوسف ﷺ سألوا على قدره، وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فلما ذكروا حديث الصدقة ترحم عليهم يوسف ﷺ وهاج سره إلى إظهار الحال، وحيث رأى عجزهم وتواضعهم لم يبق له قرار حتى كشف الحال بقوله: ﴿عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ليس غرضه تعييرهم، بل غرضه تقريبهم؛ فعاتبهم وذكر صنائعهم به وبأخيه تعريفًا منه إياهم بأنه يوسف ﷺ لئلا يبقى لهم شك، ويعرفوه حق المعرفة ووضع عن لهم بقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أي: ما جرت في زمان الجهل والشباب لا تعيير به، وتمكن أن سر تلك النفس الأمّارة باح في البين؛ ليوقفهم في محل الخجالة، ثم أدركه الله حتى بيَّن غدرهم بقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾، وهذا كقول بعضهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ في باب العتاب أعظم من كل عقوبة كان يعاقبهم بها، حيث أخجلهم مكافحة.

ويقال: لما خجلوا بهذا العتاب لم يرض يوسف ﷺ حتى بسط عذرهم؛ فقال: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ فلما ذكر الإشارة أوقع الله في أسرارهم أن المخاطب هو يوسف ﷺ فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾ فلما عرفوه خاطبوه بخطاب المودة لا بخطاب التكلف قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ فأجابهم أيضًا بخطاب المودة تعريفًا وتواصلا وتواضعًا فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾، وأنشدوا:

إذا صَفَتِ المودةُ بين قومٍ ... ودامَ ولاؤُهمْ سَمُجَ الثناءُ

ويمكن أنهم لما عرفوه سقط عنهم الهيبة وهاجت لهم الحمية، وما تكلموا بانبساط الأول من حيث القرابية، وقوله: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ لإظهار صدق الحال، ويمكن أن يشير إلى تعبيرهم حيث قال: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾، وما قال: أنا أخوكم أي الأخوة الصحيحة ما لم يكن فيها جفاء، ويقال: هوَّن عليهم حال بديهة الخجلة، حيث قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ فكأنه شغلهم بقوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؛ فإنه سبحانه شغل موسى ﷺ بسماع قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، وفي مطالعة العصا في غير ما كوشف به من قوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾.

ثم رجع يوسف ﷺ من تعريفه إلى الله، حيث قال: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: قد تفضل علينا بما وقانا مما وقعتم فيه، وأيضًا قد منَّ الله علينا بالوصال بعد الفراق، وأيضًا قد منَّ الله علينا بالمعرفة والمحبة والرسالة، وعلم الغيب، والبراهين الساطعة، والحسن والجمال الظاهر، والمكاشفة والمشاهدة الباطنة.

ثم بَيَّن أنه تعالى إذا أراد أن يكرم عبدًا ألهمه الصبر في بلائه والتقوى في عباده بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: مَنْ يتق في الخلوة عن متابعة الشهوة والوقوع في النهمة وصبر عن انقياد هوى النفس بعد جريان الهمة.

قال ابن عطاء: مَنْ يتق ارتكاب المحارم، ويصبر على أداء الفرائض؛ فإن الله لا يضيع سعي من أحسن في هذين المقامين، واعتمد على الله، ولم يعتمد سعيه ولا علمه.

ولما رجع يوسف ﷺ إلى ذكره تفضل الله عليه وعلى أخيه، وذكر توحيده أوقعهم الله ذلك إلى رؤية توحيد الله بقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ رجعوا إلى الله في أول مقالتهم، وذكروا فضله عليه، ثم أتوا إلى مذمة أنفسهم أي: آثرك الله علينا بالخَلق والخُلق والحسن والجمال والملك والشرف والمكاشفة والعلم ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: جاهلين بجاهك.

قال بعضهم: اختارك وقدمك علينا بحسن التوفيق والعصمة، وترك المكافأة على الإشارة ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ لمسيئين إليك، فلما سمع يوسف ﷺ اعتذارهم أرجع نفسه ونفوسهم إلى مقادير السابق، ثم استعمل الكرم والظرافة في الخلق بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: هذا يوم الوصال وكشف الجمال، يرفع العذاب، لا يوم التعيير والتثريب، وفي هذه الحالة إشارة إلى أن الأولين والآخرين إذا دخلوا في سابقة الكبرياء وسكت لهم ألسنة العذر، يبسط الله سبحانه أوراق الأقدار والتي جرت في سبق السابق بما كان، وما سيكون وتحمل أعمالهم جميعًا على مطية القدر، ويبرئهم عن الجرائم، ويقول: من أفضاله وكرمه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ فإن أفعالهم جرت بمقاديري، وكيف كنتم تدفعون مقاديري كأنه تعالى يضع العذر على القدر، ويغفر لهم جميعًا بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ بيَّن الجرم وغلب العفو والكرم على العتاب والمؤاخذة.

قال جعفر ﷺ: لا عيب عليكم فيما عملتم، لأنكم كنتم مجبورين عليه، وذلك في سابق القضاء عليكم.

قال أبو عثمان: ليس لمن أذنب أن يعاتب مذنبًا، وكيف أعيبكم، وقد سبق مني الهم والاختيار للسجن، وقولي: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ وكيف ألومكم فيما عملتم وأنسى ما عملت؟

قال شاه الكرماني رحمة الله عليه: من نظر إلى الخلق بعين الحق سلم من مخالفاتهم، ومن نظر إليهم بعينه أفنى أيامه في مخاصماتهم، ألا ترى إلى يوسف ﷺ لما علم مجاري القضاء كيف

عذر إخوته، وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

قال أبو بكر: اعتذروا إليه، وأقروا بالجناية بقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، وهذا من شرط الكرم أن يعفو إذا قدر، ويقبل عذر من اعتذر.

وقال الأستاذ: أسرع يوسف ﷺ التجاوز عنهم، ووعد يعقوب ﷺ لهم بالاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾؛ لأنه كان أشد حبًا لهم فعاتبهم، وأما يوسف ﷺ فلم يرهم أهلاً للعتاب، فتجاوز عنهم على الوهلة.

ويقال: ما أصابهم في الحال من الخجلة قام مقام كل عقوبة ﷺ، ولهذا قيل في المثل: «كفى للمقصر حياء يوم اللقاء».

ولما فرغ يوسف ﷺ من كشف حاله مع إخوته ووصاله معهم، رتب شغل وصال يعقوب ﷺ، ومن كرمه وجلاله أعطى وصاله أولاً للخاطئين، ثم للعاشقين؛ لأن الخاطئ ضعيف لا يحتمل البلاء، والعاشق قوي يحتمل البلاء؛ لأن يعقوب ﷺ يرى يوسف ﷺ كل وقت بعين سره، فاحتمل بلاءه بذلك.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحكمة في إرسال القميص أنه علم أن يعقوب ﷺ لا يحتمل الوصال الكل بالبديهة؛ فجعل وصاله بالتدريج لئلا يهلك في أول الملاقاة من فرح الوجدان، فأرسل القميص ليقويه بريحه وطيب روحه، ولأن عيني يعقوب ﷺ ابيضتا لم تكونا عمياوين إنما ضعف نورهما؛ فأرسل القميص لذهاب بياضهما؛ فإنه لو يشم يوسف ﷺ بعينه احترق بقية نورهما من فورة الهيجان، فخاف على عينيه، وأيضًا إن قميص يوسف ﷺ كان من نسج الجنة؛ فرأى يوسف ﷺ غيرة الحق فأرسل القميص إليه ليشم أولاً رائحة بساط القرب، وأيضًا كان قميص يوسف ﷺ علامة بينه وبين أبيه، فأشار إليه بالقمبص، أي: إذا كان بالقميص السلامة من حرق الذنب فأنا أيضًا بالسلامة.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر ﷺ قال: كان المراد في القميص أنه أتاه الهم من قبل القميص بقوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ فأحب أن يدخل السرور من جهته التي دخل الهم به عليه.

ويقال: كان العمى في العين؛ فأمر بإلقاء القميص عليه ليجد الشفاء من العمى.

ويقال: لما كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في اللقاء للعين التي في الوجه، وفي معناه أنشدوا:

وَمَا بَاتَ مَطْوِيًّا عَلى أرْيَحِيَّةٍ بِعَقْبِ النَّوى إلّا فتى باتَ مُغْرَمًا

وقوله تعالى: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كان كرم يوسف ﷺ يقتضي أن يذهب إلى أبيه ولا يستحضره؛ ولكن أبى نازع العشق إلا أن يزيد البلاء على العاشق، ومَنْ يرى معشوقًا في الكونين رحيًا بعاشقه؛ فإن اقتضى الظاهر الأدب غلب العشق على الرسوم حتى يزيد عشقُه على عشقِه، وشوقُه على شوقِه، ويرى يوسف ﷺ فتوته؛ فآثر أجر السعي على أبيه، كان سخيًّا بدينه لا بدنيا، وذلك من عزة أبيه عنده، وشارك الأهل؛ لأنهم أيضًا قاسوا أيضًا مقاساة الفراق أراد أن يشتركوا في الفرح.

ويقال: علم يوسف ﷺ أن يعقوب ﷺ لا يطيق القيام بكفاية أمر يوسف ﷺ فاستحضره إبقاء على حاله لا إذلالاً بقدره، وما عليه من إجلاله.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لما خرج من مصر هبت ريح الصبا على القميص، وجاءت إلى يعقوب ﷺ وهبت على وجهه، ونشقته ريح يوسف ﷺ فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وجد ريح يوسف ﷺ من مسافة ثلاثين فرسخًا؛ لأنه كان في كل أنفاسه، مستنشقًا لريح يوسف ﷺ، وهكذا شأن كل عاشق يتعرضون لنفحات ريح وصال الأزل، ويستنشقون نسائم ورد مشاهدة الأبد، بقلوب حاضرة، وعيون باكية في الخلوات والصحاري والفلوات كأنهم ينشدون هذين البيتين كل وقت شوقًا إلى تلك المعادن:

أَيَا جَبلي نُعمانَ بِاللهِ خَلِيَا طَرِيقَ الصَّبا يَخْلُصْ إليَّ نَسيمُها

فَإنَّ الصَّبا رِيحٌ إذا ما تَنَسَّمَتْ عَلى نَفْسِ مَهمومٍ تَجَلَّتْ هُمومُها

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لنفحات الرحمن»[1]، ما أطيب حال المحبين حيث راقبوا روائح كشف الصفات من معدن الذات، وطلبتهم عرائس القدم في قميص الالتباس كأنهم ينشدون من غاية الشوق إلى تلك المعاهد هذين البيتين:

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ١٨٠)، و«المعجم الكبير» (١٩/ ٢٣٣)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٦٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٦٩).

سَلامٌ علَى تلكَ المعاهِدِ إنَّها شريعةُ وِردي أو مهبُّ شمالي
فقد صرت أرضى مِنْ سواكن أرضها بخلبِ برقٍ أو بطيفِ خيالِ

فديت لهذه القضية الحسنة الإلهية، ما أحسن شمائلها، وما أطيب لطائفها، وما أنور روائها، انظر كيف أخبر سبحانه من حسن أحوال العاشقين والمعشوقين، قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ علم يوسف ﷺ مواساة ريح الصَّبا، وأودعه ريحه حتى أسرع البشير في إيصال الخبر إلى يعقوب ﷺ شوقًا منه إلى وصال يعقوب ﷺ.

أذكر في هذا المعنى أبيات لطيفة:

نسيم الصبا بلِّغ سَلامي إليهم وأرفقْ بفضلِك بالهبوبِ عليهم
وقلْ لهم إني وإن كنت نازحًا فروحي وقلبي حاضران لديهم
نسيمَ الصَّبا إنْ جئتَ أرضَ أحبَّتي فخُصَّهُمُ منّي بكلِّ سلامِ
وبلغْهُمُ أني رهينُ صبابةٍ وأنَّ غرامي فوقَ كلِّ غرامِ

ومعنى قوله: ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ علم أن مَنْ لم يكن في بلاء المعشوق لم يستنشق ريح المعشوق؛ فيريب المخبر بما كوشف له.

قال جعفر: يقال: إن ريح الصبا سأل الله، فقال: خصني بأن أبشره بابنه، فأذن الله له في ذلك فكان يعقوب ﷺ ساجدًا فرفع رأسه، وقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ فقال له أولاده: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي: محبتك القديمة، وكان الريح ممزوجة بالعناية والشفقة والرحمة والأخبار بزوال المحنة، وكذلك المؤمن المتحقق يجد نسيم الإيمان في قلبه، وروح المعرفة من العناية التي سبقت له من الله في سره.

قال الأستاذ: كان أمر يوسف ﷺ وحديثه على يعقوب ﷺ مشكلاً، فلما زالت المحنة تغيرت بكل وجه الحالة.

قيل: كان من يوسف ﷺ على يعقوب ﷺ أقل من مرحلة حيث ألقوه في الجب؛ فاستتر عليه خبره، وحاله ولما زال البلاء وجد ريحه، وبينهما مسافة ثمانين فرسخًا من مصر إلى كنعان.

ويقال: لا يعرف ريح الأحباب إلا الأحباب، فأما على الأجانب فهذا حديث مشكل أن يكون الإنسان ريح.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تفرس فيهم أنهم يبسطون لسان الملامة، فنبَّههم على ترك الملامة؛ فلم ينجح فيهم قوله، فزادوا في الملامة بأن قرنوا كلاً منهم بالقسم

وقالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ لم يحتشموا أباهم، ولم يراعوا حقه في المخاطبة، فوصفوه بالضلال في المحبة.

ويقال: إن يعقوب ﷺ قد يعرف من الرياح نسيم يوسف ﷺ، وخبر يوسف ﷺ كثيرًا حتى جاء الأذان للرياح، وهذا سنة الأحباب مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال.

وفي معناه أنشدوا:

وَإِنِّي لَأَستَهدي الرِّياحَ سَلامَكُم ... إِذا أَقبَلَت مِن نَحوِكُم بِهُبوبِ
وَأَسأَلُها حَملَ السَّلامِ إِلَيكُمُ ... فَإِن هِيَ يَومًا بَلَّغَت فَأَجيبي

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي: أنت غائب بسرك في وادي العظمة، وبروحك هائم في فقاد الأزلية، وبعقلك تائه في شوامخ القدرة، وبقلبك مستغرق في بحار الشوق والعشق والمحبة؛ فترى من كل ناحية جمال معشوقك، وتستنشق من جميع الرياح نسيم محبوبك، وأنت واله لا يعتبر قولك بهذا، فأنت تخبر بخبر العاشقين وهيجان المحبين.

قال جعفر: سئل بعضهم: ما العشق؟ قال: ضلال، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

ثم أظهر أنه برهان صدقه وصفاته بالمعجزة الظاهرة بقوله: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ الإشارة فيه أن العاشق الهائم المنتظر لقاء الحق سبحانه، وذهب عينه من طول البكاء يجيء إليه بشير تجليه؛ فيلقي على وجهه عهد أنسه ورد قدسه، فينفتح عينه بنسيم شمال وصاله، فإذا يرى الحق بالحق لما وصل قميص الحبيب إلى وجه المحب رجع إليه نور عينه؛ لأنه وجد لذة نفحة الحق من قميص يوسف ﷺ محل تجلي الحق، وقلبه مهب شمال جلاله، وجد منه ريح جنان قدسه ياسمين أنسه، ومحال أن مَنْ وصل إليه شمال جلاله يبقى علة غيرة الفراق، وظلمة العمر؛ لأن نسيمه طبيب أسقام العاشقين، وآلام المحبين، ألا تري إلى قول القائل:

ألا يـا نـسيمَ الـريحِ مـا لـك كلـما   تقـربت مـنا زاد نـشرك طيـبًا
أظـن سـليمي أخـبرت بـسقامنا   فأعطـتك رياهـا فجـئت طيـبًا

وحكمة إلقاء القميص على الوجه أن قميص الحبيب لم يكن له موضع إلا وجه العاشق؛ لذلك قال: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾، وفي موضع يضع العشاق تراب قدام المعشوقين على عيونهم؛ كيف لا يضعون قميص الأحباب على وجوههم؟

وفي الحديث المروي: إن النبي ﷺ إذا رأى وردًا أو باكورة قبّلها، ووضعها على عينيه، وقال: «هذا حديث عهد بربه»[1].

قال النهرجوري: ألقى على وجهه نور الرضا؛ فارتد يبصر مواقع القضاء.

وقال بعضهم: لما جاء البشير من الله بالصلح منه في بكائه، والتأسف على غيره ورد يوسف ﷺ إليه.

وقال سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب ﷺ قال له يعقوب ﷺ: على أي دين تركت يوسف ﷺ؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

ولما عاينوا معجزة أبيهم، وعرفوا مواضع الخطأ في فراستهم اعتذروا بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: استغفر لنا ما قصرنا في واجب حقوقك، وما بدا منا من إعلام عقوقك، وقلة معرفتنا بنور فراستك، وما يئول عواقب أمور يوسف ﷺ من شرف المنازلات والمقامات والنبوات والرسالات، وأيضًا استغفر لنا تضييع أوقاتنا في متابعة هوائنا، واحتجابنا من رؤية ذنبنا، وما أطيب حال الندامة؛ لأن منها يتولد أنوار الكرامة.

قال بعضهم: أزل عنا اسم العقوق بإظهار الرضا عنا.

قال بعضهم: استغفر لنا ذنوبنا إليك وإلى يوسف ﷺ.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾: جاهلين بأن الله يحفظ أولياءه في المحن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إن يعقوب ﷺ كان عالمًا بالله وأخلاقه العظيمة، وبصفاته المنزهة، وبالأوقات التي هو تعالى يقبل توبة المذنبين، ويغفر ذنوب الخاطئين، ويستجيب دعوة المضطرين، وهو وقت تضوع مسك نفحات شمال وصلته في أرواح المقربين، وفؤاد الصادقين، وقلوب العارفين، وأسرار الموحدين، وعقول المحبين، ونفوس المريدين، وهم يعرفون منه مكان قبول التوبة، واستجابة

---

(١) رواه البيهقي في «الدعوات الكبرى» (٢/ ١٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢/ ٣١) بنحوه.

الدعوة، وعلامتها اقشعرار جلودهم، ووجل قلوبهم، واضطراب صدورهم، وفوران عبراتهم، وهيجان أسرارهم، ووقوع نور التجلي في صميم أفئدتهم، وطيران أرواحهم في رياض الملكوت، وأنوار الجبروت، وهي ترى نسيم صبح الوصال بنعت الرضا عند منازل الثناء، وكشف نقاب النقاب، وأكثر ذلك وقت الأسحار عند تجافي جنوب الأبرار عن مضاجعهم، وانتباههم بركضات عساكر التجلي، وعرائس التدلي حين ينزل بجلاله من هواء القدم إلى عروش البقاء تعالى الله عما أشار إليه أهل الخيال.

قيل في التفسير: أخر على السحر من ليلة الجمعة.

قال ابن عطاء: إن يعقوب ﷺ قال: ارجعوا على يوسف ﷺ، واسألوه أن يجعلكم في حل، ثم أستغفر لكم إن الذنب بينكم وبينه.

قال بعضهم: سوف أسأل ربي أن يأذن لي في الاستغفار لكم لئلا يكون مردودًا فيه، كما ردَّ نوح ﷺ في ولده بقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

قال الأستاذ: وعدهم الاستغفار؛ لأنه لم يتفرغ من استبشاره إلى استغفاره.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ آوى إليه أبويه؛ لأنهما ذاقا طعم مرارة الفراق؛ فخصهما من بينهم بوصاله وتدانيه يوم التلاقي، هناك يتبين تباين منازل الصديقين في المحبة، ومراتب المحبين في الوصلة.

قال الأستاذ: اشتركوا في الدخول، ولكن تباينوا في الإيواء؛ فانفرد الأبوان به لبعدهما من الجفاء، كذلك غدا إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فيه، وفي وجود الجنان؛ ولكن يتباينون في بساطة القربة؛ فيخص به أصل الصفاء دون من اتصف اليوم بالالتواء، ولما بان حالهما في الإيواء ظهر قدرهما في بساط المؤانسة، ومجلس القربة بقوله: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾.

قال ابن عطاء: رفع من محلهم بمقدار حزنهم كان عليه وأسفهم، ولم يرفع من أخوته لسرورهم بإتلافه وكذبهم عليه بأنه ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾.

قال محمد بن علي: من دفع من مريد فوق ما يستحقه أفسد عليه بذلك إرادته؛ لأن بعض الصحابة ذكر عن النبي ﷺ قال: «أمرنا أن ننزل الناس منازلهم»[1].

ورفع يوسف ﷺ أبويه على العرش، ولم يرفع إخوته، أنزل كل واحد منهم حيث يستحق من منزلته.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٦)، وأبو داود (٤/ ٢٦١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٤٦٢).

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝١٠٢ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ صحت هاهنا بيان المكاشفة، وأوائل المشاهدة التي جرت ذكرها بقوله: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ لما بان سطوع أنوار عزة الله على الصديق العزيز علا هيبته عليهم، وعاينوا ما عاينت الملائكة في آدم ﷺ؛ فخروا له سجدًا بغير اختيارهم؛ لأنه كان كعبة الله التي فيه آيات بينات أنوار مشاهداته وسنا تجليه، وظهور جلاله من إلباس قدرته مقام إبراهيم ﷺ حين قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦] رأى ذلك في آيات ملكوت السماء، ورأوا ذلك في آيات ملكوت الأرض، لو رأى الملك وأهل مصر فيه ما رأى يعقوب ﷺ وبنوه لخروا له سجدًا كما قال القائل:

لو يسمَعونَ كما سمِعتُ كَلامَها خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وَسُجودا

فلما اقترنت المكاشفة بالمعاينة، قال تعالى ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ أظهر على يعقوب ﷺ كمال علمه بتأويل أحاديث المكاشفات، والآيات المنامات، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ أي: بيانًا بينًا ليس فيه معارضة النفس.

ثم أثنى على الله سبحانه لما أولاه من نعمه الرفيعة، وكراماته الساطعة بقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: أخرجني من سجن بلاء النفس وخطوات الشيطان، وأيضًا أطلقني من أسرار الإرادة والمجاهدة والرياضة والامتحان إلى سعة بساط الرضوان والمعرفة والمشاهدة والإيقان، ذكر السجن لأن هناك موضع التهمة، أي: أخرجني بكونه من سجن التهمة بأن أظهر طهارتي من الذلة، وأيضًا بدأ بذكر السجن وما جرى لأجله لئلا يحزن قلوب إخوته، وهذا من شرائط كرم المكرمين، أسقط خجلهم حين أظهر ما جري عليه من الهمة، وطول لبثه في السجن من التفاته إلى غير الله من وقت امتحان، ثم ذكر منازلهم، وما فضل على أبويه وإخوته بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: من بوادي

الفراق إلى منازل الوصال جاء بكم من منازل التفرقة إلى عين الجمع، ومن محل التلوين إلى محل التمكين، ثم رفع بكرمه الجرم عن إخوته واستعمل الأدب حين لم يذكر ذكر القدر تنزيها لقدر الله وقدره من مباشرة العلة بقوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ أي: ليس من طبائع الأولياء حركات الأعداء، إنما كان شيئًا طارئًا بغير اختيارنا، أغرى الشيطان بالنزغات بيننا لزيادة درجتنا، وصفاء مودتنا.

ثم وصف الله سبحانه باللطف والرحمة والعلم والحكمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لطيف حيث جعلني لطيفًا في حسن وجهي، عليم بنيتي في عفو أخوتي وقبول عذرهم، وأيضًا عليم بخلق صورتي، حكيم حيث خصني بحكمة النبوة والرسالة.

قال السيد جعفر الصادق ﷺ: قال يوسف ﷺ: ﴿أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾ ولم يقل أخرجني من الجب وهو أصعب.

قال: لأنه لم يرد مواجهة إخوته بأنكم جفوتموني وألقيتموني في الجب بعد أن قال تعالى: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾.

وقال ابن عطاء: الحكمة أنّ السجن كان اختياره بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾، والجب موضع اضطرار ولم يكن له فيه شيء، وفي الاختيار أفاق شكرانه حين خلصه من فتنة اختياره لنفسه، وعلم أن ما اختياره الحق كان فيه الخيرة، وخاف من اختياره لنفسه لما نجاه الله من ذلك شكره.

وقال الواسطي: قد أحسن بي إذ أخرجني من السجن بعد أن عمدت فيه سواء بقوله لصاحب السجن: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

وقال جعفر ﷺ: في قوله ربي لطيف لما يشاء أوقف عباده تحت مشيئته، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن شاء قربهم، وإن شاء بعدهم، فيكون المشيئة والقدرة له لا لغيره، ثم أظهر لطفه بعباده الذين خصهم بفضله بالمحبة والمعرفة.

وقال الأستاذ: ذكر حديث السجن دون البئر لطول مدة السجن، وقلة مدة البئر.

وقال في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ إشارة إلى أنه كما سر برؤية إخوته وإن كانوا أهل الجفاء؛ لأن الأخوة سبقت الحفرة، ثم رجع إلى الحق بالكلية ووصف بها نال من كرمه بقوله: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ من ملك النبوة والعلم بحقائق المخاطبة، وأيضًا أعطيتني من ملكك ملك الربوبية حيث ألبستني شواهد

جودك وأنوار جودك حتى أملك بحسني وجمال قلوب العالمين، وأيضًا آتيتني من ملك شاهدتك وعلمتني من حقائق معرفتك.

ثم وصف الله سبحانه بالقدرة القديمة والعظمة الأزلية بقوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبيّن مكانته في قربه وساحة كبريائه بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ حيث كاشف جمالك لي في الدنيا، وعرفتني صفاتك، وتكشف أيضًا نقاب عزتك لي من وجهك الكريم في الآخرة، ثم حاج شوقه إلى جمال الأزل، ورأى تمام نعمة الله عليه فقال تعالى: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: توفني حين أخرجتني من رؤية الحدثان، وتدبير الأكوان وما سوي من العرفان والإيقان مما يبدوا إلى من كشف قدمك وجلال أبدك وأنوار ألوهيتك، غيبتني مني فيك حتى لا أبقي أنا فيك وتبقى لي، وألحقني بمَنْ كان حاله بهذه الصفة.

قال سهل: في قوله توفني مسلمًا فيه ثلاثة أشياء، سؤال ضرورة، وإظهار فقر، واكتساب فرض.

وقال أيضًا: أمتّني فإنما مسلم إليك أمرك، مفوض إليك شاني، لا يكون لي إلى نفسي رجوع بحال ولا تدبير في سبب من الأسباب.

قال الدينوري: وألحقني بالصالحين مَنْ أصلحتهم مجالستك وحضرتك، وأسقطت عنهم سمات الخلق، وأزلت عنهم رعونات الطبع.

قال أبو سعيد القرشي في نوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ قال: هذا كلام مشتاق لم أجانس إلا بالله.

وقال الأستاذ: قدم الثناء على الدعاء كذلك صفة أهل الولاء، ثم قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أقول بقطع الأسرار عن الأغيار.

قال الأستاذ في قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ علم أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، فسأل الوفاة.

ويقال: من أمارات الاشتياق تمني الموت على بساط العوافي مثل يوسف ﷺ ألقي في الجب وحبس في السجن فلم يقل توفني مسلمًا.

ولمّا تم له الملك واستقام له الأمر ولقي الأخوة سُجدًا له، ولقي أبويه معه على العرش،قال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ نعلم أنه يشتاق إلى لقائه.

ثم بيّن سبحانه أن هذه القصص العجيبة والأنباء الغريبة الأزلية على لسان النبي ﷺ

الأمي أمرًا سماوي عرفه الله بالوحي الصادق والكلام الناطق بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ لتخبر العاشقين والمحبين والمؤمنين لتسلي بها ألم فؤادهم وتعرفهم بها الصبر في بلائه، والشكر في آلائه،والشوق إلى لقائه.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أخبر سبحانه أنه جماله وقدرته ألبس أنوار قدرته وهيبته على آيات السموات والأرض، وجعل كل ذرة من العرش إلى الثرى مرآة يتجلى منها لذوي البصائر من العارفين،وذوي العقول من الموحدين، ولا يريها إلا لمن كان له بصير منور بنور الإيقان والعرفان،وأعلمنا أن أهل الجهل والغباوة محتجبون عنها حيث يرون ظاهرها ولا يرون حقائقها، وأيضًا آيات السموات شواهد الملكوت وآيات الأرض سلاسل بيداء الجبروت من العارفين والمحبين.

قال ابن عطاء: نظروا إليها بأعينهم ولم يلاحظوها بأبصارهم، فلا يكشف الأبصار لهم.

وقال: بعضهم لعلمهم من مواضع المكرمات والآيات من الله، وإلا تكاد على مَنْ ظهر ذلك عليهم، ثم شدد الأمر سبحانه ودقق على المجهور في أمر التوحيد وإفراد القدم على الحدوث بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ وصف الكل في التوحيد بالإشارة إلى غيره في مقاماتهم، وذلك وصف من نظر إلى الوسائط والشواهد في معرفته وما بدأ من لطيف صنائعه بأهل معرفته حتى بلغ الشرك إلى نهاية أن مَنْ أحب الله تعالى لذوق قلبه من مشاهدته؛ فإنه مشرك في حقيقة التوحيد؛ لأن من أحب حقيقة التوحيد حبه لربوبيته ولوجوده لا بجوده، ومَنْ نظر في رؤية الحق إلى نفسه أو إلى غيره من العرش إلى الثرى لم يكن موحدًا محققًا، وهذا مذهب الجمهور من العارفين.

قال الواسطي: إلا وهم مشركون في ملاحظة الخواطر والحركات.

وقال بعضهم: إلا وهم مشركون في رؤية التقصير عن نفسه والملازمة عليها.

قال الواسطي: رؤية التقصير من النفس شرك؛ لأن من لاحظ نفسًا من نفسه، فقد جحد الأزلية للحق، ومن لام نفسه في شيء من أموره فقد أشرك.

قال الحسين: المقال منوط بالعلل، والأفعال مقرونة بالشرك، والحق بائنًا لجميع ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أي: معرفة الله ومحبته، وبذل الروح في طريقة، وانقياد النفس بوصف خنوعها لأمره طريقة، ادعوا من سبقت له الحسنى نبعث العناية في الأزل إلى مشاهدة الله ومحبته وبذل الوجود له، وهذه الدعوة مني على بصيرة ويقين وصدق وذوق وكشف وبيان من الله الذي لا معارضة فيه للنفس والشيطان، وهكذا من اتبعني بوصف المحبة، وطلب المشاهدة والرضوان في الوصال، وكشف الجمال على بيان من معرفتهم، وبيقين بلا شبهة ولا شك ولا تردد.

ثم وصف نفسه بلسان تنبيه وأمره أنه منزه من كل خيال وعلل بقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو منـزّه عن إدراك الخليقة ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما أنا من الملتفتين إلى غير يوسف ﷺ المحبة وطلب الربوبية منه تعالى عن كل خاطر إلا يشوب فيه شوب الحدثان؛ لأن من كان في حيز الحدثان فتوحيده يليق بقدر الحدثان لا يقر قدم الرحمن.

قال ابن عطاء: أدعوكم إلى من تعودتم منه الفضل والأفضال والبر والنوال على دوام الأحوال، وهو الله الذي لم يزل ولا يزال جلَّ وتعالى.

قال القرشي: من دعي الخلق إلى الله يحتاج أن يكون له صولة وقبول، ويكون هذه الآلات مندرجة في دعوته، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠﴾ ففرق بين من دعي إلى الله وبين من دعي إلى سبيل الله.

وقال بعضهم: الداعي إلى الله وبين من دعي إلى سبيل الله.

وقال بعضهم: الداعي إلى الله يدعوا الخلق إليه به لا يكون لنفسه فيه حظ، والداعي إلى سبيل الله يدعوهم بنفسه إليه؛ لذلك كثرت الإجابة إلى سبيله لمشاكله الطبع، وقل من يجيب الداعي إلى الحق؛ لأن فيه مفارقة الطبع والنفس.

وقال الواسطي في قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عمل الفوادح على بصيرة، فلا سَموا ولا نموا له في حقيقته؛ فإن الناس كلهم مفاليس من صحة البصيرة والنخيرة، ولو

لقيت الأنبياء بهاتين الخصلتين لأفلستهم أجمعين، وإني بالبصيرة والعالم كلهم مرتبطون تحت الجناح بها يقومون إليها يؤمرون، والأصل بصورة قاطعة، ونخيرة فائقة لضعف البصائر أطلق من أطلق الثناء من الملأ الأعلى كمَنْ أبصر البحر أخرسه ذكره، فكيف إذا تجاذبته الأمواج وأخذته اللجج، وحقيقة بصيرة الناس هو مشاهدة رؤية الشيء، وهو قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ إذ بالله صحت البصائر، والبصيرة أعلى من النور؛ لأنه لا يصح البصيرة لأحد وهو تحق رق ملك وما دام للشواهد والأعراض عليه أثر كانت بصيرته واهية.

قال بعضهم: الدعاء من البصيرة، والنفاق من ضعف النخيرة.

وقال: البصيرة من لباس الأرواح ليس لها من الأجسام حظ.

وقال الواسطي: على بصيرة أيقن أنه ليس إليه من الهداية شيء، وقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ على ذلك، وعلمهم بالتفويض، والتسليم إمرتهم، ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أنزه الحق عن أن يروم أحد السبيل إليه إلا به ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ادعى لنفسي مع الحق شامل الكل لِمَنْ له الكل.

وقال ابن عطاء: البصيرة أحرقت المعلوم والموعظة المحجوبة بظلم الأطماع، أما علمت أنه لا يصح بصيرة لأحدٍ وهو تحت رق الملك وأدام الشواهد والأعراض عليه أثر كانت بصيرته واهية، والبصيرة إذا صحت سلم صاحبها من كل آفة.

وقال ابن عطاء: الفرق بين البصيرة والسكينة أن البصيرة مكشوفة، والسكينة مستورة.

ويقال: البصيرة أن يطلع شموس العرفان؛ فيندرج فيها أنوار العقول.

ولي هاهنا دقيقة فيها مشابهة كلام الكبراء في هذه الآية أدق مما ذكرت من الأول، أي: قل يا محمد هذه التي رأيتم مني من سنن الإلهية التي اختار لي في الأزل هي الشريعة، ووراء الشريعة الطريقة، ووراء الطريقة الحقيقة، ووراء الحقيقة حقيقة الحقيقة، وهي البصيرة وتلك البصيرة إشراق جمال القدم لبصر الروح المطمئنة الساكنة بالله، الطائرة في الله، الهائمة لله التي طارت من قفص العدم في أنوار القدرة، ولا يسكن من طيرانها في أنوار الكبرياء والبقاء إلى الأبد، فموضع البصيرة إدراك نظر تلك الروح، وموضع الإدراك بصر الروح، فتلك البصيرة نور كشف صفات الحق المتصل على السرمدية بذلك الأمور، ويزيد ذلك النور حتى يضمحل فيه ذلك الإدراك، ويغلب سطواته حتى ينطمس تلك العين في ذلك النور، فلا يبقى هناك إلا نور الحق، وكيف يبقى الحدث في القدرة وعز السرمدية بسطواتها، يذهب آثار الحدثين في أوائل ظهور العرفان، أي في هذه حالتي وسبيلي مع الله، وأنا لا أدعوكم إلى هذه فإنها قاصرة

مضمحلة من الحق في الحق بل أدعوكم إلى الله حتى تعرفونه أنكم لا تعرفونه ولا تبصرونه بالحقيقة، فإنه أعز من أن يدرك بالأبصار والبصيرة، وهكذا من سلك سبيلي فأنا يفني في حقيقتي، يعلم أن إدراكه بالحقيقة محال، وسبحان الله هو منزّه عن إدراك المدركين -وإن كان نبيًا مرسلاً، وملكًا مقربًا ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إنهم يظنون أنه تعالى مدركهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أخبر سبحانه من سنته القائمة، ومشيئته الثابتة القديمة التي أجراها على أهل العناية من الأنبياء والمرسلين والعارفين والمحبين؛ حيث حبسهم في أسجان انتظار كشوف الغيب حتى بلغ قلوبهم إلى محل القنوط من وضوح جلاله وبرهان شمائله وقدسه وعزته، وخافوا من سوابق قهرياته وتنزيه ربوبيته عن كون الخلق وعدمه، فلمّا ذابت قلوبهم، واضمحلت أسرارهم، ومنيت عقولهم، وتحيرت أشباحهم، تطلع بكرمه من مشارق أسرارهم شموس أنور ذاته، وأنوار أقمار صفاته، حتى لا يبقى من ظلمة الالتباس وغبار الوسواس أثر، وهذا حتى قوله سبحانه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ خافوا على الغير لا على أنفسهم لئلا يهلكوا، فإنهم في رؤية مشاهدة القدم بأسراره نبعت السرمدية، هذا معنى الانتظار واضطرابهم وشوقهم إلى وضوح الأنوار.

لا من الشك في خصوصية الولاية وسبق العناية في النبوة والرسالة، وفي القراءة قرئ ﴿قَدۡ كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف؛ فعذره أنهم استغرقوا في قلزم[1] الأزلية، وغابوا تحت بحار الديمومية، ولم يروا الحق من كمال استغراقهم في الحق، فلمّا لم يروه ناداهم بلسان عبرة قهر القديم، أين أنتم؟ غبتم عنه وعن الحقيقة، فيطلع أنوار الحقيقة عليهم، ويأخذ لطفها عن شبكات امتحان القهر، وهذا دأب[2] الحق مع الأولياء حتى لا يسكنوا إلى ما وجدوا منه، بل يفنوا به من كل ماله.

يقال: حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين شيئًا من الأحوال إلا بعد يأسهم منها.

وقال: وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، فكما أنه ينزل المطر بعد

---

(١) القَلْزَمَةُ: ابْتِلاعُ الشَّيْءِ، وبه سُمِّيَ البَحْرُ قُلْزُمًا.

(٢) في المخطوط: أداب.

الإياس؛ فكذلك يفتح الأحوال بعد اليأس منها، والرضا بالإفلاس عنها.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لزوم الأحوال من العارفين والمحبين والصادقين والمتقين والصابرين والعاشقين؛ لأن فيها من مقلوبات أهل الولاية ما يليق بشأنهم من الفراق والوصال والبلاء والامتحان والعشق والمحبة، وتحمل الجفاء والمكاشفة والبراهين الساطعة، اقتداء بهم وطلبًا لما وصل إليهم من الدرجات الرفيعة والمقامات الشريفة.

قال جعفر الصادق ﷺ: أولي الأسرار مع الله.

قال ابن عطاء: عبرة لمن اعتبر وموعظة لمن اتعظ في أن النفس ليس هي بمحل أمن ولا اعتماد عليها.

قال الأستاذ: منها للملوك في بسط العدل كما بسط يوسف ﷺ وفي المن على الرغبة والإحسان إليهم كما فعل يوسف ﷺ لما ملكهم أعتقهم كلهم، ومن العبرة في قصصهم لأرباب التقوى أن يوسف ﷺل ما ترك هواه رقى الله إلى ما دقاه، ومن ذلك العبرة لأهل التقوى في اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لما تبعت هواها لقيت ما لقيت من الضرر والفقر، ومن ذلك العبر للمماليك في حفظ حرمة السادة كيوسف ﷺ لما حفظ حرمته في زليخا ملك منك بالعزيز وصارت زليخا امرأته حلالاً، ومن ذلك العفو عند القدرة كيوسف ﷺ حيث تجاوز عن إخوته، ومنها ثمرة الصبر كيعقوب ﷺ لما صبر على مقاسات حزنه، ظفر يوما بلقاء يوسف ﷺ، إلى غير ذلك من الإشارات في قصة يوسف ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه بيان جميع المقامات والمعاملات والمكاشفات والمشاهدات والآيات والكرامات والمنجيات والمهلكات ولطائف الإشارات إلى علوم اللدنية، والأسرار العجيبة، وهدى أي هاديًا لمَنْ له استعداد هذه الواقعات في طريق الله، وما يبدوا منه نعم مشاهدته، وكرائم ألطافه ورحمة، أي: هاديًا لقلوب المحزونين، وباكورة لفؤاد المحبين، وشمومة لأرواح العارفين، الذين يؤمنون بالله لا بأنفسهم، يعرفون ربه لا بها منه، فإن ما منه محل الامتحان، وهو تعالى بجلاله معادن العرفان، والله أعلم.

❁❁❁

سورة الرعد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝ ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾.

﴿الٓمٓر﴾ إن الله سبحانه تجلي من فعله الخاص لفعله العام؛ فأجاد من بين الفعلين حروفًا جعلها صادق أسرار الصفات والذات، وأخبار الغيب، وغيب الغيب؛ فوضع في الألف سر الألوهية لنفسه، وسر الأنانية لصفوة توحيده، ووضع في اللام سر أزليته لنفسه، وسر لطفه وفي ظهوره بوصف الأزل لأهل التباسه من أهل عشقه وشوقه، ووضع في الميم سر محبته في هواء أزليته لطلب ألوهيته، ووضع في الراء أنور ربوبيته،وجعلها مرآة لعبوديته عبادة؛ فيرون منها لطائف صفاته وروح ملكوت قدسه؛ فلمّا انحسرت الأرواح من طلب الألوهية وجعلت إلى معادن أنوار الربوبية، وسكنت جمادات من مرآة حرف الراء من رحمته الكافية ورأفة الشافية من كل شيء دون الله؛ فالألف صندوق الألوهية لا ينفتح إلا لأهل الأنائية في التوحيد، واللام صندوق نور الأزلية والجمال ولا ينفتح إلا لأهل الوله في شوقه، والميم صندوق محبته الأزلية ولا ينفتح إلا لأهل محبته؛ فالراء صندوق نور ربوبيته ولا ينفتح إلا لسلاك عبوديته الذين مرادهم منه نفسه لا غير.

قال الشبلي: ما من حرف من الحروف إلا وهو يسبح الله بلسان ويذكره بلغة بكل لسان منها حروف، ولكل حرف لسان وهو سر الله في خلقه الذي يقع زوائد المفهوم وزيادة الأذكار.

وقال الحارث المحاسبي: إن الله لما خلق الأحرف دعاها إلى الطاعة؛ فأجابت على حسب ما حلاها الخطاب وألبسها، وكانت الحروف كلها على صورة الألف إلا أن ألف بقيت على صورته وحليتها التي بها ابتدأت، ثم من سنّة الله سبحانه أن وضع ما تكلم به من الأسرار في لباس الحروف على رأس كل صورة، وأشار مما عقيبها من القول إليها وإلى أسرار

ما فيها بقوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: ما أشرنا في الحروف أسرار الكتاب وعلامات الخطاب، ولم يكن معوجًا معلولا بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: بيان وصدق واضح لمَنْ له أهلية سر الكتاب، ولا يفهم ما فيها من الأسرار ذو فترة غافل، وذو غباوة جاهل بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يعرفون حقائقها، ثم وصف نفسه سبحانه بالقدرة القديمة من الصفات وبالحكمة الأزلية من الأفعال بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ خاطب العموم بخطاب العام، أي: أنا رافع السماء بلا علة من العلل، ونفي العمد إذا كان معلولا، وخاطب الخواص بخطاب الخاص، أي: دفعها بغير عمد يرونها بالأبصار؛ ولكن رفعها بعمد ترونها بالبصائر حيث ينكشف بوصف تجليها لها، وتلك العمد القدرة القديمة الأزلية الباقية، وهي الصفات قامت الأكوان والحدثان بها، ورؤية الصفة حيث تجلت حق كما أن رؤية الذات حق، ثم بين أن قدرته شملت الملك الأعظم بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [1] وأيضًا خلق سموات الأرواح بغير عمد بانت للخلق؛ لأنها مخزونة بسلاسل أنوار الأزل إلى عالم القدم والبقاء، ثم استوي أنوار تجليه على عرش القلوب.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ شمس المعرفة، وقمر العلم، أجراهما بين سموات الأرواح عروش القلب تزيينا لملكة كواشفها ومعارفها، يجريان في عالم العقول بأنوار المشاهدة من رؤية الذات، وكشف الصفات تطلع في سماء الأرواح شموس الذات وفي عروش القلوب أقمار الصفات لانتظام أمور الربوبية وتفصيل حقائق العبودية بقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ يدبر أمر هموم المحبة ويفصل آيات المعرفة لوقوع أنوار اليقين وحقائق التمكين بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: بهذه الأنوار تعاينون تلك الأسرار،ويرون بقلوبكم مشاهدة الملك الغفار.

قال ابن عطاء: يدبر الأمر بالقضاء السابق، ويفصل الآيات بالأحكام الظاهرة لعلكم تتيقنون أن الله يجري عليكم هذه الأحوال ولا بد لكم من الرجوع إليه، ثم وصف سبحانه عجائب الملك والملكوت، وحكمة الغالبة في مصنوعاته بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ

---

(١) أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهورَ للحَشَم والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهم في ألوان مشاهدهم فأخبر الحقُّ- سبحانَه- بما يَقْرُب من فَهْم الخلْقِ ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدَّس الجبَّارُ عن الأقطار، والمعبودُ عن الحدود، تفسير القشيري (٣/ ١٩١).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ بسط أراضي قلوب أوليائه ببسط نور المحبة، وجعل فيها رواسي المعرفة؛ لئلا يتزلزل بغلبات هيجان المواجيد، وأجرى فيها أنهار علوم الحقائق، وأنبتت فيها أنواع أزهار الحكم وأشجار الفطن، وأثمرها بثمرات المقامات والحالات بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، وقرن بكل مقام حالا بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ثم يمد عليها أطلال المشاهدة، ويطلع عليها شمس العناية بدوام الكفاية بقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ ثم وصفها ووصف أصحاب هذه القلوب الذين هم رواسي الأرضين، وأنفاسهم أعمدة السماوات، ورؤيتهم مشكاة أنوار الآيات إنهم علامات شمائله وسرج مشكاة قدرته لأهل التفكر في الإرادة والتذكر في المحبة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ وبهم الغياث، فمَنْ ضرب في الأرض بقصدهم فاز ونجا، ومَنْ كان سعيه لغيهم خاب.

قال الجريري: كان في جوار الجنيد إنسان مصاب في خربة، فلمّا مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة، فلما رجعنا بقدم خطوات وعلا موضعًا عليًّا من الأرض واستقبلني بوجهه، وقال: يا أبا محمد تراني أرجع إلى تلك الخربة، وقد فقدت ذلك السيد ثم أنشد بقوله:

وا أسفي من فراقِ قومٍ ... همُ المصابيحُ والحصونُ

والأُسْدُ والمزنُ والرَّواسي ... والخيرُ والأمنُ والسُّكونُ

لم تتغير لنا الليالي ... حتى طوَّقهم المنونُ

فكلُّ جمرٍ لنا قلوبٌ ... وكلُّ ماءٍ لنا عيونُ

قال بعضهم: الفكرة تصفية القلوب لموارد الفوائد.

قال أبو عثمان: الفكرة استرواح القلب من وساوس التدبير.

ثم وصف أراضي القلوب وما فيها من أشكال العيوب بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ قلوب المحبين متجاورات لقلوب المشتاقين، وقلوب المشتاقين متجاورات قلوب العاشقين، وقلوب العاشقين متجاورات قلوب الوالهين، وقلوب الوالهين متجاورات قلوب الهائمين، وقلوب الهائمين متجاورات قلوب العارفين، وقلوب العارفين متجاورات قلوب الموحدين، وفي أرض قلوب العارفين قطع متجاورات قطع النفوس الأمّارة متجاورات بعضها بعضًا، وقطع العقول متجاورات بعضها بعضًا، وقطع الأرواح

متجاورات بعضها بعضًا، وقطع الأسرار متجاورات بعضها بعضًا؛ فقطع النفوس مالحة ملحها الهوى، وقطع العقول عذبة بعذب العلم، وقطع الأرواح طيبة بطيب المعرفة، وقطع الأسرار لطيفة بلطف الأنوار متقاربة بعضها بعضًا؛ فقطعة النفوس تنبت شوك الشهوات، وقطعة العقول تنبت نورة العلوم، وقطعة الأرواح تنبت زهر المعارف، وقطعة الأسرار تنبت كواشف الأنوار ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ العشق يسكر منها الأرواح، وفيها زرع دقائق المعرفة تأكل من حبها العقول؛ فترى بها أنواع المعاملات، وفيها يحيل الإيمان ثمرها الإيقان يأكل منها أطيار الأسرار.

قال الله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ إيمان مع يقين وعرفان من غير علة الاستدلال، ورؤية الآيات سقي هذه البساتين من زلال قاموس الكبرياء لقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ أصل سقيها من عيون الإلوهية بوصف تجليها، وهو واحد منزه عن الأكوان والتغاير لسقيها من سواقي الصفات في جداول الأفعال، فلما وصل مياه التجلي، وأنوار الصفة إلى عالم الفعل، يورث كل صفة الفعل نوعًا من هذه الأشجار والأزهار، ففرع الفعل يتلون بألوان الأحوال، وإن كان أصل منزهًا عن العلل وتغاير الحدثان، وبعض المقام أشرف من بعض لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ ورد المعرفة أنور من نرجس المحبة، ونرجس المحبة من ياسمين الإرادة، وثمر المشاهدة أطيب من ثمرة المراقبة، وهذه الإشارات من الله سبحانه لا يعرفها إلا العالمون بالله بعقول صافية من الأكدار، وقلوب حاضرة مشغولة بالله عن الأغيار لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فالعقل ربق الربوبية في مواطن الفطنة والفطرة يزم بها الحق قلوب الخلق ويجريها إلى العبودية لوجدان المعرفة والقربة؛ فمَنْ وافق حاله مع الله في معرفته حال واحد من أوليائه؛ فهما من أصل واحد من غير تباين وتفرق.

كما روى جابر عن النبي ﷺ قال لعلي ﷺ: «الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ...﴾ حتى بلغ: ﴿...يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾.

وقال الحسن البصري: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة فسطحها وبطحها؛ فصارت الأرض قطعًا متجاورة؛ فينزل عليها الماء من السماء فيخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها، ويخرج نباتها ويحي موتاه، ويخرج هذه شجرها وملحها وخبثها وكلتاهما يسقى بماء واحد؛ فلو كان الماء ملحًا، قيل: إنما هذه من قبل الماء

كذلك الناس خلقوا من آدم ﷺ فتنزل عليهم من السماء تذكرة؛ فترق قلوبهم فتخشع وتخضع، وتقسوا قلوب وتلهوا وتسهوا وتجفوا.

عن الجنيد قال: خلق الله الخلق وأظهر آثارها وأحي منبتها متحرفة إلى كل فج عميق وبلد سحيق، وجعلها قطعًا متجاورات، قيعانًا متقاربات، وألوانًا متشابهات، جميعها في النظر وفرقها في المواطن؛ فسقاها بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الأكل؛ فجلّ ربنا -عز وجل- من قادر قاهر، جعل ذلك سببًا إلى معرفته ودلالة لربوبيته.

قال الواسطي في قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ لم يتلون الإرادات، وتلونت المرادات كما تلونت الأشجار والثمار، ولم يتلون المياه التي سبقت الأشياء المختلفات، كذلك العلم بالأشياء لا يتلون، وتتلون المعلومات؛ فمَنْ قال: كيف فهو؟ لضيق القدرة عنده وعلل تكوين الحدثات لعلة إثبات الربوبية وامتدادها، ولئلا يسبق إلى الأوهام شيئًا من الكون بغير إرادته، فأراد الموت والحياة والظلمة والضياء -لم يتلون الإرادة، كذلك ما أراد من الكفر والإيمان، قال الله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ الآية.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «العاقل مَن عقل عن الله أمره»[1].

وقال الواسطي: العقل ما عقلك عن المجازي.

ثم بيَّن سبحانه إنما وصف من ذكر آلائه ونعمائه وصنعائه ومصنوعاته لا ينفع بمَنْ لا سعادة سابقة له مساعده، ولا ينفتح له عين غير العقل، بحيث يعجب المخاطب الكريم إنكارهم بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ﴾ من غاية استغراقه في بحر الكمال التوحيد، وغلبة صدق الرسالة ﷺ يعجب ممَنْ لا يعرفه بالصدق في رسالته، حيث أطلع من جماله وشمائله شمس آيات القدم ونور قمر الكرم، وأي شيء أعجب من ذلك أن من له عقل ونظر لا يبصر فيه شواهد الملكوت وأنوار الجبروت، إذ الجمادات نطقت بصدق رسالته؛ فتسلاه الحق سبحانه بقوله: ﴿فَعَجَبٌ﴾ أي: عجب من ذلك العجب أن من يظهر في نفسه آيات الله في كل لمحة ألف مرة ولم يرها بعين البصيرة ويموت ويحي في كل ساعة ألف مرة، ولا يعرف وجوده من عدم، ولا عدمه من وجوده؛ فإن عند كل نفسين للإنسان موتًا وحياة فعند صعود النفس له موت، وعند دخول النفس في جوفه من طريق الحس حياة؛ ولكن ليس من الحق عجب؛ فإنه تعالى يضل به من يشاء ويهدي من يشاء؛ فإذا ذهب العجب إذ ليس شيء منه عجب.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٧٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٦٦).

قال الجنيد: ذهب العجب بقوة سلطان العجب كل العجب من العجب ألا تعجب، قال الله: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾.

قال الحكيم الترمذي: ليس العجب من العجب ممن يتعجب من العجب إذ لا عجب.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وصف الحق أهل الدعاوي حين تعجلوا بالمجاهدات والرياضات، واستقبالهم بآليات الطريقة قبل ذوقهم شرف الأحوال، ووصولهم إلى طعم المواجيد البديهية من الحق بلا علة الاكتساب، وبروز لمعات الغيب في أسرارهم التي يتولد منه صدق الإرادات في المعاملات، وذلك لأنهم جميعًا حيث أهل الكرامات فتمنوا جاههم عند الخلق ولا ينعقد لهم صدق النية في طريقهم؛ فلا يفتح الله عليهم إلا طريق الهوى والنفس والشهوات وحب الجاه والمال، وعاقبهم الله بسقوطهم عن قلوب الخلق كما فعل سبحانه بأهل الرياء والسمعة بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾.

وقال جعفر في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة قبل العافية، ثم بيّن أن مَن سبق لهم العناية من المريدين يسامحه بلطفه، حيث نزل قهر قدمه في مَهَوَات طبيعته بقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ ظلمهم مخالفة عقائدهم واتباعهم هواهم بعد معرفتهم أفات النفوس.

قال بعضهم: إن ربك ليستر على أودّائه ما أظهروا من المخالفات من ظلمهم أنفسهم باتباع هواها والسعي في موافقة رضاها.

قال أبو عثمان: إنما يرجوا المغفرة من الله من يرتكب الذنوب على خطر وخوف وحذر لا من يفتخر فيها من غير مبالاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: أنت منذر المريدين من عقوبة الحجاب، ومنذر المحبين من مواراة العتاب، ومنذرين العارفين من صولة الإجلال والخجل والحياء في مشاهدة الكمال، ولهؤلاء لكل واحد منهم هو بجلاله تعالى معرفة له طريقة إليه، ويوفقه بها اختار له في الأزل، أي :أنت منذر مخبر عنا ونحن نهديهم إلينا، لأنك شفيع الجنابة

لا شريك القدرة، وأيضًا لكل قوم لكل طائفة من أهل المعرفة شيخ يعرفهم طريق الحق، ولا بأس بأنه فعل الله، وفعله ميراث صفته، وصفته قائمة بذاته، كأنه هو من حيث عين الجمع، ألا ترى إلى قوله لصفيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

قال ابن عطاء: إنما أنت مخبر عنا بصدق ما أكرمناك به عن القرب والزُّلف.

قال بعضهم: إنما أنت قائم بنا داع إلينا، فالسعيد من أطاعك وقبل منك، والشقي من عصاك وأعرض عنك.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ وصف إحاطة علمه القديم في القدم على كمية كل مقدور قبل ظهوره من العدم، فاستوى علمه القديم بمقادير يومًا أوجدها بعد عدمها؛ بحيث لا ينقص مثقال ذرة، إذا لا نقص في عز ربوبيته وإحاطته بمقدوراته، اصطفى سلاك مسالك معرفته، ومحبته بمقدار اختياره الأزلي قبل اصطفائيتهم، فكلهم يسلكون بمقادير المعرفة السابقة والاصطفائية، وأصل الحقيقة من قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بقدر، وعزوا بشرف، إذ الكل منه يبدوا، وقدرها من قدره، وشرفها من شرفه، وأيضًا أي كل شيء عنده لفظات بيد قدرته، ولها حد ومقدار؛ لأن من أوصاف الحدثين الحدود والنقصان، أي كل شيء محدود مقدور لإجلال قدر القدم.

قال الحسين: كل ربط بحده، وأوقف معرفته، فلا يجاوز قدره إلا من يعدو طوره.

قال بعضهم: كل شيء بوزن ومقدار، ومن لم يزن نفسه ولم يطالع أنفاسه فهو في حيز الغافلين، ومن لم يعرف مقداره وقدر عظيم النعمة عنده أعجب بنفسه، أو بما يبدو منها.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ هذا تصديق ما ذكرنا في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ لأنه كان عالمًا قبل كون المقدور الغيبي، وعالمًا بعد كون المقدور حين يبدو في عالم الملك والشهادة، وأيضًا عالم ما أسرار العارفين من عجائب كشوف أنوار عزته، والرقاب فؤادهم من الاشتياق إلى جماله، وعالم بشهادة شهودهم في حضرته بوصف الزفرات والتأوه والعبرات، الكبير من أن يدركه الأبصار، المتعالي تعالى كبرياؤه من أن يبقى عند سلطان كبريائه آثار الأغيار بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

وَجْهَهُۥ﴾(1).

قال ابن عطاء: العالم على الحقيقة من يكون الشاهد والغائب عنده سواء بالعلم، لا بأن يستدل، والعالم على الحقيقة هو الحق -جل وعلا- الكبير في ذاته المتعال في صفاته.

قال جعفر: كبر في قلوب العارفين محله؛ فصغر عندهم كل ما سواه تعالى، إن تقرب إليه إلا بصرف كرمه، ثم وصف إحاطته على كل الضمائر وغيب الخواطر وما يجري على الظواهر بقوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: من كتم دقائق حقائق المعرفة وأسرار لطائف الحكمة في قلبه، ولم يتلفظها بلسانه من تمكينه، وزيادة معرفته ومَنْ جهر به بأن يتكلم من رأس سكرة هيجانه، ويخبر بغيب ما غاب من المريدين، ويشاهد خلوة الليالي؛ حيث ينكشف أنوار النزول لنظار الملكوت، وطلاب أنوار الجبروت، أو يستر حاله في ليل الملامة؛ إذ يظهر ما وجد في الخلوة في النهار منه الأبرار، ويخفي كلام المعارف في شرب الأسرار عن نظر الأغيار، فإنه تعالى لا يخفي عليه فرط خاطر المتكلم، وهدوء سره من هيجان التلوين، أو اختفاؤه بنعت الصدق والإخلاص، وظهوره بوصف غلبة الوجد والحال؛ فيقبل منه ما بدا منه، ويزيد عليه إنعامه وإكرامه، فإنه تعالى حافظ أوليائه، حيث حازهم في حيز حفظه ورعايته وأنوار بهائه، حتى يكون مستغرقًا في نوره، محفوظًا بعيون ألطافه، بقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

قال النصر آبادي في قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ﴾ ما أودعنا فيه من لطائف برّنا، وكتمه إشفاقا عليه، وأظهره ونادي عليه سرورا به، ومحبته له، فإنهما جميعًا من أهل الأمانة في محل الحقيقة، أما المعقبات من بين يديه ومن خلفه، فالإشارة إليها أن أنوار اصطفائيته الأزلية معقبات من خلفه، وأنوار العناية الأبدية معقبات من بين يديه، تحيطه وتحفظه جميعًا من أمر الله، أي من امتحانه في زمان العبودية، وذلك قهره الذي يطارق العبد العارف كل وقت غَيرةً منه عليه، فيكسره عساكر حسن عناية القديم، وجنود أنوار لطائف الاصطفائية، حتى لا

---

(١) أي كل شيء من الأشياء الموجودة في العين هالك من حيث تعيُّنه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية التي هو الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل، وعلى هذا يدور سرُّ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ وكل من العرش والشرع مقلوب الآخر، فكما أن الرحمة العامة مستوية على العرش المجيد العظيم؛ فكذا الأمر التكليفي الشامل مستوية على الشرع الشريف، ومحلُّه في الحقيقة هو الإنسان الذي هو الكرسي؛ لأن كلاً من الأمر والنهي إنما ظهر في العرش إجمالاً، ثم في الكرسي تفصيلاً، والروح.

يضربه القهر، ويكون محروسًا باللطف، وذلك قوله سبحانه: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وتصديق ذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

فسوابق رحمته تحفظه من غضبه.

قال بعضهم: المحفوظ بالأسباب محفوظ بالمسبب، وأمره، فالعلماء رأوا السبب، والعارفون رأوا المسبب، قال الله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

قال ابن عطاء: الأسباب تحفظك من أمره، فإذا جاء القضاء خلى بينك وبينه، كيف يكون محفوظا من هو محفوظ من حافظه، والمحفوظ على الحقيقة من هو محفوظ بالحافظة لا محفوظ من الحافظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لله سبحانه المشيئة السابقة والامتحان، فأما أمر المشيئة قائم بإرادته لا يتغير من شتان المشقة، ولم يكن ذلك ملحقًا بالأسباب، وأمر الامتحان ملحق بأسباب العبودية، ويكون العبد معانًا بالقدرة القديمة من المشيئة السابقة عليه، ومأمور بالتصرف فيه، فإذا تحرك فيه سر القدر بتغير الحال فتغير ما به بقوة القدرة، فيغير الحق سبحانه عليه ما يغير بنفسه من جهة القدرة وقوته مجازاة، وكيف يكون العبد في القدرتين والمشيئتين قادرًا بشيء؟ إنما ذكر الحق سبحانه على غرف الأسباب لإدراك فهوم الخلق ونظام العبودية، فإذا ادعى المريد فوق حاله بما ادعى، يغير عليه ما أعطاه ويشد عليه موارد القربة، ويبقى في الامتحان والفرقة.

قال جعفر الصادق: لا يوفقهم لتغيير أسرارهم، ولا يغير عليهم ولو وفقهم لتغيير الأسرار ومشاهدة الباري لذلوا وافتقروا، فقالوا به النجاة.

وقال النصر آبادي: لكل قوم تغيير وتبديل؛ ولكن لا يناقش العوام في التغيير والتبديل، مثل ما يناقش عليه أهل الصفوة.

قال بعضهم: غيروا ألسنتهم عن حقائق ذكره فغيّر قلوبهم عن لطائف بره، وغيروا أنفسهم عن معاني العبودية، فغيّر قلوبهم عن دلائل الربوبية.

قال الواسطي: حذرهم ما أنزل بهم أن تغييرهم نعمة الله على أنفسهم، وذلك من خذلان الله لهم، فيزيد الله عليهم التغيير، كما قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

وقال بعضهم: إن الله لا يحرم عبيده نعمة إلا إذا قصروا في شكره أو نسوه.

---

(١) سبق تخريجه.

وفي قول آخر: إن القوم لما امتحنوا وبقوا في امتحانهم ولم يلجئوا إلى الحق نبعت بالتضرع والتواضع والافتقار ولم يغيروا موضع تقصيرهم في دعوتهم في الامتحان؛ فأهملهم الله وألقاهم فيما هم فيه ولو خضعوا له أزال عنهم العلة والامتحان وأعوضهم النعمة مكان البلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

نبّه سر الآية أن جمهور السالكين لا ينجون من محل امتحانه؛ فألزم عليهم نعت القهر، كما ألزم عليهم نعت اللطف، ولا ينفك عنهم نعت القهر ماداموا في العبودية كما لا ينفك عنهم نعت اللطف،وذلك تربية منه لهم، ولا ينفك عنهم وإن تضرعوا وخصوا أو سألوا زوال ذاك، لكن يسهل عليهم جريان أقدار القهر فهو المجري عليهم وهو المستهل عليهم وذلك قوله: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

قال القاسم: إذا أراد الله هلاك قوم حسن في أمنيهم وأراد الهلاك حتى يمشون إليها بأرجلهم وتدبيرهم وهو الذي أتي بهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بيّن سبحانه هزمنا مقامات المريدين والمتوسطين حيث ذكر البرق والخوف والطمع، وأين العارفون من مقام الخوف والرجاء وهم في قنوط النكرة وأمن المعرفة، وأين هم من مقام البرق وهم محترقون في بروق شموس مشاهدة القدم والأزل، هذا حال سلاك الطريقة إذا سافروا في بيداء المحبة والشوق وهم عطاش في سراب الحيرة؛ فيتلطف بهم تعالى وينشئ شمال الشفقة وسحاب الألفة ويريهم برق تجلي المشاهدة ويمطر عليهم وابل أوصال من مزن الجمال؛ فيخافون من فواته تارة، ويطمعون بقاءه تارة، وأيضًا هو الذي يري المحبين برق المكاشفة، ويكشف لهم نور المشاهدة وينشئ للعارفين سحاب العظمة الثقال بأنوار الهيبة، ويمطر عليهم طوفان بحر الأزل والآباد؛ فيفنيهم لطوارق العظمة، ويحيهم بماء حياة ألوهية فسقر الإرادة تحت سحاب المنة، وكشف برق المشاهدة وخوف الفرقة وطمع الوصلة.

كما أنشد الشبلي:

أظَلَّتْ علينا منكَ يومًا سَحابةٌ ... أضاءَت لنا بقًا وأبطا رَشاشُها

فلا غَيْمُها يُجْلي فَيَيْأَسَ طامعٌ ... ولا غيثها يأتي فَيَرْوَي عِطاشُها

ثم وصف سبحانه أهل كمال بيداء توحيده الذين قاموا عليه بشرط الفناء من مشاهدة قدمه، ورؤية بقائه بالوجد والأحوال والزفرات والعبرات والفناء والبقاء بقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الرعد هاهنا شهقات الصديقين من الوجد والهيجان في بحار العظمة من وقوع أنوار تنزيه القدم في قلوبهم؛ فرعد شهقاتهم لسان الربوبية تقدس ساحة كبريائه عن غار حوادث الحدثان والملائكة أرواح العارفين وهي فانية من إجلال عظمته، ناطق ينطق أزليته بوصف ديموميته، وإذا أشرق شوامخ القدم والبقاء من طلوع شمس الذات والصفات؛ فيقع صواعق الكبرياء على أهل التجريد والتغريد، فيفنيهم عن الحدثان وتحرقهم عن نفوسهم؛ هكذا يفعل بهم سطوات القدوسية وسبحات الألوهية غيره على مشاهدة القدم.

قال ابن البرقي: في هذه الآية يريكم أنوار محبته فمَنْ خائف في استنارة وطامع في تجليه.

وقال أبو علي الثقفي: ورود الأحوال على الأسرار كالبروق لا يمكث بل تلوح، فإذا لاح فربما أزعج من خائف خوفه وربما حرك من محب حبه.

قال أبو بكر بن طاهر: خوفًا من اعتراض الكدورة في صفا المعرفة، وطمعًا في الملازمة في إخلاص المعاملة.

وقال أبو يعقوب الأبهري: خوفًا من القطع والافتراق، وطمعًا في القرب والاستباق.

وقال بعضهم: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه.

قال ابن عطاء: خوفًا للمسافر، وطمعًا للمقيم.

قال ابن الزنجاني: الوعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم.

وقال الأستاذ: كما يريهم البرق في الظاهر؛ فيرددهم بين خوف وطمع، خوفًا من احتباس المطر، وطمعًا في محبته، وخوفًا للمسافر في مجيء المطر، وطمعًا للمقيم في مجيئه، كذلك يريهم البرق في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم الطوالع ثم كالبرق في الضياء، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة إلى المشاهدة، ثم إلى الوجود ثم من قام الوجود إلى كمال الخمود.

ويقال: البروق من حيث البرهان، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان، ثم يصير إلى نهار الفرقان؛ فإن طلعت شموس التوحيد فلا خفاء بعده ولا استتار ولا غروب لتلك الشموس.

كما قيل: هي الشمس إلا أن الشمس غيبة، وهذا الذي يفنيه ليس يغيب.

ويقال: يبدو لهم أنوار الوصل؛ فتخافون أن يجن عليهم ليالي الفرقة.

قيل: ما تجلوا فرحة الوصال من أن يعقبه رجّة الفراق.

كما قيل:

أيَّ يَـــومٍ سَرَرتَنـــي بِوِصـــالٍ   لَم تَرُعنـــي ثَلاثَـــةٌ بِـــصُدودِ

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ إذا أنشئت السحابة في السماء أظلم في الوقت الجو، لكن يعقبه بعد ذلك ضحك الرياض، وما لم يبكِ السحاب لا يضحك الرياض.

كما قيل:

غمامـــةٌ في الـــسماءِ تبكـــي   والأرضُ مـــن تحـــتها عـــروسُ

كذلك تنشئ في القلب سحابة الطلب؛ فيحصل للقلب تردد الخاطر، ثم يلوح وجه التحقيق فيضحك الروح بفنون أنوار الأنس وصنوف أزهار القرب.

وقال في قوله ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾: قد يكون في القلب حنين وأنين وزفير وشهيق والملائكة، إذا حصل لهم على قلوب المريدين خصوصًا اطلاع يبكون وما لأجلهم لاسيما إذا أوقع لواحد منهم فترة، والفترات في هذه الطريقة الصواعق التي تصيب بها من يشاء، وما قيل ما كان أوليت من وصلنا إلا سراجًا لاح ثم انطفئ.

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ دعوته الحق مناداته في الأزل، نبعت محبته وشوقه إلى أرواح المحبين والعارفين؛ فاستجاب بإجابته المحبة والشوق إليه، وأيضًا له دعوة الحق على لسان الصديقين يدعون بها المسترشدين إلى مشاهدة جماله، حين وصفوا جلاله وجماله ليبدو في قلوبهم آثار محبته، وهذه الدعوة سالمة من معينة الهلاك، وما سواها من الدعوة؛ فهو دعوة صاحب النفس والجهل مَنْ رأى الرياء والسمعة لا يفضي إلا إلى الاحتجاب والعمى عن طريق الصواب.

قال الله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: وما دعاء المرابين من أصحاب النفوس والهوى إلا في ضلال عن طريق الحق والإخلاص.

قال ابن عطاء: أصدق الدعاوي دعاوي الحق؛ فمَنْ أجاب داعي الحق بلغه إلى الحق ومَنْ أجاب داعي النفس رمي به إلى الهلاك.

قال بعضهم: داعي الحق من يدعو بالحق إلى الحق.

وقال جعفر: من دعي نفسه فاني نفسه داعي، وهو الكفر والضلال، وذلك محل الخيانة والإسقاط من درجات من أهل الأمانة؛ فإن الدواعي يختلف داعي الحق وداعي إلى الحق وداعي إلى طريق الحق، كل هؤلاء دعاة يدعون الخلق إلى هذه الطريق لا بأنفسهم؛ فهذه طرق الحق وداعي يدعو بنفسه، فإلى أي شيء دعي فهو ضلال.

وقال الأستاذ: دواعي الحق صارخة في القلوب من حيث البرهان؛ فتدعو العبد بلسان الخواطر، فمَنْ استمع إليها بسمع التفهم استجاب ببيان العلم، وفي مقابلتها دواعي الشيطان، وهي موبقة للعبد تتزين المعاصي؛ فمَنْ أصغي إليها بسمع الغفلة استجاب بصوت الغي ومعها دواعي النفس، وهي قائدة العبد بزمام الحظوظ، ومَنْ ركن إليها ولاحظها وقع في هوان الحجاب، ومن الدواعي دواعي الحق بلا واسطة ملك ولا بدلالة عقل ولا بإشارة علم؛ فمَنْ اسمعه الحق ذلك استجاب لا محالة بالله لله.

وقال في قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ هواجس النفس ودواعيها تدعوا إلى ما في الطريقة شرك، وذلك شهود شيء منك وحسبان أمر وتعريج في أوطان الفرق، والعمى عن حقائق عين الجمع.

وقد وقع لي في زمان الصبا من هذا القبيل في دواعي الحق كلمات مسطورة، وذلك بما تفحصت أسرار الخواطر؛ فوجدت دواعي اللطف والقهر من الحضرة على سبعة أنواع، دعوة الحق خاصة بلا واسطة، ودعوة لمسة الملك، ودعوة الروح، ودعوة العقل، ودعوة القلب، ومن قبيل قهره دعوة النفس والشيطان.

والآن أتمم عشرة الثلاثة الزيادة، اثنان من قبيل اللطف، والواحد من قبيل القهر، الاثنان لسان السر ولسان أسرار السر، والواحد لسان الفطرة الطبيعة، وأما دواعي القهريات وأولها دواعي الشيطان وعلامتها النزع، وهيجان النفس، والطبيعة واحتراق الصدر، وغمة في القلب غبار في عين الروح، وخفة في النفس، وانجذاب في الطبيعة إلى طلب حظوظ الشهوات، وأكثر ما يلقي الوسواس ما يفضي إلى الكفر والكبائر؛ فمَنْ أجابت تزندق وهلك في أودية التشبيه والتعطيل والأهواء المختلفة، والثاني هواجس النفس الأمّارة تدعو النفس والشيطان صاحبها بلسان العلم إلى مهالك الرياء والسمعة.

وقيل: مَنْ يعرف ذلك المكر والخديعة؛ فمَنْ أجابها صار مرتهنا بالبطالة والكسالة

والقساوة، ويكون محجوبًا عن حسن الإرادة والصحبة، والثالث داعي الفطرة الطبيعة وذلك سر عجيب هو تحرك الفطرة المخمرة باستعداد قبول الشهوة الخفية التي في مكامن غيب القلب، وهو يكون بعد أن يحركها سر القهر إلى طلب ما خلق لها من لذائذ ميلها وحركتها إلى ما يقوي به من الصفات البشرية والشهوة، وذلك الشهوة الحقيقية التي أضمرتها الفطرة الطبيعة.

وتلك ما استغاث منها النبي ﷺ وقال: «**أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية مَنْ أجابها بعد حركتها دعوتها صار محجوبًا عن روح الذكر وأنوار الفكر**»[1].

والسبعة التي من دواعي اللطف، **أولها**: دواعي القلب وهو أمر منه لصاحبه بترك الاشتغال لتزكية الأعمال ووقوع صفاء الأذكار لوجدان طمأنينته ولذة اليقين، قال تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**﴾ فمَنْ أجابها بنعت المراقبة وتقديس الخواطر يذوق طعم صفاء العبارة ويجد روح الملكوت ونفحة الجبروت.

والثاني: داعي العقل وهو أن يدعو صاحبه إلى تزكية النفس ومجاهدتها ورياضتها وفنون الطاعات والخلوات؛ فمَنْ أجابه وصل إلى أنوار المراقبات والمحاضرات.

والثالث: داعي الروح وهو أن يدعو صاحبها إلى الخوض في تفكير الغيوب، وطلب أسرارها، وطلب رؤية أنوار الملكوت، واستماع أصوات الجبروت، وطلب كشف هلال المشاهدة في المحاضرة وسقي شراب المحبة بكئوس الشوق؛ فمَنْ أجابها بنعت خروجها من أوصاف البشرية وتحليه بالمحلية الروحانية وإسقاط علل الإنسانية يجد حلاوة بروق التجلي من مرآة الإيقان والعرفان.

والرابع: داعي الملك وهو الهامة بأمر الله سبحانه يلهمه بعلم يفرق به بين الحق والباطل من خطوات اللطيفة والقهرية وما يئول عاقبته متابعة الكتاب والسنة؛ فمَنْ أجابه يقع في بحر الحكمة ويستخرج منها جواهر علوم الإلهية.

والخامس: لسان داعي السر وهو أن يدعو إلى تجديد الهمة من الأكوان والحدثين؛ فمَنْ أجابه يصل إلى كشف مشاهدة الرحمن، ويرى بنور تجليه عجائب أسرار المعرفة في خزائن الربوبية.

والسادس: داعي السر وهو لسان النور يناديه من وراء غيب الغيب إلى إفراد القدم عن الحدوث والانخلاع من الوجود، والانسلاخ من جلد العبودية، والإيقان بصفات الربوبية؛ فمَنْ يصل إلى مطالعة مشارق أنوار التجلي الصفات والذات.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٦) بنحوه.

والسابع: داعي الحق بنفسه بلا واسطة هو ثلث مراتب، المرتبة الأولى: مناداته بلسان الأفعال الخاصة ودعاؤه به إلى مشاهدة الصفات في الفعل وهو مقام مشاهدة الالتباس؛ فمَنْ أجابه يقع في بحر العشق الذي يعرفه بأمواج اللطف حيث يدعوه بلطائف الالتباس ولا يبقيه فيه بل يخرجه إلى معادن الصرف ويريه بعض أحكام الصفة لأعلى حد الكمال.

المرتبة الثانية: داعي الصفت وذلك يدعوه إلى النظر إلى طلوع أقمار الصفات من مشارق الذات ليذقه من كل صفة ذوقًا، ويستعين من عين كل صفة شرابًا ليكون كاملاً في حمل موارد أنوار الذات؛ فمَنْ أجابه يقع في نور السماء والنعوت فيطير بجنحي.

وذلك كلام الصوف المقرون خطابه بكشف الحقيقة من عين الذات يدعوه إلى الفناء في كنه القدم وأزلية الذات وأبديته؛ فمَنْ أجاب سره وسر سره إلى ذلك يقع في بحر طوالع شموس، القدم وقدم القدم وأعمار الأبد وأبد الأبد، وينكشف له العين وعين العين، وعجب العجب وغيب غيب الذات؛ فيصير متصفًا بالذات والصفات بعد فنائه في الذات، والصفات بنطقه بعد ذلك نطق الأزل وسمعه سمع الأزل وعينه عين الأزل ويده يد القدرة بقوله: بعد خروج هذا العبد من رسوم العبودية إلى جلال الربوبية كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا؛ فيؤيده عودة وجلال وجوده إلى معرفة نفسه بنفسه، ثم يعرف نفس العبد للعبد، فيعرف الحق بالحق ويعرف نفسه بالحق بعد نسيان نفسه في الحق هذا معنى قوله: مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه، ثم وصف نفسه تعالى بإذعان الوجود بنعت التلاشي بين يدي كبريائه.

بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ يسجد له أهل الملكوت بعد أن شاهدوا عظمته وخوفه وإجلاله، ويسجد له الآدميون والجن بعد أن شاهدوا أنوار ربوبيته، فمنهم من سجد طوعًا لما كوشف له من أنوار جماله تعالى؛ فيسجد ويخضع محبة وشوقًا وعشقًا ومعرفة وتوحيدًا، ومنهم من سجد له كرهًا في مقام المجاهدة وتكليف العبودية والمتابعة كرهًا لما لم يكشف له دواعي العشق والمحبة والشوق من الحق ومن اللطف معاينة أن العشاق والمحبين يسجدون طوعًا لأنهم في محل العبودية من العشق والمحبة، وأن أهل الكمال من العارفين والموحدين يسجدون له كرهًا لأنه في مقام شهود الربوبية، وهم في الحالين هناك في كرههم في السجود إحداهما أن بعضهم عاين عين القدم وجلال الأزل والأبد، ولا يرون سجود الحدثان يليق بعزة الرحمن بل يرون الحدثين متلاشيين في أول بديهة سطوة جلاله، وأن الخلق والخليقة من خدمته وهو بعزته أعز من أن يقرب إليه أحدًا بسجوده له.

والثاني: أن بعضهم شربوا في بحار الأزلية شربات الإنصاف والاتحاد، ولكن لم يكونوا

كاملين في مقام الانفراد والاتحاد بالربوبية؛ فيسجدون له كرهًا، فإن العبودية شرك في الربوبية ومن كمل منهم لا يكون حاله حال العبودية بل حاله حال الربوبية من استغراقه في أحديته، وليس هناك للعبودية أثر، وسكران التوحيد ينسلخ عنده علة الحدثين؛ فالعبودية على مَن هو سكران غائب، بل فانٍ عن الوجود في الوجود، وأيضًا الإنسان علم الصغير بالصورة، وعالم الكبير المعنى فصورته من أعلاها السماوات، ومن أسفلها الأرض، ومن في السماوات والأرض الروح والعقل والقلب والنفس وجنودهم؛ فيسجد الأرواح طوعًا عند كشف الجمال روحًا وأنسًا، وتسجد القلوب طوعًا عند كشف الجلال إجلالاً وتعظيمًا، ويسجد العقل طوعًا عند كشف الآلاء وأنوار الأفعال ذكرًا وفكرًا واعتبارًا، وتسجد النفوس كرهًا عند كشف أنوار الجبارية والقهارية خوفًا وخشية، وذلك لأنها خلقت أبده بما فيها من نظر القهر ونكرته، ويسجد ظلال الأرواح والقلوب، وهي الأسرار الممكنة التي جعلها الله مرآته بحقائق العرفان؛ فيسجد الأسرار التي هي ظلالها عند طلوع شمس الألوهية من مشرق الأزلية، وغروبها في مغرب الأبدية، وتوحيد أو فناء في بقائه، واضمحلالاً في قدم، وتسجد ظلال النفوس، وهي هواها، راغمت عند طلوع شموس القهريات كرهًا لكره النفوس استسلامًا وانقياد على جناب الربوبية.

قال الجنيد: العارف طوعًا، والمعرض كرهًا.

وقال: إذا نزلت به المصائب ذل، وإذا جاء به الرخاء بل.

قيل: السجود على قسمين، ساجد بنفسه، وساجد بقلبه؛ فسجود النفس معهود، وسجود القلب من حيث الوجود، وفرق بين من يكون بنفسه ساجدًا، وبين من يكون بقلبه واجدًا فأغرهم من جمع بين الوصفين فيكون ساجدًا بنفسه وواجدًا بقلبه.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي: لا تستوي المطموس عين قلبه عن شهود مشاهدة القدم ورؤية أنوار الأزل بمَنْ يبصر بصر روحه بنور الحق جمال الحق على نعت السرمدية بلا غواشي الطبيعة ومعارضة الخليقة، ولا يستوي ارتفاع ظلمة دخان النفوس في معارك العبودية بسطوع أنور الأرواح إلى صفائح القدس، ينعت بنفسها في مجالس الأنس، وأيضًا من يبصر بنور الحق جمال الحق على نعت

السرمدية بلا غواشي الطبيعة ومعارضة الخليقة، ولا يستوي من يبصر رسوم العالم برسوم العلم، ولا يستوي نور وجوه العارفين بما يبدوا من غيره القهر عن وجوه المدعين.

قال أبو عثمان: لا يستوي من كُحِلَ بنور التوفيق وهدي لطريق الخدمة، ومن عمي عنها وحرم دونها، أم هل تستوي من هو في أنوار التوفيق مع من هو في ظلمات التدبير.

وقال أبو حفص الأعمى: حقًا من يرى الله بالأشياء ولا يرى الأشياء بالله، والبصير من يكون فطرة من ربه إلى المكونات.

قال الأستاذ: من جملة الظلمات الركون في أوطانها التدبير، ومن جملة النور الخروج إلى ضياء شهود التدبير.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا

رَّابِيًا ﴾ شبَّه الله سبحانه أنزل الماء من السماء إلى الأودية بما نزل من مياه بحار أنوار ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحدين والعارفين والصديقين والمكاشفين والمشاهدين والعاشقين والمشتاقين والمحبين والموقنين والمخلصين والمتعبدين والمريدين، وكما يحتل الأودية بضعفها، وقوتها وضيقها، وبسطها ماء المطر، فكذلك تلك القلوب تحتمل مياه أنوار قاموس الكبرياء من الذات والصفات والأوصاف والنعوت والأسماء والأفعال بقدر حواصلها، وأقدار استعدادها من المحبة والمعرفة والتوحيد، وكما أن قطرات الأمطار يكون في الأودية سيلاً؛ فتحمل المسيل زبدًا وحثالة: وما يكون مانعًا من جريان السيل في الأودية؛ فكذلك يكون تواتر أنوار تجلي الحق يكون سيل المعارف والكواشف؛ فتسيل من جداول القلوب أنهار العيوب، فتحتمل من أوصاف البشرية، وما دون الحق الذي يمنع القلوب من روية الغيوب؛ فيذهب به عن صحاري القلوب وقيعانها التي هي أصدافهم العالية في طلب جواهر الحكم من بحار المشاهدة، فتصير بعد ذلك صافية مقدسة من زبد الرياء والسمعة والشك والشرك والنفاق والخواطر المذمومة، فيبقى القلوب في بحر المشاهدة سابحة في نور الأزل والأبد بلا علاقة، ومانع من العرش إلى الثرى، وذلك من بركة تجلي مشاهدة الله سبحانه التي بدت من الحق بلا واسطة ولا سبب، كما أن المطر ينزل من السماء بلا سبب من أسباب الخلق، ولا بعلة طلبهم بل محض فيض فياض القديم الأزلي على الذي ارتضى برضاه من أهل رضوانه في الأزل؛ فمياه تلك البحار في أودية تلك القلوب، بعضها من بحر الذات، وبعضها من بحر الصفات، وبعضها من بحر الأسماء، وبعضها من بحر الأوصاف، وبعضها من بحر النعوت، وبعضها من بحر الأفعال، فالذي من بحر الذات يجري في أودية قلوب الموحدين والعارفين والمنفردين والمتجردين، ويذهب بما في قلوبهم من أوصاف الحدوثية، وينبت أوراق ورد الربوبية من هناك يدعون الاتحاد، ويولهون في الانبساط.

وأما الذي من بحر الصفات؛ فيجري على قلوب العاشقين والمحبين والمشتاقين، ويذهب منها أوصاف النفوسية، وحثالة الطبيعة، وينبت فيها نرجس الأنس وياسمين القدس، ومن هناك يدعون السكر والهيجان والمواجيد.

وأما الذي من بحر الأوصاف والنعوت؛ فيجري على أودية قلوب الموقنين والمشاهدين والمكاشفين، ويذهب منها غبار الخطرات وزبد الهواجسات، وينبت فيها رياحين الدقائق والحقائق.

وأما الذي من بحر الأسماء؛ فيجري على أودية قلوب المخلصين والمتعبدين، ويذهب منها وسواس الشيطان والميل إلى الحدثين، وينبت فيها زهر الحكمة والفطنة.

وأما الذي من بحر الأفعال؛ فيجري على أودية قلوب المريدين، ويذهب منها زبد الشهوات، وينبت فيها شقائق المعاملات وعبر المراقبات؛ فسبحان الذي خصَّ كل قلب من قلوب هؤلاء بمورد من موارد ألطافه، ومشرب من مشارب أعطافه.

قال الواسطي: خلق الله ذرة صافية فلاحظها بعين الجمال فذابت حياء منه، فسألت، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليه وجمال الأسرار من نزول ماء ذلك المشرب.

وقال ابن عطاء: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً....﴾ الآية.

فقال: هذا مثل ضربه الله للعبد، وهو أنه إذا سال السيل في الأودية لا يبقى في الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها، كذلك إذا سال النور الذي قسم الله للعبد في نفسه لا يبقى فيه غفلة ولا ظلمة.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: قسمة النور، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾: في القلوب الأنوار على ما قسم له في الأزل.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾[1] فتلك النور يصير القلب منورًا، فلا يبقى فيه جفوة، و﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يذهب البواطيل، ويبقى الحقائق.

وقال بعضهم: أنزل الله تعالى من السماء أنواع الكرامات؛ فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه فكل قلب كان مؤيدًا بنور التوفيق أضاء فيه سراج التوحيد، وكل قلب أيد بنور التوحيد أضاء فيه سراج المعرفة، وكل قلب زين بنور المعرفة أضاء فيه أنوار المعرفة، وكل قلب قُيِّد بنور المحبة أضاء فيه لهيب الشوق، وكل قلب عمر بلهيب الشوق أضاء فيه أنس القرب، كذالك القلوب ينقلب من حالة إلى حالة حتى تستغرق في أنوار المشاهدة، وأخذ كل قلب بحظه ونصيبه إلى أن تبدو الأنوار على الشواهد من فضل نور السر.

ثم إن الله سبحانه ضرب مثلاً آخر في تقديس أسرار معاملات العارفين بقوله: ﴿وَمِمَّا

---

(١) كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وعلى قدر ما قُسم لهم من علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصي، ومثّل العمل الخالص الذي تَصَفَّى من الرياء والعجب وسائر العلل، بالحديد المصفى من خبثه؛ لتصنع منه السيوف والآلات، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأواني، وغيرها مما ينفع به الناس، ومثّل الحال الصافي من العلل بالذهب المصفى أو الفضة، إذا صفيت وذهب خبثها؛ ليصنع بها الحلي والحلل؛ ليتزين بها أهلها. البحر المديد (٣/ ١٦١).

يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ شبه أعمال الظاهر والباطن وما ينفتح بمفاتيحها من الغيب بجواهر الأرض من الذهب والفضة وغيرها إذا أذيبا لاتخاذها الحلي، وبَيَّن أن لها زبد مثل أن لهما زبد، ومثل زبد السيل في ذوبانها؛ فيذهب زبدها بعد إذابتهما سريعًا من غلبة النيران، ويمكث في البوتقة أصلها الصافي؛ فكذلك أعمال الظاهر والباطن فيدخل في بوتقة الإخلاص التي تحتها نيران المحبة؛ فيذهب ماء الحظوظ ونظر الأغيار، ويبقى ما هو خالص لله، وكذلك الخواطر فخاطر الحق يبقى في القلب وخاطر الباطن يطير ولا يبقى؛ لأن خاطر الحق من أثقال إلهام الحق؛ فيمكث في القلب خاطر الوسواس هذيان لا أصل له؛ فيفنى سريعًا من غلبة أنوار المعرفة والمحبة.

قال ابن عطاء: ما كان من الأحوال صدقًا ثبت في القلوب بركتها، وما كان غير ذلك فإنها لا تبق فيه خيرًا.

قال الشبلي: احتملت القلوب من الزوائد على مقدار ما فتح الله عليها من أنواع بره.

وقال بعضهم: القلوب أوعية وفيها أودية؛ فقلب يسيل فيه ماء التوبة، وقلب يسيل فيه ماء الرحمة، وقلب يسيل فيه ماء الخوف، وقلب يسيل فيه ماء الرجاء، وقلب يسيل فيه ماء المعرفة،وقلب يسيل فيه ماء الأنس،وكل ماء من هذه المياه ينبت في القلب نوعًا القربة والقرب من الله عز وجل، وبعد هذه القلوب قلوب قاسية حرمة التوفيق؛ فهي في ميادين الشقاق يخبطه إلى أن يبلغها الله مقام الأشقياء.

ولي إشارة أخرى: أن الله سبحانه أوقد نيران المحبة في صميم الأرواح من تأثير تجلي جماله؛ فلما حميت الأرواح من حرق المواجيد تؤثر حرارتها في القلوب، فتلقي القلوب ما فيها من أنواع الشهوات، ثم هاج فطرتها السليمة إلى طلب الحق ومشاهدة؛ فيتعرف من شدة التهاب نيران المحبة والشوق، ويصعد عرفها من قارورة عرق الكواشف والمعارف إلى الأدمغة؛ فيسيل ذلك العرق على أودية العيون وصحاري الوجوه؛ فما أطيب ذلك العرق ويا لها من طيبه ولذته.

كما قيل: كل جمرةٍ فمن أنفاسهم قدحت، وكل داءٍ فمن عين لهم جاري.

ويقال: إن الأنوار إذ تلألأت في القلوب نفت الآثار الظلمة؛ فنور اليقين يفني ظلمة الشك، ونور العلم يفني قمة الجهل، ونور المعرفة يمحو أثر النكرة، ونور المشاهد يفني آثار البشرية، وأنوار الجمع يفني آثار التفرقة، وعند أنوار الحقائق يتلاشى آثار الحظوظ، وأنوار طلوع الشمس من حيث العرفان تفني صدفة الليل من حيث حسبان تأثير الأغيار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أشار سبحانه إلى قلوب أوليائه الذين يسمعون بأسماع أرواحهم وقلوبهم وعقولهم وأسرارهم كلام الحق سبحانه من الحق بلا واسطة؛ فيعرفون مكان نزول القرآن على سيد المرسلين، وإمام المتقين -صلوات الله عليه من الله سبحانه بمكان سماعهم كلام الحق من الحق، ويعلمون صدقه في رسالته بما شاهدوه من براهين صفات القدم، ليسوا بمقلدين من حيث طباعهم وإيمانهم الفطري، إنما هو صفة أهل الظاهر من أهل التقليد الذين سماهم العوام بانتسابهم إلى العمى، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا أهل النهى من العارفين بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قال الشبلي: من استدل عليك بربه ليس كمَنْ يستدل بك على ربه، وليس من تحقق بما أنزل إليك من جهة الحق كمن يحققه من جهتك وليس من شاهد جيء أن الأشياء في الأزل كمن شاهده في وقت ظهوره.

وقال الأستاذ: أي: لا يستوي البصير والضرير، والقبول بالوصلة، والمودة بالحجة، والمؤهل للتقريب والمعرف للتعذيب.

ثم وصف العلماء بالله القائمون بشرط الوفاء مع عهد الأزل بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ عهد الله مع الصديقين ما عاهد أرواحهم في مشاهدة الأزلية، حيث عشقها بجمال وجهه فوفوا ميثاق العشق بالعشق، والعجب كيف يطيق العاشق أن ينقض عهد معشوقه، وعشقه صار روحه، ومن يطيق أن يفارق روحه، فوفاؤهم معه لزومهم على جناب عزته بنعت الفناء في عبوديته.

قال بعضهم: الموفون بعهدهم القائمون له على شروط العبودية من اتباع الأمر والنهي.

قال ابن عطاء: لا ينقضون الميثاق الأول في وقت بلي أنه لا رب لهم غيره فلا يخافون غيره ولا يرجون سواه ولا يسكنون إلا إليه، ثم ناد سبحانه في وصفهم بوصولهم مراده منهم في طاعته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: الذين يصلون بأسرارهم مشاهدته وقربته، ويخشونه به حيث وقعوا بقلوبهم في بحر إجلاله، ويخافون من عتابه ودقائقه معهم في تغيير إياهم في حركات ضمائرهم، بأن يميل إلى غيره.

وقال ابن عطاء: الذين يديمون على شكر النعمة ومعرفته منه المنعم لدوام النعمة إليهم

وإيصالها لهم.

قال بعضهم: هم المتجاوبون في ذات الله.

قال الواسطي: الخشية منه حقيقة الخوف منه ومن غيره، قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقال بعضهم: الخشية مراقبة القلب ألا يطالع في حال من أحواله غير الحق فيمقته.

قال ابن عطاء: الخشية سراج القلب، والخوف آداب النفس.

وسُئل أبو العباس بن عطاء عن الفرق بين الخوف والخشية، قال: الخشية من السقوط عن الدرجات الزلف، والخوف من الحرق بدركات المقت.

وقال بعضهم: الخشية أرق، والخوف أصلب.

وقال الأستاذ: الوفاء بالعهد باستدامة العرفان وبشرائط الإحسان، والتقى من ارتكاب العصيان، ولي خاطر في الفرق بين الخشية والخوف، أن الخشية مكان العلم والمعرفة بالله بنعت إجلال جلاله وثمرته الحياء، والخوف مكان محبته المقرونة بعبوديته، وثمرته الوفاء بعهد المحبة بنعت اضطراب الخاطر من حزن فراقه.

ثم زاد الله وصف القوم بالصبر في بلائه لأجل لقائه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ صبروا عما دون الله بالله لله، ولكشف نقابه، والنظر إلى وجهه، وأيضًا صبروا في الله فيما ورد عليهم من أثقال موارد أسراره كتمانًا بها العظم إحاطة أنوار أزليته على قلوبهم طمعًا لوصولهم: أي: إدراك كل الكل.

قال أبو عثمان: صبروا عن المناهي أجمع لا لخوف النار بل بسبب النهي وحرمة عظمة الله.

وقال بعضهم: هذا مقام المريدين أمروا أن يصبروا على أرادتهم وعلى ما يلحقهم من الميثاق، ولا يطلبوا الرفاهية، ولا يرجعوا إليها، ويكون ذلك ابتغاء الحقيقة بصحيح الآراء.

ثم زاد في وصفهم بإقامة الصلاة وإنفاق أموالهم بقوله: ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ راقبوا الله وشاهدوه بتقديس الأنفاس، ويبذلون وجودهم ظاهرًا وباطنًا لله وفي الله.

ثم زاد وصفهم بقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بحسنة مشاهدته ولذة محبته ولذيذ شوقه سيئة معارضة النفس ومتابعة الهوى.

قال الأستاذ: يعاشرون الناس بحسن الخلق؛ فيبذلون الإنصاف ولا يطلبون

الانتصاب إن غلبهم أحد بالجفاء قابلوه بالوفاء، وإن أذنب عليهم قوم اعتذروا عنهم، وإن مرضوا عادوا غيرهم.

كما قيل: إذا مرضنا أتيناكم نفوركم وتذنبون؛ فتأتيكم ونعتذر.

ثم وصف امتنانه عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ الجنات بالتفاوت الجنة مع العموم بساتين الملكوت، وجنة الخصوص معاينة ذات الجبروت؛ فإذا جلسوا على كراسي جنة الملكوت يزورهم أخوانهم من الملائكة ويهنئهم بما فازوا وما ظفروا بقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ أي: من كل أبواب الأهلية بينهم وبين الملائكة في مقام المعرفة والمحبة، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: سلامة دوام الوصال وبركة أنوار جماله الحق عليكم ولكم إلى الأبد بلا انقطاع ولا هم أبدًا بما صبرتم في طول الشوق إلى جماله، ونظركم في بلائه.

وقال بعضهم: سلام عليكم بما صبرتم معناه عما لنا.

ثم وصف الله أضدادهم بخروجهم من مكان عبوديته في اتباعهم هواهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ ميثاقه معهم لم يكن مع شرط التوفيق ولو ساعدهم في العهد نور العناية لا يقدرون على نقض العهد؛ لأن الموفق بالتوفيق يكون محفوظًا بعين رعايته عن كل خطر.

وقال أبو القاسم الحكيم: نقض العهد هو السكون إلى غير سكون إليه، والفرح بغير مفروح به، ثم وصفهم بحب الدنيا والفرح بحياتها بقوله: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ لا يكون الفرح بالدنيا إلا لمَنْ كان معزولاً عن الفرح بمشاهدة الله، ومن كان فرحه بالله كيف يفرح بما دون الله، وإن كان الجنة فإذا لم يفرح بالآخرة فكيف يفرح بالدنيا، والدنيا عند الآخرة كقطرة دم عند بحر الزلال.

قال الواسطي: الدنيا مدرة ولك منها غبرة، ومَنْ أسترته غبرة فهو أقل مستحقًا، ومَنْ ملكه جناح بعوضة أو أقل منه فلذلك قدرة.

وقال أيضًا: لا تدعو الدنيا تفرقكم في بحارها وغرقوها في بحر التوحيد حتى لا يجدوا منها شيئًا.

وقال بعضهم: أخبر الله أن الدنيا في الآخرة متاع، والآخرة أقل خطر في جنب الحقيقة من خطر الدنيا في الآخرة.

وقال أبو عثمان: هوّن الدنيا وحقّرها في أعينهم لئلا يشق عليهم تركها بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ قطع أسباب إضلال أهل الضلال وعلّق الهداية برجوع الراجعين إليه.

قال: يضل من يشاء في الأزل ويرشدهم طريق الإنابة إليه يضلهم عن مشاهدة جماله، ويهدي العارفين إلى مشاهدة وصله.

قال بعضهم: يضل مَنْ قام بنفسه واعتمد عليها مَنْ سبيل رشده ويهدي إلى سبيل رشده مَنْ رجع إليه في جميع أموره، وتبرأ من حوله وقوته.

وقال جعفر: يضل عن إدراكه ووجوده من قصده بنفسه، ويوصل إلى حقائقه من طلبه به، ثم وصف الذين أنابوا به إليه حيث أبصروا ما برز من وجه نبيه ﷺ من أنوار الرسالة، وأيقنوا حقائقه ولم يحتاجوا إلى آية أخرى كطلاب البرهن من رسول الرحمن بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ بيّن سبحانه أن ذكر المؤمنين مقرون بإيمانهم؛ فآمنوا بالغيب من حيث الاعتقاد بالغيب بها وهبه الله من نور الإيمان وطمأنينة قلوبهم بذكر الله، والله تعالى غيّبهم آمنوا به ولم يكونوا مطمئنين بإيمانهم بالله لكن مطمئنين بذكر الله فإيمانهم غيب أيضًا، وذكرهم غيب ولو شاهدوه مشاهدة كشف صار غيبهم طمأنينة قلوبهم به، وسقط عنهم الذكر؛ فأما ما دام لم يصلوا إلى مشاهدة المذكور فاقترنت طمأنينة قلوبهم بذاكره، وذكره للمؤمنين على معنيين، ذكر الظاهر على ضربين، ذكرهما اللسان، وذكرهم الآذان، وذلك عند سماعهم ذكر الله، وهذا الذكر الذي من طريق اللسان والسمع يزيد طمأنينتهم من حيث التربية والتواجيد وذكر الباطن، وذلك على حزبين أيضًا، ذكر قلوبهم قدرا الله وجلاله، وذلك من قوله: رؤية آلاء الله ونعمائه، وتفكر في آياته وصنائعه، وذلك كسب القلوب، وما لم يكن من الذكر مكتسبًا؛ فذكر الله قلوب أصفيائه، وذلك يتعلق بواردات غيب أنوار وجوده حيث انكشف لها وهو ذكر خالص إلهي بلا علة ولا سبب وخالص طمأنينتها به وما سواه من الذكر؛ فهو مغلول قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أو بذكره في نفسه إياهم وذكرهم له بعد ذكره لهم، فإذا كان الذكر يأتي من محل الإيمان فيتولد منه الرهبة والرغبة والوجل والخوف والقلق والرجاء وحسن الظن.

وأما إذا كان ذكر الإيمان يكون من محل الإيقان أي: الذين أيقنوا مشاهدة الله ولقائه فهم ذاكرون الله بنور إيقانهم في وجوده ونور الإيقان أشرق من نور الإيمان؛ فنور الإيمان كصبح الأول ونور الإيقان كصبح الثاني، فأهل اليقين في طمأنينة قلوبهم بذكر الله في رؤية أنوار لوائح الحضرة ولوامع نور الإلهية، فذكر قلوبهم بقدر وضع تلك اللوامع، فإذا ذكرهم

الله بكشف أنوار حضرته لهم تطمئن قلوبهم بذكره بعد طمأنينتهم بذكرهم؛ فيتولد من ذكرهم الصدق والإخلاص والتسليم والرضا والتوكل وخالص العبودية، وإذا كان معنى آمنوا شاهدوا الله يكون طمأنينة قلوبهم هاهنا بالله وكشف وجوده، وذلك مثل ذهاب الصبح برؤية طلوع الشمس.

فالأول: من الإيمان علم اليقين.

والثاني: من الإيقان عين اليقين.

والثالث: من مشاهدة الرحمن حق اليقين، وفي مقام المشاهدة زال الذكر والذكر باستيلاء أنوار عظمة المذكور، وهنا ليس مقام الطمأنينة بل مقام فناء القلوب والأرواح والعقول والعلوم والفهوم والأفكار والأذكار في عظمة الملك الجبار، ويتولد من هذا المحبة والوله والشوق والعشق والمعرفة والأنس والتوحيد والتجريد والتفريد والفناء والبقاء، ومعنى قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وذكر القلوب يعني بالله تطمئن الأرواح.

ومحل الذكر أربعة أشياء، وذكر القلوب من رؤية الآيات، وذكر العقول من رؤية الأفعال في الصنعيات، وذكر الأرواح من رؤية أنوار الصفات، وذكر الأسرار من رؤية سبحات الذات، وها هنا الذكر متصير؛ لأن الذكر غير متناهٍ، فإذا رأى العارف مشاهدة صرف ذاتية فرديته على قدر وجوده، وحاشا أنه محيط بالديمومية والأزلية، فما كان غير مكشوف له فهو مذكور وهو ذاكرة، وإن كان في مشاهدته فهذا الذكر في مشاهدة المذكور، وهذا ذكر عجب ما عرفت طريقًا في المعرفة أدق من هذا، ولا أعرف أحدًا يشير إلى هذا المقام إلا قليلاً من كبراء القوم.

ولذلك قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: إذا رأوه وأرادوا زيادة كشف الذات والصفات، وعلموا أنهم لم يروه بقدره، ولو رأوه بقدره فنوا فيه فيما لم يروه تطمئن القلوب لرجاء وصولهم إليه، وذلك الزيادة متصور، وإن لم يتصور الإحاطة، وأيضًا معنى قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ذكر الله لهم في الأزل بحسن اصطفائيتهم بولايته ومعرفته؛ فبقيت لهم تلك الطمأنينة إلى الآباد.

قيل: القلوب على أربعة أنحاء، وقلوب العامة اطمأنت بذكر الله تسبيحه حمده والثناء عليه لرؤية النعمة والعافية، وقلوب الخاصة اطمأنت بذكر الله، وذلك في أخلاقهم وتوكلهم وشكرهم وصبرهم فسكنوا إليه، وقلوب العلماء اطمأنت بالصفات، والأسامي والنعوت، فهم ملاحظون ما يظهر بها، ومنها على الدهور.

وأما الموحدون كالغرقى لا تطمئن قلوبهم بحال كيف تطمئن بذكر من حملوه أم كيف

تطمئن بذكر من لم يؤمنهم بل خوفهم وحذرهم.

قال الحسين: من ذكره الحق تحير في أزله اطمأن إليه في أبده.

وقال النهرجوري: قلوب الأولياء مواضع المطالع، وهي لا تحرك ولا تنزعج بل تطمئن خوفًا من أن يرد عليه مفاجأة مطالعة فتجده مترسمًا بسوء الأدب.

وقال الواسطي: هذه على أربعة ضروب:

فالأول: للعامة لأنها إذا ذكرته ودعته اطمأنت إلى ذكرها له فحظها منه الإجابة للدعوات.

والثاني: إطاعته وصدقته ورضيت عنه فهم مربوطون في أماكن الزيادات اطمأنت قلوبهم إلى ذلك فكانوا ممزوجين الملاحظة بشواهدهم ومقصودي الطبائع برؤية طاعاتهم.

والثالثة: أهل الخصوص الذين عرفوا الأسماء والصفات، وعرفوا ما خاطبهم الله به؛ فاطمأنت قلوبهم بذكره لها ألا بذكرها له وبرضاه عنها لا رضاها عنه.

والرابعة: خصوص الخصوص، وهم الذين كشف لهم عن ذاته وعلمهم علم صفاته؛ فأدرج لهم الصفات في الذات، وأراهم أن ما تعرف إلى الخلق بأقدارهم وعلمهم أخطارهم؛ فعلموا أن سرائرهم لا يقدر أن تطمئن إليه ولا يسكن إليه، ومن كانت الأشياء في سره كذلك إلى ماذا يسكن ويطمئن؟ فلا يجد قلبه طمأنينة لقدر المكان إليه، كلما عادت الزيادة عليه رآها حجابًا لا يستطيع بالبر والنعم؛ لأنها حجاب مستور وهباء منثور، فإن عزمت الدخول في هذا المقام؛ فاحتسب نفسك وأعظم الله أجرك.

وقال الأستاذ: قوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله في الذكر وجدوا سلوتهم وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم، وقوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله لهم؛ فذكرهم الله بلطفه، وأثبت الطمأنينة في قلوبهم على وجه التخصيص لهم.

ويقال: إذا ذكروا أن الله ذكرهم استروحت قلوبهم واستبشرت واستأنست أسرارهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ تقريرًا لها على ما نالت بالله من الحياة.

قال بعضهم: قلوب أهل المعرفة لا تطمئن إلا بالله ولا يسكن إلا إليه؛ لأنها محل نظره قيل اطمأنت إليه لأنها لم تجد دونه موضع أنسه وراحته.

وقال الروذباري: اطمأنت إليه؛ لأنه جللها بالنور وشحنها بالأنس والسرور؛ فاطمأنت إليه ثم أنه سبحانه لم يقنع بذكر الإيمان منهم حتى قرنه بالعمل الصالح بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: أبصروا بعيون أسرارهم أنوار آزال الآزال، وآباد الآباد وبها وصل إليهم من نور الأحدية أيقنوا ما لم يصل

إليهم منه بما وجدوا منه، ثم اختاروه بما فيه أعمالهم بشرط فنائهم في أوليته وآخريته، وذلك عملهم الصالح فأخبر من جزائهم.

وقال: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ أي: شجر القدم وذات القديم جل ثناؤه لهم، وأغصان الصفات الأزلية الأبدية بشرط الكشف والمشاهدة مأوى أسرارهم وصل شجر الذات بوصف التجلي أكناف أرواحهم، وهناك حسن مآب قلوبهم، وأيضًا أي: طوبى لمن هذا حاله مع الله وحسن رجوعه منه إليه، وطوبى لَمنْ كان عروس الأزل شاهد مجلسه طوبى لأعين قوم أنت بينهم فهن في نعمة من وجهك الحسن.

قال الجريري: طوبى لَمنْ طاب قلبه مع الله لحظة من عمره، ورجع بقلبه إلى ربه في وقت من أوقات.

وقال الشبلي: طوبى لَمنْ غاب عن حضرته، وحضر في غيبته وأصبح وأمسى مراعيًا لسريرته.

وقال الجنيد: طاب أوقات العارفين بمعروفهم لذلك قال النبي ﷺ: «وطيب القلب من النعيم»[1].

قال ابن عطاء: في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صدقوا ما ضمنت لهم من الرزق والعمل الصالح ما كان بريئًا من الشرك والرياء والعجب.

قال الأستاذ: طابت أوقاتهم؛ نطابت أنفاسهم.

ويقال: طوبى لَمنْ قال أحق طوبى له، ويقال: طوبى لهم في الحال، ولهم حسن المآب في المال.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ لما لم ير الحق سبحانه أهلاً لرؤية وحدانيته، وإدراك حقائق توحيده من الخلق إلا سيد المرسلين صلوات الله عليه اختاره بالرسالة وإنشاء سر التوحيد؛ فأمره أن ينزهه بلسان الحقيقة.

وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أثبت ربوبيته حيث رباه بنور ذاته وصفاته، ونفى غيره ولا غيره بالحقيقة دخل في بحر النفي، بقوله: ﴿لَآ﴾ ووصل إلى جواهر وجود القدم والهوية فدار بسره بين دائرة هو واضمحل عن كينونية وجوده؛ فتحرك سر طلب الأصل فيه،

---

(١) لم أقف عليه.

وعرف أنه لا يدركه بنفسه؛ فاستعان بالأزل في معرفة الأزل، واستعاذ به فقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ فلما عجز لكل عن حمل هذه المعاني، وحمل السيد حمل جميعهم بالله صار من العالم غرض الكل، لذلك قال: «لولاك لما خلقت الكون»[1]، ولما تام مقام الكل فهو تعالى لم يبال بالكل، وهذه كما قيل:

وكـنت ذخـر أفكـاري لـوقت ... فكـان الـوقت وقـتك والسـلام

وكـنت أطالـب الدنـيا لحـر ... فأنـت الحـر وانقطـع الكـلام

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ عاتب المؤمنين بهذا القول أي: العتبى لهم بأن يطردوا من رؤية ربهم إلى معادن الأرواح ليعرفوا أهل الاصطفائية ممَّنْ دونهم من أهل الحجاب، ولا يطيعون إلى إيمانهم؛ فإن سرَّ التقدير حريٌّ يمنعهم من مطالعة جماله.

قال الواسطي: هو على ما يقدر من تصحيح حكمه وأحكام قبضته، ولا يبدل القول لديه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هو تعالى قائم على كل نفس قدر قوتها حمل أثقال ربوبيته، وأنوار عظمته وتربية جوده وحفظه وعنايته؛ فمن نفس قام عليه بفعله، ومن نفس قام عليه بصفته من حيث كشف الصفة لها وكشف نور الفعل لها، ومن نفس قام عليها بالذات من حيث كشف سبحات الذات لها؛ فإن كسبت النفس عبوديته؛ فهي في مشاهدة أنوار فعله، وإن كسبت النفس محبته؛ فهي في رؤية أنوار صفاته،

---

(١) ذكره علي القاري في «المصنوع» (١/ ١٥٠)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢١٤) بنحوه.

وإن كسبت معرفته وتوحيده في رؤية سحاب أنوار ذاته؛ فإن قصرت للنفس الأول في عبوديته بالتفاتها إلى حظها أخذها الحق بعقوبة المجاهدة، وإن قصرت النفس الثاني في محبته بأنها استلذّت محبته، ووقفت باللذّة عنه أخذها الحق بأن وقعها في بحر النكرة، لكن الأخذ هاهنا الزيادة معرفتها لأنه سبحانه مشفق على النفس العارفة، وهو تعالى أخذ هذه النفوس قائم بنعت حفظ أنفاسها في طلبها الحق.

قال الجنيد: بالله قامت الأشياء، وبه فنيت، وبتجليه حسنت المحاسن وباستنارته قبحت وسمجت.

قال محمد بن الفضل: لا تغفل عمَنْ لا ينفك عنك وراقبه، وكن حذرًا.

قال الله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ثم بيّن سبحانه أن مَنْ لم يعرف المحيط بكل شيء القائم على كل نفس ممّنْ دونه من الحدثان، إن ذلك من قهره عليه وتزيين كفره في عينه بقوله: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ زيّن الله مكرهم بمكره فيهم في الأزل في عيونهم حتى رأوه مستحسنا وهو من أقبح القبائح؛ لأنه موضع هلاكهم وصدهم عن معرفته وحسن مشاهدته، وكيف يخلصون بمكرهم من مكره ويعرف مساوئ مكرهم بعد أن زيّن الله مكرهم لهم، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: صفة الجنة التي وعد المتقون، وهو جنة مشاهدة الذات تجري من تحتها أنهار الصفات، ثمره ثمر أشجار الصفات والذات للمتجردين عن الحدثين دائم بأنهم يعينونها بلا حجاب، ويعيشون في ظلال تجليه بلا غُصة ولا حجاب، تلك منازل أهل الأشواق إلى رؤية الملك الخلاق المتبرئين من الشرك والنفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ مادام في حيز الحدوثية، وإن رأى ما رأى عليه من أنوار الربوبية ووثق عليه بألا يلتفت إلى ما بدا في نفسه

من أنوار الربوبية، ويستقيم في حال العبودية؛ فإن الربوبية في العبودية مكر الحقيقة، ومن نظر من العبودية إلى الربوبية في نفسه فقد أشرك؛ لأنه مخدوع بالله عن الله.

سُئل أبو حفص عن العبودية، قال: ترك كل مالك، وملازمة ما أمرت به.

وقال أبو عثمان: العبودية اتباع الأمر على مشاهدة الأمر.

وقال ابن عطاء والجنيد: لا يرقى أحد من درجات التوحيد حتى يحكم فيما بينه وبين الله أوائل البدايات، وأوائل البدايات هي الفروض الواجبة، والأوامر الزكية، ومطايا الفضل، وعزائم الأمر، فمَنْ أحكم على نفسه هذا منَّ الله عليه بما بعده.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بيّنّا حكم عربيا يا عربي، وذلك الحكم ما حكمنا في الأزل بأنك خير البرية، وأعطيناك استعداد قبول تخلقك بخلقنا واتصافك بصفاتنا، فإذا اتصفت بصفتنا رأيتنا بنا وخرجت في مشاهدتنا من الالتفات إلى غيرنا من العرش إلى الثرى؛ فوصفناك في كتابنا بقولنا: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ فتجريد توحيدك حكم عربي بيّناه منك لأمتك؛ ليتصفوا بصفتك ويتخلقوا بخلقك، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ حيث تخلقت بخلقنا.

قال بعضهم: أحكام العرب السخاء والشجاعة، وهما من عرى الإيمان.

قال الحسين بن الفضل: في هذه الآية تصحيح حكم القيافة؛ لأنه لا حكم ينفرد به العرب إلا حكم القيافة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ وصف سبحانه تمكين نبيه ﷺ في رسالته، كما وصف الرسل بالتمكين؛ حيث لا يغيره صفات البشرية عن أسرار ما وجد من الله من حقائق القربة والمحبة، بل الأزواج والذرية كانت له ﷺ معينة في بحر سكره، ولولا قسمته أبحر نسبوته متعلقة من تحت سفينة نبوته في بحار محبته ومعرفته، لطارت تلك السفينة بصرصر رياح الأزل في هواء الأبد، ولبقى الحدثان بلا عروس الرحمن، ولم يظفر أحد بحقائق الإيمان.

ألا ترى كيف قال ﷺ من رأس سكره: «كلميني يا حميراء»[1]، وذلك لأن الله أراد بقاءه بين الخلق ليرحمهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ولا يعذبهم ببركته.

قال الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وأعلم الجهال بهذه الآية أنه إذا شرف وليًا وصديقًا بولايته ومعرفته، لم يَضُر به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسط الدنيا له قدحًا في ولايته.

قال محمد بن الفضل: جعلنا لهم أزواجًا وذرية، فلم يشغلهم ذلك عن القيام بأداء الرسالة ونصيحة الأمة وإظهار شرائع الدين.

ويقال: أن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الاشتغال لا يؤثر في حاله ولا يضره ذلك من وجه.

ثم بَيّن سبحانه أن آيته ومعجزته وكرامته خارج عن تصرف الخلق وتعللهم، وإن كان نبيًّا أو صديقًا أو ملكًا، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حسم أطماع المريدين عن طلب الكرامات بالمجاهدات، ومنهم من التمسها عن المشايخ، ثم بَيّن سبحانه أنّ أوان ذلك بأجل معلوم في وقت معروف، بقوله: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ لكل مقام ومرتبة من مراتب العارفين لها زمان عند الله سبحانه، لا ينالها أحد قبلَ بلوغه إلى ذلك الوقت إلا بعد أن يكون مصطفى في الأزل بالدرجات والكرامات.

ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وأيضًا لكل كشف من صفاته وذاته وقت في مراد الله من أوليائه، وذلك الكشف من العيون الصفات والذات لا يكون للعارف إلا ويكون في قلبه شأن محو صفة من البشرية، وإثبات صفة من العبودية وزيادة نور في إيمانه وعرفانه بالربوبية، أيضا لكل مقدر في الأزل في قضية مراد الله من الربوبية والعبودية والنعمة البلية وقت معلوم في علم الله لا يأتي إلا في وقته.

قال جعفر الصادق في قوله: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ للرؤية وقت.

وقال ابن عطاء: لكل بيان ولكل لسان عبارة، ولكل عبارة طريقة، ولكل طريقة أهل، فمَنْ لم يميز بين هذه الأحوال فليس له أن يتكلم بالعرف والحقائق، وعلم هذه الطائفة ومفهوم الإشارة إخبار الحق عن الصفتين الأزليين، وهما الإرادة والعلم، أي: إرادة في إنفاذ القضاء علم في ذاته في كيفية وقوع ما أراد وقوعه من أمور الربوبية؛ فالكتاب علم ذاته يثبت إرادته في علمه ما يشاء، يمحو ما يشاء من القضاء والقدر، فبقي الكتاب كما كان في الأزل،

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٥٧)، وابن عجيبة في البحر (٢/ ٣٢٢)، وحقي (١١/ ٩٣).

وبقيت الإرادة كما كانت في الأزل ويتغير أحكام المقضيات والمقدورات للعباد بالعلم والإرادات، بقوله: ﴿يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ يمحو بإرادته القديمة من نفوس المريدين صفات البشرية ويثبت في قلوبهم صفات الروحانية، ويمحو من قلوب المحبين معارضة الامتحان، ويثبت في أرواحهم حقيقة نور الإيقان، ويمحو عن أسرار العارفين أوصاف العبودية، ويثبت فيها أوصاف الربوبية، وأيضًا يمحو عن ألواح العقول صورة الأفكار، ويثبت فيها نور الأذكار، ويمحو عن أوراق القلوب علوم الحدثان، ويثبت فيها لدنيات علم العرفان، وأيضًا ويمحو عن أرواح الصديقين أعلام المرسومات المكتبات، ويثبت فيها نوادر الإلهيات في حقائق المراقبات، وأيضًا يمحو عن عيون العقول شواهد الآيات، ويريها أنوار الصفات، وأيضًا يخفي في القلوب أثار الصفات، ويبدئ لعيونها أنوار الذات، وأيضًا يمحو بفضله خاطر الوسواسية والهواجسية عن قلوبهم الخاصة، ويثبت فيها خواطر حقائق المعرفة، وإذا كان أسرار أهل التوحيد في بحر التجريد بنعت التفريد سائحة فيغرقها الحق في بحار نكرات القدم تارة، تبحيرها وفنائها ويغرقها في بحار معرفة الأزلية ببقائها مع الحق ومشاهداته، فالفناء حق القدم يغلب على البقاء، والبقاء حق الأبد فيغلب على الفناء، وذلك من بدء نور الذات في الصفات، وبدء نور الصفات في الذات، لتلك الأسرار والصفات والذات أصل تلك الغرائب والعجائب بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أم الكتاب المقدورات في الأفعال والصفات، وأم الكتاب الصفات والذات؛ لأن الكل منه بدأ وإليه يعود، فما كان في كتاب الأفعال من القدريات يمحوه ويثبته، وما كان في الذات والصفات منزه عن المحو والإثبات، فكلٌّ متبدل؛ فمن أم الكتاب يتبدل من المقدورات، وكل محو ينهي، فمن أم الكتاب ينهي.

قال الواسطي: منهم من جذبهم الحق ومحاهم عن نفوسهم بنفسه، فقال: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، فمَنْ فني عن الحق بالحق قيام الحق بالحق فني عن الربوبية فضلا عن العبودية.

وقيل: يمحو الله ما يشاء من شواهده حتى لا يكون على سره غير ربه، ويثبت من يشاء في ظلمات شاهده حتى يكون غائبا أبدًا عن ربه.

وقال ابن عطاء: يمحوا الله ما يشاء عن رسوم الشواهد والأعراض، وكل ما يورد على سره من عظمته وحرمته وهبته ولذعات أنواره، فمَنْ أثبته فقد أحضره، ومَنْ محاه فقد غيبه والحاضر مرجوعه لا يعدوه، والغائب لا مرجوع له، يعدوه أو لا يعدوه.

قال الواسطي: يمحوهم عن شاهد الحق ويثبتهم في شواهدهم، ويمحوهم عن

شواهدهم ويثبتهم في شواهد الحق، يمحوا اسم نفوسهم عن نفوسهم، ويثبتهم برسمه.

قال ذو النون: العامة في قبض العبودية إلى أبد الآبد، ومنهم من هو أرفع منهم درجة غلبت عليهم مشاهدة الربوبية، ومنهم من هو أرفع منهم درجة جذبهم الحق، ومحاهم عن نفوسهم، وأثبتهم عنده، لذلك قال: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ .

وقال سهل: يمحو الله ما يشاء ويثبت الأسباب، وعنده أم الكتاب القضاء المبرم الذي لا زيادة فيه ولا نقصان.

وقال ابن عطاء: يمحو الله أوصافهم ويثبت بأسرارهم؛ لأنها موضع المشاهدة.

وقال الشبلي: يمحوا ما يشاء من شهود العبودية وأوصافها، ويثبت ما يشاء من شهود الربوبية ودلائلها.

وقال بعضهم: يمحو الله ما يشاء يكشف عن قلوب أهل محبته أحزان الشوق إليه، ويثبت بتجليه لها السرور والفرح.

قال جعفر: الكتاب الذي قدر فيه الشقاوة والسعادة لا يزاد فيه ولا ينقص، ﴿وَمَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩].

ويقال: يمحو العارفين بكشف جلالهم، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله.

وقال الأستاذ: المشية لا يتعلق إلا بالحدوث والمحو، والإثبات لا يكون إلا من أوصاف الحدوث، وصفات الحق سبحانه من كلامه وعلمه لا تدخل تحت المحو والإثبات، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله، وقيل يمحوا الله عن قلوب مريديه همم الإرادات، ويرتقي بهم إلى أعلى الدرجات.

قال الواسطي: يمحو ما يشاء عن رسمه ما أثبته في وسمه، ويمحو ما يشاء عن وسمه، وهم الأولياء وخاصة.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾، وظاهر الآية معروف بفتح الأمصار لأهل الإسلام، ولكن فيه إشارة عجيبة أنه تعالى إذا أراد بجلاله أن يزور عارفًا من عرفائه ومحبًا من أحبائه تجلى من ذاته وصفاته له؛ فيقع آثار تجليه بنعت العظمة والكبرياء على الأرض فتروي الأرض من هيبة جلاله حتى تصير كخردله، وذلك من غيبة من الخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ يا ليت للعاشقين لو يرون ذلك

لطاروا من الفرح به.

كما قيل: لو علمنا أن الزيادة حق لغرسنا الطريق بالياسمين، وأيضًا ينقصها من أطرافها؛ لأن أوليائه وأوتاده في أطراف الأرض، فإذا قبضهم نقص أطراف الأرض بقبضهم عنها.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «في آخر الزمان لا يبقى صاحب موافق إلا في أطراف الأرض، وكل واحد منهم في كل يوم أجر مائتي شهيد، وإذا أراد خراب الأرض أوى أولياؤه إليه، منها ليهلك أهلها بعدهم؛ لأن دعاءهم وبركتهم أثبت أهل الأرض في عوافي ذلك من غيرة الله، ولا مُدفع لغيرته»[1] بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾.

قال محمد بن علي: تخرب الأرضين بذهاب أهل الولاية من بينهم؛ فلا يكون لهم مرجع على ولي في نوائبهم ومحنهم ويتواتر عليهم المحن والنائبات، فلا يكون فيهم من يكشف الله عنهم بدعائه فتخرب.

وقال أبو عثمان: هم الذين ينصحون عباد الله، ويحملونهم على طاعة الله، فإذا ماتوا مات بموتهم مَنْ يصحبهم.

وقال أبو بكر الشاشي: شيء يسبغ عليهم الرزق، ويرفع عنهم البركة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ أحكام الحق ماضية على عباده فيما ساء وسر ونفع وضر، فلا ناقض لما أبرم ولا مضل لمن هدى.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ في كلام أهل المعرفة بموت الأولياء.

ويقال: هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشد في طريق الله لم يجد من يهديه إلى الله.

﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ كل قصاراه منتهى؛ لأنه سقط في عكره ومكره قائم على كل مُسكر وله فعل لا بكل قوم مكر؛ فمكره بالمريدين أن يزين لهم أعمال الطاعات ويجعلهم مسرورين بها، ومكره بالمحبين سكونهم إلى راحات مواجيدهم؛ فيجعلهم مستلذين بها فيصيروا محجوبين عما رأوها من مكاشفات جمال الحق، ومكره بالعارفين أن يوقفهم على

---

(١) ذكر نحوه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٤٨)، وعزاه للطبراني.

ما وجدوا، حتى ظنوا أنهم واصلون إلى الكل، ومكره بالموحدين أن يغرقهم في بحر البقاء، ومشاهدة الأبدية ولا يطوق عليهم سطوات عزه القدم التي توجب الفناء في النكرة، والفناء في نكرة النكرة، ومن ثم في بحر النكرة؛ فمكره أياسه من الرجوع إلى البقاء المذكور، والكل في مكره، ومكرهم من مكره، ومكره وراء مكرهم يحتالون أن يخرجوا من مكره بمكرهم، ولا يخرجون من مكره إلا بمكره.

قال الحسين: لا مكر بين من مكر الحق بعباده حيث أوهمهم أن لهم سبيلاً إليه بحال، وللحدث اقتران مع القديم في وقت، والحق بائن وصفاته بائنة إن ذكروا فبأنفسهم، وإن شكروا فلأنفسهم، وإن أطاعوا فلنجاة أنفسهم، ليس للحق منهم شيء بحال؛ لأنه الغني القهار.

قال ابن عطاء: المكر حقيقة ما مكر بهم الحق حتى توهموا أنه يمكرون ولم يعرفوا أنهم مكر بهم، حيث سهل عليهم سبيل المكر.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في الآية إشارة عجيبة، أي: لو يطالبون شهيد بيني وبينكم بصدق رسالتي؛ فانظروا فإني موضع شهود جمال الحق، فإن ترونني بعين الحقيقة ترون جلاله وجماله وبهاءه في مرآة وجهي؛ فشهود تجليه شاهدي، وأيضًا شاهدي من هذا حاله من الأولياء والصديقين، ومن عنده ينكشف علم ذاته وصفاته وتصديق ذلك إشارته ﷺ بقوله:

«من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني فقد عرف الحق»[1].

وأيضًا ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: علم إشارات الله من أزله في كتابه، يعني لطائف الحروف المتشابهة المشيرة إلى دقائق أسراره وملكوته وحقائق جبروته، أي من علم الكتاب ولهم سر الخطاب بلا واسطة من حيث الكشف والإلهام والمشاهدة والكلام، متحققًا في هذه مشاهدته وشاهدته وشاهد آيات رسله نائب أنبيائه وسفير الحق إلى خلقه، له لسان العجائب من علوم الإلهية وغرائب حقائق الربوبية، وله لسان الخصوص من المعرفة والتوحيد، وله لسان خصوصية الخصوصية من بيان النعوت والأسماء والأوصاف والصفات وأبناء الغيب، وغيب الغيب والفراسات الصادقة، والآيات الواضحة.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٢٦٧)، وأحمد في مسنده (٣/ ٥٥) بنحوه.

قال ﷺ في وصفهم: «إنَّ في أمتي محدَّثين مكلَّمين، وإنَّ عمر منهم»(١).

وله لسان العموم في علم المقامات من الصدق والإخلاء، والفرق بين الإلهام والوسواس والرياضات والمجاهدات وبيان عيوب النفس ومداواتها، وهو لسان الحق في العالم إذا نطق نطق الحق؛ لأن الحق نطق به.

قال سهل: الكتاب عزيز، وعلم الكتاب أعز، والعمل بعلمه عزيز، والإخلاص في العمل أعز، والإخلاص عزيز، والمشاهدة في الإخلاص أعز، والمشاهدة عزيزة، والموافقة في المشاهدة أعز، والموافقة عزيزة، والأنس في الموافقة أعز، والأنس عزيز، وأدب محل الأنس أعزّ.

❁❁❁

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾

﴿الٓر﴾ في الألف ثلاثة أحرف ألف ولام وفاء، والإشارة فيها إلى ألفته لقلوب أوليائه، واللام لام الولاية، كأنه أليف أوليائه، والراء إشارة إلى رحمة السابقة في اصطفائيته، كأنه قال بالألف إنا، وباللام الأزل، أي أنا في الأزل رحمة أوليائي واصطفيتهم لرؤية جمالي وراحة وصالي لهذه الصفات التي سبقت في اصطفائيته واصطفائيته أمرك وأخبرتك ومحبة أمتك، وما أخبرت بإشارة ﴿الٓر﴾.

﴿كِتَٰبٌ﴾ إن هذا كتاب مجتبي، ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ لتعلم فضيلتك وفضيلة أمتك، ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إذا عرفناهم سبق عنايتي لهم تخرجهم بنور

---

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (١٣/ ١٧٤)، وابن عجيبة في «البحر المديد» (٢/ ٧١).

كلامي وأخباري عن كرمي ورحمتي عليهم عن ظلمات طبيعتهم، وغواشي غفلتهم إلى سعة فضاء كرمي ونور بسطي وانبساطي، وأيضًا تخرجهم من ظلمات الظنون إلى نور اليقين، وأيضًا من ظلمات العدم إلى أنوار القدم، ومن ظلمات النفس الأمّارة إلى نور المشاهدة، ومن ظلمات المجاهدة إلى نور المكاشفة، ومن ظلمات رؤية غيري إلى نور رؤية قربي.

قال جعفر في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾[1]: عهد خصصت به فيه بيان سالف الأمم ونجاة أمتك، أنزلناه إليك لنخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات البدعة إلى أنوار السنة، ومن ظلمات النفوس إلى أنوار القلوب.

قال أبو بكر بن طاهر: من ظلمات الظن إلى أنوار الحقيقة.

قال أبو حفص: الظلمة رؤية الفعل والنور رؤية الفضل.

قال الأستاذ: من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات التفرقة إلى أنوار الجمع، ثم إخراج الهداية من علة الكسب بقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ثم بيّن ذلك النور بأن هذا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو طريق العبودية الذي اصطفاه الحق لعرفان الربوبية على قدرهم لا على قدره؛ فإنه عزيز ممتنع عن مطالعة الحدث حقائق قدمه، وهو محمود في أفعاله وذاته وصفاته بألسنة أحبائه بما أنالهم عبوديته وهداهم إلى ربوبيته.

ثم وصف نفسه بالألوهية التي بدأ منه الكل وإليه يرجع الكل، وما كان وما سيكون، وما هو حاضر من الملك والملكوت في تصرفه وتدبيره، يهدي فيه ويهدي به، وبما فيه من دلائل صنعه وربوبيته عافيه إلى مشاهدة جلاله وعظيم كبريائه بقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه إشارة إلى أحبائه أي أن الكون وما فيه لي من أراد ذلك؛ فليسأل مني لا من غيري، ومن أرادني فلا يلتفت إلى مالي.

قال الواسطي: الكون كله له، فمَنْ طلب الكون فإنه المكون، ومَنْ طلب الحق وحده سخر له الكون بما فيه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وصف الله المرائين الذين

---

(١) قال الأستاذ: أقسم بهذه الحروف: إنّه لَكِتَابٌ أُنزِل إليك لتُخرِجَ الناسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومنْ ظُلماتِ الشَّكِّ إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إلى نورِ معارفِ القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْعِ بإذن ربهم وبإرادته ومشيئته، وسابقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد، تفسير القشيري (٤/ ٢٤).

يؤثرون جاه الدنيا ورياستها على طلب الولاية وشرفها، ويصدون المريدين عن طريق القاصدين إلى الله ويصرفون وجوههم إليهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ في ظلمات القهر ولا مخرج لهم منها أبدا.

قال أبو علي الجوزجاني: مَنْ أحبَّ الدنيا حرم عليه طريق الآخرة، ومَنْ طلب الآخرة حرم عليه طلب طريق نجاته، ومَنْ طلب طريق النجاة حرم عليه الوصول إلى التفضل.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ لكل نبي وصدّيق اصطلاح في كلام المعرفة، وطريق المحبة مع قومهم فيعرفهم طريق الحق باصطلاحهم الذي يعرفه قومه وأصحابه تسهيلا لسلوكهم وتيسيرًا لإدراكهم ولو تكلموا بلسان الحق والحقيقة لم يعرفوا ذلك فهلكوا؛ فيفتح تلك الحقائق لمَنْ يشاء من المريدين، ويحجب من يشاء منهم عنها غيره عليها بقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ فيه إشارة أن أيام القدم وأيام البقاء، أيام القدم أولية الأولية المنزّه عن دهر الدهار، والزمن الأثار، كان في كان قبل كان وكما كان فيما كان الآن؛ فعشق بنفسه على نفسه، وكان عروس نفسه ولم يكن في كان إلا كان؛ فمضى على كان أيام قدم كان بلا عشق ملهوف، ولا محب معروف، ولا حيران سكران، ولا عارف مكاشف، ولا مؤنس مستأنس يتمتعون بجمال القدم في القدم فيا ويلتا من وصال فائت منّا، وجمال غائب عنّا تذكرت أيامًا ودهرًا صالحًا؛ فبكيت حزنًا فهاجت حزني.

وأما أيام البقاء آخرية الآخرية بلا مرور الحدثان ولا علة الأكوان والأزمان بقاء سرمدي وجمال أحدي ووصال أبدي ويبقى لشهود عشاقه ومطالعة جمال أهل أشواقه كأنه قال ذكرهم أيام القدم ليفنوا حسرة على ما فات عنهم.

على ما فات أبكي من حياتي — وأيام مضت في النزهات
وذكرهم أيام البقاء ليبقوا — من فرح وجد إنها أبدا
دنا وصال الحبيب واقتربا — وأطربا للوصال وأطربا

وأيضًا أي: ذكرهم أيام وصال الأرواح في عالم الأفراح، حيث كشفت قناع الربوبية عن جلال وجد الصمدية لها حتى عشقت بجمالي وبقيت في وصالي وذاقت طعم محبتي من بحر قربتي ما أطيبها، وما ألذّها حين كلّمتها بعزيز خطابي، وعرّفتهم حقائق جمالي، فقلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف:١٧٢] من غاية محبتي وشوقي لها، قالوا: بلى من شوقي ومحبتي أين تلك الأرواح حيث باعدت من مزار الوصال، وأيام الكشف والجمال؛ ليذكروا زمان الصفاء ولطائف الوفاء؛ ليزيدوا شوقًا على شوق، وعشقًا على عشق.

وكانت بالعراق لنا ليالي سلبناهن من ريب الزمان

جعلنا من تاريخ الليالي وعنوان المسرة والأماني

وأيضًا ذكرهم سرور مشاهدتي وخوفيهم عن مقاطعتي؛ فإن شأنهما عظيم وخطرهما جسيم.

نهايات راحات النفوس وصالها

وغايات لذات العيون لقاؤها

واشوقاه إلى تلك الأيام الصافية عن كدورة البشرية

واشواقاه إلى أيام كشف النقاب بلا علة العتاب

كان لي مشرب يصفو برؤيتكم

فكدرته يد الأيام حين صفا

ثم بيّن سبحانه أن فوت أيام القدم رزية عظيمة لكل صبّار في الفراق، وإن رجاء وصول أيام البقاء سرور عظيم لكل شكور أنعام المشاهدة والمعرفة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قال بعض المشايخ: ذكرهم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريفه التوحيد قبل حلولها في الأشباح .

سقيًا لها ولطيبها ولحسنها وبهائها أيام لم يلح النوى بين العصا ولحائها

ويقال: ذكرهم الله بأيام الله هي أيام التي كان العبد فيها في كتم العدم، والحق يقول بفعله الأزلي عبادي ولم يكن للعبد عين ولا أثر ولا للمخلوق منه خبر، حين لا وفاق بعد ولا شقاق ولا وفاء ولا جفاء ولا جهد للسابقين ولا عناء ولا ورد للمقتصدين ولا بكاء ولا ذنب للظالمين ولا التواء، كان متعلق العلم، متناول القدرة، مقصورا الحكم على الإرادة، ولا علم له ولا اختيار ولا زلة ولا أوزار، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور.

قال الأستاذ: الصابر غريق المحن لكنه راضي بحكمه، لذيذ العيش بسره، وإن كان مستوجبًا لرحمته عن خلقيه، والشكور غريق المنن، لكنه محجوب بشهود النعم عن استغراقه في ظهور حقه، بل هذا واقف مع صبره، وهذا واقف مع شكره، وكل ملازم بحده وقدره، والله غالب على أمره مقدس في نفسه متعزز بجلال قدسه.

قال أبو الحسن الوراق: في هذا الآية فتح عليهم سبيل الشكر لئلا تغيروا بالنعم.

وقال: عرفهم أن الوقوف مع النعمة يقطع عن المنعم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ علق زيادة نعمه عليهم بزيادة شكرهم، ولا علة لفضله وكرمه، ولا تعلق لفيضه بكسب عباده وشكرهم وصبرهم، بل شكرهم وصبرهم من توفيقه لهم، أن من عرف عجزه عن شكري لأزيدنَّ معرفته بي، ولعجزه عن إدراك حقيقة معرفتي، وحقيقة شكري يكون عبدًا شاكرًا.

وهذا القول الحسين حين قال: إني عجزت عن موضع شكرك فأشكرك فأشكر عني؛ فإنه الشكر لا غير.

وهذا اعتراف داود ﷺ فقال: إلهي لكل شكرٍ شكر، لأنه يكون بتوفيقك؛ فعجزت عن شكرك فقال سبحانه: «الآن شكرتني يا داود»[1] أيضًا لئن شكرتم اصطفائيتي لكم بمعرفتي في الأزل، وتعرفون حقيقتها لأزيدنكم بكشف مشاهدتي لكم حتى تعاينونني وتبصرونني بعيون المعرفة، والقلوب الخالصة، والأرواح العاشقة، والعقول المتميزة في جلالي.

قال حمدون: شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيلاً.

قال بعضهم: مَنْ شكر النعمة زاده من أَنْعُمِه، ومَنْ شكر المُنعم زاده معرفة به ومحبة له.

وقال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي

---

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (٩/ ٣٤٣)، وابن كثير في «التفسير» (٣/ ٥٣٠).

لأزيدنكم رؤيتي.

وسُئِل ابن عطاء عن قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها فقد تم الشكر.

وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب، ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس.

وقيل: إني خلقتكم لأزيدنكم الأنس بعد الوحشة، والقرب بعد البعد، والحضور بعد الغيبة.

قال الواسطي: ذكر الزيادة حجبهم عن الحقيقة، ثم كشفت الحقيقة لأقوام متواجدين، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ﴾ [الكهف: ٢٨] (بالغداة والعشي يريدون وجهه)، لا الزيادة، وفضله ولاحتته وبره، بل الحصول مع الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ويقال: لئن شكرتم وجود الطافي لأزيدنكم شهود أوصافي.

ثم بيَّن سبحانه استغناءه عن شكر الشاكرين، وصبر الصابرين، وإيمان المؤمنين، وكفران الكافرين، بقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ وصف تنزيه وغناه وحمده وفيه إشارة، أي مادام أنا مستغن عن الأكوان والحدثان، فلا أبالي بغفرانهم وإنْ أدخلهم جميعا في بحار رحمتي، فإني حميد حمدت نفسي قبل وجود خلقي؛ لأني علمت عجز خلقي عن حمدي.

قال أبو صالح الغني على الحقيقة: مَنْ لم يَزَلْ غنيًا ولا يزال غنيًا، ما زاده إيجاد الخلق غنى، بل خلقهم على حد الافتقار، وهو الغني الحميد.

وقال الواسطي: ليس الإيمان بمقرب إلى الحق، ولا الكفر بمبعد عنه، ولكن جرى ما جرى به الأمر في الأزل بالسعادة والشقاء، فظاهر الكفر والإيمان أعلام لا حقائق، والحقائق القضاء الذي سبق الدهور والأزمان.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ علم الحق سبحانه أن الأعين للحدث يرى بها القدم صدقا؛ فنصب أعلام قدرته لتراه عين الحدث بواسطة القدرة، فقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فطرها بقدرته وإبداعها بعزته، وألبسها أنوار جلاله وهيبته، يدعوكم من نفوسكم إلى رؤية جماله في آياته، فتنظروا إليها بأبصار فأذن وقلوب حاضرة.

ثم رقّاهم إلى أعلى الدرجات من رؤية أنواره وقدرته في خلقه إلى مشاهدة عيان ذاته؛ وذلك قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ وقع الغفران على النظر منهم إليه بواسطته آياته.

وأي ذنب أعظم من طلبه بواسطة من الكون، حار الوجود في وجوده، وغاب وجوده في وجوده، فضلاً عما أوجده في الوجود، وأيضًا يدعوكم إلى معرفته؛ لتعرفوا بمعرفته نفوسكم وذنوبكم، وإذا وقعت المعرفة عنكم ارتفعت ذنوب تقصيركم في طاعته، وإدراك عزته.

قال النوري في هذه الآية قال: دعا الخلق بنفسه إلى نفسه، وذكر من أسمائه فاطرًا؛ لئلا يتعلقوا بشيء من الأكوان.

وقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إن أردتم ما فيها فهو عندي، وإن أردتموني فلا تلتفتون إليها وارجعوا منها إليّ.

وقال بعضهم: ما دعا الله أحدًا إليه ولا الأنبياء، وإنما دعا من دعا لحظوظهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ووقعت التسوية على السواد والخيال، ولكن يختار برسالته ونبوته وولايته مَنْ يشاء من عباده الذين سبقت لهم حسن العناية في الأزل بها وهب لهم من خلع استعداد معرفته، وقبول عبوديته، ورقية مشاهدته، الأول تعريف التواضع، والآخر تشريف الحقائق.

قال أبو عثمان: منَّ الله على خواص عباده ما فات الإحصاء والعد، فأول منّة له عليهم التوحيد، ثم المعرفة، ثم أن بعث فيهم الرسل، ثم أن سماهم عباده، ثم له عليهم في كل نفس نعمة عرفوها أو لم يعرفوها.

وقال سهل: يمنّ على مَنْ يشاء بتلاوة كلامه والفهم فيه.

وقال الأستاذ: ما نحن إلا أمثالكم، والفرق بيننا أنه منَّ علينا بتعريفه واستخلصنا أفردنا به من تشريفه.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أخبر الله سبحانه عن الرسل اعترافهم في آخر الآية الماضية بالعجز عن التصرف في مملكته إلا بإذنه، وعن براءتهم عن حولهم وقوتهم في ظهور المعجزة وبين اعترافهم، أيضًا بعجزهم في تحمل إيذاء قومهم ورجوعهم إليه.

وقال: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بعد أن عرفنا نفسه وأنوار ذاته وصفاته بأنه مُعين أوليائه وناصر أصفيائه: توكلنا عليه لمعرفتنا به وما خصنا من لطائف وجوده ومشاهدته، وقد هدانا سبلنا، أضاف السبل إليهم ولبس السبل لهم ولكن السبل له.

قالوا: ذلك انبساطًا أي مهّد لأرواحنا سبلاً إلى نفسه، ومعرفة شأنه؛ فإذا سلكنا تلك السبل ورأيناه وراء السبل، وعرفنا ذاته وصفاته نتوكل عليه به لا بنا.

قيل للحسين ما التوكل عندك قال: الخمود تحت الموارد، وقال: سماعهم الأصم في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقد هدينا سبلنا، قال: ما لنا لا نثق بالله وقد أعطانا الإسلام والهدى.

وقال أبو العباس وابن عطاء: التوكل على التجارب خدعة، والتصديق على مطاهرة الوجود لبسته.

قال الأستاذ: ما لنا ألا نتوكل على الله وقد وقانا من تكليف البرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان وكفانا من مهمات الشأن.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ

أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1] إذا أخرج الأمر جل جلاله على وفق مراد العارف، جعل ذلك منه عليهم، ثم طلب منهم شكر المنّة بوصف الطالعة والمتابعة، وزجرهم عن عصيانه، وخوفهم عن وعيد قرآنه، وعظيم مقامه عليهم بوصف الإحاطة على وجودهم وأسرارهم وضمائرهم لئلا يزول منهم بالغفلة عنه، ومقامه بالتفاوت؛ فمقامه على المريدين بالزجر والتهديد، ومقامه على المحبين بالهيبة والتعظيم، ومقامه على العارفين بالإجلال والحياء، ومقامه على الموحدين بغلبات سطوات الكبرياء على قلوبهم، ومقامه على أهل الأنس والشوق والعشق على نعت كشف مشاهدة جماله وجلاله.

وهاهنا الخوف من مقامه ووعيد مفارقته، ووداعه منظر قلوب المستأنسين حتى تكون خاليه عن كشف مشاهدته، وأدق الإشارة فيه أن مقامه القدم في القدم، والبقاء في البقاء، وذلك المقام معدن الألوهية، ومنبع السرمدية، والخوف من ذلك الهيبة والإجلال، وهذا المقام مقام الربوبية في الربوبية؛ لأن الحدث يتلاشى في بوادي سطوة عزته تعالى الله عن كل علة حدثانية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ خلق الكون بحق إرادته القديمة، والمشيئة السابقة التي سبقت بكون الكون في الأزل، وأيضًا علم الكون حقًا في الأزل؛ فأظهر الكون بحق العلم والإرادة والمشيئة إظهار الحق حقيقة، ولحقوق ربوبيته وعرفانه من أهل عبوديته كأنه خاطب لرؤية تلك الحقائق ثم ارتقى من رؤية الحقيقة إلى رؤية عين الحقيقة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ثم نزل من الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الأفعال، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ فرؤية أنوار فعله للعقول، ورؤية أنوار صفاته للقلوب، ورؤية أنوار ذاته للأرواح، ورؤية أنوار عين الحقيقة للأسرار.

---

(١) أي: قيامه للحساب بين يدي في القيامة، أو قيامي على عبادي، وحفظي لأعمالهم، واطلاعي على سرهم وعلانيتهم، أو خاف عظمة ذاتي وجلالي، (وخاف وعيد) أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار. البحر المديد (٣/ ١٩٢).

وقال سهل: خلق الأشياء كلها بقدرته وزينها بعمله وأحكمها بحكمه؛ فالناظر من الخلق إلى الخالق يتبين له من الخلق عجائب الخليقة، والناظر من الخالق إلى الخلق يكشف له عن آثار قدرته وأنوار حكمته وبدائع صنعه.

وقال بعضهم: خلق السموات عالية على الأرضين مرتفعة عليها، وجعل عمارة الأرضين من بركات السماء وما يصل إليه منه، كذلك خلق النفوس وجعل القلوب أميرًا عليها، وجعل نجاة النفوس وراحتها فيما يصل إليها من بركات القلوب؛ فمَنْ طهر قلبه لاستطلاع المشاهدة أتته الفوائد، والزوائد من الحق في جميع الأوقات.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ أخبر الحق عن كمال شرك إبليس حيث نسي الله نبعت إسقاط قدرة كل قادر غيرة في مقام المؤاخذة بقوله: ﴿ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ فسقوط النظر عن نفسه مع رؤية الغير في البيّن شرك، ولو كان في مقام على حد تحقيق التوحيد ما لام أحد ولا نفسه وما رأي في البيّن غير الله.

ألا ترى إلى قول الواسطي: مَنْ لام نفسه فقد أشرك، ومقام الملامة مقام المريدين لاموا أنفسهم بميلها إلى هواها، وتكاسلها عن عبادة خالقها، وذلك الملامة من طريق المعرفة والتوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأن هناك تسقط الوسائط وتندرس الرسوم، وتنطمس طرق الأسباب.

قال محمد بن حامد: النفس محل كل لائمة فمَنْ لم يلُمْ نفسه على الدوام ورضي عنها في حال من الأحوال فقد أهلكها.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ السلام اسم من ألطف أسمائه، كأنه محل التثنية؛ فأهل الجنة من العارفين يدعونه بهذا الاسم لوجدانهم مشاهدته بنعت العوافي من المجاب، فإذا أرادوا تحية بعضهم على بعض فيشيرون بعضهم بعضًا سلام، أي هذا هو مشاهدة السلام، كأنهم في مشاهدته ليشير بعضهم على بعض إلى جماله وجلاله، وإذا حيوا بهذه التحية

فحيا الله بأحسن من تحيتهم بأنه حياهم بخطابه وسلمهم بكلامه؛ فكل من رآه فإن الحق سبحانه يسلم عليه بالبديهة قبل ثنائه عليه بقوله سلام قولاً من ربٍ رحيم تجديد العهد الأول حين رأوه بالأرواح وسمعوا كلامه وسلامه بإذن الأسرار في ميثاق الأنوار، وما أطيب هذا السلام من السلام لأهل السلام.

أشاروا بتسليم فمجّدنا بأنفس تسيل من الأفاق والسمُ أدمع

وقال بعضهم: تحيات الجنة وسلامها على ضروبًا، فأهل الصفوة والقربة تحيتهم من ربهم وسلامتهم منه على قوله سلام قولًا من ربٍ رحيم، ولأهل الطاعات والدرجات تحية الملائكة وسلامهم قال الله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أشار سبحانه إلى كلمة القديمة التي تكلم بها في اصطفائيته أهل معرفته طلبت كلمته، وهي أطيب الطيبات باصطفائيته أهل الولاية، وتلك الكلمة القديمة شجرة الصفات أصلها ثابت في القدم وفروعها في سماء البقاء، وتلك الشجرة منزهة عن تغاثر الحدثان وعن التبديل بطوارق القهريات، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مياه تلك الشجرة من بحار حسن العناية الأزلية والإرادة القديم، تؤتي أكلها ثمرات تجليها بالأرواح المحبين والعارفين والموحدين كل حين تفيض فيض أنوارها على أفئدة الصديقين وعقول المقربين؛ فأكل تلك الشجرة ثمرات تجلي جميع الصفات والذات تربي بها قلوب الأولياء والصديقين، فثمرة مشاهدة الذات يورث لقلوب الموحدين التوحيد والتفريد والفناء والبقاء والصحو والمحو والحياة والوله، وثمرات الصفات يورث لفكر العارفين على قدر تجليها؛ فكل صفة يورث لها حقيقة من تلك الصفة؛ فميراث صفة العظمة الهيبة والخواف والإجلال، وميراث الكبرياء والبهتة والخجل والحياء، وميراث الجلال الخشية والخضوع، وميراث الجمال المحبة والشوق والعش، وميراث العلم المعرفة بالعلوم اللدنية، وميراث القدرة الكرامات، وميراث نور السمع استماع أصوات هواتف الغيب، وميراث نور البصر الفراسات الصادقة ورؤية الغيب وغيب الغيب، وميراث نور الخطاب والكلام والاطلاع على الأسرار والوله والهيمان في الأنس والمناجاة، وميراث الحياة وحياة القلب بالرب وحياة العقل بنور القلب وحياة الروح بروح الوصال، وميراث رؤية القدم والبقاء الزفرات والعبرات والمواجيد

والصعقات، وميراث رؤية أنوار الحكمة ببطون الأفعاليات ودقائق المقامات وحقائق المقامات وإدراك نور شواهد الآيات في كل ذرة في مرائي الأفاق، وميراث ثمرة الإرادة صدق العبودية وإخلاص المحبة ويسهل له جميع المرادات مادام متصفًا بالإرادة، ومَنْ أكل ثمرًا من ثمار تلك الشجرة يحي بحياة الأبدية، ويبقى في أنوار الأزلية لا يطرأ عليه بعد ذلك طوارق الفناء، وأيضًا الكلمة الطيبة كلمة ألهمت في قلوب أحبائه، تلك الكلمة شجرة المعرفة أصلها ثابت في أرض القلوب وفرعها في سماء الأرواح ومياه تلك الشجرة من بحر كشف المشاهدة، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من أنواع المقامات والحالات والكشوفات والكرامات والفِراسات وحركتها في بستان الوصلة من جائحات الوسواس والهواجس، وأيضًا تلك الشجرة الطيبة كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح وأصلها هناك ثابت بالتوفيق، وفرعها في سماء القرب، وسقاها من سواقي العناية يرويها المعرفة وأغصانها المحبة، وأوراقها الشوق، وثمرها العشق، وحارسها الرعاية، ومزرعها الكفاية، ونهارها الأنس تؤتي أكلها كل حين في جميع الإنفاس من لطائف العبودية، وعرفان أنوار الربوبية ساكن ظلها العقول، وظلها من ظلال الجمال، وهذه الثمرات في أواني كمالها مرفوعة على خوان المشاهدة والقربة، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ .

قال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: «لا إله إلا الله» على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تظهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالثقة بالله، والانقطاع إليه عما سواه.

قال محمد بن علي: الشجرة الطيبة الإيمان أثبتها الله في قلوب أوليائه، وجعل أرضها التوفيق، وسماءها العناية، وماءها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس؛ فأصلها ثابت في قلب الولي، وفرعها في السماء ثابتة بالمريد من عند الجبار؛ فالأصل يربي الفرع بدوام الإشفاق والمراقبة، والفرع يهدي إلى الأصل ما يجتنبه من محل المشاهدة والقرب، هكذا أبدا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: خزائن الله في السماء الغيوم، وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله خلق قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنسته من الكفر والشرك والنفاق، ثم أنشأ سحابة فأمطرت فيه، ثم أنبتت شجرًا، فأثمرت الرضا والمحبة والشكر والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ

ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ إذا نطق القهر القديم على لسان النفس الأمّارة التي هي الشجرة الخبيثة نطق لسانها بالهواجسات التي تورث كلمات الوسواسية الشيطانية، وتلك الكلمات أصل جميع الأهواء المختلفة التي ما لها ظلمة البعد، وغي الشهوات، وخيال النزهات، وتلك الشجرة الخبيثة غرسها في قهر الطبيعة أبدي القهريت، وتسقيها مياه الضلالات، وعروقها أصل النفاق، وساقها أصل الكفر، وأغصانها الأهواء المختلفة، وأوراقها الأوهام والظنون الفاسد، وثمارها الشك والشرك والكسل والبخل والبطر والنشاط والخيال والمحال والكذب والزور والبهتان والغيبة والنميمة والحرص والحسد والشهوة والشحناء والبغضاء والغضب، وجميع المساوئ النفسانية والشيطانية، وفي كل أوان وأوقات وأنفاس تعطي ثمارها، والصادق المحب الموافق يقصدان بقلعها وبقطعها من أصلها بفأس التوحيد والمعرفة والمحبة، وإذا كان مؤيد أسهل الله عليه قطعها من أصلها؛ لأنها عارضة عارية لامتحان القلب الذي هو منظر نور تجلي الحق وتيسر قطعها، لأنها ليست ثابتة بالحقيقة كشجر الإيمان والتوحيد قال تعالى: ﴿ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾(١).

قال محمد بن علي الترمذي: الشجر الخبيثة اللسان، ما لم يقطعها المؤمن بسيوف الخوف فإنها تثمر أبدًا الكلمات الخبيثة.

وقال بعضهم: الشجرة الخبيثة النفاق، وهي التي لا تقر قرارا حتى تهوي بصاحبها في النار.

قال ابن عطاء: الشجرة الخبيثة الغيبة والبهتان، وهما يفتحان على الإنسان باب الكذب

---

(١) قال القشيري: (٤/ ٤٤): والشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجتُثَّ من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال، تقتضي وساوسَ وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة.

والفجور.

وقال جعفر: الشجرة الخبيثة الشهوات، وأرضها النفوس، وماؤها الأمل، وأوراقها الكسل، وثمارها المعاصي، وغاياتها النار، ثم وصف امتنانه على أهل التوحيد بتسديد إيمانهم وتثبيت توحيدهم وتحقيق معرفتهم واستقامة أحوالهم بتوليته ورعايته لهم في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ القول الثابت قول الحق جل جلاله في الأزل حيث حكم في نفسه بتوحيد الموحدين، ومعرفة العارفين، ومحبة المحبين، وإيقان الموقنين، وإيمان المؤمنين، وسلام المسلمين، وقوله منزه عن التبدل والتغير والاضطراب؛ فقوله الحق الباقي بوصف الأزل إلى الأبد، وإذا اصطفاهم بذلك القول لا يزيله عوارض البشريات، وغلبات الشهوات، وفنون الامتحانات، لأنه قائم بالذات والصفات وهؤلاء في ظل العنايات محروسون بلطفه عن قهره في الدنيا والآخرة المعرفة لا يتغير بتغير الزمان، ولا بتبديل المكان، ولا بنزول الامتحان، ولا بتغاير الملوان، ولا بشيء من الحدثان، وثباته للمؤمن العارف منه استقامته به له في طريق مراده وذلك من فريد كشوف جماله وجلاله لهم بنعت الموارد والمواجيد من بحار قربه حين هجم أنوار سبحات وجهه في أسرار قلوبهم، وفيه إشارة لطيفة أن المعشوق يقلب القصة الربوبية في كل لحظة للعارف الصادق آلاف المرات في الدنيا، فإذا قال أدركته أوقعه في بحر نكرته، فإذا تحير كاد لظلمات بحر النكرة إن تغرقه تحت أسافل القهريات يدركه فيض الشفقة ويريه جماله في ظلمات النكرة وكدوره الطبيعة البشرية بالبديهة، ويخلصه من غبار الامتحان، وكذلك دابة في مواقف القيامة حتى يريه بالنكرة في المعرفة، وبالمعرفة في النكرة حتى يلبسه أنوار ربوبيته ويخلصه من مقام امتحان، فإذا صار متصفا بصفاته فاز من ضرر الامتحان، وهذا حاصل في الدنيا والآخرة لأهل المعرفة.

قال الواسطي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾ على مقدار التوحيد يكون المخاوف والأمن ولم يفزع من أحد الخوف، ولا انفلت منه أحد لحظة، وما من أحد يسعى إلا عقبى سعيه وهو الذي لا يخاف عقباها، فمَنْ ثبّته بالقول الثابت أسقط عنه ذلك المخاوف.

وقال أيضًا: الإيمان إيمانان، إيمان حقيقة بضياء الروح، وإيمان محبة بظل الروح، لذلك استثني من استثنى في إيمانه كيف لا يأمنه بعد وهو لا يخلف الوعد، ثم وصف كيف قهر في القدم الظالمين بإضلاله إياهم بنفس المشيئة والإرادة الأزلية بقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ اختار أهل صفوته بمحبته ومعرفته ومشاهدته، وألبسهم حلل عنايته وقربهم منه به، وبعّد المبعدين وطردهم بقهره عن باب لطفه، فعل ما

شاء بأهل العناية والسعادة، ويفعل ما يشاء بأهل البعد بيعادهم عن قربه ليس عليه في إبرام حكمه نقص في ردهم وقبولهم.

قال بعضهم: الخلق كلهم مجبورون تحت القدرة، مقهورون على بساط الجبروت، ليس إليهم من أمورهم شيء، ممنوعون عمّا يريدون، يقضي عليهم ما يكرهون، وهذا من أثار العبودية، والله تبارك وتعالى مدبر الأمر ومنشأها أنشاها على إرادته، وأبدعها على مشيئته، لا ناقص لما أبرم، فلا هناك على الحقيقة فعله، والكون صنعه لا علة لفعله ولا بضعه.

قال الشبلي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إذا أكرمه بالتثبيت كشف وأعطى كمال المعرفة، ومقال الصدق والتوكل، ومحض الإخلاص، وحقائق اليقين، وكوشف عن مقامات الولاية التي لا نهاية لها، وذلك وصف من ثبته.

وقال: الصادق ثبتهم في الحياة الدنيا على الإيمان، وثبتهم في الآخرة على صدق جواب الرحمن، ثم شكيّ عن المغيرين نعمته عليهم بقلة الشكر في نعمته وقلة الصبر في محنته بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ نعمة الله هاهنا العقل والعلم والاستعداد، وجمال الصورة والهيئة: بدّلوا العقل بالعبادة، وبدّلوا العلم بالجهل، وبدّلوا استعداد قبول الإيمان بقبول الشرك والشك من النفس والشيطان، وبدّلوا جمال الصورة بقبح المعاصي ومباشرة الشهرة، ويا ليت تلك النعمة لو ساعدها العناية الأزلية: وكيف يتبدل محل العناية ولو غاص المُنعم عليه في بحر الكفر والمعاصي ألف مرة.

قال أبو عثمان: أجهل الخلق بنعمة الله من استعملها في أنواع المعاصي ولم يقم بشكرها في أن يعمل بها في طاعة الله.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ خلق السموات الأرواح وعرض القلوب، زيّن السموات بأنوار الجبروت، وزيّن الأرضين بأنوار الملكوت، رفع هذه السموات بأنوار الذات، وبسطه هذه الأرضين بأنوار الصفات.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أنزل

من سماء القيومية على سماء الأرواح أمطار أنوار التجلي، وأنزل من سماء الأرواح على أرض القلوب أمطار المعرفة والتوحيد؛ فأخرج بتلك المياه من جنات القلوب ثمار المحبة والألفة والشوق والعشق رزقًا للعقول والأسرار والنفوس.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ سخّر الأرواح أن تسير في فُلك قاربها في بحر الأولية والأخروية، وتسقيها بشمال همها لوجدان عجائب بحار الذات والصفات من جواهر الأسرار والأنوار؛ فيؤيدها الحق بأن يجري رياح الكرم ولطائف القدم ليوصلها به منه إليه.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ سخّر للعقول إجراء أنهار الأفكار والأذكار والإدراك والأنوار والأسرار، أجرى الحق في أرض القلوب أنهار معرفته ومجده، يسقيها معادن نور حكمته وعروق ورد شوقه وأصول شقائق الصدق والإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ الشمس والقمر هاهنا نور الإيمان، ونور اليقين، ونور المعرفة، ونور التوحيد، ونور المحبة والشوق، ونور الهداية والتوفيق، وأصل ذلك شروق شمس مشاهدة الذات، وبروز قمر نور الصفات من مطالع الأرواح والقلوب؛ ليريان نبات المعارف وأشجار الكواشف، ونرجس الإيمان وورد الإيقان.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ جاء بظلمة النفس للامتحان، وجاء بنهار القلب للعرفان، جاء بليل القهر للنكرة، وجاء بنهار اللطف للمعرفة، جاء بليل الحجاب للعتاب، وجاء بنهار كشف النقاب للسرور بالمآب ربّي سواكن الأرواح والقلوب والعقول، وبالنفوس والأشباح من الأسرار والأفهام والعلوم والحكم والفطن والحقيقة والمعرفة والمحبة والصدق والإخلاص والتوكل والرضا بليل كشف ظلال الصفات، وظهور نهار سبحان الذات ليتم نعمته من الولاية والكرامات لها التي لا نهاية ولا غاية.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أتاكم ما سألتم منه في معاهد الأول وعقود ألست بربكم من كشف الجمال والوصول إلى وصال الذي جلاله غير محصور وكماله غير مقصور بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ عمة الله كشف صفاته وذاته لهم، وتعريفها إياهم على نعت السرمدية لا يبلغ إلى وصفها حساب الحدثان وعدد الزمان والمكان، ثم شكيّ سبحانه من المُنعم عليه حيث ظلم بعد هذه النعم والكرم بسكونه بها وجد وعصيانه لمَنْ أوجد، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وصف شكره في التوحيد حيث استغرق في بحر الديمومية واتصف بتلك الصفة، وخرج منها بدعوى الأنائية ظلم

بجهله بعين القدم، ولو أدركها الغنى عن الأنائية في عين القدم، وأي ظلم أعظم من دعوى الربوبية ومحل العبودية، ثم وصف العطش والشوق في سراب الحيرة إلى إدراك كنُه الكنّه، ونسي ما وجد وجهل بتنزيه الأزلية عن مطالعة الخليقة بوصف الإحاطة؛ فتارة ظالمًا من كمال استغراقه في الأزل بدعوى الأنائية، وتارة كافرًا حيث نسي ما وجد وجهل بما لم يكن مدركًا إلا الحق سبحانه، وكفرانه غاية عطشه في الشوق إلى إدارتك الربوبية، وعلو همته في خوضه في ظلمة أصل كل أصل وعلة كل علل.

ألا ترى موسى ﷺ إذا استغرق في بحر الأولية كيف طلب الكل بالكل، والآخر بالأول، والأول بالآخر، الصفة بالذات، والذات بالصفات، فقال موسى ﷺ: من متى أنت يا رب هذا الإنسان، كيف يكون إنسانًا حيث حمل ما لم يحمل الحدثان، اقرأ آية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾، وأدى أمانة حمل معرفة الأولية والآخرية وكنه الكنه، وإدراك عين العين لا بنفسه ظلمًا، حيث اجتري ما اجتري، وجهل لما رأى على ما لم ير.

قال تعالى في حقه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قال الصادق: وسخّر لك السماوات بالأمطار، والأرض بالنبات، والبحر بأن تتخذ سبيلاً ومتجرًا، وسخّر لك الشمس والقمر يدوران عليك ويوصلان إليك منافع الثمار والزروع، وسخر قلب المؤمن بمحبته ومعرفته، وحظ الله من العباد القلوب لا غير؛ لأنها موضع نظره ومستودع أمانته ومعرفة أسراره.

قال يحي بن معاذ في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزانته وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد؛ فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمَنْ شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومَنْ شغله به جعل الأشياء كلها طلوع يديه؛ فتنقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب، ويخبر عمّا أراد، وهذا من مقامات العارفين.

وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تتابعه النعم.

قيل: أجلّ النعمة استواء الخلقة، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطيق القيام بشكرها أحد.

وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفّار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية.

وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد ﷺ لا تحصوه، بأن جعل السفير فيما

بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

وقال ابن عطاء: أجلّ النعمة رؤية معرفة النعم، ورؤية التقصير في القيام بشكر المُنعم.

قال: أيضًا النعمة أزلية كذلك يجب أن يكون شكره أزليًا، واعلم أن لك نفسًا وروحًا وقلبًا؛ فنعمة النفس الطاعة، ونعمة الروح الخوف، ونعمة القلب اليقين، ونعمة الروح الحكمة، ونعمة المحبة الذكر، ونعمة المعرفة الألفة، والنفس في أبحر الطاعات تتنعم، والقلب في بحر النعيم ينقلب، والمعرفة في أبحر القربة وانتظار العيان بتنعم.

قال :أيضًا سخّر لكم الليل والنهار جعلهما ظرفًا لعبادتك ووعاء لطاعتك، وسخّر لك الشمس والقمر لتستدل بهما على أوقات العبادات، وسخّر قلبك لمعرفته ومحبته؛ لأن حظ الحق من العبيد قلوبهم.

قال الحسين في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ما لا يحصى لا يتناهى لا يصح لها شكر متناه في وقت متناه، وإنما طلبهم بالشكر ليقطعهم عن الشكر.

وقال الأستاذ: سماء القلوب زيّنها بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد هو العرفان، ومرج في القلوب يجري الخوف والرجاء، جعل بينهما برزخًا لا يبغيان لا يغلب الخوف ولا الرجاء، وسخّر فُلك التوفيق والعصمة وسفينة الإيواء والحفظ، وكذلك ليالي الطلب للمريدين، وليالي الطرب لأهل الأنس من المحبين، وليالي الهرب للتائبين، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند سطوع نهار اليقين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ مظنّة الآية في حقيقة معناها البلد القلب، والقلب بلد البلدان، والعقل بلد القلب، والروح بلد العقل، السر بلد الروح والمعرفة، والمحبة بلد السر ومشاهدة المعروف، هناك بلد المعرفة والمحبة وسواكن هذه

البلاد عساكر أنوار أفعاله، وفرسان تجلي صفاته، وجنود عظائم أزاله، وإبادة والنفس بلد الشهوات، وسوء النهى جنود القهريات؛ فاستعاذ به في هذا البلاد عن جنود القهر الذي معادنها النفس الأمّارة، أي: اجعل هذا البلد آمنًا بلطفك عن قهرك، وبالروح والقلب عن النفس، وجند شياطينها وهو أجسرها وسراق طبيعتها، واجعلها آمنًا بك عنك.

كما قال: أعوذ بك منك، ثم سأل وقايته عن عبادته، وبَنِيهِ أصنام الطبيعة، والالتفات إلى الغير في طوارق البلاء، بقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ كل ما وقف العارف عليه ممّا وجد من الحق فهو صنمه.

ثم قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: رؤية غيرك ومتابعة هذه الشهوات والهوى أضلت لما فيها من معجون قهرك كثيرًا من المريدين والطالبين، حيث ارتبط بهم في مهوات الهلاك ووطآت الغفلات.

قال ﷺ: «النفس هي الصنم الأكبر»[١].

ثم وصف نفسه بالإمامة في الخلة والمعرفة والشريعة والطريقة بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي في طريق المجاهدة والمحبة والخلة بالموافقة في بذل الروح بين يديك؛ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: طينته من طينتي، وقلبه من قلبي، وروحه من روحي، وسره من سري، ومشربه في المحبة والمعرفة والخلة من مشاربي، ومَنْ عصاني فيما يكون عصيانك ويقتضي حجابك ليس منّي ولكن إنك غفور ذنوب قاصديك رحيم بمريديك، بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إشارة إلى أن كفر الكافرين، وعصيان العاصين، يستغرق في بحار رحمته وغفرانه، وإن يدخلهم في جناته لا يبالي.

والحكمة في قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وإنه لم يقل ومن عصاك أنه كان عليه ﷺ في محل الخلة، والخلة توجب المحبة، والمحبة توجب المودة، والمودة توجب الشوق، والشوق يوجب العشق، والعشق محل الاتصاف والإتحاد، وعين الجمع، وجمع الجمع، فالإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ إشارة عين الجمع بعد انسلاخه من رسوم الحدوثية، كأنه قال: فمَنْ تبعني تبعك، ومَنْ عصاني عصاك؛ لأن في حقيقة العشق العاشق والمعشوق واحد.

ألا ترى إلى قول الحلاج -قدس الله روحه:

هـا أنـت أم أنـا هـذا إلهـين في إلهـين ... حاشـاي حاشـاي مـن إثـبات اثنـين

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٩/ ٤٢٥).

وأيضًا لمّا قال: فمَنْ تبعني فإنه مِنّي، قال أيضًا: ومَنْ عصاني موافقًا للقول الأول كأنه أشار أن طاعة الخليقة ومعصيتها تليق بالخليقة، وأنت منزّه من طاعتهم وعصيانهم، أي أنا من جنسهم وهم من جنسي وأنه منزّه عن المجانسة بالحدثان، وأيضًا أضاف عصيانهم إلى نفسه؛ لأن عصيان الخلق للخالق غير ممكن؛ لأن ما يبدو منهم من جميع الحركات إجابة وجودهم وسر السر، وما نعلن من حيز الإلهام والوسواس والهواجس، وأيضًا ما تخفى في أنفسنا من منازعة القدر بوصف خاطر النكرة في أمر المعيشة في صورة ما نكرة من أنفسنا من الشكوى والتغير في الغضب، وما نعلن بجلادتنا من صبر الصبر بوصف التصبر والتشكر.

قال الخواص: إنك تعلم ما نخفي من حبك، وما نعلن من شكرك.

وقال ابن عطاء: ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الأدب.

قال الحسين: ما نخفي من المحبة، وما نعلن من الوجد.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا من الله سبحانه محل تعظيم المراقبة والهيبة في الرعاية، والحياء في المحاضرة وللظالم من مشرب بحر جماله وجلاله وحسنه وأفضاله شربات من محبته وشوقه ومعرفته، ويخرج على بساطه بنعت العربدة والسكر ودعوى الأنائية؛ لأنه يجاوز طوره.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا يعني في الحقيقة أبصار سكارى المعرفة والتوحيد يوم الكشف الأكبر، حيث تبدوا أنوار سطوات العزّة فتقضيهم عنهم بالحق وعظمته وكبريائه حتى يستغرقوا في عظمته بحيث لا يقدرون الالتفات إلى غيره بقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

ثم زاد في وصف قلوبهم واضمحلالها في عزّة العظمة بقوله: ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خالية عن العقول المدركة والأرواح الفائقة أو لأن من عزّة القدم شيئًا، ولا من جلا الأبدية مدركًا.

ونِعْمَ ما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث يشاهدهم ويشاهد ما يجري عليهم بوصف الجبارية والعظمة؛ فإنه موضع شهوده وشهوده

للعباد أعظم من شهود العباد عنده؛ لأن العباد في محل الحضور وشهوده تعالى محل الكشف.

قال أحمد بن خضرويه: لو أذن لي بالشفاعة ما بدأت إلا بظالمي، قيل له: وكيف؟ قال: لأني نلت بظالمي عالم الله من والدي، قيل له: وما ذاك؟ قال: تعزية الله في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قال ميمون بن مهران: كفى بهذه الآية وعيدا للظالم وتعزية للمظلوم.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ هذه صفة قلوب أهل الحق، ألا ترى الهواء قائم بالمشيئة، والإرادة غير قائمة بعلائق فوقها كذلك قلوب أهل الحق في هذه الآية الله ليس في قلوبهم محل لغير الله إلا بساكن سوى الله، ومثل قلوبهم كما قال الله تعالى: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ لا تلتفت إلى سواء ولا له قرار مع غير الله.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ السكون في أوطان الظلم من أهلية فطرة النفس الأمّارة إليها، وسجيات الشهوات تميل إلى محلها من الآفات لتزيد حظوظ هواها، ومَنْ لم يخرج نفسه في زمان الإرادة من أجوار المدعين تعودت نفسه عادة الظلم في الدعاوي الباطلة، ويقع عليه ما وقع على المدعين الكاذبين.

قال أبو عثمان: مجاورة الفساق وأهل المعاصي من غير ضرورة من فسق كامن، ومعصية مستترة في القلب؛ لأن الله ذمّ قوما من عباده، فقال: وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ولم يعذر من مقام فيها، فقال: لم يكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها.

ويقال: إن معاشرة أهل الهوى والفسق ومجاورتهم مشاركة لهم في فعلهم، ويستقبل فاعله ما استقبلهم.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الإشارة في الحقيقة إلى تبدل أرض قلوب العارفين من صفات البشرية، وأوصاف النفسانية والخواطر الرديئة إلى الروحانية المقدسة لنور شهود جمال الحق وتبدل سموات الأرواح من عجز الحدوثية، وصفاتها وضعفها عن رؤية أنوار العظمة صرفًا وكفاحًا له.

قال: تعديته فالأرواح والقلوب يخرج من ضيق القبض إلى محل البسط من خفقان أخوف إلى روح الرجاء، ومن رسوم العبودية إلى مشاهدة الربوبية، وبروز أهل هذه القلوب والأرواح من أماكن غيبه سكارى حيارى من شدة ولههم من جماله ديموميته في ميادين وحدانيته الأزلية خرجوا بنعت المبارزة والمفاخرة بولايته وقربته يا أخي لو رأيتهم لرأيت عليهم أطراف أردية الكبرياء، متعلقون بحقوق أزار عظمة الجبار، يستغيثون بنعت الوله من فراقه في وصاله حتى لو رأيتهم ما رأيت عليهم رسوم المبشرات، بل رأيت عليهم سمات الألوهيات فما الناس بالناس الذين عهدتهم.

ولا الــدار بالــدار التــي كــنت أعــرف ولــو تــريد أن ذلــك أرض الظاهــر

وسماء الظاهر إنما تبدل من هذه الصفات وظلمة الخليقة إلى أنها منورة ببروز أنوار جلال الحق عليها، وإنها صارت مشرق عيان الحق للخلق، وحين بدأ سطوات عزته بوصف الجبارية والقهارية بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وهنا يا أخي الوجود تحت أخيال القدم من استيلاء قهر أنوار القدم.

قال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قيل: فأين الأشياء آنذاك؟ قال: عادت إلى مصابها، وقال: متى كانوا شيئًا حتى صاروا لا شيء؛ لأنهم أقل من الهباء في الهواء في جنب الحق.

وقال الواسطي: في هذه الآية ذلك لما يظهر من كشف حقائقه في بني آدم من أنبيائه وأوليائه؛ لأن الأرض والسماوات لا يثبت لما يظهر على الأبدان من أنوار الحق.

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (١) هذا محل اعتبار العارفين لأنهم الناس بالحقيقة ليزيد شوقهم إلى جمال

---

(١) فإن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.
قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي، والمخوّف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأمّا الجسماني بإحراق النار الصورية، وأمّا الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلّي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعة، فكما أن أهل الجمال
=

معروفهم، وخوفهم من فراقه، وإجلالهم من عظمة وجهه، منه ما لم يعلموا منه لأنهم من معرفته بالحقيقة في ظنونهم وقت أم رسومهم فإذا عاينوه عرفوه وعرفوا سماهم به وما كان من تقصيرهم في معرفته وعبوديته، وذلك حين وقعوا في بحر توحيده ورؤية وحدانيته بقوله: ﴿هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وما وصفنا من فنائهم في بقائه، وبقائهم ببقائه، لا يتذكر فيه إلا البناء الحقيقة، وعلماء المعرفة، وعشاق المشاهدة، وأمناء خزائن المملكة.

قال جعفر في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ ولينذروا به موعظة للخلق وإنذار لهم ليجتنبوا قرناء السوء ومجالسة المخالفين؛ فإن القلوب إذا تعودت مجالسة الأضداد تُنكس وتنتكس.

قال بعضهم: كشف للخلق ما ندبوا له، وأمروا به وجعل ذلك أعذاراً إليهم وإنذارًا لهم.

❁❁❁

سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿الر﴾ فهم النقد بما يرى من فلق الإلهام إخبارًا كَبير بصورة الألف واللام والراء،

=

مقرَّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل الجلال مبعدون؛ ليُحجبون عنه كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأمَّا هم فمنهم قرباء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضًا، والفرق بينهم، وبين الإنس: إن الإنس مُبشَّرون، كما أنهم منذرون، وأمَّا الجن: فمنذرون فقط، دلَّ عليه قوله تعالى حكاية: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣١] حيث خصَّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

إن الله سبحانه بيّن كالألف بحر الإثبات؛ لأنه خبر عن الأولية، ألا ترى كيف قدمها على أول اسمه الله، وبيّن باللام بحر النفي؛ لأنها شقيقة لام لا، وبين بالراء بحر كشف الربوبية، وظهور أنوار الرؤية، وهذه من شرائط المعرفة، فمَنْ لم يسبح في بحر النفي بنعت الفناء لوجدان عين الحقيقة، وحق البقاء لا يبلغ إلى بحر الربوبية، ولا يدرك لطائفها، ولا يصل إلى عيان كشف الرؤية بحقائقها، وقد انقلبت هذه الحروف من أماكنها إبهامًا، وإشارة لفهوم الفهماء، وإدراك العلوم والعلماء، ألا تراها في نص صورة الإيمان، كيف كانت أولها لا إله، ثم ذكر محل الإثبات بالألف إلا الله، ولم يذكر الزاي؛ لأن الأكثرين استغرقوا في البحرين ولم يصلوا إلى البحر الثالث، لأجل ذلك لم يذكر الراء في هذه الكلمة، وهذا سر عجيب لا يعرفه إلا أهل السر من أهل التوحيد، وهي أصل الكتاب؛ لأن الكتاب جاء مخبرًا بمجموعة عن أسرار ما بلسان صاحب الواقعة ﷺ ألا ترى إلى قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: هذه الحروف المتشابهة أصل هذا الكتاب، والكتاب تفسيرها يترجمها بما فيها في السورة بلسان القرآن، والقرآن مجمع أوصاف الربوبية، وخبر ما كان في الحروف المعجمة يخبر بلسان مُبِين يُبَيّن عند كل عارف عالم القرآن، مبين في ذاته ليس فيه إبهام، لكن لم يخرج جلاله وجماله من الحجاب بالحروف بنعت التبيين إلا لمَنْ كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، فيُبَيّن عن أسراره على قدر إفهام السامعين، فالموحد يسمع من حيث التوحيد فيوله، والعارف يسمع من حيث المعرفة فيبهت، والعاشق يسمع من حيث العشق فيتيه، والمشتاق يسمع من حيث الشوق فيهيم، والمحب يسمع من حيث منه؛ لأنهم من معرفته بالحقيقة في ظنونهم وقت ألم القرآن بوصفه لأهل الستر، فالأنيس يستأنس بجماله، والسكران يطير بفهم خطابه ولذة سماعه.

قال الأستاذ: بيّن للمؤمنين ما يسكن قلوبهم، وللمريدين ما يُقوي رجاءهم، وللمحبين ما يهيج اشتياقهم، وللمشتاقين ما يُنوّر أسرارهم، ولمّا عظم شأن القرآن في خبر الملكوت والجبروت لانقياد الأكوان والحدثان عند جناب الرحمن، وخضوع العارفين بنعت الفناء على جناب عز البقاء، وبلغوا بأياديه القدمية، ومنّته الأزلية عليهم إلى مقام النظر إلى جماله وجلاله ومعينة ذاته وصفاته، وبروز أنوار جلالهم بين أطباق الأكوان، ويراها مع غرتها أهل الطغيان، ويتمنون أنهم كانوا منقادين مستسلمين كما كان أهل المعرفة والحقيقة فيه للحق منقادين بقوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ الساقطين عن طريق الحق يودون أنهم من المريدين، ولم يكونوا من المنكرين، ولم يكونوا من المجتهدين، ولم يكونوا من الكسالى البطالين، وأن يكونوا من الراضين، ولم يكونوا من الساخطين، وأن يكونوا من المتوكلين، ولم يكونوا بتدابيرهم لأجل الرزق من المقيمين، وأن يكونوا من العالمين، ولم

يكونوا من الجاهلين، ومن الموقنين لا من الشاكين، ومن العارفين لا من المقلدين، ومن الموحدين لا من المدعين، ومن المخلصين لا من المرائين.

قال بعضهم: ربما يَوَد الذين فسقوا لو كانوا مطيعين(١).

قيل: ربما يَوَد الذين كسلوا لو كانوا مجتهدين، وربما يَوَد الذين غفلوا لو كانوا ذاكرين.

قال ابن الفرح: الكفر هاهنا كفران النعمة، معناه ربما يَوَد الذين جهلوا نعم الله عندهم وعليهم أن لو كانوا شاكرين عارفين برؤية الفضل والمِنّة.

قيل: إذا صارت المعارف ضرورية احترقت نفوس أقوام عقوبة، وتقطعت قلوب آخرين حسرةً.

ثم سلّى قلب حبيبه عن إنكارهم، وطيب بخطابه فؤاده؛ فقال الله تعالى:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وصف المنكرين بشَرَه بطونهم وشهوات فروجهم وأمل نفوسهم شبههم بالبهائم، وجعلهم أجهل منها بأملهم ومنازعتهم المقادير؛ لأن البهائم لا يكون لها أمل.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فهم لا يعلمون حقائق فسادهم وجهلهم بالله، وبأوليائه بترهاتهم وطاعاتهم، وما أفدوا من أيام الطاعات بالمخالفات عند معاينة العقوبة ووقوع الحسرة.

قال أبو عثمان: أسوأ الناس حالاً من كان شغله ببطنه وفَرْجه وتنفيذ شهوته، حينئذ لا يلحقه أنوار العصمة، ولا يصل أبدا إلى مقام التوبة.

قال أبو سعيد القرشي: في هذه الآية من شغله تربية نفسه، وطلب مرادها، والتمتع بهذه الفانية عن الإقبال علينا، فأعرض عنهم ولا تُقبِل عليهم، وذَرْهم وما هم فيه، فلم يصل إلينا إلا من كان لنا، ولم يكن لسوانا عنده قدر ولا خطر.

قال سهل: أخبر الله عز وجل عن أخلاق الجهال أن همتهم الأكل والتمتع، فأنساهم ذكر قرب الأجل، ويَعِزّ عليهم ما يأملون من عيشهم على هذه الجملة، فسوف يعلمون أن الذي لهم فيه هلاكهم، وذلك الذي يبعدهم عن مدائح أهل السعادة، فإن من أراد الله به الخير جعل همته فيما يقربه إليه من مقام على الطاعات، واجتناب المخالفات ومحاسبة النفس، ومن كان بهذه الحالة يلهيه ذلك عن الأكل والشرب والتمتع.

---

(١) اعلم أن (رُبَّ) مثقلة أو مخفَّفة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، وداوتهم أنهم كالسكارى من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الذكر صفته، وصفته قائمة بذاته، وهو منزّه عن تغيير كل مغيرات، نزّلنا القرآن في قلوب العارفين وصدور الموقنين وأسرار الموحدين وإنا له لحافظون، من مخالفتهم القرآن يحفظ قلوب الصدِّيقين والصادقين بما حفظ قرآنه عن شكوك النفس، ومغالطة الشياطين، وحركات الضمائر بالخطرات المذمومة، وأيضًا كاشفنا عن أسراره في قلوب أوليائي، وبما كشفنا منه لهم حافظون بحفظها في صميم أسرارهم، ويحفظ أسرارهم عن غير فهم حقيقي.

قال ابن عطاء: نحن أنزلنا هذا الذكر شفاءً وبيانًا وقرآنًا وفرقانًا؛ ليهدي به من كان موسومًا بالسعادة، منور بتقديس السر عن المخالفة، وإنا له لحافظون، وإنَّا نحفظه في قلوب أوليائه، ونستعمل به جوارح الخواص من عبادنا.

يقال: أخبر أنه حافظ القرآن، وإنما يحفظه بقراءته، فقلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضيع حفظة كتابه، فإن في تضييعهم تَضْيِيع كتابه.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما أدخلنا الضلال والكفر في قلوب منكري أنبيائنا وأوليائنا الأولين، حتى كفروا بهم ولم يؤمنوا بما جاءوا به، يدخل في قلوب هؤلاء المنكرين الكفر والضلال، ونُسَدِد أبصار قلوبهم عن رؤية حقيقة مشاهدة آياتنا، ونحجب بصائرهم عن إدراك لطائف كتابنا، وما يبدو من أنوارنا عن وجوه أوليائنا، حتى لا يذوقوا طعم لطيف الخطاب، ولا يروا إلينا طريق المآب.

قال الأستاذ: أزاغ قلوبهم عن شهود الحقيقة، وسد بالحرمان عليها سلوك الطريقة.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝ وَإِنَّا

لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أخبر بجلاله وعز كبريائه عن سموات الذات، وأبراج الصفات، وأنه كشف أنوارها وأسرارها لنظّار الأرواح والعقول والقلوب؛ لتسير في أبراجها بقدر قوتها من قوى السعادة والتوفيق، فكواكب الأرواح تسري في أبراج الأزليات والأبديات، ونجوم العقول تسير في أبراج أنوار العظمة والكبرياء، وسيارات القلوب تسير في برج سنا الجلال والجمال، وأقمار الأسرار وشموسها تسير في بروج سبحات الذات، فتحصيل الأرواح من أماكنها وسيرها التوحيد والتجريد والتفريد، وتحصل العقول من سيرها المعارف والكواشف، وتحصل القلوب من سيرها العشق والمحبة والشوق والخوف والرجاء والقبض والبسط والعلم والخشية والأنس والانبساط، وتحصل الأسرار من سيرها الفناء والبقاء والسكر والصحو، ولكل عارف وموحد ومحب وشائق وصادق ومخلص ومريد من كل برج من أبراج الصفات له نظر وفهم وعلم ومعرفة وكشف ومقام وعمل ونطق وإشارة وعبادة وجد وحال وأدب وأفعال وما لا يتناهى من دنيات ثمارها المشاهدات ولطائفها المكاشفات؛ لأن منابعها الصفات التي منزهة عن الحدود والعلات، ومَنْ سار في أبراج الصفات يرى منابع الصفات، وهي عيون ألوهية الذات، سبحان من عظم شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته وذاته عن أوهام الخليقة، ومن إدراك قلوب البرية، وذلك قوله بوصف تنزيه: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ منع كشف جمال صفاتها وجلال ذاتها عن أبصار البطّالين والمدَّعين والمبطلين الزائغين عن الحق المقبلين على الخلق، هذا من أعالي دقائق الإشارات، وإشارة الأدنى أنه تعالى جعل في سماء الأرواح أبراج أنوار تجلي صفاته وذاته، فسيارات أنوار الصفات والذات تسير في أبراج همها، وجعل تلك الأبراج منورة مزينة بزينة نور الصفات والذات لسكان أرض القلوب من أنظار العقول؛ لترى العقول في ترائيها أقمار الصفات وشموس الذات من حيث التجلي لا من حيث كينونة الحلول، فتستشرف على أسرار معارف جوده ووجوده، فلكل نظر منها فائدة في القلوب من المواجيد والحالات والمعاملات والمقامات، مثل الوجل والخشية والندم والرهبة والرغبة والمراقبة والمحاضرة والخطاب والشهود والوقوف بأسرار العبودية والربوبية، فنعت تلك القلوب بما رأت تلك العقول من أبراج سماء الأرواح الوجد والهيجان والهيمان والوله والزفرات والعبرات، صواحبها أوتاد الأرض ونقباء الأولياء وأصفياء الحضرة شمائلهم أنوار جود الله، يظهر من وجوههم سنا وجود الله، سبحان الله، من هم وأين مأواهم؟ طوبى لهم، ثم طوبى لهم ثم بفضله وجوده وحفظ تلك البروج من هواجس النفوس ووساوسات

الشياطين.

كما قال: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ ثم بيّن سبحانه أن تلك النفوس الأمّارة والشياطين الوسواسية تسترق من عالم سماء العقول والأرواح والأسرار والقلوب أسماع هواتف الغيب من صرف الخطاب والإلهام؛ لتدع بكلمة الغيب الدعاوي الباطلة؛ فأتبعها شهب طوارق القهريات، وأحرق بنيران المحبة والأشواق، ليصفّي هواء المعرفة من غبار الطبيعة بقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

وأيضًا فيه إشارة أخرى أنه تعالى يعز جوده وجده وجلاله، جعل في سماء القلوب أبراج المقامات والحالات، ويجري فيها سيارات الهمم لطلب وجدان أهله أنوار الصفة، فترى كل همّة من برج كل مقام نورًا من أنور الغيب، وسر من أسرار الغيب، حتى يستشرف على مطالع الربوبية والإلوهية في كل دورة أفلاك القلوب في هواء الهوية حين تبرز شموس أسرار الذات وأقمار الصفات وسيارات حقائق الأزل والأبد.

ألا ترى تقلب تلك الأفلاك في ممالك ملكوت الأزل، كيف وصفها حبيب الحبيب صلوات الله وسلامه عليه وعلى خلائه من الأنبياء والرسل والأصفياء بقوله: «**القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»[1].

ونظار تلك السماوات العقول القدسية والأسرار الملكوتية، ترى من كل برج نور صفته، فيورث تجليها لكل عقل مقام، وشرفًا وحالاً ووجدًا وعلمًا ومعرفةً، وبجلال قدمه يحفظ تلك السموات مع أبراجها من طوارق النفوس والوسواس، فإذا قصدت النفس الأمّارة إلى حاشية من حواشي القلب يحترق بزفرة من زفرات القلب، وكذلك الوسواس.

قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ وما ذكرنا من تلك الحقائق من أنوار تلك البروج يظهر من وجوه الصديقين، وتلك الوجوه مطالع أنوار صفات الحق يبرز نورها من وجوههم وجباههم للناظرين من المريدين الصادقين والشائقين من المحبين، وتلك سمات الحق لاعتبار الخلق وهدايتهم، قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾.

قال بعضهم: زيّن السماوات بالكواكب والبروج، وجعل فيها علامات لمَنْ يهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وزين القلوب بإطلاعه عليها، وأنواع الأنوار لتهتدي بتلك الأنوار إلى مقام المعرفة، وهذه المعاملات إنما يهتدي بها من كان بصيرًا مفتوحًا عين فؤاده ينظر إليه نظر عيان.

---

(١) سبق تخريجه.

قال أبو بكر بن طاهر: كما جلّ الله في السماء بروجًا يهتدوا به في ظلمات البر والبحر وزيّناها للناظرين، كذلك جعل في القلوب بروجًا يهتدي بها العارف إلى ربه، فمن ذلك برج الخوف، وبرج الرجاء، وبرج التوكل، وبرج التفويض، وبرج التسليم، وبرج اليقين، وبرج المعرفة، وبرج المحبة، وكل برج من هذه الأبراج والبروج منها طريق إلى الله تبارك وتعالى ولا يعرفها إلا السالكون فيها والعالمون بها، وكما زيّن تلك البروج للناظرين، كذلك زيّن بروج القلب للناظرين لأنفسهم القائمين بأوامر الرب عليهم والعارفين حالهم ومحلهم في كل وقت وحين.

قال الأستاذ: في السماء بروج وهي لها زينة، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم، إذا راموا إن يسترقوا السمع، وفي القلب للمعارف والعقول نجوم، ثم هي للشياطين رجوم، فلو دنا إبليس وجنوده من قلب ولي من أوليائه أحرقته بل محقته نجوم عقله وأقمار علمه وشموس توحيده وكما أن نجوم السماء زينة للناظرين إذا لاحظوها؛ فقلوب العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهم زينة، ثم أن الله سبحانه وصف قدرته في مد الأرض وإلقائه فيها الرواسي بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٖ مَّوْزُونٖ﴾ الإشارة فيه أنه تعالى بجلاله وقدره بسط قلوب الأولياء ببسط سعته وقدرته وعلمه ومدها بأنوار تجلي جماله وجلاله، فصارت مبسوطة بوقوع نور مشاهدته عليها؛ لأنها بلد الله ومقام زيارته، هناك أشرقت الأرض بنور ربها، فكلما يتجلى لها بسطها فانبسطت وزاد في امتدادها بقدر زيادة وقوع نور التجلي عليها، فكلما ازداد نورها من الحق ازداد بسطها وامتدادها وهي مضطرة إلى زيادة بسطها وسعتها إلا أنها يوازي مشاهدة جلالة القدم الذي بلا نهاية ولا غاية، فإذا يزيد بسطها وامتدادها إلى أبد الآباد، وذلك لأن هناك عرش الرحمن وكرسيه، وهنالك ولاية الله ينزل عساكر تجليه عليها في جميع الأنفاس والأوقات ولم يكن موضع من العرش إلى الثرى بهذه الخاصية غير قلوب الأنبياء والأولياء.

لما روي سيد الأنبياء - عليه وعليهم سلام الله عن الله سبحانه - قال: **لم يسعني السماوات والأرض، ويسعني قلب عبدي المؤمن**»[1].

ولا يظن أن ذلك البسط أبسط صورة القلب؛ لأن بسط القلوب بسط علومها وفهومها وعقولها، وبسط نورها وقبولها أنوار قرب الله سبحانه التي اطلعت على فطرتها وأماكن غيبها، وغيبها معادن علم الله، وفي علم الله استغرقت الأكوان والحدثان؛ فكل شيء من العرش إلى الثرى في تلك الأماكن من قلوب الصديقين أقل من خردله، وكيف لا يكون

(١) سبق تخريجه.

ذلك وهو يسع حمل الملك والملكوت، ولما تجلى لها تزلزلت من هيبته وإجلاله؛ فألقى فيها رواسي العظمة وشدها بحبال أنور الكبرياء، وربطها بأوتاد العقول وأنبت فيها بمياه بحار زلال نور غيبه من جميع نبات المعارف والكواشف والمواجيد والحالات والمقامات والآداب، وتلك الحقائق والهبات موزونة بقدر تجليه وميزان علمه، وأيضًا فيه إشارة أخرى أن رواسب الأرض أولياء الله، وكما أن الجبال والرواسي بالتفاوت في صغرها وكبرها، فكذلك الأولياء بالتفاوت في مقاماتها وأحوالهم عند الله، فالرواسي أعظم الجبال، فأعظم الأولياء الغوث والثلاثة المختارون والسبعة ثم العشرة ثم الأربعون ثم السبعون ثم الثلاثمائة وهم الأبدال والأوتاد، والسبعون النقباء، والأربعون الخلفاء، والعشرة العلماء، والسبعة العرفاء، والثلاثة أهل المكاشفة وهم الرواسي والغوث، أعني القطب مثله مثل جبل قاف والأوتاد مفزع، العامة والنقباء مفزع الأوتاد، والخلفاء مفزع النقباء، والعلماء مفزع الخلفاء، والعرفاء مفزع العلماء، وأهل المكاشفة مفزع العلماء، والقطب مفزع الكل.

قال بعضهم: مدّ الأرض بقدرته وأمسكها ظاهرًا بالجبال والرواسي، وأما الرواسي على الحقيقة؛ فهو مقام أوليائه في خلقه بهم يدفع البلاء عنهم وبمكانهم بصرف المكاره، فهم الرواسي على الحقيقة لا الجبال.

قال محمد بن علي الترمذي: أن في العباد عباد هم المفزع ومن فوقهم الأوتاد ومن فوقهم الرواسي.

قال: المفزع مرجع عامة العباد، ومرجع المفزع إذا هال الأمر إلى الأوتاد(١)، ومرجع الأوتاد، إذ يستعجل الأمر إلى الأوتاد وهم خواص الأولياء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

وقال سهل: مدّ الأرض ووسع رقعتها ليسير فيها الناظر بالغيرة والاعتبار؛ فيطلب فيها أماكن الأولياء وهم الرواسي الذين بهم قوام الأرض.

قال الأستاذ: نفوس العابدين أرض العبادة، وقلوب العارفين أرض المعرفة، وأرواح المشتاقين أرض المحبة والخوف والرجاء لها رواسي وكذلك الرغبة والرهبة.

وقال: كما أنبت في الأرض فنون النبات أنبت في القلوب صنوفًا من الأزهار والأقمار، فمن نور اليقين، ونور العرفان، ونور الحضور، ونور الشهود، ونور التوحيد إلى غير ذلك من

---

(١) الأوتاد: هم أربعة في كل زمان، الواحد منهم يحفظ الله به المشرق وولايته فيه، والآخر المغرب، والآخر الجنوب، والآخر الشمال، وحكم هؤلاء في العالم حكم الجبال في الأرض؛ فإنه بالجبال يسكن ميل الأرض.

الأنوار، ثم وصف سبحانه معايش الجمهور مما ينبت أرض القلوب من زهر المعارف والكواشف بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ معايش الصديقين في أرض أنوار الشهود، ومعايش المحبين ظهور نور تجلي، ومعايش العارفين كشوف التدلي، ومعارف الموحدين استماع الخطاب بعد الكشف، ومعايش سكان أرض القلب من العقل والفهم والنفس نور الإيمان والبرهان والإيقان وذلك قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ هو بجوده سبحانه رازق الأرواح ورازق العقول والنفوس.

قال الأستاذ: سبب عيش كل أحد مختلف، فعيش المريدين بيمن إقباله، وعيش العارفين بلطف جماله، وعيش الموحدين بكشف جلاله، كل مربوط بحاله؛ ولكل نصيب من أفضاله، والحق منزّه عن التحمل بأفعاله، ثم وصف سبحانه سعة قدرته وعلمه وملكه وملكوته وخزائن جوده بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: ما من شيء في قلوب العارفين من أنوار المكاشفة والمعرفة والتوحيد والإيمان واليقين والمقامات والحالات والإلهام والخطاب إلا عندنا خزائنه، وخزائن هذه الحقائق ذاته القدمية وصفاته الأبدية، فإن كل وجد وكشف وعلم وحال ومعرفة وتوحيد مقام ومقال يتعلق بكشف الذات والصفات وكشوف أنوارها تظهر بقدر قوة القلوب مقرونة بالإرادة الأزلية بقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وعلم الإشارة في الآية دعوة العباد إلى حقائق التوكل بوصف قطع الأسباب والأعراض عن الأغيار.

قيل: كان الجنيد إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ قال: فأين تذهبون؟

قال بعضهم: القلوب خزائن الحق عند الخلق أودع فيها أجل شيء وهو التوحيد وزينها بالمعرفة ونورها باليقين ومجدها بالتفاني في أوصافه.

قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[1].

وجعل آثار أنوار القلوب على الجوارح من التسارع إلى الطاعات، والتثاقل عن المعاصي والمخالفات، وهذا دليل لما قلت من الكرامات لذلك، قال الله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

وقال حمدون: قطع أطماع عبيده عن سواه بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا

---

(١) سبق تخريجه.

خَزَآئِنُهُۥ﴾ فمَنْ رفع بعد هذا حاجته إلى غيره فهو لجهله ولومه.

قال ابن عطاء: في هذه الآية النظر إلى شواهد القسم أسكنت بالنفوس عن الحكم.

وقال سهل: أخص خزائن الله في الأرض قلوب أوليائه التي هي محل معرفته وغيبه ومحل نظره، فمَنْ حفظ تلك الخزانة بالذكر الدائم والمراقبة عمّر الله قلبه بالرجوع إليه على دوام الأوقات والأعراض عما سواه.

وقال: خزائنه في الحقيقة مقدوراته وهو سبحانه قادر على كل ما هو موهوم الحدوث.

ويقال: خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله في الخزانة جواهر من كل صنف، فحقائق العقل جواهر ومنعها في قلوب أقوام، ولطائف العلم جواهر، وبدائع المعرفة جواهر، وأسرار العارفين مواضع سره، فالنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزائن ذكره.

ويقال: أرواح قلوب الفقراء عن تحمل المنّة من الأغنياء فيما يعطوهم، وأرواح الأغنياء عن مطالبة الفقراء منهم شيئًا، فليس للفقير صرف القلب من الله إلى مخلوق، ولا افتقار منه لأحد، ولا للغني بقليل منه لأخذ ذلك الملك كله لله، والأمر بيد الله فلا قادر على الإبلاغ إلا الله.

ثم وصف الرياح اللواقح التي تحمل الأشجار ثمارها بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ غرس في قلوب أوليائه أشجار المعرفة التي هي من بساتين غيب ملكوته وجبروته، ثم أرسل عليها رياح لطفه بكشف جماله لها؛ فتلقح بشمال جماله أشجار معرفتهم ثمار محبته وشوقه وعشقه، ثم سقاها بمطر عنايته من بحر كرمه حتى أثمرت كل غصن منها حكمة من حكمه وعلمًا من علومه، وخبرًا من غيبه، وسرًّا من أسراره، وحقيقة من حقائقه بها نسائم الأنس، ونورها لطائف القدس، وزهرها من لوائح إنصاف، ووردها من لوامع الذات، وفواكهها حياة مرضي المريدين تشفيهم من داء الفراق، وتربيهم بترياق الوفاق، فكل سالك عارف عاشق محب واله سقاه الحق من مطر لطفه من بحار كبريائه شربات مفرحات الأفراح بأقداح الأرواح؛ فيصير سكران جماله من حب جلاله هائمًا من شوقه إلى وصاله، فلا العاشق الشائق يسكن من سكره، ولا من سقي شرابه، ولا ينقص بحر وصاله من شرب عاشق جماله وكمال جلاله.

شربت الحب كأسًا بعد كأس ... فما نفذ الشراب ولا رويت

قال بعضهم: رياح الكرم إذا هبت على أسرا ر العارفين أعتقتهم من هواجس أنفسهم، ورعونات طباعهم، وفساد هواهم ومراداتهم، ويظهر في القلوب نتائج الكرم، وهي

الاعتصام بالله، والاعتماد عليه، والانقطاع عما سواه، قال الله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ فقلوب تلقح بالبر، وقلوب تلقح بالفجور، وما روي في الأخبار قلوب الأبرار تغلي بالبر، وقلوب الفجار تغلي بالفجور.

قال أبو عثمان: كما أن الرياح الربيع إذا هبت فتحت عروق الأشجار لحمل الماء، فكذلك رياح العناية إذا فتح أسماعها لقبول الموعظة ودلّها على طريق التوبة وباب الإنابة.

وقال ابن عطاء: رياح العناية تلقح الثبات على الطاعات، ورياح الكرم تلقح في القلوب معرفتها لنعم، ورياح التوكل تلقح في النفوس الثقة بالله والاعتماد عليه، وكل ريح تظهر في الأبدان زيادة وفي القلوب زيادة، والشفاء من حومها.

وقال الأستاذ: كما أن الريح في الأفاق مقدمات المطر كذلك الآمال في القلوب مما يتفرسه العبد مما يتأدى إلى قلبه من مبشرات الخواطر وتنسم النجاح في طلبه يحصل، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف.

ويقال: إن رياح البسط إذا هبت على قلوب العارفين ما تركت فيها للوحشة أثر.

ويقال: إذا هبت رياح القرب على قلوب العارفين عطرت بنفحات الأنس؛ فيبقون في نسيمها على الدوام، ومما يؤيد تحقيق التوحيد آخر الآية قوله: ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ بيّن أن لطائف أنوار المشاهدة لا يتعلق بكسب العباد، ويكلفهم في المجاهدات، وإذا انكشفت أنوارها في القلوب لم يكونوا بحابسيها؛ لأنها شعاع شمس الوحدانية وهي منزهة عن تناول الحدوثية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وبتلك المياه والرياح يحي أرواح الصديقين وقلوب الموحدين بقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ نحي بمشاهدتنا قلوب المنقطعين من موت الفراق، ونميت نفوس المريدين بالخوف عنا وقهر عظمتنا عن حياة الشهوات، وأيضًا نحي الأرواح بتجلي بقائنا عن موت فنائها في مشاهدة قدمنا، ونفنيها عن حياتها بمشاهدة البقاء برؤية قدمنا وأزلنا، نحي أسرار العارفين بجمالنا ونميتها باحتجاب مشاهدة جلالنا عنها، ونحن الوارثون ما عليها من أحكام الربوبية وما لها من أحكام العبودية.

قال الواسطي: نحي مَنْ نشاء بنا، ونميت من نشاء عنه.

قال بعضهم: نحي أقوامًا بالطاعة ونميت أقواما بالمعصية.

وقال البراق: نحي القلوب بنور الإيمان ونميت الأنفس باتباع الشهوات.

وقال أبو سعيد الخرّاز: الحي من العباد من الحق حياته، والميت منهم من جر كأنه بقاؤه.

وقيل: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت النفوس بالاستتار.

وقال الجريري: كم مَنْ حي حياته موته، وميت موته حياته.

وقال سهل: نحي أهل الصفوة بمعرفتنا والإقبال علينا، ونميت المخالفين بإنكارنا والإعراض عنا.

وقال: أيضًا نحي النفوس السعيدة متابعة القلوب الرضية، ونميت النفوس الشقية بمتابعة الهوى والشهوات.

وقال الأستاذ: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة.

ويقال: نحي المريدين بذكره، ونميت الغافلين بهجره.

ويقال: نحي قومًا بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوما بأن يحجبهم عن نيل أفضاله.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ أنوار وقائع الغيب تقع في قلوب الأولياء في أوان شتى، فمَنْ صاحب واقعته في زمان صباه كإبراهيم، ويوسف، ويحيي -عليهم السلام، ومَنْ صاحب واقعة تقع واقعته في كمال شبابه كموسى، وداود، ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين، فمنهم المستقدمون بالوقائع، ومنهم المستأخرون بها، وأيضًا إن المستقدم في عهد الأزل بالمعرفة والخطاب والشاهدة، وكشف الحجاب للأرواح الملكوتية، والمستأخر بالإيمان والإيقان بعد كون الأشباح والقلوب، وأيضًا المستقدمين المجذوبين من العارفين بسلاسل جذبات المكاشفات، وهم أصحاب الوجود والحالات، والمستأخرين من أهل السلوك المقتدين بأهل الطاعات من أهل الكرامات، وأيضًا المستقدمين في الأزل بالولايات والمستأخرين من أهل الطاعات، وأيضًا المستقدمين بنعت المحبة والشوق إلى المشاهدة، والمستأخرين من أهل الطاعات بنعت الطلب ساكن الجنات، وأيضًا المستقدمين إليه بالقلوب الوالهة والأرواح العاشقة والعقول الفانية بنعت التسارع إلى طلب الجمال والجلال، والمستأخرين من أهل الرسوم بنفوسها الأمّارة إلى أبواب المعصية والطاعة طلبًا للحظوظ والأعراض، وأيضًا المستقدمين بهم إلى عالم المشاهدات، والمستأخرين بقدهم إلى الطاعات، وأيضًا المستقدمين بنعت هيجان قلوبهم ووله أرواحهم إلى طلب لقائه، والمستأخرين بالطاعة إلى طلب ثوابه، ومَنْ علم المجهول إشارته أن المستقدمين هم أهل الإرادات الذين إذا دعوا إلى الطاعة يتسارعون لخفة قلوبهم لطلب صفاء العبادات وراحة المراقبات في صفاء الأوقات، والمستأخرين هم سكارى التوحيد والمعرفة والمحبة متثاقلين من أثقال برجاء كشف العظمة والكبرياء عليهم إلى رسوم الطاعة، وذلك من غلبته البسط والبساط الحق إليهم مثل بهلول، وسعدون، ومجنون[1]، والنوري، والشبلي، والحصري، وهشام بن عبدان الشيرازي، وعلي ابن سهل البيضاوي، ونظرائهم من أهل السكر والغلبات-قدست أسرارهم.

قال ابن عطاء: من القلوب همتها مرتفعة عن الأدناس، والنظر إلى الأكوان، ومنها ما هي مربوطة بها مقترفة بنجاستها لا تنفك عنها طرفة عين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

وقال بعضهم: عرفنا الراغبين فينا والمعرضين عنا.

وقال النهرجوري: علمنا الراغبين فينا بسرعة الإجابة إلى طاعتنا، وعلمنا الزاهدين

(١) يقصد: سمنون المحب.

فينا بالتثاقل بالقيام إلى أوامرنا.

قال الأستاذ: العارفون مستقدمون بهممهم، والعابدون مستقدمون بقدمهم، والتائبون مستقدمون بندمهم، وأقوام مستأخرون بقدمهم وهم العصاة، والآخرون مستأخرون بهممهم وهم الراضون بخسائس الحالات.

ويقال: المستقدمون الذين يستجيبون خاطر الحق من غير تعرج عن تفكر، والمستأخرون الذي يبصرون إلى الرفض والتأويل.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ إن الله سبحانه كان موصوفًا في الأزل بالقهر واللطف وللصديقين منه لها تأثير في تجليها عن القدم إلى العدم، ويتجلى بلطفه من أنوار لطفه إلى العدم، فأظهر بنور لطفه التراب والماء وجعلها أصلاً في مواليد الإنسان، وتجلى بقهره للعدم؛ فأوجد من تجليه النار، وجعلها أصل مواليد الجن والجان، فخلق من الماء والطين آدم ﷺ وذريته وجميع معاشهم من الماء والطين اللذين أصلهما من تجلي نور لطفه، وخلق الجن وإبليس من النار التي هي من تأثير قهره؛ فوقع المخالفة بين الجان والإنسان، كما وقعت المخالفة بين الماء والطين والنار، فخلق الأول الماء والطين من لطفه، ثم خلق النار من قهره، فسبق الماء والطين على النار؛ لأن الماء والطين سبب الرحمة على العباد، والنار سبب عذاب العباد، لذلك قال تعالى: «**سبقت رحمتي غضبي**»[1].

فتبيَّن فضل الماء والطين وتقدمهما على النار، فإذا كان الماء والطين بهذه المثابة خلق سبحانه بلطفه آدم ﷺ وذريته من الماء والطين، وخلق إبليس وذريته من النار، وإذا أراد سبحانه في الأول خلْق الإنسان خلَق ذريته بيضاء ؛فتجلى لها جميع صفاته وذاته، فذابت تلك الذرة من صولة تجلي ذاته وصفاته، وسارت زلالاً نورانيًا جلاليًا جماليًا، فأثر فيها بركة تجلي ذاته وصفاته، فتلاطم بعضه بعضًا، وألقى فوق الماء زبدة من نفسه فصارت تلك الزبدة طينًا، فخلق سبحانه من تلك الزبدة الأرض، ودار ذلك الماء حول الأرض ودخل في بطنها، ثم خلق منها آدم ﷺ وكان ما خلق آدم ﷺ منها طينًا لزجًا بما فيها من ذلك، فيبس الماء في نفسه بتأثير شعاع تجلي العظمة، فخلق آدم ﷺ منه لذلك قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فإذا أراد خلق آدم ﷺ سلط على ترابه ومائه سطوات تجلي قدمه وبقائه؛ فخمرها بتجلي القدم والبقاء الذين كني عنهما باليدين بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ يد القدم ويد البقاء أربعين صباحًا كل صبح منها أصبح كشف ألف صفة؛ فخمرها أربعين صباحًا

---

(١) سبق تخريجه.

يتجلى كشف أربعين ألف صفة من صفاته، وجعل صورة آدم ﷺ وطينته مساقط أنوار تجلي صفاته؛ فلما كملت صورته طرحها بين العرش والكرسي ثمانين ألف سنة من سني الآخرة، ورباها بأفانين كرامات تجليه، وهو سبحانه خلق روحه قبل صورته، وصورة الكون بألفي ألف عام من أعوام الآخرة.

قال ﷺ: «**خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي ألف عام**»[1].

وكان خلق روحه من تأثير تجلي ذاته، فأصلها أيضًا يتجلى جميع صفاته، فحبسها في حجال غيب الغيب وغيب غيب الغيب، وسترها بقباب غيبه من أعين الملائكة، ثم ألبس طينتها وصورتها لباس الغيرة؛ فنظرت الملائكة إلى صورة المعرفة من قلة معرفتهم بجلال قدرها، وأعمى الله إبليس عن رؤية ما في صورة آدم ﷺ حتى تفاخر عليها، فلما أراد سبحانه إظهار صنيعه في ملكه وملكوته وجلال صنيعه الموجود جاء بروحه التي انقدحت من زنود تجلي الذات والصفات بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وأدخلها بنفخة المنزّه عن همهمة الأنفاس الحدثانية في صورته؛ فقام بإذن الله ملتبسًا نور الصفات والذات، وجلس على بساط سلك بقائه فصار مختار من بين الفريقين الجن والملائكة، أيضًا لأن الملائكة خُلقت بأمر واحد وكان آدم ﷺ خُلق بتجلي الذات والصفات فشتان بين آدم ﷺ وذريته، وبين الملائكة وبنيه، وبين إبليس وجنوده.

قال بعضهم: الأشباح مزدولة قيمتها؛ لأنها خرجت من تحت ذل كن، وأظهرت من الصلصال والحمأ المسنون.

قال الأستاذ: ذكرهم نسبتهم؛ لئلا يعجبوا بحالتهم.

ويقال: القيمة لهم بالتربية لا بالتربة النسب تربة ولكن التعب قربه.

ثم أخبر سبحانه الملائكة بخلق آدم ﷺ بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ إخباره لهم من خلق آدم ﷺ افتتاحه لهم أبواب خزائن ملكوت الأصغر ليريهم ما في عالم الكبير وما فيه إياهم في عالم الصغير، وهو الإنسان ليشاهدوا عجائب صنعه وقدرته ويروا فيها جمال جلاله؛ لأن آدم ﷺ كان مرآة الحق في العالم مَنْ يراه يرى آثار الله فيه.

قال جعفر: امتحنهم ليحثهم على طلب الاستفهام؛ فيزدادوا علمًا بعجائب قدرته ويتلاشى عنهم نفوسهم، ثم أعلم الملائكة محل جوده ولطائف جوده في آدم ﷺ ليروا آيات

---

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (١١/ ٩٠)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٣/ ٢٦١)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ١٢٢).

بهائه وتخضعوا لجلاله بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ أعلمنا أن مزية آدم ﷺ على الكل بتشريف تسويته ونفخه روحه فيه وإن كان شريف في الأصل فطرة طينه شرفه كان لله، ومباشرة أنوار ذاته المنزّه عن الحلول والاجتماع والافتراق؛ فيصير قبلة الله في بلاده وعباده فإذا ظهر لكم فاسجدوا له عند معاينتكم أنوار قدرتي وعجائب لطفي.

قال أبو عثمان: إذا خصصته بإظهار النعت عليه من خصائص الروح وبيان التسوية فدعوا مجادلتكم وارجعوا إلى حد القهر والتعبد له.

قال الواسطي: لما نفخ الروح في آدم ﷺ جعل معرفتها معرفة الحق إياها، وعلمها علم الحق بها قصودها مرادات بابها على محابها، فلما احتجب الملائكة بالصورة الصلصالية والرسوم الشجية عن جمال روحه وما صنع الله بعزته وصمديته وجلال جميع صفاته وذاته في تسويته وصفرته حين لم يشاهدوا عين الجبروت والملكوت فيه، ولم يروا صور حقائق اللاهوتية في مرآة الناسوتية، واحتجوا وجادلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ترحم عليهم الحق سبحانه بأن رفع حجاب الغيرة عن وجه آدم ﷺ دلالة منه لهم به إليه ليعرفوا ذلهم وغره فرأوا أنوار الأسماء والصفات وسنا سبحات الذات في وجهه، ورأوه ملتبسًا بنوره ونور نوره، وما عليه من كسورة ربوبيته؛ فتاهت قلوبهم، وفنيت عقولهم من صولة جلاله، وخروا له ساجدين من شدة حبهم له وشوقهم إليه، وتصاغرت نفوسهم بين يديه وذلك قوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ سجودهم لما بدا من آدم ﷺ من نور الحق؛ فسجدوا له لا له بالحقيقة بل سجدوا للأزلي الأبدي المنزه عن إشارة الزائغين، وتهمة المبطلين، وأوهام الغالطين، ولم ير إبليس ما رأت الملائكة؛ لأنه كان من عالم القهر محجوبًا بالقهر عن رؤية جمال الحق في آدم ﷺ بقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾، ولو أدركه بتلك الصفة سجد له في كل لمحة ألف مرة.

لو يَسمَعونَ كَما سَمِعتُ كَلامَها ... خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وَسُجودا

قال بعضهم: أبصر الملائكة من آدم ﷺ هيكله وشخصه، ولم يشاهدوا إضافة الروح إليه واختصاص الخلقة به واستقامة التسوية وتعليم الأسماء والإشراف على الغيب فنكلوا على السجود؛ فلما أظهر الحق تعالى هذه الخصائص سجدوا له وقالوا: سبحانك أنت تخص من تشاء من عبادك بخصائص الولاية، وتنعيه بنعوت الربانية، وتجريه إلى بساط القربة، وأنت الفعال لما تريد.

قال الواسطي: الفرق بين روح آدم ﷺ وبين الأشياء كلها تسوية الخلقة وتخصيص

الإضافة، فقربت من الله وعرفته ومكّنها من حكمها فغنت وغنمت، ورجعت إليه بالإشارة وقطعت عنه العبارة، وذلك كله من عجز الفخر إذ لم يلبسها ذل القهر؛ فزينها بخلقه فتخلقت بخلقه، وتأدبت بصفته فكانت به تنطق وبإشارته تعقل، وهذا تفسير قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾.

قال أبو عثمان: فتح الله أمين الملائكة بخصائص آدم ﷺ، وأعمى عين إبليس عن ذلك فرجعت الملائكة إلى الاعتذار، وقام إبليس على منهج الاحتجاج بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

قال أبو الحسين: نظر الملائكة إلى الروح، وإلى ما خص الله به آدم ﷺ من القربة والكرامة؛ فانقادوا لأمره سبحانه، وسجدوا له وأبى إبليس واستكبر؛ لأنه كان في عبادته أسوأ حالاً منه في آياته؛ فإنه ما عبد الله قط، وإنما كان يعبد نفسه وهواه، ثم غير الحق سبحانه إبليس حيث لم يسجد له مع الملائكة بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: ما لك ألا تكون من المشاهدين شهودي بوصف كشف جماله وجلاله مع دعواك معرفتي وعبوديتي، فإن من لوازم المعرفة والعبودية والعلم بالربوبية عليك أن تراني بوصف الربوبية في العبودية، وأن تعرفني بأمري ما وراء أمري من أسرار علمي، وظهوري في لباس قدرتي.

ثم أخبر عن جوابه وجرأته بالكلام في حضرة القديم، ومؤازرة كبريائه الأزلي بكبرياء نفسه بقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ غلط الملعون في دعواه بخالص العبودية والمعرفة بالوحدانية، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأنه ظن أن محض العبودية صورة السجود والركوع، ولم يعلم أن متابعة أمره بأوجه، هي خالص العبودية، وينبغي أن يتابع أمر معبوده، ولم يأمر بشد الزنار مثلاً، ولا يبالي بأن يشد على وسطه الزنار؛ لأن العاشق الصادق يأخذ أمر معشوقه، ولا يخالفه في جميع مراده، ولو كان مشفقًا على محبوبه بأن يخلص عبادته له، فإذا رد قوله ونازع إرادته كيف له شفقة على محبوبه يا ليت لو رأى في مكان الأمر جلال الأمر؛ فإن آدم ﷺ كان قبلة الظاهر كالكعبة، ولا يقع السجود إلا في مشاهدة الربوبية؛ لأنه قال: هو أهله لا غير ومقام إلا من مقام الامتحان، وظن الملعون أنه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره، وهناك لا غير لأن في حقيقة عين الجهال ما هو إلا هو، ولو كان نظره صحيحًا لم يلتفت إلى الوسائط؛ لأنه في عين الجمع الدليل والمدلول واحد من حيث الحقيقة لا من حيث الرسوم، فيبقى الملعون جاهلاً عن معرفته عين الجمع، وقد غلط أيضًا إفراده عن الحدوث؛ لأنه كان محجوبًا بنظرين، نظر إلى آدم ﷺ، ونظر إلى

نفسه؛ فأما نظره إلى آدم ﷺ قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ﴾، وأما نظره إلى نفسه قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ولو كان صحيح القول في نظره إلى عين الوحدانية يسقط عنه رؤية الغير في البين، ظن أنه عالم بالله، وقد وصل إلى عين الحقيقة، ولم يعرف أنه ما وصل إلى أدني المقامات، ولو كان في محل التحقيق ما أحاله الحق إلى خدمة حادث من الحدثان، عرفه أنه لم يكن أيضًا مبتدأً من أهل الإرادة في أول درجات العبودية، ولو كان صادقًا في إرادته لأكل تراب تدم آدم ﷺ؛ لأن المريد ملهوف واله بإرادته ومحبته لمقتداه، ولكن إيش ينفعه، وهو كان مريدًا لا مريدًا؛ لأنه كان معجبًا برأيه، ناظر إلى نفسه في إرادته وعبادته، فقد حصل له الإنكار على مشايخه في زمانه، وسقط من عين الحق وعيون أصفيائه إلى صهوات الرياسة والضلالة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى، ومن الرياء بعد الإخلاص.

ألا ترى كيف كان حاله إلى الأبد إذا لم يعرف مكان القرب من مكان البعد، وكيف يهيم ويعمه في وادي الطرد واللعن بقوله: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ رجمت بأحجار القهر من مكان اللطف إلى معدنه؛ لأنه كان فيه عارية قد قُصد باللعنة إلى يوم الدين، وكان في الأزل ملعونًا.

أراد بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أن اللعن لعنان، لعن قديم، ولعن جديد؛ فإبليس كان موصوفًا بهما، اللعن القديم سبق إرادة الحق لإبعاده عن رحمته وذلك لا يتغير أبدًا؛ لأن القديم هو الباقي، وتلك الإرادة قائمة به، واللعن الجديد زيادة القهر حيث أعطى زمام العصاة إلى يده حتى يفعل بهم ما يشاء بإذن الله، واستكباره عن طاعته، وارتكاب معصيته، وإغواء عباده هو اللعن الجديد الذي هو زيادة البعد، فذلك منقطعة يوم الدين حيث ارتفعت العبادة والمعصية؛ فيكون موصوفًا بما كان موصوفًا في علم القديم إلى الأبد، ليت لو كان رجلاً من الرجال، ويطلب الحق في أودية قهره ليرى أشياء من عجائب الربوبية ما يرى الرجال في معادن اللطف، ولكن كيف أقول وإنه ليس من دواب الإصطبل عجبت من تحنثه وجهده كيف يمشي خلف بنيات وصيات وجهيلات، ويفعل كما يفعلون من خساسة طبعه وكثرة جهلة ويستأنس بكل مستوحش، ويستوحش من كل مستأنس، وليس هذا من أوصاف الرجال.

قال الواسطي: اللعنة التي لم تزل تستحقه مني، وإن كانت الأوقات جرت عليك بزينة السعادة.

ولما سقط من أصله بحسده وعداوة أولياء الله زاد حسده واستنظر بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ

﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد بذلك إيذاءهم، وإلقاء نيران ضلاله إلى عباد الله، وظن من جهله بالله أنه يسبق القدر المعلوم حتى لا يموت كما يموت الخلق، فرد عليه الحق بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ أي: تموت كما يموت الخلق بالنفخة الأولى، وأراد الملعون أن يتشفى على آدم ﷺ وذريته بعد موتهم، ويسخر منهم بما فيه من الحسد عليهم؛ فألقى الله سبحانه رغام الحسرة على أنفه.

قال: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، ثم ذهب الملعون إلى طلب الحيلة في إغواء بني آدم ، وخرج بالجرأة في المخاطبة في الحضرة بما أخبر الحق عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ ادعى الملعون اتصافه بصفة قهر المقدم؛ حيث قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك دعوى الاتصاف بالقدرة في عالم القهر، أي بما ألبستني من لباس قهرك وإغوائك إياي، لأغوينهم لا بقدرة نفسي تكلم من التوحيد بغير اختياره، وعلم أن اللطف من الحق سبحانه ورحمته سابقتان على قهره وغضبه، فاستدرك واستثنى أهل اللطف والرضوان الذي اصطفاهم الله بولايته، وطهر أسرارهم عن دنس الرياء والشرك بماء بحر إخلاصه وتوحيده.

فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وبأنه رآهم خارجين من تحت أديان قهر القدم إلى ساحة كبرياء لطف الأبد، وذلك ما قال عقيب الآية: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: أنهم ملتبسون بأنوار قدسي، المجالسون معي في مجالس أنسي، اخترتهم لنفسي، وهم مواطن سري، وهم سكان أماكن غيبي، ألبستهم أنوار صفاتي، وسنا بهاء ذاتي في بحار عبوديتي مستغرقة، وقلوبهم في بحار شوقي ومحبتي مستغرقة، وأرواحهم في هواء هويتي هائمة، وأسرارهم في أودية أسراري تائهة، أوتيهم بي إليّ من قهري، تقدر أن تسلط عليهم، وإن كان معك راية قهري، وإنهم في ساحة لطفي معصومون من قهري؛ فإن سلطنتك يكون على تبعك من الغاوين بإغوائي إياهم، وقهري عليهم، وافهم يا غافل أن الله وصف المخلصين من عبادي بأنهم معصومون من شر إبليس بنور إخلاصهم، وذلك النور نور التوحيد، ونور التوحيد من كشف نور الموحد ينكشف حين زند الملعون مقدحة الوسواس في صدورهم لوقوع نيران الرياء والشرك فيغلب نوره على ناره فيذهب النار، وبقي فيهم النور، وانقطع سلطنة الملعون عنهم؛ لأنهم بعين رعاية الأزل محفوظون عن الخطرات.

قال رجل ليحيى بن معاذ: بماذا كرم الله عباده المخلصين؟ قال: بالإيمان بالغيب

والمشاهدة.

قال ذو النون: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم مغترين إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

وقال النصر آبادي: المخلص على خطر من إخلاصه؛ لأنه بإياه، والمخلص جاوز حد الخطر؛ لأنه لا به(١).

وقال بعضهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: الذي أوصلتهم إلى قربي من غير كلفة ولا سابقة، وأفنيتهم عن أوصافهم، وزينتهم بأقلها وصفاتي عليهم، فهم مع الخلق بالهياكل، ومعي بالأرواح والسرائر، لا عليهم من الخلق أثر، ولا لهم مما هم فيه خبر، أولئك هم عبادي حقًّا، ليس لهم مطلب سواي، ولا مرجع إلا إليَّ هم هم، بل أنا هم، بل أنا أنا، ولا هم هم، ولا صفة لهم، ولا أخبار عنهم، لفنائهم عنهم وبقائهم لي.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر الصادق -عليهم السلام- في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٦٣] قال: جملة الخلق من جهة الخلقة، لا من جهة المعرفة، وعبادي تخصيص في العبودية والمعرفة.

قال ابن عطاء: المخلص من أخلص من رؤية نفسه ومشاهدة أفعاله واستقام مع الله تعالى في كل أحواله، فلا يتقدم إلا بأمره، ولا يتأخر إلا بحكمه.

وقال جعفر: منَّ الله بهذه الآية أن ليس للشيطان على عباده المخلصين سبيل، والمخلصين درجات من قبل المجاهدات والمشاهدات، فمن أخلص في عمله فهو مخلص، ومن أخلص بقلبه فهو مخلص، ومن أخلص سريرته وعلانيته لله فهو مخلص، ومن أخلص روحه نال الاستقامة بالله، والوصول إلى قربته.

---

(١) الحاصل: إن عباد الله منهم المخلِصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى إنهم تخلَّصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم، ومنهم المخلَصون بالفتح؛ وهم الصدِّيقون؛ بمعنى أنهم تخلَّصوا عن شوائب الغيرية، كما تخلَّصوا عن شوائب النفسانية، فهم فانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

ولقد غلب عاصم على غيره من القُرَّاء في قراءة الفتح، ولله درّه معرفة، فإن المستثنى من العباد؛ إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضًا ممَن يتذكَّر ويُبصر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيَّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكُمَّل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقًا بين المقامين.

وقال الأستاذ: من أشهده الحق حقائق التوحيد، ورأى العالم مصرفًا في قبضة التقدير، لم يكن يهبأ للأغيار، ومتى يكون للغير عليه تسلط.

في معناه أنشد الحسين بن منصور- قدس الله سره:

جُحـــودي لَـــكَ تَقـــديسُ وَعقـــلي فـــيكَ تَهـــويسُ
وَمـــا آدَمُ إِلّاكَ وَمَـــن في البَـــينِ إِبلـــيسُ

ثم إن الله سبحانه وصف تلك العباد الذين هم معصومون من شرِّ إبليس بالتقوى، وذكر منازلهم في جنات العلا وعيون الأسني، وسلامته من البلوى، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ أي أن الذين يغضون أبصارهم عن الأكوان والحدثان في جمال الرحمن هم في جنات مشاهدات الذات وعيون الصفات يشربون من سواقيها شرابات المحبة، ورواق المعرفة، يقول حبيبهم: «**ادخلوا بساتين القدم والبقاء بسلامة من الانقطاع، والأمن من الفراق**»[1].

قال بعضهم: مَنْ اتقى الشرك فهو في بساتين وأنهار، ومَنْ اتقى الله فهو في حظيرة القدس عند مليك مقتدر.

وقال الواسطي: مَنْ اتقى العوض جعل ثوابه عليه ما يرجو ويأمله، ومَنْ اتقى العوض فالحق عوض له من كل ثواب.

وقال الأستاذ: المتقي مَنْ وقاه الله بتفضل الأمن، اتقى بتكلفة لا بل يبقى بتكلفة، لا بعد أن وقاه الحق بتفضله، فهم اليوم في جنات ولها درجات، بعضها أرفع من بعض، كما أنهم غدًا في جنات، ولها درجات بعضها فوق بعض، فدرجة قوم حلاوة الخدمة واللذة الطاعة ولقوم البسط والراحة، والآخرين الرجاء والرغبة، ولآخرين الأنس والقربة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، ولزم كل فريق منهم اليوم مذهبهم.

قال الأستاذ في قوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ : معناه يقال لهم: ادخلوها، وأجمل ذلك، ولم يقل مَنْ الذي يقول لهم: ادخلوها؟ فقوم يقول لهم الملك: ادخلوها.

ويقال: يحتمل أنهم لا يدخلونها بقول الملك حتى يقول الحق لهم: ادخلوها كما قالوا:

فَـلا ألْـبَسُ النُّعمـى وَغَـيرُكَ مُلبِسٌ وَلا أقْـبَلُ الدُّنـيا وَغَـيرُكَ واهِـبُ

ثم إن الله سبحانه زاد وصف المتقين، أنهم مقدسون من غل النفساني وغش الشيطاني

---

(١) لم أقف عليه.

بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ بيَّن في هذه الآية أن قلوب الصديقين والمتقين مقدسة من علل الإنسانية والشيطانية؛ لأنها مقدسة بقدس جمال الرحمن؛ ولأنها متقلبة بين إصبعين من أصابع الرحمن، ولا يدخل فيها علة الحدثان.

الأرواح كانت مستغرقة في لجج بحار الوحدانية والأسرار، هائمة في قدم الأزلية ما جرت عليها أوصاف الترابية، وما أشرف عليها غبار وساوس الشيطانية، وما طوى عليها في قدم الأزلية ما جرت عليها أوصاف الترابية، وما أشرف عليها وساوس الشيطانية، وما طرأ عليها قتام هواجس النفسانية، لكن لمّا أراد الحق سبحانه امتحانها خلق الأشباح، وجعل منها أوديتها الشهوات، وأنبت فيها نبات الأخلاق الذميمة، والفطرة السليمة، وجعل القلوب أماكن الأرواح، وجعل الأرواح أماكن العقول، وجعل العقول أماكن الأسرار، وجعل الأسرار أماكن لطائف معرفته وحكمته، وجعلها أصداف جواهر تجلي جماله وجلاله، ثم وضع الجميع في مواضع الفطرة من الأشباح، فلمّا سكنت هذه الجنود في الأشباح، وتواترت عليها أنوار تجلي الحق، تطهرت الصدور بمساكنها من علل الإنسانية، وانسدت عليها أبواب الشيطانية، فلم يبق فيها علل الأخلاق، ولا يدخل فيها بعد ذلك غبار الوسواس فإذا بعد ذلك صاروا متقين، الذين وصفهم الله بنزع الغل عن صدورهم، قيل: دخولها في الجنان نزع علة الغل والغش بنفسه عن صدورهم، ثم بكرمه أدخلهم في جنان مشاهدته، وأجلسهم على كراسي قربته ينظرون بعضهم إلى وجوه بعض بالمودة والمحبة والشوق إلى لقائه، يرى سيماء نور الألوهية بعضهم من وجوه بعض، ولو بقى الغل في صدورهم على باب الجنة ما أسوأ حالهم إذا بقى قلوبهم في غواشي الغل، الله الله لا نظن، فإنه لك بجلال قدره دفع عن صدورهم هذه العلة قبل دخول أرواحهم في أجسادهم، وكيف يكون موضع المضافات والمودة والأنفة الإلهية مغشوشة بغل الطبيعة، والغل والغش من أوصاف أهل النفوس، لا صفة المتحابين في الله، لا ترى كيف وصفهم بالآخرة، ولا يبعد من قدرة الله وحكمته أن يدخل الغل في صدور ولي من أوليائه، ابتلاءً وامتحانًا؛ ليشتغل بدفعه وتطهير سره عن ذلك، واستعاذته بالحق من وسواسه، ويصل إلى معالي الدرجات باستنكاره على نفسه، ومحاربته مع شيطانه، ولا يكون ذلك من منقصة في ولايته.

ألا ترى إلى قول أسد الله علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- كيف قال في هذه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم.

قال أبو حفص: كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته، وأنست بذكره، إن تلك القلوب صافية من هواجس النفس، وظلمات الطبائع،

بل كحلت بنور التوفيق، فصارت إخوانًا.

قال الأستاذ: أمر الخليل ﷺ ببناء الكعبة وتطهيرها، فقال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]، وأمر جبريل ﷺ حتى غسل قلب المصطفى ﷺ، وطهره وتولى نفسه تطهير قلوب العاصين، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ لا تقديمًا لهم على الأنبياء - عليهم السلام، ولكن رفقًا بهم، وقد يصنع الله للضعيف ما يتعجب منه القوي، ولو وكَّل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهر عيوبهم، فتولَّى ذلك بنفسه رفقًا.

ويقال قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، ولم يقل: ما في قلوبهم من غل؛ لأن القلوب في القبضة يقلبها، وفي الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[1].

ثم إنَّ الله تعالى نفى عنهم النصب والمشقة في جواره بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ آواهم إلى أنوار بقائه، ومشاهدة جماله، وحرسهم بها عن قهر سلطان الكبرياء القدم الذي لو هجم عليهم سطوة من سطواته يفنيهم عن اللذة، وما هم فيه من الجنان كلها؛ لأن الحادث إذا قُرن بالقديم يزول من عظمته فيه بأقل من لمحة، ولولا استتارهم بأستار نور البقاء لهلكوا في جلال الأزل، كأنه تعالى حفظهم به عنه، وأيضًا لولا تفضله ورفقه بهم؛ حيث أراهم جماله بوصف اللذة؛ ليفنون في بوادي عزته وهيبة عظمته، ومعنى قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لأن هناك ليس مكان الامتحان والتربية، وقد صار في زمان الغضب بوصف الرضا، ويصير الغيرة مرتفعة من بين العاشق والمعشوق.

قال النصر آبادي: أي نصيب يلحق في المجاورة لِمَنْ غفل عن الله تعالى، وأما من انتبه فأي راحة للحدث في جنب القدم، هل هو إلا تعذيب واستهلاك؟ ثم رجع إلى المقامات، ومحل الامتحانات، ورغب المريدين بنيل الدرجات، وهدد السالكين بنصب الحجاب، وتعذيبهم بالعتاب، بقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يغفر جناية خطرات قلوب العارفين بعد إدراكهم مواضع خطرها، وتداركهم بالندم على تضييع الأوقات، وعمارتهم أسرارهم بأنواع الذكر وصفاء المناجاة يرحمهم بأن يوصلهم إلى أعلى مراتبهم من المكاشفات، والمشاهدات، وعذاب فراقه، واحتجابه أليم لِمَنْ عرفه، ثم يستأنس بغيره، وإنْ كان واسطة مليحة، ويمكن أنه تعالى أخبر عن تلك الأسرار التي ذكرناها في قوله: ﴿لَا

---

(١) سبق تخريجه.

﴿يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ غفر لهم علل الحدوثية، ورحمهم بأنه ألبسهم لباس الربوبية حتى بقوا به معه من غير زوال، وأن عذابه هناك لو أطلق عنانه يحرق الجمهور بنيران سر كبريائه وحقيقة أوليته، أخبر عن تلك الصفتين ما أخبر عن مباشرة صفة القهر، بل أخبر عن استغراقهم في بحر رحمة مشاهدته وغيبوبتهم في حجال وصلته؛ فإنه الغفران الحقيقي.

قال سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ وانحسم باب القهر بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، وأيضًا أخبر عن الوصفين من أوصاف المغفرة والرحمة، وهما في الحقيقة صفتان قديمتان باقيتان، وأن عذابه صفة فعله، وإذا قورن الفعل بالصفة لزال الفعل في الصفة، فإذا مقام الرجاء أقوى من مقام الخوف؛ لأن الرجاء من شقائق الإنس، والبسط وهو باق أبدًا مع العبد؛ لأنه من تأثير تلك الصفة، وزال الخوف؛ لأن في جواره لا يبقى الخوف، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بزوال العذاب، وغيبة الفعل في الصفة.

قال ابن عطاء: أقم عبادي بين الخوف والرجاء ليصحَّ لهم سبيل الاستقامة في الإيمان؛ فإن من غلب عليه رجاؤه عطّله، ومن غلب عليه خوفه أقنطه.

قال الجنيد في هذه الآية: النبأ سابق إليهم في الدنيا باجتماعهم في الآخرة، فلذلك لا يشكون ولا يضعفون، ويطيقون حمل البلاء فهم في سعة من العيش في كل حال، كل ذلك لسعة علمهم بالله، وسكونهم إلى مواعيده فحملوا الحقوق، وما خفي عليهم شيء مما خفي على غيرهم، وهم مشرفون بالله على ما له منهم، وما لهم عنده.

وقال ابن عطاء: إن الله تعالى وصف نفسه بالفضل والعدل، ولا يوصل فضله إلى عبد إلا أنجاه من كلِّ بليةٍ وهمٍّ، ولا وضع عدله على أحد إلا أهلكه، وأوصل عدله إلى إبليس مع طول عبادته التي توهم أنها تنجيه، وتقربه إلى ربه، فأبعده بعدله، وأخزاه إلى أبد الأبد، وأوصل فضله إلى السحرة، وهم يقولون لفرعون: بعزتك، فردهم مما هم فيه بفضله إلى محل السعداء، فتلاشى كفرهم ومعصيتهم.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ

أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ ثم إنَّ الله سبحانه إذا أغلق باب الفراسة على الأنبياء والصدِّيقين لا يرون مرقومات المقدرات، ولا يعلمون بحقائق المغيبات.

ألا ترى كيف غاب حديث رؤية روح إسحاق ﷺ ويعقوب ﷺ عن الخليل ﷺ حتى قنط من نفسه أن يكون ذلك في كبره، ولو رأى ذلك في سرِّ القدر لم يقل: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾، ولم يكن شاكًا في قدرة الله، ولكن لم ير هناك في ذلك الوقت ما عند الله من مكنون سره، وأيضًا كان في كبر سنه هائمًا في أودية الخلة، مستغرقًا بوصف الشوق في بحار المحبة، مستأنسًا بجمال المشاهدة، مستوحشًا من أحكام الحدوثية، فقال: أي وقت لتربية الولد، وإني كنت على جناح سفر الوصلة، وتصديق ذلك قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي: بأي شيء تبشرون، وإني غائب في الحق.

وأصل النكتة في هذا: إن الخليل رأى في سطور مقدرات الغيب بنور النبوة اسم إسحاق ﷺ ويعقوب ﷺ، ورأى بروحه روحهما، فقال: أبشرتموني على أن وصل إليَّ الكبر، ويلغني الحق إلى درجة الشيخوخة، ولا يخفى مثل ذلك عليَّ، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، وإني أرى بنور نبوتي ما لا ترون بنور الملكية.

قال الجوزجاني: أيام الكبر أيام القنوط من الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة، وما عند الله.

ألا ترى أن إبراهيم ﷺ لم يقبل بشرى الولد من الملائكة عند الكبر، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ إلى أن ذكروا أن البشرى له من الله فزال عنه القنوط لعلمه بقدرة الله على ما يشاء[1].

---

(١) في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ يُشير إلى لوط: الروح، وأهله: قواه، فإن المؤمن يستأنس بالمؤمن، والجنس إلى الجنس يميل، والليل إشارة إلى ليل الجلال المقتضي للفناء المنتهى إلى الجمال المستلزِّم للبقاء، وفيه إن الأرض تُطوى في الليل، كما ورد: «عليكم بالدلجة» فإن الأرض تُطوى في الليل، والدلجة: السير في الليل، ومن ذلك كان عبادات العباد في الليل أكثر، وكانوا يستحلُّونها لما =

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: بحياة روحك التي أوجدتها من العدم بتجلي القدم، وعمرها في مشاهدتي بعد كون وجودها، وأيضًا أي بأعمار أنوارك المصطفوية في علم غيبي، حيث لم يكن الدهر الدهار، ولا الفلك الدوار، وهي كانت تزورني في سرادق كبريائي، ولا تحصى زمانها؛ لأن زمانها بلا زمان ومكان، أوجدتها بقدرتي وكمنتها بقدرتي في أماكن قدرتي، أي: لعمر أنوارك التي تعرف مني نور صفاتي، وتدرك مشاهدة ذاتي، فنعم تلك الأعمار أي: بعمرك في ديوان ربوبيتي، ومنازل قربتي، وحسن مشاهدتي من زمان معراجك ووصالك معي، وأيضًا أي: بعمرك الذي يبقى في جمال مشاهدتي أبدًا، وأيضا أي بعمرك الذي ما هجم عليه طوارق الغضب ولا قوارع العطب، وأيضًا أي: بحياتك التي كونتها لك من تجلي حياتي فيك، وتلك الحياة من روح روحي التي نفختها في أبيك آدم ﷺ كانت روح آدم الذي نفخها الحق في آدم بحياتك التي عاش آدم، ومن دونه بها، إنهم من حياتك، ورؤيتها في حجاب الضلال، وسكر العمى.

قال بعضهم: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بعمارة سرك بمشاهدتنا، وقطعك عن جميع المكونات.

وقال النوري: أي: بحياتك التي خصصت بها من بين الخلق، فحيوا بالأرواح، وحييت بي، فبقاؤك متصل ببقائي؛ لأنك باق بي.

وقال جعفر: أي: بحياتك يا محمد، إن الكل في سكرة الغفلة وحجاب البعد إلا من كنت وسيلته ودليله إلينا.

=

يُورثهم النسيم الرحماني في الأسحار، والنفخ الروحاني في طلب الأوقات من اللّذات والنشاط.

وفيه أن الأهل: وهي المخدّرات ينبغي أن يكون خروجهنّ من البيت لحاجة ضرورية في وقت الظلمة؛ لأنه أستر لهنّ، وأهل الحرمين الشريفين يعملون بهذا إلى الآن، فإن نساءهم المستورات لا يخرجن بالنهار ألبتّة؛ بل بعد المغرب، أو في وقت الشافعي حتى أن العروس تُزفّ إلى بيت زوجها بعد المغرب حين ينقطع الأقدام من السكك، والأسواق.

وقال القرشي: أقسم الله بحياة محمد ﷺ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾؛ لأن حياته كانت به، وهو في قبضة الحق: وبساط القرب، وشرف الانبساط، ومقام الإنفاق، فأقسم بحياته، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بحياة مثلك يكون القسم؛ لأن الكل زاغوا وما زغت، وطغوا وما طغيت، وسألوا وما سألت، حتى بدأناك بالإجابة قبل السؤال، فحياتك هي التي بها حياة الخلق قبلك، وبها حياة الخلق بعدك، فإنك حيٌّ بحياتنا غير مباين عنّا بحال.

وقال الخراز: وصفه لخلقه، ثم سَتَره ببره عن خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ رهن الحق سبحانه الفراسة برؤية الآيات والشواهد، كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]، و﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وهذه أوصاف البدايات في الفراسة، حيث يحتاج إلى النظر إلى العلامات، وأصل الفراسة إصابة نظر الروح إلى مقدرات الغيبية بلا علامة ولا علة ولا سبب، بل يتعلق هذه الفراسة بانكشاف ما يبدو من الغيب بنور الغيب، وسر المقدور، وخفيات الضمائر، ومكنونات السرائر لأبصار الأرواح الناطقة بالحق، المسامعة أصوات أنباء الغيبية، الشاهدة مشاهدة الحق، فترى بالحق بعد أن تكون موصوفة بصفة الحق ما للحق، فكيف يخفى شيء عمَّن ينظر بالحق ويبصره؛ لأنه تعالى سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به من جهة الاتصاف، والاتحاد بالنعوت الأزلية.

وافهم أن الفراسة على عشرة مراتب: فبعض الفراسة يحصل بعين الظاهر ورؤيتها إلى منقلبات الآيات والأفعال في عالم الصورة، وهي تصرف الحق مكان الآيات إعلامًا من مكنون ما سترها من أعين الخلق، وهذا تفرس بصرية ظاهرية مقرونة بعلم العقل والقلب والروح والنفس والسر وسر السر.

والثاني: ما يسمع آذان العارفين حركات المعالم، وما ينطق الحق وملائكته بألسنة الخلق والخليقة، وذلك يسمع الظاهر، وتلك الفراسة تتعلق بالأسماع الظاهرة، وما يسمع أيضًا بأسماع البواطن وقواها.

والثالث من الفراسة: ما يبدو في صورة المتفرس من أشكال تصرف الحق وإنطاقه، وجوده له حتى ينطق جميع شعيرات بدنه من حيث التصرف والتغير بألسنة مختلفة، فيرى ويسمع من ظاهر نفسه ما يدل على وقوع الأمور الغيبية، وذلك أيضًا يتعلق بالرؤية والسمع وحركة الفطرة في الباطن، وإيصالها بأجزاء الظاهر.

والرابع: ما يحصل بحواس الباطن حيث وجدت بلطفها علامات أوائل المغيبات باللائحة الواضحة.

والخامس: ما يحصل من النفس الأمارة بها يبدو فيها من التمني والاهتزاز، وذلك سر عجيب؛ لأن الله إذا أراد فتح باب الغيب ألقى في النفس الأمارة آثار بواديه، إما محبوبًا فتتمنى، وإما مكروهًا فتفزع، ولا يعرف ذلك إلا رباني الصفة.

والسادس: ما يحصل للقلب سمعيًا بالإلهام، وإما فعليًا كوجدانه برد الواقعة، وإما كشفيًا يبصر ويعلم.

والسابع: ما يحصل للعقل، وذلك ما يقع من أثقال برجاء الوحي الغيبي عليه، فيعلم من وجود الوحي إلهامه ما سيقع من تصرف الحق، وذلك أيضًا يحصل له سمعيًا وبصريًا.

والثامن: ما يحصل للروح؛ لأنها تراه من تصرف الحق فيها، وما يبدو في غيبه يبصر الخاص، وما يسمع من الحق بالواسطة وغير الواسطة.

والتاسع: ما يحصل لعين السر وسمع السر، ترى تصرف الصفة، ويبصر علامة كون الحالة في نور الصفة.

والعاشر: ما يحصل في سر السر، وهو ظهور عرائس أقدار الغيبية ملتبسات بأشكال إلهية ربانية روحانية، فيبصر تصرف الذات في صفات، ويسمع الصفات بوصف الحدث والخطاب من الذات بلا واسطة، وهناك منتهى الكشف والفراسة الحقيقية التي حذرها الخلق النبي ﷺ بقوله: «اتَّقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله»[1].

فإذا وجب الخوف من فِراسة مَنْ يرى بنور الحق؛ فكيف لا يجب الخوف من فِراسة من يرى بالحق لا بالغير؟!

قال الواسطي: السرائر متألهة بحظوظها، مصروفة عن أوقاتها، صدقها في تحركها، أظهر عليها من صدقها في تعبدها، تظهر من السرائر أبدًا قهرًا، ما يوقفك عليها عفوًا، فيشرف المتفرس عليها في أوقاتها؛ فيعرفها، قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال: هم المتصفحون المتفرسون.

وقال بعضهم في قوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال: هم المتفرسون، وهم على ثلاثة أوجه بالنظر والسمع والعقل، وأجل من هذا حال الكشف والمشاهدة لمن أوتيهما، فيكون فراسته غائبًا وحاضرًا صحيحة.

وقال بعضهم: المتوسمون هم المتفرسون على السرائر، فإذا أردت أن تعرف بواطنهم في الحقيقة، فانظر إلى تصاريف أخلاقهم، ومواقيت إشجابهم.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٩٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ٣١٢)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢/ ١٦٠).

وقال محمد بن الخفيف: الفراسة مقسومة على ثلاثة أوجه:

الأول: إصابة المكنون من الأوقات المستكن في النفوس من الأحوال المستخفية من حمل عوام الخلق، وذلك مخصوص به الرسل لما كان للنبي ﷺ في عبد بن زمعة حين قال: «إن أمرها لبيّن، لولا حكم الله».

والثاني: تجلي ما استودع الحق في النفوس من الأحكام المخفية على الخلق المتفرد به الحق، وكشف ذلك لأهل التخصيص من الصديقين والأولياء بعد الأنبياء، كما قال أبو بكر الصديق لعائشة -رضي الله عنها: «إنما هما أخوك وأختاك»(١).

والثالث: ذكر اطلاع القلوب عندما انكشف له من الغيب البعيد، وهذا مقرون بالإلهام، كما قال عمر بن الخطاب: «يا سارية، الجبل الجبل»(٢).

سئل الجنيد عن الفِراسة؛ فقال: آيات الربانية تظهر في سماء العارفين، فتنطق ألسنتهم بذلك، فتصادف الحق.

وقال الحسين حين سُئل عن الفِراسة؛ فقال: حق نظر عن أحد نظرًا إياه، فخبر عن حقيقة ما هو إياه بإياه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ الصفح الجميل ما يكون برؤية تقدير الأزل بنعت شهوده مقدور الغيب بوصف السرور في مباشرة الأمر، والنشاط بالرجوع إلى الحق، وسابق أمره ومشيئته فيما جرى عليه بالواسطة من الغير، فإذا كان كذلك سقط الملامة بسقوط الوسائط، وحصل الرحمة على المجرم المجبور بأمر التقدير.

الا ترى كيف أشار بتمام الآية إلى سرّ ما سبق من التقدير الأزلي بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ما هجم عليك من إيذاء قومك هو مخلوق الخلائق، وتقديره في تربيتك، وإبلاغك إلى مقام أولى العزم، وهو عليم بما قدّر، وبما يكون من اتصافك بخلقه العظيم، وإنّ

(١) ذكره الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٥١٤).

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٥١٤).

كان لفظه الخلاق متعلقًا بمعنى الإيجاد والتقدير، وأيضًا فيه إيماء من معنى الخلق والتخلق كأنه داعي حبيبه إلى التخلق بخلقه في العفو والكرم، ثم واساه بأنه عليم بما قلبه من الشفقة على دينه، وأيضًا الصفح الجميل مواساة المذنب يرفع الخجل عنه، ومداواة موضع آلام الندم في قلبه.

روى عمرو بن دينار عن محمد بن الحنفية عن علي -رضوان الله عليهم- في قوله: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾، قال: هو الرضا بلا عتاب.

وقال بعضهم: صَفْحٌ لا توبيخ فيه، ولا حقد بعده، والرجوع من الأمر إلى ما كان قبل ملابسة المخالفة.

ثم إن الله سبحانه وصف امتنانه عليه بما أعطاه من علوم الألوهية وأسرار الربوبية ليزيد رغبته في الصفح والعفو والكرم، ومواساة عباده، وتحمل إيذائهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ فيه بيان التخلُّق والاتِّصاف بصفاته القديمة، وأخلاقه الكريمة.

أي: ألبسناك أنوار سبع الصفات من صفاتنا؛ لتتصف بها، وتتخلق بخلقها، فتكون ربانيًا، ألوهيًا، جبروتيًا، ملكوتيًا، جلاليًا، جماليًا، نوريًا، قدسيًا، أوليًا، آخريًا، رحمانيًا، رحيميًا، ذاتيًا، صفاتيًا، والسبع المثاني سبع بحار الصفات القديمة، فغسله فيها، وألبسه من أنوارها كسوة الربوبية حتى تكون مرآة الله في بلاد الله وعباده، فسقاه من بحر علمه شرابات، ومن بحر قدرته، ومن بحر سمعه، ومن بحر بصره، ومن بحر كلامه، ومن بحر إرادته، ومن بحر حياته، فصار عالمًا بعلمه، قادرًا بقدرته، سميعًا بسمعه، بصيرًا ببصره، متكلمًا بكلامه، مريدًا بإرادته، حيًّا بحياته، فعلم بعلمه علم ما كان وما سيكون، ويقلِّب الأعيان في السموات والأرض بقدرته، ويسمع حركات الخواطر بسمعه، ويرى ما في الضمائر وببصره، ويتكلم بحقائق الربوبية والعبودية بكلامه، ويكون ما أراد بإرادته ويُحيي القلوب الميتة والأبدان الفانية بحياته، ولكل صفة منها ثانيها من جمهور الصفات الخاصة على إزاء كل صفة منها صفة، حتى يكون مثاني، ومنها القدم، والبقاء، والجلال، والجمال، والرؤية، والصمدية، والربوبية، فالصفات الأولى مع هذه الصفات السبع المثاني، فكان من مشاهدة القدم والاتصاف به صار بنعت التجريد عن الحدثان، ومن مشاهدة البقاء والاتصاف به، صار متمكنًا في محل الصحو، ومن مشاهدة الجلال والاتصاف به صار في محل الهيبة مهيبًا في السماوات والأرض، ومن مشاهدة الجمال والاتصاف به صار عاشقًا بوجه القدم، وصار مرآة جمال الحق في العالم، ومن مشاهدة رؤيته، والاتصاف بها، صار شائقًا محبًّا مستغرقًا في بحر الأزل، وصار معشوقًا لقلوب الخليقة، ومن مشاهدة الصمدية واتصافه بها، صار صمدانيًا

مشربه من الصمدية، وطعامه من المشاهدة، بقوله: **«أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»**[(١)]، وكان لا يراه أحد إلا سكن جوعه من تأثير صمدانيته، ومن مشاهدة الربوبية والاتصاف بها، صار متصرفًا في مماليك الحق وعباده وبلاده.

ألا ترى كيف أجابته الشجرة حتى أتت عنده من البعد، وسترته لقضاء حاجته، وكيف انشق القمر بإشارته، وصار بذلك مسجودًا للحجر والشجر، فقد أعطاه الله أنوار هذه السبع المثاني من الصفات القدمية، وزاد بأنه أعطاه القرآن العظيم الذي أخبره خير جميع أسمائه، ونعوته، وصفاته، وما لم يصل إليه جميع الصفات؛ لأن صفاته تعالى غير متناهية، فعرفه القرآن أوصاف الذات والصفات جميعًا، وعظم القرآن من عظم متكلمه، وهو بذاته تعالى تكلم بقرآن عظمته من حيث عظمة الذات وعظمته، إن تحت كل حرف من حروفه بحرًا من علوم الأزلية الأبدية، وأيضًا لكل صفة من صفاته ثاني من عينية الذات، فالصفة ثاني الذات، والذات ثاني الصفات، ليس من جهة الافتراق والاجتماع هو واحد من جميع الوجوه، وهو منـزه عن كل تفرقة وجمع، كأنه قال: أتيناك معاني الذات والصفات، وجئت عرفتها بعد أن عرفك تعالى بجلاله وعزته، أي: كسيناك نور ذاتنا وصفاتنا، لذلك قال ﷺ: **«من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني؛ فقد عرف الحق»**[(٢)].

والقرآن العظيم علمك أنباء الربوبية، وعرّفك حقائق الإلوهية، وأعلمك علوم الغيبية وأحكام العبودية، وأدق الإشارة أن السبع المثاني هي تلك الصفات القائمة، وتأثيرها من جهة الاتصاف بها في قلب النبي ﷺ كأنه توانى بالسبع الصفات القائمة بالذات؛ لأنه العالم والقادر والسميع والبصير والمتكلم والمريد والحي، وهذه الصفات من النبي ﷺ مواليد تلك الصفات القائمة الأزلية المنزهة من العلة وتأثيرها.

ألا ترى إلى ما حكي عن الله ﷻ في حق المحبين، قال الله: **«إذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»**[(٣)]، ولذلك قال ﷺ: **«خلق الله آدم على صورته»**[(٤)(٥)].

ويمكن أنه تعالى قد أشار أيضًا إلى صفته العامة وصفته الخاصة مثل المتشابهات، أي: عرفناك صفتي الخاصة والعامة، وعرفناك بالقرآن العظيم معاني الصفات العامة والخاصة فصرت عاشقًا محبًا مشتاقًا من رؤية الصفات الخاصة المتشابهة؛ لأنها معدن الجمال والجلال،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٢٦٧)، وأحمد في مسنده (٣/ ٥٥) بنحوه.

(٣) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٢/ ٥٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٨/ ٣١٩).

(٤) رواه البخاري (٣١٤٨)، وابن حبان (١٤/ ٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٣).

(٥) هي الصورة الحقيقية المعنوية المدلول عليها بالصفات السبع المرتَّبة.

وصرت متفردًا من رؤية صرف الألوهية بواسطة الصفات العامة عن الأكوان والحدثان، وظاهر الآية أتيناك سبعًا من المعاني أربعة عشر خُلقًا من أخلاقه، مثل: الرحمة والشفقة والعفو والصفح والكرم والظرافة واللطافة والحسن والجمال والهيبة والحياء والسخاء والوفاء والولاية والنبوة والرسالة، هذا كما روى علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر -عليهم الصلاة والسلام- في هذه الآية، قال: أكرمناك، وأنزلنا إليك، وأرسلناك، وألهمناك، وهديناك، وسلطناك، ثم أكرمناك بسبع كرامات؛ أولها: الهدى، والثاني: النبوة، والثالث: الرحمة، والرابع: الشفقة، والخامس: المودة والألفة، والسادس: النعيم، والسابع: السكينة والقرآن العظيم، وفيهما اسم الله الأعظم.

ولما بيَّن امتنانه عليه، وعرفه مكان النعمة السرمدية له، صغر الكون وما فيه في عينيه بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: لا تنظر يا صاحب هذه المعاني العظيمة الربانية إلى زينة أصناف أهل الدنيا من الغافلين عنا، فإنها فانية لا يليق بنعمتك، وهذا إشارة إلى سرِّ الفطرة النفسانية المجبورة بالشهوة الخفية، أي: ينبغي ألا يميل نفسك إلى شيء غيرنا، فإنه موضع خطر المخلصين؛ لأنه محل امتحاننا لا تمدن عينيك إلى طلب جمالنا في غيرنا من أوصاف الروحانيات، فإن حقيقة المشاهدة ما تكون خالية من الوسائط، أي: لا تكن كالخليل، حيث قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ لكن اقتد بآخر مقامه؛ حيث قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فبدايته في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ مقام العشق، وآخر مقامه إفراد القدم عن الحدوث، فأول مقامك آخر مقام الخليل فغض ﷺ بصره عن الوجود، لذلك وصفه بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

وفي الحديث المروي أنه ﷺ كان إذا رأى أموال أهل الدنيا من الإبل، والغنم، وغيرهما، يغطي عينيه بكمه، ويقول: بهذا أمر ربي.

ثم زاد التأكيد برفع الهمة عن الغير بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أمر باستعمال خلقه للمقبلين إلى الله، المتابعين حبيبه بنعت المحبة والإيمان واليقين، بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جناح همتك ارتفعت من الكونين، روصلت إلى قاب قوسين؛ لأنها أجنحة ألوهية ربانية قيومية، أي: اخفض جناح الربوبية التي اتصفت بها لأهل العبودية حتى يطيروا بجناح نبوتك إلى معادن رسالتك، ويجدون بمتابعتك وهمتك المقامات الشريفة، والولايات الرفيعة، ومع ذلك لا تتكلم من حيث أنت، فأنت من حيث أنا، ولكن تكلَّم معهم من حيث أنت في مقام العبودية، بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ لست من قبل الربوبية

بشيء لكن أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ، فمن جهة الوحي أنذركم من عظيم جلاله، وقهر كبريائه، وأحذركم من ألم فراقه، أنا النذير منه مبين، حيث ألبسني شاهد ملكه، وعز جلاله وأنوار بهائه مبين من حيث ظهر معجزتي لكم وأنتم معاينوها.

قال بعضهم: في قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ غار الحق على حبيبه أن يستحسن من الكون شيئًا أو ينظره طرفة؛ فإن ذلك متعة لا حاصل له عند الحق، وأراد منه أن يكون أوقاته مصروفة إليه، وأيامه موقوفة عليه، وأنفاسه له حسيبة عنده؛ فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾[1] لذلك وقع في المحل الأعلى، فما زاغ ولا طغى.

قال يوسف بن الحسين أذن الله في قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ لنبيه ﷺ أن يخبر عن نفسه بأنه السفير الأجل، والعلم الظاهر، والبيان الشافي، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يحتاج الحق إلى السؤال عما عمل أهل معرفته، لكن يعرفهم مكان الخطوات، واعوجاج الهمم، وميلان الطبيعة، ودقائق النفس والشيطان، حتى يكونوا مذابين من حيائه في بحر الخجل من صولة العظمة، وأيضا أراد أن يواسيهم بما قاسوا من آلام المشقة والمجاهدة، كيف يخلصون من مكان الامتحان، فيقول: كيف أنتم عبادي في معاملتي، ومن أجرتي، ومشقة امتحاني، حتى يقولوا بلسان الاضطرار والشوق إلى لقائه ومقاساتهم داء الفراق هذا البيت:

عندك لا تسأل عن حاله ... جل بأعدائك ما حل به

قال الواسطي: يطالب الأنبياء والأولياء بمثاقيل الذر لسمو رتبتهم ولا يطالب العامة بذلك، لبعدهم عن مصادر السر.

قال الواسطي: غفلة العامة من المسئول عنها أهل الحقائق من حركات الأطراف، وخطرات القلب، وهواجس السر.

---

(١) فضل الرؤية فيما لا يُحْتَاجُ إليه معلولٌ كفَضْلِ الكلام، والذي له عند الله مَنْزِلٌ وقَدْرٌ فَلِلْحَق على جميع أحواله غَيْرَةٌ، إذ لا يَرْضَى منه أنْ يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس الله - سبحانه - فيه رِضاءٌ، تفسير القشيري (٥/ ٦٤).

قال الجنيد: لتسألن أهل الحقائق عن تصحيح ما أظهروا للناس من الدعاوي وتحقيقها، وبلغني أن بعض المشايخ قال لبعض المريدين: إياك وهذه الدعاوي فإن الله سائلك عنها.

فقال المريد: لو علمت أن الله يكلمني في القيامة ويسألني عن هذا، لما كان مني في طول عمري إلا هذا، وأنا ممن يصلح لمخاطبة الحق، وللوقوف بين يديه، وسقط فمات.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ واسى الحق حبيبه بما سمع من أعدائه، وقال: أنت بمرأى منّا يضيق صدرك من لطافتك بما يقول الجاهلون بنا في حقنا بما لا يليق بتنزيهنا فترة، أنت صفتنا مكان مقالتهم فينا، فإن مثلك ينزهنا لا غير، وكن من الساجدين حتى ترانا بوصف ما علمت منا، وتخرج من ضيق الصدر في مشاهدة جمالنا، فإذا كنت تعايننا يسقط عنك ضيق صدرك من جهة مقالتهم.

وقال الواسطي: تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فينا من الضد والند والشريك، فسبح بحمد ربك لا تضيق به صدرا، فأنا في الأزل نزّهنا صفاتنا عما أحدثوه من هذه الألفاظ.

قال بعضهم: يضيق صدرك بما يقولون إذا رجعت إليهم، وسمعت منهم، أرجع إلى مشاهدتنا، فإنه وطن الحق، ولا يضيق صدرك.

قال الواسطي: هذا تعزية للمحسودين من العلماء، فقال: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون بجهلهم وحسدهم فيكم، ثم أمرهم بلزوم طاعته بقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾.

قال الأستاذ: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك ولم يقل قلبك؛ لأنه كان في محل المشهود ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله، ولا يكون مع اللقاء وحشة، ثم أمر حبيبه بخالص العبودية عن كدر الخليقة بقوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ اليقين هاهنا مشاهدة الصرف، أي: إذا بلغت مقام التوحيد به، وحقيقة الرؤية، ومشاهدة مشاهدة الأزل، وغبت في بحر الأبدية، سقط عنك في تلك الحال، تظاهر الرسوم حتى تفيق عن تلك الحالة.

قال في مقام المشاهدة: الاشتغال بالعبادة ترك الأدب، وما أردنا بهذا التفسير خلع ربق العبودية عن أعناق أهل المعرفة، لكن أردنا أن العارف إذا عاين الحق يكون مجذوبًا بشوق

الحق إليه إلى جماله، وهناك هو عروس الحق ومحبوبه، لا يجوز أن يشتغل برسم من الرسوم، بل الاشتغال بحكم الوقت عين العبودية، أي عبودية أعظم من متابعة أمر المحبوب، لكن ما دام قادرا أن يكون مصححًا لظاهر رسوم العبادة، ولم يكن سكرانًا غائبًا يلزم عليه حفظ الأوقات في العبودية إلى الممات، وهذا من شعار أهل التمكين.

قال الواسطي: لا يلاحظ غيره في الأوقات حتى يأتيك اليقين، فيتحقق عندك أنك لا تحس بغير الحق، ولا ترى إلا الحق، ولا يجاذبك إلا الحق.

وقال فارس: حتى تتيقن أنك لست تعبده حق عبادته.

وقال أيضا: من نظر إلى معبوده سقط عن عبادته، ومن نظر إلى عبادته سقط عن معبوده.

وقال الحسين: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾، أي: إنك تستيقن بأنك لا تعبده ولا يعبد أحد حق العبودية ابتداء وانتهاء، فتستوجب بها لا بد من مكافأته.

قال ابن عطاء أن الله حكم على أصفيائه وأحبائه وأخلائه أن لا يخرجهم من الدنيا إلا وطوق العبودية في أعناقهم، لباس الخدمة عليهم، ولذا قال لحبيبه ﷺ من بين بريته: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾.

قال الحسين بن عبد الله: بصدق التوحيد خرج عن رسوم التقليد، وأبان عن شرف التفريد، فصار علمه جهلا وعرفانه نكرة.

وقال الحسين: العبودية كلها شريعة، والربوبية كلها حقيقة.

قال الأستاذ: قف على بساط العبودية معتنقا للخدمة إلى أن تجلس إلى بساط القربة، وتطالب بآداب الوصلة، ويقلل النوم شرائط العبودية إلى أن ترقى، بل تلقى بصفات الحرية.

سورة النحل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ ﴾.

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ الإشارة في إتيان الأمر الإلهي أنّه تعالى كان قديمًا

موصوفًا بالإرادة القديمة، والعلم القديم وفي الإرادة، والعلم كان كون العالم والعالمين فتقاضى سر الإرادة كون الوجود، فكوَّن الحق الكون بأمره القديم الذي كان في نفسه، فوقع الأمر منه بغير زمان ومكان، فصدر الكون من الأمر بما كان في إرادته وعلمه، فكوَّن ذلك أبد الآبدين بغير سؤال من الغير، ولا انتظار، ولا تعجيل، فإن الأمر قائم به، وللأمور معلق به وجفَّ القلم بما هو كائن، فإذا سقط السؤال والعجلة إذ هما صفتا جاهل بالله وبأمره، ولو كان الأمر يأتي بمراد الحدثان لكان نقصًا في الوحدانية، لذلك نزّه نفسه عن ذلك النقص بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يا أيها الفاهم الأمر منه، صفته قديمة أبديته، وهو تعالى قائم قديم بجميع ذاته وصفاته، ظهر حيث ما غاب، ظهر لنفسه بنفسه من الأزل إلى الأبد، فما معنى الإتيان الأمر والأمر قد أتى في القدم من القدم، ولكن ظهر بالإرادة للقدم ولكون وجود الحدث فالاستعجال لمعنى غير قائم، فأمره قائم قبل وجود العالم، وإشارة المعرفة أن العارف الصادق العاشق الشائق أبدًا يستعجل إتيان المقامات والواردات، وكشوف المشاهدات، من كمال شوقهم إلى لقائه كأنَّه قال سبحانه أنّ هذه تتعلق باختصاصه، وقد أتى هذه الخاصية بغير سبب ولا علة، كان في الأزل مشتاقًا إليكم قد خصّكم بولاية قبل وجودكم فما معنى الاستعجال.

قال بعضهم: هل رأيتم أمرًا من الأمور إلا بأمره، وهل رأيتم وحدًا وفقدًا إلا به، لا تتعجلوا بطلب الفرج، فإنّ النصر مع الصبر.

قال النصر آبادي: أوامر الحق شتى بالعبادات أمر على الظاهر من الترسم، وأمر على الباطن من دوام المراعاة، وأمر على القلب بدوام الراتب، وأمر على السر بملازمة المشاهدة وأمر على الروح بلزوم الحضرة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ .

قال الأستاذ: أصحاب التوحيد لا يستقبلون شيئًا باختيارهم؛ لأنه سقط منهم الإرادات والمطالبات، فهم خامدون تحت جريان تصاريف الأقدار، فليس لهم إيثار ولا اختيار، ومن خاصيته لأوليائه إلقاء الهام في قلوبهم بواسطة الملائكة بقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ مقامات الوحي فنون، فبعضها وحي الذات، وبعضها وحي الصفات، وبعضها وحي الفعل، ومنه لمّات الملك، وما يأتي به من الوحي يكون على مراتب أرباب القلوب، فوحي في مقام العبودية، ووحي في قرآن الحق من الباطل، وتخويف من الفراق، أو بشارة لنيل الوصال وتعريف لأسرار عيوب النفس، ومداولتها، ودفع مكائد الشيطان، ورد وسواسه، وتربية العقل بالتفكر، وتربية القلب بالذكر، ولتصفية السر بنور الفراسة، أو خبر من الغيب الكائن من وقوع المقدرات ما يختفي في الضمائر

والسرائر، أو خبر عن وقوع كشف عالم الملكوت، أو خبر عن اختصاص الربانية من لمعان أنوار الذات والصفات، فالملائكة يخبرون أرباب القلوب من أسرار ما وصفنا ومخاطبتهم مع القلوب، ألا ترى كيف قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ وأما وحي الصفات يكون بأنواع على مراتب الصفات تخاطب الأرواح على قدر سيرها في عالمها، وأما وحي الذات يكون مع الأسرار، وهناك يتزلزل الصفات، ويتغير الأفعال، تضمحل الرسوم، وتسقط الوسائط يحدث في السر بالسر للسر ويظهر للسر ما في السر.

قال ﷺ: «إنّ في أمتي محدَّثين مكلَّمين، وإنَّ عمر منهم»[1].

فالمحدثون الذين يتحدث معهم الملائكة والمكلمون الذين يكلمهم الله، يجوز أن يحدثَهم الله، وبيان قوله سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ الروح الوحي الإلهي سمّاه بالروح؛ لأنه كلامه صدر من ذاته، وهو حياة قلوب الصديقين من المكلمين والمحدثين، وهو سبب حياة قلوب المؤمنين، يحييهم بعلمه من موت الجهالة، بخبر الأولياء من وحيه ما يهذب قلوب السامعين، وهو توحيده، ووصف عظمته، وكبريائه، ليسقط عنهم الخيال، وليزل عن قلوبهم المحال بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ خوّفوا الخلق من الخواطر الرديئة الممزوجة بالنظر إلى غيري، وخوِّفوهم من عظم جلالي، ونعوتي الشاملة على كل أسرار وأخطار.

قال بعضهم: من أنذر وحذّر فقد قام بمقام الأنبياء، ربما يأتي أمره بالبلاء، وربما يأتي أمره بالرحمة، فالصبر في الأوقات والرضا بأمر الله، وذلك لكل أوّاب حفيظ، يحفظ أوقاته، ولا يضيع أيامه.

قال ابن عطاء: المحدث من العباد من يكلمه الملك في سره، ويطلعه على خصائص الوجود، ويفتح لروحه طريقًا إلى الأشراف على الموت.

قال الله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ .

قال الأستاذ: في قوله: ينزل الملائكة بالروح على الأنبياء بالوحي والرسالة، وعلى أسرار باب التوحيد، وهم المحدثون، فالتعريف للأولياء من حيث الإلهام والخواطر، وإنزال الملائكة على قلوبهم، غير مسدود: ولكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا بذلك، ولا يحملون رسالة إلى الخلق.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ

(١) سبق تخريجه.

لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: هي زينتكم بالظاهر، وللعارفين في سرجها وإراحتها جمال، وهو جمال الصفة الإلهية يظهر في محل بنعت عين الجمع لأبصارهم، فيزيد من رؤية ذلك الجمال محبتهم في شوقهم إلى الله سبحانه، والأرواح، والقلوب، والأسرار، رغبةً في عالم الملكوت ورياض الجبروت، ولأربابها رؤية جمال الحق في تقلبها إلى معارج الغيب ودرجات القرب حين صعدت بأجنحة المحبة إلى سرادق المملكة، وحين نزلت بأوقار المعرفة، وهي مطايا الملكوت تحمل أثقال أشواق المحبين إلى حضرة الجبروت، وتأتي برواحل أسرار الصفات إلى ميادين العبودية، بقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ﴾ إذا أراد سبحانه أن يفتح أبواب الغيوب لأهل القلوب يرسل على قلوبهم حوامل أنوار العناية، فتحمل القلوب بقوة فيض المشاهدة إلى عالم الغيب، وتراها أسرار عجائب الملك والملكوت، وهم أصحاب الجذب والواردات بلغوا بالجلالات إلى بلاد المشاهدات، ولو كانوا أهل السلوك لا يبلغون إليها إلا بلزوم المراقبات والمقامات.

قال الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ﴾ لا بالسير في المقامات، ولزوم الطاعات، ودليل الجدية والعطف، بغير العلة[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فالمجذوب محمول الله بمطية فضله إلى بلد مشاهدته، فمن محمول بنور فعله، ومن محمول بنور صفته، ومن محمول بنور ذاته، فمن حمله بنور فعله يكون بلده مقام الخوف والرجاء، ومحلته صدق اليقين، وداره مربع الشهود، ومَنْ حمله بنور صفته، فبلده مقام المعرفة، ومحلته صفو الخلة، وداره المودة، ومَنْ حمله بنور ذاته، فبلده التوحيد، ومحلته الفناء، وداره البقاء.

قال بعضهم: يدوم المحمول على بساط الرفاهية، والحامل في مفاوز المشقة، فمَنْ حمل فقد كفى، ومَنْ أهمل فقد ضَيّق عليه، لذلك قال: لم يكونوا بالغيه بأنفسكم وتدبيركم إلا بشق الأنفس، وربما يهون على مَنْ يشاء من عبيده حتى لا يصليه في سيره تعب، ولا نصب كذلك سير العارفين من سير الزاهدين.

قال ابن عطاء: تضعف الأنفس عن حمل تلك المشاق، وتقوي القلوب على ذلك حتى

---

(١) جمع ثقل بفتح الثاء والقاف وهو متاع المسافر وحشمه أي تحمل أمتعتكم وأحمالكم.

لا يلحقه كراهية بعد، إلى أن علم إلى أين مقصده، ويأمر من قام وقصد.

وقال الجنيد: في هذه الآية دليل على أن مراد البلوغ إلى مقصده يجب أن يكون أقل أمره، وقصده الجهد والاجتهاد؛ ليصل ببركة ذلك إلى مقصوده.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنَّ الله سبحانه خير الإفهام والعقول عن حصر أفعال وبدائع صنعه؛ لأنها قاصرة بفتورها عن إدراك لطائف فعل وعجائب قدرته ما يصدر من غيبه من الآلاء والنعماء، أي: إذا عجزتم عن إدراك الخلق فكيف لا تعجزون عن إدراك الخالق وهو قادر أن يخلق على أدابر نملة ألف ألف عرش، وألف ألف كرسي، وألف ألف عالم، يخلق بساتين الروحانية في قلوب الأطيار والوحوش والبهائم، وهم بها يعيشون، ويحيون، ويسرحون، ويخلق في قلوب الجن جنان الرحمة، ونيران العذاب، ويخلق في قلوب الملائكة بحار التسبيح والتهليل، ويخلق في قلوب عقلاء المجانين عيون الحِكَمْ والمحبة والشوق والمناجاة، ويخلق لعشاق حضرته من العارفين من صور الروحانية عالما في عالم، ويتجلى بجوده وجلاله منها لهم، ولا يعرفها إلا شائق عاشق واقف بأسرار الربوبية.

روى الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: يريدان عن يمين العرش نهرًا من نور، مثل السماوات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يدخله جبريل ﷺ كل سحر فيغتسل، فيزداد نورا إلى نوره، وجمالا إلى جماله، وعظمًا إلى عظمه، ثم ينتفض فيخرج الله من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ألف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفًا لا يعودون إليه، إلى أن تقوم الساعة.

قال بعضهم: علمك الحق الوقوف عندما لا يدركه عقلك من آثار الصنع، وفنون العلوم لا تقابله بالإنكار، فإنه خَلَقَ ما لا يعلمه أنت ولا يعلمه أحد من خلقه إلا من علَّمه الحق، ألا ترى يقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال: القسم مقدر عليكم من أفعالكم ما لا تعلمون إلا في وقت مباشرته، وهو عالم به؛ لأنه الذر قدر وقضى.

وقال الواسطي: يخلق فيكم من الأفعال ما لا تعلمون إنها لكم أم عليكم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: على الله الطريق المستقيم أن يعرفه من اصطفاه في الأزل بمحبته، والإيمان به، والإيقان في معرفته بربوبيته، أي: على الله الهداية، لا على غيره من العرش إلى الثرى، أي: أنه لا شريك له في ألوهيته بأن يجد أحد سبيلا إليه بغير إرادته ومشيئته، أو يأخذ طريقًا من طرق معرفته بسبب من الأسباب أو علة من العلل.

﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ أي: من السبيل مائل عن طريق الصواب، وهو طريق قهره، أجلس شيخ الضلالة على رأس وادي الطغيان، فمن طرده عن طريق المستقيم سُلِّط عليه الملعون حتى يغويه في أودية الشهوات، وقفر الظلمات، وأن الضلالة والهدى يتعلقان بقهره ولطفه، ولو أراد أن يجيز الكل في حيز الرحمة لكان كما أراد، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء، تصديق ذلك قوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

قال الواسطي: على الله أن يهدي إلى قصد السبيل، ومن السبيل ما هو جائر، والله سبب الجائر، والسبيل القصد، والسلوك على أنوار اليقين، والجائر في السبيل على سبيل التوهم والدعاوى.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لمَّا أشرقت أرض القلوب بأنوار عظمة الآزال والآباد، وسنا سبحات الذات والصفات، وتزلزلت واهتزت وكادت أن ترتفع في هواء الهوية، فألقى الحق سبحانه رواسي علومه الغيبية، ومعارفه السرمدية، حتى لا تطير بأشباحها وأرواحها، وأرباب هذه القلوب رواسي الأكوان والحدثان، ولولاهم لطار الأكوان في الغيب، وغيب الغيب، ثم وصف أرض

القلوب كيف أجرى فيها أنهار المعرفة والمكاشفة والمحبة والشوق والعشق والحكمة والفطنة، وأوضح فيها سبلاً للأرواح، والعقول والأسرار، منها إلى الحق، وتلك السبل بلا نهاية؛ لأن الطرق إلى الله غير متناهية؛ لأنه تعالى غير متناهٍ، فبعض سبلها للعقول إلى أنوار الآيات، وبعض سبلها للأرواح إلى أنوار الصفات، وبعض سبلها للأسرار إلى أنوار الذات، وأنَّ الله سبحانه يظهر بجلاله وجماله في تلك السبل؛ لإسراره القلوب كشفًا عيانًا، ولولا ذلك الكشوف والظهور لم يهتدِ الأرواح والعقول والأسرار إليه.

قال تعالى: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي: تهتدون به إليه، ثم زاد تسبب العرفان بأن يريهم علامات مشاهدته من لوائح كشف الملكوت وأنجم الجبروت.

قال تعالى: ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ العلامات في الظاهر أنوار الأفعال للعموم، وأخصَّ العلامات في عالم الأولياء والنجوم وأهل المعارف الذين يسبحون في أفلاك الديمومية أرواحهم وقلوبهم وأسرارهم، من اقتدى بهم يهتدي إلى مقصوده.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[1].

ما أنور علامات سمات القدوسية في وجوه الصديقين، وما أزهر نجوم أرواحهم متقلبات في أشباحهم، لطلب معادن القدس رياض الأنس، من نظر إلى وجوههم بالحقيقة يرى أنوار الحق من وجوههم وقلوبهم.

قال المالكي: طريق الهداية أعلام، فمن استدل بالأعلام بلغ إلى محل الهدى، وكوشف عن معدن النجوم، ومن استدل بنجوم المعرفة، مر في طريق الهداية، كان عالما بمسراها وصل إلى غاية المنتهى من الطريق، ولا دليل على الحق سواه، ولا علامة يخبر عنه، فهو الدليل على نفسه، ليس لأحد إليه سبيل، ولا لخلق عليه دليل، فمَنْ وصل إليه فيه وصل، ومَنْ انقطع عنه فبسوابق لقائه عليه انقطع.

ثمَّ إنَّه سبحانه جعل ما وصف من نعمة بلا نهاية، بقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ نعمة سوابق نعم عنايته، وهي أزلية أبدية والحوادث عن حصرها قاصرة ونعمة المعرفة في قلوب العارفين، وله نعمة التوحيد في قلوب الموحدين، وله نعمة المحبة في قلوب المحبين، وله نعمة الشوق في قلوب المشتاقين، وله نعمة الأنس في قلوب المستأنسين، وله نعمة الإرادة في قلوب المريدين، وله نعمة الإيمان في قلوب المؤمنين، وله نعمة الإسلام في قلوب

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٦٢)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ١٤٧)، والمناوي في «فيض القدير» (٤/ ٤٣٢)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٢/ ١٣٧).

المسلمين، وكل نعمة من هذه النعم معدن أصل الذات والصفات، يزيد بزيادة كشفها، فبأي لسان يعد نعمته، والخليقة عاجزة عن شكر قطرة ماء زلاله، فكيف لا يعجز عن شكر نعمة مشاهدته القديمة، لكن رحمته وغفرانه شكر نفسه لعلمه بضعف عباده عن حمل شكره، لذلك قال في آخر الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قال ابن عطاء: إن لك نفسًا وقلبًا وروحًا وعقلاً ومحبّة ومعرفةً ودينًا ودنيًا وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاءً وحينًا وَصلاً وفصلاً ووصلاً، فنعمة النفس الطاعات والإحسان، والنفس فيهما تتنعم، ونعمة الروح الخوف والرجاء، وهو فيهما يتنعم، ونعمة القلب اليقين والإيمان، وهو فيها يتقلب، ونعمة العقل الحكمة والبيان، وهو فيهما يتقلب، ونعمة المعرفة الذكر والقرآن، وهو فيهما يتقلب، ونعمة المحبة الألفة والمواصلة والأمر من الهجران وهو فيهما يتقلب، وهذا تفسير قوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾.

﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٧) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ من أمانة الحق بموت الحرمان عن حياة العرفان، كيف يحي بحياة لا موت فيها، فالجاهلون في غمرات هوة الجهالة، والعارفين في حياة المشاهدة، أماتهم حيث طردهم عن أبواب لطفه، فهم يعمهون في ظلمات القهر وما يشعرون سبل الحياة وطريق النجاة، فمثالهم مثل الأصنام التي لا أرواح فيها، ولا استعداد لها لقبول الحياة، فكذلك أهل الجهل به ليس لهم استعداد قبول حياة المعرفة

وروح المحبة، لذلك أكّد في حق الأصنام بعد قوله: ﴿ أَمْوَٰتٌ ﴾ بقوله: ﴿ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ قطع الحياة الأصلية عنها، وقطع عنها أيضا استعداد قبول الحياة؛ لأنها جمادات؛ فالمنكرون كذلك أموات القلوب عن معرفة العارفين، وغير مستعدين لعرفانهم، والعلم بأحوالهم، فسلاطين المعرفة أحياء بأرواح معرفته، والمحبون أحياء بأرواح محبته، والموقنون أحياء بأنوار مشاهدته، والصدِّيقون أحياء بأنوار لقائه، والمقربون أحياء بأنوار صفاته، والموحدون أحياء بأنوار ذاته، وأهل ستر الغيب أحياء بحياته القديمة، والجمهور من وصل القدم في بحر نكرة، مستغرقون لا يموتون فيها بالحقيقة من سكون أرواح معرفته في أسرارهم، وأحاطت أرواح بقائه على أرواحهم، ولا يحبُّون فيها بالحقيقة لصولة سطوات عظمته الأزليات عليهم، وإذا أبصرتهم بالحقيقة فعن إدراك كنُه القدم أموات غير أحياء، إذ لا سبيل للحدث في القدم بنعت إدراكه، لكن هم في حسبان من حلاوة أوقاتهم في إدراكه، وما يشعرون أنهم لا يدركون أبدًا، لكن إذا طلع صبح الوحدانية عليهم، وباشرهم أنوار شموس الذات، وأقمار الصفات، يقومون به معه بوصف الحياة الباقية، والعلم بفروع الربوبية، ولكن لا يعرفون أيان يبعثون في هذه المنازل، كأنَّ الأوقات هناك وقت واحد بنعت تسرمد السرمدية والأزلية سبحانه وتعالى.

قال الجنيد: من كان بين مفرقي فناء فهو فان، ومن كان بين طرفي عدم، فهو معدوم، والحي هو الذي لم يزل ولازال.

قال بعضهم: أموات عن وصول الحق غير أحياء وما يشعرون، وإنَّما يشعر بذلك من كُشِفَ له عن محل الحياة بالحق.

وقال الحسين: الحياة هي أقسام، فحياةٌ بكلماته، وحياةٌ بأمره، وحياةٌ بقربه، وحياةٌ بنظره، وحياةٌ بقدرته، وحياةٌ هي الموت، وهي الحركات المذمومة، وهو قوله جل وعز: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقال سهل: خلق الله الخلق ثم أحياهم باسم الحياة، ثم أماتهم بجهلهم بأنفسهم، فمن حي العلو فهو الحي وإلا فهم موتى بجهلهم.

وقال الواسطي: الميت من غفل عن مشاهدة المنّان، والحي من كان حيٌ بالحي الذي لا يموت.

وقال أبو عمرو الزجاجي: كيف تحيون وأنتم لم ترو أحياء.

وقال النصر آبادي: أهل الجنة أموات ولا يشعرون؛ لاشتغالهم بغير الحق، وأهل الحضرة أحياء؛ لأنهم في مشاهدة الحق.

قال الله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي: للذين رفعوا أرواحهم وقلوبهم وعرضوها في الحضرة لبذلها وفدائها لعروس المشاهدة، وأحسنوا عبودية خالقهم، وشاهدوه مشاهدة إيقان وعرفان في دار الامتحان حسنة مشاهدة الرحمن في وقت كشوف أنوار جماله في أوقات المواجيد والواردات، ولهم في دار الآخرة عيان في عيان، وبيان في بيان، بلا فترة ولا فتور، ولا حجاب ولا عتاب، ولنعم دار هؤلاء المتفردين عن الأكوان والحدثان دار مشاهدة الرحمن.

ثم وصف مقاماتهم السنية ودرجاتهم الرفيعة في مقاعد صدق المشاهدة بقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ بساتين مقام الجلال والجمال، ويجري فيها أنهار زوائد المنن ولهم من مشاهدة جلاله وجماله ما يشاءون عن حلاوة الخطاب والوصال، وهذا جزاء قوم انفردوا بالحق عمّا دون الحق.

قال أبو عثمان: في قوله ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴾ أي: أحسنوا في ابتداء أحوالهم الرجوع إلى محل المحسنين.

قال يوسف بن الحسين: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴾ آداب الخدمة واستعملوها للرفعة إلى محل الأولياء، وهو غاية الحسنى.

قال الأستاذ: إن في الدنيا مشاهدة، وفي الآخرة معاينة، ثم وصف لهؤلاء المحسنين المتقين بطيب قلوبهم وأرواحهم عند خروجهم من الدنيا، بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ في الدنيا بطيب نفحات مسك تجليه وتدليه وفي الآخرة بطيب مشاهدته ووصاله، أيضا طيبين بطيب محبته، طيبين بطيب معرفته، طابت نفوسهم في خدمة مولاها، وطابت قلوبهم في محبة سيدها، وطابت أرواحهم بطيب مشاهدة ربها، وطابت أسرارهم بطيب الأنوار: هؤلاء مقدسون من شوب الحدثان، وإشراك الأصنام، تقدست نفوسهم من لوث الطبيعات، وتقدّست قلوبهم من لطخ الشهوات، وتقدّست أرواحهم من الوقوف في الآيات، وتقدّست أسرارهم من علائق الكرامات، طابوا بطيب المناجاة، واستأنسوا بأنس المداناة، وسكروا بوجوه المشاهدات، وصلحوا في مجالس أنوار الصفات، وطاروا بأجنحة الشوق والمحبة في أنوار الذات، طيب الله قلوبهم؛ حيث جعلها متصفة بأنوار شهوده عليها، فطابت الوجود بوجودهم، وفاحت فارات مسك محبتهم في الآفاق، فما أطيب ذلك الطيب إذا تنفسوا من غلبات الشوق إلى جماله، واستنشاقهم طيب وصاله، هبت عليها ريح الشمال وحملت أنفاسهم، ودارت حول الكونين، فطابت الأكوان والحدثان من طيب أنفاسهم، لأنها رياض جمال الحق، وموضع أنفاس الرحمن.

ألا ترى كيف قال سيد أهل الأنفاس ﷺ: «**إنِّي أجد نفس الرحمن من قِبَل اليمن**»[(١)].

وقال: «**إن لربكم في أيام دهركم لنفحات، ألا فتعرضوا لنفحات الرحمن**»[(٢)].

عرائس جود المشاهدة هناك تتبختر، فتطيب بطيبها تلك الأنفاس الربانية، فطابت السماوات والأرض وأهلها بطيبها، كما قيل:

تضوع مسكًا بطن نعمان إن مشت ... به زينب في نسوة عطرات

قيل: أي طيبة أبدانهم وأرواحهم بملازمة الخدمة وترك الشهوات.

وقال أيضًا: أي: لم يتدنسوا من الدنيا وخبثها بشيء.

قال أبو حفص: ضياء الأبدان بمواصلة الخدمة، وضياء الأرواح بالاستقامة.

قال الأستاذ: طيبين تفيض أرواحهم طيبة ببذلها نفوسهم.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٣٧ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ١٢٩)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٥١).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ١٨٠)، و«المعجم الكبير» (١٩/ ٢٣٣)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٦٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٦٩).

ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ بيّن سبحانه جلال كرم حبيبه، وشفقته على خلقه، محبةً لدينه، ونظامًا لعبوديته، ثم فإن لا يضيق صدرك لأجل من أغويته في الأزل عن طريقك، فإنك لا تهديه، فإن من طرده سابقة إرادته الأزلية، يقدر الحدثان حسم باب الطرد عليه، فإن العبودية من خلقه يتعلق بتخصيص من خصّه بمعرفته، وألبسه لباس عبوديته، ومن ألبسه لباس قهره فأنت لا تقدر أن تنزع ذلك عنه، فإنّ جريان أمر القدم لا يدفعه إلا القدم، وإنما بعثت الرسل لبيان الشريعة، ووضوح الطريقة لأشركتهم في الهداية.

قال الواسطي: السعادة والشقاوة والهدى والضلالة جرت في الأزل بها لا تبديل فيها، ولا تحويل وإنما يظهر في الأوقات رسمًا على الأجسام، والهياكل لا صنع فيها لأحد، وليس يقدر عليها خلق، بل هي إرادة جرت في الأزل بعلم سابق قصرت عنه أيدي الأنبياء وإلى الأولياء بقوله:﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾ وتصديق ما ذكرنا، وما أشار إليه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي :لا يكون كون الأشياء إلا بتكويننا إياها، إما في الإيجاد، وإما في الهداية، وبيان هذه الآية إنّ لذاته تعالى صفات قديمة أزلية، منها الإرادة والمشيئة، وهما سابقتان قبل كل سابق؛ لأنهما قديمتان جرتا لكون الكون وما فيه، لا أن تكونا تحدثان في الحق؛ لأنه منزه عن البدء الذي خلا عنه الإرادة والمشيئة في سابق العلم.

إنّما أراد الله الأشياء في القدم وعلمه كان مقرونا بإرادته، وكان الوجودُ موجودًا في علمه مريدًا لإرادته، وكان قادرًا بقدرته القديمة بإيجاد الكون بمحض الإرادة ومعلوم العلم، ولكن لو أوجد لكان معًا معًا، ولوجدان الحدثان رتبة القدم أخرها بغير علة، ولا لوقت من الأوقات، أراد حدوث الحدث وإحداثه فعلم وجوده، وبعد أن كان معدومًا فأوجد بتمام الصفة حتى يكون على حد الكمال؛ لأنه تعالى خلق الأشياء بمباشرة نور ذاته وجميع صفاته، فالقول منه صفة من صفاته، فقال للمعدوم: كن بتكويننا إياك حتى يكون ذلك المعدوم

موجودًا بكمال جميع الصفات، إذ لو كان خاليًا عن الأمر والكلام كان ناقصًا، مع أنه تعالى قادر يخلق الأشياء على حد الكمال. سئل بعضهم ما كان يكفي الإرادة والمشيئة حتى أظهر قول ﴿كُن﴾.

قال: خفية الإرادة والمشيئة، فأظهر الأكوان في المعلوم، وأظهر لفظة: ﴿كُن﴾؛ فأخرج الأكوان إلى الوجود.

قال الواسطي: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ إنه على قدر المعارف إشارة إلى القدرة، وأما الحقيقة فليس للحق مكون، كما أنه ليس له موجود، إذ لم يكن له معدوم، فإذا كانت الأشياء بذاته ظهرت، وبه وجدت لا بصفاته فلم يزل، كما لا يزال إلى أنه لم يكن، أظهر بعضهم لبعض ظهور الأشياء بذاته لا بصفاته.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أخفى الله سبحانه مكنون أسرار كتابه كما كانت بالحقيقة إلا على نبيه؛ لأنه كان بتلك الحقائق مخاطبًا، وكان بها مأمونًا؛ ليبيِّنها لأمناء المعرفة وأصفياء الحقيقة، الذين لهم استعداد قبول الحقائق، ولهم أسماع الأهلية الحاضرة لشهود الغيب، وسماع الأنباء العجيبة ليتفكروا فيها بعقول كاملة، ويستخرجوا جواهر علومها بأسرارٍ ظاهرة، وهمم عالية، وخواطر مشرقة، وإدراكات منيرة، وهم لا يضيعونها بأَنْ يقولوا عند غير أهلها فيسقطوا عن درجة الأمانة، وأنشد ما ذكرنا:

من سارروه فأبدى السر مشتهراً ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وجاء بنوه فلم يسعد بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يصطفون مذيعا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذاكم حاشا

قال ابن عطاء: قطع عقول الخلق عن فهم كتابه، والإشراف عليه والنبيين منه إلا عقل النبي ﷺ، فإنه قال له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، وإنَّ فيه أحكام الخلق والخطاب معك، وأنت صاحب البيان لهم بما أنزل عليك، فإنهم في مقامات الوحشة، وأنت في محل الحضور ومحل الائتمان، فبيان الكتاب ما تبينه، وآداب الشريعة ما ترسمه؛ لأنك الأمين في جميع الأحوال؛ ولا يؤتمن على أسرار الحق إلا الأمناء من العبيد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ بين الله سبحانه جهالة المتكبرين والمستكبرين عن خدمته بأنهم لا يرون ظلالهم بالغدو والآصال، كيف يسجد لخالقهم ولو كانوا على محل العقل والإيمان والمعرفة لتنبهوا وتعرَّفوا مكان جهلهم بالله وبعبوديته، فإنَّ جميع الموجودات حتى الجمادات تسجد لصانعها من جهة وقوع نور العظمة عليها، فهي داخرة صاغرة في أنوار تجلي عظمته لها، كما قال ﷺ: «إذا تجلى الحق لشيء خشع له»[1].

وفيه بيان أن كل موضع في نفس الأمَّارة الشيطانية، هناك استكبارًا وتكبرًا من عرف الحق بالحق بعد ما رأى الحق بالحق.

قال بعضهم: ما خلق الله شيئًا من الجماد والحيوان ينازع صانعه وخالقه إلا الإنسان، فإنه أبدًا يدَّعي لنفسه ما ليس من قدرة وعلم، ويثبت على الوحدانية والفردانية بادِّعاء الأهل والولد جلَّ وعزَّ، وتكبَّر في الإذعان والخضوع، لذلك قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود (١١٧٧)، والنسائي (١٤١١٣)، وابن ماجه (١٢٦٢).

إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ بيّن أنَّ مَنْ أقبل على شيء دونه بوصف المحبة والاختيار على الله، فهو في حيز الثنوية، حيث اتخذ إلهه هواه ومن ذاق من برح الوحدانية ذوقًا سقط عنه علائق الكونين، ويكون متفردًا بفردانيته، موحدًا بوحدانيته.

قال أبو عثمان: نهاك ربك أن تتَّخذ إلهين أو تتخذ معه شريك، فاتخذت آلهة وادَّعيت شركًا، كيف يصبح لك مع ذلك التوحيد وأنت تعبد نفسك وهواك وطبعك ومرادك، وتعبد الخلق فأنَّى تصل إلى محل العبودية.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ الخطاب للعارفين الذين يشربون ألبان المحبة من بين بطون الأفعاليات ما يحصل بين فرث ودم من الآيات، من لطائف الصفات، تشرب منها القلوب والأرواح والأسرار على قدر مزاجها من القرب، وأيضًا تشرب الأرواح ما يحصل في العقول الصافية من بين النفس والقلب من زلال بحر المشاهدة، فهنالك منازل اعتبار المعتبرين.

قال أبو بكر الوراق: العبرة في الأنعام وتسخيرها لأربابها، وطاعتها لهم، وتمردك على

ربك وخلافك له في كل شيء، وما يتعلق بما ذكرنا من حقائق الإشارات قوله: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ ﴾ أي: مما يتخذ الأرواح والأسرار من ثمرات نخيل القلوب، وأعناب العقول شراب المحبة المُسْكِرة صميمها، وشراب الأنس المتخذ من صفاء أنوار الذكر الذي هو رزق حَسنٌ لتربية وجودها، وذلك الشراب والسكر من تأثير مياه تجلي الجمال والجلال، وصفاؤهما من صفو الوصال، فإذا شربتها صارت سكرانة من شوق الحق مستأنسة بوجه الحق سبحانه، وفي هذه الإشارات اعتبار ومعرفة ألباء الحقيقة بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾.

قال الأستاذ: الرزق الحسن ما كان حلالاً.

ويقال: هو ما أتاك من حيث لا تحتسب، بيّن سبحانه مواضع الحقيقة لأهل المعرفة في منازل وحيه واختصاصه مما خلق به وأكرمه بذلك بقوله: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾ صرَّح بيان الحق موضع خاصية وحيه عن النحل وأمثالها مما فيه الحياة، فإنَّه تعالى أعطى من فيض فعله، ونور صفته، ورحمة ذاته كل ذي روح روحًا يعيش بها، ويكون مستعدًا لقبول وحيه بها، ومنها يعرف صانعه وخالقه، ويعرف مكان رزقه، ويعبد الخالق بما يفعل من عبوديته وربوبيته بقدرة قوته في تلقف الإلهام منه بلا واسطة، فهو تعالى ألهم الجمهور بنفسه؛ لأنهم موضع أسراره لا يطَّلع عليها جميع العقلاء، وبقدر نور الإلهام يتولد منهم حقائق الأشياء الغيبية المقدَّرة في علمه، وذلك الوحي إلهام، والإلهام على مراتب الفعل والصفات، فمَنْ كان مشربه من إلهام الأفعال فصنوف مواليده على قدر الأفعال، ومَنْ كان مشربه من إلهام الصفات، فمواليده أصفى وأنور.

ألا ترى إلى النحل كيف يكون ثمرتها عسل لطيف شفاء كل عليل؛ لأنَّ إلهامه تختص بالصفة دون الفعل، فأمرها بأكل الطيبات من كل ثمرات خوالص الأشجار والأنوار، واتخاذها طيبات المساكن من الجبال والأشجار، فعلى قدر صفاء ثمرة الأشجار ولطفها وزينتها يكون العسل، فكل ثمرة أصفى مما تأكل منها عسله أصفى، فأوحي الحق نحل الأرواح أن تتخذ أماكنها من جبال أنوار الذات، وأشجار أنوار الصفات، وأنوار عرش الأفعال، ولا تسكن غيرها من مواضع الحدثان حتى لا تتعوَّد علَّاتها، ولا يلتصق عليها غبارها.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين إصبعين من أصابع

الرحمن، يقلبها كيف يشاء»[1] يقلّب بحر القلوب والأرواح والأسرار والعقول في جبال أنوار الذات، وأشجار أنوار الصفات، وعروش أنوار الأفعال، ويكملها بغرائب خطابه بأكل ثمار أنوار الصفات والذات والأفعال، بقوله: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي: من ثمرات تلك الأشجار الصفاتية، ونور بهار أنوار الذاتية، وأزهار أنوار الأفعالية، ثم أمره لسلوك سبيل الآزال والآباد والقدم والبقاء بنعوت الفناء بقوله: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ لتعرف في طيرانها وسيرانها ثمار أشجار غيبه، وتأكل رياحين أنسه، وتطير في صحاري قدسه، وتعرف جلال وجوده تعالى الله حن كل علة، فإذا تم دورها في بساتين العيوب ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ شراب معرفته بقدم جلال وعز بقائه، وأنوار ذاته، فاختلاف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون الأنس، ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هله المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا قهر عليه نيران المحبة تتميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[2]؛ فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، ولسقم الشيطانية ويصير مربي صحيحًا بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخمار الإرادة؛ ويكون شمعه أوصاف العبودية الخالصة بسرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائلٍ رشده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال ابن عطاء: ألهمها ودلَّها على الموضع، وعلَّمها كيف يضع ما في بطنها، لا يضعها إلا على حجر صانٍ أو خشب نظيف، لا يخلطه طين ولا تراب، ثم قال تعالى: ﴿ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من الذي جعلته رزقك، ثم أمره بالتواضع، فقال تعالى: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، ثم قال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ للنفوس لا للقلوب، فمن

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن حبان (٣/ ١٨٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٧).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٧٧)، والترمذي (٣/ ١٤٨)، وأبو داود (٢/ ١٥).

أراد صلاح قلبه فليعرف موارد ما يرد على قلبه في الأوقات، ويحل قلبه في جميع الأحوال، وما يبدو في قلبه في كل زمان، ثم ليلزم مع ذلك التواضع والخلوة، فهذا غذاء القلب، وذلك غذاء النفس، وغذاء الروح أعز وهو مشاهدة الحق والسماع منه، وترك الالتفات إلى المكونات بحال.

وقال ابن عطاء: جعل ما يخرج من النحل شيئين ممزوجين لا يصفيهما إلا النار، فإذا أصفاهما النار، صار عسلاً وشمعًا، فالعسل هو غذاء الخلق وشفاؤهم، والشمع للحق لا غير، كذلك إذا خاص العقد عما خلص له عمله، وما خالطه برياء وشرك فلا يصبح إلا للنار.

وقال أبو بكر الوراق: النحلة لما اتبعت الأمر وسلكت سبيلها على ما أمره به، جعل لُعابها شفاء للناس، كذلك المؤمن إذا اتبع الأمر وحفظ السر وأقبل على ربه، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاءً للخلق، ومن نظر إليه اعتبر، ومن سمع كلامه اتعظ، ومن جالسه سعد.

ويقال: إن الله سبحانه أجرى سنته أن يخفي كل شيء عزيز في شيء حقير، جعل الإبريسم في الدود، وهو أصغر الحيوانات وأضعفها، والعسل في النحل وهي أضعف الطيور، وجعل الدر في الصدف، وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، كذلك أودع الذهب والفضة والفيروز في الحجر، وكذلك أودع المعرفة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفيهم من يعصى، وفيهم من يخطئ[1].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ

---

(١) في قوله: ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾ نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله؛ كان علمه علمًا واحدًا هو علمه بالله تعالى فهو أجلّ العلوم كما أن الله تعالى أجلّ المعلومات؛ يعني أن أجلّ العلوم هو ما تعلّق بأجلّ المعلومات، وأمّا ما عاده مما تعلّق بغير الله تعالى فدونه فظهر أن علم التصوُّف أجلّ العلوم ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البحثية ونحوهم وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلّقة بالأكوان بل كانت عُلوية متعلّقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوُّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوُّف فرموز، وإشارات، ورسوم وإنما نُكّر الشيء؛ لأن الأشياء أيضًا في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد فإذا اتّحد العلم اتّحد الأشياء ولمّا لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها وإنما خُلقت كتلوُّن زوال وشواهد اضمحلّت عند حصول الفِناء فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء.

يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ الأرزاق منقسمة على أهل سلوك المعارف، الأرزاق لبعضهم طاعات، ولبعضهم إرادات، ولبعضهم مقامات، ولبعضهم حالات، ولبعضهم مكاشفات، ولبعضهم مشاهدات، ولبعضهم معرفة، ولبعضهم محبة: ولبعضهم توحيد، ولبعضهم تفريد، فرزق الأشباح بالحقيقة العبودية، ورزق الأرواح بالحقيقة رؤية أنوار الربوبية، ورزق العقول الأنكار، ورزق القلوب الأذكار، وكلهم مشفقون على أرزاقهم، غوثان إلى قوتهم من الحقائق، عطشان إلى مشاربهم بعد سقيهم بحار القربة والمشاهدة، لا يطيقون رؤية غيرهم من المريدين أن يكونوا معهم في الشراب والطعم غيرة على أحوالهم.

قال تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

قال إبراهيم الخواص: منهم من جعل رزقه في الطلب، ومنهم من جعل رزقه في القناعة، ومنهم من جعل رزقه في التوكل، ومنهم من جعل رزقه في الكفاية، ومنهم من جعل رزقه في المشاهدة، كما قال النبي ﷺ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1].

وقال الفضيل: أجل ما رزق الإنسان معرفة تدله على ربه، وعقله يدله على رشده، ثم بيّن سبحانه حلاوة ذلك الرزق، وطيبه، وطهارته، بقوله: ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ﴾ أجل طيبات الرزق مشاهدته ولقاءه؛ لأنها هي الرزق بالحقيقة الذي يعيش به الأرواح في المعرفة، والأشباح في العبودية، والعقول بالتفكر، والقلوب بالتذكر، والأسرار بإدراك علم الربوبية، وذلك الرزق أطيب الطيبات، وهو بالحقيقة طيب؛ لأنه قديم أزلي منزه عن علل الحدثان، وما دونه غير طيب بالحقيقة؛ لأنه معلول، والمعلول كيف يكون طيبًا وصورة الرزق الطيب ما

---

(١) سبق تخريجه.

يوافق حال العارف، لا يحجبه عن صفاء الوقت حين صدر من الغيب.

قال المحاسبي: هو الفيء والغنيمة.

وقال أحمد بن علي الحواري: الطيبات المباحات في البوادي.

وقال ابن الجلاء: ما يفتح لك من غير طلب ولا استشراف، ثم نزَّه نفسه بها أولاه من رزق مشاهدة، ومعرفة قُدس وجلال وافر ذو جود، وجوده من مشابهة الحدثان، وأمر العبادات ينزهوه عن التشبيه والتصوير والأضداد، بقوله: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ بيَّن قدس القدم، وأفرده عن شواهد الالتباس في مقام المحبة والعشق والشوق؛ حيث دارت الهمة في طلب الحق في رؤية الكون، وظهوره في لباس أفعاله ليعرف العارفون مقام إفراد القدم عن الحدوث، ويدركوا بفهم الفهم تنـزيه الصفة عن الفعل، وقدس الذات عن الأوهام والإشارات والعبادات، وضرب الأمثال بحقيقة ذاته، فإنه قائم بنفسه ممتنع بذاته بالحقيقة عن درك الخليقة، فكل مثل حقيقي يقع بالحقيقة، فإذا تراه يقع على غير ذاته وصفاته، فإنه منزه عن أن يدخل جلاله تحت العبارات والإشارات، أو يباشر أنوار ذاته وصفاته لباس الحدوثية، فالشاهدون يشهدون على أنفسهم بالحقيقة، وهو تعالى يعرف حقيقة ذاته، والخلق منعزلون عن إدراك أنوار صفاته وحقائق ذاته، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛ لكن يجوز ضرب المثل في طريق معرفته ومحبته والسير في عالم ربوبيته، وتسهلاً للسلوك، وتيسيرًا للعلم والإدراك، ومن لطيف الإشارات أنه تعالى أعلم المحبين والعارفين الذين هم في مقام مشاهدته بنعت الالتباس أنهم إذا افترقت أوقات حالاتهم، وانصرم أنوار وارداتهم، وغابت أنوار شهود الحق عنهم، وبقوا في محل الاشتياق إليه ألا ينشئوا من أنفسهم ميخاييل الصورية والأمثال الحدثية لما وجدوا منه ليتذكروا بها زمان الوصلة لئلا يقعوا في محض التشبيه، ويغلطوا ويعلموا مثل الحق من أمثالهم، كأن قال: لا تضربوا لما تجدون الأمثال، فإنكم لا تقدرون ذلك؛ ولكن أنا أضرب الأمثال لما ترون مني بالحقيقة، مثلاً تدركونني بلباسه وأنا قادر بذلك، ولستم بذلك قادرين، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الا ترى إلى قوله في ضرب مثله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: إذا كان المثل الأعلى يجوز أن يضرب به كأنَّه قال: فلا تضربوا لله الأمثال للتشبيه؛ ولكن اضربوا الأمثال للدلالة عليه، والأمثال تصوير ما في الغائب معنويًّا، لا صوريًّا.

قال ابن عطاء: لا تضربوا لله الأمثال في ذاته وماهيته؛ لأن الذات لا يمكن تعقله

بحال.

قال الواسطي: الأشياء كلها أقل من الهباء في الهواء، كيف تظهر في الذات.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ في ذاته وكيفيته؛ لأنه ليس كمثله شيء، وأما صفاته التي أظهرها للخلق كسوة لهم إبقاءً وعزًّا، وقال: لا تضربوا لله الأمثال في صفاته وذاته؛ لأن الصمدية ممتنع عن الوقوف على ماهية ذاته وكيفية صفاته.

وقال: إنما ضرب الأمثال وأكثر فيها من المقال جذبًا للسرائر، وأن تفنى عن حضورها فيها أسند إليها، ثم إنَّ الله سبحانه ضرب مثل عبدين المسلك والمنفق بقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ إنَّ العبدَ المملوك لنفسه أسيرٌ في يدها عاجزٌ لا يقدر أن يميتها ويرضى بموتها صانعه، ولا يقدر على أن يملك قلبه، ويرى ما فيه من عجائب الذكر ولطائف الفكر، وكيف ينفق وخزانته قلبه، وهو لا يقدر على خزانته؛ لأنَّ قلبه مسلوب النفس، والشيطان، والعبد الموفق الذي هو مرزوقٌ رزق معرفة الله وحكمته وإلهامه ورشده وتوفيقه وأرزاقًا حسنة من مشاهدته وجماله، فهو ينفق نفسه ووجوده وماله لله، ولأوليائه، وينفق لطائف حكمته على طلاب الله، كيف هذان العبدان يستويان في العبودية ومعرفة الربوبية، فعند الجُهَّال يستويان؛ بل إنهم يقبلون من يليق بمذهبهم من أهل الجهل والبخل والغباوة.

لذلك قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون العارف من الجاهل، والصادق من المرائي، حمد نفسه تعالى بأن الجهال لا يعرفون مقادير أهل قربه، ولو عرفوهم لشغلوهم عنه، فإذًا بقوا أهل الحق مع الحق بلا شغل ولا شاغل.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ يكون المنكر معروفًا والمعروف منكرًا»[1].

ومن إشارة اعتبار المثلين ينبغي أن العبد يكون مملوك لله طوعًا، ولا ينظر إلى شيء من وجوده وأعماله، فإنه مفلس عاجز عن القدرة بين يدي الله، وهذا صفة أهل المعرفة.

قال بعضهم: أخبر الله عن العبد وصفته فقال: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فمن رجع إلى شيء من علمه وحاله وعمله؛ فإنه المتبرئ من العبودية، وهو في منازعة الربوبية، والعبودية هي التجلي مما سوى معبوده، يرى الأشياء به ويرى نفسه له.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٣/ ٢٨٦) بنحوه.

شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾ وصف نفسه سبحانه هاهنا بالعلم الأزلي والقدرة الأزلية، فبا العلم الأزلي عَلِم عِلْم كون الكون، وما فيه وما يبدو من قدرته وحكمته فيه، فإقلاعه من أصله غير ثقيل عليه؛ لأنه قام به قائم بقدرته، يفعل به ما يشاء إيجادًا وإعدامًا قبل أن يتصل الكاف بالنون، وإذا كان غيب السموات والأرض له لا لغيره، لا يكشفه إلا لمن أحبه من أوليائه، ولا يستره إلا على أعدائه، فمن أشرفه على غيبه، فهو أيضًا غيب كأنه يرى غيب الغيب، وأي غيب أشرف من خزانة الله في قلوب أصفيائه من لآلئ حكمه، وعجائب علومه، وغرائب عرفانه.

قال النهرجوري: الحق ستر غيبه في خلقه، وستر أوليائه في عباده، فلا يشرف على عباده إلا خواص أوليائه، ولا يشرف على أوليائه إلا الصدِّيقين من عباده، والإشراف على الغيب عزيز، والإشراف على الأولياء أعز، فلما استأثر نفسه بعلم الغيب عزل الجمهور عن رؤيته وعلمه والموقوف به، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ﴾ أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأقدار، وأرحام العدم، وأصلاب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت

المعرفة، لا يعلمون شيئًا من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فألبسكم أسماعًا من نور سمعه، وكساكم أبصارًا من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلاها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وتشرب أرواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسرمديته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعرفون بأنه لا يشكره غيره.

قال الواسطي: لا تفهمون شيئًا مما أخذت عليكم من الميثاق في وقتِ بلى.

قال بعضهم: لا تعلمون شيئًا مما قضيت لكم وعليكم من الشقاوة والسعادة، ثم جعل للسعداء من عباده السمع ليسمع بها لطائف ذكره، والأبصار ليبصر بها عجائب صنعه، والأفئدة ليكون عارفًا بصانعه ومخترعه، وهذه الأعضاء والحواس هي الموجبة للشكر، فالشاكر من رأى منَّة الله عليه في سلامة هذه الحواس، والكافر من يرى أنه يؤدي به شكر شيء من نعم الله عليه بشيء من أحواله.

قال أبو عثمان المغربي: جعل لكم السمع لتسمعوا به خطاب الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها عجائب القدرة، والأفئدة لتعرفوا بها آثار موارد الحق عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلكم تبصرون دوام نعمي عليكم، فترجعوا إلى بابي، ثم بيَّن قدرته سبحانه في إمساك أطيار الأرواح في هواء الملكوت وأنوار سماء الجبروت حين ترفرفت بأجنحة العرفان، والإيقان على سرادق مجده، وبساط كبريائه، مسخرات بأنوار جذبه، ما يمسكهن إلا الله بكشف جماله لها، أمسكها به عن قهر سلطان سبحات جلاله حتى لا تفنى في بهائه بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ طير الهموم في سماء الأزل ممسكة رياش طلبها بحبال أنوار الأبدية عن الوقوع على غير مواقع مشاهدة الوصلة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعلامات لألباء الحقيقة وإدلاء الطريقة وأهل الإرادة في المعرفة، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ يعني ظلال أوليائه ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران، ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان؛ لأنهم ظلال الله في أرضه لقوله ﷺ: **«السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم»**[1].

---

(١) رواه البيهقي في «الكبرى» (٨/ ١٦٢)، و«شعب الإيمان» (٦/ ١٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٩٢).

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ أكنان الجبال قلوب أكابر المعرفة، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة يسكنون فيها المنقطعون إلى الله ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ جعل للعارفين سرابيل روح الإنس لئلا يحترقوا بنيران القدس ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ سرابيل المعرفة وأسلحة المحبة؛ لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين، ثم زاد نعمته ومنَّته عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ نعمته ووقايته ورعايته، وقاهم من هجرانه، ورعاهم بلطفه عن قهره ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ تنقادون لأمره في العبودية، وتتواضعون لربوبيته.

قال الأستاذ: جعل إيواءً لأوليائه في ظل عنايته مثوى وقرارًا، وألبسهم في سرائرهم لباسًا يكفيهم به الشر والضر، فمن لباس العصمة يحميهم به عن مخالفته، ومن صدر التوفيق يحملهم به على ملازمة عبادته، ومن خلة الوصلة يؤهلهم بها القربة، وصحبته و﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ إتمام النعمة أن يكون عاقبتهم مختومة بالحسنى، ويكفيهم أمور الدين والدنيا، ويصونهم عن اتباع الهوى، ويسدِّدهم حتى يؤثروا ما يوجب لهم من الله الرضا.

قال بعضهم: تمام النعمة أن يرزق العبد الرضا بمجاري القضاء.

قال ابن عطاء: إتمام النعمة هو الانقطاع عن النعمة بالسكون إلى المنعم.

قال حمدون: تمام النعمة في الدنيا المعرفة، وفي الآخرة الرؤيا.

قال أبو محمد الجريري: تمام النعمة حفظ القلب من الشرك الخفي، وسلامة النفس من الرياء والسمعة.

ثم وصف المخالفين بالطريقة المثلى بقوله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يعرفون أولياء الله بالبراهين الساطعة والآيات الواضحة والفراسات الصادقة؛ ولكن لم يعرفهم بحقيقة المعرفة من حيث التوفيق والسعادة، وينكرونهم حسدًا وبغيًا وعدوانًا وظلمًا وطلبًا للرياسة والجاه: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يسترون ولاية أوليائه، وآيات أصفيائه، وفي الآية توبيخ علماء السوء وقراء المداهنين، الذين وضعوا شبكة الرياء والسمعة ليصطادوا بها الجهال، ويوبخوا عندهم أحباء الله؛ لينصرفوا وجوه الناس إليهم، يخونون الله، والله لا يهدي كيد الخائنين، يعلمون الحق وينكرونه، وأي شقي أشقى ممن رأى منهم ألف كرامة صادقة، ثم يسترون بها وبإنكارها رئاسة الدنيا من العامة.

قال بعضهم: يتقلبون في نعمة ولا يوفقون لشكرها.

قال النصر آبادي: معرفة النعمة حسن، ومعرفة المنعم أحسن، ومعرفة النعمة ربما يتولد منه الأذكار، ومعرفة المنعم لا يتولد منه إلا صحة الاستقامة.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ﴾ إنَّ الله سبحانه خلق الأمم وجعل فيهم الأولياء والأكابر والأنبياء، فجعل الرسل شهداء على الأنبياء، وجعل الأنبياء شهداء على الأولياء يشهدون عند الخلق بولايتهم وصدق محبتهم ،وإخلاص توحيدهم، وجعل نبينا ﷺ شاهدًا صادقًا يشهد بولاية أولياء أمته، وأصفيائه خواص أهل نحلته، فزال بذلك الإبهام والعلل؛ لأنه كان ﷺ بين شواهدهم وحقائق أعمالهم في ما أنزل الله عليه بلسان كتابه وواضح آياته قال الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ مبينًا لكل حق وباطل، يفرق بين الصديقين الغالطين، وهو كتابه المكنون وخطابه المصون، بخير عمَّا كان وما يكون من كل حد وكل علم، وأنار سبيل الحقيقة، وأوضح طريق المعرفة، وهو سراج الله في العالم، يخرج بنوره كل طالب صادق من ظلمات الأوهام، وشكوك القتام، وهو خطاب الحبيب إلى الحبيب، وذوقه مع الحبيب، وسره معجون في الحبيب، وغرائبه مكشوفة له، وعجائبه مصونة في قلبه؛ لا يعرفها غيره بالحقيقة، فمن تابعه وصل إليه بحظ وافر، وأصل حاضر.

قال أبو علي الجوزجاني: الخلق شهداء بعضهم على بعض، وأمَّة محمد ﷺ هم شهود

الأنبياء على جميع الأمم، ومحمد ﷺ هو المزكي المقبول، فمن قدَّمه فهو المقدَم، ومن أخَّره فهو المؤخَر ومن تعلق به نجا، ومن تخلف عنه هلك، قال الله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

وقال الواسطي: ﴿ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وإنما خوطبت به دون غيرك، لأنك أهل المخاطبة، وخوطبوا جميعًا تبعًا لك فبين لهم مرادنا فيما خوطبوا به، فإن إليك البيان.

وقال أبو عثمان المغربي: في الكتاب تبيان كل شيء، ومحمد ﷺ هو المبين لتبيان الكتاب، ثم وصف كتابه بعد وصفه بأنه مبين علوم جميع صفاته وأسمائه ونعوته وذاته بأنه مع أنه تبيان طريق معارفه وكواشفه هادٍ للمسترشدين طريق معرفة وجدانيته وفردانيته، ورحمة على أحبائه بأن يخاطبهم به من حيث داء محبته في قلوبه يسمعهم خطابه وأناجيله الذي فيه أنباء غرائب لطفه بأوليائه، وعجائب صنعه بأحبائه وأصفيائه؛ ليستأنسوا بخطابه وسماعه، ويتواجدوا بلذة كلامه، وذلك نعمة تامة ورحمة كافة عليهم وعلى جمهور سلَّاك الطريقة وقصَّاد الإرادة، وبشرى لكل مقبل إليه، واقف عليه، ومنقاد بين يديه، بنعت الخضوع والتسليم، يبشرهم برضوانه الأكبر ووصاله الأوفر لهؤلاء المخاطبون بهذه الحقائق، يؤكدهم الله الأمر عليهم بأن يعدلوا بين خلقه ويواسيهم بإحسانه، ورفقهم لهم برحمة، وينهاهم عن مباشرة حظوظهم، والحسد على إخوانهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ إنَّ الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائز، وهو منزَّه عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلاَّه بزينتها يخرج عادلاً محسنًا، رءوفًا رحيمًا، طاهرًا مطهرًا، صادقًا مصدقًا، وليًّا، حبيبًا محبوبًا، مريدًا مرادًا، مراعىً محفوظًا، يعدل بنفسه نيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب العوض في العبودية، ويأخذ منها الاتصاف بينها وبين عباد الله بألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ ليكون مطمئنًا في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليفة.

قال الساري: ليس من العدل المقابلات بالمجاهدات، والعدل رؤية المنّة منه قديمًا

وحديثًا، والإحسان أن الاستقامة بشرط الوفاء إلى الأبد، لذلك قال: استقيموا ولن تحصوا.

وقال بعضهم: العدل والإحسان ما استطاعها آدمي قط؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ﴾ وكيف تستطيع أن تعدل بينك وبين الله في استيفاء نعمه وتضييع وعظه وحكمه، وليس من العدل أن تفتر عن طاعة من لا يفتر عن برك والإحسان هو الاستقامة إلى الموت، وهو «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[1] كالمروي عن النبي ﷺ وقال ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا**»[2].

أخبر أنه لا يقدر أحد أن يعدل بين خلقه، فكيف يعدل بينه وبين ربه والفحشاء الاستهانة بالشريعة، والمنكر الإصرار على الذنوب، والبغي ظلم العباد، وظلمه على نفسه أفظع.

قال الواسطي: العدل ألا يوافق العبد غير ربه، ولا يطالع غير حده، والإحسان ألا يرى حسنًا إلا من الله، وإيتاء ذي القربى، فلا قريب أقرب إليك ممن أنت له وبه وإليه، وأفحش الفحشاء إضافة الأشياء إلى غيره ملكًا وإيجادًا، وأنكر المنكر رؤية الأشياء من غير الله ولغير الله، وأقبح البغي تلوين النعوت ورؤيتها بالعلل لعلكم تذكرون، تعرفون فضله عليكم بالموعظة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: عسى أن تذكروا نعمه عليكم.

ومن جملة ما يتعلق بالعدل والإحسان، الوفاء بعهد الله في عبوديته بقوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ هذا العهد عهد الأرواح مع الله حين خرجت من العدم بمحبة القدم والعبودية لربوبيته، خالصًا من إيثار الشيء عليه من العرش إلى الثرى، عهد الله معها أنه تعالى آواها على نعت الديمومية إلى مشاهدة الأبدية، وعهدها مع الله خروجها مما لا يليق بالعبودية، فحقيقة الوفاء بالعهد من الطرفين يتعلق بعناية الله ورعايته وكل الاجتهاد من العباد يبدو منها، فإنْ وقع النقض على عهدنا من غيره السابقة في الأزل، وتغير عهدنا بحيث تتغير صفاتنا من حال الاستقامة إلى حال الفترة، فلم يقع النقض، والنقض في عهد الله؛ لأنه منزه عن التغاير الحدثانية، وهو ذو رحمة واسعة يفي بعهده ولا علة عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

قال النصر آبادي: أنت متردد بين صفتين، صفة الحق وصفتك، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٤)، ومسلم (٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢١٣٤٤)، وابن ماجه (١/ ٣٢٦)، والدارمي (١/ ١٧٤).

وقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى أيها نظرت فإنك الأحرى، ثم العهود مختلفة، وفي الأقوال عهود، وفي الأفعال عهود، وفي الأحوال عهود، والصدق مطلوب منك في جميع ذلك، وعلى العوام عهود، وعلى الخواص عهود، وعلى خواص الخواص عهود، فالعهد على العوام لزوم الظواهر، والعهد على الخواص حفظ السرائر، والعهد على خواص الخواص التجلي من الكل لمن له الكل.

وقال: من حمل الحمد بنفسه وحوله نقضه في أول قدم ومَنْ حمله بالحق حفظ عليه عهده ومواثيقه.

وقال الواسطي: تقدمت العهود في الميثاق الأول، فمن أقام على وفاء الميثاق فُتح له طريق الحقائق وقتًا بعد وقت، ومن خان في الميثاق بقي مع وقته وأُغلق دونه مسالك رشده.

وقد وقع لي نكتة هاهنا من قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ إن كان العهد واليمين وقعا من جانب العباد في الأزل تحقق لهم الاختيار في الوفاء بالعهود والأيمان، وإن وقعا من الحق صرفًا، وعهد العباد وأيمانهم من نتائجهما وفرعهما، فقد سقط عنه الاختيار المنزه عن عوارضات التلوين، وتغير الزمان والمكان.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أخبر سبحانه أن كل وارد يرد على قلوبهم من موارد القرب الإلوهية يجري ولا يثبت، ويبقى لهم أصل الأصل، وهو مشاهدة جلاله وعزته، وأيضًا ما عندكم من المعارف ينفذ في سبحات جماله المعروف، وما في عنديته من أنوار الذات والصفات التي يبدو منها جميع المعارف باقية للعارفين المحبين، فإنَّ بنقص المعارف لا ينقص الكواشف، وإنَّه بنقص الأعمال لا ينقص الأحوال.

ثم أخبر أنه يجازي المحبوسين في قيود إسراء بلاء محبته، وامتحان شوقه، وبلاء عشقه بمشاهدته، وكشف جماله لهم بأحسن ما يرجون منه، فإن رجاءهم على قدر هممهم، وهممهم على قدر نياتهم، ونياتهم على قدر قصودهم، وهي كلها معلولة مقصورة وأجر جماله ووصاله غير محسوب من حيث وجود الخلق والخليقة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال بعضهم: ما منكم من الطاعات فإنها فانية، وما منّي إليكم من جزاء أعمالكم فهو

باق على الدوام، وأنى يقابل ما يفنى بما يبقى.

وقال ابن عطاء: أوصافكم فانية وأحوالكم بائية، فلا تدعو منها شيئًا وما من الحق إليكم باق، فالعبد من كان فانيًا من أوصافه باقيًا بما لله عنده، وهو تفسير قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

وقال جعفر عليه السلام: ما عندكم ينفد يعني الأفعال من الفرائض والنوافل، وما عند الله باق من أوصافه ونعوته؛ لأن الحديث يفنى والقديم يبقى.

قال أبو عثمان: جزاء الصبر هو أن يعطي الله العبد الرضا، فمن تحقق بالصبر ولزم طريقة الصابرين فإن الله يثيبه على أحسن ثواب عاجلا وآجلاً.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

ويقال: ما عنكم من معارفكم ومحابكم آثار متعاقبة وصفات متناوبة أعيانها غير ثابتة، وإن كانت أحكامها غير باطلة، والذي يتصف بالحق به من رحمته بكم ومحبته لكم وثنائه عليكم، فصفات أزلية، ونعوت سرمدية.

ويقال: ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا، فيعرض الزوال وقبول الانقضاء، وما وصفنا به نفسنا بما ورد به الآثار إلا طال، شوّق الأبرار إلى لقائي، وإنّا إلى لقائهم لأشد شوقًا وذلك إقبال لا يتناهى وإفضال لا يفنى.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ معنى الآية أن العمل الصالح ثلاثة أشياء: التَّبَرُّؤ من الكون وما فيه بنعت تصاغره في عين من يرى القدم، وبذل الوجود لتصاريف الربوبية بنعت الرضا واللذة في البلاء، ورفع النظر عن الجزاء، والأعواض بكل حال، وهو مؤمن أي موقن مشاهد في حاله وعلمه قبول الحق وإقباله إليه بوصف الرضا عنه، وأيضًا هو مشاهد ما وعده الله له من أحكام الغيب بنور البصيرة، وأيضًا وهو مخلص عن النظر إلى غير الله، وهو مؤمن بما يقول هاتف الغيب في قلبه، وأيضًا هو مؤمن بأن وجوده وطاعته لا يليق بحضرة القدم، من كان هكذا يلبس الحق سره وروحه وقلبه وعقله بركة حياته الأزلية، فيحييه بحياته، ويريه بهاء جماله، ويصيره مستأنسًا

بوصله، معانًا من فضله، فيكون ملبسًا في ظاهره وباطنه بلباس لطفه، محروسًا من قهره برعايته، فمقامه مقام العافية خارجًا من امتحان البلاء، وهذا جزاء من أقبل عليه له لا لنفسه ولا لغيره، فيبقى عيشه مع الحق بلا كدورة ولا فترة، وفي جميع أنفاسه مشاهدة مكاشف خارج من نعوت التغاير النفسانية بحوادث الشهوات وخطوات الشيطان، ما أطيب حاله وما أحلى شأنه وما ألذ حاله، طوبى له ثم طوبى له.

روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحياة الطيبة هي القناعة**»[1].

وقال السوسي: الحياة الطيبة عيش الفقراء الصبر، وقيل: عيش الفقراء الرضا.

وقال الجريري: هو العيش مع الله، والفهم عن الله.

وقال ابن عطاء: إسقاط الكونين عن سره حتى يبقى مع ربه.

وقال أيضًا: روح اليقين، وصدق نية القلب.

قال سهل: ذلك قلب بقى مع الله بلا رؤية الكون.

وقال جعفر: يعيش مع الخلق بالنفس، وقلبه معلق بمشاهدة الله.

وقال أيضًا: قلب مع الصفاء، وروح مع اللقاء، وبدن مع الوفاء.

وقيل: حياة القلب مع الله بحسن المعرفة وتجريد الهمة.

قال الصادق: القناعة والرضا.

وقال أيضًا: إذا كان قلبه في محبة الله، ولسانه في ذكر الله، وجوارحه في خدمته، فذلك حياة طيبة.

وقال أيضًا: إذا اجتمع له خمس مقام وهو عيش السرمدية، وحياة الأبدية، وصدق العبودية، وقرب الصمدية، وملك الأزلية فذلك حياة طيبة.

وقال الواسطي: هو الرضا بالميسور، والصبر على كربة المقدور، فما طابت حياة أحد إلا بالرضا بما قدّر الله وقضى.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿ **وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾: العمل الصالح لا يكون من غير المؤمن.

فمعناه عمل صالحًا في الحال وهو مؤمن في المآل؛ لأن صفاء الحال لا ينفع إلا مع وفاء المآل، فإن الأمور بخواتيمها.

ويقال: ﴿ **وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ أي: مصدق بأن نجاته بفضل الله، لا بعمله الصالح.

ويقال: الحياة الطيبة هو نسيم القرب.

ويقال: الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب، وفي معناه قالوا:

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٢٧٥).

نحـــن في أكمـــل بالـــسرور ولكـــن لـــيس إلا بكـــم يـــتم الـــسرور
غـــبت مـــا نحـــن فـــيه يـــا أهـــل ودي إنكـــم غـــيب ونحـــن حـــضور

ويقال: الحياة الطيبة الأولياء ألا يتركه لهم سؤلاً إلا حققه، ولا مأمولاً إلا صدقه، وأما الخواص نالحياة الطيبة لهم ألا يكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ولا مطالبة، وكم بين من له مراد فيرتفع، وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئًا، الأولون قائمون بشرط العبودية، والآخرون معتقون بشرط الحرية.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٠١﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بيَّن سبحانه أن الشيطان لا يغلب بالكفر والضلال على من اختارهم الله في الأزل بالإيمان والمعرفة، وبصفاته، وبأسمائه، وبنعوته بنعت نفي الأنداد والأضداد عن عبوديته، والإيقان في وجوده، والإذعان عند تصرفه، والتوكل عليه في امتحانه وبلائه، ولا تسلط له عليهم؛ لأنهم في رعاية الحق وعنايته لا يقدر أن يوسوسهم للتردد في الإيمان؛ ولكن يوسوسهم من جهة الشهوات الدنيوية، فإذا صبح أنوار شمس جلاله على وجوههم وقلوبهم وأرواحهم، يحترق الشيطان عند إلقائه إليهم حتى أفاقوا، فإذا أفاقوا يقصد إليهم أيضًا بالوسواس، فإذا استعانوا بالله من شره، وأووا إليه بالتوكل، احتبس الملعون في مكانه، يذوب كما يذوب الملح في الماء.

قال أبو حفص: من أراد ألا يكون للشيطان عليه سبيل، فليصحح إيمانه، وليصحح بالإيمان بالتوكل عليه، والإيمان هو ألا يرجع في السراء والضراء إلا إليه، ولا يرضى بسواه عوضًا عنه، والتوكل هو الثقة بمضمون الرزق كثقتك بمعلومك، وهذا تفسير قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾.

قال النصر آبادي: من صحح نسبته مع الحق لا تؤثر بعد ذلك عليه منازعة طبع، ولا وسوسة شيطان، ثم بين أن سلطانه على من: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ معنى سلطان الشيطان الحيل والمكر والخديعة والوسواس، لا أن يطيق أن يضل أحدًا من خلق الله بغير إذن الله؛ لأنه تعالى يضل بنفسه ويهدي بنفسه: وليس له شريك فيها، إذ هو منفرد بالوحدانية الأزلية وتسلطه إنمَّا على من أضله الله في الأزل، وتسلطه أغراه، وزيادة الوسوسة لمن تابعه وتابع هواه، وأما للمسلمين والمؤمنين فمن جهته مراد النفس؛ لا للكفر والضلالة؛

لأنه يغويهم إلى زيادة المعصية.

قال بعضهم: من اتبع هواه فقد تولى الشيطان، ومن ركن إلى الدنيا فقد اتبعه، ومن أحب الرئاسة فقد اتبعه، ومن خالف ظاهر العلم فقد تولاه، ومن خان المسلمين فقد جعل للشيطان عليه سبيلاً، ومن ركب شيئًا من المخالفات ظاهرًا وباطنًا فقد أهلك نفسه، ومن تولى الشيطان فقد تبرأ من الحق.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذا لم يكن الأعداء من قبيل أهل المعرفة بخطاب الله صار بحجتهم الإنكار عليه، لبعد مكانها من معرفة الله وشهوده، ووجوده، وما صدر منه، من كلامه العزيز ردَّهم الله بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني أن الله سبحانه كلَّم في الأزل، نأوحى جبرائيل عليه السلام وأمره أن يوحي حبيبه أمر حبيبه أن يبلغه إلى المؤمنين الذين عرفوا الله بالأرواح حين أخذها الحق بميثاقه وكلمها بكلامه حين قالوا: بلى، ليثبتوا في معرفة الله بخطاب الله، ويستقيموا في طاعتهم، ثم وصف كتابه بأنه معرف جميع صفاته وذاته لأهله، ومبشر لهم بوصال حبيبهم بقوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وأن الله سبحانه إذا أراد أن يتكلم، يتكلم بنفسه مع نفسه، كما يليق بجلاله، بلا همهمة، ولا صوت، ولا شيء من صفة الحدثان، ثم يلبس كلامه قوة من قوته، وجلالة من جلاله، وعظمة من عظمته، فيسمع جبرائيل على ما يليق بقوته، يسمع كلامه بقوة قدسية مستعارة من قدس الله، ولولا ذلك لذاب بسماعه أهل الملكوت، ثم إن جبرائيل احتمل ذلك، ونزل به إلى النبي ﷺ فألبس الحق ذلك القوة والجلال قلب نبيه فسمعه بتلك القوة، ثم يفيض تلك القوة في جميع وجوده، فثقل عليه فحفظه الله بحفظه حتى بقي

تحت أثقال برجاء وحيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] وهو الملقي، وهو الحامل، ولولا قوته الأزلية بإعانته، لطاش في أول سماع يسمع من كلامه وروح القدس مع جميع الأرواح المقدسة من فيض تجلي قُدس جلاله، فكلها تكون قدسية، فأي روح قدسه عليها أكثر، فهو أظهر في قُدسها لا يلتصق بها الملل والحوادث.

قال الواسطي: الأرواح ليس لها نوم ولا لذة ولا موت ولا حياة، بل هي جوهرة لطيفة للطفه، فسمي روحًا، أو للطف جبرائيل، سمي روح القدس.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ إنَّ الله وصف المريدين الصادقين حين هاجروا من حظوظ أنفسهم بعد ذوقهم طعم معصية الله، وبعد وقوعهم في محل امتحانه، فلمّا خرجوا من تحت مراد النفس والهوى، وجعلوهما منكوسين، وباشروا عبودية الله، وجاهدوا في محاربة الشيطان حين دعاهم إلى منازل الفترة، وصبروا على ترك الهوى في متابعة الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ لما جرى عليهم في سالف الأيام من الذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم أي بأن يحفظهم من المراجعة إلى حظوظ النفس، ومرادها وأنه تعالى يذيقهم طعم الأنس بحيث لا يطيقون أن يفتروا من طاعته لمحة.

قال سهل: هاجروا قرناء السوء بعد أن ظهر لهم منهم الفتنة في صحبتهم، ثم جاهدوا أنفسهم على ملازمة أهل الخير، ثم صبروا معهم على ذلك، ولم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من بدء الأحوال.

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ الأنفس بالتفاوت، فنفس تجادل عن معصيتها، ونفس تجادل عن طاعتها، ونفس تجادل عن خوفها من النار، ونفس تجادل عن طمعها في الجنة، وهؤلاء الأنفس مشغولة بمجادلتها عن مشاهدة خالقها والشوق إلى لقائه، والنفس المنبسطة العاشقة الهائمة ينبسط إلى ربها، وتدل عليه دلال عاشق على معشوقه، وشائق على مشوقه، وتقول في مجادلتها وانبساطها: إلهي فعلت بي ما فعلت في الدنيا، ابتليتني ببلايا محبتك، وعظائم الشوق إليك، وحبستني في دار الامتحان مع أعدائي،

فأين عدلك وإنصافك؟! أما آن وقت حصول المراد، فتكشف لي جلال سرمديتك حتى أنظر إليك بك أبدًا، فكل نفس ليس هذا دأبها فهي محجوجة بمجادلتها، محجوبة بعملها في الدنيا والآخرة، وهو تعالى يعطي كل ذي فضل فضله، ويعطي مأمول كل نفسٍ بقدر طاعتها، وهو منزه عن النسيان والظلم والضلال، فيجازي الكل بإحسانه، فإنه لا ينقص من ملكه مثقال ذرة، وأن يدخل الكل في جواره، ويريهم جماله.

قال بعض الخراسانيين: ذهب وقت الخلق في الدنيا اشتغالاً بنفوسهم في الدنيا تجادل عنها، وفي الآخرة تجادل عنها، فمتى يتفرغ إلى معرفة الحق[1].

وقال الأستاذ: المؤمن لا نفس له، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]؛ فأنفسهم اشتراها الحق منهم، ثم أودعها عندهم، فليس لهم فيها حق، وإنما يراعون فيها أمر الحق سبحانه.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ القرية المطمئنة: قلب العارف الصادق المطمئن بذكر الله، بل الله طمأنينته حين شاهده، بكشف جماله وجلاله له، أمر بلطف الله عن قهر الله، وبرعايته عن طوارق الوسواس

---

(١) والمعنى اذكر يا محمد ويا كل من يصلح للخطاب يوم يأتي كل إنسان يجادل ويخاصم عن ذاته يسعى في خلاصه بالاعتذار كقولهم هؤلاء أضلونا وما كنا مشركين لا يهمه شأن غيره فيقول نفسي نفسي وذلك حين زفرت جهنم زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه حتى خليل الرحمن عليه السلام وقال رب نفسي أي أريد نجاة نفسي. تفسير حقي (٧/ ١١٢).

وشوارق الهواجس، يأتي عليه رزق المعرفة والمحبة، وبرد الأنس والمشاهدة من كشف الذات وجميع الصفات رزق أرغد؛ بحيث لا كدر فيه ولا كدورة عليه من قتام الهجران، وظلمة الحرمان، فإذا أراد الحق سبحانه إتمام النعمة عليه، رفع عنه الخطأ والنسيان، والظن والحسبان، حتى لا يشتغل إلا بمراعاة أسراره، وبمداركة لطائف أنواره، وإذا أراد به الامتحان وضعوا عليه النسيان، وأغلق عليه أبواب فتوح المشاهدة حتى يذوق طعم وبال الهجران، ويسقط في ورطة الحرمان، ويكون خائفًا بعد أن يكون آمنًا، وفاترًا بعد أن يكون ساكنًا، بقوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

قال الأستاذ: فراغ القلب عن الشهوات نعمة عظيمة، إذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وأنجز في قياد الشهوات شوَّش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجده من صفاء وقته، فإن طوارق النفس أوجب غروب شوارق القلب.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ أي: باشروا مراد الهوى بجهلهم على صفات ربهم الأعلى من قهر ولطف، ثم تابوا من بعد ما رأوا مكائد الشيطان، وعيوب النفس، وعرفوا موضع خطأهم، وندموا على ما فات عنهم من أوقات سنية، وحالات شريفة، وأصلحوا ما أفسدوا بالورع التام، والزهد على الدوام، والندم على فوت الأيام، وغفلتهم في المنام، يوفقهم بالاستقامة في طاعته، وبقائهم بنعمتها في رعايتها، لذلك قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال سهل: ما عصى الله أحدٌ إلا بجهل، ورُبَّ جهل أورث علمًا، والعلم مفتاح التوبة، وفي الصلاح صحة التوبة، من لم يصلح في توبته عن قريب يفسد عليه توبته؛ لأن الله يقول: ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ إنَّ إبراهيم كان آدم الثاني،

خلقه الله على رؤية جمال جميع صفاته، واستيلاء أنوار ذاته في إيجاده على كونه، فتجلى بقدمه من حيث الذات، وبالبقاء من حيث الصفات، ومن الأسماء والنعوت برسم الأفعال لروحه وقلبه وعقله وسره، فصار موجودًا بوجوده، مشكاة لأنواره، نورًا من تجليه متخلقًا بخُلُقِه، موجودًا بلطفه، مقدسًا بقدسه، خليلاً بخلته، حبيبًا بمحبته، صفيًّا باصطفائيته، ملكًا بملكه، بصيرًا ببصره، سميعًا بسمعه، متكلمًا بكلامه، عينًا من عيون الحق في العالم، وشقائقًا من منابت لطف آدم ما اجتمع في كل، اجتمع في وجوده، مطيعًا في عبوديته، حرًّا في حنيفيته، غير مائل من جمال الحق إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وَلَيْسَ اللهَ بِمُسْتَنْكِرٍ ... أَن يَجْمَعَ العَالَمَ في واحِدِ

ثم زاد وصفه بمعرفة منعمه ونعمه لاجتبائيته بخلته، وتعريفه إياه طريق محبتهن بقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ شاكرًا لأنعمه حيث بذل نفسه لأمره ولمراده، وأسلم نفسه في ذبح ابنه، والصبر في بلائه، والرضا بقضائه، اجتباه في الأزل بالخلة، وهذا إلى المعرفة، وكمله بكمال الاستقامة، والقانت الذي سكن قلبه مع الله في مقام الأنس الحنيف الذي قلبه مربوط بنعت القدس.

قال بعضهم: أمّة أي: معلمًا للخير، عاملاً به.

وقيل: القانت الذي لا يفتر عن الذكر، والحنيف الذي لا يشوب شيئًا من أعماله بشرك.

وقيل في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: لم يك يرى المنع والعطاء والضر والنفع إلا من موضع واحد.

قال الواسطي في قوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾: قابلاً لقضائه وقسمته قبول رضا لا قبول كراهية.

قال أبو عثمان: الشاكر لنعمه ألا يرى شكره إلا ابتداء نعمة من الله عليه؛ حيث أهلّه لشكره، واجتباه من بين خلقه، وكتب عليه الهداية إلى صراط مستقيم، عالمًا أن الهداية سبقت له من الله ابتداء فضل لا باكتساب وجهد وكدّ.

قيل: القنوت القيام بالحق على الدوام والحنيف المستقيم في الدين، ثم وصف كرامته عليه وشرفه بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ آتيناه في الدنيا حسنة النبوة، والرسالة، والخلة، والمحبة، والمعرفة، وإنّه في الآخرة لمن الشاهدين لقائه أبدًا بلا حجاب؛ فإنه بوصف ما ذكرنا يصلح لقربه وجواز وصاله أبدًا.

قال بعضهم: آتيناه في الدنيا المعرفة حتى صلح في الآخرة لبساط المجاورة.

قال بعضهم: أصلح الله قلوب المؤمنين للمعاملة، وأصلح قلوب الأنبياء والأولياء للمجاورة والمطالعة.

وقال الواسطي: هي الخلة لا غيرها تولي الأنبياء بخلقه خلقهم على ذلك جذبًا منهم إليه.

قال الأستاذ: آتيناه في الدنيا حسنة حتى كان لنا بالكلية، ولم يكن لغيرنا، ثم جعله إمامًا لنبينا محمد ﷺ وأمَّته بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ملة إبراهيم الخلة والمحبة والرضا والتسليم والسخاء والوفاء والكرم، أوحى إلى رسوله بمتابعته، إذ اختاره بها اختار خليله وأجل وأفضل بدايته متابعة الخليل، ونهايته انفراده في تجريد التوحيد عن غير الحق بالحق، ويقتضي هذا التأدب بآداب المشايخ، والتواضع للأكابر، كما قال الدينوري: أمر الله نبيه ﷺ باتباع الخليل لئلا يأنف أحدٌ من الاتباع، وملة إبراهيم كانت سخاء، والخلق الحسن، فزاد عليه النبي ﷺ حتى جاد بالكونين عوضًا عن الخلق؛ فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ومن جملة ما أمره الله باستعمال الخلق.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: خاطب الجمهور بلسان الشريعة لا بلسان الحقيقة، فإنْ تكلمت معهم بالحقيقة طاشت العقول فيها، وبقيت الخلق بلا فهم، ولا علم، والموعظة الحسنة التي لاحظ للنفس فيها، ويكون على قدر عقول الخلق وطاقتهم.

قال بعضهم: خاطب كلاً على قدره، والموعظة الحسنة فيها ترغيب وترهيب.

سئل بعضهم: لِمَ قدم الله الحكمة؟ فقال: لأن الحكمة إصابة القول باللسان وإصابة الفكرة بالجنان، وإصابة الحركة بالأركان، إنْ تكلم، تكلم بحكمة، وإنْ تفكر، تفكر بحكمة، وإنْ تحرك، تحرك بحكمة.

وقال جعفر: الدعاء بالحكمة أن تدعو من الله إلى الله، بالله، والموعظة الحسنة أن ترى

الخلق في أمر القدرة، فتشكر من أجاب، وتعذر من أبى وفي قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الجدال الحسن أن تدلّهم إلى الله بالله، تعرف ذاته وصفاته، بما وجدت من كرمه ولطفه، شفقة ورحمة على خلقه.

قال بعضهم: هي التي فيها من حظوظ النفس شيء، ولا يرى أنه الممتنع من قبول الموعظة، فيغضب عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فلا ينجح فيه قولك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الموفقين الذين شرحت صدورهم لقبول ما أتيت به.

قال سهل: السبيل الذي أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو إليه، هو الإيمان بالله، فإنه طريق ممدود من الدنيا إلى الآخرة.

وزاد تعالى تأكيدًا باستعمال الكرم والخلق، والعفو والصبر، بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ دفع الانتقام لحظ النفوس، وأجاز الانتقام له لا لغيره، والصبر في المكاره، والامتحان منتهى مقام المجتهدين، الأول يتعلق بمقام المبتدئين، وانصبر يتعلق بمقام الراضين، والمريد منغمس في أنوار الشريعة، والعارف مستغرق في بحر الربوبية، الأدب شعار المريدين، والرضا مقام المختارين.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾: ولم تعاقبوا لها خير للصابرين التاركين العقوبة، التي أباح العلم فعلها بالأدب الذي يتبعه بالأمر، ويلزمه بالترغيب، أنه خير للصابرين، ثم بيّن سبحانه أنْ ذلك الصبر الذي هو خير للصابرين لا يكون إلا بالله بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: صبرك في بلائه لا يكون إلا بكشف جماله لك، وأيضًا أي: ما صبرك إلا بعد تخلقك بصبره، وأيضًا ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: الله عوض صبرك، وأيضًا صبرك بالله، لا بنفسك، فإن بلاءه لا يحتمله إلا هو.

وقال الواسطي في هذه الآية: أخبر بأنه هو الذي تولاهم بحجبهم عند المعاينة في الحضرة عن الحضرة، وهم ثلاث طوائف عند اللقاء، طائفة تسرمدت بقيومية دوامه وأزليته، فلم تجر عند اللقاء عليها آفة باتصال أنوار السرمدية بأنوار الأبدية، وطائفة لقيته في زينته، وحسن نظره واختياره، فغمزهم في نعمته وحجبهم بكرامته، فهي متلذذة بنعمة محجوبة عن حقيقته، وطائفة يثبت شواهد طاعاتها وزهدها؛ فقال لهم مرحبًا بمقدمكم فحجبهم في نفس ما خاطبهم .

وقال ابن عطاء: يأمره ويبرئه.

وقال جعفر: أمر الله أنبياءه بالصبر، وجعل الحظ الأعلى منه للنبي ﷺ، حيث جعل أمر

صبره بالله لا بنفسه؛ فقال: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ .

قال النوري: في هذه الآية هو الصبر على الله بالله.

قال الأستاذ: ﴿ وَٱصْبِرْ﴾ تكليف، و﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ تعريف.

ويقال: ﴿ وَٱصْبِرْ﴾ تعنيف، و﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ تخفيف، ﴿ وَٱصْبِرْ﴾ أمر بالعبودية، ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ إخبار عن حق الربوبية، ثم أخبر سبحانه بألا تنظره إلا إلى سوابق التقدير، حتى لا تحزن على موارد التدبير، بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: انظر إلى مرادنا منهم، ولا تنظر إلى مرادك منهم، فإن أمر الربوبية سابق على أمر العبودية.

قال ابن عطاء: كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صدرًا، ولكِنَّ الله تعالى حذَّره ما هو موهوم في البشرية، وإنْ كان هو منزَّهًا عنه.

قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا تجعله حظرًا عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثرًا فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلَّى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع مُتَّقٍ صادقٍ شاهدٍ محسنٍ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي: مع الذين عظَّموا الله برؤية عظمته، وأجلوه بإجلاله، وتبرؤا به عن غيره، وهم في حال الإحسان في جمال مشاهدته، هائمون في بهاء وجهه، وأنوار قدسه، فهو معهم من حيث لا هم، أفناهم به عن وجودهم، ثم أبقى نفسه لهم بعد فنائهم عنه فيه له.

قال ممشاد الدينوري: رأيت ملكًا من الملائكة يقول لي: كل من كان مع الله فهو هالك، إلا رجل قلت: ومن هو، قال: من كان الله معه، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

قال بعضهم: من اتقى الله في أفعاله أحسن الله إليه في أحواله.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: التقوى مع الله، والإحسان إلى خلق الله.

قال الواسطي: التقوى: كيف اتقى؟ وماذا يتقي؟ ولماذا يُتقى؟

وقال الأستاذ: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ رؤية البصيرة من غيره والذين هم أصحاب التبرُّؤ من الحول والقوة، والمحسن الذي يعبد الله كأنه يراه، وهو حال المشاهدة.

✿✿✿

سورة بني إسرائيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝﴾.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾: في هذه الآية أربع إشارات: إشارة التقديس، وإشارة الغيرة، وإشارة الغيب، وإشارة السرّ، فأما إشارة التقديس فقوله: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ أي: منــزَّهٌ عن إشارة الجهات والأماكن في الفوقية، وما يتوهم إليه الخلق أنّه إذا وصل عبده إلى وراء الوراء إنه كان في مكان، أي: لا تتوهموا برفع عبده إلى ملكوت السماوات إنه رفع إلى مكان، أو هو في مكان، فإنّ الأكوان والمكان أقل من خردلةٍ في وادي قدرته.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «الكون في يمين الرحمن أقل من خردلة»[1]، فالعندية والفوقية منزَّهةٌ عن أوهام المشبهة؛ حيث توهَّموا أنه أسري به إلى المكان، أي: سبحان من تقدَّس هذه التهمة.

وأما إشارة الغيرة فقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، ولم يذكر من اسم الظاهر مثل الله والرحمن؛ لأنّه غار بنفسه أن يراه أحدٌ سوى عبده، وما سمى النبي باسمه الظاهر أيضًا غيرةً عليه، فرفع الاسمين من البين؛ لئلا يطلع عليهما من العرش إلى الثرى.

وأما إشارة الغيب قوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾: سرًا على ما بين العبد والرب، وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ محل السر والنجوى، فبان من التقديس إفراد القدم عن الحدوث، وسقوط الاكتساب عن محل التفضل، وكون الاختصاص له من البرية، وطهارة القدم عن إحاطة الحدث به، وبقاء العزة بوصفه عن محمدة العارفين وعرفان الموحدين، وبان عن اسم المبهم حقائق المحبة، وامتناع الصمدية عن إدراك الخليقة، وبان من إشارة الغيب ظهور أنوار الربوبية وسطوع أنوار علم المجهول، وبان من إشارة السر خطاب المتشابهات، وغوامض علوم المشكلات، والإشارة إلى وقائع أشراط الساعة أسرى بعبده من محل الإرادة إلى محل المحبة، ومن محل المحبة إلى محل المعرفة، ومن محل المعرفة إلى محل التوحيد، ومن محل التوحيد إلى محل التفريد، ومن محل التفريد إلى محل الفناء، ومن محل الفناء إلى محل البقاء، ومن محل البقاء إلى محل

---

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٣/ ٣١٥).

الاتصاف، ومن محل الاتصاف إلى محل الاتحاد، فلم يبق منه شيءٌ من رسوم الحدوثية من استيلاء القدم على الحدث، فدنا منه ثم تدلى عنه، ثم فني فيه، فكان بين فنائه قاب قوسين، قوس الأزل وقوس الأبد، فبين القوسين غاب في الغيبة، فبقي غيبه، فاستوى أو أدنى فأزال بالغيرة غيب غيبه، كأنَّه كان في فناء الفناء، والفناء عن فناء الفناء، فبقي اسمه مع اسم الإشارة بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ أي: هو مع مكانته في مقام الاتحاد على وصف العبودية، وسبحان الذي سبحان عن أن يكون محلاً للحوادث، أو امتزجت اللاهوتية بالناسوتية، قوله سبحانه كان أزليًا سرمديًا، كان سبحانه قبل إيجاد العبد والتعبد عن القريب والبعيد هو هو بذاته وصفاته له، لغيره امتنع عن القرب والبعد من جهة الخليقة بحال من الأحوال أبد الآبدين، أسرى من رؤية فعله وآياته إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته، وأشهده مشاهدة جماله فرأى الحق بالحق، وصار هناك موصوفًا بوصف الحق، فكان صورته روحه، وروحه عقله، وعقله قلبه، وقلبه سره، فرأى الحق بجميع وجوده؛ لأن وجوده صار بجميعه عينًا من عيون الحق، فرأى الحق بجميع العيون، وسمع خطابه بجميع الأسماع، وعرف الحق بجميع القلوب؛ حتى فنيت عيونه وأسماعه وقلوبه وأرواحه وعقوله في الحق، فنظر الحق إلى الحق لأجله نيابةً عنه؛ لأنَّ عيون الحدوثية فنيت في عيون الحق، وعيون الحق رجعت إلى الحق، فرأى الحق الحق، وعرف الحق الحق، وسمع الحق من الحق رحمةً منه إليه، وتلطفًا به؛ لأنه يسمع ويرى.

ألا ترى إلى آخر الآية قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾: سمع كلامه من نفسه، وأبصر نفسه بنفسه، كان في الأزل سميعًا بصيرًا، لكن هاهنا يسمع ويبصر بسمع عبده وبصر عبده.

قال الواسطي: نـزَّه نفسه أن يكون لأحدٍ في تسيير نبيه ﷺ حركة أو خطوة، فيكون شريكًا في الإسراء والتسرية.

وقال أبو يزيد: نـزَّهه عما أبدى، ولا تعرفه بما أخفى.

وقال ابن عطاء: طهَّر مكان القربة وموقف الدنو عن أن يكون فيه تأثيرٌ لمخلوق بحال، فسرى بنفسه، وسرى بروحه، وسرى بسره، فلا السر علم ما فيه الروح، ولا الروح علم ما يشاهده السر، ولا النفس عندها شيء من خبرهما وما هما فيه، وكلٌّ واقفٍ مع حده، مشاهدًا للحق، متلقفًا عنه بلا واسطة ولا بقاء بشرية، بل تحقق بعبده فحققه وأقامه؛ حيث لا مقام، وخاطبه وأوحى إليه ما أوحى جلَّ ربنا وتعالى.

وقال: جاء رجلٌ إلى جعفر بن محمد، وقال: صف لي المعراج. فقال: كيف أصف لك

مقامًا لم يسمع فيه جبرائيل مع عظيم محله.

وسبب بداية المعراج الذهاب إلى المسجد الأقصى؛ لأن هناك الآيات الكبرى من بركة أنوار تجليه لأرواح الأنبياء وأشباحهم، وهناك بقربه طور سيناء، وطور زيتا، والمصيصة، ومقام إبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعيسى ﷺ في تلك الجبال مواضع كشوف الحق لذلك قال: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾: علامات شواهد مشاهدتنا؛ حتى يتعود برؤية شهودنا في الآيات، وليقوى برؤيتها؛ حتى يطيق أن يرى آيات عظام الملكوت، وسبب عروجه إلى الملكوت؛ ليرى جمال الجبروت في أنوارها؛ لأنه سأل عن الحق رؤية ظهور صفاته في مرآة آياته بقوله: أرنا الأشياء كما هي، فأراه الحق ما سأل بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾: هو يريه وهو قادرٌ بذلك، وهو منزَّهٌ عن الحلول في الآيات.

ألا ترى إلى أول الآية كيف قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ﴾، والحكمة في ذلك أنه إذا قوي في رؤية الصفات في الملكوت الأعلى والملكوت السفلي يطيق أن يرى صرف ذاته بلا حجابٍ، ولا حسبانٍ، ولا قتامٍ، ولا ضبابٍ، ولا علةٍ، ولا آياتٍ، ولا شواهد، بل يراه به لا بشيء ولا بإياه.

قال بعضهم: قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، فغمض عينه عن الآيات شغلاً منه بالحق، ولم يلتفت إلى شيء من الآيات والكرامات فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، حيث لم يشغلك ما لنا عنا.

ويقال: أرسله الحق سبحانه ليتعلم منه أهل الأرض العبادة، ثم رقَّاه إلى السماء؛ ليتعلم الملائكة منه أدب العبادة، قال الله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] ما التفت يمينًا، ولا شمالاً ما طمع في مقام، ولا في إكرام، وتحرز عن كل طلب وإرب.

قال الأستاذ في قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾: كان تعريفًا بالآيات، ثم تعريفًا بالصفات، ثم كشفًا بالذات.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾: عبدًا من حيث العبودية، ومحبًا من حيث المعرفة، وعاشقًا من حيث الحرية، ومنفردًا بالأنس من حيث الغيرة.

ألا ترى كيف قال: ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]: شكورًا من حيث أن يرى المنعم بالمنعم لا بالنعمة بنعت العجز عن أداء حق نعمة جلاله وكشف جماله، كأنّه تعالى علم نبيه ﷺ مقام معرفة أبيه نوح ﷺ كيف كان معرفته بالله؛ حيث احتمل بلاءه به، وشكر في موضع الصبر، كأنّه علّمه الشكر في مقام البلاء؛ لأنّ العارف لا يتم؛ حتى يعرف الحق في رؤية البلاء ورؤية النعمة، فيأخذ من مقام البلاء الصبر المقرون بالرضا، ومن مقام النعمة الشكر المقرون بالصفاء والوفاء والسخاء والتُّقى، وإن كان متحليًا بهاتين الحلتين صار مزينًا بجميع زينة العبودية؛ لذلك قال: ﴿عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[1].

قال الجنيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾: العبودية هي: ترك هذين الشيئين: السكون إلى اللذة، والاعتماد على الحركة، فإذا فقد عنك هذان فقد أديت حق العبودية، يستعظم قليل فضلنا عنده، ويستصغر كثير خدمته لنا، ليس له إلى غيرنا التفاتٌ، ولا يشغله تواتر النعم عليه عن المنعم بحال.

وقال أيضًا: قائلاً بالحق، ناطقًا به، قابلاً له، مقبلاً عليه.

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾: حكى الله سبحانه عن العباد بأنهم يعملون بالأعواض لحظّ نفوسهم، لا لحقيقة العبودية التي وجبت عليهم في الأزل، لحق الربوبية التي هي مستحقةٌ لها، فمَنْ عمل للنجاة عمل لنفسه، ومن عمل للثواب فقد عمل لنفسه، ومن عمل لحظ المحبة وكذا الأنس فقد عمل لنفسه، ومن عمل لغير هذه العلل وقام على شرط العبودية بنعت إسقاط رؤية الأعواض وكل علة على وصف الخجل والحياء والفناء فقد عمل لله، ولكنّ أعماله راجعةٌ إليه بسببين: أحدهما أن عبودية الخليقة لا تليق

---

(١) وفى التأويلات النجمية يشير إلى شكر داود الروح وسليمان القلب من آله السر والخفى والنفس والبدن فإن هؤلاء كلهم من مولدات الروح قال اعملوا...

بالأزلية، والآخر أنه منـزَّهٌ عن عبودية الخلق وعصيانهم؛ لأنَّه قائمٌ بنفسه، ليس له أنسٌ بطاعة المطيعين، ولا وحشة بمعصية العاصين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وفيه نكتةٌ عجيبةٌ، أي: إنْ شاهدتم مشاهدتي شاهدتم لحظوظ أنفسكم لا لحق شهودي، وإنْ شاهدتم مشاهدتي كما ينبغي وفنيت مشاهدتكم فنيتم في مشاهدتكم في مشاهدتي؛ لأنَّ سطوات العظمة مهلك كل شاهد من شهوده.

قال أبو سليمان الداراني: العمّال في الدنيا يعملون على وجوه، كلٌّ فيه يطلب حظه، فجاهل عمل على الغفلة، وعامل عمل على العادة، ومتوكل عمل على الفراغة، وزاهد عمل على الحلاوة، وخائف عمل على الرهبة، وصديق عمل على المحبة، وعمّال الله أقل من القليل.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾: ذكر الرجاء، وقدَّم الرحمة، وتكلَّم من نفس التربية، كأنَّه تعالى دعاهم إلى مقام الرجاء من مقام الخوف، ومن رؤية الوحشة إلى رؤية تربية الربِّ، ومن رؤية العذاب إلى رؤية الرحمة، أي: أنا أستعمل كرمي القديم على كل حال إنْ تطيعون وإنْ تعصون على عواقب الأمور، لأنَّ وصفي غالبٌ على كل وصفٍ، وأنا غالبٌ على أمري، ثم أثبت الأكساب القائمة بالمشيئة بقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾: إنْ عدتم إلى عالم القهريات عدنا معكم، فننجيكم منها، فإنَّ سوابق الكرم والرحمة غالبةٌ على الغضب، كما قال: «سبقت رحمتي غضبي»[1]، وإنْ عدتم إلى عالم اللطف عدنا معكم إلى عالم اللطف، فأريكم جلالي في لباس لطفي، وإنْ عدتم إلى المعصية عدتم إلى معادلكم التي خليقتها الجهل والعصيان عدنا إلى ما كنَّا في الأزل من اللطف والكرم؛ لأنَّ اللطف والكرم من نهارير القدم، وإنْ عدتم إلى الهجران عدنا إلى الوصال، وإنْ عدتم إلى المجاهدة عدنا إلى كشف المشاهدة، وإنْ عدتم إلى النكرة عدنا إلى المعرفة.

قال ابن عطاء: يتعطَّف عليكم، فيخرجكم من ظلمات المعاصي إلى أنوار الطاعات، فمَنْ طلب الرحمة من غير الله فهو في طلبه مخطئ.

وقال سهل: إنْ عدتم إلى المعصية عدنا إلى المغفرة، وإنْ عدتم إلى الإعراض عنا عدنا إلى الإقبال عليكم، وإنْ عدتم إلى الفرار منا عدنا إلى أخذ الطرق عليكم، لترجعوا إلينا.

وقال الورَّاق: إنْ عدتم إلى الطاعة عدنا إلى التيسير والقبول.

قال الأستاذ: إنْ استقمتم في التوبة عدنا في إدامة الفضل والمثوبة.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٤٢).

وقيل: إنْ عدتم إلى الخطأ عدنا إلى الوفاء، ثم بَيَّنَ سبحانه أن الفراق يعرف العارفين أصوب الطرق وأقومها في مسالكهم إلى الله بقوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أنَّ القرآن يعرف أهله بنوره أصوب الطريق إلى الله، وتلك الطريقة طريق طاعته التي في سلوكها لسالكيها مقام كشف وصاله وظهور جماله، وأنه يهدي للطريقة الصائبة في نفسه من حقائقه بأن يرشدهم بظاهره إلى معاني باطنه، ومن معاني باطنه إلى نور حقيقته، ومن نور حقيقته إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى الذات، فالقرآن أسماءٌ ونعوتٌ وأوصافٌ وصفاتٌ، يعرف للعارف الصادق عيون الذات والصفات والأسماء والنعوت والأوصاف وهي أقوم الطريقة؛ لأنَّ العوام يسلكون إليه بأوصافهم، وأهل القرآن يسلكون إليه بصفاته.

إذَا نحــنُ أَدلجــنَا وأنــتَ أمامــنَا كفَــى لمطَايانَــا بــريَّاكَ هَاديَــا

ويبشر أهله من الذين يتبعونه بمراد الحق أن لهم أجر المشاهدة وكشفها بلا حجاب أبدًا.

قال ابن عطاء: القرآن دليلٌ، ولا يدال إلا على الحق، فمن اتبعه قاده إلى الحق، ومن أعرض عنه قاده الجهل إلى الهلاك.

وقال أبو عثمان في كتابه إلى محمد بن الفضل: من تمسَّك بالقرآن وفِّق للزوم الاستقامة؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾: من لم يبلغ أعالي درجات القوم لم يعرف مقامات الدعاء، ومن لم يعرف مقام الدعاء ففي كل وقت يستعمل سوء الأدب؛ لأنَّه في رسوم الصورة يسأل شيئًا بجهله، وهو سبب خطره قرب مراد لا ينجح له المقصود؛ لأنَّه عجولٌ لا يصبر حتى يبلغ، ويعرف ما يليق بحاله فيسأل.

قال سهل: أسلم الدعوات الذكر وترك الاختيار في السؤال والدعاء؛ لأنَّ في الذكر الكفاية، وربما يدعو الإنسان، ويسأل ما فيه هلاكه، وهو لا يشعر.

ألا ترى الله يقول: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ والذاكر على الدوام التارك للاختيار في الدعاء والسؤال، مبذولٌ له أفضل الرغائب، وساقطٌ عنه آيات السؤال

والاختيار.

قال النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيه أفضل ما أعطي السائلين»(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: الليل والنهار هاهنا مقام المجاهدة والمشاهدة، فالمجاهدة ليل العارفين، والمشاهدة نهار الصدِّيقين، ففي مقام المشاهدة كشف شمس الذات آية نهار المشاهدة، وكشف قمر الصفات آية ليل المجاهدة، فأهل المشاهدة في رؤية شموس الذات، وأهل المجاهدة من الصادقين في رؤية أقمار الصفات؛ لأنهم في ضعف الأحوال من حمل وارد العظمة، ولولا غيبة أنوار الذات عنهم لهلكوا في أول سطوتها، ولو كان إتيان أحدهما كالآخر لهلك العارفون لبقائهم في مشاهدة الذات صرفًا على السرمدية، ولم يصلوا إلى معادن الصفات.

كما قال سبحانه: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وفضل الحق هاهنا معرفة الصفات، والعيش في مشاهدة الذات، والوقوف على مقامات الدنو، وأوقات الحالات، بقوله سبحانه: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لتعلموا في محاق أقمار الكواشف، وزيادة كمالها بفيض نور الأولية والأخروية أعداد زمان الوصال والفراق، وحساب المقامات والحالات، وتقعوا في دور أدهار الأزال والآباد، وتعرفوا منازل سيارات الأرواح وحركاتها في أبراج أفلاك الوحدانية والفردانية بقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾، وهاهنا منازل انقطعت الأوهام في مداركها، وذهب الحسبان عند شوارق أنوارها، وانصرمت العقول عن تقلب أسرارها، وفنيت القلوب في حقائق أنوارها، كان لسان القدر ينطق بنطق الأبد على لسان عندليب سكران موردات ورد العشق شطاح فارس روزبهان البقلي، هذه الأسرار المباركة الممتنعة عرائسها بحجب الغيرة عن غيره أو غير مثله.

واستشهد ببيت النوري في هذا المعنى:

لا زلتُ أنزلُ مِنْ ودَادِك منزلاً ... يَتحيرُ الألبابُ عندَ نزُولهِ

قال بعضهم: جعلنا الليل والنهار ظرفين لإقامة العبودية، جعل أحدهم خلفًا عن الآخر وخليفة عنه، فمن أنفق أوقاته في أثناء ليله بما هو مستعبدٌ به فهو زمرة الموفقين، ومن أهمل ساعاته ولم يطالب نفسه، ولم يراع أوقاته مع كل خاطر أو نفس فإنه من المخذولين.

قال الله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في تصحيح العبودية وإخلاص العمل والمعونة

---

(١) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (١/ ١٠٩).

على ذلك من الله ﷻ.

ثم إنَّ الله سبحانه أخبر عن سوابق أحوال الواردين إلى مناهل العبودية والربوبية بقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، اختار بعضًا في الأزل بالإرادات، واختار بعضًا بالمعاملات، وبعضًا بالحالات، وبعضًا بالمشاهدات، وبعضًا بالمكاشفات، وبعضًا بالمعرفة، وبعضًا بالمحبة، وبعضًا بالشوق، وبعضًا بالرغائب، وبعضًا بالعزائم، وفي كل مقام طائر أحد من السالكين وسمته ألزمته نعوت الربوبية على عنق العبودية، يخرج من مربع عهد الأزل بهذه السمات، ويخرج إلى معاهد الأبد لا يتغير بتلون الملون، ولا بظهور الآيات والبرهان، ولا بطوارق الطاعات والعصيان.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، فما بدت للأرواح من معالم الرد والقبول بيد، ولصاحبه غدًا في الحضرة، فيرى أوله موافقًا للآخر والآخر للأول لا ينقص السوابق من الأواخر، ولا ترتد الأواخر على السوابق.

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ هذا مقام الستر والغيرة على أحبائه؛ حتى لا يطلع عليهم الأغيار من الملائكة والجن والإنس، بل هو من مقامات النجوى وسرائرات تخفى، وحقائقات البلوى، وعجائبات الشكوى.

قال النصر آبادي: ألزمت نفسك أحوالاً، وألزمت أحوالاً، وما ألزمته أشد مما ألزمت نفسك.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ من سعادة وشقاوة، ومنهم من ألزم الصبر على مقام المشاهدة، ومنهم من ألزم التمسك بالأدب على بساط القرب، وهذا أشد وأشد.

قال بعضهم: كتابًا تكتبه على نفسك في أيامك وساعاتك، وكتاب يكتب عليك في الأزل، ولا يخالف هذا ذاك ولا ذاك هذا.

قال بعضهم: الكتاب الذي يخرج إليك هو كتاب لسانك قلمه، وريقك مداده وأعضاؤك ومفاصلك قرطاسه، أنت كنت المملي على حفظتك ما زيد فيه ولا نقص منه، ومتى أنكرت من ذلك شيئًا يكون الشاهد فيه منك عليك، قال الله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: اقرأ كتابك؛ فإنك كنت المملي له.

وقال بعض السلف: محاسبة الأبرار في الدنيا، ومحاسبة الفُجَّار في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾: إذا أراد الله سبحانه خراب الدنيا يأخذ أولياءه منها، ويُبقي أعداءه فيها، فإذا ذهب منها الصدِّيقون الذي يندفع العذاب بدعائهم وتدفع البلايا ببركاتهم يسقط عليهم بعد ذلك قوله الحق بالغضب وهلاكهم، وأيضًا إذا أراد الله أن يخرب قلب المريد سلَّط عليه عساكر هوى نفسه، وجنود شياطينه؛ حتى يدوروا في أرض القلب، ويخربوها بسنابك خيول الشهوات، وآفات الطبيعيات والخطرات، نعوذ بالله منها.

قال بعضهم: أهلكنا خيارها، وأبقينا شرارها.

وقال أبو عثمان: إذا أخرج الله أمر المعاصي من القلوب فإنه يخاف على الخلق إذ ذاك الهلاك(١).

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ

---

(١) المراد من تدمير القرية: تدميرها، وتدمير أهلها؛ لأن تدميرهم تابع لتدميرها؛ ألا ترى أن الله أمر جبريل بقلب قرى قوم لوط، فقلَّبها، وهم فيها؛ فهلك، وهلكوا جميعًا، وكذا أصحاب القرية المذكورة في سورة يس، وأطلق التدمير؛ لكون كل منها مدمَّرة مخصوصة حسبها اقتضتها أعمال أهلها؛ كالطوفان بالنسبة إلى قوم نوح، وكالقلب بالنسبة إلى قوم لوط، وكالريح بالنسبة إلى قوم هود، وخصَّ المترفين: أي المنعَّمين؛ لأن الفقراء تبعٌ لهم، والناس على دين ملوكهم، والسمك يتغيَّر من الرأس كما هو المشهور، فإذا عصى رؤساء القوم؛ لا يبقى لهم، ولأتباعهم حرمة أصلاً على أن الأتباع إن كانوا عصاة أيضًا؛ فهم أسوة لهم في الهلاك، والأسرى الهلاك إليهم بحكم الجوار، وبحكم المداهنة، أو السكوت عن الحق، وفيه إشارة إلى قرية القالب ومترفوها هي: أشراف الأعضاء، والقوى؛ كالسمع والبصر، والقلب، فإن الجسد تابع لها، فإن صلُحت؛ صلُح الجسد، وإن هلكت؛ هلك؛ وهذا هو الهلاك المعنوي، والفساد الحقيقي.

رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾: من مال إلى الدنيا أراد حظ الأدنى؛ كأنَّه استعجل لطلب العاجلة عن الآجلة من خسَّة طبعه ودناءة همته؛ وذلك من قلة معرفته بزوالها وبلائها والعذاب والحساب من أجلها، فعجَّل الله بعض مراده له في الدنيا لحرمانه عن الآخرة والدرجات العلى، ولم يكن مظفرًا بمراده أيضًا من مأموله؛ لأنَّ الله سبحانه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

قال الواسطي: في ترك الدنيا مشاهدة الآخرة، وفي مشاهدة الآخرة رفض الدنيا، كما أن في مشاهدة التأييد زوال عزة النفس، وفي مطالعة صفات الحق سقوط صفات العبد.

ثم وصف مريد الآخرة بعد تركه للدنيا ولذاتها بأن سعيه مشكور وعمله مبرور بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، فجعل هاهنا شرطين في إرادة الآخرة: شرط السعي، وشرط الإيمان أي: ينبغي له أن يكون سعيه على نعت مشاهدة الآخرة، ورؤية الغيب واليقين الصادق؛ حتى يكون سعيه مقرونًا برؤية ما وعد الله له من الدرجات الرفيعة والمقامات الشريفة؛ حتى يكون عمله وسعيه على وصف حظ القلب والروح.

وأيضًا معنى قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ عارفٌ بالله وبصفاته: عالمٌ بعمله لله، لا يعمل إلا بالعلم، ولا يسعى إلا بالشوق إلى الله وإلى جواره والبقاء في المشاهدة، والسعي المشكور أن ينكشف لصاحبه مشاهدة الحق في سعيه نقدًا في الدنيا، فإنَّ تأثير القبول ظهور أوائل الكرامات، وبروز لطائف أنوار المشاهدات.

قال القاسم: شرط الإرادة بحسن السعاية؛ لأنَّ لكل طائفةٍ إرادة الآخرة وسعيها، وهو الذي يسعى على الاستقامة وما توجبه عليه الشريعة، وشرط السعي بالاستقامة، وشرط الاستقامة بالإيمان؛ لأنَّ كل من أراد الآخرة وقصد قصدها فليستقم عليها، رُبَّ قاصدٍ مستقيمٍ في الظاهر خلعة الإيمان عارية عنده، وكم من ساعٍ حسن السعي غير مقبولٍ فيه سعيه.

وقال بعضهم: السعي في الدنيا بالأبدان، والسعي إلى الآخرة بالقلوب، والسعي إلى الله بالهمم.

وقال أبو حفص: السعي المشكور ما لم يكن مشوبًا برياءٍ ولا سمعةٍ ولا رؤية نفسٍ ولا طلب ثوابٍ، بل يكون خالصًا لوجهه لا يشاركه في ذلك شيءٌ سواه، فذلك السعي المشكور،

ثمَّ بيَّن أنَّ ساعي الدنيا وساعي الآخرة كل واحدٍ على جزاء سعيه بقدر همته بقوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾: وصف عدله سبحانه وتعالى ألا يخيب رجاء كل مؤمن؛ لأن عطاءه غير ممنوع، فجازى الكل بقدر الهمم، فعطاء الدنيا حظ النفوس، وعطاء الآخرة حظ القلوب.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد -عليهم السلام-: عطايا الدنيا غفلة من الله، وعطايا الآخرة القربة من الله.

ثم بيَّن سبحانه تفاضل الفريقين بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾: فضَّل العابدين بعضهم على بعض في الدنيا بالطاعات، وفضل العارفين بعضهم على بعض في الدنيا بالمعارف والمشاهدات، فالعباد في الآخرة في درجات الجنان متفاوتون، والعارفون في درجات وصال الرحمن متفاوتون.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾: صفو الوصال التفات بلا عتاب حصول المراد بلا حساب.

قال ابن عطاء: من تولَّاه الله بضرب من العناية وتوالت أعماله كلها لله فله فضل الولاية على من دونه.

قال الله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: فالفضيلة تقع فيما بين الخلق والخلق، لا تكبر عنده الطاعات، ولا تغضبه المخالفات.

قال الواسطي: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالمعرفة والإخلاص والتوكل.

وقال في قوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾: بدرجات السوابق يصل العبد إلى

الدرجات العلى، وأعظم درجة في الآخرة التخطي إلى بساط القرب ومشاهدة أعلى وأجل.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾: وجب في الأزل للربوبية القديمة العبودية على نعت تجريدها عن رؤية غير الله؛ لأنه كان تعالى في الأزل موصوفًا بالربوبية والأحدية، وحق العبودية لغيره مستحيلٌ بالحقيقة؛ لأن عبودية الحدث للحدث على نعت المجاز، ولا تقع العبودية الخالصة إلا للأزلي الأبدي، والعبودية إفراد القدم عن الحدوث بنعت الإذعان لتصرفه والخضوع بنعت الفناء لعزته، وحديث الوالدين بالإحسان؛ لأنهما فعله الخاص، وحرمة فعله في إيجاد خلقه من حرمة صفته، وحرمة صفته كحرمة ذاته، والإحسان للوالدين احترامهما وإجلالهما باحترام الله وإجلاله، وأشياخ الطريقة وآباء أهل الإرادة والإحسان لهم متابعة أمرهم لمحبة الله.

قال بعضهم: العبودية قطع الأرباب وخلع الأسباب، والرجوع إلى الحق بالحقيقة.

قال أبو عثمان المغربي: من تحقق في العبودية ظهر سره لمشاهدة الغيوب، وأجابته القدرة إلى كل ما يريد.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ﴾: بما في نفوسكم من إجلال الله وتعظيم كبريائه، وشهود النعمة على بساط قربه، ورؤية العقل مشاهدًا أنوار آياته، ومشاهدة الروح ضياء صبح صفاته، وسكون السر بنعت الأنس إلى عظيم سبحات ذاته، ونية بذل الوجود لرضاه والصبر والتمكين في قضائه أن يكونوا صالحين مصلحين للخطرات النفسانية بالأنفاس الروحانية، وتقديس الخليقة بقدس المعرفة، والفرار منه إليه بنعت الفناء فيه، وذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾: راجعين منه إليه بنعت الخجل بين يديه وطلب مزيد القربة منه؛ فإنه غفورٌ لمن أتى إليه بنعت التضرع والبكاء والخشوع والتواضع في جلال قدره وعظيم كبريائه.

وفيه نكتةٌ: أن سبحانه ذكر النفوس لا القلوب ولا الأرواح ولا الأسرار ولا العقول، أي: هو أعلم بما في نفوسكم من شرها وسجيتها المائلة إلى الاستكبار والإنكار، والفرار من الطاعة، وهواها إلى المعصية، لذلك قال: إن تكونوا صالحين مائلين عن متابعتها راجعين منها إلى الله.

﴿غَفُورًا﴾ أي: غفورًا لمن أتى إليه بتلك الصفة بنعت الندم على ما سلف من الذنوب طلبًا لمشاهدة الغيوب.

قال ابن عطاء: فيها إيمان لها أو ليس فيها إيمان، إيمان جحود أو إيمان قبول، إيمان تقليد أو إيمان حقيقة ومشاهدة.

قال سهل: أي الذنوب من رجع إليه من عبيده غافرًا ولهم راحمًا.

قال أبو عثمان: الأوب الدعاء.

قال بعضهم: الأوَّاب المتبرئ من حوله وقوته، المعتمد على الله في كل نازلة.

ثم ذكر سبحانه بعد بر انوالدين بر أقرباء المعرفة بالحقيقة بعد ما في الآية من رسوم الظواهر، ومساكين المريدين، وأبناء السبيل بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، حقوق هؤلاء تربيتهم في الطريقة بذكر الحقائق من المعاملات والأحوال والمعارف والكواشف والعلوم الغيبية لهم، فذوو القربى إخوان المعرفة الذين وصلوا معالي المقامات، والمسكين المريد الصادق الذي سكنه لطف الله عن طلب غير الله، وابن السبيل المحب الصادق، فحق العارف نشر الأسرار، وحق المسكين ذكر الأنوار، وحق المحب ذكر شمائل المحبوب، زيادة لتمكين العارفين، وشوق المحبين، ورغبة المريدين.

وأيضًا: ذو القربى الروح، والمسكين العقل، وابن السبيل القلب، فحق الروح السماع الطيب، والجمال الحسن والطيب والريحان، وحق العقل الفكر والتفكر، وحق القلب الذكر والتذكر.

وأيضًا: حق الروح الفراغة، وحق العقل الطاعة، وحق القلب الاستئناس بالخلوة لطلب المشاهدة، والروح ذو القربى؛ لأنَّه كان في بدء الأول في القربة والمشاهدة قبل خلق الخلق، والمسكين العقل؛ لأنَّه فقيرٌ من إدراك حقيقة الوحدانية، والقلب ابن السبيل؛ لأنه ينقلب في سبيل الصفات لطلب عرفان الذات.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ الإشارة في الحقيقة أنه تعالى أدَّب حبيبه في القبض والبسط والمنع والعطاء، أن القبض والبسط أن يكونا على وفاق الأمر في الخاطرة لا على صورة الرسوم من حيث الظاهر، فربما يقبض من رسم وهو غير مأمور به، وربما يبسط وهو غير مأمور به، فالعارف الصادق خازن الله في أرضه، يقبض ويبسط لأمره فيه، إشارة أن العارف الصادق أحقُّ ما حضر من غيره إذا كان محتاجًا

كأنه في سفر الأزل والأبد، ولو أعيي مركبه للبث بلجةٍ عن سير ألف عام، وغيره ليس يساويه في مقام العبودية والمجاهدة: فهو أولى، وهذا كلامٌ ليس من قبيل السخاء والبخل، وليس من سجية الأنبياء والصدِّيقين؛ فإن مذهبهم الإيثار والبذل، وما أشرنا إليه حقيقة حكمة المعرفة.

ألا ترى إلى قوله سبحانه كيف أدَّب حبيبه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ نفسك بالندم محسورًا منقطعًا عن السير في عالمك.

وفيه إشارةٌ أخرى، أي: لا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك بألا تنشر عند السالكين فضائل المعرفة وحقائق القربة، ولا تبسطها بأن تذكر شيئًا لا يحتملون فيهلكون.

قال أبو سعيد القرشي: أراد الله ﷻ من نبيه ﷺ بهذه الأمة ألا يكون قائمًا بشرف البسط والسخاء، ولا قائمًا بنقض المنع والإمساك، وأن يكون قائمًا به في جميع الأحوال.

قال بعضهم: لا تبخل بما ليس لك، ولا تمن بالعطاء، فإنَّ الملك لنا على الحقيقة، وأنت القاسم تقسم فيهم حقوقهم، قال النبي ﷺ: «الله يعطي وأنا قاسم»[(١)].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾: العهد عهد الأزل وقع بين كينونة الأرواح في عالم الأفراح، قبل كون الأشباح بينهما، وبين الحق العهد صدر من الحق

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٢١٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٤).

معها بألا يشتغل بغير الله أبدًا.

قال: أوفوا بمعاهد الأول؛ فإن ذلك مسئولٌ عند كل نفسٍ، ومطالبٌ عند كل حركةٍ، فعهد المحب المحبة، وعهد العارف المعرفة، وعهد الموحد التوحيد، وعهد المريد الإرادة، ولكل عهدٍ رعايةٌ، فعهد المريد بذل الوجود، وعهد المحب الصبر في المفقود، وعهد العارف تبرؤ الهمة عن الدارين، وعهد الموحد إفراد القدم عن الحدوث والفناء في بقاء الحق.

قال حمدون القصَّار: مَنْ ضيع عهود الله عنده فهو لآداب شريعته أضيع؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

وقال يحيى بن معاذ: لربك عليك عهودٌ ظاهرًا وباطنًا، فعهدٌ على الأسرار ألا يشاهد سواه، وعهدٌ على الروح ألا يفارق مقام القربة، وعهدٌ على القلب ألا يفارق الخوف، وعهدٌ على النفس في أداء الفرائض، وعهدٌ على الجوارح في ملازمة الأدب، وترك ركوب المخالفات، والله يقول: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

ثم ذكر سبحانه بعد العهد الوفاء في صدق الأعمال والأقوال بقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الإشارة فيه إلى أشباح المعرفة ألا ينقصوا ما عندهم من ذخائر العلوم على المريدين بما يوافق حالهم، وألا يملُّوا من نصيحتهم وتأديبهم، ثم يحذر أوساطهم أن يزنوا دعواهم بالقسطاس المستقيم من المعاملات؛ حتى لا تكون دعواهم خاليةً عن الأعمال والكيل الوافي، الإخلاص والقسطاس المستقيم الصدق من كان في وزن الأعمال وكيل الأحوال مخلصًا صادقًا يعطيه الله لطائف كرمه وجوده ما لا يحصى عددها، ويصف له جميع الخلائق؛ لأنه منصف ينصف مع الله.

قال بعضهم: أوف الكيل؛ فإن وزنك موزونٌ وكيلك مكيلٌ، إنْ وفيت وُفِّيَ لك، وإن نقصت نقص عنك[1].

ثم أدَّب نبيه ﷺ بألا يحكم بما لم ينكشف له بالحقيقة بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ العارف معاتبٌ مأخوذٌ من حيث الظاهر والباطن، فالظاهر المعاملات، والباطن الحالات، مُطالبٌ بالصدق فيها، لم

---

(١) قال ابن عجيبة: أمر بالعدل في الميزان المعنوي، وهو وزن الخواطر بالقسطاس الشرعي، فكل خاطر يخطر بالقلب يريد أن يفعله أو يتكلم به، لا يُخرجه ، حتى يزنه بميزان الشرع، فإن كان فيه نفع أخرجه كما كان، أو غيَّره، وإن كان فيه ضررٌ بادَرَ إلى محوه من قلبه ، قبل أن يصير هماً أو عزماً، فيعسر رده. البحر المديد (٤/ ٣٤٩).

يذكر اللسان مع الحواس الأخرى ظاهرًا، ولكن في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تخبر من شيء، لا تعلم بقلبك، ولا ترى بعينيك، ولا تسمع بأذنك، فإنهن مسئولات جميعًا، اللسان مسئولٌ بالدعوى، والعين مسئولةٌ بالنظر بغير الاعتبار، والسمع مسئولةٌ عمّا تسمع من غير ما ينفع به، والفؤاد مسئولٌ عما يجري عليه من غير ذكر الله.

قال الواسطي: لا تخبر عنا إلا على طريق الحرمة، ولا تجاوز فيه محل الإذن.

وقال أبو سعيد الخرّاز: مَنْ استقرت المعرفة في قلبه فإنه لا يبصر في الدارين سواها، ولا يسمع إلا منه، ولا يشغل إلا به.

وقال الفارسي: قال بعض الحكماء: اطلبوا من العلم حالكم، ومن حالكم يومكم، ومن يومكم ساعتكم، ومن ساعتكم قلوبكم، ومن ذكركم مرادكم، ومن مرادكم بغيتكم، حتى تكونوا من الصدِّيقين، واطلبوا في كل هذه الأشياء خطراتكم، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾: إن الله سبحانه أوجد الخلق بقدرته القديمة الأزلية، والمشيئة السابقة، والإرادة القائمة بذاته وعلمه وحكمته، فخرج الكون من العدم بما ظهر عليها من صفت القدم، فباشر أنوار قدرته الوجود، فأثَّرت قدرته ومباشرتها في الأشياء الأرواح الحضرتية، والعقول الربانية، والألسنة الجبارية، والمعرفة الأبدية، ورفع الحجاب من بينها وبين معدن القدرة ومصادر الفعل، فشاهدت الأشياء مصادرها، فاهتزت أرواحها بنعت عشقها إلى معدنها، وبكلمة ألسنتها، وتقدس خالقها، وتقديس بارئها وتسبيح صانعها، وذلك من حياة فائضة شائعة من تواثير الحياة الأزلية، فالكل في حياتها قائمةٌ بتلك الحياة مُسبِّحةٌ لصانعها بتلك الألسنة، وذلك من استيلاء غواشي أنوار القدرة، وسبحات العظمة عليها؛ فالسماوات تسبح له بلسان العظمة، والأرض تسبح له بلسان القدرة، ومن فيهن يسبح له من ذوات الأرواح، والحياة بألسنة الصفات، والأفعال على قدر مراتبهم، وجميع الأشياء تسبح له الناميات والجمادات بالظاهر من قول أهل الرسوم لا من قول أهل المعرفة: يسبح له بلسان الأوصاف والأسماء والنعوت، والعارفون من بينهم يسبحون له بالألسنة الذاتية؛ لأنهم في شروق شموس الآزال، وأنوار طلوع أقمار الآباد، ولكن لا يعرف تسبيح الجميع إلا من تجلَّى الحق لسره وروحه وعقله وقلبه وصورته بجميع الذات والصفات، وللأشياء ألسنة روحانية ملكوتية يسبح الحق بها بلغات غيبية، وإشارات أزلية، لا يسمعها إلا أهل شهور الغيب الذين ينطقون بالحق، ويعقلون بالحق، ويعرفون الحق بالحق، وينظرون بالحق إلى الحق، وتصديق ما ذكرنا في تسبيح

الجمادات ما روى أنس بن مالك قال: «كنَّا عند رسول الله ﷺ فأخذ كفًّا من حصى يسبحن في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في يد أبي بكر حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في يد عمر فسبَّحن حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في أيدينا فما سبحن في أيدينا»(١).

والدليل على صدق هذا الحديث قوله تعالى: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] أي: سبِّحي معه، ومعروفٌ أنَّ الجبال سبحن بتسبيح داود ﷺ.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه -عليهما السلام- قال: «مرض رسول الله ﷺ، فأتاه جبريل ﷺ بطبق فيه رمان وعنب، فأكل النبي ﷺ فسبَّح، ثم دخل الحسن والحسين فتناولا منه فسبَّح العنب والرمان، ثم دخل عليٌّ فتناول منه فسبَّح أيضًا، ثم دخل رجلٌ من أصحابه فتناول فلم يسبح، فقال جبريل: إنَّما يأكل هذا نبيٌّ أو وصيٌّ أو ولد نبيٍّ»(٢).

وأصدق التصديق قوله سبحانه في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ من حلمه وغفرانه عرف المخلوقات كلها نفسه بالصفات القديمة الأزلية الأبدية، ولولا حلمه وغفرانه ما كان الكون، ولم يكن له لسان يذكره، ولكن بكرمه ورحمته وهب الكل من سلطانه وبرهانه لسانًا يسبح بحمده، وحمده شاملٌ على كل ذرةٍ، وثناؤه في لسان كل ذرةٍ، سبحان الغني المحسن وهب عطاءه العميم والكريم القديم بغير استحقاق من الكون ولا يبالي.

قال أبو عثمان المغربي: المكونات كلها يسبحن الله باختلاف اللغات، ولكن لا يسمع تسبيحها، ولا يفقه عنها ذلك إلا العلماء الربانيون، الذين فتحت أسماع قلوبهم.

﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لقلّة النظر والفكر في ملكوت الأشياء، وعدم الإصغاء إليهم، وإنما يفقه ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾: لا يعاجلكم بترك التسبيح في طلب، كما لا تكبر وإظهار خواصكم، فإن من خواصكم تفقه تسبيحهم وتوحيده كما وحدوه.

﴿غَفُورًا﴾: يغفر لكم غفلتكم وإهمالكم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ

(١) رواه ابن الجوزي في «العلل» (١/ ٢٠٧).

(٢) لم أقف عليه.

ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ معنى الآية: إذا قرأت القرآن جعلنا بين فهم الكتاب وشرفك المذكور في القرآن مع معاني حقائقه، وبين قلوبهم وعقولهم وأرواحهم حجابًا من غيرتنا، حتى لا يرون بأبصار أسرارهم عرائس الصفات، ولا يسمعون بآذان قلوبهم لطائف حكم الخطاب، وإذا كان ﷺ قرأ القرآن صار منورًا بنور الصفات، موشحًا بتجليها، مزينًا بحقائقها من حيث كان شربه من سواقي الصفات، وحظُّه من مشاهدات الذات، وإذا بلغ إلى ذلك المقامات في قراءته وتلاوته وحسن صورته غار الحق عليه أن ينظر إلى وجهه أحدٌ غيره، ولو رآه أحدٌ بهذا الوصف طاش عقله وطار روحه من هيبة الله، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وإذا استترت بأستار كلامنا صرت مستورًا عن أعين المبطلين، ومحصنًا عن تناول المغضبين والمنكرين، ورُبَّ صادقٍ فرَّ من العدو إلى ستر القرآن، فكان مستورًا من جميع الضرر مثل أنه يقول: بسم الله، فيكون مستورًا عن أعين الخلق، وهذا وصف الأخفياء الأتقياء.

قال بعضهم: مَنْ تحصَّن بالحصن فهو في أحسن حصنٍ، ومَنْ تحصَّن بكتابه فهو في أحسن حصنٍ، والمضيع لوقته مَنْ تحصن بعلمه أو بنفسه أو بجنسه؛ فيكون هلاكه من موضع أمنه.

وكان أبو يزيد إذا قرأ هذه الآية قال لأصحابه: تدرون ما ذلك الحجاب؟ هو حجاب الغيرة، قال النبي ﷺ: «لا أحدَ أغيرُ من الله»[(١)].

وتصديق ما ذكرنا في حقيقة الآيتين قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾: إذا ذُكر الحق بصفات الحق بنعت الوحدة وإفراد قدمه عن الكون بحيث انفرد الحبيب بفردانية الحبيب، وتوحد بوحدانيته، واتصف بصفته، وشاهد إفراد ذاته، صار وجوده وحدانيًا ربانيًا ألوهيًا جبروتيًا ملكوتيًا، يزول كل ما قورن به من

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٦٩٦)، ومسلم (٤/ ٢١١٤).

الحدثان، ويفارق منه كل شيطان وسلطان.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾: لقصور نظرهم عن إدراك الروحانيات، وقصر همتهم على الجسمانيات، ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ من الجهل وعمى القلب، فلا يرون حقيقة القارئ وإلا آمنوا، وإنما لا يبصرونك؛ لأنهم لا يحسبونك إلا هذه الصورة البشرية، لكونهم بدنيين منغمسين في بحر الهيولي، محجوبين بالغواشي الطبيعية، وملابس الصفات النفسانية عن الحق وصفاته وأفعاله؛ إذ لو عرفوا الحق لعرفوك، ولو عرفوا صفاته لعرفوا كلامه، ولم تكن على قلوبهم أكنة من الغشاوات الطبيعية، والهيئات البدنية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، ولو عرفوا أفعاله لعلموا القراءة، ولم يكن في آذانهم وقرٌ؛ لرسوخ أوساخ التعليقات، ﴿وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ لتشتت أهواؤهم، وتفرقت هممهم في عبادة متعبداتهم من أصنام الجسمانيات، والشهوات، فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالكثرة، واحتجابها بها.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ إذا وصل العارفون إلى مشاهدة الحق حين فارقوا من الدنيا وغابوا في جماله وجلاله واستغرقوا في بحار أوليته يناديهم الحق يوم العرض الأكبر: «يا أحبائي وعرفائي وأصفيائي وأوليائي احضروا ساعة مواقف رؤية صنائعي وأفعالي في يوم الحشر، وانظروا آثار ربوبيتي في خلقي»[1]، فيستجيبوا بلسان الثناء والحمد له وعليه بما وجدوا منه من لطائف قربه ولذائذ جماله وجلاله شبه السكارى، ويقولون: بعزتك وجلال مجدك وكبريائك ما رأيناك لمحة، اتركنا من مشاهدتك حتى نراك لحظة، وربما عاشوا في جماله ألف سنة، واستقلوا ذلك لعظيم حلاوة وصله، ولذائذ عيشهم في قوله: لم يعرفوا مرور الزمان، وانقلاب الملوان، لذلك قال سبحانه: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الحق ما أطيب ذلك العيش حيث نسوا مرور أعمال الوصال.

ألا ترى إلى قول القائل:

شــهورٌ ينقــضينَ ومَــا شَــعرنَا بأنــصَافٍ لهــنَّ ولا سِرَار

وفيه نكتةٌ أخرى: أن العارفين محبوسون في الدنيا، فإذا دعاهم فيستجيبون داعي الحق بحمده، ويقولون: الحمد لله الذي خلَّصنا من حبس الهجران، ومكان الحرمان، وجوار الشيطان، وورطات الطغيان، وعلّة الزمان والمكان، ومصاحبة الحدثان، كأنهم يجيبون داعي الحق مكان الجواب بلبيك بقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤].

وفيه إشارةٌ: أنَّ الجمهور في ظنون وحسبان من أمر المشيئة وجريان الأقدار، ووقوع الرضا والسخط، فإذا دعاهم الحق إليه ورأوه بوصف الرضا وزوال الخطر هيجتهم رؤيته إلى الحمد والثناء عليه؛ حيث يقع الأمر بخلاف ظنونهم فيه؛ لأن أمر العاشق عند المعشوق أسهل ممَّا يظن العاشق، وسبب جوابهم بالحمد أيضًا لا بالتنـزيه والتقديس، أو كل ذكر من وصف صفاته؛ لأن جميع ذلك يتعلق بالمعرفة، وهم كانوا في ذلك مقصرين؛ حيث لم يذكروه بالحقيقة، ولم يعرفوه بالحقيقة، ولم يعبدوه بالحقيقة، فلمَّا رأوا جميع الحقائق فانيةً عند كشف مجد جلاله يقولون في جواب مناداة الحق: الحمد لله بما حمد نفسه في الأزل، حيث امتنع بجلاله عن معرفة كل عارفٍ، وذكر كل ذاكرٍ، وبأنه ليس للحدثان إلى معرفته طريقٌ، كان حمدهم ذهابهم عن رؤية أعمالهم وحالاتهم ومعارفهم وعلومهم بالله، فشكروه به؛ لأنهم ما نالوا من مواهبه السنية بغير علّة الحدثية.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: تتعلق إرادته ببعثكم، فتبعثون في

---

(١) لم أقف عليه.

أقرب من طرفة عين، حامدين له بحياتكم وعلمكم وقدرتكم وإرادتكم حمدًا، واصفين له بالكمال بإظهار هذه الكمالات، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في القبور والمضاجع لذهولكم عن ذلك الزمان، كما يجيء في قصة أصحاب الكهف، أو في الحياة الأولى، لاستقصاركم إياها بالنسبة إلى الحياة الآخرة، فيتناول اللفظ القيامات الثلاث، إلا أن الآية السابقة ترجح الصغرى.

قال بعضهم: مَنْ أسمعه الحق الدعوة وفّقه للجواب، ومَنْ لم يسمعه الدعوة كيف يجيب مَنْ لم يسمع!

وقال الجنيد في قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾: يقولون: الحمد لله الذي جعلنا من أهل دعوته.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ علمه سبحانه كان أزليًّا قبل وجود المعلومات، خارجًا عن جميع العلّات، اختار في علمه بعلمه وإرادته جواهر أرواح المقربين والعارفين من بين البرية بشرف قبول معرفته واستعداد حمل أمانته، وجعلها في أماكن غيب طائرة في مزار قدمه، وأراها منازل العبودية والامتحان من فيض قهره ولطفه، فحبسها بعضًا في مقام المشاهدة، وحبسها بعضًا في مواقف الوصلة، وحبسها بعضًا في منازل الدنو والقربة، وهو كان عالمًا بشوق الشائقين إليه، وداء المحبين لديه، واستئناس المستأنسين به، واستغراق العارفين في بحار عظمته، وحيرة الموحدين في ميادين أزليته، فيرحم بعضهم برؤية حسن الجمال، حتى بقوا معه بنعت عيش السرمدية، ويعذب بعضهم بأن يفنيهم فيه من تسلط سطوات العظمة عليهم حتى لا يدركوا في محل الفناء فيض البقاء، وذلك من غيرته على نفسه، فرحمته على العارفين كشفٌ ووصالٌ بلا حجاب، وعذابه عليهم غلبة النكرة على قلوبهم، وهذا دأبه مع أهل ولايته أبدًا، وحديث سبق العناية؛ حيث اختار أهل وداده بمعرفته، خلّصهم من عذاب فرقته، وإذا أراد طرد الغافلين شغلهم بغيره عن الإقبال عليه ورؤيته ورحمته.

قال القاسم: سبق علمه في الخلق بالرحمة والعذاب، ولا مبدل لما أراد، وقد وسم الخلق بسمة الرحمة والعذاب، ويرجع إلى منتهاه بما قد جرى له في مبتداه.

وقال الأستاذ: سدَّ على كل أحدٍ طريق معرفته بنفسه ليعلّق كل قلبه بربه، فجعل العواقب على أربابها مشتبهةً، فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قدَّم حديث الرحمة على حديث العذاب، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، وفي ذلك ترجيح للأمل أن يقوى.

تصديق ما ذكرنا في حقيقة الآية وتفضيل مقاماتهم بعضًا على بعض قوله سبحانه:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ بيّن سبحانه أنه أعلم بما أعطى ملائكته في السماوات من مقام الخوف والعبودية، واختار لهم شرف القربة، وفضَّل بعضهم على بعض في الذكر والتسبيح والعبادة والخوف والخشية، وهو أعلم بما هو أعطى مَنْ في الأرض مِنْ الشريعة والطريقة والحقيقة، وفضَّل بعضهم على بعض في مراسم السلوك، وأعطى الشريعة للعموم، والطريقة للخصوص، والحقيقة لخصوص الخصوص، فلمَّا تم نظم الولاية رقى الأمر إلى درجات النبوة، فأعطى المرسلين خبر غيب الغيب، وأعطى النبيين خبر الغيب، وكشف جميع مراتب القربة، وأدارهم في ملكوته بالهمم، وسيرهم في ميادين جبروته بالأرواح والأسرار، وفضَّل بعضهم على بعض في الدنو ودنو الدنو، والتجلّي والتدلي والكلام والخطاب والمعارف والكواشف، فبعضهم أهل رؤية القدم وخبره، وبعضهم أهل رؤية البقاء وخبره، وبعضهم أهل رؤية الصفات وعلمها، وبعضهم أهل رؤية الذات ومعرفته، فهؤلاء أهل الأول والآخر والظاهر والباطن، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، فأهل القدم أهل الأول، وأهل البقاء أهل الآخر، وأهل الصفات أهل الظاهر، وأهل الذات أهل الباطن، فاصطفى آدم ﷺ بعلم الأسماء والنعوت، ومباشرة الصفة، وتجلي الذات، فصار في محل عين الجمع، لقوله ﷺ: «خلق الله آدم ﷺ على صورته»[1]، واصطفى نوحًا ﷺ بالسلطنة والمعجزة وإجابة الدعوة، واصطفى الخليل ﷺ بالخُلّة والسماع ومقام الالتباس؛ حيث قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٦]، وإفراد القدم عن الحدوث بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨]، واصطفى موسى ﷺ بالخطاب الأصلي وسماع الكلام الأزلي والتجلّي، واصطفى عيسى ﷺ بدرجة القدس، وجعله روح القدس من كلمته العلية الأزلية، واصطفى داود ﷺ بالزبور، والذي فيه بناء الذات والصفات، وأعطاه مقام العشق وحسن الصوت الذي من مزامير الصفات وألحان بلابل القدم، واصطفى سليمان ﷺ بالملك والتمكين، واصطفى يوسف ﷺ بكسوة حسن جماله الذي أشرق في وجهه من طلوع صبح الصفة في عالم الفعل، واصطفى محمدًا ﷺ بجميع ما أعطاه إياهم، وخصَّه بالمعراج، والدين، والتجلّي، والتدلي، والمحبة الكبرى، والمجلس الأعلى، والمقام الأدنى؛ فكان قاب قوسين أو أدنى، فرمى بقوس الأزل ما وهبه الله إلى الجمهور، ورمى من قوس الأبد ما وهبه الله له، فبقي بين القوسين بعد ذهاب الكونين، فصار هدنا بقوس قاب قوسين؛ لأنَّ هناك لا يليق إلا

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٠١٧).

صاحب الرفيق الأعلى، والمخبر عن مقام الأدنى، المذكور اسمه بعلّة محمد سيد الورى ﷺ بعدد ذرات ما بين العرش إلى الثرى.

قال محمد بن الفضل: تفضيل الأنبياء بالخصائص كالخُلّة والكلام والمعراج وغير ذلك، فضّل البعض منهم على بعض، وفضل محمدًا ﷺ على الجميع، ألا تراه يقول: «أنا سيِّدُ ولد آدمَ ولا فخر»[(١)]، كيف أفتخر بهذا وأنا بائنٌ منهم بحالي، وأقف مع الله بحسن الأدب؟ لو كنت مفتخرًا لافتخرت بالحق والقرب والدنو منه، فلمّا لم أفتخر بمحل الدنو والقرب كيف أفتخر بسادة الأجناس.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ ردّ الله بهذه الآية رغام التغيير على أنوف المبطلين، الذين يشيرون إلى غيره بالعبودية من الملائكة والأنبياء، مثل عيسى ﵇ وعزير وبعض من مؤمني الجن، وهؤلاء الذين يشير إليهم الظلمة بأنهم معبودون، فإنهم على باب كبرياء الأول يعجزون تحت أنوار عظمته، حتى يصيروا في حد الفناء من عظمة الله وجلاله، يطلبون وسيلة قربة من الله تشفعهم عنده؛ لأنهم يخافون من سلطان قهره، ويطمعون في كشف جماله بقوله: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وأخص الوسيلة كرمه القديم وإحسانه العميم، ثم بعد ذلك أقرب الوسيلة إليه من كان معرفته به أكثر، وخوفه منه أوفر، ومقام الوسيلة مقام الشفاعة، وتلك خاصة لمحمد ﷺ وهي المقام المحمود، وكل شفاعة منه تتشعب إلى غيره، وهو أقرب الوسائل إلى الله، كان الكل يجعلونه وسيلة إلى الله الأنبياء والملائكة وغيرهم.

ووصف الله طلاب هذه الوسيلة بالخوف والرجاء، والخوف صدر من أنوار عظمته، والرجاء صدر من أنوار جماله، فالصادق يطير إلى الحق بجناح نور الجمال والجلال، وهما وسيلتاه منه له إليه يقربانه من الله، فينظر إلى الجلال فيفنى، وينظر إلى الجمال فيبقى، وبهما نظام العبودية، وعرفان الربوبية.

قال سهل: الرجاء والخوف زمامان على الإنسان، فإذا استويا دامت له أحواله، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر.

ألا ترى إلى النبي ﷺ يقول: «لو وُزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا»[(٢)].

قال بعضهم: رجاء الرحمة هو طلب الوصول إلى الرحيم، وخوف العذاب هو الاستعاذة من قطعه، فلا عذاب أشدُّ من ذلك، ما سهل رجاء الرحمة في الظاهر الجنة، وفي

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ١٢) بنحوه.

الحقيقة حسن المعرفة بالله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ الكرامات للنفوس على مرتبتين: الأولى: لها لطمأنينتها في إيمانها بالله، والأخرى: لها لامتناعها عن معصية الله، رؤية آيات العظمة للنفس تخويفٌ، وللعقل تحذيرٌ، وللقلب خشيةٌ، وللروح ترويحٌ واستئناسٌ، وللسر إجلالٌ وتعظيمٌ، ولسر السر معرفةٌ وتوحيدٌ ويقينٌ، وشاهده الذات بعد الصفة.

قال الحارث المحاسبي: الآيات التي يظهرها الله في عباده رحمةٌ على السابقين، وتنبيهٌ للمقتصدين، وتخويفٌ للعاصين.

سُئل أحمد بن حنبل عن هذه الآيات: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾؟ قال: موعظةً وتحذيرًا، والآيات هي الشباب والكهولة والشيبة، وتقلب الأحوال بك لعلك تتغير بحال أو تتعظ في وقت.

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ إلى آخره تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام؛ لأن الاستعدادات متفاوتةٌ، فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه أي: استخفه بصوته يكفيه، وسوسه وهمس بل هاجسه، وله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إشارة الحقيقة مع العارف إذا وقع في بحر الديمومية والأزلية، واستغرق في طوفان الأولية، وفني في سطوات الألوهية، تبرأ مما له من الكرامات، والولايات، والفراسات، والمقامات، والحالات، والمكاشفات، والمعارف، ودعاوي الاتحاد والاتصاف، ويلتجئ منه إليه، فلما خرج من تلك الأحوال الرفيعة إلى مقاماته الشريفة رجع إلى رؤية الأحوال والمقامات، فيدَّعي ما كان مدَّعيًا

من معرفة الإلوهية، وهكذا حال من خرج من عنده الأسد إذا كان في أجمة، لكن تفحَّص حاله عند الأسد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ وإذا رجعنا إلى حال العبودية فإنَّ صدق المعرفة هناك الاستقامة فيها، والتساوي في رؤية النعماء والبلوى.

قال ابن عطاء: ليس بخالص لله من لا يكون في حاله الرجاء مع الله كحال الشدة، ومن يلتجئ إلى غيره في أحوال الشدائد، وهو من العبيد السوء الذي لا يقوِّمه إلا الأدب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ كرامته سابقةٌ على كون الخلق جميعًا؛ لأنها من صفاته واختياره ومشيئته الأولية؛ أوجد الخلق برحمته، وخلق آدم وذريته بكرامته الخلق كلهم في حيز الكرامة الرحمة للعموم والكرامة للخصوص، خلق الكل آدم وذريته وخلق آدم وذريته لنفسه؛ لذلك قال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه:٤١] جعل آدم ﷺ خليفته، وجعل ذريته خلفاء أبيهم، الملائكة والجن في خدمتهم، والأمر والنهي والخطاب معهم، والكتاب الذي أنزل إليهم، والجنة والنار والسماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم وجميع الآيات خلق لهم، والخلق كلهم طفيلٌ لهم.

ألا ترى يقول لحبيبه ﷺ: «لولاك لما خلقت الكون»[1].

ومن ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بالنطق والتمييز، والعقل والمعرفة.

﴿وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يسَّرنا لهم أسباب المعاش، والمعاد بالسير في طلبها فيهما، وتحصيلها.

﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ أي: المركبات التي لم ترزق غيرهم من المخلوقات.

﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: ماعدا الذوات المقدسة من الملأ الأعلى.

وأما أفضلية بعض الناس كالأنبياء على الملائكة المقربين فليست من جهة كونهم بني آدم، فإنهم من تلك الحيثية لا يتجاوزن مقام العقل؛ بل من جهة السر المودعة فيهم المشار إليه بقوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [البقرة:٣٠]، وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلهية التامة بواسطة الجمعية التي فيه أي: مقام الوحدة، وحينئذ ليس هو بهذا

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥/ ٢٢٧) بنحوه.

الاعتبار من بني آدم.

كما قيل:

فقال من أنت قلت أنت فلي فيه معنى شاهد يأبوني

بل هو عين المكرم المعروف كما قيل:

رأيت ربي بعين ربي فقال من أنت قلت أنت

وقد فني ابن آدم في هذا المقام، وما بقي منه شيءٌ، وإلا فما للتراب ورب الأرباب.

أو: ولقد كرمنا بني آدم بالتقريب ومعرفة التوحيد، وحملناهم في بر عالم الأجساد، وبحر عالم الأرواح بتيسيره فيهما لتركيبه منهما، وإرقائه عنهما في طلب الكمال، ورزقناهم من طيبات العلوم والمعارف، وفضلناهم على الجم الغفير ممن خلقنا أي: جميع المخلوقات على أن تكون من البيان، والمبالغة في تعظيمه بوصف المفضل عليهم بالكثرة، وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف أي: كثير وأي كثير وهو جميع مخلوقاتنا؛ لدلالة من على العموم.

﴿تَفْضِيلًا﴾ تامًا بينًا.

ولهم كرامة الظاهر، وهي تسوية خلقهم، وظرافة صورتهم، وحسن فطرتهم، وجمال وجوههم؛ حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة واستواء القامة، وحسن المشي والبطش، واستماع الكلام والتكلم باللسان، والرؤية بالبصر، وجميع ذلك ميراث فطرة آدم التي صدرت من حسن اصطناع صفته الذي قال: «**خلقت بيدي**»[1].

فنور وجوههم من معدن نور صفته، فأنوار الصفات نورت آدم ﷺ وذريته، فيكونون من حيث الصفات والهيئات والحسن والجمال متَّصفين متَّخلقين بالصفات؛ لذلك قال ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»[2] من حيث التخلق لا من حيث التشبه.

ولهم كرامة الباطن، وهي العقل والقلب والروح والنفس والسر، وفي هذه الجنود خزائن ربوبيته، فالنفس مع جنود قهره، والعقل مع جنود لطفه، والقلب مع جنود تجلي صفاته، والروح مع جنود تجلي ذاته، والسر مستغرقٌ في علوم أسراره، فالكل مكرمةٌ بكشوف الصفات ممن له استعداد رؤية الصفات، ومن له استعداد رؤية الذات فهو في مشاهدة الذات؛ فبكرامته عرَّف العقول آياته، وعرَّف النفوس عبوديته، وعرَّف القلوب صفاته، وعرَّف الأرواح جلال ذاته، وعرَّف الأسرار وعلوم أسراره، فأعطى العارفين من سمعه أسماعًا، ومن بصره أبصارًا، ومن كلامه خطابًا، ومن علمه قلوبًا، ومن سره أسرارًا، ومن أنوار صفاته

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٩٥).

(٢) تقدم تخريجه.

أرواحًا، ومن أنوار أفعاله عقولاً، فخلقهم بخلقه، ووصفهم بوصفه، فمن حيث الاتصاف متصفون، ومن حيث الاتحاد متحدون، ومن حيث العبودية هم في الربوبية يطيرون بأجنحة الأزلية في ظلال حيزوم القدم مع الحق إلى أبد الأبد، فأي كرامةٍ أشرف مما ذكرت يا كريم بن الكريم، يا آدم بن آدم، يا عارف القلب تعرف من أنت يفنى الناسوت في اللاهوت، ويبقى اللاهوت للناسوت وخاطب اللاهوت مع اللاهوت، العارفون ينظرون إليك من مجالس سرادق مجد الكبرياء، ويفرحون بك في عالم البقاء، طيَّب الله وقتك من أين أنت وأين مأواك، من حيث لا يعرفونك الكل، ثمَّ إنَّ الله سبحانه أسقط العلل والأسباب من مواضع تفضيلهم من حيث كرَّمهم قبله بكرامته ومحبته السابقة لهم، ثمَّ بيَّن عقب كرامته بأنه بعزه وجلاله جعلهم في بر الصفات بمراكب عناياته، وفي بحر اللذات بسفن محبته وكفاياته.

قال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أدارهم في براري النعوت والصفات بأنوارها، وأجراهم في بحار الذات بسفن أنوارها، فاستفادوا من براري الصفات معادن المعارف، واستفادوا من بحار الذات أصداف جواهر الكواشف، حملهم في بر العبودية بمراكب المعرفة، وحملهم في بحر الربوبية بمراكب المحبة، وحملهم في بر المجاهدات بمراكب الشريعة، وحملهم في بحر المشاهدات بمراكب الحقيقة، ثمَّ رزق أسرارهم موائد العلوم الغيبية، ورزق أرواحهم فيض الوصلة، ورزق قلوبهم لطائف القربة، ورزق عقولهم حقائق الحكمة، ورزق أشباحهم فيض عناصر فعله عن متابعة عنصر الخليقة بتواثير مياه قدرته، وظلال ليالي رحمته، وأنوار شموس كفايته، وصفاء أنهار كلاءته، فهم على خوان الرحمانية وموائد الكرامة.

قال: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ثمَّ قرَّبهم منه من البرية، وكساهم حلل المغفرة، وجمعهم في دار الوصلة، وأدار الكون له بالخدمة قال: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ابتدأهم بالبر قبل الطاعات، بالإجابة قبل الدعاء، وبالعطاء قبل السؤال، كفاهم الكل من حوائجهم؛ ليكونوا لمن له الكل وبيده كفاية الكل.

سُئل ذو النون في قوله: ﴿كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾؟ قال: بحسن الصوت.

وقال الجنيد: بالفهم عن الله.

وقيل: بالخلق، وقيل: بتقويم الخلقة واستواء القامة.

وقال الواسطي: بأن سخرنا لهم الكون وما فيه؛ لئلا يكونوا في تسخير شيء، ويتفرغوا إلى عبادة ربهم.

وقال جعفر: بالمعرفة.

وقال بعضهم: معنى البر النفس، ومعنى البحر القلب، فمن حمله في النفس فقد أكرمه بنور التدبير، ومن حمله في القلب فقد أكرمه بنور التأييد، فمن لم يكن له نور التأييد وكان له نور التدبير يكون هلاكه عن قريب.

وقال الواسطي: البر ما أظهر من النعوت، والبحر ما استتر من الحقائق.

وقال: في مشاهدة أبده قسمت الوقتين الفصل والوصل، وهو البر والبحر.

وقال أبو عثمان: الرزق الطيب هو الحلال.

وقال: فضَّلناهم بالمعرفة على جميع الخلائق.

وقال أبو حفص: بأن بصَّرناهم عيوب أنفسهم.

وقال الجنيد: بإصابة الفراسة.

قال السياري: فضَّلنا العلماء على الجهال بالعلم بالله وأحكامه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ إمام كل عارفٍ، مقامه مع الله من حيث الأحوال والخطاب والقربة والوصال والمعارف والكواشف والعلوم والحكم، فيدعو المحبين إلى منازل المحبة، ويدعو المشتاقين إلى منازل الشوق، ويدعو العاشقين إلى منازل العشق، ويدعو العارفين إلى منازل المعرفة، ويدعو الموحدين إلى منازل التوحيد، وأيضا يدعو المريدين بأسماء مشايخهم، ويدعوهم إلى منازلهم.

قال ابن عطاء: يوصل كل مريدٍ إلى مراده وكل محبٍّ إلى محبوبه، وكل مدَّعٍ إلى دعواه، وكل متمنٍ إلى ما كان يتمنى، ثم هو سبحانه بيَّن أن من لم يعرفه في الدنيا لا يعرفه في الآخرة، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه-.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: من سمع في الدنيا ذكره ولم يره بنعت ظهور الصفات في الآيات لن يراه بوصف كشف الذات، ومن عمي عن معرفة العبودية في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى عن معرفة الربوبية، ومن عمي في الدنيا عن معرفة الأولياء فهو في الآخرة أعمى عن رؤية منازلهم عند

الله، وهناك هم أضلُّ سبيلاً؛ لأن أولياءه في أكناف غيبه ولا يراهم غيرهم.

قال الجنيد: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ عن مشاهدة الفضل ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن مشاهدة الذات.

وقال أيضا: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ عن مشاهدة بره ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن رؤية وصال قربه.

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ﴾ إلى آخره أي: نحضر ﴿كُلَّ﴾ طائفة من الأمم مع شاهدهم الذي يحضرهم، ويتوجهون إليه من المال، ويعرفونه سواء كان في صورة نبي آمنوا به، كما ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، أو إمام اقتدوا به، أو دين أو كتاب، أو شئت على أن تكون الباء بمعنى مع أو ننسبهم إلى إمامهم، وندعوهم باسمه لكونه هو الغالب عليهم، وعلى أمرهم المستعلي محبتهم إياه على سائر محباتهم.

﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: من جهة العقل الذي هو أقوى جانبيه، وبعث في صورة السعداء.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾[1] دون غيرهم؛ لاستعدادهم للقراءة والفهم؛ لأن الذي أوتي كتابه بشماله أي: من جهة النفس التي هي أضعف جانبيه لا يقدر على قراءة كتابه، وإن كان مقرًّا بذهاب عقله وفرط حيرته.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي: لا ينقصون من صور أعمالهم، وكمالاتهم وأخلاقهم شيئًا قليلاً.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ عن الاهتداء إلى الحق.

﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كذلك.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ مما هنا؛ لأن له في هذه الحياة آلات وأدواتٌ وأسبابًا يمكنه الاهتداء بها، وهو في مقام الكسب باقي الاستعداد إن كان ولم يبق هناك شيء من ذلك.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ إلخ هو من باب التلوينات التي تحدث لأرباب القلوب؛ إذ النقصان الموجب للعذاب يقابل الكمال الموجب للذة، فكلما كان الاستعداد أتم والإدراك أقوى كانت المرتبة في الكمال والسعادة اللذة أقوى، فكذا ما يقابله من النقص والشقاوة أبعد

(١) أي: قراءة ظاهرة مسرورين وينتفعون بما فيه من الحسنات ولم يذكر الأشقياء وإن كانوا يقرأون كتبهم أيضا لأنهم إذا قرأوا ما فيها لم فصحوا به خوفا وحياء وليس لهم شيء من الحسنات ينتفعون به.

وأسفل، والألم أشد.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ﴾ إنَّ الله سبحانه خلق روح نبيه لَّما خلقها قبل كون الكون، فأدارها في بسط ملك الأزل والأبد، فعلم من رؤية الصفات علوم غيب الغيب، وعرف علم المجهول الذي صدر من لطفيَّات الأزل وقهريات الأزل، وعلم في علم العلم أن طريق القهر واللطف منتهاهما وصول عين الذات، ومْ ير الفراق في أصل القدم بينهما، فلمَّا عرف الطريقين الواضحين من القدم إلى القدم إلى أبد الأبد بنعت غير تغاير الصفة، وعلم بعد أن كان في محل الرسالة حقيقة طريق الوصول إلى الحق بهما، ولم ير الكفَّار مستعدين لطريق اللطف، ووصولهم إلى الحق به كاد بسر سره من علمه بعلم المجهول أنْ يدعوهم بتلك الطريقة إلى الحق؛ لأن المسالك غير معتبرة، إنَّما الاعتبار بالوصول فلمَّا علم الحق سبحانه أنه يكاد أن يفشي سر سره المكنون في غيب غيبه نهاه عن ذلك؛ لئلا ينتهك ستر الربوبية، ولا تضمحل أحكام العبودية بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أن كدت تميل إلى دعوتهم بطريق المجهول إلى الحق، وذلك حركة سر سر نفس النفس التي غواص قاموس بحر القهريات، ولا تخف: وقل: يا عارف، فإن النبي ﷺ كان في علم ما كان مع تلك النفس التي هي لباس قهر الربوبية، ولا يجوز للعارف الصادق أن يكون خاليًا عنها؛ لأنه يسلك إلى الحق بسر القهر وسر اللطف، ومَنْ لم يسلك إليه بهذين الطريقين لم يكن كاملاً في معرفته، فالعتاب من جهة تحرك سلسلة تلك الأسرار: وهو بجلاله محركها تعريفًا وامتحانًا، التعريف حق العارف، والمعرفة حق المعروف، يعصمهم الله من هتك تلك الأسرار للأغيار.

قال الحسين: خلق الله الخلق على علمٍ منه بهم، وهو علم العلم، وجعل النبي ﷺ أعظم الخلق خلقًا، وأقربهم زلفى، فجعله الداعيَ إليه والمبين عنه به يصلون إلى الله ظاهرًا وباطنًا وعاجلاً وآجلاً، فثبت الملك بالعلم، وثبت العلم بالنبي، وثبت النبي ﷺ به، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ﴾ بنا.

وقال عمرو بن عثمان المكي: قال ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ وهو الشيء بين الشيئين، وهو الخروج من ذا إلى ذا، ولم يخرج من ذا، ولم يدخل في ذا، وكان واقفًا بأمرٍ عظيمٍ، وشأنٍ

عجيبٍ، وعلمٍ غريبٍ، وهو نـزاهة نفسه، وعظيم علمه بربه، فبلغ هذا الخطاب به من الخوف والوجل من ربه؛ حتى كاد أن يساوي خوف الواقعين للمخالفة، وهذا الفرق بين الخواص والعوام أنهم يخافون في الهمة ما لا يخافه العوام في المواقعة.

وقال ابن عطاء: عاتب الأنبياء بعد مباشرة الزلّات، وعاتب نبينا ﷺ قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتباهًا وتحفظًا لشرائط المحبة، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إذ أدلكت الشمس من قهر الجبارية، فسجد في دلوكها لأنوار عظمة الجبار في تلك الساعة، فأمره بسجوده والقيام بين يديه موافقةً للشمس في سجودها لخالقها عند كشف عظمته، فإنّ ذلك الوقت وقت خاصة لكشف العظمة، وهكذا في وقت العصر، فكأنها في وقت دلوكها في الركوع، وفي وقت العصر في السجود إلى وقت غروبها، فإذا غربت وجاءت غسق الليل، ثم هناك غلبة سطوات العظمة، فيسجد له الليل، وتدور النجوم في سجودها إلى وقت الفجر، فإذا طلع الفجر سجد له عمود الصبح الذي لم يكن من الليل والنهار، وفي ذلك الوقت طلوع صبح الجمال والجلال، وهناك يسجدون له الأرواح والأجسام لغلبة روح قدسه وأنسه عليها، وهناك شهود الحق بوصف صفاته.

ألا ترى كيف قال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الشاهد ذاته، والمشهود صفاته، وهذه الأوقات تدل على الإخبار بحفظ الأوقات على السرمدية، وحضور القلب في مشاهد الغيوب.

قال بعضهم: القيام في بعض الأسحار مشهودة من صاحبه، وشاهدة عليه.

وقال الأستاذ: الصلاة بالبدن مؤقتةٌ، والمواصلات بالسر والقلب مسرمدةٌ، فإذا فرغ من حفظ أوقات الليل والنهار على حبيبه بيديه المكاشفات الصفاتية حفظ أيضًا وقت كشوف جلال ذاته له بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا

﴿مَّحْمُودًا﴾ المقصود من تهجد الليل: كشف جمال ذاته للمصلين في جوف الليل، وذلك المقام المحمود.

و﴿عَسَىٰٓ﴾ ها هنا مقام الرجاء ينكشف أنوار جلال ذاته لقلوب العارفين العاشقين في أجواف الليل التي هناك تُسْكَب عبراتهم، وتُصْعَق زفراتهم، يرونه به لا بتهجدهم، هيجهم إلى مقامات الأنس لكشف القدس، فإذا بعثوا هنالك ينسون أنفسهم ويتضرعون بين يديه فيبكون عليه، ويسألون عنه رحمته الكافية الكافة.

قال ﷺ: «إنَّ الله سبحانه يضحك في وجوه المصلين في جوف الليل»(١).

قال الأستاذ: المقام المحمود هو المجالسة في حال الشهود.

ويقال: هو الشفاعة لأهل الكبائر.

ثم علمه دعاء الوسيلة منه إليه بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: أدخلني في بحر قدمك بنعت الفناء والتجريد عن غيرك وصدق المحبة؛ لأن هناك مدخل الصدق؛ حيث لا يبقى مني شيء غيرك، وأخرجني بحر الفناء بنعت البقاء حتى أكون باقيًا معك في مشاهداتك، فإن هناك مخرج صدق؛ حيث لا يبقى معي غيرك، وألبسني من أنوار سلطان عزتك قميص الاستقامة؛ حتى لا أكون فانيًا فيك، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾.

وأيضًا: أدخلني مدخل صدق العبودية، وأخرجني مخرج صدق الربوبية، واجعل لي من لدنك قوة الاتصاف والاتحاد من سلطان كبريائك.

قال سهل: أدخلني في تبليغ الرسالة مدخل صدق ألا يكون لي ميلٌ إلى أحدٍ، ولا أقصر في حدود التبليغ، وشروط وأخرجني من ذلك على السلامة وطلب رضاك منه والموافقة، ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ زينتني بزينة جبروتك ليكون الغالب عليَّ سلطان الحق لا سلطان الهوى.

قال جعفر بن محمد عليهما السلام: أدخلني فيها على حدِّ الرضا، وأخرجني عنها وأنت عني راضٍ.

وقال أيضًا: طلب التولية أن يكون هو المتولي، أي: أدخلني ميدان معرفتك، وأخرجني من مشاهدة المعرفة إلى مشاهدة الذات.

وقال الواسطي: قال المعلّى في شرفه يعني: محمدًا ﷺ ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥) بنحوه.

وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، فأظهر محمد ﷺ من نفسه صدق اللجوء بصدق الفاقة بين يديه، وبصدق اللجوء تزينت الأسرار.

وقال فارس: السلطان هاهنا سلطان على نفسه بقمع هواه، فيلزم جميعها بشاهد الهيبة، فيهلك نفسه بسلطان الوحدانية، وينصر على عدوه بحسن نظر الله له في معاونته، وحمله عن رؤية هواه.

وقال سهل: لسانًا ينطلق عنك، ولا ينطلق عن غيرك، فأجاب الله دعوته، وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

وقال جعفر عليه السلام: حقيقة الفاقة صدق استقامة المدخل فاقة العبودية، والمخرج سعة الربوبية.

وقال الأستاذ: إدخال الصدق أن يكون دخوله في الأشياء بالله لله لا لغيره، وإخراج الصدق أن يكون خروجه عن الأشياء بالله لله لا لغيره.

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ حتى لا ألحظ دخولي ولا خروجي، فلما استقام النبي ﷺ في جميع المعاني أمره الحق أن يخبر الخلق بأنَّ الحق قد ظهر ظهورًا لا شكوك فيه، وارتفع الإبهام والظلام.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الحق هو الحق جلَّ وعزَّ، والباطل الكون، والحق العلم، والباطل الجهل، والحق المعرفة، والباطل النفس والهوى، والحق ما بدا من نور تجلي الحق وإلهامه، والباطل هواجس النفس ووساوس الشيطان، فإذا بدت أنوار سلطان بداهة المكاشفة تنمحي آثار النفس وإلقاء العدو.

وقال فارس: الحق ما يحملك على سبيل الحقيقة، والباطل ما يشق عليك أمرك، ويفرق عليك وقتك.

ويقال: الحق من الخواطر ما دُعِي إلى الله، والباطل ما دُعِي إلى غير الله، ومن الحق ما جاء.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ اعلم أن الصلاة على خمسة أقسام: صلاة المواصلة والمناغاة في مقام الخفاء، وصلاة الشهود في مقام الروح، وصلاة المناجات في مقام السر، وصلاة الحضور في مقام القلب، وصلاة المطاوعة والانقياد في مقام النفس، فدلوك الشمس هو علامة زوال شمس الوحدة عن الاستواء على وجود العبد بالفناء والمحض، فإنه لا صلاة في حالة الاستواء؛ إذ الصلاة عملٌ يستدعى وجودًا، وفي هذه الحالة لا وجود للعبد حتى يصلى كما ذكر في تأويل قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

ألا ترى الشارع ﷺ كيف نهى عن الصلاة وقت الاستواء، فإما عند الزوال إذا حدث ظل وجود العبد سواء عند الاحتجاب بالخلق حالة الفرق قبل الجمع، وعند البقاء حالة الفرق بعد الجمع، فالصلاة واجبةٌ.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ﴾ ليل النفس، ﴿وَقُرْءَانَ﴾ فجر القلب، فأول الصلاة وألطفها صلاة المواصلة والمناغاة، وأفضلها وأشرفها صلاة الشهود للروح المشار إليها بصلاة العصر، كما فسرت الصلاة الوسطى أي: الفضلى في قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨] بها، وأرجاها وأخفاها صلاة السر بالمناجاة أول وقت الاحتجاب بظهور القلب؛ لسرعة انقضاء وقتها؛ ولهذا استحب التخفيف في صلاة المغرب في القراءة وغيرها؛ لكونها علامة لها، وأزجر الصلاة للشيطان وأوفرها تنوير الباطن الإنسان صلاة الحضور للقلب الموما إليها بقرآن الفجر، فإنها في وقت تجليات أنوار الصفات، ونزول المكاشفات، ولهذا استحب التكثر في جماعة صلاة الصبح، وأكد استحباب الجماعة فيها خاصة وتطويل القراءة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: محضورًا بحضور ملائكة الليل والنهار، إشارة إلى نزول صفات القلب وأنوارها، وذهاب صفات النفس وزوالها، وأشدها تثبيتًا للنفس وتطويعًا لها صلاة النفس للطمأنينة والثبات؛ ولهذا سن فيها جعل آية لها من صلاة العشاء السكوت بعدها حتى النوم إلا بذكر الله، وحيث أمكن للشيطان سبيل إلى الوسوسة استحب فيها جعل علامة لها الجهر كصلاة النفس والقلب والسر للزجر، ولا مدخل في مقام الروح والخفاء فأمر بالإخفات.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أي: خصص بعض الليل بالتهجد.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: زيادة على ما فرض خاصة بك؛ لكونه علامة مقام النفس، فيجب تخصيص بزياد الطاعة لزيادة احتياج هذا المقام إلى الصلاة بالنسبة إلى سائر المقامات، فيقتدي بك السالكون من أمتك في تطويع نفوسهم، ويقوي تمكنك في مقام الاستقامة، كما قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[1].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: في مقام يجب على الكل حمده، وهو مقام ختم الولاية بظهور المهدي، فإن خاتم النبوة في مقام محمود أي: الوجود الممكن.

﴿كَانَ﴾ فانيًا في الأصل لا شيئًا ثابتًا، طرأ عليه الفناء ففني، بل الفاني فانٍ في

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٨٠)، ومسلم (٤/ ٢١٧١).

الأزل، والباقي باقٍ لم يزل، وإنما احتجبنا بتوهم فاسد باطل فكشف.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ العقل القرآني الجامع بالتدريج نجوم تفاصيل العقل الفرقاني نجمًا، فنجمًا على الوجود الحقاني على حسب ظهور الصفات أي: نفصل ما في ذاتك مجملًا مكنونًا تفصيلًا بارزًا ظاهرًا عليك؛ ليكون ﴿شِفَآءٌ﴾ لأمراض قلوب المستعدين المؤمنين بالغيب من أمتك، كالجهل والشك والنفاق وعمى القلب والغل والحقد والحسد وأمثالها، فنزكيهم.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تفيدهم الكمالات، والفضائل، وتحليهم المعارف.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الناقصين استعدادهم بالرذائل والحجب الظلمانية، الباخسين حظوظهم من الكمال بالهيئات البدنية والصفات النفسانية.

﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ بزيادة ظهور أنفسهم بصفاتها كالإنكار والعناد والمكابرة واللجاج والرياء والنفاق، منضمة إلى ما لهم من الشك والجهل والعمى والغمة.

قوله سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] القرآن خطابه مع أحبابه المرضى من سقم محبته، ومن داء شوقه، ومن رجاء عشقه، ومن أثقال معرفته، وعظم توحيده، فالقرآن شفاء كل مريض منه، ولكل واحدٍ منهم شفاؤه من حيث داءه، فخطاب التشوق شفاء شوق الشائقين، وخطاب المحبة شفاء محبة المحبين، وخطاب المعرفة شفاء جرح قلوب العارفين، وخطاب التوحيد شفاء آلام جراحة أرواح الموحدين، فيسقيهم مفرح الصفات من تسنيم عيون تجلي الذات، فيصححهم من لوعة الفراق بفنون الترياق، وهو رحمةٌ للمؤمنين من حيث الظواهر؛ لأجل المعاملات، ورحمة خاصة للعارفين من حيث الحالات.

قال الأستاذ: القرآن شفاءٌ من داء الجهل للعلماء، وشفاءٌ من داء الشك للمؤمنين، وشفاءٌ من داء النكرة للعارفين، وشفاءٌ من لواعج الاشتياق للمحبين، وشفاءٌ من داء القنوط للمريدين والقاصدين.

---

(١) قدَّم الشفاء؛ لأنه إشارة إلى سورة الفاتحة، والآيات المتعلِّقة بالأدعية، ولذا قُيِّد بكونه شفاء للمؤمن؛ فإن غير المؤمن لا يجده شفاء بحسب اعتقاده، وإن كان هو في نفس الأمر شفاء، كما أن التوحيد حاصل في نفس الأمر سواء عرفوه أم لا، وإنما الكلام في كلمته، والاعتقاد له، فمَن لم يتكلَّم بكلمته، ولم يعتقده؛ لم يكن التوحيد حاصلاً بالنسبة إليه: أي بالفعل كمَن عنده عسل، وهو يُنكر حلاوته؛ لغلبة الإصفرار على مزاجه، أو كان الضرير يُنكر نور الشمس، وهو ظاهر.

وأنشدوا:

وكــتابك حــولي لا يفــارق مــضجعي   وفــيها شــفاء للــذي أنــا كــاتمُ

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ استنشق منه رائحة الاتحاد، فإنه لمَّا أنعم على العارف بأن جعله متصفًا بصفاته استبشر بروح الأنس، ومباشرة نور القدس، ورأى الحق بالحق في نفس فعله، وهو فعله، ادَّعى من سكر الحال الأنائية، وأعرض عن مقام العبودية في حال الوجد بغير تكلف البشرية، ورعونات النفس، فإذا رآه الله بتلك الصفة أمسك تلك اللطيفة عنه بالتدريج؛ حتى صيره محجوبًا عن تلك الحالة، فيصير آيسًا من رجعته إلى مقامه خجلاً عن دعواه.

قال الواسطي: أعرض بالنعمة عن المنعم، والنعمة العظمى الهداية والإيمان والمعرفة والولاية، والعبد لا ينفك من رؤية ذلك من نفسه، وهذا هو الإعراض عن المنعم بأن يستحلي بطاعته، ويتلذذ بها أو يسكن إليها أو يختص بها من النار.

وقال الأستاذ: إذا أزلنا عنه موجبات الخوف، وأرخينا له حبل الإمهال، وهيأ له أسباب الرفاهية اعتراه مغاليط النسيان، واستهوته دواعي العصيان، فأعرض عن الشكر، وتباعد عن بساط الوفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ الفطرة مختلفةٌ على اختلاف المقامات، ففطرة العارفين خلقت لمقامات المعرفة، وفطرة الموحدين فُطرت لمقامات التوحيد، وفطرة المحبين فُطرت لمقامات المحبة، وفطرة المتوسطين من أهل الإيمان والإيقان فُطرت لفطرة المعاملات والشرائع والدين، وفطرة أهل المشاهدة فُطرت على شهود الصفات وتجلي الذات، فكلٌّ من هؤلاء يعمل على العبودية لزيادة عرفان الربوبية على شاكلة فطرته، فيبدو منه مزيد قرباته ومداناته ومكاشفاته ومشاهداته، وكل من أسرع شوقه إلى الله وفناء في الله فهو أقرب منه، قال تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

قال ابن عطاء: يعمل على ما في سره؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «اعملوا؛ فكلٌّ ميسرٌ لما خلق له»(١).

قال جعفر: كلٌّ يُظهر مكنون ما أودع فيه من الخير والشر.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٨٩١)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٠).

قال الأستاذ: ما تحب الضمائر يلوح على السرائر، فمن صفا عن الكدورة جوهره لا يفوح منها إلا نشر مناقبه، ومن طبع على الكدورة طينته فلا يعبق بمن يحوم حوله إلا ريح مسالبه.

يُقال: حب الغبيراء لا ينبت غصن العود.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بنعمة ظاهرة ﴿أَعْرَضَ﴾؛ لوقوفه مع النفس والبدن، وكون القوى البدنية متناهية، لا تتدبر الأمور الغير المتناهية الممكنة الوقوع من سبب النعمة، وردها عند عدمها وسائر الغير، ولا يرى إلا العاجل وتكبره لاستعلاء نفسه على القلب وظهوره بأنانيته وتفر عنه.

﴿وَنَـَٔا﴾ أي: بعد عن الحق في جانب النفس، وطوى جنبه معرضًا، وكذا في جانب الشر إذا يئس؛ لاحتجابه عن القادر قدرته، ولو نظر بعين البصيرة شاهد قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين، ويتيقن في الحالة الأولى أن الشكر رباط النعم، وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم فشكر وصبر، وعلم أن المنعم قدر فلم يعرض عند النعمة بطرًا وشرًّا خائفًا زوالها غير غافل عن المنعم، ولم ييأس عند النقمة جزعًا وضجرًا راجيًا كشفها مراعيًا لجانب المبلي.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: خليقته وملكته الغالبة عليه من مقامه، فمن كان مقامه النفس، وشاكلته مقتضى طباعها عمل ما ذكرنا من الأعراض واليأس، ومن كان مقامه القلب، وشاكلته السجية الفاضلة عمل بمقتضاها الشكر والصبر.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾: من العاملين، عامل الخير مقتضى سخية القلب، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس فيجازهما بحسب أعمالهما.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾
وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن
يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن
نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا

مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ إنَّ الله سبحانه أبهم علم الروح في ظاهر رسوم العلم، وبيَّنها لأهل المكاشفة من الأنبياء والأولياء، بأنه أراهم الروح بأوصافها في المكاشفة، وذلك سره عندهم، وهم يكتمونه لقلة إدراك أفهام الخلق، ولا يعلمون ماهية وجودها وكيفية خلقها قط، لأن الله قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، ولا يطَّلع على ماهيتها إلا صانعها، وكيف يعلم الخلق ماهيتها وهي كانت معدومة، كوَّنها الحق سبحانه بعد أن ظهر صفاته وذاته بنعت التجلي والكشف عيانًا بلا حجاب العدم، فأوجد الروح بقدرته القائمة، وإرادته الأزلية حين شاهد الصفات الذات، وشاهد الذات الصفات، وشاهد كل صفة كل صفة، وشاهد الصفات الفعل، وشاهد الفعل العدم، فباشر الموجود المعدوم، فظهر الروح من تحت مباشرة القدم العدم، موجودة بوجود الذات والصفات، وشهودها بنعت الظهور، كاملة جامعة متخلقة بخلق الحق، متصفة بصفاته، فبلغت إلى محل يحيي بفيض مباشرة فعله جميع الكون، ففي كل موضع يقع عكسه يحيى بحياة تامة كاملة لا موت فيها، ومن خاصتها أنها تميل إلى كل حسن ومستحسن وكل صوت طيب، وكل رائحة طيبة لحسن جوهرها وروح وجودها، ظاهرها غيب الله، وباطنها سر الله، مصورة بصورة آدم، وخلق الله آدم على صورتها، فإذا أراد الله خلق آدم أحضر روحه فصوَّر صورته بصورة الروح؛ لذلك قال ﷺ إشارة وإبهامًا: «خلق الله آدم على صورته»[1]؛ لذلك قال: على صورته؛ لأن الروح مؤنثة سماعية.

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1] أي: ليس من عالم الخلق؛ حتى يمكن تعريفه للظاهرين البدنيين الذين لا يتجاوزون إدراكهم عن الحس والمحسوس بالتشبيه ببعض ما شعروا به والتوصيف، بل من عالم الأمر أي: الإبداع الذي هو عالم الذوات المجردة عن الهيولي والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين، فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون؛ لقصور إدراككم، وعملكم عنه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو علم المحسوسات، وذلك شيء نزر حقير بالنسبة إلى علوم الله تعالى المناسبة لاستعدادهم وإدراكهم كتفجير العيون من الأرض، وجنة النخيل والأعناب وإسقاط السماء عليهم كسفًا والرقي فيها والإتيان بالملائكة، وسائر الممتنعات المتخيلة، وأجيبوا بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: ما أمكن نزول الملائكة مع كونهم نفوسًا مجردة على الهيئة الملكية في الأرض، بل لو نزلت لم ينزلوا إلا متجسدين كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٩]، وإلا لم يمكنكم إدراكهم، فبقيتم على إنكاركم، وإذا كانوا مجسدين ما صدقتم كونهم ملائكة، فشأنكم الإنكار على الحالين، بل على أي حال كان كإنكار الخفاش ضوء الشمس.

---

(١) تعريف له: بأنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق؛ كنه لَمَّا تعلَّق بعالم الخلق؛ واشتبه على الخلق أنه ما هو، ولم يعرفوا أنه هو الأمر الإبداعي الذي لم يكن له تعلُّق بالأشياء المنفوخ هو فيها؛ لكمال تجرُّده في نفسه؛ لأنه العقل المحض إلا تعلُّق التدبير والتصرف، وهو المراد بالظهور في قول: مَن قال: سبحان مَن أظهر الأشياء؛ وهو عينها؛ ولذا لم يقل: سبحان مَن خلق الأشياء؛ وهو عينها، ومن ثَمَّ زلت فيه بعض الأقدام، وقال ما قال من أسوء الكلام، ثم إن هذا التعلُّق لا ينقطع أبدًا من الأشياء؛ لأن التجليَّات لا تنقلب العدم البتة، وإن دارت في الأطوار المختلفة مثلاً: إن الروح متعلِّق بالإنسان مادام حيًّا، فإذا مات؛ تعلَّق بعناصره إلى أن ينشئه الله ثانيًا، وإنما تمنَّى الكافر أن يكون ترابًا؛ لأن التراب أبعده عن الحضرة من حيث إنه من عالم القوة والإنسان أقرب منها من حيث إنه من عالم الفعل، ولا شك أن العذاب على مَن كذب وتولى لا على مَن أعطاه الله خلقه فهُدي فافهم جدًا، ثم إنه ﷺ إنما توقف في الجواب، وانتظر الوحي الإلهي مع أن علمه حاضر عنده، وهو مرئي له ملكوت السماوات والأرض، كما أن الجواب عن أمر الله أقوى من الجواب عن أمر نفسه؛ لأن الوجه الخاص تابع للوجه العام؛ فاقتضى الأدب الإلهي ألا يتكلم إلا بالحق من كل الوجوه؛ فظهر من هذا التقرير سرُّ قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو أنهم لو كانوا أوتوا من العلم كثيرًا؛ لما احتاجوا إلى السؤال عن أمر الروح؛ فعلم أنهم جاهلون به لاحتجابهم بالغواشي البشرية أنه ﷺ عالم به لأنه أقوى روحًا من عيسى ؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي أن عيسى روح مبتدأ من روح محمد ﷺ بل من الروح الأمين؛ لأنه هو النافخ، ومن ثم كان الحضرة النبوية جَدًّا للحضرة العيسوية، فاعرف جدًا.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بمقتضى العناية الأزلية في الفطرة الأولى بنوره.

﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ خاصة دون غيره.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بمنع ذلك النور عنه.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ أنصارًا يهدونه.

﴿مِن دُونِهِۦ﴾ ويحفظونه من قهره.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: ناكسي الرؤوس؛ لانجذابهم إلى الجهة السفلية، أو على وجوداتهم وذاتهم التي كانوا عليها في الدنيا كقوله: كما تعيشون تموتون، أو كما تموتون تبعثون؛ إذ الوجه يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها أي: على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان.

﴿عُمْيًا﴾ عن الهدى كما كانوا في الحياة الأولى.

﴿وَبُكْمًا﴾ عن قول الحق لعدم إدراكهم المعنى المراد بالنطق؛ إذ ليسوا ذوي قلوب يفهم بها ويفقهه فكيف التعبير عما لم يفهم؟.

﴿وَصُمًّا﴾ عن سماع المعقول؛ لعدم الفهم.

أيضًا: فلا يؤثر فيهم موجب الهداية لا من جهة الفهم من الله تعالى بالإلهام، ولا من طريق السمع من كلام الناس، ولا من طريق البصر بالاعتبار.

﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦]، بل أبلغ منه ذلك بسبب احتجابهم عن صفاتنا خصوصًا قدرتنا على البعث وإنكارهم له أنكروا، وما استدلوا بخلق السماوات والأرض على القدرة.

قال ابن عباس: الروح خلق من خلق الله، صورها على صورة بني آدم، وما نزل من السماء تلك إلا ومعه واحد من الروح.

وقال أبو صالح: الروح كهيئة الإنسان، وليست بإنسان.

قال مجاهد: الأرواح على صورة بني آدم، لهم أيدٌ وأرجلٌ ورؤوس، يأكلون الطعام وليسوا بملائكة.

وما ذكرنا فهو أقل من قليل القليل، الذي قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال بعضهم: الروح شعاع الحقيقة، تختلف آثارها في الأجساد.

وقال بعضهم: الروح لطيفةٌ تسري من الله ﷻ إلى أماكن معروفة، لا يعبر عنه بأكثر من موجودها بإيجاد غيره.

وقال الواسطي: لما خلق الله أرواح الأكابر ردَّها بمعرفته بها، فأسقط عنها معرفتها به، وأسدى إليها علمه بها، فأسقط عنها ما علمت منه، فمعرفتها معرفة الحق إياها، وعلمها علم الحق بها، فصورها بوده إياها على محابها.

قيل: الروح لم تخرج من الكون؛ لأنها لو أخرجت من الكون لكان عليها الذل، فقيل: من أي شيء أخرجت؟ من بين جماله وقدس جلاله بملاحظة الإشارة، وغشاها بجماله ورداها بحسنه، واستمالها بسلامه، وحياها بكلامه، فهي معتقة من ذل ﴿كُن﴾ [الأنعام: ٧٣].

وسُئل أبو سعيد الخرَّاز: عن الروح مخلوقة هي؟ قال: نعم، ولولا ذاك لما أقرَّت بالربوبية حين قالت: بلى، والروح هي التي أوقعت على البدن اسم الحياة، وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل متعطلاً لا حجة عليه ولا له.

سُئل الواسطي عن الأرواح: أين كان مكانها حين أظهرها؟ فقال: إنَّ الأرواح خلقها وقبضها قبل الأجساد، أين كانت صار ما عاين عيانًا؛ لأنَّ الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء.

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ أخبر سبحانه عن سجية النفس الأمارة الإنسانية أنها خلقت بخيلة حريصة على الدنيا، وجمعها ومنعها لعميها عن رؤية الآخرة وبقائها، وعن معرفة الدنيا وفنائها، وهذه النفس إذا قورنت بالروح الصادقة العاشقة، والعقل القدسي، والقلب الملكوتي، والسر الجبروتي تذوب عن خلقها وتزول عن بخلها، وصارت ساكنة عن الحرص، سخية بالبذل، وهذه نفس الأولياء، ونفس الأنبياء خلقت سخية غير حريصة، ونفس العامة

بقيت على حال الفطرة إلا نادرًا، فإن الله سبحانه يخلق في الأحانين كافرًا سخيًا ومؤمنًا بخيلاً.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ لوقوفكم مع صفات نفوسكم التي من لوازمها الشح الجبلي؛ لكون إدراكها مقصورًا على ما يدرك بالحس من الأمور المادية المحصورة، واحتجابها عن البركات الغير المتناهية والرحمة الواسعة الغير المنقطعة التي لا تدرك إلا عند اكتحال البصيرة بنور الهداية، فتخشى نفادها وانقطاعها.

قال حمدون: أخبر الله عن حقيقة طباع الخلق، فقال: لو ملكتم ما أملكه من فنون الرحمة وخزائن الخير لغلب عليكم سوء طباعكم في الشح والبخل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ﴾ الآيات التسع: ملاحة عينه، وحسن وجهه، وحل لسانه، وشرح صدره، وهيبته من الله قد علاه، وانبساطه، وغر بدنه، واستجابة الدعوة بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، والشريعة المجموعة.

وأيضًا: فلق البحر، وانقلاب عصاه، ويده البيضاء، ومقام التجلي، وسماع كلام الصرف، وغلبة الشوق عليه، والمن والسلوى، وانفجار الحجر بالماء، وإحراق الذهب بالكيمياء.

قال جعفر ﷺ: من الآيات التي خصَّه الله بها الاصطناع، وإلقاء المحبة عليه، والكلام والثبات في محل الخطاب، والحفظ في اليم، واليد البيضاء، وعطاء الألواح.

وقال ابن عطاء: من الآيات حمل قوة الخطاب في المشاهدة، والمراجعة في طلب الرؤية، وهذه من أعظم الآيات.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بحق الربوبية على العبودية أنزلنا القرآن على قلوب الصدِّيقين والمقربين؛ ليعرفهم ذاتنا وصفاتنا الأزلية الأبدية، ويدور أسرارهم في عالم الغيوب لترى أسرارنا، وخزائن ملكنا، وعجائب قدرتنا في جميع الذرات؛ لأنَّ القرآن مفاتيح الذات والصفات، وخزائن الملك والملكوت، وبحق العبودية نزل القرآن ليعرفهم منازلنا ومقاماتها من الصدق والإخلاص وجميع المعاملات؛ لتسري على بحارها الأرواح القدسية، والقلوب الروحانية، والعقول الصافية، والأبدان المقدسة، لعرفان مكان الخضوع والفناء في الحق.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لأهله، وحامله بحسن القبول واليقين والمعرفة

والتمكين.

﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن تقاعد عن أمره، ولم يعرف مكانه.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: ما أنزلنا القرآن إلا بعد زوال بشرية النبي ﷺ بالكلية في مقام الفناء، وانتفاء الحدثان عن وجه القدم، وانقشاع ظلمة الإمكان عن سبحات الوجه الواجب الباقي بالفرق الثاني؛ ليكون له محل وجودي، فما كان إنزاله إلا ظهور أحكام التفاصيل من عين الجمع وجدوه مطابقًا لما اعتقدوه، فإن الاعتقاد والحق لا يكون إلا واحدًا.

قال جعفر ﷺ: الحق أنزل على قلوب خواصه من مكنون فوائده، وعجائب بره، ولطائف صنعه، ما نوَّر بهم أسرارهم، وطهَّر بها قلوبهم، وزيَّن بها جوارحهم، وبالحق نزل عليهم هذه اللطائف.

وقال ابن عطاء: مبشرًا لمن أقبل عليك، ونذيرًا لمن أعرض عنك.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أراد بـ﴿ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أوتوا المعرفة، وأوتوا الأرواح الناطقة بالحق العارفة بالحق، العالمة على الحق، في بدء أمرها قبل الكون، ومن قبل ظهور الشرائع والعبودية، سامعة للحق من الحق بلا واسطة ولا حجاب، ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بعد كونهم في الأشباح تكون معرجة من محبة الله، متحركة بشوق الله، مستروحة بلذة خطاب الله، عارفة بمراده، خاضعة لأمره، إذا سمعوا كلام الحق استلذوا محبته في قلوبهم، فيهيجهم إلى بذل الوجود والخضوع بين يدي جبروته، فلا حيلة لهم إلا وضع وجوههم على التراب خنوعًا لجبروته، ومعرفةً بعظم ملكوته، ويذكرون الله وينـزهونه ويقدسونه عن الأضداد والأنداد، وعن الشرك والشريك في ملك ربوبيته، وذلك قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ﴾.

ثم زاد في وصفهم بالخوف عنه وإجلال جلاله بنعت البكاء والخشية بقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ بكاؤهم من شوقه إلى جماله، وحبًّا للقائه، وتعظيمًا لعظمته، ما أطيب هذا البكاء، وما ألذَّ هذا الخشوع، بكاؤهم منه عليه، يبكون من الفقدان في الوجدان، ومن الوجدان في الفقدان، ومن الحضور في الغيبة، ومن الغيبة إلى الحضور، والسرور بالشهود، وحسن الإقبال عليه، وخوف إعراضه عنهم.

وأنشدوا في هذا المعنى:

يـا هـلال السماء كطـرف كليـل ... فـإذا مـا بـدا أضـاء طـرفيه

كـنت أبكـي علـي مـنه فلـما ... أن تـولّى بكـيت مـنه علـيه

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾: باللين والانقياد لحكمه لتأثرهم به، وحسن تلقيهم لقبوله.

قال سهل: لا يؤثر عليه سماع القرآن، فإن العبد إذا سمع القرآن خشع سره لسماعه، وأنار قلبه بالبراهين الصادقة، وزين جوارحه بالتذلل والانقياد.

وقال أبو يعقوب السوسي: البكاء على أنواع، بكاء من الله، وهو أن يبكي شفقة لما جرى عليه من الحق في الأزل من السعادة والشقاوة، وبكاء على الله، وهو أن يبكي حسرة وتحسرًا على ما يفوته من الحق ومن حظه منه، وبكاء لله، وهو البكاء عند ذكره وقربه ووعده ووعيده، وبكاء بالله، وهو يبكي بلا حظ منه في بكائه.

وقال القاسم: البكاء على وجوه، بكاء الجهال على ما جهلوا، وبكاء العلماء على ما قصروا، وبكاء الصالحين مخافة الفوت، وبكاء الأئمة مخافة السبق، وبكاء الفرسان من أرباب القلوب للهيبة والخشية وتواتر الأنوار، ولا بكاء للموحدين.

وقال الأستاذ: السماع مؤثرٌ في قلوب قوم، محير لأسرار آخرين، فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصير، وتأثير السماع في أسماع الموحدين بالتحيير، فيبصر العلماء بصحة الاستدلال، ويحير الموحدين في شهود الجمال والجلال.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ إنَّ الله سبحانه دعا عباده إلى معرفة الاسمين الخاصين، اللذين فيهما أسرار جميع الأسماء والصفات والذات والنعوت والأفعال، فالله اسمه ،وهو اسم عين جمع الجمع، والرحمن اسم عين الجمع، فالرحمن مندرجٌ تحت اسم الله؛ لأنه عين الكل، وإذا قلت الله ذكرت عين الكل، فالقول خبرٌ، والخبر أثرٌ، والأثر ذكرٌ، والذكر فكرٌ، والفكر وقوع نور العقل، ونور العقل مقرونٌ بنور الصفة، ونور الصفة مقرونٌ بنور الذات، فإذا سميته ذكرته، وإذا ذكرته فنيت الصورة في فعله بنعت الخشوع، وإذا فنيت الصورة ذكره العقل، ففني العقل في الاسم والنعت، وإذا فني العقل ذكره القلب بالصفة

والوصف، وفني القلب في الصفة، وإذا فني القلب ذكره الروح بالذات، ففنيت الروح في القدم، وإذا فنيت الروح ذكره السر بباطن العلم، ففي السر في الغيب، وذكره سر السر في غيب غيبه، فلم يبق في البين رسمٌ ولا اسمٌ ولا وصفٌ من حيث العبودية، وبقي الاسم، والمسمى واحدٌ في واحدٍ.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالفناء في الذات الجامعة لجميع الصفات.

﴿أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ بالفناء في الصفة التي هي أم الصفات.

﴿أَيًّا مَّا﴾ طلبت من هذين المقامين لست هناك بموجود، ولا لك بقية ولا اسم ولا عين ولا أثر؛ إذ الرحمن لا يصلح اسمًا لغير تلك الذات، ولا يمكن ثبوت تلك الصفة أي: الرحمة الرحمانية لغيرها، فلا يلزم وجود البقية بخلاف سائر الأسماء والصفات.

﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ كلها في هذين المقامين لا لك.

﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾ في صلاة الشهود بإظهار صفة الصلاة عن نفسك، فيؤذن بالطغيان ظهور الأنانية.

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ غاية الإخفات، فيؤذن بالانطماس في محل الفناء دون الرجوع إلى مقام البقاء، فلا يمكن لأحد الاقتداء بك.

﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ يدل على الاستقامة ولزوم سيرة العدالة في عالم الكثرة، وملازمة الصراط المستقيم بالحق(١).

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فإذا كان العبد في قوله: «الله» هكذا أو في قوله: «الرحمن» هكذا فهو مصدر صفة القدم والبقاء، وهو مصدر القدرة والحياة، فإذا قال: «الله» يفنى الكل، وإذا قال: «الرحمن» يبقى الكل، من حيث الاتصاف والاتحاد، فالاتصاف بالرحمانية يكون، والاتحاد بالألوهية يكون.

قال الحسين: ما دعا الله أحدٌ قط إلا إيمانًا، فأما دعوة حقيقة فلا.

قال الواسطي: أسماؤه لا تدخل تحت الحصر، وذاته ليس بمشار إليه، ولا بموصوف بصفة حقيقية، إلا بصفة المدح والحق، وهو الخارج عن الأوهام والأفهام، فأنّى له النعوت والصفات!

---

(١) أي: طريقًا وسطًا بين الإيمان والكف، ولا واسط، إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله إنما يتم برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه، تفصيلاً وإجمالاً، فالكافر بالبعض كالكافر بالكل في الضلال. انظر: البحر المديد (٢/ ١٠).

وقال الأستاذ: من عظيم نعمته سبحانه على أوليائه تنـزيههم بأساريرهم في رياض ذكره بتعداد أسماء الحسنى، فينقلبون من روضة إلى روضة، ومن مأنس إلى مأنس.

ويقال: الأغنياء ترددهم في بساتينهم وتنزهم في منابت رياحينهم، والفقراء تنزههم في مشاهدة تسبحيهم، يسترحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جماله وجلاله.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: أظهر الكمالات الإلهية والصفات الرحمانية التي لا تكون إلا للذات الأحدية.

﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي: لم تكن علة الموجود من جنسه؛ لضرورة كون المعلول محتاجًا إليه، ممكنًا بالذات، معدومًا بالحقيقة، فكيف يكون من جنس الموجود حقًّا الواجب بذاته من جميع الوجوه؟

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ﴾ من يساويه في قوة القهر والمملكة من الشريك في الملك؛ وإلا لكانا مشتركين في الوجود والحقيقة، فامتياز كل واحد منهما عن الآخر لا بدّ وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبية، فلزم تركبهما فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين.

وأيضًا: فإن لم يستقلا بالتأثير لم يكن أحدهما إلهًا، وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه، فلا شريك له.

وإن استقلا جميعًا لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد إن فعلا معًا وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر رضي بفعله أو لم يرض.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: لم يكن له ناصر علة كان أو جزء علة تقويه وتنصره من ذلة الانفعال والعدم، وإلا لم يكن إلهًا واجبًا بل ممكنًا؛ لتكون حبيبًا قائمًا به لا بنفسك .

﴿وَكَبِّرْهُ﴾ من أن يتقيد بصفة دون أخرى، وصورة غير أخرى، أو يلحقه شيء من هذه النقائض، فينحصر في وجود خاص، تبارك وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿تَكْبِيرًۢا﴾ لا يقدر قدره، ولا يعرف كنهه، لامتناع وجود شيء غيره يفضل عليه وينسب إليه، بل كل ما يتصور ويعقل، ولا تكبر غيره بهذا التكبير.

ثم إن الله سبحانه أمر حبيبه وصفيه ﷺ بأن يحمده؛ لأنه كان أهل المدح والحمد بالحقيقة لا غير، أمره بحمده بأن أخبره عن تنزيه قدمه عن إشارة كل مبتدئ إلى ابتدائه؛ لأن ابتداءه منزه عن كل ابتداء، فإن ابتداء قدمه هو القدم، وقدم القدم منزه عن حصر الزمن، وقدم قدمه مع تنزيهه عن العدد، وعلة الابتداء لم يكن محلاً للحوادث بقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ

وَلَدًا﴾، بدأ الكل من حواشي حرفية النون وكافه، فكافه ونونه منزه عن أن يكون محلاً لحمل الحدثان، وأخذه من حيث المباشرة بدء حين القدر جاء بأمر القدم، فظهر الكون من نيران الكاف والنون، حيث أظهرها من العدم للقدم، فإذا قطع الخيال والأوهام عن درك الأولية، روح الأسرار بأحديته عن كل ضد وند، بأن يزول عزته عن تعالي الأضداد عليه، ففزع أسرار الموحدين عن نقائص الفناء، ودخولها في بقائه لقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ فإذا أفرد نفسه عن النقائص والنكائد وعلل الحوادث فردانية حقيقية منزهة عن أوهام المشيرين إليه بعلل الخيال والوهم والعدد والمدد، أمره بأن يكبره ويعظمه من كل خاطر ممزوج بالتشبيه والتعطيل بقوة ظهور كبريائه في قلبه لا من حيث العلم والصورة بقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ تعالى الله، وتعالى كبريائه عن أن يكون في ملكه متكبرًا، وفي ساحة جلاله متعظم.

قال ابن عطاء: عظم منته وإحسانه في قلبك بعلمك بتقصيرك في شكره.

وقال بعضهم: اعلم أنك لا تطيق أن تكبره الآية، فاستغث به ليدل قلبك على مواقف التعظيم.

سورة الكهف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ حمد نفسه سبحانه في الأزل، وكان موصوفًا بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له حمدًا يكافئ كتابه الذي أنزل على عبده، ولو وكل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه؛ لذهب بحمده عن وجود الكون، ولم يطق أن يحمل وارد حمده بحكمة واستحقاق حمده.

فشكر نفسه لما منَّ على عبده؛ ليسهل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا يحتمل إلا القديم، شرف على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وسماه عبده، وأي: تكرمة أكرم من هذا، ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفنى أول سطوات عظمته الكون كان مسألة تعليم

لعبادة أي: احمدوا الله الذي عرف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه، وقبول وحيه قوة رؤيته من يعبر عنه بلسان غير معوج، وغير مفهوم ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي من يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا متصف بصفاته، فالحمد وجب على الجمهور؛ حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه.

قال ابن عطاء: أضاف الكل بالكلية إلى نفسه، وقال على عبده أي: على عبده المخلص، وحقيقة العبد الذي لا ملك له.

وقال أيضًا: الكتاب منشورٌ ظاهر فيه أسرار باطنه.

﴿عِوَجَا﴾ أي: زيغًا وميلًا إلى الغير، كما قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] أي: لم ير الغير في شهوده.

﴿قَيِّمًا﴾ اجعله قيمًا يعني: مستقيمًا كما أمر بقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]

والمعنى: جعله موحدًا فانيًا فيه غير محتجب في شهوده بالغير ولا بنفسه، لكونها غير أيضًا ممكنًا مستقيمًا حال البقاء.

كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

أو جعله قيمًا بأمر العباد وهدايتهم إذ التكميل يترتب على الكمال؛ لأنه ﷺ لما فرغ من تقويم نفسه وتزكيتها أقيمت نفوس أمته مقام نفسه، نأمر بتقويمها وتزكيتها، ولهذا المعنى سمي إبراهيم- صلوات الله عليه- أمة.

وهذه القيمة أي: القيمة بهداية الناس داخلة في الاستقامة المأمور هو بها في الحقيقة؛

﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلق بعامل قيمًا أي: له قيمًا بأمر العباد؛ لينذر ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ وحذف المفعول الأول للتعميم؛ لأن أحدًا لا يخلو من بأس مؤمن كان أو كافر.

كما قال تعالى: **«أنذر الصديقين بأني غيور، وبشّر للمذنبين بأني غفور»**(١)، إذ البأس عبارة عن قهره، ولذلك عظمه بالتنكير أي: بأسًا يليق بعظمته وعزته ووصفه بالشدة، وخصصه بقوله: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ والقهر قسمان: قهر محض ظاهره وباطنه قهر كالمختص بالمحجوبين بالشرك، وقسم ظاهره قهر وباطنه لطف وكذا اللطف.

كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ: سبحان من اشتدت نقمته على أعدائه في سعة نعمته،

---

(١) لم أقف عليه هكذا، وقد ثبت في أحاديث عدة بنحوه.

واتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته، ومن القسم الثاني: القهر المخصوص بالموحدين من أهل الفناء أطلق الإنذار لكل تنبيهًا ثم فصل اللطف والقهر مقيدين بحسب الصفات والاستحقاقات.

فقال: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الموحدين لكونهم في مقابلة المشركين الذين قالوا: اتخذا الله ولدًا، ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الباقيات من الخيرات والفضائل؛ لأن الأجر الحسن: هو من جنة الآثار والأفعال التي تستحق بالأعمال.

واعلم أن الإنذار والتبشير اللذين هما من باب التكميل اللازم؛ لكونه قيمًا عليهم كلاهما أثر ونتيجة عن صفتي القهر واللطف الإلهيين اللذين محل استعداد قبولها من نفس العبد الغضب والشهوة، فإن العبد ما استعد لقبولها إلا بصفتي: الغضب والشهوة وفنائهما، كما لم يستعد لفضيلتي الشجاعة والعفة إلا بوجودهما، فلما انتفتا قامتا مقامهما؛ لأن كلًّا منهما ظل لواحدة من بينك يزول بحصولها، فعند ارتواء القلب منهما، وكمال التخلق بهما حدث عن القهر الإنذار عند استحقاقية المحل بالكفر والشرك، وعن اللطف التبشير باستحقاقية الإيمان والعمل الصالح؛ إذ الإفاضة لا تكون إلا عند استحقاق المحل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ العمل الصالح: التبري من الوجود بوجود الحق، والأجر الحسن مشاهدة الحق بلا حجاب أبدًا.

قال بعضهم :العمل الصالح ما أريد به وجه الله لا غير، والأجر الحسن لا يحجب عن لقاء سيده تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ومن لم يجد مقام مشاهدته، ولم يعرف ذاته وصفاته بنعت رؤيته وخطابه، ويشير إليه بكلمة المعرفة فقد عظم ذلك عند الله؛ لأنه افترى على الله كذبًا يا ليت لو خلص من عاينه، وأخبر عنه من هذه الورطة؛ لأن من عاينه وأخبر عنه، فقد أخبر عن غيره، وخبره وقع موقع تلك الكلمة التي كبرت، تخرج من أفواههم؛ ألا ترى إلى تمام الآية: كيف شكا عن الكل فقال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، ولذلك قال الواسطي: من ذكر افترى.

وقال ابن عطاء: أكبر الدعاوى من ادعى في الله، وأشار إلى الله، أو يكلم عن الله أو دخل في ميادين الانبساط، فإن ذلك كله من صفات الكذابين.

قال الله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ولتحقق به لا يظهر شيئًا من أحوال بحال.

وقال الأستاذ: من تكلم بهذا اللسان قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما لهم بهذا القول من علم بل إنما يصدر عن جهل مفرط وتقليد للآباء لا عن علم ويقين ويؤيده قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: ما أكبرها كلمة ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ليس في قلوبهم من معناه شيء؛ لأنه مستحيل بالقرآن، استشعر ببقية من نفسه وتوجس بنقصان حالة فعلاه الوجد، وعزم على قهر النفس بالكلية طلبًا للغاية، وكان ذلك من فرط شفقته عليهم، وكمال أدبه مع الله حيث أحال عدم إيمانهم على ضعف حاله على عدم استعدادهم؛ ولذلك سلاه بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعًا إنا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء، ثم نفنيها ولا حيف ولا نقص، أو إنا جعلنا من على أرض البدن من النفس ولذاتها وشهواتها وقوى صفاتها وإدراكاتها ودواعيها ﴿زِينَةً لَّهَا﴾؛ ليظهر أيهم أقهر لها وأعصى لهواها في رضاي، وأقدر على مخالفتها لموافقتي.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أخبر سبحانه عن محبة حبيبه نظام طريق محبته وعبودية عباده له، وشدة حرصه واهتمامه على الخلق، ومن غلبه ذلك غاص في بحر الأولية، وسابق العناية لطلب فسخ إبرام القدر المقدر لا بنفسه، وذلك من علمه بتنزيه جلاله؛ حتى لو أراد أن يبدل جميع أقداره لقدر، ولو يغفر لجميع الكفار لقدر، ولا نقص على برهانه وسلطانه، فأعلمه الحق أن هذا رسم أسرار الربوبية، ولا تقدر أن تهتك تلك الأسرار؛ لأنه غيور على سره وغيبه.

قال بعضهم: لا تشغل سرك بمخالفتهم فما عليك إلا البلاغ، والهدى منا لمن نشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ إن الله سبحانه جعل في الأرض آيات السفلية من كل ما أظهر فيها من: الأنهار والأشجار والجبال والبحار والمعادن والنبات والرياحين، وألبسها قميص أنوار صفاته، وجعلها مرآة للعارفين؛ لينظروا فيها، ويرون فيها أنوار جلاله وجماله، وأي زينة لها أعظم من نور بهائه وضياء صنائعه، ويمتحن بذلك

المحتجب بمحل الزينة، والمنفرد برؤية الصفات.

وذلك قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. العمل هاهنا ترك صورة الزينة والمزين والاشتغال بالمزين؛ بأن آثار جماله مبين من كل ذرة فمن نظر إلى ذلك رأى الأشياء بالحقيقة.

لذلك قال ﷺ: «اللَّهُمَّ أرِنَا الأشْيَاء كَمَا هِيَ» (١) وأيضًا: زينة الأرض أولياء الله والخلق ممتحنون بهم؛ حتى من يعرف حقوقهم فحسن العمل النظر إليهم بالحرمة.

قال ابن عطاء: أحسن إعراضًا عنها وتركًا لها.

وقال سهل: أحسن توكلاً علينا فيها.

وقال أيضًا: حسن العمل الاستقامة عليها بالسنة.

وقال القاسم: زينة الأرض: الأنبياء والأولياء والعلماء الربانيون والأوتاد.

وقيل: أهل المعرفة بالله والمحبة له المشتاقون إليه هم: زينة الأرض ونجومها وأقمارها وشموسها.

وقال الجنيد: أهل الفهم عن الله هم الذين جعلوا ما على الأرض من زينتها عبرة لهم؛ لئلا يتشاغلوا بشيء من الزينة، ولا يعملوا بشيء من الزينة، ويعملون لمن زين هذه الزينة.

قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ﴾ أعلى همة وأطرب نفسًا في الإعراض عما لا يبقى بالاشتغال بالباقي.

وقال الواسطي: أيهم أفزع قلبًا وأصفى قصدًا.

يقال: العباد بهم زينة الدنيا، وأهل المعرفة بهم زينة الجنة.

ويقال: زينة الأرض تكون الأولياء، وهم أمان في الأرض.

ويقال: إذا تلألأ أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرق حمى الآفاق بحيائهم.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أصدقهم نية، وأخلصهم طوية.

ثم إنَّ الله سبحانه لما آوى أولياؤه إلى حضرته القديمة، بقي ما على الأرض من زينة ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يابسًا وأرضًا فقرًا لا نبات فيها؛ ليتعطل الحدثان، ويبقى الرحمن بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: تغرب شموس أنوار الصفات في مغارب الأفعال، فلا يبقي في مرآة الفعل أثر من نور الصفة؛ لأن نور الصفة رجع إلى معدنه من الذات وظهوره؛ لأجل سلب قلوب الصديقين من الأولياء إلى تلك المعاهد، فإذا بلغوا إلى مأواهم ذهب معهم أنوار الصفات.

(١) ذكره ابن عادل في تفسير اللباب (٣/ ٧).

قال الواسطي: في هذه الآية الكون في قبضة الحق، وهو هباء في جنب القدرة.

قال الله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ بتجلينا وتجلي صفاتنا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من صفاتها هامدة كأرض ملساء لا نبات فيها أي: نفنيها وصفاتها بالموت الحقيقي وبالموت الطبيعي ولا نبالي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ ذكر سبحانه من بسط قدرته، وعظيم آياته، وعجائب شأنه أي: إيش معجب من أصحاب الكهف والرقيم من لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنين وزيادة فإنهم في مراقد أُنسنا، وبساتين قدسنا، غائبون نينا عن غيرنا، فإن في سعة قدرتنا، إنا نحن لو نشق وردة من بساتين غيبنا لمشامّ العالمين، يهيمون في البوادي والقفار أبدًا، وما أظهرنا فيك من الآيات الكبرى أعجب من حالهم ألف مرة، وليس في عالم القدرة القديمة عجز عن إيجاد كل موهوم ومعدوم.

قال الحسين: أصحاب الكهف في ظل المعرفة الأصلية لا يزايلهم بحال؛ لذلك خفي على الخلق آثارهم.

وقال ابن عطاء: سلبهم عنهم وأخذهم منهم، وحال بينهم وبين الأغيار، وألجأهم إلى غار الأنس، وآواهم ، وآمنهم ثم أفناهم عنهم، وغيبهم من إرادتهم ومعاينتهم، فتاهوا في الحضرة والهين؛ لذلك قال الله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، بل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾.

أي: إذا شاهدت هذا الإنشاء والإفناء، فليس حال أصحاب الكهف آية عجيبة من آياتنا، بل هذه أعجب.

وقال الجنيد: لا تتعجب منهم فشأنك أعجب من شأنهم، حيث أسري بك في ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبلغ بك سدرة المنتهى، وكنت للقربى كقاب قوسين أو أدنى، ثم رددت عند انقضاء الليلة إلى مضجعك.

وقال بعضهم: أصحاب الكهف كالنومى لا علم لهم بوقت، ولا زمان ولا معرفة بمحل، ولا مكان، أحياء موتى صرعى مفيقون، نومى متنبهون، لا إليهم سبيل، ولا لهم إلى غيرهم طريق، ورددت عليهم خلع الهيبة، وأظلهم بنور التعظيم، وأحدثت بهم حجب العظمة، واستناروا بنور العرش الكريم؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

وقال الأستاذ: مكثوا في الكهف مدة، فأضافهم إلى مستقرهم، فقال أصحاب الكهف:

وللنفوس محالّ، وللقلوب مقارّ، وللهمم مجال، وحيثما يعتكف القلب، فهناك يطلب أبدًا صاحبه.

واعلم أن أصحاب الكهف هم السبعة الكمَّل القائمون بأمر الحق دائمًا الذين يقوم بهم العالم، ولا يخلو عنهم الزمان على عد الكواكب السبعة السيارة وطبقها، فكما سخرها الله تعالى في تدبير نظام علم الصورة، كما أشار إليه بقوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝﴾ [النازعات: ٤، ٥] على بعض التفاسير.

وكل نظام عالم المعنى، وتكميل نظام الصورة إلى سبعة أنفس من السابقين كل ينتسب بحسب الوجود الصوري إلى واحد منهم، والقطب هو المنتسب إلى الشمس، والكهف هو باطن البدن، والرقيم ظاهره الذي انتقص بصور الحواس والأعضاء، إن فسر باللوح الذي رقمت فيه أسماؤهم والعالم الجسماني، إن جعل اسم الوادي الذي فيه الجبل والكهف والنفس الحيوانية، إن جعل اسم الكلب والعالم العلوي، إن جعل اسم قريتهم، على اختلاف الأقوال في التفاسير.

ومنهم الأنبياء السبعة المشهورون المبعوثون بحسب القرون والأدوار، وإن كان كل نبي منهم على ذكر وهم: آدم وإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ؛ لأنه السابع المخصوص بمعجزة انشقاق القمر أي: انفلاقه عنه لظهوره في دورة ختم النبوة، وكمل به الدين الإلهي. كما أشار إليه بقوله: **«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»**(١) إذ المتأخر بالزمان والظهور أي الوجود الحسي هو الحائز لصفات الكل، وكمالاتهم كالإنسان بالنسبة إلى سائر الحيوانات.

ولهذا قال: **«كان بنيان النبوة قد تم، وبقي منه موضع لبنة واحدة، فكنت أنا تلك اللبنة»**(٢).

وقد اتفق الحكماء المتألهة من قدماء الفرس أن مراتب العقول والأرواح على مذاهبهم في التنازل تتضاعف إشراقاتها، فكل ما تأخر في الرتبة كان حظه من إشراقات الحق وأنواره، وسبحات أشعة وجهه وإشراقات أنوار الوسائط بكل منها من مبادئها في الأزل. كما قال ﷺ: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»**(٣) حتى انتهت الدرجات في العلو إلى الفناء والتوحيد الذاتي فبهذا الاعتبار يكون محمد ﷺ عين آدم، بل عين السبعة وكذا باعتبار كونه

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٦٨)، ومسلم (٣/ ١٣٠٥).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٧٩٠).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٢٣٨)، ومسلم (٤/ ١٩٥٨).

جامعًا لصفاتهم.

كما قيل: إنه سئل أبو يزيد - رحمة الله عليه- أنت من السبعة؟ فقال: أنا السبعة.

وباعتبار علو مرتبته ومكانته وسبقه في القدم، وارتفاع درجة كماله وفضيلته كان أقدمهم، وأولهم وأفضلهم. كما قال: «**أول ما خلق الله نوري، وكنت نبيًا وآدم بين الماء والطين**»(1) فهو متقدم عليهم بالرتبة والعلية والشرف والفضيلة، متأخر عنهم بالزمان، وهو عينهم باعتبار السر، والوحدة الذاتية فالحاصل أن اختلافهم وتباينهم روحًا وقلبًا ونفسًا لا ينافى اتحادهم في الحقيقة، وكذا افتراقهم بالأزمنة لا ينافي معيتهم في الأزل والأبد وعيَّن الجمع.

كما قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] مع قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [آل عمران: ٨٤] ويجوز أن يكون المراد بأصحاب الكهف: روحانيات الإنسان التي تبقى بعد خراب البدن.

وقول من قال: ثلاثة إشارة إلى الروح والعقل والقلب، والكلب هي النفس الملازمة لباب الكهف، ومن قال خمسة إشارة إلى: الروح، والقلب، والعقل النظري والعقل العملي، والقوة القدسية للأنبياء التي هي الفكر لغيرهم، ومن قال: سبعة فتلك الخمسة مع السر والخفاء ، والله أعلم.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾أي: كهف البدن بالتعلق به ﴿فَقَالُوا﴾ بلسان الحال ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من خزائن رحمتك التي هي أسماؤك الحسنى ﴿رَحْمَةً﴾ كما لا يناسب استعدادنا ويقتضيه، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن فيه من مفارقة العالم العلوي، والهبوط إلى العالم السفلي لاستكمال ﴿رَشَدًا﴾ استقامة إليك في سلوك طريقك والتوجه إلى جنابك أي: طلبوا بالاتصال البدني والتعلق بالآيات الكمال وأسبابه الكمال العلمي والعملي.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ وصف الله سبحانه أول زمرة السبعة المختارة من أصحاب الكهف، والثلاثة المختارة من أصحاب الرقيم، وهم فتيان المعرفة الذين خُلقوا بسجية الفتوة، وفتوتهم إعراضهم عن غير الله، وعن الكون جميعًا، وإقبالهم على الله بنعت

---

(١) روى عبد الرزاق في المصنف (١٨) عن معمر عن ابن المنكدر عن جابر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى؟ فقال: هو نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء... الحديث، وانظر: الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق (ص٦٣)، وشرف المصطفى للخركوشي (١/ ٧٠٣)، وكشف الخفاء للعجلوني (١/ ٣١١)، والمواهب اللدنية (١/ ٧١)، ومواكب ربيع في مولد الشفيع للحلواني (ص٢٧، ٣٣).

إيوانهم إلى كهوف وصاله، وظلال جماله، وحصون أنسه، وقصور قدسه بذلوا مهجتهم لله بلا نصب لأنفسهم، وطلبوه منه، ودخلوا في مزار قربه، ومساقط أنوار شهوده، فلما استقاموا في منازل الأنس، ومشاهدة القدس ورأوا محبوبهم بنعت الرعاية والكلاءة، هيجهم نور البسط، وسر الافتقار إلى سؤال زيادة القربات والمدانات.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ معرفة كاملة وتوحيدًا عزيزًا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ من أمر محبتك ﴿رَشَدًا﴾ صبابتك والوصول إلى وصال قدمك الذي بلا زوال ولا امتحان، فهناك مقيل السعادة الكبرى، ومراقد المشاهدة الكبرى.

قال الأستاذ: آواهم إلى كهف بظاهرهم، وفي الباطن مهد مقيلهم في ظل إقباله وعنايته، ثم أخذهم عنهم رقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال، وهم مصطلمون عن شواهدهم، فلما عاينوا من الكشف الأكبر، والرضوان الأعظم، استطابوا الوقت، وخافوا الفوت، والتجئوا منه إليه، فألطف عليهم الحق سبحانه، فغيبهم عن الوجود، وأخذهم بنفسه عن وجودهم بقوله:﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ ذكر واحدًا من الإحساس وجميعها مستغرقة في أنوار وطأة هيبة الجلال عليهم، لما سترهم وضرب عليهم سرادق غيرته، بقي عليهم حس الآذان، فضرب على آذانهم ستر الغيرة؛ حتى لا يحسوا أصوات الأغيار أدخلهم في قباب عصمته، وآنسهم بحسن مشاهدته، وغيبهم عنهم فيه وزال عنهم رسوم البشرية، فبقوا مع الحق بالحق ناظرًا إلى الحق بلا فترة.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم نومه الغفلة عن عالمهم وكمالهم نومة ثقيلة لا ينبههم صفير الخفير، ولا دعوى الداعي الخبير في كهف البدن ﴿سِنِينَ﴾ ذوات عدد أي: كثيرة أو معدودة أي: قليلة هي مدة انغماسهم في تدبير البدن وانغمارهم في بحر الطبيعة مشتغلين بها غافلين عما وراءها من عالمهم إلى أوان بلوغ الأشد الحقيقي، والموت الإرادي والطبيعي، كما قال: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[1].

وفيه نكتة لطيفة: لما رأوا الحق بهتوا في أنوار قدمه، وفنوا في سطوت عظمته، وذهبوا عن مقام سماع الخطاب لو بقي عليهم سماع الخطاب، لم يستحكموا في مقام الخطاب على حد الرضا مقام الاستلذاذ والأنس والبسط والبقاء، فأفناهم عنها لاستيفاء حظ التوحيد والفناء عنهم.

وأيضًا: صارت أسماع الظاهر إلى سماع بواطنهم، فسمعوا بأسماع القلوب والأرواح

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٢٠٧).

والأسرار، وما سمعوا من الحق شغل أسماع خواطرهم عن أسماع الأصوات المختلفة.

قيل: أخذنا عنهم أسماعهم؛ حتى لا يسمعوا إلا منا، وأخذنا عنهم أبصارهم، فلا ينظروا إلا إلينا؛ حتى لا يكون لهم إلى الغير التفات، ولا للغير فيهم نصيب بحال.

وقال ابن عطاء: أخرجنا منهم صفة البشرية، وأفنيناهم بصفات القدسية، قدسنا ظواهرهم وبواطنهم وجعلناهم أسراء في القبضة، ثم رددناهم إلى هياكلهم وصفاتهم بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

قال أيضًا: إن الفائدة في الضرب على الآذان، وليس للآذان في النوم شيء إنه ضرب على آذانهم، حتى لا يسمعوا الأصوات، فينتبهوا ويكونوا من الخلق كلهم في راحة.

قال الأستاذ: أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه، وحقائق ما كنا سقيناهم به من شهود الأحدية، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية، فلما استوفوا حظ شهود الغيب، ولطائف مقام السكر، وأراد أن يجعلهم من مقام الصحو لهم حظًا، رفع عنهم برجاء الهيبة، وسجوف ليالي الحشمة، وآفاقهم عن خمار السكرة بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أقامهم مقام الاستقامة؛ ليعرفوا منازل القرب بنعت الصحو؛ لأن السكارى صيروا في قفار الديمومية بالحظ، والوجد لا بالمعرفة، وليعرفوا مسالك الحقيقة أهل الإرادة.

قال الأستاذ: أي رددناهم إلى حال صحوهم أوصاف تمييزهم، أقمنا شواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: نبهناهم عن نوم الغفلة بقيامهم عن مرقد البدن، ومعرفتهم بالله وبنفوسهم المجردة ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهر علمنا في مظاهرهم أو مظاهر غيرهم من سائر الناس ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين في مدة لبثهم، وضبط غايته الذين يعينون المدة أم يكلون علمه إلى الله، فإن الناس مختلفون في زمان الغيبة.

يقول بعضهم: يخرج أحدهم على رأس كل ألف سنة، وهو يوم عند الله؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] إلى الحق عند كل جبار هو دقيانوس وقته، كنمرود وفرعون وأبي جهل وأضرابهم ممن دان بدينهم، واستولى عليه النفس الأمارة فعبد الهوى أو ادعى لطغيانه، وتمرد أنانيته وعدوانه الربوبية من غير مبالاة عند معاتبته إياهم على ترك عبادة الصنم المجعول، كما هو عادة بعضهم أو صنم نفسه. كما قال فرعون اللعين: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ

ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وليس شيء أطيب عند الحبيب من ذكر أحبائه لأحبائه، ذكر الحبيب الأول، ما الحبيب عند الحبيب استطاب الحق ذكر قصة فتيان محبته ومعرفته لحبيبه الأكبر؛ ليعرف منازل المحبين والعارفين الذين هاموا بوجوههم في بيداء شوقه وعشقه؛ ليزيد رغبته في شوقه ومعرفته أي: أنا أحقق خبر أسرارهم لك؛ لتعرفهم أين تاهوا في مفاوز القيومية، وأين استغرقوا في بحار الديمومية؟

يا حبيبي اعلم أن تلك فتيان محبتي انفردوا بي عن غيري، وهم شبان حسان الوجوه قلوبهم مُسفرة بأنوار شمس جلالي فيها، وأسرارهم مقدسة بسر أسرار قدسي، أبدانهم غائبة في مجالس أنسي آمنوا بربهم عرفوني بي، واستأنسوا بي واستوحشوا من غيري، ما أطيب حالهم معي، ما أحسن شأنهم في محبتي زدناهم نورًا من جمالي، فاهتدوا به طرق معان ذاتي وصفاتي، وذاك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نوري لا نهاية له.

وأيضًا: زدناهم مشاهدة وقربًا وصالاً ومعرفة وكمالاً ومحبة وشفاء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ الآية.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أصحاب الفتوة حيث بذلوا أنفسهم لي، ولوجدانهم حسن وصالي أبدًا.

يا حبيبي الفتوة: من الفتيان بالحقيقة طلب معادن المحبة، والانصراف إلى مصرف المعرفة، وإلقاء الوجود بنعت الوجد للموجود القديم جل وعز.

قال ابن عطاء: زدناهم نورًا، ومن يعرف قدر زيادة الله؛ لذلك كانت الشمس ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ خوفًا من نورهم على نورها أن يطمسه.

وقال أيضًا في قوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ لتنظر إليهم بعين المشاهدة.

وقال سهل: سماهم الله فتية؛ لأنهم آمنوا بالله بلا واسطة، وقاموا إلى الله بإسقاط العلائق.

وقال فضيل: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

قال أبو عثمان: الفتوة اتباع الشرع والاهتداء بالسنن، وسعة الصدر، وحُسن الخُلق.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ جعلناهم أئمة المهتدين.

وقال بعضهم: سهَّلنا لهم طريق القربة والوصلة.

ويقال: لا يسمع قصة الأحباب أعلى وأجل مما يسمع من الأحباب.

قال عز من قائل: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

وأُنشد في معناه:

وَحَدَّثْتَنِي يا سَعدُ عَنها فَزِدتَنِي جُنونًا فَزِدني مِن حَديثِكَ يا سَعدُ

ويقال: فتية؛ لأنهم قاموا بالله، وما استقروا؛ حتى وصلوا إلى الله.

وقال الأستاذ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ لاطفهم بإحضارهم، ثم كاشفهم بما زاد من أنوارهم فلقاهم أولاً بالنبيين، ثم رقاهم عن ذلك إلى ما كان كاليقين، ثم زاد في وصف إيقانهم وإيمانهم، وعرفانهم ثبات قلوبهم؛ حين قاموا مقام المحبة؛ بشرط وفاء العبودية، ونفاذ أبصارهم وأسرارهم في المشاهدة والبراهين العقلية، وبلوغها إلى رؤية رب العزة بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أضاف ارتباط قلوبهم إلى نفسه؛ حيث عرَّفهم نفسه بنفسه بلا واسطة، فلما أدخلهم في عالم الملكوت، وأراهم سبحات عظمة الجبروت، كادت قلوبهم تفنى في أول بوادي أنوار العزة، بديهة كشف سناء الأولية فألقى عليها رواسي نوار الهيبة، وربطها على مشاهد القربة بمسامير المحبة؛ حتى استقاموا في المعرفة حين قاموا بالشوق إلى مشاهدة الوصلة، فلما عظم عليهم قهر لطمات بحر القدم ألجأهم الحق إلى سواحل الكرم، وأشهد ما أخرج من العدم؛ حتى ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولولا خوف الزوال لهم ما غابوا عن القدم إلى مراسم العدم، ولكن قلوبهم في مواقف العدم مرتبة، وإن كانوا في مشاهدة الرسوم لهم إشارة إلى براهين.

بقوله تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي: لن نرى من دونه شيئًا في البين، ولو نرى الوسائط في رؤية الوسائط ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي:ميلاً عن طريق إفراد القدم عن الحدوث.

قال ابن عطاء: رسمنا أسرارهم بسمة الحق فقاموا بالحق للحق ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا﴾ إظهار إرادة، ودعوة.

ثم قالوا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ رجوعًا من صفاتهم بالكلية إلى صفاته، وحقيقة علمه ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ لن نعتمد سواه في شيء لو قلنا غير ذلك كان شططًا يعني بعيدًا من طريق الحق.

وقال جعفر: قاموا إلى الحق بالحق قيام أدب، ونادوه نداء صدق، وأظهروا له صحة الفقر ولجئوا إليه أحسن اللجاء ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ افتخارًا به وتعظيمًا له فكافأهم الحق على قيامهم الإجابة عن ندائهم بأحسن جواب، وألطف خطاب، أظهر عليهم من الآيات ما يعجب منه الرسل حين قال: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ وقد استدل بعض المشايخ بهذه الآية في حركة الواجدين في وقت السماع؛ لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حركها أنواع الأذكار، وما يرد عليها من فنون السماع.

والأصل قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ نعم هذا المعنى إذا كان القيام قيامًا بالصورة، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية والربط من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين والاستدلال بها في السكون في الوجد أحسن إذا كان الربط بمعنى التسكين، والقيام بمعنى الاستقامة.

ويقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بما أسكنا فيها من اليقين فلم تسبح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين.

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ إشارة إلى النفس الأمارة وقواها، لأن لكل قوم إلهًا تعبده، وهو مطلوبها ومرادها والنفس تعبد الهوى كقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]

وإلى أهل زمان كل من خرج منهم داعيًا إلى الله إذ كل من عكف على شيء بهواه، فقد عبده.

﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على عبادتهم وإلهيتهم وتأثيرهم ووجودهم.

﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: حجة بينة دليل على فساد التقليد، وتبكيت بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله، وتأثيره ووجوده محال.

كما قال: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي: أسماء بلا مسميات لكونها ليست بشيء.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أخبر سبحانه عن صدقهم وإخلاصهم وفرحهم بالإيمان بالله، والنجاة عن الكفر والضلال، واجتماعهم في مقام الخلوة أي: إذا أخرجتم من أماكن النفوس والهوى، صرتم منفردين باليقين الصادق، فأووا إلى جوار كرمه وبساط قدمه ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ ذخائر لطائف علومه الغيبية، ويبسط لكم بساط عطايا مشاهدته، وأنوار قربه ومحبته ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي: احتياجكم إلى وصاله ورؤية جماله ﴿مِّرْفَقًا﴾ مسند الأنس، ويسقيكم شراب الزلفى من بحر القدس.

قال الأستاذ: العزلة عن غير الله يوجب الوصل بالله؛ بل لا يحصل الوصلة بالله؛ إلا بعد العزلة عن غير الله.

ثم أخبر عن زيادة تلطفه بهم؛ بأن دفع عنهم تواثير العناصر التي أصلها من طبع الشمس والقمر والسيادة، ودفع عنهم حرارة الشمس وشعاعها؛ لئلا تتغير أشباحهم عن أحكام الروحانية، كأنه تعالى أدخلهم في حجلة الأنس في عالم القدس، وجعل ذلك العالم في الكهف، وهو قادر على أن يخلق ألف جنة في عين نملة، فلما سكنهم في حجر وصلته دفع عنهم تغاير الحدثية، وإطلاع الخليقة عليهم من غيرته، فمن غيرته حجبهم عن الشمس الطالعة التي هي في الفلك الرابعة، فإذا حجبهم عن الشمس مع جلالتها التي هي سبب نماء العالم، فانظر كيف يطلع عليهم غيرها من الخلق.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فارقتم نفوسكم وقواها بالتجرد ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ من مراداتها وأهوائها ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ إلى البدن؛ لاستعمال الآلات البدنية في الاستكمال بالعلوم والأعمال، وانخذلوا فيه منكسرين متراضين، كأنهم ميتون بترك الحركات النفسانية والنزوات البهيمية، والسطوات السبعية أي: موتوا موتًا إراديًا.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ حياة حقيقية بالعلم والمعرفة ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ كما لا ينتفع به بظهور الفضائل، وطلوع أنوار التجليات، فتتلذذون بالمشاهدات، وتتمتعون بالكمالات.

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال ﷺ في أبي بكر ﵁: «من أراد أن ينظر ميتًا يمشي على وجه الأرض، فلينظر أبا بكر»[1] أي: ميتًا عن نفسه يمشي بالله، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ قومكم ومعبوداتهم غير الله من مطالبهم المختلفة ومقاصدهم المتشتتة، وأهوائهم المتفننة، وأصنامهم المتخذة ﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ إلى كهوف أبدانكم، وامتنعوا عن فضول الحركات والخروج في أثر الشهوات، واعكفوا على الرياضات ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ زيادة كمال وتقوية، ونصرة بالإمداد الملكوتية والتأييدات القدسية، فيغلبكم عليهم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ دينًا وطريقًا ينتفع به، وقبولًا يهتدي بكم الخلائق ناجين، وفي الآوي إلى الكهف عند مفارقتهم سر آخر يفهم من دخول المهدي في الغار إذا خرج ونزل عيسى ﵇، والله أعلم.

وفي نشر الرحمة وتهيئة المرفق من أمرهم عند الأوى إلى الكهف إشارة إلى أن رحمته الكاملة في استعدادهم، إنما تنشر بالتعلق البدني والكمال بتهيئته.

قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ الإشارة في الحقائق أنه أخفاهم في كهف الأسرار، وأجلسهم في متسع الأنوار، وأشهدهم مشاهدة الجمال، وآواهم سناء الجمال، ووقاهم من سطوات أنوار شمس العزة والعظمة والكبرياء التي تطلع من مشرق القدم، وتغرب في مغرب الأبد؛ لئلا يحترقوا في أنوار عين الألوهية، ويفنوا في سلطان إشراق سبحات الكبرياء، ولا يطلعوا على ذخائر غيوب البقاء؛ كأنه تعالى رباهم في مشاهدته بنور جماله، وحفظهم عن قهر كنه قدمه؛ لئلا يتلاشوا في عزة جلاله، ويبقى معه بنعت الصحو والبقاء، ولولا ذلك الفضل العميم لو لم يبقوا في استعلان أنوار وحدانيته بأقل من لمحة رعاهم بنفسه عن نفسه؛ لإدراك العلم بنفسه هم في فجوة الوصال، وشمس الكبرياء، تزاور عن كهف قربهم ذات اليمين الأزل، وذات الشمال الأبد.

---

(١) هو من الأحاديث المشتهرة عند السادة الصوفية، وهو صحيح عند أرباب الكشف.

وهم في فجوة وصال مشاهدة الجمال والجلال، محروسون محفوظون عن قهر سلطان صرف ذات الأزلية التي يتلاشى الأكوان في أول بوادي إشراقها، وأي آية أعظم من هذه الآية أنهم في وسط نيران الكبرياء، ولا يحترقون بها فبقوا بالحق مع الحق مستأنسين بالحق للحق بنعت فقد الإحساس في مقام الاستئناس غائبين عنهم شاهدين بالله على الله.

انظر كيف كان كمال غيرة الله بهم، حيث حجبهم عنهم، ورفع الإحساس عنهم، ورفع حوادث الكون عنهم؛ ليكون الكشف أصفى، والقرب أجلى، والسر أخفى، والمشاهدة أشهى والروح أدنى، والوقت أحلى، ولا يعرف هذه الإشارة إلا العارف بالله بنعت الذوق، ويرى الله بوصف الشوق المستقيم بالله لله.

قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ من عرف نفسه، وأقدار أوليائه فهو عارف بالله وبأوليائه، ومن لم يكن من أهل سلوكه، كان في الأزل محرومًا عن قربه، وإن خنق نفسه في المجاهدة.

قال الله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾

مَـــنْ لَمْ يَكُـــنْ للوِصَـــالِ أهْـــلاً   فَكُـــلُّ إِحْـــسَانِهِ ذُنُـــوبُ

سبحان الله! أين غابوا تلك السبعة الغارقة في أماكن الغيب، ومشاهدة الرب هام طلابهم في بوادي المعارف والكواشف، ولم يظفروا برؤيتهم، وانحسرت الأزمان، والأكوان والحدثان عن تفقدهم، ولا تطلع عليهم من غيرة الحق عليهم هم ملوك معارف القدم؟ غابوا في مهمة الكرم.

بأيِّ نَوَاحِي الأَرضِ أَبْغِي وِصَالِكُم   وأَنتُمْ مُلُوكٌ مَا لمَقْصِدُكُم نَحْو

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ أي: شمس الروح ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ أي: ترقت بالتجرد عن غواشي الجسم، وظهرت من أفقه تميل بهم من جهة البدن، وميله ومحبته إلى الإلهام، والشيطان للوسواس ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وفي الآية لطيفة، وهي أنه استعمل في الميل إلى الخير الازورار عن الكهف، وفي الميل إلى الشر قرضهم أي: قطعهم، وذلك أن الروح يوافق القلب في طريق الخير، ويأمره به ويوافقه معرضًا عن جانب البدن وموافقاته، ولا يوافقه في طريق الشر، بل يقطعه ويفارقه وهو منغمس في ظلمات النفس وصفاتها الحاجبة إياه عن النور، وهو إشارة إلى تلوينهم في السلوك، فإن السالك ما لم يصل إلى مقام التمكين، وبقي في التلوين قد تظهر عليه النفس

وصفاته، فيحتجب عن نور الروح، ثم يرجع ذلك أي: طلوع نور الروح واختفاؤه من آيات الله التي يستدل بها، ويتوصل منها إليه وإلى هدايته.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بإيصاله إلى مقام المشاهدة والتمكين فيها﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ بالحقيقة لا غير ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يحجبه عن نور وجهه، فلا هادى له ولا مرشدًا، ومن يهد الله إليهم وإلى حالهم بالحقيقة، ومن يضلله يحجبه عن حالهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ ذلك لمعنى النور الذي كان عليهم بقوله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ نور على نور، وبرهان على برهان، والشمس نور، ولكن إذا غلب نور أقوى منها انكسفت الشمس فكانت تزيغ عن كهفهم؛ لغلبة نورهم خوفًا أن ينكسف نورها من غلبة نورهم.

وقال جعفر: يمين المرء قلبه، وشماله نفسه، والرعاية تدور عليهما، ولولا ذلك لهلك.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ ما حجب عن الله أحد إلا من أراد أن يصل إليه بحركاته وسعيه، وما وصل إليه أحد إلا من أراد أن يصل إليه بصفته تعالى.

وقال الواسطي في قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ من جاء بأوائل الإيمان بلا علة، وبأواخره بلا علة، وهذا صفة الحق لا صفة الخلق، وظهر أن المهتدي هو البائن من جميع أوصافه، المتصف بصفات الحق ثم زاد في وصفهم لحبيبه ﷺ بأنهم غائبون بأرواحهم في أنوار القدم، وبأسرارهم في بحار الكرم، وبعقولهم في أودية الهوية، وبقلوبهم في قفار الديمومية، وبأنفسهم في أشراف سلطنة الربوبية وبأشباحهم في أماكن المؤانسة،بقوله:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: من كمال حسنهم في الغيبة أنه نشر أنوار القربة على ظاهرهم، وأزال عنهم وحشة النومى، وأظهر عن صورتهم لطائف النعمى كانت أرواحهم كأجسادهم، وأجسادهم كأرواحهم؛ لذلك قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أجسادنا روح**»[1] كأنهم من كمال حسن وجدهم وغيبتهم فيه، والتمكين لهم غير غائبين.

وانظر كيف كانوا في لطف غيبتهم؛ حتى لا يعرف سيد المرسلين ﷺ أنهم رقود وهذا من شواهد التمكين، ولطافة الحال لما حضروا مشاهد القرب، غابوا عن القرب بالقرب، وغابوا في القرب بالقرب، وغابوا عن قرب القرب في قرب القرب، وقعوا في أسفار الأزل ففي كل نفس لهم الترقي والنقل من مقام إلى مقام[2]؛ لقوله سبحانه:

---

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه، ولم نقف على من خرجه.

(٢) في الآية إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المتنبهين، فمَن نظر إليهم ممّن هو مثلهم في الغفلة =

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أغرقهم الحق سبحانه في بحار أوليته وأخرويته، وقلبهم بنفسه ذات يمين الأزل، وذات شمال الأبد، قلبهم من رؤية الأفعال إلى أنوار الأسماء، ومن أنوار الأسماء إلى أنوار النعوت والأوصاف، ومنها إلى رؤية أنوار الذات قلبهم في كل نفس من عالم صفة إلى عالم صفة، وهم معهم في سيرهم بين الصفتين، فأدار بأرواحهم إلى صحارى الأزل، وآزال الأزل، وأدار بقلوبهم في بوادي الآباد، وآباد الآباد.

وأدار بأنجم عقولهم في أفلاك حقائقه، وأدار بأسرارهم في بساتين علوم غيبه المجهولة، فقصر عليها بعد مزار أسفارهم بلطفه، ولولا ذلك لبقوا في تقلب المقامات وسير الحالات، ولكنه بلطفه وبرحمته خلصهم من التقلب في عالم الصفات، ولو تركهم مع أنفسهم لم يبلغوا أمر الأزل إلى الأبد إلى رؤية صفة بعد رؤية صفة حملهم بنفسه، وأدارهم في عالم صفاته، ثم ألقاهم في بحر وحدانيته، فصاروا مستغرقين في بحار ذات متخلصين من التقلب، ذهب بهم سيول طوفان الكبرياء إلى قاموس البقاء، فهناك قلبهم سر الأسرار تارة إلى نكرة القدم، وتارة إلى معرفة البقاء.

قال ابن عطاء: نقلبهم في حالتي القبض والبسط والجمع والتفرقة جمعناهم عما تفرقوا فيه فحصلوا معنا في عين الجمع.

وقال بعضهم: نقلبهم بين حالتي الفناء، والبقاء، والكشف، والاحتجاب، والتجلي، والاستتار.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ مقيمون في حضرة كالنومى لا

=

عن الله تعالى يراهم متيقّظين، ومَن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بحال الباطن لا بحال الظاهر، وإنَّما إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بها يتعلّق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبقائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحسّ، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين مَن حضر مع الحق في كل حاله، وبين مَن غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله، فمَن حضر مع الحق، يشمُّ منه رائحة المسك في صورة الدَّم كدم الشهداء، ومَن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاء دمًا، فالاشتراك في الدموية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحًا من غيرهم لِما أن الدم في عروقهم يستحيل نورًا: أي يرجع إلى قوته، والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصحُّ جدًّا، وقد رأيت في عصري مَن هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرُّ الرحيم، والزم.

علم لهم بوقت، ولا زمان، ولا معرفة محل، ولا مكان إحياء موتى صرعى يفيقون نومى متنبهون لا لهم إلى غيرهم طريق ولا لغيرهم إليهم سبيل، ومحل الحضور والمشاهدة ،إنما هو الخمود تحت الصفات لا غير.

وقال أبو سعيد الخراز: هذا محل الفناء والبقاء، أن يكونوا فانين بالحق باقين به، لا هم كالنيام ولا كاليقظى، أوصافهم فانية عنهم، وأوصاف الحق بادية عليهم، وهو حياة تحت كشف دولة مقابلة ويقين.

وقال أيضًا: هؤلاء أئمة الواجدين﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كشف لهم حتى تبينوا جلال القدرة، وعظم الملكوت فغيبوا عن التمتع بشيء من الكون بحقيقة أحوالهم، فصاروا داهشين لا أيقاظًا ولا رقودًا.

وقال الأستاذ: هم مسلوبون عنهم مختطفون منهم، مستهلكون فيما كوشفوا به من وجود الحق.

وقال في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ إخبار عن حسن إيوائه لهم.

ويقال: أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق في وصف أصحاب الكهف:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لشواهد الفرق في ظواهرهم لكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به في سرائرهم تجري عليهم أحوالهم، وهم غير مكلفين بل هم يبيتون، وهم خمود عما هم به.

وفي قوله:﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وقع لي من طريان الأحوال رمز في وصف الصفات المتشابهة أضاف نقلبهم إلى نفسه أي: أقلبهم بنفسه في حجر وصلتي، وهذه فيهم تلك الخاصية التي خص بها آدم بقوله : (خلقت بيدي)، فباشرهم أنوار يدي البقاء والقدم، وتقلبهم من ذات يمين الربوبية بمحض الصفة بغير التشبيه والحلول في ذات الشمال العبودية.

وذلك حين ألقاهم في قفار الآزال والآباد، ولومهم على رؤوس أودية الصفات بنعت الغيبة عن الذات، ولولا ذلك التقلب الذي أرجعهم من معدن الربوبية إلى معدن العبودية؛ لتستفتهم صرصر الكبرياء في هواء عزة البقاء؛ لما أطلع عليهم الحق شموس جلاله، كادوا أن يذوبوا في رؤيتها، فقلبهم من ذات يمين الأحدية إلى ذات شمال الحدوثية؛ لبقائهم بالحق مع الحق، وإلا كيف يكون بقاء الحدث في القدم، وإذا كانوا متنغصين في مرارة التفرقة، ومباشرة الحدوثية تقلبهم من الحدثان إلى بحار العرفان فهم بين الثقلين في مقامي: الفناء والبقاء والقبض والبسط والجمع والتفرقة، وهذه من لطائف سر العارفين وتقلب أسرار الموحدين

في عالم الملكوت والجبروت، ثم أخبر سبحانه من سعة قدرته وكمال رحمته وجلال منته بأنه اختار من بين سباع البرية كلبًا عارفًا، وجعله مستعدًا لقبول المعرفة ممهدًا لجريان أنوار محبته، ومقبلاً عليه مع أوليائه لديه بقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ وضع قلب الروحاني الملكوتي في كلب، وجعل قلبه خزائنه من خزائن معارفه، وصندوقًا من صناديق جواهر سر أسراره، وحركه بسلاسل جذباته، وحبس عنايته إلى مشاهدته قربة، وعرَّفه طرق الربوبية وسلوك العبودية، فروحه كان روحانيًّا، وسره ربانيًّا، وشهوده رحمانيًّا، وألبسه ما ألبس القوم؛ لذلك فرَّ إلى الحق مع أوليائه من أماكن الحدثان، ويا عاقل لا تنظر إلى صورة الكلب، وغيره فإن محتمل الصفات حقائق فعله، والكلب الغير من أفعاله، والصفات والأفعال في معادنها منـزه عن التفاضل، بل إذا أضيف إلى الكون يفضل البعض على البعض من حيث العلم والحكمة، وإذا كان سبحانه اختار أحدًا من خلقه بمعرفته ومحبته بحسن عنايته الأزلية لا ينظر إلى سببه، ولا إلى نسبه، ولا إلى صورته، ولا إلى رتبته بل يجري عليه بإرداته القديمة أحكام حسن عنايته فيصيره جواهر الآفاق، ويجعله لطائف الترياق، ويرفعه إلى تمام الملكوت، ويوصله إلى ميادين الجبروت.

قال الله: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾[البقرة:١٠٥]،فجعل الكلب معظم آياته لهم؛ حيث أنطقه بمعرفته، وكسا قلبه أسرار نوره، وأبرز له أنوار هيبته، فأضجع مقام الحرمة للرعاية بحسن الأدب بالوصيد، وبين سبحانه رتبة الإنسانية، وفضلها على الحيوانية بحيث أقامه بالوصيد، وعلى سرادق الكبرياء، ووصيد مجد الجلال، وأدخلهم في فجوة الوصال سبحان المتفضل بالكمال.

قال أبو بكر الوراق: مجالسة الصالحين ومجاورتهم يؤثر على الخلق، وإن لم يكونوا أجناسًا؛ ألا ترى الله كيف ذكر أصحاب الكهف فذكر كلبهم معهم لمجاورته إياهم!

ويقال: لما لزم الكلب محله ولم يجاوز حده فوضع يده على الوصيد بقي مع الأولياء كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوصلة، ثم زاد سبحانه في وصفهم عما كساهم من أنوار الجلال، وعظمته التي ترتعد من رؤيتها قلوب الصديقين، وتقشعر من صولتها جلود المقربين، وتفزع من حقائقها أرواح المرسلين بقوله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾. إن الله سبحانه نبهنا هاهنا عن جلال قدر نبيه ﷺ بأنه تعالى ربَّى روحه وعقله وقلبه وسره ونفسه في بدو الأول بنور حسن مشاهدته، وأنوار مال وجهة خاصة بلا مطالعة العظمة والكبرياء؛ لأنه كان مصطفى لمحبته مجتبى لحسن وصاله ودنو دنوه، ولطائف قرب قربه، وألبسه حلل حسن صفاته، وطيبه بطيب أنسه ونشقه ورد قدسه، وسقاه من بحر وداده

من مروق زلفته بكأس روحه، فكان عيشه مع الحق من حيث الأنس والانبساط والبسط والجمال، وكان خطابه خطاب تكرمة ومكرمة عاش في مشاهدة جماله ونيل وصاله، كان عندليب رياض الأنس، وبلبل بساتين القدس رأى الحق بعين الجمال في مرآة الجلال، ورآه بعين الجلال في مرآة الجمال، محفوظًا عن طوارق قهريات القدم، وسطوات عظمة الأزل، حاله أصفى من كدورة عيش الخائفين، وغبار أيام المجاهدين، ما وقع على سره قهر الغيرة، وما جرى على روحه سيول الفرقة، كان مرادًا معشوقًا حبيبًا محبوبًا موصولاً بالوصال معروفًا بالجمال كان من لطافته ألطف من نور العرش والكرسي، وطيبه كان أطيب من طيب الفردوس شمال جماله يهب على رياض وصال الأزل وحياة جنانه منـزه عن قهر أيدي الأجل لو رأى بالمثل نملة ملتبسة بنور هيبة فعل الحق لفزع منها من حسنه ولطافته؛ لذلك قال تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ﴾ يا حبيبي من حيث أنت على ما ألبستهم لباس قهر ربوبيتي وسطوات عظمتي، لوليت منهم من رؤية ما عليهم من هيبتي وعظمتي،﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾؛ لأنهم مرآة عظمتي تجلى منهم بنعت عظمتي للعالمين؛ لئلا يقربوا منهم، ويطلعوا عليهم؛ لأنهم في عين غيرتي، ولا أريد أن يطلع عليهم أحد غيري أنت يا حبيبي موضع سري، موضع سر سري، ومكان لطفي لو رأيتهم بذلك اللباس السلطاني الجباري؛ لفررت منهم، وتملأ من رؤيتهم رعبًا، كما فرَّ موسى كليمي من رؤية عصاه حين قلبتها حية تسعى، وذلك من إلباسي إياها كسوة عظمتي وجلال هيبتي، ففر موسى من عظمتنا، ولم يعلم من أي شيء فر ولا نقص عليك، فإنك وإن كنت مربى برؤية الحسن والجمال منا، فجميع صفات العظمة ونعوت الكبرياء، انكشفت لك في لباس الحسن والجمال، وأنت جامع الجمع.

قال جعفر: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من حيث أنت لوليت منهم فرارًا، ولو اطلعت عليهم من حيث الحق لشاهدت فيهم معاني الوحدانية والربانية.

قال ابن عطاء: لأنه وردت عليهم أنوار الحق من فنون الخلع، وأظلتهم سرادق التعظيم، وأحرقت جلابيب الهيبة؛ لذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾.

وقال الحسين: لوليت منهم فرار أنفه مما هم فيه من إظهار الأحوال عليهم، وقهر الأحوال لهم مع ما شاهدته من أعظم المحل في القربات في المشاهدة، فلم يؤثر عليك بجلالة محلك.

وقال جعفر: لو اطلعت على ما بهم من آيات قدرتنا ورعايتنا لهم وتولية حفظتهم، لوليت منهم فرارًا أي: ما قدرت على مشاهدة ما بهم من هيبتنا، فيكون حقيقة الفرار منا لا

منهم؛ لأن ما بدا عليهم منا.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ يا مخاطب الانفتاح أعينهم وإحساساتهم وحركاتهم الإرادية الحيوانية ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ بالحقيقة في سنة الغفل، تراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: نصرفهم إلى جهة الخير، وطلب الفضيلة تارة وإلى جهة الشر ومقتضى الطبيعة أخرى ﴿وَكَلْبُهُم﴾ أي: نفسهم ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أي: ناشرة قوتيها الغضبية والشهوانية ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي: بفناء البدن، ولم يقل وكلبهم هاجع؛ لأنها لم ترقد، بل بسطت القوتين في فناء البدن ملازمة له لا تبرح عنه والزراع الأيمن هو الغضب؛ لأنه أنوى وأشرف وأقبل لدواعي القلب في تأديبه، والأيسر هو الشهوة لضعفها وخستها.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على حقائقهم المجردة وأحوالهم السنية، وما أودع الله فيهم من النورية والسنا، وما ألبسهم من العز والبهاء ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ فارًا لعدم اعتقادك بالنفوس المجردة وأحوالها وعدم استعدادك لقبول كمالهم، أو لوليت منهم للفرار عنهم، وعن معاملاتهم لميلك إلى اللذات الحسية والأمور الطبيعية.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ من أحوالهم ورياضاتهم؛ أو لو اطلعت عليهم بعد الوصل وإلى الكمال وعلى أسرارهم ومقاماتهم في الوحدة لأعرضت عنهم، وفررت من أحوالهم وملئت منهم رعبًا؛ لما ألبسهم الله من عظمته وكبريائه، وأين الحدث من القدم وأنى يسع الوجود العدم .

ثم أخبر سبحانه عن ارتفاع أثقال العظمة عنهم، وإفاقتهم عن سكر المشاهدة، وحضورهم بعد الغيبة، بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ فيه إشارة أنهم في بديهة وقائع الغيب، وهم أهل البدايات في المعرفة، وهجوم غلبات الوجدان ؛ لذلك هاموا في الغيب وطاشوا في القرب، ولو كانوا في محل التمكين والصحو ما غابوا عن الإحساس ورسوم المعاملات، ويكون حالهم كمال نبينا ﷺ حين دنا وثبت في التدلي، واستقام في منازل الأعلى، واستقر بين أنوار القدم والبقاء بنعت الصحو والصفا.

وقال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1]، ولو أن ما ورد عليه من أحكام الربوبية في المشاهدة، ورد منه على جميع الأولين والآخرين لطاشت عقولهم، وطارت

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

أرواحهم، وفنيت قلوبهم واستهلكت نفوسهم، ولكن ما أطيب زمان السكر للمريدين، والمحبين، والشائقين، والعاشقين أخذهم سكر الوصال عن المقيل والقال، وعن الاشتغال والمحال، وغيبهم في أنوار الجمال والجلال؛ حتى لم يحسوا شيئًا من الحدثان من ذوق وصال الرحمن، ما أطيب تلك الأوقات السرمدية، والأحوال المقدسة بحيث ما لهم خبر عن مرور الزمان، وحوادث الملوان.

شُهورٌ يَنقَضِينَ ومَا شِعْرنَا ... بإنصَافٍ لهُمْ ولا شِرارُ

ما أقل زمان الوصال لعشاق الجمال والدهر عندهم في المشاهدة ساعة، وإعمار العاملين في منازل أنسهم لمحة.

وأنشد:

صَبَاحُكَ سُكرٌ والمسَاءُ خمارُ ... نَعمتَ وأيَّامُ السُّرورِ قِصارُ

زمان القربة قليل وزمان الفرقة طويل، وذلك من غيرة العشق المجران في كمين الغيرة مقيم وملدوغ الفراق من سم أناعي الغيرة سليم، لا يصير الدهر؛ حتى يفرق بين العاشقين والمعشوقين، وأنشد:

عَجبْتُ بِسَعِي الدَّهرِ بَيني وَبينَها ... فَلَمَّا انقَضَى مَا بَينَنَا سَكِرِ الدَّهرُ

كانوا لا يعرفون اليوم من الأمس، ولا يعلمون من حدة الحال القمر من الشمس: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

استقاموا مقام الوصال واستلذوا لطائف الجمال وتخبطوا في المقال، وما كان ذلك إلا من خمار سكر الأحوال ذكروا أيام الوصلة في مقام الفرقة، وتعاظموا لطائف المؤانسة في منازل الوحشة، واشتاقوا إلى معاهد المشاهدة، وأيام المدانة.

وأنشدوا:

سَلامٌ عَلَى تلكَ المعاهِد إنَّها ... شَريعةُ وردٍ أو مهبٌّ بشَمالِ

لَيَالِي لم تحصِرْ حُرونَ قطيعةٍ ... ولم يَمشِ إلاَّ في سُهولِ وِصَالِ

فقدْ مرَّت أرضِي مِن سَواكِن أرضِها ... تجلبُ ببرقٍ وبطيفِ خَيَالِ

قال ابن عطاء: مقام المحب مع الحبيب، وإن طال فإنه قصير عنده إذ لا يقضي من حبيبه وطرًا، ولو مكث معه دوام الدهر، فإن انتهاء شوقه إليه؛ كالابتداء، فانتهاؤه فيه ابتداء، فلما رجعوا من مقام الجذب إلى مقام السلوك، ومن مقام الروحانية إلى مقام البشرية، واحتاجوا إلى ما يعيش به الإنسان، استعملوا حقائق الطريقة بقوله سبحانه:

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ لما

استطابوا الخلوة فلم يخرجوا، وأمر المبعوث في طلب الرزق فتركوا السؤال، واستعملوا الكسب بقوله: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾، ثم أمروه باستعمال الورع؛ لأن الورع من موجبات الطريقة وحقوق الحقيقة، وهذا دأب الأئمة.

لذلك قال ذو النون: لا يطفأ نور المعرفة نور الورع، وأمروه بالمراقبة؛ حتى لا يطلع عليهم أحد، وفيه بيان أن الكسب أيضًا من التوكل؛ لأن القوم بحمد الله لم يخلوا من مقام التوكل، وفيه بيان أن أهل الوجد والحال والمكاشفة والمقال، هم أهل الغذاء المحمود الملطف من لطف الطعام؛ لأن أرواحهم من عالم القدس، ولا يليق بهم إلا ما يليق بأهل الأنس من أكل الطيبات، وأشهى المأكولات، ولبس الناعمات.

قال جعفر بن أحمد الرازي: أوصى يوسف بن الحسين بعض أصحابه فقال: إذا حملت إلى الفقراء وأهل المعرفة شيئًا، واشتريت لهم طعامًا فليكن لطيفًا، فإن الله تعالى وصف أصحاب الكهف حين بعثوا من يشترى لهم طعامًا قالوا: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ وإذا اشتريت للزهاد والعباد فاشتر كل ما تجده فإنهم بعد في تذليل أنفسهم، ومنعها من الشهوات.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن[1]: سمعت أبا عثمان المغربي يقول: إرفاق المريدين بالعنف، وإرفاق العارفين باللطف.

وقال الأستاذ: تواصوا فيما بينهم بحسن الخلق وجميل الرفق أي: ليتلطفن مع من يشتري منه شيئًا.

ويقال: من كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن الملبوس، ولا النازل في الطعم من المأكول.

ويقال: أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات، فطعامهم الخشن ولباسهم كمثله والذي بلغ المعرفة لا يوافقه أكل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل مليح.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ أي: مثل ذلك البعث الحقيقي والإحياء المعنوي، بعثناهم ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: ليتباحثوا بينهم عن المعاني المودعة في استعدادهم الحقائق المكنونة في ذواتهم، فيكمل بإبرازها وإخراجها إلى الفعل، وهو أول الانتباه الذي تسميه المتصوفة اليقظة.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ مرَّ تأويله النفس الرشيد السمة الفاضل السيرة النقي السريرة الكامل المكمَّل دون الفضرلي الظاهري الخبيث النفس المتعالم المتصدر لإفادة ما ليس

---

(١) يعني السلمي في حقائق التأويل.

عنده ليستفيد بصحبته ويظهر كماله بمجالسته ويستبصر بعلمه فيفيدنا أو ليتلطف في أمره حتى لا يشعر بحالكم ودينكم جاهل من غير قصد.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ من أهل الظاهر المحجوبين، وسكان عالم الطبيعة المفكرين، وإن أوّلنا أصحاب الكهف بالقوى الروحانية فالبعوث هو الفكر والمدينة محل اجتماع القوى الروحانية والنفسانية والطبيعية، والذي هو أزكى طعامًا العقل دون الوهم والخيال والحواس ؛لأن كل مدرك له طعام والرزق هو العلم النظري على كلا التقديرين:

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ من القوى النفسانية.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا﴾ أي: يغلبوا ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بحجارة الأهواء والداعي من الغضب والشهوة، وطلب اللذة فيقتلوكم بمنعكم عن كمالكم.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ باستيلاء الوهم وغلبة الشيطان والإمالة إلى الهوى، وعبادة الأوثان على التأويل الأول ظهور العوام، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين، وأهل الباطل المطبوعين، ورجمهم أهل الحق ودعوتهم إياهم إلى ملتهم ظاهر كما كان في زمان رسول الله ﷺ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: مثل ذلك البعث والإماتة، اطلعنا على حالهم المستعدين القابلين لهديهم ومعرفة حقائقهم ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ بصحبتهم وهدايتهم.

﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: حين يتنازع المستعدون الطالبون بينهم أمرهم في المعاد، فمنهم من يقول: إن البعث مخصوص بالأرواح المجردة دون الأجساد.

ومنهم من يقول: إنه بالأرواح والأجساد معًا، فعلموا بالاطلاع عليهم ومعرفتهم أنه بالأرواح والأجساد، وأن المعاد الجسماني حق.

فقالوا ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ أي: فلما توفوا قالوا ذلك كالخانقاهات والمشاهد والمزارات المبنية على الكمل المقربين من الأنبياء والأولياء كإبراهيم ومحمد، وعلي وسائر الأنبياء والأولياء- عليهم الصلاة والسلام- ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام أتباعهم من أممهم المقتدين بهم أي: هم أجل وأعظم شأنًا من أن يعرفهم غيرهم الموحدون الهالكون في الله المتحققون به ،فهو أعلم بهم، كما قال الله تعالى: «**أوليائي تحت قبائي لا يعرفونهم غيري**»[1].

---

(١) ذكره الشيخ حقي في روح البيان (٩/ ٧٩).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ من أصحابهم والذين يلون أمرهم تبركًا بهم وبمكانهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ يصلي فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ بيّن أن القوم بلغوا إلى مشاهدة جلال أزله، وأغرقهم في بحار أبده، ووجدوا منها جواهر أسرار محبته، وقرب وصاله ما لا يطلع عليها أحد غير الله، فنفى إحاطة علم الغير بهم فكأنه أخبر عما عمرهم من سطوات العزة، واستيلاء قهر الربوبية ما أفناهم أي: أنا أعلم بما هم فيه من فنائه في الوجد والموجود، أخبر عن عظيم ما ورد عليهم من سلطان قهر مشاهدة قدمه.

قال ابن عطاء: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ حيث أظهر عليهم عجائب صنعه، وجعلهم أحد شواهد عزته، وجعلهم بالمحل الذي خاطب به النبي ﷺ فهمّ فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾[الكهف: ١٨]

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: الظاهريون من أهل الكتاب والمسلمين الذين لا علم لهم بالحقائق وقوله: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: رميًا بالذي غاب عنهم يعني ظنًّا خاليًا عن اليقين بعد قولهم: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾ بينائه والآمرون هم الغالبون الذين قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ يسجد أي: ينقاد فيه جميع القوى الحيوانية والطبيعية والنفسانية، والمأمورون هم المغلوبون الفاعلون في البدن، المبعوث فيه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ إن الله سبحانه أعلم نبيه وأدب حبيبه في منازل العبودية ومشاهدة الربوبية بمحو الوجود عند وجود القديم الأزلي، وأن يرى الكل قائمًا بالله في مقام التوحيد مع الكل في غير الجمع بائنًا عن الكل في أفراد القدم عن الحدوث، ومحض التجريد والتفريد، وقطع حدود علوم الخليقة عما في المشيئة الأزلية

فأعلم معنيين: إثبات الكسب وسبق التقدير، وأبهم أسرار المسببة على الكل في بيان الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ .

قال بعضهم: لم يطلق لرسوله ﷺ أن يخبر عن الحق إلا بما أخبره الحق، ولم يأذن له في الإخبار عن نفسه إلا عن مشيئة ربه فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾... إلخ.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ أدبه بالتأديب الإلهي بعد ما نهاه عن المماراة والسؤال فقال: لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول فتكون قائلاً به، وبمشيئته أولاً بمشيئته على أنه حال أي: ملتبسًا بمشيئته، يعني لا تقولن لما عزمت عليه من فعل أني فاعل ذلك في الزمان المستقبل إلا ملتبسًا بمشيئة الله، قائلاً: إن شاء الله أي: لا تسند الفعل إلى إرادتك بل لإرادة الله فتكون فاعلًا به وبمشيئته.

ثم بيَّن سبحانه أن من شاهد نفسه في مشاهدة الحق حيث طوى عليه أحكام رسوم الاكتساب من جهة الأمر، ولم يسقط شهود نفسه وكسبه، فقد نسى الحق بقوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فإن قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ عقيب قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ﴾ يدل على ذلك أي: إذا شاهدت نفسك فقد غبت مشاهدة ربك فاذكره أي: شاهده مشاهدة تغيبه في مشاهدة عن مشاهدتك نفسك.

وأيضًا: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ إذا كنت متصفًا متحدًا بربك حين يغلب عليك سر الأنانية، فإذا ذكرت ربك في مقام الأنانية خرجت من حد الخداع والتلبيس الصادرين من مكر القدم، وإذا ذكر قدمه بان عدمه وإذا بان عدمه تلاشى الحدث في القدم، ولم يبق إلا القدم، ويتبين أمر العبودية عند الربوبية.

وأيضًا: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ ذا غبت في مشاهدة المذكور؛ حتى يتخلص من غمار الفناء في الوحدانية، ويبقي ببقاء الحق ورؤية الأبدية، فإنك إن لم تذكر ربك، ولم ترجع من رؤية مذكورك إلى ذكره تفنى فيه، ولا تدرك حقائق وجوده فإن السكران الفاني لا يظفر بما يظفر الصاحي المتمكن.

وأيضًا: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ من مشاهدته، وغيب عن شهود عليك حتى فصل بالذكر إلى رؤية المذكور.

وأيضًا: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ذكرك له فإن رؤية الذكر في رؤية المذكور نسيان المذكور بالحقيقة.

وأيضًا: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الكون والحدوثية، فإن ذكره لا يكون ذكرًا

حقيقيًا إلا بنعت فناء ما دونه، فإذا فني الحدث في القدم صار الذكر صافيًا.

وأيضًا: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ما جدت منه، فإن الوقوف في المقامات حجاب ذكر الحقيقة.

وأيضًا: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فسك فإن في رؤيتك وجودك، وبقاء وجودك لا يكون الذكر بحقيقة الانفراد، ورسم أفراد القدم على حدوث ،ثم أمره سبحانه أن يخاطب أهل السر من المعرفة بترجيه وصول أدنى الدنو وأعلى العلو بقوله: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾. كان ﷺ أقرب الخلق من الله بنفس المعرفة والاصطفائية الأزلية، لكن كان مع محله وشرفه في حيز حقائق المعرفة، قطرة في بحر الأزلية، فأمره الحق أن يسأل منه مزيد ما فيه من طرائق حقائق عرفان الأزلية، وأقرب ما يكون فيه من وصول الوصول، فإن الحق غير متناه من جميع الوجوه.

قال ابن عطاء: إذا نسيت نفسك والخلق فاذكرني فإن الأذكار لا تمازج ذكرى.

قال الجنيد: حقيقة الذكر فناء الذاكر فيه، والذكر في مشاهدة المذكور.

قال الشبلي: ما هذا خطاب أهل الحقيقة وأنّى ينسى المحق الحق فيذكره، بل يذكر حياته وكونه.

وأنشد:

لا لأنّي أنـــسَاكَ أكْثـــرُ ذِكْـــرَاكَ   وَلكِـــنْ بِـــذَاكَ يجـــرِى لِســـانِي

وقال الجنيد: حقيقة الذكر الفناء بالمذكور عن الذكر؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا نسيت الذكر يكون المذكور صفتك، وقد وقع لي نكتة هاهنا .

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الذكر حق جميع الذات والصفات ولا نهاية لها، وذكر جميعه ما واجب الحقوق على الخلق والصفات القديمة، والذات الأولى غير مذكور بذكر الحدثان ،كأنه تعالى أعلم نبيه ﷺ جميع فكره ما بلغ إلى وصف ذرة من صفته ، فكل وقت مع جميع ذكره في حد النسيان ، حيث لا يبلغ ذكره حقائق القدم .

قال: ﴿ وَٱذۡكُر ﴾ بعد ذكرك ولا تفتر عن ذكرك ، فإن ذكرك على السرمدية واجب أبدًا؛ لأن بعد كل ذكر نسيان عن الباقي ، فإذا لا ينقطع الذكر أبدًا يدل على ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾.

أي: بمعرفتي معرفة المذكور بنعت مشاهدته، ورؤية ذاته وصفاته، بوصف فنائي

وفناء ذكر فيه .

قال الجنيد: إن فوق الذكر منزلة هي أقرب رشدًا من ذكره له، وهو تجديد للنعوت بذكره لك قبل أن يسبق إلى الله بذكره .

وأيضًا لي نكتة في الذكر أي: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فإنك إذا ذكرته بلسان الحديثة نسيته، وإن أردت أن تذكرني بالحقيقة التي لا نسيان فيها، ولا فترة فاتصف بصفتي ثم اذكرني بصفتي حتى يصل ذكرك إليَّ بالحقيقة.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ بالرجوع إليه والحضور ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ بالغفلة عند ظهور النفس بظهور صفاتها ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا﴾.

أي: من الذكر عند التلوين، وإسناد الفعل إلى صفاته بالتمكين، والشهود الذاتي المخلص عن حجب الصفات ﴿رَشَدًا﴾ استقامة وهو التمكين في الشهود الذاتي.

﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ من التي تُبْتَنَى على دور القمر فتكون كل سنة شهرًا ومجموعها خمسة وعشرون سنة، وذلك وقت انتباههم وتيقظهم.

﴿وَٱزْدَادُوا تِسْعًا﴾ هي مدة الحمل، وروعيت في الآية نكتة هي أنه لم يقل ثلاثمائة سنة وتسعًا أو ثلاثمائة وتسع سنين؛ لاستعمال السنة في العرف وقت نزول الوحي في دورة شمسية لا قمرية، فأجمل العدد، ثم بينه بقوله سنين فاحتمل أن يكون المميز غيرها كالشهر مثلًا، ثم بين أن المدة سنين مبهمة غير معينة، إذ لو قيل ثلاثمائة شهر، فأبدل سنين من مجموع العدد كانت العبارة صحيحة، والمراد سنين كذا عددًا أي: خمسة وعشرين ويؤيده قوله بعده.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وقال قتادة: هو حكاية كلام أهل كتاب من تتمة، سيقولون.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ رد عليهم، وفي مصحف عبد الله وقالوا: ﴿لَبِثُوا﴾ وذلك أن اليقين غير محقق ولا مطرد.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يجوز أن تكون من لابتداء الغاية، والكتاب هو اللوح الأول المشتمل على كل العلوم الذي منه أوحى إلى من أوحي إليه، وأن تكون بيانا لما أوحي والكتاب هو العقل الفرقاني وعلى التقديرين ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ التي هي أصول الدين من التوحيد والعدل وأنواعها.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ تميل إليه لامتناع وجود ذلك.

﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا

لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾هذا تسلية لنبيه ﷺ فإنه كان ﷺ بقلبه في الملكوت، وبروحه في الجبروت، وبسره في مشاهدة القدم، وبعقله في أنوار غيبه مشتاقًا إلى الحق، لا يصبر في الدنيا بأن يكون مع الخلق بالصورة، وكان يريد أن يطير إلى منازل قاب قوسين كل وقت؛ لما رأى بين القوسين بغير الكونين مشاهدة الجلال والجمال.

فقال سبحانه احبس نفسك مع هؤلاء الفقراء العاشقين بجمالي المشتاقين إلى جلالي، الذين في جميع الأوقات يسألون عني لقاء وجهي الكريم، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وصلتي حتى يكونوا متسلين بصحبتك عن مقام الوصال، فإن في رؤيتك لهم رؤية ذلك الجمال فتكون معهم موافقًا وسرك وعقلك وروحك وقلبك عندي فإنها مواضع تجلي كبريائي وأسرار عزتي، ولا يطيق الكون أن يكون في جوار قلبك ، فإن قلبك معادن أسرار العليين، ومزار الكروبيين وهو عرش تجلي القدم، ومعادن عيون الكرم، ولا يليق به مصاحبة أهل العدم.

﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾(١) فإنهم ينظرون بعينك إليَّ إذا كانت عينك في طلب مشاهدتي في مرآة أفعالي من الخلق والخليقة.

﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ بأن يواسيك برؤية الأكوان والحدثان؛ لزيادة العرفان، فإن الوسائط في الحقيقة تورث الغفلة عنا، وهو سبحانه شغل قلوب الخلق بخلقه عن خلقه، وحجبهم برؤية الخليقة عن مشاهدة الحقيقة، فمن غافل سبب غفلته الجنة، ومن غافل سبب غفلته خوف النار، ومن غافل سبب غفلته استكبار العبودية، ومن غافل غفلته رؤية الأعواض، ومن غافل غفلته رؤية الكرامات، ومن غافل سبب غفلته المجاهدات، ومن

---

(١) أي: عين الأزل، وعين الأبد، وآثر عدم العدّ، وحبس النفس معهم: أي الصحبة بهم في عالم الحسّ؛ لأن هذه الصحبة أثر صحبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ؛ فهي كالأولاد له، ولا شك أن الآباء والأولاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صحبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جدًّا.

غافل غفلته العيش الهنيء في الدنيا.

وأدق الغفلة السكون بما وجد من الحق والوقوف مع مقام الحظ، فالكل محجوبون عن مشاهدة الأزل صرفًا أي: لا تكن مثل هؤلاء الواقفين على مقاماتهم المحجوبين بحظوظهم من أحوالهم.

قال ذو النون: أمر الله تعالى الأغنياء بمخالطة الفقراء والصبر معهم والاستنان بسنتهم.

قال الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾(١).

وقال عمرو المكي: صحبة الصالحين والفقراء الصادقين عيش أهل الجنة، يتقلب من الرضا إلى اليقين ومن اليقين إلى الرضا.

وقال ابن عطاء: خاطب الله نبينا ﷺ وعاتبه ونبهه، وقال واصبر على من صبر علينا بنفسه وقلبه وروحه، وهم الذين لا يفارقون محال الاختصاص من الحضرة بكرة وعشيا، فحق لمن يفارق حضرتنا أن تصبر عليه فلا تفارق.

وسُئل أبو عثمان عن الغفلة فقال: إهمال ما أمرت به ونسيان تواتر نعم الله عندك.

وقال بعضهم: الغفلة عقوبة القلب، وهو حجاب عن المنعم.

وقال سهل: الغفلة إبطال الوقت بالبطالة.

وقال الأستاذ قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ لم يقل قلبك لأن قلبه كان مع الحق فأمره بصحبة الفقراء جهرًا بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سر السر.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أمر بالصبر مع الله وأهله وعدم الالتفات إلى غيره، وهذا الصبر هو من باب الاستقامة والتمكين لا يكون إلا بالله ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: دائمًا هم الموحدون من الفقراء.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ

---

(١) أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي جُبل الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تُجرى عليها ليست بمجعولة، فلا جبر من الخالق للخلق. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ تتميم لاتّباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانيًا؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قُدِّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأُخّر هنا إشارة إلى العلم، فتفطّن لهذه المقام، والله العلاّم.

ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ
أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ
ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ
أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ
شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ
مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ
لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا
قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن
تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إن الله سبحانه علم من كتمان نبيه ﷺ سر أسرار الأزل وماله من عند الله من علومه الغريبة وأنبائه العجيبة من العلوم المجهولة ولطائف الحقيقة، وأحكام صفاته المتشابهة من شفقته على أمته، وعلم بضعف جلهم أثقال تلك الحقائق، فأمره الحق ألا يكتم تلك الأسرار التي إعلام فضائله وفضائل خواص أهل الولاية وأسرار الربوبية في قلوبهم ويفشيها، ولا يخاف من إيمان الخلق بها وإنكارهم عليها، فإن العاشق الصادق لا يبالي بهتك الأسرار عند الأغيار ولا يخاف لومة لائم ولا يكون في قيد إيمان الخلق وإنكارهم، فإن لذة عشقه في هتك الأسرار أصفى، والحلاوة عيشه في ذلك أشفى؛ ألا ترى إلى قول القائل:

ألا اسقِني خمرًا وقُلْ لي هِي الخمرُ ... ولا تسقِني سِرًّا إذا أمكنَ الجهرُ

وبُحْ باسمِ الهوَى وَدَعْنِي مِن الكُنَى ... فلا خيرَ في اللذاتِ مِن دُونِها سِترُ

كأنه تعالى حث نبيه ﷺ على التحديث بنعمه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وإشارة الظاهر أي: بيّن طريق الرشد عن الغي لمن تابع الرشد فلا يتبعه إلا بتوفيق الأزل في الغي ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ [يونس: ١٠٨] ، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ [طه:١٢٣] إلا بسابق قدر الحق.

قال ابن عطاء: أظهر الحق للخلق سبيل الحق وطرق الحقيقة، فمن سالك فيه بالتوفيق ومعرض عنه بالخذلان.

وهذا قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فمن شاء الحق له الهداية هداه بطريق الإيمان،و من شاء الله له الإضلال سلك به مسلك الكفر وهو الضلال البعيد.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أي: يزينون فيها بأنواع الحلي من حقائق التوحيد الذاتي ومعاني التجليات العينية الأحدية، إذ الذهبيات من الحلي هي العينيات والفضيات هي الصفاتيات النورانيات كقوله تعالى ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان:٢١].

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ يتصفون بصفات مهيجة حسنة نضرة موجبة للسرور ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ الأحوال والمواهب؛ لكونها ألطف، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الأخلاق والمكاسب ؛لكونها أكثف ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى﴾ أرائك الأسماء الإلهية التي هي مبادئ أفعاله لاتصافهم بأوصافه، وكون الصفة مع الذات هي الاسم المستند هو عليه في جنة الصفات والأفعال.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ في مقابلة (بئس الشراب وساءت مرتفقا). ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ إن الله

سبحانه وصف الذين عملهم الصالح ،ترك ما دونه وهو بكرمه ورحمته يجازيهم به قربته ومشاهدته، ويدخلهم قباب أنسه رياض قدسه، وإلباسه إياهم أنوار جمال وجلاله فيكونون مزينين بحلي كرامته، ولباس رأفته مستندين به إليه بنعت رؤية الرضوان الأكبر، والحظ الأوفر نعم الثواب صلته، ونعم حسن المرتفق مرتفقهم مجالس الوصال ورؤية الكمال والجلال والجمال.

قال ابن عطاء: على آرائك الأنس في رياض القدس في حجاب القرب وميادين الرحمة مستشرفون على بساتين الوصلة مشاهدون مليكهم في كل حال.

قال الأستاذ: يلبسون حلل الوصلة، ويتوجون بتاج القربة، ويحلون بحلي المباسطة يتكئون على أرائك الروح يشمون رياحين الأنس، ويقيمون في حجال الزلفة، يسقون شراب المحبة.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أخبر عن كمال حفظه أوليائه يوم القيامة عن التحير فيه، فإذا يحفظهم عن قهر سلطان ربوبيته، ويدخلهم في منازل وصلته فتلك الولاية الحقة له التي خص بها في الأزل أهل وداده وهي أرفع المنازل، وأشرف المناهل، وأحسن العواقب، وأكرم المناقب، والولاية الحق في الدنيا والآخرة هي ما صدرت من اختياره الأزلي وإرادته القديمة، وحقيقتها ألا يخذل من اصطفاه بها.

قال الواسطي: من تولاه الله بالحقيقة فهو الولي، ومن تولاه الله فيه فهو الوالي.

قال ابن عطاء: الحق أسبق من حقيقة المحق، وهو يدعوك إلى حقه فإذا طلبته لنفسك يأتي عليك.

ألا ترى إلى قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ هو خير ثوابًا وخير عقبًا ثواب للطالبين له لا لطالب الجنة، وخير أمد للمريدين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ معناه: المحبة الدائمة غير مشوب بشوب الحدثان، ولا بغبار الحرمان.

وأيضًا: المعرفة الكاملة التي صدرت من رؤية ذاته وصفاته في قلوب العارفين.

وأيضًا: الأنس بالله والإخلاص في توحيد الله، والانفراد بالله عن غير الله، وهذه المنازل باقية للعارفين، وهي صالحة لا اعوجاج لها على حد الزائد، وهي خير المنازل؛ لأنها وصف بقاء العارف مع بقاء الحق.

قال جعفر الصادق: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ هو تفريد التوحيد فإنه باق ببقاء الموحد.

وقال ابن عطاء: هي الأعمال الخالصة والنيات الصادقة، وكل ما أريد به وجه الله.

وقال يحيى بن معاذ: هي نصيحة الخلق.

ويقال: ما يلوح في السرائر من تجليه للعبد بالنعوت، ويفرح نشره في سماع الملكوت، ثم أخبر سبحانه عن عظيم قدره، وجلال وعظم كبريائه، وسلطانه تخويفًا لعبادة، وتبنيها لهم عن عظيم آياته بقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ إن الله سبحانه يتجلى بعظمته يوم القيامة للجبال فتقلع الجبال من أصلها، وترقص في الهواء، وتصدم بعضها بعضًا؛ حتى تمهل وتصير غبارًا من خشية الله وهيبته، وبقيت الأرض باردة؛ حتى لا يكون حجاب بين أحد من الواقفين عليها.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ أي: نذهب جبال الأعضاء بالتفتيت فتجعلها هباءً منثورًا.

قال ابن عطاء: دل بهذا على إظهار جبروته، وتمام قدرته، وعظم عزته ليتأهب العبد؛ لذلك الموقف ويصلح سريرته وعلانيته لخطاب ذلك المشهد وجوابه.

قال الأستاذ: موت الأبدال الذين هم الأوتاد، ومنهم القطب فجبال الأرض التي هي أوتادها لتقلع في القيامة، وتسير جبال الأرض اليوم بموت السادة إذ هم الأوتاد للعالم بالحقيقة.

﴿وَتَرَى﴾ أرض البدن ﴿بَارِزَةً﴾ لا ظاهرة مستوية مسطحة بسيطة، كما كانت لا صورة عليها، ولا تركيب فيها ترابًا خالصًا ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ الضمير إما للقوى المذكورة وإما لأفراد الناس ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ غير محشور.

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ عرف كل صنف من أهل المقامات والولايات، وكل من لله دعوى من بساط عزته بما هم فيه في أيام البلاء في دار العناء، فيشهد كل مشاهد مشهده فمن شاهد يشهد مشاهد المنة، ومن شاهد يشهد مشاهد الوصلة، ومن شاهد يشهد مشاهد الصفات ومن شاهد يشهد مشاهد الذات، فمن كان مشربه المحبة فيكون في بحر الجمال، ومن كان مشربة الهيبة فهو في بحر الجلال، ومن كان مشربه المعرفة فهو في بحر الصفات، ومن كان مشربه التوحيد فهو في بحر الذات، ومن كان مشربة الجولان في الأفعال فموضعه مقام الجوار في الجنان، ومن كان محجوبًا في الدنيا عن هذه الأحوال فموضعه النيران.

قال الأستاذ: يقيم كل واحد يوم العرض في شاهد مخصوص، ويلبس كلا بما هو أهله، فمن لباس تقوى، ومن قميص هدى، ومن صدار وجد من صدره محبة، ومن لبسه شوق، ومن حله وصلة.

ويقال: يجردهم عن كل صفة إلا ما عليه فطرهم يوم القيامة فينادي المنادي على أحدهم هذا الذي أطاع واتقى، وهذا الذي عصى وطغى، وهذا الذي أتى ووجد، وهذا الذي أبى وجحد، وهذا الذي عرف فأقر، وهذا الذي خالف فأصر، وهذا الذي أنعمنا عليه فشكروا،وهذا الذي أحسنًا إليه فكفر، وهذا الذي سقيناه شرابنا ورزقناه محابنا، وشوقناه إلى لقائنا، ولقيناه خصائص مراعتنا، وهذا الذي وسمناه بحجتنا وحرمناه وجوه قربتنا، وألبسناه نطاق فراقنا، ومنعناه توفيق وفاقنا، وهذا وأخجلتنا من وقوفي وسط دراهم إذ قال لي معرضًا: من أنت يا رجل.

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ عند البعث ﴿ صَفًّا ﴾ أي: مصطفين مترتبين في الموافق لا يحجب بعضهم بعضًا كل في رتبة ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ أي: قلنا لهم ذلك اليوم لقد جئتمونا حفاة عراة عزلًا فرادى أي: ﴿ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ بإنكاركم البعث ﴿ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ وقتًا لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ شاهدوا الحق على وصف فطرة الأولية حيث لا أعمال، ولا أحوال، ولا نطق، ولا أقوال محتاجين إلى عين منه ينظرون بها إليه، وإلى سمع منه يسمعون بها منه، وإلى قلب يعقلون به عنه، وإلى روح يعيشون به، وهم هناك على حد الفناء عن أوصاف الخليقة مغلوبين بأسرار قهر الأزل دهشين بين يدي جبروته؛ كأنهم يخرجون من العدم عاجزين في أنوار القدم يسألون عنهم على أي شيء كنتم، وعلى أي موقف وقفته من معرفة الجلال ومحبة الجمال فيهيجهم فضله العميم وكرمه القديم إلى نطق بالجواب فيقولون: نحن ما كنا في مهاد الولاية شاربين ألبان الزلفة من ثدي القربة، ساكنين عن غبار الوحشة، والآن جئناك على لباس العبودية ملامين في دار المحبة.

قَالَتْ سُكَينةُ مَن هَذَا؟ قلتُ لَهَا   أنَا الذِي أَنتَ عَن أَعْزَائِهِ زَعَمُوا

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ كتاب الأعمال يوضع الزهاد والعباد، ويوضع كتاب الطاعة والمعصية للعموم، ويوضع كتاب المحبة والشوق والعشق؛ لأهل الخصوص فكم من زفرة مكتوبة، وكم من أوه مكتوب، وكم من غيرة منقوشة، وكم من حرقة معرفة، وكم من لوعة الاشتياق مشهودة، وتلك الكتب بنظائر حقائق أنوار أسرارهم مشحونة، وهي لفضائل هؤلاء المشتاقين منشورة، وأودعت الفؤاد كتاب شوق سينشر طيه يوم القرار بعرض كتبهم على الأولين والآخرين؛ حتى يعترفوا بجهلهم عن معرفتهم في الدنيا بأستار، فكم من عارف ليس كتاب، وهو من أهل السر في سر السر ما عرف ملكه ما

جرى عليه، كيف يكتبان الذي لا يعرفان ولا يرانه، فأعماله قلبية وقلبه غيبي ،وغيبه أزلي لا يطلع عليه إلا الحق سبحانه.

وهذا كقوله ﷺ: «إن لله عبادًا لا يطلع عليهم ملك مقرب، ولا نبي مرسل» (١) وهو من أهل خصوص الخصوص ظاهر الآية تخويف لمن له خاطر من الخواطر المذمومة، ونفس من أنفاسه المعدودة المعلومة المشوبة بالتفات سره إلى غير الحق.

قال أبو حفص: أشد آية في القرآن على قلبي قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ انظروا إلى المخالفات كان فيها الهلاك، ونظروا إلى الموافقات وجدوها مشوبة بالرياء والسمعة والشهوات فخوف أهل اليقظة من الموافقات أكبر من خوفهم من المخالفات؛ لأن المخالفات في مقابلة العفو والشفاعة وسوء الأدب في الموافقة أصعب وأكثر خطرًا، ولو لم يكن فيه إلا المطالبة بصدق ذلك. ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب القالب المطابق لما في نفوسهم من هيئات الأعمال الراسخة فيهم، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ لعثورهم به على ما نسوا ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ يدعون التهلكة التي هلكوا بها من أثر العقيدة الفاسدة، والأعمال السيئة.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ لكون آثار حركاتهم وأعمالهم كلها باقية في نفوسهم صغيرة كانت أو كبيرة ثابتة في ألواح النفوس الفلكية، وأيضًا مضبوطة فيها، تظهر عليهم على التفصيل في نشأتهم الثانية لامحيص لهم عنها وهذا معنى قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ سر معنى سجود الملائكة وإباء إبليس.

وقوله: ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ كلامٌ مستأنف، كأن قائلاً قال: ما بال إبليس لم يسجد قال: كان من الجن أي: من القوى البدنية المختفية المواد؛ فلذلك فسق ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أي: لاحتجابه بالمادة ولواحقها.

قال الله سبحانه: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٩).

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إن الله سبحانه عاتب من التفت إلى شيء سواه من العرش إلى الثرى، وعرف مكان ألطاف ربوبيته ،وفردانية ذاته وصفاته، وأعلمنا مقام تنـزيه قدمه عن الأضداد والأنداد التي هي فانية تحت جبروته، وخاضعة في ميادين ملكوته القدم عن الحدوث ومن النور، وأي شيء النور والظلمة من إبليس وذريته، وإيش الأصنام والأوثان في ساحة كبريائه الأزلي الذي يفنى بسطوة من سطواته كل ما بدأ من العدم إلى الوجود، أي شناعة أشنع على من يعتمد على أحد دون عزته.

قال يحيي بن معاذ: لا يكون وليًا لله، ولا يبلغ مقام الولاية من نظر إلى شيء دون الله، أو اعتمد سواه، ولم يميز بين من يوالیه ومن يعاديه، وحال إقباله من حال إدباره.

قال الله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

قال الحسين: خاطبك الحق تعالى أحسن خطاب، ودعاك إلى نفسه ألطف دعاء بقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إن الله سبحانه أخبر عن أولية ذاته، وتقدم صفاته حيث لا حيث، ولا أين ولا بين إلا رسم للحدث، ولا وسم كان بحر وجود جلاله مسرمدًا دائمًا منـزهًا عن نقائص الحدوثية، ولا عقل، ولا فهم، ولا علم كان في قدم عزته لا وجود لها، ولا عدم ولا رسم فلم يزل قائمًا بذاته، فإذا أراد كون الخلق مشاهد صفته بنعت التجلي أخرج الكون من العدم، ولم يحتج إلى إعانة حادث في إيجاده إذا لو شاهد

الخلق عند كونه، وإيجاد الحق وجوده تكون منقصة في نظر العدم، وكيف تكون ذلك القدم منـزه عن المعية مع الخلق.

فإذا كان كذلك فإيش يدرك من الحدثان وأسرار صفاته مندرجة تحت أسرار ذاته، وأسرار ذاته مخفية في أسرار صفاته للعقول بها إحاطة، وليس للقلوب بعرفانها منزلة، وليست الأرواح؛ لإدراكها خطرة، ولا للأسرار همة هي ممتنعة عنها ، يشاهدها أهل البرية التي استحقاقها من سطوة عزته وفناء.

قال أبو سعيد الخراز: لقد عجزت الخليقة عن أن تدرك بعض صفات ذاتها، وتدري كيف كنهها في أنفسها.

قال الله: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ فلم يملك الله الخلقية أن نحرى علم أنفسها في أنفسها فكيف يدرك شيئًا من صفات شاهدها.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾﴾، قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾.

قرى الحقائق لبعضهم نفوس، ولبعضهم قلوب ولبعض عقول، ولبعضهم أرواح، ولبعضهم أسرار، وللعموم صدور، ولعموم العموم أشباح فأهل الأشباح لما لم يستعملوا الحواس؛ بما خلق الله لها من طاعته وخدمته مسخها كقوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ وأهل الصدور لما لم يراعوا أنوار الإسلام بتقديسها عن شوب النفاق خربها الله بجند الوسواس وأهل النفوس لما لم يزكوها بصفاء المجاهدة تركها في شهواتها، وحجبها عن صفاء الذكر وأهل القلوب لما لم يراقبوا أنوار الغيوب، ولم يدفعوا عنها الخواطر المذمومة حجبها عن رؤية ملك الآخرة وأهل العقول لما لم يستعملوها بالجولان في الأفكار، ولطائف الأذكار حجبها عن غرائب الأنوار.

وأهل الأرواح لما لم يجيلوها في ميادين الملكوت؛ لطلب مشاهدة الجبروت حجبها الحق بشواغل الرسوم وأهل الأسرار، ولما لم يعرفوا حقائقها وماهيتها؛ بأنها طروق لطائف

علومه الغيبية تركها خالية عن كشوف أحكام الربوبية، وأهل الظاهر لما لم يعرفوا المنعم باشتغالهم بالنعمة أهلكهم الله بأن شغلهم بالنعمة عن طلب المنعم.

قال أبو بكر بن طاهر: لما لم يشكروا نعم الله عندهم، ولما يقابلوا البلاء بالصبر والرضا.

قال الواسطي: وكلنا هم إلى سوء تدبيرهم حين سخطوا حسن اختبارنا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ ظاهرة على ما ذكر في القصص، ولا سبيل إلى إنكار المعجزات وإما باطنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ لما أخطئوا والطريق لم يسرا بالقلب فأثر عليهما النصب، وذلك بتعليم الله إياهما؛ بأن جاوزا عن الحد وسر القلب ربما عرف حكم الغيب لم يعرف ذلك القلب والعقل فيتأذى النفس من جهة الجهل به، ولو عرف القلب والنفس كما عرف السر لم يطرأ عليها أحكام التعب، ولحوق النصب لهما بأنهما في مقام المادة والامتحان، ولو كان موسى هناك محمولاً بحظ المشاهدة؛ لكان كما كان في طور لم يأكل الطعام أربعين يومًا، ولم يلحق به تعب وهذا حال أهل الأنس، والأول حال أهل الإرادة؛ ألا ترى كيف قال ﷺ:

«أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1]. ولما كان في طلب الواسطة احتجب عن مقام المشاهدة، وابتلى بالمجاهدة أدبه الحق بذلك؛ حتى لا يخطر بباله أنه في شيء من علوم الحقائق فإنه تعالى غيور على من يدع بالبلوغ إلى سر الأسرار؛ لأجل ذلك أخرجه إلى تعلم علم الغيب.

وقال الأستاذ: كان موسى في هذا السفر محتملاً ، وكان سفر تأديب واحتمال مشقة؛ لأنه ذهب لاستكبار العلم، وجال طلب العلم، وحال التأدب وقت تحمل المشقة، ولهذا لحقه الجوع فقال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ وحين قام في بدء انتظار سماع الكلام عن الله صبر ثلاثين يومًا، ولم يلحقه جوع ولا مشقة؛ لأن ذهابه في هذا السفر إلى الله، وكان محمولاً.

فإن يقال وإذ قال: ﴿هَٰذَا نَصَبًا﴾ هو نصب الولادة ومشقتها ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ﴾ ما عراني ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي: النحر للارتضاع ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ لاستغنائنا عنه ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي: وما أنساني أن أذكره إلا الشيطان، على إبدال أن أذكره من الضمير؛ وذلك لأن موسى كان راقدًا حين اتخذ الحوت سبيله في البحر على ما

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٣٠٩)، والترمذي (٣/ ١٤٨).

قيل، وفتى النفس يقظان، فأنسى شيطان الوهم الذي زين الشجرة لآدم، ذكر النفس الحوت لموسى؛ لكون الحال حال ذهول والسبيل المتعجب منه هو السراب المذكور.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تملص الحوت واتخاذه سبيله الذي كان عليه في جِبِلَّتِه ﴿مَا كُنَّا﴾ نطلبه؛ لأن هناك مجمع البحرين الذي وعد موسى عنده بوجود من هو أعلم منه، إذ الترقي إلى الكمال بمتابعة العقل القدسي لا يكون إلا في هذا المقام ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ في الترقي إلى مقام الفطرة الأولى، كما كانا أو لا يقصان ﴿قَصَصًا﴾ أي: يتبعان آثارهما عند الهبوط في الترقي إلى الكمال.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فيه إشارة خفية إن الله سبحانه خواصًا من عبادة، وهم الذين اصطفاهم لمعرفة ما استأثر لنفسه من علوم الربوبية، وأسرار الوحدانية، وحقائق الحكمة ولطائف ملكوته وجبروته، وهم أهل الغيب وغيب الغيب والسر، وسرّ السر الذين غيبهم الله في غيبه، وسترهم عن خلقه شفقة عليهم فيما يظهرون من سر الله، وهم العباد بالحقيقة الذين بلغوا حقيقة العبودية بحيث جعل الله عبوديتهم محاذيًا لربوبيته، وإلا فالكل عباده من حيث الخليقة لكن هم العباد بالحقيقة من حيث المعرفة، ولولا تلك الخاصية المحضة لما قال ﷺ: «أنا العبد، لا إله إلا الله، أنا العبد بالحقيقة لا غير»[1].

وأي تشريف أشرف لخضر ﷺ من هذه الخاصية له سماه عبدًا، ومن بالحقيقة عبده لولا رحمته الكافية التي سبقت في الأزل لعباده لما يجترئ أحد من خلقه أن يقول: أنا عبدك؛ لأنه منــزه عن أن يعبده الحدثان بالحقيقة.

ووجد العقل القدسي وهو عبد من عباد الله مخصوص بمزية عناية ورحمة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي كمالاً معنويًا بالتجرد عن المواد والتقدس عن الجهات النورية المحضة التي هي آثار القرب والعندية ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ من المعارف القدسية والحقائق الكلية اللدنية بلا واسطة تعليم بشري.

وقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ هو ظهور أداة السلوك والترقي إلى الكمال ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ لكونك غير مطلع على الأمور الغيبية والحقائق المعنوية لعدم تجرد أو احتجابك بالبدن وغواشية فلا تطبق مرافقتي.

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

وهذا معنى قوله: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾، ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ القوة استعدادي وثباتي على الطلب ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ لتوجهي نحوك وقبولي أمرك؛ لصفائي وصدق إرادتي والمقاولات كلها بلسان الحال

﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ في سلوك طريق الكمال ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ ﴾ أي: عليك بالاقتداء والمتابعة في السير بالأعمال والرياضات والأخلاق والمجاهدات، ولا تطلب الحقائق والمعاني﴿حَتَّىٰ﴾ يأتي وقته ﴿ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي: من ذلك العلم﴿ ذِكْرًا ﴾ في الغيبية عند تجردك بالمعاملات القلبية والقلبية ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ في سفينة البدن البالغ إلى حد الرياضة الصالح للعبودية إلى العالم القدسي في بحر الهيولي للسر إلى الله ﴿ خَرَقَهَا ﴾ أي: نقضها بالرياضة، وتقليل الطعام، وأضعف أحكامها، وأوقع الخلل في نظامها وأوهنها ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ أي: أكسرتها؛ لتغرق القوى الحيوانية والنباتية التي هم القوى البدنية واستطعامهما منهم هو طلب الغذاء الروحاني منهم أي: بواسطتهم كانتزاع المعاني الكلية من مدركاتها الجزئية، وإنما أبوا أن يضيفوهما، وأن أطعموهما قبل ذلك؛ لأن غذاءهما حينئذٍ كان من فوقهم من الأنوار القدسية والتجليات الجمالية والجلالية والمعارف الإلهية والمعاني الغيبية، لا من تحت أرجلهم كما كان قبل خرق السفينة، وقتل الغلام بالرياضة والقوى والحواس، مانعة من ذلك لا ممدة بل لا تتهيأ إلا بعد نعاسهم وهدوئهم .

كما قال موسى لأهله: ﴿ ٱمْكُثُوٓا ﴾ [طه: ١٠]، والجدار الذي ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ هو النفس المطمئنة، وإنما عبر عنها بالجدار؛ لأنها حدثت بعد قتل النفس الأمارة، وموتها بالرياضة، فصارت كالجماد غير متحركة بنفسها وإرادتها؛ ولشدة ضعفها كادت تهلك فعبر عن حالها بإرادة الانقضاض، وإقامته إياها تعديلها بالكمالات الخلقية والفضائل الجميلة بنور القوة النطقية، حتى قامت الفضائل مقام صفاتها من الرذائل.

وقول موسى ﷺ ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ تلوين قلبي لا نفسي، وهو طلب الأجر والثواب باكتساب الفضائل واستعمال الرياضة؛ ولهذا أجابه بقوله: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ أي: هذا هو مفارقة مقامي ومقامك ومباينتهما، والفرق بين حالي وحالك، فإن عمارة النفس بالرياضة والتخلق بالأخلاق الحميدة ليست لتوقع الثواب والأجر، وإلا فليست فضائل ولا كمالات؛ لأن الفضيلة هي التخلق بالأخلاق الإلهية بحيث تصدر عن صاحبها الأفعال المقصودة لذاتها لا لغرض، وما كان لغرض فهو حجاب ورذيلة لا فضيلة، والمقصود هو طرح الحجاب، وانكشاف غطاء صفات النفس والبروز إلى عالم النور؛ لتلقي

المعاني الغيبية، بل الاتصاف بالصفات الإلهية، بل التحقق بالله بعد الفناء فيه لا الثواب كما زعمت.

﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي: لما اطمأنت النفس واستقرت القوى أمكنك قبول المعاني وتلقي الغيب، الذي نهيتك عن السؤال عنه حتى أحدث لك منه ذكرًا فسأذكر لك، وأنبئك بتأويل هذه الأمور إذا استعددت لقبول المعاني والمعارف.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ ﴾(١) في بحر الهيولي أي: القوى البدنية من الحواس الظاهرة والقوى الطبيعية النباتية، وإنما سماها مساكين؛ لدوام سكونها وملازمتها لتراب البدن، وضعفها عن ممانعة القلب في السلوك والاستيلاء عليه كسائر القوى الحيوانية.

وحُكِيَ أنهم كانوا عشرة إخوة خمسة منهم زمنى، وخمسة يعملون في البحر، وذلك إشارة إلى الحواس الظاهرة والباطنة.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بالرياضة؛ لئلا يأخذها ملك النفس الأمارة غصبًا، وهو الملك الذي كان وراءهم أي: قدامهم ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ بالغواشي البدنية أو القلب الذي مات، أو قتل قبل الكمال باستيلاء النفس في المدنية البدن.

﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ أي: كنز المعرفة التي لا تحصل إلا بهما في مقام القلب، لا مكان اجتماع جميع الكليات والجزئيات فيه بالفعل وقت الكمال، وهو حال بلوغ الأشد واستخراج ذلك الكنز.

وقال بعض أهل الظاهر من المفسرين: كان الكنز صحفًا فيها علم.

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا ﴾ على كلا التأويلين ﴿ صَٰلِحًا ﴾.

وقيل: كان أبًا أعلى لهما، حفظهما الله له فعلى هذا لا يكون إلا روح القدس.

وقوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ولاية وقربًا ومشاهدة ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ معرفة كاملة، وعلمًا من علومه المجهولة الغيبية التي مكتومة عن كثير من الأخيار، وهو علم اللدني الخاص الذي استأثره الله لنفسه، والخواص خواصه، وذلك العلم حكم الغيب على صورة مجهولة حقائقها مقرونة بمنافع الخلق، وهذا يتعلق بعلم عالم الأفعال التي براهينها لاستحكام العبودية.

---

(١) أي: ضُعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة، فسماهم مساكين؛ لذلهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وأَمِتْنِي مِسْكِينًا، واحْشُرْنِي فِي زُمرةِ المَسَاكِينِ» فلم يُرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أي: احشرني مخبتًا متواضعًا، غير جبار ولا متكبر.

وأخص من ذلك الوقوف على بعض سر القدر قبل وقوع واقعته، وأخص من ذلك علم الأسماء والنعوت الخاصة، وأخص من ذلك علم الصفات، وأخص من ذلك علم الذات، وعلم المتشابه خاص في العلم المجهول فكل ما يتعلق هذه العلوم يكون بالمكاشفات، وظهور المغيبات وعلم القدم الذي هو وصف الحق تعالى من علم الربوبية يتعلق بالإلهام الخاص، وسماع كلام القديم بغير الواسطة، وفوق ذلك ما استأثر الحق لنفسه خاصة، وليس للخلق إليه سبيل بحال.

قال ذو النون: العلم اللدني هو الذي محكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان.

قال ابن عطاء: علم بلا واسطة للكشوف، ولا بتلقين الحروف لكنه الملقى إليه بمشاهدة الأرواح.

قال الحسين: العلم اللدني إلهام أخلد الحق الأسرار فلم يملكها انصراف.

وقال القاسم: علم الاستنباط بكلفة ووسائط، وعلم اللدني بلا كلفة ولا وسائط.

وقال الجنيد: العلم اللدني ما كان محكمًا على الأسرار من غير ظرفية ولا خلاف واقع؛ لكنه مكاشفات الأنوار عن مكنون المغيبات، وذلك يقع للعبد إذا زم جوارحه عن جميع المخالفات، وأفنى حركاته عن كل الإرادات، وكان شبحًا بين يدي الحق؛ بلا تمنٍ ولا مراد.

قال سهل: الإلهام ينوب عن الوحي كما قال الله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] وكلاهما إلهام.

وقال الأستاذ: إذا سمى الله إنسانًا بأنه عبده جعله من جملة الخواص، فإذا قال: عبدي جعله من خواص الخواص.

وقال العلم اللدني: ما يحصل من طريق الإلهام دون التكلف بالطلب، ويقال: ما يعرف به الحق أولياءه مما فيه صلاح عباده.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ
أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا
تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[1] أحسن الأدب موسى عليه السلام حيث استأذن في المتابعة عرف موسى أن علم الحق لا نهاية له، فاشتاق إلى ما فوق علمه، فاستعلم مكنونه من مواضع تجليه وخاصية خطابه ،وذلك الرشد الأعلى بحيث إذا علم عرف في جنبه الحق بنعت خاص دون ما علمه السيار والسباح في بحر وحدانيته، وميادين قدرة غرثانه إلى علم ألوهيته، ولا بأس، فإن ذلك العلم الذي عند الخضر لم يكن عند موسى، فأراد سبحانه أن يعرف موسى ذلك العلم السري النور الغيبي فامتن بصحبة الخضر؛ لاستقامة الطريق وتقويم السنة في متابعة المشايخ،وليكون أسوة للمريدين والقاصدين في خدمتهم أشياخ الطريقة، وكان موسى أعلم من الخضر بما عنده من الحق، ولكن ليس عنده ما كان عند الخضر في ذلك الوقت فساعده التوفيق، فعرف منه أبواب تلك الأسرار المكتومة، فدخل في باب علم الخضر إلى عالم العلم المجهول، وبلغ إلى مقام فيه غاب علم الخضر، وعلم جميع الخلق هناك، وهذا زيادة فضل الله على موسى .

قال فارس: إن موسى كان أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله، والخضر كان أعلم من موسى فيما وقع إلى موسى.

وقال أيضًا: إن موسى كان مبقى عليه صفته؛ ليأخذ الغير أدبه، فمن انقطع عن الرياضة كان على حسب العصمة والتمكين فيه، والخضر كان فانيًا مستهلكًا، والمستهلك لا حكم له، وموسى كان باقيًا بالحق، ولا فرق بينهما؛ لأنهما تكلما من معدن واحد، ثم إن الخضر تعلل، ودفع صحبة موسى عليه السلام ونسب موسى إلى قلة الصبر معه، وبقلة العلم بما عنده وهو يعلم أن موسى أكرم الخلق على الله في زمانه، وهو رجل منبسط معربد، ففزع من صحبته فدفع صحبته بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فقرن الصبر بالعلم، وبين أن قلة الصبر من الجهل، وكان موسى صابرًا عالمًا، ولكن من حمية في دينه وشريعته، لم يقبل ما لا يوافق الشرع، وذلك ليس قلة الصبر، ولا قلة العلم؛ إنما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحفظ لحدود الله، كان موسى مستغرقًا في بحر جمال الحق وسماع كلامه المسفر منه بلا وساطة، وذلك الكلام أخبره عن سر الأسرار، وغرائب علوم الربوبية، وكان فارغًا عن

---

(١) فصار جوابه لن من الحق ومن الخلق ليبقى موسى بلا موسى ويصفو موسى عن كل نصيب لموسى بموسى. تفسير حقي (٤/ ٢٦٨).

صورة رسوم علم المقادير التي يتعلق بالمنافع والمضار فعلم الشيخ شأنه؛ إنه مع حاله وسكره بوصال الحق لا يحتمل مالا يتعلق بتلك الكشوفات، ولا بأس به وإن لم يعلم ذلك العلم فإن السلطان لا يضر به إن لم يعلم علم التجارة.

قال جعفر: لن تصبر مع من هو دونك فكيف تصبر مع من هو فوقك؟

وقال بعضهم قال الخضر لموسى: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ثم لم يصبر مع الخضر بقوله: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ ليعلم أنه ليس لولي أن يتفرس في نبي.

قال بعضهم: آيسه من نفسه؛ لئلا يشغل صحبته عن صحبة الحق، ولما عزم أمر طلب الزيادة في موسى ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ تأدّب موسى واستثنى؛ لأنه كان عالمًا بأن الصبر لا يكون إلا بالله.

قال فارس: موسى ﷺ استثنى على نفسه بقوله: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ أو لم يستثن الخضر على موسى بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال: لأن علم موسى في ذلك الوقت علم تكليف واستدلال، وعلم الخضر علم لدني من غيب إلى غيب، وقال: موسى كان على مقام التأديب، والخضر قائم مقام الكشف والمشاهدة لما جعل مؤدبًا له، ثم علم الخضر أن موسى صغر في عينه علم من كان على وجه الأرض، ولا يلتفت من مقامه الذي هو الشهود مشهد رؤية الذات والصفات إلى ما يظهر من المقدرات في عالم الصورة التي يتعلق بمنافع الخلق من جلال شأنه عند الله، وعظيم علمه بنعت الله وصفاته فأكد الأمر : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ دفع سؤاله فإن الصادق يعلم الواقعة إذا كان متحققًا، وتبين له ما يريد بصدقه وإخلاصه، ولا يحتاج إلى السؤال وحق المتابعة السكون عند تصرف الأستاذ.

قال الحصري: علم الخضر تصور علمه عن محل سؤال موسى، وإنه لجأ إليه للتأديب لا للتعليم فقال له: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ ﴾ لأن علمك أعلى وأتم، وإنما أُلجئت إلى التأديب لا للتعليم في خاص حال من الأحوال.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ سلكا طريق السؤال يتعلق

بتذلل النفس في الطريقة، فلما أبوا أن يضيفوهما نزلا من مقام السؤال إلى الكسب والكسب من أوصاف السالكين، والسؤال من أوصاف المجذوبين الذين لا يطيقون أن يشتغلوا بالمكاسب، ويضيعوا أنفسهم بالاشتغال بالكسب بل يسألون ما يحتاجون بلحظة، ويفرغون من ذلك بلحظة، وطريق السؤال بالحقيقة للتمكين أن يكون المسئول في البين هو الله عز وجل، والسؤال سبب ضعيف، فإذا كمل الحال يسقط السؤال والكسب، وفيه بيان أن الكسب والسؤال لم يمنعا العارف من مقام الرضا والتوكل؛ لأن مع جلالة قدرهما سألا واكتسبا وكانا في محل التوكل والرضا على أحسن الأحوال.

قال الواسطي في قوله: ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ الخضر شاهد أنوار الملك، وشاهد موسى الوسائط، وكان الخضر أخبر موسى أن السؤال من الناس هو سؤال من الله فلا تغضب عن المنع فإن المانع ، والمعطى واحد، فلا تشهد الأسباب، وأشهد المسبب تشريح من هواجس النفس، ولما أقام الخضر الجدار، وترك أجر العمل.

قال موسى: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ لم يكن موسى يطمع في أجرة العمل لكن وجد أهل القرية لئامًا بخلاء أراد أن يأخذ أجرة العمل ويتصدق بها لأمرين شحنه لعيون البخلاء داء.

هكذا قال ﷺ في وصف تلك القرية قال: كانت قرية اللئام، وقال: طعام البخيل داء، ويمكن أنه أراد أن يأخذ الأجرة، ويأكل منها الأنبياء فيغفر الله لأهل القرية ذنوبهم ويجعلهم أسخياء ببركتهم، وكان موسى في مقام الرفاهية والأنس، وتضر به المجاهدة، وكان الخضر بعد قد بقي في منازل ، وكان موسى في بحر نيران الاشتياق، ولا يصبر عن الطعام، وهكذا حال أهل النهايات، وكان ﷺ في بدء الأمر في مقام السماع والمشاهدة صبر عن الطعام والشراب أربعين يومًا، وكان نبينا ﷺ من المعراج روي أنه جاع في الساعة، وذلك من صولة الحال، وكان ميل الخضر إلى ترك أجره العمل، وهذا من دأب الفتيان.

قال ابن عطاء: رؤية العمل وطلب الثواب به يبطل العمل.

ألا ترى الكليم لما قال للخضر: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ كيف فارقه.

وقال الجنيد: إذا وردت ظلم الأطماع على القلوب حجبت النفوس عن حظوظها من بواطن الحكم، ولما انتهى علم الخضر إلى كمالها وعرف موسى شأنه، وحد علمه، وكاد أن يغلب على الخضر بأن يطلب منه أسرار العلوم الربانية الصفاتية الذاتية علم الخضر أنه بنفسه لا يطيق أن يجيبه، مما يدفعه فيفرغ منه فعلل بقوله: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ عرف الخضر سر موسى وآنسه بجمال الحق، وأنه ممتحن في صحبته فأراد أن يريحه من صورة العلم

والعمل، وأيضًا عرف حدته، وخاف من جواب سؤاله الذي من عالم سرٍّ سر الربوبية العلية فخاف منه بأن يتطاول على شيخ من شيوخ القصة، وكيف لا يفرغ منه وعلم وكزته التي ذهبت بإحدى عيني عزرائيل عليه السلام.

قال النصر آبادي: لما علم الخضر انتهاء علمه وبلوغ موسى إلى منتهى التأدب، قال: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾[1] لئلا يسأله موسى بعده عن علم أو حال فيفضح.

وقال أبو بكر بن طاهر: كان موسى ينهى الخضر عن مناكير في الظاهر، وإن كان للخضر فيه علم لكن ظاهر العلم ما كان يأمر به موسى فلما نهاه عن المعروف بقوله: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ورده الطمع.

قال: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ قد عجبت من هذا الأمر، وأن الله سبحانه كان في الأزل عالمًا بذلك قادرًا على أن يخلقه مؤمنًا، ولم يطبع على قلبه الكفر حتى لا يكون أبواه بسببه كافرين ،لكن حكمته الأزلية جارية بغير إدراك إفهام الفهماء ،وهو لا يحتاج إلى قتل الغلام بغير جرم، بل هو قادر على أن يهديه إلى طريق الحق؛ حتى لا يغشى عليه، وعلى أبويه ظلمة الكفر﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨] و ﴿ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[المائدة : ١] ظاهر الآية كأنها تنبئ أن اكتساب البشر مانع القدر، كقتل الخضر الغلام يمنح صيرورة كفر أبويه، والأمر على مما يتوهم المتوهمون فيه؛ لأن ذلك بيان وصف عبن الجمع في العالم أن الخضر كان فعل الله، والغلام فعل الله، والقتل فعل الله،

(١) فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المآل والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبَوَيْ الغلام من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز، وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعته، ولم يقل: «بتأويل ما رأيت»؛ نوعُ تعريضٍ به، وعناية عليه السلام. البحر المديد (٣/ ٤٢٤).

والأمر أمر الله، والقدر قدر الله، فمن حيث القدر يثبت، ومن حيث الفعل يمحو ما قدر يمحو الله ما يشاء مما قدر في الأزل، بقدر أسبق من ذلك القدر، وهو علم العلم، وغيب الغيب، وسر السر، وأمر الأمر ويثبت مما يشاء مما قدر الذي لم يسبق عليه قدر القدر، فهو في جميع ذلك واحد من كل الوجوه ،السبب صدر من المسبِّب والمسبَّب والسبب في عين الجميع واحد.

كان نظر الخضر إلى القدر الظاهر، ونظر موسى إلى قدر القدر، كان موسى احتج على الخضر؛ بأن القدر سبق على بقاء إيمان أبويه، وإيمان المقتول معًا، وإن لم يكن القتل في البين، واحتج الخضر على موسى بأن قتل الغلام كان أيضًا مقدَّرًا في أزل الآزال، وهو بذاته فعل الله المباشر في أمر الله، فلما علا علمه بالقدر على علم موسى.

قال: ﴿ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ وأظن في ذلك أن الغلام كان حسن الوجه، وكان فيه نور من كسوة حسن الحق، فخاف الخضر على أهل الحق ومعرفته أن ينظروا إليه ويستأنسوا بما يجدون من نور الله فيه، فيقفون بالوسائط عن مشاهدة الله، فقتله بغير الله ورفع الوسائط من بينه وبين أحبائه وأنبيائه وأوليائه.

قال بعضهم: تفرس الخضر في الغلام ما تئول إليه عاقبته من الكفر، كذلك من تفرس بنور الله لا يخطئ فراسته، قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ هذه الإرادات على صورتها مختلفة، وفي الحقيقة واحدة ؛لأن الإرادة بالحقيقة إرادة الله إذ الإرادات صدرت بصنوفهم عن إرادة الله فقوله: ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ خبر عن عين الجمع والاتحاد ، وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ خبر عن الاتصاف والانبساط وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ خبر عن إفراد القدم عن الحدوث، وتلاشي الحدث وفناء الموحد في الموحد، وهذه الإرادة بوصفها باطن المشيئة، وباطن المشيئة غيب الصفة، وغيب الصفة سر الذات، والذات غيب جميع الغيوب، ولما تحرك من وصف الاتحاد قطعته الغيرة من محض الاتحاد إلى عين الجمع وقطعته الجمع إلى الاتصاف، ومن الاتصاف إلى الانبساط، ثم أغرقته بحر الألوهية، وأفنته في لججها عن كل رؤية، وعلم وإرادة فعل، وإشارة كان الحق بفصله نطق في الأول والثاني والثالث، ولم يبق في البين إلا الله.

قال ابن عطاء لما قال الخضر ﷺ: ﴿ فَأَرَدت ﴾ أوحي إليه في السر من أنت؛ حتى تكون لك إرادة فقال في الثانية: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ فأوحي إليه في السر من أنت وموسى؛ حتى تكون لكمال إرادة فرجع وقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾.

وأيضًا قال أما قوله: ﴿ فَأَرَدت ﴾ كان شفقة على الخلق، وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ رحمة، وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ رجوعًا إلى الحقيقة.

وقال الحسين في قوله: ﴿ فَأَرَدت ﴾ وأردنا ربك المقام الأول استيلاء الحق، والمقام والثاني مكالمة مع العبد، والمقام الثالث رجوع إلى باطن الغلبة في الظاهر، فصار به باطن الباطن ظاهر الظاهر، وغيب الغيب عيان العيان وعيان العيان غيب الغيب، كما أن القرب من الشيء بالنفوس هو البعد فالقرب منها بها هو القرب.

قصة ذي القرنين مشهورة، وكان روميًّا قريب العهد والطبيعي أن ذا القرنين في هذا الوجود هو القلب الذي ملك قرينه أي: خافقيه شرقها وغربها ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ ﴾ في الأرض البدن بالأقدار والتمكين على جميع الأموال من المعاني الكلية والجزئية، والسير إلى أي قطر شاء من الشرق والمغرب ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ إرادة من الكمالات

﴿ سَبَبًا ﴾ أي: طريقًا بتوصل به إليه ﴿ فَأَتْبَعَ ﴾ طريقًا بالتعلق البدني وتوجه إلى العالم السفلي.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي: مكان غروب شمس الروح ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي: مختلطة بالحمئة وهي المادة البدنية الممتزجة من الأجسام الفاسقة، كقوله: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢]

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ هم القوى النفسانية البدنية والروحانية ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾ بالرياضة والقهر والإماتة ﴿ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ بالتعديل وإيفاء أحظ ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ بالإفراد وعدم الاستسلام والانقياد كالشهوة والغضب والوهم والتخيل ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾ بالرياضة

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ ﴾ في القيامة الصغرى ﴿ فَيُعَذِّبُهُۥ ﴾ بالإلقاء في نار الطبيعة ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي: منكرًا أشد من عذابي، وفي القيامة الكبرى فيعذبه عذاب القهر والإفناء ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ بالعلم والمعرفة كالعاقلتين، والفكر والحواس الظاهرة ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ بالسعي في اكتساب الفضائل والانقياد والطاعة ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ المثوبة ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ من جنة الصفات، وتجليات أنوارها وأنهار علومها ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي: قولًا ذا يسر بحصول الملكات الفاضلة ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ ﴾ طريقًا هي طريق الترقي والسلوك إلى الله بالتجرد والتزكي.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي: مطلع شمس الروح ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ هم العاقلتان والفكر والحدث والقوة القدسية ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أي: حجا ب بالتنور بنورها؛ لإدراكهم المعاني الكلية ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: أمره كما وصفنا ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من العلوم والمعارف ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ لا يتجاوزن حاجزًا لا يعلونه، وذلك هو الحد الشرعي والحجاب القلبي من الحكمة العملية ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ من المعاني الكلية والجزئية الحاصلة بالتجربة، والسير في المشرق والمغرب ﴿ خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي: عمل وطاعة.

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ هو الحكمة العملية والقانون الشرعي ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ من الصور العلمية وأوضاع الأعمال ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾ بالتعديل والتقدير ﴿ قَالَ ﴾ للقوى الحيوانية ﴿ ٱنفُخُوا ﴾ في هذه الصور نفخ المعاني الجزئية، والهيئات النفسانية من فضائل الأخلاق.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ أي: علا برأسه من جملة العلوم يحتوي على بيان كيفية الأعمال ﴿ قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ والنية والقصد الذي يتوسط بين العلم والعمل، فيتحد به روح العلم وجسد العمل، كالروح الحيواني المتوسط بين الروح الإنساني والبدن، فحصل سدًا أي: قاعدة وبنيان من زبر الأعمال ونفح العلم والأخلاق، وقطر العزائم والنيات، واطمأنت به النفس وتدبرت فآمنت.

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾[1] ويعلوه؛ لارتفاع شأنه وكونه مشتملاً على علوم وحجج لم يمكنهم دفعها والاستيلاء عليها ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ لاستحكامه بالملكات والأعمال والأذكار ﴿ قَالَ هَٰذَا ﴾ السد أي: القانون ﴿ رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ على عباده يوجب أمنهم وبقاءهم ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ بالقيامة الصغرى ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ باطلاً منهدمًا؛ لامتناع العمل به عند الموت وخراب الآلات البدنية.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا

---

(١) أيْ: يعلوه بالصعود لارتفاعه، والفاء فصيحة، أي: ففعلوا ما أمرهم به من إيتاء القطر، فأفرغوه عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلدًا، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه أو ينتقبوه. البحر المديد (٣/ ٤٣٥).

ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أخبر سبحانه عن ذي القرنين ﷺ أن أعطاه خلقه قدرته، وألبسه تمكين فعل حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله، ويحكم بحكمه ما يريد، وكان مجمع عين الجمع من حيث نور تجلي الذات والصفات والفعل فيه معنى ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ من كل ما في الملكوت السفلي له برهانًا، وحكمة، وعلمًا، ومعرفة بالله، وسببًا إلى قرب الله من أن ذلك الشيء له ، كان مرآة الحق يرى فيها علوم الغيبية، وحكم القدرية، ويبلغ بها إلى معادنها من أسرار الأزلية فكان مقام تدريج الترقي من عالم الفعل إلى عالم الصفة، ومن عالم الصفة إلى عالم الذات، ولو كان على محل تحقيق الكلي؛ لما أحاله الحق إلى الأسباب من الأشياء، الحدثاني التي هي وسائط الحكمة، وأخرجه من الأشياء إلى معدن الأصل، وهو دنو الدنو كما فعل بحبيبه ﷺ حيث أخرجه من الحدثان وأفرده من جميع الأسباب، وبلغه إلى حقيقة الحقيقة؛ حيث شاهد الحق بالحق وفني الكل فيه، ولم يصرف طرفه إلى الغير؛ حيث لا حيث ولا غير.

وهذا وصف قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٨].

وقال :﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ ﴾ جعلنا الدنيا طوع يده فإذا أراد طويت له

الأرض، وإذا أحب انقلبت له الأعيان، وإذا شاء مشى على الماء، وإذا هوى طار في الهواء، وكذا من أخلص سريرته مكناه من مملكتنا ينقلب فيها كيف يشاء، فمن كان الملك كان المُلك له.

وقال جعفر: إن الله تعالى جعل لكل شيء سببًا، وجعل الأسباب معاني الوجود، فمن شهد السبب انقطع عن المسبب، ومن شهد صنع المسبب امتلأ قلبه من زينة الأسباب، وإذا امتلأ قلبه من الزينة حال بينه وبين الملاحظة، وحجبه عن المشاهدة قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ أي: من عرف الله وشاهده وبرئ مما دونه.

﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يعنى له وصل الحق أبدًا جزاء لهذه المعاملات الحسنة.

وأيضًا زيادة المعرفة بجلال الله وعظمته، وتلك المعرفة الحسنى من الله .

قال ابن عطاء : من صدق الموعود، وأحسن اتباع أوامر ربه فله جزاء الحسنى، وهو أن يرزقه الله الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والشكر على النعمة، ونزع من قلبه حب الشهوات والدنيا ووساوس النفس والشيطان.

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ بالاضطراب والاختلاط أي: تركناهم يختلطون لاجتماعهم الروح مع عدم الحيلولة.

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ للبعث في النشأة الثانية ﴿ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴾ أو بالقيامة الكبرى حال الفناء، وظهور الحق جعله دكًّا؛ لارتفاع العلم والحكمة هناك، وظهور معنى الحل والإباحة، بتجلي الأفعال الإلهية وانتفاء الغير وفعله ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ حيارى مختلطين شيئًا واحدًا لا حراك بهم، ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ بالإيجاد بالوجود الحقاني حال البقاء، فجمعناهم جمعًا في التوحيد والاستقامة والتمكين، وكونهم بالله لا بأنفسهم.

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ أي:يوم القيامة الصغرى يتعذب المحجوبون عن الحق بأنواع العذاب والنيران ،كما ذكر في سورة «الأنعام» أو في ذلك الشهود أي: ظهر لصاحب القيامة الكبرى تعذبهم في نار جنهم.

﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾ كانت أعينهم في غطاء

غيرته، وشقاء مشقته عن النظر إلى مرآة الكون بالحقيقة؛ حتى يروا حقيقة ماهية الأشياء التي لطائفها تذكر القلوب عجائب أنوار الذات والصفات.

﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾ أي: محجوبة عن آياتي وتجليات صفاتي الموجبة لذكري ﴿ لَا يَبْغُونَ ﴾.

وأيضًا أعينهم في غطاء الشقاء، ولا يرون جمال القرآن الذي هو مذكر جميع الذات والصفات القدمية.

وأيضًا كانت أعينهم في علم الأزل مسدودة عن رؤيتنا.

وأيضًا وصفتنا التي مذكرة ذكرها ذكر، وصف القدم لأهل العدم بعد كونهم، وبعد غيبتهم عنا ولا يسمعون كلامنا بالحقيقة، ولا يسمع آذان قلوبهم وأرواحهم وعقولهم أصوات هواتف غيبنا.

قال ابن عطاء: أعين نفوسهم في غطاء عن نظر الاعتبار، وأعين قلوبهم في غطاء عن مشاهدة العيان في الملكوت، فإذا فتح عين قلبه بالمشاهدة فتح رأسه نظر الاعتبار وقال: لا يستطيعون سمعًا؛ لأن آذانهم مسدودة عن سماع الحق، ولم يفتح له سمع السماع كيف يسمع بظاهر سمعه، وهو تبع لسمع قلبه.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾(١).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وصف الله أهل الرياء والسالوس والناموس الذين يجلسون في الصوامع؛ لأجل نظر الخلق، وصرف وجوه الناس ، وطلب الرياسة

---

(١) في قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين، وهو لا ينافي الوزن في الحقيقة دلَّ عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقًا: أي ثابتًا، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمَن ثقلت موازينه؛ فله وزن عند الله ومقدار، مَن خفَّت موازينه؛ فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عدمهما الكفار.

والسلطنة ضل سعيهم في الدنيا والآخرة حين يفتضحون في أعين الخلق؛ لأن الله سبحانه عن صفته أن يفتضح المرائين في الدنيا، ومع ريائهم يجهلون سوء عواقبهم،ولا يعرفون أن ما هم فيه عين الشرك والضلالة، ويحسبون أن أعمالهم حسنة، وكيف يقع الحسن على أعمالهم، وهم فيها يشركون بنظرهم فيها إلى غير الله.

قال ﷺ: «أدنى الرياء شرك»[1].

سُئل أبو بكر الوراق عن هذه الآية قال: هو الذي يبطل معروفه في الدنيا مع أهلها بالمنة، وطلب الشكر على ذلك، ويبطل طاعته بالرياء والسمعة.

ثم إن الله سبحانه وصف عقب ذكر هؤلاء المبطلين أهل الإخلاص من الصالحين بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ أي: إن الذين عاينوا الحق وصبروا في الحق، وتمكنوا في إخفاء الأسرار، واستقاموا في إدارة قلبهم بوصف الهدف عند أصالة سهام الربوبية فيه كانت في الأزل لهم باختيار الحق واصطفائيته لهم بساتين فردوس جلاله وجماله ونطائف وصاله وأسرار كماله إلى أبد الآبدين لا يحتجبون عنها أبدًا؛ لأن من وصل إليه صار مستقيمًا بالحق مقدسًا بقدسه عن علل الحجاب، والاعوجاج والتحويل.

قال أبو بكر الوراق: من أنزل نفسه في الدنيا منزل الصادقين، أنزله الله تعالى في الآخرة منزل المقربين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ متنعمين فيها نعيم الأبد ينقلبون في مجاورته، ويفرحون بمحرضاته قد أمنوا كل مخوف، ووصلوا إلى كل محبوب، ولا يشتهون شيئًا إلا وجدوه كيف يطلبون عنه تحويلاً؟

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ إن الله سبحانه أخبر بهذه الآية أن أوهام الخليقة تقاصرت عن إدراك علومه وحكمته بالحقيقة، وأن أبصارها كليلة عن الإحاطة بذاته، وأن قلوبنا عاجزة عن فهم معاني صفاته في ذاته وذاته في صفاته، وأن الكون لو كان كمل بحره

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٥).

منه بحر الأساعي لها مداد، وإن من العرش إلى ثرى كل ذرة منها ميدانًا وصحارى من أقلام، وجميع الأولين والآخرين من الأزل إلى الأبد يكتبون كلمات القدمية لفنيت الكل عن حصرها، وبقيت الكلمات غير محصورة الحدثان، وكيف ذلك والحوادث منتهية، وصفات الأزلية منـزهة عن نقائض الحدوثية والعدد والمدد من قبل الخليقة، فلو كان بالمثل هذه البحور والأقلام والأيدي ، تكتب ما في قلب عارف في ساعة من كلام الحق وخطابه وحديثه ووحيه لنفد البحر، وينقطع الأقلام والأيدي، ولا تنتهي تلك الكلمات؛ لأنها قائمة بالصفات والذات والصفات منـزهة عن تقدير المقدرين، وحسبان المتوهمين، وحساب المحاسبين.

قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ﴾ [لقمان : ٢٧].

وإشارة الحقيقة أي: لو كان بحار القلوب مملوءة من مداد الخواطر وأسرارها التي تدور في سرادق الكبرياء أقلامًا، وتستمد مدادها من بحر الأفعال؛ لنفدت عند نشر معاني علم الله في كلمة من كلمات الله؛ لأن ملك البحار فعالية والكلمات صفاتية، والأفعال متلاشية تحت أنوار الصفات، ولا تعجب أن جميع الأكوان من العرض إلى الثرى؛ لو كانت كل ذرة منها ألف بحر لا ساحل لها يكون قطرة من بحر خواطر القلوب وأسرارها سبحان المنـزه عن إحاطة المخلوقات بشيء من علمه.

قال سبحانه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

قال الحسين: مقياس العدم في الوجود في معنى جوده فإما خاص الخاص من كلامه فلو كانت أبد الأبد أقلامًا ومدادًا وبياضًا ما نفد معاني كلمة من كلماته، ولا يوصف أكثر مما قد أشير إليه، وإنما يذكر الناس ما يفيدهم معاني العبودية من علم وثواب عقاب، ووعد وعيد على حسب ما يحتمل عقولهم، فأما الكمال من فائدة الكلام فللأنبياء والأصفياء والأولياء.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا (١١٠)﴾ .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ إن الله سبحانه زين حبيبه بأنوار الربوبية، وجعله متصف بصفاته متخلقًا بخلقه، وكان مرآة الحق في العالم يتجلى منه للعالمين فمن كان له عين من عيون الله مكحولة بسنا ذاته ينظر بها إليه، ويرى بالحق فيه جمال الحق فكاد من عليه شوقه إلى جمال ألا يبرح لحظة من عنده، ولا يتفرغ إلى صورة العبادة فأخبر الله

سبحانه بلسانه بأنه مخلوق، وإن كان متخلقًا بخلقه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أمره بأن يعرفهم إفراد القدم عن الحدوث بعد كونهم في رؤية عين الجمع فلا يرضى عنهم برؤية عين الجمع؛ بل يرضى عنهم برؤية جمع الجمع لذلك: ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: من نظر إلى غيره، وإن كان متلبسًا بنوره ملبسًا بسنائه فقد أشرك في التوحيد.

لذلك قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح»[1].

وزاد التأكيد في تقديس الأسرار عن ملاحظة الأغيار في مشاهدة الملك الغفار قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا﴾ أي: من كان من أهل مشاهدة الله، ورجاء وصوله واليقين في لحوقه إلى قربه فلتكن أعماله في السر والعلانية مقدسة عن نظر نفسه ورؤية أعواضها في قلبه، والتفات عقله إلى غير الله فالفرد لا ينبغي إلا للفرد، والفرد يكون بالفرد فردًا فمن أفرده الحق يكون منفردًا عن غيره لا بغير شيء من الحدثان.

قال الأنطاكي: من خاف المقام بين يدي الله عز وجل؛ فليعمل عملاً يصلح للعرض عليه، والله عجبت من أقوال مشايخي- رحمة الله عليهم- في العمل الصالح، وأين العمل الصالح، والعمل الصالح ما يصلح للقدم، وأين الحدث من القدم؛ حتى يصلح له؟

قال يحيي بن معاذ: العمل الصالح ما يصلح بأن تلقى الله به، ولا تستحي منه في ذلك.

قال سهل: العمل الصالح المقيد بالسنة، ثم إن الله سبحانه بين أن ما يكون من الأعمال الصالحة خاصة لوجهة يصير خالصًا عن إشارة الأغيار، وأن يخطر بقلب العامل ذكر الأشياء الحدثانية في مباشرة العمل، وأي: شرك أعظم من أن يرى لنفسه قيمة عند مباشرة العمل؛ فينبغي أن يتفرد بقلبه وسره وخاطره عن أن يكون له نظر إلى وجود؛ بل يكون فانيًا بحقيقة الفناء في بقاء الحق.

قال الأنطاكي: لا يرائي بطاعته أحدًا.

قال جعفر: لا يرى في وقت وقوفه بين يدي ربه غيره، ولا يكون في همة وهمته غيره، وعجبت من سر التوحيد؛ لأن الله سبحانه خاطب الخلق من حيث الخليقة لا من حيث الحقيقة ، وأين الحدث؟ وشركه في وجود القدم حتى قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الأحدية صفة الموحد القديم، وعبادة اسم الأحد عرف الأسماء، والصفات خارجة عن العرف، فإذا كان اسم العدد في الوحدانية معزولاً، فأين اسم وحدة الحدثان في وحدة الحق؟

قال الله سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام:٩١].

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٧١).

سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ ۝﴾أخبر الله سبحانه عن «كاف» كان وجوده الأزلي القدمي الأبدي كقوله تعالى «كان الله»، والإشارة فيها إلى كون وجوده قبل كون الكون، وإشارة الحقيقة بالكاف خبر عن سرّ القدم قد صابها العارفين إلى غيبوبيتهم في قفار الأولية والاستغراق في بحار القدمية ليعرفوا بالأولية الأولية، وأيضًا تجلى من كينونية الأحدية التي قبل كل علة على قلوب الموحدين لتغرقهم في بحار كبريائه، ويفنيهم في أنوار كنه ذاته فأشهدهم كائنة الذات والصفات وبصّرهم بنور كبريائه، فأبصروا بعيون سره نورية مكحولة بنور كبريائه فأبصروا بها مشاهدة كنه ذاته، فذابوا فيه فأغرقتهم أنوار مشاهدة الكنه في بحر كمال الذات والصفات حتى لم يبقوا فيها، وأبقاهم نور كاف الكفاية، وبرز لهم سنا كاف حكمته الأزلية فعرفوا بها فناءهم في بقائه وبقاءهم ببقائه فطلبوا بقاء البقاء بلا فناء ليستوفوا في البقاء حظ مشاهدة البقاء، فانكشف لهم «كاف» بحار الكرم من صفات الكريم، فأوصلهم إلى بساط قربه فظهر من عين عيون الغيب نورها الهوية وغيبهم في غيب الغيب، وهداهم إلى قرب القرب، ثم هداهم إلى دنو الدنو، وهداهم إلى وصل الوصل ثم هداهم بنعت التعريف والمعرفة إلى مشاهدات الصفات، ثم إلى مشاهدات الذات فلما بهتوا في الغيب وتاهوا فيه وادي غيب الغيب، ولم يعرفوا من علم الربوبية ذرة ولم يروا من حقيقة الحقيقة شيئًا فأخذهم «يا» نداء القدم مع أصوات أجراس الوصلة فلما وصلوا وقفوا بنعت الجهل بالحقيقة على الحقيقة، فخرج أنوار عين علم القدم فعرفهم النعوت والأسامي.

ثم أعلمهم الصفات والمعاني، ومكنهم بالحق في الحق مع الحق فطلبوا من الحق ما وجد الحق لهم من عظيم عطايا فيض جلاله وجماله فبان نور «صاد» صبح صدق ظهور أسرار الحق لهم فاكتسبوا بها، وصاروا عارفين بها صادقين في صدق رويتها في دعوى معرفتها ومحبتها، فما أشرنا بهذه المقالة فهو من رموز الحق في مفاتيح كنوز الذات والصفات وهي

«الكاف والهاء والياء والعين والصاد»، ففي هذه الحروف الخمسة بيان أسرار القدم والبقاء والأزل والأبد وسر الصفات والذات ولا يعرفها إلا حبيب من حبيب الحبيب مع حبيب غائب في الحبيب حاضر مع الحبيب، سكران في مشاهدته، صاح في شهوده، فيستفيد معنى المعاني من هذه المباني.

قال إبراهيم بن شيبان: أما «الكاف» فالله الكافي لخلقه، و«الهاء» فالله الهادي لخلقه، و«الياء» يد الله على خلقه بالعطف والرزق والعين، فالله عالم بما يصلحهم، و«الصاد» فالله صادق وعده، قيل: «الكاف» معناه الكافي للمسائلين حوائجهم، و«الهاء» هادي الضالين، و«العين» علم معاني إشارات المتعرضين في حوائجهم، و«الياء» النداء بهذه الدعوات، و«الصاد» صادق فيها وعد للمؤمنين.

قال بعضهم: كريم بعفوه، هاد بجوده، عالم بمصالح عباده، صادق فيما أخبره.

قال الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار ومعالي، وقد وقع لي من قبيل لطائف الخطاب كافي هم العارفين في طلبهم وصله، وهادي العارفين بنفسه إلى نفسه، ثم إلى ذخائر ما في كنوز قدمه من علومه المجهولة الغيبية ينادي بلابل بساتين ورد وصّاله العارفين حتى يزيد رغبتهم في المسارعة بنعت الشوق والمحبة إلى جلال بقائه عليهم بألم فؤاد العارفين في داء فقدان قدمه، ووجدان وجود بقائه صادق بصدق مواعيد قرباته، ومداناته للعارفين، ورفع حجب الاحتشام عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بنظر البسط والانبساط لا بنظر القبض والهيبة؛ لأن هناك مقام تمتعهم بجماله وجلاله وصحبته ووصاله: وهذه الحروف عيون رحمة ذاته، وكرم صفاته بأنبيائه وأوليائه؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝﴾، وتخصيص زكريا برحمته وذكره أنه كان ﷺ تعرض بنعت الفناء والعجز بجلال جبروته وعظائم ملكوته ليهب له من يرث منه علوم الحقيقة، ولطائف حكم الإلهية، فأخبر سبحانه عن تعطفه به ورحمته الكافية عليه بأنه أجاب دعوته وأعطى مأموله، وجعله إمامًا للخاضعين، ومقتدى للسائلين.

قال الحريري: في هذه الحروف سبب رحمة ربك عبده زكريا.

قال ابن عطاء: ذكر اختصاص زكريا بالرحمة، وإن كانت رحمته قد وصلت إلى الأنبياء فخصَّ زكريا من بينهم باللطف رحمة، وهو أن وهب له يحيى الذي لم يعص ولم يهم بمعصية؛ فهذا هو محل اختصاصه.

ثم وصف الله سبحانه نبيه زكريا بلطائف المناجاة، وخفي الذكر في المراتبات بقوله:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ إذ حاج سره إلى طلب الخنوع إلى الربوبية، والفناء تحت العظمة، والذهاب عن الذهاب في برجاء الهيبة في مقام المشاهدة ونجوى سره فناجى سر سره خفيًّا عن سره، ونادى سره خفيًّا عن روحه، ونادى روحه خفيًّا عن عقله، ونادى عقله خفيًّا عن قلبه، ونادى قلبه خفيًّا عن نفسه، ونادى نفسه خفيًّا عن صورته، ونادى لسانه بل جميع وجوده لسانًا خفيًّا عن غير ربه؛ فمناجاته ونجواه أخفى عن كلِّ خفي؛ لأنه نادى ربه بربه، وتلك المناداة ما وصف ﷺ بالخيرية والخاصية عن جميع العبادات والأذكار والأفكار بقوله: «خير الذكر الخفي»(1).

قال: عن عطاء: ﴿ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ أخفى نداءه من الخلق، ومن نفسه، وأظهر النداء لمن يجيبه، ويقدر على إجابته، وفائدة إخفاء النداء من الخلق، ومن النفس لئلا يدخله تلوين.

وقال بعضهم: خفي في الذكر عن الذكر، ومن ذا قيل: إذا أذهلتك العظمة خرس قلبك ولسانك عن الذكر.

قال بعضهم: أخفى سؤاله عن نفسه، وروحه فنداؤه لمن يقدر على إجابته وقضاء حاجته فسمع الحق نداءه، ووهب له يحيى كما طلبه.

ثم وصف الله سبحانه عبده زكريا بأنه جعل نفسه في مقام العجز والتواضع في سؤاله عن ربه، وهكذا حال السؤال على باب جبروت ذي الجلال، وكان في دعائه موقنًا؛ لأن قلبه شاهد مقام استنشاق نفحة الإجابة لذلك قال: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.

قال ابن عطاء: قام مقام معتذر لما وجد في نفسه من فترة العبادة لكبر السن، فسأل الله من يعينه على عبادة ربه، وينوب عنه فيما عجز عنه من أنواع العبادة منابة؛ فقال: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾، ورضاه لخدمتك ومستصلحة لعبادتك ثم إنه كان ﷺ رأى بعين سره روح ابنه في الملكوت طائرة في رياض الجبروت؛ فسأل ما رأى فقال: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ ناصرًا صديقًا نبيًّا مرسلاً، يعرف حالي، ويرث مقامي، ويتخلق بخلق آبائي، ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾ مرضيًّا عندك بعد اتصافه بصفتك راضيًّا عنك بعدما شاهد الرضوان الأكبر بنعت المتبري عن غيرك.

قال ابن عطاء: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ ﴾ أي: ولدًا نتخذه وليًّا يرث مني النبوة، ويرث من آل يعقوب الأخلاق، وقيل: يرثني النبوة، ويرث من آل يعقوب السخاوة

---

(1) رواه أحمد في مسنده (١/ ٧٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٩١).

والكرم والصبر على النوائب، والرضا بالمقدور.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾: يرضى منه أخلاق الظاهر، ويرضيه عنك في الباطن.

وقال جعفر: «ورضيًّا» أي: راضيًا بما يبدو له عليه.

قال أبو حفص: اعتذر إلى ربه في ضعفه عن القيام بالعبادة على حسب ما يريد ثم هو سبحانه بشَّره بما سرَّه، فقال: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ يحيى بحياته، ومشاهدة جماله، ومعرفة كماله، نفخ نفس صبح القدم في يحيى، فيحيى من موت العدم بأنوار القدم، وإذا بحياته لم يمت بموت الفرقة، وما طرأ عليه طوارئ قهر الغيرة، وقد تخصص من بين الأنبياء والرسل وجميع الخلق من طريان الامتحان الذي يكون سبب حجاب القلوب عن الغيوب، ولذلك خصَّ اسمه وخصه بهذا الاسم المبارك بقوله: ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ فكان في اسمه «ياءان وحاء»؛ فالياء الأولى ياء نداء الحق في الأزل نادى الحق بنفسه إلى العدم، ودعا من نفسه بنفسه وجود عبده يحيى؛ فتكون بياء نداء الأزل، وأجاب الفطرة الفعلية نداء الحق فصار قائمًا بقدرته بعد أن تجلى الحق من «حاء» حياته لتلك الفطرة، فصيرورته بروح الحق وروح حياة الحق فنادت تلك الفطرة بعد كونها، ودعت صانعها وأقرت بربوبيته، فالياء الأول نداء الربوبية من العدم.

والياء الثاني من اسمه نداء بنعت الجواب بالعبودية من العدم فألبسه الحق بين ياءين روحًا من حاء حياة الأزلية فصار حيًّا بحياته، مقدسًا من غمرات الموت، ولا اعتبار بذهاب الصورة عن البين فإنه نقل مع نقل الروح لذلك قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أجسادنا أرواحنا»(١).

قال الصبيحي: سماه يحيى، وقال: ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ ﴾ افتتح اسمه

(١) لم أقف عليه.

بالياء، وختمه بالياء، وتوسط بين ياءين حاء الحنانية، فاسمه في الخط مرسوم موجه يُقرأ من أوله إلى آخره ومن آخره إلى أوله.

فياء الأول توفيق، وياء الآخر تحقيق؛ فلذلك لم يعص، ولم يهم بمعصية؛ فقال الجنيد: سمي يحيى، ولم يكن له من قبل سميًّا؛ لأن يحيى من يحيا بالطاعة والموافقة، ولا يموت بالذنب والمخالفة، وكان هذا صفته ونعته لم يجر عليه وسم الخلاف، ولا لسان الذنب بحال، كان محمود السيرة من مبتدأ أمره إلى منتهاه؛ لذلك قال النبي ﷺ: «ما أحد من الخلق إلا أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا؛ فإنه ما أخطأ ولا همَّ»[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝﴾ هذا جواب قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝﴾ ما شكَّ في قدرة القادر، لكن تفحص من شأن الحال حتى يقع نظر سره على تجلي القدرة وسرها لعل ينكشف له عين ذات الأزلي.

فأجابه الحق: أين أنت مما طهر في نفسك مما تطلب في خلق ابنك؟ انظر إلى وجودك بعين الحقيقة؛ حتى تراني في كونك، وتستغني عن النظر إلى غيرك، ألبست نور قدمي فعلي، وألبست نور فعلي العدم وصيرتك موجودًا بظهور وجودي بنعت قدمي بعدمك.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝﴾: المقادير صرحت بمعانيها، وكشفت عن أوقاتها.

وقال أيضًا: أنت في حال وجودك كأنك في حال عدمك عندنا لا تحدث لنا في عدمك ووجودك حالة لم تكن لا الأشياء ثابتة في حال وجودها، ولا هي بائنة في حالة عدمها إذ وجودها وعدمها عند الحق سواء لا ثبات لشيء.

قال جعفر في قوله: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾: استقبل النعمة بالشكر قبل حلولها.

وقال الروذباري: غاية الرجاء في غاية اليأس، وهو في قصة زكريا حين قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ قوله له مثل يحيى.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٤٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٤٤) بنحوه.

وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ الكتاب كلام الحق الأزلي، كلف الله سبحانه يحيى ﷺ حمل كتابه الأزلي، وأمره أن يأخذ بقوة قال: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ معًا ذكرناه في قسمة أي: خذ الكتاب الأزلي بالقوة الأزلية التي ألبستها روحك وصورتك حين خلقتك بمباشرة قوتي الجبارية الأزلية، ولولا تلك القوة في نفسه كيف كان يأخذ الكلام القديم، والقديم لا يحتمل إلا بقوة من القدم.

أي: خذ كتابنا بنا لا بك، خذ بقوتنا لا بقوة الحدثية، وأيضًا خذ كتابنا بمعرفة كتابنا، وبمعرفتنا تعرف معاني حقائق كتابنا، وأيضًا خذ باستعانتك بنا بأخذ كتابنا.

ثم وصف امتنانه عليه حيث ما بالى أنه لم يكن بالغًا بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ عرفناه مكان الحقيقة في معرفة صفاتنا وذاتنا في زمان صباه؛ لأن روحه خرجت من عالم الملكوت كاملة بأنوار الجبروت، وأيضًا آتيناه الحكمة البالغة والمعرفة الشاملة والفراسة الصادقة والمحبة الشافية.

قال ابن عطاء: «الحكم» المعرفة.

وقال جعفر: التوفيق لاستعمال آداب الخدمة.

قال الحسين: كان روح يحيى معجونًا بأنوار المشاهدة، ونفسه معجونة بآداب العبودية والمجاهدة؛ لذلك قال له: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾.

وقال يوسف بن الحسين: أوتي يحيى حكمًا على الغيب، وفراسة صادقة لا يخالطها ريب ولا شك.

ثم وصف الله سبحانه صفيه يحيى بالطهارة والرحمة والتقوى بقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ أي: آتيناه رحمة من عندنا تلك الرحمة العندية أنه تعالى ألبسه كسوة من صفات رحمته، حتى جعله رحمة للمنقطعين، وشفاءً لمرضى المحبين، وجعله مطهرًا بأن قدسه في بحر جلاله بزلال وصاله عن غبار الامتحان وعماء العصيان، وجعله تقيًّا معرضًا عن غيره، مقبلاً عليه بنعت الشوق والمحبة.

قال الواسطي: ذلك الذي أوجب له الانبساط والدلال.

وقال سهل: رحمة من عندنا، وطهرة طهرناه بها من ظنون الخلق فيه، وكان تقيًّا معرضًا عما سوانا، مقبلاً علينا.

ثم إن الله سبحانه من شرف يحيى زكى روحه وقلبه وصورته بروح روح سلامه وخطابه بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ سلام الأزلي على روحه حين خرجت من نور كافه ونونه الذين هما روحان من تجلي صفات الحق، وذلك السلام سلامه تجلى جماله لروح يحيى في بدء أمرها، فلما وصل بركة سلام الله مع نور جود وجوده إلى روحه؛ أحاطت بها بنعت العصمة إلى يوم خروجها من صورة؛ فلما كملت العصمة فيه جازاه الله بزيادة كشف جماله وخطابه معه وسلامه عليه حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء لئلا يكون له وحشة من خوف العاقبة، فيبقى بين سلامين، وبين مشاهدتين حتى يكون وقت العرض الأكبر، فلما حان وقت وقوفه بين يديه يؤمنه بسلامه من العتاب، ويفرحه بكشف النقاب، ويؤويه إلى خير المآب؛ فالسلام الأول تربية، والسلام الثاني عصمة، والسلام الثالث وصلة ومشاهدة.

قال أبو بكر بن طاهر: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ تحية ربه له، وأمان له من كلِّ محذور، واتصال العصمة به إلى الممات، وقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ من ثنائه على نفسه أنطقه بلسانه، وهو أغرب في العلم، وأدق في اللطف.

وقال الواسطي: سلام في طرفي حياته مماته من جريان مخالفة عليه بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ الإشارة الحقيقية هاهنا أن جوهر مريم جوهر فطرة القدس، قرباه الحق بنور الأنس ففي جميع أنفاسها مجذوبة بنعت القرب والأنس إلى معدن الأنوار الإلهية، فصارت كل وقت مراقبة لظهور شمس الجبروت من مشرق الملكوت، فاعتزلت عن الأكوان بالهمة العالية المنعوتة بنور الغيب، فأقبلت إلى مشارق شموس الذات والصفات، واستنشقت نفحات الوصال من عالم الأزل، فوصل إليها نفحة وصال الأزلية، وأشرقت عليها شمس مشاهدة القدسية، فلما شهدت مشاهدة مشرق تجلي الأزل برقت أنواره، ووصلت أسراره إلى روحها فحملت

روحها بروح الغيب فصارت حاملة الكلمة الكبرى ونور الروح الأعلى فلما أعظم شأنها بعكس جمال تجلي الأزل عليها استترت من الخليقة، واستأنست بعروس الحقيقة، وذلك قوله: ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا ﴾ فلما خلت بذلك النور والبرهان، فبان لها نور صدر من تجلي الجلال والجمال، ووصل بنور روحها بعد أن تمثل لها بصورة عيسى، وذلك قوله سبحانه: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾.

إذا فرغنا من وصف القدس اللاهوت عن الناسوت، وعجز الناسوت عن إدراك اللاهوت، وتنزيه جلال الحق عن ممازجة الخلق، وإفراد القدم عن الحدوث، وعزة جماله وكبرياء أزليته عن المماثلة والمشابهة بقول: إن إرسال الحق روحه إليها أن ذلك الروح ظهور تجلي قدس الذات في نور الصفات ونور الصفات في لباس الأفعال على صورة حسنة مرغوبة، إليها ميل كل روح بنعت الشوق إليها، وذلك روح الفعل، وروح الصفة، وروح الذات في لباس نوره على قدر عقلها،لذلك قال: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ ﴾وهذا عادة ظهور الحق في بداية عشق العاشقين ليجذب بها أرواحهم، وقلوبهم إلى معدن تعريف الصفات والذات صرفًا بعد انفراد الحقيقة عن الخليقة، ومن ذلك قال ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة»[1].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا ﴾: نورًا منا ألقيناه عليها، وخصصناها به؛ فأين الكون الذي فيه أثره، فأُخرج من ضياء نتائج ذلك النور عيسى روح الله صلوات الله عليه.

روي عن أُبي بن كعب رضي الله عنه: «إن ذلك البشر الممثل هو روح عيسى»[2].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا ﴾ جعل الله عيسى مرآة نور مشاهدته، ومشكاة نور صفاته لطلاب قربه ووصاله، فتجلى منه لأبصار عرفانه، وأهل خصائص محبته،

---

(١) رواه الدارمي في سننه (٢/ ١٧٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٣١٧).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٠٥)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٤٠٥).

وهذا رحمته على كل مريد من صعقه لا يبلغ سر روحه إلى القدم؛ فيبصر جمال القدم في مرات الحدث، وأي آية أحسن من هذه الآية ظهر الحق بعزته، وقدسه عن التشبيه والتعطيل من وجه موسى وعيسى ومحمد -صلى الله عليهم وسلم؛ لذلك أشار ﷺ بقوله: «جاء الله من سيناء، ويستعلن بساعير، وأشرق من جبال فاران»[1].

قال أبو بكر بن طاهر: في هذه الآية علامة دالة على تصحيح الربوبية، ورحمة لمن آمن به، ولم يدع فيه ما لم يدعيه لنفسه.

قوله تعالى حكاية عنها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ تحيرت بين أمرين بين غيبتها عن رؤية سوابق التقدير في الأزل يكون عيسى آية الله في بلاد الله وعباده، وبين حياتها في رؤية جلال الحق مما زعم الكفر حيث قالوا بألوهيتها وألوهية ابنها، فأرادت أنها ما كانت ولم تكن، وتكون فانية مضمحلة من حياء خالقها وعلمها بتنزيه جلاله، وقدس جماله عن علة المخلوقات جميعًا، وممكن أنها قالت ذلك لمعارضتها جبريل بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾.

قال ابن عطاء: لما رأت قومها قد أثموا في أمرها رجعت باللائمة على نفسها؛ فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾.

وقال بعضهم: يا ليتني مت قبل أن يظهر فيهم آفة أكون أنا سببها.

وقال جعفر: يا ليتني مت قبل أن أرى لقلبي متعلقًا دون الله.

قال بعضهم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ قبل أن يقال فيَّ ما قيل من قولهم: ثالث ثلاثة.

وقال أبو بكر بن طاهر: أي: ليتني مت في أيام كفاية التوكل قبل أن رددت إلى عناء الطلب بقوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ خاطبها الحق سبحانه بعد غلبة الحزن على قلبها عند سماع أقوال المبطلين ليسلي قلبها بأنه منزه عن خطرات الأكوان، وعلة الحدثان، وأقوال الحرمان، وألبسها لباس أنوار قدرته، وجعلها عينًا من عيون جمعه حتى عرفت مكانتها من جوهر القدس، ومعدن روح القدس، والكلمة القائمة بعزته، فقالت الأعيان لها بأنها هزت نخلة يابسة؛ فأسقطت عنها رطبًا جنيًا.

وقال الواسطي: كانت يابسة لما حركت اهتزت واخضرت وأطلعت وسقطت.

فقال: كما أن الله تولى النخلة بما عاينت تولى عيسى في إظهاره من غير فحل.

قال ابن عطاء: لما كانت مجردة رزقت بغير حركة وكسب فلما تعلق قلبها بعيسى قال

---

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (٣/ ١٥٩).

لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾.

قال أبو سعيد الخراز: لما رأت من نفسها شفقة على ولدها، خافت أن يكون ذلك يقطعها عن الله ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ أي: كلي من خوان عنايتي فواكه مشاهدتي، واشربي من بحار محبتي، وقري عينا برؤيتي، وبأني قرة عينك قري عينك بي، وأيضًا قري عينك بما ترين من أنوار جمالي في وجه ابنك عيسى، وظهور آياتي من نفسه.

قال ابن عطاء: إنك غير مطالبة بالثياب فيما أعطيت.

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ بيّن الله سبحانه أن مريم علمت بنور الحق نطق عيسى قبل نطقه، وعرفت بإلهام الله أنه نبي مرسل؛ لأن عيسى تكلم في بطنها بتوحيد الله سبحانه، وعلمت أن براءتها من مقالة القوم في نطق ابنها، وهذا غاية حسن اليقين وسماع إلهام الحق بلا واسطة، ولما علمت شأن عيسى آمنت برسالته وعظمته عين أشارت إليه بأنه أهل مكان علم الله موضع معجزته، ولا يجوز عند الكبراء جواب السؤال؛ فهذا من كمال أدبها في حضرة عيسى، ومن هاهنا إشارة العارفين إلى كبرائهم عند حاجاتهم بفهم الحقائق.

قال ابن عطاء: فأشارت إليه في الظاهر لتعليم القوم صدقها نيا تقول فأنطق الله عيسى ببراءتها.

قيل: إن أحسن إشارات العارفين في أوقات الاضطرار حين لا تشتت الهمة على الرجوع إلى الحق.

وقال ابن عطاء: أشارت إلى الله، ولم يفهم القوم إشارتها، فأنطق الله عيسى بالبيان:

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنطقني بهذا النطق الذي أشارت مريم، وأظهر ربوبيته في تكلمه.

وقال بعضهم: أشارت إلى الله بسرها، وإلى عيسى بنفسها؛ فأنطق الله عيسى ببراءتها

فيها رُميت به، وبراءة نفسه فيما يدعى فيه، ولي رمز هاهنا لما أراد سبحانه أن ينطق عيسى بكلمة التوحيد، وإقراره بالعبودية أمر أمه بالصمت؛ لأن لسان مريم لسان الظاهر لها، ولسان عيسى لسان باطنها؛ فإذا سكت ظاهرها نطق لسان باطنها بقدرة الله، وتأييده الأزلي، وهكذا شأن العارفين إذا سكتوا بالظاهر تنطق ألسنة أرواحهم بنطق الغيب الإلهي؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا ﴾ أي: صمتًا أي: إذا كنتِ في رؤية الخلق، وترين في البين أحدًا لا تتكلمي بالحجة؛ فإنك لا تبلغين إلى دفع الخصماء بنطقك، وإذا سكت عن الحجة، وفوضتِ أمرك إليَّ؛ فإني أنطق ابنك بالحجة البالغة بالألوهية.

قال ابن عطاء: صمتًا يدل ذلك على ترك الانتصار للنفس، فقيل لها: اسكتي، ولا تنتصري؛ فإنك إن أردت أن تبرئي نفسك بحجتك لم تزدادي بذلك إلا شغلاً؛ فإن كلامك وانتصارك لنفسك مشقة عليك، وفي سكوتك إظهار ما لنا فيك من القدرة، فلزمت الصمت، فلما علم الله صدق انقطاعها إليه أنطق الله عيسى ببراءتها؛ فقال الله تعالى: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ أبان عن أكرم الأسباب، وأسقط دعاوى من يدعي فيه ما لا يجب: وأقر بالعبودية لله فلما سكتت مريم عن الكلام بالحجة، أنطق الله ابنها بلطيف المعجزة: وأقرَّ في المهد بالعبودية بقوله: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾.

هذا محض معجزته؛ لأنه نطق بالحق، وتفرس بنور النبوة أن قومه جاءوا بالإشارة إليه بالألوهية؛ فنفى العلة من البين حتى لا يكون لهم شبهة بأنه عبد من عبيده، وأمين من أمنائه، وإن كان عليه كسوة أنوار الربوبية؛ انظر كيف حركته في المعرفة حتى اجترأ لي بعبودية القديم الأزلي الذي لا يقوم بعبوديته الأكوان والمحدثان بأسرها في مقام واحد، ولو تُلقَىَ ذرة من حقوق العبودية على جميعهم لذابوا في تحت أثقالها؟

وقوله: ﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أي: أنا من أهل سماع كلامه القديم، ولقائه الكريم أخبر الخلق والخليقة من الحقيقة ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ ﴾ صديقًا مخبرًا عن وصاله ﴿ مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ على لباس بركة جماله أي: حيث كنت، وأكون في الأرض والسماء مباركًا، وبركتي تصل إلى المؤمنين بأني قرة عيونهم، ومن تلك البركة أذهب عنهم البلاء وبها أحيي الموتى.

﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ بظاهر العبودية، والخدمة التي فيها لطائف المناجاة، وفتح أبواب المشاهدات، وزكاتي بذل وجودي له، وهذه العبودية المباركة واجبة عليَّ، وعلى من اتبعني، وإن بلغنا إلى منازل الاتصاف والإنصاف والاتحاد.

وفيه إشارة: إنه وإن كان في الحضرة يخدم صانعه، ويتواضع لخالقه؛ لأن عبوديته أفخر المفاخر له.

قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢].

وقال الجنيد في قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: ليس بعبد هوى ولا عبد طمع ولا عبد شهوة.

﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خصني بخصائص الأسرار، وجعلني نبيًّا مخبرًا عنه خبر صدق.

وقال ابن عطاء: لما علم الله في عيسى ما علم من أن يتكلم فيه من أنواع الكفر أنطقه أول ما أنطقه بقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ليكون ذلك حجة على من يدعي فيه ما يدعي إذ قد شهد هو الله بالعبودية.

وقال أيضًا في قوله: ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ إنفاعًا للناس كافي الأذى.

قال الواسطي: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ عارفًا بالله داعيًا إليه.

وقال الجنيد: مباركًا على من صحبني، وتبعني أن أدله على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾: أمرني بمواصلته، وطهارة السر عما دونه ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ بحياته.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ مادام أقرّ بالعبودية، وأخبر عن خاصية النبوة؛ كيف يكون جبارًا مستنكفًا من عبادته شقيًّا عن رجاء وصاله؟

قال سهل: أي: جاهلاً بأحكامه، ولا متكبرًا عن عبادته.

وقال ابن عطاء: الجبار الذي لا ينصح والشقي الذي لا يقبل النصيحة.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ أي: عليَّ السلامة يوم دخلت في الدنيا، حيث بلغت مقام الامتحان في العبودية بعد أن كنت في مقام المشاهدة، وهذا السلام دوام محل انبساط الحق عليَّ بشرط العصمة والرعاية ﴿ وَيَوۡمَ أَمُوتُ ﴾ سلام الأمن والرضا ﴿ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ سلام الشرف واللقاء والفرق بين سلام الحق على يحيى وسلامه على عيسى أن سلام يحيى بلا واسطة، وسلام عيسى بواسطة وأصل الإشارة أن سلام يحيى سلام تخصيص الربوبية على العبودية، وبيان الشرف والكرم عليه من الحق، وسلام عيسى محل الانبساط ثم محل الاتصاف، ثم محل الاتحاد فإذا كان متصفًا متحدًا من حيث المعرفة والتوحيد والمحبة والشوق صار لسانه لسان الحق من حيث عين الجمع فسلامه على نفسه سلام الحق عليه على مزية ظهور الربوبية في معدن العبودية، وأرفع المقامين سلام الحق على سيد المرسلين كفاحًا في وصاله وكشف جماله، فهو سلم عليه بلسانه كان السلام مقصودًا؛ إذ جرى بلسان الحدث عليه، ولا يبلغ ذلك السلام إلى كمال رتبته لكن سلَّم عليه بأوصاف قدمه حتى شمل على شرفه كله.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ إن الله سبحانه حثَّ حبيبه على ذكر خليله – عليهما السلام– وما جرى عليه من أحكام الخلة من الوجد والحال والزفرة والغيرة وكسر أصنام الطبيعة، والخروج مما دون الحقيقة، وعن الصديقية في خلته، والصديق من تواتر أنوار المشاهدة، واليقين، وإحاطة نور العصمة عليه بالسرمدية.

قال ابن عطاء: الصديق القائم مع ربه على حدِّ الصدق في جميع الأوقات لا يعارضه

في صدقه معارض بحال.

قال أبو سعيد الخرَّاز: الصديق الأخذ بأتم الحظوظ من كلِّ مقام سني حتى يقارب من درجات الأنبياء.

وقال الجنيد: الصديق القائم مع الحق بلا واسطة.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ هذا سلام الإعراض عن الأغيار، وتلطف الأبرار بالجهال، قال تعالى: ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل:١٠].

قال أبو بكر بن طاهر: لما بد منه كلام الجهال من الدعوة إلى آلهته والوعيد على ذلك أن خالقه جعل جوابه جواب الجهّال بالسلام؛ لأن الله قال: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

ثم إن الله سبحانه أخبر عن صديقية إبراهيم من تبرئه عما دون الله بقوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ العيش الهني صحبة الأبرار مع ترك مصاحبة الأشرار.

قال أبو تراب النخشبي: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار.

قوله تعالى: ﴿ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ تكلم من حقائق يقينه أنه عند الله على شرف كامل، وأنه مجاب الدعوة؛ فطمع في الحق ما طمع من نظره إلى علومه المجهولة الغيبية.

قال عبد العزيز المكي: كان الخليل ﷺ يهاب به أن يدعوه ويذكره ويعظمه ألا يكون يدعوه بلسان لا يصلح لدعائه على استحياء وحشمة وخيفة وهيبة بعد معرفته بجلاله، فلما ترك صحبة المنكرين رزق الله من نفسه أنبياء بقوله: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ من ترك الخليقة فالله خليقته في كل مراد جعل سبحانه إسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد -صلى الله عليه وعليهم وسلم أجمعين- وموسى ويحيى وجميع الأنبياء والرسل بعده عوضًا له من أبيه آزر، كان ﷺ ضيق الصدر من هجران أبيه عنه، وعن دينه فجعل أخلافه من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين عوضا لأبيه؛ حتى لا يضيق صدره.

قال الواسطي: عوض الأكابر على مقدار الحدث جعل فهم التلاوة للأحكام، وجعل لهم الحقيقة للأسقام قال الله: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ ﴾، وقال لموسى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾، ولما اعتزل محمد ﷺ الأكوان أجمع، ولم يزغ البصر في وقت النظر وما طغى قيل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، حيث لم يزاغ غيره حلاَّه بصفته؛ فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝﴾ رحمته: نبوته ورسالته وقربته ومشاهدته، ولسان الصدق العلي ثناؤه عليهم، وأي لسان أعلى من لسان مدح الحق عليهم، وأنطق لسان جميع الصديقين بثنائهم إلى الأبد، وأيضًا أعطاهم لسان صدق بيان جلال ذاته وصفاته للخلق.

قال ابن عطاء: أصدق الألسنة هي المعبرة عن الحق بالصواب، والذاكرة على الدوام لنعمائه والناشرة لآلائه.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي: اذكر ما بيني وبين كليمي من سماع الكلام ومشاهدة التجلي وشوقه ومحبته وإخلاصه في عبوديته، وإخلاصه كان في البحر عند وقوع الامتحان، قوله: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾[الشعراء: ٦٢].

قال الترمذي: المخلص على الحقيقة مثل موسى ذهب إلى الخضر ليتأدب به، ولم يسامحه في شيء، فظهر له منه، وما كان يفعله حتى أوقفه على العذر فيه، وهذا من تمام إخلاصه.

ثم أخبر سبحانه عما بينه وبين كليمه من الأسرار والمناجاة بقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝﴾ ناداه بوسائط الطور والشجرة في البداية، وقربه نجيًّا من رؤية جلاله، وأسمعه كلام الصرف بلا واسطة، وكان التجلي أيضًا في الابتداء بواسطة الشجرة والطور، فلما قربه من بساط المجد والكبرياء أرى وجهه جل جلاله وروحه وقلبه وسره وجميع وجوده بنعت الشهود والمكاشفة، النداء بداية والنجوى نهاية، النداء مقام الشوق والنجوى مقام كشف السر.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝﴾: جعلناه من العالمين بنا والمخبرين عنا بالصدق والحقيقة.

وقال رويم: كشفنا عن سرِّه ما كان مغطى عليه من أنواع القرب والزلف وأذنا له في الإخبار عنا.

وقال بعضهم: ناديناه للمحادثة والمكالمة والمناجاة.

وقال الأستاذ: للنجوى مزية على النداء؛ فجمع له الوصفين النداء في بدايته وقت السماع، والنجوى في نهايته فوقفه الحق، وناداه ثم قربه، وناجاه في جميع الحالتين تولاه.

ثم من كمال كرمه وهب لموسى أخاه هارون بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ علم الحق سبحانه أن جميع الخلق لم يحتملوا ما في صدر موسى من عظيم أسرار صفاته وذاته وملكه وملكوته، فجعل هارون موضع سر موسى حتى لا يكون ذائبًا تحت أثقال تلك الأسرار، وهذا رحمة من الله عليه.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ أي: اذكر ظرافة إسماعيل وشمائله وموقع شرفه عندنا؛ فمن خلقه الرضا بالقضاء، والصبر في البلاء والكمال في السخاء، وصدق الوعد بنعت الوفاء.

قال الحسين: الصادق هو المتكلف في حاله يجري بين استقامة وزلة، والصديق هو المستقيم في جميع أحواله.

وقال ابن عطاء: وعد لأبيه من نفسه الصبر فوفى به في قوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ أي: اذكر ما كشفت لإدريس من أسرار الملكوت، وأنوار الجبروت وطيرانه في الجنان، وشهوده مشاهدة الرحمن.

قال أبو بكر الطمستاني: الصديق الذي لا يطلب طريق من غيره، ويكون له أن يطالب غيره بحقيقة الصدق.

ثم وصفهم جميعًا بأنهم منعم عليهم بالمعجزات الرفيعة، والكرامات الشريفة،

والقربات المداناة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

ثم وصفهم مع ما أنعم عليهم بالخشوع والخضوع والبكاء والوجد في السجود بعد ما أعطاهم الاصطفائية والاجتبائية والمعرفة والإصابة والحكمة والمشاهدة والشوق والمحبة، انظر إلى ذكر هيجانهم وشوقهم إلى لقائه، ووجدهم بقربه، وحركاتهم في إجلاله عند نزول الآيات عليهم بقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ ما أطيب ذلك البكاء، وما أحلى ذلك السجود، بكاؤهم من رؤية عظمته، وسجودهم من كشف عزته، وحركاتهم من شدة شوقهم إلى معادن المشاهدات وأسرار المداناة.

أَلا يا صَبا نَجدٍ مَتى هِجتِ مِن نَجدِ ... فَقَد زادَني مَسراكِ وَجدًا عَلى وَجدي

بِكُلٍّ تَداوَينا فَلَم يُشفَ ما بِنا ... عَلى أَنَّ قُربَ الدّارِ خَيرٌ مِنَ البُعدِ

ثم إن الله سبحانه ذكر المخالفين عقب ذكر الأنبياء والمرسلين، وذمهم بزوغانهم عن سبل أهل السعادة، واقتحامهم غيابات أهل الضلاله بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ لما استكبروا عن متابعة أهل الحق، وادعوا بالدعاوى الباطلة، سقطوا عن أعين القوم، واحتجبوا بما رأوا من أنفسهم من الترهات والطامات والمزخرفات والأباطيل من الخيالات والمحالات عن لطائف الطاعات، ومقام المناجاة، وحسن المراقبات، ووقعوا في ورطات الشهوات، وصاروا أئمة الضلالات.

قال محمد بن حامد: أولئك قوم حرموا تعظيم الأنبياء والأولياء والصديقين، فحجبهم الله من معرفته، وأصابتهم شقاوة تلك الحال؛ فأضاعوا الصلاة التي هي محل وصلة العبد مع سيده ترسموا بها، ولم يتحققوا فيها، واتبعوا آراءهم وأهواءهم فأصابهم الخذلان حرموا بذلك السعادة، وأثر الشقاوة على العبيد هو حرمان الخدمة، وتصغير من عظم الله حرمته.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ الرزق هناك حقيقة كشف مشاهدة الحق ورؤية جماله ووجدان وصاله، فكل وقت ينكشف جماله لهم، فذلك الوقت بكرتهم،

وإذا حان وقت إرخاء الحجب يرونه قبل ذلك، وهذا لعموم المريدين والمؤمنين.

فأما العارفون والمحبون والمشتاقون والموحدون فهم في منازل وصاله وكشف جماله بالسرمدية، ولا ينقطعون عنه لمحة، ولو احتجبوا لحظة لماتوا في الجنة من فوت ذلك الحال، ولو بقي أهل الجنة في مشاهدة الحق على الدوام لذابوا من صولة سطوات جلاله وجماله.

قال أبو يزيد -قدس الله روحه: «لو احتجبت في الجنة عن لقائه لمحة أنغص العيش على أهل الجنة».

قال محمد بن عيسى الهاشمي: ردَّ الأشباح إلى قيمتها عن المطعم والمشرب بكرة وعشيًّا، وتزاد الأرواح والأسرار عن ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: ٥١]، وهو مقام لا ينـزله إلا من كان ظاهر الأمانة سرًّا وعلنـًا.

ثم بيَّن سبحانه أن تلك الجنة، والمشاهدة الكريمة الأزلية لمن كان متبرئًا بهمته عن الكونين، وبسره عن الدارين، وبعقله عن العالمين، وبحقيقته عن نفسه، وعن جميع الخلائق بقوله: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ الجنات هي منازل شتى جنة المحبة، وجنة المعرفة، وجنة التوحيد، وجنة رؤية أنوار الفعل، وحكم الغيب فيها، وأسرار المقادير، وجنة منها رؤية أنوار الصفات، ومشاهدة كل صفة للعارفين جنة وعيان الذات جنان، وهو أصل كل جنة، فأهل الحق في كل لحظة في جنة من هذه الجنان، وأوصافهم التبري من غير الله، فإذا خرج عن الأكوان والحدثان فأورثه الحق تلك الجنان، وحاشا أنها مقرونة باكتساب الحدث، بل اصطفاهم في الأزل بتلك الخاصية، ووقاهم من محن الامتحان والحرمان، وأعطاهم حسن وصاله، وكشف لهم من جلاله وجماله.

قال بعضهم في هذه الآية: نجعلها لم يطلبها بفضلنا لا بعمله؛ فإن الجنة ميراث سعادات الأزل لا ميراث الأعمال والعمل سمة ربما يتحقق، وربما لا يتحقق والتقوى نتيجة تلك السعادة.

قال الواسطي: إذا بلغت العقول الغاية، وبلغ بها النهاية؛ فحاصلها يرجع إلى حدث يليق بحدث، وحسبك من ذلك قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ لما كان التقوى وصفك قابلك بما يليق بك، وأعلمك أنه غاية ما يليق بتقواك، ونهايتك في نجواك.

ثم إن الله سبحانه ذكر وصفه وربوبيته وسلطته وكبريائه وإحاطته بجميع الأشياء علمًا وقدرة وحكمًا وإثباتًا لحقوق الربوبية على أهل العبردية بقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وصف ارتسام السماوات والأرض، وانتظام ما بينهما باصطناع قدرته، وإحاطة

علمه ثم ألزم حقه على عبده وحبيبه، وعلى جميع الخلائق من العرش إلى الثرى بعد بيانه أنه هو القادر بذلك لا غير وأمره بالصبر في عبادته، وأوضح الحجة بأن لا شريك له في ملكه ولا ضد له في سلطانه ولا ندب له في كبريائه بقوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ أي: ما تعلم إلهًا غيري ووجود ألوهية الغير مستحيل من كل الوجوه أي: اصبر معي في عبادتي ومعرفتي، واستغن بي في خدمتي ومعرفتك بي، وسل مني ما تريد، ولا تظهر حوائجك لغيري، فإن ما تريد لا يقدر بذلك أحد سواي.

قال محمد بن الفضل: هل تعلم أحدًا يجيبك في أي وقت دعوته، ويقبلك في أي أوان قصدته؟

وقال الحسين بن الفضل: هل يستحق أحد أن يُسمى باسم من أسمائه على الحقيقة، وقال أهل التفسير: هل تعلم أحدًا يسمي الله إلا الله؟

ومن أوضح النكت في أسرار الحقيقة من الآية نفي الحق الربوبية عن كل متصف مستمد، وإن كانوا مستغرقين في جمال ألوهيته، وردهم إلى قيمتهم من العبودية أي: مادامت تلك الكسوة النورية الأزلية عليكم عارية تذهب بذهاب الكشوف وغيبة للمواجيد والصحو بعد السكر، ينبغي ألا تبرجوا من أصل قيمتكم؛ فإن القدم قائم بالقدم، ويبقي الحدث على نعته.

كُنتَ أَنتَ إذ غِبتُ فينا بَل أَنا كنتُ   إذا غِبتَ عَنا أَنا أَنا وأَنت أَنت

هل تعلم له سميًّا بحقيقة اسم الألوهية التي أنوارها تزيل الحدثان، وتهلك جميع الأكوان بقهر سلطانها، وتصديق هذه الإشارات.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من أنتم، ومن أين أنتم، والعدم في العدم معدوم والقد في القدم معروف، لو يعرف العارف أوائل كونه فني في لحظته في حياء الحق من دعوى معرفته إذ كونه في علم الأزل كعدمه بالحقيقة إذ قوامه بالحق لا بنفسه.

قال الواسطي: المقادير صرحت بمعاينتها، وكشفت عن أوقاتها، فالأول: أخبر أنه مأخوذ عن شاهده، واكتسابه نفسه حين لم يكن شيئًا، والثاني: أخذوا من النطفة، والثالث: أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا ذكر الطين للعبادات، وذكر النطفة للإشارات، والباقي لفقد النعوت والصفات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ هذا القسم من وجوب حق صفة القدم، إذ نعته قهر الجبروت، فأورد الكل عليها لمباشرة ذلك فيهم ليعرفوه بجميع معاني صفاته، وذلك رحمة كافية إذ لم يعزلهم من رؤية جلال أزليته في لباس قهره، فكم كشف من الجبروت هناك، وكم مشاهدة من عين الملكوت هناك، وكم ظهور سر في دروبهم هناك أين أنت من قول سباح قاموس الكبرياء وعنقاء مغرب؛ فإن البقاء حيث قال: وضع الجبار قدمه في جهنم، هل ترى هذا القدم إلا كشف جلال القدم، وإذا كان جمال قدمه مصحوبهم، فلا بأس بالوقوف في النيران؛ فإن هناك أصل الجنان.

إذا نـــزلتْ سَـــلمَى بِـــوادٍ فماؤُهَـــا   زُلال وسلـــــسال وشـــــيخانها وردُ

﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ إذ كان وصفه في الأزل أنه عرف نفسه بجميع الصفات لكونهم عارفين، فإذا تم ذلك الكشف وصلوا بالحق مع الحق إلى جواره ووصاله الأزلي ولطفه الأبدي ولقائه السرمدي الذي بغير امتحان، وهذا معنى قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ اتقوا من أليم القطيعة، وعذاب الفرقة، ومرارة المخالفة.

قال الواسطي: ما أحد إلا ويورده النار ملاحظات أفعاله ثم ينجي الله منها من أسقط عنه ذلك أو أزالها عنه بملازمة التوفيق.

وقال في قوله: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا ﴾: بالرجاء يطلب المحتوم، وبالخوف يدفع المقضي.

وقال الجنيد في قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾: ما نجا من نجا إلا بصدق اللجا.

قال الجريري: ما نجا من نجا إلا بصدق التقى.

وقال ابن عطاء: ما نجا من نجا إلا بتصحيح العهد بالوفاء.

وقال هذا العارف الفارسي العباد الرباني الشطاح الملكوتي: ما نجا من نجا إلا بالاصطفائية الأزلية، والعناية الأبدية، والرسم والوسم، والاسم عوارضات زائلة وامتحانات عاطلة.

قال جعفر الصادق: لولا مقارنة النفوس ما دخل أحد النار فلما قارنهم نفوسهم أوردهم النار بأجمعهم فمن كان أشد إعراضًا عن خبث النفس كان أسرع نجاة من النار ألا ترى الله يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ إذا أراد الله هداية العبد إلى محل الإيمان شرح صدره بنور الإسلام، فلما ثبت في إيمانه بنعت السُّنة والمتابعة عرَّفه منازل قربه ووصاله وحقائق العبودية فيقع في بحر الألوهية؛ فلا يجري عليه بعد ذلك طوارق الزيادة والنقصان.

قال سهل: يزيد الله الذين اهتدوا بصبرهم في إيمانهم بالله والاقتداء لسنة محمد ﷺ وهو زيادة الهدى النور المبين.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ كل ما دون الله إذا أقبلت إليه بنعت الحاجة والافتقار فهو إلهك، وطلب العز في غير الله غير ممكن لأن الأكوان تحت نهرة ذليلة، وإذا أردت العز قبل إلى الله ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

قال بعضهم: كيف تظفر بالعز، وأنت تطلبه من محل الذل.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ افهم أن المتقي من يتقى مما دون الحق ولا يتقي إلا بأن وقاه الله من طريان النفس والهوى على قلبه وآنسه بأنسه فالمتقون الخارجون بنور مشاهدة الله عن ظلمات الأكوان إذا كان وقت حشرهم أركبهم الله على مراكب أنوار تقواه ودعاهم إلى مشاهدته ووصاله وأنـزلهم عيون الرحمانية وأعطاهم من بحار رحمته جميع مأمولهم لذلك ذكر اسم الرحمانية أي: لم يكن هناك وحشة قطع الآمال إذا نـزلوا موارد الجلال والجمال، وهذا وصف المتقين الذين هم أهل بنايات المقامات فأما العارفون فهو بنفسه يحملهم في ميادين الآزال والآباد ويبقيهم في معارج أنوار الذات والصفات، ولولا حمله إياهم كيف يقطعون براري الديمومية وقفار الأزلية والحدثان ساقطة في أودية قهر الربوبية.

قال ابن عطاء: بلغني عن الصادق أنه قال أي: ركبانًا على متون المعرفة.

وقال جعفر: المتقي الذي اتقى كل شيء سوى الله والمتقي الذي اتقى متابعة هواه فمن كان بهذا الوصف؛ فإن الله يحمله إلى حضرة المشاهدة على نجائب النور نيعرف أهل المشهد محله فيهم.

وقال الواسطي: أي: ركبانا وذلك حجابهم؛ لأنه من جذبته زينته عن الحق حتى ينسيه ولا يجذبه ذكر الحق عن الأعراض جذب الزينة فهو الكاذب في دعواه.

وقال أيضًا: لما لم يوافقه صفة ولا نعتًا في الدنيا حشرهم في الآخرة إلى الله باسم الرحمانية يسوقهم سوقًا أرفق ما كان بهم وأكثر شفقة لا يعرجون إلى غيره ولا يلتفتون سواه.

وقال الأستاذ: قيل: ركبانـًا على نجائب طاعاتهم وهم مختلفون فمن راكب على صور طاعاتهم ومن راكبي على مراكب هممهم ومن راكب على نجائب أنوارهم ومن محمول يحمله الحق في عقباه لكما يحمله اليوم في دنياه وليس محمول الحق كمحمول الخلق.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ إن الله سبحانه أخبر عن عظيم افتراء الكفرة عليه لما في قلوبهم من مخائيل الشيطانية وهواجسهم النفسانية، قالوا في حق الحق سبحانه ما يليق بالحدث لا ما يليق بالقدم فلم يقع وصف الحدث على القدم، ولم ير مقالتهم في الحق موضعًا في البرية لمكانها فقصدت السماوات والأرض والجبال؛ لأنها منصرفة عن جناب الربوبية قهرًا وغيرة، فنـزلت على السماوات والأرض والجبال، فلم يحتمل بها السماوات والأرض والجبال من عظمها فتكاد السماوات

يتفطرن والأرض تنشق والجبال تخر؛ لأن الكلمة خرجت من مصدر القهر ممزوجًا بالغيرة، وذلك بأنهن عقلن بروج إشراق نور صفة الأزل عليهن، فكادت أن تفنى من عظم ثقل روح لطفه بروح قهره.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ كل مزين بأنوار الربوبية فهو تحته بنعت العبودية فمن شاهد أنوار الربوبية عرف محل الربوبية والعبودية فإذا فنى العبودية في الربوبية بقى الربوبية وصف المتصف بها فيرى نفسه بزينة نور الحق فيدعى من مباشرة شكر التوحيد ونور الأزلية بدعوى الأنائية، فإذا كان يوم القيامة رجعت أنوار الربوبية إلى معدنها، وبقي الكل عريانًا منها ملبسين بذل العبودية حتى يجري عليهم طوارق غيرة الحق هذا إذا يمضي حكم الغيرة، ويدل عليه قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي: فردًا عن دعوى الأنائية والمعرفة وبقي فردًا في حقيقة القهر عند فردانية الحق فانفرد بالحق حتى اتصف بالفردانية واتحد بالوحدانية فيرجع إلى ما كان فيه من إظهار الربوبية والألوهية فيشهد العارف مشاهد الوصلة فيحويه أنوار الدنو فيسكر بجمال الحق فيدعى هناك بلسان الأزل والأبد دعوى الأزل والأبد، ويا صادق كلهم في حجاب هاهنا عنه ماداموا في الحجاب يميلون إلى مأمول سوى الله من الثواب والنجاة من العقاب، فإذا شهدوا مشاهدة جماله سقط عنهم مراداتهم، ويخلصوا عن علة رق النفوسية، وصاروا عبيدًا له محققين مخلصين في محبته ومشاهدته حيث لا يبقى إلا وجهه قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

قال جعفر في قوله: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فقيرًا ذليلاً بأوصافه دالاً بأوصاف الحق.

قال أبو بكر الوراق: ما تقرب أحد إلى ربه بشيء أزين عليه من ملازمة العبودية وإظهار الافتقار؛ لأن ملازمة العبودية تورث دوام الخدمة، وإظهار الافتقار إليه يوجب دوام الالتجاء والتضرع.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: عبد من؟ فأراد أن يقول عبد من فغشي عليه فلما أفاق قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم

﴿مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ في هذه الآية عجيب من أن الله سبحانه قرن الود بالعمل الصالح، وذكر العمل الصالح قبل الود كان الود جزاء العمل الصالح، والإشارة فيه أن وده لهم قديم في الأزل، وبذلك الود عملوا العمل الصالح فإذا اصطفى بذلك الود وقفهم للأعمال الصالحة والأعمال الصالحة من ميراث ذلك الاصطفائية والود فإذا وقع العمل الصالح يزيد كشف ذلك الود في قلوبهم، والحق سبحانه منزه عن الزيادة والبدء، فإذا ألبسهم نوره وكسا أسرارهم سنا وده فيكونون مزينين ظاهرًا وباطنًا، ويصيرون مرآة جمال الحق، وكل من يراهم يحبهم فالله أحبهم وهم يحبونه بمحبته، والخلق يحبونهم بمحبة الله إياهم، وما يرون من أنوار جمال الحق منهم.

قال ابن عطاء: الذين أخلصوا بسريرتهم لي، واتعبوا ظاهرهم في خدمتي سأجعل لهم وجهًا في عبادي لا يراهم أحد إلا أحبهم وأكرمهم وفي محبتهم وكرامتهم كرامتي ومحبتي.

وسئل بعضهم عن قوله: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ قال: يعني لذة وحلاوة في الطاعة.

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾.

﴿ طه ﴿١﴾ ﴾ ذكرنا أن حروف المعجم صناديق أسرار الحق مع حبيبه ولا يطلع عليها بالحقيقة أحد غيره وكل لسان عبر عنها بقدر ما فتح في قلبه من قلبه من علوم السرِّية الإلهية وما قال فيه أهل الرسوم والحقائق يكفي لمسترشدي طرق الحقائق، وما وقع بغير تكلف بالبديهة لهذا العارف أن الله سبحانه أخبر عن مقدم حبيبه من العدم إلى القدم بروحه فالطاء طواف روحه وطوف سره في صحاري هويته قبل القبل حين خرج روحه من نور الغيب وطار في هواء الهوية لطلب الذات السرمدي ومشاهدة الصفات الأزلية حتى وصل بالحق إلى الحق، وطار في دائرة هوية الغيب نوجد الحق بالحق وعلم من الحق بالحق ما في الحق فصار مقدسًا بقدس الحق مطهرًا بطهارة الصفة، وهو بذاته تعالى جعله معرفًا لخلقه صفاته وذاته هاديًا يهدي به عباده إليه بنعت المحبة والأسوة، كأنه قال يا طواف قفار الهوية في غيب الأزل

ويا مطهرًا من الأكوان والمحدثان، يا هاديًا بنوري خلقي إليّ ما وطئ أحد على بساط هويتي أفضل منك، طويت لك تحت أقدام همتك صحارى الأزليات والأبديات حتى بلغ سرك سر هويتي بهوائي تهوى وتلطفت بلطفي هوى نجم همتك بعد ارتفاعها بي في هواء وحدانيتي على بساط ملكي وملكوتي فطاب بطيب وصالي يا طه، لأجل ذلك قسمت به بقولي: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ ﴾ [النجم:١] طوبى لمن اهتدى بهديك وطاب عيش من هوى طريقتك يا بدار أفق سماوات القدم ويا غواص قاموس الكرم طاشت العقول في إدراك مقاماتك، وهامت القلوب في أودية محبتك، وطارت الأرواح من حقائق إشاراتك.

قال ابن عطاء في قوله ﴿ طه ۝ ﴾: «طا» هديت لبساط القربة والأنس.

وقال الواسطي: هو مستخرج من الطاهر الهادي أي: أنت طاهر بنا هادي إلينا.

وقال محمد بن عيسى الهاشمي: طوى عن سر محمد ﷺ الأكوان بما فيها وهدى إلى الاشتغال بمكونها.

وقال محمد بن علي الترمذي: طوبى لمن اهتدى بك وجعلك السبيل إلينا.

وقال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة قلبه عن غيره، و«الهاء» إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله.

ثم إن الله سبحانه تلطف على نبيه وخفف عليه أثقال العبودية؛ لأنه كان تحت أثقال سطوات الربوبية التي لا تحملها الأكوان بقوله: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ قام جميع الليل بالتهجد كأنه قال سبحانه: يا أول طا القدم على بساط حضرتنا لطلب المقام المحمود لا تشق على نفسك لأجل زيادة الهداية؛ فإنك هديت في الأزل واصطفيناك لمشاهدتنا وقربتنا والرسالة والمحبة لا تحتاج إلى كثرة المجاهدة، فإنك في المشاهدة أنزلنا عليك القرآن ليعرفك أسرار ذاتنا وصفاتنا وتعرَّف عبادنا أسرار العبودية وأحكام المعرفة وعزة الربوبية، أنزلنا عليك القرآن ليقرن عنانه بعنان همتك ويبلغك إلى منازلنا فتدلى فإذا وصلت إلينا فأؤنسك بنفسي بعد أن جعلت القرآن مستأنسك؛ فإذا رأيتني رأيت ذاتي وصفاتي وسمعت القرآن مني بلا واسطة فتعرف أن صفاتنا تضيء الأكوان ولا تفارق الرحمن.

قال الواسطي: سُمي القرآن قرآنا لأنه يقارن لمتكلمه لا يباينه تعظيمًا لشأن القرآن كما وصل إلينا شعاع الشمس وحرارتها ولم يباين القرص.

قال بعضهم: أنزلناه إليك لتستروح إلى كلام خالقك؛ فإن المحب يستروح إلى كلام حبيبه ولا يلحقه فيه التعب.

وقال الأستاذ: ليس المقصود من إيحائنا إليك تعبك إنما هو استفتاح باب الوصلة

والتمهيد لبساطا القربة.

ثم بيّن سبحانه لم أنـزل القرآن عليه قال: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ ﴾ معناه بالحقيقة أن أرواح أهل الخشية قد استغرقت في بحر القدم حين خرجت من العدم فعرفت منازل شهودها من مشاهدة الذات والصفات، وعلمت اصطفائيتها وخاصيتها على بساط القرب وتلطف الحق بها وانبساطه معها بمحبته إياها، فلما دخلت الأشباح بقيت معها خشية العظمة وصولة الهيبة فزاد خشيتها بعلمها بالله بالوصلة والفرقة، وطرأت عليها وحشة الفراق عن معادلها، فأنـزل الله تعالى القرآن على حبيبه ليذكرهم أيام الوصال في مقام الفراق ليذهب عنهم الظنون والحسبان، ومعارضة النفوس وتخويف الشياطين بأنهم لا يصلون إلى تلك المناهل والموارد.

سقى اللهُ أيامًا لنا وليالي مضتْ ... فجرتْ مِنْ ذِكرهنْ دموعُ
فيا هل لنا يومًا من الدَّهرِ أوبة ... وهل لي إلى أرض الحبيب رجوعُ

وأيضًا أهل الخشية هم العلماء بالله وبصفاته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، والخشية صدرت من رؤية عظمة الحق إلى قلوبهم فإذا دخلوا في منازل الامتحان بالحجاب، فأنـزل الحق القرآن ليذكرهم عظائم عظمة جبروته وسلطان قهر كبرياء ملكوته لئلا يتداخل أسرارهم غبار الأغيار ولا وحشة الاستكبار ولئلا يفتروا عن ملاحظة عزته وقهر كبريائه.

قال ابن عطاء: قيل له محمد أنت إمام أهل الخشية وسيدهم أنـزلناه تذكرة لك لتسكن عليه وتزول به الخشية عن قلبك، فإن المحب: يأنس بكتاب حبيبه وكلامه.

وقال جعفر: أنـزل الله القرآن موعظة للخائفين ورحمة للمذنبين.

وقال الأستاذ: القرآن تبصرة لذوي العقول تذكرة لأولي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون، فسألوا راحة اليقين في أجلهم وهؤلاء به يذكرون فيجدون روح أنس في عاجلهم.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ

طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ذكر سبحانه قبل هذه الآية خلق السماوات والأرض، ولم يقل أنه خلق العرش، وفيه إشارة إلى أن قوله سبحانه عن إحاطة الحدثان به ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [1]يشير إلى أن عرشه جلال قدمه وأزلية ذاته وصفاته استوى بنفسه في علم العلم وغيب الغيب وهذا الاستواء قديم وهذا خبر عن تجبره وتكبره بنفسه في نفسه حين لا حين ولا حيث ولا أين ولا غير، وهكذا جميع الإحايين قبل الأكوان وبعد الأكوان وفي الأكوان إذا لأكوان والحدثان قاصرة عن حمل ذرة من كبرياء عظمته والأزمان مضمحلة عن حصر صفاته وأزليته وديموميته، وأيضًا إن الله سبحانه لما أراد إيجاد الكون خلق بظهور نور قدرته عالمًا وسماه العرش من نور شعشعاني وجعله موضع نور العقل البسيط وجعل العقل البسيط موضع فعله الذي يصدر من القدرة ومن ذلك الفعل عالم طلوع أنوار القدم عليه فإذا تجلى بذاته لصفاته ومن صفاته لفعله، ومن فعله للعقل البسيط ومن عقل البسيط لعالم العرش فصار كل ذرة من العرش مرآة يتجلى الحق منها للعالم والعالمين فتدر قطرات ديم الفعل من فيض أنوار الصفة والذات من عالم العرش إلى العالم والعالمين على النظام والتسرمد واتسام صبح الأزلية من إشراق شمس الألوهية على عالم العرش بهذه المثابة، وانتشر بر كنها في الأكوان والحدثان وهذا تحصيل علوم سر الاستواء، ويا عاقل أين العرش، وإن كان ألف ألف عرش من سطوات كبريائه التي لو برزت ذرة منها بنعت القهر في العالم لفنيت كلها قبل أن يرتد إليك طرفك فهو مستو بغير علة اعوجاج الحدثية بوصف قهر القدم على كل مخلوق والكل تحت قهر جبروته وإن كان عالم العرش أعظم ميادين تجلي استوائه هو خص بتجلي الاستواء، والاستواء صفة خاصة لله منزه عن إدراك الأوهام ومقاييس العقول تعالى الله عن مماسة الحدثان وملاصقة الأكوان.

وسئل مالك بن أنس: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وقال فارس: ليس على الكون من الله أثر ولا من الكون على الله أثر.

---

(١) مبتدأ وخبر، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب؛ للإيذان بأن ذلك أمر بيّن لا خفاء فيه، غني عن الإخبار صريحًا. البحر المديد (٣/ ٤٩٦).

وقال ابن عطاء: الاستواء إظهار المقدرة لا مكان الذات فإذا جاوزنا من هذه المقالة فنجرم العرش أعظم من كل جرم ولكن إذا استولى عليه قهر الربوبية كاد أن يذوب من صولته فأمسكه يد اللطف لتكون رفارف أرواح القدسية وبساتين عقول الملكوتية فسكن بلطف الله من الاضطراب من قهر الله، ثم صرف الحق عنه تلك الصولة لما علم ضعفه عن وارد الألوهية فطلب في ملكه وسلطانه عرشًا معنويًا روحانيًّا ملكوتيًّا رحمانيًّا جبروتيًّا، وذلك قلب العارف الصادق الذي خلقه الله من نور بهي صدر من تجلي صفة بهائه، وذلك عرش المعنى الذي من وسعه ببسط نور الأزلية فيه على مثابة من قدرة الحق أن لو كان العرش ما تحته يقع فيه يكون أقل من خردلة في فلاة، وذلك مشرق طلوع شمس الذات وقمر الصفات، فإذا غلب سلطانها عليه ظهر ضعفه تحت أثقال الألوهية فيبرز نور اللطف في قضائه فيبسطه بسطًا لا نهاية له ويصير مبسوطًا يبسط التجلي حتى يكون مستقيمًا متمكنًا في رؤية تجلي الحق فإذا صارت أنوار التجلي عليه بنعت الاستدامة ظهر علم سر الاستواء منه، وحاشا أن القلب حامل الذات والصفات هو بجلاله متنـزه عن الورود على الحدثان لكن هو طور التجلي يحمل أثقال تجلي الحق بالحق لا بنفسه.

انظر إلى قول النبي ﷺ كيف قال حكاية عن الله ﷻ: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»[1].

ويا عاقل كيف يحمله الحدث، وهو منـزه عن الحلول الله، الله هو منـزه أيضًا أن يكون هو محل الحوادث للقلب يحمله به؛ لأنه هو بذاته حامل القلب بالوصف والصفة.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[2] هو مع الكل بالعلم والكل معه بالعلم والقدرة وهو منـزه قائم بذاته تعالى الله عن كل وهم وخاطر.

وقال ابن عطاء: استوى لكل شيء؛ فليس شيء أقرب إليه من شيء.

وقال بعضهم: استوى له السماوات والأرض وما فيهن بشرط العبودية.

قال الأستاذ: عرشه في السماء معلوم وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد فعرش السماء مطاف الملائكة، وعرش الأرض مطاف اللطائف، فأما عرش السماء، فالرحمن عليه استوى، وعرش القلوب؛ فالرحمن عليه استولى، وعرش السماء قبلة دعاء الخلق وعرش

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٩٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٢٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن ماجه (١/ ٢٣١)، وأحمد في مسنده (١٣/ ٣١٩)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٨٤).

الأرض محل نظر الحق فشتان بين عرش وبين عرش، ثم مع هذه الآية وعقيبها جمع الله سبحانه علومه القديمة المحيطة بالحدثان من فوق العرش إلى ما في تحت الثرى، وذلك قوله: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ ﴾ أخبر عن علمه وملكته معًا بما فوق العرش، وما تحت الثرى وما بين العرش والثرى من أطباق السماوات، وما بينهن وأطباق الأرضيين، وما بينهن فذكره تعالى استوى على العرش إخبار عن قهر سلطانه وبنعت الاستيلاء على أعظم خلقه وعن علمه بما فوق العرش من علم الغيب غيب الغيب وما تحت العرش إلى الثرى من علومه الغيبية في بطون أفعاله، وما تحت تحت الثرى من أسرار ربوبيته أي: أن الكون استغرق في بحار علمه وقدرته وإرادته بالمثل كخردلة في البوادي، أو كحلقة في البحار والسلطان، كبرياؤه محيط بجميع ذراته فالكون كالكرة في ميادين عظمته عند صولجان قدرته، يضرب بها تلك الكرة في كل لمحة ألف مرة ويذهب بها من الآزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال، والله إن من وقت ما خلق الله الكون يتحرك الكون في طلب ما يتعلق به من نور فعلمه، وما أدركه فكيف يدرك أنوار الصفة وإذا لم يكن مدرك أنوار الصفة كيف يدرك عزة الذات وأين الكون من إدراك وحدانية القديمة ولحوقه بجلال مجد ذاته، بل هو صاغر حقير في قبض جبروته لا مصرف له ينصرف إليه منه، ولا مخرج له منه فيخرج من تحت قهره بل كذرة تبن على جناح الرياح العواصف والصرصر القهار تذهب بها، ولا تعرف أين تذهب.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «الكون في يمين الرحمن أقل من خردلة»[1].

ثم اعلم الخلق أن الكل له؛ فلا ينبغي العالم به أن يطمع في غيره حتى لا يشوب قلبه بالشرك الخفي، قيل له: الملك كله فمن طلب البعض من الكل من غيره فقد أخطأ الطلب.

ثم أخبر عن عظيم جلال علمه بمكنون الأسرار وخفي الإضمار بقوله: ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ افهم أن للطبيعة سرًّا والملك السر سر وللنفس سرًّا، ولذلك السر سر، وللقلب سرًّا، ولذلك السر سر، وللعقل سرًّا، ولذلك السر سرًّا، وللروح سرًّا، ولذلك السر سر، وللسر سرًّا، وذلك السر سر، ولسر السر سرًّا، ولذلك السر سرًّا، أما سر الطبيعة إضمار الميل إلى طلب ما تقوم به من فيض العناصر، وسر ذلك السر نداء فعل الحق إلى الطبيعة بنعت جذبها إلى طلب حظها، وهو أخفى من ذلك السر.

وأما سر النفس؛ فهو حديثها الخفي الذي يصدر منها في غيب الخواطر بقلب هواها

(١) ذكره ابن عجيبة في البحر المديد (٣/ ٣١٥).

وسر ذلك السر نداء القهر إياها بنعت جذبها إلى طلب الهوى، وهو أخفى من سرها.

وأما سر القلب فهو حديثه الخفي الذي يصدر منه لطلب مزيد الصفاء من فيض الذكر، وسر ذلك السر فرع الملك باب سره بنعت تحريكه إلى طلب مزيد الذكر وذلك إلهام خفي وأخفى من سر الأول.

وأما سر العقل فهو حديثه مع القلب والروح بما يبدو له من حقائق أحكام الربوبية في الشواهد، وسر ذلك السر بحجة نور فعل الخاص التي هي داعية العقل إلى مشاهدة حقائق الأشياء، وذلك السر أخفى من سر الأول.

وأما سر الروح؛ فهو حديثها مع العقل بما يسمع من إلهام الخاص الإلهي لزيادة شوقها إلى معادنها، وسر ذلك السر ما يبدو لسر الأول من برق سنا الصفة بنعت الكشف مع تعريف أمر العبودية والربوبية، وذلك أخفى من سر الأول.

وأما سر السر؛ فهو حديثه الخفي في بطنان غيب الخاطر في مشهد الملكوت مع الحق حيث يكون محتجبًا عنه بنعت المتضرع لطلب مشاهدته، وسر ذلك السر وقوع كلام الحق على مجاري الصفة له في الغيب وهو يسمع ولا يبصر، وذلك أخفى من سر الأول.

وأما سر سر السر ما يكون وراء الحجاب فوق الملك والملكوت مشاهد الجبروت ومعاين الذات يرى عجائب أنواره وحقائق أسرار صفاته وذاته فيعرف منه به ويسمع منه بلا واسطة، ويقول معه يطلب منه بلسان الافتقار مزيد قرب القرب ودنو الدنو حتى يقع في بحار الألوهية فلا يرى ولا يعرف فهو أسر الأسرار، وأخفى الخفيات فالطبيعة لا تطلع على سر النفس، والنفس لا تطلع على سر القلب، والقلب لا يطلع على بعض سر العقل، والعقل لا يطلع على بعض سر الروح، والروح لا يطلع على سر السر والسر، لا يطلع على سر سر السر؛ لأنه مقام ما أخفي من السر، ولا يطَّلع على جميعها إلا الله سبحانه من الخلق والخليقة لا الملائكة لا المقربون ولا الأنبياء المرسلون إلا ما يكشف الحق لهم من ظاهر الأسرار قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن:٢٦] إلا من ارتضى من رسول، وباطن هذه الأسرار لا ينكشف لأحد غير الله؛ لأنه مما استأثره لنفسه ولا يطلع عليه غيره وحاصل الحقيقة من معنى الآية أن السر ما في صفاته، وما أخفى ما في ذاته.

قال الصبيحي: السرُّ ما طالعه الحق ولا يطالعه الملك ولا الشيطان ولا يحس به النفس ولا يشاهده العقل، وهو في الإضمار لم تحوه الهمم، ولم تدبره الفطن، وهي في لباب لب القالب من حقائق المحض من خطرات الإلهام كشرر النار الكامن في الشجر الرطب حتى تمثله الإرادة والمشيئة والأحكام؛ فيتنقل في الأحوال، فهذا هو السر، وما هو أخفى فما لم تحس

ولم لطالع لا يعلمه إلا الله؛ فهو أخفى من الحقائق، فإذا ظهر معلومه أبدى علمه.

قال الواسطي: السرُّ ما خفي على العباد، والذي هو أخفى ما لم يقل له كن.

قال الجنيد: يعلم سره فيك، وأخفى سره عنك.

وقال جعفر الصادق: السرُّ موضع الإرادة، وأخفى موضع الخطرة والمشاهدة.

وقال الأستاذ: فالنفس ما تقف على ما في القلب، والقلب لا يقف على أسرار الروح، والروح لا سبيل له إلى حقائق السر، والذي هو أخفى من السر فما لا يطلع عليه إلا الحق، ويقال: الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان، ولا يكتبه الملكان، ويستأثر بعلمه الجبار، ولا يقف عليه الأغيار، ولما تفرد بنفسه بالإطلاع على السر والخفيات نفى عن ساحة كبريائه من لم يستحق للفردانية الأزلية، والعلم الشامل بأسرار الحوادث وخفيات الضمائر، ووصف نفسه بذلك.

وقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝ ﴾ فمعاني الأسماء بالحقيقة سر من حيث يعبر حقائق الصفات، وما في الذات من علوم القدمية وأسرار الأزلية وهو أخفى من سر الأسماء أخبر سبحانه حبيبه من أسراره التي بينه وبين كليمه موسى وتلك الأسرار أعجب العجائب.

أما غرب الغرائب من علوم أسراره وحقائق أنواره بقوله: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ ﴾ ما أطيب ذكر قصة الكليم للحبيب خص أن الحبيب الأكبر ذكر حال الكليم للحبيب؛ لأن الحبيب يستأنس بسميه من الأحياء، لذلك قصَّ الله قصة الأنبياء لحبيبه ثم بيَّن يد وحال كليمه بقوله: ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾.

لما كَمُل كليم الله كَمُل في الإرادة ودخل في الإرادة ودخل من الإرادة إلى مقام المحبة ترك الوسيلة الصغرى وهي خدمة شعيب، ووقع في الوسيلة الكبرى، هي رؤية النار في الشجرة وتلك بداية مكاشفته وسماع خطاب الحق سبحانه، فوقعت مكاشفته قبل الخطاب وهو مقام الكبراء في المعرفة، ثم وقع بعد ذلك في بحر الخطاب، وذلك قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾؛ فإذا أراد الله أن يعرفه مقام رؤية الصفات في الأفعال تجلى بجلاله لكسوة النار، ثم تجلى من كسوة النار لكسوة الشجرة ثم تجلى من الشجرة لموسى، وذلك مقام أسرار الالتباس الذي يجذب بالحق عشاقه إلى معادن الألوهية ليصيروا بعد ذلك موحدين؛ فرباهم في البداية في مقام العشق برؤية أنوار الصفات في الأفعال حتى لا يفنوا بالبديهة في سطوات عظمته، ولو يريهم صرف عيان الذات يصيرون مضمحلين في أنوار قدسه جعل الشجرة مرآة للنار، وجعل النار مرآة للنور، وتجلى منهما لموسى فرأى موسى نيران الكبرياء، وأنوار البقاء

من شجرة القدم فانجذب إلى قرب مغناطيس الصفات ورأى لطائف مشاهدات الذات، كأنه هو في رؤية المعاني، وظن أنه في صورة الأماني فأتاها بنعت الشوق وتحير في شأن الأمر وطلب نفسه أين هو وما علم أنه في كنف الوصلة وبساط القربة فدار حول الشجرة برسوم العلم، وهكذا حال من كوشف له حقائق الحقيقة بالبديهة؛ فلما غاب في الغيب في طلب الرب ناداه الحق وقال: أيش تطلب؟ أنا ربك، أي: ما ترى يسرك وروحك وعقلك فهو جمال ربك وإن كنت في تلبيس الفعل والصفة لو تريد أن تراني صرفا، فاخلع نعليك أي: نعلي الكونين فإنك بالواد المقدس وادي الأزل المقدس عن غبار الظنون والحسبان وأنفاس النفس والشيطان، ولا ينبغي أن تأتي قدس القدم بآثار أهل العدم حتى يطوى لك وادي الآزال والآباد، وينكشف سرها لهمتك وقلبك وروحك وسرك، وأيضًا أي: اخرج أنت منك حتى تصل بي فأنا لمن لم يكن لنفسه.

قال الواسطي في قوله: ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ موسى خطرات به حسه الحظوظ في أخذ نار فنال النور، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من نفسه، وقد حوله من شاهد الحظ إلى شاهد الحق.

قال جعفر: قيل لموسى: كيف عرفت أن النداء هو نداء الحق؟ فقال: لأنه أفنتني وشملتني، فكان كل شعرة مني كان مخاطبًا بنداء من جميع الجهات، وكأنها تعبر من نفسها بجواب، فلما أشملتني أنوار الهيبة، وأحاطت بي أنوار العزة والجبروت علمت أنه تخاطب من جهة الحق ولما كان أول الخطاب ﴿ إِنِّيٓ ﴾ ثم بعده ﴿ أَنَا۠ ﴾ علمت أنه ليس لأحد أن يخبر عن نفسه باللفظتين جميعًا متتابعًا إلا الحق فأدهشت، وهو كان محل الفناء، فقلت: أنت أنت الذي لم يزل ولا تزال ليس لموسى معك مقام ولا له جرأة الكلام إلا بأن تبقيه ببقائك وتنعته بنعوتك، فتكون أنت المخاطِب والمخاطَب جميعًا؛ فقال: لا يحمل خطابي غيري، ولا يجيبني سواي أنا المتكلم، وأنا المكلم وأنت في الوسط شبح تبع بك محل الخطاب.

وقال الشبلي في قوله: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾: اخنع الكل منك تصل إلينا بالكلية فنكون، ولا تكون فيتحقق في عين الجمع يكون إخبارك عنا ونعلك فعلنا.

قال ابن عطاء: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾(١) أعرض بقلبك عن الكون؛ فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب قيل: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾؛ فإنك بعين موجدك.

وقال جعفر: اقطع عنك العلائق ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾.

---

(١) كما يفعل بحضرات الملوك أدباً، ولتنالك بركتها ولتكون مهيأ للإقامة غير ملتفت إلى ما وراءك من الأهل والولد، ولهذا قال أهل العبارة: النعل يدل على الولد. نظم الدرر (٥/ ٢٣٨).

وقال ابن عطاء: أي: أسقط عنك محل الفصل والوصل؛ فقد حصلت في وادي القدس، وهو الذي يظهرك من الأحوال أجمع، ويردك إلى محولها عليك.

وقال الأستاذ: فارغ قلبك عن ذكر الدارين وتجرد للحق بنعت الانفراد، أما الفرق بين قوله: ﴿ إِنِّيٓ ﴾، وبين قوله: ﴿ أَنَا ﴾، وبين قوله: ﴿ أَنَا ﴾، وبين قوله: ﴿ رَبُّكَ ﴾، فـ﴿ إِنِّيٓ ﴾ إشارة إلى أصل الذات، و﴿ أَنَا ﴾ إشارة إلى كشف الصفات، و﴿ رَبُّكَ ﴾ إلى أعيان الذات والصفات في الأفعال.

وقال بعضهم: ﴿ إِنِّيٓ ﴾ إخبار، و﴿ أَنَا ﴾ إظهار، و﴿ رَبُّكَ ﴾ تذكار.

وقيل: ﴿ إِنِّيٓ ﴾ معرفة، و﴿ أَنَا ﴾ توحيد، و﴿ رَبُّكَ ﴾ إيمان.

وقيل: بقوله: ﴿ إِنِّيٓ ﴾ إفناؤه، وبقوله: ﴿ أَنَا ﴾ إبقاؤه، وبقوله: ﴿ رَبُّكَ ﴾ إيواؤه.

وقيل: ﴿ إِنِّيٓ ﴾ لقلبه، و﴿ أَنَا ﴾ لروحه، و﴿ رَبُّكَ ﴾ لنفسه، وقد وقع إخواني إشارة إلى امتناع ذاته عن إدراك الخليقة، و﴿ أَنَا ﴾ إبراز علوم حقيقة صفاته، و﴿ رَبُّكَ ﴾ ظهور مشاهدة تجليه الذي هو سبب تربية موسى، رباه بتجلي ربوبيته في لباس فعله.

ثم أخبر سبحانه أنه اختاره لمكان وحيه وخاصية رسالته واصطفائيته بسماع كلامه القديم حتى يكون خالصًا من جميع البريات، ويكون منفردًا في العبادات بقوله: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ اختاره في الأزل لمحبته والشوق إلى لقائه ومعرفته بفردانيته، ويكون الحق سبحانه سميره في مناجاته، وظاهرًا بوصف الربوبية، وتجلي العظمة لمشاهدته، ومراده سبحانه بقوله: ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ جمع همته وحضور قلبه وسكون سره وهدوء روحه عند جريان الخطاب حتى لا ينفك منه خاطر يشتغل بغيره من العرش إلى الثرى ليكون علمه أشمل، ومعرفته أكمل وحاله أصفى ووقته أشفى ووجده أوفى؛ لأنه كان في مشاهدة عرض جلال القدم، وفي لجج بحار الكرم حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾، قوله: ﴿ إِنَّنِيٓ ﴾ خبر عن بطنان أولية القدم، و﴿ أَنَا ﴾ خبر عن شهور ذاته وصفاته على الأسرار والأرواح والقلوب بنعت غيبتها عنه.

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ظهور ظهور الذات والصفات لشهود الأرواح والأسرار والقلوب والعقول كشفًا وعيانًا وبيانًا؛ فإذا أعنمه حقيقة ربوبيته استدعي منه العبودية الخالصة عن كل كدورة بشرية وخاطر شيطاني بقوله: ﴿ فَٱعْبُدْنِي ﴾ ألزم عليه حتى حق الربوبية للغير للعبودية وأي تشريف مما ألزم عليه من حقوق ألوهيته وجعله موضعها ليكون فردًا بعبوديته كما كان سبحانه فردًا له بإظهار جماله له وإسماع كلامه إياه وأراد سبحانه أن يلبسه أنوار

الربوبية في مكان عبوديته حتى يصيره متصفًا بصفاته متحدًا بمحبته مستغرقًا في جمال أوليته وآخريته ليخرج منها بوصف الأزل والأبد لا بوصف الحدث.

ثم بيّن أن الصلاة إعلام عبوديته ومواقع شهود مشاهدته ولطائف حقائق ذكره ومناجاته بقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ البيان هو الذكر ومزيد الذكر وحقيقة المراد استغراقه في بحار مشاهدة المذكور؛ لأن الصلاة موضع شهود الأسرار على الأنوار وكشف الجمال للأرواح لترقيها بنعت شكرها في عالم الأفراح.

قال الواسطي: في قوله: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ المختار من جهة من هو مصطنعة ومصطنعة ومربيه على يد أعدائه والملقي محبته في قلوب عباده فلم يستطيعوا له إلا محبة، والمطلق لسانه بحر العقد والميسر له أمره فلا يعسر عليه مطلوب بحال كل هذا يقدم إليه ويمن به عليه؛ ليكون ثابتًا عند مكافحة الخطاب ومواجهة الوحي والكلام.

وقال في قوله: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ لا تشغل قلبك بغيري قولاً وفعلاً، ولا تكن من أبناء الأفعال والإحصاء والأعمار والدهور، وكن من أبناء الأزل والأبد مطالعًا لما سبق من الأولية، وجرى لك في الأثرية، وإن كان كلاهما واحدًا.

قال ابن عطاء: إشارة إلى حقيقة الحق إذ الأزل والأبد علة في ذكر الأوقات والدهور علة.

قال الواسطي: أظهر هذا الخلق في شموخ وعلو في أنفسهم؛ فأمرهم لعلة الفاقة لا لعلة الاستغناء تبسمًا لرؤية الاضطرار.

قال: يا موسى ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ أحب أن يريه عجزه.

وقال أيضًا: بالعبرانية خاطب موسى ثم وصف لمحمد ﷺ بقوله: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ هل تلونت الصفة بذلك.

قال: لو لونتها اختلاف اللغات لتلونت في اختلاف الأوامر والنواهي.

وقال ابن عطاء: في قوله: ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ وجدني على الشهود كما عرفتني بالوجود، ودع عنك الرسوم والحدود فلا حد إلا حده ولا عبد إلا عبده.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ إقامتها من غير ملاحظة مجريها ومنشيها تورث الإعجاب، وإذا قام العبد صلاته على نعت الشهود، والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة لهذا فتح باب المواصلة والوقوف في محل النجوى والتحقق بخصائص القرب والزلفى.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ إن الله سبحانه كلم كليمه فطاب وقته من لذة كلامه، واختلج في سره إرادة لقاء المتكلم، وكاد يقول في بداية حاله ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣] فعلم الحق سبحانه سر ما في قلبه، وعلم أنه لا يطيق أن ينظر إليه كفاحًا، وأراد ألا يحرمه من سؤله ومأموله؛ فقال: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾، قال: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾، قال: ﴿ أَلْقِهَا ﴾؛ فلما ألقاها صارت حية ففر منها موسى، قال سبحانه: أين تفر من رؤية مأمولك؟ انظر إليها بنظر الحقيقة حتى ترى مشاهدة الذات في الصفات، ومشاهدة الصفات في الآيات؛ فحصل لموسى مشاهدة رؤية العظمة مع الخطاب الخاص، وأيضًا أراد سبحانه أن يريه الآية الكبرى حتى يتعود برؤيتها، ولا يفزع منها عند تقلبها في ابتلاعها سحر السحرة، وأيضًا كان في مواجهة كلامه القديم في رؤية الجلال العظمة فكاد يذوب من صولة العظمة ورؤية الكبرياء فشغله الحق في ذلك بذكر شيء من الحدثان حتى يسكن لحظة من سكن رؤية الجلال، وألا يفني في سطوات الكمال، وأيضًا ظن موسى أنه تعالى لا يتكلم معه في شيء محقر إنما يتكلم في العظائم فأعلمه الحق موضع انبساطه إليه حتى ينبسط إليه.

ألا ترى لما وجد لذة حسن انبساط الحق كيف خرج من مقام الهيبة، وانبسط إليه بقوله: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾، قوله: ﴿ عَصَايَ ﴾ جواب بالانبساط من لذة وجدان مكانته في شهود عين الحق، ولولا ذلك ما أضاف إلى نفسه في رؤية فردانية الحق، وأيضًا أراد الحق سبحانه أن يعلمه أن في عصاه كثيرًا من معجزته فنبهه

عن ذلك، فلم يعرف موسى في ذلك الوقت إشارة الحق، فقال: معي عصاي، ولو لقال: هي موضع آياتك ومسقط قدرتك، وأيضًا أظهر عجزه عند سرادق كبريائه بأنه أضاف الحدث إلى الحدث، وعلم أن الحدث لا يليق إلا بالحدث ويمكن أنه رأى منها بعض الآيات؛ فذكر إنعام الله عليه في حضرته وزاد ذكر النعمة، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾ عليها أي: أعتمد عليها بأنها آية من آياتك ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أستمتع بما أريد منها ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ وتلك المعجزة من مآربه فلما ارتهن من الحق بالوسائط.

قال سبحانه في غيرة الوحدانية: ﴿أَلْقِهَا﴾ جوابًا لقوله: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ لئلا يسكن إلى غيره، فلما ألقاها ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي: موسى عصاه متقلبة بحية عظيمة مقبلة إلى موسى بالهيبة والصولة ففر منها موسى خيفة، وذلك من غيرة الله عليه سبحانه لئلا ينظر إليها، ولا يستأنس بها؛ فإنها وسيلة منة إليه، ومن بقي في رؤية الوسيلة احتجب عن رؤية الحقيقة، ويا عاقل إن فرار موسى لا من الخوف من غير الحق إنما هو خاف من عظمته التي ظهرت من الحية؛ لأنه تعالى تجلى بعظمته من الحية لموسى، ومن يستقيم بإزاء مشاهدة عظمته القديمة فلما علم الحق أنه تبرأ من غيره ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي: خذ عصاك، ولا تخف من غيري.

قال: ما خفت منه؛ فهو أنا لا غير.

قال فارس في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾[1] سمع موسى كلامًا لا يشبه كلام الخلق، فلما سمع ذلك الكلام كاد يهيم، فمرة أضاف العصا إلى نفسه، ومرة أجاب عما لا يسأل كذلك الهيمان.

وقال: لما غلبت عليه لذعات الصفات وأراد الحق إلى المخلوق ليسكن ما به؛ فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ أشغله بالإجابة عما يملكه، ولولا ذلك لتفسخ عنه ورود الخطاب عليه بغتة.

وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ وانبسط إليه في السؤال

---

(١) وأيةُ نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ مِنْ أنْ تقولَ لي : وما تلك؟ ويقال قال الحقُّ - بعد ما عدَّد موسى وجوَه الآياتِ وصنوفَ انتفاعِه بها - ولَكَ يا موسى فيها أشياءٌ أخرى أنت غافلٌ عنها وهي انقلابُها حيةً ، وفي ذلك لك معجزةٌ وبرهانُ صِدْقٍ .
ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع في العصا كان من قِبَلِ الله، فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه. تفسير القشيري (٤ / ٤٩٣).

ليربط على قلبه لعلمه بما يديه في شهود الكبرياء.

وقال أيضًا: أحب الله أن ينبسط موسى في الكلام كيلا يحتشم في السؤال.

وقال الجنيد في قوله: ﴿ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا ﴾ عليها، فقال له: ألق كل ما يعتمد عليه قلبك أو تسكن إليه نفسك؛ فإن الكل محل العلل، فإن كل ما تسكن إليه ستهرب منه عن قليل، ألا تراه ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً ﴾.

وقال الحسين: عدَّ موسى منافع العصا على ربه وسكونه إليها وانتفاعه بها؛ فقال تعالى: ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ ﴾ أي: ألق من نفسك السكون إلى منافعها وقلبها حية ليزول عنه الأنس بها ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾؛ فقال حين قطعه عنها بالفرار منها: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾، وراجع إلينا.

قيل: الحكمة في انقلاب العصا بحية في وقت الكلام أنه جعل آيته معجزته، ولو ألقاها بين يدي فرعون، ولم يشاهد منها قبل ذلك ما شاهد لهرب منها كما هرب فرعون حين بدهته رؤيتها.

قال فارس في قوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾: ذكر كل ما فيها من وجوه المنافع لئلا يكون له معاودة إلى ذلك؛ فيستلذ بخطاب سيده وعتابه.

وقال أبو بكر الوراق في قوله: ﴿عَصَايَ﴾: جواب الذي بعده ذكر ما أنعم الله عليه بالعصا من المنافع، فكان بعد قوله «عصاي» لسان الشكر.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿عَصَايَ﴾: أضافها بالملك إلى نفسه، ولم يكن يجب له في الحقيقة أن يرى لنفسه ملكًا بين يدي الحق، فلما أضافها على نفسه، قال: ﴿ أَلْقِهَا ﴾ فألقها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ قال: خذها أي: خذ عصاك، ولا تهرب مما ادعيت فيه الملك لنفسك؛ فخاف وتبرأ من إضافتها ملكًا إلى نفسه فتعطف الحق عليه، فقال: خذها ولا تخف فإنها لن تضرك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾: سرائر مغيبة عني في العصا غطيته على ذلك أو أن يكشف لي من الآيات والكرامات.

وقال جعفر: منافع شتى، وأكثر منفعة لي فيه خطابك إياي بقولك: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝﴾.

قال سهل: ذكره موسى من العصا مآرب ومنافع؛ فأراه الله في عصاه مآرب ومنافع كانت خافية على موسى من انقلاب العصا ثعبانًا، وضربها بالحجر في انبجاس الماء وضربها

بالبحر فانفلق، وغير ذلك أراد بذلك أن علم الخلق وإن كانوا مؤيدين بالنبوة قاصر عن علم الحق في الأكوان.

قال الواسطي: في قوله: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾: اطرح عن نفسك السكون إلى العصا والاعتماد عليها، وعدَّ المنافع فيها فلما ألقاها، وخلا منها سره، ﴿قَالَ خُذْهَا﴾ الآن منا على الشرط أن ترانا النافع والضار لا الأسباب.

وقال ابن عطاء: ألقها من يدك؛ فإنك أخذتها من غيرنا، فعددت فيها أسباب المنافع، وخذها منا لتكون ولي نعمتك دون غيرنا.

وقال الجنيد: كان خوف موسى خوف التسليط لا خوف الطبع.

وقال الواسطي: خوف موسى من العصا أنه شاهدها فيه أثر سخطه.

وقال أيضًا: رأى موسى على عصاه كسوة من سخط الحق، ولم يأمن من مكره.

وقال ابن أنبار في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ قال: كلام بسط ليزول عنه روعة الهيبة.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾: فإنك بنعت التوحيد واقف على بساط التفريد؛ فكيف يصح لك، ومتى يسلم لك أن يكون لك معتمد تتوكأ عليه أو مستند إليه تستعين بهنّ وتنتفع، ولما وجد الحق كليمه مستقيًا في محبته وشوقه وتبرئه من جميع الأسباب بعد إلقائه عصاه أراه أنوار ملكه وملكوته في نفسه، وما كان في عصاه من شهود جاد أن أظهر له من يده حتى رأى من يده ما رأى من عصاه، فإن فيها العجائب أكثر والغرائب فيها أوفر؛ لأن النقل من رؤية الأشياء إلى رؤية مشهد النفس زيادة القربة؛ لأن ما يتجلى من الإنسان للإنسان أشرب مما يتجلى من الكون له.

ألا ترى سبحانه كيف ميَّز بين الأمرين العظيمين بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣]، وذلك معنى قوله سبحانه لكليمه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ اضمم يد همتك عن غير شهود كبريائنا، ومشاهدة جمالنا تخرج بيضاء متصفة بنور أحديتنا مقدسة بقدسنا عن الأكوان والحدثان، فيكون بعد ذلك آيات تجلينا بظهور نور تجلي كبريائي من وجهك للعالمين، وأيضًا واضمم يدك الظاهرة إلى جيبك الذي فيه قلبك حتى تخرج بيضاء بما فيه من نور نظرنا ومشاهدتنا، وأيضًا فيه مقام الأدب أي: واضمم يدك التي تكسر بها الأرواح، وتأخذ بها رأس هارون، ووكزت بها القبطي من تلك الحركات حتى تكون موضع معجزتنا، ولي فيه واقعة كنت يومًا حضرت

الحضرة في الخلوة، فأخرجت يدي بين يدي الله سبحانه مجردة للدعاء، فنادى في هواتف الأسرار: اضمم يدك، ولا تجرها فإنها سوء الأدب في الحضرة الخاصة؛ فأخذت يدي إلى جنبي، فأريت بعد ذلك أشياء في قلبي وفي صورتي، ولا أطيق وصفه.

قال الجنيد: اجمع عليك همتك، ولا تشتت سرك.

وقال بعضهم: اقطع مرادك عن الكونين، وكن مريدًا لنا لنكون مرادك، ثم بيَّن سبحانه أن يده البيضاء أكبر آية وأعظم معجزة له ولغيره وذلك قوله: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ أرى الله موسى من يد موسى له أكبر آية، وذلك أنه ألبس أنوار يد قدرته يد من موسى؛ فكان يد موسى يد قدرة الله من حيث التخلق والاتصاف، وهذا إشارة صفي ممالك الملكوت غواص بحر الجبروت، حيث حكى غن الحق سبحانه في حديث المحبة والاتصاف بقوله: «**لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا**»[1].

فلما زينه الحق بأنوار ربوبيته أشهره على العالمين ليكون حجة عليهم، قال سبحانه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ الحكمة فيه أن موسى كان في مشاهدة قرب جلال الأزل شاهد الربوبية، وكاد يفنى في العزة فشغله الحق بالشريعة عن الفناء في الحقيقة فلما علم موسى مراد الحق منه بمكابدة الأعداء والرجوع من المشاهدة إلى المجاهدة سأل من الحق سبحانه شرح الصدر، وإطلاق اللسان، وتيسير الأمر ليطيق احتمال صحبة الاضداد ومكابدتهم، وذلك أنه كان في مشاهدة الحق ألطف من الهواء، وفي خطابه أرق من ماء السماء، فطلب قوة ألوهية وتمكينًا قادريًا بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ عرف مكان مباشرة الشريعة أنها حق الله وحق الله في العبودية مقام الامتحان، وفي الامتحان حجاب عن مشاهدة الأصل، فخاف من ذلك، وسأل شرح الصدر أي: إذا كنت في عين الشريعة عن مشاهدة غيب الحقيقة اشرح صدري بنور وقائع المكاشفة حتى لا يكون محجوبًا بها عنك.

ألا ترى إلى سيد الأنبياء والأولياء صلوات الله عليه كيف أخبر عن ذلك الغين، وشكا من صحبة الأضداد في أداء الرسالة؛ بقوله: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢١)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) رواه مسلم (٤٨٧٠)، وأحمد في مسنده (١٢٩٤)، وأبو داود (١٢٩٤).

اشرح لي صدري بنور القدس حتى أكون معك في مقام الأنس وادي عجائب الغيوب، وغرائب الكشوف: ﴿ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴾ هيئ لي قوة من قوتك حتى أقوم بنعت الاستقامة معك في أداء رسالتك ونشر شريعتك ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴾ عجمة الإنسانية حتى أطيق أن أشرح ما كاشفت لي لعبادك بلسان شرع نبوي ﴿ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾؛ فإن لساني لسان الحقائق، ولو أتكلم معهم بلسان الحقيقة لا يفهمون إشاراتي وعباراتي منك، وأنا أريد الوقوف بسري معك في شهود الغيب، وإذا كنت غائبًا لا أطيق أن أؤدي رسالتك بهيئتها ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا ﴾ يعبر قولي لهم، فإنه يحس مقالتي، وإشارتي التي هي من مجمع بحار الكلام الأزلي والشهود الأبدي، ولا أكون مشغولاً عنك بغيرك هذا من عموم التفسير وإشارات الحقائق أصفى من كل صفاء، وهي أن موسى كليم الله عرف مكانه من مواجهة خطاب الأزل ومشاهدة جلال القدم وبقائه ببقاء الحق مع الحق وأنه يكون بضعف حدوثيته موازيًا لشهود القدم إلى البقاء بوصف كشف الذات والصفات، وأنه يفنى بأول برقة تتبرق من بروق أنوار جلال الذات والصفات، ولو كان موسى ألف ألف موسى وكل موسى في موسى أعظم من العرش والكرسي والكون والكائنات، وما فيها يضمحل في صدمة واحدة من سطوات ألوهية الحق، فسأل أن يشرح صدره بنور تجلي الجود الأزلي، وبسطه ببسط الأبدي حتى يكون صدره حاملاً لتجلي جميع الذات والصفات؛ فمن هذه الإشارة وقع سؤاله في حيز الاستحالة؛ لأن الحق أجل من أن يكون ذاته وصفاته في حيز علوم الحدثان وإدراك أهل الزمان والمكان.

وقوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ﴾ أمر طلب الربوبية أي: يسر لي الربوبية من حيث الاتصاف والاتحاد، وهذا جرأة العشاق ووقع أيضًا هذا السؤال في محل الاستحالة؛ لأن الربوبية لا تفارق عن مصدر الأزل.

وقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ أي: لساني لسان الحدث، ويدله بلسان «قدوسي سبوحي صمداني رباني» حتى أطيق أن أتكلم به معك كما تتكلم معي، وإذا كان لساني لسانك أكون قادرًا بأن أخبر عنك وصفك كما هو، ولو أخبرهم عنك بلساني كيف أخبرهم، والعبارة عنك بغير لساني القدم مستحيلة.

وقال الحسين: لما أزال الحق عنه التوقف وجاء إلى الله بالله ولم تبق عليه باقية بها يمتنع أقيم مقام المواجهة، وأطلق مصطنيعه لسانه نظر إلى أليق الأحوال به فسأل مليكه شرح صدره ليتسع مقام المواجهة والمخاطبة.

ثم نظر إلى أليق الأحوال به فإذا هو تيسر أمره فنال ذلك على التمام ليترقى به حاله إلى

أرفع المقام وهو المجيء إلى الله بالله بأن من وصل إليه لا يعترض عليه عارضة بحال، ثم نظر إلى أليق الأحوال به فسأل حل العقدة من لسانه ليكون إذ ذاك مالكًا لنطقه وبيانه؛ فلما تمت له هذه الأحوال صلح للمجيء إلى الله وكان ممن وفى المواقيت حقها غابت عنه الأحوال ولم يرها وذهب عن غيبه وظهوره وما عداهما إلا كان للحق منه ومعه حتى يحقق بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

وقال بعضهم: سأله هل عقد الحياء عنه؛ فإنه استحى أن يخاطب عدو الله فرعون بلسان به خاطب الحق.

وقال ابن عطاء: ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ لاستماع كلامك، ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ بالوقوف معك، ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً﴾ النفسانية، ﴿مِّن لِّسَانِى﴾.

وقال الجنيد: ما سأل الله موسى في هذه الآية إلا الأخلاق.

وقال جعفر: لما كلم الله موسى عقد لسان موسى عن مكالمة غيره؛ فلما أمره بالذهاب إلى فرعون ناجاه بسره، وقال: ﴿ٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ لأكون قائمًا بالأوامر على أتم مقام.

وقال ابن عطاء: اكشف لي عن صدري حتى لا أشاهد غيرك ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ حتى لا أنطق إلا بمعرفتك، ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً﴾ الإنسانية من لساني حتى لا أتكلم إلا بما يتلقنه منك.

وقال جعفر: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ عقدة الهيبة والإجلال، ولما سأل وزارة أخيه بين مراده منه بما أخبر الله عنه بقوله: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أراد بالذكر والتسبيح الكثير نشر فضائل ما مَنَّ الله عليهما بنعت الحمد والشكر، والحمد إذا كان بلسان الحدث يكون قليلاً ولكن إذا كان المعارف يذكر الله بالله ويسبح الله بالله يكون بالله لله كثيرًا حيث من عين الجمع في محل الاتصاف والاتحاد ثناء موسى وهارون ثناء الله على نفسه، إذ لم يبق في البين غير الله فإن الكل هو الله وذكره موازي وصف قدمه، وذلك الذكر الكثير، وما دونه فهو في محل القليل.

قال ابن عطاء: لا يخطرن بسرك ما خطر بموسى حيث قال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ استكثر ما منه من العبادة، والتسبيح؛ فلا يخطرن بك ما خطر به.

قال جعفر: قيل لموسى: استكثرت تسبيحك وتكبيرك ونسيت بدايات فضلنا عليك في حفظك في اليم وردك إلى أمك وتربيتك في حجر عدوك، وأكثر من هذا كله خاطبنا معك

وكلمنا إياك وأكثر منه إخبارنا باصطناعنا لك، ولما كان قصد موسى بسؤاله إنفاذ مراد الحق لا مراد نفسه وقع الإجابة على موافقة الاصطفائية الأزلية بقوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي: وقع سؤلك محل خاصيتك التي صدر منا في الأزل فبتلك الخاصية سألت عنا مأمولك، وقد أعطيناك سؤلك: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ بأن ألبستك نور اصطناعي واصطفائي حين خرجت من العدم وذلك النور.

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾[1].

قوله: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ هذه خاصية عجيبة اصطفاه في الأزل لقبول وحيه ورسالته وسماع كلامه ورؤية مشاهدته؛ فلما أراد أن يجعله مسقط نور جلاله وجماله ألبسه نور محبته الأزلية السابقة للأنبياء والمرسلين والصديقين حتى يكون بقوتها متحملاً لحمل أنوار صفاته وذاته فمن كل صفة عليه نور، ونور المحبة علا على كل صفة ليكون مع هيبته وجلاله محبوب كل محب ومألوف كل أليف، وبذلك النور يكون حسنًا مستحسنًا مليحًا شريفًا ظريفًا

---

(١) قال الله سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ [طه: ٤٠] يا موسى: ﴿إِلَى أُمِّكَ﴾ [طه: ٤٠].أي: إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت، وكذلك رددناك يا موسي القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانقطاع عن تعلقات الذات والصفة، وقوله ﷺ: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، قرى العين هنا إشارة إلى قرار الذات، فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال يبكي إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قالبًا وقلبًا ينجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإقبار المفهوم من قوله تعالى: فأقبره رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قرير عين لك، وقوله ﷺ: ﴿وَلا تَحْزَنَ﴾ تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القالب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح، فالحزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون، أمّا عدم حزنه: فلأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذروة الحالات والكمالات، وأمّا الحزن: فلأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقالب، فإن القالب له حجابية في الجمل، وإن تلطف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر محترقًا أشدّ الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذاب البارد. مرآة الحقائق للشيخ حقي (١/ ٢٧٥) بتحقيقنا.

في أعين الخلائق جميعًا وهكذا حال كل محب للرحمن.

قال الواسطي: في قوله: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ سأل وبه ابتدأ شرح صدره فجاز الاقتداء به للعوام دون الخواص؛ لأن الله أعلم بما فيه إبلاغ رسالته وأداء أمانته.

ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ إلى قوله: ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ فذكر أيام حداثته ثم ردَّه إلى أصله ثم رده من أصله إلى أصل الأصل؛ فقال: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ فأضافه إلى نفسه ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾.

قال السري السقطي -قدس الله روحه: ألقى عليه لطفًا من لطفه استجلب به قلوب عباده.

وقال ابن عطاء: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ لك، فمن رأى فيك محبتي لك أحبك يحيى لك.

قال فارس: زينتك بملاحة من عندي حتى لا تصلح لغيري، ويحبك كل من يرى تلك الملاحة فيك؛ فقيل: أليس يوسف أعطي شطر الحسن، ولم يسكن يستوجب المحبة.

فقال: الحسن لا يوجب المحبة والملاحة توجب المحبة، ألا ترى النبي ﷺ كان عليه ملاحة ممزوجة بهيبته.

قال بعضهم: بعينك لا يراك لا أحد إلا رق لك ومال إليك ولما خصه بكسوة نور محبته جعله محفوظًا في مقام الامتحان والبلاء لا ينقطع عنه أنوار تلك الخاصية، وكان في مجمع حجر وصلة الحق يربيه بأيدي الأعداء ليبيِّن منته واصطفائيته، كأنه خاطب لطفه قهره ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي: لتكون مربى في مقام القهر بعين اللطف، وهذا خاصية عجيبة.

قال الواسطي: ما نجا نبي ولا ولي من محنته ولا سلم أحد من مشقته، وهذا معنى قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قال ابن عطاء: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ أنا مشاهد لك حافظ أرعاك بعيني ولا أسلم سياستك إلى غيري ليعلمه حسن العناية.

ثم إن الله سبحانه ذكر لموسى منته عليه بأن أنجاه من كيد العدو، وإرجاعه إلى أمه، وبأن لم يأخذه بجرم القتل بقوله: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ إن الله سبحانه أعلم الحقائق أن من اصطفاه الله في الأزل بشرائف المعرفة ولطائف الولاية لا يضر به المعصية ولا يزيله من مقام

الاصطفائية مباشرة الكبيرة فألقى موسى في البداية في محنة المعصية كأبيه آدم عليهما السلام ليكون التواضع مصحوبًا له إلى النهاية ويربيه بحقائق القهر كما يزينه بحقائق اللطف ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ أي: نجيناك من طريان العتاب منا على قلبك ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ أخلصناك من النظر إلى غيرنا في جميع أنفاسك، وألبسناك أنوار لباس ربوبيتنا حتى عرفتنا بمعرفتنا، وصرت فنون عجائب لطفنا في العالم.

قال الواسطي: ألقاه في أعظم كبيرة حتى يوجده طعم الاصطفاء بقوله: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾.

وقال أبو الحارث: فتناك بنا عما سوانا.

وقال ابن عطاء: فنجيناك بالبلاء طبخًا حتى صلحت لبساط الأنس.

وقال سهل: أفنينا نفسك الطبيعي ودبغاها حتى لا تأمن من مكر الله.

ثم زاد ذكر المنة عليه بأن جعل شيخه ومقدمه في طريقته شعيبًا ﷺ بقوله: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ لبثه عند شعيب بأن رباه الله بصحبة المرسلين ليكون متخلقًا بخلقه مهذبًا في آداب الحضرة، وهذا سنة الله للمريدين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ أي: على قدر زمان الإرادة؛ فإذا كنت كاملاً جئت على قدر مقام المحبة، ووطئت بقدم المحبة على بساط القربة بعد قدم الإرادة في مقام الخدمة جئت بما اصطفيناك في القدم من العدم، لا يتغير قدرك بتقليل بدور العناصر عن قدر اصطفائيتنا.

قال بعضهم: قدرنا لك سبيل المعرفة وقتها فجئت على ذلك القدر أقدر.

ثم ذكر سبحانه أعظم منته عليه بقوله: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ أي: ضمرت سرك بنور سري وقلبك بنور نوري وعقلك بسنا قدسي وروحك بجمال وجهي وألبستك نور محبتي وكسوتك كسوة ربوبيتي لتكون مشكاة أنوار صفاتي وذاتي، أتجلى من وجهك بالهيبة للعالمين وخصصتك بمخاطبتي وسماع كلامي؛ فإن في زمانك ليس في العالم سواك محل وقوع نور تجلياتي وكشوف أسرار سري ولتكون لنفسي خاصًا بالمحبة والشوق والعشق لا لغيري وأنا غيور عليك لا يراك أحد بعين المحبة إلا أبتليه، ولا ترى أحدًا بعين المحبة إلا أبتليك حتى لا يكون فيك نصيب أحد غيري.

قال الخرّاز: في قوله: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾؛ فمن أين وإلى أين ومنه وإليه وله وبه وفني فناؤه لبقاء بقائه بحقيقة فنائه.

وقال فارس: أخلصتك لي حتى لا تصلح لغيري.

وقال أبو سعيد الخرَّاز في بعض كتبه: غير أن أولياء الله رهائن الله في أشياخهم قد خبأهم وأخفاهم في أنفسهم من أنفسهم لنفسه، وهذا مقام الاصطناع الذي قال الله لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

قال سهل: مفردًا إليَّ بالتجريد لا يشغلك عني شيء[1].

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾ أي: إذا أمر دعا أن تذكراني فاذكراني حتى لا تضعف تحت أثقال ذكري؛ فإن ذكر القديم لا يحتمل إلا بقوة من القديم، وأيضًا لا تغيبا عن مشاهدتي باشتغالكم بأمري حتى لا تكونا فاترين بي عني.

قال سهل: لا تكثرا الذكر باللسان، وتغفلا عن مراقبة القلب.

ثم إن الله سبحانه أمر موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون لقطع حجته وإظهار كذبه في دعواه بقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ هذا تهديد لكل مدعٍ لا يكون معه بينة من الله في هواه، والحكمة في إرسال الأنبياء إلى الأعداء ليعرفوا عجزهم عن هداية الخلق إلى الله، ومن يعجز عن هداية غيره فأيضًا يعجز عن هداية نفسه، ويعلموا أن الاختصاص لا يكون بالأسباب ويشكروا الله بما أنعم عليهم بلطفه، وربما يصطادون من بين الكفرة من يكون له استعداد نظر الغيب مثل حبيب النجار ورجل من آل فرعون وامرأة فرعون والسحرة.

قال ابن عطاء: الإشارة إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو المبعوث بالحقيقة إلى السحرة؛ فإن الله يرسل أنبياءه على أعدائه، ولم يكن لأعدائه عنده من الخطر ما يرسل إليهم أنبياءه ولكن يبعث الأنبياء إليهم ليخرج أولياء المؤمنين من أعدائه الكفرة.

ثم بيَّن سبحانه لطفه وكرمه للمؤمنين بما أظهر لطفه بأعدائه بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ انظر كيف تلطفه بأعدائه؛ فهذا لطفه بأعدائه فكيف لطفه بأوليائه علم عجزه وضعفه وكذبه وعلمه بنفسه بأنه أعجز العاجزين، ولكن ضرب قهر الجبارية، ولطمه الميل على قفاه وبعده من باب العبودية مع استعداده بقبول المعرفة، ولولا ذلك لما قال: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ

---

(١) أي تفرد إلي بالتجريد لا يشغلك عني شيء. تفسير التستري (١/ ٣٢٣).

تَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾، ومن ذلك الاستعداد وقع في بحر دعواه ولولا كان في نفسه شيء من ذلك لم يجترئ أن يخرج بتلك الدعوى ألا ترى أن دعواه لم يقع إلا لقليل من الخلق من الكفرة، وفي كل موضع يظهر به قهر القدم بنعت المباشرة يفيض سكرًا كما يفيض لطف الأزل سكرًا في ألطف وصف الروح الناطقة ولدعواه في الحقيقة وجه من الحقيقة، وسكر القهر وصف النفس الأمّارة، ولولا اختلاف المكانين واللباسين يقع لفرعون ما يقع لأهل الحقائق من دعوى الأنائية، ومن هاهنا أمر الصفيين المكرمين بأن يقولا له قولاً لينًا؛ لأنه يكفي ما عليه من قهر قدمه فأثقال البعد والسقوط من درجات المؤمنين العارفين وفيه إشارة لطف الله بموسى وهارون ليكونا متخلقين بخلق الله في تأديب عباد الله.

وعلم الله سبحانه حدة موسى، وقلة احتماله رؤية المخالفين من أعداء الله؛ فأكد العزم عليها لئلا يغضبا عليه في دعواه الذي قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ [الشعراء:٢٩] لئلا يسقط سبيل الحجة عليه.

قال يحيى بن معاذ: هذا رفقك بمن آذاك فكيف رفقك بمن يؤذى فيك؟

قال النهرجوري: قال الله لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ لأنه أحسن إليك في ابتداء أمرك فلم تكافئه فأحببت أن أكافئه عنك.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ انظر إلى هذا اللطف من اللطيف الكريم أن معيته يكفيهما حيث إنه معهما ولا يحتاج إلى قوله أسمع وأرى، فزاد التلطف، فقال أسمع وأرى وهذا كمال رعايته وحفظه لهما أي: أسمع قولكم وفعلكم جميعًا وأنا بالسمع والبصر معكما ومع فرعون، ولكن أنا بذاتي المنـزه بنعت الكشف معكما خاصة.

قال سهل: أخبر الله أنه معهما بالنصرة مشاهدًا لهما في كل حال بالقوة والمعونة والتأييد لئلا يخافا إبلاغ الرسالة بحال قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ أي: السلام الأزلي والسلامة الأبدية بنعت الاصطفائية على من اتبع الأنبياء والأولياء، ولا يتبع الهدى إلا من سبق في الأزل له منا الهدى.

قال الواسطي: اتباع الهدى لسابقة الهدى، ومن سبقت له من الله الهداية اتبع الهدى في

جميع أحواله.

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ لم تبق ذرة من العرش إلى الثرى إلا وخرجت من العدم بنور القدم ووقع وجودها في حيز الرحمة وكساها الحق أنوار قدرته ثم أعطاها عقلاً سريا تعرف بها صانعها وهو تعالى بذاته يعرفها نفسه، وكيف لا يعرف الوجود وجود صانعه، وهو بمجموعه مستغرق في بحر الألوهية؛ لذلك قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء:١٧]؛ فما كان فيه روح فعله فزاد حياته بروح فعل مثل الحشرات والوحوش والطيور ومعرفتها بقدر أرواحها وعقولها، ومن كان فيه روح الروحانية مثل الملائكة والجن؛ فمعرفتهم أيضا بقدر أرواحهم وعقولهم، ومن كان روحه من نفخ الحق عند كشف الذات والصفات في أوائلها بمعرفتهم وهدايتهم من حيث الكشف والمشاهدة وهم القدسيون الربانيون الألوهيون.

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ الإشارة

فيه إلى الأجسام والهياكل؛ لأن الأرواح من عالم الملكوت، ولولا أنها سترها الحق بقوالب ترابية لملأت الأكوان والحدثان من روح واحدة ولاحترق الجميع في أنوارها، وإن الله سبحانه صوغ[1] من إكسير الأشباح لمعادن الأفراح، ورباها بنظام تجلي جماله وجلاله بقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر:٣٩] فلما حملت الأرواح في ميادين العبودية حتى طارت منها الأرواح إلى عالم الربوبية بقيت السبائك في معادنها الزوائد تربية ربها، فلما تمت التربية لها من نور فعل الحق صارت الهياكل والأرواح على نعوت الروحانية، ولا تقوم الأرض بحملها بعد ذلك، ويكون موضعها عالم الغيب التراب يا عاقل هو معادن نور الفعل، ومصدر خاصية القبضة الجبروتية، ما أشرف هذه الطينة حيث تخمرت بقبضة الأزل والأبد كان معدنها معدن ملك الصفات ورجوعنا من الصفات إلى عالم الذات، ألا ترى كيف قال سبحانه في أصل خلقتنا ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر:٢٩]؛ فصددنا من الصفة لرؤية الذات، وصد من الذات للعلم بالصفات.

انظر كيف قال لحبيبه ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، الله الله لا تظن حديث النسطورية والأفروقية التي تقول بالثالث والثلاث؛ فإنهم في غلط الخيالات وقعوا في انقسام الجزئيات من الكليات فنحن وقعنا من زنود تجلي القدم في العدم فكنا معدومين ونكون معدومين ونحن في وجودنا معدومون من حيث الحقيقة؛ لأن من ليس وجوده منه وبقاؤه به معدوم من حيث الحقيقة والمعدوم يكون معدومًا كما لم يكن في العدم والقديم لا يزال، كما لم يزل في القدم ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ وقع على تراب العدم الذي في قبضة القدم.

قيل ليحيى بن معاذ: ما بال الإنسان يحب الدنيا؟ قال: حق له أن يحبها منها خلق وهي أمه، وفيها نشأ فهي عيشه، ومنها قد قدر رزقه فهي حياته، وفيها يعاد فهي كفاية، وفيها كسب الجنة فهي مبدأ سعادته، وهي ممر الصالحين إلى الله؛ فكيف لا يحب طريقًا يأخذ بسالكه إلى جوار ربه؟!

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ

(١) صوع: الصّواع: إناء يُشْرَبُ فيه. وإذا هيأتِ المرأةُ موضِعاً لنَدْفِ القطن قيل: صوَّعَتْ موضِعاً، واسم الموضع: الصّاعة. العين (١/ ١٢٦).

ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ لا تعجب؛ فإن النفس الأمّارة بقيت في الأنبياء؛ ألا ترى إلى قول الصديق المرسل يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وتلك النفوس جبانة خلقت عاجزة عن حمل وارد القهريات، وإن رأت كثيرًا من آيات الله لا يخرج من جبلتها قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم:٣٠] خاصة أن الله سبحانه ألبس سحر السحرة لباس قهره فتحركت بقوة قهر الله؛ فلما رأى موسى انقلاب لباس قهر الله خاف من قهر الله لا من غيره؛ لأنه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٧].

سئل ابن عطاء عن قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً﴾ ما كانت هذه الخيفة، والله يقول: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾، قال: خاف على قومه أن يفوتهم حظهم من الله، وما خاف على نفسه فلما وجد الحق حركة نفس موسى في رؤية قهر الجبروت، قال الله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ أي: إنك محفوظ بعيون رعاية جبروتنا، ومعك الآيات الكبرى وهو لباس حفظنا، أنت في لطفنا تسبق على القهر وأصله «سبقت رحمتي غضبي»[1].

قال ابن عطاء: لا تخف فإنك بمرأى منا، ومسمع منا ونحن معك في جميع أحوالك؛ فإنك القائم بالمسبب، وهم معتمدون على الأسباب.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا

(١) رواه البخاري (٦٩٩٨)، ومسلم (٤٩٤٠).

غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إن القوم شاهدوا في رؤية الآيات مشاهدة الذات والصفات، فهان عليهم عظائم البليات.

قال ذو النون: من آثر الله على الأشياء هان عليه ما يلقى في ذات الله؛ لأنه آثر الأثير، وحصل في حمله اللطيف الخبير.

قال الله حاكيًا عن السحرة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ افعل بنا ما كنت فاعلاً؛ فإن الذي كشف لنا عنه يسهل في مشاهدته حمل المؤن ملاقاة المكاره والضرر.

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ من كان له استعداد النظر إلى عالم الغيب وباشر حظوظ النفس احتجب عنه، فلما انقطع إلى الله ينظر الله إلى قلبه بنعت الإخلاص واليقين يكشف الله له أنوار حضرته ويجذبه إلى قربه، فلما رجع إليه بالكلية لا يبالي الله سبحانه بما جرى عليه في أيام الحجاب من أحكام مقاديره؛ لأنه كان معذورًا من جهة جهله بالطريق، فالتائب المنقطع إلى الله والمؤمن العارف بالله العامل بالصالحات ترك ما دون الله، فإذا كان كذلك فاهتدى بالله إلى ما لله، وما في الله ويكون مغفورًا برحمة الله ومعصومًا بعصمة الله.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ لمن رجع من طريق المخالفة إلى طريق الموافقة، وصدق موعود الله فيه وله واتبع السنة ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ أقام على ذلك لا يطلب سواه مسلكًا وطريقًا.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾[1] ضاق صدر موسى من معاشرة

---

(١) فإن العجلة محمودة إذا كان المقصود الرضا، والله المعين في كل الأحوال.

الخلق وتذكر أيام وصال الحق فعلت العجلة الشوق إلى لقاء الحق.

قال الواسطي: عجلت إليك شوقًا مني إليك واستهانة بمن هو مبعوث إليهم فقال: ﴿ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ ﴾ إن الله سبحانه أحب كليمه حبًا بالغًا وأحب انبساطه وصولته وغضبه عليه ففتن قومه بحب العجل ليهيجه بذلك إلى غضبه ويشغله عن صحبة الأضداد بصحبته ومناجاته.

قال ابن عطاء: قال الله لموسى: تدري من أين أتيت؟ قال: لا يا رب.

قال: حين قلت لهارون اخلفني في قومي أين كنت أنا حينئذٍ حين اعتمدت على هارون.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ غضبه انبساطه وجرأته في حضرة ربه من العلم بمكانه عند الله كأنه عربد في إضلال قومه وأسفه من فقدان وصاله واشتغاله بشريعته قيل «غضبان» على نفسه إذ ترك قومه حتى ضلوا «وأسفًا» على ما فاته من مناجاة ربه.

قال الشبلي: «أسفًا» على ما فاته من مخاطبة الحق إلى مخاطبة من لا أوزان لهم فرده من شوقه إلى مشاهدة ولم يظفر ببغيته وشُفي من وجد فغضبه كان من ذلك.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا

وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أن الله سبحانه أراد بقوم من بني إسرائيل فتنة المحبة فأوقعهم في بحر المخائيل حتى عبدوا العجل؛ لأنه تعالى ربما أجرى طوفان عزة جلال ربوبيته فأغرق فيه قومًا، وذلك من كمال فرط محبته إظهار جماله وجلاله ومن كمال ذلك المعنى لا يبالي أن يُري جلال ربوبيته للعوام فخلق طباع عبدة العجل رقيقة مائلة إلى حسن فعله من حركات سره في صميم إرادتهم إلى طلب ما ألقي من نور وجهه إلى الغيب ومن الغيب إلى الأفعال، وذلك جذب عجيب علته محبة الله شوق المشتاقين وحب المحبين فتجلى من قدسه وجلاله وجماله لفعل الخاص، ومن فعله الخاص لفعله العام، وتجلى من فعله العالم فبرز منه روح القدس فأثر به الحياة القدسية في كل من عُكِس عليه نوره فورد على تراب فقبض السامري من أثر فرسه قبضة؛ لأنه سمع من موسى تأثير القدسيين في أشباح الأكوان فنثر على العجل الذهبي فجعل الحق سبحانه لها إكسيرًا من نور فعله فأنور العجل بنور فعله، وجعله حياله خوار فتحركت سر تلك الفطرة المختبئة في قلوبهم فطلبوا المعدن ولم يعرفوا طريقه فوجدوا سكون محبتهم في رؤية العجل الذي ملبوس بنور الفعل فغلطوا وعبدوه من غاية حبه، قال سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة:٩٣] أي: حب العجل وهذا من نوادر تجلي الالتباس، ألا ترى كيف كانوا إذا عنموا مواضع الغلط قتلوا أنفسهم لله ومقصود الحق من ذلك أن يرى أحباءه على بابه قتلى صرعى.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ لما قص غلط عبدة العجل وغيرة موسى عليهم وذبحه العجل وحرقه وإفراده القدم عن الحدوث بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ قال في عقبه: مثل ما قصصت من أحكام الأولين وما فعلت بهم نقص أيضًا زيادة الباء هل الابتلاء اعتبارًا وامتحانًا وإصابة الرشد والعلم بآثار أهل الحقائق.

قال ابن عطاء: موعظة بعد موعظة وبيانًا بعد بيان، ثم خصه بها أفرده من العلم اللدني الإلهي والأنباء الغيبي بقوله: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾ الذكر اللدني كشف ما ستر الحق على الخلائق من أسرار ربوبيته يعرف حبيبه بها معلومات الحق في القلوب والغيوب.

قال ابن عطاء: أي: موعظة تتعظ بها وتتأدب بملازمتها؛ فلا يخفى عليك شيء من أسرارنا وما أودعنا أسرار الذين قالوا قبلك، فيكون الأنبياء مكشوفين لك وأنت في سر الحق.

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ إذا أراد الله سبحانه أن يطلع شموس ذاته وأقمار صفاته من مشارق قلوب العارفين يقلع عن قلوبهم شواغلات الإنسانية ورسومات النفسانية وعوارضات البشرية ورسومات العلومية، ومرسومات العقولية، حتى بقيت الأرواح المقدسة على صحاري القلوب مطالعة لطلوع أنوار مشاهدات الأزلية ومكاشفات الأبدية بغير رسوم الفهوم، والعلوم فإذا اضمحلت المخائيل من جبال الشهوات وموهومات النفوسية شاهدوا الله بصرف المعرفة وحقيقة الفناء.

قال الحسين: هو الذي يطمس الرسوم ويعمى الفهوم ويميت الذهن ويترك الجسم قاعًا صفصفًا حتى يعجز الكل عن معرفته وبلوغ نفاذ قدرته، ثم يظهر من طوالع ربوبيته على أسرار أهل معرفته فيعرفونه به.

قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝﴾ (١) أخبر الله سبحانه عن كشف العظمة والكبرياء والسلطنة للقدم، فهناك مقام فناء الأرواح والأشباح بنعت الخمود والخشوع فلا حيلة لهم هناك للخروج من تحت غواشي ضباب العزة؛ لأن الحوادث مضمحلة عند بروز أنوار سطوات الألوهية، فإذا ذهب طوفان بحار العظمة ويطلع عليهم زبرقان(٢) الجمال من مشرق الجلال فيبقوا ببقائه ويفيقوا من صعقاتهم ويجيبوا الله ويسمعوا منه فالأول مقام الفناء والآخر مقام البقاء.

قال الواسطي: وهل كانت إلا خاشعة في الأول وهل يكون إلا خاشعة في الأبد فالاقتحام في حال الوجود بالتوثب والمنازعة ووقاحة الوجه ورعونة الطبع؛ لأنها لم تكن وهي إذا كانت كأنها لم تكن.

وقال الجنيد: كيف لا تخشع وقد كشف الغطاء وأبدي الخفاء فلهيبة الموقف وحياء الجنايات خشعت أصواتهم وذلت رقابهم ثم أخبر عن ذهاب صولات العظمة وإقبال كشف الحال بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من رضي الله عنه في الأزل واختاره باصطفائيته وحسن عنايته، ورضي عن قونه في دعواه في الدنيا بمحبته، ومعرفته مقرون بالصدق والإخلاص، وله لسان الولاية بإذن الله، يهب الله له بشفاعته، ولو شفع لجميع الكفرة، فإنه لا يرد مكان خاصية إرادته القديمة، وهناك تبيين صدق الصادقين ودعوى المدعين.

قال الواسطي: لا تنفع الشفاعة إلا لمن لا ينسب إلى نفسه شيئًا، ولا يرى نعته فإذا عاين نعته نسى الأول، وإذا ظهر عليه رضوانه ذهب ما دونه، ثم أخبر عن كمال جلاله وعز قدمه وبقاء ديموميته التي تقاصرت الأوهام عن إدراكها وفنيت العقول عن الإشارة إليها بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝﴾ كيف يحيط الحدث بالقدم والحدث فاني الوجود في كشف وجود الحق والفاني لا يدرك الباقي إلا بالباقي، وإذا أدرك الباقي بالباقي لا يبلغ إلى ذرة من كمال الأزلية؛ لأن الإحاطة بوجوده مستحيلة من كل الوجوه صفات وذاتًا وسرًا وحقيقة يا عارف كيف تدعي معرفة من لا تدركه معرفة كل عارف، فإن معرفة كل عارف

(١) (وخشعت الأصوات) أي ارتخت وخفيت وخفضت لخشوع أهلها (للرحمن) أي الذي عمت نعمه، فيرجى كرمه، ويخشى نقمه (فلا) أي فيتسبب عن رخاوتها أنك (تسمع إلا همسًا) أخفى ما يكون من الأصوات، وقيل: أخفى شيء من أصوات الأقدام. نظم الدرر (٥/ ٢٦٩).

(٢) قالوا: سُمّي الرجل زِبْرِقان لجماله. وقالوا: زبرقَ ثوبَه، إذا صبغه بحُمرة أو صُفرة. والزِّبْرِقان، زعموا: القمر. جمهرة اللغة (٢/ ١٣٢).

مستفاد من كرمه والحادث بمعرفته لا يعرف ماهية حديثه فكيف يعرف سر السر وعين العين وعلة العلل، أنهم أن ما تدرك منه يرجع إليك بكل معروف ومفهوم ومعلوم فكلها متقى إدراك حقيقة ذاته وصفاته.

قال ابن عطاء: لا يحيطون بشيء من ربوبيته علمًا؛ لأنه لم يظهر شيئًا إلا تحت تلبيس؛ لكيلا يستوي علمان في شيء واحد ومن لا يرى الكل تلبيسًا كان المكر به قريبًا، والعبيد لا يقفون على تلبيساته.

وقال الواسطي: كيف يطلب أحد طريق الإحاطة وهو لا يحيط بنفسه علمًا ولا بالسماء، وهو يرى جوهرها ثم زاد ذكر غلبة عزته وجلاله واشتمال أنوار هيبة ذاته وصفاته على كل ذرة من العرش إلى الثرى بقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ افهم يا صاحب العلم أنه سبحانه ذكر الوجوه، وفي العرف: «صاحب الوجه من كان وجيهًا عند كل ذي وجاهة»؛ فالأنبياء والمرسلون والأولياء والمقربون في الحقيقة هم أصحاب الوجوه، وكيف أنت بوجوه حور العين ووجه كل ذي حسن وحسن فوجوه الجمهور مع حسنها وجلالها، المستفاد من حسن الله، وإن كانوا جميعًا مثل يوسف تلاشت وخرت وخضعت عند كشف نقاب وجهه الكريم وظهور جلاله وجماله القديم.

وقال سهل: خضعت له بقدر معرفتها به وتمكين التوفيق منه.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ عن الله سبحانه وتعالى إبصار سر نبيه وحبيبه، وكشف لها بحار علومه الأزلية وعرفه مكان قصور علمه فيها فأمره باستزاده، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قال محمد بن الفضل: «رب زدني علمًا» نفسي وما تضمره من الشرور والمكر والغدر لأقوم بمعونة في مداواة كل شيء منها تداويها، ثم أخبر سبحانه عن لسان آدم صورة الأمر من غلبة سطوة إرادته بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ إن الله سبحانه قدر قبل الكون وقبل آدم أن آدم مصطفى مجتبى بالرسالة والنبوة وعلم الأسماء والجلال والكمال وأنه يعرف الله بطريق كل اسم من أسمائه ونعت من نعوته، ونعت قهر جبروته، فجر آدم

باسمه إلى نعته ومن نعته إلى صفته، ومن صفته إلى رؤية ذاته فألبس نور بهائه الشجرة المنهية وأراه ذلك النور والبهاء الرباني، ثم أمره بالاجتناب عنها وألقي في قلبه محبة قربها؛ لأنها مرآة جلاله يتجلى لآدم منها فغلبت المحبة على الأمر وسلبته لطائف هذا الجمال فوقع في هيجان شوقها وغمار لذة بهاء مشاهدتها فترك صورة الأمر لشوق جمال الأمر ووقع في بحر القهر بغير مبالاته على العهد؛ لأن عهد الأزل باصطفائيته سابق عهد الأمر فمن رؤيته عهد الأزل ترك عهد الأمر فاجترأ لعلمه بمكانته بوصف الاصطفائية عند الحق وقبوله؛ لأن بعد القبول الأزلي لا يؤثر فيه مباشرة المعصية، وقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ لم يجد الحق في قلب آدم عزم متابعة أمر الظاهر عند العهد؛ لأن في قلبه رؤية ما يتولد من أكل الشجرة من خروج عرائس المقدرات الغيبية من مكمن القدم، يا عاقل فديت لنقض عهده الذي بسببه بدا إعلام دولة المرسلين والنبيين والصديقين وحقيقة عهد الله مع آدم ألا يسكن بشيء دونه، وإن كان وسيلة إلى قربه ومشاهدته فلما ارتهن في طريق الوصول بوسيلة وقع العصيان عليه لما لم يسلك في طلب الحقيقة بنعت التجريد وإسقاط الوسائط قال ابن عطاء: عهدنا إلى آدم ألا لا تطالع معي سواي فنسى عهدي وطالع الجنان.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ أي: لم يطالع سره، ولكن طالعه بعينه فنادى عليه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

وقال الواسطي: ونسي ولم نجد له عزمًا أي: قوة على ضبط نفسه، وإن كان الواجب أن ارتكاب المباشرة أوجب زوال النسيان فإن غيبته عن شاهده ليريه شواهد عبوديته تنبيهًا وتزيينًا وقال أيضًا: ﴿فَنَسِيَ﴾ وجهان أي: جهل قدر عهده وفرق بين من نسي بالحضرة وبين من نسى في الغيبة، لذلك قال النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»[1].

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ خاف آدم في سره قبل دخول الجنة أن ينقطع عن لذائذ مشاهدته ووصاله في الجنة وأن يحتجب عن روح الأنس والنظر إلى جمال

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٦/ ٢١٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢١٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٨٤).

القدس، وأن يعرى عن ثوب عافية الرعاية والكفاية باشتغاله عنه بالجنة، وهذا قرع سر القدم باب سر سره بأن ما يخاف عنه يقع فيه في ظاهر العلم، فأخبره سبحانه ﴿لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾ في شوقك إلى مشاهدتنا؛ لأن هناك تستغرق في بحر وصالنا ولا تعرى عن لباس أنوار الاصطفائية؛ فإنك ملبس أبدا بكسوة الاجتبائية، وأنت في ظل عنايتنا لا تعطش إلى مياه الزلفة؛ فإنك تكون في الوصلة، ولا تضحى لا تحترق في حر شمس الفراق، فلما وقع عليه واقعة الامتحان من القدر السابق صار عريانـًا في الجنة عما دون الله، وذلك أنه سبحانه جرب صفيه بالجنة، وأجرى عليه شهوة الحنطة، فلما رآه في حجاب الامتحان جرده عن الجنان وأفرده عن الأكوان والحدثان غيرة على سر ما في قلبه: وفيه إشارة أخرى كأنه أشار بالسرِّ أي: لا تأكل الشجرة المنهية كيلا تجوع ولا تعرى؛ فإن من خالفنا وقع في بحر الحجاب وعرى عن ستر المآب.

قال ابن عطاء: آخر أحوال الخلق الرجوع إلى ما يليق بهم من المطعم والمشرب، ألا ترى إلى آدم بعد خصوصية الخلقة باليد، ونفخ روحه الخاص، وسجود الملائكة كيف رد لي نقص الطبائع بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾.

قال الواسطي: خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، واصطفاه على الخلائق، ثم رده إلى قدره لئلا يعدو طوره قال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ وما تعرض لي في حكم الظاهر أن الله سبحانه قال لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ أي: لو تخرجا من الجنة بسبب المعصية تتعبا في الدنيا لأجل المطعم والمشرب والملبس في الحراثة، وغيرها في الدنيا وتعرى وتظمأ وتضحى، ولا يكون مثل هذه العقوبات في جنبي وجواري، كأنه خاطب معه من حيث الطبيعة خوف نفسه بالجوع والعرى والظمأ في الهواجر؛ لأن النفس لا تفزع إلا من مثل هذه العقوبات لئلا تقع في جوار الحق في المعصية، وإن من لطفه وكرمه عاقب آدم في الدنيا بالمجاهدات الكبيرة بما جرى عليه من المعصية في الحضرة ويعاقب المجهود في الآخرة بما جرى عليهم من المعصية في الدنيا وهذا خاصية له؛ لأن عقوبة الدنيا أهون، ولولا امتحان الله آدم بأكل الشجرة، ومثل هذا الخطاب لم يخرج آدم من الجنة، ولم يظهر أسرار علوم حقائق قهرمانه لأهل المعارف من الصديقين، ولم يقع عنده عذر المذنبين فخاطبه من حيث العبودية والحدوثية ولو خاطبه من حيث الربوبية لطار في الجنة في هواء الهوية، ولم ير أثره في الزمان والمكان، ولا في الجنان والحدثان.

سئل ابن عطاء عن قصة آدم: إن الله ﷻ نادى عليه بمعصية واحدة وستر على كثيرين من ذريته؛ فقال: إن معصية آدم كانت في بساط القربة في جواره، ومعصية ذريته في دار المحنة،

فزلته أكبر وأعظم من زلتهم، ولما أراد الله أن يخرج من ذريته الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين ابتلاه بأكل الشجرة فقفاه الشيطان حتى يوسوس، وهذا سر القدر الغيبي كأنه يوسوسه القدر، قال: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ أجرى الله هذه الكلمة الغيبية على لسان الشيطان، وهو بذلك مغرور ظن أنه أوقع آدم في تيه الفرقة الأبدية، ولم يعلم أن ذلك سبب الوصلة الأبدية، وأنها شجرة الخلد بالحقيقة؛ لأن الشجرة ملبسة بأنوار السلطانية حاملة بأسرار الربانية ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ أسرارهما التي انكشفت لهما من الغيب بعد أكل الشجرة، ولم يبد تعبيرها؛ فلما حازا الأسرار الألوهية خرجا من تحت موت الجهل، وبلغا إلى ملك لا يبلى، وذلك الملك الوقوف بالعلم الإلهي على أسرار قدر الآزال والآباد دلهما الشيطان إلى هذه المعالم والمعادن الغيبية، وهو معزول عنها مثله مثل حية تمشي على وجه الأرض إلى رأس كنز، وخلفه إنسان ليقتلها فلما ضربها ظهر تحت ضربه كنز فصار الكنز له، وصارت الحية مقتولة، وبلغ إلى الأمرين العظيمين البلوغ إلى المأمول والفلاح من العدو، فهكذا شأن آدم عليه السلام مع الملعون دله إلى كنز من كنوز الربوبية غرضه العداوة والضلالة فوصل آدم إلى الاجتبائية الأبدية بعد الاصطفائية الأزلية وبلغ الملعون إلى اللعنة الأزلية الأبدية.

قال الخضرمي: بدت لهما، ولم تبد بغيرهما لئلا يعلم الأغيار من مكافأة الجناية ما علما ولو بد للأغيار، لقال: بدت منهما ثم ذكر سبحانه تغيير آدم بالظاهر، وأخفى تلك الأسرار في الباطن قال: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ عصيان آدم الرجوع من الأصل إلى الفرع ومن مكاشفة إلى الجنة، والميل من طريق الأمر إلى طريق النهي، ولو سلك طريق الأمر ليكشف الحق سبحانه ما كان في الشجرة بغير عصيان؛ لأن في بساتين غيبه مائة ألف ألف شجرة غيبية مملوءة حاملة من علوم الأسرار، ولكن سلبته صولة المحبة، وتعجيل الاشتياق أكل من شجر القدم، وصار سكران في وادي الأزل يكشف علم الأزل له فطلع على الجنان، وكاد يفشي سر السر وغيب الغيب، ويشوش أحوال الجنانين؛ فأخرجه الحق إلى حبس الدنيا، وحبس لسانه عن إفشاء سر القدم والبقاء؛ فكان اصطفائيته الأزلية مصحوبة زلته، فاستهلكت الزلة في الاصطفائية، وزاد عليها اجتبائيته الأبدية التي لا تغيرها حوادث الدهور.

قال ابن عطاء: اسم العصيان مذمة إلا أن الاجتباء والاصطفاء منعا أن يلحق آدم اسم المذمة بحال.

قال جعفر: طالع الجنان ونعيمها بعينه فنودي عليه إلى القيامة، وعصى آدم، ولو

طالعها بقلبها لنودي عليه بالهجران أبد الأبد، ثم عطف عليه فرحمه بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ فلما غرق في بحر الامتحان والحجاب عن الجنان فاطلع على قلبه الرحمن، ولم ير إلا الشوق إلى لقاء الرحمن أظهر نفسه له في منازل الفرقة بوصف الوصلة، بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ زاد الاجتبائية على الاصطفائية وتاب الحق على صفيه؛ لأن القديم لا يلحقه الحدث، وإن اجتهد فأين يطلبه، ولا أين فأقبل عليه الحق بنعت كشف جلاله هو لم يزل مقبلاً عليه بنعت العناية والاصطفائية، ويرجع إليه بحسن الإقبال، وكشف الجمال، وهُدي إلى طريق الوصال الذي لا تفرق فيه بعد ذلك أبدا بقوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ هدي منه إليه.

قال الواسطي: العصيان لا يؤثر في الاجتبائية، وقوله: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ ﴾ أي: أظهر خلافًا ثم أدركته الاجتبائية؛ فأزالت عنه مذمة العصيان ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾، وكيف يعزم على المخالفة من هو في سر العصمة وخصوصية الاجتباء والاصطفاء.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ أي: من تبع خطابي وإلهامي فلا يضل عن طريق السنة ولا يشقى عن المتابعة.

قال سهل: هو الاقتداء وملازمة الكتاب والسنة لا يضل عن طريق الهدى، ولا يشقى في الآخرة والأولى ثم بيّن أن من أعرض عن طريق الإلهام والذكر ومتابعة السنة وقع في ضنك عيش الفرقة بقوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: من اشتغل بذكر غيري احتجب عن أنوار ذكري، ومن كان محجوبًا عن أنوار الذكر كان محجوبًا عن أنوار مشاهدة المذكور، وله حياة غير طيبة ويرزق غير هني، وأي عيش أضيق من عيش من كان

محجوبًا عن وصال الحق؟! ومن أقبل إلى الله أقبل الله إليه، ومن أقبل الله إليه أقبل إليه كل شيء بالخدمة والمتابعة، قيل: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه حاله.

وقال جعفر: لو عرفوني ما أعرضوا عني ومن أعرض عني رددته إلى الإقبال على ما يليق به من الأجناس والأكوان، وقيل: قلة الصبر مع الذاكرين.

وقيل: ضيق الصدر على مداومة الطاعات، ثم زاد عليه ضنك معيشة الآخرة بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ يعني: جاهلاً بوجود الحق كما كان جاهلاً في الدنيا كما قال علي بن أبي طالب: «من لم يعرف الله في الدنيا لا يعرفه في الآخرة، وقيل: عن رؤية أوليائه وأصفيائه».

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: إذا كنت متعرضًا لمشاهدة جلالنا؛ فاذكر آلاءنا ونعماءنا عليك بما عرفك خزائن جود الألوهية وعلوم الربوبية، ونـزه بذكرك صفاتنا حتى تكون مقدسًا بذكرنا عن رؤية غيرنا، فإذا تقدست بنا عن أوصافك تطلع عليك شمس جمالنا، وينكشف لك أنوار وصالنا، فإذا حان أن تغيب عنك حالك ففر بنعت القدس والطهارة عن لذة حالك إلينا حتى تبقى عليك آثار أنوار شمس عزتنا، وإذا كنت غائبًا بشريعتنا في آناء ليل الامتحان قف على باب ربوبيتنا بنعت التنـزيه والتفريد، واذكر شمائل متنا عليك نـزيد عليك كشف الصمدانية وبروز أنوار الوحدانية، لعلك تصل إلى مقام المحمود من حيث دنو الدنو الذي لا يبقى بيني وبينك بين ولا بون ولا غير ولا حجاب، ترضى برؤيتي عن رؤية كل خلق ثم حذره عن النظر إلى زينة الكون بنظر الاستحسان؛ لئلا يشتغل بشيء دونه لحظة بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أن الله سبحانه ألبس الكون أنوار بهائه

فصرف نظر نبيه عن ذلك حتى ينظر إليه صرفًا بلا واسطة.

ألا ترى إلى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [الفرقان:٤٥]، ولا أن روحه كان عاشقًا بالله مستأنسًا بكل شيء مليح، وبأن نظره أعظم من أن ينظر به إلى شيء دون الله.

قال الواسطي: هذه تسلية للفقراء وتعزية لهم حيث منع خير الخلق عن النظر إلى الدنيا على وجه الاستحسان ثم بيّن أن ما له من المكاشفة والمشاهدة والقربة والرسالة بلا واسطة خير مما كان له في رؤية الكون بقوله: ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ رزقه وصاله وكشف جماله ثم أمره بالعبودية وملازمة الطاعة بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، الاصطبار مقام المجاهدة، والصبر مقام المشاهدة(١).

قال ابن عطاء: أشد أنواع الصبر الاصطبار، وهو السكون تحت موارد البلاء بالسر والقلب والنفس والصبر بالنفس لا غير.

وقال الجنيد: أي: وأمر أهلك بالاتصال بنا، والاصطبار على تلك المواصلة معناه: ومن يطيق ذلك إلا المؤيدون من جهتنا بأنواع التأييد.

قال يحيى بن معاذ: للعابدين أردية يكسونها من عند الله سداها الصلاة ولحمتها الصوم ثم بيّن أن عواقب السعادة مقرونة بالتقوى بقوله: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ التقوى الخروج مما دون الله والحياء في إجلال الله.

قال أبو عثمان: هو ذم النفس والجوارح عن جميع ما يقبحه العلم.

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن
رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي
يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ

(١) قال الحرالي. ويصح أن يراد بها الدعاء، فمن صبر عن الدنايا وعلى المكاره وأنهى صبره إلى الصوم فأزال عنه كدورات حب الدنيا وأضاف إلى ذلك الصلاة استنار قلبه بأنواع المعارف، فإذا ضم إلى ذلك الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بلغ نهاية البر. نظم الدرر (١/٨٥).

بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ إن الله سبحانه حذَّر الجمهور من مناقشته في الحساب، وزجرهم حتى ينتبهوا عن رقاد الغفلات وترك الحساب أقرب من كل شيء منهم لو يعلمون، فإنه تعالى يحاسب العباد في كل لمحة ونفس، وحسابه أدق من الشعر وأخفى من دبيب النمل على الصفا، ولا يعرف ذلك إلا المراقبون الذين يحاسبون أنفسهم في كل نفس وخطرة وهم في غفلة في حجاب عن مشاهدة الله معرضون عن طاعته إذ لا حظ لهم في الطاعات، ولا شرب لهم في المشاهدات ويا غافلاً لو تدري حلاوة حساب الله ودقائق تعريفه مكان السهو والغلط تحاسب نفسك في كل نفس، ما أحلى خطابه وإلهامه في تعبير العارفين، ما أطيب مسامرته مع الصديقين في مؤاخذته دقائق الخطرات كأن بطون علم المجهول قد أشارت إلى أن هذا حركة جرسات الوصلة ولمعات أنوار القربة، كما قيل:

ويبقى الودُّ ما بقي العِتَاب

وقال بعضهم: دنا أوان الانتباه، وهم في غفلتهم معرضون عن طريق التوبة والعظة والانتباه.

قال بعضهم: قرب أوان اللقاء وهم في غفلة عن استصلاح أنفسهم لتلك الحضرة، ثم وصف سبحانه القلوب الغافلة بقوله: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ساهية عن الذكر وحقائقه ولذته، شاغلة بحظوظ نفسها محجوبة عن لقاء خالقها.

قال ابن عطاء: معرضة عن طريق رشدهم.

وقال بعضهم: غافلة عن مسالك اليقين وطريق المتقين.

قال الواسطي: لاهية عن المصادر والموارد والمبدأ والمنتهى.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾ أي: فاسألوا أهل شهود جمال المذكور القديم بنعت صفاء الذكر في قلوبهم من مشرق نور مشاهدته، وهم الذين مخاطبون من الله بكل سر وكل حقيقة من علوم الغيبية الأزلية.

قال سهل: فاسألوا أهل الفهوم عن الله والعلماء به وبأوامره ونواهيه.

قال الجنيد: أهل الذكر العالمون بحقائق العلوم ومجاري الأمور، والناظرون إلى الأحكام بأعين الغيب.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ (١) أي: ذكر مناقبكم من حيث الأرواح القدسية والأشباح الإنسية والعقول الملكوتية والأسرار الجبروتية والنفوس الهوائية، وهذه المراتب الجامعة لا تحصل إلا لآدم وذريته، وفيه بيان خبر الأزل بكرامتكم وخيريتكم على البرية، أين أنتم من معرفة نفوسكم لا تعقلون شرف نسبتكم في معرفتي ووصولكم إلى بعنايتي الأزلية.

قال سهل: العمل بما فيه حياتكم.

قال الأستاذ: أي: شرفكم وفخركم؛ فمن استبصر بما فيه من النور سعد في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ كم قلب خرب عمران بنور ذكر الله بظلم الطبيعة ومباشرة الشهوة والدعاوي الباطلة، والنظر إلى الأغيار، وصار محجوبًا بها عن مشاهدة الأنوار وحقائق الأسرار.

وقال أبو بكر الوراق: في ظلم خراب العمران كما قال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»(٢).

إذا أظلم القلب عن المعرفة والإخلاص خرب، وعلامة خراب القلب عصيان الجوارح وتعديها وميلها إلى ما فيه هلاكها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ

---

(١) أي: طوال الدهر بالخير إن أطعتم ، والشر إن عصيتم ، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل ، وتكثرون فيه القال والقيل. نظم الدرر (٥ / ٢٩٠).

(٢) رواه البخاري (٢٣١٥)، ومسلم (٢٥٧٨).

كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ أخبر سبحانه عن الطبيعة الإنسانية التي هي منابت مخاتيل الشيطانية، وحنظلات الهواجس النفسانية، فإذا صارت مجموعة بأباطيل شهواتها، وظلمات هواها أشرقت شموس مشاهدة الجلال والجمال من روازن الملكوت للقلب المستعد لشهود مشاهد القربة، فتدلت منه، وتجلت له حتى لا يبقى من ظلمات الطبيعة أثر، فإذا صار بدر الجمال مستقيًا في سقف سماء القلوب، وأضاء بأنوار الغيوب اضمحلت سجود ليالي النفوس، وانهدمت قيام أباطيل الشياطين.

وقال الواسطي: الوعظ للأكابر، ومنهم من له مشار مقذوف كقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾.

قال الأستاذ: يدخل نهار التحقيق على ليالي الأوهام، فينقشع سحاب الغيبة، ويتجلى ضباب الأوهام، ويبرز شمس اليقين عن خفاء الظنون، ويصحو سماء الحقائق عن كل غبار الشبه ساطعًا.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ فيه إشارة إلى إفراد القدم عن الحدوث وتنزيه الأزلية والأبدية عن العلة، كأنه دعا العارفين إلى رؤية الفردانية بنعت الانفراد عن الحدثان.

قال الساري: حثك في هذه الآية على الرجوع إليه والاعتماد عليه، وقطع العلائق والأسباب عن قلبك.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قطع لسان الحدثان بمقراض هيبة الرحمن عن الانبساط في وقت كشوف عظمة الجبروت وشهود جلال الملكوت يفعل الخبير ما يشاء، وليس لهم هناك لهجة سؤال، ولا لهم حجة مقال إذ لا وسمة على فعاله وعزة كماله، وهم معاتبون عما فعلوا؛ لأن أفعالهم وقعت ناقصة عن سنن نظام سنة الأزلية بمشيئة القدمية.

سئل ابن حماد المصري عن قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لم لا يسأل؟ قال: لأن أفعاله من غير علة.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ عزة سرمديته قطع لسان المسبحين من الكروبيين عن حقيقة الثناء ووقعت الاستحالة أن يحيط بجلال قدمه قول كل قائل، ووصف كل واصف ولا يطيقون أن يقولوا شيئًا من تلقاء نفوسهم أو يفعلوا شيئًا بإرادتهم، بل هم في قبضة عزته أذلاء تحت جلال جبروته يتبعون أمره كما أراد منهم.

قال القاسم: لا يسبقونه قصدًا ولا فعلاً؛ لأنهم مربوطون بما ذكرهم مقموعون بما عرفهم لئلا يفتري عليه أحد ثم وصف لهؤلاء الكرام بالخشية منه والشفقة عنه بقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: هم من معرفة جلال قهره خائفون من فرقته يعلمهم بأنه منزه عن وجودهم وعدمهم، وهذه الخشية حقيقة العلم بالله يتولد منها الخوف والحياء والتعظيم والإجلال.

قال الواسطي: الخوف للجهّال، والخشية للعلماء، والرهبة للأنبياء، وقد ذكر الله الملائكة وقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ذكر النفوس لا القلوب ولا الأرواح؛ لأنها باقية يتجلى حياة الحق لها فإذا انسلخت الأرواح من الأشباح انهدمت جنابذ[1] الهياكل، ورجعت الأرواح على معادن الغيب لشهودها مشاهدة الرب.

قال الجنيد: من كان بين طرفي فناء فهو فانٍ.

وقال أيضًا: من كان حياته بنفسه يكون مماته بذهاب روحه، ومن كان حياته بربه فإنه ينقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل، وهي الحياة على حقيقة، وافهم أن الموت بالحقيقة موت الفراق وفوت الوصال، كما قيل: «الفوت أشد من الموت، والموت موت الجهل، والحياة حياة العلم»، والموت عبارة عن الفناء والحدثان، وإن كان موجودًا؛ فهو بالحقيقة فانٍ؛ لأن حقيقة البقاء لا تقع عليه؛ لأنه محدث والمحدث لا يستحق له حقيقة البقاء إذ بقاؤه بالحق لا بنفسه، والموت قهر غيرة الأزلي يطري بالحدثان يدمر وجودها حتى لا يبقى اسم المرسومات ونعت الموجودات في ظهور الذات والصفات، ثم ذكر ابتلاء الخلق بالخير والشر بقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ بالقهر واللطف والفراق والوصال والإقبال والإدبار والمحنة والعافية والجهل والعلم والنكرة والمعرفة.

قال سهل: نبلوكم بالشر، وهو متابعة النفس في الهوى بغير هدى، والخير العصمة من المعصية والمعونة على الطاعة.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ هذا والله أمر عجيب خلقهم من العجلة وزجرهم عن التعجيل إظهارًا لقاهريته على كل مخلوق وعجزهم عن الخروج من ملكه وسلطانه وحقيقة العجلة يتولد من الجهل برؤية المقاصد السابقة.

---

(١) الجُنْبُذَة: القُبَّة، عن ابن الأعرابي، وفي الحديث في صفة الجنة: «وسطها جنابذ من ذهب وفضة يسكنها قوم من أهل الجنة كالأعراب في البادية». حكى ذلك الهروي في الغريبين (بتحقيقنا).

قال الواسطي في قوله: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ قال: لا يستعجلون إظهارًا لعجزهم وتعريفًا لقدره.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أظهر الحق سبحانه جلال عظمته يوم القيامة؛ فلما رأوا سطوات عظمته تلاشوا في جلال هيبته، وكيف يقوم الحدثان عند ظهور جلال الرحمن حيث يتجلى لها بوصف العزة والعظمة والكبرياء، وأهل شهود القدم على نعت السرمدية لا يفزعون من طريان أفعاله وجريان قهره ولطفه؛ لأنها امتحانات عارية لا يفزع عنها إلا كل مشغول عنه.

قال بعضهم: من يبهته شيء من الكون؛ فهو لمحله عنده وغفلته عن مكنونه، ومن كان في قبضة الحق وحضرته لا يبهته شيء؛ لأنه قد حصل في محل الهيبة من منازل القدس.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أخبر عن كمال إحاطته بكل مخلوق وتنزيهه عن العجلة بمؤاخذتهم أي: أنا بذاتي تعاليت أدفع بلطفي القديم عنكم قهر القديم، ولولا فضلي السابق، وعنايتي القديمة بالرحمة عليكم من يدفعه بالعلة الحدثانية، وهذا من كمال لطفي عليكم، وأنتم بعد معرضون عني يا أهل الجفاء، وذلك ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ

رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قال الواسطي: أي: من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن، أي: يظهر عليكم ما سبق فيكم ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾، أي: ذكرهم إياه في الأزلية بالنجاة والهلاك.

قال ابن عطاء: من يكلؤكم من أمر الرحمن سوى الرحمن، وهل يقدر أحد على الكلاءة سواه.

قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إن الله موازين عدله القديم لا تتغير بتغير الحدثان ولا برسوم الزمان والمكان، وكل ميزان له موضع ومقام فمنها للعاشقين، ومنها للعارفين ومنها للمحبين، ومنها للمشتاقين، ومنها للمستأنسين، ومنها للخاضعين، ومنها للأواهين من غلبة قهر المواجيد، ومنها للواجدين، ومنها للعالمين، ومنها للباكين عليه منه فيزن بها معالي هممهم ومقادير محنهم في زمان هجرانه وأوان امتحانه فيبقيهم بجلال قدره ما لا يحصى عدده من قرب مشاهدته وحسن وصاله فيفتح لهم خزائن وجود الأزل، وله ميزان للعارفين يزن أنفاسهم به يضع نفسًا من أنفاسهم المعجونة بنفس صبح روح الأزل في كفه، ويضع جميع الجنان في أخرى، فيرجح ما فيه نفس العارف بحيث لا يبقى في جنبه الحدثان؛ لأنه خرج من غيب الرحمن منورًا بنوره.

قال القاسم: الأعمال والموازين شتى، والعدل ميزان الله في الأرض؛ فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان العدل؛ فهو من المحبين، ومن وزن خطراته وأنفاسه بميزان العدل؛ فهو من العارفين.

وميزان العدل في الدنيا ثلاثة: ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسر؛ فميزان النفس والروح الأمر والنهي، وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان القلب والعقل الإيمان والتوحيد وكفتاه الثواب والعقاب وميزان المعرفة والسر الرضا والسخط، وكفتاه الهرب والطلب؛ فمن وزن أفعال النفس والروح بميزان الأمر والنهي بكفة الكتاب والسنة، ينال الدرجات في الجنان، ومن وزن حركات القلب والعقل بميزان الثواب والعقاب بكفة الوعد والوعيد أصاب الدرجات ونجا من جميع المشقات ومن وزن خطرات المعرفة والسر بميزان الرضا والسخط بكفة الهرب والطلب نجا من الذي هرب، ووصل إلى ما طلب فيصير عيشه في الدنيا على الهرب، وخروجه منها على الطلب وعاقبته إلى غاية الطرب؛ فمن أراد الوصول إلى المسبب فعليه بالهرب من السبب؛ فإن السبب حجاب كل طالب.

﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ كلام الله سبحانه في نفسه مبارك وإن لم يسمعه الجاهل، ولكن مبارك على من يسمعه بأسماع المحبة والشوق إلى لقاء المتكلم القديم

ويعمل بمضمونه، ويعرف إشارته ويجد حلاوته في قلبه، فإذا كان كذلك يبلغه بركته إلى مشاهدة معدنه، وهو رؤية الذات القديم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ ﴾[القصص:٨٥].

قال ابن عطاء: مبارك على من يسمعه، مبارك على من يتعظ به، مبارك على من ينزل بهمته وقلبه عليه، مبارك على من آمن به وصدق بها فيه ومن لم ير على سره وقلبه ونفسه آثار بركات القرآن؛ فليعلم ببعده عن مصدر الخواص ودخوله في ميادين العوام من الأشقياء.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ هذا خبر اصطفائية الخليل في الأزل بخلته ورسالته قبل إيجاده وإيجاد الكون وما فيه فإذا أوجد وجه من العدم كاشف لها جمال العدم وعرفها نفسه بنعت إعلامه أسماءه ونعوته وأسرار صفاته فعرفت الله بالله وعرفت سبل شهود الصفات ومشاهدة الذات، فلما التبست بصورته جاءت بعقل القدسي من الملكوت والعلم الإشاراتي من عالم الجبروت؛ فتعرف القلب طرق المحبة والخلة وتعرف النفس طرق الطاعة والخدمة، فلما أخرجه الحق من مجال أنسه ألبسه أنوار قدسه فنظر بالعين المكحولة بنور المعرفة إلى عالم الكون، ورأى عجائب الملك وغرائب المملكة فأرادت نفسه أن يسكن إلى الدليل عن المدلول من حيث لها منه لذة مشاهدة اصطناع المالك القديم فغلبت عليها روحه الملكوتية وأغارت ما دون الحق عن ساحة كبريائه بقوله: ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا

تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود:٥٤].

سئل الجنيد: متى أتاه رشده؟ فقال: حين أتاه.

وقال أيضًا: آثار سوابق الأزل وإظهاره كما أظهر على الخليل في السخاء والبذل والأخلاق في بذل النفس والولد والمال في رضا الحق؛ فلا يشتغل إلا به ولا يفرح إلا عليه ولا يلتفت إلا إليه، فقال الله: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾، ويقال: ذلك ما أضاء عليه من أنوار التوحيد قبل ما حصل منه من النظر في المخلوق، ويقال: هو مكاشفة روحه قبل إيداعها قالبه من تجلي الحقيقة(١).

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ﴾ طلب الحاجة من المحتاج وهن في المعرفة وشين في الحقيقة والمحقق في المعرفة يعرف الأشياء بالله بأنها مجاري أقدار الأزل، ولا تقوم بذاتها بل تصاغرت في قبضة تصرف جلاله، ومن كان همته بهذه الصفة كيف يعتمد من الخالق إلى المخلوق.

قال حمدون القصار: استعانة الخلق بالخلق كاستعانة المسجون باستعانة المسجون.

﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ

---

(١) أي صلاحه وإصابته وجه الأمر واهتداءه إلى عين الصواب وأدل الدلالة وأعرف العرف وأشرف القصد الذي جلبناه عليه؛ وقال الرازي في اللوامع: والرشد قوة بعد الهداية – انتهى.

سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ كان الخليل منورًا بنور الله وكان النار من فعل الله؛ فغلب نور الصفة على نار الفعل، ولو بقيت النار حتى وصل الخليل صارت مضمحلة، فعلم الحق ذلك فقال: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ حتى تبقى لظهور معجزته وبيان كراماته، وفي الإشارة لنا إشرة، وفي إشارتنا سر أن الخليل طالب خليله في مرآة مشاهدة الشمس والقمر والنجوم وأراه الله مطلوبه من وسط النار كما أرى موسى من وسط النار، والشجرة كأن نيران الكبرياء تكاد بصولة القدم أن تفنى وتحرق إبراهيم، فقال سبحانه بنفسه مع نفسه لنفسه: ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ فأسلمه من قهر نفسه بلطف نفسه.

قال ابن عطاء: سلم إبراهيم من النار بسلامة صدره، ولما حكى الله عنه بقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصفات:٨٤] خال من جميع الأسباب والعوارض ويرد عليه النار لصحة توكله ويقينه وثقته حيث ناداه جبريل ألك بي حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ بين سبحانه أن الفضل معلق بفضله، لا يتعلق بالصغر والكبر والشيخوخية والاكتساب والتعلم، إنما الفهم تعريف الله تسيل أحكام ربوبيته بنور هدايته، وإبراز لطائف علومه الغيبية؛ فحيث يظهر ذلك فهناك مواضع الفهوم والعلوم، فهو سبحانه مَنَّ على سليمان بعلمه، ولم يمن عليه بشيء خارج من نفسه من الملك والحدثان، فإن العلم صفة من صفاته، فلما جعله متصفًا بصفاته مَنَّ عليه بجلال كبريائه.

قال الجنيد: أفهم الله سليمان مسألة من العلم فمنَّ عليه بذلك، وأعطاه الملك فلم يمن عليه، وقال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾.

قال الواسطي: في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ بسلامته عن شواهد اللذات في الطاعات.

قال أبو بكر: لبره بأبيه ثم بيَّن فضل أبيه داود بما أعطاه من الحكمة والعلم والشرف

والفضل، وإن شذَّ عنه فهم تلك المسألة فأراه الله ما مَنَّ على سليمان ليكون قرة عينه بقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ معرفة بالربوبية وعلمًا بالعبودية.

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾.

لما أخبر الله سبحانه أيوب عليه السلام أنه حان وقت خروجه من البلاء علم أيوب أن ما رأى من رؤية المبلي في بلائه يكون منقطعًا عنه إذا انقطع البلاء قال: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ إذ فات عني مشاهدتك في بلائي، وأيضًا إذا كان مبتلى كان في محل رؤية قهر القدم الذي شاهده الحق بوصف جلاله وجماله تربية بقهره لعرفانه، وجميع صفاته بطريق القهر واللطف؛ فلما انهزم عساكر قهر سلطانه من جنود ألطاف ألوهية خاف أن يفوت ما حصل له من رؤية القهر ومباشرته، قال: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾، ولأنه ادعى الصبر فجربه الحق بالبلاء فإذا خرج من مكائده طوفان قهر القدم وجد نفسه خارجًا من مقابلة بلائه الذي هو دأب فتيان الحضرة؛ فقال: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾، وأيضًا مقام العافية حظ العاشق من المعشوق، والبلاء حظ المعشوق من العاشق، فلما انعزل من حظ معشوقه عنه وبقي مع حظه منه قال: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾، وأيضًا البلاء مقام الفناء في القدم والعافية مقام البقاء والعارف الصادق يؤثر فناء نفسه على بقائه؛ لأن تنزيه القدم يقتضي فناء الغير فمن حجة كونه في مشاهدة الحق قال: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ كون وجودي في وجودك؛ لأن حق الغيرة في الوحدانية لا يقتضي كون الوجود في وجود الحق، وأيضًا كان روحه من مقام الأنس صدرت فطار صورته شبيه روحه باللطافة، وهو كان في هواء الأنس طيارًا، وفي ميادين الحسن والجمال سيارًا، فلما لحقه البلاء صار في البلاء وثقله ومرارته محجوبًا عن لذة الأنس به؛ فقال الله:

﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾، ويا فهم العارف الصادق إذا كان متحققًا في معرفته فشكواه حقيقة الانبساط، ومناداته تحقيق المناجاة وأنينه في بلاء حبيبه حقيقة المباهاة، وفيما ذكرنا أنشدت يومًا في حق بلاء عشي في أيام امتحاني وشوقي إلى أيام وصالي ورؤية منابي فقلت:

هوائـــي يـــا مـــنابي فـــي لقـــاك وعيـــشي يـــا رجائـــي في هـــواك

نـــزلت حظـــوظ نفـــسي مـــن حـــياتي وآثـــرت المـــمات بـــأن أراكـــا

وجـــدت صـــفاء قلبـــي في همومـــي إذا كانـــت همومـــي في رضـــاكا
لقـــد طالـــت بلايـــا في بلائـــي بلائـــي يـــا بلائـــي مـــن بلاكـــا

وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ أنه جاء إليه رجل؛ فسأله عن قول أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ فبكى النبي ﷺ ثم قال: «والذي بعثني بالحق نبيًّا ما شكا فقرًا نـزل من ربه، ولكن كان في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات؛ فلما كان في بعض الساعات، وثب ليصلي قائمًا، فلم يطق للنهوض، فجلس ثم قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ثم قال النبي ﷺ: «أكل الدود سائر جسده حتى بقي عظامًا نخرة، فكادت الشمس تطلع من قُبله وتخرج من دُبره»، ثم قال النبي ﷺ: «ما بقي إلا قلبه ولسانه، وكان قلبه لا يخلق من ذكر الله ولسانه لا يخلق من ثنائه على ربه؛ فلما أحب الله له الفرج بعث إليه الدودتين، إحداهما إلى لسانه، والأخرى إلى قلبه، فقال: يا رب ما بقي إلا هاتان الجارحتان قلبي ولساني أذكرك بهما، وقد أقبلت هاتان الدودتان أحدهما إلى قلبي والأخرى إلى لساني، وتشغلاني عنك، وتطلعان على سري ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1].

وقال الحسين بن علي ﷺ: ذكر الله على الصفاء ينسي العبد مرارة البلاء.

وقال جعفر: خرج منه هذا القول على المناجاة مستدعيًّا للجواب من الحق ليسكن إليه لا على حد الشكوى.

قال بعضهم: كان أيوب قائمًا مع الحق في حال الوجد؛ فلما أن كشف عنه البلاء وأظهره، وكشف ما به قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقال الجنيد: عمل الدود في جسده فصبر، فلما قصدوا قلبه غار عليه؛ لأنه موضع المعرفة ومعدن التوحيد ومأوى النبوة والولاية، وقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ افتقار إلى الله مع ملازمة آداب النبوة.

وقال ابن خفيف: كان أيوب مستترًا بحال الصبر عن البلاء، فلما أراد إظهاره للخلق ضج، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

قال أبو علي المغازلي: أوحى الله إلى أيوب في حال بلائه: يا أيوب إن هذا البلاء قد اختاره سبعون نبيًّا قبلك، فما اخترته إلا لك، فلما أراد الله كشفه عنه، قال: ﴿إني مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

---

(١) ذكره ابن عجيبة في تفسيره (٤/ ١٠٦).

قال الحسين: تجلى الحق لسره وكشف له أنوار كرامته، فلم يجد للبلاء ألمًا، قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ لفقدان ثواب البلاء والضر إذا صار البلاء لي وطنًا وعليّ نعمة.

وقال بعضهم: نال كل عضو منه البلاء إلا موضع النداء، فنادى الضر من الباقي منه على العافية لا عن مواضع البلاء؛ فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

أَدرك بَقِـيةَ نَفسٍ فـيكَ قَـد تَلِفَـت ... قَـبلَ المَـماتِ فَهـذا آخـر الـرَّمَقِ

وَلَـو مَـضى الكُـلُّ مِـنها لَم يَكُـن عَجَـبًا ... وَإِنَّـما عَجَبـي لِلـبَعضِ كَـيفَ بَقـي

سئل الجنيد عن قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قال: عرفه فاقة السؤال ليمنَّ عليه بكرم النوال.

ثم أخبر الله سبحانه عن رفعه البلاء عن نبيِّه، وإجابة دعوته، وإخراجه من الضر بقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ حقيقة هذه الآية أن الله عرف خوف أيوب من فوت مشاهدته ووصاله ووقوفه بأسراره في بلائه؛ فاستجاب دعوته، ورفع عنه مكائد قهره في ابتلائه، وغيرة ربوبيته على عبوديته، فكاشفه جماله وجلاله بعد أن ألبسه لباس العافية، فارتفع الضر من جميع الوجوه، وبقي في شهود جماله؛ فصار إليه البلاء والعافية واحدًا.

قال بعضهم: استجاب دعاءه، وفتح عليه أبواب الرضا لئلا يعارض بعد ذلك في حال لا مستكشفًا للبلاء ولا متلذذًا به؛ لأن كليهما موضع العلل، والرجوع إلى النفس وتربيتها.

قال الأستاذ: لم يقل: ارحمني بل حفظ آداب الخطاب؛ فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ تسلية للمحبين الصابرين وتذكرة للمتعبدين.

قال الواسطي: موعظة للمطيعين عند نـزول المحن بهم، وتعريضًا على الرضا، وحسن الدعاء من غير تصريح به بل إظهارًا للحال.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ كان يونس عليه السلام في منـزل الانبساط والعربدة؛ نغضب عليه إذا شغله بشريعته عنه، وعن مشاهدته وقربه

ووصاله، وظنَّ أنه في غضبه وعربدته لم يكن مأخوذًا به، ولم يكن محتجبًا به، وكان محجوبًا بسر واحد، وهو أن الانبساط حظ العارف والهيبة حظ الله فاختار حظه على حظه، وصار محجوبًا عن محل الفناء فيه، ويمكن أنه كان مغاضبًا على وجوده إذا كان موجودًا عند مشاهدة وجود الأزل كأنه غار على وحدانيته، ولم يطق أن يرى وجوده في وحدة القدم، فلما ابتلعه الحوت، صار تحت قهر القدم فانيًا عن رؤية غيرة الحق في رؤية الحق تقاضى سر سره مقام بقائه وانبساطه فظن بسره أنه لا يخرج من درك الفناء، ولا يدرك في منازل الفناء درجة البقاء فكاشفه الحق نقاب السلطانية عن جمال القدم، وصار في معارج جمال أنس المشاهدة، فلما وجد البقاء في الفناء اعترف بعجزه، وقلة علمه بأسرار القدمية؛ فقال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ حين نازعت الربوبية بالربوبية علم أن الاتصال والاتحاد موضع المكر والخداع؛ فأسقط العلل، واعترف بالوحدانية الصرفة لأزلية الله تعالى.

قال الجنيد: مغاضبًا على نفسه في ذهابه، فظنَّ أن لن يأخذه بغضبه وذهابه.

قال ذو النون: أخفى أيخدع به العبد الألطاف والمكرمات ورؤية الآيات؟[1]

قال الجنيد في قوله: ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ أي: من الجاهلين إنك لا تقرب بطاعة، ولا تبعد بمعصية، وقد ظننت في زمان الصبا أن الله سبحانه أراد أن يهيئ ليونس عليه السلام معراجًا، ومشاهدة في بطن الحوت فتعلل بالأمر والنهي، والمقصود منه القربة والمشاهدة فأراه الحق في أطباق الثرى في ظلمات بطن الحوت ما أرى محمدًا ﷺ فوق العرش، فلما رأى الحق تحير في جلاله، وقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾، نـزهت نفسك عما ظننَّا فيك، فأنت بخلاف الظنون، وأوهام الحدثان، ﴿كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، في

---

(١) اعلم أن الآية هذه حكاية كلام يونس عليه السلام؛ وهو في قعر البحر في بطن الحوت، فجعل كلامه معه تعالى من طريق الخطاب لا من طريق الغيبة؛ إذ لا غيبة بالنسبة إليه تعالى؛ فإنه هو المتجلي في كل شيء بحسبه: أي بحسب ذلك الشيء لا بحسبه تعالى، فإنه تعالى لا يسعه شيء إلا بالاعتبار، وبعض الوجوه، فيونس إنما خاطب الله المتجلي فيه. والحاصل أن خطاب يونس، وهو في تخوم الأرض؛ كخطاب نبينا ﷺ، وهو في المستوى، وذُروة العرش حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك أنت؛ كما أثنيت على نفسك»، فإذًا كل من المقامات العُلوية والسفلية؛ مقام الخطاب، والسماء على أنه لا سفل بالنسبة له إلى الله تعالى؛ ولذا شرِّع التسبيح والتكبير في انتقالات الصلاة؛ تقديسًا له تعالى عن التقيد بمرتبة من المراتب الكونية بحسب قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

فظهر من هذا التقرير: إن كلًّ من الخطاب، والغيبة، والتكلُّم؛ نسبة من نسب الكلام معتبرة بحسب المقام.

وصف جلالك إذ وصف لا يليق بعزة وحدانيتك فوقع لهذا القول منه موقع قول سيد المرسلين حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

ولذلك قال ﷺ: «لا تفضلوني على أخي يونس»(٢)؛ فلما رأى ما رأى استطاب الموضع، وظن أن لن يدرك ما أدرك في الدنيا بعد فغاب الحق عنه فاهتم ودعا بالنجاة فنجاه الله من وحشة بطن الحوت بقوله: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ يعني: من كان هذا حاله مع الله سبحانه ننجيه به منه.

قال الجنيد: من همومهم وكروبهم بالإخلاص والصدق والافتقار والالتجاء، وحقيقة حسن الاعتراف وإظهار الاستسلام.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ حيث اختلج سري أن أريد غير ما أردت.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ ما اختلج في سرِّ الإرادة من صميم سر سري أن شيخ الأنبياء ﷺ رأى ما ورد عليه من أنوار كبرياء الله وجلال عظمته وعز سلطانه في مشاهدة ذاته فخاف من محل الاتحاد والاتصاف الذي يقتضي حلاوة شربة التفريد في دعوى الأنانية والربوبية فاستعاذ بالله أن يكون محتجبًا به عنه، فقال: ﴿ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ حين أفردتني بفردانيتك، فإن ذلك عليَّ عارية تنصرف إلى القدم، والحدث ينصرف إلى الحدث.

ألا ترى كيف قال: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ترث صفة بقائك بعد فنائي بغيرتك، وأيضًا ﴿ لَا تَذَرْنِي ﴾ في ﴿فَرْدًا ﴾ عنك بك حتى لا أحتجب بك عن حقيقتك، وأيضًا كان سره يتحرك من جذب أسرار مقادير القدم التي تجذب سره إلى رؤية روح يحيى في مكمن الغيب فافتقر إلى الله بالسؤال إدخال روحه في هيكله ليكون سحرًا في إفشاء أسرار ربوبيته.

قال جعفر: لا تجعلني ممن لا سبيل له إلى مناجاتك، والتزين بزينة خدمتك.

وقال أيضًا: فردًا عنك لا سبيل لي إليك.

وقال ابن عطاء: خاليًا عن عصمتك، وقال الجنيد: خاليًا عنك مشتغلاً بشيء سواك.

---

(١) رواه مسلم (١١٩، ٧٥١، ٧٥٤)، وأبو داود (٣/ ٥٤)، والترمذي (١١/ ٣٩٨).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١١/ ٣٣٣).

وقال الواسطي: الفرد المعرض عن ذكر الله الغافل عنه.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ موضع النداء والدعاء في منازل العبودية مكان الخوف والرجاء والرهبة من جلال عظته، والرغبة في وصول جماله وقربه، وبهاتين الصفتين صار العارف خاشعًا لله في طاعته ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فانين تحت أذيال عظمتي ورداء كبريائي.

قال الواسطي: أمر الله الأنبياء بالخشوع، وهو الوقوف بين الرغبة والرهبة، وحقيقته سكون يشير إلى الرضا، قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

وقال بعضهم: رغبة فينا ورهبة عما سوانا، وقيل: رغبة في لقائنا، ورهبة في الاحتجاب عنا.

قال أبو يزيد: الخشوع زمام الهيبة وخمود القلب عن الدعاوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ وصف الله أهل الولاية والنبوة والرسالة الذين اصطفاهم في الأزل بحسن عنايته ومعرفة جلاله وجماله مشاهدة كماله ووصاله ووقاهم من عذاب الفرقة والحرمان عن المشاهدة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ هي في جنان الوصلة لا يحسون شواهد أهل العلة من البرية فظاهر حسن العناية السابقة منهم أربعة أشياء الانفراد من الكونين والرضا بلقاء الله عن الدارين وإمضاء العيش مع الله بالحرمة والأدب نظهور أنوار قدرة الله منهم بالفِراسات الصادقة والكرامات الظاهرة وباطن حسن العناية السابقة من الله في الأزل لهم أربعة أشياء: المواجيد الساطعة، وانفتاح العلوم الغيبية، والمكاشفات القائمة، والمعارف الكاملة، وفي كل موضع ظهرت هذه الأشياء بالظاهر والباطن صار صاحبها مشهورًا في الآفاق بسمات الصديقين وعلامات المقربين وخلافه المرسلين.

قال الحسن بن الفضل: سبقت العناية، وظهرت الولاية.

وقال الجنيد: من سبق من الله إليه إحسان؛ فإنه لا يزال ينتقل في ميادين المحسنين إلى أن يبلغ إلى أعلى مراتب أهل الإحسان بقوله: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال الواسطي: أولئك توم هداهم الله فهداهم بذاته وقدسهم بصفاته فسقط عنهم الشواهد والأعراض، ومطالعات الأعواض؛ فلا لهم إشارة في سرائرهم، ولا عبارة عن أماكنهم وحجبهم عن الاستقرار في المواطن؛ فلا لهم هم بأنفسهم، ولا هم حاضرون في حضورهم بحضورهم.

وقيل: الحسنى العناية السابقة، وهي خمسة أشياء: العناية، والاختيار، والهداية، والعطاء، والتوفيق، فبالعناية وقعت الكفاية وبالاختيار وقعت الرعاية، وبالهداية وقعت الولاية، وبالعطاء وقعت الخلة، وبالتوفيق وقعت الاستقامة والحسنى هذه السوابق.

وقال الواسطي في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾: هم أهل الحقائق لا يحسون بضجيج أهل الدنيا؛ لأنهم مصدودون عنها بما ورد على سرائرهم من وهج الحقائق فهم مترددون في منازلهم لا يقطعهم عن ذلك قاطع لانغماسهم في بحور الحقيقة، ثم وصفهم الله بالأمن الدائم والحسن القائم بقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ كيف يلحقهم الفزع، وهم في مشاهدة جلال الحق مدهوشين والهين واصلين إلى مناهم غير محجوبين عنه بشيء من الحدثان، والحق سبحانه يكون مرادهم يفعل كما يريدون.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ اشتهاؤهم في جمال الحق دوام المشاهدة بنعت الوصلة على السرمدية، وهذا اشتهاء قلوبهم واشتهاء عقولهم كشف العلوم من معدن الصفات، واشتهاء أرواحهم الاستغراق في بحار الذات، واشتهاء أسرارهم الفناء بنعت البقاء، والبقاء بنعت الفناء واشتهاء نفوسهم اللذة والحلاوة والخطاب والحسن والجمال والإدراك بنعت التحصيل من القدم في لباس الحسن.

قال ابن عطاء: للقلب شهوة، وللأرواح شهوة، وللنفوس شهوة، وقد يجمع الله لهم في الجنة جميع ذلك، فشهوة الأرواح القرب، وشهوة القلوب المشاهدة، والرؤية وشهوة النفوس الالتذاذ بالراحة.

قال الجنيد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: اجتازوا عليها، ولم يحسوا بها وما عرفوها لصحة قصدهم إلى اللقاء، وللنـزول في دار البقاء.

وقال الصادق: كيف يسمعون حسيسها، والنار تخمد لمطالعتهم وتتلاشى برؤيتهم، قال النبي ﷺ: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جز يا مؤمن؛ فقد أطفأ نورك لهبي»[1].

قيل في قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾: النفوس ثلاثة أشياء: أرواح وأشباح وقلوب، فشهوة الروح الوصلة وشهوة القلوب اللقاء، وشهوة النفوس الأكل والشرب والزينة، وكل مبذول له بقدر همته وحظه يوصل إلى مناه، وشهوته فيها خالدًا مخلدًا أبدًا.

ثم وصف الله سبحانه جلال أهل قربه بحيث يحنيهم الملائكة السفرة الكرام البررة يدخلونهم حجال الوصال، وشهودهم مشاهدة الجمال بقوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: هذا يوم الوصلة بلا فرقة، وهذا يوم المؤانسة بلا وحشة، وهذا يوم الراحة بلا محنة، وهذا يوم العافية بلا بلية، وهذا يوم كشف النقاب بلا حجاب، وهذا يوم الخطاب بلا عتاب، قيل: ميعاد أهل اجنة فيها الوصلة، وميعاد أهل النار فيها القطيعة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٣٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٢٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٤٠).

مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ كان في علم الأزلية أن أرض الجنان ميراث عباده الصالحين من الزهاد والعبَّاد والأبرار والأخيار؛ لأنهم أهل الأعراض والثواب والدرجات، وأن مشاهدة جلال أزليته ميراث أهل معرفته ومحبته وشوقه وعشقه؛ لأنهم في مشاهد الربوبية، وأهل الجنة في مشاهد العبودية.

قال سهل: أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح معناه: لا يصلح لي إلا ما كان لي خالصًا لا يكون لغيري فيه أثر وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله، وانقطعوا بالكلية عن جميع ما دونه، ثم بيَّن سبحانه أن كلامه الأزلي يبلغ الصديقين إلى معادنه من رؤية الصفات والذات الأزلي بقوله: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ مشاهدين جلالنا وجمالنا بهممهم العلية، وقلوبهم الحاضرة وعقولهم الصافية وأرواحهم العاشقة، وأسرارهم الطاهرة.

قال سهل: لم يجمع البلاغ لجميع عباده بل خصَّ القوم العابدين، وهم الذين عبدوا الله، وبذلوا له مهجتهم، لا من أجل عوض، ولا لأجل نار ولا جنة بل حُبًّا له وافتخارًا بما أهلهم من عبادتهم إياه.

ثم وصف الله سبحانه حبيبه محمدًا ﷺ بأنه أرسله رحمة إلى جميع خلقه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ إنما الفهم أن الله سبحانه أخبرنا أن نور محمد ﷺ أول ما خلقه في الأول من جميع خلقه، ثم خلق جميع الخلائق من العرش إلى الثرى من بعض نوره، فإرساله من العدم إلى مشاهدة القدم رحمة لجميع الخلائق إذ الجميع صدر منه فكونه كون الخلق ذكر أنه سبب وجود الخلق، وسبب رحمة الله على جميع الخلائق إذ هو سبب وجود الجميع، فهو رحمة كافية؛ وافهم أن جميع الخلائق صورة مخلوقة مطروحة في فضاء القدرة بلا روح حقيقية منتظمة لقدوم محمد ﷺ؛ فإذا قدم في العالم صار العالم حيًّا بوجوده؛ لأنه روح جميع الخلائق.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[1]، ويا عاقل إن من

---

(١) قال سيدنا الجيلي في كتاب «الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم» ما نصه: الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها لما ورد في حديث جابر أن الله تعالى خلق روح النبي ﷺ من ذاته وخلق العالم =

العرش إلى الثرى لم يخرج من العدم إلا ناقصًا من حيث الوقوف على أسرار قدمه بنعت كمال المعرفة والعلم فصاروا عاجزين عن البلوغ إلى شط بحار الألوهية وسواحل قاموس الكبريائية فجاء محمد ﷺ إكسير أجساد العالم وروح أشباح العالمين بحقائق علوم الأزلية، وأوضح سبل الحق لهم بحيث يجعل سفر الآزال والآباد للجميع خطوة واحدة؛ فإذا قدم من الحضرة إلى سفر الغربة بلغهم جميعًا بخطوة من خطوات صحارى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾ حتى وصل إلى مقام «دنا» فغفر الحق لجميع الخلائق لمقدمه المبارك فالكافر والمؤمن والذئب والظبي والبازي والحمام والجنة والنار والدنيا والآخرة في حيز رحمته؛ لأنه كان رحمة أزلية أبدية قطرة من بحر رحمة الرحمن وغرفة غرفت من نهر الغفران.

قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمدًا ﷺ بزينة الرحمة فكان كونه رحمة ونظره إلى من نظر إليه رحمة، وسخطه ورضاه وتقريبه وتبعيده وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه من رحمته؛ فهو الناجي في الدارين عن كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى الله يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ فكانت حياته رحمة ومماته رحمة كما قال النبي ﷺ: «حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم»[1].

وقال ابن عطاء: رحمة الدارين لمن تبعك، وآمن بك، والرحمة العاجلة لمن لم يؤمن بك بتأخير العذاب عنه إلى العاقبة.

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ يعلم شكاية العارفين منه إليه بألفاظ مجهولة من مقام الأنس، ويعلم ما في ضمائرهم من حقائق إشارات الحقيقة من أوصاف القدس، يسليهم بهذا الخطاب أي: لا تجزعوا، فحان وقت الوصال، وكشف الجمال؛ فكيف يخفى عليه، وهو بمحبته أزعجهم إلى الحرية والانبساط.

قال الحسين: كيف يخفى على الحق من الخلق خافية، وهو الذي أودع الهياكل أوصافها من الخير والشر والنفع والضر؟! فما يكتمونه أظهر عنده مما يبدونه وما يبدونه مثل ما

=

بأسره من روح محمد ﷺ فمحمد ﷺ هو الظاهر بالمظاهر الإلهية، ألا ترى إليه ﷺ كيف سري بجسمه إلى فوق العرش وهو مستوي الرحمن، انتهى.

(١) رواه البزار في مسنده (٥/ ٣٠٨)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ١٧٤) بنحوه.

يكتمونه جل الحق أن يخفي عليه خافية من عباده مُحال، والله أعلم.

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝﴾ إن الله سبحانه نادى نداء الوعيد للناسين عهود الأزل، ومشاهدة الأبد أي: أين أنتم أيها الغافلون عن بروز جلال عظمتي من حجاب الغيب في صحاري القيمة اتقوا عن عذاب فرقتي لكي تصلوا إلى جلال وصلتي؛ فإن الأكوان والحدثان تزلزل عند ظهور أنوار كبريائي وسلطان بهائي فحقيقة التقوى الخروج مما دون الله بالله.

قال بعضهم: التقوى ألا يستغرقك شيء دون مولاك، وهو الحرية، وكل من طلب الجزاء لم يكن متقيًا، وإن كان وعد له عليه.

ثم وصف أهل شهود سطوات العظمة والكبرياء بالوله والهيمان والسكر والهيجان بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ يولهون في رؤية العظمة وجلال الهيبة، ويهيمون في أودية أنوار الكبرياء والسلطنة.

قال جعفر: أسكرهم ما شاهدوا من بساط العز وبساط الجبروت وسرادق الكبرياء حتى ألجأ النبيين إلى أن قالوا: نفسي نفسي.

وقال الأستاذ: فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب، وشتان بين سكر وسكر، سكرهم سكر أهل الغفلة، وسكرهم سكر أهل الوصلة، وإن سألتني من سكر أصحاب الوقائع في كواشف القدوسية، وبروز أنوار السبوحية في مشاهد القيمة فسكر الأعداء من رؤية القهريات، وسكر الموافقين من رؤية بدائع الأفعال، وسكر المريدين من لمعات الأنوار، وسكر المحبين من كشوف الأسرار، وسكر المشتاقين من ظهور سنا الصفات، وسكر العاشقين من مكاشفة الذات، وسكر المقربين من الهيبة والجلال، وسكر العارفين من الدخول في حِجال الوصال، وسكر الموحدين من استغراقهم في بحار الأولية، وسكر الأنبياء والمرسلين من اطلاعهم على أسرار سر الأزلية، فبعض السكارى واله

في العظمة، وبعض السكارى تائه في العزة، وبعض السكارى غائب في الجمال، وبعض السكارى فانٍ في الجمال، وبعض السكارى صاح في البقاء، وبعض السكارى مضمحل في الكبرياء، وبعض السكارى سكره من حلاوة الخطاب، وبعض السكارى سكره من الانبساط، وبعض السكارى سكره من العتاب، وبعض السكارى سكره من كشف النقاب، وبعض السكارى سكره من رؤية القدم في مرآة الالتباس، وبعض السكارى سكره من وقوعه في صرف شهود الأزل، فهؤلاء السكارى في منازلهم، سكرهم مقادير مواردهم في شهود القرب، وقرب القرب؛ فمن كان سكره بغيره فهو غير سكران إنما هو مخبط حاله من رؤية الأحوال، ومن كان سكره به فسكره من شراب الوصال، فسكري هناك من سكري هاهنا به لا بها منه شرابي من رؤية صرف كنه القدم وغيري من العبأد والزهّاد سكرهم من مشارب الكرم.

ألمّ بنا طيفٌ يَجِلُّ عَنِ الوَصْفِ وفي طرفِه خمرٌ وخمرٌ على الكفِ
فأسكرَ أصحابي بخمرةِ كفهِ وأسكرني واللهِ مِنْ خمرةِ الطرفِ

وقال الحسين: أسكرهم رؤية الجلال، ومشاهدة الجمال.

قال الحريري: ما أسكرهم إلا الهيبة والإجلال[1].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هؤلاء الناس أهل الخيال من المشبهة والمعتزلة وأمثالهم من الذين جادلوا في الله بالقياس والخيال المحال.

قال سهل: يخاصم في الدين بالهوى والقياس من دون الاقتداء، فعند ذلك يضل ويبتدع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا

(١) قد روي أن الشبلي قال: شربت بالكأس التي شرب بها الحلاج فصحوت وسكر الحلاج، فبلغ ذلك الحلاج فقال: لو شرب بالكأس التي شربت بها لسكر كما سكرت، فبلغ الجنيد أمرهما فقال: نقبل قول الصاحي على السكران، فرجح حال الشبلي على حال الحلاج.
ولذلك قالوا: أكثر الشطح يكون من سُكر الحال وغلبة سلطان الحقيقة، فمن ثم من تم صحوه وخلص عن بقية السكر ونزلت في قلبه السكينة ستر الحقيقة بالعلم، ووقف على حد العبودية، فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه، إذ تنكشف به الالتباسات التي لم تزل خفية على أكثر أرباب القلوب.

نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أرذل العمر أيام المجاهدة بعد المشاهدة، وأيام الفترة بعد المواصلة لكيلا يعلم بعدُ علم بما جرى عليه من الأحوال الشريفة والمقامات الرفيعة، وهذا غيرة الحق على دعوى المتحققين حين أفشوا أسراره بالدعاوى الكثيرة، أستعيذ بالله من ذلك، وأستزيد منه فضله وكرمه ليخلصنا به من فتنة النفس وعثرتها، ويمكن أن ذلك يتعلق بالسير في عالم النكرات حين اختلطت بحار حقائق الربوبية في قلب العارف الصادق، فيستغرق في لجج نكرات امتناع الأحدية عن إدراك الخليقة، فيضمحل ما علم فيها لم يعلم من معرفة الذات والصفات فتحت نكراته معارف الألوهية، وتحت المعارف نكرات غيرة الأزل فإذا خرج من الفناء في النكرة عن النكرة إلى مقام الصحو في المعرفة فيطلع على أسرار النكرة بأسرار المعرفة، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يحييهم بالمعرفة بعد موتهم في النكرة، وبحياة المشاهدة بعد موت الفرقة، ولذلك ضرب الله مثلاً في هاتين الحالتين كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

وهذا ما وافق قول الواسطي في ذلك، قال: اندرج ما علم منه بما بسط له وفتح عليه وضرب له مثلاً ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: ساكنة عن النبات حافية عن الخضر ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: ظهرت عليه وردت ورويت ونمت، ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ [فصلت:٣٩] بالنعوت ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ بالعلوم في الدنيا وبالأرواح في الآخرة.

وقال الأستاذ: أرذل العمر زمان الفترة بعد المجاهدة، وحال الحجبة عقب المشاهدة،

ويقال: السعي للحظوظ بعد القيام بالحقوق، ويقال: العشرة مع الأضداد.

ويقال: يحيى النفوس بتوفيق العبادة، ويحيى القلوب بأنوار المشاهدة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ على طمع وهوى ورؤية عرض وطمع كرامات ومحمدة الخلق، وقيل: الدنيا وإذا أصابته أمانيه سكر في العبادة وإذا لم يجد شيئًا منها ترك التحلي بحلية الأولياء، قال تعالى في وصفه: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾.

ثم بيّن حاله في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ﴾ خسرانه في الدنيا فقدان القبول والجاه عند الخلق، وافتضاحه عندهم وسقوطه من طريق السنة والعبادة إلى الضلالة والبدعة، وخسرانه في الآخرة بقاؤه في الحجاب عن مشاهدة الحق واحتراقه بنيران البعد.

قال الواسطي: ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ على رهن التجنب واطمأن إليه.

قال بعضهم: على طمع أن يرى ثواب عمله أو يجازي على قدر أعماله.

وقال بعضهم: الخسران في الدنيا ترك الطاعات، ولزوم المخالفات، والخسران في الآخرة كثرة الخصوم والتبعات.

وقالت رابعة في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾: كيف يكون ما منك إليه عوضًا لما منه إليك، وما عنك إليه لا يكون إلا بما منه إليك؟!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ من أهانه الله في الأزل بقهره لا يكون عزيزًا لعمله ولا بعزة غيره عزيز إذ العز كله لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩].

وقال: من قدَّر الله عليه الإهانة في السبق لا يقدر أحد على كرامته؛ لأن لباس الحق لا يزول ولا يحول، وهو على الدوام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ يدخل العارفين الذين لهم صلاحية مشاهدته واستعداد قبول معرفته إلى جنان قربه ووصاله، قيل: هم الذين صدقوا الله في السر، واتبعوا سنة محمد ﷺ فلم يبتدعوا بحال.

﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وصف من دخل جنات المشاهدة، ورتعوا رياض المكاشفة عرفوا طيب الخطاب في مقام المداناة والمناجاة، وكوشف لهم أنوار سبل الذات والصفات طيب الله ألسنتهم وقلوبهم بطيب ذكره وهداهم إلى سبل معرفته.

قال ابن عطاء: الطيب من القول هو ذكر الله.

وقال جعفر: هو الأمر بالمعروف.

وقيل: هو نصيحة المسلمين، وقيل: هو قراءة القرآن.

قال الأستاذ: الطيب من القول ما صدر عن قلب خالص وسر صافٍ مما رضي به

علوم التوحيد الذي لا اعتراض عليه للأصول، ويقال: الصراط الحميد: ما كان طريق الاتباع دون الابتداع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ داره دار كرامته ومنـزل أضياف المعرفة إذا كشف من بيته ما فيه من آياته الكبرى يصل بركتها إلى المقيم والمسافر وحضرته القديمة منازل المقيمين فيها بالأرواح من العارفين والمشاهدين والطيارين من حمائم أسرار الواصلين، فالمقيم بقلبه هناك من أول عمره إلى آخر عمره والطارئ عليها لحظة من المكاشفين والمشاهدين ينكشف له ما ينكشف للمقيمين؛ لأنه وهاب كريم يعطي للتائب من المعاصي ما يعطي المطيع المقيم في طاعته طول عمره.

قال محمد بن علي الترمذي: الفتوة أن يستوي عندك الطارئ والمقيم، وكذا يكون بيوت الفتيان من ترك فيها؛ فقد تحرم بأعظم حرمة وأجل ذريعة، ألا ترى الله تعالى ذكره كيف وصف بيته ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾.

قال الأستاذ: بمشهد الكرام يستوي فيه الأقدام؛ فمن وصل إلى تلك العَقْوَة[1] فلا ترتيب ولا رد، وبعد الوصول فلا زجر ولا صد[2].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ هذا لخليله وجميع أحبائه بيَّنه ودله إلى ما فيه من الآيات والكرامات، وما ألبسه من أنوار حضرته ليكون وسيلة لعبادته ومرآة لأنوار آياته، وأمره ألا يطلب في طلبه شيئًا من غيره في طاعته من الجنة وما فيها وجعل بيته مثالاً لبيته الخاص الذي هو قلب العارف في هذا الظاهر الآيات وفي بيت الباطن أنوار الصفات ومشاهدة الذات؛ فأمره أن يطهر بيت الظاهر والباطن من خطرات

---

(١) أي: تلك الخيرية.

(٢) انظر: تفسير القشيري (٥/ ١٨٥).

النفسانية وخطرات الشيطانية بقوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ الطائفون: عساكر أنوار تجلي الحق وزوار وارد الغيب، والقائمون: أنوار المعرفة والتوحيد، والركع السجود: أنوار الإيمان والإسلام، وأيضًا الطائفون: ملائكة الإلهام، والقائمون: الأرواح، والركع السجود: العقول أي: طهر قلبك عن ذكر ما سواي حتى لا يشوش هؤلاء في قرار أنوار صفاتي وذاتي.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ ﴾: وفقناه لبناء البيت، وأعناه عليه، وجعلناه منسكًا له، ولمن بعده من الأولياء والصديقين إلى يوم القيامة، وبيناء فيه آثاره، وأمرنا الخليل عند بنائه ألا يرى فعله وبناءه، ولا يشرك بنا في ذلك شيئًا.

قال بعضهم: في قوله: ﴿ طَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾: وهو قلبك، ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾: وهي زوائد التوفيق، ﴿ٱلْقَآئِمِينَ ﴾: وهي أنوار الإيمان، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾: الخوف والرجاء.

قال جعفر بن محمد: ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾: طهر نفسك عن مخالفة المخالفين والاختلاط بغير الحق، ﴿ٱلْقَآئِمِينَ ﴾: هم فؤاد العارفين المقيمون معه على بساط الأنس والخدمة، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾: الأئمة السادة الذين رجعوا إلى البدايات عن تناهي النهاية.

قال سهل: كما طهر البيت من الأصنام والأوثان وطهر القلب من الشرك والريب والغل والغش والقسوة والحسد، ولما استقام الخليل في تجريد التوحيد أمره الحق بأن يدعو بلسان الخلد زوار الحضرة من أماكن الغيبية ومكامن العدمية بقوله: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ دعاهم بلسان الحق لذلك أجابوه بالتلبية بقولهم: «لبيك اللهم لبيك»، وتلك الإجابة من الأرواح القدسية من معادنها من الغيب عشقًا ومحبة، وهذه المعاني تدل على كون الأرواح قبل الأشباح يأتون مقام خلتك المحبين المفردين من غيرنا المتجردين من أنفسهم في زيارتنا ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ نفوس مهزولة بالمجاهدات، ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ من كل طريق بعيد من الأوهام؛ لأنهم في طرف الأسرار ونوادر الأنوار يأتونك من مقام المشاهدة إلى مقام المتابعة إظهارًا للعبودية بعد كونهم في مشاهدة الربوبية.

قال ابن عطاء: رجالاً استصلحناهم للوفود إلينا، وليس كل أحد يصلح أن يكون وفدًا على سيده، والذي يصلح للوفادة هو اللبيب في أفعاله، والكيس في أخلاقه، والعارف بما يفديه، وبما يرد ويصدر.

ثم ذكر سبحانه علة الدعوة، وبناء الكعبة بقوله: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ أي:

ليشهدوا بأرواحهم مشاهد قربنا ومشاهدتنا، وما أعددنا لهم من علو المقامات وسني الدرجات.

قال ابن عطاء: ما وعدوا من أنفسهم لربهم، وما وعده الله لهم من القربة.

قال جعفر: ليشهدوا الذي بيني وبينهم.

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ أمرهم بالتواضع في مؤاكلة الفقراء والمساكين أهل بؤس المجاهدات، والافتقار إلى المشاهدات أي: أطعموهم من أطيب ما تأكلون، ولا تؤثروا أنفسكم عليهم؛ فإنهم لا يأكلون طعام البخلاء والمؤثرين هواهم على مرادنا، وفيه إشارة إلى أهل روح وصال المشاهدة والمكاشفة أن يخبروا طلاب المعرفة والمحبة مما كوشف لهم من أحكام الملكوت، وغيب الجبروت.

قال أبو عثمان: أدب أدَّب الله به عباده ألا يطعموا الفقراء إلا بما كانوا يأكلون، ولا يجعلوا لله ما يكرهون هو أن تشاركوهم في مأكلهم وملابسهم ومشاربهم لقوله: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ﴾.

وقال ابن عطاء: البائس الذي تأنف من مجالسته ومؤاكلته، والفقير من تعلم حاجته إلى طعامك، وإن لم يسأل.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا

صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ حرماته مقام الاتصاف والاتحاد؛ فمن اتصف بصفاته، وتوحد بتوحيد ذاته يقع في بحر الربوبية، ويستغرق في لجج الديمومية، وينكشف له أسرار السرمدية والأزلية، ويسكر بشربات وشراب المشاهدة، ويقتضي هذه أحوال له دعوى الأنانية من حلاوة مباشرة أنوار الأزلية بنعت التجلي والوصلة؛ فمن كان هناك محفوظًا بقي على نعت العبودية، ولا يخفى على حرمات الحقيقة؛ فهو خير له بأن يزيد حاله من الله سبحانه، ويكون إمامًا في الصحو والتمكين مثل الخلفاء والنجباء يقتدي به سُلاك الطريقة وملوك الحقيقة، ومن خرج برسوم أهل السكر، ويدع الأنانية يكون محترقًا بنيران الغيرة، مصلوبًا على باب الهيبة والكبرياء والسلطنة، وأيضًا من شاهد مشاهدة الحق بنعت الانفراد عن الحدثان خالصًا عن الجنان متبرئًا من حظوظه التي يطمع فيها عند مشاهدة الرحمن، فهو من أهل الحرمة في القربة، ومن كان حبه لحظه؛ فهو غير محترم في مقام الحرمة، يا غافل الحرمة في العبودية تقتضي قرب الربوبية والحرمة في الربوبية يسقط علل الحدوثية.

قال الواسطي: من تعظيم حرمة الله ألا تلاحظ شيئًا من كونه، ولا من طوارق محنته، ولا تلاحظ خليلاً ولا كليمًا ولا حبيبًا، مادام تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً.

وقال فارس: حرمات الله صفاته، ومن تهاون بحرمات الأمر والنهي؛ فقد تهاون بالذات، وهو نفس النفاق.

قال ابن عطاء: الحرمة ثلاثة أوجه؛ أولها: القطع من الموافقة، ثم القطع من لذة المشاهدة، وقال بعضهم: رؤية الأفعال وطالب الأعواض.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك مقام حرماته، وبيَّن أن من عظم أمره؛ فقد عظم جلاله وعظمته بقوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ بيّن أن تعظيم الله تعظيم شعائره يصدر من قلوب المتقين الذين هم في مشاهدة عظمة الله وجلاله وكبريائه في احتشامه وهيبته، وتقوى القلوب هو الاجتناب عن سوء الأدب في العبودية والخجل والحياة في مشاهدة الربوبية.

قال سهل: تقوى القلوب هو ترك الذنوب، وكل شيء يقع عليه اسم الذم.

قال الجنيد: من تعظيم شعائر الله التوكل والتفويض والتسليم؛ فإنها من شعائر الحق في أسرار أوليائه، فإذا عظمته وعظمت حرمته زين الله ظاهره بفنون الآداب.

ثم وصفهم بالإخبات والتواضع والخنوع والخشوع في عظمته وجلاله وكبريائه وبشرهم بدوام وصاله بقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾، ومن أوصاف المخبتين الفناء في العظمة والحياء في رؤية الكبرياء والخجل في مشاهدة الربوبية، والتواضع في العبودية، وكتمان الأسرار والبكاء في الخفية والسكون في الخلوة، ومراقبة الله بنعت الهيبة.

قال ابن عطاء المخبت هو الذي امتلأ قلبه من المحبة، وقصر طرفه عما دونه كما أن الفريق شغله نفسه عن كل شيء سوى نفسه كذلك المخبت لشغله مولاه عن كل شيء سواه.

وقال جعفر: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾: من أطاعني ثم خافني في طاعته، وتواضع لأجلي، وبشر من اضطرب قلبه شوقًا إلى لقائي، وبشر من ذكرني بالنـزول في جواري، وبشر من دمعت عيناه خوفًا فيحظوا بشراهم «إن رحمتي سبقت غضبي»[1].

ثم زاد سبحانه في وصفهم بوجل القلوب من معاينة أنوار الغيوب، والصبر في المجاهدات، وتطهير أنفسهم من الذنوب بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إذا سمعوا خطاب الله من الله، ولله من غير الله، وجلت قلوبهم من رؤية عظمة الله، والشوق إلى لقاء الله، وغلبان محبة مشاهدة الله وقع السماع لهم على آذان أرواحهم المطربة من روح أنس الله العاشقة جمال قدس الله؛ فتضطرب بين الأنس والقدس بنعت المحبة والشوق وتطير بجناح المعرفة إلى سرادق كبرياء المعروف؛ فيسكن هناك وجلها، واضطرابها فتسمع من الله خطابه، وتطمئن بجماله، قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]؛ فإذا سمع الذكر من غيره اقتضى الوجل، وإذا سمع من الله اقتضى السكون والطمأنينة ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ الذين وصفهم الوجل والإخبات صبروا تحت موارد أنوار مشاهدته إذا أتت عليهم طوارقها بأثقال الربوبية لا يجزعون ولا يتحركون حتى يفنوا في كبريائه ويبقوا في بقائه.

قال ابن عطاء: هل رأيت ذلك الوجل عند سماع الذكر أو عند سماع كتابه أو خطابه أو هل أخرسك الذكر حتى لا تنطق إلا به، وأصمك حتى لم تسمع إلا منه هيهات هيهات.

قال الواسطي: الوجل على مقدار المطالعة ربما يريه مواضع السطوة وربما يريه مواضع المودة والمحبة.

وقال أبو علي الجوزجاني: في قوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾: التاركي الجزع عند حلول النوائب والمصائب.

(١) رواه البخاري (٦٩٦٨)، ومسلم (٢٧٥١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى ذبح النفس بالمجاهدات وزمها بالرياضات عن المخالفات وفداء الوجود للمشاهدات حتى لا يبقى للعارف في طريقه حظ من حظوظه، ويبقى الله مفردًا من جميع الخلائق.

قال الوراق: الحكمة في «البدن»، وما ذكر الله من شعائره فيه وحصول الخيرية هو تطهير بدنك من جميع البدع والمخالفات وقتلها بسيوف الخوف والخشية، وأن تجعل التقوى شعارها، والرضا دثارها؛ فإذا فعنت ذلك كان لك فيه أوائل الخيرات، وهو أن يفتح لك السبيل إلى الله، وينور قلبك بنور اليقين، ويطهر سرك عن طلب شيء سوى الله.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧) ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ الإشارة فيه أن جميع الأعمال الصالحة من العرش إلى الثرى لا يلحق الحق نحو المراد منه، ولكن يصل إليه قلب، جريح من محبته ذبيح بسيف شوقه، مطروح على باب عشقه.

قال سهل في قوله: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: هو التبري والإخلاص.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ الجهال يرون الأشياء بأبصار الظاهر وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء التي هي تلمع منها أنوار الذات والصفات، أعماهم الله بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة.

قال سهل: اليسير من نور بصر القلوب يغلب الهوى والشهوة؛ فإذا عمى بصر القلب عما فيه غلبت الشهوة، وتواترت الغفلة، فعند ذلك يصير البدن متخبطًا في المعاصي غير منقاد للحق بحال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إن الشيطان خلق لابتلاء الأنبياء والأولياء فيلقي كل وقت بين ذكرهم وتلاوتهم وساوسه مخايلة، نيحترق في نور أذكارهم، ويتخسأ من صولة أنوارهم وأسرارهم، وذلك من الحق إظهار كرامتهم ومعجزتهم، وحقيقة الحكمة فيه إلقاء الخجل عليهم في مقام المناجاة[1]؛

---

(١) قال المصنف: وهذا الملعون لم يخل أحد من شره حتى نبينا ﷺ فربما يعترضه ويؤذيه، وذلك أنه ﷺ كنز الله في الأرض، والملعون السارق يحوم حول ذلك الكنز؛ ليسرق منه شيئًا، ألا ترى كيف حكى الله سبحانه وتعالى مما ألقاه في صلاته، قال: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. قال الحسين بن علي -رضي الله عنهما-: «نُبِئت أن جبريل ﷺ أتى النبي ﷺ، وقال: إن عفريتًا من الجن يكيدك، فإذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي». وقال أبو أمامة، قال رسول الله ﷺ: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكًا يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذبون عن قصعة العسل الذباب في اليوم الصائف». وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يده فاغر فاه، وما لو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين، وهذا من كمال فضل الله حرس عبده بمعقباته من الملائكة المقربين من العوارض والحوادث كلما يلقي الشيطان إليه ألقى يريه الملك شيئًا من أحكام الآخرة، ويحدث معه بشيء من الخيرات ما يدفع به شر عدوه، وربما يقذف الحق نورًا من غيبه على قلبه يرى به مكائد العدو،
=

ألا ترى كيف شكا عنه موسى حين عارضه الملعون بقوله ما سمعت؛ فهو كلامي فكاد موسى أن يذوب من هيبة الله وحيائه حتى أوصله الحق إلى أماكن ألطاف حنظه، ورعايته وخلصه من كيد عدوه.

قال سهل: من قراه، وهو يلاحظ الحق؛ فإنه يكون بريئًا مصونًا من إلقاء الشيطان، ومن قراه، وهو يلاحظ نفسه أو يشاهد الخلق؛ فإن ذلك محل إلقاء الشيطان.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن كلامه الحق ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ المعرفة بالله تورث الفناء في الله؛ فصارت قلوب العارفين بالله مخبتين لأمر الله.

قال الواسطي: إن الربوبية إذا تجلت على السرائر محت آثارها، ومحت رسومها وتركتها خرابًا.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ ملك الجمال والجلال وكشف اللقاء للعارفين والعاشقين لله يومئذٍ يواسي قلوبهم بإعطائه إياهم مأمولهم؛ فإذا برز أنوار سلطنة كبريائه اضمحل فيها الظنون والخواطر والرسوم والأعلام.

قال ابن عطاء: الملك على دوام الأوقات، وجميع الأحوال له، ولكن يكشف للعوام الملك يومئذٍ لإبداء القهارية والجبارية؛ فلا يقدر أن يجحد ما عاين.

=

فيحترز من شره. تقسيم الخواطر (ص٦٨) بتحقيقنا.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الذين هاجروا مما دون الله، وقتلوا بسيوف محبة الله، وماتوا من غلبة شوق الله تحت أثقال رؤية عظمة الله ليرزقنهم الله رزق مشاهدته، ودوام وصلته على السرمدية، ويحييهم بروحه إلى أبد الآبدين، وملك الحياة والأرزاق غير مقطوعة ولا ممنوعة.

قال الجريري: هو تصحيح التوجه بالفردانية، ومعانقة التجريد بالسمع والطاعة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ إذا ظهر الحق بنعت الحقيقة للعارفين اضمحلت في قلوبهم الحوادث، وسقط عنهم علل الأكوان.

قال ابن عطاء: هو الحق فحقق حقيقته في سرك ولا ترجع منه إلى غيره؛ فإن ما سواه باطل.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً ﴾ أنـزل مياه تجلي الصفات من بحار الذات على صحارى قلوب الصديقين فتصبح أرضها بصبح صفات مشاهدته مخضرة بأنوار ورد المكاشفات ونور المحبة والشوق والعشق، ورياحين الزلفات وشقائق المودة، ونرجس المداناة، وتنبت فيها رياحين المعارف بزلال الكواشف.

قال بعضهم: أنـزل مياه الرحمة من سحائب القربة وفتح إلى قلوب عباده عيونًا من ماء الرحمة، فأنبت المعرفة فاخضرت القلوب بزينة المعرفة؛ فأثمرت الإيمان وأينعت التوحيد، وأضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتاقت إلى ربها، وطارت بهمتها فأناخت بين يديه وعكفت عليه، وأقبلت عليه وانقطعت عن الأكوان أجمع إذ ذاك أواها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها التنـزه في بساتين الأنس ورياض الشوق والقدس.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾، ﴿أَحۡيَاكُمۡ﴾ بمشاهدته، ﴿يُمِيتُكُمۡ﴾ يفنيكم في سطوات عظمته، ثم ﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾ بروح بقائه حتى تبقوا ببقاء مع بقائه أبدًا.

قال الجنيد: أحياكم بمعرفته، ثم يميتكم بأوقات الغفلة والفترة، ثم يحييكم بالجذب بعد الفترة، ثم يقطعكم عن الجملة فيوصلكم إليه، حقيقة إن الإنسان لكفور يعد ما له، وينسى ما عليه.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ﴾ إن الله سبحانه بيّن أن شواهد الملك والملكوت كلها منتظر خطاب الأزل لتسمع بأسماع شائقة إلى معاني الصفات، وأهل الأرواح القدسية منتظرون بسماع الغيب ليستمعوه بأسماع غيبية ويعقلوه بعقول ملكوتية؛ فإذا خاطبهم الحق بلسان السفيرة؛ تنجذب أسرارهم وأسرار جميع الخليقة إلى منازل وقوع الخطاب فيقع نوره الرحماني عليها، فصارت موقع الخطاب منورة بنور الصفة، وذلك النور يظهر بنعت الاستبشار في وجوه العارفين لنظّار الملكوت، وينتشر نور الأكوان بجميع ذراتها من نور الخطاب.

وأهل الغباوة والجهل المبعدون من ساحة كبرياء الأزل بقوا في ظلمات الجهالة، وغبار القهريات تحت غشاء الضلالة فأسماعهم محجوبة بعوارض الامتحان عن سماع القرآن،

وشواهد أسرارهم من ظلمة الإنكار تظهر عن سواد وجوههم عند سماع الخطاب، يعرفها كل بصير بالله، ومن كمال شقاوتهم لا يعرفون أصلاً من أصل، ونورًا من نور، وجلالاً من جلال، وقدمًا من قدم، وأزلاً من أزل الذي مصادره أوجدتهم يا ليتهم يعرفون مصادر القهريات التي نقضتهم إلى ميادين الغفلة؛ فإنهم لو يبصرون معادن فطرتهم لا يخالفون ما يصدر من معادن اللطفيات، فإن جميع المصادر الأزلية واحدة من جميع الوجوه.

قال أبو بكر بن طاهر: يتبين في شواهد المعرضين عنا آثار الوحشة وظلمة المخالفة؛ لأن الظواهر إنما أشرقت بالسرائر، والسرائر أشرقت بأنوار الحق؛ فمن كان سره في ظلمة وإنكار كيف يلوح آثار الأنوار على شاهده، وكل شاهد، شاهد الأعراض والأكوان هو في ظلمة حتى شاهد الحق، ولا يشاهد معه غيره إذ ذاك يلوح عليه أنوار مشاهدة الحق، قال الله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ بيّن الله سبحانه ذل الخليقة تحت قهر سلطانه وعظمة كبرياء قدمه لئلا يقبل على معدن الضعف، وذل من يطلب العز السرمدي؛ فإن الخليقة ممنوعة عن قوة قادرية أحدية، وكيف يكون لها مشيئة وقدرة وجميعها في قبضة الجبروت عاجزة أسيرة لعزته، وجلاله، دعا الخلق بنعت الإقبال إليه بلسان الغيرة عن الإقبال على معادن الحدثية ليكونوا عارفين بعز الربوبية وذل الخليقة.

قال ابن عطاء: دلهم بهذا على مقاديرهم؛ فمن كان أشد هيبة، وأعظم ملكًا لا يمكنه الاحتراز من أهون الخلق وأضعفه؛ ليعلم بذلك عجزه وضعفه وعبوديته وذلته، ولا يفتخر على أبناء جنسه من بني آدم بما يملكه من الدنيا.

قال أبو بكر بن طاهر: «ضعف الطالب» أن يدركه، والمطلوب أن يفوته.

ثم بيّن سبحانه بعد ذكره عجز الخلق والخليقة جلال قدرة الذي لا يعرفه غيره بقوله:

﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ أزال المخائيل والأوهام والعقول عن إدراك جلاله وقدره، وهذا شكاية الله عن إشارة الخلق إليه بما هو غير موصوف به ذكر غيرته إذا أقبلوا إلى غير من هو موصوف بالقوة الأزلية والعزة السرمدية، ألا ترى كيف قال الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

قال الواسطي: لا يعرف قدر الحق إلا الحق، وكيف يقدر قدره أحد وقد عجز عن معرفة قدر الوسائط والرسل والأولياء والصديقين، ومعرفة قدرة ألا تلتفت عنه إلى غيره، ولا تغفل عن ذكره، ولا تفتر عن طاعته إذ ذاك عرفت ظاهر قدره، وأما حقيقة قدره فلا يقدر قدرها إلا هو.

ثم بيَّن سبحانه أنه اصطفى من الملائكة، ومن الناس رسلاً يخبرون عنه ما يتعلق بعجز الخلق عن إدراكه من وصف ذاته وصفاته بقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾، الملائكة وسائط الأنبياء والأنبياء وسائط العموم والأولياء للأولياء خالصة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ هذا خبر عن مقام المكاشفة في المراقبة أي: إذا شاهدتم مشاهدة الكبرياء اركعوا، وإذا شاهدتم مشاهدة العظمة اسجدوا، وإذا شاهدتم جمال ربوبيته افنوا في العبودية: ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ تخبرون عن هذه المقامات طلاب معرفتي ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بي عني، وتظفرون بعد فنائكم في بقائكم مع بقائي.

قال ابن عطاء: اركعوا واسجدوا واخضعوا وانقادوا لأوامره وسلموا لقضائه وقدره تكونوا من خالص عباده، وافعلوا الخير ابتغاء الوسيلة لعلكم تفلحون أي: لعلكم تجدون الطريق إليه، ثم أمرهم بحق الجهاد لوجدان حقيقة المعاد، والرجوع إلى المراد؛ لأن ما أمرهم بالركوع والسجود على مقادير العبودية، وطلب حق الربوبية في العبودية منهم بقوله: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ لا تظن أن هذا الأمر أمر مستحيل من حيث عجز الخلق عن درك إدراك حقيقته، إنما أراد بهذا الأمر فناء الخليقة في الحقيقة، وهذا ممكن خاصة أنه

أخبر تعالى أنهم بذلك مصطفون بقوله: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ أي: هو اجتباكم بالفناء في بقائه حين ينكشف أنوار شموس القدم لأهل العدم، ﴿وَجَٰهِدُوا فِى ٱللَّهِ ﴾ أي: أفنوا في الله حق الفناء بحيث لا ترون فناءكم في بقائه بل ترون وجوده بوجوده لا بوجودكم؛ لأن هذه الاجتبائية الأزلية يقتضي لكم مشاهدته، ومشاهدته يقتضي لكم فناءكم فيه، ثم بيَّن أن في هذا الطريق المبارك، والدين الشريف لم يكن حرج، وتكليف ما لا يطاق بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي: إذا شاهدتم مشاهدة جمال سهل عليكم فناءكم في جلالي؛ لأن من عاينني عشقني، وطاب عيشه معي، وسهل عليه بذل مهجته إليَّ لأن هذا مقام العاشقين الرامقين المحبين مثل الخليل والحبيب والكليم[1].

ألا ترى كيف قال: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ملة أبيكم العشق والمحبة والخلة والاستسلام والانقياد، وبذل الوجود بنعت السخاء والكرم يا أسباط خليلي رأى أبوكم استعداد هذه المراتب الشريفة فيكم قبل وجودكم بنور النبوة بقوله: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ سماكم منقادين، وبين يدي عارفين بوحدانيتي، وفيما ذكرنا من أوصافكم حبيبي شاهد عليكم عندي، يعرف هذه الفضائل منكم، وهو بلَّغكم ونشر فضائلي عليكم.

﴿ وَجَٰهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ بأنكم تعرفونهم فيما هم فيه وأن رسلهم قد بلغهم رسالاتي التي سبب نجاتهم، ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شكرًا لنعمته وحمدًا لأفضاله أي: اطلبوني في مقام مناجاتكم في الصلاة، وادخلوا بهمتكم فيها؛ فإنها

---

(١) تلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقي المريد عن أحكام الإرادة فليَحْطُطْ رِجْلَه بساحات العبادة فإذا عَدِمَ اللطائف في سرائره فَلْيَسْتَدِمْ الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقَّق بأحكام الحقيقة فليتخلق بآداب الشريعة، وإن لم يتحرج عن تَرْكِه الفضيلة فلا يدنسْ تصرفه بالحرام والشبهة. تفسير القشيري (٢/ ٨٩).

حصتي، وكونوا بنعت التجريد عن الدنيا، وما فيها في بذل أنفسكم إليّ، وفي هذه المعاملات الشريفة اطلبوا الاعتصام مني، استعينوا بي لأقويكم في طاعتي ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ حبيبكم وناصركم في الأزل ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ حيث لا مولى غيره ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾ حيث لا يخذل من نصره بأن نصره عزيز ممتنع من نقائص النفس.

قال جعفر: حق المجاهدة على القلب فإن النفس لا يقوم بحق المجاهدة، وحق المجاهدة ألا يختار عليه شيئًا كما لم يخير عليكم بقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾.

قال بعضهم: المجاهدة على ضروب مجاهدة مع أعداء الله، ومجاهدة مع الشياطين، وأشدها المجاهدة مع النفس، وهو الجهاد في الله، وهو الذي روي عن النبي ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1]، وهو مجاهدة النفس، وحملها على اتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

وقال ابن عطاء: الاجتبائية أورثت المجاهدة لا المجاهدة أورثت الاجتبائية.

وقال أيضًا: «ملة إبراهيم»: هو السخاء والبذل والأخلاق، والخروج من النفس والأهل والمال والولد.

وقال أيضًا: في قوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: زينكم بزينة الخواص قبل أن أوجدكم؛ لأنكم في القدرة عند الإيجاد كما كنتم قبل الإيجاد سبق لكم من الله الخصوصية في أزله.

وقال النوري: الاعتصام بالله للخواص، والاعتصام بحبل الله للعوام، والاعتصام بحبل الله هو التمسك بالأوامر على السنن، والاعتصام بالله هو حفظ القلب، والسر عما يشغل عنه، والاشتغال بمراقبته، والإقبال عليه، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: هو الذي يغنيكم به إن أقبلتم على الاعتصام.

وقال جعفر: نعم المعين لمن استعان به، ونعم النصير لمن استنصره.

❁❁❁

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٥١١) بنحوه.

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ فاز بالله العارفون بمشاهدته عن حجبة الذين أجابوا الله من العدم بخطاب القدم، وشاهدوا القدم بالقدم ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾ هم الذين قاموا لله بالله بنعت الهيبة في مشاهدة عظمة الله في مقام المناجاة مع الله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝﴾ عن لغو شياطين الإنس والجن وهو وهواجس النفوس، وكل ما سرى ذكر حبيبهم، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ كان من طباع العارفين ألا يلتفتوا من حيث طبيعتهم إلى شيء يقتضي اللهو واللغو ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝﴾ باذلون الأرواح والأشباح لله وفي الله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝﴾ ساترون عورات أسرارهم عن الأغيار ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ إلا على أهل القصة والنحلة ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝﴾ من أفشى سر الحق عنه غير أهله؛ فقد تجاوز حد الله؛ فيكون محجوبًا عن الله بالله، ومن لم يحافظ نفسه في حركات شهواتها، فيسقط في هاوية الغفلة بغلبة الشهوة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝﴾ الروح والقلب والعقل والسر، وما معهن من كشوف أحكام الغيب من الإيمان والبرهان والإيقان والعرفان أمانة الله الغيبة، ومراعاتي بدفع الخطرات عنها، ورياضة النفس عندها؛ فهو من شعار أهل الله الذين عاهدوا الله في سماع خطابه حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهم به يستقيمون في

طاعته ومرافقته وخدمته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾ محافظتهم عليها حفظ قلوبهم عن الوساوس عند جريان صفاء المواصلة وحلاوة المداناة والاستقامة في المناجاة.

ثم وصف هؤلاء الموصوفين بهذه الأحوال الشريفة، والدرجة الرفيعة، والمعاملات الزكية بأنهم ورثوا علم مشاهدة الله في بساتين غيبه، وحجال ملكوته، وورثوا قربة وصاله، ثم ورثوا منها مواليد حقائقها من هذه الأعمال والأحوال، وأمثالها من خواص العبودية في مشاهدة الربوبية بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ ورثوا من فيض الله معرفة الله حين عاينوا الله في عهد الأزل، ويرثون بها مشاهدة الله إلى الأبد.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾: وصلوا إلى المحل الأعلى والقربة والسعادة، وأفلح من كان مصدقًا لله بوعده.

قال أحمد بن عاصم: قال الأنطاكي: المؤمن من يكون بضاعته مولاه، بغيضته دنياه، وحبيبه عقباه، وزاده تقواه، ومجلسة ذكراه.

وقال القاسم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾: هم المقيمون على شروط آداب الأمر مخافة أن يفوتهم بركة المناجاة.

وقال بعضهم: لما طالعوا موارد الحق عليهم، ومطالعة الحق إياهم خشعت له ظواهرهم.

وقال بعضهم: خشعت جوارحهم وهممهم عن التدنس بشيء من الأكوان لعلو هممهم لكبائرها وهمته الصغرى أجل من الدهر.

قيل: المؤمن من يأمن قلبه من نفسه.

قال يوسف بن الحسين: كلك عورات وعلل، وليس يسترها إلا التقوى، وحفظ الحرمات، والتزام الشرائع كلها.

قال جعفر في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: عن الكون وما فيه متجردون، ولربهم منفردون.

وقال بعضهم: اللغو ما يشغلك عن الحق.

وقال أبو عثمان: كل شيء للنفس فيه حظ؛ فهو لغو.

وقال أبو بكر بن طاهر: كل ما سوى ذكر الله؛ فهو لغو.

قال ابن عطاء: كل ما سوى الله؛ فهو لغو.

قال محمد بن الفضل في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾: جوارحك كلها أمانات عندك، أمرت في كل واحدة منها بأمر؛ فأمانة العين الغض عن المحارم، والنظر بالاعتبار، وأمانة السمع صيانتها عن اللغو والرفث، وإحضارها مجالس الذكر، وأمانة اللسان اجتناب الغيبة والبهتان، ومداومة الذكر، وأمانة الرجل المشي إلى الطاعات، والتباعد عن المعاصي، وأمانة الفم ألا يتناول به إلا حلالاً، وأمانة اليدين ألا تمدها إلى حرام، ولا تمسكها عن الأمر بالمعروف، وأمانة القلب مراعاة الحق على دوام الأوقات حتى لا يطالع سواه، ولا يشهد غيره، ولا يسكن إلا إليه.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن حليف: الأمانة حفظ حدود الله، والوقوف على ما أجاب من لفظ «بلى».

وقال ابن عطاء: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾: المحافظة عليها هو حفظ السر فيها مع الله، وهو ألا يختلج فيها شيء سوى الله.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: الذين يصلون إلى مواريث أعمالهم من رياضاتهم.

قال بعضهم: الفردوس ميراث الأعمال، ومجالسة الحق ميراث رؤية الفضل والنعماء.

قال الأستاذ في وصف الإيمان: ابتساط الحق في السريرة، ومخامرة التصديق خلاصة القلب، واستمكان التحقيق من تأمير الفؤاد.

وقال: الخشوع في الصلاة إطراق السر على بساط النجوى باستكمال نعت الهيبة، والذوبان تحت سلطان الكشف، والامتحان عند غلبات التجلي[1].

وقال في قوله: ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: ما يشغل عن الله؛ فهو سهو، وما ليس لله؛ فهو حشو، وما ليس بمسموع من الله أو مقول مع الله؛ فهو لغو، وما فيه حظًا للعبد؛ فهو لهو.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ

(١) أي: الأحقاء بأن يُسَمَّوْا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم في الجنة، حيث فوَّتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. البحر المديد (٤/ ١٧٠).

﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ لما خلق الله سبحانه الكون والكائنات من العرش إلى الثرى، طبق العرش فوق الكرسي، وطبق الكرسي فوق السماوات السبع، وقد أحاط الكرسي بالسماوات، وركب بعضها بعضًا، ثم تجلى من قهر سلطان عظمته، وجلال قدمه بنعت الاستواء على العرش فزلزل العرش، ثم تزلزل الكرسي، ثم تزلزلت السماوات، فعرقت السماوات من ثقل الكرسي، وعرق الكرسي من ثقل العرش، وعرق العرش من ثقل سطوة الاستواء؛ فجرى عرقها، وصار بحورًا؛ فدخلت البحور بين السماوات، وتلاطمت بعضها بعضًا من هيبة عزة القدم، وصولة الجلال التي نفذت أنوارها في جميع ذرات الكون؛ فكثرت تلاطمها حتى ألقت خوالص زبدها وروحها فوقها، فيبست تلك الزبدة التي هي حقائق عرق الوجود الذي صدر من نور الاستواء، وهو حامل بسر التجلي قد خلت البحور تحتها، وصارت كالزبدة اليابسة من كثرة حركة محاض الكون.

ثم انسطحت وأظهرت حقائقها؛ فمضت عليها أيام الله التي معاهدها مرور أنوار تجلي الصفات والذات عليها؛ فلما رباها الحق بأفانين تجلي صفاته وذاته، قبض منها قبضة بقبضة جبروته، وطرحها فوق ملكوته، وتلك القبضة من خالص تلك الزبدة المعجونة لعقاقير أنوار

الصفات؛ فمطر عليها وبل بحر الألوهية، وخمرها بأيدي العزة، وصورها بنقوش خاتم الملك، وألقاها في وادي القدرة بين فضاء الآزال والآباد حتى مضى أصباح مشارق شموس الذات، وأقمار الصفات، ثم كشف ستر الغيرة من وجه الروح التي خلقها قبل صورتها بألفي ألف عام، وكانت في حجال الأنس وبحار القدس أصدرها من مكامن غيوب العلوم، وهي أسرار الأولية مصورة بنقش صورتها فأدخلها فيها فصار الروح والصورة كاملة بكمال الذات والصفات.

فلما صار آدم موضع ودائع أسرار الذات والصفات والقدم والبقاء وصفه حبيب الله صلوات الله عليهما بقوله: «خلق الله آدم على صورته»[1]، وكان ﷺ معادن الأرواح القدسية والأشباح الأنسية؛ فإذا أراد سبحانه خلق ذريته حركه بقدرته، وألقى عليه سباتًا من عظمته، وأخرج حواء من ضلعه ثم حركهما بسر سره، وذلك السر شهوتهما التي أورث فيهما تجلي نعوت الجمال والجلال فوصل الشهوة بالشهوة، وانشقت بالنطفة الخالصة التي مصادرها ما ذكرنا من أسرار تجلي الاستواء، وأبقاها في مصدر الفعل، وقلبها في دهور التجلي وأيام التدلي وساعات كشف الملكوت والجبروت والملك والقدرة.

ثم تجلى لها في قرار رحم الفعل بالهيبة والعزة؛ فصارت ملونة بلون حسن الفعل الذي هو مرآة تجلي الجمال، وذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾؛ فلما أذابها في كبر العشق بنفخ المحبة، وصبغها بصبغ المودة صوغها في بوتقة الفطرة ذهبًا لنقش نقوش خاتم الملك، وألقاها في مشرق كشف شموس الربوبية حتى نضجت بنيران المحبة، وصارت سبيكة من لطف التجلي، وهذا معنى قوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ ثم صيرها سواقي بحار دماء الطبيعة، وجعل سواقيها عروق مشارب الفطرة، فتحركت من غلبتها؛ فغرس فيها الحق أشجار فعله حتى سكن بناؤها باستوائه قدرته بقوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾.

ثم خلعها خلعة مزيد فيض النظر في زمان التربية بقوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ثم تركها في ضياء فعله ونور تجلي قدرته ليكمل استعدادها قبول نقش الملك فنقشها بنقش سر العلم بصورة آدم، ثم زين وجهها بزينة نور جماله، وصورها بصورة روح فعله وكلها برحمته،

(١) رواه البخاري (٥٨٤٣)، ومسلم (٢٦١١).

وجعل قلبها مجامع الأخلاق، وكيد وكبدها مجامع الطبائع ودماغها منورًا بنور عقل؛ فلما كساها نور خلقه وكملها بقدرته، وأدخلها روحه فصار آدم ثانيًا مواضع كنوز ربوبيته وحقائق قدرته وعلمه، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

ثم نـزه نفسه عن المشابهة بالحدثان والتغاير بتغاير الزمان والمكان بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ قدس جلاله عن الإبعاض والتجزؤ والتمثيل والتصوير ما أحسن صنعه وقدرته عين جاء أبناء آدم عالمًا، وجعل في آدم ما في جميع العالم.

وقال الحسين: الخلق متفاوتون في منازلهم، ومقامات خلقهم وصفاتهم، وقد كرم الله بني آدم بصورة الملك والملكوت وروح النور ونور المعرفة والعلم، وفضلهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً.

وقال أيضًا: خلق بني آدم بين الأمر والثواب وبين الظلمة والنور فعدل خلقهم وزاد المؤمنين بإيمانهم نورًا مبينًا وهدى وعلمًا، وفضلهم على سائر العالمين، كما نقلهم في بدء خلقهم من حال إلى حال؛ فأظهر فيهم الفطرة والإياب وتكامل فيهم الصنع والحكمة والبينات، وتظاهر عليهم الروح والنور والسبحات من كانوا ترابًا ونطفة وعلقة ومضغة ثم جعله خلقًا سويًا إلى أن كملت فيهم المعرفة الأصلية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ...﴾ إلى قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وقال الحسين: خلق الخلق فاعتد بها على أربعة أصول الربع الأعلى الهيبة والربع الآخر آثار الربوبية والربع الآخر النورية بين فيها التدبير والمشيئة والعلم والمعرفة والفهم والفطنة والفراسة والإدراك والتمييز ولغات الكلام والربع الآخر الحركة والسكون كذلك خلقه فسواه.

وقال أيضًا في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾: فطر الأشياء بقدرته ودبرها بلطيف صنعه، فأبدى آدم كما شاء بما شاء، وأخرج منه ذرية على النعت الذي وصف من مضغة وعلقة، وبديع خلقه، وأوجب لنفسه عند خلقته اسم الخالق، وعند صنعته الصانع لم يحدثوا له اسمًا كان موصوفًا بالقدرة على إبداء الخلق؛ فلما أبداها أظهر اسمه الخالق للمخلوق، وأبرزه لهم، وكان هذا الاسم مكنونًا لديه مدعوًا به في أزله سمى بذلك نفسه، ودعا نفسه به، فالخلق جميعًا عن إدراك وصف قدرته عاجزون، وكل ما وصف الله به نفسه فهو له، وهو أعز وأجل أظهر للخلق من نعوته ما يطيقونه، ويليق بهم ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

ثم إن الله سبحانه بعد وصف الخلق والخليقة وآدم والذرية أعلمنا محل فنائنا عن هذه الأوصاف الكاملة والصنائع الشريفة لتربية أخرى في التراب، وإظهار زيادة قدرة فينا بإدخال حياة ثانية في أشباحنا وتربية ثانية في أرواحنا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝﴾ الموت يتعلق بصعقة سطوات العزة، وظهور أنوار العظمة، وحياتنا تتعلق بكشف جمال الأزلي، هنالك تعيش الأرواح والأشباح بحياة وصالية لا يجري بعدها موت الفراق.

قال الحسين: ملك الموت هو موكل بأرواح بني آدم، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم، وموت العلماء هو بقاؤهم إلا أنه استتار عن الأبصار، وموت المطيعين المعصية إذا عرف من عصاه.

وقال بعضهم: من مات من الدنيا خرج إلى حياة الآخرة، ومن مات من الآخرة خرج منها إلى الحياة الأصلية، وهو البقاء مع الله.

ثم بيَّن سبحانه وصف أعلام قدرته، وعجائب صنوف صنعه في خلقه من سماواته وما فيها من طرقها إلى عالم ملكوته بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ۝﴾ وضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة، وتلك الطرائق: طريق الروح إلى معادن الربوبية وعرفانها بالحقيقة، فمنها طريق العقل، ومنها طريق العلم، ومنها طريق الحكمة، ومنها طريق المعاملة، ومنها طريق النفس، ومنها طريق القلب، ومنها طريق السر، وطريق العقل التفكر في الآلاء والنعماء، وطريق العلم معرفة الخطاب بطريق الحكمة المعرفة بحقيقة الأشياء، وطريق المعاملة تحصيل ذوقها وصفاتها باستعمال الآداب، وطريق النفس قطعها عن حظوظها والمعرفة بمكائدها وأخلاقها، وطريق القلب المعرفة بنازلات لطائف الغيب فيه، وطريق السر معرفة اتصالها بنور الحضرة.

فمن قطع هذه الطرق يصل إلى سبع الصفات، ورؤيتها والعلم بها حتى يصل إلى بحار الذات، واستغرق فيها بنعت الحيرة، فإذا استغاث من حيرته به أدركه بفيض المعرفة والوصلة، وذلك معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ۝﴾ ظاهر الآية تنبيه يوجب الإجلال والتعظيم في منازل المراقبات؛ فمن بقي في هذه الحجب السماوية والأرضية وارتهن بشيء منها، فقد انقطع عن مواصلة المشاهدة.

قال أبو يزيد في هذه الآية: إن لم تعرف؛ فقد عرفك، وإن لم تصل إليه؛ فقد وصل إليك، وإن غبت أو غفلت عنه؛ فليس عنك بغائب ولا غافل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ

ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

وقال بعضهم: سبع حجب متصلة تحجبه عن ربه، فالحجاب الأول: عقله، والحجاب الثاني: علمه، والحجاب الثالث: قلبه، والحجاب الرابع: حسه، والحجاب الخامس: نفسه، والحجاب السادس: إرادته، والحجاب السابع: مشيئته؛ فالعقل باشتغاله بتدبير الدنيا، والعلم لمباهاته مع الأقران، والقلب الغفلة والحواس لإغفالها عن موارد الأمور عليها والنفس؛ لأنها مأوى كل بلية، والإرادة وهي إرادة الدنيا، والإعراض عن الآخرة، والمشيئة وهي ملازمة الذنوب.

وقال الأستاذ: فوقنا حجب ظاهرة وباطنة؛ ففي ظاهر السماوات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وغطاء كالمنية والشهوة والإرادة الشاغلة والغفلات المتراكمة، أما المريدون إذا أظلتهم سحائب الفترة سكن هيجان إرادتهم، فذلك من الطرائق التي علتهم، وأما الزاهدون فإذا تحرك بهم عروق الرغبة نفد قوة زهدهم وضعف دعائم صبرهم فيترخصون بالجنوح إلى بعض التأويلات فيعود رغباتهم قليلاً قليلاً، ويحيل رتبة عروقهم، وتنهد دعائم زهدهم، فبداية ذلك من الطرائق التي خلق فوقهم.

وأما العارفون فربما تظلهم في بعض أحايينهم وقفة في تصاعد سرّهم إلى ساحات الحقائق؛ فيصيرون موقوفين ريثما ما يتفضل الحق سبحانه بكفاية ذلك، فيجدون نفاذاً ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق في جميع هذا الحق سبحانه غير تارك للعبد، ولا عن الحق غافل قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أنزل من سماوات القيومية مياه أنوار المعرفة بقدر قوى الأرواح القدسية، وأسكنها في أماكن قلوب العارفين فتجرى على عرضاتها، وتنبت أشجار الحقائق وأزهار الدقائق وياسمين المودة وورد المحبة ونرجس السعادة، وبنفسج الكفاية بقوله: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ وتنبت على سيناء العقل شجرة الإيمان التي تنبت ثمرة الإيقان التي دهنها وصبغها حقيقة التوحيد والعرفان، قال الله تعالى: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قال الأستاذ [1]: ماءٌ هو صوب الرحمة يزيل به درن العصاة وآثار زلتهم، وغبار

---

(١) انظر: تفسيره (٥/ ٢٤٧).

عشرتهم، وماء هو يسقي قلوبهم يزيل به عطش كيدهم، ويحيي به أموات أحوالهم، فينبت في رياض قلوبهم فنون أزهار البسط وصنوف أنوار الروح وماء هو شراب المحبة فيخضر به قلوب بساحات القرب، فيزيل عنها به حشمة الوصف، ويسكر به قلوبًا فيعطلها عن التمييز، ويحملها على التجاسر والخطر ببذل الروح، فإذا شربوا طَربوا، وإذا طَربوا لم يُبالوا بها وَهَبوا [1].

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أمر الله سبحانه نبيه نوحًا عليه السلام أن يصنع أعماله جميعًا على وصف المراقبة والمشاهدة حتى يكون محفوظًا بعصمته عن طريان القهر.

قال الجنيد: من عامل على المشاهدة أورثه الله عليه الرضا.

قال الله: ﴿ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾

(١) (وصِبغٍ للآكلين) أي: إدام لهم، قال مقاتل: جعل الله في هذه إداماً ودُهناً، فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت.

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: أنـزلني منـزل مشاهدتك حتى أصل بركة وصالك، وأفوز برؤية جمالك وجلالك[1].

قال ابن عطاء: أكثر المنازل بركة منـزل تسلم فيه من هواجس النفس ووساوس الشيطان وموبقات الهوى، وتصل فيه إلى محل القربة منازل القدس، وسلامة القلب من الأهواء والبدع.

وقال الأستاذ: الإنـزال المبارك أن يكون بالله، والله على شهود الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفة لأمر الله[2].

---

(١) قوله: منـزلاً مباركًا بضم الميم، وفتحها بمعنى: موضع إنزال، أو موضع نزول؛ وهي السفينة النوحية هاهنا؛ لأن الخطاب لنوح ، فكانت السفينة منـزلاً مبـاركًا له، ولمن معه من المؤمنين حيث نجوا منها من الطوفان، كما أن البَرّ كان منـزلاً غير مبارك لمن عصاه من المشركين حيث أُغرقوا من فيه بالطوفان، وذلك لأن دخول السفينة كان بإذن الله تعالى؛ فكانت منـزلاً مباركًا يستتبع نفعًا كثيرًا ظاهرًا وباطنًا، والإباء عن دخولها بإضلال الشيطان، وتسويل النفس؛ فكان عاقبته شرًا محضًا، وهلاكًا صرفًا، فكما أن دخول السفينة كان خيرًا محضًا؛ لكونه امتثالاً لأمر الله تعالى، فكذا الخروج عنها بعد ما كان أمر الله مفعولاً؛ فكانت الأرض أيضًا منـزلاً مباركًا لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ [هود: ٤٤]؛ لأنها مع الماء المستوعَب لا يُنتفع بها، ولمَّا كانت السورة مكية؛ كان من إشارتها أن يدعوا نبينا ﷺ بهذا الدعاء لنـزّله الله المنـزّل المبارك الذي هو المدينة المنورة؛ فكانت المدينة مباركة ببركة قدمه ﷺ، كما كانت مكة المكرمة مباركة بقدمه، وبأقدام سائر الأنبياء أيضًا عليهم السلام، فكلٌّ منهم منـزَل مبارك لمن أراد أن يكون في جوار الله تعالى، وجوار سيد المرسلين.

(٢) وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النـزول إليها، وكذا البدن =

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝﴾ جعل الله عيسى وأمه مشكاتي أنوار قدسه، ومرآتي تجلي جلاله وجماله لبصراء الصديقين ونظّار المقربين وآواهما إلى ربوة تلال مشاهد القدم ذات قرار لأسرار العارفين ومعين سواقي بحار الكرم التي شرباتها تحيى الأسرار من موت الفناء، وتبلغها إلى حياة البقاء.

ثم خاطب روحه وكلمته باسم الجمع؛ لأنه كان مجامع أخلاق جميع الأنبياء والرسل، ويمكن أن هذا خطاب مع سيد الرسل محمد المصطفى ﷺ، وهو أليق بذلك؛ لأنه بحر الله ينشق منها أنهار الأنبياء والرسل.

ثم أمره بأكل الحلال بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الإشارة إلى خوان دنا فتدلى ومشاهدة الأعلى بين كان قاب قوسين أو أدنى جلال مشاهدته ووصال جماله جلال للعارفين، حيث لا يدخل فيه علة الحرمان، ولا فيه مخائيل الشيطان؛ فطلب منه بعد أكل موائد المشاهدة العمل الصالح، وهو التبري من الحدثان، وتلاشي النفس بنعت المعرفة في جمال الألوهية بقوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فلما دنا من ترب القرب، ووصل إلى سر السر فرد القدم عن علة الحدث بقوله ﷺ:

«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1] أكل عيسى من ربوة المشاهدة مائدة القربة، فلما رأى سطوات الديمومية شملت وجوده أفنى نفسه لثبوت العمل الصالح

=

الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلّقًا به تعلّق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركًا؛ لأن الروح إنما يترقّى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له بمزاولة الأعمال الصالحة، ولذلك كانت دوائرهم وبقاعهم من المنازل المباركة أيضًا، فمَن وفّقه الله تعالى للنزول فيها، والتردُّد إليها غُدوًا ورواحًا؛ كان عبدًا مباركًا نافعًا للعالمين، فطوبى لمَن تشرَّف بهذا الشرف العظيم، وويلٌ لمَن وقع في الذُّل والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم. ومن المنازل العلية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومَن دخله؛ كان آمنًا من برد الطبع، وحرِّ الشهوة، سالمًا من آفات الشكوك والظنون، متصفًا بالصفات الإبراهيمية، والمحمَّدية، وسائر الكُمَّل الندر.

(١) سبق تخريجه.

عن إدراك عزته بشرط الحقيقة بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

قال سهل: الطيبات الحلال، والصالحات من الأعمال آداب الأمر بالفرض والسنة، واجتناب النهي باطنًا وظاهرًا.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ملة المحبة والمعرفة المفردة عن شوائب الطبيعة مقرونة بنور الإسلام والإيمان لمن تابع المصطفى بنعت الأسوة والقدوة في جميع المعاملات والأحوال.

قال القاسم: أي: تفردت بشرف محمد ﷺ ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ مني شرف محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ أي: لا تقطعوا عني بشيء سواي، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: شاهدني وبوصف إجلال جلالي وخوف عظمتي؛ فأنا ربكم أربيكم بحسن وصالي، ومعاشرة صحبتي.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ هذا إشارة تغيير لأهل المعاملات فشكا عنهم سبحانه أنهم يفرحون بمعاملاتهم، ورؤية أعواضها، وأضاف العلة إليهم؛ لأن أعمالهم التي لديهم صفات الحدثانية، ولا ينبغي للعارفين أن يفرحوا بها دون الله من العرش إلى الثرى، فالفرح الحقيقي ما صدر من شهود مشاهدة جلاله للأرواح القدسية الملكوتية فتفرح بوصاله، وروح جماله أبدًا في محل الأفراح.

ويا لبيب افهم كلامي؛ فإن العارف الصادق إذا استغرق في بحار المعرفة فهمومه أكثر من فرحه؛ لأن الفرح بما وجد من الله من قربة على قدر حاله، وما بقي عنه؛ فهو غير محدود، فإذا كان بما وجد محجوبًا عن الكل، فما معنى الفرح بمقام واحد، والوقوف علة يحجب بها الأكثرون، فبقي العارف من بحر الهموم أبدًا؛ لأن إدراكه قاصر عن البلوغ إلى عزة جلاله إذ جلاله منزه عن درك المدركين، وإحاطة عرفان العارفين تعالى الله عن كل وهم وفهم.

قال بعضهم: ربط كل أحد بحظه في سعاياته وحركاته، والسعيد من جذب عن حظه،

ورد إلى حظ الحق فيه.

وقال الواسطي: الواقفون مع العارف على مقدار تأثير أنوار الحق فيهم لا على قدر حركتهم وسعيهم؛ لأنه ليس أحد يصل إلى معروفه بجهد ولا اجتهاد، ومن ظن أن شيئًا من أفعاله يوصله إلى مولاه؛ فقد ظن باطلاً فسبق العناية بصون الأشباح والأرواح وبوصل أهل معرفته إليه، فمن اعتمد غير ذلك؛ فقد سكن إلى غرور وفرح بالأماني وهو قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ كيف يفرح بما لديه، وليس يعلم ما سبق له في محتوم العلم[1].

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

(١) واعلم أن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فإلقاؤه عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللّهم إلا أن يقال: إن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو ممّن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لاسيما إذا علّق ذلك به؛ كان أنفع، وقد يجتمع الإلقاءات، فيلقى الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهّر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

إن الله سبحانه امتحن الممتحنين بزينة الدنيا ولذاتها وجاهها ومالها وخيراتها ليقطعوا طرق الامتحان، وحرموا إلى مشاهدة الرحمن فاستلذوها، واحتجبوا بها ظنوا أنها مآل جميع الراحات، وأنهم مقبولون حين أعطوا هذه المقامات، ولم يعلموا أنها استدراج لا منهاج، قال الله تعالى: ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾.

قال عبد العزيز المكي: من تزين بزينة فانية؛ فتلك الزينة تكون وبالاً عليه إلا من تزين بما يبقى من الطاعات والموافقات والمجاهدات، فإن الأنفس فانية والأموال عوار، والأولاد فتنة، فمن يسارع في جمعها وحظها، وتعلق القلب به قطعه عن الخيرات أجمع، وما عند الله بطاعة أفضل من مخالفة النفس، والتقلل من الدنيا، وقطع القلب عنها؛ لأن المسارعة في الخيرات هو اجتناب الشرور، وأول الشرور حب الدنيا؛ لأنها مزرعة الشيطان فمن طلبها وعمرها؛ فهو حراثه وعبده وشر من الشيطان من يقين الشيطان على عمارة دار، وقال الله: ﴿ أَيَحْسَبُونَ ﴾.

ثم إن الله سبحانه وصف الصادقين بالخشية والخوف والإيمان والتوحيد واليقين بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ الذين هم متعظمون عظمته وجلاله بعد كونهم معاينين رؤيته ومشاهدته خائفين من الهجران والاحتجاب بشيء من الحدثان، ثم قال تعالى في وصفهم: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوقنون أنها مشاهد مشاهدة قدسية وظهور صفاته وذاته.

ثم وصفهم بأنهم لا يؤثرون عليه شيئًا من الحوادث بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ لا يلتفتون في طاعته إلى غيره، ولا ينظرون منه إلى أنفسهم، وحظها من الكونين.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أي: الذين سافروا سفر العبودية بحقائقها، وشاهدوا جمال الربوبية وأنوارها بنعت الخجل والوجل لعلمهم بأن ما أتوا من الطاعات وبذل المهج والموجودات في رؤية كبريائه وجلاله مع طاعات جميع المخلوقات أقل من ذرة، ووجل قلوبهم من صوله تجلي العظمة لها قلوبهم في الغيوب جوالة وأرواحهم في الملكوت والجبروت طيَّارة، وأسرارهم في ميادين تجلي الصفات والذات فانية.

ثم وصفهم بالتسارع إلى الخيرات بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ لطلب مرضاته ووصولهم إلى مشاهداته، وهم في ذلك سابقون في الأزل من الله بالسعادات الأولية والآخرية.

قال بعضهم: في قوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾: الإشفاق والخشية اسمان باطنان وهما عملان من أعمال القلب والخشية سر في القلب خفي والإشفاق من الخشية أخفى.

قيل: الخشية انكسار القلب من دوام الانتصاب بين يديه، ومن بعد هذه المرتبة الإشفاق، والإشفاق أرق من الخشية وألطف، والخشية أرق من الخوف، والخوف أرق من الرهبة، ولكل منها صفة ومكان وأدب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾: مطالعة الكون بأبصار القلوب، فتعلم أنها في حدِّ الفناء، وما كان بين طرفي فناء؛ فهو فان فيؤمنون بالحق يفتح أبصار قلوبهم بالنظر إلى المغيبات.

وقال الجنيد في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾: من فتش سره فرأى فيه شيئًا أعظم من ربه أو أجل منه؛ فقد أشرك به، إذ جعل له مثلاً.

قال الواسطي: الخائف الرجل من لا يشهد حظه بحال.

قال بعضهم: وجل العارف من طاعته أكثر من وجله من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب تصحيحها، والإخلاص والصدق فيها؛ لذلك قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ ...الآية﴾.

وقال أبو الحسن الوراق في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾: ذلك بما تقدم من الآيات بالمسارعة إلى الخيرات يبتغي درجة السابقين، ويطلب مكارم الواصلين لا بالدعاوى والإمهال، وتضييع الأوقات، من أراد الوصول على المقامات من غير آداب ورياضات ومجاهدات؛ فقد خاب وخسر وحرم الوصول إليها بحال.

وقال يحيى بن معاذ في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾: الراغبون في رضا المولى.

حكي عن الشبلي أنه قال: وصفهم بالإشفاق والخشية، وذلك حين رفعهم مولاهم إلى منازل اليقين حتى وصلوا من علم اليقين إلى عين اليقين، وشربوا من عين اليقين بكأس

اليقين؛ فشاهدوا في مقام عين اليقين، وارتفع عن قلوبهم كل شكٍّ، وريب ثم نقلهم من تلك المقامات كلها إلى منازل الخوف، فنازلوا الإشفاق والحذر والخشية، فوجلت قلوبهم من تلوين الأحوال عليهم، وهم من خشية ربهم مشفقون.

وقال النهرجوري: هم القائمون مع الله من حيث قام لهم، ومن حيث يرون قيام الله لهم؛ فهم في أحوالهم مشفقون.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أن الله سبحانه خلق النفوس الروحانية من عالم الملكوت، وهي صدرت من فيض لطف صفاته؛ فهي تحمل أمانات معرفة ربوبيته، وهي تطيق حمل ما رد تجلي الذات والصفات إذ هي محمولة بمطايا أنوار العناية والكفاية، وخلق النفوس الإنسانية من عالم أنوار الفعل، وهي صدرت من تواثير سلطان قهر القدم، وهي مجبولة لحمل أثقال العبودية إذ هي محمولة بمطية ذلك القهر؛ فكانت النفوس مطايا حمل الربوبية والعبودية، وهي تسعها به لا بها.

لذلك قال ﷺ حاكيًا عن الله تعالى: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»[1]؛ فإذا جاءت بنعت الإشفاق إلى مشاهدة الذات والصفات، وبنعت العجز عن مقابلة الجبروت، وعجزها عن حمل عزة الملكوت، خرست عن الأعذار يعتذر صانعها بنطق أزلي بأنها صادرة من الحدثان غير مخلوقة لحمل أصل القدم، قال تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ يشهد لها لا عليها ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ بأن القدم بوصف القدم يكون حملها بل يكون حملها على قدر وسعها.

قال الجريري: لم يكلف الله العباد بمعرفته على قدره، وإنما كلفهم على أقدارهم، فقال: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، ولو كلفهم على قدره ومقداره لجهلوه وما عرفوه؛ لأنه لا يعرف قدره أحد سواه، ولا يعرفه على الحقيقة سواه، وإنما ألقي إلى الخلق منها اسمًا ورسمًا إكرامًا منه لهم بذلك، وأما المعرفة؛ فإنها التحير والتّيهوية.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٩٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٥٥).

ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (٧٤) * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا
بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟
لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨)
وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ
ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١)
قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا
هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣) قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧)
قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٩٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ انهم أن الله سبحانه ألبس وصف قهره النفوس الأبية فاستكبرت عند مباشرتها القهر الجبروتي، وخرجت بنعت الكبرياء إلى ميادين الربوبية فألقى الحق سلطان عزمة قدمه عليها وكسر قرونها بطاعته، ولولا أنه تعالى حبسها في ملازمة قهره لخربت الأرض بفسادها وتكبرها، ولم يرتفع طاعة المطيعين إلى السماء، وكيف يكون الصانع القديم بمراد النفوس الحديثة إذ جلاله كان منزهًا عن محل إرادة كل مريد وحلول كل حادث، أعطاها شرف مباشرة ربوبيته فأبت بحظوظها عن رؤيتها، لذلك قال سبحانه: ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) ﴾ بذكره الأزلي ذكرهم بالعبودية وشرَّفهم بالطاعة، نهم عن شرف الطاعة معرضون، وأيضًا تجلى الحق في لباس القرآن لأهل العرفان، ولم تبصره أبصار أهل الطغيان.

قال الواسطي: أول ما كاشف الله خلقه كاشفهم بالمعارف ثم بالوسائل ثم بالسكينة ثم بالبصائر؛ فلما عاينوا الحق بالحق فنوا عن كل همة وإرادة.

قال بعضهم: لولا أن الله تعالى أمر بمخالفة النفوس ومباينتها لاتبع الخلق هواهم في شهوات النفوس، ولو فعلوا ذلك لضلوا عن طريق العبودية، وتركوا أوامر الله، وأعرضوا عن طاعته، ولزموا مخالفتها، ألا ترى الله يقول: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

ثم بيَّن سبحانه أن حبيبه صلوات الله عليه يدعوهم إلى تلك المشاهدة بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ ﴾ الصراط المستقيم ما أوضحه أنوار جماله ومشاهدته، وهو طريق معرفته في قلوب الصديقين لأرواح القدسية، وتلك الطريقة منتهاها المحبة، وبدايتها الأسوة والمتابعة لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن عطاء: إنك لتحملهم على مسالك الوصول، وليس كل أحد يصلح لذلك السلوك، ولا يوفق له إلا أهل الاستقامة، وهم الذين استقاموا لله مع الله، ولم يطلبوا منه سواه، ولم يروا لأنفسهم درجة ولا مقامًا.

قال بعضهم: لي الإقبال على الله، والإعراض عمن سواه، ثم بيَّن سبحانه حال المحرومين عن هذه الطريقة المباركة والإيمان بالغيب والآخرة، ووصفهم بالضلالة عن طريق الصواب بقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ أي: الذين لا يشاهدون بقلوبهم أنوار الغيب لناكبون عن متابعتك يا محمد.

قال أبو بكر الوراق: من لم يهتم لأمر معاده ومنقلبه، وما يظهر عليه في الملأ الأعلى والمشهد الأعظم؛ فهو ضال عن طريقته غير متبع لرشده، وآخر منه حالاً من يهتم لما جرى له في السبق من ربه؛ لأن هذا المصدر فرع لتلك السابقة، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ الآية.

ثم بيَّن أن لو كشف لهم حجاب الهجران، ورأوا جمال الرحمن لادعوا من سكرهم في جمال الأنانية بقوله تعالى:

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ لو خلصهم عن درك الامتحان، وكشف عنهم ضر الحرمان للجوا في دعاويهم العظيمة التي تفسد الرسوم، وبقوا في طغيان دعاويهم.

قال ابن عطاء: الرحمة من الله على الأرواح المشاهدة، ورحمته على الأسرار المراقبة، ورحمته على القلوب المعرفة، ورحمته على الأبدان آثار الخدمة عليها على سبيل السنة.

وقال أبو بكر بن طاهر: كشف الضر هو الخلاص من أماني النفس، وطول الأمل،

وطلب الرياسة والعلو، وحب الدنيا؛ فإن هذا كله مما يضر بالمؤمن.

قال الواسطي: للعلم طغيان، وهو تفاخر به، وللمال طغيان، وهو البخل، وللعمل والعادة طغيان، وهو الرياء والسمعة، وللنفس طغيان، وهو اتباع شهواتها.

ثم بيّن أنه تعالى ابتلاهم بعذاب الفرقة، ولم يتحسروا بذلك، وما أرادوا الرجوع إليه بنعت التصريح بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ أفرد أرواحهم في مبادئ العهد بشهود نور جماله لها وخطابه معها، فلما وصلت الأشباح ابتلاها بحجاب النفوس والشياطين، ولم ترجع إلى طلب معادنها؛ فشكا الله سبحانه عنها، ومن حق معرفتها أنها تفنى براءة الحجاب والخطاب بالعتاب، وهذا وصف بعض العارفين الذين هاموا في أودية الكبرياء والعظمة، ولا يجدون لذة الوصال والجمال من صولة التوحيد؛ فوقعوا في بحار الأولية، وباشروا بالجرأة ما يوجب العتاب، فلم يلتفتوا إلى مراعاة الرجوع لاستكبارهم بمقاماتهم العظيمة، ولا يهتمون على فوائت حظوظ المشاهدة يا ليت لو علموا خفايا مكره لتضرعوا واستكانوا حتى يكشف ما وراء أحوالهم من عظائم غيوبات الصفات، وعجائب كشوف الذات، التي لو شاهدوها لذابوا ساعة بنعت الفناء في القدم، ولتاهوا ساعة بنعت البقاء مع السكر والصحو في الأبد.

وافهم أن الله سبحانه وقع المريدين في موت الفوت؛ فجاهدوا أنفسهم بأنواع العبادات والرياضات، ولو استعاذوا به، واستعانوا لسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فأين هم من التضرع والبكاء، وتعفير الوجوه بالتراب على فناء وحدانيته وجناب ديموميته؟ وبهذا وصل الواصلون إلى الله.

قال سهل: ما أخلصوا لربهم في العبودية، ولا ذلوا له بالوحدانية.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ نزه نفسه سبحانه عن مخايل الزنادقة، وكان منزهًا عن أباطيل إشارة المشبهة، وذاته ممتنع بكمال أحديته عن زعم الثنوية، كيف يجوز أن يكون القدم محل الحوادث إذ القدم المنزه إذا تجلى بنعت القدم

للحدثان صار معدومًا كالعدم تعالى الله عن كل وهم وإشارة.

قال الحسين: الصمدية ممتنعة من قبول ما لا يليق بها؛ لأن الصمدية تنافي أضدادها على الأبد، وهي ممتنعة عن درك معانيها؛ فكيف تبقى مع أضدادها، وما لا يليق بها[1].

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ دعا حبيبه إلى استعمال خلقه العظيم وظرفه الكريم الذي مستفاد من خلقه حين ألبسه إياه حين اصطفاه على العالمين أي: احتمل بحلمك جفاء الجافين، وراعهم بطيب الكلام، وحسن السلام، وإعراض الجميل.

قال القاسم: استعمل معهم ما جبلناك عليه من الأخلاق الكريمة والشفقة والرحمة؛ فإنك أعظم خطرًا من أن يؤثر فيك ما يظهرونه من أنواع المخالفات.

قال بعضهم: ادفع عنك بأخلاقك جهلهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بيَّن سبحانه أن من كان ساقطًا عن مركب الطاعات لم يصل إلى الدرجات، ومن كان محرومًا عن المراقبات في البدايات كان محجوبًا عن المشاهدات والمعاينات في النهايات، وإن أهل المزخرفات والدعاوى والترهات تمنوا في وقت النـزع إن لم يمض عليهم أوقاتهم بالغفلة عن الطاعات، ولم يتكلفوا بالدعاوى والمحالات.

قال أبو عثمان في كتاب له إلى أهل «جرجان»: لو عمل أهل النار عملاً أنجى لهم من طاعة الله وصلاح لما فرغوا في وقت العيان إلا إليه بقولهم: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا﴾؛ فأقبل على طاعة مولاك، واجتنب الدعاوي، وإطلاق القول في الأحوال فإن ذلك فتنة عظيمة، هلك في ذلك طائفة من المريدين، وما فرغ أحد إلى تصحيح المعاملات إلا أداه بركة ذلك إلى سني الرتب، ولا ترك أحد هذه الطريقة إلا تعطل.

---

(١) واعلم إن الأحدية ينافيها الازدواج؛ لتأدِّيته إلى التكثُّر، والصمدية ينافيها الاحتياج؛ لتأدِّيته إلى الذلَّة المنافية للألوهية.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ أخبر عن أوائل كشف جلاله وجماله؛ فإذا قاموا على بساط الهيبة، وسرادق الكبرياء والعزة، وعاينوا الذات القديم، ولهوا في مشاهدته مستغرقين في بحار أنوار جماله وجلاله، واشتغلوا بذوقهم في وصاله من وصاله عن مرافقة كل رفيق، ومصادقة كل صديق، وانتسابهم إلى الأخوة والمصاحبة، ولا يتساءلون عند سطوات عظمته حالهم بعضهم بعضًا لشغلهم بمعاينة وجوده ونشر جوده؛ فإنهم غائبون في شهودهم مشاهدة قربه ومعاينة قدمه وبقائه فنسبهم هناك نسب المعرفة والمحبة الأزلية واصطفائية القدمية، لا يفتخرون بشيء دونه من العرش إلى الثرى.

قال فارس: الأنساب رؤية الأعمال، ورجاء الخلاص بها، ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يتذاكرون مما جرى عليهم في الدنيا من نعيمها وبؤسها شغلاً بما هم فيه.

قال محمد بن علي الترمذي: الأنساب كلها منقطعة إلا من كانت نسبته صحيحة في عبودية ربه؛ فإن تلك نسبة لا تنقطع أبدًا، وتلك النسبة المفتخر بها لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد[1].

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ أي: غلبت علينا الدعاوى الباطلة، والخوض في الطَّامات والترهات.

قال أبو تراب: الشقوة: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق.

---

(١) (فلا أنساب بينهم يومئذٍ) تنفعهم، لزوال التراحم والتعاطف بينهم؛ من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفر المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. البحر المديد - (٤/ ٢٠٦).

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ جزيتهم بمشاهدتي بما صبروا في طاعتي، واحتمالهم جفاء أعدائي؛ فإنهم فائزون من فراقي أبدًا، خارجون من عناء الفرقة، وطعن الطاعنين في زمان المحبة.

قال أبو عثمان: ما صبروا حتى أكرموا بالصبر، والصبر حبس النفس عن الشهوات.

قال ابن عطاء: صبروا عن الخلق، وصبروا مع الله.

وقال أبو بكر بن طاهر: الفائزون: الآمنون من أهوال القيامة.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ غيرهم بما سكنوا إليه مما وجدوا منه حيث ظنوا أن ما وجدوا منه على حدِّ الكمال فوقفوا؛ فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ للوقفة عني بشيء مما وجدتم مني ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ بنعت الفناء عما وجدتم، وعما سكنتم به عني، ثم عظم جلاله وكبرياءه عن إدراكهم، وإن رجعوا إليه به بقوله: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ تعالى جلاله عن أن يدركه المدركون، ويلحق بعزته اللاحقون، هو الحق بحقيقته، وحقيقته لا يطلع عليها إلا هو، تلاشت الحدثان في سطوات جلاله حتى أن العرش الكريم مع عظمه صغر في عين نملة من قهر عزته، ومن نظر إلى شيء سواه، وإن كان منه رتبة عظيمة في المعرفة؛ فهو محجوب به عنه بقوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾.

ثم أمر صفي المملكة بعذر عجزه، وتحيره عن درك نعوته الأزلية، وصفاته الأبدية بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ ﴾ اغفر تقصيري في معرفتك، وارحمني بكشف زيادة المقام

في مشاهدتك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إذ كل رحمة في الكونين قطرة مستفادة من بحار رحمتك القديمة.

حكى يوسف بن الحسين عن أحمد بن أبي الحواري في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾: لا يصل إلى قلبك روح التوحيد، وله عندك حق لم تؤده.

وقال الواسطي: أظهر الأكوان ليظهر آثار الولاية على الأولياء، وآثار الشقاء على الأعداء.

وقال في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾: لا يحتمله إلا الحق حجب الكون بالصفات والنعوت، ثم حجب النعوت بالحقيقة.

وقال: الحق عجز الخلق أن يدركوه بإدراكهم، وإنما يدرك بإدراكه.

قال ابن عطاء: تعالى أن يغيره الدهور أو يجري عليه قوادح الأمور، نفى الأشكال عن نفسه بتعاليه، ونفى الأضداد والنظراء عن نفسه بتمام ملكه عز وعلا.

وقال الأستاذ: الحق بنعوت جلاله متوحد، وفي عز أزاله، وعلو أوصافه متفرد فذاته حق، وصفاته حق، وقوله صدق، ولا يتوجب لمخلوق عليه حق.

تم الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث، وأوله:

سورة النور

❁❁❁

فهرس المحتويات

سورة التوبة.. ٣

سورة يونس ٦١

سورة هود ١٠٤

سورة يوسف عليه السلام ١٤٥

سورة الرعد ٢١٥

سورة إبراهيم.. ٢٥١

سورة الحجر.. ٢٧٣

سورة النحل.. ٣٠٧

سورة بني إسرائيل ٣٤٦

سورة الكهف.. ٣٩٢

سورة مريم ٤٤٩

سورة طه ٤٧٢

سورة الأنبياء.. ٥٠٩

سورة الحج ٥٣٠

سورة المؤمنون.. ٥٤٩

فهرس المحتويات.. ٥٧٣

ʿARĀʾIS AL-BAYAN FĪ ḤAQĀʾIQ AL-QURʾĀN

By
Rūzbahān al-Baqli

Edited by
Aḥmad Farīd al-Mizyadi

VOLUME II

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
Est. by Mohammad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

عرائس البيان في حقائق القرآن

تأليف
الشيخ العارف بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثالث

المحتوى:
أول سورة النور - إلى آخر سورة الناس

دار الكتب العلمية
DKi
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

HELSINGIN YLIOPISTON
HUMANISTISEN TIEDEKUNNAN
KIRJASTO
TOPELIA

Title : 'Arā'is al-Bayān
fī Ḥaqā'iq al-Qur'ān
classification: *Exegesis of the Qur'an*
Author : Rūzbahān al-Baqli
Editor : Aḥmad Farīd al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages : 1664 (3 volumes)
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب : عرائس البيان
في حقائق القرآن
التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : الشيخ العارف بالله روزبهان البقلي
المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلميـــة – بيروت
عدد الصفحات : 1664 (3 أجزاء)
سنة الطباعة : 2008
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى (لونان)

ISBN 2-7451-5743-4 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5743-X (13 dig)
9 782745 157430 90000

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م - ١٤٢٩ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

http://www.al-ilmiyah.com
sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ أنزل الله القرآن من سماء القدم على سيد أهل الكرم، وجعله سرجًا أسرجها من نوار الذات في مشكاة الآيات لألباء الحقيقة، وأدلاء الطريقة لينوروا بأنوارها طرق المعارف، وسبل الكواشف، وأوجب ما فيها من أحكام العبودية على العباد، وأنزل في هذه السورة آيات دالة على أسرار القدوسية، وأنوار السبوحية بينات واضحات لأولي النهي من العارفين، وأهل الفطنة من الموقنين ليتعظ بمواعظها المريدون، ويقتبس أنوارها العارفون، ويدرك حقائقها الموحدون.

قال سهل: جمعناها وبيناها حلالها وحرامها.

وقال بعضهم: لو لم يكن من آيات هذه السورة إلا براءة الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله لكان كثيرًا؛ فكيف وقد جمعت من الأحكام والبراهين ما لم يجمعه غيرها؟

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ﴾ أي: إن كنتم تشاهدون عظمتي وجلالي؛ فلا تداهنوا في ديني، وكونوا موافقين لأمري حيث أؤاخذ أحدًا بقهري فلا تلاطفوهم في حدٍّ من حدودي.

قال بعضهم: إن كنتم من أهل مودتي، ومحبتي فخالفوا من خالف أمري، أو يتركب نهيي؛ فلا يكون محبًّا من يصير على مخالفة حبيبه.

وقال الجنيد: الشفقة على المخالفين كالإعراض عن الموافقين.

وقال الواسطي: للمؤمن في كل خطوة فائدة؛ فمن يتعظ استفاد، ومن غفل حجب وخاب[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ زجرًا لنفوسهم الأمارة لتتعظ برؤية عذاب الله وتنزجر عن معصية الله، وتعرف الله قطع أنساب الخليقة من جلال الحقيقة، فإن العبودية حقرق الربوبية.

قال أبو بكر بن طاهر: لا يشهد مواضع التأديب إلا من لا يستحق التأديب، وهم طائفة من المؤمنين لا المؤمنون أجمع.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ أي: لولا فضل الله لصرح بأسراركم، ولم يستر على أحوالكم، ولكن سبقت رحمته وتفضله لكم بأن ستر عوراتكم بحكمته البالغة، وشريعته الجامعة، وجعل رحمته موضع توبتكم بعد مباشرتكم مخالفته.

قال ابن عطاء: لولا فضل الله عليكم في قبول طاعتكم لخسرتم بما ضمن لكم في آخرتكم، ولكن برحمته نجاكم من خسرانكم، وتفضل عليكم.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا

---

(١) قال الغزالي في «الإحياء» في الحديث: «خيار أمتي أحِدَّاؤُهَا» يعني: في الدين.

سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ زجر المدعين الذين يتكلمون بلسان الصديقين، ويخبرون بالتقليد عن أحوال المقربين، ويعتقدون أن ما يقولون حالهم، ويكذبون على الله، ويظنون أن ذلك ليس بعظيم، حاشا أن يقع الزور والبهتان موقع الحقائق والعرفان، وأن يكون محالهم وبهتانهم ليس بعظيم عند الله إذ عظمة الله بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ (١) ثم أخبر أنه عظَّمه، فهم يصغرونه من جهلهم بغيرة الله بقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ يا ليت لو يعلم المدعي الجاهل أن الكل مع شرائف أحوالهم، وفصاحة لسانهم في التوحيد، واطلاع قلوبهم على مراتب الحقيقة مندرجون تحت هذه الآية التي أخبرت عن غيرته بوصف جلاله وعزة عظمته بأنه ممتنعٌ بذاته عن مقالة كل واصفِ صفته، وكل عارفٍ بقلبه نعته؛ إذ نعته ووصفه لا يدخلان تحت عبارة أهل الحدثان.

قال الحسين في بعض مناجاته: إلهي أُنزِّهك عما يقول فيك أولياؤك وأعداؤك جميعًا.

وقال عبد الله بن المبارك: ما أرى هذه الآية نـزلت إلا فيمن اعتاد الدعاوى العظيمة، ويجترئ على ربه في الإخبار عن أحوال الأنبياء والأكابر، ولا يمنعه من ذلك هيبة ربه ولا حياؤه.

وقال الترمذي: مَنْ تهاون بما يجري عليه من الدعاوي؛ فقد صغَّر ما عظَّم الله إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) لعظمة المبهوت عليه ، واستحالة صدقه ، فإنَّ حقارة الذنوب وعظمتها باعتبار متعلقاتها، البحر المديد (٤/ ٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ بيّن أن تطهير العباد من الذنوب لا يكون إلا بفضله السابق، وعنايته الأزلية، كيف يزكي العلل ما يكون عللاً، فالمعلول لا يظهر المعلول، والمعلول أفعال الحدثان على كل صنف، ولطف القديم غير معلول له استحقاق ذهاب العلل بوصوله.

قال السياري: قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾، ولم يقل: لولا عبادتكم وصلاتكم وجهادكم، وحسن قيامكم بأمر الله ما نجا منكم من أحد؛ ليعلم أن العبادات، وإن كثرت؛ فإنها من نتائج الفضل.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فيه بيان تأديب الله للشيوخ والأكابر ألا يهجروا صاحب العثرات، وأهل الزلات من المريدين، ويتخلقوا بخلق الله حيث يغفر الذنوب العظام، ولا يبالي، وأعلمهم ألا يكفوا أعطافهم عنهم، ويخبرونهم ما وقع لهم من أحكام الغيب؛ فإن من له استعداد لا يحتجب بعوارض البشرية عن أحكام الطريقة أبدًا، والعفو والصفح حالان شريفان، فأما العفو الإعراض عما جرى من الزلة، والصفح: الستر على ما يقع بعد الزلة في وقت الامتحان من المحنة، فلا يذكر حال الماضي، ولا يأخذ بما يأتي.

قال بعضهم: العفو هو الستر على ما مضى، وترك التأديب فيما بقي.

وقال الجرجاني: الصفح هو الإغماض عن المكروه.

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ خبائث هواجس النفوس، ووساوس الشياطين، ومزخرفاتها للبطالين من المرائين والمغالطين، وهم لها وطيبات إلهام الله بوسائط الملائكة لأصحاب القلوب والأرواح، والقول من العارفين، وهم لها وأيضًا الترهات والطامات للسالوسين، والحقائق والدقائق من المعارف، وشرح الكواشف للعارفين والمحبين، وأيضًا الأوصاف المذمومة للنفوس، والأخلاق المحمودة للأرواح والقلوب.

وقال عبد العزيز المكي: الدنيا وخباثتها للخبيثين من الرجال المحبين لها ولهم تصلح الدنيا.

والمحبون للدنيا للخبيثات أي: للدنيا ولها يصلحون.

وقال: ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ هي الآخرة وكرامتها، ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ المحبين لها ولهم تصلح الآخرة، ﴿الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ المحبون للآخرة، وإكرامتها ولها يصلحون.

وقال الأستاذ: ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ من الأعمال هي الطاعات والقرب، ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ وهم المؤثرون لها المسارعون في تحصيلها، و﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ من الأحوال هي تحقيق الموصلات بما هو حق الحق مجردًا عنه الحظوظ، ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال وهم الذين سمت هممهم عن كل مبتذل خسيس، ولهم نفوس تسمو إلى المعاني، وهي التحمل بالتذلل لمن له العزة.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ أي: يغضوا أبصار أسرارهم

عن الحدثان أجمع، وعن نفوسهم ومعاملاتهم وأحوالهم وأشخاصهم بنعت التلاشي في وجود الحق وظهور ذاته وصفاته ليكونوا بوصف ما وصف الله حبيبه عند قربه ومداناته بقوله: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٧].

قال ابن عطاء: أبصار الرءوس عن المحارم، وأبصار القلوب عما سواه، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ فيه استشهاد على أن لا يجوز للعارفين أن يبدوا زينة حقائق معرفتهم، وما يكشف الله لهم من عالم الملكوت، وأنوار الذات والصفات، ولا المواجيد إلا ما ظهر منهم بالغلبات من الشهقات والزعقات والاصفرار والاحمرار، وما يجري على ألسنتهم بغير اختيارهم من كلمات الشطح والإشارات المشكلة، وهذه الأحوال أشرف زينة للعارفين.

قال بعضهم: أزين ما تزين به العبد الطاعة، فإذا أظهرها فقد ذهبت زينتها.

وقال بعضهم: الحكمة في هذه الآية لأهل المعرفة أنه من أظهر شيئًا من أفعاله إلا ما ظهر عليه من غير قصد له فيه، فقد سقط به عن رؤية الحق؛ لأن ما وقع عليه رؤية الخلق ساقط عن رؤية الحق، قوله تعالى:

﴿ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ قرن التوبة بالإيمان ثم قرنها بالفلاح، معناه من رجع إلى الله من نفسه والأكوان وشاهد مشاهد الربوبية فاز من عذاب الفرقة، وظهر بالمشاهدة والوصلة.

قال الواسطي: التوبة عدم المألوفات أجمع.

قال يوسف: من طلب الفلاح والسلامة والنجاة والاستقامة؛ فليطلبه في تصحيح توبته ودوام تضرعه وإنابته؛ فإن تصحيح التوبة تحقيق الإيمان والوصول إلى حقيقة المعرفة قال الله: ﴿وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾، وقد وقع لي هنا إشارة لطيفة أن الله سبحانه طالب المؤمنين جميعًا بالتوبة، ومن آمن بالله، وترك الشرك؛ فقد تاب وصح توبته ورجوعه إلى الله، وإن خطر عليه خاطر أو جرى عليه معصية؛ فهو في حيز التوبة، فإن المؤمن إذا جرى عليه معصية ضاق صدره واهتم قلبه، وقدم روحه ورجع سره، هذا لعموم والإشارة في الخصوص أن الجميع محجوبون أصل النكرة، وما وجدوا به من القربة، وسكنوا بمقاماتهم ومشاهداتهم ومعرفتهم وتوحيدهم أي: أنتم بعد في حجاب هذه المقامات توبوا منها إليَّ فإن رؤيتها أعظم الشرك في المعرفة؛ لأن من ظن أنه واصل، وليس له حاصل من معرفة وجوده وكنه جلال عزته؛ فمن هذا وجب التوبة عليهم في جميع الأنفاس؛ لذلك هجم حبيب الله في

بحر الفناء، وقال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»(١).

وسمعت أن الخضروية قال لأبي يزيد: أريد أن أتوب ولا أقدر، فقال: ويحك العزة لله وأنت تطلب العزة ويا فهم أن عقيب كل توبة توبة، حتى تتوب من التوبة، وتقع في بحر الفناء من غلبة رؤية القدم والبقاء.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فضله هاهنا معرفته، ومعرفته الخروج من نعت الفقر والغنى؛ لأنهما علتان موجبتان الشغل عن الله، والعزيز في المعرفة من غنى بالله، وبالاتصاف بصفته، والاتحاد بنعت المعرفة بذاته تعالى عن كل علة؛ فإن موارد شرائع جود مشاهدته مصاهر كل وارد بنعت الفناء في لقائه.

قال بعضهم: من صحَّ افتقاره إلى الله صح استغناؤه بالله.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ الخير هاهنا: التوحيد والمعرفة والتوكل والرضا والقناعة، وصدق العمل والوفاء بالعهد والإشارة فيه أن الشيوخ إذا رأوا مريدًا بهذه المثابة جاز لهم أن يجوزه له الخلوة والانفراد والإسفار والاستقلال بنفسه.

وقال الجنيد في قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾: علمًا بالحق وعملاً به.

وقال بعضهم: محبة لأهل الصلاح وميل إليهم.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ

---

(١) رواه البخاري (٥٩٤٨)، ومسلم (٢٧٠١).

وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ ﴾ إن الله سبحانه أوجد الكون من العرش إلى الثرى بالكاف والنون وكان بين الكاف والنون مظلمًا بظلمة العدم محجوبًا عن نور القدم؛ لأنه معلولة بعلة الحدث، ولم ينكشف الكون هناك نور الكاف، والنون فبقي كمشكاة بلا سراج، فجعل الكاف قنديلاً، والنون فتيلة، وجعل في القنديل دهن زيت فعله الخاص، وأبقاه بهيئته ما شاء ثم أسرج القنديل عند ظهور أنوار صفاته بنور الصفة، فأضاء الكون بنور الصفة، ثم وضع القنديل في زجاجة فعله العلم، ووضع زجاجة الفعل في الكون، ثم نوَّر الكون بعد تنويره بنور الصفات بأنوار الذات حتى يكون الكون كمشكاة منورة بمصباح الصفة التي معدنها الذات؛ فأضاء نور الذات في الصفة، وأضاء نور الصفة في نور فعله الخاص، وأضاء نور فعله الخاص في قنديل الكاف والنون، وأضاء نور الكاف والنون زجاجة فعله العام، وأضاء نور فعله العام في مشكاة الكون؛ فإذا رأيت المشكاة رأيت نور الكاف والنون، وإذا رأيت نور الكاف والنون رأيت نور فعله الخاص الذي هو غني بقوله: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ مباركة إذ هي أصلها مصدر الصفة التي أصلها الذات المنـزه عن البداية والنهاية: ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ لا من شرق ظهور الكون من العدم، ولا من غرب عدم الكون عند القدم: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ قبل أن يصل إليه نور الصفات؛ لأنها صدرت من الصفات، فوصل نور الصفات إلى نور الفعل الخاص، وصار نورًا كقوله: ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ

نُورٍ ﴾، وإذا رأيت نور هذه الشجرة رأيت نور الصفة، وإذا رأيت نور الصفة رأيت نور الذات، وإذا رأيت نور الذات رأيت عين العين، وإذا رأيت الصفات رأيت العين، وإذا رأيت الفعل رأيت عين الجمع، وإذا رأيت عين الجمع رأيت الكون مرآة الفعل يظهر منها أنوار الذات والصفات لمن له استعداد النظر إلى مشاهدة القدم بنعت الاصطفائية الأزلية[1]، وذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ حتى تعرف بهذا المثال ظهور نعوت القدم في مرآة الكون لأهل الكرم من العارفين، قال الله: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ وهو باختصاصهم عليهم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ عليم بكلِّ مثل وعبر وبرهان وسلطان.

وأيضًا فيه إشارة أخرى في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أراد بالسماوات والأرض صورة المؤمن رأسه السماوات وبدنه الأرض، وهو بجلاله وقدره نور هذه السماوات والأرض، إذ زين الرأس بنور السمع والبصر والشم والذوق والبيان في اللسان؛ فنور العين كنور الشمس والقمر، ونور الأذنين كنور الزهرة والمشتري، ونور الفم والأنف كنور المريخ وزحل ونور اللسان كنور العطارد، وهذه السيارات النيرات تسري في بروج الرأس، ونور أرض البدن الجوارح والأعضاء والعضلات واللحم والدم والشعرات وعظامها الجبال، وترى أنور الله لهذه السماوات والأرضين منورة بنور فعله، وفعله منَّور بنور أسمائه، وأسماؤه منورة بنور صفاته، ونور صفاته منور بنور ذاته، وذاته نور الكل إذا الكل قائم بذاته، فنور ذاته ونور صفاته لا يضاهى الأنوار؛ لأن نوره منـزه عن المشابهة بالأنوار؛ فمن نوره الشجر والثمر، ومن نوره الصدف والجوهر، ومن نوره الذهب والفضة، ومن نوره الدر والياقوت، ومن نوره العرش والكرسي والجنة وما فيها، ومن نوره السماوات

---

(١) قال المصنف: وذلك النُور في مشكاة القلب، وهو مصباح يزيد نوره بدُهن العقل في قنديل الفؤاد، يتلألأ من صورة الإنسان، ويبرز منها أنوار الربوبية، وذلك الدُّهن لا من شرق ملكوت الأرض، ولا من غرب ملكوت السماء، إنما هو يخرج من برق سنا شجرة قدس القدم، يكاد أن يضيء بنفسه قبل تجلي القدم؛ لأنه نور صدر من الفعل الخاص، ولو لم تمسسه نيران أنوار الكبرياء، لكن غلب نور القدم على نور الحدث، نور على نور وما وهب الحق ذلك النور إلا من اصطفاه الله بها اصطفى آدم ونوحًا وموسى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى ومحمدًا- صلى الله عليهم أجمعين-يهدي الله لنوره من يشاء. فبان لك بهذا البيان الشافي سبب وجود الإنسان، وشرفه على جميع البرية. انظر: تقسيم الخواطر: (ص١٢١) تحت الطبع بتحقيقنا.

والأرض، ومن نوره الأرواح والأشباح، ومن نوره العقل والقلوب، ومن نوره تنورت هذه النيرات، وأضاءت هذه الآيات نور قدرته زينها بالتركيب، ونور علمه نوَّرها بالانتظام، ونور سمعه نوَّرها بالقيام، ونور بصره زينها بأنوار العجائب، ونور إرادته زينها بالارتسام والبقاء، ونور كلامه زينها بالنماء والبركات، ونور حياته زينها بالحياة، ونور قدمه زينها بغرائب الألطاف، ونور بقائه زينها بالأرواح الفعلية والقدسية الفطرية، ونور ذاته زينها بالوجود سبحانه المنـزه بجلاله أوجد الكون بنور القدم وأنوره عن ظلمة العدم.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ صدر العارف كوة فعله ومشكاة أمره، وروح العارف قنديل قدرته، وفتيلة قنديله عقله الغريزي، وفطرته الفعلي، واستعداده الروحاني، ودهنه المعرفة، وقلبه زجاجة المشيئة، ومصباحه أنوار الصفة القديمة المنـزهة عن مباشرة الأكوان والحدثان والحلول في الزمان والمكان، أسرج بمصباح صفاته قنديل الروح وفتيلة العقل، وزاد نور المصباح من نور الذات؛ إذ الذات والصفات مكشوفان لها في جميع الأوقات بنعت السرمدية، ولو امتنع أنوارها عنها انطفأ مصباحها، ولم يكن ناظرة إلى الغيب، وأمد المصباح بدهن معرفته ذلك، وتلك الشجرة المباركة منابتها العقل الملكوتي، وصباغها الحكمة الجبروتية، وهي في جميع الأنفاس على مقابلة شمس الألوهية لا يقع عليها ظلال غدوة شرق القدم، ولا ظلال عشية غرب الفناء في أرض مشرق المشاهدة منورة بجمال شمس القدم والبقاء؛ لذلك نفى علة الحجاب بالحدثان بقوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، وتلك المعرفة التي هي الشجرة المباركة يكاد دهن نورها يضيء بنور الفعل.

قيل: إن يصل إليها نور الصفة، قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، فلما وصل نور الصفة إلى نور المعرفة والعقل الملكوتي، ونور الفعل يضيء بنور الله، ويبصر الله بالله لا بغير الله؛ قال الله تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ مثل نور صفاته بالمصباح، وشبَّه الروح بالقنديل، وشبَّه القلب بالمشكاة؛ لأن الروح في القلب والنور في الروح، والمعرفة دهن قنديل الروح، وتلك الكوة هي القلب، والقلب في الصدر لا منفذ إليها لرياح القهر والشقاوة، إذ القلب في أصبع الصفة يقلبها كيف يشاء، والروح في يمين القدرة.

قال ﷺ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء»[1].

وقال: «الأرواح في يمين الرحمن»[2]؛ فكيف ينطفئ هذا المصباح الذي نوره من نور

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن حبان (٣/ ١٨٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٠٦).

(٢) ذكره المصنف في مشرب الأرواح له (ص١٤).

الأزل، وضياؤه من ضياء الأبد؟

ثم وصف الروح، وشبَّه الزجاجة قنديلها في مشكاة القلب بالكوكب الدري الذي قال تعالى: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ إذ هي انقدحت من درر الجلال والجمال، وأعلمنا أن ذلك المصباح في تلك الزجاجة لا ينطفئ أبدًا؛ لأن المصباح إذا كان في تحت زجاجة لا تؤثر فيه الرياح لعواصف إذ لا سبيل إلى نور المشاهدة في نور المعرفة والعقل، ولا يزول بتغاير الحدثان، ولا بالزلة والعصيان، فهذان النوران ينفدان في روازن أبراج الدماغ فينوران تلك السيارات المذكورة، ويتلألأن من مرآة سماء وجه العارف.

ألا ترى كيف قال أبو يزيد -قدس الله روحه: يظهر نور الصمدية من بشرة وجه العارف، ومن هاهنا قال الحكماء: الأول صباحة الوجود من عكس الروح الناطقة هذا يفهم مما سنح لقلبي في إشارة الآية ما يوافق أقوال أئمتي وشيوخي.

قال ابن عطاء: زين الله السماوات باثني عشر برجًا، وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وزين قلوب المؤمنين باثني عشرة خصلة الذهن والانتباه والشرح والعقل والمعرفة واليقين والفهم والبصيرة وحياة القلب والرجاء والخوف والحياء، فمادامت هذه البروج قائمة يكون العالم على النظام والسعة، وكذلك مادامت هذه الخصال في قلب العارف يكون فيه نور العارف، وحلاوة العبادة.

وقال ابن مسعود: مثل نور المؤمن كمشكاة في كوة، وهي التي لا منفذ لها أشار إلى صدر المؤمن ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، وهو نور قلب المؤمن، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، والزجاجة سر المؤمن.

قال النبي ﷺ: «إن لله أوانٍ فأحبها إليه ما صفا ورق»[1]، ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

قال ابن عطاء: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: لا قرب فيها ولا بعد فيها؛ فالله من البعد قريب ومن القرب بعيد.

قال الواسطي: لا دنيائية ولا آخرة جذبها الله إلى قربه، وأكرمها بضيائها، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ يكاد ضياء روحها يتوقد، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: ولو لم يدعه نبي، ولا يسمع كتابًا ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نور الهداية وافق نور الروح، ﴿ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ اجتهاد

---

(١) لم أقف عليه.

المجتهدين، وطلب الطالبين، وهرب الهاربين.

وقال الجنيد: لا هي مائلة إلى الدنيا، ولا راغبة في الآخرة، ولكنها فانية الحظ من الأكوان.

قال أبو علي الجوزجاني: في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بدأ بالنور والنور البيان، فالله نور السماوات، ومن نور اليقين سراج يضيء في قلب المؤمن كما قال الله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ يضيء في قلب المؤمن؛ لأن قلب المؤمن منور بالإيمان، فنور قلبه من نور الله بيانًا مبينًا؛ فهو ينظر بنور ربه إلى جميع ملكه، فيرى فيها بدائع صنعه، ويرى بنور المعرفة قدرة الله وسلطانه وأمره وملكه فيفتح له ذلك النور علم ما في السماوات السبع وما في الأرضين علمًا يقينًا، فيخضع له الملك، ومن نبَّه فيجب به كل شيء على ما يحب ويهوى مثل ذلك النور ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ﴾، فنفس المؤمن بيت، وقلبه مثل قنديل، ومعرفته مثل السراج، وفوه مثل الكوة، ولسانه مثل باب الكوة والقنديل معلق بباب الكوة إذا افتتح اللسان بما في القلب من الذكر استضاء المصباح من كونه إلى العرش، فالزجاجة هي التوفيق، وفتيلتها من الزهد، ودهنها من الرضا، وعلائقها من العقل، وهو قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾.

وقال جعفر بن محمد: الأنوار تختلف أولها نور حفظ القلب، ثم نور الخوف، ثم نور الرجاء، ثم نور الحب، ثم نور التفكر، ثم نور اليقين، ثم نور التذكر، ثم النظر بنور العلم، ثم نور الحياء، ثم نور حلاوة الإيمان، ثم نور الإسلام، ثم نور الإحسان، ثم نور النعماء، ثم نور الفضل، ثم نور الآلاء، ثم نور الكرم، ثم نور العطف، ثم نور القلب، ثم نور الإحاطة، ثم نور الهيبة ثم نور الحيرة، ثم نور الحياة ثم نور الأنس، ثم نور الاستقامة، ثم نور الاستكانة، ثم نور الطمأنينة ثم نور العظمة، ثم نور الجلال، ثم نور القدوة، ثم نور الحول، ثم نور القوة، ثم نور الألوهية، ثم نور الوحدانية، ثم نور الفردانية، ثم نور الأبدية، ثم نور السرمدية، ثم نور الديمومية، ثم نور الأزلية، ثم نور البقائية، ثم نور الكلية، ثم نور الهوية، ولكل واحد من هذه الأنوار أهل وله حال ومحل كلها من أنوار الحق التي ذكر الله في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ولكل عبد من عبيده مشرب من نور هذه الأنوار، وربما كان حظه من نورين ومن ثلاث، ولا يتم هذه الأنوار لأحد إلا للمصطفى ﷺ؛ فإنه القائم مع الله بشروط تصحيح العبودية والمحبة فهو نور، وهو من ربه على نور.

قال بعضهم: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الملائكة ونور الأرض الأولياء.

وقيل في قوله: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: نور المشاهدة يغلب نور المتابعة، وقيل: نور الجمع يعلو أنوار التفرقة، وقيل: نور الروح يهدي إلى السر شعاع الفردانية، ونور السر يهدي إلى القلب ضياء الوحدانية، ونور القلب يهدي إلى الصدر حقيقة الإيمان، ونور السر يهدي إلى الصدر آداب الإسلام؛ فإذا جاء نور الحقيقة غلب هذه الأنوار، وأفرد العارف عنها وأفناه فيها، وحصله في محل البقاء مع الحق متسمًا بسمته مترسمًا برسمه لا يكون للحدث عليها أثر بحال؛ لأن محل أنوار الأحوال هو القيام معها ورؤيتها، والسكون إليها، فإذا جاء نور الحقيقة أفناه عن الحظوظ والمشاهدات، وإذا غلب نور الحق خمدت الأنوار لها، وصارت الأحوال دهشًا في فناء، وفناءً في دهش؛ فهو بحصول اسم ورسم، وذهاب الحقيقة في عين الحق ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يخص الله بهذه الأنوار من سبقت له المشيئة فيه بالخصوصية، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾.

قال: العقلاء الألباء الذين خصوا بالفهم عنه، والرجوع إليه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أن الذي خصهم بهذه الأنوار والمراتب من غير سابقة لا يتقرب إليه إلا بفضله وكرمه دون عدِّ التسبيح والصلاة عليه(١).

وقال الحسين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: منور قلوبكم حتى عرفتم ووجدتم، وختم بقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فكان أول ابتدائه ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبتدأ النعم ومنبعها والآخر خاتمته، فالأول فضل، والآخر مشيئة؛ فهو المجتبي لأوليائه الهادي لأصفيائه.

---

(١) قال المصنف: فالإنسان من حيث المناسبة الروحانية والقوة الملكية يقبل الوحي من الغيب، ومن حيث المناسبة البشرية يلقى الوحي إليهم، وهم يواسون الخلق ويربونهم بواضحات الشرع، وهم بالإضافة إلى الناس كالناس إلى الحيوانات، وهم في الناس كالشموس والأقمار في سائر الكواكب، وكما أن نور القمر عكس نور الشمس، فإن نور الناس من أنوار الأولياء والأنبياء، وإن نور العقل وإن كان منورًا لا يتم إلا بنور الشرع والعقل كالبصر، والشرع كالنور، ولا يتم البصر إلا بالنور، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام:١٠٤]، ولولا العقل ما جاء الشرع، ولولا الإنسان لم يأت العقل، والشرع من الحضرة والإنسان بالحقيقة من له عقل وعلم ويعرف الشرع ويستدين به حتى يكون كاملاً في الجمال الظاهر والباطن؛ لأن العقل نور الباطن والشرع نور الظاهر، قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، والنور الثالث معرفة الله التي هي مستفادة من تعريفه إياهم، وإشهادهم مشاهدة ذاته وصفاته وهو مقام النبوة والولاية والمخصوصية، من اصطفاه الله في الأزل به، قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥]، وقال: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

قال الحسين: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: هو نور النور، يهدي من يشاء بنوره إلى قدرته وبقدرته إلى غيبه، وبغيبه إلى قدمه وبقدمه إلى أزله وأبده، وبأزله وأبده إلى وحدانيته لا إله إلا هو المشهود شأنه بقدرته، تقدس وتعالى يزيد من يشاء علمًا بتوحيده ووحدانيته وتنزيهه وإجلال مقامه وتعظيم ربوبيته.

وقال الواسطي: إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد نوَّرها بصفاته وخاطبها بذاته فاستضاءت واستنارت بنور قدسه؛ فأخبر عنها بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لأنه منور الأرواح بكمال نوره.

قال الخراز: من خلقه من نوره ثم أخرجه بنوره ثم أعاده في أكبر كبريائه من نور إذا تجلى له لم يحترق؛ لأنه يكون هو نورًا من نوره على نوره في نوره.

قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾.

قال الحسين: في الرأس نور الوحي، وفي العينين نور المناجاة، وفي السمع نور اليقين، وفي اللسان نور البيان، وفي الصدر نور الإيمان، وفي الطبائع نور التسبيح فإذا التهب شيء من هذه الأنوار غلب على النور الآخر فأدخله في سلطانه، فإذا سكن عاد سلطان ذلك النور أوفر وأتم مما كان، فإذا التهبوا جميعًا صار نورًا على نور ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾.

قال الأستاذ: في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾: كذلك هممهم لا تسكن شرقيًّا، ولا غربيًّا، ولا علويًّا، ولا سفليًّا، ولا جنيًّا، ولا إنسيًّا، ولا عرشيًّا، ولا كرسيًّا، شطحت عن الأكوان، ولم تجد له سبيلاً إلى الحقيقة؛ لأن الحق منزه عن اللحوق والدرك، فبقيت عن الخلق منفصلة، وبالحق غير متصلة، ويقال: نور المطالبة يحصل في القلب بدءًا فيحمل صاحبه على المحاسبة؛ فإذا نظر في ديوانه، وما أسلفه من عصيانه يحصل نور المعاينة فيعود على نفسه باللائمة، ويتجرع كاسات ندمه فيرتقي عن هذا باستدامة قصده، والتنقي عما كان عليه في أوقات فترته، فإذا استقام فيه كوشف بنور المراقبة فيعلم دائمًا أنه سبحانه مطلع عليه، وبعد هذا نور المحاضرة، وهو لوائح تبدو في السرائر، ثم بعد ذلك نور المكاشفة، وذلك بتجلي الصفات، ثم بعده أنوار المشاهدة؛ فيصير ليله نهارًا، ونجومه أقمارًا، وأقماره بدورًا، وبدوره شموسًا، ليس في سماء أسرارهم سحاب، ولا في هوائها ضباب، ثم بعد هذا أنوار التوحيد، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ثم ما لا يتناوله عبارة ولا يدركه إشارة في البيان عند ذلك خرس، والشواهد طمس، وشهود الغير عند ذلك محال؛ فعند ذلك ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ [التكوير: ١، ٢]، ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾ [التكوير: ٤] ﴿إِذَا

ﭐلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ ﴾[الانشقاق:١] ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ ﴾[الانفطار:١]، هذه كلها أقسام الكون، وما من العدم لهم صار إلى العدم القائم عنهم غيرهم، والكائن عنهم سواهم جلت الأحدية، وعزت الصمدية، وتقدست الديمومية، وتنزهت الألوهية.

ثم بيَّن سبحانه أن ذلك المصباح والمشكاة في بيت صورة العبد العارف، وذلك البيت صدره يتنور بنور الله، ونور قربه ليبصر سواكنه بنوره ما ينفتح فيه من أنوار ملكوته وجبروته بقوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ أن يرفع همها إلى مشاهدة الذات، وصرف الصفات، ولا ينزل على غيره من الآيات والكرامات والعقل، يذكر اسم الله هناك، والقلب يذكر وصفه، والروح يذكر ذاته وصفاته تعالى، وأيضًا ترفع الأسرار بنعت الاشتياق حوائج الوصال إليه بنعت المداناة والمناجاة.

وقال بعضهم: ترفع الحوائج من القلوب، وتشغل القلوب بالذكر؛ فإن النبي ﷺ يقول حاكيًا عن ربه: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»[1].

ويقال: «القلوب بيوت المعرفة، والأرواح مشاهد المحبة، والأسرار محال المشاهدة».

ثم وصف سبحانه أهل خالصة تلك البيوت بشهود الحضرة والمراقبة في القربة بنعت التجريد عن غير المشاهدة بقوله: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ وصف الله العارفين بالرجولية حين أقبلوا عليه بأسرار طاهرة عن الحدثان، وبسرهم في صحاري الآزال والآباد بالأرواح القدسية والعقول الملكوتية بين سباع القهر وحيات الامتحان، وآساد الغيرة لا تشغلهم المستحسنات والمستقبحات عن بلوغهم إلى معالي الدرجات في رؤية الذات والصفات، ومثالهم كالبحار لا تتغير بالجيف كذلك أحوالهم تجري عليهم أحكام الكونين بنعت المباشرة والمعاملة، ولا تتغير أسرارهم عن شهود الوصال والنظر إلى الجمال.

قال ابن عطاء: هم خزائن الودائع ومواضع الأسرار.

قال النصر آبادي: أسقط عنهم المكون ذكر المكونات، فلا تشغلهم الأسباب عن المسبب بحال.

قال جعفر: هم الرجال من بين الرجال على الحقيقة؛ لأن الله حفظ سرائرهم عن الرجوع إلى ما سواه، وملاحظة غيره فلا تشغلهم تجارات الدنيا ونعمتها وزهراتها والآخرة،

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٣٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٤٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣١٣).

وثوابها عن الله؛ لأنهم في بساتين الأنس، ورياض الذكر، قال الله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧].

قال بعضهم: أسقط الله اسم الرجولية عن الغافل إلا من عامل الله على المشاهدة، ولم يؤثر عليه الأكوان؛ فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

قال بعضهم: من أسقط عن سره ذكر ما لم يكن لكان سمي رجلاً حقيقة، ومن شغله عن ربه من ذلك شيء، فليس هو من الرجال المتحققين.

ثم زاد سبحانه في وصفهم بالخوف الدائم، والوجل القائم من صرف القلوب والأبصار من مشاهدة الجبَّار بقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يفزعون من يوم الشهود حيث تتقلب القلوب عن مشاهدة صرف القدم في الجنان والأبصار في النظر إلى الحور والغلمان والروح والريحان، وأيضًا يخافون من مقلب القلوب في أنوار الصفات، والأبصار في أنوار الذات لئلا يقف في منازل الشهود ومشاهد الحقيقة، وينقطع عن السير في ألوهية الأولية، والسرمدية الأبدية، بل يطمعون أن يبقوا بحسن المعرفة، وكمال الأدب في زمان العبودية مع مشاهدة الأبد بنعت الدنو، ودنو الدنو، وكشف ما كان مكتومًا عنهم بقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ذلك الرزق كشف جمال القدم بغير حجاب.

قال النصر آبادي: النفوس في التنقيل، والقلوب في التقليب.

وقال الحسين: خلق الله القلوب والأبصار على التقليب، وجعل عليها أغطية وستورًا وأكنةً وأقفالاً، فتهتك الستور بالأنوار، وترفع الحجب بالذكر، وتفتح الأقفال بالقرب.

وقال الحسين: إذا علمت أنه مقلب القلوب والأبصار؛ فليكن شغلك في النظر إلى أفعاله فيك، وتوقى الخلاف والغفلة.

ثم وصف سبحانه أهل الغرة به الذين معولهم على الرسوم، وما عملوا من المعاملات على رؤية النفس والخلق بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ أي: إن الذين نسوا عهد الله الأزلي الذي أوجب عليه فيه الإقبال عليه بالكلية من الكون، وباشروا صورة العمل رياء وسمعة، شبَّه أعمالهم بسراب القيعان؛ لأنهم في الرياء والشرك من أهل الخسران والحرمان، فإذا احتاجوا إلى جزاء الأعمال، وهم في حسبانه لم يجدوا في الحضرة شيئًا من وصول المراد حيث جازى الله أصفياءه بأعمالهم التي وقعت على حسن القبول إذ كانت قيمتها من حسن اليقين والصدق والإخلاص، ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ بنعت الإعراض عنه يجازيهم

بالفرقة، والانقطاع عن المأمول، وهكذا شأن من رجع إلى الخلق، وسكن إلى الأسباب من المسبب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ قلب ليس فيه شيء من أنوار الله، فقير بما فيه رجوعه إلى الأسباب، والفقير من يكون رجوعه إلى غير الحق، يحسب أن الرجوع إلى غيره يغني، وهو كسراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ إذا تبيَّن له أن الرجوع إلى الأسباب شرك يظهر إذ ذاك له أن الرجوع إلى الحق هو الإيمان.

قال الله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: وجد الطريق إليه، وقال أيضًا: كل منا دون الله فهو فقير، وكل قلب فيه محبة ما سوى الله؛ فهو فقير، وفقير عن الحق، وعن معرفته، ويعلم أنه تاه قوم في ميدان الجهد فتخلفوا عن واجبات الحق، وظنوا أنهم يصلون بجهدهم إلى الله، وما وصل أحد إليه إلا من سبق له من الله العناية، والمجتهد في مجاهدته، كما قال الله ﷻ: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه أن هؤلاء المحجوبين عن الله مترددون في ظلمات طبائعهم لم يصحبهم نور العناية، فيبقون في ظلمة عقولهم على ما عملوا لغير وجه الله بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي: من لم يصحبه نور معرفة الله الذي صدر من كشف مشاهدة الله في بدور روحه إلى منتهى سيره، فما له هناك من نور المعرفة، ونور المشاهدة، ونور الوصال، والعارف الصادق في مشاهدة الحق يحتاج إلى ألف ألف نور في كل لمحة من نور الأزل والأبد ينظر بها إلى جمال القدم، ويعرف بها طرق الصفات، ويرى بها عجائب الذات.

قال القاسم: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ في وقت القسمة فما له من نور في وقت الخلقة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ خاطب الحق سبحانه أهل التوحيد والمعرفة بأنه سبحانه ينشئ في سماء صحو القلب سحائب أنوار فعله على مقادير مشيئته، وقوة حملها واردات الغيوب، ويسريها برياح الكرم، ويجمعها بقوة القدم ثم يجعلها متكاثفات بأثقال أنوار الصفات، وذلك قوله: ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ ثم يُنزِل منها قطرات زلال بحر الصفة إلى صحاري القلوب بقوله: ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ﴾ فإذا كَمُل الحال ينكشف جبال أنوار الذات، وينزل منها برد جواهر حقائق علوم القدم، فيقع على بحار عقول العارفين، ويتلقاها أصدف الأرواح فيربيها في حواصل الأفئدة والأسرار[1].

ثم بيّن خاصية من سبق له الحسنى في الأزل في وصول تلك الجواهر القدوسية بقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾.

ثم بيّن أن سنا بروق تجلي الصفات ليغلب على أبصار الأرواح والقلوب حين عاينت الحق، بقوله: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾.

ثم بيّن مقام المحو والصحو، والقبض والبسط، وأوقات الاستناد والتجلي بقوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يقلب ليالي الهجران، ونهار كشف العيان لأهل البيان والامتحان.

ثم بيّن أن هذه الإشارات لذوي البصائر من العارفين بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي: بصيرة ومعرفة، وما بان من فحوى الخطاب من قوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وحقائق غلبة مشيئة الأزل على كل مشيئة إذ كل مشيئة قائمة بمشيئته، وكل إرادة صدرت من إرادته، فإذا انسلخ الكون وأهله من محل التصرف والإرادة في نفاذ مشيئة تعالى الله من كل كائن يقع بخلاف إرادته.

قال الواسطي: ما خالفه أحد ولا وافقه، وكلهم مستعملون بمشيئته وقدرته أنى يكون

---

(١) (الوَدْقَ) : المطر ، يخرجُ من فُتُوقِهِ ووسطه، وقال القشيري : ترتفع بقدرته بُخَارَاتُ البحر، فيتصعد، بتسييره وتقديره إلى الهواء، وهو السحاب، ثم يديره إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر، قطرة قطرة، ويكون الماء، حين حصوله في بخارات البحر، غير عذب، فيقلبه عذبًا، ويَسُحُّهُ السحابُ سَكْبًا، فيوصل إلى كلّ موضع قَدْراً يكون له مُراداً معلومًا ، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمْسَكُ عن المواضع الذي عليه ينزله ، ولا بالحيلة يُسْتَنْزَلُ على المكانِ الذي لا يُمْطِره.

الوفاق والخلاف، وهو يقلب الليل والنهار بها فيهما، وهو قائم على الأشياء بالأشياء في بقائها وفنائها لا يؤنسه وَجْد ولا يوحشه فَقْد، بل لا فقد ولا وجد، إنما هي رسوم تحت رسوم.

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ دعوا إلى مشاهدة الله بنعت المحبة والمعرفة، وعبوديته بنعت الإخلاص، ودعوا إلى رسوله بالمتابعة والموافقة في الشريعة والطريقة، وهنا أثقال من سارت مطيعة روحه بها في بيداء الأزل والأبد بقوة العناية والكفاية، وكيف لا يعرض عنها المعرضون، وليست هذه أحمال مطايا وجودهم المحروم في الأزل عن مشاهدة الأبد.

قال ابن عطاء: الدعوة إلى الله بالحقيقة، والدعوة إلى الرسول بالنصيحة، ومن لم يجب داعي الله كفر، ومن لم يجب داعي الرسول ضل.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ من يطع الله في بذل وجودهم له، ورسوله بالقبول منه ما أتى به بلغت الحرمة، ﴿ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ عرفه وعلم منه ما له من لطف صحبته وعزيز وصلته بنعت إجلاله وتعظيمه، ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ يتق من فرقته، ومن هجرانه ووصل إلى غفرانه، وعظم في عرفانه، وظفر بإحسانه، عين عاينه بلا كيف، ولا حيث، ولا حجاب، ولا حساب.

وقال الواسطي: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: في آداب الفرائض، واجتناب المحارم، ويخشى الله على ما مضى من ذنوبه مَن أن يكون مأخوذًا بها، وما مضى من حسناته ألا يقبل منه، ويتقه أي: ويتق الله فيما بقي من عمره من ردة محبطة وعقوبة محجبة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي: سبقت لهم السعادة.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ إن تطيعوه بالعبودية تهتدوا به إلى أنوار الربوبية، وإن تطيعوه بالمحبة تهتدوا به إلى المشاهدة، وإن تطيعوه بالمعرفة تهتدوا إلى الوصلة، وإن تطيعوا الرسول تهتدوا إلى ما فيه من عجائب المكاشفات والمشاهدات والمعارف والمجاب، وإن تطيعوه بالحرمة والأدب تهتدوا به إلى سني الدرجات ومعالي الكرامات.

قال أبو عثمان: من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة؛ لأن الله يقول: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾.

قال محمد بن الفضل: إن تطيعوه في سنته يوصلكم بركتها إلى حقائق القيام بآداب الفرائض، فتكونوا من المهتدين، من المرافقين بشرط الأدب مع الله، قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾[1] الإشارة فيه أن من

(١) قال سعيد بن المُسَيِّب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج =

طمسته أنوار سطوات العظمة، فهو من رؤية الكل معذور، ومن كسرت رجل همته أحجار منجنيق الأزل في فقر الديمومية، فهو معذور إذا انقطع عن السير في بيداء الآزال والآباد؛ لأن القدم والبقاء غير محصورين، من أمرضته أسقام المحبة والشوق والعشق والمعرفة؛ فهو معذور عن الاشتغال بكثرة العبادة.

قال جعفر في هذه الآية: كل هذا في القعود عن الجهاد وتركه.

وقال بعضهم: إذا دُعي إلى دعوة أن يدخل معه قائده.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الإشارة فيه إلى الانبساط إلى الإخوان والأصدقاء الصادقين الذين مصادقتهم لله، وفي الله على استواء السر والعلانية في الإخلاص لله.

قال أبو عثمان: الصديق من لا يخالف باطنه باطنك، كما لا يخالف ظاهره ظاهرك إذ ذاك يكون محل الانبساط إليه مباحًا في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ إذا دخلتم بيوت أولياء الله بالحرمة والاعتقاد الصحيح، فأنتم من أهل كرامة؛ الله فسلموا على أنفسكم بتحية الله؛ فإنها محل كرامة الله في تلك السلعة.

قال جعفر: تحية الله أي: سلامة من المحن والفتن، ومن الشر كله.

=

والمريض وعند أقاربهم، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم، فكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون: نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك، فنزلت الآية، رُخْصَةً لهم. وقيل: كانوا يتحرجون من ذلك ويقولون: نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك، فنزلت الآية رُخْصَةً لهم وقيل: كانوا يتحرجون من الأكل معهم؛ لأن الأعمى لا يبصر الطيب من الطعام، والأعرج لا يستطيع المزاحمة عليه، والمريض لا يستطيع استيفاءه. البحر المديد (٤/٢٦٦).

وقال ابن عطاء: التحية الأمان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إشارة الآية إلى المريدين وموافقتهم مشايخهم في جميع الأحوال ألا يستبدوا بآرائهم في أمور الشريعة والطريقة، وألا يخالفوهم بالاستبداد بالخروج من عندهم إلى السفر والحضر والمجاهدة والرياضة.

قال عبد الله الرازي: قال قوم من أصحاب أبي عثمان لأبي عثمان: أوصنا، قال: عليكم بالاجتماع على الدين، وإياكم ومخالفة الأكابر والدخول في شيء من الطاعات إلا بإذنهم ومشورتهم وواسوا المحتاجين بما أمكنكم، فأرجوا ألا يضيع لكم سعي، قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ احترام الرسول من احترام الله، ومعرفته من معرفة الله، والأدب في متابعته من الأدب مع الله.

قال ابن عطاء: لا تخاطبوه مخاطبة، ولا تدعوه بكنيته واسمه واتبعوا آداب الله فيه بدعائه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة هاهنا والله أعلم فتنة صحبة الأضداد والمخالفين والمنكرين، وذلك أن من صاحبهم بسوء ظنه بأولياء الله؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء أوليائه يقعون كل وقت في الحق، ويقبحون أحوالهم عند العامة لصرف وجوه الناس إليهم، وهذه الفتنة أعظم الفتن.

قال أبو سعيد الخراز: الفتنة هي إسباغ النعم مع الاستدراج من حيث لا يعلم العبد.

وقال رويم: الفتنة للعوام، والبلاء للخواص.

وقال أبو بكر بن طاهر: الفتنة مأخوذ بها، والبلاء معفو عنه ومثاب عليه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٦٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ ما في السماوات من خزائن قلوب الملائكة، وما في الأرض من خزائن معرفته وجوده في قلوب أهل المحبة يعلم السرائر والضمائر، وما يجري من داء شوقه ومحبته على قلوب المقبلين إليه فيجازيهم يوم كشف المشاهدة، ويخبرهم مما مضى من أيام الفراق، ويعتذر إليهم بحسن الانبساط، ورفع الحجاب أبد الآبدين.

سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وصف نفسه بالتنزيه والتقديس وبركة جمال تجليه الذي آثاره في كل ذرة من العرش إلى الثرى فباركها ببركة جماله فتنمو من أصل مصادرها بقوة قيام الحق عليها بقيوميته، وبقيوميته قامت، ومن صولة عزت تفنى فيه، فلم تزل قائمًا بنفسه، ولا تزال باقيًا بوجوده، وخصَّ حبيبه بإنزال الفرقان عليه ليفرِّق به بين كل دانٍ وعالٍ، وبين مقامٍ ومقال، وبين حال وإعمال، وبين كشف وخيال فيكون بجمهور السالكين معلمًا عن الحق مخوفًا عن عظمته واستغنائه عن الخلق، وعن قدسه عن إشارات الخلق إليه.

قال بعضهم: أصل البركات كلها ممن يقدر إنزال مثل هذا القرآن الذي يفرق بين الحق والباطل على أجل عبيده وأولاهم بالبركة وهو محمد ﷺ.

وقال سهل: يريد بالفرقان الفرقان الذي فيه المخرج من كل شبهة.

وقيل: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي: على عبده الأخلص، ونبيه الأخص، وحبيبه الأدنى،

وصفيه الأولى ليكون للخلق سراجًا منيرًا.

قال الجنيد: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ كالكناية والكناية كالإشارة والإشارة لا يدركها إلا الأكابر.

وقال بعضهم: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعالى عن إدراك الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ أوجد الكون، وقدَّر كل شيء قبل وجوده بما في علمه ومشيئته على قدر مقادير قوة الأشياء حمل أمانات معرفته لا يزيد عن ذلك، ولا ينقص إلى الأبد.

قال الحسين: أول ما خلق الله تعالى ذكره ستة أشياء في ستة وجوه، قدر بذلك تقديرًا الوجه الأول: المشيئة خلقها على النور، ثم خلق النفس ثم الروح ثم الصورة ثم الأحرف ثم الأسماء ثم الكون ثم الطعام ثم الرائحة، ثم خلق الدهر، ثم خلق المقدار، ثم خلق العماء ثم النور، ثم الحركة، ثم السكون، ثم الوجود، ثم العدم، ثم على هذا خلقًا بعد خلق في كل وجه من الستة خلقهم في غامض علمه لا يعلمه إلا هو قدَّرهم تقديرًا، وأحصى كل شيء علمًا.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ۝١٠ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ

لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ تقاصرت أبصارهم عن معاني جوهره الذي هو حامل أثقال أنوار كشف الأزل والأبد، وهو روحه الذي سابق الأشياء بالقدس والأنس، فعاين الحق قبل الخلق، فدخل صورته كمصباح في جوهر زجاجة صافية يضيء، ولو لم تمسسه نار تضيء صورته بضياء الفعل، ويتنور روحه بنور الصفة، ثم صار صورته وروحه قنديل أنوار ذات الحق يتجلى منه للعالمين، فمن خصه الله بالأهلية منه فيراه بنور الحق، ويرى الحق منه؛ فلا يقع نظره إلا على قدس وطهارة.

قال جعفر: عيروا الرسول بالتواضع والانبساط، ولم يعلموا أن ذلك أتم لهيبتهم، وأشد في باب الاحترام لهم، وذلك أنهم لم يشاهدوا منه خصائص الاختصاص ألهاهم ذلك عن قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ... ﴾ الآية.

ثم بيَّن سبحانه أن الأكل والشرب والمشي والسعي في الحوائج لا ينافي النبوة والولاية والاصطفائية الأزلية، وأن جمهور الأنبياء ما خلوا من صفة البشرية إذ البشرية مركب الصورة والصورة مركب القلب، والقلب مركب العقل، والعقل مركب الروح، والروح مركب المعرفة، والمعرفة قوة القدوسية صدرت من كشف عين الحق، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ هذا سنة الله في الخلق والأنبياء والأولياء شاركوهم في البشرية، وفارقوهم في المعرفة والمحبة.

قال جعفر: ذلك أن الله لم يبعث رسولاً إلا أباح ظاهره للخلق بالكون معهم على شرط البشرية، ومنع سره عن ملاحظتهم والاشتغال بهم؛ لأن أسرار الأنبياء في القبضة لا تفارق المشاهدة بحال.

ثم بيَّن سبحانه أن العارف الصادق فتنة للجاهل الغبي، والمحب القريب فتنة للمنكر البغيض بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ الأغنياء فتنة الفقراء فالكل ممتحنون بنكاية قهره ومكره.

ثم استفهم منهم بقوله: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: أتصبرون يا أهل الحقائق في بلائي وامتحاني وأنتم بمرأى مني أجازيكم بمشاهدتي وكشف جمالي؟

قال القاسم: أتصبرون عن نظر بعضكم إلى بعض كأنه أمر بالإعراض عما جعل في نظره فتنة، ويدل عليه قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [1] [الحجر:٨٨].

وقال الحسين: كسا كل شيء كسوة فانية لا ينفك عنها إلا من عصمة الله، وهو اضطرار في الأحوال لا اختبار في التلذذ بالشواهد والأعراض.

وقال الواسطي: ما أوجد موجودًا إلا لفتنة، وما أفقد مفقود إلا لفتنة، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أخبر سبحانه عن العمال، وأعمالهم التي عملوها بالرياء والسمعة، واستحسانهم ذلك من قصور نظرهم عن إدراك تنزيه ساحة كبرياء الحق الذي بوجوده مستغنى عن الكون وأهله؛ فلما استكثروها صارت هباءً منثورًا برياح الشرك والرياء أين هم من خوالص عبودية العارفين حتى تفنى عند ظهور عظمته وجلاله؛ فرفعها الحق عن أعينهم، وبقي في عيونهم أنوار عزته وجلال عظمته.

قال ابن عطاء: أطلعناهم على أعمالهم؛ فطالعوها بعين الرضا فسقطوا عن أعيننا بذلك، وجعلنا أعمالهم هباء منثورًا.

ثم أخبر سبحانه عن مقامات المخلصين في طاعته في جوار جلاله بقول الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ يعني أصحاب جنان المشاهدة في مستقر الوصلة، ومقيل المداناة في ظلال الجمال والجلال أبدًا بلا تحويل ولا تبديل.

قال بعضهم: في دار القرار على ميعاد لقاء الجبار من غير خوف ولا زوال، وأحسن مقيلاً استرواحًا.

---

(١) قال ابن عجيبة: لا تمدن عينيك إلى شهود الحس، ولا إلى ما متعنا به أصنافاً من أهل الحس، الواقفين مع شهود الحس؛ فإن ذلك يحجبك عن شهود المعاني القائمة بالأواني، بل المفنية للأواني عند سطوع المعاني، ولا تحزن عليهم حيث رأيتهم منهمكين في الحس؛ فإن قيام عالم الحكمة لا يكون إلا بوجود أهل الحس، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين بخصوصيتك، البحر المديد (٣/ ٢٤٢).

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾ الخلة والمصادقة إذا كان الله يزيد الشرف والراحة والبسط والقربة في الدنيا والآخرة.

قال أبو حفص: الخلة إذا صحت أورثت صاحبها شفقة على خلانه وطاعة لربه، وإذا لم تصح أورثت صاحبها تحيرًا وتكبرًا على إخوانه، وانهماكًا في معصية ربه.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ٣٦ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ٤٠ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يمتحن أولياءه وأنبياءه بأهل السالوس والناموس والمرائين، وحثهم على إيذاء أهله ليظهر شرف اصطفائيتهم، وفضائل عواقبهم، وينصرهم على عدوهم.

ألا ترى كيف قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾ هداهم إلى نفسه بنفسه، ونصرهم بنفسه على أنفسهم وأعدائهم من شياطين الإنس والجن شاهدهم مشاهدته، وأيدهم بقوة جبروتية لئلا يتلاشوا في سطوات عظمته.

قال أبو بكر بن طاهر: رفعت درجات الأنبياء والأولياء بامتحانهم

بالمخالفين والأعداء.

قال ابن عطاء: هاديًا إلى معرفته، ونصيرًا عند رؤيته لئلا يتلاشى العبد عند المشاهدة.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ غير الله سبحانه المتابعين هواهم؛ لأنهم بمعزل من رؤية الألوهية، ومشاهدة الأزلية، استفهم على وجه التعجب من حبيبه بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: اطلعت شموس أنوار الصفات من مشارق الآيات، وأن هؤلاء البطالين بقوا في ظلمات الطبائع.

قال أبو سليمان: من أتبع نفسه هواها؛ فقد شرك في قتلها؛ لأن حياتها بالذكر وموتها وقتلها بالغفلة، وإذا غفل اتبع الشهوات، وإذا ابتع الشهوات صار في حكم الأموات.

ثم خاطب نبيه ﷺ وأعلمه أن أهل الغباوة والجهالة لا يسمعون مقالته بآذان قلوبهم، ولا يعقلون إشاراته بالحقيقة حيث إن أسماعهم وقلوبهم وأبصارهم وعقولهم محجوبة عن مناداة الحق من الغيوب في القلوب، قال الله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن عطاء: لا تظن أنك تسمع نداءك إنما يسمعهم نداء الأزل؛ فمن لم يسمع نداء الأزل، فإن نداءك له ودعوتك لا تغني عنه شيئًا، وإجابتهم دعوتك هو بركة جواب نداء الأزل ودعوته، فمن غفل أو أعرض، فإنما هو لبعده عن محل الجواب في القدم.

---

(١) اعلم أن الإنسان: إمَّا إنسان حقيقي، وهم الذين لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها، فمتعلق فقههم هو العلم الإلهي، ومتعلق أبصارهم آثار الله، ومتعلق أسماعهم كلام الله، سواء كان بطريق الخطاب الغيبي، أو بطريق الخطاب البشري، أو بطريق غيرهما.

وإمَّا إنساني: وهو بعكس مَن ذُكر، وإنما قيل له: إنسان حيواني؛ لأنه إنسان من حيث حيوان من حيث السيرة؛ ولذا شُبه بالأنعام؛ لأن الأنعام لا تتجاوز الحس، والملك إلى عالم المعنى والملكوت، فالإنسان الحيواني: ليس له روح إنساني، وقلب، وسمع، ويبصر بحكم غلبة الحيوانية، فمَن قال: إن الروح الإنساني مشترك فيه دون القلب ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فهو ذهل عن الآية المذكورة، وفرَّق بين القلب والروح؛ بل القلب، والعقل، والروح جوهر واحد في الحقيقة، وإنما الاختلاف بحسب الاعتبارات، فالقلب محل الشهود، والعقل محل الإدراك، والروح محل المعرفة، فإذا كان الإنسان خاليًا عن الشهود، والإدراك الحقيقي، والمعرفة الإلهية كان حيوانًا حكمًا، وإن كان إنسانًا صورة بحكم المرتبة، فالاعتبار ليس بالمرتبة؛ بل بحقائقها، وأحكامها الظاهرة بالفعل، فاعرف جدًّا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ (١) الإشارة في الآية أن للعارفين في مقام المراقبة والمحاضرة ثلاث مقامات: مقام كشف أنوار الفعل، وكشف أنوار الصفة وكشف أنوار الذات، فإذا ذهب ظلام ليالي الطبيعة من عالم الغيب، وتلاشى دخان النفس الأمَّارة، وصار سماء الروح، وهواء العقل، وأرض القلب صافية عن عللها، وظلمات هواها، ولم يكن هناك شمس الذات، وأنوار الصفات يمد الحق سبحانه ظلال بهاء فعله في ولاية القلب على مقادير تربية أسراره، فلما قويت الأسرار بظلال فعله يطلع عليها أنوار الصفات؛ فلما قويت بأنوار الصفة يطلع عليها شمس الذات فرباه أولاً في ظل الفعل ثم قوّاه بنور الصفة.

ثم كشف له جلال الذات حتى صار مكاشفًا مشاهدًا عين الحقيقة، وأصل الأصول، وهناك محل الفناء والبقاء، ومقام الخطاب الصرف، وظهور أسرار الربوبية، فالأول: ظل العناية، والثاني: مقام الولاية، والثالث: مقام المشاهدة التي هي قبلة الكلية لجميع الأنبياء والصديقين والمقربين، ومنتهى مأمول الراغبين، هذه مسالك جميع السالكين، ولسيد العالمين

---

(١) أي: بسطه فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه لا شمس معه وهو أطيب الأزمنة لأن الظلمة الخالصة سبب لنفرة الطبع وانقباض نور البصر وشعاع الشمس مسخن للجو ومفرق لنور الباصرة وليس فيما بين طلوعيهما شيء من هذين. تفسير حقي (٩ / ٢٣٨).

ﷺ في ذلك خاصية لم يكن لأحد فيها نصيب، وذلك أنهم يسلكون من مقام مشاهدة نور الفعل إلى مشاهدة نور الصفة، ثم إلى مشاهدة نور الذات، وهو ﷺ في أول حاله شاهد العين، ثم شاهد الصفة، ثم شاهد الفعل رحمة للعالمين، ولو بقي في مقام الأول لما استمتع به الخلق في متابعته.

ألا ترى إلى قوله سبحانه لحبيبه ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أشهده ذاته، وأبرز له صفاته، ثم أحاله إلى رؤية الفعل بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ لئلا يفنى في سطوات عظمة ذاته وصفاته، فلما ضاق مكانه في رؤية الفعل، وطالب الأصل، وشقَّ عليه الاحتجاب به عنه كاشف الحق عنه ضرار الفعل، وأبرز له مشاهدة ذاته بقوله: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أي: خفيًّا سريعًا، ولولا فضله ورحمته في قبضه خفيًّا يسيرًا لاحترق الكل في أول بداية طلوع الجمال والجلال على قلوبهم، وهو تعالى خاطب الجمهور برؤية فعله، وخاطب حبيبه برؤية ذاته وصفاته، وهنا كما قال الواسطي: أثبت للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق، وأثبت للخاصة الخالق، فأثبتوا به المخلوق، ومخاطبة العام ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور:٤٣]، و ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية:١٧] ، ومخاطبة الخاص ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

قال بعضهم: قال لنبينا محمد ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ العصمة قبل أن أرسلك إلى المخلوق، ولو شاء لجعله ساكنًا أي: جعله مهملاً، ولم يفعل، بل جعل الشمس التي طلعت من صدرك دليلاً، ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ، هذا خطاب من أسقط منه الرسوم والوسائط.

قال ابن عطاء: كيف حجب الخلق عنه، ومدَّ عليهم ستور الغفلة وحجبها.

وقال في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾: شموس المعرفة هي دلائل القلب إلى الله، وعن جعفر قال: حجب الخلق عنه.

وقال بعضهم: الظل حجاب بينك وبين الله، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، وهو نور الهداية بالإشارة ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ وهو جذب القدرة التي يجذبك من الأشياء إليه.

وقال الأستاذ: ظل العناية على أحوال أوليائه، فقوم هم في ظل الحماية، وآخرون في ظل الرعاية، وآخرون في ظل العناية فالفقراء في ظل الكفاية والأغنياء الراحة والحماية، ويقال: أحيا قلبه بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، ثم أفناه بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ فكذا سنته

مع عباده يردهم بين إفناء وإبقاء.

ثم منَّ الله علينا براحة الليل وستره بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ إذا هجم ظلال الليل على أهل شوقه هاج أسرارهم بنعت الشوق والأنس إلى قربه ووصاله؛ فينكشف لهم أسرار الملك والملكوت، وأنوار العزة والجبروت، وهم يتقلبون فيها بأشكال غريبة، وحركات عجيبة، ومناجاة لطيفة، ومواجيد عظيمة، وعبرات عزيزة، ولولا ستر الليل عليهم لفشا أحوالهم، وانكشف أسرارهم عند الخلق، فإذا كانوا في حالة اليقظة فحالهم الغلبات، فإذا أنسوا بنور الجمال يأخذهم النوم، ويقطعهم عن التهجد، وبرجاء الوجد، فيسكنون في روح الأنس وراحة القدس، وربما يرون المقصود في نومهم كما حكي عن شاه بن شجاع أنه لم ينم ثلاثين سنة، فاتفق أنه نام ليلة فرأى الحق سبحانه في منامه، ثم بعد ذلك يأخذ الوسادة معه، ويضطجع حيث كان، فسئل عن ذلك فأنشأ يقول:

فأحبـــبتُ التَّـــنعسَ والمـــنامَا رأيـــتُ سُرُور قَلبـــي في منامـــي

يا فهم لهم في زمان الامتحان ليل الحجاب، وسبات الغفلات، فإذا ذابوا في مقام الفرقة أخذ الله أيديهم بكشف الوصال بقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ أطلع عليهم بعد ذلك شمس العناية من مشرق الكفاية، نومهم سبب الزلفات، وسباتهم راحة المداناة، وهذا حال أهل النهايات.

لَعَـــلَ خَـــيالاً مِـــنكِ يَلقـــى خَيالِـــيا وَإِنّي لَأَستَغـــشي وَمـــا بِيَ نَعـــسَةٌ

قال الأستاذ: الليل وقت لسكون قوم، ووقت لانـزعاج آخرين؛ فأرباب الغفلة يسكنون في ليلهم، والمحبون يسهرون في ليلهم، وإن كانوا في روح الوصال؛ فلا يأخذهم النوم بكمال أنفسهم، وإن كانوا في ألم الفراق، فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم فالسهر للأحباب صفة أو ما لكمال السرور أو لهجوم الهموم.

ويقال: جعل النوم لقوم من الأحباب وقت التجلي، يريهم ما لا سبيل إليه في اليقظة، فإذا رأوا ربهم في المنام يؤثرون النوم على السهر، وهذا كما أنشد:

ولـــو لا مكـــان الطـــيفِ لم أتهجـــع فلـولا رجاء الوصـلِ مـا عـشتُ ساعةً

ثم زاد منته بأن نشق نسائم روح وصاله أهل شوق جماله بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ إذا أراد سبحانه كشف لقائه لأرواح العاشقين يرسل رياح الواردات قبل حصول كشف المشاهدات، فيستنشقون منها نسيم الأنس، وهم يعلمون أن ذلك مبشر كشف القدس، والحكمة في ذلك أنه تعالى يكتسر بها قلوب المحبين غبار الحدثان، وهواجس النفس، والشيطان حتى لا يبقى فيها غير جمال الرحمن؛ فإذا رأوا آثار

ملك المبشرات علموا أن ذلك وقت ظهور المقصود وحصول المأمول.

إذا أقبلتْ مِنْ نحوكم بهبوبِ وإني لأَسْتهدِي الرياحَ نَسيمَكم

قال ابن عطاء: يرسل رياح الندم بين يدي التوبة.

قال أبو بكر بن طاهر: إن الله يرسل إلى القلب ريحًا، فيكفه من المخالفات، وأنواع الكدورات، ويصفيه لقبول الموارد عليه؛ فإذا صادف القلب ذلك الريح فتنسم نسيمها ثم اشتاق إلى الزوائد من فنون الموارد فيكرمه الله بالمعرفة، ويزينه بالإيمان، ألا تراه يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ الاشتياق على قلوب الأحباب فتزعجها عن المساكنات، ويطهرها ما عن كل شيء إلا عن اللوائح؛ فلا تستقر إلا بالكشف والتجلي.

ويقال: إذا انتسمت القلوب نسيم القرب هام في ملكوت الجلال، وأُعمى من كل رسوم ومعهود، ثم زاد المنة سبحانه بذكره وصف مياه الكرم الذي يطهر به قلوب أحباب وجه القدم من لوث غبار العدم بقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ انشأ في الأول سحائب الرحمة، وبشر رياح الزلفة، ثم مطر مطر الخطاب والكلام من بحر الذات والصفات على أرض قلوب أهل المشاهدات، فطهرها عن صفات البشريات وأحياها من موت الغفلات، وأنبت فيها أشجار المعرفة، ورياحين المحبة، وذلك قوله تعالى: ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾، ثم جعل قلوبهم سواقي المعارف والكواشف، فيفيض سقيها إلى الأرواح والأشباح، قال تعالى: ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

قال بعضهم: طهَّر قلوبهم ببركاته عن المخالفات، وطهَّر أبدانهم بظاهر رحمته من جميع الأنجاس.

قال النصر آبادي: هو الرش الذي يرش من مياه المحبة على قلوب العارفين، فيحيي به نفوسهم بإماتة الطبع فيها، ثم يجعل قلبه إمامًا للخلق بفيض بركاته عليهم، فيصيب بركات نور قلبه من كل ذوات الأرواح، قال الله تعالى: ﴿ وَنُسْقِيَه... ﴾ الآية.

قال الأستاذ: أنزل من السماء ماء المطر فأحيا به الرياض والغياض، وأنبت به الأزهار والأنوار، وأنزل من السماء ماء الرحمة، فغسل للعصاة ما تلطخوا به من الأوضار، وتدنسوا به من الأوزار، وماء الحياء يطهر قلوب العارفين عن الجنوح إلى المساكنات، وما في بعض الأحوال يتداخلها من الغفلات، وماء الرعاية فيحيي به قلوب المشتاقين مما يتداركها من أنوار التجلي حتى يزول عنها عطش الاشتياق، ويحصل فيها من سكنة الاستقلال، ويحيي به نفوسًا ميتة اتباع الشهوات، فيردها إلى القيام بالعبادات، ثم مرج سبحانه بحر المعرفة، وبحر

النكرة في قلوب العارفين بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ فبحر المعرفة بحر الصفات، وبحر النكرة بحر الذات[1].

ثم وصف البحرين فقال: ﴿ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ فبحر الصفات عذب للعارفين إذ هي فياضة لطائفها إلى الأرواح والقلوب والعقول، وهي أدركت نعوتها وأسماءها بنورها ففهمت وعرفت معارفها وكواشفها على قدر الطاقة لا على الحقيقة، وبحر الذات ملح أجاج إذ امتنع بحار حقائقه عن تناول العقول والقلوب والأرواح والأسرار، فإذا انحسرت هذه السائرات رأت في بيداء الأزل، وانقطعت ساحتها في بحار القدم فصارت نكراتها مهلكها، وبين بحر الصفات والذات برزخ المشيئة والإرادة لا يدخل أهل بحر الصفات بحر الذات، ولا يرجع أهل بحر الذات إلى بحر الصفات.

قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ٢٠]، ولا يختلطان فمياه بحر الروح من بحار مشاهدة الألطاف، ومياه بحر النفس ملح أجاج، وهي من بحار القهريات.

قال ابن عطاء: تلاطمت صفتان فتلاقيتا في قلوب الخلق، فقلوب أهل المعرفة منورة بأنوار الهداية مضيئة بضياء الإقبال، وقلوب أهل النكرة مظلمة بظلمات المخالفات معرضة عن سنن التوفيق، وبينهما قلوب العامة ليس لها علم بما يرد عليها وما يصدر منها، ليس معها خطاب ولا لها جواب.

قال الأستاذ: القلوب بعضها معدن اليقين والعرفان، وبعضها محل الشرك والكفران.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ أخبر سبحانه عن حقيقة التوكل بهذه الآية، والإشارة فيها أن من له ذخيرة عظيمة غير منقطعة؛ فإنه ساكن القلب بها،

---

(١) قال حقي: من مرج الدابة خلاها وأرسلها ترعى ومرج أمرهم اختلط والبحر الماء الكثير عذبا كان أو ملحا عند الأكثر وأصله المكان الواسع الجامع للماء الكثير كما في المفردات. والمعنى خلاهما وأرسلهما في مجاريهما كما يرسل الخيل في المرج متلاصقين بحيث لا يتمازجان ولا يلتبس أحدهما بالآخر ويدل على بعد كل منهما عن الآخر مع شدة التقارب بينهما الإشارة إلى كل منهما بأداة القرب كما يجيء ويجوز أن يكون محمولاً على المقيد. تفسير حقي (٩/ ٢٤٨).

والحدثان بأسرها ليست بذخيرة غير منقطعة؛ فإنها ليست بقائمة بنفسها إنما قيامها بالله، وهو تعالى بذاته وصفاته مستند العارفين إذ عزته وجلاله قديم باقٍ لا يزول فإذا التوكل عليه حقيقة لمن عرفه بهذه الصفة؛ فقطع سر حبيبه عن الخلق جميعًا في أمر العبودية والربوبية والبلاء والعافية، والعيش في الدنيا والآخرة.

ثم أمره بتنزيهه وتقديسه حمدًا لكفايته ورعايته بقوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أولا ينقطع وجود أبد الآبدين، وبيّن أن أكثر خلقه محجوبون عن هذه الحقيقة، والمحجوبون عنها وقعوا في الأسباب، وهو في حقيقة التوكل ذنب الطريقة فخوفهم بها، وقال الله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾.

قال بعضهم: التوكل استيلاء الوجد على الإشارة، وجذب التشرف إلى الإرفاق حتى يبتدئ.

قال الواسطي: من توكل على الله لعلة غير الله، فلم يتوكل على الله، ولما أمر سبحانه حبيبه بالتوكل على نعت الحقيقة، وأخبر فيه عن صفته الخاصة في نفسه من الحياة الأزلية الأبدية، وعن ذاته السرمدي زاد الخبر في إعلامنا قدرته وبقاءه واشتمال قوته على جميع الحوادث وإنشائها بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ بيّن أن الكون قائم به، وذكر رحمانيته من حيث إنه رحم الخلق بإيجادهم ثم أمر حبيبه أن يسأل في حقيقة هذا الأمر عن جلال عزته، وبقاء ديموميته والمعرفة بذاته، وصفاته عن خبراء عرفانه، وبصراء العلم بجبروته وملكوته بقوله: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ وهم الذين عرف الله نفسه لأرواحهم في الأول بالأولية والآخرية والقدرة والمشيئة وكمال الرحمة، وهم باقون في الأشباح بنعت الأرواح في عبوديته وعرفان ربوبيته وفي كل لمحة يزيد معرفته بجلاله وقدره.

وقال الحسين: هم الذين أقامهم الله في البلاد أذلة للعباد منهم من يدل على سبيل الحق، ومنهم من يدل على آداب سبيل الحق، ومنهم من يدل على شرائع الإيمان، ومنهم من يدل على الحق، فهو الدليل على الحق؛ لأن الكل محتاجون إليه وهو مستغن عنهم، يرجعون إليه في السؤال، ولا يسأل هو أحدًا كالخضر ونظرائه؛ لأنهم أوتوا العلم اللدني.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾
وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا

سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ ﴾ تقدس بذاته وجلاله عن أن يكون محلاً للأرواح والعقول والأسرار جعل في سماء ذات القدم لأرواح العارفين وأسرار الموحدين، وعقول المقربين، وقلوب الصديقين أبراجًا من أنور صفاته لتسري فيها بنعت المعرفة، وطلب زوائد علوم الربوبية بنجوم الأسرار، وسيارات العقول، وشموس الأرواح، وأقمار القلوب إلى أبد الآباد، لا ينقطع سيرها في سناء الصفات وأنوار الذات؛ لأنها غير متناهية، وأيضًا جعل في سماء القلوب في سائر القلوب بروج المقامات والحالات لشمس الروح وقمر العقل ونجوم الهمم والعزائم.

قال جعفر بن محمد: سمي السماء سماءً لرفعته وللقلب سماء؛ لأنه يسمو بالإيمان والمعرفة بلا حد ولا نهاية، كما أن المعروف لا حد له، كذلك المعرفة لا حد لها وبروج السماء مجاري الشمس والقمر وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وفي القلب بروج، وهي: برج الإيمان والمعرفة والعقل واليقين والإسلام والإحسان والتوكل والخوف والرجاء والمحبة والشوق والوله؛ فهذه اثنا عشر برجًا بها دوام صلاح القلب كما أن الاثنى عشر برجًا من الحمل والثور إلى آخر

العدد وصلاح الدار الفانية وأهلها.

وقال في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ في السماء سراج الشمس ونور القمر وفي القلب سراج الإيمان والإقرار بالوحدانية والفردانية والصمدية، وقمر المعرفة يشرق بأنوار الأزلية والأبدية فيتلألأ نور معرفته وإيمانه على لسانه بالذكر، وعلى عينيه بالعبر، وعلى جوارحه بالطاعة والخدمة، وتلك الأنوار من تمام أولية الله للعبد في الأحوال كلها.

ثم بيَّن سبحانه تخالف الليل والنهار لاعتبار العارفين وموعظة المريدين بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ جعل تعاقب ليالي الفترة، وكشوف نهار المشاهدة لزوائد ذكر العارفين وشكر المستأنسين.

قال بعضهم: خليفة يخلف أحدهما صاحبه لمن أراد خدمة ربه أو عبادته.

ثم وصف سبحانه على الوقار من العارفين والمطمئنين من المتمكنين بقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وصفهم بالعبودية خاصة، ومن العرش إلى الثري ملكه وعبيده أراد بأنهم بلغوا ميادين العبودية بأنوار الربوبية فانسلخوا من كل مراد دون وجه حبيبهم فتصح عبوديتهم؛ لانقطاعهم عن غيره، يمشون على الأرض على حد الوقار والهدوء والسكينة إذ على مطايا قلوبهم أثقال أوقار أنوار عظمة الذات وسطوات الصفات.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ إذا سمعوا غير ذكر الله الصافي بنعت الإخلاص والمحبة والشوق، يقولون للمتكلفين: ﴿سَلَٰمًا﴾ أي: سلامة من الله علينا من مصاحبتكم ومباشرة تكلفكم.

قال الجنيد: عباد صفة مهملة، وعبادي صفة بالحقيقة، وعباد الرحمن صفة حقيقية بالحقيقة.

قال جعفر: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ بغير فخر ولا رياء ولا خيلاء ولا تبختر بل بتواضع وسكينة ووقار وطمأنينة وحسن خلق وبشر وجه.

كما وصف النبي ﷺ المؤمنين؛ فقال: «هينون لينون كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أنخته على صخرة استناخ»[(١)].

وذلك لما طالعوا من تعظيم الحق وهيبته، وشاهدوا من كبريائه وجلاله خشعت لذلك أرواحهم وخضعت نفوسهم وألزمهم ذلك التواضع والتخشع.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٧٢)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٣٠).

قال سهل في قوله: ﴿سَلَٰمٗا﴾، قال :صوابًا من القول وسدادًا.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ۝﴾ أخبر عن أحوالهم في شهود عظمته، وجلال سلطان كبريائه حين كاشفهم جمال وجهه، فساعة يتمرغون في التراب، ويعفرون وجوههم به؛ لحب عظمته وهيبة بهائه، وساعة يصرعون من صولة أنوار صفاته وبروز جلال ذاته، وساعة في القيام بنعت البهت والحيرة، وساعة في الركوع في رؤية العظمة، وساعة في السجود في مشاهدة دنو الدنو، فهكذا يبيتون عشاقه في حضرته فيولهون من الذوق، ويتحيرون من الشوق، ويتيهون في تيه الكبرياء، ويستأنسون بعروس البقاء:

نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذا بَدا ... لِيَ اللَّيلُ هَزَّتنِي إِلَيكِ المَضاجِعُ

أُقَضِّي نَهَارِي بِالحَدِيثِ وبِالمُنَى ... ويَجْمَعُنِي وَالهَمَّ بِاللَّيلِ جامِعُ[1]

قال أبو عثمان: أفنوا أوقاتهم في الخدمة تلذذًا بالمناجاة، وتقربًا إليه، وتحننًا إليه، كما قال النبي ﷺ حاكيًا عن ربه: «لا ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه...»[2] الحديث.

ثم وصفهم بالإنفاق بالقصد بغير الإسراف والتقتير بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ الإسراف في النفقة إنفاق في غير مرضاة الله، الإنفاق بالرياء والسمعة والإقتار النجل والإمساك.

قال بعضهم: الإسراف في النفقة تعظيم المنفق نفقته، والإقتار فيه الامتنان به على من ينفق عليه.

وقال ابن عطاء: الإسراف في النفقة إنفاق في غير مرضاة الله، والإقتار الإمساك عن واجب حق الله.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ أي: إلا من انسلخ مما دون الله، ورجع بالله إلى الله، وعرف الله بالله وشرع في خدمة الله بنعت الإخلاص، والصدق في طاعة الله فيبدل الله تقصيرًا توفيرًا أو تحقيره توقيرًا، وغيبه حضورًا، ومعصيته طاعة هذا وصف من قام في حضرة جلاله عند

---

(١) البيتان من الطويل، وهما لابن الدمينة في «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون ص (٣٦٢٦).

(٢) رواه البخاري (٦٠٢١)، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٥٦).

شهود جماله بنعت الخجل والحيرة والحياء والفناء؛ فيكون أوزاره أنواره وأنواره أسراره، فإذا كان كذلك؛ فإنه تعالى يتوب عليه بكشف المشاهدة ومداناة الوصلة، وفتح خزائن جود القدم وحقائق ألطاف الكرم بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٧].

وقال ﷺ: «من تاب تاب الله عليه»(١).

ثم بيّن أن التائب الصالح العارف الصادق تقع توبته عند مشاهدة الله بقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

قال ابن عطاء: التوبة الرجوع من كل خلق مذموم والدخول في كل خلق محمود.

وقال طاهر: التوبة أن يتوب من كل شيء سوى الله.

ثم وصفهم بالقدس والطهارة عن شهود قلوبهم مشاهد الرياء والسمعة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يشهدون بقلوبهم وأسرارهم ما دون رؤية القدم؛ فإن ما دون القدم يكون بالمحل كالعدم في العدم بالحقيقة، وكل شيء يكون بنعت العدم فوجوده زور؛ إذ لا حقيقة لوجوده مع وجود الحق الذي لم يزل ولا يزال موجودًا حقيقيًا.

ثم زاد في وصفهم أنهم لم يلتفتوا في مرورهم على أهل الدنيا ومزخرفاتهم إلى دنياهم كرمًا وظرافة بقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

قال ابن عطاء: ﴿يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ هو شهادة اللسان من غير مشاهدة القلب.

وقال جعفر: الزور أماني النفس ومتابعة هواها.

قال سهل: الزور مجالس المبتدعين.

قال أبو عثمان فيما سأله عنه أحمد بن حمدان من قوله: ﴿يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال: لا يخالطون المدعين.

ثم زاد في وصفهم بالتنبه والتيقظ والاعتبار والفهم والإدراك في خطاب الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ إذا سمعوا كلام الله وقفوا عليه بنعت التدبر والتفكر فيه والاستكشاف والتبين، فإذا وجدوا حقائق الخطاب أخذوا منه لطائف كنوز علوم الربوبية اللدنية، وشاهدوا جمال الحق في كلام الحق.

قال ابن عطاء: لم ينكروها ولم يعرضوا عنها بل أقبلوا على أوامرها بالسمع والطاعة ونعمة عين.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٢٦)، ومسلم (٤٩٧٤).

ثم أخبر عن مقالتهم عند شهودهم مشاهدته بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي: اجعل أزواجنا وذرياتنا من أهل معرفتك ومشاهدتك ليكونوا زيادة نور أبصارنا، واجعلهم مطيعين لك ومعاونين لنا في خدمتك.

قال جعفر: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا ﴾ معاونة على طاعتك، ومن أولادنا حتى تقر عيننًا بهم.

ثم وصفهم بزيادة الدعاء على أنفسهم بأن يجعلهم أئمة الهدى، وأن يجعلهم أئمة للمتقين أي: اجعلنا عرفاءك لنكون أئمة للزهَّاد والعبَّاد.

يا فهم، إن العارف واصل مراد يعرف من الله مكان الحقائق، ومثله كمثل عنقاء مغرب، ومثل الزهاد وأهل التقوى كمثل الطيور الصغار المختلفة.

قال أبو عثمان: لا يكون إمامًا في التقوى من لم يصحح تقواه مع ربه، وبقي عليه شيء من ذلك إنما الإمام المقدم في الشيء، وإمام المتقين من يتقي كل شيء سوى الله.

ثم أخبر سبحانه عما يجازيهم بمأمولهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا (٧٥) ﴾ يجزون بغرف الوصال كشف أنوار الجمال بما صبروا في شوقه عنه به لا بغيره يسمعون سلام الله وتحيته واعتذاره إليهم، والفرق بين السلام والتحية أن السلام سلامة العارفين في الوصال عن الفرقة، والتحية روح تجلي حياة الحق الأزلي في أرواحهم وأشباحهم، فيحيون بحياته أبد الآبدين ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ دائمين في مشاهدة الله ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) ﴾ حسنت مستقرًا بهم ومقامًا بهم بحسن جمال الحق.

قال الترمذي: أهل الغرف كائن في أوائل الآية لا في آخرها، وإنما وصف أهل الغرف بما يعقل من ظواهر أمورهم، وإنما نالوها بما في باطنهم، ألا تراه تعالى يقول: ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾، والصبر في الأخلاق والآداب.

قال الواسطي: التحية غير السلام، السلام من عند الله، والتحية صفرة الحياة مع الحق.

وقال أيضًا: التحية من الله إلى الروح كسوة يحيا الروح بحياته؛ فلا يلاحظ غير من حياه وأكرمه وأدناه تحية من عند الله مباركة طيبة.

وقال أيضًا: التحية في الأصل ما يحيا به، فيفرح الروح بذلك، ويأنس به، وقال: التحية في الدنيا على العقول بركات ما يقع عليها من طيب ما أجرى عليها.

وقال بعضهم: التحية أنس الأسرار بالحي، والسلام سلامة القلوب من القطيعة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: طاب فيها المقام، وحسن فيها القرار.

وقال بعضهم: أحسن المقام، المقام في مشهد الحق، وأطيب القرار، القرار في جواره على فرش مرضاته.

❁❁❁

سورة الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾.

﴿طسٓمٓ ۝١﴾ «الطاء» طهارة القدم من الحدثان، و«السين» سنا صفاته الذي ينكشف في مرائي البرهان، و«الميم» مجده الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان، طاحت أرواح السابقين في مشاهدة طهارة ذاته، وسكرت قلوب أهل الأسرار في رؤية سنا صفاته، وانمحت عقول المحبين في شهود مجد كبريائه، طابت قلوب الوالهين بطيب وصاله، وسارت عقول الهامين في ميادين أسراره، وطارت أرواح المحبين بأجنحة محبته في جنان مشاهدته فـ«الطاء» طرب المستأنسين في طلبه، و«السين» سرور المحبين بها، وجدوا من أسراره، و«الميم» مهابة العارفين في بسيط ملكه.

قال الجنيد: «الطاء» طرب التائبين في ميدان الرحمة، و«السين» سرور العارفين في ميدان الوصلة، و«الميم» مقام المحبين في ميدان القربة.

وقال بعضهم: «الطاء» شجرة طوبى، و«السين» سدرة المنتهى، و«الميم» محمد ﷺ، وقيل: «الطاء» طرب المشتاقين، و«السين» سرور المحبين بمحبوبهم، والعارفين بمعروفهم، و«الميم» مقام الموافقة.

قال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة عزة وتقدس علوه، و«السين» دلالة على سنا جبروته، و«الميم» دلالة على مجد جلاله في أزله، ويقال: «الطاء» طرب أرباب الوصلة على بساط القربة بوجدان كمال الروح، و«السين» سرور العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستظلالهم لوجوده، و«الميم» إشارة إلى موافقتهم لله بترك تخير على الله، وحسن الرضا باختيار الحق لهم.

ويقال: «الطاء» إشارة إلى طهارة أسرار أهل التوحيد، و«السين» إشارة إلى سلامة

قلبهم عن مساكنة كل مخلوق، و«الميم» إشارة إلى منة الخالق عليهم بذلك[1].

قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ ﴾أخبر عن كمال شفقة حبيبه على أمته أنه كان يحب ألا يبقى في الأرض أحدًا إلا يكون لمحبوبة محبًا خاضعًا ووليًا صادقًا، وهو تعالى أخبره أن حرصك بإيمانهم لا يمنع سوابق حكمي فيهم، وفيه بيان أن الإيمان والمعرفة موهبة خاصة خارجة عن اكتساب الخلق.

قال سهل: تهلك نفسك باتباع المراد في هدايتهم وإيمانهم، وقد سبق مني الحكم في إيمان المؤمنين وكفر الكافرين فلا تغيير ولا تبديل.

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ ﴾كما أنبت سبحانه من أرض الظاهر كل صنف ونوع من النبات الحسن الكريم أنبت في أرض قلوب العارفين كل لون من نبات المعارف وأنوار الكشف وأشجار المحبة ورياحين المودة والحكمة.

قال أبو بكر بن طاهر: أكرم زوج من نبات الأرض آدم وحواء؛ فإنهما كانا سببًا في إظهار الرسل والأنبياء والأولياء والعارفين.

﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ۝١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠ ﴾ناداه بلسان الوصال وكشف الجمال.

ثم امتحنه بأعظم البلاء، وهو صحبة الأضداد إظهارًا للربوبية، وإيجادًا للعبودية فأشفق موسى على خلقه بأنهم إن كذبوه هلكوا؛ لأنه أخبر عن عظائم المقامات وحقائق

(١) الحروف المقطعة في أوائل السور يجمعها قولك: (سرّ حصين قطع كلامه) وأولى ما قال أهل التفسير في حق هذه الحروف الله أعلم بمراده لأنها من الأسرار الغامضة كما قال سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ: «إن لكل كتاب سرًا وسر القرآن في المقطعات».

الحالات بقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ وخوفه كان شفقة عليهم.

قال ابن عطاء: أمره بدعائهم إلى توحيده، وقد أشهده عظمته في القراءة وإحاطة علمه وقدرته بعباده؛ فقال ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فنطق بخوفه بلسان إعظام الحق وإجلاله؛ خوفًا من أن يرى تكذيبهم بمقال، ورد عليهم من الحق خاف من استماعه إنكارًا وأشفق من مشاهدتهم على ذلك إكبارًا، ولما استطاب موسى مقام المداناة والمناجاة مع الحق سبحانه تعلل بقوله: ﴿ وَيَضِيقُ صَدۡرِى ﴾ أي: ضاق صدري من حمل وارد كشف الألوهية، ومن غاية سكري بشراب المحبة والوصلة، ونظر روحي إلى جمال الديمومية ﴿لا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرۡسِلۡ ﴾ بإبلاغ الرسالة، ولا يحتمل صدري رحمة رؤيتهم ﴿ وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ بالعبارة عن مقامي بين يديك لهم.

قال الشبلي: كذلك صفة من يحقق في المحبة أن يضيق صدره عن حمل ما فيه من أنواع المحن، ويكل لسانه من الإخبار عن شيء منه لنفرح به؛ فيموت فيها كمدًا أو يعيش فيها فندًا.

ولما طاب وقت موسى في استماعه كلام الحق من الحق بلا واسطة، وحصل له لذة الحضور والمشاهدة ثقل عليه إحكام الرسالة مع الخلق، وإبلاغها إليهم فتعلل بقوله تعالى: ﴿ فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝ وَلَهُمۡ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝ ﴾، وليس بعجب طريان خوف الطبيعة وصفات البشرية على الأنبياء في الأصل؛ فالمعرفة ثابت، وهذا شرط الانبساط، والسؤال عن سر القدر هل يكون مقتولاً بيدهم بالحكم السابق، فأخبره الحق سبحانه أن فرعون وقومه من الهالكين لأجل عصيانهم له بقوله: ﴿ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝ ﴾ أي: من كنت معه بالنصر والظفر لا يخذله أحد.

قال أبو بكر بن طاهر: السؤال سؤال الحق تعالى عن علمه فأجابه: ﴿كَلَّا﴾، ثم بدأ قال: ﴿فَٱذۡهَبَا...﴾ الآية، وهو تقدير بسؤاله أي: هل في سبق علمك وواجب حكمك أن يقتلون، يستدل على ذلك بجواب الحق له ﴿كَلَّا﴾، ثم خاطبه وبعثه بالرسالة، وأمرهما بإظهار الدلالة.

﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا ﴾ ظن الملعون أنه ربي موسى، وكان موسى مُرَبَّى في حجر وصلة الله سبحانه بألبان شفقته، ورعاية حسن عنايته حقيقة، فرجع إلى منة

المجاز، وكان ذلك من غاية جهله، وليته مَنَّ على كليم الله الذي كان مستغرقًا في بحار امتنان الحق وتربيته بألطافه بقوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه:٣٩]؛ فيكتفي.

قال محمد بن علي: ليس من الفتوة تذكار الصنائع، وتزداد على من اصطنعت إليه، ألا ترى إلى فرعون لما لم يكن له فتوة كيف ذكر صنيعه، وامتن به على موسى.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ إن الله سبحانه إذا أراد أن يُبلغ أحدًا من خلقه إلى مقام من النبوة والولاية، وهو في موضع شائن يلقي عليه رعبًا حتى يفر إليه من خلقه؛ فيكشف له خصائص أسراره كما فعل لموسى، وكان في الأزل مجتبى بالرسالة والنبوة؛ فالإخبار عنه بقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ أي: من قبح أعمالكم لما خفتكم من نـزول عقوبة الله عليكم، ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ معرفةً بجلاله وعزه، وفهمًا بحقائق ملكه وملكوته، وعلمًا بذاته وصفاته وربوبيته وعبوديته أي: كانت هذه المنـزلة لي بحق الاصطفائية في الأزل، ولكن ظهر عليَّ لطائفها لما فررت منكم إليه.

قال بعضهم: الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين.

قال الله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

قال ابن عطاء: فررت من مجاورتكم، وخفت من جرأتكم على ربكم لما لم تحفظوا حقوق الرسل، ولم أر عليكم علامات التوفيق.

وقال بعضهم: فارقتكم لما خفت نـزول العذاب عليكم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ كان الملعون مشبهًا لذلك قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: شيء هو؟ فوقع في الخيال، فأجابه موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: موجد الأشياء بلا كيف، وهو منزه عن التكييف والتصوير، وزاد الحجة عليه من حيث قطع نسبة التشبيه عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ليس الخالق كالمخلوق أوجدكم وأوجد آباءكم من العدم بقوة القدم، ومن كان قديمًا انقطع عنه إشارات الأوهام والخيال، فلما سمع الملعون حجة كاملة، وعلم أن حجته القطع نسب موسى إلى الجنون لما لم يكن له جواب لموسى، وخاف أن يسقط من أعين قومه.

قال عمرو المكي: علم فرعون أن الحجة قد وجبت نخاف الافتضاح عند قومه، فأعرض عن مساءلة موسى، ورجع إلى قومه، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

قال موسى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تبين بذلك حجته، وظهر افتضاحه في انقطاعه، فثبت الحجة عليه إذ لم يدفع الحجة بحجة، والإشارة في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مشرق قلوب العارفين يشرق بطلوع شمس تجلي الصفات والذات، ومغرب نفوسهم التي هي معدن ظلمات قهره حين ابتلاهم بالاستتار بعد التجلي.

قال ابن عطاء: منور قلب أوليائه بالإيمان، ومشرق ظواهرهم به، ومظلم قلوب أعدائه بالكفر والعصيان، ومظهر آثار تلك الظلم على هياكلهم.

﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ لما عاينوا مشاهدة الحق سهل عليهم البلاء لا سيما أنهم يطمعون أن يصلوا إليه بنعت الرضا والغفران بقوله: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ ﴾ خطاياهم: احتجابهم بالسحر عن رؤية لطائفه التي هي مرآة سر القدم، ولو وجدوا السحر بالحقيقة لم يكن ذلك خطأ، وإنما الخطأ وقع على الاحتجاب به عن الحق.

قال ابن عطاء: من اتصلت مشاهدته بالحقيقة احتمل معها كل وارد يرد عليه من محبوب ومكروه ألا ترى السحرة لما صحت مشاهدتهم كيف قالوا: «لا خير».

﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ احتجب القوم بالبلاء عن رؤية المبلي، وشاهد الكليم مشاهدة الحق في مقام الامتحان؛ لذلك أفرد نفسه من بينهم بقوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ أي: إن معي ربي بالرعاية والحفظ والعناية والمشاهدة سيهديني إلى وصاله الأبدي، وذخائر علمه الأزلي، وسر المعية في الحقيقة لا يتجاوز عن رؤية الذات والصفات والعلم والقدرة؛ لأن المعية إشارة المحب إلى المحبوب، ولو كان في محل الوحدة يكون حاله مرتفعًا من محل المعية إلى محل الاتحاد إلا أن في المعية مباشرة التجلي بنعت دنو

الدنو، حيث لا يبقى رسوم البعد والقرب.

قال الجنيد: حين سئل العناية أولاً أم الرعاية؟ قال: العناية قبل الماء والطين.

قال ابن عطاء: في قوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: معي ربي بعلمه وقدرته سيهديني إلى قربه حتى أكون معه بالمراقبة والرعاية والمحافظة والمشاهدة.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ رأى الخليل عليه السلام نفسه على مثابة في الخلة بألا يكون في زمانه له نظير يسمع كلامه من حيث حاله، فوقع العداوة بينه وبين الخلق جميعًا، وأيضًا هذا إخبار عن كمال محبته إذ لا يليق بصحبته ومحبته أحد غير الحق.

قال سمنون[1]: لا تصح المحبة لمن لم ينظر إلى الأكوان، وما فيها بعين العداوة حتى يصح له بذلك محبة محبوبه، والرجوع إليه بالانقطاع عما سواه.

ألا ترى الله تعالى حاكيًا عن الخليل قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ هجرت الكل فيك حتى صحَّ لي الاتصال بك.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ الذي خلقني بخلقه فهو يهديني بنفسه إلى نفسه، وعرفني بصفاته ذاته وبذاته صفاته ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ يطعمني من موائد كشف جماله، ويسقيني شراب المحبة من بحر جلاله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ إذا مرضت بداء محبته، وسقمت بسقم شوقي إلى لقائه؛ فهو يشفيني بحسن وصاله وكشف جماله.

وفي لقـــياك عجــــل لي شـــفائي ... بِمَقْـــدَمِكَ المــــبارَكِ زالَ دائـــــي

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ الذي يفنيني بسطوات عظمته، ويحييني بروح كشف بقائه.

تُمـــيت بهـــا وتُحيـــي مـــن تـــريد ... لهـــا في طَـــرفها لحظـــات سِـــحر

---

(١) هو العارف بالله سمنون المحب، ويقال: سمنون المجنون.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ أطمع أن يغفر لي خطيئتي في طلبي جمال القدم في مرآة الكون بقولي: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وتقصيري في حقائق التوكل بقولي: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، بأن يكشف لي الكشف الأكبر في اليوم الأعظم ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: هب لي معرفة كاملة بجلال عزتك، وألهمني غرائب حكمك، وألحقني بمن وحدك وأفردك عن غيرك في تجريد توحيدك من المرسلين والنبيين والعارفين.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: اجعلني ممدوح العارفين إلى الأبد، ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أي: من ورثة جنة مشاهدتك ووصالك، ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: لا تحجبني من جمالك وكشف ووصالك، ولا ترد عليّ شفاعتي في المذنبين، ولا تمنعني من الانبساط بين يديك، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ يوم لا ينفع الاشتغال بغيرك، بل ينفع من أتاك بقلب

سقيم بمحبتك مملوء من شوقك، محترق بنيران عشقك، خال عن غيرك من العرش إلى الثرى، رفيق بلزوم أنوار كشف جمالك، له لطيف في تقلب ذاتك وصفاتك بنعت المحبة والمعرفة، وأيضًا بقلب طاهر عن الأدناس، وعن الهواجس والوسواس، بيَّن سبحانه في هذه الآيات مقام خليله بين يديه من المراتب الشريفة والحالات الرفيعة، الإشارة الأولى بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ إلى محض وحدانية الحق وكمال قدرته الأزلية بنعت نفي الأنداد والأضداد.

وأشار في قوله: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قطع الأسباب والاكتساب في النبوة والولاية والخلة بالإشارة إلى الاصطفائية السابقة، وأشار في قوله: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ إلى مقام التوكل والرضا والتسليم والتفويض، وقطع الأسباب، والأعمال إليه بالكلية، والإعراض عما سواه، وهكذا الإشارة في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ رفع الرجوع إلى غيره والسكون إلى التداوي والمعالجة بشيء؛ فهو كمال التسليم، وأشار بقوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أنه مشاهد سوابق القدر بنعت الرضا بالحكم والقضاء.

وأشار بقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ إلى مقام حسن اليقين، وحسن الرجاء، وخالص العبودية، وأشار بقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ إلى مقام الإجلال والتعظيم والخوف والخشية والهيبة، وأشار بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إلى التخلق بخلق الله والاتصاف بصفته إذ لم يكن القلب سليمًا بلا عيب إلا إذا كان متصفًا بطهارة قدس الحق عن النظر إلى الخلق، واستعمل حسن الأدب في كمال خلقه ومعرفته في وصف الحق سبحانه بمكنيات ألفاظ حيث قال: ﴿ٱلَّذِى﴾، وهذا من غلبه حرمة الحق عليه، وتمكينه في الصحو بعد سكره في البداية، وجرأته حين غلب عليه سكر المحبة حيث خاطب الحق بتصريح القول في المواجهة بقوله: ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، و﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]، و﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧]، والدليل على ذلك قول الواسطي قال: لما استغرق إبراهيم في الخلة احتشم من ذكر خليله بالتصريح، فرجع إلى الصفات جعل يقول: «الذي»، ولم يصرح بل كنى، والكناية فيها تصريح، ولما كان في ابتداء مقاماته وأوائل جذبه لم يستغرق في الخلة جعل يصرح، ويقول: «ربي» «ربي».

قال بعضهم: الذي خلقني لعبوديته يهديني إلى قربه.

وقال بعضهم: الذي خلقني لدعوة خلقه سيهديني إلى آداب خلته.

قال الأستاذ: أي: يهديني إليَّ فإلي محو في وجودي، فليس لي خير عني.

وقال النهرجوري: الذي يطعمني حلاوة ذكره، ويسقيني كأس محبته.

وقال الجريري: الذي يطعمني في حضرته، ويسقيني هو الذي يظهر عليَّ بركات ذلك المطعم والمشرب، وفي ذلك قال النبي ﷺ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1].

وقال ابن عطاء: إذا أمرضني رؤية الأغيار؛ فإن شفائي الرجوع إلى مشاهدة الملك الجبار.

وقال جعفر: إذا مرضت برؤية أفعالي وأحوالي شفاني تذكار الفضل والكرم.

وقال ذو النون: إذا أمرضني مقاساة الخلق شفاني مشاهدة الحق.

وقال ابن عطاء: الذي يميتني عنه ثم يحييني به.

وقال أبو عثمان: يميتني بخوفه، ويحييني برجائه.

وقال الواسطي: الذي يميتني بالاستتار، ويحييني بالتجلي.

وقال الجنيد: الذي يميتني بالافتقار إليه، ثم يحييني بالاستغناء به.

وقال أبو عثمان: أخرج سؤاله على حد الأدب، ولم يحكم على ربه بالمغفرة، ولكنه قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ﴾ طمع العبيد في مواليهم، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئًا، إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئًا، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا﴾ أي: شكر ما خصصتني به من مقام الخلد، قال: الراضين عنك في جميع الأحوال، قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ أي: أطلق لسان أمة محمد ﷺ بالثناء عليَّ والشهادة لي فإنك قد جعلتهم شهداء مقبولين.

قال سهل: ارزقني الثناء في جميع الأمم والملل.

وقال في قوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِى ﴾ لا تقطع حجتي عنه المسألة، ولا تفضحني بالمناقشة، ولا تحشمني بالحياء عنه مواقعة الجزاء.

قال ابن عطاء: لا تشغلني بالخلة عنك، وأفض عليَّ أنوار رحمتك لئلا أغيب عن مشاهدتك برؤية شيء سواك.

وقال في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال: قلب خالٍ من الاشتغال بشيء سوى مولاه، سلم له الطريق إليه، ولم يعرج على شيء سواه.

قال الواسطي: سلم من سوء القضاء، وسئل من القلب السليم.

قال: سلم عن الإعراض عن الله.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٧٧)، والترمذي (٣/ ١٤٨)، وأبو داود (٢/ ١٥).

وقال الجنيد: السليم الذي لا يكون فيه إلا حبه.

وقال ابن عطاء: السليم لا يشوبه شيء من آفات الكون.

وسئل بعضهم: بم ينال سلامة الصدر؟ قال: بالوقوف على حد اليقين.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ
يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي
وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ
الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ
الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ
فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ
الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ
الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ
ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ
ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟
ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ
لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ أراد بالمؤمنين المؤثر من الله على من سواه بشرط المحبة والموافقة.

قال ابن عطاء: ما أنا بمعرض عمن أقبل على ربه، قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾.

وأخبر الله سبحانه أن قلب محمد ﷺ محل نـزول الكلام الأزلي؛ لأنه مصفى من جميع

الحدثان بتجلي مشاهدة الرحمن، فكان قلبه ﷺ صدف لآلئ خطاب الحق يسبح في بحار الكرم، فيتلقف كلام الحق من الحق بلا واسطة؛ وذلك سر عجيب، وعلم غريب بأنه سمع كلام الحق، وما اتصل به؛ لأن كلامه لم ينفصل منه، وكيف يفارق الصفات عن الذات لكن بقي في قلبه ظاهره وعلمه وسره؛ فجبريل في البين واسطة لجهة الحرمة، وذكر ذلك بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾؛ لأن القلب معدن الإلهام والوحي والكلام والرعاية والعرفان به يحفظ الكلام، وفائدة ذلك إعلام أن من وجود الإنسان ليس شيء يليق بالخطاب، ونزول الأنبياء إلا قلبه، فكل قلب مسدود بعوارض البشرية لا يسمع خطاب الحق، ولا يرى جمال الحق.

قال أبو بكر بن طاهر: ما أنزل على قلبه جبريل جعله محلاً للإنذار لا للتحقيق، والحقيقة هو ما يلقفه من الحق؛ فلم يخبر عنه، ولم يشرف عليه خلق من الجن والإنس والملائكة؛ لأنه ما أطاق ذلك أحد سواه، وما أنزله جبريل جعله للخلق؛ فقال: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ بما نزل به جبريل على قلبك لا من المتحققين به؛ فإنك متحقق بما كافحناك به وخاطبناك على مقام لو شاهدك فيه جبريل لاحترق.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ بيّن سبحانه أن الغفلة والجهلة لا يرون بأبصار قلوبهم أنوار الغيب، وإن تمادوا في حياة طويلة؛ لأنها في غشاوة الضلالة.

قال يحيى بن معاذ: أشد الناس غفلة من اغتر بحياته الفانية، والتذّ بمراداته الواهية، وسكن إلى مألوفاته، والله يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ وصف أهل الحرمان أن أسماعهم وأبصارهم وعقولهم وقلوبهم في غشاوة الغفلة عن سماع القرآن، والسامع بالحقيقة الذي له سمع خاصة قلبي عقلي غيبي روحي يسمع في كل لمحة من جميع الأصوات والحركات في الأكوان خطاب الحق سبحانه بحيث يصيح سره بنعت الشوق إليه، وهذا وصف أهل السماع

من الواجدين والمتحققين بسماع الخطاب من العارفين، ومن هذا السماع انعزلت أسماع العموم، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

قال ابن عطاء: لا يسمعون ولا يفهمون كما أخبر الله عن قوم أنهم ينظرون ولا يرون، كذلك هؤلاء يسمعون ولا يفهمون؛ لأنهم ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ حرموا فهم معاني السماع.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ بيّن أن حقيقة العامل ما يكون علي الأقرب والمواساة للأبعد؛ لأن الأقرب يكون في منازل المهابة والأمر عليه أشد أي: أخبر الأقربين من عظيم جلالي وعزتي وسطوات كبريائي وعظمتي، فإني أشدد على الأقرب ما أشدد على الأبعد وواس الضعفاء؛ فإنهم لا يحتملون أثقال حقائق الأمور ليحتملوا بك ما يكلفهم، وأيضًا أي: خوِّف أهل العناد وراع أهل المراد، أمر بالتسليط على المنكرين والعاندين، وأمر بالتواضع وخفض الجناح للمتواضعين والعارفين.

قال سهل: خوف الأقرب منك، واخفض جناحك للأبعدين، دلهم علينا بألطف الدلالة، وأخبرهم إلى جواد كريم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾: لـيِّن جانبك؛ فإنهم على حدِّ الترسم بالعبادة لا التحقق بها، والمتوثب على الله أشد من قارئ ألبس قميص النسك.

ثم أعلمه وأمره بالإعراض عن المعاندين بقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ أي: لا تراع قربتهم منك، وراع ما أمرناك، ولا تخف من خذلانهم، وارجع إليّ بنعت تفويض أمرك إليّ نذلك قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ أي: أقبل على العزيز ليعزك على الكل ويرحمك بمواصلتك وكشف اللقاء لك.

قال الحسين بن الفضل: برأ كل نبي عمن عصاه من أمته إلا النبي محمد ﷺ لشرف محله؛ فقال: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أي: إن خالفوك بعد الإقرار بارتكاب محرم؛ فقل: إني بريء من أعمالكم لا بريء منكم؛ فإن لك محل الشفاعة، والشفاعة تزيل عنهم ظلمات المعاصي.

وقال الجنيد: التوكل أن تقبل بالكلية على ربك، وتعرض بالكلية عما دونه؛ فإن إليه حاجتك في الدارين.

ثم بيَّن سبحانه مقام شهود نبيه ﷺ في عين الحق بنعت الرعاية والحفظ، أمره بالتوكل عليه.

ثم اعلم إنك إذا توكلت عليَّ، وفوضت أمرك إليَّ؛ فأنا أربيك بنظر عنايتي ثم أعلمه مقام الإحسان والمراقبة بقوله: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾ أي: توكل على من يراك حين تقوم بنعت الإقبال أي: مشاهدته والإعراض عما دونه.

قال رويم: تقوم إليه بالقعود عن الكل، ثم زاد ذكر إحاطة علمه به فقال الله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ أي: الذي يراك في القيام بنعت الاستقامة في المشاهدة، وفي السجود بنعت الفناء في العظمة والكبرياء بين أهل شهود عظمتي وأزليتي وأبديتي، وأيضًا الذي يرى روحك في مشاهد عالم الملكوت بين الساجدين من المقربين.

قال الواسطي: إثبات رؤية الكون على الأزل، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾ أثبت للرؤية في الفقد والوجود، وتقلبه في الساجدين في أصلاب الأنبياء والمرسلين[1].

وقال بعضهم: تقلب وصفك على ألسنة الأنبياء والأولياء.

ثم أكمل حقيقة الرعاية بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ يسمع خفيات نداء المشتاقين من قلوبهم عليهم بآلام أرواحهم من داء المحبة فيجازيهم بكشف جماله ولطائف خطابه.

---

(١) في التأويلات النجمية: أي يرى قصدك ونيتك وعزيمتك عند قيامك للأمور كلها وقد اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق، فإن من علم أنه بمشهد الحق راعى دقائق حالاته وخفايا أحواله مع الحق ويقوله: (وتقلبك في الساجدين) هون عليه معاناة مشاق العبادات لإخباره برؤيته له ولا مشقة لمن يعلم أنه بمرأى من مولاه ومحبوبه وإن حمل الجبال الرواسي يهون لمن حملها على شعرة من جفن عينه على مشاهدة ربه ، ويقال كنت بمرأى منا حين تقلبك في عالم الأرواح في الساجدين بأن خلقنا روح كل ساجد من روحك أنه هو السميع في الأزل مقالتك «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» لأن أرواحهم خلقت من روحك العليم باستحقاقك لهذه الكرامة انتهى.

قال ابن عطاء: سميع لدعوات عباده عليم بوجود مصالحهم.

وقال جعفر: السميع من يسمع مناجاة الأسرار، والعليم من يعلم إرادات الضمائر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أي: الذين شاهدوا الله بنعت الإيقان والعرفان، وأصلحوا سرائرهم بتقديسها عما دون الله في قربة الله، وذكروا الله كثيرًا أي: سافروا بقلوبهم وأرواحهم وعقولهم في ميادين الآزال والآباد على مراكب الأسرار والأنوار بغير طريان الغفلة وهجوم الفترة، وبفهم الذكر الكثير فناء الذاكر في المذكور بعد أن ينكشف له لوائح أنوار الأزلية والأبدية؛ فهذا غاية المجهود من الذاكرين، وفيه نكتة عجيبة أن الله سبحانه وصفهم بالذكر الكثير، وما أخبر أنهم ذاكرون بالحقيقة؛ لأن حقائق الذكر لا يقع للحدثان في قدم الرحمن؛ لأن الذكر الحقيقي إحاطة ذكر الذاكر بالمذكور، وهو مستحيل في حق الأزل؛ لذلك قال الواسطي: من ذكره افترى، وانتصارهم بعد أن ظلموا انتصارهم من نفوسهم الأمّارة حين جهلوا حقوق الله بالمجاهدات الكثيرة والرياضات.

قال الجنيد: الذكر الكثير هو دوام المراقبة في جميع الأحوال، وطرد الغفلة عن القلب.

وقال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد، ولكنه بالحضور دون العاهة والغفلة.

قال النصر آبادي: حقيقة الذاكر أن يغيب الذاكر عن ذكره بمشاهدة المذكور ثم تغيب مشاهدته في مشاهدته حتى شاهد حقًّا.

ثم وصف الله سبحانه أهل الدعاوي الباطلة بأنهم يعلمون يوم القيامة منقلب دعواهم في مهوات البعد، بقوله: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ حين عاينوا مقامات أهل الولاية، وانقلبوا إلى معادنهم من الشقاوة.

قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا.

قال الواسطي: ظلم نفسه من لا يراها في أسر القدرة، وفي قبضة العزة، فظن أنه مهمل في مصرفاته.

❁❁❁

سورة النمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝﴾.

﴿ طس ﴾ أي: بحرارة وجود الأنبياء والمرسلين والأولياء والمقربين التي ضياؤها من سنا قدسي، ونضارتها من لطائف أنسي.

وقال بعضهم: بوجود نظري يطيب قلوب أوليائي، وبشهود وجهي يغيب أسرار أصفيائي.

وقال الأستاذ: أي: بطهارة قدسي وسنا عزتي لا أخيب أمل من أمل لطفي.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ ﴾ كان روحه ﷺ حاضرًا مشاهدًا الكبر في قرب القرب في جميع أنفاسه يسمع من الحق كلام الأزلي على وفاق موارد الشرع والحقيقة بلا واسطة.

ألا ترى كيف قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ ﴾ يعني: تلقف من الحق كفاحًا.

قال أبو بكر بن طاهر: إنك تتلقف القرآن من الحق حقيقة، وإن كنت تأخذه في الظاهر عن واسطة جبريل، قال الله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ كان موسى في بداية حاله في مقام العشق والمحبة، وكان أكثر أحوال مكاشفًا في مقام التباس؛ فلما حان بدو كشفه جعل سبحانه الشجرة والنار مرآة فعلية، فتجلى بجلاله وجماله من ذاته سبحانه لموسى، وأوقع موسى في رسوم الإنسانية حتى لا يفزع، ويدنى من النار والشجرة.

ثم ناداه منها بعد أن كاشف له مشاهدة جلاله، ولولا ذلك لفني موسى في أول سطوات عظمته وعزته، ومعنى ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ أنه تعالى وتقدس عن المثال والخيال أراد به نفسه المقدس الذي يزيد بركة مشاهدته لموسى؛ فالنداء منه، وهو كلامه السرمدي

المبارك ذاته وصفاته،﴿بُورِكَ﴾ قدس عن إشارة كل مشبهي، أشار إليه بالأماكن والجهات هو تعالى تجلى بوصف النار والنور من الشجرة، والطور ذاته وصفاته منـزه عن الجملة، وهو قادر أن يُري نفسه لعاشقه بكل ما يليق بحاله، ولم يتجل له صرفا من عزة ذاته وجلال صفاته لا يحتمل الكون والكائنات بأسرها بل هذا تربية العاشق، ربما يرى نفسه من شجرة، وربما يرى نفسه من الشمس والقمر والكواكب وغيرها من آيات ملكوت السماوات والأرض، لذلك قال إبراهيم:﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ .

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يرى هيئة ذاته كيف شاء»[1].

ويجوز أن تلك البركة تعود إلى موسى من مشاهدة من النار، وفي وكل موضع تظهر بركة كشف مشاهدة الحق يكون مباركًا ذا بركة؛ ألا ترى إلى قول القائل:

إذا نـــزلتْ سَــلمَى بِــوادٍ فماؤُهَـــا زُلال وسلـــــسال وشـــــيخانها وردُ

قال ابن عطاء: أصابتك بركة النار بموارد الأنوار عليك، ومخاطبة الحق إياك؛ فإنك أنست في الظاهر نارًا، وأنست به، وكان في الحقيقة أنوارًا؛ فأزال عنك أنسك بها، وخصك بالأنس بنورها فكلمك وثبتك عند الكلام خصصت بها من بين جميع الرسل.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

قوله تعالى:﴿ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ أي: لا تخف من الثعبان؛ فإن ما ترى فهو ظهور تجلي عظمتي، ولا يخاف من مشاهدة عظمتي وجلالي في مقام الالتباس المرسلون؛ فإنهم يعلمون أسرار ربوبيتي﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ إلا من وقف منهم في حظ العشق والمحبة؛ فلما احتجب بهما يفزع عند ظهور عظمتي وجلالي، فإنه غير مستأنس بهما، فلما ارتفع ذلك الحجاب عنه، وعلم ما فات عنه ورجع إليَّ من حظه بقوله تعالى:﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾ بسوء الحجاب، والوقوف بالحظ:﴿ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ﴿غَفُور﴾ بلا حرم،

---

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

﴿رَّحِيمٌ﴾ بأن أوصله إلى أعلى المقامات من المشاهدة، وتصديق ما ذكرنا ما قال الواسطي: ﴿إلا مَن ظَلَمَ﴾ برؤية النفس والالتفات إليها.

وقال القاسم: إلا من خاف غيرنا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ﴾ افهم أن العلم علمان علم البيان وعلم العيان، علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية؛ فما ذكر الله سبحانه فيما أعطاهما، فهو من العلمين البياني والعياني، فالعلم البياني معروف بين العموم، والعلم العياني مشهور بين الخصوص لم يطلع عليه إلا ولي أو نبي؛ لأنه صدر من الحق لأهله، شهوده من المحبين والعارفين والموحدين والصديقين والأنبياء والمرسلين، ومن ذلك العلم علم اللدني، والعلم اللدني حقائقه علم المجهول، وعلم المجهول ما يكون صورته بخلاف علم الظاهر مثل صنيع الخضر عند موسى -عليهما السلام- من قتل الغلام وغيره، وهو حلم الأفعال وبطون حقائق المقدرات والأمور الغيبية، وما يتعلق بالملك والملكوت الذي هو المرتبة الأولى من علوم المعارف، والحكم المرتبة الثانية علوم الأسماء والنعوت والصفات مثل ما علمه الله آدم بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، والمرتبة الثالثة العلم بالذات: وهو علم الأسرار وهذه العلوم يجمعها قسمان قسم مستفاد من الخطاب والإلهام والكلام، وقسم يتعلق بكشف الذات والصفات والأفعال، وما أشرنا إلى هذه، وهو صورتها وحقائقها ذوقي كشفي لا يطلع عليها إلا من شاهد الحق بالحق، ويستغرق في بحارها، وعرف أنها غير محصورة للعقول؛ لأنها صفات قديمة لا نهاية لها؛ فلما عظم شأنها حمدا الله بما نالا منه من الله، بقوله: ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي: خصنا في الأزل بهذه الخاصية من بين عباده تفضلاً، وامتنانا واصطفائية مقدسة في سوابقات حكمه الديمومية عن علل الاكتساب.

قال ابن عطاء: علمًا بربه، وعلمًا بنفسه، وأثبت لهم علمهم بالله علم أنفسهم، أثبت لهم علمهم بأنفسهم حقيقة العلم بالله، لذلك قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»(١).

ثم بيّن سبحانه أنهما مخصوصان بما ذكرنا من علوم الحقائق، وكل واحد منهما مخصوص بعلم من الله فورث سليمان علم أبيه الذي علمه الله من علوم الإلهية بقوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ ورث ما عند أبيه من علم العشق والمحبة والشوق وخصائص سره زيادة على ما علمه الله، والولي الصادق العارف يرث من شيوخه علوم الحقائق بعد كونه مستعدًا لذلك، فيصير تلك الحقائق مقاماته إذا كان صادقًا مستقيمًا في الإرادة، لذلك قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»(٢).

قال ابن عطاء: ورث منه صدق اللجوء إلى ربه، وتهمة نفسه في جميع الأحوال.

ثم بيّن سبحانه أن سليمان أخبر الخلق عما وهبه الله من علمه بمناطق الطيور بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾؛ لأن المتمكن إذا بلغ درجة التمكين يجوز له أن يخبر الخلق بما عنده من موهبة الله لزيادة إيمان المؤمنين، والحجة على المنكرين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]، وافهم أن أصوات الطيور والوحوش وحركات الأكوان جميعًا هي خطابات من الله سبحانه للأنبياء والمرسلين والعارفين والصديقين والمحبين يفهمونها من حيث أحوالهم، ومن حيث مقاماتهم؛ فللأنبياء والمرسلين علم بمناطقها صرفًا قطعيًا، ويمكن أن ذلك يقع لولي، ولكن أكثر فهوم الأولياء بها أنهم يفهمون من أصواتها ما يتعلق بحالهم بما يقع في قلوبهم من إلهام الله لا بأنهم يعرفون لغاتها بعينها، وفي إشارة الحقيقة الطيور الأرواح الناطقة في الأشباح ينطق بالحق من الحق، ونطقها تلفظ رموز الأسرار بلغة الأنوار، ولا يسمعها إلا ذو فراسة صادقة قلبه وعقله شاهدان مشاهدة الحق ولطف الإشارة، علمنا مناطق أطيار الصفات التي تعبر علوم الذات، وأيضًا علمنا منطق أطيار أفعاله التي تخبر عن بطون حكم الأزليات، لذلك قال: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي: أوتينا كل شيء علمًا بالله، وطريقًا إلى الله ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾ إخبار عن رؤية المتفضل في فضله غير محجوب بالفضل عن المتفضل.

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (١/ ٢٢٥)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٣٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٨)، وابن حبان (١/ ٢٨٩).

قال أبو عثمان المغربي: من صدق مع الله في جميع أحواله فهم عنه كل شيء، وفهم عن كل شيء فيكون له في أصوات الطيور، وصرير الأبواب علمًا بعلمه وبيانًا بتبيينه.

قال الأستاذ: من كان صاحب بصيرة، وحضور قلب بالله يشهد الأشياء كلها بالله، ومن الله ليكون مكاشفًا بها من حيث الفهم؛ فكأنه يسمع من كل شيء، وتعريفات الحق سبحانه للعبد بكل شيء من كل شيء لا نهاية له، وذلك موجود فيهم محكي عنهم، وكما أن صوت الطبل مثلاً دليل يعرفون لسماعه وقت الرحيل والنزول، فالحق سبحانه يخص أهل الحضور بفنون التعريفات من سماء الأصوات، وشهود أحوال المرئيات في اختلافها كما قيل:

إذ المـــــرء كانـــــت لـــــه فكـــــرة ففـــــي كـــــلِّ شيءٍ لـــــه عـــــبرة

وما قاله الأستاذ -رحمة الله عليه- دليل على قول خادمه: نشقني الله ما نشق أولياء وأنبياءه، فقد أشرط أن أصوات الطيور والوحوش وغيرها لا يعرف نعتها ومعينها إلا الأنبياء والأولياء، يعرفون معناها بغير نعتها، وهذا كما قال أهل التفسير في قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ جعل ذلك من الطير كمنطق بني آدم إذ فهمه عنها.

وقال مقاتل: كان سليمان ﷺ جالسًا إذ مرَّ به طير يصوت، فقال لجلسائه: هل تدرون ما يقول هذا الطائر الذي مرَّ بنا؟ قالوا: أنت أعلم، فقال سليمان: فإنه قال لي: السلام عليك أيها الملك المسلط على بني إسرائيل أعطاك الله سبحانه الكرامة: وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى فروخي، ثم أمر بك الثانية، وأنه سيرجع إلينا الثانية، فانظروا إلى رجوعه، قال: فنظر القوم طويلاً إذ مرَّ بهم؛ فقال: السلام عليك أيها الملك، إن شئت أن تأذن لي كي ما أكسب على فروخي حتى يشبعوا ثم آتيك فافعل ما شئت فأخبرهم سليمان بما قال فأذن له.

وقال فرقد السبخي[1]: مرَّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه، ويميل ذنبه؛ فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ فقالوا: الله ونبيه أعلم، فقال: يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنياء العفاء، فهذا وأمثالها معروف من سليمان ومن نبينا ﷺ، وذلك معجزة فوق الكرامة، ومما خصَّ الله سليمان به العلم بنطق النملة والحشرات؛ ليكون أدق في الفهم وأرق للسمع لكن صورة النملة وحركاتها بغير صوتها من حقائق الأفعاليات، خطاب من الحق للأولياء والصديقين، فلما لطف الأمر بعد قوله﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا﴾ ، وعرف قولها هاج سره إلى مزيد الشكر، وقال:﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ﴾ سأل لسان الشكر من الحق؛ فإنه كان عالـمًا بأن شكره لا يمكن إلا به، وقوله:﴿ وَأَنۡ أَعۡمَلَ

---

(١) فرقد السبخي أبو يعقوب العابد، مات سنة ١٣١ هـ.

صَٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ﴾ أي: أسرع إليك بنعت الشوق إلى لقائك، واترك ما دونك لك ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: اجعلني مستأنسًا للعارفين، ومحبوبًا للمحبين، وفهم قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ إن ضحك سليمان كان ظاهره تعجبًا من قول النملة، وباطنه فرحًا بما أعطاه الله من فهم كلام النملة.

قال الجنيد: قال سليمان لعظيم النمل: لم قلت للنمل: ادخلوا مساكنكم أخفت عليهن مني ظلمًا، قال: لا، ولكن خشيت أن يفتنوا بما يرون من ملكك؛ فيشغلهم ذلك عن طاعة ربهم.

وقال ابن عطاء: في قوله: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي﴾: حببني إلى عبادك الصالحين.

قال سهل: ارزقني خدمة أوليائك لأكون في جملتهم، وإن لم أصل إلى مقامهم.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّاۤ يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ دقيقة الإشارة أن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه، فتفقده ساعة، وكان قلبه غائبًا في غيب الحق، مشغولاً بالمذكور عن الذكر فتفقده وما وجده، فتعجب من شأنه أين قلبه إن لم يكن معه؟! وما كان في الكونين، فظن أنه غائب عن الحق، وكان في الحق غائبًا، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم في الله فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾﴾ لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية والغيبة في بحر النكرة في المعرفة ليفنى، ثم يفنى عن الفناء أو أذبحته بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنور أسرار

الأزل، وعلى صورة الظاهر نكتتها أن سليمان أحب الهدهد؛ لأنه رأى ذلك الهدهد في مكان العشق، ورأى عليه آثار العشق؛ فاستأنس به، وكان للهدهد خاصية أنه عرف مواقيت صلاته، ورأى الماء بين الطين والحجر، وكان يدل الجن على الماء لوضوئه وطهارته حيث نـزل، وكان بين هدهد سليمان، وهدهد بلقيس عشق، فغاب عن سليمان عند نـزوله، وتلاقيا الهدهدان؛ فلما تفقده علم أنه عند معشوقه، فغار عليه إذ اشتغل بغيره من خدمته فطلبه، وأمر العقاب أن يأتي به فطار العقاب، ورأى هدهد سليمان عند هدهد بلد سبأ، فأتى به على سليمان ؛ فقال: لأعذبنه عذابًا شديدًا، أي: لأحبسنه في موقع فراقه عن معشوقه، فلما جاء إليه الهدهد تحير في شأنه إيش يقول: فعلم أن سليمان في مقام أنس الله وعشقه، ويحب أن يستأنس بمستحسن فاحتال بأن يذكر عند سليمان ما رأى من حسن بلقيس وعظيم شأنها ليكون ذلك طريقًا له إلى قرب محبوبه، فلما مهد ذلك مع نفسه تعظم في شأنه، واجترأ من حيث جرأة العشيق ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ ﴾ فلما قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ ﴾ تعجب سليمان ثم أسرع في قوله: ﴿ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝ ﴾ فلما سمع سليمان قوله وجرأته عنده، علم أنه تكلم من رأس العشق، ويجلب قوله عجائب، فلما أخبر تمام الحكاية سكن سليمان عنه، واشتغل بإتيان بلقيس، وجعله رسولاً بينه وبين بلقيس، وما أطيب رسول العاشق والمعشوق، إذ كان عاشقًا، انظر إلى ظرافة الهدهد، ولطافة كلامه عند سليمان كيف ذكر ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ ﴾ مرتين ساير ما رأى من الملك والبلاد والعساكر.

ثم ذكر محاسنها بألطف الإشارة بقوله: ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾، وما ذكر وصف جمالها بالتصريح؛ لأنه علم أن ذلك من سوء الأدب، ولا تعجب ذلك؛ فإن الأنبياء والأولياء إذا استأنسوا بعالم الملكوت، لم يصيروا من رؤية المستحسنات، ألا ترى كيف كان سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه يحب الوجه الحسن، ومن فرط حب الله، قال: «حبب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء»[1].

وحاشا أنهم يلتفتون إلى شيء لا يكون وسيلة إلى الله، وأحسن وسيلة إلى الله عند العارف الفعلي الوجه الحسن، والصوت الحسن، والطيب، ورؤية كل مستحسن في العالم من الأرواح والأشباح والجواهر والأعراض؛ لأن حسنها صدر من معدن حسن الأزل، ولذلك قال برؤية الحُسن: «إن أحسن الحسن الوجه الحسن، والصوت الحسن،

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٦/ ١٣١)، والنسائي (١٢/ ٢٨٨).

والخلق الحسن»[1].

وقال ذو النون: من استأنس بالله استأنس بكل شيء مليح، ووجه صبيح، وبكل صوت طيب، وبكل رائحة طيبة.

قال الجنيد في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾: لأفرقن بينه وبين إلفه.

وقال جعفر: لأبتليه بشتات السر.

وقال جعفر الخلدي: لألزمته صحبة الأضداد، فإن ذلك من أشد العذاب.

قال بعضهم: لأبعدنه من مجالس الذاكرين.

جئنا إلى قصة العشق في إشارة قوله سبحانه حاكيًا عن قول الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الإشارة فيه أن القوم وقعوا في بحر عشقها فخدموها بالعشق، وهي كانت تحب وجهها، فهم بالحقيقة يسجدون لشمس الحسن، ثم هاج سر الهدهد بنعت غيرة التوحيد إلى إفراد القدم عن الحدوث؛ فقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هذا التوحيد ذكر الهدهد؛ لأنه علم أن حال سليمان بداية العشق، ونهاية التوحيد، فذكر ما وافق حاله أنه ﷺ إذا شغله الصافنات الجياد، قال: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣٢، ٣٣].

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ حكى الله سبحانه عن قول بلقيس حين أُلقي إليها الكتاب أن ذلك الكتاب كتاب كريم، وذلك أنها استنشقت منه رائحة المحبة، لذلك قالت: إنه كتاب كريم، وكان الكتاب مختومًا بخاتم الملك فألهمها الله منقوش الخاتم الذي هو اسم الله الأعظم.

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤١٧)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٦١) بنحوه.

قالت: إنه كتاب كريم، وأيضًا لما قرأت: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عرفت أنه كلام الله، ولا يشبه كلام الخلق، وقالت: كتاب كريم؛ فانبسطت من باء ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ إشارة بدء القدم والبقاء اللذين هما أصل جميع الصفات القديمة القائمة بذات الحق سبحانه من عرفه بالقدم والبقاء فقد عرفه بجميع الذات والصفات، وتلك المعرفة لا تكون إلا لمن شاهد مشاهدة الأزل والأبد، وعرفت من السين إشارة سنا الحق وأسراره، ومن الميم ملكه ومحبته، وإشارة الهيمنة المشاهدة المحيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى من حروف الله إشارة عين الذات الواحد الفرد من الألف، ومن اللامين الجلال والجمال، ومن إلهام الهوية، وغيوبات الغيب، ووجدت في الكلمة وجوب العبودية للربوبية ليصل برحمة الرحمانية العامة في الدنيا والآخرة ورحمة الرحيمية الخاصة في الآخرة لأهل الخصوص، وعلمت أنها بجميعها مقام الاتصاف من اتصف بها سهل عنده بتلفظها مراد أراده من معنى الإجابة القدرة بالأشياء بالآيات والكرامات.

قال الواسطي في قوله: ﴿كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾: مختوم مزين بزينته، وقيل: كرامة الكتاب ابتداؤه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقيل: كرامته عنوانه.

وقال الحسين في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: قولك منك بمنزلة «كن» منه، وإذا أحسنت أن تقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تحققت الأشياء بقولك: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ كما تحقق بقوله: «كن»، وقيل في قوله: ﴿كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾: لأن الرسول كان طيرًا، فعلمت أن من يكون الطير مسخرة له [فهو] عظيم الشأن.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ لما وجدت في الكتاب تلك الكرامات، عرفت عظم شأن سليمان وجلاله، وما عليه من أنوار الحسن والجمال، فمال قلبها

إلى العشق والمحبة؛ فأرادت ألا تكون مخذولة حين دخل في بلدها سليمان، ولا تتأذى بنفسه في محبته، فإن العاشق لا يريد إيذاء معشوقه، ومن إشارة المعرفة إذا دخل سلطان الوجد والمحبة والمعرفة، والمشاهدة في قلوب العارفين، أغار ما دون الله من العرش إلى الثرى، ولا يبقى فيها إلا نور بلا ظلمة وصفاء بلا كدورة، وجمع بلا تفرقة، وذكر بلا فترة، وعشق بلا شهوة، وصدق بلا غفلة، ويقين بلا شك، وإخلاص بلا رياء، ويصير أوصاف النفس الأمارة محمودة، وصارت أبواب القلوب على الشياطين مسدودة، ويكون الروح مشاهد الحق بلا حجاب.

قال جعفر الصادق: أشار إلى قلوب المؤمنين أن المعرفة إذا دخلت القلوب زال عنها الأماني والمرادات أجمع؛ فلا يكون للقلب محل لغير الله.

قال ابن عطاء: إذا ظهر سلطان الحق، وتعظيمه في القلب تلاشى الغفلات، واستولى عليها الهيبة والإجلال، ولا يبقى فيه تعظيم شيء سوى الحق، فلا يشتغل جوارحه إلا بطاعته، ولسانه إلا بذكره، وقلبه إلا بالإقبال عليه.

وسئل أبو يزيد البسطامي عن نعت العارف[1]! فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

قال الواسطي في قوله: ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ أي: عطلوها عما سواه، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ كل ما كان أعز في عينه وقلبه صار ذليلاً طريدًا عن قلبه، وحق لهم ذلك، وقد غيبهم الحال عن كل وارد في الحال؛ فأسرارهم عن سرهم نافذة، وأماكنهم عن مكانهم غائبة؛ لأن الحق لاحظهم بعناية القدرة، واشتمال التولي والنصرة؛ فحمل عنهم ما حملهم من أثقال هداية وولاية.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ

---

(١) وفي رواية «المعرفة»، كما في كتابنا: «سلطان العارفين» (ص٢٢٢)..

عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ الإشارة في قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ الهاء راجع إلى العرش لا إلى الله، وكأن القائل به في درجة الاتحاد والأنائية والاتصاف وعين الجمع وجمع الجمع؛ لأن المتصف بالقدرة يجري عليه تصاريف الملك بغير رجوعه إلى الله بنعت العبودية والخضوع والدعاء كصنيع من كان في محل العبودية؛ لأن من شاهد الربوبية يجري عليه أوصاف الربوبية بغير اختياره وتكليفه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فإذا سأل فأجيبه، ويحصل مراده بالدعاء، فهو في درجة الكرامات لا في درجة الاتحاد والاتصاف، ووصف الله «آصف» بأنه كان عالمًا بالكتاب، والإشارة فيه أنه كان عالمًا بعلوم الظاهر، وعالمًا بعلوم الباطن، وعرف معاني الاسم الأعظم في الكتاب الذي أنـزل الله على موسى وهارون وإبراهيم وداود وسليمان، وأدق الإشارة فيه أن ما كان عنده من علم الكتاب ما كان يطلع عليه من علم أسرار الله المكتوم في ألواح النور، وذلك العلم كان مكاشفًا لقلبه بنعت السرمدية، لذلك قال: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، قوله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أيضًا فيه إشارة عين الجمع؛ لأن ما كان عنده؛ فهو عند الله، فإذا قال الله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ والانبساط منه إليه، وهو أشرف في الفضل، وفيه جواز الكرامات للأولياء في زمان الأنبياء، والعلم بالاسم الأعظم.

قال النبي ﷺ: «إن الاسم الأعظم الذي دعا آصف يا حي يا قيوم»(١).

قال بعضهم: هو آصف، نظر إلى عين الجمع، وتكلم عن عين حقيقة جمع الجمع؛ فقال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾، والهاء راجع إلى الحق أي: بالله وعونه ونصرته، وقيل: على لسان

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/ ١٦٣).

الجمع أيضًا ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: الله يأتيك به كأنه يقول: إن الله قادر على أن يأتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

قال بعضهم في قوله: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: له نظر في الغيب، وعلم بمجاري الغيوب؛ فعلم أن الله يريد أن يأتي سليمان بذلك؛ فأخبر عن حقيقة الغيب.

ثم أخبر سبحانه عن رؤية سليمان فضله، والثناء عليه، والشكر له خاصة مفردًا عن النظر إلى الأغيار ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ في قوله هذا من فضل ربي غيرة سليمان على آصف، ودفع النظر عن الوسائط، وهذا أيضًا من غيرة التوحيد، فأشار بهذا اللفظ أن آصف وصنيعه عامل من عمل حضرته خلقه الله لنصرته ونفاذ مراده.

قال أبو حفص: من رأى فضل الله عليه أرجو ألا يهلك، قوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ فيه بيان أن شكر الشاكرين منصرف عن المشكور الأزلي إليهم لا إلى الحق؛ فإنه تعالى منـزه عن شكر الشاكرين، وصبر الصابرين، ومعرفة العارفين، وطاعة المطيعين، إسلام المسلمين، وكفر الكافرين بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾، واستعمال لفظ الكرم، والغنى هاهنا من إشارة علم المجهول إذ استغنى الحق بجلال عزته عن كفر الكافر، وإسلام المسلم؛ فقد أسقط الكل عن شرائع الربوبية ومشاهد القدسية وبقي الحق للحق منفردًا بنفسه، مستغنيًا عن غيره، وإذا كان الأمر كذلك؛ فهو كريم يتفضل على الجميع، ويؤديهم إلى ساعة غنى بقائه وقدمه، إذ لا يضر به كفر الكافر، ولا ينفع به إيمان المؤمن؛ فإذا اشتمل بغناه، وكرمه من العرش إلى الثرى، ولا يعاقب أحدًا من حيث استغنائه وكرمه.

قال الجنيد: الشكر فيه علة؛ لأنه يطلب لنفسه المزيد، وهو واقف مع ربه على حظ نفسه، قال الله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: طالبًا للمزيد.

وقال الواسطي: في الشكر إبطال رؤية الفضل، كيف يوازي شكر الشاكرين فضله، وفضله قديم، وشكرهم محدث، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأنه غني عنه، وعن شكره.

وقال الشبلي: الشكر هو الخمود تحت رؤية المنة.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

امتناع سر الأزلية عن مطالعة الخليقة؛ فإذا كان كذلك من ينجو من مكره، والحدث لا

يطلع على سوابق علمه في القدم، فمكره وقهره صفتان من صفته لا يفارقان من ذاته أبدًا، قد أمر العارف قبل وجود العارف، ولا يعرفه منه إلا ما أراد منه، فكلما بقي عنه مستورًا، وهو لا يعرف شأنه حتى وقع عليه؛ فهو مكر، ومن يخلو عن مكره نفسًا، وأن قهره مباشر وجوده بنعت الإحاطة، وحقائقه مندرجة تحت غيوب خواطر القلوب، وهي أخفى من دبيب النمل، ولا يعرفها إلا المرادون الواصلون المحفوظون برعاية الأزل والأبد.

قال جعفر الصادق: مكر الله أخفى من دبيب النمل على صخرة سوداء في ظلمة ظلماء.

قال النوري: المعصية لا تخلو من الخذلان، والطاعة لا تخلو من المكر.

وقال الشبلي: اخترنا طريقة التصوف؛ سلامة من مكر الله، فإذا كله مكر.

وقال النوري: المكر لا يعرفه إلا الواصلون، فأما المريد فإنه لا يعلم ذلك؛ لأنه في حرقة.

قال ابن عطاء: ما كان منه في القرب؛ فهو مكر، وما كان منه في البعد؛ فهو حجاب.

وقال الشبلي: المكر نعم الظاهر، والاستدراج نعم الباطن.

وقال الجنيد: المكر هم المشي على الماء، والمشي في الهواء، وصدق الوهم، وصحة الإشارة، وإجابة الدعاء في كل هذا مكر لمن علم.

وقال النوري: لولا المكر لما طاب عيش الأولياء.

وقال بعضهم: في طريق الله ألف قاطع من قطاع الطريق، وألف خادع وماكر موكل بالمريد السالك، ولكل موكل غدر، ومكر وخداع خلاف الآخر؛ فإذا حاك السالك غدر الموكل معه بشيء يعطيه يمنعه عن قصده وإرادته، ويحجبه عن مولاه.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ بيوت أسرارهم خربت بمباشرة شهوات الطبيعة، ومتابعة النفس الأمّارة.

قال أبو عثمان: قلوبهم قاسية بها عصوا.

وقال سهل: الإشارة في البيوت إلى القلوب؛ فمنها عامرة بالذكر، ومنها خراب بالغفلة، ومن ألهمه الذكر؛ فقد خلّصه من الظلم[1].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أعظم الحمد علم الحامد بعجزه عن حمد الحق.

قال: فإن حمد الحامدين عند حمده مصروف عليهم؛ لأنه سابق بحمده في الأزل إظهارًا لاستغنائه عن حمد الحامدين، وقد وجب الحمد عند كل نعمة، وأعظم النعمة ذهاب النفس الأمّارة من قلب العارف؛ لأنها أعظم الحجاب بينه، وبين الحق وأهل هذا الحمد الذين اصطفاهم الله لمشاهدته في الأزل، ووصاله إلى الأبد؛ فسلامه عليهم من سوابق نعمة الأزلية المقرونة باصطفائيتهم فالسلام والاصطفائية أزليتان وأبديتان.

قال الحسين: ما من نعمة إلا الحمد أفضل منها، والحميد النبي ﷺ، والمحمود الله، والحامد العبد، والحمد حاله الذي يوصل بالمزيد.

قال ابن عطاء: من سلم الله عليه في أزله سلم من المكاره في أبده.

قال جعفر بن محمد: سبحان من اصطفاهم لمعرفته، وسلّم عليهم قبل المعرفة.

وقال الواسطي: لم يجعل الحق وسيلة إلى نفسه غير نفسه، ولا اختصاصًا غير ذاته؛ إذ يقول: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فلم يجعل هاهنا اسم نعت، وجعل اسم حقيقة؛ لأن الهاء تخبر عن حقيقة الذات لا غير.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ

(١) وفي قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل:٥٧]. أي: المرآة التي هي صورة الدنيا إجمالاً، كما أن آدم إجمال العالم؛ لكن لما كانت الشهوات والزين من الأمور السالفة الدنيّة؛ قيل للمرأة: صورة الدنيا بإضافة الصورة إلى الدنيا، ولما كانت المعالم والشواهد من الأمور العالية الشريفة؛ قيل أن آدم صورة العالم؛ لأن أصل العالم علم، ثم أدخل ألف الإشباع؛ وهو علم لوجود الله تعالى على أن العالم أعم من الدنيا؛ لأن الدنيا؛ إنما هي عالم الكون والفساد الذي مبدؤه مقعر السماء السابعة، ومنتهاه نهاية الأرضين.

يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ خلق سماوات الأرواح، وأرض القلوب ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي: مياه المعرفة من بحر الاصطفائية، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أنبتنا به بساتين المحبة المنورة بنور المشاهدة.

قال ابن عطاء: إذا بهج السر بما ظهر على قلب العبد من الرب، والبهجة نور يظهر، فلا يبقى معها شيء من الظلمة لا ظلمة الجهل، ولا ظلمة الريب والشك، ولا اشتغال بشيء آخر، وعلامته السكون بالله، والانقطاع إلى الله، والاعتماد عليه.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ جعل قرار أرض القلوب بأنوار الغيوب لنوازل واردات المشاهدات، وكشف القربات، ولسكون الأرواح الملكوتية فيها ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ أجرى في خلال عقولها أنهار أنوار معرفته لإنبات زواهرات المحبة والمودة والزلفة ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ ﴾ رواسي تلك القلوب غلبات استيلاء استواء أنوار شهود جلاله على دوام الأنفاس، وقوله: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ جعل بين بحر مشاهدته القديمة بحر الأرواح المقدسة حواجز الإرادة، وبرزخ امتناع ذات القديم الأزلي عن النماذج بالحدوثية.

وقال جعفر: من جعل قلوب أوليائه مستقر معرفته، وجعل فيها أنهار الزوائد من بره في كل نفس، وأثبتها بحبال التوكل، وزيَّنها بأنوار الإخلاص واليقين والمحبة، وجعل بينهما حاجزًا، أي: بين القلب والنفس لئلا يغلب عليه النفس ظلمانها فيظلمها، فجعل بينهما التوفيق والعقل.

قال الأستاذ: نفوس العابدين قرار طاعتهم، وقلوب العارفين قرار معرفتهم، وأرواح الواجدين قرار محبتهم، وأسرار الموحدين قرار مشاهدتهم، وفي أسرارهم أنوار الوصلة، وعيون القربة بها يسكن ظمأ اشتياقهم، وهيجان قلقهم، واحتراقهم، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ ﴾ من الخوف والرجاء والرغبة والرهبة.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطر مستغرق في بحار شوقه، متحير في أودية النكرة، دهش في ميادين المعرفة، واله في سراب الحيرة، يريد أن يفنى في الحق، ويغلب عليه محبة الوصال، وعشق الجمال، والأنس بالجلال، غائب عن الخليقة، واله بكشف الحقيقة، مجاب الدعوة بكشف الوصلة، يريد عشقه بعد معرفة جماله وجلاله، وعشقه بوصاله بنعت الافتقار إلى نوال دنوه، يرى بحار مشاهدته، وهو عطشان إلى قطرة منها، ويقول بوصف الاضطرار:

لَإِن كانَ يُهدى بَردَ أَنيابِها العُلا لِأَفقَرَ مِنّي إِنَّني لَفَقيرُ

وهذا الفقير بكرمه لمخلص من نفسه وجود الحدثان وجميع الحجاب والفراق وآلام البعد، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

قال سهل: المضطر هو المتبرئ من الحول والقوة والأسباب المذمومة.

قال ابن عطاء: أحوال المضطر أن يكون كالغريق أو كالمتعطل في مفازة قد أشرف على الهلاك.

قال عمرو المكي: أوجب الله على الداعين له بصفة خصوص الإجابة، وهو المضطر.

قال الله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

وقال الحسين: من شاهد اضطراره؛ فليس بمضطر حتى يضطر في اضطراره عن مشاهدة اضطراره بمشاهدة من إليه اضطراره.

وقال الأستاذ: فصل بين الإجابة، وكشف السوء؛ فالإجابة بالقبول والكشف بالطول، الإجابة بالكلام، والكشف بالإنعام، ودعاء المضطر لا حجاب له، ودعاء المظلوم لا رد له، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ومعنى قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ هذا وصف التمكين بعد التلوين، والتجلي بعد الاستتار، والحضور بعد الغيبة، والغنى بعد الفقر، والكشف بعد الحجاب، والوصال بعد الفراق، والوصلة بعد الحيرة، يجعل العارفين ملوكًا بعد كونهم مكدين على باب جلاله، مفتقرين إلى وصاله بكشف جماله، فإذا كانوا مستقرين على مسائد الوصال في مجالس الجمال سكارى من شراب المؤانسة بين ياسمين القربة لا يذكرون أيام الفراق بعد الوصال كما قال القائل:

كأنَّ الفَتَى لَمْ يَعْرَ يومًا إذا اكتَسَى ولم يَكُ صُعلُوكًا إذا ما تَمَوَّلا

قال الأستاذ: كما وعد للمضطر الإجابة، وكشف السوء، وعده أن يجعله من خلفاء الأرض ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يهدي العارفين بنور نوره إلى نور نوره حين غلب عليهم ظلمات النكرة بوسائل بحر الأفعال وبرها: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ يرسل رياح الكشف بين يدي نـزول مطر بحال قربه ووصاله.

قال بعضهم: من يدلكم على عدو نفوسكم، وفساد طباعكم، ويزيل عنكم وساوس قلوبكم، ويعينكم على استقامتها إلا الله، ومن يرسل رياح فضله بين يدي أنوار معرفته إلا الله، وهل يقدر عليه أحد سواه.

قال بعضهم: من يرسل رياح كرمه على قلوب أهل صفوته، فيطهرها من أنواع المخالفات، ثم زيَّنها بأنوار الإيمان، ويرديها برحمة التوفيق إلا الله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ لا يخفى عليه ما تكن صدور أوليائه من شكاياتهم عنه، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من خفي المناجاة وقت اضطرارهم بنعت الشوق إلى وصاله.

قال الجنيد: ما تكن صدورهم من محبته، وما يعلنون من خدمته.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾التوكل عند العارف البقلي السكون على اصطفائيته السابقة بعد اطلاعه عليها حين عرف نعت الرضا عن الله في مشاهدة الله.

قال بعضهم: التوكل سكون القلب إلى الله، واطمئنان الجوارح عند مصادمة المهولات حينئذٍ يظهر للمتوكل الثقة بالله.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾الميت من ليس له استعداد قبول معرفة الحقيقة بغير الدلائل، والأصم من كان أذن قلبه مسدودة بغواشي القهر، ومن كان بهذه الصفة لا يقبل إلا ما يليق بطبعه وشهواته.

قال بعضهم: الميت على الحقيقة من خلي عن المعصية ورد إلى الحول.

وقال يحيى بن معاذ: العارفون بالله لله أحياء، وما سواهم موتى[1].

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾إذا

(١) أخطأ بوهمه من أنكر بهذه الآية سماع الصالحين، فإن الجمهور على حياة الروح، وسماع المسلمين منهم بالأحياء، وجواز التوسل والاستغاثة بهم بعد الممات، وانظر كتابينا: «الدلائل الواضحات في جواز التوسل والاستغاثة بالأولياء بعد الممات»، وكذا جمع المقال في إثبات الكرامات في الحياة وبعد الانتقال».

نفخ نفخ القهر في ناقور الهيبة حين تلاطمت بحار العظمة اضمحلت الأكوان والحدثان في سطوات عظمة الرحمن، فهناك أهل معرفته، ومحبته وشوقه لا يفزعون من رؤية ملك العظائم؛ لأنهم في أكناف الوصلة مستأنسون بجمال المشاهدة، وهم المستثنون بقوله: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ﴾، وهم الذين ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وقال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

ثم بيَّن سبحانه أن الكل في ميادين عظمته، وجلال كبريائه، يفنون في أنوار سطوات قدمه بقوله: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

قال بعضهم: صاغرين خاضعين لعظمته وكبريائه.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ أعلمنا الحق سبحانه من غلبة سلطان عظمته وكبريائه على قلوب الخليقة يوم القيامة بحيث لا يعلمون انقلاب الكون من صولة شهود عظمته على وجوههم، وأيضًا هذا وصف العارفين في طيران أرواحهم إلى الملكوت بأجنحة أنوار الجبروت حين أشباحهم مستقيمة في نعوت الخليقة في مقام العبودية.

قال ابن عطاء: الإيمان ثابت في قلب العبد كالجبال الرواسي، وأنواره تخرق الحجب الأعلى.

قال جعفر: ترى الأنفس جامدة عند خروج الروح، والروح تسري في القدس لتأوي إلى مكانها من تحت العرش.

وقال جعفر الصادق: نور قلوب الموحدين، وانزعاج أنين المشتاقين ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ حتى يشاهدوا الحق؛ فيسكنوا.

قال جعفر الخلدي: حضر الجنيد مجلس السماع مع أصحابه وإخوانه، فانبسطوا وتحركوا، وبقي الجنيد على حاله لم يؤثر فيه، فقال له بعض أصحابه: ألا تنبسط كما انبسط إخوانك؟ فقال الجنيد: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾.

قال الأستاذ: كثير من الناس اليوم من أصحاب التمكين الساكنين بنفوسهم السائحين

في الملكوت أسرارهم.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ مقام العبودية لكل عارف شعبها على قدر مواجيده ومعرفته ومشاهدته، فالكامل منهم أن يكون عبوديته حفظ الأسرار من النظر إلى الأغيار، وبذل وجوده بنعت الشوق إلى الله لله؛ لأن هذا حد الانقياد في جنات المراد، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ من الباذلين أنفسهم بنعت الفناء لله في الله.

قال بعضهم: العبودية لباس الأنبياء والأولياء.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أوجب على حبيبه الحمد بظفره بمشاهدة الحق، ونور كبريائه عند سقوط حجة أعدائه، آياته ظهور أنوار سطوات عزته لانهزام النفوس الأمّارة في هياكل البشرية عن جنود الأرواح القدسية.

قال الأستاذ: عن قربة آياته فطوبى لمن رجع قبل وفاته، والويل على من رجع بعد ذهاب الوقت وفواته.

❁❁❁

سورة القصص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ اطلاع الحق على أسرار المحبين، وتجلي قدسه بنعت سنا الأزل لفؤاد المقربين، فما أطيب هيجان سر الموحدين إلى طيب وصال بساتين ملكوت الغيب وجبروت النور، طوبى لهم وحسن مآب.

وقال الأستاذ: الطاء يشير إلى طهارة نفس العارفين عن عبادة غير الله، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله، وطهارة أرواح المواجدين عن محبة غير الله، وطهارة أسرار الموحدين عن شهود غير الله.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إن فرعون النفس الأمّارة تكبر في الأرض القلوب من قوة ما عليها، من قوة لباس القهر، وغلبت على الهواء، واستولت على العقل القدسي بإنفاذ شهوات الإنسانية الشيطانية، ثم هيجت صاحبها بعد تطاولها بالدعاوى الباطلة كدأب فرعون أخبر عن نفسه ما ليس فيه بعد أن احتجب بجهله عن الحق.

قال الجنيد في تفسير هذه الآية: ادعى ما ليس له.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ حقيقة الإشارة إلى تخليص الأرواح الملكوتية عن حبس شهوات الناسوتية، لنجعلها في سبيل معارف الآزال والآباد قادة للعقول الهائمة بنعت الذكر والفكر في طلب الوصول في ميادين الآيات، وتكون وارثة لمواريث المشاهدات، أراد الحق سبحانه أن يكون القوم أئمة المعارف وسادات الكواشف يقتدي بهم في الطريقة بطلب الحقيقة.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ هداة نصحاء خيار أبرار أتقياء سادة نجباء حكماء كراماء أولئك الذين جعلهم الله أعلامًا للخلق منشورة، ومنارًا للهدى منصوبة، هم علماء المسلمين، وأئمة المتقين، بهم في شرائع الدين يقتدى، وبنورهم من ظلمات الجهل يهتدى، وبضياء علومهم في المسلمات يستضاء، جعلهم الله رحمة لعباده، وبركة في أقطار بلاده؛ يعلم بهم الجاهل، ويذكر بهم الغافل، من اتبع آثارهم اهتدى، ومن اقتدى بسيرتهم سعد، أحياهم الله حياة طيبة، وأخرجهم من الدنيا على السلامة منها، خواتيم أمورهم أفضلها، وآخر أعمالهم أكملها.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ رأى الحق سبحانه أم موسى في أول الخطاب فزعة ضعيفة الحال في رؤية أنوار إحاطة الحق بجميع الوجود؛ فأمرها أن ترضعه، وبعد ذلك أمرها بأن تلقيه في البحر بغير الإرضاع تسليمًا محضًا، لكن سبقت حكمته الأزلية في نظام تدابير الخليقة أي: إذا خفت عليه، فألقيه في بحار الرضا والتسليم، وانظري بعيون الأنوار إلى مشاهد الأقدار؛ فإني أربيه بكشف مشاهدتي، ولذة خطابي، وأجعله من المخبرين عني، وأجعله إمامًا لطلاب وصالي، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

قال الجنيد: إذا خفت حفظه بواسطة؛ فسلميه إلينا، وأقطع عنه شفقتك، وتدبيرك ليكون مسلمة إلى تدبيرنا فيه، وحفظنا له.

قال أبو بكر بن طاهر: أي: لا تخافي خلف الوعد، ولا تحزني على غيبوبة الولد.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ إن الله سبحانه ألبس وجه موسى نور قدسه، ولطائف ملاحة نور محبته؛ فرأت امرأة فرعون ذلك النور والبرهان على وجه موسى، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي ﴾؛ لأني أرى في وجهه أنوار صفات الحق، ولك أن تراها بعين اليقين والإيمان، وحقيقة ذلك أن وجوه الأنبياء والأولياء مرائي أنوار الذات والصفات، ينتفع بتلك الأنوار الكافر والمؤمن؛ لأن معها لذة حالية نقدية، وإن لم يعرفوا حقائقها.

قال ابن عطاء: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي ﴾ أشارت إلى الحق، ﴿وَلَكَ ۖ لَا﴾؛ لأنك كفرت وأشركت.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ وقع على أم موسى ما وقع على آسية بأنها رأت أنوار الحق من وجه موسى، فعشقت عليه، ولم يبق في فؤادها صبر من الشوق إلى وجه موسى، وذلك الشوق من شوق لقاء الله، فغلب عليها شوقه، وكادت تبدي سرها ﴿ إن

كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾، وقوله: ﴿فَرِغًا﴾ من هلاك موسى لكن لم يكن فارغًا من الشوق إلى لقاء موسى؛ لأن شوق موسى وسيلةَ إلى شوق الله، وكشف لقائه، فلما قل صبرها في فراق موسى ثَبّت الله قلبها بكشف جماله صرفًا، وذلك قوله سبحانه: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ من المشاهدين جمالنا وجلالنا.

قال ابن عطاء: أصبح فؤاد أم موسى فارغًا عن الاهتمام بموسى لما أيقنت من ضمان الله لها فيه بقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: تظهر ما أوحي إليها في السر من حفظ موسى ورده إليها، ومنعه أيدي الظلمة عنه.

قال فياض: الصدر معدن الآفة، والقلب معدن الصحة، والفؤاد برزخ بين الصدر والقلب، والقلب معدن الأنوار.

وقال جعفر الصادق: الصدر معدن التسليم، والقلب معدن اليقين، والفؤاد معدن النظر، والصدر معدن السر، والنفس مأوى كل حسنة سيئة.

قال بعضهم: في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ لولا أن أيدناها بالتوفيق والصبر لأبدت ما في ضميرها من الوجد بولدها، وافهم أن الصدر معدن نور الإسلام، والقلب معدن نور الإيقان، والفؤاد معدن نور العرفان، والعقل معدن نور البرهان، والنفس معدن القهر والامتحان، والروح معدن الكشف والعيان، والسر معدن لطائف البيان، ذكرت ذلك بمفهوم خطاب الغيب موافقة لأئمتي وسادتي.

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ سقى الله روح موسى ألبان المعرفة من ثدي الوصلة، حين أخرجنا من العدم بنور القدم، وحرم عليها مراضع الأكوان والحدثان، ومنعها من الاستئناس بغيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك أشار في القصة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ولولا رضاعه الأول لاشتغل بإتيان غير مرضعته، فسقيه لبن المعرفة فطامه عن كل شيء سواه.

قال بعضهم: إشارة إلى العارف؛ فإنه لا يصلح لبساط القربة من لم يكن مرضعًا برضاعة الأنس، فمن كان رضيع مخالفة، أو رضيع وحشة، فإنه لا يصلح لبساط القربة، ألا ترى الكليم لما كان فيه تدبير الخصوصية بالكلام كيف حرم عليه المراضع.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ لما تمكنت فطرته السليمة القابلة نور الغيب بسنا العقل، وكمل عقله بتأييد الحق ونصرته على النفس والهوى، وقوى قلبه بصفات الإيمان والإيقان، وتجرد روحه مما دون الله، واستوى سره بنعت التمكين في العبودية عند جريان أحكام الربوبية عليه آتيناه حكمة الأزلية، وعلوم الأبدية؛ ليعرف بأنوارها حقائق الصفات، ويرى بسنائها جلال الذات.

قال الجنيد: لما تكامل عقله، وصححت بصيرته، وخلصت نحيزته، وآن أوان خطابه آتيناه حكمًا بيانًا في نفسه، وعلمًا مما يتجدد عنده من موارد الزوائد عليه من ربه.

قال أبو بكر الوراق: حكمًا على عبادنا، وعلمًا بنا.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: بما أنعمت عليَّ من كشف جمالك، وما أسمعتني من لطائف خطابك لا أساعد المخالفين، ولا أجالس البطالين، ولا أعين المدعين، ولا أكون موافقًا لمراد النفس والهوى، ولا أكون في قيد الشهوة والمنى.

قال ابن عطاء: العارف بنعم الله من لا يوافق من خالف ولي نعمته، والعارف بالمنعم لا يخالفه في حال من الأحوال.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن الله سبحانه لما أراد بعبد عبادنا أن يكون له فردًا أوقع عليه واقعة شنيعة ليفزع من تبعاتها، فيفر مما دون الله إلى الله، فلما فرَّ إليه خائفًا من الامتحان بجد جمال الرحمن، ويعلم أن جميع ما جرى عليه واسطة لوصول المراد هذا حال موسى أفقره الحق إلى الافتقار إليه بسبب من الأسباب، والغرض منها كشف النقاب، وإسماع الخطاب، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا﴾ كان واجدًا في نفسه شغلات نيران المحبة، واستأنس بها، واستوحش من الخلق؛ فإذا أقبل إلى الحق بالكلية خاف وترقب أن يلحقه أحد من الضلال، فيمنعه من الوصول إليه، وأيضًا خرج مما دون الله خائفًا عظمة الله، يترقب طلوع شمس الوصال من مشرق الجمال.

وقال أبو بكر بن طاهر: ﴿خَائِفًا﴾ على قومه العذاب يترقب لهم هداية من الله.

قال ابن عطاء: خرج منها خائفًا من قومه يترقب مناجاة ربه.

وقال بعضهم: مستوحشًا من الوحدة يطلب من يأنس به.

وقال محمد بن حامد: خائفًا من الشيطان راجيًا للعصمة.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ لما تخلص من مقام تربية الإرادة، وغار من صحبة الأضداد، ومقام الامتحان هاج سره بحق الحق، واستنشق روحه رائحة ورد الوصال، ورأى بردًا من سحائب القربة، قال في نفسه: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: يهديني ربي إلى مشاهدته، ويسمعني كلامه، وذلك سواء سبيل المعرفة؛ لأن المعرفة بحقيقتها مستفادة من المشاهدة، ومن هناك تبدو سبل قدم الذات ومعرفة أزلية الصفات، فمدين إشارة إلى مشاهدة عالم الأزل والأبد، وتوجهه كان إليها بالحقيقة، فوجد نسائم ذلك من جانب مدين؛ لأن هناك مواضع الكشف والخطاب وصعود أنوار نبوة شعيب عليه السلام، وذلك، كما قال عليه السلام في إخباره عن وجدانه نسيم نفحه كشف جمال الحق في مزار قلب أويس

القرني -رحمة الله عليه: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن»[1]، قال تعالى حكايةً عن يعقوب ﷺ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[يوسف:٩٤].

قال جعفر: توجه بوجهه إلى ناحية مدين، وتوجه بقلبه إلى ربه طالبًا فيه سبيل الهداية، وأكرمه الله بالكلام، وكل من أقبل على الله بالكلية؛ فإن الله يبلغه مأموله.

قال أبو سعيد الخراز: حملته الفراسة، وتدابير المكالمة فيه إلى أن توجه أرض الأولياء، وهي أرض مدين، فصادف بها شعيبًا، وكان له في لقائه أوائل البركات، فلما كمل هيجانه إلى لقاء ربه قصد مدين بصورته، وقصد بروحه موارد المشاهدة والمكاشفة بقوله: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ورد سره موارد المكاشفة، وسواقي المشاهدة وأنهار القربة، وبحار القدس والأنس فشرب منها بأقدح الأقداح شربات المحبة والعشق والشوق فصار هائمًا في الملكوت حيران في الجبروت.

قال الواسطي: الوارد بطلب المقالة لثقل الحرمة، والقاصد يطلب اللقاء والظفر قال أبو بكر بن طاهر: ورد في الظاهر ماء مدين وورد في الحقيقة على مالك مياه الأنس وبساتين المعرفة ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ أي: خواص من العباد يرتعون في تلك الميادين، فأنس بهم، وشرب معهم من تلك المياه شربة أورثته ورود ذلك المورد المورود على مخاطبة الحق، وأورثه شرب ذلك الماء الثبات في حال المخاطبة، ثم بيَّن سبحانه مقام فراسة موسى بقوله: ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾، رأى موسى بنور النبوة أهله، وخاطبهما من حيث رؤية القلب ووجدان الأهلية وأعانها نصحًا الطريقة وأداء شرائط الإرادة بقوله: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، استظل ظل العناية وطلب من هناك حقائق الكفاية بنعت الرضا والتسليم وأظهر افتقاره إلى وصول المشاهدة حين عاين كنوز القدم مفتوحة وجلابيب الصفات مكشوفة فانبسط إليه بالسؤال حين انفرد من الخلق والخليقة.

قال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية فخشع وخضع وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من أنوار الربوبية، فافتقاره افتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله لا افتقار سؤال ولا طلب.

قال بعضهم: تولى إلى كهف الرعاية فإن فيه الراحة والاسترواح.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٥٤١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/ ٥٧).

قال رويم في قوله ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾: مياه الرحمة والعناية لا تخلو من الواردين والطالبين والعاكفين عليها، فمن أُيِّد بالعناية سُقي ماء الرحمة، ومن أُيِّد بالشفقة سُقي ماء العناية، ومن أُيِّد بالكلاءة سقُي من ماء المعرفة، ومن أُيِّد بالأنس سُقي من ماء المحبة، ومن أُيِّد بالصدق سُقي من ماء الصفاء، وكل وارد مياه الحضرة يُسقى على مقدار عطشه، فمنهم من يروي من عطشه، ومنهم من يزيد عطشًا وهيامًا، وكلما ازداد من الشرب ازداد من الظمأ، كما حكي عن أيوب ﷺ أنه قال: [من يشبع من رحمتك] كذلك قيل: والمشرب كثير الزحام.

شربت الحب كاسًا بعد كاس فما نفد الشراب ولا رويت

قال الأستاذ: ورد بقلبه موارد الأنس، والموارد المختلفة مورد القلوب رياض البسط لكشوفات المحاضرة، فيطرفون لأنواع الملاطفات ومورد الأرواح مشاهدة الأرواح، فيكاشفون بأنوار المشاهدة، ويسقطون عن الإحساس والنفس، وموارد الأسرار ساحات التوحيد، فعند ذلك الولاية لله فلا نفس ولا حسَّ ولا قلب، ولا أنس، استهلاك في الصمدية وفناء بالكلية، ويقال في قوله: ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: إلى ظل الأنس وروح البسط واستقلال السر بحقيقة الوجود.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ الحياء صفة الكرام لكن، هاهنا زيادة على حكم الحياء؛ ولأن تلك السلالة المقدسة لما رأت الكليم ﷺ استغرقت في أنوار ما كسا وجهه من صولة الموسوية، وما ألبسه من نور العظمة فتحاشت واستحيت مما رأت منه بنور الفراسة، ذلك النور من أهلية المحبة بين روحها وروح الكليم، قال تعالى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ معناه كل من رآه أحبه واستأنس.

قال أبو بكر بن طاهر: لتمام إيمانها وشرف عنصرها وكريم نسبها أتته على استحياء،

فإن النبي ﷺ قال: «الحياء من الإيمان»[1] ثم بيَّن سبحانه ما رمزنا من وصف فراستها بقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ رأت بنور الولاية قوة النبوة وأمانة الصديقية، وأيضًا قوة المعرفة والربوبية وأمانة المحبة والعبودية، وتكلمت مما رأت في المستقبل من أمانة موسى بالوفاء في شرطه شعيب في عهده بقوله، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ وقوة إرادته في خدمته عشر حجج، وهذه الكلمة أيضًا صدرت منها من رأس شقيقة روحها من روح موسى؛ لذلك صارت له أهلاً، فأبصر شعيب ما أبصرت من سوابق الحكم في المشيئة والمقادير في الأزل لذلك ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾؛ لأنه رأى بنور النبوة أنه يبلغ إلى درجة الكمال في ثماني حجج ولا يحتاج إلى التربية بعد ذلك، ورأى أن كمال الكمال في عشر حجج؛ لأنه رأى أن بعد العشر لا يبقى مقام الإرادة، ويكون بعد ذلك مقام الاستقلال والاستقامة، ولا يحتمل مؤنة الإرادة بعد ذلك؛ لذلك قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾: افهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار وأنفاسهم من بدو الإرادة بل من وقت الولادة، بل من كون الروح من العدم في مشاهدة القدم منقسمة على شرائف الأحوال، في كل نفس لهم سر وحال ووجد وخطاب ومقام وكشف ومشاهدة، فأجل الإرادة أجل المعاملات وأجل الحالات، فإذا تم أوائل المعارف وأمارات الكواشف لموسى ولم يبق عليه حق

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٦٨)، ومسلم (١/ ٦٣).

الإرادات والمقامات والمعاملات وظهر له عين القدم في عين الجمع وبان نور الأزل في النار بعد انقضاء الأجل قال: ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ والحكمة في ذلك أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة؛ لذلك تجلى النور في النار لاستئناسه بلباس الالتباس، فأخبر عن حال الاستئناس، وقال ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾أي: أبصرتها وأنستها، ولا تخاط النار من الاستئناس خاصة في الشتاء، وكان شتاءً فتجلى الحق بالنور في لباس النار؛ لأنه كان في طلب النار، فأخذ الحق مراده وتجلى من حيث إرادته وهذا سنته تعالى، ألا ترى إلى جبريل أنه إذا علم أن النبي ﷺ أحب دحية فأكثر إتيانه إليه كان على صورة دحية، فلما وصل موسى إلى المقصود ذهب النار وبقي النور وذهب الأنس وبقى القدس، ثم ذهب النور وظهر عين الصفة، ثم عين الذات، فلما وله تحير في صولة الأزل، وبان العيان لم يبق له العرفان، وظن ظنونًا منها أنه كان في سره أين أنا وإيش ما أرى، هل يكون لموسى ما يرى موسى أو أن موسى نام عن موسى، وما يرى لا يرى أو يرى ولا يعرف، فكاد أن يضمحل في الحيرة إذ بان الكشف بالبداهة خارجًا عن العادة فناداه الحق: أين أنت يا موسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، فأوقعه بطيب الخطاب من الفناء إلى البقاء ومن التفرقة إلى الجمع حتى أنس بالأنس ثم بالقدس، وبقي مع الحق بنعت الفرقان في محل العيان، فأوائل الأحوال كان رسمًا ثم وسمًا ثم واسطة ثم حقيقة، فارتفع الوسائط وبقي الحقائق، وذلك بقوله ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ أتى من الأكوان والحدثان إلى بساط الرحمن، ونودي له من شاطئ وادي الأزل في ساحة القدم من شجرة الذات بأصوات الصفات أن يا موسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا﴾ إشارة البعد في القرب والقرب في البعد والغيبة في الحضور والحضور في الغيبة، أشار إلى الهوية، ثم إلى كشف العيان بقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾أي: اخرج أنت من أنت من حيث أنت؛ فإني أنا الله أبقى لك؛ فانظر إليَّ بعين منا؛ حتى ترى الألوهية وتعلم الحقيقة.

قال بن عطاء: في قوله ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾: لما تم أجل المحبة ودنا أيام القربة والزلفة وإظهار أنوار النبرة عليه سار بأهله ليشترك معه في لطائف الصنع.

وقال جعفر في قوله ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾: أبصر نارًا دالة على الأنوار؛ لأنه رأى النور على هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلابيب الأنس، فخوطب بألطف خطابًا، واستدعى منه أحسن جواب؛ فصار بذلك مكلمًا شريفًا مقربًا أُعطى ما سأل وأُمِّنَ مما خاف، وذلك قوله ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: أنس سره برؤية النار لما كان فيه من عظيم الشأن وعلو المتبة، فأخرج الرؤية بلفظ آنست أي: أرى هذه النار رؤية مستأنس بها لا مستوحش منها، فدنا منها فأنسه طهارة الموضع وما سمع فيه من مناجاة ربه وكلامه، فتحقق بالأنس.

وقال الواسطي: الوسائط في الحقيقة لا أوزان لها ولا أخطار، وإنما هي علل لضعف الطاقات، كما جعل الواسطة به موسى بيته الشجرة نادى في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى، ثم دفع الواسطة ثانيًا، فقال ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾.

قال أبو سعيد القرشي: تلك الشجرة في مخاطبة الكلام تعلل التطبيق، بذلك التعلل حمل موارد الخطاب عليه كما تعلل النبي ﷺ بقوله «حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم ثلاثٌ»[1] أي: أنست منها ولا هي مني في شيء، إنما لي منها تعلل أتحمل به موارد الوحي عليَّ.

قال أبو علي الروذباري: الجبل الذي كلَّم الله موسى عليه كان من عقيق.

قال القاسم: لما سمع موسى الكلام خرَّ صاعقًا، فجاء جبريل وميكائيل فروَّحاه بمروحة الأنس حتى أفاق من الهيبة، واستأنس بالأنس مع الله، فزال بالرعب والفزع من قلبه، فقال له: يا موسى أنا الذي أكلمك من علوِّي، وأسمعك من دنوِّي، فلدنوِّي لا أخلو من علوِّي، ومن علوِّي لا أخلو من دنوِّي، يا موسى إني أنا الذي أدَّبتك قربتك وناجيتك، عند ذلك قال له موسى: أقريبٌ أنت فأناجيك أم بعيدٌ فأناديك؟ قال له: أنا أقرب إليك منك.

قال الأستاذ في قوله ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾: لاح له نارٌ ثم لاح نورٌ ثم بدا ما بدا فلا كان المقصود النار ولا النور، وظهر النداء ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ قيل شتَّان بين شجرةٍ وشجرةٍ؛ فشجرة آدم عندها ظهرت محنةٌ وفتنةٌ، وشجرة موسى عندها افتتحت نبوته ورسالته، يا صاحبي لو يعلم قائل هذا القول حقيقة شجرة آدم لم يقل مثل هذا في حق آدم؛ فإن شجرة آدم إشارةٌ إلى شجرة الربوبية، لذلك قال ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:٣٥]؛ فإن آدم إذا كان متصفًا بصفات الحق، أراد العينة بحقيقتها فنهى الحق عنها، فقال: هذا شيءٌ لم يكن لك؛ فإن حقيقة الأزلية ممتنعةٌ من الاتحاد بالحدثية، هكذا قال، ولكن أظهر أزليته من الشجرة، وسكر آدم ولم يصبر عن تناولها، فأكل منها حبة الربوبية، فكبر حاله في الحضرة، ولم يطق الجنة حملها، فأُهبط منها إلى معدن العشاق، فشجرة آدم الأسرار، وشجرة موسى شجرة الأنوار، وكم بين الأسرار والأنوار، الأنوار للأبرار والأسرار للأخيار، فلما صال آدم بصولة السكر انهزم من

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٠٥)، والمحب الطبري في الرياض النضرة (١/ ٢٦٥).

سطوات العظمة، ولم يحق له الجنة بعد ذلك، لذلك قيل (اهبط) وقيل في القصة أن موسى لما سمع كلام الحق سبحانه غشي عليه، فأرسل الله إليه الملائكة حتى روَّحوه بمراوح الأنس، كان هذا في ابتداء الأمر والمبتدئ مرفوقٌ به، وفي المرة الأخرى خرَّ موسى صعقًا وكان يفيق والملائكة تقول له: يا ابن الحيض مثلك من يسأل الرؤية يا ليت لو يعلم الملائكة أين موسى هناك لم يعيروه؛ فإن موسى كان في أول الأحوال مريدًا، وفي الآخر مرادًا مطلوبًا طلبه الحق واصطفاه لنفسه، وقال ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾، وهيجه إلى سؤال رؤيةٍ بعد أن ناجاه، ورناداه بأصوات اللطف، وقال ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، فشاهد موسى بين الجلال والجمال حقيقة الذات، فظن أنه خارج الحجاب من غلبة العيان قال:﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ﴾، فأجابه الحق وقال ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: أنت في مشاهد وتراني، فمن أين تطلبني وهاً أنا في عينك تراني بعيني؟! وفيه ألف الاستفهام غائبة مضمرة، لا يدركها بالفهم إلا أهل الحقائق، فيا ليت لو يعلم الملائكة أن موسى في ذلك مراد الحق أراد أن يريه نفسه، وهيجه إلى سؤال رؤيته، ولولا ذلك فمن أين يجد الحدث ظهور وجود القدم؟! وتلك الصعقة لموسى أنه كان في بداية الخطاب طمع الرؤية، فلما تجلى الحق سبحانه للجبل له واسطة طمع وصول حقيقة القدم، فهاج بحر الربوبية موجًا، فألقت موسى إلى سراب الحيرة حتى صعق، كما كان آدم يراه من الشجرة، فتعريد كما تعريد الكليم، فأهبطه من دار الوصلة إلى دار المحبة، وكذا يكون من أقبل الأزل بنعت الأجل وصارع مع أسد القدم بوصف العدم:

نديمـــــي غـــــير منـــــسوبٍ إلى شيءٍ مـــــن الحـــــيفِ
ســــقاني مـــثلَ مـــا يـــشرب كفعـــل الـــضيف بالـــضيفِ
فلـــما دارتِ الكـــأسُ دعـــا بالـــنِّطعِ والـــسيفِ
كـــذا مَـــنْ يـــشربُ الـــرَّاح مـــع التنـــين في الـــصيفِ

قيل: في البداية لطف، وفي النهاية عنف، ويقال: في الأول ختل، وفي الآخر قتل.

وقال الأستاذ في وصف الشجرة: الشجرة هي شجرة الوصلة، ثمرتها القربة، أصلها في أرض المحبة، وفرعها باسقٌ في سماء الصفوة، أوراقها الـزلفى، أزهارها وأنوارها تنفتق عن نسيم الروح والبهجة.

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾.

قوله تعالى ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا ﴾: افهم أن مقام الفصاحة هو

مقام الصحو والتمكين الذي يقدر صاحبه أن يخبر من الحق وأسراره بعباده لا يكون شفيعه في موازين العلم، وهذا حال نبينا محمد ﷺ حيث قال: «أنا أفصحُ العربِ[1]»، «وبُعثتُ بجوامعِ الكَلِمِ»[2]، وهذا قدرة قادرية اتصف بها العارف المتمكن الذي بلغ مقام مشاهدة الخاص ومخاطبة الخاص، وكان موسى في محل السكر في ذلك الوقت، ولم يطق أن يعبر عن حاله كما كان؛ لأن كلامه لو خرج على وزان حاله يكون على نعوت الشطح عظيمًا في آذان الخلق، وكلام السكران ربما يفتتن به الخلق؛ لذلك سأل مقام الصحو والتمكين بقوله ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾؛ لأن كلامه كان من بحر المكافحة والمواجهة الخاصة التي كان مخصوصًا بها دونه.

قال أبو بكر بن طاهر: هو أفصح مني لسانًا؛ لأنه لم يسمع خطابك ولم يخاطبك؛ فهو أفصح مني لسانًا مع الخلق، كيف أكون معهم فصيحًا وسمعت لذة كلامك؟ وكيف أخاطبهم مع مخاطبتك؟ وكيف أجعل لهم وزنًا مع ما أدبتني وخصصتني به؟ ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ معهم وأحسن بيانًا لهم، إني لم أستلذ مخاطبة بعدك، ولم ألتذ بكلام غيرك وأنشد:

هل كنتَ تعرفُ سرًّا يُورثُ الصَّمما ... أصمَّني سرُّهم أيامَ فُرقتِهم

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٠٨٧)، ومسلم (١/ ٣٧١).

ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا ﴾ سلطان الحق لهما ما كساهما من أنوار قدسه وأنسه ومحبته وهيبته.

قال جعفر: هيبته في قلوب الأعداء ومحبته في قلوب الأولياء.

قال ابن عطاء: سياسة الخلافة مع النبوة.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ ﴾ كان روحه ﷺ في مشاهد قرب القدم، وجسمه في بطن العدم، علمه كان قائمًا بمجازاة روحه عند الله، وأخبر عن بعض مقاماته كليمه، فاشتاق إليه، فزفر وبكى من محبته وشوقه، فناداه الحق بوصفه ودنوه بين يديه، فسأل من الحق رؤيته، فناداه الحق، وخاطبه بلسان حبيبه محمدٍ، فاستلذَّ بكلامه وسكن، كما أخبر ﷺ عن كمال حب عليٍّ بن أبي طالب في قلبه وفضله عند الله

بقوله: «إنَّ الله سبحانه خاطبني ليلة المعراج بلغة عليٍّ»[(١)]، فهو سبحانه وتعالى خاطب الكليم بلغة محمد ﷺ، وكان ﷺ في حضرة القدس، وموسى كان في مقام الأنس هو في مقام القدس سأل أمته، وموسى في مقام الأنس ذكر أمته، فبين ذكر الحبيب والكليم أمة محمد ﷺ مغفورة لذلك، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ .

قال الحسين: في هذه الآية خاطب منصوب القدرة في عين العدم.

وعن أبي يزيد أنه قرئت هذه الآية بين يديه فقال: الحمد لله الذي لم أكن، ثم سأل بعضهم عن معنى قوله هذا، فقال: معناه كيف كنت أستحق سماع النداء من الحق وجوابه فأجابه الحق عناء اللطف ونيابته عناء، ثم قال سهل في قوله ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ : عرضنا عليه لأمته ما أبى علينا فخصصنا به أمتك من قراءة الكتاب حفظًا والصلاة في غير المحاريب، كنا ننوب عنك وعن أمتك قبل الإيجاد.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ : كلُّ كلامٍ بغير خطاب الحال والواقعة فهو لغوٌ.

قال يوسف بن الحسين: اللغو ما يشغلك عن العبادة.

وقال حمدون: اللغو ذكر الخلق.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ .

قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ : الهداية مقرونةٌ بإرادة الأزل، ولو كان إرادة نبينا محمد ﷺ في حق أبي طالب مقرونةً بإرادة الأزل لكان مهتديًا، ولكن كان محبته وإرادته في حقه من جهة القرابة، ألا ترى أنه إذا قال: «اللَّهُمَّ أعِزَّ الإسلامَ بعمرَ»[(٢)] كيف أجابه؟!

قال ابن عطاء: إنك لا تسأل الهداية لمن تحبه طبعًا، وإنما تسأل الهداية لمن تحبه فتكون محبتك له حقيقة؛ لأنك لا تحب على الحقيقة إلا من تحبه، حاشا لنبينا المخالفة.

---

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه، ولم نقف على من خرجه.

(٢) رواه ابن ماجه (١/ ٣٩)، وابن حبان (١٥/ ٣٠٦).

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾(١).

قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا﴾ حرمهم بالحقيقة قلب محمد ﷺ، وهو كعبة القدس، وحرم الأنس، وسرادق مجد تجلي جلاله، وجماله يجبى إليه ثمرات جميع أشجار الذات والصفات، من دخل ذلك الحرم بشرط المحبة والموافقة كان آمنا من آفات الكونين والعالمين، وكان منظور الحق في العالم، وهكذا كل من دخل في قلب وليٍّ من أوليائه، وقلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات، من دفع عنه خاطر الوسواس والهواجس يجبى إليه من أشجار الأنوار ثمرات الأسرار.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ﴾ الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة، والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية، والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجّلة، والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقًا مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرَّبين، فلا يتخطَّى أحدهم حدَّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة، فإن الأبرار، وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة، كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً، كما دلَّ عليه قوله: «وصنف لا يتستر الرب عنهم، وذلك من نتائج شهودهم في الدنيا بالبصيرة».

قال بعضهم: من مكن من رعاية سرِّه وافتقاد أوقاته لن يعدم الزوائد من الله ودوام الفوائد، ومن ضيَّع أوقاته وأهمل ساعاته فهو متردِّدٌ في ميادين الغفلة وساعٍ في مسالك الهلكة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾: يخلق ما يشاء في قلوب العارفين والمحبين والموحدين من أطيار الإفهام والمعارف بخواطر الحق والإنعام، ويختار بها بمشيئة الأزل أهل محبته ومعرفته ومشاهدته وقربه ووصاله، ونفى عن هذه المواهب السنية علة الاكتساب بقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾.

قال الجنيد: كيف يكون للعبد اختيارٌ والله المختار له بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾.

إذا نظروا إلى الأحكام الجارية بجميل نظر الله لهم فيها وحسن اختياره فيما أجراه عليهم لم يكن عندهم شيء أفضل من الرضا والسكون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾: إذا أدام ليالي الهجران بظلمة النفس والشيطان والفترة والعصيان من يأتي بنهار الوصال وضياء الجمال إلا الله سبحانه، وإذا أدام نهار الوصلة واستقام شمس المشاهدة في وسط فلك العناية على قلب العارف الصادق من يأتي بليل الفقدان وظلمة الغفلة والنسيان.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤)﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ

إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، ثم بيَّن سبحانه أن ليل الفترة ونهار المشاهدة من كمال لطفه بأوليائه؛ ليترفهوا في زمان الفترة، ويستريحوا لحظة من ثقل واردات المشاهدة، ويستبشروا في نهار الكشف والعيان برؤية الرحمن، ويتلذذوا بالروح والريحان، وذلك قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾.

قال الحسين بن منصور: من علم من أين جاء علم أين يذهب، ومن علم ما يَصْنع علم ما يُصنع به، ومن علم ما يُصْنَع به علم ما يُراد به، وَمنْ عَلِمَ ما يُراد به علم ما له، ومن علم ما له علم ما عليه: ومن علم ما عليه علم ما معه، ومن لم يعلم من أين جاء وأين هو وكيف هو ولمن هو ومما هو وما هو وإلى أين هو فذلك ممن أهمل أوقاته، وترك ما ندبه الله إليه، بقوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾: شهداء الخلق أصحاب الفراسات والمشاهدات الذين يخاطبهم الله بفعله وصفاته وذاته بوسائط الكون أحيانًا، ويخاطبهم صرفًا بكلامه القديم بغير واسطة، فهم مشرفون عل أسرار الحق والخليقة، فهم ينطقون من بطون خواطرهم، ولكل طائفةٍ من المريدين شاهدٌ من أهل القصة، يشهدون لهم وعليهم في الدنيا والآخرة، وهو مخصصٌ مستخرجٌ من القوم بنعت الاصطفائية والولاية.

قال بعضهم: أخرجنا من كل قوم وليًّا وأطلعناه على أسرار قربنا، ثم أذنا في البرهان، فأظهر البرهان بنا لا به، فعلم الخلق أن لا قيام لأحدٍ بنفسه، ولا يخبر عن الحق سواه، ولا يجيب عن سؤاله غيره، ولا يقوى على مخاطبته إلا من أُيِّد بتأييدٍ خاصٍّ.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾: نصيب العارف من الدنيا الوجه الحسن، الصوت الحسن، ورائحة الطيب، والدار الحسنة، ومجالسة الفقراء الصُبَّر الصادقين في العشق القائمين بالله، بشرط المحبة والشوق

والبذل والإيثار في خدمتهم وصحبتهم، والنظر إلى كل مستحسنٍ والانفراد عن كل مستقبح وإجراء الحياة في السماع والوقت والوجد والحال والمراقبة والمحاضرة، وجميع ذلك مجموعٌ في قوله ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاثٌ: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة»(١)، وإحسان الله على العارف كشف مشاهدته وتعريف نفسه له، وإحسان العارف الإقبال على الله بنعت التجريد عما دونه وشهوده مشاهدة جلاله وربوبيته في عبوديته.

سئل سفيان الثوري عن قوله ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: لا تغفل عن عمرك في الدنيا أن تعمل بالطاعة.

قال بعضهم: لا تغترَّ بها ولا تسكن إليها.

وقال الجنيد: لا تترك إخلاص العمل لله في الدنيا؛ فهو الذي يقربك منه ويقطعك عما سواه.

قال القاسم في قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ﴾: اصرف وجهك عن الكل بالإقبال عليه كما أحسن إليك؛ حيث جعلك من أهل معرفته، وأحسن مجاورة معرفته؛ فإنه أحسن إليك؛ حيث أنعم عليك بالإيمان وهو من أعظم النعم، فأحسن جوار نعمه؛ فإنه أحسن إليك في أن وفَّقك لخدمته، فأحسن القيام بواجب عبوديته وإخلاص خدمته.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾: كل مريدٍ نظر إلى طاعته وعلمه وعمله وكراماته وحكمته ونطقه وفصاحته وما يسهل له من مراداته فهو مفتونٌ بدعواه ساقط عن نظر الشيوخ بترك آدابه وسقوط احتشامهم عن قلبه، نعوذ بالله من هذه الفتنة، والله رأيت أكثر أهل زماننا يسقطون من درجة الإرادة والصدق ومن قلوب أهل الحقيقة بإعجابهم بما هم فيه، فيصير حالهم أقبح من أحوال العصاة المفلسين؛ لأن مآل هؤلاء في أواخر أعمارهم الإنكار على أولياء الله وخروجهم بدعوى الشيخوخية عليهم، أعمى الله أبصار قلوبهم وهم لا يشعرون.

قال سهل: ما نظر أحدٌ إلى نفسه فأفلح، ولا ادَّعى لنفسه حالاً فتم له، والسعيد من الخلق من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل الفضل والإفضال ورؤية من الله

(١) تقدم تخريجه.

عليه في جميع الأفعال، والشقي من زُيِّن في عينه أقواله وأفعاله، وافتخر بها وادَّعاها لنفسه، فشؤمه ومهلكه يومًا فيومًا، وإن لم يهلكه في الوقت، ألا ترى الله تعالى كيف حكى عن قارون بقوله ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ نسي الفضل، وادَّعى لنفسه فضلاً، فخسف الله به الأرض ظاهرًا، فكم قد خسف بالأسرار وصاحبها لا يشعر بذلك، وخسف الأسرار هو منع العصمة، والرد إلى الحول والقوة وإطلاق اللسان بالدعاوى العريضة، والعمى عن رؤية الفضل، والقعود عن القيام بالشكر على ما أولى وأعطى حينئذٍ يكون وقت الزوال.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾: بيَّن سبحانه في هذه الآية شأن قارون وخروجه بالزينة على أهله، وهلاك من يخرج على أولياء الله بالدعاوى الباطلة والكبر والرياسة، لا محالة يسقط من عيون الخلق وقلوبهم بعد سقوطه من عين الحق، ويخسف أنوار إيمانه في قلبه لا يرى أثرها بعد ذلك، وأصل الزينة عند العارفين وجوه معفرة بالتراب عليها آثار دموع الشوق والمحبة، ساجدة على باب الربوبية.

قال ابن عطاء: أزين ما تزين به طاعة ربه، ومن تزيَّن بالدنيا فهو مغرورٌ في زينته.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾: وصف الله سبحانه أهل الفقر من الصادقين والعلم من العارفين بمشاهدتهم جمال الغيب وشهودهم مشاهدة الحق مع تصاغر زينة الدنيا في عيونهم، وإن ذلك المقام لا يناله إلا صابرٌ في بلائه راضٍ في قضائه مشتاقٌ إلى جماله والهٌ في رؤية جلاله.

قال بعضهم: العالم بربه من رؤي دوام نعمته عليه، وتتابع آلائه لديه، وقصور شكره

عن نعمه، وإفلاسه عما يظهر منه، هذه صفة العلماء بالله.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾: نبهنا الله سبحانه أن الوصول إلى قربه ووصاله ومراتب دُنُوِّه في جنان مشاهدته لمن لا يكون له حبُّ الرياسة والجاه في قلبه، ولا يباشر حظوظ نفسه وهواه، ومن خُصَّ بهذه الدرجات الشريفة لا يأتي منه أفعال المخنثين من أهل الرياء والسمعة، الذين تركوا الدين بالدنيا وجاهها، وأفسدوا وجه الأرض بسالوسهم وناموسهم، ضرب الله أعناقهم؛ فإنهم قرناء الشياطين في جهنم، نعوذ بالله من شؤم معصيتهم.

قال يحيي بن معاذ: الدنيا خمر إبليس، من شرب منها شربةً لا يفيق إلا في عسكر القيامة.

وقال ابن عطاء: العلو النظر إلى النفس، والفساد النظر إلى الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾: إن الله سبحانه خلق روح المصطفى ﷺ بين نورين: نور الجمال، ونور الجلال، حين أظهر ذاته سبحانه، فوصل نور الذات إلى نور الجمال والجلال، ثم تجلَّى من جميع الصفات والذات بين الجلال والجمال المكمن غيب الغيب، فظهر روحه ﷺ، وصار أهلاً للقرآن؛ لأنه كان مخصوصًا بأهلية رؤية الذات والصفات جميعًا، فنـزل القرآن على معدن أهلية، ليأخذه ويرجع به إلى معدنه الذي بدأ منه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إن الذي خاطبك بكلامه القديم لرادُّك إليه بمراكب القرآن، وذلك المعدن معدن التنـزيه المنـزه عن التشاكل والتباعض والاجتماع والافتراق، نظر إلى شوقك في قلبك إلى معدنك من عالم الملكوت والجبروت يردك بأنوار صفاته إلى مشاهدات ذاته، تعالى الله عن إشارة الزنادقة والتنويين؛ لذلك قال ﷺ: «حبُّ الوطن من الإيمان»[1].

قال الواسطي في ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: مجالسة ليلة المسرى وإلى مخاطبات الروح بالقرآن.

---

(١) ذكره القاري في المصنوع (١/ ٩١).

قال ابن عطاء: الذي يسَّر عليك القرآن قادرٌ أن يردَّك إلى وطنك الذي منه ظهرت، حتى تشاهده بسرك على دوام أوقاتك.

قال الحسين: إن الذي فرقك برسم الإبلاغ إلى الخلق سيردُّك إلى معنى الجمع بالفناء عن ملاحظاتهم والترسم معهم على حد الإبلاغ رسومهم، ويخصصك بالمقام الأخص والبيان الأخلص.

وقال ابن عطاء: الذي حفظك في أوقات المخاطبة لرادُّك إلى وطنك من المشاهدة.

قال الواسطي: إلى حيث شاهد روحك وإلى الكرم الذي أظهرك منه.

قال الأستاذ: إن الذي أقامك شواهد العبودية فيما أثبتك لرادُّك إلى الفناء عنك بمحوك في وجود الحقيقة.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ .

قوله تعالى:﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ ﴾ : اطَّلع الحق على قلب حبيبه ﷺ ورأى بحار عشقه ومحبته وشوقه ومعرفته وأنسه وتوحيده وتفريده تكاد تموج بأمواج الاتحاد والفردانية في الأنانية، فأشهده على نفسه لا يتحرك من مقام الاتحاد، فإن ذلك مكمن عين الجمع، ولا ينبغي أن يكون محجوبًا عنه به بقوله:﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ ؛ فإن اتحادك وأنانيتك صدرت من كشوفٍ جلاليٍّ وجماليٍّ، ولا يبقى أثرها عند بروز سطوات عظمة قدمي، ألا ترى كيف قال:﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفى عن ساحة كبريائه أنانية كل عارفٍ سكرانَ، وأفنى مدارج التوحيد والمعارف في سبحات ذاته بذاته بقوله﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ ، فإذا تبين الحقيقة للخليقة تفنى الخليقة في الحقيقة، ولا تبقى أنانية العارف في ألوهية المعروف، وتعالى الله عن الأضداد والأنداد.

قال الواسطي: إذا تحقق ذلك عنده أخذ العبد من العبد لقيام الحق به.

قال ابن عطاء: في كشف الذات هلكةٌ ومحرقةٌ، قال الله تعالى:﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ .

❁❁❁

سورة العنكبوت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ

فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾.

﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾: أقسم الحق سبحانه بإشارة الألف إلى استواء فردانية أزليته على قلوب المفردين من أهل التفريد، وبإشارة اللام إلى كشف جماله للأرواح العاشقين الذين استقاموا مع الله بنعت التجريد، وبإشارة الميم إلى محبة القدمية السابقة لسباق المحبين الذين استغرقوا في بحار التوحيد أنه تعالى لا يدفع من ادَّعى محبته ومعرفته في مقام وصاله، وكشف جماله في الدنيا بوصف السرمدية إلا ويبتليهم بعد التجلي بالاستتار وبعد كشف الأنوار بتعذيب الأسرار؛ لاستيفاء حق الربوبية من العبودية وغيرة الأزلية على كون الحدث بالأسامي والنعوت في نعوته الأبدية.

قال ابن عطاء: ظن الحق أنهم يتركون مع دعاوى المحبة، ولا يطالبون بحقائقها، وحقائق المحبة هي صبُّ البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء، فبلاءٌ يلحق جسده، وبلاءٌ يلحق قلبه، وبلاءٌ يلحق سره، وبلاءٌ يلحق روحه، وبلاء النفس في الظاهر الأمراض والمحن، وفي الحقيقة منعها عن القيام بخدمة القوي العزيز بعد مخاطبته إياه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وبلاء القلب تراكم الشوق ومراعاة ما يرد عليه في الوقت بعد الوقت من ربه والمحافظة على أحواله مع الحرمة والهيبة، وبلاء السر هو المقام مع من لا مقام للخلق معه والرجوع إلى من لا وصول للخلق إليه، وبلاء الروح الحصول في القبضة والابتلاء بالمشاهدة، وهذا ما لا طاقة لأحدٍ فيه، ثم بيَّن سبحانه أنه لا ينجو أحدٌ من الأولين والآخرين من دركات الامتحان بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝﴾، ميز بالتبوء بين الصادق والكاذب؛ فتبين شكر الشاكرين في النعمة وصبر الصابرين في المحنة ودعوى الكاذبين بفرارهم عن البلاء والطاعة.

قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، من شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين، ثم بيَّن سبحانه أن الذين عاشوا في البطالة لم يبلغوا منازل الصديقين بالتمني والتجلي وأبواب مقادير سعادة الآزال مسدودة عليهم، أيحسبون أن ينقضوا قضيات الحق السالفة فيهم بوصف الشقاوة والطرد والقطيعة، ويبدلوها بقضياته السابقة بنعت الاصطفائية في حق المحبين المطيعين؟! كلا ليس كما يحسبون؛ فإن أحكام الأزلية مقدسةٌ من

النقوض والنقائض بهوسات المفلسين البطالين.

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، قال القاسم: أن يسبقوا ما كتبنا عليهم من محتوم القضاء وما قدر عليهم مما مضى الحكم فيهم، ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ ﴾ أي: باطلٌ ما يعملون.

قال الواسطي: إنما ذكر الله تنبيهًا للخلق ووصفًا لهم بصفاتهم ونعوتهم قبل أن خلقهم؛ كي يوقنوا أنهم لا يسبقونه بالقول والفعل، وأنهم مرتبطون بما سبق لهم من الصفات، وفيهم قال الله ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾، ثم سلى قلوب المشتاقين إليه بقوله: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾: من كان مستغرقًا في بحر أشواقه فإن أوان كشف جماله وجلاله قريبٌ من مشتاقيه الناجين من حبس النفس وحجابها، فيرون الحق بلا حجابٍ وهو سميعٌ لأهل الصفوة أسرارهم، عليم بالتهاب قلوبهم بنيران محبته وشوقه، قيل فليسأل ربه سؤال الملح المحتاج، وليطلب منه طلب الراغب المشتاق.

وقال أبو عثمان في قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾: تعزية للمشتاقين أي: أعلم اشتياقكم إليَّ، وأنا أجّلت لكم أجلاً، فعن قريبٍ يكون وصولكم إلى من تشتاقون، فتطيبوا نفسًا، وتنبهوا.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝﴾.

قوله: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾[1]: نبَّه الخلق أن ربوبيته منـزَّهةٌ عن عبودية الخلق، وأن صفات الحدث يرجع بنعوتها إلى الحدث؛ لأنه مقدسٌ عن النفع والضر، وهو غنيٌّ عن وجود الخلق وعدمه، فبيَّن قيمة المجاهدة أنهم إذا جاهدوا ولم يظفروا بمأمولهم يعلمون أنهم يدورون حواليهم، وأن الفضل من الله خاصٌّ لأهل الخصوص ممن عرفهم الله نفسه بلا كدٍّ ولا عناءٍ.

---

(١) لأن نفع ذلك له فيتعبها ليريحها، ويشقيها ليسعدها، ويميتها ليحييها، وعبر بالنفس لأنها الأمارة بالسوء، وإنما طوى ما ادعى تقديره لأن السياق للمجاهدة.

قال الواسطي: بالنعم ابتدأ الحق الخلق تفضيلاً من غير استحقاق، جلت نعمه وعطاياه أن تستجليها الحوادث بحال الكنه المبتدئ بالنعم والمتفضل بها، قال الله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: من يظهر على نفسه آثار العبودية وزينتها لا يطالب بها قربة إلى ربه؛ فإن الحق لا يتقرب إليه إلا به وبها منه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾: وصف المتكلفين بدعاوى المعرفة والمحبة، فإذا لحق بهم ملامة الخلق تركوا الطريق، والعارف الصادق المحب المشاهد لا يبالي بأقوال الخلق وأفعالهم في حقه؛ فإن الأكوان والحدثان ومن فيها من الخلق أقل من خردلة في عين العاشقين؛ لأنهم يعرفون غباوة الخلق وجهلهم بحالهم؛ وبلاؤهم لا وزن له كما لا وزن لهم عندهم.

قال الواسطي: لا يُؤذى في الله إلا الأنبياء وخواص الأولياء والأكابر من العُبَّاد، ومن تعززت نفسه نازع الله في ربوبيته.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ

ٱلْآخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾: اطلبوا رزق المشاهدة والوصلة من مقام المحاضرة مع الله، ﴿ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ بشرط المعرفة والإحسان، ولا تظنوا أن الكشف العيان والمعرفة والبيان يتعلق بالاكتساب، ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ أي: اشكروا ما أنعم عليكم بتعريفه إياكم نفسه له لا بغيره من العرش إلى الثرى.

قال ابن عطاء: اطلبوا الرزق بالطاعة والإقبال على العبادة.

وقال سهل: اطلبوا الرزق في التوكل لا في الكسب؛ فإن طلب الرزق في الكسب سبيل العوامّ.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾: يعذب من يشاء بالاستتار، ويرحم من يشاء بالتجلي، يعذب من يشاء بالقبض، ويرحم من يشاء بالبسط، يعذب من يشاء بالمجاهدة، ويرحم من يشاء بكشف المشاهدة.

قال بعضهم: يعذب من يشاء بالحرص، ويرحم من يشاء بالقناعة.

وقال بعضهم: يعذب من يشاء بالإعراض عن الله، ويرحم من يشاء بالإقبال عليه.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾: عاين الحق، ﴿ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ ﴾ من نفسي ومن الكون إليه بالانفصال عما دونه، ولا يصحُّ لأحدٍ الرجوع إليه، وهو متعلقٌ بشيءٍ من الكون حتى ينفصل عن الأكوان أجمع ولا يتصل بها.

وقال ابن عطاء: أي: راجعٌ إلى ربي من جميع مالي وعليَّ الرجوع إليه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ

فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾: أجر الخلة كشف المشاهدة والقربة في الدنيا بالقلب والروح وفي الآخرة عيانًا بالعين، وذلك لصلاح الكل.

قال ابن عطاء: أعطيناه في الدنيا المعرفة والتوكل، وإنه في الآخرة لمن الراجعين إلى مقام العارفين.

قال بعضهم: آتيناه ثناءً وحسنًا في دنياه، وآتيناه ذكرًا حسنًا في عقباه، وهو ما خُصَّ به من أنه خليل الله.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾: كل مجلسٍ ليس بمجلس العارفين بالله وبأحكامه فهو مجلسٌ منكرٌ؛ لأن مجالسهم مجالس السماع والوجد والحضور والمراقبة والذكر والفكر والنصيحة، وأهل الغفلة مجالسهم مجالس سهوٍ ولهوٍ، سئل الجنيد عن هذه الآية قال: كلُّ شيءٍ يجتمع الناس عليه إلا الذكر فهو منكرٌ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾: بيَّن الله سبحانه أن من اعتمد على غير الله في أسباب الدنيا والآخرة فهو ينقطع عن مراده غير واصلٍ بربه.

قال ابن عطاء: من اعتمد شيئًا سوى الله فهو هباءٌ لا حاصل له، وهلاكه في نفس ما اعتمد، ومن اتخذ سواه ظهيرًا قطع من نفسه سبيل العصمة، ورُدَّ إلى حوله وقوته.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾: دقائق المعارف لا يعرفها إلا صاحب حال مخاطبٌ من الله بنعت الكشف والعيان والبيان.

قال سهل: شواهد القدرة يدل على القادر ولا يعقلها أي: لا يتنبه بها إلا العالمون به وبأسمائه وصفاته؛ لأنهم علماء النسبة والباقون علماء المنهج، والعالم على الحقيقة من يحجره علمه عن كل ما لا يبيحه العلم الظاهر.

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾: حقيقة الصلاة

حضور القلب بنعت الذكر والمراقبة بنعت الفكر، فالذكر في الصلاة يطرد الغفلة التي هي الفحشاء، والفكر يطرد الخواطر المذمومة وهي المنكر هذا في الصلاة، وبعد الصلاة تنهى الصلاة الحقيقة التي تنهى صاحبها عن رؤية الأعمال والأعراض، فإذا كان كذلك الصلاة يتكون قرة عيون العارفين، بقوله ﷺ: «قرَّةُ عيني في الصلاة»[١].

وقال ابن عطاء: بركات الصلاة تذهب بعقاب الفحشاء ونيات المنكر.

قال جعفر: الصلاة إذا كانت مقبولةً فإنها تُنهى عن مطالعات الأعمال وطلب الأعراض، وقوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ للعارف بذكرٍ خالصٍ في السرِّ غير مشوبٍ بحركات الصورة، وذلك نورٌ صدر من أنوار كشوف صفات الحق حين أظهر جلاله وجماله لروحه، وله ذكرٌ مشوبٌ بالأعمال الظاهرة مثل الصلاة وجميع الأعمال، والذكر الأول أصفى وأجل؛ لذلك قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ لأنه غير مكتسبٍ مقدسٌ عن العلل، وأيضًا ذكر الله الأزلي للعارف حين اصطفاه بمعرفته أكبر وأعظم من أن يدركه أحدٌ بالكسب والأعمال، وأن يلحقه نقصٌ أو نقصٌ من جهة الحدث: وإذا قلت ذكر الله للعباد أكبر من ذكر العباد له قابلت الحادث بالقديم، وكيف تقول الله أحسن من الخلق، ولا يوازي قدمِه إلا قِدمه ولا يقابل ذِكره إلا ذكره، وأنَّى يكون الأكوان والحدثان في سرادق الرحمن؟! وكيف يبقى الكون في سطوات المكون؟!

قال الواسطي: من شاهد نفسه في ذكره فقد شاهد نفسه في مقابلة من لا يقابله شيء، والله يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من أن يكون أحدٌ فيه بحق العبودية، فكيف بحقوق الربوبية؟!

قال أيضـًا: ذكر الله لكم في الأزل أكبرُ وأحكمُ وأقدمُ وأتمُّ.

وقال ابن عطاء: ذكر الله أكبر من ذكركم؛ لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوبٌ بالعلل والأماني والسؤال.

قال القاسم: ذكر الله أكبرُ من أن يحويه أفهامكم وعقولكم، وحقيقة الذكر طرد الغفلة، وإذا لم تكن الغفلة فما وجه الذكر؛ لأنه أكبر من أن يلحقه ذكرٌ أو يدنيه إشارةٌ؛ لأن الإشارة تطلب الأين، والأين يلحقه الحين.

وقال الأستاذ: لذكر الله أكبر من أن يعرف قدره أحدٌ وأكبر من أن يعارضه ذكرٌ، ويقال ذكر الله أكبر من أن يبقى معه وحشةٌ.

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾: إن الله سبحانه أزال عن ساحة الاصطفائية الأزلية وشرف النبوة والرسالة المصطفوية لنبيه صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والرسل علل التكلف والأسباب بها أخبرنا بهذه الآية ما علمناه من إنبائه تقديس الولاية، والفضل العميم القديم السابق في حق العارفين والمحبين.

قال أبو سعيد الخراز في هذه الآية: أبيدت عنه الرسوم وأشكال الطبائع؛ لما فيه من تدبير المحبة والاختصاص بخصائص القربة، فلم يتدنس بمرسوم، ولم يرجع إلى معلوم؛ لذلك لما بدهه الحق أثّر فيه حيث وجده خاليًا عما فيه الأغيار، ألا ترى أنه لما قيل له: ﴿ٱقْرَأْ﴾ قال: ما أنا بقارئ، فقيل له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فلما قيل له: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ سكن إليه وألفه؛ لخلوه عن التدنس بالمرسومات.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾: عرائس حقائق القرآن لا تنكشف إلا لأرواح المقربين من العارفين والعلماء الربانيين؛ لأنها أماكن أسرار الصفات وأوعية لطائف كشوف الذات، وما سواها من الوعاء أليق بظواهر الخطاب وصورتها مع أهل الشرائع.

قال أبو بكر بن طاهر: علوم الدراية جعل وعاءها صدور العلماء ربانيين، وآيات ذلك ظاهرةٌ عليهم، وأنوارها مشرقةٌ فيهم، فلا ترى عالمًا مستعملاً بعلمه راعيًا لأحكام الحق عليه،

وموارد الحق إياه إلا وأنوار هيبته تشتمل على قلوب حاضريه فلا يكون مجلسه إلا مجلس أدب.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ﴾ : بسط الحق بساط عطايا الكرم ونورها بشروق شموس القدم لطلاب مشاهدته وقربه ووصاله من العارفين والمحبين.

قال سهل: إذا عمل بالمعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين.

﴿كُلُّ نَفْسٖ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفٗا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٖ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: قهر سلطان كبريائه أعدم كل موجودٍ سواه وإن بقي؛ لأن بقاء الخلق ببقاء الحق يكون ليس لهم بقاء بالحقيقة، إنما البقاء لمن له أزلٌ وقِدمٌ.

قال الجنيد: النفوس وإن عظمت خطرتها فإنها مردودةٌ إلى قيمتها لا يثبت لها حال ما دامت قائمة بأنفسها، إلا أن يُفني الحق شاهدها عنها ويحييها بشواهد إشهادٍ منه إياها إذ ذاك تحيا ويزول عنها العلل، قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٖ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ : ما دامت ما فيه قائمة بذواتها، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بها لنا، فتسقط عنها العوارض والعلل، ويقيمها مقام الصدق.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ۝٦٢ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٦٤ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٦٦ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوٗى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ : حثَّ سبحانه العباد بالتوكل عليه

والتيقن بلطيف صنعه والكرم العميم منه على جميع البرية، وبأن يرضى العباد بما يجري عليهم من الأقدار السابقة في الأزل، ولا يكونوا مهتمين بما يستقبلون من الأيام الباقية والأعمار الماضية بجهة الرزق؛ لأنه تعالى قدَّر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ، وما قدَّر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين وجهد الجاهدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور لا تدَّخر شيئًا إلى الغد «تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[1]؛ لاتكالها على الله بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، كيف يكون الإنسان يهتم لأجل رزقه ويدَّخر شيئًا لغده ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره ولا يصل إلى غده؛ لذلك كان ﷺ لا يدَّخر شيئًا لغدٍ؛ إذ الأرزاق مجددةٌ كالأنفاس المجددة في كل لمحة، ولذلك وصف الله سبحانه في أوائل الآية أهل التوكل والرضا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل: ٤٢]، ثم بيَّن أنه تعالى رازق جميع ذوات الأرواح بقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾؛ ليسقط عن القلوب اهتمام الرزق من قلوب الخصوص والعموم؛ لأجل نفوسهم ولغيرهم؛ لأنه سميعٌ مقالة السائلين في طلب حوائجهم منه، عليمٌ بما ادخره من أرزاقهم في خزائن جوده، ودقيقة إشارة التوحيد أن الأرزاق في أماكن العدم معدومةٌ ولا يوجدها بالحدثان؛ لأن إيجادها من نعوت قوة الرحمانية الأزلية، ولو يحصرها بجميعها كيف تحملها الدابة، وأصل حقيقة الرزق مشاهدة العدم والأرواح لا تحمل سطواتها في وقت التجلي، بل الله يكسبها قوةً أزليةً تحمل بها منه ما عليه من كنه كشفه.

قال بعضهم في تفسير قوله: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ قال: لا تدَّخر شيئًا لغدٍ.

قال النهرجوري: لا تجزعوا من التوكل؛ فإنه عيشٌ لأهله، قال الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ﴾.

وقال ابن عطاء: يرزقها بالتوكل، ويرزقكم بالطلب.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾: افهم يا غافل أن الله سبحانه اختار أهل صفوته بالاصطفائية القدمية، وخصَّهم بعرفان نفسه والإيقان فيما بان منه لهم من أنوار الربوبية في مقام العبودية، فطارت أرواحهم من عالم الملكوت بأجنحة أنوار الجبروت في أوائل إيجادها إلى الأكوان؛ لحصول عبودية الرحمن، فصحبها سنا قربه وضياء دنوه وحلاوة أنسها بما رأت من جلاله وجماله، فتحركت من الأزل إلى الأبد بنعت شوقها إلى صانعها، وما

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٤)، وأحمد (١/ ٥٢).

طرأ عليها السكون، بل غلب عليها شوق معادنها، فحركاتها جذبًا منه تعالى إليه ومحبَّةً وشوقًا، فلما هامت في ميادين الشوق من غلبة السكر والذوق ولا تعرف مسالك الربوبية بالحقيقة فيكشف الله لها سنا القدس فتصل به إلى حجال الأنس، وتعرف هناك سبيل الصفات، وتتطرق من مدارجها إلى معارج طرق معارف الذات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾: جاهدوا بالله في الله لله، فيعرفون الله بالله، وهو معهم بإعطائه إياهم كشف جماله؛ لأنهم يشاهدونه بنعت المراقبة، وبذل وجوههم لحب المشاهدة[1]، وذلك معنى قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، وأصل المجاهدة فطام النفس عما دون الله من العرش إلى الثرى، سبل المجاهدة من العبد إلى الله أو من الله إلى العبد.

فقال: ما من شيء إلا الله موجده قال الله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: أوجدكم وأوجد أعمالكم بلا شريك ولا عون فالخلق فأنتم بالخلق قائمٌ بالخلق.

قال ابن عطاء: ﴿وَٱلَّذِين جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي: في رضانا ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُم﴾: الوصول إلى محل الرضوان.

قال الجنيد: لنهدينهم سبيل الإخلاص.

قال ابن عطاء: المجاهدة صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه.

قال النهرجوري: والذين جاهدوا في خدمتنا لنفتحنَّ عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا والمشاهدة لنا، ومن لم يكن أوائل أحواله المجاهدة كانت أيامه وأوقاته موصولة بالتواني والأماني، ويكون حظه البعد من حيث يأمن القرب.

قال عبد الله بن منازل: المجاهدة علم أدب الخدمة لا المداومة عليها، وأدب الخدمة أعزُّ من الخدمة.

قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف: وكل محتملٍ لثقل العبودية في اختلاف ما وضع الله من عوضٍ وفضلٍ فهو داخلٌ في أحوال المجاهدين.

قال الأستاذ: شغلوا ظواهرهم بالوظائف، فأوصل إلى سرائرهم اللطائف.

---

(١) وفي التأويلات النجمية قوله: هذا مثل ضربه الله تعالى للخلق تعريفًا لذاته وصفاته، فلكل طائفة من عوام الخلق وخواصهم اختصاص بالمعرفة من فهم الخطاب على حسب مقاماتهم وحسن استعدادهم فما العوام فاختصاصهم بالمعرفة في رؤية شواهد الحق وآياته بإرآته إياهم في الآفاق، وأما الخواص فاختصاصهم بالمعرفة في مشاهدة أنوار صفات الله تعالى وذاته تبارك وتعالى بإرآته في أنفسهم عند التجلي لهم بذاته وصفاته.

سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾.

﴿الٓمٓ﴾ : إشارة الألف هاهنا إلى اشتياق قلوب المشتاقين إلى لقائه، وإشارة اللام والميم إشارة كيف جماله لأرواح المحبين العاشقين لوجهه بقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ : إشارةٌ إلى أن الأرواح وإن كانت مغلوبة من النفوس الأمّارة والشياطين الكافرة امتحانًا من الله وتربية لها بمباشرة القهريات، فإنها تغلب على النفوس حين يخرج من مقام الاختيار.

قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ : نفى كل نفس قاتل الأرواح النفوس، فالمؤيد من أعانه الله على نفسه بأن قوّاه في العبودية بشراب المحبة والقربة، ثم بيّن أن القهر واللطف يتعلقان به، والنصر والخذلان يصدران منها بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: له أمر الاصطفائية في الأزل ورعايتها له إلى الأبد، فإذا انكشفت أنوار العناية انهزمت ظلمات الطبيعة تفرح الأرواح بتأييد الله حين عاينت ملكوت الله بقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ : من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء؛ لأنه المبدئ والمعيد.

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ

ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ (١٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧)﴾: وصف المدققين من أهل السالوس والطرارير من أهل الناموس بأنهم عرفوا الأحكام الدنيوية، وهم محجوبون عن معاملات الله، غافلون عما فتح الله على قلوب أوليائه الذين غلب عليهم شوق الله، وأذهلهم حبُّ الله عن تدابير عيش الدنيا ونظام أمورها؛ لذلك قال ﷺ: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم، وأنا أعلمُ بأمور آخرتكم»(١).

قال القاسم: من كان عن الآخرة غافلاً كان عن الله أغفل، ومن كان غافلاً عن الله فقد سقط عن درجات المتعبدين.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٢٦) وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٧)

---

(١) رواه ابن حزم في الإحكام (٥/ ١٢٨).

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ : من كان في الدنيا على حد التفرق فيوم القيامة يرجع إليها، ومن كان في الدنيا على حد الجمع فيكون في الآخرة جمعًا، ومن كان مع الله فهو جمع ومن كان مع غير الله فهم متفرقون إلى أماكنهم من السعادات والشقاوات والبعاد والقربات، فأهل القرب في مشاهدة الأنس والقدس، وأهل البعاد في الوحشة والتفرقة.

قال أبو بكر بن طاهر: يتفرق كلٌ إلى ما قُدِّر له من محل السعادة ومنزل الشقاوة، ومن كان تفرقه إلى الجمع كان مجموع السر، ينقلب إلى محل السعداء، ومن كان تفرقه إلى فرقة كان متفرق السر، ثم لا يألف الحق أبدًا فيرجع إلى محل أهل الشقاوة، ثم فسر الله سبحانه حال الفريقين بالنعتين المتضادين بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ : وصف أهل الحبور بالإيمان والعمل الصالح، فأما إيمانهم فشهود أرواحهم مشاهد الأزل في أوائل ظهورها من العدم، وأما أعمالهم الصالحة فالعشق والمحبة والشوق، فآخر درجاتهم في منازل الوصال الفرح بمشاهدة الله والسرور بقربه، وطيب العيش بسماع كلامه وخطابه، يطربهم الحق بنفسه أبد الآبدين في روح وصاله وكشف جماله، فابتداء أحوالهم في صباح الأزل تنزيه القدم، وفي مساء الأبد قدس البقاء بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ أي: إذ طلع في قلوبكم صبحٌ مشرق الأزل فكونوا بنعت التنزيه في طلب عيشكم بالمشاهدة، وإن تروا جلال ذاته وأنوار صفاته في سربال الأفعال فإن هناك مكر الفعل غالبٌ، لئلا تقعوا في التشبيه من غلبة ذوق العشق، وكذا كونوا إذا تخفى عليكم الكشوف ويأتي عليكم مساء الصحو هذا نعمة عظيمة لا يقوم الحدثان بشكرها، فحمد سبحانه نفسه بألسنة كل ذرةٍ من العرش إلى الثرى فعلاً وصفةً بقوله: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهذا وصف تنزيه العارفين في يدي سماعهم ومنتهى حالهم في السماع، وهم في روضة شهود الأنس سمعوا بأرواحهم القدسية وعقولهم الملكوتية سماع الحق من نفسه حيث قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كيلا يقعوا في بحار الأنانية من حدة سكرهم في المحبة والمشاهدة، فيخرجوا عليه بدعوى الربوبية، ليس هاهنا مقام هذا المقال، إنما أردنا

شرح مقام السماع فإن الله بجوده وجلاله يُطَيِّب أوقات عشَّاقه بكل لسانٍ في الدنيا وكل صوتٍ حسن في الآخرة.

قال الأوزاعي في تفسير قوله: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾: إذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة إلا وردت.

وقال: ليس أحدٌ من خلق الله ﷻ أحسن صوتًا من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع على سبع سماوات صلواتها وتسبيحها.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين منها كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها سموًّا وأوسطها محلة، ومنها يتفجر أنهار الجنة وعليها يوضع العرش يوم القيامة. فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله إني رجلٌ حُبِّب إليَّ الصوت الحسن فهل في الجنة صوتٌ حسنٌ؟ فقال: أي والذي نفسي بيده إن الله ليوحي إلى شجرة في الجنة أن أسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن البرابط والمزامير، فترفع صوتًا لم يسمع الخلائق مثله قط في تسبيح الرب وتقديسه»(١).

وعن أبي الدرداء قال: «كان رسول الله ﷺ يذكِّر الناس فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي آخر القوم أعرابيٌّ فجثا لركبتيه، فقال: يا رسول الله هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم يا أعرابي، إن في الجنة لنهرًا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط، وذلك أفضل من نعيم الجنة، قال: فسأل أبو الدرداء: بما يتغنين؟ قال: بالتسبيح إن شاء الله. قيل الخوصانية المرهفة الأعلى الخمصة الأسفل»(٢).

وعن مغيرة عن إبراهيم قال: «إن في الجنة لأشجارًا عليها أجراسٌ من فضةٍ، فإذا أراد أهل جنة السماع بعث الله ريحًا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتحركت تلك الأجراس بأصواتٍ، لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربًا»(٣).

وسئل أبو هريرة: «هل لأهل الجنة من سماع؟ قال: شجرةٌ أصلها من ذهبٍ وأغصانها من فضةٍ وثمرها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، يبعث الله ريحًا فيحكُّ بعضها بعضًا، فما سمع أحدٌ شيئًا أحسن منه»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٠٢٨)، والترمذي (٤/ ٦٧٤).

(٢) رواه ابن حبان في المجروحين (١/ ٣٣١)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٢٨٥).

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٣).

(٤) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٤٦٠).

فافهم، مثل هذه الأحاديث كثيرة وههنا غاية مقاصدنا تفسير قوله سبحانه: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، ورُبَّ روضةٍ في الدنيا للعارف الصادق العاشق بالله يرى الحق فيها ويسمع من الحق السماع بغير واسطة، وربما يكون بواسطة، فيسمعه الحق من ألسنة كل ذرة من العرش إلى الثرى أصواتًا قدوسية وخطابات سبوحية.

قال جعفر: بالله فابدأ في صباحك، وبه فاختم في مساءك؛ فمن كان به ابتداؤه وإليه انتهاؤه فلا يشقى فيما بينهما.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: الدين طريق القدم، والحنيفية التبرؤ من الكون، وإقامة الوجه الإعراض عن الكل والإقبال بعد فناء النفس والكل على الأزل، فهذه بمجموعها فطرة الحق التي فطر الخلق بتلك الفطرة، ولا يتبدأ هذه الفطرة من حالها؛ فإنها طرق القدم في مكمن العدم، وإذا استقام في السير من العدم إلى القدم وكمل من الحقائق بحيث لا يعوج عن الإقبال على الحق بشيء من الحدوثية، فمحض ذلك الانفراد مع الوصول أصل الدين؛ لذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، خاطب الحق حبيبه في بداية تخلصه من نفسه، ومن الكون بعد إقبال الحق عليه أن يستقيم بنعت التجريد في توحيده، ومسيره إلى جلاله في طريق محبته وعبوديته.

قال أبو علي الجوزجاني: دعا الله عباده إلى الإخلاص من كل وجهٍ، وأخبر أن من كان في ظاهره وباطنه شيءٌ سوى الحق لم يكن مخلصًا في قوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: معرضًا عن الكل، مقبلاً عليه أي: مطهَّرًا عن الأكوان وما فيها.

قال ابن عطاء: الفطرة ما فطرهم عليه وثبَّتها في اللوح المحفوظ.

وقال: الدين القيم الطريق الواضح لأهل الحقائق.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ

لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾: راجعين إليه من الحدوثية بعد الاتصاف بالربوبية والقوة أي: لا تدَّعوا الأنانية؛ فإنكم في منازل التوحيد وحقيقة التوحيد ألا تنسى صولة القدم على الحدث، وإن كان مستغرقًا في بحر القدم.

قال ابن عطاء: راجعين إليه من الكل خصوصًا من ظلمات النفوس، مقيمين معه على حد آداب العبودية لا يفارقون عرصته بحال، ولا يخافون سواه، هذا حد المنيبين.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: الزكاة بذل الوجود، فإذا بذلت بحد إرادة طلب جماله جلَّ جلاله فيقع التضعيف في أجر الوصول، وهو دنو الدنو بعد الدنو.

قال سهل: وقع التضعيف لإرادة الله وجه الله به لا إلى إيتاء الزكاة، والزكاة زكاة البدن في تطهيرها من المعاصي وزكاة المال في تطهيره من الشبهات.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: خلقكم بحكمته، ورزقكم بمحبته ومعرفته، ثم يميتكم عنكم وعن الكون، ثم يحييكم بحياته، وأيضًا يميتكم بسطوة عظمته، ثم يحييكم بجمال وصلته، ثم بقي في مواهبه السنية على الاكتساب والخليقة بقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾، ثم نـزَّه نفسه عن تناول أحدٍ بسببٍ ما أو أن يكون عطاؤه بعلة، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قال الحسين: خلقكم بقدرته ورزقكم معرفته، وأماتكم عن الأغيار وأحياكم به.

قال ابن عطاء: رزقكم العلم به والرجوع إليه.

قال شقيق: كما لا تستطيع أن تزيد في خلقك ولا في حياتك كذلك لا تستطيع أن تزيد في رزقك، فلا تتعب نفسك في طلب الرزق.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى

عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾: إن الله سبحانه غلب الإنسانية على الكون طاعةً ومعصيةً، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها، وإذا رزقه العصيان فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تأثير لطفه وقهره، ولطفه وقهره هذا بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في بر النفوس وبحار القلوب، ففساد بر النفوس فترتها عن العبودية، وفساد بحر القلب احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية.

قال الواسطي: البر النفس، والبحر القلب، وفساد النفس متعلقٌ بفساد القلب، فمن لم يعمل في إصلاح قلبه بالتفكر والمراقبة وفي إصلاح نفسه بأكل الحلال ولزوم الأدب ظهر الفساد في ظاهره وباطنه.

وقيل: في البر والبحر أنه السرائر والظواهر.

قال جعفر: شاهد البر من عرف نفسه، وشاهد البحر من عرف قلبه، وصلاح هذين بالهيبة والحياء، فهيبة الرب تزيل فساد الظاهر، والحياء منه يميت فساد الباطن.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾: رياح اللطف تهب في قلوب العارفين، وتبشر بأنوار المشاهدة والكشف ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾: من وصلته بعد الكشف والعيان، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾: يجري القلب في بحر مشاهدته، ويسري في

أنوار الصفات والذات بإرادته ومحبته، ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾: تبتغوا من وجوده، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾: ظهور الربوبية في العبودية، قيل رياح القدس تبشّر بمنازل الأُنس.

وقال النصر آبادي: هو أن يظهر عليك أوائل الاسترواح إلى ذكره، فيكون ذلك إشارة بالوصول إلى المذكور.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾[1] إن الله سبحانه يزين الأرض بأنوار فعله، فينبت الخضر بورد الورد، ويضيء الزهر والنبات، ويتجلى من أنوار صفته فيها لا عين العارفين الذين شاهدوا الله بنعت الحسن، ووصفهم الأنس بالورد والريحان والسماع ووجوه الحسان، ألا ترى إلى النبيِّ ﷺ كيف أشار بقوله «النظرُ إلى الوجهِ الحسنِ يُزيدُ في البصرِ»[2]، وقال ﷺ: «النظرُ إلى الخضرة والماء الجاري يُزيدُ في البصرِ»[3].

قيل: أي يحيي الأنفس الميتة بالشهوات، والقلوب الميتة بالغفلات بأنوار معرفته وآثار هدايته.

قال الأستاذ: يحيي الأرواح بعد حجبتها بأنوار المشاهدات، فتطلع شموسها من برج

---

(١) اعلم أن وجه الإنسان عند مسِّ الهمِّ، ووقت الغمِّ؛ كوجه الأرض في الشتاء حيث إن كلاًّ منهم يتغيَّر عن حاله؛ وهو موته، ثم يحييه الله برحمته التي هي المطر بالنسبة إلى الأرض، والسرور بالنسبة إلى القلب، وأثر تلك الرحمة؛ الخضرة في وجه الأرض، والانبساط في البشرة، فقد أشارت الآية بأن ذلك الموت ليس بمستمر؛ بل يتعقَّبه الحياة على ما يقتضيه الأسماء الإلهية الحاكمة على هذا العالم، المدبِّرة في الأنفس، والآفاق المؤثِّرة في الظاهر والباطن، ولمَّا كان ذلك موقوفًا على النظر الصحيح؛ قال: فانظروا، ونظير ذلك الليل والنهار والنوم واليقظة، والسحابة على وجه الشمس، والانكساف والكدورة للماء وصفوته، ثم الموت والحياة المذكوران، وإن كانا مجازيين عند أرباب الظاهر؛ لكنهما حقيقتان عند أهل الباطن، فإن للأرض روحًا نباتيًا، كما أن للإنسان روحًا حيوانيًا بل للإنسان روح نباتي أيضًا به يشتهي الأكل والشرب، وبه تربيته في بدنه لا بالروح الحيواني، وإن كان الروح الحيواني مبدأ الحسِّ الحركة.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٨٧).

(٣) رواه الشهاب في مسنده (١/ ١٩٣).

السعادات، ويتصل بمشام الكافة، فيتم ما نقص عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحب يقين إلا حظي منه بنصيب.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾: فطرة آدم ﷺ خلقت بنعت الضعف عن حمل وارد أنوار الربوبية وعرفان حقائق الألوهية؛ لأنها كانت حادثةً وقعت في موازاة القدم، ففنيت بسطوة بقاء الأزل.

قال الواسطي: خلقه خلقة لا يمكنه أن يجر نفعًا ولا يدفع ضرًا، هل هو إلا الضعف التام.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾: سلى نبيه ﷺ في احتمال جفوة المعاندين والمخالفين، وحثه على الصبر في أداء الرسالة ومباشرة الشريعة التي شغلته عن مشاهدة القدم، قال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ في العبودية، فإن بعد أداء العبودية كشف الربوبية لك، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: بكشف الحجاب لك، ويا عاقل إن أشد الصبر، الصبر في الحجاب، ثم الصبر في العتاب، ثم الصبر في كشف النقاب، ثم الصبر في الخطاب، ثم الصبر في القربات، ثم الصبر في المداناة، ثم الصبر في الوصلات، ثم الصبر في لطف الأنس، ثم الصبر في سطوة القدس، ثم الصبر في الانبساط، ثم الصبر في العربدة، ثم الصبر في الاتصاف، ثم الصبر في الاتحاد، ثم الصبر في السكر، ثم الصبر في الغيبة عن الحق، ثم الصبر في رؤية نفسه بعد غيبة الحق، ثم الصبر في غلبة الأنانية، هذا أشد جميع الصبر والاصطبارات، ولا يعرف هذه المقامات في الصبر إلا ذو الكمال من العارفين.

وقال رويم: الصبر ترك الشكوى. وقال المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾.

﴿الٓمٓ ۝﴾ : الألف إشارةٌ إلى ألفة العارفين، واللام إشارةٌ إلى لطيف صنعه في المستحسنين، والميم إشارةٌ إلى معالم أنوار محبته في قلوب المحبين، ثم لين زمام الخطاب إلى الإشارة في معنى الحروف بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾ أي: هذه الرموز آيات الكتاب المحكم المبين لطائف الحكم التي لا يدركها إلا أهل الفهم الذين هداهم نوره إلى ما كان فيه من الشرف والفضل والإرشاد إلى معدن الصفة، هم الذين وصفهم الله بالإحسان والهداية والمغفرة والعرفان بقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝﴾ عرفهم حقائق مراد الله، وأوقعهم في بحار مشاهدة الله.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾ : أنوار الخطاب المحكم لك وعليك.

قال شاه الكرماني: ثلاثةٌ من علامات الهدى: الاسترجاع عند المصيبة، والاستكانة عند النعمة، ونفي الامتنان عند العطية.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: الإشارة فيه إلى طلب علوم الفلسفة من علم الإكسير والسحر والنيرزجات وأباطيل الزنادقة وترهاتهم؛ لأن هذه كلها

سبب ضلالة الخلق بقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قال سهل: الجدال في الدين والخوض في الباطل.

قال أبو عثمان: كل كلام سوى كلام الله وسنة رسوله أو سير الصالحين فهو من لهو الحديث.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ الحكمة ثلاثة: حكمة القرآن، وهي حقائقها، وحكمة الإيمان، وهي المعرفة، وحكمة البرهان، وهي إدراك لطائف صنع الحق في الأفعال، وأصل الحكمة إدراك خطاب الحق بوصف الإلهام.

قال شاه: ثلاثةٌ من علامات الحكمة: إنزال النفس من الناس منزلتها، وإنزال الناس من الناس لظنهم، ووعظهم على قدر عقولهم، فيقوموا بنفعٍ حاضرٍ.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾: رؤية ما دون الله شركٌ في التوحيد من العرش إلى الثرى، والشرك على ثلاثة أقسامٍ: شرك النفس، وهو حظُّها من الدنيا، وشرك العقل، وهو حظُّها من الآخرة، وشرك القلب، وهو حظُّها من صفاء العبودية، وأخفى من الشرك ما تستلذُّ الروح من تروح أنس الله، وهو أعظم الحجاب؛ لأن من بقي من حظه الأكبر فقد احتجب عن الغوص في بحار الألوهية والسير في ميادين الأزلية، والوصل زجر النفس عن الاشتغال بما دون الله.

قال بعضهم: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك وهو التفرد للحق بالكل نفسًا وقلبًا وروحًا، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد في التوحيد.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾: بيَّن سبحانه طريق الجمع والتفرقة في هذه الآية فالجمع ما قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾، فإذا أضاف الشكر إلى الغير فقد شغله بالتفرقة؛ لأن السبب غير المسبب، والعارف إذا كَمُل في معرفته فقد سقط عنه رؤية

السبب والاشتغال بالوسيلة، ألا ترى كيف دعا العارف من التفرقة إلى الجمع بقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ لأن من بلغ إلى الحق فالرجوع إلى غيره، وإن كان وسيلة الحسنة فهو شركٌ، وشكر المفرد معرفة المشكور بنعت الاعتراف بالعجز عن شكره؛ لأنه تعالى أجلُّ وأعظم من أن يشكره أحدٌ سواه، وشكر الوالدين؛ لأنهما مدارج أفعال الربوبية، وإذا شكرت الفعل شكرت الصفة، وإذا شكرت الصفة شكرت الذات، وإذا كنت كذلك فقد وصلت إلى عين الجمع، فالأول جمع الجمع، وهو قوله ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾، والثاني عين الجمع، وهو قوله: ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، فإذا كنت مشاهد الكل في عين الجمع فصار عين الجمع جمع الجمع، كذلك أدق الإشارة بقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ لأن عين الجمع وجمع الجمع واحدٌ في صورة التوحيد لا في حقيقة التوحيد؛ لأن حقيقة التوحيد إفراد القدم عن الحدوث.

وقال ابن عطاء: اشكره حيث أوجدك، وكثيرًا ما سمعت سيدي الجنيد يقول في خلال كلماته: (اشكر من كنت منه على بال حين خلقك، واشكر والديك إذ ههنا سبب كونك، فمن استغرقه شكر المسبب قطعه عن شكر السبب، ومن لم يتحقق في شكر المسبب رد إلى شكر السبب).

قال الأستاذ: شكر الحق بالتعظيم والتكبير، وشكر الوالدين بالإشفاق والتوقير.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾: والمعروف ههنا أن تعرفهما مكان الخطأ والغلط في الدين عند جهالتهما بالله.

قال بعضهم: عاملهما معاملةً جميلةً، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾: إذ قال فلا تطعهما نفى عنه متابعة المغالطين وحثَّه على متابعة المنيبين إليه من الصادقين.

قال ابن عطاء: صاحب من ترى غلبة آثار أنوار خدمتي عليه.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾: كيف يخفى على موجد الأشياء شيءٌ وهو منشئه؛

فهذا تنبيهٌ منه لإحاطة علمه القديم بكل ذرةٍ من العرش إلى الثرى ظاهرها وباطنها؛ حتى يفرغ المراقب الصادق من اطلاع الحق بوصف العظمة والكبرياء على نوادر الخطرات وبطون الحركات، فإن كان خاطره بادرًا من قهره سبحانه تستتر في جريانه في صخرة النفوس أو في سماء الأرواح أو في أرض القلوب، يظهره الحق إلى عرصة العقل لعين السر، فيحاسبه بذلك، ويعرفه مكان نفعه وضره؛ ليعرف صاحبه وصف جلال علمه كيف يحيط بأسرار الضمائر وبطون الخواطر، ألا ترى إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾!

قال عبد العزيز المكي: مثال ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ مجتمعة أو في سبع سماوات وأرضين متفرقة يأتي بها الله مجتمعة على صاحبها؛ لأن الله لطيفٌ خبيرٌ لطف أفعاله عن أن يدركه أحدٌ بعقل.

﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ : الأمر بالمعروف أن ترشد الخليقة إلى الحقيقة بعدما ذقت طعم القربة، والنهى عن المنكر زجرك نفسك عن النظر إلى ما دون خالقها.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: اصبر على طوارق القهر وامتحان الريب، واسكن تحت جريان القضاء والقدر؛ فإن ذلك من عزائم الحقيقة والمعرفة، وأيضًا: واصبر على ما أصابك من لطائف كشف جماله وحقائق أنوار ذاته وصفاته، ولا تفشِ تلك الأسرار بالغلبة والسكر حين يظهر الشَّطَّاح السكران دعوى الأنائية، فإن كتمانها من عزائم أهل الصحو في المعرفة.

قيل: الأمر بالمعروف الدلالة على الرشد، والنهي عن المنكر المنع عن الغي.

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ : إن العارف إذا شرب من بحر الوحدانية شربةً فرح بوجه الحق وكاد أن يتبختر بالعز والكبرياء من صولة الحال، فيؤدبه الله بأن يلقي عليه عزة الوحدة، فيفنيه تحت أنوارها حتى يخرجه من حد السكر إلى حد الصحو؛ فتكون خطواته خطوات أهل التمكين لا خطوات أهل التلوين، وكل مريدٍ يشرب

من سواقي صفاء العبودية شربةً تفرحه بفرحة الوقت وصفاء الذوق، فيهيجه إلى الزفرات والشهقات، ولا يجوز ذلك له؛ فإن أصواته ممزوجةٌ بخطوات الطبيعة، مخلوطةٌ بهواجس النفسانية، فإذا صاح صارت صيحته صيحة الطبيعة لا صيحة الحقيقة؛ لذلك نهاه الله بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾.

قال سفيان الثوري: صوت كل شيء تسبيحٌ إلا صوت الحمير؛ فإنها تصيح لرؤية الشيطان؛ لذلك سماه الله منكرًا.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: كن فانيًا عن شواهدك، مصطلمًا عن حولك، مأخوذًا عن قوتك وحولك، متسقًا بها استولى عليك من كشوفات سِرِّك، وانظر من الذي يسمع صوتك حتى تستفيق من حمار غفلتك: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ في الإشارة أنه يتكلم في لسان المعرفة من غير إذن من الحق.

وقالوا: هو الصوفي يتكلم قبل أوانه.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: النعمة الظاهرة: الخَلْق الحسن، والخُلُق الحسن، والأدب الحسن، والظرف، والهيئة اللطيفة، ومتابعة السنة، والاجتناب عن المعصية، والتواضع في أولياء الله، والعبادة الصافية، والعافية والصحة والسلامة، وأن تكون مكسوًا بشمل نور الروحانية والربانية، والنعمة الباطنة: الفطرة السليمة، والاستعداد لقبول الغيب والعقل الكامل والفطنة والذكاء والحكمة والفهم وطمانينة النفس وصفاء الروح، واتصال الذكر على الدوام والإيمان والإيقان والعرفان والإخلاص والتوحيد، وثمرات هذه الأشياء الوجد والحال والمراقبة والأنس والحياء والمحبة والشوق والعشق، فإذا بلغ الرجل إلى هذه المراتب يهيئ الله له بالظاهر مجالسة الأولياء مع السماع بصوتٍ طيبٍ وموضعٍ طيبٍ فيه وجهٌ حسنٌ، والطيب والريحان بلا كدورة ولا فترة ولا صحبة الأضداد، ويلقي في قلبه بروق نيران الأشواق المهيجة لسره إلى مواصلة الحق بنعت المحبة والأنس، فهو ممن أسبغ الله عليه نعمه الظاهرة والباطنة.

قال بعضهم: النعم الظاهرة العافية والأمن، والنعم الباطنة الرضا والغفران.

قال الجنيد: النعم الظاهرة الأخلاق، والنعم الباطنة المعرفة.

قال أبو بكر الوراق: النعم الظاهرة استواء الخلق، والنعم الباطنة حسن الخلق، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ كما حسَّنت خَلْقِي فحسِّن خُلُقي»(١).

قال بعضهم: النعمة الظاهرة اتباع ظاهر العلم، والنعمة الباطنة طلب الحقيقة في الاتباع.

وقال الأستاذ: النعمة الظاهرة نفس بلا ذلة، والباطنة قلب بلا غفلة.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: من بذل وجوده لوجدان وجود الحق سبحانه وهو يعرفه وتكون معرفته مستفادة من مشاهدته لا بتقليد العلم والأدلة العقلية فقد استمسك بعروة المحبة الأزلية لا يتكدر بعلل الحدثان، والإحسان مشاهدة الربوبية في العبودية، والعروة الوثقى المحبة المتصلة بالألوهية.

قال سهل: من يخلص دينه لله ويحسن آداب الإخلاص، وقال العروة الوثقى هي السنة.

وقال أبو عثمان: العروة محمد ﷺ.

وقال أيضًا: هي كتاب الله وسنة رسوله.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾: افهم كيف تنفد كلمات الحق وكلماته الأزلية السرمدية وللعارف بكل نفس منه من الحق سبحانه بالمثل ألف خطاب، ولا ينقطع عنه خطابه أبدًا، ولكل خطاب له وجد وله

---

(١) رواه ابن حبان في الصحيح (٣/ ٢٣٩)، والديلمي في الفردوس (١/ ٤٨١).

كشف وعيان وبيان وبرهان ولسان وعلم وحكمة وعمل وإخلاص وعجز وإدراك.

قال ابن عطاء: كلماته علم كتابه وعجائب حكمته.

وقال أبو سعيد الخراز: كلام الحكماء لا ينقطع عن عيون الحكمة كما أن ماء العين لا ينقطع عن عينه؛ لأن حكم الحكيم تلقين من رب العالمين من خزائنه، وخزائنه لا تنفد، ألا تراه يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾!

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: بيَّن سبحانه أن وجوده الأزلي لا يتغير بوجود الخلق وعدمهم، وقدرته شاملة للإيجاد والإعدام.

قال أبو سعيد الخراز: ليس على الحق أثرٌ من الكون من إيجادهم وعدمهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبَّار: من اتصف بصفة صبره، والشكور: من اتصف بصفة شكره؛ لأنه بصفات صبره وشكره يحتمل بلاءه ويشكر نعمه، والصبار: من كان الصبر له مقامًا، وكذلك الشكور لا أن يكون هما له خطرات، بل يكونان له وطنات.

قال أبو حفص: الصبَّار الذي لا يغيره تواتر المحن والبلايا عليه، ولا يورثه ذلك جزعًا ولا شكوى.

وقال أبو عثمان: الصبَّار الذي عوَّد نفسه للهجوم على المكاره.

وقال ابن عطاء: الشكور الذي يكون شكره على البلاء كشكره على النعماء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: لله علومٌ، منها عامٌّ، ومنها خاصٌّ، ومنها خاص الخاص، فالعلم العام: علم الشريعة، وعلم الخاص علم الحقيقة، وعلم خاص الخاص علم السر، وهو علم الغيب، ومن علم الغيب ما يطَّلع عليه الأنبياء والأولياء والملائكة بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، ومنه ما استأثر لنفسه لا يطَّلع عليه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ بقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، ومنه أيضًا علم الساعة، وهذه الآية برمتها، أما الساعة خاصة سرَّها عن جميع الخلق حتى أكد الأمر بقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، إلا أن أماراتها بانت من لسان صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه، ولا تخفى هذه الأمارات إلى وقوع الساعة على بعض أولياء أمته، حتى قال يوسف بن الحسين رحمة الله عليه: علمت متى ينـزل عيسى ﷺ، ومن أي قبيلة يتزوج.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾: لا يعلم أحدٌ في أي لحظة ينـزل، ولكن كثيرًا ما سمعت من الأولياء يقول: يمطر السماء غدًا أو ليلاً فيمطر، كما قال: كما سمعنا أن يحيى بن معاذ كان على رأس قبر ولي وقت دفنه، وقال لعامة من حضروا إن هذا الرجل من أولياء الله إلهي إن كنت صادقًا فأنـزل علينا المطر، قال الراوي: فنظرت إلى السماء وما رأيت فيها راحة سحاب فأنشأ الله سبحانه سحابة مثل ترس فمطرت فرجعنا مبتلين.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: وسمعت أيضًا من بعض أولياء الله أنه أخبر ما في الرحم من ذكر أو أنثى، ورأيت بعيني ما أخبر، ولكن الله سبحانه يطلع على ما في الرحم، بل ماء الرجل والمرأة أي: شيء يخلق منه حين نـزل ولا يعلمه غيره، وربما سمعت حديث واقعة الغد منهم قبل المجيء، وبما قالوا أني أموت بموضع كذا، ومنهم أبو الغريب الأصفهاني -قدس الله روحه- مرض في شيراز في زمان الشيخ أبي عبد الله بن حنيف -قدس الله روحه- وقال: إذا مت في شيراز فلا تدفنوني إلا في مقابر اليهود؛ فإني سألت الله أن أموت في طرطوس، فبرئ ومضى إلى طرطوس ومات بها رحمة الله عليه.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: من كافر ومؤمن ومطيع وعاص، وهذا دليل على أن الله يعرف الأشياء بالوسم والرسم، الرسم يتغير، والوسم لا يتغير.

وقال سهل في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ : ما له في الغيب من المقدور له وعليه.

وقال في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: على أي حكمة تموت من السعادة أو الشقاوة(١)، والله أعلم.

❁❁❁

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ : الألف إشارةٌ إلى الإعلام، واللام إشارةٌ إلى اللزوم، والميم إشارةٌ إلى الملكة، أعلم من نفسه أهل الكون، وألزم العبودية عليهم، وملكهم قهرًا وجبرًا حتى عبدوه طوعًا وكرهًا، فمن علم وقع في الاسم، ومن عبد وقع في الصفة، ومن تسخر لمراده كما أراد وقع في نور الذات، وعلى هذا من الله سبحانه تنـزيل كتابه أنـزل على عبده إشارةً للخصوص وعبارةً للعموم بقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، لا يتعلل بعلل الكون.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ : أفرد نفسه لعباده بأنه لهم ولي ولا شفيع، لا غير حتى لا يلتفتوا إلى الأسباب، ثم ينبههم بحقيقة ذلك فقال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

قال القاسم: أولا تنبهون أن من أسقطته الملك لا يصلح لخدمة الملك، ثم بيّن سبحانه

---

(١) أي : أين تموت ، فربما أقامت بأرض ، وضربت أوتادها ، وقالت : لا أبرحُها ، فترمي بها مرامي القدر حتى تموت بمكان لم يخطر ببالها. البحر المديد (٥ / ٤٥).

أن أمر العباد في العبودية يكون بمشيئته وإرادته لا لغيره مدخل في تدبير العباد بقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾، ينزل الوحي إلى حبيبه ﷺ بواسطة أخيه جبريل عليه السلام لنظام الشريعة وانتظام الحقيقة والطريقة لا لطبع البشر ومقالة أهل البدع، فيه أثر والإشارة فيه أن تدبير العباد عند تدبيره لا أثر له إذا أراه العباد في قضائه وقدره منفسخة؛ إذ تدبيره إرادته وإرادته مشيئته المقرونتان بالعلم الأزلي الذي لا يشوبه علل الحدثان.

قال سهل: طوبى لمن رزق الرضا بتدبير الله له، وأسقط عنه سوء تدبيره، ورده إلى حال الرضا بالقضاء والاستقامة في جريان المقدور عليه أولئك من المقربين.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾: أوجد الأشياء بأمره، وألبسها نور أمره، وأحسن خلقها بحسن فعله، لا يدخل نقص القبح في أفعاله؛ لأنه أحكمها وركبها ودبرها بعلمه الأزلي وجلاله الأبدي، ولا يرجع إليه علة فالقبيح قبيحٌ من جهة الامتحان، وحسنٌ من حيث صدر من أمر الرحمن، ذكر الحسن في جميع الأشياء، ولم يذكر ههنا في الإنسان، ثم قال: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾، وهو معدن الخصوصية المستعدة لمباشرة صفته بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [صٓ: ٧٥]، ثم ذكر تسويته بكمال الصفة بقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾: سوَّاه بتجلي أنوار جميع صفاته حتى صدرت صورة آدم من الغيب منعوتًا بأنوار الصفات ومتصفًا بسناها، ثم ذكر أخصَّ الخصائص، وهو ما سقط من حسن تجلي ذاته في صورته بقوله: ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾، حتى يكون مجموعها مشكاة أنوار الذات والصفات، ويفيض الحسن من آدم إلى العالم؛ لأنه المعدن الثاني من الحسن، والمعدن الأول من الحسن حسن الأزل، فأي حسنٍ يبقى في حسن آدم وذريته، ذكر حسن الأشياء، ولم يذكر ههنا حسن غيره؛ لأنه موضع محبته واختياره الأزلية، كقول القائل:

وكـمْ أبـصرتُ مـن حـسنٍ ولكـنْ ... علـيكَ مِـنَ الـورَى وقـعَ اختـيارِي

قال الواسطي في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: روح اخترته على الأرواح،

وهو روح مكنه من صحبته وآثر قربه.

وقال أيضًا: الجسم يستحسن المستحسنات، والروح واحدية فردانية، لا يستحسن شيئًا لسقطه أبدًا.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾: قوَّمه بفنون الآداب، ونفخ فيه الروح الخاص الذي فضَّله على سائر الأرواح لما كان له عنده من محل التمكين، وما كان فيه من تدبير الخلافة ومشافهة الخطاب[1].

قال الأستاذ: أحسن صورة كل أحد، فالعرش ياقوتة حمراء، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وجبريل طاوس الملائكة، والحور العين كما في الخبر من جمالها وشكلها، والجنان كما في الأخبار ونص القرآن، فإذا انتهى إلى الإنسان قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن طِينٍ﴾، ولكن ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١١٩]، و﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن طِينٍ﴾، ولكن قال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾: قطع مشيئة الخلائق عن مشيئة الأزل، ولو أراد أن يكون كلهم عارفين به يكون؛ ولكن وقع خاصية الأنبياء والأولياء بنعت الاصطفائية من إرادته، ووقع الأضداد من إرادته سابق لطفه لأهل لطفه، وسابق قهره لأهل قهره.

قال ابن عطاء: لو شئنا لوفقنا كل عبد لطلب من مرضاتنا، ولكن حق القول بالوعد والوعيد ليتم الاختيار.

وقوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾: إن جهنم فم قهره انفتح ليأخذ نصيبه ممن له استعداد مباشرة القهر، كما أن الجنة فم لطفه، انفتح ليأخذ من له استعداد مباشرة لطفه: فاللطيف يرجع إلى اللطيف، والكثيف يرجع إلى الكثيف، لذلك مضى القسم في الأزل في الوعيد؛ لأن الحدث لا ينفك عن حظ القدم فالعارف الصادق إذا

---

(١) أضافه إلى نفسه، تشريفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأناً ومناسبة إلى حضرة الربوبية، ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. وقد تقدم في سورة الإسراء، في الكلام على الروح، وجه المعرفة منه. البحر المديد (٥/ ٥١).

كان في جهنم فإن جهنم له مأوى قهره، وقهره مأوى لطفه، ولطفه مأوى أنوار جوده وجوده، مأوى أنوار وجوده فيرى مقصوده في العذاب كما كان أيوب ﷺ يرى رؤية المبلي في بلائه.

سُئل الشبلي عن هذه الآية، فقال: يا رب أملأها من الشبلي، واعفُ عن عبيدك ليتروح الشبلي بتعذيبك كما يتروح جميع العباد بالعوافي.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾: وصف الله سبحانه أهل معرفته الذين إذا سمعوا خطابه سقطوا على وجوههم في جناب كبريائه وعظمته حبًّا له وشوقًا إليه، ولا يكون هذا إلا وصف الوالهين من عشقه، الصادقين في توحيده ومعرفته.

قال القاسم: إذا وعظوا بها خرُّوا سجَّدًا عند أوقاته، وذلك صفة المؤمنين، ومن أبى ذلك في أوقاته لا يلحقه اسم الإيمان ولا وسمه.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: وصف سبحانه أهل ودِّه ومحبته وعشقه وشوقه الذين إذا ناموا ناموا بالحق من كمال سكرهم، وإذا انتبهوا من ركضة آلام حزن فوت وصاله ولذيذ مناجاته، فانصرفت جنوبهم عن مضاجعهم بغير اختيارهم كأن الأرض ألقتهم من نفسها، وذلك مما ينكشف لهم من أستار الملك والملكوت، ويظهر لهم أنوار مشاهدة الحق ويفتح لهم أبواب قربه ووصاله، ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ خوفا من هجرانه وإجلالاً لجلاله وطمعًا في وصاله، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: يعني يبذلون أرواحهم وأشباحهم لله، ثم ذكر ما يجازيهم من جمال قربه وكشف لقائه بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: قرة أعينهم أنوار جماله وجلاله، وذلك جزاء احتراقهم في حبه بقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: إن الله وهب لقوم هبة، وهو أن أذن لهم في مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته وصفوته وخيرته، ثم مدحهم على ذلك إظهارًا لكرامته بأن وفَّقهم بما وفَّقهم له فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

وقال ابن عطاء: جفت جنوبهم وأبت أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط

القربة والمناجاة، وأنشد:

جفَّت عيني عن التغميض حتَّى ... كـأنَّ جفونها عنها قصارُ
كـأنَّ جفونَه سملتْ بشوكٍ ... فليسَ لنومِه فيها قرارُ
أقولُ وليلتِي تزدادُ طولاً ... أيا ليلي لقد بَعُدَ النَّهارُ

وقال جعفر: خوفًا منه وطمعًا فيه.

وقال بعضهم: خوفًا من القطيعة وطمعًا في الوصلة.

وقال ابن عطاء: قرت أعينهم بما سبق لهم من حسن الموافقة مع ربهم.

وقال سهل: قرت أعينهم بما شاهدوا من ظاهر الحقائق وباطنها الذي يكشف لهم من علم المكاشفة مراده، وتمسكوا به، فقرت بذلك أعينهم، وسكنت إليه قلوبهم.

وقال الجنيد: تجافت جنوب العارفين عن أنفسهم، وتقطعت قلوبهم للحق، وجنبت أسرارهم بالصدق.

قال محمد بن علي الباقر: تجافت جنوب الزهَّاد من نعيم الدنيا لما وجدوا من حلاوة نعيم العقبى وجنوب العارفين عن التدبير والاختيار؛ فاستقروا على أحكام الرضا.

وقال ابن عطاء: أخفى لهم من مبارزة ما تعجز النفوس عن التفكر فيها فلن تأملها.

قال الأستاذ: أما الأحباب فالليل لهم إما طربٌ في التلاقي أو هرب الفراق، فإن كانوا في أنس القربة فليلهم أقصر من اللحظة، كما قالوا بوصال مجدد ووداد:

زارني مَنْ هويتُ بعد بعادٍ ... بوصالٍ مجددٍ ووِدادي

وإن كان الوقت وقت مقاساة فرقة وانفراد بكونه فليلهم طويل كما قالوا:

كمْ ليلةٍ فيكَ لا صباحَ لها ... أفنيتُها قابضًا على كبدي
قَدْ عصتِ العينُ بالدموعِ وقد ... وضعتُ خدِّي على بنانِ يدي

وقال قوم: خوفًا من العذاب وطمعًا في الثواب.

وآخرون: خوفًا من الفراق وطمعًا في التلاقي.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾: أفمن كان

عارفًا بذاته وصفاته كمن كان جاهلاً بجلاله وقدرته، لا يستويان أبدًا كما لا يستوي البصير والأعمى.

قال ابن عطاء: من كان في بصيرة الطاعة والإيمان لا يستوي مع من هو في ظلمات الفسق والطغيان.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: العذاب الأدنى حرمان المعرفة، والعذاب الأكبر الاحتجاب عن مشاهدة المعروف، وأيضًا العذاب الأدنى المعرفة، والعذاب الأكبر النكرة.

وقال بعضهم: العذاب الأدنى الهوان، والعذاب الكبر الخذلان.

قال أبو الحسن الوراق: العذاب الأدنى الحرص في الدنيا، والعذاب الأكبر هو أن يعذبه الله عليه.

وقال بعضهم: العذاب الأدنى التعب في طلب الدنيا، والعذاب الأكبر شتات السر.

قال الأستاذ: العذاب الأدنى وقفة في سلوكهم، والأكبر حجبه عن مشاهدة مقصودهم، قال قائلهم:

أدَّبتني بانصراف الطرف يا ثقتي فَانظرْ إليَّ فقد أحسنتَ تأديبي

ويقال: العذاب الأدنى الخذلان في الزلة، والأكبر الهجران في الوصلة.

ويقال: العذاب الأدنى تكدر مشاربهم بعد صفوها، كما قالوا:

لقد كان ما بيني زمانًا وبينه كما بين ريح المسك والعنبر الورد

والعذاب الأكبر لهم تطاول أيام العذاب من غير تبين آخرها وبقاء ضرهم ونفاد صبرهم وقيام قيامتهم، كما قالوا:

تطاول عهدُنا بالأمر حتَّى لقد نسجتْ عليه العنكبوتُ

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا

يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: لما شاهدوا جلالنا وجمالنا عيانًا بنعت المعرفة والمحبة، وصبروا فيما وجدوا من كشف الذات والصفات وما أفشوها عند الأغيار، جعلناهم أئمة المعارف والكواشف، يمدون طلابي إليَّ بنوري.

قال أبو عثمان: لما صبروا على حقوق العبادة.

وقال أيضا: لما صبروا مع الله في جميع الأحوال.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: سوق مياه معرفته من بحار تجلي جلاله إلى أرض القلوب الميتة الجرزة[1]؛ فينبت به فيها نرجس الوصلة وياسمين المودة ورياحين المؤانسة وبنفسج الحكمة وزهرة الفطنة، وورد المكاشفة وشقائق الحقيقة.

قال ابن عطاء: تصل بركات المواعظ إلى القلوب القاسية المعرضة عن الحق فتتعظ بتلك المواعظ.

قال الأستاذ: الإشارة منه تسقى حقائق وصلتهم بعد جفاف عودها وزوال المأنوس من معهودها، فيعود عودها مورقًا بعد ذبوله حاكيًا بحاله حال حصوله.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾: فأعرض عنهم حين لا يكونون في عينيك من أهل المعرفة، وأقبل علينا لتستأنس بمشاهدتنا عن مشاهدة الأغيار، ﴿وَانْتَظِرْ﴾ كشوف جلالنا لك وتخليصك من شرهم، ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: الحجاب والعتاب والهجران والعذاب.

قال بعضهم: لا تشغل سرك بهم، وانتظر بركات الموارد عليك من أنواع الكرامات إنهم منتظرون منا المقت والبعد.

قال الأستاذ: أعرض عنهم باشتغالك بنا وإقبالك علينا وانقطاعك إلينا، وانتظر زوائد

(١) يعني: اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات، يقال: أرض جرز أي: أرض جدب لا نبات فيها، يقال جرزت الجراد إذا أكلت، وتركت الأرض جرزاً. بحر العلوم للسمرقندي (٣/ ٣٨٦).

وصلنا وعوائد لطفنا؛ إنهم منتظرون هواجم مقتنا، وخفايا مكرنا، وعن قريب يجد كل منتظر محتضر.

سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: كان عليه الصلاة والسلام ألطف خلق الله من الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين، وأعرفهم به ومن كمال معرفته طار بجناح الربوبية في الربوبية، وشاهد مشاهد الألوهية ففي كل شهود له منها لذة وحلاوة كادت توقفه عن طيرانه من جلال لذتها فخوفه الله من نفسه أن يحتجب به عنه فينقطع عن سفر الآزال إلى الآباد.

وقال ابن عطاء: أي أيها المخبر عني خبر صدق والعارف في معرفة حقيقة اتق الله في أن يكون لك التفات إلى شيء سواي.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: عرَّفه مكان الوحي منه إليه معرفة حقيقة لا معرفة إبهام، فإن من موجبات معرفة الوحي ألا يكون للنفس والقياس فيه سبيل ولا يدخل فيه حظ النفس بحال بل فيه اتباع حقيقي بلا اعوجاج ولا اضطراب.

وقال سهل: قطعه بذلك عن اتباع أعدائه، وأمره بالاتباع في كل أحواله؛ ليعلم أن أصح الطريق شريعة الاتباع والاقتداء.

وقال الأستاذ: أي: أيها المشرق حالاً المفخَّم قدرًا منا، المعلى رتبة من قبلنا، يأيها المرقَّى إلى أعلى الرتب الملقى بأسنى القرب، يأيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا المبلِّغ خطابنا إلى أحبابنا: اتق الله أن تلاحظ غيرنا معنا، وتستأنس شيئًا من دوننا.

وقال في قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾: اتبع ولا تبتدع، واقتدِ بما أمرك، ولا تبتدئ باختيارك غير ما اختياره لك.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾أي: توكل عليَّ فيما أجزيك بمشاهدة وصالي، وحلاوة رؤية جمالي أن تبقى فيها؛ فإني أبلغك منك ومما تخدمني إليَّ أبدًا إلى محل الكمال، ولا تفزع من غشيان غمار بحار البلاء فإن المبلى معك في البلاء.

قال ذو النون: التوكل التفويض لأمر الله.

وقال بعضهم: اعتمد على من دعاك إليه وضمن لك الكفاية، وكِّل إلى الله أمرك وكفى بالله وكيلاً.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾: إن الله سبحانه أخبر أن القلب واحد لا يحتاج إلى قلب سواه، فإن القلب خلق على استعداد قبول وقائع أنوار جميع الذات والصفات، وفيه عقل قدسي يعرف الأشياء بحقيقتها، ونفس هي مجرى الأقدار الفعلية القهرية من الله، وفيه روح لطيف قدسي مخاطب من الله بجميع طرق المعارف، وفيه سر هو مرآة كشوفات الغيب، فإذا هُدي القلب ميادين ربوبية الأزل والأبد لا يحتاج إلى شيء سواه؛ فإنه الكون الأصغر بالصورة، وفي المعنى الكون الأكبر ومن عرفه فقد عرف الحق، وعرف ما دونه من العرش إلى الثرى، فالقلب الحقيقي ما لم يكن بينه وبين الحق حجاب ولا يكون شغله بشيء سوى الله.

قال الصادق: قلب يرى به أمور الدنيا وقلب يعلم أمور الآخرة وذو القلب الصحيح السليم من كان قلبه حرًّا من الاشتغال بشيء سوى الحق.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾: ما صدر من الحق فهو حق حقيقي لا يشرب بشيء من الحدثان من الهواجس والوسواس، وهو يهدي بنفسه العارف إلى سبيل معرفة الصفات، ثم إلى طرق معرفة الذات.

قال جعفر: والله يقول الحق؛ لأنه الحق، ومنه بدت الحقائق وكلامه حق.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: نفس المؤمن تطلب حظها والنبي ﷺ طلب حظ الله من أنفسهم، وحظ الحق منهم أولى من حظ أنفسهم فيهم.

قال سهل: من لم ير نفسه في ملك الرسول ﷺ، ولم ير ولاية الرسول ﷺ في جميع الأحوال لا يذوق حلاوة سنته بحال؛ لأن النبي هو الأولى بالخلق من أنفسهم وأموالهم، ألا ترى الله يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، والنبي ﷺ يقول: «لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين»[1].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾: الميثاق الغليظ الذي أخذ الله من الأنبياء ميثاق المحبة ألا يشتغل أحد منهم بغيره من العرش إلى الثرى، ويوافق بعضهم بعضًا فيما أخبر الحق بلسانهم من نفسه، فأخذ الميثاق من الجميع بالوسائط ومن نبينا ﷺ كفاحًا بلا واسطة، بيَّن فضله على الجميع، ثم بيَّن فضل شيخ الأنبياء وفضل الخليل والكليم وعيسى عليهم السلام.

وقال بعضهم: أخذ ميثاق النبيين بالعموم على لسان السفر والوسائط، وأخذ ميثاق الرسول مشافهة بلا واسطة، فأظهر الأنبياء مواثيقهم لعمومها، وأخفى النبي ﷺ ميثاقه؛ لأنه في محل الخصوص، فأخبر الله عنها كفاية بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، وأخبر النبي ﷺ تعجبًا وقال: «لو تعلمون ما أعلم»[2]، كذلك مواثيق خصائص الأحباب يكون سرًّا لا يطّلع عليهم سواهم.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ٣٠٢).

(٢) رواه البخاري (١/ ٣٥٤)، ومسلم (٢/ ٦١٨).

بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾: إن الله سبحانه أراد بذلك السؤال أن يعرِّف الخلق شرف منازل الصادقين، فرُبَّ قلب يذوب من الحسرة حيث ما عرفهم وما عرف قدرهم.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، ولصدقهم استقامت أسرارهم مع الحق في مقام المحبة والإخلاص.

قال القاسم: لا سؤال أصعب من سؤال الصادق عن صدقه؛ فإنه يطالب بصدق الصدق، وعجز المخلوق أجمع عن الصدق، فكيف يبحث عن صدق الصدق؟!

قال الواسطي: اباطن منه أن يسألهم عن التوسل إلى من لا وسيلة إليه إلا به، عندها تذوب جسومهم، وينقطع آمالهم، وصار صدقهم كذبًا، وصفاؤهم كدرًا، واستوحشوا من مطالعته فضلاً عن التزين به وذكره.

قال سهل: يقول الله تعالى لهم: عملتم وماذا أردتم؟ فيقولون: لك عملنا، وإياك أردنا. فيقول: صدقتم. فوعزته لقوله لهم في المشاهدة صدقتم ألذ عندهم من نعيم الجنة[1].

---

(١) التَّغَابُن: فاعل من الغبن في البيع والشراء على الاستعارة، وهو أخذ الشيء بدون قيمته.

وقيل: الغبن: الإخفاء، ومنه غبن البيع لاستخفائه، والتفاعل هنا من واحد لا من اثنين، ويقال: غبنت الثوب وخبنته، أي: أخذت ما طال منه من مقدارك: فهو نقص وإخفاء. انظر: اللباب لابن عادل (١٥/٣٠٨).

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أسوة النبي ﷺ أسوة المحبة، وقدوة الشوق، وطريق المعرفة التي يبلغ المقتدي إلى الحق بلا حجاب وإلى محبته الكبرى، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال محمد بن علي: الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع بسنته وترك مخالفته في قول وفعل.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾: إن الله سبحانه وصف العارفين بالرجولية في حمل أمانة الأزل، وعرض الأكبر عاهدوا الله ألا يختاروا شيئًا من العرش إلى الثرى، وصدقوا عهدهم، وبلغوا إلى منازل الأمن: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، فمن بقي في سيره ولم يصل إلى الوصال وهن في عزم وفاء العهد فهو منتظر لتمام سعيه واستيفاء حظه من الله، ومن معرفته وخدمته، ومراقب لكشف جمال الحبيب، ليأخذ يده ويبلغه إلى مراده من مشاهدته، ليس المنتظر أقل درجة ممن قضى نحبه؛ فإنهم كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره.

قال محمد بن علي: خص الله الإنس من بين الحيوان، ثم خص المؤمنين من الإنس، ثم خص الرجال من المؤمنين، فقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا﴾، فحقيقة الرجولية الصدق، ومن لم يدخل في ميادين الصدق فقد خرج من حد الرجولية.

قال بعضهم: منهم من يبذل وسعه ومجهوده في الطاعة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ التوفيق من ربه، ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾: ما غيروا عن محبة نبيه ﷺ تغيرًا.

أو قيل: ما استعانوا بغيره في مهماتهم بعد أن ضمن الله لهم الكفاية في كل الحوائج.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ

فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾: لما صدقوا في عهدهم يجازيهم الله بأن يزيد صدقهم في محبته، ويزيد صدقهم في شوقه، ثم يزيد صدقهم في عشقه ومعرفته هذا في الدنيا، ويجازيهم مشاهدته وكشف جماله في الآخرة.

قال الأستاذ: يجزي الله الصادقين في الدنيا بالتمكين والنصرة على الأعداء، وفي الآخرة بجميل الثواب وجزيل المآب.

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أي: ومن يقنت لله لحب لقائه وللرسول لحقوق صحبته، والإيمان به، ومتابعته، والعمل الصالح ألا يطلبن الدنيا من رسول الله ﷺ ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ الأولى: من الأجر حب الرسول لقاءهن، وأجر الآخرة كشف مشاهدة الله، وحسن جواره، والرزق الكريم ظهور مشاهدته لهن على الدوام بلا حجاب.

قال ابن عطاء: من يختار صحبة الرسول منهن على الدنيا فهي من القانتات، وهي التي تخضع للرسول وتذل له ولا تخالفه وتعمل صالحًا وتتبع مراد الرسول فيما يريده.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ : الرجس ههنا حيث ما دون الله في صحبة رسول ﷺ، فهن مخصوصات بالصديقية من الله سبحانه، وهن مقدسات حيث قدس الله أرواحهن وأشباحهن بنظر الاصطفائية إليهن في إنشائهن.

قال أبو بكر الوراق: الرجس الأهواء والبدع والضلالات ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ من دنس الدنيا والميل إليها.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾: المنقادين لأمر الله بحسن الإرادة، ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾: المشاهدين حضرته بنعت الإيقان، ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾: القانتين هم المتمكنون في العبودية، ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾: الصادقين في محبة الله المتصفين بصدقه الأزلي الذي لا يتكدر بطريق الامتحان، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾: الصابرين في الغيبة تحت أثقال الشوق، والصابرين في الحضرة في مشاهدة الله تحت جريان سطوات عزته، بألا يبتغوا من الحق سر القدم من حدة السكر كما فعل موسى حيث قال: من مني أنت يا رب، ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾: المذابين تحت سلطان عظمته وقهر سلطان كبريائه، ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾: المباذلين أنفسهم لقربان القدم، ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾: الفاطمين أنفسهم عن النظر إلى ما دون الله وحب ما سوى الله، ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾: الساترين عورات الحقائق عن نظر الأغيار، ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾: الذاكرين في البداية بنور الأفعال، ثم الذاكرين بالأسماء، ثم الذاكرين بالنعوت، ثم الذاكرين بالصفات بنعت رؤية أنوارها، وإدراك أسرارها، وفي النهاية الذاكرين الذات في الحالين ذاكرين الذات قبل مشاهدة الذات صرفًا وعيانًا، وذلك ضمن ظهور أنواره في قلوبهم، الذاكرين ذاته في عيانه كفاحًا؛ لأن الذات لا يتناهى، فهم في أول الكشف مرهونون بما بدا لهم من جلال ذاته ويفنون، فإذا فنوا استغاثوا

منه إليه أن يعينهم بالقوة الأزلية حتى يدخلوا بهممهم في بحار الأولية التي لا ساحل لها، فيبقون في الذكر أبدًا؛ لأنهم لا يتلقون إلا ما يليق بأحوالهم من الكشوفات والقربات، وهؤلاء المذكورون من أول المقام إلى مقام الذكر عشرة أقوام، بعضهم أهل البداية في الإسلام، وبعضهم أهل الإيقان في الإيمان، وبعضهم أهل العبودية الجامعة لجميع المعاملات، وبعضهم أهل الصدق في المحبة وترك ما دون الله والوفاء في الحقيقة، وبعضهم أهل مقام الرضا والتوكل، وبعضهم أهل التواضع في المشاهدة، وبعضهم أهل السخاء والكرم، وبعضهم المتصفون بالصمدانية، وبعضهم أهل الغيبة في الغيب الذين لا يكشفون أسرارهم عند الخلق والمنتهى منهم المستغرق في ذكر الذات والصفات كما وصفنا، والجميع مأجورون من الحق بقدر منازلهم في مقاماتهم بأن يغفر قصورهم في بذل المهج له، ويكاشفهم أستار الغيرة عن جمال المشاهدة بقوله: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

قال سهل: الإيمان أفضل من الإسلام، والتقوى في الإيمان أفضل من الإيمان، واليقين في التقوى أفضل من التقوى، والصدق في اليقين، أفضل من اليقين، وإنما تمسكتم بأدنى الإسلام فإياكم أن يتقلب من أيديكم.

وقال: الإسلام حكمٌ، والإيمان أصلٌ، والإحسان ثوابٌ.

وقال ابن عطاء: لم يبلغ أحد إلى مقام الصدق بالصوم والصلاة ولا بشيء من الاجتهاد، ولكن وصل إلى مقام الصدق بأن طرح نفسه بين يديه فقال: أنت أنت ولا بد لنا منك.

وقال أيضًا: ليس من ادَّعى الذكر فهو ذاكر، والذاكر على الحقيقة من يعلم أن يشاهده فيراه بقلبه قريبًا منه فيستحي منه، ثم يؤثره على نفسه، وعلى كل شيء من جميع أحواله.

سُئل سهل: ما الذكر؟ قال: الطاعة قيل: ما الطاعة؟ قال: الإخلاص.

قيل: ما الإخلاص؟ قال: المشاهدة.

قيل: ما المشاهدة؟ قال: العبودية. قيل: ما العبودية؟ قال: الرضا.

قيل: ما الرضا؟ قال: الافتقار. قيل: ما الافتقار؟ قال: التضرع والالتجاء سلم سلم إلى الممات.

قال بعضهم: الخشوع استحقار الكبر، وجميع الصفات تحت هيبة الحق.

قال بعضهم: الصابر هو الحابس نفسه عند أوامر الله، والخاشع هو المتذلل والخاضع له، والمتصدق هو الباذل نفسه وروحه وملكه في رضا مالكه، والصائم الممسك عن كل ما لا يرضاه الله، والحافظ فرجه المراعي لحقوق الله عليه في نفسه وقلبه، والذاكر لله الناسي بذكره

كل ما سواه، أوجب على نفسه لمن هذه صفته ستر الذنوب عليه ومغفرتها له وأجرًا عظيمًا ثوابًا لا حدَّ له وهو رضا الله ورؤيته.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾: أنعم الله عليه بمعرفته، وأنعمت عليه بصحبتك ونظرك إليه بالمحبة.

قال ابن عطاء: أنعم الله عليه بمحبتك، وأنعمت عليه بالتبني.

قال بعضهم: أنعم الله عليه بالمعرفة، وأنعمت عليه بالعتق.

وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾: إن الله سبحانه ابتلى نبيه ﷺ بالعشق الإنساني، وذلك أنه انفرد بالحق مما دون الحق، وخاض في بحر الوحدانية على شريطة الفناء، فكاد يفنى عن الفناء، ويغيب في غيب من غلبات سطوات العظمة عليه، فأراه جمال جلاله صرفًا، فلم يحتمل أيضًا حقيقة ذوق المشاهدة والجمال عيانًا، فسهله الله عليه بأن تجلى له بنور المحبة ونور الجمال من مرآة وجه الإنساني، فطاب سره بذلك، واحتمل روحه نطائف تلك المحبة، واستأنس بشقيقة شقائق ورد مشاهدة القدس في محل الأنس، لكن خاف على الخلق أن يظهر لهم أحواله لا يعرفون سر العشق، فيهلكون فرفع الله عنه وحشة ذلك، وأمره بأن يُظهر ذلك، ولا يلتفت إلى غير الله في العشق، فإن العشق باقٍ في العشق، ويسقط عنه ملامة اللائمين وخوف النبي ﷺ من الخلق رحمة وشفقة على أمته بقوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، كان -عليه الصلاة والسلام- أخفى ذلك السر في نفسه من حيث التمكين، والله مبديه بأنه يقهر على المتمكنين بصولة العشق القديم، وكيف يوازي الحدث القدم، وقد ذكرت معنى قوله تعالى:

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي: لا تراع الخلق في مقام المحبة، وراع الحق؛ فإنه أحق أن تراعيه، لأن الحدث يفنى ويبقى القدم.

قال ابن عطاء: تُخفي في نفسك ما أظهر الله لك من أن يزوجها منك، وتخشى أن تُظهر للناس ذلك فيفتتنوا.

قال أيضًا: تخشى الناس أن يهلكوا في شأن زيد، فذلك من تمام شفقته على الأمة،

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾: أن تبتهل إليه ليزيل عنهم ما تخشى فيهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾: حكم الله في ذلك أن غيرة الأزل سابقة على عشق النبي ﷺ المتفرد عما دون الله حتى تزيله بنعت الغيرة وسر الجبروت من كل ما سوى الله، وذلك أن زيدًا قضى وطره منها، ليذكره النبي ﷺ ذلك في حال معاشرته معها، فيضيق صدره بذلك، ويضطرب حاله، وينقبض سره، ويرجع إلى الله بالكلية؛ لأن هناك له طيب العشق هنيئًا سرمدًا، ومقصود الحق من ذلك عذر العاشقين من أمته حتى لا يقدح الناس في أحوالهم، قال الله: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، فإن العشق المحمود العفيف المطهر من غبار الوسوسة وهواجس النفسانية والشيطانية مقرب العاشقين إلى عشق الألوهية ومشاهدة الأزلية.

قيل: قرئ عند ذي النون هذه الآية فتأوّه تأوّها، ثم قال: ذهب بها والله زيد وما على زيد لو فارق الكونين بعد أن ذكره الله من بين أصحاب محمد ﷺ باسمه بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ﴾.

قال يوسف بن الحسين: سئل ذو النون وأنا حاضر عن قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ﴾: ترى كان النبي ﷺ يحتشم زيدا إذا رآه؟ فقال ذو النون: كيف لا يقول فترى كان زيد يحتشم النبي ﷺ إذا رآه إذا قيم لالتماس شيء كان العاقبة قد حكمت لرسول الله ﷺ آجلاً، وإنما كانت عارية عند زيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾: رضا الحق في الأزل في حالة عشق النبي ﷺ كان سنة الأنبياء.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾.

قال سهل: أي: معلومًا قبل وقوعه عندكم، وهل يقدر أحد أن يجاوز المقدور.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

---

(١) أي: وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته في أن تؤخر شيئاً أخبرك به لشيء يشق عليك حتى يفرق لك فيه أمر، قالت عائشة رضي الله عنها: لو كتم النبي ﷺ شيئًا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية، نظم الدرر (٦/ ٤٣٠).

حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾: خشية الأنبياء من العتاب وخشية الأولياء من الحجاب وخشية العموم من العذاب.

كما قال ابن عطاء في هذه الآية: هذه خشية السادة والأكابر، وإنما خشية عوام الخلق من جهنم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾: الذكر الكثير انحسار القلوب في أودية الغيوب عن السير في أنوار النعوت والصفات واضمحلال أسرارها في سنا الذات في جميع الأنفاس بلا فترة ولا غشية.

قال النصر آبادي: وقَّت الله العبادات كلها بأوقاتٍ إلا الذكر؛ فإنه أمر أن يذكر ذكرًا كثيرًا، والذكر الكثير للقلب، وهو ألا يفتر القلب عن المشاهدة، ولا يغفل عن الحضرة بحال، ألا تراه لما رجع إلى المعلوم وقَّت[1] وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وأنشد:

الله يعلـــم أني لـــستُ أذكـــرُهُ ... وكـيف أذكـرُ مَـنْ لـستُ أنـساه

قال أبو الحسين بن هند: ناداهم، ثم خص النداء، ثم كنَّاهم، ثم أشار إليهم بالتوحيد، ثم أمرهم بإقامة العبودية، ثم مَنَّ على نبيهم بذلك، ولم يَمُنَّ عليهم؛ فإنه إنما خصهم بسببك، والذكر إقامة العبودية.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾: صلاة الله اختياره العبد في الأزل بمعرفته ومحبته، فإذا خصه بذلك جعل زلاته مغفورة، وجعل خواص ملائكته مستغفرين له؛ لئلا يحتاج إلى الاستغفار بنفسه من اشتغاله بالله وبمحبته، وبتلك الصلاة يخرجهم من ظلمات

---

(١) اعلم أن الكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢] عبارة عن العدم: أي لا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرَّد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

الطباع إلى نور المشاهدة، وهذا متولد من اصطفائيته الأزلية ورحمته الكافية القدمية ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ : كان رحيمًا قبل وجودهم حيث أوجدهم وهداهم إلى نفسه بلا سبب ولا علة.

قال أبو بكر بن طاهر: علامة صلاة الله على عبده أن يُزينه بأنوار الإيمان، ويحليه بحلية التوفيق، ويتوجه بتاج الصدق، ويسقط عن نفسه الأهواء المضلة والإرادات الباطلة، ويبذله الرضا بالمقدور.

قال الأستاذ: الصلاة من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة؛ ليعصمكم من الضلال بروح الوصال.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ﴾ : سلام الله وتحيته أن يخاطب العباد بخطاب الرضا والعفو عما مضى، وأن يجلسهم على بساط القرب، ويناجيهم بمناجاة البسط والدنو.

قال ابن عطاء: أعظم عطية للمؤمن في الجنة سلام الله عليهم من غير واسطة.

قال الأستاذ: إذا قربت التحية بالرؤية واللقاء إذا قرن بالتحية لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر، والتحية الخطاب يفاتح بها الملكوت إخبارًا على علو شأنهم، فهذا السلام يدل على عالي رتبتهم التي جعلها الله لهم، فاللقاء حاصلٌ والخطاب مسموعٌ لهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ

ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾: شاهدًا لأحوال العارفين وعلى أسرار الصديقين كيف يكونون في الشوق إلى لقائي، وأنت شاهدنا شهدناك وشهدت علينا، فألبستك أنوار ربوبيتي، فمن شهدك بالحقيقة فقد شهدنا، ومن نظر إليك فقد نظر إلينا؛ لذلك قال ﷺ: «مَنْ عَرفني فقد عَرَفَ الحق ومن رآني فقد رأى الحق»(١)، ومبشرًا للمحبين بحسن وصالي، ونذيرًا للمريدين من عتابي؛ لئلا يفتروا عن خدمتي وعبادتي، وداعيًا إلى الله للمقبلين إليه بأن تصف لهم جمالنا وجلالنا، وذلك بإذنه الأزلي وإجازته القديمة، وسراجًا منيرًا أسرجت نورك من نوري، فتنور بنوري عيون عبادي المؤمنين، فيأتون إليَّ بنورك، ثم أمره بأن يبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته، وينالون فضائل قربته بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾: الفضل الكبير مشاهدته بلا حجاب ولا عتاب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾: إنا شرفناك برسالتنا، وتخبر عنا خبر صدق، فنهدي بك قلوبًا عمياء، أرسلناك شاهدًا لنا لا تشهد معنا سوانا، جعلنا الخلق كلهم

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦).

يشهدونك، ويشهدوننا فيك، ولا يشهدك إلا من أثر فيه بركة نظرك، فيشهدك ويشهد فيك، ومن لم يجعلك الدليل علينا عمي وضل؛ فإنك البشير تبشر من أقبلنا عليه بالرضوان، وتنذر من أعرضنا عنه بالخذلان، وأنت محل مشاهدة الخلق إيانا بك أخذناك عنهم، فلا تشهد شهودهم، وغيبناك عنهم فلا يشهدون منك إلا ظاهرك، وأنت لا تشهد سوانا بحال.

قال الواسطي: شاهدًا بالحق للحق إلى الحق مع الحق ليوم لا يقبل فيه الحق إلا الحق.

وقال جعفر: داعيًا إلى الله لا إلى نفسه افتخر بالعبودية، ولم يفتخر بالنبوة ليصح له بذلك الدعاء إلى سيده، فمن أجاب دعوته صارت الدعوة له سراجًا منيرًا يدله على سبيل الرشد، ويبصره عيوب النفس وغيها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾: صلوات الله على النبي أن بلّغه إلى المقام المحمود، فالمقام المحمود صلواته عليه وهو الشفاعة لأمته، وصلوات الملائكة

عليه دعاؤهم له بزيادة مرتبته بحبهم إياه واستغفارهم لأمته، وصلوات الأمة عليه متابعتهم له ومحبتهم إياه والثناء عليه بالذكر الجميل.

قال ابن عطاء: الصلاة من الله وصلة، ومن الملائكة رفعة، ومن الأمة متابعة ومحبة.

قال الواسطي: صل عليه بالوقار، ولا تجعل له في قلبك مقدار.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سألت عبد الواحد الساري عن هذه اللفظة، وكأني أستفتحه. فقال: لا تجعل بصلواتك عليه في قلبك مقدارًا تظن أنك تقضي به من حقه شيئًا بصلواتك عليه، فإنك تقضي به حق نفسك؛ إذ حقه أجل من أن يقضيه أمته أجمع؛ إذ هو في صلاة الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، فصلواتك عليه استجلاب رحمة على نفسك به.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾: التقوى ههنا سقوط احتشام الخلق عن قلوب العارفين عند أداء أمانة الله التي فتح الله على قلوبهم من أسرار الملك والملكوت، ولا يلتفت إلى ما سوى الله من أنوار الحدثان، فإذا كان كذلك يصلح الله ما يخافون من فوقه ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾، ويستر الهفوات في تقصير الطريقة، ثم جمع هذه المعاني بمجموعها بقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾: أطاع الله بالحقيقة، وأطاع الرسول بالشريعة، فقد فاز من الحجاب، ووصل إلى اللقاء والمآب.

قال الواسطي: التقوى على أربعة أدعية: للعامة تقوى الشرك، وللخاصة تقوى المعاصي، وللخاص من الأولياء تقوى التوسل بالأفعال، وللأنبياء تقواهم منه إليه.

وقال الوراق: القول السديد ما أريد به وجه الله لا غير.

وقال سهل: من وفقه الله لصالح الأعمال، فذلك دليل على أنه مغفور له ذنوبه؛ لأن الله يقول: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وقال بعضهم: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بقبولها منكم فإن صلاح العمل في قوله.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: هو أن يصلح باطنه وقلبه فإنهما موضع نظر الحق، ويعمرهما بدوام التفكر، ويصلح ظاهره بالطاعات الظاهرة واتباع السنن، فمن فعل ذلك فقد فاز من وساوس الشياطين وهواجس النفس.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ

ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾: لما لم يكن للكون استعداد حمل أمانة الربوبية بنعت الانفراد والفناء والسكر في العشق، والخروج بنعت الألوهية أبى أن يحملها؛ لأن سطوات الألوهية إذا بدت اضمحلت الأكوان والحدثان فيها، وبقي آدم؛ لأنه كان مستعدًا لقبول ذلك؛ لأنه كان مخلوقًا بخلقه، موصوفًا بصفته، مستحكمًا بتأييده الأزلية، ومباشرة نور صفته الخاصة بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صٓ: ٧٥] قويًا بقوة الروح القدسية التي بدت من ظهور نور الذات حين تجلى من القدم لآدم بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، فإذا كان كذلك حمل أمانة الله بالله لا بالحدثان، فإنه تعالى قائم بنفسه منـزه عن مباشرة الحدوثية، فقد حمل أنوار جميع الصفات والذات حيث صدر وجوده عن تجلي الذات والصفات، فخرج موصوفًا بالصفات منور بنور الذات، وهذه بجميعها الأمانة، ولا يكون لتلك الأمانة موضع إلا آدم، ومن كان بوصفه من ذريته من الأولياء والأنبياء فإذا قابل القدم، وقبل الأمانة فقد جهل بالقدم أصلاً حيث قَبِل الكل بالبعض، كذلك قال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾؛ إذ وازى الأزل والأبد مع علة الحدوثية جهولاً حيث لم يعلم أن حقيقة التوحيد بالحقيقة مزلة أقدام الموحدين، وكيف يكون صفوان القدم موضع أقدام الحدث، فمجاز الأمانة بعد ذلك المحبة والعشق والمعرفة وحقيقتها الأمانية[1].

قال ابن عطاء: الأمانة هي تحقيق التوحيد على سبيل التفريد.

قال الجنيد: إن الله لما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبوا حملها وعرض على آدم فقبلها، أبوا حين ظنوا أنهم إياهم يحملون، وحمل آدم حين علم أنه به يحمله لا بنفسه.

وقال أيضًا: نظر آدم إلى عرض الحق فأنساه لذة العرض ثقل الأمانة، ولما عرض على

---

(١) قال في الأسئلة المقحمة كيف عرض الأمانة عليه ما علمه بحاله من كونه ظلومًا جهولاً.

والجواب هذا سؤال طويل الذيل، فإنه تعالى قد بعث الرسل مبشرين ومنذرين إلى جميع الخلق ليدعوهم إلى الإيمان مع علمه السابق، بأن يؤمن بعضهم ويكفر بعضهم والخطاب عم الكل مع علمه باختلاف أحوالهم في الإيمان والكفر، فهذا من تبيله وسبيله، فإنه مالك الأعيان والآثار على الإطلاق. وقد قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: كان ظلوما بحق الأمانة جهولا بما يفعل من الخيانة يعنى لم تكن الخيانة عن عند وقصد بل كانت عن جهل وسهو. تفسير حقي (١١/ ١٥٥).

الخلائق والجمادات فأشفقوا وهربوا، ظنوا أن الأمانة تحمل بالنفوس، فكشف لآدم أن حمل الأمانة بالقلب لا بالنفس، فقال: أنا أحملها؛ فإن القلب موضع نظر الحق واطلاعه، فإذا أطلق ذلك يطيق حمل الأمانة، فإن الأمانة حدث وإطلاع الحق وتجليه لم تطقها الجبال وطاقتها القلوب، وأنشدنا:

ومَنْ على أثره حملتُ بالقلبِ ما لا يحملُ — البدنُ والقلبُ يحملُ ما لا يحملُ البدنُ

يا ليتني كنتُ أدنى مَنْ يلوذُ بكم عينًا — لأنظركم أم ليتني أذنُ

❁❁❁

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ .

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : حمد نفسه قبل الكون ورفع حقوق الحمد عن الخليقة، ثم حمد نفسه بعد الكون علمًا بعجزهم عن أداء شكره، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حيث يقبل الحسنات، ويعفو عن السيئات، ويدني العارفين من المشاهدات، ويكشف لهم جمال الذات والصفات.

قال أبو العباس بن عطاء: المحمود من لم يربط عباده بشيء من الأكوان قطع أملاكهم عن الجميع لئلا يشتغلوا بها، ويكون اشتغالهم بمن له الأكوان وما فيها وله الحمد في الآخرة حيث لم يناقش بالمحاسبة مع عباده، وهو الحكيم فيما دبر والخبير عما عفا وستر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: وصف نفسه بالإحاطة على كل ذرة من العرش إلى الثرى كيف يعزب عن علمه شيء من علمه وإرادته وقدرته، بدأ ذلك الشيء وبه قيامه ووجوده.

قال الواسطي في هذه الآية: كيف يخفى عليه ما هو أنشأها، أو كيف يستعظم شيئًا هو أبداها.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: علمًا بجلاله وجماله ومحبته للقائه، وشوقًا إلى وصاله وحكمه بأمور العبودية، وعلمًا بأنوار الربوبية، وكشفًا من أسراره له، وإلباسه إياه وصف جلاله حتى يطيب قلبه بالعشق، وروحه بالمحبة، وعقله بالبصيرة وسره بالأنس، وصدره باليقين، وحلقه بالصوت الحسن، فهذه بركة أوصاف الأزل التي ألبسها الله إياه بنعت التجلي والتدلي، ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾، وذلك الفضل اتصافه بأنوار الذات والصفات؛ لذلك أجابته الجبال بالتسبيح والتهليل بقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[1]، وكذلك الطير بقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾، إذا زمزم من طيب عشقه قام العالم معه.

---

(١) قوله: «أَوِّبي» العامة على فتح الهمزة ، وتشديد الواو، أمراً من التَّأويب وهو التَّرجيع، وقيل: التسبيح بلغة الحَبَشَة، وقال القُتَيبيُّ: أصله من التأويل في السير وهو أن يسير النهار كله، وينزل ليلاً كأنه قال: أَدْأَبِي النَّهار كُلَّهُ بالتسبيح معه، وقال وهب: نوحي معه، وقيل: سيري معه، وقيل: سيري معه، والتضعيف يُحتمل أن يكون للتكثير، واختار أبو حيان أن يكون للتعدي قال: لأنهم فَسَّروه برجع مع التسبيح ، ولا دليل فيه لأنه دليل معنى.

وقرأ ابنُ عباس والحَسَنُ وقتادةُ وابنُ أبي إسحاق: أُوبِي بضم الهمزة أمرًا من آبَ يَؤُوبُ أي ارجع معه بالتسبيح.

قال جعفر في قوله: ﴿فَضْلًا﴾: ثقة بالله وتوكلاً عليه.

وقال النهرجوري: حلاوة صوته في المناجاة.

وقال ابن خلا: أفضل الفضل من الله على عباده أن يعرفهم أقدارهم وأن يمكن لهم سبيل الرجوع إليه.

قال عبد العزيز المكي: حبًّا للمساكين ورحمة على الضعفاء.

وقال الأستاذ: حسن خلقه مع أمته وفيها أوحى الله إليه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ﴾ أنين المذنبين أحب إليَّ من صراخ العابدين.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾: لما بلَّغ الله داود وسليمان إلى محل التمكين من المعرفة والتصرف في المملكة الذي هو آخر درجة من درجات الصديقين طالبهم بشكر تلك النعمة ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾، الشكر الحقيقي أي: ابذلوا أنفسكم في خدمتي، واعرفوا معطيكم بسقوط نظركم عن العطاء؛ فإن الشكر الحقيقي معرفة المشكور على ما هو به.

قال ابن عطاء: اعملوا من الأعمال ما تستوجبون به الشكر.

وقال الأنطاكي: أصل الشكر الطاعة والتوبة والندم بالقلب، قال الله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾، ثم شكا عن الأكثر من قلة شكرهم بقوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ أي: قليل من واقف بوقف الفناء في مقام الحياء، حين عاين قدم الألوهية ورؤية مواهب السنية بغير علة قيل: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ﴾ من يرى الطاعة منة مني عليه.

قال بعضهم: الشاكرون من العبَّاد قليل، والشكور من الشاكرين قليل، والشكَّار من الشكور قليل.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣ ۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾: وصف الله سبحانه أهل الوجد من الملائكة المقربين، وذلك من صولة الخطاب، فإذا سمعوا كلام الحق من نفس العظمة وقعوا

في بحار هيبته وإجلاله، حتى فنوا تحت سلطان كبريائه، ولم يعرفوا معنى الخطاب في أول وارد السلطنة، فإذا أفاقوا سألوا معنى الخطاب من جبريل ﷺ، وهو من أهل الصحو والتمكين في المعرفة بقوله: ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ﴾: لا تُنال زلفته إلا بزلفته، وأين الحدثان من أن يقرب المعارف من الله، فإنه بنفسه جل جلاله قربهم منه إليه.

قال سهل: الزلفى هي التقرب إلى الله.

وقال بعضهم: الزلفى هي قطع الأسباب والتعلق بالنجاة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾: كل عارف ينفق في عشقه ومحبته قلبه وروحه، فهو بذاته جل جلاله يخلف نفسه مكان قلبه وروحه، فيفنى القلب عنه، ويبقى الرب معه، فإذا فنيت صفات العارف في صفات المعروف صارت صفات المعروف صفته، ألا ترى إلى قوله كيف قال: «لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقلبه الذي يعقل به،

ولسانه الذي ينطق به»[1].

قال سهل: الخلف على الإنفاق الأنس والعيش مع الله والسرور به.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا
بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم
مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي
يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن
ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ
(٥٠) وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى
لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن
مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا
فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ أي: أوصيكم خصلة واحدة هي أن تقوموا لله لأجل الله ﴿مَثْنَى﴾ الشيخ والمريد، ﴿وَفُرَادَى﴾ العارف المتمكن القيام لله لا يكون إلا بالله، ومن يقوم من الحدثان لله، وقهارية الأزلية أفنت الحدوث في القدم حقيقة فإذًا لا يقوم لله إلا الله.

قال سهل: يرجع الحساب يوم القيامة إلى أربعة: وهي الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والاستقامة مع الله في جميع الأحوال، ومراقبة الله على كل حال.

سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى
وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ
مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).

وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾: حمد قدمه بما أوجد من العدم بعين صورة ولا مثال، وجعل حمده إعلامًا للحامدين له بأن الحمد منه له حقيقة، ويفنى حمد الحامدين في حمده نفسه، جعل للملائكة أجنحة المعرفة على مراتب المقامات، فضَّل بعضهم على بعض في ذلك بقوله: ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، وللأرواح القدسية أجنحة، منها جناح المعرفة، ومنها جناح التوحيد، ومنها جناح المحبة، ومنها جناح الشوق، فبجناح المعرفة تطير إلى عالم الصفات، وبجناح التوحيد تطير إلى عالم الذات، وبجناح المحبة تطير إلى المشاهدة، وبجناح الشوق تطير إلى الوصال.

قال جعفر: أجنحة المؤمنين أربعة: أجنحة التوحيد، وأجنحة الإيمان، وأجنحة المعرفة، وأجنحة الإسلام، والموحد يطير بأجنحة التوحيد إلى الجبروت: والمؤمن يطير بأجنحة الإيمان إلى المشاهدة، والعارف يطير بأجنحة المعرفة إلى الملكوت، والمسلم يطير بأجنحة الإسلام إلى الجنان.

قيل: الأجنحة أربعة: أجنحة التعظيم، وأجنحة التفريد، وأجنحة الحياة، وأجنحة الحياء، فأجنحة التعظيم للمقرَّبين، وأجنحة التفريد للروحانيين، وأجنحة الحياة للوالهين، وأجنحة الحياء للواصلين.

قال الجنيد: الحمد لله الذي جعل ما أنعم على عباده من أنواع نعمه دليلاً هاديًا إلى معرفته، ثم بيَّن سبحانه أنه بفضله يزيد في حالات العارفين، ومعاملات المحبين، وحسن العاشقين والمعشوقين بقوله: ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾، يزيد في قلوب العارفين المعرفة، وفي قلوب المحبين المحبة، وفي قلوب المشتاقين الشوق، وفي قلوب العاشقين العشق، وفي قلوب المريدين الإرادة، وفي أبدان الصديقين قوة العبادة وصفاء المعاملة، وفي وجوه المستحسنين الحسن، وفي حلوق الروحانيين حسن الصوت.

وقال ابن عطاء: حسن المعرفة بالله: وحسن الإقبال عليه، وحسن المراقبة له والمشاهدة إياه.

وقال بعضهم: يزيد في الخلق ما يشاء محبة في قلوب المؤمنين.

وقيل: التواضع في الإشراف، والسخاء في الأغنياء، والتعفف في الفقراء، والصدق في

المؤمنين، والشوق في المحبين، والوله في المشتاقين، والمعرفة في الوالهين، والفناء في العارفين.

قيل: الخلق الحسن، وقيل: الصوت الحسن.

قال الأستاذ: الفصاحة في النطق، ثم بيَّن سبحانه أن هذه النعم غير مكتسبة ولا لها مانع بدفع عمن اختاره الله بها، ولا هي مستجلبة بتمني المتمنين بقوله: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾: الرحمة هاهنا المعرفة بالله والاصطفائية الأزلية، فإذا فتح على ولي من أوليائه أبواب كنوز لطائف أنوار صفاته وذاته وجعله بصيرًا لأمر الكونين وعالمًا بمراد الله منه لا يدفع عنه ذرة من ذلك جميع الخلق؛ فإنه يختص برحمته من يشاء.

قال أبو عثمان: ما يفتح الله لقلوب أوليائه من القربة والإنابة والأنس لو اجتمع الخلق كلهم على أن يمسكوه عن ذلك لعجزوا عنه وما أمسكوا ما أرسل الله، ومن أغلق الله قلوبهم عن الإنابة إليه والقرب منه، فلو اجتمع الناس على أن يفتحوه ما قدروا على ذلك وعجزوا عنه، ثم إنه تعالى لما بيَّن موضع الخاصية في افتتاح نعمه على الصادقين حثهم على تذكر نعمه وشكر ما أنعم عليهم من لطائف جوده بنعت إفراد قدمه عن الحدوث بوصف نفي الأنداد عن جلال كبريائه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾، ذكره معرفته ونعمته ومشاهدته، فوجبت حقوق المعرفة والمشاهدة على من عرفه وشاهده بأنه أسقط الأسباب بينه وبين خالقه فيما أولاه من أرزاق وصلته ولطائف قربته.

قال ابن عطاء: من علم أنه لا رازق للعباد غيره ثم يتعلق قلبه بالأسباب فهو من المبعدين عن طريق الحقائق.

قال القاسم: يرزقكم من السماء الهداية ومن الأرض أسباب الغذاء والحفظ والبقاء وما سنح لي من معنى السماء والأرض هاهنا السماء عالم الربوبية يرزقهم منها لطائف علوم المعارف وأنوار جلاله الكواشف، والرزق هناك التجلي والجذب والكشف بالبديهة وواردات المواجيد وسني المخاطبات، والأرض عالم العبودية يرزقهم منها صفاء المقامات ولطيف المعاملات وسنا الحكم والفِراسات، وأيضًا السماء إشارة إلى الروح، والأرض إشارة إلى القلب، والرزق الذي يبدو من عالم الروح علوم المعرفة، وما ينبت من أرض القلب فهي علوم الحكمة.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى

مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾: إنه عدونا؛ لأنه من عالم القهر خلق، ونحن من عالم اللطف خلقنا، والطبعان مخالفان أبدًا؛ لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل فسبق اللطف القهر؛ فعداوته من جهة الطبع الأول والجهل بالعصمة وأنوار التأييد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا كيف يتخذه عدوًّا وهو لا يعرف مكائده ولا يعرف مكائده إلا ولي أو صديق.

قال الواسطي: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بما نصركم عليه، واحذروا ألا يغلبنكم؛ فإنه إنما يدعو حزبه، وحزبه هم الراكنون إلى الدنيا والمحبون لها والمفتخرون بها.

وقال جعفر الصادق: من سمع هذا النداء من الله تعالى وجب عليه بهذا النداء نصب آلة العداوة بينه وبين عدوه، ولا ينفكّ من محاربته طرفة عين كلما عارضه بشيء قابله بغيره إن عارضه بزينة الدنيا قابله بسرعة الفناء، وإن عارضه بطول الأمل قابله بقرب الأجل، فهو دائمٌ متنبهٌ مستعدٌ لمحاربته؛ لما يعلم أن الشيطان لا يغفل عنه، وأنه يراهم من حيث لا يرونه.

قال سهل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾: أهل البدع والضلالات والأهواء الفاسدة والسامعين ذلك من قائلها.

قال الواسطي: حذر حزبه ومتابعته، وأمر بطرده بضياء المبادرة في العهود وحفظ الحدود ورعاية الود بطرد الوساوس، كما أن بضياء النهار طرد الكلاب من المحابس، وأنشد:

ومَـنْ رعـى غـنمًا في الأرض مسبعةً ونـام عـنها تـولّى رعـيَها الأسـدُ

وما فهمت من هذه الآية أن الله سبحانه أراد أن يعرف عباده من محاربة الشيطان معالم قهرياته وحفظ الأوقات والأنفاس من خطراته؛ لأن الشيطان يغوي المصطفين بالولاية، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ من أصحاب الضلالات الذين طردهم الله عن بابه وهو يعرفهم، وإنما هو يدعوه لا أن الضلالة بيده كما لا تعلق الهداية بالأنبياء.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: سهَّل الله سبحانه طريق الوصول إلى العزة القديمة لطلابَ العزة، وهو الاتصاف بصفاته والتخلق بخلقه، فإذا عرَّفه بالعزة صار منورًا بنور عزته، عزيزًا بها كساه الحق من سناء عزته، فإذا كان مزينًا بنور العزة صار سلطانًا من الحق يذل عنده جبابرة العالم، ولا يكون ذلك إلا بعد فنائه في بقاء الله.

قال سهل: العزة النصرة؛ فليطلب ذلك من عند الله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، ثم بيَّن سبحانه ألا يصل إليه إلا ما بدا منه بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، الكلم الطيب ما تلقفه الأرواح القدسية في بدو الأزل من الحق سبحانه حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، ولا يصل ذلك إلا إليه؛ لأن الحدثان لا يكونا محل الإفراد الفردانية بل الأزلية مصادر التوحيد، ألا ترى كيف قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ يعني لا إلى غيره، والعمل الصالح عمل القلب، وهو محبة الله والشوق إلى لقائه، والمحبة والشوق أيضًا مصدرهما صفة الحق فيصحبان الكلمة؛ لأن الكلمة والمحبة خرجتا من معدن الألوهية، فمنه بدأتا، وإليه تعودان.

قال سهل: ظاهره الدعاء والصدقة، وباطنه عمل بالعلم والاقتداء بالسنة يرفعه، أو يوصله الإخلاص[1].

---

(١) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكتين تحت الأقدار. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقكم من نطفة خلقًا تفصيليًا؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سرُّ الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا أحمر وأبيض وأسود، وذكرانًا وإناثًا، ﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ هو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيده، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ كون تلك الحامل والواضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمَّن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتمام، والذكورة =

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾: فطرة الإنسانية وقعت من الغيب مضطربة متحركة إلى الأزل بنعت الافتقار إليه كانجذاب الحديد إلى المغناطيس؛ لأنها بنعت وقعت، العشق والعاشق مفتقر إلى معشوقه انفعالاً، فمن عرفه بالأزلية والأبدية يفتقر إليه افتقارًا قطعيًا؛ لأن بقاءه لا يكون إلا به، وإذا كان كذلك صار غنيًا بالله متصفًا بغناه غنيًا به عن غيره مفتقرًا إليه، فإذا كان في محل الصحو يكون مفتقرًا إليه، وإذا كان في محل السكر بقي في رؤية غناه عنه، فصار محجوبًا عنه ولا يدري.

والأُنوثة، وغير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمعمَّر مَن أطيل عمره، (مِن مُّعَمَّرٍ): أي من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّي معمَّرًا باعتبار مصيره؛ فهو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه، والمعنى وما يُمدُّ في عمر أحد. ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ من النقص؛ وهو متعدٍ؛ بمعنى: كم، والضمير للمعمَّر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَن شأنه أن يُعمَّر: أي ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، (لا ينقص من عمره) بعد كونه زائدًا؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصًا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغيّر ذلك؛ لأن بطن الأم لوح العلم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمَن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، واتّبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

قال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غناه بالله، وكلما ازداد افتقارًا ازداد غنىً.

قال الواسطي: من استغنى بالله لا يفتقر، ومن يتعزَّز بالله لا يذل.

وقال جعفر الصادق: أنتم الفقراء بذل العبودية والله الغني بعز الربوبية؛ لأن الربوبية القهر والغلبة والعبودية الخضوع والاستكانة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ : الخوف عموم والخشية خصوص، وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم بالله وجلاله وقدره وربوبيته والعبودية له، وحقيقة الخشية وقوع نور جلال الحق في العارفين ممزوجًا بسنا التعظيم ورؤية الكبرياء والعظمة، ولا يحصل ذلك إلا لمن شاهد القدم والأزل والبقاء والأبد، فمن زاد علمه بالله زادت خشيته؛ لقوله عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام: «أنا أعرفكم بالله وأخشاكم منه»(١).

قال ابن عطاء: الخشية أتم من الخوف؛ لأنها صفة العلماء.

وقال النصر آبادي: خشية العلماء من الانبساط في الدعاء والسؤال.

قال حارث: العلم يورث الخشية، والزهد يورث الراحة، والمعرفة تورث الإنابة.

وقال الواسطي: أوائل العلم الخشية ثم الإجلال ثم التعظيم ثم الهيبة ثم الفناء، فإذا فنيت هربت ثم نست حتى نسيت أفعالها.

وقال الأستاذ: الفرق بين الخشية والرهبة أن الرهبة خوف يوجب هرب صاحبه فيجري في تفرقته، والخشية إذا حصلت كبحت صاحبها، فيبقى مع الله، فقدمت الخشية الرهبة في الجملة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٣١) بنحوه.

مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: مَنَّ الله على عباده المصطفين في الأزل بمعرفته ومحبته بأن أعطاهم كتابه وعلمهم عجائبه وغرائبه، فالاصطفائية تقدمت الوراثة اصطفاء بمحبته ومشاهدته، ثم خاطبهم بما له عندهم وما لهم عنده، وهذا الميراث الذي أورثهم من جهة نسب معرفتهم به واصطفائيته إياهم، وهو محل القرب والانبساط؛ لذلك قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾، ذكر ﴿ثُمَّ﴾ للتأخير، ثم قسَّمهم على ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق، والحمد لله الذي جعل الظالم من أهل الاصطفائية، ألا ترى أنه ذكر الاصطفائية، ثم ذكر الظالم وقرنه بالمقتصد والسابق، فالظالم عندي -والله أعلم وأحكم- الذي وازى القدم بشرط إرادة حمل وارد جميع الذات والصفات وطلب كنه الألوهية بنعت إدراكه، فأي ظالم أعظم منه إذ طلب شيئًا مستحيلاً، ألا ترى الله سبحانه كيف وصفه بهذا الظلم بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، وهذا من كمال شوقه إلى حقيقة الحق وكمال عشقه ومحبته وجلاله وجماله، وأيضًا الظالم من أظهر سرَّ الأسرار من غلبة المواجيد عن الخلق، وأيضًا الظالم من أخرج قدم المعرفة من جادة الرسوم من كمال سكره؛ لأنه خرج من حد التمكين، وأيضًا الظالم الذي غلب عليه عشق الأزل، ويريد أن يكون الأزل بعينه، وهذا نعت متحد، وأي ظالم أعظم من الحادث الذي يدَّعي الأنانية على نعوت الحدوثية، وإن كان معذورًا من جهة السكر والوله، وأيضًا الظالم الذي وقف في مقام لذة المشاهدة عن السير في الألوهية، وأيضًا الظالم الذي احتجب منه به ولا يعرف أن ذلك مكر الأزل، وأيضًا الظالم الذي يحب الحق لراحة مشاهدته، وأيضًا الظالم الذي يطلب منه الكرامات والآلاء والدرجات، وأيضًا الظالم الذي آثر البقاء على الفناء، والمقتصد -والله أعلم- الذي عرف الحق بالحق وجعل الخلق للحق، ولا يتجاوز عن حدود العبودية إلى عالم الربوبية، والمقتصد أيضًا الذي استوت أعماله وأفعاله وأقواله وسكره وصحوه وفناؤه، والسابق الخيرات هو المستقيم في جميع الأحوال وصحوه أكثر من سكره وبقاؤه أقوى من فنائه، وهو السابق في الأزل بالتقدم على أهل الاصطفائية من أهل الولاية، وأيضًا الظالم المريد والمقتصد المحب والسابق العارف.

وقال الحسن البصري: السابق من رجحت حسناته، والمقتصد من استوت حسناته

وسيئاته، والظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته.

قال جعفر الصادق: فرّق المؤمنين ثلاث فرق، سماهم مؤمنين أولاً عبادنا، أضافهم إلى نفسه تفضلاً منه وكرمًا، ثم قال: ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ جعلهم كلهم أصفياء مع علمه بتفاوت معاملاتهم، ثم جمعهم في آخر الآية يدخلون الجنة فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ ثم بدأ بالظالمين إخبارًا أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف كرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية، ثم ثنّى بالمقتصدين؛ لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحدٌ مكره، كلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص.

قال الجنيد: لما ذكر الميراث دلَّ على أن الخلق فيه خاصٌّ وعامٌّ، وأن الميراث لمن هو أقرب وأصح نسبًا، فتصحيح النسبة هو الأصل.

قال: الظالم الذي يحبه لنفسه، والمقتصد الذي يحبه له، والسابق هو الذي أسقط عنه مراده لمراد الحق فيه، فلا يرى لنفسه طلبًا ولا مرادًا لغلبة سلطان الحق عليه.

سُئل النوري عن قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ على ماذا عطف بقوله [ثُمَّ]؟ قال: عطف على إرادة الأزل والأمر المقضي، قال: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ من الخلق الذين سبقت لهم منا الاصطفائية في الأزل.

وقال عبد العزيز المكي: المغفرة للظالمين، والرحمة للمقتصدين، والقربة للسابقين.

وقال الحسين: الظالم الباقي مع حاله، والمقتصد الفاني في حال، والسابق المستغرق في فناء حاله.

وقال النصر آبادي: لا ميراث إلا عن نسبة صحح النسبة، ثم ادَّعى الميراث.

وقال أيضًا: ميراث الكتاب للذين فهموا عن الله خطابه، فكل فهم على قدره، فالظالم فهم منه محل المغفرة والثواب والعقاب، والمقتصد فهم منه محل الجزاء والأعواض والجنان، والسابق استغرقه التلذذ بالخطاب عن أن يرجع منه إلى شيء سواه.

وقال أبو يزيد: الظالم مضروب بسوط الأمل، مقبول بسيف الحرص، مضطجع على باب الرجاء، والمقتصد مضروب بسوط الحسرة، مقتول بسيف الندامة، مضطجع على باب الكرم، والسابق مضروب بسوط المحبة، مقتول بسيف الشوق، مضطجع على باب الهيبة.

قال أبو يزيد: الظالم في ميدان العلم، والمقتصد في ميدان المعرفة، والسابق في ميدان الوجد.

قال محمد بن علي: الإيمان للظالمين، والمعرفة للمقتصدين، والحقيقة للسابقين.

قال ابن عطاء: الظالم معذب، والمقتصد معاتب، والسابق ناجٍ مقرَّب.

قال بعضهم: الظالم لنفسه آدم، والمقتصد إبراهيم، والسبّاق محمد صلوات الله عليهم.

وقال الأستاذ: الظالم من نجم كواكب عقله، والمقتصد من طلع بدر علمه، والسابق من درت شمس معرفته.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ
أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ
نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى
كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ
ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم
بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ
أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ
لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا
نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا
﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا
قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ : أهل المعرفة إذا دخلوا جنان المشاهدة، وأدركوا أنوار المكاشفة، وجلسوا على بساط القربة، وشربوا شراب الزلفة، وفازوا من آلام الفرقة في حجال الوصلة هيجهم حالهم إلى حمد خالقهم، والثناء عليه بما أولاهم من لطيف كراماته وسنا مشاهداته حين فازوا من هجوم الأحزان في قلوبهم من خوف أليم

الفراق وطريان النفاق بعد حقيقة الاشتياق، وأقروا بأن ذلك من لطفه الخاص بلا امتحان بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ثم بينوا ألا يلحقهم فيها وجدوا من نعم الله نصب المعاملات ولا لغوب الطبعيات.

قال النصر آبادي: ما كان حزنهم إلا تدبير أحوالهم وسياسة أنفسهم، فلما نجوا منها حمدوا وقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

وقال أبو سعيد الخراز: أهل المعرفة في الدنيا كأهل الجنة في الآخرة، قال الله حاكيًا عن أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، وإنما أحزانهم للاشتغال بالأعراض، فتركوا الدنيا في الدنيا، فتنعموا، وعاشوا في الدنيا بعيش الجنانين.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾: شكر الله العبد رضاه بما أجرى عليه، وشكر العبد ربه أن يرى النعمة من الله ابتداء وانتهاء.

قال أبو بكر التيمي: إن كانت أعمالك مكتسبة فبفضل الله عملت، والفضل غير مكتسب، وإن كان مكتسبًا لم يسمَّ فضلا؛ ألا ترى الله يقول: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وافهم أن ذلك الحزن الذي نجا القوم منه وحمدوا الله بإخراجهم عنه هو الحزن الذي صدر من رؤية قهر الأزل، فلما فروا من الله إلى الله فازوا من قهره بلطفه، ولا يبقى لهم استتار، بل يبقون في المشاهدة بلا حجاب وامتحان واضطراب.

قال ابن عطاء: حزن إبهام العاقبة.

سورة يس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

﴿يسٓ ۝١﴾: افهم أن حروف يس كحروف الطواسين وحروف الحواميم وغيرها من حروف التهجي، الياء إشارة إلى يد القدرة الأزلية، والسين إلى سنا الربوبية، أقسم سبحانه بثلاث صفاتٍ: بالقدرة، وسنا الربوبية، والكلام الأزلي بقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾، مخاطبة المواجهة بعد شرف القسم بنفسه وصفاته؛ لأن المقسم به قديم، فأقسم بالقدم لا بشيء خرج من العدم لشرائفه وفضائله.

قيل: الياء يشير إلى يوم الميثاق، والسين يشير إلى سره مع الأحباب، فقال: وبحق يوم

الميثاق وسري مع الأحباب والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين يا محمد.

قال جعفر الصادق: يا سيدًا مخاطبًا لنبيه ﷺ بذلك؛ لذلك قال النبي ﷺ: «أنا سيِّدٌ»[1]، ولم يمدح بذلك نفسه، ولكن أخبر عن معنى مخاطبة الحق إياه بقوله: ﴿يس﴾.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾: حق القول الأزلي في الأزل إن أكثر الخلق لا يعرفونه؛ لأنه غريب الأزل، والأزلي لا يعرفه إلا الأزلي، والحمد لله الذي حكم على الأكثر بالشقاوة، وما حكم على الأقل الذين عرفوه به لا بغيره، وهم أوراق بساتين قدسه ونسائم نرجس أنسه.

قال ابن عطاء: حق القول على أهل الشقاوة في الأزل، إنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، والنبي ﷺ يُسْمِع خطابه من أسمعه الحق في الأزل نداء السعادة، فإذا سمع نداء النبي ﷺ أجاب لما سبق له من إجابة لنداء الحق.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: سدَّ ما خلفهم سدَّ قهر الأزل، وسدَّ ما بين أيديهم شقاوة الأبد، فينفسه منهم من نفسه لا جرم أنهم في غشاوات الغيرة ولا يبصرونه أبدًا.

قال ابن عطاء في ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾: وهو طول الأمد، وطمع البقاء، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: وهو الغفلة عما سبق منه من الجنايات، وقلة الندم والاستغفار عليه أعماه تردده في الغفلات عن الاعتذار لما سبق منه من الجنايات.

وقال الأستاذ: أغرقناهم اليوم في بحار الضلالة، وأحطنا بهم سرادقات الجهالة، وفي الآخرة نغرقهم في النار والأنكال، ويضيق عليهم الحال بالسلاسل والأغلال.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَآ

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢١٥)، ومسلم (١/ ١٨٤).

إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾: الإنذار لا يؤثر إلا في أصحاب الذكر؛ لأنهم في مشاهدة عظمة المذكور يفزعون منه بأقدار ما شاهدوه من العظمة والكبرياء، فبركة موعظة الصادق تزيد لهم تعظيم الله وإجلاله، وتابع الذكر تابع السنة، ثم تابع الحال والوقت والوجد حتى فني هو في ذكره، وفني ذكره في رؤية مذكوره؛ لأنه شاهد العظمة بنعت الفناء في الحضرة حين غاب عن الخلق بقوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾علم الرحمن في غيب الرحمن، ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ لما جرى عليه من وقفة الحال وكشف المشاهدة الكريمة الأزلية الأبدية.

قال الحسين: أشرف منازل الذاكرين من نسى ذكره في مشاهدة المذكور، وحفظ أوقاته من الرجوع إلى الرؤية والذكر.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ﴾: العبودية ممزوجة بالفطرة، والمعرفة فوق الخليقة والفطرة، وهذا المعنى مستفادٌ من قول النبي ﷺ حيث قال: «كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة»[1]، ولو كانت المعرفة ممزوجة بالفطرة لما قال: «فأبواه يُهودانه أو يُمجسانه أو يُنصِّرانه»[2]، بل المعرفة تعلق بكشف جماله وجلاله صرفًا بالبديهة بغير علة ولا اكتساب بقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٦٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧).

(٢) تقدم في سابقه.

قال ابن عطاء: الفطرة جعل الأشخاص في قبضة القدرة والأرواح في قبضة العزة.

قال بعضهم: العبد الخالص من عمل على رؤية الفطرة لا غير، وأجل منه من يعمل على رؤية الفاطر.

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ : ضاق صدر حبيب النجار -قدس الله روحه- لأجل قومه الذين شاهدوا قتله، وضاقت صدورهم لأجله حتى تبرأ لأمر فراقهم، إنه في رؤية الخلق بعد خلاصه من الخلق.

قال حمدون القصار: لا يسقطه عن النفس رؤية الخلق بحال، ولو سقط عنها في وقت لسقط في المشهد الأعلى في الحضرة، ألا تراه في وقت دخول الجنة يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾، تحدثه نفسه إذ ذاك برؤية الخلق.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾: خلق الأصناف من العرش إلى الثرى بغير رؤية ولا تفكُّر، بل على ما سبق في علمه في الأزل لا على مثال، ولا على أشخاص، وهو منـزهٌ أن يكون له شبيهٌ أو نظيرٌ.

قال عبد العزيز المكي: خلق الأزواج كلها ثم قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾؛ ليستدل بذلك أن خالق الأشياء منـزهٌ عن الروح مستغنٍ عنه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ

كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ
وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾
وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ
﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ
أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ
وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ
يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ
ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾
فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾: عَرَّف الله سبحانه أهل معرفته نفسه بآيات المكاشفات وطلوع شموس المشاهدات والغيبة والاستتار بعده، حين هم في ضياء المشاهدة ونور المكاشفة، فيقبض منهم أنوار المواجيد والحالات قبضًا يسيرًا بحيث لا يعرفون ذهابه حتى بقوا في الحجاب، فإذا دحا ليل الفقدان عليهم وهاموا في أودية الحيرة من طلب شمس المشاهدة فتلك الشمس تجري لمستقر لها تنكشف شمس الجلال من مشارق الآزال على أوقاتهم بمقادير الإرادة الأزلية، فيكون الوقت سرمدًا بغير فترة ولا انتقال بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾، فإذا غابت عنهم شمس الذات طلع عليهم قمر الصفات في أبراج قلوبهم على منازل المقامات بقوله: ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ ﴾[1]، يبدو لهم في أوائل الأحوال أنوار الصفات، فيزيد لهم وضوحًا

(١) قال حقي: (منازل) وهي ثمان وعشرون مقسومة على الاثني عشر برجا، ينزل القمر كل ليلة في واحدة من تلك المنازل لا يتخطاها ولا يتقاصر عنها فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين أو ليلة إن كان تسعة وعشرين وقد صام ﷺ ثمانية أو تسعة رمضانات خمسة منها كانت تسعة وعشرين يومًا، والباقي ثلاثين وقد قال ﷺ: «شهرا العيد لا ينقصان» أي حكمهما إذا كانا تسعا وعشرين مثل حكمهما إذا كانا ثلاثين في الفضل وقد صح أن دور هذه الأمة هو الدور القمري العربي =

وكشفًا، فيربيهم على سنن الواردات حتى صاروا في مشاهدة بدر كمال الصفات، فإذا كادوا يفنوا في تلك الحالة يغيب عنهم أنوار الصفات حتى يبقى لهم اللمعان والبروق، ويصير البدر لهم هلالاً، فيتراءون هلال جمال الصفات بأبصار قلوبهم في سماء اليقين، وهذا من لطف الله لهم الذي يربيهم على قدر الأحوال في مقامات مشاهدة الذات والصفات قبضًا وبسطًا حتى لا يفنوا.

قال الأستاذ: نهار الوجود يدخله على ليالي التوقف، ويقود بيد كرمه عصا من عمى عن سلوك رشده، فيهديه إلى سواء طريقه.

وقال في قوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ﴾ الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال ضعيف اليقين مختصر الفهم، فيتفكر حتى تزداد بصيرته ويكمل حاله، ثم يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلما ازداد من الشمس دنوًا ازداد في نفسه نقصانًا إلى أن يتلاشى ويخفى ولا يُرى، ثم يبعد عن الشمس، لا يزال يتباعد حتى يعود بدرًا من الذي يصرفه على ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم، فشبه الشمس عارف أبدًا في ضياء معرفته صاحب تمكين غير متلون يشرق بروج من سعادته دائمًا، لا يأخذه كسوف، ولا يستره سحاب، وشبه القمر عبد يكون أحواله في التنقل، صاحب تلوين له من البسط ما يرقيه إلى حد الوصال، ثم يردُّ إلى الفترة، ويقع في النقص بما كان به من صفاء الحال، فيتناقص ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود عليه الحق سبحانه، فيوفقه لرجوعه عن فرقه وإفاقته عن سكرته، فلا تزال تصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله، فكما قالوا: [إن كنت أدري فعلي بدنه من كثرة التلوين إليَّ من أنه]، وفي معناه أنشدوا:

كـلَّ يـوم تـتلونُ غـير هـذا بك أجملُ

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ : إذا دخل أهل الجنة في الجنة وتنعموا بها يكشف الله جماله لهم بالبديهة، فيكونون في شغل من المشاهدة عن نعيم الجنة ناظرين إلى الحق بالحق، ويفرحون بما نالوا من جماله وجلاله.

قال ابن عطاء: شغلهم في الجنة استصلاح أنفسهم لميقات المشاهدة، وهذا من أعظم

=

الذي حسابه مبني على الشهر لا الدور الشمسي الذي مبنى حسابه على الأيام.

الاشتغال.

وقال الجنيد: أحيا أقواماً بالراحة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، فهم متقلبون في الراحة واللقاء والرضوان والمشاهدة، ثم مَنَّ عليهم زيادةً منه، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾: شغلهم حظوظ الأنفس عن هذا المعدن وهذا المشهد.

وسئل بعض المشايخ عن قول النبي ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُله»[1] قال: لأنهم في شغل فاكهون، شغلهم النعيم عن المنعم.

وقال الحسين: إن الحق قطع أهل الجنة بتجليه عن الالتذاذ بالجنة؛ لأنه أفناهم بتجليه عنها؛ لئلا تدوم بهم اللذة، فيقع بهم الملك فرجوعهم إلى إياهم بعد تجلي الحق لهم يوفر اللذة عليهم، والحق لا يلتذّ به.

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾: سلام الله أزلي الأبد غير منقطع من عباده الصادقين في الدنيا والآخرة، لكن في الجنة يرفع عن آذانهم جميع الحجب، فسمعوا سلامه، ونظروا إلى وجهه كفاحاً.

قال ابن عطاء: السلام جليلُ الخطر، عظيم المحل، وأجله خطر ما كان في المشاهدة والمكافحة من الحق حين يقول: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾: من استقام عليه فقد ظهر عليه سرُّ الربوبية، وشغله ذلك السرُّ به عن الطاعة والمعصية، قد حضر لي نكتة أن السلام يكون بالقول والكلام من رب رحيم يربيهم بمشاهدته ويرحمهم؛ لئلا يحجبهم عن جماله أبدًا.

قال الأستاذ: الرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حالة ما سلم عليهم ليكمل لهم النعمة.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ٣٦٢)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٣١٣).

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾: طلب الحق منهم ما خلق في فطرتهم من استعداد قبول طاعته أي: اعبدوني بي لا بكم، فهذا صراطٌ مستقيمٌ حيث لا تنقطع العبودية عن العباد أبدًا، ولا يدخل في هذا الصراط اعوجاجٌ ولا اضطرابٌ.

قال النوري: الأنفاس ثلاثٌ: نفس في العبودية، ونفس بالربوبية، ونفس بالرب.

قال الواسطي: من عبد الله لنفسه فإنما يعبد نفسه، ومن عبده من أجله فإنه لم يعرف ربه، ومن عبده بمعنى أن العبودية جوهرة تظهرها الربوبية فقد أصاب.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ : من عمَّره الله وذهب أوقاته بالغفلات، ولا يظهر بالمشاهدات نقص وضعف في ميادين العبودية والربوبية.

قال أبو بكر الوراق: من عمَّره الله بالغفلة فإن الأيام والأحوال تؤثر فيه حالاً فحالاً من طفولية، وشباب، وكهولية، وشيبة إلى أن يبلغ ما حكى الله عنه من قوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾، ومن أحياه الله بذكره فإن تلوين الأحوال لا يؤثر فيه، فإنه متصل الحياة لحياة الحق، حي به، ويقر بهن، قال الله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي: من كان عارفـًا بالله وبصفاته، عاشقـًا بوجهه، مشتاقـًا إلى لقائه، والهـًا في جماله، ذاهلاً في عظمته وكبريائه، متصفـًا بحياته.

قال ابن عطاء: أي من كان في علم الله حيـًا أحياه الله بالنظر إليه والفهم عنه والسماع منه والسلام عليه.

قال الجنيد: الحي من يكون حياته بحياة خالقه، لا من يكون حياته ببقاء هيكله، ومن يكون بقاؤه ببقاء نفسه فإنه ميت في وقت حياته، ومن كان حياته بربه كان حقيقة حياته

وفاته؛ لأنه يصل بذلك إلى رتبة الحياة الأصلية، قال الله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾: إن في خلق الإنسان ووجوه الحسان من علامات قدرته أكثر مما يكون في الكون؛ لأن الكونين والعالمين في الإنسان معجون وفيه عمنه معلوم، ولو عرف نفسه فقد عرف ربه؛ لأن الخليقة مرآة الخليقة تجلت في الخليقة لأهل المعرفة، ورُبَّ قلبٍ ميتٍ يحيا بجماله بعد موت جهالته، وإحياؤه بمعرفته.

قال الواسطي: ضرب الأمثال في القرآن إعلامًا لصحة الطرق للموحدين على حدة، وللعالمين على حدة؛ ليعلموا أن قليلاً من روائح نفحاته خيرٌ من كثير توحيدهم ومعاملاتهم.

وقال في قوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ أي: من يحيي القلوب الميتة بالقسوة والإعراض عنه، فيردها إلى التفويض والتسليم والتوكل والإقبال عليه.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: الفهم فيه أن الأمر بالقول، والقول القديم سبب إيجاد الكون، ولا يكون الكون إلا بإرادة المكون، وإرادته قبل الأمر، فلو كان القول وافق الإرادة لصار الكون قديمـًا، لكن بقوته الأزلية وجلاله الأبدي أراد وجود الأشياء إلا في وقت معين، فالأشياء مطيعةٌ له بإجباره الأزلي عليها وغلبة سلطانه على متون العدم بعزة القدم، لا إرادة لها؛ إذ الأمر كله يتعلق بجبروته.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: منـزّهٌ عن النقائص الحدثية، لا شريك له في ملكه، من قدرته بدء الأشياء، وإلى قدرته رجوع الأشياء[1].

---

(١) الملكوت هو الملك العظيم على ما يقتضيه الزيادة التركيبية؛ كالعظموت بمعنى: العظمة الزائدة. والرهبوت بمعنى: الرهبة الشديدة، والرحموت بمعنى: الرحمة الغالبة، وعلى هذا المراد بالملك العظيم هنا هو: ملك الروح؛ لأنه أعظم من ملك الجسد؛ لأن الجسد من عالم الصورة، والروح من عالم المعنى، والمعنى أوسع من الصورة، وإن كان كل من الروح والجسد مخلوقين على ما دلّت عليه النصوص.

قال الحسين: أبدى الأكوان بقوله ﴿كُن﴾ إهانة لها وتصغيرًا؛ ليعرف الخلق إهانتها، فلا يركنوا إليها، ويرجعوا إلى مبدئها ومنشئها، فشغل الحق زينة الكون، فتركهم معه، فاختار من خواصه خصوصًا أعتقهم من رقِّ الكون، وأحياهم به، فلم يجعل للعلل عليهم سبيلاً ولا للآثار منهم طريقًا.

سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩)﴾ .

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١)﴾ : والقلوب المتآلفة في مقام المحبة صفت بنعت الإقبال إلى جمال الأزل، وهي قلوب المحبين، وأيضًا صفوف العقول المقدسة صفت في مقام العبودية لمشاهدة الربوبية، وهي عقول العارفين، وأيضًا الأرواح العاشقة صفت في حظائر القدس في مقام الأنس، وهي طيور الله في بساتين الله، وهي أرواح الموحدين، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ : إلهامات الحق التي تأتي على خواطر أهل الحق[1]، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ : الملائكة التي تلم على قلوب الحاضرين في الحضرة بوحي الله، فأقسم الحق بهذه النيرات أنه تعالى واحدٌ لا انقسام في ذاته ولا افتراق في صفاته، لا تكون وحدانيته من حيث العدد ولا ألوهيته من حيث المدد، فأظهر وحدانيته بنعت التجلي والظهور للوحدانيين بقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ، ثم أوضح طرق الدليل إليه بقوله: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ : المشارق مطالع قلوب العارفين التي تطلع منها أنوار الحقَ للأرواح والعقول، ثم بيَّنَ أنه تعالى زيَّن سماء الظاهر بالكواكب، وزيَّن سماء الأرواح بأنجم المعارف ونور الكواشف بقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ : من نور معرفة العارفين ينـزجر الشياطين المتمردة ولا

(١) أقسم بطوائف الملائكة، الصافِّين أقدامهم في مراتب العبادة، كل على ما أمر به، فالزاجرات السحاب سوقًا إلى ما أراد الله ، أو: عن المعاصي بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرُّض لهم. البحر المديد (٥/ ٢٢٤).

يطيقون إلقاء الخواطر الرديئة.

قال ابن عطاء: زيَّن قلوب أوليائه بكواكب المعرفة، وهي الأنوار الظاهرة.

قال الحسين في قوله ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾: دلَّهم على الوحدانية؛ ليكونوا وجدانيي الذات؛ ليصلحوا لمعرفة الواحد، فمن لم يتحد بإسقاط كل العلائق عنه لا يصلح لمعرفة الواحد.

وقال أيضًا: الواحد لا يعرفه إلا الآحاد من العباد.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: جاء الشيطان إلى قلب العارف فألقى من بعيد إليه وسوسةً كاد أن يختطف حظًّا من حظوظ مواجيد العارف، وأن يشوش وقته، فلحقه نور غيرته فأحرقه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا

يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾: الجميع في حيز الجزاء الكفار يجزون بالعذاب، والمؤمنون يجزون بالثواب، والمخلصون خارجون من علل الفريقين، هم مختارون بالولاية، مخصون بالمشاهدة، لهم مقامٌ معلومٌ في القربة والوصلة بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾، رزقهم جمال الحق أبد الآبدين بلا حجابٍ ولا حسابٍ، والمخلص في المعرفة الخارج بنور الربوبية عن علل الحدوثية.

وقال أبو بكر بن طاهر: صحة البقاء مع الله إخلاص العبودية لله، وفناء رؤية العبد مع الله ببقاء حظِّه من الله.

وقال الأستاذ: الإخلاص أن تلاحظ محل الاختصاص.

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾: من شاهد الحق يكون مطلعـًا على ما دون الحق، واطلاع أهل المعرفة على الغيب من قوة نور جمال الحق في أبصارهم، فيبصرون

مغيبات الغيب بنظر الغيب.

قال القاسم: الاطلاع اطلاعان: اطلاع التخصيص فيه الحياة والبقاء، واطلاع التخصيص فيه الفناء والهلاك.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾: جاء ربه بقلبٍ محبٍّ مملوءٍ من شوق الله منقاد لأمر الله، ومراد الله فَارٌّ منه إليه، سالمٌ مما دون الله من العرش إلى الثرى، مقدسٌ من شوائب الطبيعة، قيل أي: مستسلم مفوض في كل حال إلى ربه، راجع إليه بسره لا تتخالَّه الأكوان بما فيها.

سئل الجنيد بمَ ينال سلامة الصدر؟ قال: بالوقوف على حق اليقين.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾: لما طلب القوم من الخليل عليه السلام المطايبة والعيش النفساني من قلة معرفتهم بحاله فأخرج غرائب معاني العشق والمحبة في صورة العلم التي يكون حجة عليهم وامتناعه من صحبتهم لأنسه بالله، فحكى الحق سبحانه عنه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾، وهذا إشارةٌ يعني طالع أنجم الصفات التي تطلع من مشارق الذات، أي: شاهد جمال القدم، واستغرق في بحر المحبة، فأخبر عن آلام لدغات حيات المحبة والمودة التي أسقمته بدائه، ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾: سقيم مشاهدة الأزل، ومريض جمال الأبد، ولا أقدر أن أشتغل بسواه، وإني أطلب مداواة سقمي ممن أسقمني.

قـد لسعتْ حيةُ الهوى كبدِي　　　بــلا طبـيـبٍ لهـا ولا راقــي

إلا الحبيبَ الـذي شغفتُ به　　　فعـــنده رقيتـــي وترياقـــي

قال ابن عطاء: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ مما أرى من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام.

قال بعضهم: إني سقيم القلب؛ لفوت مرادي من خليلي؛ فإن الحبيب أبدًا سقيم القلب

في القرب والبعد.

وأنشد:

وما في الدهر أشقى من محبٍّ وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا في كل حينٍ مخافة فرقةٍ أو اشتياق
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائي وتسخن عينه عند التلاقي

وقيل: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ شائق إلى لقاء الحبيب[1].

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾: لما حصر صدره من معاشرة الحدثان، وضاق قلبه في محل الامتحان، واشتاق سره إلى مشاهدة الرحمن، قال إني ذاهب مني إلى ربي، أي: إني أخرج من الحدثان إلى عالم العرفان، أسير في بيداء الأزل إلى الأبد، سيهديني ربي طرق الذات والصفات؛ فأكون فانيًا فيه باقيًا به معه.

قال الخراز: لما فني الموجود وانقطع القدرة ثبت المشهود بلا شاهد قال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾، بالرجوع عما سواه، فلا ذاهب في الحقيقة إليه إلا من أعرض عن الأكوان وما فيها، فمن بقي فيه ذرة من الكونين يكون ذهابه لعلة.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾: لما استوى الولد خلة أبيه وكل حقائقه صار أهلاً لقربان الحق، وفداء كشف جماله، وذلك أيضًا محل امتحان الخليل به؛ فإنه لما وجده أهل الحق استأنس به، فغار به الحق، وأراد أن يتجرد سره من الغير حتى لا يبقى بين الخليلين شيء من الحدثان.

قال ابن عطاء: لما سعى في الطاعة سعيه وقام بحقوق الله حسب ما رضي به الخليل وقرت عينه بقيامه بحقوق مولاه أنس الخليل به، وفرح بمكانه، فقيل له اذبحه فإنه لا يصلح

---

(١) فأوهم أن مراده أنه مريض الجسد وأراد أنه مريض القلب اسبب آلهتهم، مقسم الفكر في أمرهم لأنه يريد أمراً عظيماً وهو كسرها، ومادة «سقم» بتقاليبها الخمسة.

للخليل أن يفرح إلى شيء دون خليله، ولا يُفرح بسواه، فابتُلي بذبحه، ثم لما سلَّم وقام مقام الاستقامة واتَّبع الأمر فداه بذبح عظيم.

قال الواسطي: نقل الله إبراهيم من حال البشرية إلى غيرها، وهو أنه لما امتحنه بذبح ابنه أراد أن يزيل عن سره محبة غيره، ويثبت في قلبه محبته؛ لأن وجود محبة الله في قلب إبراهيم مع رحمة الولد محال، فنظر إلى أقرب الأشياء إلى قلبه، ووجد ابنه أقرب، فأمر بذبحه، وليس المبتغى منه تحصيل الذبح، إنما هو إخلاء السر منه، وترك عادة الطبيعة، وحينئذٍ نودي: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: قد حصلت ما طالبناك به وافيـًا، وحصل لنا منك ما أردناه، ولما وجد الذبيح رؤية المُبلي في البلاء ومشاهدته ولذة وصاله وجد نفسه في موقع البلاء على محل حلاوة شهود جمال الحق إياه مستلذة ببلائه حين شاهدته بوصف الاستئناس به بنعت سقوط الآلام عنها، فسلمها إلى مولاها بوصف الرضا والتسليم، وأخبر عن كمال استقامة حاله في الصبر والرضا، وذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾، صفا حاله في سكر وصال الحق، فاجترأ على استقبال البلاء، وأسقط التجلد عن صفة وجوده، استعان بالله في الصبر في بلائه حيث استثنى بقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قال أبو سعيد الخراز: أسرع الإجابة بقوله: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ لأنه قد أخلاهما من علم ما يراد بهما؛ كيلا يعرجا على رؤية السلامة، فيزول معنى البلاء، ومن يقع موضع الخصوص لا يتقرب بالصبر على حقيقة موجودة.

قال رويم: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، يقبح الخليل مخالفة خليله أو التقصير في أمره، وهلاك الولد وذهابه أهون من مخالفة من اتخذك خليلاً.

وقال بعضهم: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، فإني قد شاهدت من قلبي رشدي وجوارحي كلها راضية بما أمرت به.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ : لما استوى سرهما في كمال التسليم صرعه في مذبح العشاق الذين قُتلوا بسيوف المحبة حتى استوفيا حظوظ العبودية في دعواهما من شهود أنوار الربوبية.

قال جعفر: أخرج إبراهيم من قلبه محبة ابنه إسماعيل، وأخرج إسماعيل من قلبه محبة الحياة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾: أخبر سبحانه أن هذا بلاء ظاهر أي: هذا بلاء في الظاهر، ولكن لا يكون في الباطن بلاء؛ لأنه في الحقيقة بلوغ منازل المشاهدات، وشهود لأسرار حقائق المكاشفات، وهذه من عظائم القربات، وأصل البلاء ما يحجبك عن مشاهدة الحق لحظة، ولم يقع هذا البلاء بين الله وبين قلوب المصطادين بشبكات محبة القدم قط؛ فإن قلوبهم تحت غواشي أنوار سبحات وجهه فانية، وكيف يقع عليها البلاء وهي تفنى في جمال الحق؟! إن كنت تريد بلاءهم فإنه تعالى بلاؤهم، وذلك البلاء لا ينقطع عنهم أبدًا، ويمنع هذا البلاء جميع البلاء عنهم.

قال الجريري: البلاء على ثلاثة أوجه: على المخالفين نقم وعقوبات، وعلى السابقين تمحيص وكفارات، وعلى الأولياء والصديقين نوع من الإخبات.

قال الحسين: البلاء من الله، والعافية من الله، والأمر عزُّ الله، والنهي إذلاله.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾: سمى الحق الذبح عظيمًا، وفي ذلك إشارةٌ لطيفةٌ، وهو أن العاشق الصادق أراد كل وقت أن يذبح نفسه لمعشوقه، وإذا كان المعشوق صادقًا في عشق عاشقه يمنعه عن ذبح نفسه عنده، بل يذبح نفسه لعاشقه، فلما قدس ساحة جلال الكبرياء عن علة الحدثان فداه له مكان نفسه الذبح؛ إعلامًا لكمال محبته له، ولذلك سماه عظيمًا؛ لأنه صدر من العظيم لعظيم محبته وعشقه لعشاقه وأخلائه وأحبائه.

قال بعضهم: عظيم محلها عند الله؛ لأنه قتل عليها نبي ابن نبي، وأحيا عليها نبي ابن نبي، كذلك ذكر في التفسير أنها كانت الشاة التي تقبل من أحد ابني آدم فرتع في الجنة إلى زمان إبراهيم، ففدى به ابنه إسماعيل.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا

ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤)
أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦)
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى
ٱلْءَاخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤)
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)
وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ
ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾: أخبر سبحانه عن سر ما ذكرت أي: كما جزينا إحسانك ببذل وجودك وقتل ابنك وذبحه لكشف مشاهدتنا لكما، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾: نفدي مشاهدتنا لكل قتيل محبتي بسيوف شوقي إلى جمالي.

قال الكتابي: بين العبد وبين الله ألف مقام من نور وظلمة، وإنما كان اجتهادهم في قطع الظلمة حتى وصلوا إلى النور، فلم يكن لهم رجوع، وذلك جزاء المحسنين.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى
بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن
يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)
فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ
شَٰهِدُونَ (١٥٠) أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٥٢)
أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ
سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ
نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ
ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ
ٱلْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾[(١)]: كان يونس ﷺ من أهل التوحيد والمعرفة والعشق، وكان يسبح في بحار الألوهية والربوبية، ويجد منها جواهر الأزليات والأبديات ولآلئ أسرار المعارف والكواشف، فبلغ قعر عين الأولية والآخرية، وصار متلاشيًا في لجج بحار الذات، وخارجًا بنعوت الاتحاد من لجج الصفات، وكاد يدَّعي ما يدَّعي أهل السكر في الأنائية، فالتقمه حوت قهر غيرة الإلهية، وهو ملام حيث ما انسلخ من أوصاف الحدوثية، وكاد يبقى في بطن حوت القهر، فأغاثه عرفان بقاء الحق بعد عرفانه بفنائه فيه، ونجَّاه من طوفان قهر الأزل، ولم يبق في الحيرة والغيرة بقوله: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ أي: فلولا كان من العارفين بقدم الأزل وتنـزيه الأبد للبث في حجاب الغيرة، وفيه حقيقة شطح العارفين أنه كان ﷺ في حجال الخلوة في بطن الحوت، وهي كانت له معاريج مشاهدة القدم أي: لولا أنه كان من الأنبياء والمتمكنين من أهل القدوة والأسوة لبقي في مشاهدة القدم إلى يوم البعث، إلى محشر مساقط تجلي الجلال والجمال التي قال سبحانه: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، ولكن كان رحمة البلاد والعباد؛ ليعرفهم منازل الأبرار والأتقياء ومقام العبودية والربوبية.

وقال سهل: من المسبحين من القائمين بحقوق الله قبل البلاء.

قال ابن عطاء: من العارفين بنا المتعرفين إلينا قبل وقوع ما وقع.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾: أهل البدايات في مقام الطاعات والأوساط في المقامات، مثل التوكل والرضا والتسليم، والمحبون في مقام الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة في مقام المعارف ينقلون في المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحدين؛ فإنهم مستغرقون في بحار الذات والصفات، وليس لهم مقامٌ معلومٌ؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوفٌ؛ حيث أفناهم قهر الجلال والجمال والعظمة والكبرياء عن كل ما وجدوا من الحق، فبقوا في الفناء إلى الأبد.

قال ابن عطاء: لك مقام المشاهدة، ولهم مقام الخدمة.

---

(١) قال في كشف الأسرار: فصادفه حوت جاء من قبل اليمن فابتلعه، فسفل به إلى قرار الأرضين حتى سمع تسبيح الحصى (وهو مليم) حال من مفعول التقمه أي داخل في الملامة ومعنى دخوله في الملامة كونه يلام سواء لاموه أم لا يقال ألام الرجل إذا أتى أو آتى بما يلام عليه فيكون المليم بمعنى من يستحق اللوم سواء لاموه أم لا يقال ألام الرجل إذا أتى بما يلام عليه أو يلوم نفسه.

وقال جعفر: الخلق مع الله على مقامات شتى، من تجاوز حده هلك، فللأنبياء مقام المشاهدة، وللرسل مقام العيان، وللملائكة مقام الهيبة، وللمؤمنين مقام الدنو والخدمة، وللعصاة مقام التوبة، وللكفار مقام الطرد والغفلة واللعنة.

قال الحسين: المريدون في المقامات يجولون من مقام، والمرادون جازوا المقامات إلى رب المقامات.

وقال الجنيد: المقامات معلومة كما ذكره الله تعالى، وأرباب الحقائق يأنفون من المعلومات والمرسومات؛ لأنهم في قبضة الحق وأمره.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾: لما كانوا من أهل المقامات المعلومات افتخروا بمقاماتهم في العبودية من الصلاة والتسبيح، ولو كانوا من أهل الحقائق في المعرفة لفنوا عن ملاحظة طاعاتهم من استيلاء أنوار مشاهدة الحق والاستغراق في بحار منن الألوهية.

قال بعضهم: لذلك قطعت بهم مقاماتهم عن ملاحظة المنة حتى قالوا بالتفخيم: إنا لنحن وإنا لنحن، فلما أظهروا وسرائرهم عارضوا إظهار أفعال الربوبية بالمعارضة حتى قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: سبقت لهم كلمة الحسنى باصطفائية الله في الأزل بالولاية والنبوة والرسالة بغير علة الاكتساب ونقائص الحدوثية، أخبر عن محض منته الأزلية عليهم، ونفى عنهم الانقطاع عنه من جهة تغاير الامتحان أنهم مؤيدون بوصف الظفر بالبقية على مرادهم بكل ما أرادوا له، أنـزل عليهم جنود أنوار تجلي ظهور جلاله في قلوبهم، تقدست سرائرهم عن كل غالب من الشهوات وعلل النفسيات.

قال سهل: جنوده ترد على الأسرار، وترد على الظواهر، وجنده في السرائر صحة عقد الإيمان في القلب وشرحه به، وما يتولد فيه من صحة إيمانه والتوكل وما يريد فيه بتوكله ومحبة الله تعالى، فإذا نـزلت المحبة في القلب وسكنت فيه طهَّرها من كل ما سواه؛ فإن المحبة لا يسكن معها ما يضادها، وجنوده في الظواهر هو أن يوفقه بالقيام إلى العبادات والأوامر على حدود السنن والتبرؤ من الحول والقوة لما يتقن من حسن قيام الله لعبده بالكفاية في كل أسبابه، ثم أنه سبحانه لما وصف صنائع لطفه بأنبيائه وأوليائه نـزَّه نفسه أن يلحق به وبتنـزيه جلاله على كل حادث ووصف كل واصف وحمد كل حامد؛ حيث قام حمده وتنـزيهه مقام أداء حقوق ربوبيته على أهل العبودية بقوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾، ضاق صدر سيد المرسلين عن مقالة أهل الزور والبهتان من الكفرة في حق جلاله، فواسى الله قلبه بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ﴾ شرفه مخاطبة المواجهة وإضافة تربيته إليه، ثم وصف نفسه بالعزة المنيعة من كل إشارة إليه، ثم أظهر منته على أهل عرفانه من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين بسلامه عليهم بقوله: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾، وحمد نفسه بما وهب لهم من سنيات القربة وحقائق المشاهدة والمكاشفة بقوله: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾؛ حيث لا يقوم حمد الحامدين مقام حمده له.

سورة ص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ صٓ ﴾ : هذا الحرف من كنـوز إشارات الحق إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ حيث صادف بنعت الوصال الذي يفنى عنه بصولة صدمات الأزلية عند كشوف قهر القدم صفات الحدثية، حتى صار صدق جواهر أسرار الربوبية في بحار الذات والصفات، واصطاده الحق بزمام محبته من صحاري البريات، وصفَّاه بصفاء عن كدورات الكون، فكان صفوًا من بحر النبوة، صاحبًا في مشاهدة البقاء بنعت صدق العشق في رؤية أنوار الكبرياء، ما صدق عن

مشاهدة جمال الحق إلى الأكوان حين عارضه صواعق الامتحان، فخرج منها بوصف الصدق في المحبة، وصفو الصحو في المعرفة، حين أسكر الحق صفوة أرواح الصادقين بشربات بحر وصله ووصفه، أخبر بحرف صاد من صفاوة قلوب العارفين، وصدق حقائق محبة المحبين، وتلهب نيران صدور العاشقين، وصبابة أسرار الوالهين، وصفوف أهل الاستقامة في مقام مشاهدة القدم، حين وازنوا بنعت الفناء جلال البقاء، وإشارة التوحيد فيه أنه كان بجلاله وعظمته في قدم القدم، وأزل الأزل بحار الصمدية صافية عن غبار الحدثان، فأشار به عنه، وبان كل مصدر كل الكل، صدر منه الوجود؛ إذ كان وجوده منزهًا عن الاجتماع والاقتران والعلل والانقسام أي: أظهرت لك يا صادق ما كان وما سيكون، وجعلتك بصيرًا ببصري؛ حتى تطلع على غيبوبة جلال وصالي، فكنت مصورًا بصورة روح الأول التي صدرت مني بيعتي.

ثم قال: شطح من مقام السكر رمز حقيقة الاتحاد سيد أهل الصحو ﷺ بقوله:

«مَنْ رآني فقدْ رأى الحقَّ»[1]،[2] ثم أراد أن يبين للعالمين بحرف الصاد وصف الربوبية، وحقيقة محبة حبيبه ومنازله الرفيعة في مقام وصاله، فأقسم بصفاته التي هي مفاتيح كنوز ذاته التي أخبر عنها بحرف الصاد، فقال: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي: أنت بالوصف الذي وصفتك بحق صفاتي ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾، ثم وصف القرآن بأنه تجلى به من نفسه فيه لقلوب العارفين، فيورث منه أسرارهم أنوار ذكره؛ إذ هو ذكر القدم بذكر جميع الصفات، والذات فؤاد المقربين وأرواح الشائقين، وهذا قوله: ﴿ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ ﴾ يتذكر به العقول الراسخة معتبرات لطائف حقائق الربوبية التي برقت أنوارها في صنائع ملكه، وملكوته ومقدورات قدرته، ويدرك بنور قلوب الصادقين أنوار مشاهدته حين خاطبهم به أي: بك وبالقرآن إن المحجوبين عن هذه الشواهد في عزة وظلمة عن معرفتك، وفي خلاف عن إدراك شرفك وفضلك وفضل أمتك بقوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾، لا يخرجون من مضيق غفلتهم إلى فضاء المعرفة؛ لأنهم طُردوا بسوط قهر الأزل عن جناب القدم، ما وهب لهم استعداد قبول نور المعرفة، فبقوا إلى الأبد في شر النفاق وظلمة الشقاق.

قال ابن عطاء: في معنى الصاد قسم صفاء قلوب العارفين، وما أودعت فيها من

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦).

(٢) أي: رأى الله على قول بعض أهل الإشارات حيث جعل رؤية العبد له ﷺ يقظة أو مناماً رؤية للحق سبحانه.

لطائف الحكمة، وشريف الذكر ونور المعرفة.

قال الأستاذ: صاد مفتاح اسمه الصادق، والصبور، والصمد، والصانع أقسم بهذه الأسماء ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾.

وقال ابن عباس: صاد كان بحرًا بمكة، وكان عليه عرش الرحمن؛ إذ لا ليل ولا نهار.

وقيل في صاد: أن معناه صاد محمل قلوب الخلق وأسمائها حتى آمنوا به.

وقال بعض المشايخ في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: ذي البيان الشافي والاعتبار، والموعظة البليغة وقال الجنيد: ذي الموعظة البليغة، والنور الشافي وقيل: ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: في غفلة وإعراض عما يراد بهم، وذلك منهم قريب قوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، وصف الله سبحانه ضعف قلوب الكافرين عن حمل وارد أنوار ربوبيته حين هجمها صولات العظمة، فانهزموا عن سطوات عزته، ورجوعهم إلى المحدثات أي: اصبروا على مشاهدة أمثالكم؛ حتى لا تجذب قلوبكم أنوار سلطانه المحيطة لوجودكم جميعًا؛ كيلا تحترقوا فيها، وأيضًا اصبروا على آلهتكم حين دفعكم عن شهودها قهر جبروت الأزل التي تصدر من كل ذرة من العرش إلى الثرى، فإن الصبر مع الحدث ممكن ومع القدم لا يمكن، وهذا دأب ضعفاء المريدين في مشاهدة جلال الحق يفرون منه من عظم سطوات قدوسيته إلى مقامات العبودية، وهذا من غلبة شفقتهم على نفوسهم؛ حتى لا يفنوا في أنوار الكبرياء، ويشتغلون منه بالوسائط مثل رؤية المستحسنات من الكونين، وهذا علة طارئة على الجمهور من السالكين.

قال بعضهم: هذا توبيخ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينهم.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾: كانوا منطمسة العيون عما ألبسه الحق من أنوار ربوبيته وسنا جلاله وجماله، لم يروه إلا بالصورة الإنسانية التي هي ميراث آدم من ظاهر الخلقة، فهذا كقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، وهم لا ينظرون،

استبعدوا اصطفائية حبيبه بالوحي، ولم يعرفوه بأنه أثر الله في العالم، ومشكاة تجليه حتى قالوا مثل ما قالوا: ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ رأوه ونفوسهم خالية عن مشاهدة الغيوب، وإدراك نور صفات الحق، فقاسوا نفس محمد ﷺ بأنفسهم، ولم يعلموا أنه كان نفس النفوس، وروح الأرواح وأصل الخليقة، وباكورة من بساتين الربوبية، يا ليت لهم لو رأوه في مشاهد الملكوت، ومناصب الجبروت أن خاطبه الحق بـ (لولاك لما خلقت الأفلاك).

قال بعضهم: في قوله: ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾: لما أكرمناهم به من أشرف الرسل، فلم يعرفوا حقه، ولم يشاهدوا ما خصوا به من فنون المباركات والكرامات.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾: كان خاطر النبي ﷺ أرق من ماء السماء بل ألطف من نور العرش والكرسي من كثرة ما ورد عليه نور الحق، نكان ملطفًا بنور نوره،س مرفقًا بلذائذ محبته وشوقه، لا يحتمل زحمة مقالة المنكرين، وهذا من كمال جلاله في المعرفة، لا أنه لم يكن صابرًا في مقام العبودية، بل كان جليس الحق وأهل ملكوته، وسرادق مجده كيف يسمع سخرية المستهزئين على دينه وشريعته! فمع ذلك أمره الحق بالصبر على ما قالوا، وأعلمه بأن ذلك امتحانٌ من ولاية القهر، والواجب على العاشق الصادق أن يستقيم في مشاهدة القهر كما يستقيم في مشاهدة اللطف، وأصل الصبر التلّبس بنعت صبر الأزل حتى يمكن احتمال أثقال امتحانه به، وإلا كيف يحمل الحدث وارد القدم وأمره له بالاتصاف به! ومع ذلك ذكره شأن داود عليه الصلاة والسلام في صبره على ما قالوا فيه حين عشق بعروس من عرائسه حين تجلى الحق منها له، فإنه كان عاشق الحق، وكان في مبادئ عشقه، فسلاه بواسطة من وسائطه حتى لا يفنى فيه به، ثم زاد في وصفه حين قوى في المحبة بالقوة الملكوتية بقوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾: واهب نفسه له حامل أثقال قهره به راجع من الوسيلة إلى الأصل بقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: رجع إلى الحق بنعت الندم على ما سلف من أيامه في الفترة من عين القدم بغيره من أهل العدم، وإن كان طريقًا منه إليه، أي: كن يا محمد كداود في بلائي، فأنا بلاء الأنبياء والمرسلين والعرفاء والصديقين.

وقال شاه الكرماني: الصبر ثلاثة أشياء: ترك الشكوى، وصدق الرضا، وقبول القضاء بحلاوة القلب.

وقال بعضهم: هو الفناء في البلاء بلا ظهور اشتكاء.

قال بعضهم: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا الصبر في أمر دينه(١).

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: هذا التسخير وقوع نور الفعل معها، ومباشرة أنوار الصفات فيها بواسطة الفعل، فيظهر روح الفعل فيها، فتقبل فيض الصفة من الصفة، فصارت خاضعة متخشعة في نور عظمته تعالى، فلما وصل إليها ألحان داود من حيث روحه العاشقة ترنمت بألحان العشق من أغصان ورد الجمال والجلال، فتحركت من لذة سماع صوت داود وتسبيحه وتنـزيهه، فوافقت داود في الذكر والتسبيح، وكذلك الطيور إذا سمعت أصوات الوصلة منه صفرت بصفير التنـزيه وتقديس من وجدان حلاوة وجد داود وإدراك روح الملكوت؛ لأنهن مقدسات خلقن مستعدات لقبول أنوار فعل الخاص وأشكال الروحانيات، وفيهن خويصات لهن عشق ومعرفة كالهدهد والبلبل والعندليب والقمري والحمامة ومالك الحزين، وكان ﷺ يعرف أصواتهن وتسبيحهن من حيث المحبة والعشق، ألا ترى كيف أنشد:

رُبَّ ورقـــاءَ هـــتوفٍ بالـــضُّحى ... ذاتَ شــجوٍ صرخــتْ في فـــتنِ

فبكائـــــي ربَّـــما أرَّقهـــــا ... وبكاءُهـــــا ربَّـــما أرَّقنـــــي

هـي أن تـشكوَ فـما تـشكو فـما أفهم ... وإذا أشــــكو فــــما تفهمنــــي

غــــيرَ أنّي بالجـــوى أعـــرفُها ... وهــي أيــضاً بالجـوى تعرفنــي

وخاصية العشي والإشراق أن فيهما زيادة ظهور أنوار قدرته القديمة وآثار بركة عظمته العظيمة، وأن وقت الضحى وقت صحو أهل السكر من خمار شهود المقامات المحمودة، وأن العشي وقت إقبال المقبلين إلى مشاهد المناجاة وإدراك أنوار المشاهدات واستماع طيب الخطابات.

قال محمد بن علي الترمذي: لما أخلص هو في تسبيحه لربه جعل الله الجماد يوافقه في تسبيحه ويعينه على عبادته.

قال ابن عباس: كان يفهم تسبيح الحجر والشجر بالعشي والإشراق.

وقال الأستاذ: كان يفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيصه به؛ كرامة له ومعجزة،

---

(١) أي القوى العظيمة في تخليص نفسه من علائق الأجسام، فكانت قوته في ذلك سبباً لعروجه إلى المراتب العظام. نظم الدرر (٧/ ١٧٨).

وكذلك الطير كانت تجتمع إليه، فتسبح لله، وداود كان يعرف تسبيح الطير، وكل من تحقق بحاله ساعده كل شيء.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ ملكه: معرفته بالله وما وصل إليه من الله من النبوة والولاية والمحبة أي: قويناه بتأييدنا في مقام المشاهدة حتى احتمل بنا حمل واردات سطوات عظمتنا، والحكمة ههنا الفهم على مواقع معاني إلهام الخاص ولطائف الوحي والمعرفة على بطون حقائق فعل الحق والعلم بأحكام العبودية وآثار الربوبية، ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ فصاحة اللسان وشرح هذه المقامات به بأحسن البيان حيث لا اعوجاج فيه ولا لكنة فيه، أدى به مراد الخطاب على وفق مراد الله وأيضًا: شددنا ملكه أي: ملكته على نفسه بالعدل والإنصاف ومعرفته بها وشرح دقائق أفعالها.

قال بعضهم: شددنا ملكه بالعدل.

وقال سهل: آتيناه الحكمة أي: أعطيناه علمًا بنفسه، وألهمناه مواعظ أمته ونصيحتهم.

قال ابن عطاء: العلم والفهم.

قال أيضا: العلم بنا والفهم عنا.

قال جعفر: صدق القول، وصحة العقل، والثبات في الأمور.

وقال ابن طاهر: مخالطة الأبرار ومجانبة الأشرار.

وقال بعضهم: شددنا ملكه بالعصمة فيه وقلة الاعتماد عليه.

وقيل: آتيناه الحكمة النطق بالصدق وقول الحق.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾: هذه القصة

تسلية لقلب نبينا محمد ﷺ؛ حيث أوقع الله في قلبه محبة زينب، فضاق صدره، فقال سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧]، ففرح بذلك، وزاد له محبة الله والشوق إلى لقائه، فافهم أيها الممتحن بالمحبة؛ إن الله سبحانه خلق قلوب عشاق الأنبياء والأولياء من آثار تجلي جماله وجلاله ومحبته وشوقه وعشقه وبهائه ولطفه، وأوقعها في بحار نور نوره، وغسلها بمياه التنزيه والتقديس، ثم كاشف بها عين الألوهية حتى غرقت فيها وانهزمت من سطوات أنوار كبرياء قدمه إلى أكناف أنوار فعله، فعلم الحق ضعفها عن حمل وارد شهود جلال كبريائه، فتلطف عليها، وأراها في أنوار أفعاله وآياته جمال ذاته وصفاته حتى سكنت بها وبقيت بعد فنائها فيه، فمنها واقعة آدم بحواء والحنطة، وإبراهيم بالشمس والقمر والكواكب وحسن سارة، وموسى بالجبل والشجرة، ويوسف بزليخا، ويعقوب بيوسف، وداود بامرأة أوريا، وسليمان ببلقيس، ومحمد ﷺ بزينب، والمراد من ذلك أن جذبهم بنور حسن فعله إلى مشاهدة جمال قدمه، فربَّاهم بمقام التباس في العشق في أول المعرفة حتى وصلوا إليه بوسائط حسن فعله بعد أن تجلى بنفسه منه لهم، فيا محب انظر إلى مقام الاتحاد؛ فإن الكل هو لا غير في البين، ألا ترى كيف خاطب موسى من الشجرة وتجلى له منها مرة، ثم تجلى له من الجبل مرة، ثم تجلى له من العصا مرة بنعت العظمة حيث صارت حية؟! وتلك بروز أنوار قهر عظمته، رأى داود ذلك بصورة الطير في الخلوة، ومن في البين إبليس كان تلبيساً من حيث الالتباس، ثم رأى ذلك في صورة امرأة حسناء، وأين الصور والعلل، بل هناك حيل ومكر وقع نظره على جمال الأزل، فظن أن ذلك حاصل له، فلما وصل إليها غاب ذلك عنه، فعلم أنه ممتحن، فرجع من الفعل إلى الفاعل بنعت الخجل والحياء، ومن مقام التفرقة إلى مقام الجمع، ومن مقام الالتباس إلى مقام التوحيد، قال سبحانه في وصف حاله في قصة دخول ملكين إليه بقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ﴾: استغفر من مقام الالتباس، كما استغفر موسى حيث قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٤٣]، وكما استغفر آدم بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ﴾[الأعراف: ٢٣٠]، وكقول إبراهيم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ٧٨]، وكما مَنَّ على صفي المملكة وعندليب ورد بساتين المشاهدة محمد ﷺ بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: ٢]، ثم تضرع بنعت الفناء في البكاء في مقام الإنابة، وفرَّ منه إليه بعد أن احتجب منه به(١).

---

(١) هذا يدلُّ على أنه كلَّما كانت معرفة الله أتمَّ ، كان الخوف منه أعظم، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء.

قال أبو عثمان: أيقن داود بأوائل البلاء فالتجأ إلى التضرع.

قال أبو سعيد الخراز: زلات الأنبياء في الظاهر زلات وفي الحقيقة كرامات وزلفى، ألا ترى إلى قصة داود حين أحس بأوائل أمره كيف استغفر وتضرع؟! فأخبر الله عنه بما ناله في حال ظنه من الزلفى.

وقال: ظن داود أنما فتناه فتضرع ورجع، فكان له بذلك عندنا لزلفى وحسن مآب.

صدق الشيخ أبو سعيد الخراز فيما قال أن بلاء الأنبياء والأولياء لا ينقص اصطفائيتهم بل يزيد شرفهم على شرفهم بقوله سبحانه: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ زلته كانت التفاته من الذات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل، فإذا رجع إلى أوائل الحقائق في التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث ستر مقام البلاء عنه بعد ذلك، حتى لم يطق الرجوع من النهاية إلى البداية، ومعنى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾، زاد زلفته حيث أوقعه في بحار الديمومية والأزلية والأبدية، وفي كل لمحة كان له استغراق، وحسن المآب له بأن آواه الحق إليه منه، ووقاه من قهره، حتى كان لا يجري عليه بعد ذلك أحكام الامتحان.

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً﴾: لما خرج من امتحان الحق وبلاياه كساه خلعة الربوبية وألبسه لباس العزة والسلطنة، كآدم خرج من البلاء وحبس في الأرض على بساط ملك الخلافة، وذلك بعد كونهما متخلقين بخلق الرحمن مصورين، بصورة الروح الأعظم، فإذا تمكن داود في العشق والمحبة والنبوة والرسالة والتخلق صار أمره أمر الحق ونهيه نهي الحق، بل هو الحق، ظهر من لباس الملك والملكوت، كقول سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه حيث قال: «جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير واستعلى من جبال فاران»[1]، ثم لما وضع الحق معجون سر قهر الأزل في الطبع الإنساني وهو محل الاستدراج الذي يجري عليه أحكام مكر القدم دقق عليه الأمر، وحذّره أن يرى نفسه في البين في إجراء الحكم بين الخليقة،

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/ ١٥٩)، وياقوت الحموي في معجم البلدان (٤/ ٢٢٥).

فقال: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ أي: فاحكم بحكمي حين عايتني فيك، واخرج منك، ولا تتبع الهوى بأن تنظر إليك، فيضلك ذلك عن رؤيتي وحكم الاتحاد فينطمس عليك سبيل الصواب في ظهور لطائف حكمتي وحقائق أمور ربوبيتي، فمن احتجب به مني فهو محجوبٌ به عني، لا يسلك بعد ذلك طرق الحقائق، فيقع في أليم عذاب الحجاب، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾.

قال ابن عطاء: جعلتك خليفة في الأرض لتحكم في عبادي بحكمي، ولا تتبع هواك فيهم ورائك، وتحكم لهم كحكمك لنفسك، بل تضيق على نفسك وتوسع عليهم.

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴾ : المتقين الذين وقعوا في رؤية أنوار عظمته وكبريائه التي تبرز من مرائي الأكوان ومقدوراته، فتنـزهوا عن كل ما سواه في رؤية جلاله وإجلاله أي: ليس هؤلاء كالذين بقوا في حجاب النفوس، لا يخرجون من غشاوات الهوى، ولا يرون أنوار الهدى.

قال ابن عطاء: أم نجعل المقبلين علينا كالمعرضين عنّا.

وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ ﴾ : ذكر النـزول في الكتاب شرط رسوم الأمر، وفي البرهان ظهور نور الصفة له بحكم التجلي، وفي الحقيقة لا افتراق في صفاته عن عينية الذات، هو منـزّهٌ عن التغاير، ألا ترى إلى قوله: ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ أي: منـزّهٌ عن التفرق بل هو ثابت في أصل الأصول، ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ عليك وعلى أمتك الذين يفهمون حقائقه حيث وقعوا في بحار التدبر والتفكر فيه، هو مرآة الصفة أعطاها عباده؛ لينظروا فيها بعيون الأهلية له؛ حتى يبصروا فيها حقائق الأنوار، ويدركوا منها دقائق الأسرار، فعمَّ التدبر لعموم العلماء والفهماء، وخصَّ التذكر لخصوص العقلاء؛ لأن التدبر للفهم، والتذكر لوقوع الإجلال وخشية الخاص في قلوب أكابر أهل العلم الذين يرون بعيون الأرواح عرائس الصفات فيه، وينكشف لهم فيه غوامض علوم الألوهية.

قال ابن عطاء: ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ على من سمعه منك، فيفهم المراد منه وفيه، ويحفظ آدابه وشرائعه، وفيه موعظة لأولي العقول السليمة الراجعة إلى الله في المشكلات.

قال بعضهم: من أصابته بركة القرآن رُزق التدبر في آياته، ومن رُزق التدبر في آياته لم يُحرم التذكر والاتعاظ به.

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

قال بعضهم: ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ عليك بإنـزاله عليك، فإنك المخاطب به، وأنت المبين له، ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ على من يسمعه، ويتبع أوامره، و﴿مُبَٰرَكٞ﴾ على من يتذكر فيه الأوامر والنواهي والمواعظ، فيتعظ بما يعظ به الكتاب، علمًا بأنه من عند سيده فيفتخر بأنه خاطبه بما خاطبه.

قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ ﴾: ذكر منته على عشقه داود بعد جريان حكم القدر في أمر الامتحان الذي أخرج من نفس العشق والمحبة العبد المحمود بثناء الحق عليه بقوله: ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾، وذلك أنه لما خلعه الحق كسوة الربوبية نظر إلى تلك الكسوة ولم ير منها لنفسه شيئًا علم أنها هي الحق ظهر منه للعالمين، فأحالها إليه بنعت رجوعه إليه فزعًا خاشعًا صابرًا شاكرًا مقرًّا بالعبودية، هذا وصف من ألبسه الحق لباس القدم، فرجع منه إليه بنعت التضرع والفزع؛ حيث قال: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[1]، فرَّ منه إليه بعد ذوق مباشرة الصفة قال: «**أنا العبد لا إله إلا الله**»[2]؛ لأنه كان عالمًا بخفيات مكر الأزل، ليس كمن سكر واغترَّ بسكره فقال أنا الحق؛ فإنه من أوائل قطرات جرعة أقداح أفراحه التي امتلأت من أشربة بحار الآزال والآباد، فوصف الله سليمان بهذا الوصف؛ لعلمه بمكره القديم.

قال بعضهم: العبودية هي الذبول عند موارد الربوبية، والخمود تحت صفات الألوهية.

وقال الأستاذ: كان أوّابًا إلى الله، رجّاعًا في جميع الأحوال في النعمة بالشكر، وفي المحنة بالصبر.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾: هذا من جملة امتحان

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢)، والترمذي (٥/ ٥٢٤).

(٢) ذكره المصنف في مشرب الأرواح.

الله سبحانه عبده سليمان في مقام المعرفة والمحبة، هو بجلاله وعزته ذوَّقه طعم عشقه ومحبته، ثم عرض نفسه بنعت ظهور حسن جمال تجليه؛ ليزيد عليه شوق جماله، فرأى ذلك الحسن والجمال قد ظهر من الصافنات الجياد، نشغلته تلك الرؤية عن حقائق الفردانية وتجرد الوحدانية من الوسائط، وغاب عنه شمس جمال القدم صرفًا، نأدرك نفسه خاليًا عن شهود عين العين؛ فغار على أحواله فقال: «ردوها عليَّ»، فلما قدس طرق الوحدانية بمكنسة الغيرة رجعت إليه أنوار الألوهية والفردانية بنعت الكشف وذهاب الحجاب، فلما مسح الصوافنّ شكرًا لإنعامه وغيرة على سلطانه سخَّر الله له الريح التي جناحاها بالمشرق والمغرب.

قال أبو سعيد القرشي: من غار لله وتحرك له فإن الله يشكر له ذلك، ألا ترى سليمان لما شغله الأفراس عن الصلاة حتى توارت الشمس بالحجاب قال: «ردوها عليَّ»، فطفق مسحًا بالسوق والأعناق، قيل: إنه كان عشرون ألف فرس منقش ذوات أجنحة أخرجته الشياطين من البحر فشكر الله له صنيعه، فسخرنا له الريح، وأبدله مركبًا أهنأ منها وأنعم.

وقال ابن عطاء: شكر الله صنيعه وأبدله فرسًا لا يحتاج إلى رائض ولا إلى علف ولا يبول ولا يروث.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾: هذه الفتنة أيضًا فتنة العشق، التي ظهرت له من محبته بنت الملك، وهكذا كل فتنة لو تراها بالحقيقة ما ولدت إلا من العشق، شغف في محبتها بحسنها وجمالها، فغار عليه الحق، وأسقطه من منازل الملك حتى غرَّبه في القفار والبوادي، وأنساه ذكرها غيرة عليه حتى لا يبقى في قلبه غيره، وأجلس مكانه في الملك صخرًا حتى أفسد في الأرض، فتلطف عليه الحق، وأرجعه إلى مكانه ومكانته، فسأل الحق تمكينه في الملك والمملكة، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾، سأل المغفرة فيما قصَّر في واجب المعرفة وحقيقتها التي يوجب انفراد القلب عن غير جمال الحق من العرش إلى الثرى، ثم سأل ملك تمكينه في ذلك المقام، وسأل ألا يحتجب بالملك عن المالك، ولا يجري عليه بعد ذلك الامتحان، ولا يسلط عليه جنود المكر والقهر؛ حتى لا يحتجب بنفسه عن نفسه، وقوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ ليس هذا من البخل هذا شفقة على المقصرين لو كانوا مبتلين بذلك الملك؛ ليكونوا محتجبين به عنه، وأيضًا يبلغ السالك في المعرفة والمحبة إلى ألا يطيق أن يرى غير نفسه مقام المشاهدة.

قال ابن عطاء: مكني من مخالفة نفسي حتى لا أوافقها بحال.

وقال بعضهم: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾: أي المعرفة بك حتى لا أرى معك غيرك ولا تشغلني كثرة عروض الدنيا عنك.

قال الجنيد: هب لي ملكًا ثم رجع ونظر فيما سأل فقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أن يسأل الملك؛ فإنه يشغل عن المالك[1].

وقال ابن عطاء: سأله ملك الدنيا؛ لينظر كيف صبره من الدنيا مع القدرة عليها.

وقال ابن دانيار: استغفر ثم سأل الملك أعلم بذلك أن الملك لا يخلو من الفتن ظاهرًا وباطنًا، فجعل أول سؤاله الاستغفار.

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ ﴾: كان ﷺ من فرط حبه جمال الحق يجب أن ينظر إلى صنائعه وممالكه ساعة فساعة من المشرق إلى المغرب؛ حتى يدرك عجائب ملكه وملكوته، فسخر الله له الريح الرخاء، وأجراها بمراده حيث أصاب، وهذا جزاء صبره في ترك حظوظ نفسه، وفي إشارة الحقيقة سهل له هبوب رياح الشوق والمحبة، فتسرى بروحه إلى قرب مولاه إذا قصد بسره إليه.

قال محمد بن الفضل: انظر إلى ما أوتي سليمان من الملك الريح التي لا حاصل لها، والشياطين الذين هم أعداؤه ليعلم أن الركون إلى الدنيا ركون إلى ما لا حاصل له ومجاورة الأعداء.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: فيه إشارة الحقائق أي: ما أعطيتك فهو مقام الاتحاد، وهو عطاء عظيم جعلتك خليفة لي، فامنن بمنتي على عبادي، أو أمسك عنهم بإمساكي، وهذا كما قال في إشارة عين الجمع إلى سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه بقوله: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وكما قال سبحانه في بعض الحديث: «فإذا أحببته كنتُ له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»[2]، بيّن لسليمان

---

(١) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مُهِمّ الدين على مُهِمّ الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم طلب المملكة بعده ، ثم دلت الآية أيضاً على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لافتتاح أبواب الخيرات في الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ، ثم توسل به إلى طلب المملكة. اللباب (١٣/ ٣٦٩).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٩)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (١/ ٩).

محل تمكينه في نيابة الحق في ملكه، وأعلمنا أن من لا يكون بوصف سليمان لم يجز له أن يدخل في سعة الدنيا وذكر المنة، وجوزه أن يمنَّ على عباده بنعمة الدنيا؛ إذ كان منته منة الحق صافيًا عن حظ نفسه، لكن ما أمره بمنة المعرفة على عباده، فليس في معرفة الله لأحدٍ على أحدٍ؛ فإنها فضلٌ منه على عباده بغير واسطة.

قال ابن عطاء: امنن على من أردت بعطائنا، وإنا لا نمنُّ عليك بذلك، ولا نمنُّ عليك إلا بالمعرفة والهداية، قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾: ذكر الله سبحانه رتبته ومحله في تمكينه، أعطاه ملك الدنيا مع ملك الآخرة من المعرفة والمحبة والنبوة بألا مضرة فيه عليه ولا في مقاماته وأحواله الشريفة، بل كان له مزيدًا في حاله ورفعة، وشرفًا في معرفته، وأخبر من حسن مآبه بأنه تعالى ستره بأنوار قربه حين آواه من قهره بلطفه ورجوعه إلى الحق بحسن التضرع والبكاء والخشوع والحياء في كل لحظة ولمحة.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا﴾: افهم يا حبيبي أنه تعالى بوجود جلال قدمه أبلى أهل محبته، ولا يوازي بلاؤه صبر أهل الحدثان، بل كان خارجًا عن صبر المخلوق والتصبر المكتسب، ورجع إلى الحق بلا صبر نفسه، وانخلع من حوله وقوته، وسأل أن يعطيه الله صبرًا يحتمل به بلاء القديم، فلما رآه الحق خارجًا من صبره ألبسه من صبره القديم كسوة، فاحتمل به بلاءه، فأثنى عليه الحق بعد اتصافه به وانخلاعه من دعوى الأنانية بعد الاتحاد به الذي لو ألقى ذرة على جميع قلوب العارفين يدَّعون دعوى الأنانية، فلما لم يؤثر فيه سكر الاتحاد والاتصاف وبقي متمكنًا في العبودية واستلذ بحلاوة مشاهدته من قهره كما استلذ بمشاهدته من لطفه، فقال: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾ أي: راجع من دعوى الأنانية إليَّ بنعت العبودية، ومن لم يحمل بلاءه إلا به كيف يحتمل بلاءه بنفسه.

قال ابن عطاء: واقفًا معنا بحسن الأدب لا يؤثر عليه درام النعم، ولا يزعجه تواتر البلاء والمحن؛ لمشاهدته المنعم والمبلي، ونعم العبد عبدٌ لا يشغله ما لنا عنا.

وقال أبو الحسين بن زرعان في هذه الآية: إنه يستلذ وجود البلاء مع الله، فاستزاد ابن البلاء، وذلك قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، ظهر على آثار العافية، فإن العيش في البلاء مع الله عيش الخواص، وعيش العافية مع الله عيش العوام، ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾؛ لفقدان عيش الخواص والرجوع إلى عيش العوام. قال الحسين: سهّل عليه البلاء.

قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ﴾: فمن كان في وجدانه كان فانيًا عن رؤية الأغيار.

قال جعفر بن محمد: لما أظهر الله البلاء بأيوب وكثر عليه الدود عقد لسانه عن الدعاء؛ لإنفاذ الحكم والمشيئة فيه، وتحكم له بالصبر، فلما دامت أحكام الصبر أورثه الرضا؛ لما وجد من حلاوة القرب مع الله، فأثنى عليه في الأولين والآخرين بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: أخلصناهم مما سوانا حتى خلصوا في محل التمكين في دار التفريد وعين التجريد وحق التوحيد ومشاهدة الجبروت والملكوت، دعوا المريدين إلى مقامات القربات والمداناة والمشاهدات والمكاشفات، وما

اعوجُّوا من حد الاستقامة إلى حد التلوين، وما احتجبوا بشيء عنه تعالى؛ فإنهم أولو القوة الألوهية والبصائر الربانية.

قال ابن عطاء: ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ لنا، وخصصناهم بنا ومعنا.

وقال: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ تلك الخالصة خلو سره عن ذكر الدارين وما فيهما حتى كان لنا خالصًا مخلصًا.

قال سهل: أخلصهم له دون ذكرهم له: وليس من ذكر الله بالله كمن ذكر الله بذكر الله.

قال أبو يعقوب السوسي: لما قال ﴿أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ صفت قلوبهم لذكره عند ذلك، ورقت أرواحهم له بإرادته، فهم في مكشوف ما تقدم لهم في الغيب سبقت لهم منه الحسنى، فصاروا بدرجة المخلصين، ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ ذكر العندية، وقرن بها الاصطفائية، وبيَّن أن اصطفائيتهم في العبودية أزلية قبل وجود الكون، فإذا كانت الاصطفائية أزلية يسقط عنها أسباب الحدثان، فصار شرفهم خاصًا وموهبة خالصة بلا علل؛ لذلك قال: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: بيَّن الله سبحانه ههنا تفضيل آدم على الملائكة المقربين؛ فالخطاب لأكابرهم؛ إذ كان روحه خلقت قبل أرواحهم؛ إذ روحه تكونت من ظهور تجلي الحق بجميع الذات والصفات كاملة بخلعة كسوة الربوبية التي ألبسها الحق حتى صارت مرآة يتجلى منها للعالمين، وبقيت في أول الأول في مشاهدة أنوار

الأزليات والأبديات، ولو كانت الملائكة بهذه المثابة لكانت معها في الكينونية من سنا برق تجلي الحق، وعرفتها بالأهلية، فإذا كانت الملائكة نازلة من درجاتها وصارت محجوبة عن رؤية ظهورها في العالم احتاجت إلى إعلام الحق بذلك، فلما علم الحق أنهم جهلوا حقائق وجود آدم لم يذكر ههنا ذكر روحه معهم، وقدم ذكر الصورة من قلة عرفانهم شرف روحه، وقال: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾[1]، مكر بهم حتى وقعوا في التشويش والنظر إلى أنفسهم بالخيرية حتى يظهر بعد ذلك كمال آدم، فإذا كانوا مخالفين في صورته بأول الخطاب كيف كانوا في قوله: ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾؟! وذلك من أعظم عجائب الربوبية، وفيه تفهيم تحقيق عبوديته؛ حتى لا يجري في قلوب الملائكة أنه بمعنى من الربوبية في وقت سجوده أي: إني خالق بشرًا من طين أي: من عجز وضعف أكسية أنوار جلالي وعظمتي، فإذا كمَّلته اتصف بصفاتي منورًا بنور ذاتي، ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أي: أحييه بحياتي وبروحي التي ظهرت من تجلي الجلال والجمال، ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾؛ إذ يكون قبلة أنوار عزتي وكبريائي ومواقع تجلي ذاتي وصفاتي، فلما رأته الملائكة بتلك الصفات سجدت له كلهم من حيث أراهم الحق آدم منورًا بنوره مصورًا بصورته إلا إبليس؛ لأنه كان من الكافرين المحجوبين؛ لطمس الحق إياه، وبأنه لم يكن مكتحلاً بكحل نور جمال الأزل، فلما لم يكن له أهلية لرؤية وقع في رؤية نفسه ورؤية خيريته حتى ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[2]، وقع في قياس النار والطين، ولم ير أنوار جمال الحق التي ظهرت من وجه آدم، وهكذا حال المدعين والسالوسيين والمرائين المداهنين في حق أوليائه، لا جرم كان مخاطبًا بالطرد والإبعاد إلى يوم الميعاد، حتى لا يذوق حلاوة برد الوصال، ولا يرى أنوار الجمال والجلال، ولا يدرك فضائل الأنبياء والأولياء إلى أبد الآباد، بل إذا يرى أثر سلطنة ولايتهم وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الماء، ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم؛ بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، سبل وسوسته تلحق بأهله لا بأهل الحق، وذلك قوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾: المتجردين في قصودهم نحو قدم الحق وبقائه الأبدي وجماله الأزلي عن الأكوان والحدثان، واحذر ألا

---

(١) فهو عين هذا النفس بفتح الفاء، فقبلته الصورة على حسب استعدادها، وقابليتها.

(٢) هذه أول معارضة ظهرت من إبليس في صنعة الجدال، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: يد تنـزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا.

يجري على خاطرك أن لإبليس قدرة بأهله، بل يغويهم بإغواء الحق إياهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ظاهره القسم، وباطنه الآلة والاستعانة بقهره، يا ليت الملعون أدرك الخطاب الثالث بعد الخطاب الأول والثاني؛ حيث قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، وحيث قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، ثم قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لم يعرف مفهوم الخطاب، وهو أن من كان له مباشرة أنوار يد الأزل ويد الأبد في ظاهره وروح تجلي جلال الذات في باطنه يكون مستحقًّا في جميع الأحوال لكرامات سنية وأحوال رفيعة وخدمة أهل الملكوت له وسجود الملائكة له؛ إذ كان مشرق أنوار جلال الأزلي وجمال الأبدي.

جئنا إلى مقالة المشايخ رحمة الله عليهم فيما قالوا في هذه الآية:

قال بعضهم في قوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: امتحنهم بالإعلام، وحثَّهم بذلك على طلب الاستفهام، فيزدادوا علمًا بعجائب قدرته، ويتلاشى عندهم نفوسهم.

قال بعضهم في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أي كاملاً، يستحق التعظيم بخصائص الاختصاص التي خص بها من خصوص الخلقة، ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾: أبديت عليه آثار شواهد عزتي، وروَّحت ستره بما يكون به العبيد روحانيين.

قال بعضهم: هو روح ملك، وهو الذي خصصه به، فأوجبت تلك الخصوصية سجود الملائكة له.

وقال بعضهم: وهو قول الفناء، جذبهم بشهود التعظيم، فلم يستجيزوا المخالفة، وحجب إبليس برؤية الفخر بنفسه عن التعظيم، ولو رأى تعظيم الحق لما استجاز الفخر عليه؛ لأن من استولى عليه الحق قهره.

قال جعفر في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: سخطي الذي لم يزل جاريًا عليك، وواصلاً إليك في أوقاتك المقدرة وأيامك الماضية.

قال بعضهم في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: الذي يكون سره بينه وبين ربه، بحيث لا يعلم ملك فيكتبه، ولا هوى فيميله، ولا عدو فيفسده.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: القرآن صفته الأزلية، يذكر للعالمين شمائل جماله وجلاله، ويظهر كنوز أسراره وأنوار ذاته وصفاته لمن له فهم عقل ومعرفة.

قال ابن عطاء: يطرد به عند الغفلة ليعتبر به المعتبرون.

وقال عبد العزيز المكي في قوله: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: لم يعلم المسكين بأي سهم رمى، وبأي سيف قتل، وبأي رمح طعن، وبأي نار أحرق، وفي أي جبٍّ ألقى، ولو علم ذلك لما قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، بل مات ترحًا وحزنًا، وتفتت كآبةً وغمًّا، ولكنه ستر عليه ما عومل به حتى لم يجد من ذلك ألمًا وما أحس منه وجعًا، فلم يبالِ بما قيل له حتى قال لقلة مبالاته: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝﴾، فاغترَّ المسكين بالمدة الطويلة، ولم يعلم أن ما هو آت قريب، ولا يزداد بطول المهلة إلا الذلة والتخيب، وما وقع ههنا نكتة؛ إنه كان في الأزل ذائقًا طعم بعض الوصال في عالم اللطفيات، ولم يكن مع الخبر من عالم القهريات شيئًا، فلما وصل إليه بطش قهر الجبروت استنظر حتى يخوض في بحار قهره، كما غاص في بحار لطفه؛ لكي لا يدركه في سعة رحمته؛ ليستوفى سريات القهريات كاستيفائه شربات اللطفيات، حتى يكون من كلا الجانبين على حظٍّ وافرٍ من علومه وربوبيته، وغلط المعلون؛ لو وافق الأمر لوجد معاني الصفات والذات والقهريات واللطفيات على صورة الأنس والراحة كالأنبياء والأولياء والملائكة المقربين.

سورة الزمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝﴾.

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: هذا تنـزيل الكتاب، وهو القرآن، وهو وصفه القديم، بدا منه بنعت التجلي، وأنـزل من عنده للأمر ولأحكام ظهوره بنعت الصفة للخصوص وبنعت النـزول للعموم، هو العزيز من حيث لا تفارق صفته عن ذاته، وهو الحكيم من حيث منع عباده التمتع بكشفه وإنـزاله رحمة للعموم والخصوص.

قال الأستاذ: كتابٌ عزيزٌ نـزل من ربٌّ عزيزٍ على عبدٍ عزيزٍ بلسان ملكٍ عزيز في شأن أمة، عزيز بأمر عزيز ورد الرسول عن الحبيب الأول بعد التلاقي بعد طول يزيل نـزهة قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها في كتب الأحباب عند قراءة فصولها والعجب منها، كيف لا نرهق سرورًا بوصلها وارتياحًا بحصولها!

قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾: أمر حبيبه ﷺ أن يعبده بنعت ألا يرى نفسه في عبوديته ولا الكون وأهله، ولا يتجاوز عن حد العبودية في مشاهدة الربوبية، فإذا سقط من العبد حظوظه من العرش إلى الثرى فقد سلك مسلك الدين، وهو طريق العبودية الخالصة عن رؤية الحدثان بنعت شهود الروح مشاهدة الرحمن، وذلك هو الدين الذي اختاره الحق لنفسه؛ حيث خلص عن غيره بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، والدين الخالص وجدان نور القدم بعد تلاشي الحدث في بوادي سنا العظمة والوحدانية، كأنه تعالى دعا عباده بنعت التنبيه إلى خلوص الأسرار عن الأغيار في إقبالهم إليه.

قال الواسطي: ذكر وعيده على اللطافات، فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وهو الذي يخلص فيه صاحبه من الشرك والبدعة والرياء والعجب ورؤية النفس.

وقال سهل: أخبر الله تعالى أن الذي له من الدين هو الذي يخلص من الرياء والشك والشبهات[١].

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾: نكتة الآية في الحقيقة بعد رسوم

---

(١) قال الأستاذ: الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لما صحَّ أنْ يكونَ في العَالَمِ مُخْلِصٌ. تفسير القشيري (٧ / ١٢).

العلم أن العبد العارف إذا تحقق في العبودية ووصل إلى رؤية أنوار الربوبية يصل إلى نور الانبساط وذوق الوجد والسكر في رؤية الجمال، فيطيب وقته، ويصير مملوءًا من نور الحق، فلا يرى إلا الحق بالحق، وينسى الحق دون الحق، فيدَّعي هناك الأنانية، فهدده الحق من ذلك، وقال: إن تخرجوا من عندي بدعوى الأنانية تكونوا محجوبين بالحال عن المحول، وهو منزَّهٌ عن أن يحول عليه حال مقدس عن المواصلة والمفارقة، ولا يرضى، ولا يستحسن لعبده الاحتجاب به عنه، لكن مكر به بمشيئته القديمة وإرادته السابقة؛ لأنهما سبقتا على الأمر، والأمر يتغير، والرضا لا يتبدل، وفي قوله: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ بيان أن الكفر أن نسيان وجوده في غلبة الوجد وذكر الواجد نفسه، ولا يرضى بذلك، بل يرضى أن يفنى نفس الواجد فيه تعالى، وهو باقٍ له لا هو، فإذا فني عنه شكر الله بفنائه في بقائه، وذلك قوله: ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ وفي الآية من الشطح أن الله سبحانه أعدم الكفر، وبيَّن أن ليس الكفر لأحد من العرش إلى الثرى، وكيف يكون الكفر! ولا يرضى الله الكفر لأحد، فخرج الكفر من البين بذلك؛ لأن الرضا نعته الأزلية، فإذا بقي الكفر في القدم لا يكون الكفر إلى الأبد ومنبع الرضا والسخط والإرادة والمشيئة ذاته القديم، وهذه الصفات والذات واحدةٌ من جميع الوجوه، وبيان ذلك أن حقيقة الكفر في كونه أن يكون العبد محيطًا بجميع ذاته وصفاته، ثم ينكره بحيث إنكاره يقارن إحاطته وكذلك الإيمان، وذلك مستحيلٌ، فإذًا لا يكون الكفر الحقيقي ولا الإسلام الحقيقي.

قال القاسم: لا يرضى لهم الكفر، ولكن يقدر عليهم، وليس الرضا من المشيئة والإرادة والقضاء في شيء.

وقال سهل: أول الشكر الطاعة، وآخره رؤية المنة.

قال عبد العزيز المكي: الكفران للنعمة هو أن يظن العبد أنه عرف وأدى شيئًا من شكر النعمة.

وقال ابن عطاء: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ أي: لا حاجة به إليكم، ولكن من كفر وأعرض عنه ممن خلقه لنفسه ولجواره لا يرضى له ذلك حتى يجذبه إليه بتوفيقه، ويربيه بفضله ويرضاه.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: إن وفقتم لشكر نعمتي أوجبت لكم به رضاي.

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ

إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾: وصف الله أهل الضعف من اليقين إذا مسه ألم امتحانه دعاه بغير معروفه، وإذا وصل إليه نعمته احتجب بالنعمة من المنعم، فبقي جاهلاً من كلا الطرفين، لا يكون صابرًا في البلاء ولا شاكرًا في النعماء، وذلك من جهله بربه، ولو أدركه بنعت المعرفة وحلاوة المحبة لبذل نفسه له حتى يفعل به ما يشاء.

قال الواسطي: الخلق مجبورٌ تحت قسمته، مقهورٌ في تحت خلقته وتقديره، ألا ترى إذا ضاقت القلوب واشتدت الأمور كيف تفرغ بالإخلاص إلى الملك الغفور!

وقال الحسين: من نسى الحق عند العوافي لم يُجب الله دعاءه عند المحن والاضطرار، لذلك قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة»[1].

قال النهرجوري: لا يكون نعمة من تحمل صاحبها على نسيان المنعم نعمة، بل هو إلى النقم أقرب.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ : وصف الله سبحانه أحوال أهل الوجود والكشوف والمستأنسين به الذين قنتوا في أجواف الليالي قائمين على أبواب الربوبية بنعت الفناء والخضوع حين عاينوا مشاهدة جلاله وجماله من وراء ستور الغيب وحجب الملكوت، فساعة دهشوا، وساعة ولهوا، وساعة بكوا عليه وبه، وساعة ضحكوا بما أولاهم الحق من نيل أنوار مشاهدته وفيض حلاوة وصلته ولذائذ خطابه ومناجاته وكشفه أسراره عندهم، فصرعوا، وبكوا، وزفروا، وصاحوا، إذا قاموا، قاموا بشرط رؤية جمال بقاء الحق، وإذا سجدوا سجدوا على شرط رؤية جلال قدمه؛ وعلموا من لطائف خطابه مكنون أسرار غيبه من العلوم الغريبة والأنباء العجيبة؛ لذلك وصفهم بالعلم الإلهي الذي استفادوا من قربه ووصاله وكشف جماله، بقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، كيف يستوي الشاهد والغائب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟!

قال ابن عطاء: الغائب الذي يجتهد في العبادة، ولا يرى ذلك من نفسه، ويرى فضل الله عليه في ذلك، فإذا رجع إلى نفسه في شيء من أفعاله فليس بغائب.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠٧)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣).

وقال سهل: العلم الاقتداء واتباع الكتاب والسنة.

وقال الجنيد: العلم أن تعرف قدر ربك ولا تعدو قدرك.

وقال ابن عطاء: العلم أربعةٌ: علم المعرفة، وعلم العبادة، وعلم العبودية، وعلم الخدمة.

وقال ذو النون: العلم علمان: مطلوب، وموجود.

وقال أبو يزيد: العلم علمان: علم بيان، وعلم برهان.

وقال رويم: العلم مطبوع ومصنوع.

وقال: المقامات كلها علم، والعلم حجاب.

وقال الشبلي: العلم خبر، والخبر جحود، وحقيقة العلم عندي بعد قول المشايخ رحمة الله عليهم الاتصاف بصفة الرحمن من حيث علمه حتى يعرف بالحق ما في الحق.

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: وصف الله القوم بأربع خلالٍ: بالإيمان، والتقوى، والإحسان، والصبر، فأما إيمانهم فهو المعرفة بذاته وصفاته من غير استدلال بالحدثان، بل عرفوا الله بالله، وتقواهم تجريدهم عن الكون وأنفسهم؛ خوفًا من الاحتجاب بها عنه، وإحسانهم إدراكهم رؤيته بقلوبهم وأرواحهم بنعت كشف جماله، وهذا الإحسان بمعنى العلم، ويكون بعد أن خلعوا شوائب الحدوثية عن طريق الربوبية، وصبرهم استقامتهم بمواظبة الأحوال وكتمان كشف الكلي، وحقيقة الصبر ألا يدعي الربوبية بعد الاتصاف بها، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: أرض القلوب ووسعها بوسع الحق، فإذا كان العارف بهذه الأوصاف فله أجران: أجر في الدنيا، وأجر في الآخرة، أجر الدنيا المواجيد البديهية والواردات الغريبة والفهوم بغرائب الخطاب والوقوف على مشاهدة الحق بعد كشفها، وأجر الآخرة غوصه في بحار الآزال والآباد والفناء في الذات والبقاء في الصفات.

قال حارث المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.

وقال طاهر المقدسي: الصبر على وجوه: صبر منه، وصبر له، وصبر عليه، وصبر فيه، وأهونه الصبر على أوامره، وهو الذي بيـَّن الله ثوابه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال يوسف بن الحسين: ليس بصابر من يتجرع المصيبة ويبدي فيها الكراهية، بل الصابر من يتلذذ بصبره حتى يبلغ به إلى مقام الرضا.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾: بيّن الله سبحانه مراتب حبيبه ﷺ في منازل التوحيد والعبودية هاهنا، فإذا لم يكن غيره في محل موازاة الأزل توجه إليه خطاب الحقيقة في أمر العبودية وعرفان الربوبية، فإخلاصه في العبودية خروجه من رسم الحدثان في مشاهدة الرحمن، وبيّن سبحانه في أمره إياه بقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: حين تظهر طوارق أنوار أزليته وسنا جلال أحديته هو أول من يقبل إليها بنعت قبول حقائقها ومعرفة إجلالها وجلالها بنعت الانقياد في معارك عساكر سلطانها، والفناء عن أوصاف الحدوثية في ملكوتها وجبروتها هذا شوق الإخلاص والإسلام من يشتري حلاوة وجه المحبوب ببذل وجوده من العرش إلى الثرى، فالكل مخاطبون بخطابه، فمن يرغب أن يفنى في هذه المقامات السنية حتى يبقى ببقاء الحق.

قال الجنيد: الإخلاص أصل كل عمل، وهو مربوطٌ بأوائل الأعمال، ومنوطٌ بأواخر الأعمال، ومضمرٌ في كل الأقوال، وهو إفراد الله بالعمل.

وقال أيضًا: أمر جميع الخلق بالعبادة والتعبد، وأمر النبي ﷺ بالإخلاص في العبادة، علم الحق تعالى أن أحدًا لا يطيق تمام مقام الإخلاص سواه، فخاطبه به.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى

ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾: أصل كل طاغوت النظر إلى النفس، وإلى ما سوى الله من العرش إلى الثرى في طريق إفراد القدم عن الحدوث على وجه الإقبال إلى شيء دونه، فالذين جانبوا الكل وأنابوا إلى أصل كل أصل بنعت الاستعانة به فلهم النظر إلى جماله، ولهم النظارة والبشارة في وجهه، والفرح بمشاهدة جماله، فهم مربوطون في الدنيا عند كل نفسٍ ببشارة منه، بأنهم يرونه على وفق مرادهم ومحبتهم، ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، أمر حبيبه ﷺ بأن يبشرهم بالرضوان الأكبر، ثم بيَّن استحقاق البشارة لهم بأي وجه يلحق بهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾[1]: يستمعون الحق من الحق من حيث الحق، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾: يتبعون كل الخطاب بالإيمان وعلى ما يوافق مراد الحق منهم بالعمل، فإذا الكل حسنٌ مباركٌ، فمن حيث رسوم الأمر أحسن ما يطيقون حمله من وارد الخطاب بنعت متابعته، وفي الحقيقة الأحسن ما لم يوافق طباع الحدثان، وذلك مثل آي المتشابه في عرفان الذات والصفات؛ فالأوامر والنواهي أحسن لهم، والأنباء من علوم الذات والصفات أحسن للحق، ولكن من حيث إن القول صفته؛ فالكل حسنٌ من حيث معاني الصفة، وأيضًا يتبعون أحسنه من الأعمال السنية والأخلاق الكريمة، وبيَّن أن هذه المتابعة منهم من هدايته لهم وتعريف نفسه إياهم، وأنه تعالى جعلهم الألباء المستعدين بقبول قوله وإدراك خطابه بالفهوم النورية والعقول الصافية والذكاء العجيب بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الدنيا، وأصلها الجهل، وفرعها المآكل والمشارب، زينتها التفاخر، وثمرتها المعاصي، وميراثها القسوة والعقوبة.

وقال الأستاذ: طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يجتنب الطاغوت من خالف هواه وعانق رضا مولاه.

قال أبو بكر بن طاهر في قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾: بشَّر الله تعالى من فتح سمعه لاستماع الأحسن من سماعه لا من سمعه على العادة والطبع؛ فإن المتحقق في السماع من يعرف حاله في وقت السماع، فيتبع الأحسن مما يسمع، ويدعِّي ما فيه شبهة واشتباه، وصفهم الله تعالى

---

(١) ولذلك قالوا: الصوفي: دمه هدر، وماله مباح؛ لأنه لا ينتصر لنفسه، بل يدفع بالتي هي أحسن السيئة، البحر المديد (٣/ ٣١٠).

بالهداية إليه والعلم به العقل فيما يسمع، بيَّن الشيخ أبو بكر بن طاهر -قدس الله روحه- أن المراد به سماع القول، وأن العارف العاشق بجمال الحق يلقى سمع الخاص في مقام المراقبة على بساط القرب، والحق سبحانه يتكلم بكل لسان من العرش إلى الثرى، فلحظة نطق على ألسنة الطيور في ألحانها، وساعة نطق في أصوات الخلائق المختلفة، وعلى ألسنة السماوات والأرضين والجبال وحركات الرياح والأشجار والمياه، وعلى ألسنة الملائكة والأرواح والنفوس، فبعض إلهام، وبعض إلمام، وبعض وحي، وبعض كلام، فالأحسن منها أن يتكلم معهم بكلامه العزيز الخاص الصفاتي الذاتي الخارج من الوسائط والوسائل، فذلك العارف العاشق يسمع الكل من روحه ونفسه وعقله وقلبه وعدوه والملك والأولياء والأنبياء وحركات الأكوان وأهلها، فيتبع جميع الخطابات من حيث إدراك حقائقها ما يوافق حاله وعلمه وعمله رسمًا، ويتبع الكلام الأزلي الذي هو أحسن الخطاب بالفهم العجيب والعلم الغريب والإدراك الصافي وانفراد الحق من المخلوق بالمحبة والشوق والعشق والمعرفة والتوحيد والإخلاص والعبودية والربوبية والحرية، فهذا فضل ورد بالبديهة من حيث ظهور الأنباء الغيبية والروح القدسية والإلهامات الربانية.

قيل: هذا فضيلةٌ لمحمد ﷺ على غيره أن الأحسن ما يأتي به، وإن كان الكل حسنًا، ولما وقعت له صحبة التمكين ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون، ظهرت عليه الأنوار في الأحوال، وكان معه أحسن الخطاب، وله السبق في جميع المقامات، ألا تراه ﷺ يقول: «نحنُ الآخرون السابقون يوم القيامة»[1]: يعني الآخرون وجودًا السابقون في الخطاب الأول في الفضل في محل القدس.

وقال الأستاذ: اللام في قوله القول للعموم يقتضي حسن القول، الاستماع يكون لكل شيء، والاتباع يكون للأحسن.

وقيل: للعبد دواع من باطنه هواجس النفس ووسواس الشيطان وخواطر الملك والخطاب الحق يلقى في الروع، فوسواس الشيطان يدعوه إلى المعاصي، وهواجس النفس تدعوه إلى ثبوت الأشياء منه بما له فيه نصيب، وخواطر الملك تدعو إلى الطاعات، وخطاب الحق في حقائق التوحيد.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٩٩)، ومسلم (٢/ ٥٨٥).

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾: بيَّن الله سبحانه تفضيل شرائف الصديقين من أهل مشاهدته المنورين بأنوار قدسه، أوجد أرواحهم في فضاء ديموميته وميادين أزليته، فأبدى لها نور جماله وجلاله، فهم منورون بنوره؛ حيث ألبسهم قموص سنا عظمته وبهاء كبريائه، فهذا معنى شرح صدورهم، وبعد نشر نور تجليه في أرواحهم وعقولهم حتى وقع فيها نور العبودية وما بدا من نور اليقين والعرفان والإيمان والإسلام، فأول شرح صدورهم بدو أنوار صفاته فيها، وآخر انفساخها ظهور سناء ذاته فيها، فهم على نور منه، وبذلك النور يلبسون؛ فيرون الحق بنور الحق، ويرون ما دون الحق من العرش إلى الثرى بنوره، ثم وبخ أضدادهم بقساوة القلوب وتباعد النيات، واحتجابهم عن نور ذكره، بعد أن قهرهم بخذلانه، وحرمهم من نور إسلامه وإيمانه، وهددهم بعقوبته بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾: قساوة قلوبهم من اتباعهم نفوسهم وإعراضهم عن قبول طاعة مولاهم، ثم بين أنهم في ضلال عن الوصال بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

قال بعضهم: شرح صدره لمعرفته فهو على نور من ربه فيشهد بذلك النور الغيوب ويكون حاضرًا بروحه وسره مراقبًا ببركات ذلك الشرح.

قال بعضهم: المعرفة تتولد من الشرح والتنوير، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ .

وقال جعفر الصادق: شرح صدور أوليائه؛ لأنها موضع خزانته، ومعدن إشارته، وبيت أمانته، ومفتاح البيت عنده، وحارسه الله، وهو في كنفه، لا يطالعه أحد سواه، كما قال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى صوركم»[1].

وقال الشبلي: أنارت بالشرح قلوبهم، وأنطقت بالحكمة ألسنتهم، وأكملوا بكمال الآداب ورياضة النفوس، فوصلوا بالولاية، وسقوا بكأس الصدق.

وقال النوري: استسلم سره بنور القربة، وذلك الشرح.

وقال بعضهم: فهو على نور من ربه، على يقين من مشاهدة ربه بالغيبوبة عن الملك والملكوت، فلم يبق عليه مقام إلا سلكه، ولا حال إلا استوفاه.

وقال الواسطي: منحة عظيمة، لا يحتملها أحد إلا المؤيدون بالعناية والرعاية، فإن العناية تصون الجوارح والأشباح، والرعاية تصون الحقائق والأرواح.

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٧)، وأحمد (٢/ ٢٨٤).

وقال بعضهم: عرف إليهم حتى عرفوه، وبَصَّرهم حتى أبصروه، وذلك حين شرح قلوبهم برؤية الصنع، وأعمى أبصارهم عن النظر إلى سواه، فبشرح الصدر عرفوه، وبالعمى عن غيره أبصروه.

وقال يحيى بن معاذ: قساوة القلب من اتباع الهوى.

وقال: عقوبة القلب الرين والقسوة.

وقال الحسين: قساوة القلب بالنعم أشد من قسوته بالنسيان والشدة؛ فإن بالنعمة يسكر، وبالشدة يذكر، وأنشد في معناه:

قد كنتُ في نعمةِ الهوى بَطِرًا ... فأدركتني عقوبةُ البطرِ

وقال: من هَمَّ بشيء مما أباحه العلم تلذذًا عُوقب بتضييع العمر وقسوة القلب وتعب الهم في الدنيا.

وقال الأستاذ: النوري الذي من قبله سبحانه نَوَّر اللوائح بنجوم العلم، ثم نَوَّر اللوامع ببيان الفهم، ثم نَوَّر المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نوَّر المكاشفة بتجلي الصفات، ثم نَوَّر المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد، وعند ذلك فلا وجد ولا قصد ولا قرب ولا بعد، كلا بل هو الله الواحد القهار.

وقال في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾: الصلبة قلوبهم التي لم يفتر عنها خواطر التعريف، فبقيت على مكاره الجحد، أولئك في الضلالة الباقية والجهالة الدائمة، نعم ما قال المشايخ في تفسير هذه الآية، ولكن حقيقة تفسيرها ما قال النبي ﷺ حين سُئل عن تفسير الشرح المذكور في القرآن فقال: «ذلك نور يقذف في القلب. فقيل: هل لذلك أمارة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[1]، قوله ﷺ بيَّن هذه الأقوال في الآية كالشمس بين الكواكب، بل نوره بين أنوار الأنبياء والأولياء والملائكة المقربين كنور الشمس بين أنوار الكواكب، إذا برز نور شمسه أدرج ضوء نورها ضوء الكواكب.

كما قيل: فلما استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره أنوار ملك الكواكب.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٤٦)، والطبري في تفسيره (٨/ ٢٧).

لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ : وصف الله سبحانه كلامه القديم حديثه الباقي الذي أحسن من كل حسن، إذ جميع الحسن منه بدا، وحسنه بأن يكون بحسن الأشياء، وأنه صفته الأزلية التي خارجة بنعوتها عن رسوم الأصوات وعلل الحروف ومصنوعات الكون، لا يشابهها كلام الخلق من فعله صدر، وكلامه تعالى من ذاته صدر، فكيف يكون مشابهًا لكلام الحدثان، ومعنى قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ أنه خبَّر عن كلية الذات والصفات التي منبعها أصل القدم، وصفاته كذاته وذاته كصفاته، وكل صفة كصفة أخرى من حيث التنزية والقدس والتقديس، والكلام بنفسه متشابه المعاني، وكل معنى يتكرر في موضع غير موضعه بلغة أخرى، ووضعها مذكورة بحروفها، والمتشابه في القرآن خاصٌّ، مذكورٌ مبينٌ لأهل الخصوص من أهل شهود وصفات الخاصة الأزلية الذين يشهدون الأرواح والأشباح في المراقد العبودية، يسمعون من الحق بأسماع القلوب، فإذا سمعوا خطاب الحق من الحق يستولى على أسرارهم أنوار التجلي، ثم تستولي من الأسرار على الأرواح، ثم تستولي من الأرواح على العقول، ثم من العقول على القلوب، ثم من القلوب على الصدور، ثم من الصدور على الجلود، فتقشعر منها جلودهم من حيث وقوف أسرارهم على مشاهدة العظمة بنعت الخشية والإجلال والعلم به، وإذا وصل نور الأنس بنور العظمة ونور الجمال بنور الجلال سهل على وجودهم سطوات الكبرياء، فتلين جلودهم وقلوبهم بنور البسط والأنس، فزاد شوقهم إلى سماع الكلام من العلاَّم؛ لهيانهم إلى رؤية جماله، ذلك قوله: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وخطابه سبحانه سراج يستضيء بنوره كل راشدٍ في المعرفة، مرشدٍ في التوحيد، راسخٍ في المحبة، قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾أي: من الأولياء والأصفياء والمقربين والمؤمنين الصادقين.

قيل في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ و ﴿تَلِينُ﴾ أي: تقشعرُّ بالخوف، وتلين بالرجاء.

وقيل: بالقبض والبسط.

وقيل: بالهيبة والأنس.

وقيل: بالتجلي والاستتار.

وقال الأستاذ: بالوعد والوعيد.

وقال النهرجوري: وصف الله بهذه الآية سماع المريدين وسماع العارفين.

وقال: سماع المريدين بإظهار الحال عليهم، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾: قرآنًا قديمًا ظهر من الحق على لسان حبيبه ﷺ، لا يتغير بتغير الأزمان، ولا ترهقه عبارات أهل الحدثان، يعوجه الحروف، ولا يحيط به الظروف، بل صفاته قائمة بالذات، تنتشر أنوار تجليه في ساحات الصدور، وعرصات القلوب، وصمائم الأرواح، وأماكن الأسرار، وأصداف الألسنة، وأوراق المصاحف، يخرج بوصف الحقيقة، فيلين منه الحق لأهل الحق.

سُئل مالك بن أنس عن هذه الآية قال: غير مخلوق.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: شبَّه الله المتشتتين هومهم المائلين إلى غير الله بالرجل الذي يملكه الشركاء المتشاكسون المتخالفون، وشبَّه المتفردين بنعت الإخلاص بالله ولله وفي الله بالرجل السالم لرجل الخالص له لا يملكه غيره بل عبدٌ قنٌّ له لا يدخل في صحة عبوديته خلل لأجل مدخل غيره، فالأول المحتجب بنفسه عن الحق، والثاني الشاهد بالحق على الحق، لا يحويه غبار العلل، ولا يدخل في قلبه قتام الخلل؛ إذ هو محفوظٌ برعايته القديمة وحراسته الأبدية، مثل هذا العبد لا يعرفه إلا عبدٌ مثله، ولذلك حمد الله نفسه حيث يجهله أكثر الخلق بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾، وحقيقة الحمد ههنا ظهور تقديس نفسه منه بألا يعرف حقيقة جلاله أحدٌ غيره، وهو منـزهٌ عن أن يكون ممدوحًا لألسنة الحدثان، بل حمد نفسه لعلمه بعجز الحامدين عن حمده.

قال ابن عطاء: ما لهم في حمد الله من الذخر والفخر.

قال جعفر: لا يعلمون أن أحدًا من عباده لم يبلغ الواجب في حمده، وما يستحق من الحمد على عباده بنعمته، وأن أحدًا لم يحمده حق حمده إلا حمده لنفسه.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾
۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى

لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: فرّق الله بين موت حبيبه ﷺ، وبين موت غير في مضمون الخطاب ومظنة الإشارة أي: إنك ميتٌ عند صعقات سطوات تجلي أزلياتي؛ حيث تفنى ضباب عصمتي عند ظهور أنوار كبريائي؛ حتى لا تحاسب عن وجودك في ظهور وجودي لك، فإن الحادث إذا قورن بالقديم زال الحادث وبقي القديم، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ بنـزع الأرواح منهم، وأيضًا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ منسلخ من العلل الإنسانية حي بالأنوار الربانية، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ عن رؤية شرفك وعن إدراك مقاماتك، إنك ميت عن غيرنا حي بنا، وإنهم ميتون عن الدنيا، فإذا كان يوم المعاد تظهر مقامات كل أحد، فيخص بعضهم بالانبساط، وبعضهم من الكمود على ما فات عنه من كرائم مواهبه السنية ولطائفه الكريمة.

قال ابن عطاء: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: غافل عما هم من الاشتغال بالدنيا، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ عما كوشفت به من حقائق التقريب والقرب.

وقال بعضهم: إنك ميت عن بشريتك باطلاع بركات الحق عليك.

وقيل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ عن رؤية الأكوان بما فيها بمشاهدة المكون[1].

وقال أبو العباس بن عطاء: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ عن شواهد ما استتر، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ عن شواهد ما أظهر.

﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ﴾: وصف الله كل صادقٍ يعرف مقامه وحاله بين يدي الله، فصدق بما أعطاه الله من الولاية والكرامات والمشاهدات والفراسات والخطابات والمكاشفات، ولا يجري على قلبه شكٌّ ولا ريبٌ مما نال من الحق، ولا يتردد في حاله، بل متمكنٌ مستقيمٌ، لا يضطرب عند طوارق الامتحان، وأيضًا وصف الحبيب صلوات الله وسلامه عليه والصديق الذي هو أول من قبل منه الرسالة ﷺ.

---

(١) إشارة إلى نعيه ﷺ ونعي المسلمين إليهم ليفرغوا بأجمعهم عن مأتمهم ولا تعزية في العادة بعد ثلاث ومن لم يتفرغ عن مأتم نفسه، فإذا فرغ قلبه عن حديث نفسه وعن الكونين بالكلية، فحينئذ يجد الخير من ربه وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم. حقي (١٢/ ٢٧٩).

قال ابن عطاء: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وأفاض من بركات أنوار صدقة على أبي بكر ﷺ، فَسُمِّي صديقًا، وكذلك بركات الأنبياء والأولياء.

قال الطمستاني: كل من استعمل الصدق بينه وبين الله شغله صدقه مع الله عن الفراغ إلى خلق الله.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾: فيه من العتاب نبذةٌ من الحق، عاتب عباده بلفظ الاستفهام أي: هل يجري على قلوبهم إن تركهم عن رعايتي وحفظي؟ كلا بل أنا أراعيهم وأحفظهم عن منازل الخطرة، يضربهم جريان امتحاني؛ لأني أحببتهم في أزل أزلي، فبقيت محبتي لهم إلى أبد الأبد، لا تسقطهم عن عيني، ومن يجترئ أن يقوم لمخاصمة من في نظري! وهذا مذهب كل متوكلٍ راضٍ عن ربه من حيث ما رأى من محافظته وخفايا ألطافه ما يطمئن به صدره عند كل مهالك.

قال أبو بكر بن طاهر: من لم يكف بربه بعد قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فهو في درجة الهالكين.

قال ابن عطاء: خلع حبل العبودية من عنقه من نظر بعد هذه الآية إلى أحد من الخلق، أو رجاهم، أو خافهم، أو طمع فيهم.

وقال الأستاذ: ﴿أَلَيْسَ﴾ استفهام، والمراد منه التقرير، و﴿ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ اليوم في عرفانه لتصحيح إيمانه ومنع الشرك عنه، وغدًا في إحسانه بإدخاله جنته وتأخير العذاب عنه وما بينهما، فكفايته تامة ولأمته عامة.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾: خلق الله الأرواح قبل الكون بين النور والسرور، وتجلى لها من حسنه وجماله، فارتاحت بروح ملكوته، واستبشرت بجمال جبروته، فلما أدخلها في الأجساد انقبضت من الاحتجاب بها عن تلك النسائم، فتشامت، واستنشقت نفحات معادنها في الأشباح، فيتلطف عليها الحق سبحانه، فيخرجها كل ليلة من الأشباح، ويطيرها في بساتين ملكوته، ويلبسها سربال نوره، حتى تجددت عليها لذائذ المحبات وحلاوات المشاهدات، وتزيد رغبتها في قرب مولاها وخدمته، فمن حان أجلها من خروجها من الدنيا إلى الحضرة يمسكها عند توفيها إما بالموت وإما بالنوم، ومن بقي لها بعض سيرها في عالم الامتحان يرسلها إلى محلها إلى وقت خروجها بالكلية إلى عند مولاها، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أرواحَ المؤمنين تصعدُ كُلَّ ليلةٍ إلَى تحتَ العرشِ، فمَنْ نامَ على طهارةٍ أُذِنَ لها بالسجود، ومن لم ينم على الطهارة لم يُؤذن»[1].

قال سهل: إن الله إذا توفى الأنفس أخرج الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيفي، فالذي يُتوفَّى في النوم من لطيف نفس الطبع، لا لطيف نفس الروح، والنائم يتنفس تنفسًا لطيفًا، وهو نفس الروح الذي إذا زال لم يكن للعبد حركة وكان ميتـًا.

وقال: حياة نفس الطبيعي بنور لطيفٍ، وحياة لطيف نفس الروح بذكر الله.

وقال أيضًا: الروح يقوم بلطيفة في ذاتها بغير نفسي الطبع، ألا ترى أن الله خاطب الكل في الذَّر بنفس وروح وفهم وعقل وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف؟!

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾: بيَّن أنه مرجع الكل الشافع والمشفع؛ حتى يرجع العبد العارف إليه بالكلية، ولا يلتفت إلى أحدٍ سواه.

قال الواسطي: قطع أطماع العباد عن أن يصل إليه أحدٌ إلا به بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾، و﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٣/ ١١٦) بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: صورة الآية وقعت على الجاحدين والمنكرين الذين ليس في سجيتهم إلا متابعة الأشكال والأمثال من حيث التشبيه والخيال؛ لأن قلوبهم خلقت على مشاكلة الأضداد والأنداد وقبولها، ولم يكن في قلوبهم سجية طباع أهل المعرفة بالله، فإذا سمعوا ذكر من لا يدخل في الخيال والمثال انقبضت قلوبهم وصدورهم، ونفرت عقولهم عن الاستقامة في الإقبال إلى الموجود الواحد بالوحدانية، القديم بالأزلية، الباقي بالأبدية، المنزَّه عن إدراك الخليقة، فإذا سمعوا ذكر غير الله من الصورة والأشباح سكنت نفوسهم إليها من غاية غباوتهم وكمال جهالتهم، وهم مثل الصبيان؛ إذ هم يفرحون بالأفراس الطينية والأسود الخشبية، ولا يطيقون أن ينظروا إلى عدو العاديات، وأن ينظروا إلى صوارم الباديات، ومعنى الآية يقع على ضعفاء المريدين الذين طابوا برؤية الالتباس في مقام المحبة، فإذا بدا بادٍ من أنوار سطوات عظمته جلَّ جلاله بقلوبهم فنيت قلوبهم، وطاشت عقولهم، واضمحلت أرواحهم، فإذا خرجوا من تلك البحار ورأوا أنوار الصفات في الآيات يستبشرون بقوة الوسائط في رؤية الصفات.

قال سهل: جحدت تلك القلوب مواهب الله عندها.

قال أبو عثمان: كل قلبٍ لا يعرف الله فإنه لا يأنس بذكره ولا يسكن إليه ولا يفرح به، ألا ترى قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾؟!

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾: هذه الآية خبرٌ من الله للذين فرحوا بما وجدوا في أوائل البدايات مما يغترُّ به المغترون، وقاموا به، وظنوا ألا مقام فوق مقامهم، فلما رأوا ما بخلاف ظنونهم لأهل معارفه وأحبائه وعشاقه من درجات المعرفة وحقائق التوحيد ولطائف المكاشفات وغرائب المشاهدات ماتوا حسرة، وأيضًا سكن قوم إلى الأنوار وظهور بدائع صنيع الحق، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها هو، وهم أهل الغلطات، فلما بدا لهم من الله جلال عزته وعزائم قدرته علموا أنهم ليسوا على شيء من معرفة الله، وظاهر الآية يتعلق بأهل الرياء والسمعة الذي يعجبون قبول الخلق واستحسانهم ظواهرهم من الزيِّ والعبادة، واغترُّوا بمراعاتهم، وظنوا أنهم على شيء عند الله من ذلك، فإذا بدا لهم من الله بيانًا يوم القيامة أنهم مشركون بالرياء والسمعة افتضحوا هنالك عند العارفين

والصديقين، وافهم أيها الناظر في هذا الكتاب أن لنا من العلوم المجهولة ذوقًا، وذلك الذوق لا يليق بفهم أهل الطيلسان والطرق، ومن ذلك أن الكفر والإيمان طريقان من القهر واللطف إلى عرفان وحدانيته، فبلغ المؤمن إليه بطريق الإيمان واللطف، ويبلغ الكافر إلى رؤية قهرياته بالحقيقة عند المعاينات، فإذا عرف أنه هالكٌ فيها واقتحم في ظلماتها يبدو له في أحايين من الله سبحانه كشوف جلاله وجماله وعلومه الأزلية وألطافه الأبدية ما يضمحل فيها نيران جميع جهلهم، وهو لا يحتسب ذلك منه، ومن أنت من العبد، والرب قوله صدقٌ، ووعده حقٌ، وإشارته حقيقةٌ، فأول الآية واضحةٌ، وآخر الآية إشارةٌ.

قال سهل في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم﴾: أثبتوا لأنفسهم أعمالاً، فاعتمدوها، فلما بلغوا إلى المشهد الأعلى رأوها هباءً منثورًا، فمن اعتمد الفضل نجا، ومن اعتمد أفعاله بدا له منها الهلاك.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾(١): شكا الله سبحانه عن المدعين الذين يقولون نحن أهله، فإذا وصل إليهم بلاؤه فزعوا إليه؛ ليرفع عنهم البلاء، ولا يفزعون إليه من وجدان ذوق رؤية المبلي في بلائه؛ ليستزيدوا منه الذوق، بل يطلبوا منه راحة أنفسهم، وهم مشركون في طريق المعرفة، وإذا وصل إليهم نعمة الظاهر تركوه، واحتجبوا بها، فإذا هم الحجاب من كلا الطرفين احتجبوا بالبلاء من المُبلي وبالنعمة من المنعم.

قال الجنيد: من يرى البلاء ضرًّا فليس بعارفٍ؛ فإن العارف من يرى الضر على نفسه رحمة، والضر على الحقيقة ما يصيب القلوب من القسوة والران، والنعمة هي إقبال القلوب على الله، ومن رأى النعمة على نفسه من حيث الاستحقاق فقد جحد النعمة.

(١) أي أعطيناه على عظمتنا متفضلين عليه محسنين القيام بأمره وجعلناه خليقاً بحاله جديراً بتدبيره على غير عمل عمله محققين لظنه الخير فينا وأحسنا تربيتنا له والقيام عليه مع ما فرط في حقنا (نعمة منا) ليس لأحد غيرنا فيها شائبة منّ ولولا عظمتنا ما كانت. نظم الدرر (٧/ ٢٦٥).

﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: بسط الحق في هذه الآية بساط عطايا، وفجَّر أبحر كراماته لعطاش الرحمة، ورفع سجوف الغيرة عن أطباق الأسرار أي: إيش بكم عبادي، مني تخافون، ومن رحمتي تقنطون، لا تخافوا، ولا تحزنوا؛ فإني أحببتكم في الأزل، وحكمت بإجراء الذنوب عليكم، وأنا عالم في الأزل بذنوبكم قبل وجودكم، ولو كنت غضبان عليكم بذنوبكم ما أحببتكم، في الأزل أجريتها عليكم؛ لافتقاركم إليَّ؛ وعجزكم بين يديَّ، كيف يقدح ذنوب الأولين والآخرين على بحار رحمتي الواسعة، وجميع الحدثان أقل من قطرة في بحار رحمتي! فأنا فتحت خزائن جودي يدخل عصيان جميع خلائقي في حاشية من حواشيها، وهذه الآية من أعظم توجيه العباد جميعًا، يُسلِّي الله بها قلوب الخائفين الذين يحتشمون من دقائقه، فيقول: لا بأس بكم؛ فإني أغفر الصغائر والكبائر والأسرار والضمائر، أطهركم عن الجميع، وألبسكم أنوار رحمتي حتى تبقوا معي أبدًا، وتنظروا إلى وجهي الكريم بلا حساب ولا عتاب ولا حجاب ولا عذاب.

قال سهل: أمهل عباده تفضلاً منه على آخر نفس، فقال لهم: لا تقنطوا من رحمتي، ولو رجعتم إلى بابي إلى آخر نفس لقبلتكم.

قال الجريري: أمر الله عباده ألا يعتمدوا أعمالهم، ولا يقنطوا من التقصير فيها؛ فإن الرعاية والعناية سبقت بالعبادة، ألا تراه يقول: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: في كتاب الله كنوزٌ موجبةٌ للعفو عن جميع المؤمنين، منها قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: ارجعوا بنعت التفريد عن غيره، إليه خاشعين، متضرعين مشتاقين إلى جماله، مستحيين منه مما مضى في سالف الدهور عنكم بغير أنفاس مراقبة هلال جماله، نادمين من ذلك، وانقادوا له كالعاشق الواله المشغف الشائق المتضرع بين يدي معشوقه احتياجًا منه إليه حين تدركونه بوصف الجلال والجمال

والعز والبقاء.

قال سهل: ارجعوا إليه بالدعاء والتضرع والمسألة.

وقال في قوله: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُۥ﴾: فوِّضوا الأمور إليه.

قال محمد بن علي: اعتذروا إليه مما سلف عنكم من التقصير، وأخلصوا على دوام الموافقة بعده.

وقال محمد بن حنيف: همة المنيب حنين القلب إلى أوقاته العامرة وعبادته الكاملة.

قال الحسين: الإنابة جاءت من قبل المعرفة، وأحسن الخلق إنابة إلى الله ورجوعًا إليه أحسنهم به معرفة.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: بيّن الله سبحانه أن من لم يرجع إليه بنعت الشوق والمحبة واشتغل بحظوظ نفسه ووافق طبعه أيام الفترة تأسف على ذلك، وعلى ما قصر في فناء نفسه لله وفي الله في وقت كسوف الأعظم، وأيضًا أي: اطلبوا الحق بالحق؛ حتى تعرفوا أنكم لا تعرفونه بالحقيقة، وانظروا إليه بعينه؛ لتعلموا أن الحادث لا يدرك القديم، ولا تغتروا بصفاء أوقاتكم وطيب مواجيدكم؛ فإنه أعزُّ وأعظم من أن يكون لأحد من أهل الحدثان، إنما هو لنفسه لا للغير، ولا لأحد إليه سبيلٌ لدرك حقائق نعوته الأزلية، فإن لم تكونوا كذلك كثيرًا تقولون وقت كشف جماله وجلاله: ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ مما ترون من عزة كبريائه التي تقدست من أن يلحقه أحدٌ بنعت المعرفة الحقيقية.

قال سهل: من ترك المراعاة لحق الله وملازمة خدمته اشتغل بعاجل الدنيا ولذة الهوى ومتابعة النفس، وضيع في جنب الله أي: في ذاته من القصد إليه والاعتماد عليه.

وقال فارس: يقول الله من هرب مني أحرقته أي: من هرب مني إلى نفسه أحرقته بالتأسف على فوتي إذا شاهد غدًا مقامات أرباب معارفي، يدل عليه قوله: ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وهذا لا يقوله إلا محترقٌ.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: انقطعوا عن الكل بالكلية، فما يرجع إلينا بالحقيقة أحدٌ، وللغير إليه أثرٌ، وللأكوان على سرِّه خطرٌ، ومن كان لنا كان حرًّا مما سوانا.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: يُنجِّي الله الذين تقدس أسرارهم من الالتفات إلى الحدثان في محبة الرحمن عن الحجاب والحرمان يوم الكشف والعيان، ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾(1): بما كان لهم في الله في أزل أزله من محبتهم وقبولهم بمعرفته وحسن وصاله ودوام شهود جماله، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لا يلحق بهم في منازل الامتحان تفرقة عن مقام الوصلة وحجابًا عن جمال المشاهدة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوت المراد في المعاد.

قال الواسطي: ينجيهم بما سبق لهم من الفوز، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾: زوال النعمة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على الفوات.

وقال القاسم: بسعادتهم السابقة وقضيته فيهم الماضية لهم وعليهم، لا بنفوسهم المتعبة في العبادات.

وعن عليِّ بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد قال: بسعادتهم القديمة صدق أكابر القوم في هذه الآية بأن نجاة الصديقين بالسعادة الكبرى مما يحل يوم القيامة على أهل الدعوى الذين ما شموا رائحة المقامات، وما سلكوا مسالك المجاهدات، وما أدركوا من لوائح أنوار المشاهدات ذرة، فيفتضحون يوم القيامة عند وجوه الصادقين، بقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، بل هم يفتضحون في الدنيا عند أهل معرفة الله.

قال يوسف بن الحسين: أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة من ادَّعى في الله ما لم يكن له بذلك، وأظهر من أحواله ما هو خالٍ عنها، قال الله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

---

(١) بفوزهم، مصدر ميمي، يقال: فاز بالمطلوب: ظفر به، والباء متعلقة بمحذوف، حال من الموصول، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب، أي: ينجيهم الله من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم أو: بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة في الدنيا، ولذا قرأ ابن عباس: (بمفازتهم بالأعمال الحسنة) البحر المديد (٥/ ٣٣٧).

وقال النوري في هذه الآية: هم الذين ادَّعوا محبة الله، ولم يكونوا فيها صادقين.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: افهم يا مبارك سر هذه الآية؛ فإن الله سبحانه أخبر فيها من سر نفسه كان في أزل الأزل بحار الألوهية متلاطمة قهارة زاخرة، ولم يكن لمكان قهره مقهور ولعزته ذليل، فغلب عزُّه قهره وجلال سلطانه ونور مشيئته وإرادته، فأوجد الكون، فجاء الكون من العدم مقهورًا ذليلاً لقهره وعزته قهر المخلوقات؛ إذ لم يكن في القدم مكان القهر والمقهورية، فإذا تصاغر الأكوان في قدم الرحمن وسطوات كبريائه، وكادت تضمحل أمسكها بلطفه من قهره، وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وقال الحسين: كل شيء أراد الله به الإهانة والتذليل ألبسه لباس المخلوقية؛ ألا ترى كيف نـزَّه عن ذلك صفاته وكلامه؟! قال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، المخلوقات ليس لها عزٌّ إلا بالنسبة إلى خالقها، وأنها مخلوقةٌ، فبنسبته إليها أعزها.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مقاليده قدرته القديمة، وإرادته الأزلية، أبواب الأكوان متعلقة بأفعال المشيئة، في خزائنها أنوار القدوسية، وعرائس المشاهدة في حجال الأفعالية، فإذا أراد للعبد العارف السعادة الكبرى يفتح أبوابها بمقاليده حتى يبرز منه لأبصار عشاقه أنوار جماله، فيعيشون بلذة مشاهدته، ويطيبون في لذة المواجيد، ويفرحون بما يجدون من نضارة وجهه الكريم، ويطيرون في سنا قربه وهواء هويته بأجنحة المحبة والمعرفة والمودة.

قال سهل: بيده مفاتيح القلوب، يوفِّق من يشاء لطاعته وخدمته بالإخلاص، ويصرف من يشاء عن بابه.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾: إن الله سبحانه حثَّ حبيبه عليه الصلاة والسلام على تعيير الغالطين والمقبلين إلى الدنيا بأنهم جاهلون حق الله وحق عبوديته؛ إذ لا يقع للحدثان عبودية، بل لا يستحق للعبودية إلا الرحمن القديم أي: كيف أعبد غير الحق، وأنا أعرف عجز الحدثان، وكيف أنصرف من الخالق إلى المخلوق، وأنوار سلطان قهره محيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى أي: أنا محفوظ مصون بصون الأزلية

وعناية الأبدية عن أن يجري على قلبي الشرك في ربوبية خالقي.

قال أبو عثمان: عبادة الله على الإخلاص تنفي عن صاحبه الجهل والريب والشبهة.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: هذا من أوائل أحوال النبي ﷺ حين دخل فرسان أسراره في ميادين الآزال والآباد، ورأى جبروتًا في جبروتٍ وملكوتًا في ملكوت وعزًّا في عزٍّ وبحرًا في بحرٍ وسلطانًا في كبرياء وكبرياء في عظمة، فما رأى للقديم الأزلي أهلاً من الحدثان، وما رأى أثرًا من نفسه في جناب الربوبية، فكاد يخطر بقلبه أنه معطلٌ، قال الله: كلا ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾: يعني الرسالة والنبوة والأنباء العجيبة، ولا شك في حالك؛ فإنك مكرَّمٌ بسابق عنايتي واصطفائيتي الأزلية، ولك إخوان حَلَّ بهم ما حَلَّ بك من الأحوال السنية وغرائبات أنوار العزة، انظر إلى ما وهبت لك من تلك الكرامات، ولا تنظر إليها مني؛ فإن الالتفات إلى المقامات في المكاشفات والمشاهدات شركٌ، وإذا وقفت عني على حظك مني لتحبطن أحوالك؛ فإن الكلَّ قائمٌ بي.

قال أبو العباس بن عطاء: أي: لئن طالعت بسرِّك إلى غيري لتُحرمنَّ من حظك من قربي.

وقال ابن عطاء: هذا شرك الملاحظة والتفاتٌ إلى غيره.

وقال جعفر: لئن نظرت إلى سواه لتحرمن في الآخرة لقاءه، ثم أكَّد إلا وعليه الحق سبحانه في إفراده عن غيره وإقباله إليه بنعت ترك ما سواه.

قال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: كن خالصـًا لله لا لغيره فيك نصيب، وكن شاكرًا له بنعت ألا ترى صنيعك في البين شيئًا، وأظهر عجزك في معرفة المشكور؛ فإنه الشكر لا غير، واسكن عن الشوق إلى إدراك كل القدم؛ فإنه لا يدخل تحت إدراك الحوادث، وهو أجلُّ عن أن تدركه بنعته بمعنى الإحاطة، وخذْ ما آتيتك، وكن من الشاكرين؛ فإن الخلق لا يصلون إلى كنه الأزليات والأبديات، وذلك قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: كيف يقدرون حق قدره ونعوته الأزلية جلت من أن تحويها الحوادث، وتحيط بها الأماكن، وتدركها الأبصار، وتفطنها الأفهام والأفكار، والأرواح محترقة في أول بوادئ

أنوار قدرته، والعقول فانية في لمعان بديع صنائعه، والقلوب مضمحلة في لزوم واردات تقلب قضائه وقدرة؟! علم سبحانه عجز الخليقة عن وصف جلاله وإدراك كماله؛ فإنهم لا يحتملون ذرة من أنوار ذاته وصفاته عند ظهور كشفها بنعت غلبة قهره على الأكوان والحدثان، فأجمل القول بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ حيث وصفوه بنعت الأنداد والأضداد، ثم فَصَّل من بطون الأفعال ولوائح أنوار بعض الصفات، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾: لو وصف حقيقة نفسه بغير ذكر الأكوان والأفعال لغابوا في مهمة الأوهام، وما تخلصوا أبدًا من تراكم الأفكار في طلب الأسرار، بل أحالهم إلى رؤية الفعل المحيط به صفاته أي: كيف تدركون من كان قهره وعظمته في مباشرة فناء العالم هكذا من حيث عقولكم، وأن السماوات والأرضين أقل من كرة في ميادين قهر صفاته؟! وعندكم أن العظيم لو يكون من يقلع جبيلة من الجبال، فذكر فعله على حد عقولهم، فلما علم ترددهم في مماثلته أفعاله ووقوع عقلهم في أودية الإشكال ومخائيل الأبعاض نـزَّه نفسه عن ذلك في آخر الآية، كما نـزَّه نفسه في أولها، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: تقدَّس عن أن يقيسه المتقايسون أو يشير إليه المشيرون، أول الآية ذكر قدم القدم لأهل الفناء في التوحيد الذاتي، وأوسط الآية ذكر ظهور جلاله وجماله بنعت الالتباس في آياته الأفعال للعاشقين، وآخر الآية ذكر حقيقة السر الصفاتي بنعت التقديس والتنـزيه، ووصف إفراد قدمه عن الحدوث، فرؤية الذات لأهل الفناء، ورؤية الصفات لأهل البقاء، ورؤية الجمال والجلال في الأفعال لأهل العشق، وكلهم معزولون عن ساحة الكبرياء بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾(١): ما عرفوه حقَّ معرفته في الأصل ولا في الفرع.

وقال الحسين: كيف يعرف قدره من لا يقدر قدره سواه.

---

(١) القدر بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا بما لا يليق بشأنه العظيم ويقال قدر الشيء قدره من التقدير كما في المختار. فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته، وقال الراغب في المفردات ما عرفوا كنهه.

يقول الفقير: هذا ليس في محله فإن الله تعالى وإن كان لا يعرف حق المعرفة بحسب كنهه؛ ولكن تتعلق به تلك المعرفة بحسبنا فالمعنى ههنا ما عرفوا الله حق معرفته بحسبهم لا بحسب الله إذ لو عرفوه بحسبهم ما أضافوا إليه الشريك ونحوه فافهم. تفسير حقي (١٢/ ٣٢٥).

قال الواسطي: لو طالعوا حق حقه في محبتهم لعلموا العجز عن ذلك بالكلية، فلم يعرف قدره من ادَّعى لنفسه معه مقاماً، قال الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾.

سئل الجنيد عن قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾: متى كانت منشورة حتى صارت مطوية؟! سبحانه! نفى عن نفسه ما يقع على العقول من طيِّها ونشرها؛ إذ كل الكون كخردلة أو كجناح بعوضة أو أقل منها، كذلك قال في قوله: ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾: كيف لا يستحيل قيامه على هذا الكون الذي لا يزن ذرة عنده، بل قيامه بنفسه لنفسه؟!

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أول النفخ والصعقة ترشح أنوار قهر العظمة على الأكوان والأماكن والأزمان والهياكل والأمثال والصور والأشكال والأرواح القدسية الملكوتية في أكناف لطافة قائمة بوجوده، لا يقع عليها تلوين الصفات والفزع والعقوبات، وثاني النفخ والصعقة ظهور أنوار جماله في أنوار جلاله، فمن ذلك تحيا الأنفس، وتقوم الأشباح بنور الأرواح، ينظرون إلى سرادق الكبرياء وساحة العظمة والبقاء، ينتظرون وقوع نور الكشف بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، يتجلى الحق سبحانه أرض أرواح العارفين والأنبياء والمرسلين، وأرض قلوب الصديقين والمقربين، ويظهر نور جماله لأبصار الوالهين العاشقين، ثم يستضيء بأنوارها أرض المحشر للعموم والخصوص، تعالت صفاته من أن يقع على الأماكن، أو أن يكون محلاً للحدثان، يا عاقل لا يكون ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهي مستغرقة في أنوار إشراق آزاله وآباده.

قال سهل: قلوب المؤمنين يوم القيامة تشرق بتوحيد سيدهم والاقتداء بسنة نبيهم ﷺ.

قال القاسم: أشرقت الأرض بأولياء الله؛ فهم فيها أنوار الله ومواضع حججه وغياث عباده وملجأ خلقه.

وقال جعفر في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أهل الاستثناء محمد ﷺ وأهل بيته وأهل المعرفة.

قال بعضهم: هم أهل التمكين والاستقامة الذين استقاموا لله على بساط العبودية،

فمكّن الله أسرارهم لحمل الموارد.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾: في هذه الآية سرٌّ لطيفٌ، ذكر الله سبحانه وصف غبطة الملائكة على منازل الأولياء والصديقين، وذلك قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: أنتم في مشاهدة جماله أبدًا طيبون بلذة وصاله، سالمون عن الحجاب أبدًا، وأيضًا هذا سلام الله ولكن بالواسطة، والسلام الخاص بعد دخولهم في الحضرة بقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

قال ابن عطاء: السلام في الجنة من وجوهٍ: منهم من يسلم عليهم خزنة الجنة، ومنهم من يسلم عليهم الملائكة، ومنهم من يسلم عليهم الحق لقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾: هذا حمدٌ بعد الوصول، وثناءٌ عليه بعد مشاهدة وصاله من فرح وجدان مواعده الجليلة ومواهبه السنية، حمدوه بعدما وجدوه بألسنة ربانية ملتبسة بنور مدحه، استعاروا لسان المدح من الحق، فأثنوا به على الحق، وإلا كيف يحمدونه بألسنة حدثية معلولة قاصرة عاجزة؟!

قال ابن عطاء: إن العبيد إذا شاهدوا في المشهد الأعلى آثار الفضل وما أنعم عليهم من فنون النعم التي لم تكن يبلغونها بأعمالهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بفضله من غير استحقاقٍ منا لذلك، بل فضلاً وجودًا وكرمًا.

وقال جعفر الصادق: هو حمد العارفين الذين استقروا في دار القرار مع الله، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾: حمد الواصلين.

وقال أيضًا: نظروا في الدنيا من الله إلى الله، وإلى موعوده واثقين في الله، ساكنين إلى ما أعدَّ الله لهم.

قال سهل: منهم من حمد الله على تصديق وعده، ومنهم من حمده لأنه يستوجب الحمد في كل الأحوال لما عرف من نعمه وما لا يعرفه.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: هذا خطابٌ مع النبي ﷺ حين كان يمر على الصفائح الأعلى فوق الملكوت رأى حراس المملكة طائفين حول العرش بالتحميد والتسبيح والتمجيد والتقديس، يحمدون الله على إنجاز وعده لأهل محبته وشوقه، وبما لحق بهم من بركات العاشقين عند شروق أنوار المشاهدة وعند إقرار المتحققين من المدعين، فلما وصل الكل إليه يحمدونه بحمده إذ هم يحتاجون إلى حمده، وهو محمود بحمده القديم، لا يختلط حمده بحمد الحامدين، وذلك قوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

وقال أبو علي الجوزجاني: ما تقرَّب أحدٌ إليه إلا بالافتقار والعبودية والتذلل والتنزيه له من كل ما نسب إليه مما لا يليق به؛ ألا ترى إلى مواضع الملائكة يحفُّون بالعرش يسبحون؟! وذلك عبادتهم وتنزيههم.

سورة غافر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ «الحاء» عين جنات الأزل، و«الميم» مناهل المحبة الخاصة الصفاتية الأبدية، ومن خصه الله بقربه سقاه من عين حياته حتى يكون حيًا بحياته لا يجري عليه بعد ذلك طوارق الفناء؛ لأن الحق إذا تجلى من حياته التي هي صفته الأزلية لروح قدسي يخرجها من ضرر الفناء والموت؛ لأنه هو محل الاتصاف بصفته، وصفاته ممتنعة من تغاير الحدثان، قال تعالى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ثم سقاه من منهل محبته فيصير سكران شوقه وعشقه والهًا بجمال وجهه، لا يمنعه من ذلك الأكوان بأسرها، فمن حيث الحياة يحيي العالم بأنفاسه الربانية مثل عيسى ﷺ، ومن حيث المحبة يطيب بجماله قلوب الخلائق أجمعين حتى يشتاقوا من النظر إليه إلى جمال الحق مثل محمد ﷺ، ثم ينطق من جاء الحياة بعبارات الحكمة، ومن ميم المحبة من إشارات العلوم المجهولة التي لا يعرفها إلا الواردون على مناهل القدم والبقاء، ومعنى قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: هذان الحرفان اللذان هما مطيتان أحمالها مظنات هذه المعاني المنـزلة من عند الله الحي القيوم الملك المهيمن العزيز المتكبر العليم الحكيم إلى الحبيب المحب الذي هو وسيلة الحق من الحق إلى الحق، والسفير منه إلى عباده وأحبائه ومشتاقيه أي: من الله الذي ألوهيته عزيزة ممتنعة عن مطالعة الخليقة الغالبة على كل ذرة من العرش إلى الثرى، عالم ببطون

الغيوب ومضمرات القلوب وحركات الأرواح وعلل الأشباح، يعز العارفين بعزته، ويشوق المحبين إلى جمال مشاهدته بمحبته الأزلية التي سبقت في الأزل لأهل خالصته، أنـزل هذا التنـزيل إلى سيد المرسلين، وإمام العالمين ليبشر بنـزوله أهل نـزل مواهبه السنية، ومعارفه المقدسة، وليفرح فؤاد المهتمين على ما جرى عليهم خطرات الامتحان، وهواجس النفس، والشيطان بقوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ يستر ذنوب المذنبين بحيث يرفع عن أبصارهم حتى ينسوها ويقبل عذرهم حين افتقروا إليه بنعت الاعتذار بين يدي ربه.

﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لا يرجع إلى المآب بأن عذبه بذل الحجاب.

﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ لمن أفنى نفسه لنفسه، وطوله طول كشف جماله في أوقات الواردات والمواجيد، من خصه بالقرب والجمال، ثم وصف نفسه بالتنـزيه والتقديس، ونفى الأنداد والأضداد في ربوبيته وغفران عباده، وتعذيب عصاته بقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾ إليه يرجع كل مشتاق، وكل عارف محب عاشق، يقبل منهم عذرهم في تقصيرهم في العبودية، وقلة عرفانهم حقوق الربوبية، هو مصدر الكل، ومصير الكل مصادر القدم ومعادنهم، لا العدم، فإن العدم لا شيء في شيء، وهو موجد الأشياء بلا علل ولا حيل، ثم من غيرته يعدم الكل حتى لا يبقى في ساحة الكبرياء أهل الفناء، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨].

قال سهل في قوله: ﴿حم﴾: الحي الملك، وفي قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: هو الذي أنـزل عليك الكتاب، وهو الله الذي ولهت به قلوب العارفين، والعزيز من درك الخلق العليم بما أنشأ وقدر، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: أي: ساتره على من يشاء، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: أي: ممن تاب إليه، وأخلص العمل بالعلم له، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾: ذي الغنى من الكل.

قال بعضهم: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: كرمًا، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: فضلاً، ﴿شَدِيد ٱلْعِقَابِ﴾: عدلاً، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: فردًا، ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: تصديقًا للوعد.

قال بعضهم: غافرًا لذنب المذنبين، وقابلاً توبة الراجعين، شديد العقاب على المخالفين، ذي الطول على العارفين.

قال الأستاذ: غافر الذنب لمن أصر وأجرم، وقابل التوب لمن أقر وندم، وشديد العقاب لمن جحد وعند، وذي الطول لمن عرف ووحد.

قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي: ما يخاصم في هذه الإشارات التي رمز الحق فيها من غوامض علومه الإلهية إلا أهل التقليد من المنكرين.

قال سهل: هو المجادلة في الذات دون الفروع.

وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ابتدعوا غير الحق.

قال الخواص: ما كانت زندقة، ولا كفرًا، ولا بدعةً، ولا جرأةً في الدين، إلا من قبل الكلام، والجدال، والمراء، والعجب، وكيف يجترئ الرجل على الجدال والمراء، والله يقول: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ وصف الله عراف ملائكته الذين ألبسهم الله قوة جبروته، ونور ملكوته، وهم اللاهوتيون يحملون كنز الأعظم بعظمة الله وقوته، والسكر من شراب قربه ومحبته، وفيض مشاهدته، يطيرون في هواء هويته بالأجنحة القدوسية، والرفارف السبوحية، مع مرآة الوجود، وكنوز الجود حيث يشاء الحق سبحانه من الأماكن والمشاهد، يسبحون مما يجدون منه القدس والتنزيه، حمدًا لأفضاله، وبأنه منزه عن النظير والشبيه، يؤمنون به في كل لحظة بما يرون منه من كشوف صفات الأزليات، وأنوار حقائق الذات التي تطمس في كل لمحة مسالك رسوم العقليات، وهم يقرون كل لحظة بجهلهم عن معرفة وجوده.

ثم بيَّن أنهم أهل الرقة والرحمة والشفقة على أوليائه؛ لأنهم إخوانهم في نسب المعرفة والمحبة، يستغفرون لهم حين أقروا كلهم بأنه تعالى لا يدركه غوص الأوهام، ولا يحويه بطون الأفهام، سألوا غفرانهم لما جرى على قلوبهم من أنهم على شيء في معرفته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أوجدت الوجود برحمتك القديمة، وعلمك الأزلي حتى لا يخلو ذرة من العرش إلى الثرى من رحمتك وعلمك، وجعلت الكل مرآة لنفسك، تجليت منها لأهل الخضوع من العارفين تظهر أنوار جمالك منها لأهل رحمتك، وهم أهل المحبة والعشق والشوق، وتبرز منها بنعت الجلال والألوهية والقدم والبقاء لأهل المعرفة والتوحيد.

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ أي: اغفر للذين تابوا من وجودهم في وجودك، ورجعوا من دونك إليك، واستقاموا سبيل المعرفة بعظمتك وجلالك، وعجزهم عن إدراك عزتك بأنك تأويهم إلى أكناف قربك، وتريحهم من صولة جبروتك، بما تكاشف لهم من جمال سرمديتك، عجبت من رحمة الملائكة المقربين كيف تركوا المصرين على الذنوب عن استغفار هذه قطعة زهد وقعت في مسالكهم؟ أين هم من قول سيد البشر ﷺ حين آذوه قومه، قال: «اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٨٢)، ومسلم (٣/ ١٤١٣).

أعموا الأشياء بالرحمة ثم أحصوا منها التائبين، يا ليت لو بقوا على القول الأول، وسألوا الغفران للجميع التائبين والعاصين.

قال ابن عطاء في هذه الآية: من خلقوا مطيعين قائمين لله بالتسبيح والتنـزيه، يستغفرون لمذنبي المؤمنين، وهم غافلون عن الندم على ذنوبهم والاستغفار منها.

قال بعضهم: الطالب للمغفرة من يتبع الرشد، ويخالف نفسه ومراده.

وقال سهل في قوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾: من الغفلة وأنسوا بالذكر واتبعوا سنة المصطفى ﷺ.

قوله: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ﴾ يرفع درجات المريدين إلى الكرامات، ويرفع درجات المحبين إلى المشاهدات، ويرفع درجات العارفين إلى معرفة الذات والصفات، ويرفع أهل المواجيد إلى شهود الجمال، وأهل السلوك إلى مشهد العظمة والجلال، ويرفع الزاهدين إلى الجنان، ويرفع المنقطعين إليه إلى درجة الإيقان والعرفان، ويرفع النفوس بعد تقديسها بالمجاهدة والرياضة إلى جنته، ويرفع العقول إلى رؤية أنوار سلطانه في برهانه، ويرفع الأرواح إلى قرب مجالس الأنس، ويرفع الأسرار إلى مراقي القدس، ويرفع إليه سرًّا خالصًا من جميع الدرجات حتى لا يبقى بينه وبين الحق درجة، وصار أنوار الذات والصفات منازل شهوده فيكشف كل نور له فيغيب في الأنوار، ويفنى في الأسرار، ثم يفنى في البقاء، ويبقى الحق بالحق ولا فوق الحق إلا الحق، وهو فوق كل الدرجات بقهر الربوبية وسلطنة الكبرياء، وذلك قوله: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ أي: ذو العرش الذي يحيط بجميع الكائنات، وهو أقل من خردلة في جلال عزة كبريائه ذكر العرش على حد العقول؛ لأن العقل لا يصل إلا إلى مثله وهناك عالم العقل فتستقر العقول هناك، وهو متعلق بأفعاله تعالى، والأفعال قائمة بصفاته، وصفاته قائمة بذاته، وذلك سر استوائه على العرش فجواب الاستواء قوله: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ أي: مقهور لسلطان عزته، محتاج إلى لباس نور قدرته، مكون بإيجاده تعالى الله بذاته وصفاته عن أن يشهده الأماكن والجهات، هو منور بنور تجلي صفاته، وهو مرآة فعله يظهر منها مقدرات الآيات، وقضيات العلم والقضاء والقدر، وهو روح فعلي فوقه روح صفتي، وفوق تلك الروح روح ذاتي، وذلك تجلي الصفات، وتجلي الذات يلقى تلك الأرواح على من يشاء من خلقه، فروح الأفعال للمؤمنين، وروح الصفات للمحبين، وروح الذات للعارفين، وذلك قوله: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ فيقع الأمر على ما ذكرنا، فأمره فعله، وقوله وصفاته وذاته، فظهور نور الذات أمر خاص للأنبياء والمرسلين، وظهور نور الصفات أمر خاص لأهل المعرفة والتوحيد، ونور العقل أمر بديهي لأهل محبته والموقنين في رؤية آياته، فهؤلاء مخصوصون

بتلك الأرواح من حيث الوحي والرسالة والإلهام والحديث والكلام والكشف والعيان ليخوفوا العباد من المشهد العظيم، وبروز سطوات عظمة العظيم يوم المشاهدة ويوم المكاشفة ويوم المخاطبة حيث يلقى المحب المحبوب، والعاشق المعشوق، والعبد الرب، والعارف المعروف، والموحِد الموحَد، تعالى بقوله: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ أي: يوم كشف اللقاء.

ثم وصف ذلك اليوم بقوله: ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ﴾ أي: يوم بروزهم في ميادين ملكوته، وصحارى جبروته، بارزون على مراكب النور في ميادين السرور، لو رأيت يا حبيبي هنالك زفرات الوالهين، وعبرات الشائقين، وشهقات المشتاقين، وغلبات المحبين، وعربدة العاشقين، وانبساط الصديقين، وسكر العارفين، ووله الموحدين، وذلك عند كشف نقابه وظهور جمال وجهه تعالى، وهو يعلم أسرار الجميع لا يخفى عليه أحوالهم وأسرارهم، قال الله سبحانه: ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾، محيط بضمائرهم، ويعلم مراداتهم، فلما تمكنوا يرفع عن أبصارهم جميع الحجب، ويريهم سبحات جمال القيومية، فيفنى فيها الأولون والآخرون، فلما سكنت الأرواح، وهدأت الأصوات، ولا يبقى إلا حي قيوم قديم، يقول بعزته: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي: أين المدعون في المعارف والتوحيد والمبارزة بالعربدة والانبساط في مقام المحبة؟ لمن البقاء السرمدي؟ ولمن الجلال الأزلي؟ ولمن الكبرياء القدمي؟ أين أصحاب الأنائية؟ فأخرس الكل، وأفنى الكل، فيجيب نفسه إذ يستحق بجواب خطابه إلا هو؛ فيقول: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ الواحد في وحدانيته، القهار في فردانيته، ثبت نسبة الوحدانية إذ الكل مبهوتون في غشاوة التفرقة، القهار من حيث قهر الجمهور، ولا يبقى عند سطوات عظمته أحد من خلقه، فلما أوجدهم من صعقات الفناء؛ يجازي الكل على قدر مقاماته، يجازي الزاهدين بالجنة، ويجازي العابدين بالدرجة، ويجازي المحبين بالمشاهدة، ويجازي المشتاقين بالمكاشفة، ويجازي العارفين بالوصلة، ويجازي الموحدين بمطالعة سر الأولية والآخرية، قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي: من هموم فراقه، ومقاساة بلائه، ودوام الحزن في عبوديته، والكآبة في خدمته، وانتظار الفرج من سجنه؛ فهذه المقاساة عقوباته وبلاياه التي امتحنهم بها في الدنيا، فيرفع الله بذلك عنهم أبد الآبدين، ويفرغ على الجميع من بحار كرمه سيول الرحمة والإنعام، ولا يبقى ذرة من بلائهم إلا وهو يجازيه بحسن صحبته، وكشف نظارة وجهه، تعالى الله عن التشبيه، وقال الله تعالى: ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ سرعة حسابه تعالى أن لو كان مثل ما خلق ألف ألف مرة، وبكل ذرة منها عالم، وفيه على قدر كل ذرة خلق، وهم يعملون على أضعاف ما عملوا، فيريهم جميع

ذلك في أقل لمحة، بحيث هم يعرفونها ويرونها ثم يجازيهم بأقل من لمحة، وهو قادر بذلك، وهاهنا أن يسأل عنهم أعمالهم؛ فيغفر لهم ذنوبهم في أقل من لمحة، وهو غفور شكور رحيم ودود.

قال سهل في قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾: يرفع درجات من يشاء بالمعرفة به.

وقال في قوله: ﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾: أي: ينـزل الوحي من السماء بأمره.

وقال ابن عطاء: يرفع درجات من يشاء في الدارين، فيجعله عزيزًا فيها، والعرش إظهارًا لقدرته، لا مكانًا لذاته.

﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ على ضروب، فمن ألقى إليه روح الصفا أنطقه بها وأحياه حياة الأبدي، والروح روحان؛ روح بها حياة الخلق، وأخرى لطيفة بها ضياء الحق.

وقال فارس: زين العرش بأنوار ذاته؛ فلا يوازيه شيء، ولا يقابله مثل.

وقال الحسين: العرش غاية ما أشار إليه الخلق.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ﴾: حياة الخلق على حسب ما ألقى إليهم من الروح؛ فمنهم من ألقى إليه روح الرسالة، ومنهم من ألقى إليه روح النبوة، ومنهم من ألقى إليه روح الصديقية، ومنهم من ألقى إليه روح الشهادة، ومنهم من ألقى إليه روح الصلاح، ومنهم من ألقى إليه روح العبادة والخدمة، ومنهم من ألقى إليه روح الهداية، ومنهم من ألقى إليه روح الحياة فقط فهو ميت في الباطن، وإن كان حيًّا في الظاهر.

وقال جعفر: يخص من يشاء من عباده بترويح سره بمعرفته، وتزيين نفسه بطاعته.

وقال الأستاذ: روح هو روح الإلهام، وروح هو روح الإعلام، وروح هو روح الإكرام.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾: لولا سوء طباع الجهَّال، وقلة معرفتهم لما ذكر الله قوله﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ فإن الملك لم يزل ولا يزال له، وهو الملك على الحقيقة، ولكن لما جهلوا حقه، وحجبوا عن معرفته في الدنيا، وشاهدوا الملك وحقيقته ألجأهم الاضطرار إلى أن قالوا: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

وقال: الواحد الذي بطل به الإعداد، والقهار الذي قهر الكل على العجز بالإقرار له بالعبودية طوعًا وكرهًا.

قال جعفر: أخرس المكونات ذوات الأرواح عن جواب سؤاله في قوله: ﴿لِّمَنِ

﴿ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فلم يجسر أحد على الإجابة، وما كان بتحقيق أن يجيب سؤاله سواه، فلما سكنت الألسن عن الجواب أجاب نفسه بما كان يستحق من الجواب؛ فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ﴾: من طالع من نفسه أفعاله وأذكاره وطاعته جُزي على ذلك، ولا ظلم عليه فيه، ومن طالع فضله ومنه أسقط عن درجة الجزاء على مقام الأفضال والرحمة بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝﴾ [يونس: ٥٨].

وقال أبو بكر بن طاهر: يريك جزاء كسبك، وما تستحق بذلك، لترى بعد ذلك محل الفضل والكرم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور، وقال: لا يخفى عليَّ منها شيء، وذلك أن العين باب من أبواب القلب، فإذا رأت العين شيئًا يكون حظ القلب منه، يعلم ذلك نفسه فيطلب الحظ منه، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة العين متعلقة بما تخفي الصدور، وإذا كان العارف عارفًا بنفسه ويروضها برياضات طويلة، ويقدسها بمجاهدات كثيرة، ويزمها بزمام الخوف، وآداب الشريعة، صارت صافية من حظوظها، فبقيت في سرها جلتها على الشهوات، ففي كل لحظة يجرى في سرها طلب حظوظها، ولكنها سترتها على العقل وأخفتها، عن الروح من خوفهما، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى روزنة العين، فتنظر إلى مرادها، وتسرق حظها من النظر إلى المحارم، وذلك النظر خفي، وتلك الشهوة خفية، وصفهما الله سبحانه في هذه الآية، واستعاذ منها النبي ﷺ حيث قال: «أعوذ بك من الشهوة الخفية»(١).

وقال أبو حفص النيسابوري: زنا العارف نظره بالشهوة، وافهم واسمع حقيقة ذلك أن الروح العاشقة إذا احتجبت عن مشاهدة جمال الأزل تنقبض وتطلب حظها، ولا تقدر أن تنظر إلى الحق فتطلب ذلك من صورة الإنسانية التي فيها آثار الروحانية، فتنظر من منظره إلى منظر العقل، ومن منظر العقل إلى منظر القلب، ومن منظر القلب إلى منظر النفس، ومن منظر النفس إلى منظر الصورة، وتنظر من العين إلى جمال المستحسنات، لينكشف لها ما يستر

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٢٥).

عنها من شواهد الحق، فتذهب النفس معه وتسرق تحته حظها من النظر بالشهوة، فذلك النظر منها غير مرضٍ في الشرع والطريقة.

وفي سر الحقيقة نظر الروح إلى الحق بالوسائط أيضًا خيانة، وخيانته في الصدر ألا يصبر في مقام القبض ليجري عليه أحكام الحقيقة، ثم ينكشف له عالم البسط، فنبهنا الله بهذه الآية أنه يعلم بعلمه القديم هذه الخفايا ولا يستحسن.

قال أبو عثمان: خيانة العين هو ألا يغضها عن المحارم، ويرسلها إلى الهوى والشهوات.

وقال أبو بكر الوراق: يعلم من يمد عينه إلى الشيء معتبرًا، ومن يمدها لإرادة وشهوة.

وقال الأستاذ: خيانة أعين المحبين استحسانهم شيئًا، ولهذا يقال:

بمنظرٍ حسنٍ مُذ غبتَ عَنْ عيني ... يا قرةَ العينِ سلْ عيني هل اكتحلتْ

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيل الرشد طريق المعرفة، ومعرفة الله موافقة الله، ومتابعة الأنبياء والأولياء، ولا يحصل الموافقة إلا بترك مراد النفس، لذلك قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

قال محمد بن علي الترمذي: لم تزل الدنيا مذمومة في الأمم السالفة عند العقلاء منهم، وطالبوها مهانون عند الحكماء الماضية، وما قام داعٍ في أمة إلا حذَّر متابعة الدنيا وجمعها والحب لها.

ألا ترى إلى فرعون كيف قال: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ كأنهم قالوا: وما سبيل الرشاد؟ قال: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: لن تصل إلى سبيل الرشاد، وفي قلبك محبة الدنيا، وطالبًا لها.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ

ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦) وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى
ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ
رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٥٠) إِنَّا
لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ
ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٤) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ (٥٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ
فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢)
كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٤) هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ
ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مرد العارفين إلى الله بالتفاوت، ومرد المؤمنين إلى الجنة، ومرد المحبين إلى المشاهدة، ومرد العارفين إلى الوصلة، ومرد الكل إلى قضيات الأزلية.

وقال حمدون القصار: لا أعلم في القرآن آية أرجى من قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛

فقد حُكي من بعض السلف أنه قال: الكريم إذا قدر عفا، وإنما يكون مرد العبد إلى ربه إذا أتاه على حد الإفلاس والفقر، لا أن يرى لنفسه مقامًا في إحدى الدارين، وهو أن يكون في الدنيا خاشعًا لمن يذله، ولا يلتفت إليه هاربًا ممن يكرمه ويبره، ويكون في الآخرة طالبًا للفضل، مشفقًا من حسناته أكثر من إشفاق الكفار من كفرهم.

قوله تعالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: أفوض أمري في الدنيا والآخرة إلى الله فهو بصير بعجزي وضعفي عن رد القضاء والقدر، وكمال التفويض ألا يرى لنفسه، ولا للخلق جميعًا قدرة على النفع والضر، ويرى الله إيجاد الوجود في جميع الأنفاس بنعت المشاهدة والحال لا بنعت العلم والعقل.

وقال بعضهم: التفويض قبل نـزول القضاء، والتسليم بعد نـزول القضاء.

وقال ذو النون حين سُئل عنه: متى يكون العبد مفوضًا؟ قال: إذا آيس من فعله ونفسه، والتجأ إلى الله في جميع أحواله، ولم يكن له علاقة سوى ربه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ نصرة الرسل بالعرفان، ونصرة المؤمنين بالإيقان، وأيضًا نصرة الرسل بالوحي، ونصرة المؤمنين بالإلهام، وأيضًا نصرة الرسل برؤية الصفات، ونصرة المؤمنين برؤية الآيات، نصرتهم يوم الإشهاد على وفق سرهم في المعرفة؛ فنصرة الرسل الوصلة، ونصرة المؤمنين المشاهدة، نصرهم على كل شيء يكاد يحجبهم عن المشاهدة في الدنيا والآخرة.

وقال جعفر: ينصر رسلنا بالمؤمنين ظاهرًا، وينصر المؤمنين بالرسل باطنًا.

وقال سهل: أكرمهم بالمعرفة والعلم، ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ بالرضا والرؤية.

وقال يحيى بن معاذ: لم يرض بما ضمن لهم من النصرة في الدنيا حتى ضمن لهم النصرة في القيامة، ومن كان الله ناصره في الدنيا والآخرة؛ فلا سوء عليه.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ ظلمهم وضع المعذرة في غير موضعها؛ فإن معذرتهم أن يكون في الدنيا لا في الآخرة، وظلمهم أيضًا عدولهم عن الحق إلى الحق، يا ليت لو كان لهم عناية الأزلية التي تؤثر في الإحسان جميعًا، ومن لم يكن له سوابق القدم بنعت العناية لم يؤثر فيه الأعمال والأوقات.

قال بعضهم: يؤثر في العباد السوابق على الأوقات، ولو كان للوقت أثر لنفع الظالمين معذرتهم، فلما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ علمت أن السوابق هي المؤثرة لا الأوقات.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ أي: فاصبر في بلائنا؛ فإن النصر مع الصبر، وإن الظفر مع تحمل البلاء، وإن وعد كشف الجمال الأزلي من الله لك ولمحبتك حق، واستغفر لما جرى على قلبك من أحكام البشرية، وأيضًا استغفر لوجودك في وجود الحق، فإن كون الحادث في كون القدم ذنب في إفراد القدم عن الحدوث، وأيضًا استغفر من وقوفك على مقامك بين يديَّ، فإن الوقوف في ميادين الآزال والآباد ذنب لسُلاَّك المحبة، ونـزهني وقت إشراق أنوار شمس وجودي لك من أن تدركني بالحقيقة، وحمدني ومجدني حين تغيب عنك، وبقيت في الصحو من السكر.

سُئل بعضهم: الصبر على العافية أشد أم على البلاء؟ فقال: طلب السلامة في الأمن أشد من طلب السلامة في الخوف.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي: ادعوني في زمان الدعاء الذي جعلته خاصًا لإجابة الدعوة، فادعوني في تلك الأوقات، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فإن وقوع الإجابة فيها حقيقة بلا شك، ومن لم يعرف أوقات الدعاء فدعاؤه ترك أدب؛ فإن الدعاء في وقت الاستغفار من قلة معرفة المقامات، فإن السلطان إذا كان غضبان لا يسأل عنه، وإذا كان مستبشرًا فيكون زمانه زمان العطاء والفضل، ومن عصى السلطان، ويسأل منه شيئًا فيضرب عنقه، ومن يطع السلطان ثم يسأل؛ فإنه أجدر أن يعطيه مأموله، وأيضًا ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ في وقت غليان قلوبكم بالشوق إلى لقائي، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ بكشف جمالي، وأعطيكم مأمولكم لذلك قال ﷺ: «ادعوا الله على رقة قلوبكم».

وأيضًا ادعوني بلا سؤال ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ بلا محال، فإنك إذا شوقت إلى جمالي تدعوني لنفسي، فوجب من حيث الكرم أن أجيب لك بنعت مرادك، فإنك إذا سألت شيئًا لم تدعني بل دعوت مرادك.

قال بعضهم: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ بلا غفلة، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بلا مهلة.

قال الوراق: ادعوني على حد الاضطرار والالتجاء حيث لا يكون لكم مرجع إلى سواي ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وقال محمد بن علي: من دعا الله، ولم يعمر قبل ذلك سبيل الدعاء بالتوبة والإنابة وأكل الحلال واتباع السنن ومراعاة السر كان دعاؤه مردودًا، وأخشى أن يكون جوابه الطرد واللعن.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: لتسكنوا في حضوركم بها تجدون من روح الملكوت، وتستنشقون نفحات الجبروت، وفي النهار تشاهدون أنوار صفاتي في آياتي.

قال بعضهم: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ إلى روح المناجاة، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتبصروا فيه بوادي القدرة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: ﴿قَرَارًا﴾ لمراقبتكم، وطلب مشاهدتي وخدمتي، ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ لنظركم إلى ديوان ملكوتي، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأن ألبستكم أنوار جلالي وجمالي وخلقي، وإيجادكم بنفسي، ونفخت من روحي فيكم الذي حسن الهياكل من حسن الهياكل من حسنه، ومن عكس جماله؛ فإنه مرآة نوري أتجلى منه للأشباح أرزاقه ذكره، وصفاء كشوف أنواره للأرواح والعقول، فقوت النفوس من أفعاله، وقوت القلوب من صفاته، وقوت الأرواح من ذاته، وهو أحسن الأرزاق، إذ قامت به حقائق المحبة ولطائف المعرفة، ودقائق التوحيد.

ألا ترى إلى رمز الحق فيه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ثم نـزَّه نفسه عن الأشكال والأبعاض والحلول في الأماكن بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من بركته وجود العالمين، ومن تربيته تكونت الخلائق أجمعون.

قال أبو سليمان: القرار لمن استقر على طلب الموافقة، واجتنب التخطي إلى المخالفة.

قال بعضهم: جعل الأرض قرارًا لأوليائه، والسماء بناءً لملائكته.

ثم زاد في وصف عزته وجلاله، وحياته الأزلية، وبقائه الأبدي بقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيَّن أن الحياة الحقيقية القدمية له لا لغيره؛ إذ حييت بحياته الأرواح والأشباح، وبه قامت الكائنات والحوادثات، لا بذواتها تجلى من حياته للعدم، فأوجد الكل حيًّا بحياته.

ثم نفى عن الكل الألوهية، ونفى الحياة الأزلية عن الكل في إفراد قدمه عن الكون بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ثم أمر العباد بالعبودية الخالصة له، والتضرع إليه بقوله: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مخلصين عن النظر إلى الأكوان في مشاهدة الرحمن.

ثم حمد نفسه ألا يعرفه أحد سواه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ بألا

يعرفني غيري.

قال الواسطي: هو الذي أحيا القلوب بفوائد أنواره، وسواطع عزته عن هواجس الهياكل، وظلمات الأجسام.

وقال الحسين: هو الذي أحيا العالم بنظره؛ فمن لم يكن به وبنظره حيًّا؛ فهو ميت، وإن نطق أو تحرك.

وقال الجنيد: الحي على الحقيقة من به حياة كل حي.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي
وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ
عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ
قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ
(٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ
فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ
أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ
شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا
يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ
نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ
بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا
عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا
بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا

سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ بيِّن أن مراد الحق سابق على كل مراد لا تتغير سوابق مقاديره، فإذا جاء ما قد يظهر حقيقة القضية الأزلية.

قال الواسطي: من ذكر القسمة، وما جرى له في السبق ينقطع عن السؤال والدعاء، ويعلم أن المقضي كان من الحق وبالحق.

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ آياته أنبياؤه وأولياؤه، وهم أعظم الآيات، إذ يتجلى الحق من وجوههم بنعت العزة والكبرياء للعالمين، وأي منكر أعظم ممن ينكر على هذه الآيات الساطعة، والبراهين الواضحة.

قال سهل: أظهر آياته في أوليائه، وجعل السعيد من عباده من صدقهم في كراماتهم، وأعمى أعين الأشقياء عن ذلك، وصرف قلوبهم عنهم، ومن أنكر كرامات الأولياء؛ فإنه ينكر قدرة الله، فإن القدرة تظهر على الأولياء بالآيات لا هم بأنفسهم يظهرونها، والله يقول: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ بيَّن الله سبحانه أنه لا ينفع إيمان المنكرين أولياءه وأنبياءه عند معاينة جزاء إنكارهم؛ فإنه بجلاله وعزته منتقم لأوليائه من أعدائه.

قال سهل: السنة مشتقة من أسماء الله: السين سناء الله، والنون نور الله، والهاء هداية الله، بقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أي: فطرة الله التي جبل عليها خواص عباده هداية منه لهم؛ فهم على سنن الطريق الواضح إليه.

سورة فصلت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: معنى الحاء والميم أن هذا الخطاب وهذا التنزيل من الحبيب الأعظم إلى المحبوب الأعظم، وأيضًا هو قسمٌ أي: بحياتي ومجدي هذا التنزيل نزل من عين الرحمانية الرحيمية الأزلية الأبدية، نزل برحمتي على عبادي ومحبتي لهم، وأيضًا بحياتك ومشاهدتك يا حبيبي ويا محبوبي هذا تنزيل أنزلت إليك بالرحمة

والكرم عليك وعلى أمتك.

قال سهل في قوله: ﴿حمٓ﴾: قضى في اللوح المحفوظ وكتب فيه ما هو كائن.

وقال الأستاذ: أي: بحقي وحياتي ومجدي في ذاتي وصفاتي إن هذا تنـزيل من الرحمن الرحيم.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: بشيرًا لمن أقبل إلى الله بنعت الشوق، وطلب معرفة جلاله وجماله، وكشف لقائه أن مأمولهم حصل لهم، ونذيرًا لمن أعرض عنه، وأقبل إلى نفسه، وينظر إلى طاعته ومعاملته، وأيضًا بشيرًا للأولياء بنيل المقامات، ونذيرًا لهم يحذرهم من المخالفات لئلا يسقطوا من الدرجات.

قال محمد بن علي: بشيرًا بمطالعة الرجاء، ونذيرًا بمطالعة الخوف.

وقال سهل: بشيرًا للعاصين بالغفران والشفاعة، ونذيرًا للمطيعين؛ ليستعملوا آداب السنن في طاعتهم.

قال الأستاذ: بشيرًا لمن اخترناهم واصطفيناهم، ونذيرًا لمن أغويناهم وعن شهود آياتنا أعميناهم.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: قلوبنا في أكنان قهريات الأزليات وفي بطش جبروت العظمة ألقتها في غيابات الغيِّ وظلمات الريب، وأبعدتها عن مشاهدتك وما أخبرتنا من أحكام العبودية وأنوار الربوبية، وفي آذاننا وقرا لضلالة وغشاوة الغفلة، لا تسمع خطاب الخاص بفهم الخاص وسمع الخاص، وبيننا وبينك حجاب الشقاوة وغطاء الغباوة والغواية.

قال سهل: أي: قلوبنا في أغطية الإمهال، فمالت إلى الشهوة والهوى، ولم تسمع داعي الحق، وفي آذاننا وقر أي: بها صمم من الخير، ولا يسمع هواتف الحق.

وقال بعضهم: قلوبهم في حجاب من دعوة الحق، وأسماعهم في صمم من نداء الحق، كلَّت ألسنتهم عن ذكر الحق، وجعل بينهم وبين الحق حجاب الوحشة، وهو الحجاب الذي لا يُرفع أبدًا.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ

وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: استقيموا في إقبالكم إليه بنعت التفريد عن الأكوان والحدثان وعن وجودكم، واصبروا في ساحة كبريائه حين شاهدتم أنوار عظمته وجلاله حتى يجري عليكم أحكام الفناء في بقائه وقميص الاستقامة لم يحظ للحدثان، لذلك قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»[1]، وقال «شيَّبتني هودٌ وأخواتُها»[2]؛ لما فيه من قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، فإذا وقع عليكم العلم بمعرفته فاستغفروه من إدراككم وعلمكم به ومعاملتكم له ووجودكم في وجوده؛ فإنه تعالى أعظم من درك الخليقة، وتلاصق الحدثان بجناب جلاله.

قال بعضهم: الاستقامة مساواة الأحوال مع الأفعال والأقوال، وهو ألا يخالف الظاهر الباطن والباطن الظاهر، فإذا استقمت واستقامت أحوالك فاستغفر من رؤية استقامتك، واعلم أن الله هو الذي قوَّمك لا أنك استقمت.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ١٠١)، وأحمد (٥/ ٢٧٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ١٤٨)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٢٤٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾: يوم القضاء ويوم القدر ويوم الأمر، والقول ويوم الظاهر والباطن أي: تجحدون من أوجد سبع أرضين في يومين لكم، وتكفرون نعمته، وتقبلون إلى غيره.

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: صاحب هذه النعم، ثم زاد ذكر نعمته عليهم بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾: رواسي أوتاد الأرض من الأولياء، مشرفون على قلوب الخلائق بسر من الله معهم، ونور منه في قلوبهم، ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بإظهار آياته فيها، وخلق منافع الكل فيها، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[1]: أرزاق الخلائق بكل خلق منهم عنده رزق، فرزق الروحانيين المشاهدة، ورزق الربانيين المكاشفة، ورزق الصديقين المعرفة، ورزق العارفين التوحيد، ورزق الأرواح الروح، ورزق الأشباح الأكل والشرب، وهذه الأقوات تظهر من الحق لهم في هذه الأرض التي خلقت معبدًا للمطيعين ومرقدًا للمقبلين وقبرًا للعارفين، ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾: يوم ظهر نور الفعل العام، ويوم ظهر نور الفعل، ويوم ظهر نور الصفة، ويوم ظهر نور الذات، الأول: نور الإرادة، والثاني: نور المشيئة، والثالث: نور القدرة، والرابع: نور القضاء والقدر، فنور الأفعال بركةٌ على الأشباح، ونور الفعل الخاص بركةٌ على القلوب، ونور الصفة بركةٌ على العقول، ونور الذات بركةٌ على الأرواح؛ فأقواتها على مقادير تلك البركات، وهذان اليومان مع الأول أربعةٌ، ثم بيَّن أنه تعالى قدَّر هذه المقادير فيها على سنن مستوية بقوله: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾، لا يزيد الرزق بالسؤال ولا ينقص، وفيه تأديبٌ لمن لم يرض بقسمته، وبيَّن أن ما سبق منه في الأزل من السعادة والشقاوة لا يتغير بجهد الجاهدين وسؤال السائلين، بل جفَّ القلم بما أنت لاقٍ، ثم ذكر صنيعه المبارك في تسويته السماء وتزيينها بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، بسط نور قدمه عليها، فسوَّاها سبع سماواتٍ، كما بسط نور قدرته على الأرضين، فلما أدخل في السماوات والأرضين روح فعله وكساها نور قدرته وقهرهما بجبروته دعاهما إلى خدمته، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: ائتيا من العدم إلى ساحة القدم، وائتيا بما قدرنا فيكما من أنوار فعلنا، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ طوعًا: من حيث الحدوثية والعجز، أو كرهًا من حيث أنكما تعلمان أنكما لا

(١) أي : حكم أن يوجد فيها لأهلها ما يحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار مُعين، تقتضيه الحكمة والمشيئة، وما يصلح بمعايشهم من الثمار والأنهار والأشجار، وجعل الأقوات مختلفة في الطعم والصورة والمقدار، وقيل : خصابها التي قسمها في البلاد. البحر المديد (٥/ ٣٩١).

تطيقان حمل وارد أمري وطاعتي بالحقيقة، فتشققا من قهري، ائتيا وإن أنتما خائفان من قهر سلطاني وبطش جبروتي، وأيضًا ائتيا طوعًا من حيث باشركما روح فعلي، فيقسمان على العجز، وائتيا كرهًا من حيث الحدوثية والعجز، أو كرهًا من حيث إن عليكما لباس ربوبيتي وما وجدتما من سر الألوهية ونظرتما إلى ذلك وظهور جرأتكما بنعت البقاء؛ فإن عليكما نور صفاتي، وأنتما خارجان من عز الربوبية، فائتيا وإن عليكما كسوة جباريتي حتى تكونا في جلال كبريائي أقل من خردلة، فلما سمعا خطاب الغيرة ولم يبق فيهما كره ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ في حمل أنوار ضيائك؛ حيث عجزنا عن حمل أمانتك وأنوار صفاتك التي حملها الإنسان، ثم بيَّن أن خلقهن أيضًا كان في يومين حتى يكون ستة أيام، كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، فأتمهن جميعًا في يومين: يوم أشرقت أنوار القدم عليها، ويوم طلعت شمس البقاء عليها، ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ بما أودعها من خزائن أسراره ولطائف أنواره وحقائق مقاديره التي لا يطلع عليها إلا من يكشف له منها شيئًا من الأنبياء والأولياء والملائكة، ثم خصَّ السماء الدنيا من بينهن بالزينة وشرف إلباسه إياها أنوار قدرته الخاصة، وأفعاله المقدسة من الشمس والقمر والنجوم بقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾: زينها بأنوار الكروبيين كما زيَّن الأرض بالأنبياء والأولياء، أيضًا زيَّن سماء قلوب العارفين بشموس تجلي الذات وأقمار تدلي الصفات ونيرات سيادات أسرار الملكوت والجبروت.

قال سهل بن عبد الله في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾: أي: قضى خلقها في يومين، كما قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

وقال في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: استوى أمره على الأرض والسماء وما بينهما وما تحت الثرى.

قال ابن عطاء: استوى علمه فيما قرب منه وبعد إذ لا قرب ولا بعد.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: الرواسي الأجل من الأولياء الذين هم المشرفون على الخلق؛ لأنهم الخواص منهم وقيل في قوله: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أي: من فوق عامة الأولياء وأشرافهم نظرهم أصح وبركاتهم أعم ولا يشرف عليهم أحد إلا القطب الذي هو الواحد في العدد وبه قوام كل الأولياء والرواسي دونه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: زيَّنا قلوب العارفين بأنوار المعرفة وجعل فيها مصابيح الهداية وضياء التوحيد.

وقال جعفر: زيّنا جوارح المؤمنين بالخدمة.

وقال الجنيد: زيّنا الجنة بنور مناجاة العارفين وزهرة خدمة العابدين.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: الجبال أوتاد الأرض في الصورة، والأولياء أوتاد الأرض في الحقيقة، فبارك فيها البركة والزيادة، يأتيهم المطر ببركة الأولياء، ويندفع عنهم البلاء ببركتهم[1].

وقال في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾: جعل نفوس العابدين أرضًا لطاعته وعبادته، وجعل قلوبهم فلكًا لنجوم علمه وشمس معرفته، فأوتاد النفوس الخوف والرجاء والرغبة والرهبة، وفي القلوب ضياء العرفان وشموس التوحيد ونجوم العلوم والعقول والنفوس والقلوب بيده، يصرفها على ما أراد من أحكامه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: هذه الهداية ظهور برهان نبوة الأنبياء بالبراهين الساطعة والدلالات الواضحة بالظاهر، لكن لم يسبق لهم الهداية الأزلية، وبتلك الهداية تقبل هذه الهداية، فالسوابق تؤثر في العواقب، والعواقب لا تؤثر في السوابق، فكان جبلة القوم جبلة الضلالة، فمالوا إلى ما جُبلوا عليه من قبول الضلالة.

قال الواسطي: لحاجة ما سبق فيهم من شؤم الجبلة.

قال ابن عطاء: ألبسوا لباس الهداية ظاهرًا عواري، فتحقق عليهم لباس الحقيقة، فاستحبوا العمى على الهدى، فردوا إلى الذي سبق لهم في الأزل.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ

(١) وقال القشيري أيضًا: أي: جبالاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقياً لكم، يُذكّرهم عظيم مِنّتِهِ بذلك عليهم. والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنّته أنّه لم يخسف بكم الأرض، وإن عملتم ما عملتم (٨/ ١٧).

ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾: من باشر المعصية تظهر آثارها على جوارحه، لا يقدر أن يسترها، ولو كان عالمًا بنفسه يستغفر في السر عند الله حتى تضمحل آثارها، ولا يرى من وجوده تلك الآثار صاحب كل نظر.

قال أبو عثمان الحيري: من لم يذكر في وقت مباشرته الذنوب شهادة جوارحه عليه يجترئ على الذنوب، ومن ذكر ذلك جَبُن عن مباشرتها، وربما تلحقه العصمة والتوفيق، فتمنعانه عنها.

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: فزيَّن الكل النفس والشيطان، النفس تزين لهم الشهوات، والشيطان يزين لهم التسويف والإمهال، وهذا ما بين أيديهم وما خلفهم.

قال الجنيد: النفس لا تألف الحق أبدًا.

وقال ابن عطاء: النفس قرين الشيطان وإلفه ومتبعه فيما يشير إليها، مفارق الحق مخالف له لا تألف الحق ولا تتبعه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من طول الأمل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من نسيان الذنوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا﴾: وصف الله أهل التمكين من العارفين الذين شاهدوا الله بالله، وعاينوه به، واستقاموا في محبته، فتعرضت لهم الأكوان

والحدثان، فرفعوا أبصارهم عنها، ولم يستحسنوها في ديوان المعرفة من النظر إلى الخلق والخليقة، وقالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: يكفينا الله من كل ما سواه، استقاموا بالله لله في الله؛ فإن عين الألوهية تحرق مطالعيها من العرش إلى الثرى، فإذا أراد الله استقامة المستقيمين من أهل شهوده ألبسهم أنوار بقائه وصمديته، فيسبحون بنور البقاء في بحار الأزليات الأبديات.

قال ابن عطاء: استقاموا على إفراد القلب بالله.

وقال أيضًا: استقاموا على المشاهدة؛ لأن من عرف الله شيئًا لا يهاب غيره، ولا يطالع سواه، فتركوا المنازعة والاعتراض مع الحق.

سُئل الشبلي عن هذه الآية، فقال: ﴿قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هو خالقنا، فاستقاموا معه على بساط المعرفة، وداموا بأسرارهم على سرير الجنة، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بانقطاع المدة ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ من دار الهوان، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من دار الامتحان، ﴿وَأَبْشِرُوا﴾ (١) بدوام النعيم، وهو لقاء الله تعالى الذي ليس بعده بؤس ولا شدة.

صدق الشيخ في هذا التفسير، وعجبت ممن استقام مع الله في مشاهدته وإدراك جماله كيف يطيق الملائكة أن يبشروه، أين الملك والفلك بين الحبيب والمحب ليس وراء بشارة الحق بشارة، فإن بشارة الحق سمعوها قبل بشارة الملائكة في نداء الأزل بقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ﴾، ليس لهم خوف القطيعة، ولا لهم حزن الحجاب، وهم في بِشر مشاهدة الجبار، قول الملائكة معهم تشريف للملائكة ههنا؛ لأنهم يحتاجون إلى مخاطبة القوم، وهم أحباؤنا في نسب المعرفة من حيث الحقيقة ألا ترى كيف سجدوا أبانا قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، هم أحباؤنا، ونحن أحباء الله، والله تعالى أحبنا في الأزل، واختارنا بالمعرفة والمشاهدة.

قال جعفر: من لاحظ في أعماله الثواب والأعواض كانت الملائكة أولياؤه، ومن تحقق في أفعاله وعملها على مشاهدة أمرها فهو وليه؛ لأنه يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

قال الأستاذ: استقاموا على دواء الشهود وعلى انفراد القلب بالله.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾.

---

(١) قال محمد بن علي الترمذي: تتنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان ، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي تُوعدون في سالف الأزمان. البحر المديد (٥/ ٤٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: ممن عرف الله بعد أن رآه وأحبه واشتاقه، وعشق به ودعا الخلق إليه من حيث هو فيه وصدقه في حاله، يدعو الخلق إلى الله بلسان الأفعال وصدق المقال وحلاوة الأحوال، ويذكر لهم شمائل القدم وخلق الربوبية، ويعرفهم صفات الحق وجلال ذاته، ويحبب الله في قلوبهم، وهذا عمله الصالح، ثم يقول بعد كماله وتمكنه إنني واحدٌ من المسلمين من تواضعه ولطف حاله خلقًا وظرافة، وإن كان إسلامه من قصارى أحوال المستقيمين.

قال سهل: أي: ممن دلَّ على الله وعلى عبادة الله وسنة رسول الله واجتناب المناهي وإدامة الاستقامة مع الله.

وقال حسن بن أبي الحسن البصري: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله، أجاب الله دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحـًا في إجابته، وقال إنني من المسلمين، هذا خليفة الله.

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: بيَّن الله سبحانه ههنا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ، وأمرنا بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، وأحسن الأخلاق الحلم؛ إذ يكون به العدو صديقـًا والبعيد قريبـًا، حين دفع غضبه بحلمه وظلمه بعفوه وسوء خاتمته بكرمه، وفي مظنة الخطأ أن من كان متخلقـًا بخلقه متصفًا بصفاته مستقيمًا في خدمته صادقًا في محبته عارفًا بذاته وصفاته ليس كالمدعي الذي ليس في دعواه معنىً.

قال ابن عطاء: لا يسوِّي بين من أحسن الدخول في خدمتنا والخروج منها وبين من أساء الأدب في الخدمة؛ فإن سوء الأدب في القرب أصعب من سوء الأدب في البعد فقد يصفح عن الجهَّال الكبائر، ويأخذ الصديقين باللحظ والالتفات.

وقال الأستاذ: أي: ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافآت بالتجاوز والصفح عن الزلة.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: بيَّن الله

سبحانه ألا يبلغ أحدٌ إلى درجة الخلق الحسن وحسنات الأعمال وسيئات الأفعال إلا من يصبر في بلاء الله وامتحانه بالوسائط وغير الوسائط، ولا يحتمل هذه البليات إلا ذو حظٍّ من مشاهدته وذو نصيبٍ من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة ومحبة شاملة، وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافي والمشاهدة الأبدية والحظ الجمالي يوازي طوارق صدمات الألوهية وغلبات القهارية.

قال بعضهم: لا يطيق أحدٌ الهجوم على المعارف إلا من يصبر على احتمال النوائب والشدائد فيها، ولا يرى لنفسه قيمةً، ولا لروحه خطرًا؛ إذ ذاك يمكنه مجاورة المعارف والهجوم عليها.

وقال ابن عطاء: لا يوفق لجميل الأخلاق إلا الصابرون على خفض الخلاف.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: ما يوفق لهذا المقام إلا ذو حظٍّ من عناية الحق فيه.

قال ابن عطاء: ذو معرفة بالله وأيامه.

وقال الجريري: أي: ذو علم بالله، وذو فهم منه، وراجع إليه في كل أحواله، ثم داوى الحق سبحانه المتصبرين في احتمال البلاء، وعليهم جذب الصبر والتحمل بالاستعانة بعد طيران خطرات الشيطان على قلوبهم بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾: علَّم حبيبه ﷺ كيف يدفع شرَّ الشيطان عن نفسه حين ألقاه سهم الغيرة عن كنانة مخاثيله وحيله، وهذا تعليمٌ لأمته؛ إذ كان شيطانه أسلم على يده أي: فروا إلى الله إذا نزغكم قهر الله يدفع عنكم شر الشيطان، ويؤويكم من قهره بلطفه، ألا ترى كيف استعاذ النبي ﷺ منه إليه بقوله: «أعوذُ بك منك»[(١)].

وقال بعضهم: من طرد الشيطان عن نفسه بنفسه فهو قرينه أبدًا، ومن طرده بالالتجاء إلى الله والاستعاذة به منه لم يجعل الله للشيطان عليه سبيلاً؛ فإن الله يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

وسئل أبو حفص: بماذا يتخلص المؤمن من الشيطان؟ قال: بتصحيح العبودية؛ ألا ترى الله يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾.

وقال الأستاذ: لا يتخلص العبد من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة بالله وصدق الاستغاثة فيه.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (١/ ٤٥٢).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾: أظهر الليل؛ ليطلع على العاشقين صبح وصال جماله، ويؤنسهم إلى مجالس مشاهدته وحجال أنسه ورياض قدسه، وجعل النهار؛ لظهور أنوار صفاته في لباس آياته، وليشرفهم على رؤية نيرات ملكوته وجبروته، خلق الشمس والقمر مرآتين، يتجلى من مرآة الشمس للناظرين إليه والعارفين به من أنوار ذاته، ويتجلى من مرآة القمر للعاشقين من سنا صفاته، ثم حذرهم أن يلتفتوا إلى الوسائط، وحثَّهم على أن يرجعوا إليه بالكلية كالخليل في أوائل مقام الالتباس، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾، فإذا عزم الأمر وبلغ صرف الرؤية قال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قال عبد العزيز المكي في هذه الآية: سبحان الذي من عرفه لا يسأم عن ذكره! سبحان الذي من أنس به استوحش من غيره! وسبحان الذي من أحبَّه أعرض بالكلية عما سواه! ثم أكد التخويف عليهم في وقوفهم على الوسائط، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ ، وصف المتمكنين من الكروبيين والعارفين من أهل الملكوت بأنهم مستغرقون في بحار ربوبيته، يسبحون فيها بلذائذ الأذكار والأفكار لمزيد الكواشف وأنوار المعارف، يتجردون عن الأكوان والحدثان في جمال الرحمن، يستأنسون به، لا يسأمون منه؛ إذ الأنس والوحشة منفيان عن ساحة كبريائه، وهذا شكاية عن المحجوبين به عنه.

قال أبو عثمان: إن الله مستغنٍ عن عبادة عبيده ومجاهدتهم؛ فإن لله عبادًا من الملائكة لا يفترون عن عبادته دائمًا أثناء الليل والنهار، ولم يذكرهم، ولم يجعل لعبادتهم جزاءً ولا قيمةً.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ

وَرَبَتۡ﴾[1]: كل قلبٍ مستعدٌ لقبول وبل المحبة والمعرفة، فيكون بلا زرع الحكمة قبل نـزول مطر لطفه، فإذا وصل إليه بحر قرب الحق سبحانه اهتزَّ بنبات الحقائق والدقائق، وتبهج بنور الحكمة، والمقامات السنية، ورياض لطائف العلوم الإلهية التي نطق بها صاحبه بلسان الحق والحقيقة، فأحيا بعبارتها وتعبيرها القلوب الميتة والصدور الخامدة؛ فهو تعالى أحيا قلوب العارفين بنظره، وبنظر العارفين يحيى قلوب المريدين، وهم وسائل حياة القلوب من الحق للخلق، كما أحيا الأرض الميتة بالمطر أحيا بهم قلوب العالمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾، فهذا المثل ضربه الله للمعتبرين بلطيف صنعه ونعيم لطفه.

قال عمرو بن عثمان المكي: إن لله تبارك وتعالى قلوبًا في أوعيةٍ من الأجسام أودع فيها ودائع، وأخفاها عن الخلق، فإذا أنـزل عليها مياه رحمته وبركات نظره استخرج ودائعه، فعرَّف القلوب محل تلك الودائع، وأظهر على النفس بركاتها، وألقى على الحق هيبة صاحبها، فهو في هيبةٍ عند الخلق وانكسارٍ عند نفسه وشفقة ونصيحة للخلق وخوف دائم من ذنوبه، وذلك من آيات الله الظاهرة، وهو حقيقة قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ﴾ أحيا تلك النفوس بتلك الودائع قادرٌ أن يحيى ببركة نظره قلوبًا غفلت عنه وأنفسًا ماتت عن القيام بخدمته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾: خَوف الله أهل الطامات الذين يديرون رؤوسهم عند العامة ويزعقون ويُخرِّقون ثيابهم، ويجلسون في الزوايا، ويتـزهدون، وينظرون في تصانيف المشايخ، ويتقوَّلون عليها ما يتخيلون، ويتزخرفون عند العامة، وينتظرون دخول الأمراء عليهم، ويدَّعون المكاشفة والأحوال والمواجيد، لا يخفى على الله كذبهم وزورهم وبهتانهم ونياتهم الفاسدة وقلوبهم الغافلة، وعلى أوليائه من الصديقين والعارفين الذين يرون خفايا قلوب الخلق بنور الله، لو رأيتهم كيف يفتضحون يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وترى أهل الحق ينظرون إلى الحق بأبصارٍ نافذةٍ نورية وأرواح شائقة وقلوب عاشقة، ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾، قال الله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، ثم حذَّرهم بقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ من الفتاوى بغير علمٍ واستبداع الضلالة في دين محمد ﷺ، قال الله: ﴿وَلَا

---

(١) (اهتزَّتْ) أي: تحركت (وربَتْ) انتفخت؛ لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت، ثم تصدّعت عن النبات، وقيل: تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها، البحر المديد (٥/ ٤٠٧).

تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ووصف النبي ﷺ هؤلاء الملحدين وشبههم بالفراعنة، وشبَّه قلوبهم بقلوب الذئاب، قال ﷺ: «يخرجُ في أمّتي أقوامٌ لسانهم لسانُ الأنبياء وقلوبهم كقلوب الفراعنة»[1]، وفي موضع آخر قال: «قلوبهم كقلوب الذئاب، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، أفتوا بغير علمٍ ضلُّوا وأضلُّوا»[2].

قال أبو عبد الله بن جلا: معنى هذه الآية إن الذين يخبرون عنا على غير سبيل الحرمة فإنه لا يخفى علينا جرأتهم علينا، ونعذبهم في دعائهم.

وقال ابن عطاء في هذه الآية: إن المدعي عن غير حقيقة سيرى منا ما يستحقه من تكذيبه على لسانه وتفضيحه في أحواله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾: عزيز من حيث امتنعت أسراره عن تفهم الأفهام وإدراك الأوهام؛ لأنه كنوز غيب الذات والصفات، وهو صفات الأزلية، مفاتيح كل صفةٍ، لا يدركه بالحقيقة عوض الفطن، ولا تحويه الخواطر والذهن، لا يزيله أباطيل الأولين ولا ترهات الآخرين؛ لأنه لا يحل في الحدثان، ولا يفارق عن ذات الرحمن، فإذا كان الحق موصوفًا به أزلاً وأبدًا فكيف تغيره الحوادث؟! وكيف تخلفه الأزمنة والدهور؟!

قال ابن عطاء: عزيز؛ لأنه لا يبلغ أحدٌ حقيقة حقه؛ لعزِّه في نفسه، وعزٍّ من أنـزله، وعزٍّ من أُنـزل عليه، وعزٍّ من خُوطب به من أوليائه وأهل صفوته.

وقيل: البعد أوهام العباد عن حقيقته.

قال ابن عطاء: كيف يأتيه الباطل وهو الحقيقة ونزل من عند الحق؟! وهو كلامه، فكيف يلحقه باطلٌ وبه تتحقق الحقائق، وبه تصحُّ أحوال المتحققين؟! وهو الحق على كل الأحوال، والباطل ضده، فكيف يجتمع المتضادان وهما متباينان من كل الوجوه؟!

قال أيضًا: كيف يكون لباطلٍ عليه سبيلٌ وهو من حقٍّ بدأ وإلى حقٍّ يعود؟! وهو

---

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه.

(٢) كسابقه.

الحق، فلا يتحقق به إلا محققٌ.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[1]: هدى لعقول العارفين إلى معدنه، وهو ذات القديم، وشفاء القلوب العاشقين المشتاقين، وأرواح مرضى المحبة وسقمى الصبابة؛ لأنه حبيبهم، وكتاب مشوقهم، يستلذونه من حيث العبارات، ويعرفونه من حيث الإشارات.

وقال جعفر: شفاءٌ لمن كان في ظل العصمة، وعمىً على من كان في ظلمة الخذلان، فكما وصف الله أهل خالصته وما يقع لهم بخطابه وصف المنكرين كلامه والجاحدين وجوده بأن في آذان قلوبهم وأسماع عقولهم وقر الخذلان والضلالة، ولا يرون جمال خطابه بأن ليس في عيونهم أنوارٌ لحمل مشاهدته، ولا سنا عزّ هدايته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، إذا لم يروا جمال القرآن بنور الفهم والإيمان زاد طغيانهم بالإنكار عليه؛ لأنهم في مكان الضلالة، وهو بعيدٌ من أن يسمعوا بوصف الفهم والإدراك والمتابعة.

قال ذو النون: من واقر سمعه، وأصمَّ عن نداء الحق في الأزل، لا يسمع نداءه عند الإيجاد، وإن سمعه كان عليه عمىً، ويكون عن حقائقه بعيدًا، وذلك أنهم نودوا عن بعدٍ، ولم يكونوا بالقرب.

---

(١) الضمير للقرآن؛ يعني أن الله تعالى هدى مَن استعد للإيمان إلى الإيمان بسبب القرآن، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]؛ والمقصد هداية الله تعالى بسببه، فوصفه بصفته؛ لقوته في السببية.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾: وصف الله من لم يعرفه ولم يعرف لطائف برِّه بأوليائه ويكون مقلدًا في الدعاء ومعرضًا بسرِّه عنه وبظاهره عن طاعته ليس هو يدعوه بالحقيقة، إنما يدعو مراده، فإذا حصل مراده قام على تكلفه وتقليده، وإن لم يحصل مراده ويمسه بلاؤه يفرُّ منه، ولا يدعوه، ولو كان على محل التحقيق في دعائه ومعرفته بربه فإنه لا يفرُّ من بلائه، ولا يقنط من رحمته؛ فإن العارف الصادق يستلذُّ بلاءه، كما يستلذُّ نعمه في لسان الخلائق.

لنا فيه إشارةٌ؛ وذلك أن العارف المشتاق الذي من كمال شوقه يريد أن يشرب جميع بحار الأزل والأبد والربوبية والألوهية والذات والصفات المنـزهة عن مباشرة الحدثان بشرية واحدة وهو لا يقدر؛ لأنه تعالى منـزَّهٌ عن أن يحيط به أحدٌ من خلقه وإن كان نبيًّا مرسلاً، فإذا وجد نفسه أنه يسهل عليها شربها على قدر مذاقها وزيادة يستقيم في طلبها، وإذا نظر إلى امتناع الألوهية عن إدراكه ييأس ويقنط عن أن يدركه بالحقيقة، وهذا إذا كان هو مطالعًا في بطون الأزل وأكناف القدم وغيوب الأبد، لو رأيته يا عاقل كيف يفرُّ من الحق وهو غضبان عليه معربدًا شطاحًا بتكلُّمه عن سرِّ الانبساط، ويخاصمه، وهذا كله من حيرته في الله واشتياقه إلى درك الحقائق.

قال سهل في قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: يملُّ العبد من ذكر ربه وشكره وحمده والثناء عليه.

وقال أبو عمرو الدمشقي: لا يسأم العارف من مناجاة معروفه، بل لا يصبر عنه لحظة ولا نفسًا.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾: رسم ظاهر الآية أن المضطرب في المعرفة إذا أنعم عليه من نعم الكرامات

اشتغل بها عن الحق، وفرح بما وجد منه، واحتجب عن مشاهدته، وإذا لم ينل مأموله من الكرامات وجزاء الطاعات فيدعو ويتضرع، ويسأل مأموله على الرغبة في جميع الأنفاس، وإشارة الحقيقة في الآية إذا ألبس الحق أنانيته العارف ويكون مستقلاً بقدرته، متصفًا بصفاته، ينظر من القدم إلى ما بدا من القدم، فيسكر، ويخرج بدعوى الأنانية، وذلك حين ينسى القدم في نفسه بما غلب من القدم عليه، وإذا زاد الحق عرفانه بإفراد قدمه عن الحدوث وبمعرفة فنائه في بقائه وما ترى فهو هو تعالى لا غير يرجع إلى معادن العبودية، ويكون متضرعًا عاجزًا فانيًا في سبحات جلاله، يكدي على باب الربوبية بنعت الفقر والافتقار إلى ذرة من معرفته.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أظهر الآيات، وجعلها مرآة لصفاته وذاته سبحانه، ويتجلى منها أنوار الذات والصفات للشاهدين مشاهدة القدم، سرٌّ يسرُّ في حقائق التوحيد، وظاهرًا يرونه من الآيات في زمان العشق في لباس الفعل؛ استقامة للمحبة؛ والتباسا لأمر الحقيقة، ولو ظهر بنعت الألوهية ظاهرًا وباطنًا لتعطلت الأشباح، ولفنيت الأرواح، واضمحلت النفوس والعقول؛ لأن بروز سطوات الأحدية لا تحتمله الآيات ولا الأشباح ولا الأبصار ولا الأفكار، ذكر في الأول آيات ومقصوده صفاته التي تشرق أنوارها في آفاق الأسرار، والآيات العالم الفعلي، والمقصود من الصفات ظهور الذات لنظار حقيقة الحقيقة، وإلا فأين الآيات في ظهور الصفات، والذات الآيات للعيون، والصفات للقلوب، والذات للأرواح، وسرُّ القدم للأسرار، لا ينكشف السر، والعارف الصادق إذا كان في عين الجمع لا يرى شيئًا إلا ويرى الحق بعينه؛ لأنه في حقيقة الحقيقة، ما بدا منه هو فعله، وفعله غرق في صفاته، وصفاته قائمةٌ بذاته، فإذا شاهده في نفسه كما شاهده في آياته يختلط الأمر، ويغيب الحدث في القدم، ويحلُّ عليه سكر الأنانية، فيدَّعي الربوبية؛ لأن مشاهدة الآيات تقتضي العشق والمحبة، ومشاهدة الحق في مرآة النفس تقتضي الاتحاد من تأثير مباشرة سر التجلي، وهذا حال الحلاج -قدس الله روحه- حيث قال: أنا الحق. وحال الأول حال الواسطي؛ حيث قال: ضحكت الأشياء للعارفين بأفواه القدرة بل بأفواه الرب. لو ترى يا شاهد مشاهدة الحق في الآيات ترى أنوار العظمة والكبرياء من عيون الآساد وأنياب الثعابين، وترى أنوار جماله من أوراق الورد والنرجس والياسمين ووجوه الحسان، وتسمع أصوات الوصلة من ألحان الطيور والبلابل والعنادل، وأصوات الرياح والسحاب والإنسان

والأوتاد، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الوردُ الأحمرُ من بهاء الله، مَنْ أرادَ أن ينظرَ إلى بهاء الله فلينظرْ إلى الورد الأحمر»[1].

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: سنريهم هذه الحقائق في الآيات وفي أنفسهم؛ حتى يتبين لهم أنها هي الحق بعينه لا الآيات ولا الآفاق ولا الأنفس إن لاح الحق من الحق لأهل الحق، وتأكيد ذلك برهان ظهوره من كل شيء وشهوده على كل ذرة من العرش إلى الثرى بنعت التجلي، وتبسم صبح الأزل في عيون المشاهدين جلاله.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ أي: ظاهرٌ من كل شيء بسطوع نور أزليته منه لكل مستأنس شاهد به فيه، ثم بيَّن أن المحرومين في الأزل بسبق الشقاوة لا يرونه حقيقة وبينًا وكشفًا وعيانًا وعزًّا وسلطانًا وبرهانًا بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: إنهم مطموسون عن مشاهدته بلطمات قهره، فهم في شكٍّ وريبٍ من حيث عماهم وجهالتهم، ثم أكَّد أمر ظهوره على الكل بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ : أحاط علمه وقدرته وجلاله وجماله بكل شيءٍ من العرش إلى الثرى، لكن لا يراه بنعوتها إلا العاشقون الوالهون العارفون.

قال القحطبي[2]: لا يزال العبد يرتقي من حالٍ إلى حالٍ حتى يبلغ إلى الأحوال السنية العلية؛ فيرى الله قائمًا بالأشياء، ثم يرقى به من ذلك الحال حتى يرى الأشياء فانيةً في رؤية الحق، ويتيقن أن القديم إذا قُورن بالحدث لا يثبت له أثرٌ، وإن جلَّ قدره وعظم خطره، وهو معنى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، وهو النظر إلى الكون بمشاهد الحق، ثم النظر إلى الحق بالفناء من الكون، وهو أن تصير النعوت نعتًا، ولا يشهد إلا حقًّا صرفًا.

وسُئل أبو عثمان عمن يقول بالشاهد؟ فقال: لا أنكر القول بالشاهد لمن يشهد الأشياء كلها شيئًا واحدًا.

وقال الواسطي: ظهر من كل شيء بما أظهر منه، وإظهاره الأشياء ظهوره بها، فإذا فتَّشها لا يجد غير الله، قال الله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ١٧١).

(٢) أبو القاسم القحطبي: الصوفي كان أحد الصلحاء الصوفية بطرسوس، وذكره أبو عمرو الطرسوسي. بغية الطلب في تاريخ حلب (٤/ ٣٧٥).

﴿ٱلْحَقُّ﴾ دون غيره؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «أصدقُ كلمةٍ تكلَّمت بها العرب كلمة لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ»(١).

وقال بعضهم: يرى الأشياء عدمها وجودها ووجودها عدمها، كما أن كل قربٍ بعدٌ، وكل بعدٍ قربٌ؛ لأن إحاطة القدرة بالشيء وجود الشيء.

وقال الواسطي في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: لو شهدوا شواهد الحق فيما جرى عليهم من المخالفة والموافقة لما اضطربوا فرحًا ولا حزنًا نفيًا للشرك والمقارنة.

وقال أيضًا: أوائلها للطائعين والعابدين، طالعوه، وراقبوه، وأواخرها للواجدين، شاهدوه على آباده وسرمده الذي فيه فناء معاينهم.

وقال ابن عطاء: آيات الحق باديةٌ لمن كُحِّل بنور التوفيق، ونظر إليها بعين التحقيق، وكل ما أظهر الله تعالى من خلقه ناطقٌ بتوحيده إما صريحًا وإما دليلاً منه للحق إن شاهدوا ونظروا عن بصر وبصيرة ولا دليل عليه وإليه سواه، فإن الكل حدثٌ وهو القديم، ومتى يُستَدل بالحدث على القديم؟!

سورة الشورى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ : هذه الأحرف رمز الله مع حبيبه ﷺ، يخبره بهنَّ ومن كان أهله من سرِّ الذات والصفات والأفعال، الحاء رمز الحياة الأزلية، والميم رمز محبة القديم، والعين رمز عينية ذاته وعلمه القديم وعيانه لأهل العيان، والسين رمز سرِّه وسرِّ سرِّه وغيبه وغيب غيبه وسنا سبحات وجهه وكشفه لأهل الكشوف، والقاف عن قديمية وجوده، وقوله القديم الذي منه بدأ العالم، وآدم بالحاء الحياتي، أحيا قلوب العارفين حين تجلت منها حياته لها، وبالميم المحيي بملك الأرواح المحبين بحلاوة محبته، التي برقت سناها في عيونها، ثم بسرِّ الحرفين ورمز النعتين حمى أسرار الواصلين عن خطرات الريب، وكاشف لها أسرار الغيب، ومن العين عاين ذاته وصفاته للعالمين به وبأوصافه ونعوته، وبالسين سار سنا برق سبحاته في

---

(١) رواه مسلم (٧/ ١٧٦٨)، والترمذي (٥/ ١٤٠).

أسرار السابقين، وبالقاف ظهر قاف كبرياء قدم ذاته وقيوميته صفاته للقائمين به في قربه عند ظهور قيامه عليهم، وافهم أن الحروف على أوائل السور رموز الحق، أخفى أسرارها عن غير أهلها، ثم أخفى من تلك الخفيات هذه الأحرف على أوائل هذه السورة بأن رفع عن السين نقوش الشين، فأراد بالسين الشين وبيان ﴿حمٓ﴾عشق أي: يحيى الأزلي، وجمال الأبدي عشق العاشقون، وأنا عشيقهم، وبرمز العشق أخاطبهم، حتى لا يطّلع على أحوالها أهل الرسوم فيهلكوا، لأن من بين العاشق والمعشوق ارتفع حشمة الربوبية وكلفة العبودية في مقام المشاهدة، ثم أقسم الحق بهذه النعوت أي: بحياتي يا حبيبي ومجدي وجمالي وملكي ومحبتي لك والأولياء أمتك يا محب يا محمد، وبعلو شأني وعلمي المحيط وعزي وعياني، وخلقي يا عارف يا عالم يا عالي الهمة يا عزيز، وبسنائي وقدسي وسرمديتي، وسبق وجودي على كل شيء، يا صاحب سري، ويا سبّاق كل سابقٍ بالشرف والفضل والتقدم، ويا سبّاح بحر قدسي وأنسى ومقدمي وقيوميتي وقيامي على كل شيء، وبقولي الحق، وبقدرتي القديمة، وبقضائي وقدري، وبعشقي يا عاشقي، وبصدقي يا صادق، إن هذه الإشارة قد أشرتها إليك، كذلك أشرتها إلى أنبيائي قبلك وأوليائي وأهل خالصتي، وذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾: عزيز بعزي عززتك وعززت أوليائي، وبحكمتي اصطفيتك واصطفيت أحبائي، وأعطيتك وأعطيتهم حكمي ومعرفتي، ومنعت عنك وعن أهل محبتي كيد الكائدين وغلبة الجاهلين.

قال ابن طاهر: الحاء من الحكيم، والميم من الملك، والعين من العالم، والسين من السيد، والقاف من القادر، هو الذي ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾: يوحى إليك أنباء من قد سلف من الأمم، ويوحي إلى الذين من قبلك فضلك وفضل أمتك.

وقال أبو بكر الوراق: الحاء حلمه حليم ملكه، والعين علوه وعلمه، والسين سناؤه، والقاف قدرته، يقول: بحلمي وملكي وعلوي وعلمي وسنائي وقدرتي أني لا أعذّب من عرف ربوبيتي وأحسن ظنه فيَّ وأحبَّ الرجوع إليَّ.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم

﴿مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ينهانا الله سبحانه عن عظيم قدره وجلال عزه، وبأنه سبحانه خلق قومًا من الجهلة، وأطلقهم في مهمة الضلالة حتى وقعوا في مقالة السوء، ويقولون على الله ما لا يعلمون من أعظم افترائهم، تكاد السماوات تنشق من فوقهن من الغضب عليهم، وذلك بعد أن ألبسها الله إقرار قدرته، وأدخلها روح فعله حتى عقلت عبودية صانعها، وعرفت قدسه وطهارته عن قول الزائغين وإشارة الملحدين، والملائكة يقدسون الله عما يقولون فيه من الزور والبهتان والدعاوى والباطلة، ويستغفرون للمؤمنين الذين لم يبلغوا حقيقة عبوديته، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: غفر ذنوب المقبلين ورحمهم بأن يرزقهم قربه ووصاله.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: وليُّ كل وليٍّ، في الأزل أجادهم بتجلي القدم من موت العدم، تولى أسرارهم بنعت حفظها من قهره، ويحيى بجماله قلوبهم عن موت الجهل به، بعد أن عرَّفهم نفسه، وألبس أرواحهم أنوار حياته، وفيه شكاية عن المشغولين بغيره، الباقين في حجاب الوسائط، يعرض نفسه بنعت الجلال والجمال على المقصرين؛ ليجذب بحسنه وجماله قلوبهم إلى محبته وعشقه، ويحييها بنور أنسه وسنا قدسه.

قال ابن عطاء: الحق يتولى أولياءه في كل نفسٍ برعايته وعناية طربه، ومن كان الحق متوليًا سعاياته وحركاته كان في أصون صونٍ وأحرز حرزٍ، وهو الذي يحيى القلوب بمشاهدته وبالتجلي بعد الاستتار.

وقال الواسطي: يحيى القلوب بالتجلي، ويميت الأنفس بالاستتار.

وقال سهل: لا يحيى النفوس حتى تموت.

قال بعضهم: قلوب أهل الحق مصانةٌ عن كل معنىً؛ لأنها موارد الحق، ولما بيَّن أن

المعرضين عن ساحة قدمه وجمال وحدانيته عزيز عزته وعظيم نور كبريائه المقبلين إلى وسائط الحدثان، وطلب لذة الحال من رؤية الأكوان، وكشف الحقيقة عن مرآة الخليقة، إنهم من حقيقة التوحيد عبدة الأصنام إذا انعزلوا من ضعف قلوبهم عن طوارق سطوات عظمة القدم، المنزه في ظهوره عن أن يحل في الحوادث، المقدس من أن تكون ذاته وصفاته في الكوائن والمشاهد، قدَّس نفسه عن المشابهة بغيره بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: كل ما وقفتم عليه من العرش إلى الثرى فأنا منـزَّهٌ عن ذلك، ولو أتجلى من قدس جلالي بالحقيقة لاضمحلَّ الحدثان، وفنيت الأكوان، سبحاني تعاليت عن خطرات الأوهام وعما يحل في الأفهام، وعما تدركه العقول وتشاهده القلوب ويعاينه الأرواح ويصادقه الأسرار؛ من ذكرني بحظِّه فقد افترى، ومن شكرني بحظِّه فقد ابترى، ومن صبر في موازاة قدمي فقد اجترأ؛ لولا رحمتي الواسعة على جميع خلقي ما أوجدتهم وما خاطبتهم؛ إذ خطابي معهم من وراء كل حادثٍ، وليس في عزة قدمي وراء ولا ملأ ولا خلاء ولا مكان ولا زمان، من أشار إليَّ بنعت العشق فهو محجوبٌ بحظِّه عني، ومن أشار إليَّ بنعت المعرفة فأنا منـزَّهٌ عن أن كون معروفه بمعرفته، ومن أشار إليَّ بالتوحيد وتوحيده راجعٌ إليه وأنا واحدٌ في وحدانيتي، ما فارقت عن اثنين حتى توحدت؛ فإن وحدانيتي منـزَّهةٌ عن الكثرة والقلة، ولم يكن للحدثان وجودٌ بالحقيقة حتى يكون مثلاً لي؛ إذ قيامها بي، وكيف تكون الأشياء مماثلي والأشياء قائمة لقدرتي؟! ولولا قدرتي ما تكونت الأشياء، ليس لصنعي مثلٌ، فكيف لصفاتي وذاتي؟! يا حبيبي احترق في نيران الغموم والهموم واليأس والقنوط من إدراك عين حقيقته، وإن كنت مشاهدًا إياه أبدًا فإن الكون غائبٌ في بحر لا إله إلا الله، ولام ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، نفى الكيفية والأينية والحيثية في أول إبراز نور قدسه بقوله ليس، وقد كفى به أهل التوحيد إذا عدم التشبيه والمشابهة، ولو فهم المخاطبون حروف أول السورة لرأوا معنى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ في رمزها سبحانه، سبحانه هام فؤادٌ، عرفه كل لسان وصفه، سبحانه ما أعظم شأنه!

قال الواسطي: رموز التوحيد كلها خرجت من هذه الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لأنه ما عبَّر عن الحقيقة بشيء إلا والعلة مصحوبةٌ والعبارة منقوصةٌ؛ لأن الحق لا ينعت على أقداره؛ لأن كل ناعتٍ مشرَّفٌ على المنعوت، وجلَّ أن يشرف عليه مخلوقٌ.

وقال الشبلي: كل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم فهو مصروفٌ إليكم، ومردودٌ عليكم، محدثٌ مصنوعٌ مثلكم؛ لأن حقيقته جلَّ أن تلحقها عبارةٌ، أو يدركها وهمٌ، أو يحيط بها علمٌ، كلاَّ كيف يحيط به علمٌ وقد اتفقت فيه الأضداد بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أيُّ عبارة تخبر عن حقيقة هذه الألفاظ؟! كلا

قصرت عنه العبارة، وخرست الألسن؛ لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1].

وقال الواسطي: احتجب بخلقه عن خلقه، ثم عرَّفهم صنعه بصنعه، وساقهم إلى أمره بأمره؛ فلا يمكن للأوهام أن تناله، ولا العقول أن تحتاله، ولا الأبصار أن تتمثله، ولا الأسماع أن تشمله، ولا الأماني أن تمتهنه، هو الذي لا قبل له ولا بعد له، ولا يقصد عنه، ولا معدل ولا غاية وراءه، ولا منتهى، ليس له أمدٌ ولا نهايةٌ ولا غايةٌ ولا ميقاتٌ ولا انقضاءٌ، لا يستره حجابٌ ولا يقلُّه مكانٌ، ولا يحويه هواءٌ، ولا يحتاطه فضاءٌ، ويتضمنه خلاء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فلما قطع أطماع الحقيقة عن إدراك جلاله رغَّبهم في إقبالهم إليه؛ لطلب عرفان وجوده، ووجوده بقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مقاليده مشيئته الأزلية وإرادته القدمية، يفتح بها أبواب كنوز سنوات ذاته وصفاته، وأعرض فعله للمصطفين في الأزل بمحبته، وينثر على أسرارهم جواهر أنوار معرفته، ويعرِّفهم شمائل وجوده ومحاسن أفعاله وغرائب صفاته، ثم زاد وصف كرمه لطلاب قربه وعشاق مشاهدته بقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾: يبسط رزق مشاهدته لمن يشاء من أهل صبابته وأهل الاشتياق إلى جماله، وهو قادرٌ بذلك، لا ينقص جلاله، وأن ينظر إليه أهل شوقه أبد الآبدين؛ إنه عالمٌ بحرق فؤادهم ولهيب نيران أسرارهم، يميل بذلك أزمَّة طلاب الحوائج إلى ساحة جوده؛ حتى لا يميل أحدٌ لكلِ معنىً إلى غيره، يا أخي مقاليد سماواته ما في قلوب ملائكته من أحكام الغيوب، ومقاليد أرضه ما أودع الحق صدور أوليائه من حجائب القلوب.

قال ابن عطاء: مقاليد السماوات الغيوب، ومقاليد الأرض الآيات والبينات.

وقال: عاتب الله أولياءه بنظرهم إلى ما سواه.

---

(١) قال سيدي علي وفا: اسمع: إن قيل لك المِثل بكسر الميم وسكون الثاء وبفتح الميم والثاء واحد، فكيف الجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] وبين قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فقل: وما توفيق العبد إلا بالله سيده ومولاه: إن كانا واحدًا لغةً فالمثل قد أُثبت للحقيقة التي هي الهوية بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾، ولاسم الجلالة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾، ولنور الله بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ ونُفي عن مثل الهوية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأثبت المثل للنور بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ هذا المشكاة أمرٌ وهميٌّ ليس غير؛ لأنه في الحس فراغ متوهم وخلاء، والخلاء ثابت وهمًا فقط، فهو في الحس والكون لا شيء، فلا يلزم من كونه كائنًا أن يكون ذلك الأمر شيئًا. وإنما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ ليثبت أنه ليس له مثل حقيقي؛ إذ الظاهر منه في المظاهر هو بالحقيقة، ومثاله بالوهم ليس إلا كالذي تراه منك بواسطة المرايا الصقيلة، ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: ٣٥]: أي يبين الله الأمثال للناس، فافهم.

وقال: بيدي مقاليد السماوات والأرض؛ فلا تشتغلوا بهما ولا بما فيهما وعليهما؛ فإن كلها قامت بي، كونوا إلى حقًا؛ أسخر لكم الأكوان وما فيها، ألا ترى كيف قطعهم عن الاعتماد على الأنبياء بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

وقال: مقاليد الأرزاق صحة التوكل، ومقاليد القلوب صحة المعرفة بالله، ومقاليد العلوم الجوع.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أي: بسط لكم بساط العبودية التي هي مرقاة عرفان الربوبية، فإذا كنتم تصعدون عليها تبلغون إلى مشاهدة جلالي وكشف جمالي، عرفتكم نفسي كما عرفت نفسي حبيبي وخليلي وكليمي وروحي، ووصيتكم بألا تختاروا عليّ شيئًا من دوني، فإذا تجردتم عن غيري واستقمتم على بساط خدمتي وأقبلتم إلى جمال مشاهدتي بنعت المحبة والشوق فقد بلغتم نهاية الدين الذي اصطفينا به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا ﷺ وعليهم أجمعين، لا تتفرقوا من مقام الجمع؛ فإن عين الجمع غاية ذوق العارفين، والتفرقة غاية الحجاب بيني وبينكم.

قال بعضهم في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: من تعظيم محمد ﷺ الأنبياء السابقة.

وقال سهل: الشرائع مختلفة، وشريعة نوح هي الصبر على أذى المخالفين.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾: ألبس الله حبيبه أنوار نعوته الأزلية بنعت التجلي والكشوف لقلبه وعقله وروحه وسره وصورته، فلما جعله كاملاً من كل الوجوه قال له: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أي: استقم بي على مرادي منك؛ بحيث تستقيم بصفتي عند كشف حقائق ذاتي؛ فإن الكون وأهله لا يستقيم في موازاة ذرة من عين الألوهية، والاستقامة في الأمر عمومٌ، وفي المعرفة والمشاهدة خصوصٌ، الاستقامة في العبودية للأولياء، والاستقامة في مشهد الربوبية للأنبياء.

قال بعضهم: حقيقة الاستقامة لا يطيقها إلا الأنبياء وأكابر الأولياء؛ لأنها الخروج من المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق، ولذلك قال النبي ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا»[1] أي: لن تطيقوا الاستقامة التي أُمرت بها.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: لطيفٌ بأوليائه وأهل معرفته ومحبته، بأن أودع أرواحهم في الأزل ودائع العلم اللدني وأنوار محبته الأزلية، واصطفاهم بقربه ووصاله، وأغرقهم في بحار شوقه وعشقه ومعرفته، ثم طالع أسرارهم بعلومه القديمة، فرأى لهب نيران قلوبهم من شوقه، لا يخفي عليه هيجانهم وشوقهم إليه، فجذبهم من مكمن العدم أولاً إلى نور القدم، وأشهدهم على مشارب بحار الذات والصفات، ثم جذبهم إلى بساط العبودية، وتلطَّف عليهم بأن رفع عنهم أثقالها تلطفًا وكرمًا حتى سهَّل عليهم مسالك الاستقامة، ثم جذبهم إلى مشاهدة الربوبية، وأدناهم منه، ودنا منهم؛ حتى يبقى البين في البين، قال تعالى في وصف حبيبه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾[2]: ثم حماهم من قهر غيرته، وألبسهم قباء أنوار بقائه، وتوَّجهم بتيجان المسرة، وشدَّ في أوساطهم مناطق الحرمة، وأجلسهم على أرائك المملكة، وخاطبهم بأسرار ملكه وملكوته، وجعلهم أهل سرِّه، وأكرمهم بكشف ملكه لهم حتى حكموا فيه بشرط الانبساط، لا يثقل عليهم حقوق المعارف، ولا يجري عليهم إلا أنوار الكواشف، هم طيور مناهل الوصال، يطيرون في بساتين الجمال والجلال، ويترنمون بألحان الصفات، ويخبرون أهاليهم من أسرار الذات، طوبى لهم، ثم طوبى له، ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، فأرجو من كمال كرمه القديم وجوده العميم أن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فإذا ارتفع الأين والبين والمكان والجهات، واتصل أنوارُ كشوف الذات والصفات بالعارف، فذلك حقيقة المعية، إذ هو سبحانه مُنزّه عن الانفصال والاتصال بالحدث، البحر المديد (٦/ ٢٦٦).

أكون طيرًا من ملك البلابل، أصفِّر بصفير الصفات، وأترنم من بطنان غيب الذات، سكران من رؤية الذات، والهًا بالصفات، وواهًا من شراب الصفات، مشغوفًا بسنا الذات، ثم أفنى في الذات، وأبقى في الصفات، ولا يجري عليَّ بعد ذلك طوارق الفناء؛ فأبقى بقاء الأبدي، وأتدارك ما فات مني من المعية القدمية مع القدم؛ فإن الآخر بالحقيقة أولُ، والأول آخرُ، والظاهر باطنٌ، والباطن ظاهرٌ، فنحن الأولون حيث قام الحق بأوليته مقام أوليتنا وإن كنا معدومين، ونحن الآخرون من حيث ألبسنا الحق وصف بقائه، ونحن الظاهرون بظهوره علينا، ونحن أهل الباطن والغيب؛ إذ لا غيب في الكشف، ولا باطن في الظهور، تعالى الله من أن يدركه بوصفه غيره، رزق الله هذه المراتب العلية والمواهب السنية من آمن بنا، وبكل وليٍّ صدر من بساتين الغيب، ومشارب القرب الذي يتكلمون بمثل هذه الكلمات البديهية الإلهية الربانية، كما قال سبحانه: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾: قويٌّ باصطفائيتهم مما اختار لهم في أزله إلى أبده.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: يعلم من أنفسهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فربط كلا بحده، فمن بقي مع حده حجب، ومن تجاوز حده هلك.

قال أبو سليمان الداراني: من لطف الله بعبده أن قصر له كنه معرفته حتى لا تتكدر عليه نعماؤه.

وقال الجنيد: اللطيف الذي لطف بأوليائه حتى عرفوه.

وقال ابن عطاء: اللطيف الذي يعرف الغيوب بلا دليل.

قال بعضهم: اللطيف الذي يُنسى العباد في الآخرة ذنوبهم لئلا يتشردوا.

وقال بعضهم: الذي لم يدع أحدًا يقف على مائة أسمائه فكيف الوقوف على مائة وصفه وذاته؟!

وقال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: موجودٌ في الظاهر والباطن، والأشياء كلها موجودةٌ به، لكن يوجد ذكره في قلب العبد مرةً، ويفقده مرةً؛ ليجدد بذلك افتقاره إليه.

وقال القاسم في قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾: الفطنة والحكمة، ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾: القوي يقوِّي الفطن، والعزيز عزَّز عنايته ورعايته، ولا يبذلها لكل أحدٍ.

قال الأستاذ: اللطيف هو العالم بدقائق الرموز وغوامضها.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ

ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾: حرث الآخرة مشاهدته ووصاله وقربه، وهذا للعارفين، وحرث الدنيا الكرامات الظاهرة، ومن شغلته الكرامات احتجب بها عن الحق، لو يزيد من حرث الدنيا فهو معرفة الله ومحبته وخدمته، وإلا فلا يزن الكون عند أهل المعرفة ذرةً.

قال بعضهم في هذه الآية: من عمل لله محبة له لا طلبًا للجزاء صَغُرَ عنده كل شيء دون الله؛ فلا يطلب حرث الدنيا ولا حرث الآخرة، بل يطلب الله من الدنيا والآخرة.

قال سهل: حرث الدنيا القناعة، وحرث الآخرة الرضا.

وقال أيضًا: حرث الآخرة القناعة في الدنيا والمغفرة في الآخرة والرضا من الله في كل الأحوال، وحرث الدنيا قضاء الوطر منها والجمع منها والافتخار بها، ومن كان بهذه الصفة فما له في الآخرة من نصيب.

قال الأستاذ: نـزيده اليوم في الطاعات توفيقًا، وفي المعارف وصفاء الحالات تحقيقًا، ونـزيده في الآخرة ثوابًا واقترابًا وفنون النجاة وصنوف الدرجات.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: قدَّس الله تعالى بهذه الآية حال نبيه ﷺ أن يكون قلبه مشوبًا بشيء من الحدثان في دعاء الخلق إليه، وأنه يريد منهم جزاء دعوته أن يتقربوا إلى الله ببذل الأرواح في محبته، وبذل الأشباح في خدمته، وأن يستنُّوا بسنته، ويتبعوا أسوته في جميع الأنفاس؛ طلبًا لزيادة محبة الله إياهم ومتابعته، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال سهل: أن تقربوا إليَّ باتباع سنتي.

قال ابن عطاء: لا أسألكم على دعوتكم أجرًا لا أن تتوددوا إليَّ بأن تعملوا من الأعمال ما يقربكم إلى ربكم.

وقال الحسن: كل من تقرب إلى الله بطاعته وجبت عليك محبته.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾: بيَّن الله سبحانه قدس استغنائه عن المخلوقين حتى من نبيه وصفيه وجميع الملائكة والرسل بأنهم لو خالطوا حاشاهم في آياته وبيان شريعته ليمحو وجودهم وقلوبهم وما لا يليق بدينه، ويثبت الحق والحقيقة بكلماته الأزلية التي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وفيه تقديس كلامه وطهارة نبيه ﷺ عن الافتراء، وكيف يفتري وهو مصونٌ من طريان الشك والريب والوساوس والهواجس على قلبه، وفيه من النكت الغريبة أي: لو تظهر سرَّ السر وغيب الغيب نربط على قلبك لطف الصحو؛ حتى لا تفشي سرَّنا من سكرك، فيهلك العباد فيه.

قال سهل: يختم على قلبك ختم غلبة الشوق والمحبة، فلا تلتفت إلى الخلق، وتشتغل بإجابتهم.

وقال الواسطي: إن يشاء الله يختم على قلبك بما شاء، ويمحو الله الباطل بنفسه ونعته، حتى يعلم أنه لا حاجة به إلى أحدٍ من خلقه، ثم يحقق الحق في قلوبٍ أنشأها للحقيقة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: يقبل توبتهم حين خرجوا من النفس والكون، وصاروا أهله مقدسين بقدسه، ويعفو عن سيئاتهم ما يخطر بقلوبهم من ذكر غيره، ويعلم ما يفعلون من التضرع بين يديه في الخلوات.

قال الأستاذ: إن لم يتب العبد خوفًا من النار ولا طمعًا في الجنة لكان من حقه أن يتوب؛ ليقبل الحق سبحانه توبته.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: يعني يعطي سؤال السائلين في مشاهد قربه، ويزيدهم ما لا يعلمون؛ إنه مدخرٌ لهم من غرائب لطفه وعجائب كرمه؛ لأنهم شاهدوا مشاهد ربوبيته حين غاب عنها أكثر الخلق،

وعملوا في بذل وجودهم لحب وجهي الكريم، واقتحموا في بلياتي بصالح أعمالهم وحسنات نياتهم، فيجازيهم بما هو أهله، قال الله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: علمًا ومعرفة بنا وبما لدينا وتوفيقًا للزيادة والرغبة في طاعتنا، ونـزيده لطفًا وكرمًا من عندنا، ونلبسه نورًا من نورنا، ونجعله حسنًا بحسننا.

قال بعضهم: من تقرَّب إلينا بطاعتنا أكرمناه بالتوفيق، وزدناه من الإحسان إليه، وهو أن نكرمه بالإقبال علينا والاحتراز عما سوانا.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: الرؤية.

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟﴾: أراد بالرزق في الحقيقة والبسط كشف مشاهدته على السرمدية في هذا العالم للعارفين، يشكرون، ويشطحون، ويعربدون، ويخرجون من سكرهم وغلبتهم عن الحدود والأحكام، ويدعون بالدعاوي العظام؛ ويفسد بهم عقائد العباد، ولكن يكشف لهم على ما وافق قوة أسرارهم وثبوت أرواحهم حتى لا يفنوا في سبحات جلاله، وأنهم يعطشون إلى بحار جمال مشاهدته؛ لأنه خبيرٌ عالمٌ بضعفهم عن تحمل أثقال الربوبية، بصيرٌ بنياتهم وشكوتهم في خلواتهم؛ حيث يسألون أن يفنوا في وجوده، وذلك حين أبطأ هجوم الواردات عليهم، وهم وقعوا في بحر اليأس بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أي: يكشف لهم أنوار جماله بعد أن آيسوا من وجدانها في مقام القبض، وينشر عليهم لطائف بسط القرب؛ لأنه وليهم وحبيبهم، محمودٌ بلسان افتقارهم ومعاينة اللقاء لهم.

قال ابن عطاء: إن الله تعالى يربي عباده بين طمع ويأس، وإذا طمعوا فيه آيسهم بصفاتهم، وإذا آيسوا أطمعهم بصفاته، وإذا غلب على العبد القنوط وعلم العبد ذلك وأشفق منه أتاه من الله الفرح، ألا تراه يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾(١):

---

(١) أي: يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة، فإن حصول النعمة بعد اليأس والبلية أوجب لكمال الفرح فيكون أدعى إلى الشكر.

معناه ينـزل غيث رحمته على قلوب أوليائه، فينبت فيها التوبة والإنابة والمراقبة والرعاية.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾: إن الله سبحانه قدَّر المقادير في الأزل، ومن مقاديره المقدرة كسب العباد، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وجزاء اكتسابهم من الثواب والعقاب منها صدر، فإذا كسب العبد شيئًا من الجرائم فهي من أسباب القهر، ويكون محجوبًا به، فإذا كان أهلاً لله تعالى يعاقبه الله في الدنيا ببعض المصائب، ويخرجه به من ذلك الحجاب، وإن لم يكن من أهل الحق فمصائبه إمهاله له في ضلالته، وإن ترك العبد الصالح بما بدا منه المعصية يكون محجوبًا بها، ولكن يداويه ببعض الامتحان حتى يكون صافيًا عن كدر الخليقة، ولكن بكرمه وفضله لا يؤاخذه إلا بقليل من عمله، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝﴾، وبعفوه ورحمته يخرجهم من ظلماتها، ولم يأخذهم بالقليل سخطه، لكن أراد أن يعرف العبد بالمصيبة عيوب نفسه ومواقع خطره.

قال ابن عطاء: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وإنما عفا عنه مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾، ومن لم يشهد ذنبه وجنايته ويندم عليه لا ترجى له النجاة من المصائب والفتن.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ۝ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ۝ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾: في هذه الآية إشارةٌ إلى أن سفن قلوب العارفين في بحار أنوار ذاته وصفاته، تجري على اضطراب من غلبات صدمة عواصف سطوات أحديته وأزليته وأبديته، من حيث إنها محدثةٌ عاجزةٌ خائفةٌ من قهرٍ وعظمةٍ والفناء في معارف قاموس كبريائه، فيتلطف الحق بإمساك قهر عظمته عنها، فيمسكها بنور جماله، ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ﴾: سواكن في جريانها بشمال جماله، ولولا فضله ورحمته لتفتتت في كشوف العظمة وبروز الكبرياء، وهذه الأحوال السنية لا تكون إلا لصبَّار بالحق في الحق، شكورٍ برؤية فنائه في بقائه ووجوده، تائمٍ بجوده، قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ۝﴾.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ ... يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما أوتيتم من المقامات والدرجات والكرامات والمعاملات فمتاع المتمتعين بذكر الله، وما عند الله من كشف مشاهدته وظهور أنوار وصاله وعجائب علومه الغيبية وأحكامه المخفية للذين شاهدوا الله وعليه يتوكلون في امتحانه إياهم واستغراقهم في بحار ألوهيته، فهو بجلاله ورحمته يخرجهم من لججها إلى سواحل وصاله؛ حتى لا يفنوا فيه، ويتمتعون بجماله في بقائه.

قال بعضهم: ما ظهر من أفعالك وطاعتك لا يساوي أقلَّ نعمة من نعيم الدنيا من سمعٍ وبصرٍ، فكيف ترجو بها النجاة في الآخرة؛ لتعلم أن النعم كلها بفضلٍ لا باستحقاقٍ.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: بعد ظلم الظالم عليه، هذا بيانٌ من لطف عدله، تعالى الله من أن يجور، عدل كما حكم، وصرح بخطابه طرفين من العلم: بيان شرف الظالم؛ إذ جاوز الأمر وجار في العبودية، وبيان ضعف المظلوم وقلة صبره في البلاء، وانخلاعه من شعار الأنبياء والصديقين وأولي القوة من الرسل، وأولي العزائم من أهل الاستقامة؛ حيث صبروا في احتمال الجفاء، وغفروا لمن لم يعرف أقدارهم، وبذلك وصفهم الله بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾، وما قال لحبيبه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، والصبر في البلاء من نعوت أهل الرضا، والعفو من شعار أهل الكرم والرضا.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾: خاطب العوام بالانتصار بعد المظلمة، وأباح لهم ذلك، واختار للنبي ﷺ الأخصَّ، وندب إليه بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾، ثم لم يتركه ومخاطبة الندب حتى أمره بالأفضل وحثَّه عليه بقوله: ﴿وَاصْبِرْ﴾.

وقال جعفر: صبر على إيذائه، وعفا عن مؤذيه؛ ذلك من أحكم الأمور في الدين وأحمدها عند الله وأجلّها عند الناس.

قال أبو سعيد القرشي: الصبر على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروهٍ يصيبه ولم يجزع أورثه الله حالة الرضا، وهو أجلُّ الأحوال، ومن جزع من المصائب وشكا وكَّله الله إلى نفسه لم تنفعه شكواه.

قال الأستاذ: صبر على البلوى من غير شكوى، وعفا بالتجاوز عن الخصم، فلا يبقى لنفسه عليه دعوى، بل يبرئ خصمه من جهته عليه من كل دعوى في الدنيا والعقبى، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾: الأمر للعموم في إجابة دعوته، ولا يسمع نداءه إلا من اصطفاه في الأزل لمحل خطابه وسماع دعائه، وكيف يجيب من لم يسمع بأسماع التنبيه والمعرفة والمحبة والفهم هواتف أطيار الإلهام والخطاب والكلام، من خاطبه الحق بلا واسطة؛ فيسمع أيضًا الخطاب بالوسائط، من كان خاليًا عن استعداد قبول الخطاب لا يجيب، ولو ناداه الحق بكل لسانٍ؛ قال الله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾.

قال الجنيد: استجابة الحق لمن يسمع هواتفه وأوامره وخطابه، فتتحقق له الإجابة بذلك السماع، ومن لمن يسمع الهواتف كيف يجيب، وأنّى له محل الجواب؟!

وقال الأستاذ: الاستجابة الوفاء بعهده والقيام بحقه والرجوع من مخالفته إلى موافقته.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾: كان لي واقعةٌ في ابتداء الأمر، وذلك أنى شاهدت الحق بالحق، وكاشف لي مشاهدة جماله، وخاطبني من حيث الأرواح لا الأشباح، فغلب على سكر ذلك، وأفشيت حالي بلسان السكر، فتعرضني واحدٌ من أهل العلم، وسألني: كيف تقول ذلك وأن الله سبحانه أخبرنا بأنه لم يخاطب أحدًا من الأنبياء والرسل إلاّ من وراء حجاب، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾؟! فقلت: صدق الله، هذا إذا كانوا في حجاب البشرية، فإذا خرجوا بشرط الأرواح إلى علم الغيب والملكوت ألبسهم الله أنوار قربه، وكحَّل عيونهم بنور نوره، وألبس أسماعهم قوة من قوى الربوبية، وكشف لهم سرَّ الغيرة وحجاب المملكة، وخاطبهم كفاحًا وعيانًا، ولنبينا ﷺ أخصَّ خاصيةٍ؛ إذ هو مصطفىً في الأزل بالمعراج والمشاهدة، فإذا صار جسمه روحه ويكون واحدًا من كل الوجوه صعد إلى الملكوت، ورأى الحق منـزَّهًا عن أن يحجبه المحل من الحدثان، أو احتجب بشيء دونه فهو الممتنع بذاته القديم من أن يطالعه إلا بعد أن يكشف له جلال أبديته وجمال سرمديته، وتصديق ما ذكرنا ما قال الواسطي في هذه الآية؛ قال: أخبر أن أوصاف الخلق على سننٍ واحدٍ، وخصَّ السفير الأعلى والواسطة الأدنى بمشافهة الخطاب ومكافحته، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾، وهو قائمٌ بصفة البشرية حتى ينـزع عنه أوصاف البشرية، ويحلى بحلية الاختصاص، يكلم شفاهًا[1]؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

تفسير قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي: كما خصصنا الأنبياء والرسل بالأرواح الروحانية والأرواح الملكوتية والأرواح الجبروتية والأرواح الجمالية والأرواح الجلالية خصصناك بروح قدسية أوجدتها من جملة الأرواح، بتجلي قدسي قدمي من العدم، وفضَّلناك برؤية القدس والجوهر القدسي المشروح برقوم تجلي جمالي وجلالي، المكسو بكسوة جميع صفاتي، المنور بنور ذاتي، خصصنا روحك المشرقة بهذه الأنوار،

---

(١) قال الشيخ المصنف: وإذا دخل القلب في عالم الغيب فما يراه فهو كشف، وما يسمعه فهو كلام وما يتكلم به فهو وحي، فيتولد مما يسمع الفهم، وما يتولد مما يبصر فهو بيان وكشف ونظر، وما يتولد مما يتكلم به فهو حكمة ومعرفة وعلم، وما يقع في موضع العقل من القلب فهو علم لدني، وما يقع في الفؤاد وهو الرؤية والإدراك. تقسيم الخواطر (ص٩٥) بتحقيقنا.

بأن أحييتها بما أودعتها من روح فعلي وروح صفتي وروح ذاتي، وذلك على الغيب وغيب الغيب، وسر الغيب الأول أمر الفعل، والثاني أمر الصفة، والثالث أمر الذات، فإذا صارت جامعةً لهذه الخصائص وأن جميع الأرواح صدرت من نورها أرسلناها إلى جسمك المبارك، ونفختها في صورتك كما نفخت في صورة أبيك، فصار آدم العالم نأنت أنت، وآدم والعالم من العرش إلى الثرى يظهر من مرآة وجودك، كما ظهر الكون من جوهرك القدسي الذي هو أول ما خلقت، فمن يرى نورها منك فقد رآني، فإنك مرآتي للعالمين؛ لذلك قال ﷺ: «مَنْ رآني فقدْ رأى الحقَّ، ومَنْ عرفني فقد عرف الحقَّ»[1]: وقال: «أولُ ما خلق الله نوري، ثم خلق منه ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[2]، فمن كان له من بحر نوره روحٌ صار بين العالمين مرآة جمال الحق وجلاله، ويكون شاهد الحق في العالم؛ من نظر إليه عشق بالحق؛ إذ الحق يظهر منه من حيث التجلي لا من حيث الحلول، تعالى عن أن يحل في شيء من الحدثان، ثم بيَّن الحق تفصيل مواهبه التي وهبها لحبيبه ﷺ من خصائص النبوة والرسالة، وشرائف المعارف والكواشف التي خفيت عنه في أوائل حاله؛ إذ كان في غواشي صورة الإنسانية من أحكام أزليته، وما سبق له من حسن العناية والكفاية بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ أي: ما كنت واقفًا على أسرار الخطاب وحقيقة المعرفة في زمان غيبتك؛ إذ زيَّنتك بألطافي في حجب الغيب، ثم تجلى لك نور القرآن الذي ظهر منه نور العرفان، فصار العرفان إيمانك والقرآن عرفانك، فإيمانك العرفان، وعرفانك القرآن، فصار الإيمان والعرفان والقرآن من حيث عين الجمع واحدًا؛ إذ جميعها صدر من صفة القدم بالتجلي والتدلي والظهور؛ والصفة صدرت من الذات من حيث المعاينة، والكشف للأرواح الجلالية الجمالية القدسية؛ لذلك تعود الكناية إلى الواحد من الاثنين، إذ هذا الاثنان واحدٌ في الحقيقة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

قاله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: هذه المعاني التي كشفتها لك نورٌ وهدايةٌ تهدى به إلى معرفتنا وشرفك عندنا، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾: من العارفين والموحدين والمحبين الذين كانوا في سوابق الغيب منك صدروا، وعلى رؤية جمالنا

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦) بأوله فقط.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣١١).

وجلالنا، وأنت سيدهم وإمامهم، تعرِّفهم سبل وصولنا، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ثم أضاف ذلك السبيل بنعت الخصوصية إلى نفسه، وقال: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صراطك المستقيم هو طريق الله الذي مهَّد للعارفين والمشتاقين؛ ليسلكوا فيه إليه بنوره وهدايته، ثم وصف نفسه بأنه مالك الأعيان من العرش إلى الثرى حتى طابت أرواح الصديقين بوحدانيته؛ إذ لا منصرف إلا هو، ولا مصرف من جميع الوجوه إلا ساحة كبريائه وعظمته، وذلك قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: تعود إليه أمور الخلائق من الحكم والقضاء والقدر والمشيئة والفعل والقدرة كما بدأ منه.

قال الواسطي: أظهر الأرواح من بين جماله وجلاله مكسوةً بهاتين الكسوتين، لولا أنه سترها لسجد لها كل ما أظهر من الكونين، فمن رداه برداء الجمال، فلا شيء أجمل من كونه في ستره يظهر منه كل دركٍ وحذاقةٍ وفطنةٍ، ومن رداه برداء الجلال وقعت الهيبة على شاهده، وهابه كل من لقيه، ولصحة الأرواح علاماتٌ ثلاثٌ: صحة الثقة، والتحقيق بالأخلاق، والتخطي في طريق الآداب.

وقال ابن عطاء: الكتاب ما كتبت على خلقي من السعادة والشقاوة، والإيمان ما قسمت للخلق من القربة.

قال القاسم في قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: لأنه مبتدأ كل شيءٍ وإليه منتهى كل شيء، فمن كان منه وله فهو الساعة به.

قال سهل في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: تدعو إلى ربك بنور هداية ربك.

وقال بعضهم: دعونا أقوامًا في الأزل فأجابوا، فأنت تهديهم إلينا، وتدلهم علينا.

سورة الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣
وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ
قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أي: بحياتي منك وحياتك بحياتي، ومحبتي لك ومحبتك لي، وبهذا الكتاب المبارك الظاهر بنوره وبرهانه في صدرك ولسانك، وصدور العارفين المبرهن بيانه للمؤمنين، المبين لطائفه لقلوب الصديقين، إن هذا القرآن أنـزلته على قلبك، وبلسانك الفصيح؛ ليعرفه كل مؤمنٍ صادقٍ، ويعقل به طريق العبودية وحقوق الربوبية.

قال سهل: بيَّن فيه الهدى من الضلالة، والخير من الشرِّ، وبيَّن فيه سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء.

قال الأستاذ: الحاء يدل على حياته، والميم على مجده، وهذا قَسمٌ، ومعناه: وحياتي وملكي وهذا القرآن المبين إن الذي أخبرت أن رحمتي لعبادي المؤمنين حقٌّ وصدقٌ، ثم وصف القرآن بأنه ليس بمخلوقٍ، وأنه صفته الأزلية التي هي قائمة بذاته أزلاً وأبدًا بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: إنه صفتي، كان في ذاتي منـزَّهًا عن التغاير والافتراق؛ إذ هما من صفات الحدث، وأم الكتاب عبارةٌ عن ذات القدم؛ لأنه أصل جميع الصفات لدينا، معناه ما ذكرنا أنه في أم الكتاب لعليٌّ، علا من أن يدركه أحدٌ بالحقيقة، ممتنعٌ من انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، حكيمٌ محكمٌ مبينٌ.

قال سهل: أم الكتب هو اللوح المحفوظ أي: رفيعٌ مستولٍ على سائر الكتب.

قال جعفر: عليٌّ عن درك العباد وما يتوهمون، حكيمٌ فيما دبَّر وأنشأ وقدَّر.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾: أجلُّ نعمة الله على

(١) أي: مطيعين، وكم سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة، وسهَّل للمريدين مركبَ الإرادة فَحَمَلهم عليه إلى عرَصَات الجود، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَم فأناخوا بعقْوةِ العِزَّةِ وعند ذلك تَحُطُّ الكافة؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ سواء كان مَلَكاً مُقَرَّباً اونبيّاً مُرْسَلاً أو وليّاً مُكَرَّماً فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوقٍ، القشيري (٧/ ٢١٠).

العباد أن يقويهم على نفوسهم الأمّارة، وينصرهم عليها حتى يركبوا عليها، ويميتوها بالمجاهدات، حتى استقامت في طاعة الله، فإذا استقامت وجب عليهم شكر نعمته، وذكر كرامته، وتذكر تلك النعمة أن يعرفوا لطيف صنعه في إبداعهم، ويروا أنوار صفته في ظهورها من صنائعه، ثم ينظروا بنورها إلى غيبه، ويعرفوا في الغيب عين ذاته بعد أن شاهدوه به، وهذه النعم لا تفارق عن العبد لمحة، وشكرها واجبٌ عليه بنعت المعرفة على السرمدية.

قال بعضهم: من لم يعرف نعم الله عليه إلا في مطعمه ومشربه ومركبه فقد صغَّر نعم الله عنده، ثم بين الله أن تسخير النفس بعد استوائها في طاعة الله يكون بتسخير الله لا بالكسب والمجاهدة؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ : أخرج تسخيرها من كسبهم أي: وما كنا مطيقين بتذليلها.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون إلى الله في جميع الحوائج بنعت الشوق إلى جماله والعشق بجماله.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾: لما كان الخليل عليه الصلاة والسلام

موقع نظر جماله وجلاله وكشف وصاله وتجرد من غيره في خلته ومحبته وخدمته وأفرده بتوحيده عن غيره جعل الله توحيده كلمته العليا الشجرة الثابتة، أصلها في أرض قلبه، وفرعها إلى سماء الأبد، وثمرها الرسل والأنبياء والأولياء، وأشهى ثمرها محمد ﷺ، وبقي ذلك التوحيد في قلوب أمته إلى يوم ورودهم على موارد المشاهدة الكبرى.

قال سهل: هي التوحيد في ذريته إلى يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: جهلوا العظمة، وظنوا أن العظيم من هو له غنىً وقوةٌ نفسانية، ولو يعلموا أن العظيم هو من عظَّمه الله بعظمته، وكساه أنوار سلطانه وبرهانه، وهو المصطفى ﷺ أنه عظَّم قدره في الدارين بقدر الله، وخصَّه بما قسم له في الأزل بالرسالة والنبوة والشرف والكرامة، ووبَّخهم الله بما تمنوا في القسمة بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾: جعل معيشة البعض إرادةً، وجعل معيشة البعض علمًا وخدمة، وجعل معيشة البعض إيمانًا وصدقًا، وجعل معيشة البعض توبةً وإنابةً، وجعل معيشة البعض محبَّةً وشوقًا وعشقًا، وجعل معيشة البعض معرفةً وتوحيدًا، وجعل معيشة السالكين الفِراسات، وجعل معيشة الزاهدين الكرامات، وجعل معيشة العارفين تراكم الواردات، وجعل معيشة الفقراء القناعة والتوكل والرضا والتسليم، هذا للمقبلين إليه، وللمدبرين عنه الغيُّ والضلالة والجهل والغباوة والدنيا الكثيرة الشاغلة عن الله، وهم أيضًا في ذلك متفاوتون؛ فبعضهم أعلى من بعض بالمعرفة، وبعضهم أعلى من بعض بالمشاهدة، وبعضهم أعلى من بعض في المكاشفة، وبعضهم أعلى من بعض في المحبة، وكذلك في جميع المقامات، كما فضَّل بعض أصحاب الدنيا في الرزق والمعيشة.

قال الواسطي في قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾: رزق قومًا حلالاً ومدحهم عليه، وقومًا شبهةً وذمَّهم عليه، وقومًا حرامًا وعاقبهم عليه، موسرًا بالحرام المحض ولم يلمه عليه: قال

النبي ﷺ: «إنَّ روحَ القدسِ نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتَّى تستكملَ رزقَها ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»(١)، وقال الله لهم: ﴿يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

وقال سهل: فضَّلنا بعضهم على بعضٍ في المعرفة والطاعة عيشًا لهم في الدنيا والآخرة.

قال الجنيد: بالتمييز وحفظ السرِّ.

وقال بعضهم: بالثقة والتوكل.

وقال بعضهم: بمعرفة كيد النفس ووسواس الشيطان، ثم بيَّن الله سبحانه بآخر الآية أن ما عنده من الاصطفائية الأزلية وكشف مشاهد العزيزة الكريمة التي هي مقدسةٌ من شوائب الاكتساب ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من جميع الفضائل، وأن عيش الآخرة للمؤمنين خير من العيش في الدنيا بقوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قال سهل: ذكر الله خالصًا خيرٌ من كثرة الأعمال لطلب جزاءٍ.

وقال ابن عطاء: ما يعطيهم على سبيل الفضل خيرٌ لهم مما يجازيهم.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي: من نسي الله وترك مراقبته ولم يستحِي منه وأقبل إلى شيء من حظوظ نفسه قيَّض الله له شيطانًا يوسوس له في جميع أنفاسه، ويغوي نفسه إلى طلب هواها حتى يسلطه على عقله وعلمه وبيانه، وهذا كما قال أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ: «الشهوةُ والغضبُ يغلبان العقل والعلم والبيان، وهذا جزاءُ من أعرضَ عن متابعة القرآن ومتابعة السنَّة».

وقال سهل: حكم الله تعالى أنه لا يرى قلب عبد يسكن إلى شيء سواه إلا أعرض عنه، وسلَّط عليه الشيطان؛ ليُضلَّه عن طريق الحق، ويغويه.

وقال ابن عطاء: من لم يداوم على الذكر فإن الشيطان قرينه، ومن داوم عليه لم يقربه الشيطان بحالٍ.

وقال الواسطي: من صرفنا قلبه عن مواعظ القرآن وحجبناه عنه نقيِّض له شيطانًا،

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧)، وهناد في الزهد (١/ ٢٨١).

فقارنه حتى يصرفه عن الحق، وذلك بإذن الله وخذلانه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

قال جعفر: من جهل معرفة ما أنعم الله عليه بذكره ولم يشكر ذلك قرن به شيطانًا لا يفارقه في جميع أفعاله وأحواله وأقواله.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾: إن الله سبحانه نظر في قلب حبيبه ورأى فيه غلبة الشوق إلى جماله واهتمامًا لأمته كيف يعيشون بين أضدادهم من الضلال، فقال: لا تهتم؛ فإني أوصلك إليَّ، وأدفع شرَّ الظالمين عنهم، وأنتقم منهم ما فعلوا بك وبأمتك؛ فإنك أمانهم الساعة.

قال ابن عطاء: أنت الأمان فيما بينهم، فإن قبضناك انتقمنا منهم، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «حياتي خيرٌ لكم، وموتي خيرٌ لكم»[1].

وقال يحيى بن معاذ: لله على عباده حجتان: حجةٌ ظاهرةٌ، وحجةٌ باطنةٌ، فأما الظاهرة الرسول، وأما الباطنة فالعقول.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٣/ ٧٦).

﴿فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝﴾[١].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: لا تسمع قول الزائغين الذين يؤذونك ويقولون لست بحقٍّ؛ فأنت على الحق المبين، فاستمسك بالقرآن الذي هو شاهدٌ على شرفك، فأنت على الطريق المستقيم، وهذا تسليةٌ لقلب نبيه وتأديبٌ لأمته، وهذا عارفٌ يتعرضه نفسه وشيطانه من الإنس والجن بالمعارضات العريضة بعد مكاشفاته ومعرفته، ويمنعونه من سلوك الحقائق التي لا يعرفها أهل الرسوم من المقلدين في ظاهر العلم والعمل، ويخاصمونه؛ فإنه سبحانه أيّده بنصره، ويسلي قلبه بهذا الخطاب المبارك.

قال ابن عطاء: أمر الله النبي ﷺ بالاستمساك والتمسك بالدين، وهو ﷺ الإمام فيه: ولم يخل من التمسك بما أمر به لحظةً، لكنه خاطبه لرفع درجاته وعظم محله، لتكون أنت متأدبًا بآداب التمسك والاقتداء والاستقامة، وتعلم أن مثله إذا خوطب بمثل هذا الخطاب ما الذي ألزمك من الاجتهاد والمجاهدة، ثم بيّن سبحانه أن نـزول القرآن يوجب شرف نبينا وشرف أمته بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: هو وصفك، ووصف من اتبعك من العارفين الصادقين، يصفك القرآن، ويصف قومك من الصادقين بما أنت عليه وما هم فيه من الأخلاق الجميلة والأعمال الزكية والدرجات الرفيعة والكرامات السنية والمقامات العلية، ألا ترى إلى قول أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها حين سُئلت عن خلق محمد ﷺ قالت: «كانَ خلقُه القرآنُ»[٢]، وأيضًا أنه شرفك وشرف أمتك بأنك أهله، وهم أهلك.

---

(١) فيه إشارتان: الأولى: إن القلب إذا كان خفيفًا؛ فالقوي أيضًا كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومتانته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُيِّن له من الشرائع، وبقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى.

والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدلُّ على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأولياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيبته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكأنه طلب أن يُلقى ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب.

ولذا ترى ملوك الزمان وأمراءه يتكلَّفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدُّهم الناس في جملة المراجيح الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشيِّخون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والرديء، والطيب والخبيث.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١١٥)، وأحمد (٦/ ٩١).

قال ابن عطاء: شرفٌ لك بانتسابك إلينا، وشرف لقومك بالانتساب إليك.

قال جعفر: ذكرٌ لك بنسبتك إلينا، وذكرٌ لقومك بحسن قدومهم بك واتباعهم لسنتك.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فلما قاموا على دعاويهم الباطلة وكلماتهم المزخرفة وبدعهم الباردة فأصروا على إيذاء أوليائنا وأحبائنا غضبنا وسلَّطنا عليهم جنود قهرياتنا، وأمتناهم في أودية الجهالة، وأغرقناهم في بحار الغفلة، وجرَّدنا قلوبهم عن أنوار المعرفة، وطمسنا أعين أسرارهم حتى لا يروا لطائف برِّنا على أوليائنا.

قال سهل: لما أقاموا مصرِّين على المخالفة في الأوامر وإظهار البدع في الدين وترك السنن اتباعًا للآراء والأهواء والعقول نـزعنا نور المعرفة من قلوبهم وسراج التوحيد من أسرارهم، ووكلناهم إلى ما اختاروه، فضلُّوا وأضلُّوا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٦٦﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: بأنه كلمته التي ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأنه كان متصفًا بصفاته، ومشكاةٌ لأنوار قربه ووصاله وولايته ونبوته ومعرفته ومحبته وعصمته وتوفيقه.

قال يحيى بن معاذ: أنعمنا عليه بأن جعلنا ظاهره إمامًا للمريدين، وباطنه نورًا لقلوب العارفين.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ

ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: كل خلةٍ لا تكون لله تتولد منها العداوة في الدنيا والآخرة، والمتحابون في الله لا يقع بينهم العداوة؛ إذ ارتفعت من بينهم أسباب الكونين والعالمين، وهم مقدَّسون بتأييد الله ورعايته عن كل خلافٍ يورث الوحشة.

قال ابن عطاء: كل وصلةٍ وأخوةٍ منقطعةٌ إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كل وقت في زيادة، بأن الله يقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: في انقطاعٍ وبغضةٍ إلا المتقون؛ فإنهم في راحة أخوتهم يرون فضل ذلك وثوابه، ثم خاطب الله سبحانه هؤلاء المتقين بقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾: ليس عليكم خوف الفراق ولا حزن الأصحاب.

قال ابن عطاء: لا خوف عليكم اليوم في الدنيا وخوف مفارقة الإيمان، ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة بوحشة البعد والمفارقة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ : مشاهدون آياتنا التي هي مشكاة أنوار صفاتنا، وكانوا مسلمين منقادين بجبروتنا بنعت المحبة، ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾: ادخلوا جنان مشاهدتي، ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾: مسرورين بوصالنا.

قال سهل: بلذة النظر؛ لما مَنَّ عليهم من التوحيد عند تجلي المكاشفة لأوليائه، فهو البقاء مع الباقي، ألا ترى كيف خصَّهم بالإيمان على شرط التسليم؟! ثم زاد في وصف أحوالهم في جنة مشاهدته بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾: ما تشتهي الأنفس الروحانية القدسية الروحية العاشقية بجمال القدم التي ترى جمال الحق بعين الصورة، فإذا ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين هو وصال الحق والنظر إلى جماله أبد الآبدين.

قال سهل: فيها ما تشتهي الأنفس من ثواب الأعمال، وتلذُّ الأعين مما يفضل الله به من التمكين في وقت اللقاء.

قال جعفر: شتَّان بين ما تشتهي الأنفس وبين ما تلذُّ الأعين؛ لأن جميع ما في الجنة من النعيم والشهوات واللذات في جنب ما تلذُّ الأعين كأصبع تغمس في البحر؛ لأن شهوات الجنة لها حدود نهاية؛ لأنها مخلوقة؛ ولا تلذُّ الأعين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي -جلَّ

وتعالى- ولا حدَّ لذلك ولا صفة ولا نهاية.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: قارن ثواب الجنة بالأعمال، وأخرج المعرفة واللقاء والمحبة والمشاهدة من العلل؛ لأنها اصطفائية خاصة أزلية، يورثها من يشاء من العارفين الصديقين.

وقال ابن عطاء: الجنة ميراث الأعمال؛ لأنها مخلوقةٌ، فوازى المثل والكتاب ميراث الاصطفائية؛ فإنهما صفتان من صفات الحق.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ وصف الله سبحانه نفسه وإحاطته ببطون المغيبات وحقائق المضمرات بالعلم القديم، وسماعه حركات صميم أسرار الخلق بسمعه القديم المنـزه عن الإصغاء، وكيف يخفى عليه ما أبدع وأوجد في بطون القلوب والغيوب! بل له كرامٌ كحَّل عيونهم بنور نوره، حتى يروا حقائق الأمور الغيبية كما قال ﷺ: «اتقوا فِراسةَ المؤمنِ؛ فإنَّه ينظرُ بنورِ الله»(1)، والملائكة يسمعون من الحق بالإلهام بعد ما وقع الغيب لله الخاص له.

والعارف الصادق له درجتان في ذلك: درجة الملائكة التي هي الإلهام، ولهم خاصية الرؤية والفراسة بنور الله، وهو أن يكون متصفًا بعلمه وصفاته، وهذه الآية وعيدٌ وتحذيرٌ لمن كان له قلبٌ يخطر عليه شيءٌ غير ذكر الله.

قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيءٌ من السماوات والأرض فقد جعل ربه أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

قال الله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ ما يسرون من الذنوب، ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ ما يخفون من المعاصي، ﴿بَلَىٰ﴾ وكرام الكاتبين شهدوا على ظواهرهم وأنا شاهد على

---

(1) رواه الترمذي (٥/ ٢٩٨)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣٥٤).

بواطنهم، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: من لم يزجره عن المخالفات رؤية الحق وسماعه فإنه لا يزجره شيءٌ غير ذلك.

وقال أيضًا: دلَّ قومًا من عباده إلى الحياء منه، ودلَّ قومًا إلى الحياء من الكرام الكاتبين، فمن استغنى بعلم نظر الله إليه والحياء منه أغناه ذلك عن الاشتغال بكرام الكاتبين.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: أمر الله سبحانه حبيبه الأول صلاة الله عليه أن ألق رغام الهوان على أنوف أهل الخيال من الكفرة والمشبهة والزنادقة والثنوية والنصارى واليهود والمشركين بإظهار تنـزيه عزَّة أوَّليته، وتقديس جلال قدسه من علل الحدوثية، وأوصاف المخلوقية حتى يموتوا في غمار الغفلة من ضربات قدس الألوهية وقهر الجبارية أي: إن كنتم تزعمون لله المنـزه القديم شيئًا لا يليق بجلاله فأنا أول من يقدسه من طرآن علل الحدثان عليه، وأنا أول من أفنى من حياتي فيما أسمع منكم له فيه، وهذا كما قال الله تعالى في وصف السماوات والأرض والجبال كيف تخشَّعت من أقوال الكفرة فيه بقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾، ويلٌ لمن يتقاعد بعقله من الجمادات في معرفة الله، وإشارة أوليته ﷺ في عبودية الله إشارةٌ إلى بدو وجوده في إتيانه من القدم بنور القدم وانقياده في أول تجلي جلاله، وهذا كما قال الصادق: «أوَّلُ ما خلقَ الله نورُ محمدٍ ﷺ قبل كلِّ شيءٍ، وأوَّلُ من أوجدَ الله ﷻ من خلقه ذريةُ محمدٍ ﷺ، وأوَّلُ ما جرى به القلم لا إله إلا الله محمد رسول الله»[1]، قال: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: أحقُّ بتوحيد الله، وذكر الله تأكيد تقديسه بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣١١) بأوله فقط.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ذكر غلبة قهره على السماوات والأرض والعرش والكرسي، حتى عرفوا أن ما يرون من أعظم الخلق يكون عاجزًا في خضوعه لسلطانه كيف يليق به ما تصف الكفرة، نـزَّه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، منـزَّهٌ عمَّا وصف به الموحدون والعارفون، فكيف عما وصف به الجاهلون.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾: عظَّم أقدار العارفين بهذه الآية؛ حيث شاهدوا جلاله وجماله بأرواحهم وقلوبهم وأسرارهم وعقولهم، وهم يخبرون حقائقها بألسنةٍ عجيبةٍ ربَّانيةٍ إلهاميةٍ، يصفون الحق بها بما يليق بوحدانيته؛ وهم يعرفونه بما عرفهم نفسه تعالى، ولولا قول الله سبحانه في وصفهم بهذه الحالة وما وصفهم بالعلم به لعجبت من الحدثان كيف شاهدوا حق الحقيقة وكيف عرفوا حقيقة الحق.

قال الصادق: هم يعلمون أن الحق غير موصوفٍ بصفات الخلق، أقرُّوا باللسان بوحدانيته، وآمنوا بقلوبهم، وعملوا ما أقرُّوا به، وعملوا لمن أقرُّوا له بالربوبية علمـًا بأنه لا يستحق العبودية سواه.

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾: أمر الله سبحانه حبيبه ﷺ بالصفح عن الجاهلين بأن يعذرهم من حيث جهلهم بالله، ومن حيث إنه قهرهم وطردهم، وبأنهم يعرفون خصائصه، ومعنى قوله: ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٌ﴾ أي: لاطفهم في دعوتك إياهم إليَّ، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ قدرك بعد أن أعرفهم منازلك بتوفيقي لهم، لعل فيض كرمي يدركهم، وهذا تأديبٌ لدعاة الخلق إلى الحق.

قال ابن عطاء: أعذرهم في جهلهم بحقك، وتركهم لحرماتك، وسلِّم عليهم؛ ليسلموا من توابع البلاء.

سورة الدخان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

﴿حمٓ﴾ : الحاء الوحي الخاص إلى محمدٍ، والميم محمدٌ ﷺ، وذلك الوحي الخاص بلا واسطةٍ خبرٌ من سرٍّ في سرٍّ، لا يطَّلع على ذلك السر الذي بين المحب والمحبوب أحدٌ من خلق الله، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾، وذلك إشارةٌ إلى وحي السر

في السر، وجملتها قَسَمٌ أي: بحقِّ الوحي السري والمحب والمحبوب والقرآن الظاهر الذي ينبع عن الأسرار ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، الليلة المباركة ليلة المعراج التي وصل الحبيب إلى الحبيب، وذلك مباركٌ عليه؛ حيث رأى ربه، وأنـزل على قلبه القرآن من سماء الأزل إلى روحه، ووصل إليه بركات جماله وخطابه، سمع من الحق كلامه شفاهًا، ونـزل إليه من الحق أنوار كلامه، وكلمه تسعين ألف كلمة، وما نـزل القرآن في أي وقتٍ كان إلا وذلك الوقت مباركٌ عليه وعلى أمته، وليلة نصف شعبان ليلة يتجلى الحق بعزته وجلاله للعالمين، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إنَّ الله تعالى ينـزلُ مِنَ السماءِ فِي ليلة النصف من شعبانَ»[1]، وما بارك تلك الليلة؛ حيث يصل بركات جماله إلى كل ذرة من العرش إلى الثرى، وفي تلك الليلة اجتماع جميع الملائكة في حظيرة القدس.

قال ابن عطاء: ليلةٌ مباركةٌ لمجاورة الملائكة ومقارنتهم.

وقال سهل: أنـزل القرآن في هذه الليلة من اللوح المحفوظ على روح محمد ﷺ، وهو الروح المبارك، فسمَّى الله الليلة مباركة لاتصال البركات بعضها ببعضٍ.

قال جعفر الصادق: هذا من العلوم المكتومة، إلا أن العلماء يخبرون عنها بلطائف الفهوم، فالحاء هو وحي كتابه المنـزل على رسوله ﷺ، والميم كتابه إلى محمد ﷺ.

وقال أيضًا: إن نـزوله كان ليلة القدر.

وقال الأستاذ في ﴿حمٓ﴾: فالحاء تشير إلى حقه، والميم تشير إلى محبته، ومعناه: وحقي ومحبتي لعبادي وكتابي العزيز إليهم إني لا أعذِّب أهل محبتي بفرقتي ولا بشيءٍ دونها.

وقال في قوله: ﴿لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾: لأنها ليلة افتتاح الوصلة لأهل القربة.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾: يفصِّل في تلك الليلة أمور الخلق من العرش إلى الثرى، ويجددها على العقول والأرواح والقلوب على عيون الملائكة قضيات الأولية؛ لإدراك فُهُومَهم صورة المقدرات، ويعطى كل ذي فضل جزاءه من القربات والمداناة، ويوصل بركات جماله إلى كل ذرة في العالم، فتحملها ببركاته حتى تلد في أوان

---

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٢٩).

المواليد بنيرات أفعاله وواضحات آياته، ألا ترى كيف تحمل الأشجار من نسائم اللواقح، وتضع حملها في الربيع، فتهتزُّ الأرض بأنواع الرياحين، وذلك من بركة وصول شمال جماله إليها، ألا ترى كيف قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؟!

قال ابن عطاء: يعطي كل عاملٍ بركات أعماله؛ فيلقي على لسان الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيبته.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾: بيَّن أن الشك في الله يوجب الغفلة عن الله.

قال محمد بن حنيف -رحمة الله عليه-: من استولت عليه الغفلة أدَّاه ذلك إلى الشك، ومن لزم الشك كان بعيدًا عن عين الصواب، قال الله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾: ظاهر الآية دخان الكفرة من الجوع في الظاهر ودخان بواطنهم ودخان النفس الأمَّارة والأهواء المختلفة التي تغير سماء قلوبهم بغبار الشهوات وظلمة الغفلات.

قال سهل: الدخان في الدنيا قسوة القلب والغفلة عن ذكر الله.

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾: ضعف الإيمان ما يكون عند نـزول البليات، بل الإيمان الأصلي ما يكون أعظم في العافية مما يكون في البلاء، ولا ينكشف العذاب والحجاب إلا بصدق الافتقار والحياء من الله في النظر إلى غيره.

وقال بعضهم: لا يستكشف العذاب إلا بتمام الإيمان وصحة الالتجاء والرغبة والدعاء.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾: أخبر الله سبحانه بهذه الآية أن المفارقة من الأضداد واجبةٌ.

قيل: إن بعض أصحاب الجنيد وقع له إنكارٌ عليه في مسألة جرت له معه؛ فبكَّر إليه ليعارضه فيها، فلما دخل على الجنيد نظر إليه وقال: يا فلان ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾: خاطب الله موسى بأن يرفع تقاضي سره حقائق المقادير ولا يتفحص، ولا يغوص في بحار الربوبية، حتى لا يستغرق بنعت الفناء في قلزم العدم، ولا يخرج منه أبدًا إلى سواحل النبوة؛ فإن بحار الألوهية لو تكون متلاطمة يستغرق فيها الأولون والآخرون أي: لا تشوشها حتى تغرق المدعين بالربوبية والسلطنة في أول بواديات بحار القهريات.

قال سهل: أي: اجعل قلبك ساكنًا في تدبيري، ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي: فإن المخالفين قد غرقوا في التدبير.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾: كيف تبكي السماء والأرض على من يدَّعي الأنائية في ساحة كبرياء الأزل، والسماوات والأرضون في عظمها تصير هناك أقل من خردلة من هيبة عزة جبروته وملكوته، فغارت عليهم السماوات والأرض؛ إذ ادَّعوا ما ليس لهم في أمر الربوبية، وهي تبكي على العارفين الذين لا يجترئون أن يصفوا معروفهم بجميع الألسنة حياءً منه، إذا فارقوا من الدنيا تبكي السماوات والأرض بمفارقتهم حين لا تصعد عليهم أنوار أنفاسهم ولا يجري عليها بركات آثارهم كما روي في الحديث أن: «السماءُ والأرضُ تبكي بموت العلماء»[1].

قال بعضهم: كيف تبكي السماء على من لم يصعد إليه منه طاعة؟! وكيف تبكي الأرض على من يعصي الله عليها؟! معناه ما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء، ولا مواضع عبادتهم من الأرض.

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٤/ ١٤٣) بنحوه.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: على علم بصفاتنا، ومعرفةٍ بذاتنا، ومشاهدةٍ على أسرارنا، وبيانٍ على معرفة العبودية والربوبية ودقائق الخطرات من القهريات واللطفيات في زمان المراقبات.

قال الواسطي: اخترناهم على علم منا بجناياتهم وما يقترفون من أنواع المخالفات، فلم يؤثر ذلك في سوابق علمنا بهم؛ ليُعْلَم أن الجنايات لا تؤثر في الرعايات.

وقال الخراز: علمنا ما أودعنا فيهم من خصائص برِّنا، واخترناهم بعلمنا على العالمين.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أرجى آية للعارفين هذه الآية؛ حين فصل الله بينهم وبين الحدثان، وأوصلهم إلى مشاهدته ووصله بنعت القربان.

قال بعضهم: يوم يفصل بين كل عاملٍ وعمله، ويطلب بإخلاص ذلك وبصحيحه، فمن صحَّ له مقامه وأعماله قبل منه وجزي عليه، ومن لم يصلح له أعماله كان عمله عليه حسرةً.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: إن يوم القيامة يوم يكشف السرائر والضمائر، من كان ميله إلى غير الله يحتجب به عن الله، ولا ينقذه ذلك عن البعد منه إلا من كان محفوظـًا برعايته، محروسـًا بعنايته، مجتبىً بسوابق الاصطفائية الأزلية.

قال سهل: من رحم الله عليه في السبق فأدركته في العاقبة بركة تلك الرحمة، حيث

جعل المؤمنين بعضهم في بعض شفعاء.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [1] أي: إن المفردين عن الأكوان وما فيها بنعت التجريد والتوحيد والتبري من غير الله واستحسانه في محبة الله بعين الرغبة فيه هم في مقام وصلة الحق، حين لا يجري عليهم اضطراب الفراق، ولا يحجبهم غير الحق في مقام الأشواق، آمنين منه به حين ألبسهم أنوار كماله وجلاله وجماله.

قال جعفر الصدق: كانوا في الدنيا على خوف العذاب ووجل الفراق وذلك مقام المتقين في الدنيا، فأورثهم ذلك أمانـًا وأمنـًا أن يسلب ذلك منهم.

وقال أيضًا: المقام الأمين وصلة الجبار.

وقال بعضهم: المقام الأمين مجالسة الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾: افهم يا فَهِم لو تدرك حقائق أمور المعارف لا تتهمني بالجهل فيما أقول لك؛ فإن الموت الأصلي هو العدم، وكيف يموت من أوجده الحق بنور القدم، الموتة الأولى هي عدمهم قبل وجودهم، فبعد الوجود لا يكون القدم بالحقيقة، إنما يجري عليهم أطوار فنون امتحانات الحق كالذهب ساعة في طين، وساعة في نار، وساعة في بوتقة، وساعة في سواد، وساعة في بياض حتى يعود إلى ما خرج من المعدن ،فأطوار الخليقة إلى الأبد في تقلبها بقاء في بقاء، وكيف يفنى بالحقيقة من أوجده الحق من مكمن الغيب إلى قضاء ربوبيته، فإذا أحضرهم في ساحة كبريائه ويتجلى لهم بالبداهة من عين الجبارية والقهارية يكونون في محل الفناء وفي فناء الفناء من عليات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانين ألبسهم الله لباس بقائه؛ فيبقون ببقائه أبد الآبدين، فإذا الاستثناء وقع على

---

(١) لما ذكر وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ» قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك صدق عليه أنه متق ، فوجب أن يدخل الفساق هذا الوعد فقال: (فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) وقرأ أهل المدينة والشام بضم ميم «مُقَام» على المصدر ، أي في إقامة وقرأ الباقون فتح الميم أي في مجلس أمنين آمنوا فيه من الغير. تفسير ابن عادل (١٤/ ١٧٦).

التحقيق لا على التأويل فيأرب موت هناك؛ ويأرب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبي ﷺ كيف قال: «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(١).

قيل للجنيد: أهل الجنة باقون ببقاء الحق؟ فقال: لا، ولكنهم مبقون ببقاء الحق، والباقي على الحقيقة من لم يزل ولا يزال باقيًا، ثم بيَّن الله سبحانه أن هذه الكرامات فضلٌ منه عليهم؛ حيث اختارهم بها في الأزل، وأخرجها من علل الاكتساب بقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: عطاء واصطفائية لا جزاء للأعمال المعلولة.

قال الواسطي: هو الفضل لا استحقاق بعمل العبد وكسبه وحركته.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾: افهم أن الكلام الأزلي ما فارق من الأزل، وكيف يحل القديم في الحديث؟! وهو مستحيلٌ من كل الوجوه، لكن لما أراد أن يخبر عن نفسه ألبس نور كلامه لسان حبيبه ﷺ، فيحتمل كلام الحق بنور الحق، فإذًا الحق مع الحق لا مع غيره؛ فلسانه فعل الحق، وفعل الحق مجرى نور صفاته، جعله فصيحًا بتيسره، وسهَّل عليه جريان لسان الحديث به؛ لعلهم يدركون من لسانه معاني صفات الحق، فإن الله لو أسمعهم بغير الوسائط لماتوا جميعًا.

قال ابن عطاء: يسَّر ذكره على لسان من شاء من عباده، فلا يفتر عن ذكره بحالٍ، وأغلق باب الذكر على من شاء من عباده، فلا يستطيع ذكره بحال.

قال جعفر الصادق: لولا تيسيره لما قدر أحدٌ من خلقه أن يلفظ بحرفٍ من القرآن، وأنَّى لهم ذلك؟! وهو كلام من لم يزل ولا يزال.

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: انتظر وقوع مقاديري عليهم؛ فإن في رؤيتها عبر العارفين وموعظة المتقين.

قال جعفر: الانتظار معدن الإيمان، وهو سبيل أهل الحق إلى الحق، النبي بنبوته، والولي بالولاية.

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٦١).

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ﴾: الحاء يدل على أن في بحر حياته حارت الأرواح، وفي ميادين محبته هامت الأسرار.

قال الأستاذ: أي: بحياتي ومودتي لا شيء أحبُّ على أحبائي من لقائي.

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في السماوات والأرض ظهور أنوار قدرته وسنا جماله لأبصار العارفين وبصائر المحبين.

قال سهل: علامات لمن أيقن بقلبه، واستدل بكونها على مكون هذه الآيات الظاهرة.

﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: ما بان في السماوات والأرض بان في خلق الإنسان والحيوان أيضًا، فما بان في السماوات والأرض للمؤمنين بان في خلق الإنسان والحيوان للموقنين؛ لأن ما بان في خلق الإنسان حقيقة مباشرة الصفة في الفعل، وذلك يوجب حقيقة اليقين، وبين اليقين والإيمان فروقٌ كثيرةٌ، وحقيقة الإيمان هو اليقين؛ حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل النبي ﷺ بقوله:

«اللَّهُمَّ إنِّي أسألك إيمانًا يباشرُ قلبِي ويقينًا ليس بعده كفرٌ»[1].

قال بعضهم: في شواهد القدرة وآثار الصنع دلالاتٌ وآياتٌ على وحدانيته، فمن استشهد بها على وحدانيته فهو الموحِّد، ومن كان نظره إلى القادر الصانع المبدي لها ثم يرجع إلى الصنع والقدرة فهو العارف.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ١١٨).

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: اتخذوها هزوًا لما لم ينكشف لهم أنوار الشاهد في الشواهد، لم يتمتعوا بلطائفها، وصارت لهم زيادة الحجاب.

قال ابن عطاء: من لم يجد في طاعة الله ولم يصرف همه إلى الدخول فيها بشرط الأمر والخروج منها بشرط الآداب نـزع الله حب الطاعة من قلبه، وردَّه إلى حوله وقوته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، علمها علم استدلال لا علم حقيقة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١٥ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: تسخير ما في السماوات والأرض التمتع بمشاهدة مكونها فيها؛ لأنها منه بدت منورة بنوره.

قال النهرجوري: سخر لك الكون وما فيه؛ لئلا يسخرك منها شيءٌ، وتكون مسخرًا لمن سخر لك الكل، فمن ملَّكه شيئًا منها وأسرته زينتها وبهجتها فقد جحد نعمة الله عنده، وجهل فضله وآلاءه عنده؛ إذ خلقه حرًّا من الكل عبدًا لنفسه، فاستعبده الكل، ولم يشتغل لعبودية الحق بحالٍ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ

سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾: شريعته منهاجه إلى الحق، وذلك المنهاج جامعٌ؛ إذ فيها جميع شرائع الأنبياء ومقامات الأولياء أي: أنت لا تحتاج إلى من مضى من الأولين؛ فأنت أكمل الخلق اتبع ما اختار الله لك من الطرق المستقيمة؛ لذلك قال: «بُعثت بالحنيفية السهلة السمحة البيضاء، لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي»[(١)].

قال سهل: المنهاج سنن من كان قبلك من الأنبياء والأولياء؛ فإنهم على منهاج الهدى والشريعة هي الشارع الممتد الواضح إلى طريق النجاة وسبيل الرشاد.

قال الصادق: الشريعة في الأمور محافظة الحدود فيها.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: من نظر إلى ما وصل إليه مما ابتلي به المريدون، فقد اتخذ هواه إلهًا؛ إذ بنفسه محجوبٌ، ومن باب المشاهدة مطرودٌ، وذلك بإضلال الحق إياه بما سبق في علمه بأنه يكون محجوبًا منه به، قال الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

قال سهل: من اتبع مراده لم يسلك مسالك الاقتداء، وآثر شهوات الدنيا على نعيم الآخرة، ثم طمع أن له في الآخرة ما للمؤمنين من الدرجات الرفيعة والمنازل السنية.

وقال في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: ضلَّ عليه علم نجاته، ثم إن الله سبحانه أكد أمر ضلاله بقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾: ختم على سمعه وقلبه ختم الضلال والغيرة والقهر القديم، وغطى بصره بعمى الكفر.

قال سهل: ختم على سمعه، فحوى عليه سماع خطابه، وحرَّم على قلبه فهم خطابه وعلى عينه مشاهدة آثار القدرة في صنعه.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٢٠٠) بنحوه.

ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: يحييكم بمعرفته وتجليه، ويميتكم باستتاره، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لمشاهدته.

قال سهل: يحييكم في بطون أمهاتكم، ثم يميتكم بجهدكم، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لمشاهدته.

قال سهل: يحييكم في بطون أمهاتكم، ثم يميتكم بجهلكم، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة أولكم وآخركم لا ريب فيه.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾(١): هذا إذا بدا سلطان أنوار عزته تجثو على بساط القيامة من ركوب عظمته عليهم، لا يتكلم منهم إلا من له انبساط.

وقال سهل: على ركبها يجادل عن نفسها عند الموافق الصادق، يجتهد في تحقيق صدقة، والجاحد يجحد في الدفع عن نفسه، وكلٌّ محكوم عليه بالكتاب الذي أملاه مداده ريقه، وقلمه لسانه، وقرطاسه جوارحه.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾: كتاب الحفظة منقوش ما سبق به

---

(١) فهي عامة للناس في حال الموقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل الموقف جاثون على الرُّكب، كما هو المعتاد في مقام التفاؤل والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يُناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقررهم بذنوبهم ويسترهم. البحر المديد (٣/ ٤٧٩).

القدر، يشهد بها جرى على العبد.

قال ابن عطاء: حكم الأزل ينطق عليهم بتصحيح ما في كتبهم وتحقيقها.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: حقيقة الحمد لله لا لغيره، وهو مستحقُّ الحمد؛ إذ النعم بالحقيقة، وهو المنعم لا غيره، ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ففي الحق الكبرياء عن الحدثان؛ لأنه هو المستحق للكبرياء، وكبرياؤه ظاهرٌ في كل ذرةٍ من العرش إلى الثرى؛ إذ هي كلها مستغرقةٌ مقهورةٌ في أنوار كبريائه، يعزُّ بعزَّة الأولياء، ويقهره بقهر الأعداء، حكيمٌ في إبداع الخلق وإلزامهم عبوديته التي هي شرائعه المحكمة بحكمه.

قال سهل في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾: العلو والقدرة والعظمة والحول والقوة، له في جميع الملك، فمن اعتصم به أيَّده بحوله وقوته، ومن اعتمد على نفسه وكَّله الله إليها.

سورة الأحقاف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

﴿حمٓ﴾ : إشارة الحاء والميم إلى حمايته أسرار الواصلين عن حركات الضمائر؛ لأنها حمائم أبراج الملكوت والجبروت، حمد نفسه بما أولاهم لهم، ومَنَّ عليهم حتى ارتفع حمده عن الحدثان؛ إذ حمده لا يستطيعه أحدٌ من خلقه أي: بحمدي على نفسي وحمايتي قلوب العارفين هذا تنـزيلٌ مني، وأنا العزيز الغالب بقهري على سلب أرواح العاشقين بجمالي وجلالي، وأنا الحكيم في اصطفائيتك من اصطفائيته كل نبيٍّ ورسولٍ ووليٍّ وملكٍ مقرَّبٍ، يا حبيبي ويا محبي حكمت في نفسي أن أوصلكم إلى وصالي، وأسقيكم من بحار حياتي شرابات أنوار القيومية الباقية الأزلية الأبدية.

قال الأستاذ في قوله ﴿حمٓ﴾ : حميت قلوب أهل عنايتي، فصرفت عنها خواطر التجويز، وأثبتها في شاهد اليقين بنور التحقيق، فلاحت فيها شواهد برهانهم، وأضفنا إليها لطائف إحساننا، فكمل مناها من عين الوصلة، وغذيناها بنسيم الأنس في ساحات القربة.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا

عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: كان في علم الله في أزل أزله أنه يوجد الكون من العدم، فأوجده بحق العلم السابق، وذلك الحق حقُّ سوابق إرادته الأزلية على وجود الأكوان والحدثان؛ لتحقق بأنوار حقائق اصطناعه حقائق أنوار قلوب العارفين، وليتطرقوا بوسائط الشواهد إلى مشاهد جلاله وجماله؛ لئلا يحترقوا بالبديهة في بروز سطوات قدسه وكبريائه.

قال ابن عطاء: خلق السماوات والأرض، وأظهر فيهما بدائع صنعه وبوادي قدرته، فمن نظر إليهما فرأى فيهما آثار الصنع فهو لتيقظه، ومن نظر وشاهد الصنائع فهو لتحققه.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: بيَّن الله سبحانه أن حال حبيبه عليه الصلاة والسلام حالةٌ معروفةٌ في الملكوت والعالمين، وهي ما جرت على جميع الأنبياء والمرسلين من كشوف أسراره، وبروز أنوراه، وظهور نفسه لهم، وإخباره عن نفسه، وملكه إياهم ليدعوا العباد إلى ساحة قربه وخدمته، أي: ما كنت بأول من الأنبياء والرسل، ولست عجيباً بحالتي ونبوتي؛ فإن النبوة سنة الله التي جرت على إخواني من الأنبياء والرسل، وهي معروفةٌ بأنه دعا الخلق بلسان الأنبياء إلى طاعته ومعرفته

ومشاهدته، وما أعلم ما حُكِم في الأزل عليَّ ولا عليكم؛ فإنه شاهد القلوب وعلام الغيوب، أوجد من العدم بنور القدم، ولا أدري أين استغرق في بحار وصال جماله الأبدي، فهناك لججٌ تغيب في ذرة منها جميع الأرواح العاشقة والأسرار الوالهة والقلوب الحائرة، وما أدري كيف يفعل بكم فيما جرى من السعادة والشقاوة في الأزل؛ فإن علم العواقب عنده، لا يطّلع عليه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ؛ لأنه من علم ما استأثره لنفسه خاصة، وليس لأحدٍ منه نصيبٌ إلا لمن أظهر له شيئًا منه، كقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

قال سهل: ما كنت عجيبًا في المرسلين؛ فإني لم أدعوكم إلا إلى التوحيد، ولم أدلكم إلا على مكارم الأخلاق، وبهذا بعث الأنبياء ﷺ قبل.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: إن الله تعالى ستر أمر الروح على جميع خلقه، وستر ماهيته ذاته، وستر ما يعامل به الخلق عند معاينته فقال: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾: ما قال القوم هذا القول حتى شاهدوا بقلوبهم وعقولهم وأرواحهم وأسرارهم مشاهدة الحق سبحانه، فإذا رأوه قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، كطلاب الهلال سكتوا في طلبه، فإذا رأوه يقولون: هذا الهلال، وصاحوا، وصفقوا، وضحكوا لهذا القول منهم بعد كشف مشاهدة الحق لهم، فلما رأوه أحبوه، وعرفوه، وشربوا من بحار وصاله وجماله وجلاله شربات المحبة والشوق، وتمكنوا شربها حتى استقاموا بقوتها في موازاة رؤية أنوار الآزال والآباد، واستقاموا في مراد الله منهم، وأداء حقائق عبوديته، فلا يتبقى عليهم خوف الحجاب ولا حزن العتاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قال ابن طاهر: استقاموا على ما سبق منهم من الإقرار بالتوحيد، فلم يروا سواه منعمًا، ولا شكروا سواه في حال، ولا رجعوا إلى غيره، وثبتوا معه على منهاج الاستقامة.

وقال جعفر: استقاموا مع الله بحركات القلوب مع مشاهدات التوحيد.

وقال بعضهم: أفردوا الله بالملك والربوبية والقدرة، واستقاموا على هذه الشروط، فلم يخالفوه.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ
وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى
تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن
سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (١٦) وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ
لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ
فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ
مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ
طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ
بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا
ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا
مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا
لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ
كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾: وصَّى الإنسان بالإحسان إلى أبويه؛ لأنهما أسباب وجوده ومصادر أفعال الحق، بدا منهما بدائع قدرته، وأنوار ربوبيته؛ فحرمتهما حرمة الأصل، ومن صبر في طاعتهما رزقه الله حسن المعاشرة على بساط حرمته وقربته.

قال بعضهم: أوصى الله العوام ببرِّ الوالدين لما لهما عليه من نعمة التربية والحفظ، فمن حفظ وصية الله في الأبوين وفقته بركة ذلك لحفظ حرمات الله تعالى، وكذلك رعاية الأوامر والمحافظة عليها توصل بركاتها بصاحبها إلى محل الرضا والأنس.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾: وصف الله الصدّيقين في طرفين من أعمارهم أنهم في عنفوان شبابهم، وأشد أسنانهم أهل الاجتهاد والرغبة في الطاعات، وفي أربعين سنة هم أهل الكمال في العقول والفهوم والاستعداد لقبول الوحي والإلهام والكلام والكشف والعيان، ألا ترى كيف عرف شأنه الصديق ﷺ حين بلغ أربعين سنة في صحبة النبي ﷺ في أول شبابه بما أخبر الله عنه بقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾: ألهمني رشد التوفيق، وألبس قلبي ولساني نور عرفانك وقوة فيض مشاهدتك، أشكر بهما نعمة مشاهدتك ومعرفتك وصحبة رسولك؛ فإنه أعظم النعم منك عليَّ وعلى والدي.

قال ابن عطاء: خاطب الله الأنبياء، وبعثهم عند كمال الأوصاف وتمام العقول: وهو الوقت الذي أخبر الله تعالى عن تمام خلقه عباده، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

وقال سهل في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أي: ألهمني التوبة والعمل بالطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾: العمل الصالح المقرون بالرضا بذل النفس لله والخروج مما سوى الله للوصول إلى مشاهدة الله.

قال سهل: العمل المرضي ما كان أوائله على الإخلاص مقيدًا باتباع السنن.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾: اجعلهم أولياءك وأهل معرفتك وطاعتك.

قال سهل: اجعلهم لي خلفَ صدقٍ، ولك عبيدَ حقٍّ.

وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾: وصف الله أهل معرفته من الجن كيف حبست ألسنتهم هيبة الخطاب وحشمة المشاهدة، وهكذا من ألبس أنوار الهيبة والعظمة يخرس لسانه عن الانبساط والمخاطبة وإفشاء السر، وهذا بعد شهود القلوب أنوار الغيوب بنعت إصغاء الأسرار إلى وقوع الخطاب وكشف النقاب.

قال محمد بن سليمان: ليس في مقام الحضرة إلا الخمول والذبول والسكون تحت

موارد الهيبة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾.

قال النصر آبادي: هيبة المشاهدة إذا طالعت السرائر بحقائقها أخرست الألسن عن النطق في ذلك المشهد، كالجن لما حضروا النبي ﷺ، فأراد أن يقرأ عليهم أوصى بعضهم بعضًا بالإنصات، فلما حضروا قالوا أنصتوا.

وقال الواسطي: شاهدوا عز الربوبية ظاهرًا في أوصاف البشرية أخرسهم المشهد لشدة الهيبة.

﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٣٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: يرشد إلى مشاهدة الحق، وإلى طريق معرفته بنعت الخروج عما دون الله، القرآن صفة الحق، وصفته تدل على ذاته، ترشد ظواهره إلى بواطنه، وبواطنه إلى مصادره الأزلية الأبدية.

﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٣٣) وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ (٣٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾(1): أخبر الله عن مقالة كبراء الجن وعلمائهم لمريديهم أي: سمعتم بآذان الأرواح والأسرار مناداة الأزل قبل الكون،

---

(١) إنها اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر:٢]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان.

ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعيم الإلهية؛ ولذا ورد: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم». حيث أثبت اللذة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلاً منهم داخلون تحت التكلف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقًا.

فأجيبوها بنعت الطاعة على لسان حبيبه ﷺ؛ فإنه مرشد الحق بهدي إلى الحق، ثم أتبع الإجابة بالإيمان والتصديق فيما أخبر عن الحق سبحانه بقوله: ﴿وَءَامِنُوا بِهِۦ﴾ أي: بكلامه وخطابه ورسوله ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، هذا شرطٌ بعد الإيمان والإجابة والمتابعة أي: يغفر لكم جهالتكم الأولية، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ﴾ الحجاب.

قال سهل: لا يجيب الداعي إلا من أسمع اقتداءً ووُفِّق للجواب ولقن، وإلا فمن يجسر على إجابة هذه الدعوة.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾: أدَّب حبيبه ﷺ بآداب أكابر الأنبياء الذين هم أهل عزائم بذلك الموجود لله وفي الله، بعد أن عاينوه، وعرفوه، وأحبوه، وصبروا له وفيه أي: أنت في بحر بلائي أمتحنك بعظائم الامتحان التي لا يثبت بإزائها الصخور الصم، وأعظم البلاء كشف جمال قدسي لك، الذي يفنى فيه من العرش إلى الثرى، ﴿فَاصْبِرْ﴾ به في مشاهدتي، ولا تفش سري بيني وبينك عند الخلق، فإن بدت منه ذرةٌ لخلقي تضمحل الأكوان والحدثان وحقيقة الإشارة أي: أنت عزمت بسرك وروحك أن تسري من عالم الحدثية إلى ميادين الوحدانية، وتطير بأجنحة المعرفة في هواء القدم والبقاء الذي لا نهاية له؛ إذ الدهر الدهار أقل من لمحة في زمانها فيه، فاصبر فيما عزمت؛ فإنك تفنى في كل لمحة منك في سطوات ألوهيته كما صبر أولو العزم في أسفار الديمومية، وإدراك حقائق الأزلية والأبدية، صبروا في تقلبهم في لطمات بحار القدمية حين استغرقوا في مقام سر الكبرياء، وما وجدوا نهايتها، فكادوا يفرون، ويخرجون منها، فأغرقتهم أمواجها، فاستغاثوا منه إليه، فألبسهم قوى الربانية، فسبَّحوا فيها بالحق، وذهبت بهم بحار الربوبية إلى معادن الأولية، فلما بلغوا أقصى غايات هممهم وظنوا أنهم وصلوا ورأوا أنفسهم أنهم في أوائل أسفار الغيب كادوا أن يفنوا، فصبروا بالله في الله، وآيسوا من الوصول إلى كنه القدم، ولم ينقطعوا من أسفارهم، وأيضًا فاصبر؛ فإنك في تلك الأسفار، ولا يصح حين لم تجد هنالك نفار الخروج منها، فإن من عرفني غرق في بحر كبريائي وعظمتي أبد الآبدين، ألا ترى كيف قال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ أي: ولا تستعجل؛ فإن أموري لا تدرك بحلاوة العقول، ولا يدركني غوص الفهوم، ولا لباب القلوب، ولا الدهر الدَّهار، ولا تقلب الأفكار، فإن جميع الأزمنة والدهور مقصرةٌ عند أوليتي وآخريتي، ألا ترى كيف وصف الهالكين في بحار قهره بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا

يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ أي: ما مضى من بدو الوجود إلى زمان الفناء في أيام القدم المنـزَّه عن الأدهار والأعصار كلا شيء في شيء، ثم بيَّن أن هذه الأسرار والحقائق المكشوف ذلك ﴿بَلَـٰغٌ﴾ أي: مني إليك ومنك إلى العالمين، ثم بيَّن أن عند معاينة سطوات القهريات لا يهلك فيها إلا الخارجون من نعوت استعداد معرفتي حين يحتجبون بظلمات ظنونهم بقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الخارجون بالدعاوي الباطلة.

قال سهل في قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾: إبراهيم أُبتلي بالنار، وذبح الولد، فرضي وأسلم، وأيوب بالبلاء فصبر، وإسماعيل بالذبح فرضي، ونوح بالتكذيب فصبر، ويونس ببطن الحوت فدعا والتجأ، ويوسف بالجب والسجن فلم يتغير، ويعقوب بذهاب البصر وفقدان الولد، فشكا بثه إلى الله، ولم يشكُ إلى غيره، وهم اثنا عشر نبيًّا صبروا على ما أصابهم، وهم أولوا العزم من الرسل.

وقال الواسطي في قوله ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ إلى قوله ﴿مِّن نَّهَارٍۭ﴾: لما جعل الأزل والأبد كساعة من نهار، فأين تقع في ساعة من نهار من طاعته ومعصيته من كرمه؟!

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: ستر وأنعم الله بنسيانهم عن ذكره وتجهلهم بالمنعم، وخاصموا أولياء الله، وأنكروا عليهم، أبطل الله ما عملوا بالرياء والسمعة والنفاق.

قال سهل: كفروا بتوحيد الله، وصدوا عن دين الإسلام أبطل أعمالهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن

يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: اتبع الكفرة ما وقع في مخاييلهم من هواجس النفس ووساوس الشيطان، ولم يقبلوا طريق الرشد من حيث الوحي والإلهام، وأن الذين صدقوا في دين الله وشاهدوا الله بالله اتبعوا سنة رسوله وخطابه، وما يقع في أسرارهم من النور والبيان والإلهام والكلام بنعت الإخلاص في طاعته، والأدب في خدمته، والإعراض عن غيره.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾: اتباع الباطل ارتكاب الشهوات وأماني النفس، واتباع الحق اتباع الأوامر والسنن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾: نصرة العبد لله أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه؛ فإنهم أعداء الله؛ فإذا خاصمها يقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيماً في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله حتى يثبت في مقام العبودية وانكشاف أنوار الربوبية.

قال ابن عطاء: هو أن يكون عون الله على النفس، فإن الله ينصرك عليها حتى تنقاد لك، ولا يكون عون النفس فتضرع ضرعة لا تقوم بعدها أبدًا.

قال الترمذي: إن أكرمتم أوليائي أكرمتكم.

قال بعضهم: يرزقكم الله الاستقامة في كل أحوالكم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: إني محبهم وحبيبهم في الأزل حين اصطفيتهم بولايتي، واجتبيتهم بمعرفتي، وآثرتهم على بريتي، وجعلتهم مواقع نظري،

ومواضع ودائعي، وناصرهم على عدوهم، محبته لا تزول، ونصرته لا تحول.

قال أبو عثمان: معين من أقبل عليه، وناصر من استنصره.

قال سهل: ولي الذين آمنوا بالرضا والمحبة لجملتهم.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ (١) أي: على مشاهدة ويقين، وبراهين واضحة، ومتابعة على وفق ما وقع في قلبه من طريق الخطاب، والإلهام الذي وافق الكتاب والسنة؛ فمن هذا وصفه لا يكون كمن يستحسن ما زين له نفسه وهواه شيطانه من حيث الجهل والغرور.

قال أبو عثمان: البينة هي النور الذي يفرق بها المرء بين الإلهام والوسواس، ولا تكون البينة إلا لأهل الحقائق في الإيمان، والبينة نورٌ، والمترجم عنها البرهان.

قال أبو سعيد الخراز: البينات مختلفةٌ، منهم من كانت بينته الإلهام، ومنهم قلوب أقفلت عن أن يدخلها شيءٌ في المعرفة بنفسه، ومنهم من كانت بينته المعرفة ببلاء الوقت وفتنته، ومنهم من كانت بينته في كشف ما كشف الله له من صحة الرجوع إليه واضح البينات ما يشهد له شاهد الحق ويتلوه شاهد منه.

قال الأستاذ: البينة الضياء والحجة والاستبصار لواضح المحجة والعلماء في ضياء برهانهم، والعارفون في ضياء بيانهم.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾: لأهل الحق في هذا العالم جِنان في قلوبهم وعقولهم، وأرواحهم وأسرارهم، فجنة القلوب روضة الإتقان،

---

(١) أي: من شهد مقام الله عز وجل بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زُين له سُوء عمله، واتبع هواه، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده هـ. البحر المديد (٣/ ٣٩).

وجنة العقول بستان العرفان، وجنة الأرواح حديقة البيان، وجنة الأسرار فردوس العيان، ولكل جنة منها نهرٌ وشجرٌ وثمرٌ وزهرٌ، فنهر جنة القلوب ماء حياة الأزل التي تجري بنعت التجلي فيها من عيون الوحدانية، وهو لا يتغير بكدورات البشرية، يحيى القلوب بنور اليقين حتى لا يجري عليها موت الجهالة، وأشجارها أشجار الإيمان، وثمرها أنوار الإيقان، ونهر جنة العقول من ألبان القدرة يسقيها الحق منه؛ ليريها لصفاء أنوار قدرته التي يورث معرفتها بعزته وجلال قدرته وأشجارها الحكمة وأزهارها الفطنة، ونهر جنة الأرواح نهر كشف الجمال الذي مورده بحر الجلال، يسقيها الحق منه ليطيبها بلذة الجمال ورؤية الجلال، وأشجارها المحبة، وأزهارها الشوق، وأثمارها العشق، ونهر جنة الأسرار كشوف الذات المقدس عن انقطاع فيضه المسرمد، فيقويها الحق بشربة حتى استقامت في وصله، فهناك أشجارها التوحيد، وأزهارها التفريد، وأثمارها التحقيق، فأصحاب القلوب هم أهل الشهود، وأصحاب العقول هم أهل الكشوف، وأصحاب الأرواح هم أهل السكر والوجود، وأصحاب الأسرار هم أهل المحو والصحو، فأهل الشهود أصحاب المراقبات، وأهل الكشوف أهل المقامات، وأهل الوجود أهل الحالات، وأهل المحو والصحو أهل الاستقامة، فطوبى لمن كان له مثل هذه الجنان في دار الامتحان.

قال الأستاذ: اليوم للأولياء لهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفة، ثم شراب الولاء، ثم شراب في حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عملٌ، ولصاحبه سكرٌ وصحوٌ، فمن شرب بكأس الوفاء لم ينظر في غيبته إلى غيره، كما قيل:

وما سُرَّ صدري منذ شطتْ بك النَّوى ... أنيسٌ ولا كأس ولا متصرفُ

ومن شرب بكأس الصفاء خلص له عن كل شرب وكدورة في عهده، فهو في كل وقت صافٍ عن نفسه، خالٍ من مطالبته، قائمٍ به بلا شغل في الدنيا والآخرة، ولا أرب، ومن شرب بكأس الولاء عدم فيه القرار، ولم يغبْ سره لحظة لا الليل ولا النهار، ومن شرب في حال اللقاء أنس على الدوام بقائه، فلم يطلب مع بقائه شيئًا آخر لا من عطائه ولا من لقائه؛ لاستهلاكه في عَلائه عند سطوات كبريائه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: الذين اهتدوا بنور الله سبل الوصول إلى المشاهدة لله، وطلبوا عرفانه بنية صادقة، وقلوب شائقة راسخة، وعقول صافية، وأسرار طاهرة زادهم الله هدى، بأنه يُعرِّفهم طرق معارف صفاته،

وشهودهم مشاهد جلال ذاته، وأتاهم وقاية منه، بحيث جعلهم متصفين بصفاته، ثم عصمهم بها عن حجب الكدورات ونكايات الخطوات.

قال ابن عطاء: الذين تحققوا في طلب الهداية أوصلناهم إلى مقام الهداية، وزدناهم هدى بالوصول الهادي.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾: ليس في القرآن ذكر الذات المجرد عن ذكر الصفات والأفعال إلا ههنا، والله أعلم؛ فهاهنا خبر عن عين الألوهية التي تقتضي التوحيد المجرد الخالي عن التفرقة في طلب الصفة والفعل، فدعا حبيبه إلى رؤية عيان الذات بنعت العلم، وأراد أن يعجزه في رؤية ذاته عن إدراك الكل، ويذوق طعم الفناء في سطوات عزة ذاته، لا أنه دعاه إلى أن يعلم كنه عين القدم، فإنه منـزَّهٌ عن إدراك الخليقة بل عرَّفه نعوت الأولية المنـزهة عن الإدراك عن درك المتحيرين فيه، بأن يدركوه بعجزهم، فإن العاجز منقطعٌ بعجزه عنه بكل حال، وأيضًا دعاه إلى علم إفراد القدم عن الحدوث بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فأفاد علمه طرفين من العلم: الأول نفي الأضداد، والثاني إثبات الذات، والمقصود منه هذان الحالان من النفي والإثبات، إلا أنه أعلم كنه الألوهية، ألا ترى كيف قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾؟! وهو نفى الأضداد و﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إثبات الألوهية، وكيف دعاه إلى العلم ببطون الأزل، وهو مستحيل أن يعلمها الحقيقة بالحقيقة، وإشارة قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [1]أي: من وجودك في مطالعتي ووجود جلالي، فإن بقاء وجود

(١) أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ والرامي في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيبه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وهي نسبة الوجود التي بها أضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر؛ كان الوجود وما يتبعه لله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدر منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرُّد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأمَّا مرتبة الجسد =

الحدث في بقاء الحق أعظم الذنوب، وأيضًا إذا دعاه إلى العلم بوحدانيته وقع له ﷺ أنه يعلم الحق بالحقيقة في سرعة شوقه إليه، وكمال محبته له، فعرفه الحق موضع خاطره في شوقه أنه لا يمكن ذلك، وهو مستحيلٌ، وهو ذنبٌ، فأمره بالاستغفار منه بنعت عرفانه عجزه عن درك حقائق وجود القدم، وأيضًا ألبس روح محمد المصطفى ﷺ نورًا من نور علمه، جعله عالمـًا بعلمه، ومتصفـًا بصفته، فلما باشر ذلك النور نور روحه وتجلى الحق لسره من عين علمه صار عالمـًا بعلم الحق على الحق، فلما وجده بهذه المثابة دعاه إلى العلم بحقيقة أحديته بنعت زوال الشواهد والجواهر والأعراض، والنظر إلى الأفعال وطلب الصفة إلى الذات بالحق إلى الحق ليعلمه، فحار سرُّه في ميادين الأزل والأبد، واستغرق في بحار أولية روحه وسره، ولم يدركه، وكلما وجد علمًا فني في علم آخر، وذهب العلم الأول في العلم الثاني، فلما وجده الحق عاجزًا عن دركه أمره بالاستغفار؛ لما فيه من بقايا وجوده في مقام الاتصاف، فإن في الاتصاف بقي العبد، وبقاء العبد في الاتصاف حجاب الاتصاف، فإذا بقي وجود، يحتجب به عن الإدراك، فإذا لم يبق بقي الحق، وهو عالم بنفسه أزلاً وأبدًا، فوجوده تكلفٌ في البين؛ إذ الحق عالم به لا هو، فأمره الحق بالاستغفار عن بقائه في الاتصاف، فإنه ذنبٌ عظيمٌ؛ إذ به محتجبٌ عن مقصوده، لذلك عرف حاله صلوات الله عليه، وقال: «إنَّه ليُغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ الله في كل يوم مائة مرة»[1]، ومن وقع في هذا البحر فقد وجب عليه في كل نفس ألف استغفار؛ لأن في أول الحال فرح بوجدان المقام والسكون إلى المقام، فلما انكشف إليه مزيد القرب والمعرفة عن الأول وقد وجب عليه الاستغفار من الفرح به والوقوف عليه، ولذلك قال الجنيد: اعلم حقيقة أنك بنا ولنا وبنا علمتنا، وإياك أن ترى نفسك في علمك، فإن خطر بك خاطرٌ غيره فاستغفر من خاطرك، فلا ذنب ولا خطرة أعظم ممن رجع عنا إلى سوانا ولو في خطرة ونفس.

= فكونها مرتبة التعلُّق؛ تحتاج إلى ذلك؛ ولذا لمَّا خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: (لا إله إلا الله)، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح، ولمَّا وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حينئذ لِما يقتضيه الموطن، فلكل من المواطن اعتبار غير اعتبار الآخر، ولمَّا كانت الأُلوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي ألوهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضًا، وليس فوق مرتبة العلم والأُلوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحت لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فإلى مرتبة الأُلوهية ينتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثَمَّ حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضًا بالحيرة لكنها هي الحيرة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلٍّ، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥)، وأبو داود (٢/ ٨٤).

قال الواسطي: من قال لا إله إلا الله على العادة فهو أحمق، ومن قالها تعجبًا فهو مصروفٌ من الحق، ومن قالها على الإخلاص فأشرك وطعنه؛ لأنه بإياه يخلص حتى يصير مخلصًا، ومن قالها على الحقيقة فقد تبتل عن الشواهد.

وقال القاسم: العلماء أربعة: عالم متروك، وعالم متمكن، وعالم موصول، وعالم مجذوب، فالعالم المتروك هم العامة، والعالم المجذوب وهم الذين جذب الله سرائرهم إلى سره، والعالم الموصول هم الذي يطلبون المعالية، والعالم المتمكن وهو محمد ﷺ وحد القرار في محل المشاهدة؛ لذلك خوطب بقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ولم يقل فاعرف؛ لأن الإنسان قد يعرف الشيء ولا يحيط به علمًا، ما علمه وأحاط به علمًا فقد عرفه.

وقال الواسطي: هما دعوتان: دعا إبراهيم إلى قوله: ﴿أَسۡلِمۡ﴾، ودعا محمد ﷺ إلى قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾، دعا أحدهما إلى العلم، والآخر إلى الإسلام، وأعلاهما العلم؛ فهو مرتبة الأجلَّة، والإسلام هو الانقياد، والانقياد إظهار العبودية، والعلم إظهار الربوبية، لا جرم أُبتلى حين قال: ﴿أَسۡلَمۡتُ﴾ بالنار وذبح الولد وغيرهما.

وقيل: قال لإبراهيم: ﴿أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ﴾: ابتلى لما قال، ونبينا ﷺ لم يقل علمت فعوفي، وما ينكث في سري من الحال هواتف أطيار الغيب التي تنبه أهل الأفهام أنباء الربانية أن الله اختبر الخليل بروية الفعل والعلم بالصفة؛ حيث قطع الطيور ليرى أنوار الشاهد في الشواهد بقوله بعد أن أحياها: ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، وحبل قدر المصطفى ﷺ، فامتحنه الله بالعلم بالذات هاهنا بقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهناك حيث قال للخليل: ﴿أَسۡلِمۡ﴾ ، فهناك امتحانٌ بالعبودية، وما قال للحبيب: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ امتحان بالربوبية، فكم فرق بين هذين المنـزلين! فالخليل اجترأ من حيث شوقه، وقال: ﴿أَسۡلَمۡتُ﴾، وكان في سكر الخطاب، ولو كان في وقت الصحو علم أن الحدثان لا ينقاد لعزِّ ربوبيته كما يجب، فإن الحادث لا يبلغ إلى حقيقة عبوديته؛ إذ حقيقتها أن يشكر له بشيء يقابل القدم، وهذا مستحيلٌ، فوقع إذًا في الابتلاء، فالخطابان مصدرهما واحدٌ من حيث الأمر، ولكن مصادرهما مختلفة.

قال الواسطي: العلم حجةٌ، والمعرفة والغلبة غير محكوم بها.

قال الحسين: العلم الذي دعُي إليه المصطفى ﷺ هو علم الحروف، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام ألف في ألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في علم الأول، وعلم الأول في المشيئة، وعلم المشيئة في علم الهو، وهو

الذي دعاه إليه، فقال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ﴾ : فالهاء راجع إلى غيب الهوية.

قال القاسم: أضاف المعرفة إلى الخلق، فقال: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ .

وقال: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ ، واختصَّ هو بالعلم علم السرائر، ويسمَّى بالعلم ولم يسمَّ بالمعرفة، وقال لأخصِّ أنبيائه وأصفيائه: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ ؛ لقربه من مصدر الحقيقة ومورِدها، وإشراقه على الغيب والمغيبات، ودعاه إلى العلم، ووصفه به، ووصف العوام بالمعرفة؛ لأن العلم أتم وأبلغ.

قال بعضهم: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من حيث الله بغيبتك عن علمك، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ من علمك؛ لأن كل حقيقة لا تمحو آثار العبد ورسوله فليست بحقيقة.

وقال بعضهم: أدخل النبي ﷺ في عين الجمع بها دعاه إلى علم ألوهيته؛ إذ الهوية عين الجمع وفرق الخلق في سائر الأسامي والصفات، فطالع كل واحد منها قدره.

قال ابن عطاء: طلب تنـزيه العبد؛ لئلا يكون له خاطرٌ غيره في علمه بأن لا إله إلا هو علمًا لا قولاً، وهو حقيقة التوحيد حقائق تنبع عن الموحد لا حقائق تنبع عن العبد.

قال علي بن طاهر: إن الله أمر النبي ﷺ أن يدعو الخلق إليه، فلما دعا الخلق إليه دعاه من نفسه إليه بقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: أنت تدعو الخلق إليَّ وأنا أدعوك من نفسك إليَّ.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: إذا علمته أنك علمته فاستغفر لذنبك من هذا؛ فإن الحق علا جلَّ قدره أن يعلمه غيره.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾: وبّخ الله سبحانه الجهلة بالقرآن والغَفَلَة عن التدبر فيه، وبيَّن أنهم لا يتدبرون القرآن، وأظهر سبب

منع تدبرهم.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوبهم غطاء الغفلة، من حيث غطَّاها الحق سبحانه بغطاء قهره ومنعها عن مشاهدة صفته، وأصم أسماع أسرارهم؛ لئلا تصغي إلى سقوط الإلهام، أو تفهم لطائف الكلام، فالتدبر في القرآن لغواص بحار الفهوم حين غاصت أسرارهم وفهومهم وأولياؤهم في بحر عجائب خطاب الحق، فتستخرج غرائب علومها وأسرارها، فتعبر عنها ألستهم الصادقة عند مجامع هموم المريدين وأولي الشهود بنعت إلقاء السمع من المراقبين.

قال ابن عطاء: قلوب أقفلت عن التدبر، وألسن منعت عن التلاوة، وأسماع صمت عن الاستماع، ومن القلوب قلوب كشف عنها الغطاء، ولا يكون له راحة إلا في تلاوة القرآن واستماعه والتدبر فيه، فشتَّان ما بين الحالتين.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾: وصف الله نفسه بالقدرة القائمة والمشيئة الأزلية بأنه لو أراد أن يكشف عن سرائر الخلق وخفايا قلوبهم لحبيبه صلوات الله عليه لكان قادرًا، وذلك بعد أن ألبس قلبه أنوار غيبه وغيب غيبه؛ فإنه كان مستعدًّا بأن ينظر إلى بواطن الغيوب وضمائر القلوب، ولكن ما كان أوائل حاله عرفان بعد ترقي أحواله إلى مصاعد الغيب ورؤية أنوار الصفات، لكن أثبت في أحوالهم بالوسائط في هذا الموضع بقوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾، فإذا كمل في مشاهدة الحق أخبر عن وقوف سرِّه على ممكنات الغيوب بقوله: «فعلمتُ ما كان وما سيكون»[1]، فنبَّهنا الله سبحانه أن أوائل

---

(١) ذكره القنوجي في أبجد العلوم (١/ ١٣٨).

الفراسات مقرونةٌ بعلامات الظاهر، وأنها تتم بها بدا من سيماء الوجوه، ولحن القول والفراسة المحضة ما قال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا فِراسةَ المؤمنِ؛ فإنَّه ينظرُ بنور الله»(١)، وبيَّن أن ما يكون من الصدق في القول آثاره تبدو من السّماء وصدق القول وما يكون بخلاف ذلك؛ فلذلك قال القاسم في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾: أطلعناك على سرائرهم، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ فطنة، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ ظاهرًا، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، لا يقف على ما لهم من السعادة والشقاوة أحدٌ.

وقال أيضًا: إن عند الله الأكابر والسّادة يعرفون صدق المريد من كذبه بسؤاله وكلامه؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾(٢): وصف الله سبحانه نفسه بغنى القدم واستغنائه عن الكون وما فيه وأن خزائن جوده لا نهاية لها، وغناه صفته الأزلية القائمة يحوي حواشي بحارها فقر أهل الأكوان والحدثان، فيغنيهم بغناه الذي لا فقر بعده، وحقائق معنى الخطاب للمتصفين بصفاته الذين وجدوا مقام الغنى من الله بعد أن كساهم الحق نور غناه وجرَّدهم عن مقام الفقر، الذي هو مستفادٌ من نعوت تنـزيه القدم؛ إذ كان ولا مكان ولا وقت ولا زمان أي: أنتم وإن بلغتم إلى مقام الاتصاف بصفة غنائي فأنتم بعد فقراء، إذ الوصف للموصوف لا للمتصف، وأنه لا نهاية له.

قال الجنيد: في موضع الغنى كسوة الحق.

وقال سهل: معرفة علم السر كله للفقر، وهو ستر الله، وعلم الفقر إلى الله تصحيح علم الغنى بالله.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال القشيري: والله الغني لذاته بذاته، ومن غنائه: تمكُّنه من تنفيذ مُراده، واستغناؤه عما سواه، وأنتم الفقراء إلى الله، في نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، في الابتداء ليخلقكم، وفي الوسط ليُربيكم، وفي الانتهاء يفنيكم عن أنانيتكم، ويُبقيكم بهويته، فالله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد.

قال الجنيد: والله الغني وأنتم الفقراء، لأن الفقر يليق بالعبودية والغنى بالربوبية، ثم بيَّن وصف غناه عن العالمين في آخر السورة بقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ أي: إذا ذقتم طعم شراب وصالي وسكرتم لمشاهدة جمالي وتفقرون إلى بحار الأنائية وتستغرقون في لجج الأحوال وتخرجون منها بالعربدة فأوجد أقوامًا من المستقيمين على بساط جبروتي وساحات ملكوتي، ولا يزيفون عن سبل التمكين إلى شعب التلوين.

قال بعضهم: لا يستقر على حقيقة بساط العبودية إلا أهل السعادة، وقد يطأ البساط المترسمون بالعبودية أوقاتًا، ثم لا يستقرون عليه، ويبدل الله مكانهم فيه من أوجب لهم السعادة، ألا تراه يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: نبَّهنا الله في ذلك من سرٍّ عجيبٍ، وهو أن أبواب كشف القدم مسدودةٌ على أهل الحدثان، ولم يظهر لأحدٍ عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد ﷺ حتى رآه كفاحًا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاهًا، وفتح باب قلبه وروحه وسرَّه، فعرف نفسه لها، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة، وفتح الله جميع أبواب وجود حبيبه ﷺ حتى الشعرة على بدنه وجعلها عيونًا مفتوحة بمفاتيح توحيده وأنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، وذلك الفتح ظاهرٌ من وجوده حتى لا يراه أحدٌ إلا ويرى نور الصمدية ينتشر من بشريته، لكن كان محجوبًا من عيون الأغيار بقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وذلك الفتح سبب غفران ذنبه الأول وذنبه الآخر، الذنب الأول سقوطه من زند الفعل على نور الصفة؛ إذ أتى في أوَّل الأول بوجود الحدث إلى ساحة القدم، ومع ما أتى به لم يأت بحقوق الأزلية عليه بكمالها، فإذا قصَّر في واجب حق الربوبية بكماله عليه صار ذلك ذنبه الأول، وذنبه الآخر وقوفه بنعت الخطاب على مدارج العبودية بعد أن غاص في بحر الربوبية، فإن من شرائط وجدانها الخروج من المرسومات، فذلك الفتح سبب غفران الذنبين، وليبلغه إلى محض

الاتصاف والاتحاد حتى تسير الربوبية في ركاب حيزوم القدم في ميادين الأزل إلى الأبد بنعت التوحيد والتجريد والتفريد، وذلك تمام نعمته التي عليه أخبرنا الحق عنها بقوله: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾، ثم بيَّن أنه يهديه إلى طريق مشيئة الأزل المستقيمة بالإرادة والوحدانية، وذلك الطريق ما يسلك فيه عساكر جنود أنوار التجلي والتدلي بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝﴾، ذلك الصراط للحق لا للخلق؛ لأن الحادث لا يسلك في القدم، أقامه الحق على رأس ذلك الطريق، وكان لا يعرف أين يسلك حتى بدت أنوار بريد تجلي القدم الذي استقبله، فهداه إلى مسالك الديمومية، فأذهب به الحق إلى معارج دنوه، وذلك ما أنبأنا الله من سيره من الحدث إلى القدم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، فإذا وصل إلى قلب عساكر الواحدنية وغلبت عليه سطوات جنود الفطنة استغاث منه إليه؛ حيث قال: «أعوذُ بك منك»[1]، فلبسه الله أنوار ربوبيته، وأيَّده بقوته الأزلية حتى استقام بالحق في الحق، فأخرج الحق جنود رحمته الباقية، فقوَّاه بها، وسكن بها قهر القدم بقوله: «سبقتْ رحمتي غضبِي»[2]، وذلك قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

قال ابن عطاء: جمع الله للنبي ﷺ في هذه الآية من نعم مختلفة: بين الفتح المبين وهو من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من التحقق بالحق، والنصر وهو من أعلام الولاية، والمغفرة تبرئة من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة من الحق، والهداية هي الدعوة إلى المشاهدة، والنصرة هي رؤية الكل من الحق من غير أن يرجع إلى سواه.

وقال الواسطي: فتح عين رسوله ﷺ لمشاهدته في المسرى، وفتح سمعه لفهم كلامه كفاحًا بعد أن قوَّاه لذلك وأكرمه به.

وقال ابن عطاء: كشف ذنوب الأنبياء عليهم السّلام، ونادى عليه، وستر ذنوب النبي ﷺ بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

قال أبو يزيد في قوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝﴾: هو السبيل إلى قربه ليلة المعراج؛ حيث تأخر جبريل عليه السلام، ولم يكن ذلك محله، فهدى الرسول ﷺ إلى السبيل الحق، وهو الصراط المستقيم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٥)، ومسلم (٤/ ٢١٠٨).

وقال ابن عطاء: لما بلغ إلى سدرة المنتهى قدم النبي ﷺ وأخر جبريل ؏، فقال النبي ﷺ لجبريل: تتركني في هذا الموضع وحدي، فعاتبه الله حين سكن إلى جبريل فقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وقال أيضًا: يهدي بك الخلق إلى الطريق المستقيم، وهو الطريق إلى الحق، من جعله أمامه قاده إلى الخلق، ومن لم يقتد به في طلب الطريق إلى الحق ضلَّ في طلبه، وأخطأ طريق رشده.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ما حرم الله المؤمنين من رشاش بحار معرفته وأنوار قربه، بل خصَّهم بما خصَّ به الأنبياء عليهم السلام في أوائل أحوالهم، وتلك السكينة، وهو وقوع نور المشاهدة على أسرارهم، فقويت به في تراكم بوادي الواردات الغيبية وامتحانات إلهية، وبذلك النور تزيد أنوار إيمانهم.

قال الله في موضع آخر: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والسكينة شهود كشف الجمال في قلوب أهل الكمال، والبصيرة تورث في أسرارهم الأنس، والبصيرة كشف الجلال في قلوب العارفين، فيبصرون به نوادر الغيوب وعجائب القلوب، لذلك قال: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾، وذلك الإيمان هو البصيرة.

قال الواسطي: البصيرة مكشوفةٌ، والسكينة مستورةٌ، ألا ترى إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ إلخ، فبالسكينة ظهرت البصيرة، والسكينة هدايةٌ، والبصيرة عنايةٌ، وإذا أكرم العبد بالسكينة يصير المفقود عنده موجودًا والموجود مفقودًا.

سُئل بعضهم ما أوّل ما كاشف الله به عباده؟ قال: المعارف، ثم الوسائل، ثم السكينة، ثم البصائر، فلما كاشفه الحق بالبصائر عرف الأشياء بما فيها من الجواهر، كأبي بكر ﷺ ما أخطأ في نطق.

قال جعفر: سمعت الجد يقول لينظروا إلى الإيقان وإلى مشاهدته بعين القلب، فكانت

هذه المعرفة زيادةٌ عن المعرفة الأولى ما غاب عن العيان بها شاهدت القلوب بالإيقان.

وقال سهل: هي نور اليقين، يسلكون به إلى عين اليقين، وعين اليقين هي التي تدل على الحقائق، وهي حق اليقين.

وقال بعضهم: السكينة يقذفها الله في قلوب أوليائه يسكن به نفس أوليائه عن المعارضات.

قال الأستاذ: السكينة ما يسكن إليه القلب من البصائر والحجج، فيرتقي القلب بوجوده عن حد الفكرة والسير إلى روح اليقين، وتلج الفؤاد، فتصير العلوم ضروريةً، هذا للخواصِّ، وأما عوام المؤمنين المراد منه السكون والطمأنينة واليقين.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: جنوده هم سماوات أرواح العارفين وقصور أرض قلوب المحبين، وأنفاسهم جنوده، تنتقم بنفس منهم من جميع أعدائه فيقهرهم، وذلك أن واحدًا منهم يضيق صدره من أعداء الله، فبان أنه يحترق بها أهل الضلالة، ألا ترى كيف قال سكران الطور حين دعا على الكفرة: «ربَّنا اطمسْ على أموالهم واشدد على قلوبهم»[1]، فصاروا حجارةً محماةً، وكيف قال سيد البريات في وجوه الكفرة حين قال: «شاهت وجوههم، فانهزموا»[2] بإذن الله، وكذا حال كل صديق مع الله، يوقع نيران الهلاك بين الضلال بنفس واحد، فيهلكوا بأقل من لمحة، كما دعا نوح على قومه، فقال: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، فهلك به أهل الأرض جميعًا إلا من آمن، وكل ذرة من العرش إلى الثرى جنوده، حتى لو سلط نملة على حية عظيمة لتدمر عنها، ولو سلط بعوضة على الأكوان جميعًا لخربتها بقوة الله، ألا ترى كيف قال ﷺ:

«لله جنود منها إليك»[3]، وهذا محل الانفراد بالله والتوكل على الله؛ فإنه عون كل ضعيفٍ وحسب كل عاجزٍ.

قال سهل: جنوده مختلفة؛ فجنوده في السماء الملائكة، وجنوده في الأرض الغزاة، وأيضًا جنوده في السماوات الأنبياء، وفي الأرض الأولياء، وأيضًا جنوده في السماوات القلوب، وفي الأرض النفوس.

---

(١) رواه الطبري في التفسير (١١/ ١٥٧).

(٢) رواه الطبري في التفسير (١٠/ ١٠٠).

(٣) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

قال بعضهم: ما سلط الله عليك فهو من جنوده، إن سلط عليك نفسك أهلك نفسك بنفسك، وإن سلط عليك جوارحك أهلك جوارحك بجوارحك، وإن سلط نفسك على قلبك قادتك في متابعة الهوى وطاعة الشيطان: وإن سلط قلبك على نفسك وجوارحك زمَّها بالأدب، فألزمها العبادة، وزيَّنها بالإخلاص في العبودية، وهذا تفسير قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ أي: شاهدًا على توحيدهم ومعرفتهم ومحبتهم وولايتهم، وبنور الله على قلوبهم وأسرارهم، ومبشرًا يبشرهم بالوصال ورؤية الجمال والجلال، ونذيرًا من العتاب والحجاب، وأيضًا شاهدًا للعارفين، بدا من الحق لهم؛ ليروا امن مشاهدته أنوار جمال الحق، ومبشرًا للمحبين، يبشرهم بالوصال إلى قرب حبيبهم بلا علة، ونذيرًا للمقبلين إليه لئلا يميلوا إلى غيره.

قال سهل: شاهدًا عليهم بالتوحيد، ومبشرًا لهم بالمعرفة والتأييد، ونذيرًا محذرًا إياهم البدع والضلالات.

قال ابن عطاء: شاهدًا علينا، ومبشرًا لنا، نذيرًا عنا، وداعيًا إلينا، وأنت المأذون في الكل؛ لأنك أمينٌ على الكل، ولا يطيق هذه المراتب إلا الأمناء؛ فإنك الأمين حق أمين.

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: جعلك شاهدًا لهم؛ ليؤمنوا بالله ورسوله أي: ليشاهدوا بأسرارهم مشاهدة الله، ويدركوك في محل الجلال والجمال، ويعرفوا قدرك في قدري وقدري في قدرك؛ حيث سرت مرآتي، أتجلى منك لهم؛ لذلك قال عليه الصلاة والسّلام: «مَنْ رآني فقد رأى الحقَّ»[1]، ويعزروا أمري فيك ببذل وجودهم، ويوقروك بما ألبستك وقاري وهيبتي، ويوقروا كلامي وخطابي الذي أنـزلت عليك بنعت المتابعة، ويقدسوني من الأضداد والأنداد، وعن أن يجد أحدٌ سبيلاً إلى كنه معرفتي وجلال قدري، أول الخطاب توحيد بقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، وهو مقام الجمع، ثم مقام التفرقة بقوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، ثم رؤية الصفات في الفعل وهو مقام الالتباس بقوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، ثم إفراد القدم عن الحدوث بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾،

(١) تقدم تخريجه.

فأول الخطاب والباقي واحدٌ في معاني التنـزيه والتوحيد.

قال سهل: لتؤمنوا تصديقًا بما جاء به، وتعزروه حقه في قلوبكم وطاعته على أبدانكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾: ذكرت تحقيق هذه الآية في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وصرح الله ما ذكرنا في هذه الآية؛ حيث بيَّن أمر عين الجمع ومقام الالتباس وظهور العين، وظهور جمع الجمع في عين الجمع، حين جعل نبيَّه مرآة لظهور ذاته وصفاته، وهو مقام الاتصاف والاتحاد، بدا نور الذات في نور الصفات، وبدا نور الذات والصفات في نور الفعل، فصار هو هو؛ إذ غاب الفعل في الصفة، وغابت الصفة في الذات، ومن ههنا ادَّعى الحلاج -قدَّس الله روحه- حيث قال: «أنا الحق»، وقال سلطان العارفين أيضًا من هاهنا «سبحاني سبحاني»[1].

---

(١) قال: شيخ الشيوخ الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: وما يحكى عن أبي يـزيد قوله: سبحاني حاشا لله أن يعتقد في أبي يـزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى. قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله أنا الحق.

قال أبو سعيد بن أبي الخير: «ليس في الجبة غير الله»[1]، وأنشد الشبلي في هذا المعنى:

تــباركت خطــراتي في تعالائـــي ... فـــلا إلـــه إذا نكـــرت آلائي!

قال الواسطي: أخبر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أن البشرية في نبيه ﷺ عارية وإضافة دون الحقيقة.

وقال: أظهر النعوت في محمد ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾.

وقال الحسين: لم يظهر الحق تعالى مقام الجمع على أحد بالتصريح إلا على أخصِّ اسمه وأشرفه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أسقط الوسائط عند تحقيق الحقائق، فأبقى رسومها: وقطع حقائقها، فمن بايع النبي ﷺ بايع الله على الحقيقة؛ فإن تلك بيعة الله؛ لأن يده في تلك البيعة يد عارية.

قال القاسم النصر آبادي في وقت الاستنفار إلى الروم: ها قد ظهرت صفة البيعة فهل من راغب فيها، بيعة بلا واسطة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾إلخ، وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ زيادة التصريح في مقام عين الجمع ورسمه أن سنته القديمة غالبة على علل العبودية.

قال بعضهم: منة الله عليهم في الهداية إلى هذه البيعة أعظم عليهم من بيعتهم وقال الشبلي في هذه الآية: من صحت أحواله واستقامت أفعاله أخبر الله عنه بعبارة الجمع كما عبر عن المصطفى ﷺ حين استقام مع الحق في كل أوصافه، أخبر الله أن بيعته بيعة الحق، وطاعته طاعة الحق، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾.

قال الأستاذ: في هذه الآية تصريح بعين الجمع، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ إن الله عذر أقوامًا من المحبين والعارفين بالرمز في هذه الآية، ظاهرها مع العموم، وباطنها مع الخصوص.

---

(١) إشارته بها تحت الجبة إلى قلبه الذي وسع ربه، فإنه ليس في قلبه إلا الله. وانظر: كتابنا: سلطان العارفين، وإرشاد ذوي العقول إلى براءة الصوفية من الاتحاد والحلول.

كما قال ﷺ: «للقرآن ظهرٌ وبطنٌ وحدٌّ ومطلعٌ»(١)، إن الأعمى ههنا من طمسته سبحات وجهه حين عاين لقلبه وروحه ظهر عماه، إذ لا يرى غير الله، وعماه الحقيقي ألا يطيق أن ينظر بطون الأزل والغيب وغيب الغيب، وهذا سرُّ قوله عليه الصلاة والسلام في وصف جمال الحق: «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(٢)، فجعله معذورًا ألا يدرك حق الحقيقة وحقيقة الحق؛ إذ يستحيل أن يحيط الحدث بالقدم، وإن كان واجبًا معرفة الكل من حيث الحقوق لا من حيث التوحيد، وأيضًا هو معذورٌ باستعمال الرخص والدخول في الرفاهية، والأعرج من عرج سره وروحه من السير في ميادين الأزلية والأبدية؛ إذ كان عرجًا بضرب سيوف الوحدة ووصول إعجاز القهريات، أي: هو معذورٌ حين جلس على بساط الأنس، ولم يسر في ميادين القدس، فإن هناك طوفان الكبرياء وسطوات العظمة والبقاء، وهذا الأعرج معذورٌ؛ إذ لم يأت من مقام المشاهدة إلى مقام المجاهدة، والمريض هو الذي أسقمته محبة مشاهدته ورؤية جماله، فهو معذورٌ؛ إذ باشر الروحانيات مثل السماع واستعمال الطيب والنظر إلى المستحسنات، فإن مداواته تكون أيضًا من قبيل العشق والمحبة؛ لأن العشق أمرضه، فأيضًا يداويه بالعشق كما قيل:

تداويتُ من ليلى بليلي من الهوى ... كما يتداوى شاربُ الخمر بالخمرِ

فهؤلاء أهل المشاهدات لا أهل المجاهدات والرسومات.

قال الأستاذ: من كان له عذرٌ في المجاهدة مع النفس؛ فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١/ ٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ - رضي الله عنهم- في الأزل وسابق علم القدم، ويبقى رضاه إلى أبد الأبد؛ لأن رضاه صفته الأزليّة الباقية الأبدية، لا يتغير بتغير الحدثان، ولا بالوقت والزمان، ولا بالطاعة والعصيان، فإذا هم في اصطفائيته باقون إلى أبد الأبد، لا يسقطون من درجاتهم بالزلات ولا بالبشرية والشهوات؛ لأن أهل الرضا محروسون برعايته، لا تجري عليهم نعوت أهل البعد، وصاروا متصفين بوصف رضاه، فرضوا عنه كما رضي عنهم، قال الله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾، وهذا بعد قذف أنوار الأنس في قلوبهم بقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

قال ابن عطاء: رضي الله عنهم فأرضاهم، وأوصلهم إلى مقام الرضا واليقين والطمأنينة، فأنـزل الله السكينة عليهم؛ ليسكن قلوبهم إليه.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾: انظر كيف شفقة الله على المؤمنين الذين يراقبون الله في السراء والضراء ويرضون ببلائه، كيف حارسهم عن الخطرات، وكيف أخفاهم بستره عن صدمات قهره، وكيف جعلهم في كنفه حتى لا يطّلع عليهم أحدٌ، وكيف يدفع ببركتهم البلاء عن غيرهم، وفي الآية رمز إعلام ورعاية الكبرياء للمريدين.

قال سهل: المؤمن على الحقيقة من لا يغفل عن نفسه وقلبه، يفتش أحواله، ويراقب أوقاته، فيرى زيادته من نقصانه، فيشكر عند رؤية الزيادة، ويتضرع ويدعو عند النقصان، هؤلاء الذين يدفع الله بهم البلاء عن أهل الأرض، والمؤمن من لا يكون متهاونًا بأدنى التقصير؛ فإن التهاون بالقليل يستجلب الكثير.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ

كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: سكينة الرسول كشف القدس، وسكينتهم نـزول قلوبهم منازل الأنس، وكلمة التقوى كلمة الله التي سبقت في الأزل أنهم أهل السعادة لا أهل الشقاوة، وتلك الكلمة بقيت بنعوتها وأنوارها في قلوبهم، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾؛ لأنهم سابقون بها في الأزل من غيرهم الذين حجبهم الله من رؤية نورها، وكانوا أهل الكلمة من حيث الاصطفائية؛ إذ نـزلت عند لُب التوحيد من سماء التفريد على أغصان ورد قلوبهم، فترنمت بألسنتهم الصادقة من بطنان أفئدتهم بكلمة التقديس والتوحيد.

قال أبو عثمان: كلمة التقوى كلمة اليقين، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ألزمها الله السعداء من أوليائه المؤمنين، وكانوا أحق بها في علم الله؛ إذ خلقهم لها وخلق الجنة لأهلها.

قال الواسطي: كلمة التقوى صيانة النفس عن المطالع ظاهرًا وباطنًا.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: من أدركته عناية السبق في الأزل جرت عليه عيون المواصلة، وهو أحق بها؛ لما سبق إليه من كرامته الأول.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾: إشارة الآية مع المشتاقين إلى مشاهدة الحق بأنهم يدخلون حرم الربوبية آمنين عن جريان العبودية عليهم، آمنين من ذل الحجاب بعد كشف النقاب، والاستثار وقع على المشيئة الأزلية السابقة بحسن العناية لهم، وفي نفس الآية أنه لو يريد أن يلبسهم وصف الصمدية حتى لا يفنوا في الوحدانية لقدر، وهو هكذا يفعل، لكن رمز الاستثار يورث هيبة الحق؛ إذ صار عروس القدر غير منكشف لأهل الحدث، أدَّب الجمهور برؤية الله مع رؤية القدر السابق؛ حتى لا يسقط عنهم شروط الهيبة والمراقبة.

سئل بن عبد الله: ما هذا الاستثار من الله؟ قال: تأكيدًا في الافتقار إليه، وتأديبًا لعباده في كل حال ووقت تنبيهًا أن الحق إذا استثنى مع كمال علمه ألا يجوز له الحكم من غير استثناء مع قصور علمه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ

مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: كان بنفسه أبلغ الهداية للخلق؛ فإنه مصارف آياته وبرهانه.

قال الله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ومعه نور الصفة؛ لأنه كان قلبه مشكاة نور القرآن، قال الله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾، وقال: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، ودينه بيان معرفة الله والآداب في حضرته، وبهذه الصفة شهد الله أنه أرسله بهذه الأوصاف، وأثبت رسالته بشهادته بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[1]: شهادته أزلية شهد على اصطفائيته في الأزل، ثم وصف أصحابه وأحبائه ومتابعيه إلى يوم القيامة باختصاصات شريفة وأخلاق كريمة وعلامات صحيحة وآداب جميلة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: معه في الأزل باصطفائية الولاية بنعت الأرواح، لا برسم الأشباح، ومن خاصية صفتهم أنهم أهل الهيبة والغلبة على أعداء الله والرحمة والكرم مع أولياء الله، قال الله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾: ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: راكعين على بساط العبودية من رؤية أنوار العظمة، ساجدين على بساط الحرمة من رؤية الجمال، يطلبون مزيد كشف الذات، والدنو والوصال والبقاء مع بقائه بغير العتاب والحجاب، وهذا محل الرضوان الأكبر بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ثم وصف وجوههم أن يتلألأ منها أنوار مشاهدته التي انكشفت لهم في السجود حين خضعوا في ملكوته من رؤية عظائم جبروته

(١) واعلم أنه قد اجتمع حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين، وأول الحروف في الآية الأولى: الثاء المثلثة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدروكم، وأولها في الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضًا في الصالحات، وليس في القرآن آية حوت الحروف كلها غيرهما، ومَن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا عندهما؛ استجيب له؛ لأنها لجمعهما الحروف كلها؛ كانت بمنـزلة القرآن كله، وقد صحَّ أن الدعاء مستجاب، مستجاب عند ختم القرآن، ولَمَّا كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على آدم ﷺ، وكان آدم قد تكلَّم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان مَن تكلَّم بتلك الحروف؛ كمَن تكلَّم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاً منها مشتملة على تلك الحروف، وقد ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي تكلَّم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجُعلت كل منها لسان أهل الجنة.

بقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ ثم وعدهم بنيل مرادهم من وصاله، وكشف جماله لهم أبد الآبدين بلا وحشة ولا فترة في آخر السورة بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: إيمانهم رؤية نور الغيب بالغيب، وتصديق الغيب برؤية الغيب، وعملهم الصالح الخروج من الحدثان شوقًا إلى جمال الرحمن، ومغفرة الله لهم أنه غفر لهم تقصيرهم في العبودية؛ إذ لم يطيقوا أداء حقوقها كما يليق بالحق، وقصور إدراكهم وحقيقة الربوبية بالأجر العظيم بأن يجلسهم على بساط قربه، ويلبسهم لباس نور وصله، ويتوجهم بتاج المحبة، ويسقيهم من شراب الدنو والزلفى، قال سبحانه: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

قال القاسم في قوله: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾: أرسل الرسول وعظَّم حرمته بإضافته إلى نفسه، فمن لم يعظِّم من عظَّمه الله فهو لقلة معرفته بعظمة الله، أرسله مبينًا للشريعة، مبينًا أحكامه، داعيًا إليه، وجعل طاعته طاعته، لم ينفصل الرسول عن الحق في الإيجاب والنفي والبلاغ والمشاهدة، ولم يتصل به من حيث الحقيقة.

وسئل الحسين: متى كان محمد ﷺ نبيًا وكيف جاء برسالته؟ فقال: نحن بعد في الرسول والرسالة، والنبي والنبوة، أين أنت عن ذكر من لا ذاكر له في الحقيقة إلا هو؟ وعن هوية من لا هوية له إلا بهويته؟ وأين كان النبي عن نبوته حيث جرى العلم بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾، والمكان عليه والزمان عليه، فأين أنت عن الحق والحقيقة؟ ولكن إذا أظهر اسم محمد ﷺ بالرسالة عظم محله بذكره له بالرسالة، فهو الرسول المكين والسفير الأمين، جرى ذكره في الأزل بالتمكين بين الملائكة والأنبياء على أعظم محل وأشرف حال.

قال سهل في قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: المؤمن من وجهه الله بلا فناء مقبلاً عليه غير معرض عنه، وذلك سيماء المؤمنين.

وقال عامر بن عبد قيس: كاد وجه المؤمن يخبر عن مكنون عمله، وكذلك وجه الكافر وذلك قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾.

وقال بعضهم: ترى على وجوههم هيبة؛ لقرب عهدهم بمناجاة سيدهم.

قال ابن عطاء: ترى عليهم خلع الأنوار لائحة.

وقال عبد العزيز المكي: ليست هي النحولة، وهي الصفوة، لكنه نورٌ يظهر على وجوه العابدين، يبدو من باطنهم على ظاهرهم، يتبين ذلك للمؤمنين، ولو كان ذلك في زنجي أو حبشي، والله أعلم.

سورة الحُجُرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: هذا وعيدٌ لمن حكم بخاطره بغير علم بالفرق بين الإلهام والوسواس، والكشف والخيال، وهواجس النفس وخطاب العقل، ولسان السر والنور بخردل من خرافات خاطره، ويحكم بها من الجهل بكلام الله وسنة رسوله، ويلزم المستمعين من أبناء جنسه أنها هي الحق ومقصوده الرياء والسمعة، فإذا قال أحدٌ ما قال الله ورسوله لا ينفكُّ عما انتحله من إلقاء العدو وحديث النفس، فيلزم عليه وعيد الحق وتحذيره بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عن عذاب البعد وعما يقوله؛ فإنه تعالى سميعٌ لقوله، ويجازيه بأن يحرم عليه مقالة الحكمة، عليمٌ بنيته الكاذبة، ويجازيه بالنار والشنار، ولا يخلو الإنسان من هذه العلل النفسانية الشيطانية، وإن كان صدِّيقًا فإنها مواضع الامتحان من قهر الله الذي قهر به عباده، وفيه من الأدب للمريدين ألا يتكلموا بين يدي شيوخهم، خاصة أنهم يتكلمون بالمعارف؛ فإنه سبب سقوطهم من أعين الأكابر.

قال سهل: لا يقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فأقبلوا منه منصتين له مستمعين إليه، واتقوا الله في إمهال حقه وتضييع حرمته؛ إن الله سميعٌ لما يقولون، عليمٌ بما يعملون.

قال بعضهم: لا تطلبوا وراء منـزلته منـزلة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾: أعلمنا الله سبحانه بهذا التأديب أن خاطر حبيبه من كمال لطافته ومراقبته، جمال ملكوته كان يتغير من الأصوات الجهرية، وذلك من غاية شغله بالله وجمع همومه بين يدي الله، فإذا صوت أحد بالجهر عنده خاصة أن يكلم كان يتأذى قلبه من صوته، ويضيق صدره من ذلك، كأنه يتقاعد

سره لحظة عن السير في ميادين الأزل والأبد(١)، فخوَّفهم من ذلك؛ فإن تشويش خاطره ﷺ سبب بطلان أعمالكم: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، فإن من العرش إلى الثرى لا يزن عند خاطره ذرة، واجتماع خاطر الأنبياء والأولياء لمحة أحبُّ إلى الله من أعمال الثقلين، وفيه حفظ حرمة رسول الله، وتأديب المريدين بين يدي أولياء الله.

قال ابن عطاء: زجر عن الأذى؛ لئلا يتخطى أحدٌ إلى ما فوقه من ترك الحرمة.

وقال سهل: لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

قال الأستاذ: أمرهم بحفظ حرمته ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته، ثم وصف الله المتأدبين بآداب الله أنهم أهل التقوى الذي هو نور من الله في قلوبهم، فقدَّس سرائرهم من العجب والخطرات المذمومة، وأنهم ينظرون بذلك النور عظم حرمات حبيبه ﷺ، وما شرفه الله به من المنازل السنية والدرجات العلية، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، ثم بيَّن أن لهم مغفرةً بأنهم مستورون عن أعين الشياطين، محفوظون من مكائدهم بما مَنَّ الله عليهم من رعايته وعنايته، وكشف مشاهدته بقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾.

قال الحسين: من امتحن الله قلبه بالتقوى كان شعاره القرآن، ودثاره الإيمان، وسراجه التفكر، وطيبه التقوى، وطهارته التوبة، ونظافته الحلال، وزينته الورع، وعلمه الآخرة، وشغله بالله، ومقامه مع الله، وصومه إلى الممات، وإفطاره من الجنة، وجمعه الحسنات وكثرة الإخلاص، وصمته المراقبة ونظره المشاهدة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا أَن تُصِيبُوا قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: شكا الله عن ترك آداب بعضهم في صحبة رسوله، وبيَّن أن الصبر في حفظ حرمته سبب نيل درجاتهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) شروع في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ، بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل، وإعادة النداء مع قرب العهد؛ للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه؛ أي: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدٍّ يبلغه صوته ﷺ، بل يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتى تكون مزيّته عليكم لائحةً، وسابقته لديكم واضحة. البحر المديد (٦/ ١٠١).

قال أبو عثمان: الأدب عند الأكابر وفي مجالس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات الأعلى والخير في الأولى والعقبى، ألا ترى الله بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ إلخ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾: جعل قلوبكم مستعدةً لقبول معرفته، ثم قذف فيها أنوار قربه، وزيَّنها بنقوش محبته، زيَّن عروس التوحيد بزينة المشاهدة في أعين أزواجهم، وجذبها به إلى بساتين الغيب، حتى رأوا لطائف بره وعجائب ملكه وملكوته، ثم مَنَّ عليهم بأن بغضهم العصيان والفسوق بتكريهه إليهم، كما أنه حببهم أعمال الإيمان بتحبيبه إليهم بغير علة ولا سبب بل فضلاً ومنَّة؛ حيث أرشدهم إلى نفسه، وحبَّب إليهم قربه ووصاله بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾.

قال سهل: حبَّب إليكم العمل بأوامر الإيمان، وزيَّن في قلوبكم تلك الأوامر، ثم زاد في تأكيد ما ذكرنا أن ذلك الرشد وحب الإيمان فضلٌ منه وكرمٌ بقوله: ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: فضله اصطفائيتهم في الأزل، ونعمته قربه ومعرفته.

قال سهل: بفضل الله عليهم فيما ابتدأهم به، وهداهم إليه من أنواع القرب والزلفى.

قال الواسطي: المؤمن يكره العصيان، ولكن يغيب عن شاهده؛ ليغلب عليه شواهد شهوته، فيأتيها، وذلك إنفاذ قضيته وتنبيهٌ على ضعفه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾: إشارة الحقيقة في الآية أن وقائع الغيب عند كشوفها في صدور الأولياء على خلاف مذاق الروح والقلب والعقل والسر؛ لوجود إتيانها من الغيب بالبديهة، فبعضها للروح، وبعضها للسر، وبعضها للعقل، وبعضها للقلب فما وقع في السر فهو أعظم مما وقع على الروح، وما وقع على الروح أعظم مما وقع على القلب، وما وقع على القلب أعظم مما وقع على العقل؛ لأن واقعة السر

كشف الأولية والآخرية من الأزل والأبد، ونوادره الشطح والعلم المجهول، وما وقع على الروح من كشف الجمال والجلال وعجائبه الشوق والمحبة والسكر والانبساط، وما وقع على القلب من كشف العظمة ولطائفه الهيبة والإجلال وعلوم الصفات وحكم الربوبية، وما وقع على العقل من كشف نور الأفعال ونتائجها الأذكار والأفكار والمعاملة والعبودية، وهذه الأحكام عند أربابها مختلفةٌ باختلاف كواشفها، ولبعضها على بعض معارضة من جهة غرائبها؛ فإصلاح بينهم لا يكون إلا بالكتاب والسنة وموازينها؛ لا أن يعلمها بفرق بيان موارد الأسرار وعجائب الأنوار، قال الله تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، وقال: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ أي: أصلحوا شأنكم في سير المقامات والأحوال بكلام الله وسنة رسوله ﷺ؛ لتستقيموا في شرائع المعارف.

قال سهل في هذه الآية: هو الروح والقلب والعقل والطبع والهوى والشهوة، فإن بغى الطبع والهوى والشهوة على العقل والروح والقلب فليقاتله العبد بسيوف المراقبة وسهام المطالعة وأنوار الموافقة؛ ليكون الروح والعقل غالبًا والهوى والشهوة مغلوبًا.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾: افهم أيها العاقل أن الله سبحانه خلق الأرواح المقدسة من عالم الملكوت، وألبسها أنوار الجبروت، فمواردها من قربه مختلفة، لكن عينها واحدة، وخلق هياكلها وأشباحها من تربة الأرض التي أخلصها من جملتها، وزيَّنها بنور قدرته، ونفخ فيها تلك الأرواح، وجعل بين الأرواح والأجسام والنفوس الأمَّارة التي ليست من قبيل الأرواح، ولا من قبيل الأجسام، وجعلها مخالفة للأرواح ومساكنها، فأرسل الله عليها جند العقول؛ ليدفع بها شرها، فإذا امتحن الله عباده المؤمنين هيَّج نفوسهم الأمَّارة؛ ليظهر حقائق درجاتهم من الإيمان والآخرة، فأمرهم أن يعينوا العقل والروح والقلب على النفس حتى تنهزم؛ لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضهم بعضًا، ثم بين أن في الإصلاح بين الإخوان الفلاح والنجاة إذا كان مقرونًا بالتقوى الذي يقدس البواطن من البغي والحسد بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾، فإذا فهمت ما ذكرت علمت أن حقيقة الأخوة مصدر الاتحاد؛ فإنهم كنفس واحدة؛ لأن مصادرهم مصدر

واحد، وهو آدم ﷺ، ومصدر روح آدم نور الملكوت، ومصدر روح آدم نور الملكوت، ومصدر جسمه تربة الجنة في بعض الأقوال؛ لذلك تصعد الروح إلى الملكوت، والجسم إلى الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام: «كلُّ شيءٍ يرجعُ إلى أصلِه»[1].

قال أبو بكر النقاش: سألت الجنيد عن الأخ الحقيقي؟ فقال: هو أنت في الحقيقة إلا أنه غيرك في الهيكل.

وقال أبو عثمان الحيري: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب؛ فإن أخوة النسب تقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تقطع بمخالفة النسب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾: بيّن الله سبحانه أن أكثر الظنون يؤول إلى الفساد، وأنها بعينها مأثمة؛ لأنها من قبل النفس الأمّارة التي ليس لها النظر إلى العيوب؛ فتهيم في المخاييل الشيطانية، وذلك أن الشيطان يلقي فيها عيب المؤمنين، ويهيجها بظنون مختلفة، وبيّن سبحانه أن بعض الظن حقيقة إذا كان ليس من قبل النفس، بل يكون ذلك من رؤية القلب ما جرى في الغيب، فيتفرس بنور اليقين؛ ولذلك وصف المؤمنين بذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾.

قال ابن شمعون: الظن ما يتردد في النفس من حيث أملها باستدلالها على حظها بوصفها، فيتردد، ولا يقف، فيمكن من الإيواء إليه، فما كان هذا وصفه فهو ظنٌّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ أي: ليس الكريم من يكون ذا نسب، إن الكريم من عرف الله وهابه وخضع له، وعرف نفسه أنه خلق من التراب وما للتراب وربّ الأرباب، ولا يفتخر بنفسه على أحد بل الفخر بالله، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا سيدُ ولد آدم ولا فخر»[2].

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/ ٢٩٥) بنحوه.

(٢) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٦٠).

قال جعفر: الكريم هو المتقي على الحقيقة، والمتقي المنقطع عن الأكوان إلى الله.

﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾: الإسلام ظاهر العبودية، والإيمان مشاهدة الربوبية، ومحله القلب، بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، والإسلام الحقيقي بنعت الخضوع، واستعمال الأمر لا ينفكُّ من الإيمان؛ فإن أصله الإيمان، وهو متولدٌ منه، أمّا ما يكون بالتقليد والأعراض فهو أوصاف أهل النفاق.

قال سهل: ليس في الإيمان أسبابٌ، إنما الأسباب في الإسلام، والمسلم محبوبٌ إلى الخلق، والمؤمن غنيٌّ عن الخلق.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾: نفى الله -سبحانه- المنة عن الحدثان؛ إذ لا يصلح أن يكون لأحدٍ قدرةٌ بإنشاء شيء من نفسه، فإذا بيَّن ذلك صرف المنة إلى نفسه بأن له المنة الأزلية، حيث أوجد الخلق بلا علة، بل فضلاً ورحمة منه، فمن أقبل إليه يرجع نفعه إليه؛ لأن ساحة الكبرياء منزَّهةٌ عن علل الخليقة، والعجب أن يكون الحدث محل منته القديمة ومنته لا يحتمل غيره.

قال الواسطي: لفظة المنة في محل التلبيس؛ لأن العباد إن لم تصحبهم رؤية المنة هلكوا؛ ولأن رؤية المنة حجابٌ كبيرٌ، وفي رؤية المنة استدراجٌ عظيمٌ، وكيف وهو لا يمنُّ على أحدٍ يعرفه، وإنما المنُّ على من حجبه ذكر المنن جواب في الحقيقة لمن مَنَّ عليه، ألا ترى إلى قوله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ﴾، وفي كرمه لا يجوز المنة على أحد من النّاس؛ إذ المنة تقع على من هو خارجٌ من ملكه، فالمن على [شيء] يستحيل، وما علمت أن الكريم في الحقيقة لا يمنُّ لا سيما إذا كان الممتن عليه من خدمه.

قال الحسين في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾: هذا جوابٌ لما سلف من قولهم لا أن أحدًا يستطيع حمل منته، فكيف يمن على من خطر له عنده، ولا أثر منه عليه، وأعجب منه ألا يمن على أحد إلا بالمخلوق، ولا وزن للكون عنده، فكيف يمنُّ بمن لا وزن له على أحد؟! عجبت من مقالة أكابر المشايخ بأن منة الله على العبد حجابٌ ومكرٌ إن أرادوا بالمنة الفعل واصطناع الكريم يكون ذلك مكرًا؛ لأن العبد إذا كان في رؤية النعمة فهو محجوبٌ من رؤية المنعم، وإن أرادوا بالمنة صفته الأزلية بأنه منانٌ على كل ذرة من العرش إلى الثرى، فإن ذلك ليس بحجاب؛ إذ منانيته كشوف وصفه بنعت تعريف نفسه لعباده؛ ليعرفوه بالصفة لا بالغير؛ ولذلك قال الجنيد -قدَّس الله روحه-: إن مَنَّ العباد تفزيعٌ، وليس من الله تفزيعٌ، وإنما هو من الله تذكير النعم، وحثٌّ على شكر المنعم، ثم بيَّن سبحانه أن المتكلفين بإسلامهم على حبيبه عليه الصلاة والسلام من جهلهم بالله وبأنفسهم؛ إذ ليس لهم منةٌ؛ لأنهم عجزة أنفسهم، والمنة لمن هو منـزَّهٌ عن الخلل والنقصان، وهو محيطٌ بكل ذرة بعلم أزليٍّ، ويعلم حقائق الأشياء؛ إذ هو موجدها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾: ليس له غيبٌ؛ إذ الغيب شيءٌ مستورٌ، وجميع الغيوب عيان الله، وكيف يغيب عنه؟! وهو موجده، يبصر ببصره القديم ما كان وما لم يكن؛ إذ هناك العلم والبصر واحدٌ.

سورة ق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾﴾.

﴿قٓ﴾: قف، أقسم الله سبحانه بذاته وصفاته، قاف قاف كبرياء قدمه، الذي هو أصل وأصل كل أصل، ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾: الذي هو مخبرٌ عن جميع الذات والصفات، المشتمل على حكميات الأفعال، المقدس عن تغاير الأزمنة والدهور، الذي كشف بيان ما يقع لأرواح العارفين وأسرار الواصلين، وقلوب المحبين، وعقول الصديقين، وصدور المقربين، ظاهره ظاهر البيان من حيث العبودية، وباطنه باطن العيان من حيث الربوبية، وحرف القاف

كنايةٌ عن كل اسمٍ فيه القاف، مثل القديم والقادر والباقي والقيوم والقوي والقاهر والمقتدر والقريب أي: بقربي عن قلوب العارفين، وقرب أرواحهم وأسرارهم من مشاهدة بقائي وقدمي، وبقصد كل ذي قصد بنعت الإرادة والشوق إلى مشاهدتي، وأيضًا أي: بقيامي على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وبقيامهم بقيوميتي إلى الأبد، وأيضًا أي: بالقلم القادر الذي رقَّم القرآن على أوراق لوح الملكوت، وأيضًا أي: بحرقة قلوب العاشقين والشائقين والمشتاقين إلى جمالي، والقرآن الذي يشوقهم إلى قربي، وأيضًا أي: بقسمي الاصطفائية لأنبيائي وأوليائي والمقربين في سوابق علوم قِدمي، أنا أقرب إلى قلوب الفرَّارين مني من عروق قلوبهم، أكشف بكشف جمالي قساوة قلوبهم، وأقرِّبهم مني حتى يشتاقوا إليَّ، وأيضًا بقريبك مني يا محمد يا قرة عيون الأنبياء والأولياء والمرسلين والعارفين والصديقين وما أنـزلت إليك من القرآن المجيد قف عند قوام كبريائي، ولا تغص في قاموس «قلزم» قِدمي؛ حتى لا تستغرق في قعر بحر بقائي، فينقطع منك قوافل الحدثان، ويبقوا عن محل القربان، بل قف في مقابلة قمر جمالي؛ لتشرب قهوات ودادي وعشقي في مشاهدة برقان جلالي، وتبقى ببقائي، وتلقى عجائب قرآني المجيد على قلوب القائمين في مقام الاستقامة، يا فَهِم إنما يتعلق بحرف القاف ما يكون فيه القاف من جميع كلمات الله، وما كان وما يكون في أفعاله، فهذا القاف القاسم عليه رمز جميعًا، فإذا قال سبحانه: ﴿قٓ﴾: أعلم بذلك حبيبه ﷺ جميع معانيها من خبر الذات والصفات والأفعال، وهو عرف بالله ما قال الله فيه بأقل لمحة، فإنها تنبئ عن جميعها، وهذا رمز بين المحب والحبيب، ألا ترى كيف أنشد العاشق لمعشوقه:

فقلتُ لها قفي قالت لي قاف   فكنت عن الوقوف بعاشقها

والمعاني التي فيه بحرف القاف، وهو فهم بها عنها ما كان في خاطرها من الوقوف على مراد عاشقها، فإذا قال سبحانه: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ فعلم عليه الصلاة والسلام سرَّ ما بين الخافقين، وما يصل إليه في ليلة المعراج من الحق من الدنو فيما بين قاب قوسين من القرب وكشف النقاب، ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بهذين القسمين عجب أقرباؤك أنك من بين البريات تكون حاملاً أمانات الذات والصفات، وأنت منذرهم، وأنت منهم بالظاهر، ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: شيء عجيب؛ إذ ظهر أنوار القدم مما خرج من العدم، ولو يعلموا أن الله سبحانه اصطفاه من بين البرية لحمل أمانة رسالته، وكشف جماله وقربته.

قال سهل: أقسم بقوته وقدرته.

وقال ابن عطاء: أقسم بقوة قلب حبيبه صلوات الله وسلامه عليه؛ حيث حمل الخطاب

والمشاهدة، ولم يؤثر ذلك فيه؛ لعلوِّ حاله.

وقال سهل في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾: المشرف على سائر الكلام.

وقال الحسين: المطهر لمن اتبعه عن دنس الأكوان وهواجس الأسرار.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[1]: بيّن الله سبحانه أنه بجلاله وقدره أظهر نوره مشكاة السماوات والأرض، وبرز بنوره من نيرات السماوات ومن الجبال والبحار والأشجار وجميع المستحسنات لبصائر العارفين الراجعين إليه بنعت الشوق والمحبة، ويريهم تلك الأنوار؛ ليزيد علمهم ومعرفتهم به، ويجدد عليهم أذكار نعم مشاهدته.

قال سهل: اعتبارًا واستدلالاً على توحيدهم لربهم وشكرهم له وذكرًا لمن كان له قلبٌ حاضرٌ مع الله، وعلمه يكتسب به علم الشرع، ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: مخلص القلب بالتوبة إلى ربه وإدامة الذكر له بواجباته.

وقال الحران: المنيب المجيب القريب.

قال بعضهم: التبصرة معرفة من الله عليه، والذكرى عدها على نفسه في كل حال وأوان؛ ليشتغل بالشكر فيما عومل به عن النظر إلى شيء من معاملته.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، فيعتبر، ويعلم أن مَن قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها.

الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحيى الباطن ويعمر بنور الله، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُزقتم في الظاهر كل مُمَزقٍ، يُجدد الإيمان والإحسان في بواطنكم، أفترى على الله كذباً أم به جنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالنشأة الآخرة وهي حياة الروح بمعرفة الله في عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ما داموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بها يُهدد به منكرو البعث، والله تعالى أعلم. البحر المديد (٥/ ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾: زاد تذكير نعمه على عباده بأن نَـزَّل من سماء قربه مياه المعرفة، ونور المشاهدة، وبيان المكاشفة على قلوب المقبلين إليه، وأنبت فيها نبات العقول والعلوم والحكم والمعارف قوة للمريدين وقوتًا لقلوب الطالبين، قال الله تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

قال ابن عطاء: أنـزلنا من السماء الفهم والعلم والمعرفة، فربينا بها قلوب أولى الألباب وأهل المعرفة والفهم، فهو الخطاب، واستعملوه، وألبسوا به، واتبعوه، فأنبت الله بذلك الماء في قلوبهم معرفته، وعلى لسانهم ذكره، وعلى جوارحهم خدمته: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾: أراد الله سبحانه ظهور نفسه لعشاقه، فخلق آدم على ما كان في علمه، ثم أظهر منه ما غاب عن الوجود من نور غيبه، وبيَّن أنه عالم بما يجري في سره وما توسوس به نفسه، وكيف يخفى عليه ما خلقه، وهو مبدئه بجوده، جلَّت عظمته من أن تخفى عليه ذرة من العرش إلى الثرى، ألا ترى أوّل الخطاب كيف قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ذكر الخلق ليعلم المخاطب أن ما توسوس به نفسه أيضًا هو مخلوقه، وتحقيق الإشارة ودقائق الرمز بيانٌ فيه أن نفسه هو، فيظهر ما كان في مكمن مقاديره الغيبية، ولو يرى الإنسان نفسه، فيرى هو أنه نفسه، ألا ترى كيف أخبر عن كمال قربه بنعت الاتحاد بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾؛ ولذلك قال سيد المرسلين ﷺ: «مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربَّه»[1]؛ إذ لا نفس إلا هو إن فهمت ما قلت وإلا فاعلم أن الفعل قائم بالصفة، والصفة قائمةٌ بالذات، فمن حيث عين الجمع ما هو إلا هو، ولا تظن الحلول؛ فإنه بذاته وصفاته منـزَّهٌ عن أن يكون له محل في الحوادث، هذا رمز العاشقين، ألا ترى إلى قول مجنون العشق الإلهي:

أنـا مـن أهـوى ومـن أهـوى أنـا   نحـــن رَوحـــان حَللـــنا بَـــدنًا

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠٨).

فــــإذا أبــــصرتني أبــــصرته وإذا أبــــصرته أبــــصرتنا

قال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: هم قومٌ صاروا مع الله بلا سبب ولا طلب ولا هرب؛ لأنه مدركهم، وهو معهم يعلم ما في ضمائرهم، ويشهد حركات ظاهرهم، ألم تسمع إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

وقال الواسطي في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي: نحن أولى به وأحق؛ إنا جمعناه بعد الافتراق، وأنشأناه بعد العدم، ونفخنا فيه الروح، فالأقرب إليه من هو أعلم به منه بنفسه.

وقال أيضًا: بي عرفت نفسك، وبي عرفت روحك، كل ذلك إظهار النعوت على قدر طاقة الخلق، فأمّا الحقيقة فلا يحتملها العبد سماعًا.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: سائق نفس العارف شوقه إلى جمال الحق، وشاهد شوقه كشف مشاهدة شوقه بنعت الاطلاع على حرقة فؤاده، فشهد له أنه وليٌّ مقربٌ يجلسه على بساط أنسه أبد الآبدين.

قال الواسطي: سائقها الحق، وشهيدها الحق.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾: يا ليت لو علم الغافل هناك غاية أمره؛ إذ كان غافلاً عن مشاهدة الغيب، فصار له منكشفًا؛ فيرى ما يرى مشاهدة وعيانًا، وثبت له حقيقة العيان بلا علة الاستدلال؛ ليفرح بوجدانها حتى يطير من الفرح بكشفها ما يزيل عن قلبه هم العذاب وحزن العتاب، فإذا حصل المقصود نأنّى العذاب خطر؛ إذ الاحتراق بالنار بعد اليقين والعيان سهل على من يسّره الله عليه، وبيّن سبحانه أنه إذا رفع غواشي قهره عن أبصار الغافلين صارت أبصارهم نافذة في رؤية الغيوب، فيرون ما يفرح به قلوب العارفين في الدنيا من كشف عجائب الملكوت وأنوار الجبروت، فأين أنت من العذاب والعقاب عند كشف النقاب وسماع الخطاب ومن ليس بغافل عن كشف عيان العيان وبيان البيان، ومن يطّلع على حقيقة الحقيقة هاهنا حتى أتى بساط الأعظم

ومجلس الأقرب، هناك ينكشف أنوار الألوهية وسناء القدوسية، فيكحل عيون الكل ضياء مشاهدته، فيذهب من البين الدليل والاستدلال والمخاييل والمحال والإيمان والإيقان، بل يبقى العيان والعرفان أبدًا، وهذا كما قال السيد الضرغام الأمير الهمام علي بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه-: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا»[1].

قال الواسطي: من كشف عنه خطأ الغفلة أبصر الأشياء كلها في أسر القدم.

وقال أيضًا: أي: علمك نافذٌ في المقدورات، وحكمك ماضٍ على الخلائق.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: لا يتغير قولي الذي سبق في الأزل بحسن العناية في اصطفائية أنبيائي وأوليائي إلى الأبد، ولا أسقطهم عن درجتهم التي اخترتها لهم في الأزل؛ إذ استحال مني كون الظلم، وأيضًا أي: لا تغير الأقوال عند اطلاعي بها، ولا يقدر أحدٌ على أن يخفى إصدار كلامه عني ما في ضميره، قال الله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، والكون ملكي أتصرف فيه كما أشاء، ولا يرجع إليَّ ظلم ولا جهل؛ إذ هما من أوصاف الحدث، وأنا منزَّهٌ عن أوصاف الحدثان.

قال سهل: ما يتغير عندي حكمٌ قد سبق علمي فيه، فيكون بخلاف ما سبق العلم.

وقال ابن عطاء: ما يظهر في الوقت هو الذي قضينا في الأزل لا مبدل له.

وقال الأستاذ: لا تبديل لحكمي ولا تغيير لقضائي، وما أنا بظلام للعبيد، وتصرفي فيهم تحت ملكي، فلي كل ما أفعله، ولا مني ظلم؛ لأن الظلم ترك الأمر، وهو ليس بمأمورٍ.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: إن الله سبحانه وعد جهنم أن يملأها من الجن والإنس، فيملأها ثم يقول: هل امتلأت، وهي تستزيد؛ لأن ما يلقى فيها كحلقة تلقى في اليم، وإن جهنم تشتاق إلى الله كما تشتاق إليه الجنة، فإذا رأى الله سبحانه حالها من الشوق إليه يضع أثقال سطوات قهر القدم عليها بنعت تجلٍ، فتملأ من العظمة، وتصير عند عظمة الله كلا شيء في شيء، ويا رب طبب في قلوب الجهنميين في تلك السَّاعة من رؤية ظلال عظمته، ومن رؤية أنوار قدم القدم، لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ: فحينئذٍ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠٣).

يصير نيرانها وردًا ريحانًا من تأثير بركة ظهوره لها:

يكـون أجاجًـا دونكـم فـإذا انتهـى إلـيكم تلقـي طيـبكم فيطـيبُ

ومـا ذاك إلا حـين خـبرت أنهـا تمـر بـوادٍ أنـت مـنه قـريبُ

تصديق ما ذكرنا قول النبي ﷺ: «حتَّى وضع الجبَّار قدمه على النار فتقول قط قط»[1].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي: فاز منه إليه حافظ أنفاسه حتى لا يتيقن إلا الله وفي الله.

قال سهل: هو الراجع قلبه من الوسوسة إلى السكون إلى الله، والحفيظ المحافظ على الطاعات والأوامر.

قال المحاسبي: الأوَّاب الراجع بقلبه إلى ربه، والحافظ قلبه في رجوعه إليه أن يرجع منه إلى أحدٍ سواه.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: هذا وصف من وعده الله جنان مشاهدته ووصاله وقربه ووصفه بالخشية والإنابة، والخشية هي العلم بإحاطته بعلمه القديم بكل شيء، ورؤية جلاله الذي ورث في قلبه الخشية والإجلال، فإذا رآه بهذه الصفات العظام رجع من وجوده إلى وجود الحق.

قال الواسطي: الخشية أرقُّ من الخوف؛ لأن المخاوف العامة لا تعاين إلا عقوبة، والخشية هي نيران الله في الطبع فيها نظافة الباطن للعلماء، ومن رزق الخشية لم يعدم الإنابة، ومن رزق الإنابة لم يعدم التفويض والتسليم، ومن رزق التفويض والتسليم لم يعدم الصبر على المكارة، ومن رزق الصبر على المكاره لم يعدم الرضا.

وقال بعضهم: أوائل العلم الخشية، ثم الإجلال، ثم التعظيم، ثم الهيبة، ثم الفناء، ثم وصف الله ما لهم في قربه وجواره من المشاهدة والوصال بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: لهم ما يشاءون مما وصل إلى قلوبهم من الأماني والعلم بوجودي، ولدينا مزيد مما

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في التاريخ (٥/ ١٢٧).

لا يطلعون ولا يعرفون مني إلى الأبد، وهذا معنى قوله ﷺ: «إنَّ في الجنة ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشرٍ»[1].

قال عبد العزيز المكي: لهم في الجنة ما يحقق أمانيهم من النعيم، ثم نـزيدهم من عندنا ما لا تبلغه الأماني، وهو الرؤية، وذلك أجلُّ وأعلا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: أثبت الله سبحانه رؤية أنوار حكمته الأزلية وسناء الكبرياء والعظمة وظهور قهر الجبارية لمن له قلب، وله إلقاء السمع، وله شهود السرِّ، والقلب عبارةٌ عن نقطة دائرة الفطرة القدسية التي خلقها الله من نور فعله الخاص، وهو يتجلى لها من نور صفته ونور ذاته، وهناك لطيفة كبرى، وهي سر النقطة، حولها دائرة العقل، ووراء الدائرة حواشي فعله، ألقي تحتها ستر الصفات، ثم تحت ذلك الستر ظهور الذات لها، فهو بذاته وصفاته حافظ فعله الخاص، أليس ستر الفعل العام على غاشيتها، وحولها عالم الملك والشهادة، وباطنها كشف الصمدية وجلال الأزلية، وبينها وبين الحق لم يبق حجاب امتناع قدمه عن إحاطتها، وذلك الكشف والعيان من بدو وجودها إلى أبد الأبد لا ينقطع؛ لذلك قال الشبلي: وقتي مسرمدٌ، وتجري بلا شاطئ، سقط عنها أضداد التجلي؛ إذ لم يبق بين الحق وبينها جريان الحوادث، ولتلك اللطيفة عيون وأسماع؛ إذ كل وجودها سمع وبصر، فجميع سمعها وبصرها مشغولٌ بخطاب الله ورؤيته، فألقت سمعها لأصوات وصلة الأزلية، شهدت أبصارها بمشاهدة القديم، ثم نورث الهيكل بالحضور والخدمة، وطلب مزيد الصفاء والقرابة، وجعلتها مركب سيرانها وطيرانها إلى عالم الملكوت، ورأت من روزنة البصر ما رأت بلا واسطة، وسمعت بسمع الظاهر ما سمعت بلا وسيلة، فإذا رأى صاحب هذا القلب شيئًا من عجائب صنعه صار خاضعًا لعظمته، خاشعًا

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٨٥)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤).

هيبته، مطيعًا لأمره، جعلنا الله وإياكم من أصحاب القلوب، وأقرَّ عيوننا بأنوار الغيوب.

قال الحسين: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ : لا يخطر فيه إلا شهود الربِّ.

وقال ابن عطاء: قلب لاحظ الحق بعين التعظيم، فذاب له، وانقطع إليه عما سواه.

وقال الواسطي: ذكرى لقوم واحدٍ، لا لسائر الناس، لمن كان له القلب أي: في الأزل، وهم الذين قال الله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتًا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ .

وقال القاسم: هم الأنبياء؛ فإن الله خلقهم للمشاهدة، يشهدون له بقلوبهم عند إقبالهم وإدبارهم بأنه المنشئ والمبدئ والمعيد.

قال الحسين: بصائر المبصرين، ومعارف العارفين، ونور العلماء الربانيين، وطرق السابقين الناجين والأزل والأبد، وما بينهما من الحدث غيره: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ .

وقال ابن عطاء: هو القلب الذي يلاحظ الحق، فيشاهده، ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة، فيسمع به، بل يسمع منه، ويشهد به، بل يشهده، فإذا لاحظ القلب الحق بعين التخويف رعب وارتعد وهاب، وإذا طالعه بعين الجمال والجلال هدأ واستقرَّ.

وقال: قلبٌ لاحظ الحق بعين التعظيم، فذاب، وانقطع إليه عما سواه، وإذا لاحظ القلب الحق بعين التعظيم لان وحسن.

وقال بندار بن الحسين: القلب مضغةٌ، وهو محل الأنوار، ومورد الزوائد من الجبار، وبها يصح الاعتبار، جعل الله القلب للجسد أميرًا، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ ، ثم جعله لربه أسيرًا، فقال: ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ .

وقال جعفر: إذا همَّ القلب عوقب على المكاره، ولا يعرفه إلا العلماء بالله.

وقال الصبيحي: خاطب أصحاب القلوب؛ لأن القلوب في قبضة الحق يقلبها كيف يشاء، وسَّعها، وصفَّاها من البين، ونقَّاها، وشرحها، وفسحها، ثم حشاها بمودته وإيمانه ويقينه؛ ولذلك خاطب القلوب بخصائص ما أودع فيها.

وقال بعضهم: للقلوب مراتب، فقلوب في قبضة الحق مأسورة ويكشفه مسرورة، وقلوب المحبين إليه والهة، فقلوب طائرةٌ بالشوق إليه، وقلوب هاجت بالشغف هيمانًا، أو قلوب اعتقدت فيه الآمال، وقلوب إلى ربها ناظرةٌ، وقلوب تبكي من الفراق وشدة الاشتياق، وقلوب ضاقت في دار الفناء وسمت إلى دار البقاء، وقلوب خاطبها في سرها، فزال عنها مرارة الأوجاع، وقلوب سارت إليه بهمتها، وقلوب صعدت إليه بعزائم صدقها، وقلوب تقدمت بخدمته في الخلوات، وقلوب مرَّت في الهدايات، وابتغت من الله العناية،

وقلوب شربت بكأس الوداد، فاستوحشت من جميع العباد، وقلوب ساقت في الطريق إليه، وقلوب انقطعت بالكلية إليه، فهذه مراتب القلوب في السلوك والقصد فهو متبع قصده.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ : أمر الله نبيه ﷺ أن يذكِّر الخاشعين من عظمته والخائفين من رؤية كبريائه بالقرآن؛ لأنهم أهله وأهل القرآن أهل الله وخاصته، يعرفون حقائق الخطاب، وهم يدركون موعظة الله، ويفزعون بها من الله، ويتابعون مواضع الخطاب بنعت العبودية، وهم بالقرآن يرتقون إلى سعادته، فيرون الحق بالحق بلا حجاب، ويصعدون به إلى الأبد.

قال أحمد بن حمدان: ألا يتعظ بمواعظ القرآن إلا الخائفون على إيمانهم وإسلامهم، وعلى كل نفس من أنفاسهم أنهم في محل البعد والهلاك، قال الله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ .

قال الأستاذ: إنما يؤثر التخويف والإنذار في الخائفين، فأما من لا يخاف فلا ينفع فيه التخويف، وطير السماء على وكارها تقع(١).

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ : أقسم الله سبحانه بعواصف تجلي عظمته وكواشف أنوار كبريائه التي تفرق أسرار العارفين في هواء القدم، والبقاء حتى لا يبقى من وجودها من صونة ظهور القيومية في سماء الهوية أثر؛ لغلبة القدم على الحدث وبشمال جماله الذي يأتي بنسيم الوصلة إلى

---

(١) انظر: تفسير القشيري (٧/ ٣٠٤)، والبحر المديد (٧/ ٥٣).

قلوب المحبين، وينشق طيب نسائم الدنو أرواح الشائقين ويحمل أنين العاشقين إلى بساتين الملكوت، ويطيبها بطيب الجبروت:

وإني لأستهدي الرياح نسيمكم إذا أقبلت من أرضكم بهبوبْ

وأسألها حمل السلام إليكم فإن هي يومًا بلغت فأجيبْ

وأقسم بسحائب ظلال عنايته القديمة التي تحمل ويل المعرفة من بحر الصفات، فتمطر على أرض قلوب العارفين، فينبت به أزهار المحبة وورد الألفة وياسمين المودة ونور الحكمة ورياحين العلوم اللدنية، فيا لها من برد تلك الظلال، ويا لها من تسنيم ذلك الشمال، يا لها من حسن ذلك الجمال، وأيضًا: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ : أقسم برياح أنفاس المشتاقين إلى جماله التي تصعد إلى الملكوت، وتنشر طيب نفحات العشق في بساتين الجبروت، فيطيب بنسيمها أهل الملأ الأعلى وصفائح الأدنى.

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ : سحائب أرواح العارفين التي تحمل أوقار مياه علوم الغيب من بحار الصفات، فتمطر على صحارى الصدور، فتنبت فيها أشجار الحقائق وأنوار الدقائق.

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ : للسنن أسرار الربانيين التي تجري في بحار الذات القديم، يسوقها شمال العناية، ويحرسها من الفناء شرف الكفاية.

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ : عقول المتمكنين في مقام الصدق والاستقامة التي تقسم أمور الإلهام في مواضع العبودية لنظام الطريقة والشريعة، أقسم الله بهذه العجائب بما فيها من لطائف الغرائب والدلالة على صفاته وذاته ومحبة أوليائه وقمع أعدائه إن مواعيد وصاله وكشف جماله لصادقةٌ، وإن ساعات القربات والمداناة لواقعةٌ، فهناك أيام المواصلة، وهناك أزمان المكاشفة والمشاهدة إلى الأبد.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ : إن من حملة الرياح الصبحية تحمل أنين المشتاقين إلى ساعات العزة، ثم تأتي بنسيم القربة إلى مشام أهل المحبة، فيجدون راحة غلبات اللوعة، وفي السحاب ما يمطر بعتاب الغيبية، ويؤذن بهواجم النوى والفرقة، فإذا عَنَّ لهم شيءٌ من ذلك أبصروا ذلك بنور بصائرهم، فيأخذون في الابتهال والتضرع في السؤال استعادة منهم، كما قالوا:

أقولُ وقد رأيتُ لها سحابًا من الهُجران مقبلة إلينا

وقد سَحَّت عَزاليها بهَطْل حواليـنا الصُّدود ولا علينا

وقال في قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ : وعد الله المطيعين بالجنة، والتائبين بالرحمة،

والأولياء بالقربة، والعارفين بالوصلة، ثم أقسم بسماء قلوب الموحدين التي شمسها العرفان، وقمرها الإيقان، ونجمها الإيمان، وصفاؤها البيان، وسحابها البرهان، ومطرها الغفران، ورياحها القربان، وحبكها لمعان العيان بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ .

قال الأستاذ: الإشارة إلى سماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان وقمر المحبة ونجوم القربة.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين يتحرزون بهمومهم الصافية عن غبار الخليقة، يتقلبون في جنان القربة، ويعيشون بنسيم الوصلة، ويشربون من عيون المعرفة شراب المحبة ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: من لطائف المقامات وغرائب الدرجات، في الدنيا لهم الكرامات، وفي الآخرة لهم المداناة، ثم ذكر سبب وصولهم إليها، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: باذلين وجودهم لله شوقًا إلى الله، ثم زاد في وصفهم بأنهم باتوا في ظلم الليالي؛ لتفقد الواردات وطلب المكاشفات بقوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، يتهجدون في أجواف الليالي بطيب مناجاتهم وحلاوة مراقباتهم ولذة انبساطهم وعربدتهم على بساط الاحتشام؛ حيث يسمعون لطائف الإلهام والخطاب والكلام، فيا لها من عبراتهم، ويا لها من زفراتهم ويا لها من شهقاتهم، ويا لها من لذة تلفظهم بالشطحيات، وغرائب الكلمات الإلهيات، وهذا من كمال عشقهم وغلبات محبتهم وشوقهم، لا يقدرون أن يناموا في مضاجعهم؛ من لذة الأنس بالله ووجدان قرة عيونهم من نور مشاهدته، حيث قال في وصفهم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، أين أنت يا صاحبي من سقوطهم وتمرغهم في التراب؟! لو رأيت عيونهم الباكية لترى فيها دمار أكبادهم، الله يعلم أسرارهم؛ حيث هيَّجهم بشوقه وعشقه إلى قربه حتى لم يناموا على فرشهم مثل البطالين والغافلين، وأنشد:

نهاري نهار النَّاس حتَّى إذا بدا لي الليل هزتني إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم بالليل جامع

ثم وصفهم الله بأنهم مستغفرون بالأسحار، وذلك أنهم إذا رجعوا من مقام المشاهدة إلى مقام المراقبة يستغفرون الله من الزلات والخطرات قبل المداناة وبعد المكاشفات من

المعارضات بقوله: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم زاد في وصفهم أنهم بذلوا ما لهم في سبيل الله لمن سأل منهم ولمن لم يسأل بقوله: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

قال سهل: المتقي في الدنيا في جنات الرضا يتقلب، وفي عيون الأنس يسبح.

وقال في قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: لا يغفلون عن الذكر في حال.

وقال بعضهم: ذاقوا حلاوة الأنس في الذكر، فتهجدوا، وهجروا النوم، وقاموا آناء الليل والنهار طالبين مرضاته، متطلعين إلى ما يرد عليهم من زوائد مناجاته وفوائده.

وقال الأستاذ: الليل إما للأحباب في أنس المناجاة، وإما للعصاة في طلب النجاة، والسهر لهم في لياليهم دائم، إما لفرط أسفٍ ولشدة لهف، وإما للاشتياق والفراق، كما قالوا:

كم ليلةٍ فيك لا صباح لها ... أفنيتها قابضًا على كبدي

وقد غضت العين بالدموع وقد ... وضعت خدي على بنان يدي

وأما لكمال أنس وطيب روح، كما قالوا:

سقي الله عيشًا قصيرًا مضى ... زمان الصبى في الهوى والمحون

لياليه يحكي انسداد اللحاظ ... للعين عند ارتداد الجفون

وقال بعضهم: السائل المفتضح، والمحروم المتعرض.

وقال الأستاذ: السائل المتكفف، والمحروم المتعفف.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾: إن آيات الأرض ظهور تجلي ذاته وصفاته في مرآة الأكوان، كما ظهر من الطور لموسى، وما ظهر من المصيصة لعيسى، وما ظهر لمحمد ﷺ من جبال مكة، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «جاء الله من سيناء واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»[1]، وأيضًا يظهر لكل موقن ذلك النور والبركة، وهذا المقام مقام اليقين، وإذا ظهر بذاته وصفاته للسر والروح والقلب والعقل يكون مقام الاتصاف والاتحاد، وهذا للعاشقين، وهو مقام عين الجمع، الأول مقام الجمع، ومن شدة ظهور النفس الناطقة استفهم الحق غرباء المعرفة، ودلّهم على عيان المشاهدة، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: آيات الموقن هو الموقن، وآيات العارف هو العارف سبحانه هو المقدس من مباشرة الحدثان، والمخالطة بالإنسان.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال سهل: بالعارفين بالله يستدلون على معروفهم.

وقال في قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾: أي: أفلا ينظرون فيها إلى آثار الربوبية.

وقال الواسطي: تعرَّف إلى قوم بصفاته وأفعاله، وهو قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، وتعرَّف إلى الخواص بذاته، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

وقال بعضهم: فمن لا يبصرها ولا يعرفها أضاع حظها منها.

وقال الحسين: إذا عرج على نفسه بان نفسه لنفسه، ومن لم يعرج على جملته كان محتشمًا لم يبين خلقه لخلقه، فكان كما لم يزل خوطب بلسان الأزل وجميع نعوته عدم، بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾، فكان المخاطب لهم والمجيب عنهم ولا هم.

وقال أبو الحسين بن هند: العبد يعرف نفسه على قدر حضوره واستعماله للعلم، وعلى قدر رجوعه إلى الله يعرف نعمه وفضله وكلاءته؛ إذ ذاك ينجو من الاستدراج.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: في سماء صفاتي رزق أرواحكم من مشاهدة النور، وغذاء العلم الرباني، وما توعدون من مشاهدة الذات وكشف عيانه، وفي الآية دليل التوكل على الله، وحثٌّ على طلب الحوائج منه، وأحالهم إلى رؤية الوسائط، ولو كانوا على محل التحقيق لما أحالهم إلى السماء ولا إلى الأرض.

قال إبراهيم بن شيبان: وفي السماء بقاؤكم وما توعدون من الفناء.

وقال القاسم: ما توعدون من الفناء والبقاء والهداية والضلالة والهلاك والعقوبة[1].

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أي: المكرمين في الأزل باصطفائيتهم وقربتهم من الله سبحانه، وأنهم ملبسون لباس نور الحضرة، وأنهم سفرة الله، أكرمهم بأنه جعلهم سفراء بينه وبين الأنبياء والمرسلين، فبكرامة الخليل والحبيب عليهما

---

(١) قال التستري: أي تفرغوا لعبادتي ولا يشغلكم طلب الرزق عنا ، فإنا نرزقكم ، ثم قال: إن الله رضي عنكم بعبادة يوم فارضوا عنه برزق يوم بيوم. قال: وفيها وجه آخر: ﴿وَفِي السمآء رِزۡقُكُمۡ﴾ أي من الذكر وثوابه. تفسير التستري (٢/ ٦٧).

الصلاة والسلام أكرمهم الله، ولما رآهم الخليل على هيبة الملكوت استبشر برؤيتهم فيما استنشق منهم رائحة القربة، أكرمهم بكرامة الله إياهم، فصاروا مكرمين من جهة الحبيب والخليل عليهما الصلاة والسلام.

قال ابن عطاء: ضيف الكرام لا يكون إلا كريمًا، فلما نـزلوا بإبراهيم الخليل وكان سيد الكرام سمَّاهم الله مكرمين.

قال جعفر: مكرمين حيث أنـزلهم أكرم الخليقة وأظهرهم فتوة وأشرفهم نفسًا، وأعلاهم همة الخليل صلوات الله وسلامه عليه.

وقال يعقوب السوسي: ما تكلف لهم، ولا اعتذر إليهم، وهذا من أخلاق الكرام.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ
فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ
عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ
سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ
قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾
فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: كمال فتوة الخليل في إكرام أضيافه التعجيل بإحضار ما حضر عنده، وتخيره بأن جاء بأسمن ما عنده، فإن من الفتوة وإكرام الضيف أن يختار من أحسن ما عنده لضيفه، كان إكرام الضيف سجية الخليل، ثم لما كان الأضياف رسل حبيبه زاد في إكرامهم، بأن خدمهم بنفسه، وقام على رؤوسهم، وأكل معهم، وهذا دأب العاشقين إكرام رسول الحبيب.

قال أبو العباس الدينوري: تعجيل القرى من المروءة، ألا ترى كيف حكى الله عن

إبراهيم بقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾: وصف الله نفسه بالقدرة القائمة بذاته والقوة الأزلية في ذاته، بأن ركَّب السماء، ووسعها، وألبسها أنوار القدرة والقوة، وجعلها مرآة لصفاته لنظر نظار الحقيقة وإبصار طلاب المشاهدات في الآيات، وبسط الأرضين لأقدام أوليائه، وجعلها مساجد أصفيائه، وأنبت فيها صنوف الأشجار وفنون الأزهار، وأثنى على نفسه في إمهاده الأرض بقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾: ذكر ثناء نفسه في ذكر الأرض لخاصيتها بأنها مواضع أقدام الصديقين، وبأنها أصل طينة آدم وذريته، وبيَّن وحدانيته في قوله: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، وقع الكل في القلة والكثرة، وتفرد الوحدانية بالوحدة؛ ليعرف في رؤيتها العارف وحدانيته، ويعتبر بما وجد في الكون أن مآل الكل للفناء، والحق لم يزل ولا يزال باقيًا.

قال الخراز: أظهر معنى الربوبية والوحدانية بأن خلق الأرواح؛ لتخلص له الفردانية، فلما تبين أن أشكال الأشياء مواضع علة الفناء دعا العباد إلى نفسه؛ لأنه الباقي وغيره فانٍ بقوله: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ففروا من وجودكم ومن الأشياء كلها إلى الله بنعت الشوق والمحبة والتجريد عما سواه، وأيضًا فروا إليه منه حتى تفنوا فيه؛ فإن الحادث لا يثبت عند رؤية القديم: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ عنه وعن قهر قدمه وفراقه ﴿مُّبِينٌ﴾؛ حيث تعرفون أني صادق فيما ظهر مني من سلطان هيبتي وبرهان قدرتي.

قال سهل: ففروا مما سوي الله إلى الله، وفروا من المعصية إلى الطاعة، ومن الجهل إلى العلم، ومن عذابه إلى رحمته، ومن سخطه إلى رضوانه.

وقال محمد بن حامد: حقيقة الفرار إلى الله ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «وألجأتُ ظهري إليك»[1].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٩٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١).

وما روى عنه في خبر عائشة -رضي الله عنها-: «أعوذُ بك منك»[١]، فهذا غاية الفرار منه إليه.

قال الواسطي: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معناه لما سبق لهم من الله لا إلى علمهم، وحركاتهم وأنفسهم كما قال النبي ﷺ: «أعوذ بك منك»[٢].

سئل بعضهم عن قول النبي ﷺ وسلم: «سافروا تصحُّوا»؟ قال: إلينا تجدونا في أول قدم، ثم قرأ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾: فتول عنهم بسرك إلينا، فما أنت بملوم في إبلاغ رسالتك وإشغافك بالظاهر بهم وبإعلامهم بأسباب نجاتهم، فأنت مستقيمٌ، لا يحجبك إبلاغ الرسالة عن شهود العين.

قال الواسطي: ردهم إلى ما سبق عليهم في الأزل من السعادة والشقاوة، وأسقط الملامة عن نبيه ﷺ لما نصح وجهد وعانى بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فلما أمر أن يتولى عن الأعداء أمر أن يقبل على طلاب مشاهدته من العارفين، ويجدد بقوله سوابق ما أنعم الله عليهم من التوحيد والمعرفة بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ذكرهم جمالي وجلالي وحسن اصطناعي وقربي منهم، وما خصصتهم من سني الدرجات ورفيع المقامات؛ فإن ذكرك ينفع لهيب فؤادهم ولوعة قلوبهم وأشواق أرواحهم.

قال جعفر الصادق: يعني يا محمد ذكِّر عبادي جنودي وكرمي وآلائي ونعمائي وما سبق لهم من رحمتي لأمتك خاصة، والذكرى التي تنفع المؤمنين ذكر الله العباد وما سبق من العناية القديمة بالإيمان والمعرفة والتوفيق للطاعة والعصمة عن المعاصي.

قال الأستاذ: ذكِّر المطيعين جزيل ثوابي، وذكِّر العارفين ما صرفت عنهم من بلائي.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: في هذه الآية إشارةٌ عجيبةٌ، وهو أنه تعالى إذا أراد خلق الجن والإنس أبرز من عيون الربوبية عينًا، فأوجدهم برؤية العين،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٨٠) بأوله فقط.

فلما عكس عليهم سناء التنزيه وباشر ذلك سناء وجودهم في إيجادهم تلطفوا بلطفه، واستلذُّوا تلك المباشرة، وفرحوا بوجدانها، وسكروا بحلاوتها، فكادوا أن يدَّعون الربوبية، وذلك سرُّ النفس التي سترها في النفس الأمَّارة، وذلك ظهر الفراعنة، فادَّعوا الربوبية؛ لغلبتها على هواهم، ومن لم يغلب عليه ذلك لم يدَّع، ولكن ذلك السر مخفيٌّ في نفسه، فلما علم الحق منهم ذلك حذَّرهم منه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: أعلمهم أن ما هو عليهم كسوة الربوبية العارية لهم، فلما ارتفعت الكسوة بقوا في رقِّ عبودية الخالق الفرد المنزَّه عن مباشرة الخليقة، أي: لا تظنوا أنها لكم، فذلك لي حقيقةٌ أزليةٌ إلى أبد الأبد، كيف لا يكونون عابديه، وهم في قبضة عزته تكوَّنوا وما يجري عليهم بغير اختيارهم، وهم بذلك مجبورون، فإذًا صحت عبوديتهم؛ لأن حركاتهم وسكناتهم تقع على وفق مشيئته الأزلية، فذلك منهم عين العبودية؛ إذ لا إرادة لهم في حركاتهم وسكناتهم ودخولهم وخروجهم وأنفاسهم وخواطرهم، فما يظهر منهم فهو محض إرادته القديمة، ما أراد منهم في الأزل فيكون منهم يظهر وهذا عين العبودية؛ إذ قامت بمشيئته الكائنات والحركات والسكنات لا بذواتها، فمن عرف نفسه بالعبودية فقد عرف ربه بالربوبية، ثم بعد ذلك لا يكون منهم نفس ولا حركة إلا ويكون ساقطًا في مشاهد ربوبيته، فبقي الحق هناك، ولم يبق العبد في البين، قال الله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يا فَهِم إذا أمر لسان الأزل يكون لا شيء فتكون بأمره، وإذا ناداه من بطنان الأزل ودعاه من غيب العدم كيف لا يجيب المكون وهو تعالى سابقٌ بعلمه في الأزل في وجود ذلك المكون، فإذا أجاب المكوَّن المكوِّن بكل مادة إما مستحسنًا في الظاهر وإما مستقبحًا فإن استقباحه واستحسانه يكون بالإضافة إلى الخلق، وإلا في عين المشيئة كلها مستحسنٌ تكون محض العبودية لربوبية الحق، وإن خرج في لباس المخالفة من حيث الرسوم، ومن عرف ما ذكرنا من عين التوحيد قد سقط عن عينه جهد الجاهدين وتكلف السالكين، وتحير في قبضة الجبروت، واستغرق في بحار الملكوت، لا يكون منه نفس إلا ويخرج بشرط الرضا، ولا يتحرك إلا بوفق الوفاء، ولا ينظر إلا بحقيقة الصفاء.

قال جعفر: إلا ليعرفوني، ثم ليعبدوني على بساط المعرفة؛ ليتبرأوا من الرياء والسمعة.

وقال ابن عطاء: إلا ليعرفوني، ولا يعرف حقيقته من وصفه بما لا يليق به.

قال الواحدي: مذهب أهل المعاني في ذلك ألا يخضعوا لي ويتذللوا، ومعنى العبادة في اللغة الذل والانقياد، وكل مخلوق من الجن والإنس خاضعٌ لقضاء الله، مذللٌ بمشيئته، خلقه على ما أراد، ورزقه كما قضى، لا يملك أحدٌ لنفسه خروجًا عما خُلِق عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾: رزقه بالتفاوت، رزق بعضهم الإيمان، ورزق بعضهم الإيقان، ورزق بعضهم العرفان، ورزق بعضهم البيان، ورزق بعضهم العيان هذا لأهل الولاية، ورزق بعضهم من أهل الشقاوة الخذلان، ورزق بعضهم الحرمان، ورزق بعضهم الطغيان، ورزق بعضهم الكفران، فصدر الأول صدروا من مكامن أنوار لطفه، وهؤلاء المحرومون خرجوا من ظلمات قهره، وهو جلَّ جلاله ذو القوة الأزلية، وهو متين قوي عزيز، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بعزِّه وقوته.

قال بعضهم: اعتبروا كيفية الأرزاق باللبيب الطالب وحرمانه والطفل العاجز وتواتر الأرزاق عليه؛ لتعلموا أن الرزق طالبٌ وليس بمطلوبٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1].

سورة الطور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: أقسم الله

---

(١) هذه الآية وأمثالها هي التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصدِّيقين، حتى حصل لهم اليقين الكبير، فسكنت نفوسُهم، واطمأنت قلوبهم، فهم في روح وريحان. والأحاديث في ضمان الرزق كثيرة، وأقوال السلف كذلك. البحر المديد (٦/ ١٥٦).

ههنا بذاته وصفاته وفعله، الطور ذاته القديم، والكتاب المسطور صفاته القديمة، والرق المنشور أفعاله اللطيفة، وأيضًا الطور قلب محمد ﷺ، والكتاب المسطور رموز ما أوحى، والرق المنشور أسراره المنقوشة بأنوار وحيه وإلهامه وغرائب علومه اللدنية، ظاهر قسمه على الطور الذي تجلى له الحق، فإذا كان ذلك محل قسمه بتجلٍ واحدٍ فما تقول في طور لا تنفكُّ أنوار تجليه منه، وهو قلب محمد ﷺ، سماه طور العظمة واستقامته في موازاة سطوات عزته، وسمى قلب غيره من الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور، الذي عمَّره بنور القربة والمشاهدة والعلم والحكمة والمعرفة والوجد والحال والمكاشفة، ويمكن أنه تعالى أراد به صورة محمد ﷺ وصورة أبيه آدم، الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وجعله مرآة ظهوره، وجعل روحه ورق أسرار علومه التي ذكرها بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: روح محمد ﷺ الذي رفعه الحق إليه، ومقام عنديته أرفع من كل رفيع من العرش إلى الثرى، وأيضًا يمكن أنه أراد به العرش.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: بحر سر محمد ﷺ؛ لأن ذلك البحر ملأته أنهار قاموس علومه القدمية، وأسرار كلماته الباقية، وأيضًا الطور طور سيناء الذي هو موضع التجلي والكلام.

والكتاب المسطور ما كلَّم الله به موسى، فصار منقوشًا في ورق قلبه، أقسم بالطور وبقلبه وبما فيه مما سمع من كلامه.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾: أيضًا ما كتبه بيده على ألواح موسى.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: أيضًا قلبه كان معمورًا بنور مشاهدته؛ ولذلك خاطب الله موسى بقوله: فرغ بيتًا لي أسكن، فلما سكن في بيت قلبه عمَّره بنور قربه.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: كنايةٌ عن ذاته القديم الذي امتنع بعزته عن تناول الحدثان، ألا ترى كيفما بلغ أماني موسى، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَرِنِي﴾.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: صدر موسى الذي هو مملوءٌ من نيران شوقه وحزنه، حين لم يدرك حقائق جلال الألوهية الذي استحال وجود الحدث عن إدراكه بوصف الإحاطة والحقيقة، وأيضًا عم في هذه الأقسام جميع العارفين والصديقين، الطور أرواحهم، والكتاب المسطور إلهامهم، والرق المنشور عقولهم، والبيت المعمور قلوبهم، والسقف المرفوع أسرارهم، والبحر المسجور صدورهم، أقسم بأرواحهم؛ لأنها مواضع تجليه، وأقسم بما خاطبهم من الوحي والإلهام، وأقسم بعقولهم؛ إذ هي ألواح علومه الغيبية، وأقسم بقلوبهم؛ إذ هي مساكن المعارف ومساقط أنوار الكواشف، وأقسم بأسرارهم؛ إذ هي تصعد إلى

مصاعد الملكوت ومعارج الجبروت، وأقسم بصدورهم؛ إذ هي مملوءةٌ من سناء العرفان وضياء الإيمان وأنوار الإسلام، قال الله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾.

قال جعفر في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾: أي: وما يطرأ على قلب أحبائي من الأنس بذكري والالتذاذ بحبي، ﴿وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾: وما كتب الحق على نفسه لهم من الاقتراب والقربة.

وقال سهل في قوله: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: هو القلب، قلوب العارفين معمورة بمعرفته ومحبته والأنس به، ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: هو العمل المرضي الزكي الذي لا يُراد به جزاءً من الله في الظاهر.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ أي: كلوا من موائد قربه، واشربوا من شراب وصله هنيئًا بلا كدورة العتاب ووحشة الحجاب.

قال سهل: جزاء الأعمال الأكل والشرب، ولا يساوي أعمال العباد أكثر من ذلك، وأما شراب الفضل فهو قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾: شرابًا على رؤية المشاهدة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: هذا إذا وقعت فطرة الذرية من العدم سليمة طيبة طاهرة لقبول معرفة الله، ولم تغيرها تأثير صحبة الأضداد، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كُلّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة، فأبواه يُهودانه أو يُنصرانه أو يُمجسانه»[1]، فإذا بقيت على نعت الأول ووصل إليها فيض مباشرة نور الحق ولم يتم عليها الأعمال والعمار يوصلها الله إلى درجة آبائهم وأمهاتهم الكبار من المؤمنين؛ إذ هناك يتم أرواحهم وعقولهم وقلوبهم ومعرفتهم وعلمهم بالله عند كشف مشاهدته وبروز أنوار جلاله ووصاله، وكذلك حال المريدين عند العارفين، يبلغون إلى درجات كبرائهم وشيوخهم، ما داموا آمنوا بأحوالهم، وقبلوا كلامهم، كما قال رويم قدَّس الله روحه: من آمن بكلامنا هذا من وراء سبعين حجابًا فهو من أهله.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أحبَّ قومًا فهو منهم»[1]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، ولا تعجب من ذلك؛ فإنه تعالى مبلغهم إلى أعلى الدرجات، فإذا كانوا معهم في منازل الوحشة يصلون إلى الدرجات العلية، فكيف لا يصلون إليها في مقام الوصلة!

﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾: وصفهم الله في شربهم كاسات شراب الوصلة بالمسارعة والشوق إلى مزيد القربة، ثم وصف شرابهم أنه يورثهم التمكين والاستقامة في السكر، لا يئول حالهم إلى الشطح والعربدة، وما يتكلم به سكارى المعرفة في الدنيا عند الحق، ولا يشابه حال أهل الحضرة حال أهل الدنيا من جميع المعاني.

قال ابن عطاء: أي لغو يكون في مجلس محله جنة عدن، والساقي فيه الملائكة، وشربهم على ذكر الله ريحانهم، ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وشكرهم على المشاهدة والقوم جلساء الله ﷻ.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ٣٣١).

ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾: هذا شكرٌ من القوم في رؤية الحق سبحانه أي: كنا مشفقين من الفراق في الدنيا والبعد في يوم التلاق، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا﴾ من ذلك العذاب المحرق، المعنى هذا في أوائل الرؤية، أما إذا استقاموا في الوصال نسوا ما كان فيهم من ذكر الإشفاق وغيره، والإشفاق وصف الأرواح والخوف صفة القلوب.

قال الجنيد: الإشفاق أرقُّ من الخوف، والخوف أصلب.

وقال بعضهم: الإشفاق للأولياء، والخوف لعامة المؤمنين.

وقال الواسطي: لاحظوا دعاءهم وشفقتهم، ولم يعلموا أن الوسائل قطعت المتوسلين عن حقيقته، وحجبت من إدراك من لا وسيلة إليه إلا به.

قال ابن طاهر: مَنَّ علينا بإحسانه إلينا بأن جعلنا من أهل دار كرامته، ووقانا من دار إهانته.

قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: بيَّن الله سبحانه في هذه الآية مرتبتين: مرتبة التفرقة، ومرتبة الجمع، الخطاب الأول خطاب الغيبة، والخطاب الثاني خطاب المشاهدة، فإذا قال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وقع الصبر؛ لجريان الحكم في أمر العبودية، وذكر قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ بالغيبة؛ لأنه في مقام تفرقة العبودية والرسالة يقتضي حاله حال المشقة؛ لذلك أمره بالصبر، فإذا ثقل عليه أحاله من الغيبة إلى المشاهدة بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظك من الاعوجاج والتغير في جريان أحكامنا عليك حتى تصير مستقيمًا بنا لنا فينا، انظر إلى ما قال سبحانه لحبيبه ﷺ في قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: نحن نراك بجميع عيون الصفات والذات بنعت المحبة والعشق، ننظر بها إليك؛ شوقًا إليك، وحراسة لك نحرسك بها؛ حتى لا يغيرك غيرها من الحدثان عنا، ويدفع بها عنك طوارقات قهري؛ فإنك في مواضع عيون محبتنا، وأنت في أكناف لطفنا، افهم يا صاحبي كيف قال الحق، ذكر الأعين وليس في الوجوه أشرف من العيون، انظر كيف شَّرفه؛ إذ قال: أنت بعيننا أي: أنت على أعيننا محروسًا عن قهرنا، ورمز الرمز في قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ فإن الحبيب عليه الصلاة والسلام في مقام المشاهدة، وكاد يفنى في عظمته وجلاله، فحجبه بحكمه لحظة والصبر فيه حتى لا يفنى، والنبي ﷺ كان يريد أن يرى الحق عيان في عيان ولا طاقة له، فألبس الله بعد ذلك عينه نورًا من

أعينه، فرأى الحق بجميع العيون، فامتنَّ الله عليه، وتعرف إليه مواضع نعمه بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بأعيننا ترانا.

قال سهل: ما نظهره عليك من فعل وقدرة تتولى جملتك بالرعاية والكلاءة بالرضا والمحبة والحراسة من الأعداء.

وقال ابن عطاء: فإنك بأعيننا أي: مغمور في حفظنا، وغريق في فضلنا، ومستور بحفظنا، ومن اختصَّ بالله كان في حفظه، ومن كان في حفظه كان في مشاهدته، ومن كان في مشاهدته استقام معه ووصل إليه، ومن وصل إليه انقطع عمن سواه، ومن انقطع عما سواه عاش معه عيش الربانيين.

وقال الحسين: اصبر؛ فإن صبرك بتوفيقنا وبشهود عيوننا؛ فلذلك حصلت العيون منك عيونًا؛ إذ أنت الناظر إلينا بنا، ولم تنظر إلينا بما لنا وعنا، فتكون بذلك محجوبًا عن واجبنا.

وقال جعفر: عند هذا الخطاب سهَّل عليه معالجة الصبر واحتمال مؤنه، وكذلك كل حال يرد على العبد في حال المشاهدة.

قال الحسين في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ : وقال للكليم: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ، ليس من هو بالعين كمن هو على العين، وليس من أفنى بالشيء كمن فني عن الشيء؛ لأن الفناء بالشيء لمعنى الجمع، والفناء عن الشيء لمعنى الاحتجاب.

وقال النوري: الصنع بالعين ليس كالصنع على العين، ومحمد ﷺ كان بالعين في كل وقت وحال ومكان، ولما صبر في جريان أحكام الربوبية واستقام في مقام الجمع بالحق في الحق، وبقي بالحق للحق في الحق، ولم يحتجب بالحق عن الحق أمره بتسبيحه وتقديسه وتحميده في جميع أنفاسه، بأنه نال هذا الفضل بالله لا بنفسه، وأنه لم يدركه حقائق الإدراك، فإنه منـزَّهٌ عن إحاطة الحدثان به أي: نـزهني حين تقوم إلى موازاة مشاهدة قدمي، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ حين أطبق عليك تراكم ظلال العظمة والكبرياء نـزِّهه عما تجد من النسك به؛ فإن الأنس أيضًا حجابٌ؛ إذ هو لذة الروح، وسبِّحه عند رؤيتك الأكوان والحدثان وهي ساجدات له، فاسجد أنت لرؤيتي، ولا تنظر إلى تسبيحك وسجودك، ولا إلى تسبيح الكون، فإن النظر إلى التنـزيه احتجابٌ من رؤية المنـزَّه، وعن إدراك قدسه بالحقيقة بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ .

قال سهل: صل المكتوبة بالإخلاص لربك حين تقوم إليها.

وقال بعضهم: نـزِّه ربك عن ظلمه إياك فيما نسب إليك أي: فيما أصابك من المحن، فلا يصيبك شيء من المحن دون قضائه ومشيئته، وقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم إلى طاعة ربك نـزِّهه بمعرفتك باستغنائه عنك عن طاعتك.

وقال سهل في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: لا تغفل صباحًا ولا مساءً عن ذكر من لا يغفل عن برِّك وحفظك في كل الأوقات.

سورة النجم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: أقسم الله بالنجم، وذلك النجم إلهام قلوب الملهمين حين يسقط من صحائف الغيوب إلى معادن القلوب، وأيضًا أي: بأنوار تجلي جماله وجلاله إذا وقع على أرواح العاشقين، وأيضًا بألحان بلابل علومه اللدنية التي تترنم بحقائق ما كنـز الحق في كنوز القدم إذا جلست على أغصان ورد بساتين أسرار العارفين، فتكلموا، وأخبروا بها من مكنون غرائب علوم الصفات والذات، وأيضًا أي: بواردات الجذبية التي تبدو بأنوارها من الغيوب لفهوم المحبين، وتسقط على أسرار الواصلين، وتزعجها إلى مشاهدة رب العالمين حقائقها المواجيد والحالات والكشف والمشاهدات وأيضًا أي: بالأرواح العاشقة الشائقة إذا صعدت إلى ملكوت الغيب، وتسقط إلى بحر جبروت الرب، وتحمل مياه حياة القدم من بحر البقاء، وتأتي سكرى إلى معادن الأشباح، وتضوع نفحاتها في بساتين العقول ورياض القلوب، وأيضًا بما نبت في بساتين قلوب الأولياء من عجائب أصناف أزهار الحكم والمعارف والعلوم والفهوم، أي: بهذه المقسمات الشريفة والنيرات الواضحة ما ضلَّ حبيبي عني لمحة وما احتجب بشيء دوني لحظة، وما اعوجَّ عن طريق استقامته قط، وذلك قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾، وأيضًا ما ضلَّ عني بي في ميادين عظمتي؛ حيث لا يدري الموحد أين هو، هو كان عالمًا بي بحيث سلك، وما غوى ما ستر بها وجد مني فيشغل به عني.

قال ابن عطاء: أقسم بنجوم المعرفة وضيائها وتجليها ونورها والاهتداء بها وسكون العارفين إلى أنوارها وسلوكهم بالاهتداء بها.

وقال جعفر: هو محل التجلي والاستتار من قلوب أهل المعرفة.

وقال جعفر بن محمد الصادق: النجم محمد ﷺ، إذا هوى انشرح منه الأنوار.

وقال أيضًا: قلب محمد ﷺ إذا هوى إذا انقطع عن جميع ما سوى الله ﷻ.

وقال أيضًا: ما ضلَّ عن قربه طرفة عين.

وقال ابن عطاء: ما ضلَّ عن الرؤية طرفة عين.

وقال سهل: ما ضلَّ عن حقيقة التوحيد قط، ولا اتبع الشيطان بحال.

وقال الشبلي: ما رجع عنا منذ وصل إلينا.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾: كيف ينطق عن الهوى من ليس له علة الهوى، كان مقدسًا عن شوائب الخليقة، منورًا بأنوار الحقيقة، كان نطقه نطق الحق، وفعله فعل الحق، وقلبه ميدان تجلي الحق، كيف تجري عليه الخطرات الشيطانية والهواجس النفسانية، وكان محفوظًا بعين الكلاءة وحسن الرعاية، ما نطق فهو وحي الله وكلامه وإشارة الله وإلهامه، جعله الله مصباح وجوده في العالم، وأنوار جوده في آدم.

قال الحسين: من عرف اللطائف عَلَت أخطاره وجَلَّت أقداره، وصار الشح عليه فتنة، قال لصفيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أخذته النعوت، فنبذته في شواهد شعاعها، فلا يهتم لآدم ومن دونه لقيامه عنده، ومن لبس الأولية بتيقنه وارتدى الآخرية بتوحيده ارتفع كل حادث عن صفاته وأحواله.

قال الواسطي: الوحي للأنبياء ضروبٌ، والوحي للعامة من الأنبياء بالرسل من الملائكة، والثاني آداب نفوسهم من القوة والفهم، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾ بأن الوحي إلهام ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ والثالث: ما كان منه في المنامات، وهو على شيء لهم ليس لغير الله فيه معنى.

قال الأستاذ: متى ينطق عن الهوى من هو في محل النجوى في الظاهر مزموم بزمام التقوى في السرائر في إيواء المولى، مصفًّى عن كدورات البشرية، مرقًّى إلى شهود الأحدية، مكاشفٌ لجلال الصمدية، مختلفٌ عنه بالكلية، لم يبق عليه منه إلا للحق بالحق بقية، فمن كان بهذا النعت متى ينطق عن الهوى.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝﴾[1].

---

(١) ﴿فتدلَّى﴾ أي: زاد في القرب، أو: استرسل من الأفق مع تعلُّق به. يقال: تدلت الشجرة، ودلّى رجله من =

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾: أخبر الله سبحانه عن دنو حبيبه منه، وذلك بعد أن ألبسه نعوت الصفات وأنوار الذات، وأخرجه من جميع العلل الحدثانية، فدنا الحق من الحق، دنا بالصفات من الصفات، فلما استلذَّ مشاهدة الصفات كاد أن يقف في سيره بلذة الصفات، فأدناه الحق من الذات بعد أن دنا من الصفات، واستغرق في بحر الذات، ولم يبق معه من علمه شيءٌ، ولا من بصره شيءٌ، ولا من سمعه شيءٌ، ولا من إدراكه شيءٌ، فألبسه الله أيضًا نورًا من سمعه وبصره، فرأى الحق بنور الحق، وسمع من الحق بسمع الحق، فظن أنه قد وصل بالكل إلى الكل، فأراه الحق قيمته.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: بيني وبينه قوس الحدوثية وقوس الأفعالية، فبقي بين القوسين عن إدراك العين بالحقيقة بالعين والقلب، وأيضًا ظن أنه وصل؛ إذ لا فصل هناك ولا وصل ولا قرب ولا بعد، فإن ساحة الكبرياء منـزَّهةٌ عن هذه العلل، فبيَّن له الحق أن بينه وبين الحق قوسين: قوس الأزل، وقوس الأبد، ومن يصل إلى من بعد منه من الأزل إلى الأبد أي: الحدث بعيدٌ مني بقدر الأزل والأبد؛ إذ لا قدر في الأزل والأبد، وكيف يصل إلى من تنـزيهه أبعده بالأزل والأبد من ذاته وصفاته، فإذا كان كذلك استحال قرب الحدث من ذاته وصفاته من حيث المسافة، وأيضًا رمى الحق سهم الدنو من قوس الأزل، ورمى سهم التدلي من قوس الأبد من كناية الذات والصفات إلى قلب حبيبه ﷺ، فجرحه بسهم المحبة وسهم المعرفة، فكان في تلك الليلة مطروحًا في ميدان الأزل، مجروحًا في ميدان الأبد.

قال جعفر: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى أن الله حجب جبريل من دنوه ودنو ربه منه.

وقال القاسم: وقعت المواصلة فأشرف، والإشراف هو المشاهدة، وقاب قوسين موضع الإشكال، إشكال ليتبين العارف ويهلك الجاحد.

وقال الواسطي: من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثَمَّ مسافة، إنما التدلي أنه كلما قربه من نفسه بعده من المعرفة؛ إذ لا دنو للحق ولا بعد، فكلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدًا، فانقلب في الحقيقة خاسئًا وهو حسير؛ إذ لا سبيل إلى مطالعة الحقيقة.

وأما الإخبار عن الفضل أنه أخذه من إياه وأشهده إياه فكان في الحقيقة ذا نفسه

= السرير، ودلّى دلوه، والدوالي: الثمر المُعلّق. البحر المديد (٦/ ١٧١).

مشاهدًا ذاته، وفي الأخبار أن محمدًا ﷺ شهده.

وقال جعفر: أدناه منه حتى كان منه كقاب قوسين، والدنو من الله لا حدَّ له، والدنو من العبد بالحدود.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾: أبهم الله تعالى سرَّ ذلك الوحي الخفي على جميع فهوم الخلائق من العرش إلى الثرى، بقوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾؛ لأنه لم يبين أي شيء أوحى إلى حبيبه ﷺ؛ لأن بين المحب والمحبوب سرًّا لا يطَّلع عليه غيرهما، وأظن أن لو بيَّن كلمة من تلك الأسرار لجميع الأولين والآخرين لماتوا جميعًا من ثقل ذلك الوارد الذي ورد من الحق على قلب عبده، احتمل ذلك المصطفى ﷺ بقوةٍ ربَّانيةٍ ملكوتية لاهوتية، ألبسها الله إياه، ولولا ذلك لم يحتمل ذرة منها؛ لأنها أنباءٌ عجيبةٌ وأسرارٌ أزليةٌ، لو ظهرت كلمةٌ منها لتعطلت الأحكام، ولفنيت الأرواح والأجسام، واندرست الرسوم، واضمحلت العقول والفهوم والعلوم، هكذا رسم العلوم المجهولة التي تنبع عن عين العشق بين العاشق والمعشوق، وذلك في سره وغيب في غيب يسقط عند ذلك حكم العبودية؛ لأن ذلك محض الانبساط وظهور كشف الكلي وغلبات سيول الرحمة الأزلية الواسعة التي تجري من بحار القدس وأنهار الأنس وبها نشق الله من نفحات نرجسها وورودها مشام المستنشقين نسائم الوصال وشمائل الجمال، فيطيرون من الفرح لوجدانها، ويضحكون، ويبكون، ويرقصون، ويصيحون من لذة ما وصل إليهم من عرفانها، ويسترون تلك الأسرار عن الأغيار، كما أنشد:

لعمري ما استودعتُ سرِّي وسرَّه ... سوانا حذار أن تشيعَ السرائرُ

ولاحظته مقلتاي بلحظه ... فتشهد نجوانا العيون النواظرُ

ولكنْ جعلت الوهم بيني وبينه ... رسولاً نادى ما تغيب الضمائرُ

قال جعفر في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾: بلا واسطة فيما بينه وبينه سرٌّ إلى قلبه لا يعلم به أحدٌ سواه بلا واسطة إلا في العقبى حين يعطيه الشفاعة لأمته.

قال الواسطي: ألقى إلى عبده ما ألقى، ولم يظهر ما الذي أوحى؛ لأنه خصَّه به وما كان مخصوصًا به كان مستورًا، وما بعثه به إلى الخلق كان ظاهرًا.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾: ذكر الله رؤية فؤاده عليه الصلاة والسلام

ولم يذكر العين؛ لأن رؤية العين سرٌّ بينه وبين حبيبه، ولم يذكر ذلك غيرة عليها؛ لأن رؤية الفؤاد عامٌ ورؤية البصر خاصٌ، أراه جماله عيانًا، فرآه ببصره الذي كان مكحولاً بنور ذاته وصفاته، وبقي في رؤيته بالعيان ما شاء الله كان، فصار جسمه بجميعه أبصارًا رحمانية، فرأى الحق جميعًا، فوصلت الرؤية إلى الفؤاد، فرأى فؤاده جمال الحق، ورأى ما رأى بعينه، ولم يكن بين ما رأى بعينه، وبين ما رأى بفؤاده فرقٌ، فأزال الحق الإبهام، وكشف العيان بقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ حتى لا يظن الظانُّ أن ما رأى الفؤاد ليس كما رأى بصره أي: صدق قلبه فيما رآه من لقائه الذي رأى بصره بالظاهر؛ إذ كان باطن حبيبه ﷺ هناك ظاهرًا، وظاهره باطنًا رآه بجميع شعراته وذرات وجوده، وليس في رؤية الحق حجابٌ للعاشق الصادق، بأنه يغيب عن الرؤية شيءٌ من وجوده، فبالغ الحق سبحانه في كمال رؤية حبيبه ﷺ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «رأيتُ ربِّي بعيني وبقلبي»[(1)]، رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه.

قال سهل: ما كذب الفؤاد ما رأى البصر.

وقال: هو في مشاهدة ربه كفاها يبصره بقلبه.

قال ابن عطاء: ما اعتقد القلب خلاف ما رآه العين.

وقال: ليس كل من رأى مكن فؤاده من إدراكه؛ إذ العيان قد يظهر فيضرب السر عن حمل الوارد عليه.

والرسول ﷺ محمولٌ فيها من فؤاده وعقله وجسمه ونظره، وهذا يدل على صدق طويته وحمله فيما شوهد به، ثم أكد الله تحقيق رؤية نبيه ﷺ ووبخ منكريها بقوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، ما الرؤية الثانية أقل كشفًا من الرؤية الأولى، وما الرؤية الأولى بأكشف من الرؤية الثانية أين أنت؟ لو كنت أهلاً لقلت لك أنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه في لحافه بعد أن رجع من الحضرة أيضًا في تلك الساعة، وما غاب قلبه من تلك الرؤية لمحة، وما ذكر سبحانه بيان أن ما رأى في الأول في الإمكان، وما رأى عند سدرة المنتهى كان واحدًا لأن ظهوره هناك ظهور القدم والجلال، وليس ظهوره يتعلق بالمكان ولا بالزمان؛ إذ القدم منـزَّهٌ عن المكان والجهات، كان العبد في مكان والرب فيما لا مكان، وهذا غاية كمال تنـزيهه وعظيم لطفه؛ إذ يتجلى من نفسه لقلب عبده، وهو في لا مكان والعبد في مكان، والعقل هاهنا مضمحلٌ، والعلم متلاشٍ، والأفهام عاجزةٌ، والأوهام متحيرةٌ، والقلوب والهةٌ، والأرواح حائرةٌ، والأسرار فانيةٌ، وفي هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه عليه

---

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه.

الصلاة والسلام؛ إذ رآه نـزله أخرى عند سدرة المنتهى، ظن عليه الصلاة والسلام أن ما رآه في الأول لا يكون في الكون لكمال علمه بتنـزيه الحق، فلما رآه ثانيًا علم أنه لا يحجبه شيءٌ من الحدثان، وعادة الكبرياء إذا زارهم أحدٌ يأتون معه إلى باب الدار إذا كان كريمًا، فهذا من الله سبحانه إظهار كمال حبه لحبيبه ﷺ، وحقيقة الإشارة أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيبه مقام الالتباس، فلبس الأمر، وظهر المكر، وبان الحق من شجرة سدرة المنتهى كما بان من شجرة العتاب لموسى؛ ليعرفه حبيبه عليه الصلاة والسلام بكمال المعرفة؛ إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيبه في لباس مختلفة، وبيان ذلك.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾: وأبهم ما غشيه؛ لأن العقول لا تدرك حقائق يغشاها، وكيف يغشاها والقدم منـزَّهٌ عن الحلول في الأماكن، كان ولا شجرة، وكانت الشجرة مرآةً لظهوره سبحانه سبحانه، وألطف ظهوره: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بعد عرفانهم به، ثم وصف حبيبه بأنه ما التفت إلى غيره من الجنان والملكوت في رؤية جلاله بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾: ذكر هذه الآية إلى الرؤية الثانية؛ لأن في الرؤية الأولى لم يكن شيء دون الله؛ لذلك ما ذكر هناك غضَّ البصر، وهذا من كمال تمكين الحبيب في محل الاستقامة وشوقه إلى مشاهدة ربه؛ إذ لم يمل إلى شيء دونه، وإن كان محل الشرف والفضل.

قال الواسطي في قوله: ﴿أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾: أفتشكُّون في دنو مقامه منا وقربه، ولا يشكُّ في دنوه إلا من هو محجوبٌ عن علو محله ومرتبته.

وقال بعضهم: ما يرى منا بنا، وما يرى منا بنا أفضل مما يراه منا به.

وقال الواسطي: إلى سدرة المنتهى يبلغ كشف الهموم إلا لرجلٍ واحدٍ، وهو الذي دنا فتدلى، مر على سدرة المنتهى، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

وقال سهل في قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾: لم يرجع محمد ﷺ إلى شاهد نفسه، ولا إلى مشاهدتها، وإنما كان مشاهدًا بكليته لربه تعالى، يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك المحل، ثم بيَّن الله سبحانه أراه من آياته العظام ما لا يقوم برؤيتها أحدٌ سوى المصطفى ﷺ، وذلك بعد أن ألبسه قوة الجبارية الملكونية بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ

ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾، وذلك بروز أنوار الصفات في الآيات، وتلك الآيات لو رآها أحدٌ سواه لاستغرق في رؤيتها، وكان من كمال استغراقه في بحر الذات والصفات لم تكبر عليه رؤية الآيات والأفعال.

قال سهل: رأى من آيات ربه الكبرى، فلم يذهب بذلك عن مشهوده، لم يفارق مجاورة معبوده.

وقال ابن عطاء: رأى الآيات فلم تكبر في عينه؛ لكبر همته، وعلو محله، ولاتصاله بالكبير المتعال.

قال جعفر: مشاهد من علامات المحبة ما كبر عن الاختيار عنها[1].

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾: يا عاقل احذر مما يغوي أهل العزة بالله من أشكال المخاييل التي تبدو في غواشي أدمغتهم، وهم يحسبون أنها مكاشفات الغيوب ونوادر القلوب، ويدَّعون أنها عالم الملكوت وأنوار الجبروت، وما يتبعون إلا هوسات أنفسهم ومخاييل شياطينهم التي تصور عندهم أشكالا وتمثالاً، ويزينونها لهم أنها الحق، والحق منـزَّهٌ عن الأشكال والتمثال، إياك يا صاحبي وصحبة السالوسيين الجاهلين بالحق، الذين يدَّعون في زماننا بمشاهدة الله مشاهدة حق لأولياء، وليس بمكشوفه للأعداء.

قال الجنيد: رأيت سبعين عارفًا قد هلكوا بالتوهم أي: توهموا أنهم عرفوه، وهو قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

وقال الشبلي: من تحقق في حقيقة الحق فهو نفس الحقيقة؛ لأن الله يقول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: افهم يا صاحبي أن إشارة حقيقة هذه الآية تؤول إلى الكل؛ إذ الكل معزولون عن إدراك حقيقة الحق، وما أدركوا فهو أقدارهم، وجلَّ قدر الحق عن أقدارهم وإدراكهم.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾؛ ولذلك اجترأ الواسطي في حق

---

(١) قال سيدي عبد الله التستري: يعني ما يبدي من صفاته من آياته رآها، ولم يذهب بذلك عن مشهوده، ولم يفارق مجاورة معبوده، وما زاده إلا محبة وشوقاً وقوة، أعطاه الله قوة احتمال التجلي والأنوار العظيمة، وكان ذلك تفضيلاً له على غيره من الأنبياء؛ ألا ترى أن موسى صعق عند التجلي، ففي الضعف جابه النبي ﷺ في مشاهدته كفاحاً ببصر قلبه، نثبت لقوة حاله وعلو مقامه ودرجته. تفسير التستري (٢/ ٨٦).

سلطان العارفين أبي يزيد البسطامي -قدَّس الله روحه- بقوله: كلهم ماتوا على التوهم حتى أبي يزيد مات على التوهم.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: هل للمدعي ما يتمنى وهو غير عارف بنا، وهذا زيادةٌ في بيان جهل المتبعين ظنونهم وتمنيهم، التمني: وصف من لا يصل إليه فمن وصل إليه لم يبق له التمني؛ فإنه تعالى فوق التمني، وفي حقيقة التوحيد أن قول الخليل والكليم والحبيب عليهم الصلاة والسلام: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، و﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، وأرنا الأشياء كما هي وقعت على صورة التمني؛ فإنهم ما شربوا من بحر الوحدانية إلا على قدر مذاق العبودية، وكيف بلغوا إلى مناهم وأمانيهم إدراك الحقيقة بالحقيقة، وساحة الكبرياء منـزَّهةٌ عن درك الداركين ولحوق اللاحقين ووصول الواصلين؟!

قال الحسين: الاختيار طلب الرؤية، والتمني الخروج من العبودية، وسبب عقوبة الله عباده ظفرهم بمنيتهم.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: فأعرض عن الجاهلين بنا، والمعرضين عنا والمشغولين بغيرنا؛ فإن علومهم الظنون الكاذبة والأوهام الزائغة.

قال بعضهم: ضيَّع وقته من اشتغل بموعظة طالب الدنيا والراغبين فيها؛ لأن أحدًا لا يقبل على الدنيا إلا بعد الإعراض عن الله، قال الله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[1]: وَفَّى بها امتحنه بكلماته التي قال الله سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وأول الكلمات الخروج مما سوى الله، ثم الخروج من نفسه لله، ثم الصبر في امتحان الله بالله، ثم إن شاهد الله بمراد الله حين أفرده عن لباس الآيات بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾، بعد أن قال: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾، وهناك أعظم الامتحان، ثم إنه ما وقف فيها وجد من الحق، ثم زاد طلبه في سيره في الحق.

قال الواسطي: خرج من نفسه فيها تحمل من محنة مشاهد المحن كلها نعمة في جنبه ومشاهدته.

قال ابن عطاء: وَفَّى أربعة أشياء: يبذل نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للإخوان.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: ليست الصورة الإنسانية إلا ما سعت من الأعمال الزكية عن الرياء والسمعة يؤول ثوابها إليها من درجات الجنان.

أما ما يتعلق بفضل الله وجوده من مشاهدته وقربته فهو الروح الروحاني الذي في تلك الصورة، وأنها إذا استوفت بمقام درجات الجنان التي جزاء أعمالها تمتعت أيضًا بها يجد روحه من فضل الله من كشف مشاهدته ودوام وصاله، وأيضًا أي: ليس للإنسان إلا ما يليق بالإنسان من الأعمال.

وأما الفضل والمشاهدة والقربة لله يؤتيه من يشاء، فإذا وصل إلى مشاهدة الله وتمتع بها

---

(١) إشارة إلى أن في جبلة الإنسان معرفة لله مركوزة وذلك لأن الله تعالى ذرأ ذريات بنى آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم بخطاب (ألست بربكم) فأسمعهم خطابه وعرفهم ربوبيته وفقههم لإجابته حتى قالوا بلى فصار ذلك الإقرار بذر ثمرة إقرارهم بخالقية الله تعالى في هذا العالم لكن الله تعالى لعزته لا يهتدي إلى سرادقات عزته إلا من أعزه الله تعالى بجذبات عنايته وهو العليم الذي يعلم حيث يجعل رسالاته. تفسير حقي (١٣/ ١٤٥).

فليس ذلك له، إنما ذلك لله وإن كان هو متمتعًا بها، وأيضًا: ليس كل عمل للإنسان؛ إنما بعضها لله مثل الصوم، كما قال ﷺ: «الصومُ لِي وأنا أجزي به»[1]، فذلك لله لا للإنسان، وثوابه فضل الله، وذلك رؤيته، وهي قائمةٌ بذاته، وعند ذلك لا يبقى قدر سعايات أهل الكون، وتصديق ذلك قوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: سوف يعرف أن سعيه في جلال عزته، وما اختار له في الأزل من كشف جماله ليس بشيء؛ لأن الحادث لا وزن له عند القديم، ثم زاد فضله بأن يؤتيه فوق ما كان في سعيه بقوله: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، فلما خرج من هذه العلل وعن الأعمال والثواب والدرجات يتباهى الكل عند بروز أنوار وجوده وجلاله بقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، ثم وصف نفسه بأنه أضحك وأبكى بطلوع صبح جماله العاشقين، وأبكى بظهور شمس ذاته العارفين، يبكون عليه منه بفقدان الكل؛ لأنهم يعرفونه بامتناعه عن إدراكهم وعن تقصيرهم أيضًا في طلب معرفتهم بربهم وقلة معرفتهم بوجود ربهم، وذلك عند كشف المعاينة، أضحك المستأنسين بنرجس مودته وياسمين قربته وطيب شمال جماله، وأبكى المشتاقين بظهور عظمته وجلاله، وأمات العارفين بنعت الفناء في سطوات ديموميته وظهور صدمات أنوار ذاته، وأحيى العاشقين بكشف صفاته، فالأولون فنوا فيه، والآخرون بقوا به، وأيضًا أمات المريدين بالحجاب، وأحيى المحبين بكشف النقاب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: ليس له من سعيه إلا ما نواه، إن كان سعيه لرضا الرحمن فإن الله يرزقه الرضوان، وإن كان سعيه للثواب والعطاء والأعواض فله ذلك.

وقال النصر آبادي: سعي الإنسان في طريق السلوك لا في طريق التحقيق، فإذا تحقق يسعى به ولا يسعى هو بنفسه، وأنشد:

الطـرق شـتَّى وطـرق الحـق منفـردُ والـــسالكون طـــريق الحـــقِّ أفـــرادُ

وقال الوراق: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ذلك في بدايتهم، ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ في توسط أمورهم، ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، وذلك في نهايتهم، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، وذلك عند فناء العبد من إرادته وصفاته، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ النشء الثاني.

وقال الواسطي في قوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾: أنه لم يكن مما يستجلب به شيء

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٢٣)، ومسلم (٢/ ٨٠٧).

من الثواب.

وقال سهل: ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ سعيه، فيعلم أنه لا يصلح للحق، ويعلم ما الذي يستحق بسعيه، وأنه لو لم يلحقه فضل ربه لهلك بسعيه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: إذا وصل العبد إلى معرفة الربوبية تنحرف عنه كل فتنة، ولا تكون له مشيئة غير اختيار الله له.

قيل للحسين: وما التوحيد؟ قال: أن تعتقد أنه فعل الكل بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ عند ذلك بطلت المعلولات، منه الابتداء، وإليه الانتهاء.

قال الله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: ذهبت المعلولات، وبقت العلل لها.

وقال سهل: أضحك المطيع بالرضا، وأبكى العاصي بالسخط.

وقيل: أضحك قلوب العارفين بالحكمة، وأبكى عيونهم بالحزن والحرقة.

وقال ابن عطاء: أضحك قلوب أوليائه بأنوار معرفته، وأبكى قلوب أعدائه بظلمات سخطه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: من كان منه مبدؤه كان إليه منتهاه.

ويقال: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾: أمات بعدله، وأحيى بفضله.

وقال النصر آبادي: يميت باستتار، ويحيى بالتجلي.

وقال جعفر: أمات بالإعراض عنه، وأحيى بالمعرفة.

وقال أيضًا: أمات النفوس بالمخالفة، وأحيى القلوب بأنوار الموافقة.

وقال الأستاذ: أمات نفوس الزاهدين بالمجاهدة، وأحيى قلوب العارفين بالمشاهدة.

ويقال: أمات بالهيبة، وأحيى بالأنس.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ : أغنى العارفين به، وأقنى الموحدين فيه، وأيضًا أغنى العارفين برؤية البقاء، وأقنى الموحدين برؤية القدم؛ إذ زاد في كل لمحة الانتقال إلى وصول الحقيقة، ولا يدركونها؛ فتنـزيه القدم يورث فقرهم أبدًا.

وقال سفيان بن عيينة: أغنى وأقنى أقنع وأرضى.

قال الجنيد: أغنى قومًا به، وأفقر قومًا عنه.

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أي: حان وقت كشف جمال الحق للمشتاقين المحبين والعارفين الموحدين، ودنا وصاله للواصلين والأولياء والمقربين، وفي معناه أنشدوا:

دنـا وصـال الحبيـب واقـتربا وأطـربا للوصـال وأطّـربا

هذه الآية بشارةٌ للمقبلين إلى الله بوصف الشوق، ونذارةٌ للمدبرين عنه[1].

قال الواسطي في هذه الآية: هذه التي أوجبت الخرس عن الدعاء والثناء والالتماس، وأذهبت المطالعات والمشاهدات.

وقال ابن عطاء: قرب الأمر القريب.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا﴾ أي: إذا قرب أيام الوصال فاشتاقوا، وسارعوا في بذل الوجود ووضع الخدود على التراب، واعبدوا رب الأرباب لوجود كشف النقاب، والله أعلم بالصواب.

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ : علم الله سبحانه انتظار أرواح الأنبياء والمرسلين وملائكته المقربين والأولياء والعارفين من آدم عليه الصلاة والسلام وجميع أولاده الصالحين، كشف رؤية الحق، وقرب وصاله والدخول في جواره، فبشّرهم الله أنها مقرونة بقدوم محمد ﷺ؛ فلما خرج بالنبوة ورسالة الله شكَّ فيها المشركون، فأراهم الله صدق وعده، وأنه من أعظم آياته بانشقاق القمر؛ حتى يعرفوا أنه بريد الله إلى العالمين، يخبرهم بإتيان

(١) في قوله: (أزفت الآزفة) أي: قربت ساعة الفتح حين توجهت وانقطعت عنك العلائق، ووجدتَ مَن يُدخلك بحرَ الحقائق، ليس لها من دون الله كاشفة، لا يكشف لك هذه الحقائق إلا الذي منَّ عليك بصحبة مَن يدلك عليه. البحر المديد (٦/ ١٨٦).

الساعة التي فيها كشوف العجائب وظهور الغرائب من آيات الله وصفاته وذاته.

قال عبد العزيز المكي: الاقتراب يدل على معنى الأكثر، ويمضي الأكثر عن قريب.

﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾: كل أمر خرج من إخبار الله عباده فذلك مستقرٌّ ثابتٌ في مستقر مشيئته وإرادته الأزلية إلى وقوعه في مواضعه، لا يتغير عن مراد الله، ولا يغيره أحدٌ دون الله.

قال القاسم: كل أمر من أموري أمضيته على خلقي استقر قراره لا يزول أبدًا لا يقايضني أحدٌ بخلاف، ولا يدافع أمري بجهد، وذلك استقرار أموري قرارها وثبوت قسمي لهم.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: الكاملة الجامعة لكل حكمة الحكماء وحقيقة علوم العلماء؛ لأنها حكمة أزلية، إذا انكشفت لعارف يراها على كمال النهايات في وضوح بينات الحقائق، فغرق من بحارها نوادر الحقائق، وغرائب الدقائق وهي لا تنتهي أبدًا.

قال أبو يزيد: كل آية تمر بالعارف له في ذلك حكمة، وأكبر آية له في الحكمة البالغة؛ لأنها ثابتة في حدود المعرفة بالغة منتهاها.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾: لو شاهد ﷺ ما وعد الله في أوائل حاله من النصر والظفر بالحقيقة لسكن في ورود الامتحان عليه، هذا لوط ﷺ إذ احتجب بالامتحان عن شهود مشاهدته الرحمن ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ وأي قوة أقوى من قوة الله، وأي ركن أشد من الله، لكن حكمته فرار نوح من الله إلى الله، وذلك معادن الأمن والانبساط والحقيقة والافتقار، والأول منزل التوحيد؛ إذ أفنى عن الدعاء صدق هو مغلوب الله، ومن صبر بالله هناك هو غالب على ما دون الله.

قال بعضهم: لولا ما أجرى الله على لسان الوسائط لتأديب العبد لضلوا ممن ينتصر بي

منك أين الغالب وأين المغلوب، إذا كان الحق صرفًا ينطق ويسكت معناه أني مغلوب فانتصر الله غالبه وهازمه.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾: كما أنزل الله الماء من سماء الظاء الظاهرة ونبع من الأرض الظاهرة فتح سماء الغيب على قلوب العارفين بمياه الكواشف والمعارف، وفتح عيون قلوبهم بمياه الحكمة والمحبة، فإذا وصل مياه المشاهدة إلى مياه المحبة استغرق فيها جنود النفس والهوى، ولا يبقى أثرها، فإذا أزاد الكشف والعيان وامتلأ بحر العيان يستشرف الأرواح على الفناء فيها، فيدخلها الله في سنن العصمة، ويجريها بشمال العناية، وذلك قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾: ألواح العناية ودسر الكفاية، وتجري بعين الكلاءة في بحار الأزلية والأبدية بقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[1] أي: تجري بعيون عنايتنا على عيون بحر الذات والصفات، يحفظها بي عني، حتى تستمع بمشاهدتي بي، ولا ينقطع عني بي، وهذا بيان محل الفناء والبقاء، وافهم أن الأنبياء والأولياء سفن عنايته يتخلص العباد لهم عن الاستغراق في بحار الضلالة وظلمات الشقاوة؛ لأنهم محفوظون بحسن عنايته، وزيّن كلاءته، ومن استنَّ بسنتهم نجا من الطغيان والنيران، ودخل في جوار الرحمن.

قال ابن عطاء: عيون الله في أرض إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وسلامه عليهم أجمعين، وهي تجري لهم وليس بينهما واسطة؛ إذ كانوا به، وكانوا له وعنه وفيه ومنه، وهم يشهدون فعل ذاته، وهو يجري بهم، تجري بأعيننا التنقل في الدرجات والمقامات والكرامات وفي المواجيد وفي الأسرار يلقون فيها تحية وسلامًا.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ

---

(١) أي: تجرى السفينة وتسير بمرأى منا أي محفوظة بحفظنا ومنه قولهم للمودع عين الله عليك وقيل بأوليائنا يقال مات عين من عيون الله أي ولي من أوليائه. تفسير حقي (١٤/ ٣٩١).

(٢٤) أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ
ٱلْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ
بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ
(٣٠) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ (٣٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ
لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم
بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى
وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ (٤٣) أَمْ
يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥) بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ
وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: ذاكر به جلاله وجماله وقربه ووصاله ودارك حقائقه، كأنه استبعد كيف يدرك الحدثان حقائق صفات الرحمن.

قال الواسطي: يسَّر القرآن لمن ذكره وعلم روحه قبله.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: هل من ذاكر لما جرى منه إليه.

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾: أعلم الحق سبحانه أهل معرفته به أنه كان عالمًا بالعلم القديم، ومريدًا بالإرادة الأزلية، قدَّر المقادير بعلمه لا بفعله وبإرادته لا بتخلقه، ولم يزل عالمًا بذلك، مريدًا لذلك، فسرُّ القدر نعته الأزلي ووصفه الأبدي، فأوجد الموجودات بما سبق القدر منه في الأزل، ولا يتغير أبدًا مما قدر وقضى ولو خرج المقدر بلباس المحو والإثبات لا تبديل له من سبق تقدير الأول.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، و﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، فمقتضى الخطاب الرضا والتفويض والتوكل والتسليم؛ حتى تنكشف أنوار السوابق له، فيصير مشاهدًا لما سبق، مكاشفًا لما طرق.

قال القاسم: دخل في هذا المعنى نفوس الخلق وآثارهم وأعمالهم وخطرات قلوبهم وأنفاسهم في أوقاتهم وأخلاقهم المحمودة والمذمومة وآجالهم ومعايشهم؛ إظهارًا لما سبق فهم من العلم وإيجاد القدرة أنه ضبط كل شيء بتقديره، لا انفكاك لأحدٍ من ذلك تقديرًا من العزيز العليم، وقهر جميع الأشياء بإجراء إرادته عليهم وتيسيرهم على ما قدر عليهم ولهم.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾: في هذه الآية بيان ثلاث مراتب: مرتبة سر علم القدر القديم الذي كان موصوفًا به، وذلك العلم، وسر القدر مشيئته؛ إذ عينهما واحدٌ، ومن بطنان أزال الآزال، سار سر القدر إلى المرتبة الثانية، وهي الأمر وحقيقة الأمر قبل ظهوره في الفعل، فبلغنا إلى المرتبة الثالثة، وهي الفعل، فلما وصل القدر والأمر إلى الفعل ظهرت المقدرات من العدم بها بأقل لمحة أي: سيران علم سر القدر من بطون أزل الأزل إلى عالم الأمر والفعل أقل من لمحة على تقديركم إذا استحال الزمان في مشيئة الرحمن لا يكون إلا الإرادة والعلم والأمر، وأنها خارجة من علل الزمان، هو ظهور القدم للعدم، فإذا ظهر القدم للعدم صار المقدر مكونًا كينونيته بالله، فخرج على نعت صورة العلم والتقدير، كأنه مع التقدير من حيث العلم لا من حيث الوجود، فأمره علمه إرادته، فإذا أراد ما علم من نفسه تجلى من الإرادة للعلم، ومن العلم للإرادة، ومن الإرادة والعلم للتقدير والحكمة، فصار ذلك عين التوحيد، فإذا تجلها بجميعها للأمر يكون الأمر عين الجمع، وعين الجمع محل الانتباس وأهل الرسوم، سموا ذلك الخلق والفعل، وتسمى ذلك الأول ظهور القدم للقدم، وهو عين العين، ويسمى الثاني ظهور الصفة في الفعل والأمر، وهو عين الجمع.

وقال الحسين: الأمر عين الجمع، والإرادة عين العلم، ثم بين أن أفعال العباد جرت على سابق تقدير لا ومشيئته مسطورة في ألواح علمه، وزبر تقديره وحذرهم بها حتى يرقبوا انفتاح مصادر أسراره، ويروا لطائف أنواره، ويعرفوه بآياته وصفاته، ويخافوا من قهره وجبروته.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾.

قال يحيى بن معاذ: من علم أن أفعاله تعرض عليه في مشهد الصدق فإنه محاسبٌ عليها لاجتهد في إصلاح أفعاله وإخلاص أعماله، ولزم الاستغفار على ما سلف من إفراط.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ ﴾: وصف الله سبحانه منازل المتقين الذين أقبلوا على الله بنعت المعرفة والمحبة، وخرجوا مما دونه من البرية، وتلك المنازل عالم بالمشاهدة ومقامات العندية جنانها رفارف الإنسان، وأنهارها أنوار القدس، أجلسهم الله في بساط الزلفى المداناة التي لا يتغير صاحبها بعلة القهر، ولا يزول عنها السر والحجاب؛ لذلك سماه مقعد صدق أي: محل كرامة دائمة وقربة قائمة ومواصلة سرمدية.

قال جعفر: مدح المكان بالصدق، فلا تقعد فيه إلا أهل الصدق، وهو المقعد الذي يصدق الله فيه مواعيد أوليائه بأن يبيح لهم النظر إلى وجهه الكريم.

وقال الواسطي: أهل الصفوة والمتحققون في أنوار المعارف الذين لا يحجبهم الجنة لا النعيم ولأثنى عنه أولئك ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، يا أخي هؤلاء غرباء الله في الدنيا والآخرة، أدخلهم الله في أغرب منازل، وهو مقام مجالسة الحق معهم؛ حيث لا يطّلع عليهم إلا أهل الصدق في عشقه وأهل الشوق في طلبه وأهل المعرفة به، والله بذلك مقتدرٌ قادرٌ؛ لذلك قال عند مليك مقتدر وأظن أنهم فقراء المعرفة الذين وصفهم رسول الله ﷺ حيث قال: «الفقراءُ جلساءُ الله»[1].

سئل أبو يزيد عن الغريب؟ قال: الغريب من إذا طالبه الحق في الدنيا لم يجده، ولو طالبه مالك في النار لم يجده، ولو طلبه رضوان في الجنة لم يجده. فقيل: فأين يكون يا أبا زيد؟ فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝﴾ .

سورة الرحمن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾ .

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ : بيّن هاهنا فضل محمّد ﷺ على آدم عليه الصلاة والسلام؛ حيث علّم آدم أسماءه، وعلّم محمّدًا ﷺ صفاته، إذ الصفات لا تخلو من الأسماء، والأسماء تنبئ عن الصفات والذات، وفيه بيانٌ أنه بذاته سبحانه خاطبه بالقرآن شفاهًا عند

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٦/ ٣٧٧).

كشف لقائه له كفاحًا، وليس من يعلم منه بلا واسطة كمن تعلَّم بواسطة، فإذا أراد تعليم أرواح الأنبياء والأولياء حين أوجدها ألبسها نورًا من نوره، وبصرًا من أبصاره، وسمعًا من أسماعه، وعقلًا من علمه، ثم علَّمها صفاته بما خاطبها من كلامه الأزلي؛ حيث لا وسائل ولا وسائط، وليس من علَّمه الحق برسم الأرواح كمن علَّمه المعلمون برسم الأشباح، لا هناك علمهم بلا آلة الحدثية ولا علة المخلوقية، بل كان خطابًا بنعت ظهور الصفة، وسماعًا بلا واسطة، فهموا من كلامه ما استتر من حقائقه على فهوم أهل الرسوم من العلماء.

قال بعضهم: علَّم آدم الأسماء، ثم عرضهم على الملائكة، وعلَّم محمّدًا ﷺ القرآن، وعرضه على نفسه، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟

وقال بعضهم: علَّم الروح القرآن قبل الجسد، فالأجساد أخذت القرآن، وتعلَّمته تبعًا للأرواح.

قال الواسطي: أورثهم تعليم الحق إيَّاهم الاصطفائية، وهو أنه لمَّا كان الحق يعلِّمهم أخبر عنهم، فقال: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ، أي: وأورثنا القرآن من خصصناهم بتعليمنا، ومن ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ، بأن تولى الحقُّ تعليمهم.

وقال أيضًا: ذكر بلفظ الماضي عنايةً ورعايةً.

قال ابن عطاء: لمَّا قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ : أراد أن يخص أمة محمد ﷺ بخاصية مثله، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: الذي علَّم آدم الأسماء، وفضَّله بها على الملائكة هو الذي علمكم القرآن، وفضلكم به على سائر الأمم، فقيل له: متى علَّمهم حقيقةً في الأزل، وأظهر لهم تعلُّمه وقت الإيجاد، فالتعليم حيث كان في جملة العلم فلما كشف العلم عن الإيجاد أظهر عليهم آثار التعليم.

قال الحسين: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مَنْ علَّم الأرواح القرآن شفاهًا ومخاطبةً، فأخذتها الأنفس، وتعلمتها بتلقين الوسائط.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ﴾ أي: خلق آدم بظهور الصفة والذات له، وإلباسه إيَّاه علم الربوبية، ومعرفة أسرار الإفعالية، وعلَّمه أسماءه الحسنى التي هي مفاتيح جميع صفاته، وذلك قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ : علَّمه بيان خطابه، وكاشف له لطائف أسراره، وعرَّفه بطون علم أفعاله، وأعطاه العقل القدسي الذي يرى الأشياء كما هي بنوره وبرهانه، و«علم البيان» أي: فصل الخطاب، وانتظام الكلام، وفصاحة اللسان في تأويل القرآن وسنة

رسول الرحمن.

قال الجنيد: خصَّ آدم بأن خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته هو تخصيص الخلافة.

وقال سهل في قوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾ أي: الكلام الذي هو ذهن الخلق، ونفس الروح، وفهم العقل، وفطنة القلب، وعلم نفس الطبع.

وقال الجنيد: خُلق الإنسان جاهلاً به، فعلّمه السبيل إليه[1].

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝﴾: رفع سماء المعرفة والتوحيد بحيث لا يلحقها إلا أهل الاصطفائية بالولاية في الأزل، ولا ينالها كل مدَّعٍ كذَّاب، ووضع ميزان الصدق والإخلاص؛ ليزن به العبودية في بساط الربوبية.

قال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾: أقيموا العبودية بميزان العبودية، ولا تَزِنوا بميزان الربوبية؛ فإن الحادث لا يلحق إلى القديم، فإذًا لا تخرجوا من رقِّ العبودية إلى دعوى الأنانية، وزنوا أنفاسكم، وخواطركم، ومقاماتكم، وأحوالكم بموازين الشريعة والإخلاص في الطريقة.

قال ابن عطاء: أظهر الوحدانية بصدق الظاهر، وصفاء الباطن، وحقيقة السر، واستقامة العزيمة.

وقال: كن لي صرفًا أكن لك حقًّا.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ﴾: مهَّد قلوب أوليائه، وأحبائه، وعرفانه؛ ليصل منها بركته وآثار جماله إلى جميع الخلائق، وهي بساتين أُنسه، ورياض قدسه، وفواكه معرفته، وأشجار محبته، وأزهار حكمته التي هي قوت أرواح

---

(١) وقال ابن عجيبة في البحر المديد (٦/ ٢٠٣): أي: بيان السير إلى معرفته، بأن ركّب فيه العقل المميز، ونَصَبَ له مظاهر يتعرّف بها، وبعث له دالاً يدله، ويُعلمه أسرار الربوبية وآداب العبودية، فلا يزال يُحاذيه، ويسير به حتى يستنير قمر توحيده، وتُشرق شمس عرفانه.

المريدين، وأسرار المتعبدين، سقاها الله من بحار جماله، وأنهار جلاله، وحرسها بعيون كلاءته، وأعوان عنايته.

قال جعفر: جعل الخلق قلوب أوليائه رياض أُنسه؛ فغرس فيها أشجار المعرفة، فأصولها ثابتةٌ في أسرارهم، وفروعها قائمةٌ بالحضرة في المشهد، فهم يجنون منها ثمار الأُنس في كل أوانٍ، وهو قوله: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الألوان، كلٌّ يجتبي منها لونًا على قدر سعيه، وما كوشف له من بوادر المعرفة، وآثار الولاية.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾: مشرقه أزله، ومغربه أبده، ومشرقه ذاته، ومغربه صفاته، وأيضًا مشرقه فعله، ومغربه أمره، وأيضًا المشرقان السر والروح، والمغربان القلب والعقل، تطلع منها شموس الذات، وأقمار الصفات إلى عالم العقول والقلوب، فإذا ذهب أوان التجلي استترت تلك الشموس والأقمار من العقول والقلوب، فصارت القلوب والعقول مغاربها، والأسرار والأرواح مشارقها، وأيضًا المشرقان هما الذات والصفات، والمغربان الأمر والأفعال، وأيضًا المشرقان النعوت والأسامي، والمغربان الذات والصفات، له سبحانه في كل ذرة آثار هذه المشارق والمغارب.

قال سهل: مشرق القلب ومغربه، ومشرق اللسان ومغربه.

وقال بعضهم: مشرقه توحيده، ومغربه مشاهدته.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[1]: إشارة الحقيقة بالبحرين: بحر مشاهدة تجلّي القِدَم، وبحر الروح يكشف له بحر جماله وجلاله، ويَقْرُب منه بحيث لا تدري الروح

---

(١) هما بحر الوجوب، وبحر الإمكان، والبحر في الحقيقة؛ هو بحر الوجوب لاتساعه، لا بحر الإمكان؛ لضيقة إلا أنه لمّا جمع معه في محل واحد عبَّر عنه بالبحر، نعم إن الوجوب، وإن كان أوسع من الإمكان؛ لكن ظهور الشيء في الشيء إنما هو بقدر قابلية المحلّ، فيكونان سواء دلّ عليه إنهم جعلوا دائرة الوجود نصفين، وجعلوا الخط المتوهَّم فاصلاً بين القوسين، فالوجود؛ كالقوسين أحدهما: قوس الوجوب، والآخر قوس الإمكان؛ وإنما جعلوا الخط متوهَّمًا لا محققًا؛ لأن الوجود الإمكاني اعتباري مفروض؛ لتمييز الحقائق، والمراتب، فإنه لولا الاعتبارات؛ لبطلت الحقائق. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ التقاء الروح بالجسم؛ لأن الروح في الحقيقة بحر الوجوب، والجسد بحر الإمكان، وإن كان مخلوقًا كما ورد: «أول ما خُلق روحي».

العاشق العارف أين هو؟ فترى الحق، ويفنى هو في الحق، ومن ذلك القرب والدنو عبَّر الحق بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ولكن بين البحريْن حاجز امتناعِ عزةِ وحدانيته بحيث لا يختلط القِدَم بالحَدَث؛ لأنه منزَّهٌ عن الحلول في الأماكن، والاستقرار في المواطن، وذلك قوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: برزخ أعظم من تنزيه قدمه من تناول الحدث، ومع الحدث برزخ الحدوثية، يحتجب به عن الوصول إلى حقيقة ذاته، وعيون صفاته، بل يستمتع بالنظر إلى جماله، وكشف تجلِّي جلاله، بحر القدم عَذْبٌ من حيث القدس، وبحر الحدث مَلْحٌ من حيث علل الحدوثية، فلمَّا تمرح بها جلاله بنعت التجلي صارت عذبًا فراتًا، من حسن مجاورتها:

تَكُونُ أُجَاجًا دُونَكُمْ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَيْكُم تَلْقَى طِيبَكُمْ، فَيَطِيبُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا حِينَ خُبِّرْتُ أَنَّهُ يمرُّ بوادٍ أنتَ منهُ قريبُ

وتصديق هذه المعاني تجليه لجبل الطور، ومن الشجرة لموسى، وهناك مقام عين الجمع، انظر إلى البحرين: بحر الحدث، وبحر القدم كيف لا يختلطان! والحدثان بأسرهما من العرش إلى الثرى كقطرة فانية في قلزم بحار أزليته، وديمومته يخرج من بحر جلاله جواهر العنوم اللّدنية، وأسرار الحكمية للعقل والقلب، وتخرج من بحر الروح جواهر المعرفة ولآلئ المحبة، وإن كان الكل من بحره خرج؛ لأن بحره موجد البحار، وما يخرج من بحر وجوده يكون قديمًا مثل القرآن، والأسماء، والنعوت، وما يخرج من بحر الروح المالحة بعلة الحدوث، وما يتعلق بالحدوثية من العلم والمعرفة والفطنة.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

قال الله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾: وأيضًا إذا نزلنا من هذا المقام بحرأذيان المعاني إلى عالم الأماني، فنقول بالبحرين: بحر القلب والنفس في القلب بحر الأخلاق المحمودة، والمقامات العلية الشريفة، ولطائفات المعرفة، والمحبة، والنفس بحر الأخلاق المذمومة من الظلم، والضلالة منبع بحر القلب من عالم لطفه، ومنبع بحر النفس من عالم قهره، وهما لا يختلطان أحدهما بالآخر؛ إذ لا تصير النفس قلبًا، ولا يصير القلب نفسًا؛ لأن بينهم برزخ العقل والعلم والشريعة والطريقة، ولؤلؤهما ومرجانهما هاهنا الإيمان والإتقان والصفاء والنور والطمأنينة، فهذه الجواهر تخرج من بحر القلب، فإذا صارت النفس مطمئنَّة فأيضًا جواهر بحرها من أضعاف بحر العلوم المجهول، وهي مواضع الأسرار.

قال سهل بن عبد الله: أحد البحرين القلب، فيه أنواع الجواهر، فيه جوهر الإيمان،

وجوهر المعرفة، وجوهر التوحيد، والبحر الآخر النفس، فيها صفوف الرذائل، فيها الحقد الحسد، والكبر، والبخل، والغضب، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ (١) التوفيق، والعصمة والخذلان، والنقمة.

وقال ابن عطاء: بين العبد وبين الرب بحران عميقان أحدهما: «بحر النجاة»، وهو القرآن من تعلَّق به نجا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، و«بحر الهلاك»: وهو الدنيا مَن ركن إليها هلك.

وقال الأستاذ: خلق في القلوب بحرين: «بحر الخوف»، و«بحر الرجاء».

ويقال: القبض والبسط.

ويقال: الهيبة والأنس.

فتخرج منها الجواهر من الأحوال الصافية، واللَّطائف المواتية.

ويقال في الإشارة: البحران النفس والقلب، فالبحر العذب القلب، والمالح النفس، ومن بحر القلب كل جوهر ثمين، وكل حالة لطيفة، ومن النفس كل خلق ذميم؛ فالدّر من أحد البحرين يخرج، ومن الثاني لا يكون إلا التمساح، وما لا قدر له من سواكن النفس، بينهما برزخ لا يبغيان يصون الحق هذا من هذا، ولا يبغي هذا على هذا.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾: لو نظرت بنظر التحقيق في الكون وأهله، لرأيت حقيقة فنائه وفناء أهله، وإن كان في الظاهر على رسم الوجود؛ لأن من يكون قيامه بغيره فهو فانٍ في الحقيقة؛ إذ لا يقوم بنفسه، وكيف الحدث يقوم بنفس ولا نفس له في الحقيقة؟! فإن الوجود الحقيقي وجود القدم، لذلك أثنى على نفسه بقوله تعالى:

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾: وحقيقة البقاء لمن لا يزال باقيًا قديمًا، ومن كان أوله عدمًا وآخره عدمًا وجوده بخلاف من كان أوله قدمًا وآخره بقاءً، فإذا شاهدت مشاهدة الحق ترى الحق قائمًا بنفسه، وترى الأشياء قائمةً به، فقد علمت هناك حقيقة الفناء والبقاء، وحقيقة الوجود والعدم.

---

(١) فإذا هبت رياح العناية من مهب الهداية وتموج البحران فيتلاشى البرزخ باصطكاك البحرين ويصير الكل بحرا واحدا وهو بحر لا إله إلا هو إليه المصير فإذا كان إليه المصير، فقد طاب المسير، تفسير حقي (٣٤٨/١٢).

عرَّف الله سبحانه قدمه وبقائه خلقه بفناء الدنيا وأهلها؛ ليتحققوا في معرفته؛ لأن من دخل في البقاء بغير دخوله في الفناء لم يعرف حقيقة البقاء.

سُئل الجنيد عن قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ قال: من كان بين طرفي فناءٍ فهو فانٍ، وذكره جلاله ووجهه الباقي تسليةً لقلوب المشتاقين، وترويحًا لفؤاد الموحدين والعارفين، أي: أنا أبقى لكم أبدًا لا تغتمُّوا، فإن لكم ما وجدتم في الدنيا من كشفِ جمالي، ويتسرمد ذلك لكم بلا حجاب أبدًا، أيها العاشقون استبشروا ببقائي، وافرحوا بلقائي، وفيه دقيقة وإشارة إلى حبيبه أي: كلهم استمتعوا بتجلياتي، وكشف الوجه باقٍ لك أبدًا، رأيت وجهي خاصة لك، ثم العشاق أتباعك في النظر إلى وجهي، فأول الكشف لك ثم للعموم، فذَكَر الوجه خاصةً وهو صفةٌ خاصةٌ لأهل الخصوص، وإن كان وجود القدم جميعه وجهًا ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ تعالَى يتجلَّى لأبِي بكرٍ خاصةً، ويتجلَّى للمؤمنينَ عامةً»[1]، وذكرُ الجلالِ تهيج لأهلِ المحبةِ والهيمةِ.

قال الواسطي: الذي أخفى من شاهده للخاصة لا يظهره للعوام، فسُئل: أفرق بين الدارين؟ قال: نعم، أعطاهم في الدنيا على السرائر، وأعطاهم في الآخرة على الظواهر، استتر في الدنيا بما أظهر من عجائبه، واستتر في الآخرة بما أظهر على أقدارهم، وهو الذي لا يطيقه الخلق إلا على من تولّاه بإسبال تغييبه عن شاهده، نظرت يا فهم في مقام التوحيد إلى تلاشي الكون في ظهور جلال وجهه تعالى، ورأيت فناءه في بقائه حين ظهر؛ وذلك لغلبة سلطان إشراق نور القدم على وجود الحدث، وذلك حين غاب العارف في المعروف، ولا يدري أين هو؟ إذ لا أين، ولا هو إلا هو.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣) بنحوه.

فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ : يسأله من في السماوات من الملائكة كلهم على قدر مقاماتهم، يسأله الخائف النجاة من البُعد والحجاب، ويسأله الراجي الوصول إلى محل الفرج: ويسأل المطيع قوة عبادته، ويسأل المحب أن يصل إليه، ويسأل المشتاق أن يراه، ويسأل العاشق أن يَقْرُبَ منه، ويسأل العارف أن يعرفه، ويسأل الموحد أن يفنى فيه، وهكذا أهل الأرض، يسأل الجاهل ما يحتجب به عنه، ويسأل العالم ما يعرف به ربه، وكذلك الأنبياء والأولياء والأصفياء والأبدال، يسألون منه على قدر مراتبهم ودرجاتهم معرفته، ووصاله، والتخلص بوقاية عظمته من قهره، يسأل العارف الرعاية، ويسأل المحب الكفاية، ويسأل العاشق المشاهدة، ويسأل الموحد النهاية، وهو تعالى يكون من حيث مراد الجميع، يعطي الكل مأمولهم، ويزيد من فضله، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾: مزيد قرب المقرَّبين، ووصل الواصلين، وكشف اللقاء للمشتاقين، وظهوره في كل ذرة للشائقين، يظهر في كل لحظة من أنوار عجائب ربوبيته للمستأنسين، وتلك العجائب بها لم ترها العيون، ولم تدركه العقول، ولم تعلمه القلوب، ولم يلحقه الأرواح، ولم تناولها الأشباح، ولم تشاهده الأسرار، وليس لها نهاية، يبرز كل يوم وساعة أنوار عجائب ملكه وملكوته على قدر قوة إدراك المدركين، وأفهام العلماء والعارفين، وما كان في سوابق علمه في أزل أزله، بشوق أسرارها ومقاديرها، بسوط القدر إلى مجاريها ومواردها، ولا تظن أن أحدًا يصل إلى شأنه، فإن شأنه أعظم من أن يدركه أحدٌ من خلقه. قال الواسطي: من سأل الله أعطاه سؤلَه على قدره، ومن ابتدأه بالعطاء ابتدأ بما يليق بفضله وجوده وكرمه، قال الله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَٰنَ﴾، وقال النبي ﷺ: «يقولُ اللهُ تعالَى: أعطيتكُمْ قَبْلَ أنْ تَسألونِي، واسْتَجَبْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي»[1].

قال أبو سليمان الداراني: كل يوم له إلى عبيده برٌّ جديد.

وقال أيضًا: هو إيصال نعمه إليك، ودفع الضر عنك، فلا تغفل عن طاعة من لا يغفل عن برِّك.

قال الواسطي: يغيب ظاهرٌ، وإظهار غائبٍ.

وقال بعضهم: سرق المقادير إلى أوقاتها.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٤).

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أي: من خاف وهاب مقامه في مقام العتاب، وتغير رب الأرباب له، وإسبال النقاب، وصرفه عن المآب، وحيائه بنعت الإجلال عند الخطاب، فترك حظوظه، وأقبل عليه بنعت الخجل والتشويش، والندم عن تضييع أوقاته جنتان: جنة المشاهدة، وجنة المواصلة، جنة المحبة، وجنة المكاشفة، جنة المعرفة، وجنة التوحيد، جنة المقامات، وجنة الحالات، جنة القلب، وجنة الروح، جنة الكرامات، وجنة المداناة.

قال بعضهم: هو المقام الذي يقوم بين يدي ربه يوم القيامة عند كشف الستور، وظهور حقائق الأمور، وسكوت الكل من الأنبياء والأولياء بظهور القدرة والجبروت.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: هل جزاء شوق الشائقين إلا لقاء رب العالمين، وهل جزاء الخوف منه إلا الأمن به، وهل جزاء الحزن إلا الفرح، وهل جزاء الفناء فيه إلا البقاء معه.

قال بعضهم: هل جزاء من انقطع عن الإنس المخلوقين إلا أن يوصل إلى محل الأُنس بربِّه.

قيل: هل جزاء من صبر على الله إلا الوصول إليه؟!

قال الجنيد: هل جزاء من ترك الكل لنا وفينا، إلا أن يكون عوضه عن الكل.

قال جعفر: هل جزاء من أحسنت إليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه إلى الأبد.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣﴾.

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾: وصف الله سبحانه حواري جنانه التي خلقهن لخدمة أوليائه، وألبسهن لباس نوره، وأجلسهن على سرير أنسه في جمال قدسه، وضرب عليهن خيام الدر والياقوت، ينتظرن أزواجهن من العارفين والمؤمنين المتقين، لا يطرفن أبصارهن في انتظارهن مِن مسلك الأولياء مِن أزواجهن إلى غيرهم، ثم وصفهن الله بأنهن قاصرات الطرف لم يصل إليهن مسُّ الأغيار بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧﴾.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤﴾، ثم وصفهن بأنهن خيِّراتٌ، حِسانٌ، نور حسن تجلي الحق يتلألأ من وجوههن من نظر إلى واحدة منهن بحار عقله فيها، ويغيب قلبه في جمالها، هي ريحانة الحق، يستأنس بها العاشقون؛ لأنها باكورة الجمال، لها طلعةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت، ولو رآها قضيب البانِ لم يمس، يا لها من طيب وصالها، ويا لها من حسنها وجمالها، لو تفوح ذَرَّةٌ من نفحة مسكٍ ذؤابتها في الدنيا لتعطَّر العالم بأسره من عطر نسيمها.

تُـضَوِّعُ مِـسْكًا بَطْـنُ نُعْـمَانَ إنْ مَـشَتْ ... بِـــهِ زَيْـــنَبُ فِي نِـــسْوَةٍ عَطِـــرَاتِ

قال الحسين: حارت في رؤيتها الأبصار، وقاصرات: قصرت عن إدراك وصفها الأفكار لا يترجم عنها لفظ اللسان.

قال يحيى بن معاذ: هي التي لا يقدر أحدٌ على حكايتها، وتَعْمَى عيون المبصرين عن بلوغ حسنها، كأن ألسنة العشق تنطق بمغيَّبات العقول عن وجنتها، وأنامل الأفراح تضرب بدفوف الفتن في صورتها معشوقة، لو رآها الخلق لتحيَّروا فيها، هي التي قال الله فيها: ﴿حُور مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾[1].

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾.

---

(١) أي: أسرار خفية محبوسة في خيام القلوب والأرواح، والأسرار لا يَطَّلع عليها إلا أهلها؛ كالنساء اللائي تحت خيام الدنيا لا يظهرن إلا على أزواجهنَّ، وكل من هذين النداءين مستمر إلى آخر الزمان إلا أن النداء قلَّ مَن يُجيب له؛ لأن الأسماع مسدودة، والأفواه مقفولة، والقلوب مختومة غالبًا، واقتضت الحكمة الإلهية غلبة أحكام الإمكان على أحكام الوجوب في كل زمان، فلم يحصل على الحق إلا واحد من الألف، كما يقتضيه الاسم الأعظم الحاكم على ألف من الأسماء الجمالية والجلالية، فعليك بالتأمُّل في هذا المجلس، والاعتبار من الشيطان الذي هو مُظهر اسم المضلِّ في مرتبة الشريعة.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

ما نقول في مَنْ اسمه تقدَّس عن إدراك الأوهام، وإشارة العقول، إذ اسمه نعتٌ والنعوت صفاتٌ، والصفات قائمةٌ بالذات، فمن عجز عن إدراك حقيقة اسم الموصوف القديم كيف يصل إلى العلم بوجود المسمَّى! وهو أجلُّ من أن تحيط بقدس جلاله الأفكار، أو تحوى ذرةً من نعوته الأذكار، جلاله حيَّر عقول العارفين في ميادين عِزَّته، وأغرق أرواح الموحدين في بحار عظمته، وأفنى أسرار الواصلين في شامخات كبريائه، اسمع معاني قدسه كيف فعلت بشاهد الحق في مشاهدته عليه الصلاة والسلام، حيَّرته في أدوية الجلال، وأغرقته في «قلزم» الجمال، وكشفت له عين العين، وسلسلة من الأين، فبان له ما بان من عيون الألوهية، وبهاء القديم، والبقاء ما أسكنه عن وصف قدسه؛ حيث قال أفصح العالمين صلوات الله وسلامه عليه من حقيقة الحيرة وساحات العزة بقوله ﷺ:

«لَا أُحْصِى ثَنَاءً عليْكَ أنتَ كما أثنيتَ علَى نفسكَ»[1]، ذكره سبحانه بذكر الجلال لطيب قلوب الوالهين، بأن يكشفه لعيونهم، وأبصارهم، وأرواحهم، وأسرارهم، وقلوبهم، وعقولهم؛ ليريحهم من تراكم الأحزان، وظلمة هذه الأشجان، ويبلغهم إلى مجالس الإحسان، وكشف العيان.

قال بعضهم: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ أي: جل ربك، وعظم قدره عما يقول فيه الموحدون والمبطلون جميعًا؛ لأن كل شيء يثنى عليه بقدره، وكل ذاكر يذكر على مقدار طاقته، وطبعه، وعلمه، وفهمه، والحق تعالى ذكره خارجٌ عن أوهام الآدمين؛ لأن الثناء والمعارف دون الغايات، فسبحانه وتعالى ما أثنى عليه حق ثنائه غيره، ولا وصفه بما يليق به سواه، عجز الأنبياء بأجمعهم عن ذلك، حتى قال أجلهم قدرًا وأرفعهم محلًّا صلى الله عليه وعليهم أجمعين: «لا أُحصِى ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ علَى نفسِكَ»[2].

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝﴾: واقعة كل صاحب قلب حين وقعت عليه أنوار المعارف،

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

(٢) تقدم في سابقه.

والكواشف من مكامن الغيب، حين أراد الحقُّ جذب قلبه بمباشرة وارد مشاهدته، فتلك الساعة للعارف واقعة القيامة، يستشرف بنوره قبل مجيئها على أمورها الغيبية، فإذا وقعت عليهم الواقعة سلبتهم من حظوظ الدنيا، وطلبها، ولذة هواها، وزينتها، وذهبت بهم إلى مراد الحقيقة، هنا تبين مسالك كل صادق، ومهالك كل مدَّعٍ.

قال سهل: إذا ظهر لكل سالك بيان سلوكه، فمن كان سلوكه على منهاج السنة والاقتداء قاده ذلك إلى مناهج الباطل.

وقال ابن عطاء: إذا تبين مراد المريد من مراده.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ : «خافضةٌ»: لظنون النفوس الأمَّارة، «رافعةٌ»: لهموم القلوب المطمئنة إلى مدارج القربة، وأيضًا «خافضة»: للنفس الأمارة عن جوار الروح الناطقة، ومطهرة من دنسها، و«رافعة»: للروح إلى معادن الأفراح من رؤية الملك الغفار، وأيضًا مسقطة للمجاهدات، و«رافعة»: للأرواح إلى المداناة، وأيضًا «خافضة»: للتكاليف، و«رافعة»: للعارفين إلى الرفاهية الكبرى في الصفائح الأعلى، وأيضًا «خافضة»: للمدَّعين، و«رافعة»: للصادقين.

قال ابن عطاء: تخفض أقوامًا بالعدل، وترفع أقوامًا بالفضل.

وقال سهل: تخفض أقوامًا بالدعاوي، وترفع أقوامًا بالحقائق.

قال الأستاذ: «خافضةٌ»: لأصحاب الدعاوي، «رافعةٌ»: لأرباب المعاني.

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: «أصحاب الميمنة»: أصحاب يمن العناية الأزلية الذين سبقت لهم في الأزل الاصطفائية بالولاية.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝﴾

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: الذين أسقطهم قهر الأزل عن رؤية العناية، فصاروا مشئومين من مشأمة الدعاوي الباطلة[1].

---

(١) وقال الشيخ حقي: المراد تعجيب المسامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة كأنه قيل ما عرفت حالهم أي شيء فاعرفها وتعجب منها فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، تفسير حقي (١٥/ ١٥).

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: الذين سبقوا بسبق اجتباء الله إيَّاهم في علمه الأزلي، وهم المقربون بأن قرَّبهم منه، وكشف لهم أنوار قرب قربه، وجمال مشاهدته أيضًا، وأصحاب الميمنة أهل الإيمان، وأصحاب المشئمة أهل الكفر والطغيان، والسابقون المقربون أهل العرفان، وأيضًا أصحاب الميمنة أهل المجاهدات، وأصحاب المشئمة أهل الشهوات، والسابقون أهل المشاهدات.

قال ابن عطاء: هم أرواح ثلاثةٌ، «فأصحاب الميمنة»: هم أصحاب الجنة، و«أصحاب المشئمة»: هم أصحاب النار، و«السابقون»: هم العبيد المخلصون، ثم يصير أصحاب الميمنة على ثلاث طبقات.

وقال سهل: «السابقون»: هم الذين سبق لهم من الله الولاية.

قيل: كونهم هم المقربون في منازل القربة، وروح الأُنس.

قال القاسم: أضاف الله الأفعال إلى عباده بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾، ولم يكونوا مقربين لما كانوا سابقين، ولو كانت الأفعال إليهم حقيقة لكانوا متقربين، ولم يكونوا مقربين.

صدق الشيخ فيما حالهم وجدوا السبق بأن اصطفاهم الله في الأزل بقربه، فإذا السبق والقربة من فضل الله، واختياره لهم.

وقال الأستاذ: الذين سبقت لهم من الله الحسنى، فسبقوا إلى ما سبق لهم، أولئك المقربون، ولم يقل المتقربون، بل قال أولئك المقرَّبون، وهذا عين الجمع.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾: لا يتغيرون عن حدود الاستقامة بمشارب الوصلة، ولا يحتجبون عن المشاهدة أبدًا.

قال جعفر: لا تذهل عقولهم عن موارد الحقائق عليه، ولا يغيبون عن مجلس المشاهدة بحال.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾، وما يَشْبَهُهَا، ولما كان فضله وإحسانه إلى عباده بالمشاهدة بالبصائر في الدنيا قديمًا غير مخلوق جعل ثوابها إلى ثواب تلك المشاهدة غير مخلوق، جعل ثوابها وجزاءها ما يليق بها بالأبصار، فقال هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ۝٢٦ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: وقع جزاء المحدث، وما ليس بمحدث لا يقابله أعمال الثقلين، وهو مشاهدة الله.

قال الحسين: رُدَّ الشيخ إلى الشيخ، والمخلوق إلى المخلوق، لما كانت أفعالهم مخلوقة، وأذكارهم مخلوقة معلولة جعل جزاءها.

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠﴾: الظل الممدود الذي لا نهاية له إلى الأبد، هو كيف وصله الله، وظل جلاله الأزلي الأبدي.

قال جعفر: «الظل»: رحمة الله التي سبقت لأمة محمد ﷺ، و«الممدود»: فضله على الموحدين، وعدله على الملحدين.

﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ۝٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾أي: غير مقطوعة عنهم أثمار أشجار المشاهدة، وهي ثمرات أنوار الذات، والصفات التي تثمر في قلوبهم ثمار علم العلم، وغيب الغيب، وسر السر إلى الأبد، وهي غير ممنوعة من رؤوسهم، وعلمهم، وإدراكهم أدركوها بالله من الله.

قال جعفر: لم يقطع عنهم المعونة والتأييد، ولو قطع عنهم ذلك لهلكوا، ولا يُمنعون من التلذُّذ بمجاورة، ولو منعوا من ذلك لاستوحشوا.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[1]: بَيَّنَ الله سبحانه أن حقائق الغيوب غير متناهية، وحقائقها غير مكشوفة للأعداء، ومن اختاره بالولاية وكحَّل عينه بنور العناية، يطلعه على نوادر الملكوت، وعجائب الجبروت، فهذا من كنوز الغيب التي اختار الله بها سفرة الأنبياء، والرسل، والأولياء، وأهل الصفوة بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، وبقهر القديم منع الأعداء من النظر إلى مكنون السرائر، فخاطبهم بهذه الآية أنه يخرجهم بمراده الأزلي على لباس مقاديره الأولية، إمَّا بصورة السعادة، وإمَّا بصورة الشقاوة.

قال الواسطي في قوله : ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾: من أسباب السعادة والشقاوة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ

---

(١) والحاصل: إن الآية وعد لمتوقع الخير، ووعيد لفاعل الشر، والله عند حسن ظن عبده به لكن العبد وجب عليه أن يلاحظ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، فإن عبد الكريم لا بد وأن يكون كريمًا لا لئيمًا، ثم في الآية إشارة إلى أن إنشاء المذكور لا يستلزم الاستحالة؛ وهو قلب الحقائق، فإن الإنسان لا يصير خنزيرًا مثلاً أبدًا، وإنما يظهر في صورته، وكذا لا يصير ملكًا وإن كان ظاهرًا بصورته؛ كجبريل في صورة شاب، أو في صورة دحية، أو نحو ذلك من الصور الحسنة، وكذا الجن والمتروحنون، ومن ذلك الكيمياء فإن الإكسير لا يقلب النحاس ذهبًا حقيقة؛ وإنما يقلب صفة النحاس، فيظهر في صورة الذهب، ثم لا يرجع إلى أصله أبدًا كما أشار إليه قولهم: لو وصلوا ما رجعوا، وقد نازع فيه بعضهم من لا خبرة له بحقيقة الحال، وقس على هذا سائر الاستحالات؛ فإنها استحالات صورة لا حقيقة، وإن زعم بعضهم الحقيقة في كل ذلك.

مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لقد ظهرت أنوار صفاتي في مباشرة أمري في أطوار فطرتكم الأولية، ما رأيتم تلك المشاهدات بإسبالي ستور الغبرة على أعينكم، وكيف ينفع العلم بصورة الأفعال، إذا لم يدرك لطائف اصطناعه، ولم ير حقائق أنواره.

هذا آدم بديع فطرته، وخليفة ملكه، ظهر الحق منه ببديع الآيات، وحقائق أنوار الصفات، خلقه من ترابٍ، ثم خلق ذريته من نطفةٍ، فباشر سر الحقيقة النطفة، كما باشر التراب، يا ليت لذريته لو عرفوا منشأه ومبدأه، كما عرف آدم نفسه، لكانوا عارفين بربهم بحقيقة العرفان، لا برسم الأدلَّة والبرهان.

قال القاسم: ألم تعلموا إنَّا خلقناكم من ترابٍ، ثم من مضغةٍ، ثم من علقةٍ، ثم من ماءٍ مهينٍ، أفلا تتعظون بهذه المواعظ، وتبصرون إلى عجائب الصنع فيكم، وتستحيون من هذه الدعاوي، والأماني، والإضافات، وتلزمون الأدبَ، فإنَّ من تعدَّى طوره هتك ستره.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ : جعل الله تعالى آياته بصنوفها مرأى أنوار صفاته، يتجلَّى منها لأبصار العارفين، ويقوِّي برؤيتها أرواح الموحدين، وتستقيم بها عقول الصادقين، وتفزغ من مواعظها قلوب الخاشعين، فصاروا في معابد العبودية متذلِّلين، وفي مراقد أنوار عظمته متواضعين.

قال جعفر: موعظةٌ للتائبين، وآلةٌ للأقوياء من العارفين في حمله.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ .

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ : أمرَ الله حبيبه عليه الصلاة والسلام أن ينزه نفسه عند رؤية الآية ونعمائه وظهوره، بكشف الصفات والذات من مشكاة آياته، بأنَّه منزَّهٌ عن أن تكون الحوادث محلَّه، أو أن يلحق إليه بنعت مباشرة شيئًا من الحدثين، فأمره أن ينزِّهه، ويسبحه به لا بنفسه، ألا يرى كيف قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ ، والمسمَّى والاسم واحدٌ في واحدٍ أي: قدِّسي بي، فإني أعظم من أن تقدسني بنفسك، أو بشيءٍ من دوني، ألا ترى إشارة قوله: ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ عظم جلاله، أن يبلغ إلى مدحه الخليقة، أو أن تصفه البريَّة.

قال الواسطي: سَبِّحه باسمه، فإن الاسم والمسمى هو الشيء بعينه، وهو العظيم.

قال ابن عطاء: «سبحان الله»: أعظم من أن يلحقه تسبيحك، أو يحتاج إلى شيء منك، لكنه شرف عبيده أن أمرهم أن يسبّحوه؛ ليظهروا أنفسهم مما ينـزهونه به.

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: أقسمَ الله سبحانه بمواقع أنوار نجوم صفاته إذا ظهرت منه، فتعود إلى معادنها من ذاته سَبَحات، منه بدأت وإليه تعود، فالنجوم صفاته، ومواقعها ذاته، لذلك قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: عظم لعظمة جلاله، وعظم جلاله، وأيضًا أقسم بمواضع نجوم صفاته من أرواح الأنبياء والمرسلين، والأولياء، والصديقين إذا تجلّت لها، وأيضًا أقسم بقلوب العارفين أنها مواقع نجوم خطابه، وأيضًا أقسم بمواقع نجوم القرآن من أسرار حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ لأن قلبه مسقط الوحي، وبيت الخطاب، وموضع كشف الأسرار، ومرآة حقائق الأنوار، أقسم به لعظمةٍ عند الله.

وفي هذا المعنى قال ابن عطاء: «مواقع النجوم»: هي مواقع ما يظهر على سر النبي ﷺ من أنوار الحق، وزوائد التحقيق مما خُصَّ به من الدنو، أو وقربه والزلف التي لم يؤمر بإظهارها والإخبار عنها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾: كلامه القديم إذا بدا في قلبه لا يختلط به هوى الإنسانية، ولا هواجس النفسانية، ولا إلقاء الشيطاني؛ لأن قلبه كان محفوظًا بحفظ الله، ورعايته عن الخطرات المذمومة، والأوهام، والظنون، وكلامه محفوظًا؛ لأنه صفته القديمة المنـزهة عن التغيير والتبديل، وصفه بأنه كريم؛ لأنه وصف الكريم القديم المنبئ عن صفاته الكريمة، وذاته الأزلي أنزله إلى أكرم خلقه من تخلّق بخلقه يكون كريمًا في الدارين، ومن فهم حقائقه يكون إمامًا في الثقلين.

قال بعضهم: «كريم»: لأنه يدل على مكارم الأخلاقِ، ومعاني الأمورِ، وشرائف الأفعالِ.

وقيل: «كريم»؛ لنـزوله من عند كريم: بوساطة كريم، إلى أكرم الخلق طرًّا أجمعين.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا تنكشف أسراره وأنواره إلا للمقدسين بقدس الله عما دون الله، وهم أهل القرآن، وأهل الله وخاصته.

قال بعضهم: لا ينالُ خيره وبركته إلا من طهَّره يوم قسمته عن الشقاوة، وخَلَقَهُ يوم خَلْقِه مطهَّرًا من المخالفات.

وقال ابن عطاء: لا يفهم إشارات القرآن إلا من طهَّر سره عن الأكوان بما فيها.

وقال الجنيد: إلا العارفون بالله، المطهَّرون أسرارهم عمن سواه.

وقال جعفر: إلا القائمون بحقوقه، المتَّبِعون أوامره، الحافظون حُرماته.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾: افهم أن قربَ الله بالتفاوت، قربٌ بالعلم، وقربٌ بالإحاطة، وقربٌ بالفعل، وقربٌ بالصفة، وقربٌ بالفهم، وقربٌ باللطف والمسافة والمكان منفيٌّ عن ذاته وصفاته، لكن تجلِّي من عين العظمة لقلوب بعضٍ؛ لإذابتها برؤية القهر، ولقلوب بعض تجلِّي من عين الجمال؛ ليعرِّفها لطف الاصطفائية، وذلك القرب لا يبصره إلا أهل القرب، وشواهده ظاهرةٌ لأهل المعرفة.

قال ابن عطاء: إنما ذكر هذا ليعرفوا قربه منهم، لا أنَّ بينه وبينهم مسافة، ولكن خطاب التحذير والترهيب.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: فأما إن كان من العارفين بالله المقربين بقرب الله إياه قلبه روح الوصال، وريحان الجمال، وجنة الجلال لروحه روح الأنس، ولقلبه ريحان القدس، ولنفسه جنة الفردوس.

قال السلمي: «الروح» لقلوبهم، و«الريحان» لنفوسهم، و«الجنة» لأبدانهم.

قال ابن عطاء: «الروح» النظر إلى وجه الجبار، و«الريحان» الاستماع لكلامه، «وجنة نعيم» هو ألا يحتجب العبد فيها عن مولاه إذا قصد زيارته، وللمقربين ذلك في دار الدنيا روحهم المشاهدة، وريحانهم سرور الخدمة، وجنة نعيمهم السرور بالذكر.

وقال الأستاذ: «روح» للعابدين، و«ريحان» للعارفين، و«جنة نعيم» لعوام المؤمنين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: وأما إن كان من أهل السعادة هذا المتوفى ويمن العناية وصل إلى دار السلام، ولقاء جلال

العلَّام، وهو في سلامة مشاهدته أمن من الفرقة والوحشة، فبشارة سلامته لك أيها الحبيب المشفق، وعليك منه سلام الاشتياق إلى قدومك، وإلى جمالك، وإلى خطابك وخدمتك وصحبتك.

قال سهل: ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ : هم الموحدون إلى العاقبة لهم بالسلامة؛ لأنهم أمناء الله قد أدُّوا الأمانة، يعني: أمره ونهيه، والتابعون بإحسان لم يحدثوا شيئًا من المعاصي والزلات، قد أمنوا الخوف والهول الذي ينال غيرهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾(١) أي: خبر ما كان، وما سيكون في القرآن من الحق حق وبيان صحيح، لا يَقبله إلا من شاهد قلبه بنعت حق اليقين مشاهدة الحق بالحق، وحق اليقين كشف الذات والصفات، أي: إذا أنت من أهل حق اليقين فيما وجدت من قرب الله ووصاله نزِّه ذاته وصفاته عمّا لا يليق بعزته سبِّحه به لا بك، حتى يكون تنزيهك تنزيهًا، وتقديسك تقديسًا.

قال ابن عطاء: إن هذا القرآن لحقٌّ ثابتٌ في صدور الموقنين وأهل اليقين، وهو الحق من عند الحق؛ فلذلك تحقق في قلوب أوليائه.

قال بعضهم: «حقُّ اليقين»: النظر إلى الحق بعين الحقيقة وتلك البصيرة التي يكرم الله بها خواص عباده المقربين، وهو مشاهدة الغيب بما تريد أن تجري، وإنما يرزق ذاك من فتح بصره لمشاهدة الغيوب.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾: شكرًا لما وفّقنا أمنك من التمسك بسنتك.

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: نزّه الله الأكوان، ومن فيها بلسان العجز عن البلوغ إلى ثنائه وبلسان الافتقار إليه، وفي الحقيقة هو سبح لنفسه بألسنتهم؛ لأنها أفعاله

---

(١) أي: اسبحْ بفكرك في بحار عقلك ، وغُصْ بقوة التوحيد فيها تَظْفَرْ بجواهر العلم، وإيَّاك أنْ تُقصِّرَ في الغوص لسببٍ أولآخر، وإياك أن تداخَلَكَ الشُّبَهُ فيتلفَ رأسَ مالِك ويخرجَ من يدك وهو دينُك واعتقادك . . وإلاَّ غرقتَ في بحار الشُّبَه ، وضَلَلْتَ. تفسير القشيري (٧ / ٣٧٧).

وبأفعاله وصف نفسه إذ هو قبل وجود الكون نزه نفسه بصفته القديمة ثم وصف نفسه بفعله تشريفًا للخليقة وتعظيمًا للحقيقة، فتنزيهه غالب على تنزيه الخلق وحكم بعجزهم عن تسبيحه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: ذكر الله سبحانه ملكه على قدر إفهام الخليقة، وإلا فأين السماوات والأرض من ملكه؟! والسماوات والأرض في ميادين مملكته أقل من خردلة لما علم عجز خلقه عن إدراك ما فوق رؤيتهم، ذكر ملك السماوات والأرض ملكه قدرته الواسعة التي إذا أراد الله إيجاد شيء، يقول: كن فيكون بقدرته، وليس بقدرته نهاية، ولا لإرادته منتهى، يُحيي من يشاء برؤيته، وكشف جماله له، ويميت من يشاء برؤية الملك، والاشتغال به عن المالك، وأين الملك والملكوت في عين العارف الحي بحياته، البصير بنوره التي هي فانية في الملكوت والكائنات سقطت منها بأن ليس فيها موضع إلا وفيه بحار عظمة القدم وجلال الأبد.

قال ابن عطاء: هو مالك الكل وله الملك أجمع، يميت من يشاء بالاشتغال عن الملك، ويُحيي من يشاء بالإقبال على الملك.

وقال الأستاذ: يُحيي النفوس ويميتها، ويُحيي القلوب بإقباله عليها، ويميت بإعراضه عنها.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾: افهم سرَّ تفسير هذه الآية، فإن الله سبحانه أشار بها إلى سرِّ ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وأظهر باطن غيبه، وغيب غيبه وسره، وسر سره؛ لتحير أرواح العارفين في بحار قدمه وبقائه، وفناء أسرار الموحدين في صفاته وذاته، وما أنادت هذه الأسرار إلا التحير عن إدراكه وذكر سرِّه، ولم يعرف أحدٌ ذلك السرَّ، ولا يعرف أحدٌ ذلك السرَّ، ولا يعرفه أحدٌ إلى الأبد، هو ذاكره، وهو عالم به لا غير، كيف يعرف الأولية من لا أولية له؟ وكيف يعرف الآخرية من لا آخرية له؟ وكيف يعرف بطن سر السر وأصل الأصل، من لا حقيقة له في إدراك كنة كنهه اعبُر من هذا البحر العميق، ولا تقف، فإنه أغرق الأولين والآخرين في قطرة من قطراته، وهم عطاشى من بعد أفواههم عن نداوتها أين أنا من الإقبال بنعت الإدراك على قدم القدم وأبد الأبد وبطن العلم وإشراق شمس الألوهية، وسبحاتها تحرق الأبصار، وأسرارها تحير الأفكار أنا والفرار من ضرغام الأزل، وتبين الأبد ما للتراب، ورب الأرباب سقط الزمان والمكان والأوائل والأواخر

والظروف والأماكن والفهوم والعلوم عن بوادي أنوار أوليته وآخريته، وظهور سبحات ظاهريته، ولمعات أسرار باطنيته، فلم تبق لي اللسان حيث لا يبقى البيان والبرهان ولا العرفان ولا الإيقان الإيمان بمن والعرفان لمن والإيقان في من، وهو ممتنعٌ بغير جباريته عن درك الخواطر، وجريان الضمائر سبحانه سبحانه سبحانه.

قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾: إظهار الأزل في الآزال.

وقوله: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾: إظهار الآباد في الآباد.

وقوله: ﴿وَٱلظَّـٰهِرُ﴾: عيانه بذاته في صفاته وصفاته في أفعاله؛ إذ الأفعال في الصفات والذات فانية، فبقي ظهوره في نفسه؛ إذ لا شيء دونه.

وقوله: ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: استتار كنهه بكنهه وسره بسره، لا يدرك باطنه بعد الأوهام، ولا غوص الأفهام، سبحانه عما أومأ إليه الخليقة بكمالها! سبحانه عما أشار إليه البرية بنهايتها! من يعرف عقود علل الأشياء حتى يعرف أوليته، ومن يعرف عروق الأعصار حتى يعرف آخريته، ومن يعرف كينونية الأفعال حتى يعرف ظاهريته، ومن يعرف أسرار بطون الأرواح والنفوس حتى يعرف باطنيته، لو يعرف المخلوق حقيقة مائية وجوده بنعت إحاطة علمه عليها يعرف أصل كل أصل، وعلة كل علة، إذ لا يعرفها إلا من يوجدها إلا هو الذي نعته الأول والآخر والظاهر والباطن، لا تظن في أوليته عدَّ الأدهار، ولا تظن في آخريته حصر الأعصار، ولا تظن في ظاهريته بوادي الآيات، ولا تظن في باطنيته أسرار الخفيات، فإن هذه الصفات منفيةٌ عن كمال ألوهية الأولية في الأذهان تأخرها إلى قدم الزمان ولا زمان في الأزل والآخرية في الإفهام استباقها إلى دوام الأعصار ولا أعصار في الأبد، والظاهرية في العقول الظهور في الأماكن، ولا مكان عند ظهوره، والباطنية في الخيال طوية الخفيات، وهو منـزَّهٌ عن أن يكون محل جريان العلل؛ إذ لا علة في وجوده عبر من هذه الظلمات، فإنه تعالى منـزَّهٌ عن القياس والوسواس، أوله آخره، وآخره أوله، وظاهره باطنه، وباطنه ظاهره، فإذا خرجت يا نفس من رقومات المكونات، وصور الآيات، ورسم الأنفعاليات، ونسيت العدم والوجود، وسقط عنك الرسم والاسم والوسم فنيت عنك، وبقيت بالحق يرى الله بالله، ولا تبقى عندك هذه الرسومات، ويثبت لك الخفيَّات الأولى للأرواح بسبق العنايات، والآخر للقلوب بحسن الرعايات، والظاهر بنعت الكشف للأسرار، والباطن ببيان علم المجهول، وانكشاف حقيقة حكم الربانية للعقول القدسية، أي: تفضل أعظم من هذا التفضل من الحق سبحانه للعارفين؛ إذ تجردت نعوته وأسماؤه وصفاته وذاته لهم، وهذا من كمال حبه لحبهم، وإرادته لمعرفتهم؛ لذلك أظهر كنز الربوبية والألوهية لهم بقوله: «كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحببتُ

أنْ أعرفَ»[1]، يا صاحبي كدت أن أنقل أحجار، فإن الكبرياء بنياني أو أغرف مياه قاموس الأزل والبقاء فما وصلتها رأيتها ممنوعة من إدراك الفهوم ووصول العلوم، ورجعت وما قلت إلا قول حبيبه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية: «لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[2].

قال الجنيد: نفى العدم عن كل أوَّل بأوليته، ونفى البقاء عن كل آخر بآخريته، واضطر الخلق إلى الإقرار بربوبيته بظاهريته، وحجب الأفهام عن إدراك كنهه وكيفيته بباطنيته.

قال الواسطي: لم يدع للخلق نفسًا، بعدما أخبر عن نفسه الأول والآخر والظاهر والباطن.

وقال أيضًا: من كان حظه من اسمه الأول كان شغله بما سبق، ومن لاحظ اسمه الآخر كان مرتبطًا بما يستقبله، ومن كان حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، ومن كان حظه من اسمه الباطن لا حظ ما جرى في السرائر من أنواره.

وقال أيضًا: حظوظ الأنبياء مع تباينها من أربعة أسامٍ، وقيام كل فريق منهم باسم منها، فمن جمعها كلها فهو أوسطهم، ومن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، وهي قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

وقال أيضًا: من ألبسه الأولية فالتجلِّي له في الآخرية محالٌ؛ لأنه لا يتجلى إلا لمن فقده أو كان بعيدًا عنه فقربه.

وقال الحسين: هداهم باسمه الأول إلى الغيب المحيط، وعرَّفهم باسمه الآخر الشأن القائم الدائم، وبصَّرهم باسمه الظاهر النور العزيز المبين، وأوزعهم باسمه الباطن الحق والشهادة.

وقال أيضًا: هو الأول الذي لا تخرجه الأولية ولا الآخرية ولا الظاهرية ولا الباطنية إلى نعوت الحلول والافتراق، وكيف يسعه أو يدركه شيء من خلقه وهو المحيط بالأزل والآزال، والأبد والآباد من جميع الوجوه وإليه الغاية والمنتهى.

أزلي العلم، أزلي القدرة، أزلي الشأن، أزلي المشيئة، أزلي النور، أزلي الرحمة، البادئ لكل علم ومعلوم، وشاهد ومشهود جلَّ وتعالى.

وقال الجنيد: نفى القدم عن كل أول بأوليته، ونفى الفناء على الكل الآخر بآخريته،

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٧٣).

(٢) تقدم تخريجه.

واضطر الخلق إلى الإقرار بربوبيته بظاهريته، وحجب الأفهام عن إدراك كنهه وكيفيته بباطنيته.

قال النوري: الأولية هي الآخرية، والآخرية هي الأولية، والظاهرية هي الباطنية، والباطنية هي الظاهرية، كما أن الأزلية هي الأبدية، والأبدية هي الأزلية، ليس بينهما حاجز إلا أنه يفقدك ويشهدك: وفناء التجديد الملذة، ورؤية العبودية.

وقال الأستاذ: الأول لا بزمان، والآخر لا بأوان، والظاهر لا باقتران، والباطن لا باحتجاب.

وقيل: الأول بالتعريف، والآخر بالتكليف، والظاهر بالتشريف، والباطن بالتخفيف.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يعلم ما يلج في أرض القلوب من أنوار الغيوب، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات المعرفة وأشجار المحبة وأنهار الحكمة، يعلم ما يلج فيها من سنا تجليه، وما يخرج منها من صفاء التوحيد والتجريد والتفريد.

قال سهل: ليسلم ما يدخل أرض قلبه من الفساد والصلاح، وما يخرج منها من فنون الطاعات، فيتبين آثارها وأنوارها على الجوارح.

قال الأستاذ في قوله تعالى: ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: الذي في قلبه من إخلاصه وتوحيده حزنه، وما في قلب الجاحدة من شكه وشركه والأوصاف المذمومة، وما ينـزل من السماء على قلوب أوليائه من الألطاف والكشوفات، وفنون الأحوال العزيزة، وما يعرج فيها من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت، وحسراتهم إذا علت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ﴾: ما ينـزل من سماء الغيب من قطرات الإلهام، وما يعرج فيها من أنوار أنفاس المشتاقين والعاشقين وللمحبين ومعاليهم العارفين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾: إن للعارفين في هذه الآية مقامين: مقام عين الجمع، ومقام إفراد القدم عن الحدوث، فمن حيث الوحدة والقدم تصاعر الأكوان في عزة الرحمن وسطوات عظمته حتى لا يبقى أثرها، فتسلط عظمته معها حتى أزالها بحيث لا

افتراق بين فعله وقهر قدرته، ومن حيث الجمع باشر نور الصفة نور الفعل، ونور الصفة قائمٌ بالذات، يتجلى بنوره لفعله من ذاته وصفته، ثم يتجلى من الفعل، فترى جميع الوجود مرآة وجوده، وهو ظاهرٌ بكل شيء للعموم بالفعل وللخصوص، بالاسم والنعت، ولخصوص الخصوص بالصفة، وللقائمين بمشاهدة ذاته بالذات، وهو تعالى منـزَّهٌ عن البينونة والحلول والافتراق والاجتماع، إنما هو ذوق العشق، ولا يعلم تأويله إلا العاشقون.

قال الحسين: ما فارق الأكوان الحق، ولا قارنها، كيف يفارقها وهو موجدها وحافظها! وكيف يقارن الحدث القدم به قوام الكل، وهو بائنٌ عن الكل!، ولا تراه يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، يا أخي هذه الآية مقتضية البشارة للعاشقين؛ حيث معهم أينما كانوا، وتوثيق للمتوكلين، وسكينة للعارفين، وبهجة للمحبين، ويقين للمراقبين، ورعاية للمقبلين، وإشارة الاتّحاد للموحدين.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾: يولج ليل الاستتار في نهار التجلي، ويولج نهار كشف النقاب في ليل الحجاب، وأيضًا يولج ليل النفوس الأمارة في نهار الأرواح والعقول، ويولج نهار الأرواح والعقول في ظلمات النفوس.

قال سهل: الليل نفس الطبع، والنهار نفس الروح، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا ألفَّ بين طبعه ونفسه وروحه على إدامة الذكر له، فأظهر بذلك على صفاته أنوار الخشوع.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾: فيه بيان شرف المتقدمين في الطريقة، والباذلين أنفسهم وأموالهم لرعاية الوفاء بالعبودية لحبيبهم؛ إذ بيان صدق الصادقين إجابة دعوة الحق في البداية لا يتقاعد عن طلبه بمانع نفسه وماله.

قال جعفر: الإرادة القوية والإيمان والتسليم للمهاجرين وأهل الصفة وإمامهم

وسيدهم الصدِّيق الأكبر، وهم الذين لم يرثوا الدنيا على الآخرة، بل بذلوها ولم يعرجوا عليها، واعتمدوا في ذلك ربهم، وطلبوا رضاه وموافقة الرسول ﷺ، فخصَّهم الله من بين الأمة بقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم﴾.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ : شكا الله بهذه الآية من طباع الخليقة المجهولة بالبخل، حيث سأل منهم القرض، ولو كانوا على محل التقديس لخرجوا من وجودهم له قبل سؤاله، ومع ذلك القرض الحسن ما أعطاه بنعت الخجل مما بذل فأين حسن الإيمان؟ يعرف إن العبد وما ملك لسيده، فكيف يقرضه وهو وماله له، فمن عرف نفسه بالعبودية، وعرف أن الكل له فما يعطي بعد ذلك، فهو القرض الحسن.

قال سهل: أعطى الله فضلاً، ثم سألهم قرضًا وقال: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾.

قال الواسطي: القرض الحسن للعوام، وللخاص الخروج عن جميع الأملاك عن طيبة النفس والرضا كأبي بكر الصديق ﷺ.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾(١): إن الله سبحانه ألبس العارفين نور عظمته وكبريائه، وأسبل على وجوههم سنا هيبته وضياء بهائه، وجعلهم مشكاة أنوار تجليه، تتناثر منهم أنوار هيبة الحق يمينًا وشمالاً وخلفًا وقدامًا وفوقًا وتحتًا، وهم

---

(١) نور المؤمن يسعى بين يديه، له هيبة في قلوب الموافقين والمخالفين، يعظمه الموافق ويعظم شأنه، ويهابه المخالف ويخافه، وهو النور الذي جعله الله تعالى لأوليائه، ولا يظهر ذلك النور لأحد إلا إن انقاد له وخضع، وهو من نور الإيمان. تفسير التستري (٢/ ١٢٤).

يمشون إلى الله بنور الله، فعند ذلك النور تخضع له الأكوان، ومن فيها من الموافق والمخالف، فالموافق يستبشر برؤيته فيعظِّمه، والمخالف يفزع منه فيها، وهذه الأنوار معه في الدنيا والآخرة.

قال سهل: نور المؤمن يسير بين يديه وهيبته له في قلوب الموافق والمخالف، فالموافق يعظِّمه ويعظِّم شأنه، والمخالف يهابه ويخافه، وهو من نوره الذي جعل الله لأوليائه لا يظهر ذلك النور لأحدٍ إلا اتقى له وخضع، وذلك من نور الإيمان.

وقال الأستاذ: كما أن لهم في العرصة هذا النور، فاليوم لهم في قلوبهم وبواطنهم نور يمشون في نورهم يهتدون به في جميع أحوالهم.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾:

هذا لقوم من ضعفاء المريدين الذين في نفوسهم بغايا الميل إلى الحظوظ حتى يحتاجوا إلى الخشوع عند ذكر الله، وأهل الصفوة احترقوا في الله بنيران محبة الله، لو كان هذا الخطاب للأكابر لقال: «أن تخشع قلوبهم لله»؛ لأن الخشوع لله موضع فناء العارف في المعروف، وإرادة الحق بنعت الشوق إليهم، فناؤهم في بقائه بنعت الوله والهيجان والخشوع للذكر موضع الرقة من القلب، فإذا رقَّ القلب خشع بنور ذكر الله لله، كأنه تعالى دعاهم بلطفه إلى سماع ذكره بنعت الخشوع والخضوع والمتابعة بقوله والاستلذاذ بذكره حتى لا يبقى في قلوبهم لذة فوق لذة ذكره.

قال سهل: لم يحن لهم أو أن الخشوع عند سماع الذكر، فشاهدوا الوعد والوعيد مشاهدة الغيب.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ أي: الذين شاهدوا الله بالله بنعت المعرفة والمحبة، وتابعوا رسوله بالصحبة، والمعرفة بشرفه وفضله، والانقياد بين يدي أمره ونهيه، أولئك هم الصديقون؛ لأنهم معادن الإخلاص واليقين، وتصديق الله في قوله بعد أن شاهدوه مشاهدة الصديقية التي لا اضطراب فيها من جهة معارضة النفس والشيطان، وهم شهداء الله تعالى، مقتولون بسيوف محبته، مطروحون في حجر وصلته يحيون بجماله، يشهدون على وجودهم بفنائه في الله وبفناء الكون في عظمة الله، وهم قوم يستشرفون على هموم الخلائق بنور الله، يشهدون لهم وعليهم بصدق الفراسة؛ لأنهم أمناء الله، خصَّهم الله بالصديقية والشهادة والولاية والخلافة.

وقال أبو علي الجوزجاني: الصديقون حزب الله، خواصهم أهل المعرفة، وأوساطهم العقلاء.

وقال: قلوب الأبرار معلقة بالملكوت مقبلين ومدبرين، وقلوب الصديقين معلقة بالرب مقبلين بالله ولله.

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: دعا المريدين إلى مغفرته بنعت الإسراع ودعا المشتاقين إلى جماله بنعت الاشتياق والأشواق، وقد دخل الكل في مظنة الخطاب؛ لأن الكل قد وقعوا في بحار الذنوب حين لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، دعاهم جميعًا إلى التطهير في بحر رحمته حتى صاروا متطهرين من غرورهم بأنهم عرفوه، فإذا وصلوا عرفوا أنهم لم يعرفوه، فيأخذ الله بأيديهم بعد ذلك، ويكرمهم بكشف جنان قربه وفراديس مشاهدته، ولولا رحمته وغفرانه لهلكوا جميعًا في أول بوادي سطوة غرته، لكن أغفلهم عنه فيه حتى يبقوا، ولو رفع عنهم غطاء الغفلة والجهل به في مشاهدته لهلكوا جميعًا حسرة من فقدان الحق والحقيقة.

قال الحسين في هذه الآية: لما باشرت هذه المخاطبة العقول نهضت مستحضة للجوارح بحسن التوجه؛ لإقامة مائة يحطون عند من استجابوا لدعوته، فظنوا لإشارته، وأقاموا تحت العلم بقربه، وقرت عيونهم بما أورد على قلوبهم بالسرور بالخلوة، جلاسًا إناسًا أكياسًا لا يرهبون في الطريق إليه غيره، ولا يتوسلون إليه الأبد، ولا يسألونه شيئًا غير التمتع بخدمته،

وحسن المعرفة على موافقته.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: يا عجبًا من كان قادرًا أن يوصل العباد إليه بلا مصيبة ولا تعب فكيف يصيبهم المصيبة؟ أراد أن يعرِّفهم بامتحان القهر حقائق الربوبية، وأن يعرِّفهم غرائب الطريق إليه حتى عرفوه بجميع الصفات، وشاهدوا جميع النعوت، ولولا ذلك لما عرفوه بالحقيقة في معرفة غيره، فمن سمع هذا الخطاب ينصرف نظره من المصيبة إلى سوابق الامتحان حتى يكون برؤية السبق شاهد الحق راضيًا بقضائه، صابرًا في بلائه؛ لأنه هناك يحتمل البلاء برؤية المبلي.

قال الجنيد: من عرف الله بالربوبية، وافتقر إليه في إقامة العبودية، وشهد بسره ما كشف الله له من آثار القدرة بقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ إلا به فسمع هذا من ربه وشهد بقلبه وقع في الروح والراحة وانشرح صدره وهان عليه ما يصيبه، ثمّ زاد سبحانه في تأكيد طلب الرضا من عباده ويقينهم باختياره لهم والصبر في بلائه بقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: طالب الله بهذه الآية أهل معرفته بالاستقامة والإنصاف بصفاته، أي: كونوا في المعرفة بألا يؤثر فيكم الفقدان والوجدان والقهر واللطف والاتصال والانفصال والفراق والوصال والكفر والإيمان والطاعة والعصيان؛ لأن من شرط الاتّصاف ألا تجري عليه أحكام التلوين، والاضطراب في اليقين والاعوجاج في التمكين، لا تأسوا على ما فاتكم من معرفة الأزل؛ فإن الأزل للأزل لا لأنفسكم، فإذا سقط الأسف لا تفرحوا بما تجدون من الأبد؛ فإن الأبد للأبد، وأنتم معزولون من كلا الطرفين؛ فإن الحقيقة ترجع إلى العلة.

قال سهل: في هذه الآية دلالةٌ على حال الرضا في الشدة والرخاء.

وقال القاسم: ما فاتكم من أوقاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم من توبتكم وطاعتكم،

فإنك لا تدري ما قدَّر الله فيك وقضى.

وقال الواسطي: الفرح من الكرامات من الاغترارات، والتلذذ بالأفعال نوع من الإغفال والخمود تحت جريان الأمور زين لكل مأمور، قال الله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ إلخ.

وقال: العارف مستهلكٌ في كنه المعروف، فإذا حصل مقام المعرفة لا يبقى عليه فضل فرح ولا أساء، قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ إلخ.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾[1]: وصف الله هاهنا أهل السنة وأهل البدعة، أهل السنَّة أهل الرأفة والرحمة، وأهل البدعة أهل الرهبانية المبتدعة من أنفسهم، ووصف الله قلوب المتمسكين بسنة الأنبياء بالمودة والشفقة في دينه ومتابعة رسوله، تلك المودة من مودة الله إياهم، وذلك بالرحمة من رحمة الله عليهم؛ حيث اختارهم في الأزل؛ لأنهم خلفاء الأنبياء وقادة الأمة، ووصف الله المتكلِّفين الذين ابتدعوا رهبانية من أنفسهم مثل ترك أكل اللحم والجلوس في الزوايا للأربعين عن الإتيان إلى الجمعة والجماعات؛ لأجل قبول العامة بأنهم ليسوا على الطريق المستقيم، بل هم متابعون شياطينهم الذين غرَّتهم في دنياهم بأن زيَّنوا في قلوبهم المحالات والمزخرفات، وما كتب الله عليهم الابتغاء رضوان الله، ورضوان الله هو الشريعة والطريقة الأحمدية المحمدية ﷺ، ثم وصف لهؤلاء بأن ما ابتدعوها من الرهبانية والمجاهدة والرياضة إذا كانت بغير متابعة السنة صارت متروكة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ حيث خرجوا من طريق السنّة، وهكذا حال جهلة زماننا الذين طلبوا الرياسة بالزهد والتعلم والتذكر على رؤوس المنابر، وقولهم الزور والبهتان، وطعنهم في الأولياء، فلما فضحهم الله عند الخلق بما في صدروهم من حب الجاه والمال تركوا رهبانيتهم، ورجعوا إلى ما هم فيه، والرعاية عند العارفين محافظة الحال عن

(١) وذلك أنه لما كثر المشركون وهزموا المؤمنين وأذلوهم بعد عيسى ابن مريم ﷺ واعتزلوا واتخذوا الصوامع فطال عليهم ذلك، فرجع بعضهم عن دين عيسى، عليه السلام، وابتدعوا النصرانية: تفسير مقاتل (٣ / ٣٢٧) بتحقيقنا.

المحال، ومراقبة الأنوار بعيون الأسرار.

قال سهل: الرهبانية مشتقة من الرهبة وهو الخوف.

قال: معناه ملازمة الخوف ما تعبدنا هم به.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن خفيف في قوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: المريد الحذر من مطالعة علمه يقعده عن إقامة الأحوال الموظَّفة، ويجرّه إلى دواعي المرخص بورود الفترة، ويحذر أن يورده الإغماض في مناولة الدنيا والمسامحة في أخذها، فإن الله عليك رقيبٌ، وقد وصف الله القوم في كتابه بقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ﴾: حقيقة الإشارة مع الشاهدين لله بنعت المحبة وحلاوة الوصلة، أيها المشاهدون اتقوني فيما وجدتم مني من لذّة الوصال، والشغف بالجمال حتى لا يحجبكم عن السير في أنوار أزالي وآبادي، والسباحة في بحار ذاتي بسفن العجز، فمن احتجب لي عني فهو منقطعٌ عني، واقتدوا بسنّة الأنبياء والمرسلين والمشاهدين والعارفين فيها وجد مني، واستقام في طلب المزيد، وما احتجب به عني حيث استغفر في كل يوم سبعين مرّة من الخطاب الوقوف والسكون في المعروف، حين سلك مسالك الآزال والآباد بمراكب الاصطفائية الأزلية.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ نصيبين أي: عينين من عيون ذاتي وصفاتي، فتروني بالعين الصفاتية مشاهدة صفاتي، وبالعين الذاتية مشاهدة ذاتي، كما أتى حبيبه هذين الكفين، وهاتين العينين وبهما رآني، وبهما عرفني.

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾: يعطيكم نورًا من نوره يمشون بمركبه في ميادين الأزل والأبد بنعت المعرفة والمحبة.

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾: قصور إدراككم حقيقة وجوده.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: «غفور» بحيث هداكم إلى نفسه، «رحيم» بأنه يغيثكم من الاستهلاك والاستغراق في بحار عظمته، ويبقيكم به بعد الفناء فيه حتى تعيشوا في مشاهدة جماله أبدًا.

قال الجنيد: أي: يا أيها الموحدون اتقوا الله ألا يسلبكم حلاوة معرفته وسرور محبته، وآمنوا برسوله أي: اقتدوا به في محبته لمولاه واستسلام نفسه إليه يؤتكم كفلين من رحمته نورًا من نوره تقوون به في ذكره، ونور تقوون به على مشاهدته، ويؤيدكم بنوره الساطع في أرواح أهل محبته الذي به يقومون على استماع كلامه، والتمتُّع بمخاطبته، ويغفر لكم ذنوبكم ملاحظتكم أنفسكم.

قال سهل في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾: هو السر والعين، فالسر سر المعرفة، والعين عين الطاعة.

وقال الأستاذ: نصيبين من فضله عصمة ونعمة، فالعصمة من البقاء عنه، والنعمة في البقاء به، ثم أن الله سبحانه بَيّن أن الوصول إلى هذه المقامات من النبوَّة والولاية لا يكون إلا بفضله وهدايته وإرادته وقدرته بقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾: أخرج فضله من الاكتساب وعلل الجهد والطلب، يؤتي هذه الكرامات من يشاء من عباده المصطفين في أزله بالعناية والكفاية، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾: ذو العطاء في الأزل إلى الأبد عظم فضله بعظمته، والفضل العظيم ما لا ينقطع عن المنعَم عليه أبدًا.

سورة المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾: بَيَّن الله سبحانه في أول هذه السورة مقام الانبساط حيث انبسطت المجادلة مع الحبيب، ثم استحسن الله انبساطها ومجادلتها حين خلصت من الالتفات على غيره بقوله: ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا إلى غير الله ومنزل الشكوى مقام النجوى وبين النجوى والشكوى انبسطت إلى المولى، ثم زاد الكرم في إظهار فضله عليها حين سمع كلامها وأجابها بخطابه، فأين أنت من مقام الشكوى عنه عنده به له عليه، والنجوى في السر وسر السر وبث الحزن والعربدة في الانبساط حتى يسمع منك سبحانه نجواك وانبساطك، وأعطاك سؤلك ومأمولك أنه سبحانه إذا اصطفى عبدًا من عبيده لا ينظر إلى ضعفه وكسبه ونسبه وسببه وحسنه وقبحه وعمله وعلمه، وأنه رجلٌ أو امرأةٌ، بل ينظر إلى أسراره المنبسطة على بساط الربوبية بنعت الذلّ والخضوع، وينظر إلى طلبات سره وهيجان قلبه وحركات روحه، وتوجهه إليه بنعت الإقبال عليه، فيقبله بحسن إقباله، ويراعيه بكشف مشاهدته، ويصرف عنه هجوم عساكر قهر امتحانه ويومئ قلبه إلى قرب قربه ومعادن جوده، فيملأ من نور العرفان، وسنا الإيقان وضياء الإيمان، ويطيبه بطيب محبته حتى يطير بجناح لطفه في هواء هويته وبساتين مشاهدته، فيجتني من أشجار حقائقها ثمرات الزلفات والمداناة، فيقوى بها في حمل واردات التجلِّي والتدلِّي.

قال الأستاذ: لما صدقت في شكواها إلى الله، وأيست من استكشاف ضرها من غير الله أنزل الله في شأنها هذه الآية.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾: أخبر الله سبحانه عن عظيم إحاطته بالضمائر والخاطر وذرَّات الوجود من الأزل إلى الأبد بحيث لا يعزب عن عمله وإحاطته مثقال ذرة في السماوات والأرض.

قال الله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: شاهد الأشياء بعلمه الذي شاهده كينونتها في الأزل، فأوعد العباد، وحذرهم في مراقبته من اطلاعه بما كان وما يكون، وبَيَّن غفلة العباد عن ذلك؛ حيث نسوا ما فعلوا، وما حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

قال بعضهم: من نسى جرائمه، ولم يكثر عليها بكاؤه، ولم يتأسف عليها بالندم، وطلب التوبة فقد ضيَّع عمره؛ لأن الله أحصى عليه أعماله وسيرتها إياه في المشهد الأعظم حين لا ينفع توبة تائب، ولا يسمع دعاء داعٍ، ولا يقبل معذرة معتذرٍ، قال الله: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ

وَنَسُوهُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: المعيَّة بالعلم عمومٌ، وبالقرب خصوصٌ، والقرب بالعلم عمومٌ، وبظهور التجلِّي خصوصٌ، وذلك دنو دنا فتدلَّى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فإذا ارتفع الأين والبين والمكان والجهات، واتصلت أنوار كشوف الذات والصفات بالعارف، فذلك حقيقة المعيَّة؛ إذ هو سبحانه منزَّهٌ عن الانفصال والاتصال بالحدث، لو ترى أهل النجوى الذين مجالستهم لله وفي الله لترى من وجوههم أنوار المعيَّة أين أنت من العلم الظاهر الذي يدل على الرسوم! ألم يعلم أن علمه أزل وبالعلم يتجلّى للمعلومات، فالصفات شاملةٌ على الأفعال، ظاهرةٌ من مشاهد المعلومات، فإذا كانت الذات لا تخلو من قرب الصفات كيف تخلو عن قرب الذات الأرواح العالية المقدسة العاشقة المستغرقة في بحر وجوده؟! لا تظن في حقي أني جاهل بأن القديم لا يكون محل الحوادث، فإنه حديث المحدثين، اعبر من هذا البحر حتى لا تجد الحدثان، ولا الإنسان في مشاهدة الرحمن.

قال الحسين: اصحب أقوامًا بأرواح طاهرة، وملاحظات دائمة، وأنوار قائمة.

قال: ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعهم علمًا وحكمًا، لا نفسًا وذاتًا.

قال النصر آبادي: من شهد معيَّة الحق معه زجره عن كل مخالفة وارتكاب كل ما لا يجب، ومن لا يشاهده معيَّة، فإنه مخطئٌ إلى الشبهات والمحارم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: تناجوا ببذل الأرواح لله، وتزكية الأشباح في طاعة الله.

قال سهل: بذكر الله، وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ﴾: هذا شيطان يناجي النفس الأمّارة، ويزين لها المعارضات والشك؛ ليحزن القلب والروح من نجواهما وإلقاء العدو وهواجس النفس، ويتقاعدان من شؤم معارضتها والحزن وضيق الصدر من الطيران والسيران في عالم الملكوت، ونجواهما لا تضر بالروح والقلب؛ فإنهما محروسان برعاية الحق وتأييده[١].

قال سهل: هو إلقاء من العدو إلى نفس الطبع، كما قال النبي ﷺ: «للمَلك لمةٌ وللشيطان لمةٌ»[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾ أي: وسّعُوا بساط قلوبكم ومجالس صدوركم من ضيق الحدوثية، وتضائق النفوسيّة لموارد تجلي القدم بنعت ألا يبقى لغير نظر الحق شيء دون الحق، يفسح الله لكم بساط قربه، ومجالس أنسه وحجال قدسه.

قال فارس: وسّعُوا لقبول الحق، يَمُنُّ الله عليكم بالحقيقة.

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾: الإيمان محل المشاهدة، والمشاهدة محل العين، والعلم عين المعرفة، فصاحب عين العلم وصاحب عين المشاهدة في درجات، فإذا كان مع العلم عين فالعلم مع العين أقوى من العين بلا علم، وذلك العلم يكون بعد العين، فإذا كان قبل العين ليس بعلم حقيقي، إنما حقيقة العلم ما يستفاد من المشاهدة والعين لذلك.

قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾: وفيه إشارةٌ أُخرى أن لأهل العلم درجات، وليس لأهل العين درجات؛ إذ لا يبقى لهم مسلك في القدم لتلاشيهم فيه.

---

(١) النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا. وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً، والقلوبُ حاضرةً، والتوكلُ صحيحاً؛ والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء، تفسير القشيري (٧/ ٣٩٩).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ إن الله سبحانه أدَّب أهل الإرادة بهذه الآية ألا يتناجوا شيوخهم في تفسير إلهام واستفهام علم المكاشفة والأسرار، إلا بعد بذل وجودهم لهم والإيمان بهم بشرط المحبة والإرادة، فإن الصحبة بهذه الصفة أزكى وأطهر خيرًا لقلوبهم، وأطهر لنفوسهم، فإن ضعفوا عن بعض القيام لحقوقهم ومعهم الإيمان والإرادة، وعلموا قصورهم عن أداء الحقوق بالحقيقة، فإن الله يتجاوز عن ذلك التقصير، وهو رحيمٌ بهم بأنه يبلغهم إلى درجات الأكابر قال الله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾.

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾: إذ رأى الشيطان أن ينبت في سبحة أرض النفس الأمَّارة حنظل الشهوة يثبت إليها، ويغريها إلى إنقاذ مرادها، فتكون النفس مركبة، فيهجم على بلد القلب ويخربه، بأن يُدْخل فيه ظلمات الطبيعة وظلمات الشيطان، ولا يرى عن القلب مسلك الذكر وصفاته، فلمَّا احتجب عن الذكر صار وطن إبليس وجنوده، غلب الملعون عليه، وهذا يكون بإرادة الله سبحانه، وسببه اشتراء غرور الملعون وتزيينه، بأنْ يلابس أمر الدين بأمر الدنيا، ويغويه من طريق العلم، فإذا لم يعرف دقائقه صار فريسة الشيطان.

قال شاه الكرماني: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من

المأكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمه عليه، والقيام بشكره، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها، ويمنعه أكل الحلال ويرزقه الحرام.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾ أي: كتب على نفسه في الأزل أن ينصر أولياءه على أعدائه من شياطين الظاهر والباطن، ويعطيهم رايات نصرة الولاية، فحيث تبدو راياتهم التي هي سطوع نور هيبة الحق من وجوههم صار العدو مغلوبًا بتأييد الله ونصرته.

قال أبو بكر بن طاهر: أهل الحق لهم الغلبة أبدًا، ورايات الحق تسبق الرايات أجمع؛ لأن الله جعلهم أعلامًا في خلقه، وأوتادًا في أرضه، ومفزعًا لعباده، وعمارة لبلاده، فمن قصدهم بسوءٍ أكبَّه الله لوجهه، وأذلَّه في ظاهر عزه؛ لذلك قال جلَّ من قائل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: وصف الله المؤمنين المخلصين في إيمانهم الصادقين في محبتهم وإرادتهم قرب الله وقرب أوليائه أنهم لا يحبون غير من يُقْبِل بكلِّيته على الله، ولا يطيقون أن ينظروا إلى وجوه المخالفين لأمر الله، وإن كانوا آباءهم أو أبناءهم؛ لأنهم آثروا الله على من دونه، وذلك بأن الله غرس أشجار التوحيد والمعرفة في قلوبهم، وتجلى لأرواحهم من نفسه، فصار معنى حقيقة التجلي منفق شافي نفس أرواحهم وعقولهم بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[1]: كتب بصفاته في قلوبهم بنعت ظهورها في قلوبهم، فعرفتها القلوب

---

(١) وهو الصدق في الطلب وحسن الإرادة المنتجة من بذر يحبهم ويحبونه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإلا فمن خصوصية طبيعة الإنسان أن يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية وإن كانوا يصلون =

برؤيتها، فسكنوا إليها، واستلذُّوا رؤيتها، فأيدهم الله بتجلي ذاته لأرواحهم، وما أبقاهم في رؤية الصفات، بل أغرقهم في قاموس الذات، فوجدوا فيها جواهر أسرار الربوبية وحقائق أنوار الألوهية، وذلك الوجدان، بأنه نفخ من روح الأزل في أرواحهم روح المعارف، فصارت أرواحهم مؤيدةً بروحٍ منه.

قال الحسين: أقبل عليهم بنظره، ومَلَّكهم بقدرته، وأحصاهم بعلمه، وأحاطهم بنوره، ودعاهم إلى معرفته .

قال الواسطي: هو الذي كتب الإيمان في قلوب المؤمنين؛ ليكون أثبت وأبقى لوقوع المناسبات.

وقال: الإيمان سواطع الأنوار، وله لمعة في القلوب، ومكين معرفته حملت السرائر في الغيوب.

وقال النصر آبادي: كتابه من الحق، ونُقش منه كتبها ونَقشها في قلوب أوليائه، ثم أطلعه عليها، فقرأه كل قارئٍ وغير قارئٍ لعناية الحق فيه مستترة.

قال سهل: الكتاب في القلب موهبة الإيمان التي وهبها لهم قبل خلقهم في الأصلاب والأرحام، ثم أبدأ سطرًا من النور في القلب، ثم كشف الغطاء عنه حتى أبصر ببركة الكتابة به، ونور الإيمان المغيبات.

وقال: حياة الروح بالتأييد، وحياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة الذكر بالذاكر، وحياة الذاكر بالمذكور، ثم وصفهم الله بأنهم أنصار الله في دينه الذي فازوا بالظفر في الله على نفوسهم وعلى كل عدوٍّ بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾: حزب الله أهل معرفته ومحبته وأهل توحيده الفائزون بنصرة الله من مهالك القربان ومصارع الامتحانات، وجدوا الله بالله، إذا ظهر واحدٌ منهم ينهزم المبطلون وينكسر المغالطون؛ لأن الله ألبس على وجوههم نور هيبته، وأعلى لهم أعلام عظمته، يفر منهم الآساد، وتخضع عندهم الشامخات، كلأهم بحسن رعايتهم، ونوَّرهم بسنا قربه، ورفع لهم أذكارهم في العالمين، وعظَّم أقدارهم، وكتم أسرارهم.

قال سهل: الحزب الشيعة، وهم الأبدال، وأرفع منهم الصديقون، إلا أن حزب الله هم الغالبون، وارثون لأسرار علومه، المستشرفون على معادن ابتدائهم إلى انتهائهم

=

ويصومون ويزعمون أنهم مسلمون؛ ولكن بالتقليد لا بالتحقيق، اللهم إلا من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه انتهى. تفسير حقي (١٤/ ٢٦٣).

هم المفلحون.

قال الحسين: حزب الله الذين إذا نطقوا بهروا، وإنْ سكنوا ظهروا، وإن غابوا حضروا، وإن ناموا سهروا، وإن كمَّلوا فكملوا، وإن نجت عنهم علل التخليط فطهروا، أولئك حزب الله إلى آخره.

قال أبو سعيد الخراز: حزب الله قوم علاهم البهاء والبهجة، فنعموا، ولم يحتملوا الأذى، وصاروا في حرزه وحماه، فغلب نورهم الأنوار أجمع، وغلب مقامهم المقامات أجمع وهمومهم الهِمَم أجمع، فكانوا في عين الجمع مع الحق أبدًا.

وقال ابن عطاء: إن لله عبادًا اتصالهم به دائمٌ، وأعينهم به قريرةٌ أبدًا لا حياة لهم إلا به؛ لاتصال قلوبهم به والنظر إليهم بصفاء اليقين، فحياتهم بحياته موصولة لا موت لهم أبدًا، ولا صبر لهم عنه لا تقدس أرواحهم، فعلَّقها عنده، فثمَّ مأواها قد غشى قلوبهم من النور ما أضاءت به، فأشرقت ونما زيادتها على الجوارح، وصاروا في حرزه وحماه أولئك حزب الله إلخ.

قال رويم: صفتهم أنهم اطمأنوا إلى الله، وهم أولياء الله وخاصته، وأمان بلاده فأعين قلوبهم ناظرة إلى ربهم، وآذان قلوبهم سامعة منه، وهم الذين اصطفاهم الله واختارهم وهداهم إلى نفسه، وسترهم عن خلْقه أولئك حزب الله إلخ.

سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: قدَّس الله كل ذوات الأرض والأشباح والأجسام والحياة، بلسان العقول، ووجدان نور الإيجاد، ومباشرة أفعاله؛ لأنه تعالى خصَّ ذوي العقول برؤية نور الصفات في الأفعال، وهيَّجهم ذلك إلى تقديسه وتنـزيهه من علل الحدثان، ذلك تعريف نفسه إياهم بظهور الصفة في الفعل، فعرفوه، ثم قدسوه، وخصَّ ما دونهم من ذوي الحياة بمباشرة نور الله، فوهبها منها أرواحًا مسبحةً، وكذلك الجمادات لها لسان الفعل يصف بها الحق، وتنـزهه الجمادات، وسرٌّ عجيبٌ لا يعرفه إلا من يفقه قول الله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، ومن عظم قدر ذلك السر واللسان والوصف والتقديس شدَّد الأمر في إدراكها بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾: لَمَّا تمكّن الأعداء في شرّ نفوسهم لم يحتسبوا أن الله سبحانه يقلعهم عن ذلك، ويخذلهم بنفسه، وذلك أضراب جسام قهريات في ظهور عظمته على وجودهم، فاستأصلهم من حيث لا يعرفون، كقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أتاهم بكشف نعت قهر عظمته عن طريق الأزل الذي أنسه سبيله عن إدراك عقول الغفلة، ولو رأوه بلسان العظمة هان عليهم المصائب، لكن ليسوا من أهل معرفته، فقهرهم بقهر عزته، فأتاهم، ولم يروه، ولم يعرفوه، ولم يجدوا منه إلا مسَّ قهره في قلوبهم، بقوله: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، فحجبهم الرعب عن مشاهدته، وذلك الرعب أورث لهم تخريب قلوبهم بمعول الضلالة والغباوة، فلما وجدوا طعم الرعب هربوا من سلطنته، كشف العظمة: وسقطوا في أودية الأهواء وظلماتها، وهذه سنَّة الله على من أدبر عنه بعد الإقبال عليه، يعذِّبهم بنفسه كما هداهم إليه بنفسه، وهذه أعظم العقوبة، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وفيه إشارة عين الجمع؛ لأن إتيان حبيبه إليهم هو إتيانه، فبذلك خوَّف العباد المعتبرين بمثل هذه المكريات القهريات، بقوله: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾: يا أولي المعرفة بي والأبصار والبصيرة التي هي منوَّرةٌ بكحل نور مشاهدتي، وخافوني إن كنتم عارفون بي، وهذا كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: قلوبهم بالبدع يا أولي الفهم والعقل عن الله.

قال يحيى بن معاذ: من يعتبر بالمعاينة لم ينتفع بالموعظة، ومن اعتبر بالمعاينة استغنى عن الموعظة، قال الله: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾: تفسيره بلسان الإشارة أن ما ينكشف بالبداهة من عالم الملكوت والجبروت، وأسرار الغيوب، وكشوف الصفات؛ لظهور الذات، ونزول الكلام والخطاب بالبداهة التي ليس فيها مراقبة العارفين، ولا ترصد قلوب المحبِّين، إلا مطالبة الشاهدين، ولا قصور المريدين، بل سدَّ بحار أنوار الألوهية، وأسرار الملكوتية، وغلبات سيول عيون الجبروتية، فللَّه منها نصيبٌ بأن يكتمونه، ولا يخبرون بذلك أحدًا سترًا على الأسرار، وخوفًا من غيرة الجبار، ألا ترى كيف وصف النبي ﷺ بعض الملائكة التي رآهم ليلة المعراج، فأمسك لسانه من الوصف، وقال: «إلى هاهنا أمرت»[1]، وما لرسولٍ منها أن يكون بعضًا من مقاماته لا يجوز أن يخبر عنه؛ فإنه محل ستر الله وغيرته على حبيبه ﷺ، وما للمكاشف الذي هو نائب الأنبياء، هو يتصرف بنفسه كما يشاء، فيؤثر لنفسه الخوالص والأسرار فيكتمها، وما يوافق قلوب أهل الصحبة يخبرهم منه وهم على طبقات.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

---

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الذين شاركوا بعض مقاماته، وهم أهل القربة الأعزَّة في الصحبة.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: هم الذين تقطَّعوا مما دون الحق إلى الحق، فبقوا بين الفقدان والوجدان طلاب الوصول.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: هم الذين لهم بلُغة المقامات، وليسوا متمكنين في الحالات.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: وهم الذين سافروا من الحدث إلى القدم، فيلاطف قلوبهم بما وجدوا من الله حتى تكون لهم عونًا في طيرانهم إلى الله، وسيرانهم في أنوار الله، ثمّ وصف من بينهم المساكين تأكيدًا وتشريفًا لهم ومحبته إياهم، بقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ﴾: وصف المهاجرين بأنّهم تركوا ما دون الله لله، وخرجوا من نفوسهم وحظوظهم بالله لله، ويُقبلون عليه بالكلّية، يبتغون المعرفة بالله من الله، والوصول إليه بنعت الرضا، وذلك قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ثمّ وصفهم بالصدق في آخر الآية بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: صادقون في محبة الله، وخدمة حبيبه ﷺ، ونصرة أوليائه، ما أطيب عيشهم في فقرهم؛ حيث افتقروا إلى الله؛ لطلب قربه ووصاله، والله سبحانه يراعيهم، ويجعلهم ملوكًا، ويخدمهم الأغنياء تشريفًا لهم وتقريبًا.

قال ابن عطاء: هم الذين تركوا كل علاقة وسبب، ولم يلتفتوا من الكون إلى شيءٍ، وفرّغوا أنفسهم لعبادة ربهم، واتباع رسوله ﷺ.

قال الخراز: من عطف بقلبه على شيءٍ سوى ربه فليس بفقيرٍ؛ لأن الله يقول: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

وسُئل الحسين: من الفقراء؟ قال: الذين وقفوا مع الحق راضين على جريان إرادته فهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أثنى الله سبحانه على الفقراء، ووصفهم بأحسن الوصف؛ إذ كانوا صادقين في فقرهم، ثُمّ أثنى على الأغنياء به لصدقهم في غنائهم، ووصفهم بالإيمان والمعرفة بالله من قلوبهم، ولزومهم مواضع قربته، وخفض جناحهم لإخوانهم من الفقراء، ومحبّتهم مهاجرتهم إليهم وضيافتهم بقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، ثمّ وصف أن صدورهم مقدسةٌ من الشحِّ والبخل والبغض والغش

والحسد وحب الدنيا بقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾، ووصفهم بالسخاوة بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: بيَّن في الآيتين شرف المقامين من الفقر والغنى، الذين هم مقام أمناء الله الذين لم يبق في قلوبهم من حبِّ الدنيا ومالها وجاهها ذرة، وهم الموصوفون في آخر الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من صار حبيبه مقدَّمًا من حِرْص نفسه ظفر برؤية ربه.

قال سهل: حرص نفسه على شيء، هو غير الله والذكر له، فأولئك هم الباقون مع من أحيى بحياته.

سُئل أبو الحسن البوشنجي عن الفتوة؟ قال: الفتوة عندي ما وصف الله به الأنصار من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾.

قال ابن عطاء: يؤثرون به جودًا وكرمًا.

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: يعني جوعًا وفقرًا(١).

وقال الحسين: من رأى لنفسه مِلْكًا لا يصح له الإيثار؛ لأنه يرى نفسه أحقَّ بالشيء برؤية ملكه، إنما الإيثار لمن يرى الأشياء للحق، فمَن وصل إليه فهو أحقُّ به، فإذا وصل شيءٌ من ذلك إليه يرى نفسه ويده فيه يد غصب، أو يد أمانة يوصلها إلى صاحبها، ويؤديها إليه.

سُئل سهل عن شرائع الإسلام؟ فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

نِعْمَ ما قال الشيخ: ما أتاكم الرسول من خبر الغيب ومكاشفة الرب، فخذوه باليقين، وما نهاكم عنه من النظر إلى غير الله، فانتهوا.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: وصفَ الله المؤمنين بإسالة

---

(١) تقول العرب: فلان مخصوص إذا كان فقيراً، فيؤثرون رضا الله على هواهم؛ والإيثار شاهد الحب. وقد حكي عن وهيب بن الورد أنه قال : يقول الله: «وعزتي وعظمتي وجلالي، ما من عبد آثر هواي على هواه إلا قللت همومه وجمعت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر، وعزتي وجلالي، ما من عبد آثر هواه على هواي إلا كثرت همومه، وفرقت عليه ضيعته ، ونزعت الغنى من قلبه، وجعلت الفقر بين عينيه، ثم لا أبالي في أي واد هلك». تفسير التستري (٢/ ١٣٦).

إياهم رداء عظمته، وتعظيمهم في عيون الكفرة والأضداد، حتى فزعوا من رؤوسهم، ولو أنهم تحققوا في معرفة الله لخافوه ولم يخافوا غيره، فلما لم يصلوا إلى معرفة الله صارت أقدار الخلق أعظم من قدر الله في قلوبهم، وذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعرفون عظمة الله وقدرته، فزعهم، وخوَّفهم بالواسطة من الله، وهم لا يفقهون أن ذلك الخوف من لباس عظمة الله عليهم، فما داموا لم يكونوا من أهل رؤية عظمته صرفًا ألجأهم الفزع منه بالواسطة.

قال الواسطي: لا يفقهون أن في ترك الدنيا مشاهدة الآخرة، وفي مشاهدة الآخرة رفض الدنيا، كما أن في مشاهدة الثانية وحضوره زوال عزة النفس، وفي مطالعة صفات الله سقوط صفات العبد، وملاحظة الحق لا يقاربها حب الدنيا، ولا عزة النفس، ولا رؤية الأفعال، ولا رؤية الصفات، فما دامت الشواهد والأعراض على سره أثر لم يفقهه، ألا ترى الله يقول: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، والحق إذا تجلَّى لقلب عبدٍ أذهب عنه أخطار الأكوان وأهلها.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾: وصف الله قلوب المخالفين بالتشتت والتفرق في نياتهم وقصودهم وأرائهم، بأنهم لا يرشدون طرق المآب إلى الله، ولا يتوافقون بقلوبهم، وإن توافقوا بأبدانهم، وتلك التفرقة من عينهم عن رؤية محل الصواب.

قال سهل: أهل الحق مجتمعين أبدًا موافقين، وإن تفرَّقوا بالأبدان، وتباينوا بالظواهر، وأهل الباطل متفرِّقين أبدًا، وإن اجتمعوا بالأبدان، ووافقوا في الظواهر؛ لأن الله يقول: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾: حذَّر الله المؤمنين مما قبل هذه الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾،

من تضييع العبودية والتفريط في مباشرة الشهوات التي حجبتهم عن الله، ثم زاد التخويف في الآية الثانية، وأمرهم بألا يكونوا كالذين نسوا الله؛ حيث اشتغلوا بنفاذ شهواتهم، وطلبهم حظوظ أنفسهم من رؤية الملكوت، ونسوا طيب العيش مع الله وروح الأنس في مشاهدة الله، وسكنوا منه بحظوظ النفس، فلما وجدهم الله ساكنين عنه مشتغلين بغيره، فأنساهم أنفسهم؛ حيث لا يعرفونها، ولا يعرفون طريق رشدها ووصولها إلى معادن الأول، ولا يرشدهم طريق المآب إليه، وأي شيء أعظم شقاوة ممن احتجب بنفسه عن الله.

قال سهل: نسوا الله عند الذنوب، فأنساهم الله الاعتذار وطلب التوبة، وقد وقعت لي نكتة: بأن الإشارة في الحقيقة إلى المتّحدين والمتّصفين الذين غلب عليهم سكر الأنائية، ورأوا وجودهم في عين الجمع، فمن حدة السكر خرجوا بدعوى الأنائية، وذلك بأن رؤية الصفة فيهم غلبت على رؤية الذات، فبقوا في رؤية الصفات عن رؤية الذات، ثم وقعوا في نور الفعل، وبقوا عن رؤية الصفة، فطابت قلوبهم بالشطارة ودعوة الأنائية، وهذا مقام المكر، فلما سكنوا في هذا المقام ولم يرتقوا إلى مدارج الفردانية أنساهم الله أنفسهم الحديثة حتى لم يروها في البين، فبقوا بأنائيتهم عن رؤية الحق، ولولا إنساء الله إياهم أنفسهم لوجدوا مقام العبودية أعلى مما هم فيه؛ إذ فيه إفراد القدم عن الحدوث وحقيقة صرف التوحيد، وهو مقام النبي ﷺ، حين عبَّر عن هذا المقام ولم يتعلق ذيل همته بحظ الالتباس والمحبة، ووصل إلى رؤية الأحدية، واختيار العبودية بقوله: «أنا العبد لا إله إلا الله»(١).

﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ أصحاب النار في الحقيقة أصحاب المجاهدات الذين احترقوا بنيرانها، وأصحاب الجنة أصحاب المواصلات الذين وقعوا في روح المشاهدات، وفي الظاهر أصحاب النار أصحاب النفوس والأهواء الذين أقبلوا على الدنيا، وأصحاب الجنة أصحاب القلوب والمراقبات.

قال الحسين: «أصحاب النار»: أصحاب الرسوم بالعادات، و«أصحاب الجنة»: أصحاب الحقائق والمشاهدات.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ

---

(١) تقدمت الإشارة إليه.

ٱللَّهِۚ﴾ : في هذه الآية بعض العتاب مع أهل المآب، بأنهم لا يذوبون تحت موارد الخطاب الأزلي، ولا يفنون في مشاهدة الصفات، ولا يرونها عين الذات، فإن من حقه أن يكون المخاطب بعد متابعة فانيًا عن نفسه وعن الكون فيه، ولو كانت الجبال مقامة في الخطاب لتدكدكت الجبال، وتدرَّرت، وانفلقت الصخور الصم، وانهدمت الشامخات العاديات في سطوات أنواره، وهجوم سنا أقداره؛ إذ كل حرف من خطابه أعظم من العرش والكرسي والجنة والنار والأكوان والحدثان، وذلك بأنها عرفت حقيقته، وأقرت بالعجز عن حمل هذا الخطاب العظيم، حيث قال سبحانه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾، «ظلمه» قيامه بإزاء القدم، و«جهله»: قلة معرفته بحقائق العبودية والربوبية، ولا تخض يا أخي في بحر كلام المتكلمين أن الجبال ليس لها عقل، فإنَّ هناك أرواحًا وعقولاً لا يعلمها إلا الله، قال الله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي﴾، لولا هناك ما تقبل الخطاب لما خاطبها، فإن ببعض الخطاب ومباشرة الأمر تهبط من خشية الله، قال الله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، والخشية مكان العلم بالله وبخطابه، وفيه إشارةٌ أخرى في بيان شرف النبي ﷺ وأمته، بأنهم حملوا ما لم تحمله الجبال بقوتها، هم يحملونه بذوق الخطاب، وكشف النقاب، والسرور بالمآب، فإنهم حملوا بهذا الوجه عظائم كلمات، لو حملتها الجبال الشامخات لذابت في رياحها، كما قيل:

ولو أن ما بي بالحصا فلق الحصا وبالريح لم يسمع لهن هبوبُ

قال ابن عطاء: أشار إلى فضله بأوليائه، وأهل معرفته أن شيئًا من الأشياء لا يقوم بصفاته، ولا يبقى مع تجليه إلا من قوّاه الله على ذلك، وهو قلوب العارفين، فقاموا له به لا بغيره، وهو القائم بهم لا هم وهكذا.

قال الأستاذ: ليس هذا الخطاب على وجه العتاب معهم، بل هو على سبيل المدح وبيان تخصيصه إياه بالقوة، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾، لم يطق، ولنخشع، وهؤلاء خصّصتهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابي.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: هو إشارة غيب الغيب، والله ظهور الغيب الذي رجوع الوصف إلى الغيب، ولا نفى معارف وإله تلبيس ومكر تشغل المخاطب عنه بالاسم والرسم، وإلا هو بيان حق الحقيقة، وكشفها بنعت الهوية في الغيب، فأول الخطاب نكرةٌ، وآخر الخطاب نكرةٌ غيب في غيب؛ إذ لا يعرف الأزل والأبد، ثم وصف نفسه بأن غيبه مكشوفٌ لعينه يرى الغيب كما يرى الظاهر؛ إذ الغيب ظاهرٌ والظاهر غيبٌ، وهو قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: «الغيب»: ما في صميم السر ومكامن روح الروح ونفس النفس، و«الشهادة»: ما خرج من العدم عالم بالمعلومات الغيبية قبل وجودها، وبعد وجودها لا يزيد علمه بالغيب علمه بالعلانية، ولا علمه بالعلانية علمه بالغيب.

قال سهل: «الغيب»: السر، و«الشهادة»: العلانية، ثُمّ رجع إلى بيان الهوية التي هي مستورة عن الكل بقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أبرز الصفة بعد غيبوبتها، ونعت نفسه بالرحمة الواسعة بالمبالغة وتواثيرها الإيجاد وظهورها في الأفعال، ثُمّ رجع بعد الإظهار إلى ذكر الغيوب في الغيوب، والنكرات في النكرات بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثُمّ أبان الصفة بالفعل بقوله: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، ثم أفرد الصفة عن الفعل، فقال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: مقدَّسٌ عن مباشرة الحدوثية، ثم زاد وصف قدسه عن إدراك الحدث وعلل الكون بقوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾، ووصف نفسه بأنه ما من الخائفين بقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾، ثم وصف نفسه أيضًا بأنه الصادق في وعده المصدق أولياءه بقوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾، ثم زاد في وصفه بأنه العالي عن همم الخلائق الممتنع بذاته عن إدراكهم لا يقوم في كبريائه الحدثان بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾، ثم زاد في ذكر قدسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: عما يشيرون إليه بالنواظر والخواطر، ثم زاد وصف غيبه وكنه الكنه، وعين العين الظاهر بلباس الغيب، ثم ذكر تأثير ظهوره بإظهار الخلق بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، ثم بيَّن لذاته النعوت والأسامي القديمة المقدسة عن الإشراك والإدراك بقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فلما ظهر بهذه الأوصاف ظهرت أنوار صفاته في الآيات، وألبس أرواح نوره الأرواح والأشباح والأعصار والأدهار والشواهد والحوادث، فسبَّحه الكل بألسنة نورية غيبية صفاتية بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثم بيّن أنه منزَّهٌ بتنزيهه عن تنزيههم وإدراكهم وعلمهم به بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: «العزيز»: عن الإدراك، «الحكيم» في إنشاء الأقدار تعالى الله عما أشار إليه الواصف الحدثاني، واللسان الإنساني.

قال ابن عطاء: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: المنزَّه عما لا يليق به من الأضداد والأنداد.

قال بعضهم: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: الذي لا يخاف ظلمه، و﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الحافظ لعباده وإن لم يحفظوا أوامره، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي عجز طلابه عن إدراكه ولو أدركوه ذلوا، و﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الذي خير العباد على ما أراد، ويصرفهم على يريد.

قال ابن عطاء: المؤمن المصدق لمن أطاعه.

وأيضًا قال: لأنه أمن المؤمنين عن خوف ما سواه حتى لم يخافوا سواه.

وقال القسيم: ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: الذي لا يتلون بتلون العباد، ولا ينتقل من صفة الرضا إلى صفة الغضب بتقبيل الكسوة.

وقال ابن عطاء: ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: مبتدع الأشياء من غير شيء، و﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: المتمم تصويره على غاية الكمال، وقال: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ على سرائر العباد، فلا تخفى عليه خافية، و﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: هو الذي سلم من النقص والآفات[1].

سورة الممتحنة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تحبُّوا أنفسكم الأمّارة، فإنها عدوي وعدوكم مبغض عبادتي ومبغضكم، إذا لم تكونوا مطيقين لها في أنفاد

---

(١) قال بعض المشايخ هذا الاسم من أسمائه التى علت بعلو معناها عن مجارى الاشتقاق، فلا يعلم تأويله إلا الله تعالى، وقال بعضهم: هو المبالغ في الحفظ والصيانة عن المضار من قولهم هيمن الطائر إذا نشر جناحه على فرخه حماية له وفى الإرشاد الرقيب الحافظ لكل شيء وقال المزروقي: هو لغة الشاهد، تفسير حقي (١٥/ ٢٤٧).

شهواتها، وأنها تعارضكم في مكاشفاتكم وأحوالكم، ألا ترى كيف قال الله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، وأصل عداوة النفس أن تفطمها من مألوفاتها، وتلزمها في حبس المراقبة والرعاية، وعلامة حب الله بغض عدو الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «أفضلُ الإيمان الحبُّ في الله والبغضُ في الله»(١).

قال أبو حفص: من أحب نفسه فقد اتخذ عدو الله عدوه وليًّا؛ فإن النفس تخالف ما أمرت به وتعرض عن سبيل الرشد، ويَهلك بحبها ومتبعها في أول قدم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي: ما أضمرتم في صميم قلوبكم من الميل إلى الهوى، وما أعلنتم من الميل إلى الحق، وفي الحقيقة ما أخفيتم من دعوى الأنانية، وما أعلنتم من العبودية، وهذا الخطاب لصاحب نفسٍ، وصاحب قلبٍ.

قال أبو الحسين الوراق: بما أخفيتم في باطنكم من المعصية، وما أعلنتم في ظاهركم للخلق من طاعة.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: أسوة إبراهيم خلة الله والتبرؤ مما دون الله، والتخلُّق بخلق الله، والتأوُّه والبكاء من شوق الله.

قال ابن عطاء: الأسوة القدوة بالخليل في الظاهر من الأخلاق الشريفة، وهي السخاوة، وحسن الخلق، واتباع ما أمر به على الطرب، وفي الباطن الإخلاص لله في جميع الأفعال، والإقبال عليه في كل الأوقات، وطرح الكل في ذات الله.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أسوة رسول الله ﷺ محبة الله، ومراقبة الله وترك ما دون الله، واحتمال واردات الغيب بالله، والصبر في الله وبالله ولله ومع

---

(١) رواه الخطيب في التاريخ (١١/ ٣٥٤).

الله، والتمكين في رؤية الله، ولزوم العبودية بعد الاتصاف بصفة الله، فإنه محل التمكين.

قال ابن عطاء: «أسوةٌ» في الظاهر والعبادات دون البواطن والأسرار؛ لأن أسراره لا تطيق أحدًا من الخلق؛ لأنه بائن الأمة بالمكان وقع الصفة عليه؛ لذلك قال النبي ﷺ لأنس بن مالك: «احفظ سرِّي»[1].

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ﴾: هذه إشارةٌ إلى الرفق في مجاهدة النفس، ربما تطمئن وتعين الروح والعقل والقلب في معرفة الله وطاعته.

قال ابن عطاء: لا تبغضوا عبادي كل البغض، فإني قادرٌ على أن أنقلكم من البغض إلى المحبة، كنقلي من الحياة إلى المات، ومن الموت إلى النشور.

قال ﷺ: «أحببْ حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[2].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، أي: لا تأخذوا هواجس النفس

---

(١) رواه ابن حبان في المجروحين (٢/ ٢٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٣٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٤٤٧)، والصحيح وقفه على عليٍّ رضي الله عنه.

والشيطان من جهة موافقتها ومتابعتها.

قال سهل: لا توافقوا أهل البدع على شيء من آرائهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾: «المعروف»: كل طاعةٍ ونول إلى المعارف والكواشف.

قال ابن عطاء: لا يخالفنك في شيءٍ من الطاعات.

سورة الصف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لما عاينوا آيات الله طلبوا فيها مشاهدة الله، مما وجدوا في أنفسهم تأثير مباشرة نور قدرة الله، فلما وجدوا أنوار تنـزيهه، فقدَّسوه بما وجدوه أنه بائنٌ بوجوده من الحدثين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾: حذَّر الله المريدين أن يظهروا بالدعوى مقامات لم يبلغوا إليها، لئلا يقعوا في مقت الله، وينقطعوا عن طريق الحق بالدعوى الباطلة، وأيضًا زجر الأكابر في ترك بعض الحقوق، ومن لم يؤت الحقوق لم يصل إلى الحق والحقيقة.

قال أبو العباس بن عطاء: من شهد من نفسه نفسًا في الطاعات كان إلى العصيان أقرب؛ لأن النسيان من العمى عن بر المنان، وأما زجره لأهل الحق والمشاهدة من طريق

الإشارات بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾: هذا زجرٌ وتهديدٌ لأهل التحقيق والمشاهدة؛ إذ ليس للعبد فعلٌ ولا تدبيرٌ؛ لأنه أسيرٌ في قبضة العزة يجري عليه أحكام القدرة وتصاريف المشيئة، فمن قال: فصلت أو أنبت أو شهدت فقد نسي مولاه وأعرض عن بره، وادَّعى ما ليس له.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾: وصف قومًا لهم استعداد الطاعة والمعرفة، وأراهم سبيل الرشد، وخلق في نفوسهم حظوظ الهوى، فتركوا الحق، واتبعوا هواهم، فطمس الله أعين قلوبهم عن مشاهدة الغيب، وهذه فتنةٌ أهلكت أكثر القاصدين في أوائل قصدهم.

قال جعفر: لما تركوا أوامر الخدمة نزع من قلوبهم نور الإيمان، وجعل الشيطان إليهم طريقًا، فأزاغهم عن طريق الحق، وأدخلهم في مسالك الباطل.

وقال الواسطي: لما زاغوا عن القربة في العلم أزاغ الله قلوبهم في الخلقة.

قال الأستاذ: لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة.

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾: بشَّرهم برؤية أحمد ﷺ وقدومه؛ لأن في وجهه شروق أنوار الأزل، وبقدومه ظهرت سواطع نور الأبد، كان أحمد في علم ما كان بحمد الله سماه أحمد، بعد أن جعله محمودًا بحمده، ومصباحًا منورًا بنوره، حمده محمودًا بلسان الحق وثنائه، وذلك اصطفائية خاصة أزلية، منتهاها المقام المحمود، وذلك المقام

دنو الدنو، والاتصاف بالحق، والنظر إلى وجهه بحد الاستقامة بلا تغيير ولا تبديل، وهناك مقام الشفاعة الخاصة الشاملة تشمل الكل بلا سبب ولا علة، وهو خاصٌّ له دون غيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك بشَّر عيسى عليه السلام قومه بقدومه المبارك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾: قال أحمد الحامدين له حمدٌ، وأحمد المطيعين له طاعةٌ، وأحمد العارفين به معرفةٌ، وأحمد المشتاقين إليه شوقًا على نسق قوله: ﴿أَحْمَدُ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾: كيف يطيق الحدث أن يطفئ نور الأزل والقدم، وهو منـزَّهٌ عن أن يغيره أهل الحدثان إذا شهر نوره على أحد من أهل نوره، يزيد نوره على نوره عليه، حتى لا يبقي ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهي مملوءة من نوره، فلذلك النور يقهر الجبارين والقهارين، ويقرِّبه عيون العارفين والموحدين.

قال بعضهم: جحدوا ما ظهر لهم من صحة نبوة النبي ﷺ، فأنكروه بألسنتهم، وأعرضوا عنه بنفوسهم، فقيَّض الله لقبوله أنفسًا أوجدها على حكم السعادة قلوبًا زيَّنها بأنوار المعرفة، وأسرارًا نوَّرها بالتصديق، فبذلوا له المهج والأموال، كالصدِّيق، والفاروق، وأجلَّة الصحابة رضي الله عنهم.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً﴾: المساكن الطيبة مواضع كشف مشاهدة الجمال، وقلوب العارفين مساكن الأرواح العاشقة، طابت وتطيَّبت بتجلِّي الحق سبحانه.

قال سهل: «أطيب المساكن»: ما أزال عنهم جميع الأحزان، وأقرَّ أعينهم بمجاورة رب العالمين.

وقال بعضهم: «طيبة»: بلقاء الله ﷻ.

قال الأستاذ: تطيب تلك المساكن برؤية الحق سبحانه.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) لما أراد الله سبحانه أن يظهر لعرائس مملكته، ولخاصة أوليائه من قدسية نور سره الأول، وإنسان عينهم الكامل المكمَّل، وهو النبي المصطفى الطاهر الأمجد، سماه في أهل السموات باسمه (أحمد)، إظهارًا لمنـزلته عند ربه، وعلو رفعته عند خالقه فكأنه يقول لأهل حضرته: لئن ظفرتم بالغُنم في تنـزيهي وتقديسي وذكري، فلقد زاد على حمدكم حبيبي أحمد الذي بالغ في حمدي وشكري، وفوض أمره لأمري، فهو أفضل من خلقت ومننت عليه بجميع محامدي، وأعظم من رزقته وصيرته إكسير محامدي.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾: «نصر الله»: تأييده الأزلي الذي سبق منه للعارفين والموحدين، و«الفتح القريب»: كشف لقائه، وانفتاح أبواب وصاله، بنصره ظفروا على نفوسهم، فقهروها بخدمته، وبفتحه أبواب الغيب شاهدوا كل مغيب مستورًا من أحكام الربوبية، وأنوار الألوهية.

قال جعفر: بشارةٌ إلى رؤيته في مقعدٍ عند مليك مقتدر.

وقال ابن عطاء: النصر، والتوحيد، والإيمان، والمعرفة، والفتح القريب، والنظر إلى السبل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾: أهل الإيمان القلب، والعدو هو النفس، ظفر القلب عليها بتأييد كشوف أنوار سلطان مشاهدة الحق، فصار غالبًا عليها في صباح كشفه، وطلوع أنوار قربه، فزالت ظلمها وبقي نوره؛ لأنه تعالى متمم نوره ومؤيِّده.

سورة الجمعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: تسبيحها عجزها عن حمل وارد قهره؛ حيث تسخرت لأمر القدم بوجودها، وهي كلها ألسنة أفعاله بقدسه عن محل التهمة؛ لذلك وصف نفسه بقوله: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾.

قال الأستاذ: تُسبِّح في بحار توحيد الحق أسرار أهل التحقيق بحرهم بلا شاطئ، فبعدما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح، فحازت أيديهم جواهر التفريد، فوضعوها في تاج العرفان، ولبسوه يوم اللقاء.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾: فضله معرفته ومحبته والاستقامة فيها بنعت العبودية في مشاهدة الربوبية، يؤت هذا الفضل من يشاء من عباده المصطفين في الأزل.

قال الجوزجاني: ذلك «الفضل»: هو الأُنس بالله، إذا وجدوا نعمة الإنس نسوا كل نعمة دونه، إذا وجدوا نعمةً فوق كل نعمةٍ، بأن ربَّهم نعَّمهم في معرفته، وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وقال الحسين: جاد الجواد بجوده لغير علة، وتفضل بالفضل، وأتمها بالمنن، وغشاها بالنعم؛ إذ يقول: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، فقطع بالمشيئة ولحق الأسباب، فكان الكرم منه صرفًا لا يمازجه العلل ولا يكتسبها الحبل، جاد به في الدهور قبل إظهار الأمور.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حزب الله المدَّعين في محبته بالموت، وأفرز الصادقين من بينهم لما غلب عليهم من شوق الله وحب الموت، فتبين صدق الصادقين هاهنا من كذب الكاذبين؛ إذ الصادق يختار اللحوق إليه، والكاذب يفرُّ منه.

قال ﷺ: «مَنْ أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه، ومَنْ أبغضَ لقاءَ الله أبغضَ الله لقاءه»[1].

وقال الجنيد: المحب يكون مشتاقًا إلى مولاه، ووفاته أحب إليه من البقاء؛ إذ علم أن فيه الرجوع إلى مولاه، فهو متمني الموت أبدًا، وذلك قوله: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: لما جرى حديث البيع والتجارة دعاهم إلى ذكره بنعت السرعة والاستباق، وإلا دعا الكل في الأزل إلى نفسه، فإن الذكر عند المذكور حجاب، والسعي إلى الذكر مقام المريدين، والمحقق في المعرفة غلب عليه ذكر الله إياه بنعت تجلي نفسه لقلبه.

قال النصر آبادي: العوام في قضاء الحوائج في الجمعات، والخواص في السعي إلى ذكره لاستغنائهم بالغنى لم يبق لهم حاجة لعلمهم بالمقادير قد جرت، فلا زيادة فيها ولا نقصان، لكنهم يسعون إلى ذكره سعيَ مشتاق إلى مذكوره، يطلب منه محل قربة إليه والدنو منه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾: إذا فرغتم من مشقة العبودية فانتشروا في الأرض إلى طلب أوليائي، وجالسوهم؛ لتستفيدوا من لقائهم وكلامهم، الفوائد الغيبية، والأنباء الملكوتية، واجلسوا في مجلس السماع والقول، فهناك فضل الله من الخطاب، وكشف النقاب.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي: إذا فرغتم من جميع ذلك غيبوا بأرواحكم وقلوبكم وعقولكم في بحار الأولية والآخرية، واذكروه به لا بكم، واتركوا الذكر هناك بعد رؤية المذكور.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾: أخبر الله سبحانه أنهم في أوائل إرادتهم إذا لم يبلغوا إلى حد الاستقامة في الصحبة، شغلتهم حوائج النفوس عن صحبة النبيّ ﷺ، فعاتبهم الله بذلك، وأمره بأن يخبرهم أن ما عند الله من مشاهدته ولقائه ولذّة خطابه ومناجاته خيرٌ من جميع الحظوظ بقوله: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾، وفيه تأديب المريدين حين اشتغلوا عن صحبة المشايخ بخلواتهم وعباداتهم لطلب الكرامات، ولم يعلموا أن ما يجدون في خلواتهم بالإضافة إلى ما يجدون في صحبة مشايخهم.

قال سهل: من شغله عن ربه شيءٌ من الدنيا والآخرة فقد أخبر عن خسّة طبعه ورذالة

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥).

همته؛ لأن الله فتح له الطريق إليه، وأذن له في مناجاته، فاشتغل بما يفنى عمن لم يزل ولا يزال.

وقال أيضًا: ما ادَّخر لكم في الآخرة خيرٌ مما أعطاكم في الدنيا.

قال الأستاذ: ما عند الله للعُبَّاد والزُّهَّاد خيرٌ مما نالوه من الدنيا نقدًا، وما عند الله للعارفين نقدًا من واردات القلوب وبواده الحقيقة خيرٌ مما يؤمل في المستأنف في الدنيا والعقبى.

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ﴾: من كان صادقًا تشهد بصدقه كل ذرة من العرش إلى الثرى، ومن كان مدّعيًا كاذبًا تشهد بكذبه كل ذرة من العرش إلى الثرى، وذلك شهادة الله بلسان آياته، يكذِّبه الزمان والمكان، ويفتضح عند كل صادقٍ بما يبدو من وجهه من آثار نفاقه.

قال سهل: أقرُّوا بلسانهم، ولم يعرفوا بقلوبهم؛ فلذلك سمَّاهم الله منافقين، ومن عرف بقلبه وأقرَّ بلسانه ولم يعمل بأركانه ما فرض الله من غير عذر ولا جهل كان كإبليس.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن

يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾: وصف الله المنافقين بالبخل والحرص والحسد على أمر الدين من قلة معرفتهم بجاههم عند الله، وحسن عواقبهم عنده، وسبق عناية الله فيهم، وخذلان أهل النفاق، وفي كل موضع فيه نفاق، فالبخل والحسد لازمته.

قال الواسطي: مَن طالعَ الأسباب في الدنيا والأعواض في الآخرة لم يفقه قلبه وبقي في حجاب نفسه ومراده، ألا ترى المنافقين كيف احتالوا بالبخل عليهم بالدنيا، ولم يعلموا أن ذلك لا يحجبهم عن التوفيق، وكيف حكى الحق بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾، ثم بيّن الله أن له خزائن السماوات والأرض يفتحها لأوليائه، فيعطيهم من فضله، ولا يحتاجون إلى من سواه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: «خزائن السماوات»: قدرته وجبروته، و«خزائن الأرض»: ملكه وسلطانه: له في السماوات خزائن قلوب المقربين، وفي الأرض خزائن قلوب العارفين.

قال الجنيد: «خزائنه في السماوات»: الغيوب، و«خزائنه في الأرض»: القلوب، فما انفصل من الغيوب وقع على القلوب، وما انفصل من القلوب صار إلى الغيوب، والعبد مرتهنٌ بشيئين: تقصير الخدمة، وارتكاب الزلّة.

قال رجلٌ لحاتم الأصمّ: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾: بيّن الله سبحانه مقام عين الجمع، وهو ظهور أنوار عزته للأنبياء والمرسلين والعارفين والصادقين، وباشر نور عزّته قلوبهم، فصاروا متصفين به، متعززين بعزته، فعزة الله معدن عزتهم، وهم مكتسون بكسوة عزه، فإذا ظهر ذلك النور منهم يتدلل لهم الحدثان والزمان والمكان والإنس والجان والأسد والثعبان والمياه والنيران والأمير والسلطان، «فعزة الله»: جبروته، و«عزة الرسول»: برهان نبوته، و«عزة

---

(١) كل ما عند العبد من مال فهو خزانة الحق عنده والعبد خازنه فمهما تعدى خزانة مولاه بغير إجازة استحق السياسة بقطع آلة التعدي إلى خيانة خزانته وهى اليد المتعدية.

المؤمنين»: نور معرفتهم وولايتهم.

قال الواسطي: «عزة الله»: ألا تكون سبيلًا إلا بمشيته وإرادته، و«عزة المرسلين»: أنهم آمنون من زوال الإيمان، و«عزة المؤمنين»: أنهم آمنون عن دوام العقوبة.

وقابل ابن عطاء: «عزة الله»: العظمة والقدرة، و«عزة الرسول»: النبوّة والشفاعة، و«عزة المؤمنين»: التواضع والسخاء.

قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾: بيان أن من لم يبلغ درجة التمكين في المعرفة، لا يجوز له الدخول في الدنيا من الأهل والمال، فإنها شواغل قلوب الذاكرين عن ذكر الله، ومَن كان مستقيًا في المعرفة وقرب المذكور فذكره قائمٌ بذكر الله إياه، وذلك حظُّه بأن جعله محفوظًا من الخطرات المذمومة، والشاغلات المحجبة، والضعفاء لا يخرجون من بحر هموم الدنيا، فإذا باشرت قلوبهم الحظوظ والشهوات لا يكون ذكرهم صافيًا عن كدوريات الخطرات.

قال سهل: لا تشغلكم أموالكم وأولادكم عن أداء الفرائض في أول مواقيتها؛ فإن من شَغَله عن ذكر الله وخدمته عرض من عروض الدنيا فهو من الخاسرين.

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ : انظر كم قال سبحانه هذه الآية على مبادئ السور، وهذا عتابٌ مع المقصرين عن خدمته، أي: يسبحني وجودك بغير اختيارك، وأنت غافلٌ من تسبيح وجودك له، وذلك أن وجودك قائم في كل لمحة بوجوده، يحتاج إلى الكينونية بتكوينه إياه أين قلبك ولسانك إذا اشتغلا بذكر غيرنا، وفي الحقيقة لم يتحرك الوجود إلا بأمره ومشيئته، وتلك الحركة أجابت داعي القدم في جميع مراده، وذلك محض التقديس، ولكن لا يعرفه إلا العارف بالوحدانية، ومن كان محجوبًا عن رؤية الحق فهو جاهلٌ به؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ ﴾ ، فمن وقع نور التجلي في الأزل له وتكون روحه بذلك النور ورأى الحق بنور الحق فهو صادقٌ مصدقٌ في قبول ما صدر من الغيب؛ لأنه أهله، ومن كان روحه محجوبًا عن مشاهدة الوصلة يكون منكرًا على ما يبدو له من آيات الله وكراماته وبرهانه وسلطانه.

قال القاسم: خاطبهم مخاطبة قبل كونهم، فسمّاهم كافرين ومؤمنين في أزله، فأظهرهم حين أظهرهم على ما سماهم وقدر عليهم، وأخبرته علم ما يعملون من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ : بَيَّن الله سبحانه في هذا الآية سِر مقام التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، وسر مقام عين الجمع، إذا قال: ﴿ صَوَّرَكُمْ ﴾ أفرد الوحدة ونعتها بالقدم وأفرد آنيتها عن العلل؛ إذ العلل بتعليله تكوَّنَت، وإذا قال: ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ لا يكون حسن الصورة إلا بتجلي حسن فعله ونعته واسمه ونوره وغيبه وصفته وذاته، فألبسها نعوت الصفاتية وأنوار الذاتية، فتصورت على رؤية القدم بنعت ما في القدم من علم الغيب وغيب الغيب؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «خلقَ الله آدم على صورته»[1].

قال الحسين: أحسن الصورة صورة أعتقت من ذل كن وتولى الحق تصويرها بيده ونفخ فيه من روحه، وألبسه شواهد النعت وجلاه بالتعليم شفاهًا، وأسجد له الملائكة المقرَّبين، وأسكن في المجاورة وزيَّن باطنه بالمعرفة، وظاهره بفنون الخدمة.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ ﴾ : الغبن كل الغبن ألا يعرف مكان خطابه والطاقة التي ظهرت له في الدنيا والآخرة بلباس القهريات ومكان

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٠١٧).

الامتحان، وربما زاده الحق في أوحش مقام وهو مشغول الرسم، ولم يعرف شرف حاله، فكان مشغولاً عنه برسم الاعتذار والعبودية، فيا رُبَّ صفاء في الكدورة، ويا رُبَّ مكاشفة في المعصية، اكتم يا أخي غيب الحق بستر غيره حتى لا يكون السر ظاهرًا لأهل الرسوم، فيسقطون من إيمانهم، يقع الغبن يوم التغابن لمن كان مشغولاً بالجزاء والعطاء ورؤية الأعواض ورؤية المعصية والطاعة، ومن كان شاهد الحق خرج من وصف الغبن؛ إذ الغبن من أوصاف من كان غائبًا عن مشاهدته، فإذا استغرق في بحار جماله وجلاله لا يبقى عليه فرح الغبن، ولا حزن الفوت، إذ الكل غابن له، وسقط عند ذكر ما مضى وما يستقبل، ولي لسان آخر في التوحيد أن الكل يقع في الغبن، إذا عاينوا الحق بوصفه وهم وجدوه أعظم وأجل مما وجدوا منه في مكاشفتهم في الدنيا، فيكونون مبهوتين متحيرين مغبونين؛ حيث لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، ولا يعرفون أبدًا حقيقة المعرفة، وأي غبن أعظم من هذا؛ إذ يرونه ولا يصلون إلى وجوده بالحقيقة.

قال ابن عطاء: «تغابن» أهل الحق على مقادير الضياء عند الرؤية والتجلي، و«التغابن» في رؤية القلب الأعظم وأجل من رؤية الغبن؛ لأن رؤية الغبن تذهل عن التأمل وهو مقصرٌ عما أطلق لغيره عندها يظهر لكل أحدٍ، ومَن ظهر له الحق بحقه أخرسه من جميع نطقه من منازلته أو منازعته.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾: بيّن الله سبحانه وصف الفطرة السليمة التي فطرها على قبول ما جاء من الغيب من الأمور العالية المبلغة قلوب العارفين إلى معادنها، أي: من كان له قلب سليم يقبل قول الحق ويتبع الحق بالحق، يُعرِّفه الحق طريق الحقيقة،

ويرشده إلى نفسه حتى يراه به بلا واسطة.

قال أبو عثمان: من صحَّح إيمانه بالله يهدِ قلبه لاتِّباع سنة نبيه ﷺ، وعلامة صحة الإيمان المداومة على السنن، وملازمة الاتِّباع، وترك الآراء، والأهواء المضلة.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾: خفَّفَ الله أثقال التقوى على قلوب المتقين، وسهَّل برجاء أنوارها على قلوب العارفين حين استغرقوا في بحار جلاله ولم يدركوا حقيقة كماله، وكيف يصل الحدث إلى حقيقة القدم، والكون نزول في أول سطوة من سطوات ظهور عظمته، خاطب الكل في أوائل أحوالهم بحقيقة التقوى منه؛ لظهور تذللهم وفنائهم في عزته، وتعليمه إياهم إنها حق الحق، وحقوق الحق في المعرفة لا تَسْقط بضعف الضعفاء؛ فإن حقه باقٍ، ثم بيّن عجزهم عن البلوغ إلى منتهاه، وسهَّل الأمر عليهم، ورحمهم بضعفهم عن حمل وارد الحقيَّة.

قال ابن عطاء: هذا لمن رضي عن الله بالثواب، فأما من لم يرضَ منه الآية فإن خطابه ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

قال السري: المتَّقي من لا يكون رزقه من كَسْبه.

قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: «القرض الحسن»: يكون لمن يرى المُلك، والمُلك إلا لله، ويشاهد الحق بالحق في قصده، وإقباله على الحق.

قال سهل: «القرض الحسن»: المشاهدة بقلوبكم لله في أعمالكم كما قال ﷺ: «أنْ تعبدَ الله كأنَّك تراه»(1).

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾: عالم غيب هموم صميم قلوب العارفين من أجله، وما يجري عليهم من آثارها، ببذل المهج على علانيتهم، وهو العزيز بأنه أعزهم في الأزل بعزته، الحكيم حيث حكم بالعبودية، وإظهار أنوار الربوبية.

سورة الطلاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ

(1) رواه البخاري (1/ 27)، ومسلم (1/ 37).

حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: خصَّ حبيبه بالخطاب، وجمع الكل في مضمونه؛ لأن السيد إذا خاطب خاطب الكل، فبان شرفه على الجمهور؛ إذ جَمَع الجمع في اسمه، وفيه إشارة الاتحاد، ومراد الحق سبحانه في تأديب العباد بتطليق نسائهم في زمان الطهر أداء وفاء الصحبة، ومراعاة ما مضى من زماني الوصلة والاهتمام بالفرقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾: إن الله حدَّ الحدود بأوامره ونواهيه؛ لنجاة سُلاكها، فإذا تجاوز عن حدوده يسقطون عن طريق الحق، ويضلون في ظلمات البعد، وهذا أعظم الظلم على النفوس؛ إذ منعوها من وصولها إلى الدرجات والقربات.

قال إسماعيل بن نجيد: التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالأمر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾ تفسيره بلسان الإشارة أن العارف الصادق الشاهد جلال الحق تبقى منه بألا يصل إليه؛ لأن نعوته الأزلية ممتنعةٌ من مطالعة الخليقة، فيتقيه من فقدانه، فهو تعالى إذا رآه في يأسٍ من الوصول إلى القدم ألبسه نعوته، وأوصله إليه به، وذلك ما جعل له مخرجًا مما فيه من خوف الفقدان، ويرزقه ذوْق الدنو من حيث لا يحتسب إنه يستحق؛ لذلك فهو تعالى محمود الكرم لا يُخَيِّب رجاء القاصدين إليه، ثم بَيَّن أن من ألقى زمام الإرادة لإرادته في طلبه ويطرح من بين يديه ويعتمد بقوله عليه فهو تعالى يكفي له مأموله منه، ويرضيه بنفسه من نفسه بحيث يستكمل العبد مراده منه، وذلك قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ومِن أدقِّ الإشارة أن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾، ولم يقل «ومن يتق من عذابه»، أو «يتق من شيء دون نفسه»، فخصَّ التقوى أن يكون من نفسه خاصة، وذلك إذا كان يتجلى بجلاله

وهيبته وعظمته وكبريائه من الألوهية القدسية، والأبدية الباقية لقلب عارفٍ من عرفانه، ويستولى على قلبه سطوات عظمته، يتقي العارف من صدمات القدوسية، وطوارقات العزة ضعفاً وخوفًا من ألا يحترق فيها فيقرُّ منه؛ لأنه علم أن الحادث يتلاشى في القدم، ولا يطيق أن يستقيم بإزاء الوحدانية، وتطلب الفرار منه مع ما في قلبه من محبة جماله، والشوق إلى لقائه، فإذا رأى الحق سبحانه ذلك منه يتجلى لقلبه من عين الجمال جمالاً، فيجر قلبه بحسنه وجماله إليه، ويعصمه من نفسه بنفسه، وذلك هو المخرَج الذي قال: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، يخرج من رؤية العظمة إلى رؤية الجمال، ويستقيم لرؤية الجلال، فيحتمل الحق بالحق، ثم همته همة العجز عن البلوغ إلى دنوه، يتبيَّن في نفسه من نفسه أنوار النعوت الأزلية، فتتَّصف صفاته بصفاته، فلا يرى هناك إلا عينًا واحدة، وذلك قوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، هو أن يكون منعوتًا بنعت الحق في رؤية الحق، لكن يرزقه من حيث لا يحتسب أنه يصل إليه بنعت البقاء يبقى ببقاء، ويخرج من فنائه، فبان بعد ذلك في سر سره نورٌ وعرفانٌ خاصٌّ يبينُه بأنه مخدوعٌ بما وجد، محجوبٌ منه به، فيسقط عنه قيمته، وأيس أيضًا من الوصول إلى الكل، فيعرِّفه الحق نعتًا من نعوته، ويعلمه أنه لا يصل إلى الكنه، فيرضيه بنعتٍ من جميع النعوت، وباسم من جميع الأسماء، وبصفة من جميع صفاته، ويكشف من ذاته من جميع صفاته حتى لا يبقى له طلبٌ ولا قصدٌ، بل يسكن بالحق من الحق في الحق، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١)، أي: من يتوكل عليه حين يبقى من الفناء فيه فهو حسبه، بأنْ يُبقيه ببقائه، فيَبقى الحق له، وإن هو فني فيه فبقاء الحق له من بقائه، وعلى لسان المعاملة يبقى الله بأن يشغله شيء من دونه عنه من الأسباب، والنظر إلى غيره من الرسومات، يجعل الله له مخرجًا مما يخاف منه، ويرزقه الرضا من نفسه، ويرزقه رزق المقدر في الأزل من حيث لا مشقَّة عليه في وصوله إليه، ويأكل ويلبس بغير انتظار ولا استشراف نفس ولا تعب، فيخرج له من الغيب بالبديهة ما يكفيه من السؤال والكسب، من عَرِف الله عرَّفه بكمال قدرته وإحاطة علمه بكل ذرة، فيلقي زمام الاختيار إليه، فهو تعالى يكفي له كل مؤنةٍ في الدنيا والآخرة وهو ساكنٌ راضٍ، وهذا معنى قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ إلخ.

قال سهل في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، أي: يتبرأ من الحول والقوة

---

(١) هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكُّل، وأصناف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان أو أنثى، عبدًا كان أو سيدًا يتوكَّل على الله الرزَّاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

والأسباب كلها دونه والرجوع إليه، «يجعل له مخرجًا» مما كلفه بالمعونة عليه، والعصمة من الطوارق فيها.

وقال سهل: لا يصح التوكل إلا للمتقين، ولا تتم التقوى إلا بالتوكّل؛ لذلك قَرَنَ الله بينهما، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

وقال بعضهم: من يحقق في التقوى هون الله على قلبه الإعراض عن الدنيا، ويسَّر له أمره في الإقبال عليه، والتزُّين بخدمته، وجعله إمامًا لخلقه، يقتدي به أهل الإرادة، فيحملهم على أوضح السنن وأصح المناهج، وهو الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله تعالى، وذلك منزلة المتقين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

وقال: ومن يَكِل أموره إلى ربه فإن الله يكفيه هم الدارين أجمع.

قال شاه الكرماني: «التوكُّل»: سكون القلب في الموجود والمفقود.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾، أي: بعد ضيق الصدر من الاهتمام بالرزق وإنفاقه، سعة الصدر، ويسر الرخاء، والطمأنينة والرضاء بالله، وأيضًا سيجعل الله بعد عسر الحجاب للمشتاقين يسر كشف النقاب.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾: «الرزق الحسن»: من الله المعرفة والمحبة،

والقربة، والمشاهدة، والمجالسة، والمخاطبة مع الحق بلا ذل الحجاب، ولا وحشة العتاب.

قال الأستاذ: «الرزق الحسن»: ما كان قدر الكفاية، لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه، ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بها رُزق لحرصه.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: لو كانت للأشباح قيمة في المعرفة كالأرواح في الخطاب بلا علة في تعريف نفسه إياها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ هناك خطاب وشهود وتعريف بغير علة، فلما علم عجزها عن حمل وارد الخطاب الصرف أحالها إلى الشواهد بقوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وليس بعارفٍ في الحقيقة من عرَّفه بشيء من الأشياء، أو باسم من الأسماء، فمَن نظر إلى خلق الكون يعرف أنه ذو قدرة واسعة، وذو إحاطة شاملة، فيخاف من قهره بعلمه في رؤية اطّلاع الحق عليه.

سورة التحريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾: أدَّب نبيَّه ﷺ ألا يستبدَّ برأيه، ويتَّبع ما يوحى إليه، وفيه بيانٌ أن من شغله شيء من دون الله وصل إليه منه ضرب لا تبرأ جراحه إلا بالله؛ لذلك قال عقيب الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾.

قال ابن عطاء: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ كان يدعو دائمًا ويقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ قاطعٍ يقطعني عنك»[1].

---

(١) تقدم.

وقال القاسم: لا يدعو الحق أحدٌ يسكن إليه حتى يشغله بغيره؛ لأنه عزيزٌ.

قوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾: فيه جواز إظهار الشيوخ للفراسة والكرامات لمريديهم؛ ليزيد رغبتهم في الطريقة، وفيه حَثٌّ على ترك الاستقصاء فيما جرى من ترك الأدب، فإنه صفة الكرام.

قال الحسن البصري: ما استقصى كريمًا قط، ألا يرى الله تعالى يحكي عن نبيِّه ﷺ قوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، أي: قدِّسوا أنفسكم وأهاليكم من محبة الدنيا والاشتغال بها، وأقبلوا على الله ببذل المهج، وانصحوا أهاليكم؛ كي يكونوا صالحين بمتابعتكم، فإذا رغبتم في الدنيا فهم يشتغلون بها، فإن زلة الإمام زلة المأمومين.

قال سهل: أي: بطاعة الله، واتِّباع السنن.

وقال ابن عطاء: بقبول نصح الناصحين.

قال الوراق: علِّموهم الفرائض والسنن؛ لتنقذوهم بها من النار.

قال أبو عثمان: في طلب الحلال لأنفسكم ولأهاليكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾: دعاهم الله بالرجوع إليه رجوعًا لا انقطاع فيه، بحيث أقبلوا على الله نادمين على تضييع الأوقات غير

مدْبرين عنه إلى شيء من دونه، حتى وصلوا إلى حقيقة الاستقامة في القلوب مع الله، ولا يقدر أن يلتفت إلى شيء سوى الله.

قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف: طلب عباده بالتوبة، وهو الرجوع إليه من حيث ذهبوا عنه، والنصوح في التوبة: الصدق فيها وترك ما منه، تاب سرًّا وعلنًا قولًا وفكرةً.

وقال الواسطي: التوبة النصوح لا تبقي على صاحبها أثرًا من المعصية سرًّا وجهرًا.

وقال: من كانت توبته نصوحًا لم يبالِ كيف أمسى وأصبح.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾: لا يخزي النبي أمته بذل الحجاب، وسوء الحساب، والتغيير، والعتاب، بل يكون برضاهم، ويعطيهم مأمولهم، ويقبل شفاعتهم لأهل الكبائر وللهالكين، ولا يَرُدُّ عليهم ما يسألون منه من نجاة الخلق، ويلبسهم أنوار قربه ووصاله، ويدخلهم في حجال أنسه، ورياض قدسه.

قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾: يستزيدون منه نور القرب بقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾، أي: من نورك حتى نَفْنى بك، ونَبْقى معك أبد الآبدين.

قال بعضهم في قوله: ﴿لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾، لا يردُّ شفاعته في أمته، والذين آمنوا لا ترد شفاعتهم في إخوانهم وأقربائهم.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ إنما هي أنوار نور التوحيد، ونور المعرفة، ونور الحقيقة، يسعى بهذه الأنوار إلى محل القرار.

وقال بعضهم في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾: لا تقطعنا بك عنك، وكن دليلنا منك عليك حتى تتم لنا الأنوار، فإن تمام النور بإتمام المنور له.

وقال سهل: لا يقسط الافتقار إلى الله عن المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهم في العقبى أشد افتقار إليه، وإن كانوا في دار العز والغنى؛ لشوقهم إلى لقائه يقولون ربنا أتمم لنا نورنا.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾: ظهر فيه نور الفعل، ثم ظهر في نور الفعل نور الصفة، وظهر في نور الصفة نور الذات، وكان بنور الذات والصفات حيًّا موصوفًا

بصفاته، ناظرًا إلى مشاهدة ذاته، لم تنقطع عنه أنوار الذات والصفات والفعل أبدًا، وهذه خاصية لمن له أثرٌ من روحه.

قال بعضهم: نفخ من نوره في روح عبده؛ ليَحيى بتلك الروح، ويطلب النور، ولا يغفل عن طلب المنور، فيعيش في الدنيا حميدًا، ويُبعث في الآخرة شهيدًا، فلما وجدت روح روح الله صدقت بظهوره في العالم، وشبّه قلوب العالمين بأنها تكون مرآة الحق للخلق، وذلك قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾، ولما باشر أنوار القدس وروح الأنس كادت نفسها أن تميل إلى السكر في العنائية، فسبق لها العناية، وأنفاها في درجة العبودية حتى لا يسقط بالسكر عن مقام الصحو، ألا ترى كيف قال: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، أي: من المستقيمين في معرفتها بربها، ومعرفتها بقيمة نفسها أنها مسخّرةٌ عاجزةٌ لربها.

سورة الملك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى﴾: في هذه الآية تقديس الذات والصفات عن الإدراك، وفيها إشارة غيب الهوية بقوله الذي رفع الأوهام عن ساحة جلاله، وفيها وصف العظمة والإحاطة بكل شيء، وعجز الحدثان في قبضة قدرته، وفيها سر الالتباس، وظهور الصفة عن الفعل، بقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، تعالى الله عن الأشباه؛ إذ لا شبيه له في الأزل، وتقدّس عن الأضداد؛ إذ لم يكن له ضدٌّ إلى أبد الأبد، فرؤية قدسه للموحدين؛ إذ مبارك عليهم أنوار قدسه، وهم في زيادة القدس أبدًا، والإشارة للعارفين؛ إذ هم غابوا في غيبه، وهم منه لا يخرجون، وإشارة ظهور الصفة في الفعل للمحبّين؛ إذ يؤتيهم ملك مشاهدته، وهم في ملك قربه، لا ينقطع عنهم وصاله أبدًا.

قال بعضهم: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ كالكناية، والكناية كالإشارة، والإشارة لا يدركها إلا الأكابر.

وقال سهل: تعالى من يعظم عن الأشباه، والأولاد، والأضداد، والأنداد.

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: يقلبه بحوله وقوته، يؤتيه من يشاء، وينتزعه ممن يشاء، وهو القادر عليه جلّ وتعالى.

وقال جعفر: أي: هو المبارك على من انقطع إليه، أو كان له.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، الموت والحياة عرضان، والأعراض والجواهر مخلوقة له، وأصل الحياة: حياة تجلّيه، وأصل الموت: موت استتاره، وهما يتعاقبان للعارفين في الدنيا، فإذا ارتفع العجب يرتفع الموت عنهم، بأنهم يشاهدونه عيانًا بلا استتار أبدًا، ولا تجري عليهم طوارق الحجاب، بعد ذلك قال الله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، خلق الموت والحياة، يميت قومًا بالمجاهدات، ويحيى قومًا بالمشاهدات، يميت قومًا بنعت الفناء في ظهور سطوات القدم، ويحيى قومًا بنعت البقاء في ظهور أنوار البقاء، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، لولا التجلي والاستتار لا يظهر شوق المشتاقين في تفاوت درجات الشوق، ولا يتبين وَلَهُ العاشقين وتفاوت درجاتهم في العشق، هو «العزيز» يمنعه الجمهور عن الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته، وهو «الغفور» بأن ينعمهم بكشف مشاهدته، ويتجاوز عن قصور قصودهم في الشوق إليه.

قال سهل: «الموت» في الدنيا بالمعصية، و«الحياة» في الآخرة بالطاعة في الدنيا، بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: الذي يدركه التوفيق، فيحييه بالطاعة، ويبعده عن المعصية.

وقال: «العزيز»: المسيع في ملكه، «الغفور»: يستره بجوده.

قال الجنيد: حياة الأجسام مخلوقة، وهي التي قال الله: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، وحياة الله دائمة لا انقطاع لها، أوصلها إلى أوليائه في قديم الدهر الذي ليس له ابتداء بمراده.

قيل: إن خلقهم فكانوا في علمه أحياء ما هم قبل إيجادهم، ثم أظهرهم فأعادهم الحياة المخلوقة التي أحيى بها الخلق، وأماتهم بسره فكانوا في سره بعد الوفاة كما كانوا، ثم أورد عليهم حياة الأبد، فكانوا أحياءً، فاتصل الأبد بالأبد، فصار أبدًا في أبدٍ في أبدِ الأبد.

وقيل: «حُسن العمل»: نسيان العمل، ورؤية الفضل.

قال الواسطي: من أحياه الله عند ذكره في أزله لا يموت أبدًا، ومن أماته في ذلك لا يحيى أبدًا، وكم حيٌّ غافلٍ عن حياته وميتٍ غافلٍ عن مماته.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ﴾: حارت الأبصار والبصائر عن إدراك مائية استواء أفعاله؛ لأنها عاجزة عن اللحاق

بجريان قدرته الواسعة فيها، فإذا كانت كذلك في إدراك خلقه، فكيف تشاهد جلال القدم، والأبصار، والبصائر، والقلوب، والأرواح، والعقول فانية حسيرة في أول سطوة من سطوات عظمته، راجعة عنها خاسئة، ولا يبقى عليها من العلم والعرفان.

قال الواسطي: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾، أي: القلب والبصر؛ لأن الأول كان بالعين خاصةً، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[1]: إذا لم يكن في خلقي فطور، فأنا أشدُّ امتناعًا من الاستغراق والاستحراق.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: لو سمعنا خطاب الأزل شفاهًا في مشاهدته وعلمنا حقيقته ما كنا من أصحاب البعد والحجاب.

قال بعضهم: لو سمعنا موعظة الواعظين أو عقلنا نصيحة الناصحين لاتبعناهم فيما أمروا به، ولما كنا إذًا في أصحاب السعير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ : وصف الله معرفة العارفين به قبل رؤيتهم مشاهدته، فإذا عاينوه استفادوا من رؤية علم المعاينة، وهى المعرفة الحقيقة، وخشوا منه في غيبة منه، وهى خشية القلب، فلمّا رأوه زاد على الخشية الإجلال، وهو علم الروح والسر.

---

(١) يقال: فطره فانفطر أي شقه فانشق والمعنى من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والتئامها قاله القاشاني ولو كان لها فروج لفاتت المنافع التى رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كمالها كما في المناسبات فإذا لم ير في السماء فطور وهى مخلوقة فالخالق أشد امتناعا من خواص الجسمانيات.

قال بعضهم: «الخشية» تصيب القلب، و«السر» و«الخوف» تصيب البدن.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾: فيه وعيدٌ لمن يضمر في خاطره ما لا يليق بالحق، وكيف يخفى ما في القلب والعيوب من المغيبات المكنونة، وهو موجدها ابتداءً، وعالم بها انتهاءً؛ لأنه من لطفه محيطٌ بما في القلوب، خبيرٌ بما يجري في الصدور.

قال الواسطي: حجب الأشياء عن الوقوف على حقائقها، واستبعد بمعرفة الحقائق، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

قال ابن عطاء: ألا يعلم من خلق الصدور، وما يحدث فيها من حوادث العوارض.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾: ذلّل للأرواح أرض القلوب يمشي في مناكب أسرارها، وأقطار عقولها، وسبيل أنوارها إلى عالم الغيوب، فتأكل منها موائد المعارف، وأثمار الكواشف.

قال سهل: خلق الله الأنفس ذَلولاً، فمن أذلَّها مخالفتها فقد نجّاها من الفتن والبلاء والمحن، ومن لم يذللها واتبعها أذلته نفسه وأهلكته.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ﴾: إشارةٌ إلى طيور الأرواح القدسية التي تطير في هواء الأزل والأبد بأجنحة الشوق والمحبة باسطات أجنحتهن ببسط الأنس، قابضة لها برؤية عظمة القدس، فهناك محل القبض والبسط، ولولا فضله وكرمه لتفنى في بروز سبحات ذاته، وتسقط من هواء هويته إلى أرض قهره.

قال الله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾.

قال الجريري: أشار الحق إلى أن يتوكل عليه الأولياء، ويسكن إليه الأصفياء؛ لأن الطيور لما صفا توكلهن على الحق طيَّرهن في الهواء، وقبض أجنحتهن، وأمسكها صافات على ذكر الله، فإذا توكل عليه الوليُّ شوقًا إلى الملك الأعلى طيَّره بجناح الأنس في هواء المحبّة، وأجلسه على بساط المعرفة، ويقبضه الحق بقدرته، ويمسكه بعواطف رحمته.

﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾: شبَّه الله صاحب النفس الذي يمشي قلبه في ظلماتها لا تدري أين تمشي كالأعمى الذي يتخبط تخبط العشراء في الظلمات.

وقال: هو أهدى أمَّن تمشي روحه في طرق الملكوت، بنعت المعرفة والنيران في أنوار المشاهدة.

قال سهل: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾، أي: مطرقٌ إلى هوى نفسه بحبلة خلقه بعد هدىً من ربه.

﴿أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾، يعني: المؤمن المهتدي على صراط مستقيم، أي: على شريعة طرق التوحيد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: بقي مكنون علمه فيما جرى في الأزل عن الخليقة، وإن كان صدِّيقًا، أو نبيًّا مرسلاً، أو ملكًا مقربًا، فيكون عنهم مستورًا، كما كان في سر الأزل قبل الخلق، ولو أمعنت النظر يا صاحبي في العلم، فإن حقيقة العلم منفيةٌ عن الخلق؛ إذ الخلق لا يعلم حقيقته، فإن حقيقة علم الأشياء لمنشئها لا غير، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، أثبت العلم بالحقيقة لنفسه.

قال يحيى بن معاذ: أخفى الله علمه في عباده عن عباده، فكلٌّ يَتْبع أمره على جهة الإشفاق، لا يعلم ما سبق، وبهاذا يختم له، وذلك قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

سورة القلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا
غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ
﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾
مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا
بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا
طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟
عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ
عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾، أي: «بنون» صفتي وقلم فعلي، «وما يسطرون» من أحرف مقاديري على ألواح أمري، وأيضًا «النون»: هو الذات، و«القلم»: الصفات، و«ما يسطرون»: من الأفعال على ألواح التقدير، وهي تستطرها بين الكاف والنون من العدم على ألواح الإرادة، وأيضًا «النون»: نور وجهه الذي يظهر يوم الشهود، وبه يسعى جميع العارفين والعاشقين إلى الأبد، وأيضًا: نور عنايته السابقة في الأزل في اصطفائية الأنبياء والأولياء، وأيضًا أي: بنيران قلوب المحبين، ونور فؤاد المشتاقين ونصرتي للأنبياء والمرسلين والأولياء والصدِّيقين، وأيضًا أي: بنظري على قلوب أحبائي، ونظر أسرارهم إلى لقائي، وأيضًا أي: بنوادر أنوار صفاتي، وبقلم أفعالي الذي يجري على ألواح أسرار العارفين، و«ما يسطرون»: الأرواح القدسية من مخاطباتي في أوراق أسرارها، وأيضًا أي: بالنون الذي جعلت في بطنها حجال معراج يونس، وأيضًا أي: نيرات ملكوتي ونادرات عجائب جبروتي، وأيضًا أي: بنور القرآن والعلم الذي كتبته في اللوح المحفوظ في أول الأول، وما ينتسخون منه سفرتي وكرام بررتي، وأيضًا أي: ابتدائي في أول وليتي من القدم إلى العدم؛ لإسماع أسر الأرواح القدسية

الملكوتية التي خرجت من العدم بكشف نور القدم، ونداء الأزل، وندائي للقلم حين قلت بعدما أوجدته اكتب ما هو كائنٌ إلى الأبد، وبهذا القلم النوري، وما يسطرون أهل قربي من خطابي أي: بهذه الأقسام المباركة يا حبيبي يا قرة عيون العارفين، وبنون حاجبيك، وقلم لسانك، ولوح وجهك، ومايسطرون كتبته أنوار تجلاتي من عجائب سنا كشف جمالي في جمالك لنظر هلال جلالك وجمالك.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝﴾، أي: لست باصطفائيتك، ونعمة ربك من النبوة والولاية، مثلما يزعمون هؤلاء الظلمة، بل أنت سيدٌ حبيبٌ صفيٌّ نبيٌّ مرسلٌ، رغم أنف الكفرة.

قال سهل: «النون»: اسم من أسماء الله، وذاك أنه إذا جمعت أوائل هذه السور الثلاث «الر»، و«حم»، و«ن» يكون الرحمن.

وقال جعفر: نور الأزلية الذي اخترع منه الأنوار كلها، فجعل ذلك لمحمد ﷺ، فلذلك قيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝﴾ أي: على النور الذي خصَّصْت به في الأزل.

وقال بعضهم: «النون»: نور القدرة، و«القلم» القضاء، و«ما يسطرون»: الملائكة كرام الكاتبين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝﴾: بيَّن له الأجر، وليس أجره في مقابلة فعله، وليس هو بناظرٍ إلى فعله وإلى شيء من الأعراض، ارتفع قدره عن ذلك لما وصفه الله في شهوده جمال الحق، بألا يميل إلى غيره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾، فأجره: قرْب الله ووصاله، وكشف جماله له أبدًا، وذلك غير محتجبٍ عنه، وأيضًا أجره: قبول شفاعته غير منقطعٍ شفاعته لأهل الكبائر من أمته، لا يخيب رجاءه في غفرانهم جميعًا بلا عتاب ولا عذاب.

قال سهل: غير محدود لما لم يطالع الأعواض، ولم يعتمد على شيء سوانا، كأن ذلك أجر غير ممنون، وهو ما شهدت من المشاهد والمواقف.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝﴾، أي: ألبَسْتك خُلُقي، فأنت على خلقي، وخلقي عظيم، ومن عظم خلقي أنه نعتي ووصفي ألبسته إياك، وخصصتك بحمله، فإن حمله لا يأتي من غيرك من العرش إلى الثرى، فإن بخلقك ذقت طعم شهود مشاهدتي، فيسهل عليك جريان القضاء والقدر، فأنت تشاهدني بنعت تحملك أثقال أمري فيك، فطابت خُلقك من خُلقي في خَلْقي.

قال الواسطي: هو لباس النعوت، والتخلُّق بأخلاقه؛ إذ لم يبق للأعراض عنده خطر.

قال الحسين: معناه: أنه لم يؤثر فيك جفاء الخَلْق بعد مطالعة الحق.

وقال: صغرت الأكوان في عينك بعد مشاهدة مُكوِّنها.

وقال: لأنك تنظر إلى الأشياء لتشاهد الحق، ولا ينظر إلى الأشياء ليشاهده ملك.

قال سهل: تأدَّبت بآداب القرآن، فلما تجاوزوا حدوده.

وقال الواسطي: أظهر الله قدرته في عيسى ونفاده في أصف، وسخطه في عصا موسى، وأظهر أخلاقه ونعوته في محمد ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ فإذا فتشت هؤلاء في الحقيقة لا تجد إلا نعوتًا قائمة بنعوت للمنعوت لا لغيره.

وقال: الخُلُق لا تحمله العوام، والخُلُق لمن تخلق بأخلاق الربِّ؛ لأن الله أوحى إلى داود «تخلَّق بأخلاقي، فأني أنا الصبور»[1]، فمن أوتي الخلق فقد أوتي أعظم المقامات؛ لأن المقامات ارتباطٌ بالعامة، والخُلُق ارتباطٌ بالصفات والنعوت.

قال الحسين: عظم خلقك حيث لم ترض بالأخلاق وسرت، ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات، ثم فنيت عن الذات بالذات، حتى وصلت إلى حقيقة الذات، ومَن فني بالفناء كان القائم عنه غيره بالفناء.

وقال: كيف لا يكون خلقه عظيمًا وقد تجلّى الله سره بأنوار أخلاقه، وحقٌّ لمن وقعت له المباشرة الثالثة أن يكون مفضَّلاً في خلقه؟!

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٣٣ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ۝٤١ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾: أخبر الله سبحانه أنه ينكشف يوم الشهود لعشاقه، وأحبائه، ومشتاقيه، وعرفانه عن بعض صفاته الخاصة، ويتجلى منها لهم، وهو كشف ستر الغيرة عن عورات أسرار القدم، فيشاهدونها بعيون عاشقةٍ حائرة

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ٤٦٥).

ناظرة إلى ربها، فيدعون إلى السجود من حيث غشيتهم أنوار العظمة حتى لا يحترقون في كشف ستر الصفة، فإنها موضع العظمة والكبرياء، ويبدو لطائف أنوار أسرار الذات، يظهر في لباس الالتباس حتى لا يفنيهم فناءً لا بقاء بعده، والمقصود منه زوائد المحبة، والنظر إلى وجود العظمة.

قال جعفر: إذا التقى الولي مع الولي انكشفت عنه الشدائد.

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾: وصف الله سبحانه في حقيقة الإشارة أهل السكر في المشاهدة، إذا وصلوا محض الاتصاف والاتحاد غابوا في غيبته، واستغرقوا في بحار ألوهيته، وفنوا من أوصاف الحدوثية بعد انتعاتهم بنعوت الألوهية، وصاروا باقين بنعته لا يرون وصفهم، ويرون وصف الحق، فكادوا أن يخرجوا بدعوى الأنائية، فإن الله سبحانه سيأخذ أنوار شموس الذات، وأقمار الصفات عن عيون أرواحهم قليلاً، قليلاً، وهم لا يعلمون من غلبة سكرهم وحلاوة أحوالهم حتى يغيب أنوار الغيب عن أبصار أسرارهم، ويبقيهم في عرصات الصحو حتى يروا أنفسهم في مقام الغيبة والاستتار.

قال الواسطي: لو كُشف للخلق لصاروا حيارى، ولكن يبدأهم بالتلبيس والسر، ثم يكشف؛ ليعرفوا قدر ما هم عليه، وأما الغاية فهو الاستدراج.

قال أبو الحسين بن هند: «المستدرج» السكران، والسكران لا يصل إليه ألم فجع المصيبة إلا بعد إفاقته، فإذا أفاقوا من سكرتهم خلص إلى قلوبهم ذلك، فانزعجوا ولم يطمئنوا، و«الاستدراج»: هو السكون إلى الذات، والتنعم بالنعمة، ونسيان ما تحت النعم من المحن، والاغترار بحلم الله ﷻ.

قال أبو سعيد الخراز: «الاستدراج»: فقدان اليقين؛ لأن باليقين تستبين فوائد باطنه، فإذا فقد اليقين فقد فوائد باطنه، واشتغل بظاهره، واستكثر عن نفسه حركاته وسعيه لغيبوبته عن المنة.

قال بعضهم: لولا الاستدراج لا يخلو العبد منه في وقت من الأوقات، ولولا الاستدراج لما عرف العبد طعم الكرامة، ولما انزجر عن العقوبة، فبالاستدراج يعرف العقوبة ويخلق المقت، وبالانتباه يعرف النعمة ويرجو القربة.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن

تَدَارَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾: أدّب حبيبه حين غلب عليه شوق لقائه، وثقل عليه رؤية غيره، وأراد أن يصل إلى جواره، فأمره بالصبر في ميادين بلائه بامتحانه؛ ليعرِّفه شرائف مقاماته في معرفة الذات والصفات، ويسرج من سراجه سراج العارفين والموحدين، فيرشدون برشده، ويرون الحق بنوره، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾، في قلة صبره عن مشاهدته، وبلاء استتاره والفناء تحت جريان امتحانه، وذلك حين نادى في ظلمات بطن الحوت، وهو مغتمٌّ تحت ذل الحجاب، فتلطف عليه الحق كاشف عنه غمة الفرقة، وأراه جماله، وذلك قوله: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: سوابق نعم الاصطفائية الأزلية، لكان في أرض الحجاب ذليلاً، ولكن أغاثته الاجتبائية والاصطفائية من ذلك الحجاب، وشرفه بكشف النقاب، وجعله من المتمكنين في النظر إلى وجهه لم يقع بعد ذلك إلى بحر الامتحان، ولا في حجاب الحرمان.

قال الله تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

قال الجنيد في كتاب «صبر الأنبياء»: قال الله لنبيِّه ﷺ المصطفى وحبيبه المرتضى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾: يستكشف لندائه ما مسه من ألم بلائه، ويستغيث مع وجود العزم على القيام بواجب الصبر، خوف دخول العجز، وإشفاقًا من ملامة العلم عند الإصغاء إلى الإبقاء على النفس التي لولا تدارك المنعم بالحفظ عند أول بادٍ من البلاء لدخل العجز بسلطان قهره عليها، لكن لوَّح له تعريض الخطاب: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾، لما سبق عنده من حكم الاختيار في قديم العلم.

قال الواسطي: الاجتبائية أورثت الصلاح، لا الصلاح أورث الاجتبائية.

سورة الحاقة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝﴾.

﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝﴾: يوم تُحقَّق حقائق الأمور عيانًا، لا يبقى فيها ريب أهل الظنون، وينكشف الحق لأهل الحق، ولا معارضة للنفس فيها، ونُبيِّن للجاهلين أعلام ولاية العارفين.

قال سهل: اليوم الذي يلحق كل أحد بعلمه.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾: الإشارة فيه أنه لما أوجد الله الأرواح قبل الكون أتى بها شط قاموس كشف ذاته وصفاته، فشربت الأرواح زلال أنهار القربة، وشراب الوصلة، وسمعت خطاب الألوهية، وسكرت من حلاوة الجمال والجلال، وهاجت إلى لجحها، وكادت تستغرق وتفنى فيها حين علا عليها أمواج سطوات العزة، ولطمات العظمة حملها الله هناك بعض العناية لتجري بها من الآزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال، فلما دار دور الدهر الدَّهار وجرى جري الفلك الدوَّار وخلق الكون جعل لها سفينة صورة آدم، وحمل بها الأرواح الغيبية الملكوتية، فتجري بها إلى معادنها الأولية.

قال القاسم: الأجسام لم تكن، والأرواح لا تحمل الجاري، وإنما هو جريان الحق بشرط الاتسام إذا عاينت الروح هذه المقامات عرفت سره.

قال الواسطي: أحد شقي آدم، وأخرج منه الذرية.

قال: حملناكم بشواهدنا، وأجرينا لكم الأوقات على مقاديرنا.

وقال الأستاذ: ذلك منته على خواص أوليائه أن يسلمهمْ في سفينة العافية، والكون يتلاطم أمواج بحار أشغالها على اختلاف أوصافها، وهم بوصف السلامة لا منازعة مع كل واحدٍ، ولا محاسبة مع أحدٍ، ولا توقع من أحدٍ، سالمون من الناس، والناس منهم سالمون.

قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝﴾: حقائق أسرار الخطاب لا يعلمها إلا القلوب الذاكرة، والأرواح الشائقة، ولا يسمع أصوات هواتفها بالحقيقة إلا سماع الأسرار من

الأنوار للأرواح والعقول، تسمعها من الحق، وتفهمها بالحق.

قال الوسطي: آذانٌ وعت عن الله أسرارها.

وقال: ﴿واعية﴾ في معادنها ليس فيها من شاهدها شيئًا، هي الخالية عمن سواه: فما اضطراب الطبائع إلا ضربًا من الجهل.

قال جعفر: تلك آذانٌ فتحها الله للمواعظ، وشرح قلوبًا؛ لقبول تلك المواعظ، وسهَّل على نفوسها استعمال تلك المواعظ، والقيام بمواجبها.

وقال: تلك آذانٌ أسمعها الله في الأزل خطابه، فهي ﴿واعية﴾: يعني من الحق كل خطاب[1].

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾: يعتد الحق لأوليائه العاشقين الذين يحملون مؤن أثقال الحجاب يوم كشف النقاب، ويقول لهم: اشربوا شراب وصالي هنيئًا لكم، بأنه وصالٌ بلا فراق، وعيش بلا كدورة، وأنس بلا وحشة، بما أسلفتم من إلقاء أزمة همومكم على أعناق مراكب أفكاركم التي صعدت عند كل نفس إلى مصاعد ملكوتي، وسادات جبروتي، كم شوقٍ تشتاقون به إليَّ، وكم غمٍّ تغتمُّون به لأجلي، وكم بذل تبتذلون به لأجلي حين بذلتم أرواحكم لضرب سيوف شوقي، وكم تمرغ من أنفسكم في تراب جناب حضرتي، لأجل مشاهدتي، هنيئًا لكم لقائي أبدًا، عيشوا في رياض قربي، واستأنسوا بجمالي، فأنتم لي، وأنا لكم، والإشارة في الأيام الخالية أيام الله الذي هو منـزَّهٌ عن دور الأفلاك، ومطهَّرٌ من الكون والأملاك، أيام قدم القدم وأزل الأزل أسلف الله لهم العناية، فتلك الأيام خالية من الأعمال والعلَّات والأسباب، كأن تلك العناية أسفلها المحبوبون؛ إذ الحبيب الأكبر قائم مقامهم قبل وجودهم، فمَن حيث الاتحاد الحبيب

---

(١) أي حافظة لما جاء من عند الله. وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة. تفسير الخازن (٦/ ص ١٥٣).

والمحبوب واحدٌ، ألا ترى كيف قال لحبيبه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، كأنهم كانوا في الأزل وأيام القدم مع حبيبهم، إذ الحبيب كان قائمًا مقامهم، وإن كانوا معدومين، أي: اشربوا شراب وصالي من أزل الآزال إلى أبد الآباد، فأيام القدم خالية عن وجود الحدثان، وأيام البقاء لا تكون خاليةً عن شوق المشتاقين، وزفرة الواهين، ودوران العارفين في ساحة كبريائه، وسرادق بقائه.

قال الواسطي: أي: الأيام الخالية عن ذكر الله؛ لتعلموا أنكم في فضله دون جزاء الآمال.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾: أقسمَ الله سبحانه بما ظهر من أنوار صفاته في آياته لذوي الأبصار من العارفين.

﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾: من كشف ذاته التي لو بدا نورٌ من أنواره لذابت من سبحات الكون وما فيه، وأيضًا «ما تبصرون» من معجزات أنبيائي، وكرامات أوليائي، وما لا تبصرون عما في قلوبهم من العلوم اللّدنية، والأحكام الغيبية.

قال جعفر: بما تبصرون من صنع في ملكي، وما لا تبصرون من برِّي إلى أوليائي.

وقال الجنيد: بما تبصرون من آثار الرسالة على حبيبي وصفيِّ، وما لا تبصرون من سري معه الذي أخفيته عن الخلق.

قال ابن عطاء: بما تبصرون من آثار القدرة، وما لا تبصرون مما اخترن من خلقه الذي لم يجر القلم به، ولم يشعر الملائكة بذلك، وما أظهر الله للخلق من صفاته، وأراهم من صنعه، وأبدا لهم من علمه في جنب ما اخترن عنهم إلا كدرة في جنب الدنيا والآخرة، ولو أظهر الله من حقائق ما اخترن لذابت الخلائق عن آخرهم فضلاً عن حملها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾: كيف التقوُّل منه، وهو مقدَّسٌ بحفظ الله وعنايته عن الشرك، والشك، والنفاق، وسوء الأخلاق، هو عالم تعالى بأن قلبه ولسانه لم يكونا موضع الاختلاف والقول لكُنْه هذه، بأنه لا يكشف بأسرار الحق التي انكشفت له من غيب الغيب، وتلك الأسرار لو ظهرت بعضها للخلق لتعطلت الأحكام، وطاشت الأرواح، واضمحلَّت الأجسام.

قال الواسطي: ما كشفنا له من الحقيقة لو نطق بها لاقينا أوصافًا، مع أن كل ذكر ليس بذكر، وليس لله وقتٌ ماضٍ، ولا حينٌ مستأنفٌ.

وقال أيضًا: علامة مجذوب الحق إذا رغب حجب، وإذا صرف جذب.

قال: لَعمرك أنه حجب، ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل جذب، وإذا أظهر نفسه حجبه، وإذا أظهره لغيره جذبه مع أن كل مثبتٍ محجوب.

وقال أيضًا: لم يلطف له بلطيفه، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾، وهذا الخطاب تلبيس، ولو تقوَّل تنبيه، وهو أتمُّ له في ذلك الحال.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾: «حق اليقين»: ما بان باطنه من ظاهره، وظاهره من باطنه، وباشر نور القلب، ويحرق ما دون الحق من ذكر الخلق، وهو الحق من حيث الحقيقة التي ظهرت في لباس الآيات، إما ذاتًا، وإما صفة، وكلامه حق عيان بأنه فيه الاسم والمسمّى، وذلك من حيث الحقيقة واحدٌ، فلم يبق لعارفه شكٌّ ولا مكاشفة حجاب، ثم خاطب المكاشف المحقق بأنه منـزهه عن الظنون، والأوهام، والممازجة بالحدثان بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

قال الجنيد قُدِّس سره: «حق اليقين»: ما يتحقق للعبد من معرفة بالحق، وهو أن يشاهد الغيوب، كمشاهدة المرئيات مشاهدة وعيان يحكم على الغيبات، ويخبر عنها بالصدق كما أخبر الصدِّيق الأكبر في مشاهدة النبي ﷺ، وبين يديه حين سأله: «ما أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله»[1]، فأخبر عن تحققه بالحقيقة، وقطعه عن كل ما سواه، ووقوفه معه على

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٦).

الصدق، ولم يسأله النبي ﷺ عن كيفية ما أشار إليه؛ لما عرف من صدقه وبلوغه المنتهى فيه، ولما قصر حال حارثة عن حاله لما قال: «أصبحتَ مؤمنًا حقًّا»[1]، فأخبر عن حقيقة إيمانه، سأله النبي ﷺ عن ذلك لما كان يجد في نفسه من عظم دعواه، ثم لما أخبر لم يحكم له بذلك، وقال: «عرفتَ فالزم»[2]: أي: عرفت الطريق إلى حقيقة الإيمان حتى تبلغ إليه، وترى حال أبي بكر الصدِّيق ﷺ مستورًا من غير استخبار عنه، ولا استكشاف؛ لما علم من صدقه فيما ادَّعى، وهذا مقام حق اليقين.

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝﴾.

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾: هذا وصف أهل الأمل، والظن الكاذب الذين يظنون أنهم يُتْرَكون في قُبائح أعمالهم، وهم لا يُعذَّبون.

قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝﴾: افهم أن للملائكة والروح مقاماتٌ معلومةٌ في عالم الملكوت، فإذا عرجت الملائكة من مسقط الأمر إلى مصعد المعلوم يكون بيوم كان مقداره عندنا خمسين ألف سنةٍ، وهم يعرجون بأقل ساعة، وليس للحق مكان ومنتهى، إن الخلق يعرجون بل إن ظهور عزته وجلاله في كل ذرة عيان، فإذا رفعت القرب والبعد من حيث المسافة وأدرجت الأوهام لم يكن بين الحق وبين الروح وصول الحق بأقل طرفة، فإن الوصول منه وهي قريب غير بعيد.

قال سهل: تعرج الملائكة بأعمال بني آدم إلى الله، والروح إليها ناظر في ذلك المشهد.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝﴾: واسى قلب نبيِّه ﷺ، وأمره بالصبر الجميل، وهو الصبر بالله لله في الله، فإن نازله العذاب لمن مؤذيك يقع عليه نعته بحيث لا يقدر دفعها من جميع الوجوه، فانظر إلينا ولا تنظر إليه، فإنه مأخوذٌ.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦).

قال سهل: الصبر الجميل رضًا بغير شكوى، ثم بيَّن أن الكافرين والمنكرين يرونهم عذابًا بعيدًا، بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾: إن المنكر لا يظن أنه مأخوذٌ قط، ولا يعلم أنه وقع في العذاب، ولا يدري.

قال سهل: إنهم يرون المقضي عليهم من الموت والبعث والحساب بعيد البعد، أما قوله: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾: فإن كل كائنٍ قريبٍ، والبعيد ما لا يكون.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾: طبْع الإنسانية خُلق ضعيفًا لا يطيق تحمُّل البلاء، قال سبحانه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾: وذلك الطبع طَبْعٌ ممتزجٌ بطبع الشيطاني، والنفساني والهوائي، والشهواني، فإذا أتاه مراده سكن به، ويمنع ذلك من طلاب الخير، وإذا لم يؤت إليه مراده يشتكي، ويجزع، ويضجر، ولا يصبر، فإذا أراد الله بالعبد خيرًا جعل ذلك الطبع مسخَّرًا له حتى يطمئن.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾: يعني العارفين بالله، الساكنين تحت جريان مقاديره، المستقيمين به عند امتحانه.

قال سهل: هلوعًا منقلبًا في حركات الشهوات، واتباع الهوى.

قال ابن عطاء: «الهلوع» الذي عند الموجود يُرضى، وعند المقصود يسخط.

وقال في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[1]: العارفين بمقادير الأشياء، فلا يكون لهم لغير الله

---

(١) اعلم أن دوام الصلاة لا يمكن بالصورة؛ بل بالمعنى؛ وذلك أن مَن سَجد قلبه لله تعالى سجدةً حقيقيةً، وخضع خضوعًا تامًا؛ فإن عبادته لله تعالى مستمرة سواء كان على اليقظة، أو على النوم؛ لأن النوم إنما يجري على صورته لا على قلبه، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ينام عيناي ولا ينام قلبي»، فإذا كان قلب الرجل يقظانًا، سرى ذلك في جميع أجزائه وقواه؛ فإن القلب أصل القوى والجسد، فإذا صلح؛ صلح القوى والجسد كلها، كما أنه إذا فسد؛ فسد القوى والجسد كلها.

فرح، ولا إلى غيره سكون.

وقال سهل: إذا افتقر جزَع، وإذا آثر منع إلا المصلين الموفَّقين من عباده.

قال الواسطي: «جزوعـًا» لِمَا يجهل من القسمة، وأما «المنع» فهو من صفة المنافقين.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾: «أماناتهم»: أمانة الاصطفائية الأزلية التي أودع أنوارها قلوب العارفين حين عاينته أرواحهم في مشاهد الأولية، و«عهدهم»: ما عهد الله بأنه لهم، وهم له لا لغيره، فهم مدخل بالمحبة فمن راعى عهده، وأمانته بشرط المحبة، والشوق، والعشق، وبذل الوجود، والطرب بلقائه، وحسن الإقبال عليه على السرمدية، ولا يتقاعد عنه بشيء من دونه، فهو من الذين﴿هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

قال بعضهم: «الأمانة»: سر الله عند عباده تسلوهم بها في خواطرهم، ويُسَرُّوا به بالنجوء، والافتقار إليه أبدًا، فإذا سكن القلب إلى ما خطر من وسوسة النفس بإذنه الأمانة بحقها بمفارقتها، والأمانة عهد الله، ورسوله بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾.

قال الجنيد: إنما هي حفظ القلب مع الله على التوحيد، و«الأمانة»: المحافظة على الجوارح.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: الذين شاهدوا مشاهدة الله قائمين في مقام مشاهدته، مستقيمين في النظر إليه، لا يزولون عن مقامهم، وهم بشرط محبته إلى الأبد قائمون، وببذل وجودهم واقفون.

قال سهل: قائمون بحفظ ما شهدوا به من شهادة أن لا إله إلا الله، فلا يشركون به في شيءٍ من الأفعال، والأقوال، والأحوال.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾

أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أمين الله على أوليائه الصادقين أنه يبلغهم إلى جواره؛ لأنَّهم خُلقوا من تربة الجنة، وخُلقت أرواحهم من نور الملكوت، وإلى مواضعها تَرجعُ، وللقائه خَلقهم، ومن نوره أوجدهم، وإن أهل الخذلان خُلقوا من عالم الشهواني، والشيطاني، ومنبعها النار، فيدخلون مواضعهم؛ لأنهم ليسوا من أهل جواره، ونحن لا ننظر إلىٰ ما خلقنا منه من النطفة والطين، ولا نعتبر بها، فنحن نعتبر بالاصطفائية والخاصية في المعرفة، فإن بهما يصلون إلى جوارِ الله.

قال الواسطي: ما يؤيسهم من دخول الجنة، أي: خَلقْناهم للكفر، والإيمان، والثواب، والعقاب.

سورة نوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾[1]: كان نوح ﷺ مشكاةَ نورِ عظمة الله؛ لذلك أرسله إلى قومه

(١) أشار بنوح إلى الروح، وذلك من حيث المراتب الأربع التي حصلت للروح من حيث أولية، وآخرية، وظاهرية، وباطنية، فالروح نوح: أي سابق على قومه من القوى الروحنية، والأعضاء الجسمانية، وإذا الفاعل قبل القائل، وقد أرسله الله إلى قومه؛ فهو المؤثر فيه لا غيره تعالى؛ لأنه لا غير هنالك حتى يكون هو المباشر للإرسال، وكذا كل الإرسالات الواقعة في الدنيا؛ فإنها كلها مضافة إلى الله تعالى، فإن الإرسال إمَّا من الشيخ المرشد؛ فذلك مضاف إلى الإلهام الإلهي، وإمَّا من الجناب النبوي؛ فذلك مضاف إلى الوحي الربَّاني، والكل؛ لكن المظاهر متعددة بحسب المقامات والأطوار، وقد يترقَّى =

بالإنذار، فلما عصوه أثر منه قومه من قهر الجبروت، والأنبياء، والأولياء في درجات القرب على تفاوت، فبعضهم يخرجون من نور الجلال، وبعضهم يخرجون من نور الجمال أورث قومه البسط، والأنس، والسهولة، ومَن خرج من نور العظمة أورث قومه الهيبة، والإجلال.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾: من أصرَّ على المعصية أورثه التمادي في الضلالة حتى يرى قبيح أعماله مستحسنـًا، فإذا رآه مستحسنًا يستكبر ويعلو به على أولياء الله، ولا يقبل بعد ذلك نصيحتهم.

قال سهل: الإصرار على الذنب يُورث الاستكبار، والاستكبار يورث الجهل، والجهل يورث التخطِّي في الباطل، والتخطِّي في الباطل يورث قساوة القلب، وقساوة القلب يورث النفاق، والنفاق يُورث الكفر.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾: كان الله في الأزل غفَّارًا لذنوب عباده، فدعاهم إلى رؤية غفرانه الأزلي بنعت الافتقار إليه، ورؤية التقصير في العبودية، والندم على ما ضاع من أيّامهم بالغفلة عن الله.

قال بعضهم: الاستغفار أوائل طلب التوبة.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾، أي: إذا كنتم مستسقين من عطش الشوق إلى لقائه يُنـَزِّل من سماء قربه مطر رحمته، وهي كشف مشاهدته، ثم ذلك المطر الغزير بأنه يُنْبِت في بساتين قلوبهم أشجار المعرفة، ورياحين المحبة، ويُجري في أرض عقولهم أنهار الحكمة، بقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

قال جعفر: يُزيِّن ظاهركم بزينة الخدمة، وباطنكم بأنوار الإيمان.

= السالك في بعض المواطن إلى حيث يأخذ الإذن من الله تعالى بلا واسطة، وذلك لا يلزم منه ترك الوساطة، فإن ذلك بشفاعة الواسطة، أو باستهلاك الكل في عين الجمع، وليس هناك إلا الله تعالى.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾: طورٌ من أهل المعرفة، وطورٌ من أهل الحكمة، وطورٌ من أهل التوحيد، وطورٌ من أهل الشوق، وطورٌ من أهل العشق، وطورٌ من أهل الفناء، وطورٌ من أهل البقاء، وطورٌ من أهل الخدمة، وطورٌ من أهل المشاهدة، خَلَقَ طورَ الأرواح القدسية من نور الجبروت، وخَلَقَ طورَ العقول الهادين العارفة من نور الملكوت، وخلق طور القلوب الشائقة من معادن القربة، وخلق طور أجسام الصديقين من تراب الجنة، فكل طورٍ يرجع إلى معدنه من الغيب.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٤ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾: جعل أرض الغيوب بساطًا للقلوب؛ ليسلك في طريق أنوارها الأرواح والعقول؛ لطلب مشاهدة جلاله وجماله.

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾: خلق الله بعض أوليائه من الجن وهم أرواح ملكوتية وأجسام روحانية، وهم إخواننا في المعرفة يطيعون الله ورسوله، ويحبون

أولياءه، يستنون بسنة نبيِّنا ﷺ، ويسمعون القرآن، ويفهمون معناه، وبعضهم شاهدوا النبي ﷺ وسمعوا كلام الحق منه شفاهًا، وخضعوا له إذعانًا، واستبشَروا بروح الله وروح خطابه استبشارًا.

قال ابن عطاء: تعجَّبت الجن من بركات القرآن، لما سمعوه وجدوا في قلوبهم روحًا، وفي أسرارهم نورًا، وعلى أرواحهم راحة، وفي أبدانهم نشاطًا للائتمار بأوامره، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي: كتابًا عجيب البركة، ثم وصف بركته بقوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: يهدي إلى معدنه، وهو الذات القديم.

قال الجنيد: إلى الوصول إلى الله، وهو الرشد.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ علت عظمة جلاله عن أن يكون لها ضدٌّ من الأضداد، وندٌّ من الأنداد، وأن يدركه أحدٌ بنفسه.

قال الجنيد: ارتفع بشأنه عن أن يتخذ صاحبة أو ولدًا.

وقال: الذي تعالى عظمته عن أن يكون إليه سبيلاً إلا به، أو يلوثه ما أحدثه بل لا دليل على الله سواه، ولا أثر لشيء عليه؛ لأنه الذي أبدى الآثار.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: من يعرف ربه فلا يخش على نفسه السقوط من الدرجات، ولا يبقى في حجب المجاهدات، بل يبلغ إلى أنوار

المشاهدات.

قال الواسطي: حقيقة الإيمان ما أوجب الإيمان، فمن بقي في مخاوف المرتابين لم يبلغ إلى حقيقة الإيمان.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم﴾ [(١)] أي: لما عاينوا في أهل معارفي استقاموا في طوارقات أنوار مشاهدتي، وصبروا في واردات بحار حقائق وجودي؛ لأسقينا أرواحهم وعقولهم وقلوبهم مياه بحار أسراري وأنهار أنواري.

قال بعضهم: هو القيام على سبيل السنّة، والميل إلى أهل الصلاح؛ لكشفنا على قلوبهم ماء الوداد.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾: مساجد القلوب لزوّار تجلّيه، فلا ينبغي أن يكون فيها ذكر غير الله.

قال ابن عطاء: مساجدك أعضاؤك التي قررت أن تسجد عليها لا تخضعها ولا تذلّلها لغير خالقها.

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) الإسقاء والسقي بمعنى واحد، وقال الراغب: السقي والسقيا هو أن تعطيه ماء ليشرب والإسقاء أن تجعل له ذلك له حتى يتناوله كيف شاء كما يقال اسقينه نهرا فالإسقاء أبلغ، وغدق من باب علم إذا غزر وصف الماء به للمبالغة في غزارته كرجل عدل وتخصيص الماء الكثير بالذكر لأنه أصل السعة وإن كان أصل المعاش هو أصل الماء لا كثرته ولعزة وجوده بين العرب قال عمر -رضي الله عنهما- أينما كان الماء كان العشب وأينما كان العشب كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة والمعنى لأعطيناهم مالا كثيرا وعيشا رغدا ووسعنا على الرزق في الدنيا. تفسير حقي (١٦ / ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ : أمره بإظهار تلاشي الكون في عظمته، وغلبة قهر سلطانه على الكائنات جميعًا، وهذا رؤية فردانية الحق بنعت الاستغراق في بحار كبريائه.

قال القاسم: هذه لفظةٌ تدل على إخلاص التوحيد؛ إذ التوحيد هو صرف النظر إلى الحق لا غير، وهذا لا يصح إلا بالإقبال على الله، والإعراض عمّا سواه، والاعتماد عليه دون ما عداه.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ : سترَ الله أنوار غيبه من جميع الخلق إلا من أرواح النبيين والمرسلين، وعقول الصدِّيقين وقلوب العارفين، وأسرار الموحدين هم مستشرقون بالله على غيب الله، وهم أهل مكاشفات صحيحة، وفِراسات صادقة، ومشاهدات واضحة.

قال بعضهم: أخفى الحق الغيب عن الخلق، فلم يُطلع عليه أحدًا من عباده إلا الأولياء على طرف منه بأخبار صدق أو تلقف من الحق والأولياء، والأمناء أصحاب الفِراسات الصادقة، فإنهم ينظرون بنور الغيب، فيحكمون على الغيب.

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ :أظهر قهر سلطان جبروته على كل ذرة من العرش إلى الثرى، فإنه موجد الأشياء، والعالم بها قبل إيجادها، ظاهرًا وباطنًا، صغارًا وكبارًا.

قال القاسم: هو أوجدها، فأحصاها عددًا.

سورة المزمل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ : إن الله سبحانه اشتاق إلى مناجاة حبيبه ﷺ، فناداه أن يقوم في أجواف الليالي بحسن الإقبال، ونعت الاستقامة في مشاهدته، فإنه المقام المحمود

الذي خصَّه الله به دون غيره، وهذا كقوله: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، وتسميته بالمزمل؛ لأنه مخفيٌّ عن عيون أهل الحدثان لا يطَّلع على ما خصَّه الله به من لطفيات قربه، وغرائبات دنوه أحدٌ من العرش إلى الثرى، أي: قم عن مكمن الغيب، وأظهر شرائفات اصطفائيتك برفعك أعلام نبوتك، ورايات رسالتك، فإنك مؤيدٌ منصورٌ، كان متزمّلاً بكساء لاطلاعه بامتناع أحدية الأزل، بألا يدركها أهل الحدثان، فمن هموم فقدانها دخل تحت كساء الحياء والإجلال من ظهور عظمة الحق له، وهو في منـزل بين رجاء الوجدان وخوف الفقدان.

قال ابن عطاء: أيها المخفي ما يظهره عليك من آثار الخصوصية آن آوان كشفه، فأظهره، فقد أيدناك بمن يتبعك ولا يخذلك ولا يخالفك، وهو أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب.

وقال القاسم: يا أيُّها المزمل بالنبوَّة، ويا أيُّها المدّثر بالرسالة.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: غُصْ في بحار القرآن، فإن فيها جواهر أسرار الرحمن، واسكن عند كشوف معنى أسرار خطابي من القرآن، حتى تستوفي حقائقها، فإن تحت كل حرف بحرٌ من رموز لطائف القدم، فإن مثلك يسبح في بحر صفاتي؛ لذلك أفردتك بهذا الخطاب.

قال أبو بكر بن طاهر: دبِّر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾: كيف لا يثقل قوله سبحانه، قوله قديم، وأجدر أن تذهب تحت سطوات عزته الأرواح، والأشباح، والأكوان، والحدثان هو بذاته يحمل صفاته لا غير، وكان ﷺ مؤيدًا بالاتِّصاف بالحق، فكان يحمل الحق بالحق لطائفه لطيفة على قلبه، ثقيلة على من لا يفهمها؛ إذ القرآن بجماله حيث انكشف، صار لطيفًا على أهله، وحيث لا ينكشف ثقيلٌ على غير أهله.

قال أبو بكر بن طاهر: لا يحمله إلا قلبٌ مؤيَّدٌ بالتوفيق، ونفس مزيَّنةٌ بالتوحيد، وهو قلبك ونفسك يا محمد، ومن يطيق حمل ما أطقته من تلقف الخطاب عن المشاهدة، لأنك مؤيَّدٌ بالعصم.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾: تهجد الليل وساعاته موافقة لقلوب أهل مناجاته، وأسهل من طاعة النهار من أهل مراقباته؛ لما فيها من كشوف مشاهداته لهم، وحلاوة مخاطباته، أشد ناشئة لأهل المجاهدات، وأسهل لأهل المشاهدات، وأقوم قيلاً قول الناجي ربه عند شكواه في ظهور عظمته من فقدان كلِّيته.

قال سهل: ما ينشئه العبد من عبادة الليل، هي أشد مواطأة على السمع والقلب، من الإصغاء والفهم، وأقوم قيلاً، وأثبت رتبة.

وقيل: أصوَبُ قولاً؛ لأنه أبعد من الرياء.

وقيل: عبادة الليل، أتمُّ إخلاصًا، وأكثر بركةً.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ (١) أي: في نهار المشاهدة، وكشفها لك في بحر الأزل والأبد، سباحة طويلة سباحة النهار غوص الروح في بحر الآيات؛ لطلب جواهر الصفات.

قال ابن طاهر: اشتغالاً بالخدمة، وإقبالاً على الله، وانتظارًا لموارد الوحي.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أي: إذا أردت أن تَسْبح في بحر جلالنا وقربنا وتريد أن تلقي نفسك فيها انقطع عن حدثان، واطرح نفسك فيها بتأييد الرحمن، واعتصم باسمه، فإذا اعتصمت باسم الله لا تفنى في الله، هذا إذا ذكر قوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، فكيف يكون إذا قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾، فإن في الاسم يبقى، وفي المسمّى يفنى، دعاه أولاً إلى ذكره، ثم دعاه إلى مذكوره، أي: اذكرني بذكري، ثم انقطع من الذكر إليَّ ومني إليَّ، فالأول في الذكر حظُّ العبودية، وفي الثاني حظُّ الربوبية، فإذا ظهر حظُّ الربوبية يفنى حظُّ العبودية.

قال ذو النون: سبحان من دلَّ من الذكر أغصانًا إلى الدنيا، أشجارها في الملكوت، وأطعم القلوب من ثمارها، فأشفقهم في الدنيا والآخرة، هذا فعل الذكر به، فكيف إذ بهجهم

---

(١) أي: سبحاً في أعمالك، والسبح: الذهب والسرعة، ومنه السباحة في الماء، فالمعنى: مذاهبُك في النهار فيها يَشْغَلُك كثيرةٌ، والليلُ أخلَى لك. تفسير القشيري (٧/ ٤٩٤).

الحب عليه، وأنشد لنفسه مفردًا في هواه قد ذاب شوقًا مستطارًا لفؤاد يعشق فردًا.

قال القاسم: اتصل به اتِّصالاً ما رجع من رجع إلا من الطريق، وما وصل إليه أحدٌ فرجع عنه.

وقال بعضهم: فتح الله على النبي ﷺ أولاً أسباب التأديب، ثم أسباب التهذيب، ثم أسباب التذويب، ثم أسباب التغييب، «فالتأديب»: الأمر والنهي، و«التهذيب»: القسمة والقدرة، و«التذويب»: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾، و«التغييب»: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أفرد نفسه بالفردانية عن الأضداد والأنداد، وعرف نفسه بالوحدة لحبيبه ﷺ، فلما نفى الغير أقبله على رؤية الوحدانية بقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: انقطع عليه، فإنه حسبك على كل شيء دونه، ويعطيك ما وعدك من الدرجات الرفيعة، والمداناة الشريفة، وإدخال أمتك الجنة.

قال سهل: أي: كفيلاً بما وعدك من المعونة على الأمر والعصمة على النهي والتوفيق؛ للشكر والصبر في البلوى، والخاتمة المحمودة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾: القرآن تذكرة العارفين؛ لأنه الأنباء الصفاتية تنبئ كل كلمة عن صفة الله الأزلي، ويرشده بنوره إلى معدنه من الذات، كأنه سراجُ قلب كل صادقٍ محبٌّ موافقٍ يسيرون إليه، فلكلٍّ منه إلى الحق سبيلاً يسلك فيه إلى الله وسيلة أكثر من نجوم السماء، أمرهم أن يتخذ كل واحدٍ منهم سبيله الذي اختصه الله به، فهو سبيل الهدى يبلغه إلى معادن القِدَم، وأماكن البقاء؛ لذلك قال لحبيبه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قبل القرآن موعظة للمتَّقين، وطريق للسالكين، ونجاة للهالكين، وبيان للمستبصرين، وشفاء للمتحيرين،

وأمان للخائفين، وأنس للمريدين، ونور لقلوب العارفين، وهدى لمن أراد الطريق إلى ربه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌ ﴾.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾: إن الله سبحانه وتعالى أخبرهم في الأوائل بالمجاهدات، فلما صاروا أهل الذوق والمشاهدات لم يأت منهم المجاهدات؛ لأن أهل الأنس والبسط غائبون بأنوار المشاهدات عن المجاهدات، فتلطَّفَ عليهم الحق، بأن رفع عنهم أثقال العبودية، وكاشف لهم أنوار الربوبية، ثم أمرهم بأن يترنَّموا بآيات من كتابه ما يوافق حالهم من خيرِ وصول الوصال، وصفاء الأحوال والبسط، والانبساط، والروح، والراحات بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي: ما يهيِّج قلوبكم بنعت المحبة إلى مشاهدة الرحمن.

قال الواسطي في قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: لن تطيق القيام بأمره، لن تضبطوا أعمالكم بالصحة والبراءة من العيوب، فتاب عليكم، فعاد عليكم بفضله، وقبل منكم أعمالكم مع أن من لقيَه بنعمه كان منقطعًا عن المنعم بالنعم، ومحجوبًا بالصفات عن الذات.

وقال جعفر في قوله: ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾: قال: ما يتيسر لكم في خشوع القلب، وصفاء السر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: هذا العموم والخصوص خبر أنفاسهم التي صعدت منهم بنعت المحبة والشوق إلى الله، فهم يجدونها بكشوف أنوار الذات والصفات، ولكل نَفَسٍ من أنفاسهم لهم هناك قربٌ، ووصالٌ، وحسنٌ، وجمالٌ.

قال الله: ﴿هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ أي: نفس المحبة والشوق خيرٌ من جميع الأعمال الصالحة، وأجرها كشف اللقاء، ثم أمرَ الجميعَ بالاستغفار عن رؤية الأعراض والأعمال عند رؤية جماله وجلاله، بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: من السكون إلى الأحوال، فإنه غفورٌ

لخطرات العارفين، رحيمٌ بهم، بأن يوصلهم إليه بلا كلفة المجاهدات، ولا عسر المعاملات، قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾.

وقال بعضهم في هذه الآية: ما تنفقوه في مرضاة الله خيرٌ لكم من الإمساك والشحِّ.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: على الوجوه كلها، فما كان ذلك خالصًا لوجه الله لا رياء ولا هواء ولا سمعة فيه، فهو عزيزٌ لا يصل إليه إلا الأبرار المقربون.

سورة المدثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي: أيُّها الغريق في قلزم القدم قُمْ بدعوى محبتي، وأنذِر أحبائي عن الاشتغال بغيري، وأظهر جوهر حقائق بحر عيني للمقبلين إلينا.

قال سهل: يا أيُّها المستغيث من إغاثة نفسك على صدرك وقلبك قم بنا وأسقط عنك ما سوانا، وأنذر عبادنا، فإنَّا قد هيأناك لأشرف المواقف، وأعظم المقامات.

وقال بعضهم: أزعج سره بالتجريد عن سكونه عن القيام في الطلب، وعن طمأنينته حتى ورَمت قدماه، ثم قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فدلّ ذلك على دعوته إيَّاه على التفريد.

وقال بعضهم: قُمْ إلينا بالقعود عمن سوانا.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ [(1)] أي: كبِّره برؤية كبريائه بحيث لا يبقى في قلبك النظر إلى غير كبريائه، وطهِّر قلبك عن وقوفه على ما يجد من المداناة والقربات، فانٍ وراء الوراء.

قال الجريري: كبِّر الكبير، واعلم أنك لا تنال كنه كبريائه.

قال الحسين: عظِّم قدره عن احتياجه إليك في الدعوة إليه، فإن إجابة دعوتك ممن سبقت له الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾ أي: لا تعطِ وجودك إلينا على رؤية الأعواض من غيرنا؛ لتستكثر الدرجات والأعواض، فإن هذه من سجية من لا يعرفنا.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾ في بذل وجودك في جريان تقديره، وأيضًا أي: مع ربك وفي ربك حين انكشف لك أنوار أسراره، وخاصيتك في النظر إلى جلاله وجماله، ولا تنزعج، فتسقط عن درجة التمكين.

قال القاسم: لا ترى ما أنت فيه لله كثيرًا وتستكثره؛ فإنه لا حدَّ لأحدٍ يقوم بمواجبه ولوازمه، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾: تحت القضاء والقدر.

قال ابن عطاء: لا تمنن بعلمك، فتستكثر طاعتك، ولا تكون رؤية الاستكثار إلا برؤية النفس، فمن أسقط عنه رؤية نفسه فقد أزال عنه رؤية الأعمال والطاعات والاستكثار بها.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

---

(١) قال سهل: أي لا تلبس ثيابك على معصية، فطهره عن حظوظك واشتمل به، كما حكت عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان لرسول الله ﷺ خميصة، فأعطاها أبا الجهم وأخذ إنبجانيته. فقيل: يا رسول الله إن الخميصة خير من الإنبجانية. فقال: «إني كنت أنظر إليها في الصلاة». التستري (٢/ ٢٠٣).

ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾: جنوده وعظمته وكبرياؤه وسلطنته وقهره الذي صدرت منه جنود السماوات والأرض، وله جنود قلوب العارفين، وأرواح الموحدين، وأنفاس المحبين التي يستهلك بها كل جبَّارٍ عنيد، وكل قهَّارٍ عتيد.

قيل: قال الله لمحمدٍ ﷺ: إنكم لا تقفون على المخلوقات، فكيف تقفون على الأسامي والصفات؟!

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ﴾: أقسمَ الله بأقمار أرواح الصدِّيقين حين تصير بدورًا في رؤية شمس جلاله وجماله، وأقسم بذهاب ليالي هجران أهل الشوق حين أقبلت إلى قلوبهم أنوار قربه ومشاهدته، وأقسم بطلوع صبح أنوار صفاته وذاته عن مطالع أسرار الواصلين، ويزيل بنوره ظلمات الطبائع والهياكل، وصارت عرصات قلوبهم صافية عن كدورات الكون، ولا يرى عيون أسرارهم فيها إلا فردانية الله التي تقدَّست من كل علَّةٍ من علل الحدثانية.

قال القاسم: كلَّا وربِّ القمر جذب عباده إليه بالإشارة.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾: ظلم السرائر إذا انكشف، وضياء الأنوار إذا ظهر على القلوب.

وقال الأستاذ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾: ضياء أنوار الحقائق إذا تجلَّت في السرائر.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾: أنفس المحبين رهينةٌ بالمحبة، وأنفس المشتاقين رهينةٌ بالشوق، وأنفس العاشقين رهينةٌ بالعشق، وأنفس العارفين رهينةٌ بالمعرفة، وأنفس الغافلين رهينةٌ بالغفلة، ولكل نَفْسٍ عنه حجابٌ، فمن شاء أن يخرج عن الحجب فليخرج من الأنفس، وليقبل على مشاهدة ربِّ الأنفس، فإن الكل مرتهنٌ مما عنده إلا من تجرَّد مما دون الله بالله، وهم أصحاب يمين مشاهدة الحق، قال الله: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾: فإنهم في جنات قربه ووصاله.

قال القاسم: رهينةٌ بما باشرت من الأعمال.

وقال بعضهم: أين الفرار من القدر، وكيف القرار على الخطر؟!

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝﴾: وصفَ الله حسدةَ القرَّائين والمنافقين والسالوسين والمفسدين، بأنهم يتمنون مقام الولاية، وأن يكشف لهم الكرامات والآيات، ويعطيهم علوم المعارف والحقائق؛ ليعظُم أقدارهم عند الناس، ولا يعلمون أن هذا قسمة الأزلية سبقت من الله في اصطفائية أنبيائه وأصفيائه وأحبائه، هذا كتابٌ منشورٌ من الله سبحانه معرضة على الكل، وهم لا يعلمون حقيقته؛ لأنهم أهل الشك والنفاق، وكيف يفهمون حقائقه وهم ليسوا بأهل الله وأهل خطابه.

قال الحسين: كيف لهم بهذه الإرادة، ولهم نفوسٌ خاليةٌ عن الحق، مُعْرِضةٌ عن أمور الحقِّ، غافلةٌ عن الوقوف بين يدي الحقِّ، كيف تفهم الصحف المنشورة أسرارَ خافية أبكار ما قبضتها خاطر حق قط، وأصلها أن البشرية لا تضام الربوبية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝﴾: حقيقة التقوى لله، فإنه تقدَّس بذاته القديم، وصفاته الأزلية من أوهام الخليقة، وبأن ليس له في العالمين شريكٌ في أزليته، أو نظيرٌ في أبديته، توحَّد بذاته، وتفرَّد بصفاته، كان فيما كان قدُّوسًا، لم يكن مع قدسه علل المحدثات، ولم يزل كما كان في الأزل، لا يماسه الحدثان بحقيقة التقوى، انفرد بفردانيته، ذكر قدْسَه، ولا عن مباشرة الحدوث، ووصول الحدوث إليه بحالٍ، ثم ذكرَ رحمته، وله الرحمة بالحقيقة بأن لو يغفر جميع الكفار، لا ينقص من بحار رحمته قطرة، ورحمة كل راحمٍ منشعبةٍ من رحمته.

قال: التقوى: هي التبرؤ من كل شيءٍ سوى الله ﷻ، فمن لزِمَ الآداب في التقوى فهو أهل المغفرة.

❁❁❁

سورة القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝﴾: انظر كيف قرَنَ الله قَسَمَه بالنفس اللوّامة، بقَسَمِه بيوم القيامة؛ لأن ما يكون في القيامة من جميع أحوالها يمكنها الله في النفس اللوامة، القيامة عالم،

والنفس اللوامة عالم، يظهر من النفس اللوّامة لحارفيها ما يظهر يوم القيامة؛ لأن الملكوت والجبروت تظهر بنورها وسناها وعجائبها وغرائبها بتجلٍ من النفس اللوامة، وغرض الكل من العرش إلى الثرى هي النفس اللوامة، والنفس اللوامة الروح الناطقة العالمة بربها، العارفة بصانعها، المحبة لمدبِّرها، المشتاقة إلى الله، العاشقة بالله، تلوم نفسها عند كل خطرةٍ تطأها بنعت الوقفة على ما يجد من الله من سنا الدرجات، ورفيع المقامات، وتلوم على قصور معرفتها بالله على الحقيقة، ولا تأتي حضرة الله إلا بنعت الخجل والحياء، وهي لا تنظر إلا الأعمال وأعواضها، فإن جميع الأعمال لا تزن عندها جناح بعوضة، بل تلوم النفس الإنسانية الحيوانية والجسمانية بما يقترف من الذنوب والسيئات، حين لم توافق العقل القدسي الذي هو وزيره، وتلك الملامة منها إذا كانت في السير، فإذا وصلت مشاهدة الحق والغاية في شهود الغيب سقطت عنه الملامة؛ لأن هناك تفنى، لا رسوم، ولا يبقى للحدثان أثرٌ، فيخرج من بحر الربوبية على نعت الطمأنينة، فإذا كادت أن تشتغل برسوم العبودية ناداها الحق، ودعاها إلى نفسه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾.

قال سهل: «النفس اللوّامة»: هي النفس الأمّارة بالسوء، وهي قرينة الحرص والأمل.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾: هذا على الظاهر جواب المنكر البعث، ولأهل الحقائق هناك وصال لا انفصال فيه، وذلك حين عاين قدس ذات القديم، فبَرِقت أبصار العارفين في سطوات عظمته، وخَسفت أقمار قلوبهم في معاينة عزته، فهناك محل الفناء في الحق حين بانت شموس الذات، وأقمار الصفات، وجمعت أنوارها في قلوب العارفين، وهم يذوبون تحت أثقال صدماتها، فيفرون منه لضعفهم عن حمل واردات القدسية، وبديهات كشوفات الألوهية، ويطلبون مقر الأنس من رؤية القدس، فأكّد الله أمرَ بقائهم فيه بنعت الفناء حيث قال: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي: مستقركم بين أنوار جلالي وجمالي، لا يطَّلع عليكم غيري، وهم فيها أبد الآبدين.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾: بصيرة الإنسان هناك عارفةٌ بمعرفته، حيث عرف إيَّاه منازلها ومراتبها وجناياتها ومعاملاتها، ولا تعريف الحق إيَّاها ما اطَّلعت عليها، كما لم يطَّلع عليها في الحجبة والغربة، فإذا وقعت المعرفة وقعت البصيرة، وإذا وقعت البصيرة وقعت الخاصيَّة، والمختص بهذه المراتب شريفٌ في الدارين.

قال الواسطي: تخلُّص النحائز أورث مطالعات المعارف، وسلامة البصائر أوجبت الضياء في الضمائر، وملاحظة الكريم أوجبت النعيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي: إن القرآن كلامنا، وهو قائمٌ بنا، لا تعجل عند الوحي تحفظه، فإنه محفوظٌ عندنا بتجلي أنواره لقلبك، حتى يتَّصف بها، فتصير أهلاً للقرآن، لا تنساه أبدًا، بعد أن باشر نوره قلبك، وسرك بجميع معناه، وأسرار لطائفه في قلبك وفهمك، وتبيَّن ظاهره وقراءته وبيانه على لسانك.

قال الواسطي: جَمْعُه في السر، وقرْأته في العلانية.

وقال: أودع القرآن سرائرهم، وأودع البيان بواطنهم، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: وصفَ الله وجوه مشاهديه بالنضارة والبشارة والبهجة والسرور، وذلك أنهم يرونه راضيًا عنهم، فإذا وجدوه بوصف الرضا زال عن قلوبهم الهيبة، وعن وجوههم الصوْلة، نظروا إلى جماله، فصارت وجوههم ناظرة بهيئةٍ مبتهجة مسرورة مستبشرة، وذلك من حسن تجلِّي جماله، والآية تدل على أن القوم ينظرون إلى الله وهم في حال الصحو والبسط، ولو عاينوه بوصف الجلال والعظمة والكبرياء صرفًا لهلكوا في أول سَطْوةٍ من سطواته، وصارت وجوههم دَهِشةً، يرونه بنوره، بل به يرونه، وهنالك وجود العارف كلّه عين يرى حبيبه بجميع وجوده، وتلك العيون

مستفادةٌ من تجلّي الحق سبحانه، فإذا فهمت هذا فإنه تعالى يقوم لهم بالنظر من نفسه إلى نفسه، فهناك نظر الحبيب، ونظر المحبوب واحدٌ في معنى الاتحاد.

قال النصر آبادي: من الناس ناسٌ طلبوا الرؤية واشتاقوا إليه، ومنهم العارفون الذين اكتفوا برؤية الله لهم، فقالوا: رؤيتنا ونظرنا فيه عللٌ، ورؤيته ونظره بلا علة، فهو أتمُّ به بركة وأشمل نفعًا.

قال الواسطي: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾: نضرت بالتوحيد، وابتهجت بالتفريد، وذهبت بالتجريد؛ لأن الله فعّالٌ لما يريد.

قال الأستاذ: دليلٌ على أنه بصفة الصحو، ولا يداخلهم حياءٌ، ولا دهشًا؛ لأن النضرة من أمارات البسط، والبقاء في حال اللقاء أتمُّ من اللقاء، والرؤية عند أهل التحقيق يقتضي بقاء الرائي عنه، وعندهم استهلاك العبد في وجود الحق أتمُّ[1].

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾: أخبرَ الله سبحانه عن سرِّ فطرة آدم عليه السلام التي أتى عليها أحيانٌ لم تكن شيئًا يطّلع عليها المقربون والكروبين من علمهم ومعرفتهم، وكيف ذكروه وهو على علمهم في غيب الغيب مستورًا في حجاب الأنس، ورياض القدس بنوره عن أعين أهل الملكوت، فهناك ليس بمكان ولا زمان يتجلّى له من جميع الذات والصفات، وبقى بين أنوار الصفات وأنوار الذات حتى صارت فطرته الروحية القدسية الملكوتية كاملةً بكمال الله، عالمةً، قادرةً، سميعةً، بصيرةً، متصفةً بجميع صفاته، ولم يكن هناك صباحٌ، ولا مساءٌ، ولا زمانٌ، ولا مكانٌ، عرَّفها الله نعوته القديمة: وأسماءه الحسنى، وصفاته العلا، وسقاها من بحر الذات شربات المحبة والشوق والمعرفة، ففي كل صفةٍ لها طورٌ، وفي كل مشاهدة لها حالٌ ووجدٌ وكَشْفٌ لا يطّلع عليها أهل البريّة، فكيف ذكروه، وهو مذكور الله أزلاً وأبدًا لم يكشف ذكره لأحدٍ غيره على ذكره، فإذا قالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

---

(١) النضرة طراوة البشرة وجمالها وذلك من أثر التنعم والناضر الغض الناعم من كل شيء أي وجوه كثيرة وهي وجوه المؤمنين المخلصين يوم إذ تقوم القيامة بهية متهللة يشاهد عليها نضرة النعيم ورونقه.

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أظهره الله لهم بصورةٍ ترابيةٍ، وفطرةٍ جسمانيةٍ، ولولا أنه ستره بالماء والطين لماتوا جميعًا في النظر إليه؛ لأنه كان خارجًا من الحضرة، منعوتًا بنعت الله، موصوفًا بصفةٍ على لباس أنوار الربوبية، فقبْل دخوله في صورته لم تكن الصورة شيئًا مذكورًا حين لم تنعكس عليها أنوار روحه، فإذا أراد أن ينفخ فيها روحه خلقها بيده، وخمر طينه لطفه، وصوَّر لها بصورةِ علمه، وجعل فيها أطوارًا من معجونات قدرته وعلمه: ثم تركها في فضاء غيبه، حتى مضى عليها دهرها، ودار عليها فلكٌ دوارٌ، ففي كل لحظةٍ وساعةٍ أبدع فيها بدائع فطرته، ولم يكشف تلك الحقائق للملائكة، ولم يروها إلا صورةً صلصاليةً، طورًا من حمإٍ مسنونٍ، وطورًا من ترابٍ وغبارٍ، وطورًا من صلصالٍ كالفخّار، حتى تنقَّشت بنقوش القدرة، ودخل فيها روح الأولية، فلما قام آدم في الحضرة سجد له كل شيء؛ لما عليه من آثار جلال الحق، وكيف تذكره أحدٌ وذكره غاب في ذاكره ومذكوره تعالى الله عن كل نقصٍ وعلةٍ، فكما خلق آدم بهذه المثابة خلق ذريته في معادن غيبه أطوارًا، وطورًا روحانيًا، وطورًا عليًّا، وطورًا عقليًّا، وطورًا نفسانيًّا، وطورًا حيوانيًّا، وطورًا شهوانيًّا، وطورًا شيطانيًّا، وطورًا سرِّيًّا، وطورًا ملكوتيًّا، وطورًا ربَّانيًّا، فهذه الأطوار يغلبها الله في زمان علمه وقدرته، ويجعلها في كل أوانٍ عجبته من علمه غريبًا من قدرته مصبوغةً بصبغ أفانين تجلِّيه، وذلك قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ لأن كل إنسانٍ عنده آدم ثانٍ(١).

قال جعفر: هل أتى عليك يا إنسان وقتٌ لم يكن الله ذكرًا لك فيه.

وقال أبو عثمان المغربي: ابتلى الله الحق بتسعة أمشاجٍ: ثلاث مفتنات، وثلاث كافرات، وثلاث مؤمنات، فأما الثلاثة المفتنات: فسمعه وبصره ولسانه، وأما الثلاث الكافرات: فنفسه وهواه وعدوه، وأما الثلاث المؤمنات: فعقله وروحه وقلبه، فإذا أيَّد الله العبد بالمعونة قهر العقل على القلب، فملكه، واستأسرت النفس والهوى، فلم تجد إلى الحركة سبيلاً، فجانست النفس الروح، وجانس الهوى العقل، وصارت كلمة الله هي العليا، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟

---

(١) قال الفخر الرازي: فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد وذلك الشيء هو المبتلي بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية وهو الموصوف بالسمع والبصر ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضواً من أعضاء البدن كذلك فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير لأجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات. واعلم أن الأحاديث الواردة في صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد وبعد انفصالها من الأجساد كثيرة وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد. تفسير الرازي (١٠/ ١٢٩).

وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾: حقيقة إشارته أنه تعالى عرَّف لهم الطريق، فمن بقى في الطريق ولم يصل إليه فمنعه لم يبلغ، ومن وصل إليه فيجد به بلغ إليه، فمن بلغ يكون بمعرفته شاكرًا له، ومن لم يبلغ إليه فيجد؛ لأنه يكون كافرًا به، إذ لم يذق طعم الوصال، ولم يرَ نور مشاهدة الجمال، مهَّد الطريق، ونصَّب الأعلام، وأوضح المنار والأدلة، ودعاهم به إلى نفسه، فمن واصل يسكن بما وجد به وهو شاكرٌ، ومن واصل لم يسكن بما وجد، ويكون معربدًا بطلب مزيد الدنوِّ، وفي كل ما وجد لم يكن راضيًا حتى وصل إلى غيبوبة الغيب، ويشرب من أنهار صرف الصفات والذات، فيخرج متحدًا يدَّعي الربوبية، ويكون كافر الحقيقة.

قال سهل: بيَّنَّا له طريق الخير من طريق الشر، إما أن يكون شاكرًا طائعًا، فمستقره الجنة، وإما أن يكون كفورًا جاحدًا، فمأواه النار.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾: وصف الله سبحانه أوساط أهل المعرفة من أهل السلوك أنهم يشربون شرابًا من كاسات قربه، يكون مزاجها كافور المعرفة مع شراب المشاهدة، لم يكن لهم شرابًا صِرفًا من المعرفة؛ لأنهم يبقون في سكر المشاهدة، يغيبون عن مطالعة الحقيقة بعيون المعرفة، فأول شربهم صحوٌ، وآخر شربهم سكرٌ، ولم يكن كذلك العارفون، فإنهم يشربون صرف شراب المشاهدة المنعوت بالمعرفة مع الصحو من أول شربهم إلى آخر شربهم؛ حتى لا يحتجبوا عن رؤية غرائب تجلي

الذات والصفات، ولذلك قال الله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، وعباده ههنا: أهل التمكين في المعرفة، وكذلك حالهم في الدنيا يشربون شراب المحبة ممزوجة ببعض الكشوفات، والعارفون يشربون جميعًا بالرؤية والمكاشفات، فلكل شربة لهم كشفٌ وعيانٌ، فالصَّافي من له شرابٌ صافٍ من غير مزج، فإن الممزوج لا يخلو من امتحان، انظر كيف قال القائل:

مـــالِي جَفَـــيْتُ وكُـــنتُ لا أجْفِـــي ... ودلائـــلُ الهجـــرانِ لا تخفَـــى

وآرائـــى تـــسقيني وتمـــزج لِي ... ولقـد عهـد إلـيك شـاربي صرفًـا

قال سهل: الأبرار الذين هم فيهم خلق من خلق العشيرة، الذين وعدهم النبي ﷺ بالجنة.

قال الواسطي: لما اختلفت أحوالهم في الدنيا، كذلك اختلفت أشربتهم في الآخرة، بل سقت الأشربة الأحوال من قُدِّر له شرابًا طهورًا في الآخرة، طهَّره الحق في الدنيا عن رؤية السعايت بالموافقة والمخالفة، وهو من تحت قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾، بردت الدنيا في صدورهم، وانقطعت عن قلوبهم.

قيل: «الأبرار»: هم الذين سمت همتهم عن المستحقرات، فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة، وأنفوا من مساكنهم الدنيا يشربون كأسًا كان مزاجها كافورًا.

قال الأستاذ: اختلفت مشاربهم في الآخرة، فكلٌ يُسقى ما يليق بحاله.

وقال يحيى بن معاذ في قوله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾: إنها عيون يشربون منها في الدنيا، فيورِّثهم ذلك شراب الحضرة، وذلك من عيون الحياء، وعيون الصبر وعيون الوفاء.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾: يوفون بنذورهم التي هي غرائم قلوبهم في أوائل قصود أرواحهم بحق الحق ألا يختاروا على الله شيئًا من العرش إلى الثرى، ويخافون من قهره ومكره بمعرفتهم بأنه منـزَّهٌ من وصولهم وفضولهم.

قال بعضهم: يوفون بما يطيقون، يخافون أن يطالبوا بما لا يطيقون من تمام الوفاء.

قال سهل في هذه الآية: البلايا والشدائد في الآخرة عامٌّ، والملامة خاصٌّ للخاص.

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ﴿٢٣﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ

أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾: أخبر الله سبحانه عن سقيه أرواح أوليائه في الأزل شراب بحار رؤية أنوار القدم؛ حيث ظهر جلال ذاته وصفاته لها، وذلك الشراب لظهور طهوريته تجلّي قدْس ذاته الذي ظهر تلك الأرواح من شرب الامتحان والقهر والحرمان، لا تتدنس أوقاتها بشيء من الحدثان بعد شربها أشربة أفانين أنوار الصفات، فتلك الكائنات المروقات عن علل الحجاب والعتاب، دارت عليها في الدنيا حتى يرجع إلى معادنها من الغيب، ففي كل لمحة لهم شراب الوصال والكشف والجمال لا مقطوعة ولا ممنوعة، ولتلك الأشربة آثار السكر في وجودهم من هجوم المواجيد عليهم حين سلبتهم جذبات واردات الغيب عن رؤية الأكوان الحدثان، سكرت أرواحهم بشراب رؤية القدم، وسكرت أسرارهم بشراب رؤية البقاء، وسكرت عقولهم برؤية نور الصفات، وسكرت قلوبهم بشراب رؤية الذات، وسكرت نفوسهم بشراب المداناة في الخلوات والمناجاة، ففي كل جالٍ لهم من ذلك الشراب وقتٌ، ووجدٌ، وشوقٌ، وعشقٌ، وهيمانٌ، ووَلهٌ، وهيجانٌ، ليس لهم في الكون سؤلٌ غير هذا الشراب، ولا لهم منىً غير هذا الوصال، به داوى جروح قلوبهم من آلام المحبة لا بشيء دونه.

تـداويتُ مـن لـيلَى بليلَى منَ الهوَى كـما يـتداوَى شـاربُ الخمـرِ بالخمرِ

قال بعضهم: إن لله شرابًا صافيًا طاهرًا شهيًا نقيًّا، ذخرها في كنوز ربوبيته لأوليائه وأصفيائه، يفجِّر لهم من ينبوع المعرفة في أنهار المعرفة، فسقاهم ربهم بكأس المحبة شرابًا طهورًا، فإذا شربوا بقلوبهم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، سقاهم ذلك في الدنيا في ميدان ذكره بكأس محبته على منابر السنة بمخاطبة الإيمان، وسقاهم في الآخرة في ميدان قربه بكأس رؤيته على منابر النور، بمخاطبته العيان.

قال سهل: فرَّق الله بهذه اللفظة بين الطهور والطاهر، وبين خمور الجنة وخمور الدنيا؛ فإن خمور الدنيا نَجِسةٌ تنجِّس صاحبها وشاربها بالآثام، وخمور الجنة طهورٌ يطهِّر شاربها من كل دنسٍ، ويصلحه لمجالس القدس، ومشهد العزة.

قال جعفر: سقاهم التوحيد في السر، فتاهوا عن جميع ما سواه، فلم يفيقوا إلا عند المعاينة، ورفع الحجاب فيما بينهم وبينه، وأخذ الشراب، ففي أخذه عنه لم يبق عليه منة باقية، وحصله في ميدان الحصول والقبضة.

وقال فارس: منهم من سقاه شراب الهداية فهداه، ومنهم من سقاه شراب الولاية فولاه، ومنهم من سقاه شراب المعرفة فقربه وأدناه، ومنهم من سقاه شراب التوحيد فستره وأواه.

قال أبو سليمان الداراني: سقاهم ربهم على حاشية بساط الود، فأراهم من صحة الخلق، وأراهم رؤية الحق، ثم أقعدهم على منابر القدس، وحيَّاهم بتحف المريد، وأمطر عليهم مطر التأييد، فسالت عليهم أودية الشوق والقرب، فكفاهم هموم الفرقة، وحيَّاهم بسرائر القربة.

وقيل: سقوا شراب المودة في كأس المحبة في دار الكرامة، فسكروا بها، فمشوا في ميدان الشوق، ولم يقنعوا بشيء غير الرؤية.

وقال جعفر: شرابًا طاهرًا مطهرًا صافيًا، ادخره في كنوز ربوبيته، سقاه أولياءه في ميدان كرامته بكأس هيبته على منابر عزه، فإذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طاشوا، وإذا طاشوا اشتاقوا، وإذا اشتاقوا طاروا، وإذا طاروا بلغوا، وإذا بلغوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا أفنوا، وإذا أفنوا أبقوا، وإذا أبقوا صاروا ملوكًا وسادة وأحرارًا وقادة.

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: في ولايته ونبوته ومعرفته ومحبته، وفي كشف مشاهداته التي لا ينالها إلا بالاصطفائية الأزلية التي تزول عندها جميع الأسباب والسعايات وعلل الأعمال.

قال الواسطي: إن الله تعالى حكم بصفته على صفتك، ولم يحكم بصفتك على صفته، فقال: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾[1]، كما أن جميع الكون به، كذلك جميع الصفات بصفاته، وكما أنه بنفسه يصرِّف النفوس، لا النفوس تصرِّفه على ما يريدون، كذلك بصفته يصرِّف الصفات، والنعوت أجمع.

سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ

(١) قال ابن الخطيب: إن فسرنا الرحمة بالإيمان فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئته بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجهل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال، فتركه محال، فوجوده واجبٌ عقلاً، وعدمه ممتنعٌ عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة ألبتة. تفسير اللباب لابن عادل (١٦/ ١٥٦).

فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾: أقسمَ الله سبحانه بالمرسلات من رياح العناية المتابعة من شمال قربه وبساتين غيب مشاهدته، والعاصفات من رياح تجلِّي العظمة والكبرياء التي تفنى قلوب الموحدين في سطواتها.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾: صبا وصاله التي تنشر طيب الجمال على أرواحهم، فتبقيها بعد فنائها.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾: خطابات متتابعة تفرِّق بين الحق والباطل في ساحة القلوب.

﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾: كشوفات الصفات مع الخطاب والوحي والإلهام.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾: عذرًا للأرواح والعقول، نذرًا للقلوب والنفوس، عذرًا للعارفين، ونذرًا للمريدين.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾: إذا تجلَّى الحق بجلال كبريائه من عيون القدم تنطمس نجوم عقول العارفين مع نجوم معارفهم، فتنخسف أقمار أرواحهم عند شعاع عزة السرمدية، بحيث لم يكن لها عين إلا حارت، ولا معرفة إلا زالت.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾: سماء قلوبهم تنفرج عند بروز أنوار ألوهيته.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾: جبال أسرارهم تنتسف في عواصف قهر سلطان ظهور جلال عزته، لا تَبقى لها آثارٌ في الأنوار.

قال ابن عطاء: إذا انطمست نجوم ظهور المعارف، وكشفت عن سرائر المعاملات، وهو اليوم الذي يفصل بين المرء وقرنائه وأخدانه وخلَّانه إلا ما كان منها في الله ولله.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى

مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ
(٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ
(٤٢) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
(٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ
بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾ أي: ويل الحسرة يوم الإشهاد للمنكرين أنبيائي وأوليائي ودرجاتهم، والويل يومئذٍ لكل مدعٍ كذَّاب، ليس في دعواه معنًى.

قال الجنيد: الويل يومئذٍ لمن كان يدَّعي في الدنيا الدعاوي الباطلة.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥)﴾: من لم يكن له في الدنيا نطقٌ وحديثٌ وكلامٌ، كيف ينطق عنده يوم يأتي عنده الكل يعيب، ويسكت عنده كل فصيح.

قال أبو عثمان: أسكتتهم رؤية الهيبة، وحياء الذنوب.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: هذا يوم مفارقة النفس والشيطان عن جوار قلب العارف، وينفصل عن كل محبٍّ غير محبوبه حيث استغرق في وجوده.

قال جعفر: فصل كل فصلٍ مدخولٍ، وفصلُ كل وعدٍ مأمولٍ.

سورة النبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ
(٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا (٦) وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَٰكُمْ
أَزْوَٰجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا (١١)
وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً
ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا (١٧)
يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا (١٩) وَسُيِّرَتِ

ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾: النبأ العظيم كلامه القديم، عظم بعظم الله القديم، مرتفع عن خاطر كل مخالف، لا ينال بركتها إلا أهل الله وخاصته.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾: مهّد أرض قلوب الأولياء، وربطها بجبال المعارف وأوتاد العقول لعساكر تجليه، «الأوتاد»[1]: عصبة من المتمكنين من الأولياء بهم يستقيم العالم والعالمون.

قال بعضهم: الأوتاد على الحقيقة سادات الأولياء، وخواص الأصفياء.

سئل أبو سعيد الخراز عن الأوتاد والأبدال أيهم أفضل؟ فقال: الأوتاد. قيل: كيف؟ فقال: لأن الأبدال ينقلبون من حال إلى حال، ويبدل لهم من مقام إلى مقام، والأوتاد بلغ بهم النهاية وثبتت أركانهم، فهم الذين بهم قوام الحق.

قال ابن عطاء: الأوتاد هم أهل الاستقامة والصدق، لا تغيرهم الأحوال، وهم في مقام التمكين.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾: لهم فوز المشاهدة، وبغيبته المكاشفة ولذة الوصلة؛ لأنهم اتقوا مما سواه، فيعطيهم ما يكفيهم رؤية غيره في بساتين القدس، ورياض

---

(١) إنّ هذه الآية إنّما ذكرت ليستدلّ على وجود الصّانع؛ والشروط فيه أن يكون ذلك أمراً مشاهداً معلوماً، حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع لأنّ الشيء إذا رأيت حجمه، ومقداره، صار ذلك الحجم، وذلك المقدار عبرة. تفسير اللباب لابن عادل (٩/ ٣٨٠).

الأنس، لا يسمعون إلا كلام حبيبهم، ما يهيِّجهم إلا قربه ووصاله، والشوق إلى جماله؛ ليغنيهم بنفسه عن كل مأمولٍ، قال سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

قال بعضهم: فوزهم على قدر قصودهم ونيَّاتهم.

قال الشبلي: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: كلامًا إلا من الحق، فإنه إذا ظهرت الحقيقة خنست المقادير، وصار الكل هباءً في جنب الحقائق، ومن تحقق بالحق في الدنيا لا يسمعه الحق إلا منه، ولا يشهده سواه؛ لأنه مستغرقٌ في معادن التحقيق، قال الله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾.

قال بندار بن الحسين: الجزاء إذا كان من الله لا يكون له نهايةٌ؛ لأنه لا يكون على حد الأعواض، بل يكون فوق الحدود؛ لأنه ممن لا حد له ولا نهاية، فعطاؤه لا حد له ولا نهاية.

قال بعضهم: العطاء من الله موضع الفضل لا موضع الجزاء، والجزاء على الأعمال والفضل موهبةٌ من الله، يخصُّ به الخواص من أهل وداده.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝﴾: من كان كلامه في الدنيا من حيث الأحوال، والأحوال من حيث الوجد، والوجد من حيث الكشف، والكشف من حيث المشاهدة، والمشاهدة من حيث المعاينة، فهو مأذونٌ في الدنيا والآخرة، يتكلم مع الحق على بساط الحرمة والهيبة، ينقل الله به الخلائق من ورطة الهلاك.

قال ابن عطاء: «الخالص»: ما كان لله، و«الصواب»: ما كان على السنة.

قال الواسطي لأهل الحق: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾، لما كان إليهم من برِّه، فمن كان مأذونًا في الكلام، كان موفَّقًا على قدر علمه.

قال الأستاذ: إنما يظهر الهيبة على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم، وأما الخواص وأصحاب الحضور فهم أبدًا بمشهد العز بنعت الهيبة لا نفس لهم، ولا فرحة أحاط بهم سرادقها، واستولت عليهم حقائقها.

سورة النازعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ

وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝﴾.

﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝﴾: ظاهره وعيدٌ، وإشارة النازعات في الحقيقة إلى صولات صدمات تجلِّي العظمة على قلوب العارفين، بنزع الأرواح العاشقة عن المعادن الحدوثية إلى معادن، وطوارقات تجلِّي الكبرياء، فتذروها في هواء الآزال والآباد، حتى لا يبقى إلا وجهه، ولا يدوم إلا ملكه.

﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝﴾: هي الأرواح الشائقة.

﴿وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ۝﴾: هي الأرواح العارفة، تسبح في بحار ملكوته، وقاموس كبرياء جبروته، تطلب منها جواهر أسرار الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية.

﴿فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ۝﴾: هي أنفاس الشائقين، وهموم العارفين العاشقين يصاعدها لعالم الملكوت، وجناب الجبروت، تسابق كل هبِّ.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝﴾: هي العقول القدسية، تدبر أمور العبودية بشرائط إلهام الحقيقة[1].

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝﴾: طير روح كليمه في وادي قدس آزاله وآباده، وطوى لها بعد إصفار القديم والبقاء، فدنا منه، وأغرقه في بحر جماله وجلاله، وأسكره شهود العين، بوصفٍ كاد أن يكون هو هو من حيث الاتحاد والاتصاف، فاستوفى جميع وجوده حظ الربوبية، وبقي سمعه من الاتصاف بصفته، فناداه حتى يكون جامعًا في الاتصاف والاتحاد، فلما كاد أن يدعي الأنائية من حدة السكر، فناداه حتى يفيق من سكر سكره، ولا يتجاوز عن حده، فناداه أين أنت يا موسى؟ أنا، أنا وأنت، أنت، وأحاله إلى

---

(١) قال القاشاني أقسم بالنفوس المشتاقة التى غلب عليها النزع إلى جناب الحق غريقة في بحار الشوق والمحبة والتي تنشط من مقر النفس وأسر الطبيعة أى تخرج من قيود صفاتها وعلائق البدن من قولهم نور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد أو من قولهم نشط من عقاله والتي تسبح في بحار الصفات فتسبق إلى عين الذات ومقام الفناء في الوحدة فتدبر بالرجوع إلى الكثرة أمر الدعوة إلى الحق والهداية وأمر النظام في مقام التفصيل بعد الجمع انتهى ثم إن النفوس الشريفة لا يبعد أن يظهر منها آثار في هذا العالم سواء كانت مفارقة عن الأبدان أولا فتكون مدبرات.

فرعون حتى يكون مشغولاً عن حدة الاتحاد، ولولا الرسالة والإبلاغ لفني في شهود الكبرياء؛ لذلك قال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، حيث يدَّعي ما ليس له، إذ هو رأى على نفسه عكس قهر القدم، فظن أنه هو في الربوبية، ولم يعرف أن القهر يمنعه عن الوصول إلى الأزل بالاتصاف، فإغراء موسى عليه؛ ليدمر عليه بعزته، ويكذبه بالعلامة الصحيحة الإلهية الربانية مثل العصا واليد البيضاء، وإرسال موسى إلى فرعون موضع الامتحان والتعريف بالامتنان والفرقان بين العرفان والخذلان، ونجاة أهل الإيمان من بين أهل الطغيان.

قال سهل في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: جوَّع نفسه طائعًا تعبدًا، ثم نادى؛ ليكون النداء أبلغ.

وقال أبو عثمان: طوى أيامًا قبل القصد، ثم قصد طاويًا مقدسًا، فطوى الوادي المقدس، فناداه ربه على التقديس.

قال الصبيحي في قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: الإشارة إلى فرعون، وهو المبعوث إلى السحرة، فإن الله لم يرسل أنبياءه إلى أعدائه، ولم يكن لأعدائه من الخطر ما يرسل إليهم أنبياءه، ولكن يبعث إليهم الأنبياء؛ ليخرج أولياءه المؤمنين من بين أعدائه الكفرة.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾: فيه بيانٌ أن: المزكَّى المطهَّر هو المهدي يخشى الله لوجود علمه بالله، ومن كان جاهلاً بالله لم يخشَ من الله، وهذا امتحانٌ من الله؛ لقطع حجته، ولم تخفَ على الله سوء عاقبته.

قال ابن عطاء: هل لك أن أطهرك من الجنايات التي تلطَّخْتَ بها، وأردُّك إلى حد العبودية التي بها الفخر والنجاة.

وقال الترمذي: الخشية ميراث صحة الهداية، ألا ترى الله يقول: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾: انظر كيف أشار سبحانه رمزًا عجيبًا في هذه الآية أنه أراه آية صرفًا، ولو أراه أنوار الصفات في الآيات لم يكفر، ولم يدَّعِ الربوبية؛ إذ هناك موضع المحبة والعشق والإذعان؛ لأن رؤية الصفات تقتضي التواضع، ورؤية الذات تقتضي العربدة، فكان هو محجوبًا برؤية الآيات عن رؤية الصفات، فلما لم يكن معها حظ شهود نور الصفة لم ينل على رؤيتها حظ المحبة، ولم يأت منها الانقياد والإذعان؛ لذلك قال سبحانه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾: ألبسَ الله نعوت قهره نفس فرعون، وظهرت تلك النعوت لها بوصف الشهوة والحلاوة من تأثير مباشرتها، فسكرت نفسه بشرب القهر، فصارت متمردة عاصية كافرة، تدَّعي الربوبية، ولم يعلم الكافر أنها لباسات عارية.

سُئل الواسطي: لماذا خلق الله المعاصي وأظهرها وأظهر هذه الألفاظ التي لا تليق بالربوبية؟ قال: لأنه لم يؤثر على الذات ما أظهر في الحدث من الصفات؛ لأن الصمدية ممتنعةٌ عن الإشارات فضلاً عن العبارات.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾: لما لم يكن صادقًا أُفتضح في الدنيا والآخرة، وهكذا كل من يدعي ما ليس من المقامات.

قال بشر: أنطق الله لسانه بالعريض من الدعاوي، وأخلاه من حقائقها.

وقال السري: العبد إذا تزين بزي السيد صار نكالاً، ألا ترى كيف ذكر الله في قصة فرعون لما ادعى الربوبية، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾، كذَّبه كل شيءٍ حتى نفسه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾: خاطب العباد بهذه الآية في أوائل مقاماتهم حين وجب عليه تزكية النفوس عن شره هواها والميل إلى حظوظها؛ لأنهم في وقت قصودهم إلى الله لا يجوز لهم الرخص والرفاهية، فقد وجب عليهم الإعراض عن حظوظ أنفسهم خوفًا من الاحتجاب بها عن الوصول إلى الله، ولعلمهم بأنه تعالى يحيط بحركات شهوات نفوسهم الخفيّة حين تميل

بخفاياها إلى مرادها مما دون الله، فإذا جاهدوها وقهروها بتأييد الله أوصلهم الله مقام مشاهدته، وهي جنّة العارفين، فإذا بلغوا إلى درجات المعرفة لم يحتاجوا إلى نهي النفس عن الهوى، فإن نفوسهم وأجسامهم وشياطينهم صارت روحانية، فجانست الأرواح الملكوتية، فشهوات نفوسهم هناك من تأثير حلاوة أرواحهم في مشاهدة الحق، فتشتهي الأنفس ما تشتهي الأرواح، الأرواح في الغيوب، والنفوس في القلوب، فنظرهم هناك إلى كل شيء يكون للنفوس، والأرواح جناتٌ، تظهر فيها أنوار شهود الحق، وأين الكافر والمعطل والمدعي من هذا المقام؟! وهم خُلقوا من الجهالة، فيموتون في الضلالة، وأصحاب القلوب والمعارف عيش أرواحهم عيش الربانيين، وعيش نفوسهم عيش الجنانيين، والله قادرٌ بذلك، يختص برحمته من يشاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ولهذا قال ﷺ: «أسلمَ شيطاني»[(١)]، وقال: «نحنُ معاشر الأنبياء أجسادنا روح»[(٢)].

قال بعضهم: من تحقّق في الخوف ألهاه خوفه عن كل مفروح به، وألزمه الكمد إلى أن يظهر له إلا من خوفه.

وقال سهل: لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء، وبعض الصديقين ليس كلهم، وإنما سَلِمَ من الهوى من ألزم نفسه الأدب.

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾: بَيّن الله سبحانه هاهنا درجة الفقر وتعظيم أهله وخسة الدنيا وتحقير أهلها، وأن الفقر إذا كان نعت الصادق في المعرفة والمحبة كان شرفًا له، وهو من أهل الصحبة، ولا يجوز الاشتغال بصحبة الأغنياء ودعوتهم إلى طريق

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الفقر إذا كانت سجيَّتهم لم تكن سجية أهل المعرفة، فإذا كان حالهم كذلك لا يأتون إلى طريق الحق بنعت التجريد، فالصحبة معهم ضائعة، ألا ترى كيف عاتب الله نبيَّه ﷺ بهذه الآية.

وقوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝﴾: كيف يتزكَّى من خُلق على جبلة حب الدنيا والعمى عن الآخرة والعقبى.

قال أبو عثمان: أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بمجالسة الفقراء، وحثَّه على تعظيمهم، ونهاه عن صحبة الأغنياء، بقوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝﴾.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾: استهانة بمَن أعرض عنه[1].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾: لعن الله الكافر، وعظم كفره حين لم يعرف صانعه، ولم يعرف نفسه التي لو عرفها عرف صانعها، وكذلك عرَّفه ماهية نفسه بقوله: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قدَّره أصنافًا وأطوارًا، وفي كل صنف وطور له خلقة.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾: يسَّر له طريق الهداية والضلالة.

قال الوسطي: ما أجهله بالمعرفة، وذلك لجهله بالموارد والمصادر.

قال ابن عطاء: يسَّر على من قدر له التوفيق طلب رشده واتباع نجاته.

وقال أبو بكر بن طاهر: يسَّر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه.

قال جعفر: ما أجهله، وأعماه عن الحق.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لم يفِ بالعهد الأول حين خاطبه الحق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، ولم يأتِ بمراد الله منه، وهو العبودية الخالصة.

قال القاسم: ذكَر أوائله وأواخره وإرادته، وإن كان ذلك من عنده، ثم أمره بالتبتل إليه

---

(١) أي: وليس عليك بأس في الآ يزَّكى بالإسلام حتى تهتم بأمره، وتُعرض عمن أسلم وأقبل إليك، وقيل: «ما» استفهامية، أي: أيُّ شيء عليك في الآ يزكّى هذا الكافر. البحر المديد (٧/ ٨).

ورؤية منته.

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝﴾: صب ماء المعرفة على قلوب العارفين، وشققها نبات الحكمة، وأزهار المحبة.

قال ابن عطاء: صبَّ من ماء معانيه على قلوب أهل معاملته صبًّا، فانشقَّ منها معرفةً ووجدًا، ثم أنبت فيها محبة وحكمًا وفهمًا.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝﴾: أكَّد الله أمر نصيحته لعباده ألا يعتمدوا إلى من سواه في الدنيا والآخرة، فإن ما سواه لا يفقده من قبض الله، حتى يفرَّ مما دون الله إلى الله.

قال الأبهري: يفر منهم إذا ظهر لهم عجزهم، وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنهم، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد سوى ربه الذي لا يعجزه شيء، ولكن من فسحة التوكل، واستراح في ظل النفوس.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝﴾: لكل واحدٍ منهم شأنٌ يشغله، وللعارف شأنٌ مع الله في مشاهدته يغنيه عما سوى الله.

قال يحيى بن معاذ: إذا شغلتك نفسك في دنياك وعقباك عن ربك، أما في الدنيا ففي طلب مرادها، واتباع شهواتها، وأما في الآخرة فقد أخبر الله عنها بقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝﴾، فمتى تفرغ إلى معرفة ربك وطاعته؟

قال الأستاذ: العارف مع الخلق، ولكنه مفارقهم بقلبه، وأنشد:

ولقـدْ جعلـتُكَ في الفـؤادِ محدِّثِـي وأبحـتُ جسـمِي مَـنْ أرادَ جلـوسِي

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝﴾: وجوه العارفين مسفرةٌ بطلوع أسفار صبح تجلِّي جمال الحق فيها، ضاحكةٌ من الفرح بوصولها إلى مشاهدة حبيبها، مستبشرةٌ بخطابه، ووجدان حسن رضاه، والعلم ببقائها مع بقاء الله.

قال ابن طاهر: كشف عنها ستور الغفلة، فضحكت بالدنو من الحق، واستبشرت بمشاهدته.

قال ابن عطاء: أسفرت تلك الوجوه بنظرها إلى مولاها، وأضحكها رضا الله عنها.

قال سهل: منورةٌ بنور التوحيد، واتباع السنة، ثم وصف وجوه الأعداء والمدَّعين وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝﴾: عليها غبرة الفراق يوم التلاقي، وعليها قترة ذل الحجاب، وظلمة العذاب، نعوذ بالله من العتاب.

قال السري: ظاهرٌ عليها حزن البعاد؛ لأنها صارت محجوبةً عن الباب مطرودةً.

قال سهل: غلب عليها إعراض الله عنها، ومقته إياها، فهي تزداد في كل وقتٍ ظلمةً وقترةً.

وقال الأستاذ: عليها غبرة الفراق، وترهقها قترة ذلِّ الحجاب.

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝﴾.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾: الإشارة في هذه الآيات إلى ظهور تجلِّي الذات والصفات في قلوب العارفين، فهناك تكوَّرت شموس أرواحهم من غلبة نور عظمة الذات، وانكدرت نجوم عقولهم من صولة أنوار الصفات، وسُيِّرت جبال قلوبهم من أثقال واردات محبتها، وتعطَّلت نفوسهم في سطوات جلالها، فهناك سُجِّرت بحار التوحيد، وحشرت طيور التفريد، ولا يبقى إلا وجه ذي الجلال والإكرام، ولكل عارفٍ في كل حالة من هذه الأحوال له قيامة.

قال الحسين: تطمس الشمس بعد تنويرها، وتغور البحار بعد تفجيرها، وتنسف الجبال بتسييرها، وتدرس العشار بعد تعطيلها، وتُخمد الجحيم بعد تسعيرها، وتطوى الصحف بعد النشر، وتحشر الوحوش من القبر، وتزلزل الأرض، وتخرج أثقالها للعرض على الجبَّار، وذلك أصعب مقام المخالفين، وأهون مقام الموافقين، فطوبى لمن أثبت في ذلك المقام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝﴾: زُوِّجت الروح الناطقة بالنفس المطمئنة، فتكونان في جنان القرب أبدًا، كما تكونان في الدنيا في مقامات المراقبات، وصفاء المعاملات.

قال سهل: تآلفت نفس الطبع مع نفس الروح، فمرحت في نعيم الجنة، كما كانتا

متآلفتين في الدنيا على أدائه الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾: قُرِّبت جنان المشاهدات لأهل المداناة، ووصلت حجال الوصلات بأهل الحالات.

قال القاسم: زُخرفت بسرور البقاء واللقاء، وحسن الجزاء، ورضا المولى، ومواصلة العطاء.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾: علمت نفوس العارفين بتعريف الله إيَّاها حقيقة أنفاسها التي صدرت منها بنعت الأشواق إلى جمال القدم أي شيء صنعت في الملكوت، وكيف حرقت حجاب الجبروت، وكيف وصلت إلى قرب القرب ودنو الدنو، وكيف فعل بها الحق من إرادتها في ميادين الذات والصفات، وتعريفها عين العين، وحقيقة الحقيقة، وعلمت أن ما صدر من الحدثان يرجع إلى الحدثان، فإن الحدوثية لا تليق بجناب الربوبية، وهكذا.

قال الواسطي: أيقنَت تلك الأنفس أن كل ما عانت واجتهدت وعلمت لا تصلح لذلك المشهد، وأنه من أكرم بخلع الفصل نجا، ومن قرن بجزاء أعماله هلك وخاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾: أقسمَ الله بنيرات عالم الملكوت إذا شاهدت عرائس الصفات في روازنها، ونظرت إلى قلوب المشتاقين، وجذبتها بنورها إلى أعلى عليين، فلما بلغت الأرواح إلى سرادق الدنو تخنس باستتارها بعد تجلِّيها، وتكنس باحتجابها بعد انكشافها؛ لذوبان الأرواح في نيران الأشواق، وهيجان الأشباح إلى عالم الأفراح، وأقسمَ بظلمة ليالي الهجران في وقت الاستتار في قلوب العارفين، وبطلوع صبح أنوار مشاهدته بنعت الوصال في فؤاد المحبين، وأيضًا أقسم بطيران الأرواح القدسية بجناح المحبة والمعرفة في هواء الهوية، وهذا كنوسها إذا هامت بوجوهها في غيب الغيب، فإذا وصلت إلى قاف القدم، وتذورت بسطوات الأزلية تخنس، وتفر من صدمات القيُّومية إلى

عالم الأمر والحكم؛ لأن الحدوثية تزول عن موازاة القدم، وأيضًا أقسم بسير هذه الأرواح العاشقة في طرقات العلوم المجهولة، فتستفيد منها ما يكون بخلاف العلوم الرسومية.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: أين تمضون مما بيَّنتُ لكم في كتابي من طرق السعادة والمواصلة والمداناة وكشف المشاهدات، تذهبون من هذا الطريق المبارك، وتهلكون في أودية الظنون والحسبان، هذا رشدٌ، فاسلكوا مسلك الرضا بالطاعة، وسيروا في ميادين الموافقة.

وقال الواسطي: الخلق كلهم مقبوضون تحت رقِّ الملك، محجوبون لعزة الملك على قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وهو الذي يطمس الرسوم، ويعمى الفهوم، ويترك الأجسام قاعًا صفصفًا؛ لأنه لا يلحق الإشارة، فإن الكون أقل خطرًا وأضعف أثرًا من أن يكون لها سبيل إلى تحقيق الإشارة، فأين تذهبون من ضعف إلى ضعف، ارجعوا إلى فسحة الربوبية؛ ليستقر بكم القرار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: أغرق الحق مشيئة الحدثان في بحار مشيئة الأزلية؛ إذ مشيئة الخلق صادرةٌ من مشيئة الأزل، هو منـزَّهٌ عن أن يكون في مشيئته مشيئة غير مشيئة الأزلية، فإذا سقطت مشيئة الحدث ارتفعت الاختيارات والتدابير، واستنارت طرق الرضا والتوكل والتفويض، وبانت حقائق الفردانية؛ إذ الحدثان اضمحلت في جناب عزة الرحمن.

قال الواسطي: أعجزك في جميع أوصافك وصفاتك، فلا تشاء إلا بمشيئته، ولا تعمل إلا بقوته، ولا تطيع إلا بفضله، ولا تعصي إلا بخذلانه، فماذا يبقى لك، وبماذا تفتخر من أفعالك، وليس من فعلك شيء.

سورة الانفطار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾: إذا ظهر سلطان كبريائه تنشق سماوات القلوب، وتتناثر

نجوم العلوم، وتتفجَّر بحار الأرواح والعقول، ويخرج ما في القبور والصدور من معاني الحقائق، ولطائف الدقائق، علِمت النفوس الروحانية ما قدمت من بذل وجودها بنعت السوق، وما أخَّرت من بقايا رمقاتها لاصطياد طيور التجلِّي والواردات.

قال أبو عثمان: ما قدمت من خيرٍ، وأخَّرَت من شرٍّ.

وقال بعضهم: ما قدَّمت من حقٍّ، وأخَّرت من باطلٍ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾: عجبتُ من هذا الخطاب الذي فيه تهديد المخالف، ومواساة الموافق كيف يخاطب بخطابٍ مع المخالف الذي فيه مواساة الموافق، فيه ما فيه من إشارات علومه المجهولة، ورموزات كنوزه الغيبية التي لا يعرفها إلا دَهِشٌ في الوحدانية، هائمٌ في رؤية الفردانية، مشرفٌ بالحق على ما للحق من مكنون سره، ولطائف برِّه التي بحلاوتها يغر كل مغرورٍ، وينشط كل مجترئٍ في اقتحامه في شاقات البليَّات، وبيان ذلك ظاهرٌ في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، يلقيهم جواب سؤاله؛ ليقولوا: كرمك يا ربنا غرَّنا.

قال ابن عطاء: ما قطعك عن صحبة مولاك.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: لو قيل لي ما غرَّك بي؟ قلت: جهلي بك غرَّني لا غير.

قال منصور بن عمار: لو قيل لي ما غرَّك بي؟ قلت: يا رب ما غرني إلا ما علمته من فضلك على عبادك، وصفحك عنهم.

وقال يحيى بن معاذ: لو قيل لي ما غرك بي؟ قلت: بِرُّك بي.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: خلقك فسواك بعلمه عليك في القدم، فخرجت على وفق ما علمت، فصرت مستويًا بما يعلم الأزل متَّصفًا بصفاتي؛ إذ كل صفة مني أورثت صفة فيك، وبصورة الروح الناطقة الأولية ركَّبك، وهي تنورها منك لا يتفاوت بين صورتك وروحك في الخليقة والصورة، فإن صورتك الظاهرة منقوشةٌ بنقش صورة الروح، وأيضًا: ركَّبك في صورة المحبة والولاية والخلافة والمعرفة والجهل بحقائق وجودي ووجودك، الذي لو عرفته عرفتني، وأطعتني بمعرفتك لي.

قال الجنيد: تسوية الخلق بالمعرفة، وتعديلها بالإيمان.

وقال ذو النون: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾، فأوجدك، فسخَّر لك المكنونات أجمع، ولم يسخِّرك لشيء.

قال الواسطي في قوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: صورة المطيعين

والعاصين، ومن ركّبه على صورة الولاية ليس كمن صوّره على صورة العداوة.

قال الحسين: من قصده بنفسه صرف عنه حظه، ومن قصده به فهو المحجوب عن نفسه؛ لأنه يقول: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝﴾: في أي حالة ما شاء أنشأك؛ لأنه خلق آدم بألطاف بره، وباشره بإعلاء قدره، وأظهر الأرواح بين جلاله وجماله، وخصَّه بنفخ الروح فيه، وكساه كسوة، لولا أنه سترها لسجد لها كل ما أظهر من الكون، فمن راداه برداء الجمال فلا شيء أجمل من كونه، ومن راداه برداء الجلال أوقعه الهيبة على شاهدٍ.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝﴾: الأبرار في نعيم الوصال، والفجّار في جحيم الفراق.

قال جعفر: «النعيم»: المعرفة، و«المشاهدة»، و«الجحيم»: النفوس، فإنَّ لها نيرانًا تُفقد.

قال ابن الورد: «النعيم»: الذكر والمعرفة، و«الجحيم»: المعصية والسكون إلى النفس.

وقال الخواص: طاب النعيم إذا كان منه، وطاب الجحيم إذا كان به.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝﴾: دعا الله بهذه الآية العباد إلى الإقبال عليه بالكلية بنعت ترك ما سواه، فإن الملك كلَّه لله في الدنيا والآخرة، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

قال الواسطي: ذهبت الرسالات والكلمات والسعايات، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك فقد أفرد التوحيد.

وقال أيضًا: الأمر اليوم ويومئذ ولم يزل ولا يزال لله؛ ولكن الغيب بحقيقته لا يشاهده إلا الأكابر من الأولياء، وهذا خطاب العام إذا شاهدوا الغيب تيقَّنوا أن الأمر كلَّه لله، فأما أهل المعرفة فمشاهدتهم للأمر اليوم كمشاهدتهم يومئذ، لا تزيدهم مشاهدة الغيب عيانًا على مشاهدتهم له تصديقًا، كقول عامر بن عبد العيس: لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينًا، وكحارثة أخبرَ لحضرة النبي ﷺ قوله: «كأنّي أنظرُ وكأنّي وكأنّي»[1].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧٣).

سورة المطفّفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: هذا وعيدٌ للمطفّفين كلام الأولياء في مجالستهم يسرقونه ويتبعونه في سوق سالوسهم، فويل الحرمان له من البلوغ إلى درجاتهم، وتفتضح عنده الخلق، وأيضًا هذا خطابٌ مع النفس الأمّارة تسترقَ من ديوان حقائق القلوب حظوظ الأرواح المشاهدة غيب الحق، وتبدلها بهواجسها الشيطانية.

قال أبو عثمان: حقيقة هذه الآية والله أعلم عندي: هو من أحسن العبادة على رؤية الناس، ويمشي إذا خلا.

قال الله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾ أي: أنهم لا بدّ لهم من المحاسبة، والرجوع إليّ بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: وصف الله قلوب المخالفين بالقسوة والرين، وذلك ميراث متابعتهم شهوات أنفسهم، والشهوة إذا غلبت على القلب أطبقت القلب بغاشية الغفلة، فصار القلبُ محجوبًا من أنوار الذكر، مملوءًا من الخطرات المذمومة التي تحجبه عن مشاهدة الغيب، فمن كان هاهنا من الغيب ورؤية الحق محجوبًا فزاد حجابه عند يوم القيامة؛ لذلك وصفهم الله بقوله سبحانه وتعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1]، حجبهم عن الله ظنونهم وحسبانهم

---

(١) لا يقتضي الحجاب مطلقًا، فإنه يُقيَّد بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون =

وتشبيههم وخيالهم وشهواتهم وغفلاتهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾: الطاعة على الطاعة حتى يحجب قلبه عن مشاهدة المنة؛ لأن العجب والرياء بالطاعة يورثان نسيان المنة وترك الحرمة.

قال الواسطي: الكافر في حجاب لا يرونه، والمؤمن في حجاب يرونه في وقت دون وقت، ولا حجاب له غيره، وليس يسعه سواه ما اتصلت بشرية بربوبية قط، ولا فارقت عنه.

قال سهل: حجبتهم عن ربِّهم قسوة قلوبهم في العاجل، وما سبق لهم من الشقاوة في الأزل، فلم يصلحوا لبساط القرب والمشاهدة، فأُبعِدوا وحُجِبوا، والحجاب هو الغاية في البعد والطرد.

قال ابن عطاء: الحجاب حجابان: حجاب بعد، وحجاب أبعاد، فحجاب البعد: لا تقريب فيه أبدًا، وحجاب الأبعاد: يؤدب، ثم يقرب كآدم ﷺ.

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾: كتاب الأبرار كتاب مرقوم برقم الله، رَقَّمه بسعادتهم الأزلية، وولايتهم الأبدية، وذلك الكتاب عنده لا يطَّلع عليه إلا المقربون المخاطبون بحديثه وكلامه، المكاشفون لهم حقائق الغيبة.

قال أبو عثمان المغربي: «الكتاب المرقوم»: هو ما يجري الله على جوارحك من الخير والشر، رقمها بذلك الرقم، وهو لا يخالف ما رقم به، وذلك الرقم معلَّق بالقضاء والقدر والقدرة بمشيئته عليه؛ ولا رجوع له عن ذلك، ولا حيلة له فيه، فهو في ذلك معذورٌ في الظاهر غير معذورٍ في الحقيقة، هذا لعوام الخلق، وأما للخواص والأولياء وأهل الحقائق فإنه رقم الله على كل شيء أوجده، لم يشرف على ذلك الرقم إلا المقرَّبون؛ فهم أهل الإشراف، فمن شاهد ذلك الرقم من المقرَّبين عرف صاحبه بما رقم به من الولاية والعداوة، فيخبر عنه وهو الإشراف والفراسة، كما كان لعمر بن الخطاب ﷺ حين أخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «كان في الأمم متكلمون فإن يكُ في أمَّتي فعمر»[1] أي: ممن أشرف على حقائق الرقم، وعلى معاني

=

انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محلَّ أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي، وأمَّا محلُّ أهل الجحيم؛ وهو النار، وكذا أجسامهم، فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم، والمشرب، والمنكح ونحوها، وأمَّا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما: قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحسِّ، وليس عنده ذوق، وبرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضَّت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

(١) رواه أحمد (٦/ ٥٥)، والديلمي في الفردوس (٣/ ٢٧٨).

الكتاب المرقوم، فمن كان بذلك الحال فهو تكلم من جهة الحق بلا واسطة.

قال الحريري: رقَّم الله به قلوب عباده بما قضى عليهم في الأزل من الشقاوة والسعادة، فذلك رقمٌ خفيٌّ في أسرار العباد، وظاهر على هياكلهم، كما قال النبي ﷺ: «كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له»[1].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: يشهد على أسرار الأولياء والأبرار من المقربين.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: هم في نعيم الوصلة ينظرون إلى المشاهدة، وذلك النظر أورث وجوههم نضرة ونورًا وبشارة يعرف صاحبها بها؛ لذلك قال الله: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

قال ابن عطاء: على أرائك المعرفة ينظرون إلى المعروف، وعلى أرائك القربة ينظرون إلى الرؤوف.

وقال جعفر في قوله: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ﴾: تبقى لذة النظر تتلألأ مثل الشمس، في وجوههم رضا محبوبهم عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ليبادر في طلبها المبادرون إلى القربات والمشاهدات بسني المعاملات، وتطهير الأسرار من الخطرات.

قال ذو النون: علامة المتنافسين تعلُّق القلب به، وطيران الضمير إليه، والحركة عند ذكره، والهرب من الناس، والأنس بالوحدة، والبكاء على ما سلف، وحلاوة سماء الذكر، والتدبر في كلام الرحمن، وتَلقِّي النعيم بالفرح، والشكر والتعريض للمناجاة.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٤١).

قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾: بيّن الله سبحانه أحوال المقربين والأبرار، وفرّق بينهم فرقًا عجيبًا، إن الأبرار يشربون من أنهار أنوار الصفات، والمقربون من بحار الذات، ومزج شراب الأبرار من سواقي أنهار المقرّبين، ولو شرب الأبرار صرف ما يشرب المقرّبون لذابوا جميعًا، فالأبرار في مقام الأنس، والمقرّبون في مقام القدس.

قال بعضهم: قال بها المقرّبون صرفًا، ونمزج لأصحاب اليمين، فليس كل من احتمل حمل الصفات قوي على مشاهدة الذات والصفات، وشراب المقرّبين لحملهم الذات والصفات جميعًا.

قال الجريري: يشرب بها المقرّبون على بساط القرب في مجلس الأنس، ورياض القدس بكأس الرضا على مشاهدة الحق تعالى.

سورة الانشقاق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾: إذا أراد الله قلع الكون يلقي على السماوات والأرض أثقال هيبة عظمته وكبريائه، فتنشقّ السماء، وتُمد الأرض من عكس تجلّي عظمته وكبريائه، وحق منها أن يقصد عالمًا عليها من أثقال قهريات جبروته؛ حيث شققها وهما طائعتان لربهما، وكيف لا يكون منهما طاعته، وهما في قبضة قهر جلاله أقل من خردلة، ألا ترى كيف قال ﷺ: «الكون في عين الرحمن أقلّ من خردلة»[1]، وكذلك تتجلّى السماء بأرواح العارفين، وأرض قلوب المحبين بنعت العظمة والكبرياء، فتنشقّ الأرواح، وتزلزل القلوب من وقوع نور هيبته عليها، وبهذا الوصف وصف قلوب المقرّبين عند نزول خطاب الهيبة، قال الله:

---

(١) هو من الأحاديث التي تفرد بذكرها المصنف في كتبه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾.

قال بعضهم: خطاب الأمر إذا وقع على الهياكل فمن بين مطيع وعاصٍ، وخطاب الهيبة إذا وردت تفنى وتعجز والإقرار معه، كقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾: ورد عليها صفة إلهيته، فانشقت وأذنت لربها، وأطاعت، وانقادت، وحق لها ذلك، وهو الذي أوجده.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝﴾: هذا خطابٌ فيه حثٌّ على ائتمار الأمر، والقصد إلى بذل الروح، فإذا بلغ إلى نهايته فملاقيه أنها وأعمال الثقلين لا تليق بعزته وجلاله.

قال أبو بكر بن طاهر: إنك معامل ربك معاملةً ستعرض عليك في المشهد الأعلى، فاجتهد ألا تخجل من معاملتك مع خالقك.

قوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝﴾: مسرورًا بلقاء ربه، وما نال من قربه ووصاله، وهذا للمتوسِّطين، ومن بلغ إلى حقيقة الوصال وصار أهلاً له لا ينقلب عنه إلى غيره.

قال ابن عطاء: مسرورًا بما نال من رضا الحق.

قال عبد الواحد بن زيد: مسرورًا بتحقيق ميعاد اللقاء.

وقال إبراهيم بن أدهم: مسرورًا بدخول الجنة، والنجاة من النار.

وقال أبو عثمان: مسرورًا بإنزاله في منازل الأولياء والصدِّيقين.

ويقال: بأن يلقى ربه، ويكلمه قبل أن يدخل الجنة.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝﴾: كان في الأزل بصيرًا فيما قدره، وقضى عليه قبل إيجاده، فعدمه عنده كوجوده، ووجوده كعدمه، لا يخفى عن بصره فيه شيء من أوله وآخره وظاهره وباطنه وشقاوته وسعادته وحياته ومماته، حتى لا يختفي نَفَسٌ من أنفاسه منه إلا هو سبحانه بصير به قبل الإيجاد، وكيف لا يبصره وهو موجده.

قال الواسطي: كان بصيرًا حين خلقه، لماذا خلقه؟ ولأي شيء أوجده؟ وما قدر عليه

من السعادة والشقاوة، وما كتب له وعليه من أجله ورزقه.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾: أقسمَ الله سبحانه بما بقي من عكس أنوار شمس جماله على قلوب المحبين والعارفين دليل الاستتار بعد غيبوبة شمس تجلّيه، وما يضمه من هموم متفرقة في مقام القبض، وقبر مشاهدته إذا استوى في سماء القلوب حين طلع من الغيوب، فلا يبقى فيها آثار ظلمة الطبيعة، والنفس الأمّارة إن حبيبه وجميع أحبائه يركبون على مطيّات أنوار قربه، ويسيرون فيها إلى ميادين أزلياته وأبدياته، ففي كل نفس لهم منزل وحال وكشف ومشاهدة ووجد ووصال إلى الأبد، وذلك قوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾[1].

سورة البروج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾: السماء ذات البروج سماء قلوب العارفين ذات الأبراج من العلوم والحِكَم والحقائق، تسري فيها الأرواح والعقول؛ لوجدان أنوار وجود الحق؛ ولتربية عجائب الخلق والخُلق.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾: يوم اللقاء والكشف.

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾: الشاهد هو، والمشهود هو، يرى نفسه؛ إذ لا يراه أحدٌ

---

(١) قال التستري في تفسيره (٢/ ٢٥٤): باطنها لترفعن درجة فوق درجة في الجنة، ولتحولن من حال إلى حال أشرف منها وأسر، كما كنتم في الدنيا ترفعون من درجة إلى درجة أعلى منها، من طمع وخوف وشوق ومحبة.

بالحقيقة، وأيضًا الشاهد هو، إذا تجلّى بتجلّي الجمال والحسن، والمشهود كله مستحسن جميل بجماله، وأيضًا الشاهد هو، والمشهود قلوب العارفين شاهدها بنعت الكشف، وأيضًا الشاهد قلوب المحبين، ومشهود لقائه هو شاهدهم، وهو مشهودهم هو شاهد العارف والعارف شاهده.

قال الواسطي: الشاهد هو، والمشهود الكون لا يقال متى شهدهم، ولا يحدث لله شهادة، فحيث كانت الربوبية كانت العبودية؛ لأنه شهدهم قبل خلقهم علمًا وقدرة ورؤية، وتصريفًا في الإيجاد والإبقاء والإفناء، لم يحدث له في إحداث الخلق أحداث؛ لأنه لا فصل، ولا وصل، والوجود معدوم، والمعدوم موجود لم يحضر آباد وقته، وأحضرهم أحداث أوقاته، ولما ثبت الشهود بالمشاهدة وجب أنه لم يكن عنده مفقودًا أبدًا، أو يستحيل أن يكون البارئ مفقودًا.

قال الفارس: كلاهما عائدٌ عليه هو الناظر، والمنظور إليه، وهو الشاهد لخلقه، والمشاهد لهم بوجود الإيمان وحقائقه.

قال الحسين: في هذه الآية علامة أنه ما انفصل الكون عن المكوِّن ولا قاربه.

قال سهل: الشاهد نفس الروح، والمشهود نفس الطبع، وقد وقعت لي نكتة في التوحيد: أنه تعالى لم يزل شاهدًا، فلو ثبت مشهودًا غير نفسه من الحدثان، فإذًا تقول بقدم الحادث والعلم بوجود المحدثات على الحقيقة كان مشهود الحق إذا كان في علمه علم كينونية المكوَّنات، وكيفية وجودها، فإذًا وجودها وعدمها سواءٌ في شهود الحق.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾: يبدئ المفقود من العدم بنور القدم، ويعيد الموجود بقهر استيلاء الوحدانية حتى يصير الموجود معدومًا، ثم يعيده يوم الميثاق للحكم والقضاء، يبدئ بالتجلي قلوب العارفين، فيفنيها ثم يعيد بالتدلّي فيحييها.

وقال ابن عطاء: يبدئ بإظهار القدرة، فيوجد المعدوم، ثم يعيد بإظهار الهيبة، فيفقد الموجود.

قال جعفر: يبدئ فيَفنى عمَّن سواه، ثم يعيد فيَبقى بإبقائه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤﴾: «غفور» للجنايات، و«الودود» بكشف المشاهدات.

قال الواسطي: «الغفور»: بما يرتكبونه من أنواع المخالفات، و«الودود»: بما أبدئ

عليهم من آثار فضله.

وقال سهل: «الودود» المجيب إلى عباده بإسباغ النعم عليهم، ودوام العافية.

قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾: وصفَ نفسه بإيجاد أعظم خلقه وهو العرش، ثم وصف نفسه بالشرف والتنزيه والقدس إعلامًا بأنه كان ولا مكان، والآن ليس في المكان؛ إذ جلاله وجماله منزَّهٌ عن مماسة المكان والحاجة إلى الحدثان.

قال الواسطي: هو أعلى من أن يكون له فيه، وإليه حاجةٌ، بل أظهر العرش إظهارًا للقدرة، ولا مكان للذات.

قال سهل: «العرش»: جماع جلال الشرف.

قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[1]: كان مريدًا في الأزل بإرادته، منزَّهًا عن أن يحدث فيه إرادة ثانية، والإرادة مقدمةٌ على الفعل؛ إذ الإرادة قديمةٌ، والفعل منه إيجاد الخلق لا شريك له في إرادته، ولا في إيجاد خلقه، فإذًا الإرادة زائلةٌ، والخواطر عليلةٌ، والتدابير مضمحلةٌ عند ظهور إرادته، يختص برحمته من يشاء بمعرفته، وإنْ كان فارًّا من بابه، ويخذل من يشاء من قربه، وإن كان متزهدًا بزهده.

قال بعضهم: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾: في إظهار ربوبيته وألوهيته.

سورة الطارق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ
لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ
ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا

---

(١) قال القشيري: إنْ أراد أن يجعل أرباب الأرواح من أرباب النفوس فهو قادر على ذلك، وهو عادل في ذلك، وإن أراد عكس ذلك فهو كذلك فلذا كان العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، هل أتاك حديث الجنود، أي: جنود النفس التي تُحارب به الروح لتهوي بها إلى الحضيض الأسفل، ثم فسّرها بفرعون الهوى، وثمود حب الدنيا ، والطبع الدني، بل الذين كفروا بطريق الخصوص في تكذيب ، لهذا كله ، فلا يُفرقون بين الروح والنفس ، ولا بين الفرق والجمع ، والله من ورائهم محيط ، لا يفوته شيء ، لإحاطة المحيط بالأشياء ذاتاً وصفاتاً وفعلاً، بل هو أي: ما يوحي إلى الأسرار الصافية، والأرواح الطاهرة قرآن مجيد في لوح محفوظ عن الخواطر والهواجس الظلمانية ، وهو قلب العارف.

نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾: أقسمَ بسماء قلوب الصدِّيقين وما يطرق فيها من نجوم تجلِّي الذات والصفات.

قال سهل: وما طرقَ على قلب محمد ﷺ من زوائد البيان والأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾﴾: أقسمَ بسماء ذات القدم إذا أمطرت أمطار أنوار تجلِّي الكبرياء والجلال والجمال، وأرض قلوب العارفين التي تتصدع بنبات المعرفة، ورياحين المودة، وأزهار الحكمة.

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾﴾: أعلمهم الكيد، ولم يعرفهم حقائقه، ولم يعلمهم أن الكيد المحدث عند كيد القدم، وكيده مكره، ومكره منـزَّهٌ عن الخلل؛ إذ هو منـزَّهٌ عن العجز، كيده سبق شقاوة الأشقياء منه، هذا كيده مع الأعداء، وكيده مع الأولياء ظهور الصفات في نعوت الأفعال؛ لتعزيزهم بالأوقات الصافية، وجذبهم إلى رؤية صرف القدم، وتقديسهم عن رؤية العلة بكشف الوحدة.

قال ابن عطاء: «الكيد»: استدراجك من حيث لا تعلم.

سورة الأعلى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾﴾ أي: نزِّه اسمه باسمه عن أن يكون له سميٌّ من العرش إلى الثرى حتى يكون بقدس اسمه مقدَّسًا عن رؤية الأغيار، ويصل بقدس اسمه إلى رؤية قدس الصفات، ثم إلى رؤية قدس الذات، بدءًا بتنـزيه الاسم رفقًا به بألا يضمحل لله في سبحات الصفات وتجلِّي الذات.

قال بعضهم: نزِّه لسانك بعد ذكرك ربك عن لغوٍ وكذبٍ.

قال الحريري: أي: فرِّق أوهام الخلق عن كل ما يتوهمون؛ إذ العرش حجابٌ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾: خلق آدم ونفخ فيه من روحه، فسوَّى بين تجلِّي

صفته وتجلِّي ذاته هناك بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾: مهَّد سبيل الأرواح، والقلوب إلى مشاهدته، فهدى من يختصُّ منها بالهداية إلى جماله ووصاله.

قال بعضهم: خلق الخلق، فسوَّى بينهم في الخليقة، وميَّز بينهم في اختصاص الهداية.

قال الواسطي: قدَّر السعادة والشقاوة عليهم، ثم يسَّر لكلِّ واحدٍ من الطريقين سلوك ما قَدَّر عليه.

وقال الأستاذ: هدى قلوب العارفين إلى قدس نعته، فراقبوه، ثم شاهدوه، وهدى الموحدين إلى علاء سلطانه في توحيد كبريائه، فتركوا ما سواه.

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ أي: فلا تنساني بقراءتك، فإن العبودية والاشتغال بها حجابٌ عن شهود العين.

قيل: كان يغشى الجنيد في مجلس أهل النسك من أهل العلوم، وكان أحدُ من يغشى ابن كيسان النحوي، وكان في وقته رجلٌ جليلٌ، فقال يومًا: يا أبا القاسم ما تقول في قوله ﷻ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾، فأجابه مسرعًا كأنه تقدم السؤال قبل ذلك بأوقات.

قال الجنيد: لا يَنسى العمل به، فأعجب ابن كيسان إعجابًا شديدًا فقال: «لا تفضض الله فاك منك من تصدر».

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾: السر والعلانية عنده سواءٌ؛ إذ هو يبصرهما بالبصر القديم، ويعلِّمهما بالعلم القديم، وليس في القدم نقصٌ بحيث يتفاوت عنده الظاهر والباطن؛ إذ هناك الباطن هو الظاهر، والظاهر هو الباطن؛ لأن الظاهر ظهر من ظاهريته، والباطن بطن من باطنيته، يعلم ما جهر من بكاء العارفين وزفراتهم، ويعلم خفيات ضمائرهم من تلهب نيران فؤادهم شوقًا إلى جلاله وجماله.

قال محمد بن حامد: يعلم إعلان الصدقة، وإخفائها.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾: تذكيره وصف جماله وجلاله، كان

يجذب به قلوب العارفين إلى جمال مولاهم، وهم الذين وصفهم الله بالخشية بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ أي: من يخشى فراقي، فيسلك مسالك وصالي بنعت الإقبال عليّ.

قال أبو بكر بن طاهر: عِظْهم، فلا يتّعظ بموعظتك إلا أهل الخشية، ألا تراه يقول: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾: هذا وصف أهل الدهشة تحت طوارق قهر ظهور الأزليات.

قال ابن عطاء: لا يموت، فيستريح من غمّ القطيعة، ولا يحيَى فيصل إلى روح الوصلة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾: أفلح برؤية الله من زكّاه الله في الأزل من خذلانه.

قال الجريري: أفلح من ظهر من شهوات نفسه، ومتابعة هواه ورعونات طبعه.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦﴾: أقبل الخسيس على الخسيس، والشريف على الشريف، والرفيع من أقبل على الله، وترك ما سواه، فهذه وصية الله في كتبه لأنبيائه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨﴾[1]: في صحف إبراهيم الخروج مما سوى الله بنعت التجريد، كما قال: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾ أي: الإقبال على الله بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾، وفي صحف موسى سرعة الشوق إلى جماله، والندم على الوقوف في المقامات عند تعريف الصفات، بقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ

---

(١) إن هذا الوعظَ لفي الصحف المتقدمة ، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما؛ لأنَّ التوحيدَ ، والوعدَ والوعيدَ ، لا تختلف باختلاف الشرائع. تفسير القشيري (٨/ ص ٧٠).

فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾: وصف الله ظهور أفعاله العظام يوم يبرز أنوار عظمته ويبدي سطوات عزته، فتغشى القلوب والأبصار، وذللها تحت أنوار كبريائه، وقهر جباريته، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، ثم وصف وجوه المتكبرين الذين اتقوا من عبادة الله بالإخلاص، ومن محبة أوليائه، وتقشَّفوا على ظاهر العبادة بالرياء، والسمعة بالذلة والخسارة، بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾.

قال بعضهم: خشوع الظاهر نصب الأبدان لا يقربان إلى الله، بل يقطعان عنه، ألا تراه يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾! وإنما يقرب منه سعادة الأزل، وخشوع السر من هيبة الله، وهو الذي يمنع صاحبه من جميع المخالفات، ثم وصف وجوه أوليائه بالنعومة والنضارة بما نالت من مشاهدة ربها، بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾: نعومتها بما نوَّرها الحق من ظهور أنوار جماله لها، راضية لما سعت من بذل وجودها لربها حيث صارت مقبولة برضا الأزل، مقرونة بسعادة الأزل والأبد.

قال الحسين: شاهدت بمشاهدته حقيقة عين الحق.

قال الجنيد: جعل الله الطاعة الخدمة على الأشباح، وخصَّ المعرفة بالأرواح.

قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾: في جنان قربه التي علَت أوهام المخلوقين.

قيل: في كوامن القدس مقربةٌ.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾: آذان المقربين والعارفين مشغولةٌ بسماع كلام الحق، لا يقع فيها كلام غيره بالحقيقة.

قال بعضهم: لاستغراقه في سماع الحق.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾: عيون أنوار الصفات جاريةٌ في جنان قلوبهم.

قال الحريري: تجري بأربابها إلى معادن الأنوار.

قال الحسين: جريان الأحوال عليه يجري به عين إلى عين، حتى يحصله في عين العين.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ

إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾: سرر أرواحهم مرتفعةٌ من الأزل إلى الأبد، لا تنحطُّ في المقاومات، ولا في المداناة، بل سيَّارةٌ من الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الذات.

قال الخراز: هي سرائر رُفعت عن النظر إلى الأعواض والأكوان.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ أي: أفلا ينظرون إلى أحوال الأرواح وهي حاملة الأبدان، وإلى سماء القلوب التي تبرز فيها أنجم الغيوب كيف رفعت عن استراق أسماع الخواطر والهواجس، وإلى جبال العقول التي تستقيم بها أرض النفوس، وإلى أرض النفوس التي بسطت مهاد العبودية مراكب الأنوار الربوبية، انظر كيف حالهم إلى رؤية الأفعال، ولو كانوا على محل تحقيق المعارف والكواشف لكانوا مخاطبين بما خاطب حبيبه ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

قال بعضهم: تَعرَّف إلى العوام بأفعاله، بقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾، وتَعرَّف إلى الخواص بصفاته، بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وتَعرَّف إلى الأنبياء بنفسه، بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، وتَعرّف إلى نبيّنا ﷺ بأخص التعريف، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾: إشارةٌ إلى قلوب العارفين كيف طاقت حمل المعرفة.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾: أى إلى الأرواح كيف تسمو بأربابها إلى محل القدس.

وقيل: إلى الأرواح كيف حالت في الغيوب.

قال الحسين: إلى الأسرار كيف أشرقت بالمكاشفات.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾: إلى العقلاء كيف احتملوا مؤنة الجهال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾: انظر كيف نفضَّل بعد الوعيد بأن جعل إلى نفسه مأواهم ومماتهم، وتكفَّل بنفسه حسابهم، فينبغي أن يعينوا بهذين الفضلين أطيب العيش في الدارين، ويطيروا من الفرح بهذين الخطابين.

قال أبو بكر بن طاهر: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾: في الفضل، ثم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾: في العدل.

سورة الفجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾.

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾: أقسمَ الله بأشياء عجيبة، وآيات غريبة، أقسم بفجر أنوار كشوف صفاته في قلوب العارفين التي منابعها مشارق الذات الأزلي الأبدي، فتفجرت في أسرارهم أنهار المعارف والكواشف، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾: منها ستُّ ليالٍ في أيامها خلق السماوات والأرض بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وفي ليلة خلق في يومها آدم، والليلة التي يومها يوم القيامة، والليلة التي كلَّم الله موسى، والليلة التي أسرى بالنبي ﷺ فيها، و«الشفع»: القلب والعقل، و«الوتر» هو الروح، وأيضًا «الشفع»: العقل والروح، و«الوتر»: هو السر المنفرد عما دون الله، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾: أي ليلة قبض الأرواح إذا سارت عنهم بسطوع نور بسط اليقين.

قال ابن عطاء: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾: هو محمدٌ ﷺ؛ لأن به فُجِّرَت أنوار الإيمان، وغابت الظلم،

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: وليالي موسى التي أكمل بها ميعاده في قوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾، ﴿وَالشَّفْعِ﴾: الفرائض، ﴿وَالْوَتْرِ﴾: السنن.

وقال: «الشفع»: الخلق، و«الوتر»: الحق.

وقال سهل: «الفجر»: محمدٌ ﷺ منه تفجَّرت الأنوار، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: هم العشرة من أصحابه الذين حُكِم لهم بالجنة، و«الشفع»: الفرض، و«الوتر»: الإخلاص لله في الطاعات، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قال: أهل التوحيد في أمته، هم السواد الأعظم.

قال الأستاذ: و«الفجر»: قلوب العارفين إذا ارتقوا من حد العلم، وأسفر صبح معارفهم، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان مما تجلَّى في قلوبهم من البيان.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾: هي الروح التي صدرت من نور خطاب الأول الذي أوجدها من العدم بنور القدم، واطمأنت بالحق وبخطابه ووصله، فدعاها إلى معدنها الأول، وهي التي ما مالت من الأول إلى الآخر إلى غير مشاهدة الله، راضيةً من الله بالله، مرضيةً عند الله بنعت الاصطفائية الأزلية.

قال القاسم: أي: يا أيَّتها الروح المتَّصلة بالحق اطمأنت ورضيت بما قضى لها وإليها ارجعي إلى الذي زينك بهذه الزينة العظيمة، حتى أصلحك للرجوع منه إليه.

قال الحسين: ﴿النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾: هي النفس الواحدة، و«النفس الشاكرة»: هي النفس المرحومة، و«النفس الخاصة»: هي النفس العارفة، و«النفس العاقلة»: هي النفس الراضية، و«النفس الأمارة»: هي النفس الجاهلة.

قال أبو عبد الله بن خفيف: النفس المطمئنة ألبسها الحق أوصاف الهداية، وصارت نفسًا لوامة.

وقال ابن عطاء: النفس المطمئنة العارفة بالله التي لا تصبر عن الله طرفةَ عينٍ.

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾

أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾: أقسمَ الله سبحانه بمكة التي فيها بيته الذي فيه آيات شروق أنوار صفاته فيها، لمشاهدي الحضرة، وطلاَّب القدرة، أقسم مما يبدو منها من أنوار تلك الأسرار.

قال الواسطي: أي: يُجِلُّونك بهذا، أقسم فيك أعظم البلد، كما سماها طابة طابت به وبمكانه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي: في استواء العقل، واعتدال الحسن.

قال ابن عطاء: في ظلمةٍ وجهلٍ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾: عين الروح، وعين القلب، وعين السر التي تبصر بها عجائب المشاهدات والمكاشفات.

قال ابن عطاء: عينٌ في رأسه يبصر بها آثار الصنع، وعينٌ في قلبه يرى بها مواقع الغيب.

قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: طريق الشريعة، وطريق المعرفة، والطريق إلى الصفات، والطريق إلى الذات.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾: العقبة مقام المجاهدة، ومحاربة النفس الأمَّارة التي تحارب صاحبها بآلة قهر الحق، واقتحامها لا يكون إلا بفكِّ الرقبة، وفكُّ الرقبة عن المنة والأذيَّة، وإطعام الطعام في تجوُّع النفس، والحاجة إلى إيثار الله.

قال القاسم: العقبة نفسك، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، وهو أن تعتق نفسك من رقِّ الخلق، وتشغلها بعبودية ربك.

قال بعضهم: تلك العقبة هي مجانبة الاختيار، والرضا بتصاريف الأقدار.

قال الواسطي: فكُّ الرقابِ من أربعةِ أشياءٍ: من نفوسهم، وأفعالهم، ورؤية الفضل، وطلب القربة.

قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝﴾(1): «اليتيم»: المنقطع عن مقام المواصلة، و«المسكين»: العاشق المتحيِّر الذي يتمرَّغ في تراب بابه.

قال جعفر: هو ما يتقرَّب به إلى ربك في تعهد الأيتام، وتَفقُّدهم.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝﴾.

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝﴾: أقسم الله بشمس جلال قدمه إذا ارتفعت من مشارق قلوب العارفين، فنوَّر بسنائها أسرارهم، وأيضًا أي: وشمس عرفانهم حين أشرقت بنور الإيقان، وأورث لهم لطائف العيان والبيان، وقمر صفاته إذا تتابعت أنوارها عقيب كشوف أنوار ذاته في فؤاد المقرَّبين، وأيضًا أي: بقمر الإيمان إذا تلا شمس العرفان، ونهار صباح الأزل إذا تجلَّى لأرواح الموحدين والصدِّيقين، وليلُ تحيُّر أهل الفناء في ميادين وحدانيته؛ حيث لا يدركون منافذ درك الحقائق، وأيضًا أي: بليل قهريات عظمته إذا تغشى بعين الامتحان أفئدة الطالبين والمطلوبين؛ لأن الكل في ضرب هذا البلاء، حتى قال سيد الورى ﷺ: «إنَّه ليغانُ على قلبي»(2)، وسماء قلوب المحبِّين فيها أبراج الغيوب تسري فيها نيِّرات كشوفات الملكوت والجبروت وما بينهما، أقسم بالفعل، ثم بالصفة، ثم بالذات، وجميعها خبرٌ عن عين الجمع في الحقيقة، وفي عين التفرقة من حيث رسم الحقيقة، وأرض عقول العارفين التي هي مساقط شروق أنوار المشاهدة، بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، والذي بسطها لنزول مهاد

(1) أي: ذا فقر، يقال: ترِب فلان: إذا افتقر والتصق بالتراب، ومَن قرأ «فكَّ» و«أطعمَ» بصيغة الماضي فبدل من «اقتحم».

(2) تقدم تخريجه.

الربوبية عليها، وبالذي باشرها بنور الفعل والصفة والذات؛ ليجري فيها أنهار الكواشف والمعارف، وينبت فيها أزهار المحبة، وأثمار الحكمة، ورياحين الشوق، والعشق وياسمين المودة، والزلفة، والنفس الناطقة العارفة التي صورها بصورته، وألبسها نعته، ووصفه في مدارج الغيوب، وأسكنها في بطون القلوب، ومن سوَّاها بتسوية الصفة، ورقَّمها بنور الأزلية، سبحان المقدس عن كل شوبٍ من العرش إلى الثرى! ثم بَيَّن أنه تعالى عرَّفها طرق لطفيات الذَّات، وقهريات الصفات بنفسه بلا واسطة، بقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾، عرَّفها أولاً طريق القهر حتى عرفت المهلكات، ثم عرَّفها طريق اللطف حتى عرفت معالجتها من المنجيات، والمقصود منها: عرفانها عين الحق بطريق القهر واللطف حتى تكلَّ في معرفة صانعها.

قال القاسم: ألهمَ أهل السعادة التقوى، وأهل الشقاوة الفجور.

وقال الواسطي: ألهمها فجورها وتقواها من غير تعلُّمٍ من المخلوقين من غيبٍ إلى غيبٍ.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ أي: فرَّ عن العذاب والحجاب من زكَّاه الله في الأزل من خذلانه بفوز مشاهدته، وخاب من أحمله في الأزل بالشقاوة والحرمان عن مشاهدة الرحمن.

قال ابن عطاء: أفلح من وُفِّق لمراعاة أوقاته.

قال أبو بكر بن طاهر: أفلح من طهَّر سرَّه عن التدنس بالدنيا، وخاب من أشغل سره بها.

وقال بعضهم: أفلح من أقبل على ربِّه، وخاب من أعرض عنه.

وقال الواسطي: أفلح مَن زكَّاه الله بالإلهام، وخاب من دسَّاها بالإبعاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾: الخوف لمن لا يعرف عواقب الأمور، وهو منـزَّهٌ عن أن يكون في حكمته خللٌ، أو لذاته وصفاته ضررٌ، فإنَّه تعالى من خصَّه بالاتصاف بصفاته، والتجلي بأنوار ذاته، قد أسقط عنه خوف الدارين، فلا يخاف من الله بالله؛ لاستغراقه في الله.

قال الواسطي: من ألبسه نعوته لا يخاف عقباها، كما لا يخاف الحق عقبى ما أجرى على خلقه، فإذا اعترض عليه معرضٌ يخاف الخوف من خوفه.

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ أي: وليل قهره إذا يغشى قلوب المحرومين عن مشاهدة الحق، ونهار أنوار مشاهدته إذا تجلّى لأرواح العارفين، نوَّرها بضياء قدسه، ولطائف أنسه.

قال الأستاذ: وليل أصحاب التحيُّر يستغرق جميع أقطار أفكارهم، فلا يقتدون إلى الرشد، ونهار أهل العرفان إذا تجلَّى بضيائه لقلوبهم.

قال سهل: أقسمَ الله بنفس الطبع، ونفس الروح، وهو الضوء مثلٌ في إشراقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾: سعي البعض بالنفوس؛ لطلب الدرجات، وسعي البعض بالعقول؛ لطلب الكرامات، وسعي البعض بالقلوب؛ لطلب المشاهدات، وسعي البعض بالأرواح؛ لطلب المداناة، وسعي البعض بالأسرار؛ لفنائها في أنوار الذات وبقائها في أنوار الصفات، فسعي البعض بالإرادة، وسعي البعض بالمحبة، وسعي البعض بالشوق، وسعي البعض بالعشق، وسعي البعض بالمعرفة.

قال ابن عطاء: باطن هذه الآية أن يرى سعيَه قسمته من الحق له من قبل التكوين والتخليق، بقوله: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، وأن السعي له مراتب كمراتب المتَّصلين بالسلطان والواصلين إليه والندماء والجلساء وأصحاب الأسرار، كذلك سَعْي المريدين والمرادين والعارفين والمحبين والمشتاقين والواصلين والفانين عن أوصافهم والمتَّصفين بأوصاف الحق هذا إلى ما لا عبادة له ولا غاية.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ أي: بذَّل وجوده، والكونين، وتبرأ من الدارين؛ لمشاهدة الله، ووصاله ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: من رؤية الأعواض، ومعارضة النفس، والنظر إلى

غير الله.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾: بكشف جماله وجلاله للعارفين، وقربه من الموحدين، وترى ما وعد الله له في الأزل بوصوله إليه، ولا يجري على قلبه خاطر الشك.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾: يسهِّل له طريق الوصول إليه، ويرفع عنه الكلفة والتعب في العبودية.

قال بعضهم: أعطى الدارين، ولم ير سيئًا في طلب رضا الله، واتَّقى اللغو والشبهات، و«صدَّق بالحسنى»: قام على طلب الزلفى.

قيل في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾: يعني وعدًا صادقًا من الله أن يسير عليه ما خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾: جرَّد التوفيق عن الاكتساب، وأسقط عن المعرفة الكلفة.

قال سهل: المعرفة.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾: هذا الرضا لا يكون من العارف حتى يفنى في المعروف، ويتَّصف بصفاته، ويتَّحد به حتى يكون نعته في الرضا نعت الحق.

قال الجنيد: يصل إليه أنوار الرضا، ويتحقَّق له مقامه برضانا عنه، فإنه لا يصل إلى مقام الرضا عن الله أحدٌ إلا برضا الله عنه.

قال الواسطي: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ بنا عما أنفق، فما خسرت تجارةُ من كنت له عوضًا عن تجارته.

سورة الضحى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أي: وطلوع شمس جلالي عليك بنعت عرفانك يا محمد في أيام الوصلة وليل النكرة، حيث كنت في ليل الحيرة من غلبة ليل امتناعي

عن إدراكك كنه القدم: حيث قلتَ: «لا أحصي ثناءً عليك»(١).

قال ابن عطاء: بمكاشفات سرّك بنا، واشتغالك بالدعوة نظر إلى الخلق.

وقال الجنيد: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾: هو مقام الأشهاد ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: مقام الغين الذي قال النبي ﷺ: «إنه ليُغانُ على قلبي»(٢).

قيل: ويوم أسرار العارفين، وظلمة أفعال المخالفين.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾: أقسمَ الله بهذا القسم أنّه تعالى ما ترك محمدًا ﷺ في محل الإنسانية من مشاهدة الأزلية في الأزل، ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: حين اصطفاه بالقدم، وكيف يدخل في اصطفائيته وسوابق محبته الأزلية خللٌ من جهة الأفعال؛ إذ هو منـزَّهٌ عن الصغائر.

قال ابن عطاء: ما حجبك عن قربه حين بعثك إلى خلقه.

وقال الواسطي: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝﴾: ما وجد العارف في الدنيا من كشف الجمال بالإضافة إلى يوم الوصال كقطرةٍ في البحار أي: لك من الدنو عندي من المعاملات السنيَّة، والدرجات العلية، لو انكشف لك ما نظرت إلى ما وجدت منا في الدنيا، فإن أمر القرب والمشاهدة على مزيد في كل نفس شوق حبيبه إلى نفسه، ورفع قدره عن الأكوان وأهلها، وأخبره عما له من ذخائر المكاشفات، وعجائب المشاهدات.

قال سهل: ما ادَّخرت لك في الآخرة من المقام المحمود ومحل الشفاعة خيرٌ مما أعطيتك في الدنيا من النبوة والرسالة.

وقال بعضهم: ما لك عندي من مخزون الكرامات أجلُّ مما يشاهده الخلق؛ لأنك الشفيع المطاع، والناطق بالإذن حين يُؤذَن لأحدٍ بالكلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝﴾: هذه بشارةٌ لأمته المرحومة، فإنه لا يرضى حتى يدخل الله جميع أمته الجنة بلا حساب ولا عتاب ولا حجاب، وكيف يرضى العاشق من معشوقه حتى يكون هو المعشوق يصير هو هو، ولا يكون ذلك إلا بعد فناء نعوت الحدث في نعوت القدم.

قال ابن عطاء: كأنه يقول لنبيه ﷺ: أفترضى بالعطاء عوضًا عن المعطي؟ فيقول: لا

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ أي: على همةٍ جليلة؛ إذ لم يؤثر فيك شيءٌ من الأكوان، ولا يرضيك شيءٌ منها.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ أي: كنت يتيمًا منقطعًا عنا فينا، فآواك عنك بنا إلينا، ووجدك متحيِّرًا عن إدراك حقيقتنا، فكحلناك بكحل أنوار ربوبيتنا حتى أدركتنا بنا، ووجدك عائلاً من كنوز علوم القدم، ووصال الأبد، فأغناك بهما، فإذا كان كذلك فلاطف كل منقطعٍ عنا وهو يتم الفراق بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾، ولا نكتم شرفك ورفعتك عن كل سائلٍ طالبٍ، وقل له حقائق لطفنا باللطف، ولا تمنعه بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾، وظهر بعض ما كوشفت من أسرارنا وأنوارنا ولطفنا ورحمتنا لكل مشتاقٍ إلى لقائنا، وحبِّبهم إلينا بحديثك عنا بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾: معناه: وجدك اليتيم فآوى بك، ووجدك الضال فهدي بك، ووجدك العائل فأغنى بك، ولا يكون الوجدان إلا بعد الطلب، وكان طالبًا له في الأزل، فوجده، ثم أوجده سفيرًا بين خلقه.

وقال جعفر في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾: كنت ضالاً عن محبتي لك في الأزل، فمننت عليك بمعرفتي.

قال الحريري: وجدك مترددًا عن غوامض معاني المحبَّة، فهداك بلطفه إلى ما رمته في ولهك، وهذا مقام الوله عندنا.

قال بندار بن الحسين في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾: كنت قائمًا مقام الاستدلال، فتعرَّفت إليك، وأغنيتك بالمعرفة عن الشواهد والأدلَّة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: وحيد الأمثل لك، ولا نظير في شرفك وهمتك، فآواك إليه.

وقال بعضهم في قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾: لا تعلم قدر نفسك، فأعلمتك قدرك.

قال جعفر في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أي: العارين عن خلعة الإسلام، ولا تقنط من رحمتي، فإنِّي قادرٌ ألبسه لباس الهداية، والسائل إذا سألك عني فدلَّه عليَّ بألطف دلالة، فإنّي قريبٌ مجيب.

وقال ابن عطاء: المؤمنون كلهم أيتام الله في حجره، فلا تقهرهم أي: لا تبعدهم عنك،

وسؤالهم أسرار الله، فلا تنهرهم ولِنْ لهم والطف بهم.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ : حدِّث به نفسك؛ كي لا تنسى فضلي عليك قديمًا وحديثًا.

قال بعضهم: حدِّث بنعمة ربك عليك، فإنك لا تبلغ أقصاه؛ لتعلم بذلك عجزك عن تعداد نعمه عليك؛ لذلك قال النبي ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك»[1].

سورة الانشراح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ .

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ : شرحَ صدره- صلوات الله وسلامه عليه- طلوع شمس جلال الحق فيه، فأضاء منه روحه وقلبه وعقله، وطار روحه في الأزل، وطار عقله في الأبد، وطار قلبه في الجبروت، ونفسه في الملكوت، فتولَّى الحق شرح صدره بنفسه لا بغيره، وذلك حين ظهر لسرِّه ذاته القديم، وصفاته الأزلية، فصار موسعًا مبسوطًا بوسع الذات والصفات، فشرْحُه يزيد إلى الأبد؛ لأن جلال الحق لا نهاية له، وكان صدره محل تجلّي الحق، فبقي مع الحق في ساحة الكبرياء حيث لا حيث ولا زمان ولا مكان، بل نور الذات في نور الصفات، ونور الصفات في نور الذات، فهو بين النورين محتجبًا بأنوار الحقيقة عن أوهام الخليقة؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ : رفع قدره عن إدراك كل إدراك، وأعلى ذكره بذكره عن ألسنة كل وصَّاف، لا يصفه الأولون والآخرون بكمال وصفه؛ لأنه كان منسلخًا بأنوار الربوبية من أوصاف الحدوثية؛ لذلك قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ ، وتلك الحدوثية أثقلت جناح همَّته العلية الربانية؛ حيث منعته عن الوصول بالكلِّية، بقوله: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ ، فلما خفَّته عن ذلك جعله رفيع القدر بقدره؛ لذلك قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ، وسَّع صدره أولاً بكشف المشاهدة، فلما وصَّل إليه أثقال سطوات الربوبية وثقَّل

---

(١) تقدم تخريجه.

عليه صدمات القدوسية كاد أن يفنى تحتها، فبدَّلها الله له، وأنوار الكبرياء بأنوار البقاء، وأنوار الجلال وأنوار القدس بأنوار الأنس، وجعله متَّصفًا بصفاته، فقوى بالحق، وحمل الحق بالحق، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، إلى قوله: ﴿ذِكْرَكَ﴾.

قال سهل: ألم نوسِّع صدرك بنور الرسالة، فجعلناه معدنًا للحقائق.

وقال ابن عطاء: ألم نوسِّع سرَّك لقبول ما يَرد عليك.

وقال في قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾: أعباء النبوَّة والرسالة، فكنت فيها محمودًا لا حامدًا.

وقال جعفر: ألم نشرح صدرك لمشاهدتي ومطالعتي.

وقال القاسم: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾: ألم أزِل ملاحظة المخلوقين عن سرِّك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: جعلتُ تمام الإيمان بي بذكرك معي.

وقال أيضًا: جعلتُك ذكرًا من ذكرى، فكان من ذكرك ذكري.

وقال ذو النون: هِمم الأنبياء تحول حول العرش، وهمَّة محمد ﷺ فوق العرش؛ لذلك قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

قال سهل: أزلنا عنك الهمَّة إلا لنا، والفكرة في سوانا، والحركة والسكون إلا بأمرنا.

قيل في قوله: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: هو الرجوع من حالِ المشاهدة إلى حال بلاغ الرسالة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾: مع عسر المجاهدة يسر المشاهدة، ومع عسر الانفصال يسر الاتصال، ومع عسر القبض يسر البسط، وزاد يسرًا على يسرٍ على يسيرٍ، وجعلها يسرين بعد عسر، «العسر»: هو الحجاب، و«اليسر»: كشف النقاب، ويسر آخر رفع العتاب.

قال الجوزجاني: مع الصبر عن الحرام، وشبهات الاسترواح إلى عزِّ التوكل.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾: فإذا فرغت ما دون الله فابذل نفسك لله، ثم ارغب مما لله إليه، فإنه درجةٌ لا تليق بغيرك.

قال جعفر: اذكر ربك على فراغ منك عن كل ما دونه.

وقال ابن عطاء: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب بطلب الشفاعة.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾: يكون رغبتك فيه وإليه.

سورة التين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾: أقسمَ الله بمواضع تجلِّي جماله وجلاله، أما «التين»: فشجرة آدم التي نهاه عن قربها وهو متجلٍّ عنها له، و«شجرة الزيتون»: التي تجلّى منها لموسى، حيث قال: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾، وقال: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، وطور سيناء الذي تجلّى عنده أيضًا لموسى، ﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾: هو الذي بيَّنه فيه، وهو محل آياته، وكشوف صفاته، بقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾؛ لذلك قال ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»[1]، وأيضًا ﴿وَٱلتِّينِ﴾: أي: شجرة الروح القدسية، ﴿وَٱلزَّيۡتُونِ﴾: شجرة العقل القدسي، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: هو القلب العارف بالله، ﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾: صدر المحبِّ المتمكن.

قال الجنيد: «التين»: بمسجد إيليا، «والزيتون»: مسجد بيت المقدس، «وطور سنين»: مسجد طور، و«هذا البلد الأمين»: المسجد الحرام، وإنما هذه مساجد عظَّمها الله؛ لأنها بقاع الله؛ لأن الله جلَّ ذكره يُذكر فيها، فأقسم بها.

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾: أقسمَ الله بهذه المكرَّمات أنه خلق آدم في أحسن منظر، وأكرم خلقه؛ إذ سوَّاه بنور كشف صفاته، وإلباسه إياه سنا ذاته.

قيل: في أحسن صورة. وقيل: في أتمِّ معرفة.

وقال بعضهم: «حسن التقويم»: وصف قائمٌ بالحق لا عبارة عنه، وكل عبارة عن تمام تقويمه من تفسيره، وليس لنهاية العبارة عند لفظ.

---

(١) تقدم تخريجه.

سورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: كان ﷺ شاهدًا في الحضور، غائبًا عن الرسوم، تحوّل حول الحقائق، وتكتّم أسرار المعرفة، لا يتحدث بحديث العشق، ولا يرمز بلطائف الحب، كان مستغرقًا في القرب، كأنه جعل نفسه في جانب عن الأجانب، في حواسٍ عن تلك القصة، معرضًا مراقبًا عاشقًا، كأنما كان لم يكن له خبرٌ، وهو كان في محل العيان؛ لكن لم يكن في البيان، أقبلَ بالسرِّ نحو المراد، وإن لم يكن هناكَ في المراد قرعَ الحق باب قلبه؛ لأنه هو المريد، والحبيب هو المراد، الأحد طالب، وأحمد المطلوب، لا جرم الطلب منه نداءٌ؛ إذ أوحى إليه قبل طلبه، فقال: ﴿ٱقْرَأْ﴾، كأنه كان قارئًا؛ إذ شاهد الأدنى الحق بالحق في الأزل؛ ولكن كان غائبًا عن المحضر الأعلى لشهوده الأدنى، فقال: «ما أنا بقارئ»[1]: يعني: أنا لا أقرأ غير الثناء عليه، قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أخذه بالاسم، وكشف على ظاهر المعرفة، ثم بان المسمّى له، بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾، ثم غيَّبه في الغيب، وحيَّره في الهوية بتحقيق الإشارة، بقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾، فلمَّا غاب في الغيب أخذ يده من استغراقه في بحر الأزل، وأحضره ساحة أنوار الصفات في مشاهد الأفعال، بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، هكذا فعل بالمرادين، وجعل الطالبين حيارى في طلبهم، ألا ترى شأن موسى ﵇ كيف أقبل عليه في طلبه، فناجاه بعد أربعين يومًا؛ لأنه كان مريدًا، والمصطفى ﷺ كان مرادًا؛ لذلك ناجاه بالبديهة، إظهارًا لحبه البالغ، واصطفائيته الكاملة.

قال الخليل: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾، والكليم قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤)، ومسلم (١/ ١٤٠).

وحيث ظهر كمال المحبَّة قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾.

قال بعضهم: أهل الإرادة في الطلب، والمرادون مطلوبون، ألا ترى أن إبراهيم كان طالبًا بقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾، ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، والمراد مطلوبٌ، وذلك صفة الحبيب صلوات الله وسلامه عليه، ألا ترى أنه لما قيل له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، استقبله الأمر من غير طلب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: علَّم بعضًا بالأفعال، وعلَّم بعضًا بكشف الصفات، وعلَّم بعضًا بظهور الذات، علَّم أهل الملكوت بالعلم ما بان عن علم القدم، وعلَّم آدم الأسماء بغير العلل، علَّم الإنسان ما لم يعلم من نعوت القدمية، وأسمائه الأزلية حين عاين الحق له بالصفة، حيث قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ثم عاين له بالذات، حيث قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، علَّم العارف ما لم يعلم من أسراره المكتومة، وأنبائه العجيبة، وكلماته السرمدية التي كل حرف منها دليلٌ إلى عيان عيانه، وبيان بيانه.

قال سهل في قوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾: أثبتَ في اللوح ما جرى العلم والقلم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾: الإنسان الخسيس يطغى برؤية الدنيا الدنيَّة، وأي الإنسان هذا من الإنسان الذي استغنى بالله، واستغرق في جمال الله، واتصف بصفات الله، وصار متحدًا بالوحدة، وسكرًا من شراب العزة، وغلبت عليه الأنائية، فيطغى برؤية أنوار الاتصاف، ولا يعلم أنه في حواشي بحار عظمته، ولم يذق منها قطرةً بالحقيقة، فلما أعلمه الحق بأنه لا شيء وفي لا شيء من الربوبية أحوجه إلى مقام الإرادة برجوعه إليه بنعت الافتقار بعدما رجع بالصفة إلى معدن الذات، وهذان المعنيان في قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾.

قال ابن عطاء: رؤية الغنى تورِّث الطغيان والبطر؛ لأن الغنى يورِّث الفخر، والفخر يورِّث الطغيان.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾: لما انكشفت صفات القدم لتحبيب كان أن يسكر وشطح، وغلب بما رأى في نفسه من إحاطة أنوار الربوبية، جرَّه الحق من مقام الربوبية إلى معدن العبودية، بأن نصَّب له في سجوده حجال الأنس، ومهَّد له فيه بساط القدس؛ ليدنو به منه، ويقطع مفاوز الآزال والآباد في سجدةٍ واحدة، ليس الاقتراب بالاكتساب، إنَّما أراد خلو سره عن الدارين وتربيته في مقام العبودية؛ حتى يكون إمامًا للصديقين والمتمكنين من

العارفين، وأهل الإرادة من المؤمنين إظهارًا للتواضع والتذلُّل لجبروته وملكوته.

قال ابن عطاء: اقترب إلى بساط الربوبية فقد أعتقناك من بساط العبودية.

وقال الواسطي: العوام منقلبون في صفات العبودية، والخواص مكرمون بأوصاف الربوبية، ولا يشهدون غير صفات الحق؛ لأن العوام بمحتمل الصفات لضعف أسرارهم، وبعدهم عن مصادر الحق.

قال جعفر: اقترب من حيث العبودية فقد قرَّبتك من حيث الربوبية.

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾: تلك الليلة من كشف جماله للعارفين، وأهل شهوده من المقرَّبين، قدَّر منازلهم في مقام المعارف والكواشف، وقدَّر مقادير الغيوب، وأبرز أنوار ملكوته وجبروته لأهل القلوب؛ لذلك تتنزَّل الملائكة والروح في تلك الليلة، يبشرونهم بالوصال، وكشف الجمال أبدًا.

قال سهل: ليلةٌ قدَّرتُ فيها الرحمة على عبادي.

وقيل: نزول الملائكة في تلك الليلة؛ لاسترواح قلوب العارفين.

قال الأستاذ: ليلةٌ يجد العابدون فيها قدر نفوسهم، ويشهد العارفون فيها قدر معبودهم، فشتَّان بين وجود قدرٍ، وبين شهود قدرٍ!

قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ﴾: لما بشرَّهم بأعالي الدرجات وسني الكرامات وسلامتهم من جميع البليات، يسلِّم عليهم ويصافحهم؛ لتصل بركات بعضهم إلى بعض.

قال سهل: سَلِم من انقطعت أوقات العارفين القائمين معه على حدود الأحكام من الأوامر والنواهي.

سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾: وصفَ الله النفس الأمّارة وأعوانها من الشياطين أنها عارضت بيِّنات كواشف الملكوت للأرواح والقلوب والعقول، وأشد إنكارًا إنكارٌ من عين البيِّنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾: الإخلاص في العبودية: تجريد السر عما سوى الله، و«الحنيف»: من حنفَ عن غير الله من النفس والدنيا.

قال بعضهم: «الإخلاص»: ألا يطَّلع على عملك إلا الله، ولا ترى نفسك فيه، وتعلم أن المنَّة لله عليك في ذلك حيث أهَّلك لعبادته، ووفَّقك لها، ولا تطلب من الله ثوابًا.

وقال رويم: «الإخلاص»: إفراد الله بالعمل.

قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: «رضي الله عنهم»: في الأزل حين اصطفاهم قبل إيجادهم، «ورضوا عنه»: لما عاينوه وآثروه على من دونه عشقًا وشوقًا ومعرفة، وهذه الدرجات لمن عَرِف الله، ودأب في إجلاله، ورؤية عظمته، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، وأصل الرضا الاتصاف بصفة الرضا من الحقِّ.

قال الواسطي: الرضا والسخط نعتان قديمان يجريان على العبد بما جريا في الأزل، يُظهر أن الرسم على المقبولين والمطرودين، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد المطرودين بظلمها، فأنَّى ينفع مع تلك الألوان المصفرة، والأقدام المتنفخة، والأكمام المقصَّرة؟!

وقال: استعمل الرضا جهدك، ولا تَدَع الرضا يستعملك، فتكون محجوبًا بلذَّته عن حقيقة ما يطالع بعد درجته.

قال سهل: الخشية سرٌّ، والخشوع ظاهرٌ.

وقال عمرو المكي: اشترط الراضين بالخشية في رضاهم عنه؛ لذلك أوجب لهم رضاه عنهم بأن يرضوا عنه ويخشوه في رضاه عنهم، ولا يكون ذلك إلا باجتناب المحارم، وعقد موافقتهم لموافقته، أن يكرهوا ما كره، ويرضوا ما رضي.

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾: إذا انكشف جمال القدم عيانًا تزلزلت أرض قلوب العارفين بوصول سطوات العزة إليها، تحركت بنعوت المواجيد؛ حيث باشرتها أنوار العظمة والكبرياء، وعاينت ما في صميمها، وأخرجت أثقال أسرار معارفها وعلومها المجهولة الربَّانية إلى بساط الحضرة، وصاحبها يتعجب من تلك الأشكال الحقيقية، بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾، فتشهد الأرواح عليها، وعرفت مكنون سرائرها إياه، فعند ذلك عرف الإنسان نفسه حين ألهمه الحق بها ألهم روحه، بقوله: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

قال الحسين: تزلزَل الأرض، وتخرج أثقالها للعرض، فتقول ما لها، وتحدِّث أخبارها، ونُظهر أسرارها، فيسألها ما قدَّمت من [فطها كيميا غيب نبذهت]، من عظم ما عاينت، وشاهدت مذعنة قد خُضعت، ونُكست رؤوسها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾: يجيبون بنيَّاتٍ مختلفة، ومأمولاتٍ متفاوتة، فالناس الحقيقيُّون يصدرون من مقام المكاشفة إلى مقام المشاهدة، ومن مقام المشاهدة إلى مقام الوصلة.

قال أبو بكر بن طاهر: معتمدًا على فعله وطاعته، ومستحييًا من مخالفته ومعصيته، وراجيًا شفاعته ﷺ، ومعتمدًا فضل الله عليه، وأهل الصفوة واقفون بلا علة من هذه العلائق

إلى أن يصلوا إلى مأمولهم ومرادهم(١).

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾: العارف يرى جزاء عمله من الخيرات، ولا يكون مقيَّدًا بها؛ إذ هو مشغولٌ بالحق عن غيره، ويرى ما فعله من الحركات المذمومة؛ ليعرف فضل الله عليه بأنه تعالى لا يجازيه بها.

قال جعفر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾: في الدنيا إذا كان مؤمنًا، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾: في الدنيا إذا كان مشركًا.

قال الواسطي: إذا كان من أهل الإسلام، إن الأعراض لا ترى، ولا تبقى وتبين، وكيف يجوز أن يرى؟

قيل: القرآن صفة الله، وأن الصفة لا تبين من الموصوف، وهو يرى في الأرض مكتوبًا، كذلك الأعمال.

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝﴾.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾: أقسمَ الحقُّ سبحانه بأفراس قلوب المحبِّين إذا صُحبت بأصوات الوصلة من تراكم مواجيد المشاهدة في ميادين الوحدة، حين عاينت مشاهدة السرمدية، وهي الموريات أنوار المعارف من قداح الكواشف، ثم أقسم لواردات كُشوف صفاته حين أغارت أرواح العاشقين عند طلوع صباح مشاهدته.

---

(١) قال ابن عجيبة: متفرقين، جمع شَتّ ، نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجُون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكَل أكْل ضرورة. وقيل: في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم ، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا. وقيل: في قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيّرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته، ودعاه إلى الطعام، فيقول : إني أتحرج أن آكل معك، وأنا غني وأنت فقير، فأباح لهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾: شهد الحق على أسرار الخلق في الأزل قبل إيجادها، لا يعزب عن علمه ذرةٌ من العرش إلى الثرى، والإنسان لا يعرف ما أعطاه الله من نعمة بالحقيقة، وإنه لكفورٌ؛ إذ لا يعرف منحه.

قال القاسم: هو الذي يشهد بأحواله وعلى أحواله؛ لأن الحق تولّاها في أزليته قبل أن يخلقها، وسيَّرها بتقديره، وأخرجها إلى الكون بتدبيره، وفي عرصة القيامة يسوقها إلى المحشر كما ساقها في الأزل والأبد دون غيره، فانطلق ما شاء بها شاء في يسيره في الدارين، وأخرس ما شاء عما شاء بتدبيره.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾: بعد منّه من الطاعات، وينسى ما منَّ الله به عليه من الكرامات.

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝﴾.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾: «القارعة»: ساعة كشف جمال العظمة الذي يفنى الحدثان في سطواتها؛ لذلك قال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، ذلك من وصول قوارعات قهر جبروته.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾[1]: فمن ثقلت موازين قلبه بمعرفة الله وتوفيقه

---

(١) اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دلَّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات؛ إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال، وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلَّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لمن خفت موازينه يوم القيامة وزنًا ومقدارًا؛ فيهوى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة، وفيه إشارة إلى أن =

الأزلي فهو في عيش مشاهدته الأبدية.

قيل: قال الواسطي: هل يجوز أن تُثقل الموازين بأعمالنا؟ قال: لو جاز ذلك لا من كل من كَثُرت أعماله وُصفت، بل الله يثقل موازين من شاء، ويخفِّف من شاء، ألا ترى النبي ﷺ يقول: «الميزانُ بيد الله يخفض أقوامًا ويرفع آخرين»(١)، رفعهم في أزليته، ووضع آخرين في أزليته قبل كون كل كون.

قال سهل: فمن ثقلت موازينه بالإخلاص فهو في عيشة راضية، في رضا الله ينقلب في جواره، ومن خفَّت موازينه بالرياء والسمعة فأمه هاوية، فإنه ينقلب في سخط الله ومأواه النار.

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾: شغلكم النظر إلى أحوالكم وأعمالكم، والاقتداء بالتقليد على السلف عن مشاهدتنا وقربنا.

=

الأعمال تتجسَّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن أُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتَّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها، فإن العامل لا بد وأن يكون مخلِصًا بالكسر؛ بل مخلَصًا بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فانٍ عن أعماله، والتعلُّق بها، فاجتمع ثقيل؛ وهو العمل، وخفيف؛ وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العُلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧/ ١١٧).

قال بعضهم: شغلكم التكاثر بموتاكم عن الحياة بذكري.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾: تعرفون أنكم لا تعرفونني حق معرفتي، حين وقفتم بها وجدتم مني عني.

قال: سيعلم من أعرض عني أنه لا يجد مثلي.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾: بيَّن الله سبحانه أن علم اليقين قبل الرؤية والمشاهدة يكون، فإذا حصلت الرؤية والمشاهدة صار علم اليقين عين اليقين، بقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، و«حقيقة اليقين» و«حق اليقين»: أن يعرف العبد أنه يرى جحيم قهر القدم الذي كان الحق موصوفًا في الأزل، ولم يصل إلى بطنان كنهه؛ لأنه الحدث والحق قديمٌ، وأنَّى يصل الحدث إلى القدم أبدًا؟!

قال يحيى: «اليقين»: كشف الغطاء عن القلب.

وقال فارس: «علم اليقين»: لا اضطراب فيه، و«عين اليقين»: هو العلم يُودِعَه الله الأسرار.

قال الخراز: «عين اليقين»: هو أن يرفع الحجب عن قلوبهم بتجلٍّ لأرواحهم وأسرارهم، ويكشف عن أوهامهم حتى يروه عين اليقين، فيرجعوا عنه سكارى، وينتهوا عنه حيارى.

قال بعضهم: «عين اليقين»: عين البقاء.

سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾: أقسمَ الله بآزاله وآباده التي هي أعصار الأولية والآخرية التي قصر منها الدهر الدَّهار عن تعدادها، وأيضًا: أقسم بزمان العارفين حين تابوا بجماله، وفرحوا بلقائه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، إذا احتجب بنفسه عن نفسه، وأنه لا يبلغ إلى وصله، ثم استثنى أهل شهود القدم الذين تركوا أوصاف الحدوثية على باب الأزلية،

واتصفوا بأوصاف الربوبية، بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ : «تواصوا بالصبر»: بالله في الله، «وتواصوا بالحق»: بالإقبال على الحق.

قال بعضهم: «التواصي بالصبر»: هو ألا يشهد البلاء بحالٍ.

قال بعضهم: «التواصي بالحق»: هو مقام مع الحق، والقيام بأوامره على حدود الاستقامة.

سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ : ويل الحجاب لمن لا يرى الأشياء بعين المقادير السبَّاقة حتى يكون وقيعه في الخلق بالحسد، وهو مقبل إلى الدنيا بالجمع والمنع.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾.

قال بعضهم: جمع المال: من علامة الجهل، وحبُّ المال: من علامة النفاق، والبخل بالمال: من علامة الكفر.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ : وصفَ الجاهل بالله بأن ماله يوصِّله إلى الحق، لا والله لا يصل إلى الحق إلا بالحق.

قال أبو بكر بن طاهر: يظنُّ أن ماله يوصِّله إلى مقام الخلد.

قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾، «ناران»: نار القهر، ونور اللطف، «نار قهره»: إبعاده قلوب المنكرين عن ساحة جلاله، و«نار لطفه»: نيران محبته في قلوب أوليائه من المحبِّين والعارفين.

قال جعفر: النيران شيءٌ مختلفٌ، فمنها: نار المحبة، ونار المعرفة تتَّقد في أفئدة الموحدين، ونيران جهنم تتَّقد في أفئدة الكافرين، ونيران المحبة إذا اتَّقدت في قلب المؤمن تحرق كل هِمَّةٍ غير الله، وكل ذكر سوى ذكره.

***

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾: إنَّ الله واسى قلب نبيّه ﷺ بذكر هلاك أصحاب الفيل الذين اتّكلوا على الفيل بأنه يدمر على أعدائه كما دمر على أصحاب الفيل، الذي هو أعظم الحيوان بأضعف الطيور، وذلك تعريفه صفته بواسطة رؤية فعله.

قال يوسف بن حسين: من كان اعتماده على غير الله أهلكه بما اعتمد عليه، كأصحاب الفيل اعتمدوا على أقوى خلقٍ من خلق الله، فأهلكه الله بأضعف خَلقٍ من خَلْقه ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[1].

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾: هذا تعداد نعمه لحبيبه ﷺ وأصحابه وعشيرته والمؤمنين، أهلك أعداءهم ببركته وصفوته؛ لئلا يُشَق عليهم الوقوف في مقامٍ واحدٍ، فيرتحلوا في الشتاء والصيف؛ ليروا آيات الله في بلاد الله، ثم أمرهم بعبوديته حتى أمنهم من فزع الحجاب والعتاب والعذاب، وأطعمهم من موائد كشف النقاب.

---

(١) قال عكرمة: قال: طير نشأت من قبل البحر، لها رؤوس كرؤوس الأفاعي. وقيل: كرؤوس السباع، لم تر قبل يومئذ ولا بعده، فجعلت ترميهم بالحجارة لتجدر جلودهم، وكان أول يوم رئي فيه الجدري. تفسير التستري (٢/ ٣٥٦).

قال بعضهم: من لَزِمَ طريقة التوكُّل على الله أغناه الله عن الحركة بالرزق، وأغناه عن السعي والطلب كما قال في: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[1]: من اشتغل بالعبادة أمنه الله مما يخاف وأطعمه من جوعه، بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾: من لم يكن من أهل الشهود في الدين فهو منكرٌ يوم كشف اللقاء.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾: وصفَ الله أهل الرياء والسمعة الذين لم يجدوا في صلواتهم لذَّة المناجاة وأنوار المشاهدات.

قال بعضهم: الذين لا يحصرونها بشهود قلب رعاية حقوق المناجاة، وخشوع الأرواح فيها؛ ألا يعلمون أن الصلاة مواصلةٌ بين العبد وبين ربِّه، فإذا لم يراعِ حقوقها كانت مفاصلة.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾: وصفَهم بالبخل عن بذل وجودهم في الله.

قيل: له يبخلون ببذل المال، والمُهجِ في رضا الحق.

---

(١) قال القشيري: مصدر آلَفَ، إذا جَعَلْتَهُ يَألَف، وهو أَلِفَ إِلْفاً، والمعنى: جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريْش، أي لِيَألَفوا رحلتهم في الشتاء والصيف، وكانت لهم رحلتان للامتيار: رحلةٌ إلى الشام في القيظ، ورحلة إلى اليمن في الشتاءِ والمعنى: أنعم اللهُ عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤلِّفَهم رحلتيهم. تفسير القشيري (٨/ ١٠٦).

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾: «الكوثر»: حقيقة استغراقه في بحر جماله، ودنوُّه في منازل قربه، وله كوثر القلب يجري فيه أنهار أنوار مشاهدة الحق من بحار الأزل، والأبد يزيد في كل نفسٍ سواقيها إلى الأبد.

قال جعفر: نورٌ في قلبك دلَّك عليَّ، وقطَعَك عما سواي.

وقال: الشفاعة لأمتك.

وقال ابن عطاء: الرسالة والنبوة.

وقال: معرفةٌ بربوبيتي، وانفرادٌ بوحدانيتي وقدري ومشيئتي.

وقال الجنيد: أعطيناك نور المعرفة، وانفراد الوحدانية.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: اتَّصل بنور الربوبية بخالص العبودية، وانحر نفسك قُربًا لكشف مشاهدتي.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي: منقطعٌ عن الوصول إلينا.

قال القاسم: المنقطع عن خيرات الدارين أجمع.

سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: قل إنِّي وقعت في بحار القدم والديمومية، ولا أشتغل بغيره أبدًا.

قال بعضهم: عبادتكم له عبادة طمعٍ، وعبادتي له عبادة حقيقةٍ، وعبادتكم له عبادة منوَّةٌ بشركٍ، وعبادتي له عبادة حقيقةٍ وحقٌّ(١).

سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾: نصرُ الله لحبيبه ﷺ وجميع أحبابه إفرادهم بفردانيته عما دونه، وأنجاهم عن جنس النفوس، وإبلاغهم مقام الأنس نظفرهم على كل بغيَّة لهم، وأداء ما عليهم من حقوق العبودية، و«الفتح»: انفتاح أبواب الوصال، وانكشاف أنوار الجمال والجلال، وبلوغهم عين الكمال، وأيضًا «نصرُ الله»: كشف غطاء النفس، و«الفتح»: وقوع نور القدس في القلب إذا ذهب قتام الحدثان، فجاء النصر، وإذا انكشف جمال الرحمن قام الفتح، وذلك بشارة الله لحبيبه ﷺ بوصوله إليه، وتخلُّصه من أعباء النبوَّة، ومشقة الرسالة، ورؤية الأغيار، فأمره بتقديسه لنفسه، والاستغفار منه لأمته بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، إذا كمل في المعرفة، واستقام في التوحيد، وأقبل بكماله بحق الحق عند رجوعه من نفسه إليه كان معه بحار الثناء، والعرفان والإيقان والإيمان، فأبرز الحق نورًا من قدس قدمه له، فسقط عنه ما معه من جميع الثناء، فأمره باستئناف ثنائه به لا بنفسه، وأعلمه طريق الثناء عليه في أيام الوصول إليه، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: نَزِّهه عما جرى على قلبك في طول عمرك، فإنه أعزُّ من أن يلحقه وصف الواصفين وحمد الحامدين، فالله سبحانه بحمده لا بك، ألا ترى كيف قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: بحمد ربك، فسبِّحه الحمد الذي حمد نفسه في الأزل، وأيضًا أي: سبِّح بحمد ربك الذي بحمده ما وصل مدحه مدح المادحين، ولا حمد الحامدين، ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ من حمْدِك وثنائك وجميع أعمالك له، وعرفانك به، فإن لكل معلولٍ إذ وصف الحدثان لا يليق بجمال الرحمن، فإنه كان موصوفًا

---

(١) الإشارة: إذا طلبت العامةُ المريدَ بالرجوع، إلى الدنيا والاشتغال بها، يُقال له: قل يا أيها الكافرون بطريق التجريد، والتي هي سبب حصول التوحيد والتفريد، لا أعبدُ ما تعبدون من الدنيا وحظوظها، أي: لا أرجع إليها فيما يُستقبل من الزمان ، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ من إفراد الحق بالمحبة والعبادة، أي: لا تقدرون على ذلك، ولا أنا عابد ما عبدتم من الدنيا في الحال. انظر: البحر المديد (٧/ ١١٦).

بوصفه لا بوصف الغير، وكان ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: في الأزل، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾: والمنة على عبده؛ حيث قَبِل ثناءهم وتسبيحهم وتوبتهم، إذا كانت بنعت العلم بالعجز عن إدراك كنه قدمه، والاعتراف بالجهل عن المعرفة بحقيقة وجوده.

قال ابن عطاء: إذا اشتغلت به عما دونه فقد جاءك الفتح من النصر، والفتح هو النجاة من السجن، والبشرى بلقاء الله.

وقال الواسطي: أي: فتح عليك العلوم، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ على ما كان منك من قلة العلم بما أريد منك؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾.

وقيل: إذا فتح الله قلبك برؤية منه عليك أقبل الله قلوب عباده إليك حتى يأتوك فوجًا فوجًا.

قال بعضهم: احمد الله بحيث جعلك سبب وصل عباده إليه، واستغفر الله من ملاحظة دعائك، إن من أجابك هو الذي أجابنا وقت الميثاق، وكتب له السعادة في الأزل ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

سورة المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾: وبَّخ الله من لا تصل يدُ همّته إلى وثقى عروة نبوّته والإيمان برسالته والمعرفة بكمال شرفه خسرت في الأزل يده؛ إذ قطعها الحق عن مصافحة حبيبه صلاة الله وسلامه عليه، والأخذ بعروة متابعته، ذلك الخسران من خذلان الحق إيَّاه، فإذا كان محجوبًا عن طريق الرشد لا ينفعه أعماله ولا أمواله.

قال الله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: ظهرَ خسران من لم ينزلك المنزلة التي أنزلناك من القرب والدنو والنبوّة والمحبة خسرانًا ظاهرًا، وضلَّ ضلالاً بعيدًا.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾: علمك ألا يصل إليه إلا به وبعنايته السابقة، فما أغنى أبا لهب ماله، ولا ما رآه من قوته؛ حيث حرم سوابق الأول من الخير.

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: كان الله جلَّ جلاله مستترًا بنفسه في أزل أزله، قال: «كنتُ كنـزًا مخفيًّا، فأحببت أن أُعرف»(١)، فإذا أوجد أعلام ظهور أفعاله تُعرف نعوته بفعله، فلم يعرف أحدٌ بالحقيقة؛ إذ الوسائط حجابٌ، فأراد إظهار كنوز ذاته وصفاته، فاختار من خلاصة الوجود خاصًّا خالصًا، فألبس لسانه فصاحة الربوبية، ونوَّر قلبه بنور المعرفة، وظهر لعينه عين الحقيقة، فأمره بتعريفه لعباده العارفين، بقوله: ﴿قُلْ﴾: ظاهره سرٌّ، وباطنه سرٌّ، حرفٌ تحته بحرٌ من غوامض علوم الربوبية، فالقاف: إشارةٌ إلى قهر عظمته على الحدثان حتى لا يصل إلى ذرَّةٍ من حقيقة العرفان بألوهية الرحمن؛ لأن على وجه القدم وقاية الغيرة، وهناك في الأزل قلزم الحيرة، واللام: إشارةٌ إلى لا النفي أي: لا يصل إلى كنه الألوهية أهل الحدوثية أمره بالإشارة إلى الإشارة، وغوامض سرِّ الذات؛ إذ قال: هو أوقع قلوب الراسخين في أودية الهوية الغيبية في تيهِ غيب الغيب بنعت الوله والحيرة، فلم يصلوا إلى هاء الهوية، فانصرفوا إلى واو الوصف، فعجزوا عن الوصف؛ إذ لم يصلوا إلى الموصوف، فاحتجبوا بالغيب وبُعد بطون الهوية، وانصرفوا حيارى سكارى عطاشى والهين غير مدركين أوائل الحقائق، فاعترفوا بالعجز عن الإدراك، وإدراك الإدراك، فلما علم الحق عجْزهم عن إدراك سر الهوية أظهر لهم أنوار الذات والصفات، رحمةً ولطفًا بهم لكيلا يُحرموا من نصيب عرفانه وإيمانه، وقال الله أي: الذي لو تركوه، ولم تدركوه بعد طلبكم هذا، هو الله الذي بان بنعت الوحدانية والجمال والجلال من قرار الهوية، وأيضًا لما غاصوا في بحار الهوية بانت لهم أنوار الألوهية، فانصرفوا من صدمات الصمدية، وسطوات الأحدية، ووقعوا في تيه الحيـرة، ونسوا ما بان لهم، وفرُّوا، ثم طلبوا، فلم يجدوا، فأظهر الله ما ظهر لهم في الغيب، فقال: أين أنتم مما رأيتم هذا هو الله، فظهر لهم في الظاهر كما ظهر لهم في الباطن، فلما رأوه عيانًا فنوا في أول ألف الفردانية، ثم بقوا في لام جماله، وهابوا من عِظَم لام جلاله، ثم سقطوا في بحر هويته، أيضًا منه بدأ وإليه يعود، الأول: إشارةٌ وغيبٌ، والآخر: إشارةٌ وغيبٌ.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾، وفي البين بدا وخفا بقوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾، فلما عاينوه سكروا بجماله، واتَّصفوا بجلاله، واتَّحدوا بفردانيته، وصاروا وحدانيين، كادوا أن يدَّعوا الوحدانية، فقطعهم الحق عن سرِّ الأحدية(١).

وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فانحسمت أطماعهم عن الوحدانية حين بانت لهم أنوار وحدته، فسَبَحوا في بحار ذاته وصفاته، وطلبوا الخروج إلى سواحل العرفان، فناداهم أين أنتم لو تَسْبحون أبدًا في بحر الذات وبحر الصفات، لم ينتهوا من بحر حقائق الألوهية، فإن بحر الذات والصفات واجد الكل في حيِّز سرادق وحدانية الأفعال، غائبة في الصفات

---

(١) اعلم أن (هو) مبهم ما لا تعيُّن له في الخارج؛ بل عهديته في الذِّهن، وإنما يُريد إبهامه ما بعده من تفسيره؛ وهو الله أحد، فهو قبل التفسير مبهم في الخارج، ومفسَّر في نفس الأمر، وإنما جاء الإبهام من حيث المراتب، ففيه إشارة إلى قوله تعالى: «كنت كنـزًا مخفيًّا، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»، فإنه تعالى كنـزًا مخفيًّا قبل خلق الخلق، فكان ظهوره بذاته في ذاته؛ فكان خلق الخلق كالتفسير له بحيث كان ظاهرًا لغيره أيضًا، فالأول: مرتبة الجلاء، والثاني: مرتبة الاستجلاء، فمَن قصر نظره؛ لم يرَ العالم إلا كالضمير المبهم، ومَن كاشف عن حقيقة الحال؛ لم يكن عنده مبهم، فإن الحق تعالى كشف عن ذاته وصفاته وأسمائه، ولذا قال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فالهُوِيَّة كانت ظاهرة للحق قبل خلق الخلق، وباطنة للخلق، وبعده كانت ظاهرة للخلق أيضًا، فباطن الحق ظاهر الخلق، وبالعكس على هذا نفس الإنسان الكامل؛ فإنه بمنـزلة ضمير هو في إبهامه وتفسيره، وليس تفسيره إلا الكرامات العلمية المتعلِّقة بحقائق الذات، والصفات، والأفعال؛ وهو القرآن الفعلي، والضمير المفسَّر، والهُوِيَّة الظاهرة بآثاره، والباطنة بحقائق ذاته. ومَن أنكره؛ فقد أنكر القرآن، ومَن أنكر القرآن؛ فقد أنكر الحق بذاته وصفاته، فإن القرآن ذات وصفة، فإن الصفة لا تقوم إلا بالذات، ولا تتجلَّى إلا بالمحلِّ؛ فلذا قال بعض الأكابر: أنا القرآن والسبع المثاني، ففيه أسرار الحروف والكلمات، والآيات والسور، فإنه حرف عملي روحانية، وآية مثالية، وسورة جسمانية. وهذا مراد مَن قال: مَن أراد أن يجلس مع الله تعالى (واصطنعته لنفسه) وجعله مجلى لصوَّر كمالاته، فمَن رآه فقد رأى الحق، ومَن عمي عنه فقد عمي، وكم ترى في كل عصر مَن يُقبِّل المصحف صباحًا ومساءً بناءً على أنه كلام الله، ويستحقر الإنسان الكامل مع أنه سرُّ ذلك المصحف، ولو كان عالمًا به فاستحقره؛ لُمسخ مسخ الأمم الأولى؛ لكن قد يعذر بالجهل، وذلك من رحمة الله تعالى بعباده؛ ولذا ستر الله الأقطاب في كل عصر إلا عن أهل المعرفة. فالمحجوب ينظر إليهم وهو لا يبصرهم؛ وإنما يبصر البشر، والمكاشف ينظر إليه ويبصرهم على أنهم صورة الحق تعالى. وليس لله تعالى تجلٍّ إلا في مرائيهم وعلى صورهم، ومن ينظر إلى الله وهو مجرَّد عن النعوت، فقد طلب المحال، كما أن مَن أرد أن ينظر إلى الروح بدون توسُّط مرآة البدن؛ فقد ضرب حديدًا باردًا، فإنه لا يتيسَّر إلا بالمرآة، ومرآته الجسم. ومن هذا ظهر أن الإنسان الكامل رداء الحق، فهذا الرداء لا يزول عن المرتدي أبدًا، وهو ليس بحجاب له، كما أن المرآة كذلك مع القناع، فعليك بفهم هذا المقام، وكُن مع أهل العافية والسلام. واعلم أن الله ليس منه أثر على الكون في الحقيقة، وكذا الكون ليس منه أثر على الحياة في نفس الأمر، وهو غنيٌّ عن العالمين.

والصفات في الذات، فمن عين الجمع هو هو، ومن حيث الحقيقة هو الله، ومن حيث الفردانية أحيد وحيد لا غير؛ إذ الغير يفنى في بقائه، ثم زاد في نبوية فردانيته، بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: «الله»: ظاهر بنعوت الجلال والجمال والفردانية والوحدانية، باطن بالهوية، «والصمد»: انقطع عن إدراك الخواطر والضمائر، وغابت في مهمة صفاته الأسرار والأرواح، وتاهت في تيه هويته القلوب والأشباح، وهو تنـزيه جلاله وصمديته حجبهم من نفسه؛ ثم أبرز من نعت صمديته نور تنـزيهه، ونشقهم روائح قدسه وأنسه، وجعلهم مشتاقين إلى لقائه عاشقين جماله، فيصمدون إليه بنعت الفناء والبقاء، فلما علم عجزهم عن رؤية حقيقة هويته وصمديته ووحدانيته وفردانيته تجلّى لهم بنعوت الجمال من لباس الأفعال، فهاموا بعشقه في بيداء أنوار جماله وجلاله، سكارى متبسِّطين، وطابوا بكل مستحسن من عالم الأفعال، فلمّا سكنوا بالمستحسنات ورؤية الجمال في الأفعال أمال أزمن قصودهم إلى فضاء الوحدانية، وأعلمهم أنه منـزَّهٌ عن مباشرة الحوادث، بقوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ أي: لم يكن هو محل الحوادث، ولم تكن الحوادث محله، التجلِّي ظهور الصفات، والالتباس ظهورها في الأفعال، وهو منزَّهٌ عن التمثال والجبال، ألا ترى كيف حقق التوحيد لمن شاهد مشاهدته في أهله، بقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾: غلطَ النصارى واليهود والكفرة والمجوس حين رأوا من الأشخاص أنوار الأرواح، ومن الأرواح سنا روح فعله، ثم نور صفته، ووقعوا في ظلمات الحلول حين لم يعرفوا أصل الأصل، وحقيقة الحقيقة، وعين العين وفردانية الذات والصفات عن مباشرة الأمثال والتمثال، سبحان المنـزَّه بذاته عن رؤية كل راءٍ، ومعرفة كل عارفٍ، وتوحيد كل موحدٍ، وعبادة كل عابدٍ، وجحود كل جاحدٍ، وجهل كل جاهلٍ، ووصف كل واصفٍ، كلهم في نكرة النكرة، معزولون من حقيقة المعرفة.

قال ابن عطاء: «الهاء»: تنبيهٌ عن معنىً ثابتٍ، و«الواو»: إشارةٌ إلى ما لا يدرك حقائق نعوته وصفاته بالحواس، و«الأحد»: المتفرد الذي لا نظير له، و«التوحيد»: هو الإقرار بالوحدانية، و«الأحدية»: هي الانفراد.

وقال الواسطي: «هو»: حرف ليس باسم ولا وصف، ولكنَّه كنايةٌ، وإشارة كناية عن الذات، وإشارة إلى الذات، عَلِمَ الحق من يلحد في الأسماء والصفات، ويفرِّق بين الصفة والموصوف، فقال: لا يكون فرقًا بين هويته، وهو ذاك لم يكن فرقًا بين هويته، ولم يكن فرقًا بين أسمائه وصفاته.

قال ابن عطاء: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: هو المنفرد باتحاد المفقودات، والمتوحد بإظهار الخفيّات.

وقال الحسين: «الأحد»: الكائن عنه كل منعوتٍ، وإليه يصير كل مربوبٍ، فيطمس من مساكنه، ويطرح من نازله أن أشهدك إياه؛ فإنك وإن غيَّبك عنه راعك.

قال بعضهم: توحد ثم وجد لا سبيل إلى ذلك إلا أن يوجدك الحق له.

وقال جعفر: «الصمد»: الذي لم يعط الخليقة من معرفته إلا الاسم والصفة.

وقال الواسطي: امتنع الحق بصمديته من وقوف العقول عليه، وإشارتها إليه، ولا يعرف إلا بألطاف أسدائها إلى الجوارح.

وقال ابن عطاء: «الصمد»: المتعالي عن الكون والفساد.

وقال جعفر: «الصمد»: خمسة حروف: «الألف»: دليلٌ على أحديته، و«اللام»: دليل على ألوهيته، وهما مدغمان لا يظهران على اللسان، ويظهران في الكتابة، فدلَّ ذلك على أن أحديته وألوهية خفيَّة لا تُدرك بالحواس، وأنه لا يقاس بالناس، فخفاؤه في اللفظ دليلٌ على أن العقول لا تدرك، ولا تحيط به علمًا، وإظهاره في الكتابة دليلٌ على أنه يظهر على قلوب العارفين، ويبدو لأعين المحبِّين في دار السلام، و«الصاد»: أنه صادق فيما وعد فعله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى الصدق، و«الميم»: دليلٌ على ملكه، وهو الملك على الحقيقة، و«الدال»: علامة دوامه في أبديته وأزليته، وإن كان الأزل والأبد؛ لأنهما ألفاظٌ تجرى على العواري في عباده.

وقال ابن عطاء: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: ظهر لك منه التوحيد، ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: ظهر لك منه المعرفة، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: ظهر لك منه الإيمان، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: ظهر لك منه الإسلام، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾: ظهر لك منه اليقين.

قال الأستاذ: كاشفَ الوالهين بقوله: ﴿هُوَ﴾، وكاشفَ الموحدين بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، وكاشفَ العارفين بقوله: ﴿أَحَدٌ﴾، والعلماء بقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: والعقلاء بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1].

---

(١) لأن الولد نتيجة، والنتيجة فرع الأصل؛ فكان آدم أبو البشر ﷺ من أهل هذا المقام؛ لأن الله تعالى خلقه لا عن أبوين، فكان على صورة خالقه؛ ولذلك كان مسجودًا وليست السجدة إلا لله تعالى؟ ومن هنا قالوا: ظاهر الكون خلق، وباطنه حق، ومَن صفا قلبه؛ كان كأنه لم يلد ولم يولد، وإن كان والدًا ومولودًا.

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾: في هذه الكلمة سرائر حبيبه بالاستعاذة به، ثُمَّ ذكر وصف تربيته بقوله: ﴿بِرَبِّ﴾، ثم ذكر وصفه وصفته وفعله بقوله: ﴿الْفَلَقِ﴾، و«الفلق»: انفلاق صحور العارفين بمياه المحبّة والمعرفة من تأثير انكشافات سبحات الغيرة عن جمال المشاهدة، وطلوع صباح الوصلة من مشارق الأحدية، أمره بالاستعاذة به منه حتى لا يكون بين الوصل والفصل محجوبًا عن عين العين، وإدراك حقيقة الحقيقة بعوارض البشرية، وهو قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: شر ظلمات قهره إذا غطّى قلوب أهل الحرمان، وطار على أسرار أهل العرفان في زمان الامتحان.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾: «الحاسد»: النفس الأمّارة، والشيطان الملعون حسدًا على روح جزّالة في الملكوت، سيّارة في أنوار الجبروت، فحسدهما مرامِ سهام غيرة قهر القدم، ألا ترى كيف قال ﷺ: «العين حق»[1]؛ لأنها سهمٌ من سهام قهره.

قال بعضهم: «الفلق»: فلق الكمون من القلوب، فأدارها على الألسنة.

وقال محمد بن علي التهذي: عطف الله على قلوب خواص عباده، فقذف فيها، فانفلق الحجاب، وانكشف الغطاء، وهو قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

قال الحسين: إشارة الحقِّ أن جميع خلقه في معنى القطيعة عنه بكلمة واحدة، وهي من لطائف القرآن.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝﴾: فالق الإصباح، وفالق الحبِّ والنوى، وفلق البحر لموسى، وفلق الأسماع والأبصار، وفلق القلوب حتى انكشف له الغيوب.

قال ﷺ: «سجدَ وجهي للذي خلقه وشقَّ سمعَه وبصرَه»[2]، وفلق الصدور وفتقها وشرحها؛ لتدارك ما جرى فيها من المباشرة؛ إذ في ذلك صحة التحير، وصفّاها من شر ما

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢١٦٧)، ومسلم (٤/ ١٧١٩).

(٢) رواه مسلم (١/ ٥٣٥).

خلق أن يكون مربوطًا، وإن علَت أحواله وعَظُمت أخطاره، فإن الانقطاع علامة الارتباط بما دونه من خلقه وفلقه.

قال محمد بن حامد في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾: أعلمك أن الخلق كلهم موصوفون بالبشرية، وأن الخير الذي لا شر فيه هو الذي خلق الخلق على هذه الصفة.

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝﴾: أمرَ حبيبه صلوات الله وسلامه عليه بالاستعاذة به، وبيَّن أن مربِّي الناس مزيِّن آدم وذريته بزينة أنوار صفاته.

﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝﴾: بأنه أعطاهم مُلكًا أوَّله معرفته، ومَلكَ قلوبهم بجمال مشاهدته.

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ ۝﴾: حيث أرواحهم بسنا قدسه في رياض أنسه.

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾: للوسوسة مراتب: الأولى: هواجس النفس الأمّارة، والثانية: وسوسة الشيطان، والثالثة: وسوسة جنود القهريات، وموضع هذه الوساوس الصدر؛ لأن القلب موضع العقل، والروح اللطيفة والتجلّي والخطاب والمشاهدة، وهو مصونٌ برعاية الحق، فأمّا «وسوسة النفس»: فتكون في طلب الشهوات والحظوظ، وأما «وسوسة الشيطان»: فتكون في الكفر والطغيان والبدع، وأما «وسوسة القهر»: فتذر وسوسة النفس والشيطان ألقاها الحق في أرض الصدور؛ لامتحان عباده وغيرة الأزل، منعهم بهذه الوساوس عن مشاهدة الكل، فإذا أراد بلطفه وصولهم إليه ينكشف لأسرارهم سبحات جمال عظمته، فيهب في صحاري قلوبهم مثال جماله، فيكشف عن قلوبهم وصدورهم الوساوس، وظلمة الهواجس، وذلك قوله: ﴿الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝﴾.

ثُمَّ بَيَّن أن الوسوسة تأتي من الشيطان تارة بلا واسطة، وتارة بالواسطة؛ إذ لم يقْدِر الملعون أن يوسوس في صدره من غلبة نور التوفيق والمشاهدة، وظهارة الكفر وصفاء الذكر، وعار عليه في مقام غراة بعض شياطين الإنس، ويدعوه بلسانه إلى بعض الشهوات أو البدع والأهواء، فيوقعه إلى الحجاب، فأمر الله حبيبه أن يستعيذ به من وسوسة شياطين الإنس

والجن الذين وصفهم الله بقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، واحذر يا صاحبي من هذه الوساوس، واعرف شأنها وأصلها وفرعها، فإن الوساوس تأتيك في جميع المقامات، وفي بعض المواجيد والأحوال، فينبغي أن تعرف مكائده وأسلحته ومواقعه ووساوسه، واستعن بالله في جوابه وعلاجه؛ حتى تبلغ إلى مقام مشاهدة الحق بالحق، ويغني عنك بشريتك وأوصافها، ويكون نورًا بنوره، مقدّسًا بقدسه عن كل خاطرٍ وعارضٍ، فإنْ عرفت حقيقة ما ذكرتك فصرت إمامًا للمتّقدين، وسراجًا للمقتبسين.

قال عمرو المكّي: الوسواس من وجهين: من النفس، والعدو، «فوسواس النفس»: بالمعاصي التي يوسوس فيها العدو كلّها غير طبعي، فإنّ النفس لا توسوس بهما، أحدهما: التشكيك، والآخر: القول على الله بغير علمٍ، قال الله في وصف الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

وقال يحيى بن معاذ: «الوسوسة»: بذر الشيطان، فإنْ لم تعطه أرضًا وماءً ضاع بذره، وإن أعطيته الأرض والماء بذر فيها، فسُئل ما الأرض والماء؟ فقال: الشبع أرضه، والنوم ماؤه.

وقال يحيي: إنما هو جسمٌ وروحٌ وقلبٌ وصدرٌ وشغافٌ وفؤادٌ، «فالجسم»: بحر الشهوات، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، و«الروح» بحر المناجاة، و«الصدر»: بحر الوسواس، قال الله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ ٱلَّذِى فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، و«الشغاف»: بحر المحبّة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، و«الفؤاد»: بحر الرؤية، قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾، و«التقلّب»: بحر العمل.

وقال سهل: «الوسوسة»: ذكر الطبع.

وقال: إذا كان القلب مشغولاً بالله لم يصل إليه الوسواس بحالٍ.

وقال عبد العزيز المكّي: يوسوس في فؤاد العامة، وقلوب الخواص لو دنا منها إبليس لاحترق.

صدق الشيخ فيما قال، ولكن في سر السر، وغيب الغيب، ونور النور، وسنا السنا، ولطف اللطف، وشهود الشهود، ودنو الدنو، ووصال الوصال، وبقاء البقاء وعيان العيان تكون قلوب العارفين والموحدين والمحبّين والمريدين والمؤمنين في قبض العزة منقلبة بين

أصابع الصفة التي هي أنوار آزال الآزال، وآباد الآباد، طالِبه يوصل الوصل، وعرفان العرفان، وحقيقة الحقيقة، كالفراش حول الشمع كمال شوقها الاحتراق بنيرانه، كذلك قلوبهم محترقة هناك بنيران الكبرياء، فانية في سطوات الجلال، باقية بسبحات الجمال، مصونة عن ذل الحجاب، محروسة عن طيران العذاب، كيف يخلّلها قتام الوسواس، فهواجس بالنفس، وحديث الناس، سبحان من صفاهم بصفاته عن كل كدور، وبراهم بقدسه عن كل علة، الوسواس في الصدور، والقلوب في الحضور والنور والسرور، كيف يصل حركات الإنسانية إلى من استغرق في بحار الوحدانية، لا بأس بأن طوى على الصدور وسواس وهواجس من محل الامتحان، فإنّ الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة، ألا ترى كيف شكا عنه خواص الصحابة إلى حبيب الله وصفيّه صلوات الله وسلامه عليه، فقالوا: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلَّم به»، فقال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك صريحُ الإيمان»[1].

وقال أبو عمرو البخاري: أصل الوسوسة ينتجها من عشرة أشياء:

أولها: «الحرص»: فقاتله بالتوكل والقناعة، والثانية: «الأمل»: فاكسره بمناجاة الأجل، والثالثة: «التمتع بشهوات الدنيا»: فقاتله بزوال النعمة وطول الحساب، والرابعة: «الحسد»: فاكسره برؤية العدل، والخامسة: «البلاء»: فاكسره برؤية المنة والعوافي، والسادسة: «الكبر»: فاكسره بالتواضع، والسابعة: «الاستخفاف بحرمة المؤمنين»: فاكسره بتعظيم حرمتهم، والثامنة: «حب الدنيا والمحمدة من الناس»: فاكسره بالإخلاص، والتاسعة: «طلب العلو والرفعة»: فاكسره بالخشوع، والعاشرة: «المنع والبخل»: فاكسره بالجود والسخاء، والحمد لله حمدًا لا انقطاع له ولا انتهاء، والصلاة والسلام على سيد الرسل وخاتم الأنبياء، وعلى آله وصحبه وسائر الأولياء، ما دامت الأرض والسماء.

تم بحمد الله وتوفيقه

(١) رواه مسلم (١/ ١١٩).

فهرس المحتويات

سورة النور ٣
سورة الفرقان ٢٥
سورة الشعراء ٤٢
سورة النمل ٥٧
سورة القصص ٧٧
سورة العنكبوت ٩٨
سورة الروم ١١٠
سورة لقمان ١١٩
سورة السجدة ١٢٧
سورة الأحزاب ١٣٤
سورة سبأ ١٥٠
سورة فاطر ١٥٥
سورة يس ١٦٥
سورة الصافات ١٧٤
سورة ص ١٨٤
سورة الزمر ٢٠١
سورة غافر ٢٢٦
سورة فصلت ٢٤١
سورة الشورى ٢٥٨
سورة الزخرف ٢٧٤
سورة الدخان ٢٨٥
سورة الجاثية ٢٩٢
سورة الأحقاف ٢٩٦
سورة محمد صلى الله عليه وسلم ٣٠٣
سورة الفتح ٣١٣
سورة الحُجُرات ٣٢٥

سورة ق ٣٣١
سورة الذاريات ٣٤٠
سورة الطور ٣٤٩
سورة النجم ٣٥٥
سورة القمر ٣٦٦
سورة الرحمن ٣٧١
سورة الواقعة ٣٨١
سورة الحديد ٣٨٩
سورة المجادلة ٤٠١
سورة الحشر ٤٠٨
سورة الممتحنة ٤١٧
سورة الصف ٤٢٠
سورة الجمعة ٤٢٣
سورة المنافقون ٤٢٦
سورة التغابن ٤٢٨
سورة الطلاق ٤٣١
سورة التحريم ٤٣٥
سورة الملك ٤٣٨
سورة القلم ٤٤٣
سورة الحاقة ٤٤٧
سورة المعارج ٤٥٢
سورة نوح ٤٥٥
سورة الجن ٤٥٧
سورة المزمل ٤٦٠
سورة المدثر ٤٦٥
سورة القيامة ٤٦٨
سورة الإنسان ٤٧١
سورة المرسلات ٤٧٦
سورة النبأ ٤٧٨

سورة النازعات ٤٨٠
سورة عبس ٤٨٤
سورة التكوير ٤٨٧
سورة الانفطار ٤٨٩
سورة المطفِّفين ٤٩٢
سورة الانشقاق ٤٩٥
سورة البروج ٤٩٧
سورة الطارق ٤٩٩
سورة الأعلى ٥٠٠
سورة الغاشية ٥٠٢
سورة الفجر ٥٠٥
سورة البلد ٥٠٦
سورة الشمس ٥٠٨
سورة الليل ٥١٠
سورة الضحى ٥١١
سورة الانشراح ٥١٤
سورة التين ٥١٦
سورة العلق ٥١٧
سورة القدر ٥١٩
سورة البينة ٥٢٠
سورة الزلزلة ٥٢١
سورة العاديات ٥٢٢
سورة القارعة ٥٢٣
سورة التكاثر ٥٢٤
سورة العصر ٥٢٥
سورة الهمزة ٥٢٦
سورة الفيل ٥٢٧
سورة قريش ٥٢٧
سورة الماعون ٥٢٨

سورة الكوثر.. ٥٢٩
سورة الكافرون ٥٢٩
سورة النصر.. ٥٣٠
سورة المسد ٥٣١
سورة الإخلاص... ٥٣٢
سورة الفلق... ٥٣٦
سورة الناس ٥٣٧
فهرس المحتويات ٤٥١